السيرة النبوية
عرض وقائع وتحليل أحداث
(دروس وعبر)

تأليف
د. علي محمَّد محمَّد الصلابي

الجزء الأول

السيرة النبوية
حقوق الطبع والتصوير محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *}

مُقَدِّمة

إنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده ورسوله.

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *} [آل عمران: ١٠٢] .

{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا *}[النساء: ١] .

{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *} [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١] .

يا ربِّ! لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك. لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ، ولك الحمد بعد الرِّضا.

أمَّا بعد:

إنَّ دراسة الهدي النبوي لها أهمِّيَّتها لكلِّ مسلمٍ ، فهي تحقِّق عدَّة أهدافٍ؛ من أهمِّها: الاقتداء برسول الله (ص) من خلال معرفة شخصيَّته (ص) ، وأعماله ، وأقواله ، وتقريراته ، وتكسب المسلم محبَّة الرَّسول (ص) ، وتُنمِّيها ، وتُباركها ، وتعرفه بحياة الصَّحابة الكرام ، الذين جاهدوا مع رسول الله (ص) ، فتدعوه تلك الدِّراسة لمحبَّتهم ، والسَّير على نهجهم ، واتباع سبيلهم ، كما أنَّ السِّيرة النَّبويَّة توضح للمسلم حياة الرسول (ص) بدقائقها ، وتفاصيلها منذ ولادته؛ وحتى موته ، مروراً بطفولته ، وشبابه ، ودعوته ، وجهاده ، وصبره ، وانتصاره على عدوِّه ، وتُظهِر بوضوحٍ: أنَّه كان زَوْجاً ، وأباً ، وقائداً ، ومحارباً ، وحاكماً ، وسياسيّاً ، ومُرَبِّياً ، وداعيةً ، وزاهداً ، وقاضياً ، وعلى هذا فكلُّ مسلم يجد بُغيته فيها[(١)].

فالدَّاعية يجد له في سيرة رسول الله (ص) أساليب الدَّعوة ، ومراحلها المتسلسلة ، ويتعرَّف على الوسائل المناسبة لكلِّ مرحلةٍ من مراحلها ، فيستفيد منها في اتصاله بالنَّاس ، ودعوتهم للإسلام ، ويستشعر الجهد العظيم الَّذي بذله رسول الله (ص) من أجل إعلاء كلمة الله ، وكيفية التَّصرُّف أمام العوائق ، والعقبات ، والصعوبات ، وما هو الموقف الصَّحيح أمام الشَّدائد ، والفتن.

ويجد المربِّي في سيرته (ص) دروساً نبويَّةً في التَّربية ، والتأثير على النَّاس بشكلٍ عامٍّ ، وعلى أصحابه الَّذين ربَّاهم على يده ، وكلأهم بعنايته ، فأخرج منهم جيلاً قرانياً فريداً ، وكوَّن منهم أمَّةً هي خير أمةٍ أخرجت للنَّاس؛ تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وأقام بهم دولةً نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها.

ويجد القائد المحارب في سيرته (ص) نظاماً محكماً ، ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش ، والقبائل ، والشعوب ، والأمَّة ، فيجد نماذج في التخطيط واضحةً ، ودقَّة في التنفيذ بيِّنةً ، وحرصاً على تجسيد مبادىء العدل ، وإقامة قواعد الشُّورى بين الجند والأمراء ، والرَّاعي والرَّعيَّة.

ويتعلَّم منها السِّياسيُّ كيف كان (ص) يتعامل مع أشدِّ خصومه السياسيين المنحرفين ، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، الذي أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر ، والبغض لرسول الله (ص) ، وكيف كان يحيك المؤامرات ، وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله (ص) ؛ لإضعافه ، وتنفير النَّاس منه ، وكيف عامله رسول الله (ص) ، وصبر عليه ، وعلى حقده ، حتَّى ظهرت حقيقته للناس؛ فنبذوه جميعاً ، حتى أقرب الناس إليه ، وكرهوه ، والتفُّوا حول قيادة النبيِّ (ص) .

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى؛ لأنَّها هي المفسِّرة للقران الكريم في الجانب العملي ، ففيها أسباب النزول ، وتفسيرٌ لكثير من الايات ، فتعينهم على فهمها ، والاستنباط منها ، ومعايشة أحداثها ، فيستخرجون أحكامها الشَّرعيَّة ، وأصول السِّياسة الشَّرعيَّة ، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة ، وبها يدركون الناسخ ، والمنسوخ ، وغير ذلك من العلوم ، وبذلك يتذوَّقون روح الإسلام ، ومقاصده السامية. ويجد فيها الزُّهاد معاني الزُّهد ، وحقيقته ، ومقصده ، ويستقي منها التُّجار مقاصد التجارة ، وأنظمتها ، وطرقها ، ويتعلَّم منها المبتلوْن أسمى درجات الصَّبر والثَّبات ، فتقوى

عزائمهم على السير في طريق دعوة الإسلام ، وتعظم ثقتهم بالله ـ عزَّ وجل ـ ويوقنون بأنَّ العاقبة لِلمتَّقين[(٢)].

وتتعلَّم منها الأمَّة الاداب الرَّفيعة ، والأخلاق الحميدة ، والعقائد السَّليمة ، والعبادة الصحيحة ، وسموَّ الرُّوح ، وطهارة القلب ، وحبَّ الجهاد في سبيل الله ، وطلب الشهاد في سبيله ، ولهذا قال عليُّ بن الحسن: «كنا نُعَلَّم مغازي النبي (ص) كما نُعَلَّم السُّورة من القران» ، وقال الواقديُّ: سمعت محمَّد بن عبد الله يقول: سمعت عمِّي الزُّهريَّ يقول: «في علم المغازي علم الاخرة والدُّنيا».

وقال إسماعيل بن محمَّد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلِّمنا مغازي رسول الله (ص) ، يعدُّها علينا ، ويقول: هذه ماثر ابائكم ، فلا تضيِّعوا ذكرها»[(٣)].

إنَّ دراسة الهدي النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة ، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام على معرفة الطريق إلى عزِّ الإسلام والمسلمين ، من خلال معرفة عوامل النهوض ، وأسباب السُّقوط ، ويتعرَّفون على فقه النَّبيِّ (ص) في تربية الأفراد ، وبناء الجماعة المسلمة ، وإحياء المجتمع ، وإقامة الدَّولة ، فيرى المسلم حركة النَّبيِّ (ص) في الدَّعوة ، والمراحل الَّتي مرَّ بها ، وقدرته على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة ، وتخطيطه الدَّقيق في الهجرة إلى الحبشة ، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدَّعوة ، وعرضه لها على القبائل في المواسم ، وتدرجه في دعوة الأنصار ، ثمَّ هجرته المباركة إلى المدينة.

إنَّ من تأمَّل حادثة الهجرة ، ورأى دقَّة التَّخطيط ، ودقَّة التنفيذ ، من ابتدائها إلى انتهائها ، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها ، يدرك أنَّ التخطيط المسدَّد بالوحي في حياة الرَّسول (ص) قائمٌ ، وأن التخطيط جزء من السُّنَّة ، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيِّ في كلِّ ما طولب به المسْلمُ.

إنَّ المسلم يتعلَّم من المنهاج النبويِّ كلَّ فنون إدارة الصِّراع ، والبراعة في إدارة كل مرحلة ، وفي الانتقال من مستوى إلى اخر ، وكيف واجه القوى المضادَّة من اليهود ، والمنافقين ، والكفار ، والنَّصارى ، وكيف تغلَّب عليها كلها بسبب توفيق الله تعالى ، والالتزام بشروط النَّصر ، وأسبابه ، الَّتي أرشد إليها المولى عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم.

إنَّ قناعتي راسخةٌ في أن التمكين لهذه الأمَّة ، وإعادة مجدها ، وعزَّتها ، وتحكيم شرع ربِّها منوطٌ بمتابعة الهدي النَّبويِّ. قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *} [النور: ٥٤] .

فقد بيَّنت الاية الكريمة: أنَّ طريق التَّمكين في متابعة النبيِّ (ص) ، فقد جاءت الايات الَّتي بعدها تتحدَّث عن التمكين ، وتوضِّح شروطه قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *} [النور: ٥٥ ، ٥٦] .

وقد قام رسول الله (ص) ، وأصحابه بتحقيق شروط التمكين ، فحقَّقوا الإيمان بكلِّ معانيه ، وجميع أركانه ، ومارسوا العمل الصَّالح بكلِّ أنواعه ، وحرصوا على كلِّ أنواع الخير ، وصنوف البرِّ ، وعبدوا الله عبوديةً

شاملةً في كلِّ شؤون حياتهم ، وحاربوا الشِّرك بكلِّ أشكاله ، وأنواعه ، وخفاياه ، وأخذوا بأسباب التمكين المادِّيَّة والمعنوية على مستوى الأفراد والجماعة ، حتى أقاموا دولتهم في المدينة ، ومن ثَمَّ نشروا دين الله بين الشُّعوب والأمم.

إنَّ تأخُّر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض نتيجةٌ منطقيَّةٌ لقومٍ نَسوا رسالتهم ، وحطُّوا من مكانتها ، وشابوا معدنها بركامٍ هائلٍ من الأوهام في مجال العلم ، والعمل على حدٍّ سواءٍ ، وأهملوا السُّنن الرَّبَّانيَّة ، وظنُّوا أنَّ التَّمكين قد يكون بالأماني ، والأحلام.

إنَّ هذا الضعف الإيماني ، والجفاف الروحي ، والتخبُّط الفكري ، والقلق النَّفسي ، والشَّتات الذِّهني ، والانحطاط الخلقي؛ الَّذي أصاب المسلمين سببه تلك الفجوة الكبيرة الَّتي حدثت بين الأمَّة ، والقران الكريم ، والهدي النبويِّ الشريف ، وعصر الخلفاء الراشدين ، والنقاط المشرقة المضيئة في تاريخنا المجيد.

أما ترى معي ظهور الكثير من المتحدِّثين باسم الإسلام ، وهم بعيدون كلَّ البعد عن القران الكريم ، والهدي النبويِّ ، وسيرة الخلفاء الرَّاشدين ، وأدخلوا في خطابهم مصطلحات جديدة ، ومفاهيم مائعة؛ نتيجة الهزيمة النفسيَّة أمام الحضارة الغربيَّة ، وأصبحوا يتلاعبون بالألفاظ ، ويَلوونها ، ويتحدَّثون السَّاعات الطوال ، ويدبِّجون المقالات ، ويكتبون الكتب في فلسفة الحياة ، والكون ، والإنسان ، ومناهج التغيير ، ولا نكاد نلمس في حديثهم ، أو نلاحظ في مقالاتهم عمقاً في فهم فقه التَّمكين ، وسنن الله في تغيير الشعوب ، وبناء الدول ، من خلال القران الكريم ، والمنهاج النبويِّ الشَّريف ، أو دعوة الأنبياء والمرسلين لشعوبهم ، أو تقصِّياً لتاريخنا المجيد ، فيخرجون لنا عوامل النُّهوض عند نور الدِّين محمود ، أو صلاح الدِّين ، أو يوسف بن تاشفين ، أو محمود الغزنوي ، أو محمَّد الفاتح ، ممن ساروا على الهدي النبويِّ في تربية الأمة ، وإقامة الدَّولة ، بل يستدلُّون ببعض الساسة ، أو المفكرين ، والمثقفين من الشرق أو الغرب ممَّن هم أبعد الناس عن الوحي السَّماوي ، والمنهج الرَّبانيِّ.

وأنا لست ممَّن يعارض الاستفادة من تجارب الشُّعوب والأمم؛ فالحكمة ضالَّة المؤمن ، فهو أحق بها أنَّى وجدها ، ولكنِّي ضدُّ الَّذين يجهلون ، أو يتجاهلون المنهاج الرَّبانيَّ ، وينسون ذاكرة الأمَّة التَّاريخيَّة المليئة بالدُّروس ، والعبر ، والعظات ، ثمَّ بعد ذلك يحرصون على أن يتصدَّروا قيادة المسلمين بأهوائهم ، وارائهم البعيدة عن نور القران الكريم ، والهدي النَّبويِّ الشَّريف.

وما أجمل ما قاله ابنُ القيِّم رحمه الله:

واللهِ ما خوفي الذُّنوب فإنَّهالعلَى طريقِ العَفْوِ والغُفْرانِ

لكنَّما أخشى انسلاخ القَلْبِ عَنْتحكيم هذا الوَحْيِ والقُرْآنِ
ورضاً باراء الرِّجال وَخَرْصِهَالا كان ذاك بمنَّةِ الرَّحمنِ
إنَّنا في أشدِّ الحاجة لمعرفة المنهاج النبويِّ في تربية الأمَّة وإقامة الدَّولة ، ومعرفة سنن الله في الشُّعوب ، والأمم ، والدُّول ، وكيف تعامل معها النَّبيُّ (ص) عندما انطلق بدعوة الله في دنيا الناس ، حتَّى نتلمَّس من هديه (ص) الطريق الصَّحيح في دعوتنا ، والتمكين لديننا ، ونقيم بنياننا على منهجيَّةٍ سليمةٍ ، مستمدَّةٍ أصولها وفروعها من كتاب ربنا وسنَّة نبيّنا (ص) قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *} [الأحزاب: ٢١] .
لقد كان فقه النَّبيِّ (ص) في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة شاملاً ، ومتكاملاً ، ومتوازناً ، وخاضعاً لسنن الله في المجتمعات ، وإحياء الشعوب ، وبناء الدُّول ، فتعامل (ص) مع هذه السُّنن في غاية الحكمة ، وقمَّة الذَّكاء ، كسنَّة التَّدرُّج ، والتَّدافع ، والابتلاء ، والأخذ بالأسباب ، وتغيير النفوس.
وغرسَ (ص) في نفوس أصحابه المنهج الرَّبَّانيَّ ، وما يحمله من مفاهيم ، وقيم ، وعقائد وتصوُّراتٍ صحيحةٍ عن الله ، والإنسان ، والكون ، والحياة ، والجنَّة ، والنَّار ، والقضاء ، والقدر ، وكان الصَّحابة رضي الله عنهم يتأثَّرون بمنهجه في التربية غاية التأثُّر ، ويحرصون كلَّ الحرص على الالتزام بتوجيهاته ، فكان الغائب إذا حضر من غيبته؛ يسأل أصحابه عمَّا رأوا من أحوال النَّبيِّ (ص) ، وعن تعليمه ، وإرشاده ، وعمَّا نزل من الوحي حال غيبته ، وكانوا يتَّبعون خُطَى الرَّسول (ص) ، في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، ولم يكونوا يقصرون هذا الاستقصاء على أنفسهم ، بل كانوا يلقِّنونه أبناءهم ، ومن حولهم.
ففي هذا الكتاب تقصٍّ لأحداث السِّيرة ، فيتحدَّث الباحث عن أحوال العالم قبل البعثة ، والحضارات السَّائدة ، والأحوال السِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، والخلقيَّة في زمن البعثة ، وعن الأحداث المهمَّة قبل المولد النَّبويِّ ، وعن نزول الوحي ، ومراحل الدَّعوة ، والبناء التَّصوُّريِّ ، والأخلاقيِّ ، والتَّعبُّديِّ في العهد المكِّيِّ ، وعن أساليب المشركين في

محاربة الدَّعوة ، وعن الهجرة إلى الحبشة ، ومحنة الطَّائف ، ومنحة الإسراء والمعراج ، والطَّواف على القبائل ، ومواكب الخير ، وطلائع النُّور من أهل يثرب ، والهجرة النبوية ، ويقف الكتاب بالقارأى على الأحداث ، مستخرجاً منها الدُّروس ، والعبر ، والفوائد؛ لكي يستفيد منها المسلمون في عالمنا المعاصر. وتحدَّث الباحث عن حياة النَّبيِّ (ص) ، منذ دخوله المدينة إلى وفاته ، وبَيَّن فقه النَّبيِّ (ص) في إرساء دعائم المجتمع ، وتربيته ، ووسائله في بناء الدَّولة ، ومحاربة أعدائها في الدَّاخل ، والخارج ، فيقف الباحث على

فقه النَّبيّ (ص) في سياسة المجتمع ، ومعاهدته مع أهل الكتاب التي سُجِّلت في الوثيقة ، وحركته الجهادية ، ومعالجته الاقتصادية ، والارتقاء بالمسلم نحو مفاهيم هذا الدِّين؛ الَّذي جاء لإنقاذ البشرية من دياجير الظَّلام ، وعبادة الأوثان ، وانحرافها عن شريعة الحكيم المتعال.

وقد حاول الباحث أن يعالج مشكلة اختزال السِّيرة النَّبويَّة في أذهان الكثير من أبناء الأمَّة ، ففي العقود الماضية ظهرت دراساتٌ رائعةٌ في مجال السيرة النَّبوية ، وكتب الله لها قبولاً ، وانتشاراً ، كالرَّحيق المختوم ، لصفي الدِّين المباركفوري ، وفقه السِّيرة للغزالي ، وفقه السيرة النبوية للبوطي ، والسِّيرة النبويَّة لأبي الحسن النَّدوي ، وكانت هذه الدراسات مختصرةً ، ولم تكن شاملةً لأحداث السِّيرة ، واعتمدت بعض الجامعات هذه الكتب ، وظنَّ بعض طلاَّبها: أنَّ من استوعب هذه الكتب فقد أحاط بالسِّيرة النَّبويَّة ، وهذا خطأٌ فادحٌ ، وخطيرٌ في حقِّ السِّيرة النَّبويَّة المشرَّفة ، وقد تسرَّب هذا الأمر إلى بعض أئمَّة المساجد ، وبعض قيادات الحركات الإسلاميَّة ، وانعكس ذلك على الأتباع ، فحدث تصوُّرٌ ناقصٌ للسِّيرة عند كثيرٍ من الناس ، وقد حذَّر الشَّيخ محمَّدُ الغزاليُّ من خطورة هذا التصوُّر في نهاية كتابه (فقه السِّيرة) ، فقال: قد تظنُّ: أنَّك درست حياة محمَّد (ص) إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة ، وهذا خطأٌ بالغٌ. إنَّك لن تفقه السِّيرة حقّاً إلا إذا درست القرانَ الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك بنبيِّ الإسلام (ص)[(٤)] .

ففي هذه الدِّراسة يجد القارأى تسليط الأضواء على البعد القرانيّ ، الَّذي له علاقةٌ بالسِّيرة النبويَّة ، كغزوة بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وبني النَّضير ، وصلح الحديبية ، وغزوة تبوك ، فبيَّن الباحث الدُّروس ، والعبر ، وسنن الله في النَّصر ، والهزيمة ، وكيف عالج القران الكريم أمراض النُّفوس من خلال الأحداث والوقائع.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة تُعطي كلَّ جيلٍ ما يفيده في مسيرة الحياة ، وهي صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، ومُصلحةٌ كذلك.

لقد عشت سنين من عمري في البحث في القران الكريم ، والسِّيرة النَّبويَّة ، فكانت من

أفضل أيَّام حياتي ، فنسيت أثناء البحث غربتي ، وهجرتي ، وتفاعلت مع الدُّرر ، والكنوز ، والنفائس الموجودة في بطون المراجع والمصادر ، فعملت على جمعها ، وترتيبها ، وتنسيقها وتنظيمها ، حتى تكون في متناول أبناء أُمَّتي العظيمة ، وقد لاحظت التَّفاوت في ذكر الدُّروس ، والعبر ، والفوائد ، والأحداث بين كُتَّاب السِّيرة قديماً ، وحديثاً ، فأحياناً يذكر ابن هشام ما لم يذكره الذَّهبيُّ ، ويذكر ابن كثيرٍ ما لم يذكره أصحاب السُّنن ، هذا قديماً.

أمَّا حديثاً ، فقد ذكر السِّباعي ما لم يذكره الغزاليُّ ، وذكر البوطيُّ ما لم يذكره الغضبان ، وهكذا وجدت في التَّفسير ، وشروح الحديث ، كفتح الباري ، وشرح النَّوويِّ ، وكتب الفقهاء ما لم يذكره كُتَّابُ السِّيرة قديماً ، ولا حديثاً ، فأكرمني الله تعالى بجمع تلك الدُّروس ، والعبر ، والفوائد ، ونَظَمْتُها في عِقْدٍ جميلٍ يسهل الاطِّلاع عليه ، ويساعد القارأى على تناول تلك الثِّمار اليانعة بكلِّ سهولةٍ.

إنَّ في هذا الكتاب حصيلةً علميَّةً ، وأفكاراً عمليَّة جُمِعت من مئات المراجع ، والمصادر ، وقد أسهم في إخراج هذا الجهد إخوةٌ كثيرون من ليبيا ، واليمن ، والعراق ، ومصر ، والسُّودان ، والسُّعودية ، والإمارات ، وقطر ، وبلاد الشام بالحوار ، والنقاش ، والنَّدوات ، فأفاد بعضهم بالإشارة إلى بعض المراجع ، والمصادر النَّادرة ، وعمل على توفيرها ، والبعض الاخر أرشد إلى ضرورة التَّركيز على السُّنن ، والقوانين الَّتي تعامل معها النَّبيُّ (ص) في حركته المباركة كقانون الفرصة في فتح خيبر ، وفتح مكَّة ، وأشار البعض إلى أهمِّيَّة ربط السِّيرة التَّاريخية بالسِّيرة السُّلوكيَّة، والسِّيرة المعبَّر عنها بحديثٍ شريفٍ ، أو فعلٍ نبويّ ، والسِّيرة كما يقرِّرها القران الكريم ببعضها، ومزجها في منهجيَّةٍ متناسقةٍ تمدُّ أبناء الجيل بعلمٍ غزيرٍ، وفقهٍ عميقٍ ، وعاطفةٍ جيَّاشةٍ ، فهي غذاءٌ للرُّوح ، وتثقيفٌ للعقول ، وحياةٌ للقلوب ، وصفاء للنُّفوس.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة غنيَّةٌ في كلِّ جانبٍ من الجوانب التي تحتاج إليها مسيرة الدَّعوة الإسلاميَّة ، فالنَّبيُّ (ص) لم يلتحق بالرَّفيق الأعلى إلا بعد أن ترك سوابق كثيرةً لمن يريد أن يقتدي به في الدَّعوة ، والتَّربية ، والثَّقافة ، والتَّعليم ، والجهاد ، وكلِّ شؤون الحياة ، كما أنَّ التعمُّق في سيرة الرَّسول (ص) يساعد القارأى على التَّعرُّف على الرَّصيد الخلقيِّ الكبير؛ الذي تميَّز به رسول الله (ص) عن كلِّ البشر ، والتَّعرُّف على صفاته الحميدة (ص) الَّتي عاش بها في دنيا النَّاس ، فيرى من خلال سيرته مصداق قول الشَّاعر:

وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِيوَأَفْضَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍكَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

هذا ولا أدَّعي أنِّي أتيت بما لم تستطعه الأوائل ، فشأن رسول الله (ص) كبيرٌ ، وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفسٍ أرقَّ ، وفقهٍ أدقَّ ، وذكاءٍ أكبر ، وإيمانٍ أعمق ، كما أنَّني لا أدَّعي

لعملي هذا العصمة ، أو الكمال ، فهذا شأن الرُّسل ، والأنبياء ، ومن ظنَّ أنَّه قد أحاط بالعلم؛ فقد جهل نفسه ، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٨٥] .

فالعلم بحرٌ لا شاطأى له ، وما أصدقَ الشَّاعرَ؛ إذ يقول:

وَقُلْ لِمَنْ يَدَّعِي فِي الْعِلْمِ فَلْسَفَةًحَفِظْتَ شَيئاً وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

يقول الثَّعالبيُّ: لا يكتب أحد كتاباً فيبيت عنده ليلةً إلا أحبَّ في غيرها أن يزيد فيه ، أو ينقص منه ، هذا في ليلةٍ ، فكيف في سنين معدودةٍ؟!

وقال العماد الأصبهانيُّ: إنِّي رأيت أنَّه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا؛ لكان أحسن ، ولو زِيدَ كذا؛ لكان يُستحسن ، ولو قُدِّم هذا؛ لكان أفضل ، ولو ترك هذا؛ لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليلٌ على استيلاء النَّقص على جملة البشر.

وأخيراً أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً لوجهه خالصاً ، ولعباده نافعاً ، وأن يثيبني على كلِّ حرفٍ كتبتُه ، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني؛ الَّذين أعانوني بكلِّ ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب. قال الشاعر:

أَسِيرُ خَلْفَ رِكَابِ القَوْمِ ذَا عَرَجٍمُؤَمِّلاً جَبْرَ مَا لاَقَيْتُ مِنْ عِوَجِ

فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوافَكَمْ لربِّ السَّمَا فِي النَّاسِ مِنْ فَرَجِ

وَإِنْ ظَلَلْتُ بِقَفْرِ الأَرضِ مُنْقَطِعاًفَمَا عَلَى عَرِجٍ فِي ذَاكَ مِنْ حَرَجِ

(سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك)

الفقير إلى عفو ربِّه ، ومغفرته ، ورضوانه

عليّ محمَّد محمَّد الصَّلاَّبيُّ

١٤٢٢ هـ ٢٠٠١ م

الفصل الأوَّل

أهمُّ الأحداث التَّاريخيَّة من قبل البعثة حتَّى نزول الوحي

المبحث الأوَّل

الحضارات السَّائدة قبل البعثة ودياناتها

أوَّلاً: الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة[(٥)]:

كانت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة تُعرف بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة ، وكانت تحكم هذه البلاد: اليونان ، والبلقان ، واسية ، وسورية ، وفلسطين ، وحوض البحر المتوسط بأسره ، ومصر ، وكلَّ إفريقية الشَّمالية ، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولةً ظالمةً، مارست الظُّلم، والجور، والتَّعسُّف على الشُّعوب التي حكمتها ، وضاعفت عليها الضَّرائب ، وكثرت الاضطرابات ، والثَّورات ، وكانت حياتهم العامَّة قائمةً على كلِّ أنواع اللَّهو ، واللَّعب ، والطَّرب ، والتَّرف.

أمَّا مصر؛ فكانت عرضةً للاضطهاد الدِّينيِّ ، والاستبداد السِّياسيِّ ، واتَّخذها البيزنطيُّون شاةً حلوباً ، يحسنون حلبها ، ويسيئون علفها.

وأمَّا سورية؛ فقد كثرت فيهم المظالم ، والرَّقيق ، ولا يعتمدون في قيادة الشَّعب إلا على القوَّة ، والقهر الشَّديد ، وأصبحت مطيَّة المطامع الرُّومانيَّة ، وكان الحكم حكم الغرباء ، الذي لا يعتمد إلا على القوَّة ، ولا يشعر بأيِّ عطفٍ على الشَّعب المحكوم ، وكثيراً ما كان السُّوريون يبيعون أبناءهم؛ ليوفُّوا ما كان عليهم من ديون[(٦)].

كان المجتمع الرُّومانيُّ مليئاً بالتناقض ، والاضطراب ، وقد جاء تصويره في كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) كالاتي:

«كان هناك تناقضٌ هائلٌ في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين ، فقد رسخت النَّزعة الدِّينيَّة في أذهانهم ، وَعَمَّتِ الرَّهبانيَّة ، وشاعت في طول البلاد وعرضها ، وأصبح الرَّجل العاديُّ في البلاد يتدخَّل في الأبحاث الدِّينيَّة العميقة ، والجدل البيزنطي ، ويتشاغل بها ، كما طبعت الحياة العاديَّة العامَّة بطابع المذهب الباطنيِّ ، ولكن نرى هؤلاء ـ في جانب اخر ـ حريصين أشدَّ الحرص على كلِّ نوعٍ من أنواع اللَّهو ، واللعب ، والطَّرب ، والتَّرف ، فقد كانت هناك ميادينُ رياضيَّةٌ واسعةٌ تتَّسع لجلوس ثمانين ألفَ شخصٍ ، يتفرَّجون فيها على مصارعاتٍ بين الرِّجال والرِّجال أحياناً ، وبين الرِّجال والسِّباع أحياناً أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق، ولون أخضر ، لقد كانوا يحبُّون الجمال ، ويعشقون العنف ، والهمجيَّة ، وكانت ألعابُهم دمويةً ضاريةً أكثر الأحيان ، وكانت عقوبتُهم فظيعةً تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارةً عن المجون ، والتَّرف ، والمؤامرات ، والمجاملات الزَّائدة ، والقبائح ، والعادات السَّيئة»[(٧)].

ثانياً: الإمبراطوريَّة الفارسيَّة:

كانت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة تُعرف بالدَّولة الفارسيَّة ، أو الكِسرويَّة ، وهي أكبر ، وأعظمُ من الإمبراطورية الرُّومانية الشَّرقيَّة ، وقد كثرت فيها الدِّيانات المنحرفة؛ كالزرادشتية ، والمانِيَّة التي أسسها ماني في أوائل القرن الثَّالث الميلادي ، ثمَّ ظهرت المزدكيَّة في أوائل القرن الخامس الميلادي الَّتي دعت إلى الإباحيَّة في كلِّ شيءٍ ، ممَّا أدَّى إلى انتشار ثورات الفلاحين ، وتزايد النَّهابين للقصور ، فكانوا يقبضون ، أو يأسرون النِّساء ، ويستولون على الأملاك ، والعقارات ، فأصبحت الأرض ، والمزارع والدُّور كأن لم تسكن من قبل.

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة ويضعون أنفسهم فوق بني ادم؛ لأنَّهم يعتبرون أنفسهم من نسل الالهة ، وأصبحت موارد البلاد ملكاً لهؤلاء الملوك ، يتصرَّفون فيها ببذخٍ لا يُتصوَّر ، ويعيشون عيش البهائم ، حتَّى ترك كثير من المزارعين أعمالهم ، أو دخلوا الأديرة ، والمعابد فراراً من الضَّرائب ، والخدمة العسكريَّة ، وكانوا وقوداً حقيراً في حروبٍ طاحنةٍ مدمِّرةٍ ، قامت في فتراتٍ من التَّاريخ دامت سنين طوالاً بين الفرس والرُّوم ، لا مصلحة للشُّعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ، ورغبات الملوك[(٨)].

ثالثاً: الهند:

اتَّفقت كلمة المؤرِّخين على أنَّ أحطَّ أدوارها ديانةً ، وخُلقاً ، واجتماعاً ، وسياسةً ذلك

العهد الَّذي يبتدأى من مستهلِّ القرن السَّادس الميلادي ، فانتشرت الخلاعة حتَّى في المعابد؛ لأنَّها أصبحت مقدسةً!! وكانت المرأة لا قيمة لها ، ولا عصمة ، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفَّى زوجها ، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتَّفاوت الفاحش بين طبقات الشَّعب ، وكان ذلك تابعاً لقانونٍ مدنيٍّ سياسيٍّ دينيٍّ ، وضعه المشرِّعون الهنديُّون الَّذين كانت لهم صفةٌ دينيةٌ ، وأصبح هو القانون العامَّ في المجتمع ، ودستور حياتهم ، وكانت الهند في حالة فوضى ، وتمزُّقٍ ، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطَّاحنة ، وكانت بعيدةً عن أحداث عالمها في عزلةٍ واضحةٍ ، يسيطر عليها التزمُّت ، والتَّطرُّف في العادات ، والتقاليد ، والتفاوت الطَّبقيُّ ، والتَّعصب الدَّمويُّ ، والسُّلاليُّ.

وقد تحدَّث مؤرخٌ هندوكيٌّ ـ أستاذ التاريخ في إحدى جامعات الهند ـ عن عصرٍ سابق لدخول الإسلام في الهند ، فقال: «كان أهل الهند منقطعين عن الدُّنيا ، منطوين على أنفسهم ، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالميَّة ، وهذا الجهل أضعف موقفهم ، فنشأ فيهم الجمود ، وعمَّت فيهم أمارات الانحطاط ، والتَّدهور.

كان الأدب في هذه الفترة بلا روح ، وهكذا كان الشأن في الفنِّ المعماريِّ ، والتَّصوير ، والفنون الجميلة الأخرى»[(٩)].

«وكان المجتمع الهنديُّ راكداً جامداً ، كان هناك تفاوتٌ عظيم بين الطَّبقات ، وتمييز معيبٌ بين أسرةٍ ، وأسرةٍ ، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى ، ويشدِّدون على أنفسهم في أمور الطَّعام ، والشراب ، أمَّا المنبوذون فكانوا يعيشون ـ مضطرين ـ خارج بلدهم ، ومدينتهم»[(١٠)].

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

١ ـ طبقة الكهنة ، ورجال الدِّين ، وهم «البراهمة».

٢ ـ رجال الحرب ، والجنديَّة ، وهم «شترى».

٣ ـ رجال الفلاحة ، والتجارة ، وهم «ويش».

٤ ـ رجال الخدمة ، وهم «شودر»وهم أحطُّ الطبقات؛ فقد خلقهم خالق الكون ـ كما يعتقدون ـ من أرجله ، وليس لهم إلا خدمة هذه الطَّبقات الثَّلاث ، وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ، ومكانةً لا يشاركهم فيها أحدٌ؛ فالبرهميُّ رجلٌ مغفورٌ له ، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه ، وأعماله ، ولا يجوز فرض جبايةٍ عليه، ولا يعاقب بالقتل

في حالٍ من الأحوال. أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدَّخروا كنزاً، أو يجالسوا برهمياً، أو يمسُّوه بيدهم، أو يتعلَّموا الكتب المقدسة[(١١)].

رابعاً: أحوال العالم الدِّينيَّة قبل البعثة المحمَّدية:

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم ، تعيش مرحلةً من أحطِّ مراحل التَّاريخ البشريِّ في شؤونها الدِّينيَّة ، والاقتصاديَّة ، والسِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، وتعاني فوضى عامَّةً في جميع شؤون حياتها ، وهيمن المنهج الجاهليُّ على العقائد ، والأفكار ، والتصوُّرات ، والنُّفوس ، وأصبح الجهل ، والهوى ، والانحلال ، والفجور ، والتجبُّر ، والتعسُّف من أبرز ملامح المنهج الجاهليِّ المهيمن على دنيا النَّاس[(١٢)].

وضاع تأثير الدِّيانات السَّماوية على الحياة ـ أو كاد ـ بسبب ما أصابها من التَّبديل ، والتَّحريف ، والتَّغيير ، الَّذي جعلها تفقد أهميتها باعتبارها رسالة الله إلى خلقه ، وانشغل أهلها بالصِّراعات العقديَّة النَّظريَّة التي كان سببها دخول الأفكار البشريَّة ، والتَّصوُّرات الفاسدة على هذه الأديان ، حتَّى أدَّى إلى الحروب الطَّاحنة بينهم ، ومَنْ بقي منهم لم يحرِّف ، ولم يبدِّل قليلٌ نادر ، واثر الابتعاد عن دنيا الناس ، ودخل في حياة الخلوة ، والعزلة طمعاً في النَّجاة بنفسه يأساً من الإصلاح ، ووصل الفساد إلى جميع الأصناف ،

والأجناس البشريَّة ، ودخل في جميع المجالات بلا استثناء ، ففي الجانب الدِّينيِّ تجد النَّاس إمَّا أنَّهم ارتدُّوا عن الدِّين ، أو خرجوا منه ، أو لم يدخلوا فيه أصلاً ، أو وقعوا في تحريف الدِّيانات السَّماوية ، وتبديلها. وأمَّا في الجانب التَّشريعي ، فإنَّ النَّاس نبذوا شريعة الله وراءهم ظهريّاً ، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين ، وشرائع لم يأذن بها الله ، تصطدم مع العقل ، وتخالف الفطرة.

وتزعَّم هذا الفساد زعماءُ الشُّعوب ، والأمم من القادة ، والرُّهبان ، والقساوسة والدَّهاقين ، والملوك ، وأصبح العالم في ظلامٍ دامسٍ ، وليلٍ بهيمٍ ، وانحرافٍ عظيمٍ عن منهج الله سبحانه وتعالى.

فاليهودية: أصبحت مجموعةً من الطُّقوس ، والتَّقاليد لا روح فيها ، ولا حياة ، وتأثَّرت بعقائد الأمم الَّتي جاورتها ، واحتكَّت بها ، والَّتي وقعت تحت سيطرتها ، فأخذت كثيراً من عاداتها ، وتقاليدها الوثنيَّة الجاهليَّة ، وقد اعترف بذلك مؤرِّخو اليهود[(١٣)]؛ فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إنَّ سخط الأنبياء ، وغضبهم على عبادة الأوثان تدلُّ على أنَّ عبادة

الأوثان ، والالهة كانت قد تسرَّبت إلى نفوس الإسرائيليين ، ولم تستأصل شأفتها إلى أيَّام رجوعهم من الجلاء ، والنَّفي في بابل ، وقد اعتقدوا معتقداتٍ خرافيَّة ، وشركيَّة. إنَّ التُّلمود أيضاً يشهد بأنَّ الوثنيَّة كانت فيها جاذبيةٌ خاصَّةٌ لليهود»[(١٤)].

إنَّ المجتمع اليهوديَّ قبل البعثة المحمَّدية ، قد وصل إلى الانحطاط العقليِّ ، وفساد الذَّوق الدِّينيِّ ، فإذا طالعت تلمود بابل؛ الذي يبالغ اليهود في تقديسه ، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السَّادس المسيحيِّ؛ فستجد فيه نماذج غريبةً من خفَّة العقل ، وسخف القول ، والاجتراء على الله ، والعبث بالحقائق ، والتَّلاعب بالدِّين ، والعقل[(١٥)].

أمَّا المسيحيَّة: فقد امتُحنت بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، واختفى نور التَّوحيد ، وإخلاص العبادة لله وراء السُّحب الكثيفة[(١٦)] ، واندلعت الحروب بين النَّصارى في الشَّام ، والعراق ، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح ، وطبيعته ، وتحوَّلت البيوت ، والمدارس ، والكنائس إلى معسكراتٍ متنافسةٍ ، وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحيِّ في مظاهر مختلفةٍ ، وألوانٍ شتَّى ، فقد جاء في تاريخ المسيحيَّة في ضوء العلم المعاصر:

«لقد انتهت الوثنيَّة ، ولكنَّها لم تلق إبادةً كاملةً ، بل إنَّها تغلغلت في النُّفوس ، واستمرَّ كلُّ شيءٍ فيها باسم المسيحيَّة ، وفي ستارها؛ فالَّذين تجرَّدوا عن الهتهم ، وأبطالهم ، وتخلَّوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم ، ولقَّبوه بأوصاف الالهة ، ثمَّ صنعوا له تمثالاً ، وهكذا انتقل هذا الشِّرك ، وعبادة الأصنام إلى

هؤلاء الشُّهداء المحلِّيّين ، ولم ينته هذا القرن حتَّى عمَّت فيه عبادة الشُّهداء ، والأولياء ، وتكوَّنت عقيدةٌ جديدةٌ ، وهي: أنَّ الأولياء يحملون صفات الألوهيَّة ، وصار هؤلاء الأولياء والقدِّيسون خلقاً وسيطاً بين الله ، والإنسان ، يحمل صفة الألوهيَّة على أساس عقائد الأريسيين ، وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الوسطى ، وورعها وطُهرها ، وغُيِّرت أسماء الأعياد الوثنيَّة بأسماء جديدةٍ ، حتَّى تحوَّل في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشَّمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»[(١٧)].

وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكيَّة الجديدة: «تغلغل الاعتقاد بأنَّ الإله الواحد مركَّبٌ من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحيِّ ، وفكره منذ ربع القرن الرَّابع الأخير ، ودامت كعقيدةٍ رسميَّةٍ مُسَلَّمةٍ ، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحيِّ ، ولم يُرفع السِّتار عن

تطوُّر عقيدة التَّثليث ، وسرِّها إلا في المنتصف الثَّاني للقرن التَّاسع عشر الميلادي»[(١٨)].

لقد اندلعت الحروب بين النَّصارى ، وكفَّر بعضُهم بعضاً ، وقتل بعضُهم بعضاً ، وانشغل النَّصارى ببعضهم عن محاربة الفساد ، وإصلاح الحال ، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشريَّة[(١٩)].

وأمَّا المجوس: فقد عُرفوا من قديم الزَّمان بعبادة العناصر الطَّبيعيَّة ، وأعظمها النَّار ، وانتشرت بيوت النَّار في طول البلاد وعرضها ، وعكفوا على عبادتها ، وبنوا لها معابد، وهياكل، وكانت لها اداب، وشرائع دقيقةٌ داخل المعابد ، أمَّا خارجها؛ فكان أتباعها أحراراً يسيرون على هواهم ، لا فرق بينهم وبين من لا دين له.

ويصف المؤرِّخ الدَّنماركيُّ طبقة رؤساء الدِّين ، ووظائفهم عند المجوس في كتابه: «إيران في عهد السَّاسانيِّين» فيقول: «كان واجباً على هؤلاء الموظَّفين أن يعبدوا الشَّمس أربع مرَّات في اليوم ، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر ، والنَّار ، والماء ، وكانوا مكلَّفين بأدعيةٍ خاصَّةٍ ، عند النَّوم ، والانتباه ، والاغتسال ، ولبس الزنَّار ، والأكل ، والعطس ، وحلق الشَّعر ، وتقليم الأظفار ، وقضاء الحاجة ، وإيقاد السُّرج ، وكانوا مأمورين بألا يدعوا النَّار تنطفأى ، وألا تمسَّ النَّار ، والماء بعضها بعضاً ، وألا يَدَعوا المعدن يصدأ؛ لأنَّ المعادن عندهم مقدَّسةٌ»[(٢٠)].

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النَّار ، وقد حلف «يزدجرد» ـ اخر ملوك السّاسانيين ـ بالشَّمس مرَّةً ، وقال: «أحلف بالشَّمس التي هي الإله الأكبر». وقد دان المجوس بالثَّنويَّة في كلِّ عصرٍ ، وأصبح ذلك شعاراً لهم ، فامنوا بإلهين اثنين: أحدهما: النُّور ، أو إله الخير ، والثاني: الظَّلام ، أو إله الشَّرِّ[(٢١)].

أمَّا البوذيَّة: في الهند واسية الوسطى: فقد تحوَّلت إلى وثنيةٍ تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل ، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلَّت ، ونزلت[(٢٢)].

أمَّا البرهميَّة: دين الهند الأصليُّ ، فقد امتازت بكثرة المعبودات ، والالهة ، وقد بلغت أوْجها في القرن السَّادس الميلاديِّ ، ولاشكَّ: أنَّ الديانة الهندوكيَّة ، والبوذيَّة وثنيتان سواءٌ بسواءٍ.

لقد كانت الدُّنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقةً في الوثنيَّة ، وكأنما كانت المسيحيَّة ، واليهوديَّة ، والبوذيَّة ، والبرهميَّة ، تتسابق في تعظيم الأوثان ، وتقديسها ، وكانت كخيل رهانٍ تجري في حلبةٍ واحدةٍ.

وقد أشار النَّبيُّ (ص) إلى عموم هذا الفساد ، لجميع الأجناس ، وجميع المجالات بلا استثناء ، فقد قال (ص) ذات يومٍ في خطبته: «ألا إنَّ ربِّي أمرني أن أُعلِّمكم ما جهلتم ممَّا علَّمني يومي هذا؛ كلُّ مالٍ نَحَلْتُه[(٢٣)] عبداً حلالٌ ، وإنِّي خلقت عبادي حنفاء[(٢٤)] كلَّهم ، وإنَّهم أتتهم الشَّياطين فاجتالتهم عن دينهم[(٢٥)] ، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لمْ أُنْزِلْ به سلطاناً ، وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض ، فمقتهم: عربهم ، وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[(٢٦)].

والحديث يشير إلى انحراف البشريَّة في جوانب متعددةٍ ، كالشِّرك بالله ، ونبذ شريعته ، وفساد المصلحين من حملة الأديان السَّماويَّة ، وممالأتهم للقوم على ضلالهم[(٢٧)].

* * *

المبحث الثَّاني

أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسَّم المؤرِّخون أصول العرب ثلاثة أقسامٍ ، بحسب السُّلالات الَّتي انحدروا[(٢٨)] منها:

١ ـ العرب البائدة:

وهي قبائل عاد ، وثمود ، والعمالقة ، وطسم ، وجديس ، وأُمَيْم ، وجُرهم وحضرموت ، ومن يتَّصل بهم ، وهذه دَرَسَتْ معالمها ، واضمحلَّت من الوجود قبل الإسلام ، وكان لهم ملوكٌ امتدَّ ملكهم إلى الشَّام ، ومصر[(٢٩)].

٢ ـ العرب العاربة:

وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يَشْجُب بن قحطان ، وتسمَّى بالعرب القحطانيَّة[(٣٠)] ، ويعرفون بعرب الجنوب[(٣١)] ، ومنهم ملوك اليمن ، ومملكة معين ، وسبأ ، وحِمْيَر[(٣٢)].

٣ ـ العرب العدنانيَّة:

نسبة إلى عدنان ، الَّذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ وهم المعروفون بالعرب المستعربة ، أي الَّذين دخل عليهم دمٌ ليس عربياً ، ثم تمَّ اندماج بين هذا الدَّم وبين العرب ، وأصبحت اللُّغة العربيَّة لسان المزيج الجديد.

وهؤلاء هم عرب الشمال ، موطنهم الأصلي مكَّة ، وهم: إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة هم الذين تعلَّم منهم إسماعيل عليه السلام العربيَّة، وصاهرهم، ونشأ أولاده عرباً

مثلهم ، ومن أهم ذرِّيَّة إسماعيل (عدنان) جدُّ النَّبيِّ (ص) الأعلى ، ومن عدنان كانت قبائل العرب ، وبطونها ، فقد جاء بعد عدنان ابنه مَعَدٌّ ، ثمَّ نزار ، ثمَّ جاء بعده ولداه مُضَر ، وربيعة.

أمَّا ربيعة بن نزار؛ فقد نزل مَنِ انحدر مِنْ صلبه شرقاً ، فقامت عبد القيس في البحرين ، وحنيفة في اليمامة ، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة ، وعبرت تَغْلب الفرات ، فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وسكنت تميم في بادية البصرة[(٣٣)].

أمَّا فرع مضر: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة ، وأقامت ثقيف في الطائف ، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكَّة ، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة ، وسكنت ذُبيان ، وعبس من تيماء إلى حوران[(٣٤)]. وتقسيم العرب إلى عدنانية ، وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب ، وغيرهم من العلماء ، ومن العلماء مَنْ يرى: أنَّ العرب: عدنانيَّة ، وقحطانيَّة ، ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام[(٣٥)].

وقد ترجم البخاريُّ في صحيحه لذلك ، فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام ، وذكر في ذلك حديثاً عن سلمة ، قال: خرج رسول الله (ص) على قوم يتناضلون بالسِّهام ، فقال: «ارموا ، بني

إسماعيل ، وأنا مع بني فلان» ـ لأحد الفريقين ـ فأمسكوا بأيديهم ، فقال: «ما لكم»؟ قالوا: كيف نرمي؛ وأنت مع بني فلان؟ فقال: «ارموا ، وأنا معكم كلِّكم» [البخاري (٣٥٠٧)]. وفي بعض الرِّوايات: «ارموا بني إسماعيل؛ فإنَّ أباكم كان رامياً» [البخاري (٢٨٩٩) وأحمد (٤/٥٠) وابن حبان (٤٦٩٣)] .

قال البخاريُّ: وأسلمُ بن أَفْصَى بن حارثةَ بن عمرو بن عامر من خُزَاعَةَ ، يعني: أنَّ خزاعة فرقةٌ ممَّن كان تمزَّقَ من قبائل سبأ حين أرسل الله عليهم سيل العرم[(٣٦)].

وَوُلِدَ الرَّسول (ص) من مُضَرَ ، وقد أخرج البخاريُّ عن كليب بن وائل قال: حدَّثتني ربيبة النَّبيِّ (ص) زينب بنت أبي سلمة ، قال: «قلت لها: أرأيت النَّبيَّ (ص) أكان من مضر؟ فقالت: فممَّن كان إلا مِنْ مُضَرَ؟ من بني النَّضر بن كنانة» [البخاري (٣٤٩١)].

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة ، وهم أولاد فهر بن مالك بن النَّضر بن كنانة ، وانقسمت قريش إلى قبائل شتَّى ، من أشهرها: جمح ، وسهم ، وعديٌّ ، ومخزوم ، وتيم ، وزهرة ، وبطون قصيِّ بن كلابٍ ، وهي عبد الدَّار بن قصيٍّ ، وأسد بن عبد العزَّى بن

قصيٍّ ، وعبد مناف بن قصيٍّ ، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ، ونوفل ، والمطَّلب ، وهاشم. وبيت هاشم هو الَّذي اصطفى الله منه سيِّدنا محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم (ص) [(٣٧)].

قال (ص) : «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم (٢٢٧٦) والترمذي (٣٦٠٥ و٣٦٠٦) وأحمد (٤/١٠٧)] .

ثانياً: حضارات الجزيرة العربية:

نشأت من قديم الزَّمان ببلاد العرب حضاراتٌ أصيلةٌ ، ومدنيَّاتٌ عريقةٌ ، من أشهرها:

١ ـ حضارة سبأ باليمن:

وقد أشار القران الكريم إليها ، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار ، والسُّيول التي كانت تضيع في الرِّمال ، وتنحدر إلى البحار ، فأقاموا الخزَّانات ، والسُّدود بطرقٍ هندسيَّة متطوِّرةٍ ، وأشهر هذه السُّدود (سد مأرب) ، واستفادوا بمياهها في الزُّروع المتنوعة ، والحدائق ذات الأشجار الزَّكيَّة ، والثِّمار الشَّهيَّة ، قال عزَّ شأنه:

{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَربٌّ غَفُورٌ *فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ *ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ *} [سبأ: ١٥ ـ ١٧] .

ودلَّ القران الكريم على وجود قرىً متصلةٍ في الزَّمن الماضي ما بين اليمن إلى بلاد الحجاز ، إلى بلاد الشام ، وأنَّ قوافل التِّجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشَّام ، فلا يعدمون ظلاً ، ولا ماءً ، ولا طعاماً. قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ *فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيث وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ *} [سبأ: ١٨ ـ ١٩] .

٢ ـ حضارة عاد بالأحقاف:

وكانت في شمال حضرموت ، وهم الذين أرسل الله إليهم نبيَّه هوداً عليه السلام ، وكانوا أصحاب بيوت مشيَّدةٍ ، ومصانع متعدِّدةٍ ، وجناتٍ ، وزروعٍ ، وعيون[(٣٨)] قال تعالى: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ *أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ *وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *} [الشعراء: ١٢٣ ـ ١٣٤] .

٣ ـ حضارة ثمود بالحجاز:

دلَّ القران الكريم على وجود حضارة في بلاد الحِجْر ، وأشار إلى ما كانوا يتمتَّعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال ، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيونٍ وبساتين ، وزروعٍ[(٣٩)] قال تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ *إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ *} {صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ *أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ *فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ *وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *}[الشعراء: ١٤١ ـ ١٥٠].

وقال فيهم أيضاً: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ *} [الأعراف: ٧٤].

لقد زال كلُّ ذلك من زمنٍ طويلٍ ، ولم يبقَ إلا اثارٌ ورسومٌ وأطلالٌ ، فقد اضمحلَّت القرى ، والمدن ، وخربت الدُّور ، والقصور ، ونضبت العيون ، وجفَّت الأشجار ، وأصبحت البساتين والزُّروع أرضاً جُرُزاً[(٤٠)].

* * *

المبحث الثَّالث

الأحوال الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة

والاجتماعيَّة ، والأخلاقيَّة عند العرب

أوّلاً: الحالة الدِّينيَّة[(٤١)]:

ابتليت الأمَّة العربيَّة بتخلُّفٍ دينيٍّ شديدٍ ، ووثنيَّةٍ سخيفةٍ لا مثيل لها ، وانحرافاتٍ خلقيَّةٍ ، واجتماعيَّةٍ ، وفوضى سياسيةٍ ، وتشريعيَّةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ قلَّ شأنهم ، وصاروا يعيشون على هامش التَّاريخ ، ولا يتعدَّون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدَّولة الفارسيَّة أو الرُّومانيَّة ، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الاباء ، والأجداد ، واتِّباع ما كانوا عليه ، مهما يكن فيه من الزَّيغ ، والانحراف ، والضَّلال ، ومن ثَمَّ عبدوا الأصنام ، فكان لكلِّ قبيلةٍ صنمٌ ، فكان لهُذَيل بن مُدْرِكة: سواع ، ولكلب: وَدٌّ ، ولمذحج: يَغوث ، ولخيوان: يَعوق ، ولحمير: نَسْر ، وكانت خزاعة ، وقريش تعبدان إسافاً ، ونائلة ، وكانت مناةُ على ساحل

البحر ، تعظِّمها العرب كافَّةً ، والأوس ، والخزرج خاصَّةً ، وكانت الَّلات في ثقيف ، وكانت العُزَّى فوق ذات عِرْقٍ ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[(٤٢)].

وإلى جانب هذه الأصنام الرَّئيسة ، يوجد عددٌ لا يحصى كثرةً من الأصنام الصَّغيرة ، والَّتي يسهل نقلها في أسفارهم ، ووضعها في بيوتهم.

روى البخاريُّ في صحيحه عن أبي رجاء العُطَارِديِّ قال: «كُنَّا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجراً هو أخير منه ألقيناه ، وأخذنا الاخر ، فإذا لم نجد حجراً؛ جمعنا جُثْوَةً من ترابٍ ، ثمَّ جئنا بالشَّاة ، فحلبناه عليه ، ثم طفنا به!!!» [البخاري (٤٣٧٦)] .

وقد حالت هذه الوثنية السَّخيفة بين العرب ومعرفة الله تعالى ، وتعظيمه ، وتوقيره ، والإيمان به ، وباليوم الاخر ، وإن زعموا أنَّها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله. وقد هيمنت هذه الالهة المزعومة على قلوبهم ، وأعمالهم ، وتصرُّفاتهم ، وجميع جوانب

حياتهم ، وضَعُف توقيرُ الله في نفوسهم ، قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ *} [الأنعام: ٣٦] .

أمَّا البقيَّة الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التَّحريف ، والتَّغيير ، والتَّبديل ، فصار الحجُّ موسماً للمفاخرة والمنافرة ، والمباهاة ، وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفيَّة عن حقيقتها، وألصق بها من الخرافات، والأساطير الشَّيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء ، الَّذين يرفضون عبادة الأصنام وما يتعلَّق بها من الأحكام ، والنَّحائر ، وغيرها ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان لا يذبح للأنصاب ، ولا يأكل الميتة ، والدَّم ، وكان يقول:

أربَّاً واحداً أم ألفَ ربٍّ؟أدينُ إذا تُقُسِّمتِ الأُمُورُ؟
عَزَلْتُ الَّلاتَ والْعزَّى جميعاًكذلكَ يفعلُ الجلْدُ الصَّبورُ
فلا عُزَّى أدينُ ولا ابْنَتَيْهاولا صَنَمي بني عَمْرٍو أزُورُ
ولا غنماً أدينُ وكان ربألنا في الدَّهر ، إذْ حُلْمي يسيرُ
ولكنْ أعبدُ الرَّحْمنَ ربِّيليَغْفِرَ ذَنْبي الرَّبُّ الغَفُورُ[(٤٣)]

وممَّن كان يدين بشريعة إبراهيم ، وإسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ قَسُّ بن ساعدة الإياديُّ: فقد كان خطيباً ، حكيماً ، عاقلاً ، له نباهةٌ ، وفضلٌ ، وكان يدعو إلى توحيد الله ، وعبادته ، وترك عبادة الأوثان

، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت ، وقد بَشَّر بالنَّبيِّ (ص) ، فقد روى أبو نُعَيْمٍ في دلائل النُّبوَّة [(١/١٠٤ ـ ١٠٥ برقم ٥٥)] عن ابن عباسٍ قال: «إنَّ قسَّ بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عُكَاظ) فقال في خطبته: سَيُعلَمُ حَقٌّ من هذا الوجه ـ وأشار بيده إلى مكَّة ـ قالوا: وما هذا الحقُّ؟ قال: رجلٌ من ولد لؤيِّ بن غالبٍ يدعوكم إلى كلمة الإخلاص ، وعيش الأبد ، ونعيمٍ لا ينفد ، فإن دعاكم؛ فأجيبوه ، ولو علمتُ أنِّي أعيش إلى مبعثه؛ لكنتُ أوَّلَ من يسعى إليه» ، وقد أدرك النَّبيَّ (ص) ، ومات قبل البعثة[(٤٤)].

وممَّا كان ينشده من شعره:

في الذَّاهبينَ الأوَّلينَ مِنَ الْقُرونِ لنا بصائرْ

لما رأيتُ مواردًالِلْمَوْتِ ليس لها مَصَادِرْ

ورأيتُ قومي نحوَهايمضي الأصَاغرُ والأكابِرْ

لا يَرْجِعُ الماضي إليَّ وَلا مِنَ الباقينَ غابِرْ

أيقنتُ أنِّي لا محالةَ حيثُ صارَ القومُ صائرْ[(٤٥)]

كان بعضُ العرب قد تنصَّر ، وبعضهم دخل في اليهوديَّة ، أمَّا الأغلبيَّة؛ فكانت تعبد الأوثان ، والأصنام.

ثانياً: الحالة السِّياسيَّة[(٤٦)]:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدوٍ، وحضر، وكان النِّظام السَّائد بينهم هو النظامَ القبليَّ ، حتَّى في الممالك المتحضِّرة الَّتي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب، ومملكة الحيرة في الشَّمال الشَّرقيِّ، ومملكة الغساسنة في الشَّمال الغربيِّ ، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعبٍ واحدٍ ، وإنَّما ظلَّت القبائل وحداتٍ متماسكةً.

والقبيلة العربيَّة مجموعةٌ من الناس ، تربط بينها وحدة الدَّم (النَّسب) ، ووحدة الجماعة ، وفي ظلِّ هذه الرابطة نشأ قانونٌ عرفيٌّ ينظِّم العلاقات بين الفرد والجماعة ، على أساسٍ من التَّضامن بينهما في الحقوق والواجبات ، وهذا القانون العرفيُّ كانت تتمسَّك به القبيلة في نظامها السِّياسيِّ ، والاجتماعي[(٤٧)].

وزعيم القبيلة ترشِّحه للقيادة منزلته القبلية ، وصفاته ، وخصائصه من شجاعةٍ ومروءةٍ ، وكرمٍ ، ونحو ذلك ، ولرئيس القبيلة حقوقٌ أدبيَّةٌ ، ومادِّيَّةٌ ، فالأدبيَّة أهمُّها احترامه ، وتبجيله ، والاستجابة لأمره ، والنُّزول على حكمه ، وقضائه ، وأمَّا المادِّيَّة؛ فقد كان له في كل غنيمةٍ تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة ،

و(الصَّفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة ، (والنَّشيطة) وهي ما أصيب من مال العدوِّ قبل اللِّقاء ، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة ، وقد أجمل الشاعر العربيُّ ذلك بقوله:

لك المرباعُ فينا ، والصَّفاياوحكمُك ، والنَّشيطةُ ، والفُضولُ[(٤٨)]

ومقابل هذه الحقوق واجباتٌ ومسؤوليَّاتٌ ، فهو في السِّلم جوادٌ كريمٌ ، وفي الحرب يتقدَّم الصُّفوف ، ويعقد الصُّلح ، والمعاهدات.

والنِّظام القبليُّ تسود فيه الحرِّيَّة ، فقد نشأ العربيُّ في جوٍّ طليقٍ ، وفي بيئةٍ طليقةٍ، ومن ثَمَّ كانت الحرية من أخصِّ خصائص العرب ، يعشقونها ، ويأبون الضَّيم والذُّلَّ، وكلُّ فردٍ في القبيلة ينتصر لها ، ويشيد بمفاخرها ، وأيَّامها ، وينتصر لكلِّ أفرادها مُحقاً ، أو مُبطلاً ، حتَّى

صار من مبادئهم: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً» [البخاري (٢٤٤٣ و٢٤٤٤ و٦٩٥٢) وأحمد (٣/٩٩ و٢٠١)].

وكان شاعرهم يقول:

لا يسْأَلُونَ أخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْفي النَّائباتِ عَلَى ما قَالَ بُرْهَانا

والفرد في القبيلة تبعٌ للجماعة ، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة ، أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها ، قال دُرَيْد بن الصِّمَّة:

وَهَلْ أَنَا إلا مِنْ غَزِيَّة إِنْ غَوَتْغَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ[(٤٩)]

وكانت كلُّ قبيلةٍ من القبائل العربيَّة لها شخصيتها السِّياسيَّة ، وهي بهذه الشَّخصيَّة كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى ، وبهذه الشَّخصيَّة أيضاً كانت تشنُّ الحرب عليها ، ولعلَّ من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربيَّة ، حلف الفضول (حلف المطيّبين)[(٥٠)].

وكانت الحروب بين القبائل على قدمٍ وساقٍ ، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفجار[(٥١)] ، وكانت . عدا هذه الحروب الكبرى . تقع إغاراتٌ فرديَّةٌ بين القبائل ، تكون أسبابها شخصيَّةً أحياناً ، أو طلب العيش أحياناً أخرى؛ إذ كان رزق بعض القبائل في كثيرٍ من الأحيان في حدِّ سيوفها ، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقضَّ عليها قبيلةٌ أخرى في ساعةٍ من ليلٍ ، أو نهارٍ؛ لتسلب أنعامها ، ومؤنها ، وتدع ديارها خاويةً كأن لم تُسكنْ بالأمس[(٥٢)].

ثالثاً: الحالة الاقتصاديَّة:

يغلب على الجزيرة العربيَّة الصَّحاري الواسعة الممتدَّة ، وهذا ما جعلها تخلو من الزِّراعة ، إلا في أطرافها ، وخاصَّةً اليمن ، والشَّام ، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة ، وكان يغلب على البادية رعي الإبل ، والغنم ، وكانت تنتقل القبائل بحثاً عن مواقع الكلأ ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلاّ في مضارب خيامهم. وأمَّا الصِّناعة فكانوا أبعد الأمم عنها ، وكانوا يأنفون منها ، ويتركون العمل فيها للأعاجم ، والموالي ، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة؛ استعانوا برجلٍ قبطيٍّ نجا من السَّفينة التي غرقت بجُدَّة ، ثمَّ أصبح مقيماً في مكَّة[(٥٣)].

وإذا كانت الجزيرة العربيَّة قد حُرمت من نِعْمَتَي الزِّراعة ، والصِّناعة؛ فإنَّ موقعها الاستراتيجيَّ بين إفريقية وشرق اسية جعلها مؤهَّلةً لأن تحتلَّ مركزاً متقدِّماً في التِّجارة الدَّوليَّة انذاك.

وكان الذين يمارسون التِّجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن ، ولا سيَّما أهل مكَّة ، فقد كان لهم مركزٌ متميِّزٌ في التِّجارة ، وكان لهم ـ بحكم كونهم أهل الحرم ـ منزلةٌ في نفوس العرب ، فلا يعرضون لهم ، ولا لتجارتهم بسوءٍ ، وقد امتنَّ الله عليهم بذلك في القران الكريم: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ *} [العنكبوت: ٦٧] ، وكان لقريشٍ رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشَّام ، يذهبون فيها امنين بينما الناس يُتَخطَّفون من حولهم ، هذا عدا الرِّحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام. قال تعالى: {لإِِيلاَفِ قُرَيْشٍ *إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ *فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ *الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوفٍ *} [قريش: ١ ـ ٤] .

وكانت القوافل تحمل الطِّيب ، والبَخُور ، والصَّمغ ، واللُّبان ، والتَّوابل والتُّمور ، والرَّوائح العطريَّة ، والأخشاب ، والعاج ، والأبنوس ، والخرز ، والجلود ، والبرود اليمنيَّة ، والأنسجة الحريريَّة ، والأسلحة وغيرها ممَّا يوجد في شبه الجزيرة ، أو يكون مستورداً من خارجها ، ثم تذهب به إلى الشَّام وغيرها ، ثُمَّ تعود محمَّلةً بالقمح ، والحبوب ، والزَّبيب ، والزَّيتون ، والمنسوجات الشَّاميَّة ، وغيرها.

واشتهر اليمنيُّون بالتِّجارة ، وكان نشاطهم في البرِّ ، وفي البحار ، فسافروا إلى سواحل إفريقية ، وإلى الهند ، وإندونيسية ، وسومطرة ، وغيرها من بلاد اسية ، وجزر المحيط الهندي ، أو البحر العربي كما يُسمَّى ، وقد كان لهم فضلٌ كبيرٌ بعد اعتناقهم الإسلام ، في نشره في هذه الأقطار.

وكان التَّعامل بالرِّبا منتشراً في الجزيرة العربيَّة ، ولعلَّ هذا الدَّاء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[(٥٤)] ، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم ، وكانت نسبة الرِّبا في بعض الأحيان إلى أكثر من مئةٍ في المئة[(٥٥)].

وكان للعرب أسواقٌ مشهورةٌ: هي عُكَاظ ، ومجنَّة ، وذو المجاز ، ويذكر بعض المؤلِّفين في أخبار مكَّة: أنَّ العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة ، ثمَّ يذهبون منه إلى مجنَّة بعد

مضي عشرين يوماً من ذي القعدة ، فإذا رأوا هلال ذي الحجة؛ ذهبوا إلى ذي المجاز ، فلبثوا فيها ثمانيَ ليالٍ ، ثمَّ يذهبون إلى عرفة ، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ، ولا أيَّام منى ، حتى جاء الإسلام ، فأباح لهم ذلك ، قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ *} [البقرة: ١٩٨] .

وقد استمرَّت هذه الأسواق في الإسلام إلى حينٍ من الدَّهر ثمَّ دَرَست ، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب ، بل كانت أسواقاً للأدب ، والشِّعر ، والخَطَابة ، يجتمع فيها فحول الشُّعراء ، ومصاقع[(٥٦)] الخطباء ، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم ، ومفاخرهم ، وماثرهم ، وبذلك كانت ثروةً كبرى لِلُّغة والأدب ، إلى جانب كونها ثروةً تجاريَّةً[(٥٧)].

رابعاً: الحالة الاجتماعيَّة:

هيمنت التَّقاليد ، والأعراف على حياة العرب ، وأصبحت لهم قوانين عُرفيَّة فيما يتعلَّق بالأحساب ، والأنساب ، وعلاقة القبائل ببعضها ، والأفراد كذلك ، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعيَّة فيما يأتي:

١ ـ الاعتزاز الذي لا حدَّ له بالأنساب ، والأحساب ، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم ، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى ، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك ، وبيَّن لهم: أنَّ التفاضل إنَّما هو بالتَّقوى ، والعمل الصالح.

٢ ـ الاعتزاز بالكلمة ، وسلطانها ، لا سيَّما الشِّعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة ، والأسلوب البليغ ، وكان شعرهم سِجلَّ مفاخرهم ، وأحسابهم ، وأنسابهم ، وديوان معارفهم ، وعواطفهم ، فلا تعجب إذا كان نَجَمَ فيهم الخطباء المصاقع ، والشُّعراء الفطاحل ، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة ، والبيت يخفضها ، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيءٍ فرحهم بشاعرٍ ينبغ في القبيلة.

٣ ـ المرأة في المجتمع العربيِّ:

كانت المرأة عند كثيرٍ من القبائل كسَقَط المتاع ، فقد كانت تورث ، وكان الابن الأكبر للزَّوج من غيرها من حقِّه أن يتزوَّجها بعد وفاة أبيه ، أو يَعْضُلها عن النِّكاح ، حتى حَرَّم الإسلام

ذلك ، وكان الابن يتزوّج امرأة أبيه[(٥٨)] ، فنزل قول الله تعالى: {وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً *} [النساء: ٢٢] .

وكانت العرب تُحرّم نكاح الأصول كالأمّهات ، والفروع كالبنات ، وفروع الأب كالأخوات ، والطّبقة الأولى من فروع الجد كالخالات ، والعمّات[(٥٩)].

وكانوا لا يورّثون البنات ، ولا النساء ، ولا الصّبيان ، ولا يورّثون إلا من حاز الغنيمة ، وقاتل على ظهور الخيل ، وبقي حرمان النِّساء والصغار من الميراث عرفاً معمولاً به عندهم ، إلى أن تُوفي أوس بن ثابت . في عهد رسول الله (ص) . وترك بنتين كانت بهما دمامةٌ ، وابناً صغيراً ، فجاء ابنا عمِّه: . وهما عصبته . فأخذا ميراثه كلَّه ، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين ، فأبيا ذلك لدمامتهما فأتت رسول الله (ص) ، فقالت: يا رسول الله ! تُوفِّي أوس ، وترك ابناً صغيراً ، وابنتين ، فجاء ابنا عمِّه: سويد ، وعرفطة فأخذا ميراثه ، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه ، فأبيا. فقال (ص) : «لا تُحرّكا من الميراث شيئاً» [الدر المنثور؛ للسيوطي (٤٣٩/٢)] ونزل قوله تعالى: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا *} [النساء: ٧][(٦٠)].

وكان العرب يعيّرون بالبنات؛ لأنَّ البنت لا تخرج في الغزو ، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها ، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرِّجال ، وإذا ما سُبيت اتُّخذت للوطء ، تتداولها الأيدي لذلك ، بل ربما أُكْرِهَتْ على احتراف البغاء؛ ليضمَّ سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله ، وقد كانت العرب تبيح ذلك ، وقد كان هذا يورث الهمَّ ، والحزن ، والخجل للأب عندما تولد له بنتٌ ، وقد حدَّثنا القران الكريم عن حالة من تولد له بنت ، قال الله تعالى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ *يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ *} [النحل: ٥٨ . ٥٩] .

وكثيراً ما كانوا يختارون دسَّها في التُّراب ، ووأدها حيَّةً ، ولا ذنب لها إلا أنَّها أنثى[(٦١)] ، ولذلك أنكر القران الكريم عليهم هذه الفعلة الشَّنيعة. قال تعالى: {وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ *بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ *} [التكوير: ٨ . ٩] .

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر ، أو خشية الفقر ، فجاء الإسلام ، وحرَّم ذلك ، قال الله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي

حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *} [الأنعام: ١٥١] ، وقال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا *}[الإسراء: ٣١] .

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات ، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشَّنعاء ، كزيد بن عمرو بن نفيل[(٦٢)].

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة ، وتأخذ رأيها في الزَّواج ، وكانت المرأة العربيَّة الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها ، وحليلها ، وكانت تتَّسم بالشَّجاعة ، وتتبع المحاربين وتشجِّعهم ، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضَّرورة ، وكانت المرأة البدويَّة العربيَّة تشارك زوجها في رعي الماشية ، وسقيها ، وتغزل الوبر والصوف ، وتنسج الثياب ، والبرود ، والأكسية ، مع التصوُّن والتعفُّف[(٦٣)].

٤ ـ النكاح:

تعارف العرب على أنواعٍ من النكاح ، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها ، وقد ذكرت لنا السَّيدة عائشة رضي الله عنها ذلك ، فقالت: «إنَّ النِّكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاحٌ منها نكاحُ النَّاس اليومَ: يخطب الرَّجلُ إلى الرَّجل وليَّتَه ، أو ابنته ، فيُصْدِقها ، ثم يَنْكِحُها.

ونكاحٌ اخرُ: كان الرَّجل يقول لامرأته إذا طَهُرَتْ من طَمْثِها[(٦٤)]: أرسلي إلى فلانٍ فاستبضعي[(٦٥)] منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا يمسُّها أبداً ، حتى يتبيَّن حملها من ذلك الرَّجل الذي تستبضعُ منه ، فإذا تبيَّن حملُها؛ أصابها زوجها إذا أحبَّ ، وإنَّما يفعل ذلك رغبةً في نجابة الولد ، فكان هذا النِّكاح نكاحَ الاستبضاع.

ونكاحٌ اخر: يجتمع الرَّهط[(٦٦)] ما دون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلُّهم يُصيبها[(٦٧)] ، فإذا حملت ، ووضعت ، ومرَّ ليالٍ بعد أن تضع حملها؛ أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتَّى يجتمعوا عندها ، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان! تسمِّي من أحبَّت باسمه ، فيُلحق به ولدُها لا يستطيع أن يمتنع به الرَّجل.

والنِّكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمنعُ من جاءها[(٦٨)] ، وهنَّ البغايا كنَّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَماً ، فمن أرادهنَّ؛ دخل عليهنَّ ، فإذا حملت إحداهنَّ ، ووضعت حملها جُمِعوا لها ، وَدَعوا لهم القافةَ[(٦٩)] ، ثمَّ ألحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطته[(٧٠)] به ، ودُعي ابنَه ، لا يمتنع من ذلك.

فلما بُعث محمَّد (ص) بالحقِّ؛ هدم نكاح الجاهليَّة كلَّه ، إلا نكاحَ الناس اليوم» [البخاري (٥١٢٧) وأبو داود (٢٢٧٢)] .

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة رضي الله عنها ؛ كنكاح الخِدْن ، وهو في قوله تعالى: {وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ} [النساء: ٢٥] كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به ، وما ظهر فهو لوم ، وهو إلى الزِّنى أقرب منه إلى النِّكاح ، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت ، ونكاح البدل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرَّجل: انزل لي على امرأتك ، وأنزل لك عن امرأتي ، وأزيدك[(٧١)].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشِّغار ، وهو أن يزوِّج الرَّجل ابنته على أن يزوجه الاخر ابنته ، ليس بينهما صداقٌ[(٧٢)].

وكانوا يُحِلُّون الجمع بين الأختين في النِّكاح ، وكانوا يبيحون للرَّجل أن يجمع في عصمته من الزَّوجات ما شاء دون التقيُّد بعددٍ ، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العدُّ[(٧٣)] ، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النِّساء ، والأكثر ، والأقلُّ ، فقصر ذلك على أربع؛ إنْ علم أنَّه يستطيع الإنفاق عليهنَّ ، والعدل بينهنَّ ، فإن خاف عدم العدل؛ فليكتفِ بواحدةٍ ، وما كانوا في الجاهليَّة يلتزمون العدل بين الزَّوجات ، وكانوا يسيئون عشرتهن ، ويهضمون حقوقهنَّ حتى جاء الإسلام ، فأنصفهن ، وأوصى بالإحسان إليهنَّ في العشرة ، وقرَّر لهنَّ حقوقاً كنَّ يَحْلُمْنَ بها[(٧٤)].

٥ ـ الطَّلاق:

كانوا يمارسون الطَّلاق ، ولم يكن للطَّلقات عندهم عددٌ محدَّد ، فكان الرَّجل يطلق امرأته ، ثمَّ يراجعها ، ثُمَّ يطلِّقها ، ثم يراجعها هكذا أبداً ، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام[(٧٥)] ، إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: {اَلطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *} [البقرة: ٢٢٩] .

فقيَّد الإسلام عدد الطَّلقات، وأعطى للزَّوج فرصةً ليتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرَّتين ، فإن طلق الثَّالثة ؛ فقد انقطعت عروة النِّكاح ، ولا تحلُّ له إلا بعد نكاح زوجٍ اخر ، ففي الكتاب الكريم: {فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *} [البقرة: ٢٣٠] .

وممَّا كان يُلْحَق بالطَّلاق في التَّحريم الظِّهارُ ، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمِّي ، وكان تحريماً مؤبداً حتَّى جاء الإسلام ، فوسمه بأنَّه منكرٌ من القول وزورٌ ، وجعل للزَّوج مخرجاً منه ، وذلك بالكفارة[(٧٦)] قال تعالى:

{الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ *وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَآسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ *}[المجادلة: ٢ ـ ٤] .

٦ ـ الحروب ، والسَّطو ، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب ، فهم لا يبالون بشنِّ الحروب ، وإزهاق الأرواح في سبيل الدِّفاع عن المثل الاجتماعيَّة ، التي تعارفوا عليها ، وإن كانت لا تستحقُّ التَّقدير.

وقد روى لنا التَّاريخ سلسلةً من أيَّام العرب في الجاهليَّة ، ممَّا يدلُّ على تمكُّن الروح الحربيَّة من نفوس العرب ، وغلبتها على التعقُّل والتفكير؛ فمن تلك الأيام مثلاً يوم البَسُوس ، وقد قامت الحروب فيه بين بكرٍ ، وتغلب بسبب ناقةٍ للجَرْميِّ ، وهو جارٌ للبَسُوس بنت منقذ خالة

جَسَّاس بن مُرَّة ، وقد كان كُلَيْبٌ سيِّد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصّاً به ، فرأى فيه هذه النَّاقة ، فرماها ، فجزع الجَرْميُّ ، وجزعت البَسُوس ، فلما رأى ذلك جسَّاسٌ تحيَّن الفرصة لقتل كليب ، فقتله ، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدَّة أربعين سنةً[(٧٧)].

وكذلك يوم داحس والغبراء ، وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس ، وهو فرسٌ لقيس بن زهير ، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر ، فأوعز هذا إلى رجلٍ ليقف في الوادي ، فإن رأى داحساً قد سبق يردُّه ، وقد فعل ذلك ، فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء ، فسبقت الغبراء ، وحصل بعد ذلك القتل ، والأخذ بالثأر ، وقامت الحروب بين قبيلتي عبس ، وذُبيان[(٧٨)].

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس ، والخزرج في الجاهليَّة ، وهم أبناء عمٍّ؛ حيث إنَّ الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزديِّ ، واستمرَّت الحروب بينهم ، وكان اخر أيَّامهم (بُعاث) وذلك: أنَّ حلفاء الأوس من اليهود ، جدَّدوا عهودهم معهم على النُّصرة ، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج

يُذْكِيْهَا اليهود ، حتى يُضعفوا القبيلتين ، فتكون لهم السِّيادة الدَّائمة ، واستعان كلُّ فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس[(٧٩)].

وكانت بعض القبائل تسطو ، وتغير بغية نهب الأموال ، وسبي الأحرار ، وبيعهم ، كزيد بن حارثة فقد كان عربيّاً حرّاً ، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيّاً حرّاً ، وقد قضى الإسلام على ذلك ، حتَّى كانت تسير المرأة ، والرَّجل من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخافان إلا الله ، والذئب على أغنامهما[(٨٠)].

٧ ـ العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العربُ أهلَ كتابٍ ، وعلمٍ كاليهود ، والنَّصارى ، بل كان يغلب عليهم الجهل ، والأميَّة ، والتَّقليد ، والجمود على القديم وإن كان باطلاً ، وكانت أمَّة العرب لا تكتب ، ولا تحسب ، وهذه هي الصِّفة التي كانت غالبةً عليها ، وكان فيهم قليل ممَّن يكتب ، ويقرأ ، ومع أمِّيَّتهم ، وعدم اتِّساع معارفهم ؛ فقد كانوا يشتهرون بالذَّكاء ، والفطنة ، والألمعية ، ولطف المشاعر ، وإرهاف الحسِّ ، وحسن الاستعداد ، والتهيُّؤ لقبول العلم والمعرفة ، والتَّوجيه الرَّشيد ؛ ولذلك لما جاء الإسلام؛ صاروا علماء ، حكماء ، فقهاء ، وزالت عنهم

الأمِّيَّة ، وأصبح العلم ، والمعرفة من أخصِّ خصائصهم ، وكان فيهم مَنْ مهر في علم قصِّ الأثر ، وهو القِيَافَةُ ، وكان فيهم أطباء كالحارث بن كلدة ، وكان طبُّهم مَبْنِيّاً على التَّجارِب؛ التي اكتسبوها من الحياة ، والبيئة[(٨١)].

خامساً: الحالة الأخلاقيَّة:

كانت أخلاق العرب قد ساءت ، وأولعوا بالخمر ، والقمار ، وشاعت فيهم الغارات ، وقطع الطريق على القوافل ، والعصبيَّة ، والظُّلم ، وسفك الدِّماء ، والأخذ بالثأر ، واغتصاب الأموال ، وأكل مال اليتامى ، والتعامل بالرِّبا ، والسَّرقة ، والزِّنى ، وممَّا ينبغي أن يُعلم: أنَّ الزِّنى إنما كان في الإماء ، وأصحاب الرَّايات من البغايا ، ويندر أن يكون في الحرائر ، وليس أدلّ على هذا من أنَّ النَّبيَّ (ص) لما أخذ البيعة على النِّساء بعد الفتح: «على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين» قالت السيِّدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: «أوَ تَزني الحرَّة؟!!»[(٨٢)] [البخاري (٤٨٩٤) ومسلم (١٧٠٩)] .

وليس معنى هذا أنَّهم كانوا كلُّهم على هذا، لا ، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر ، ولا يسفكون الدِّماء ، ولا يظلمون ، ويتحرَّجون من أكل أموال اليتامى ، ويتنزَّهون عن التَّعامل بالرِّبا[(٨٣)]

وكانت فيهم سماتٌ ، وخصالٌ من الخير كثيرةٌ ، أهَّلتْهُم لحمل راية الإسلام ، ومن تلك الخصال ، والسِّمات:

١ ـ الذَّكاء ، والفطنة:

فقد كانت قلوبُهم صافيةً لم تدخلها تلك الفلسفات ، والأساطير ، والخرافات ، التي يصعب إزالتها ، كما في الشُّعوب الهنديَّة ، والرومانيَّة ، واليونانيَّة ، والفارسيَّة ، فكأنَّ قلوبهم كانت تعدُّ لحمل أعظم رسالة في الوجود ، وهي دعوة الإسلام الخالدة ، ولهذا كانوا أحفظ شعبٍ عُرِف في ذلك الزَّمن ، وقد وجَّه الإسلام قريحة الحفظ والذَّكاء ، إلى حفظ الدِّين ، وحمايته ، فكانت قواهم الفكرية ، ومواهبهم الفطريَّة مذخورةً فيهم ، لم تستهلك في فلسفاتٍ خياليَّةٍ ، وجدالٍ بيزنطيٍّ عقيمٍ ، ومذاهب كلاميَّةٍ معقَّدةٍ[(٨٤)].

واتِّساع لغتهم دليلٌ على قوَّة حفظهم ، وذاكرتهم ، فإذا كان للعسل ثمانون اسماً ، وللثَّعلب مئتان ، وللأسد خمسُمِئَةٍ ، فإنَّ للجمل ألفاً ، وكذا السَّيف ، وللدَّاهية نحو أربعة الاف اسمٍ ،

ولا شكَّ: أنَّ استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرةٍ قويَّةٍ ، حاضرةٍ ، وقَّادةٍ[(٨٥)].

وقد بلغ بهم الذَّكاء ، والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ[(٨٦)].

٢ ـ الكرم والسَّخاء:

كان هذا الخلق متأصِّلاً في العرب ، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا ناقته ، فيأتيه الضَّيف ، فيسارع إلى ذبحها ، أو نحرها له ، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان ، بل كان يُطعم الوحش ، والطَّير ، وكرم حاتمٍ الطَّائيِّ سارت به الرُّكبان ، وضُرِبت به الأمثال[(٨٧)].

٣ ـ الشَّجاعة ، والمروءة ، والنَّجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً ، ويتهاجون بالموت على الفراش. قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يُقْتَلْ؛ فقد قُتِل أبوه ، وأخوه ، وعمُّه ، إنا ـ والله ـ لا نموت حتفاً ، ولكن قطعاً بأطراف الرِّماح ، وموتاً تحت ظلال السُّيوف:

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِوَلاَ طُلَّ منَّا حيثُ كانَ قَتِيلُ

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاةِ نُفُوسُنَاوَلَيْسَتْ على غَيْرِ الظُّباةِ تَسِيلُ

وكان العرب لا يقدِّمون شيئاً على العزَّة ، وصيانة العِرْض ، وحماية الحريم ، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم ، قال عنترة:

بَكَرَتْ تُخَوِّفُني الحُتوفَ كأنَّنيأَصْبَحْتُ عَنْ غرضِ الحتوف بمعزِلِ

فَأَجَبْتُهَا إِنَّ المنيَّةَ مَنْهَلٌلا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بكأسِ المِنْهَلِ
فَأقْنِي حَيَاءَكِ لا أبا لكِ وَاعْلَمِيأَنِّي امْرُؤٌ سَأَموتُ إِنْ لَمْ أُقتلِ[(٨٨)]
وقال أيضاً:
لا تَسْقِنِي مَاءَ الحياةِ بذلَّةٍبَلْ فاسْقِنِي بالْعِزِّ كَأْسَ الْحَنْظَلِ
مَاءُ الْحياةِ بذلَّةٍ كجهنَّمٍوَجهنَّمٌ بالعزِّ أطْيبُ مَنْزِلِ[(٨٩)]

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامةٍ ، ومروءةٍ؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القويُّ الضَّعيف ، أو العاجز ، أو المرأة ، أو الشَّيخ ، وكانوا إذا استنجد بهم أحدٌ؛ أنجدوه ، ويرون من النَّذالة التَّخلِّي عمَّن لجأ إليهم.

٤ ـ عشقهم للحُرِّيَّة ، وإباؤهم للضَّيْم والذُّلِّ:

كان العربيُّ بفطرته يعشق الحرِّيَّة يحيا لها ، ويموت من أجلها ، فقد نشأ طليقاً ، لا سلطان لأحدٍ عليه ، ويأبى أن يعيش ذليلاً ، أو يُمَسَّ في شرفه ، وعرضه؛ ولو كلَّفه ذلك حياته[(٩٠)] ، فقد كانوا يأنفون من الذُّلِّ ، ويأبون الضَّيْمَ ، والاستصغار ، والاحتقار ، وإليك مثالاً على ذلك:

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه ، وسألهم: هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمُّه خدمة أمِّي؟ قالوا: نعم ، أمَّ عمرو بن كلثوم الشَّاعر الصُّعلوك.

فدعا الملك عَمْرَو بن كلثوم لزيارته ، ودعا أمَّه لتزور أمَّه ، وقد اتَّفق الملك مع أمِّه أن تقول لأمِّ عَمْرِو بن كلثوم بعد الطَّعام: ناوليني الطَّبق الذي بجانبك ، فلمَّا جاءت؛ قالت لها ذلك ، فقالت: لِتَقُمْ صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، فأعادت عليها الكرَّة وألحَّت ، فصاحت ليلى أم عَمْرِو بن كلثوم: واذُلاَّه! يا لتَغْلب! فسمعها ابنُها فاشتدَّ به الغضب ، فرأى سيفاً للملك معلقاً بالرُّواق ، فتناوله ، وضرب به رأس الملك عمرو بن هند ، ونادى في بني تغلب ، وانتهبوا ما في الرُّواق ، ونظم قصيدةً يخاطب بها الملك قائلاً:

بأيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍنكُونُ لِقَيْلِكُمْ[(٩١)] فيها قَطِينا[(٩٢)]
بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْن هِنْدٍتُطِيْعُ بنا الوُشَاةَ وتَزْدَرِيْنَا[(٩٣)]
تُهَدِّدُنَا وتُوعِدُنَا رُوَيْداًمَتَى كُنَّا لأُمِّك مقْتَوِينَا[(٩٤)]
إذا ما الْمَلْكُ سَامَ الناسَ خَسْفاًأَبينا أن نُقِرَّ الذُّلَ فينا[(٩٥)]

٥ ـ الوفاءُ بالعهد وحبُّهم للصَّراحة ، والوضوح ، والصِّدق:

كانوا يأنفون من الكذب ، ويعيبونه ، وكانوا أهل وفاءٍ ، ولهذا كانت الشَّهادة باللِّسان كافيةً للدُّخول في الإسلام. ويدلُّ على أنفتهم من الكذب ، قصَّة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله (ص) ، وكانت الحروبُ بينهم قائمةً ، قال: «لولا الحياءُ من أن يأثروا عليَّ كذباً ؛ لكذبت عنه» [البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)] .

أمَّا وفاؤهم؛ فقد قال النُّعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «وإنَّ أحدهم يلحظ اللَّحظة ، ويومأى الإيماء ، فهي وَلْثٌ ، وعقدةٌ لا يحلُّها إلا خروجِ نفسه. وإنَّ أحدهم يرفع عوداً من الأرض ، فيكون رهناً بدينه ، فلا يُغْلَق رهنه ، ولا تخفر ذمَّته. وإنَّ أحدهم ليبلغه أنَّ رجلاً استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره ، فيصاب ، فلا يرضى حتَّى يفني تلك القبيلة التي أصابته ، أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره. وإنَّه ليلجأ إليهم المجرم المحْدِثُ من غير معرفةٍ ولا قرابةٍ ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله»[(٩٦)].

والوفاء خلقٌ متأصِّلٌ بالعرب ، فجاء الإسلام ، ووجَّهه الوجهة السَّليمة ، فغلَّظَ على من اوى مُحْدِثاً ، مهما كانت منزلته ، وقرابته. قال (ص) : «لعن اللهُ من اوى محدِثاً» [مسلم (١٩٧٨) والنسائي (٢٣٢/٧)] ، ومن القصص الدَّالة على وفائهم[(٩٧)]: «أنَّ الحارث بن عباد قاد قبائل بكرٍ لقتال تغلب ، وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث ، وقال: «بؤ بشسع نعل كليب»[(٩٨)] في حرب البسوس ، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه ، فقال: دلَّني على مهلهل بن ربيعة ، وأخلي عنك ، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه ، قال: نعم. قال: فأنا هو ، فجزَّ ناصيته ، وتركه». وهذا وفاءٌ نادرٌ ، ورجولةٌ تستحقُّ الإكبار[(٩٩)].

ومن وفائهم: أنَّ النُّعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته ، فأودع أسلحته ، وحرمه إلى هانأى بن مسعود الشَّيبانيّ ، ورحل إلى كسرى ، فبطش به ، ثم أرسل إلى هانأى يطلب منه ودائع النُّعمان ، فأبى ، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله ، فجمع هانأى قومه ال بكرٍ ، وخطب فيهم ، فقال: «يا معشرَ بكر! هالكٌ معذورٌ خيرٌ من ناجٍ فرور ، إنَّ الحذر لا ينجي من قدر ، وإنَّ الصَّبر من أسباب الظَّفَر ، المنيَّة ولا الدَّنيَّة ، استقبال الموت خير من استدباره ، الطَّعن في ثغر النُّحور، أكرم منه في الأعجاز، والظُّهور، يا ال بكر! قاتلوا فما من المنايا بُدٌّ»[(١٠٠)]، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار ، بسبب هذا الرَّجل الذي احتقر حياة الصَّغار ، والمهانة ، ولم يبالِ بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

٦ ـ الصَّبر على المكاره ، وقوَّة الاحتمال ، والرِّضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ، ويقولون: البِطْنَة تُذْهِبُ الفِطْنَة ، ويعيبون الرَّجل الأكول الجشع . قال شاعرهم:

إذا مُدَّتِ الأيدِي إلى الزَّادِ لَمْ أَكُنْبأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقومِ أعْجَلُ[(١٠١)]

وكانت لهم قدرةٌ عجيبةٌ على تحمُّل المكاره ، والصَّبر في الشَّدائد ، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصَّحراويَّة الجافَّة ، قليلة الزَّرع ، والماء ، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة ، والسَّير في حرِّ الظَّهيرة ، ولم يتأثَّروا بالحرِّ ، ولا بالبرد ، ولا وعورة الطَّريق، ولا بُعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظَّمأ، ولما دخلوا الإسلام؛ ضربوا أمثلةً رائعة في الصَّبر ، والتَّحمُّل ، وكانوا يرضون باليسير ، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمراتٍ يقيم بها صلبه ، وقطراتٍ من ماء يرطِّب بها كبده[(١٠٢)].

٧ ـ قوَّة البدن ، وعظمة النَّفس:

واشتهروا بقوَّة أجسادهم مع عظمة النَّفس ، وقوَّة الرُّوح ، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانيَّة صنعتا العجائب ، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام.

٨ ـ العفو عند المقدرة ، وحماية الجار:

وكانوا ينازلون أقرانهم ، وخصومهم ، حتَّى إذا تمكَّنوا منهم عفوا عنهم ، وتركوهم ، ويأبون أن يُجهِزُوا على الجرحى ، وكانوا يرعون حقوق الجيرة ، ولا سيَّما رعاية النِّساء ، والمحافظة على العرض. قال شاعرهم:

وَأَغُضُّ طَرْفِي إنْ بَدَتْ لِي جَارَتيحَتَّى يُوَاري جَارتي مَأْواهَا

وكانوا إذا استجار أحدُ الناس بهم؛ أجاروه ، وربما ضحَّوا بالنَّفس ، والولد ، والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيداً ضخماً في نفوس العرب ، فجاء الإسلام ، فنمَّاها ، وقوَّاها ، ووجَّهها وجهةَ الخير ، والحقِّ ، فلا عجب إذا كانوا قد انطلقوا من الصَّحارى ، كما تنطلق الملائكة الأطهار ، ففتحوا الأرض ، وملؤوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً ، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً ، وفضائل بعد أن عمَّتها الرَّذائل ، وخيراً بعد أن طفحت شراً[(١٠٣)].

هذه بعض أخلاق المجتمع الَّذي نشأ فيه الإنسان العربيُّ، فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله (ص) ، واختير له هذا المجتمع العربيُّ ، وهذه البيئة النَّادرة وهذا الوسط الرَّفيع ، مقارنةً بالفرس ، والرُّوم ، والهنود ، واليونان ، فلم يُخْتَرْ من الفرس على سعة علومهم ،

ومعارفهم ، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم ، ولا من الرُّومان على تفنُّنهم ، ولا من اليونان على عبقرية شاعريَّتهم ، وخيالهم ، وإنَّما اختير من هذه البيئة البكر؛ لأنَّ هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه ،

وما هم فيه من علوم ، ومعارف ، إلا أنَّهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة ، وحرِّيَّة الضَّمير ، وسموِّ الرُّوح[(١٠٤)].

* * *

المبحث الرَّابع

أهمُّ الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى (ص)

أراد الله سبحانه وتعالى أن يرحم البشريَّة ويكرم الإنسانيَّة ، فحان وقت الخلاص بمبعث الحبيب (ص) . وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم ، ونشأته العزيزة ، ورعاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له قبل نزول الوحي عليه ، وسيرته العطرة قبل البعثة ، نريد أن نتحدَّث عن الايات العظيمة ، والأحداث الجليلة؛ الَّتي سبقت ميلاده (ص) ، فقد سبق مولده الكريم أمورٌ عظيمةٌ دلَّت على اقتراب تباشير الصَّباح.

إنَّ من سنن الله في الكون: أنَّ الانفراج يكون بعد الشِّدَّة ، والضِّياء يكون بعد الظَّلام ، واليُسر بعد العُسر[(١٠٥)].

ومن أهمِّ هذه الأحداث:

أولاً: قصَّة حفر عبد المطَّلب جدِّ النَّبيِّ (ص) لزمزم:

ذكر الشيخ إبراهيم العلي في كتابه القيِّم (صحيح السيرة النَّبويَّة) ، روايةً صحيحةً في قصَّة حفر عبد المطَّلب لزمزم من حديث عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: «قال عبد المطَّلب: إنِّي لنائمٌ في الحِجْر ، إذْ أتاني اتٍ ، فقال لي: احفر طَيْبة[(١٠٦)]. قلت: وما طَيْبة؟ قال: ثمَّ ذهب عني.

قال: فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مَضْجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال: احفر بَرَّة[(١٠٧)] ، قال: قلت: وما بَرَّة؟ قال: ثمَّ ذهب عنِّي.

فلمَّا كان الغدُ؛ رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال: احفر المضنونة[(١٠٨)]. قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: ثمَّ ذهب.

فلمَّا كان الغد؛ رجعت إلى مضجعي ، فنمت فيه ، فجاءني ، فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تَنْزِفُ أبداً ، ولا تُذَمُّ[(١٠٩)] ، تسقي الحجيج الأعظم ، وهي بين الفَرْث والدَّم، عند نقرة الغراب الأعصم[(١١٠)] ، عند قرية النَّمل[(١١١)].

قال ابن إسحاق: فلمَّا بُيِّن له شأنُها ، ودُلَّ على موضعها ، وعَرَف أنَّه قد صُدِق؛ غدا بمِعْوَلِهِ[(١١٢)] ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب ، وليس معه يومئذٍ ولدٌ غيره ، فحفر فيها ، فلمَّا بدا لعبد المطلب الطَّيُّ[(١١٣)]؛ كبَّر ، فعرفت قريش: أنَّه قد أدرك حاجته ، فقاموا إليه ، فقالوا: يا عبد المطلب! إنَّها بئر أبينا إسماعيل ، وإنَّ لنا فيها حقًّا ، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعلٍ ، إنَّ هذا الأمر قد خُصِصْتُ به دونكم ، وأُعطيته من بينكم. قالوا له: فأنصفنا ، فإنَّا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها ، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعدٍ بن هُذَيم. قال: نعم ، وكانت بأطراف الشَّام.

فركب عبد المطَّلب ومعه نفرٌ من بني أبيه من بني عبد مناف ، وركب من كلِّ قبيلةٍ من قريش نفرٌ ، فخرجوا؛ والأرض إذ ذاك مفاوز؛ حتَّى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب ، وأصحابه ، فعطشوا حتَّى استيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا مَنْ كانوا معهم ، فأبوا عليهم ، وقالوا: إنَّا بمفازة[(١١٤)] وإنَّا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبد المطَّلب: إنِّي أرى أن يحفر كلُّ رجلٍ منكم حفرته لنفسه بما لكم الان من القوَّة، فكلَّما مات رجلٌ دفعه أصحابه في حفرته، ثم وَارَوْه؛ حتَّى يكون اخرُهم رجلاً واحداً، فَضَيْعَةُ رجلٍ واحدٍ أيسر من ضيعة ركبٍ جميعه. فقالوا: نِعْمَ ما أمرت به.

فحفر كلُّ رجلٍ لنفسه حفرةً ، ثمَّ قعدوا ينتظرون الموت عطشاً ، ثمَّ إنَّ عبد المطلب قال لأصحابه: والله إنَّ إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ، ولا نبتغي لأنفسنا لَعَجْزٌ ، فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ، ارتَحلوا. فارتحلوا؛ حتَّى إذا بعث[(١١٥)] عبد المطَّلب راحلته انفجرت من تحت خفِّها عين ماءٍ عذبٍ ، فكبَّر عبد المطلب ، وكبَّر أصحابه ، ثمَّ نزل ، فشرب ، وشرب أصحابه ، واستسقوا حتَّى ملؤوا أسقيتهم ، ثمَّ دعا قبائل قريش

ـ وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال ـ فقال: هَلُمُّوا إلى الماء؛ فقد سقانا الله ، فجاؤوا ، فشربوا ، واستقوا كلُّهم ، ثمَّ قالوا: قد ـ والله ـ قضى لك علينا ، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً ، إنَّ الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الَّذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً ، فرجع ، ورجعوا معه ، ولم يصِلوا إلى الكاهنة ، وخَلُّوا بينه وبين زمزم».

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغني عن عليّ بن أبي طالبٍ في زمزم [البيهقي في الدلائل (١/٩٣ ـ ٩٤) وابن هشام (١/١٥١ ـ ١٥٣)] وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرةٌ ، فمنها: ما رواه مسلمٌ في صحيحه في قصَّة إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) قال: «إنَّها مباركةٌ ، إنَّها طعامُ طُعْمٍ» [مسلم[(١١٦)] (٢٤٧٣)] .

وروى الدَّارقطنيُّ [(٢٧١٣)] والحاكم [(١/٤٧٣)] وصحَّحه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن النَّبيِّ (ص) : «ماء زمزم لما شُرِبَ له: إنْ شربته لتستشفي ، شفاك الله! وإن شربته لشبعك ، أشبعك الله! وإن شربته لقطع ظمئك ، قطعه الله! وهي هزمة[(١١٧)] جبريل ، وسقيا الله إسماعيل» قال الشَّيخ محمَّد أبو شهبة ـ رحمه الله! ـ[(١١٨)]: ومهما يكن من شيءٍ فقد صحَّح الحافظ الدِّمياطيُّ ـ وهو من الحفَّاظ المتأخِّرين المتقنين ـ حديث: «ماء زمزم لما شُرِبَ له» وأقرَّه الحافظ العراقيُّ[(١١٩)].

ثانياً: قصَّة أصحاب الفيل[(١٢٠)]:

هذه الحادثة ثابتةٌ بالقران الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة ، وأتت تفاصيلها في كتب السِّيَر والتَّاريخ ، وذكرها المفسِّرون في كتبهم: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ *أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ *تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ *فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *} [سورة الفيل] .

أمَّا إشارات الرَّسول (ص) إلى الحادث؛ فمنها:

أنَّ الرسول (ص) لما خرج زمن الحديبية ، سار حتى إذا كان بالثَّنيَّة الَّتي يهبط عليهم منها ، بركت بها راحلته؛ فقال الناس: حَلْ حَلْ[(١٢١)]. فَأَلَحَّتْ[(١٢٢)] ، فقالوا: خلأت القصواء! فقال النَّبيُّ (ص) : «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلق ، ولكن حبسها حابسُ الفيل» [البخاري (٢٧٣١) وأحمد (٤/٣٢٣)] .

وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم ما يلي: «كان من شأن الفيل: أنَّ ملكاً كان باليمن غلب عليها ، وكان أصله من الحبشة ، يقال له: أبرهة ، بنى كنيسة بصنعاء ، فسمَّاها القُلَّيْس ، وزعم: أنَّه يصرف إليها حَجَّ العرب ، وحَلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها ، فخرج ملكٌ من ملوك حِمير فيمن أطاعه من قومه يُقال له ذو نفر ، فقاتله؛ فهزمه أبرهة ، وأخذه ، فلمَّا أتى به؛ قال له ذو نفر: أيها الملك! لا تقتلني؛ فإن استبقائي خيرٌ لك من قتلي ، فاستبقاه ، وأوثقه ، ثمَّ خرج سائراً يريد الكعبة ، حتَّى إذا دنا من بلاد خَثْعَم؛ خرج إليه النُّفَيْل بن حبيب الخثعميُّ ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن ، فقاتلوه ، فهزمهم ، وأخذ النُّفَيْل ، فقال النُّفيل: أيها الملك! إنِّي عالم بأرض العرب، فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسَّمع

، والطَّاعة ، فاستبقاه ، وخرج معه يَدلُّه ، حتَّى إذا بلغ الطَّائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجال ثقيف ، فقال: أيُّها الملك! نحن عبيدٌ لك ، ليس لك عندنا خلافٌ ، وليس بيننا وبينك الَّذي تريد . يعنون الَّلات . إنَّما تريد البيت الذي بمكَّة ، نحن نبعث معك من يدلُّك عليه.

فبعثوا معه مولى لهم، يُقال له: أبو رِغال، فخرج معهم حتَّى إذا كان بالمغَمَّسِ[(١٢٣)] مات أبو رِغال، وهو الذي رُجِمَ قبره، وبعث أبرهة من المغَمَّسِ رجلاً، يقال له: الأسود بن مقصود على مقدِّمة خيله ، فجمع إليه أهل الحرم ، وأصاب لعبد المطلب مئتي بعير بالأرك ، ثمَّ بعث أبرهة حُنَاطة الحميريَّ إلى أهل مكَّة ، فقال: سل عن شريفها ، ثمَّ أبلغه: أنِّي لم اتِ لقتال ، إنَّما جئت لأهدم هذا البيت.

فانطلق حُنَاطة حتَّى دخل مكَّة ، فلقي عبد المطلب بن هاشم ، فقال: إنَّ الملك أرسلني إليك؛ ليخبرك: أنَّه لم يأتِ لقتالٍ ، إلا أن تقاتلوه ، إنَّما جاء لهدم هذا البيت ، ثمَّ الانصراف عنكم. فقال عبد المطَّلب: ما عندنا له قتالٌ ، سنخلِّي بينه وبين البيت ، فإن خلَّى اللهُ بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ. قال: فانطلق معي إليه. قال: فخرج معه؛ حتَّى قدم المعسكر ، وكان «ذو نفر» صديقاً لعبد المطلب ، فأتاه فقال: يا ذا نفر! هل عندكم من غناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجلٍ أسيرٍ لا يأمن من أن يقتل بُكرةً ، أو عشيَّةً ، ولكن سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فامره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خيرٍ ، ويُعظم خطرك ، ومنزلتك عنده. قال: فأرسل إلى أنيس ، فأتاه ، فقال: إنَّ هذا سيِّد قريش ، صاحب عير مكَّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل ، والوحوش في الجبال ، وقد أصاب له الملك مئتي بعير ، فإن استطعت أن تنفعه؛ فانفعه؛ فإنَّه صديقٌ لي.

فدخل أنيس على أبرهة ، فقال: أيُّها الملك! هذا سيِّد قريشٍ ، وصاحب عِيْرِ مكَّة؛ الذي يُطعم النَّاس في السَّهل ، والوحوش في الجبال ، يستأذن عليك ، وإنَّه أحبَّ أن تأذن له ، فقد جاءك غير ناصبٍ لك ، ولا مخالفٍ عليك. فأذن له ، وكان عبد المطَّلب رجلاً عظيماً ، جسيماً ، وسيماً ، فلمَّا راه أبرهة ، عظَّمه ، وأكرمه ، وكره أن يجلس معه على سريره ، وأن يجلس تحته ، فهبط إلى البساط ، فجلس عليه معه ، فقال له عبد المطلب: أيها الملك! إنَّك قد أصبت لي مالاً عظيماً ، فاردده عليَّ. فقال له: لقد أعجبتني حين رأيتُك ، ولقد زهدت فيك. قال: ولِمَ؟ قال: جئتُ إلى بيتٍ هو دينُك ودينُ ابائك ، وعصمتُكم ، ومنعتُكم؛ لأهدمَه ، فلم تُكلِّمْني فيه ، وتكلِّمُني في مئتي بعيرٍ لك! قال: أنا ربُّ هذه الإبل ، ولهذا البيت ربٌّ سيمنعه. قال: ما كان ليمنعه منِّي. قال: فأنت وذاك! قال: فأمر بإبله ، فرُدَّت عليه، ثمَّ خرج عبد المطَّلب ، وأخبر قريشاً الخبر ، وأمرهم أن يتفرَّقوا في الشِّعاب.

وأصبح أبرهة بالمغَمَّس قد تهيَّأ للدُّخول ، وعبَّأ جيشه ، وقرَّب فيله ، وتحمَّل عليه ما أراد أن يحمل ، وهو قائم ، فلمَّا حرَّكه: وقف ، وكاد أن يرزم إلى الأرض ، فيبرك ، فضربوه بالمعول في رأسه ، فأبى ، فأدخلوا محاجنه تحت أقرانه ، ومرافقه ، فأبى ، فوجَّهوه إلى اليمن ، فهرول ، فصرفوه إلى الحرم ، فوقف ، ولحق الفيل بجبلٍ من تلك الجبال ، فأرسل الله الطَّير من البحر كالبلسان[(١٢٤)] ، مع كلِّ طيرٍ ثلاثة أحجارٍ: حجران في رجليه ، وحجر في منقاره ، وتحمل أمثال الحِمَّصِ والعدس من الحجارة ، فإذا غشيت القوم أرسلتها عليهم ، فلم تُصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك ، وليس كل القوم أصيب ، فذلك قول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ *أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ *تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ *فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ *} [سورة الفيل] .

وبعث الله على أبرهة داءً في جسده ، ورجعوا سراعاً يتساقطون في كلِّ بلد ، وجعل أبرهة تتساقط أنامله ، كلَّما سقطت أُنملة؛ أتبعتها مِدَّة من قيحٍ ، ودمٍ ، فانتهى إلى اليمن ، وهو مثل فرخ الطَّير فيمن بقي من أصحابه ، ثمَّ مات»[(١٢٥)].

وذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله! ـ في سيرته ، كما نقله ابن هشامٍ عنه في السِّير: أنَّ عبد المطلب أخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفرٌ من قريش ، يدعون الله ، ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو اخذٌ بحلقة باب الكعبة:

لاهُمَّ[(١٢٦)] إنَّ العَبْدَ يَمْنعُ رَحْلَه فَامْنَعْ حلالَكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْوَمِحالُهُمْ غَدْواً مِحالَكْ

إنْ كُنْتَ تَارِكُهمْ وقِبْلَتَنا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

ثمَّ أرسل عبد المطَّلب حَلْقَة باب الكعبة ، وانطلق هو ، ومن معه من قريشٍ إلى شَعَفِ الجبال[(١٢٧)] ، فتحرَّزوا فيها ، ينتظرون ما أبرهة فاعلٌ بمكَّة إذا دخلها ، وذكر بعد ذلك ما حدث من هلاكٍ لأبرهة ، وجيشه[(١٢٨)].

دروسٌ وعبرٌ وفوائدُ من حادثة الفيل:

١ ـ بيان شرف الكعبة أوَّل بيتٍ وُضع للنَّاس ، وكيف أنَّ مشركي العرب كانوا يعظِّمونه ، ويقدِّسونه ، ولا يقدِّمون عليه شيئاً. وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم ، وإسماعيل ، عليهما الصَّلاة والسَّلام.

٢ ـ حسد النَّصارى ، وحقدهم على مكَّة ، وعلى العرب الَّذين يعظِّمون هذا البيت ، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القُلَّيْس ، وعلى الرَّغم من استعماله أساليب التَّرغيب

، والتَّرهيب إلا أنَّ العرب امتنعوا ، ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القُلَّيْسِ أحدُ الأعراب ، قال الرَّازي . رحمه الله تعالى! . في قوله تعالى: : اعلم أنَّ الكيد هو إرادة مضرَّةٍ بالغير على الخفية. (إن قيل): لِمَ سمَّاه {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ *} ، وأمره كان ظاهراً؟ فإنَّه كان يُصرِّح أن يهدم البيت. (قلنا): نعم؛ لكن الذي كان في قلبه شرّاً ممَّا أظهر؛ لأنَّه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشَّرف الحاصل لهم بسبب الكعبة عنهم ، وعن بلدهم إلى نفسه ، وإلى بلدته[(١٢٩)].

٣ . التَّضحية في سبيل المقدَّسات:

قام ملكٌ من ملوك حِميرَ في وجه جيش أبرهة ، ووقع الملك أسيراً ، وقام النُّفَيْلُ ابن حبيبٍ الخثعميُّ ومن اجتمع معه من قبائل اليمن ، فقاتلوا أبرهة ، إلا أنَّهم انهزموا أمام الجيش الْعَرَمْرَم ، وبذلوا دماءهم دفاعاً عن مقدَّساتهم.

إنَّ الدِّفاع عن المقدَّسات والتَّضحية في سبيلها ، شيءٌ غريزيٌّ في فطرة الإنسان.

٤ . خَوَنة الأمَّة مخذولون:

فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة ، وصاروا عيوناً له ، وجواسيس ، وأرشدوه إلى

بيت الله العتيق؛ ليهدمه لعنوا في الدُّنيا والاخرة ، لعنهم النَّاس ، ولعنهم الله . سبحانه وتعالى . وأصبح قبر أبي رِغال رمزاً للخيانة والعمالة ، وصار ذاك الرَّجل مبغوضاً في قلوب النَّاس ، وكلَّما مرَّ أحد على قبره؛ رجمه.

٥ . حقيقة المعركة بين الله وأعدائه:

في قول عبد المطلب زعيم مكَّة: «سنخلِّي بينه وبين البيت؛ فإن خلَّى الله بينه وبينه؛ فو الله ما لنا به قوَّةٌ» وهذا تقريرٌ دقيقٌ لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه ، فمهما كانت قوَّة العدوِّ وحشوده؛ فإنَّها لا تستطيع الوقوف لحظةً واحدةً أمام قدرة الله وبطشه ، ونِقْمته؛ فهو سبحانه واهب الحياة ، وسالبُها في أيِّ وقتٍ شاء[(١٣٠)].

قال القاسميُّ . رحمه الله! .: قال القاشانيُّ . رحمه الله ! . قصَّة أصحاب الفيل مشهورةٌ ، وواقعتهم قريبة من عهد الرَّسول (ص) ، وهي إحدى ايات قدرة الله ، وأثرٌ من سخطه على مَنِ اجترأ عليه بهتك حُرَمِهِ[(١٣١)].

٦ . تعظيم النَّاس للبيت ، وأهله:

ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام ، الَّذي تكفَّل بحفظه ، وحمايته من عبث المفسدين ، وكيد الكائدين[(١٣٢)] ، وأعظمت العرب قريشاً ، وقالوا: هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم العدوَّ ، وكان ذلك ايةً من الله تعالى ، ومقدِّمةً لبعثة نبيٍّ يبعث من مكَّة ، ويطهِّر الكعبة من الأوثان ، ويعيد لها ما كان لها من رفعةٍ ، وشأن[(١٣٣)].

٧ ـ قصَّة الفيل من دلائل النُّبوَّة:

قال بعض العلماء: إنَّ حادثة الفيل من شواهد النُّبوَّة ، ودلالاتها ، ومن هؤلاء: الماورديُّ ـ رحمه الله! ـ حيث يقول: ايات الملك باهرةٌ ، وشواهد النُّبوَّة ظاهرةٌ ، تشهد مباديها بالعواقب ، فلا يلتبس فيها كذبٌ بصدقٍ ، ولا منتحلٌ بحقٍّ ، وبحسب قوَّتها ، وانتشارها تكون بشائرها ، وإنذارها ، ولما دنا مولد رسول الله (ص) تعاطرت ايات نبوَّته ، وظهرت ايات بركته ، فكان من أعظمها شأناً ، وأشهرها عياناً ، وبياناً أصحاب الفيل... إلى أن قال: واية الرَّسول (ص) في قصَّة الفيل: أنَّه كان في زمانه حَمْلاً في بطن أمِّه بمكَّة؛ لأنَّه ولد بعد خمسين يوماً من

الفيل ، وبعد موت أبيه ، في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأوَّل ، فكانت ايةً في ذلك من وَجْهَيْن:

أحدهما: أنَّهم لو ظفروا؛ لسبوا ، واسترقوا ، فأهلكهم الله ـ تعالى ـ لصيانة رسوله (ص) أن يجري عليه السَّبيُ حَمْلاً ، ووليداً.

والثَّاني: أنَّه لم يكن لقريش من التألُّه ما يستحقُّون به رفع أصحاب الفيل عنهم ، وما هم أهل كتاب؛ لأنَّهم كانوا بين عابد صنمٍ ، أو متديِّن وثنٍ ، أو قائلٍ بالزَّندقة ، أو مانعٍ من الرَّجعة ، ولكن لما أراد الله تعالى من ظهور الإسلام ، تأسيساً للنُّبوَّة ، وتعظيماً للكعبة. ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى في جيش الفيل ، تهيَّبوا الحرم ، وأعظموه ، وزادت حرمته في النُّفوس ، ودانت لقريش بالطَّاعة ، وقالوا: أهل الله ، قاتل عنهم ، وكفاهم كيدَ عدوِّهم ، فزادوهم تشريفاً ، وتعظيماً ، وقامت قريش لهم بالوفادة ، والسِّدانة ، والسِّقاية (والوفادة مالٌ تخرجه قريش في كلِّ عامٍ من أموالهم ، يصنعون به طعاماً للنَّاس أيام منى) ، فصاروا أئمَّةً دَيَّانين ، وقادةً متبوعين ، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين[(١٣٤)].

وقال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: «وكان ذلك عام مولد النَّبيِّ (ص) ، وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان ، ودين النَّصارى خيرٌ منهم ، فعُلِمَ بذلك أن هذه الاية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ ، بل

كانت لأجل البيت ، أو لأجل النَّبيِّ (ص) ؛ الَّذي ولد في ذلك العام عند البيت ، أو لمجموعهما ، وأيُّ ذلك كان؛ فهو من دلائل نبوَّته»[(١٣٥)].

وقال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله! ـ عندما تحدَّث عن حادثة الفيل: «كان هذا من باب الإرهاص ، والتَّوطئة لمبعث رسول الله (ص) ، فإنَّه في ذلك العام ولد ـ على أشهر الأقوال ـ ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش! على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانةً للبيت العتيق؛ الَّذي سنشرِّفه ، ونوقِّره ببعثة النَّبيِّ الأميِّ محمَّدٍ ـ صلوات الله ، وسلامه عليه ـ خاتم الأنبياء»[(١٣٦)].

٨ ـ حفظ الله للبيت العتيق:

وهي: أنَّ الله لم يقدِّر لأهل الكتاب(أبرهة وجنوده) ، أن يدمِّروا البيت الحرام ، أو يسيطروا على الأرض المقدَّسة ، حتَّى والشِّرك يُدنِّسه ، والمشركون هم سدنته؛ ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلِّطين ، مصوناً من كيد الكائدين ، وليحفظ لهذه الأرض حرِّيتها ، حتَّى تنبت

فيها العقيدة الجديدة حُرَّةً طليقةً ، لا يهيمن عليها سلطانٌ ، ولا يطغى فيها طاغيةٌ ، ولا يهيمن على هذا الدِّين الذي جاء ليهيمن على الأديان ، وعلى العباد ، ويقود البشريَّة ، ولا يقاد ، وكان هذا من تدبير الله لبيته ، ولدينه ، قبل أن يعلم أحدٌ: أنَّ نبيَّ هذا الدِّين قد ولد في هذا العام[(١٣٧)].

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدَّلالة اليوم ، ونطمئنَّ إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرةٍ ماكرةٍ ، ترف حول الأماكن المقدَّسة من قبل الصَّليبيَّة العالميَّة ، والصهيونيَّة العالمية ، ولا تني ، أو تهدأ في التمهيد الخفيِّ اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة ، فالله الَّذي حمى بيته من أهل الكتاب ، وسدنتُه مشركون ، سيحفظه ـ إن شاء الله ـ ويحفظ مدينة رسوله (ص) من كيد الكائدين ، ومكر الماكرين[(١٣٨)].

٩ ـ جَعْلُ الحادثة تاريخاً للعرب:

استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل ، فأَرَّخُوا به ، وقالوا: وقع هذا عامَ الفيل ، ووُلد فلانٌ عام الفيل ، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السِّنين ، وعام الفيل صادف عام ٥٧٠م[(١٣٩)].

* * *

المبحث الخامس
من المولد النَّبويِّ الكريم إلى حلف الفضول

أولاً: نسب النَّبيِّ (ص):

إنَّ النَّبيَّ (ص) أشرف الناس نسباً ، وأكملهم خَلْقاً ، وخُلُقاً ، وقد ورد في شرف نسبه (ص) أحاديث صحاح؛ منها: ما رواه مسلمٌ: أنَّ النَّبيَّ (ص) قال: «إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم» [سبق تخريجه] .

وقد ذكر الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله! ـ نسب النَّبيِّ (ص) ، فقال: «هو أبو القاسم ، محمَّد بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد مناف ، بن قصَيِّ ، بن كلاب ، بن مُرَّةَ ، بن كعب ، بن لُؤَيِّ ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك ، بن النَّضر ، بن كِنانة ، بن خُزيمة ، بن مُدْرِكة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نِزارٍ ، بن مَعَدِّ ، بن عدنان» [البخاري تعليقاً (٧/٢٠٥ ـ ٢٠٦)] .

وقال البغويُّ في شرح السُّنَّة [(١٣/١٩٣)] بعد ذكر النَّسب إلى عدنان: «ولا يصحُّ حفظ النَّسب فوق عدنان».

وقال ابن القيِّم بعد ذكر النَّسب إلى عدنان أيضاً: «إلى هنا معلوم الصحَّة ، متَّفقٌ عليه بين النَّسَّابين ، ولا خلاف ألبتةَ ، وما فوق عدنان مختلفٌ فيه ، ولا خلاف بينهم: أنَّ عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»[(١٤٠)].

وقد جاء عن ابن سعدٍ في طبقاته: «الأمر عندنا الإمساك عمَّا وراء عدنان إلى إسماعيل»[(١٤١)].

وعن عروةَ بن الزُّبير: أنَّه قال: «ما وجدنا مَنْ يعرف وراء عدنان ، ولا قحطان إلا تخرُّصاً»[(١٤٢)].

قال الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ: «وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السَّلام ـ بإجماع النَّاس ، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الاباء»[(١٤٣)].

لقد كان ـ وما زال ـ شرف النَّسب له المكانة في النُّفوس؛ لأنَّ ذا النَّسب الرَّفيع لا تُنْكَرُ عليه الصَّدارة ، نبوَّةً كانت ، أو مُلكاً ، وينكر ذلك على وضيع النَّسب ، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه ، ولما كان محمَّد (ص) يُعَدُّ للنُّبوَّة ، هيَّأ الله تعالى له شرف النَّسب؛ ليكون مساعداً له على التفاف النَّاس حوله[(١٤٤)].

إنَّ معدن النَّبيّ (ص) طيِّبٌ ، ونفيسٌ ، فهو من نسْل إسماعيل الذَّبيح ، وإبراهيم خليل الله ، واستجابةٌ لدعوة إبراهيم عليه السلام ، وبشارةُ أخيه عيسى عليه السلام ، كما حَدَّث هو عن نفسه ، فقال: «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة أخي عيسى» [أحمد (١٢٧/٤) والحاكم (٦٠٠/٢) ومجمع الزوائد (٢٢٢/٨)] .

وطيب المعدن ، والنَّسب الرَّفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور ، ويجعله يهتمُّ بعاليها ، وفضائلها. والرُّسل ، والدُّعاة يحرصون على تزكية أنسابهم ، وطهر أصلابهم ، ويعرفون عند النَّاس بذلك ، فيحمدونهم ، ويثقون بهم[(١٤٥)].

وممَّا تبيَّن يتَّضح لنا من نسبه الشَّريف ، دلالة واضحةً على أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ميَّز العرب على سائر النَّاس ، وفضَّل قريشاً على سائر القبائل الأخرى ، ومقتضى محبَّة رسول الله (ص) محبَّة القوم الذين ظهر فيهم ، والقبيلة التي ولد فيها ، لا مِنْ حيث الأفراد والجنس؛ بل من حيث الحقيقة المجرَّدة ، ذلك؛ لأنَّ الحقيقة العربيَّة القرشيَّة قد شرف كلٌّ منها ـ ولا ريب ـ بانتساب رسول الله (ص) إليها ، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوءٍ ، بكلِّ مَنْ قد انحرف من العرب ، أو القرشيّين عن صراط الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وانحطَّ عن مستوى الكرامة الإسلاميَّة التي اختارها الله لعباده؛ لأنَّ هذا الانحراف ، أو الانحطاط من شأنه أن يُوديَ بما كان من نسبةٍ بينه وبين الرَّسول (ص) ، ويلغيها من الاعتبار[(١٤٦)].

ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من امنة بنت وهبٍ ، ورؤيا امنة أمِّ النَّبيِّ (ص):

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحبِّ ولد أبيه إليه ، ولما نجا من الذَّبح ، وفداه
عبد المطلب بمئةٍ من الإبل ، زوَّجه من أشرف نساء مكَّة نسباً ، وهي امنة بنت وهبٍ ابن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب[(١٤٧)].

ولم يلبث أبوه أن توفِّي بعد أن حملت به (ص) امنة ، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني «عديّ بن النَّجار» ، فإنَّه كان قد ذهب بتجارةٍ إلى الشَّام ، فأدركته منيَّته بالمدينة وهو راجعٌ ، وترك هذه النَّسَمَةَ المباركة ، وكأنَّ القدر يقول له: قد انتهت مهمَّتك في الحياة ، وهذا الجنين الطَّاهر يتولَّى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بحكمته ورحمته تربيته ، وتأديبه ، وإعداده؛ لإخراج البشريَّة من الظُّلمات إلى النُّور.

ولم يكن زواج عبد الله من امنة هو بداية أمر النَّبيِّ (ص) . قيل للنَّبيِّ (ص) : ما أوَّل بدء أمرك؟[(١٤٨)] فقال رسول الله (ص) : «أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمِّي أنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام» [أحمد (٢٦٢/٥) والمعجم الكبير (٧٧٢٩) ومجمع الزوائد (٢٢١/٨)] .

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [البقرة: ١٢٩] .

وبشرى عيسى عليه السلام كما أشار إليه قوله ـ عزَّ وجل ـ حاكياً عن المسيح عليه السلام: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ *} [الصف: ٦] .

وقوله (ص) : «ورأت أمِّي كأنَّه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصورُ الشَّام». قال ابن رجب: «وخروجُ هذا النُّور عند وضعه إشارةٌ إلى ما يجيء به من النُّور؛ الَّذي اهتدى به أهل الأرض ، وزالت به ظلمة الشِّرك منها ، كما قال الله تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *} [المائدة: ١٥ ـ ١٦] .

وقال ابن كثير: «وتخصيص الشَّام بظهور نوره ، إشارة إلى استقرار دينه ، وثبوته ببلاد الشَّام ، ولهذا تكون الشَّام في اخر الزَّمان معقلاً للإسلام ، وأهله ، وبها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام بدمشق بالمنارة الشَّرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء في الصَّحيحين: «لا تزال طائفة من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ ، لا يضرُّهم مَنْ خذلهم ، ولا مَنْ خالفهم ، حتَّى يأتي أمر الله وهم

كذلك». وفي صحيح البخاريِّ: «وهم بالشَّام» [البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٩٢٣/م)] .

ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى (ص):

ولد الحبيب المصطفى (ص) يوم الإثنين بلا خلافٍ ، والأكثرون على أنَّه لاثنتي عشرة ليلةً خلت من شهر ربيعٍ الأول[(١٤٩)].

والمجمع عليه: أنَّه (ص) ولد عام الفيل[(١٥٠)] ، وكانت ولادته في دار أبي طالبٍ ، بشعب بني هاشم[(١٥١)].

قال أحمد شوقي ـ رحمه الله! ـ في مولد الحبيب المصطفى (ص) :

وُلِدَ الهُدَى فَالْكَائِنَاتُ ضِياءُوَفَمُ الزَّمان تبسُّمٌ وَثَنَاءُ

الرُّوحُ ، والملأُ الملائكُ حوْلَهُللدِّينِ وَالدُّنْيَا به بُشَرَاءُ[(١٥٢)]

وَالْعَرْشُ يَزْهُو ، والحَظِيرةُ تَزْدَهيوالمُنْتَهَى والسِّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ

بِكَ بَشَّرَ اللهُ السَّمَاءَ فَزُيِّنَتْوَتَضَوَّعَتْ مِسْكاً بِكَ الْغَبْرَاءُ

يَوْمٌ يَتِيهُ عَلى الزَّمَانِ صَبَاحُهُوَمَسَاؤُهُ بمحمَّدٍ وَضَّاءُ

ذُعِرَتْ عروشُ الظَّالمينَ فَزُلْزِلَتْوعَلَتْ عَلى تِيجَانِهِمْ أَصْدَاءُ

والنَّارُ خَاوِيةُ الجَوَانِبِ حَوْلَهُمْخَمَدَتْ ذَوَائِبُها وَغَاضَ الماءُ

والايُ تَتْرَى ، والخَوارِقُ جَمَّةٌجِبْرِيلُ رَوَّاحٌ بِهَا غَدَّاءُ[(١٥٣)]

وقد قال الشَّاعر الأديب اللِّيبي ، الأستاذ محمد بشير المغيربي ، في ذكرى مولد الرَّسول (ص) عام ١٩٤٧ م ، في جريدة الوطن الصَّادرة في بنغازي:

بَلَغَ الزَّمَانُ مِنَ الحياةِ عتيًّالَكِنَّ يوماً لا يَزَالُ فَتِيًّا

يمشي على الأحقابِ مشيَةَ فَاتِحٍفي موكبٍ جَعَلَ السِّنينَ مَطِيًّا

تَخِذَتْ لَهُ الأعْوَامُ في أيَّامِهَاعَرْشاً فأصْبَحَ تَاجَهَا الأَبْدِيًّا

ومَضَتْ بِهِ الأجْيَالُ خُطْوَاتٍ مَنْبَلَغَ الرَّشَادَ وَكَانَ قَبْلُ صَبِيًّا

أَعْظِمْ بِيَوْمٍ جَاءَ يَحْمِلُ «رَحْمَةًلِلْعَالَمِيْنَ» وعِزَّةً ورُقِيًّا

وُلِدَتْ بِهِ للكَائِنَاتِ حَقِيقَةٌأَضْحَى بِهَا سِرُّ الحياة جَلِيًّا

وَأَنَارَ في الأُولَى الطَّرِيقَ إلى الْوَرَىلِيَسِيرَ للأخْرى الأنَامُ تَقِيًّا

كَادَتْ بِه الدُّنْيَا تَقولُ لِشَمْسِهَاعَنِّي فَقَدْ رَجَعَ الضِّيَاءُ إِليًّا[(١٥٤)]

وقال أيضاً في نادي طرابلس الغرب الثَّقافي في القاهرة في عام ١٩٤٩ م:

مَالِي وَمَا بِي مِنْ شُمُولٍأَشْدُو عَلَى رَغْمِ العَذُولْ

إِني أُطَالِعُ في السَّمَاءِكَأَنَّهَا سِفْرٌ جليلْ

وأرَى النُّجُومَ تَمَثَّلَتْلي كالملائك في مُثُولْ

وَالْبَدْرُ خِلْتُ شُعَاعهوَحْيَ الرِّسَالةِ في نُزولْ

وَإِذَا بِصَوْتٍ مِنْ ضَمِيرِ الْكَوْنِ مُبْتَهجاً يَقُولْ

في مثل هَذي اللَّيلةِ الْغَرَّاء قَدْ وَلِدَ الرَّسُولْ

وَأَشَعَّ نُورُ مُحَمَّدٍفَوْقَ الرَّوابي والسُّهُولْ

مَلأَ الزَّمَانَ وَكَانَ قَبْلُ يَهِيمُ في لَيْل طَوِيلْ[(١٥٥)]

رابعاً: مرضعاته عليه الصَّلاة والسَّلام:

كانت حاضنته (ص) أمُّ أيمن بركة الحبشيَّة أمَةَ أبيه ، وأول من أرضعته ثُوَيْبَةُ أمَةُ عمِّه أبي لهب[(١٥٦)].

فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة ، أنَّ أمَّ حبيبة رضي الله عنها أخبرتها: أنَّها قالت: يا رسول الله! انْكِحْ أختي بنت أبي سفيان ، فقال: «أوَتحبِّين ذلك؟» فقلت: نعم ، لست لك بمخلية ، وأحَبُّ من شاركني في خيرٍ أختي. فقال النبي (ص) : «إنَّ ذلك لا يحلُّ لي» قلت: فإنَّا نُحدَّثُ أنَّك تريد أن تنكح بنتَ أبي سلمة. قال: «بنت أمِّ سلمة؟» قلت: نعم. فقال: «لو أنَّها لم تكن ربيبتي في حجري ، ما حَلَّت لي ، إنَّها لابنة أخي من الرَّضاعة ، أرضعتني وأبا سلمة ثويبةُ ، فلا تعرضنَ عليَّ بناتكنَّ ، ولا أخَواتِكنَّ» [البخاري (٥١٠١) ومسلم (١٤٤٩)] .

وكان من شأن أمِّ أيمن، أمِّ أسامة بن زيد: أنَّها كانت وصيفةً لعبد الله بن عبد المطلب ، وكانت من الحبشة، فلمَّا ولدت امنةُ رسولَ الله (ص) ، بعدما تُوفي أبوه ، فكانت أمُّ أيمن تحضنه ، حتَّى كَبِرَ رسولُ الله (ص) ، فأعتقها ، ثمَّ أنْكَحَهَا زيدَ ابن حارثة ، ثم تُوفيت بعدما تُوفي رسولُ الله (ص) بخمسة أشهرٍ. [البخاري (٢٦٣٠) ومسلم (١٧٧١)] .

١ ـ حليمة السَّعديَّة مرضعته في بني سعد[(١٥٧)]:

وهذه حليمة السَّعدية تقصُّ علينا خبراً فريداً عن بركات الحبيب المصطفى (ص) ؛ التي لمستها في نفسها ، وولدها ، ورعيها ، وبيتها.

عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما: قال: لما وُلد رسولُ الله (ص) ؛ قدمت حليمة بنت الحارث ، في نسوةٍ من بني سعد بن بكر يلتمسن الرُّضعاء بمكَّة. قالت حليمة: فخرجت في أوائل النِّسوة على أتانٍ لي ، قمراء[(١٥٨)] ، ومعي زوجي الحارث بن عبد العزَّى ، أحد بني سعد بن بكر ، ثمَّ أحد بني ناضرة ، قد أدمت[(١٥٩)] أتاننا ، ومعي بالرَّكب شارفٌ[(١٦٠)] والله ما تَبِضُّ[(١٦١)] بقطرة لبنٍ! في سنةٍ شهباء[(١٦٢)] ، قد جاع النَّاس حتَّى خلص إليهم الجَهْد ، ومعي ابنٌ لي ، والله ما ينام ليلنا! وما أجد في يدي شيئاً أعلِّله به ، إلا أنا نرجو الغيث ، وكانت لنا غنمٌ ، فنحن نرجوها.

فلمَّا قدمنا مكَّة ، فما بقي منَّا أحدٌ إلا عُرض عليها رسولُ الله (ص) ، فكرهته ، فقلنا: إنَّه يتيم ، وإنَّما يُكرِمِ الظِّئر ، ويُحسن إليها الوالد ، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أُمُّه ، أو عمُّه ، أو جدُّه ، فكلُّ صواحبي أخذت رضيعاً ، فلمَّا لم أجد غيره؛ رجعت إليه ، وأخذته ، والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره! فقلت لصاحبي: والله لاخذنَّ هذا اليتيم من بني عبد المطلب ، فعسى الله أن ينفعنا به ، ولا أرجع من بين صواحبي ولا اخذ شيئاً ، فقال: قد أصبت!.

قالت: فأخذته ، فأتيت به الرَّحْلَ ، فو الله! ما هو إلا أن أتيتُ به الرَّحْلَ ، فأمسيتُ؛ أقبل ثدياي باللَّبن ، حتَّى أرويتُه ، وأرويت أخاه ، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها ، فإذا هي حافلٌ[(١٦٣)] ، فحلبها ، فأرواني ، وروي ، فقال: يا حليمة! تعلمين والله لقد أصبنا نَسَمَةً[(١٦٤)] مباركةً ، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ! قالت: فبتنا بخير ليلةٍ شباعاً ، وكنَّا لا ننام ليلنا مع صبيِّنا.

ثمَّ اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي ، فركبت أتاني القمراء ، فحملته معي ، فو الذي

نفس حليمة بيده؛ لقطعت الرَّكْبَ[(١٦٥)]! حتَّى إنَّ النِّسوة ليقلْنَ: أمسكي علينا! أهذه أتانك الَّتي خرجت عليها؟ فقلت: نعم ، فقالوا: إنَّها كانت أدمت حين أقبلنا ، فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله! حَمَلْتُ عليها غلاماً مباركاً.

قالت: فخرجنا ، فما زال يزيدنا الله في كلِّ يومٍ خيراً ، حتَّى قدمنا؛ والبلاد سِنةٌ ، ولقد كان رعاتنا يسرحون ، ثمَّ يريحون ، فتروح أغنام بني سعدٍ جياعاً ، وتروح غنمي بطاناً[(١٦٦)] ، حُفَّلاً [(١٦٧)]، فنحلب ، ونشرب ، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزَّى ، وغنم حليمة تروح شباعاً حُفَّلاً ، وتروح غنمكم جياعاً. ويلكم! اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم ، فيسرحون معهم ، فما تروح إلا جياعاً ، كما كانت ، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشبُّ شباباً ما يشبه أحداً من الغلمان ، يشبُّ في اليوم شباب السنة ، فلمَّا استكمل سنتين؛ أقدمناه مكَّة ، أنا وأبوه ، فقلنا: والله! لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع؛ فلمَّا أتينا أمَّه ، قلنا: والله! ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه ، وإنَّا نتخوَّف عليه وباء[(١٦٨)] مكَّة ، وأسقامها ، فدعيه نرجع به حتَّى تبرئي من دائك ، فلم نزل بها حتى أذنت ، فرجعنا به ، فأقمنا أشهراً ثلاثةً ، أو أربعةً ، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْمٍ لنا[(١٦٩)]؛ إذ أتى أخوه يشتدُّ (أي: يسرع في سيره) ، فقال: إنَّ أخي القرشيَّ ، أتاه رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأخذاه ، وأضجعاه ، فشقَّا بطنه ، فخرجت أنا ، وأبوه يشتدُّ ، فوجدناه قائماً ، قد انتقع لونه [(١٧٠)]، فلمَّا رانا؛ أجهش إلينا ، وبكى ، قالت: فالتزمته أنا وأبوه ، فضمَمْناه إلينا: ما لك بأبي وأمِّي؟ فقال: أتاني رجلان ، وأضجعاني ، فشقَّا بطني ، ووضعا به شيئاً ، ثمَّ ردَّاه كما هو ، فقال أبوه: والله! ما أرى ابني إلا وقد أصيب ، الحقي بأهله ، فردِّيه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوَّف منه ، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمِّه ، فلمَّا رأتنا أنكرت شأننا ، وقالت: ما أرجعكما به قبل أن أسألكماه ، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أنْ قضى الله الرَّضاعة ، وسَرَّنا ما نرى ، وقلنا: نؤويه كما تحبُّون أحبُّ إلينا.

قال: فقالت: إنَّ لكما شأناً فأخبراني ما هو؟ فلم تدعنا حتَّى أخبرناها ، فقالت: كلا والله! لا يصنع الله ذلك به ، إنَّ لابني شأناً ، أفلا أخبركما خبره ، إنِّي حملت به ، فو الله! ما حملت حملاً قطُّ ، كان أخفَّ عليَّ منه ، ولا أيسر منه ، ثُمَّ أُريت حين حملته خرج منِّي نورٌ أضاء منه أعناق الإبل بِبُصْرى . أو قالت: قصور بُصرى . ثمَّ وضعتُه حين وضعته ، فو الله! ما وقع كما يقع الصِّبيان ، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض ، رافعاً رأسه إلى السَّماء ، فدعاه عنكما! فقَبَضَتْهُ ، وانطلقنا» [أبو يعلى (٧١٦٣) وابن حبان (٦٣٣٥) والمعجم الكبير (٢١٢/٢٤ ـ ٢١٥) ومجمع الزوائد (٢٢٠/٨ ـ ٢٢١) ودلائل البيهقي (١٣٣/١ ـ ١٣٦)] .

١ ـ دروسٌ وعبرٌ:

أ ـ بركة النَّبيِّ (ص) على السَّيدة حليمة:

فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السَّعدية في كلِّ شيءٍ ، ظهرت في إدرار ثدييها ، وغزارة حليبها ، وقد كان لا يكفي ولدها ، وظهرت بركته في سكون الطِّفل ولدها ، وقد كان كثير البكاء ، مزعجاً لأمِّه ، يؤرِّقها ، ويمنعها من النَّوم ، وإذا هو شبعان ساكنٌ جعل أمَّه تنام ، وتستريح. وظهرت بركته في شياههم العجفاوات ، الَّتي لا تدرُّ شيئاً ، وإذا بها تفيض من اللَّبن الكثير الَّذي لم يُعهد.

ب ـ كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له:

وليس فقط أن أكرم بسببه بيت حليمة السَّعدية التي تشرَّفت بإرضاعه ، وليس من ذلك غرابةٌ ، ولا عجبٌ[(١٧١)] ، فخَلْفَ ذلك حكمةٌ أن يُحبَّ أهل هذا البيت هذا الطِّفل ، ويحنوا عليه ، ويحسنوا في معاملته ، ورعايته ، وحضانته ، وهكذا كان ، فقد كانوا أحرص عليه ، وأرحم به من أولادهم[(١٧٢)].

ج ـ خيار الله للعبد أبرك وأفضل:

اختار الله لحليمة هذا الطِّفل اليتيم ، وأخذته على مضضٍ؛ لأنَّها لم تجد غيره ، فكان الخير كلَّ الخير فيما اختاره الله ، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه ، وهذا درسٌ لكلِّ مسلمٍ بأن يطمئنَّ قلبه إلى قدر الله ، واختياره ، والرِّضا به ، ولا يندم على ما مضى ، وما لم يقدِّره الله تعالى.

د ـ أثر البادية في صحَّة الأبدان ، وصفاء النُّفوس ، وذكاء العقول:

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله ـ: وتنشئة الأولاد في البادية؛ ليمرحوا في كنف الطَّبيعة ، ويستمتعوا بجوِّها الطَّلق ، وشعاعها المرسل أدنى إلى تزكية الفطرة ، وإنماء الأعضاء ، والمشاعر ، وإطلاق الأفكار ، والعواطف.

إنَّها لتعاسةٌ أن يعيش أولادنا في شقق ضيِّقةٍ ، من بيوتٍ متلاصقةٍ ، كأنَّها علبٌ أغلقت على مَنْ فيها ، وحرَمتْهم لذَّة التَّنفُّس العميق ، والهواء المنعش.

ولا شكَّ: أنَّ اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة ، يعود ـ فيما يعود ـ إلى البعد عن الطَّبيعة ، والإغراق في التصنُّع. ونحن نقدِّر لأهل مكَّة اتِّجاههم إلى البادية؛ لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثيرٌ من علماء التَّربية يودُّ لو تكون الطَّبيعة هي المعهد الأوَّل للطِّفل ، حتَّى تتَّسق مداركه مع حقائق الكون الَّذي وجد فيه ، ويبدو أنَّ هذا حلمٌ عسير التَّحقيق[(١٧٣)].

وتعلَّم رسول الله (ص) في بادية بني سعدٍ اللِّسان العربيَّ الفصيح ، وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! ما رأيت أفصح منك؛ فقال (ص) : «وما يمنعني وأنا من قريش، وأُرضعت في بني سعد[(١٧٤)]؟!».

٢ ـ ما يستفاد من حادثة شقِّ الصَّدر:

تُعَدُّ حادثة شقِّ الصَّدر الَّتي حصلت له (ص) أثناء وجوده في مضارب بني سعدٍ ، من إرهاصات النُّبوَّة ، ودلائل اختيار الله إيَّاه لأمرٍ جليل[(١٧٥)].

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شقِّ الصَّدر في صغره ، فعن أنس بن مالكٍ: «أنَّ رسول الله (ص) أتاه جبريل؛ وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه ، فصرعه ، فشقَّ عن قلبه؛ فاستخرج القلب ، فاستخرج منه عَلَقَةً ، فقال: هذا حظُّ الشَّيطان منك ، ثمَّ غسله في طَسْتٍ من ذهب بماء زمزم ، ثمَّ لأَمَهُ[(١٧٦)] ، ثمَّ أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمِّه ـ يعني: ظِئْرَهُ ـ فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتل ، فاستقبلوه؛ وهو مُنْتَقِعُ اللون. قال أنسٌ رضي الله عنه: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره» [مسلم (١٦٢/٢٦١) وأحمد (١٤٩/٣) والبيهقي في الدلائل (٥/٢)] .

ولا شكَّ: أنَّ التَّطهير من حظِّ الشيطان هو إرهاصٌ مبكِّرٌ للنُّبوَّة ، وإعدادٌ للعصمة من الشرِّ ، وعبادة غير الله ، فلا يحلُّ في قلبه إلا التَّوحيد الخالص ، وقد دلَّت أحداث صباه على تحقُّق ذلك،

فلم يرتكب إثماً، ولم يسجد لصنمٍ[(١٧٧)] برغم انتشار ذلك في قريش[(١٧٨)].

وتحدَّث الدُّكتور البوطي عن الحكمة في ذلك ، فقال: يبدو: أنَّ الحكمة في ذلك إعلان أمر الرَّسول (ص) ، وتهيؤه للعصمة ، والوحي منذ صغره بوسائل مادِّيَّةٍ؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان النَّاس به ، وتصديقهم برسالته. إنَّها ـ إذاً ـ عملية تطهيرٍ معنويٍّ ، ولكنَّها اتَّخذت هذا الشكل الماديَّ الحسيَّ؛ ليكون في ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع النَّاس ، وأبصارهم[(١٧٩)]. إنَّ إخراج العلقة منه تطهيرٌ للرَّسول (ص) من

حالات الصِّبَا اللاهية العابثة المستهترة ، واتِّصافه بصفات الجدِّ ، والحزم ، والاتزان ، وغيرها من صفات الرُّجولة الصَّادقة ، كما تدلُّنا على عناية الله به ، وحفظه له ، وأنَّه ليس للشَّيطان عليه سبيل[(١٨٠)].

خامساً: وفاة أمِّه ، وكفالة جدِّه ، ثمَّ عمِّه:

توفِّيت أمُّ النَّبيِّ (ص) وهو ابن ستِّ سنين بالأبواء بين مكَّة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عديِّ بن النَّجار تُريه إيَّاهم ، فماتت ، وهي راجعةٌ به إلى مكَّة[(١٨١)] ، ودفنت بالأبواء ، وبعد وفاة أمِّه كفله جدُّه عبد المطَّلب ، فعاش في كفالته ، وكان يؤثره على أبنائه ، أي: أعمام النَّبيِّ (ص) ، فقد كان جدُّه مهيباً ، لا يجلس على فراشه أحدٌ من أبنائه مهابةً له ، وكان أعمامه يتهيَّبون الجلوس على فراش أبيهم ، وكان (ص) يجلس على الفراش ، ويحاول أعمامه أن يُبعدوه عن فراش أبيهم ، فيقف الأب الجدُّ بجانبه ، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسِّماً فيه الخير ، وأنَّه سيكون له شأنٌ عظيمٌ[(١٨٢)] ، وكان جدُّه يحبُّه حباً عظيماً ، وكان إذا أرسله في حاجةٍ جاء بها ، وذات يوم أرسله في طلب إبلٍ ، فاحتبس عليه [(١٨٣)]، فطاف بالبيت ، وهو يرتجل ، يقول:

رَبِّ ردَّ راكبي محمَّدارُدَّه لي وَاصْنَعْ عِنْدي يَدا

فلمَّا رجع النَّبيُّ (ص) ، وجاء بالإبل ، قال له: يا بني! لقد حزنتُ عليك كالمرأة ، حزناً لا يفارقني أبداً. [البيهقي في الدلائل (٢/٢٠ ـ ٢١) والحاكم (٢/٦٠٣ ـ ٦٠٤)] .

ثُمَّ توفِّي عبد المطلب والنَّبيُّ (ص) في الثَّامنة من عمره[(١٨٤)] ، فأوصى جدُّه به عمَّه أبا طالبٍ ، فكفله عمُّه ، وحنَّ عليه ، ورعاه[(١٨٥)].

أرادت حكمة الله تعالى أن ينشأ رسولُه (ص) يتيماً ، تتولاَّه عناية الله وحدها ، بعيداً عن الذِّراع التي تُمعن في تدليله ، والمال الذي يزيد في تنعيمه؛ حتَّى لا تميل به نفسه إلى مجد المال ، والجاه ، وحتَّى لا يتأثَّر بما حوله من معنى الصَّدارة ، والزَّعامة ، فيلتبس على النَّاس قداسة النُّبوَّة بجاه الدُّنيا ، وحتَّى لا يحسبوه يصطنع الأوَّل ابتغاء الوصول إلى الثَّاني[(١٨٦)] ، وكانت المصائب الَّتي أصابت النَّبيَّ (ص) منذ طفولته؛ كموت أمِّه ، ثمَّ جدِّه بعد أن حرم عطف الأب ، وذاق كأس الحزن مرَّةً بعد مرَّةٍ ، كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب ، مرهف الشعور ، فالأحزان تصهر النُّفوس وتخلِّصها من أدران القسوة ، والكِبْر ، والغرور ، وتجعلها أكثر رقَّةً ، وتواضعاً.

وليست وفاة والديه في العشرينات من حياتهما ناشئةً عن هُزَالهما ، وضعف بُنيتهما ، فلم يكن محمَّد (ص) سليل أبوين سقيمين ، وإنَّما توفَّاهما الله بعد أن قاما بالمهمَّة الَّتي وُجدا من أجلها؛ ليتأسَّى بمحمَّد

(ص) كلُّ مَنْ فقد والديه ، أو أحدَهما وهو صغير ، وليكون أدبه ، وخلقه مع يُتمه دليلاً على أنَّ الله تعالى تولَّى رعايته ، وتأديبه؛ وحتَّى ينشأ قويَّ الإرادة ، ماضي العزيمة ، غير معتمدٍ على أحدٍ في شؤونه ، وحتَّى لا يكون لأبويه أيُّ أثرٍ في دعوته[(١٨٧)]؛ وحتَّى لا تتدخَّل يدٌ بشريةٌ في تربيته ، وتوجيهه ، فيكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الَّذي يتولَّى تربيته ، ولا يتلقَّى ، أو يتلقَّن من مفاهيم الجاهلية ، وأعرافها شيئاً ، إنَّما يتلقَّى من لدن الحكيم الخبير ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ اواه ، وسخَّر له جدَّه ، وعمَّه لتهيئة الجانب المادِّيِ ، بينما كانت التَّربية النَّفسية ، والخُلقيَّة ، والفكريَّة تعهُّداً ربَّانياً ، ورعايةً إلهيَّةً[(١٨٨)].

سادساً: عمله (ص) في الرَّعي:

كان أبو طالب مُقِلاً في الرِّزق؛ فعمل النَّبيُّ (ص) برعي الغنم مساعدةً منه لعمه ، فلقد أخبر (ص) عن نفسه الكريمة ، وعن إخوانه من الأنبياء: أنَّهم رعوا الغنم ، أمَّا هو فقد رعاها لأهل مكَّة؛ وهو غلامٌ ، وأخذ حقَّه عن رعيه ، ففي الحديث الصَّحيح قال رسول الله (ص) : «ما بعث الله نبياً إلا رَعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم! كنت أرعاها على قراريط لأهل مكَّة» [البخاري (٢٢٦٢) وابن ماجه (٢١٤٩)][(١٨٩)].

إنَّ رعي الغنم كان يتيح للنَّبيِّ (ص) الهدوء الذي تتطلَّبه نفسه الكريمة ، ويتيح له المتعة بجمال الصَّحراء ، ويتيح له التَّطلُّع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق ، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل ، وظلال القمر ، ونسمات الأسحار ، يتيح له لوناً من التَّربية النَّفسيَّة: من الصَّبر ، والحلم ، والأناة ، والرَّأفة ، والرَّحمة[(١٩٠)].

وتذكِّرنا رعايته للغنم بأحاديثه (ص) ؛ الَّتي توجِّه المسلمين للإحسان للحيوانات[(١٩١)] ، فكان رعي الغنم للنَّبيِّ (ص) دربةً ، ومراناً له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدَّة خصالٍ تربويَّةٍ منها:

١ ـ الصَّبر: على الرَّعي من طلوع الشمس إلى غروبها ، نظراً لبطء الغنم في الأكل: فيحتاج راعيها إلى الصَّبر ، والتَّحمُّل ، وكذا تربية البشر[(١٩٢)].

إنَّ الرَّاعي لا يعيش في قصرٍ منيفٍ ، ولا في ترفٍ ، وسرفٍ ، وإنَّما يعيش في جوٍّ حارٍّ شديد الحرارة ، وبخاصَّةٍ في الجزيرة العربيَّة ، ويحتاج إلى الماء الغزير؛ ليُذهب ظمأه ، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطَّعام ، وشظف العيش ، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمُّل هذه الظُّروف القاسية ، ويألفها ، ويصبر عليها[(١٩٣)].

٢ ـ التَّواضع: إذ إنَّ طبيعة عمل الرَّاعي خدمةُ الغنم ، والإشرافُ على ولادتها ، والقيام بحراستها ، والنَّوم بالقرب منها ، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها ، أو شيءٌ من روثها ، فلا يتضجَّر من هذا ، ومع المداومة والاستمرار يَبْعد عن نفسه الكبر والكبرياء ، ويرتكز في نفسه خلق التَّواضع[(١٩٤)].

وقد ورد في صحيح مسلمٍ: أنَّ رسول الله (ص) قال: «لا يدخل الجنَّة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إنَّ الرَّجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً. قال: «إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال ، الكبر: بطرُ الحقِ ، وغَمْطُ النَّاس» [مسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩) والحاكم (١/٢٦)] .

٣ ـ الشَّجاعة: فطبيعة عمل الرَّاعي الاصطدام بالوحوش المفترسة ، فلابدَّ أن يكون على جانبٍ كبيرٍ من الشَّجاعة ، تؤهِّله للقضاء على الوحوش ، ومنعها من افتراس أغنامه[(١٩٥)].

٤ ـ الرَّحمة ، والعطف: إنَّ الرَّاعي يقوم بمقتضى عمله بمساعدة الغنم؛ إن هي مرضت ، أم كُسرت ، أو أصيبت ، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها ، وعلاجها والتَّخفيف من الامها ، فمن يرحم الحيوان يكون أشدَّ رحمةً بالإنسان ، وبخاصَّةٍ إذا كان رسولاً أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان ، وإرشاده ، وإنقاذه من النَّار ، وإسعاده في الدَّارين[(١٩٦)].

٥ ـ حبُّ الكسب من عرق الجبين:

إنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يغنيَ محمداً (ص) عن رعي الغنم ، ولكن هذه تربيةٌ له ، ولأمَّته للأكل من كسب اليد ، وعرق الجبين ، ورعي الغنم نوعٌ من أنواع الكسب باليد ، إنَّ صاحب الدَّعوة يجب أن يستغني عمَّا في أيدي الناس ، ولا يعتمد عليهم ، فبذلك تبقى قيمته ، وترتفع منزلته ، ويبتعد عن الشُّبه ، والتَّشكيك فيه ، ويتجرَّد عمله لله تعالى ، ويردُّ شبهة الكفرة الظَّلمة ، الَّذين يصوِّرون للنَّاس: أنَّ الأنبياء أرادوا الدُّنيا بدعوتهم[(١٩٧)] {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ *} [يونس: ٧٨] .

هكذا يقول فرعون لموسى ، ونظراً لسيطرة حبِّ الدُّنيا وحطامها على عقولهم يظنُّون: أنَّ أيَّ تفكيرٍ ، وأيَّ حركةٍ مرادٌ بها الدُّنيا ، ولهذا قال الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ لأقوامهم ، مبينين استغناءهم عنهم: {وَيَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ *} [هود: ٢٩] .

روى البخاريُّ عن المقدام رضي الله عنه ، عن رسول الله (ص) قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [البخاري (٢٠٧٢)]
.

ولا شكَّ: أنَّ الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرِّيَّة التَّامَّة ، والقدرة على قول كلمة الحقِّ ، والصَّدْع بها[(١٩٨)] ، وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطُّغاة ، ويسكتون على باطلهم ، ويجارونهم في أهوائهم خوفاً على وظائفهم عندهم![(١٩٩)].

إنَّ صاحب أيِّ دعوةٍ لن تقوم لدعوته أيُّ قيمةٍ في النَّاس ، إذا ما كان كسبه ، ورزقه من وراء دعوته ، أو على أساسٍ مِنْ عطايا النَّاس ، وصدقاتهم ، ولذا كان صاحب الدَّعوة الإسلاميَّة أحرى النَّاس كلِّهم بأن يعتمد في معيشته على جهده الشَّخصيِّ ، أو موردٍ شريفٍ لا استجداء فيه؛ حتَّى لا تكون عليه لأحدٍ من النَّاس مِنَّةٌ ، أو فضلٌ في دنياه ، فيعوقه ذلك من أن يصدع بكلمة الحقِّ في وجهه ، غير مبالٍ بالموقع الَّذي قد تقع من نفسه.

وهذا المعنى وإنْ لم يكن قد خطر في بال الرَّسول (ص) في هذه الفترة؛ إذ إنَّه لم يكن يعلم بما سيوكل إليه من شأنٍ في الدَّعوة ، والرِّسالة الإلهيَّة ، غير أنَّ هذا المنهج الَّذي هيَّأه الله له ينطوي على هذه الحكمة ، ويوضح: أنَّ الله تعالى قد أراد ألا يكون في شيءٍ من حياة الرَّسول (ص) قبل البعثة ما يعرقل سبيل دعوته ، أو يؤثِّر عليها أيَّ تأثيرٍ سلبيٍّ ، فيما بعد البعثة[(٢٠٠)].

إنَّ إقبال النَّبيِّ (ص) على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرِّزق يشير إلى دلائل مهمَّةٍ في شخصيَّته المباركة؛ منها: الذوق الرَّفيع ، والإحساس الدَّقيق اللَّذان جمَّل الله تعالى بهما نبيَّه (ص) . لقد كان عمُّه يحوطه بالعناية التَّامَّة ، وكان له في الحنوِّ ، والشَّفقة كالأب الشَّفوق ، ولكنَّه (ص) ما إن انس في نفسه القدرة على الكسب حتَّى أقبل يكتسب ، ويُتعب نفسه لمساعدة عمِّه في مؤونة الإنفاق ، وهذا يدلُّ على شهامةٍ في الطَّبع ، وبرٍّ في المعاملة ، وبذلٍ للوسع[(٢٠١)].

والدَّلالة الثانية تتعلَّق ببيان نوع الحياة الَّتي يرتضيها الله تعالى لعباده الصَّالحين في دار الدُّنيا ، لقد كان سهلاً على الله تعالى أن يهيأى للنَّبيِّ (ص) . وهو في صدر حياته . من أسباب الرَّفاهية ، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح ، ورعاية الأغنام سعياً وراء الرِّزق ، ولكنَّ الحكمة الربَّانيَّة تقتضي منَّا أن نعلم: أنَّ خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدِّ يمينه ، ولقاء ما يقدِّمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه ، وشرُّ المال ما

أصابه الإنسان وهو مستلقٍ على ظهره دون أن يرى أيَّ تعبٍ في سبيله ، ودون أن يبذل أيَّ فائدةٍ للمجتمع في مقابله[(٢٠٢)].

سابعاً: حفظ الله تعالى لنبيِّه (ص) قبل البعثة:

إنَّ الله تعالى صان نبيَّه (ص) عن شرك الجاهليَّة ، وعبادة الأصنام. روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال: حدَّثني جارٌ لخديجة: أنَّه سمع النَّبيَّ (ص) وهو يقول

لخديجة: «أي خديجة! والله لا أعبد اللاَّت، والعزَّى أبداً» [أحمد (٤/٢٢٢) و(٥/٣٦٢)] . قال: وهي أصنامهم الَّتي كانوا يعبدون، ثمَّ يضطجعون[(٢٠٣)]. وكان لا يأكل ما ذبح على النُّصب ، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل[(٢٠٤)].

وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشَّباب ، ودواعيه البريئة ، الَّتي تنزع إليها الشُّبوبيَّة بطبعها ، ولكنَّها لا تلائم وقار الهداة ، وجلال المرشدين[(٢٠٥)]. فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: «ما هممت بقبيح ممَّا كان أهل الجاهليَّة يهمُّون به ، إلا مرَّتين من الدَّهر ، كلتيهما يعصمني الله منهما ، قلت ليلةً لفتىً كان معي من قريش بأعلى مكَّة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إليَّ غنمي حتَّى أسمُر هذه اللَّيلة بمكَّة ، كما يسهر الفتيان. قال: نعم. فخرجت ، فجئت أدنى دار من دور مكَّة ، سمعت غناءً ، وضرب دفوفٍ ، ومزامير ، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوَّج فلانة ـ لرجلٍ من قريشٍ تزوَّج امرأة من قريشٍ ـ فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصَّوت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا حرُّ الشَّمس ، فرجعت؛ فقال: ما فعلت؟ فأخبرتُه ، ثمَّ قلت له ليلةً أخرى مثل ذلك ، ففعل ، فخرجت؛ فسمعت مثل ذلك ، فقيل لي مثل ما قيل لي ، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني ، فما أيقظني إلا مسُّ الشَّمس ، ثمَّ رجعت إلى صاحبي ، فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً.

قال رسول الله (ص) : «فوالله ما هممت بعدها بسوءٍ ممَّا يعمل أهل الجاهليَّة ، حتَّى أكرمني الله بنبوَّته» [أبو نعيم في الدلائل (١٢٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/٣٣ ـ ٣٤) والبزار (٢٤٠٣) ومجمع الزوائد (٨/٢٢٦)] .

وهذا الحديثُ يوضِّح لنا حقيقتين كلاً منهما على جانبٍ كبيرٍ من الأهمِّيَّة:

١ ـ إنَّ النَّبيَّ (ص) كان متمتعاً بخصائص البشريَّة كلِّها ، وكان يجد في نفسه ما يجده كلُّ شابٍّ من مختلف الميول الفطرية ، الَّتي اقتضت حكمة الله أن يجبل النَّاس عليها ، فكان يُحِسُّ بمعنى السَّمر واللَّهو ، ويشعر بما في ذلك من متعةٍ ، وتحدِّثه نفسه: لو تمتَّع بشيءٍ من ذلك ، كما يتمتَّع الاخرون.

٢ ـ إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف ، ومن كلِّ ما لا يتَّفق مع مقتضيات الدَّعوة الَّتي هيَّأه الله لها[(٢٠٦)].

ثامناً: لقاء الرَّاهب بَحِيْرا بالرَّسول (ص) وهو غلامٌ:

خرج أبو طالبٍ إلى الشَّام ، وخرج معه النَّبيُّ (ص) في أشياخٍ من قريشٍ ، فلمَّا أشرفوا[(٢٠٧)] على الرَّاهب[(٢٠٨)] ، هبطوا ، فحلُّوا رحالهم[(٢٠٩)] ، فخرج إليهم الرَّاهب ، وكانوا قبل ذلك يسيرون ، فلا يخرج إليهم ، ولا يلتفت.

فبينما هم يحلُّون رحالهم؛ جعل الرَّاهب يتخلَّلهم[(٢١٠)] ، حتَّى جاء ، فأخذ بيد رسول الله (ص) ، فقال: هذا سيِّد العالمين ، هذا رسول ربِّ العالمين ، يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له أشياخٌ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنَّكم حين أشرفتم من العقبة ، لم يبق شجرٌ ، ولا حجرٌ إلا خرَّ[(٢١١)] ساجداً ، ولا يسجدان إلا لنبيٍّ ، وإنِّي أعرفه بخاتم النُّبوَّة أسفل من غضروف[(٢١٢)] كتفه مثل التُّفاحة.

ثمَّ رجع ، فصنع لهم طعاماً ، فلمَّا أتاهم به ، وكان رسول الله (ص) في رعية الإبل[(٢١٣)] ، قال: أرسلوا إليه ، فأقبل ، وعليه غمامةٌ[(٢١٤)] تظلُّه ، فلمَّا دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشَّجرة ، فلمَّا جلس مال فيءُ الشَّجرة[(٢١٥)] عليه ، فقال: انظروا إلى فيء الشَّجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائمٌ عليهم ، وهو يناشدهم[(٢١٦)] ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإن الرُّوم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه ، فالتفت فإذا سبعةٌ قد أقبلوا من الرُّوم ، فاستقبلهم ، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أنَّ هذا النَّبيَّ خارجٌ في هذا الشَّهر ، فلم يبقَ طريقٌ إلا بُعث إليه بأناسٍ ، وإنا قد أخبرنا خبره ، بعثنا إلى طريقك هذا ، فقال: هل خلفكم أحدٌ هو خيرٌ منكم؟

قالوا: إنَّما اخترنا خيره لك لطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحدٌ من النَّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه ، وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيُّكم وليُّه[(٢١٧)]؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتَّى ردَّه أبو طالب. [البيهقي في الدلائل (٢/٢٤ ـ ٢٥) والترمذي (٣٦٢٠) والحاكم (٢/٦١٥) وأبو نعيم في دلائله (١٠٩)] .

وممَّا يستفاد من قصَّة بحيرا عدَّة أمورٍ؛ منها:

١ ـ أنَّ الصَّادقين من رهبان أهل الكتاب ، يعلمون: أنَّ محمَّداً (ص) هو الرَّسول للبشريَّة ، وعرفوا ذلك لِمَا وجدوه من أماراتٍ وأوصافٍ عنه في كتبهم.

٢ ـ إثبات سجود الشَّجر والحجر للنَّبيِّ (ص) ، وتظليل الغمام له ، وميل فيء الشَّجرة عليه.

٣ ـ أنَّ النَّبيَّ (ص) استفاد من سفره ، وتجواله مع عمِّه ، وبخاصَّةٍ من أشياخ قريش؛ حيث اطَّلع على تجارِب الاخرين ، وخبرتهم ، واستفاد من ارائهم ، فهم أصحاب خبرةٍ ، ودرايةٍ ، وتجربةٍ لم يمرَّ بها النَّبيُّ (ص) في سِنِّه تلك.

٤ ـ حذَّر بَحِيرا من النَّصارى ، وبيَّن أنَّهم إذا علموا بالنَّبيِّ (ص) فإنَّهم سيقتلونه ، وناشد عمَّه ، وأشياخ مكَّة ألا يذهبوا به إلى الرُّوم؛ فإنَّ الروم إذا عرفوه بالصِّفة سيقتلونه. لقد كان الرُّومان على علمٍ بأنَّ مجيء هذا الرَّسول سيقضي على نفوذهم الاستعماريِّ في المنطقة ، ومن ثَمَّ فهو العدوُّ الَّذي سيقضي على مصالح دولة روما ، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها ، وهذا ما يخشاه الرُّومان.

تاسعاً: حرب الفِجَارِ:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومَنْ معهم من كنانة ، وبين هوازن ، وسببها: أن عُروةَ الرَّحَّال بن عُتْبَةَ بن هوازن أجار لطيمةً[(٢١٨)] للنُّعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ ، فقال البرَّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم ، وعلى الخلق كلِّه. فخرج بها عروة ، وخرج البرَّاض يطلب غفلته حتَّى قتله ، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا؛ وهوازن لا تشعر بهم ، ثمَّ بلغهم الخبر ، فاتَّبعوهم ، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ، فاقتتلوا حتَّى جاء الليل ، ودخلوا الحرم ، فأمسكت عنهم هوازن ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً ، وعاونت قريش كنانة[(٢١٩)] وشهد الرَّسول (ص) بعض أيَّامهم ، أخرجه أعمامه معهم. وسُمِّيت يوم الفِجَارِ بسبب ما استُحلَّ فيه من حرمات مكَّة؛ التي كانت مقدَّسةً عند العرب[(٢٢٠)].

وقد قال (ص) عن تلك الحرب: «كنت أُنبِّل على أعمامي» ، أي أردُّ عليهم نبل عدوِّهم إذا رموهم بها [ابن هشام (١٩٨/١) والسيرة الحلبية (١٢٧/١ ـ ١٢٩)] .

وكان (ص) حينئذٍ ابن أربع عشرة ، أو خمس عشرة سنة ، وقيل: ابن عشرين ، ويُرَجِّحُ الأوَّل: أنَّه كان يجمع النِّبال ، ويناولها لأعمامه؛ ممَّا يدلُّ على حداثة سِنِّهِ.

وبذلك اكتسب الجرأة ، والشَّجاعة ، والإقدام ، وتمرَّن على القتال منذ ريعان شبابه ، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب التي تبدؤها ، حتَّى ألَّف الله بين قلوبهم ، وأزاح عنهم هذه الضَّلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[(٢٢١)].

عاشراً: حلْفُ الفُضُول:

كان حِلْفُ الفُضُول بعد رجوع قريش من حرب الفجار ، وسببه: أنَّ رجلاً من زبيد[(٢٢٢)] قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل ، ومنعه حقَّه ، فاستعدى عليه الزَّبيديُّ أشراف قريش ، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم ، فوقف عند الكعبة واستغاث بال فهرٍ وأهل المروءة ، ونادى بأعلى صوته:

يا ال فهرٍ لِمَظْلومٍ بضاعَتهببَطْنِ مَكَّة نَائِي الدَّارِ والنَّفرِ

وَمُحْرِمٍ أشعثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُيَا للرِّجالِ وبَيْنَ الحِجْرِ والحَجَرِ

إنَّ الحرام لِمَنْ تمَّتْ كَرَامَتُهُولا حرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغُدَرِ[(٢٢٣)]

فقام الزُّبير بن عبد المطلب ، فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم ، وزُهرة ، وبنو تَيْم بن مرَّة في دار عبد الله بن جُدْعان ، فصنع لهم طعاماً ، وتحالفوا في شهرٍ حرامٍ ، وهو ذو القعدة ، فتعاقدوا ، وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظَّالم ، حتَّى يُردَّ إليه حقُّه ما بلَّ بحرٌ صُوفَةً ، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[(٢٢٤)].

ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزَّبيديِّ ، فدفعوها إليه.

وسمَّتْ قريش هذا الحلف حلف الفضول ، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وفي هذا الحلف قال الزُّبير بن عبد المطلب:

إنَّ الفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُواألاَّ يُقيمَ ببطْنِ مكَّةَ ظَالِمُ

أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وتَوَاثَقُوافَالجَارُ وَالْمُعْتَرُّ[(٢٢٥)] فِيهِمْ سالمُ

وقد حضر النَّبيُّ (ص) هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظُّلم ، ورفعوا به منار الحقِّ ، وهو يعتبر من مفاخر العرب ، وعرفانهم لحقوق الإنسان[(٢٢٦)] ، وقد قال (ص) : «شهدت حلف المطيّبين مع عمومتي؛ وأنا غلام، فما أحبُّ أنَّ لي حُمْرَ النَّعم وأنِّي أنكثه» [أحمد (١/١٩٠) والبخاري في الأدب المفرد (٥٦٧) وأبو يعلى (٨٤٤ و٨٤٥ و٨٤٦)] .

وقال أيضاً: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعم ، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبت» [البيهقي في السنن الكبرى (٣/٣٦٧) وابن هشام (١/١٤١ ـ ١٤٢] .

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

١ ـ إنَّ العدل قيمةٌ مطلقةٌ ، وليست نسبيَّة ، وإنَّ الرَّسول (ص) يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين ، فالقيم الإيجابيَّة تستحقُّ الإشادة بها حتَّى لو صدرت من أهل الجاهليَّة[(٢٢٧)].

٢ ـ كان حلف الفضول واحةً في ظلام الجاهليَّة ، وفيه دلالةٌ بيِّنةٌ على أنَّ شيوع الفساد في نظامٍ ، أو مجتمعٍ لا يعني خلوَّه من كلِّ فضيلةٍ ، فمكَّة مجتمعٌ جاهليٌّ هيمنت عليه عبادة الأوثان ، والمظالم ، والأخلاق الذَّميمة ، كالظُّلم ، والزِّنى ، والرِّبا ، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوةٍ ، ومروءة ، يكرهون الظُّلم ، ولا يقرُّونه ، وفي هذا درسٌ عظيمٌ للدُّعاة في مجتمعاتهم؛ التي لا تُحَكِّمُ الإسلامَ ، أو يُحارَبُ فيها الإسلام[(٢٢٨)].

٣ ـ إنَّ الظُّلم مرفوضٌ بأيِّ صورةٍ ، ولا يشترط الوقوف ضدَّ الظالمين فقط عندما ينالون من الدُّعاة إلى الله ، بل مواجهة الظَّالمين قائمةٌ؛ ولو وقع الظُّلم على أقلِّ الناس[(٢٢٩)]. إنَّ الإسلام يحارب الظُّلم ، ويقف بجانب المظلوم ، دون النَّظر إلى لونه ، ودينه ، ووطنه ، وجنسه[(٢٣٠)].

٤ ـ جواز التَّحالف والتَّعاهد على فعل الخير؛ فهو من قبيل التَّعاون المأمور به في القران الكريم. قال تعالى: {يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [المائدة: ٢] .

ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذه الحال؛ لأنَّه تأكيدٌ لشيءٍ مطلوبٍ شرعاً ، على ألا يكون ذلك شبيهاً بمسجد الضِّرار ، بحيث يتحوَّل التعاقد إلى نوعٍ من الحزبيَّة الموجَّهة ضد مسلمين اخرين ظلماً ، وبغياً ، وأمَّا تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلمٍ ، أو في مواجهة ظالمٍ؛ فذلك جائزٌ لهم ، على أن تُلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل ، وفي هذا الحديث دليلٌ ، والدَّليل فيه قوله (ص) : «ما أحبُّ أنَّ لي به حُمْرَ النَّعَم» [سبق تخريجه]؛ لما يحقِّق من عدلٍ ، ويمنع من ظلمٍ ، أو النكث به مقابل حمر النَّعم ، وقوله (ص) : «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت» [سبق تخريجه] ، ما دام أنَّه يردع الظَّالم عن ظلمه ، وقد بيَّن (ص) استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[(٢٣١)].

٥ ـ على المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابياً فاعلاً ، لا أن يكون رقماً من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه ، فقد كان النَّبيُّ (ص) محطَّ أأنظار مجتمعه ، وصار مضرب المثل فيهم ، حتَّى إنَّهم لقبوه بالأمين ، وقد هفت إليه قلوب الرِّجال والنِّساء على السَّواء؛ بسبب الخُلق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيَّه (ص) ، وما زال يزكو، وينمو؛ حتَّى تعلقت به قلوب قومه ، وهذا يعطينا صورةً حيَّةً عن قيمة الأخلاق في المجتمع ، وعن احترام صاحب الخُلق ولو في المجتمع المنحرف[(٢٣٢)].

* * *

المبحث السَّادس

تجارته لخديجة وزواجه منها وأهمُّ الأحداث إلى البعثة

أولاً: تجارته لخديجة ، وزواجه منها:

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملةً[(٢٣٣)] ذات شرفٍ ، ومالٍ ، تستأجر الرِّجال ليتَّجروا بمالها ، فلمَّا بلغها عن محمَّد (ص) صدق حديثه ، وعظم أمانته ، وكَرَم أخلاقه ، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشَّام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التُّجار ، فقبل ، وسافر معه غلامها ميسرةُ ، وقدما الشَّام ، وباع محمَّد (ص) سلعته الَّتي خرج بها ، واشترى ما أراد من السِّلع ، فلمَّا رجع إلى مكَّة ، وباعت خديجة ما أحضره لها؛ تضاعف مالها.

وقد حصل الرَّسول (ص) في هذه الرِّحلة على فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الَّذي ناله؛ إذ مرَّ بالمدينة الَّتي هاجر إليها من بعد ، وجعلها مركزاً لدعوته ، وبالبلاد التي فتحها ، ونشر فيها دينه ، كما كانت رحلته سبباً لزواجه من خديجة ، بعد أن حدَّثها ميسرة عن سماحته ، وصدقه ، وكريم أخلاقه[(٢٣٤)] ، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالَّتها المنشودة ، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبِّه ، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوَّج خديجة[(٢٣٥)] ، فرضي بذلك ، وعرض ذلك على أعمامه ، فوافقوا كذلك ، وخرج معه عمُّه حمزة بن عبد المطلب ، فخطبها إليه ، وتزوَّجها رسول الله (ص) وأصدقها عشرين بَكرةً ، وكانت أوَّل امرأةٍ تزوَّجها رسول الله (ص) ، ولم يتزوَّج غيرها؛ حتَّى ماتت رضي الله عنها[(٢٣٦)] ، وقد وَلَدَتْ لرسول الله (ص) غلامين ، وأربع بنات. وابناه هما: القاسم ، وبه كان (ص) يُكنى ، وعبد الله ، ويلقَّب بالطَّاهر ، والطَّيِّب.

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سناً تمكنه من ركوب الدَّابة ، ومات عبد الله وهو طفل ، وذلك

قبل البعثة. أمَّا بناته فهنَّ: زينب ، ورقيَّة ، وأمُّ كلثوم ، وفاطمة. وقد أسلمن ، وهاجرن إلى المدينة ، وتزوجن رضي الله عنهن[(٢٣٧)]. هذا وقد كان عُمرُ الرَّسول (ص) حين تزوَّج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنةً ، وكان عمرها أربعين سنةً[(٢٣٨)].

دروسٌ وعبرٌ وفوائد:

١ ـ إنَّ الأمانة ، والصِّدق أهمُّ مواصفات التَّاجر النَّاجح ، وصفة الأمانة ، والصِّدق في التِّجارة في شخصية النَّبيِّ (ص) ، هي الَّتي رغَّبت السَّيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به ، ويسافر به إلى الشَّام ، فبارك الله لها في تجارتها ، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

٢ ـ إنَّ التِّجارة موردٌ من موارد الرِّزق الَّتي سخَّرها الله لرسوله (ص) قبل البعثة ، وقد تدرَّب النَّبيُّ (ص) على فنونها ، وقد بيَّن النَّبيُّ (ص) : أنَّ التَّاجر الصَّدوق الأمين في هذا الدِّين يُحشر مع النَّبيِّين ، والصدِّيقين ، والشُّهداء ، وهذه المهنة مهمَّة للمسلمين ، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الاخرين ، واستعبادهم ، وقهرهم ، وإذلالهم؛ فهو ليس بحاجة إليهم ، بل هم في حاجة إليه ، وبحاجةٍ إلى خبرته ، وأمانته ، وعفَّته.

٣ ـ كان زواج الحبيب المصطفى (ص) للسَّيدة خديجة بتقدير الله تعالى ، ولقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيِّه زوجةً تناسبه ، وتؤازره ، وتُخفِّف عنه ما يصيبه ، وتعينه على حمل تكاليف الرِّسالة ، وتعيش همومه[(٢٣٩)].

قال الشَّيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله! ـ: وخديجة مَثلٌ طيِّبٌ للمرأة الَّتي تكمِّل حياة الرَّجل العظيم. إنَّ أصحاب الرِّسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية ، ويلقون غبْناً بالغاً من الواقع الَّذي يريدون تغييره ، ويقاسون جهاداً كبيراً في سبيل الخير الَّذي يريدون فرضه ، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهَّد حياتهم الخاصَّة بالإيناس ، والتَّرفيه ، وكانت خديجة سبَّاقةً إلى هذه الخصال ، وكان لها في حياة محمَّدٍ (ص) أثرٌ كريم[(٢٤٠)].

٤ ـ إنَّ النَّبيّ (ص) ذاق مرارة فقد الأبناء ، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين ، وقد شاء الله ـ وله الحكمة البالغة ـ ألا يعيش له (ص) أحدٌ من الذُّكور ، حتَّى لا يكون مدعاةً لافتتان بعض النَّاس بهم ، وادِّعائهم لهم النُّبوَّة ، فأعطاه الذُّكور تكميلاً لفطرته البشرية ، وقضاءً لحاجات النَّفس

الإنسانيَّة ، ولئلا يتنقَّص النَّبيَّ في كمال رجولته شانأئٌ ، أو يتقوَّل عليه متقوِّلٌ ، ثمَّ أخذهم في الصِّغر ، وأيضاً ليكون ذلك عزاءً ، وسلوى لِلَّذين لا يُرزقون البنين ، أو يُرزقون ثمَّ يموتون ، كما أنَّه لونٌ من ألوان الابتلاء ، وأشدُّ النَّاس بلاءً الأنبياء [الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣)] ، وكأنَّ الله أراد للنَّبيِّ

(ص) أن يجعل الرِّقَّة الحزينة جزءاً من كيانه؛ فإنَّ الرِّجال الذين يسوسون الشُّعوب لا يجنحون إلى الجبروت ، إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة ، والأثرة ، وعاشت في أفراحٍ لا يخامرها كدر ، أمَّا الرَّجل الَّذي خبر الالام؛ فهو أسرع النَّاس إلى مواساة المحزونين ، ومداواة المجروحين[(٢٤١)].

٥ . يتَّضح للمسلم من خلال قصَّة زواج النَّبيِّ (ص) من السَّيدة خديجة ، عدم اهتمام النَّبيِّ (ص) بأسباب المتعة الجسديَّة ، ومكمِّلاتها ، فلو كان مهتماً بذلك . كبقيَّة الشَّباب . لطمع فيمن هي أقلُّ منه سناً ، أو فيمن لا تفوقه في العمر ، وإنَّما رغب النَّبيُّ (ص) لشرفها ، ومكانتها في قومها؛ فقد كانت تلقَّب في الجاهلية بالعفيفة الطَّاهرة.

٦ . في زواج النَّبيِّ (ص) من السَّيدة خديجة ما يلجم ألسنة وأقلام الحاقدين على الإسلام، من المستشرقين وعبيدهم العلمانيِّين ، الَّذين ظنُّوا أنَّهم وجدوا في موضوع زواج النَّبيِّ (ص) مقتلاً يصاب منه الإسلام ، وصوَّروا النَّبيَّ (ص) في صورة الرَّجل الشَّهوانيِّ الغارق في لذَّاته ، وشهواته ، فنجد: أنَّ النَّبيَّ (ص) عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئةٍ جاهليَّةٍ عفيف النَّفس ، دون أن ينساق في شيءٍ من التَّيَّارات الفاسدة؛ الَّتي تموج حوله ، كما أنَّه تزوَّج من امرأةٍ لها ما يقارب ضعف عمره ، وعاش معها دون أن تمتدَّ عيناه إلى شيءٍ ممَّا حوله ، وإنَّ ما حوله الكثير ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشَّباب ، ثمَّ الكهولة ، ويدخل في سن الشُّيوخ ، وقد ظلَّ هذا الزَّواج قائماً حتَّى توفِّيت خديجة رضي الله عنها عن خمسةٍ وستين عاماً ، وقد ناهز النَّبيُّ (ص) الخمسين من العمر ، دون أن يفكِّر خلالها بالزَّواج بأيِّ امرأةٍ أخرى ، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزَّمن الَّذي تتحرَّك فيه رغبة الاستزادة من النِّساء ، والميل إلى تعدُّد الزَّوجات للدَّوافع الشَّهوانية؛ ولكن النبي (ص) لم يفكر في هذه الفترة في أن يضمَّ إلى خديجة مثلها من النِّساء ، زوجةً ، أو أمَةً ، ولو أراد؛ لكان الكثير من النِّساء ، والإماء طوعَ بنانه.

أمَّا زواجه (ص) بعد ذلك من السَّيدة عائشة ، وغيرها من أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن ، فإنَّ لكلٍّ منهن قصَّةً ، ولكلِّ زواج حكمةً وسبباً ، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمَّد (ص) ، ورفعة شأنه ، وكمال أخلاقه[(٢٤٢)].

ثانياً: اشتراكه (ص) في بناء الكعبة الشَّريفة:

لما بلغ محمَّد (ص) خمساً وثلاثين سنةً ، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة؛ لما أصابها من حريق ، وسيلٍ جارفٍ؛ صدَّع جدرانها ، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رَضماً[(٢٤٣)] فوق القامة

، فأرادوا هدمها؛ ليرفعوها ، ويسقفوها ، ولكنَّهم هابوا هدمها ، وخافوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها ، فأخذ المعول ، ثمَّ قام عليها ، وهو يقول: اللَّهمَّ لم نزغ! ولا نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الرُّكنين؛ فتربَّص النَّاس تلك الليلة ، وقالوا: ننظر ، فإن أصيب؛ لم نهدم منها شيئاً ، ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيءٌ؛ فقد رضي الله ما صنعنا ، فأصبح الوليد غادياً يهدم ، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارةٍ خُضْر كالأَسْنمة[(٢٤٤)] اخذٌ بعضها ببعضٍ.

وكانوا قد جزَّؤوا العمل وخصُّوا كلَّ قبيلةٍ بناحيةٍ ، واشترك سادة قريش ، وشيوخها في نقل الحجارة ، ورفعها ، وقد شارك النَّبيُّ (ص) ، وعمُّه العباس في بناء الكعبة ، وكانا ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنَّبيِّ (ص) : اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة ، فخرَّ إلى الأرض[(٢٤٥)] ، وطمحت عيناه إلى السَّماء ، ثمَّ أفاق ، فقال: «إزاري! إزاري!» ، فشدَّ عليه إزاره [البخاري (١٥٨٢) ومسلم (٣٤٠)]

.

فلمَّا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه ، كلُّ قبيلةٍ تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، وكادوا يقتتلون فيما بينهم ، لولا أنَّ أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّل مَنْ يدخل من باب المسجد. فلمَّا توافقوا على ذلك؛ دخل محمَّد (ص) ، فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين ، قد رضينا. فلمَّا أخبروه الخبر ، قال: «هلمُّوا ثوباً» ، فأتوه به ، فوضع الرُّكن فيه بيديه ، ثمَّ قال: «لتأخذْ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثَّوب ، ثمَّ ارفعوا جميعاً» فرفعوه ، حتَّى إذا بلغوا موضعه ، وضعه بيده ، ثمَّ بنى عليه. [الحاكم (١/٤٥٨ ـ ٤٥٩) وعبد الرزاق (٥/١٠٠ ـ ١٠١) والبيهقي في الدلائل (٢/٥٦ ـ ٥٧)] .

وأصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشرة ذراعاً ، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج؛ لئلا يدخلَ إليها كلُّ أحد ، فيُدخلوا من شاؤوا؛ وليمنعوا الماء من التسرُّب إلى جوفها ، وأُسند سقفها إلى ستَّة أعمدةٍ من الخشب ، إلا أنَّ قريشاً قصَّرت بها النَّفقة الطَّيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل ، فأخرجوا منها الحِجْر ، وبنوا عليه جداراً قصيراً دلالةً على أنَّه منها ، لأنَّهم

شرطوا على أنفسهم ألاَّ يدخل في بنائها إلا نفقةٌ طيِّبةٌ ، ولا يدخلها مهر بَغِيٍّ ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمةُ أحدٍ من النَّاس[(٢٤٦)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ أهمِّيَّة الكعبة ، وقداستها عند قريش ، ويكفي أن باشر تأسيسها ، ورفع قواعدها إبراهيم ، وابنه إسماعيل ـ عليهما الصَّلاة والسَّلام ـ بأمرٍ من الله تعالى؛ لتكون أوَّل بيتٍ لعبادة الله وحدَه.

٢ ـ بُنِيت الكعبة خلال الدَّهر كلِّه أربع مرَّات على يقينٍ؛ فأمَّا المرَّة الأولى منها ، فهي الَّتي قام بأمر البناء فيها إبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ يعينه ابنه إسماعيل ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ، والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة ، واشترك في بنائها النَّبيُّ (ص) ، والثالثة: عندما احترق البيت في زمن يزيد بن معاوية ، بفعل الحصار الَّذي ضربه الحُصين السُّكوني على ابن الزُّبير حتَّى يستسلم ، فأعاد ابن الزُّبير بناءها ، وأمَّا المرَّة الرَّابعة ففي زمن عبد الملك بن مروان بعدما قُتِل ابن الزُّبير ، حيث أعاده على ما كان عليه زمن النَّبيِّ (ص)[(٢٤٧)] ؛ لأنَّ ابن الزُّبير باشر في رفع بناء البيت ، وزاد فيه الأذرع الستَّة التي أخرجت منه ، وزاد في طوله إلى السَّماء عشرة أذرع ، وجعل له بابين: أحدهما يُدخل منه ، والاخر يُخرج منه ، وإنَّما جرَّأه على إدخال هذه الزِّيادة حديث عائشة عن رسول الله (ص) : «يا عائشة! لولا أنَّ قومك حديثو عهدٍ بجاهليَّةٍ؛ لأمرت بالبيت ، فهُدم؛ فأدخلت فيه ما أُخرجَ منه ، وألزقته بالأرض ، وجعلت له باباً شرقياً وباباً غربياً ، فبلغتُ به أساس إبراهيم» [البخاري (١٥٨٦) ومسلم (١٣٣٣/٤٠١)].

٣ ـ طريقة فضِّ التنازع كانت موفَّقةً ، وعادلةً ، ورضي بها الجميع ، وحقنت دماءً كثيرةً ، وأوقفت حروباً طاحنةً ، وكان مِنْ عدل حكمه (ص) أن رضيت به جميع القبائل ، ولم تنفرد بشرف وضع الحجر قبيلةٌ دون الأخرى ، وهذا مِنْ توفيق الله لرسوله (ص) ، وتسديده قبل بعثته. إنَّ دخول رسول الله (ص) من باب الصَّفا كان قَدَراً من الله لحلِّ هذه الأزمة المستعصية ، الَّتي حُلَّت نفسياً قبل أن تُحلَّ على الواقع ، فقد أذعن الجميع لما يرتضيه محمَّد (ص) ، فهو الأمين الَّذي لا يَظْلِمُ ، وهو الأمين الَّذي لا يحابي ، ولا يفسد ، وهو الأمين على البيت ، والأرواح ، والدِّماء[(٢٤٨)].

٤ ـ إنَّ حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النَّبيِّ (ص) الأدبيَّة في الوسط القرشيِّ[(٢٤٩)] ،

وحصل لرسول الله (ص) في هذه الحادثة شرفان: شرف فصل الخصومة ، ووقف القتال المتوقَّع بين قبائل قريش، وشرف تنافس القوم عليه وادَّخره الله لنبيِّه (ص) ، ألا وهو وضعُ الحجر الأسود بيديه الشَّريفتين ، وأخذه من البساط بعد رفعه ، ووضعُه في مكانه من البيت[(٢٥٠)].

٥ ـ إنَّ المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهيِّ ، وكمال التَّوفيق الرَّبَّانيِّ في سيرة رسول الله (ص) ، كما يلاحظ كيف أنَّ الله أكرم رسوله (ص) بهذه القدرة الهائلة على حلِّ المشكلات بأقرب

طريقٍ ، وأسهله ، وذلك ما تراه في حياته كلِّها (ص) ، وذلك معلَمٌ من معالم رسالته ، فرسالتُه إيصالٌ للحقائق بأقرب طريقٍ ، وحلٌّ للمشكلات بأسهل أسلوبٍ ، وأكمله[(٢٥١)].

٦ ـ من حفظ الله لنبيِّه (ص) في شبيبته ، عن أقذار الجاهليَّة ، وأدرانها، ومعائبها ، ما وقع له عندما كان ينقل الحجر ، أثناء بناء الكعبة ، ورفع إزاره على رقبته ، فخرَّ إلى الأرض ، وطَمَحَتْ عينُه إلى السَّماء ، ثمَّ أفاق يقول: إزاري! إزاري! فشد عليه إزاره ، فما رُئِيَ بعد ذلك عُرْياناً (ص) [البخاري (١٥٨٢) ومسلم (٣٤٠)] .

ثالثاً: تهيئة النَّاس لاستقبال نبوّة محمَّدٍ (ص):

شاءت حكمة الله تعالى ، أن يُعدَّ الناس لاستقبال نبوَّة محمَّد (ص) بأمورٍ؛ منها:

١ ـ بشارات الأنبياء بمحمَّد (ص):

دعا إبراهيم عليه السلام ربَّه أن يبعث في العرب رسولاً منهم ، فأرسل محمَّداً إجابةً لدعوته. قال تعالى: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [البقرة: ١٢٩] ، وذكر القران الكريم: أنَّ الله تعالى أنزل البشارة بمبعث محمَّد (ص) ، في الكتب السَّماوية المنزلة على الأنبياء السَّابقين ، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الأعراف: ١٥٧].

وبشَّر به عيسى عليه السلام ، وأخبرنا الله تعالى عن بشارة عيسى ، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَم يابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ *} [الصف: ٦].

وأعلمَ اللهُ تعالى جميع الأنبياء ببعثته ، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به ، واتِّباعه؛ إن هم أدركوه[(٢٥٢)] ، كما قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ *} [آل عمران: ٨١].

وقد وقع التَّحريف في نسخ التَّوراة ، والإنجيل ، وحُذِف منهما التَّصريح باسم محمَّد (ص) ، إلا توراة (السَّامرة) ، وإنجيل (برنابا) الذي كان موجوداً قبل الإسلام وحرَّمت الكنيسة تداوله في اخر القرن الخامس

الميلادي ، وقد أيَّدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثاً ، فقد جاء في إنجيل (برنابا) العبارات المصرِّحة باسم النَّبيِّ محمَّد (ص) ، مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه ، ونصُّ العبارة:

«٢٩ ـ فاحتجب الله ، وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس. ٣٠ ـ فلما التفت ادم رأى مكتوباً فوق الباب: لا إله إلا الله محمَّدٌ رسول الله»[(٢٥٣)].

قال ابن تيميَّة: «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمَّدٍ (ص) عندهم في الكتب المتقدمة متواترةٌ عنهم» ثمَّ قال: «ثمَّ العلم بأنَّ الأنبياء قبله بَشَّروا به يُعلم من وجوه:

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب ، ممَّن أسلم ، وممَّن لم يسلم ، بما وجدوه من ذكره بها؛ وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار: أنَّ جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه ، وأنَّه رسولُ الله ، وأنَّه موجودٌ عندهم ، وكانوا ينتظرونه ، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام ، حتَّى امن الأنصار به ، وبايعوه»[(٢٥٤)].

فمن حديث سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه ، وكان من أصحاب بدرٍ ، قال: «كان لنا جارٌ من يهود في بني عبد الأشهل ، قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النَّبيِّ (ص) بيسيرٍ ، فوقف على مجلس عبد الأشهل ، قال سلمة: وأنا يومئذٍ أَحْدَثُ مَنْ فيه سناً ، عليَّ بردةٌ مضطجعاً فيها بفناء أهلي ، فذكر البعث ، والقيامة ، والحساب، والميزان ، والجنَّة ، والنَّار ، فقال ذلك لقومٍ؛ وكانوا أهل شركٍ ، وأصحاب أوثان ، لا يرون: أنَّ بعثاً كائنٌ بعد الموت. فقالوا له: ويحك يا فلان! ترى هذا كائناً: أنَّ النَّاس يُبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنَّةٌ، ونارٌ، ويُجزون

فيها بأعمالهم؟! قال: نعم ، والذي يُحلف به! ولودَّ: أنَّ له بحظِّه من تلك النَّار أعظم تنُّورٍ[(٢٥٥)] في الدُّنيا يحمونه ، ثمَّ يدخلونه إيَّاه ، فيطبق به عليه[(٢٥٦)] وأن ينجو من تلك النَّار غداً.

قالوا له: ويحك! وما اية ذلك؟ قال: نبيٌّ يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكَّة ، واليمن.

قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ ـ وأنا من أحدثهم سناً ـ فقال: إن يستنفد هذا الغلام عُمرَه؛ يدركه.

قال سلمة: «فو الله! ما ذهب الليل والنَّهار ، حتَّى بعث الله تعالى رسوله (ص) ، وهو حيٌّ بين أظهرنا ، فامنَّا به ، وكفر به بغياً وحسداً؛ فقلنا: ويلك يا فلان! ألست بالَّذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ، وليس به» [أحمد (٣/٤٦٧) والبيهقي في الدلائل (٢/٧٨ ـ ٧٩) وابن هشام (١/٢٢٥ ـ ٢٢٦)] .

وقد قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: «قد رأيت أنا من نُسَخِ الزَّبور ما فيه تصريحٌ بنبوَّة محمَّدٍ (ص) باسمه ، ورأيت نسخةً أخرى بالزَّبور فلم أرَ ذلك فيها ، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النُّسخ من صفات النَّبيِّ (ص) ما ليس في أخرى»[(٢٥٧)].

وقد ذكر عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما صفة رسول الله (ص) في التَّوراة ، فقال: «والله! إنه لموصوف في التَّوراة بصفته في القران: يا أيها النَّبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحِرزاً للأُميّين[(٢٥٨)] ، أنت عبدي ، ورسولي ، سمَّيتك المتوكِّل ، ليس بفظٍّ ، ولا غليظٍ ، ولا سخَّابٍ في الأسواق[(٢٥٩)] ، ولا يدفع بالسَّيِّئة السَّيِّئة ، ولكن يعفو ، ويصفح ، ولن يقبضه الله حتَّى يقيم به الملَّة العوجاء[(٢٦٠)]؛ بأن يقولوا: لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، واذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً» [البخاري (٢١٢٥ و٤٨٣٨) وأحمد (١٧٤/٢) والبيهقي في الدلائل (/٣٧٤ ـ ٣٧٥)] .

ومن حديث كعب الأحبار ، قال: «إنِّي أجد في التَّوراة مكتوباً: محمَّدٌ رسول الله ، لا فظٌّ ، ولا غليظٌ ، ولا سَخَّابٌ في الأسواق ، ولا يجزي السَّيئة بالسَّيئة ، ولكن يعفو ، ويصفح ، أمَّته الحمَّادون ، يحمدون الله في كلِّ منزلةٍ ، ويكبِّرونه على كل نجدٍ ، يأتزرون إلى أنصافهم ، ويوضِّئون أطرافهم ، صَفُّهم في الصَّلاة وصَفُّهم في القتال سواءٌ ، مناديهم ينادي في جوِّ

السَّماء ، لهم في جوف اللَّيل دويٌّ كدويِّ النَّحل ، مولده بمكَّة ، ومهجره بطابة ، وملكه بالشَّام» [البيهقي في الدلائل (٣٧٦/١ ـ ٣٧٧)].

٢ ـ بشارات علماء أهل الكتاب بنبوَّته (ص):

أخبر سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه في قصَّة إسلامه المشهورة ، عن راهب عَمُّورية حين حضرته المنيَّة ، قال لسلمان: «إنَّه قد أظلَّ زمان نبيٍّ مبعوثٍ بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مُهاجَره إلى أرضٍ بين حَرَّتين ، بينهما نخلٌ ، به علاماتٌ لا تخفى ، يأكل الهديَّة ، ولا يأكل الصَّدقة ، بين كتفيه خَاتم النُّبوَّة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد؛ فافعل».

ثمَّ قصَّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة ، واسترقاقه ، ولقائه برسول الله (ص) حين الهجرة ، وإهدائه له طعاماً على أنَّه صدقة ، فلم يأكل منه الرَّسول (ص) ، ثمَّ إهدائه له طعاماً على أنَّه هدية ، وأكله منه ، ثمَّ رؤيته خاتم النُّبوَّة بين كتفيه ، وإسلامه على إثر ذلك» [أحمد (٤٤١/٥ ـ ٤٤٤) والحاكم (٥٩٩/٣ ـ ٦٠٢) والبيهقي في الدلائل (٨٣/٢ ـ ٩٧) وأبو نعيم في دلائله (١٩٩) وابن هشام (٢٢٨/١ ـ ٢٣٤)] .

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ومن ذلك قصَّة أبي التَّيِّهان ، الَّذي خرج من بلاد الشَّام ، ونزل في بني قريظة ، ثمَّ توفي قبل البعثة النَّبويَّة بسنتين ، فإنَّه لما حضرته الوفاة؛ قال لبني قريظة: يا معشر يهود! ما ترونه أخرجني من أرض الخَمر ، والخمير ـ الشَّام ـ إلى أرض البؤس والجوع ـ يعني: الحجاز ـ؟ قالوا: أنت أعلم. قال: إنِّي قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ ـ أنتظر ـ خروج نبيٍّ قد أظلَّ زمانه ، وكنت أرجو أن يبعث ، فأتَّبعه.

وقد شاع حديث ذلك ، وانتشر بين اليهود ، وغيرهم ، حتَّى بلغ درجة القطع عندهم، وبناءً عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنوَّرة: إنَّه قد تقارب زمان نبيٍّ يُبعث الان ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[(٢٦١)] ، وكان ذلك الحديث سبباً في إسلام رجالٍ من الأنصار ، وقد قالوا: «إنَّ ممَّا دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى ، وهداه؛ لما كنَّا نسمع من رجال اليهود ، وكُنَّا أهلَ شركٍ ، أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتابٍ ، عندهم علمٌ ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون؛ قالوا لنا: إنَّه تقارب زمان نبيٍّ يبعث الان، نقتلكم معه قتل عادٍ ، وإرم»[(٢٦٢)].

وقد قال هرقل ملك الرُّوم عندما تسلَّم رسالة النَّبيِّ (ص) : «وقد كنت أعلم: أنَّه خارجٌ ، ولم أكن أظنُّ: أنَّه منكم» [البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣)] .

٣ ـ الحالة العامَّة الَّتي وصل إليها النَّاس:

لخَّص الأستاذ النَّدوي الحال الَّتي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: كانت الأوضاع الفاسدة ، والدَّرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السَّادس المسيحيِّ أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ، ومعلِّمون من أفراد النَّاس ، فلم تكن القضيَّة قضية إصلاح عقيدةٍ من العقائد ، أو إزالة عادةٍ من العادات ، أو قبول عبادةٍ من العبادات ، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات ، فقد كان يكفي له المصلحون ، والمعلمون الذين لم يَخْلُ منهم عصرٌ ، ولا مصرٌ.

ولكنَّ القضيَّة كانت قضية إزالة أنقاض الجاهليَّة ، ووثنيَّةٍ تخريبيَّةٍ ، تراكمت عبر القرون ، والأجيال ، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء ، والمرسلين ، وجهود المصلحين ، والمعلمين ، وإقامة بناءٍ شامخٍ مشيد البنيان ، واسع الأرجاء ، يسع العالم كلَّه ، ويؤوي الأمم كلَّها ، قضية إنشاء إنسانٍ جديدٍ ، يختلف عن الإنسان القديم في كلِّ شيءٍ ، كأنَّه ولد من جديد أو عاش من جديد. قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ١٢٢] .

قضية اقتلاع جرثومة الفساد ، واستئصال شأفة الوثنيَّة ، واجتثاثها من جذورها؛ بحيث لا يبقى لها عينٌ ، ولا أثرٌ ، وترسيخ عقيدة التَّوحيد في أعماق النَّفس الإنسانيَّة ترسيخاً لا يتصوَّر فوقه ، وغرس ميلٍ إلى إرضاء الله ، وعبادته ، وخدمة الإنسانيَّة ، والانتصار للحقِ يتغلَّب على كلِ رغبةٍ ، ويقهر كلَّ شهوةٍ ، ويجرف كلَّ مقاومة وبالجملة الأخذ بحُجزِ الإنسانيَّة المنتحرة؛ الَّتي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدُّنيا والاخرة، والسُّلوك بها على طريقٍ أوَّلها سعادةٌ يحظى بها العارفون المؤمنون ، واخرها جنَّة الخلد؛ الَّتي وُعِد المتَّقون ، ولا تصوير أبلغ ، وأصدق من قوله تعالى في معرض المنِ ببعثة محمَّد (ص)[(٢٦٣)] : {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *} [آل عمران: ١٠٣].

٤ ـ إرهاصات نبوَّته (ص):

ومن إرهاصات نبوَّته (ص) تسليم الحجر عليه قبل النُّبوَّة ، فعن جابر بن سَمُرَةَ قال: قال رسول الله (ص) : «إنِّي لأعرف حجراً بمكَّة كان يسلِّم عليَّ قبل أن أبعث ، إنِّي لأعرفه الان» [أحمد (٨٩/٥) ومسلم (٢٢٧٧) والترمذي (٣٦٢٤)] ومنها: الرُّؤيا الصَّادقة ، وهي أول ما بدأى له من الوحي ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] وحُبِّب إليه (ص) العزلة ، والتَّحنُّث «التعبد» ، فكان يخلو في غار حراء . وهو جبلٌ يقع في الجانب الشَّماليِّ الغربيِّ من مكَّة . ويتعبَّد فيه الليالي ذوات العدد ، فتارةً عشرة ، وتارةً أكثر من ذلك إلى شهر ، ثمَّ يعود إلى بيته ، فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزوَّد من جديدٍ لخلوةٍ أخرى ، ويعود إلى غار حراء ، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك[(٢٦٤)].

* * *

الفصل الثَّاني

نزول الوحي والدَّعوة السِرِّيَّة

المبحث الأوَّل

نزول الوحي على سيِّد الخلق أجمعين (ص)

كان النَّبيُّ (ص) قد بلغ الأربعين من عمره ، وكان يخلو في غار حراء بنفسه ويتفكَّر في هذا الكون ، وخالقه ، وكان تعبُّده في الغار يستغرق ليالي عديدةً؛ حتَّى إذا نفد الزَّاد؛ عاد إلى بيته ، فتزوَّد لليالٍ أخرى[(٢٦٥)] ، وفي نهار يوم الإثنين من شهر رمضان جاءه جبريل لأوَّل مرَّةٍ داخل غار حراء[(٢٦٦)] ، وقد نقل البخاريُّ في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها ، والبخاريُّ «أبو الصِّحاح ، وكتب السُّنن ، والمسانيد ، وكتب التاريخ» ، فعن عائشة رضي الله عنها ، قالت: «أوَّلُ ما بُدىءَ به رسول الله (ص) من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة في النَّوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح ، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخلاءُ ، فكان يخلو بغار حراء ، فَيَتَحَنَّثُ فيه ـ وهو التَّعبُّد ـ الليالي ذواتِ العددِ ، قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله ، ويتزوَّد لذلك ، ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها ، حتَّى جاءه الحقُّ؛ وهو في غار حراءٍ ، فجاءه الملكُ ، فقال: اقرأ ، قال: «ما أنا بقارأى». قال: «فأخذني ، فغَطَّني حتَّى بلغ مني الجهدَ ، ثمَّ أرسلني ، فقال: اقرأ ، قلت: ما أنا بقارأى ، فأخذني فغطَّني الثانية حتَّى بلغ مني الجهدَ ، ثمَّ أرسلني ، فقال: اقرأ ، فقلت: ما أنا بقارأى ، فأخذني فغطَّني الثالثة ، ثمَّ أرسلني ، فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ *} [العلق: ١ ـ ٥]» .

فرجع بها رسولُ الله (ص) يَرْجُفُ فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال: زَمِّلُوني ، زَمِّلُوني ، فَزَمَّلُوه حتَّى ذهب عنه الرَّوْعُ ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر: لقد خَشيتُ على نفسي ، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم ، وتحمل الكَلَّ[(٢٦٧)] ،

وتُكسبُ المعدومَ[(٢٦٨)] ، وتقري الضَّيفَ ، وتعين على نوائب الحقِّ[(٢٦٩)]. فانطلقت به خديجة ، حتَّى أتت به ورقةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى ابن عمِّ خديجة ، وكان امرأً تنصَّر في الجاهليَّة ، وكان يكتب الكتاب العِبْرَانيَّ ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانيَّة ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة: يا بن عمِّ ، اسْمَعْ من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا بن أخي ، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله (ص) خبر ما رأى ، فقال له ورقة: هذا هو النَّاموس[(٢٧٠)] الَّذي نزَّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعاً[(٢٧١)]! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومكَ! فقال رسول الله (ص) : أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟

قال: نعم ، لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُودي ، وإن يدركْني يومُك؛ أنصرْك نصراً مُؤَزَّراً[(٢٧٢)] ، ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوُفِّيَ ، وفَتَرَ الوحي[(٢٧٣)]» [سبق تخريجه] .

عندما نتأمل في حديث السَّيدة عائشة؛ يمكن للباحث أن يستنتج قضايا مهمَّة تتعلَّق بسيرة الحبيب المصطفى (ص) ، ومن أهمِّها:

أولاً: الرُّؤيا الصَّالحة:

ففي حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ أوَّل ما بُدأى به محمَّد (ص) من الوحي الرُّؤيا الصَّالحة ، وتسمَّى أحياناً بالرُّؤيا الصَّادقة ، والمراد بها هنا رؤى طيبةٌ ينشرح لها الصَّدر ، وتزكو بها الرُّوح[(٢٧٤)]. ولعلَّ الحكمة من ابتداء الله تعالى رسوله (ص) بالوحي بالمنام: أنَّه لو لم يبتدئه بالرُّؤيا ، وأتاه الملك فجأةً ، ولم يسبق له أن رأى مَلَكاً من قبل ، فقد يصيبه شيءٌ من الفزع ، فلا يستطيع أن يتلقَّى منه شيئاً؛ لذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يأتيه الوحي أوَّلاً في المنام ليتدرب عليه ، ويعتاده[(٢٧٥)]. والرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة جزءٌ من ستةٍ وأربعين جزءاً من النُّبوَّة ـ كما ورد في الحديث الشَّريف ـ [البخاري (٦٩٨٣) وأحمد (١٢٦/٣) وابن ماجه (٣٨٩٣)] وقد قال العلماء: «وكانت مدَّة الرُّؤيا الصَّالحة ستَّة أشهرٍ» ذكره البيهقيُّ ، ولم ينزل عليه شيءٌ من القران في النَّوم؛ بل نزل كلُّه يقظةً.

والرُّؤيا الصَّالحة من البشرى في الحياة الدُّنيا ، فقد ورد عن النَّبيِّ (ص) قوله: «أيها النَّاسُ! إنَّه لم يبقَ من مبشِّرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا الصَّالحة ، يراها المسلم ، أو تُرَى له» [أحمد (٢١٩/١) ومسلم (٤٧٩) وأبو داود (٨٧٦) والنسائي (١٨٩/٢) وابن ماجه (٣٨٩٩)] .

فكان (ص) قبل نزول جبريل عليه السلام عليه بالوحي في غار حراء يرى الرؤى الجميلة ، فيصحو منشرحَ الصَّدر ، متفتِّح النَّفس لكلِّ ما في الحياة من جمال[(٢٧٦)]. لقد أجمعت الرِّوايات من حديث (بدء الوحي) أنَّ أول ما بدأى به رسولُ الله (ص) من الوحي الرُّؤيا الصَّادقة الصَّالحة ، يراها في النَّوم فتجيء في اليقظة كاملةً ، واضحةً كما راها في النَّوم ، لا يغيب عليه منها شيءٌ ، كأنَّما نقشت في قلبه ، وعقله ، وقد شَبَّهت السَّيدة عائشة رضي الله عنها ـ وهي من أفصح العرب ـ ظهور رؤيا رسول الله (ص) إذا استيقظ بها من كمال وضوحها ، بظهور ضوء الصُّبح ينفلق عنه غبش الظَّلام ، وهو تصويرٌ بيانيٌّ لا تنفلق دنيا العرب في ذُرَا فصاحتهم عن أبلغ منه[(٢٧٧)].

ثانياً: ثمَّ حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه:

وقبيل النُّبوَّة حُبِّب إلى نفس النَّبيِّ (ص) الخلوة؛ ليتفرغ قلبه ، وعقله ، وروحه إلى ما سَيُلقى إليه من أعلام النُّبوَّة ، فاتَّخذ من غار حراء مُتَعَبَّداً؛ لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق ، استجماعاً لقواه الفكريَّة ، ومشاعره الرُّوحية ، وإحساساته النَّفسيَّة ، ومداركه العقليَّة ، تفرغاً لمناجاة مبدع الكون ، وخالق الوجود[(٢٧٨)]. والغار الذي كان يتردَّد عليه الحبيب المصطفى (ص) يبعث على التأمُّل ، والتفكُّر ، تنظر إلى منتهى الطَّرْف فلا ترى إلا جبالاً كأنَّها ساجدةً متطامنةً لعظمة الله ، وإلا سماءً صافيةَ الأديم ، وقد يرى مَنْ يكون فيه مكَّة إذا كان حادَّ البصر[(٢٧٩)].

كانت هذه الخلوة الَّتي حُببت إلى نفس النَّبيِّ (ص) لوناً من الإعداد الخاصِّ ، وتصفية النَّفس من علائق المادِّيَّة البشريَّة ، إلى جانب تعهُّده الخاص بالتَّربية الإلهيَّة ، والتَّأديب الرَّبَّانيِّ في جميع أحواله ، وكان تعبُّده (ص) قبل النُّبوَّة بالتفكُّر في بديع ملكوت السَّموات ، والنَّظر في اياته الكونيَّة الدَّالة على بديع صنعه ، وعظيم قدرته ، ومحكم تدبيره ، وعظيم إبداعه[(٢٨٠)].

وقد أخذ بعض أهل السُّلوك إلى الله من ذلك فكرة الخلوة مع الذِّكر والعبادة في مرحلة من مراحل السُّلوك؛ لتنوير قلبه ، وإزالة ظلمته ، وإخراجه من غفلته ، وشهوته ، وهفوته ، ومن سنن النَّبيِّ (ص) سنَّة الاعتكاف في رمضان[(٢٨١)] ، وهي مهمَّةٌ لكلِّ مسلمٍ سواءً كان حاكماً ، أو

عالماً ، أو قائداً ، أو تاجراً؛ لتنقية الشَّوائب الَّتي تعلق بالنُّفوس والقلوب ، ونصحِّح واقعنا على ضوء الكتاب والسُّنَّة ، ونُحاسِب أنفسنا قبل أن نُحاسَب[(٢٨٢)].

ويمكن لأهل فقه الدَّعوة أن يعطوا لأنفسهم فترةً من الوقت للمراجعة الشَّاملة ، والتَّوبة ، والتأمُّل في واقع الدَّعوة وما هي عليه من قوَّةٍ ، أو ضعفٍ ، واكتشاف عوامل الخلل ، ومعرفة الواقع بتفاصيله ، خيره وشرِّه. ولا مانع من العزلة في بعض الأحيان إذا فشا الفساد ، وأصبحت الدُّنيا مؤثرةً ، ومتابعة الهوى مطلباً ، ولابدَّ أن تكون إيجابيةً وليست سلبية ، وليتابع الطَّريق بعدها بما يحمله من الحقِّ[(٢٨٣)].

وفي قول السَّيدة عائشة رضي الله عنها: «فيتحنَّث الليالِيَ ذوات العدد» ، يقول الشيخ محمَّد عبد الله دراز: «هذا كناية عن كون هذه الليالي لم تصل إلى نهاية القلَّة ، ولا إلى نهاية الكثرة ، وما زال هذا الهدي الذي كان عليه النَّبيُّ (ص) قبل البعثة من التوسُّط ، والاقتصاد في الأعمال ، شعاراً للملَّة الإسلامية ، ورمزاً للهدي النَّبويِّ الكريم ، بعد أن أرسله الله رحمةً للعالمين»[(٢٨٤)].

ثالثاً: حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء: جاء الملك ، فقال: اقرأ ، قال: «قلت: ما أنا بقارأى... فأخذني فغطَّني الثَّالثة ، ثمَّ أرسلني ، فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *} [العلق: ١ ـ ٤]» .

لقد كانت هذه الايات الكريمات المباركات أوَّل شيءٍ نزل من القران الكريم ، وفيها التَّنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقةٍ ، وإنَّ من كرم الله تعالى أن علَّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرَّفه وكرَّمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به ادم عليه السلام على الملائكة. والعلم تارةً يكون في الأذهان ، وتارةً يكون في اللِّسان ، وتارةً يكون بالكتابة بالبنان[(٢٨٥)] ، وبهذه الايات كانت بداية نبوَّة محمَّدٍ (ص) ، لقد كان هذا الحادث ضخماً ، ولقد عبَّر عنه سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله ، فقال: «إنَّه حادثٌ ضخمٌ جداً ، ضخمٌ إلى غير حدٍّ ، ومهما حاولنا اليوم أن نحيط بضخامته؛ فإنَّ جوانب كثيرةً منه ستظلُّ خارج تصوُّرنا! إنَّه حادثٌ ضخمٌ بحقيقته ، وضخمٌ بدلالته ، وضخمٌ باثاره في حياة البشريَّة جميعاً ، وهذه اللَّحظة الَّتي تمَّ فيها هذا الحادث تعدُّ ـ بغير مبالغةٍ ـ أعظم لحظةٍ مرَّت بهذه الأرض في تاريخها الطَّويل.

ما حقيقة هذا الحادث الَّذي تمَّ في هذه اللَّحظة؟

حقيقته: أنَّ الله ـ جلَّ جلاله ، العظيم ، الجبَّار ، القهَّار ، المتكبِّر ، مالك الملك كلِّه ـ قد تكرَّم ـ في عليائه ـ فأراد أن يرحم هذه الخليقة المسمَّاة بالإنسان ، القابعة في ركن من أركان الكون ، لا يكاد يُرى ، هذا الرُّكن الَّذي يُسمَّى الأرض. وكرَّم هذه الخليقة باختيار واحدٍ منها ليكون ملتقى نوره الإلهي ، ومستودع حكمته ، ومهبط كلماته ، وممثِّل قدره الَّذي يريده ـ سبحانه ـ لهذه الخليقة»[(٢٨٦)].

كانت بداية الوحي الإلهي فيها إشادة بالقلم ، وخطره ، والعلم ومنزلته في بناء الشُّعوب ، والأمم ، وفيها إشارةٌ واضحةٌ بأنَّ من أخصِّ خصائص الإنسان العلمَ والمعرفة[(٢٨٧)].

وفي هذا الحادث العظيم تظهر مكانة ، ومنزلة العلم في الإسلام ، فأوَّل كلمةٍ في النُّبوَّة تصل إلى رسول الله (ص) هي الأمر بالقراءة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *} [العلق: ١].

وما زال الإسلام يحثُّ على العلم ، ويأمر به ، ويرفع درجة أهله ، ويميِّزهم على غيرهم. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *} [المجادلة: ١١] وقال سبحانه: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *} [الزمر: ٩] .

إنَّ مصدر العلم النافع من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو الَّذي علَّم بالقلم ، وعلَّم الإنسان ما لم يعلم ، ومتى حادت البشريَّة عن هذا المنهج ، وانفصل علمها عن التقيُّد بمنهج الله تعالى؛ رجع علمها وبالاً عليها ، وسبباً في إبادتها[(٢٨٨)].

رابعاً: الشِّدَّة الَّتي تعرَّض لها النَّبيُّ (ص) ، ووصفُ ظاهرة الوحي:

لقد قام جبريل عليه السلام بضغط النَّبيِّ (ص) مراراً حتَّى أجهده ، وأتعبه ، وبقي رسول الله (ص) يلقى من الوحي شدَّةً ، وتعباً ، وثقلاً ، كما قال تعالى: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً *} [المزمل: ٥] كان في ذلك حكمةٌ عظيمةٌ؛ لعلَّ منها: بيان أهمية هذا الدِّين ، وعظمته ، وشدَّة الاهتمام به ، وبيانٌ للأمَّة أنَّ دينها الَّذي تتنعم به ما جاءها إلا بعد شدَّةٍ ، وكرب[(٢٨٩)].

إنَّ ظاهرة الوحي معجزةٌ خارقةٌ للسُّنن ، والقوانين الطَّبيعيَّة ، حيث تلقَّى النَّبيُّ (ص) كلام الله «القران» بواسطة الملك جبريل عليه السلام ، وبالتَّالي فلا صلة لظاهرة الوحي بالإلهام ، أو

التأمُّل الباطنيِّ ، أو الاستشعار الدَّاخلي ، بل إنَّ الوحي يتمُّ من خارج ذات النَّبيِّ (ص) ، وتنحصر وظيفته بحفظ الموحى ، وتبليغه ، وأمَّا بيانه ، وتفسيره فيتمُّ بأسلوب النَّبيِّ (ص) كما يظهر في أحاديثه ، وأقواله (ص)[(٢٩٠)] .

إنَّ حقيقة الوحي هي الأساس الَّذي تترتَّب عليه جميع حقائق الدِّين ، بعقائده ، وتشريعاته ، وأخلاقه؛ ولذلك اهتمَّ المستشرقون ـ والملاحدة من قبلهم ـ بالطَّعن والتَّشكيك في حقيقة الوحي ، وحاولوا أن يُؤوِّلوا ظاهرة الوحي ، ويحرِّفوها عن حقيقتها ، عمَّا جاءنا في صحاح السُّنَّة الشَّريفة ، وحدَّثنا به المؤرِّخون الثِّقات ، فقائل يقول: إنَّ محمَّداً (ص) تعلَّم القران ، ومبادأى الإسلام من بحيرا الرَّاهب ، وبعضهم قال: بأنَّ محمَّداً كان رجلاً عصبياً ، أو مصاباً بداء الصَّرع[(٢٩١)].

والحقيقة تقول: إنَّ محمَّداً (ص) وهو في غار حراء فوجأى بجبريل أمامه يراه بعينه ، وهو يقول له: اقرأ ، حتَّى يتبيَّن: أنَّ ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مَرَدُّهُ إلى حديث النَّفس المجرَّد؛ وإنَّما هو استقبالٌ وتلقٍّ لحقيقةٍ خارجيَّةٍ لا علاقة لها بالنَّفس ، وداخل الذات. وضمُّ الملك إيَّاه ، ثمَّ إرساله ثلاث مرَّات قائلاً في كلِّ مرَّة: اقرأ ، يعتبر تأكيداً لهذا التلقِّي الخارجيِّ ، ومبالغةً في نفي ما قد يتصوَّر ، من أنَّ الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط.

ولقد أصيب النَّبيُّ (ص) بالرُّعب ، والخوف ممَّا سمع ، ورأى ، وأسرع إلى بيته يرجف فؤاده ، وهذا يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ (ص) لم يكن متشوِّقاً للرِّسالة التي سيكلف بثقلها وتبليغها للنَّاس[(٢٩٢)] ، وقد قال الله

تعالى تأكيداً لهذا المعنى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ *} [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣] وقال: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ *} [يونس: ١٥ ـ ١٦] .

لقد تساقطت اراء المشكِّكين في حقيقة الوحي أمام الحديث الصَّحيح الَّذي حدَّثتنا به السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، وقد استمرَّ الوحي بعد ذلك يحمل الدَّلالة نفسها على حقيقة الوحي؛ وأنَّه ليس كما أراد المشكِّكون. وقد أجمل الدُّكتور البوطي هذه الدَّلالة فيما يلي:

١ ـ التمييز الواضح بين القران ، والحديث؛ إذ كان يأمر بتسجيل الأوَّل فوراً ، على حين يكتفي بأان يستودع الثَّاني ذاكرة أصحابه؛ لا لأنَّ الحديث كلام من عنده لا علاقة للنُّبوَّة به؛ بل لأنَّ القران موحى به إليه بألفاظه ، وحروفه بواسطة جبريل عليه السلام ، أما الحديث؛ فمعناه وحي من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولكن لفظه ، وتركيبه من عنده (ص) ، فكان يحاذر أن يختلط كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الَّذي يتلقَّاه من جبريل بكلامه هو (ص) .

٢ ـ كان النَّبيُّ (ص) يُسأل عن بعض الأمور ، فلا يُجيب عنها ، وربما مرَّ على سكوته زمنٌ طويلٌ ، حتَّى تنزل اية من القران في شأن سؤاله. وربما تصرَّف الرَّسول (ص) في بعض الأمور على وجهٍ معين ، فتتنزل ايات من القران تصرفه عن ذلك الوجه ، وربما انطوت على عَتْبٍ ، أو لومٍ له.

٣ ـ كان رسول الله (ص) أمياً ، وليس من الممكن أن يعلم إنسان بواسطة المكاشفة النَّفسيَّة حقائق تاريخيَّةً ، كقصَّة يوسف عليه السلام ، وأمِّ موسى حينما ألقت وليدها في اليمِّ ، وقصَّة فرعون ، ولقد كان هذا من جملة الحكم في كونه (ص) أمياً. يقول تعالى: {وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ *} [العنكبوت: ٤٨].

٤ ـ إنَّ صدق النَّبيِّ (ص) أربعين سنةً مع قومه ، واشتهاره فيهم بذلك يستدعي أن يكون (ص) من قبل ذلك صادقاً مع نفسه ، ولذا فلابدَّ أن يكون قد قضى في دراسته لظاهرة الوحي على أيِّ شكٍّ يخايل لعينيه ، أو فكره ، وكأنَّ هذه الاية جاءت رداً لدراسته الأولى لشأن نفسه مع الوحي: {فَإِنْ كُنْتَ فِي

شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *} [يونس: ٩٤] .

ولهذا روي: أنَّ النَّبيَّ (ص) قال بعد نزول هذه الاية: «لا أشكُّ ، ولا أسأل» [عبد الرزاق (١٠٢١١) والسيوطي في الدر المنثور (٣٨٩/٤)] .

خامساً: أنواع الوحي:

تحدَّث العلماء عن أنواع الوحي ، فذكروا منها:

١ ـ الرُّؤيا الصَّادقة:

وكانت مبدأ وحيه (ص) ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصُّبح ، وقد جاء في الحديث: «رؤيا الأنبياء وحيٌ» ، وقال تعالى في حقِّ إبراهيم عليه السلام: {يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [الصافات: ١٠٢] .

٢ ـ الإلهام:

وهو أن ينفث الملك في رُوْعِه ـ أي: قلبه ـ من غير أن يراه ، كما قال (ص) : «إنَّ روح القدس نَفَثَ في رُوْعي» أي: إنَّ جبريل عليه السلام نفخ في قلبي ، «أنَّه لن تموت نفسٌ حتَّى تستكمل رزقها ، وأجلها؛ فاتَّقوا الله ، وأجْمِلُوا في الطَّلب» [البغوي في شرح السنة (٣٠٤/١٣) برقم (٤١١٢) وابن عبد البر في التمهيد (٢٨٤/١)].

٣ ـ أن يأتيه مثل صلصلة الجرس:

أي مثل صوته في القوَّة ، وهو أشَدُّهُ ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: أنَّ الحارث رضي الله عنه سأل رسول الله (ص) : كيف يأتيك الوحي؟ فقال (ص) : «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشدُّه عليَّ ، فيُفْصَمُ عنِّي وقد وَعَيْتُ ما قال ، وأحياناً يتمثَّل لي الملك رجلاً ، فيكلِّمني ، فأعي ما يقول» [البخاري (٢) ومسلم (٨٧/٢٣٣)] .

٤ ـ ما أوحاه الله تعالى إليه ، بلا وساطة مَلَكٍ:

كما كلَّم الله موسى بن عمران عليه السلام ، وهذه المرتبة هي ثابتةٌ لموسى قطعاً بنصِّ القران ، وثبوتها لنبينا (ص) في حديث الإسراء[(٢٩٣)].

٥ ـ أنَّه يرى الملك في صورته الَّتي خلق عليها:

فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.

٦ ـ أنَّه (ص) كان يتمثَّل له المَلكُ رجلاً:
فيخاطبه حتَّى يَعِيَ عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصَّحابة أحياناً[(٢٩٤)].
هذا ما قاله ابن القيِّم عن مراتب الوحي.
لقد كان نزول الوحي على رسول الله (ص) بداية عهدٍ جديدٍ في حياة الإنسانيَّة ، بعدما انقطع ، وتاهت البشرية في دياجير الظَّلام.
وكان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله (ص) ـ كما هو واضحٌ من النَّصِّ ـ بالرَّغم من أنَّه كان أشجع النَّاس ، وأقواهم قلباً ، كما دلَّت على ذلك الأحداث خلال ثلاثٍ وعشرين سنةً ؛ وذلك؛ لأنَّ الأمر ليس مخاطبة بشرٍ لبشر ، ولكنَّه كان مخاطبة عظيم الملائكة ، وهو يحمل كلام الله تعالى؛ ليستقبله من اصطفاه الله ـ جلَّ وعلا ـ لحمل هذا الكلام وإبلاغه لجميع البشر.
ولقد كان موقفاً رهيباً ومسؤوليَّةً عظمى ، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرِّسالة ، وتبليغها[(٢٩٥)].

وممَّا يُصَوِّر رهبة هذا الموقف ، ما جاء في هذه الرِّواية ، من قول رسول الله (ص) : «لقد خشيت على نفسي» ، وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: «فرجع بها رسول الله (ص) يرجُف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، قال: زمِّلوني! زملوني! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع».
وممَّا يبيِّن شدَّة نزول الوحي على رسول الله (ص) ، ما أخرجه الإمام البخاريُّ ، ومسلمٌ ـ رحمهما الله! ـ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ولقد رأيته ـ تعني: رسول الله (ص) ـ ينزل عليه الوحي في اليوم الشَّديد البرد ، فيَفصم عنه ، وإنَّ جبينه ليَتَفَصَّدُ عرقاً» [البخاري (٢) ومسلم (٨٦/٢٣٣٣)] وحديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: «كان نبيُّ الله (ص) إذا أُنزل عليه الوحي؛ كُرِبَ لذلك ، وتَرَبَّد وجهُه» [مسلم (٢٣٣٤) وأحمد (٥/٣١٧)].
سادساً: أثر المرأة الصَّالحة في خدمة الدَّعوة:
«فرجع بها رسول الله (ص) يَرْجُفُ فؤادُهُ ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال: زمِّلوني! زملوني! فزمَّلوه حتَّى ذهب عنه الرَّوع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا ، والله ما يخزيك الله أبداً! إنَّك لتصل الرَّحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضَّيف ، وتعين على نوائب الحقِّ» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] .

كان موقف خديجة رضي الله عنها يدلُّ على قوّة قلبها؛ حيث لم تفزع من سماع هذا الخبر ، واستقبلت الأمر بهدوءٍ ، وسكينةٍ ، ولا أدلَّ على ذلك من ذهابها فور سماعها الخبر إلى ورقة بن نوفل ، وعرضها الأمر عليه[(٢٩٦)].

كان موقف خديجة رضي الله عنها من خبر الوحي يدلُّ على سعة إدراكها؛ حيث قارنت بين ما سمعت وواقع النَّبيِّ (ص) ، فأدركت: أنَّ من جُبِلَ على مكارم الأخلاق لا يخزيه الله أبداً ، فقد وصفته بأنَّه يصل الرَّحم ، وكون الإنسان يصل أقاربه دليلٌ على استعداده النَّفسيِّ لبذل الخير ، والإحسان إلى النَّاس؛ فإنَّ أقارب الإنسان هم المراة الأولى لكشف أخلاقه ، فإن نجح في احتواء أقاربه ، وكسبهم بما له عليهم من معروفٍ؛ كان طبيعياً أن ينجح في كسب غيرهم من النَّاس[(٢٩٧)].

كانت أمُّ المؤمنين السَّيدة خديجة رضي الله عنها قد سارعت إلى إيمانها الفطريِّ ، وإلى معرفتها بسنن الله تعالى في خلقه ، وإلى يقينها بما يملك محمَّدٌ (ص) من رصيد الأخلاق ، وفضائل الشَّمائل ، ليس لأحدٍ من البشر رصيدٌ مثله في حياته الطَّبيعيَّة الَّتي يعيش بها مع النَّاس ،

وإلى ما ألهمت بسوابق العناية الربَّانيَّة الَّتي شهدت اياها؛ من حفاوة الله تعالى بمحمَّدٍ (ص) ، في مواقف لم تكن من مواقف النُّبوَّة والرِّسالة ، ولا من إرهاصاتها المعجزة ، وأعاجيبها الخارقة ، ولكنَّها كانت من مواقف الفضائل الإنسانيَّة السَّارية في حياة ذوي المكارم ، من أصحاب المروءات في خاصَّة البشر[(٢٩٨)].

كانت موقنةً بأنَّ زوجها فيه من خصال الجبلَّة الكماليَّة ، ومحاسن الأخلاق الرَّصينة ، وفضائل الشِّيم المرضيَّة ، وأشرف الشَّمائل العليَّة ، وأكمل النَّحائز[(٢٩٩)] الإنسانيَّة ، ما يضمن له الفوز ويحقِّق له النَّجاح ، والفلاح ، فقد استدلَّت بكلماتها العميقة على الكمال المحمَّديِّ[(٣٠٠)] ، فقد استنبطت خديجة رضي الله عنها من اتِّصاف محمَّدٍ (ص) بتلك الصِّفات: أنَّه لن يتعرَّض في حياته للخزي أبداً؛ لأنَّ الله تعالى فطره على مكارم الأخلاق ، وضربت المثل بما ذكرته من أصولها الجامعة لكمالاتها.

ولم تعرف الحياة في سنن الكون الاجتماعيَّة: أنَّ الله تعالى جمَّل أحداً من عباده بفطرة الأخلاق الكريمة ، ثمَّ أذاقه الخزي في حياته ، ومحمَّدٌ (ص) بلغ من المكارم ذروتها ، فطرةٌ فطره الله عليها لا تُطاوَل ، ولا تُسَامَى[(٣٠١)].

ولم تكتفِ خديجة رضي الله عنها بمكارم أخلاق النَّبيِّ (ص) على نبوَّته؛ بل ذهبت إلى ابن عمِّها العالم الجليل ورقة بن نوفل ـ رحمه الله! ـ الَّذي كان ينتظر ظهور نبيٍّ اخر الزَّمان ، لما عرفه من علماء أهل الكتاب

من دنوِّ زمانه ، واقتراب مبعثه ، وكان لحديث ورقة أثرٌ طيِّبٌ في تثبيت النَّبيِّ (ص) وتقوية قلبه ، وقد أخْبَرَ النَّبيَّ (ص) بأنَّ الذي خاطبه هو صاحب السِّرِّ الأعظم ، الَّذي يكون سفيراً بين الله تعالى ، وأنبيائه ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ ومن أشعار ورقة التي تدل على انتظاره لمبعث النَّبيِّ (ص) قوله:

لَجَجْتُ وكنتُ في الذِّكْرى لجُوجَاًلهِمٍّ طَالَما بَعَثَ النَّشِيجَا

وَوَصْفٍ من خَدِيجَةَ بَعْدَ وَصْفٍفَقَدْ طَالَ انْتِظَارِي يا خَدِيجَا

بِبَطْنِ المكَّتَيْنِ[(٣٠٢)] عَلَى رَجَائيحَدِيْثَكِ أن أرَى مِنْهُ خُرُوجا

بما خَبَّرْتِنَا مِنْ قَوْلِ قَسٍّمِنَ الرُّهْبَانِ أكْرَهُ أن يَعُوجا

بأنَّ مُحَمَّداً سَيَسُود فِينَاويَخْصِمُ مَنْ يكُونُ له حَجِيجا[(٣٠٣)]

لقد صدَّق ورقة بن نوفل برسالة النَّبيِّ (ص) ، وشهد له النَّبيُّ (ص) بالجنَّة ، فقد جاء في روايةٍ أخرجها الحاكم بإسناده عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ (ص) قال: «لا تسبُّوا ورقة ، فإنِّي رأيت له جنَّةً ، أو جنَّتين» [الحاكم (٢/٦٠٩) والبزار (٢٧٥٠ و٢٧٥١) ومجمع الزوائد (٩/٤١٦)] .

وعن عائشة رضي الله عنها: أنَّ خديجة رضي الله عنها سألت رسول الله (ص) عن ورقة ، فقال: «قد رأيته فرأيت عليه ثياباً بيضاً ، فأحسبه لو كان من أهل النَّار لم يكن عليه ثياب بيض». قال الهيثميُّ: وروى أبو يعلى بسندٍ حسنٍ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله (ص) سئل عن ورقة بن نوفل ، فقال: «أبصرته في بُطْنان[(٣٠٤)] الجنَّة وعليه السُّندس» [أبو يعلى (٢٠٤٧) ومجمع الزوائد (٩/٤١٦)] .

لقد قامت خديجة رضي الله عنها بدورٍ مهمٍّ في حياة النَّبيِّ (ص) ؛ لما لها من شخصيةٍ في مجتمع قومها ، ولما جُبلت عليه من الكفاءة في المجالات النَّفسيَّة ، الَّتي تقوم على الأخلاق العالية؛ من الرَّحمة ، والحلم ، والحكمة ، والحزم ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق. والرَّسول (ص) قد وفقه الله تعالى إلى هذه الزَّوجة المثاليَّة؛ لأنَّه قدوةٌ للعالمين ، وخاصَّةً الدُّعاة إلى الله ، فقيام خديجة بذلك الدَّور الكبير إعلامٌ من الله تعالى لجميع حملة الدَّعوة الإسلاميَّة بما يشرع لهم أن يسلكوه في هذا المجال ، من التأسِّي برسول الله (ص) ، حتَّى يتحقَّق لهم بلوغ المقاصد العالية الَّتي يسعون لتحقيقها[(٣٠٥)].

إنَّ السيدة خديجة رضي الله عنها مثالٌ حسنٌ ، وقدوةٌ رفيعةٌ لزوجات الدُّعاة ، فالدَّاعية إلى الله ليس كباقي الرِّجال الَّذين هم بعيدون عن أعباء الدَّعوة ، ومن الصَّعب أن يكون مثلهم في كلِّ شيءٍ؛ إنَّه صاحب هَمٍّ ، ورسالةٍ ، هَمٍّ على ضياع أمَّته ، وانتشار الفساد ، وزيادة شوكة أهله ، وهَمٍّ لما يصيب

المسلمين في مشارق الأرض ، ومغاربها ، من مؤامراتٍ ، وظلمٍ ، وجوعٍ ، وإذلالٍ ، وما يصيب الدُّعاة منهم من تشريدٍ ، وتضييقٍ ، وتنكيلٍ ، وبعد ذلك هو صاحب رسالة؛ واجب عليه تبليغها للاخرين ، وهذا الواجب يتطلَّب وقتاً طويلاً يأخذ عليه أوقات نومه، وراحته، وأوقات زوجته، وأبنائه، ويتطلَّب تضحيةً بالمال والوقت، والدُّنيا بأسرها ، ما دام ذلك في سبيل الله ومرضاته ، وإن أوتيت الزَّوجة من الأخلاق ، والتَّقوى ، والجمال ، والحسب ما أوتيت ، إنَّه يحتاج إلى زوجة تدرك واجب الدَّعوة ، وأهمِّيتها ، وتدرك تماماً ما يقوم به الزَّوج ،

وما يتحمَّله من أعباء ، وما يعانيه من مشاقّ ، فتقف إلى جانبه تيسِّر له مهمَّته وتعينه عليها ، لا أن تقف عائقاً ، وشوكةً في طريقه[(٣٠٦)].

إنَّ المرأة الصَّالحة لها أثرٌ في نجاح الدَّعوة ، وقد اتَّضح ذلك في موقف خديجة رضي الله عنها ، وما قامت به من الوقوف بجانب النَّبيِّ (ص) وهو يواجه الوحي لأوَّل مرَّةٍ ، ولا شكَّ: أنَّ الزَّوجة الصَّالحة المؤهَّلة لحمل مثل هذه الرِّسالة ، لها دورٌ عظيمٌ في نجاح زوجها في مهمَّته في هذه الحياة ، وبخاصةٍ الأمور التي يعامل بها النَّاس ، وإنَّ الدَّعوة إلى الله تعالى هي أعظم أمر يتحمَّله البشر ، فإذا وُفِّق الدَّاعية لزوجةٍ صالحةٍ ذات كفاءةٍ ، فإنَّ ذلك من أهمِّ أسباب نجاحه مع الاخرين[(٣٠٧)] ، وصدق رسول الله (ص) إذ يقول: «الدُّنيا متاعٌ ، وخير متاع الدُّنيا المرأةُ الصَّالحةُ» [أحمد (٢/١٦٨) ومسلم (١٤٦٧) والنسائي في السنن الكبرى (٥٣٢٥) وابن ماجه (١٨٥٥)] .

سابعاً: وفاء النَّبيِّ (ص) للسَّيدة خديجة رضي الله عنها:

كان رسول الله (ص) مثالاً عالياً للوفاء ، وردِّ الجميل لأهله ، فقد كان في غاية الوفاء مع زوجته المخلصة في حياتها ، وبعد مماتها ، وقد بشَّرها (ص) ببيتٍ في الجنَّة في حياتها ، وأبلغها سلام الله ـ جلَّ وعلا ـ وسلام جبريل عليه السلام ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى جبريلُ النَّبيَّ (ص) ، فقال: يا رسول الله! هذه خديجة قد أتتك ، معها إناءٌ فيه إدامٌ ـ أو طعامٌ ، أو شرابٌ ـ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السَّلام من ربِّها ـ عزَّ وجلَّ ـ ومني ، وبشِّرها ببيت في الجنَّة من قَصَبٍ[(٣٠٨)]لا صَخَبَ فيه ، ولا نَصَبَ» [البخاري (٣٨٢٠) ومسلم (٢٤٣٢)].

وتذكر عائشة رضي الله عنها وفاء النَّبيِّ (ص) لخديجة بعد وفاتها بقولها: «ما غرتُ على أحدٍ من نساء النَّبيِّ (ص) ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكنْ كان النَّبيُّ (ص) يُكْثِرُ ذكرها ، وربما ذبح الشَّاة ، ثمَّ يُقطِّعُها أعضاء ، ثمَّ يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له: كأنَّه لم يكن في الدُّنيا امرأةٌ إلا خديجةُ؟

فيقول: إنَّها كانت ، وكانت ، وكان لي منها ولد» [البخاري (٣٨١٨) ومسلم (٢٤٣٥) واللفظ للبخاري]
.

وأظهر (ص) البشاشة ، والسُّرور لأخت خديجة ، لما استأذنت عليه لتذكُّره خديجة ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «استأذنت هالةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله (ص) ، فعرف استئذان خديجة[(٣٠٩)] فارتاح لذلك ، فقال: اللهم هالةُ بنتُ خويلدٍ! فغِرْت ، فقلت: وما تَذْكُرُ من عجوزٍ من عجائز قريش ، حمراء الشِّدْقَيْنِ[(٣١٠)] هلكت في الدَّهر؛ فأبدلك الله خيراً منها» [البخاري (٣٨٢١) ومسلم (٢٤٣٧)] . وأظهر (ص) الحفاوة بامرأةٍ كانت تأتيهم زمن خديجة ، وبيَّن: أن حفظ العهد من الإيمان[(٣١١)].

ثامناً: سنَّة تكذيب المرسلين:

«يا ليتني فيها جَذَعاً! ليتني أكون حياً؛ إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله (ص) : «أوَ مخرجيَّ هم؟!» قال: نعم؛ لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئت به إلا عُوديَ ، وإن يدركْني يومك؛ أنصرْك نصراً مؤزراً» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] ، فقد بيَّن الحديثُ سنَّةً من سنن الأمم مع مَنْ يدعوهم إلى الله ـ عزَّ وجل ـ وهي التَّكذيب ، والإخراج ، كما قال تعالى عن قوم لوط: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ *} [النمل: ٥٦] .

وكما قال قوم شعيبٍ: {قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ *} [الأعراف: ٨٨].

وقال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ *} [إبراهيم: ١٣].

تاسعاً: قوله: (وفتر الوحي):

تحدَّث علماء السِّيرة قديماً ، وحديثاً عن فترة الوحي ، فقال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخُّره مدَّةً من الزَّمان ، وكان ذلك ليذهب ما كان (ص) وجده من الرَّوع ، وليحصل له التَّشَوُّف[(٣١٢)] إلى العود[(٣١٣)].

وعن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ: أنَّ النَّبيَّ (ص) قال وهو يحدِّث عن فترة الوحي: «بينا أنا أمشي؛ إذ سمعت صوتاً من السَّماء ، فرفعت بصري ، فإذا الْمَلَكُ الَّذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسيٍّ بين السَّماء

، والأرض ، فرُعبت منه ، فرجعت فقلت: زملوني! فأنزل الله تعالى: فَحَمِيَ {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ *} ، وتتابع» [البخاري (٤) ومسلم (١٦١)] .

وقال صفيُّ الرَّحمن المباركفوري: «أمَّا مدَّة فترة الوحي؛ فروى ابن سعدٍ عن ابن عبَّاسٍ ما يفيد: أنَّها كانت أياماً ، وهذا الذي يترجَّح؛ بل يتعيَّن بعد إدارة النظر في جميع الجوانب ، وأمَّا

ما اشتهر من أنَّها دامت طيلة ثلاث سنين ، أو سنتين ونصف؛ فلا يصحُّ بحالٍ ، وليس هذا موضع التفصيل في ردِّه. وقد بقي رسولُ الله (ص) في أيام الفترة كئيباً محزوناً تعتريه الحيرة ، والدَّهشة»[(٣١٤)].

ولقد ذكر البخاريُّ في صحيحه: أنَّه (ص) حزن حزناً غدا منه مراراً كي يتردَّى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلَّما أوفى بذروة جبل لكي يُلْقي منه نفسه؛ تَبَدَّى لَه جبريل ، فقَال: يا محمد! إنَّك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقرُّ نفسه ، فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل؛ تبدَّى له جبريل ، فقالَ له مثل ذلك [البخاري (٦٩٨٢) وابن حبان (٣٣) والبيهقي في الدلائل (١٣٨/٢)] .

* * *

المبحث الثَّاني

الدَّعوة السِّرِّيَّة

أولاً: الأمر الرَّبانيُّ بتبليغ الرِّسالة:

عرف النَّبيُّ (ص) معرفة اليقين: أنَّه أصبح نبياً لله الرَّحيم الكريم ، وجاءه جبريل عليه السلام للمرَّة الثَّانية ، وأنزل الله على نبيِّه قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *قُمْ فَأَنْذِرْ *وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *} [المدثر: ١ ـ ٤].

كانت هذه الايات المتتابعة إيذاناً للرَّسول (ص) بأنَّ الماضي قد انتهى بمنامه ، وهدوئه ، وأنَّه أمامه عملٌ عظيمٌ ، يستدعي اليقظة ، والتَّشْمير ، والإنذار ، والإعذار ، فليحمل الرِّسالة ، وليوجِّه الناس ، وليأنس بالوحي ، وليقوَ على عنائه؛ فإنَّه مصدر رسالته ، ومدد دعوته[(٣١٥)].

وتعدُّ هذه الايات أوَّل أمرٍ بتبليغ الدَّعوة ، والقيام بالتَّبعة ، وقد أشارت هذه الايات إلى أمور هي خلاصة الدَّعوة المحمَّدية ، والحقائق الإسلاميَّة؛ الَّتي بُني عليها الإسلام كلُّه ، وهي: الوحدانيَّة ، والإيمان باليوم الاخر ، وتطهير النُّفوس ، ودفع الفساد عن الجماعة ، وجلب النَّفع[(٣١٦)].

كانت هذه الايات تهييجاً لعزيمة رسول الله (ص) ؛ لينهض بعبء ما كُلِّفه من تبليغ رسالات ربِّه ، فيمضي قُدُماً بدعوته ، لا يبالي العقبات ، والحواجز. كان هذا النِّداء مُتلطِّفاً إيذاناً بشحذ {يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ *} ، وتوديعاً لأوقات النَّوم ، والرَّاحة ، وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنُّهوض في عزيمةٍ {قُمْ} ، وقوَّةٍ حازمةٍ ، تتحرَّك في اتجاه تحقيق واجب التَّبليغ ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفرداً عن التَّبشير. في أوَّل خطابٍ وُجِّه إلى النَّبيِّ (ص) بعد فترة الوحي . إيذانٌ بأنَّ رسالته تعتمد على الكفاح الصَّبور ، والجهاد المرير ، ثمَّ زادت الايات في تقوية عزيمة النَّبيِّ (ص) ، وشدِّ أزره ، وحَضِّه على المضيّ قُدُماً إلى غاية ما أُمر به ، غير عابأًى بما يعترض طريقه من عقبات ، مهما يكن شأنها ، فقيل له: أي: لا تعظم شيئاً من أمور الخلق ، ولا يتعاظمك منهم شيءٌ ، فلا تتهيَّب فعلاً من أفعالهم ، ولا تخشَ أحداً منهم ، ولا تعظِّم إلا ربَّك ، الَّذي تعهَّدك وأنت في أصلاب الاباء ، وأرحام الأمَّهات ، فربَّاك على موائد فضله ، ورعاك بإحسانه وجوده حتَّى أخرجك للنَّاس نبياً ، ورسولاً ، بعد أن أعدَّك خلْقاً وخُلُقاً؛ لتحمل أمانة أعظم رسالاته : فكلُّ تعظيمٍ وتكبيرٍ وإجلال حقٌّ لله تعالى {وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ *} ، لا يشاركه فيه أحد ، أو شيءٌ من مخلوقاته[(٣١٧)].

وفي قوله تعالى: فكأنَّه قيل له {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ *} : فأنت على طهرك وتطهُّرك بفطرتك في كمال إنسانيَّتك ، بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق ، وبما حباك به من نبوَّته؛ ليعدَّك بها ليومك هذا . أحوج إلى أن تزداد في تطهُّرك النَّفسيِّ ، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء ، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين ، وكمال الرِّسالة في كمال الخُلق الاجتماعيِّ؛ صبراً ، وحلماً ، وعفواً ، وإحساناً ، ودأباً على الجدِّ في تبليغ الدَّعوة إلى الله تعالى ، ولا يثنيك إيذاءٌ ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء[(٣١٨)].

وفي قوله تعالى: فكأنَّه قيل له {وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ *} : ليكن قصدك ، ونيَّتك في تركك ما تركت فطرةً ، وطبعاً؛ هجره تكليفاً ، وتعبُّداً؛ لتكون قدوة أمَّتك ، وعنوان تطهُّرها بهداية رسالتك[(٣١٩)].

ثانياً: بدء الدَّعوة السِّرِّيَّة:

بعد نزول ايات المدثر ، قام رسول الله (ص) يدعو إلى الله ، وإلى الإسلام سراً ، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته ، وأصدقائه ، وأقرب النَّاس إليه.

١ ـ إسلام السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

كان أوَّل من امن بالنَّبيِّ (ص) من النِّساء ، بل أوَّل من امن به على الإطلاق ، السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، فكانت أوَّل من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرَّسول الكريم (ص) ، وكانت أوَّل من تلا القران بعد أن سمعته من صوت الرَّسول العظيم (ص) ، وكانت كذلك أوَّل من تعلَّم الصَّلاة من رسول الله (ص) ، فبيتُها هو أوَّل مكان تُلي فيه أوَّل وحيٍ نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم بعد غار حراء[(٣٢٠)].

كان أوَّل شيءٍ فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتَّوحيد ، إقامة الصَّلاة ، وقد جاء في

الأخبار حديث تعليم الرَّسول (ص) زوجه خديجة الوضوء ، والصَّلاة ، حين افتُرضت على رسول الله: أتاه جبريل وهو بأعلى مكَّة ، فهمز له بعَقبهِ في ناحية الوادي ، فانفجرت منه عينٌ ، فتوضَّأ جبريلُ عليه السلام ، ورسولُ الله (ص) ينظر ليُرِيَه كيفية الطُّهور للصَّلاة ، ثمَّ توضَّأ رسولُ الله (ص) كما رأى جبريل توضَّأ ، ثمَّ قام جبريل عليه السلام فصلَّى به ، وصلَّى النَّبيُّ (ص) بصلاته ، ثمَّ انصرف جبريل عليه السلام ، فجاء رسول الله (ص) خديجة رضي الله عنها ، فتوضَّأ لها يريها كيف الطُّهور للصَّلاة ، كما أراه جبريل عليه السلام ، فتوضَّأت كما توضَّأ رسول الله (ص) ، ثمَّ صلَّى بها رسولُ الله (ص) ، كما صلَّى به جبريل عليه السلام ، فصلَّت بصلاته. [ابن هشام (١/٢٦٠ ـ ٢٦١)] .

٢ ـ إسلام عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه:

وبعد إيمان السَّيدة خديجة ، دخل عليُّ بن أبي طالب في الإسلام ، وكان أوَّل من امن من الصِّبيان ، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال ، وهو قول الطَّبريِّ ، وابن إسحاق[(٣٢١)] ، وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربَّى في حجر رسوله (ص) قبل الإسلام ، حيث أخذه من عمِّه أبي طالب وضمَّه إليه[(٣٢٢)] ، وكان عليٌّ رضي الله عنه ثالث من أقام الصَّلاة بعد رسول الله (ص) ، وبعد خديجة رضي الله عنها[(٣٢٣)].

وقد ذكر بعض أهل العلم: أنَّ رسول الله (ص) كان إذا حضرت الصَّلاة؛ خرج إلى شعاب مكَّة ، وخرج معه عليُّ بن أبي طالبٍ مستخفياً من أبيه ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصلِّيان الصَّلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ليضمَّهما ذلك البيت الطَّاهر التَّقيُّ بالإيمان ، المفعم بصدق الوفاء ، وكرم الْمَنْبِتِ[(٣٢٤)].

٣ ـ إسلام زيد بن حارثة رضي الله عنه:

هو أوَّل من امن بالدَّعوة من الموالي[(٣٢٥)] ، حِبُّ النَّبيِّ (ص) ، ومولاه ، ومُتَبنَّاه: زيد ابن حارثة الكلبيُّ، الَّذي اثر رسول الله (ص) على والده ، وأهله؛ عندما جاؤوا إلى مكَّة لشرائه من رسول الله (ص) ، فترك رسول الله (ص) الأمر لزيدٍ، فقال زيدٌ لرسول الله: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، وأنت منِّي بمنزلة الأب، والعمِّ، فقال له والده، وعمُّه: ويحك! تختار العبوديَّة على الحرِّيَّة ،

وعلى أبيك ، وعمِّك ، وأهل بيتك! قال: نعم! وإنِّي رأيت من هذا الرَّجل شيئاً ما أنا بالَّذي أختار عليه أحداً أبداً[(٣٢٦)].

٤ ـ بنات النَّبيِّ (ص):

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النَّبيِّ (ص) ، كلٌّ من: زينب ، وأمِّ كلثوم ، وفاطمة ، ورقيَّة ، فقد تأثَّرْنَ قبل البعثة بوالدهنَّ (ص) في الاستقامة ، وحسن السِّيرة ، والتَّنزُّه عمَّا كان يفعله أهل الجاهليَّة ، من عبادة الأصنام ، والوقوع في الاثام ، وقد تأثَّرن بوالدهنَّ؛ فأسرعن إلى الإيمان[(٣٢٧)]. وبذلك أصبح بيت النَّبيِّ (ص) أوَّل أسرةٍ مؤمنةٍ بالله تعالى ، منقادةٍ لشرعه في الإسلام ، ولهذا البيت النَّبويِّ الأوَّل مكانةٌ عظمى في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة؛ لما حباه الله به من مزايا ، وخصَّه بشرف الأسبقية في الإيمان ، وتلاوة القران ، وإقام الصَّلاة؛ فهو:

* أوَّل مكانٍ تلي فيه وحي السَّماء بعد غار حراء.

* وأوَّل بيتٍ ضمَّ المؤمنة الأولى سابقة السَّبق إلى الإسلام.

* وأوَّل بيت أقيمت فيه الصَّلاة.

* وأول بيت اجتمع فيه المؤمنون الثَّلاثة السَّابقون إلى الإسلام: خديجة ، وعليٌّ ، وزيد بن حارثة.

* وأوَّل بيت تعهَّد بالنُّصرة ، ولم يتقاعس فيه فردٌ من أفراده ـ كباراً ، أو صغاراً ـ عن مساندة الدَّعوة[(٣٢٨)].

يحقُّ لهذا البيت أن يكون قدوةً ، ويحقُّ لربَّته أن تكون مثالاً ، ونموذجاً حيّاً لبيوت المسلمين ، ولنسائهم ، ورجال المؤمنين كافَّةً؛ فالزَّوجة فيه طاهرةٌ ، مؤمنةٌ ، مخلصةٌ ، وزيرة الصِّدق ، والأمان ، وابن العمِّ المحضون ، والمكفول مستجيبٌ ، ومعضِّد ، ورفيقٌ ، والْمُتَبَنَّى مؤمنٌ ، صادقٌ ، مساعدٌ ، ومعينٌ ، والبنات مصدِّقاتٌ ، مستجيباتٌ ، مؤمناتٌ ، ممتثلات[(٣٢٩)].

لقد اكتسى هذا البيت بأبهى حُلل الإيمان ، وأضاء أركانه قبسُ نور التَّصديق ، فكان بين الزَّوجين التَّجاوب ، والتَّكافل ، وتمَّ بذلك تجسيد معنى قوله تعالى في محكم تنزيله:

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأعراف: ١٨٩] .

وفيه أيضاً تجسيد ما رُوي عن النَّبيِّ (ص) في مجال التَّربية في قوله: «ما من مولودٍ إلا يُولد على الفطرة ، فأبواه يُهَوِّدانه ، أو يُنصِّرانه ، أو يُمَجِّسانه» [البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨)] ومن استقامة التَّربية كان بناته رضي الله عنهن من السَّابقات إلى التَّصديق ، والإيمان ، وهكذا كان للبيت النَّبويِّ مكانته الأولى ، والواجب يدعو إلى أن يكون قدوتنا ، والأنموذج الَّذي نسير على هديه ، في المعاشرة ، ومثاليَّة السُّلوك بالصِّدق ، والتَّصديق ، في الاستجابة ، والعمل لكلِّ من امن بالله رباً ، وبمحمَّدٍ نبياً ، ورسولاً[(٣٣٠)]. إنَّ الحقيقة البارزة في المنهج الرَّبانيّ تشير إلى أهميَّة بناء الفرد الصَّالح ، والأسرة الصَّالحة كأوَّل حلقةٍ من حلقات الإصلاح ، والبناء ، ثمَّ المجتمع الصَّالح ، ولقد تجلَّت عناية الإسلام بالفرد المسلم ، وتكوينه ، ووجوب أن يسبق أيَّ عمل اخر ، فالفرد المسلم هو حجر الزَّاوية في أي بناءٍ اجتماعيٍّ ، ولهذا كانت الأسرة هي التي تستقبل الفرد منذ ولادته ، وتستمرُّ معه مدَّةً طويلةً من حياته ، بل هي الَّتي تحيط به طوال حياته ، هي المحضن المتقدِّم الَّذي تتحدَّد به معالم الشَّخصيَّة ، وخصائصها ، وصفاتها ، كما أنَّها الوسيط بين الفرد ، والمجتمع ، فإذا كان هذا الوسيط سليماً قويّاً؛ أمدَّ طرفيه ـ الفرد والمجتمع ـ بالسَّلامة ، والقوَّة[(٣٣١)].

ولهذا اهتمَّ الإسلام بالأسرة ، واتَّجه إليها ، يضع لها الأسس الَّتي تكفل قيامها ، ونموَّها نمواً سليماً ، ويوجِّهها الوجهة الرَّبَّانيَّة؛ لتكون حلقةً قويَّةً في بناء المجتمع الإسلاميِّ ، والدَّولة الإسلاميَّة الَّتي تسعى لصناعة الحضارة الرَّبَّانيَّة في دنيا النَّاس[(٣٣٢)].

ويظهر هذا الاهتمام بالأسرة من حركة الدَّعوة الإسلاميَّة منذ ساعتها الأولى؛ إذ كان من قدر الله تعالى أن يكون أوَّل السَّابقين إلى الإسلام امرأةٌ (خديجة رضي الله عنها) ، إشادةً بمنزلة المرأة في الإسلام ، وأنَّه

يرسي قواعده على الأسرة ، وصبيٌّ (علي رضي الله عنه) ، إشارةً لحاجة الدَّعوة إلى البراعم الجديدة ، واهتمامها بالجيل النَّاشأى؛ لتسير في مراحلها الصَّحيحة لبناء المجتمع ، ثمَّ الدَّولة ، ثمَّ الحضارة[(٣٣٣)].

وإنَّ التَّأمُّل في نقطة البدء بهذه الدَّعوة الَّتي توجَّهت إلى امرأةٍ كخديجة رضي الله عنها ، ومولىً كزيد بن حارثة ، وصبيٍّ كعليِّ بن أبي طالبٍ ، وبقيَّة أسرة النَّبيِّ (ص) ، ليدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة موجهةٌ لكلِّ النَّاس . صغيرهم ، وكبيرهم ، ذكرهم ، وأنثاهم ،

وسيِّدهم ، ومولاهم . فلكلِّ هذه الشَّرائح الاجتماعيَّة من الرِّجال والنِّساء ، والأطفال ، والموالي دوره المنتظر في البناء الاجتماعيِّ ، وإقامة الدَّولة ، وانتشار الحضارة[(٣٣٤)].

٥ . إسلام أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه:

كان أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه أوَّل مَنْ امن بالنَّبيِّ (ص) من الرِّجال الأحرار ، والأشراف ، فهو من أخصِّ أصحاب رسول الله (ص) قبل البعثة ، وفيه قال رسولُ الله (ص) : «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوةٌ ، وتردُّدٌ ، ونَظرٌ ، إلا أبا بكر ، ما عَكَم[(٣٣٥)] حين دعوته ، ولا تردَّد فيه» [البيهقي في الدلائل (٢/١٦٤)] ، فأبو بكرٍ صاحب رسول الله (ص) ، وهو حسنةٌ من حسناته (ص) ؛ فلم يكن إسلامه إسلام رجلٍ ، بل كان إسلامه إسلام أمَّةٍ ، فهو في قريشٍ . كما ذكر ابن إسحاق . في موقع العين منها:

. كان رجلاً مَأْلَفاً[(٣٣٦)] لقومه ، محبباً ، سهلاً.

. وكان أنسب قريش لقريشٍ ، وأعلم قريشٍ بها ، وبما كان فيها من خيرٍ وشرٍّ.

. وكان رجلاً تاجراً ، ذا خلقٍ ، ومعروفٍ.

. وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحدٍ من الأمر؛ لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته[(٣٣٧)].

لقد كان أبو بكر كنزاً من الكنوز ادَّخره الله تعالى لنبيِّه (ص) ، وكان من أحبِّ قريشٍ لقريشٍ ، فذلك الخُلُق السَّمح الَّذي وهبه الله تعالى إيَّاه جعله من الموطَّئين أكنافاً ، من الذين يألفون ، ويؤلفون ، والخُلُق السَّمح وحدَه عنصرٌ كاف لألفة القوم ، وهو الَّذي قال فيه (ص) : «أَرْحمُ أمَّتي بأمَّتي أبو بكرٍ» [أحمد (٣/١٨٤ . ٢٨١) والترمذي (٣٧٩٠ و٣٧٩١) وابن ماجه (١٥٤)] وعِلْمُ الأنساب عند العرب وعلم التَّاريخ هما أهمُّ العلوم عندهم ، ولدى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه النَّصيب الأوفر منهما ، وقريشٌ تعترف للصِّدِّيق بأنَّه أعلمها بأنسابها ، وأعلمها بتاريخها ، وما فيه من خيرٍ وشرٍّ ، فالطبقة المثقَّفة ترتاد مجلس أبي بكر لتنهل منه علماً لا تجده عند غيره غزارةً ، ووفرةً ، وسعةً ، ومن أجل هذا كان الشَّباب

النَّابهون ، والفتيان الأذكياء يرتادون مجلسه دائماً ، إنَّهم الصَّفوة الفكريَّة المثقَّفة الَّتي تودُّ أن تلقى عنده هذه العلوم ، وهذا جانبٌ اخر من جوانب عظمته. وطبقة رجال الأعمال ، ورجال المال في مكَّة ، هي كذلك من روَّاد مجلس

الصِّدِّيق ، فهو إن لم يكن التَّاجر الأوَّل في مكَّة ، فهو من أشهر تجَّارها ، فأرباب المصالح هم كذلك قُصَّاده. ولطيبته ، وحسن خلقه تلقى عوامَّ النَّاس يرتادون بيته ، فهو المضياف الدَّمث الخُلُق؛ الَّذي يفرح بضيوفه ، ويأنس بهم ، فكلُّ طبقات المجتمع المكيِّ تجد حظَّها عند الصِّدِّيق ، رضوان الله عليه[(٣٣٨)] كان رصيده الأدبيُّ ، والعلميُّ ، والاجتماعيُّ في المجتمع المكيِّ عظيماً ، ولذلك عندما تحرَّك في دعوته للإسلام استجاب له صفوةٌ من خيرة الخلق ، وهم:

ـ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، في الرَّابعة والثلاثين من عمره.

ـ وعبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه ، في الثَّلاثين من عمره.

ـ وسعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ، وكان في السَّابعة عشرة من عمره.

ـ والزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه ، وكان في الثانية عشرة من عمره.

ـ وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وكان في الثالثة عشرة من عمره[(٣٣٩)].

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أوَّل ثمرةٍ من ثمار الصِّدِّيق أبي بكرٍ رضي الله عنه ، دعاهم إلى الإسلام ، فاستجابوا ، وجاء بهم إلى رسول الله (ص) فرادى ، فأسلموا بين يديه ، فكانوا الدِّعامات الأولى؛ الَّتي قام عليها صرح الدَّعوة ، وكانوا العدَّة الأولى في تقوية جانب رسول الله (ص) ، وبهم أعزَّه الله وأيَّده ، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، رجالاً ، ونساءً ، وكان كلٌّ من هؤلاء الطلائع داعيةً إلى الإسلام ، وأقبل معهم رعيل السَّابقين ، الواحد ، والاثنان ، والجماعة القليلة ، فكانوا على قلَّة عددهم كتيبة الدَّعوة ، وحصن الرِّسالة ، لم يسبقهم سابقٌ ، ولا يلحق بهم لاحقٌ في تاريخ الإسلام[(٣٤٠)].

إنَّ تحرُّك أبي بكر رضي الله عنه في الدَّعوة إلى الله تعالى يوضِّح صورةً من صور الإيمان بهذا الدِّين ، والاستجابة لله ورسوله (ص) ؛ صورة المؤمن الَّذي لا يقرُّ له قرارٌ ، ولا يهدأ له بالٌ ، حتَّى يحقِّق في دنيا النَّاس ما امن به ، دون أن تكون انطلاقته دفعةً عاطفيَّةً مؤقَّتةً سرعان ما تخمد ، وتذبل ، وتزول ، وقد بقي نشاط أبي بكرٍ ، وحماسه إلى أن توفَّاه الله ـ جلَّ وعلا ـ لم يفتر ، أو يضعف ، أو يملَّ ، أو يعجز.

ونلاحظ: أنَّ أصحاب الجاه لهم أثرٌ كبيرٌ في كسب أنصارٍ للدَّعوة؛ ولهذا كان أثر أبي بكرٍ رضي الله عنه في الإسلام أكثرَ من غيره[(٣٤١)].

بعد أن كانت صحبة الصِّدِّيق لرسول الله (ص) مبنيةً على مجرَّد الاستئناس النفسيِّ؛ والخلقيِّ؛ صارت الأنسة بالإيمان بالله وحدَه ، وبالمؤازرة في الشَّدائد ، واتَّخذ رسول الله (ص) من مكانة أبي بكر ، وأُنْسِ النَّاس به ، ومكانته عندهم قوةً لدعوة الحقِّ فوق ما كان له (ص) من قوَّة نفسٍ ، ومكانةٍ عند الله ، وعند النَّاس[(٣٤٢)].

ومضت الدَّعوة سرِّيَّةً ، وفرديَّةً على الاصطفاء ، والاختيار للعناصر؛ الَّتي تصلح أن تتكوَّن منها الجماعة المؤمنة ، الَّتي ستسعى لإقامة دولة الإسلام ، ودعوة الخلق إلى دين ربِّ العباد ، والَّتي ستقيم حضارةً ربّانيَّةً ليس لها مثيلٌ.

٦ ـ الدُّفْعة الثَّانية:

جاء دور الدُّفعة الثَّانية بعد إسلام الدُّفعة الأولى ، فأوَّل من أسلم من هذه الدُّفعة: أبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرَّة ابن عمَّة رسول الله (ص) (برَّة بنت عبد المطلب) ، وأخوه من الرَّضاع ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزوميُّ ، وعثمان بن مظعون الجمحيُّ ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيلٍ ، وقُدامة وعبد الله ابنا مظعونٍ ، وفاطمة بنت الخطَّاب بن نفيل ، أخت عمر بن الخطَّاب وزوجة سعيد بن زيد ، وأسماء بنت أبي بكر الصِّدِّيق ، وعائشة بنت أبي بكرٍ الصدِّيق ، وخباب بن الأرتِّ حليف بني زُهرة[(٣٤٣)].

٧ ـ الدُّفعة الثالثة:

أسلم عمير بن أبي وقَّاص أخو سعد بن أبي وقَّاصٍ ، وعبد الله بن مسعودٍ ، ومسعود بن القاري ، وهو مسعود بن ربيعة بن عمرٍو ، وسليط بن عمرٍو ، وأخوه حاطب بن عمرٍو ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وامرأته أسماء بنت سلامة ، وخُنَيس بن حُذافة السَّهميُّ ، وعامر بن ربيعة حليف ال الخطَّاب ، وعبد الله بن جحش ، وأخوه أبو أحمد ، وجعفر بن أبي طالب ، وامرأته أسماء بنت عُمَيس ، وحاطب بن الحارث ، وامرأته فاطمة بنت المجلَّل ، وأخوه حطَّاب بن الحارث ، وامرأته فُكَيهة بنت يسار ، وأخوهما معمَر بن الحارث ، والسَّائب بن عثمان بن مظعون ، والمطَّلب بن أزهر ، وامرأته رملة بنت أبي عوف ، والنَّحَّام بن عبد الله بن أُسَيْد ، وعامر بن فُهَيرة مولى أبي بكرٍ ، وفهيرة: أمُّه ، وكان عبداً للطُّفيل بن الحارث بن سَخْبَرَة ، فاشتراه الصِّدِّيق ، وأعتقه ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيٍّ ، وامرأته أمينة بنت خلف ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمسٍ ، وواقد بن عبد

الله بن عبد مناف ، وخالدٌ ، وعامرٌ ، وعاقلٌ ، وإياسٌ بنو البُكَيْر بن عبد يا ليل ، وعمَّار بن ياسرٍ حليف بني مخزوم بن يقظة ، وقال ابن هشام: عَنْسيٌّ من مَذْحج.

وصُهيب بن سنان ، هو (سابق الرُّوم).

ومن السَّابقين إلى الإسلام: أبو ذرٍّ الغفاريّ ، وأخوه أُنَيْس ، وأمُّه[(٣٤٤)].

ومن أوائل السَّابقين: بلال بن رباح الحبشيُّ.

وهؤلاء السَّابقون: من جميع بطون قريش ، عدَّهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً[(٣٤٥)].

وقال ابن إسحاق: ثمَّ دخل النَّاس في الإسلام أرسالاً من الرِّجال ، والنِّساء ، حتى فشا ذكر الإسلام في مكَّة ، وتُحدِّث به[(٣٤٦)].

ويتَّضح من عرض الأسماء السَّابقة: أنَّ السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم ، ولم يكونوا ـ كما يحبُّ أعداء الإسلام أن يصوِّروا للنَّاس ـ من حثالة النَّاس ، أو من الأرقَّاء؛ الَّذين أرادوا استعادة حرِّيَّتهم ، أو ما شابه ذلك. وجانب الصَّوابَ بعضُ كُتَّاب السِّيرة لدى حديثهم عن السَّابقين الأوَّلين إلى الإسلام ، فكان من كتابة بعضهم: «وتُحَدِّثنا السِّيرة: أنَّ الَّذين دخلوا في الإسلام في هذه المرحلة كان معظمُهم خليطاً من الفقراء ، والضُّعفاء ، والأرقَّاء ، فما الحكمة في ذلك؟»[(٣٤٧)] ، وكذلك قولهم: «كان رصيد هذه الدَّعوة بعد سنواتٍ ثلاثٍ من بدايتها أربعين رجلاً وامرأةً ، عامَّتهم من الفقراء ، والمستضعفين ، والموالي ، والأرقَّاء ، وفي مقدِّمتهم أخلاطٌ من مختلف الأعاجم: صهيبٌ الرُّوميُّ ، وبلالٌ الحبشيُّ»[(٣٤٨)]. وقولهم: «فامن به ناسٌ من ضعفاء الرِّجال ، والنِّساء ، والموالي»[(٣٤٩)].

إنَّ البحث الدَّقيق يثبت: أنَّ مجموع من أشير إليهم بالفقراء ، والمستضعفين ، والموالي والأرقَّاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر ، ونسبة هذا العدد من العدد الكلِّيِّ من الدَّاخلين في الإسلام لا يقال عليه: «أكثرهم» ، ولا «معظمهم» ، ولا «عامَّتهم».

إنَّ الَّذين أسلموا يومئذٍ لم يكن يدفعهم دافعٌ دنيويٌّ؛ وإنَّما هو إيمانهم بالحقِّ الَّذي شرح الله صدورهم له، ونصرة نبيِّه (ص) ، يشترك في ذلك الشَّريف، والرَّقيق، والغنيُّ ، والفقير ، ويتساوى في هذا أبو بكرٍ ، وبلالٌ ، وعثمان ، وصهيبٌ رضي الله عنهم[(٣٥٠)].

يقول الأستاذ صالح الشَّامي: نحن لا نريد أن ننفي وجود الضُّعفاء ، والأرقَّاء؛ ولكن نريد أن ننفي أن يكونوا هم الغالبيَّة؛ لأنَّ هذا مخالفٌ للحقائق الثَّابتة ، ولو كانوا كذلك؛ لكانت دعوةً طبقيَّةً يقوم فيها الضُّعفاء ، والأرقَّاء ضدَّ الأقوياء وأصحاب السُّلطة ، والنُّفوذ ، ككلِّ الحركات الَّتي تقاد من خلال البُطون.

إنَّ هذا لم يَدُرْ بِخَلَدِ أيٍّ من المسلمين وهو يعلن إسلامه ، إنَّهم يدخلون في هذا الدِّين على اعتبارهم إخوةً في ظلِّ هذه العقيدة ، عباداً لله ، وإنَّه لمن القوَّة لهذه الدَّعوة أن يكون غالبية أتباعها في المرحلة الأولى بالذَّات من كرام أقوامهم ، وقد اثروا في سبيل العقيدة أن يتحمَّلوا أصنافاً من الهوان ، ما سبق لهم أن عانوها ، أو فكَّروا فيها[(٣٥١)].

لقد كان الإسلام ينساب إلى النُّفوس الطَّيبة ، والعقول النَّيِّرة ، والقلوب الطَّاهرة الَّتي هيَّأها الله لهذا الأمر ، ولقد كان في الأوائل: خديجة ، وأبو بكر ، وعليٌّ ، وعثمان ، والزُّبير ، وعبد الرَّحمن ، وطلحة ، وأبو عبيدة ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وسعيد بن زيد ، وعبد الله بن جحش ، وجعفر ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وفاطمة بنت الخطَّاب ، وخالد بن سعيد ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وهم من سادة القوم ، وأشرافهم[(٣٥٢)].

هؤلاء هم السَّابقون الأوَّلون ، الَّذين سارعوا إلى الإيمان والتَّصديق بدعوة النَّبيِّ (ص) .

ثالثاً: استمرار النَّبيِّ (ص) في الدَّعوة:

استمرَّ النَّبيُّ (ص) في دعوته السِّرِّيَّة يستقطب عدداً من الأتباع ، والأنصار من أقاربه ، وأصدقائه ، وخاصَّة الَّذين يتمكَّن من ضمِّهم في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ بعد إقناعهم بالإسلام ، وهؤلاء كانوا نعم العون والسَّند للرَّسول (ص) ؛ لتوسيع دائرة الدَّعوة في نطاق السِّرِّيَّة ، وهذه المرحلة العصيبة من حياة دعوة الرَّسول (ص) ظهرت فيها الصُّعوبة والمشقَّة في تحرُّك الرَّسول (ص) ومن امن معه بالدَّعوة ، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنون من شرِّه ، ويثقون به ، وهذا يعني: أنَّ الدَّعوة خطواتها بطيئةٌ ، وحذرةٌ ، كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقِّي مطالب الدَّعوة من مصدرها ، وصعوبة تنفيذها؛ إذ كان الدَّاخل في هذا الدِّين ملزماً منذ البداية بالصَّلاة ، ودراسة ما تيسَّر من القران . مثلاً . ولم يكن يستطيع أن يصلِّي بين ظَهْرَانَي قومه ، ولا أن يقرأ القران ، فكان المسلمون

يتخفَّون في الشِّعاب ، والأودية؛ إذا أرادوا الصَّلاة[(٣٥٣)].

١ . الحسُّ الأمنيُّ:

إنَّ من معالم هذه المرحلة الكتمان ، والسِّرِّيَّة ، حتَّى عن أقرب النَّاس ، وكانت الأوامر النَّبويَّة على وجوب المحافظة على السِّرِّيَّة واضحةً ، وصارمةً ، وكان (ص) يكوِّن من بعض المسلمين أسراً (خلايا) ، وكانت هذه الأسر تختفي اختفاء استعدادٍ ، وتدريبٍ ، لا اختفاء جبنٍ ، وهروبٍ ، حسب ما تقتضيه الخطَّة الرَّبَّانيَّة ، فبدأ الرَّسول (ص) ينظِّم أصحابه من أسرٍ وخلايا صغيرةٍ ، فكان الرَّجل يجمع الرَّجل والرَّجلين؛

إذا أسلما عند الرَّجل به قوَّةٌ ، وسعةٌ من المال ، فيكونان معه ، ويصيبان منه فضل طعامه ، ويجعل منهم حلقاتٍ ، فمن حفظ شيئاً من القران؛ عَلَّمَ مَنْ لم يحفظ ، فيكون من هذه الجماعات أسر أخُوَّة ، وحلقات تعليم.

إنَّ المنهج الَّذي سار عليه رسول الله (ص) في تربية أتباعه هو القران الكريم ، وكان النَّبيُّ (ص) يربِّي أصحابه تربيةً شاملةً؛ في العقائد ، والعبادات ، والأخلاق ، والحسّ الأمنيّ ، وغيرها ، ولذلك نجد في القران الكريم اياتٍ كريمةً تحدَّثَتْ عن الأخذ بالحسِّ الأمنيِّ؛ لأنَّ مِنْ أهمِّ عوامل نهوض الأمَّة أن ينشأ الحسُّ الأمنيُّ في جميع أفرادها ، وخصوصاً في الصَّفِّ المنظَّم الَّذي يدافع عن الإسلام ، ويسعى لتمكينه في دنيا النَّاس ، ولذلك نجد النَّواة الأولى للتَّربية الأمنيَّة كانت في مكَّة ، وتوسَّعت مع توسُّع الدَّعوة ، ووصولها إلى دولة ، ومن الايات المكِّيَّة التي أشارت إلى هذا المعنى قوله تعالى: {يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ *} [يوسف: ٨٧] .

ووجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسَّسوا ، ويبحثوا عن يوسف ، وأخيه ، وفي هذا إقرارٌ من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الاخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات ، ويؤكِّد على مبدأ جمع المعلومات قوله تعالى: {وَلاَ تَيْأَسُوا}

ولا شكَّ: أن الصَّحابة كانوا يجمعون المعلومات عمَّن يريدون دعوته للإسلام ، وكانت القيادة تشرف على ذلك ، ولذلك قام النَّبيُّ (ص) بترتيب جهازٍ أمنيٍّ رفيعٍ ، يشرف على الاتِّصال المنظَّم بين القيادة والقواعد؛ ليضمن تحقيق مبدأ السِّرِّيَّة.

وفي القران المكي نجد قوله تعالى: {وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ *} [القصص: ١١ ، ١٢].

ونلحظ في الايتين الاتي:

١ . استخدام أمِّ موسى مبدأ جمع المعلومات ، والحصول عليها في حفاظها على ابنها: {وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ} [القصص: ١١] والقَصُّ إنَّما هو تتبُّع الأثر ، وجمع المعلومات.

٢ . اختيار العنصر الأمين ، والحريص في جمع المعلومات؛ لتكون صحيحةً ، وموثَّقةً ، وأمينة ، وقبل ذلك حريصةً على تلك المعلومات {وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ} [القصص: ١١] ، فأمُّ موسى لم تختر غير أخته؛

لأنَّ الأخت تعتبر من الحريصين ، والأمناء على تلك المصلحة ، وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات ، وتحصيل الأخبار ، فمن الأهمِّيَّة بمكانٍ أن يكون العنصر المرسَل في عملية الاستخبارات مندفعاً من ذاته ، حريصاً على المصلحة المرسل إليها.

٣ ـ القَصُّ ، والتَّتبُّع بدون إشارةٍ ، أو جلب أنظار {قُصِّيهِ} [القصص: ١١] إذ نفهم من كلمة {قُصِّيهِ} ، وعدم إثارة الأنظار ، ودليل ذلك: أنَّها بصرت به دون أن يشعروا بها.

٤ ـ دقة الملاحظة ، وقوَّة الفراسة في أثناء جمع المعلومات {فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ *} [القصص: ١١] .

٥ ـ استعملت أختُ موسى شكلاً من أشكال الاستخبارات العصريَّة ، وهو التَّخريب الفكري ، فبعد أن نظرت إليهنَّ وهنَّ غير قادرات على إرضاعه؛ قالت: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ *} [القصص: ١٢].

٦ ـ محاولة تحقيق الهدف في أثناء جمع المعلومات ، فأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتخبر أمَّها بمكانه ، وإنما هي قصَّت الأخبار ، وتوصَّلت إلى مكانه ، وحاولت إعادته إلى أمِّه ، وقد نجحت في هذا[(٣٥٤)].

إنَّ هذه الايات الكريمة تربِّي في حسِّ الصَّحابة الحسَّ الأمنيَّ ، وأخذ الحيطة في مسيرتهم الدَّعويَّة.

إنَّ السِّيرة النَّبويَّة غنيَّةٌ في أبعادها الأمنيَّة منذ تربية الأفراد ، وحتَّى بعد قيام الدَّولة ، وتظهر الحاجة للحركات الإسلاميَّة والدُّول المسلمة لإيجاد أجهزةٍ أمنيَّةٍ متطوِّرةٍ (في زمننا المعاصر)؛ تحمي الإسلام ، والمسلمين من أعدائها ـ اليهود ، والنَّصارى ، والملاحدة ـ وتعمل على حماية الصفِّ المسلم في الدَّاخل من اختراقات الأعداء فيه ، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين ،

والمحاربين للإسلام ، حتَّى تستفيد القيادة من المعلومات الَّتي تقدِّمها لها أجهزتها المؤمنة الأمنيَّة ، ولابدَّ أن تؤسَّس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القران الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة ، وتكون أخلاق رجالها قمَّةً رفيعةً تمثِّل صفات رجال الأمن المسلمين.

إنَّ اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنِّبهم المفاجات العدوانيَّة؛ «إذا عرفت العدوَّ ، وعرفت نفسك ، فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج مئة معركةٍ ، وإذا عرفت نفسك ، ولم تعرف العدوَّ فإنك ستواجه الهزيمة في كلِّ معركة»[(٣٥٥)].

إن بناء الأجهزة الأمنيَّة ، ومكاتب المعلومات الَّتي تقدِّم للقيادة التَّقارير لوضع الخطط المناسبة على إثرها ليس أمراً جديداً ، بل هو موغلٌ في تاريخ الإنسانيَّة ، وكذلك في تاريخ المسلمين؛ منذ عصر النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة حتَّى يومنا هذا.

إنَّ من أسباب التَّمكين المهمَّة إعطاء هذا الأمر حقَّه من الاهتمام ، والارتقاء به ، وتطويره بما يناسب أحوال العصر الَّذي نحن فيه[(٣٥٦)]. كان النَّبيُّ (ص) يشرف بنفسه على تربية أصحابه في شتَّى الجوانب ، ووزَّعهم في أسرٍ؛ فمثلاً كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد. وهو ابن عمِّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهم. كانوا في أسرةٍ واحدةٍ مع نُعَيم بن عبد الله النَّحَّام بن عديٍّ ، وكان معلِّمهم خبَّاب بن الأرت ، وكان اشتغالهم بالقران لا يقتصر على تجويد تلاوته ، وضبط مخارج حروفه ، ولا على الاستكثار من سرده ، والإسراع في قراءته؛ بل كان همُّهم دراسته ، وفهمَه ، ومعرفة أمره ، ونهيه ، والعمل به[(٣٥٧)].

كان النَّبيُّ (ص) يهتمُّ بالتَّخطيط الدَّقيق المنظَّم ، ويحسب لكلِّ خطوةٍ حسابها ، وكان مدركاً تماماً: أنَّه سيأتي اليوم الذي يُؤمر فيه بالدَّعوة علناً ، وجهراً ، وأنَّ هذه المرحلة سيكون لها شدَّتها ، وقوَّتها ، فحاجة الجماعة المؤمنة المنظَّمة تقتضي أن يلتقي الرَّسول المربِّي مع أصحابه ، فكان لابدَّ من مقرٍّ لهذا الاجتماع ، فقد أصبح بيت خديجة رضي الله عنها لا يتَّسع لكثرة الأتباع ، فوقع اختيار النَّبيِّ (ص) وصحبه رضي الله عنهم على دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ إذ أدرك الرَّسول (ص) : أنَّ الأمر يحتاج إلى الدِّقَّة المتناهية في السِّرِّيَّة ، والتَّنظيم ، ووجوب التقاء القائد المربِّي بأتباعه في مكانٍ امنٍ بعيدٍ عن الأنظار؛ ذلك: أنَّ استمرار اللِّقاءات الدَّوريَّة المنظَّمة بين القائد ، وجنوده هو خير وسيلةٍ للتَّربية العمليَّة ، والنَّظرية ، وبناء الشَّخصيَّة القياديَّة الدَّعويَّة.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول (ص) كان يعدُّ أتباعه؛ ليكونوا بناة الدَّولة ، وحملة الدَّعوة ، وقادة الأمم حرصُه الشَّديد على هذا التَّنظيم السِّرِّيِّ الدَّقيق ، فلو كان مجرد داعية لما احتاج الأمر إلى كلِّ هذا.

ولو كان يريد مجرَّد إبلا غ الدَّعوة للنَّاس؛ لكان خير مكانٍ في الكعبة؛ حيث منتدى قريشٍ كلِّها ، ولكن الأمر غير ذلك؛ فلابدَّ من السِّرِّيَّة التَّامَّة في التَّنظيم ، وفي المكان الَّذي يلتقي فيه مع أصحابه ، وفي الطَّريقة الَّتي يحضرون بها إلى مكان اللِّقاء[(٣٥٨)].

٢ ـ دار الأرقم بن أبي الأرقم (مقرُّ القيادة):

تَذْكُرُ كتب السِّيرة: أنَّ اتِّخاذ دار الأرقم مَقَراً لقيادة الرَّسول (ص) كان بعد المواجهة الأولى الَّتي برز فيها سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه. قال ابن إسحاق: «وكان أصحاب رسول الله (ص) إذا صلُّوا؛ ذهبوا

في الشِّعاب ، فاستخفَوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه في نفرٍ من أصحاب رسول الله (ص) في شِعْبٍ من شِعاب مكَّة؛ إذ ظهر عليه نفرٌ من المشركين؛ وهم يصلُّون ، فناكَرُوهم. وعابوا عليهم ما يصنعون حتَّى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بِلَحي[(٣٥٩)] بعيرٍ ، فشجَّه فكان أوَّل دمٍ أُريق في الإسلام» [ابن هشام (١/٢٨١ ـ ٢٨٢)] .

أصبحت دار الأرقم مركزاً جديداً للدَّعوة يتجمَّع فيه المسلمون ، ويتلقَّون عن رسول الله (ص) كلَّ جديدٍ من الوحي ، ويستمعون له (ص) وهو يذكِّرهم بالله ، ويتلو عليهم القران ، ويضعون بين يديه كلَّ ما في نفوسهم وواقعهم؛ فيربيهم (ص) على عينه كما تربَّى هو على عين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأصبح هذا الجمع هو قرَّة عين النَّبيِّ (ص)[(٣٦٠)] .

رابعاً: أهمُّ خصائص الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله (ص):

كانت الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله (ص) ، قد برزت فيها خصائص مهمَّة؛ جعلتها تتقدَّم بخطواتٍ رصينةٍ نحو صياغة الشَّخصية المسلمة ، الَّتي تقيم الدَّولة المؤمنة ، وتصنع الحضارة الرَّائعة ، ومن أبرز هذه الخصائص:

١ ـ الاستجابة الكاملة للوحي ، وعدم التَّقديم بين يديه:

إنَّ العلم ، والفقه الصَّحيح الكامل في العقائد ، والشَّرائع ، والاداب وغيرها ، لا يكون إلا عن طريق الوحي المنزَّل ـ قراناً وسنَّةً ـ وذلك بالعلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ،

ومعرفة ما يجب له ، وما ينزَّه عنه ـ سبحانه وتعالى ـ والعلم بالملائكة ، والكتاب ، والنَّبيّين ، والعلم بالاخرة ، والجنَّة ، والنَّار ، والعلم بالشَّرائع المجملة والمفصَّلة ، والأحكام المتعلِّقة بالمكلَّفين ، والعلم بالمسلك الصَّحيح الَّذي ينبغي سلوكه في سائر الأحوال: في الغضب والرِّضا ، في القصد والغنى ، في الأمن والخوف ، في الخير والشَّرِّ ، في الهدنة والفتنة ، والتزام الدَّليل الشَّرعيِّ هو منهج الَّذين أنعم الله عليهم بالإيمان الصَّحيح[(٣٦١)]. قال تعالى: {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ *} [الأعراف: ١٨١] .

لقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم أعظم من غيرهم انتفاعاً بالدَّليل والوحي ، وتسليماً له؛ لأسبابٍ عديدةٍ؛ منها:

أ ـ نزاهة قلوبهم ، وخلوُّها من كلِّ ميلٍ أو هوًى غير ما جاءت به النُّصوص ، واستعدادها التَّامُّ لقبول ما جاء عن الله ، ورسوله (ص) ، والإذعان ، والانقياد له انقياداً مطلقاً دون حرجٍ ، ولا تردُّدٍ ، ولا إحجامٍ.

ب ـ معاصرتهم لوقت التَّشريع ، ونزول الوحي ، ومصاحبتهم للرَّسول (ص) ، ولذلك كانوا أعلم النَّاس بملابسات الأحوال الَّتي نزلت النُّصوص فيها ، والعلم بملابسات الواقعة أو النَّصِّ من أعظم أسباب فقهه ، وفهمه ، وإدراك مغزاه.

ج ـ وكانت النُّصوص ـ قراناً وسنَّةً ـ تأتي في كثيرٍ من الأحيان لأسبابٍ تتعلَّق بهم ـ بصورةٍ فرديَّةٍ ، أو جماعيَّةٍ ـ فتخاطبهم خطاباً مباشراً ، وتؤثِّر فيهم أعظم التأثير؛ لأنَّها تعالج أحداثاً واقعيَّةً ، وتعقب في حينها ، حيث تكون النُّفوس مشحونةً بأسباب التأثُّر ، متهيِّئةً لتلقِّي الأمر ، والاستجابة له.

د ـ قد أعفاهم قرب عهدهم بالنَّبيِّ (ص) من الجهد الَّذي احتاج إليه من بعدهم في تمييز النُّصوص ، وتصحيحها ، فلم يحتاجوا ـ في غالب أحوالهم ـ إلى سلسلة الإسناد ، ولا معرفة الرِّجال ، والعلل ، وغيرها ، ولم يختلط عليهم الصَّحيح بغيره ، ومن ثمَّ لم يقع عندهم التردُّد في ثبوت النَّص الَّذي وقع عند كثيرٍ ممَّن جاء بعدهم ـ خاصَّةً من أصحاب النُّفوس المريضة ، أو من الجهلة الَّذين لم يدرسوا السُّنَّة ، ويفقهوها روايةً ، ودرايةً[(٣٦٢)] ـ فكانوا إذا سمعوا أحداً يقول: قال رسول الله (ص) ابتدرته أبصارُهم ، كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما[(٣٦٣)].

٢ ـ التَّأثُّر الوجدانيُّ العميق بالوحي والإيمان:

كان الصَّحابة يتعاملون مع العلم الصَّحيح ، ليس كحقائق علميَّةٍ مجرَّدةٍ يتعامل معها العقل فحسب ، دون أن يكون لها علاقةٌ بالقلب ، والجوارح؛ فقد أورثهم العلم بالله ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ـ محبَّته ، والتألُّه إليه ، والشَّوق إلى لقائه ، والتَّمتُّع بالنَّظر إلى وجهه الكريم في جنَّة عدنٍ ، وأورثهم تعظيمه ، والخوف منه ، والحذر من بأسه ، وعقابه ، وبطشه ، ونقمته ، وأورثهم رجاء ما عنده ، والطَّمع في جنَّته ، ورضوانه ، وحسن الظَّنِّ به ، فاكتملت لديهم ـ بذلك ـ اثار العلم بالله ، والإيمان به ، وهي الحبُّ ، والخوف ، والرَّجاء.

وأورثهم العلم بالجنَّة ، والنَّار الرَّغبةَ في النَّعيم الأبديِّ السَّرمديِّ ، والخوف من مقاساة العذاب الرَّهيب ، فقلوبهم تتراوح بين نعيمٍ ترجوه ، وتخشى فوته ، وعذابٍ تحذره ، وتخشى وقوعه؛ فتعلَّقت قلوبهم بالاخرة ـ فكرةً ، وخوفاً ، ورجاءً ـ حتَّى كأنَّهم يرون البعث ، والقيامة ، والميزان ، والصِّراط ، والجنَّة ، والنَّار رأيَ العين. وأورثهم علمهم بالقدر ، وأنَّه أمرٌ قد فُرِغ منه ـ التَّوكُّل على الله ، وعدم التَّوكلِ على الأسباب ، وعدم الفرح بما أوتوا ، ولا الأسَى على ما مُنعوا ، والإجمال في الطَّلب؛ إذ لن يفوت المرءَ ما قدِّر له ، ولن يأتيه ما لم يقدَّر ، كما غرس في نفوسهم الشَّجاعة ، والإقدام. وأورثهم علمُهم بالموت ، وإيمانُهم به ـ

العزوفَ عن الدُّنيا ، والإقبال على الاخرة ، والدَّوام على العمل الصَّالح؛ إذ لا يدري المرء متى يموت ، والموت منه قريب. وهذه المعاني الوجدانيَّة هي المقصود الأعظم من تحصيل العلم ، وإذا فقدت فلا ينفع مع فقدها علمٌ ، بل هو ضررٌ في العاجل ، والاجل[(٣٦٤)].

ولقد كان للصَّحابة رضي الله عنهم من هذه المعاني الوجدانيَّة أعظم نصيبٍ؛ لأنَّ إيمانهم كان أعمق ، وأكمل من إيمان غيرهم ، ولقد تلقَّوه غضَّاً طريَّاً من النَّبيِّ (ص) لم يَعْلَقْ بغبرة الأهواء ، والغفلان[(٣٦٥)].

وكان الصَّحابة فرساناً بالنَّهار ، ورهباناً باللَّيل ، لا يمنعهم علمُهم ، وإيمانُهم الحقُّ وخشوعُهم للهِ من القيام بشؤونهم الدُّنيويَّة؛ من بيعٍ، وشراءٍ، وحرثٍ، ونكاحٍ، وقيامٍ على الأهل ، والأولاد ، وغيرهم فيما يحتاجون إليه ، وكانوا بعيدين كلَّ البعد عن الإعجاب بالنَّفس ، الَّذي أصيب به بعض المتعبِّدين ممَّن جاء بعدهم ، فترتَّب عليه ازدراؤهم ، واحتقارهم لأعمال الاخرين ، واستهانةٌ بمجهوداتهم في سبيل الدِّين، وحطٌّ من قدرهم،

فأصبحوا في الحقيقة متعبِّدين في محراب (الذَّات) ، معظِّمين لأنفسهم ، وهذا مصدر كلِّ رذيلةٍ خلقيَّةٍ ، وسببٌ لمحق كلِّ عملٍ صالحٍ.

والَّذين يصابون بهذه البليَّة المردية يشعرون بأنَّهم ـ وحدهم ـ الأوصياء على الدِّين ، ويغلقون عقولهم ، وأعينهم عن رؤية فضائل الاخرين ، فلا يرون إلا العيوب والمساوأى؛ بل تصبح الفضائل عندهم عيوباً ، ومساوأى[(٣٦٦)].

خامساً: شخصيَّة النَّبيِّ (ص) وأثرها في صناعة القادة:

كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم أعظم مدرسةٍ للتَّربيَة والتَّعليم عرفتها البشريَّة ، كيف لا ، وأستاذها هو رسولُ الله (ص) أستاذ البشريَّة كلِّها ، وتلاميذها هم الدُّعاة والهداة ، والقادة الرَّبانيُّون الَّذين حرَّروا البشرية من رِقِّ العبودية ، وأخرجوهم من الظُّلمات إلى النُّور ، بعد أن ربَّاهم الله تعالى على عينه تربيةً غير مسبوقةٍ ، ولا ملحوقةٍ؟![(٣٦٧)].

في دار الأرقم وفَّق الله تعالى رسوله (ص) إلى تكوين الجماعة الأولى من الصَّحابة ، الَّذين نقلهم من هباء الجاهلية إلى نور الإيمان ، وأصبحوا جميعاً من عظماء الرِّجال ومشاهير العالم ، وصنَّاع التَّاريخ البشريِّ ، حيث قاموا بأعظم دعوة عرفتها البشريَّة.

إنَّ خريجي مدرسة الأرقم من عظماء الرِّجال في العالم ، وهُمُ الَّذين قامت عليهم الدَّعوة ، والجهاد ، والدَّولة ، والحضارة فيما بعد؛ فلم يَجُدِ الزَّمان بواحدٍ مثل أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعمرَ بن الخطَّاب ، وعثمان بن عفَّان ، وعليِّ بن أبي طالبٍ ، وسعدِ بن أبي وقَّاصٍ... إلخ.

لقد استطاع الرَّسول المربِّي الأعظم (ص) أن يربِّي في تلك المرحلة السرِّيَّة ، وفي دار الأرقم ، أفذاذ الرِّجال الَّذين حملوا راية التَّوحيد والجهاد والدَّعوة؛ فدانت لهم الجزيرة ، وقاموا بالفتوحات العظيمة في نصف قرن.

كانت قدرة النَّبيِّ (ص) فائقةً في اختيار العناصر الأولى للدَّعوة، في خلال السَّنوات الثَّلاث الأولى من عمر الدَّعوة ، وتربيتهم وإعدادهم إعداداً خاصّاً ليؤهِّلهم لتسلُّم القيادة ، وحمل الرِّسالة ، فالرِّسالات الكبرى ، والأهداف الإنسانيَّة العظمى ، لا يحملها إلا أفذاذ الرِّجال ، وكبار القادة ، وعمالقة الدُّعاة.

كانت دار الأرقم مدرسةً من أعظم مدارس الدُّنيا ، وجامعات العالم ، التقى فيها الرَّسول المربِّي (ص) بالصَّفوة المختارة من الرَّعيل الأوَّل (السَّابقين الأوَّلين) ، فكان ذلك اللِّقاء الدَّائم تدريباً عمليّاً لجنود المدرسة على مفهوم الجنديَّة ،

والسَّمع ، والطَّاعة ، والقيادة ، واداها ، وأصولها ، ويشحذ فيه القائد الأعلى جنده وأتباعه بالثِّقة بالله ، والعزيمة ، والإصرار ، ويأخذهم بالتَّزكية والتَّهذيب ، والتَّربية ، والتَّعليم. كان هذا اللِّقاء المنظَّم يشحذ العزائم ، ويقوِّي الهمم ، ويدفع إلى البذل ، والتَّضحية ، والإيثار[(٣٦٨)].

كانت نقطة البدء في حركة التَّربية الرَّبانيَّة الأولى لقاء المدعو بالنَّبيِّ (ص) ، فيحدث للمدعو تحوُّلٌ غريب واهتداءٌ مفاجأى بمجرَّد اتِّصاله بالنَّبيِّ (ص) ، فيخرج المدعو من دائرة الظَّلام إلى دائرةِ النُّور ، ويكتسب الإيمان ، ويطرح الكفر ، ويقوى على تحمل الشَّدائد ، والمصائب في سبيل دينه الجديد ، وعقيدته السَّمحة.

كانت شخصية رسول الله (ص) المحرِّك الأوَّل للإسلام؛ فشخصيته (ص) تملك قوى الجذب ، والتأثير على الاخرين ، فقد صنعه الله على عينه ، وجعله أكمل صورةٍ لبشرٍ في تاريخ الأرض ، والعظمة دائماً تُحَبُّ ، وتحاط من النَّاس بالإعجاب ، ويلتفُّ حولها المعجبون ، يلتصقون بها التصاقاً بدافع الإعجاب والحبِّ ، ولكن رسول الله (ص) يضاف إلى عظمته تلك: أنَّه رسول الله ، مُتلقِّي الوحي من الله ، ومبلِّغه إلى الناس ، وذلك بُعْدٌ اخر له أثره في تكييف مشاعر ذلك المؤمن تجاهه؛ فهو لا يحبُّه لذاته فقط ، كما يُحبُّ العظماء من النَّاس ، ولكن أيضاً لتلك النَّفحة الرَّبَّانيَّة الَّتي تشمله من عند الله ، فهو معه في حضرة الوحي الإلهيِّ المكرَّم؛ ومن ثَمَّ يلتقي في شخص الرَّسول (ص) البشر العظيم ، والرَّسول العظيم ، ثمَّ

يصبحان شيئاً واحداً في النِّهاية ، غير متميِّز البداية ، ولا النِّهاية ، حبٌّ عميقٌ شاملٌ للرَّسول البشر ، أو للبشر الرَّسول ، ويرتبط حبُّ الله بحبِّ رسوله (ص) ، ويمتزجان في نفسه، فيصبحان في مشاعره نقطة ارتكاز المشاعر كلِّها ، ومحور الحركة الشُّعورية ، والسُّلوكية كلِّها ، كذلك كان هذا الحبُّ الَّذي حرَّك الرَّعيل الأوَّل من الصَّحابة هو مفتاح التَّربية الإسلاميَّة ، ونقطة ارتكازها ، ومنطلقها الَّذي تنطلق منه[(٣٦٩)].

سادساً: المادة الدِّراسيَّة في دار الأرقم:

كانت المادَّة الدِّراسيَّة الَّتي قام بتدريسها النَّبيُّ (ص) في دار الأرقم ، القرانَ الكريمَ ، فهو مصدر التَّلقِّي الوحيد ، فقد حَرَصَ الحبيب المصطفى (ص) على توحيد مصدر التَّلقِّي ، وتفرُّده ، وأن يكون القران الكريم وحده هو المنهج ، والفكرة المركزيَّة الَّتي يتربَّى عليها الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والجماعة المسلمة ، وكان روح القُدُس ينزل بالايات غضَّةً طريَّةً على رسول الله (ص) ، فيسمعها الصَّحابة من فم رسول الله (ص) مباشرةً ، فَتُسْكَب في قلوبهم ،

وتتسرَّب في أرواحهم ، وتجري في عروقهم مجرى الدَّم ، وكانت قلوبهم ، وأرواحهم تتفاعل مع القران ، وتنفعل به ، فيتحوَّل الواحد منهم إلى إنسانٍ جديدٍ؛ بقيمه ، ومشاعره ، وأهدافه ، وسلوكه ، وتطلُّعاته.

لقد حرص الرَّسول (ص) حرصاً شديداً على أن يكون القران الكريم وحده هو المادَّة الدِّراسيَّة ، والمنهج الَّذي تتربَّى عليه نفوس أصحابه ، وألا يختلط تعليمهم بشيءٍ من غير القران[(٣٧٠)].

في دار الأرقم تعلَّموا: أنَّ القران الكريم ، وتوجيهات الحبيب المصطفى (ص) ، هما الدُّستور الأعلى؛ للدَّعوة ، والحياة ، والدَّولة ، والحضارة. كان القران الكريم المادَّة الدِّراسيَّة الوحيدة الَّتي تلقَّاها تلاميذ مدرسة الأرقم على يد المربِّي الأعظم محمَّد (ص) ، فهو المصدر الوحيد للتلقِّي ، وعليه تربَّى الجيل الفريد من هذه الأمَّة العظيمة ، فهو كتاب هذه الأمَّة الحيُّ ، ورائدها النَّاصح ، وهو مدرستها الَّتي تتلقَّى فيها دروس حياتها.

لقد تلقَّى الرَّعيل الأوَّل القران الكريم بجدِّيَّةٍ ، ووعيٍ ، وحرصٍ شديدٍ على فهم توجيهاته ، والعمل بها بدقَّةٍ تامَّةٍ ، فكانوا يلتمسون من اياته ما يوجههم في كلِّ شأنٍ من شؤون حياتهم الواقعيَّة ، والمستقبليَّة.

نشأ الرَّعيل الأوَّل على توجيهات القران الكريم ، وجاؤوا صورةً عمليَّةً لهذه التَّوجيهات الرَّبَّانيَّة ، فالقران كان هو المدرسة الإلهيَّة ، الَّتي تخرَّج منها الدُّعاة ، والقادة الرَّبَّانيُّون ، ذلك الجيل الَّذي لم تعرف له البشريَّة مثيلاً من قبلُ ، ومن بعدُ. لقد أنزل الله القران الكريم على قلب رسوله (ص) ؛ لينشأى به أمَّةً ، ويقيم به دولةً ، وينظِّم به مجتمعاً؛ وليربِّيَ به ضمائر ، وأخلاقاً ، وعقولاً ، ويبني به عقيدةً ، وتصوُّراً ، وأخلاقاً

ومشاعر ، فخرَّج الجماعة المسلمة الأولى الَّتي تفوَّقت على سائر المجتمعات في جميع المجالات؛ العقديَّة، والرُّوحيَّة، والخلقيَّة، والاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة ، والحربيَّة[(٣٧١)].

سابعاً: الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدَّة أسبابٍ؛ منها:

١ ـ أنَّ الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه ، فما كان يخطر ببال أحدٍ أن يتمَّ لقاء محمَّدٍ (ص) وأصحابه رضي الله عنهم بداره.

٢ ـ أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم ، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء الحرب ضدَّ بني هاشم ، ولم يكن الأرقم معروفاً بإسلامه ، ولن يخطر في البال أن يكون
اللِّقاء في داره؛ لأنَّ هذا يعني: أنه يتمُّ في قلب صفوف العدوِّ.

٣ ـ أنَّ الأرقم بن أبي الأرقم كان فتىً عند إسلامه؛ فلقد كان في حدود السَّادسة عشرة من عمره ، ويوم أن تفكِّر قريش في البحث عن مركز التجمُّع الإسلامي ، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصِّغار من أصحاب محمَّدٍ (ص) ؛ بل يتَّجه نظرها ، وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه ، أو بيته هو نفسه (ص) .

قد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التَّجمُّع على الأغلب في أحد دور بني هاشم ، أو في بيت أبي بكرٍ رضي الله عنه ، أو غيره؛ ومن أجل هذا نجد أنَّ اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من النَّاحية الأمنيَّة ، ولم نسمع أبداً: أنَّ قريشاً داهمت ذات يومٍ هذا المركز ، وكشفت مكان اللِّقاء[(٣٧٢)].

ثامناً: من صفات الرَّعيل الأوَّل:

كانت الفترة الأولى من عمر الدَّعوة تعتمد على السِّرِّيَّة ، والفرديَّة ، وكان التَّخطيط النَّبويُّ دقيقاً ، ومنظَّماً ، وسياسيَّاً محكماً ، فما كان اختيار رسول الله (ص) لدار الأرقم لمجرَّد اجتماع المسلمين فيها لسماع نصائح ، ومواعظ ، وإرشادات؛ وإنَّما كانت مركزاً للقيادة ، ومدرسةً للتَّعليم ، والتَّربية ، والإعداد ، والتَّأهيل للدَّعوة ، والقيادة ، بالتَّربيَة الفرديَّة العميقة الهادئة ، وتعهُّد بعض العناصر ، والتَّركيز عليها تركيزاً خاصَّاً؛ لتأهيلها لأعباء الدَّعوة ، والقيادة ، فكأنَّ الرَّسول المربِّي (ص) قد حدَّد لكلِّ فردٍ من هؤلاء عمله بدقَّةٍ ، وتنظيمٍ حكيمٍ ، فالكلُّ يعرف دوره المنوط به ، والكلُّ يدرك طبيعة الدَّعوة ، والمرحلة الَّتي تمرُّ بها ، والكلُّ ملتزمٌ جانب الحيطة ، والحذر ، والسِّرِّيَّة والانضباط التَّامِّ[(٣٧٣)].

كان بناء الجماعة المؤمنة في الفترة المكّيَّة يتمُّ بكلِّ هدوءٍ وتدرُّجٍ وسرِّيَّةٍ ، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المتمثِّل في قوله تعالى:

{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} {تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا *}[الكهف: ٢٨].

إنَّ الاية الكريمة تأمر النَّبيَّ (ص) بأن يصبر على تقصير، وأخطاء المستجيبين لدعوته ، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم ، خاصَّةً إن كانت خطأً ، وأن يصبر على تردُّدهم في قبول التَّوجيهات ، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدَّعوة ، وأن يوضِّح لهم طبيعة طريق الدَّعوة ، وأنَّها شاقَّةٌ ، وألا يغرِّر به مغرِّرٌ ليبعده عنهم ، وألا يسمع فيهم منتقِصاً، وألا يطيع فيهم

متكبِّراً أغفل اللهُ قلبَه عن حقيقة الأمور، وجوهرها[(٣٧٤)].

إنَّ الاية الكريمة السَّابقة من سورة الكهف تصف لنا بعض صفات الجماعة المسلمة الأولى ، والَّتي من أهمِّها:

أ ـ الصبر في قوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ}

إنَّ كلمة الصَّبر تتردَّد في القران الكريم ، وفي أحاديث النَّبيِّ (ص) ، ويوصي النَّاس بها بعضُهم بعضاً ، وتبلغ أهمِّيَّتُها أن تصير صفةً من أربعٍ للفئة النَّاجية من الخسران ، قال تعالى: {وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ *} [العصر]؛ فحكم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ على جميع النَّاس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة:

١ ـ الإيمان بالله.

٢ ـ العمل الصَّالح.

٣ ـ التَّواصي بالحقِّ.

٤ ـ التَّواصي بالصَّبر.

لأنَّ نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان ، والعمل الصالح ، وأكمل غيره بالنُّصح ، والإرشاد ، فيكون قد جمع بين حقِّ الله ، وحقِّ العباد ، والتواصي بالصَّبر ضرورةٌ؛ لأنَّ القيام على الإيمان ، والعمل الصَّالح ، وحراسة الحقِّ ، والعدل من أعسر ما يواجه الفرد ، والجماعة ، ولا بدَّ من الصَّبر على جهاد النَّفس ، وجهاد الغير ، والصَّبر على الأذى والمشقَّة ، والصَّبر على تبجُّح الباطل ، والصَّبر على طول الطَّريق ، وبطء المراحل ، وانطماس المعالم ، وبُعْدِ النِّهاية[(٣٧٥)].

ب ـ كثرة الدُّعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهر في قوله تعالى: ؛ فالدُّعاء بابٌ {يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} ، فإذا فتح للعبد؛ تتابعت عليه الخيرات ، وانهالت عليه البركات ، فلا بدَّ من تربية الأفراد الَّذين يُعَدُّون لحمل الرِّسالة ، وأداء الأمانة ، على حسن الصِّلة بالله ، وكثرة الدُّعاء؛ لأنَّ ذلك من أعظم ، وأقوى عوامل النَّصر[(٣٧٦)].

ج ـ الإخلاص:

ويظهر في قوله تعالى: ؛ فلا بدَّ عند إعداد الأفراد إعداداً ربَّانيّاً أن يتربَّى {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} على أن تكون أقواله ، وأعماله ، وجهاده كلُّه ، لوجه الله ، وابتغاء مرضاته ، وحسن مثوبته من غير نظرٍ إلى مغنمٍ ، أو جاهٍ ، أو لقبٍ ، أو تقدُّمٍ ، أو تأخُّرٍ ، وحتَّى يصبح جنديّاً من أجل العقيدة والمنهج الرَّبانيِّ ، ولسان حاله قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] .

إنَّ الإخلاص ركنٌ من أركان قبول العمل ، ومعلومٌ: أنَّ العمل عند الله لا يُقبل إلا بالإخلاص ، وتصحيح النِّيَّة ، وبموافقة السُّنَّة ، والشَّرع.

د ـ الثَّبات:

ويظهر في قوله تعالى: {وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: ٢٨].

وهذا الثبات المذكور فرعٌ عن ثباتٍ أعمَّ ينبغي أن يتَّسم به الدَّاعية الرَّبانيُّ ، قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *} [الأحزاب: ٢٣].

ففي الايات الكريمة ثلاث صفاتٍ: إيمانٌ ، ورجولةٌ ، وصدقٌ. وهذه العناصر مهمَّةٌ للثَّبات على المنهج الحقِّ؛ لأنَّ الإيمان يبعث على التمسُّك بالقيم الرَّفيعة ، والتشبُّث بها ، ويبعث على التَّضحية بالنَّفس؛ ليبقى المبدأ الرَّفيع. والرُّجولة محرِّكةٌ للنَّفس نحو هذا الهدف ، غير مهتمةٍ بالصَّغائر ، والصَّغار ، وإنَّما دائماً دافعةٌ نحو الهدف الأسمى ، والمبدأ الرَّفيع. والصِّدق يحول دون التحوُّل ، أو التغيير ، أو التبديل ، ومن ثَمَّ يورث هذا كلُّه الثبات الذي لا يتلوَّن معه الإنسان ، وإن رأى شعاع السَّيف على رقبته ، أو رأى حبل المشنقة ينتظره ، أو رأى دنيا يصيبها ، أو امرأةً ينكحها.

ولا شكَّ: أنَّ اللَّبنات الَّتي تعدُّ لحمل الدَّعوة ، وإقامة الدَّولة ، وصناعة الحضارة ، تحتاج إلى الثَّبات الَّذي يعين على تحقيق الأهداف السَّامية ، والغايات الجميلة ، والقيم الرَّفيعة[(٣٧٧)].

هذه من أهمِّ الصِّفات الَّتي اتصفت بها الجماعة المؤمنة الأولى.

تاسعاً: انتشار الدَّعوة في بطون قريش ، وعالميَّتها:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السِّرِّيَّة ، في سائر فروع قريش بصورةٍ متوازنةٍ ، دون أن يكون ثقلٌ كبيرٌ لأيِّ قبيلة ، وهذه الظاهرة مخالفةٌ لطبيعة الحياة القبليَّة انذاك. وهي إذا أفقدت

الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبليِّ ، والعصبية لحماية الدَّعوة الجديدة ، ونشرها ، فإنَّها في الوقت نفسه لم تؤلِّب عليه العشائر الأخرى؛ بحجَّة: أنَّ الدَّعوة تحقِّق مصالح العشيرة الَّتي انتمت إليها ، وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى ، ولعلَّ هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان على انتشار الإسلام في العشائر القرشيَّة العديدة دون تحفُّظاتٍ متَّصلةٍ بالعصبيَّة.

فأبو بكر الصِّدِّيق من «تَيْم» ، وعثمان بن عفان من «بني أميَّة» ، والزُّبير بن العوَّام من «بني أسد» ، ومصعب بن عمير من «بني عبد الدَّار» ، وعليُّ بن أبي طالب من «بني هاشم» ، وعبد الرَّحمن بن عوف من «بني زُهرة» ، وسعيد بن زيد من «بني عَدِيّ» ، وعثمان بن مظعون من «بني جُمَح»؛ بل إنَّ عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش؛ فعبد الله بن مسعودٍ من هُذَيل ، وعتبة بن غزوان من مازنٍ ، وعبد الله بن قيس من الأشعريين ، وعمَّار بن ياسر من عنس من مَذْحِج ، وزيد بن حارثة من كلب ، والطُّفيل بن عمرو من دَوْسٍ ، وعمرو بن عبسة من سليم ، وصهيب النَّمَري من بني النَّمِر بن قاسِط. لقد كان واضحاً: أنَّ الإسلام لم يكن خاصّاً بمكَّة[(٣٧٨)].

لقد شقَّ النَّبيُّ (ص) طريقه بكلِّ تخطيطٍ ودقَّةٍ ، وأخذ بالأسباب مع التوكُّل على الله تعالى؛ فاهتمَّ بالتَّربية العميقة ، والتَّكوين الدَّقيق ، والتَّعليم الواسع ، والاحتياط الأمني ، والانسياب الطَّبيعي في المجتمع ، والإعداد الشَّامل للمرحلة التي بعد السِّرِّيَّة؛ لأنَّه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يعلم: أنَّ الدَّعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوةً سرِّيَّةً ، يخاطب بها الفرد بعد الفرد ، بل نزلت لإقامة الحجَّة على العالمين ، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من النَّاس ، من ظلمات الشِّركِ ، والجاهليَّة إلى نور الإسلام والتَّوحيد ، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدَّعوة ، وميدانها ، منذ خطواتها الأولى؛ حيث إنَّ القران المكيَّ بيَّن شمول الدَّعوة ، وعالميتها:

قال تعالى: {إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *} [ص: ٨٧] .

وقال تعالى: {وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ *} [القلم: ٥٢] .

إنَّ الدَّعوة جاءت لتخاطب البشر ، كلَّ البشر ، ولتنقذ منهم من سبقت له من الله الحسنى ، وهذا يعني: أنَّ الدَّعوة جاءت ومن خصائصها الإعلان ، والصَّدع ، والبلاغ ، والبيان ، والإنذار ، وتحمُّل ما يترتَّب على هذا من التَّكذيب ، والإيذاء ، والقتل.

إن استسرار النَّبيِّ (ص) في دعوته أوَّل الأمر إنَّما هو حالٌ استثنائيٌّ لظروفٍ وملابساتٍ خاصَّة ، وهي ظروف بداية الدَّعوة ، وضعفها ، وغربتها ، وينبغي أن يُفهم ضمن هذا الإطار.

وإن كان الكتمان والاستسرار سياسةً مصلحيَّةً في كثيرٍ من أمور الإسلام في الحرب ، والسَّلام؛ فهو كذلك في موضوع الدَّعوة؛ فالاستسرار بها كان لضرورة فرضها الواقع ، وإلا فالأصل هو بيان دين الله ، وشرعه ، وحكمه لكلِّ النَّاس ، أمَّا الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل ، والخطط ، والتَّفصيلات؛ فهو أمرٌ مصلحيٌّ خاضعٌ للنَّظر ، والاجتهاد البشريِّ؛ إذ لا يترتَّب عليه كتمانٌ للدِّين ، ولا سكوتٌ عن حقٍّ ، ولا يتعلَّق به بيانٌ ، ولا بلاغٌ ، ومن ذلك ـ مثلاً ـ معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدَّعوة ، فهذا أمرٌ مصلحيٌّ لا يخلُّ بقضية البلاغ ، والنذارة ، الَّتي نزلت الكتب ، وبعثت الرُّسل من أجلها ، فيمكن أن يظلَّ سرّاً متى كانت المصلحة في ذلك ، مع القيام بأمر الدَّعوة ، والتبليغ ، ولهذا فإنَّ النَّبيَّ (ص) حتَّى بعد أن صدع بدعوته ، وأنذر النَّاس ، وأعلن النُّبوَّة ظلَّ يخفي أشياء كثيرةً لا تؤثِّر على مهمة البلاغ والبيان ، كعدد أتباعه ، وأين يجتمع بهم ، وما هي الخطط الَّتي يتَّخذونها إزاء الكيد الجاهليِّ[(٣٧٩)].

* * *

المبحث الثَّالث

البناء العقديُّ في العهد المكِّيِّ

أولاً: فقه النَّبيِّ (ص) في التَّعامل مع السُّنن:

إنَّ بناء الدُّول ، وتربية الأمم ، والنُّهوض بها يخضع لقوانين ، وسنن ، ونواميس ، تتحكَّم في مسيرة الأفراد والشُّعوب ، والأمم والدُّول ، وعند التأمُّل في سيرة الحبيب المصطفى (ص) نراه قد تعامل مع السُّنن ، والقوانين بحكمةٍ ، وقدرةٍ فائقةٍ.

إنَّ السُّنن الرَّبَّانيَّة ، هي أحكام الله تعالى الثَّابتة في الكون على الإنسان في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، وهي كثيرةٌ جدّاً ، والَّذي يهمُّنا منها في هذا الكتاب هو ما يتعلَّق بحركة النُّهوض تعلُّقاً وثيقاً.

«ولقد شاء الله ربُّ العالمين أن يجري أمر هذا الدِّين ، بل أمر هذا الكون على السُّنن الجارية ، لا على السُّنن الخارقة ، وذلك حتَّى لا يأتي جيلٌ من أجيال المسلمين ، فيتقاعس ، ويقول: لقد نُصِر الأوَّلون بالخوارق ، ولم تَعُد الخوارق تنزل بعد ختم الرِّسالة ، وانقطاع النُّبوَّات»[(٣٨٠)].

إنَّ المتدبِّر لايات القران الكريم يجدها حافلةً بالحديث عن سُنن الله تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل ، ولا تتغيَّر ، ويجد عنايةً ملحوظةً بإبراز تلك السُّنن ، وتوجيه النَّظر إليها ، واستخراج العبرة منها ، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع المسلم المستقيم على أمر الله.

والقران الكريم حينما يوجِّه أنظار المسلمين إلى سُنن الله تعالى في الأرض ، فهو بذلك يردُّهم إلى الأصول الَّتي تجري وفقها ، فهم ليسوا بدعاً في الحياة؛ فالنَّواميس الَّتي تحكم الكون ، والشعوب ، والأمم ، والدُّول ، والأفراد جاريةٌ لا تتخلَّف ، والأمور لا تمضي جزافاً ، والحياة لا تجري في الأرض عبثاً؛ وإنَّما تتبع هذه النواميس ، فإذا درس المسلمون هذه السُّنن ، وأدركوا مغازيها؛ تكشَّفت لهم الحكمة من وراء الأحداث ، وتبيَّنت لهم الأهداف من

وراء الوقائع ، واطمأنُّوا إلى ثبات النِّظام الَّذي تتبعه الأحداث ، أو إلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النِّظام ، واستشرفوا خطَّ السَّير على ضوء ما كان في ماضي الطَّريق ، ولم يعتمدوا على مجرَّد كونهم مسلمين؛ لينالوا النَّصر ، والتَّمكين بدون الأخذ بالأسباب المؤدِّية إليه[(٣٨١)].

«والسُّنن الَّتي تحكم الحياة واحدةٌ؛ فما وقع منها من زمانٍ مضى سيقع في كلِّ زمان»[(٣٨٢)].

وهذه السُّنن هي الَّتي يُجْرِي الله ـ تعالى ـ عليها فَلَكَ الحياة ، ويُسيِّرُ عليها حركَتَها ، فليس هناك شيءٌ واحدٌ في حياة البشر يحدُث اعتباطاً ، وإنَّما يجري كلُّ شيءٍ في هذه الحياة حسب سُنن اللهِ تعالى؛ الَّتي لا تتبدَّل ، ولا تتخلَّف ، ولا تحابي أحداً من الخلق ، ولا تستجيب لأهواء البشر[(٣٨٣)].

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربِّهم المبرزة لهم في كتاب الله ، وفي سنة رسول (ص) ، حتَّى يصلوا إلى ما يرجون من عزَّةٍ وتمكينٍ؛ «فإنَّ التَّمكين لا يأتي عفواً ، ولا ينزل اعتباطاً ، ولا يخبط خَبْطَ عشواء ، بل إنَّ له قوانينه الَّتي سجَّلها الله تعالى في كتابه الكريم؛ ليعرفها عباده المؤمنون ، ويتعاملوا معها على بصيرة»[(٣٨٤)].

إنَّ أوَّل شروط التعامل المنهجيِّ السليم مع السُّنن الإلهيَّة ، والقوانين الكونيَّة في الأفراد ، والمجتمعات ، والأمم ، هو أن نفهم ، بل نفقه فقهاً شاملاً رشيداً هذه السُّنن ، وكيف تعمل ضمن النَّاموس الإلهيِّ ، أو ما نعبر عنه بـ «فقه السُّنن» ، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعيَّة ، والمعادلات الحضاريَّة[(٣٨٥)].

يقول الأستاذ البنا ـ رحمه الله ـ في منهجيَّة التَّعامل مع السُّنن: «لا تصادموا نواميس الكون؛ فإنَّها غلابة ، ولكن غالبوها ، واستخدموها ، وحوِّلوا تيَّارها ، واستعينوا ببعضها على بعضٍ ، وترقَّبوا ساعة النَّصر ، وما هي منكم ببعيد»[(٣٨٦)].

ونلاحظ في هذا الكلام عدَّة أمورٍ مهمَّةٍ:

١ ـ عدم المصادمة.

٢ ـ المغالبة.

٣ ـ الاستخدام.

٤ ـ التَّحويل.

٥ ـ الاستعانة ببعضها على بعضٍ.

٦ ـ ترقُّب ساعة النَّصر[(٣٨٧)].

إنَّ ما وصل إليه الأستاذ البنَّا يدلُّ على دراسته العميقة للسِّيرة النَّبويَّة ، والتَّاريخ الإسلاميِّ ، وتجارب الشُّعوب ، والأمم ، ومعرفةٍ صحيحةٍ للواقع الَّذي يعيشه ، وتوصيفٍ سليمٍ للدَّاء ، والدَّواء.

إنَّ حركة الإسلام الأولى؛ الَّتي قادها النَّبيُّ (ص) في تنظيم جهود الدَّعوة ، وإقامة الدَّولة ، وصناعة الإنسان النموذجيِّ الرَّبانيِّ الحضاريِّ خضعت لسنن ، وقوانين قد ذكر بعضها بنوعٍ من الإيجاز؛ كأهمِّيَّة القيادة في صناعة الحضارات ، وأهمِّيَّة الجماعة المؤمنة المنظَّمة في مقاومة الباطل ، وأهمِّية المنهج الَّذي تستمدُّ منه العقائد ، والأخلاق ، والعبادات ، والقيم ، والتَّصوُّرات. ومن سنن الله الواضحة فيما ذكر سنَّة التَّدرُّج ،

وهي من سنن الله تعالى في خلقه ، وكونه ، وهي من السُّنن المهمَّة الَّتي يجب على الأمَّة أن تراعيها ، وهي تعمل للنُّهوض ، والتَّمكين لدين الله عزَّ وجلَّ.

ومنطلق هذه السُّنَّة: أنَّ الطَّريق طويلٌ ـ لا سيَّما في هذا العصر الَّذي سيطرت فيه الجاهليَّة ، وأخذت أُهْبَتَها ، واستعدادها ـ كما أنَّ الشرَّ ، والفساد قد تَجَذَّر في الشُّعوب ، واستئصاله يحتاج إلى تدرُّج.

بدأت الدَّعوة الإسلاميَّة الأولى متدرجةً ، تسير بالنَّاس سيراً دقيقاً ، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء ، والتَّأسيس ، ثمَّ مرحلة المواجهة والمقاومة ، ثمَّ مرحلة النَّصر والتَّمكين ، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقتٍ واحدٍ ، وإلا كانت المشقَّة ، والعجز ، وما كان يمكن كذلك أن تقدم واحدةٌ منها على الأخرى ، وإلا كان الخلل ، والإرباك[(٣٨٨)].

إنَّ اعتبار هذه السُّنَّة في غاية الأهمِّيَّة؛ «ذلك أنَّ بعض العاملين في حقل الدَّعوة الإسلاميَّة يحسبون أنَّ التَّمكين يمكن أن يتحقَّق بين عشيةٍ وضحاها ، ويريدون أن يغيِّروا الواقع الَّذي تحياه الأمَّة الإسلاميَّة في طرفة عينٍ ، دون النَّظر في العواقب ، ودون فهمٍ للظُّروف ، والملابسات المحيطة بهذا الواقع ، ودون إعدادٍ جيِّدٍ للمقدِّمات ، أو للأساليب ، والوسائل»[(٣٨٩)] ، وقد وجَّه

الله تعالى أنظارنا إلى هذه السُّنَّة في أكثر من موقع ، فالله ـ تعالى ـ خلق السَّموات والأرض في ستَّة أيام ، يعلمها سبحانه ، ويعلم مقدارها ، وكان ـ جلَّ شأنُه ـ قادراً على خلقها في أقلَّ مِنْ لمح البصر ، وكذلك بالنسبة لأطوار خلق الإنسان ، والحيوان ، والنَّبات ، كلُّها تتدرَّج في مراحل حتَّى تبلغ نماءها ، وكمالها ، ونضجها ، وَفْقَ سنَّة الله ـ تعالى ـ الحكيمة.

وسنَّة التَّدرُّج مقررةٌ في التَّشريع الإسلاميِّ بصورةٍ واضحةٍ ملموسةٍ ، وهذا من تيسير الإسلام على البشر؛ حيث إنَّه راعى معهم سنَّة التَّدرُّج فيما شرعه لهم إيجاباً ، وتحريماً ، فنجده حين فرض الفرائض؛ كالصَّلاة ، والصِّيام ، والزَّكاة فرضها على مراحل ، ودرجاتٍ؛ حتَّى انتهت إلى الصُّورة الأخيرة الَّتي استقرَّت عليها[(٣٩٠)].

«ولعلَّ رعاية الإسلام للتدرُّج هي الَّتي جعلته لا يُقدم على إلغاء نظام الرِّقِّ الذي كان نظاماً سائداً في العالم كلِّه عند ظهور الإسلام ، وكانت محاولة إلغائه تؤدِّي إلى زلزلةٍ في الحياة الاجتماعيَّة ، والاقتصاديَّة ، فكانت الحكمة في تضييق روافده؛ بل ردمها كلِّها ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حدٍّ ، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرِّق بطريق التَّدرُّج»[(٣٩١)].

«إننا إذا درسنا القران الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة ، دراسةً عميقةً؛ علمنا كيف؛ وبأيِّ تدرُّج ، وانسجامٍ تمَّ التَّغيير الإسلاميُّ في بلاد العرب ، ومنها إلى العالم كلِّه على يد النَّبيِّ (ص) .. فلقد كانت الأمور تسير رويداً رويداً حسب مجراها الطبيعيِّ؛ حتَّى تستقرَّ في مستقرِّها الَّذي أراده الله ربُّ العالمين»[(٣٩٢)].

«وهذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة في رعاية التَّدرُّج ينبغي أن تُتَّبع في سياسة النَّاس ، وعندما يُراد تطبيق الإسلام في الحياة ، واستئناف حياةٍ إسلاميَّةٍ متكاملةٍ؛ يكون التَّمكين ثمرتها ، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً حقيقيّاً؛ فلا نتوهَّم: أنَّ ذلك يمكن أن يتحقَّق بقرارٍ يصدر من رئيسٍ ، أو ملكٍ ، أو من مجلسٍ قياديٍّ ، أو برلمانيٍّ ، وإنَّما يتحقَّق ذلك بطريق التَّدرُّج؛ أي: بالإعداد ، والتَّهيئة الفكريَّة ، والنَّفسيَّة ، والاجتماعيَّة. وذلك هو المنهج الَّذي سلطه النَّبيُّ (ص) لتغيير الحياة الجاهليَّة إلى الحياة الإسلاميَّة ، فقد ظلَّ ثلاثة عشر عاماً في مكَّة ، كانت مهمَّته الأساسيَّة فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن ، الذي يستطيع أن يحمل عبء الدَّعوة ، وتكاليف الجهاد؛ لحمايتها ، ونشرها في الافاق ، ولهذا لم تكن المرحلة المكِّيَّة مرحلة تشريعٍ بقدر ما كانت مرحلة تربيةٍ ، وتكوينٍ»[(٣٩٣)].

ثانياً: سنة التَّغيير وعلاقتها بالبناء العقديِّ:

من السُّنن المهمَّة على طريق النُّهوض: السُّنَّة الَّتي يقرِّرها قول الله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ *} [الرعد: ١١] .

وارتباط هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة بالتَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة واضحٌ غاية الوضوح؛ ذلك: أنَّ التَّمكين لا يمكن أن يتأتَّى في ظلِّ الوضع الحالي للأمَّة الإسلاميَّة ، فلا بدَّ من التَّغيير ، كما أنَّ التَّمكين لن يتحقَّق لأمَّةٍ ارتضت لنفسها حياة المذلَّة ، والتخلُّف ، ولم تحاول أن تغيِّر ما حلَّ بها من واقعٍ ، وأن تتحرَّر من أسره[(٣٩٤)].

«والإسلام يوم جاء أوَّل مرَّةٍ، وقف في وجهه واقعٌ ضخمٌ، واقع الجزيرة العربيَّة، وواقع الكرة الأرضيَّة ، ووقفت في وجهه عقائد وتصوُّرات ، ووقفت في وجهه قيم وموازين، ووقفت في وجهه أنظمةٌ، وأوضاعٌ، ووقفت في وجهه مصالح، وعصبياتٌ.

كانت المسافة بين الإسلام يوم جاء وبين واقع النَّاس في الجزيرة العربيَّة ، وفي الأرض كافَّةً ، مسافةً هائلةً ، وكانت النُّقلة الَّتي يريدهم عليها بعيدةً بعيدةً ، وكانت تساند الواقع أحقابٌ من التَّاريخ ، وأشتاتٌ من المصالح ، وألوانٌ من القوى ، وقفت كلُّها سدّاً في وجه هذا الدِّين الجديد ، الَّذي لا يكتفي بتغيير العقائد

، والتَّصوُّرات، والقيم، والموازين ، والعادات ، والتَّقاليد ، والأخلاق ، والمشاعر؛ إنَّما يريد كذلك أن يغيِّر الأنظمة، والأوضاع، والشَّرائع، والقوانين ، كما يريد انتزاع قيادة البشريَّة من يد الطَّاغوت ، والجاهليَّة؛ ليردَّها إلى الله ، وإلى الإسلام»[(٣٩٥)].

«ولا شكَّ: أنَّ ما حدث مرَّةً يمكن أن يحدث مرَّةً أخرى ، فقد حدث ما حدث وَفْقَ سنَّةٍ جاريةٍ ، لا وفق معجزاتٍ خارقةٍ ، وقد قام ذلك البناء على رصيد الفطرة المدَّخرة لكلِّ من يستنفد هذا الرَّصيد، ويجمعه، ويطلقه في اتِّجاهه الصَّحيح»[(٣٩٦)].

إنَّ التَّغيير الَّذي قاده النَّبيُّ (ص) بمنهج الله تعالى بدأ بالنَّفس البشريَّة ، وصنع منها الرِّجال العظماء ، ثمَّ انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع ، حيث نقل النَّاس من الظُّلمات

إلى النُّور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن التَّخلُّف إلى التَّقدُّم ، وأنشأ بهم أروع حضارةٍ عرفتها الحياة[(٣٩٧)].

لقد قام النَّبيُّ (ص) ـ بمنهجه القرانيِّ ـ بتغيير في العقائد ، والأفكار ، والتَّصوُّر ، وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس أصحابه؛ فتغيَّر ما حوله في دنيا النَّاس ، فتغيَّرت المدينة ، ثمَّ مكَّة ، ثمَّ الجزيرة ، ثمَّ بلاد فارس ، والرُّوم في حركةٍ عالميَّةٍ تسبِّح ، وتذكر خالقها بالغدوِّ ، والاصال.

كان اهتمام المنهج القرانيِّ في العهد المكيِّ بجانب العقيدة ، فكان يعرضها بشتَّى الأساليب؛ فغمرت قلوبهم معاني الإيمان ، وحدث لهم تحوُّل عظيمٌ ، قال الله تبارك وتعالى موضحاً ذلك الارتقاء العظيم: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ١٢٢].

حقَّاً إنَّه تصويرٌ رائعٌ عجيبٌ تقف الأقلام حائرةً في وصفه! وكذلك الأسلوب القرانيُّ في كلِّ حينٍ تنهل منه الألباب ، وتصدر عنه الأساليب ، وتعجِز عن إيفائه حقَّه من التَّعبير؛ من الموت إلى الحياة ، ومن الظُّلمات إلى النُّور ، هل يستويان مثلاً؟! مسافةٌ هائلةٌ! ونقلةٌ عظيمةٌ لا يعرف عظمتها ، ويدرك مقدارها إلا مَنْ تفرَّس في حالهم في ضوء هذا البيان القرانيِّ المعجز[(٣٩٨)].

ثالثاً: تصحيح الجانب العقديِّ لدى الصَّحابة:

كان تصورُ الصَّحابة رضي الله عنهم لله قبل البعثة تصوراً فيه قصورٌ ، ونقصٌ ، فهم ينحرفون عن الحقِّ في أسمائه ، وصفاته: {وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأعراف: ١٨٠] ، فينكرون بعض صفاته ، ويسمُّونه بأسماء لا توفيق فيها ، أو بما يوهم

معنىً فاسداً ، وينسبون إليه النَّقائص ، كالولد، والحاجة، فزعموا: أنَّ الملائكة بنات الله، وجعلوا الجنَّ شركاء له سبحانه: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ *} [الأنعام: ١٠٠] ، {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ *} [النحل: ٥٧] .

فجاء القران الكريم لترسيخ العقيدة الصَّحيحة ، وتثبيتها في قلوب المؤمنين ، وإيضاحها للنَّاس أجمعين ، وذلك ببيان توحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الألوهيَّة ، وتوحيد الأسماء ، والصِّفات ، والإيمان بكلِّ ما أخبر الله به من الملائكة ، والكتاب ، والنَّبيِّين ، والقدر خيره ،

وشرِّه ، واليوم الاخر ، وإثبات الرِّسالة للرُّسل ـ عليهم السَّلام ـ والإيمان بكلِّ ما أخبروا به[(٣٩٩)].

فقد عَرَّف القران المكيُّ الناسَ مَنْ هو الإله الَّذي يجب أن يعبدوه، وكان النَّبيُّ (ص) يربِّيهم على تلك الايات العظيمة؛ فقد حرص (ص) منذ اليوم الأوَّل على أن يعطي النَّاس التَّصوُّر الصَّحيح عن ربِّهم ، وعن حقِّه عليهم مدركاً: أنَّ هذا التَّصوُّر سيورث التَّصديق ، واليقين عند مَنْ صفت نفوسهم ، واستقامت فطرتُهم. ولقد كان تركيز النَّبيِّ (ص) في هذا التَّصوُّر المستمدِّ من القران الكريم قائماً على عدَّة جوانب ، منها:

١ ـ أنَّ الله منزَّهٌ عن النَّقائص ، موصوفٌ بالكمالات الَّتي لا تتناهى؛ فهو سبحانه واحدٌ لا شريك له ، لم يتَّخذ صاحبةً ، ولا ولداً.

٢ ـ وأنَّه سبحانه خالق كلِّ شيءٍ ، ومالكه ، ومدبِّر أمره: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *} [الأعراف:٥٤] .

٣ ـ وأنَّه تعالى مصدر كلِّ نعمةٍ ـ دقَّت أو عظمت ، ظهرت أو خفيت ـ في هذا الوجود {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ *} [النحل: ٥٣] .

٤ ـ وأنَّ علمه محيطٌ بكلِّ شيءٍ ، فلا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ، ولا في السَّماء ، ولا ما يُخفي الإنسان ، وما يُعلن: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا *} [الطلاق: ١٢] .

٥ ـ وأنَّه سبحانه يقيِّد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته ، في كتابٍ لا يترك صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، وسينشر ذلك في اللَّحظة المناسبة ، والوقت المناسب: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ *} [ق: ١٨] .

٦ ـ وأنَّه سبحانه يبتلي عباده بأمورٍ تخالف ما يحبُّون ، وما يهوون؛ ليعرف النَّاسُ معادنَهم ، ومن منهم يرضى بقضاء الله ، وقدره ، ويسلم له ظاهراً وباطناً ، فيكون جديراً بالخلافة ، والإمامة ، والسيادة ، ومن منهم يغضب ، ويسخط ، فيكون جزاؤه غضبَ الله ، وعدمَ إسناد شيءٍ إليه: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ *} [الملك: ٢] ، وذلك مع علمه بالشَّيء قبل وقوعه.

٧ ـ وأنَّه سبحانه يوفِّق ، ويؤيِّد ، وينصر من لجأ إليه ، ولاذ بحماه ، ونزل على حكمه في كلِّ ما يأتي ، وما يذر: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ *} [الأعراف: ١٩٦] .

٨ ـ وأنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ حقُّه على العباد أن يعبدوه ، ويوحِّدوه ، فلا يشركوا به شيئاً: {بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ *} [الزمر: ٦٦] .

٩ ـ وأنَّه ـ سبحانه ـ حدَّد مضمون هذه العبوديَّة، وهذا التَّوحيد في القران العظيم[(٤٠٠)].

وتربَّى الرَّعيل الأوَّل رضي الله عنهم ، على فهم صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وعبدوه بمقتضاها؛ فَعَظُمَ الله في نفوسهم ، وأصبح رضاه سبحانه غايةَ مقصدهم ، وسعيهم ، واستشعروا مراقبته لهم في كلِّ الأوقات ، فكبحوا جماح نفوسهم من أن تزلَّ؛ والله مطَّلعٌ عليها ، وتطهَّر صحابة رسول الله (ص) من الشِّرك بجميع أنواعه ، سواءٌ من اعتقاد متصرِّف مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أيِّ شيءٍ ، من تدبير الكون؛ من إيجادٍ ، أو إعدامٍ ، أو إحياءٍ ، أو إماتةٍ ، أو طلب خير ، أو دفع شرٍّ بغير إذنٍ من الله سبحانه ، أو اعتقاد منازعٍ له في شيءٍ من مقتضيات أسمائه وصفاته ، كعلم الغيب ، وكالعظمة ، والكبرياء ، وكالحاكميَّة المطلقة ، وكالطَّاعة المطلقة ، ونحو ذلك[(٤٠١)].

إنَّ التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة للأفراد على التَّوحيد هي الأساس الَّذي قام عليه البناء الإسلاميُّ ، وهي المنهجيَّة الصَّحيحة الَّتي سار عليها الأنبياء والمرسلون من قبل ، فكلُّ رسولٍ دعا قومه إلى إفراد الله بالعبادة. قال تعالى عن نوح عليه السلام: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَنْ لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ *} [هود: ٢٥ ـ ٢٦] ، وقال عن هودٍ عليه السلام: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ *} [هود: ٥٠] ، وقال عن صالح عليه السلام: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ *} [هود: ٦١] ، وقال عن شعيبٍ عليه السلام: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ ياقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ *} [هود: ٨٤] ، وقال عن عيسى عليه السلام: {إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *} [آل عمران: ٥١].

وبالجملة: فالرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ كلُّهم دعوا لتوحيد الألوهيَّة ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة ، واجتناب الطَّاغوت ، والأصنام. قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *} [النحل: ٣٦].

وقد ربَّى رسول الله (ص) صحابته على تجريد التَّوحيد بأنواعه كلِّها ، وكان هو (ص) مثالاً حيًّاً للمؤمن الموحِّد غاية التَّوحيد: {قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ *} [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٤].

وقد آتت تربية الرَّسول (ص) لأصحابه ثمارها المباركة؛ فتطهَّر الصَّحابة في الجملة ممَّا يضادُّ توحيد الألوهيَّة ، وتوحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات ، فلم يحتكموا إلا إلى الله وحده، ولم يطيعوا غير الله، ولم يتَّبعوا أحداً على غير مرضاة الله، ولم يحبُّوا غير الله كحب الله ، ولم يخشوا إلا الله ، ولم يتوكَّلوا إلا على الله ، ولم يلتجئوا إلا إلى الله ، ولم يدعوا دعاء المسألة والمغفرة إلا لله وحده ، ولم يذبحوا إلا لله ، ولم ينذروا إلا لله ، ولم يستغيثوا إلا بالله ، ولم يستعينوا ـ فيما لا يقدر عليه إلا الله ـ إلا بالله وحده ، ولم يركعوا ، أو يسجدوا ، أو يَحُجُّوا ، أو يطوفوا ، أو يتعبَّدوا إلا لله وحده ، ولم يُشَبِّهُوا الله لا بالمخلوقات ، ولا بالمعدومات؛ بل نزَّهوه غاية التَّنزيه ، وأثبتوا له ما أثبته لنفسه ، أو أثبته له رسوله (ص) ، من غير تحريفٍ ، أو تعطيلٍ ، أو تأويلٍ ، ولم يخافوا خوف السِّرِّ إلا من الله وحده ، ولم يصرفوا الطَّاعة المطلقة إلا لله وحده ، ولم يشركوا أحداً من خلقه في خاصِّيَّةٍ من خصائص ربوبيَّته؛ كالإحياء ، والإماتة ، والرِّزق ، والعلم المحيط ، والقدرة الباهرة ، والقيُّوميَّة ، والبقاء المطلق ، والتَّحليل ، والتَّحريم ، ونحو ذلك؛ جعلنا الله ممَّن يحقِّق التَّوحيد قولاً ، وعملاً ، واعتقاداً ، إنَّه وليُّ ذلك ، والقادر عليه[(٤٠٢)].

وقد جاء القران المكِّيُّ موضِّحاً عقيدة التَّوحيد ، ومثبِّتاً لرسالة محمَّدٍ (ص) إلى الإنس ، والجنِّ كافةً. قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [سبأ: ٢٨] ، وقال تعالى: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي

وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *} [الأعراف: ١٥٨] ، وقال تعالى: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ *قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ *يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *} [الأحقاف: ٢٩ . ٣١] وغير هذه الايات في القران الكريم كثيرٌ ، والّتي تثبت رسالة محمَّدٍ (ص) للإنس والجنّ كافّةً[(٤٠٣)].

وكما رسَّخ القران المكّيُّ في قلوب الصَّحابة رضي الله عنهم العقيدة الصَّحيحة حول التَّوحيد بأنواعه ، وحول الرَّسول (ص) والرِّسالة ؛ صحَّح عقيدتهم حول الملائكة، وأنَّهم خلقٌ من خلقه ، يسجدون له ، ولا يستكبرون عن عبادته ، وليس لهم شركٌ في السَّماء ولا في الأرض ، وأنَّهم لا يضرُّون ولا ينفعون أحداً إلا بأمره سبحانه: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ *} [الرعد: ١٣] ، {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَآبَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ *} [النحل: ٤٩] ، {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلاَئِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [فاطر: ١] ، {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ *} [سبأ: ٢٢] ، {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ *} [الأعراف: ٢٠٦] .

وكذلك سائر أركان الإيمان الأخرى ، غرسها القران المكّيُّ في قلوب المؤمنين بأسلوب القران المعجز ، ووضَّحها للنَّاس كافَّةً؛ فبيَّن كيفيَّة إنزال القران على الرَّسول (ص) : {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً *} [الإسراء: ١٠٦] ، {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ *} [الزمر: ٢٣] ، {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ *} [الأنعام: ٩١] .

وبيَّن سبحانه: أنَّ له كتباً غير القران الكريم: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا *}[الإسراء: ٥٥] ، {نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ *}[آل عمران: ٣] ، وبيَّن سبحانه: أنَّه بعث كثيراً من الأنبياء: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ *}[الزخرف: ٦] ، فبعضهم ذكرهم القران ، وبعضهم لم يذكرهم: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ *}[غافر: ٧٨].

رابعاً: وصف الجنَّة في القران الكريم ، وأثره على الصَّحابة:

ركَّز القران المكِّيُّ على اليوم الاخر غاية التَّركيز ، فقلَّ أن توجد سورةٌ مكِّيَّةٌ لم يذكر فيها بعض أحوال يوم القيامة ، وأحوال المنعَّمين ، وأحوال المعذَّبين ، وكيفية حشر النَّاس ومحاسبتهم ، حتَّى لكأنَّ الإنسان يرى يوم القيامة رأيَ العين: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ * وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ *وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ *قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ *وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ *وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ *وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [الزمر: ٦٧ ـ ٧٥] .

وقد جاءت الايات الكريمة مبيِّنةً ، واصفةً للجنَّة ، فأثَّر ذلك في نفوس الصَّحابة أيَّما تأثير؛ فممَّا جاء في وصف الجنَّة: أنَّها لا مثيل لها ، وأنَّ لها أبواباً ، وفيها درجاتٌ ، وتجري من تحتها الأنهار ، وفيها عيونٌ ، وقصورٌ ، وخيامٌ ، وفيها أشجارٌ متنوعةٌ ، كسدرة المنتهى ، وشجرة طوبى ، وتحدَّث القران الكريم عن نعيم أهلها، وطعامهم، وشرابهم، وخمرهم، وانيتهم، ولباسهم ، وحليِّهم ، وفرشهم، وخدمهم ، وأحاديثهم، ونسائهم، وعن أفضل ما يُعْطاه أهلها ، وعن اخر دعواهم؛ بحيث أصبح الوصف القرانيُّ للجنَّة مهيمناً على جوارح ، وأحاسيس ، وأذهان ، وقلوب المسلمين ، ونذكر بعض ما جاء من وصفها من خلال القران الكريم:

١ ـ الجنَّة لا مثيل لها:

إنَّ نعيم الجنَّة شيءٌ أعدَّه الله لعباده المتَّقين ، نابعٌ من كرم الله ، وجوده ، وفضله ، ووصف لنا المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ شيئاً من نعيمها ، إلا أنَّ ما أخفاه الله عنَّا من نعيمٍ شيءٌ عظيم ، لا تدركه العقول ، ولا تصل إلى كُنْهِهِ الأفكار ، قال تعالى: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [السجدة: ١٧] .

وقد بيَّن سبحانه وتعالى سبب هذا الجزاء ، وهو ما وفَّقهم إليه من أعمالٍ عظيمةٍ؛ من قيام ليلٍ ، وإنفاقٍ في سبيله. قال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [السجدة: ١٦ ـ ١٧] .

٢ ـ درجات الجنَّة:

إنَّ أهل الجنَّة متفاوتون فيما بينهم على قدر أعمالهم ، وتوفيق الله لهم ، وكذلك درجاتهم في الاخرة ، بعضها فوق بعض. قال تعالى: {وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى *} [طه: ٧٥].

وأولياء الله المؤمنون في تلك الدَّرجات بحسب إيمانهم ، وتقواهم ، قال تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً *} [الإسراء: ٢١] ، وقال: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ *} [الطور: ٢١] ، {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ *} [الزمر: ٢٠].

٣ ـ أنهار الجنَّة:

ذكر القران الكريم في اياتٍ عديدةٍ أنهار الجنَّة. قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ} [محمد: ١٥] .

٤ ـ عيون الجنَّة:

في الجنَّة عيونٌ كثيرةٌ ، مختلفة الطُّعوم ، والمشارب. قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *} [الحجر: ٤٥] ، وقال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ *} [المرسلات: ٤١] ، وقال في وصف الجنَّتين اللَّتين

أعدَّهما لمن خاف ربه: {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ *} [الرحمن: ٥٠] ، {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ *} [الرحمن: ٦٦] .

وفي الجنَّة عينان يشرب المقرَّبون ماءهما صِرْفاً غير مخلوطٍ ، ويشرب منهما الأبرار الشَّراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره:

العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: {إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا *عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا *} [الإنسان: ٥ ـ ٦]. فقد أخبر: أنَّ الأبرار يشربون شرابهم ممزوجاً من عين الكافور ، بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

العين الثانية: عين التَّسنيم. قال تعالى: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعْيمٍ *عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ *تَعْرِفُ فِي وَجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ *يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ *وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ *عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ *} [المطففين: ٢٢ ـ ٢٨].

ومن عيون الجنَّة عينٌ تسمَّى السَّلسبيل. قال تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً *}[الإنسان: ١٧ ـ ١٨].

٥ ـ وصف بعض شجر الجنَّة:

أ ـ سدرة المنتهى:

وهذه الشَّجرة ذكرها المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه العزيز ، وأخبر ـ سبحانه ـ: أنَّ رسولنا (ص) رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها ، وأنَّ هذه الشجرة عندها جنَّة

المأوى ، وهذه السِّدرة يغشاها ما لا يعلمه إلا الله. قال تعالى: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى *إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى *مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى *}[النجم: ١٣ ـ ١٧].

ب ـ شجرة طوبى:

وهذه الشَّجرة عظيمةٌ كبيرةٌ ، تصنع منها ثياب أهل الجنَّة ، فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «طوبى شجرةٌ في الجنَّة مسيرة مئة عامٍ ، ثياب أهل الجنَّة تخرج من أكمامها» [أحمد (٣/٧١) وأبو يعلى (١٣٧٤) ومجمع الزوائد (١٠/٦٧)] .

الشَّجرة الَّتي يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة عام ، هذه الشَّجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الَّذي خلقها ، وقد بيَّن الرسول (ص) عِظَمَ هذه الشَّجرة ، بأنْ أخبر: أنَّ الرَّاكب لفرس من الخيل الَّتي تعدُّ للسِّباق ، يحتاج

إلى مئة عامٍ حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه ، ففي صحيح البخاريِّ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ (ص) قال: «إنَّ في الجنَّة لشجرةً يسير الرَّاكب في ظلِّها مئة سنةٍ ، واقرؤوا إن شئتم {وَظِلٍّ مَمْدُودٍ *} ٣٠]» [البخاري (٣٢٥٢) ومسلم (٢٨٢٦)] .

وهذا يدلُّ على خَلْقٍ بديعٍ ، وقدرةِ الصَّانع ، سبحانه وتعالى.

٦ . طعام أهل الجنَّة وشرابهم:

ذكر الله . سبحانه وتعالى .: أنَّ في الجنَّة ما تشتهيه الأنفس من الماكل ، والمشارب فقال: {وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ *} [الواقعة: ٢٠] ، وقال: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *} [الزخرف: ٧١].

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها ، وألوان طعامها ، وشرابها ما يشتهون ، فقال: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ *} [الحاقة: ٢٤] .

٧ . خمر أهل الجنَّة:

من الشَّراب الَّذي يتفضَّل اللهُ به على أهل الجنَّة الخمر ، وخمر الجنَّة خالٍ من العيوب ، والافات الَّتي تتَّصف بها خمر الدُّنيا ، فخمر الدُّنيا تذهب العقول ، وتُصدِّع الرؤوس ، وتوجع البطون ، وتمرض الأبدان ، وتجلب الأسقام ، وقد تكون معيبةً في صنعها ، أو لونها ، أو غير ذلك ، أمَّا خمر الجنَّة؛ فإنَّها خاليةٌ من ذلك كلِّه ، وجميلةٌ ، صافيةٌ ، رائعةٌ[(٤٠٤)]. قال الله تعالى: {يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ *بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ *لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ *} الصافات: ٤٥ . ٤٧]. فقد وصف الله جمال لونها (بيضاء) ، ثمَّ بين: أنَّها يلتذُّ بها شاربُها ، لا يملُّ من شربها. وقال في موضع اخر يصف خمر الجنَّة: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ *} [الواقعة: ١٧ . ١٩] .

وقال تعالى في موضع اخر: {يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ *} [المطففين: ٢٥ . ٢٦] ، والرَّحيق هو الخمر ، ووصف هذا الخمر بوصفين: الأوَّل: أنه مختومٌ؛ أي: موضوعٌ عليه خاتم الأمر. الثاني: أنَّهم إذا شربوه؛ وجدوا في ختام شرابهم له رائحة المسك[(٤٠٥)].

٨ . طعام أهل الجنَّة وشرابهم لا دنس معه:

الجنَّة دارٌ خالصةٌ من الأذى ، وأهلها مطهَّرون من أوساخ أهل الدُّنيا. قال رسول الله (ص) : «أوَّل زمرةٍ تدخل الجنَّة من أمَّتي على صورة القمر ليلة البدر ، ثمَّ الذين يلونهم على أشدِّ نجم في السَّماء إضاءةً، ثمَّ

هم بعد ذلك منازلُ، لا يتغوَّطُون، ولا يبولون ، ولا يَمْتَخِطُونَ ، ولا يَبْزُقُون» [البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤)].

فالَّذي يتفاوت فيه أهل الجنَّة ممَّا نُصَّ عليه في الحديث قوَّة نور كلٍّ منهم ، أمَّا خلوصهم من الأذى؛ فإنَّهم يشتركون فيه جميعاً ، فهم لا يتغوَّطون ، ولا يبولون ، ولا يتفلون ، ولا يَبْزُقُون ، ولا يَمْتَخِطُونَ ، وفضلات الطَّعام والشَّراب تتحوَّل إلى رشح كرشح المسك ، يفيض من أجسادهم ، كما يتحوَّل بعضٌ منه إلى جشاءٍ ، ولكنَّه جشاء تنبعث منه روائح طيِّبةٌ عبقةٌ عطرةٌ.

قال رسول الله (ص) : «إنَّ أهل الجنَّة يأكلون فيها ، ويشربون ، لا يَتْفُلُون ، ولا يَبُولُون ، ولا يَتغَوَّطُون ، ولا يَمْتَخِطُونَ». قالوا: فما بالُ الطَّعام؟ قال: «جُشَاءٌ ، ورَشْحٌ كَرَشْحِ المسك» [مسلم (٢٨٣٥) وأبو داود (٤٧٤١)] .

٩ ـ لباس أهل الجنَّة ، وحليُّهم ، ومباخرهم:

أهل الجنَّة يلبسون فيها الفاخر من اللِّباس ، ويتزيَّنون فيها بأنواع الحليِّ من الذَّهب ، والفضَّة ، واللؤلؤ؛ فمن لباسهم الحرير ، ومن حليِّهم أساور الذَّهب ، والفضَّة ، واللؤلؤ. قال تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *} [فاطر: ٣٣] ، {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا *} [الإنسان: ٢١] . وملابسهم ذات ألوان ، ومن ألوان الثِّياب الَّتي يلبسون الخضر من السُّندس والإستبرق: {أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا *} [الكهف: ٣١]. وقد أخبر الرَّسول (ص) : أنَّ لأهل الجنَّة أمشاطاً من الذَّهب ، والفضَّة ، وأنَّهم يتبخَّرون بعود الطِّيب ، مع أنَّ رائحة المسك

تفوح من أبدانهم الزَّكيَّة. قال رسول الله (ص) : «انيتُهم الذَّهبُ ، والفضَّةُ ، وأمشاطُهم الذَّهب ، وَوَقُودُ مَجامِرِهم الأَلُوَّةُ ـ عود الطِّيب ـ ورَشْحُهم الْمِسْك» [البخاري (٣٢٤٦) ومسلم (١٧/٢٨٣٤)] .

وثياب أهل الجنَّة ، وحليُّهم لا تبلى ، ولا تفنى. قال رسول الله (ص) : «من يدخلُ الجنة ينعمُ لا يَبْأَسُ ، لا تَبْلَى ثيابُه ، ولا يفنى شبابُه» [مسلم (٢٨٣٦) وأحمد (٣٦٩/٢ ـ ٣٧٠ و٤٠٧ و٤١٦ و٤٦٢) والدارمي (٢٨٦١) وأبو نعيم في صفة الجنة (٩٧)] .

١٠ ـ اجتماع أهل الجنَّة ، وأحاديثهم:

أهل الجنَّة يزور بعضهم بعضاً ، ويجتمعون في مجالس طيبة ، يتحدَّثون ويذكرون ما كان منهم في الدُّنيا ، وما منَّ الله به عليهم من دخول الجنان. قال الله تعالى في وصف اجتماع أهل الجنَّة: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ *} [الحجر: ٤٧].

وحدَّثنا القران عن أصناف الأحاديث الَّتي يتكلَّمون بها في اجتماعهم: {وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ *فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ *إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ *}[الطور: ٢٥ ـ ٢٨]. ومن ذلك تذكُّرهم أهل الشرِّ الَّذين كانوا يشكِّكون أهل الإيمان ، ويدعونهم إلى الكفران: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ *قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ *يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ *أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ *قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ *فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ *قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ *وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ *أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ *إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ *إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ *}[الصافات: ٥٠ ـ ٦١].

١١ ـ نساء أهل الجنَّة:

زوجة المؤمن في الدُّنيا هي زوجته في الاخرة إذا كانت مؤمنةً. قال تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ *} [الرعد: ٢٣] ، وهم في الجنَّات منعَّمون مع الأزواج ، يتّكِئون في ظلال الجنَّة مسرورين فرحين: {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ *} [يس: ٥٦] ، {ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ *} [الزخرف: ٧٠] .

١٢ ـ الحور العين:

قال تعالى: {كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ *} [الدخان: ٥٤] ، والحور: جمع حوراء، وهي الَّتي يكون بياض عينها شديد البياض ، وسواده شديد السَّواد ، والعين: جمع عيناء ، والعيناء هي واسعة العين ، وقد وصف الله في القران الحور العين بأنهنَّ كواعب أتراب ، قال تعالى: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا *حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا *وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا *} [النبأ: ٣١ ـ ٣٣]. والكاعب: المرأة الجميلة الَّتي برز ثديها ، والأتراب: المتقاربات في السنِّ ، والحور العين من خلق الله في الجنَّة ، أنشأهنَّ الله إنشاءً فجعلهن أبكاراً ، عرباً أتراباً: {إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً *فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا *عُرُبًا أَتْرَابًا *} [الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧]. وكونهنَّ أبكاراً يقضي أنَّه لم ينكحهنَّ قبلهم أحدٌ ، كما قال تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ *} [الرحمن: ٥٦] ، وقد تحدَّث القران الكريم عن جمال نساء أهل الجنة ، فقال: {وَحُورٌ عِينٌ *كَأَمْثَالِ

اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ *} [الواقعة: ٢٢ ـ ٢٣] والمراد بالمكنون: الخفيُّ المصون، الَّذي لم يغيِّر صفاء لونه ضوءُ الشَّمس، ولا عبثُ الأيدي ، وشبَّههنَّ في موضع اخر بالياقوت والمرجان: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ *فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ *} [الرحمن: ٥٦ ـ ٥٨] . والياقوت والمرجان: حجران كريمان فيهما جمالٌ ، ولهما منظرٌ حسنٌ بديعٌ ، وقد وصف الحور بأنهنَّ قاصرات الطَّرف ، وهنَّ اللَّواتي قصَرْنَ بصرهنَّ على أزواجهنَّ ، فلم تطمح أنظارهنَّ لغير أزواجهنَّ ، وقد شهد الله لحور الجنَّة بالحسن ، والجمال ، وحسبك أن شهد الله بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ *فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *} [الرحمن: ٧٠ ـ ٧١]. ونساء الجنَّة لَسْنَ كنساء الدُّنيا ، فإنهنَّ مطهراتٌ من الحيض والنِّفاس ، والبصاق ، والمخاط ، والبول ، والغائط[(٤٠٦)].

وقد تحدَّث الرَّسول (ص) عن جمال رجال ، ونساء أهل الجنَّة ، فقال: «أوَّل زمرةٍ تلج الجنَّة صورتُهم على صورة القمر ليلةَ البدر ، لا يَبْصُقُون فيها ، ولا يمْتَخِطُونَ ، ولا يتغوَّطُون ، وانيتُهم فيها الذَّهبُ ، أمشاطُهم من الذَّهب والفضة ، ومجَامِرُهم الألُوَّةُ ، ورَشْحُهم المسكُ ، ولكلِّ واحدٍ منهم زوجتانِ ، يُرَى مُخُّ سُوقهما من وراء اللَّحم من الحُسْن» [البخاري (٣٢٤٥) ومسلم (١٧/٢٨٣٤)] .

وانظر إلى هذا الجمال الَّذي حدَّث به رسول الله (ص) أصحابَه ، هل تجد له نظيراً ممَّا تعرف؟! «ولو أنَّ امرأةً من أهل الجنَّة اطَّلعت إلى أهل الأرض؛ لأضاءت ما بينهما ، ولملأته ريحاً ، ولنصيفُها على رأسها خيرٌ من الدُّنيا وما فيها» [البخاري (٢٧٩٦) وأحمد (٣/١٤١) والترمذي (١٦٥١) وابن حبان (٧٣٩٩)].

١٣ ـ أفضل ما يعطاه أهل الجنة:

قال رسول الله (ص) : «إذا دخل أهل الجنَّةِ الجنَّةَ ، يقول اللهُ تبارك تعالى: تريدون شيئاً أزيدكُم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وجوهنا؟! ألم تُدْخِلْنا الجنة ، وتُنَجِّنَا من النار؟! قال: فَيَكْشِفُ الحجابَ ، فما أُعْطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إلى ربهم تبارك وتعالى» ، وجاء في روايةٍ أخرى: ثمَّ تلا هذه الاية: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *}[يونس: ٢٦] [أحمد (٤/٣٣٢ ـ ٣٣٣) ومسلم (١٨١) والترمذي (٢٥٥٥) وابن ماجه (١٨٧)] .

وأمَّا عن رضوان الله الَّذي يعطى لأهل الجنَّة؛ فعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «إنَّ الله تعالى يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا ، وسَعْدَيْكَ ، والخير كلُّه في يَدَيْكَ! فيقول: هل رَضِيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب! وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك؟!

فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: يا رب! وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً» [البخاري (٦٥٤٩) ومسلم (٢٨٢٩)] .

١٤ ـ اخر دعواهم أن الحمد لله ربِّ العالمين:

يمرُّ المؤمنون في الموقف العظيم بأهوالٍ عظام ، ثمَّ يمرُّون على الصِّراط ، فيشاهدون هولاً ، ورعباً ، ثمَّ يدخلهم الله جنَّات النَّعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن ، فيرون ما أعدَّ الله لهم فيها من خيراتٍ عظام ، فترتفع ألسنتهم تسبِّح ربَّهم وتقدِّسه؛ فقد أذهب عنهم الحزن ، وصدَقَهم وعده ، وأورثهم الجنَّة: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ *} [فاطر: ٣٣ ـ ٣٤].

واخر دعواهم في جنَّات النَّعيم الحمد لله رب العالمين: {دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [يونس: ١٠].

إنَّ النَّبيَّ (ص) كان يربِّي أصحابه على السَّعي لمرضاة الله تعالى حتى يدخلهم جنَّاته العظيمة ، فكان يصف لهم الجنَّات من خلال المنهج القرانيِّ ، حتَّى لكأنَّ الصَّحابي يرى الجنَّة معروضةً أمامه في تلك اللحظة ، وينفعل بها كأنَّه يراها في عالم العيان بالفعل ، وليست أمراً يتصوَّر حدوثه في المستقبل ، وهذا من الإعجاز البياني في التعبير القراني إلى حدٍّ تصبح الاخرة ـ التي لم تأت بعد ـ كأنَّها الحاضر الَّذي يعيشه الإنسان ، ويصبح الحاضر الَّذي يعيشه بالفعل كأنَّه ماضٍ سحيقٌ تفصله عن الإنسان امادٌ ، وأبعاد[(٤٠٧)].

إنَّ التَّصوُّر البديع للجنان ، والاعتقاد الجازم بها ، مهمٌّ في نهضة أمَّتنا ، فعندما تُحْيَا صورة الجنان في نفوس أفراد الأمَّة ، فإنَّهم سيندفعون لمرضاة الله تعالى ، ويُقدِّمون الغالي ، والنَّفيس ، ويتخلَّصون من الوَهَن ، وكراهة الموت ، وتتفجَّر في نفوسهم طاقاتٌ هائلةٌ تمدُّهم بعزيمةٍ ، وإصرارٍ ، ومثابرةٍ على إعزاز دين الله ، وقد لاحظت في المعارك الفاصلة ، والانتصارات العظيمة؛ التي حقَّقتها الأمَّة في تاريخها المجيد من أسبابها الواضحة حبُّ القادة ، والجنود المقاتلين للشَّهادة في سبيل الله ، والشَّوق لجنانه ، وتعبُّدهم لله بفريضة الجهاد ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ ، كمعركة الزلاَّقة الَّتي انتصر فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين على النَّصارى في الأندلس ، وكمعركة حطِّين بقيادة صلاح الدِّين ، وعين جالوت بقيادة قطز ، وكفتح القسطنطينية بقيادة محمَّد الفاتح.

خامساً: وصف النَّار في القران الكريم ، وأثره في نفوس الصَّحابة:

كان الصَّحابة يخافون الله تعالى ، ويخشونه ، ويرجونه ، وكان لتربية الرَّسول (ص) أثرٌ في نفوسهم عظيم ، وكان المنهج القرانيُّ الَّذي سار عليه رسول الله (ص) يفعل الأفاعيل في نفوس الصَّحابة؛ لأنَّ القران الكريم وصف أهوال يوم القيامة ، ومعالمها من قبض الأرض ودكِّها ، وطيِّ السَّماء ، ونسف الجبال ، وتفجير البحار ، وتسجيرها ، ومَوْرِ السماء ، وانفطارها ، وتكوير الشمس ، وخسوف القمر ، وتناثر النُّجوم ، وصوَّر القران الكريم حال الكفَّار ، وذلَّتهم ، وهوانهم ، وحسرتهم ، ويأسهم ، وإحباط أعمالهم ، وتخاصم العابدين والمعبودين ، وتخاصم الأتباع وقادة الضَّلالة ، وتخاصم الضعفاء والسَّادة ، وتخاصم الكافر وقرينه الشَّيطان ، ومخاصمة الكافر أعضاءه ، وتخاصم الرُّوح والجسد ، وتحدَّث القران الكريم عن الشَّفاعة ، وبيَّن شروطها ، والمقبول منها ، والمرفوض ، والمراد بالحساب والجزاء ، وعن مشهد الحساب ، وهل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟

وتحدَّث القران الكريم عن الاقتصاص في المظالم بين الخلق ، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة ، وبين المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في القران الكريم عظم شأن الدِّماء ، وبين: أنَّ هناك يوم القيامة توضع الموازين الَّتي توزن بها الأعمال ، وأخبر النَّبيُّ (ص) عن الحوض ، ومَنِ الَّذين يردون على الحوض ، والَّذين يُذادون عنه ، وتحدَّث القران الكريم عن حشر الكفَّار إلى النَّار ، ومرور المؤمنين والمنافقين على الصِّراط ، وخلاص المؤمنين وحدهم[(٤٠٨)].

وقد كان لهذا الحديث أثره العظيم في نفوس الصَّحابة ، وصوَّر القران الكريم ألوان العذاب في النَّار ، فأصبح الرَّعيل الأوَّل يراها رأيَ العين ، ومن حديث القرانْ عن النَّار بيانه لكلٍّ من:

١ ـ طعام أهل النَّار وشرابهم ولباسهم:

أ ـ بيَّن القران الكريم: أنَّ من طعام أهل النَّار الضَّريع ، والزقُّوم ، وأنَّ شرابهم الحميم ، والغسلين ، والغسَّاق ، قال تعالى: {لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ *لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ *} [الغاشية: ٦ ـ ٧] ، وأكلهم لهذا الطَّعام هو نوعٌ من أنواع العذاب؛ فهم لا يتلذَّذون به ، ولا تنتفع به أجسادهم.

أمَّا الزَّقُّوم؛ فقال تعالى فيه: {إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ *طَعَامُ الأَثِيمِ *كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ *كَغَلْيِ الْحَمِيمِ *} [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦] وقد وصف الله شجرة الزَّقوم في موضعٍ اخر ، فقال: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ *إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ *إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ *طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ *} [الصافات: ٦٢ ـ ٦٥] وقال: {وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} [الإسراء: ٦٠].

وقال في موضعٍ اخر: {ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ *لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ *فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ *فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ *فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ *} [الواقعة: ٥١ ـ ٥٥] ، ويؤخذ من هذه الايات: أنَّ هذه الشَّجرة شجرةٌ خبيثةٌ ، جذورها تضرب في قعر النَّار ، وفروعها تمتدُّ في أرجائها ، وثمر هذه الشَّجرة قبيح المنظر: لذلك شبِّه برؤوس الشَّياطين ، وقد استقرَّ في النُّفوس قبح رؤوسهم . وإن كانوا لا يرونهم . ومع خبث هذه الشَّجرة ، وخبث طلعها إلا أنَّ أهل النَّار يُلقَى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرّاً من الأكل منها ، إلى درجة ملء البطون ، فإذا امتلأت بطونهم؛ أخذت تغلي في أجوافهم كما يغلي عكر الزَّيت ، فيجدون لذلك الاماً مبرحةً ، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ؛ اندفعوا إلى الحميم . وهو الماء الحارُّ الَّذي تناهى حرُّه . فشربوا منه كشرب الإبل التي تشرب ، وتشرب ، ولا تروى لمرضٍ أصابها ، وعند ذلك يقطِّع الحميمُ أمعاءهم: {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ *} [محمد: ١٥] هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم[(٤٠٩)].

وإذا أكل أهل النَّار هذا الطَّعام الخبيث من الضَّريع، والزَّقُّوم؛ غَصُّوا به؛ لقبحه ، وخبثه، وفساده: {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا *} [المزمل: ١٢ ـ ١٣].

ومن طعام أهل النَّار الغسلينُ ، قال الله تعالى: {فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ *وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ*} [الحاقة: ٣٥ ـ ٣٧] ، وقال الله تعالى: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ *} [ص: ٥٧] ، والغسلين ، والغسَّاق بمعنىً واحدٍ ، وهو ما سال من جلود أهل النَّار من القيح والصَّديد ، وقيل: هو ما يسيل من فروج النِّساء الزَّواني ، ومن نتن لحوم الكفرة ، وجلودهم وقال القرطبيُّ: «هو عصارة أهل النَّار»[(٤١٠)].

ب ـ أمَّا شرابهم فهو الحميم ، والغسَّاق ، والمهل ، والصديد. قال الله تعالى: {كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ *} ،محمد: ١٥].

وقال تعالى: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا *} [الكهف: ٢٩].

وقال تعالى: {مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ *يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ *} [إبراهيم: ١٦ ـ ١٧]

وقال: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ *} [ص: ٥٧].

وقد ذكرت هذه الايات أربعة أنواع من شراب أهل النَّار ، هي: الحميم ، وهو الماء الحار؛ الَّذي تناهى حرُّه؛ والغسَّاق ، وقد مضى الحديث عنه ، فإنَّه يذكر في مأكول أهل النَّار ومشروبهم؛ والصَّديد ، وهو ما يسيل من لحم الكافر ، وجلده؛ والمهل ، وهو كعكر الزَّيت ، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه[(٤١١)].

ج ـ لباس أهل النَّار:

قال تعالى: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ *سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ *} [إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠] ، والقطران هو النُّحاس المذاب.

٢ ـ صور من عذاب أهل النَّار:

أ ـ تفاوت عذاب أهل النَّار:

قال تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *} [غافر: ٤٦] .

وقال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ *} [النحل: ٨٨] .

وقد حدَّث النَّبيُّ (ص) عن أخفِّ الناس عذاباً ، فقال فيه: «إن أهون أهل النَّار عذاباً يوم القيامة ، لَرجلٌ تُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يغلي منها دِماغُه» [البخاري (٦٥٦١ و٦٥٦٢) ومسلم (٢١٣)].

ب ـ حشرهم على وجوههم ، ولفح النَّار لهم:

ومن إهانة الله لأهل النَّار: أنَّهم يُحشرون في يوم القيامة على وجوههم ، عُمْياً ، وصُمّاً وبُكماً ، قال تعالى: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا *}[الإسراء: ٩٧].

ويلقون في النَّار على وجوههم: {وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [النمل: ٩٠].

ثمَّ إنَّ النَّار تلفح وجوههم ، وتغشاها أبداً ، لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها ، {تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ *}[المؤمنون: ١٠٤] .

ج ـ السَّحْب:

ومن أنواع العذاب الأليم ، سحب الكفار في النَّار على وجوههم ، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ *يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ *} [القمر: ٤٧ ـ ٤٨] ، ويزيد في الامهم ـ حال سحبهم في النَّار ـ أنَّهم مقيَّدون بالقيود ، والأغلال ، والسَّلاسل: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ *فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ *} [غافر: ٧٠ ـ ٧٢].

د ـ تسويد الوجوه:

يسوِّد الله في الدَّار الاخرة وجوهَ أهل النار بسوادٍ شديدٍ ، كأنَّما حلَّت ظلمة الليل في وجوههم ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *}[يونس: ٢٧] .

هـ إحاطة النَّار بالكفَّار:

لما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السِّوار بالْمِعْصَم ، وكان الجزاء من جنس العمل ، فإنَّ النار تحيط بالكفار من كلِّ جهةٍ ، كما قال تعالى: {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ *} [الأعراف: ٤١] ، والمهاد: ما يكون من تحتهم ، والغواش: جمع غاشية ، وهي الَّتي تغشاهم من فوقهم ، والمراد: أنَّ النِّيران تحيط بهم من فوقهم ، ومن تحتهم ، قال تعالى: {يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *}[العنكبوت: ٥٥] .

وقال في موضعٍ اخر: {لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ *} [الزمر: ١٦] .

وقد صرَّح بالإحاطة في موضعٍ اخر ، وذلك أنَّ للنَّار سُوراً يحيط بالكفَّار ، فلا يستطيع الكفار مغادرتها ، أو الخروج منها ، قال تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا *}[الكهف: ٢٩] ، وسرادق النَّار: سورها ، وحائطها الَّذي يحيط بها[(٤١٢)].

و ـ اطِّلاع النَّار على الأفئدة:

قال الله تعالى: {كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ *نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ *الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ *} [الهمزة: ٤ ـ ٧].

ز ـ قيود أهل النَّار ، وأغلالهم ، وسلاسلهم:

أعدَّ الله لأهل النَّار سلاسلَ وقيوداً ومطارقَ: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا *} [الإنسان: ٤] ، {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا *} [المزمل: ١٢ ـ ١٣] ، وهذه الأغلال تُوضَع في الأعناق: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [سبأ: ٣٣] ، {إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ *} [غافر: ٧١] ، والأنكال: هي القيود ، وقد سمِّيت أنكالاً؛ لأنَّه يعذبهم ، ويُنكِّل بهم بها {إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا *} [المزمل: ١٢] ، والسَّلاسل نوعٌ اخر من ألوان العذاب الَّتي يُقيَّد بها المجرمون ، كما يُقيَّد المجرمون في الدُّنيا.

وانظر إلى هذه الصُّورة الَّتي أخبر بها الكتاب الكريم: {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ *ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *}[الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢] .

ح ـ قَرْنُ معبوداتهم وشياطينهم في النَّار:

قال تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ *لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ *} [الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ *وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ *حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ *وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ *} [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩] .

خ ـ حسرتهم ، وندمهم ، ودعاؤهم:

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ *} [يونس: ٥٤] .

وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله ، فيرى كفره ، وشركه الَّذي يؤهِّله للخلود في النَّار؛ فإنَّه يدعو على نفسه بالثُّبُور ، والهلاك: {وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ *فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا *وَيَصْلَى سَعِيرًا *} [الإنشقاق: ١٠ ـ ١٢] ، ويتكرَّر دعاؤهم بالويل ، والهلاك عندما يُلقَوْن في النار ، ويَصْلَوْنَ حرَّها: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا *} [الفرقان: ١٣ ـ ١٤].

وهناك يعلو صراخهم ، ويشتدُّ عويلهم ، ويدعون ربَّهم املين أن يخرجهم من النَّار: {وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ *}[فاطر: ٣٧] .

وسيعترفون في ذلك الوقت بضلالهم ، وكفرهم ، وقلَّة عقولهم: {وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ *} [الملك: ١٠] ، ولكن طلبهم يرفض بشدَّة ، ويجابون بما يستحقُّ أن تجاب به الأنعام: {قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ *رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ *قَالَ اخْسَأُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ *} [المؤمنون: ١٠٦. ١٠٨].

لقد حقَّ عليهم القول ، وصاروا إلى المصير الَّذي لا ينفع معه دعاءٌ ، ولا يُقبل فيه رجاءٌ: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ *وَلَوْ شِئْنَا لآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ *فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [السجدة: ١٢ . ١٤].

ويتوجَّه أهل النَّار بعد ذلك النِّداء إلى خزنة النَّار ، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم؛ كي يخفف الله عنهم شيئاً ممَّا يعانونه: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ *قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ *} [غافر: ٤٩ . ٥٠] .

وعند ذلك ينادون مالكاً ، طالبين منه أن يقبض الله أرواحهم ، فيريحهم من العذاب: {وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ *لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ *} [الزخرف: ٧٧ . ٧٨] .

لقد خسر هؤلاء الظَّالمون أنفسهم ، وأهليهم عندما استحبُّوا الكفر على الإيمان. قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ *}[الزمر: ١٥] .

كان القران المكيُّ يربِّي المسلم على الخوف من عقاب الله ، ويبيّن للصَّحابة: أنَّ العذاب في الاخرة حسِّيٌّ ومعنويٌّ ، وفي خطاب القران ، وتوضيح النَّبيِّ (ص) للصَّحابة حقيقةَ النَّار ما يجعل الصَّحابيَّ يستجيب لأوامر الله ويجتنب نواهيه ، فكان الصَّحابي يستحضر في مخيِّلته صورة الجنان ، والنِّيران ، ويستعدُّ للموت الَّذي هو اتٍ لا محالة ، وأنَّه سوف يُسأل في وَحْدَته لا محالة ، وأنَّ القبر إمَّا روضةٌ من رياض الجنَّة ، أو

حفرةٌ من حفر النِّيران ، فالصَّحابي حين يستحضر في نفسه كلَّ هذا؛ فإنَّ قلبه يستشعر خوف الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومراقبته في السِّرِّ والعلن بل

يندفع بكلِّيته إلى العمل الصَّالح من دعوةٍ وجهادٍ ، والسَّعي لإقامة دولةٍ تحكم بشرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصناعة حضارةٍ تنقذ البشرية من ضياعها ، وانحرافها عن شرع الله تعالى ، ويدعو الله في خلواته، وفي سرِّه، وجهره أن يكرمه الله برفقة النَّبيين والصِّدِّيقين، والشُّهداء، والصَّالحين ، وحسن أولئك رفيقاً.

إنَّ هذا التَّصُّور والفهم العميق لحقيقة الاخرة وحقيقة الجنَّة والنَّار ، له أثره على العاملين لنهضة الأمَّة ، واستعادة مجدها ، وعزَّتها ، وكرامتها ، وهو أصلٌ عظيمٌ في بناء التَّصوُّر العقديِّ لأفراد الأمَّة ، سار على نهجه الحبيب المصطفى (ص) ؛ ولذلك لابدَّ لنا من السَّير على الطَّريق نفسه.

سادساً: مفهوم القضاء والقدر ، وأثره في تربية الصَّحابة رضي الله عنهم:

اهتمَّ القران الكريم في الفترة المكِّيَّة بقضية القضاء والقدر ، قال الله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ *} [القمر: ٤٩] ، وقال تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا *} [الفرقان: ٢] ، وكان (ص) يغرس في نفوس الصَّحابة مفهوم القضاء والقدر ، ويُبَيِّن لهم مراتبه من خلال القران الكريم ، وهي:

المرتبة الأولى: علم الله المحيط بكلِّ شيءٍ: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *} [يونس: ٦١] .

المرتبة الثَّانية: كتابة كلِّ شيءٍ كائن: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ *}[يس: ١٢] .

المرتبة الثالثة: مشيئة الله النَّافذة ، وقدرته التَّامَّة: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا *} [فاطر: ٤٤] .

المرتبة الرابعة: خَلْقُ الله لكلِّ شيءٍ: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ *} [الأنعام: ١٠٢] .

كان للفهم الصَّحيح والاعتقاد الرَّاسخ في قلوب الصَّحابة لحقيقة القضاء والقدر ثمارٌ نافعةٌ ومفيدةٌ ، عادت عليهم بخيرات الدُّنيا والاخرة؛ فمن تلك الثمرات:

١ ـ أداء عبادة الله عزَّ وجلَّ؛ فالقدر ممَّا تَعَبَّدَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأمَّة بالإيمان به.
٢ ـ الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشِّرْك؛ لأنَّ المؤمن يعتقد: أنَّ النَّافع والضَّار ، والمعزَّ ، والمذلَّ ، والرافع ، والخافض ، هو الله وحده سبحانه وتعالى.

٣ ـ الشَّجاعة والإقدام: فإيمانهم بالقضاء والقدر جعلهم يوقنون: أنَّ الاجال بيد الله تعالى ، وأنَّ لكل نفسٍ كتاباً.
٤ ـ الصَّبر والاحتساب ، ومواجهة الصِّعاب.
٥ ـ سكون القلب ، وطُمَأْنِينَةُ النَّفس ، وراحة البال: فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ، وهي هدفٌ منشودٌ ، فكلُّ مَنْ على وجه البسيطة يبتغيها ، ويبحث عنها ، فقد كان عن الصَّحابة من سكون القلب ، وطُمأْنِينَة النَّفس ما لا يخطر على بالٍ ، ولا يدور حول ما يشبهه خيالٌ ، فلهم في ذلك الشَّأن القِدْحُ المعَلَّى (النَّصيب الوافر) والنَّصيب الأوفى.
٦ ـ عزَّة النَّفس والقناعة والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين: فالمؤمن بالقدر يعلم: أنَّ رزقه بيد الله ، ويدرك أنَّ الله كافيه وحسبه ورازقه ، وأنَّه لن يموت حتَّى يستوفي رزقه ، وأنَّ العباد مهما حاولوا إيصال الرِّزق له ، أو منعه عنه؛ فلن يستطيعوا إلا بشيءٍ قد كتبه الله ، فينبعث بذلك إلى القناعة ، وعزَّة النَّفس ، والإجمال في الطَّلب ، وترك التكالب على الدُّنيا ، والتَّحرُّر من رِقِّ المخلوقين ، وقطع الطَّمع ممَّا في أيديهم ، والتوجُّه بالقلب إلى ربِّ العالمين.
إنَّ ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر كثيرةٌ ، وهذه من باب الإشارة.
ولم تقتصر تربية الرَّسول (ص) لأصحابه على تعليمهم أركان الإيمان السِّتَّة المتقدِّمة؛ بل صحَّح عندهم كثيراً من المفاهيم والتَّصوُّرات ، والاعتقادات عن الإنسان ، والحياة ، والكون ، والعلاقة بينهما؛ ليسير المسلم على نورٍ من الله ، ويدرك هدف وجوده في الحياة ، ويحقِّق ما أراد الله منه غاية التَّحقيق ، ويتحرَّر من الوهم والخرافات[(٤١٣)].
سابعاً: معرفة الصَّحابة لحقيقة الإنسان:
إنَّ القران الكريم عرَّف الإنسان بنفسه ، بعد أن عرَّفه بربِّه ، وباليوم الاخر ، وأجاب على تساؤلات الفطرة: من أين؟ وإلى أين؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على كلِّ إنسان سَوِيٍّ ، وتلحُّ في طلب الجواب[(٤١٤)].

وبيَّن القران الكريم للصَّحابة الكرام حقيقة نشأة الإنسانيَّة ، وأصولهم الَّتي يرجعون إليها ، وما هو المطلوب منهم في هذه الحياة؟ وما هو مصيرهم بعد الموت؟

تعرَّف الصَّحابة بواسطة النَّبيِّ (ص) ، ومنهجه القراني على الأصل الإنسانيِّ الَّذي هو الماء والتُّراب ـ أي: الطِّين ـ وبسلالته الَّتي هي الماء المهين ، أو النطفة ، كما عرَّفه بمكانته ،

وكرامته عند ربِّه؛ حيث أسجد له الملائكة ، وأعلى كرامتَه ، وتفضيلَه على كثيرٍ من الخلق؛ ليقف الإنسان وسطاً بين هذين الحدَّين: الأدنى ، والأعلى ، فبمكانته وكرامته يرى نفسه عزيزاً ، وبأصله وسلالته يتواضع مُعَظِّمَاً شأنَ من أنشأه من ذلك الأصل ، وأوصله إلى تلك المكانة العالية ، فينجو بذلك من العُجْبِ والكبر ، والغرور ، كما يمنعه عزُّه وكرامته من التذلُّل لغير الله تعالى ، والإنسان لو تركه الإله دون هدىً؛ لعانى الكثير من سوء الفهم للنَّفس ، بل إنَّ عدداً من النَّاس قد يعانون ذلك لسببٍ ما؛ كالإفراط في الثِّقة بنظرتهم الخاصَّة إلى أنفسهم؛ الَّتي قد تؤدِّي إلى الغرور ، والتَّعالي ، وإمَّا إلى الهوان والتَّدنِّي[(٤١٥)].

إنَّ نظرة الإنسان إلى نفسه من أقوى المؤثِّرات في تربيته ، وما زال الإنسان منذ أن وجد على وجه الأرض مأخوذاً بسوء الفهم لنفسه ، يميل إلى جانب الإفراط حيناً؛ فيرى أنَّه أكبر ، وأعظم كائنٍ في العالم ، فينادي بذلك وقد امتلأ أنانيةً ، وغطرسةً ، وكبرياء كما نادى قوم عاد: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ *} [فصلت: ١٥] وكما نادى فرعون: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى *} [النازعات: ٢٤] ، ويربأ بنفسه ـ أي: الإنسان ـ أن يعتقد أنَّه مسؤولٌ أمام أحدٍ ، ويتحوَّل إلى متألِّهٍ ، ويميل حيناً اخر إلى جانبٍ معاكسٍ هو التَّفريط؛ فيظن أنَّه أدنى ، أو أرذل كائنٍ في العالم ، فَيُطَأْطِىء رأسه أمام شجرٍ ، أو حجرٍ ، أو نهرٍ ، أو جبلٍ ، أو أمام حيوان؛ بحيث لا يرى السَّلامة إلا أن يسجد للشَّمس أو للقمر[(٤١٦)].

وقد بيَّن القران الكريم بوضوحٍ: أنَّ «حقيقة الإنسان ترجع إلى أصلين: الأصل البعيد ، وهو الخلقة الأولى من طينٍ ، حين سوَّاه ، ونفخ فيه الرُّوح ، والأصل القريب المستمرُّ ، وهو خلقه من نطفةٍ»[(٤١٧)] ، وقال الله تعالى في ذلك عن نفسه: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ *ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ *ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ *} [السجدة: ٧ ـ ٩] ، والايات في هذا المعنى كثيرةٌ.

وتحدَّث القران الكريم عن تكريم الله تعالى للإنسان ، وكان لذلك الحديث أثره في نفوس ، وعقول ، وقلوب الرَّعيل الأوَّل؛ فقد بَيَّن لهم القران الكريم صوراً عديدةً لتكريم الإنسان؛ منها:

١ ـ اختصَّ الله الإنسان بأن خلقه بيديه:
{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ *إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ *قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ *} [ص: ٧١ ـ ٧٥] فبيَّن لهم علوَّ مكانة الرُّوح الَّتي حلَّت في الإنسان ، وأنَّ لها منزلةً ساميةً ، وكرَّمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الَّذي تسجد فيه الملائكة ، ويعلن فيه الخالق ـ جلَّ شأنه ـ تكريم هذا الإنسان بقوله عزَّ مِنْ قائلٍ: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ *} [الأعراف: ١١].
٢ ـ الصُّورة الحسنة ، والقامة المعتدلة:
قال الله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ *} [التغابن: ٣]. وقال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *} [التين: ٤]، وقال ـ عزَّ وجل ـ: {الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ *} [الإنفطار: ٧] .
٣ ـ ومنحه العقل، والنطق، والتمييز:
قال الله تعالى: {الرَّحْمَانُ *عَلَّمَ الْقُرْآنَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ *} [الرحمن: ١ ـ ٤].
٤ ـ وسخَّر الله تعالى للإنسان مافي السَّماء والأرض:
بعد أن خلق الله تعالى الإنسان ، أكرمه بالنِّعم العظيمة التي لا تعدُّ ولا تحصى؛ لقوله تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ *} [إبراهيم: ٣٤].
لقد سخَّر الله ـ عزَّ وجل ـ للإنسان ـ تكريماً له ـ ملكوتَ السَّموات؛ بما تشتمل عليه من نجومٍ ، وشموسٍ ، وأقمار ، وجعل في نظامها البديع ما ينفع الإنسان؛ من تعاقب اللَّيل والنَّهار ، واختلافٍ في الفصول ودرجات الحرارة ونحو ذلك.
قال الله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *} [النحل: ١٢] وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *} [الجاثية: ١٣] .
٥ ـ وكرَّم الله تعالى الإنسان بتفضيله على كثيرٍ من خلقه:

قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *} [الإسراء: ٧٠].

٦ ـ وكرّم الله تعالى الإنسان بإرسال الرُّسل إليه:

ومن أجلِّ مظاهر التكريم من المولى سبحانه للإنسان أن أرسل الرُّسل لهداية الخلق ، ودعاهم لما يحييهم ، وضمن لهم الفوز في الدُّنيا والاخرة ، فكان من أعظم النِّعم الَّتي أنعم الله بها على الإنسان تكريماً له نعمةُ الإسلامِ ، ونعمةُ الإيمان ، ونعمةُ الإحسان ، وأنْ هدانا الله إليها ، فقال عزَّ مِنْ قائل: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى *} [طه: ١٢٣] ، وقال: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *} [الأعراف: ١٥٨].

ومن مظاهر هذا التَّكريم الَّذي شعر به الصَّحابة رضي الله عنهم ، حصرُ مظاهر شرف الإنسان في العبوديَّةِ لله وحده ، وتحريره من عبادة الأصنام ، والأوثان ، والبشر: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ *} [النحل: ٣٦].

٧ ـ حبُّ الله للإنسان ، وذكره في الملأ الأعلى:

من أروع مظاهر تكريم المولى سبحانه للإنسان أنْ جعله أهلاً لحبِّه ورضاه ، وأرشده في القران الكريم إلى ما يجعله خليقاً بهذا الحبِّ ، وأوَّل ذلك اتِّباع رسول الله (ص) ، فيما دعا النَّاس إليه؛ كي يحيوا حياةً طيِّبةً في الدُّنيا ، ويظفروا بالنَّعيم المقيم في الاخرة ، وقد أشار المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى ثمرة هذا الاتِّباع ، وما أحلاها من ثمرة! ألا وهي التَّمتُّع بخيري الدُّنيا والاخرة! قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [النحل: ٩٧] .

٨ ـ حفظ الإنسان ورعايته:

ومن مظاهر تكريم الإنسان أن يحظى برعاية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحفظه من السُّوء.

قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ *} [الإنفطار: ١٠] ، وسخَّر له الملائكة لحفظه: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ *} [الطارق: ٤] ، وصورُ التَّكريم للإنسان كثيرةٌ في القران الكريم[(٤١٨)].

ثامناً: تصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لقصَّة الشَّيطان مع ادم عليه السلام:

كان رسول الله (ص) من خلال المنهج القرانيّ ، يحدثهم عن قصَّة الشَّيطان مع ادم ، ويشرح لهم حقيقة الصِّراع بين الإنسان مع عدوِّه اللَّدود ، الَّذي حاول إغواء أبيهم ادم عليه السلام من خلال الايات الكريمة؛ مثل قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *} [الأعراف: ٢٧] ، وقوله تعالى: {قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ *ثُمَّ لآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ *} [الأعراف: ١٤ ـ ١٧].

كان الشَّيطان يتجسَّم في حسِّ الرَّعيل الأوَّل مرئيّاً مشهوداً ، يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، يوسوس لهم بالمعصية ، ويستثير فيهم كوامن الشَّهوات ، فكانوا يحاولون أن يكونوا دائماً منتبهين من عدوِّهم ، وكانوا يسارعون في الخيرات؛ ليضيِّقوا مسالك الشَّيطان ويسدُّوها ، فلا يجد له مسلكاً إليهم: حتَّى فيما هو أخفى من دبيب النَّمل[(٤١٩)] ، وقد تعلَّموا ذلك بعد قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ *إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ *} [النحل: ٩٨ ـ ١٠٠].

جاءت قصَّة ادم ـ عليه السَّلام ـ مع الشَّيطان في القران الكريم في أكثر من موضع؛ فأحياناً تجيء بكلِّ تفصيلاتها ـ كما في سورة الأعراف ـ وأحياناً تجيء ببعض التَّفصيلات ـ كما في سورة الحِجْر ، والإسراء ، وطه ، وص ـ وأحياناً تجيء في صورة إشارةٍ عابرةٍ ، وهذا كثيرٌ جدّاً في القران ، وتنفرد سورة إبراهيم بذكر موقف الشَّيطان يوم القيامة من بني ادم ، الَّذين استجابوا له في الدُّنيا ، وتنصُّله الكامل من تبعتهم ـ كما في الاية الثانية والعشرين ـ[(٤٢٠)].

قال الله تعالى في سورة الأعراف: {وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ *وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ *فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ *قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ *قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا

يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ *يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ *} [الأعراف: ١٩ ـ ٢٧] .

إنَّ ممَّا يهمُّ الإنسان أن يعرف تاريخه؛ ليعتبر به ، لا ليتسلَّى ، وقصَّة ادم مع الشَّيطان قصةٌ

لها دَلالاتها الخاصَّة بين القصص القرانيّ كله ، فهي تحدِّد للبشر ، مبدأهم ومنتهاهم ، ودورهم في الأرض ، وخطَّة سيرهم فيها ، والعقبات التي تقابلهم في أثناء رحلتهم ، وطريقة تجنُّب هذه العقبات وتخطِّيها[(٤٢١)].

كانت الايات الكريمة الَّتي تحدَّثت عن قصَّة ادم ، وصراعه مع الشَّيطان قد علَّمت الرَّعيل الأوَّل قضايا مهمَّةً في مجال التَّصوُّر والاعتقاد ، والأخلاق؛ ومنها:

١ ـ إنَّ ادم هو أصل البشر:

إنَّ ادم عليه السلام هو أصل البشر؛ فقد خلقه الله تعالى من طينٍ على صورته البشريَّة الكاملة الَّتي لم تأتِ عن طريق التدرُّج عن نوعٍ من أنواع المخلوقات ، أو عن صورةٍ أو هيئةٍ أخرى ، فالله تعالى خلق ادم من طينٍ ، ثمَّ نفخ فيه الرُّوح ، فصار بشراً سوياً من لحمٍ ، ودمٍ بكامل هيئته ، وصورته الإنسانيَّة.

٢ ـ جوهر الإسلام الطَّاعة المطلقة لله تعالى:

أمر الله تعالى الملائكة بالسُّجود لادم ، فسجدوا له سجود تحيَّةٍ ، وتكريمٍ ، وتعظيمٍ ، واعترافٍ بفضله ، وطاعةً لله ربِّ العالمين دون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، مع أنَّهم في الملأ الأعلى ، وهم في حال تسبيحٍ ، وتقديسٍ ، وعبادةٍ مستمرَّةٍ لله ربِّ العالمين ، وقبل أن يصدر من ادم أي نوعٍ من العبادة ترجح على عبادتهم ، وإنَّما كانت مبادرة الملائكة إلى السُّجود لادم ، والحال كما وصفنا؛ لأنَّ الأمر لهم بالسُّجود لادم صادر من الله ربِّ العالمين ، وما يأمر به الله تجب المبادرة إلى تنفيذه حالاً بدون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، ولا توقفٍ في تنفيذه على معرفة حكمة هذا الأمر ، وهذا هو جوهر الإسلام ، وهذا هو شأن المسلم: يسارع إلى طاعة ربِّه ، والامتثال لأمره بدون تردُّدٍ ، ولا اعتراضٍ ، ولا تعليقٍ لهذه الطَّاعة على شيءٍ اخر من معرفة سبب الأمر ، أو معرفة حكمته ، أو موافقته لعقله ، وهواه.

٣ ـ قابلية الإنسان للوقوع في الخطيئة:

تعلَّم الصَّحابة من قصَّة وقوع ادم في الخطيئة: أنَّ الإنسان له قابليةٌ للوقوع في المعصية ، وأنَّ هذه القابلية متأتِّيةٌ من طبيعة الإنسان ، فقد خلقه الله تعالى على طبيعةٍ تجعل وقوعه في الخطيئة أمراً ممكناً؛ لما في

طبيعته ، وما جبله الله عليه من ميولٍ ورغباتٍ ، وغرائز . هي جوانب الضَّعف في الإنسان . والَّتي من خلالها ينفذ الشَّيطان بوساوسه إليه ، ويزيِّن له الوقوع في الخطيئة ، فمن غرائز الإنسان الكامنة فيه: أنَّه يحبُّ أن يكون خالداً لا يموت ، أو معمِّراً أجلاً

طويلاً كالخلود ، يحبُّ أن يكون له ملكٌ غير محدَّدٍ بالعمر القصير[(٤٢٢)] ، فجاء إبليس إلى ادم عليه السلام من هذه الغريزة ، فقال له ، ولزوجته: {مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ *} [الأعراف: ٢٠] ، وأكَّد لهما ادِّعاءه بالحلف بالله بأنَّه لهما لمن النَّاصحين.

وما قلناه لا يعني الاستسلام لهذه الغرائز والميول ، والرَّغبات ، بل لابدَّ للمسلم من أن يضبطها ، ويكبح جماحها ، ويجعلها تابعةً لأحكام الشَّرع الحنيف ، وهذه الميول ، والغرائز ، والرَّغبات هي ما تهواه النَّفس ، وغالباً ما تكون منفلتةً ، ومتجاوزةً حدودها ، ولا يمكن ضبطها إلا بالالتزام بأحكام الشَّرع ، ولذلك يأتي ذمُّ (الهوى) ، ويراد به ما تهواه النفس من أمرٍ مذمومٍ. قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى *فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى *} [النازعات: ٤٠ . ٤١] ، فقد أطلق الهوى ، ومدح من ينهى نفسه عن الهوى؛ لأنَّه ينصرف عند الإطلاق إلى ما هو مذموم[(٤٢٣)].

٤ . خطيئةُ ادمَ تُعَلِّم المسلمَ ضرورة التَّوكُّل على ربِّه:

إنَّ خطيئة ادم عليه السلام تظهر عظيم استعداد الإنسان للوقوع في الخطيئة ، وتثير الخوف ، والفزع في النُّفوس ، وبالتالي تزيد من تَوَكُّل المسلم على ربِّه ، واعتماده عليه؛ ليكفيه شرَّ الشَّيطان الرَّجيم ، وبيان ذلك: أنَّ الله تعالى أَسْجَدَ الملائكة لادم إظهاراً لفضله ، وعلوِّ منزلته عند ربِّه ، وطَرَد إبليس من الجنة؛ لامتناعه من السُّجود له ، وأسكنه وزوجه في الجنَّة ، وأمره بالأمر الصَّريح بعدم الاقتراب من شجرةٍ معيَّنةٍ وأباح له ما عداها من نعيم الجنَّة ، وثمارها ، قال تعالى: {وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *} [الأعراف: ١٩].

وحذَّرهما من الشَّيطان ، ومن خداعه وكيده؛ لئلا يخرجهما من الجنَّة. قال الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى *فَقُلْنَا ياآدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى *} [طه: ١١٦ . ١١٧] ومع هذا كلِّه فإنَّ الشَّيطان استزلَّهما ، وغرَّهما ، فأكلا من الشَّجرة ، ووقعا في المعصية فأخرجهما ممَّا كانا فيه.

إنَّ خطيئة ادم عليه السلام أثارت في نفوس الصَّحابة الكرام الخوف ، والفزع من هذا العدوِّ الخبيث ، وهذا الخوف من الشَّيطان ، وإغوائه دفعهم إلى الالتجاء الدَّائم إلى الله تعالى، والتَّوكُّل عليه ، والاستعانة

به على هذا الشَّيطان الرَّجيم ، الَّذي لا همَّ له إلا إغواءُ الإنسان ، وجرُّه إلى الخطيئة ، وهذا هو الَّذي فهموه من قول الله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً *} [الإسراء: ٦٥] ، وقوله تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٩٩]؛ فلا تأثير ، ولا قدرة للشَّيطان على إغواء الَّذين امنوا بالله إيماناً عميقاً؛ لأنَّ الله تعالى قد وجَّهَ قلوبهم إليه سبحانه، وحرَّكَ جوارحهم في طاعته، وجعل اعتمادهم وثقتهم به، فليس للشَّيطان على هؤلاء من سلطانٍ ، فهم يحاربون أمانيه الباطلة ، ويهدمون ما يُلقيه في نفوسهم؛ لأنَّ إيمانهم بالله يمنحهم النُّور الكاشف عن مكره ، والتَّوكُّل عليه يفيدهم التقوية بالله؛ فيضعف الشَّيطان ، وينخذل أمام قوَّة الإيمان بالله والتَّوكُّل عليه[(٤٢٤)].

٥ ـ ضرورة التَّوبة والاستغفار:

تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من هذه القصَّة ضرورة التَّوبة ، والاستغفار عند الوقوع في الذَّنب أو المعصية ، فقد سارع ادم وزوجه إلى المغفرة وطلب الرَّحمة من ربِّهم الكريم عندما وقعوا في المعصية: {فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ *قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *} [الاعراف: ٢٢ ـ ٢٣] فهذا اعترافٌ بالذَّنب سريعٌ ، مقرونٌ بندمٍ شديدٍ ، فندمٌ من قوله تعالى: {ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا} ، وتوبةٌ خالصةٌ مقرونةٌ برجاء قبولها؛ لئلا يكونا من الخاسرين الهالكين ، وهذا يفهم من قولهما: {وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ *} ، فإذا كان ادم وزوجه لم يستغنيا عن التَّوبة ، وطلب المغفرة من الله تعالى مع علوِّ منزلتهما؛ فغيرهما أولى بذلك[(٤٢٥)].

٦ ـ الاحتراز من الحسد ، والكِبْر:

إنَّ إبليس وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد ، والكِبْر ، فكان بدء الذُّنوب الكِبْر ، استكبر إبليس أن يمتثل لأمر ربِّه بالسُّجود لادم ، ولهذا جاء التَّحذير من الكِبْر ، والوعيد للمُتكبِّرين ، قال (ص) : «لا يدخلُ الجنَّةَ من كان في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ» [أحمد (١/٣٩٩ و٤٥١) ومسلم (٩١) وأبو داود (٤٠٩١) والترمذي (١٩٩٩) وابن ماجه (٥٩)] .

وحقيقة الكبر: بَطَرُ الحقِّ ، وغَمْطُ النَّاس.

وبطر الحقّ: ردُّه ودفعه ، وعدم الخضوع له ، وعدم الانقياد له؛ استخفافاً به ، وترفُّعاً عليه ، وعناداً له.

وغمط النَّاس: احتقارهم ، والازدراء بهم[(٤٢٦)].

ومن أعظم مظاهر بطر الحقِّ رفضُ أوامر الله ، والتَّمرُّد عليها؛ لأنَّ ما يأمر به الله هو الحقُّ ، فالتَّمرُّد على هذا الحقِّ ، ودفعه يمثِّل حقيقة الكِبْر ، فكان الصَّحابة رضي الله عنهم أبْعَدَ خلق الله تعالى عن جراثيم الحسد والكِبْر ، والابتعاد عن الحديث عن النَّفس وتزكيتها ، وقد شعروا بخطورة ذلك من قوله تعالى: ؛ لأنَّ فيها معنى {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ} ، والله قال لهم: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى *} [النجم: ٣٢] ، وتعلَّموا: أنَّه لا فخر بالأصل والنَّسب؛ وإنَّما بالتَّقوى ، والطَّاعات والخيرات؛ ابتغاء ربِّ الأرض والسَّموات؛ لأنَّ إبليس افتخر بسبب أصله {خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ *} [الأعراف: ١٢] .

٧ ـ إبليس هو العدوُّ لادم وزوجه وذريتهما:

تعلَّم الصَّحابة من القران المكِّيِّ: أنَّ إبليس هو عدوُّهم الأوَّل؛ لأنَّه بسبب امتناعه عن السُّجود لأبيهم ادم طرده الله من رحمته ، ولعنه ، فأصبح عدوّاً لادم ، وزوجه وذرِّيَّته قال تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ *} [الحجر: ٤٣] ، وقال تعالى: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٦٢].

وقد أعلن إبليس عزمه وتصميمه على إضلال بني ادم ، وإغوائهم ، وطلب من الله تعالى إمهاله ، وإبقاءه إلى يوم القيامة؛ لتنفيذ ما عزم ، وصمَّم عليه ، ممَّا يدلُّ على شدَّة عداوته لادم ، وبنيه.

قال تعالى حكاية عن قول إبليس: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ *قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ *إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ *قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ *إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ *} [الحجر: ٣٦ ـ ٤٠].

لقد أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم من خلال المنهج القرانيِّ: أنَّ طبيعة علاقة الشَّيطان بالبشر هي العداوة ، ولا يمكن تبديلها ، ولا تغييرها ، ولا يمكن إجراء المصالحة بينهما لإزالة هذه العداوة؛ لأنَّ الشَّيطان لا همَّ له ، ولا عمل ، ولا غرض في حياته ، سوى إضلال الإنسان ، ودفعه إلى معصية الله ، بواسطة تزيين الذُّنوب ، كما قال تعالى: {فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ٤٣].

وقال تعالى حكايةً عمَّا قاله الهدهد لسليمان عليه السلام بشأن ملكة سبأ: {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ *} [النمل: ٢٤]

وزيَّن لهم الشَّيطان أعمالهم: أي: حسَّن لهم ما هم فيه من الكفر، { فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} ؛ أي: عن طريق التَّوحيد[(٤٢٧)] ، ومن هذا الباب ، وبهذا الأسلوب . أسلوب التَّزيين . يزيِّن الشَّيطان البدع في الدِّين في أعين المبتدعين[(٤٢٨)].

ولذلك جعل الصَّحابةُ إبليسَ عدوَّهم الأكبر ، وامتثلوا قول الله تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ *} [فاطر: ٦] فعادوه ، ولم يطيعوه ، واحترزوا منه ، وحذَّروا منه النَّاس.

٨ . التَّخاطب بأحسن الكلام بين الصَّحابة الكرام:

من الوسائل التي استخدمها الصَّحابة الكرام لمحاربة الشَّيطان امتثالُهم قول الله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً *} [الإسراء: ٥٣] ، لقد أمر الله تعالى رسوله الكريم (ص) ، أن يأمر المؤمنين بأن يقولوا في مخاطباتهم ، ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطَّيِّبة؛ لأنَّهم إن لم يفعلوا ذلك، نزغ الشَّيطان بينهم؛ أي: أفسد فيما بينهم ، وهيَّج الشَّرَّ، والمِراء؛ لتقع بينهم العداوة والبغضاء: أي: شديد العداوة للإنسان؛ ولذلك فهو {إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً *} يريد إلا الشَّرَّ لهم ، والعداوة فيما بينهم.

وقد تربَّى الصَّحابة الكرام على خُلُقٍ رفيعٍ وأسلوبٍ جميلٍ في معاملة النَّاس من قوله تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ *وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ *وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ *} [المؤمنون: ٩٦ . ٩٨] ، وقوله تعالى: أي: بالخَلَّة الَّتي هي أحسن الخِلال؛ أي: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} ، ومكارم الأخلاق ، ادفع إساءة من يسيء إليك ، فبهذا تعود عداوته صداقة ، وبغضه محبَّة[(٤٢٩)] ، وقوله تعالى: أي: أعوذ بك من وساوسهم المغرية على الباطل والشُّرور {وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ *} ، والصَّدِّ عن الحق؛ لأنَّ الشَّياطين لا ينفع معهم شيءٌ ، ولا ينقادون بالمعروف[(٤٣٠)] ، أي: أعوذ بك ربِّ أن يحضروني في شأنٍ من شؤوني أو في شيءٍ من {وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ *} ، ولهذا أمر الشَّرع بذكر الله في ابتداء الأمور؛ وذلك لطرد الشَّيطان.

وقال الله تعالى: {وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [فصلت: ٣٤ . ٣٦] ، وقوله تعالى: {هِيَ أَحْسَنُ} أي: مَنْ أساء إليك فادفعه عنك إليه.

وقوله تعالى: كأنَّه وليٌّ؛ أي: {فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ *} ، أو قريب. (حميم): أي: شديد الولاء. ومعنى ذلك: أنَّك إذا أحسنت إلى مَنْ أساء إليك؛ قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك، ومحبَّتك، والحنوِ عليك؛ حتَّى يصير كأنَّه وليٌّ لك، حميمٌ؛ أي: قريب إليك من الشَّفقة عليك والإحسان إليك.

ثمَّ قال تعالى: أي: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *} يقبل هذه الوصيَّة . وهي مقابلة الإساءة بالإحسان ويعمل بها . إلا مَنْ صبر على ذلك ، فإنَّه يشق على النُّفوس ، وما يقبل هذه الوصية أي: ذو نصيبٍ وافرٍ من السَّعادة في الدُّنيا والاخرة

وقال تعالى: أي: وإما يُلْقِيَنَّ الشَّيطان في نفسك وسوسة؛ ليحملك على مجازاة المسيء {وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} ، والانتقام منه ، فاستعذ بالله من وساوس هذا الشَّيطان ونزغه ، وشرِّه ، فإنه يسمع استعاذتك ، ويعلم حالك ، فالشَّيطان لا تنفع معه مداراةٌ ، ولا مقابلة إساءته بإحسانٍ؛ لأنَّ الإحسان الذي يرضيه هو فقط أن تطيعه في معصية الله ، ولا يقبل منك غير هذا أبداً ، أمَّا عدوُّ الإنسان فقد ينفع معه إحسانُك إليه ، وعدم مقابلة إساءته بإساءةٍ مثلها ، ولذلك حثَّنا الشَّرع على مقابلة إساءة المسيء من الإنس بالإحسان إليه ، أمَّا بالنِّسبة لنزغ الشَّيطان وتحرُّشه بالإنسان؛ فلا ينفع معه إلا الاستعاذة بالله ليخلِّصك من شرِّه[(٤٣١)].

إنَّ المنهج القرانيَّ الكريم وضَّح حقيقة العلاقة بين الإنسان والشَّيطان ، وبيَّنَ سُبُلَ علاجها ، ووسائل الشَّيطان لإغواء بني ادم ، ومضى القران يتحدَّث عن الشَّيطان ، وهو في جهنم ، وقد تبرَّأ ممَّن أغواهم ، وأضلَّهم من بني الإنسان.

قال تعالى: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ *وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *} [إبراهيم: ٢١ ـ ٢٢].

هذه صورةٌ موجزةٌ عن حقيقة إبليس ، وتصوُّر الصَّحابة رضي الله عنهم لهذا العدوِّ اللَّعين.

تاسعاً: نظرة الصَّحابة إلى الكون ، والحياة ، وبعض المخلوقات:

ظلَّ رسول الله (ص) يعلِّم الصَّحابة كتاب الله تعالى ، ويربّيهم على التَّصوُّر الصَّحيح في قضايا العقائد ، والنَّظر السليم للكون والحياة ، من خلال الايات القرانيَّة الكريمة ، فبيَّن بدء الكون ومصيره.

قال تعالى: {قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ *وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ *فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ *}[فصلت: ٩ ـ ١٢] .

وقد أشارت الايات الكريمة إلى ثلاث حقائق كونيَّة:

١ ـ خلق الأرض ، وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيَّامٍ قبل الاستواء إلى السماء؛ وهيَ دخانٌ.

٢ ـ أصل الكون المادِّيّ من الدُّخان.

٣ ـ الدَّورات التَّكوينيَّة للأرض ، والسَّماء مجموعها ستَّة أيَّامٍ[(٤٣٢)].

وقد بيَّنَ القران الكريم حقيقةً مهمَّةً ، وهي استحالة تحديد الحالة الأوَّلية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمُّعها في مجموعات من النُّجوم ، والكواكب ، والمجرَّات ، ولن يستطيع الناس معرفة ذلك ، إلا ظنّاً ، وتخميناً ، قال تعالى: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا *} [الكهف: ٥١] .

وأشار القران الكريم إلى هذا الأصل الموحَّد ، وساق حقائق كونيَّةً في غاية الوضوح. قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ *} [الأنبياء: ٣٠] .

لقد فهم الصَّحابة من الايات ـ الَّتي في سورة فصِّلت ـ: أنَّ الله تعالى خلق الأرض ، ووضع البركة فيها وقدَّر أقواتها في أربعة أيَّام ، كلُّ ذلك قبل تشكيل السَّماء وجعلها سبع سمواتٍ ، وهذه الحقيقة وصل إليها الصَّحابة من طريق الوحي ، من خالق السَّموات والأرض[(٤٣٣)].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: وَخَلَق الأرض في يومين ، ثمَّ خَلَقَ السَّماء ، ثمَّ استوى إلى السَّماء فسوَّاهنَّ في يومين اخرين ، ثمَّ دحا الأرض ، ودَحْوُها أنْ أخرج منها الماء والمرعى ، وخلقَ الجبالَ ، والرِّمالَ ، والجمادَ ، والاكامَ ، وما بينهما في يومين اخرين ، فذلك قوله تعالى: {دَحَاهَا *} وقوله: {خَلَقَ الأَرْضَ

فِي يَوْمَيْنِ}. فجُعِلَتِ الأرضُ وما فيها من شيءٍ في أربعة أيام ، وخُلِقَتِ السَّمواتُ في يومين. [البخاري تعليقاً (٨/٧١٤)] .

وبيَّن لهم القران الكريم في ايات عظيمة: أنَّ الله هو الَّذي خلق السَّموات وألقى في الأرض رواسيَ ، وتحدَّث عن حقائق في الكون ، وعن الشَّمس ، والقمر ، والنُّجوم ، وفصَّل في الجبال ، وبيَّن فوائدها ، وضرب بها الأمثال ، ودعا إلى التأمُّل فيها ، وأخبر أنَّه سوف ينسفها نسفاً ، وتحدَّث القران الكريم عن البحار ، وما فيها من السُّفن ، والأرزاق ، وتكلَّم القران الكريم عن الظَّواهر الجوِّيَّة ، كالرِّياح ، والسُّحب ، والمطر ، والرَّعد ، والبرق ، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ *} [الروم: ٤٨] ، وقال تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ *} [الحجر: ٢٢].

وقرَّر القران الكريم حقائق عن الحيوان ، لا تقلُّ في الأهمِّيَّة ، والدِّقَّة عن الحقائق الَّتي قرَّرها في كلِّ جوانب الكون ، والحياة ، فهو يلفت النَّظر تارةً إلى المنافع التي يحصل عليها الإنسان من تسخير هذه الدَّوابِّ ركوباً ، وحملاً ، ولباساً ، وطعاماً ، وشراباً ، وزينة ، فهي مسخَّرةٌ للإنسان ، مذلَّلةٌ له منقادةٌ ، كان الرَّعيل الأوَّل قبل البعثة؛ ينظر إلى الكون والحياة ، والمخلوقات من شمسٍ ، وقمرٍ ، ونجومٍ ، نظرةً مضطربةً غير واضحةٍ في معالمها التَّصوُّريَّة ، والعقديَّة ، ولا يستشعرون بالمنظومة التي خلقها الله ، وأنَّها تسبِّح للهِ ، وله حكمة من خلقها ، فأرشدهم القران الكريم إلى التأمُّل ، والتدبُّر في هذا الكون ، وما فيه من مخلوقات ، وبيَّن لهم حقيقة أنَّ مخلوقاته العظيمة تسبِّح له ـ سبحانه وتعالى ـ ولكن لا يفقهون تسبيحهم ، قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا *}[الإسراء: ٤٤] .

وحدَّثهم القران الكريم عن ظاهرة تذليل ، وانقياد الحيوان للإنسان ، وبيَّن لهم: أنَّها ظاهرةٌ تستدعي شكر المنعم؛ الَّذي جعل فيها هذه الطَّبائع ، ولولا وجود هذا الطَّبع فيها؛ لما استطاع الإنسان التغلُّب عليها سبيلاً[(٤٣٤)]. قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ *وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ *}[يس: ٧١ ـ ٧٣] .

ولفت القران الكريم الأنظار إلى مسألة رزق الحيوان ، وأنَّ الإنسان يعقل ويفكِّر ، ويخطِّط ، ويسعى في سبيل تحصيل معيشته وكسبه ، وإذا حصل على الكسب بطريقةٍ ما؛ فكَّر في ادِّخاره ، وتخزينه للمستقبل

، أمَّا الحيوان؛ فليست عنده القدرة على التَّفكير والتَّخطيط ، وليس من طبعه ذلك ، ولكنَّ قدرة الحكيم الخبير المحيطة بكلِّ شيءٍ قد تكفلت بأرزاقها ، وتوفير سبل البقاء أمامها. قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [العنكبوت: ٦٠] .

هكذا شأن الألوهيَّة في المخلوقات: العلم ، والإحاطة بالمكان ، والتَّكفُّل بالرزق في جميع الظُّروف ، فالحيوان مرزوقٌ في كلِّ مكانٍ ، في أعماق البحار ، والمحيطات ، وفي الصَّحراء المحرقة ، والأصقاع المتجمِّدة ، تحت الصُّخور الصَّمَّاء ، وفي أجواء الفضاء ، كلَّ ذلك في كتابٍ لا يضلُّ ربِّي ، ولا ينسى ، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *} [هود: ٦].

وقد لفت القران الكريم النَّظر إلى أنَّ هذه المخلوقات ـ من الدَّواب والحشرات المتباينة في الأشكال والحجوم وطريقة الحركة ، والسَّير ـ أممٌ ، وفصائلُ أمثال النَّاس[(٤٣٥)] ، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ *} [الأنعام: ٣٨] .

وهكذا نَظَّمَ القران الكريم أفكار ، وتصوُّرات الرَّعيل الأوَّل عن الكون ، وما فيه من مخلوقاتٍ ، وعن حقيقة هذه الحياة الفانية ، واستمرَّ النَّبيُّ (ص) في غرس حقيقة المصير ، وسبيل النَّجاة في نفوس أصحابه ، موقناً: أنَّ مَنْ عرف منهم عاقبته ، وسبيل النَّجاة ، والفوز سيسعى بكلِّ ما أوتي من قوَّةٍ ووسيلةٍ لسلوك السَّبيل ، حتَّى يظفر غداً بهذه النَّجاة ، وذلك الفوز ، وركَّز (ص) في هذا البيان على الجوانب التَّالية:

إنَّ هذه الحياة الدُّنيا مهما طالت؛ فهي إلى زوالٍ ، وإنَّ متاعها مهما عظم؛ فإنَّه قليلٌ حقيرٌ ، ووضَّحَ لهم ذلك الله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *} [يونس: ٢٤] .

إنَّ الاية الكريمة السَّابقة فيها عشر جملٍ وقع التَّركيب من مجموعها ، بحيث لو سقط منها شيءٌ اختلَّ التَّشبيه؛ إذ المقصود تشبيه حال الدُّنيا في سرعة تقضِّيها ، وانقراض نعيمها ، واغترار

النَّاس بها ، بحال ماءٍ نزل من السَّماء ، وأنبت أنواع العشب ، وزيَّن بزخرفه وجهَ الأرض ، كالعروس إذا أخذت الثِّياب الفاخرة ، حتى إذا طمع أهلها فيها ، وظنُّوا أنها مُسَلَّمَةٌ من الجوائح؛ أتاها بأس الله فجأةً ، فكأنَّها لم تكن بالأمس[(٤٣٦)].

وأخبرهم الرَّسول (ص) بقول الله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا *} [الكهف: ٤٥] أي: واضرب يا محمَّد للنَّاس في {مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} ، وفنائها ، وانقضائها أي: {كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} فيها من الحبِّ ، فشبَّ ، ونما ، وحسن ، وعلاه الزَّهر ، والنَّضرة ، ثمَّ بعد هذا كلِّه {فَأَصْبَحَ هَشِيمًا} أي: يابساً {تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ} ، أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين ، وذات الشِّمال { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا} أي: هو قادر على الإنشاء والإفناء

وقال تعالى {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ *}[الحديد: ٢٠] يقول تعالى مُوَهِّناً أمر الحياة الدُّنيا ، ومحقِّراً لها: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ} أي: تفريح نفسٍ ، {وَلَهْوٌ} أي: باطل ، {وَزِينَةٌ} أي: منظرٌ جميلٌ {وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ} أي: بالحسب والنَّسب { وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ} أي: مطر {أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ} أي: يعجب الزُّرَّاع نبات ذلك الزَّرع؛ الَّذي نبت بالغيث ، وكما يُعجب الزُّرَّاع ذلك ، كذلك تُعجب الحياة الدُّنيا الكفار ، فإنَّهم أحرص النَّاس عليها ، وأميل النَّاس إليها {ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا} أي: ثمَّ يجفُّ بعد خضرته، ونضرته ، فتراه مصفرّاً؛ أي: من اليبس {ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا} ، ثم يكون بعد ذلك كلِّه حطاماً؛ أي: هشيماً منكسراً وكذلك الدُّنيا لا تبقى ، كما لا يبقى النَّبات الَّذي وصفناه ، ولما كان هذه المثل دالاً على زوال الدُّنيا ، وانقضائها لا محالة ، وأنَّ الاخرة كائنةٌ ، واتيةٌ لا محالة ، حذَّرنا الله تعالى من أمرها ، ورغَّبنا فيما فيها من الخير ، فقال تعالى: {وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ} أي: وليس في الاخرة الاتية إلا: إمَّا هذا ، وإما هذا؛ أي: إمَّا عذابٌ شديدٌ ، وإمَّا مغفرةٌ من الله ، ورضوانٌ ، وقوله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *} أي: هي متاعٌ زائلٌ يغرُّ ، ويخدع مَنْ يركن إليها ، وإلى متاعها ، فيغترُّ بها ، وتعجب مَنْ يعتقد: أنَّه لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، مع أنَّها حقيرةٌ ، قليلة المتاع بالنسبة إلى الدَّار الاخرة[(٤٣٧)].

إنَّ هذه الحقيقة الَّتي أشارت إليها الايات الكريمة ، هي حقيقة الدُّنيا بكلِّ متاعها ، وزينتها ، وما تشتهيه النَّفس منها ، وإنَّ كلَّ ذلك بالنِّسبة لنعيم الاخرة شيءٌ تافهٌ ، وقليلٌ وزائلٌ ، هكذا فهم الرَّعيل الأوَّل حقيقة الدُّنيا ، فكان رسول الله (ص) يبصِّرهم، ويذكِّرهم بدورهم، ورسالتهم في الأرض ، ومكانتهم عند الله ، وظلَّ (ص) معهم على هذه الحال من التَّبصير والتَّذكير حتَّى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله ، وما

دورهم وما رسالتهم في الأرض ، وتأثُّراً بتربيته الحميدة تولَّد الحماس ، والعزيمة في نفوس أصحابه ، فانطلقوا عاملين باللَّيل والنَّهار بكلِّ ما في وسعهم ، وما في طاقتهم دون فتورٍ ، أو توانٍ ، ودون كسلٍ ، أو مللٍ ، ودون خوفٍ من أحدٍ إلا من الله ، ودون طمع في مغنمٍ أو جاهٍ إلا أداء هذا الدَّور وهذه الرِّسالة؛ لتحقيق السَّعادة في الدُّنيا ، والفوز ، والنَّجاة في الاخرة[(٤٣٨)].

إنَّ كثيراً من العاملين في مجال الدَّعوة بهتت في نفوسهم هذه الحقيقة؛ لأنَّهم انغمسوا في هذه الحياة الدُّنيا ، ومتاعها وشغفتهم حبّاً ، فهم يلهثون وراءها ، وكلَّما حصلوا على شيءٍ من متاعها؛ طلبوا المزيد ، فهم لا يشبعون ، ولا يقنعون؛ بسبب التصاقهم بالدُّنيا ، وإنَّها لكارثةٌ عظيمةٌ على الدَّعوة ، والنُّهوض بالأمَّة ، أمَّا التمتُّع بهذه الحياة في حدود ما رسمه الشَّرع ، واتِّخاذها مطيَّةً للاخرة فذلك فعلٌ محمودٌ.

* * *

المبحث الرَّابع

البناء التعبُّدي والأخلاقي في العهد المكي

أولاً: تزكية أرواح الرَّعيل الأوَّل بأنواع العبادات:

قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٨٥] ، وقال تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ *} [ص: ٧٢] ، وقال تعالى: {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ *} [السجدة: ٩] ، وقد رَبَّى رسول الله (ص) أصحابه على تزكية أرواحهم ، وأرشدهم إلى الطَّريق الَّتي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب ، من خلال القران الكريم؛ ومن أهمِّها:

١ ـ التَّدبُّر في كون الله ومخلوقاته ، وفي كتاب الله تعالى؛ حتَّى يشعروا بعظمة الخالق ، وحكمته سبحانه وتعالى ، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ *} [الأعراف: ٥٤].

٢ ـ التأمُّل في علم الله الشَّامل ، وإحاطته الكاملة بكلِّ ما في الكون؛ بل ما في عالم الغيب والشَّهادة؛ لأنَّ ذلك يملأ الرُّوح ، والقلب بعظمة الله ، ويطهِّر النَّفس من الشكوك ، والأمراض. قال الله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمّىً ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ٥٩ ـ ٦٠] .

٣ ـ عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي من أعظم الوسائل لتربية الرُّوح وأجلِّها قدراً؛ إذ العبادةُ غاية التذلُّلِ لله سبحانه ، ولا يستحقُّها إلا الله وحده؛ ولذلك قال سبحانه: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ} [الإسراء: ٢٣] ، والعبادات الَّتي تسمو بالرُّوح وتطهِّر النفس نوعان:

أ ـ النَّوع الأوَّل: العبادات المفروضة كالطَّهارة، والصَّلاة ، والصِّيام ، والزَّكاة ، والحجِّ وغيرها.

ب ـ النوع الثَّاني: العبادات بمعناها الواسع ، الَّذي يشمل كلَّ عملٍ يعمله الإنسان ، أو يتركه ، بل كلّ شعورٍ يُقبِل عليه الإنسان تقرُّباً به إلى الله تعالى ، بل يدخل فيها كلُّ شعورٍ يطرده الإنسان من نفسه تقرُّباً به إلى الله تعالى ، ما دامت نيَّة المتعبِّد بهذا العمل هي إرضاء الله سبحانه وتعالى ، فكلُّ الأمور مع نيَّة التَّقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى عبادةٌ يُثاب صاحبها ، وتربِّي روحه تربيةً حسنةً[(٤٣٩)].

إنَّ تزكية الرُّوح بالصَّلاة ، وتلاوة القران ، وذكر الله تعالى ، والتَّسبيح له سبحانه أمرٌ مهمٌّ في الإسلام؛ فإنَّ النَّفس البشريَّة إذا لم تتطهَّر من أدرانها ، وتتَّصل بخالقها فلن تقوم بالتَّكاليف الشَّرعية الملقاة عليها ، والعبادة والمداومة عليها ، تعطي الرُّوح وقوداً وزاداً ، ودافعاً قويّاً إلى القيام بما تؤمر به ، ويدلُّ على هذا أمر الله الرَّسول (ص) في ثالث سورةٍ نزلت عليه بالصَّلاة والذِّكر ، وترتيل القران.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ *قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً *نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً *أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً *إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً *إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً *إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً *وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً *} [المزمل: ١ ـ ٨].

إنَّ الاستعداد للأمر الثَّقيل ، والتَّكاليف الشَّاقَّة يكون بقيام اللَّيل والمداومة على الذِّكر والتِّلاوة ، وقد حرص رسول الله (ص) بتوجيهٍ من ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ على تربية الصَّحابة من أوَّل إسلامهم على تطهير أرواحهم وتزكيتها بالعبادة[(٤٤٠)].

وكان أصحاب رسول الله (ص) إذا صلُّوا؛ ذهبوا في الشِّعاب ، واستخْفَوا بصلاتهم[(٤٤١)]. ولما خاف (ص) في بداية الإسلام على أصحابه ، وعرف: أنَّ الكفار لا يتركونهم يمارسون الصَّلاة ، وقراءة القران علناً ، دخل بهم دار الأرقم ، وصار يصلِّي بهم ، ويعلِّمهم كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولولا أهمِّية تزكية الرُّوح بالعبادة ، والصَّلاة ، والتِّلاوة؛ لأمرهم بتركها عند الخوف ، حتَّى إنَّه بعد أن اكتشفت قريش المكان الَّذي يصلِّي فيه الرَّسول (ص) بأصحابه لم يترك الرَّسول (ص) الصَّلاة ، والتِّلاوة لأجل الخوف[(٤٤٢)].

وقد حضَّ الله تعالى في القران المكِّيِّ على إقامة الصَّلاة ، وأثنى على الَّذين يخشعون في صلاتهم ، والَّذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع لأجل إحياء ليلهم بذكر الله ، وعلى الذين

يدعون الله ويسبِّحونه ، ويذكرونه ، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *} [المؤمنون: ١ ـ ٤].

وقال تعالى: {إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ *تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [السجدة: ١٥ ـ ١٧].

وقال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ *} [هود: ١١٤] .

وقال تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا *} [الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩] .

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى *وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى *وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى *} [طه: ١٣٠ ـ ١٣٢] .

وقال تعالى: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ *وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ *} [ق: ٣٩ ـ ٤٠] .

وهذه الاياتُ الأخيرةُ تدلُّ على أنَّ العُدَّةَ في حال الضيق والشدَّة هي الإكثار من الصَّلاة ، والذِّكر ، وتلاوة القران ، والالتجاء إلى الله سبحانه وحده ، والإكثار من الدُّعاء[(٤٤٣)].

إنَّ الصَّلاة تأتي في مقدِّمة العبادات الَّتي لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية روح المسلم ، ولعلَّ من أبرز اثارها الَّتي أصابت الرَّعيل الأوَّل:

١ . الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه:

أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الَّذين استجابوا لأمره ، فقال عزَّ وجل: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *} [الشورى: ٣٨] .

ولا تتحقَّق معاني العبودية الصَّادقة لله سبحانه وتعالى ، إلا إذا اقترنت بصدق التوجُّه إليه ، والإخلاص له سبحانه ، قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام: ١٦٢ . ١٦٣] .

وكان الرَّعيل الأوَّل يرى: أنَّ لكل عملٍ من أعمال الصَّلاةِ عبوديةً خاصةً ، وتأثيراً في

النَّفس ، وتزكيةً للرُّوح؛ فقراءة سورة الفاتحة مع التدبُّر تشعرهم بعبوديَّتهم لله تعالى ، فعندما يتلو العبد قول الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} يثبت كلَّ كمال لله . سبحانه وتعالى . ويحمده على ما وفَّقه إليه من الطَّاعة ، وما أنعم عليه من النِّعم ، ويثني عليه بصفاته ، وأسمائه الحسنى[(٤٤٤)].

وكذلك عندما يتلو قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ *} يقرُّ بالتَّوحيد والاستعانة بالله وحده ، فالله هو المعبود ، وهو المستعان ، وكلُّ استعانةٍ بغير الله فهي خذلانٌ وذلٌّ.

وعندما يقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *} فهو إقرارٌ من العبد بأنَّه مفتقرٌ إلى الهداية ، والثَّبات على طريق الحقِّ ، وأنَّه محتاجٌ إلى ثمار الهداية ، والاستزادة منها ، والبعد عن سبيل المغضوب عليهم ، والضَّالِّين[(٤٤٥)].

وعندما ينحني للرُّكوع يكبِّر ربَّه معظماً له ، ناطقاً بتسبيحه ، فيجتمع في هذا الرُّكن خضوع الجوارح ، وخضوع القلب ، ثمَّ يأتي السُّجود ، فيجعل العبدُ أشرف أعضائه ، وأعزَّها متذللاً لله سبحانه ، ويتبع هذا انكسارُ القلب ، وتواضعُه ، فيسجد القلب لربِّه كما سجد الجسد[(٤٤٦)] ، وحَرِيٌّ به في هذهِ الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربِّه ، وكلَّما ازداد تواضعاً وخشوعاً لربِّه في سجوده ، ازداد منه قرباً ، كما في قوله تعالى: {كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ *} [العلق: ١٩].

وفي الحديث النَّبويِّ الشريف: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ؛ فأكثروا الدُّعاءَ»[(٤٤٧)].

وعندما يعتدل جالساً ، يتمثَّل جاثياً بين يدي ربِّه ، ملقياً نفسه بين يديه ، معتذراً إليه ممَّا جناه ، راغباً إليه أن يغفر له ، ويرحمه ، وهكذا تتجلَّى في كلِّ أفعال الصَّلاة العبوديةُ لله سبحانه ، وإقبالُ العبد على

ربِّه ، وتوحيده ، وتقوية الإيمان به الَّذي هو أساس التَّزكية ، وهذه أعظم ثمرةٍ من ثمرات الصَّلاة ، وهي الَّتي تنير للعبد طريق حياته ، وتمنحه طهارة القلب ، وطمأنينة النَّفس[(٤٤٨)].

٢ ـ مناجاة العبد لربِّه:

وقد بيَّن رسول الله (ص) مشهداً من مشاهد هذه المناجاة ، فقد قال رسول الله (ص): «قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بيني وبين عبدي نِصْفَين ، ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبدُ {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} قال الله تعالى: حمدني عبدي ، وإذا قال: {الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *} قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي ، وإذا قال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ *} قال: مجَّدني عبدي ، فإذا قال: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ *صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ *} قال: هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل». [أحمد (٢/٢٤١ ـ ٢٤٢) ومسلم (٣٩٥) وأبو داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجه (٣٧٨٤)].

لقد تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من النَّبيِّ (ص) : أنَّ هذه المناجاة ، من أعظم أسباب تزكية النَّفس ، وتقوية الإيمان ، إذا هيَّأ العبد نفسه لها ، وأقبل عليها إقبال العبد المتشوِّق للوقوف بين يدي ربِّه ، الوافد عليه ، المنتظر لرحمته ، وفضله؛ يستمدُّ العون منه سبحانه في كلِّ أموره وأعماله.

٣ ـ طمأنينة النَّفس ، وراحتها:

كان رسول الله (ص) إذا حَزَبَه أمرٌ؛ صلَّى [أبو داود (١٣١٩) وأحمد (٥/٣٨٨)] ، وقد جُعلت قرَّة عينه في الصَّلاة [أحمد (٣/١٢٨ و١٩٩ و٢٨٥) والنسائي (٧/٦١) والحاكم (٢/١٦٠)] ، وقد علَّم الرَّسول (ص) الصَّحابة كثيراً من السُّنن والنَّوافل ليزدادوا صلةً بربِّهم ، وتأمن بها نفوسهم ، وتصبح الصَّلاة سلاحاً مهمَّاً لحلِّ همومهم ومشاكلهم.

٤ ـ الصَّلاة حاجزٌ عن المعاصي:

قال الله تعالى: {اتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ *} [العنكبوت: ٤٥] .

كان الصَّحابة رضي الله عنهم عندما يؤدُّون صلاتهم ، تستريح بها نفوسُهم ، وتمدُّهم بقوَّةٍ دافعةٍ لفعل الخيرات ، والابتعاد عن المنكرات ، وتغرس في نفوسهم مراقبة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورعاية حدوده ، والتَّغلُّب على نوازع الهوى ، ومجاهدة النَّفس ، فكانت لهم سياجاً منيعاً حماهم من الوقوع في المعاصي [(٤٤٩)]، كما أيقن الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ الصَّلاة تكفِّر السَّيئات ، وترفع الدَّرجات. قال الله تعالى: {وَأَقِمِ

الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ *} [هود: ١١٤].

وغير ذلك من الاثار التَّربويَّة ، والنَّفسيَّة الطَّيبة؛ الَّتي تتضافر ، فيغنمها العبد المصلِّي ، فتؤدِّي الصَّلاة دورها في تزكية النَّفس ، وطهارتها ، ويتحقَّق قول رسول الله (ص) : «والصَّلاة نورٌ»؛ [مسلم (٢٢٣) والترمذي (٣٥١٧) والنسائي (٥/٥ ـ ٦) وابن ماجه (٢٨٠) وأحمد (٥/٣٤٢ و٣٤٣ و٣٤٤)]؛ فهي نورٌ تضيء لصاحبها طريق الهداية ، وتحجزه عن المعاصي وتهديه إلى العمل الصَّالح ، وهي نورٌ في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان ، ولذَّة المناجاة لربِّه ، وهي نورٌ بما تمنح النَّفس من تزكيةٍ ، وطمأنينةٍ ، وراحةٍ ، وبما تمدُّ من أمنٍ ، وسكينةٍ ، وهي نورٌ ظاهرٌ على وجه المقيم لها في الدُّنيا ، تتجلَّى بها وَضَاءَةُ الوجه وبهاؤه؛ بخلاف تارك الصَّلاة [(٤٥٠)]، وهي نورٌ له يوم القيامة[(٤٥١)].

قال الله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [الحديد: ١٢].

كان الصَّحابة يكثرون من الذِّكر ، والدُّعاء ، وتلاوة القران الكريم ، والاستماع إليه ، واغتنام السَّاعات الفاضلة في قيام اللَّيل ، ومجاهدة النَّفس على الخشوع والتدبُّر وحضور القلب ، فكان ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى ، وله اثار عظيمةٌ في تزكية النَّفس ، وسموِّ الرُّوح ، وترقيتها إلى مقامات الكمال؛ فمن أعظم ما ظفر به الصَّحابة من اثار الذِّكر ، والدُّعاء ، والتِّلاوة مناجاةُ الله ، وتحقيقهم مقامات العبوديَّة التي تُعلي مكانتهم عند الله تعالى.

قال رسول الله (ص) : «يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنا عند ظَنِّ عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني؛ إن ذكرني في نفسه؛ ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملأٍ؛ ذكرته في ملأٍ هم خيرٌ منهم ، وإن تقرَّبَ مني شبراً؛ تقرَّبت إليه ذراعاً ، وإنْ تقرَّب إليَّ ذراعاً؛ تقرَّبت منه باعاً ، وإنْ أتاني يمشي؛ أتيته هَرْوَلَةً» [البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

ومن أعظم أنواع الذِّكر الَّتي مارسها الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم تلاوة القران الكريم ، فقد عظمت محبَّة الله في قلوبهم ، وازدادت خشيتهم له ـ سبحانه وتعالى ـ فقد شفى القرانُ نفوسَهم من أمراضها ، وتحقَّق فيهم قول الله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا *} [الإسراء: ٨٢] .

وقوله سبحانه: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ *} [فصلت: ٤٤] .

وقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ *} [الرعد: ٢٨] .

وكان للصَّحابة مع الدُّعاء شأنٌ عظيمٌ ، فقد علَّمهم النَّبيُّ (ص) : أنَّه مِنْ أجلى مظاهر العبودية ، والمناجاة لله سبحانه وتعالى ، قال رسول الله (ص) : «الدُّعاء هو العبادة» [أبو داود (١٤٧٩) والترمذي (٣٣٧٢) وابن ماجه (٣٨٢٨) وابن حبان (٨٨٧) والحاكم (٤٩١/١)] ، ولقد أمر سبحانه وتعالى عباده بالدُّعاء ، وتوعَّد من يستكبر ، فيترك الدُّعاء؛ وكأنه مستغنٍ عن ربه.

قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ *} [غافر: ٦٠] .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يستكبرون عن عبادتي؛ أي: عن دعائي ، وتوحيدي»[(٤٥٢)].

كان النَّبيُّ (ص) يبيِّن لهم حاجة القلب إلى غذاءٍ دائمٍ؛ من ذكرٍ ، ودعاءٍ ، وتلاوة قران؛ ليكون ذلك تحصيناً لهم من الأمراض ، والافات ، وبيَّن لهم ما يستحبُّ للمسلم من الأدعية ، والأذكار في الصَّباح والمساء ، وعند دخول المنزل ، أو الخروج منه ، وعند دخول السُّوق ، أو الأكل ، أو اللبس ، وغير ذلك من الأعمال اليوميَّة؛ حتى يبقى في وقايةٍ دائمةٍ من كلِّ مرضٍ، فإذا أصيب بمرض عارضٍ، كالقلق، والكابة ، والاضطراب العصبيِّ ، أو غيرها ، كانت تلك الأذكار والدَّعوات البلسم الشَّافي؛ الَّذي تطمئنُّ به القلوب ، وتحيا به النُّفوس ، ومن بين تلك الأذكار والدَّعوات المأثورة الَّتي علَّمها رسولُ الله (ص) لأصحابه، دعاء الشِّدَّة، والكرب؛ الَّذي يقول فيه: «لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم ، لا إله إلا اللهُ ربُّ السَّموات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم». [البخاري (٦٣٤٥) ومسلم (٢٧٣٠)] .

إنَّ رسول الله (ص) عَلَّمَ أصحابه كيف يلجؤون إلى الله سبحانه وقت الضِّيق؛ ليجدوا المأمن ، والسَّكينة ، فلا يفزعوا ، ولا يقلقوا ، وهم موقنون بأنَّ الله معهم ، وأنَّه ناصرهم ، ومتولِّي أمرهم ، ومؤيِّدهم ، وأنَّه يجيب دعاء المضطرين[(٤٥٣)].

قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *} [النمل: ٦٢] .

إنَّ الذِّكر والدُّعاء ، وتلاوة القران ، وقيام اللَّيل ، والنَّوافل بأنواعها ، لها أثرٌ عظيمٌ في تزكية النفس ، وسموِّ الرُّوح ، ومهما كتبنا في هذا الموضوع؛ فلا يمكن أن نحيط به في صفحاتٍ أو كتبٍ؛ وإنَّما هذا جزءٌ من كلٍّ وغيضٌ من فيضٍ.

ثانياً: التزكية العقلية:

كانت تربية النَّبيِّ (ص) لأصحابه شاملةً؛ لأنَّها مستمدةٌ من القران الكريم ، الَّذي خاطب الإنسان ككلٍّ يتكون من الرُّوح ، والجسد ، والعقل ، فقد اهتمَّت التَّربية النَّبويَّة بتربية الصَّحابي على تنمية قدرته في النَّظر ، والتأمُّل ، والتفكُّر ، والتدبُّر؛ لأنَّ ذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدَّعوة إلى الله ، وهذا مطلبٌ قرانيٌّ ، أرشد إليه ربنا ـ سبحانه وتعالى ـ في محكم تنزيله.

قال تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ *}[يونس: ١٠١] .

وقال سبحانه: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِىءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [العنكبوت: ٢٠].

وقال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ *} [ص: ٢٩] .

وقال جلَّ شأنُه: {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ *أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا *ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا *فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا *وَعِنَبًا وَقَضْبًا *وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً *وَحَدَائِقَ غُلْبًا *وَفَاكِهَةً وَأَبًّا *مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَِنْعَامِكُمْ *} [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

والعقل يعتبر أحد طاقات الإنسان المهمَّة ، وقد جعله المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ مناط التَّكليف ، فمن حُرم العقل لجنونٍ أو غيره ، فهو غير مكلَّفٍ ، ويسقط عنه التَّكليف قال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء: ٣٦] .

إنَّ العقل نعمةٌ من الله على الإنسان يتمكَّن بها من قبول العلم ، واستيعابه؛ ولذلك وضع القران الكريم منهجاً لتربية العقل ، سار عليه رسول الله (ص) لتربية أصحابه؛ ومن أهمِّ نقاط هذا المنهج:

١ ـ تجريد العقل من المسلَّمات المبنيَّة على الظنِّ والتَّخمين ، أو التبعيَّة والتقليد ، فقد حذَّر القران الكريم من ذلك في الاية الكريمة التَّالية؛ قال تعالى: {وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا *} [النجم: ٢٨] .

٢ ـ إلزام العقل بالتَّحرِّي والتَّثبُّت ، قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ *} [الحجرات: ٦].

٣ ـ دعوة العقل إلى التدبُّر والتأمُّل في نواميس الكون . قال الله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ *} [الحجر: ٨٥].

٤ ـ دعوة العقل إلى التأمُّل في حكمة ما شرع الله لعباده من عباداتٍ ، ومعاملاتٍ ، وأخلاقٍ ، واداب ، وأسلوب حياةٍ كاملٍ ، في السِّلم والحرب ، في الإقامة والسَّفر؛ لأنَّ ذلك يُنْضِجُ العقل ، وينمّيه ، وبتعرُّفه على تلك الحكم يعطيه أحسن الفرص ، ليطبق الشَّرع الرَّبانيَّ

في حياته ، ولا يبغي عنه حولاً؛ لما فيه من السَّكينة ، والطمأنينة ، والسَّعادة للبشريَّة ، ولأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ إنَّما شرع ما شرع لذلك.

قال سبحانه: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ *} [الأنعام: ١١٩] .

٥ ـ دعوة العقل إلى النَّظر إلى سنَّة الله في النَّاس عبر التَّاريخ البشريِّ؛ ليتَّعظ النَّاظر في تاريخ الاباء ، والأجداد ، والأسلاف ، ويتأمَّل في سنن الله في الأمم ، والشُّعوب ، والدُّول. قال الله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ *} [الأنعام: ٦] .

وقال الله تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ *ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *} [يونس: ١٣ ـ ١٤] .

وقال سبحانه: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *} [الروم: ٩] .

كانت هذه الايات الكريمة ترشد الصَّحابة إلى استخدام عقولهم وفق المنظور الرَّبانيِّ؛ لكي لا تضلَّ عقولهم في التيه؛ الَّذي ضلَّ فيه كثيرٌ من الفلاسفة ، الَّذين قدَّسوا العقل ، وأعطوه أكثر ممَّا يستحقُّ[(٤٥٤)] ، وقد كان لهذه التَّربية القرانيَّة اثارٌ عمليَّة عظيمةٌ.

ثالثاً: التَّربية الجسديَّة:

حَرَصَ النَّبيُّ (ص) على تربية أصحابه جسديّاً ، واستمدَّ أصول تلك التَّربية من القران الكريم ، بحيث يؤدِّي الجسم وظيفته ، الَّتي خلق لها ، دون إسرافٍ أو تقتيرٍ ، ودون محاباةٍ لطاقة من طاقاته على حساب طاقةٍ أخرى.

إنَّ الله أرشد عباده في القران الكريم ، إلى ما أحلَّه من الطَّيبات ، وما حرَّمه من الخبائث ، وأنكر على أولئك الَّذين يُحرِّمون على أنفسهم الطَّيبات ، قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *} [الأعراف: ٣٢].

ولاشكَّ: أنَّ الإنسان عندما يلبِّي حاجاته البدنيَّة ، بإمكانه بعد ذلك أن يؤدِّيَ وظائفه الَّتي كلَّفه الله بها في الدُّنيا؛ من عبادة الله ، واستخلافٍ في الأرض ، وإعمارها ، وتعارفٍ ، وتعاونٍ على البرِّ والتَّقوى مع إخوانه في الدِّين؛ ولذلك ضبط القران الكريم حاجات الجسم البشريِّ على النَّحو التَّالي:

١ . ضَبَطَ حاجته إلى الطَّعام ، والشَّراب بقوله تعالى: {يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *} [الأعراف: ٣١] .

٢ . ضَبَطَ حاجته إلى الملبس ، بأن أوجب من اللِّباس ما يستر العورة ، ويحفظ الجسم من عاديات الحرِّ والبرد ، وندب ما يكون زينةً عند الذَّهاب إلى المسجد. قال تعالى: {يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *} [الأعراف: ٣١].

٣ . ضَبَطَ الحاجة إلى المأوى بقوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ *}[النحل: ٨٠] .

٤ . ضَبَطَ حاجته إلى الزَّواج والأسرة بإباحة النِّكاح ، بل إيجابه في بعض الأحيان ، وتحريم الزِّنى ، والمخادنة ، واللِّواط ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *}[المؤمنون: ٥ . ٧].

٥ . ضَبَطَ حاجته إلى التَّملُّك والسِّيادة ، وأباح التَّملُّك للمال ، والعقار ، وَفْقَ ضوابط شرعيَّةٍ ، قال تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ *} [الحديد: ٧].

٦ . ضَبَطَ الإسلام السِّيادة بتحريم الظُّلم ، والعدوان ، والبغي. قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *} [الأنعام: ٢١] ، وقال تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا

الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا *} [الفرقان: ٣٧] ، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *} [النحل: ٩٠].

٧ ـ ضَبَطَ حاجته إلى العمل ، والنَّجاح؛ بأن جعل من الَّلازم أن يكون العمل مشروعاً ، وغير مضرٍّ بأحدٍ من النَّاس ، ونادى المسلمين أن يعملوا في هذه الدُّنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدَّعوة والدِّين ، وما يدَّخرون عند الله سبحانه ، قال تعالى: {قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *} [الأعراف: ١٢٩].

وربط العلم بالإيمان في كثيرٍ من ايات القران الكريم ، وشرط في العمل أن يكون صالحاً ،

قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً *} [الكهف: ٣٠] ، وطالب بالإحسان في العمل ، فقال سبحانه: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *} [النحل: ٩٠].

٨ ـ وحذَّر سبحانه من الدَّعة والبطر ، والاغترار بالنِّعمة ، فقال سبحانه: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ *} [القصص: ٥٨] .

هذه بعض الأسس الَّتي قامت عليها التربية النَّبويَّة للأجسام ، حتى تستطيع أن تتحمَّل أثقال الجهاد ، وهموم الدَّعوة ، وصعوبة الحياة.

لقد ربَّى النَّبيُّ (ص) صحابته على المنهج الكريم ، منهج تزكية الأرواح ، وتنوير العقول ، والمحافظة على الأجساد ، وتقويتها؛ لإعداد الشَّخصيَّة الإسلاميَّة الرَّبَّانيَّة المتوازنة ، ولقد نجحت تربيته (ص) في تحقيق أهدافها المرسومة.

رابعاً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق ، وتنقيتهم من الرَّذائل:

إنَّ الأخلاق الرَّفيعة جزءٌ مهمٌّ من العقيدة؛ فالعقيدة الصَّحيحة لا تكون بغير خلقٍ ، وقد ربَّى رسولُ الله (ص) صحابته على مكارم الأخلاق ، بأساليب متنوعةٍ ، وكان (ص) يتلو عليهم ما ينزل من قران ، فإذا سمعوه ، وتدبَّروه؛ عملوا بتوجيهاته.

والمتدبِّر للقران المكِّيِّ يجده مليئاً بالحثِّ على مكارم الأخلاق ، وعلى تنقية الرُّوح ، وتصفيتها ، من كلِّ ما يعوق سيرها إلى الله تعالى ، ورسول الهدى (ص) القدوة الكاملة ، والمربِّي النَّاصح للأمَّة كان على خلقٍ عظيمٍ[(٤٥٥)]؛ قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *}[القلم: ٤] ومعنى الاية واضحٌ ، أي: ما كان

يأمر به من أمر الله ، وينهى عنه من نهي الله ، والمعنى: إنَّك لعلى الخلق الَّذي اثرك الله به في القران[(٤٥٦)].

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله (ص) ، قالت: «إنَّ خُلُقَ نَبِيِّ الله (ص) كان القرانَ » [مسلم (٧٤٦) وأحمد (٦/٥٤) وأبو داود (١٣٤٢)] . وقد جمع الله تعالى لنبيِّنا مكارم الأخلاق في قوله تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ *} [الأعراف: ١٩٩] .

قال مجاهد في معنى الاية: يعني: خذ العفو من أخلاق النَّاس ، وأعمالهم من غير

تخسيسٍ ، مثل قبول الأعذار ، والعفو والمساهلة ، وترك الاستقصاء في البحث ، والتَّفتيش عن حقائق بواطنهم[(٤٥٧)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: وهو كلُّ {وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ} ، وأعْرَفُهُ التَّوحيدُ ، ثُمَّ حقوق العبوديَّة ، وحقوق العبيد[(٤٥٨)] ، ثمَّ قال تعالى: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ *} ، يعني: إذا سفه عليك الجاهل ، فلا تقابله بالسَّفه ، كقوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا *} [الفرقان: ٦٣] ، وهكذا كان خلقه (ص) ؛ «كان النَّبيُّ (ص) أحسنَ النَّاس خُلُقاً» [البخاري (٦٢٠٣) ومسلم (٦٥٩)].

وكان النَّبيُّ (ص) يربِّي أصحابه على حسن الخُلُق ، ويحثُّهم عليه ، فعن النَّبيِّ (ص) قال: «ما شيءٌ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخُلُق ، وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِض الفاحشَ البذيءَ» [أبو داود (٤٧٩٩) والترمذي (٢٠٠٢) وابن حبان (٤٧٦)].

وسئل رسول الله (ص) عن أكثر ما يُدخل النَّاس الجنة؟ فقال: «تقوى الله ، وحسنُ الخلق» ، وسئل عن أكثر ما يُدخل الناسَ النار؟ فقال: «الفمُ ، والفرجُ» [أحمد (٢/٣٩٢) والترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦) وابن حبان (٤٧٦) والبخاري في الأدب الفرد (٢٨٩ و٢٩٤)] ، وقد بيَّن (ص) لأصحابه عظم ثواب حُسْنِ الخُلُق ، فقال: «إنَّ من أحبِّكم إليَّ ، وأقربكم منِّي مجلساً يوم القيامة أحاسِنَكم أخلاقاً ، وإنَّ أبغضكم إليَّ ، وأبعدكم مني يوم القيامة ، الثَّرْثارون ، والمتشدِّقونَ ، والمتفيهقون» قالوا: يا رسول الله! قد علمنا (الثرثارون ، والمتشدِّقون) ، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبِّرون» [الترمذي (٢٠١٨)].

الثَّرثار: هو كثير الكلام بغير فائدةٍ دينيَّةٍ. والمتشدِّق: المتكلِّم بملء فيه تفاصحاً وتعاظماً ، وتطاولاً ، وإظهاراً لفضله على غيره ، والمتفيهق: هو الَّذي يتوسَّع في الكلام ، ويفتح به فاهه ، وأصله: من الْفَهْقِ ، وهو الامتلاء[(٤٥٩)].

لقد سار النَّبيُّ (ص) على المنهج القرانيِّ في تربية أصحابه على الأخلاق الكريمة ، وكانت الأخلاق تعرض مع العبادة ، والعقائد في وقتٍ واحدٍ؛ لأنَّ العلاقة بين الأخلاق والعقيدة واضحةٌ في كتاب الله تعالى ، وقد بيَّن سبحانه لرسوله (ص) ، وللمسلمين ، الأخلاقيات الإيمانيَّة الَّتي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بـ (لا إله إلا الله) ، والأخلاقيات الجاهليَّة الَّتي ينبغي أن ينبذها المؤمنون ، والحقيقة: أنَّ التَّنديد بأخلاقيات الجاهلية قد بدأ منذ اللَّحظة الأولى ، مع

التنديد بفساد تصوُّراتهم الاعتقاديَّة ، واستمرَّ معه حتَّى النِّهاية.

إنَّ الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدِّين ، وليست محصورةً في نطاقٍ معيَّنٍ من نُطُقِ السُّلوك البشريِّ؛ إنَّما هي ركيزةٌ من ركائزه ، كما أنَّها شاملةٌ للسُّلوك البشريِّ كلِّه ، كما أنَّ المظاهر السُّلوكيَّة كلَّها ذات الصِّبغة الخلقيَّة الواضحة ، هي التَّرجمة العمليَّة للاعتقاد ، والإيمان الصَّحيح؛ لأنَّ الإيمان ليس مشاعر مكنونةً في داخل الضَّمير فحسبٍ؛ إنَّما هو عملٌ سلوكيٌّ ظاهرٌ كذلك ، بحيث يحقُّ لنا حين لا نرى ذلك السُّلوك العمليَّ ، أو حين نرى عكسه أن نتساءل: أين الإيمان إذاً؟ وما قيمته إذا لم يتحوَّل إلى سلوكٍ[(٤٦٠)]؟!

ولذلك نجد القران الكريم يربط الأخلاق بالعقيدة ربطاً قويّاً ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ؛ منها:

قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ *إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ *فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ لأَِمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ *وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ *أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ *الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ *} [المؤمنون: ١ ـ ١١]؛ فالسورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التَّوكيد: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ *} ، ثُمَّ تصف هؤلاء المؤمنين بذلك الوصف المطوَّل المفصَّل ، الذي يُعْنَى بإبراز الجانب الخلقي لأولئك المؤمنين ، موحياً إيحاءً واضحاً أنَّ هذه الأخلاقيات ـ من جهةٍ ـ هي ثمرة الإيمان ، وأنَّ الإيمان ـ من جهةٍ أخرى ـ هو سلوكٌ ملموسٌ يُترجِم عن العقيدة المكنونة.

إنَّهم بادأى ذي بدء خاشعون في صلاتهم ، فذلك أوَّل مظهرٍ للمؤمن الصَّادق: أن تكون صلاتُه ـ وهي اللَّحظة التي يقف فيها متعبِّداً لربِّه ، ذاكراً له في قلبه ، متَّصلاً به بروحه ـ صلاةً خاشعةً بما ينبأى عن صدق الصِّلة باللهِ؛ الَّتي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصَّلاة ، ثمَّ تثنِّي السُّورة بصفة سلوكيَّة أخرى ذات دَلالةٍ ، هي: أنَّهم عن اللغو معرضون؛ فاللَّغو لا ينبأى عن نفسٍ جادَّةٍ ، والإيمان الصَّحيح يورث النَّفس

الجدَّ بما يشعرها من ثقل التَّكاليف ، وجدِّيتها ، والجدُّ ليس تقطيباً دائماً ولا عبوساً ، ولكنَّ اللَّغو ـ من جانبٍ اخر ـ لا يستقيم مع جدِّية الشُّعور بعظم الأمانة؛ التي يحملها الإنسان أمام خالقه ، ثمَّ إنَّ هؤلاء المؤمنين لابدَّ أن تكون في قلوبهم الحساسية لحقِّ الله في أموالهم ، وهو الزَّكاة.

ولابدَّ أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس؛ فلا يتعدَّون حدود الله ، وملتزمين بأوامره في علاقتهم الاجتماعيَّة؛ فيحفظون الأمانة ، ويرعون العهد ، وبهذا نفهم فَهْم الصَّحابة

للأخلاق ، فهي ثمرةٌ طبيعيَّةٌ للعقيدة الصَّحيحة ، وكذلك العبادة الحيَّة الخاشعة لله ، هكذا تعلَّموا من القران الكريم ، ومن هدي حبيبهم الصَّادق الأمين (ص) .

لقد رسم القران الكريم لهم صورةً تفصيليَّةً للشَّخصيَّة المؤمنة ، فكانت العبادة أوَّل مَعْلَمٍ واضح فيها؛ فنظروا كيف جعل الله في أوصاف المؤمنين أول وصفٍ لهم الخشوعَ في الصَّلاة ، واخر أوصافهم المحافظة عليها ، ووصفهم بفعل الزَّكاة ، وهي عبادةٌ ، مع الفضائل الخلقيَّة الأخرى.

إنَّ القران الكريم يبرز جانب العبادة أحياناً ، وجانب الأخلاق أحياناً أخرى؛ لمناسباتٍ واعتباراتٍ توجب هذا الإبراز ، ففي سورة الذَّاريات كانت العناية بالعبادة في وصف المتقين: {آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ *كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ *وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ *} [الذاريات: ١٦ ـ ١٩] .

وفي سورة الرَّعد كانت العناية بالجانب الأخلاقيِّ في وصف أصحاب العقول ، قال تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ *وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ *وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ *} [الرعد: ١٩ ـ ٢٢].

ومع أنَّ معظم الأوصاف هنا أخلاقيَّةٌ ـ لمناسبة أولي الألباب ـ مثل الوفاء والصِّلة ، والصَّبر ، والإنفاق؛ لكنَّ الملحوظ فيها أنَّها ليست مجرَّد أخلاقٍ (مدنيَّة) ، وإنَّما هي أخلاقٌ ربَّانيَّة ، أخلاقٌ فيها معنى العبادة ، والتَّقوى ، فهم إنَّما يوفون (بعهد الله) ، وإنما يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهم إنَّما يفعلون ويتركون؛ لأنَّهم {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ *} ، وهم إنَّما يصبرون ؛ فهم في كلِّ أخلاقهم وسلوكهم يرجون {ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} ، ويرجون اليوم الاخر[(٤٦١)].

لقد تربَّى الصَّحابة رضي الله عنهم على أنَّ العبادة نوعٌ من الأخلاق؛ لأنَّها من باب الوفاء لله ، والشُّكر للنِّعمة ، والاعتراف بالجميل ، والتَّوقير لمن هو أهل التَّوقير ، والتَّعظيم ، وكلُّها من مكارم الأخلاق[(٤٦٢)] ، كانت أخلاقُ الصَّحابة ربَّانيَّة ، باعثها الإيمان بالله ، وحاديها الرَّجاء في الاخرة ، وغرضها رضوان الله ، ومثوبته ، فكانوا يصدقون في الحديث ، ويؤدُّون الأمانة ، ويوفون بالعهود ، ويصبرون في البأساء والضَّرَّاء ، وحين البأس ، ويغيثون الملهوف ،

ويرحمون الصَّغير ، ويوقِّرون الكبير ، ويرعون الفضيلة في سلوكهم؛ كلُّ ذلك ابتغاء وجه الله ، وطلباً لما عنده تعالى؛ فقد كانت بواعثهم وطوايا نفوسهم ، كما قال تعالى: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا *وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا *} [الإنسان: ١١ ـ ١٢].

إنَّ أخلاق المؤمن عبادةٌ؛ لأنَّ مقياسه في الفضيلة ، والرَّذيلة ، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع ، هو أمر الله ونهيه؛ بالضَّمير وحدَه ليس بمعصومٍ ، وكم من أفرادٍ وجماعاتٍ رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال![(٤٦٣)].

والعقل وحده ليس بمأمونٍ؛ لأنَّه محدودٌ بالبيئة والظُّروف ، ومتأثِّرٌ بالأهواء والنِّزاعات ، وفي الاختلاف الشَّاسع للفلاسفة الأخلاقيِّين في مقياس الحكم الخلقيِّ ، دليلٌ واضحٌ على ذلك ، والعرف لا ثبات له ، ولا عموم؛ لأنَّه يتغيَّر من جيلٍ إلى جيل ، وفي الجيل الواحد من بلدٍ إلى بلدٍ ، وفي البلد الواحد من إقليمٍ إلى إقليم؛ ولذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الَّذي لا يضلُّ ، ولا ينسى ، ولا يتأثَّر ، ولا يجور[(٤٦٤)].

إنَّ الأخلاق في التَّربية النَّبويَّة شيءٌ شاملٌ ، يعمُّ كلَّ تصرُّفات الإنسان ، وكلَّ أحاسيسه ، ومشاعره ، وتفكيره؛ فالصَّلاة لها أخلاقٌ هي الخشوع ، والكلام له أخلاقٌ هي الإعراض عن اللَّغو ، والجنس له أخلاق هي الالتزام بحدود الله ، وحرماته ، والتَّعامل مع الاخرين له أخلاقٌ هي التوسُّط بين التقتير والإسراف ، والحياة الجماعيَّة لها أخلاقٌ ، هي أن يكون الأمر شورى بين النَّاس ، والغضب له أخلاقٌ هي العفو والصَّفح ، ووقوع العدوان من الأعداء تستتبعه أخلاقٌ هي الانتصار ـ أي: ردُّ العدوان ـ وهكذا لا يوجد شيءٌ واحدٌ في حياة المسلم ليست له أخلاق تُكيِّفه ، ولا شيءٌ واحدٌ ليست له دَلالةٌ أخلاقيَّةٌ مصاحبةٌ.

هذا أمر ، والأمر الاخر ـ وهو الأهمُّ ـ أنَّ الأخلاق في المفهوم القراني هي لله ، وليست للبشر، ولا لأحدٍ غير الله؛ فالصِّدق لله، والوفاء بالعهد للهِ، واتِّقاء المحرَّمات في علاقات الجنس لله ، والعفو ، والصَّفح لله

، والانتصار من الظُّلم لله ، وإتقان العمل لله ، كلُّها عبادةٌ لله ، تُقَدَّمُ لله وحدَه؛ خشيةً لله ، وتقوى ، وتطلُّعاً إلى رضاه ، إنَّها ليست صفقةً بشريَّةً للكسب ، والخسارة ، إنَّما هي صفقةٌ تُعقد مع الله[(٤٦٥)].

قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣]. ذلك هو الميثاق الأخلاقيُّ الشَّامل الَّذي التزم به الصَّحابة ، ومَنْ سار على هديهم؛ اتِّباعاً لصراط الله المستقيم ، فهو ـ إذاً ـ من العقيدة مرتبطٌ بها ارتباطاً أساسياً ، لا ينفصل عنها بحالٍ.

إنَّ الأعمال الخلقيَّة تدخل في جميع الجوانب ، ويرتقي بها الوحي الإلهيُّ إلى ذروةٍ متفرِّدة حين يجعلها ديناً ، وعبادةً ومحلاً لثواب الله تعالى ، أو عقابه الأليم عند المخالفة[(٤٦٦)] ، وإذا تأمَّلنا في الايات السَّابقة من سورة الأنعام ، نجدها قد اشتملت على العناية بالضَّروريات الخمس ، وهي: «ما لابدَّ منها في قيام مصالح الدِّين ، والدُّنيا؛ حيث إنَّها إذا فقدت لم تجرِ مصالح الدُّنيا على استقامةٍ ، بل على فسادٍ ، وتهارجٍ وفوت حياةٍ ، وفي الأخرى فوت النَّجاة والنَّعيم ، والرُّجوع بالخسران المبين»[(٤٦٧)] إنَّ دعوة النَّبيِّ (ص) من أهدافها إرجاع النَّاس إلى مقاصد الشَّريعة ، والَّتي من ضمنها المحافظة على الضَّروريات الخمس ، فقد اشتملت الايات الكريمة السَّابقة على العناية بالضَّروريات ، وهي:

أ ـ حفظ الدِّين: وذلك في قوله تعالى: {أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} ، وفي قوله تعالى: لأنَّه {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} يستقيم دينٌ مع الشِّرك بالله تعالى ، فأمَرَ سبحانه عباده أن يوحِّدوه بالعبادة ، وأن يتَّبعوا صراطه المستقيم ، الَّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، ونهاهم عن اتِّباع سُبُل الشيطان؛ فإنَّها غيٌّ وضلالٌ ، وفي سلوكها إعراضٌ عن دين الحقِّ ، واتِّباعٌ لأهواء النفوس ، ووسواس الشَّيطان[(٤٦٨)] ، وقد قام النَّبيُّ (ص) بالمحافظة على الدِّين من خلال العمل به ، والجهاد من أجله ، والدَّعوة إليه ، والحكم به ، وردِّ كلِّ ما يخالفه[(٤٦٩)].

ب ـ حفظ النَّفس: في قوله تعالى: وقوله: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُم مِنْ إِمْلاَقٍ} وقد وضعت الشَّريعة الوسائلَ الكفيلةَ {وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} بإذن اللَّهِ ـ بحفظ النَّفس

من التَّعدِّي عليها ، ومن هذه الوسائل[(٤٧٠)]: تحريمُ الاعتداء عليها ، وسدُّ الذَّرائع المؤدِّية إلى القتل ، كالقِصاص ، وضرورةُ إقامة البيّنة في قتل النَّفس ، وضمان النَّفس ، وتأخير تنفيذ القِصاص؛ بحيث إذا خشيَ مِنْ قَتْلِ غير القاتل؛ وجب عليه العفو ، وكذلك إباحة المحظورات حالَ الضَّرورة[(٤٧١)].

ج ـ حفظ النَّسل: في قوله تعالى: ومن أعظم الفواحش الزِّنى؛ الَّذي وصفه الله تعالى في ايةٍ أخرى بأنَّه {وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} ، كما قال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً *} [الإسراء: ٣٢] .

إنَّ حفظ النَّسل من الركائز الأساسية في الحياة ، ومن أسباب عمارة الأرض ، وفيه تكمن قوَّة الأمَّة ، وبه تكون مرهوبة الجانب ، عزيزة القدر ، تحمي دينها ، وتحفظ نفسها ، وتصون عرضها ، ومالها؛ ولذلك عُنِيَت الشَّريعة بحماية النَّسل ، ومنع كلِّ ما من شأنه أن يقف في طريق سلامته ، ووضعت ضوابط ، وأصولاً شرعيَّةً مهمَّةً في هذا الباب[(٤٧٢)].

د ـ حفظ المال: في قوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ} وقوله: . ومن وسائل حفظ المال في الشَّريعة: تحريم الاعتداء {أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} ، وتحريم إضاعة المال ، وما شُرِعَ من الحدود في العهد المدنيّ؛ كحدِّ السَّرقة ، وحدِّ الحرابة ، وضمان المتلفات ، ومشروعيَّة الدِّفاع عن المال ، وتوثيق الدُّيون والإشهاد عليها ، وتعريف اللُّقَطَة ، وما يتبعه[(٤٧٣)].

هـ حفظ العقل: وأمَّا حفظ العقل ، فمطلوب أيضاً؛ لأنَّ التَّكليف بهذه الأمور لا يكون إلا لمن سلم عقله ، ولا يقوم بها فاسد العقل ، وفي قوله تعالى: إشارةٌ إلى {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} ، والله أعلم[(٤٧٤)] ، وقد حرَّم الإسلام كلَّ ما من شأنه إفساد العقل ، وإدخال الخَلل عليه[(٤٧٥)].

وهكذا القران الكريم يعلم ، ويربِّي الصَّحابة على العقائد ، والعبادة ، والأخلاق ، ومقاصد الشَّريعة في وقتٍ واحدٍ ، إنَّ الأخلاق الرَّبَّانيَّة تصدر من القران الكريم بتقرير التَّوحيد ، والعبودية لله تعالى ، وهذا بدوره تأكيدٌ أساسيٌّ على حقائق وأصول هذا المنهج القرانيِّ ، الَّتي تتبع جميعها هذا المدخل التَّأسيسي ، وبذلك يتقرَّر:

١ ـ أنَّ الله تعالى هو وحده مصدر الشَّرائع جميعاً ، وهو شارع القيم ، والمعايير الأخلاقية؛ الَّتي تنسجم مع الفطرة ، وتوافق العقل السَّليم.

٢ ـ أنَّ الأخلاق دينٌ ملتزمٌ به ، بل هي أصلٌ من أصول المنهج الرَّبانيِّ ، وليست مجرَّد فضائل فرديَّةٍ ، أو ادابٍ اجتماعيَّةٍ ، أو أذواقٍ حضاريَّةٍ.

٣ ـ أنَّ الأخلاق قيمٌ أساسيَّة في حياة البشر ، ينبغي أن تحظى بالثَّبات والاستقرار ، وبالتَّالي يمنع الطَّواغيت من التلاعب بها ، أو تشكيلها حسب المصالح والأهواء[(٤٧٦)].

وقد احتوى القران الكريم على العديد من الاداب الفذَّة ، الَّتي تعطي أسمى التَّوجيهات في باب الفضائل ، والاداب الفرديَّة ، والاجتماعيَّة ، ففي سورة الإسراء جاءت ايات كريمةٌ هي من أجمع الايات؛ للحثِّ على الخُلُق المحمود ، والتَّنفير من الخُلُق المذموم.

قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا *وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا *رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا *وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا *إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا *وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا *وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا *إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا *وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا *وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً *وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا *وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً *وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً *كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا *} [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٨].

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد جعل التَّوحيد ـ أي: إفراد الله بالعبادة ـ على رأس هذا المنهج الخُلقيِّ؛ الَّذي رسمته الايات مدحاً ، وذماً؛ لأنَّ التَّوحيد له في الحقيقة جانبٌ أخلاقي أصيل؛ إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل ، والإنصاف ، والصِّدق مع النَّفس ، كما أنَّ الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأوَّل ، مثل الكِبْر ، عن قبول الحقِّ ، والاستكبار عن اتِّباع الرُّسل غروراً ، وأَنَفَةً ، أو الولوع بالمِراء والجدل بالباطل

مغالبةً ، وتطلُّعاً للظُّهور ، أو تقليداً وجموداً على الإلف ، والعرف مع ضلاله وبهتانه ، وكلُّها ـ وأمثالها ـ أخلاق سوء تُهلك أصحابها ، وتصدُّهم عن الحقِّ بعدما تبيَّن ، وعن سعادة الدَّارين ، مع استيقان أنفسهم بأنَّ طريق الرُّسل هو السَّبيل إليها.

والايات بعد ذلك تذكر أنماطاً خُلُقيَّةً متعدِّدة الجوانب في شؤون الأسرة؛ مثل برِّ الوالدين ، وما جاء فيه من وصايا غايةً في السُّموِّ ، والإحسان ، والوفاء بالجميل ، ومثل برِّ الأقارب ، والضعفاء ، وفي شؤون المال ، والإنفاق بالنَّهي عن التبذير ، والأمر بالاعتدال بين الشُّحِّ المطْبق ، والبسط المستغرق ، وقد نفَّر الله تعالى من التَّبذير بإضافته إلى شرِّ الخلق: {إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا *} [الإسراء: ٢٧]. ونفَّر من الحرص ، والإمساك عن الإنفاق بتصويره على أبشع مثالٍ: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ}

وتأمر الايات الكريمة بخلقٍ جميلٍ غايةً في السُّموِّ ، وهو الحرص على الكلمة الطَّيبة ، إذا لم يجد الإنسان من المال ما يَسَعُ به النَّاس: {وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ} وهي وصيَّةٌ ذات أثرٍ بالغٍ في إحسان العلائق بين {رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا *} ، بل ربَّما فضَّلوها على العطاء المادِّيِّ؛ خاصَّةً إذا اقترن بالمنِّ ، والأذى ، ثمَّ تتحدَّث الايات عن سوء الخلق بالبغي والاستطاعة ، وقساوة القلب ، وجفافه من الرَّحمة ، وجمود العاطفة الكريمة ، ويتمثَّل ذلك في مظهره الجنائيِّ ، وهو القتل ، وخاصَّةً قتل الابنة الصَّغيرة.

نعم ، القتل جريمةٌ جنائيَّةٌ تسلك في قانون العقوبات القصاصيَّة ، ولكنَّها هنا تُعالَج من زاويتها الأخلاقيَّة؛ التي تستهدف الوقاية ، وتعمل على تغيير الإرادة ، وتوجيهها وجهةً صالحةً لتحريم الفعل ، وتجريمه ، وإصلاح عقيدة صاحبه: {نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ} ، وبهدم القيم الاجتماعيَّة الجائرة الَّتي صنعت هذا المنكر ، وسوَّغته بلا نكيرٍ ، وتنهى الايات عن الزِّنى ، وهو بالمقياس نفسه جريمةٌ خلقيَّةٌ أساسها البغي ، والاستطالة على الأعراض ، والحرمات ، وإهدار العفاف ، والشَّرف ، والاستهانة بكلِّ كريمٍ من القيم الإنسانيَّة العليا ، وتأمر الايات ، وتنهى عن أمورٍ مردُّها إلى خلق الأمانة أو الخيانة ، والجدِّ أو العبث ، والتَّواضع العزيز أو الكبر ، والغرور؛ فمن الأمانة حفظ مال اليتيم حتَّى يبلغ أشدَّه ، والوفاء بالعهد ، وتوفية الكيل والميزان ، والخيانة أضدادها ، ومن الجدِّ اشتغال الإنسان بما ينفعه ، وعدم تتبُّعه ما ليس به شأنٌ ، ولا علمٌ: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء: ٣٦] .

والعبث كلُّ العبث اشتغال الإنسان بما نُهِيَ عنه ، ومن التَّواضع العزيز شعور الإنسان بحدوده ، ومعرفتُه قدر نفسه ، فيضعها في مواضعها الصَّحيحة ، ومن الكبر والغرور ذلك

التَّطاول المبنيُّ على الجهل ، والطيش ، والحماقة: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً *} [الإسراء: ٣٧] .

ولأنَّ هذه الوصايا جامعةٌ لك ما يصلح شأن الإنسان ختمها الله تعالى بقوله الحكيم: {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ} [الإسراء: ٣٩].

فسمَّاها حكمةً ، وختمها بالدَّعوة إلى التوحيد ، والنَّهي عن الشِّرك كما بدأها؛ لأنَّ الإيمان بالله تعالى مِفْتَاحُ كلِّ خيرٍ ، وحافظُه ، وحارسُه ، والكفر به مفتاحُ كلِّ شرٍّ وباعثُه[(٤٧٧)].

هكذا كانت تربية القران الكريم للصَّف المؤمن ، فقد كانت قائمةً على التخلُّق بمحاسن الأخلاق ، ونَبْذِ سيِّئها.

خامساً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق من خلال القصص القرانيّ:

إنَّ القصص القرانيَّ غنيٌّ بالمواعظ، والحكم، والأصول العقديَّة، والتَّوجيهات الأخلاقيَّة ، والأساليب التَّربويَّة ، والاعتبار بالأمم والشُّعوب ، والقصص القرانيُّ ليس أموراً تاريخيَّةً لا تفيد إلا المؤرِّخين ، وإنَّما هو أعلى ، وأشرف ، وأفضل من ذلك ، فالقصص القرانيُّ مليءٌ بالتَّوحيد ، والعلم ، ومكارم الأخلاق ، والحجج العقليَّة ، والتَّبصرة ، والتَّذكرة ، والمحاورات العجيبة.

وأضرب لك مثلاً من قصَّة يوسف عليه السلام ، متأمِّلاً في جانب الأخلاق الَّتي عُرضت في مشاهدها الرَّائعة ، قال علماء الأخلاق ، والحكماء: «لا ينتظم أمر الأمَّة إلا بمصلحين ، ورجال أعمالٍ قائمين ، وفضلاء مرشدين هادين ، لهم شروطٌ معلومةٌ ، وأخلاقٌ معهودةٌ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبيّاً؛ فله أربعون خَصْلَةً ذكروها ، كلُّها ادابٌ ، وفضائل بها يسوسُ أمتَه ، وإن كان رئيساً فاضلاً ، اكتفوا من الشُّروط الأربعين ببعضها ، وسيِّدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين ، وجمال النَّبيِّين ، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هدياً لاختيار الأكفاء في مهامِّ الأعمال؛ إذ قد حاز الملك ، والنبوة! ونحن لا قِبَل لنا بالنُّبوة لانقطاعها ، وإنَّما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة ، ولنذكر منها اثنتي عَشْرَةَ خَصْلَةً هي أهمُّ خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكَّر في القران ، وتنبيهاً للمتعلِّمين السَّاعين للفضائل»[(٤٧٨)].

أهمُّ ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

١ . العفَّة عن الشَّهوات؛ ليضبط نفسه ، وتتوافر قوَّته النَّفسيَّة: {كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ *} [يوسف: ٢٤] .

٢ . الحلم عند الغضب؛ ليضبط نفسه: {قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ *} [يوسف: ٧٧].

٣ . وضع اللِّين في موضعه ، والشِّدَّة في موضعها: {وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ *فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ *} [يوسف: ٥٩ . ٦٠] فبداية الاية لينٌ ، ونهايتها شدَّةٌ.

٤ . ثقته بنفسه بالاعتماد على ربِّه: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ *} [يوسف: ٥٥].

٥ . قوَّة الذَّاكرة ليمكنه تذكر ما غاب ، ومضى له سنون؛ ليضبط السِّياسات ، ويعرف للنَّاس أعمالهم: {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ *} [يوسف: ٥٨].

٦ . جودة المصوِّرة والقوَّة المخيِّلة؛ حتَّى تأتي بالأشياء تامَّة الوضوح: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيه ياأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ *} [يوسف: ٤].

٧ . استعداده للعلم ، وحبُّه له ، وتمكُّنه منه: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ *} [يوسف: ٣٨] ، و {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ *} [يوسف: ١٠١].

٨ . شفقته على الضُّعفاء ، وتواضعه مع جلال قدره ، وعلوِّ منصبه ، فقد خاطب الفتيين المسجونين بالتَّواضع ، فقال: {يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *} [يوسف: ٣٩] ، وحادثهما في أمور دينهما ، ودنياهما بقوله: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ} [يوسف: ٣٧] ، و {إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *} [يوسف: ٣٧] ، وشهدا له بقولهما: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *} [يوسف: ٣٦] .

٩ . العفو عند المقدرة: {قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *} [يوسف: ٩٢] .

١٠ ـ إكرام العشيرة: {اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ *} [يوسف: ٩٣] .

١١ ـ قوَّة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملِك واقتداره على الأخذ بأفئدة الرَّاعي والرَّعيَّة والسُّوقة ، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنيَّة على الحكمة ، والعلم: {فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ *} [يوسف: ٥٤] .

١٢ ـ حسن التَّدبير: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ *} [يوسف: ٤٧] تالله! ما أجملَ القرانَ! وما أبهج العلم!

لاشكَّ أنَّ العلاقة بين القصص القرانيِّ والأخلاق متينةٌ؛ لأنَّ من أهداف القصص القرانيِّ التذكير بالأخلاق الرَّفيعة؛ الَّتي تفيد الفرد ، والأسرة ، والجماعة ، والدَّولة ، والأمَّة ، والحضارة ، كما أنَّ من أهداف القصص القرانيِّ التنفير من الأخلاق الذَّميمة؛ الَّتي تكون سبباً في هلاك الأمم والشُّعوب ، ولقد استفاد الصَّحابة الكرام من تربية النَّبيِّ (ص) لهم ، ومن المنهج الَّذي سار عليه ، فهذا جزءٌ من الأخلاق القرانيَّة النَّبويَّة أردت به التمثيل وليس الاستقصاء ، وفي سنَّة رسول الله (ص) وهديه مزيدٌ من التَّفصيل والبيان ، وإنَّ المنهج النَّبويَّ القرانيَّ الرَّبانيَّ في الأخلاق نمطٌ فريدٌ ، وعجيبٌ ، ليس له مقاربٌ ، ولا نظيرٌ؛ لأنه من ربِّ العالمين ، وقد تفرَّد بأمورٍ وخصائص ، زاد من قوَّتها واكتمالها وجودُها مجتمعةً على هذا الوجه المحْكَم ، ومنها:

١ ـ وجود المرجع الوافي للأخلاق في المنهج الرَّبانيِّ متمثِّلاً في الكتاب والسُّنَّة ، وقد حدَّدا ما يُحْمَدُ ، أو يُذمُّ.

٢ ـ وجود ما يضبط السُّلوك ويبعث على العلم ، وهو رجاء الله والدَّار الاخرة.

٣ ـ وجود القدوة العمليَّة، وهي من أسس التَّربية الخلقيَّة ، وقد تمثَّل ذلك بأوفى معانيه في رسول الله (ص)[(٤٧٩)] ؛ كما قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ *} [القلم: ٤].

لقد أولى المنهاج النبويُّ الكريم ـ المستمدُّ من كتاب ربِّ العالمين ـ الأخلاق أهمِّيَّةً كبيرةً ، وحثَّ على التمسُّك بفضائلها بمختلف الأساليب ، وحذَّر من ارتكاب مرذولها بشتَّى الطُّرق ، ونظرة القران إلى الأخلاق منبثقةٌ من نظرته إلى الكون والحياة ، والإنسان ، فإذا كانت العقائد تشكِّل أركان الصَّرح الإسلاميِّ؛ فإنَّ التَّشريعات تكوِّن تقسيمات حُجراته ، وممرَّاته ، ومداخله ، والأخلاق تُضفي البهاء ، والرَّونق ، والجمال على الصَّرح المكتمل ، وتصبغه الصِّبغة الربَّانيَّة المتميِّزة ، وإذا كانت العقيدة الإسلاميَّة

تشكِّل جذور الدَّوحة الإسلاميَّة ، وجذعها ، فإنَّ الشَّريعة تمثِّل أغصانها ، وتشعُّباتها ، والأخلاق تكوِّن ثمارها اليانعة ، وظلالها الوارفة ، ومنظرها البهيج النَّضِر[(٤٨٠)].

لقد استخدم المنهاج النَّبويُّ أساليب التَّأثير والاستجابة ، والالتزام في تربيته للصَّحابة؛ لكي يحوِّل الخلق من دائرة النَّظريات ، إلى صميم الواقع التَّنفيذيِّ ، والعمل التَّطبيقيِّ ، سواءٌ كانت اعتقاديَّةً ، كمراقبة الله تعالى ، ورجاء الاخرة ، أو عباديَّةً كالشَّعائر الَّتي تعمل على تربية الضَّمائر ، وصقل الإرادات ، وتزكية النَّفس ، ومع تطوُّر الدَّعوة الإسلاميَّة ، ووصولها إلى الدَّولة أصبحت هناك حوافز إلزاميَّةٌ تأتي من خارج النفس ، متمثلةً في:

أ ـ التَّشريع:

الَّذي وُضع لحماية القيم الخلقيَّة ، كشرائع الحدود ، والقِصاص؛ الَّتي تحمي الفرد ، والمجتمع من رذائل البغي على الغير: (بالقتل ، أو السَّرقة) ، أو انتهاك الأعراض: (بالزِّنى والقذف) أو البغي على النَّفس ، وإهدار العقل: (بالخمر ، والمسكرات المختلفة).

ب ـ سلطة المجتمع:

الَّتي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر، والتَّناصح بين المؤمنين ، ومسؤوليَّة بعضهم على بعض ، وقد جعل الله تعالى هذه المسؤوليَّة قرينة الزَّكاة ، والصَّلاة ، وطاعة الله ورسوله (ص) {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ٧١].

بل جعلها المقوِّم الأصليَّ لخيريَّة هذه الأمَّة: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ *} [آل عمران: ١١٠] .

وقد ظهرت هذه السُّلطة ، وأثرها في الفترة المدنيَّة:

ج ـ سلطة الدَّولة:

الَّتي وجب قيامها ، وأقيمت على أسس أخلاقيَّةٍ وطيدةٍ ، ولزمها أن تقوم على رعاية هذه الأخلاق ، وبثِّها في سائر أفرادها ومؤسَّساتها ، وتجعلها من مهامِّ وجودها ومبرراته[(٤٨١)].

وبذلك اجتمع للخلق الإسلاميّ أطراف الكمال كلّه ، وأصبح للمجتمع الأخلاقي نظام واقعي مثالي ، بسبب الالتزام بالمنهج الرباني.

هذه بعض الخطوط في البناء العقائديّ والرُّوحيّ والأخلاقيّ في الفترة المكّيَّة ، ولقد اتت هذه التَّربية أُكُلَها ، فقد كان ما يزيد على العشرين من الصَّحابة الكرام من الخمسين الأوائل

السَّابقين إلى الإسلام ، يمارسون مسؤولياتٍ قياديَّةً بعد توسع الدَّعوة ، وانطلاقها في عهد النَّبيّ (ص) وبعد وفاته ، وأصبحوا القادة الكبار للأمَّة ، وعشرون اخرون معظمهم استشهدوا ، أو ماتوا على عهد رسول الله (ص) ؛ فكان في الرَّعيل الأول أعظم شخصيات الأمَّة على الإطلاق ، كان فيه تسعةٌ من العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، وهم أفضل الأمَّة بعد رسول الله (ص) ، ومنهم نماذج أسهمت في صناعة الحضارة العظيمة بتضحياتهم الجسيمة ، كعمَّار بن ياسر ، وعبد الله بن مسعودٍ ، وأبي ذرٍّ ، وجعفر بن أبي طالب ، وغيرهم رضي الله عنهم ، وكان من هذا الرَّعيل أعظم نساء الأمَّة خديجة رضي الله عنها ، ونماذج عاليةٌ أخرى ، مثل أمِّ الفضل بنت الحارث ، وأسماء ذات النِّطاقين ، وأسماء بنت عُمَيس ، وغيرهنَّ.

لقد أتيح للرَّعيل الأوَّل أكبر قدرٍ من التَّربية العقديَّة ، والرُّوحيَّة ، والعقليَّة ، والأخلاقيَّة على يد مربِّي البشريَّة الأعظم محمّدٍ (ص) ، فكانوا هم حداة الرَّكب ، وهداةُ الأمَّة[(٤٨٢)] ، فقد كان رسولُ الله (ص) يزكِّيهم ، ويربِّيهم وينقِّيهم من أوضار الجاهليَّة ، فإذا كان السَّعيد الذي فاز بفضل الصُّحبة مَنْ رأى رسول الله (ص) ولو مرَّةً واحدةً في حياته ، وامن به ، فكيف بمن كان الرَّفيق اليوميَّ له ، ويتلقَّى منه ، ويعبق من نوره ، ويتغذَّى من كلامه ، ويتربَّى على عينه[(٤٨٣)]؟!!

* * *

الفصل الثَّالث

الجهر بالدَّعوة ، وأساليب المشركين في محاربتها

المبحث الأوَّل

الجهر بالدَّعوة

بعد الإعداد العظيم الَّذي قام به النَّبيُّ (ص) لتربية أصحابه ، وبناء الجماعة المسلمة المنظَّمة الأولى على أسسٍ عقديَّةٍ ، وتعبُّديَّةٍ ، وخلقيَّةٍ رفيعة المستوى حان موعدُ إعلان الدَّعوة ، بنزول قول الله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ *وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ *} [الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٦] .

فجمع قبيلته (ص) ، وعشيرته ، ودعاهم علانيةً إلى الإيمان بإلهٍ واحدٍ ، وخوَّفهم من العذاب الشَّديد؛ إن عصوه ، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النَّار ، وبيَّن لهم مسؤولية كلِّ إنسانٍ عن نفسه[(٤٨٤)].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما نزلت صَعِدَ {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ *} (ص) على الصَّفا ، فجعل ينادي: يا بني فِهْر! يا بني عَديٍّ ـ لبُطونِ قريش ـ حتَّى اجتمعوا ، فجعل الرَّجل إذا لم يستطعْ أن يَخرج؛ أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو ، فجاء أبو لهبٍ ، وقريشٌ ، فقال: أرأيتَكم لو أخبرتُكم: أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نعم! ما جَرَّبْنا عليك إلا صِدقاً ، قال: فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك سائرَ اليوم! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ *} [المسد: ١ ـ ٢] [البخاري (٤٩٧١) ومسلم (٢٠٨)] وفي روايةٍ: ناداهم بطناً بطناً ، ويقول لكلِّ بطن: «أنقذوا أنفسكم من النَّار....» ، ثمَّ قال: «يا فاطمة! أنقذي نفسك من النَّار ، فإنِّي لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأَبُلُّهَا بِبَلالِهَا» [البخاري (٤٧٧١) ومسلم (٢٠٤)] كان

القرشيُّون واقعيِّين عمليِّين ، فلمَّا رأوا محمَّداً (ص) ، ـ وهو الصَّادق الأمين ـ قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وينظر إلى ما وراءه ، وهم ما يرون إلا ما هو أمامهم ، فهداهم إنصافهم ، وذكاؤهم إلى تصديقه ، فقالوا: نعم.

ولما تمَّت هذه المرحلة الطَّبيعية البدائيَّة ، وتحقَّقت شهادة المستمعين؛ قال رسول الله (ص) : «فإِنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد» وكان ذلك تعريفاً بمقام النُّبوَّة ، وما ينفرد به من علمٍ بالحقائق الغيبيَّة ، والعلوم الوهبيَّة ، وموعظةً ، وإنذاراً ، في حكمةٍ وبلاغةٍ لا نظير لهما في تاريخ الدِّيانات ، والنُّبوَّات ، فلم تكن طريقٌ أقصر من هذه الطَّريق ، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب ، فسكت القوم[(٤٨٥)] ، ولكنَّ أبا لهب قال: تبّاً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا؟! وبهذا كان النَّبيُّ (ص) قد وضع للأمَّة أسس الإعلام؛ فقد اختار مكاناً عالياً ـ وهو الجبل ـ ليقف عليه، وينادي على جميع النَّاس ، فيصل صوته إلى الجميع ، وهذا ما تفعله محطَّات الإرسال في عصرنا الحديث ، لتزيد من عملية الانتشار الإذاعيِّ ، ثمَّ اختار لدعوته الأساس المتين ليبني عليه كلامه وهو الصِّدق ، وبهذا يكون (ص) قد علَّم رجال الإعلام والدَّعوة: أنَّ الاتصال بالنَّاس بهدف إعلامهم ، أو دعوتهم يجب أن يعتمد ـ وبصفةٍ أساسيَّةٍ ـ على الثِّقة التَّامَّة بين المرسِل ، والمستقبِل ، أو بين مصدر الرِّسالة والجمهور الَّذي يتلقَّى الرِّسالة ، كما أنَّ المضمون أو المحتوى يجب أن يكون صادقاً لا كذب فيه[(٤٨٦)].

«ومن الطَّبيعي أن يبدأ الرَّسول (ص) دعوته العلنيَّة بإنذار عشيرته الأقربين؛ إذ إنَّ مكَّة بلدٌ توغَّلت فيه الرُّوح القبليَّة ، فبدء الدَّعوة بالعشيرة ، قد يعين على نصرته ، وتأييده، وحمايته، كما أنَّ القيام بالدَّعوة في مكَّة لابدَّ أن يكون له أثرٌ خاصٌّ؛ لما لهذا البلد من مركزٍ دينيٍّ خطيرٍ ، فَجَلْبُهَا إلى حظيرة الإسلام لابدَّ أن يكون له وقعٌ كبيرٌ على بقيَّة القبائل؛ لأنَّ الإسلام ـ كما يتجلَّى من القران الكريم ـ اتَّخذ الدَّعوة في قريشٍ خطوةً أولى لتحقيق رسالته العالية»[(٤٨٧)]، فقد جاءت الايات المكِّيَّة تبيِّن عالمية الدَّعوة، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا *} [الفرقان: ١] ، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء: ١٠٧] ، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [سبأ: ٢٨].

وجاءت مرحلةٌ أخرى بعدها ، فأصبح يدعو فيها كلَّ مَنْ يلتقي به من النَّاس على اختلاف قبائلهم ، وبلدانهم ، ويتبع النَّاس في أنديتهم ، ومجامعهم ، ومحافلهم ، وفي المواسم،

ومواقف الحجِّ ، ويدعو من لقيه من حُرٍّ، وعبدٍ، وقويٍّ، وضعيفٍ ، وغنيٍّ ، وفقير[(٤٨٨)]؛ حين نزول قوله تعالى: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ *إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ *الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ *وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ *} [الحجر: ٩٤ ـ ٩٧] .

كانت النتيجة لهذا الصَّدْع هي الصَّدُّ ، والإعراض ، والسُّخرية ، والإيذاء ، والتَّكذيب ، والكيد المدبَّر المدروس ، وقد اشتدَّ الصِّراع بين النَّبيِّ (ص) وصحبه ، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها ، وأصبح النَّاس في مكَّة يتناقلون أخبار ذلك الصِّراع في كلِّ مكانٍ ، وكان هذا في حدِّ ذاته مكسباً عظيماً للدَّعوة ، ساهم فيه أشدُّ ، وألدُّ أعدائها ، ممَّن كان يشيع في القبائل قالة السُّوء عنها ، فليس كلُّ الناس يسلِّمون بدعاوى زعماء الكفر ، والشِّرك.

كانت الوسيلة الإعلاميَّة في ذلك العصر ، تناقل النَّاس للأخبار مشافهةً ، وسمع القاصي ، والدَّاني بنبوَّة الرَّسول (ص) ، وصار هذا الحدث العظيم حديث النَّاس في المجالس ، ونوادي القبائل ، وفي بيوت النَّاس[(٤٨٩)].

أهم اعتراضات المشركين:

كانت أهمُّ اعتراضات زعماء الشِّرك موجهةً نحو وحدانية الله تعالى ، والإيمان باليوم الاخر ، ورسالة النَّبيِّ (ص) ، والقران الكريم الذي أُنزل عليه من ربِّ العالمين.

وفيما يلي تفصيل لهذه الاعتراضات والردّ عليها:

أولاً: الإشراك بالله:

لم يكن كفارُ مكَّةَ ينكرون: أنَّ الله خلقهم ، وخلق كلَّ شيءٍ ، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *} [لقمان: ٢٥] ، لكنَّهم كانوا يعبدون الأصنام ، ويزعمون: أنَّها تقرِّبهم إلى الله ، قال تعالى: [(٤٩٠)] {أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ *} [الزمر: ٣].

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم ، ولهذا قابلوا الدَّعوة إلى التَّوحيد بأعظم إنكارٍ ، وأشدِّ استغرابٍ[(٤٩١)]. قال تعالى: {وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ *}[(٤٩٢)] [ص: ٤ ـ ٧] ولم يكن تصوُّرهم لله تعالى ، ولعلاقته بخلقه صحيحاً؛ إذ كانوا يزعمون: أنَّ لله تعالى صاحبةً من الجنِّ ، وأنَّها ولدت الملائكة ، وأنَّ الملائكة بناتُ الله!

كانت الايات تنزل مُبيّنةً: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ خلق الجنَّ ، والملائكة ، كما خلق الإنس، وأنَّه لم يتَّخذ ولداً ، ولم تكن له صاحبةٌ ، قال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا [(٤٩٣)] لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [الأنعام: ١٠٠ ـ ١٠١] ، ومبينةً: أنَّ الجنَّ يُقرُّون لله بالعبودية ، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب: {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ *} [الصافات: ١٥٨].

ومُطالِبةً المشركين باتّباع الحقّ ، وعدم القول بالظُّنون ، والأوهام: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا *}[النجم: ٢٧ ـ ٢٨] ، ومُوضِّحَةً أنَّه لا يُعْقَلُ أن يَمْنَحَ اللهُ المشركين البنين ، ويخصَّ نفسه بالبنات ، وهنَّ أدنى قيمةً ـ في رأيهم ـ من البنين: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا *}[الإسراء: ٤٠] .

ومُحمِّلةً المشركين مسؤوليَّة أقوالهم الَّتي لا تقوم على دليلٍ: {وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ *} [الزخرف: ١٩] .

ثانياً: كفرهم بالاخرة:

أمَّا دعوة الرَّسول (ص) إلى الإيمان باليوم الاخر ، فقد قابلها المشركون بالسُّخرية والتَّكذيب: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ *أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ *} [سبأ: ٧ ـ ٨]؛ فقد كانوا ينكرون بعث الموتى: {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ *} [الأنعام: ٢٩] ، ويقسمون على ذلك بالأيمان المغلَّظة: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ *} [النحل: ٣٨ ـ ٣٩] ، وكانوا يظنُّون أنَّه لا توجد حياةٌ في غير الدُّنيا ، ويطلبون إحياء ابائهم؛ ليصدقوا بالاخرة.

قال تعالى: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

*قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ *} [الجاثية: ٢٤ ـ ٢٧].

وفاتَهُم: أنَّ الذي خلقهم أوّل مرَّةٍ، قادرٌ على أن يحييهم يوم القيامة ، قال مجاهد ، وغيره: جاء أُبَيُّ بنُ خلف[(٤٩٣)] إلى رسول الله (ص) وفي يده عظمٌ رميمٌ ، وهو يفتّته، ويذروه في الهواء؛ وهو يقول: يا محمد! أتزعم: أنَّ الله يبعث هذا؟ قال (ص) : «نعم، يميتك الله تعالى، ثمَّ يبعثك ، ثمَّ يحشرك إلى النار» ، ونزلت هذه الايات[(٤٩٤)]:

{أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ *وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ *قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ *} [يس: ٧٧ ـ ٧٩] [الدر المنثور (٧/٧٥ ـ ٧٦)] .

كانت أساليب القران الكريم في إقناع النَّاس بالبعث تعتمد على خطاب العقل ، والانسجام مع الفطرة ، والتجاوب مع القلوب ، فقد ذكَّر الله عباده: أنَّ حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء ، والحساب ، فإن الله خلق الخلق لعبادته ، وأرسل الرُّسل ، وأنزل الكتب؛ لبيان الطَّريق الَّذي به يعبدونه ، ويطيعونه ، ويتبعون أمره ، ويجتنبون نهيه ، فمن العباد مَنْ رفض الاستقامة على طاعة الله ، وطغى ، وبغى ، أفليس من العدل بعد ذلك أن يموت الطَّالح والصَّالح ، ثمَّ يُجزي اللهُ المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته. قال تعالى: {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ *أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ *إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ *} [القلم: ٣٥ ـ ٣٨] .

إنَّ الملاحدة الَّذين ظلموا أنفسهم هم الَّذين يظنُّون: أنَّ الكون خُلِق عبثاً ، وباطلاً ، لا لحكمة ، وأنَّه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح ، والكافر المفسد ، ولا بين التَّقيّ والفاجر[(٤٩٥)]. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ *أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ *} [ص: ٢٧ ـ ٢٨] .

وضرب القران الكريم للنَّاس الأمثلة في إحياء الأرض بالنَّبات ، وأنَّ الذي أحيا الأرض بعد موتها قادرٌ على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة ، والعظام البالية: {فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الروم: ٥٠] .

وذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه ، أمثلةً من إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدُّنيا ، فأخبر النَّاسَ في كتابه عن أصحاب الكهف ، بأنَّه ضُرب على اذانهم في الكهف ثلاثمئةٍ وتسع سنين ، ثمَّ قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة ، قال تعالى: {ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا *} [الكهف: ١٢] ، {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا *} [الكهف: ١٩] ، {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاَثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا *} [الكهف: ٢٥] ، وغير ذلك من الأدلَّة والبراهين؛ التي استخدمها رسول الله (ص) في مناظراته مع زعماء الكفر ، والشِّرك.

ثالثاً: اعتراضهم على الرَّسول (ص):

اعترضوا على شخص الرَّسول (ص) ، فقد كانوا يتصوَّرون: أنَّ الرَّسول لا يكون بشراً مثلهم ، وأنَّه ينبغي أن يكون مَلَكاً ، أو مصحوباً بالملائكة: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *} [الإسراء: ٩٤] ، {وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ *وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ *} [الأنعام: ٨ ـ ٩] ، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً من الملائكة؛ لجعلناه على هيئة رجلٍ ، حتَّى يمكنهم مخاطبته ، والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالْتَبس عليهم الأمر كما هم يلبِّسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر[(٤٩٦)]. وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطَّعام ، ولا يمشي في الأسواق: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا *أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا *} [الفرقان: ٧ ـ ٨] ، وكأنَّهم لم يسمعوا بأنَّ الرُّسل جميعاً كانوا يأكلون ، ويسعون ، ويعملون: [(٤٩٧)] {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا *}[الفرقان: ٢٠] .

ويريدون أن يكون الرَّسولُ كثيرَ المال ، كبيراً في أعينهم: {وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ *} [الزخرف: ٣١] .

ويقصدون بـ : {رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ *} بن المغيرة بمكَّة ، أو عروة بن مسعود الثَّقفي بالطَّائف[(٤٩٨)].

ونسبوا الرَّسول (ص) إلى الجنون: {وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ *لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ *} [الحجر: ٦ ـ ٧] ، {أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ *ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ *} [الدخان: ١٣ ـ ١٤] .

وردَّ الله عليهم بقوله: {مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ *} [القلم: ٢] .

كما نسبوه إلى الكهانة ، والشعر: {فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ *أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ *} [الطور: ٢٩ ـ ٣٠] .

هذا مع أنَّهم كانوا يعلمون: أنَّه لا يَنْظِمُ الشِّعر ، وأنَّه راجح العقل ، وأنَّ ما يقوله بعيدٌ عن سجع الكُهَّان ، وقول السَّحرة[(٤٩٩)].

ونسبوه (ص) إلى السِّحر ، والكذب: {وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ *} [ص: ٤] ، {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا *انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً *} [الإسراء: ٤٧ ـ ٤٨].

وكانت الايات تتنزَّلُ على رسول الله (ص) تفنِّد مزاعم المشركين ، وتبيِّن له أنَّ الرُّسل السَّابقين استهزأى بهم ، وأنَّ العذاب عاقبة المستهزئين: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ *} [الأنعام: ١٠] ، وتُعَلِّمُهُ أنَّ المشركين لا يُكذِّبون شخصه ، ولكنَّهم يعاندون الحقَّ ، ويدفعون ايات الله بتلك الأقاويل[(٥٠٠)]: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *} [الأنعام: ٣٣] .

رابعاً: موقفهم من القران الكريم:

كذلك لم يصدِّقوا: أنَّ القران الكريم منزلٌ من عند الله ، واعتبروه ضرباً من الشِّعر ، الَّذي كان ينظمه الشُّعراء ، مع أنَّ كلَّ من قارن بين القران ، وأشعار العرب يعلم أنَّه مختلفٌ عنها: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ *لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ *} [يس: ٦٩ ـ ٧٠] وكيف يكون القران شعراً وقد نزل فيه ذمٌّ للشعراء الَّذين يُضِلُّون الناس ويقولون خلاف الحقيقة؟![(٥٠١)] قال تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ[(٥٠٢)] *أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ *وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ *} [(٥٠٣)] [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٦]؛ فهو كلام الله المنزل

على رسوله (ص) وليس شبيهاً بقول الشعراء ، ولا بقول الكهَّان: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ *وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ *وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ *تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٣] .

وقد أدرك الشُّعراء قبل غيرهم: أنَّ القران الكريم ليس شعراً[(٥٠٤)] ، ومن فرط تكذيبهم ، وعنادهم قالوا: إنَّ محمَّداً يتعلَّم القران من رجلٍ أعجميّ[(٥٠٥)] ، كان غلاماً لبعض بطون قريش ، وكان بياعاً يبيع عند الصَّفا ، وربَّما كان الرسول (ص) يجلس إليه ، ويكلِّمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجميَّ اللِّسان لا يعرف من العربيَّة إلا اليسير ، بقدر ما يردُّ جواب الخطاب فيما لابدَّ منه ، ولهذا قال تعالى: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ *} [النحل: ١٠٣] أي: فكيف يتعلَّم مَنْ جاء بهذا القران في فصاحته ، وبلاغته ، ومعانيه التَّامَّة الشَّاملة من رجلٍ أعجميّ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكةٍ من العقل[(٥٠٦)].

واعترضوا على طريقة نزول القران ، فطلبوا أن ينزل جملةً واحدةً ، مع أنَّ نزوله مفرَّقاً أدعى لتثبيت قلوب المؤمنين به ، وتيسير فهمه ، وحفظه ، وامتثاله: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً *}[الفرقان: ٣٢] .

فلمَّا اعترض المشركون على القران ، وعلى من أُنزل عليه بهذه الاعتراضات؛ تحدَّاهم الله بأن يأتوا بمثله ، وأعلن عن عجز الإنس والجنّ مجتمعين عن ذلك: {قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا *} [الإسراء: ٨٨] .

بل هم عاجزون عن أن يأتوا بعشر سورٍ مثله:

{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *} [هود: ١٣ ـ ١٤] .

وحتَّى السُّورة الواحدة هم عاجزون عن أن يأتوا بمثلها: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *} [يونس: ٣٧ ـ ٣٨] .

فعجزُهم ـ مع أنَّ الفصاحة كانت من سجاياهم ، وكانت أشعارهم ومعلَّقاتهم في قمَّة البيان .

دليلٌ على أنَّ القران كلام الله الَّذي لا يشبهه شيءٌ في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وأقواله ، وكلامه لا يشبه كلام المخلوقين[(٥٠٧)].

خامساً: دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ:

تحدَّث بعض الباحثين[(٥٠٨)] عن دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ ، فذكروا منها:

١ ـ ضعف تأثير النبوات في جزيرة العرب:

كان العرب الَّذين بُعِثَ فيهم النبي (ص) بعيدين عن الدِّيانات السَّماويَّة ، فلم يكونوا يدينون بدينٍ؛ ولم ينشغلوا بدراسة كتابٍ سماويٍّ ـ كما كانت تفعل اليهود ، والنَّصارى ـ ولهذا احتجَّ الله عليهم ببعثة محمَّدٍ (ص) ، يقول الله تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ *أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ *} [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧] .

وكان لتغلغل المعتقدات الوثنيَّة في حياتهم ، وعقولهم ، وسيطرتها على تفكيرهم أثرٌ عظيم في تصلُّبهم أمام الحقِّ ، وإبائهم الانقياد والإذعان لدعوته ، هذا فضلاً عن أنَّ طبيعة النَّفس البشريَّة حين لا تدين بدينٍ سماويٍّ ، فإنَّها تبتعد عن التجرُّد والصَّفاء العقديِّ ، وتميل إلى التَّجسيم المادِّيِّ الحسِّيِّ ، ولذلك أقدم عُبَّاد الأصنام على بذل نفوسهم وأموالهم ، وأبنائهم دونها ، وهم يشاهدون مصارع إخوانهم ، وما حلَّ بهم ، ولا يزيدهم ذلك إلا حبّاً لها ، وتعظيماً ، ويوصي بعضهم بعضاً بالصَّبر عليها ، وتحمُّل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها ، وهم يسمعون أخبار الأمم الَّتي فُتنت بعبادتها ، وما حلَّ بهم من عاجل العقوبات[(٥٠٩)].

٢ ـ العصبيَّة لتراث الاباء ، والأجداد:

كان أكبر طاغوتٍ تحارَب به دعوات الرُّسل والأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ هو طاغوت التَّقليد ، والعادة المتبعة ، وهي من أكبر العوامل في الصَّدِّ عن دين الله ، ومن الصَّعب على الإنسان الخروج من مألوفاته ، وإنَّ ذهاب روحه أهون عليه من تغييرها؛ إلا أن يدخل في قلبه ما يقتلعها ، وقد أشار القران الكريم إلى مرض تقليد الاباء في الباطل في الأمم السَّابقة[(٥١٠)]؛ فهذا

إبراهيم ـ عليه السلام ـ يخاطب قومه قائلاً: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ *قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ *قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ *أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ *قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ *} [الشعراء: ٧٠ ـ ٧٤] .

وهذا المنهج هو دأب المشركين ، والمعارضين لدين الله على مرِّ الأجيال ، وإذا استنكر عليهم الدُّعاة الأطهار المصلحون ولوغهم في الشَّهوات ، وانهماكهم في الفواحش ، وساءلوهم عن ذلك ، قالوا: {وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *} [الأعراف: ٢٨] .

ما ذلك إلا لفقدان الدَّليل ، وانقطاع الحجَّة؛ إذ إنَّهم لا يعتمدون على عقلٍ يرشدهم ، ولا كتابٍ يؤيِّدهم ، ولذلك قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ *وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ *} [لقمان: ٢٠ ـ ٢١] .

وإنَّما أوقع الكفارَ في هذا التَّقليد المنحرف استدراجُ الشَّيطان لهم من خلال فطرة مركوزةٍ في الإنسان أصلاً ، تدعوه إلى الوفاء للاباء ، والأجداد ، وتربطه بتاريخه وتراثه ، وهذا من أعظم وسائل الشيطان في الكيد: أن يأتي الإنسانَ من قبل غريزةٍ مطبوعةٍ فيه؛ من حبِّ الشَّهوة ، والوطن ، والمال ، وغيرها ، قال رسول الله (ص) : «إنَّ الشَّيطان قعد لابن ادم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال: تُسْلِمُ ، وتذر دينك ، ودين ابائك ، واباء أبيك؟ فعصاه ، فأسلم ، ثمَّ قعد له بطريق الهجرة ، فقال: تهاجر ، وتدع أرضك ، وسماءك؟! وإنَّما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل![(٥١١)] فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال: تجاهد؟! فهو جهد النَّفس ، والمال ، فتقاتل ، فتقتل ، فتُنكح المرأة! ويُقسم المال! فعصاه فجاهد».

فقال رسول الله (ص) : «فمن فعل ذلك كان حقّاً على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يدخله الجنَّة ، ومن قتل كان حقّاً على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يدخله الجنَّة ، وإن غرق كان حقّاً على الله أن يدخله الجنَّة ، أو وَقَصَتْهُ[(٥١٢)] دابته كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة» [النسائي (٦/٢١ ـ ٢٢) وأحمد (٣/٤٨٣) وابن حبان (٤٥٩٣)] .

فلما بُعث النبيُّ (ص) ، كان من التُّهم الَّتي وُجِّهت إليه: أنَّه كان يدعو إلى خلاف ما عهدوا عليه

الاباء والأجداد ، وبذلك نفَّروا منه العامَّة والدَّهماء ، وفرضوا على الدَّعوة نوعاً من الحصار المؤقت[(٥١٣)].

٣ ـ موقف أهل الكتاب المساند للوثنيَّة:

كانت بيئة العرب الوثنيَّة مستعدَّةً لمواجهة دعوة التَّوحيد ، ومحاربتها ، ووجدت في موقف أهل الكتاب الرَّافض للدَّعوة مستنداً قويّاً لهذه المعارضة ، فهاهم أهل التَّوراة، والإنجيل، وورثة الكتب السَّماوية ، ينكرون دعوة محمَّد (ص) ، ويردُّونها ، ويكذِّبونها ، وهم أدرى منَّا بالدِّين ، وهذا كان مصدر دعمٍ ، وتقويةٍ ، وتثبيتٍ لموقف المشركين: {وَانْطَلَقَ الْمَلأَُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ *مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاَقٌ *} [ص: ٦ ـ ٧] .

فمن عوامل الصَّبر على الالهة في مواجهة الدَّعوة الجديدة: أنهم لم يسمعوا بما جاء به (ص) في الملَّة الاخرة، وهي النَّصرانيَّة، قاله ابن عباس، والسُّدِّيُّ ، ومحمَّد بن كعب القرظيُّ ، وقتادة ، ومجاهد[(٥١٤)] ، وهذا مبنيٌّ على شهادة أهل الكتاب للمشركين ضدَّ الرَّسول (ص) ، وإلا فما كان للعرب من علمٍ بالكتب السَّماوية ، وما فيهامن الحقائق والأخبار[(٥١٥)].

٤ ـ سيطرة الأعراف ، والعوائد القبليَّة:

كان الصِّراع القبليُّ ، والتَّنافس على الرِّياسة ، والشَّرف ، والسُّؤدد ، ذا جذورٍ في الأعراف ، والعوائد القبليَّة ، ولذلك تجد المعارضين للدَّعوة المنتسبين للبطن الَّذي ينتسب إليه الرَّسول (ص) ، يحتجُّون على رسول الله (ص) بأنَّه ليس شيخاً ذا رياسةٍ ، وتقدُّمٍ فيهم ، والمعارضين من البطون الأخرى يرفضون الإسلام خوفاً على مناصبهم ، ومكانتهم ، والمعارضين من القبائل الأخرى يرفضونها حفاظاً على مراكز قبائلهم ، وتكبُّراً على اتِّباع فردٍ من قبيلةٍ أخرى ، فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: «إنَّ أوَّل يومٍ عرفت فيه رسول الله (ص) ، كنت أنا ، وأبو جهل بن هشام في بعض أزقَّة مكَّة؛ إذ لقينا رسول الله (ص) ، فقال رسول الله (ص) لأبي جهل: يا أبا الحكم! هَلُمَّ إلى الله ، وإلى رسوله ، إنِّي أدعوك إلى الله ، فقال أبو جهل: يا محمد! هل أنت مُنتهٍ عن سبِّ الهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت؟ فوالله! لو أنِّي أعلم أنَّ ما تقول حقاً ما تبعتك! فانصرف رسول الله (ص) ، وأقبل عليَّ ، فقال: والله! إنِّي لأعلم أنَّ ما يقوله حقٌّ ، ولكن بني قصيٍّ قالوا: فينا الحجابة ، فقلنا: نعم ، قالوا: فينا النَّدوة ، قلنا: نعم ، قالوا: فينا اللِّواء ، قلنا: نعم ، قالوا: فينا السِّقاية ، قلنا: نعم. ثم أطعموا ، وأطعمنا
حتَّى إذا تحاكَّت الرُّكب؛ قالوا: منا نبيٌّ! فلا والله لا أفعل» [البيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٠٧)] .

٥ . حرصهم على مصالحهم ومكانتهم وتأثيرهم على العرب:

فقد كانوا يريدون أن تبقى لهم منزلتهم المرموقة ، وأمجادهم العريقة ، ويريدون أن تبقى لمكَّة قداستها عند القبائل العربيَّة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الإسلام سيسلبها هذه الميزة ، ويجعل العرب يغزونها ، ويمتنعون عن جلب الرِّزق إلى أسواقها ، وينسون: أنَّ الله هو المنعم عليهم بالأمن والرِّزق[(٥١٦)]: {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ *} [القصص: ٥٧] .

إنَّ قريشاً كانت تظنُّ: أن العرب الَّذين يقدِّسون الأصنام ، عندما يعلمون: أنَّ قريشاً ستعتنق ديناً جديداً ، وستترك دين ابائهم؛ فإنَّهم سينقضُّون عليها ، ويتخطَّفون أهلها؛ جزاءَ ما فعلوا ، بل ويمتنعون عن جلب الرِّزق إليهم في مواسم الحجِّ ، لكن هيهات! فإنَّ الله غالبٌ على أمره ، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ *} [العنكبوت: ٦٧] ، ويقول تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ *إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ *وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ *} [الصافات: ١٧١ . ١٧٣].

* * *

المبحث الثَّاني

سنَّة الابتلاء

الابتلاء . بصفةٍ عامَّةٍ . سنَّة الله في خلقه ، وهذا واضحٌ في تقريرات القران الكريم. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [الأنعام: ١٦٥] ، وقال سبحانه: {إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً *} [الكهف: ٧] ، وقال جلَّ شأنهُ: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا *} [الإنسان: ٢] .

الابتلاء مرتبطٌ بالتَّمكين ارتباطاً وثيقاً؛ فلقد جرت سنَّة الله تعالى ألا يُمكِّن لأمَّةٍ إلا بعد أن تمرُّ بمراحل الاختبار المختلفة ، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث ، فيميز الله الخبيث من الطِّيِّب ، وهي سنَّةٌ جاريةٌ على الأمَّة الإسلاميَّة لا تتخلَّف ، فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يبلي المؤمنين ، ويختبرهم؛ ليمحِّص إيمانهم ، ثمَّ يكون لهم التَّمكين في الأرض بعد ذلك ، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشَّافعيِّ رضي الله عنه حين سأله رجلٌ: أيُّهما أفضل للمرء ، أنَّ يُمكَّن ، أو يبتلى؟ فقال الإمام الشَّافعيُّ: لا يُمَكَّن حتَّى يبتلى ، فإنَّ الله ـ تعالى ـ ابتلى نوحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمَّداً ـ صلوات الله ، وسلامه عليهم أجمعين ـ فلمَّا صبروا مكَّنهم؛ فلا يظنُّ أحدٌ أن يخلص من الألم ألبتَّة[(٥١٧)].

وابتلاء المؤمنين قبل التَّمكين أمرٌ حتميٌّ من أجل التَّمحيص؛ ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكُّنٍ ورسوخ ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرَّحمة ، لا ابتلاء الغضب ، وابتلاء الاختيار ، لا مجرَّد الاختبار[(٥١٨)].

إنَّ طريق الابتلاء سنَّة الله في الدَّعوات ، كما أنَّه الطريق إلى الجنَّة ، وقد «حُفَّت الجنَّةُ بالْمكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهوات» [مسلم (٢٨٢٢) وأحمد (١٥٣/٣) والترمذي (٢٥٥٩)] .

حكمة الابتلاء ، وفوائده: للابتلاء حِكَمٌ كثيرة؛ من أهمِّها:

١ ـ تصفية النُّفوس:

جعل الله الابتلاء وسيلةً لتصفية نفوس النَّاس ، ومعرفة المؤمن الصَّادق من المنافق الكاذب؛ وذلك لأنَّ المرء قد لا يتبيَّن في الرَّخاء ، لكن يتبيَّن في الشِّدَّة. قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ *} [العنكبوت: ٢] .

٢ ـ تربية الجماعة المسلمة:

وفي هذا يقول سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ: «ثمَّ إنَّه الطَّريق الَّذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة الَّتي تحمل هذه الدَّعوة ، وتنهض بتكاليفها؛ طريق التربية لهذه الجماعة ، وإخراج مكنوناتها من الخير ، والقوَّة ، والاحتمال ، وهو طريق المزاولة العمليَّة للتَّكاليف ، والمعرفة الواقعيَّة لحقيقة النَّاس ، وحقيقة الحياة؛ ذلك ليثبت على هذه الدَّعوة أصلبُ أصحابها عوداً ، فهؤلاء هم الَّذين يصلحون لحملها ـ إذاً ـ بالصَّبر عليها ، فهم عليها مؤتمنون»[(٥١٩)].

٣ ـ الكشف عن خبايا النُّفوس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوفٌ لعلم الله ، مغيَّبٌ عن علم البشر ، فيحاسب النَّاس ـ إذاً ـ على ما يقع من

عملهم ، لا على مجرَّد ما يعلمه سبحانه من أمرهم ، وهو فضلٌ من الله من جانبٍ ، وعدلٌ من جانبٍ ، وتربيةٌ للنَّاس من جانبٍ ، فلا يأخذون أحداً إلا بما استعلن من أمره ، وبما حقَّقه فعله؛ فليسوا بأعلمَ من الله بحقيقة قلبه»[(٥٢٠)].

٤ ـ الإعداد الحقيقيُّ لتحمُّل الأمانة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وما بالله ـ حاشا للهِ ـ أن يعذِّب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة ، ولكنَّه الإعداد الحقيقي لتحمُّل الأمانة ، فهي في حاجةٍ إلى إعدادٍ خاصٍّ ، لا يتمُّ إلا بالمعاناة العمليَّة للمشاقِّ ، وإلا بالاستعلاء الحقيقيِّ على الشَّهوات ، وإلا بالصَّبر الحقيقيِّ على الالام ، وإلا بالثِّقة الحقيقيَّة في نصر الله وثوابه ، على الرَّغم من طول الفتنة ، وشدَّة الابتلاء. والنَّفس تصهرها الشَّدائد ، فتنفي عنها الخبث ، وتستجيش كامن قواها المذخورة ، فتستيقظ وتتجمَّع ، وتطرقها بعنف وشدَّةٍ ، فيشتدُّ عودها ، ويصلب ويُصقل ، وكذلك تفعل الشَّدائد بالجماعات ، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً ، وأقواها طبيعةً ، وأشدُّها اتِّصالاً بالله ، وثقةً فيما عنده من الحُسْنَيَيْن: النَّصر أو الشَّهادة ، وهؤلاء هم الَّذي يُسلِّمون الرَّاية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»[(٥٢١)].

٥ ـ معرفة حقيقة النَّفس:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي يعرف أصحاب الدَّعوة حقيقتهم هم أنفسهم ، وهم يزاولون الحياة ، والجهاد مزاولةً عمليَّةً واقعيَّةً ، ويعرفوا حقيقة النَّفس البشريَّة وخباياها ، حقيقة الجماعات ، والمجتمعات ، وهم يرون كيف تصطرع مبادأى دعوتهم مع الشَّهوات في أنفسهم ، وفي أنفس الناس ، ويعرفون مداخل الشَّيطان إلى هذه النفوس ، ومزالق الطَّريق ومسارب الضَّلال»[(٥٢٢)].

٦ ـ معرفة قدر الدعوة:

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظِّلال: «وذلك لكي تعزَّ هذه الدَّعوة عليهم ، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من جهدٍ وبلاءٍ ، وبقدر ما يضحُّون في سبيلها من عزيزٍ ، وغالٍ ، فلا يفرِّطون فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»[(٥٢٣)].

٧ ـ الدِّعاية لها:

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوةٌ صامتةٌ لهذا الدِّين ، وهي الَّتي تُدخِل النَّاس في دين الله ، ولو وهنوا ، أو استكانوا؛ لمِا استجاب لهم أحدٌ ، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النَّبيِّ (ص) ، ثمَّ يأتيه أمر النَّبيِّ (ص)

أن يمضي إلى قومه ، يدعوهم ، ويصبر على تكذيبهم ، وأذاهم ، ويتابع طريقه؛ حتَّى يعود بقومه إلى رسول الله (ص)[(٥٢٤)] ، وسنرى ذلك في الصَّفحات القادمة ، إن شاء الله.

٨ . جذب بعض العناصر القويَّة إليها:

أمام صمود المسلمين وتضحياتهم تتوق النُّفوس القويَّة إلى هذه العقيدة ، ومن خلال الصَّلابة الإيمانيَّة تكبر عند هذه الشَّخصيات الدَّعوة ، وحاملوها ، فيسارعون إلى الإسلام دون تردُّدٍ ، وأعظم الشَّخصيات الَّتي يعتزُّ بها الإسلام دخلت إلى هذا الدِّين من خلال هذا الطريق[(٥٢٥)].

٩ . رفع المنزلة والدَّرجة عند الله ، وتكفير السَّيِّئات:

قال رسول الله (ص) : «ما يصيب المؤمنَ من شوكةٍ فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجةً ، أو حَطَّ عنه بها خطيئةً» [البخاري (٥٦٤٠) ومسلم (٢٥٧٢)]. ، فقد يكون للعبد درجةٌ عند الله تعالى لا يبلغها بعمله ، فيبتليه الله تعالى حتَّى يرفَعه إليها ، كما أنَّ الابتلاء طريقٌ لتكفير سيِّئات المسلم[(٥٢٦)].

كما أنَّ للابتلاء فوائدَ عظيمةً؛ منها: معرفة عزِّ الرُّبوبية ، وقهرها ، ومعرفة ذلِّ العبودية ، وكسرها ، والإخلاص ، والإنابة إلى الله ، والإقبال عليه ، والتَّضرُّع ، والدُّعاء ، والحلم عمَّن صدرت عنه المصيبة ، والعفو عن صاحبها ، والصَّبر عليها ، والفرح بها لأجل فوائدها ، والشُّكر عليها ، ورحمة أهل البلاء ، ومساعدتهم على بلواهم ، ومعرفة قدر نعمة العافية ، والشُّكر عليها ، وما أعدَّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الاخرة على اختلاف مراتبها ، وغير ذلك من الفوائد ، ومن أراد التوسُّع فليراجع كتاب فقه الابتلاء[(٥٢٧)].

وقد تعرَّض النَّبيُّ (ص) وأصحابه لأشكالٍ وأنواعٍ ، وأصنافٍ متعدِّدةٍ من الابتلاء ، كمحاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة رسول الله (ص) ، وتشويه الدَّعوة ، وإيذائه (ص) ، وإيذاء أصحابه ، وعرض المغريات ، والمساومات لترك الدَّعوة ، ومطالبته بجعل الصَّفا ذهباً ، والاستعانة باليهود في مجادلة رسول الله (ص) ، والدِّعاية الإعلاميَّة في المواسم ضدَّ الدَّعوة ، وشخص الرَّسول (ص) ، والحصار الاقتصاديِّ الَّذي تعرَّض له رسول الله (ص) ، وبنو هاشم ، وبنو المطَّلب من قِبَل كفار مكَّة ، والإيذاء الجسديِّ ، وغير ذلك من أنواع الابتلاء ، وسنبين في الصَّفحات القادمة ـ بإذن الله تعالى ـ أساليب المشركين في محاربة الإسلام ، وكيف تصدَّى لها رسولُ الله (ص) وأصحابه ، وكيف دفع رسول الله (ص) قَدَرَ سنَّة الابتلاء ، بسنَّة الأسباب ، وكيف تعامل رسول الله (ص) مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، حتَّى أقام دولة الإسلام في المدينة.

* * *

المبحث الثَّالث

أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة

أجمع المشركون على محاربة الدَّعوة الَّتي عرَّت واقعهم الجاهليَّ ، وعابت آلهتهم ، وسفَّهت أحلامهم ـ أي: اراءهم ، وأفكارهم ـ وتصوُّراتهم عن الله ، والحياة ، والإنسان ، والكون؛ فاتَّخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدَّعوة ، وإسكات صوتها ، أو تحجيمها ، وتحديد مجال انتشارها.

أولاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالبٍ عن مناصرة ، وحماية رسول الله (ص):

جاءت قريش إلى أبي طالب ، فقالوا: إنَّ ابن أخيك هذا قد اذانا في نادينا ، ومسجدنا؛ فانهه عنَّا ، فقال أبو طالب لرسول الله (ص) : إنَّ بني عمِّك هؤلاء زعموا: أنك تؤذيهم في ناديهم ، ومسجدهم ، فانْتَهِ عن أذاهم ، فحلَّق رسول الله (ص) ببصره إلى السَّماء ، فقال: «ترون هذه الشَّمس؟» قالوا: نعم! قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشعَلوا منها بشعلةٍ» وفي روايةٍ: «والله! ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعَل أحدٌ من هذه الشَّمس شعلةً من نارٍ» فقال أبو طالب: «والله ما كذب ابن أخي قطُّ ، فارجعوا راشدين» [البخاري في التاريخ الكبير (٥١/١/٤) والبيهقي في دلائل النبوة (١٨٧/٢)][(٥٢٨)] ، وحاولت قريش مرَّاتٍ عديدةً الضَّغط على رسول الله (ص) بواسطة عائلته ، ولكنَّها فشلت.

ذاع أمر حماية أبي طالب لابن أخيه ، وتصميمه على مناصرته ، وعدم خذلانه ، فاشتدَّ ذلك على قريش غمَّاً ، وحسداً ، ومكراً ، فمشوا إليه بعُمَارةَ بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له: «يا أبا طالب! هذا عُمَارةُ بنُ الوليد ، أنهدُ فتًى في قريشٍ ، وأجملُها ، فخذه ، فلك عَقْلُه[(٥٢٩)] ونصرُه ، واتَّخذه ولداً ، فهو لك ، وأسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ، ودين ابائك ، وفرَّق جماعة قومك ، وسفَّه أحلامنا ، فنقتله ، فإنَّما هو رجلٌ برجلٍ» قال: «والله لبئس

ما تسومونني![(٥٣٠)] أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني فتقتلونه؟! هذا والله ما لا يكون أبداً!». [السيرة النبوية لابن هشام (٢٨٥/١) وابن كثير في البداية والنهاية (٤٨/٣)] .

وإنَّ المرء ليسمع عجباً ، ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالبٍ مع رسول الله (ص) ، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمَّد (ص) ، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضمَّ بني هاشم ، وبني المطلب إليه في حلفٍ واحدٍ ، على الحياة والموت؛ تأييداً لرسول الله (ص) ، مسلمهم ، ومشركهم على السَّواء[(٥٣١)] ، وأجار ابن أخيه محمَّداً إجارةً مفتوحةً لا تقبل التردُّد ، أو الإحجام ، كانت هذه الأعراف الجاهليَّة ، والتَّقاليد العربيَّة تُسَخَّر من قبل النَّبيِّ (ص) لخدمة الإسلام ، وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً تصنع ما تصنع في بني هاشم ، وبني المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله (ص) والقيام دونه؛ فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبي لهبٍ عدوِّ الله اللَّعين.

ولما رأى أبو طالبٍ من قومه ما سرَّه من جهدهم معه ، وحَدَبهم عليه ، جعل يمدحهم، ويذكر قديمهم ، ويذكر فضل رسول الله (ص) فيهم ، ومكانه منهم؛ ليشدَّ لهم رأيهم ، وليَحْدَبوا معه على أمره ، فقال:

إذا اجْتَمَعتْ يوماً قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍفعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّها وصَمِيمُها

وإنْ حُصِّلتْ أشْرافُ عَبْدِ مَنَافِهافَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُها وقَدِيمُهَا

وإنْ فَخَرَتْ يوماً فإنَّ مُحَمَّداًهُوَ المصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وكَرِيمُهَا

تَداعَتْ قريشٌ غَثُّهَا وثَمِيْنُهاعلينا فَلَمْ تَظْفَرْ وطَاشَتْ حُلُومُها

وكُنَّا قَديماً لا نُقِرُّ ظُلاَمَةًإذا ما ثَنَوْا صُعْرَ الخُدُوْدِ نُقِيْمُها[(٥٣٢)]

وحين حاول أبو جهل أن يَخْفِر جوارَ أبي طالبٍ ، تصدَّى له حمزةُ ، فَشَجَّه بقوسه ، وقال له: تشتم محمَّداً وأنا على دينه! فَرُدَّ ذلك؛ إن استطعت.

إنَّها ظاهرةٌ فذَّةٌ أن تقوم الجاهليَّة بحماية مَنْ يسبُّ الهتها ، ويعيب دينها ، ويسفِّه أحلامها ، وباسم هذه القيم يقدِّمون المهج والأرواح ، ويخوضون المعارك والحروب ، ولا يُمَسُّ محمَّدٌ (ص) بسوءٍ.

ولما خشي أبو طالب دَهماءَ العرب أن يركبوه مع قومه ، قال قصيدته التي تعوَّذ فيها بحرمة مكَّة ، وبمكانه منها ، وتودَّد فيها أشراف قومه ، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره ، أنَّه

غيرُ مُسْلِمٍ رسولَ الله (ص) ، ولا تاركه لشيءٍ أبداً حتَّى يهلك دونه؛ فقال:

ولما رأيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ فِيْهِمُوقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَى والوَسَائِلِ

وقَدْ صارَحُونَا بالعَداوَةِ والأَذَىوقَدْ طاوَعُوا أَمْرَ العَدُوِّ المزايِلِ

وقد حالفوا قوماً عَلَيْنَا أَظِنَّةًيَعضُّون غيظاً خَلْفَنا بالأنامِلِ

صَبَرْتُ لهمْ نَفْسِي بِحَمْرَاءَ[(٥٣٣)] سَمْحةٍوأَبْيَضَ عَضْبٍ[(٥٣٤)] مِنْ تُرَاثِ المقَاوِلِ

وأحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وإِخْوَتِيوأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِه بالوَصَائلِ[(٥٣٥)]

وتعوَّذ بالبيت ، وبكلِّ المقدَّسات الَّتي فيه ، وأقسم بالبيت بأنَّه لن يُسْلِمَ محمَّداً ولو سالت الدِّماء أنهاراً ، واشتدَّت المعارك مع بطون قريشٍ:

كَذَبْتُمْ وبَيْتِ الله نُبْزَى مُحَمَّداًولما نُطَاعِنْ دُوْنَهُ ونُنَاضِلِ

ونُسْلِمه حتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَهُ[(٥٣٦)]ونُذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا والحَلائِلِ[(٥٣٧)]

ويَنْهضُ قَوْمٌ في الحَدِيْدِ إِلَيْكُمُنُهُوْضَ الرَّوَايا[(٥٣٨)] تَحْتَ ذَاتِ الصَّلاصِلِ

وقرَّع زعماءَ بني عبد منافٍ بأسمائهم لخذلانهم إيَّاه ، فلعتبة بن ربيعة يقول:

فَعُتْبَةُ لاَ تَسْمَعْ بِنَا قَوْلَ كَاشِحٍحَسُوْدٍ كَذُوبٍ مُبْغِضٍ ذِيْ دَغاوِلِ[(٥٣٩)]

ولأبي سفيان بن حربٍ يقول:

ومَرَّ أَبُو سُفْيَانَ عَنِّيَ مُعْرِضاًكَمَا مرَّ قَيْلٌ[(٥٤٠)] مِنْ عِظَامِ المقَاوِلِ

يَفِرُّ إلى نَجْدٍ وَبَرْدِ مِيَاهِهِويَزْعُمُ أَنِّيَ لَسْتُ عَنْكُمْ بِغَافِلِ[(٥٤١)]

وللمُطْعم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل يقول:

أَمُطعِمُ لَمْ أَخْذُلْكَ في يَوْمِ نَجْدَةٍوَلاَ مُعْظِمٍ عِنْدَ الأُمُوْرِ الجَلائِلِ

أَمُطْعِمُ إنَّ الْقَوْمَ سَامُوْكَ خُطَّةًوإِنِّي مَتَى أُوكَلَ فَلَسْتُ بِوائلِ[(٥٤٢)]

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ ونَوْفَلاًعُقُوبَةَ شرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ اجلِ[(٥٤٣)]

لقد كان كسب النَّبيِّ (ص) لعمِّه ، وجذبه إلى صفِّه للدِّفاع عنه ، نصراً عظيماً ، وقد استفاد (ص) من العُرْف القبليِّ ، فتمتَّع بحماية العشيرة ، ومُنِع من أيِّ اعتداء يقع عليه ، وأعطي حرِّيَّة التَّحرُّك والتَّفكير ، وهذا يدلُّ على فهم النَّبيِّ (ص) للواقع الَّذي يتحرَّك فيه ، وفي ذلك درسٌ بالغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى للتَّعامل مع بيئتهم ، ومجتمعاتهم ، والاستفادة من القوانين ، والأعراف ، والتقاليد لخدمة دين الله.

ثانياً: محاولة تشويه دعوة الرَّسول (ص):

قام مشركو مكَّة بتشويه دعوة الرَّسول (ص) ، ولذلك نظَّمت قريش حرباً إعلاميَّةً ضدَّه لتشويهه ، قادها الوليد بن المغيرة؛ حيث اجتمع مع نفر من قومه ، وكان ذا سنٍّ فيهم ، وقد حضر موسم الحجِّ ، فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا ، فيُكذِّب بعضكم بعضاً ، ويردُّ قولكم بعضُه بعضاً.

ـ فقالوا: فأنت أبا عبد شمس! فقلْ ، وأقِمْ لنا رأياً نقول به.

ـ قال: بل أنتم فقولوا أسمع.

ـ فقالوا: نقول: كاهنٌ.

ـ فقال: ما هو بكاهن، لقد رأيت الكُهَّانَ، فما هو بزمزمة[(٥٤٤)] الكاهن، ولا سَجْعه.

ـ فقالوا: نقول: مجنونٌ.

ـ فقال: ما هو بمجنونٍ ، لقد رأينا الجنونَ ، وعرفناه ، فما هو بخَنْقِه ، ولا تَخالُجِه ، ولا وَسْوَسَتِه.

ـ فقالوا: نقول: شاعرٌ.

ـ فقال: ما هو بشاعرٍ ، قد عرفنا الشِّعر برجزه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشِّعر.

ـ قالوا: فنقول ساحرٌ.

ـ قال: ما هو ساحر ، لقد رأينا السُّحَّار ، فما هو بِنَفْثِهِمْ ، ولا عَقْدِهِمْ.

ـ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟!

ـ قال: والله! إنَّ لقوله لحلاوةً ، وإن أصله لعَذقٌ[(٥٤٥)] ، وإن فرعه لجَنَاةٌ[(٥٤٦)] ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنَّه باطلٌ ، وإن أقرب القول لأن تقولوا: ساحرٌ ، فقولوا: ساحرٌ يفرِّق بين المرء وبين أبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته[(٥٤٧)].

وأنزل الله تعالى في الوليد: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا *وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا *[(٥٤٨)] وَبَنِينَ شُهُودًا *وَمَهَّدْتُّ لَهُ تَمْهِيدًا *ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ *كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا *سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * سَأُرْهِقُهُ

صَعُودًا[(٥٤٩)] *إِنَّهُ فَكَّرَ وقَدَّرَ *فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ *ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ[(٥٥٠)] *ثُمَّ نَظَرَ *ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ[(٥٥١)] *ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ *فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ[(٥٥٢)] *إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ *سَأُصْلِيهِ سَقَرَ *} [المدثر: ١١ ـ ٢٦] .

ويتَّضح من هذه القصَّة: أنَّ الحرب النَّفسيَّة المضادَّة للرَّسول (ص) لم تكن توجَّه اعتباطاً ، وإنَّما كانت تعدُّ بإحكام ودقَّةٍ بين زعماء الكفَّار ، وحسب قواعد معيَّنةٍ ، هي أساس القواعد المعمول بها في تخطيط الحرب النَّفسيَّة في العصر الحديث؛ كاختيار الوقت المناسب ، فهم يختارون وقت تجمُّع النَّاس في موسم الحج ، والاتِّفاق وعدم التَّناقض ، وغير ذلك من هذه الأسُس حتَّى تكون حملتهم منظَّمةً ، وبالتَّالي لها تأثيرٌ على وفود الحجيج ، فتؤتي ثمارها المرجوَّة منها ، ومع اختيارهم للزَّمان المناسب ، فقد اختاروا أيضاً مكاناً مناسباً حتَّى تصل جميع الوفود القادمة إلى مكَّة[(٥٥٢)].

ويتَّضح من هذا الخبر ، عظمة النَّبيِّ (ص) وقوَّته في التَّأثير بالقران على سامعيه ، فالوليد بن المغيرة كبير قريش ومن أكبر ساداتهم ، ومع ما يحصل عادة للكبراء من التكبُّر ، والتَّعاظم ، فإنَّه قد تأثَّر بالقران ، ورقَّ له ، واعترف بعظمته ، ووصفه بذلك الوصف البليغ[(٥٥٣)] ، وهو في حالة استجابة لنداء العقل ، ولم تستطع تلك الحرب الإعلاميَّة المنظَّمة أن تحاصر دعوة

رسول الله (ص) ؛ بل استطاع محمَّد (ص) أن يخترق حصار الأعداء ، الَّذين لم يكتفوا بتنفير ساكني مكَّة من رسول الله (ص) ، وتشويه سمعته عندهم؛ بل صاروا يتلقَّون الوافدين إليهم ليسمِّموا أفكارهم ، وليحولوا بينهم وبين سماع كلامه ، والتأثُّر بدعوته ، فقد كان رسولُ الله (ص) عظيمَ النَّجاح في دعوته ، بليغاً في التأثير فيمن خاطبه ، حيث يؤثِّر على من جالسه بهيئته ، وسَمْتِه ، ووقاره قبل أن يتكلَّم ، ثمَّ إذا تحدَّث أسَرَ سامعيه بمنطقه البليغ ، المتمثِّل في العقل السَّليم ، والعاطفة الجيَّاشة بالحبِّ والصَّفاء ، والنِّيَّة الخالصة في هداية الأمَّة بوحي الله تعالى[(٥٥٤)]. ومن أبرز الأمثلة على قوَّته في التأثير بالكلمة المعبِّرة ، والأخلاق الكريمة ، وقدرته على اختراق الجدار الحديديِّ ، الَّذي حاول زعماء مكَّة ضربه عليه ، ما كان من موقفه مع ضماد الأزديِّ ، وعمرو بن الطُّفيل الدَّوسيِّ ، وأبي ذرٍّ ، وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم ، وهَاكَ التفصيلَ:

١ ـ إسلام ضِماد الأزديِّ رضي الله عنه:

وفَدَ ضِمادُ الأزديُّ إلى مكَّة ، وتأثَّر بدعاوى المشركين على رسول الله (ص) ، حتَّى استقرَّ في نفسه: أنَّه مصاب بالجنون . كما يتَّهمه بذلك زعماء مكَّة . وكان ضماد من أزد شنوءة ، وكان يعالِجُ من الجنون ،

فلمَّا سمع سفهاء مكَّة يقولون: إنَّ محمَّداً (ص) مجنونٌ ، فقال: لو أني رأيت هذا الرَّجل لعلَّ الله يشفيه على يديَّ.

قال: فلقيه ، فقال: يا محمد! إنِّي أرقي من هذه الرِّيح ، وإنَّ الله يشفي على يديَّ من شاء؛ فهل لك؟ فقال رسول الله (ص) : «إنَّ الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنَّ محمَّداً عبده ، ورسوله ، أما بعدُ».

فقال: أعِدْ عليَّ كلماتِك هؤلاء ! فأعادهنَّ عليه رسول الله (ص) ثلاث مرَّاتٍ. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السَّحرة ، وقول الشُّعراء ، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء ، ولقد بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ[(٥٥٥)] ، فقال لرسول الله (ص) : هات يدك أبايعْك على الإسلام ، قال: فبايعه ، فقال رسول الله (ص) : «وعلى قومك» قال: وعلى قومي.

وعندما قامت دولة الإسلام في المدينة ، وكانت سرايا رسولِ الله تُبعث؛ مرُّوا على قوم ضماد ، فقال صاحب السَّريَّة للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مِطْهَرَةً ، فقال: ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء قومُ ضمادٍ. [مسلم (٨٦٨) وأحمد (٣٠٢/١) والنسائي (٨٩/٦ ـ ٩٠) وابن ماجه (١٨٩٣)] .

دروسٌ وفوائد:

١ ـ دعاية قريش ، وتشويه شخص الرَّسول (ص) ، واتِّهامه بالجنون؛ حمل ضماداً على السَّير للرَّسول (ص) من أجل رقيته ، فكانت الحرب الإعلاميَّة المكيَّة ضدَّ الرَّسول (ص) سبباً في إسلامه ، وإسلام قومه.

٢ ـ تتَّضح صفتا الصَّبر والحلم في شخص النَّبيِّ (ص) ، فقد عرض ضماد على رسول الله (ص) ، معالجته من مرض الجنون ، وهذا موقفٌ يثير الغضب ، ولكنَّ رسول الله (ص) استقبل الأمر بحلمٍ ، وهدوءٍ ، ممَّا أثار إعجاب ضمادٍ واحترامه لرسول الله (ص) .

٣ ـ أهمِّية هذه المقدِّمة الَّتي يستفتح بها رسول الله (ص) بعض خطبه ، فقد اشتملت على تعظيم الله وتمجيده ، وصرف العبادة له سبحانه؛ ولذلك كان رسول الله (ص) كثيراً ما يجعلها بين يدي خطبه ، ومواعظه.

٤ ـ تأثَّر ضماد بفصاحة الرَّسول (ص) ، وقوَّة بيانه؛ لأنَّ حديث الرَّسول (ص) انبعث من قلب مُلأى إيماناً ، ويقيناً ، وحكمةً ، فأصبح حديثه يصل إلى القلوب ، ويجذبها إلى الإيمان.

٥ . في سرعة إسلام ضماد دليلٌ على أنَّ الإسلام دين الفطرة ، وأنَّ النفوس إذا تجرَّدت من الضُّغوط الدَّاخليَّة والخارجيَّة؛ فإنَّها غالباً تتأثَّر وتستجيب ، إمَّا بسماع قول مؤثِّرٍ ، أو الإعجاب بسلوكٍ قويم.

٦ . حرص الرَّسول على انتشار دعوته؛ حيث رأى في ضماد صدق إيمانه ، وحماسته للإسلام ، وقوَّة اقتناعه به ، فدفعه ذلك إلى أخذ البيعة منه لقومه.

٧ . وفي هذا بيانٌ واضح لأهمِّيَّة الدَّعوة إلى الله تعالى؛ حيث جعلها النَّبيُّ (ص) قرينة الالتزام الشَّخصيِّ ، فقد بايع رسول الله (ص) على الالتزام بالدِّين ، فلم يكتف رسولُ الله (ص) بذلك؛ بل أخذ منه البيعة على دعوة قومه إلى الإسلام.

٨ . حفظ المعروف والودّ لأهل السَّابقة ، والفضل: «ردُّوها؛ فإنَّ هؤلاء من قوم ضماد»[(٥٥٦)].

٩ . في الحديث بعض الوسائل التَّربويَّة التي استعملها النَّبيُّ (ص) مع ضماد ، كالتأنِّي في الحديث ، وأسلوب الحوار ، والتَّوجيه المباشر ، وتظهر بعض الصِّفات في شخصية رسول الله (ص) كمربٍّ؛ كالحلم ، والصبر ، والتَّشجيع على الإكثار من الخيرات.

٢ . إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه:

قال عَمْرُو بن عَبَسَةَ السُّلَمِيُّ: كنتُ وأنا في الجاهلية أَظُنُّ أنَّ النَّاس على ضلالةٍ ، وأنَّهم ليسوا على شيءٍ؛ وهم يعبدون الأوثان ، فسمعتُ برجلٍ بمكَّةَ يُخْبِرُ أخباراً ، فقعدت على راحلتي ، فقدمت عليه ، فإذا رسولُ الله (ص) مستخفياً ، جُرَاءُ عليه قومُه ، فَتَلَطَّفْتُ حتَّى دخلت عليه بمكَّة ، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أنا نبيٌّ» فقلت: وما نبيٌّ؟ قال: «أرسلني الله» ، فقلت: وبأي شيءٍ أرسلك؟ قال: «أرسلني بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان ، وأن يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ به شيءٌ» فقلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حرٌّ ، وعبدٌ» قال: ومعه يومئذ أبو بكر ، وبلالٌ ممَّن امن به ، فقلت: إني مُتَّبِعُكَ. قال: «إنك لا تستطيع ذلك يومَك هذا ، ألا ترى حالي وحالَ النَّاس؟ ولكن ارجعْ إلى أهلك ، فإذا سمعتَ بي قد ظَهَرْتُ فائتني».

قال: فذهبت إلى أهلي ، وقدم رسول الله (ص) المدينة ، وكنت في أهلي ، فجعلتُ أتخَبَّرُ الأخبارُ ، وأسأل النَّاس حين قدم المدينة ، حتَّى قدم عليَّ نفرٌ من أهل يثرب من أهل المدينة ، فقلت: ما فعل هذا الرَّجلُ الَّذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناسُ إليه سِراعٌ ، وقد أراد قومُه قتله ، فلم يستطيعوا ذلك ، فقدمت المدينة ، فدخلت عليه ، فقلت: يا رسول الله! أتعرفني؟ قال: «نعم ، أنت الَّذي لقيتني بمكَّة».

وذكر بقيَّة الحديث ، وفيه: أنَّه سأله عن الصَّلاة ، والوضوء. [مسلم (٨٣٢) وأحمد (١١٢/٤) وأبو داود (١٢٧٧) والنسائي (٢٧٩/١ ـ ٢٨٠) وابن ماجه (١٢٥١)] .

دروس وعبر:

١ ـ عَمْرُو بنُ عَبَسَة كان من الحنفاء المنكرين لعبادة غير الله تعالى في الجاهليَّة.

٢ ـ كانت الحروب الإعلاميَّة الضَّروس الَّتي شنَّتها قريشٌ على رسول الله (ص) سبباً في تتبُّع عمرو بن عبسة لأخبار الرَّسول (ص) .

٣ ـ جرأة ، وشدَّة قريش على رسول الله (ص) ، فقد وجده عمرو بن عبسة مستخفياً وقومه جُرَاءُ عليه.

٤ ـ الأدب في الدُّخول على أهل الفضل والمنزلة ، قال عمرو بن عبسة: «فتلطَّفت حتَّى دخلت عليه».

٥ ـ الرِّسالة المحمَّدية تقوم على ركيزتين: حقِّ الله ، وحقِّ الخلق. قال (ص) : «أرسلني بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان» وفي هذا دليلٌ على أهمِّيَّة صلة الأرحام؛ حيث كان هذا الخلق العظيم من أوليات دعوة الإسلام ، مع اقترانه بالدَّعوة إلى التَّوحيد ، وقد ظهر في هذا البيان الهجوم على الأوثان بقوَّة ، مع أنَّها كانت أقدس شيءٍ عند العرب ، وفي هذا دلالةٌ على أهمِّيَّة إزالة معالم
الجاهليَّة ، وأنَّ دعوة التَّوحيد لا تستقرُّ ولا تنتشر ، إلا بزوال هذه المعالم.

٦ ـ وفي اهتمام النَّبيِّ (ص) المبكِّر بإزالة الأوثان مع عدم قدرته على تنفيذ ذلك في ذلك الوقت دلالةٌ على أنَّ أمور الدِّين لا يجوز تأخير بيانها للنَّاس ، بحجَّة عدم القدرة على تطبيقها ، فالَّذين يبيِّنون للنَّاس من أمور الدِّين ما يستطيعون تطبيقه بسهولةٍ ، وأمن ، ويحجمون عن بيان أمور الدِّين الَّتي يحتاج تطبيقها إلى شيءٍ من المواجهة والجهاد هؤلاء دعوتهم ناقصةٌ ، ولم يقتدوا برسول الله (ص) الذي واجه الجاهليَّة وطغاتها وهو في قلَّةٍ من أنصاره ، والسِّيادة في بلده لأعدائه[(٥٥٧)].

٧ ـ حِرْصُ الرَّسول (ص) على صحابته ، وتوفير الجوِّ الامن لهم ، والسَّير بهم إلى برِّ الأمان ، وإبعادهم عن التَّعرُّض للمضايقات ، فقد قال لعَمْرِو بنِ عَبَسَةَ: «إنك لا تستطيع يومك هذا».

٨ ـ تذكُّر رسول الله (ص) لأحوال أصحابه ، وعدم نسيان مواقفهم ، قال: «أنت الذي لقيتني بمكَّة».

٩ ـ لم يكن رسول الله (ص) يعطي كلَّ مَنْ أسلم قائمةً بأسماء أتباعه ، فهذا ليس للسَّائل منه مصلحةٌ ، ولا يتعلَّق به بلاغ ، ولذلك لما سأله عمرو بن عبسة عمَّن تبعه؛ قال: «حرٌّ ، وعبدٌ» وهذه تورية ـ كما قال ابن كثير ـ بأن هذا اسم جنس فَهِمَ منه عمرو: أنَّه اسم عين[(٥٥٨)].

١٠ ـ في قوله: «ارجع إلى أهلك ، فإذا سمعتَ بي ظَهَرْتُ؛ فائتني» ، نأخذ منه درساً في الدَّعوة: أنَّ تكديس المريدين ، والأعضاء حيث المحنة ، والإيذاء ، ليس هو الأصل؛ فهذا رسول الله (ص) يوجِّه نحو الرُّجوع إلى الأقوام ، وأمر ـ كما سنرى ـ بالهجرتين إلى الحبشة ، فذلك تخفيفٌ عن المسلمين ، وإبعادٌ عن مواطن الخطر ، وسترٌ لقوَّة المسلمين ، وإعطاء فرصةٍ للقائد حتَّى لا ينشغل ، وضمانٌ للسِّرِّيَّة ، وإفادةٌ للمكان المرسل إليه، وإعدادٌ للمستقبل، وملاحظةٌ لضمان الاستمرار ، وتجنُّب الاستئصال[(٥٥٩)].

وممَّن أسلم بسبب الحرب الإعلاميَّة ضدَّ الرَّسول (ص) ، الطفيل بن عمرو الدَّوْسِيُّ ، وجاءت قصَّته مفصَّلةً في كتب السِّيرة ، ويرى الدُّكتور أكرم ضياء العمري: أنَّه لم يثبت منها إلا أنَّه دعا رسولَ الله (ص) للالتجاء إلى حصن دوسٍ المنيع ، فأبى رسول الله (ص) ذلك [مسلم (١١٦) وأحمد (٣/٣٧١)] ، وأشارت روايةٌ صحيحةٌ إلى أنَّ الطُّفيل دعا قومه إلى الإسلام ، ولقي منهم صدوداً ، حتَّى طلب الطُّفيل من رسول الله (ص) أن يدعو عليهم ، لكن رسول الله (ص) دعا لهم
بالهداية [البخاري (٢٩٣٧) ومسلم (٢٥٢٤)] وكان الرسول (ص) انئذٍ بالمدينة المنوَّرة[(٥٦٠)]..

٣ ـ إسلام الحصين والد عمران رضي الله عنهما:

جاءت قريش إلى الحصين ـ وكانت تعظِّمه ـ فقالوا له: كَلِّمْ لنا هذا الرَّجل ، فإنَّه يذكر الهتنا ، ويسبُّها ، فجاؤوا معه حتَّى جلسوا قريباً من باب النَّبيِّ (ص) ، فقال: «أوسعوا للشَّيخ» ، وعمران وأصحابه متوافرون ، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك ، أنك تشتم الهتنا ، وتذكرها ، وقد كان أبوك حصينةً[(٥٦١)] ، وخيراً؟ فقال: «يا حُصَيْنُ! إنَّ أبي وأباك في النَّار ، يا حُصَيْنُ! كم تعبد من إله؟» قال: سبعاً في الأرض ، وواحداً في السَّماء. فقال: «فإذا أصابك الضرُّ مَنْ تدعو؟» قال: الَّذي في السَّماء. قال: «فإذا هلك المال مَنْ تدعو؟» قال: الَّذي في السَّماء ، قال: «فيستجيب لك وحده ، وتشركهم معه؟ أرضيته في الشُّكر أم تخاف أن يغلب عليك؟» قال: ولا واحدةً من هاتين. قال: وعلمت أنِّي لم أكلم مثله ، قال: «يا حصين! أسلمْ تسلمْ». قال: إنَّ لي قوماً ، وعشيرةً ، فماذا أقول؟ قال: «قل: اللَّهم أستهديك لأرشد أمري ، وزدني علماً ينفعني» ، فقالها حصين ، فلم يَقُمْ؛ حتَّى أسلم. فقام إليه عِمْرانُ فقبَّل رأسه ، ويديه ، ورجليه ، فلمَّا رأى ذلك النَّبيُّ (ص) ؛ بكى ، وقال: «بكيت من صنيع عمران ، دخل حصين وهو كافر ، فلم يقم إليه عمران ، ولم يلتفت ناحيته ، فلمَّا أسلم قضى حقَّه ، فدخلني من ذلك الرِّقَّة» ، فلمَّا أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: «قوموا فشيِّعوه إلى منزله» فلمَّا خرج من سُدَّةِ الباب؛ رأته قريشٌ ، فقالوا: صبأ!! وتفرَّقوا عنه»[(٥٦٢)].

ولعلَّ الَّذي حدا بالحصين والد عمران أن يسلم بهذه السُّرعة سلامة فطرته ، وحسن استعداده من ناحيةٍ ، وقوَّة حجَّة الرَّسول (ص) وسلامة منطقه من ناحية أخرى[(٥٦٣)] ، ونلاحظ: أنَّ رسول الله (ص) استخدم أسلوب الحوار مع الحصين؛ لغرس معاني التوحيد في نفسه ، ونسف العقائد الباطلة الَّتي كان يعتقدها.

٤ ـ إسلام أبي ذرٍّ رضي الله عنه:

كان أبو ذرٍّ رضي الله عنه مُنْكِراً لحال الجاهليَّة ، ويأبى عبادة الأصنام ، وينكر على مَنْ يشرك بالله ، وكان يصلِّي لله قبل إسلامه بثلاث سنوات ، دون أن يخصَّ قبلة بعينها بالتوجُّه ، ويظهر أنَّه

كان على نهج الأحناف ، ولما سمع بالنَّبيِّ (ص) قدم إلى مكَّة ، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه اللَّيل ، فاضطجع فراه عليٌّ رضي الله عنه ، فعرف: أنَّه غريب ، فاستضافه ، ولم يسأله عن شيءٍ ، ثمَّ غادره صباحاً إلى المسجد الحرام ، فمكث حتَّى أمسى ، فراه عليٌّ فاستضافه لِلَيلة ثانية ، وحدث مثل ذلك في اللَّيلة الثَّالثة ، ثمَّ سأله عن سبب قدومه ، فلمَّا استوثق منه أبو ذرٍّ؛ أخبره بأنَّه يريد مقابلة الرَّسول (ص) ، فقال له عليٌّ: فإنَّه حقٌّ ، وهو رسول الله ، فإذا أصبحت؛ فاتَّبعْني ، فإنِّي إن رأيتُ شيئاً أخاف عليك؛ قمت كأنِّي أريق الماء ، فإن مضيت ، فاتَّبعني، فتبعه ، وقابل الرَّسول (ص) ، واستمع إلى قوله فأسلم ، فقال له النَّبيُّ (ص) : «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتَّى يأتيك أمري» ، فقال: والَّذي نفسي بيده ، لأصرخنَّ بها بين ظَهْرَانيْهم ، فخرج حتَّى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، وثار القوم حتَّى أضجعوه ، فأتى العبَّاس بن عبد المطَّلب ، فحذَّرهم من انتقام غفار ، والتَّعرُّض لتجارتهم الَّتي تمرُّ بديارهم إلى الشَّام ، فأنقذه منهم[(٥٦٤)] ، وكان أبو ذرٍّ قبل مجيئه قد أرسل أخاه؛ ليعلم له علم النَّبيِّ (ص) ويسمع من قوله ، ثمَّ يأتيه ، فانطلق الأخ حتَّى قدم إليه ، وسمع من قوله ، ثمَّ رجع إلى أبي ذرٍّ فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشِّعر ، فقال: ما شفيتني[(٥٦٥)] ممَّا أردت[(٥٦٦)] ، وعزم على الذَّهاب بنفسه لرسول الله (ص) ، فقال أخوه له: «وكُن على حذرٍ من أهل مكَّة فإنَّهم قد شَنِفُوا له ، وتجهَّمُوا» [البخاري (٣٨٦١) ومسلم (٢٤٧٤)][(٥٦٧)] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ شيوع ذكر رسول الله (ص) بين القبائل ، واكثر مَنْ ساهم في ذلك مشركو قريش ، بما اتَّخذوه من منهج التَّحذير والتَّشويه لرسول الله (ص) ، ولما جاء به ، حتَّى وصل ذكره قبيلة غِفار.

٢ ـ تميُّزُ أبي ذرٍ رضي الله عنه بأنَّه رجلٌ مستقلٌ في رأيه، لا تؤثر عليه الإشاعات ، ولا تستفزُّه الدِّعايات ، فيقبل كل ما تنشره قريش ، ولذلك أرسل أخاه يستوثق له من خبر رسول الله (ص) ، بعيداً عن التَّأثيرات الإعلاميَّة.

٣ ـ شدَّة اهتمام أبي ذرٍ بأمر الرَّسول (ص) ، فلم يكتف بالمعلومات العامَّة التِّي جاء بها أخوه أُنيس ، بل أراد أن يقف على الحقيقة بعينها؛ حيث إنَّ مجال البحث ليس عن رجلٍ يأمر بالخير فحسب؛ وإنما عن رجلٍ يَذكر أنَّه نبيٌّ؛ ولذلك تحمَّل المشاقَّ، والمتاعب، وشظف العيش،

والغربة عن الأهل ، والوطن في سبيل الحقِ ، فأبو ذرٍ ترك أهله، واكتفى من الزاد بجرابٍ ، وارتحل إلى مكَّة لمعرفة أمر النُّبوَّة[(٥٦٨)].

٤ ـ التَّأنِيّ والتَّريُّث في الحصول على المعلومة؛ حيث تأنَّى أبو ذرٍ رضي الله عنه؛ لما يعرفه من كراهية قريشٍ لكلِّ مَنْ يخاطب الرَّسول (ص) ، وهذا التَّأنِيّ تصرُّفٌ أمنيٌّ تقتضيه حساسية الموقف ، فلو سأل عنه؛ لعلمت به قريش ، وبالتَّالي قد يتعرَّض للأذى والطَّرد ، ويخسر الوصول إلى هدفه ، الَّذي من أجله ترك مضارب قومه ، وتحمَّل في سبيله مصاعب ، ومشاقَّ السَّفر.

٥ ـ الاحتياط والحذر قبل النُّطق بالمعلومة: حين سأل عليٌّ رضي الله عنه أبا ذرٍ رضي الله عنه عن أمره ، وسبب مجيئه إلى مكَّة ، لم يخبره بالرَّغم من أنَّه استضافه ثلاثة أيَّامٍ؛ إمعاناً في الحذر ، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه ، وفي الوقت ذاته أن يرشده ، فهذا غايةٌ في الاحتياط ، وتمَّ ما أراده.

٦ ـ التَّغطية الأمنيَّة للتَّحرُّك: تمَّ الاتفاق بين عليٍّ وأبي ذرٍ رضي الله عنه على إشارةٍ ، أو حركةٍ معيَّنةٍ ، كأنَّه يصلح نعله ، أو كأنه يريق الماء ، وذلك عندما يرى عليٌّ رضي الله عنه من يترصدهما ، أو يراقبهما ، فهذه تغطيةٌ أمنيةٌ لتحرُّكهم تجاه المقرِ (دار الأرقم) ، هذا إلى جانب أنَّ أبا ذرٍ كان يسير على مسافةٍ من عليٍّ ، فيُعدُّ هذا الموقف احتياطاً ، وتحسُّباً لكلِّ طارأى ، قد يحدث في أثناء التَّحرُّك.

٧ ـ هذه الإشارات الأمنيَّة العابرة ، تدلُّ على تفوُّق الصَّحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنيَّة ، وعلى مدى توافر الحسِ الأمنيّ لديهم ، وتغلغله في نفوسهم ، حتَّى أصبح سمةً مميّزةً لكلِّ تصرُّفٍ من تصرُّفاتهم الخاصَّة والعامَّة ، فأتت تحرُّكاتهم منظَّمةً ومدروسةً ، فما أحوجنا لمثل هذا الحسِ ، الَّذي كان عند الصَّحابة ، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمِّيةٌ بالغةٌ في زوال واستمرار الحضارات[(٥٦٩)] ، وأصبحت له مدارسه الخاصَّة ، وتقنياته المتقدِمة ، وأساليبه ، ووسائله المتطوِّرة ، وأجهزته المستقلَّة، وميزانياته ذات

الأرقام الكبيرة ، وأضحت المعلومات عامَّةً، والمعلومات الأمنيَّة خاصَّةً تباع بأغلى الأثمان ، ويُضَحَّى في سبيل الحصول عليها بالنَّفس إذا لزم الأمر!.

وما دام الأمر كذلك ، فعلى المسلمين الاهتمام بالنَّاحية الأمنية؛ حتَّى لا تصبح قضايانا مستباحةً للأعداء ، وأسرارنا في متناول أيديهم[(٥٧٠)].

٨ . صدق أبي ذرٍّ رضي الله عنه في البحث عن الحقِّ ، ورجاحة عقله ، وقوَّة فهمه ، فقد أسلم بعد عرض الإسلام عليه.

٩ . حرص رسول الله (ص) واهتمامه بأمن أصحابه ، وسلامتهم؛ حيث أمر أبا ذرٍّ بالرُّجوع إلى أهله ، وكتمان أمره حتَّى يظهره الله.

١٠ . شجاعة أبي ذرٍّ رضي الله عنه ، وقوَّته في الحقِّ فقد جهر بإسلامه في نوادي قريش ، ومجتمعاتهم ، تحدِّياً لهم وإظهاراً للحقِّ[(٥٧١)] ، وكأنَّه فهم: أنَّ أمر النَّبيِّ (ص) له بالكتمان ، ليس على الإيجاب؛ بل على سبيل الشَّفقة عليه ، فأعلمه بأنَّ به قوَّةً على ذلك؛ ولهذا أقرَّه النَّبيُّ (ص) على ذلك ، ويؤخذ منه جواز قول الحقِّ عند من يخشى منه الأذيَّة لمن قاله . وإن كان السُّكوت جائزاً . والتَّحقيق: أنَّ ذلك مختلفٌ باختلاف الأحوال والمقاصد ، وبحسب ذلك يترتَّب وجود الأجر ، وعدمه[(٥٧٢)].

١١ .كان موقف أبي ذرٍّ رضي الله عنه مفيداً للدَّعوة ، ومساهماً في مقاومة الحرب النَّفسيَّة الَّتي شنَّتها قريشٌ ضدَّ الرَّسول (ص) ، وكانت ضربةً معنويَّةً أصابت كفار مكَّة في الصَّميم ، بسبب شجاعة ورجولة أبي ذرٍّ رضي الله عنه وقدرته على التحمُّل ، فقد سالت الدِّماء من جسده ، ثمَّ عاد مرَّةً أخرى للصَّدع بالشَّهادة.

١٢ . مدافعة العبَّاس عن المسلمين ، وسعيه لتخليص أبي ذرٍّ من أذى قريش ، دليلٌ على تعاطفه مع المسلمين ، وكان أسلوبه في ردِّ الاعتداء يدلُّ على خبرته بنفوس كفار مكَّة؛ حيث حذَّرهم من الأخطار التي ستواجهها تجارتهم ، عندما تمرُّ بديار غِفار[(٥٧٣)].

١٣ . امتثل أبو ذرٍّ للترتيبات الأمنيَّة ، الَّتي اتَّخذها رسول الله (ص) في مكَّة ، فمع تعلُّق أبي ذرٍّ بالرَّسول (ص) ، وحبِّه له ، وحرصه على لقائه ، إلا أنَّه امتثل أمر رسول الله (ص) في مغادرة مكَّة إلى قومه ، واهتمَّ بصلاح ، وهداية الأهل ، ودعوتهم للإسلام ، فبدأ بأخيه ، وأمِّه وقومه.

١٤ ـ أثرُ أبي ذرٍّ الدَّعويُّ على قومه وقدرته على هدايتهم ، وإقناعهم بالإسلام ، ومع ذلك فإنَّه لا يصلح للإمارة ، روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي ذرٍّ ، قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على مَنْكِبي ، ثمَّ قال: «يا أبا ذر! إنَّك ضعيف ، وإنَّها أمانةٌ ،

وإنَّها يوم القيامة خزيٌ وندامةٌ ، إلا من أخذها بحقِّها ، وأدَّى الَّذي عليه فيها» [مسلم (١٨٢٥) وأحمد (١٧٣/٥ ، ٢٦٧)] ، فلكلِّ شخصٍ مجاله الَّذي سخَّره الله فيه ، وميدانه الَّذي يقوم بواجبه فيه ، فليس معنى: أنَّه نجح في الدَّعوة ، وإقناع النَّاس: أنَّه يصلح لكلِّ شيءٍ.

١٥ ـ تفويض أبي ذرٍّ الإمامة إلى سيِّد غفار (أيماء بن رَحضة) ـ مع تقدُّم أبي ذرٍّ عليه في الإسلام وعلوِّ منزلته ـ يدلُّ على مهارةٍ إداريَّةٍ ، وهي عدم جمع كلِّ الأعمال في يده ، وتقدير النَّاس ، وإنزالهم منازلهم[(٥٧٤)].

١٦ ـ نجاح أبي ذرٍّ الباهر في الدَّعوة؛ حيث أسلمت نصف غفار ، وأسلم نصفها الثَّاني بعد الهجرة[(٥٧٥)].

لقد فشلت محاولات التَّشويه ، والحرب الإعلاميَّة ، والحجر الفكري الَّذي كان الكفار يمارسونه على الدَّعوة الإسلاميَّة في بداية عهدها؛ لأنَّ صوت رسول الله (ص) كان أقوى من أصواتهم ، ووسائله في التَّبليغ كانت أبلغ من وسائلهم ، وثباته على مبدئه السَّامي كان أعلى بكثيرٍ ممَّا كان يتوقَّعه أعداؤه؛ فالرَّسول (ص) لم يجلس في بيته ، ولم ينزوِ في زاويةٍ من زوايا المسجد الحرام؛ ليستخفي بدعوته ، وليقي نفسه من سهام أعدائه المسمومة؛ بل إنَّه غامر بنفسه (ص) ، فكان يخرج إلى مضارب العرب قبل أن يفدوا إلى مكَّة ، وكان يجهر بتلاوة القران في المسجد الحرام؛ ليسمع من كان في قلبه بقيَّة من حياةٍ ، وأثارةٍ من حرِّيَّةٍ وإباءٍ ، فيتسرَّب نور الهدى إلى مجامع لبِّه ، وسويداء قلبه[(٥٧٦)] ، وكان من هؤلاء ضماد الأزديُّ ، وعمْرُو بن عَبَسَةَ ، وأبو ذرٍّ الغفاري ، والطُّفيل بن عمرو الدَّوسي ، وحصين والد عمران بن الحصين رضي الله عنهم ، وهذا دليلٌ قاطعٌ ، وبرهانٌ ساطعٌ ، على فشل حملات التَّشويه الَّتي شنَّتها قريشٌ ضدَّ رسول الله (ص) ، فعلينا أن نعتبر ، ونستفيد من الدُّروس ، والعبر.

ثالثاً: ما تعرَّض له رسولُ الله (ص) من الأذى والتَّعذيب:

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله (ص) منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم ، وأظهره الله عليهم ، ويدلُّ على ذلك ـ مبلغ هذا الأذى ـ تلك الايات الكثيرة الَّتي كانت تتنزَّل عليه في هذه الفترة تأمره بالصَّبر ، وتدلُّه على وسائله ، وتنهاه عن الحزن ، وتضرب له أمثلةً من واقع إخوانه المرسلين؛ مثل

قوله تعالى: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً *} [المزمل: ١٠] ، و {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا *} [الإنسان: ٢٤] ، و {وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ *} [النمل: ٧٠] ، و {مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ *} [فصلت: ٤٣].

وهذه أمثلةٌ تدلُّ على ما تعرَّض له النَّبيُّ (ص) من الإيذاء:

١ ـ قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمدٌ وجهَه[(٥٧٧)] بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللاَّتِ والعُزَّى! لئن رأيتُهُ يفعل ذلك؛ لأطأنَّ على رقبته ، أو لأعفِّرَنَّ وجهه في التُّراب ، قال: فأتى رسول الله (ص) وهو يصلِّي ، زعم لِيَطَأَ على رقبته ، قال: فما فَجِئَهُمْ[(٥٧٨)] منه إلا وهو يَنْكُصُ على عقبيه[(٥٧٩)] ويتَّقي بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ ، وهَولاً ، وأجنحةً ، فقال رسول الله (ص) : «لو دنا مني؛ لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» [مسلم (٢٧٩٧)] .

وفي حديث ابن عباسٍ قال: «كان النَّبيُّ يُصلِّي ، فجاء أبو جهل ، فقال: ألم أنهك عن هذا؟! ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النَّبيُّ (ص) ، فزبره[(٥٨٠)] ، فقال أبو جهل: إنَّك لتعلم ما بها نادٍ أكثر منِّي ، فأنزل الله تعالى: {فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ *سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ *} [العلق: ١٧ ـ ١٨] قال ابن عباس: لو دعا ناديه؛ لأخذته زبانية الله» [الترمذي (٣٣٤٩)] .

٢ ـ وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه: «بينما رسول الله (ص) قائمٌ يُصلِّي عند الكعبة، وجمع قريشٍ في مجالسهم؛ إذ قال قائلٌ منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيُّكم يقوم إلى جزور ال فلان ، فيَعْمِدُ إلى فَرْثِها ، ودمها ، وسلاها ، فيجيءُ به ، ثمَّ يمهله حتَّى إذا سجد؛ وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم ، فلمَّا سجد رسول الله (ص) ؛ وضعه بين كتفيه ، وثبت النَّبيُّ (ص) ساجداً ، فضحكوا حتَّى مال بعضهم إلى بعضٍ من الضَّحك ، فانطلق مُنطلِقٌ إلى فاطمةَ عليها السَّلامُ ـ وهي جُوَيرِيةٌ ـ فأقبلت تسعى ، وثبت النَّبيُّ (ص) ساجداً حتى ألقته عنه ، وأقبلت عليهم تسبُّهم ، فلمَّا قضى رسولُ الله (ص) الصَّلاة ، قال: اللَّهم عليك بقريش! اللَّهُمَّ عليك بقريش! اللَّهُمَّ عليك بقريش! ثمَّ سمَّى: اللَّهمَّ عليك بعمرو بن هشام ، وعُتبةَ بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأميَّة بن خلف ، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ ، وعُمارةَ بن الوليد ، قال ابن مسعودٍ: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدرٍ ، ثمَّ سحبوا إلى القَلِيب[(٥٨١)] ـ قليب بدرٍ ـ ثمَّ قال رسول الله (ص) : وأُتْبِعَ أصحابُ القَلِيبِ لعنةً» [البخاري (٥٢٠) ومسلم (١٧٩٤)] .

وقد بيَّنت الرِّوايات الصَّحيحة الأخرى: أنَّ الَّذي رمى الرَّفث عليه هو عقبة بن أبي مُعَيْطٍ ،

وأنَّ الَّذي حرَّضه هو أبو جهل [مسلم (١٧٩٤)] ، وأنَّ المشركين تأثَّروا بدعوة الرَّسول (ص) عليهم ، وشقَّ عليهم الأمر؛ لأنَّهم يرون أنَّ الدَّعوة بمكَّة مستجابةٌ[(٥٨٢)].

٣ ـ اجتماع الملأ من قريش وضربهم الرَّسول (ص) : اجتمع أشراف قريشٍ يوماً في الحجر ، فذكروا رسول الله (ص) فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرَّجل قطُّ؛ سفَّهَ أحلامنا ، وسبَّ الهتنا ، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم! فبينما هم في ذلك؛ إذ طلع عليهم رسولُ الله (ص) ، فوثبوا وثبة رجلٍ واحدٍ ، وأحاطوا به يقولون: أنت الَّذي تقول كذا وكذا ـ لما كان يقول من عيب الهتهم ودينهم ـ فيقول: «نعم ، أنا الذي أقول ذلك»، ثمَّ أخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه؛ فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه ، وهو يبكي ، ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربِّيَ الله؟! [البخاري (٣٦٨٧ و٣٨٥٦ و٤٨١٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٧٤)][(٥٨٣)].

٤ ـكان أبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ (ص) من أشدِّ النَّاس عداوةً له ، وكذلك كانت امرأته أمُّ جميلٍ ، من أشدِّ النَّاس عداوةً للنَّبيِّ (ص) ؛ فكانت تسعى بالإفساد بينه وبين النَّاس بالنَّميمة ، وتضع الشَّوك في طريقه ، والقذر على بابه ، فلا عجب أن ينزل فيهم قول الله تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ *مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ *سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ *وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ *فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ *} [المسد: ١ ـ ٥] ، فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القران؛ أتت رسول الله (ص) وهو جالسٌ عند الكعبة ، ومعه أبو بكر الصدِّيق ، وفي يدها فهرٌ من حجارةٍ؛ فلمَّا وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟ فقد بلغني أنَّه يهجوني ، والله لو وجدته؛ لضربت بهذا الفهر فاه! ثمَّ انصرفت؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله! أما تراها رأتك؟ فقال: لقد أخذ الله ببصرها عنِّي ، وكانت تنشد: مذمَّمٌ أبينا ، ودينه قلينا ، وأمره عصينا ، وكان رسول الله (ص) يفرح؛ لأن المشركين يسبُّون مذمَّماً يقول: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عنِّي شتم قريش ، ولعنهم ، يشتمون مذمَّماً ويلعنون مذمَّماً ، وأنا محمَّد» [البخاري (٣٥٣٣)].

وقد بلغ من أمر أبي لهبٍ أنَّه كان يتبع رسول الله (ص) في الأسواق ، والمجامع ، ومواسم الحج ويكذِّبه[(٥٨٤)].

هذا بعض ما لاقاه رسول الله (ص) من أذيَّة المشركين ، وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله (ص) بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكِّيَّة[(٥٨٥)] ، وكان رسول الله (ص) يذكر ما لاقاه من أذى قريشٍ قبل أن ينال الأذى أحداً من أتباعه ، يقول: «لقد أُخِفْتُ في الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما يُخاف

أحدٌ ، ولقد أُوذيت في الله وما يؤذى أحدٌ ، ولقد أتت عليَّ ثلاثون من بين يومٍ وليلة ، وما لي ، ولا لبلالٍ طعامٌ يأكله ذو كبدٍ إلا شيءٌ يواريه إبط بلال» [الترمذي (٢٤٧٢) وابن ماجه (١٥١)] .

ومع ما له (ص) من عظيم القدر ، ومنتهى الشَّرف ، إلا أنَّه قد حظي من البلاء بالحمل الثَّقيل ، والعناء الطَّويل ، منذ أوَّل يومٍ صدع فيه بالدَّعوة ، ولقد لقي النَّبيُّ (ص) من سفهاء قريش أذىً كثيراً ، فكان إذا مرَّ على مجالسهم بمكَّة استهزؤوا به ، وقالوا ساخرين: هذا ابن أبي كبشة[(٥٨٦)] ، يُكلَّم من السَّماء! وكان أحدهم يمرُّ على الرَّسول (ص) فيقول له ساخراً: أما كُلِّمْتَ اليوم من السَّماء؟![(٥٨٧)].

ولم يقتصر الأمر على مجرَّد السُّخرية ، والاستهزاء ، والإيذاء النَّفسيِّ ، بل تعدَّاه إلى الإيذاء البدنيِّ ، بل قد وصل الأمر إلى أن يبصق عدوُّ الله أميَّة بن خلف في وجه النَّبيِّ (ص)[(٥٨٨)] ، وحتَّى بعد هجرته ـ عليه السَّلام ـ إلى المدينة ، لم تتوقف حدَّة الابتلاء والأذى ، بل أخذت خطّاً جديداً ، بظهور أعداءٍ جدد ، فبعد أن كانت العداوة تكاد تكون مقصورة على قريش بمكَّة؛ صار له (ص) أعداءٌ من المنافقين المجاورين بالمدينة ، ومن اليهود ، والفرس ، والرُّوم ، وأحلافهم ، وبعد أن كان الأذى بمكَّة شتماً ، وسخريةً ، وحصاراً ، وضرباً ، صار مواجهةً عسكريَّة مسلَّحةً ، حامية الوطيس ، فيها كرٌّ ، وفرٌّ ، وضربٌ ، وطعنٌ؛ فكان ذلك بلاءٌ في الأموال ، والأنفس على السَّواء[(٥٨٩)] ، وهكذا كانت فترة رسالته (ص) وحياته ، سلسلةً متَّصلةً من المحن ، والابتلاء ، فما وهن لما أصابه في سبيل الله ، بل صبر ، واحتسب حتَّى لقي ربَّه[(٥٩٠)].

لقد واجه الرَّسول (ص) من الفتن، والأذى، والمحن مالا يخطر على بالٍ ، في مواقف متعدِّدةٍ ، وكان ذلك على قدر الرِّسالة الَّتي حُمِّلها ، ولذلك استحق المقام المحمود ، والمنزلة الرَّفيعة عند ربِّه ، وقد صبر على ما أصابه ؛ إشفاقاً على قومه أن يصيبهم مثلُ ما أصاب الأمم الماضية من العذاب؛ وليكون قدوةً للدُّعاة ، والمصلحين[(٥٩١)]، فإذا كان الاعتداء الأثيم قد نال رسولَ الله (ص) ، فلم يعد هناك أحدٌ أكبر من الابتلاء ، والمحنة ، وتلك سنّة الله في الدَّعوات؛ فعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قلت: يا رسول الله! أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ ، يُبْتَلَى الرَّجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلباً؛ اشتدَّ بلاؤه ،

وإن كان في دينه رقَّةٌ ابتُلي حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتَّى يتركه يمشي على الأرض ، وما عليه خطيئة» [ابن ماجه (٤٠٢٤) عن أبي سعيد الخدري ، ورواه الترمذي (٢٣٩٨) ، وأحمد (١/١٧٢) ، وابن ماجه (٤٠٢٣) عن سعد بن أبي وقاص] .

رابعاً: ما تعرض له أصحاب رسول الله (ص) من الأذى والتَّعذيب:

١ ـ ما لاقاه أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه:

تحمَّل الصَّحابة رضي الله عنهم من البلاء العظيم ما تنوء به الرَّواسي الشَّامخات ، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل الله ، وبلغ بهم الجهد ما شاء الله أن يبلغ ، ولم يَسْلَمْ أشرافُ المسلمين من هذا الابتلاء ، فلقد أُوذي أبو بكر رضي الله عنه ، وحُثي على رأسه التُّراب ، وضُرب في المسجد الحرام بالنِّعال حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه ، وحُمِل إلى بيته في ثوبه ، وهو ما بين الحياة والموت[(٥٩٢)] ، فقد روت عائشة رضي الله عنها: أنَّه لما اجتمع أصحاب النَّبيِّ (ص) ، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ، ألحَّ أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله (ص) في الظُّهور ، فقال: «يا أبا بكر! إنَّا قليل». فلم يزل أبو بكر يلحُّ حتَّى ظهر رسولُ الله (ص) ، وتفرَّق المسلمون في نواحي المسجد ، كلُّ رجلٍ في عشيرته ، وقام أبو بكر في النَّاس خطيباً ورسولُ الله (ص) جالسٌ ، فكان أوَّل خطيب دعا إلى الله تعالى وإلى رسوله (ص) ، وثار المشركون على أبي بكر ، وعلى المسلمين ، فضربوهم في نواحي المسجد ضرباً شديداً ، ووُطِأىَ أبو بكر ، وضُرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الفاسقُ عتبةُ بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويُحرِّفهما لوجهه ، ونزا على بطن أبي بكرٍ رضي الله عنه ، حتَّى ما يُعرف وجهه من أنفه ، وجاءت بنو تَيْمٍ يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبي بكرٍ ، وحمَلتْ بنو تيم أبا بكرٍ في ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكُّون في موته ، ثمَّ رجعت بنو تيمٍ ، فدخلوا المسجد ، وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلنَّ عتبة بن ربيعة ، فرجعوا إلى أبي بكر ، فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تَيْم يكلِّمون أبا بكر حتَّى أجاب ، فتكلَّم اخر النَّهار ، فقال: ما فعل رسول الله (ص) ؟ فمسُّوا منه بألسنتهم ، وعذلوه ، وقالوا لأمِّه أمِّ الخير: انظري أن تطعميه شيئاً ، أو تسقيه إيَّاه ، فلمَّا خلت به؛ ألحَّت عليه ، وجعل يقول: ما فعل رسول الله (ص) ؟ فقالت: والله مالي علمٌ بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أمِّ جميل بنت الخطاب ، فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أمَّ جميل؛ فقالت: إنَّ أبا بكرٍ يسألك عن محمَّد بن عبد الله ، فقالت: ما أعرف أبا بكرٍ ، ولا محمَّد بن عبد الله ، وإن كنت تحبِّين أن أذهب معك إلى ابنك ، قالت: نعم ، فمضت معها؛ حتَّى وجدت أبا بكر صريعاً دَنِفاً ، فدنت أمُّ جميل ، وأعلنت بالصِّياح ، وقالت: والله! إنَّ قوماً نالوا هذا منك لأهلُ فِسْقٍ وكفرٍ ، إنَّني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم؛ قال: فما فعل رسول الله (ص) ؟ قالت: هذه أمُّك

تسمع ، قال: فلا شيءِ عليك منها ، قالت: سالمٌ ، صالحٌ ، قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم ، قال: فإنَّ لله عليَّ ألاَّ أذوق طعاماً ، ولا أشرب شراباً ، أو اتي رسولَ الله (ص) ، فأمهلتاه؛ حتَّى إذا هدأت

الرِّجل وسكن الناس ، خرجتا به يتَّكأى عليهما ، حتَّى أدخلتاه على رسول الله (ص) ، فقال: فأكبَّ عليه رسول الله (ص) ، فقبَّله ، وأكبَّ عليه المسلمون ، ورقَّ له رسول الله (ص) رقَّةً شديدة ، فقال أبو بكر: بأبي ، وأمي يا رسول الله! ليس بي بأسٌ إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمِّي بَرَّةٌ بولدها ، وأنت مباركٌ فادعها إلى الله ، وادعُ الله لها ، عسى الله أن يستنقذها بك من النَّار. قال: فدعا لها رسول الله (ص) ، ودعاها إلى الله فأسلمت[(٥٩٣)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ حِرْصُ أبي بكرٍ رضي الله عنه على إعلان الإسلام ، وإظهاره أمام الكفَّار ، وهذا يدلُّ على قوَّة إيمانه ، وشجاعته ، وقد تحَمَّل الأذى العظيم ، حتَّى إنَّ قومه كانوا لا يشكُّون في موته.

٢ ـ مدى الحبِّ الَّذي كان يُكنُّه أبو بكرٍ لرسول الله (ص) ؛ حيث إنَّه وهو في تلك الحال الحرجة ، يسأل عنه ، ويُلِحُّ إلحاحاً عجيباً في السُّؤال ، ثمَّ يحلف ألاَّ يأكل ، ولا يشرب حتَّى يراه ، كيف يتمُّ ذلك ، وهو لا يستطيع المشي ، بل النُّهوض؟ ولكنَّه الحبُّ الَّذي في الله، والعزائم التي تقهر الصِّعاب ، وكلُّ مصابٍ في سبيل الله؛ ومن أجل رسوله (ص) هيِّنٌ ، ويسيرٌ.

٣ ـ إنَّ العصبيَّة القبليَّة ، كان لها في ذلك الحين دورٌ في توجيه الأحداث والتَّعامل مع الأفراد ، حتَّى مع اختلاف العقيدة؛ فهذه قبيلة أبي بكرٍ تهدِّد بقتل عتبة؛ إن مات أبو بكر[(٥٩٤)].

٤ ـ الحسُّ الأمنيُّ لأمِّ جميلٍ رضي الله عنها ، فقد برز في عدَّة تصرُّفاتٍ؛ لعلَّ من أهمها:

إخفاء الشَّخصيَّة ، والمعلومة عن طريق الإنكار:

عندما سألت أمُّ الخير أمَّ جميل ، عن مكان الرَّسول (ص) ، أنكرت أنَّها تعرف أبا بكر ، ومحمَّد بن عبد الله ، فهذا تصرُّفٌ حذرٌ سليم؛ إذ لم تكن أمُّ الخير ساعتئذٍ مسلمةً ، وأمُّ جميل كانت تخفي إسلامها ، ولا تودُّ أن تعلم به أمُّ الخير ، وفي الوقت ذاته أخفت عنها مكان الرَّسول (ص) ؛ مخافةَ أن تكون عيناً لقريشٍ[(٥٩٥)].

استغلال الموقف لإيصال المعلومة:

فأمُّ جميلٍ أرادت أن تقوم بإيصال المعلومة بنفسها لأبي بكرٍ رضي الله عنه ، وفي الوقت ذاته لم تظهر ذلك لأمِّ الخير؛ إمعاناً في السِّرِّيَّة ، والكتمان ، فاستغلَّت الموقف لصالحها قائلةً: «إن كنتِ تحبِّين أن أذهب معك إلى ابنك؛ فعلت» ، وقد عرضت عليها هذا الطَّلب بطريقةٍ تنم عن الذَّكاء وحسن التَّصرُّف ، فقولها: «إن كنت تحبِّين ـ وهي أمُّه ـ» وقولها: «إلى ابنك» ، ولم تقل لها: إلى أبي بكرٍ

، كلُّ ذلك يحرِّك في أمِّ الخير عاطفة الأمومة ، فغالباً ما ترضخ لهذا الطَّلب ، هذا ما تم بالفعل؛ حيث أجابتها بقولها: «نعم» وبالتَّالي نجحت أمُّ جميل في إيصال المعلومة بنفسها.

استغلال الموقف في كسب عطف أمِّ أبي بكر:

يبدو أنَّ أمَّ جميل حاولت أن تكسب عطف أمِّ الخير ، فاستغلَّت وضع أبي بكرٍ رضي الله عنه ، الَّذي يظهر فيه صريعاً دَنِفاً ، فأعلنت بالصِّياح ، وسَبَّتْ مَنْ قام بهذا الفعل بقولها: «إنَّ قوماً نالوا هذا منكَ لأهلُ فسقٍ ، وكفرٍ»؛ فلا شك أنَّ هذا الموقف من أمِّ جميلٍ يشفي بعض غليل أمِّ الخير من الَّذين فعلوا ذلك بابنها ، فقد تُكِنُّ شيئاً من الحبِّ لأمِّ جميل ، وبهذا تكون أمُّ جميل كسبت عطف أمِّ الخير ، وثقتها ، الأمر الذي يسهِّل مهمَّة أمِّ جميل في إيصال المعلومة إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه[(٥٩٦)].

الاحتياط والتأنِّي قبل النُّطق بالمعلومة:

لقد كانت أمُّ جميل في غاية الحيطة ، والحذر ، من أن تتسرَّب هذه المعلومة الخطيرة عن مكان قائد الدَّعوة ، فهي لم تطمئن بعد إلى أمِّ الخير؛ لأنَّها ما زالت مشركةً انذاك ، وبالتَّالي لم تأمن جانبها ، لذا تردَّدت عندما سألها أبو بكر رضي الله عنها عن حال رسول الله (ص) ، فقالت له: هذه أمُّك تسمع؟ فقال لها: لا شيء عليك منها ، فأخبرته ساعتها بأنَّ الرسول (ص) سالمٌ صالحٌ[(٥٩٧)] ، وزيادةً في الحيطة ، والحذر ، والتكتُّم لم تخبره بمكانه ، إلا بعد أن سألها عنه قائلاً: أين هو؟ فأجابته: في دار الأرقم.

تخيُّر الوقت المناسب لتنفيذ المهمَّة:

حين طلب أبو بكرٍ رضي الله عنه الذَّهاب إلى دار الأرقم ، لم تستجب له أمُّ جميل على الفور؛ بل تأخَّرت عن الاستجابة ، حتى إذا هدأت الرِّجل وسكن النَّاس؛ خرجت به ومعها أمُّه يتكأى عليهما ، فهذا هو أنسب وقت للتَّحرُّك ، وتنفيذ هذه المهمَّة ، حيث تنعدم الرَّقابة من قِبَلِ أعداء الدَّعوة ، ممَّا يقلِّل من فرص كشفها ، وقد نُفِّذت المهمَّةُ بالفعل دون أن يشعر بها

الأعداء ، حتَّى دخلت أمُّ جميل ، وأمُّ الخير بصحبة أبي بكر إلى دار الأرقم ، وهذا يؤكِّد: أنَّ الوقت المختار كان أنسب الأوقات[(٥٩٨)].

٥ ـ قانون المنحة بعد المحنة ، حيث أسلمت أمُّ الخير أمُّ أبي بكر ، بسبب رغبة الصِّدِّيق في إدخال أمِّه إلى حظيرة الإسلام ، وطلبه من الرَّسول (ص) الدُّعاء لها؛ لِمَا رأى من برِّها به ، وقد كان رضي الله عنه حريصاً على هداية الناس الاخرين فكيف بأقرب الناس إليه؟![(٥٩٩)].

٦ ـ إنَّ من أكثر الصَّحابة الَّذين تعرَّضوا لمحنة الأذى ، والفتنة بعد رسول الله (ص) ، أبا بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه؛ نظراً لصحبته الخاصَّة له ، والتصاقه به في المواطن التي كان يتعرَّض فيها للأذى من قومه ، فينبري الصِّدِّيق مدافعاً عنه ، وفادياً إيَّاه بنفسه ، فيصيبه من أذى القوم وسفههم ، هذا مع أنَّ الصِّدِّيق يُعتبر من كبار رجال قريش المعروفين بالعقل ، والإحسان[(٦٠٠)].

٢ ـ بلالٌ رضيَ الله عنه:

تضاعف أذى المشركين لرسول الله (ص) ، ولأصحابه؛ حتَّى وصل إلى ذروة العنف وخاصَّةً في معاملة المستضعفين من المسلمين ، فنكَّلت بهم؛ لتفتنهم عن عقيدتهم ، وإسلامهم؛ ولتجعلهم عِبرةً لغيرهم ، ولتنفِّس عن حقدها ، وغضبها ، بما تصبُّه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أوَّل من أظهر الإسلام سبعةٌ: رسول الله (ص) ، وأبو بكرٍ ، وعمَّارٌ ، وأمُّه سميَّة ، وصهيبٌ ، وبلالٌ ، والمقداد؛ فأمَّا رسول الله (ص) ، فمنعه الله بعمِّه أبي طالبٍ ، وأمَّا أبو بكر؛ فمنعه الله بقومه ، وأمَّا سائرهم؛ فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد ، وصهروهم في الشَّمس ، فما منهم إنسانٌ إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً ، فإنَّه هانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه ، فأعطوه الولدانَ ، وأخذوا يطوفون به شعاب مكَّة ، وهو يقول: أحدٌ أحدٌ» [أحمد (١/٤٠٤) وابن ماجه (١٥٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٨١ ـ ٢٨٢)] . لم يكن لبلال رضي الله عنه ظَهْرٌ يسنده ، ولا عشيرةٌ تحميه ، ولا سيوفٌ تذود عنه ، ومثل هذا الإنسان في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ يعادل رقماً من الأرقام ، فليس له دورٌ في الحياة إلا أن يخدم ، ويطيع ، ويُباع ، ويُشْترى كالسَّائمة ، أمَّا أن يكون له رأيٌ ، أو يكون صاحبَ فكرٍ ، أو صاحب دعوةٍ ، أو صاحب قضيَّةٍ ، فهذه جريمةٌ شنعاءُ في المجتمع الجاهليِّ المكيِّ ، تهزُّ أركانه ، وتزلزل أقدامه ، ولكنَّ الدَّعوة الجديدة؛ الَّتي سارع لها الفتيان؛ وهم يتحدَّون تقاليد ، وأعراف ابائهم الكبار لامست قلب هذا العبد المرميِّ المنسيِّ ، فأخرجته إنساناً

جديداً على الوجود[(٦٠١)] ، فقد تفجَّرت معاني الإيمان في أعماقه بعد أن امن بهذا الدِّين ، وانضمَّ إلى محمَّدٍ (ص) وإخوانه في موكب الإيمان العظيم ، وها هو الان يتعرَّض للتَّعذيب من أجل عقيدته ، ودينه ، فقصد وزيرُ رسولِ الله (ص) الصِّدِّيقُ موقعَ التَّعذيب ، وفاوض أميَّةَ بن خلف ، وقال له: «ألا تتَّقي الله في هذا المسكين؟ حتَّى متَّى؟! قال: أنت الَّذي أفسدته ، فأنقذه ممَّا ترى! فقال أبوبكر: أفعل ، عندي غلامٌ أسود أجلد منه ، وأقوى على دينك ، أعطيكه به ، قال: قد قبلت؛ فقال: هو لك ، فأعطاه

أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه غلامه ذلك ، وأخذه ، فأعتقه»[(٦٠٢)]. وفي روايةٍ: اشتراه بسبع أواقٍ ، أو بأربعين أوقيَّةٍ ذهباً[(٦٠٣)].

ما أصبر بلالاً ، وما أصلبه رضي الله عنه! فقد كان صادق الإسلام ، طاهر القلب ، ولذلك صَلُبَ ولم تَلِنْ قناتُه أمام التَّحدِّيات ، وأمام صنوف من العذاب ، وكان صبره ، وثباته ممَّا يغيظهم ، ويزيد حنقهم ، خاصَّةً: أنَّه كان الرَّجل الوحيد من ضعفاء المسلمين الَّذي ثبت على الإسلام ، فلم يواتِ الكفار فيما يريدون ، مردِّداً كلمة التَّوحيد بتحدٍّ صارخٍ ، وهانت عليه نفسه في الله ، وهان على قومه[(٦٠٤)].

وبعد كلِّ محنةٍ منحةٌ؛ فقد تخلَّص بلالٌ من العذاب والنَّكال ، وتخلَّص من أسر العبودية ، وعاش مع رسول الله (ص) بقيَّة حياته ملازماً له ، ومات راضياً عنه مبشَّراً إيَّاه بالجنَّة ، فقد قال (ص) لبلال: «... فإنِّي سمعت الليلةَ خَشْفَ نعليك بين يديَّ في الجنة» [البخاري (١١٤٩) ومسلم (٢٤٥٨)]. وأمَّا مقامه عند الصَّحابة ، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «أبو بكر سيدنا ، وأعتق سيِّدنا» يعني: بلالاً[(٦٠٥)].

وأصبح منهج الصِّدِّيق في فكِّ رقاب المستضعفين ضمن الخطَّة الَّتي تبنَّتها القيادة الإسلامية لمقاومة التَّعذيب الَّذي نزل بالمستضعفين ، فمضى يضع ماله في تحرير رقاب المؤمنين المنضمِّين إلى هذا الدِّين الجديد من الرِّقِّ.

«ثمَّ أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ستَّ رقابٍ؛ بلالٌ سابعهم: عامر بن فهيرة شهد بدراً ، وأحداً ، وقُتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأمُّ عُبيس ، وزِنِّيرة ، وأُصيب بصرُها حتى أعتقها ، فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات ، والعزَّى. فقالت: كذبوا وبيت الله ،

ما تضرُّ اللات والعزَّى ، وما تنفعان ، فردَّ الله بصرها[(٦٠٦)]. وأعتق النَّهدية ، وبنتها ، وكانتا لامرأةٍ من بني عبد الدَّار ، فمرَّ بهما ، وقد بعثتهما سيِّدتهما بطَحينٍ لها ، وهي تقول: والله لا أعتقكما أبداً! فقال أبو بكر رضي الله عنه: حِلٌّ[(٦٠٧)] يا أمَّ فلان! فقالت: حِلٌّ ، أنت أفسدتهما ، فأعتقهما ، قال: فبكم هما؟ قالت: بكذا ، وكذا. قال: قد أخذتُهما ، وهما حرَّتان ، أَرْجعا إليها طَحينها. قالتا: أوَ نَفْرَغُ منه يا أبا بكر! ثمَّ نردُّه إليها؟ قال: وذلك؛ إن شئتما»[(٦٠٨)].

وهنا وقفة تأمُّل ترينا كيف سوَّى الإسلام بين الصِّدِّيق والجاريتين حتَّى خاطبتاه ، خطابَ الندِّ للندِّ ، لا خطاب المسود للسَّيِّد ، وتقبَّل الصِّدِّيق ـ على شرفه ، وجلالته في الجاهليَّة ، والإسلام ـ منهما ذلك ، مع أنَّ له يداً عليهما بالعتق ، وكيف صقل الإسلام الجاريتين حتَّى تخلَّقتا بهذا الخلق الكريم ، وكان يمكنهما

، وقد أُعتقتا ، وتحرَّرتا من الظُّلم أن تدعا لها طحينها يذهب أدراجَ الرِّياح ، أو يأكله الحيوان ، والطَّير ، ولكنَّهما أبتا ـ تفضُّلاً ـ إلا أن تفرغا منه ، وتردَّاه إليها[(٦٠٩)].
ومرَّ الصِّدِّيق بجارية بني مُؤَمَّل ـ حيٌّ من بني عديِّ بن كعب ـ وكانت مسلمةً ، وعُمر بن الخطَّاب يُعذِّبها لتترك الإسلام ، وهو يومئذٍ مشركٌ ، وهو يضربها ، حتَّى إذا ملَّ؛ قال: إني أعتذر إليك ، إنِّي لم أتركك إلا عن ملالةٍ ، فتقول: كذلك فعل الله بك. فابتاعها أبو بكرٍ ، فأعتقها[(٦١٠)].
هكذا كان واهب الحرِّيَّات ، ومحرِّر العبيد ، شيخ الإسلام الوقور؛ الَّذي عُرف بين قومه بأنَّه يكسب المعدوم ، ويصل الرَّحم ، ويحمل الكلَّ ، ويُقري الضَّيف ، ويعين على نوائب الحقِّ ، لم ينغمس في إثمٍ في جاهليته ، أليفٌ مألوفٌ ، يسيل قلبه رقَّةً ورحمةً على الضُّعفاء ، والأرقَّاء ، أنفق جزءاً كبيراً من ماله في شراء العبيد ، وأعتقهم لله ، وفي الله قبل أن تنزل التَّشريعات الإسلاميَّة المحبَّبة في العتق ، والواعدة عليه أجزل الثَّواب[(٦١١)].
كان المجتمع المكيُّ يتندَّر بأبي بكرٍ رضي الله عنه؛ الَّذي يبذل هذا المال كلَّه لهؤلاء المستضعفين ، أمَّا في نظر الصديق؛ فهؤلاء إخوانه في الدِّين الجديد ، فكلُّ مشركي الأرض ، وطغاتها لا يساوون عنده واحداً من هؤلاء ، وبهذه العناصر ، وغيرها تُبنَى دولةُ التَّوحيد ،
وتصنع حضارة الإسلام الرَّائدة ، والرَّائعة[(٦١٢)]. ولم يكن الصدِّيق يقصد بعمله هذا محمدةً ، ولا جاهاً ، ولا دنيا ، وإنَّما كان يريد وجه الله ذا الجلال والإكرام ، ولقد قال له أبوه ذات يومٍ: «يا بنيَّ ، إنِّي أراك تعتق رقاباً ضعافاً ، فلو أنَّك إذ فعلت ما فعلت؛ أعتقت رجالاً أجلاداً يمنعونك ، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبت! إنِّي إنَّما أريد ما أريد لله عزَّ وجلَّ». فلا عجب إذا كان الله سبحانه أنزل في شأن الصِّدِّيق قراناً يتلى إلى يوم الدِّين.
قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى *وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى *وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى *إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى *وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى *فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى *لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى *الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى *وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لأَِحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى *}[(٦١٣)] [الليل: ٥ ـ ٢١] .
كان هذا التكافل بين أفراد الجماعة الإسلاميَّة الأولى قِمَّةً من قِمَمِ الخير ، والعطاء ، وأصبح هؤلاء العبيدُ بالإسلام أصحابَ عقيدةٍ ، وفكرةٍ ، يناقشون بها ، وينافحون عنها ، ويجاهدون في سبيلها ، وكان إقدام

أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على شرائهم ، ثمَّ إعتاقهم دليلاً على عظمة هذا الدِّين ، ومدى تغلغله في نفسية الصِّدِّيق رضي الله عنه ، وما أحوج المسلمين اليوم أن يُحْيُوا هذا المثل الرَّفيع ، والمشاعر السَّامية؛ ليتم التَّلاحم والتَّعايش ، والتَّعاضد بين أبناء الأمة؛ الَّتي يتعرض أبناؤها للإبادة الشَّاملة من قِبَلِ أعداء العقيدة ، والدِّين!

٣ ـ عمَّار بن ياسرٍ ، وأبوه ، وأمُّه رضي الله عنه:

كان والد عمَّار بن ياسر من بني عنس من قبائل اليمن ، قدم مكَّة ، وأخواه: الحارثُ ، ومالكٌ يطلبون أخاً لهم ، فرجع الحارث ، ومالكٌ إلى اليمن ، وأقام ياسرٌ بمكَّة ، وحالف أبا حذيفة بن المغيرة المخزوميَّ[(٦١٣)] ، فزوَّجه أبو حذيفةَ أَمَةً له ، يقال لها: سُميَّة بنت خيَّاط ، فولدت له عَمَّاراً ، فأعتقه أبو حذيفة الَّذي لم يلبث أن مات ، وجاء الإسلام ، فأسلم ياسر ، وسميَّة ، وعمَّار ، وأخوه عبد الله بن ياسر ، فغضب عليهم مواليهم بنو مخزوم غضباً شديداً ، وصبُّوا عليهم العذاب صبّاً ، فكانوا يُخْرِجونهم إذا حميت الظَّهيرة ، فيعذِّبونهم برمضاء مكَّة[(٦١٤)] ، ويقلِّبونهم ظهراً لبطنٍ[(٦١٥)] ، فيمرُّ عليهم الرَّسول (ص) ؛ وهم يعذَّبون ، فيقول: «صبراً ال

ياسر! فإنَّ موعدكم الجنة» [الحاكم (٣/٣٨٣) والحلية (١/١٤٠) والمطالب العالية (٤٠٣٤)][(٦١٦)].

وجاء أبو جهل إلى سميَّة ، فقال لها: ما امنت بمحمَّد إلا لأنكِ عشقتِه لجماله ، فأغلظت له القول ، فطعنها بالحربة في ملمس العِفَّة ، فقتلها ، فهي أوَّل شهيدة في الإسلام رضي الله عنها[(٦١٧)] ، وبذلك سطَّرت بهذا الموقف الشُّجاع أعلى ، وأغلى ما تقدِّمه امرأةٌ في سبيل الله؛ لتبقى كلُّ امرأةٍ مسلمةٍ حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها ترنو إليها ، ويهفو قلبها إلى الاقتداء بها ، فلا تبخل بشيءٍ في سبيل الله بعد أن جادت سميَّة بنت خيَّاط بدمها في سبيل الله[(٦١٨)].

وقد جاء في حديث عثمان رضي الله عنه قال: «أقبلتُ مع رسول الله (ص) اخذاً بيده نتمشَّى بالبطحاء ، حتَّى أتى على ال عمَّار بن ياسر ، فقال أبو عمَّار: يا رسول الله! الدَّهر هكذا؟ فقال له النَّبيُّ (ص) : اصبر ، ثمَّ قال: اللَّهمَّ اغفر لال ياسرٍ ، وقد فعلتَ» [أحمد (١/٦٢)][(٦١٩)]. ، ثمَّ لم يلبث ياسر أن مات تحت العذاب.

لم يكن في وسع النَّبيِّ (ص) أن يقدمَ شيئاً لآل ياسر ، رموز الفداء ، والتضحية ، فليسوا بأرقاء حتَّى يشتريهم ، ويعتقهم ، وليست لديه القوَّة ليستخلصهم من الأذى والعذاب ، فكلُّ ما يستطيعه (ص) أن يزفَّ لهم البشرى بالمغفرة ، والجنَّة ، ويحثَّهم على الصبر؛ لتصبح هذه الأسرة المباركة قدوةً للأجيال المتلاحقة

، ويشهد الموكب المستمرُّ على مدار التَّاريخ هذه الظَّاهرة: «صبراً ال ياسر! فإنَّ موعدكم الجنَّة» [سبق تخريجه][(٦٢٠)] .

أمَّا عمَّارٌ رضي الله عنه ، فقد عاش بعد أهله زمناً يكابد من صنوف العذاب ألواناً ، فهو يُصنَّف في طائفة المستضعفين، الَّذين لا عشائر لهم بمكَّة تحميهم، وليست لهم منعةٌ، ولا قوَّةٌ، فكانت قريش تعذِّبهم في الرَّمضاء بمكَّة في منتصف النَّهار؛ ليرجعوا عن دينهم ، وكان عمَّار يُعذَّب حتَّى لا يدري ما يقول[(٦٢١)]. ولما أخذه المشركون ليعذبوه؛ لم يتركوه حتَّى سبَّ النَّبيَّ (ص) ، وذكر الهتهم بخيرٍ ، فلمَّا أتى النَّبيَّ (ص) قال: «ما وراءك؟» قال: شرٌّ ، والله ما تركني المشركون حتى نلت منك! وذكرت الهتهم بخير ، قال: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئنّاً بالإيمان ، قال: « فإن عادوا؛ فعد » [الحاكم (٣٥٧/٢) والزيلعي في نصب الراية (١٥٨/٤)][(٦٢٢)] . ونزل

الوحي بشهادة الله تعالى على صدق إيمان عمَّار. قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [النحل: ١٠٦] وقد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله (ص)[(٦٢٣)] .

وفي حادثتي بلالٍ ، وعمَّارٍ فقهٌ عظيمٌ يتراوح بين العزيمة ، والرُّخصة ، يحتاج الدُّعاة أن يستوعبوه ، ويضعوه في إطاره الصَّحيح ، وفي معاييره الدَّقيقة دون إفراطٍ ، أو تفريطٍ.

٤ ـ سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه:

تعرَّض للفتنة من قِبَلِ والدته الكافرة ، فقد امتنعت عن الطَّعام ، والشَّراب حتَّى يعود إلى دينها. روى الطَّبرانيُّ: أن سعداً قال: أُنزلت فيَّ هذه الاية: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا} [العنكبوت: ٨].

قال: كنت رجلاً بارّاً بأمِّي ، فلمَّا أسلمتُ ، قالت: يا سعد! ما هذا الدِّين الَّذي أراك قد أحدثت؟! لتدعنَّ دينك هذا ، أو لا اكل ، ولا أشرب حتَّى أموت ، فتُعيَّر بي ، فيقال: يا قاتلَ أمه! فقلت: لا تفعلي يا أُمَّه ؛ فإنِّي لا أدع ديني لشيء ، فمكثتْ يوماً وليلةً لم تأكل ، فأصبحتْ ؛ وقد جهدت ، فمكثتْ يوماً اخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت وقد جهدت ، فمكثتْ يوماً اخر وليلةً أخرى لا تأكل ، فأصبحتْ قد اشتدَّ جهدها ، فلمَّا رأيت ذلك؛ قلت: يا أُمَّه ، تعلمين والله لو كانت لك مئة نفسٍ ، فخرجت نفساً نفساً؛ ما تركت ديني هذا لشيءٍ ، فإن شئت؛ فكلي ، وإن شئت؛ لا تأكلي! فأكلتْ[(٦٢٤)].

وروى مسلمٌ: أنَّ أمَّ سعدٍ حلفت ألاَّ تكلِّمه أبداً؛ حتَّى يكفر بدينه ، ولا تأكل ، ولا تشرب ، قالت: زعمْتَ أنَّ الله وصَّاك بوالديك ، وأنا أمُّك ، وأنا امرك بهذا ، قال: مكثتْ ثلاثاً حتَّى غُشي عليها من الجهد ، فقال ابنٌ لها ـ يقال له عُمَارَةَ ـ فسقاها ، فجعلت تدعو على سعدٍ ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في القران الكريم هذه الاية: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي} ؛ وفيها: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}

قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها؛ شجروا فاها بعصاً ، ثمَّ أَوْجَرُوها [مسلم (١٧٤٨) والترمذي (٣١٨٩)][(٦٢٥)]. فمحنة سعدٍ محنةٌ عظيمةٌ ، وموقفه موقف فَذٌّ ، يدلُّ على مدى تغلغل الإيمان في قلبه ، وأنَّه لا يقبل فيه مساومةً مهما كانت النَّتيجة[(٦٢٦)].

ومن خلال تتبُّع القران المكيّ ، نجد: أنَّه برغم قطع الولاء ، سواءٌ في الحبِّ ، أو النُّصرة بين المسلم وأقاربه الكفَّار ، فإنَّ القران أمر بعدم قطع صلتهم ، وببرِّهم ، والإحسان إليهم ، ومع ذلك فلا ولاء بينهم؛ لأنَّ الولاء للهِ ولرسوله (ص) ، لدينه ، وللمؤمنين[(٦٢٧)].

٥ ـ مصعب بن عُمَير رضي الله عنه:

كان مصعب بن عمير أنعمَ غلامٍ بمكَّة ، وأجودَها حلَّةً ، وكان أبواه يحبَّانه ، وكانت أمُّه مليئةً كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثِّياب ، وأرقَّه ، وكان أعطرَ أهل مكَّة ، يلبس الحضرميَّ ، من النِّعال[(٦٢٨)] ، وبلغ من شدَّة كلف أمِّه به: أنَّه كان يبيت وقعْبُ الحَيْس[(٦٢٩)] عند رأسه ، فإذا استيقظ من نومه؛ أكل[(٦٣٠)] ، ولما علم: أنَّ رسول الله (ص) يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم؛ دخل عليه ، فأسلم ، وصدَّق به ، وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمِّه وقومه ، فكان يختلف إلى رسول الله (ص) سرّاً، فبصر به عثمان بن طلحة[(٦٣١)] يصلِّي، فأخبر أمَّه وقومه، فأخذوه، وحبسوه ، فلم يزل محبوساً حتَّى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى[(٦٣٢)].

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: لقد رأيته وقد جَهِدَ في الإسلام جهداً شديداً ، حتَّى لقد رأيت جلده يتحشَّف ـ أي: يتطاير ـ تحشُّف جلد الحيَّة عنها ، حتَّى إن كنا لنعرضه على قتبنا فنحمله ممَّا به من الجهد[(٦٣٣)] ، وكان رسول الله (ص) كلَّما ذكره ، قال: «ما رأيت بمكَّة أحداً أحسن لمةً ، ولا أرقَّ حلَّةً ، ولا أنعم نعمةً ، من مصعب بن عمير» [الحاكم (٣/٢٠٠)][(٦٣٤)] ، ومع كلِّ ما أصابه رضي الله عنه من بلاءٍ ومحنةٍ ، ووهنٍ في الجسم ، والقوَّة ، وجفاءٍ من أقرب النَّاس إليه لم يقصِّر عن شيءٍ ممَّا

بلغه أصحاب رسول الله (ص) من الخير ، والفضل ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، حتَّى أكرمه الله تعالى بالشَّهادة يوم أحدٍ[(٦٣٥)].

يُعَدُّ مصعبٌ رضي الله عنه أنموذجاً من تربية الإسلام للمترفين الشَّباب ، للمنعمين من أبناء الطَّبقات الغنيَّة المرفَّهة ، لأبناء القصور ، والمال ، والجاه ، للمعجبين بأشخاصهم ، المبالغين في تأنُّقهم ، السَّاعين وراء مظاهر الحياة كيف تغيَّرت ، ووقف بعد إسلامه قويّاً لا يضعف ، ولا يتكاسل ، ولا يتخاذل ، ولا تقهره نفسه ، وشهواته؛ فيسقط في جحيم النَّعيم الخادع[(٦٣٦)].

لقد ودَّع ماضيه بكلِّ ما فيه من راحةٍ ولذَّةٍ ، وهناءةٍ ، يوم دخل هذا الدِّين ، وبايع تلك البيعة ، وكان لابدَّ له من المرور في درب المحنة؛ لكي يصقل إيمانه ، ويتعمَّق يقينه ، وكان مصعب مطمئناً راضياً برغم ما حوله من جبروتٍ ، ومخاوف ، وبرغم ما نزل به من البؤس ، والفقر ، والعذاب ، وبرغم ما فقده من مظاهر النَّعيم والرَّاحة[(٦٣٧)] ، فقد تعرَّض لمحنة الفقر ، ومحنة فَقْدِ الوجاهة ، والمكانة عند أهله ، ومحنة الأهل والأقارب والعشيرة، ومحنة الجوع والتَّعذيب ، ومحنة الغربة والابتعاد عن الوطن ، فخرج من كلِّ تلك المحن منتصراً بدينه وإيمانه ، مطمئناً أعمق الاطمئنان ، ثابتاً أقوى الثبات[(٦٣٨)] ، ولنا معه وقفات في المدينة بإذن الله تعالى.

٦ ـ خبَّاب بن الأرت رضي الله عنه:

كان خبَّاب رضي الله عنه قَيْناً[(٦٣٩)] بمكَّة ، وأراد الله له الهداية مبكِّراً ، فدخل في الإسلام قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم[(٦٤٠)] ، فكان من المستضعفين الَّذين عُذبوا بمكَّة لكي يرتدَّ عن دينه ، ووصل به العذاب بأن ألصق المشركون ظهره بالأرض على الحجارة المحمَّاة حتَّى ذهب ماء مَتْنه[(٦٤١)].

وكان الرَّسول (ص) يألف خباباً ، ويتردَّد عليه بعد أن أسلم ، فلمَّا علمت مولاته بذلك ، وهي أمُّ أنمار الخزاعيَّة ، أخذت حديدةً قد أحمتها ، فوضعتها على رأسه ، فشكا خبابٌ ذلك إلى رسول الله (ص) ، فقال (ص) : «اللَّهمَّ انصر خباباً!» فاشتكت مولاتُه رأسَها ، فكانت تعوي مع الكلاب ، فقيل لها: اكتوي ، فجاءت إلى خبَّابٍ ليكويها ، فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها ، وإن في ذلك لعبرةً لمن أراد أن يعتبر ، ما أقرب فرج الله ، ونصره من عباده

المؤمنين الصابرين! فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويَ رأسَها[(٦٤٢)].

ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين ، ولقوا منهم شدَّةً؛ جاء خبَّابٌ إلى رسول الله (ص) وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظلِّ الكعبة ، فقال له: «ألا تستنصرُ لنا؟! ألا تدعو الله لنا؟!» فقعد الرَّسول (ص)

وهو محمرٌّ وجهه ، قال: «كان الرَّجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيُجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه ، فيُشق باثنتين ، وما يصدُّه ذلك عن دينه ، ويُمشَطُ بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عَصَب ، وما يصدُّه ذلك عن دينه ، والله! لَيَتمَّنَّ هذا الأمر حتَّى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ ، لا يخاف إلا الله ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون» [البخاري (٣٦١٢) وأحمد (١٠٩/٥ و١١١) وأبو داود (٢٦٤٩) والنسائي (٢٠٤/٨)] .

وللشيخ سلمان العودة ـ حفظه الله ـ تعليقٌ لطيفٌ على هذا الحديث ، هو: يا سبحان الله! ماذا جرى حتى احمرَّ وجه المصطفى (ص) ، وقعد من ضجعته ، وخاطب أصحابه بهذا الأسلوب القويِّ المؤثِّر ، ثمَّ عاتبهم على الاستعجال؛ لأنهم طلبوا الدُّعاء منه (ص) ؟ كلا ، حاشاه من ذلك ، وهو الرَّؤوف الرَّحيم بأمَّته.

إنَّ أسلوب الطَّلب: ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟ يوحي بما وراءه ، وأنَّه صادر من قلوبٍ أضناها العذاب ، وأنهكها الجهد ، وهدَّتها البلوى ، فهي تلتمس الفرج العاجل ، وتستبطأى النَّصر، فتستدعيه ، وهو (ص) يعلم: أنَّ الأمور مرهونةٌ بأوقاتها ، وأسبابها ، وأنَّ قبل النَّصر البلاءُ ، فالرُّسل تُبتلى ، ثمَّ تكون لها العاقبة ، قال تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ *} [يوسف: ١١٠] .

ويلمس ـ عليه السَّلام ـ من واقع أصحابه ، وملابسات أحوالهم ، بَرَمهم بالعذاب الذي يلاقون ، حتَّى يُفتنوا عن دينهم، ويستعلي عليهم الكفرة، ويموت منهم من يموت تحت التَّعذيب.

وقد لا يكون من الميسور أن يدرك المرء ـ بمجرَّد قراءة النَّصِّ ـ حقيقة الحال التي كانوا عليها ، حين طلبوا منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ الدُّعاء ، والاستنصار ، ولا أن يعرف المشاعر والإحساسات الَّتي كانت تثور في نفوسهم ، إلا أن يعيش حالاً قريباً من حالهم ، ويعاني ـ في سبيل الله ـ بعضَ ما عانوا.

لقد كان (ص) يربِّيهم على:

أ ـ التأسِّي بالسَّابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم ، في تحمُّل الأذى في سبيل الله ، ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

ب ـ التَّعلُّق بما أعدَّه الله في الجنة للمؤمنين الصَّابرين من النَّعيم ، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدُّنيا.

ج ـ التَّطلُّع للمستقبل ، الَّذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدُّنيا ، ويذلُّ فيه أهل الكفر ، والعصيان.

وثمَّة أمرٌ اخر كبيرٌ ، ألا وهو: أنَّه (ص) مع هذه الأشياء كلِّها كان يخطِّط ، ويستفيد من الأسباب المادِّيَّة المتعدِّدة لرفع الأذى والظُّلم عن أتباعه ، وكفِّ المشركين عن فتنتهم ، وإقامة الدَّولة الَّتي تجاهد في سبيل الدِّين ، وتتيح الفرصة لكلِّ مسلمٍ أن يعبد ربَّه حيث شاء ، وتزيل الحواجز ، والعقبات الَّتي تعترض طريق الدَّعوة إلى الله[(٦٤٣)].

وقد تحدَّث خبابٌ رضي الله عنه عن بعض ما كانوا يلقونه من المشركين ، من عنتٍ ، وسوءِ معاملة ، ومساومةٍ على الحقوق ، حتَّى يعودوا إلى الكفر ، فقال: كنت رجلاً قَيْناً[(٦٤٤)] ، وكان لي على العاص بن وائل دَيْنٌ ، فأتيته لأقتضيه ، فقال لي: لن أقضيك حتَّى تكفر بمحمَّد ، فقلت: لن أكفر حتَّى تموت ، وتبعث ، قال: وإنِّي لمبعوث بعد الموت؟ فإن كان ذلك؛ فلسوف أقضيك؛ إذا رجعت إلى مالي وولدي ، فنزلت فيه: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأَُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا *} إلى قوله: {وَيَأْتِينَا فَرْدًا *} [مريم: ٧٧ ـ ٨٠] [البخاري (٢٠٩١) ومسلم (٢٧٩٥)] .

وذُكِرَ: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في خلافته سأل خبَّاباً عمَّا لقي في ذات الله تعالى ، فكشف خبابٌ عن ظهره ، فإذا هو قد برص ، فقال عمر: ما رأيت كاليوم ، فقال خباب: يا أميرَ المؤمنين ، لقد أوْقَدُوا لي ناراً ، ثمَّ سلقوني فيها ، ثمَّ وضع رَجُلٌ رِجْلَه على صدري ، فما اتَّقيت الأرض ـ أو قال: برد الأرض ـ إلا بظهري ، وما أطفأ تلك النَّار إلا شحمي[(٦٤٥)].

٧ ـ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه:

كان منهج رسول الله (ص) في معاملته للنَّاس حكيماً ، وكان يعامل الأكابر وزعماء القبائل بلطفٍ وترفُّقٍ ، وكذلك الصِّبيان الصِّغار؛ فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يحدِّثنا عن لقائه اللَّطيف

برسول الله (ص) يقول: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعُقْبة بن أبي مُعَيْط ، فمرَّ بي رسولُ الله (ص) ، وأبو بكرٍ ، فقال: يا غلام! هل من لبنٍ؟ قلت: نعم ، ولكني مؤتمنٌ ، قال: فهل من شاةٍ لم يَنْزُ عليها فحلٌ؟ فأتيته بشاةٍ ، فمسح ضرعها ، فنزل لبنٌ فحلبه في إناءٍ ، فشرب ، وسَقَى أبا بكرٍ ، ثمَّ قال للضَّرع: اقلص ، فقلص ، قال: ثمَّ أتيته بعد هذا فقلت: يا رسولَ الله! علِّمني من هذا القول ، قال: فمسح رأسي ، وقال: «يرحمك الله! فإنَّك غُلَيِّم معلَّمٌ» [أحمد (١/٣٧٩ و٤٦٢) وأبو يعلى (٤٩٨٥) والطيالسي (٣٥٣) والحلية (١/١٢٥)][(٦٤٦)].

وهكذا كان مِفْتَاحُ إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى: قالها عن نفسه: «إِنِّي مؤتمن» ، والثانية: كانت من الصادق المصدوق ، حيث قال له: «إنك غُلَيِّم معلَّم».

ولقد كان لهاتين الكلمتين دورٌ عظيمٌ في حياته ، وأصبح فيما بعد من أعيان علماء الصحابة رضي الله عنهم ، ودخل عبد الله في ركب الإيمان ، وهو يمخر بحار الشِّرك في قلعة الأصنام ، فكان واحداً من أولئك السَّابقين؛ الَّذين مدحهم الله في قرانه العظيم[(٦٤٧)] ، وقد قال عنه ابن حجر: «أحد السَّابقين الأوَّلين ، أسلم قديماً ، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً ، والمشاهد بعدها ، ولازم النَّبيَّ (ص) ، وكان صاحب نعليه»[(٦٤٨)].

أوَّل من جهر بالقران الكريم:

بالرَّغم من أنَّ ابن مسعودٍ رضي الله عنه كان حليفاً ، وليس له عشيرةٌ تحميه ، ومع أنَّه كان ضئيل الجسم ، دقيق السَّاقين ، فإنَّ ذلك لم يَحُلْ دون ظهور شجاعته ، وقوَّة نفسه رضي الله عنه وله مواقف رائعةٌ في ذلك؛ منها ذلك المشهد المثير في مكَّة ، وإِبَّان الدَّعوة ، وشدَّة وطأة قريشٍ عليها ، فلقد وقف على مَلَئِهم ، وجهر بالقران ، فقرع به أسماعهم المقفلة ، وقلوبهم المغلَّقة[(٦٤٩)] ، فكان أوَّل من جهر بالقران بعد رسول الله (ص) بمكَّة.

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله (ص) فقالوا: والله! ما سمعت قريش هذا القران يُجهر لها به قطُّ ، فَمَنْ رجلٌ يُسْمِعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعودٍ: أنا! قالوا: إنَّا نخشاهم عليك ، إنَّما نريد رجلاً له عشيرةٌ يمنعونه من القوم؛ إن أرادوه! قال: دعوني؛ فإنَّ الله سيمنعني! قال: فغدا ابن مسعودٍ حتَّى أتى المقام في الضُّحى؛ وقريشٌ في أنديتها؛ حتَّى قام عند المقام ، ثم قرأ {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *} . رافعاً بها صوته . {الرَّحْمَانُ *عَلَّمَ الْقُرْآنَ *} ، قال: ثمَّ استقبلها يقرؤها ، قال: فتأمَّلوه ، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابنُ أمِّ عبد؟ قال: ثمَّ قالوا:

إنَّه ليتلو بعض ما جاء به محمَّدٌ! فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتَّى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثمَّ انصرف إلى أصحابه ، وقد أثَّروا في وجهه ، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداءُ الله أهونَ عليَّ منهم الان ، ولئن شئتم لأغادينَّهم بمثلها غداً! قالوا: لا! حسبُك ، قد أسمعتهم ما يكرهون[(٦٥٠)].

وبهذا كان عبد الله بن مسعود أوَّل مَنْ جهر بالقران بمكَّة بعد رسول الله (ص) ، ولا غرو: أنَّ هذا العمل الَّذي قام به عبد الله يعتبر تحدِّياً عملياً لقريشٍ؛ التي ما كانت لتتحمل مثل هذا الموقف ، ويلاحظ جرأة عبد الله عليهم بعد هذه التَّجربة على الرَّغم ممَّا أصابه من أذى[(٦٥١)].

٨ ـ خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه:

كان إسلام خالدٍ قديماً؛ لرؤيا راها عند أوَّل ظهور النَّبي (ص) ؛ إذ رأى كأنَّه وقف على شفير النَّار ، وهناك مَنْ يدفعه فيها ، والرَّسول يلتزمه لئلا يقع ، ففزع من نومه ، معتقداً: أنَّ هذه الرؤيا حقٌّ ، فقصَّها على أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، فقال له: أُرِيدَ بك خيراً ، هذا رسول الله (ص) فاتَّبعه ، فذهب إليه فأسلم ، وأخفى إسلامه خوفاً من أبيه ، لكنَّ أباه علم لما رأى كثرة تغيُّبه عنه ، فبعث إخوته الَّذين لم يكونوا قد أسلموا بعد في طلبه ، فجيء به ، فأنَّبه ، وضربه بمقرعةٍ ، أو عصاً كانت في يده ، حتى كسرها على رأسه ، ثمَّ حبسه بمكَّة ، ومنع إخوته من الكلام معه ، وحذَّرهم من عمله ، ثمَّ ضيق عليه الخناق؛ فأجاعه ، وقطع عنه الماء ثلاثة أيَّامٍ ، وهو صابرٌ محتسبٌ ، ثمَّ قال له أبوه: والله لأمنعنَّك القوت! فقال خالد: إن منعتني فإنَّ الله يرزقني ما أعيش به ، وانصرف إلى رسول الله (ص) فكان يكرمه ، ويكون معه ، ثمَّ رأى أن يهاجر إلى الحبشة مع من هاجر إليها من المسلمين في المرَّة الثَّانية[(٦٥٢)].

٩ ـ عثمان بن مظعونٍ رضي الله عنه:

لما أسلم عَدَا عليه قومُه بنو جمح ، فاذوه ، وكان أشدَّهم عليه وأكثرهم إيذاءً له أميةُ بن خلف ، ولذلك قال بعد أن خرج إلى الحبشة يعاتبه[(٦٥٣)]:

أأخْرَجْتَنِي مِنْ بطن مكَّةَ اثماًوَأَسْكَنْتَنِي في صَرْحٍ بَيْضَاءَ تُقْدَعُ
تَرِيْشُ نِبَالاً لاَ يُواتِيْكَ رِيْشُهَاوَتَبْرِي نِبَالاً رِيْشُهَا لَكَ أَجْمَعُ
وحَارَبْتَ أَقْواماً كِرَاماً أَعِزَّةًوأَهْلَكْتَ أَقْوَاماً بِهِمْ كُنْتَ تَفْزَعُ
سَتَعْلَمُ إِنْ نَابَتْكَ يَوْمَاً مُلِمَّةٌوأَسْلَمَكَ الأَوْبَاشُ مَا كُنْتَ تَصْنَعُ

وبقي عثمان بن مظعون فترةً في الحبشة ، لكنَّه لم يلبث أن عاد منها ضمن من عاد من المسلمين في المرَّة الأولى ، ولم يستطع أن يدخل مكَّة إلا بجوارٍ من الوليد بن المغيرة ، حيث ظلَّ يغدو في جواره امناً مطمئناً ، فلمَّا رأى ما يصيب أصحاب النَّبيِّ (ص) من البلاء ، وما هو فيه من العافية ، أنكر ذلك على نفسه ، وقال: والله! إنَّ غُدوِّي ، ورَواحي امناً بجوار رجلٍ من أهل الشِّرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني؛ لنقصٌ كبير في نفسي[(٦٥٤)] ، فذهب إلى الوليد بن المغيرة ، وقال

له: يا أبا عبد شمس! وفت ذمَّتك ، وقد ردَدت إليك جوارك! فقال: لِمَ يابن أخي؟ فلعلَّك أوذيت ، أو انتهكت ، قال: لا! ولكني أرضى بجوار الله تعالى ، ولا أريد أن أستجير بغيره ، قال: فانطلِقْ إلى المسجد فارددْ عليَّ جواري علانيةً ، كما أجرتك علانيةً ، فانطلقا إلى المسجد فردَّ عليه جواره أمام النَّاس ، ثمَّ انصرف عثمان إلى مجلسٍ من مجالس قريش ، فجلس معهم ، وفيهم لبيد بن ربيعة[(٦٥٥)] الشَّاعر ينشدهم ، فقال لبيد: «ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ». فقال عثمان: صدقت ، واستمرَّ لبيد في إنشاده ، فقال: «وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل» ، فقال: عثمان: كذبت ، نعيم الجنَّة لا يزول! قال لبيد: يا معشر قريش! والله ما كان يُؤْذَى جليسكم ، فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجلٌ من القوم: إنَّ هذا سفيهٌ في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدنَّ في نفسك من قوله ، فردَّ عليه عثمان حتَّى شَرِيَ[(٦٥٦)] أمرُهما ، فقام إليه ذلك الرَّجل ، فلطم عينه فاخْضرَّت ، والوليد بن المغيرة قريبٌ يرى ما بلغ من عثمان ، فقال: أما والله يابن أخي! إن عينك لغنيةٌ عمَّا أصابها ، ولقد كنت في ذمَّةٍ منيعةٍ ، فقال عثمان: والله! إنَّ عيني الصَّحيحة لفقيرةٌ إلى مثل ما أصاب أختها في الله ، وإنِّي لفي جوار من هو أعزُّ منك ، وأقدر يا أبا عبد شمس! ثمَّ عرض عليه الوليد الجوار مرَّةً أخرى ، فرفض[(٦٥٧)].

وهذا يدلُّ على مدى قوَّة إيمانه رضي الله عنه ، ورغبته في الأجر ، والمثوبة عند الله؛ ولذلك لما مات ، رأت أمُّ العلاء الأنصاريَّة . وكان عثمان ممَّن وقع في سهمها عندما اقترع الأنصار على سكنى المهاجرين . في المنام: أنَّ له عيناً تجري ، فجاءت رسول الله (ص) فأخبرته ، فقال: «ذلك عملُه» [البخاري (٧٠٠٤)] .

وغير هؤلاء من الصَّحابة الكرام تعرَّض للتَّعذيب ، وهكذا نرى أولئك الرَّهط من الشَّباب القرشيِّ ، قد أقبلوا على دعوة الرَّسول (ص) ، واستجابوا لها ، والتفُّوا حول صاحبها؛ على الرَّغم من مواقف ابائهم ، وذويهم ، وأقربائهم المتشدِّدة تجاههم ، فضحُّوا بكل ما كانوا يتمتَّعون به

من امتيازاتٍ قبل دخولهم في الإسلام ، وتعرَّضوا للفتنة؛ رغبةً فيما عند الله تعالى من الأجر ، والثَّواب ، وتحمَّلوا أذىً كثيراً ، وهذا فعل الإيمان في النفوس عندما يخالطها ، فتستهين بكلِّ ما يصيبها من عنتٍ ، وحرمانٍ؛ إذا كان ذلك يؤدِّي إلى الفوز برضا الله تعالى ، وجنَّته.

هذا ، ولم يكن التَّعذيب والأذى مقصوراً على رجال المسلمين دون نسائهم ، وإنَّما طال النِّساء أيضاً قسطٌ كبير من الأذى والعنت بسبب إسلامهنَّ ، كسميَّة بنت خياط ، وفاطمة بنت الخطَّاب ، ولبيبة جارية بني المؤمِّل ، وزِنِّيرة الرُّوميَّة ، والنَّهْدية ، وابنتها ، وأمِّ عُبَيْسٍ ، وحمامةَ أمِّ بلال ، وغيرهنَّ[(٦٥٨)].

خامساً: حكمة الكفِّ عن القتال في مكَّة واهتمام النَّبيِّ (ص) بالبناء الداخلي:

كان المسلمون يرغبون في الدِّفاع عن أنفسهم ، ويبدو: أنَّ الموقف السِّلمي أغاظ بعضهم ، وخاصَّةً الشَّباب منه ، وقد أتى عبدُ الرحمن بن عوف وأصحابُه رضي الله عنهم إلى النَّبيِّ (ص) بمكَّة ، فقالوا: يا نبي الله! كنا في عزَّةٍ ونحن مشركون ، فلمَّا امنَّا؛ صرنا أذلَّةً! قال: «إِنِّي أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم» [(النسائي (٦/٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١١) والحاكم (٢/٦٦ ـ ٦٧ و٣٠٧)][(٦٥٩)].

وتعرَّض بعض الباحثين للحكمة الرَّبَّانيَّة في عدم فرضية القتال في مكَّة ، ومن هؤلاء الأستاذ سيِّد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ فقد قال: لا نجزم بما نتوصَّل إليه؛ لأنَّنا حينئذٍ نتألَّى على الله ما لم يبيِّن لنا من حكمةٍ ، ونفرض أسباباً ، وعللاً قد لا تكون هي الأسباب ، والعلل الحقيقية ، أو قد تكون.

ذلك: أنَّ شأن المؤمن أمام أيِّ تكليفٍ ، أو أيِّ حكمٍ من أحكام الشَّريعة هو التَّسليم المطلق؛ لأنَّ الله سبحانه هو العليم الخبير ، وإنَّما نقول هذه الحكم ، والأسباب من باب الاجتهاد ، وعلى أنَّه مجرَّد احتمال؛ لأنَّه لا يعلم الحقيقة إلا الله ، ولم يحدِّدها هو لنا ، ويطلعنا عليها بنصٍّ صريح[(٦٦٠)] ، ومن هذه الأسباب والحكم والعلل بإيجازٍ:

١ ـ أنَّ الكفَّ عن القتال في مكَّة ربما لأنَّ الفترة المكِّيَّة كانت فترة تربيةٍ ، وإعدادٍ ، في بيئةٍ معيَّنةٍ ، لقومٍ معيَّنين ، وسط ظروفٍ معيَّنةٍ ، ومن أهداف التَّربية في مثل هذه البيئة: تربية الفرد العربيِّ على الصَّبر ، على ما لا يصبر عليه عادة من الضَّيم حين يقع عليه ، أو على من يلوذون

به؛ ليخلص من شخصه ، ويتجرَّد من ذاته ، فلا يندفع لأوَّل مؤثِّر ، ولا يهيج لأوَّل مهيجٍ؛ ومن ثَمَّ يتمُّ الاعتدال في طبيعته ، وحركته ، ثمَّ تربيته على أن يتَّبع نظام المجتمع الجديد ، بأوامر القيادة الجديدة ، حيث لا يتصرَّف إلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصيَّة العربيِّ المسلم لإنشاء (المجتمع المسلم).

٢ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ الدَّعوة السِّلميَّة أشدُّ أثراً وأنفذُ في مثل بيئة قريش ، ذات العنجهيَّة والشَّرف ، والَّتي قد يدفعها القتال معها ـ في مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد ، ونشأة ثاراتٍ دمويةٍ جديدةٍ ، كثارات العرب المعروفة أمثال داحس ، والغبراء ، وحرب البسوس ، وحينئذٍ يتحوَّل الإسلام من دعوةٍ ، إلى ثاراتٍ تُنسى معها فكرتُه الأساسيَّة.

٣ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً اجتناباً لإنشاء معركةٍ ومقتلةٍ داخل كلِّ بيت ، فلم تكن هناك سلطةٌ نظاميَّةٌ عامَّةٌ هي التي تعذِّب المؤمنين ، وإنَّما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كلِّ فردٍ ، ومعنى الإذن بالقتال ـ في مثل

هذه البيئة ـ أن تقع معركةٌ ، ومقتلةٌ في كلِّ بيتٍ ، ثمَّ يقال: هذا هو الإسلام!! ولقد قيلت حتَّى والإسلام يأمر بالكفِّ عن القتال! فقد كانت دعاية قريش في المواسم: أنَّ محمداً يفرِّق بين الوالد ، وولده ، فوق تفريقه لقومه ، وعشيرته؛ فكيف لو كان يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولي؟!

٤ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لما يعلمه الله من أنَّ كثيراً من المعاندين ، الَّذين يفتنون المسلمين عن دينهم ، ويعذِّبونهم ، سيكونون من جند الإسلام المخلصين؛ بل من قادته، ألم يكن عمر بن الخطَّاب من بين هؤلاء؟!

٥ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً؛ لأنَّ النَّخوة العربيَّة في بيئةٍ قبليَّةٍ ، من عادتها أن تثور للمظلوم الَّذي يتحمَّل الأذى ، ولا يتراجع ، وبخاصَّةٍ إذا كان الأذى واقعاً على كرام النَّاس فيهم؛ وقد وقعت ظواهر كثيرةٌ تثبت صحَّة هذه النَّظرة في هذه البيئة؛ فابن الدُّغنَّة[(٦٦١)] لم يرضَ أن يترك أبا بكر ـ وهو رجلٌ كريم ـ يهاجرُ ويخرج من مكَّة ورأى في ذلك عاراً على العرب! وعرض عليه جواره ، وحمايته ، واخر هذه الظَّواهر ، نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شِعْب أبي طالب.

٦ ـ وربَّما كان ذلك أيضاً لقلَّة عدد المسلمين حينئذٍ ، وانحصارهم في مكَّة؛ حيث لم تبلغ الدَّعوة إلى بقيَّة الجزيرة ، أو بلغت ، ولكن بصورةٍ متناثرةٍ ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركةٍ داخليَّةٍ بين قريش وبعض أبنائها ، لترى ماذا يكون مصير الموقف؛ ففي مثل

هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتَّى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشِّرك ، ولا يقوم للإسلام في الأرض نظامٌ ، ولا يوجد له كيانٌ واقعيٌّ ، وهو دينٌ جاء ليكون منهج حياةٍ ونظام دنيا واخرة.

٧ ـ أنَّه لم تكن هناك ضرورةٌ قاهرةٌ ملحَّةٌ لتجاوز هذه الاعتبارات كلِّها ، والأمر بالقتال ودفع الأذى؛ لأنَّ الأمر الأساسيَّ في هذه الدَّعوة كان قائماً ، ومحقَّقاً ، وهو (وجود الدَّعوة) ، ووجودها في شخص الدَّاعية محمَّد (ص) ، وشخصه في حماية سيوف بني هاشم ، فلا تمتدُّ إليه يدٌ إلا وهي مهدَّدة بالقطع؛ ولذلك لا يجرؤ أحدٌ على منعه من إبلاغ الدَّعوة ، وإعلانها في ندوات قريشٍ حول الكعبة ، ومِنْ فوق جبل الصفا ، وفي الاجتماعات العامَّة ، ولا يجرؤ أحدٌ على سجنه أو قتله ، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله.

إنَّ هذه الاعتبارات كلَّها ـ فيما نحسب ـ كانت بعض ما اقتضت حكمةُ الله معه أن يأمر المسلمين بكفِّ أيديهم ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزكاة؛ لتتمَّ تربيتهم ، وإعدادهم ، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة

في الوقت المناسب ، وليُخرجوا أنفسهم من المسألة كلِّها ، فلا يكون لذواتهم فيها حظٌّ؛ لتكون خالصةً ، وفي سبيل الله[(٦٦٢)].

وقد تعلَّم الصَّحابة من القران الكريم فقه المصالح والمفاسد ، وكيفية التَّعامل مع هذا الفقه من خلال الواقع ، قال تعالى: {وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ١٠٨] .

وهكذا تعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم: أنَّ المصلحة إنْ أدَّت إلى مفسدةٍ أعظمَ؛ تُتْرَكْ[(٦٦٣)] ، وفي هذا تهذيبٌ أخلاقيٌّ ، وسموٌّ إيمانيٌّ ، وترفُّعٌ عن مجاراة السُّفهاء الَّذين يجهلون الحقائق ، وتخلو أفئدتهم من معرفة الله وتقديسه ، وقد ذكر العلماء: أنَّ الحكم باقٍ في الأمَّة على كلِّ حالٍ ، فمتى كان الكافر في منعةٍ ، وغير خاضع لسلطان الإسلام والمسلمين ، وخيفة أن يُسبَّ الإسلامُ ، أو النَّبيُّ (ص) أو اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فلا يحلُّ لمسلمٍ أن يسبَّ صلبانهم ، ولا دينهم ، ولا كنائسهم ، ولا أن يتعرَّض إلى ما يؤدِّي إلى ذلك؛ لأنَّه فعلٌ بمنزلة التَّحريض على المعصية ، وهذا نوعٌ من الموادعة ، ودليلٌ على وجوب الحكم بسدِّ الذَّرائع[(٦٦٤)].

والنَّاظر في الفترة المكِّيَّة ـ والَّتي كانت ثلاثة عشر عاماً ، كلُّها في تربيةٍ ، وإعدادٍ وغرسٍ لمفاهيم (لا إله إلا الله) ـ يدرك ما لأهمِّيَّة هذه العقيدة من شأنٍ في عدم الاستعجال واستباق

الزَّمن ، فالعقيدة بحاجةٍ إلى غرسٍ يُتَعَهَّد بالرِّعاية ، والعناية ، والمداومة؛ بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيبٌ ، وما أجدرَ الدُّعاةَ إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى (ص) لأصحابه على هذه العقيدة وقفةً طويلةً ، فيأخذوا منها العبرة والأسوة؛ لأنَّه لا يقف في وجه الجاهليَّة ـ أيّاً كانت قديمةً ، أو حديثةً ، أو مستقبلةً ـ إلا رجالٌ اختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الرَّبَّانيَّة ، وتعمَّقت جذور شجرة التَّوحيد في نفوسهم[(٦٦٥)].

كان رسول الله (ص) قد أمر أصحابه بضبط النَّفس والتَّحلِّي بالصَّبر ، وكان يربِّي أصحابه على عينه ، ويوجِّههم نحو توثيق الصِّلة بالله ، والتَّقرُّب إليه بالعبادة ، وقد نزلت الايات في المرحلة المكِّيَّة: {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ *قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً *نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً *أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً *} [المزمل: ١ ـ ٤] ، فقد أرشدت سورة المزمِّل الصَّحابة إلى حاجة الدُّعاة إلى قيام الليل ، والدَّوام على الذِّكر ، والتَّوكُّل على الله في جميع الأمور ، وضرورة الصَّبر ، ومع الصَّبر الهجر الجميل ، والاستغفار بعد الأعمال الصَّالحة.

كانت الايات الأولى من سورة المزّمّل ، تأمر النَّبيَّ (ص) أن يخصِّص شطراً من اللَّيل للصَّلاة ، وقد خيَّره الله تعالى أن يقوم للصَّلاة نصف اللَّيل ، أو يزيد عليه ، أو ينقص منه ، فقام النَّبيُّ (ص) ، وأصحابُه معه قريباً من عامٍ ، حتَّى ورمت أقدامهم ، فنزل التَّخفيف عنهم بعد أن علم الله منهم اجتهادهم في طلب رضاه ، وتشميرهم لتنفيذ أمره ومبتغاه ، فرحمهم ربُّهم ، فخفَّف عنهم ، فقال: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَِنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ} [المزمل: ٢٠].

كان امتحانهم في الفُرُشِ ، ومقاومة النَّوم ، ومألوفات النَّفس؛ لتربيتهم على المجاهدة ، وتحريرهم من الخضوع لأهواء النفس تمهيداً لحمل زمام القيادة ، والتَّوجيه في عالمهم؛ إذ لابدَّ من إعدادٍ روحيٍّ عالٍ لهم ، وقد اختارهم الله لحمل رسالته ، وائتمنهم على دعوته ، واتَّخذ منهم شهداء على النَّاس ، فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التَّاريخية ،كانت أمامهم المهمات العظيمة في دعوة النَّاس إلى التَّوحيد ، وتخليصهم من الشِّرك ، وهي مهمَّةٌ عظيمةٌ يقدر على تنفيذها أولئك الذين {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا}

وقد وصف الله قيام اللَّيل ، والصَّلاة فيه ، وقراءة القران ترتيلاً ـ أي: مع البيان والتُّؤدة ـ بقوله: ؛ فهو أثبت أثراً في النَّفس مع {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلاً *} اللَّيل ، وهدأة الخلق ، حيث تخلو من شواغلها ، وتفرغ للذِّكر والمناجاة بعيداً عن علائق الدُّنيا ، وشواغل النَّهار ، وبذلك يتحقَّق الاستعداد اللازم لتلقِّي الوحي الإلهيِّ: والقول الثَّقيل هو القران {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً *} ، وقد ظهر أثر هذا الإعداد الدَّقيق للمسلمين الأوائل ، في قدرتهم على تحمُّل أعباء الجهاد وإنشاء الدَّولة بالمدينة ، وفي إخلاصهم العميق للإسلام ، وتضحيتهم من أجل إقامته في دنيا النَّاس ، ونشره بين العالمين[(٦٦٦)].

لقد كان النَّبيُّ (ص) مهتمّاً بجبهته الدَّاخلية ، وحريصاً على تعبئة أصحابه بالعقيدة القويَّة ، التي لا تتزعزع ، ولا تلين ، وكان هذا مبعثاً لروح معنويَّةٍ مرتفعةٍ ، وقويَّةٍ للدِّفاع وتحمُّل العذاب والأذى في سبيل الدَّعوة ، وأصبحت الجماعة الأولى وَحْدَةً متماسكةً ، لا تؤثِّر فيها حملات العدوِّ النَّفسيَّة ، ولا تجد لها مكاناً في

هذه الجماعة ، عن طريق المؤاخاة بين المسلمين ، فقد أصبحت رابطة الأخوَّة في الله تزيد على رابطة الدَّم ، والنَّسب ، وتفضلها في الدِّين الإسلاميِّ.

وتعايش الرَّعيل الأوَّل بمعاني الأخوَّة الرَّفيعة ، القائمة على الحبِّ ، والمودَّة ، والإيثار ، وكانت أحاديث رسول الله (ص) تفعل فعلها في نفوس الصحابة ، فكان (ص) يحثُّ المسلمين على الأخوَّة ، والتَّرابط ، والتَّعاون وتفريج الكرب ، لا لشيءٍ إلا لرضا الله سبحانه ، لا نظير خدمةٍ مقابلةٍ ، أو نحو ذلك ، وإنَّما يفعل المسلم ذلك ابتغاء وجه الله وحده ، وهذه المبادىء هي سرُّ استمرار الأخوَّة الإسلاميَّة ، وتماسك المجتمع الإسلاميِّ[(٦٦٧)] ، وبيَّن لهم الرَّسول (ص) في الحديث القدسيِّ؛ الذي يرويه عن ربِّه سبحانه وتعالى: «المتحابون في جلالي لهم منابر من نور ، يغبطهم النَّبيُّون والشُّهداء» [الترمذي (٢٣٩٠) وأحمد (٥/٢٣٩)] .

وهكذا أصبحت الأخوَّة الصَّادقة من مقاييس الأعمال ، وأصبحت المحبَّة في الله من أفضل الأعمال ، ولها أفضل الدَّرجات عند الله ، وحذَّر الرَّسول (ص) المسلمين من أن تهون عليهم هذه الرَّابطة ، ووضع لهم أساس الحفاظ عليها ، فقال لهم: «لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ» [البخاري (٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٥٩)] .

واستعان النَّبيُّ (ص) في ربط المجتمع الدَّاخليِّ ، وتوحيد جبهته؛ لتكون قويَّة في مواجهة الحرب النَّفسيَّة الموجَّهة ضدَّها بالمساواة بين أفراد هذه الجبهة ، وإعطائهم الحرِّيَّة ، فهم لا يدخلون إلى هذا المجتمع إلا بالحرِّيَّة ، ثمَّ كانت لهم في داخله حرِّيَّة الرأي وحرِّيَّة التعبير ،

والمشورة ، فقد أتى محمَّدٌ (ص) بمبدأ المساواة بين جميع النَّاس ، الحاكم والمحكوم ، والغنيُّ والفقير ، وبين جميع الطَّبقات ، وقد كان لهذا المبدأ العظيم أكبر الأثر في نفوس أتباع النَّبيِّ (ص) ، وجعلهم يتحابُّون ويتماسكون ، ويفتدون بأرواحهم ، ويدافعون عنه بكلِّ ما أوتوا من قوَّةٍ وعزيمةٍ؛ فهو (ص) لم يقرَّ تفاوتاً بين البشر بسبب مولدٍ ، أو أصلٍ ، أو حسبٍ أو نسبٍ ، أو وراثةٍ ، أو لونٍ ، والاختلاف في الأنساب والأجناس ، والألوان لا يؤدِّي إلى اختلافٍ في الحقوق ، والواجبات أو العبادات؛ فالكلُّ أمام الله سواسيةٌ ، وعندما طلب أشراف مكَّة من رسول الله (ص) أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس العبيد والضُّعفاء ، حتَّى لا يضمَّهم وإيَّاهم مجلسٌ واحد؛ بيَّن الرَّسول (ص) أنَّ جميع النَّاس متساوون في تلقِّي الوحي ، والهداية.

ورفض كفَّار مكَّة ، وساداتُها في ذلك الوقت أن يجلسوا مع العبيد ، ومَنْ يعتبرونهم ضعفاء أذلاَّء من أتباع محمَّدٍ (ص) ، فنزل القران الكريم بقوله تعالى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ

يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا *} [الكهف: ٢٨]، وقوله تعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ *} [الأنعام: ٥٢.٥٣] ، بل إنَّ النَّبيَّ (ص) لما أعرض عن ابن أمّ مكتومٍ الأعمى ، منشغلاً بمحاورة بعض الأشراف؛ عاتبه الله أشدَّ العتاب، كما في الايات: {عَبَسَ وَتَوَلَّى *أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى *وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى *وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى *وَهُوَ يَخْشَى *فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى *كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ *فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ *} [عبس: ١.١٢].

وكان من أكبر أساليب النَّبيّ (ص) في ربطه المجتمع الإسلاميَّ ، وتوحيده ، وتقويته للجبهة الدَّاخلية ، وجعلها قويَّة البنيان متماسكةً ما دعا إليه (ص) من التَّكافل المادِّيّ والمعنويّ بين المسلمين؛ ليعين منهم القويُّ الضَّعيف ، وليعطف الغنيُّ على الفقير ، ولم يترك (ص) ثغرةً واحدةً تنفذ منها الحرب النفسيَّة إلى هذا الصَّفِّ الإسلاميِّ الأوَّل ، وأصبحت الجماعة الأولى صخرةً عظيمةً تحطَّمت عليها كلُّ الجهود والخطط؛ الَّتي بذلها زعماء مكَّة للقضاء على الدَّعوة[(٦٦٨)].

سادساً: أثر القران الكريم في رفع معنويات الصَّحابة:

كان للقران الكريم أثرٌ عظيم في شدِّ أزر المؤمنين من جانبٍ ، وتوعُّده الكفار بالعذاب من جانبٍ اخر ، ممَّا كان له وقع القنابل على نفوسهم ، وقد كان دفاع القران الكريم عن الصَّحابة يتمثَّل في نقطتين:

الأولى: حثُّ الرَّسول (ص) على رعايتهم ، وحسن مجالستهم ، واستقبالهم ، ومعاتبته على بعض المواقف الَّتي ترك فيها بعض الصَّحابة؛ لانشغاله بأمر الدَّعوة أيضاً.

الثانية: التَّخفيف عن الصَّحابة ، بضرب الأمثلة والقصص لهم ، من الأمم السَّابقة ، وأنبيائها ، وكيف لاقوا مِنْ قومهم الأذى والعذاب؛ ليصبروا ، ويستخفُّوا بما يلاقون ، وأيضاً بمدح بعض تصرُّفاتهم ، ثمَّ بوعدهم بالثَّواب ، والنَّعيم المقيم في الجنَّة ، وكذلك بالتَّنديد بأعدائهم الَّذين كانوا يذيقونهم الألم والأذى[(٦٦٩)].

أما النُّقطة الأولى: حينما كان النَّبي (ص) يجلس في المسجد مع المستضعفين من أصحابه؛ مثل: خبَّاب، وعمَّار، وابن فكيهة يسار مولى صفوان بن أميَّة ، وصهيب ، وأشباههم ، فكانت قريش تهزأ بهم ، ويقول

بعضهم لبعضٍ: هؤلاء أصحابه كما ترون ، ثمَّ يقولون: أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحقِّ ، لو كان ما جاء به محمَّدٌ خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ، وما خصَّهم الله به دوننا[(٦٧٠)].

وردَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ على استهزاء هؤلاء الكفَّار ، مبيِّناً لهم: أنَّ رضا الله على عباده ، لا يتوقَّف على منزلتهم ، ولا مكانتهم بين النَّاس في الدنيا ، كما يؤكِّد لرسوله (ص) هذا المفهوم ، حتَّى لا يتأثَّر بما يقوله الكفَّار ، من محاولات الانتقاص من شأن هؤلاء الصَّحابة ، ومبيّناً له أيضاً مكانتهم ، فيقول الله تبارك وتعالى: {وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ *وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [الأنعام: ٥٢ ـ ٥٤] .

وهكذا بيَّن الله لرسوله (ص) شأن هؤلاء الصحابة ، وقيمتهم ، ومنزلتهم الَّتي يجهلها ، أو يتجاهلها الكفَّار ، ويحاولون أن ينالوا منها؛ بل ويزيد الله على ذلك أن ينهى الرَّسولَ (ص) عن طردهم ، كما يأمره بحسن تحيَّتهم ، ويأمره أيضاً أن يبشِّرهم بأنَّ الله سبحانه قد وعدهم بمغفرة ذنوبهم بعد توبتهم.

كيف تكون الرُّوح المعنويَّة لهؤلاء؟! وكيف يجدون الأذى من الكفَّار بعد ذلك؟! إنَّهم سيفرحون بهذا الأذى؛ الذي وصلوا بسببه إلى هذه المنازل العظيمة[(٦٧١)].

ثمَّ نرى عتاب الله لرسوله (ص) في اياتٍ تتلى إلى يوم القيامة ، وكان هذا العتاب في شأن رجلٍ فقير أعمى من الصَّحابة ، أعرض عنه الرَّسول (ص) مرَّةً واحدةً ، ولم يجبه عن سؤاله لانشغاله بدعوة بعض أشراف مكَّة[(٦٧٢)].

قال تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى *أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى *وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى *أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى * أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى *فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى *وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى *وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى *وَهُوَ يَخْشَى *فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى *} [عبس: ١ ـ ١٠] .

إنَّه لا مجال للامتيازات في دعوة الحقِّ ، بسبب الحسب ، والنَّسب ، أو المال والجاه ، فهي إنَّما جاءت لتأصيل النَّظرة إلى الإنسان ، وبيان وحدة الأصل ، وما تقتضيه من المساواة ، والتكافؤ ، ومن هنا يمكن تعليل شدَّة أسلوب العتاب الَّذي وجَّهه الله تعالى لرسوله (ص) ، للاهتمام الكبير الَّذي أظهره لأُبيِّ بن

خلف ، على حساب استقباله لابن أمِّ مكتوم الضعيف رضي الله عنه ، فابن أمِّ مكتوم يرجح في ميزان الحقِّ على البلايين من أمثال أُبيِّ بن خلف[(٦٧٣)] لعنه الله!

وكانت لهذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، استفاد منها الرَّعيل الأوَّل ومَنْ جاء بعدهم من المسلمين ، وَمِنْ أهمِّ هذه الدُّروس الإقبال على المؤمنين؛ فإنَّ على الدُّعاة البلاغ ، وليس عليهم الهداية ، ففي قصَّة الأعمى دليلٌ على نبوَّة محمَّدٍ (ص) ، فلو لم يكن نبيُّنا محمَّدٌ (ص) رسولَ الله؛ لكتم هذه الحادثة ، ولم يخبر النَّاس بها؛ لما فيها من عتابٍ له (ص) ، ولو كان كاتماً شيئاً من الوحي؛ لكتم هذه الايات ، وايات قصَّة زيدٍ ، وزينب بنت جحش رضي الله عنهما[(٦٧٤)] ، فعلى الدُّعاة تقديم أهل الخير ، والإيمان[(٦٧٥)].

أما النقطة الثَّانية في دفاع القران الكريم عن الصَّحابة ، فقد كانت بالتَّخفيف عنهم ، وكان أهمَّ وسائل التَّخفيف إظهارُ: أنَّ هذا الأذى الَّذي يلقونه لم يكن فريداً من نوعه؛ وإنَّما حدث قبل ذلك مثله ، وأشدُّ منه ، كان القصص الَّذي يتحدَّث عن حياة الرُّسل في القران الكريم من لدن نوحٍ ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ـ عليهم السَّلام ـ تثبيتاً للمسلمين ، ولروح التَّضحية ، والصَّبر فيهم من أجل الدِّين ، وبيَّن لهم القدوة الحسنة الَّتي كانت في العصور القديمة؛ فالقصص القرانيُّ يحوي الكثير من العبر ، والحكم ، والأمثال.

كان أيضاً من أساليب القران في تخفيفه عن الصَّحابة ، والدِّفاع عنهم أسلوبه في مدحهم ، ومدح أعمالهم في القران الكريم ، يقرؤها النَّاس إلى أن يرث الله الأرض ، ومَنْ عليها؛ كما حدث مع الصِّدِّيق لما أعتق سبع رقابٍ من الصَّحابة؛ لينقذهم من الأذى ، والتَّعذيب ، وفي الوقت نفسه يندِّد بأميَّة بن خلف ، الَّذي كان يعذِّب بلال بن أبي رباح ، فالقران بدستوره الأخلاقي قد قدَّم قواعد الثَّواب ، والعقاب ، وشجَّع المؤمنين ، وحذَّر المخالفين ، وحمل هذا الأسلوب مغزًى عميقاً ، فقد أنار الطريق للصَّحابة ، وكان غمَّةً وكرباً على نفوس الكفار المتردِّدين؛ إذ جاء قول الله تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى *لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى *الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى *وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى *الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى *وَمَا لأِحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى *إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى *وَلَسَوْفَ يَرْضَى *} [الليل: ١٤ ـ ٢١] .

وكذلك خلَّد القران ثبات وفد نصارى نجران على الإسلام ، برغم استهزاء الكفَّار ، ومحاولاتهم لصدِّهم عن الإسلام ، لذا نزلت فيهم بعض الايات كما يذكر بعض المؤرِّخين[(٦٧٦)] ، قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ *وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ *أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَإِذَا سَمِعُوا

اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ *} [القصص: ٥٢ ـ ٥٥] .

وكانت الايات بعد ذلك تبشِّر الصَّحابة بالثَّواب العظيم ، وبالنَّعيم المقيم في الجنَّة ، جزاءً بما صبروا ، وما تحمَّلوا من الأذى ، وتشجيعاً لهم على الاستمرار في طريق الدَّعوة غير مبالين بما يسمعونه ، وما يلاقونه ، فالنَّصر ، والغلبة لهم في النِّهاية ، كما بيَّن لهم النَّبيُّ (ص) في أحاديثه ، وكما بيَّن لهم القران ، كما بيَّن القران الكريم في الوقت نفسه مصير أعدائهم ، كفَّار مكَّة. قال تعالى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ * يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ *} [غافر: ٥١ ـ ٥٢] ، وبيَّن فضل تمسُّكهم بالقران وإيمانهم به. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ *لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ *}[فاطر: ٢٩ ـ ٣٠] .

وبيَّن ـ سبحانه ـ فضل التَّمسُّك بعبادته برغم الأذى ، والتعذيب ، وبيَّن جزاء الصَّبر على ذلك ، قال تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ * قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [الزمر: ٩ ـ ١٠] .

وهكذا كان القران الكريم يخفِّف عن الصَّحابة ، ويدافع عنهم ، ويحصِّنهم ضدَّ الحرب النَّفسيَّة ، وبذلك لم تؤثِّر تلك الحملات ، ووسائل التَّعذيب على قلوب الصَّحابة بفضل المنهج القرانيّ ، والأساليب النَّبويَّة الحكيمة ، فلقد تحطَّمت كلُّ أساليب المشركين في محاربة الرَّسول (ص) وأصحابه أمام العقيدة الصَّحيحة ، والمنهج السَّليم؛ الَّذي تَشَرَّبهُ الرَّعيل الأوَّل.

سابعاً: أسلوب المفاوضات:

اجتمع المشركون يوماً ، فقالوا: انظروا أعلمكم بالسِّحر، والكهانة ، والشِّعر ، فليأت هذا الرَّجل الَّذي فرَّق جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعاب ديننا؛ فليكلِّمه ، ولينظر ماذا يردُّ عليه ؟ فقالوا: ما نعلم أحداً غير عتبةَ بن ربيعة ، فقالوا: أنت يا أبا الوليد! فأتاه عتبة ، فقال: يا محمد! أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله (ص) . قال: فإن كنت تزعم: أنَّ هؤلاء خيرٌ منك؛ فقد عبدوا الالهة الَّتي عبت، وإن كنت تزعم: أنَّك خيرٌ منهم ، فتكلَّم؛ حتَّى نسمع قولك ، إنَّا والله ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك! فرَّقت جماعتنا ، وشتَّت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب؛ حتَّى لقد طار فيهم: أنَّ في قريش

ساحراً، وأنَّ في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى! أن يقوم بعضنا إلى بعضٍ بالسيُّوف حتَّى نتفانى.

أيُّها الرَّجل! إن كان إنَّما بك الحاجة؛ جمعنا لك من أموالنا حتَّى تكون أغنى قريش رجلاً ، وإن كان إنَّما بك الباءة فاختر أيَّ نساء قريش شئت؛ فلنزوِّجك عشراً. فقال رسول الله (ص) : «فرغت؟» قال: نعم ! فقال رسول الله (ص) : {حم *تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ *كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *} [فصلت: ١ ـ ٣] إلى أن بلغ {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ *} [فصلت: ١٣] ، فقال عتبة: حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: «لا» فرجع إلى قريشٍ ، فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنَّكم تكلِّمونه إلا كلَّمته ، قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم [ابن هشام (٣١٣/١ ـ ٣١٤) والبيهقي في الكبرى (٢٠٣/٢ ـ ٢٠٤)][(٦٧٧)] .

وفي رواية ابن إسحاق: فلمَّا جلس إليهم؛ قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟! قال: ورائي أني سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ مثله قطُّ ! والله ما هو بالشعر ! ولا بالسِّحر ، ولا بالكهانة.. يا معشر قريش! أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلُّوا بين هذا الرَّجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونَّن لقوله الَّذي سمعت منه نبأٌ عظيم ، فإن تُصِبْه العرب؛ فقد كُفيتموه

بغيركم ، وإن يَظْهَر على العرب ، فملكه مُلْككم ، وعزُّه عزُّكم ، وكنتم أسعدَ النَّاس به ، قالوا: سَحَرَك والله يا أبا الوليد بلسانه؟ قال: هذا رأيي فيه؛ فاصنعوا ما بدا لكم[(٦٧٨)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ لم يدخل الرَّسول (ص) في معركةٍ جانبيَّةٍ حول أفضليته على أبيه ، وجدِّه ، أو أفضليتهما عليه ، ولو فعل ذلك لقُضِيَ الأمرُ دون أن يسمع عتبة شيئاً.

٢ ـ لم يخضْ (ص) معركة جانبيَّةً حول العُروض المغرية ، وغضبه الشَّخصيِّ لهذا الاتِّهام؛ إنَّما ترك ذلك كله لهدفٍ أبعد ، وترك عتبة يعرض كلَّ ما عنده ، وبلغ من أدبه (ص) أن قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟!» فقال: نعم[(٦٧٩)].

٣ ـ كان جواب رسول الله (ص) حاسماً ، وإنَّ اختياره لهذه الايات لدليلٌ على حكمته ، وقد تناولت الايات الكريمة قضايا رئيسيةً كان منها: أنَّ هذا القران تنزيلٌ من الله ، وبيان موقف الكافرين ، وإعراضهم ، وبيان مهمَّة الرَّسول (ص) ، وأنَّه بشرٌ ، وبيان: أنَّ الخالق واحدٌ هو الله ، وأنَّه خالق السَّموات والأرض ، وبيان تكذيب الأمم السَّابقة ، وما أصابها ، وإنذار قريشٍ صاعقةً مثل صاعقة عادٍ ، وثمود[(٦٨٠)].

٤ ـ خطورة المال ، والجاه ، والنِّساء على الدُّعاة ، فكم من الدُّعاة سقط في الطَّريق تحت بريق المال! وكم عُرِضت الالاف من الأموال على الدُّعاة ليكفُّوا عن دعوتهم! والذين ثبتوا أمام إغراء المال هم المقتدون بالنَّبيِّ (ص) ، وخطورة الجاه واضحةٌ؛ لأنَّ الشَّيطان في هذا المجال يزيِّن ، ويغوي بطرقٍ أكبر ، وأمكر ، وأفجر ، والدَّاعية الرَّبَّانيُّ هو الَّذي يتأسَّى برسول الله (ص) في حركته ، وأقواله ، وأفعاله ، ولا ينسى الهدف الذي يعيش ويموت من أجله: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] .

وأمَّا النِّساء؛ فقد قال (ص) : «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجال من النِّساءِ» [البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠)] ، سواءٌ كانت زوجةً تثبِّط الهمَّة عن الدَّعوة ، والجهاد ، أو تسليط بعض الفاجرات عليه لِيُسْقِطْنَه في شباكهنَّ ، أو في تهيئة أجواء البغي ، والإثم ، والمجون ليرتادها ، أيّاً كانت ، فإنَّها فتنةٌ عظيمةٌ في الدِّين ، فهاهي قريش تعرض على رسول الله (ص) نساءها ، يختار

عشراً منها ، أجملهنَّ وأحسنهنَّ يكنَّ زوجاتٍ له؛ إن أرادهنَّ. إنَّ خطر المرأة حين لا تستقيم على منهج الله أشدُّ من خطر السَّيف المصْلَت على الرِّقاب[(٦٨١)] ، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا بسيِّد الخلق (ص) ، ويتذكَّروا دائماً قول يوسف ـ عليه السَّلام ـ: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ *فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [يوسف: ٣٣ ـ ٣٤].

٥ ـ تأثُّر عتبة من موقف النَّبيِّ (ص) ، وكان هذا التأثير واضحاً لدرجة أنَّ أصحابه أقسموا على ذلك التَّأثير قبل أن يخبرهم ، فبعد أن كان العدوُّ ينوي القضاء على الدَّعوة ، إذا به يدعو لعكس ذلك ، فيطلب من قريش أن تخلِّيَ بين محمَّد (ص) ، وما يريد[(٦٨٢)].

٦ ـ استمع الصَّحابة لما حدث بين النَّبيِّ (ص) ، وعتبة ، وكيف رفض حبيبهم (ص) كلَّ عروضه المغرية ، فكان ذلك درساً تربويّاً خالط أحشاءهم ، تعلَّموا منه الثَّبات على المبدأ ، والتَّمسُّك بالعقيدة ، ووضع المغريات تحت أقدامهم.

٧ ـ تعلَّم الصَّحابة من الرَّسول الكريم (ص) الحلم ، ورحابة الصَّدر ، فقد استمع (ص) إلى تُرَّهات عتبة بن ربيعة ، ونيله منه ، وقوله عنه: «إنَّ في قريشٍ ساحراً» و: «إنَّ في قريشٍ كاهناً» ، و: «ما رأينا سَخْلَةً قطُّ أشأم على قومك منك» ، و: «إن كان الذي يأتيك رَئِيّاً من الجنِّ» ، فقد أعرض عنه (ص) ، وأغضَّ عن هذا السِّباب ، بحيث لا يصرفه ذلك عن دعوته ، وتبليغه إيَّاها لسيد بني عبد شمس ، فقد

كانت كلُّ كلمةٍ تصدر من سيِّد الخلق (ص) مبدأً يُحتذى ، وكلُّ تصرفٍ دِيناً يُتَّبع ، وكلُّ إغضاءٍ خُلُقاً يُتأسَّى به[(٦٨٣)].

وذكرت بعض كتب السِّيرة: أنَّ قيادات مكَّة دخلوا في مفاوضاتٍ بعد ذلك مع رسول الله (ص) ، وعرضوا عليه إغراءات تلين أمامها القلوب البشريَّة ، ممَّن أراد الدُّنيا وطمع في مغانمها ، إلا أنَّ رسول الله (ص) اتَّخذ موقفاً حاسماً في وجه الباطل ، دون مراوغة ، أو مداهنةٍ ، أو دخولٍ في دهاءٍ سياسيٍّ ، أو محاولة وجود رابطة استعطافٍ، أو استلطافٍ مع زعماء قريش[(٦٨٤)]؛ لأنَّ قضية العقيدة تقوم على الوضوح ، والصَّراحة ، والبيان ، بعيدةً عن المداهنة ، والتَّنازل؛ ولذلك ردَّ رسولُ الله (ص) : «ما بي ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشَّرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكنَّ الله بعثني إليكم رسولاً ، وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني

أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلَّغْتُكم رسالة ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا ، والاخرة ، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبر لأمر الله حتَّى يحكم الله بيني وبينكم» [ابن هشام (٣١٦/١)][(٦٨٥)].

بهذا الموقف الإيمانيِّ الثَّابت رجع كيدهم في نحورهم ، وثبتت قضيَّةٌ من أخطر قضايا العقيدة الإسلاميَّة ، وهي خلوص العقيدة من أيِّ شائبةٍ غريبةٍ عنها ، سواءٌ في جوهرها ، أو في الوسيلة الموصلة إليها[(٦٨٦)].

{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *}

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين ، واستمساكهم بدينهم ، ورفعة نفوسهم فوق كلِّ باطلٍ؛ بدأت خطوط اليأس في نفوسهم؛ من أنَّ المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم؛ فسلكوا مهزلةً أخرى من مهازلهم الدَّالة على طيش أحلامهم ، ورعونتهم الحمقاء ، فأرسلوا إلى النَّبيِّ (ص) الأسود بن عبد المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأميَّة بن خلف ، والعاص بن وائل ، فقالوا: يا محمد! هلمَّ ، فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً ممَّا نعبد؛ كنَّا قد أخذنا بحظِّنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً ممَّا تعبد؛ كنت قد أخذت بحظِّك منه ، فأنزل الله فيهم: {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ *لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ *وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *} [الكافرون: ١ ـ ٦][(٦٨٧)].

ومثل هذه السُّورة ايات أخرى تشابهها في إعلان البراء من الكفر ، وأهله؛ مثل قوله تعالى: {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ *} [يونس: ٤١] .

وقوله تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لاَ أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ *قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ *} [الأنعام: ٥٦ ـ ٥٧].

ولقد بيَّنت سورة (الكافرون): أنَّ طريق الحقِّ واحدٌ لا عوج فيه ، ولا فجاج له، إنَّه العبادة الخالصة لله وحده ربِّ العالمين ، فنزلت هذه السُّورة على الرَّسول (ص) للمفاصلة الحاسمة بين عبادةٍ ، وعبادة ، ومنهجٍ ، ومنهج ، وتصوُّرٍ ، وتصور ، وطريقٍ ، وطريق. نعم نزلت نفياً بعد نفي ، وجزماً بعد جزم ، وتوكيداً بعد توكيدٍ بأنَّه لا لقاء بين الحقِّ والباطل ، ولا اجتماع بين

النُّور والظلام ، فالاختلاف جوهريٌّ كاملٌ ، يستحيل معه الِّلقاء على شيء في منتصف الطَّريق ، والأمر لا يحتاج إلى مداهنةٍ ، أو مراوغةٍ ، نعم فالأمر هنا ليس مصلحةً ذاتيَّةً ، ولا رغبةً عابرةً ، ولاسُمّاً في عسلٍ ، وليس «الدِّين لله ، والوطن للجميع» كما تزعم الجاهليَّة المعاصرة ، ويدَّعي المنافقون ، والمستغربون الَّذين يتَّبعون الضَّالِّين ، والمغضوب عليهم ، والملحدين أعداء الله سبحانه في كلِّ مكان.

كان الردُّ حاسماً على زعماء قريش المشركين ، ولا مساومة ، ولا مشابهة ، ولا حلول وسطاً ، ولا ترضياتٍ شخصيَّةً؛ فإنَّ الجاهليَّة جاهليَّةٌ ، والإسلام إسلامٌ ، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، والفارق بينهم كبير ، كالفرق بين التِّبْرِ[(٦٨٨)] والتُّراب ، والسَّبيل الوحيد هو الخروج عن الجاهليَّة بجملتها إلى الإسلام بجملته ، عبادةً وحكماً ، وإلا فهي البراءة التَّامَّة ، والمفاصلة الكاملة ، والحسم الصَّريح بين الحقِّ ، والباطل في كلِّ زمانٍ {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[(٦٨٩)]

وجاء وفدٌ اخر بعد فشل الوفد السَّابق ، يتكوَّن من: عبد الله بن أبي أميَّة ، والوليد بن المغيرة ، ومُكْرَز بن حفصٍ ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيسٍ ، والعاص بن عامرٍ[(٦٨٩)]؛ جاء ليقدِّم عرضاً اخر للتَّنازل عن بعض ما في القران ، فطلبوا من النَّبيِّ (ص) أن ينزع من القران ما يغيظهم من ذمِّ الهتهم ، فأنزل الله لهم جواباً حاسماً ، قال تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *}[يونس: ١٥] .

وهذه الوفود ، والمفاوضات تبيِّن مدى الفشل الَّذي أصاب زعماء قريشٍ في عدم حصولهم على التَّنازل الكلِّيِّ عن الإسلام ، الأمر الَّذي جعلها تلجأ إلى طلب الحصول على شيءٍ من التَّنازل ، ويلاحظ: أنَّ التنازل الَّذي طلبوه في المرة الأولى أكبر ممَّا طلبوه في المرة الثانية ، وهذا يدلُّ على تدرُّجهم في التَّنازل من

الأكبر إلى الأصغر؛ لعلَّهم يجدون اذاناً صاغيةً لدى قائد الدَّعوة ، كما أنَّهم كانوا يغيِّرون الأشخاص المتفاوضين ، فالَّذين تفاوضوا مع الرَّسول (ص) في المرَّة الأولى ، غير الَّذين تفاوضوا معه في المرَّة الثَّانية ، ما خلا الوليد بن المغيرة؛ وذلك حتَّى لا تتكرَّر الوجوه ، وفي الوقت ذاته تنويع الكفاءات ، والعقول المفاوضة ، فربَّما أثَّر ذلك في نظرهم بعض الشَّيء ، وفي هذا درسٌ للدَّعاة إلى يوم القيامة ، ألا تنازل عن الإسلام . ولو كان هذا التنازل شيئاً يسيراً . فالإسلام دعوةٌ ربَّانيَّة ، ولا مجال فيها للمساومة إطلاقاً ، مهما كانت الأسباب ، والدَّوافع ، والمبررات ، «وعلى الدُّعاة اليوم الحذر من مثل هذه العروض ،

والإغراءات المادِّيَّة ، الَّتي قد لا تُعرض بطريقٍ مباشرٍ ، فقد تأخذ شكلاً غير مباشرٍ ، في شكل وظائف عُليا ، أو عقود عملٍ مجزيةٍ ، أو صفقاتٍ تجاريَّةٍ مربحةٍ ، وهذا ما تخطِّط له المؤسَّسات العالميَّة المشبوهة؛ لصرف الدُّعاة عن دعوتهم ، وبخاصَّةٍ القياديون منهم ، وهناك تعاونٌ تامٌّ في تبادل المعلومات ، بين هذه المؤسَّسات الَّتي تعمل من مواقع متعدِّدة لتدمير العالم الإسلامي»[(٦٩٠)] ولقد جاء في التَّقرير الَّذي قدَّمه «ريتشارد ب. ميشيل» ، أحد كبار العاملين في الشَّرق الأوسط ، لرصد الصَّحوة الإسلاميَّة ، وتقديم معلوماتٍ ، وتقارير عنها ، جاء في هذا التَّقرير ، وضع تصور لخطةٍ جديدةٍ يمكن من خلالها تصفية الحركات الإسلاميَّة ، فكان من بين فقرات هذا التَّقرير فقرةٌ خاصَّةٌ بإغراء قيادات الدَّعوة ، فاقترح لتحقيق ذلك الإغراء ما يلي:

١ . تعيين مَنْ يمكن إغراؤهم بالوظائف العليا؛ حيث يتمُّ شغلهم بالمشروعات الإسلاميَّة فارغة المضمون ، وغيرها من الأعمال الَّتي تستنفد جهدهم ، وذلك مع الإغداق عليهم أدبيّاً ومادِّياً ، وتقديم تسهيلاتٍ كبيرةٍ لذويهم ، وبذلك يتمُّ استهلاكهم محلِّياً ، وفصلهم عن قواعدهم الجماهيريَّة.

٢ . العمل على جذب ذوي الميول التِّجاريَّة والاقتصاديَّة ، إلى المساهمة في المشروعات ذات الأهداف المشبوهة ، الَّتي تقام في المنطقة العربيَّة لصالح أعدائها.

٣ . العمل على إيجاد فرص عملٍ ، وعقودٍ مجزيةٍ في البلاد العربيَّة الغنيَّة ، الأمر الَّذي يؤدِّي إلى بُعدهم عن النَّشاط الإسلاميّ[(٦٩١)].

فالمتدبِّر في النُّقاط الثلاث السَّابقة ، يلاحظ: أنَّها إغراءاتٌ مادِّيَّةٌ غير مباشرةٍ ، وبنظرةٍ فاحصةٍ للعالم الإسلاميّ اليوم نلاحظ: أن هذه النُّقاط تنفَّذ بِكلِّ هدوء ، فقد أشغلت المناصب العليا بعض الدَّعاة ، واستهلكت بعض الدُّول العربيَّة الغنية جمّاً غفيراً من الدُّعاة ، وألهت التِّجارة بعضهم[(٦٩٢)].

ثامناً: أسلوب المجادلة ، ومحاولة التَّعجيز:

كان النَّبيُّ (ص) قد أقام الحجج ، والبراهين ، والأدلَّة على صحَّة دعوته ، وكان (ص) يتقن اختيار الأوقات ، وانتهاز الفرص والمناسبات ، ويتصدَّى للردِّ على الشُّبهات مهما كان نوعها ، وقد استخدم في مجادلته مع الكفار أساليب كثيرةً ، استنبطها من كتاب الله تعالى في

إقامة الحجَّة العقليَّة ، واستخدام الأقيسة المنطقيَّة ، واستحضار التَّفكير ، والتأمُّل ، ومن الأساليب الَّتي استخدمها (ص) مع كفَّار مكَّة:

١ ـ أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين: أحدهما هو الخير المطلوب التَّرغيب فيه ، والاخر هو الشَّرُّ المطلوب التَّرهيب منه ، وذلك باستثارة العقل للتفكُّر في كلا الأمرين ، وعاقبتهما ، ثمَّ الوصول ـ بعد المقارنة ـ إلى تفضيل الخير ، واتِّباعه.

قال تعالى: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *} [الأنعام: ١٢٢] .

قال ابن كثيرٌ في تفسيره: «هذا مثلٌ ضربه الله تعالى للمؤمن الَّذي كان ميتاً؛ أي: في الضلالة هالكاً حائراً ، فأحياه الله؛ أي: أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ، ووفَّقه لاتِّباع رسله»[(٦٩٣)].

٢ ـ أسلوب التَّقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقليَّة إلى الإقرار بالمطلوب ، الَّذي هو مضمون الدَّعوة ، قال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ *أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ *أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ *أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ *أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ *أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ *أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ *فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ *} [الطور: ٣٥ ـ ٤٥] .

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا المقام في إثبات الرُّبوبية ، وتوحيد الألوهيَّة ، فقال تعالى: أي: أَوُجِدُوا من غير مُوجدٍ؟ أم {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ *} أوْجَدُوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ، ولا هذا؛ بل الله هو الَّذي خلقهم ، وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً»[(٦٩٤)].

وهذه الاية في غاية القوَّة من حيث الحجَّة العقليَّة؛ لأنَّ «وجودهم هكذا من غير شيءٍ أمر ينكره منطق الفطرة ابتداءً ، ولا يحتاج إلى جدلٍ كثيرٍ ، أو قليل ، أمَّا أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم؛ فأمرٌ لم يدَّعوه

، ولا يدَّعيه مخلوقٌ ، وإذا كان هذان الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة؛ فإنَّه لا يبقى سوى الحقيقة الَّتي يقولها القران ، وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد

الَّذي لا يشاركه أحدٌ»[(٦٩٥)] والتَّعبير بالفطرة مضمون الأمر المقرَّر بداهةً في العقل.

وتأمَّلْ هذا الإلزام بالإقرار بربوبيَّة الله وألوهيته ، فيما ذكره السَّعديُّ في تفسيره ، حيث قال: «وهذا استدلالٌ عليهم ، بأمرٍ لا يمكنهم فيه إلا التَّسليم للحقِّ ، أو الخروج عن موجب العقل والدِّين ، وبيان ذلك: أنَّهم منكرون لتوحيد الله ، مكذِّبون لرسوله (ص) ، وذلك مُستلزِمٌ لإنكار: أنَّ الله خلقهم ، وقد تقرَّر في العقل مع الشَّرع: أنَّ ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمورٍ: إمَّا أنَّهم خلقوا من غير شيءٍ ، أي: لا خالق خلقهم ، بل وجدوا من غير إيجادٍ ، ولا موجد ، وهذا عين المحال ، أم هم الخالقون لأنفسهم ، وهذا أيضاً محالٌ؛ فإنَّه لا يُتصوَّر أن يوجد أحدٌ نفسه ، فإذا بطل هذان الأمران ، وبان استحالتهما ، تعيَّن القسم الثَّالث ، وهو أنَّ الله هو الَّذي خلقهم ، وإذا تعيَّن ذلك عُلم: أنَّ الله هو المعبود وحده ، الَّذي لا تنبغي العبادة ، ولا تصلح إلا له تعالى»[(٦٩٦)].

٣ ـ أسلوب الإمرار ، والإبطال:

وهو أسلوبٌ قويٌّ في إفحام المعاندين أصحاب الغرور ، والصَّلَف[(٦٩٧)] بإمرار أقوالهم ، وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة؛ منعاً للجدل ، والنِّزاع ، خلوصاً إلى حجَّةٍ قاطعةٍ تدمغهم ، وتبطل بها حجَّتهم تلك ، فتبطل الأولى بالتَّبع ، وفي قصَّة موسى ـ عليه السَّلام ـ مع فرعون ، نموذجٌ مطوَّلٌ لهذا الأسلوب؛ حيث أعرض موسى عن كلِّ اعتراضٍ وشبهةٍ أوردها فرعون ، ومضى إلى إبطال دعوى الإلهية لفرعون ، من خلال إقامة الحجَّة العقليَّة الظَّاهرة على ربوبيَّة الله ، وألوهيَّته[(٦٩٨)] ، وذلك في الايات من سورة الشُّعراء ، قال تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ *قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ *قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ *قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ *قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ *قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ *}[الشعراء: ٢٣ ـ ٢٩].

وهكذا كانت الأساليب القرانيَّة الكريمة ، هي الرَّكيزة ، في مجادلة رسول الله (ص) للمشركين ، ولما احتار المشركون في أمر الرَّسول (ص) ، ولم يكونوا على استعدادٍ في تصديقه: أنَّه رسولٌ من عند الله ، ليس لأنَّهم يكذِّبونه ، وإنَّما عناداً وكفراً ، كما قال تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *} [الأنعام: ٣٣] ، هداهم

تفكيرُهم المعوَجُّ إلى أن يطلبوا من الرَّسول (ص) مطالب ليس الغرض منها التَّأكد من صدق النَّبيِّ (ص) ولكن غرضهم منها التعنُّت والتَّعجيز ، وهذا ما طلبوه من الرَّسول (ص) :

١ . أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً؛ أي: يُجري لهم الماء عيوناً جاريةً.

٢ . أو تكون له جنَّة من نخيل وعنبٍ يفجِّر الأنهار خلالها تفجيراً؛ أي: تكون له حديقة فيها النَّخل والعنب ، والأنهار تُفَجَّرُ بداخلها.

٣ . أو يسقط السَّماء كسفاً عليهم؛ أي: يسقط السَّماء قطعاً كما سيكون يوم القيامة.

٤ . أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

٥ . أو يكون له بيتٌ من زُخْرُفٍ؛ أي: ذهب.

٦ . أو يرقى في السَّماء؛ أي: يتَّخذ سُلَّماً يرتقي عليه ، ويصعد إلى السَّماء.

٧ . وينزِّل كتاباً من السَّماء يقرؤونه ، يقول مجاهد: أي: مكتوبٌ فيه إلى كلِّ واحدٍ صحيفةً ، هذا كتابٌ من الله لفلان بن فلانٍ ، تصبح موضوعةً عند رأسه[(٦٩٩)].

٨ . طلبوا من رسول الله (ص) أن يدعو لهم ، فيُسَيِّر لهم الجبال ، ويقطع الأرض ، ويبعث من مضى من ابائهم من الموتى[(٧٠٠)].

إنَّ عملية طلب الخوارق والمعجزات ، هي خطَّةٌ متَّبعةٌ على مدى تاريخ البشريَّة الطَّويل ، وبرغم حرص النَّبيِّ (ص) على إيمان قومه ، وتفانيه في ذلك ، إلا أنَّه رفض طلبهم هذا؛ لأنَّه علم من ايات القران: أنَّهم إن لم يؤمنوا بعد إجابتهم لما طلبوا؛ عُذِّبُوا عذاباً شديداً ، وكانت إجابته (ص) : «ما بهذا بعثت إليكم ، إنَّما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلَّغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه؛ فهو حظُّكم في الدُّنيا والاخرة ، وإن تردُّوه عليَّ؛ أصبرُ لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم» [سبق تخريجه][(٧٠١)].

وانصرف رسولُ الله (ص) إلى أهله حزيناً أَسِفاً لما فاته ، ممَّا طمِع فيه من قومه حين دعوه ، ولما رأى من مباعدتهم إيَّاه[(٧٠٢)] ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه التعنُّتات ، والردَّ عليها في قوله تعالى: {وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً *وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً *قُلْ

لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً *قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا *} [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٦].

ونزل قوله سبحانه: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ *}[الرعد: ٣١].

إنَّ الحكمة في أنَّهم لم يُجابوا لما طلبوا: أنَّهم لم يسألوا مسترشدين وجادِّين ، وإنَّما سألوا متعنِّتين ، ومستهزئين ، وقد علم الحقُّ سبحانه: أنَّهم لو عاينوا ، وشاهدوا ما طلبوا ، لما امنوا ، وللجُّوا في طغيانهم يعمهون ، ولظلُّوا في غيّهم وضلالهم يتردَّدون ، قال سبحانه: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لاَ يُؤْمِنُونَ *وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ *وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ *} [الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١].

ولهذا اقتضت الحكمة الإلهيَّة ، والرَّحمة الرَّبَّانيَّة ، ألا يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنَّ سنَّته سبحانه: أنَّه إذا طلب قومٌ اياتٍ ، فأجيبوا ، ثمَّ لم يؤمنوا؛ عذَّبهم عذاب الاستئصال ، كما فعل بعادٍ ، وثمود ، وقوم فرعون.

وليس أدلَّ على أنَّ القوم كانوا متعنِّتين ، وساخرين ، ومعوِّقين لا جادِّين ، من أنَّ عندهم القران ، وهو ايةُ الايات ، وبيِّنةُ البيِّنات؛ ولذلك لما سألوا ما اقترحوا من هذه الايات ، وغيرها؛ ردَّ عليهم سبحانه[(٧٠٣)] بقوله: {وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *} [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥٢] .

وقد ذكر عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنه روايةً ، مفادها: أنَّ قريشاً قالت للنَّبيِّ (ص) ادعُ لنا ربك أن يجعل لنا الصَّفا ذهباً ، ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم. قال: فدعا؛ فأتاه

جبريل ، فقال: إنَّ ربك ـ عزَّ وجلَّ ـ يقرأ عليك السَّلام ، ويقول: إن شئت؛ أصبح لهم الصَّفا ذهباً ، فمن كفر بعد ذلك منهم عذَّبته عذاباً لا أعذِّبه أحداً من العالمين ، وإن شئت ، فتحت لهم أبواب التَّوبة ، والرَّحمة ، فقال: بل باب التَّوبة ، والرَّحمة؛ فأنزل الله تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ

بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا *}[الإسراء: ٥٩] [الحاكم (٥٣/١) و(٢٤٠/٤) والبزار (٢٢٢٤) والبيهقي (٥٠/٧)][(٧٠٤)] .

لقد كان هدف زعماء قريش من تلك المطالب ، هو شنُّ حربٍ إعلاميَّةٍ ضدَّ الدَّعوة ، والدَّاعية ، وتامراً على الحقِّ؛ كي تبتعد القبائل العربيَّة عنه (ص) ؛ لأنَّهم يطالبونه بأمورٍ يدركون: أنَّها ليست طبيعة هذه الدَّعوة ، ولهذا أصرُّوا عليها ، بل لقد صرَّحوا بأن لو تحقَّق شيءٌ من ذلك ، فلن يؤمنوا أيضاً بهذه الدَّعوة ، وهذا كلُّه محاولةٌ منهم لإظهار عجز الرَّسول (ص) ، واتِّخاذ ذلك ذريعةً لمنع النَّاس عن اتِّباعه[(٧٠٥)].

تاسعاً: دور اليهود في العهد المكِّيِّ ، واستعانة مشركي مكَّة بهم:

تحدَّث القران الكريم عن بني إسرائيل طويلاً في سورٍ كثيرةٍ ، بلغت خمسين سورةً في المرحلة المكِّيَّة ، وفي المرحلة المدنيَّة كان دور اليهود كبيراً في محاولة إطفاء نور الله ، والقضاء على دعوة الإسلام ، وعلى حياة رسول الله (ص) ، ولم تحظَ مِلَّةٌ من الملل ، ولا قومٌ من الأقوام بالحديث عنهم بمثل هذا الشُّمول ، وهذه التَّفصيلات ، ما حظي به اليهود ، وحديث القران عنهم يتَّسم بمنهجٍ دقيقٍ يتناسب مع المراحل الدَّعوية الَّتي مرَّت بها دعوة الإسلام ، فقد جاءت الايات الكريمة تشير إلى أنَّ غفلة المشركين عن الحقِّ ، الَّذي جاء به رسول الله (ص) ، وعدم اكتراثهم به ، وبدعوته له نماذج بشريَّةٌ تقدَّمتهم؛ مثل: عادٍ ، وثمودٍ ، وفرعون ، وبني إسرائيل ، وقوم تُبَّعٍ ، وأصحاب الرَّس[(٧٠٦)].

اقرأ معي تلك الإشارات ، في قوله تعالى في سورة المزمَّل . وهي السُّورة الثَّالثة في ترتيب النُّزول .[(٧٠٧)]: {{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً *فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا *السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً *إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً *}[المزمل: ١٥ . ١٩] .

وكذلك ما ورد في سورة الأعلى ، وهي السُّورة الثَّامنة في ترتيب النُّزول ، فبعد أن ذكرت

بعض الصِّفات الجليلة لله جلَّ جلاله ، وما أسبغ به من النِّعم الدُّنيويَّة والأخرويَّة على عباده ، وذكر طريق الفلاح في الدُّنيا وأنَّ الاخرة خيرٌ وأبقى ، ختمت السُّورة بقوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى *صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى *} [الأعلى: ١٨ . ١٩] .

وفي سورة الفجر: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ *إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ *الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ *وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ *الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ *فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ *فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ *إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ *} [الفجر: ٦ . ١٤] .

وجاء في سورة النَّجم ذِكْرُ بني إسرائيل، كنماذج بشريَّة تعرَّضت للفتنة ، والاضطهاد، فمنهم من انحرف وسقط في هذا الابتلاء ، ومنهم من صمد ، ونجح في الابتلاء.

قال الله تعالى: {فَأَعْرِضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى * لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى *أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى *وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى *أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى *أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى *وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى *أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى *وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى *وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى *ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى *وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى *} [النجم: ٢٩ ـ ٤٢].

إنَّ تلك المبادأى مقرَّرةٌ في صحف موسى ـ عليه السَّلام ـ المرسل إلى بني إسرائيل ، فليرجعوا إليها إن كانوا في شكٍّ من أمر محمَّد (ص) ، وكذلك في صحف إبراهيم ، وهم «أي: قريش» يزعمون أنَّهم ينتمون إليه ، ويعظِّمون شرائعه؛ الَّتي توارثوها ، كما هو حالهم في القيام على سدانة الكعبة ، وخدمة الحجيج[(٧٠٨)].

وفي سورة (ص ، ويس ، ومريم ، وطه) عرض نماذج من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وما أصابهم من الفتنة والابتلاء ، وكيف أوذوا فصبروا ، وبيان سنَّة الله تعالى في أولئك المتحزِّبين المناهضين لدعوة الحقّ: {جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ *كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ *وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ *إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ *وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ *وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ *اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ *} [ص: ١١ ـ ١٧] .

إنَّها إشارةٌ ذات دلالةٍ تربويَّةٍ لأصحاب النَّبيِّ (ص) مأخوذةٌ من سيرة هؤلاء الأقوام؛ الَّذين

تحزَّبوا ضدَّ دعوة الحقِّ؛ لقد كذَّبوا أنبياءهم ، فحقَّ عليهم كلمة العذاب ، وانتصر أهل الحقِّ عليهم.

لم يسلم أحدٌ من الأنبياء من إيذاء الأقوام ، مهما كانت مكانتهم ، وعزَّتهم في مجتمعاتهم ، فلئن كان نوحٌ ، وهودٌ ، وموسى ، وصالحٌ ، ولوطٌ ، وشعيبٌ من عامَّة النَّاس ، فما قولك في داود صاحب القوَّة ، والسُّلطة ، والملك ، الَّذي كانت معجزاته بارزةٌ للعيان من تسبيح الجبال معه ، وحَشْرِ الطُّيور لسماعِ مزاميره ، وتلاوته؟ ماذا تقول عنه بنو إسرائيل؟ وماذا دوَّنوا في كتبهم عن سيرته؟ إنَّهم لم يتركوا نقيصةً إلا

ألصقوها فيه ، وهو النَّبيُّ العابد الأوَّاب ، ومثل ذلك ما قالوه عن مريم البتول ـ عليها وعلى ابنها السَّلام ـ وقد أورد القران الكريم حملها ، وولادتها ، والخوارق الَّتي حصلت لهما؛ حيث جعلها وابنها ايةً للعالمين: {قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا *} [مريم: ٢١]؛ فإذا كان هذا شأن بني إسرائيل مع أنبيائهم ، وهم أهل الكتاب وبين أيديهم التَّوراة ، {فِيهَا هُدىً وَنُورٌ} ، فلا غرابة أن تقول قريش عن دعوة الحقِّ ما يدلُّ على ضلالها ، وجهلها ، إنَّها تهيئةٌ للنُّفوس ، وتثبيتٌ لها على الحقِّ لملاقاة أعدائه المفترين المكذِّبين من المشركين ومن أهل الكتاب ، ولم يكن هذا موقفهم من الأنبياء الَّذين كذَّبوهم ولم يؤمنوا لهم؛ بل كانت لهم مواقف غريبةٌ مشينةٌ مع أعظم أنبيائهم؛ الَّذين يفتخرون بنسبتهم إليه ، وهم يزعمون: أنَّهم أهل كتابه الَّذي أنزل عليه ، وحملة شرائعه وهداياته ، إنَّه نبيُّهم موسى ـ عليه السَّلام ـ أعظم أنبياء بني إسرائيل قاطبةً.

وتذكر لنا سورة (طه) كيف كان الحال معه ، وما عاناه من سفههم ، وتمرُّدهم على أوامر الله ، وعصيانهم المتعمَّد ، فما كاد موسى ـ عليه السلام ـ يغادرهم لمناجاة ربِّه ، وقد ترك بين ظهرانيهم أخاه هارون ليصلح من شأن القوم ، ولا يتَّبع سبيل المفسدين ، إلا وتامروا عليه ، وجمعوا زينة القوم ليُخرج لهم السَّامريُّ عجلاً جسداً له خوار ، فيقوم النَّاس بالطَّواف به لعبادته؛ وليقولوا كلمتهم الكبيرة: {هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ *} [طه: ٨٨] ، ولما عرف الحقيقة ، استدعى السَّامري ليسأل عن الدَّافع له على هذا التصرُّف السَّفيه ، {قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي *} [طه: ٩٦].

إنَّ قوماً يصل بهم السَّفه إلى هذا الحدِّ من الزَّيغ ، والضَّلال ، والإفساد ، فهل يُؤْمَن جانبهم ، ويُتوقَّع منهم الخير ، أو مناصرة الحقِّ؟! لقد كان لقصص بني إسرائيل في هذه المرحلة المكِّيَّة المتقدِّمة اثارٌ بعيدةُ الدَّلالة في تكوين الشَّخصيَّة الإسلاميَّة المتميِّزة عن هذه الطَّوائف والنِّحَلِ[(٧٠٩)]. ومن لطائف الأسرار القرانيَّة ، ومن جميل وجوه المناسبات أن يأتي الحديث عن عالميَّة الدَّعوة الإسلاميَّة ، من خلال ذكر العهد والميثاق المأخوذ على بني إسرائيل أنفسهم؛

لكي يؤمنوا بالنَّبيِّ الأمِّيِّ عندما يأتيهم بدعوته العالميَّة ، وكان ذلك في سورة الأعراف ، وكان إيراد التَّفصيلات في انحرافات بني إسرائيل لتهيئة نفوس المؤمنين ، بألا يتأثَّروا بموقف اليهود؛ إن هم تنكَّروا لهم ، فإنَّهم قوم بُهْت ، وتلك سيرتهم مع أنبيائهم ، فإن أعرضوا عن دعوة الإسلام ، وكذَّبوا محمَّداً (ص) ، وقد وجدوا أوصافه في كتبهم ، فلا يستغرب ذلك من القوم المفسدين[(٧١٠)].

قال تعالى: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *}[الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٨] .

نعم ، إنَّها نقلةٌ من صعيد مكَّة ، وشعابها ، وجبالها إلى أقطار العالم جميعاً ، إنَّها نقلةٌ رُوحيَّةٌ نفسيَّةٌ كبيرةٌ؛ حيث نلاحظ سياق الايات يرسم معالم الدَّعوة العالميَّة عندما تخرَّج من مكَّة إلى الصَّعيد العالميّ ، كما أنَّ الايات في سورة الأعراف مليئةٌ بالدُّروس التَّربويَّة العظيمة لأمَّة محمَّد (ص) ، من خلال السَّرد التَّاريخيِّ لحياة بني إسرائيل ، وما اعتورها من أحداثٍ عظامٍ ، وهذه المداخلات الَّتي تلفت النَّظر إلى أمَّة رسول الله (ص) ودورها ومهمَّتها في قيادة العالم ، وفي الوقت نفسه تحذيرٌ لها لكي تتجنَّب ما وقعت فيه بنو إسرائيل ، ويمضي السِّياق في الحديث عن الأمم الَّتي تكوَّنت من الأسباط ، وكيف فُكَّت ضائقتهم في المطعم والمشرب ، بتفجير الينابيع وإنزال المنِّ ، والسَّلوى عليهم ، وتوفير الظِّلال الوارفة لهم بتظليل الغمام عليهم ، ولكن هل أدَّوا شكر هذه النِّعم؟ وماذا كان موقفهم من التكاليف الشَّرعيَّة؟ لقد كان العناد ، والتَّحريف ، والتَّحايل ، والتمرُّد دائماً!

إنَّ إنسانيَّة الإنسان تتحقَّق باتِّباعه الوحي الرَّبَّانيَّ المنزل من خالق السَّموات والأرض ، والعبودية لله تعالى تحقِّق الكمال الإنسانيَّ ، حيث تتحقَّق الغاية الَّتي خُلق الإنسان من أجلها ، وأيُّ إهمالٍ لهذه المهمَّة ، وأيُّ ابتعادٍ عن نور الوحي يبعد الإنسان عن الكمال البشريِّ ، ويلحقه بالدَّواب ، والأنعام ، وقد يكون أضلَّ منها؛ لأنه يسخِّر عقله لمزيد من الإسفاف ،

والانحطاط ، بينما البهائم لا تتحايل في الإسفاف ، والانحطاط ، وإنَّما هي مفطورةٌ على غرائز معيَّنةٍ تدفعها لتصرُّفٍ محدَّدٍ.

كانت سورة الأعراف المكِّيَّة ، تعرض لمحاتٍ تربويَّةً ، وتبيِّن توجيهاتٍ ربَّانيَّةً ، وتوضِّح سنناً إلهيةً ، من خلال الاعتبار بقصص بني إسرائيل[(٧١١)].

عندما وجدت قريش نفسها عاجزةً أمام دعوة الحقِ ، وكان المعبِّر عن هذا العجز النَّضر بن الحارث؛ الَّذي صرح قائلاً: «يا معشر قريش! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد! فانظروا في شأنكم ، فإنَّه والله لقد نزل بكم أمرٌ عظيم!». فقرَّروا بعد ذلك إرسال النَّضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي مُعَيْطٍ ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، لمعرفة حقيقة هذه الدَّعوة ، لا لكي يتَّبعوها ، ولكن لإدراكهم: أنَّ اليهود قد يمدُّونهم بأشياء تظهر عجز الرَّسول (ص) ، ولمعرفة زعماء مكَّة بحقد اليهود المنصبِّ على الأنبياء جميعاً ، وأصحاب الحقِ أينما كانوا.

كانت بعثة المصطفى صدمةً قويَّةً لليهود؛ وذلك لأنَّهم عاشوا في جزيرة العرب على حلمٍ توارثوه طوال السِّنين الماضية ، وهو أنَّه سيبعث نبيٌّ مُخلِّص في ذلك الزَّمان والمكان ، فرجوا أن يكون منهم؛ املين أن يخلِّصهم من الفرقة ، والشَّتات؛ الَّذي كانوا فيه[(٧١٢)].

كان التقارب بين معسكر الكفر والشِّرك مع اليهود ينسجم مع أهدافهم المشتركة للقضاء على دعوة الإسلام ، ولذلك زوَّدوا الوفد المكيَّ ببعض الأسئلة محاولةً لتعجيز النَّبيِّ (ص) .

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: بعثت قريش النَّضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم: سلوهم عن محمَّد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنَّهم أهل الكتاب الأوَّل ، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا؛ حتَّى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله (ص) ، ووصفا لهم أمره ، وبعض قوله ، وقالا: إنَّكم أهل التَّوراة ، وقد جئناكم؛ لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال: فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنَّ ، فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيٌّ مرسلٌ ، وإن لم يفعل فالرَّجل مُتَقوِّلٌ ، فقرِّروا فيه رأيكم؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدَّهر الأوَّل ، ما كان من أمرهم؟ فإنَّه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ ، وسلوه عن رجلٍ طوَّاف ، بلغ مشارق الأرض ، ومغاربها ، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الرُّوح ، ما هي؟ فإن أخبركم بذلك ، فإنَّه نبيٌّ فاتَّبعوه ، وإن هو لم يخبركم؛ فهو رجلٌ مُتَقوِّل ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم ، فأقبل النَّضر ، وعقبة حتَّى قدما مكَّة على قريشٍ ، فقالا: يا معشر قريش! ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمَّد ،قد أمرنا أحبار

يهود أن نسأله عن أمورٍ ، فأخبروهم بها ، فجاؤوا رسول الله (ص) فقالوا: يا محمد! أخبِرْنا ، فسألوه عمَّا أمروهم به ، فقال لهم رسول الله (ص) : أخبركم غداً بما سألتم عنه ، ولم يستثنِ[(٧١٣)] ، فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله (ص) خمس عشرة ليلةً ، لا يحدِث الله إليه في ذلك وحياً ، ولا يأتيه جبريل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكَّة ، وقالوا: وعدنا محمَّد غداً ، واليوم خمس عشرة ، قد أصبحنا فيها لا

يخبرنا بشيء ممَّا سألناه عنه ، وحتَّى أحْزَنَ رسولَ الله (ص) مُكْثُ الوحي عنه ، وشقَّ عليه ما يتكلَّم به أهل مكَّة ، ثمَّ جاء جبريل عليه السلام من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبته إيَّاه على حزنه عليهم ، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية والرَّجل الطَّوَّاف ، وقول الله عزَّ وجلَّ: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٨٥] [ابن هشام (٣٢٢/١)] ولما سمع اليهود: قالوا: كيف وقد أوتينا {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} ، ومن أوتي التَّوراة؛ فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا *} [الكهف: ١٠٩].

كانت سورة الكهف قد احتوت على إجابةٍ لأسئلتهم ، وإشارةٍ إلى أنَّ كهفاً من عناية الله سوف يُؤوي هؤلاء المستضعفين من أصحاب محمَّد (ص) ، كما اوى الكهف الجبليُّ الفتية المؤمنين الفارِّين بدينهم من الفتنة ، وأنَّ نفوساً ستبشُّ في وجوه هذه العصبة من أنصار دين الله في يثرب ، بالقرب من الَّذين عاضدوا قريشاً في شكِّهم ، وحاولوا معهم طمس نور الحقِّ ، بتلقينهم المنهج التعجيزيّ في التَّثبُّت من أمر النُّبوَّة ، وهو منهجٌ غير سليم؛ فمتى كانت الأسئلة التَّعجيزيَّة وسيلة التَّحقُّق من صدق الرِّسالة ، وصاحبها؟! فهذا نبيُّ الله موسى عليه السلام ، وهو من أعظم أنبياء بني إسرائيل ، لم يعلم تأويل الأحداث الثلاثة التي جرت أمامه ، وأنكر على الخضر تصرفاته ، على الرَّغم من تعهده ألاَّ يسأله عن شيءٍ حتَّى يحدث له منه ذكراً ، على الرَّغم من كل ذلك لم تؤثر الأحداث ، وما دار حولها في نبوَّة موسى عليه السلام شيئاً ، ولم يشكِّك بنو إسرائيل في نبوَّته ، فَلِمَ يجعلون مثل هذه الأسئلة أسلوباً للتحقُّق من صدق الرِّسالة؟![(٧١٤)].

جعل الله هذه المناسبة وسيلةً للإشارة إلى قرب الفرج للعصبة المؤمنة؛ ليجدوا مأوىً كما وجد الفتية المأوى وليبشَّ في وجوههم أهل المدينة ، كما بشَّ أهل المدينة في وجه أحد الفتية ، ثمَّ ذهبوا إليهم ليكرموهم ، وليخلِّدوا ذكراهم[(٧١٥)].

إنَّ القران الكريم نزل ليكوِّن خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس ، لها مقوِّماتها الذَّاتيَّة ، ومصادرها المعرفيَّة ، ولقد نزل من أوائل ما نزل في المرحلة المكِّيَّة ، سورة الفاتحة ، وفيها التَّضرُّع إلى الله تعالى بهداية المؤمن إلى الصِّراط المستقيم ، وتجنُّبه صراط المغضوب عليهم ـ وهم اليهود ـ وصراط الضَّالين ـ وهم النَّصارى ـ كما جاء في حديث عديِّ بن حاتمٍ رضي الله عنه [الترمذي (٢٩٥٤) وأحمد (٣٧٨/٤ ـ ٣٧٩)] .

فتحديد هذا النَّهج ، وبيان الصِّراط المستقيم يستدعي بيان المناهج الضَّالَّة؛ حتَّى تُتجنَّب السُّبل الأخرى المتفرِّقة؛ الَّتي تؤدِّي بصاحبها إلى المزالق ، والمهالك ، فكان التعرُّض لعقائد اليهود ، وانحرافاتهم ، ومواقفهم مع أنبيائهم أمراً تقتضيه دواعي التكوين للشخصيَّة الإسلاميَّة المتميِّزة ، إنَّ معركتنا مع اليهود معركةٌ مستمرَّةٌ؛ لأنَّها معركةٌ بين المنهج الرَّبَّانيِّ ، والصِّراط المستقيم ضدَّ المناهج الجاهليَّة المحرِّفة لكلمات الله ، السَّاعية للإفساد في الأرض[(٧١٦)].

عاشراً: الحصار الاقتصاديُّ والاجتماعيُّ في اخر العام السَّابع من البعثة:

ازداد إيذاء المشركين من قريش ، أمام صبر الرَّسول (ص) والمسلمين على الأذى ، وإصرارهم على الدَّعوة إلى الله ، وإزاء فشو الإسلام في القبائل ، وبلوغ الأذى قمَّته في الحصار الماديِّ ، والمعنويِّ؛ الَّذي ضربته قريشٌ ظلماً ، وعدواناً على النَّبيِّ (ص) وأصحابه ، ومَنْ عطف عليهم مِنْ قرابتهم[(٧١٧)].

قال الزُّهريُّ: «ثمَّ إنَّ المشركين اشتدُّوا على المسلمين كأشدِّ ما كانوا؛ حتَّى بلغ المسلمين الجهد ، واشتدَّ عليهم البلاء ، وأجمعت قريش أن يقتلوا رسول الله (ص) علانيةً؛ فلمَّا رأى أبو طالب عمل القوم؛ جمع بني عبد المطلب ، وأمرهم أن يُدخِلوا رسول الله (ص) شِعْبَهم ، ويمنعوه ممَّن أراد قتله ، فاجتمعوا على ذلك مسلمُهم وكافرُهم ، فمنهم مَنْ فعله حَمِيَّةً ، ومنهم من فعله إيماناً ، ويقيناً ، فلمَّا عرفت قريشٌ: أنَّ القوم قد منعوا رسول الله (ص) ؛ أجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ، ولا يبايعوهم ، ولا يَدْخُلوا بيوتهم؛ حتَّى يُسلموا رسول الله (ص) للقتل ، وكتبوا من مكرهم صحيفةً ، وعهوداً ومواثيق؛ ألا يتقبَّلوا من بني هاشم أبداً صلحاً ، ولا تأخذهم بهم رأفةٌ؛ حتَّى يسلموه للقتل[(٧١٨)].

وفي روايةٍ: «.... على ألا ينكحوا إليهم ، ولا يُنْكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، ولا يَدَعُوا سبباً من أسباب الرِّزق يصل إليهم ، ولا يقبلوا منهم صُلحاً،

ولا تأخذهم بهم رأفةٌ، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلِّموهم، ولا يدخلوا بيوتهم ، حتَّى يُسْلِمُوا إليهم رسولَ الله (ص) للقتل ، ثمَّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ، ثمَّ علَّقوا الصَّحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم»[(٧١٩)].

فلبث بنو هاشم في شِعْبهم ثلاث سنين ، واشتدَّ عليهم البلاء ، والجهد ، وقطعوا عنهم الأسواق ، فلا يتركون طعاماً يقدم من مكَّة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه ، فاشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله (ص)[(٧٢٠)] .

وكان أبو طالب إذا أخذ النَّاسُ مضاجعهم؛ أمر رسولَ الله (ص) فأتى فراشه حتَّى يراه من أراد به مكراً ، أو غائلة ، فإذا نام النَّاس؛ أخذ أحد بنيه ، أو إخوته ، أو بني عمِّه ، فاضطجع على فراش رسول الله (ص) ، وأمر رسولَ الله (ص) أن يأتي بعض فرشهم ، فيرقد عليها[(٧٢١)].

واشتدَّ الحصار على الصَّحابة ، وبني هاشم ، وبني المطلب ، حتَّى اضطروا إلى أكل ورق الشَّجر ، وحتى أصيبوا بشظف العيش ، وشدَّته إلى حدِّ أنَّ أحدهم يخرج ليبول ، فيسمع بقعقعة شيءٍ تحته ، فإذا هي قطعةٌ من جلد بعيرٍ ، فيأخذها، فيغسلها ، ثمَّ يحرقها ، ثم يسحقها ، ثمَّ يستفُّها ، ويشرب عليها الماء ، فيتقوى بها ثلاثة أيام[(٧٢٢)] ، وحتَّى لتسمع قريشٌ صوت الصِّبية يتضاغون من وراء الشِّعْب من الجوع(٤).

فلمَّا كان رأس ثلاث سنين ، قيَّض الله . سبحانه وتعالى . لنقض الصَّحيفة أناساً من أشراف قريشٍ ، وكان الَّذي تولَّى الانقلاب الدَّاخلي لنقض الصَّحيفة ، هشام بن عمرو الهاشمي ، فقصد زهير بن أبي أميَّة المخزومي ، وكانت أمُّه عاتكة بنت عبد المطَّلب ، فقال له: يا زهير! أقد رضيت أن تأكل الطَّعام ، وتلبس الثِّياب ، وتنكح النِّساء وأخوالك حيث قد علمت، لا يبتاعون، ولا يُبتاع منهم، ولا يَنكْحون، ولا يُنْكح إليهم؟ أما إني أحلف بالله ، لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ، ثمَّ دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم؛ ما أجابك إليه أبداً ، قال: ويحك يا هشام! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ ، والله لو كان معي رجلٌ اخر؛ لقمت في نقضها! فقال له: قد وجدت رجلاً ، قال: من هو؟ قال: أنا ، فقال له زهير: أبْغِنَا ثالثاً.

فذهب إلى المطْعِم بن عديٍّ ، فقال له: يا مُطْعِمُ! أقد رضيت أن يَهْلِك بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهدٌ على ذلك ، موافقٌ لقريشٍ فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه؛ لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً! قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنَّما أنا رجلٌ واحدٌ ، قال: قد وجدت

لك ثانياً ، قال: من؟ قال: أنا ، قال: أبغنا ثالثاً ، قال: قد فعلت ، قال: مَنْ؟ قال: زهير بن أبي أميَّة ، فقال: أبغنا رابعاً ، فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحواً ممَّا قال للمطعم بن عديٍّ ، فقال له: ويحك! وهل نجد أحداً يعين على ذلك؟ قال: نعم ، زهير بن أبي أميَّة ، والمطعم بن عديٍّ ، وأنا ، فقال: أبغنا خامساً ، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطَّلب بن أسد ، فكلَّمه ، وذكر له قرابته ، وحقَّهم ، فقال له: وهل على هذا الأمر الَّذي تدعوني إليه من أحدٍ؟ قال: نعم ، ثمَّ سمَّى له القوم؛ فاتَّعدوا خَطْم الحَجون ليلاً بأعلى مكَّة ، فاجتمعوا هناك ، وأجمعوا أمرهم ، وتعاقدوا على القيام في الصَّحيفة حتَّى

ينقضوها ، وقال زهير: أنا أبدؤكم ، فأكون أوَّل من يتكلَّم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن أبي أميَّة عليه حُلَّةٌ ، فطاف بالبيت سبعاً ، ثمَّ أقبل على النَّاس ، فقال: أنأكل الطَّعام ، ونلبس الثِّياب ، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ، ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تُشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة ! فقال أبو جهل ـ وكان في ناحية المسجد ـ: كذبت والله لا تُشقُّ ! فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب! ما رضينا كتابتها حين كُتبت ، فقال أبو البختري: صدق زمعة ، لا نرضى ما كُتب فيها ، ولا نُقِرُّ به ، فقال المطعم بن عديٍّ: صدقتما ، وكذبَ مَنْ قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ، وممَّا كُتِبَ فيها ، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك ، فقال أبو جهل: هذا أمرٌ قضي بليلٍ، تُشُووِرَ فيه في غير هذا المكان ، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلَّم.

وقام المطْعم بن عدِيّ إلى الصَّحيفة ليشقَّها ، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها ، إلا «باسمك اللَّهمَّ»[(٧٢٣)].

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أن رسول الله (ص) ـ قال لأبي طالب: يا عم ! إن ربي الله قد سلط الأَرَضَة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان؛ فقال: أربك أخبرك بهذا ؟ قال: نعم؛ قال: فوالله ما يدخل عليك أحد ، ثم خرج إلى قريش فقال: يا معشر قريش ! إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم ، فإن كان كما قال ابن أخي ، فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذباً دفعت إليكم ابن أخي ، فقال القوم: رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، ثم نظروا ، فإذا هي كما قال رسول الله (ص) ، فزادهم ذلك شراً. فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا[(٧٢٤)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ إنَّ المتأمِّل لبنود هذه الاتِّفاقيَّة ، يجد: أنَّ قريشاً قد أحكمت البنود ، ولم تدع فيها ثُغْرَةً يمكن النفاذ من خلالها ، ممَّا يؤكد: أنَّها وُضِعت بعد مداولاتٍ ، ومشاوراتٍ على نطاقٍ واسعٍ ، وشاركت في وضعها عقولٌ مفكرةٌ ، امتزجت معها خبراتٌ عديدةٌ ، وحبكَها ذكاءٌ مفرطٌ.

٢ ـ في عدم الزَّواج بين الطَّرفين ، جانب اجتماعيٌّ مهمٌّ؛ فالزَّواج غالباً ما يؤدِّي إلى التالف ، والتاخي ، والتَّراحم ، والتَّواصل ، والتَّزاور بين أهل الزَّوجين ، فإذا تمَّ شيءٌ من ذلك؛ فسيؤدِّي إلى فشل الحصار ، وحتَّى لا يحدث ذلك نصَّتِ الوثيقةُ على عدم الزَّواج بين الطَّرفين.

٣ ـ وفي النَّهي عن البيع ، والشِّراء منهم يَظْهر جانبٌ اقتصاديٌّ بالغ الأهمِّيَّة ، فالبيع ، والشِّراء عصب الحياة الاقتصادية ، ويقوم عليه تبادل المنافع بين بني البشر ، فإذا انعدم ذلك التَّعامل؛ انهار البناء

الاقتصاديُّ ، وباتت الحياة الاقتصاديَّة مهدَّدةً بالخطر ، فيصبح الإنسان مفتقداً لضروريات الحياة؛ ممَّا يعرضه إلى الرُّضوخ ، والانصياع لأوامر مَنْ يملك تلك الضروريات ، ومعلومٌ أثر ذلك على الجماعة ، والأفراد ، فأرادت قريش من ذلك البند تجويع المسلمين ، وهذا ما وقع فعلاً ، فقد جاء: أنَّهم جُهِدوا حتَّى كانوا يأكلون ورق الشَّجر ، والجلود[(٧٢٥)].

٤ . وزيادةً في الحصار الاقتصاديِّ ، وضعوا بنداً يسدُّ الطَّريق أمام المسلمين في التَّعامل مع التُّجار الوافدين من خارج مكَّة ، فكانوا يغلون على المسلمين في السِّعر حتَّى لا يدرك الصَّحابة شيئاً يشترونه ، فيرجعون إلى أطفالهم الَّذين يتضاغون جوعاً؛ وليس في أيديهم شيءٌ يشغلونهم به ، فكان يُسمَعُ بُكَاء الأطفال من بعيدٍ[(٧٢٦)]. كل هذا التضييق بسبب البند الَّذي يقول: «ولا يدعوا شيئاً من أسباب الرِّزق يصل إليهم» ، كما أنَّ هذا البند يفوِّت الحجَّة على مَنْ أراد أن يهديَ شيئاً لأهل الشِّعب ، بحجة: أنَّه لا يبيع ، وإنَّما يهدي ، وحتَّى لا تبقى ذريعةٌ لإيصال الطَّعام إليهم تحت أيِّ مسمَّى وضعت قريش هذا البند[(٧٢٧)].

٥ . والبند التَّالي: «ولا تقبلوا منهم صلحاً» ، يسدُّ الطَّريق أمام أيِّ خيارٍ اخر سوى تسليم محمَّدٍ (ص) ، فلا مجال لأنصاف الحلول عندهم ، أمَّا البند الذي يقضي «بألا تأخذهم بهم رأفةٌ» ، فهو بندٌ يضع قيوداً حتَّى على العواطف؛ كي لا يكون للرأفة ، والرَّحمة وجودٌ بين أهل الصَّحيفة تجاه المؤمنين؛ لأنَّ الرَّحمة والرَّأفة قد تقودان إلى فكِّ الحصار؛ الَّذي يؤدِّي بدوره

إلى فشل جهود قريش ، وهو ما لا تهواه ، لذا عملت على إبطال مفعول الرَّأفة بوضعها لهذا البند في الصَّحيفة.

٦ . وفي «عدم مجالستهم ، ومخالطتهم ، وكلامهم» ، سدُّ ثغرةٍ مهمَّةٍ ربُّما جاء من قِبَلِها خطرٌ على المقاطعة والحصار؛ لأنَّ المجالسة ، والمخالطة ، والكلام مع المسلمين ، يؤدِّي إلى النِّقاش ، وتبادل الاراء ، ووجهات النَّظر ، فقد يُقنِع المسلمون بعض أهل الصَّحيفة بخطأ ما هم عليه؛ لأنَّ المسلمين يملكون من الحقِّ والأدلَّة ما يمكن أن يقنعوا بها سواهم ، وحتَّى لا يتمَّ ذلك نصَّت الصَّحيفة على عدم المجالسة ، والمخالطة والكلام.

٧ . قولهم: «لا يدخلوا بيوتهم» ، بندٌ لا يختلف عمَّا سبقه؛ لأنَّ دخولهم البيوت يحرِّك الجوانب الإنسانيَّة في النَّفس ، فالإنسان عندما يرى بيتاً يخلو من أقلِّ مقومات الحياة ، وأصاب أهله الجوع ، والعري ، والمرض ، ليس لذنبٍ سوى أنَّهم اختاروا ديناً غير دين قريشٍ؛ لاشكَّ أنَّ العاطفة ستتحرَّك عندهم ،

وسيحاولون رفع هذا الظُّلم ، وتلك المعاناة ، وحتَّى لا تقع قيادة قريش في مثل هذا الموقف نصَّت على عدم دخول البيوت.

٨ . وتعليق الصَّحيفة في الكعبة يعطيها قدسيَّةً ، ويجعل بنودها تأخذ طابع القداسة الَّتي يجب التَّقيُّد ، والالتزام بها ، فالعرب قاطبةً تقدِّس الكعبة ، وتضع لها مكاناً سامياً من الحرمة والقدسيَّة ، لذا عمَدت قريش إلى تعليق الصَّحيفة داخل الكعبة[(٧٢٨)].

٩ . إنَّ مشركي بني هاشمٍ ، وبني المطَّلب تضامنوا مع رسول الله (ص) ، وحموه كأثرٍ من أعراف الجاهليَّة، ومن هنا، ومن غيره، نأخذ: أنَّه يسع المسلم أن يستفيد من قوانين الكفر فيما يخدم الدَّعوة ، على أن يكون ذلك مبنِيّاً على فتوى صحيحةٍ من أهلها[(٧٢٩)].

١٠ . إنَّ حقوق الإنسان في عصرنا ضمانٌ للمسلم ، والحرِّيَّة الدِّينيَّة في كثير من البلدان يستفاد منها ، وقوانين كثيرةٌ من أقطار العالم تعطي للمسلمين فرصاً ، وعلى المسلمين أن يستفيدوا من ذلك ، وغيره من خلال موازناتٍ دقيقةٍ[(٧٣٠)].

١١ . من المهمِّ أن تعلم: أنَّ حماية أقارب رسول الله (ص) له لم تكن حمايةً للرِّسالة الَّتي بُعِث بها ، وإنَّما كانت لشخصه من الغريب ، وإذا أمكن أن تستغلَّ هذه الحماية من قِبَلِ المسلمين
كوسيلةٍ من وسائل الجهاد والتغلُّب على الكافرين ، والردِّ لمكائدهم وعدوانهم؛ فأنعم بذلك من جهدٍ مشكورٍ ، وسبيلٍ ينتبهون إليها![(٧٣١)].

١٢ . لم يستطع أبو طالب أن يقاوم هذا التَّحالف الباغي إلا بالحرب السِّياسيَّة من جهةٍ ، ومحاولة تفتيت هذا التَّحالف ، فعمل قصيدته اللاَّمية المشهورة وفي بدايتها قال:

وَلَمَّا رَأَيْتُ القَوْمَ لا وُدَّ عِنْدَهُمْوَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ العُرَا والْوَسَائِلِ
وَقَدْ حَالَفُوا قَوْماً عَلَيْنَا أَظِنَّةًيَعَضُّونَ غَيْظاً خَلْفَنَا بالأَنَامِلِ[(٧٣٢)]

وكان لهذه القصيدة أثرٌ خطيرٌ زلزل أوضاع مكَّة ، واستطاعت أن تحرِّك كامن العصبية عند أقارب بني هاشمٍ ، حيث ائتمروا سرّاً ، ودعوا إلى نقض الصَّحيفة[(٧٣٣)].

١٣ . انتصر أبو طالب في غزو المجتمع القرشيّ بقصائده الضَّخمة ، الَّتي هزَّت كيانه هزاً ، وتحرَّك لنقض الصَّحيفة مَنْ ذكرنا مِنْ قبل ، أولئك الخمسة الَّذين يمتُّون بصلة قرابةٍ ، أو رحمٍ لبني هاشم ، وبني المطَّلب ، واستطاعوا أن يرفعوا هذه الظُّلامة وهذا الحيف ، عن المسلمين ، وأنصارهم ، وحلفائهم ، وخطَّطوا له ، ونجحوا فيه ، وفي هذا الموقف إشارةٌ إلى أنَّ كثيراً من النُّفوس . والَّتي تبدو في ظاهر الأمر من أعمدة

الحكم الجاهليّ . قد تملك في أعماقها رفضاً لهذا الظُّلم ، والبغي ، وتستغلُّ الفرصة المناسبة لإزاحته ، وعلى أبناء المسلمين أن يهتمُّوا بهذه الشَّرائح ، وينفذوا إلى أعماقها ، وتُوضِّحَ لهم حقيقة القران الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة ، وتبيِّن لها طبيعة العداء بين الإسلام ، واليهود ، والنَّصارى ، والعلمانيَّة ، فقد يستفاد منهم في خدمة الإسلام[(٧٣٤)].

١٤ . ظاهرة أبي لهبٍ تستحقُّ الدِّراسة والعناية؛ لأنَّها تتكرَّر في التَّاريخ الإسلاميّ ، فقد يجد الدُّعاة من أقرب حلفائهم مَنْ يقلب لهم ظهر المِجَنِّ ، ويبالغ في إيذاء الدُّعاة وحربهم أكثر بكثير من خصومهم الألدَّاء الأشدَّاء[(٧٣٥)].

١٥ .كانت تعليمات الرَّسول (ص) لأفراد المسلمين ألا يواجهوا العدوَّ ، وأن يضبطوا أعصابهم ، فلا يُشْعِلوا فتيل المعركة ، أو يكونوا وقودها؛ وإنَّ أعظم تربيةٍ في هذه المرحلة هي صبر أبطال الأرض على هذا الأذى دون مقاومةٍ؛ حمزةُ ، وعمر ، وأبو بكرٍ ، وعثمان ، وغيرهم . رضي الله عنهم . سمعوا وأطاعوا ، فلقوا كلَّ هذا الأذى ، وهذا الحقد ، وهذا

الظُّلم ، فكفوا أيديهم ، وصبروا ليس على حادثةٍ واحدةٍ فقط ، أو يومٍ واحدٍ فقط ، بل ثلاث سنين عجافٍ ، تحترق أعصابهم ، ولا يسمح لهم برمية سهمٍ أو شجَّة رأسٍ[(٧٣٦)].

١٦ . أثبتت الأحداث عظمة الصَّفِّ المؤمن في التزامه بأوامر قائده ، وبُعْده عن التَّصرُّفات الطَّائشة؛ فلم يكن شيءٌ أسهلَ من اغتيال أبي جهلٍ ، وإشعال معركة غير مدروسةٍ . لا يعلم إلا الله مداها . وغير متكافئةٍ.

١٧ .كانت الدَّعوة الإسلاميَّة تحقِّق انتصاراتٍ رائعةً في الحبشة ، وفي نجران ، وفي أزْد شنوءة ، وفي دَوس ، وفي غِفار ، وكانت تتمُّ في خطٍّ واضحٍ ، سيكون سنداً للإسلام والمسلمين ، ومراكز قوى يمكن أن تتحرَّك في اللَّحظة الحاسمة ، وامتدادات للدَّعوة ، تتجاوز حدود مكَّة الصَّلْدة المستعصية.

١٨ .كانت هذه السَّنوات الثلاث للجيل الرَّائد زاداً عظيماً في البناء ، والتَّربية ، حيث ساهم بعضه في تحمُّل الام الجوع ، والخوف ، والصَّبر على الابتلاء ، وضبط الأعصاب ، والضَّغط على النُّفوس ، والقلوب ، ولجم العواطف عن الانفجار.

١٩ .كانت بعض الشَّخصيات في الصَّفِّ المشرك تبنى في داخلها بالتَّربية النَّبويَّة ، وتتأثر بعظمة شخصية النَّبيِّ (ص) ، وتتفاعل في أعماقها مع المبادأى الَّتي يقدِّمها الدِّين الجديد ، لكن سيطرة الملأ ، وسطوة

الكبراء كانت تحول دون إبراز هذا التَّفاعل ، وهذا الحبِّ ، وهذه التَّربية ، وختام قصَّة الصَّحيفة تقدِّم لنا أجلى بيانٍ عن ذلك[(٧٣٧)].

٢٠ . قيام الحجج الدَّامغة ، والبراهين السَّاطعة ، والمعجزات الخارقة لا يؤثِّر في أصحاب الهوى ، وعبدة المصالح والمنافع؛ لأنَّهم يلغون عقولهم ، ويغلقون قلوبهم ، وعقولهم عن التدبُّر ، ويصمُّون اذانهم عن سماع الحقِّ ، ويغمضون أعينهم عن النَّظر والتأمُّل والاهتداء إلى الحقِّ بعد قيام الأدلَّة عليه ، فلقد أخبرهم أبو طالب بما أخبر به الرَّسول (ص) بما حدث للصَّحيفة من أكل الأرَضَة لها ، وبقاء اسم الله فقط «باسمك اللَّهمَّ» ورأوا ذلك بأمِّ أعينهم ، فما امن منهم أحدٌ ، إنَّه الهوى الذي يغشي عن الحقِّ ، ويصمُّ الاذان عن سماعه[(٧٣٨)].

٢١ .كانت حادثة المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية سبباً في خدمة الدَّعوة والدِّعاية لها بين قبائل العرب ، فقد ذاع الخبر في كلِّ القبائل العربيَّة من خلال موسم الحجِّ ، ولفت أنظار جميع الجزيرة العربية إلى هذه الدَّعوة ، الَّتي يتحمَّل صاحبها وأصحابه الجوع ، والعطش ، والعزلة
لكلِّ هذا الوقت ، وأثار في نفوسهم: أنَّ هذه الدَّعوة حقٌّ ، ولولا ذلك لما تحمَّل صاحب الرِّسالة وأصحابه كلَّ هذا الأذى والعذاب.

٢٢ . أثار هذا الحصار سخط العرب على كفار مكَّة لقسوتهم على بني هاشمٍ وبني المطلب ، كما أثار عطفهم على النَّبيِّ (ص) وأصحابه ، فما إن انفك الحصار ، حتَّى أقبل النَّاس على الإسلام ، وحتَّى ذاع أمر هذه الدَّعوة ، وتردَّد صداها في كلِّ بلاد العرب ، وهكذا ارتدَّ سلاح الحصار الاقتصاديِّ على أصحابه ، وكان عاملاً قويّاً من عوامل انتشار الدَّعوة الإسلاميَّة ، عكس ما أراد زعماء الشِّرك تماماً[(٧٣٩)].

٢٣ .كان لوقوف بني هاشم ، وبني المطَّلب مع رسول الله (ص) ، وتحمُّلهم معه الحصار الاقتصاديَّ ، والاجتماعيَّ ، أثرٌ في الفقه الإسلاميِّ؛ حيث إنَّ سهم ذوي القربى من الخمس يعطى لبني هاشم ، وبني المطَّلب ، ويوضح ابن كثير هذا الحكم لدى تفسيره قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الأنفال: ٤١].

فيقول: «وأمَّا سهم ذوي القربى ، فإنَّه يصرف إلى بني هاشمٍ ، وبني المطَّلب؛ لأن بني المطَّلب وازروا بني هاشم في الجاهليَّة وفي أوَّل الإسلام ، ودخلوا معهم الشِّعْب غضباً لرسول الله (ص) ، وحمايةً لهم ،

مسلمُهم طاعةً لله ورسوله (ص) ، وكافرهم حميَّة للعشيرة ، وأنفةً ، وطاعةً لأبي طالب عمِّ رسول الله (ص) ؛ وأمَّا بنو عبد شمس ، وبنو نوفل ، وإن كانوا بني عمِّهم؛ فلم يوافقوهم على ذلك؛ بل حاربوهم ، ونابذوهم ومالؤوا بطون قريش على حرب الرَّسول (ص) ؛ ولهذا كان ذمُّ أبي طالبٍ لهم في قصيدته اللاَّمية أشدَّ من غيرهم لشدَّة قربهم... وفي بعض روايات هذا الحديث: إنَّهم لم يفارقونا في جاهليةٍ ، ولا إسلامٍ [أبو داود (٢٩٨٠) والنسائي (١٣٠/٧) وأحمد (٨١/٤)]، وهذا قول جمهور العلماء: أنَّهم بنو هاشم، وبنو المطلب»[(٧٤٠)].

٢٤ ـ لما أذن الله بنصر دينه ، وإعزاز رسوله (ص) ، وفتح مكَّة ، ثمَّ حجَّة الوداع؛ كان النَّبيُّ (ص) يؤثر أن ينزل في خَيْف بني كنانة؛ ليتذكَّر ما كانوا فيه من الضِّيق ، والاضطهاد ، فيشكر الله على ما أنعم عليه من الفتح العظيم ، ودخولهم مكَّة ـ التي أُخرجوا منها ـ وليؤكِّد قضية انتصار الحقِّ ، واستعلائه ، وتمكين الله لأهله الصَّابرين[(٧٤١)] ، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أين تنزل غداً؟ ـ في حجَّته ـ قال: وهل ترك لنا عَقِيلٌ منزلاً؟ ثمَّ قال:

نحن نازلون غداً بِخَيْف بني كنانة ، الْمُحَصَّبِ ، حيث قاسمت قريشٌ على الكفر ، وذلك: أنَّ بني كنانة حالفت قريشاً على بني هاشم: ألاَّ يبايعوهم ، ولا يؤووهم. قال الزُّهريُّ: والخَيْفُ: الوادي. [البخاري (٣٠٥٨) ومسلم ، طرفه الأول (١٣٥١) وأحمد (٢٠٢/٥) وأبو داود (٢٠١٠) وابن ماجه (٢٩٤٢)].

٢٥ ـ على كل شَعْبٍ في أيِّ وقتٍ يسعى لتطبيق شرع الله أن يضع في حسبانه احتمالات الحصار ، والمقاطعة من أهل الباطل ، فالكفر ملَّةٌ واحدةٌ؛ فعلى قادة الأمَّة الإسلاميَّة تهيئة أنفسهم ، وأتباعهم لمثل هذه الظُّروف ، وعليهم وضع الحلول المناسبة لها إذا حصلت ، وأن تفكِّر بمقاومة الحصار بالبدائل المناسبة؛ كي تتمكَّن الأمَّة من الصُّمود في وجه أيِّ نوعٍ من أنواع الحصار[(٧٤٢)].

* * *

الفصل الرَّابع

المبحث الأوَّل
تعامل النَّبيِّ (ص) مع سنَّة الأخذ بالأسباب

من السُّنن الرَّبانيَّة الَّتي تعامل معها النَّبيُّ (ص) سنَّةُ الأخذ بالأسباب ، والأسباب: جمع سبب ، وهو كلُّ شيءٍ يُتوصَّل به إلى غيره. وسنَّةُ الأخذ بالأسباب مقرَّرةٌ في كون الله تعالى بصورةٍ واضحةٍ ، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته ، وأودع فيه من القوانين ، والسُّنن ما يضمن استقراره ، واستمراره ، وجعل المسببات مرتبطةً بالأسباب بعد إرادته تعالى؛ فجعل عرشه سبحانه محمولاً بالملائكة ، وأرسى الأرض بالجبال ، وأنبت الزَّرع بالماء... وغير ذلك.

ولو شاء الله ربُّ العالمين؛ لجعل كلَّ هذه الأشياء وغيرها ـ بقدرته المطلقة ـ غير محتاجةٍ إلى سبب ، ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله تعالى ، وحكمته؛ الَّتي يريد أن يوجِّه خلقه إلى ضرورة مراعاة هذه السُّنَّة؛ ليستقيم سير الحياة على النَّحو الَّذي يريده سبحانه ، وإذا كانت سنَّة الأخذ بالأسباب مبرزةً في كون الله تعالى بصورةٍ واضحة ، فإنَّها كذلك مقرَّرةٌ في كتاب الله تعالى ، ولقد وجَّه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السُّنَّة في كل شؤونهم ، الدُّنيويَّة ، والأخرويَّة على السَّواء ، قال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ *} [التوبة: ١٠٥] ، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ *} [الملك: ١٥] .

ولقد أخبرنا القران الكريم: أنَّ الله تعالى طلب من السَّيدة مريم ، أن تباشر الأسباب وهي في أشدِّ حالات ضعفها. قال تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا *} [مريم: ٢٥] .

وهكذا يؤكِّد الله تعالى على ضرورة مباشرة الأسباب في كلِّ الأمور ، والأحوال. ورسولُ الله (ص) كان أوعى النَّاس بهذه السُّنَّة الرَّبانيَّة ، فكان ـ وهو يؤسِّس لبناء الدَّولة الإسلامية ـ يأخذ بكلِّ ما في وسعه من أسباب ، ولا يترك شيئاً يسير جزافاً ، ولقد لمسنا ذلك فيما مضى ، وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى.

وكان (ص) يوجِّه أصحابه دائماً إلى مراعاة هذه السُّنَّة الرَّبَّانيَّة ، في أمورهم الدُّنيويَّة ، والأخرويَّة على السَّواء[(٧٤٣)]. وقد كان في حسِّ الأمَّة الإسلاميَّة ، في صدرها الزَّاهر: أنَّ إيمانها بقدرة الله تعالى المطلقة

، وقضائه ، وقدره لا يتعارض مع اتِّخاذ الأسباب ، فلقد كانوا يدركون: أنَّ لله تعالى سنناً في هذا الكون ، وفي حياة البشر ، غيرُ قابلةٍ للتَّغيير ، ومع أنَّ لله تعالى سنناً خارقةً تملك أن تصنع كلَّ شيءٍ ، ولا يعجزها شيءٌ إلا أنَّ الله تعالى ـ جلَّت قدرته ـ قد قضى بأن تكون سنَّته الجارية ثابتةً في الحياة الدُّنيا ، وأن تكون سنَّته الخارقة استثناءً لها ، وكلتاهما معلَّقةٌ بمشيئة الله ، لذلك كان في حسِّهم أنَّه لا بدَّ لهم من مجاراة السُّنن الجارية؛ إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجةٍ معيَّنة في واقع حياتهم؛ أي: أنَّه لا بد من اتِّخاذ الأسباب المؤدِّية إلى النتائج ، بحسب تلك السُّنن الجارية[(٧٤٤)].

وإنَّ تخلُّف المسلمين اليوم عن رَكْبِ الزَّعامة العالميَّة لم يكن ظلماً نزل بهم ، بل كان العدل الإلهيُّ مع قومٍ نَسُوا رسالتهم ، وحطُّوا من مكانتها ، وشابوا معدنها بركامٍ هائلٍ من الأهواء ، والأوهام في مجال العلم ، والعمل على السَّواء ، وأهملوا السُّنَن الرَّبانيَّة ، وظنُّوا: أنَّ التمكين قد يكون بالأماني ، والأحلام ، ولكن هيهات! {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ *} [آل عمران: ١٨٢] وربَّما سائل يقول: ولكن إذا كان هذا عقاب الله للمؤمنين الَّذين عصوه ، فما بال الكافرين الَّذين جحدوه سبحانه بالمرَّة ، ومع ذلك فإنَّهم ممكَّنون في الأرض ـ من النَّاحية المادِّيَّة ـ غاية التمكين؟!

إنَّ هؤلاء الكفار ، لم يبلغوا ما بلغوه لأنَّهم أقرب إلى الله ، أو أرضى له ، ولم يبلغوا ما بلغوا بسحرٍ ، أو بمعجزةٍ ، أو لأنَّهم خلقٌ اخر متميِّز ، ولم يقيموا الصِّناعات ، أو يجوبوا البحار ، أو يخترقوا أجواء الفضاء؛ لأنَّ عقيدتهم حقٌّ ، أو لأنَّ فكرهم سليمٌ ، إنَّهم بلغوا بذلك؛ لأنَّ السبيل إلى هذا التَّقدُّم دربٌ مفتوح لجميع خلق الله ، مؤمنهم ، وكافرهم ، برِّهم ، وفاجرهم. قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ *} [هود: ١٥] .

إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ جعل التَّمكين في الحياة يمضي بالجهد البشريِّ ، وبالطَّاقة البشريَّة ، على سُننٍ ربَّانيَّةٍ ثابتةٍ ، وقوانين لا تتبدَّل ، ولا تتحوَّل؛ فمن يُقدِّم الجهد الصَّادق ، ويخضع لسنن الحياة؛ يصل على قدر جهده ، وبذله ، وعلى قدر سعيه ، وعطائه.

إنَّها السُّنَّة الَّتي أرادها الله في هذه الحياة ، إنَّها مشيئته ، وسنَّته ، وإرادته صحيحٌ: أنَّ هذا التَّقدُّم كلَّه لا يفتح للكافرين أبواب الجنَّة ، ولا يغني عنهم شيئاً ، ولكنَّ التَّقصير من جانب المسلم إثمٌ يحاسب عليه[(٧٤٥)].

التَّوكُّل على الله والأخذ بالأسباب:

التَّوكُّل على الله ـ تعالى ـ لا يمنع من الأخذ بالأسباب ، فالمؤمن يتَّخذ الأسباب من باب الإيمان بالله ، وطاعته فيما يأمر به من اتِّخاذها ، ولكنَّه لا يجعل الأسباب هي الَّتي تنشأى النَّتائج ، فيتوكَّل عليها.

إنَّ الَّذي ينشأى النَّتائج ـ كما ينشأى الأسباب ـ هو قدر الله ، ولا علاقة بين السَّبب والنَّتيجة في شعور المؤمن.. اتِّخاذ السَّبب عبادةٌ بالطاعة ، وتحقُّق النتيجة قدرٌ من الله مستقلٌ عن السَّبب ، لا يقدر عليه إلا الله ، وبذلك يتحرَّر شعور المؤمن من التعبُّد للأسباب والتَّعلُّق بها ، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاعته؛ لينال ثواب طاعة الله في استيفائها[(٧٤٦)].

ولقد قرَّر النَّبيُّ (ص) في أحاديث كثيرةٍ ضرورة الأخذ بالأسباب مع التَّوكُّل على الله تعالى ، كما نَبَّهَ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ على عدم تعارضهما.

يروي أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنَّ رجلاً وقف بناقته على باب المسجد ، وهمَّ بالدُّخول ، فقال: يا رسول الله! أرسلُ راحلتي ، وأتوكل؟... وكأنه كان يفهم أن الأخذ بالأسباب ينافي التَّوكُّل على الله تعالى ، فوجَّهه النَّبيُّ (ص) إلى أنَّ مباشرة الأسباب أمرٌ مطلوبٌ ، ولا ينافي ـ بحالٍ من الأحوال ـ التَّوكُّل على الله تعالى ، ما صدقت النِّيَّة في الأخذ بالأسباب ، فقال له (ص) : «بل قيِّدها وتوكَّل» [الحاكم (٦٢٣/٣) ومجمع الزوائد (٢٩١/١٠) وبلفظ: (اعقلها وتوكل) رواه الترمذي (٢٥١٧)].

وهذا الحديث من الأحاديث الَّتي تبيِّن: أنَّه لا تعارض بين التَّوكُّل ، والأخذ بالأسباب بشرط عدم الاعتقاد في الأسباب ، والاعتماد عليها ، ونسيان التَّوكُّل على الله. وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله (ص) : «لو أنكم توكَّلتم على الله حقَّ توكُّله؛ لرزقكم كما يرزق الطَّير ، تغدو خِماصاً ، وتروح بِطاناً» [أحمد (٣٠/١ ، ٥٢) والترمذي (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) وأبو يعلى (٢٤٧) والحاكم (٣١٨/٤)].

وفي هذا الحديث الشَّريف حثٌّ على التَّوكُّل ، مع الإشارة إلى أهمِّية الأخذ بالأسباب؛ حيث أثبت الغدوَّ ، والرَّواح للطَّير مع ضمان الله تعالى الرِّزق لها.

ويمكن تلخيص نظرة الإسلام في هذه القضيَّة ، في النُّقاط التَّالية:

١ ـ يقرِّر الإسلام مبدأ الأخذ بالأسباب ، ذلك؛ لأنَّ تعطيل الأخذ بالأسباب تعطيلٌ للشَّرع ، ولمصالح الدُّنيا.

٢ ـ الاعتماد علىالأخذ بالأسباب وحدها ، مع ترك التوكُّل على الله ، شركٌ.

٣ ـ يربط الإسلام اتخاذ الأسباب بالتَّوحيد ، مع الاعتقاد بأنَّ أمر الأسباب كلِّها بيد الله.

٤ ـ المطلوب من المسلم إذاً ، هو اتِّخاذ الأسباب مع التوكُّل على الله تعالى[(٧٤٧)].

ولا بدَّ للأمَّة الإسلاميَّة ، أن تدرك: أنَّ الأخذ بالأسباب للوصول إلى التَّمكين أمرٌ لا محيص عنه ، وذلك بتقرير الله تعالى حسب سنَّته الَّتي لا تتخلَّف ، ومن رحمة الله ـ تعالى ـ: أنَّه لم يطلب من المسلمين فوق ما يستطيعونه من الأسباب ، ولم يطلب منهم أن يُعِدُّوا العُدَّة التي تكافأى تجهيز الخصم ، ولكنَّه سبحانه قال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *} [الانفال: ٦٠] .

فكأنه تعالى يقول لهم: افعلوا أقصى ما تستطيعون ، احشدوا أقصى إمكاناتكم؛ ولو كانت دون إمكانات الخصوم ، فالاستطاعة هي الحدُّ الأقصى المطلوب ، وما يزيد على ذلك يتكفَّل الله تعالى به ، بقدرته الَّتي لا حدود لها؛ وذلك لأنَّ فعل أقصى المستطاع هو برهان الإخلاص ، وهو الشَّرط المطلوب؛ لينزل عون الله ، ونصره[(٧٤٨)].

إنَّ النِّداء اليوم موجَّهٌ لجماهير الأمَّة الإسلاميَّة ، بأن يتجاوزوا مرحلة الوهن ، والغثاء ، إلى مرحلة القوَّة ، والبناء ، وأن يودِّعوا الأحلام ، والأمنيات ، وينهضوا للأخذ بكلِّ الأسباب؛ الَّتي تعينهم على إقامة دولة الإسلام ، وصناعة حضارة الإنسان الموصول بربِّ العالمين.

وعلى الأمَّة أن تراعي سُنن الله المبثوثة في كونه ، والظَّاهرة في قرانه الكريم؛ وذلك لتسير على طريق النُّهوض بنورٍ من الله تعالى.

إنَّ النَّبيَّ (ص) أخذ بسنن الله تعالى منذ البعثة حتَّى وفاته ، ولم يفرِّط في أيٍّ منها ، فتعامل مع سنَّة الله في تغيير النُّفوس ، وسنَّة التَّدافع مع الباطل ، وسنَّة التَّدرُّج في بناء الجماعة ، ثمَّ الدولة ، وسنَّة الابتلاء ، واستفرغ (ص) جهده في الأخذ بالأسباب الَّتي توصل للتَّمكين ، فكانت

هجرتا الحبشة ، وذهابه للطَّائف ، وعرضه للدَّعوة على القبائل ، ثمَّ هجرته إلى المدينة ، فأقام الدَّولة ، وحافظ عليها ، وسار أصحابه من بعده على نهجه ، وتعاملوا مع السُّنن بوعيٍ ، وبصيرةٍ ، وصنعوا حضارةً لم يعرف التَّاريخُ البشريُّ مثلها حتَّى يومنا هذا.

إنَّ حركة النَّبيِّ (ص) في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة نورٌ يُهتدى به ، وسنَّةٌ يُقتدى بها في هذه البحور المتلاطمة ، والمناهج المتغايرة ، والظَّلام البهيم ، وإنَّها ليسيرةٌ على من يسَّرها الله عليه.

* * *

المبحث الثَّاني

الهجرة إلى الحبشة[(٧٤٩)]

قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأََجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *} [النحل: ٤١].

فقد نقل القرطبيُّ ـ رحمه الله! قول قتادة ـ رحمه الله! ـ: «المراد أصحاب محمَّد (ص) ، ظلمهم المشركون بمكَّة ، وأخرجوهم؛ حتَّى لحق طائفةٌ منهم بالحبشة ، ثمَّ بوَّأهم الله تعالى دار الهجرة ، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين»[(٧٥٠)].

وقال تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [الزمر: ١٠].

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: يريد جعفر بن أبي طالبٍ ، والَّذين خرجوا معه إلى الحبشة[(٧٥١)].

قال تعالى: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ *} [العنكبوت: ٥٦] .

قال ابن كثيرٍ ـ رحمه الله! ـ: «هذا أمرٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الَّذي لا يقدرون فيه على إقامة الدِّين إلى أرض الله الواسعة؛ حتَّى يمكن إقامة الدِّين... إلى أن قال: ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكَّة مقامهم بها؛ خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة؛ ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا خير المنْزِلين هناك ، أصحمةَ النَّجاشيَّ ملك الحبشة ، رحمه الله تعالى!»[(٧٥٢)].

أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

١ ـ أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتدَّ البلاء على أصحاب رسول الله (ص) ، وجعل الكفَّار يحبسونهم ، ويعذِّبونهم بالضَّرب ، والجوع ، والعطش ، ورمضاء مكَّة ، والنَّار؛ ليفتنوهم عن دينهم ، فمنهم من يفتتن من شدَّة البلاء وقلبه مطمئنٌ

بالإيمان ، ومنهم من تصلَّب في دينه ، وعصمه الله منهم ، فلمَّا رأى رسولُ الله (ص) ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية؛ لمكانه من الله ، ومن عمِّه أبي طالب ، وأنَّه لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء؛ قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظْلَم عنده أحدٌ ، وهي أرض صِدْقٍ ، حتَّى يجعل الله لكم فرجاً ممَّا أنتم فيه» ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ص) إلى أرض الحبشة ، مخافةَ الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أوَّل هجرةٍ كانت في الإسلام».

[ابن هشام (١/٣٤٤)][(٧٥٣)].

وقد ذكر الباحثون أسباباً عديدةً في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ منها: ما ذكرت ، ومنها: ظهور الإيمان: حيث كثُر الدَّاخلون في الإسلام ، وظهر الإيمان ، وتحدَّث الناس به. قال الزُّهري في حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلمَّا كثر المسلمون ، وظهر الإيمان ، فتُحدِّث به؛ ثار المشركون من كفَّار قريش بمن امن من قبائلهم ، يعذِّبونهم ، ويسجنونهم ، وأرادوا فتنتهم عن دينهم ، فلمَّا بلغ ذلك رسولَ الله (ص) ؛ قال لِلَّذين امنوا به: «تفرَّقوا في الأرض» ، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟! قال: «ها هنا» ، وأشار إلى أرض الحبشة[(٧٥٤)].

ومنها: الفرار بالدِّين:

كان الفرار بالدِّين خشية الافتتان فيه سبباً مهماً من أسباب هجرتهم للحبشة. قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله (ص) ، إلى أرض الحبشة؛ مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم»[(٧٥٥)].

ومنها: نشر الدَّعوة خارج مكَّة:

قال الأستاذ سيِّد قطب: «وَمِنْ ثَمَّ كان الرَّسول (ص) يبحث عن قاعدةٍ أخرى غير مكَّة ، قاعدةٍ تحمي هذه العقيدة ، وتكفل لها الحرِّيَّة ، ويتاح فيها أن تتخلَّص من هذا التجميد؛ الذي انتهت إليه في مكَّة ، حيث تظفر بحرية الدَّعوة ، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد ، والفتنة ، وهذا

في تقديري ، كان هو السَّبب الأوَّل ، والأهمَّ للهجرة ، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة؛ حيث هاجر إليها كثيرٌ من المؤمنين الأوائل ، والقول بأنَّهم هاجروا إليها لمجرَّد النَّجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قويَّةٍ ، فلو كان الأمر كذلك؛ لهاجر إذاً أقلُّ الناس وجاهةً ، وقوَّةً ، ومنعةً من المسلمين ، غير أنَّ الأمر كان على الضدِّ من هذا ، فالموالي المستضعفون الَّذين كان ينصبُّ عليهم معظم الاضطهاد ، والتَّعذيب ، والفتنة لم

يهاجروا؛ إنَّما هاجر رجالٌ ذوو عصبياتٍ ، لهم من عصبيتهم ـ في بيئة قبليَّةٍ ـ ما يعصمهم من الأذى ، ويحميهم من الفتنة ، وكان عدد القرشيين يؤلِّف غالبية المهاجرين»[(٧٥٦)].
ووافق الغضبان سيِّداً فيما ذهب إليه ، يقول: «وهذه اللَّفتة العظيمة من (سيِّد) ـ رحمه الله! ـ: لها في السِّيرة ما يعضُدها ، ويساندها ، وأهمُّ ما يؤكِّدها في رأيي هو الوضع العامُّ الَّذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة ، فلم نعلم أنَّ رسول الله (ص) قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة ، حتَّى مَضَتْ هجرةُ يثرب ، وبدرٌ ، وأحد ، والخندق ، والحديبية ، فلقد بقيت يثرب معرَّضةً لاجتياحٍ كاسحٍ من قريش خمس سنوات ، وكان اخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق ، وحين اطمأنَّ رسول الله (ص) إلى أنَّ المدينة قد أصبحت قاعدةً أمينةً للمسلمين ، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين ، عندئذٍ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة ، فلم يعد ثمَّة ضرورةٌ لهذه القاعدة الاحتياطيَّة ، الَّتي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله (ص) ، ولو سقطت يثرب في يد العدوِّ»[(٧٥٧)].
ويميل الأستاذ دروزة إلى أنَّ فتح مجالٍ للدَّعوة في الحبشة ، كان سبباً من أسباب هجرة الحبشة؛ حيث يقول: «بل إنَّه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النَّصرانيَّة أمل وجود مجالٍ للدَّعوة فيها ، وأن يكون هدف انتداب جعفر متَّصلاً بهذا الأمل»[(٧٥٨)]. وذهب إلى هذا القول الدُّكتور سليمان بن حمد العودة: «وممَّا يدعم الرَّأي القائل بكون الدَّعوة للدِّين الجديد في أرض الحبشة سبباً ، وهدفاً من أسباب الهجرة إسلامُ النَّجاشيِّ ، وإسلام اخرين من أهل الحبشة ، وأمرٌ اخر ، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النَّبيِّ (ص) ، وتوجيهه ، فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خيبر بأمرِ النَّبيِّ (ص) وتوجيهه ، وفي صحيح البخاريِّ: فقال جعفر للأشعريِّين حين وافقوه بالحبشة: «إنَّ رسول الله (ص) بعثنا هنا ، وأمرنا بالإقامة؛ فأقيموا معنا» [البخاري (٤٢٣٠)] .

وهذا يعني: أنَّهم ذهبوا لمهمَّة معيَّنةٍ ـ ولا أشرف من مهمَّة الدَّعوة لدين الله ـ وأنَّ هذه المهمَّة قد انتهت حين طُلِب المهاجرون[(٧٥٩)].
ومنها البحث عن مكانٍ امنٍ للمسلمين:
كانت الخطَّة الأمنيَّة للرَّسول (ص) تستهدف الحفاظ على الصَّفوة المؤمنة؛ ولذلك رأى الرَّسول (ص) : أنَّ الحبشة تعتبر مكاناً امناً للمسلمين ، ريثما يشتدُّ عود الإسلام ، وتهدأ العاصفة ، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمَّنهم ، وطمأنهم ، وفي ذلك تقول أمُّ سلمة رضي الله عنها: «لما نزلنا أرض الحبشة؛ جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ النَّجاشيَّ ، أَمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لا نُؤْذَى»[(٧٦٠)].

٢ ـ لماذا اختار النَّبيُّ (ص) الحبشة؟

هناك عدَّة أسبابٍ تساعد الباحث في الإجابة عن هذا السُّؤال؛ منها:

أ ـ النَّجاشيُّ العادل:

أشار النَّبيُّ (ص) إلى عدل النَّجاشيِّ بقوله لأصحابه: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها مَلِكاً لا يُظلم عنده أحدٌ»[(٧٦١)].

ب ـ النَّجاشيُّ الصَّالح:

فقد ورد عن النَّبيِّ (ص) ثناؤه على ملك الحبشة ، بقوله: «قد تُوفي اليوم رجلٌ صالحٌ من الحبشة ، فهَلُمَّ فَصَلُّوا عليه» [البخاري (١٣٢٠) ومسلم (٩٥٢/٦٦)] ويظهر هذا الصَّلاح في حمايته للمسلمين ، وتأثُّره بالقران الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه ، وكان معتقده في عيسى ـ عليه السَّلام ـ صحيحاً.

ج ـ الحبشة متجر قريش:

إنَّ التِّجارة كانت عمادَ الاقتصاد القرشيِّ ، والحبشة تُعَدُّ من مراكز التِّجارة في الجزيرة ، فربَّما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التِّجارة ، أو ذكرها لهم مَنْ ذهب إليها قبلهم ، وقد ذكر الطَّبريُّ في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: «وكانت أرض الحبشة متجراً

لقريش ، يتَّجرون فيها ، يجدون فيها رَفَاغاً[(٧٦٢)] من الرِّزق ، وأمناً ، ومتجراً حسناً»[(٧٦٣)].

كما ذكر ابن عبد البرِّ: أنَّ رسول الله (ص) حين دخل الشِّعْب ، أمر مَنْ كان بمكَّة من المؤمنين أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكانت متجراً لقريش[(٧٦٤)].

وذكر ابن حبَّان ـ ضمن أسباب اختيار الحبشة مكاناً للهجرة ـ: أنَّها كانت أرضاً دفيئة ، ترحل إليها قريش رحلة الشِّتاء[(٧٦٥)].

د ـ الحبشة البلد الامن:

كانت قبائل العرب في تلك الفترة تدين بالولاء والطَّاعة لقريش ، وتسمع وتطيع لأمرها في الغالب ؛ إذ لها نفوذٌ عليها ، وكانت القبائل في حاجةٍ لقريش في حَجِّها ، وتجارتها ، ومواسمها ، وفوق ذلك كانوا يشاركون قريشاً في حرب الدَّعوة ، وعدم الاستجابة للنبيِّ (ص) ، وقد أشار ابن إسحاق إلى نماذج من هؤلاء العرب الَّذين رفضوا عرضه ، ودعوته[(٧٦٦)] ، فإذا كان هذا في داخل الجزيرة ، فلم يكن في حينها في خارج الجزيرة بلدٌ أكثر أمناً من بلاد الحبشة ، ومن المعلوم بُعْدُ الحبشة عن سطوة قريش من

جانبٍ ، كما أنَّها لا تدين لقريشٍ بالاتِّباع كغيرها من القبائل[(٧٦٧)]. وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اختيارالحبشة مكاناً للهجرة: أنَّها: أرض صِدْقٍ ، وأن بها مَلِكاً لا يُظْلم عنده أحدٌ[(٧٦٨)] ، فهي أرض صدقٍ ، وملكها عادلٌ ، وتلك من أهمِّ سمات البلد الامن[(٧٦٩)].

هـ محبة الرَّسول (ص) للحبشة ، ومعرفته بها:

ففي حديث الزُّهريِّ: أنَّ الحبشة كانت أحبَّ الأرض إلى رسول الله (ص) أن يهاجر إليها[(٧٧٠)] ، ولعلَّ تلك المحبة لها أسبابٌ منها:

* حكم النَّجاشيِّ العادل.

* التزام الأحباش بالنَّصرانيَّة ، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنيَّة؛ ولذلك فرح المؤمنون

بانتصار الروم النَّصارى على فارسٍ المجوس المشركين ، في الفترة المكِّية سنة ثمانٍ من البعثة ، كما في القران[(٧٧١)].

* معرفة الرَّسول (ص) بأخبار الحبشة ، من خلال حاضنته أمِّ أيمن رضي الله عنها، وأمُّ أيمن هذه ثبت في صحيح مسلمٍ ، وغيره: أنَّها كانت حبشيَّةً [البخاري (٢٦٣٠) ومسلم (١٧٧١)] ، ونُقل ذلك عن ابن شهابٍ، وفي سنن ابن ماجه: أنَّها كانت تصنع للنَّبيِّ (ص) طعاماً ، فقال: ما هذا؟ فقالت: طعام نصنعه بأرضنا ، فأحببت أن أصنع لك منه رغيفاً. [ابن ماجه (٣٣٣٦)] .

ولم تستطع أن تغيِّر لكنتها الحبشية ، ورخَّص لها النَّبيُّ (ص) فيما لا تستطيع نطقه ، فلا يُستبعد حديثها للنَّبيِّ (ص) عن طبيعة أرضها ، ومجتمعها ، وحكَّامها[(٧٧٢)] ، كما أنَّ النَّبيَّ (ص) كان خبيراً بطبائع وأحوال الدُّول الَّتي كانت في زمانه.

٣ ـ وقت خروج المهاجرين ، وسرِّيَّة الخروج ، والوصول إلى الحبشة:

غادر أصحاب رسول الله (ص) مكَّة في رجب من السَّنة الخامسة للبعثة ، وكانوا عشرة رجالٍ ، وأربع نسوةٍ ، وقيل: خمس نسوةٍ ، وحاولت قريش أن تدركهم لتردَّهم إلى مكَّة ، وخرجوا في إثرهم حتَّى وصلوا البحر ، ولكنَّ المسلمين كانوا قد أبحروا ، متوجِّهين إلى الحبشة[(٧٧٣)].

وعند التأمُّل في فقه المرويَّات يتبيَّن لنا سِرِّيَّة خروج المهاجرين الأوائل؛ ففي رواية الواقديِّ: «فخرجوا متسلِّلين سرَّاً»[(٧٧٤)] ، وعند الطَّبريِّ[(٧٧٥)] ، وممَّن يذكر السِّرِّيَّة في الهجرة: ابن سيِّد النَّاس[(٧٧٦)] ، وابن القيِّم[(٧٧٧)] ، والزُّرقانيُّ[(٧٧٨)]. ولما وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النَّجاشيُّ مثواهم ، وأحسن لقاءهم ، ووجدوا عنده من الطُّمأنينة ، والأمن ما لم يجدوه في وطنهم ،

وأهليهم ، فعن أمِّ سلمة زوج النَّبيّ (ص) قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة ، جَاوَرْنا بها خيرَ جارٍ ـ النَّجاشيَّ ـ أَمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله لا نُؤْذَى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه» [سبق تخريجه] .

أسماء أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة:

*الرجال:

ـ عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس.

ـ عبد الله بن عوف بن عوف بن عبد بن الحارث بن زُهرة.

ـ الزُّبير بن العوَّام بن خُوَيلد بن أسد.

ـ أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

ـ مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار.

ـ أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

ـ عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حُذافة بن جُمح.

ـ عامر بن ربيعة، حليف آل الخطَّاب من عَنْز بن وائل.

ـ سُهَيل بن بيضاء، وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أُهَيب بن ضَبَّة بن الحارث.

ـ أبو سَبْرة بن أبي رُهْم بن عبد العُزَّى بن أبي قيس عبد وُدَّ بن نصر بن مالك بن حِسْل بن عامر.

فكان هؤلاء العشرة أوَّل من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة.

*النساء:

ـ رقيَّة بنت النَّبيِّ (ص).

ـ سهلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، والَّتي هاجرت مع زوجها أبي حذيفة، وولدت له بأرض الحبشة محمَّد بن أبي حذيفة.

ـ أمُّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، امرأة أبي سلمة.

ـ ليلى بنت أبي حَثمة بن حذافة بن غانم (بن عامر) بن عبد الله بن عوف بن عبيد ابن عويج بن عديٍّ بن كعب، امرأة عامر بن ربيعة.

ـ أمُّ كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس، امرأة أبي سَبْرة بن أبي رُهْم[(٧٧٩)].

وكان أول من هاجر منهم، عثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله (ص)، فقد روى يعقوب بن سفيان: «إنَّ عثمان لأوَّل مَنْ هاجر بأهله بعد لوطٍ» [ابن أبي عاصم في السنة (١٣١١)][(٧٧٩)] .

إنَّ المتأمِّل في الأسماء سالفة الذِّكر لا يجد فيهم أحداً من الموالي ، الَّذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشدُّ من غيرهم ، كبلال ، وخبَّاب ، وعمَّار رضي الله عنهم ، بل نجد غالبيتهم من ذوي النَّسب ، والمكانة في قريشٍ ، ويمثِّلون عدداً من القبائل ، صحيحٌ: أنَّ الأذى شمل ذوي النَّسب والمكانة ، كما طال غيرهم ، ولكنَّه كان على الموالي أشدَّ في بيئةٍ تقيم وزناً للقبيلة ، وترعى النَّسب ، وبالتَّالي فلو كان الفرار من الأذى وحده هو السَّبب في الهجرة؛ لكان هؤلاء الموالي المعذَّبون أحقَّ بالهجرة من غيرهم ، ويؤيِّد هذا: أنَّ ابن إسحاق وغيره ذكر عدوان المشركين على المستضعفين ، ولم يذكر هجرتهم للحبشة[(٧٨٠)].

ويصل الباحث إلى حقيقةٍ مهمَّةٍ ، ألا وهي: أن ثَمَّةَ أسباباً أخرى تدفع للهجرة غير الأذى ، اختار لها النَّبيُّ (ص) نوعيةً من أصحابه ، تُمثِّل عدداً من القبائل ، وقد يكون لذلك أثرٌ في حمايتهم لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانبٍ ، وتهزُّ هجرتهم قبائل قريش كلَّها ، أو معظمها من جانبٍ اخر ، فمكَّة ضاقت بأبنائها ، ولم يجدوا بُدّاً من الخروج عنها بحثاً عن الأمن في بلدٍ اخر ، ومن جانبٍ ثالثٍ يرحل هؤلاء المهاجرون بدين الله لينشروه في الافاق ، وقد تكون محلاً أصوب ، وأبرك للدَّعوة إلى الله ، فتنفتح عقولٌ وقلوبٌ حين يستغلق سواها[(٧٨١)].

ثانياً: أسباب عودة المسلمين إلى مكَّة بعد هجرتهم الأولى:

١ ـ شبهة عودة المهاجرين بسبب قصَّة الغرانيق:

يعزو بعض المؤرِّخين والمفسِّرين عودة المسلمين من الحبشة بعد الهجرة إلى مكَّة لأسطورة راجت كثيراً ، واحتلَّت مساحاتٍ واسعةً من كتب المستشرقين ، قاصدين بذلك ترويجها ، وجعلها حقيقةً واقعةً في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة.

إنَّ الَّذين تعرضوا لذكر تلك الأسطورة ينهجون حيالها مناهج شتَّى؛ فمنهم مَنْ يذكرها ، ويسكت عنها ، لا ينفيها ، ولا يثبتها ، ومنهم مَنْ يحاول إثباتها ، ومنهم مَنْ يورد الأدلَّة على بطلانها[(٧٨٢)].

وتلك الأسطورة تتلخَّص في: أنَّ رسول الله (ص) جلس يوماً عند الكعبة ، وقرأ سورة النَّجم ، حتَّى بلغ قوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى *وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى *} [النجم: ١٩ ـ ٢٠] .

قرأ بعدها: «تلك الغرانيق العُلا ، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى» ، فقال المشركون: ما ذكر الهتنا بخيرٍ قبل اليوم ، وقد علمنا أنَّ الله يرزق ، ويحيي ، ويميت ، ولكنَّ الهتنا تشفع عنده ، فلمَّا بلغ السَّجدة سجد ، وسجد معه المسلمون ، والمشركون كلُّهم ، إلا شيخاً من قريش ، رفع إلى جبهته كفّاً من حصى ، فسجد عليه[(٧٨٣)].

وصَافَ المشركون رسول الله (ص) ، وكفُّوا عن أذى المسلمين ، وشاع ذلك حتَّى بلغ مَنْ في الحبشة ، فاطمأنُّوا إلى حسن إقامتهم في مكَّة ، وممارستهم عباداتهم امنين ، فعادوا إلى مكَّة.

تلك خلاصة الأسطورة ، والَّذين ذكروا القصَّة ـ مع اختلاف مواقفهم منها ـ يقولون: إنَّ رسول الله (ص) لما قالت قريش: «إمَّا جعلت لالهتنا نصيباً ، فنحن معك» كبر عليه ذلك، وجلس في بيته حتَّى أمسى، ثمَّ أتاه جبريل، فقرأ عليه سورة النَّجم ، فقال جبريل: أوجئتك بهاتين الكلمتين؟ يقصد «تلك الغرانيق العلا ، وإنَّ شفاعتهنَّ لترجى» فحزن الرَّسول (ص) حزناً شديداً ، وخاف من ربِّه ، فأنزل الله عليه: [(٧٨٤)] {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [الحج: ٥٢] ، وحينئذٍ عاد الرَّسول (ص) إلى عيب الهتهم ، وتسفيه عقولهم ، وعادوا هم كذلك إلى إيذاء المسلمين.

٢ ـ تفنيد القصة الباطلة:

أنكر هذه القصَّة الكثير من علماء الإسلام السَّابقين ، والمحْدَثين ، نقلاً ، وعقلاً؛ وذلك لأنَّها تتنافى مع عصمة الرَّسول (ص) ؛ بل وتطعن في نبوَّته (ص) ، كما أنَّها تتهاوى أمام البحث العلميِّ ، ومن الأدلة النقليَّة على بطلانها:

أ ـ أنَّ القران الكريم بيَّن بوضوح: أنَّ النبي (ص) لا يستطيع أن يتقوَّل على الله تعالى: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ *لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ *ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *} [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

ب ـ أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد أخبر أنَّه يحفظ القران من أن يُدخل عليه ما ليس منه ، أو يُنقص منه شيءٌ ، أو يُحرَّف عن مواضعه. قال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *} [الحجر: ٩].

ولو صحَّ: أنَّ الرَّسول (ص) نطق في أثناء قراءته بالكلمتين المذكورتين ، لدخل في القران ما ليس منه ، فلا يكون هناك حفظٌ ، وهو مخالفٌ للنَّصِّ.

ج ـ قال تعالى: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٩٩] ، وهل هناك بشرٌ أصدق إيماناً ، وأشدُّ توكُّلاً على الله من الأنبياء ، ولا سيَّما خاتمهم (ص) ؟! وقد أقرَّ رئيس الشَّياطين بأنَّه لا سلطان له على عباد الله المخلصين ، قال تعالى: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأَُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ *} [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وَمَنْ أحقُّ من الأنبياء بالاصطفاء؟! ومن أشدُّ إخلاصاً منهم لله؟! ونبيُّنا محمَّد (ص) على رأس المصطفين الأخيار ، وفي الذِّروة منهم إخلاصاً لله[(٧٨٥)].

وقد ذكر القاضي عياض: أنَّ مَنْ ذكرها من المفسرين ، وغيرهم لم يسندها أحدٌ منهم ، ولا رفعها إلى صاحبٍ ، إلا رواية البزَّار ، وقد بيَّن البزَّار: أنَّه لا يعرف من طريقٍ يجوز ذكره سوى ما ذكره ، وفيه ما فيه[(٧٨٦)].

ورأى ابن حجر: وما قيل من أنَّ ذلك ـ السُّجود من المشركين ـ بسبب إلقاء الشَّيطان في أثناء قراءة رسول الله (ص) لا صحَّة له عقلاً ، ولا نقلاً[(٧٨٧)].

ورأى ابن كثير: أنه قد ذكر كثيرٌ من المفسرين ها هنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثيرٍ من المهاجرين إلى أرض الحبشة ، ظنَّاً منهم: أنَّ مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنَّها من طرقٍ كلِّها مرسلةٌ ، ولم أرها مسندةً من وجهٍ صحيح. والله أعلم[(٧٨٨)].

* وأمَّا بطلان القصَّة من جهة العقل: فقد قام الدَّليل العقليُّ ، وأجمعت الأمَّة ، على عصمته (ص) من مثل هذا؛ إذ لو جاز هذا من الرَّسول (ص) لجاز عليه الكذب ، والكذب على الرَّسول (ص) محالٌ؛ إذ صدور مثل هذه القصَّة عن الرَّسول (ص) محالٌ ، ولو قاله عمداً ، أو سهواً لم يكن هناك عصمةٌ ، وهو مردودٌ ، كما أنَّ القصَّة تخالف عقيدة التَّوحيد الَّتي من أجلها بَعَثَ اللهُ نبيَّه (ص) .

* وأمَّا بطلان القصَّة لغويّاً: فلأنَّه لم يرد قطُّ عن العرب أنَّهم وصفوا آلهتهم بـ (الغرانيق) ، في الشِّعر ، ولا في النَّثر ، والَّذي تعرفه اللغة أنَّ (الغُرْنُوق) اسم لطائرٍ مائيٍّ أسود ، أو أبيض ، ومن معانيه: الشَّابُّ الأبيض الجميل[(٧٨٩)] ، ولا شيء من معانيه اللُّغويَّة يلائم معنى الالهة والأصنام حتَّى يطلق عليهما في فصيح الكلام؛ الَّذي يُعرَض على أمراء الفصاحة والبيان ، فكيف
يفرح به المشركون ، ويعتبرونه ذكراً لالهتهم بالخير؟![(٧٩٠)].

إنَّ قصَّة الغرانيق لا تثبت من جهة النَّقل ، وهي مخالفةٌ للقران الكريم ، ولما قام عليه الدَّليل العقلي ، كما أنكرتها اللُّغة ، وهذا ممَّا يدلُّنا على أنَّ حديث الغرانيق مكذوبٌ ، اختلقته الزَّنادقة ، الَّذين يسعون لإفساد العقيدة والدِّين ، والطَّعن في سيِّد الأنبياء ، وإمام المرسلين (ص)[(٧٩١)] .

٣ ـ الأسباب الحقيقية لعودة المسلمين:

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة ، وحدث تغيُّر كبيرٌ على حياة المسلمين في مكَّة ، ونشأت ظروفٌ لم تكن موجودةً من قبل ، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدَّعوة في مكَّة؛ حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب ، عمُّ رسول الله (ص) ؛ عصبيَّةً لابن أخيه ، ثمَّ شرح الله صدره للإسلام؛ فثبت عليه ، وكان حمزةُ أعزَّ فتيان قريش ، وأشدَّهم شكيمةً ، فلمَّا دخل في الإسلام؛ عرفت

قريش: أنَّ رسول الله (ص) قد عزَّ ، وامتنع ، وأنَّ عمه سيمنعه ، ويحميه ، فكفُّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[(٧٩٢)].

وبعد إسلام حمزة رضي الله عنه أسلم عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وكان عمر ذا شكيمةٍ لا يرام ، فلمَّا أسلم؛ امتنع به أصحاب رسول الله (ص) ، وبحمزة؛ حتَّى عازُّوا قريشاً[(٧٩٣)].

كان إسلام الرَّجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة ، فكان إسلامهما عزَّةً للمسلمين ، وقهراً للمشركين ، وتشجيعاً لأصحاب رسول الله (ص) على المجاهرة بعقيدتهم.

قال ابن مسعودٍ: «إنَّ إسلام عمرَ كان فتحاً ، وإنَّ هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمةً ، ولقد كنَّا ما نصلي عند الكعبة حتَّى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً؛ حتَّى صلَّى عند الكعبة ، وصلَّينا معه»[(٧٩٤)].

وعن ابن عمر قال: لما أسلم عمر؛ قال: أيُّ قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن مَعْمر الجُمَحي ، قال: فغدا عليه ، قال عبد الله : وغدوت معه أتبع أثره ، وأنظر ماذا يفعل ، حتَّى جاءه ، فقال له: أعلمت يا جميل! أنِّي أسلمت ، ودخلت في دين محمَّد؟ قال: فوالله ما راجعه حتَّى قام يجرُّ رداءه ، وتبعه عمر ، واتَّبعتُ أبي؛ حتَّى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى

صوته: يا معشر قريش! . وهم في أنديتهم حول الكعبة . ألا إن ابن الخطَّاب قد صبأ[(٧٩٥)]. قال: يقول عمر مِنْ خلفه: كذب! ولكنِّي أسلمت ، وشهدت أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً عبده ، ورسوله. وثاروا إليه ، فما برح يقاتلهم ، ويقاتلونه ، حتَّى قامت الشَّمس على رؤوسهم ، وَطَلِحَ (أي: أعيا) فقعد ، وقاموا على رأسه ، وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم ، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمئةٍ ، لقد تركناها لكم ، أو تركتموها لنا[(٧٩٦)].

«لقد أصبح المسلمون إذاً في وضعٍ غير الَّذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة ، فقد امتنعوا بحمزة ، وعمر رضي الله عنهما ، واستطاعوا أن يصلُّوا عند الكعبة بعد أن كانوا لا يقدرون على ذلك ، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين ، حتَّى دخلوا المسجد ، وَكَفَّت قريش عن إيذاءهم بالصُّورة الوحشيَّة الَّتي كانت تعذِّبهم بها قبل ذلك ، فالوضع قد تغيَّر بالنسبة للمسلمين ، والظُّروف الَّتي كانوا يعيشون فيها قبل الهجرة قد تحوَّلت إلى أحسن ، فهل ترى هذا يخفى على أحد؟! وهل تظنُّ: أنَّ هذه التَّغييرات الَّتي جرت على حياة المسلمين في مكَّة لم تصل إلى أرض الحبشة ، ولو عن طريق البحَّارة الَّذين كانوا يمرُّون بجدَّة؟!

لا بدَّ: أنَّ كلَّ ذلك قد وصلهم ، ولا شكَّ: أنَّ هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيراً ، ولا يستغرب أحدٌ بعد ذلك أن يكون الحنين إلى الوطن . وهو فطرةٌ فطر الله عليها جميع المخلوقات . قد عاودهم ، ورغبت نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز ، مكَّة أمُّ القرى ، وإلى حيث يوجد الأهل ، والعشيرة ، فعادوا إلى مكَّة في ظلِّ الظُّروف الجديدة ، والمشجِّعة ، وتحت إلحاح النَّفس ، وحنينها إلى حرم الله ، وبيته العتيق»[(٧٩٧)] .

لقد رجع المهاجرون إلى مكَّة بسبب ما علموا من إسلام حمزة ، وعمر ، واعتقادهم: أنَّ إسلام هذين الصَّحابيَّيْن الجليلين ، سيعتزُّ به المسلمون ، وتقوى به شوكتُهم.

ولكنَّ قريشاً واجهت إسلام حمزة ، وعمر رضي الله عنهما ، بتدبيراتٍ جديدة ، يتجلَّى فيها المكر والدَّهاء من ناحيةٍ ، والقسوة ، والعنف من ناحيةٍ أخرى ، فزادت في أسلحة الإرهاب الَّتي تستعملها ضدَّ النَّبيِّ (ص) ، وأصحابه رضي الله عنهم ، سلاحاً قاطعاً ، وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية . وقد تحدَّثت عنه . وكان من جرَّاء ذلك الموقف العنيف ، أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرَّةً ثانيةً ، وانضمَّ إليهم عددٌ كبير ممَّن لم يهاجروا قبل ذلك[(٧٩٨)] .

ثالثاً: هجرة المسلمين الثَّانية إلى الحبشة:

قال ابن سعدٍ: قالوا: لما قدم أصحاب النَّبيِّ (ص) مكَّة من الهجرة الأولى؛ اشتدَّ عليهم قومهم ، وسطت بهم عشائرهم ، ولقوا منهم أذىً شديداً ، فأذن لهم رسول الله (ص) في الخروج إلى أرض الحبشة مرَّةً ثانيةً ، فكانت خرجَتُهم الثَّانية أعظمها مشقَّةً ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ، ونالوهم بالأذى ، واشتدَّ عليهم ما بلغهم عن النَّجاشي من حسن جواره لهم ، فقال عثمان بن عفَّان: يا رسول الله! فهجرتنا الأولى وهذه الاخرة ولست معنا ؟ فقال رسول الله (ص) : « أنتم مهاجرون إلى الله تعالى ، وإليَّ ، لكم هاتان الهجرتان جميعاً» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله[(٧٩٩)]!

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم ، وعدَّتهم . كما قال ابن إسحاق وغيره . ثلاثةٌ وثمانون رجلاً؛ إن كان عمَّار بن ياسر فيهم ، واثنان وثمانون رجلاً؛ إن لم يكن فيهم. قال السُّهيلي: وهو الأصحُّ عند أهل السِّير كالواقديِّ ، وابن عقبة ، وغيرهما[(٨٠٠)]، وثماني عشرة امرأةً: إحدى عشرة قرشيَّاتٌ ، وسبعٌ غير قرشيَّاتٍ ، وذلك عدا أبنائهم الَّذين خرجوا معهم صغاراً ، ثمَّ الذين وُلِدوا لهم فيها[(٨٠١)].

١ . سعي قريش لدى النَّجاشيِّ في ردِّ المهاجرين:

لما رأت قريش: أنَّ أصحاب رسول الله (ص) قد أمنوا ، واطمأنُّوا بأرض الحبشة ، وأنَّهم قد أصابوا بها داراً واستقراراً ، وحُسْنَ جوارٍ من النَّجاشيِّ ، وعبدوا الله ، لا يؤذيهم أحدٌ ؛ ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنَّجاشيِّ لإحضار مَنْ عنده من المسلمين إلى مكَّة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة ، إلا أنَّ هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري ، فقد أسفرت مكيدته عند النَّجاشيِّ عن حوارٍ هادف ، دار بين أحد المهاجرين ، وهو جعفر بن أبي طالب ، وبين ملك الحبشة ، أسفر هذا الحوار عن إسلام النَّجاشيِّ ، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده[(٨٠٢)].

فعن أمِّ سلمة بنت أبي أميَّة بن المغيرة زوج النَّبيِّ (ص) قالت: لما نزلنا أرض الحبشة ، جاوَرْنا بها خيرَ جارٍ (النَّجاشيّ)؛ أَمِنَّا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى ، لا نُؤْذَى ، ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلمَّا بلغ ذلك قريشاً؛ ائتمروا أن يبعثوا إلى النَّجاشي فينا رجلين جَلْدين[(٨٠٣)] ، وأن يُهْدوا

للنَّجاشيِّ هدايا ممَّا يستطرف من متاع مكَّة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأَدَم[(٨٠٤)] ، فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقته[(٨٠٥)] بِطْرِيقاً إلا أَهْدَوْا له هديَّةً ، ثمَّ بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة ابن المغيرة المخزوميَّ ، وعمرو بن العاص بن وائل السَّهميَّ ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما: ادفعا إلى كلِّ بطريق هديَّته قبل أن تكلِّموا النَّجاشيَّ فيهم ، ثمَّ قدِّما للنَّجاشيِّ هداياه ، ثمَّ سلاه أن يُسْلِمَهم إليكما قبل أن يكلِّمهم. قالت: فخرجا ، فقدما على النَّجاشيِّ ، ونحن عنده بخير دارٍ ، وخير جارٍ ، فلم يبقَ من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلِّما النَّجاشيَّ ، ثم قالا لكلِّ بطريقٍ منهم: إنَّه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ، ولا أنتم ، وقد بَعَثَنَا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم من ابائهم ، وأعمامهم؛ لتردُّوهم إليهم ، فإذا كلَّمنا الملك فيهم؛ فأشيروا عليه بأن يُسْلِمَهم إلينا ، ولا يكلِّمهم ، فإنَّ قومهم أعلى بهم عيناً[(٨٠٦)] ، وأعلم بما عابوا عليهم. فقالوا لهما: نعم . ثمَّ إنهما قرَّبا هداياهما إلى النَّجاشيِّ ، فقبلها منهما ، ثمَّ كلَّماه ، فقالا له: أيها الملك! إنَّه قد صبأ إلى بلدك منا غلمانٌ سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاؤوا بدينٍ مبتدعٍ لا نعرفه نحن ، ولا أنت ، وقد بَعَثَنَا فيهم أشرافُ قومهم من ابائهم ، وأعمامهم ، وعشائرهم؛ لتردَّهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص ، من أن يسمع النَّجاشيُّ كلامهم ، فقالت بطارقته حوله: صدقا أيها الملك! قومُهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأَسْلِمْهم إليهما ، فليردَّاهم إلى بلادهم ، وقومهم.

قالت: فغضب النَّجاشيُّ ، ثمَّ قال: لا هَيْمُ[(٨٠٧)] الله! إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد[(٨٠٨)] ، قوماً جاوروني ، ونزلوا بلادي ، واختاروني على مَنْ سواي ، حتَّى أدعوهم ، فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون؛ أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك؛ منعتهم منهما ، وأحسنت جوارهم ، ما جاوروني[(٨٠٩)].

٢ ـ حوارٌ بين جعفر ، والنَّجاشيِّ:

ثمَّ أرسل النَّجاشيُّ إلى أصحاب رسول الله (ص) ، فدعاهم ، فلمَّا جاءهم رسوله؛ اجتمعوا ، ثمَّ قال بعضهم لبعضٍ: ما تقولون للرَّجل؛ إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علَّمنا ، وما أَمَرَنا به نبيُّنا (ص) ، كائناً في ذلك ما هو كائن. فلمَّا جاؤوه ، وقد دعا النَّجاشيُّ أساقفته[(٨١٠)] ، فنشروا مصاحفهم[(٨١١)] حوله ، سألهم ، فقال: ما هذا الدِّين الَّذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا ديني ، ولا دين أحدٍ من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلَّمه جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، فقال له: أيُّها الملك! كنَّا قوماً أهل جاهليَّة ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسِيء الجوار ، ويأكل القويُّ منَّا الضَّعيف ، فكنَّا على ذلك ، حتَّى بعث اللهُ إلينا رسولاً نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحِّده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن واباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم والدِّماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزُّور ، وأكل مال اليتيم، وقَذْف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصَّلاة ، والزَّكاة ، والصِّيام. قالت: فعدَّد عليه أمور الإسلام ـ فصدَّقناه ، وامنَّا به ، واتَّبعناه على ما جاء به ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حَرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومُنا ، فعذَّبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله ، وأن نستحلَّ ما كنَّا نستحلُّ من الخبائث ، فلمَّا قهرونا ، وظلمونا ، وشقُّوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا؛ خرجنا إلى بلدك ، واخترناك على مَنْ سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلمَ عندك أيُّها الملك[(٨١٢)].

قالت: فقال له النَّجاشيُّ: هل معك ممَّا جاء به عن الله من شيءٍ؟ قال له جعفر: نعم، فقال له النَّجاشيُّ: فاقرأه عليَّ.

فقرأ عليه صدراً من {كهيعص *}، قالت: فبكى، والله النَّجاشيُّ، حتَّى أَخْضَلَ[(٨١٣)] لحيته، وبكت أساقفته، حتَّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثمَّ قال النَّجاشيُّ: إنَّ هذا ـ والله! ـ والَّذي جاء به موسى، ليخرجُ من مشكاةٍ واحدةٍ، انطلقا؛ فوالله لا أُسْلِمُهم إليكما أبداً، ولا يُكادون[(٨١٤)].

٣ ـ محاولة أخرى للدَّس بين المهاجرين والنَّجاشيِّ:

قالت: فلمَّا خرج كلٌّ من: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة، من عند النَّجاشيِّ؛ قال عمرو بن العاص: والله! لاتينَّه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم[(٨١٥)]. قالت: فقال له عبد الله بن ربيعة ـ وكان أتقى الرَّجلين فينا ـ: لا تفعل؛ فإنَّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله! لأخبرنَّه أنَّهم يزعمون: أن عيسى ابن مريم عبدٌ، قالت: ثمَّ غدا عليه من الغد، فقال له: أيها الملك! إنَّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً؛ فأرسل إليهم، فاسألهم عمَّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قطُّ، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعضٍ: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول ـ والله! ـ فيه ما قاله الله، وما جاء به نبيُّنا كائناً في ذلك ما هو كائن، فلمَّا دخلوا عليه؛ قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟ فقال له جعفر بن أبي طالبٍ: نقول فيه الَّذي جاء به نبيُّنا، هو عبد الله، ورسولُه، وروحه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء[(٨١٦)] البَتُول[(٨١٧)].

قالت: فضرب النَّجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثمَّ قال: ما عدا عيسى ابن مريم ما قلتَ هذا العود، فتناخرت[(٨١٨)] بطارقتُه حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله! اذهبوا فأنتم شُيُومٌ بأرضي (والشُّيوم الامنون)؛ من سبَّكم غرِمَ، ثمَّ من سبَّكم غرم، فما أُحِبُّ أن لي دَبَراً ذهباً، وأنِّي اذيتُ رجلاً منكم، والدَّبر بلسان الحبشة الجعل، ردُّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله! ما أخذ اللهُ مني الرَّشوة حين رد عليَّ مُلْكي؛ فاخذَ الرَّشوة فيه، وما أطاع النَّاس فيَّ، فأطيعهم فيه، قالت: فخرجا من عنده مَقْبُوحَيْنِ، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جارٍ. [أحمد (٢٠٢/١ ـ ٢٠٣) و(٢٩٠/٥ ـ ٢٩٢) وابن هشام (٣٥٧/١ ـ ٣٦٢) وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٩٤) والبيهقي في الدلائل (٣٠١/٢ ـ ٣٠٤)].

٤ ـ إسلام النَّجاشيِّ:

وقد أسلم النَّجاشيُّ ، وصدَّق بنبوَّة النَّبيِّ (ص) ، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه؛ لِمَا علمه فيهم من الثَّبات على الباطل ، وحرصهم على الضَّلال ، وجمودهم على العقائد المنحرفة ـ وإن صادمت العقل ، والنَّقل ـ [البخاري (١٢٤٥) ومسلم (٩٥١/٦٢ و٦٣)] ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله (ص) نعى النَّجاشيَّ في اليوم الَّذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلَّى، فصفَّ بهم، وكبَّر عليه أربع تكبيراتٍ»[(٨١٩)] ، وعن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ (ص) حين مات النَّجاشيُّ: «مات اليوم رجلٌ صالحٌ؛ فقوموا ، فصلُّوا على أخيكم أصحمة» [البخاري (٣٨٧٧)] . وكانت وفاته ـ رحمه الله! ـ سنة تسعٍ عند الأكثر ، وقيل: سنة ثمانٍ قبل فتح مكَّة»[(٨٢٠)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ إنَّ ثبات المؤمنين على عقيدتهم ، بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار ، والضَّالون أنواع العذاب ، والاضطهاد دليلٌ على صِدْق إيمانهم ، وإخلاصهم في معتقداتهم ، وسموِّ نفوسهم ، وأرواحهم ، بحيث يرون ما هم عليه من راحة الضَّمير ، واطمئنان النَّفس والعقل. وما يأملونه من رضا الله ـ جلَّ شأنُه ـ ، أعظمُ بكثير ممَّا ينالُ أجسادَهم ، من تعذيبٍ ، وحرمانٍ ، واضطهادٍ؛ لأنَّ السيطرة في المؤمنين الصَّادقين ، والدُّعاة المخلصين ، تكون دائماً وأبداً لأرواحهم ، لا لأجسادهم ، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم ، من حيث لا يبالون بما تتطلَّبه أجسامهم ، من راحةٍ ، وشبعٍ ، ولذَّةٍ ، وبهذا تنتصر الدَّعوات ، وبهذا تتحرَّر الجماهير من الظُّلمات ، والجهالات[(٨٢١)].

٢ ـ ممَّا يتبادر إلى الذِّهن من هذه الهجرة العظيمة ، شفقة الرَّسول الكريم (ص) على أصحابه ، ورحمته بهم ، وحرصه الشَّديد للبحث عمَّا فيه أمنهم وراحتهم ، ولذلك أشار عليهم بالذَّهاب إلى الملك العادل؛ الَّذي لا يُظْلم أحدٌ عنده ، فكان الأمر كما قال (ص) ، فأمنوا في دينهم ، ونزلوا عنده في خير منزلٍ[(٨٢٢)] ، فالرَّسول (ص) هو الَّذي وجَّه الأنظار إلى الحبشة ، وهو الَّذي اختار المكان الامن لجماعته ، ودعوته؛ كي يحميها من الإبادة ، وهذه تربيةٌ نبويَّةٌ لقيادات المسلمين في كلِّ عصرٍ أن تخطِّط بحكمةٍ ، وبُعْد نظرٍ لحماية الدَّعوة ، والدُّعاة ، وتبحث عن الأرض الامنة الَّتي تكون عاصمةً احتياطيَّةً للدَّعوة ، ومركزاً من مراكز انطلاقها ـ فيما لو تعرَّض المركز الرَّئيسيُّ للخطر ، أو وقع احتمال اجتياحه ـ. فجنود الدَّعوة هم الثَّروة الحقيقية ، وهم الَّذين تنصبُّ الجهود كلُّها لحفظهم ، وحمايتهم دون أن يتمَّ أيُّ تفريطٍ في أرواحهم ، وأمنهم ، ومسلمٌ

واحدٌ يعادل ما على الأرض من بشرٍ خارجين عن دين الله ، وتوحيده[(٨٢٣)].
٣ ـ كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددةً ، ولذلك حرص النَّبيُّ (ص) على اختيار نوعياتٍ معيَّنةٍ لتحقيق هذه الأهداف ، كشرح قضيَّة الإسلام ، وموقف قريشٍ منه ، وإقناع الرَّأي العامِّ بعدالة قضيَّة المسلمين على نحو ما تفعله الدُّول الحديثة من تحرُّكٍ سياسيٍّ ، يشرح قضاياها ، وكسب الرَّأي العامِّ إلى جوارها[(٨٢٤)] ، وفتح أرضٍ جديدةٍ للدَّعوة ، فلذلك هاجر سادات الصَّحابة في بداية الأمر ، ثمَّ لحق بهم أكثر الصَّحْب ، وأوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه[(٨٢٥)].
٤ ـ إنَّ وجود ابن عمِّ رسول الله (ص) جعفر ، وصهره عثمان ، وابنته رقيَّة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ في مقدِّمة المهاجرين له دلالةٌ عميقةٌ ، تشير إلى أنَّ الأخطار لا بدَّ أن يتجشَّمها المقرَّبون إلى القائد ، وأهله ، ورحمه ، أمَّا أن يكون خواصُّ القائد في منأىً عن الخطر ، ويُدْفَع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة؛ فهو منهجٌ بعيدٌ عن نهج النَّبيِّ (ص) (٣).
٥ ـ مشروعية الخروج من الوطن ـ وإن كان الوطن مكَّة على فضلها ـ إذا كان الخروج فراراً بالدِّين ـ وإن لم يكن إلى دار إسلام ـ فإنَّ أهل الحبشة كانوا نصارى ، يعبدون المسيح ، ولا يقولون: هو عبد الله ، وقد تبيَّن ذلك في هذا الحديث ـ يعني: حديث أمِّ سلمة المتقدِّم ـ وسُمُّوا بهذه مهاجرين ، وهم أصحاب الهجرتين الَّذين أثنى الله تعالى عليهم بالسَّبق ، فقال: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ}
وجاء في التفسير: إنَّهم هم الذين شهدوا بيعة الرِّضوان[(٨٢٦)] ، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة ، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام إلى دار الكفر لما كان فعلهم ذلك احتياطاً على دينهم ، ورجاء أن يُخلي بينهم وبين عبادة ربهم؛ يذكرونه امنين مطمئنين ، وهذا حكمٌ مستمرٌّ متى غلب المنكر في بلدٍ ، وأوذي على الحقِّ مؤمنٌ ، ورأى الباطل قاهراً للحقِّ ، ورجا أن يكون في بلدٍ اخر ـ أيَّ: بلدٍ كان ـ يخلَّى بينه وبين دينه ، ويظهر فيه عبادة ربِّه؛ فإن الخروج على هذا الوجه حقٌّ على المؤمن ، هذه هي الهجرة؛ الَّتي لا تنقطع إلى يوم القيامة: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ١١٥][(٨٢٧)].
٦ ـ يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، سواءٌ كان المجِير من أهل الكتاب كالنَّجاشي؛ إذ كان نصرانيّاً عندئذٍ ، ولكنَّه أسلم بعد ذلك، أو كان

مشركاً؛ كأولئك الَّذين عاد المسلمون إلى مكَّة في حمايتهم، عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالبٍ عمِّ رسول الله (ص) ، وكالمطْعِم بن عديٍّ، الذي دخل الرَّسولُ (ص) مكةَ في حمايته عندما رجع من الطَّائف[(٨٢٨)].

وهذا مشروطٌ ـ بحكم البداهة ـ بألاَّ تستلزم مثل هذه الحماية إضراراً بالدَّعوة الإسلاميَّة ، أو تغييراً لبعض أحكام الدِّين ، أو سكوتاً على اقتراف بعض المحرَّمات ، وإلاَّ لم يَجُزْ للمسلم الدُّخول فيها؛ ودليل ذلك ما كان من موقفه (ص) حينما طلب منه أبو طالب أن يبقي على نفسه ، ولا يحمِّله ما لا يطيق ، فلا يتحدَّث عن الهة المشركين بسوءٍ ، فقد وطَّن نفسه إذ ذاك للخروج من حماية عمِّه ، وأَبى أن يسكت عن شيٍ ممَّا يجب عليه بيانه ، وإيضاحه[(٨٢٩)].

٧ ـ إنَّ اختيار الرَّسول (ص) الهجرة إلى الحبشة يشير إلى نقطةٍ استراتيجيَّةٍ مهمَّةٍ ، تمثَّلت في معرفة الرَّسول (ص) بما حوله من الدُّول ، والممالك ، فقد كان يعلم طيِّبها مِنْ خبيثها ، وعادلها مِنْ ظالمها ، الأمر الَّذي ساعد على اختيار دارٍ امنةٍ لهجرة أصحابه ، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدَّعوة؛ الَّذي لا بدَّ أن يكون ملمّاً بما يجري حوله ، مطَّلعاً على أحوال ، وأوضاع الأمم ، والحكومات[(٨٣٠)].

٨ ـ يظهر الحسُّ الأمنيُّ عند الرَّعيل الأوَّل في هجرتهم الأولى ، وكيفية الخروج ، فيتمثَّل في كونه تمَّ تسلُّلاً ، وخفيةً ؛ حتَّى لا تفطن له قريشٌ ، فتحبطه ، كما أنَّه تمَّ على نطاقٍ ضيِّقٍ ، لم يزد على ستة عشر فرداً ، فهذا العدد لا يلفت النَّظر في حالة تسلُّلهم ، فرداً ، أو فردين ، وفي الوقت ذاته يساعد على السَّير بسرعةٍ ، وهذا ما يتطلَّبه الموقف؛ فالرَّكب يتوقَّع المطاردة ، والملاحقة في أيِّ لحظةٍ ، ولعلَّ السِّرِّيَّة المضروبة على هذه الهجرة ، فوَّتت على قريشٍ العلم بها في حينها ، فلم تعلم بها إلا مؤخَّراً ، فقامت في إثرهم؛ لتلحق بهم ، لكنَّها أخفقت في ذلك ، فعندما وصلت البحر لم تجد أحداً ، وهذا ممَّا يؤكِّد على أنَّ الحذر هو ممَّا يجب أن يلتزمه المؤمن في تحرُّكاته الدَّعوية ، فلا تكون التَّحرُّكات كلُّها مكشوفةً ، ومعلومةً للعدوِّ؛ بحيث يترتَّب عليها الإضرار به وبالدَّعوة[(٨٣١)].

٩ ـ لم ترضَ قريشٌ بخروج المسلمين إلى الحبشة ، وشعرت بالخطر الَّذي يهدِّد مصالحها في المستقبل ، فربَّما تكبر الجالية هناك ، وتصبح قوَّةً خطرةً ، ولذلك جدَّ المشركون ، وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين ، وبدأت قريشٌ تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع

هذا الموقع الجديد منهم في تخطيطٍ محكمٍ ذكيٍّ؛ بالهدايا إلى النَّجاشيِّ ، والهدايا إلى بطارقته، ووُضِعتِ الخطَّة داخل مكَّة، وكيف تُوزَّع الهدايا ، وما نوعية الكلام الَّذي يرافق الهدايا ، وصفات السُّفراء ، فعمرٌو

من أصدقاء النَّجاشي ومعروفٌ بالدَّهاء . ما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدوَّنا ، وألا ننام عن مخطَّطاته ، وأن نعطيه حجمه الحقيقيَّ ، وندرس تحرُّكاته؛ لنستعدَّ لمواجهة مخطَّطاته الماكرة![(٨٣٢)].

١٠ . نُفِّذت خطَّة قريشٍ بحذافيرها كاملةً ، ولكنَّها فشلت؛ لأنَّ شخصية النَّجاشيِّ الَّتي تمَّ جوارها رفضت أن تسلِّم المسلمين قبل السَّماع منهم؛ وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين؛ ليعرضوا قضيَّتهم العادلة ، ودينهم القويم.

١١ . اجتمع الصَّحابة حين جاءهم رسول النَّجاشي ، طلب منهم الحضور ، وتدارسوا الموقف ، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم ، وكلُّ أمرٍ يتمُّ عن طريق الشُّورى هو أدعى إلى نجاحه؛ لأنَّه يضمُّ خلاصة عقولٍ كثيرةٍ. وتبدو مظاهر السُّموِّ التَّربويِّ في كون الصَّحابة لم يختلفوا ، بل أجمعوا على رأيٍ واحدٍ ، ألا وهو: أن يُعرض الإسلامُ كما جاء به رسولُ الله (ص) ، كائناً في ذلك ما هو كائن ، وعزموا على عرض الإسلام بعزةٍ؛ وإن كان في ذلك هلاكهم[(٨٣٣)].

١٢ . كان وَعْيُ القيادة النَّبويَّة على مستوى الأحداث ، ولذلك وُضِع جعفر بن أبي طالبٍ على إمارة المسلمين في الهجرة ، وتمَّ اختياره من قِبَلِ المسلمين المهاجرين؛ ليتحدَّث باسمهم بين يدي الملك؛ وليتمكَّن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص ، وقد امتازت شخصيَّة جعفر بعدَّة أمورٍ ، جعلتها تتقدَّم لسدِّ هذه الثُّغرة العظيمة؛ منها: أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ من ألصق النَّاس برسول الله (ص) ، فقد عاش معه في بيتٍ واحدٍ ، فهو أخبر النَّاس بقائد الدَّعوة ، وسيِّد الأمَّة من بين كلِّ المهاجرين إلى الحبشة.

وهذا الموقف بين يدي النَّجاشيِّ يحتاج إلى بلاغةٍ ، وفصاحةٍ ، وبنو هاشم قمَّةُ قريش نسباً ، وفضلاً ، وجعفر في الذُّؤابة[(٨٣٤)] من بني هاشم ، والله تعالى قد اختار هاشماً من كنانة ، واختار نبيَّه من بني هاشم؛ فهو أفصح النَّاس لساناً ، وأوسطهم نسباً.

وهو ابن عمِّ رسول الله (ص) ، وهذا يجعل النَّجاشيَّ أكثر اطمئناناً ، وثقةً بما يعرض عن ابن عمِّه[(٨٣٥)].

خُلُقُ جعفر المقتبس من مشكاة النُّبوَّة ، وجمال خَلْقِه المنحدر من أصلاب بني هاشم ، فقد قال رسولُ الله (ص) لجعفر: «أشبهت خَلْقي ، وخُلُقي» [البخاري (٢٦٩٩) والترمذي (٣٧٦٥)] فالسَّفير بين يدي النَّجاشي كان قدوةً لسفراء المسلمين على مرِّ الزَّمان ، وكرِّ العصور ، فقد اتَّصف بسمات السُّفراء المسلمين؛ كالإسلام ، والانتماء إليه ، والفصاحة ، والعلم ، وحسن الخلق ، والصَّبر ، والشَّجاعة ، والحكمة ، وسعة الحيلة ، والمظهر الجذَّاب[(٨٣٦)].

١٣ ـ كان عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وهو يمثِّل في تلك المرحلة عداوة الله ورسوله (ص) على مستوىً كبيرٍ من الذَّكاء ، والدَّهاء ، والمكر ، وكان قبل دخول جعفر وحديثه قد شحن كلَّ ما لديه من حُجَّةٍ ، وألقى بها بين يدي النَّجاشيِّ ، من خلال النقاط الاتية: تحدَّث عن بلبلة جوِّ مكة ، وفساد ذات بينها ، من خلال دعوة محمَّد (ص) ، وهو سفير مكَّة ، وممثِّلها بين يدي النَّجاشيِّ ، فكلامه مصدَّقٌ ، لا يعتريه الشَّكُّ ، وهو عند النَّجاشيِّ موضع ثقةٍ.

وقد تحدث عن خطورة أتباع محمَّد (ص) ، فربما يزلزلون الأرض تحت قدمي النَّجاشيِّ ، كما أفسدوا جوَّ مكَّة ، ولولا حبُّ قريش للنَّجاشيِّ ، وصداقتها معه؛ ما تعنَّوا هذا العناء لنصحه: «وأنت لنا عَيْبَة صدقٍ ، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف ، ويأمن تاجرنا عندك» فلا أقلَّ من ردِّ المعروف بمثله ، وتحذيره من هذه الفتنة المخيفة.

وأخطر ما في أمرهم هو خروجهم على عقيدة النَّجاشيِّ ، وكفرهم بها: فهم لا يشهدون: أنَّ عيسى ابن مريم إلهٌ ، فليسوا على دين قومهم ، وليسوا على دينك؛ فهم مبتدعةٌ ، دعاة فتنةٍ.

ودليل استصغارهم لشأن الملك ، واستخفافهم به: أنَّ كل النَّاس يسجدون للملك لكنَّهم لا يفعلون ذلك ، فكيف يتمُّ إيواؤهم عندك ، وهو عودةٌ إلى إثارة الرُّعب في نفسه من عدم احترام الدُّعاة له ، حين يستخفُّون بملكه ، ولا يسجدون له ، فكان على جعفر أن يفنِّد كلَّ الاتِّهامات الباطلة ، التي ألصقها سفير قريش بالمهاجرين[(٨٣٧)].

١٤ ـ كان ردُّ جعفر على أسئلة النَّجاشيِّ في غاية الذَّكاء ، وقِمَّة المهارة السِّياسيَّة ، والإعلاميَّة ، والدَّعويَّة ، والعقديَّة؛ فقد قام بالتَّالي:

* عدَّد عيوب الجاهليَّة ، وعرضها بصورةٍ تنفِّر السَّامع ، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك ، وركَّز على الصِّفات الذَّميمة؛ الَّتي لا تُنتزع إلا بنبوَّة.

* عرض شخصيَّة الرَّسول (ص) ، في هذا المجتمع الاسن[(٨٣٨)] ، المليء بالرَّذائل ، وكيف كان بعيداً عن النَّقائص كلِّها ، ومعروفاً بنسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فهو المؤهَّل للرِّسالة.

* أبرز جعفر محاسن الإسلام ، وأخلاقه ، الَّتي تتَّفق مع أخلاقيَّات دعوات الأنبياء؛ كنبذ عبادة الأوثان ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرَّحم ، وحسن الجوار ، والكفِّ عن المحارم ، والدِّماء ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة؛ وكون النَّجاشي وبطارقته موغلين في النَّصرانية؛ فهم يدركون: أنَّ هذه رسالات الأنبياء؛ الَّتي بعثوا بها من لدن موسى ، وعيسى عليهما الصَّلاة ، والسَّلام.

* فضح ما فعلته قريشٌ بهم ؛ لأنَّهم رفضوا عبادة الأوثان ، وامنوا بما نُزِّل على محمَّد (ص) ، وتخلَّقوا بخلقه.
* أحسن الثَّناء على النَّجاشيِّ بما هو أهله ، بأنَّه لا يُظْلم عنده أحدٌ ، وأنَّه يقيم العدل في قومه.
* وأوضح: أنَّهم اختاروه كهفاً من دون النَّاس ، فراراً من ظلم هؤلاء الَّذين يريدون تعذيبهم. وبهذه الخطوات البيِّنة الواضحة دَحَرَ بلاغة عمرٍو ، وفصاحته ، واستأثر بلُبِّ النَّجاشي ، وعقله ، وكذلك استأثر بلُبِّ وعقل البطارقة ، والقسِّيسين الحاضرين.

وعندما طلب الملك النَّجاشيُّ شيئاً ممَّا نُزِّل على محمَّد (ص) ؛ جاء صدر سورة مريم ، في غاية الإحكام والرَّوعة ، والتأثير ، حتَّى بكى النَّجاشيُّ ، وأساقفته ، وبلَّلُوا لحاهم ، ومصاحفهم من الدُّموع ، واختيار جعفر لسورة مريم يُظْهر بوضوحٍ حكمة وذكاء مندوب المهاجرين ، فسورة مريم تتحدَّث عن مريم وعيسى عليهما السَّلام[(٨٣٩)].

إنَّ عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع ، والزَّمن المناسب ، والقلب المتفتِّح ، والشُّحنة العاطفيَّة أدت إلى أن يربح الملكَ إلى جانبه[(٨٤٠)].

كان ردُّه في قضية عيسى ـ عليه السَّلام ـ دليلاً على الحكمة ، والذَّكاء النَّادر ، فقد ردَّ بأنهم لا يُؤَلِّهون عيسى ابن مريم ، ولكنَّهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم ـ عليها السَّلام ـ كما يخوض الكاذبون؛ بل عيسى ابن مريم كلمة الله ، وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء الطَّاهرة ، وليس عند النَّجاشي زيادة عمَّا قال جعفر ، ولا مقدار هذا العود[(٨٤١)].

هم لا يسجدون للنَّجاشي ، فهم معاذ الله أن يعدلوا بالله شيئاً! ولا ينبغي السُّجود إلا لله؛

لكنَّهم لا يستخفُّون بالملك؛ بل يوقِّرونه ، ويسلِّمون عليه كما يسلِّمون على نبيِّهم ، ويحيُّونه بما يُحيي أهلُ الجنَّة أنفسَهم به في الجَنَّة(٣).

انتهى الأمر بأن أعلن النَّجاشيُّ صدق القوم ، وأيقن بأنَّ هؤلاء صدِّيقون ، وعزم على أن يكون في خدمة رسول الله (ص) ، الَّذي يأتيه ناموسٌ كناموس موسى ، وأن يتقرَّب إلى الله بحماية أصحابه ، وأكَّد لعمرٍو: أنَّه لا يضيره تجارة قريش ، ولا مال قريش ، ولا جاهها ، ولو قطعت علاقتها معه[(٨٤٢)].

١٥ ـ انهزمت قريش في هذه الجبهة سياسيّاً ، ومعنويّاً ، وإعلاميّاً أمام مقاومة المسلمين الموفَّقة ، وخطواتهم ، وأساليبهم الرَّصينة.

١٦ ـ كان موقف جعفر ، وإخوانه مثالاً تطبيقيّاً لقول رسول الله (ص) : «من التمس رضا الله بسخط النَّاس؛ كفاه الله مُؤْنَة النَّاس ، ومن التمس رضا النَّاس بسخط الله؛ وَكَلَهُ الله إلى النَّاس» [الترمذي

(٢٤١٤) وابن حبان (٢٧٦) وابن المبارك في الزهد (٦٦)] فهؤلاء الصَّحابة رضي الله عنهم قد التمسوا رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مع أنَّ الظَّاهر في الأمر: أنَّه يترتَّب عليه في هذه القضيَّة سخط أولئك النَّصارى ، وهم الَّذين لهم الهيمنة عليهم ، فكانت النَّتيجة: أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ سخَّر لهم ملك الحبشة ، حتَّى نطق بالحقِّ الموافق لدعوة النَّبيِّ (ص) ، مع مخالفته الصَّريحة لمعتقدهم المنحرف؛ الَّذي قام عليه مُلْكُهُم ، وما يغلب على الظَّنِّ من ثورة النَّصارى المتعصِّبين عليه[(٨٤٣)].

١٧ ـ كان عند بعض النَّصارى إيمانٌ صحيحٌ بدينهم ، ولكنَّهم يكتمون ذلك ، لكون الغلبة والسِّيادة في الأرض لأصحاب الدِّين المحرَّف ، ومن الَّذين كانوا على الاعتقاد الصَّحيح ملك الحبشة ، وكان يخفي إيمانه هذا مداراةً لقومه ، وإبقاءً على نفسه ، وملكه ، فلمَّا وقع في هذا الابتلاء؛ أظهر إيمانه ، إرضاءً لربِّه ، وإراحةً لضميره ، وانتصاراً لحزب الله المؤمنين ، مهما ترتَّب على ذلك من نتائج؛ فكان بهذا الموقف من عظماء التَّاريخ[(٨٤٤)].

١٨ ـ ومن دروس هجرة الحبشة: أنَّ الجهل ببعض أحكام الإسلام لمصلحة راجحةٍ لا يضرُّ. قال ابن تيميَّة ـ رحمه الله! ـ: وهو يقرِّر العذر بالجهل: «ولما زِيدَ في صلاة الحضر حين هاجر النَّبيُّ (ص) إلى المدينة ، كان مَنْ بعيداً عنه ـ مثل من كان بمكَّة ، وبأرض الحبشة ـ يصلُّون ركعتين ، ولم يأمرهم النَّبيُّ (ص) بإعادة الصَّلاة»[(٨٤٥)].

وقال الذَّهبيُّ: «فلا يأثم أحدٌ إلا بعد العلم ، وبعد قيام الحجَّة ، وقد كان سادة الصَّحابة بالحبشة ينزل الواجب ، والتَّحريم على النَّبيِّ (ص) ، فلا يبلغهم إلا بعد أشهر ، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل ، حتَّى يبلغهم النَّصُّ»[(٨٤٦)].

١٩ ـ ومن دروس هجرة الحبشة تفاضل الجهاد حسب الحاجة ، فإذا كانت الهجرة للمدينة جهاداً ، ميَّز الله أصحابها ، وخصَّهم بالذِّكر ، والفضيلة ، فقد نال هذا الفضل أصحاب هجرة الحبشة ، وإن تأخر لحوقهم بالنَّبيِّ (ص) حتَّى فتح خيبر ، وذلك للحاجة لبقائهم في الحبشة ، وهذا ما أكَّده النَّبيُّ لأصحاب السَّفينتين[(٨٤٧)] ، فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: ودخلت أسماءُ بنت عُمَيس ـ وهي ممَّن قدم معنا ـ على حفصةَ زوج النَّبيِّ (ص) زائرةً ، وقد كانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة ـ وأسماء عندها ـ فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماءُ بنت عُمَيس ، قال عمر: الحبشيةُ هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم ، قال: سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحقُّ برسول الله (ص) منكم ، فغضبت وقالت: كلا والله! كنتم مع رسول الله (ص) يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم

، وكنَّا في دار ـ أو في أرض ـ البُعَداء الْبُغَضَاءِ بالحبشة، وذلك في الله، وفي رسوله (ص) . وايمُ الله لا أطعَمُ طعاماً، ولا أشربُ شَراباً ، حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله (ص) ، ونحن كنا نُؤْذَى ، ونُخاف ، وسأذكر ذلك للنَّبيِّ (ص) ، وأسأله، والله! لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلمَّا جاء النَّبيُّ (ص) قالت: يا نبيَّ الله! إنَّ عمرَ قال: كذا ، وكذا. قال: «فما قلت له؟» قالت: قلتُ له: كذا ، وكذا. قال: «ليس بأحقَّ بي منكم ، وله ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ ، ولكم أنتم أهل السَّفينة هجرتان» قالت: فلقد رأيت أبا موسى ، وأصحاب السَّفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث ، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ، ولا أعظم في أنفسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ (ص) . [البخاري (٤٢٣٠) ومسلم (٢٥٠٢ و٢٥٠٣)] .

٢٠ ـ كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه بأرض الحبشة ، وهذا بلا شكٍّ أثرٌ من اثار الهجرة للحبشة ، وبرهانٌ على ما حقَّقه المهاجرون من مكاسب للدَّعوة ، من خلال مكوثهم بأرض الحبشة ، وإن كانت كثيرٌ من المرويات تتَّجه إلى أن بداية إسلام عمرو بن العاص كانت على يد النَّجاشيِّ ، وهو المشهور كما يقول ابن حجر[(٨٤٨)] ، وهي لطيفةٌ لا مثل لها؛ إذ أسلم صحابيٌّ على يد تابعيٍّ ، كما يقول الزُّرقاني[(٨٤٩)] ، وهناك ما يفيد إسلام عمرو على يد جعفر رضي الله عنه.

٢١ ـ يرتبط زواج الرَّسول (ص) بأمِّ حبيبة بهجرة الحبشة ارتباطاً وثيقاً ، ويحمل هذا الزَّواج منه (ص) لإحدى المهاجرات الثابتات معنىً كبيراً ، وكان عقد الزَّواج على أمِّ حبيبة رضي الله عنها؛ وهي في أرض الحبشة ، وجاء تأكيده في كتب السُّنَّة ، فقد روى أبو داود في سننه بسندٍ صحيح عن أمِّ حبيبة رضي الله عنها: أنَّها كانت تحت عبيد الله بن جحش ، فمات بأرض الحبشة ، فزوَّجها النَّجاشيُّ النَّبيَّ (ص) ، وأمهرها عنه أربعة الاف ، وبعث بها إلى الرَّسول (ص) مع شُرَحبيل بن حسنة. [أبو داود (٢١٠٧)].

ويستنتج الباحث من دلالات هذا الحدث المهمِّ ، متابعةَ الرَّسول (ص) لأحوال المهاجرين ، ومشاركتهم في مصابهم ، وتطييب أنفس الصَّابرين ، وتقدير ثبات الثَّابتين. وبالتَّتبُّع لأحوال المهاجرات ، لا نجد (أمَّ حبيبة) رضي الله عنها هي الوحيدة الَّتي يُعنى الرَّسول الكريم (ص) بأمرها ، ويواسيها في مصابها ، بل سبق ذلك صنيعه مع (سودة) رضي الله عنها[(٨٥٠)] ، فلمَّا رجعت مع زوجها إلى مكَّة من الحبشة ، توفِّي زوجها السَّكران بن عمرو ، فلمَّا حلَّت؛ أرسل إليها (ص) ، وخطبها ، فقالت: أمري إليك يا رسول الله! فقال رسول الله (ص) : «مُري رجلاً من قومك يزوِّجك ، فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ودٍّ ، فزوَّجها ، فكانت أوَّل امرأة تزوَّجها رسول الله (ص) بعد خديجة[(٨٥١)].

وهذان الحدثان مؤشّران من مؤشِّرات حِكَم تعدُّده (ص) في الزَّواج بشكلٍ عامٍّ ، ولهما دلالتهما ، وحكمتهما بالاهتمام بالنِّساء المجاهدات بشكلٍ خاصٍّ ، هذا فضلاً عمَّا يمكن أن يقال من أنَّ الرَّسول (ص) كان يهدف أيضاً من وراء الزَّواج بأمِّ حبيبة ، تخفيف عداوة «بني أميَّة» بشكلٍ عامٍّ ، وتخفيف عداوة زعيمهم أبي سفيان (والدها) بشكلٍ أخصَّ للإسلام ، ونبيِّه ، والمسلمين[(٨٥٢)].

فالتَّأليف للإسلام واردٌ في السِّيرة ، والرَّسول (ص) كان حريصاً على قومه بكلِّ وسيلةٍ لا تتنافى مع قيم الإسلام[(٨٥٣)].

٢٢ ـ يرى بعض الباحثين: أنَّ النَّبيَّ (ص) لم يكن يحبُّ أن يهاجر إلى الحبشة ، لأسبابٍ كثيرة؛ منها:

ـ أنَّه ثبت ـ كما سيجيء ـ رؤية النَّبيِّ (ص) دار الهجرة: أرضاً ذات نخلٍ ، بين حرَّتين ، وأنَّه ظنَّها هجر[(٨٥٤)].

ـ طبيعة الوضع الجغرافيّ للحبشة؛ الَّذي يعوق انتشار الدَّعوة ، وبسط سلطانها على العالم.

ـ أنَّ اختيار الجزيرة العربيَّة ومكَّة بالذَّات ، ثمَّ المدينة لنزول الوحي ، وانطلاق الدِّين لم يكن اتِّفاقاً ، بل كان لمميزاتٍ كثيرة[(٨٥٥)].

ـ أنَّ هذه البيئة الحبشيَّة لم تكن لتسمح لهذا الدِّين اللاجأى أن ينمو إلى جوار المسيحيَّة ، ولم تكن الرُّومان ـ وهي المهيمنة على المسيحيَّة في العالم ـ لتسمح للحبشة بذلك[(٨٥٦)].

٢٣ ـ كان للهجرة إلى الحبشة أثرٌ في الحطِّ من مكانة القرشيِّين عند سائر العرب ، وإدانة موقفهم من الدَّعوة ، وحملتها؛ إذ كانت البيئة العربيَّة تفتخر بإيواء الغريب ، وإكرام الجار ، وتتنافس في ذلك ، وتحاذر السُّبَّة ، والعار في خلافه ، فهاهم الأحباش يسبقون قريشاً ، ويُؤْوون مَنْ طردتهم وأساءت إليهم من أشراف النَّاس ، ومن ضعفائهم ، ومن غربائهم[(٨٥٧)].

* * *

المبحث الثَّالث

عام الحزن ومحنة الطَّائف

أولاً: عام الحزن:

١ ـ وفاة أبي طالبٍ:

كانت وفاة أبي طالبٍ بعد مغادرة بني هاشمٍ شِعْبه ، وذلك في اخر السَّنة العاشرة من المبعث[(٨٥٨)]. وقد كان أبو طالب «يحوط النَّبيَّ (ص) ، ويغضبُ له» [البخاري (٣٨٨٣) ومسلم (٢٠٩)] و«ينصره» [مسلم (٢٠٩/٣٥٨)] ، وكانت قريش تحترمه ، وعندما حضرته الوفاة ، جاء زعماء الشِّرك ، وحرَّضوه على الاستمساك بدينه ، وعدم الدُّخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملَّة عبد المطلب؟! وعرض عليه رسول الله (ص) الإسلام قائلاً: قل: «لا إله إلا الله» أشهد لك بها يوم القيامة ، فقال أبو طالب: لولا تعيِّرني بها قريش ، يقولون: إنَّما حمله عليها الجزع؛ لأقررت بها عينك ، فأنزل الله: {إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ *} [القصص: ٥٦] [مسلم (٢٥) والترمذي (٣١٨٨) وأحمد (٢/٤٣٤)] .

كانت أفكار الجاهليَّة راسخةً في عقل أبي طالبٍ ، ولم يتمكَّن من تغييرها ، فهو شيخٌ كبيرٌ يصعب عليه تغيير فكره ، وما ألفه عن ابائه ، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره؛ فأثَّروا عليه خوفاً من شيوع خبر إسلامه ، وتأثير ذلك على قومه[(٨٥٩)].

٢ ـ وفاة السَّيدة خديجة رضي الله عنها:

أمَّا السَّيدة خديجة أمُّ المؤمنين رضي الله عنها ، فقد توفِّيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين[(٨٦٠)]في العام نفسه لوفاة أبي طالبٍ[(٨٦١)].

وبموت أبي طالبٍ؛ الَّذي أعقبه موت خديجة رضي الله عنها ، تضاعف الأسى ، والحزن على رسول الله (ص) ، بفقد هذين الحبيبين؛ اللَّذين كانا دعامتين من دعائم سير الدَّعوة في أزماتها، فقد كان أبو طالب السَّندَ الخارجيَّ الَّذي يدفع عنه القوم ، وكانت خديجة رضي الله عنها السَّند الدَّاخلي الَّذي يخفِّف عنه الأزمات والمحن، فتجرَّأ كفار قريش على رسول الله (ص) ، ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون فيه في حياة أبي طالبٍ[(٨٦٢)]. وابتدأت مرحلةٌ عصيبةٌ في حياة الرَّسول (ص) واجه فيها كثيراً من المشكلات ، والمصاعب، والمحن، والفتن حينما أصبح في السَّاحة وحيداً لا ناصر له إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومع هذا؛

فقد مضى في تبليغ رسالة ربِّه إلى النَّاس كافَّةً، على ما يلقى من الخلاف والأذى الشَّديد؛ الَّذي أفاضت كتب الحديث ، وكتب السِّير ، بأسانيدها الصَّحيحة الثَّابتة في الحديث عنه ، وتحمَّل (ص) من ذلك ما تنوء الجبال بحمله. ولما تكالبت الفتن، والمحن على رسول الله (ص) في بلده الَّذي نبت فيه ، وبين قومه الَّذين يعرفون عنه كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ، عزم (ص) على أن ينتقل إلى بلدٍ غير بلده ، وقومٍ غير قومه؛ ليعرضَ عليهم دعوته ، ويلتمس منهم نصرتهم؛ رجاءَ أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فخرج إلى الطَّائف ، وهي من أقرب البلاد إلى مكَّة[(٨٦٣)].

ثانياً: رحلة الرَّسول (ص) إلى الطَّائف[(٨٦٤)]:

كان النَّبيُّ (ص) ، يقتدي بالأنبياء والمرسلين الَّذين سبقوه في الدَّعوة إلى الله ، فهذا نوح لبث في قومه داعياً {أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا} [العنكبوت: ١٤] ، فكانت هذه الأعوام الطَّويلة عملاً دائباً ، وتنويعاً متكرِّراً: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ *أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ *يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا *فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا *وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا *ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا *ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا *} [نوح: ١ ـ ٩] ، ومع امتداد الزَّمن الطَّويل ما توقف عن الدَّعوة ، ولا ضَعُفَتْ همَّته في تبليغها ، ولا ضَعُفَتْ بصيرته ، وحيلته في تنويع أوقاتها وأساليبها. قال الالوسي في تفسيره: أي: إلى الإيمان والطَّاعة{رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي} ، أي: دائماً من غير فتورٍ{لَيْلاً وَنَهَارًا *} ، ولا توانٍ ، ثمَّ وصف إعراضهم الشَّديد ، وإصرارهم العنيد ، ثمَّ علَّق على قوله تعالى: فقال: أي دعوتهم مرَّةً بعد مرَّةٍ{ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا *} ، وكرَّةً غِبَّ كرَّةٍ على وجوهٍ مختلفةٍ ، وأساليب متفاوتةٍ ، وهو تعميمٌ لوجوه الدَّعوة ، بعد

تعميم الأوقات ، وقوله: يُشْعِر بمسبوقية الجهر {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا *} ، وهو الأليق بِمَنْ همُّه الإجابة؛ لأنَّه أقرب إليها؛ لما فيه من اللُّطف بالمدعوِّ[(٨٦٥)].

فكان النبي (ص) ينوِّع ، ويبتكر في أساليب الدَّعوة ، فدعا سرّاً وجهراً ، وسلماً وحرباً ، وجمعاً وفرداً ، وسفراً وحضراً ، كما أنَّه (ص) قصَّ القصص ، وضرب الأمثال ، واستخدم وسائل الإيضاح بالخطِّ على الأرض ، وغيره ، كما رغَّب وبشَّر ، ورهَّب وأنذر ، ودعا في كلِّ انٍ ، وعلى كلِّ حالٍ ، وبكلِّ أسلوبٍ

موثِّرٍ فعَّالٍ[(٨٦٦)] ، فها هو (ص) ينتقل إلى الطَّائف ، ثمَّ يتردَّد على القبائل ، ثمَّ يهاجر ، ويستمرُّ في دعوة الخلق إلى الله تعالى.

كان رسول الله (ص) يسعى لإيجاد مركزٍ جديدٍ للدَّعوة ، وطلبَ النُّصْرة من ثقيفٍ ، لكنَّها لم تستجب له ، وأغرت به صبيانها ، فرشقوه بالحجارة ، وفي طريق عودته من الطَّائف التقى بعَدَّاس الَّذي كان نصرانيّاً ، فأسلم ، وأرَّخ الواقديُّ الرِّحلة في شوَّال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب ، وخديجة ، وذكر: أنَّ مدَّة إقامته بالطَّائف ، كانت عشرة أيام[(٨٦٧)].

١ ـ لماذا اختار الرَّسول (ص) الطَّائف؟:

كانت الطَّائف تمثل العمق الاستراتيجيَّ لملأ قريش؛ بل كانت لقريش أطماعٌ في الطَّائف ، ولقد حاولت في الماضي أن تضمَّ الطَّائف إليها ، ووثبت على وادي وَجٍّ؛ وذلك لما فيه من الشَّجر ، والزَّرع؛ حتَّى خافتهم ثقيفٌ ، وحالفتهم ، وأدخلت معهم بني دَوْسٍ[(٨٦٨)]. وقد كان كثيرٌ من أغنياء مكَّة يملكون الأملاك في الطَّائف ، ويقضون فيها فصل الصَّيف ، وكانت قبيلة بني هاشمٍ ، وعبد شمسٍ على اتِّصال مستمرٍ مع الطَّائف ، كما كانت تربط مخزوماً مصالحُ ماليَّةٌ مشتركة بثقيفٍ[(٨٦٩)] ، فإذا اتَّجه الرَّسول (ص) إلى الطَّائف ، فذلك توجُّهٌ مدروسٌ ، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدمٍ ، وعصبةً تناصره ، فإنَّ ذلك سيفزع قريشاً ، ويهدِّد أمنها ، ومصالحها الاقتصاديَّة تهديداً مباشراً ، بل قد يؤدِّي لتطويقها ، وعزلها عن الخارج. وهذا التَّحرك الدَّعويُّ السِّياسيُّ الاستراتيجيُّ ، الَّذي قام به الرَّسول (ص) يدلُّ على حرصه في الأخذ بالأسباب ، لإيجاد دولةٍ مسلمةٍ ، أو قوَّةٍ جديدةٍ ، تطرح نفسها داخل حلبة الصِّراع؛ لأنَّ الدَّولة ، أو إيجاد القوَّة الَّتي لها وجودها من الوسائل المهمَّة في تبليغ دعوة الله إلى النَّاس.

عندما وصل النبي (ص) إلى الطائف ، اتجه مباشرة إلى مركز السلطة ، وموضع القرار السياسي في الطائف[(٨٧٠)].

٢ ـ أين كان موضع السُّلطة في الطَّائف؟

كان بنو مالكٍ ، والأحلاف ـ بحكم أسبقيتهم الزَّمنيَّة للاستيطان ـ هما المسيطرين عليها ، وتنتهي إليهما قيادتُها ، فكانت لهما الرِّئاسة الدِّينية المتمثِّلة في رعاية المسجد ، وبالإضافة إلى الزَّعامة السِّياسيَّة العامَّة ، والعلاقة الخارجيَّة ، والنُّفوذ الاقتصاديِّ؛ إلا أنَّهما مع ذلك لم يكونا في وضعٍ يمكنهما من الدِّفاع عن منطقة الطَّائف؛ الَّتي كانت من أخصب بلاد العرب ، وأكثرها جذباً للأنظار والأطماع ، فكانا يخافان قبيلة هوازن ، ويخافان قريشاً ، ويخافان بني عامر ، وكلُّها قبائل قويَّةٌ وقادرةٌ على الانقضاض والاستلاب

، ولذلك فقد اعتمد زعماء الطَّائف على سياسة المهادنة ، وحفظ الاستقرار السِّياسيِّ عن طريق المعاهدات والموازنات ، وهي الطَّريقة عينها التي كانت تسير عليها قريش ، فصار بنو مالكٍ يوثِّقون علاقاتهم مع هوازن؛ ليأمنوا شرَّها ، وصار الأحلاف يرتبطون بقريشٍ ليأمنوا جانبها[(٨٧١)].

هذا، ولم يكن الرَّسول (ص) غافلاً عن هذه الشَّبكة من العلاقات ، والمعاهدات ، وهو يتَّجه إلى الطائف ، بل كان يعرف: أنَّ الطَّائف لم تكن توجد بها سلطةٌ مركزيَّةٌ واحدةٌ ، وإنما يقتسم السُّلطة فيها بطنان من بطون العرب ، بموجب اتفاقيَّةٍ داخليَّةٍ ، وأنَّ أيّاً منهما كان يدور في فلك قبيلةٍ خارجيَّةٍ أقوى ، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيّاً منهما ، فسوف يكون لذلك أثرٌ كبير في ميزان القوى السِّياسيَّة ، هذا على وجه العموم ، أمَّا إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف ، وهو المعسكر المتحالف مع قريشٍ؛ فإنَّ خطَّته تكون قد بلغت تمامها ، وهو أمرٌ غير مستحيلٍ ، فهو يعلم أنَّ موادَّة هذا المعسكر لقريشٍ لا تقوم على القناعة المذهبيَّة ، أو الولاء الدِّينيِّ ، بقدر ما تقوم على أساس التَّخوُّف من قريشٍ ، وعلى هذا التَّقدير للوضع السِّياسيِّ ، اتجه الرَّسول (ص) مباشرةً ـ حينما دخل الطَّائف ـ إلى بني عمرو بن عمير ، الَّذين يترأسون الأحلاف ، ويرتبطون بقريشٍ ، ولم يذهب إلى بني مالكٍ الَّذين يتحالفون مع هوازن[(٨٧٢)].

قال ابن هشام في السِّيرة: لما انتهى رسولُ الله (ص) إلى الطَّائف؛ عَمَدَ إلى نفرٍ من ثقيفٍ ، هم يومئذٍ سادة ثقيف ، وأشرافهم ، وهم إخوةٌ ثلاثةٌ: عبد يا لَيْل بن عمرو ابن عُميرٍ ، ومسعود بن عمرو بن عُميرٍ ، وحَبيب بن عمرو بن عُمَير بن عُقْدة بن غِيرَة بن عَوْف بن ثقيف ، وعند أحدهم

امرأةٌ من قريش من بني جُمح[(٨٧٣)]؛ غير أنَّ بني عمرٍو كانوا شديدي الحذر ، وكثيري التَّخوُّف ، فلم يستجيبوا لدعوة الرَّسول (ص) ؛ بل بالغوا في السَّفه وسوء الأدب معه ، فقام رسول الله (ص) من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيفٍ ، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم؛ فاكتموا عنِّي»[(٨٧٤)] ، وكره رسول الله (ص) أن يبلغ قومه عنه فيُذْئرهم[(٨٧٥)] ذلك عليه ، فقد كان رسول الله (ص) يود أن يتمَّ اتصالاته تلك في جوٍّ من السِّرِّيَّة ، وألا تنكشف تحرُّكاته لقريشٍ[(٨٧٦)]؛ فقد كان النَّبيُّ (ص) يهتمُّ كثيراً بجوانب الحيطة ، والحذر ، فقد:

أ ـ كان خروجه من مكَّة على الأقدام ، حتى لا تظنَّ قريش أنه ينوي الخروج من مكَّة؛ لأنَّه لو خرج راكباً؛ فذلك ممَّا يثير الشُّبهة ، والشُّكوك ، وأنَّه ينوي الخروج والسَّفر إلى جهةٍ ما ، ممَّا قد يُعرِّضه للمنع من الخروج من مكَّة دون اعتراضٍ من أحد.

ب ـ واختيار الرَّسول (ص) زيداً كي يرافقه في رحلته فيه جوانب أمنيَّةٌ؛ فزيد هو ابن رسول الله (ص) بالتَّبنِّي ، فإذا راه معه أحدٌ؛ لا يثير ذلك أيَّ نوعٍ من الشَّكِّ ، لقوَّة الصِّلة بينهما ، كما أنَّه (ص) عرف زيداً عن قربٍ ، فعلم فيه الإخلاص ، والأمانة ، والصِّدق ، فهو إذاً مأمونُ الجانب ، فلا يُفشي سرّاً ، ويُعتَمد عليه في الصُّحبة ، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النَّبيَّ (ص) من الحجارة بنفسه ، حتى أُصيب بشجاجٍ في رأسه.

ج ـ وعندما كان ردُّ زعماء الطَّائف ردّاً قبيحاً مشُوباً بالاستهزاء ، والسُّخرية ؛ تحمَّله الرَّسول (ص) ، ولم يغضب ، أو يَثُرْ؛ بل طلب منهم أن يكتموا عنه ، فهذا تصرُّفٌ غايةً في الحيطة ، فإذا علمت قريش بهذا الاتِّصال ، فإنَّها لا تسخر منه فحسب؛ بل ربَّما شدَّدت عليه في العذاب ، والاضطهاد ، وحاولت رصد تحرُّكاته داخل ، وخارج مكَّة[(٨٧٧)].

٣ ـ تضرُّعٌ ودعاءٌ:

كان بنو عمرو لئاماً ، فلم يكتموا خبر الرَّسول (ص) ؛ بل أَغْرَوْا به سفهاءهم ، وعبيدهم ، يسبُّونه ، ويرمون عراقيبه بالحجارة ، حتَّى دميت عقباه ، وتلطَّخت نعلاه ، وسال دمه الزَّكي على أرض الطَّائف ، وما زالوا به ، وبزيد بن حارثة حتَّى ألجؤوهما إلى حائطٍ (أي: بستان) لعتبة ، وشيبة ابني ربيعة ، وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظلِّ شجرةٍ من عنبٍ ، فجلس فيه هو وصاحبه زيد ، ريثما يستريحان من عنائهما ، وما أصابهما ،

وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويَرَيَان ما لقي من سفهاء أهل الطَّائف ، ولم يحرِّكا ساكناً ، وفي هذه الغمرة من الأسى ، والحزن ، والالام النفسيَّة ، والجسمانية توجه الرَّسول (ص) إلى ربِّه بهذا الدُّعاء؛ الَّذي يفيض إيماناً ، ويقيناً ، ورضاً بما ناله في الله ، واسترضاء الله: «اللَّهمَّ! إليك أشكو ضعف قوَّتي ، وقِلَّة حيلتي ، وهواني على النَّاس ، يا أرحم الرَّاحمين! أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربِّي ، إلى مَنْ تكِلني؟ إلى بعيدٍ يتجهَّمني؟[(٨٧٨)] أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك؛ الذي أشرقت له الظلمات ، وصَلُح عليه أمر الدُّنيا والاخرة ، من أن تُنزل بي غضَبك ، أو يحلَّ عليَّ سخطُك ، لك العُتْبى[(٨٧٩)] حتَّى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك!» [ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٦١ ـ ٦٢) والقرطبي في تفسيره (١٦/١٩٥) والطبراني في المعجم الكبير (٢٥/٣٤٦) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٣٥)][(٨٨٠)] .

وإنَّا لنلمح في هذا الدُّعاء عمق توحيد النَّبيِّ (ص) ، ومبلغ تجرُّده لله ـ جلَّ وعلا ـ فهو لم يشعر بهذا الحزن المفضي ، والهمِّ المتواصل؛ ليدرأ عن نفسه الأذى ، أو ليجلب لنفسه شيئاً من حياة الهدوء ، والنَّعيم؛ بل هو يستعذب كلَّ هذا الأذى من أجل الله تعالى ، غير أنَّه مشفقٌ من غضب ربِّه سبحانه أن يكون قصَّر في أمرٍ من أمور الدَّعوة ، من غير أن يشعر ، فيتعرَّض لشيءٍ من غضب مولاه ـ جلَّ وعلا ـ فرضوان الله تعالى إذاً هو الهدف الأعلى عند رسول الله (ص) ، وهو المطلب الأعظم الَّذي تُسَخَّر له كلُّ المطالب ، وإذا كان البلاء من الله تعالى من أجل أن يحلَّ رضاه ، وينجلي سخطه؛ فأهلاً بالبلاء ، فهو ساعتئذٍ نعمةٌ ، ورخاء.

وختم رسول الله (ص) دعاءه بالكلمة العظيمة ، الَّتي يقولها ، وعلَّم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره: «ولا حول ولا قوة إلا بك!» فلا تحوُّل للمؤمن من حال الشِّدَّة إلى حال الرَّخاء ، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى ، ولا قوَّة على مواجهة الشَّدائد ، وتحمُّل المكاره ، إلا بالله جلَّ وعلا[(٨٨١)].

إنَّ الدُّعاء من أعظم العبادات ، وهو سلاحٌ فعَّال في مجال الحماية للإنسان ، وتحقيق أمنه ، فمهما بلغ العقل البشريُّ من الذَّكاء ، والدَّهاء؛ فهو عرضةٌ للزَّلل ، والإخفاق ، وقد تمرُّ على

المسلم مواقف يعجز فيها عن التَّفكير ، والتَّدبير تماماً ، فليس له مخرج منها سوى أن يجأر إلى الله بالدُّعاء؛ ليجد فرجاً ، ومخرجاً ، فعندما لحق برسول الله (ص) من أهل الطَّائف الأذى ، والطَّرد ، والسُّخرية ، والاستهزاء ، وأصبح هائماً على وجهه؛ لجأ إلى الله بالدُّعاء ، فما أن انتهى من الدُّعاء ، حتَّى جاءت الإجابة من ربِّ العالمين ، مع جبريل وملك الجبال[(٨٨٢)].

٤ ـ الرَّحمة ، والشَّفقة النَّبويَّة:

كانت رحمته ، وشفقته العظيمة هي الَّتي تغلب في المواقف العصيبة؛ الَّتي تبلغ فيها المعاناة أشدَّ مراحلها ، وتضغط بعنف على النَّفس لتشتدَّ وتقسو ، وعلى الصَّدر ليضيق ويتبرَّم ، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة ، ورحمته العظيمة ، هي الغالبة[(٨٨٣)].

عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبيِّ (ص) ، أنَّها سألت رسول الله (ص) : هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من أُحُدٍ؟ قال: لقد لقيتُ من قومك ما لقيتُ ، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يوم العَقَبَة؛ إذ عرضْتُ نفسي على ابْنِ عَبْدِ يَالَيْلِ بْنِ عَبْدِ كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي ، فلم أَسْتفقْ إلا وأنا بقَرْنِ الثَّعالب[(٨٨٤)] ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردُّوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك

الجبال لتأمرَه بما شئتَ فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال ، فسلَّم عليَّ ، ثمَّ قال: يا محمد! فقال: ذلك فيما شئتَ ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبينِ. فقال النَّبيُّ (ص) : بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من أصلابهم من يعبد الله وحدَه لا يشرك به شيئاً. [البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥)].

كانت إصابته (ص) يوم أحدٍ ، أبلغ من النَّاحية الجسميَّة ، أمَّا من النَّاحية النفسيَّة؛ فإنَّ إصابته يوم الطَّائف أبلغ ، وأشدُّ؛ لأنَّ فيها إرهاقاً كبيراً لنفسه ، ومعاناةً فكريَّةً شديدةً ، جعلته يستغرق في التَّفكير من الطَّائف إلى قَرْن الثَّعالب[(٨٨٥)].

٥ ـ من مناهج التَّغيير:

كان مُقْتَرَحَ ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين ، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال ، وقد نفذ في قوم نوحٍ ، وعادٍ ، وثمودٍ ، وقوم لوطٍ. قال تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *} [العنكبوت: ٤٠].

وكان هناك اقتراحٌ اخر ، وهو أن يستمرَّ في هجرته ، والابتعاد عن مكَّة ، والطَّائف الكافرتين؛ فالأولى أخرجته ، والثَّانية خذلته ، وعرض ذلك الأمرَ زيدُ بن حارثة على رسول الله (ص) . قال ابن القيِّم: إنَّ رسول الله (ص) بعد أن لم يجد ناصراً في الطَّائف ، انصرف إلى مكَّة؛ ومعه مولاه زيد بن حارثة محزوناً ، وهو يدعو بدعاء الطَّائف المشهور ، فأرسل ربُّه ـ تبارك وتعالى ـ مَلَكَ الجبال إليه يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكَّة ، وهما جبلاها اللَّذان كانت بينهما ، فقال: «لا ، بل أستأني بهم؛ لعلَّ الله يخرج من أصلابهم من يعبده ، ولا يشرك به شيئاً» ، وأقام بنخلةَ أياماً ، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم؛ وقد أخرجوك ـ يعني: قريشاً ـ وخرجت تستنصر ، فلم تُنصر ـ يعني: الطَّائف ـ فقال (ص) : «يا زيد! إن الله جاعلٌ لما ترى فرجاً ، ومخرجاً ، وإنَّ الله ناصرٌ دينَهُ ، ومظهرٌ نبيَّه»[(٨٨٦)].

إنَّ النَّبيَّ (ص) رفض منهج الاستئصال ، وامتنع عن فكرة الاعتزال ، أو الهجرة المستمرَّة ، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان ، وقرَّر الدُّخول إلى مكَّة الكافرة ليواصل جهاده الميمون ، ويستثمر كلَّ ما يستطيعه من أجل دعوة التَّوحيد ، لم يَخْتَرِ النَّبيُّ (ص) أحد المنهجين السَّابقين؛ بل تقدَّم نحو المنهج البديل؛ الَّذي عزم عليه ، وهو منهج يقوم على فكرة دخول مكَّة الكافرة ، وليس الانسحاب منها ، ويقوم على ضرورة الوجود على الأرض ذاتها ، الَّتي يقف عليها الكافرون ، واعتصار مؤسَّساتها ، واستثمار علاقاتها ، وتحوير غاياتها؛ ليتغذَّى بكلِّ ذلك مجتمع المؤمنين ، الَّذي سيولد من أحشائها؛ أي: أنَّه كان (ص) يريد أن

يتَّخذ من أصلاب الكافرين ، مصانع بشرية تُخرج أجيالاً من المسلمين ، المقاتلين في سبيل الله ، فالنَّظر النَّبويُّ هنا مصوَّب نحو المستقبل بصورةٍ جليَّةٍ ، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر[(٨٨٧)].

كان النَّبيُّ (ص) قد عزم على دخول مكَّة مرَّةً ثانية ، غير أنَّ ظاهر الأحوال تدلُّ على أنَّ دخول مكَّة لم يكن أمراً هيناً ، ولا امناً ، وهنالك احتمالٌ كبيرٌ للغدر به ، أو اغتياله من قِبَلِ قريش ، الَّتي لا يمكن أن تصبر أكثر؛ وهو قد أعلن الخروج عليها ، وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى ، ويوقع بينها ، وبين حلفائها؛ ثمَّ إنَّه حتَّى لو لم تكن هناك خطورةٌ على شخصه؛ فإنَّ دخوله إلى مكَّة بصورة «عادية» وقد طردته الطَّائف ، سيجعل أهل مكة يصوّرون الأمر كهزيمةٍ كبيرةٍ أصابت المسلمين ، ويجترئون عليهم ، ويزدادون سفهاً؛ ولذلك فقد اتَّجه نظر الرَّسول (ص) هذه المرَّة ، إلى تفجير مكَّة من الدَّاخل ، بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي: أنَّه أراد أن يتغلغل في داخل

بطون قريش ذاتها ، ويُوجِدُ له حلفاء من بينهم ، ويُكَوِّن له وجوداً في قلبها[(٨٨٨)].

قال ابن القيِّم في كتابه زاد المعاد: ثمَّ إنَّه (ص) لما انصرف من الطَّائف ، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه ، من تصديقه ، ونصرته ، صار إلى حِراء ، ثمَّ بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال: أنا حليف ، والحليف لا يجير؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو ، فقال له: إنَّ بني عامر لا تجير على بني كعب؛ فبعث إلى الْمُطْعِم بن عديٍّ . سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف . بعث إليه رجلاً من خُزاعة: أأدخل في جوارك؟ فقال: نعم. ودعا بنيه ، وقومه ، فقال: البَسوا السِّلاح ، وكونوا عند أركان البيت؛ فإنِّي قد أجرت محمَّداً ، فدخل رسول الله (ص) ، ومعه زيد بن حارثة ، حتَّى انتهى إلى المسجد الحرام؛ فقام الْمُطْعِم بن عديٍّ على راحلته ، فنادى: «يا معشرَ قريش! إنِّي قد أجرت محمَّداً؛ فلا يَهِجْه أحدٌ منكم» ، فانتهى رسولُ الله (ص) إلى الرُّكن ، فاستلمه ، وصلَّى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، والْمُطْعِم بن عديٍّ وولده محدقون به بالسِّلاح ، حتَّى دخل بيته[(٨٨٩)].

وفي جواب الأخنس ، وسهيلٍ نظرٌ؛ لأنهما لو لم يكونا ممَّن يجير؛ لما سألهما رسول الله (ص) ذلك؛ لمعرفته (ص) لأعراف قومه ، وعاداتهم ، كيف وعامرٌ . الَّذي هو جدُّ سهيل . وكعبٌ أخوان ، أبوهما لؤيٌّ ، فهما سواء في مكانهما ، يجير أحدهما على الاخر؟! هكذا قال الزُّرقانيُّ[(٨٩٠)].

لقد تغيَّر الوضع كثيراً بسبب منهجيَّة الرَّسول (ص) الجديدة ، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزماً ، مختفياً ، دخلها ويحرسه بالسِّلاح سيِّدٌ من سادات قريش ، على مسمعٍ منهم ، ومرأى ، هذا ونلاحظ: أنَّ الرَّسول (ص) قد اختار رجلاً من خزاعة ، فبعثه رسولاً ، وفي هذين الاختيارين حُنْكَةٌ سياسيَّة مدهشةٌ ،

ووعيٌ تاريخيٌّ ، ودبلوماسيٌّ عميقٌ؛ لأنَّ نوفلاً ـ وهو الأب الأكبر لقبيلة بني نوفل الَّتي يتزعَّمها الْمُطْعِم بن عديّ انذاك ـ كان خصيماً لعبد المطَّلب جدِّ رسول الله (ص) في الجاهليَّة ، فقد وثب على أفنيةٍ ، وساحاتٍ كانت لعبد المطَّلب ، واغتصبها؛ فاضطرب عبد المطَّلب لذلك ، واستنهض قومه ، فلم ينهض كبير أحدٍ منهم؛ فكتب إلى أخواله من بني النَّجار من الخزرج قصيدةً يستنصرهم؛ فقدم عليه منهم جمع كثيف ، فأناخوا بفِناء الكعبة ، وتنكَّبوا القسيَّ ، وعلَّقوا التِّراس؛ فلمَّا راهم نوفل؛ قال: لِشَرٍّ ما قدم هؤلاء؟ فكلَّموه ، فخافهم ، وردَّ أركاح عبد المطلب إليه؛ فلمَّا نصر بنو الخزرج عبد المطَّلب ، قالت خزاعة ـ وهم قد قووا ، وعزُّوا ـ: والله! ما رأينا بهذا الوادي أحداً أحسن وجهاً ، ولا أتمَّ خلقاً ،

ولا أعظم حِلماً من هذا الإنسان ، يعنون: عبد المطلب ، وقد نصره أخواله من الخزرج ، ولقد ولدناه كما ولدوه ، وإنَّ جدَّه عبد مناف سيِّد خزاعة ، ولو بذلنا له؛ نَصَرَنا ، وحَالَفَنا ، وانتفعنا به ، وبقومه ، وانتفع بنا. فأتاه وُجُوهُهُم ، فقالوا: يا أبا الحارث! إنَّا قد ولدناك كما ولدك قومٌ من بني النَّجار ، ونحن بعد متجاورون في الدَّار ، وقد أماتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريشٍ من الأحقاد ، فهلمَّ فنحالفك ، فأعجب ذلك عبد المطَّلب ، وقَبِلَهُ ، وسارع إليه ، ولم يحضر أحدٌ من بني نوفل ، ولا عبد شمس[(٨٩١)].

هذا النَّص يشير إلى جذور الصِّراع التَّاريخيِّ القديم بين خزاعة ، وقريش ، حينما جمع قصيُّ بن كلاب قريشاً من متفرقات المواقع ، وقاتل بهم خزاعة الَّتي كان لديها رئاسة البيت ، وسيادة العرب ، فأخرج خزاعة من البيت ، وقسم مكَّة أرباعاً على قريشٍ ، فما زالت خزاعة مبغضةً لقريش ، كارهين لها؛ ولما اضطرب الأمر بين قريشٍ ، وعبد المطلب؛ تحالفت خزاعة مع عبد المطَّلب؛ نكايةً بقريش ، وإضعافاً لها؛ وليس صحيحاً: أنَّ الأيام قد أماتت ما كان في قلوب بعضهم على قريشٍ من الأحقاد ، كما ذكر وفدهم؛ بل الصَّحيح: أنَّ الأحقاد لم تزل حيَّةً ، والصِّراع لم يزل مستمرّاً ، وممَّا يدل على ذلك: أنَّ بني نوفل ، وبني عبد شمس لم يدخلا ، ولم يحضرا هذا الحلف؛ إذ إنَّه حلفٌ مضادٌّ لهما.

فإذا بعث الرَّسول (ص) رجلاً من خزاعة ، إلى سيِّد قبيلة بني نوفل ، فإنَّ هذا الفعل إشارةٌ ظاهرةٌ إلى تلك الوقائع التَّاريخية الَّتي ذكرناها ، كما أنَّ فيها تذكيراً بالحلف القديم بين عبد المطلب ، وخزاعة ضدَّ بني نوفل ، وعبد شمس؛ ليفهم من ذلك: أنَّ الرسول (ص) لا يقف معزولاً في مكَّة ، وأنَّه قد يفعل ما فعله جدُّه عبد المطَّلب ، فيتحالف مع خزاعة ، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرَّسول (ص) لم يكن في الواقع يستعطف الْمُطْعِم بن عديٍّ سيِّد بني نوفل؛ ليدخل في جواره بقدر ما كان يهدِّده ، ويثير مخاوفه ، وحماية

الْمُطْعِم بن عَدِيٍّ لرسول الله (ص) لم تكن مجرَّد أَرْيَحِيَّةٍ ، ونبلٍ بقدر ما كانت رعايةً لمصلحته ، وحمايةً لوضعه ، وصَمْتُ قريشٍ . وهي ترى محمَّداً (ص) يدخل في جوار بني نوفل ، وهم يحرسونه بالسِّلاح . لم يكن خوفاً من سلاح نوفل ، وإنَّما خوفاً من سلاح خزاعة ، وقسيِّ الخزرج[(٨٩٢)].

كما لا ننسى: أنَّ المطعم ممَّن قام بنقض الصَّحيفة الظَّالمة . مع من ذكرنا فيما مضى . وممَّن تحسَّن موقفه بعد تقريع أبي طالبٍ له ، عندما قال:

أَمُطْعِمُ لَمْ أخذلْكَ فِيْ يَوْمِ نَجْدَةٍولا مُعْظِمٍ عِنْدَ الأُمُورِ الجَلائِلِ

جَزَى اللهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفلاًعُقُوبَةَ شَرٍّ عَاجِلاً غَيْرَ اجلِ[(٨٩٣)]

وقد حفظ رسولُ الله (ص) صنيع مُطْعِم بن عديٍّ ، وعرف مدى الخطورة الَّتي عرَّض نفسه ، وولده ، وقومه لها من أجله ، فقال عن أُسارى بدرٍ السَّبعين يوم أسرهم: «لو كان الْمُطْعِمُ بنُ عديٍّ حيّاً ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لتركتُهم له» [البخاري (٤٠٢٤) وأبو داود (٢٦٨٩) وأحمد (٤/٨٠)] .

فرغم العداء العقديّ؛ فرسول الله (ص) يفرِّق بين من يعادي هذه العقيدة ، ويحارُبها ، ومن يناصِرُها ، ويسالمها ، إنَّهم وإن كانوا كفاراً فليس من سمة النُّبوَّة أن تتنكَّر للجميل[(٨٩٤)].

وقد أثنى شاعر الرَّسول (ص) ، حسَّان بن ثابتٍ على موقف المطعم ، فقال في مدحه:

فَلَو كَانَ مَجْدٌ مُخْلِدَ اليَوْمَ وَاحداًمِنَ النَّاسِ نَجَّى مَجْدُه اليومَ مُطْعِمَا

أَجَرْتَ رَسُولَ اللهِ مِنْهمْ فَأَصْبَحُواعِبَادَك مَا لبَّى مُحِلٌّ وَأَحْرَمَا

فَلَوْ سُئِلَتْ عَنْهُ مَعَدٌّ بِأَسْرِهَاوَقَحْطَانُ أَوْ بَاقِي بَقِيَّة جُرْهُمَا

لَقَالُوا هُوَ المُوفِي بِخُفْرَةِ جَارِهِوَذِمَّتِه يَوْماً إذَا مَا تجشَّمَا

وَمَا تَطْلُعُ الشَّمْسُ المُنِيْرَةُ فَوْقَهُمْعَلَى مِثْلِهِ فِيْهِمْ أَعَزَّ وَأَكْرَمَا

إِبَاءٌ إذا يَأبَى وَأَلْيَنُ شِيْمَةًوَأَنْوَمُ عَنْ جارٍ إِذَا اللَّيْلُ أظْلَمَا[(٨٩٥)]

إنَّ كون النَّبيِّ (ص) أقرَّ حسَّان بن ثابت في ثنائه البالغ على المطْعِم بن عديٍّ ، وكونه (ص) أثنى عليه أيضاً؛ إلى حدِّ أنَّه أبدى استعداده لأن يتنازل عن الأسرى؛ لو كان المطعم حيّاً ، وكلَّمه فيهم لدليلٌ واضحٌ على أنَّ من شريعة الإسلام الاعتراف بفضل أهل الفضل ، والثَّناء عليهم بما لهم من معروفٍ ؛ وإن كانوا غير مسلمين[(٨٩٦)].

وهكذا كان (ص) يوظِّف الأعراف ، والتَّقاليد الَّتي في مجتمعه لمصلحة الإسلام ، فكان ينظر للبناء الاجتماعيِّ القائم ، باعتباره حقيقةً موضوعيَّةً تاريخيَّةً ، وينظر للإنسان الكافر ليس باعتباره رقماً حسابيّاً

منقطعاً ، وإنَّما ينظر إليه كفردٍ في شبكةٍ اجتماعيَّةٍ متداخلة العلاقات ، ومتنوعة الدَّوافع ، وإنَّ الإنسان يملك الفرصة ، والإمكان لأن يتحوَّل هو نفسه ، وطوع إرادته إلى قوَّةٍ اجتماعيَّةٍ مؤثِّرةٍ ، وله وزنٌ في اتِّخاذ القرار ، ونقضه وَفْقاً للقيم الَّتي يختارها، والمطعم بن عديٍّ لم يكن فرداً ، وإنَّما كان مؤسَّسةً ، وهي مؤسَّسةٌ لم تولد بميلاده ، وإنَّما يرجع وجودها إلى تاريخٍ قديمٍ ، تصارعت فيها قيم التَّوحيد ، والإشراك ، فإن صارت مؤسَّسةً
خالصةً للكافرين الان ، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها ، وتسخيرها للعودة للإيمان ، والتَّوحيد[(٨٩٧)].

٦ . قصَّة عَدَّاس النَّصرانيِّ ، وإسلام الجنِّ:

لقد حقَّقت رحلة النَّبيِّ (ص) انتصاراتٍ دعويَّةً رفيعةَ المستوى؛ فقد تأثَّر بالدَّعوة الغلام النَّصرانيُّ عَدَّاس؛ الَّذي أسلم[(٨٩٨)] ، كما وصلت الدَّعوة إلى الجنِّ السَّبعة؛ الَّذين أسلموا ، ثمَّ انطلقوا إلى قومهم مُنذِرِين.

أ . قصة عَدَّاس:

لما تعرَّض رسولُ الله (ص) للأذى من أهل الطَّائف ، وخرج من عندهم ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه ، وراه عتبة ، وشيبة؛ رَقَّا له ، ودَعَوا غلاماً لهما نصرانيّاً يقال له: (عَدَّاس) ، فقالا له: خُذْ قِطْفاً من هذا العنب ، فضعه في هذا الطَّبق ، ثمَّ اذهب به إلى ذلك الرَّجل ، فقل له يأكل منه. ففعل عدَّاس ، ثمَّ أقبل به حتَّى وضعه بين يدي رسول الله (ص) ، ثمَّ قال له: كُلْ. فلمَّا وضع رسولُ الله (ص) فيه يَدَهُ ؛ قال: بسم الله ، ثمَّ أكل ، فنظر عَدَّاسٌ في وجهه ، ثمَّ قال: والله! إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال له رسول الله (ص) : ومن أهل أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس؟! وما دينك؟ قال: نصرانيٌّ، وأنا رجلٌ من أهل نِينوى.

فقال رسول الله (ص) : من قرية الرَّجل الصَّالح يونس بن مَتَّى. فقال له عداسٌ: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ فقال رسول الله (ص) : ذاك أخي ، كان نبيّاً ، وأنا نبيٌّ ، فأكبَّ عدَّاس على رسول الله (ص) يقبِّل رأسه ، ويديه ، وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمَّا غلامُك؛ فقد أفسده عليك؛ فلمَّا جاءهما عدَّاسٌ؛ قالا له: ويلك يا عداس! ما لك تقبِّل رأس هذا الرَّجل ، ويديه ، وقدميه؟! قال: يا سيِّدي ، ما في الأرض شيءٌ خيرٌ من هذا ، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ! قالا له: ويحك يا عداس!

لا يصرفنَّك عن دينك ، فإنَّ دينك خيرٌ من دينه. [ابن هشام (٢/٦٢ ـ ٦٣) وتفسير القرطبي (١٦/١٩٥ ـ ١٩٦)][(٨٩٩)].

* إنَّ تسمية النَّبيِّ (ص) قبل الأكل تطبيقٌ لسنَّةٍ من سُنَنِ الإسلام الظَّاهرة ، وقد كان من بركة ذلك انجذابُ هذا الرَّجل النَّصرانيُّ إلى الإسلام ، فما إن ذكر رسول الله (ص) اسم الله تعالى قبل الأكل؛ حتَّى اهتز كيان ذلك المولى النَّصرانيّ ، وجاشت مشاعره ، فأخبر النَّبيَّ (ص) بعجبه من ذلك؛ حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى.

* إنَّ التَّسمية قبل الأكل ـ كسائر السُّنن الظَّاهرة ـ من أسباب تميُّز المسلمين على من حولهم من الوثنيين ، وهذا التميُّز يلفت أنظار الكفار ، ويدفعهم إلى السُّؤال عن سبب ذلك ، ثمَّ يقودهم ذلك إلى فهم الدِّين الإسلاميّ ، والانجذاب إليه[(٩٠٠)].

*كان يقين عدَّاس بنبوَّة رسول الله قويّاً ، يدلُّ على ذلك موقفه من سيِّديه عتبة ، وشيبة ابني ربيعة لما أرادا الخروج إلى بدرٍ ، وأمراهُ بالخروج معهما ، حيث قال لهما: قتال ذلك الرَّجل الَّذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله! لا تقوم له الجبال ، فقالا: ويحك يا عدَّاس! قد سحرك بلسانه[(٩٠١)].

* في قول عدَّاس: «والله ما على الأرض خير من هذا» مواساةٌ عظيمةٌ ، فلئن اذاه قومه ، فهذا وافد من العراق ، مِنْ نينوى يكبُّ على يديه ، ورجليه ، ويقبِّلهما ، ويشهد له بالرِّسالة ، وإنَّ هذا لقَدَرٌ رَبَّانيٌّ ، يسوق مِنْ نينوى مَنْ يؤمن بالله ورسوله؛ حيث كان الصَّدُّ من أقرب الناس إليه![(٩٠٢)].

ب ـ إسلام الجنِّ:

لما انصرف النَّبيُّ (ص) من الطَّائف ، راجعاً إلى مكَّة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتَّى إذا كان بنخلة؛ قام من جوف اللَّيل يصلِّي ، فمرَّ به النَّفر من الجنِّ ، الَّذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جنِّ أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوة الرَّسول (ص) ؛ فلما فرغ من صلاته ، ولَّوْا إلى قومهم مُنذرِين؛ قد امنوا ، وأجابوا إلى ما سمعوا ، فقصَّ الله تعالى خبرهم على النَّبيِّ (ص) ، فقال: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ *قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ *} [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠].

هبط هؤلاء الجنُّ على النَّبيِّ (ص) وهو يقرأ ببطن نخلة ، فلمَّا سمعوه؛ قالوا: {أَنْصِتُوا}

هذه الدَّعوة التي رفضها المشركون بالطَّائف تنتقل إلى عالمٍ اخر ، هو عالم الجنّ ، فتلقَّوا دعوة النَّبيّ (ص) ، ومضوا بها إلى قومهم ، كما مضى بها أبو ذرٍّ الغفاريُّ إلى قومه ، والطفيل بن عمرٍو إلى قومه ، وضِمَادُ الأزديُّ إلى قومه ، فأصبح في عالم الجنّ دعاةٌ ، يبلغون دعوة الله تعالى: {يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ *} [الأحقاف: ٣١] .

وأصبح اسم محمَّد (ص) تهفو إليه قلوب الجنّ ، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط ، وأصبح من الجنّ حواريُّون ، حملوا راية التَّوحيد ، ووطَّنوا أنفسهم دعاةً إلى الله ، ونزل في حقهم قرانٌ يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال تعالى: {قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَبًا *يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا *وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا *وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا *وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا *وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا *وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا *وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا *وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا *وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا *وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا *وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا *وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا *} [الجن: ١ ـ ١٣] .

كان هذا الفتح الرَّبانيُّ في مجال الدَّعوة؛ ورسولُ الله (ص) ببطن نخلة عاجزٌ عن دخول مكَّة ، فهل يستطيع عتاة مكَّة ، وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجنّ ، ويُنزلوا بهم ألوان التَّعذيب؟![(٩٠٣)]

وعندما دخل النَّبيُّ (ص) مكَّة في جوار المطعم بن عدي ، كان يتلو على صحابته سورة الجنّ ، فتتجاوب أفئدتهم خشوعاً ، وتأثُّراً من روعة الفتح العظيم في عالم الدَّعوة ، وارتفاع راياتها ، فليسوا هم وحدهم في المعركة ، هناك إخوانهم من الجنّ يخوضون معركة التَّوحيد مع الشِّرك.

وبعد عدَّة أشهرٍ من لقاء الوفد الأول من الجنّ برسول الله (ص) ، جاء الوفد الثَّاني متشوّقاً لرؤية الحبيب المصطفى (ص) ، والاستماع إلى كلام ربّ العالمين[(٩٠٤)]. فعن علقمةَ قال: سألت ابن مسعود ، فقلت: هل شهد أحدٌ منكم مع رسول الله (ص) ليلة الجنّ؟ قال: لا ، ولكنَّا كنَّا مع رسول الله (ص) ذات ليلةٍ ، ففقدناه ، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب ، فقلنا: اسْتُطِيرَ ، أو اغْتِيلَ ، قال: فبتنا بِشَرِّ ليلةٍ بات بها قومٌ ، فلمَّا أصبحنا؛ إذا هو جاء من قِبَلِ حِرَاءٍ ، فقلنا: يا رسول الله! فقدناك ، فطلبناك ، فلم

نجدك ، فبتنا شرَّ ليلةٍ بات بها قومٌ ، فقال: «أتاني داعي الجنِ ، فذهبت معه ، فقرأت عليهم القران» ، قال: فانطلَقَ بنا ، فأرانا اثارهم ، واثار نيرانهم. وسألوه الزَّاد ، فقال: «لكم كلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسم الله عليه ، يقع في أيديكم أوفرَ ما يكون لحماً ،

وكلُّ بَعْرَةٍ علفٌ لدوابِّكم» فقال رسول الله (ص) : «فلا تستنجوا بهما؛ فإنَّهما طعام إخوانكم» [رواه مسلم (٤٥٠) وأبو داود (٨٥) والترمذي (١٨)] .

كان هذا الفتح العظيم ، والنَّصر المبين ، في عالم الجنِّ ، إرهاصاً ، وتمهيداً لفتوحاتٍ وانتصاراتٍ عظيمة في عالم الإنس ، فقد كان اللِّقاء مع وفد الأنصار بعد عدَّة أشهر[(٩٠٥)].

وقد علَّق الدكتور البوطي على سماع الجنِّ من رسول الله (ص) ، في عودته من الطَّائف، فقال: «والَّذي يهمُّنا أن نعلمه بعد هذا كلِّه هو: أنَّ على المسلم أن يؤمن بوجود الجنِ ، وبأنَّهم كائناتٌ حيَّةٌ كلَّفها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بعبادته ، كما كلَّفنا بذلك ، ولئن كانت حواسُّنا ، ومداركنا لا تشعر بهم، فذلك؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل وجودهم غير خاضعٍ للطَّاقة البصريَّة، الَّتي بثَّها في أعيننا، ومعلومٌ: أن أعيننا إنَّما تبصر أنواعاً معيَّنةً من الموجودات ، بقدرٍ معيَّنٍ ، وبشروطٍ معيَّنةٍ.

إنَّ وجود هذه المخلوقات مسندٌ إلى أخبار يقينيَّةٍ متواترةٍ وردت إلينا من الكتاب ، والسُّنَّة ، وصار وجود هذه المخلوقات أمراً معلوماً من الدِّين بالضَّرورة ، والتَّكذيب بوجودها تكذيباً للخبر الصَّادق المتواتر إلينا عن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعن رسوله (ص) .

ولا ينبغي أن يقع العاقل في أشدِّ مظاهر الغفلة والجهل من حيث يزعم: أنَّه لا يؤمن إلا بما يتَّفق مع العلم ، فيمضي يتبجَّح بأنَّه لا يعتقد بوجود الجانِّ ، من أجل أنَّه لم يرَ الجانَّ ، ولم يحسَّ بهم.

إنَّ من البداهة بمكانٍ: أنَّ مثل هذا الجاهل المتعالم يستدعي إنكار كثيرٍ من الموجودات اليقينيَّة لسببٍ واحدٍ ، هو عدم إمكان رؤيتها ، والقاعدة العلميَّة المشهورة تقول: عدم شعوري بالشَّيء لا يستلزم عدم الوجود؛ أي: عدم رؤيتك لشيءٍ تفتِّش عنه لا يستلزم أن يكون بحدِّ ذاته مفقوداً ، أو غير مفقودٍ»[(٩٠٦)].

وبعد هذا التَّكرُّم الرَّبانيُّ ، الَّذي خُصَّ به النَّبيُّ (ص) ، في عالم الثَّقلين : الإنس ، والجن حان وقت الحديث عن رحلته (ص) إلى عالم السَّموات العلا ، إلى عالم الملائكة ، إلى حضرة الجليل سبحانه ، إلى أن يرفعه إليه من بين هذه الخلائق جميعاً ، ثُمَّ يعيده إليهم ، فيحدثهم بما رأى في هذه الرِّحلة الميمونة الخالدة ، الَّتي لم تعرف البشريَّة لها مثيلاً ، ولن تعرف حتَّى يرث اللهُ الأرض ، ومَنْ عليها[(٩٠٧)].

* * *

المبحث الرَّابع

الإسراء والمعراج.. ذروة التَّكريم

كان وجود أبي طالبٍ بجانب رسول الله (ص) ، سياجاً واقياً له يمنع عنه أذى قريش؛ لأنَّ قريشاً ما كانت تريد أن تخسر أبا طالبٍ ، ولما تُوفي أبو طالب؛ انهار هذا الحاجزُ ، ونال رسولَ الله (ص) من الضَّرر الجسديّ الشيءُ الكثير.

وكانت خديجة رضي الله عنها زوج رسول الله (ص) البلسم الشَّافي لما يصيب رسول الله (ص) من الجراح النَّفسيَّة الَّتي يُلحقها به المشركون ، ولما توفيت فَقَدَ رسولُ الله (ص) هذا البلسمَ.

وخرج رسول الله (ص) إلى الطَّائف بعدما اشتدَّ عليه أذى قريش ، وأمعنوا في التَّضييق عليه ، يطلب من زعمائها نصرة الحقِّ الذي يدعو إليه ، وحمايته ، حتى يبلّغ دين الله ، فما كان جوابهم إلا أن ردُّوه أقبح ردٍّ ، ولم يكتفوا بذلك؛ بل أرسلوا إلى قريش رسولاً يخبرهم بما جاء به محمَّد (ص) ، فتجهَّمت له قريش ، وأضمرت له الشَّرَّ ، فلم يستطع رسول الله (ص) دخول مكَّة إلا في جوار رجلٍ كافر ، لقد تجهَّمت له قريش ، وأحدقت برسول الله (ص) ، فزادتْ حزنَه ، وهمَّه؛ حتَّى سُمِّي ذلك العام بالنِّسبة لرسول الله (ص) بـ(عام الحزن)[(٩٠٨)].

وبعد هذا كلِّه حصلتْ معجزةُ اللهِ لرسوله ، ألاَ وهي: الإسراء والمعراج.

أمَّا هدف هذه المعجزة ، فيتمثل في أمورٍ؛ من أهمِّها:

أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أراد أن يتيح لرسوله (ص) فرصة الاطِّلاع على المظاهر الكبرى لقدرته؛ حتَّى يملأ قلبه ثقةً فيه ، واستناداً إليه؛ حتَّى يزداد قوَّةً في مهاجمة سلطان الكفَّار القائم في الأرض ، كما حدث لموسى عليه السلام ، فقد شاء أن يريه عجائب قدرته. قال تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى *قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى *قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى *فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ

تَسْعَى *قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُوْلَى *وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى *} [طه: ١٧ ـ ٢٢] فلمَّا ملأ قلبه بمشاهدة هذه
الايات الكبرى ، قال له بعد ذلك: {لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى *} [طه: ٢٣].

في رحلة الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه (ص) على هذه الايات الكبرى ، توطئةً للهجرة ، ولأعظم مواجهةٍ على مدى التَّاريخ للكفر ، والضَّلال ، والفسوق. والايات التي راها رسول الله (ص) كثيرةٌ؛ منها: الذَّهاب إلى بيت المقدس ، والعروج إلى السَّماء ، ورؤية الأنبياء ، والمرسلين ، والملائكة ، والسَّموات ، والجنَّة ، والنار ، ونماذج من النعيم والعذاب... إلخ.

كان حديث القران الكريم عن الإسراء في سورة الإسراء ، وعن المعراج في سورة النَّجم ، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: {لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} [الإسراء: ١] وفي سورة النجم بقوله: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى *} [النجم: ١٨]. وفي الإسراء والمعراج علومٌ ، وأسرارٌ ، ودقائق ،ودروسٌ ، وَعِبَرٌ[(٩٠٩)].

يقول الأستاذ أبو الحسن النَّدوي: «لم يكن الإسراء مجرَّد حادثٍ فرديٍّ بسيطٍ رأى فيه رسول الله (ص) الايات الكبرى ، وتجلَّى له ملكوت السَّموات ، والأرض مشاهدةً ، عياناً؛ بل ـ زيادةً إلى ذلك ـ اشتملت هذه الرِّحلة النَّبوية الغيبية على معانٍ دقيقةٍ كثيرةٍ ، وشاراتٍ حكيمةٍ بعيدة المدى فقد ضمَّت قصَّةُ الإسراء ، وأعلنت السُّورتان الكريمتان اللَّتان نزلتا في شأنه «الإسراء» و«النَّجم»: أنَّ محمّداً (ص) هو نبيُّ القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده ، فقد التقت في شخصه ، وفي إسرائه مكةُ بالقدس ، والبيتُ الحرام بالمسجد الأقصى ، وصلَّى بالأنبياء خلفه ، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته ، وخلود إمامته ، وإنسانيَّة تعاليمه ، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزَّمان ، وأفادت سورة الإسراء تعيين شخصية النَّبي (ص) ، ووصف إمامته ، وقيادته ، وتحديد مكانة الأمَّة التي بعث فيها ، وامنت به ، وبيان رسالتها ودورها الَّذي ستمثِّله في العالم ، ومن بين الشُّعوب ، والأمم»[(٩١٠)].

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «أُتيتُ بالبُرَاق ـ وهو دابّةٌ أبيضُ طويلٌ ، فوق الحمار ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طَرْفه ـ قال: فركبتهُ حتَّى أتيت بيت المقدس ، قال: فربطته بالحلقة[(٩١١)]؛ الَّتي يَرْبِطُ به الأنبياءُ. قال: ثمَّ دخلت المسجد فصلَّيت فيه ركعتين ، ثمَّ خرجت ، فجاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ ، وإناءٍ من لبنٍ ، فاخترتُ

اللَّبن ، فقال جبريل: اخترتَ الفطرة»[(٩١٢)]... فذكر الحديث [مسلم (١٦٢)] .

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه: أنَّ نبيَّ الله (ص) حدَّثهُ عن ليلة أسري به ، قال: «بينما أنا في الحطيم[(٩١٣)] ـ وربما قال في الحِجر ـ مضطجعاً؛ إذ أتاني اتٍ[(٩١٤)] ، فَقَدَّ ـ قال: وسمعته يقول: فشقَّ ـ ما بين هذه إلى هذه ، فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغرةِ نحرِه[(٩١٥)] إلى شِعْرَته[(٩١٦)] وسمعته يقول: من قَصِّهِ[(٩١٧)] إلى شعرته ـ فاستخرج قلبي ، ثمَّ أُتيتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً ، فَغُسِلَ قلبي ، ثمَّ حُشيَ ، ثمَّ أُعِيدَ ، ثمَّ أُتيتُ بدابةٍ دون البغل ، وفوق الحمار أبيض ـ فقال له الجارود: هو البُرَاقُ يا أبا حمزة؟! قال: أنسٌ: نعم ـ يضع خَطْوَهُ عند أقصى طَرْفه[(٩١٨)] ، فحُمِلتُ عليه ، فانطَلَقَ بي جبريلُ حتَّى أتى السَّماء الدُّنيا ، فاستفتحَ[(٩١٩)] فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ ، قيلَ: ومن معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به[(٩٢٠)] ، فنعم المجيءُ جاء ، فَفَتَح ، فلما خَلَصتُ؛ فإذا فيها ادمُ ، فقال: هذا أبوك ادمُ ، فَسَلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ السلام ، ثمَّ قال: مرحباً بالابن الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح. ثمَّ صعِد بي حتَّى أتى السَّماء الثَّانية فاستفتح، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، فَفَتَح ، فلمَّا خَلَصتُ؛ إذا يحيى ، وعيسى ـ وهما ابنا خالةٍ ـ قال: هذا يحيى ، وعيسى ، فسلِّمْ عليهما ، فسلَّمتُ فَرَدَّا ، ثمَّ قالا: مرحباً بالأخ الصَّالح والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعد بي إلى السَّماء الثَّالثة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت؛ إذا يوسفُ ، قال: هذا يوسُفُ فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتْ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء الرَّابعة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: أَوَ قد أُرسِل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ،

ففتح ، فلمَّا خلصت؛ فإذا إدريس ، قال: هذا إدريس فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء الخامسة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قيل: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء ، ففتح ، فلمَّا خلصت؛ فإذا

هارون ، قال: هذا هارون ، فسلِّمْ عليه ، فسلَّمتُ عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح.

ثمَّ صُعِدَ بي حتَّى أتى السَّماء السَّادسة ، فاستفتح ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم ، قال: مرحباً به ، فنعم المجيء جاء. فلمَّا خلصت؛ فإذا موسى ، قال: هذا موسى فسلِّم عليه ، فسلَّمت عليه ، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح ؛ فلمَّا تجاوزتُ ؛ بكى ، قيل له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي؛ لأنَّ غلاماً[(٩٢١)] بُعِثَ بعدي يدخل الجنَّةَ من أمَّته أكثرُ مِمَّن يَدْخُلها من أمَّتي.

ثمَّ صعد بي إلى السَّماء السَّابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ ، قيل: وَمَنْ معك؟ قال: محمَّد ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم ، قال: مرحباً به ، ونعم المجيء جاء ، فلمَّا خلصت؛ فإذا إبراهيم ، قال: هذا أبوك ، فسلِّم عليه ، قال: فسلَّمت عليه ، فردَّ السَّلام ، ثمَّ قال: مرحباً بالابن الصَّالح ، والنَّبيِّ الصَّالح ، ثمَّ رُفِعَتْ لي[(٩٢٢)] سِدرةُ المنتهى ، فإذا نَبقُها[(٩٢٣)] مثل قِلالِ هَجَر[(٩٢٤)] ، وإذا ورقُها مثل اذانِ الفيلة ، قال: هذه سِدرة المنتهى ، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت: ما هذان يا جبريل؟! قال: أمَّا الباطنان؛ فنهران في الجنَّة ، وأمَّا الظاهران؛ فالنِّيلُ والفراتُ ، ثمَّ رُفِعَ لي البيتُ المعمور.

ثمَّ أُتيتُ بإناءٍ من خمرٍ ، وإناءٍ من لبنٍ ، وإناءٍ من عسلٍ ، فأخذتُ اللَّبنَ ، فقال: هي الفطرةُ[(٩٢٥)]؛ الَّتي أنت عليها ، وأمَّتُك.

ثمَّ فُرِضتْ عليَّ الصَّلاةُ خمسين صلاةً كلَّ يومٍ ، فرجعتُ ، فمررتُ على موسى ، قال: بِمَ أُمِرت؟قال: أُمرت بخمسين صلاةً كلَّ يومٍ. قال: إنَّ أمَّتك لا تستطيع خمسين صلاةً كلَّ يومٍ ، وإنِّي والله! قد جرَّبت النَّاس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة[(٩٢٦)] ، فارجعْ إلى

ربِّك ، فاسأله التَّخفيف لأمَّتك ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فوضع عنِّي عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، فرجعت ، فأُمرت بعشر صلوات كلَّ يومٍ ، فرجعت ، فقال مثله ، فرجعت فأمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، فرجعت إلى موسى ، فقال: بِمَ أُمِرْتَ؟ قلت: أمرت بخمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، قال: إنَّ أمتك لا تستطيع خمس صلواتٍ كلَّ يومٍ ، وإنِّي قد جرَّبت النَّاس قبلك ، وعالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة ، فارجعْ إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتِّك ، قال: سألت ربِّي حتى استحييتُ ،

ولكن أرضى ، وأسلِّم ، قال: فلمَّا جاوزت نادى منادٍ: أمضيتُ فريضتي، وخففت عن عبادي» [البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤)] .

كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته ـ عليه السَّلام ـ بسنةٍ ، هكذا قال القاضي عياض في الشِّفا[(٩٢٧)].

ولما رجع رسول الله (ص) من رحلته الميمونة؛ أخبر قومه بذلك ، فقال لهم في مجلسٍ حضره المطعم بن عديٍّ ، وعمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة: إنِّي صليت اللَّيلة العشاء في هذا المسجد ، وصليت به الغداة ، وأتيتُ فيما دون ذلك بيت المقدس ، فَنُشِر لي رهطٌ من الأنبياء؛ منهم: إبراهيم ، وموسى وعيسى ، وصلَّيت بهم ، وكلَّمتهم ، فقال عمرو بن هشام كالمستهزأى به: صِفْهم لي ، فقال: أمَّا عيسى: ففوق الرَّبعة ، ودون الطول ، عريض الصَّدر ، ظاهر الدَّم ، جعدٌ ، أشعرٌ ، تعلوه صُهْبَةٌ[(٩٢٨)] ، كأنَّه عروة بن مسعود الثَّقفي. وأمَّا موسى: فضخمٌ ادَمُ ، طوالٌ ، كأنَّه من رجال شَنُوءَةَ ، متراكب الأسنان ، مقلَّص الشَّفة ، خارج اللَّثة ، عابسٌ ، وأمَّا إبراهيم: فوالله إنه لأشبه النَّاس بي ، خَلْقاً ، وخُلُقاً[(٩٢٩)].

فقالوا: يا محمد! فصف لنا بيت المقدس ، قال: «دخلت ليلاً ، وخرجت منه ليلاً» ، فأتاه جبريل بصورته في جناحه ، فجعل يقول: «بابٌ منه كذا ، في موضع كذا ، وبابٌ منه كذا ، في موضع كذا».

ثمَّ سألوه عن عيرهم ، فقال لهم: «أتيت على عير بني فلان بالرَّوحاء ، قد ضَلَّتْ ناقةٌ لهم ، فانطلقوا في طلبها ، فانتهيت إلى رحالهم ، ليس بها منهم أحد ، وإذا قدح ماء ، فشربت منه ، فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا: هذه والإله ايةٌ! ـ «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلان ، فنفرت منِّي الإبل ، وبرك منها جملٌ أحمر ، عليه جُوالِق[(٩٣٠)] مخطَّطٌ ببياض ، لا أدري أكسر البعير ، أم لا؟

فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا: هذه والإله ايةٌ! ـ «ثمَّ انتهيت إلى عير بني فلانٍ في التَّنعيم ، يقدمها جملٌ أورق[(٩٣١)] ، وها هي تطلع عليكم من الثَّنِيَّة»[(٩٣٢)] فقال الوليد بن المغيرة: ساحرٌ ، فانطلقوا ، فنظروا ، فوجدوا الأمر كما قال ، فرموه بالسِّحر ، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال [المطالب العالية (٤/٢٠١ ـ ٢٠٤ ، ومجمع الزوائد (١/٧٥ ـ ٧٦) وابن هشام في السيرة النبوية (٢/١١)] .

كانت هذه الحادثة فتنةً لبعض النَّاس ، مِمَّن كانوا امنوا ، وصدَّقوا بالدَّعوة ، فارتدُّوا ، وذهب بعض النَّاس إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فقالوا: هل لك إلى صاحبك؟ يزعم: أنَّه أسري به اللَّيلة إلى بيت المقدس!

قال: أَوَ قَال ذلك؟! قالوا: نعم! قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق! قالوا: أو تصدِّقه: أنَّه ذهب اللَّيلة إلى بيت المقدس ، وجاء قبل أن يصبح؟!

قال: نعم ، إِنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدِّقه بخبر السَّماء ، في غدوةٍ أو روحة . فلذلك سُمِّي أبو بكر: الصِّدِّيق [الحاكم (٣/٦٢)] .

ثانياً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ ـ بعد كلِّ محنةٍ منحةٌ ، وقد تعرَّض رسول الله (ص) لمحنٍ عظيمةٍ ، فهذه قريش قد سدَّت الطَّريق في وجه الدَّعوة في مكَّة ، وفي ثقيفٍ ، وفي قبائل العرب ، وأحكمتْ الحصار ضدَّ الدعوة ورجالاتها من كلِّ جانبٍ ، وأصبح النَّبيُّ (ص) في خطرٍ بعد وفاة عمِّه أبي طالبٍ أكبر حُماته ، ورسولُ الله (ص) ماضٍ في طريقه ، صابرٍ لأمر ربِّه ، لا تأخذه في الله لومةُ لائمٍ ، ولا حربُ محاربٍ ، ولا كيدُ مستهزىءٍ ، فقد ان الأوان للمحنة العظيمة ، فجاءت حادثة الإسراء والمعراج ، على قَدَرٍ من ربِّ العالمين ، فيعرج به من دون الخلائق جميعاً ، ويكرمه على صبره ، وجهاده ، ويلتقي به مباشرة دون رسولٍ ، ولا حجابٍ ، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافَّةً ، ويجمعه مع إخوانه من الرُّسل في صعيدٍ واحدٍ ، فيكون الإمام ، والقدوة لهم ، وهو خاتمهم ، واخرهم (ص)[(٩٣٣)] .

٢ ـ إنَّ الرَّسول (ص) كان مُقْدِماً على مرحلةٍ جديدةٍ ، مرحلة الهجرة ، والانطلاق لبناء الدَّولة ، يريد اللهُ تعالى لِلَّبِنَات الأولى في البناء أن تكون سليمةً قويَّةً ، متراصَّةً متماسكةً ، فجعل الله هذا الاختبار والتَّمحيص ؛ ليُخلِّص الصَّفَّ من الضِّعاف المتردِّدين ، والَّذين في قلوبهم مرضٌ ، ويُثبِّت المؤمنين الأقوياء والخلَّص؛ الذين لمسوا عياناً صدق نبيِّهم بعد أن

لمسوه تصديقاً ، وشهدوا مدى كرامته على ربِّه ، فأيُّ حظٍّ يحوطهم ، وأيُّ سعدٍ يغمرهم ، وهم حول هذا النَّبيِّ المصطفى ، وقد امنوا به ، وقدَّموا حياتهم فداءً له ، ولدينهم؟! كم يترسَّخ الإيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الَّذي تمَّ بعد وعثاء الطَّائف؟! وبعد دخول مكَّة في جوارٍ ، وبعد أذى الصِّبيان ، والسُّفهاء؟![(٩٣٤)].

٣ ـ إنَّ شجاعة النَّبيِّ (ص) العالية ، تتجسَّد في مواجهته للمشركين بأمرٍ تنكره عقولهم ، ولا تدركه في أوَّل الأمر تصوُّراتهم ، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم ، وتلقِّي نكيرهم ، واستهزائهم ، فضرب بذلك (ص) لأمَّته أروع الأمثلة في الجهر بالحقِّ أمام أهل الباطل ، وإن تحزَّبوا ضدَّ الحقِّ ، وجنَّدوا لحربه

كلَّ ما في وسعهم ، وكان من حكمة النَّبيِّ (ص) في إقامة الحجَّة على المشركين أنْ حدَّثهم عن إسرائه إلى بيت المقدس ، وأظهر الله له علاماتٍ تُلزِم الكفَّار بالتَّصديق ، وهذه العلامات هي:

* وصف النَّبيِّ (ص) بيت المقدس ، وبعضهم قد سافر إلى الشَّام ، ورأى المسجد الأقصى ، فقد كشف الله لنبيِّه (ص) المسجد الأقصى حتَّى وصفه للمشركين ، وقد أقرُّوا بصدق الوصف ، ومطابقته للواقع الَّذي يعرفونه.

* إخباره عن العير التي بالرَّوحاء ، والبعير الَّذي ضَلَّ ، وما قام به من شرب الماء الَّذي في القدح.

* إخباره عن العير الثَّانية الَّتي نفرت فيها الإبل ، ووصفه الدَّقيق لأحد جمالهم.

* إخباره عن العير الثَّالثة الَّتي بالأبواء ، ووصفه الجمل الَّذي يقدمها ، وإخباره بأنَّها تطلع ذلك الوقت من ثَنِيَّة التَّنعيم ، وقد تأكَّد المشركون ، فوجدوا أنَّ ما أخبرهم به الرَّسول (ص) كان صحيحاً ، فهذه الأدلَّة الظَّاهرة كانت مفحِمةً لهم ، ولا يستطيعون معها أن يتَّهموه بالكذب. كانت هذه الرِّحلة العظيمة تربيةً ربَّانيَّة رفيعة المستوى وأصبح (ص) يرى الأرض كلَّها ، بما فيها من مخلوقاتٍ نقطةً صغيرةً في ذلك الكون الفسيح ، ثمَّ ما مقام كفار مكَّة في هذه النقطة؟! إنَّهم لا يمثِّلون إلا جزءاً يسيراً جدّاً من هذا الكون ، فما الَّذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه ، وخصَّه بتلك الرِّحلة العلويَّة الميمونة ، وجمعه بالملائكة والأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ وأراه السَّموات السَّبع ، وسدرة المنتهى ، والبيت المعمور ، وكلَّمه جلَّ وعلا[(٩٣٥)]؟

٤ ـ يظهر إيمان الصِّدِّيق رضي الله عنه القويُّ في هذا الحدث الجَلَلِ ، فعندما أخبره الكفَّار ، قال بلسان الواثق: لئن كان قال ذلك ؛ لقد صدق! ثمَّ قال: إنِّي لأصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك ،

أصدِّقه بخبر السَّماء في غدوةٍ ، أو روحةٍ ، وبهذا استحقَّ لقب الصِّدِّيق ، وهذا منتهى الفقه ، واليقين ، حيث وازن بين هذا الخبر ، ونزول الوحي من السَّماء ، فبيَّن لهم: أنَّه إذا كان غريباً على الإنسان العاديِّ ، فإنَّه في غاية الإمكان بالنِّسبة للنَّبيِّ (ص)[(٩٣٦)] .

٥ ـ إنَّ الحكمة في شقِّ صدر النَّبيِّ (ص) ، وملء قلبه إيماناً وحكمةً؛ استعداداً للإسراء تظهر في عدم تأثُّر جسمه بالشَّقِّ ، وإخراج القلب ممَّا يؤمِّنه من جميع المخاوف العادية الأخرى ، ومثل هذه الأمور الخارقة للعادة يجب التَّسليم لها دون التَّعرُّض لصرفها عن حقيقتها؛ لمقدرة الله تعالى ، الَّتي لا يستحيل عليها شيءٌ[(٩٣٧)].

٦ ـ إنَّ شُرْب رسول الله (ص) اللَّبن حين خُيِّر بينه وبين الخمر ، وبشارة جبريل عليه السلام: «هُديتَ للفطرة» ، تؤكِّد: أنَّ هذا الإسلام دين الفطرة البشريَّة؛ الَّتي ينسجم معها ، فالَّذي خلق الفطرة البشريَّة خلق لها هذا الدِّين ، الَّذي يلبِّي نوازعها ، واحتياجاتها ، ويحقِّق طموحاتها ، ويكبح جماحها: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [الروم: ٣٠] .

٧ ـ كان إسراء النَّبيِّ (ص) ، بالرُّوح والجسد يقظةً إلى بيت المقدس ، وعلى هذا جماهير السَّلف ، والخلف ، ولا يُعوَّل على مَنْ قال: إنَّ الإسراء كان بروحه ، وأنَّه رؤيا منام؛ إذ لو كان الإسراء مناماً؛ لما كانت فيه ايةٌ ، ولا معجزةٌ ، ولما استبعده الكفار ، ولا كذَّبوه؛ إذ مثل هذا من المنامات لا يُنكر[(٩٣٨)] ، ثمَّ إنَّ في قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} ، والمقصود بعبده: سيدنا محمَّدٍ (ص) ، وكلمة «بعبده» تشمل روحه ، وجسده[(٩٣٩)].

٨ ـ إنَّ صلاة النَّبيِّ (ص) بالأنبياء دليلٌ على أنَّهم سلَّموا له القيادة ، والرِّيادة ، وأنَّ شريعة الإسلام نسخت الشَّرائع السَّابقة ، وأنَّه وسع أتباع هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءهم ، أن يسلِّموا القيادة لهذا الرَّسول (ص) ، ولرسالته الَّتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها.

إنَّ على الَّذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يُدركوا هذه الحقيقة ، ويدعوا إليها ، وهي ضرورة الانخلاع من الدِّيانات المنحرفة ، والإيمان بهذا الرَّسول (ص) ورسالته ، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدَّعوات المشبوهة ، الَّتي تخدم وضعاً من الأوضاع ، أو نظاماً من الأنظمة الجاهليَّة.

وأيُّ تقريب بين عقيدةٍ منحرفةٍ تعتقد: أنَّ الله هو المسيح ، وأنَّ المسيح ابن الله ، وأنَّ الله ثالث ثلاثةٍ ، أو بين مَنْ يعتقد: أنَّ عزيراً ابنُ الله ، ويحرِّف كلام الله ، وبين من يعتقد: أنَّ الله واحدٌ لا شريك له ، ولا والد ، ولا ولد ، ولا زوجة له ـ وهو عبثٌ من القول[(٩٤٠)].

٩ ـ إنَّ الرَّبط بين المسجد الأقصى والمسجد الحرام وراءه حِكَمٌ، ودلالاتٌ، وفوائد؛ منها:

* أهمِّيَّة المسجد الأقصى بالنِّسبة للمسلمين؛ إذ أصبح مسرى رسولهم (ص) ، ومعراجه إلى السَّموات العلا ، وكان لا يزال قبلتهم الأولى طيلة الفترة المكِّيَّة ، وهذا توجيهٌ وإرشادٌ للمسلمين بأن يحبُّوا المسجد الأقصى ، وفلسطين؛ لأنَّها مباركةٌ ، ومقدَّسةٌ.

* الرَّبط يشعر المسلمين بمسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى ، بمسؤوليَّة تحرير المسجد الأقصى من أوضار الشِّرك ، وعقيدة التَّثليث ، كما هي أيضاً مسؤوليتهم تحرير المسجد الحرام ، من أوضار الشِّرك ، وعبادة الأصنام.

* الرَّبط يشعر بأنَّ التَّهديد للمسجد الأقصى ، هو تهديدٌ للمسجد الحرام ، وأهله ، وأنَّ النَّيْل من المسجد الأقصى ، توطئةٌ للنَّيْل من المسجد الحرام؛ فالمسجد الأقصى بوابة الطَّريق إلى المسجد الحرام ، وزوال المسجد الأقصى من أيدي المسلمين ، ووقوعه في أيدي اليهود ، يعني: أن المسجدالحرام والحجاز قد تهدَّد الأمن فيهما ، واتَّجهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

والتَّاريخ قديماً وحديثاً يؤكِّد هذا ، فإنَّ تاريخ الحروب الصَّليبيَّة يخبرنا: أنَّ (أرناط) الصَّليبيَّ صاحب مملكة الكرك ، أرسل بعثةً للحجاز للاعتداء على قبر الرَّسول (ص) ، وعلى جُثمانه في المسجد النَّبويِّ ، وحاول البرتغاليُّون (النَّصارى الكاثوليك) في بداية العصور الحديثة الوصول إلى الحرمين الشَّريفين؛ لتنفيذ ما عجز عنه أسلافهم الصَّليبيُّون ، ولكن المقاومة الشَّديدة الَّتي أبداها المماليك ، وكذا العثمانيُّون ، حالت دون إتمام مشروعهم الجهنميِّ ، وبعد حرب (١٩٦٧ م) ، الَّتي احتل اليهود فيها بيت المقدس صرخ زعماؤهم بأنَّ الهدف بعد ذلك احتلال الحجاز ، وفي مقدِّمة ذلك مدينة رسول الله (ص) ، وخيبر.

لقد وقف دافيد بن جوريون زعيم اليهود بعد دخول الجيش اليهودي القدس ، يستعرض جنوداً وشبَّاناً من اليهود بالقرب من المسجد الأقصى ، ويُلقي فيهم خطاباً ناريّاً ، يختتمه بقوله: «لقد استولينا على القدس ، ونحن في طريقنا إلى يثرب»[(٩٤١)].

ووقفت جولدا مائير رئيسة وزراء اليهود ، بعد احتلال بيت المقدس ، وعلى خليج إيلات
العقبة ، تقول: «إنَّني أشمُّ رائحة أجدادي في المدينة ، والحجاز ، وهي بلادنا التي سوف نسترجعها»[(٩٤٢)].

وبعد ذلك نشر اليهود خريطةً لدولتهم المنتظرة؛ الَّتي شملت المنطقة من الفرات إلى النِّيل ، بما في ذلك الجزيرة العربيَّة ، والأردن ، وسورية ، والعراق ، ومصر ، واليمن ، والكويت ، والخليج العربي كلِّه، ووزَّعوا خريطة دولتهم هذه بعد انتصارهم في حرب (١٩٦٧) م في أوروبة[(٩٤٣)].

١٠ . يرى القارأى في سورة الإسراء: أنَّ الله ذكر قصَّة الإسراء في ايةٍ واحدةٍ فقط. قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ *} [الإسراء: ١] ثمَّ أخذ في ذكر فضائح اليهود ، وجرائمهم ، ثمَّ نبَّههم إلى أنَّ هذا

القران يهدي لِلَّتي هي أقوم ، والارتباط بين الايات في سورة الإسراء ، يشير إلى أنَّ اليهود سيُعزَلون عن منصب قيادة الأمَّة الإنسانيَّة؛ لما ارتكبوا من الجرائم الَّتي لم يبقَ معها مجالٌ لبقائهم على هذا المنصب، وأنَّه سيصير إلى رسوله (ص) ، ويُجمَع له مركزا الدَّعوة الإبراهيمية كلاهما[(٩٤٤)].

إنَّ سورة الإسراء تعرَّضت للاستبداد الإسرائيليّ ، وبيَّنت كيف تهاوى بين مخالب القوى الدَّولية الكبرى في ذلك الزَّمان «الفرس ، والروم»؛ ولذلك فإنَّ من الفوائد العظيمة في رحلة الإسراء لرسول الله (ص) وأمَّته رؤية بعض ايات الله؛ لأنَّ من أوضح ايات الله المتعلقة بالمسجد الأقصى هي اياته التَّاريخيَّة الَّتي كان يعكسها الصِّراع الرُّومانيُّ الفارسيُّ ـ الإسرائيليُّ قبل الإسراء[(٩٤٥)].

قال تعالى: {وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً *ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا *وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً *ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا *إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأِنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا *} [الإسراء: ٢ ـ ٧] .

ذكر ابن كثيرٍ في البداية والنِّهاية: أنَّ (بختنصر) بأمرٍ من ملك الفرس[(٩٤٦)] ، قد قام بتخريب مملكة اليهود ، وجاس خلال الدِّيار ، وتفرَّقت بسبب ذلك بنو إسرائيل ، فنزلت طائفةٌ الحجاز ، وطائفةٌ يثرب ، وطائفةٌ بوادي القرى ، وذهبت شرذمةٌ لمصر[(٩٤٧)] ، وقد وقع هذا الدَّمار الفارسيُّ لدولة اليهود ، في القرن السَّادس قبل الميلاد (٥٩٧ق.م) [(٩٤٨)].

أمَّا الدَّمار الثاني ، وهو الدَّمار الرُّوماني للدَّولة اليهوديَّة «بعد أن أعيد بناؤها» ، فقد وقع في القرن الميلادي الأوَّل (٧٠ م) ، وذلك حين هدم القائد الرُّوماني (تيتوس) هيكل أورشليم ، وفرَّ اليهود من وجه الاضطهاد الرُّومانيّ السِّياسيِّ الدِّينيّ ، وتتابعت هجرتهم ، وانتهى بعضهم إلى جنوب الجزيرة العربية ، حيث سبقهم أجدادهم الأوائل[(٩٤٩)].

فالشَّتات اليهوديُّ في أطراف الجزيرة العربيَّة ، ما زال يحمل جرثومة الفساد في الأرض ، فإذا كان الرَّسول (ص) قد استوعب الظَّاهرة القرشيَّة ، واستعدَّ لها ، فعليه أن يحلِّل الظاهرة اليهوديَّة ، ويستعدَّ لها[(٩٥٠)] ، فاليهود ليسوا مجرَّد أمَّةٍ تاريخيَّةٍ ، كعاد ، وثمود ، تُورَد أخبارها للإرشاد ، والاعتبار ، وإنَّما هم أمَّةٌ لها حضورٌ كثيفٌ في الواقع العربيِّ الَّذي يعيش فيه الرَّسول (ص) ، ويتحرَّك فيه لإقامة دولة الإسلام ، فقد

كانوا يشكِّلون ـ فوق مكانتهم الاقتصاديَّة ـ مركز سلطةٍ فكريَّةٍ؛ لما لهم من أحبارٍ ، وأخبارٍ ، وكتب تراثٍ نبويٍّ ، تؤهِّلهم لتحديد مواصفات النُّبوَّة ، وطلب المعجزات ، ووضع الشُّروط لصدق الرُّسل وصحَّة الرسالات ، فإذا كانت قريش تستخدم الكعبة لمحاربة الإسلام ، فإنَّ اليهود كانوا يستخدمون التَّوراة لمحاربة القران ، وإذا كان محمَّد (ص) يتوقَّع معركةً مع قريشٍ؛ فعليه أن يتوقَّع معارك مع اليهود[(٩٥١)].

لقد صوَّرت سورة الإسراء جانباً من الصِّراع الدَّولي بين الفرس ، والرُّوم ، واليهود ، ونزلت بعدها سورة الرُّوم ، وهي كذلك تتحدَّث عن الصِّراع الدَّولي.

قال الله تعالى: {الم *غُلِبَتِ الرُّومُ *فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ *فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ *بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ *} [الروم: ١ ـ ٧] .

كان مشركو قريشٍ يحبُّون أن يظهر أهل فارس على الرُّوم ؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهل أوثانٍ ، بينما كان المسلمون يحبُّون أن تظهر الرُّوم على فارس؛ لأنَّهم أهل كتاب ، كما أورد المفسِّرون تفصيلاتٍ كثيرةً عن الرِّهان الَّذي جرى بين أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وبعض مشركي مكَّة حول المعركة القادمة بين الفرس ، والرُّوم؛ الَّتي جزم فيها القران بانتصار الرُّوم ، وهزيمة الفرس[(٩٥٢)].

وذهب ابن عطيَّة إلى رأيٍ اخر ، يستحقُّ التدبُّر؛ حيث قال: «الأقرب أن يُعَلَّل ذلك ـ أي: فرح المؤمنين ـ بما يقتضيه النَّظر من محبَّة أن يغلب العدوُّ الأصغر ـ الرُّوم ـ لأنَّه أيسر مؤنةً ـ ومتى غلب الأكبرُ ـ الفرس ـ كثر الخوف منه. فتأمَّل هذا المعنى؛ مع ما كان رسول الله (ص) يرجوه من ظهور دينه ، وشرع الله الَّذي بعثه به ، وغلبته على الأمم ، وإرادة كفار مكَّة أن يرميه بملكٍ يستأصله ، ويريحهم منه»[(٩٥٣)].

فابن عطيَّة يرى: أنَّ فرح المؤمنين الأكبر ، ليس سببه أنَّ الروم أهل كتاب ، أو أن انتصارهم على الفرس سيكون دليلاً ماديّاً على صدق الخبر القرانيِّ؛ وإنَّما سببه هو أنَّ الله تعالى وظَّف القوَّة الجهازية الرُّومانية لصالح المسلمين الَّذين لم يقم لهم سلطانٌ جهازيٌّ بعد؛ إذ إنَّه بعد أن يسلِّط الروم على الدَّولة الفارسيَّة ، فيحطِّموها ، ويخضدوا شوكتها سيخرجون من المعارك منتصرين ، ولكنَّهم منهكو القوَّة ، ممَّا سيمهد طريقاً لنصر المسلمين عليهم ، وينفتح للإسلام بذلك طريقٌ للبروز كقوَّة عالميَّةٍ جديدةٍ على أنقاض القوَّتين المندحرتين[(٩٥٤)].

١١ ـ أهمِّيَّة الصَّلاة ، وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السُّنَّة النَّبويَّة: أنَّ الصَّلاة فُرضت على الأمَّة الإسلاميَّة في ليلة عروجه (ص) إلى السَّموات ، وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناءٌ عظيمٌ بشرف الصَّلاة ، وعظمتها»[(٩٥٥)] ، فعلى الدُّعاة أن يؤكِّدوا على أهمِّية الصَّلاة ، والمحافظة عليها ، وأن يذكروا فيما يذكرون من أهمِّيتها ، ومنزلتها كونها فرضت في ليلة المعراج ، وأنَّها من اخر ما أوصى به رسولُ الله (ص) قبل موته[(٩٥٦)].

١٢ ـ سُئل رسولُ الله (ص) : إن كان قد رأى ربَّه ، فقال: «نورٌ أنَّى أراه» [مسلم (١٧٨) والترمذي (٣٢٧٨)] .

١٣ ـ تحدَّث الرَّسول (ص) عن مخاطر الأمراض الاجتماعيَّة ، وبيَّن عقوبتها ، كما شاهد ذلك في ليلة الإسراء والمعراج ؛ ومن هذه الأمراض؛ وعقوبتها:

* عقوبة جريمة الغيبة والمغتابين: رأى رسولُ الله (ص) أناساً يأكلون الجيف ، فأخبره جبريل: «هؤلاء الَّذين يأكلون لحوم النَّاس» [أحمد (١/٢٥٧)] .

* عقوبة أكلة أموال اليتامى: رأى رسول الله (ص) رجالاً لهم مشافر ـ شفاه كبيرةٌ ـ كمشافر الإبل في أيديهم قطعٌ من نار كالأفهار ـ أي: الحجارة ـ يقذفونها في أفواههم ، فتخرج من أدبارهم ، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً. [ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٤٧)].

* أكلة الرِّبا: أتى النَّبيُّ (ص) على قومٍ بطونهم كالبيوت ، فيها الحيَّات تُرى من خارج بطونهم ، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة الرِّبا [أحمد (٢/٣٥٣) وابن ماجه (٢٢٧٣)][(٩٥٧)] .

* وذكرت الرِّوايات[(٩٥٨)] عقوبة الزُّناة ، ومانعي الزَّكاة ، وخطباء الفتنة [أحمد (٣/١٢٠ ، ١٨٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٩) وعبد بن حميد (١٢٢٢)] والتَّهاون في الأمانة[(٩٥٩)].

* ثواب المجاهدين: في ليلة الإسراء والمعراج ، مرَّ رسولُ الله (ص) على قومٍ يزرعون في يومٍ ويحصدون في يومٍ ، كلَّما حصدوا؛ عاد كما كان ، فأخبر جبريل: «هؤلاء المجاهدون في سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنات بسبعمئة ضعفٍ ، وما أنفقوا من شيءٍ؛ فهو يُخْلَف». [البزار (٥٥) ومجمع الزوائد (١/٦٧ ـ ٧٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (١١٢٩)] [(٩٦٠)].

١٤ ـ إدراك الصَّحابة لأهمِّية المسجد الأقصى: أدرك الصَّحابة رضي الله عنهم ، مسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى ، وهو يقع أسيراً تحت حكم الرُّومان ، فحرَّره في عهد عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وظلَّ ينعم بالأمن ، والأمان ، حتَّى عاث الصَّليبيُّون فساداً فيه بعد خمسة قرون ، من هجرة المصطفى (ص) ،

ومكثوا ما يعادل قرناً يعيثون فساداً ، فحرَّره المسلمون بقيادة صلاح الدِّين الأيوبيِّ ، وها هو ذا يقع تحت الاحتلال اليهوديِّ ، فما الطَّريق إلى تخليصه ؟[(٩٦١)].

الطَّريق إلى تخليصه: الجهاد في سبيل الله؛ على المنهج الَّذي سار عليه الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم.

* * *

.[١]انظر: السِّيرة النبويَّة دراسة وتحليل ، د. محمد أبو فارس ، ص (٥٠).

.[٢]انظر: مدخل لدراسة السِّيرة ، د. يحيى اليحيى ، ص (١٤).

.[٣]انظر: البداية والنهاية (٢/٢٤٢).

.[٤]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص (٤٧٦).

.[٥]ينظر الشكل (١) في الصفحة (٧٣٧).

.[٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣١.

.[٧]المصدر السَّابق ، ص ٣١.

.[٨]انظر: السِّيرة النبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٢ ، ٣٣.

.[٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٨.

.[١٠]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩.

.[١١]راجع القانون المدني الاجتماعي المسمَّى (منوشاسنز) الأبواب (١ ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠) ، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٨.

.[١٢]انظر: الغرباء الأوَّلون ، لسلمان العودة ، ص ٥٧.

.[١٣]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٠.

.[١٤]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٠.

.[١٥]المصدر السَّابق نفسه ، ص ٢١.

.[١٦]المصدر السابق نفسه.

.[١٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٣.

.[١٨]دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة ، مقال التثليث (٣٩٥/١٤).

.[١٩]انظر: فتح العرب لمصر ، تعريب محمَّد أبو حديد ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٨.

.[٢٠]إيران في عهد السَّاسانيِّين ، ص ١٥٥ ، نقلاً عن السِّيرة النبوية ، للنَّدوي ، ص ٢٧.

.[٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ٢٧.

.[٢٢]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨.

.[٢٣]نحلته: أعطيته. (النِّهاية في غريب الحديث: ٢٩/٥).

.[٢٤]حنفاء: مائلين عن الشِّرك إلى التَّوحيد. (النِّهاية: ٤٥١/١).

.[٢٥]اجتالتهم: ذهبت بهم. (النِّهاية: ٣١٦/١).

.[٢٦]مسلمٌ ، كتاب الجنَّة ، باب الصِّفات الَّتي يعرف بها في الدُّنيا أهل الجنَّة وأهل النَّار ، رقم (٢٨٦٥).

.[٢٧]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ٥٩.

.[٢٨]انظر: فقه السِّيرة النبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٥. وينظر الشكل (٢) في الصفحة (٧٣٨).

.[٢٩]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (٤٦/١).

.[٣٠]فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ٤٥.

.[٣١]مدخل لفهم السِّيرة ، ص ٩٨.

.[٣٢]السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (٤٧/١).

.[٣٣]مدخل لفهم السيرة ، ص ٩٨ ، ٩٩.

.[٣٤]انظر: الطريق إلى المدائن ، لعادل كمال ، ص ٤٠.

.[٣٥]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٤٨/١).

.[٣٦]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٤٨/١).

.[٣٧]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٧ .
.[٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٠/١).

.[٣٩]انظر السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٠/١).
.[٤٠]المصدر السابق نفسه ، (٥١/١).

.[٤١]ينظر الشكل (٣) في الصفحة (٧٣٩).
.[٤٢]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ٦٠ .

.[٤٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١٦٣/١).
.[٤٤]السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة؛ لأبي شهبة (٨٠/١).

.[٤٥]المصدر السابق نفسه ، (٨١/١).
.[٤٦]ينظر الشكل (٤) في الصفحة (٧٤٠).
.[٤٧]المصدر السابق نفسه ، (٦٠/١).
.[٤٨]انظر: مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول (ص) ، ص ٣١.

.[٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٦١/١).
.[٥٠]انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول (ص) . د. محمد قلعجي ، ص ٣١.
.[٥١]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥.
.[٥٢]المصدر السَّابق نفسه ، ص ٣٥.
.[٥٣]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، ص ٦٠ .

.[٥٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٩٨/١ إلى ١٠١).
.[٥٥]انظر: دراسةٌ تحليليةٌ لشخصيَّة الرسول (ص) ، ص ١٩ .

.[٥٦]المصقَعُ: البليغ يتفنَّن في مذاهب القول.
.[٥٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١٠٢/١).

.[٥٨]انظر: السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (٨٧/١).
.[٥٩]دراسة تحليلية لشخصيَّة الرسول (ص) ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤.
.[٦٠]تفسير القرطبي (٤٥/٥).
.[٦١]انظر: دراسة تحليليّة لشخصية الرَّسول (ص) ، ص ٢٥ ، ٢٦.

.[٦٢]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (٩٢/١).
.[٦٣]المصدر السابق نفسه (٨٨/١).
.[٦٤]الطَّمث: الحيض.
.[٦٥]استبضعي: طلب الجماع حتى تحمل منه.
.[٦٦]الرَّهط: الجماعة دون العشرة.
.[٦٧]يصيبها: يجامعها.

.[٦٨]جاءها: دخل عليها.
.[٦٩]القافة: جمع القائف ، وهو الذي يعرف شَبه الولد بالوالد.
.[٧٠]فالتاطته: استلحقته به ، وأصل اللوط بفتح اللام: اللصوق.
.[٧١]فتح الباري (١٥٠/٩).
.[٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٩٠/١).
.[٧٣]انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، ص ٢٤ ، ٢٥.
.[٧٤]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي شهبة (٨٨/١).

.[٧٥]دراسةٌ تحليليَّة لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، ص ٢٥.
.[٧٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٩١/١).

.[٧٧]الكامل في التاريخ ، لابن الأثير (١/٣١٢).
.[٧٨]المصدر السابق نفسه (١/٣٤٣).
.[٧٩]التَّاريخ الإسلاميُّ ، د. عبد العزيز الحميديُّ (١/٥٥).
.[٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٣).

.[٨١]المصدر السابق نفسه.
.[٨٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٤).
.[٨٣]المصدر السابق نفسه ، (١/٩٤).
.[٨٤]انظر: السِّيرة ، للنَّدوي ، ص ١٢.

.[٨٥]بلوغ الأرب (١/٣٩ ، ٤٠).
.[٨٦]انظر: مدخل لفقه السيرة ، ص ٧٩ ، ٨٠.
.[٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٥).
.[٨٨]ديوان عنترة ، ص ٢٥٢.
.[٨٩]ديوان عنترة ، د. فاروق الطباع ، ص ٨٢.

.[٩٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٩٥).
.[٩١]القَيل هو: الملك دون الملك الأعظم.
.[٩٢]القطين هم: الخدم والمماليك.
.[٩٣]تزدرينا: تحتقرنا.
.[٩٤]مقتوينا: خدمة الملوك.
.[٩٥]انظر: شرح المعلَّقات ، للحسين الزّوزني ، ص ١٩٦ ، ٢٠٤.

.[٩٦]بلوغ الأرب (١/١٥٠).
.[٩٧]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص ٩٠.
.[٩٨]معناه: كن كفأ لشسع نعليه ، وباء الرجل بصاحبه: إذا قتل. انظر: لسان العرب لابن منظور.

.[٩٩]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص ٩١.
.[١٠٠]تاريخ الطَّبريِّ عن يوم ذي قار (٢٠٧/٢).

.[١٠١]بلوغ الأرب (٣٧٧/١).
.[١٠٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٩٦/١ ، ٩٧).
.[١٠٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٩٧/١).

.[١٠٤]انظر: نظرات في السِّيرة ، للإمام حسن البنَّا ، ص ١٤.

.[١٠٥]انظر: هذا الحبيب محمَّد (ص) يا محبُّ ، للجزائريِّ ، ص ٥١.
.[١٠٦]طيبة: مشتقة من الطِّيب ، وبه سمِّيت المدينة.
.[١٠٧]برَّة: مشتقة من البرِّ ، والبرُّ: هو الخير والطَّهارة.
.[١٠٨]المضنونة: الغالية النَّفيسة التي يضنُّ بمثلها؛ أي: يُبخل.

.[١٠٩]لا تنزف: أي: لا يفرغ ماؤها ، ولا يُلحق قعرُها.
.[١١٠]الغراب الأعصم: الذي في ساقيه بياض.
.[١١١]قرية النَّمل: المكان الذي يجتمع فيه النَّمل.
.[١١٢]المِعْوَل: الفأس.
.[١١٣]الطيُّ: حافة البئر.
.[١١٤]المفازة: الصَّحراء ، والجمع: مفاوز.
.[١١٥]بعث راحلته: أقامها من بروكها.

.[١١٦]طعام طعم: أي: تشبع شاربها.
.[١١٧]هزمة ، أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه ، أو جناحه.
.[١١٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١٥٨/١).
.[١١٩]مقدِّمة ابن الصَّلاح وشرحها للحافظ العراقيِّ ، ص ١٣.
.[١٢٠]ينظر الشكل (٥) في الصفحة (٧٤١).

.[١٢١]كلمةٌ تقال للنَّاقة إذا تركت السَّير. (فتح الباري: ٥/٣٣٥).
.[١٢٢]ألحّت: أي: تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح. فتح الباري (٥/٣٣٥).

.[١٢٣]المِغمَّس: مكانٌ قرب مكَّة في طريق الطَّائف مات فيه أبو رِغال.

.[١٢٤]البَلَسَانُ: نوعٌ من الطَّير (الزرازير).
.[١٢٥]السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستيّ ، ص ٣٤ ـ ٣٩ ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١/٣٠ ـ ٣٧).
.[١٢٦]لا هُمَّ: أصلها اللَّهُمَّ ، والعرب تحذف الألف واللام منها ، وتكتفي بما بقي.

.[١٢٧]شَعَف الجبال: أعالي الجبال ، أو رؤوس الجبال.
.[١٢٨]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام مع شرح أبي ذرٍّ الخُشني (١/٨٤ ـ ٩١).
.[١٢٩]انظر: تفسير الرَّازي (٣٢/٩٤).

.[١٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١١٢.
.[١٣١]انظر: محاسن التَّفسير ، للقاسمي (١٧/٢٦٢).
.[١٣٢]المصدر السابق نفسه.
.[١٣٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٩٢.

.[١٣٤]انظر: أعلام النُّبوَّة ، للماورديِّ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٩.
.[١٣٥]انظر: الجواب الصَّحيح (٤/١٢٢).
.[١٣٦]انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٤٨ ، ٥٤٩).

.[١٣٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١١٣.
.[١٣٨]في ظلال القران (٦/٣٩٨٠).
.[١٣٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٩٣.

.[١٤٠]زاد المعاد (٧١/١).

.[١٤١]ابن سعد (٥٨/١).

.[١٤٢]المصدر السابق نفسه.

.[١٤٣]السِّيرة النَّبويَّة ، للذَّهبي ، ص ١.

.[١٤٤]انظر: دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، ص ٩٦.

.[١٤٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٢.

.[١٤٦]انظر: فقه السيرة للبوطي ، ص ٤٥.

.[١٤٧]انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة ، لأحمد فريد ، ص ٤٦.

.[١٤٨]المصدر السابق نفسه.

.[١٤٩]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، لإبراهيم العلي ، ص٤٧. وينظر الشكلان (٦ و٧) في الصفحتين (٧٤٢ و٧٤٣).

.[١٥٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢٠٣/١).

.[١٥١]انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٧.

.[١٥٢]بُشراء: جمع بشير.

.[١٥٣]انظر: ديوان شوقي (٣٤/١ ، ٣٥).

.[١٥٤]جريدة (الوطن) بنغازي ١٩٤٧ م.

.[١٥٥]سمعتُها مشافهةً من الشَّاعر.

.[١٥٦]انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبوية ، ص ٤٨.

.[١٥٧]ينظر الشكل (٨) في الصفحة (٧٤٤).

.[١٥٨]قمراء: القُمرة: بالضمِّ لونٌ يميل للخضرة ، أو بياضٌ فيه سمرةٌ ، أو كدرة.

.[١٥٩]أدمت: حدثت في ركبها جروحٌ داميةٌ؛ لاصطكاكها ، وذلك لطول مسافة السَّير.

.[١٦٠]الشَّارف: الناقة المسنَّة.

.[١٦١]لا تبضُّ بقطرة لبن: لا ترشح قطرة لبن.
.[١٦٢]شهباء: سنةٌ مجدبةٌ لا خضرة فيها ، ولا مطر.
.[١٦٣]حافل: كثير اللبن.
.[١٦٤]نسمة: نفس.

.[١٦٥]قطعت الرَّكْبَ: سبقت الركب.
.[١٦٦]بطاناً: الممتلئة البطون.
.[١٦٧]حفَّلاً: كثيرات اللَّبن.
.[١٦٨]الوباء: المرض.
.[١٦٩]البهم: صغار الضَّأن والماعز.
.[١٧٠]انتقع لونه: تغير.

.[١٧١]فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٤٤.
.[١٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٥.

.[١٧٣]انظر: فقه السِّيرة ، ص ٦٠ ، ٦١.
.[١٧٤]الرَّوض الأنف ، للسُّهيلي (١/١٨٨).
.[١٧٥]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٤٧.
.[١٧٦]أي: جمعه ، وضمَّ بعضه إلى بعضٍ. (شرح النَّوويِّ على مسلمٍ ٢/٢١٦).

.[١٧٧]زعم المستشرق نيكلسون: أنَّ حديث شقِّ الصَّدر أسطورةٌ نشأت عن تفسير الاية {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ *} وأنَّه كان لها أصل؛ فعلينا أن نخمِّن أنَّها تشير إلى نوع من الصَّرع ، وهذا الذي زعمه نيكلسون سبقه إليه المشركون حين اتَّهموا رسول الله (ص) بالجنون ، فنفى الله عنه ذلك ، فقال: {وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ *} [التكوير: ٢٢].
.[١٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٠٤).
.[١٧٩]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٧.

.[١٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠٦ ، ١٠٧.
.[١٨١]ابن هشام في السِّيرة (١/١٦٨) وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.
.[١٨٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ١٠١.
.[١٨٣]صحيح السِّيرة النَّبويَّة، للعلي، ص ٥٦.

.[١٨٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٠١.
.[١٨٥]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، لليحيى ، ص ١١٩.
.[١٨٦]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٤٦.
.[١٨٧]انظر: رسائل الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/٢٠).
.[١٨٨]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٨٤ ، ٨٥.

.[١٨٩]القيراط: جزءٌ من الدِّينار ، أو الدِّرهم.
.[١٩٠]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/١٧٧).
.[١٩١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٠٦).
.[١٩٢]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، لليحيى ، ص ١٢٤.
.[١٩٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١١٤ ، ١١٥.
.[١٩٤]المصدر السابق نفسه.

.[١٩٥]المصدر السابق نفسه.
.[١٩٦]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص ١٢٧.
.[١٩٧]انظر: مدخل لفهم السِّيرة ، ص (١٣٧).
.[١٩٨]المرجع السابق نفسه ، ص (١٢٨).

.[١٩٩]انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص (٩٣).
.[٢٠٠]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٥٠.
.[٢٠١]المصدر السَّابق نفسه.

.[٢٠٢]المصدر السَّابق نفسه.

.[٢٠٣]انظر: وقفات تربويَّة ، لأحمد فريد ، ص ٥١.

.[٢٠٤]المصدر السابق نفسه.

.[٢٠٥]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (٥١/١).

.[٢٠٦]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٠ ، ٥١.

.[٢٠٧]أشرفوا: اطلعوا من فوق.

.[٢٠٨]الرَّاهب: زاهد النَّصارى.

.[٢٠٩]حَلُّوا رحالهم: أي: أنزلوها ، وفتحوها.

.[٢١٠]يتخلَّلهم: يمشي بينهم.

.[٢١١]خرَّ: سقط.

.[٢١٢]الغضروف: رأس لوح الكتف.

.[٢١٣]رعية الإبل: رعايتها.

.[٢١٤]غمامة: السَّحابة.

.[٢١٥]مال فيء الشَّجرة عليه: مال ظلُّها.

.[٢١٦]يناشدهم: يقسم عليهم.

.[٢١٧]أيكم وليُّه: قريبه.

.[٢١٨]اللَّطيمة: الجمال التي تحمل الطِّيب والثِّياب والتِّجارة ، وما أشبه ذلك.

.[٢١٩]قريش فرع من كنانة.

.[٢٢٠]وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٣.

.[٢٢١]انظر: وقفات تربويَّة ، ص ٥٣.

.[٢٢٢]زبيد: بلد باليمن.

.[٢٢٣]انظر: الرَّوض الأنف ، للسُّهيلي (١٥٥/١ ، ١٥٦).

.[٢٢٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢١٣/١).
.[٢٢٥]المعتر: الزَّائر من غير البلاد.

.[٢٢٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢١٤/١).
.[٢٢٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١١٢/١).
.[٢٢٨]انظر: فقه السيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ١١٠.
.[٢٢٩]المصدر السابق نفسه.
.[٢٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢١.

.[٢٣١]انظر: الأساس في السُّنَّة (١٧٢/٤).
.[٢٣٢]انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ١١٠ ، ١١١.

.[٢٣٣]تزوجها عتيق بن عائذ ، ثمَّ مات عنها ، فتزوَّجها أبو هالة ، ومات عنها أيضاً.
.[٢٣٤]انظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٢٧/٣).
.[٢٣٥]انظر: مواقف تربويَّة ، ص ٥٦.
.[٢٣٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ١٢٢.

.[٢٣٧]انظر: رسالة الأنبياء (٢٨/٣).
.[٢٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢٢.
.[٢٣٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١٢٢/١ ، ١٢٣).
.[٢٤٠]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٧٥.

.[٢٤١]المصدر السابق نفسه ، ص ٧٨.
.[٢٤٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٣ ، ٥٤.

.[٢٤٣]الرَّضم: حجارةٌ منضودةٌ بعضها على بعضٍ من غير طين.
.[٢٤٤]الأسنمة: جمع سنام ، وهو أعلى ظهر البعير.

.[٢٤٥]ففعل ذلك ، فوقع.

.[٢٤٦]انظر: وقفات تربويَّة ، ص ٥٧ ، وانظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٢٩/٣ ، ٣٠).
.[٢٤٧]السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٥٧ ، ٥٨.
.[٢٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢٥.
.[٢٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١١٦/١).

.[٢٥٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ١٢٥ ، ١٢٦.
.[٢٥١]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة (١٧٥/١).

.[٢٥٢]انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرَّسول (ص) ، ص ١٠١ ، ١٠٢.
.[٢٥٣]انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة ، للعمري (١١٨/١).
.[٢٥٤]انظر: الجواب الصَّحيح ، لابن تيميَّة (٣٤٠/١).

.[٢٥٥]التنُّور: الفرن.
.[٢٥٦]يطبق عليه ، يغلق عليه.
.[٢٥٧]الجواب الصَّحيح (٣٤٠/١).
.[٢٥٨]حرزاً للأميّين: حفاظاً لهم.
.[٢٥٩]السَّخب: رفع الصَّوت بالخصام.
.[٢٦٠]الملَّة العوجاء: ملَّة إبراهيم التي غيَّرتها العرب عن استقامتها.

.[٢٦١]انظر: دراسة تحليليَّة ، د. محمَّد قلعجي ، ص ١٠٧.
.[٢٦٢]ابن هشامٍ بإسنادٍ حسن (٢٣١/١).

.[٢٦٣]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١٨٠/١ ، ١٨١).

.[٢٦٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٠.

.[٢٦٥]انظر: صحيح السِّيرة ، للعلي ، ص ٦٧.

.[٢٦٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٢٥).

.[٢٦٧]تحملُ الكَلَّ: تنفق على الضَّعيف ، واليتيم ، والعيال ، والكلُّ أصله: الثِّقل ، والإعياء.

.[٢٦٨]وتكسب المعدوم: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد، ومكارم الأخلاق.

.[٢٦٩]نوائب الحقِّ: الكوارث ، والحوادث.

.[٢٧٠]النَّاموس: هو جبريل ـ عليه السَّلام ـ صاحب سرِّ الخير.

.[٢٧١]جَذعاً: شاباً قوياً.

.[٢٧٢]مؤزَّراً: قوياً بالغاً.

.[٢٧٣]فتر الوحي: تأخَّر نزوله.

.[٢٧٤]انظر: طريق النُّبوَّة والرِّسالة ، لحسين مؤنس ، ص ٢١.

.[٢٧٥]انظر: منامات الرَّسول (ص) ، لعبد القادر الشيخ إبراهيم ، ص ٥٧.

.[٢٧٦]انظر: طريق النَّبوة والرِّسالة ، ص ٢٢.

.[٢٧٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/٢٥٤).

.[٢٧٨]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/٢٥٤).

.[٢٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٢٥٦).

.[٢٨٠]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١/٤٦٩).

.[٢٨١]انظر: الأساس في السنَّة وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١/١٩٥).

.[٢٨٢]انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان.

.[٢٨٣]انظر: الطَّريق إلى المدينة ، لمحمَّد العبده.

.[٢٨٤]المختار من كنوز السُّنَّة ، (ص ١٩) ، ط٢ ١٩٧٨ دار الأنصار ، القاهرة.

.[٢٨٥]انظر: تفسير ابن كثير (٤/٥٢٨).

.[٢٨٦]في ظلال القران (٦/٣٩٣٦).

.[٢٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة(١/ ٢٦٠).

.[٢٨٨]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحي اليحيى ، ص ٣٤.

.[٢٨٩]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحي اليحيى ، (ص ٣٠ ، ٣١).

.[٢٩٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١٢٩/١).

.[٢٩١]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٤.

.[٢٩٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٦٤.

.[٢٩٣]انظر: الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعية ، لأسامة عبد القادر ، ص ١٠٨.

.[٢٩٤]انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٣٣/١ ـ ٣٤).

.[٢٩٥]انظر: التاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر ، للحميدي (٦٠/١).

.[٢٩٦]انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ ، للحميدي (٦١/١).

.[٢٩٧]المصدر السابق نفسه ، (٦٤/١).

.[٢٩٨]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣٠٧/١).

.[٢٩٩]النحائز: جمع النَّحيزة ، وهي الطبيعة ، يقال: هو كريم النَّحيزة.

.[٣٠٠]انظر: محمد رسول الله ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣٠٧/١ ، ٣٠٨).

.[٣٠١]انظر: محمد رسول الله ، لمحمَّد الصادق عرجون (٢٣٢/١).

.[٣٠٢]بطن المكَّتين: جانبي مكَّة ، أو بطاحها ، وظواهرها.

.[٣٠٣]سيرة ابن هشام (١٩٤/١).

.[٣٠٤]بُطنان: البُطنان من الشَّيء: وسطُه.

.[٣٠٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦٩/١).

.[٣٠٦]انظر: وقفات تربوية من السِّيرة النبوية ، للبلالي ، ص ٤٠.

.[٣٠٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ ، للحميدي: (٦٨/١).

.[٣٠٨]يعنى من لؤلؤ ، أو ذهب.

.[٣٠٩]يعني: لتشابه صوتيهما.

.[٣١٠]يعني: لا أسنان لها من الكبر.

.[٣١١]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧١/١).

.[٣١٢]التَّشَوُّف: التطلُّع.

.[٣١٣]فتح الباري (٣٦/١).

.[٣١٤]انظر: الرَّحيق المختوم ، ص ٧٩ ، ٨٠.

.[٣١٥]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٩٠.

.[٣١٦]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، د. كامل سلامة ، ص ١٨١.

.[٣١٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمد الصادق عرجون (٥٨٩/١ . ٥٩١) بتصرفٍ كبير.

.[٣١٨]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٩٢.

.[٣١٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٩٣.

.[٣٢٠]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدِّين كركر ، ص ٣٦.

.[٣٢١]السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢٨٤/١).

.[٣٢٢]ابن هشام (٢٤٦/١).

.[٣٢٣]عيون الأثر ، لابن سيِّد الناس (١١٥/١).

.[٣٢٤]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ. د. عصمة الدِّين ، ص ٤٢.

.[٣٢٥]يطلق المولى على السَّيد ، وعلى المملوك الذي أُعتق ، وهو المراد هنا.

.[٣٢٦]انظر: دراسة تحليلية لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، د. محمَّد قلعجي ، ص ١٩١.

.[٣٢٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢٨٤/١).

.[٣٢٨]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدين ، ص ٤٣.

.[٣٢٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٥.

.[٣٣٠]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ٤٦.

.[٣٣١]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، لكامل سلامة ، ص ٢٠٨.

.[٣٣٢]المصدر السابق نفسه.

.[٣٣٣]انظر: الأخوات المسلمات وبناء الأسرة المسلمة ، لمحمود الجوهري ، ص ٧.

.[٣٣٤]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التَّمكين ، ص ٢٠٨.

.[٣٣٥]ما تلبَّث ، بل سارع.

.[٣٣٦]مألفاً لقومه أي: محبباً فيهم.

.[٣٣٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٧١/١).

.[٣٣٨]انظر: التربية القياديَّة ، للغضبان (١١٥/١).

.[٣٣٩]انظر: التَّربية القياديَّة (١١٦/١).

.[٣٤٠]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لعرجون (٥٣٣/١).

.[٣٤١]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، ص ٦٢.

.[٣٤٢]انظر: خاتم النَّبيين ، لأبي زهرة ، ص ٣٩٨.

.[٣٤٣]انظر: دولة الرَّسول (ص) ، من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٢.

.[٣٤٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢٨٧/١).

.[٣٤٥]انظر: سيرة ابن هشام (٢٤٥/١ إلى ٢٦٢).

.[٣٤٦]المصدر السابق نفسه ، (٢٦٢/١).

.[٣٤٧]فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٧٧.

.[٣٤٨]فقه السيرة للبوطي ، ص ٧٩.

.[٣٤٩]حدائق الأنوار ومطالع الأسرار ، لابن الرَّبيع (٣٠١/١).

.[٣٥٠]انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص ٤٠.

.[٣٥١]المصدر السابق نفسه.

.[٣٥٢]انظر: من معين السِّيرة ، لصالح الشَّامي ، ص ٤٠.

.[٣٥٣]انظر: الغرباء الأوَّلون ، لسلمان العودة.

.[٣٥٤]انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، لعبد الله علي ، ص ١٠٥.

.[٣٥٥]انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، ص ١١١ ، ١١٢.

.[٣٥٦]انظر: الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام ، ص ٣١١.

.[٣٥٧]انظر: فقه التمكين في القران ، لعلي الصَّلابي ، ص ٣١١.

.[٣٥٨]انظر: الدَّعوة الإسلاميَّة ، د. عبد الغفار محمَّد عزيز ، ص ٩٦.

.[٣٥٩]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٨.

.[٣٦٠]اللَّحي: اللَّحي من الإنسان: العظم الَّذي تنبت عليه اللِّحية ، ومن الحيوان العظم الذي على الفخذ.

.[٣٦١]انظر: التربية القياديَّة (١/١٩٨).

.[٣٦٢]انظر: صفة الغرباء ، لسلمان العودة ، ص ٨٣.

.[٣٦٣]انظر: صفة الغرباء ، ص ٩٢ ـ ٩٣.

.[٣٦٤]المصدر السابق نفسه ، ص ٩٤.

.[٣٦٥]انظر: صفة الغرباء ، ص ٩٧.

.[٣٦٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٠٢.

.[٣٦٧]انظر: صفة الغرباء ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤.

.[٣٦٨]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢١٩.

.[٣٦٩]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٢٠.

.[٣٧٠]انظر: منهج التَّربيَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد قطب ، ص ٣٤ ـ ٣٥.

.[٣٧١]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٢٥.

.[٣٧٢]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٣٣٥.

.[٣٧٣]انظر: المنهاج الحركي ، للغضبان (١/٤٩).

.[٣٧٤]انظر: دولة الرسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٢٣٧.

.[٣٧٥]انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين ، لحسين بن محسن ، ص ١٧٠.

.[٣٧٦]انظر: الظِّلال (٦/٣٩٦٨).

.[٣٧٧]انظر: فقه التمكين في القران الكريم ، ص٢٢١.

.[٣٧٨]انظر: دعوة الله بين التكوين والتمكين ، د. علي جريشة ، ص ٩١ ـ ٩٢.

.[٣٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٣٣).

.[٣٨٠]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦.

.[٣٨١]انظر: واقعنا المعاصر ، لمحمَّد قطب ، ص ٤١٤.

.[٣٨٢]انظر: في ظلال القران (١/٤٧٨).

.[٣٨٣]المصدر السابق نفسه.

.[٣٨٤]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السَّيد ، ص ٢٠٨.

.[٣٨٥]انظر: جيل النَّصر المنشود ، للقرضاوي ، ص ١٥.

.[٣٨٦]انظر: المشروع الإسلامي لنهضة الأمة ـ قراءة في فكر البنا ، ص ٥٨.

.[٣٨٧]انظر: رسالة المؤتمر الخامس ، ص ١٢٧.

.[٣٨٨]انظر: المشروع الإسلاميُّ لنهضة الأمَّة ، ص ٥٨.

.[٣٨٩]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٧.

.[٣٩٠]انظر: افات على الطَّريق (٥٧/١) وما بعدها.

.[٣٩١]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٧.

.[٣٩٢]انظر: الخصائص العامَّة للإسلام ، للقرضاوي ، ص ١٦٦ وما بعدها.

.[٣٩٣]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، نقلاً عن المودودي ، ص ٢٢٩.

.[٣٩٤]انظر: الخصائص العامَّة للإسلام ، ص ١٦٨ بتصرف يسير.

.[٣٩٥]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص٢١٠.

.[٣٩٦]انظر: هذا الدِّين ، لسيد قطب ، ص ٥١ ، ٥٢.

.[٣٩٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥.

.[٣٩٨]انظر: نفوس ودروس في إطار التَّصوير القراني ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٣٦٧.

.[٣٩٩]انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة ، للزَّهراني (٢٥/١ ، ٢٦).

.[٤٠٠]انظر: أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، لعلي العلياني ، ص ٤٧.

.[٤٠١]انظر: منهج الرَّسول (ص) في غرس الرُّوح الجهاديَّة ، ص ١٠ ـ ١٦.

.[٤٠٢]انظر: أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٣.

.[٤٠٣]انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٤ ، ٥٥.

.[٤٠٤]انظر: أهمِّيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٥٦.

.[٤٠٥]انظر: اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، لعمر الأشقر ، ص ٢٣.

.[٤٠٦]انظر: تفسير ابن كثير (٥١٤/٦).

.[٤٠٧]انظر: الوسطية في القران الكريم ، ص ٤٣٣.

.[٤٠٨]انظر: دراسات قرانيَّة ، لمحمَّد قطب ، ص ٨١.

.[٤٠٩]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص ٤٠٢.

.[٤١٠]انظر: اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، لعمر الأشقر ، ص ٨٨.
.[٤١١]يقظة أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار ، لصديق حسن ، ص ٨٦.

.[٤١٢]اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، ص ٩٠.

.[٤١٣]انظر: اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، ص ١٠٢.

.[٤١٤]انظر: أهمِيَّة الجهاد في نشر الدَّعوة الإسلامية ، ص ٥٩.
.[٤١٥]انظر: منهج التَّربية الإسلاميَّة ، لمحمَّد قطب (٢/٥٤).

.[٤١٦]أساليب التشويق في القران ، د. الحسين جلو ، ص ١٣٤.
.[٤١٧]انظر: أصول التَّربية للنَّحلاوي ، ص ٣١.
.[٤١٨]انظر: أساليب التَّشويق والتَّعزير ، ص ١٣٤.

.[٤١٩]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (ص) (١١٣٦/٤ ، ١١٤٢).

.[٤٢٠]انظر: واقعنا المعاصر ، ص ٤٦.
.[٤٢١]انظر: دراسات قرانيَّة ، ص ١١٢.

.[٤٢٢]المصدر السابق نفسه ، ص ١١٤.

.[٤٢٣]انظر: في ظلال القران (١٢٦٩/٣).
.[٤٢٤]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة ، د. عبد الكريم زيدان (٢٨/١).

.[٤٢٥]انظر: المستفاد من قصص القران (٧١/١).
.[٤٢٦]المصدر السابق نفسه ، (٣٠/١).
.[٤٢٧]المستفاد من قصص القران (٣٣/١).

.[٤٢٨]تفسير القرطبي (١٨٥/١٢).
.[٤٢٩]انظر: المستفاد من قصص القران (٥١/١).
.[٤٣٠]تفسير القاسمي (١٠٠/١٢).
.[٤٣١]انظر: المستفاد من قصص القران (٨٥/١).

.[٤٣٢]انظر: تفسير ابن كثير (١٠٠/٤ ، ١٠١).
.[٤٣٣]انظر: المستفاد من قصص القران (٨٦/١).

.[٤٣٤]انظر: مباحث في إعجاز القران ، لمصطفى مسلم ، ص ١٧٧.
.[٤٣٥]انظر: مباحث في إعجاز القران ، لمصطفى مسلم ، ص ١٧٧ إلى ١٧٩.

.[٤٣٦]انظر: مباحث في إعجاز القران ، ص ٢١٤.

.[٤٣٧]انظر: مباحث في إعجاز القران ، ص ٢١٦.

.[٤٣٨]انظر: الإتقان ، للسيوطي (٧٠/٢).
.[٤٣٩]انظر: تفسير القاسمي (٤٩/١١).
.[٤٤٠]انظر: تفسير ابن كثير (٣١٢/٤ ـ ٣١٣).

.[٤٤١]انظر: منهج الرَّسول (ص) في غرس الروح الجهادية ، ص ١٩ إلى ٣٤.

.[٤٤٢]فقه الدَّعوة ، لعبد الحليم محمود (٤٧١/١ ، ٤٧٢).
.[٤٤٣]انظر: أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٦٩.
.[٤٤٤]انظر: سبل الهدى والرشاد ، للصالحي (٤٠٤/٢).
.[٤٤٥]انظر: أهمية الجهاد في نشر الدعوة ، ص ٧٠.

.[٤٤٦]انظر: أهميَّة الجهاد في نشر الدَّعوة إلى الله ، ص ٧٢.

.[٤٤٧]انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون (٢٢١/١).
.[٤٤٨]الموازنة بين ذوق السَّماع وذوق الصَّلاة والقران ، لابن قيِّم الجوزيَّة ، ص ٣٥ ـ ٤٠.
.[٤٤٩]المصدر السابق نفسه ، (ص ٤٣ ـ ٤٦) ، وانظر: الخشوع في الصَّلاة ، لابن رجب ، ص ٢٠ ـ ٢٢.
.[٤٥٠]مسلمٌ ، كتاب الصَّلاة ، باب ما يقال في الرُّكوع والسُّجود ، رقم (٤٨٢).
.[٤٥١]انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (٢٢٢/١).

.[٤٥٢]انظر منهج الإسلام في تزكية النفس (٢٢٧/١).

.[٤٥٣]انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (٢٣٣/١).
.[٤٥٤]أشار إلى هذا المعنى النَّوويُّ في شرحه على مسلم (١٠٠/٣) ، والإمام ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم ، ص ١٩٠.
.[٤٥٥]تفسير ابن كثير (٨٦/٤).
.[٤٥٦]منهج الإسلام في تزكية النَّفس (٣٣١/١).

.[٤٥٧]انظر: فقه التَّمكين في القران الكريم ، للصلاَّبي ، (ص ٣٥٤).

.[٤٥٨]انظر: أهمية الجهاد في نشر الدَّعوة ، ص ٦٤ ، ٦٥.
.[٤٥٩]انظر: تهذيب مدارج السَّالكين (٦٥٣/٢).

.[٤٦٠]المصدر السابق نفسه ، (٢/٦٥٥).
.[٤٦١]المصدر السابق نفسه.
.[٤٦٢]تهذيب مدارج السَّالكين (٢/٦٥٧).

.[٤٦٣]انظر: دراساتٌ قرانيَّةٌ ، لمحمَّد قطب ، ص ١٣٠.

.[٤٦٤]انظر: العبادة في الإسلام ، للقرضاوي ، ص ١٢٣.
.[٤٦٥]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص ٥٩١.

.[٤٦٦]انظر: الإيمان والحياة ، للقرضاوي ، ص ٢٥٦.
.[٤٦٧]انظر: الوسطية في القران ، ص ٥٩٢.
.[٤٦٨]انظر: دراساتٌ قرانية ، ص ١٣٩.

.[٤٦٩]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص ٥٩٤.
.[٤٧٠]الموافقات ، للشَّاطبي (٢/٨).
.[٤٧١]مقاصد الشَّريعة ، د. محمد اليوبي ، ص ١٨٨.
.[٤٧٢]المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٤.

.[٤٧٣]الموافقات (٤/٢٧).
.[٤٧٤]مقاصد الشَّريعة ، ص ٢١٢.
.[٤٧٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٥٧.
.[٤٧٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧.
.[٤٧٧]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٩.
.[٤٧٨]مقاصد الشريعة ، ص٢٣٦.

.[٤٧٩]انظر: المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، لعبد الستار فتح الله سعيد ، (ص ٤٢٥ ـ ٤٣٣).

[٤٨٠]انظر: المنهاج القرانيُّ للتَّشريع ، ص ٤٣٣.
[٤٨١]انظر: تفسير القاسمي (٩/٣١٠).

[٤٨٢]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، ص ٦٠٣.
[٤٨٣]انظر: المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، ص ٤٢٥.

[٤٨٤]المنهاج القرانيُّ في التَّشريع ، ص ٤٣٣.

[٤٨٥]انظر: التَّربية القياديَّة ، للغضبان ، (١/٢٠١).
[٤٨٦]المصدر السابق نفسه ، (١/٢٠٢ ، ٢٠٣).

[٤٨٧]رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر (٣/٤٦).

[٤٨٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدوي ، ص ١٣٨.
[٤٨٩]انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص ١٢١.
[٤٩٠]انظر: دراسة في السيرة ، لعماد الدين خليل ، ص ٦٦.

[٤٩١]انظر: رسالة الأنبياء (٣/٤٨ ـ ٤٩).
[٤٩٢]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٦٧.
[٤٩٣]زُلْفَى: قُرَبى.
[٤٩٤]انظر: رسالة الأنبياء (٣/٥٢).

[٤٩٥]احتجُّوا بما عليه النَّصارى من الشِّرك والتَّثليث.
[٤٩٦]اختلقوا.

[٤٩٧]وفي رواية عن ابن عباسٍ أنَّه العاص بن وائل.
[٤٩٨]تفسير ابن كثير (٣/٥٨١).

.[٤٩٩]المصدر السابق نفسه ، (١٢٤/٢).

.[٥٠٠]انظر: الوسطية في القران الكريم ، ص ٤٠٢ .
.[٥٠١]اختبرنا بعضكم ببعض.
.[٥٠٢]تفسير ابن كثير (١٢٦/٤ ـ ١٢٧).

.[٥٠٣]انظر: رسالة الأنبياء (٥٧/٣).
.[٥٠٤]انظر: رسالة الأنبياء (٥٨/٣).
.[٥٠٥]المصدر السابق نفسه (٥٩/٣).
.[٥٠٦]يعني: الضَّالُّون.
.[٥٠٧]انظر: رسالة الأنبياء (٥٩/٣).

.[٥٠٨]المصدر السابق نفسه ، (٥٩/٣).
.[٥٠٩]انظر: تهذيب السِّيرة (٧٤/١ ، ٩٠).
.[٥١٠]انظر: تفسير ابن كثير (٥٨٦/٢).

.[٥١١]انظر: رسالة الأنبياء (٦٦/٣).
.[٥١٢]مثل: سلمان العودة ، ومحمد العبدة ، وعبد الرحمن الملاَّحي.
.[٥١٣]انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، لابن القيم (٢٢٥/٢).
.[٥١٤]انظر: الطريق إلى المدينة ، لمحمد العبدة ، ص ٤٣.

.[٥١٥]الطَّوَل: هو الحبل.
.[٥١٦]أي: سقط عنها ، فاندقَّت عنقه ، فمات.

.[٥١٧]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ٨٣.
.[٥١٨]تفسير الطَّبريِّ (١٢٦/٢٣) ، والدرُّ المنثور (١٤٦/٧).
.[٥١٩]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ٨٦.

.[٥٢٠]المصدر السابق ، ص ٩٦ ـ ١٠٦.

.[٥٢١]الفوائد ، لابن القيِّم ، ص ٢٨٣.
.[٥٢٢]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، لمحمَّد السيد محمَّد يوسف ، ص ٢٣٥.

.[٥٢٣]في ظلال القران (٢/١٨٠).
.[٥٢٤]المصدر السابق نفسه ، (٦/٣٨٧).
.[٥٢٥]في ظلال القران (٦/٣٨٩).

.[٥٢٦]المصدر السابق نفسه ، (٢/١٨١).
.[٥٢٧]المصدر السابق نفسه ، (٢/١٨٠).
.[٥٢٨]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٩٢ ، ١٩٣.
.[٥٢٩]المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٣ ، ١٩٤.

.[٥٣٠]انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٢٤ ، وانظر: فقه الابتلاء ، لمحمَّد أبو صعيليك ، ص ٨ إلى ١١.
.[٥٣١]انظر: فقه الابتلاء ، لمحمَّد أبو صعيليك ، ص ١٥ إلى ٢٨.

.[٥٣٢]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص ٧٨.
.[٥٣٣]فلك عَقْلُه: أي: ديته إذا قتل.

.[٥٣٤]تسومونني: تُبادِلُونني.
.[٥٣٥]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٨٤.
.[٥٣٦]السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (١/٢٦٩).

.[٥٣٧]حمراء: كناية عن الرُّمح.

.[٥٣٨]أبيض عضب: كناية عن السيف.

.[٥٣٩]السيرة النبوية ، لابن هشام (١/٢٧٣).

.[٥٤٠]ونسلمه حتى نصرع حوله: أي كذبتم أن نسلمه قبل أن نصرع حوله.

.[٥٤١]الحلائل: الزوجات.

.[٥٤٢]الروايا: الإبل التي تحمل الماء والأسقية.

.[٥٤٣]الدغاول: الدواهي.

.[٥٤٤]قيْل: الرَّئيس الكبير في اليمن.

.[٥٤٥]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢١٢.

.[٥٤٦]بوائل: بناج.

.[٥٤٧]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢١٢.

.[٥٤٨]الزَّمزمة: كلام خفيٌّ لا يسمع.

.[٥٤٩]العذق: النَّخلة.

.[٥٥٠]الجناة: ما يجنى من الثَّمر.

.[٥٥١]السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، ص ١٥٠ ، ١٥١ ، وتهذيب السِّيرة (١/٦٤ ، ٦٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٢٠٠) ، وابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٨٨ ـ ٢٨٩).

.[٥٥٢]واسعاً.

.[٥٥٣]أي: سأصليه عذاباً شديداً.

.[٥٥٤]أي: تروَّى ماذا يقول في القران.

.[٥٥٥]أي: قبض بين عينيه ، وكلَّح ، وقطَّب.

.[٥٥٦]أي: هذا سحرٌ ينقله محمَّد عن غيره ممَّن قبله ، ويحكيه عنهم.

.[٥٥٧]انظر: الحرب النفسَّية ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص ١٠٣.

.[٥٥٨]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (١/١٢٣).

.[٥٥٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (١/١٢٧ ـ ١٣٧).

.[٥٦٠]ناعُوسُ البحر: معناه: وسطه ، أو لجَّته ، أو قعره الأقصى.

.[٥٦١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/١٣٢ ، ١٣٣) ، وانظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، (ص ١١١ ـ ١١٣).

.[٥٦٢]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١/١٠٩).
.[٥٦٣]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ١٠٦ إلى ١٠٩.
.[٥٦٤]انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى ، (١/١٢٦).

.[٥٦٥]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٧٦) ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للدُّكتور العمري (١/١٤٦).
.[٥٦٦]حصينة: يعني عاقلاً متحصِّناً بدين ابائه وأجداده ، ومعتقداتهم. انظر: النهاية (١/٢٣٤).
.[٥٦٧]الإصابة في تمييز الصَّحابة ، لابن حجر ، (١/٣٣٧) وعنه نقل الشَّيخ محمد يوسف الكاندهلوي في: حياة الصحابة (١/٧٥ ، ٧٦) ، وبنحوه مختصراً رواه الترمذي (٣٤٨٣).
.[٥٦٨]انظر: فقه الدعوة الفردية ، د. السيد محمد نوح ، ص ١٠٤.

.[٥٦٩]مسلمٌ ، كتاب الفضائل ، باب من فضائل أبي ذرٍّ ، رقم (٢٤٧٤) ، والبخاريُّ رقم (٣٨٦١) ، و(٣٥٢٢).
.[٥٧٠]ما شفيتني ممَّا أردت: ما بلغتني غرضي ، وأزلت عنِّي همَّ كشفِ هذا الأمر.
.[٥٧١]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص ٨٣.
.[٥٧٢]شَنِفُوا له أي: أبغضوه ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/١٤٥).

.[٥٧٣]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، (ص ٩١ ـ ٩٣).
.[٥٧٤]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، د. إبراهيم علي ، ص ٥٨ ، ٥٩.

.[٥٧٥]انظر: دروس في الكتمان ، لمحمود شيت خطَّاب ، ص ٩.
.[٥٧٦]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ٩٥.

.[٥٧٧]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٨٦١).
.[٥٧٨]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة (ص ٩٤ ، ٩٥).

.[٥٧٩]انظر: الوحي وتبليغ الرِّسالة ، ص ١٠٠.
.[٥٨٠]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة ، للعمري (٤٥/١).
.[٥٨١]التاريخ الإسلامي ، للحميدي (١٤٤/١).

.[٥٨٢]يعفِّر وجهه:أي يسجد ، ويلصق وجهه بالعفر ، وهو التراب.
.[٥٨٣]فجئَهم: بغتهم.
.[٥٨٤]عقبيه: رجع يمشي إلى الوراء.
.[٥٨٥]زبره: نهره.
.[٥٨٦]القَليب: البئر المفتوحة.

.[٥٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمريِّ (١٤٩/١) ، وانظر كذلك المصدر السَّابق.
.[٥٨٨]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي من طرقٍ أخرى ، ص ٩٦.
.[٥٨٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢٩٣/١).
.[٥٩٠]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١٥٣/١).

.[٥٩١]والد الرَّسول (ص) من الرَّضاعة.
.[٥٩٢]انظر: الرَّوض الأنف (٣٣/٢) وما بعدها.
.[٥٩٣]المصدر السابق نفسه ، (٤٨/٢).
.[٥٩٤]انظر: زاد اليقين ، لأبي شنب ، ص ١٣٧.
.[٥٩٥]انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٤٣.
.[٥٩٦]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، د. سليمان السُّويكت ، ص ١٩٧.

.[٥٩٧]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٤٣.

.[٥٩٨]انظر: السَّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٤٣٩/١ ـ ٤٤١) ، والبداية والنِّهاية (٣٠/٣).
.[٥٩٩]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٧٩.
.[٦٠٠]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٥٠.

.[٦٠١]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة في جوانب الحذر والحماية ، ص ٥٠.
.[٦٠٢]المصدر السابق نفسه ، ص ٥١.

.[٦٠٣]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، وقد استفدت من هذا الكتاب في هذه الدُّروس الأمنيَّة.
.[٦٠٤]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٧٩.
.[٦٠٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٧٥.

.[٦٠٦]انظر: التَّربية القياديَّة (١٣٦/١).
.[٦٠٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٤/١).
.[٦٠٨]انظر: التَّربية القيادية (١٤٠/١).
.[٦٠٩]انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ، ص ٩٢.
.[٦١٠]انظر: الطبقات الكبرى ، لابن سعد (٢٣٢/٣) ، ورجاله ثقات.

.[٦١١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٣/١).
.[٦١٢]حلٌّ: تحلَّلي من يمينك.
.[٦١٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٣/١).
.[٦١٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣٤٦/١).
.[٦١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٣/١).
.[٦١٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٣٤٥/١).

.[٦١٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٤٢/١).
.[٦١٨]انظر: سيرة ابن هشام (٣١٩/١) ، وتفسير الالوسي (١٥٢/٣٠).

[٦١٩]انظر: أنساب الأشراف ، للبلاذريِّ (١/١٠٠ ، ١٥٧).

[٦٢٠]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢/٦٨).

[٦٢١]بهجة المحافل ، للعامريِّ (١/٩٢).

[٦٢٢]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، ص ٩٧ ، ٩٨.

[٦٢٣]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٩٩.

[٦٢٤]التَّربية القياديَّة (١/٢١٧).

[٦٢٥]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٩٨.

[٦٢٦]التَّربية القياديَّة (١/٢١٧ ، ٢١٨).

[٦٢٧]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٠.

[٦٢٨]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ١٠٣.

[٦٢٩]المصدر السابق نفسه.

[٦٣٠]تفسير ابن كثير (٣/٤٤٦).

[٦٣١](شجروا فاها ثم أوجروها): أي فتحوا فمها ، وصبُّوا فيه الطَّعام.

[٦٣٢]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٦.

[٦٣٣]انظر: الولاء والبراء ، لمحمَّد القحطاني ، (ص ١٧٤ ، ١٧٥).

[٦٣٤]الطَّبقات الكبرى (٣/١١٦).

[٦٣٥]القعب: القدح الغليظ ، والحيس: تمر ، وأقط ، وسمن تخلط ، وتعجن.

[٦٣٦]الرَّوض الأنف (٢/١٩٥).

[٦٣٧]سير أعلام النبلاء ، للذَّهبي (٣/١٠ ـ ١٢).

[٦٣٨]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٧.

[٦٣٩]السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، ص١٩٣.

[٦٤٠]الطَّبقات الكبرى (٣/١١٦).

[٦٤١]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ١٠٨.

.[٦٤٢]انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد ، لمحمد بريغش ، ص ١٠٥ .

.[٦٤٣]المصدر السَّابق نفسه ، (ص ١٠٥ ، ١٠٧).

.[٦٤٤]انظر: مصعب بن عمير الدَّاعية المجاهد ، ص ١٢٦ .

.[٦٤٥]قيناً: حداداً.

.[٦٤٦]سير أعلام النبلاء (٢/٤٧٩).

.[٦٤٧]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِ ، ص ٩٥.

.[٦٤٨]انظر: محنة المسلمين في العهد المكي ، ص ٩٦.

.[٦٤٩]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

.[٦٥٠]القَيْنُ: الحداد ، والجمع: قُيُون.

.[٦٥١]الرَّوض الأنف (٢/٩٨).

.[٦٥٢]البداية والنِّهاية (٣/٣٢) ، وسير أعلام النُّبلاء (١/٤٦٥).

.[٦٥٣]انظر: عبد الله بن مسعود ، لعبد الستار الشَّيخ ، ص٤٣.

.[٦٥٤]الإصابة (٦/٢١٤).

.[٦٥٥]انظر: عبد الله بن مسعود ، ص٤٥.

.[٦٥٦]انظر: ابن هشام (١/٣١٤ ـ ٣١٥) ، وأسد الغابة (٣/٣٨٥ ـ ٣٨٦).

.[٦٥٧]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّي ، ص ٨٨.

.[٦٥٨]انظر: سير أعلام النُّبلاء (١/٢٦٠).

.[٦٥٩]السِّيرة النَّبوية ، للذَّهبِيِّ ، ص ١١٢ .

.[٦٦٠]السِّيرة النَّبوية لابن هشام (٢/١٢٠).

.[٦٦١]انظر: طبقات الشُّعراء ، لابن سلام ، (ص ٤٨ ، ٤٩).

.[٦٦٢]شَرِيَ: عظم.

[٦٦٣]السِّير والمغازي ، لابن إسحاق ، (ص ١٧٨ ـ ١٨٠).

[٦٦٤]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، (ص ١١٦ ، ١١٧).
[٦٦٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٥٨).
[٦٦٦]الظلال (٢/٧١٤).

[٦٦٧]ابن الدُّغنَّة: رجلٌ جاهليٌّ أجار أبا بكر عندما أخرجه قومه ، وأراد الهجرة إلى الحبشة ، انظر: الإصابة (٢/٣٤٤).

[٦٦٨]الولاء والبراء ، لمحمَّد القحطاني ، لخَّص نقاطاً من الظلال ، ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، وفي ظلال القران (٢/٧١٤ ، ٧١٥) ، وفي (معالم في الطَّريق) (ص ٦٩ ـ ٧١).
[٦٦٩]انظر: التفسير المنير ، للزُّحَيلي (٧/٣٢٥).
[٦٧٠]المصدر السَّابق نفسه ، (٧/٣٢٦).

[٦٧١]انظر: الولاء والبراء ، ص ١٧١.

[٦٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٦٠).
[٦٧٣]انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص ١٢٨.

[٦٧٤]انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام ، (ص ١٢٥ ـ ١٤٠).

[٦٧٥]انظر: الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، ص ٢٦٩.
[٦٧٦]المرجع السابق نفسه ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١.
[٦٧٧]انظر: الحرب النفسية ضد الإسلام ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١.

[٦٧٨]الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام ، ص ٢٧١.
[٦٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٦٧) مع تصرُّف في العدد بدل مئة: بلايين.

.[٦٨٠]تفسير ابن عطيَّة (٣١٦/١٥) ، والقاسمي (٥٤/١٧).
.[٦٨١]انظر: المستفاد من قصص القران ، لعبد الكريم زيدان (٨٩/٢).

.[٦٨٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٤/٢).

.[٦٨٣]البداية والنِّهاية ، لابن كثير (٦٨/٣ ـ ٦٩).

.[٦٨٤]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٩٤/١).
.[٦٨٥]انظر: التَّحالف السِّياسي في الإسلام ، لمنير الغضبان ، ص ٣٣.
.[٦٨٦]انظر: معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص ٧٥.

.[٦٨٧]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ١٦٩.
.[٦٨٨]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٧.
.[٦٨٩]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٠٤/١).
.[٦٩٠]انظر: الوفود في العهد المكي ، لعلي الأسطل ، ص ٣٧.

.[٦٩١]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٩٧/١) ، والتَّربيَّة القياديَّة (٣٠٥/١).
.[٦٩٢]تاريخ صدر الإسلام ، لعبد الرحمن الشُّجاع ، ص ٣٩.
.[٦٩٣]ابن هشام (٣٦٢/١).

.[٦٩٤]التِّبْرُ: فُتَاتُ الذَّهب أو الفضَّة قبل أن يُصاغا.
.[٦٩٥]انظر: في ظلال القران (٣٩٩١/٦) بتصرفٍ كبير.
.[٦٩٦]أسباب النزول ، للواحديّ ، ص ٢٠٠ ، ونور اليقين ، للخضريّ ، ص ٦١ بتصرف.

.[٦٩٧]في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٩.
.[٦٩٨]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٨٩.
.[٦٩٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٩١.

.[٧٠٠]تفسير ابن كثير (١٧٢/٢).

.[٧٠١]تفسير ابن كثير (٢٤٤/٤).

.[٧٠٢]في ظلال القران (٣٣٩٩/٦).

.[٧٠٣]تفسير السَّعدي (١٩٥/٧ ، ١٩٦).

.[٧٠٤]الصَّلفَ: التَّكبُّر والتَّفاخر.

.[٧٠٥]انظر: مقومات الدَّاعية النَّاجح ، د. علي بادحدح ، ص ٥٩ إلى ٦٩ ، والأساليب السَّابقة من هذا الكتاب.

.[٧٠٦]انظر: المعوِّقون للدَّعوة الإسلاميَّة ، د. سميرة محمد ، ص ١٧١ ، ١٧٢.

.[٧٠٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٣١١/١).

.[٧٠٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤٥٩/١).

.[٧٠٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣١٧/١).

.[٧١٠]يعني لو أنَّ هناك قراناً بهذه الصِّفات أو هذه الشُّروط؛ لكان هذا القران الكريم ، فهو ليس له مثيلٌ ، لا من قبل ، ولا من بعد ، فجواب (لو) محذوفٌ ، دلَّ عليه المقام.

.[٧١١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣٢٠/١ ، ٣٢١).

.[٧١٢]صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٩٠.

.[٧١٣]انظر: الوفود في العهد المكي ، ص ٤٠ ـ ٥١.

.[٧١٤]معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، لمصطفى مسلم ، ص ٣٠ ، ٣١.

.[٧١٥]المصدر السابق نفسه.

.[٧١٦]انظر: معالم قرانية في الصراع مع اليهود ، ص ٣١٦.

.[٧١٧]انظر: معالم قرانيَّة في الصراع مع اليهود ، ص ٣٩ ، ٤٠.

.[٧١٨]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٤.

.[٧١٩]انظر: معالم قرانية في الصَّراع مع اليهود ، ص ٥٥ إلى ٦٠.
.[٧٢٠]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، د. عبد الله الشَّقاوي (١٨٨/١).

.[٧٢١]أي: لم يقل: (إن شاء الله).
.[٧٢٢]انظر: مباحث في التَّفسير الموضوعي ، لمصطفى مسلم ، ص ١٨٩.
.[٧٢٣]انظر: تأمُّلات في سورة الكهف ، للشَّيخ أبي الحسن النَّدوي ، ص ٤٦ ، وانظر: معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، ص ٦١.
.[٧٢٤]معركة الوجود بين القران والتلمود ، ص ٧٨ ، ٧٩ ، نقلاً عن معالم قرانيَّة ، لمصطفى مسلم ، ص ٢٩.
.[٧٢٥]انظر: ظاهرة الإرجاء ، د. سفر الحوالي (٥٠/١).
.[٧٢٦]لمعرفة تفصيلات قصَّة الشِّعْب وما تخلَّلها من أحداث ، انظر: دلائل النُّبوَّة للبيهقي (٨٠/٢ ـ ٨٥) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٤٣/٢ ـ ٧٢) ، والرَّوض (١٠١/٢ ـ ١٢٩) ، والسيرة النبوية؛ لابن هشام (٣٧٥/١ ـ ٣٧٦).

.[٧٢٧]السيرة النبوية ، لابن هشام (٣٥٠/١) ، وزاد المعاد (٤٦/٢) ، والكامل في التاريخ (٨٧/٢).
.[٧٢٨]انظر: ظاهرة الإرجاء (٥١/١).
.[٧٢٩]انظر: فقه السيرة النبوية ، للغضبان ، ص ١٨٠.
.[٧٣٠]انظر: الغرباء الأولون ، ص ١٤٨ ، نقلاً عن حلية الأولياء ترجمة رقم (٧).

.[٧٣١]انظر: السيرة النبوية ، لابن كثير (٤٣/٢ ـ ٥٠ ، ٦٧ ـ ٦٩).
.[٧٣٢]السيرة النبوية (٣٧٧/١).

.[٧٣٣]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٧٧/١) ، والرَّحيق المختوم ، ص ١٢٩.
.[٧٣٤]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٧٧/١) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ١٢٠.

.[٧٣٥]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٩٦.

.[٧٣٦]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة ـ لجوانب الحذر والحماية ، ص ٩٦ ، ٩٧.
.[٧٣٧]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها ، السِّيرة النَّبوية ، لسعيد حوى (٢٦٤/١).
.[٧٣٨]المصدر السابق نفسه.

.[٧٣٩]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٨٨.
.[٧٤٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٤٥/١).
.[٧٤١]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، للغضبان ، ص ٣٥ إلى ٣٧.
.[٧٤٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ١٨٥.
.[٧٤٣]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٦.

.[٧٤٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٧١/١).
.[٧٤٥]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٨٤/١ ، ٣٨٥).
.[٧٤٦]السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ١٦٧.

.[٧٤٧]انظر: الحرب النفسيَّة ضدَّ الإسلام ، د. عبد الوهاب كحيل ، ص ١٠١.
.[٧٤٨]تفسير ابن كثير (٣١٢/٢).
.[٧٤٩]انظر: الغرباء الأولون ، ص ١٤٩.

.[٧٥٠]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ٩٨.

.[٧٥١]انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، (ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠).
.[٧٥٢]انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح ، لمحمَّد قطب ، ص ٢٦٢ ، وما بعدها بتصرف.

.[٧٥٣]انظر: لقاء المؤمنين ، (١٢٤/٢) ، وما بعدها بتصرُّف.
.[٧٥٤]في ظلال القران (١٤٧٦/٣).

.[٧٥٥]انظر: التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٢٥٤.
.[٧٥٦]انظر: الإسلام في خندق ، لمصطفى محمود ، ص ٦٤.

.[٧٥٧]ينظر الشكل (٩) في الصفحة (٧٤٥).
.[٧٥٨]الجامع لأحكام القران (١٠/١٠٧).
.[٧٥٩]المصدر السابق نفسه (١٥/٢٤٠).
.[٧٦٠]تفسير ابن كثير للاية رقم (٥٦) من سورة العنكبوت (٥/٣٣٥).

.[٧٦١]الهجرة في القران الكريم ، لأحزمي سامعون ، ص ٢٩٠.
.[٧٦٢]المغازي النبَّويَّة ، للزُّهري ، تحقيق: سهيل زكَّار ، ص ٩٦.
.[٧٦٣]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/٣٩٨).

.[٧٦٤]في ظلال القران (١/٢٩).
.[٧٦٥]المنهج الحركي للسِّيرة (١/٦٧ ، ٦٨).
.[٧٦٦]سيرة الرَّسول (ص) (١/٢٦٥) عن الشَّامي ، ص ١١١.

.[٧٦٧]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، د. سليمان العودة ، ص ٣٤.
.[٧٦٨]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام ، تحقيق: همام أبو صعليك (١/٤١٣).
.[٧٦٩]المصدر السابق نفسه ، (١/٣٩٧).

.[٧٧٠]رَفَاغاً: الرَّفْغ والرَّفاغة: سعة العيش ، والخصب.
.[٧٧١]مغازي رسول الله (ص) لعروة بن الزُّبير ، ص ١٠٤.
.[٧٧٢]انظر: الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير ، ص ٢٧.
.[٧٧٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة وأخبار الخلفاء ، ص ٧٢.
.[٧٧٤]السِّير والمغازي ، تحقيق سهيل زكَّار ، ص ٢٣٢.
.[٧٧٥]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وأصحابه في القران والسُّنَّة ، ص ٩٧.

.[٧٧٦]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٩٧/١).
.[٧٧٧]الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٤٦.
.[٧٧٨]مغازي الزُّهري ، ص ٩٦.

.[٧٧٩]صحيح السِّيرة النَّبويَّة (١٥٢/٢).
.[٧٨٠]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٤٨ ، ويعتبر مبحث الحبشة جلُّه قد أخذ من هذا الكتاب والذي بعده.
.[٧٨١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، لأحزمي سامعون ، ص ٢٩٠ ، ٢٩١.
.[٧٨٢]طبقات ابن سعد (٢٠٤/١).
.[٧٨٣]تاريخ الطَّبري (٣٢٩/٢).
.[٧٨٤]عيون الأثر (١١٦/١).
.[٧٨٥]زاد المعاد (٢٣/٣).
.[٧٨٦]شرح المواهب (٢٧١/١).

. البداية والنِّهاية (٩٦/٣ ، ٩٧)، وسيرة ابن هشام (٣٤٤/١ . ٤٥٢) والهجرة في القرآن الكريم ص ٢٩٢ إلى ٢٩٤.

.[٧٨٧]البداية والنِّهاية (٦٧/٣) ، نقلاً عن (الهجرة في القران الكريم) ، ص ٢٩٤. وانظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٨٧٢).
.[٧٨٨]أنساب الأشراف للبلاذري (١٥٦/١ . ١٩٨) ، وابن هشام (٣٩٢/١ . ٣٩٦).
.[٧٨٩]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٣٧.
.[٧٩٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٢٩٥.

.[٧٩١]انظر: مختصر سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص ٨٤.
.[٧٩٢]فتح القدير (٤١٦/٣) ، وفتح الباري (٣٥٥/٨) ، وأسباب النزول للسُّيوطي على هامش الجلالين (١٦/٢) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٢٩٦.

.[٧٩٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٢٩٨.

.[٧٩٤]انظر: الشِّفا (١١٧/٢).

.[٧٩٥]فتح الباري ، عند شرح حديث رقم (٤٨٦٢).

.[٧٩٦]تفسير ابن كثير والبغوي (٦٠٠/٦ وما بعدها) ، نقلاً عن الهجرة في القران ، ص ٢٩٨.

.[٧٩٧]القاموس المحيط (٢٨١/٣) مادَّة (الغرنوق).

.[٧٩٨]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩.

.[٧٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة ، لأبي شهبة (٣٧٢/١).

.[٨٠٠]مختصر سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص ٩٠.

.[٨٠١]السِّيرة النَّبويَّة (٢٩٤/١) ، وعازُّوا قريشاً: أي: غلبوهم.

.[٨٠٢]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٦٥/١).

.[٨٠٣]صبأ: خرج من دين إلى دينٍ اخر ، القاموس المحيط ، باب الهمزة (٢٠/١).

.[٨٠٤]سبل الهدى والرَّشاد للصالحي (٤٩٨/٢ ، ٤٩٩).

.[٨٠٥]تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد سيد الوكيل ، ص ٥٩ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٢.

.[٨٠٦]انظر: القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين (ص) ، د. محمد النَّجار ، ص ١١١ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٢.

.[٨٠٧]طبقات ابن سعد (٢٠٧/١) (ط. بيروت) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٣.

.[٨٠٨]انظر: الرَّوض الأنف ، للسهيلي (٢٢٨/٣).

.[٨٠٩]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٣.

.[٨١٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٤.

.[٨١١]الجلد: القوَّة والشدَّة.

.[٨١٢]الأدم: جمع أديم ، وهو الجلد المدبوغ.

.[٨١٣]جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الرُّوم.

.[٨١٤]أعلى بهم عيناً: قال السُّهيلي: أي: أبصر بهم ، أي: أعينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم ، وانظر: الرَّوض الأنف (٩٢/١).

.[٨١٥]والمعنى: لا والله!

.[٨١٦]لا أكادُ: أي: ولا أخشى أن يلحقني فيه كيد ، وفي سيرة ابن هشام: ولا يُكادُ قوم جاوروني.

.[٨١٧]أخرجه أحمد (٢٩٠/٥) وقال: إسناده صحيح ، ورقمه (٢٢٤٩٨).

.[٨١٨]أساقفته: جمع الأسقف ، وهو العالم والرَّئيس من علماء النَّصارى.

.[٨١٩]أي: أناجيلهم ، وكانوا يسمُّونها مصاحف.

.[٨٢٠]مسند الإمام أحمد (٢٠٢/١ ، ٢٠٣).

.[٨٢١]ابتلت بالدُّموع: يقال خضل وأخضل: إذا ندي ، النهاية (٤٣/٣).

.[٨٢٢]مسند الإمام أحمد (٢٠٢/١ ، ٢٠٣) ، ولا يُكادون: لعل المعنَّى: ولا يعودون إلى قومهم ليكيدوهم ، ويعذِّبوهم.

.[٨٢٣]أستأصل به خضراءهم: أي بما أجتثُّ به شجرة حياتهم.

.[٨٢٤]العذارء: الجارية التي لم يمسَّها رجلٌ ، وهي البكر.

.[٨٢٥]يقال امرأة بتول: منقطعة عن الرِّجال ، لا شهوة لها فيهم.

.[٨٢٦]فتناخرت: أي: تكلَّمت ، وكأنه كلامٌ مع غضبٍ ونفورٌ.

.[٨٢٧]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٠٩.

.[٨٢٨]أسد الغابة (٩٩/١) ، والإصابة (١٠٩/١).

.[٨٢٩]السِّيرة النَّبوية ، للدُّكتور مصطفى السِّباعي ، ص ٥٧.

.[٨٣٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣١٢.

.[٨٣١]انظر: التَّربية القياديَّة ، للغضبان (٣٣٣/١).

.[٨٣٢]أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٤٢٧.

.[٨٣٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٣٣/١).
.[٨٣٤]تفسير الطَّبري (٦/١١) ، وتفسير ابن كثير (٣٣١/٢).
.[٨٣٥]الرَّوض الأنف ، للسُّهيليِّ (٩٢/٢) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣١٢.

.[٨٣٦]الهجرة في القران الكريم ، ص ٣١٦.
.[٨٣٧]فقه السيرة ، للبوطي ، ص ١٢٦ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣١٧.
.[٨٣٨]انظر: في السِّيرة النَّبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٠١.
.[٨٣٩]المصدر السَّابق نفسه.

.[٨٤٠]انظر: التَّربية القياديَّة (٣١٧/١).
.[٨٤١]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٩٢/٢).
.[٨٤٢]الذُّؤابة من كلِّ شيء: أعلاه.
.[٨٤٣]التَّربية القياديَّة (٣٣٥/١).

.[٨٤٤]انظر: سفراء النَّبيِّ (ص) لمحمود شيت خطاب (٢٥٢/٢ إلى ٣١٧).
.[٨٤٥]انظر: التَّربية القياديَّة (٣١٩/١ ، ٣٤٠).
.[٨٤٦]الاسن: المتغيِّر الفاسد.

.[٨٤٧]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٠٦.
.[٨٤٨]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٣٧/١).
.[٨٤٩]المصدر السابق نفسه (٣٤٢/١).

.[٨٥٠]انظر: التربية القياديَّة (٣٤٢/١).
.[٨٥١]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (١٠٥/٢).
.[٨٥٢]المصدر السابق نفسه (١٠٦/٢).
.[٨٥٣]الفتاوى (٤٣/٢٢).

.[٨٥٤]الكبائر ، ص ١٢.
.[٨٥٥]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ٢٠٥.
.[٨٥٦]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ١٦٧.
.[٨٥٧]انظر: شرح المواهب (٢٧١/١).

.[٨٥٨]انظر: الهجرة الأولى في الإسلام ، ص ١٨٨.
.[٨٥٩]الطَّبقات (٣/٨).
.[٨٦٠]السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، د. مهدي رزق الله ، ص ٧٠٦ ، ٧٠٧.
.[٨٦١]انظر: شرح المواهب (٢٧١/١).

.[٨٦٢]هَجرَ: هي الأحساء.
.[٨٦٣]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٦٩ ، ١٧٠.
.[٨٦٤]انظر: أضواء على الهجرة ، ص ١٥٦ إلى ١٦١ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٢٠.
.[٨٦٥]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٧٠ ، ١٧١.

.[٨٦٦]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٨٨٣).
.[٨٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١٨٤/١).
.[٨٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١٨٥/١).
.[٨٦٩]المصدر السابق نفسه.

.[٨٧٠]انظر: محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، ص ٣٤.
.[٨٧١]المصدر السابق نفسه (ص ٣٦ ـ ٤٥).
.[٨٧٢]ينظر الشكل (١٠) في الصفحة (٧٤٦).

.[٨٧٣]انظر: تفسير الالوسي (٨٩/١٠).
.[٨٧٤]انظر: مقوِّمات الدَّعوة والدَّاعية ، بادحدح ، ص ١٢٣.
.[٨٧٥]طبقات ابن سعد (٢٢١/١) ، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١٨٥/١).

.[٨٧٦]انظر: فتح الباري ، كتاب الكفالة ، شرح حديث رقم (٢٢٩٤).
.[٨٧٧]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٧٣.

.[٨٧٨]المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٧٤.
.[٨٧٩]انظر: أصول الفكر السياسي في القران ، ص ١٧٤.
.[٨٨٠]المصدر السابق نفسه ، ص (١٧٥).

.[٨٨١]سيرة ابن هشام (٢/٧٨).
.[٨٨٢]المصدر السابق نفسه.
.[٨٨٣]فيُذْئرهم: يجرِّئهم ويثيرهم.
.[٨٨٤]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكي.
.[٨٨٥]في السِّيرة النَّبويَّة ، قراءةٌ لجوانب الحيطة والحماية ، ص ١٠٩ ، ١١٠.

.[٨٨٦]تجهمه: استقبله بوجهٍ كريهٍ غير مرحِّب به ، ولا راغبٍ فيه.
.[٨٨٧]العتبى: الاسترضاء والرِّضا.
.[٨٨٨]ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السِّيرة النَّبوية الصحيحة (١/١٨٦) ، وذهب إبراهيم العلي إلى صحَّته ، وبيَّن أنَّ للحديث شاهداً يقوِّيه ، ولذلك اعتبره صحيحاً وذكره في كتابه (صحيح السِّيرة النَّبويَّة) ص ١٣٦ ، وذهب الدكتور عبد الرحمن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر إلى أنَّ الحديث بطريقيه قويٌّ مقبول ، وخرَّج طرقه في كتابه الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٣٨.
.[٨٨٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/٢٠).

.[٨٩٠]انظر: في السِّيرة النَّبوية ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١١٢ ، ١١٣.
.[٨٩١]انظر: مقوّمات الدَّاعية النَّاجح ، ص ٧٦.
.[٨٩٢]هو قرن المنازل ، ميقات أهل نجد ، ويسمَّى الان السيل الكبير.
.[٨٩٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/٢٦ ، ٢٧).

.[٨٩٤]انظر: زاد المعاد (٢/٤٦).
.[٨٩٥]انظر: أصول الفكر السِّياسيّ في القران المكِّيِّ ، ص ١٧٦.

.[٨٩٦]انظر: أصول الفكر السِّياسيّ في القران المكِّيِّ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨.
.[٨٩٧]زاد المعاد (٢/٤٧).
.[٨٩٨]محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لصادق عرجون (٢/٣٢٤).

.[٨٩٩]أنساب الأشراف ، للبلاذريّ ، تحقيق: محمَّد حميد الله (١/٧١).
.[٩٠٠]انظر: أصول الفكر السِّياسيّ في القران المكي ، ص ١٨٠.

.[٩٠١]انظر: التَّحالف السياسيُّ في الإسلام ، ص ٣٦.
.[٩٠٢]انظر: التَّحالف السياسيُّ في الإسلام ، ص ٤٤.
.[٩٠٣]البداية والنِّهاية (٣/١٣٦).
.[٩٠٤]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديّ (٣/٣٢).

.[٩٠٥]انظر: أصول الفكر السياسيُّ ، ص ١٨١.
.[٩٠٦]انظر: الرَّسول المبلِّغ ، للخالديّ ، ص ٣٩ ، ٤٠.
.[٩٠٧]صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ١٣٦ ، ١٣٧.

.[٩٠٨]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٣/٢٢).
.[٩٠٩]انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٢/٥٧٨).
.[٩١٠]انظر: التَّربية القياديَّة (١/٤٣٧).

.[٩١١]انظر: التربية القيادية (١/٤٤٣).
.[٩١٢]المصدر السابق نفسه ، (١/٤٤٥).

.[٩١٣]المصدر السابق نفسه.

.[٩١٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٠٥ ، ١٠٦.

.[٩١٥]انظر: التَّربية القياديَّة (٤٤٦/١).

.[٩١٦]انظر: دراسةٌ تحليلية لشخصيَّة الرَّسول (ص) ، ص ١٢٨.

.[٩١٧]انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (٢٩١/١ ، ٢٩٢).

.[٩١٨]انظر: الأساس في السُّنَّة (٢٩٢/١).

.[٩١٩]الحلقة: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس.

.[٩٢٠]الفطرة: الإسلام ، والاستقامة.

.[٩٢١]الحطيم: هو ما بين الرُّكن والمقام.

.[٩٢٢]ات: هو جبريل عليه السلام.

.[٩٢٣]ثغرة النحر: الموضع المنخفض في أدنى الرَّقبة من الأمام.

.[٩٢٤]شعرته: شعر عانته وهو ما ينبت حول العانة.

.[٩٢٥]القص: رأس عظام الصَّدر.

.[٩٢٦]يضع خَطْوَهُ عند أقصى طرفه: يضع رجله عند منتهى بصره.

.[٩٢٧]استفتح: طلب فتح باب السَّماء الدُّنيا.

.[٩٢٨]مرحباً به: أصاب رحباً ، وسعةً.

.[٩٢٩]أبكي؛ لأن غلاماً ...: ليس هذا على سبيل النَّقص ، بل على سبيل التَّنويه بقدرة الله وعظيم كرمه.

.[٩٣٠]رُفعت لي: قُرِّبت لي.

.[٩٣١]النَّبق: هو ثمر السِّدر.

.[٩٣٢]قلال هجر: يضرب بها المثل لكبرها ، وهجر: قرية في البحرين ، والقلَّة: الجرة الكبيرة.

.[٩٣٣]الفطرة: دين الإسلام.

.[٩٣٤]عالجتهم أشدَّ المعالجة: مارست بني إسرائيل أشدَّ الممارسة.

.[٩٣٥]انظر: الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى (١/١٠٨).
.[٩٣٦]صهبة: بياض بحمرة.
.[٩٣٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٣/٣٧).
.[٩٣٨]الجُوالق: هو العِدْل الذي يوضع فيه المتاع.

.[٩٣٩]أورق: أي لونه أبيض وفيه سواد.
.[٩٤٠]الثَّنيَّة: الطَّريق الجبلي.
.[٩٤١]انظر: التربية القياديَّة (١/٤٤٧).

.[٩٤٢]المصدر السابق نفسه (١/٤٥١).
.[٩٤٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميدي ، (٣/٤١ ، ٤٢).

.[٩٤٤]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي ، (٣/٤٣).
.[٩٤٥]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/١٨٩).
.[٩٤٦]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢/٩١).
.[٩٤٧]تفسير ابن كثير (٣/٢٣) ، وتفسير القاسمي (١٠/١٨٩).

.[٩٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢١٣.
.[٩٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ص ٣١٤.

.[٩٥٠]جريدة الدُّستور الأردنيَّة ، العدد (٤٦١٣) بقلم أميل الغوري ، نقلاً عن السِّيرة النَّبوية ، لأبي فارس ، ص ٣١٤.
.[٩٥١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢١٥.
.[٩٥٢]انظر: الرَّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص ١٢٠ ، بتصرف.
.[٩٥٣]انظر: أصول الفكر السِّياسي في القران المكيِّ ، ص ١٤٩.

.[٩٥٤]يرى الدُّكتور فرست مرعي أستاذ التاريخ في جامعة صنعاء: أن بختنصَّر كلداني ، وليس فارسيّاً ، والأمر من الملك الكلداني.
.[٩٥٥]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٥١.
.[٩٥٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٥٢.
.[٩٥٧]ابن خلدون ، (٢/٢٠٦).
.[٩٥٨]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٥٢.
.[٩٥٩]أصول الفكر السِّياسيِّ ص ١٥٣.

.[٩٦٠]انظر: تفسير الطَّبري (١٢/٢١).
.[٩٦١]تفسير ابن عطيَّة (١١/٤٢٥).
.[٩٦٢]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٥٨. .[٩٦٣]تفسير ابن كثير (٣/٢٣).
.[٩٦٤]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٣/٩٣).

.[٩٦٥]تفسير ابن كثير (٤/٢٧٤).
.[٩٦٦]وكلُّ ما ورد من روايات في هذه العقوبات الَّتي راها النَّبي (ص) في رحلة المعراج ، هو حديث مروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وهو موجودٌ في بعض كتب التفاسير ، وفي سيرة ابن هشام في قصَّة المعراج ، غير أنَّه لم يرد في هذا نصٌّ صحيحٌ عن رسول الله (ص) ، ولم يُخرج هذا الحديث في البخاريِّ أو في مسلم ، والله أعلم.
.[٩٦٧]تفسير الطَّبري (١٥/٧) ، والفتح الرباني (٢٠/٢٥٧).
.[٩٦٨]انظر: الخصائص الكبرى (١/١٧١) والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٢٠.
.[٩٦٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٢٠.

السيرة النبوية
عرض وقائع وتحليل أحداث
(دروس وعبر)

تأليف
د. علي محمَّد محمَّد الصلابي

الجزء الثاني

السيرة النبوية
حقوق الطبع والتصوير محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م

الفصل الخامس

الطَّواف على القبائل ، وهجرة الصَّحابة إلى المدينة

المبحث الأوَّل

الطَّواف على القبائل طلباً للنُّصرة

بعد رجوعه (ص) من الطَّائف بدأ يعرض نفسه على القبائل في المواسم ، يشرح لهم الإسلام ، ويطلب منهم الإيواء ، والنُّصرة ، حتَّى يبلِّغ كلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وكان رسول الله (ص) يتحرَّك في المواسم التِّجارية ، ومواسم الحجِّ الَّتي تجتمع فيها القبائل وَفْق خطَّةٍ سياسيَّةٍ دعويَّةٍ واضحة المعالم ، ومحدَّدة الأهداف ، وكان يصاحبه أبو بكر الصِّدِّيق؛ الرَّجل الَّذي تخصَّص في معرفة أنساب العرب ، وتاريخها ، وكانا يقصدان «غُرَر النَّاس ، ووجوه القبائل ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ، يسأل وجوه القبائل ، ويقول لهم: كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدَّث رسولُ الله (ص) ، ويعرض دعوته»[(١)].

يقول المقريزي: «ثمَّ عرض (ص) نفسه على القبائل أيَّام المواسم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وهم بنو عامر ، وغسَّان ، وبنو فَزَارة ، وبنو مرَّة ، وبنو حنيفة ، وبنو سليم ، وبنو عبس ، وبنو نصر ، وثعلبة بن عكابة ، وكندة وكلب ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو عذرة ، وقيس بن الخطيم ، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع» وقد استقصى الواقديُّ أخبار هذه القبائل قبيلةً قبيلةً ، ويقال: إنَّه (ص) بدأ بكندة ، فدعاهم إلى الإسلام ، ثمَّ أتى كلباً ، ثمَّ بني حنيفة ، ثمَّ بني عامر ، وجعل يقول: «مَنْ رجلٌ يحملني إلى قومه ، فيمنعني؛ حتَّى أبلغ رسالة ربِّي؛ فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ رسالة ربِّي؟» هذا وأبو لهب وراءه يقول للنَّاس: لا تسمعوا منه؛ فإنَّه كذاب» [أحمد (٣/٤٩٢ ، ٤٩٣) وابن هشام (٢/٦٤ ـ ٦٥][(٢)] .

وقد تعرَّض (ص) للأذى العظيم ، فقد روى التِّرمذيُّ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ (ص) يعرض نفسه بالموقف ، فيقول: «ألا رجلٌ يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلِّغ كلام ربِّي» [أبو داود (٤٧٣٤) والترمذي (٢٩٢٥) وابن ماجه (٢٠١) وأحمد (٣/٣٩٠)] وظلَّ النَّبيُّ (ص) في تردُّده على القبائل يدعوهم ، فيردُّون عليه أقبح الرَّدِّ ، ويؤذونه ، ويقولون: قومه أعلم به ، وكيف يُصلحنا مَنْ أفسد قومه؟! فلفظوه[(٣)] وكانت الشَّائعات الَّتي تنشرها قريشٌ في أوساط الحجَّاج تجد رواجاً ، وقبولاً؛ مثل:

الصابأى ، وغلام بني هاشم الَّذي يزعم: أنَّه رسول ، وغير ذلك ، ولا شكَّ: أن هذا كان ممَّا يحزُّ في نفس الرَّسول (ص) ، ويضاعف ألم التَّكذيب ، وعدم الاستجابة[(٤)].

ولم يقتصر الأذى على ذلك ، بل واجه الرَّسول (ص) ما هو أشدُّ ، وأقسى ، فقد روى البخاريُّ في تاريخه ، والطَّبرانيُّ في الكبير عن مدرك بن منيب أيضاً ، عن أبيه عن جدِّه رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله (ص) في الجاهليَّة ، وهو يقول: «يا أيها النَّاس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» ، فمنهم من تفلَ في وجهه ، ومنهم من حثا عليه التُّراب ، ومنهم من سبَّه؛ حتَّى انتصف النَّهار ، فأقبلت جاريةٌ بِعُسٍّ من ماءٍ ، فغسل وجهه ، ويديه ، وقال: «يا بنية ! لا تَخْشَيْ على أبيك غلبةً ، ولا ذلَّةً !» فقلت: من هذه ؟ قالوا: زينب بنت رسول الله (ص) ، وهي جاريةٌ وضيئةٌ. [البخاري في التاريخ الكبير (١٤/٢/٤) والطبراني في المعجم الكبير (٣٤٢/٢٠) ومجمع الزوائد (٢١/٦)][(٥)] .

وقد كان أبو جهل ، وأبو لهب ـ لعنهما الله ـ يتناوبان على أذيَّة رسول الله (ص) عندما يدعو في الأسواق ، والمواسم ، وكان يجد منهما عنتاً كبيراً إضافةً إلى ما يلحقه من المدعوِّين أنفسهم[(٦)].

أولاً: من أساليب النَّبيِّ (ص) في الردِّ على مكائد أبي جهلٍ ، والمشركين في أثناء الطَّواف على القبائل:

١ ـ مقابلة القبائل في اللَّيل:

فكان (ص) من حكمته العالية يخرج لمقابلة القبائل في ظلام اللَّيل؛ حتَّى لا يحول بينه وبينهم أحدٌ من المشركين[(٧)] ، وقد نجح هذا العمل في إبطال مفعول الدِّعاية المضادَّة؛ الَّتي كانت تتبعها قريشٌ ، كلَّما اتَّصل الرَّسول (ص) بقبيلةٍ من القبائل ، والدَّليل على نجاح هذا الأسلوب المضادِّ ، اتِّصال الرَّسول (ص) بالأوس ، والخزرج ليلاً ، وَمِنْ ثمَّ كانت العقبة الأولى ، والثَّانية ليلاً[(٨)].

٢ ـ ذهاب الرَّسول (ص) إلى القبائل في منازلهم:

فقد أتى كلباً ، وبني حنيفة ، وبني عامر في منازلهم[(٩)]؛ وبذلك يحاول أن يبتعد عن مطاردة قريش ، فيستطيع أن يتفاوض مع القبائل بالطَّريقة المناسبة ، دونما تشويشٍ ، أو تشويهٍ من قريش.

٣ ـ اصطحاب الأعوان:

كان أبو بكر ، وعليٌّ رضي الله عنهما يرافقان الرَّسول (ص) في بعض مفاوضاته ، مع بعض القبائل ، وربَّما كانت هذه الرُّفقة لأجل ألا يظنَّ المدعوُّون: أنَّه وحيدٌ ، ولا أعوان له من أشراف قومه، وأقاربه، هذا إلى جانب معرفة أبي بكرٍ رضي الله عنه بأنساب العرب[(١٠)] ، الأمر الَّذي يساعد الرَّسول (ص) في التَّعرُّف على معادن القبائل ، فيقع الاختيار على أفضلها؛ لتحمل تبِعَات الدَّعوة.

٤ ـ التأكُّد من حماية القبيلة:

ومن الجوانب الأمنيَّة المهمَّة ، سؤاله (ص) عن المنعة ، والقوَّة لدى القبائل ، قبل أن يوجِّه إليهم الدَّعوة ، ويطلب منهم الحماية ، فقوَّة ، ومنعةُ القبيلة الَّتي تحمي الدَّعوة شيءٌ ضروريٌّ ، ومهمٌّ لابدَّ منه؛ لأنَّ هذه القبيلة ستواجه كلَّ قوى الشَّرِّ ، والباطل ، فلابدَّ أن تكون أهلاً لهذا الدَّور ، من حيث الاستعداد المعنويِّ والمادِّيِّ؛ الَّذي يرهب الأعداء ، ويحمي حمى الدَّعوة ، ويتحمَّل تبعات نشرها ، مزيلاً لكلِّ العقبات؛ التي تقف في طريقها[(١١)].

ثانياً: المفاوضات مع بني عامر:

اختار الرَّسول (ص) أن يُجري مفاوضاتٍ مع بني عامرٍ ، وقامت تلك المفاوضات على
دراسةٍ ، وتخطيطٍ ، فالرَّسول (ص) ، وصاحبه أبو بكر ، كانا يعلمان: أنَّ بني عامر قبيلةٌ مقاتلةٌ كبيرةُ العدد ، وعزيزةُ الجانب؛ بل هي من القبائل الخمس الَّتي لم يمسَّها سِبَاءٌ[(١٢)] ، ولم تتبع لملكٍ ، ولم تؤدِّ إتاوة ، مثلها مثل قريش ، وخزاعة[(١٣)] ، كما أنَّ الرَّسول (ص) كان يعلم: أنَّ هنالك تضادّاً قديماً بين بني عامرٍ ، وثقيف ، فإذا كانت ثقيف امتنعت عليه من الدَّاخل ، فلماذا لا يحاول أيضاً تطويقها من الخارج ، والاستفادة في ذلك من بني عامر بن صعصعة ، فإذا استطاع النَّبيُّ (ص) أن يبرم حلفاً مع بني عامر؛ فإنَّ موقف ثقيفٍ سيكون على حافة الخطر[(١٤)].

يذكر أصحاب السِّيرة: أنَّ الرَّسول (ص) لما أتى بني عامر بن صعصعة ، فدعا إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، قال له رجلٌ منهم يقال له: بَيْحَرَة بن فِراس: والله! لو أني أخذت هذا الفتى من قريش ، لأكلت به العرب ، ثمَّ قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ، ثمَّ أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمرُ لله يضعه حيث يشاء ، فقال له: أَفَتُهْدَفُ نحورنا للعرب دونَك ، فإذا أظهرك الله: كان الأمر لغيرنا؟! لا حاجة لنا بأمرك! فأبوا عليه. [ابن هشام (٢/٦٦) وأبو نعيم في الدلائل (٢١٥) والطبري في تاريخه (٢/٣٥٠ ـ ٣٥١) وابن سعد مختصراً (١/٢١٦)] .

ثالثاً: المفاوضات مع بني شيبان:

ففي رواية عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: لما أمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نبيَّه (ص) أن يعرض نفسه على قبائل العرب؛ خرج ، وأنا معه... إلى أن قال: ثمَّ دفعنا إلى مجلس اخر ، عليه السَّكينة ، والوقار ، فتقدَّم أبو بكر ، فسلَّم ، فقال: مَنِ القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة ، فالتفت أبو بكر إلى رسول الله (ص) ، وقال: بأبي ، وأمي! هؤلاء غُرَر النَّاس ، وفيهم مفروقٌ قد غلبهم لساناً وجمالاً ، وكانت له غديرتان

تسقطان على تَرِيبَتَيْه ، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكرٍ ، فقال أبو بكر: كيف العَدَدُ فيكم؟ فقال مفروق: إنَّا لنزيد على الألف ، ولن تُغلب ألفٌ من قلَّة. فقال أبو بكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروقٌ: إنا لأشدُّ ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشدُّ ما نكون لقاءً حين نغضب ، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسِّلاح على اللِّقاح ، والنَّصر من عند الله يديلنا مرَّةً ، ويديل علينا أخرى ، لعلَّك أخو قريش؟ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم: أنَّه رسول الله (ص) ، فها هو ذا. فقال مفروق: إلامَ تدعونا يا أخا قريش؟! فقال رسول الله (ص) : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأنِّي عبد الله ورسوله ، وإلى أن تؤووني ، وتنصروني؛ فإنَّ قريشاً قد تظاهرت على الله ، وكذَّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحقِّ ، والله هو الغنيُّ الحميد ، فقال مفروق: وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش! فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا؟ فتلا رسول الله (ص) : {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *} [الأنعام: ١٥١] .

قال مفروق: دعوت والله! إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أفِك قومٌ كذَّبوك ، وظاهروا عليك ، ثمَّ ردَّ الأمر إلى هانأى بن قبيصة ، فقال: وهذا هانأى ، شيخنا ، وصاحب ديننا ، فقال هانأى: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش! وإنِّي أرى تركنا ديننا ، واتِّباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أوَّل له ، ولا اخر لذلٌّ في الرَّأي ، وقلَّةُ نظرٍ في العاقبة؛ إنَّ الزَّلَّة مع العجلة ، وإنَّا نكره أن نعقِد على مَنْ وراءنا عقداً ، ولكن نرجع ، وترجع ، وننظر ، ثمَّ كأنَّه أحبَّ أن يشركه المثنَّى بن حارثة ، فقال: وهذا المثنَّى ، شيخنا ، وصاحب حربنا ، فقال المثنَّى ـ وأسلم بعد ذلك ـ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش! والجواب فيه جواب هانأى بن قبيصة في تركنا ديننا ، ومتابعتنا دينك ، وإنَّا إنَّما نزلنا بين صريين؛ أحدهما: اليمامة ، والاخر: السَّمامة ، فقال له رسول الله (ص) : ما هذان الصَّريان؟ قال: أنهار كسرى ، ومياه العرب ، فأمَّا ما كان من أنهار كسرى ، فذنبٌ صاحبه غير مغفورٍ ، وعذره غير مقبولٍ ، وإنَّا إنما نزلنا على عهدٍ أخذه علينا كسرى ، ألا نحدث حدثاً ، ولا نُؤوي مُحدثاً ، وإنِّي أرى هذا الأمر الَّذي تدعونا إليه يا أخا قريش! مما تكره الملوك ، فإن أحببت أن نُؤويك وننصرك ممَّا يلي مياه العرب فعلنا. فقال رسول الله (ص) : ما أسأتم في الردِّ إذ أفصحتم بالصِّدق ، وإنَّ دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتَّى يورِّثكم الله تعالى أرضهم ، وديارهم ، ويفرشكم نساءهم ،

أتسبِّحون الله وتقدِّسونه؟ فقال النُّعمان بن شريك: اللَّهمَّ فلك ذاك. [أبو نعيم في دلائل النبوة (٢١٤)][(١٥)] .

رابعاً: فوائد ، ودروس ، وعبر:

كانت النُّصرة الَّتي طلبها النَّبيُّ (ص) ذات صفةٍ مخصوصةٍ ، وذلك على النَّحو التالي:

١ ـ طلب الرَّسول (ص) للنُّصرة من خارج مكَّة إنَّما بدأ ينشط بشكلٍ ملحوظٍ بعد أن اشتدَّ الأذى عليه عَقِبَ وفاة عمِّه أبي طالب؛ الَّذي كان يحميه من قريش ، وذلك لأنَّ مَنْ يحمل الدَّعوة ، لن يستطيع أن يتحرَّك التَّحرُّك الفعَّال لأجلها ، وتوفير الاستجابة لها ، في جوٍّ من العنف ، والضَّغط ، والإرهاب.

٢ ـ كان عرض الرَّسول (ص) نفسه على القبائل يطلب منهم النُّصرة ، إنَّما هو بأمرٍ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له في ذلك ، وليس مجرَّد اجتهادٍ مِنْ قِبَلِ نفسه ، اقتضته الظُّروف؛ الَّتي وصلت إليها الدَّعوة في مكَّة.

٣ ـ حصر رسول الله (ص) طلب النُّصرة في زعماء القبائل ، وذوي الشَّرف ، والمكانة ممَّن لهم أتباعٌ يسمعون لهم ، ويُطيعون؛ لأنَّ هؤلاء هم القادرون على توفير الحماية للدَّعوة ، وصاحبها.

٤ ـ يلاحظ في سيرة النَّبيِّ (ص) ، بخصوص طلب النُّصرة: أنَّه كان يطلبها لأمرين اثنين:

أ ـ كان يطلبُ النُّصرة من أجل حماية تبليغ الدَّعوة؛ حتَّى تسير بين الناس محميَّة الجانب ، بعيدةً عن الإساءة إليها ، وإلى أتباعها.

ب ـ كان يطلب النُّصرة ، من أجل أن يتسلَّم النَّبيُّ (ص) مقاليد الحكم ، والسُّلطان على أساس تلك الدَّعوة ، وهذا ترتيبٌ طبيعيٌّ للأمور.

٥ ـ رفض النَّبيُّ (ص) أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نُصرتها أيَّة ضماناتٍ ، بأن يكون لأشخاصهم شيءٌ من الحكم ، والسُّلطان على سبيل الثَّمن ، أو المكافأة لما يقدِّمونه من نُصرةٍ ، وتأييدٍ للدَّعوة الإسلاميَّة؛ وذلك لأنَّ الدَّعوة الإسلاميَّة إنَّما هي دعوةٌ إلى الله ، فالشَّرط الأساسيُّ فيمن يؤمن بها ، ويستعدُّ لنصرتها أن يكون الإخلاص لله ، ونشدان رضاه هما الغاية الَّتي يسعى إليها من النُّصرة والتَّضحية ، وليس طمعاً في نفوذٍ ، أو رغبةٍ في سلطانٍ ، وذلك لأنَّ الغاية التي يضعها الإنسان للشَّيء هي الَّتي تكيِّف نشاط الإنسان في السَّعي إليه ، فلابدَّ ـ إذاً ـ أن تتجرَّد الغاية المستهدفة من وراء نُصرة الدَّعوة عن أيِّ مصلحةٍ مادِّيَّةٍ لضمان دوام التأييد لها ، وضمان المحافظة عليها من أيِّ انحرافٍ ، وضمان أقصى ما يمكن من بذل الدَّعم لها، وتقديم التَّضحيات في سبيلها[(١٦)] ، فيجب على كلِّ من يريد أن يلتزم بالجماعة؛ الَّتي تدعو إلى الله ألا يشترط عليها منصباً ، أو عرضاً من أعراض الدُّنيا؛ لأنَّ هذه الدَّعوة لله

، والأمر لله يضعه حيث يشاء ، والدَّاخل في أمر الدَّعوة إنَّما يريد ابتداءً وجه الله ، والعمل من أجل رفع رايته ، أمَّا إذا كان المنصب هو همَّه الشَّاغل؛ فهذه علامةٌ خطيرةٌ ، تنبأى عن دَخَنٍ في نيَّة صاحبها[(١٧)] ، لذا قال يحيى بن معاذ الرَّازي: «لا يفلح مَنْ شَمَمْتَ منه رائحة الرِّياسة»[(١٨)].

٦ ـ ومن صفة النُّصرة؛ الَّتي كان رسول الله (ص) يطلبها لدعوته من زعماء القبائل أن يكون أهل النُّصرة غير مرتبطين بمعاهداتٍ تتناقض مع الدَّعوة ، ولا يستطيعون التحرُّر منها؛ وذلك لأنَّ احتضانهم للدَّعوة ـ والحالة هذه ـ يُعرِّضها لخطر القضاء عليها ، مِنْ قِبَلِ الدُّول الَّتي بينهم وبينها تلك المعاهدات ، والَّتي تجد في الدَّعوة الإسلاميَّة خطراً عليها ، وتهديداً لمصالحها[(١٩)].

إنَّ الحماية المشروطة ، أو الجزئية لا تحقِّق الهدف المقصود ، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد القبض على رسول الله (ص) وتسليمه ، ولن يخوضوا حرباً ضدَّ كسرى؛ لو أراد مهاجمة محمَّد رسول الله (ص) ، وأتباعه ، وبذلك فشلت المباحثات[(٢٠)].

٧ ـ «إنَّ دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه» ، كان هذا الردُّ من النَّبيِّ (ص) على المثنَّى بن حارثة حين عرض على النَّبيِّ (ص) حمايته على مياه العرب دون مياه الفرس ، فمن يسبر أغوار السِّياسة البعيدة؛ يَرَ بُعْدَ النَّظر الإسلاميِّ النَّبويِّ الَّذي لا يُسامى[(٢١)].

٨ ـ كان موقف بني شيبان يتَّسم بالأَرْيَحِيَّةِ ، والخلق ، والرُّجولة ، وينمُّ عن تعظيم هذا النَّبيِّ (ص) ، وعن وضوح في العرض ، وتحديد مدى قدرة الحماية الَّتي يملكونها ، وقد بيَّنوا: أنَّ أمر الدَّعوة ممَّا تكرهه الملوك ، وقدَّر الله لشيبانَ بعد عشر سنين ، أو تزيد ، أن تحمل هي ابتداءً عبء مواجهة الملوك بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنَّى بن حارثة الشَّيبانيُّ صاحب حربهم ، وبطلهم المغوار ، الَّذي قاد الفتوح في أرض العراق ، في خلافة الصِّدِّيق رضي الله عنه[(٢٢)] ، فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس ، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرس ، ولا يفكِّرون في قتالهم؛ بل إنَّهم ردُّوا دعوة النَّبيِّ (ص) بعد اقتناعهم بها؛ لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس ، الأمر الَّذي لم يكونوا يفكِّرون فيه أبداً ، وبهذا نعلم عظمة هذا الدِّين؛ الَّذي رفع الله به المسلمين في الدُّنيا؛ حيث جعلهم سادة الأرض ، مع ما ينتظرون في أخراهم من النَّعيم الدَّائم ، في جنَّات النَّعيم[(٢٣)].

* * *

المبحث الثَّاني

مواكب الخير وطلائع النُّور

قال جابر بن عبد الله الأنصاريُّ:

«مكث رسول الله (ص) بمكَّة عشر سنين ، يَتَّبَّعُ النَّاس في منازلهم ، بعُكاظ ، ومجَنَّة ، وفي المواسم بمنى ، يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتَّى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟ حتَّى إنَّ الرجل ليخرج من اليمن، أو مُضَر، فيأتيه قومه ، فيقولون: احذر غلام قريش؛ لا يفتننَّك! ويمشي بين رجالهم؛ وهم يشيرون إليه بالأصابع ، حتَّى بعَثَنا اللهُ إليه من يثرب ، فاويناه ، وصدَّقناه ، فيخرج الرَّجل منا ، فيؤمن به ، ويقرئه القران ، فينقلب إلى أهله ، فيسلمون بإسلامه ، حتَّى لم يبقَ دارٌ من دور الأنصار ، إلا وفيها رهطٌ من المسلمين، يُظهرون الإسلام» [أحمد (٣/٣٢٢ ـ ٣٢٣، ٣٣٩ ـ ٣٤٠)] .

أوَّلاً: الاتِّصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحجِّ ، والعمرة:

١ ـ إسلام سُوَيد بن الصَّامت:

كان رسولُ الله (ص) ، لا يسمع بقادمٍ يقدم مكَّة من العرب ، له اسمٌ ، وشرفٌ ، إلا تصدَّى له ، ودعاه إلى الله ، وعرض عليه ما جاء به من الهدى ، والحقِّ ، فقدم سُوَيد بن الصَّامت ـ أخو بني عمرو بن عوف ـ مكَّة حاجّاً ، أو معتمراً ، وكان سُوَيد يسمِّيه قومُه فيهم الكامل ، لجَلَده ، وشِعْره ، وشرفه ، ونسبه ، فتصدَّى له رسولُ الله (ص) حين سمع به ، فدعاه إلى الله ، وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيد: فلعلَّ الذي معك مثلُ الَّذي معي؟ فقال له رسول الله (ص) : «وما الَّذي معك؟» قال:مجلَّة[(٢٤)] لقمان ، فقال له رسول الله: «اعرضها عليَّ» فعرضها عليه ، فقال: «إنَّ هذا الكلام حسن ، والَّذي معي أفضل من هذا؟ قرانٌ أنزله الله عليَّ ، وهو هدًى ونورٌ» ، فتلا عليه رسول الله (ص) القران ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يَبْعُد منه ، وقال: إنَّ هذا القول حسنٌ ، ثمَّ انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، وقد كان

رجالٌ من قومه يقولون: إنَّا لنراه قُتل؛ وهو مسلمٌ ، وكان قَتْلُه يوم بُعاث. [ابن هشام (٦٧/٢ ـ ٦٩) والبيهقي في دلائل النبوة (٤١٨/٢) والطبري في تاريخه (٣٥١/٢ ـ ٣٥٢)] .

وعلى أيَّة حالٍ ، لا توجد دلائل على قيام سُوَيد بن الصامت بالدَّعوة إلى الإسلام وسط قومه[(٢٥)].

٢ ـ إسلام إياس بن معاذ:

لما قدم أبو الحَيْسَر بن رافع مكَّة ، ومعه فتيانٌ من بني عبد الأشْهَل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج؛ سمع بهم رسول الله (ص) ، فأتاهم ، فجلس إليهم ، فقال: «هل لكم في خير ممَّا جئتم له؟» قالوا له: وما ذاك؟ قال: «أنا رسولُ الله ، بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليَّ الكتاب» ، ثمَّ ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القران ، فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حدثاً ـ: هذا واللهِ خيرٌ ممَّا جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر حَفْنَةً من ترابٍ ، وضرب بها وجهه ، وقال: دعنا منك ، فلَعَمرِي لقد جئنا لغير هذا! فصمت إياس ، وقام رسول الله (ص) عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس ، والخزرج ، ثمَّ لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، وقد روى من حضره من قومه ، أنَّه ما زال يهلِّل الله ، ويكبِّره ، ويحمده ، ويسبحه حتَّى مات ، فما كانوا يشكُّون: أنَّه مات مسلماً ، لقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله (ص) ما سمع. [ابن هشام (٦٩/٢ ـ ٧٠) وأحمد (٤٢٧/٥) والطبراني في المعجم الكبير (٨٠٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٢٠/٢ ـ ٤٢١) والطبري في تاريخه (٣٥٢/٢ ـ ٣٥٣) ومجمع الزوائد (٣٦/٦) والإصابة (١٠٢/١)] .

ثانياً: بدء إسلام الأنصار:

كانت البداية المثمرة مع وفدٍ من الخزرج في موسم الحجِّ عند عقبة منى ، قال لهم رسول الله (ص) : من أنتم؟ قالوا: نفرٌ من الخزرج ، قال: أَمِنْ موالي يهود؟ قالوا: نعم ، قال: أفلا تجلسون أكلِّمكم؟ قالوا: بلى ، فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القران. [ابن هشام (٧٠/٢ ـ ٧١) ، وابن سعد (٢١٨/١ ـ ٢١٩) ، والبيهقي في الدلائل (٤٣٣/٢ ـ ٤٣٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (٣٦٢/٢٠) ، ومجمع الزوائد (٤٠/٦ ـ ٤٢)] .

فلمَّا كلَّم رسولُ الله (ص) أولئك النَّفر ، ودعاهم إلى الله؛ قال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله: أنَّه للنَّبيُّ الَّذي توعَّدكم به يهود ، فلا تسبقنَّكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدَّقوه ، وقَبِلُوا منه

ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا: إنَّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشرِّ ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ،
ونعرض عليهم الَّذي أجبناك إليه من هذا الدِّين ، فإن يجمعهم الله عليك ، فلا رجل أعزُّ منك. ثمَّ انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم ، وقد امنوا ، وصدَّقوا[(٢٦)] ، وكانوا ستَّة نفرٍ ، وهم: أبو أمامة أسعد بن زُرارةَ ، وعوف بن الحارث من بني النَّجار ، ورافع بن مالك ، وقُطْبة بن عامرٍ ، وعُقْبة بن عامرٍ ، وجابر بن عبد الله بن رئاب[(٢٧)]. فلمَّا قدموا المدينة إلى قومهم ؛ ذكروا لهم رسولَ الله (ص) ، ودعَوهم إلى الإسلام ، حتَّى فشا بينهم ، فلم تبقَ دارٌ من دُور الأنصار إلا وفيها ذِكْرٌ لرسول الله (ص)[(٢٨)] .
فهذا أوَّل موكبٍ من مواكب الخير ، لم يكتفِ بالإيمان؛ وإنَّما أخذ العهد على نفسه أن يدعوَ إليه قومه ، وقد وفَّى كلٌّ منهم لدينه ، ورسوله ، فإنَّهم حين رجعوا؛ نشطوا في الدَّعوة إلى الله ، وعرضوا كلمة الهدى على أهلهم، وذويهم ، فلم تبقَ دارٌ من دور المدينة إلا وفيها ذكرٌ لمحمَّد (ص) ، وهكذا عندما يأذن الله تأتي ساعة الحسم الفاصلة ، فقد كان لقاء هؤلاء مع الرَّسول (ص) على غير موعدٍ ، لكنَّه لقاء هيَّأه الله؛ ليكون نبع الخير المتجِّدد الموصول ، ونقطة التَّحوُّل الحاسم في التَّاريخ ، وساعة الخلاص المحقَّق من عبادة الأحجار؛ بل إنَّها على التَّحقيق ساعة الحسم في مصير العالم كلِّه ، ونقل الحياة من الظُّلمات إلى النُّور ، أكان معقولاً في لحظةٍ يسيرةٍ أن يتحوَّل هؤلاء من وثنيِّين متعصِّبين ، إلى أنصارٍ للدَّعوة متفتِّحين ، وجنودٍ للحقِّ مخلصين ، ودعاةٍ إلى الله متجرِّدين ، يذهبون إلى أقوامهم ، وبين جوانحهم نورٌ وعلى وجوههم نورٌ ، وإنَّهم لعلى نورٍ؟! تلك مشيئة القدر العالي ، هيَّأت للدَّعوة مجالها الخصب ، وحماها الأمين ، والسَّنوات العِجاف الَّتي قضاها الرَّسول (ص) نضالاً مستمرّاً ، وكفاحاً دائماً ، وتطوافاً على القبائل ، والتماساً للحليف ، قد ولَّت إلى غير رجعةٍ؛ سيكون بعد اليوم للإسلام قوَّته الرَّادعة ، وجيشه الباسل ، وسيلتقي الحقُّ بالباطل؛ ليصفِّي معه حساب الأيام الخوالي ، والعاقبة للمتقين ، وستتوالى على مكَّة منذ اليوم مواكب الخير ، وطلائع النُّور ، الَّتي هيَّأها الله للخير؛ لتتصل بالهداية ، وتسبح في النُّور ، وتغترف من الخير ، وترجع إلى يثرب بما وَعَتْ من خير ، وبما حملت من نورٍ[(٢٩)].
ومن الجدير بالتَّنبيه: أنَّ هذه المقابلة الَّتي حدثت عند العقبة ، وتلاقى فيها فريقٌ من الخزرج بالنَّبيِّ (ص) ، وأسلموا على يديه ، لم تكن فيها بيعةٌ[(٣٠)]؛ لأنَّها كانت من نفر صغيرٍ ، لم يروا

لأنفسهم الحقَّ في أن يلتزموا بمعاهدة دون الرُّجوع إلى قبائلهم في المدينة ، ولكنَّهم أخلصوا في تبليغ رسالة الإسلام(٢).

ثالثاً: بيعة العقبة الأولى:

بعد عامٍ من المقابلة الأولى؛ الَّتي تمَّت بين الرَّسول (ص) وأهل يثرب عند العقبة ، وَافَى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوه (ص) بالعقبة ، وبايعوه العقبة الأولى ، عشرةٌ من الخزرج ، واثنان من الأوس ، ممَّا يشير إلى أنَّ نشاط وفد الخزرج الَّذين أسلموا في العام الماضي ، تركَّز على وسطهم القبلي بالدَّرجة الأولى؛ لكنَّهم تمكنوا في الوقت نفسه من اجتذاب رجال الأوس ، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام[(٣١)].

وقد تحدَّث عبادةُ بن الصَّامت الخزرجيُّ عن البيعة ، في العقبة الأولى ، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنيْ عَشَرَ رجلاً ، فبايعْنا رسولَ الله (ص) على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تفترض علينا الحرب ، على ألاَّ نشرك بالله ، ولا نسرق ، ولا نزني ، لا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا ، وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفَّيتم فلكم الجنَّة ، وإن غَشِيتم من ذلك شيئاً ، فأمركم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إن شاء؛ غفر ، وإن شاء؛ عذَّب» [البخاري (١٨ و٩٢ و٣٨ و٣٩٩٩) ومسلم (١٧٠٩)] .

وبنود هذه البيعة ، هي الَّتي بايع الرَّسول (ص) عليها النِّساء فيما بعد ، ولذلك عرفت باسم بيعة النِّساء[(٣٢)] ، وقد بعث الرَّسول (ص) مع المبايعين مصعب بن عمير ، يعلِّمهم الدِّين ، ويقرئهم القران ، فكان يُسمَّى بالمدينة (المقرأى) ، وكان يؤمُّهم في الصَّلاة ، وقد اختاره رسول الله (ص) عن علمٍ بشخصيَّته من جهةٍ ، وعلمٍ بالوضع القائم في المدينة من جهةٍ أخرى ، حيث كان بجانب حفظه لما نزل من القران يملك من اللَّباقة ، والهدوء ، وحسن الخُلُق ، والحكمة قدراً كبيراً ، فضلاً عن قوَّة إيمانه ، وشدَّة حماسه للدِّين ، ولذلك تمكَّن خلال أشهرٍ أن ينشر الإسلام في معظم بيوتات المدينة ، وأن يكسب للإسلام أنصاراً من كبار زعمائها ، كسعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حُضَيْر ، وقد أسلم بإسلامهما خلقٌ كثير من قومهم[(٣٣)].

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير رضي الله عنه في شرح تعاليم الدِّين الجديد ، وتعليم القران الكريم ، وتفسيره ، وتقوية الرَّوابط الأخويَّة بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحيةٍ ، وبين النَّبيِّ (ص) وصحبه بمكَّة المكرمة ، لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدَّعوة.

وقد نزل مصعب بن عمير رضي الله عنه في يثرب على أسعد بن زُرارة رضي الله عنه[(٣٤)] ، ونشط المسلمون في الدَّعوة إلى الله ، يقود تلك الحركة الدَّعوية الرَّائدة مصعب رضي الله عنه ، وقد انتهج منهج القران الكريم في دعوته ، وهذا هو الذي تعلَّمه من أستاذه (ص) ، وقد شرح لنا بعض الايات القرانيَّة المكِّيَّة بصورةٍ عمليَّةٍ حيَّةٍ ، مثل قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ *} [النحل: ١٢٥] .

رابعاً: قصَّة إسلام أُسَيْد بن حُضير ، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما:

كان سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حضير ، سيِّديْ قومهما من بني عبد الأشهل ، وكانا مشركَيْن على دين قومهما ، فلمَّا سَمِعَا بمصعب بن عمير ، ونشاطه في الدَّعوة إلى الإسلام؛ قال سعد لأُسَيْدٍ: لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرَّجلين ، اللَّذين أتيا دارينا؛ ليُسَفِّها ضعفاءنا ، فازجرهما ، وانههما أن يأتيا دارَينا؛ فإنَّه لولا أسعد بن زُرارةَ منِّي حيث قد علمت؛ كفيتُك ذلك ، هو ابن خالتي ، ولا أجد عليه مقدماً ، فأخذ أُسَيْد حربته ، ثمَّ أقبل عليهما ، فلمَّا راه أسعد بن زرارة؛ قال: هذا سيِّد قومه ، وقد جاءك؛ فاصدق الله فيه ، قال مصعب: إن يجلسْ أكلِّمْه ، فوقف عليهما مُتشتِّماً ، فقال: ما جاء بكما تسفِّهان ضعفاءنا؟! اعتزلانا؛ إن كانت لكما بأنفسكما حاجةٌ ، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادأى الواثق من سماحة دعوته: أو تجلسُ ، فتسمع ، فإن رضيت أمراً؛ قبلته ، وإنْ كرهته؛ نكفُّ عنك ما تكره؟

قال أُسَيْد: أنصفتَ ، ثمَّ ركَّز حربته ، وجلس إليهما، فكلَّمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القران ، فقالا ـ فيما يُذكر عنهما ـ: والله! لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه ، وتسهُّله ، ثمَّ قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ ، وأجْمَلَه! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين؟ قالا له: تغتسل ، فتتطهَّر ، وتطهِّر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحقِّ ، ثمَّ تصلِّي ، فقام ، فاغتسل ، وطهَّر ثوبيه ، وتشهَّد شهادة الحقِّ ، ثمَّ قام فركع ركعتين ، ثمَّ قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً ، إن اتَّبَعْكما؛ لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من قومه ، وسأرسله إليكم الان: سعد بن معاذ.

ثمَّ أخذ حربته ، وانصرف إلى سعدٍ ، وقومه؛ وهم جلوسٌ في ناديهم ، فلمَّا نظر إليه سعد مقبلاً ، قال: أحلف بالله! لقد جاءكم أُسَيْد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم!!

فلمَّا وقف على النَّادي؛ قال له سعدٌ: ما فعلتَ؟ قال: كلَّمتُ الرَّجلين ، فوالله! ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، فقالا: نفعل ما أحببتَ ، وقد حُدِّثت أنَّ بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زُرارةَ؛ ليقتلوه؛ وذلك أنَّهم عرفوا: أنه ابن خالتك لِيُخْفِرُوكَ[(٣٥)] .

فقام سعد مُغْضَباً مبادراً تخوُّفاً لِلَّذي ذكر له من أمر بني حارثة ، وأخذ الحربة في يده ، ثمَّ قال: والله! ما أراك أغنيتَ شيئاً ، ثمَّ خرج إليهما سعد ، فوجدهما مطمئنَّيْن ، فعرف: أنَّ أسَيْداً إنَّما أراد أن يسمع منهما ، فوقف متشتِّماً ، ثمَّ قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة! لولا ما بيني وبينك من القرابة؛ ما رُمْتَ هذا منِّي ، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء ـ والله! ـ سيِّدُ مَنْ وراءَه مِنْ قومه ، إن يتبعك؛ لا يتخلَّف منهم اثنان ، فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع؟ فإن رضيتَ أمراً ، ورغبتَ فيه قبلتَه ، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره. فقال سعد: أنصفت ، ثمَّ ركَّز الحربة ، وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ القران. وذكر موسى بن عقبة: أنَّه قرأ عليه أوَّل سورة الزُّخرف ، قالا: فعرفنا ـ والله! ـ في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم في إشراقه ، وتسهُّله.

ثمَّ قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ، ودخلتم في هذا الدِّين؟ قالا: تغتسل ، فتتطَّهر ، وتطهِّر ثوبيك ، ثمَّ تشهد شهادة الحقِّ ، ثمَّ تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل ، وطهَّر ثوبيه ، ثمَّ تشهَّد شهادة الحقِّ ، ثمَّ ركع ركعتين ، ثمَّ أخذ حربته ، فأقبل عائداً إلى نادي قومه ، ومعه أُسَيْد بن حُضَيْر ، فلمَّا راه قومه مقبلاً؛ قالوا: نحلف بالله ، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلمَّا وقف عليهم؛ قال: يا بني عبد الأشهل! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمُننا نقيبةً! قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام؛ حتَّى تؤمنوا بالله ، ورسوله! قال: فوالله ، ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ، ولا امرأة إلا مسلماً ، أو مسلمةً.

ورجع أسعد ، ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة ، فأقام عنده يدعو النَّاس إلى الإسلام؛ حتَّى لم تبقَ دار من دُور الأنصار إلا وفيها رجالٌ مسلمون ، ونساءٌ مسلماتٌ [قصة إسلام سعد بن معاذ رواها الطبري في تاريخه (٢/٣٥٧ ـ ٣٥٩) وابن سعد (٣/٤٢٠ ـ ٤٢١) والبيهقي في الدلائل (٢/٤٣١ ـ ٤٣٢) والطبراني في الكبير (٢٠/٣٦٢)] إلا ما كان من الأُصَيْرِم ، وهو عمرو بن ثابت بن وقش؛ فإنَّه تأخَّر إسلامه إلى يوم أُحدٍ ، فأسلم؛ واستُشهِد بأحدٍ ، ولم يصلِّ لله سجدةً قطُّ ، وأخبر رسول الله (ص) : أنَّه من أهل الجنَّة.

وقد روى ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن أبي هريرة: أنَّه كان يقول: «حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة لم يصلِّ صلاةً قطُّ ، فإذا لم يعرفه النَّاس ، قال: هو أُصَيْرِم بني عبد الأشهل» [أحمد (٥/٤٢٨ ـ ٤٢٩) ومجمع الزوائد (٩/٣٦٤)][(٣٦)] .

خامساً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ ـ اتَّجه التَّخطيط النَّبويُّ للتَّركيز على يثرب بالذَّات ، وكان للنَّفر السِّتَّة الذين أسلموا ، دورٌ كبيرٌ في بث الدَّعوة إلى الإسلام ، خلال ذلك العام.

٢ ـ كانت هناك عدَّة عوامل ساعدت على انتشار الإسلام في المدينة؛ منها:

(أ) ما طبع الله عليه قبائل الخزرج ، والأوس من الرِّقَّة ، واللِّين ، وعدم المغالاة في الكبرياء ، وجحود الحقِّ ، وذلك يرجع إلى الخصائص الدَّمويَّة والسُّلاليَّة؛ الَّتي أشار إليها رسول الله (ص) حين وَفَد وَفْدٌ من اليمن ، بقوله: «أتاكم أهل اليمن ، هم أرقُّ أفئدةً ، وألين قلوباً» [البخاري (٤٣٨٨) ومسلم (٥٢)] وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن ، نزح أجدادهم منها في الزَّمن القديم[(٣٧)] ، فيقول القران الكريم مادحاً لهم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

(ب) التَّشاحن ، والتَّطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة ، الأوس والخزرج ، وقد قامت بينهما الحروب الطَّاحنة كيوم بُعاث ، وغيره ، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ، ممَّن كان نظراؤهم في مكَّة ، والطائف ، وغيرها ، حجر عثرة في سبيل الدَّعوة ، ولم يبقَ إلا القيادات الشَّابَّة الجديدة ، المستعدَّة لقبول الحقِّ؛ إضافةً إلى عدم وجود قيادةٍ بارزةٍ معروفةٍ ، يتواضع الجميع على التَّسليم لها ، وكانوا بحاجةٍ إلى من يأتلفون عليه ، ويلتئم شملهم تحت ظلِّه. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يومُ بُعاثَ أمراً قدَّمه الله تعالى لنبيِّه (ص) ، فَقَدِمَ رسولُ الله (ص) وقد افترق مَلَؤهم ، وقُتِلت سَرَوَاتهم[(٣٨)] وجُرِّحوا ، فقدَّمه الله لرسوله (ص) في دخولهم الإسلام». [البخاري (٣٧٧٧ و٣٨٤٦ و ٣٩٣٠) وأحمد (٦/٦١) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٤٢١)] .

(ج) مجاورتهم لليهود ، ممَّا جعلهم على علمٍ ـ ولو يسيرٍ ـ بأمر الرِّسالات السَّماويَّة ، وخبر المرسلين السَّابقين ، وهم ـ في مجتمعهم ـ يعايشون هذه القضيَّة في حياتهم اليوميَّة ، وليسوا مثل قريشٍ؛ التي لا يساكنها أهل كتاب ، وإنَّما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرِّقةً عن الرِّسالات ، والوحي الإلهيِّ ، دون أن تلحَّ عليها هذه المسألةُ ، أو تشغل تفكيرها باستمرارٍ ، وكان اليهود يهدِّدون الأوس ، والخزرج بنبيٍّ قد أظلَّ زمانه ، ويزعمون: أنَّهم سيتَّبعونه ، ويقتلونهم به قتل عادٍ ، وإرم! مع أنَّ الأوس ، والخزرج كانوا أكثر من اليهود[(٣٩)] ، وقد حكى الله

عنهم ذلك في كتابه العزيز. قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ *} [البقرة: ٨٩] .

وكان الأوس ، والخزرج قد علوا اليهود دهراً في الجاهليَّة ، وهم أهل شرك وهؤلاء أهل كتاب ، فكانوا يقولون: إنَّ نبيّاً قد أظلَّ زمانه ، نقتلكم به قتلَ عادٍ وإرم[(٤٠)].

فلمَّا أراد الله إتمام أمره بنصر دينه؛ قيَّض ستَّة نفرٍ من أهل المدينة للنَّبيِّ (ص) ، فالتقى بهم عند العقبة . عقبة منى . فعرض عليهم الإسلام ، فاستبشروا ، وأسلموا ، وعرفوا: أنَّه النَّبيُّ الَّذي توعَّدَهم به اليهود ، ورجعوا إلى المدينة ، فأفشوا ذكر النَّبيِّ (ص) في بيوتها[(٤١)] ، وكان هذا هو «بدء إسلام الأنصار» كما يسمِّيه أهل السِّير[(٤٢)].

٣ . حضر بيعة العقبة الأولى اثنان من الأوس ، وهذا تطوُّر مهمٌّ لمصلحة الإسلام ، فبعد الحرب العنيفة في بُعَاث استطاع النَّفر السِّتَّة من الخزرج ، أن يتجاوزوا قصَّة الصِّراعات الدَّاخلية ، ويُحضروا معهم سبعةً جدداً ، فيهم اثنان من الأوس ، وهذا يعني أنَّهم وفوا بالتزاماتهم؛ الَّتي قطعوها على أنفسهم في محاولة رأب الصَّدع ، وتوجيه التَّيَّار لدخول الإسلام في المدينة؛ أوسها ، وخزرجها ، وتجاوز الصِّراعات القبليَّة القائمة.

٤ .كان التَّطُّور الجديد الَّذي أثمرته بيعة العقبة قد بعث مصعب بن عمير ممثلاً شخصيّاً للرَّسول (ص) إلى المدينة؛ يعلِّم النَّاس القران الكريم ، ومبادأى الإسلام ، واستطاع مصعب بحكمته ، وحصافته ، وذكائه السِّياسيِّ أن يحقِّق انتصاراتٍ كبيرةً للإسلام[(٤٣)].

٥ . استطاع سفير رسول الله (ص) أن يفعل في عامٍ واحدٍ الكثير ، وما ذلك إلا بتوفيق الله تعالى ، ثمَّ بصدق ذلك الدَّاعية وإخلاصه ، فأين سفراء دول المسلمين اليوم من سفير رسول الله (ص) ، فعلى ولاة الأمر أن يختاروا السَّفير المؤمن الملتزم الموهوب؛ الَّذي يستطيع أن يمثِّل بلاده ، ودينه قولاً وعملاً ، وخُلُقاً وسلوكاً ، فيرى النَّاسُ ، ويسمعون من خلاله.

٦ . استطاع السَّفير مصعب رضي الله عنه أن يهيِّأى البيئة الصَّالحة ، لانتقال الدَّعوة والدَّولة إلى مقرِّها الجديد؛ حيث استطاع ترجمة روح بيعة العقبة الأولى عمليّاً وسلوكيّاً ، والَّتي تعني الالتزام التَّامَّ بنظام الإسلام[(٤٤)].

٧ ـ بذل الرَّسول (ص) كلّ ما يملك من جهدٍ لتعبئة الطَّاقات الإسلاميَّة في المدينة ، ولم يكن هناك أدنى تقصيرٍ للجهد البشريّ الممكن في بناء القاعدة الصُّلبة ، الَّتي تقوم على أكتافها الدَّولة الجديدة ، واحتلَّ هذا الجهد سنتين كاملتين من الدَّعوة ، والتَّنظيم[(٤٥)].

٨ ـ نجحت التعبئة الإيمانيَّة في نفوس مَنْ أسلم من الأنصار ، وشعرت الأنصار بأنَّه قد ان الأوان لقيام الدَّولة الجديدة ، وكما يقول جابرٌ رضي الله عنه ، وهو يمثِّل هذه الصُّورة الرَّفيعة الرَّائعة: «حتَّى متى نترك رسولَ الله (ص) يطوف ، ويُطرَد في جبال مكَّة ، ويُخاف؟!»(٢).

٩ ـ وصل مصعب رضي الله عنه إلى مكَّة قبيل موسم الحجِّ ، من العام الثَّالث عشر للبعثة ، ونقل الصُّورة الكاملة الَّتي انتهت إليها أوضاع المسلمين هناك ، والقدرات ، والإمكانات المتاحة ، وكيف تغلغل الإسلام في جميع قطاعات الأوس ، والخزرج ، وأنَّ القوم جاهزون لبيعةٍ جديدة ، قادرةٍ على حماية رسول الله (ص) ، ومنعته[(٤٦)].

١٠ ـ كان اللِّقاء الَّذي غيَّر مجرى التَّاريخ ، في موسم الحجِّ في السَّنة الثَّالثة عشرة من البعثة؛ حيث حضر لأداء مناسك الحجِّ بضعٌ وسبعون نفساً من المسلمين ، من أهل يثرب ، فلمَّا قدموا مكَّة؛ جرت بينهم وبين النَّبيِّ (ص) اتصالاتٌ سرِّيَّة ، أدَّت إلى اتِّفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيَّام التَّشريق في الشِّعْب الَّذي عند العقبة ، حيث الجمرة الأولى من مِنًى ، وأن يتمَّ هذا الاجتماع في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ في ظلام اللَّيل[(٤٧)].

* * *

المبحث الثَّالث

بيعة العقبة الثَّانية

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «... فقلنا: حتَّى متى نترك رسول الله (ص) ؛ يُطْرَد في جبال مكَّة ، ويُخاف ، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتَّى قدموا عليه في الموسم ، فواعدناه شِعْب العقبة ، فاجتمعنا عليه من رجلٍ ، ورجلين؛ حتَّى توافينا فقلنا: يا رسول الله! علام نُبايعك؟

قال: «تبايعوني على السَّمع ، والطَّاعة في النَّشاط ، والكسل ، والنَّفقة في العسر ، واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله ، لا تخافون في الله لومة لائم ، وعلى أن تنصروني ، فتمنعوني إذا قدمت عليكم ممَّا تمنعون منه أنفسكم ، وأزواجكم ، وأبناءكم ، ولكم الجنَّة».

قال: فقمنا إليه ، فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زرارة . وهو من أصغرهم . فقال: رويداً يا أهل يثرب! فإنَّا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم: أنَّه رسول الله (ص) ، وأنَّ إخراجه اليوم مفارقةُ العرب كافَّةً ، وقتلُ خياركم ، وأن تعضَّكم السُّيوف ، فإمَّا أنتم قومٌ تصبرون على ذلك ، وأجركم على الله ، وإمَّا أنتم تخافون من أنفسكم جُبَيْنَةً؛ فبينوا ذلك ، فهو أعذر لكم عند الله! قالوا: أمط عنَّا يا أسعد! فوالله لا ندع هذه البيعة أبداً! ولا نَسْلِبها (أي: نتركها)! قال: فقمنا إليه ، فبايعناه ، فأخذ علينا ، وشَرَطَ ، ويعطينا على ذلك الجنَّة»[(٤٨)].

وهكذا بايع الأنصار رسول الله (ص) على الطَّاعة ، والنُّصرة ، والحرب؛ لذلك سمَّاها عبادة بن الصَّامت بيعة الحرب[(٤٩)] ، أمَّا رواية الصَّحابي كعب بن مالك الأنصاريِّ . وهو أحد المبايعين في العقبة الثَّانية . ففيها تفصيلاتٌ مهمَّةٌ ، قال: «خرجنا في حجَّاج قومنا من المشركين ، وقد صلَّينا ، وفقهنا ، ثمَّ خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله (ص) بالعقبة ، من أوسط أيام التَّشريق ، وكنَّا نكتم مَنْ معنا من المشركين أمرنا ، فَنِمْنَا تلك اللَّيلة مع قومنا في رحالنا ، حتَّى إذا مضى ثلثُ اللَّيل؛ خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله (ص) ، نتسَّلل تسلُّلَ القَطَا

(الحمام) مستخفين ، حتَّى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة ، ونحن ثلاثةٌ وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسَيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرٍو ، فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله (ص) ، حتَّى جاءنا ، ومعه العبَّاس بن عبد المطلب ، وهو يومئذٍ على دين قومه ، إلا أنَّه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثَّق له، فلمَّا جلس؛ كان أول متكلِّم العبَّاس بن عبد المطلب؛ فبيَّن أنَّ الرَّسول (ص) في منعةٍ من قومه بني هاشم ، ولكنَّه يريد الهجرة إلى المدينة ، ولذلك فإنَّ العباس يريد التأكُّد من حماية الأنصار له ، وإلا؛ فَلْيَدَعُوه ، فطلب الأنصار أن يتكلَّم رسولُ الله (ص) ، فيأخذ لنفسه ، ولربِّه ما يحبُّ من الشُّروط.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني ممَّا تمنعون منه نساءكم ، وأبناءكم» فأخذ البراء بن مَعْرور بيده ، ثمَّ قال: نعم والَّذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه أُزُرَنا[(٥٠)] ، فبايِعْنا يا رسولَ الله! فنحن والله أهل الحرب ، وأهل الحَلقة (السِّلاح) ، ورثناها كابراً عن كابر. فقاطعه أبو الهيثم بن التَّيِّهان متسائلاً: يا رسول الله! إنَّ بيننا وبين القوم حبالاً ، وإنَّا قاطعوها (يعني: اليهود) ، فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ، ثمَّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك ، وتَدَعَنا؟ فتبسَّم رسولُ الله (ص) ، ثمَّ قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ ، والهَدْمُ الهَدْمُ ، أنا منكم ، وأنتم منِّي ، أحارب مَنْ حاربتم ، وأسالم مَنْ سالمتم».

ثمَّ قال: «أَخْرِجُوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأَخْرَجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعةً من الخزرج ، وثلاثةً من الأوس.

وقد طلب الرَّسول (ص) منهم الانصراف إلى رحالهم ، وقد سمعوا الشَّيطان يصرخ منذراً قريشاً ، فقال العبَّاس بن عُبادة بن نَضْلة: والله الَّذي بعثك بالحق! إن شئتَ؛ لنميلنَّ على أهل مِنًى غداً بأسيافنا.

فقال رسول الله (ص) : «لم نُؤْمَر بذلك؛ ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا إلى رحالهم ، وفي الصَّباح جاءهم جمعٌ من كبار قريش ، يسألونهم عمَّا بلغهم من بيعتهم للنَّبيِّ (ص) ، ودعوتهم له للهجرة ، فحلف المشركون من الخزرج ، والأوس ، بأنَّهم لم يفعلوا ، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم[(٥١)] ، قال: ثمَّ قام القوم؛ وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزوميُّ ، وعليه نعلانِ جديدانِ ، قال: فقلت له كلمةً ـ كأنِّي أريد أن أشرك بها القومَ فيما قالوا ـ يا أبا جابر! أما تستطيع أن تتَّخذ ، وأنت سيِّدٌ من ساداتنا ، مثل نَعْلَي هذا الفتى من قريشٍ؟ قال: فسمعهما الحارث ، فخلعهما من رجليه ، ثمَّ رمى بها إليَّ، وقال: والله لتَنْتَعِلَنَّهما ، قال: يقول

أبو جابر: مَهْ! أَحْفَظْتَ (أي: أغضبت) والله الفتى ، فارددْ إليه نعليه. قال: قلت: لا والله! لا أردُّهما ، فألٌ والله صالح! لئن صدق الفأل لأسْلُبَنَّه. [أحمد (٣/٤٦٠ ـ ٤٦٢) والحاكم (٢/٦٢٤ ـ ٦٢٥) والطبري في تاريخه (٢/٣٦٠ ـ ٣٦٢) والبيهقي في سننه الكبرى (٩/٩)] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ «كانت هذه البيعة العظمى بملابساتها ، وبواعثها ، واثارها ، وواقعها التَّاريخي ، (فتحَ الفتوح)؛ لأنَّها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلاميَّة ، الَّتي تتابعت حلقاتها في صورٍ متدرِّجة ، مشدودةٍ بهذه البيعة؛ منذ اكتمل عقدها ، بما أخذ فيها رسول الله (ص) من عهودٍ ومواثيق على أقوى طليعةٍ من طلائع أنصار الله؛ الَّذين كانوا أعرف النَّاس بقدر مواثيقهم ، وعهودهم ، وكانوا أسمح النَّاس بالوفاء بما

عاهدوا الله ، ورسوله (ص) عليه؛ من التَّضحية ، مهما بلغت متطلبَّاتها من الأرواح ، والدِّماء ، والأموال ، فهذه البيعة في بواعثها هي بيعة الإيمان بالحقِّ، ونصرته، وهي في ملابساتها قوَّةٌ تناضل قوًى هائلةً تقف متألِّبةً عليها، ولم يَغِبْ عن أنصار الله قدرها ، ووزنها ، في ميادين الحروب ، والقتال ، وهي في اثارها تشميرٌ ناهضٌ بكلِّ ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتاليِّ في سبيل إعلاء كلمة الله ، على كلِّ عالٍ مستكبرٍ في الأرض؛ حتَّى يكون الدِّين كلُّه لله ، وهي في واقعها التَّاريخيِّ صدقٌ ، وعدلٌ ، ونصرٌ ، واستشهاد ، وتبليغٌ لرسالة الإسلام»[(٥٢)].

٢ ـ إنَّ حقيقة الإيمان ، وأثره في تربية النفوس ، تظهر اثارها في استعداد هذه القيادات الكبرى لأن تبذل أرواحها ، ودماءها في سبيل الله ، ورسوله (ص) ، ولا يكون لها الجزاء في هذه الأرض كسباً ، ولا منصباً ، ولا قيادةً ، ولا زعامةً ، وهم الَّذين أفنوا عشرات السِّنين من أعمارهم ، يتصارعون على الزَّعامة ، والقيادة ، إنَّه أثر الإيمان بالله ، وبحقيقة هذا الدِّين ، عندما يتغلغل في النُّفوس[(٥٣)].

٣ ـ يظهر التَّخطيط العظيم في بيعة العقبة؛ حيث تمَّت في ظروفٍ غايةٍ في الصُّعوبة ، وكانت تمثِّل تحدِّياً خطيراً ، وجريئاً لقوى الشِّرك في ذلك الوقت ، ولذلك كان التَّخطيط النَّبويُّ لنجاحها في غاية الإحكام والدِّقَّة على النَّحو التَّالي[(٥٤)]:

أ ـ سِرِّيَّة الحركة ، والانتقال لجماعة المبايعين؛ حتَّى لا ينكشفَ الأمر ، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلاً وامرأتين من بين وفدٍ يثربيٍّ قوامه نحو خمسمئة ممَّا يجعل حركة

هؤلاء السَّبعين صعبةً ، وانتقالهم أمراً غير ميسورٍ ، وقد تحدَّد موعد اللِّقاء في ثاني أيام التَّشريق ، بعد ثلث اللَّيل ، حيث النَّوم قد ضرب أعين القوم ، وحيث قد هدأت الرِّجْل ، كما تمَّ تحديد المكان في الشِّعْب الأيمن ، بعيداً عن عين مَنْ قد يستيقظ من النَّومِ لحاجةٍ[(٥٥)].

ب ـ الخروج المنظَّم لجماعة المبايعين ، إلى موعد ، ومكان الاجتماع ، فقد خرجوا يتسلَّلون مستخفين ، رجلاً رجلاً ، أو رجلين رجلين.

ج ـ ضرب السِّرِّيَّة التَّامة على موعد ، ومكان الاجتماع ، بحيث لم يعلم به سوى العبَّاس بن عبد المطلب ، الَّذي جاء مع النَّبيِّ (ص) ليتوثَّق له[(٥٦)] ، وعليُّ بن أبي طالبٍ ، الَّذي كان عيناً للمسلمين على فم الشِّعب ، وأبو بكر الَّذي كان على فم الطَّريق ـ وهو الاخر ـ عيناً للمسلمين[(٥٧)] ، أمَّا مَنْ عداهم من المسلمين ، وغيرهم فلم يكونوا يعلمون عن الأمر شيئاً ، وقد أمر جماعة المبايعين ألا يرفعوا الصَّوت ، وألا يطيلوا في الكلام؛ حذراً من وجود عينٍ تسمع صوتهم ، أو تحسُّ حركتهم[(٥٨)].

د ـ متابعة الإخفاء والسِّرِّيَّة حين كشف الشَّيطان أمر البيعة ، فأمرهم النَّبيُّ (ص) أن يرجعوا إلى رحالهم ، ولا يحدثوا شيئاً؛ رافضاً الاستعجال في المواجهة المسلَّحة؛ التي لم تتهيَّأ لها الظُّروف بعد ، وعندما جاءت قريش تستبرأى الخبر؛ موَّه المسلمون عليهم بالسُّكوت ، أو المشاركة بالكلام الَّذي يشغل عن الموضوع[(٥٩)].

هـ اختيار اللَّيلة الأخيرة من ليالي الحجِّ ، وهي الليلة الثالثة عَشْرة من ذي الحجَّة؛ حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التَّالي ، وهو يوم الثالث عشر ، ومن ثَمَّ تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم ، أو تعويقهم؛ إذا انكشف أمر البيعة ، وهو أمرٌ متوقَّع ، وهذا ما حدث[(٦٠)].

٤ ـ كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح ، والقوَّة بحيث لا تقبل التَّمييع والتَّراخي، إنَّه السَّمع ، والطَّاعة في النَّشاط والكسل ، والنَّفقة في اليسر ، والعسر ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم ، ونصرٌ لرسول الله (ص) وحمايته؛ إذا قدم المدينة[(٦١)].

٥ ـ سرعان ما استجاب قائد الأنصار ـ دون تردُّدٍ ـ البراء بن مَعْرور ، قائلاً: والذي بعثك بالحق! لنمنعنَّك مما نمنع منه أُزُرَنا ، فبايعنا يا رسول الله! فنحن والله أبناء الحرب! وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابرٍ ، فهذا زعيم الوفد يعرض إمكانيات قومه على رسول الله (ص) ، فقومه أبناء الحرب ، والسِّلاح(٥). وممَّا يجدر الإشارة إليه في أمر البراء: أنَّه عندما جاء مع قومه من يثرب قال لهم: إني قد رأيت رأياً ، فوالله ما أدري: أتوافقونني عليه ، أم لا؟

فقالوا: وما ذاك؟ قال: قد رأيت ألاَّ أدع هذه البَنِيَّة ـ يعني: الكعبة ـ منِّي بِظَهْر ، وأن أصلِّي إليها ، فقالوا له: والله ما بلغنا أنَّ النَّبيَّ (ص) يصلِّي إلاَّ إلى الشَّام ـ ببيت المقدس ـ وما نريد أن نخالفه ، فكانوا إذا حضرت الصَّلاة صلُّوا إلى بيت المقدس ، وصلَّى هو إلى الكعبة ، واستمرُّوا كذلك؛ حتى قدموا مكَّة ، وتعرَّفوا إلى رسول الله (ص) وهو جالسٌ مع عمِّه العباس رضي الله عنه بالمسجد الحرام ، فسأل النَّبيُّ (ص) العباسَ رضي الله عنه: «هل تعرف هذين الرَّجلين يا أبا الفضل؟» قال: نعم، هذا البراء بن مَعْرور سيِّد قومه ، وهذا كعب بن مالكٍ ، فقال النَّبيُّ (ص) : «الشَّاعر؟» قال: نعم. فقصَّ عليه البراء ما صنع في سفره من صلاته إلى الكعبة. قال: فماذا ترى يا رسول الله؟! قال: «قد كنت على قِبْلةٍ لو صبرتَ عليها»[(٦٢)] قال كعب: فرجع البراء إلى قِبْلةِ رسول الله (ص) ، وصلَّى معنا إلى الشَّام ، فلمَّا حضرته الوفاة أمر أهله أن يوجِّهوه قبَلَ الكعبة ، ومات في صفر قبل قدومه (ص) بشهرٍ ، وأوصى بثلث ماله إلى النَّبيِّ (ص) ، فقبله ، وردَّه على ولده ، وهو أوَّل من أوصى بثلث ماله[(٦٣)].

ويستوقفنا في هذا الخبر:

أ ـ الانضباط ، والالتزام من المسلمين بسلوك رسولهم (ص) ، وأوامره ، وإنَّ أيَّ اقتراحٍ مهما كان مصدره ، يتعارض مع ذلك يُعَدُّ مرفوضاً ، وهذه الأمور من أولويات الفقه في دين الله ، تأخذ حيِّزها في حياتهم ، وهم ـ بعد ـ ما زالوا في بداية الطَّريق.

ب ـ إنَّ السِّيادة لم تعد لأحدٍ غير رسول الله (ص) ، وإنَّ توقير أيِّ إنسانٍ ، واحترامه إنَّما هو انعكاسٌ لسلوكه ، والتزامه بأوامر الرَّسول (ص) ، وهكذا بدأت تنزاح تقاليد جاهليَّةٌ؛ لتحلَّ محلَّها قيمٌ إيمانيَّة ، فهي المقاييس الحقَّة؛ الَّتي بها يمكن الحكم على النَّاس تصنيفاً وترتيباً[(٦٤)].

٦ ـ كان أبو الهيثم بن التَّيِّهان صريحاً عندما قال للرَّسول (ص) : إنَّ بيننا وبين الرِّجال حبالاً ، وإنَّا قاطعوها ـ يعني: اليهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله؛ أن ترجع

إلى قومك ، وتدعنا؟ فتبسَّم رسولُ الله (ص) وقال: «بل الدَّمُ الدَّمُ ، والهدمُ الهدمُ ، أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم».

وهذا الاعتراض يدلُّنا على الحرِّيَّة العالية؛ الَّتي رفع الله تعالى المسلمين إليها بالإسلام ، حيث عبَّر عمَّا في نفسه بكامل حرِّيَّته[(٦٥)] ، وكان جواب سيِّد الخلق (ص) عظيماً ، فقد جعل نفسه جزءاً من الأنصار ، والأنصار جزءاً منه[(٦٦)].

٧ ـ يؤخذ من اختيار النُّقباء دروسٌ مهمَّةٌ؛ منها:

أ ـ أنَّ الرَّسول (ص) لم يعيِّن النُّقباء؛ إنَّما ترك طريق اختيارهم إلى الَّذين بايعوا ، فإنَّهم سيكونون عليهم مسؤولين وكفلاء ، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله ، ويقوم بأمره ، وهذا أمرٌ شوريٌّ ، وأراد الرسول (ص) أن يمارسوا الشُّورى عمليّاً من خلال اختيار نقبائهم.

ب ـ التَّمثيل النِّسبي في الاختيار ، فمن المعلوم أنَّ الذين حضروا البيعة من الخزرج ، أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس ، ثلاثة أضعاف من الأوس؛ بل يزيدون ، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس ، وتسعة من الخزرج[(٦٧)].

ج ـ جعل رسول الله (ص) النقباء مشرفين على سير الدَّعوة في يثرب ، حيث استقام عود الإسلام هناك ، وكثر مثقَّفوه ، ومعتنقوه ، فأراد الرَّسول (ص) أن يشعرهم أنَّهم لم يعودوا غرباء؛ لكي يبعث إليهم أحداً من غيرهم ، وأنَّهم غدوا أهل الإسلام ، وحماته ، وأنصاره[(٦٨)].

٨ ـ تأكَّد زعماء مكَّة من حقيقة الصَّفقة ، الَّتي تمَّت بين رسول الله (ص) والأنصار ، فخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر[(٦٩)] ، والمنذر بن عمرو ، وكلاهما كان نقيباً ، فأمَّا المنذر ، فأعجز القومَ ، وأمَّا سعدٌ ، فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنِسْع[(٧٠)] رَحْله ، ثمَّ أقبلوا به حتَّى أدخلوه مكَّة ، يضربونه ، ويجذبونه بجُمَّته[(٧١)] . وكان ذا شعرٍ كثيرٍ .[(٧٢)] ، واستطاع أن يتخلَّص من قريش ، بواسطة الحارث بن حرب بن أميَّة ، وجبير بن مُطْعِمٍ؛ لأنَّه كان يجير تجارتهم ببلده؛ فقد أنقذته أعراف الجاهليَّة ، ولم تنقذه سيوف المسلمين ، ولم يجد في نفسه

غضاضةً من ذلك ، فهو يعرف: أنَّ المسلمين مطاردون في مكَّة ، وعاجزون عن حماية أنفسهم[(٧٣)] ، وقد قيل في هذه الحادثة أوَّل شعرٍ في الهجرة ، بيتان قالهما ضرار بن الخطَّاب بن مرداس؛ حيث قال:

تَدارَكْتُ سَعْداً عَنْوَةً فأخَذْتُهُوكانَ شِفاءً لَو تَدارَكْتُ مُنْذِرا

ولو نِلْتهُ طُلَّتْ[(٧٤)] هُنَاكَ جِراحُهُوكانَ حرِيّاً أَنْ يُهَانَ ويُهْدَرا

وكان حسَّان بن ثابت بالمرصاد ، وردَّ عليه بأبيات من الشِّعر ، تناقلتها الرُّكبان:

وَلَسْتُ إِلَى سَعْدٍ ولاَ المرْءُ مِنْذِرٌإِذَا مَا مَطَايا القَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمَّرا[(٧٥)]

فَلاَ تَكُ كالوَسْنَانِ يَحْلُمُ أَنَّهُبِقَرْيَةِ كِسْرَى أَوْ بِقَرْيَةِ قَيْصَرَا

فإِنَّا وَمَنْ يَهْدِي القَصَائِدَ نَحْوَنَاكَمُسْتَبْضِعٍ تَمْراً إِلَى أَرْضِ خَيْبَرا[(٧٦)]

٩ ـ في قول العبَّاس بن عبادة بن نضلة: «والله الذي بعثك بالحق! إن شئت لَنميلنَّ على أهل مِنَى غداً بأسيافنا» ، وقول رسول الله (ص) : «لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه] درسٌ تربويٌّ بليغٌ ، وهو: أنَّ الدِّفاع عن الإسلام ، والتَّعامل مع أعداء هذا الدِّين ، ليس متروكاً لاجتهاد أتباعه؛ وإنَّما هو خضوعٌ لأوامر الله تعالى ، وتشريعاته الحكيمة ، فإذا شُرع الجهاد؛ فإنَّ أمر الإقدام ، أو الإحجام متروكٌ لنظر المجتهدين ، بعد التَّشاور ، ودراسة الأمر من جميع جوانبه[(٧٧)] ، وكلَّما كانت عبقريَّة التَّخطيط السِّياسيِّ أقوى؛ أدَّت إلى نجاح المهمَّات أكثر ، وإخفاء المخطَّطات ، وتنفيذها عن العدوِّ ، هو الكفيل ـ بإذن الله ـ بنجاحها: «ولكن ارجعوا إلى رحالكم» [سبق تخريجه][(٧٨)].

١٠ ـ كانت البيعة بالنِّسبة للرِّجال ببسط رسول الله (ص) يده ، وقولهم له: ابسط يدك ، فبسط يده ، فبايعوه ، وأمَّا بيعة المرأتين اللَّتين شهدتا الوقعة ، فكانت قولاً؛ ما صافح رسول الله (ص) امرأةً أجنبيةً قطُّ ، فلم يتخلَّف أحدٌ عن بيعته (ص) ، حتَّى المرأتان بايعتا بيعة الحرب ، وصدقتا عهدهما ، فأمَّا نُسَيبة بنت كعب (أمُّ عمارة) ، فقد سقطت في أُحدٍ ، وقد أصابها اثنا عشر جرحاً ، وقد خرجت يوم أحدٍ مع

زوجها زيد بن عاصم بن كعب، ومعها سقاءٌ تسقي به المسلمين ، فلمَّا انهزم المسلمون؛ انحازت إلى رسول الله (ص) ، فكانت تباشر القتال ، وتذبُّ

عنه بالسَّيف ، وقد أصيبت بجراحٍ عميقةٍ ، وشهدت بيعة الرِّضوان[(٧٩)] ، وقطَّع مسيلمة الكذَّاب ابنها إرباً إرباً ، فما وهنت ، وما استكانت[(٨٠)] ، وشهدت معركة اليمامة ، في حروب الرِّدة مع خالد بن الوليد ، فقاتلت حتَّى قطعت يدُها ، وجُرحت اثني عَشَرَ جُرحاً[(٨١)] ، وأمَّا أسماء بنت عمرو من بني سلمة ، قيل: هي والدة معاذ بن جبل ، وقيل: ابنة عمَّة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعاً[(٨٢)].

١١ ـ عندما نراجع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار في كتب السِّير والتَّراجم ، نجد: أنَّ هؤلاء الثلاثة والسَّبعين ، قد استشهد قرابة ثلثهم على عهد النَّبيِّ (ص) وبعده ، ونلاحظ: أنَّه قد حضر المشاهد كلَّها مع رسول الله (ص) قرابة النِّصف ، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرَّسول (ص) في جميع غزواته ، وأمَّا الَّذين حضروا غزوة بدر ، فكانوا قرابة السَّبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ، ورسوله (ص) ؛ فمنهم من قضى نحبه ، ولقي ربَّه شهيداً ، ومنهم من بقي حتَّى ساهم في قيادة الدَّولة المسلمة ، وشارك في أحداثها الجِسَام ، بعد وفاة رسول الله (ص) ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام ، النَّماذج الَّتي تعطي ، ولا تأخذ ، والَّتي تقدِّم كلَّ شيءٍ ، ولا تطلب شيئاً إلا الجنَّة ، ويتصاغر التَّاريخ في جميع عصوره ، ودهوره ، أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرِّجال والنِّساء[(٨٣)].

* * *

المبحث الرَّابع

الهجرة إلى المدينة

أولاً: التَّمهيد ، والإعداد لها:

إنَّ الهجرة إلى المدينة سبقها تمهيدٌ ، وإعدادٌ ، وتخطيط من النَّبيِّ (ص) ، وكان ذلك بتقدير الله تعالى ، وتدبيره ، وكان هذا الإعداد في اتِّجاهين: إعداد في شخصية المهاجرين ، وإعداد في المكان المهاجَرِ إليه.

١ ـ إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهةً ، أو رحلةً يروِّح فيها الإنسان عن نفسه؛ ولكنَّها مغادرةُ الأرض، والأهل ، ووشائج القربى ، وصلات الصَّداقة والمودَّة ، وأسباب الرِّزق ، والتَّخلِّي عن كلِّ ذلك من أجل العقيدة ، ولهذا احتاجت إلى جهدٍ كبيرٍ ، حتَّى وصل المهاجرون إلى قناعةٍ كاملةٍ بهذه الهجرة ، ومن تلك الوسائل:

ـ التَّربية الإيمانيَّة العميقة الَّتي تحدَّثنا عنها في الصَّفحات الماضية.

ـ الاضطهاد الَّذي أصاب المؤمنين ، حتَّى وصلوا إلى قناعةٍ كاملةٍ بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر.

ـ تناول القران المكِّيِّ التَّنويه بالهجرة ، ولفت النَّظر إلى أنَّ أرض الله واسعةٌ. قال تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [الزمر: ١٠] .

ثمَّ تلا ذلك نزولُ سورة الكهف ، والَّتي تحدَّثت عن الفتية الذين امنوا بربهم ، وعن هجرتهم من بلدهم إلى الكهف ، وهكذا استقرَّت صورةٌ من صور الإيمان في نفوس الصَّحابة ، وهي ترك الأهل ، والوطن من أجل العقيدة.

ثم تلا ذلك اياتٌ صريحةٌ تتحدَّث عن الهجرة في سورة النَّحل ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٤١ ـ ٤٢] .

وفي أواخر السُّورة يؤكِّد المعنى مرَّةً أخرى بقوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النحل: ١١٠] .

وكانت الهجرة إلى الحبشة تدريباً عمليّاً على ترك الأهل ، والوطن[(٨٤)].

٢ ـ الإعداد في يثرب:

نلاحظ: أنَّ الرَّسول (ص) ، لم يسارع بالانتقال إلى الأنصار من الأيام الأولى؛ وإنَّما أخَّر ذلك لأكثر من عامين؛ حتَّى تأكَّد من وجود القاعدة الواسعة نسبيّاً ، كما كان في الوقت نفسه يتمُّ إعدادها في أجواء القران الكريم ، وخاصَّةً بعد انتقال مصعب رضي الله عنه إلى المدينة.

وقد تأكَّد: أنَّ الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله ، وذلك بطلبهم هجرة الرَّسول الكريم (ص) إليهم ، كما كانت المناقشات الَّتي جرت في بيعة العقبة الثَّانية ، تؤكِّد الحرص الشَّديد من الأنصار على تأكيد البيعة ، والاستيثاق للنَّبي (ص) بأقوى المواثيق على أنفسهم ، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل مِنًى ممَّن اذى رسول الله (ص) بأسيافهم؛ لو أذن الرَّسول الكريم بذلك ، ولكنَّه قال لهم: «لم نؤمر بذلك».

وهكذا تمَّ الإعداد لأهل يثرب؛ ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين ، وما يترتَّب على ذلك من تبِعَات[(٨٥)].

ثانياً: تأمُّلاتٍ في بعض ايات سورة العنكبوت:

تعتبر سورة العنكبوت من أواخر ما نزل في المرحلة المكِّيَّة ، وتحدَّثت السُّورة عن سنَّة الله في الدَّعوات ، وهي سنُّة الابتلاء ، قال تعالى: {الم *أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ *أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ *} [العنكبوت: ١ ـ ٤] .

وفي سورة العنكبوت ثلاثةُ أمورٍ تلفت النَّظر ، وهي:

١ ـ ذِكْرُ كلمة المنافقين ، ومن المعلوم: أنَّ النِّفاق لا يكون إلا عندما تكون الغلبة للمسلمين؛ حيث يخشى بعضُ النَّاس على مصالحهم ، فيظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، ومن المعلوم: أنَّ المجتمع في مكَّة كان جاهليّاً ، وكانت القوَّة والغلبة لأهل الشِّرك ، فما مناسبة مجيء المنافقين في هذه السُّورة ، في قوله تعالى: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ *} [العنكبوت: ١١] ، وهي سورةٌ مكِّيَّةٌ كما قلنا: فهل كانت الامال قد قويت عند الفئة

المؤمنة بحيث تراءى لهم الفرج ، والنَّصر قاب قوسين أو أدنى؟ أم أنَّ هذه الاية مدنيَّةٌ وضعت في سورةٍ مكِّيَّةٍ؛ لأنَّ النِّفاق لم يحِنْ وقتُه بعدُ ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفسِّرين؟[(٨٦)].

٢ ـ ورد الأمر بمجادلة أهل الكتاب بالَّتي هي أحسن ، وكأنَّه تهيئةٌ للنُّفوس للمرحلة القادمة؛ الَّتي سيكون بين المسلمين وبين أهل الكتاب فيها احتكاكٌ ، فلا يكونون البادئين بالشدَّة ، فيأتي التَّنبيه على هذا الأمر في قوله تعالى: {وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلاَءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الْكَافِرُونَ *} [العنكبوت: ٤٦ ـ ٤٧] .

٣ ـ تهيئة النُّفوس للهجرة في أرض الله الواسعة ، وربما كانت المدينة قد بدأت تستقبل المهاجرين من المؤمنين بعد بيعة العقبة الأولى ، ومهما كان الأمر ، وأنَّى كان وقت نزول سورة العنكبوت؛ فإنَّ الإشارة واضحةٌ ، والحثَّ على الهجرة ـ أيضاً ـ واضحٌ ببيان تكفُّل اللهِ الرّزق للعباد؛ في أيّ أرضٍ ، وفي أيّ زمانٍ[(٨٧)].
قال تعالى: {يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ *} [العنكبوت: ٥٦] .
هذه الاية الكريمة نزلت في تحريض المؤمنين الَّذين كانوا بمكَّة على الهجرة؛ فأخبرهم الله تعالى بسعة أرضه ، وأنَّ البقاء في بقعةٍ على أذى الكفار ليس بصوابٍ؛ بل الصَّواب أن يُتلمَّس عبادةُ الله في أرضه مع صالحي عباده؛ أي: إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان بها ، فهاجروا إلى المدينة؛ فإنَّها واسعةٌ لإظهار التَّوحيد بها[(٨٨)] ، ثمَّ أخبرهم تعالى: أنَّ الرِّزق لا يختصُّ ببقعةٍ معيَّنةٍ؛ بل رزقه تعالى عامٌّ لخلقه حيث كانوا ، وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر ، وأوسع ، وأطيب ، فإنَّهم بعد قليل صاروا حكَّام البلاد في سائر الأقطار ، والأمصار[(٨٩)] ، ولهذا قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَآبَّةٍ لاَ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [العنكبوت: ٦٠] .
كما ذكَّرهم تعالى: أنَّ كلَّ نفسٍ واجدةٌ مرارة الموت ، فقال جلَّ شأنه: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ *} [العنكبوت: ٥٧] .
أي: واجدةٌ مرارته ، وكربه ، كما يجد الذَّائق طعم المذوق ، ومعناه: إنَّكم ميّتون ،
فواصلون إلى الجزاء ، ومن كانت هذه عاقبته؛ لم يكن له بُدٌّ من التزوُّد لها ، والاستعداد بجهده[(٩٠)] ، وهذا تشجيعٌ للنَّفس على الهجرة؛ لأنَّ النَّفس إذا تيقَّنت بالموت؛ سهُلَ عليها مفارقةُ وطنها[(٩١)].
قال ابن كثير في الاية: أي: أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا في طاعة الله ، وحيث أمركم الله؛ فهو خيرٌ لكم ، فإنَّ الموت لابدَّ منه ، ولا محيد عنه ، ثمَّ إلى الله المرجع والماب ، فمن كان مطيعاً له؛ جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتمَّ الثَّواب[(٩٢)] ، ولهذا قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩]، أي: صبروا على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابزوا الأعداء ، وفارقوا الأهل ، والأقرباء؛ ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده ، وتصديق موعوده ، ولم يتوكَّلوا في جميع ذلك إلا على الله[(٩٣)].
ثالثاً: طلائع المهاجرين:

لما بايعتْ طلائعُ الخير ، ومواكبُ النُّور من أهل يثرب النَّبيَّ (ص) على الإسلام ، والدِّفاع عنه؛ ثارت ثائرة المشركين ، فازدادوا إيذاءً للمسلمين ، فأذن النَّبيُّ (ص) للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ، وكان المقصود من الهجرة إلى المدينة ، إقامة الدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي تحمل الدَّعوة ، وتجاهد في سبيلها؛ حتَّى لا تكون فتنةٌ ، ويكون الدِّين كلُّه لله[(٩٤)] ، وكان التَّوجيه إلى المدينة من الله تعالى ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما صدر السَّبعون من عند رسول الله (ص) ؛ طابت نفسه ، وقد جعل الله له منعةً ، وقوماً أهل حربٍ ، وعدَّةٍ ، ونجدةٍ ، وجعل البلاء يشتدُّ على المسلمين من المشركين؛ لما يعلمون من الخروج ، فضيَّقوا على أصحابه ، وتعبَّثوا[(٩٥)] بهم ، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشَّتم ، والأذى ، فشكا ذلك أصحابُ رسول الله (ص) واستأذنوه في الهجرة ، فقال: « قد أُريت دار هجرتكم ، أريت سبخةً ذات نخلٍ بين لابتين . وهما الحرَّتان . ولو كانت السَّراة أرض نخلٍ ، وسباخٍ؛ لقلت: هي ، هي» [البخاري (٢٢٩٧) والبيهقي في الدلائل (٢/٤٥٩)] ..

ثمَّ مكث أياماً ، ثمَّ خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي

يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها» فجعل القوم يتَّجهون ، ويتوافقون ، ويتواسون ، ويخرجون ، ويخفون ذلك ، فكان أوَّلَ من قدم المدينة من أصحاب رسول الله (ص) ، أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثمَّ قدم بعده عامر بن ربيعة ، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمَة ، فهي أوَّل ظعينةٍ قدمت المدينة ، ثمَّ قدم أصحاب رسول الله (ص) أرسالاً ، فنزلوا على الأنصار في دورهم ، فاووهم ، ونصروهم ، واسوهم ، وكان سالم مولى أبي حُذيفة ، يؤمُّ المهاجرين بقباء ، قبل أن يقدم النَّبيُّ (ص) ، فلمَّا خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة ، كَلِبَتْ[(٩٦)] قريشٌ عليهم ، وحربوا ، واغتاظوا على مَنْ خرج من فتيانهم ، وكان نفرٌ من الأنصار بايعوا رسول الله (ص) في البيعة الاخرة ، ثمَّ رجعوا إلى المدينة ، فلمَّا قدم أوَّل مَنْ هاجر إلى قُباء؛ خرجوا إلى رسول الله (ص) بمكَّة ، حتَّى قدموا مع أصحابه في الهجرة ، فهم مهاجرون أنصاريُّون ، وهم: ذكوان بن عبد قيس ، وعقبة بن وهب بن كلدة ، والعباس بن عبادة بن نضلة ، وزياد بن لبيد ، وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة ، فلم يبقَ بمكَّة فيهم إلا رسول الله (ص) ، وأبو بكر ، وعليٌّ ، أو مفتونٌ ، أو مريضٌ ، أو ضعيفٌ عن الخروج. [ابن سعد (١/٣٢٥)] .

رابعاً: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ، ومن مشاهد العظمة في الهجرة:

عملت قيادة قريش مافي وسعها للحيلولة دون خروج من بقي من المسلمين إلى المدينة ، واتَّبعت في ذلك عدَّة أساليب؛ منها:

١ ـ أسلوب التَّفريق بين الرَّجل ، وزوجه ، وولده:

ونترك أمَّ المؤمنين أمَّ سلمة ، هند بنت أبي أميَّة تحدِّثنا عن روائع الإيمان ، وقوَّة اليقين في هجرتها ، وهجرة زوجها أبي سلمة. قالت رضي الله عنها: «لما أَجْمَعَ أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة ، رَحَل لي بعيرَهُ ، ثمَّ حملني عليه ، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثمَّ خرج بي يقود بعيرَه ، فلمَّا رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ قاموا إليه ، فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟

قالت: فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد ، رهط أبي سلمة ، فقالوا: لا والله ، لا نترك ابننا عندها؛ إذ نزعتموها من صاحبنا.

قالت: فتجاذبوا بُنيَّ سلمة بينهم ، حتَّى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة.

قالت: ففُرِّق بيني ، وبين زوجي ، وبين ابني.

قالت: فكنت أخرج كلَّ غداةٍ ، فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتَّى أُمسي ، سنةً ، أو قريباً منها؛ حتَّى مرَّ بي رجلٌ من بني عمِّي ـ أحدُ بني المغيرة ـ فرأى ما بي ، فرحمني ، فقال لبني المغيرة: ألا تُخْرِجون هذه المسكينة؛ فرَّقتم بينها وبين زوجها ، وبين ولدها؟!

قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ.

قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني.

قالت: فارتحلتُ بعيري ، ثمَّ أخذت ابني ، فوضعته في حِجري ، ثمَّ خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحدٌ من خَلْق الله.

قالت: فقلت: أتبلَّغ بمن لقيت حتَّى أقدم على زوجي ، حتَّى إذا كنت بالتَّنْعيم ، لقيتُ عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، أخا بني عبد الدَّار.

فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أميَّة؟!

قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة.

قال: أو ما معك أحد؟

قالت: فقلت: لا والله! إلا الله ، وبُنَيَّ هذا.

قال: والله ما لكِ من مَتْرك.

فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معي يَهْوِي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطُّ أرى أنَّه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل؛ أناخ بي ، ثمَّ استأخر عنِّي ، حتَّى إذا نزلت استأخر ببعيري ، فحطَّ عنه ، ثمَّ قيَّده في الشَّجرة ، ثمَّ تنحَّى عنِّي إلى شجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرَّواح؛ قام إلى بعيري ، فقدَّمه ، فرحَّله ، ثمَّ استأخر عنِّي ، وقال: اركبي ، فإذا ركبتُ ، واستويت على بعيري؛ أتى فأخذ بخطامه ، فقاده حتَّى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقْدَمني المدينة فلمَّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء ، قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادْخُليها على بركة الله ، ثمَّ انصرف راجعاً إلى مكَّة.

قال: فكانت تقول: والله! ما أعلم أهل بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصاب ال أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قطُّ كان أكرم من عثمان بن طلحة». [ابن هشام (٢/١١٢ ـ ١١٣)][(٩٧)] .

فهذا مثل على الطُّرق القاسية ، الَّتي سلكتها قريشٌ؛ لتحول بين أبي سلمة والهجرة ، فرجلٌ يفرِّق بينه وبين زوجه عَنْوَةً ، وبينه وبين فلذة كبده على مرأىً منه ، كلُّ ذلك من أجل أن يثنوه عن الهجرة ، ولكنْ متى تمكَّن الإيمان من القلب؛ استحال أن يقدِّم صاحبه على الإسلام والإيمان شيئاً ، حتَّى لو كان ذلك الشَّيء ، فلذة كبده ، أو شريكة حياته ، لذا انطلق أبو سلمة رضي الله عنه إلى المدينة ، لا يلوي على أحدٍ ، وفشل معه هذا الأسلوب ، وللدُّعاة إلى الله فيه أسوةٌ[(٩٨)].

وهكذا أثَرُ الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب ، فهذه أسرةٌ فُرِّق شملُها ، وامرأةٌ تبكي شدَّة مصابها ، وطفلٌ خُلعت يده ، وحُرِم من أبويه ، وزوج ، وأبٌ يسجِّل أروع صور التَّضحية ، والتَّجرد؛ ليكون أوَّل مهاجرٍ يصل أرض الهجرة ، محتسبين في سبيل الله ما يلقون ، مصمِّمين على المضيِّ في طريق الإيمان ، والانحياز إلى كتيبة الهدى ، فماذا عسى أن ينال الكفر ، وصناديده من أمثال هؤلاء؟!

وأمَّا صنيع عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، فقد كان يومئذ كافراً «وأسلم قبل الفتح» ، ومع ذلك تشهَدُ له أمُّ سلمة رضي الله عنها بكرم الصُّحْبةِ ، وذلك شاهد صدقٍ على نفاسة هذا المعدن ، وكمال مروءته ، وحمايته للضَّعيف[(٩٩)] ، فقد أبت عليه مروءته ، وخلقه العربيُّ الأصيل ، أن يَدَع امرأةً شريفةً ، تسير وحدها في هذهِ الصَّحراء الموحشة ، وإن كانت على غير دينه ، وهو يعلم أنَّها بهجرتها تراغمه ، وأمثاله من كفَّار قريش.

فأين من هذه الأخلاق ـ يا قومي المسلمين! ـ أخلاق الحضارة في القرن العشرين؛ من سطوٍ على الحرّيات ، واغتصابٍ للأعراض؛ بل وعلى قارعة الطَّريق ، وما تطالعنا به الصَّحافة كلَّ يومٍ من أحداثٍ يندى لها جبين الإنسانيَّة؛ مِن تَفَنُّنٍ في وسائل الاغتصاب ، وانتهاك الأعراض ، والسَّطو على الأموال!.

إنَّ هذه القصة ـ ولها مُثُلٌ ونظائر ـ لتشهدُ أنَّ ما كان للعرب من رصيدٍ من الفضائل كان أكثر من مثالبهم ، ورذائلهم ، فَمِنْ ثمَّ اختار الله منهم خاتم أنبيائه ورسله (ص) ، وكانوا أهلاً لحمل الرِّسالة ، وتبليغها للنَّاس كافَّةً[(١٠٠)].

وتظهر عناية الله تعالى بأوليائه ، وتسخيره لهم ، فهو ـ جلَّ وعلا ـ الَّذي سخَّر قلب عثمان بن طلحة للعناية بأمِّ سلمة، ولذلك بذل الجهد ، والوقت من أجلها[(١٠١)] ، كما تظهر سلامة فطرة عثمان بن طلحة؛ الَّتي قادته أخيراً إلى الإسلام بعد صلح الحديبية ، ولعلَّ إضاءة قلبه بدأت
منذ تلك الرِّحلة في مصاحبته لأمِّ سلمة رضي الله عنها[(١٠٢)].

٢ ـ أسلوب الاختطاف:

لم تكتفِ قيادة قريش بالمسلمين داخل مكَّة بمنعهم من الهجرة ، بل تعدَّت ذلك إلى محاولة إرجاع من دخل المدينة مهاجراً ، فقامت بتنفيذ عملية اختطاف أحد المهاجرين ، ولقد نجحت هذه المحاولة ، وتمَّ اختطاف أحد المهاجرين من المدينة ، وأعيد إلى مكَّة[(١٠٣)] ، وهذه الصُّورة التَّاريخيَّة للاختطاف يحدِّثنا بها عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، حيث قال: اتَّعدتُّ لما أردنا الهجرة إلى المدينة ، أنا ، وعيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السَّهمي التَّناضِبَ[(١٠٤)] من أضَاة[(١٠٥)] بني غفارٍ ، فوق سَرِف[(١٠٦)] ، وقلنا: أيُّنا لم يُصْبِحْ عندها فقد حُبس ، فليمضِ صاحباه.

قال: فأصبحت أنا ، وعياش بن أبي ربيعة عند التَّناضِب ، وحُبِس عنَّا هشام ، وفُتن ، فافتتن[(١٠٧)].

فلمَّا قدمنا المدينة؛ نزلنا في بني عمرو بن عوف بقُباء ، وخرج أبو جهل بن هشام ، والحارث بن هشام ، إلى عيَّاش بن أبي ربيعة ، وكان ابن عمِّهما ، وأخاهما لأمِّهما ، حتَّى قدما علينا المدينة ، ورسول الله (ص) بمكَّة ، فكلَّماه ، وقالا: إنَّ أمَّك قد نذرت ألا يمسَّ رأسها مشطٌ حتَّى تراك ، ولا تستظلَّ من شمسٍ حتَّى تراك ، فرقَّ لها ، فقلت له: عيَّاش ، إنَّه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك ، فاحذرهم ، فوالله لو قد اذى أمَّك القملُ ، لامتشطت ، ولو قد اشتدَّ عليها حرُّ مكة لاستظلَّت.

قال: أبرُّ قسم أمِّي ، ولي هناك مالٌ ، فاخذه.

قال: فقلت: والله إنك لتعلم أنِّي لَمِنْ أكثر قريشٍ مالاً ، فلك نصفُ مالي ، ولا تذهب معهما ، قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما ، فلمَّا أبى إلا ذلك ، قلت له: أما إذ قد فعلت ما فعلت؛ فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقةٌ نجيبةٌ ذلول[(١٠٨)] ، فالزمْ ظهرها ، فإن رابك من القوم ريبٌ؛ فانجُ عليها ، فخرج عليها معهما ، حتَّى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال له أبو جهل: يا أخي ،

والله! لقد استغلظتُ بعيري هذا ، أفلا تُعْقِبني[(١٠٩)] على ناقتك هذه؟ قال: بلى ، قال: فأناخ ، وأناخ ، ليتحوَّل عليها ، فلما استوَوْا بالأرض ، عدوا عليه ، فأوثقاه ، ثمَّ دخلا به مكَّة ، وفتناه ، فافتتن[(١١٠)].

قال: فكنَّا نقول: ما الله بقابل ممَّن افتتن صَرفاً ، ولا عدلاً ، ولا توبةً ، قوم عرفوا الله ، ثمَّ رجعوا إلى الكفر لبلاءٍ أصابهم! قال: وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم ، فلمَّا قدم رسول الله (ص) المدينة؛ أنزل الله تعالى فيهم ، وفي قولنا ، وقولهم لأنفسهم: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ *وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ *وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ *} [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥] .

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: فكتبتها بيدي في صحيفةٍ ، وبعثت بها إلى هشام بن العاص ، قال: فقال هشام: فلمَّا أتتني؛ جعلت أقرؤها بذي طَوَى[(١١١)] أُصَعِّد بها فيه ، وأُصَوِّبُ ، ولا أفهمها ، حتَّى قلت: اللهمَّ فهِّمنيها ، قال: فألقى الله تعالى في قلبي أنَّها إنَّما أنزلت فينا ، وفيما كنا نقول في أنفسنا ، ويُقال: فينا ، قال: فرجعت إلى بعيري ، فجلست عليه ، فلحقت برسول الله (ص) ، وهو بالمدينة. [البزار (١٧٤٦) والبيهقي في الدلائل (٢/٤٦١ ـ ٤٦٢) ومجمع الزوائد (٦/٦١)][(١١٢)] .

هذه الحادثة تظهر لنا كيف أعدَّ عمر رضي الله عنه خطَّة الهجرة له ، ولصاحبيه عيَّاش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص بن وائل السَّهميِّ ، وكان ثلاثتهم كلٌّ واحدٍ من قبيلةٍ ، وكان مكان اللِّقاء الَّذي اتَّعدوا فيه بعيداً عن مكَّة ، وخارج الحرم ، على طريق المدينة ، ولقد تحدَّد الزمان ، والمكان بالضَّبط؛ بحيث إنَّه إذا تخلف أحدهم؛ فليمضِ صاحباه ، ولا ينتظرانه؛ لأنَّه قد حُبس ، وكما توقعوا ، فقد حبس هشام بن العاص رضي الله عنه ، بينما مضى عمر ، وعيَّاش بهجرتهما ، ونجحت الخطَّة كاملة ، ووصلا المدينة سَالِمَيْنِ[(١١٣)].

إلا أنَّ قريشاً صمَّمت على متابعة المهاجرين ، ولذلك أعدَّت خطَّةً محكمةً ، قام بتنفيذها أبو جهل ، والحارث ، وهما أَخَوَا عياش من أمِّه ، الأمر الذي جعل عياشاً يطمئنُّ لهما ، وبخاصَّةٍ إذا كان الأمر يتعلَّق بأمِّه ، فاختلق أبو جهل هذه الحيلة؛ لعلمه بمدى شفقة ورحمة
عيَّاش بأمِّه ، والَّذي ظهر جليّاً عندما أظهر موافقته على العودة معهما ، كما تُظهر الحادثة الحسَّ الأمني الرَّفيع؛ الَّذي كان يتمتَّع به عمر رضي الله عنه؛ حيث صدقت فراسته في أمر الاختطاف[(١١٤)].
كما يظهر المستوى العظيم من الأخوَّة التي بناها الإسلام في هذه النُّفوس؛ فعمر يضحِّي بنصف ماله حرصاً على سلامة أخيه ، وخوفاً عليه من أن يفتنه المشركون بعد عودته ، ولكن غلبت عياشاً عاطفتُه نحو أمِّه ، وبرِّه بها؛ ولذلك قرَّر أن يمضي لمكَّة فيبرَّ قسم أمِّه ، ويأتي بماله من هناك ، وتأبى عليه عفَّته أن يأخذ نصف مال أخيه عمر رضي الله عنه ، وماله قائم في مكَّة لم يُمسَّ ، غير أنَّ أفق عمر رضي الله عنه كان أبعد ، فكأنه يرى رأي العين ، المصير المشؤوم ، الَّذي سينزل بعياشٍ لو عاد إلى مكَّة ، وحين عجز عن إقناعه؛ أعطاه ناقته الذَّلول النَّجيبة ، وحدث لعياش ما توقَّعه عمر من غدر المشركين به[(١١٥)].
وساد في الصفِّ المسلم: أنَّ الله تعالى لا يقبل صرفاً ، ولا عدلاً ، من هؤلاء الذين فُتِنوا ، فافتتنوا ، وتعايشوا مع المجتمع الجاهليِّ ، فنزل قول الله تعالى: {قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ} ، وما إن نزلت هذه الايات ، حتَّى سارع الفاروق رضي الله عنه ، فبعث بهذه الاية إلى أخَوَيه الحميمين عيَّاش ، وهشام؛ ليجدِّدوا محاولاتهما في مغادرة معسكر الكفر .. أيُّ سموٍّ عظيمٍ عند ابن الخطَّاب رضي الله عنه؟! لقد حاول مع أخيه عياش ، أعطاه نصف ماله على ألاَّ يغادر المدينة ، وأعطاه ناقته ليفرَّ عليها ، ومع هذا كلِّه ، فلم يشمت بأخيه ، ولم يَتَشَفَّ منه لأنَّه خالفه ، ورفض نصيحته ، وألقى برأيه خلف ظهره؛ إنَّما كان شعور الحبِّ ، والوفاء لأخيه هو الَّذي يسيطر عليه ، فما إن نزلت الاية ، حتَّى سارع ببعثها إلى أخويه في مكَّة ، ولكلِّ المستضعفين هناك؛ ليقوموا بمحاولاتٍ جديدةٍ للانضمام إلى المعسكر الإسلاميِّ[(١١٦)].
٣ ـ أسلوب الحبس:
لجأت قريش إلى الحبس كأسلوبٍ لمنع الهجرة ، فكلُّ من تقبض عليه ، وهو يحاول الهجرة كانت تقوم بحبسه داخل أحد البيوت مع وضع يديه ، ورجليه في القيد ، وتفرض عليه رقابةً ، وحراسةً مشدَّدةً حتَّى لا يتمكَّن من الهرب ، وأحياناً يكون الحبس داخل حائطٍ بدون سقف ، كما فُعل مع عيَّاش ، وهشام بن العاص رضي الله عنهما ، حيث كانا محبوسَيْن في بيتٍ لا سَقف

له[(١١٧)] ، وذلك زيادة في التَّعذيب؛ إذ يضاف إلى وحشة الحبس ، حرارة الشَّمس ، وسط بيئةٍ جبليَّةٍ شديدة الحرارة مثل مكَّة.

فقيادة قريش تريد بذلك تحقيق هدفين؛ أوَّلهما: منع المحبوسين من الهجرة ، والاخر: أن يكون هذا الحبس درساً وعِظَةً ، لكلِّ مَنْ يحاول الهجرة من أولئك الَّذين يفكِّرون بها ممَّن بقي من المسلمين بمكَّة ، ولكن لم يمنع هذا الأسلوب المسلمين من الخروج إلى المدينة المنَّورة ، فقد كان بعض المسلمين محبوسين في مكَّة؛ مثل عيَّاش ، وهشام رضي الله عنهما، ولكنَّهما تمكَّنا من الخروج، واستقرّا بالمدينة[(١١٨)].

كان النَّبيُّ (ص) بعد هجرته يقْنُتُ ، ويدعو للمستضعفين في مكَّة عامَّةً ، ولبعضهم بأسمائهم خاصَّةً ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ (ص) كان إذا رفع رأسه من الرَّكعة الأخيرة؛ يقول: «اللَّهم أَنْجِ عيَّاش بن أبي ربيعة ، اللَّهمَّ أنج سَلَمَةَ بن هشام ، اللَّهم أنج الوليدَ بن الوليد ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللَّهم اشْدُدْ وطأتك على مُضَر ، اللهم اجعلها سنينَ كسِنِي يوسفَ» [البخاري (١٠٠٦) وأحمد (٢/٤١٨)] .

ولم يترك المسلمون أمر اختطاف عيَّاش؛ فقد ندب الرَّسول (ص) أحد أصحابه ، وفعلاً استعدَّ للمهمَّة ، ورتَّب لها ما يحقِّق نجاحها ، وذهب إلى مكَّة ، واستطاع بكلِّ اقتدارٍ ، وذكاءٍ ، أن يصل إلى البيت الَّذي حُبسا فيه ، وفكَّ قيدهما ، ورجع بهما إلى المدينة المنوَّرة[(١١٩)].

٤ ـ أسلوب التَّجريد من المال:

كان صهيب بن سنان النَّمَري من النَّمر بن قاسط ، أغارت عليهم الرُّوم ، فسُبي وهو صغيرٌ ، وأخذ لسان أولئك الَّذين سَبَوْه ، ثمَّ تقلَّب في الرِّق ، حتَّى ابتاعه عبد الله بن جُدعان ثمَّ أعتقه ، ودخل الإسلام هو ، وعمَّار بن ياسر رضي الله عنهما في يومٍ واحدٍ[(١٢٠)].

وكانت هجرة صهيب رضي الله عنه ، عملاً تتجلَّى فيه روعة الإيمان ، وعظمة التَّجرُّد لله؛ حيث ضحَّى بكلِّ ما يملك في سبيل الله ، ورسوله (ص) ، واللُّحوق بكتيبة التَّوحيد ، والإيمان[(١٢١)] ، فعن أبي عثمان النَّهْديِّ ـ رحمه الله ـ قال: بلغني: أنَّ صهيباً حين أراد الهجرة إلى المدينة ، قال له أهل مكَّة: أتيتنا هاهنا صُعْلُوكاً[(١٢٢)] ، حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت

ما بلغتَ ، ثمَّ تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك. فقال: أرأيتم إن تركت مالي؛ تخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم ، فجعل لهم ماله أجمع ، فبلغ ذلك النبيَّ (ص) فقال: «ربح صهيبٌ! ربح صهيبٌ!» [المطالب العالية (٤٠٦٣) وابن هشام (٢/١٢١)] .

وعن عكرمة ـ رحمه الله ـ قال: لما خرج صهيب مهاجراً؛ تبعه أهل مكَّة ، فنثل[(١٢٣)] كنانته ، فأخرج منها أربعين سهماً ، فقال: لا تَصِلُون إليَّ حتى أضع في كلِّ رجلٍ منكم سهماً ، ثمَّ أصيرُ بعد إلى السَّيف ، فتعلمون أنِّي رجلٌ ، وقد خلَّفت بمكَّة قينتين، فهما لكم» [الحاكم (٣/٣٩٨)] ، وقال عكرمة: ونزلت على النَّبيِّ (ص) : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ *} [البقرة: ٢٠٧]. فلمَّا راه النَّبيُّ (ص) قال: «أبا يحيى! ربح البيع!» قال: وتلا عليه الآية [الحاكم (٣/٣٩٨)] لكأنِّي[(١٢٤)] بصهيبٍ رضي الله عنه يقدِّم الدَّليل القاطع على فساد عقل أولئك الماديين؛ الَّذين يَزِنُون حركات التَّاريخ ، وأحداثَه كلَّها بميزان المادَّة ، فأين هي المادَّة الَّتي سوف يكسبها صهيبٌ في هجرته، والَّتي ضحَّى من أجلها بكلِّ ما يملك؟!

هل تراه ينتظر أن يعطيه محمَّدٌ (ص) منصباً يعوِّضه عمَّا فقده ؟! أو هل ترى محمَّداً (ص) يُمَنِّيه بالعيش الفاخر في جوار أهل يثرب؟

إنَّ صهيباً ما فعل ذلك ، وما انحاز إلى الفئة المؤمنة ، إلا ابتغاء مرضاة الله ، بالغاً ما بلغ الثَّمن؛ ليضرب لشباب الإسلام مثلاً في التَّضحية عزيزة المنال ، عساهم يسيرون على الدَّرب ، ويقتفون الأثر[(١٢٥)].

إنَّ هذه المواقف الرائعة ، لم تكن هي كلَّ مواقف العظمة والشُّموخ في الهجرة المباركة ، بل امتلأ هذا الحدث العظيم ، بكثيرٍ من مشاهد العظمة والتَّجرُّد والتَّضحية ، الَّتي تعطي الأمَّة دروساً بليغةً في بناء المجد ، وتحصيل العزَّة[(١٢٦)].

خامساً: البيوتات الحاضنة ، وأثرها في النُّفوس:

لقد كان من نتائج إيمان الأنصار ، ومبايعتهم ، وتعهُّدهم بالنُّصرة أن دعا رسولُ الله (ص) المسلمين إلى الهجرة إلى المدينة ، كما كان من نتائج ذلك أن ظهرت ظاهرةٌ عظيمةٌ من التَّكافل بين المسلمين ، ففتحت بيوت الأنصار أبوابها ، وقلوب أصحابها لوفود المهاجرين ،

واستعدَّت لاحتضانهم رجالاً ، ونساءً؛ إذ أصبح المسكن الواحد يضمُّ المهاجر، والأنصاريَّ ، والمهاجرة ، والأنصاريَّة ، يتقاسمون المال ، والمكان ، والطَّعام والمسؤوليَّة الإسلاميَّة؛ فمن هذه البيوتات الحاضنة:

١ ـ دار مبشِّر بن عبد المنذر بن زَنْبَر بقُباء: ونزل بها مجموعةٌ من المهاجرين ، نساءً ، ورجالاً ، وقد ضمَّت هذه الدُّور ، عمر بن الخطاب ، ومن لحق به من أهله وقومه ، وابنته حفصة ، وزوجها ، وعيَّاش بن أبي ربيعة.

٢ ـ دار خُبَيب بن إساف أخي بَلْحارث بن الخزرج بالسُّنْح[(١٢٧)]: نزل بها طلحة بن عبيد الله بن عثمان ، وأمُّه ، وصهيب بن سنان.

٣ ـ دار أسعد بن زُرارةَ من بني النَّجار ، قيل: نزل بها حمزة بن عبد المطَّلب.

٤ ـ دار سعد بن خيثمة أخي بني النَّجار ، وكان يسمَّى: بيت العزاب ، ونزل بها العُزَّاب من المهاجرين.

٥ ـ دار عبد الله بن سلمة أخي بَلْعجلان بقُباء ، ونزل بها عُبيدة بن الحارث ، وأمُّه سُخيلة ، ومِسْطَح بن أُثاثة بن عبَّاد بن المطلب ، والطُّفيل بن الحارث ، وطُليب بن عُمير ، والحُصَيْن بن الحارث؛ نزلوا جميعاً على عبد الله بن سلمة بقُباء.

٦ ـ دار بني جَحْجَبَى ، والْمُحتَضِن هو منذر بن محمَّد بن عُقبة ، نزل عنده الزُّبير بن العوَّام ، وزوجه أسماء بنت أبي بكر ، وأبو سَبْرة بن أبي رُهْم ، وزوجته أمُّ كلثوم بنت سُهيل[(١٢٨)].

٧ ـ دار بني عبد الأشهل ، والمحْتَضِن هو سعد بن معاذ بن النُّعمان من بني عبد الأشهل ، نزل بها مصعب بن عمير ، وزوجته حَمْنة بنت جحش.

٨ ـ دار بني النَّجار ، والمحتضن هو أوس بن ثابت بن المنذر ، نزل بها عثمان بن عفان ، وزوجته رقيَّة بنت رسول الله (ص)[(١٢٩)] .

فهذه المقاسمة ، وهذا التَّكافل الاجتماعيُّ كان من أهمِّ العناصر الَّتي مهَّدت لإقامة رسول الله (ص) وصحابته المهاجرين معه ، وبعده ، إقامةً طيِّبةً ، تنبض بالإيثار على النَّفس ، وبودِّ الأخوَّة الصَّادقة المؤمنة[(١٣٠)].

بهذه الروح العالية ، والإيمان الوثيق ، والصِّدق في المعاملة تمَّت المؤاخاة ، وتمَّ الوفاق بين المهاجرين ، والأنصار ، وقد يحدث تساؤلٌ ، فيقال: لماذا لم نسمع ، ولم تسجِّل المصادر ، ولم تكتب المراجع: أنَّ خلافاتٍ وقعت في هذه البيوت؟ وأين النِّساءُ وما اشتهرن به من مشاكسات؟

إنَّه الدِّين الحقُّ؛ الَّذي جعل تقوى الله أساساً لتصرُّف كلِّ نفسٍ ، والأخلاق السَّامية الَّتي فرضت الأخوة بين المسلمين ، ونصرة الدَّعوة ، إنَّها المبايعة ، وأثرها في النُّفوس ، إنَّه الصِّدق ، والعمل من أجل الجماعة ، خوفاً من العقاب ، ورهبةً من اليوم الاخر ، ورغبةً في الثواب ، وطمعاً في الجنة ، إنَّه دفء حضانة الإيمان ، واستقامة النَّفس والسُّلوك ، وصدق الطَّويَّة ، فكلُّ مَنْ أسلم ، وكلُّ من بايع ، وكلُّ من أسلمت ، وبايعت ، يعملون جميعهم ما يؤمرون به ، ويخلصون فيما يقولون ، يخافون الله في السِّر ، والعلن ، امنت نفوسهم فاحتضنت المناصرةُ المهاجرةَ ، فالكلُّ يعمل من أجل مصلحة الكلِّ ، فهذا هو التَّكافل

الاجتماعيُّ في أجلى صورةٍ ، وأقدس واقعةٍ ، رغب الكلُّ في الثَّواب؛ حتَّى إنَّ الواحد منهم يخاف ذهاب المناصر بالأجر كلِّه[(١٣١)].

إنَّ جانب البذل ، والعطاء ظاهرةٌ ، نحن بحاجة إلى الإشارة إليها في كلِّ وقتٍ؛ إنَّنا في عالمنا المعاصر ، وفي الصَّفِّ الإسلاميِّ ، وفي رحلةٍ لبضعة أيام تتكشَّف النُّفوس والعيوب ، والحزازات والظُّنون ، وهذا مجتمعٌ يبنى؛ ولما يصلْ رسول الله (ص) بعد ، ومع ذلك تفتح البيوت للوافدين الجُدُد ، ليس على مستوى فردٍ فقط؛ بل على مستوى جماعيٍّ كذلك ، ويقيم المهاجرون في بيوت الأنصار شهوراً عدَّةً ، والمعايشة اليوميَّة مستمرةٌ ، والأنصار يبذلون المال ، والحبَّ ، والخدمات لإخوانهم القادمين إليهم ، نحن أمام مجتمعٍ إسلاميٍّ ، بلغ الذِّروة في لُحْمَتِهِ ، وانصهاره ، ولم يكن المهاجرون إلا القدوة للأنصار بالبذل ، والعطاء ، فلم يكونوا أصلاً فقراء؛ بل كانوا يملكون المال ، ويملكون الدَّار ، وتركوا ذلك كلَّه ابتغاء مرضاة الله ، وبذلوه كلَّه لطاعته جلَّ وعلا ، فكانوا كما وصفهم القران الكريم: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٨ ـ ٩] .

كان هذا المجتمع المدنيُّ الجديد يتربَّى على معاني الإيمان ، والتَّقوى ، ولم يصل النَّبيُّ (ص)

بعد ، ولكن تحت إشراف النُّقباء الاثنى عشر ، الَّذين كانوا في كفالتهم لقومهم، ككفالة الحواريِّين لعيسى ابن مريم، وبإشراف قيادات المهاجرين الكبرى ، الَّتي وصلت المدينة، والذين استقوا جميعاً من النَّبع النَّبويِّ الثَّرِّ[(١٣٢)]، واقتبسوا من هديه[(١٣٣)].

ومن معالم هذا المجتمع الجديد ذوبان العصبية؛ فقد كان إمامُ المسلمين ، سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه؛ لأنه كان أكثرهم قراناً ، فهذا المجتمع الَّذي يوجد فيه عِلْيَةُ أصحاب محمَّد (ص) ؛ من المهاجرين، والأنصار، وسادة العرب من قريش ، والأوس والخزرج ، يقوده ويؤمُّه حامل القران ، فالكرامة العليا فيه لقارأى كتاب الله وحامله ، وحامل القران في المجتمع الإسلاميِّ هو نفسه حامل اللِّواء في الحرب ، فليس بينهما ذلك الانفصام الَّذي نشهده اليوم ، بين حملة القران من الحفَّاظ ، وبين المجاهدين في سبيل الله ، فقد كان حامل لواء المهاجرين في معركة اليمامة سالم مولى أبي حذيفة، وكان شعاره: (بئس حامل القران) ـ يعني: إن فررت ـ ، فقطعت يمينه ، فأخذ اللواء بيساره ، فقطعت ، فاعتنقه إلى أن صُرع ، واستُشهد في سبيل الله[(١٣٤)].

ومن معالم المجتمع الإسلاميِ الجديد حرِّيَّة الدَّعوة إلى الله علانيةً ، فقد أصبح واضحاً عند الجميع: أنَّ معظم قيادات يثرب دخلت في هذا الدِّين ، ونشط الشَّباب، والنِّساء ، والرِّجال في الدَّعوة إلى الله ، والتبشير بقدوم رسول الله (ص) على قدمٍ وساقٍ. ولابدَّ من المقارنة بين المجتمع الَّذي قام بالحبشة من المسلمين ، وبين المجتمع الإسلاميِّ في يثرب؛ فلقد كانت الحبشة تحمل طابع اللُّجوء السِّياسيِّ ، والجالية الأجنبيَّة أكثر ممَّا كانت تحمل طابع المجتمع الإسلاميِّ الكامل؛ صحيحٌ: أن المسلمين ملكوا حرِّيَّة العبادة هناك؛ لكنَّهم معزولون عن المجتمع النَّصرانيِّ ، لم يستطيعوا أن يؤثِّروا فيه التَّأثير المنشود ، وإن كانت هجرة الحبشة خطوةً متقدِّمةً على جو مكَّة؛ حيث لا تتوفر حرِّيَّة الدَّعوة ، وحرِّيَّة العبادة ، ولكنَّه دون المجتمع الإسلاميِّ في المدينة بكثير ، ولذلك شرع مهاجرو الحبشة بمجرَّد سماع خبر هجرة المدينة ، بالتوجُّه نحوها مباشرة ، أو عن طريق مكَّة؛ إلا من طلبت منه القيادة العليا البقاء هناك ، لقد أصبحت المدينة مسلمةً بعد أن عاشت قروناً وثنيَّةً مشركةً.

لقد أصبح المجتمع المدنيُّ مسلماً ، وبدأ نموُّه ، وتكوينه الفعليُّ بعد عودة الاثني عشر صحابيّاً من البيعة الأولى ، والَّتي كان على رأسها ، الصحابيُّ الجليل أسعد بن زُرَارَةَ والَّتي حملت المسؤوليَّة الدَّعويَّة فقط ، دون الوجود السِّياسيِّ ، وبلغ أوج توسُّعه ، وبنائه بعد عودة

السَّبعين ، الَّذين ملكوا الشَّارع السِّياسيَّ والاجتماعيَّ ، وقرَّروا أن تكون بلدهم عاصمة المسلمين الأولى في الأرض ، وهم على استعدادٍ أن يواجهوا كلَّ عدوٍّ خارجيٍّ ، يمكن أن ينال من هذه السِّيادة ، حتَّى قبل قدوم رسول الله (ص) إليهم في المدينة.

إنَّ القاعدة الصُّلبة ، الَّتي بذل رسول الله (ص) وقتاً وجهداً في تربيتها ، بدأت تعطي ثمارها أكثر ، بعد أن التحمت بالمجتمع المدنيِّ الجديد ، وانصهر كلاهما في معاني العقيدة ، وأخوَّة الدين.

لقد أعدَّ رسول الله (ص) الأفراد ، وصقلهم في بوتقة الجماعة ، وكوَّن بهم القاعدة الصُّلبة ، ولم يقم المجتمع الإسلاميُّ الَّذي تقوم عليه الدَّولة إلا بعد بيعة الحرب وبذلك نقول: إنَّ المجتمع الإسلاميَّ قام بعدما تهيَّأت القوَّة المناسبة لحمايته في الأرض[(١٣٥)].

وهكذا انتقلت الجماعة المسلمة المنظَّمة القويَّة إلى المدينة ، والتحمت مع إخوانها الأنصار ، وتشكَّل المجتمع المسلم؛ الَّذي أصبح ينتظر قائده الأعلى (ص) ؛ ليعلن ولادة دولة الإسلام ، الَّتي صنعت ـ فيما بعد ـ حضارةً؛ لم يعرفِ التَّاريخ مثلها حتَّى يومنا هذا.

سادساً: لماذا اختيرت المدينة كعاصمةٍ للدَّولة الإسلاميَّة؟

كان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة داراً للهجرة ، ومركزاً للدَّعوة . عدا ما أراده الله من إكرام أهلها . أسرارٌ لا يعلمها إلا الله؛ إنَّها امتازت بتحصُّن طبيعيٍّ حربيٍّ ، لا تزاحمها في ذلك مدينةٌ قريبةٌ في الجزيرة ، فكانت حَرَّة الوَبْرَة ، مُطبقةً على المدينة من النَّاحية الغربية ، وحَرَّة واقِم مطبقةً على المدينة من النَّاحية الشَّرقيَّة ، وكانت المنطقة الشَّمالية من المدينة هي الناحية الوحيدة المكشوفة . وهي الَّتي حصَّنها رسول الله (ص) بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب . وكانت الجهة الأخرى من أطراف المدينة ، محاطة بأشجار النَّخيل والزُّروع الكثيفة ، لا يمرُّ منها الجيش إلا في طرقٍ ضيِّقةٍ ، لا يتَّفق فيها النِّظام العسكريُّ ، وترتيب الصُّفوف.

وكانت خفاراتٌ عسكريَّةٌ صغيرةٌ ، كافيةٌ لإفساد النِّظام العسكريِّ ، ومنعه من التقدُّم ، يقول ابن إسحاق: «كان أحد جانبي المدينة عورةً ، وسائر جوانبها مشكَّكةً بالبنيان ، والنَّخيل ، لا يتمكَّن العدوُّ منها»[(١٣٦)].

ولعلَّ النَّبيَّ (ص) ، قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهيَّة في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة: «إني أُريتُ دار هجرتكم ، ذات نخيلٍ بين لابتين ، وهما الحرَّتان» [سبق تخريجه] ، فهاجر مَنْ هاجر قِبَلَ المدينة ، ورجع عامَّةُ من كان هاجرَ بأرض الحبشة إلى المدينة.

وكان أهل المدينة من الأوس ، والخزرج أصحاب نخوةٍ ، وإباءٍ ، وفروسيَّةٍ ، وقوَّةٍ ، وشكيمةٍ ، ألفوا الحرِّيَّة ، ولم يخضعوا لأحدٍ ، ولم يدفعوا إلى قبيلةٍ ، أو حكومةٍ إتاوةً ، أو جبايةً. يقول ابن خلدون: ولم يزل هذان الحيَّان قد غلبوا على يثرب ، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك ، ويدخل في ملَّتهم مَنْ جاورهم من قبائل مُضَر.

وكان بنو عديٍّ بن النَّجار أخواله (ص) ، فأمُّ عبد المطلب بن هاشم بن عديٍّ بن النَّجار إحدى نسائهم ، فقد تزوَّج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عديٍّ بن النَّجار ، وولدت لهاشم عبد المطلب ، وتركه هاشم عندها ، حتَّى صار غلاماً دون المراهقة ، ثمَّ احتمله عمُّه المطَّلب ، فجاء به إلى مكَّة ، وكانت الأرحام يحسب لها حسابٌ كبيرٌ ، في حياة العرب الاجتماعيَّة ، ومنهم أبو أيوبٍ الأنصاريُّ؛ الَّذي نزل رسول الله (ص) في داره في المدينة.

وكان الأوس ، والخزرج من قحطان ، والمهاجرون وَمَنْ سبق إلى الإسلام في مكَّة ، وما حولها من عدنان ، ولما هاجر رسول الله (ص) إلى المدينة ، وقام الأنصار بنصره؛ اجتمعت بذلك عدنان ، وقحطان تحت لواء الإسلام ، وكانوا كجسدٍ واحدٍ ، وكانت بينهما مفاضلةٌ ، ومسابقةٌ في الجاهليَّة ، وبذلك لم يجد

الشَّيطان سبيلاً إلى قلوبهم؛ لإثارة الفتنة ، والتَّعزِّي بعزاء الجاهليَّة ، باسم الحميَّة القحطانيَّة ، أو العدنانيَّة ، فكانت لكلِّ ذلك مدينة يثرب أصلحَ مكانٍ لهجرة الرَّسول (ص) وأصحابه ، واتِّخاذهم لها داراً ، وقراراً ، حتَّى يقوى الإسلام ، ويشقَّ طريقه إلى الأمام ، ويفتح الجزيرة ، ثمَّ يفتح العالم المتمدِّن[(١٣٧)].

سابعاً: من فضائل المدينة:

لقد عظم شرف المدينة المنوَّرة المباركة ، بهجرة النَّبيِّ (ص) إليها ، حتَّى فضلت على سائر بقاع الأرض . حاشا مكَّة المكرَّمة . وفضائلها كثيرةٌ منها:

١ . كثرة أسمائها:

إنَّ كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى ، ولا توجد بلدةٌ في الدُّنيا لها من الأسماء ، مثل ما للمدينة المنوَّرة ، أو نصفه ، أو حتَّى ربعه ، وقد بلغ العلماء بأسمائها حوالي مئة اسمٍ(١) ، وقد ذكر هذه الأسماء الزَّركشي في (إعلام السَّاجد بأحكام المساجد)[(١٣٨)] ، والمجد الفيروز ابادي صاحب (القاموس المحيط)[(١٣٩)] ، ونور الدِّين السَّمهودي في (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) ، ومحمَّد بن يوسف الصَّالحي في (سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد).

وأشهر هذه الأسماء:

(أ) يثرب: قال تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا *} [الأحزاب: ١٣] .

وقد ورد النَّهي عن تسميتها بهذا الاسم ، وأمَّا تسميتها في القران «يثرب» فذلك حكاية عن قول المنافقين.

(ب) طابة: فعن البراء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «من سمَّى المدينة يثرب؛ فليستغفر الله؛ فإنَّما هي طابة» وفي روايةٍ: «هي طابة ، هي طابة ، هي طابة»[(١٤٠)].

(ج) المدينة: وهذا أشهر أسمائها ، وهذا الاسم إذا أطلق؛ أريدت به المدينة المنوَّرة دون غيرها من مدن الدُّنيا ، وقد جاءت الايات الكثيرة بهذا الاسم ، كقوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ *} [التوبة: ١٠١] ، وقوله تعالى: {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ *} [التوبة: ١٢٠] وقد وصفت المدينة بالمباركة ، والمنوَّرة ، والمشرَّفة ، وغير ذلك من الأوصاف الفاضلة[(١٤١)].

٢ . محبته (ص) لها ، ودعاؤه برفع الوباء عنها:

دعا النَّبي (ص) ربَّه قائلاً: «اللَّهمَّ حبِّب إلينا المدينة كحبِّنا مكَّة ، أو أشدَّ![(١٤٢)]» وعن أنسٍ رضي الله عنه: «أنَّ النَّبيَّ (ص) إذا قدم من سفرٍ ، فنظر إلى جُدُرات المدينة[(١٤٣)]؛ أَوْضَعَ راحلته[(١٤٤)] ، وإن كان على دابةٍ حرَّكها؛ من حُبِّها» [البخاري (١٨٠٢ ، ١٨٨٦)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسولُ الله (ص) المدينة؛ وُعِكَ أبو بكر ، وبلالٌ ، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمَّى يقول:

كُلُّ امْرِأًى مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِوالمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمَّى يرفع عقيرته ، يقول: .... وقال: «اللَّهمَّ العن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأميَّة بن خلف ، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء!» ثمَّ قال رسول الله (ص) : «اللَّهمَّ حبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكَّة ، أو أشدَّ! اللَّهمَّ بارك لنا في صاعنا ، وفي مُدِّنا ، وصحِّحْها لنا ، وانقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ!» [البخاري (١٨٨٩) ومسلم (١٣٧٦)] .

٣ . دعاء النَّبيِّ (ص) لها بضعفي مافي مكَّة من البركة:

فعن أنس رضي الله عنه عن النَّبيِّ (ص) قال: «اللَّهمَّ اجعل بالمدينة ضِعْفي ما جعلت بمكَّة من البركة!» [البخاري (١٨٨٥) ومسلم (١٣٦٩)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النَّاس إذا رأوا أوَّل الثَّمر؛ جاؤوا به إلى النبيِّ (ص) ، فإذا أخذه رسول الله (ص) ؛ قال: «اللَّهمَّ بارك لنا في ثمرنا! ، وبارك لنا في مدينتنا! وبارك لنا في صاعنا! وبارك لنا في مُدِّنا! اللَّهمَ إنَّ إبراهيم عبدُك ، وخليُلك ونبيُّك وإِنِّي عبدك ، ونبيُّك ، وإنَّه دعاك لمكَّة ، وإِنِّي أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكَّة ، ومثلهِ معه» قال: ثمَّ يدعو أصْغَرَ وليدٍ له ، فيعطيه ذلك الثَّمر. [مسلم (١٣٧٣) والترمذي (٣٤٥٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٢) وابن ماجه (٣٣٢٩) وابن السني (٢٧٩)] .

٤ . عصمتها من الدَّجال والطَّاعون ببركته (ص):

إنَّ الله تعالى قيَّض لها ملائكةً يحرسونها ، فلا يستطيع الدَّجال إليها سبيلاً؛ بل يلقي إليها بإخوانه من الكفَّار ، والمنافقين ، كما أنَّ من لوازم دعاء النَّبيِّ (ص) بالصِّحَّة ورفع الوباء ألاَّ ينزل بها الطَّاعون ، كما أخبر بذلك المعصوم (ص) . [البخاري (١٨٨٠) ومسلم (١٣٧٩)][(١٤٥)] .

٥ ـ فضيلة الصَّبر على شدَّتها:

فقد وعد النَّبيُّ (ص) من صبر على شدَّة المدينة ، وضيق عيشها ، بالشَّفاعة يوم القيامة[(١٤٦)] ، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، لا يدعها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدل الله فيها مَنْ هو خيرٌ منه ، ولا يثبت أحدٌ على لأْوَائِهَا[(١٤٧)] وجَهْدِها ، إلا كنتُ له شفيعاً ـ أو شهيداً ـ يوم القيامة» [مسلم (١٣٦١)] .

٦ ـ فضيلة الموت فيها:

فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «من استطاع أن يموت بالمدينة؛ فليَمت بها، فإنِّي أشفع لمن يموت بها» [الترمذي (٣٩١٧) وابن ماجه (٣١١٢) وابن حبان (٣٧٣٣) والبيهقي في الشعب (٤١٨٤)] ، وكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يدعو بهذا الدُّعاء: «اللَّهم ارزقني شهادةً في سبيلك ، واجعل موتي في بلد رسولك (ص) » [البخاري (١٨٩٠)] .

وقد استجاب الله للفاروق رضي الله عنه ، فاستُشهد في محراب رسول الله (ص) ، وهو يؤمُّ المسلمين في صلاة الفجر.

٧ ـ هي كهف الإيمان ، وتنفي الخبث عنها:

الإيمان يلجأ إليها مهما ضاقت به البلاد ، والأخباث ، والأشرار لا مقام لهم فيها ، ولا استقرار ، ولا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أبدلها الله خيراً منه من المؤمنين الصادقين[(١٤٨)].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «إنَّ الإيمان ليأْرِزُ[(١٤٩)] إلى المدينة كما تَأْرِزُ الحيةُ إلى جُحرها» [البخاري (١٨٧٦) ومسلم (١٤٧)] ، وقال (ص) : «... والَّذي نفسي بيده! لا يخرج منها أحدٌ رغبةً عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه ، ألا إنَّ المدينة كالكير ، تُخرِج الخبث ، لا تقوم السَّاعة حتى تنفي المدينة شرارها ، كما ينفي الكيرُ خبَثَ الحديد» [مسلم (١٣٨١) وأحمد (٢/٤٣٩)] .

٨ ـ تنفي الذُّنوب والأوزار:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما قال: قال رسول الله (ص) : «إنَّها ـ أي: المدينة ـ طَيْبَةُ تنفي الذُّنوب[(١٥٠)] ، كما تنفي النَّار خبث الفضَّة» [البخاري (٤٥٨٩) ومسلم (١٣٨٤)] .

٩ ـ حفظ الله إيَّاها ممَّن يريدها بسوء:

قد تكفَّل الله بحفظها من كلِّ قاصدٍ إيَّاها بسوءٍ ، وتوعَّد النَّبيُّ (ص) مَنْ أحدث فيها حدثاً ، أو اوى فيها مُحدِثاً ، أو أخاف أهلها ، بلعنة الله ، وعذابه ، وبالهلاك العاجل[(١٥١)] ، فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «لا يكيد أهلَ المدينة أحدٌ إلا انماع[(١٥٢)] ، كما ينماع الملحُ في الماء» [البخاري (١٨٢٢) ومسلم (١٣٨٧)] ، وقال (ص) : «المدينة حَرَمٌ، فمن أحدث فيها حَدَثاً[(١٥٣)] أو اوى مُحدثاً[(١٥٤)]؛ فعليه لعنةُ اللهِ ، والملائكة ، والنَّاس أجمعين ، لا يُقْبَلُ منه يومَ القيامة عَدْلٌ ، ولا صَرْفٌ» [مسلم (١٣٧١)].

١٠ ـ تحريمها:

قد حرَّمها النَّبيُّ (ص) بوحيٍ من الله ، فلا يُراق فيها دمٌ ، ولا يُحْمل فيها سلاحٌ ، ولا يروَّع فيها أحدٌ ، ولا يقطع فيها شجرٌ ، ولا تَحِلُّ لُقطتُها إلا لمنشدٍ ، وغير ذلك ممَّا يدخل في تحريمها ، قال (ص) : «إنَّ إبراهيم حرَّم مكَّةَ ودعا لها ، وحرَّمتُ المدينة كما حرَّم إبراهيم مكَّةَ ، ودعوتُ لها في مُدِّها ، وصَاعها مِثْلَ ما دَعا إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ لمكَّة» [البخاري (٢١٢٩) ومسلم (١٣٦٠)].

وقال (ص) : «هذا جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه ، اللَّهمَّ! إنَّ إبراهيم حرَّم مكة ، وإني حرَّمت ما بين لابتيها» [البخاري (٤٠٨٤) ومسلم (١٣٦٢)] يعني: المدينة ، وقال (ص) : «لا يُخْتلى خلاها[(١٥٥)] ، ولا ينفَّر صيدها[(١٥٦)] ، ولا تحلُّ لُقَطَتُها إلا لمن أشادها[(١٥٧)] ، ولا يصلح لرجلٍ أن يحمل فيها السِّلاح لقتالٍ ، ولا يصلح أن يقطع منها شجرٌ ، إلا أن يعلف رجلٌ بعيرَه» [أحمد (١/١١٩)] .

إن هذه الفضائل العظيمة جعلت الصَّحابة يتعلَّقون بها ، ويحرصون على الهجرة إليها ، والمقام فيها ، وبذلك تجمَّعت طاقات الأمَّة فيها ، ثمَّ توجَّهت نحو القضاء على الشِّرك بأنواعه ، والكفر بأشكاله ، وفتحوا مشارق الأرض ، ومغاربَها.

* * *

الفصل السَّادس

هجرة النَّبِيِّ (ص) وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه[(١٥٨)]

المبحث الأوَّل

فشل خطَّة المشركين ، والتَّرتيب النَّبويُّ الرَّفيع للهجرة

أولاً: فشل خطَّة المشركين لاغتيال النَّبيِّ (ص):

بعد أن مُنيت قريش بالفشل في منع الصَّحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرَّغم من أساليبها الشَّنيعة ، والقبيحة ، فقد أدركت قريش خطورة الموقف ، وخافوا على مصالحهم الاقتصاديَّة ، وكيانهم الاجتماعيِّ القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار النَّدوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدَّعوة ، وقد تحدَّث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *} [الأنفال: ٣٠] .

فقال: تشاورت قريش ليلةً بمكَّة ، فقال بعضهم: إذا أصبح؛ فأثبتوه بالوُثُق [خبر اجتماع قريش: ذكره ابن هشام (١٢٤/٢ ـ ١٢٦) وابن سعد (٢٢٧/١ ـ ٢٢٨) والبيهقي في دلائل النبوة (٤٦٦/٢ ـ ٤٦٨) وأبو نعيم في دلائله (٦٣ ـ ٦٤) والطبري في تاريخه (٣٧٢/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥٢/٦ ـ ٥٣)][(١٥٩)] ، يريدون النَّبيَّ (ص) ، وقال بعضهم: بل اقتلوه ، وقال بعضهم: بل أخرجوه ، فأطلع اللهُ نبيَّه على ذلك ، فبات عليٌّ على فراش النَّبيِّ (ص) . تلك اللَّيلة [أحمد (٣٤٨/١٠) وعبد الرزاق في المصنف (٣٨٩/٥) والطبري في تاريخه (٣٧٢/٢) ومجمع الزوائد (٥٢/٦ ـ ٥٣)][(١٦٠)]. وخرج النَّبيُّ (ص) ، فلمَّا أصبحوا؛ ثاروا إليه ، فلمَّا رأوا عليّاً؛ ردَّ الله مكرهم ، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري! فاقتصُّوا أثره ، فلمَّا بلغوا الجبل؛ اختلط عليهم الأمر ، فصعدوا الجبل ، فمرُّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا: لو دخل هاهنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاثاً[(١٦١)].

قال سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسيره للايات الَّتي تتحدَّث عن مكر المشركين بالنَّبيِّ (ص) : «إنَّه التَّذكير بما كان في مكَّة قبل تغيُّر الحال ، وتبدلُّ الموقف ، وإنَّه ليوحي بالثِّقة واليقين في المستقبل ، كما ينبِّه إلى تدبير قدر الله ، وحكمته فيما يقضي به ويأمر. ولقد كان المسلمون الَّذين يخاطَبون بهذا القران أوَّل مرَّةٍ

يعرفون الحالين معرفة الَّذي عاش ، ورأى ، وذاق ، وكان يكفي أن يذكَّروا بهذا الماضي القريب ، وما كان فيه من خوفٍ ، وقلقٍ في مواجهة الحاضر الواقع ، وما فيه من أمنٍ ، وطمأنينة ، وما كان من تدبير المشركين ، ومكرهم برسول الله (ص) في مواجهة ما صار إليه من غلبةٍ عليهم ، لا مجرَّد النَّجاة منهم.

لقد كانوا يمكرون؛ ليوثقوا رسول الله (ص) ، ويحبسوه حتَّى يموت؛ أو ليقتلوه ، ويتخلَّصوا منه ، أو ليخرجوه من مكَّة منفيّاً مطروداً ، ولقد ائتمروا بهذا كلِّه ، ثمَّ اختاروا قتله ، على أنَّ يتولَّى ذلك المنكر فتيةٌ من القبائل جميعاً؛ ليتفرَّق دمه في القبائل ، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب جميعاً ، فيرضوا بالدِّية ، وينتهي الأمر.

إنَّها صورةٌ {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *} ، وهي في الوقت ذاته صورةٌ مفزعةٌ؛ فأين هؤلاء البشر الضِّعاف المهازيل ، من تلك القدرة القادرة ، قدرة الله الجبَّار ، القاهر فوق عباده ، الغالب على أمره ، وهو بكلِّ شيءٍ محيط؟![(١٦٢)].

ثانياً: التَّرتيب النَّبويُّ للهجرة:

عن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان لا يخطأى رسول الله (ص) أن يأتي بيت أبي بكرٍ أحد طرفي النَّهار ، إمَّا بُكرةً ، وإمَّا عشيَّةً ، حتَّى إذا كان اليوم الَّذي أُذِن فيه لرسول الله (ص) في الهجرة ، والخروج من مكَّة من بين ظهري قومه؛ أتانا رسولُ الله (ص) بالهاجرة[(١٦٣)] ، في ساعةٍ كان لا يأتي فيها ، قالت: فلمَّا راه أبو بكر ، قال: ما جاء رسول الله (ص) هذه السَّاعة إلا لأمرٍ حَدَث.

قالت: فلمَّا دخل؛ تأخَّر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسولُ الله (ص) ، وليس عند أبي بكر إلا أنا ، وأختي أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول الله (ص) : «أخرجْ عنِّي مَنْ عندك»؛ فقال: يا رسول الله! إنَّما هما ابنتاي ، وما ذاك؟ فداك أبي ، وأمِّي! فقال: «إنَّه قد أُذن لي في الخروج والهجرة». قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه: الصُّحبة يا رسول الله! قال: «الصُّحبة». قالت: فوالله ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم: أنَّ أحداً يبكي من الفرح ، حتَّى رأيت أبا بكر يبكي يومئذٍ ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هاتين راحلتان ، قد كنت أعددتهما لهذا. فاستأْجَرَا عبد الله بن أريقط .

رجلاً من بني الدَّيْل بن بكر ، وكانت أمُّه امرأةً من بني سهم بن عمرو ، وكان مشركاً . يدلُّهما على الطَّريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما. [ابن هشام (١٢٨/٢ . ١٢٩)][(١٦٤)] .

وروى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها في حديثٍ طويل ، وفيه: «... قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر ، في نحر الظَّهيرة؛ قال قائلٌ لأبي بكر: هذا رسول الله (ص) متقنِّعاً[(١٦٥)]؛

في ساعةٍ لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر: فداءً له أبي وأمِّي! والله ما جاء به في هذه السَّاعة إلا أمرٌ! قالت: فقال رسول الله (ص) لأبي بكرٍ رضي الله عنه: «أَخْرِجْ من عندك» ، فقال أبو بكر: إنَّما هم أهلك. قال: «فإنِّي قد أُذِنَ لي في الخروج» ، فقال أبو بكر: الصُّحبةَ بأبي أنت يا رسول الله! قال رسول الله (ص) : «نعم» ، قال أبو بكر رضي الله عنه: فخذ بأبي أنت يا رسول الله! إحدى راحلتيَّ هاتين ، قال رسول الله (ص) : «بالثَّمن» ، قالت عائشة رضي الله عنها: فجهَّزناهما أحثَّ الجهاز (من الحثِّ وهو الإسراع) ، وصنعنا لهم سُفرةً في جِرابٍ ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قطعةً من نطاقها ، فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سمِّيت ذات النطاقين ، ثمَّ لحق رسولُ الله (ص) ، وأبو بكر بغارٍ في جبل ثور ، فكمنا[(١٦٦)] فيه ثلاث ليالٍ ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما ، وهو غلامٌ ، شابٌّ ، ثَقِفٌ[(١٦٧)] ، لَقِنٌ[(١٦٨)] ، فيُدلجُ[(١٦٩)] من عندهما بسَحَرٍ ، فيصبح مع قريشٍ بمكَّة كبائتٍ ، فلا يسمع أمراً يُكتادانِ[(١٧٠)] به إلا وَعَاهُ ، حتَّى يأتيهما بخبر ذلك ، حين يختلط الظَّلام ، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه منحةً من غَنَم ، فيريحها عليهما حين تذهبُ ساعةٌ من العِشاء ، فيبيتان في رسْلٍ . وهو لَبَنُ مِنْحتِهما ورَضِيفهما[(١٧١)] . حتى ينعق[(١٧٢)] بها عامر بن فهيرة بَغَلسٍ[(١٧٣)] يفعل ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك اللَّيالي الثَّلاث ، واستأجر رسول الله (ص) ، وأبو بكر رجلاً من بني الدَّيْل ، وهو من بني عبد بن عديٍّ . هادياً خِرِّيتاً . والخرِّيت: الماهر بالهداية ، قد

غمس حلفاً[(١٧٤)] في ال العاص بن وائل السَّهمي ، وهو على دين كفار قريش ، فأمِناهُ ، فدفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثورٍ بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما صُبْحَ ثلاثٍ ، وانطلق معهما عامر بن فهيرة ، والدَّليل ، فأخذ بهم طريق السَّواحل» [البخاري (٣٩٠٥) ، وأحمد (١٩٨/٦ . ١٩٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤٧٣/٢ . ٤٧٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٣٨٨/٥) ، والطبري في تاريخه (٣٧٥/٢ . ٣٧٨)] .

ثالثاً: خروج الرَّسول (ص) ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله (ص) أحدٌ حين خرج إلا عليُّ بن أبي طالبٍ ، وأبو بكر الصِّدِّيق ، وال أبي بكرٍ.

أمَّا عليٌّ رضي الله عنه ، فإنَّ رسول الله (ص) أمره أن يتخلَّف؛ حتَّى يؤدي عن رسول الله (ص) الودائع؛ الَّتي كانت عنده للنَّاس ، وكان رسول الله (ص) ، وليس بمكَّة أحدٌ عنده شيءٌ يُخشى عليه إلا وضعه

عنده؛ لما يعلم من صدقه ، وأمانته[(١٧٥)] ، وكان الميعاد بين الرَّسول (ص) ، وأبي بكرٍ رضي الله عنه ، فخرجا من خوخة[(١٧٦)] ، لأبي بكر في ظَهْرِ بيته ، وذلك للإمعان في الاستخفاء؛ حتَّى لا تتبعهما قريشٌ ، وتمنعهما من تلك الرِّحلة المباركة ، وقد اتَّعَدا مع اللَّيل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط ، في غار ثور ، بعد ثلاث ليالٍ[(١٧٧)].

رابعاً: دعاء النَّبيِّ (ص) عند خروجه من مكَّة:

وقد دعا النَّبي (ص) عند خروجه من مكَّة إلى المدينة قائلاً:

«الحمد لله الَّذي خلقني ولم أَكُ شيئاً! اللَّهمَّ أعنِّي على هول الدُّنيا ، وبوائق الدَّهر ، ومصائب اللَّيالي والأيام! اللَّهمَّ اصحبني في سفري ، واخلفني في أهلي ، وبارك لي فيما رزقتني ، ولك فذَلِّلني ، وعلى خلقي فقوِّمني ، وإليك رب فحبِّبني ، وإلى النَّاس فلا تكلْني! ربَّ المستضعفين! وأنت ربي ، أعوذ بوجهك الكريم الَّذي أشرقت له السَّموات ، والأرض ، وكُشِفت به الظُّلمات ، وصلُح عليه أمر الأوَّلين ، والاخرين أن تحلَّ عليَّ غضبك ، أو تُنزل بي سخطك! أعوذ بك من زوال نعمتك ، وَفُجَاءَة نقمتك ، وتحوُّل عافيتك ، وجميع سخطك ،

لك العُتْبَى عندي خير ما استطعت ، لا حول ، ولا قوَّة إلا بك» [عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٤)][(١٧٨)] .

ووقف الرَّسول (ص) عند خروجه بالحَزْوَرَة في سوق مكَّة ، وقال: «والله إنَّكِ لخيرُ أرض الله ، وأحبُّ أرض الله إلى الله ، ولولا أنِّي أُخْرِجتُ منكِ ما خَرَجْتُ» [الترمذي (٣٩٢٥) وأحمد (٣٠٥/٤) وابن ماجه (٣١٠٨)] .

ثمَّ انطلق رسول الله (ص) ، وصاحبه ، وقد حفظهما الله من بطش المشركين ، وصرفهم عنهما.

روى الإمام أحمد عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «أنَّ المشركين اقتصُّوا أثر رسول الله (ص) ، فلمَّا بلغوا الجبل ـ جبل ثور ـ اختلط عليهم ، فصعدوا الجبل ، فمرُّوا بالغار ، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت؛ فقالوا: لو دخل هاهنا ، لم يكن نسج العنكبوت على بابه» [أحمد (٣٤٨/١)] ، وهذه من جنود الله ـ عزَّ وجلَّ ـ التَّي يخذل بها الباطل ، وينصر بها الحق؛ لأنَّ جنود الله ـ جلَّت قدرته ـ أعمُّ من أن تكون مادِّيَّةً ، أو معنويةً ، وإذا كانت مادِّيَّة؛ فإنَّ خطرها لا يتمثَّل في ضخامتها ، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيشٍ ذي لجَبٍ[(١٧٩)]. قال الله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ *} [المدثر: ٣١] . أي: وما يعلم جنود ربك لفرط كثرتها إلا هو ، فجنود الله غير متناهيةٍ ، لأنَّ مقدوراته غير

متناهيةٍ[(١٨٠)] ، كما أنَّه لا سبيل لأحدٍ إلى حصر الممكنات ، والوقوف على حقائقها ، وصفاتها ، ولو إجمالاً ، فضلاً عن الاطِّلاع على تفاصيل أحوالها من كمٍّ ، وكَيْفٍ ، ونسبةٍ[(١٨١)].

خامساً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله (ص):

بالرَّغم من كلِّ الأسباب الَّتي اتخذها رسول الله (ص) ، فإنَّه لم يركن إليها مطلقاً؛ وإنَّما كان كاملَ الثِّقة في الله ، عظيم الرَّجاء في نصره ، وتأييده ، دائم الدُّعاء بالصِّيغة الَّتي علَّمه الله إيَّاها[(١٨٢)]. قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا *} [الإسراء: ٨٠] .

وفي هذه الاية الكريمة ، «دعاء يعلِّمه الله لنبيِّه ليدعوه به ، ولتتعلَّم أمَّته كيف تدعو الله ، وكيف تتَّجه إليه؟ دعاء بصدق المدْخَل ، وصدق المخْرَج ، كنايةً عن صدق الرِّحلة كلِّها؛

بدئها ، وختامها ، أوَّلها ، واخرها ، وما بين الأوَّل والاخر ، وللصِّدق هنا قيمته بمناسبة ما حاوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه؛ ليفتري على الله غيره ، وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثَّبات ، والاطمئنان والنَّظافة ، والإخلاص.

{وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا *} ، وهيبةً أستعلي بهما على سلطان الأرض ، وقوَّة المشركين ، وكلمة تصوِّر {مِنْ لَدُنْكَ} ، والاتِّصال بالله ، والاستمداد من عونه مباشرةً ، واللُّجوء إلى حماه.

وصاحب الدَّعوة لا يمكن أن يستمدَّ السُّلطان إلا من الله ، ولا يمكن أن يُهاب إلا بسلطان الله ، ولا يمكن أن يستظلَّ بحاكمٍ ، أو ذي جاهٍ ، فينصره ، ويمنعه ما لم يكن اتجاهه قبل ذلك إلى الله ، والدَّعوة قد تغزو قلوب ذوي السُّلطان ، والجاه ، فيصبحون لها جنداً ، وخدماً ، فيفلحون ، ولكنَّها هي لا تفلح إن كانت من جند السُّلطان ، وخدمه ، فهي من أمر الله ، وهي أعلى من ذوي السُّلطان ، والجاه»[(١٨٣)].

وعندما أحاط المشركون بالغار ، وأصبح منهم رأيَ العين؛ طمأن الرَّسول (ص) الصِّدِّيق بمعيَّة الله لهما ، فعن أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه قال: قلت للنَّبيِّ (ص) وأنا في الغار: لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه؛ لأبصرنا ، فقال (ص) : «ما ظنُّك يا أبا بكر! باثنين الله ثالثُهما؟» [البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١)]. وفي روايةٍ: «اسكت يا أبا بكر! اثنان الله ثالثهما» [البخاري (٣٩٢٢)] .

وسجّل الحقُّ ـ عزَّ وجلَّ ـ ذلك في قوله تعالى: {إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ٤٠] .

وقد تحدَّث الطَّبريُّ في تفسيره عن هذه الاية الكريمة ، فقال: هذا إعلامٌ من الله لأصحاب رسوله (ص) : أنَّه المتكفِّل بنصر رسوله على أعداء دينه ، وإظهاره عليهم دونهم؛ أعانوه ، أو لم يعينوه ، وتذكيرٌ منه لهم بفعل ذلك به ، وهو من العدد في قلَّةٍ ، والعدوُّ في كثرةٍ ، فكيف به؛ وهو من العدد في كثرةٍ؛ والعدوُّ في قلَّة؟! يقول لهم جلَّ ثناؤه: إلا تنفروا ـ أيُّها المؤمنون ـ مع رسولي؛ إذا استنصركم فتنصروه؛ فالله ناصره ، بالله من قريش، من وطنه، وداره يقول: أخرجوه وهو أحد {إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ} ، وإنَّما عنى جلَّ ثناؤه بقوله: {ثَانِيَ اثْنَيْنِ} الله (ص) ، وأبا بكرٍ رضي الله عنه؛ لأنَّهما كانا اللَّذين خرجا هاربين من قريش؛ إذ همُّوا بقتل رسول الله (ص) ، واختفيا في الغار ، وقوله:

يقول: إذ رسول الله (ص) وأبو بكر رضي الله عنه في الغار[(١٨٤)] يقول: إذ يقول الرَّسول {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ} لصاحبه أبي بكر: لا تحزن؛ وذلك: أنَّه خاف من الطَّلب أن يعلموا بمكانهما ، فجزع من ذلك ، فقال له رسول الله (ص) : لا تحزن؛ لأنَّ الله معنا ، والله ناصرنا ، فلن يعلم المشركون بنا ، ولن يصلوا إلينا ، يقول جلَّ ثناؤه: فقد نصره على عدوِّه وهو بهذه الحال من الخوف ، وقلَّة العدد ، فكيف يخذله ، ويحوجه إليكم وقد كثَّر الله من أنصاره وعدد جنوده. [الطبري في تفسيره (١٠/١٣٥ ـ ١٣٦)] .

وقد تحدَّث الدكتور عبد الكريم زيدان ، عن المعيَّة في هذه الاية الكريمة ، فقال: «وهذه المعيَّة الرَّبانية المستفادة من قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} ، أعلى من معيَّته للمتَّقين ، والمحسنين في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ *} [النحل: ١٢٨] ؛ لأنَّ المعيَّة هنا هي لذات الرَّسول ، وذات صاحبه ، غير مقيَّدةٍ بوصفٍ هو عملٌ لهما ، كوصف التَّقوى ، والإحسان؛ بل هي خاصَّةٌ برسوله ، وصاحبه ، مكفولةٌ هذه المعيَّة بالتأييد بالايات ، وخوارق العادات»[(١٨٥)].

وتحدَّث صاحب الظِّلال عن هذه الايات ، فقال: «ذلك حين ضاقت قريش بمحمدٍ ذرعاً ، كما تضيق القوَّة الغاشمة دائماً بكلمة الحقِّ ، لا تملك لها دفعاً ، ولا تطيق عليها صبراً ، فائتمرت به ، وقرَّرت أن تتخلَّص منه ، فأطلعه الله على ما ائتمرت به ، وأوحى إليه بالخروج وحيداً ، إلا من صاحبه الصِّدِّيق ، لا جيش ، ولا عدَّة ، وأعداؤه كُثُرٌ ، وقوَّتهم إلى قوته ظاهرةٌ ، ثمَّ ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلُّها من جانبٍ ، والرَّسول (ص) مع صاحبه منها مجرَّد؟ كان النَّصر المؤزَّر من عند الله بجنود لم يرها النَّاس ،

وكانت الهزيمة لِلَّذين كفروا والذُّلُّ والصَّغار ، {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى} ، وظلَّت كلمة الله في مكانها العالي منتصرةً قويَّةً نافذةً.

ذلك مثلٌ على نصرة الله لرسوله ، ولكلمته ، والله قادرٌ على أن يعيده على أيدي قومٍ اخرين؛ غير الَّذين يتثاقلون ويتباطؤون وهو مثل من الواقع إن كانوا في حاجةٍ بعد قول الله إلى دليلٍ!»[(١٨٦)].

سادساً: خيمة أم معبد في طريق الهجرة:

وبعد ثلاث ليالٍ من دخول النَّبيِّ (ص) في الغار خرج رسول الله (ص) وصاحبه من الغار ، وقد هدأ الطَّلب ، ويئس المشركون من الوصول إلى رسول الله (ص) ، وقد قلنا: إنَّ رسول الله (ص)

وأبا بكر ، قد استأجرا رجلاً من بني الدِّيْل ، يُسمَّى عبد الله ابن أريقط ، وكان مشركاً ، وقد أَمِنَاهُ ، فدَفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليالٍ براحلتيهما ، وقد جاءهما فعلاً في الموعد المحدَّد ، وسلك بهما طريقاً غير معهودةٍ؛ ليخفي أمرهما عمَّن يلحق بهم من كفار قريش[(١٨٧)].

وفي الطريق إلى المدينة ، مرَّ النَّبيُّ (ص) بأمِّ مَعْبَد[(١٨٨)] في قُدَيْد[(١٨٩)] حيث مساكن خزاعة ، وهي أخت خُنَيْس بن خالدٍ الخزاعيِّ؛ الَّذي روى قصَّتها ، وهي قصَّةٌ تناقلها الرُّواة ، وأصحاب السِّير ، وقال عنها ابن كثير: «وقصَّتها مشهورةٌ مرويَّةٌ من طرقٍ يشدُّ بعضها بعضاً»[(١٩٠)] ، فعن خالد بن خُنَيْس الخزاعيِّ رضي الله عنه ، صاحب رسول الله (ص) : أنَّ رسول الله (ص) حين خرج من مكَّة ، وخرج منها مهاجراً إلى المدينة ، هو وأبو بكر رضي الله عنه ، ومولى أبي بكرٍ عامر بن فهيرة رضي الله عنه ، ودليلهما اللَّيثي عبد الله بن أريقط ، مرُّوا على خيمة أمِّ معبد الخزاعيَّة ، وكانت بَرْزَة[(١٩١)] ، جَلْدَة[(١٩٢)] ، تحتبي[(١٩٣)] بفناء القبَّة ، ثمَّ تسقي وتطعم ، فسألوها لحماً ، وتمراً؛ ليشتروه منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك ، وكان القوم مُرْمِلين[(١٩٤)] مُسْنِتين[(١٩٥)] ، فنظر رسول الله (ص) إلى شاةٍ في كَسْر الخيمة[(١٩٦)] ، فقال: «ما هذه الشَّاة يا أمَّ معبد؟!» قالت: خلَّفها الجَهْد عن الغنم ، قال: «فهل بها من لبنٍ؟» قالت: هي أجهد من ذلك. قال: «أتأذنين أن أحلبها؟» قالت: بلى بأبي أنت وأمِّي! نعم إن رأيت بها حَلْباً؛ فاحلبها!

فدعا بها رسول الله (ص) فمسح بيده ضرعها ، وسمَّى الله عزَّ وجلَّ ، ودعا لها في شاتها ، فتفاجَّت[(١٩٧)] عليه ، ودَرَّت[(١٩٨)] ، واجترَّت[(١٩٩)] ودعا بإناءٍ يُرْبِضُ[(٢٠٠)] الرَّهط ، فحلب فيها

ثجّاً[(٢٠١)]؛ حتَّى علاه البهاء[(٢٠٢)] ، ثمَّ سقاها حتَّى رَوِيت ، وسقى أصحابه؛ حتَّى رَوَوْا ، وشرب اخرهم (ص) ، ثمَّ أراضوا[(٢٠٣)] ، ثمَّ حلب فيها ثانياً بعد بدءٍ؛ حتَّى ملأ الإناء ، ثمَّ غادره عندها ، ثمَّ بايعها ، وارتحلوا عنها.

فقلَّما لبثت حتَّى جاء زوجها أبو معبد ، يسوق أعنزاً عجافاً[(٢٠٤)] ، يتساوَكن هُزلاً[(٢٠٥)] ضحىً ، مخُّهنَّ قليلٌ ، فلمَّا رأى أبو معبد اللبن؛ عجب ، وقال: من أين لك هذا اللَّبن يا أمَّ معبد! والشَّاة عازبٌ حِيال[(٢٠٦)] ، ولا حَلُوبة في البيت؟ قالت: لا والله! إلا أنَّه مرَّ بنا رجلٌ مبارك ، من حاله كذا ، وكذا. قال: صفيه لي يا أم معبد! قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة[(٢٠٧)] ، أَبْلَج الوجه[(٢٠٨)] ، حسنُ الخَلْقِ ، لم تَعِبْه نُحْلَة[(٢٠٩)] ، ولم تُزْر به صَعْلةٌ[(٢١٠)] ، وسيمٌ[(٢١١)] ، في عينيه دَعَجٌ[(٢١٢)] ، وفي أشفاره وَطَفٌ[(٢١٣)] ، وفي صوته صَهَلٌ[(٢١٤)] ، وفي عنقه سَطَع[(٢١٥)] ، وفي لحيته كثاثةٌ ، أزجُّ[(٢١٦)] ، أقرن[(٢١٧)] ، إن صمت؛ فعليه الوقار ، وإن تكلَّم سما[(٢١٨)] وعلاه البهاء ، أجمل النَّاس ، وأبهاهم من بعيدٍ ، وأحلاهم وأحسنهم من قريبٍ ، حُلْوُ المنطق ، فَصْلٌ ، لا هذر ، ولا نزر[(٢١٩)] كأنَّ

منطقه خرزات نظمٍ يتحدَّرن ، رَبْعٌ[(٢٢٠)] ، لابأس من طولٍ[(٢٢١)] ، ولا تقتحمه العين من قصرٍ[(٢٢٢)] ، غُصْنٌ بين غصنين ، فهو أنضر الثَّلاثة منظراً ، وأحسنهم قدراً ، له رفقاء يحفُّون به؛ إن قال؛ استمعوا لقوله، وإن أمر؛ تبادروا إلى أمره، محْفُودٌ[(٢٢٣)]، محشودٌ[(٢٢٤)]، لا عابسٌ، ولا مُفنَّدٌ[(٢٢٥)].

قال أبو معبد: هو والله صاحب قريش؛ الَّذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكَّة ، ولقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلنَّ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً.

فأصبح صوتٌ بمكَّة عالياً ، يسمعون الصوت ، ولا يدرون مَنْ صاحبه ، وهو يقول:

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جزائهِرَفِيْقَيْنِ قالا[(٢٢٦)] خَيْمَتَيْ أمِّ مَعْبَدِ

هُمَا نَزَلا بالبِرِّ ثُمَّ تروَّحافَقَدْ فازَ مَنْ أَمْسَى رَفِيْقَ مُحَمَّدِ

فيا لَقُصَيٍّ ما زَوَى اللهُ عَنْكُمُبهِ مِنْ فِعَالٍ لا تُجَارَى وسُؤدُدِ[(٢٢٧)]

لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَان فَتَاتِهِمْومَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمنينِ بِمَرْصَدِ

سَلُوا أختَكمْ عنْ شاتِهَا وإنائِهَافإنَّكُمْ إنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَد

دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ[(٢٢٨)] فَتَحَلَّبَتْعَلَيْهِ صَرِيْحاً ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ[(٢٢٩)]

فغَادَرَهَا رَهْناً لَدَيْهَا لِحَالِبٍيُرَدِّدُهَا في مَصْدِرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

[حديث أم معبد: رواه الطبراني في الكبير (٣٦٠٥) وفي الأحاديث الطوال (٣٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٥٦ ـ ٥٧) عن حبيش بن خالد][(٢٣٠)].

سابعاً: سراقة بن مالك يلاحق رسول الله (ص):

أعلنت قريش في نوادي مكَّة: أنَّه من يأتِ بالنَّبيِّ (ص) ، حيَّاً ، أو ميتاً ، فله مئة ناقةٍ ، وانتشر هذا الخبر عند قبائل الأعراب ، الَّذين في ضواحي مكَّة ، وطمع سراقة بن مالك بن جُعْشُم في نيل الكسب ، الَّذي أعدَّته قريش لمن يأتي برسول الله (ص) ، فأجهد نفسه لينال ذلك ، ولكن الله

بقدرته الَّتي لا يغلبها غالب جعله يرجع مدافعاً عن رسول الله (ص) بعدما كان جاهداً عليه.

قال ابن شهاب: وأخبرني عبد الرَّحمن بن مالك المِدْلجِيُّ ـ وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ ـ: أنَّ أباه أخبره ، أنَّه سمع سراقة بن جُعْشُم يقول: جاءنا رُسُلُ كفَّار قريش ، يجعلون في رسول الله (ص) ، وأبي بكرٍ ديةَ كلِّ واحدٍ منهما ، لمن قتله أو أسره ، فبينما أنا جالس في مجلسٍ من مجالس قومي بني مُدْلِجٍ؛ إذ أقبل رجلٌ منهم حتَّى قام علينا ونحن جلوس ، فقال: يا سراقة! إنِّي قد رأيت انفاً أَسْوِدةً[(٢٣١)] بالسَّاحل ، أراها محمَّداً وأصحابه ، قال سراقة: فعرفتُ: أنَّهم هم ، فقلت له: إنَّهم ليسوا بهم ، ولكنَّك رأيتَ فلاناً ، وفلاناً ، انطلَقوا بأعيننا ، ثمَّ لبثتُ في المجلس ساعةً ، ثمَّ قمتُ ، فدخلتُ ، فأمرتُ جاريتي أن تَخْرُجَ بفرسي ـ وهو من وراء أكمةٍ[(٢٣٢)] ـ فتَحْبِسَهَا عليَّ ، وأخذت رُمْحي ، فخرجت به من ظَهْر البيت ، فخططت بِزُجِّهِ[(٢٣٣)] الأرضَ ، وخَفَضْت عاليه ، حتَّى أتيتُ فرسي فركبتُها ، فرفعتُها (أي: أسرعت بها السَّير) تُقَرِّب بي ، حتَّى دنوت منهم ، فَعَثَرت بي فرسي ، فخررتُ عنها ، فقمت ، فأهويت يدي إلى كنانتي ، فاستخرجت منها الأزلام[(٢٣٤)] ، فاستقسمت بها: أضُرُّهم ، أم لا؟ فخرج الَّذي أكره ، فركبت فرسي ، وعصيت الأزلام ، تُقرِّب بي ، حتَّى إذا سمعت قراءة رسول الله (ص) ، وهو لا يلتفتُ ، وأبو بكر يكثر الالتفات ، سَاخَتْ[(٢٣٥)] يدا فرسي في الأرض؛ حتَّى بلغتا الرُّكبتين ، فخررتُ عنها ، ثُمَّ زجرتها ، فنهضتْ ، فلم تكد تُخْرِجُ يديها ، فلمَّا استوت قائمةً؛ إذا لأثر يديها عُثان[(٢٣٦)] ساطعٌ في السَّماء مثلُ الدخان ، فاستقسمت بالأزلام ، فخرج الَّذي أكره ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبت فرسي؛ حتَّى جئتُهم ، ووقع في نفسي حين لَقِيتُ ما لَقِيتُ من الحبس عنهم ، أن سَيظهرُ أمرُ رسول الله (ص) ، فقلت له: إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدِّية ، وأخبرتهم أخبار ما يريد النَّاس بهم ، وعرضت عليهم الزَّاد والمتاع ، فلم يَرْزاني[(٢٣٧)] ، ولم يسألاني ، إلا أن قال: أخْفِ عنا ، فسألته أن

يكتب لي كتابَ أمنٍ ، فأمرَ عامرَ بن فهيرة ، فكتب في رقعةٍ من أدَمٍ[(٢٣٨)] ، ثُمَّ مضى رسول الله (ص) . [البخاري (٣٩٠٦) ومسلم (٢٠٠٩/٩١)] .

وكان ممَّا اشتهر عند النَّاس من أمر سراقة ، ما ذكره ابن عبد البرِّ ، وابن حجر ، وغيرهما.

قال ابن عبد البرِّ: روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى ، عن الحسن: أنَّ رسول الله (ص) قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبستَ سواري كسرى؟!» قال: فلمَّا أُتِيَ عمرُ بسواري كسرى ، ومِنْطَقَته وتاجه؛ دعا سراقة بن مالكٍ ، فألبسه إيَّاها ، وكان سراقة رجلاً أزَبَّ[(٢٣٩)] كثير شعر السَّاعدين ، وقال له: ارفع يديك ، فقال: الله أكبر ، الحمد للهِ الَّذي سلبهما كسرى بن هُرْمز ، الَّذي كان يقول: أنا ربُّ النَّاس ، وألبسهما سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ أعرابيَّاً من بني مُدْلِج ، ورفع بها عمر صوته[(٢٤٠)] ، ثمَّ أركب سُراقة ، وطوَّف به المدينة ، والنَّاس حوله ، وهو يرفع عقيرته مردداً قول الفاروق: الله أكبر ، الحمد للهِ الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن جُعْشُمٍ أعرابيّاً من بني مُدْلِج[(٢٤١)].

ثامناً: سبحان مقلِّب القلوب:

كان سراقة في بداية أمره يريد القبض على رسول الله (ص) ، وتسليمه لزعماء مكَّة؛ لينال مئة ناقة ، وإذا بالأمور تنقلب رأساً على عَقِب ، ويصبح يردُّ الطلب عن رسول الله (ص) ، فجعل لا يلقى أحداً من الطَّلب إلا ردَّه ، قائلاً: كُفيتم هذا الوجه ، فلمَّا اطمأنَّ إلى أنَّ النَّبيَّ (ص) وصل إلى المدينة المنوَّرة ، جعل سراقة يقصُّ ما كان من قصَّته ، وقصَّة فرسه ، واشتهر هذا عنه ، وتناقلته الألسنة؛ حتَّى امتلأت به نوادي مكَّة ، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً لإسلام بعض أهل مكَّة ، وكان سراقة أمير بني مُدْلِج ، ورئيسهم ، فكتب أبو جهل إليهم:

بني مُدْلِجٍ إنِّي أخاف سَفيهَكُمْسراقةَ مستغوٍ لِنَصْرِ مُحَمَّدِ
عَلَيْكُمْ به ألاَّ يُفَرِّقَ جَمْعَكُمْفَيُصْبِحَ شَتَّى بَعْدَ عِزٍ وسُؤْدُدِ

فقال سراقة يردُّ على أبي جهلٍ:

أبا حَكَمِ الَّلاتِ لوْ كنتَ شاهداًلأَمرِ جَوَادِي إذْ تسيخُ قَوائِمُهْ
عَجِبْتَ وَلَمْ تَشْكُكْ بأنَّ مُحَمَّداًرَسُولٌ بِبُرْهَانٍ فَمَنْ ذَا يُقَاوِمُهْ
عَلَيْكَ فكُفَّ القَوْمَ عَنْهُ فإنَّنِيأَرَى أَمْرَهُ يَوْماً سَتَبْدُو مَعالِمُهْ
بأَمْرٍ تَوَدُّ النَّاسُ فِيْهِ بأَسْرِهِمْبأَنَّ جَمِيْعَ النَّاسِ طُرّاً مُسَالِمُهْ[(٢٤٢)]

تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله (ص):

«ولما سمع المسلمون بالمدينة مَخْرَجَ رسول الله (ص) من مكَّةَ ، فكانوا يغدون كلَّ غداةٍ إلى الحَرَّة فينتظرونه ، حتَّى يردَّهم حرُّ الظَّهيرة ، فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلمَّا أَوَوْا إلى
بيوتهم؛ أوفى رجلٌ من يهود على أُطُمٍ[(٢٤٣)] من اطامهم ، لأمرٍ ينظر إليه ، فبصُرَ برسول الله (ص) وأصحابه مُبَيَّضين[(٢٤٤)] ، يزولُ بهم السَّرابُ[(٢٤٥)] ، فلم يملكِ اليهوديُّ أن قال بأعلى صوته: يا معاشرَ العرب! هذا جَدُّكم[(٢٤٦)] الَّذي تنتظرونَ ، فثار المسلمون إلى السِّلاح ، فتلقَّوا رسول الله (ص) بظهر الحَرَّة ، فعدل بهم ذات اليمين ، حتَّى نَزَل بِهِم في بني عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين[(٢٤٧)] من شهر ربيع الأوَّل[(٢٤٨)] ، فقام أبو بكر للنَّاس ، وجلس رسول الله (ص) صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار . ممَّن لم يَرَ رسول الله (ص) . يُحَيِّي أبا بكرٍ ، حتَّى أصابت الشَّمْسُ رسولَ الله (ص) ، فأقبل أبو بكر حتَّى ظلَّلَ عليه بردائه ، فعرف النَّاس رسول الله (ص) عند ذلك ، فلبث رسولُ الله (ص) في بني عمرو بن عوف بضعَ عَشْرَةَ ليلةً[(٢٤٩)] ، وأُسِّسَ المسجدُ الذي أُسِّسَ على التَّقوى ، وصلَّى فيه رسول الله (ص) ، ثمَّ ركب راحلته» [البخاري (٣٩٠٦)] .

وبعد أن أقام رسول الله (ص) المدَّة الَّتي مكثها بقُباء ، وأراد أن يدخل المدينة؛ «بعث إلى الأنصار» فجاؤوا إلى نبيِّ الله (ص) وأبي بكر ، فسلَّموا عليهما ، وقالوا: اركبا اٰمِنَيْن مُطَاعَيْن ، فركب نبيُّ الله (ص) ، وأبو بكرٍ ، وحَفُّوا دونَهما بالسِّلاح».

وعند وصوله (ص) إلى المدينة ، قيل في المدينة: «جاء نبيُّ الله ، جاء نبيُّ الله (ص) ، فأشرفوا ينظرون ، ويقولون: جاء نبيُّ الله» [البخاري (٣٩١١)] .

فكان يوم فرحٍ وابتهاجٍ ، لم ترَ المدينة يوماً مثله ، ولبس النَّاس أحسن ملابسهم ، كأنَّهم في يوم عيدٍ ، ولقد كان حقّاً يوم عيدٍ؛ لأنَّه اليوم الَّذي انتقل فيه الإسلام من ذلك الحيِّز الضَّيِّق في مكَّة ، إلى رحابة الانطلاق والانتشار ، بهذه البقعة المباركة (المدينة) ، ومنها إلى سائر بقاع الأرض ، لقد أحسَّ أهل المدينة بالفضل الَّذي حباهم الله به ، وبالشَّرف الَّذي اختصَّهم به أيضاً ، فقد صارت بلدتهم موطناً لإيواء رسول الله (ص) ، وصحابته المهاجرين ، ثم لنصرة الإسلام ، كما أصبحت موطناً للنِّظام الإسلاميِّ العامِّ ، والتَّفصيليِّ بكلِّ مقوِّماته ، ولذلك خرج أهل المدينة يهلِّلون في فرحٍ وابتهاجٍ ، ويقولون: يا رسول الله! يا محمد! يا رسول الله[(٢٥٠)]!

روى الإمام مسلمٍ بسنده ، قال: «عندما دخل رسول الله (ص) المدينة؛ صعد الرِّجال ، والنِّساء فوق البيوت ، وتفرَّق الغِلْمَان ، والخدم في الطُّرق ، ينادون: يا محمد! يا رسول الله! يا محمَّد! يا رسول الله!!» [مسلم (٣٠١٤/م)] .

وبعد هذا الاستقبال الجماهيريِّ العظيم؛ الَّذي لم يرد مثله في تاريخ الإنسانيَّة سار رسول الله (ص) حتَّى نزل في دار أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه ، فعن أنسٍ رضي الله عنه في حديث الهجرة الطَّويل: «فأقبل يسيرُ حتَّى نزل جانب دار أبي أيوب، فإنَّه ليُحَدِّثُ أهلَه[(٢٥١)]؛ إذ سمع به عبد الله بن سَلاَم ، وهو في نخلٍ لأهله يَخْتَرِف[(٢٥٢)] لهم ، فعجَّل أن يضع الَّذي يَخْتَرِف لهم فيها ، فجاء وهي معه ، فسمع من نبيِّ الله (ص) ، ثمَّ رجع إلى أهله ، فقال نبيُّ الله (ص) : أيُّ بيوتِ أهلنا[(٢٥٣)] أقرب؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نبيَّ الله! هذه داري، وهذا بابي ، قال: فانَطَلِقْ فهيِءْ لنا مقيلاً[(٢٥٤)]....» [البخاري (٣٩١١)] ، ثمَّ نزل رسول الله (ص) على أبي أيوبٍ حتَّى بنى مسجده ، ومساكنه.

وبهذا قد تمَّت هجرته (ص) ، وهجرة أصحابه رضي الله عنهم؛ ولم تنته الهجرة بأهدافها ، وغاياتها ، بل بدأت بعد وصول رسول الله (ص) سالماً إلى المدينة ، وبدأت معها رحلة المتاعب ، والمصاعب ، والتَّحدِّيات ، فتغلَّب عليها رسول الله (ص) للوصول للمستقبل الباهر للأمَّة ، والدَّولة الإسلاميَّة؛ الَّتي استطاعت أن تصنع حضارةً إنسانيَّةً رائعةً ، على أسس من الإيمان ، والتَّقوى ، والإحسان ، والعدل بعد أن تغلَّبت على أقوى دولتين كانتا تحكمان العالم ، وهما: دولة الفرس ، ودولة الرُّوم[(٢٥٥)].

عاشراً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبر:

١ ـ الصِّراع بين الحقِّ والباطل صراعٌ قديمٌ ، وممتدٌّ:

وهو سنَّةٌ إلهيَّةٌ نافذةٌ ، قال عزَّ وجلَّ: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *} [الحج: ٤٠] .

ولكنَّ هذا الصِّراع معلومُ العاقبة: {كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ *} [المجادلة: ٢١] .

٢ ـ مكر خصوم الدَّعوة بالدَّاعية أمرٌ مستمرٌ متكرِّرٌ:

سواءٌ عن طريق الحبس ، أو القتل ، أو النَّفي ، والإخراج من الأرض ، وعلى الدَّاعية أن يلجأ إلى ربِّه ، وأن يثق به ، ويتوكَّل عليه ، ويعلم: أنَّ المكر السَّيأى لا يحيق إلا بأهله[(٢٥٦)] ، كما قال عزَّ وجل:

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *} [الأنفال: ٣٠] .

ومن مكر أهل الباطل وخصوم الدَّعوة استخدام سلاح المال لإغراء النُّفوس الضَّعيفة ، للقضاء على الدَّعوة والدُّعاة ، ولذلك رصدوا مئة ناقةٍ ، لمن يأتي برسول الله (ص) حيّاً ، أو ميتاً ، فتحرَّك الطَّامعون ، ومنهم سراقة؛ الَّذي عاد بعد هذه المغامرة الخاسرة ماديّاً ، بأوفر ربحٍ ، وأطيب رزقٍ ، وهو رزق الإيمان ، وأخذ يعمِّي الطريق على الطَّامعين الاخرين ، الَّذين اجتهدوا في الطَّلب ، وهكذا يردُّ الله عن أوليائه والدُّعاة[(٢٥٧)]. قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ *} [الأنفال: ٣٦] .

٣ ـ دقَّة التَّخطيط ، والأخذ بالأسباب:

إنَّ مَنْ تأمَّل حادثة الهجرة ، ورأى دقَّة التَّخطيط فيها ، ودقَّة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها ، ومن مقدِّماتها إلى ما جرى بعدها؛ يدرك أنَّ التَّخطيط المسدَّد بالوحي في حياة رسول الله (ص) كان قائماً ، وأنَّ التَّخطيط جزءٌ من السُّنَّة النَّبويَّة ، وهو جزءٌ من التَّكليف الإلهيِّ في كل ما طولب به المسلم ، وأنَّ الَّذين يميلون إلى العفوية؛ بحجة أنَّ التخطيط ، وإحكام الأمور ليسا من السُّنَّة؛ أمثال هؤلاء مخطئون ، ويجنون على أنفسهم ، وعلى المسلمين[(٢٥٨)].

فعندما حان وقت الهجرة للنَّبيِّ (ص) ، وشرع النَّبيُّ (ص) في التَّنفيذ ، نلاحظ الاتي:

* وجود التَّنظيم الدَّقيق للهجرة حتَّى نجحت ، برغم ما كان يكتنفها من صعابٍ، وعقباتٍ ، وذلك أنَّ كلَّ أمرٍ من أمور الهجرة ، كان مدروساً دراسةً وافيةً؛ فمثلاً:

١ ـ جاء (ص) إلى بيت أبي بكر ، في وقت شدَّة الحرِّ ـ الوقت الذي لا يخرج فيه أحدٌ ـ؛ بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت ، لماذا؟ حتَّى لا يراه أحد.

٢ ـ إخفاء شخصيته (ص) في أثناء مجيئه للصِّدِّيق ، وجاء إلى بيت الصِّدِّيق متلثماً؛ لأنَّ التلثُّم يقلِّل من إمكانية التعرُّف على معالم الوجه المتلثم[(٢٥٩)].

٣ ـ أمر (ص) أبا بكر أن يُخْرِج مَن عنده ، ولما تكلَّم لم يبيِّن إلا الأمر بالهجرة ، دون تحديد الاتجاه.

٤ ـ كان الخروج ليلاً ، ومن بابٍ خلفيٍّ في بيت أبي بكرٍ[(٢٦٠)].

٥ . بلغ الاحتياط مداه ، باتِّخاذ طرقٍ غير مألوفةٍ للقوم ، والاستعانة في ذلك بخبيرٍ يعرف مسالك البادية ، ومسارب الصَّحراء ، ولو كان ذلك الخبير مشركاً ، ما دام على خُلُقٍ ورزانةٍ ، وفيه دليلٌ على أنَّ الرَّسول (ص) كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها[(٢٦١)].

* انتقاء شخصياتٍ عاقلةٍ لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة ، ويلاحظ أنَّ هذه الشَّخصيات كلَّها تترابط برباط القرابة ، أو برباط العمل الواحد ، ممَّا يجعل من هؤلاء الأفراد ، وحدةً متعاونةً على تحقيق الهدف الكبير.

* وضع كلِّ فردٍ من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب؛ الذي يجيد القيام به على أحسن وجهٍ؛ ليكون أقدر على أدائه ، والنُّهوض بتبعاته.

* فكرة نوم عليٍّ بن أبي طالب مكان الرَّسول (ص) فكرةٌ ناجحةٌ ، قد ضلَّلت القوم ، وخدعتهم ، وصرفتهم عن الرَّسول (ص) ، حتَّى خرج في جنح اللَّيل ، تحرسه عناية الله ، وهم نائمون ، ولقد ظلَّت أبصارهم معلَّقةً بعد اليقظة ، بمضجع الرَّسول (ص) ، فما كانوا يشكُّون في أنَّه ما يزال نائماً ، مُسجّىً في بردته ، في حين أنَّ النَّائم هو عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

* وقد كان عملُ أبطال هذه الرِّحلة على النَّحو التالي:

١ . عليٌّ رضي الله عنه: ينام في فراش الرَّسول (ص) ؛ ليخدع القوم؛ ويُسلِّم الودائع ، ويلحق بالرَّسول (ص) بعد ذلك.

٢ . عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصَّادق ، وكاشف تحرُّكات العدوِّ.

٣ . أسماء ذات النِّطاقين: حاملة التموين من مكَّة إلى الغار ، وسط جنون المشركين؛ بحثاً عن محمَّدٍ (ص) ليقتلوه.

٤ . عامر بن فهيرة: الرَّاعي البسيط الذي قدَّم اللَّحم واللَّبن إلى صاحبي الغار ، وبدَّد اثار أقدام المسيرة التَّاريخيَّة بأغنامه كي لا يتفرَّسها القوم!! لقد كان هذا الرَّاعي يقوم بدور الإمداد ، والتَّموين ، والتَّعمية.

٥ . عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين ، وخبير الصَّحراء البصير ينتظر في يقظةٍ إشارة البدء من الرَّسول (ص) ؛ ليأخذ الرَّكبُ طريقه من الغار إلى يثرب.

فهذا تدبيرٌ للأمور على نحوٍ رائعٍ دقيقٍ ، واحتياطٌ للظُّروف بأسلوبٍ حكيمٍ ، وَوَضْعٌ لكلِّ شخصٍ من أشخاص الهجرة في مكانه المناسب ، وسدٌّ لجميع الثَّغرات ، وتغطيةٌ بديعةٌ لكلِّ مَطالب الرِّحلة ، واقتصارٌ على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادةٍ ، ولا إسرافٍ.

لقد أخذ الرَّسول (ص) بالأسباب المعقولة ، أخذاً قوياً حسب استطاعته ، وقدرته؛ ومن ثمَّ باتت عنايةُ الله متوقَّعةً[(٢٦٢)].

٤ ـ الأخذ بالأسباب أمرٌ ضروريٌّ:

إنَّ اتخاذ الأسباب أمرٌ ضروريٌّ وواجبٌ؛ ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة؛ ذلك لأنَّ هذا أمرٌ يتعلَّق بأمر الله ومشيئته ، ومن هنا كان التوكُّل أمراً ضرورياً ، وهو من باب استكمال اتِّخاذ الأسباب.

إنَّ رسول الله (ص) أعدَّ كلَّ الأسباب ، واتَّخذ كلَّ الوسائل؛ ولكنَّه في الوقت نفسه مع الله ، يدعوه ، ويستنصره أن يكلِّل سعيه بالنَّجاح ، وهنا يُستجاب الدُّعاء ، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار ، وتسيخ فرس سراقة في الأرض ، ويكلَّل العمل بالنَّجاح[(٢٦٣)].

٥ ـ الإيمان بالمعجزات الحسِّيَّة:

وفي هجرة النَّبيِّ (ص) وقعت معجزاتٌ حسِّيَّةٌ ، وهي دلائل ملموسةٌ على حفظ الله ، ورعايته لرسوله (ص) ، ومن ذلك ـ على ما روي ـ نسيج العنكبوت على فم الغار ، ومنها ما جرى لرسول الله (ص) مع أمِّ معبد ، وما جرى له مع سراقة ، ووعده إيَّاه بأن يلبس سواري كسرى ، فعلى الدُّعاة ألا يتنصَّلوا من هذه الخوارق ، بل يذكروها ما دامت ثابتةً بالسُّنَّة النَّبويَّة ، على أن

ينبِّهوا الناس على أن هذه الخوارق ، هي من جملة دلائل نبوَّته ، ورسالته عليه السَّلام[(٢٦٤)].

٦ ـ جواز الاستعانة بالكافر المأمون:

ويجوز للدُّعاة أن يستعينوا بمن لا يُؤمنون بدعوتهم ما داموا يثقون بهم ، ويأتمنونهم؛ فقد رأينا: أنَّ النَّبيَّ (ص) وأبا بكرٍ استأجرا مشركاً ليدلهما على طريق الهجرة ، ودفعا إليه راحلتيهما ، وواعداه عند غار ثور ، وهذه أمورٌ خطيرةٌ أطلعاه عليها، ولاشكَّ: أنَّ النَّبيَّ (ص) ، وأبا بكر وثقا به ، وأمَّناه ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الكافر، أو العاصي ، أو غير المنتسب إلى الدُّعاة ، قد يوجد عند هؤلاء ما يستدعي وثوق الدُّعاة بهم ، كأن تربطهم رابطة القرابة ، أو المعرفة القديمة ، أو الجوار ، أو عمل معروف كان قد قدَّمه الدَّاعية لهم ، أو لأن هؤلاء عندهم نوعٌ جيِّدٌ من الأخلاق الأساسيَّة؛ مثل الأمانة ، وحبِّ عمل الخير ، إلى غير ذلك من الأسباب ، والمسألة تقديريَّة ، يترك تقديرها إلى فطنة الدَّاعي ، ومعرفته بالشَّخص(١).

٧ ـ دور المرأة في الهجرة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماءٌ كثيرةٌ ، كان لها فضلٌ كبيرٌ ، ونصيبٌ وافرٌ من الجهاد؛ منها: عائشة بنت أبي بكرٍ الصِّدِّيق؛ الَّتي حفظت لنا القصَّة ، ووعتها ، وبلَّغتها للأمَّة ، وأمُّ سلمة المهاجرة الصَّبور ، وأسماء

ذات النِّطاقين[(٢٦٥)] ، الَّتي أسهمت في تموين الرَّسول (ص) وصاحبه في الغار ، بالماء ، والغذاء ، وكيف تحمَّلت الأذى في سبيل الله ، فقد حدَّثتنا عن ذلك ، فقالت: «لما خرج رسول الله (ص) ، وأبو بكرٍ رضي الله عنه أتانا نفرٌ من قريشٍ ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكرٍ ، فخرجتُ إليهم ، فقالوا: أين أبوك يا بنتَ أبي بكرٍ؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي!

قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خَدِّي لطمةً ، طرح منها قُرْطِي ، قالت: ثُمَّ انصرفوا» [الطبري في تاريخه (٢/٣٧٩ ـ ٣٨٠) وابن هشام (٢/١٣١ ـ ١٣٢)][(٢٦٦)] .

فهذا درسٌ من أسماء رضي الله عنها؛ تعلِّمه لنساء المسلمين جيلاً بعد جيل ، كيف تخفي أسرار المسلمين عن الأعداء ، وكيف تقف صامدةً شامخةً أمام قوى البغي والظُّلم! وأمَّا درسها الثَّاني البليغ ، فعندما دخل عليها جدُّها أبو قحافة ، وقد ذهب بصره ، فقال: «والله إِنِّي لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه» ، قالت: «كلا يا أبت! ضع يدك على هذا المال» قالت: «فوضع يده عليه» ، فقال: «لابأس ، إذا كان ترك لكم هذا؛ فقد أحسن» ، وفي هذا بلاغ لكم ، قالت:

«ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنِّي أردت أن أسكِّن الشَّيخ بذلك»[(٢٦٧)] .

وبهذه الفطنة ، والحكمة ، سترت أسماء أباها ، وسكَّنت قلب جدِّها الضرير ، من غير أن تكذب فإِنَّ أباها قد ترك لهم حقاً هذه الأحجار الَّتي كوَّمتها؛ لتطمئن لها نفس الشَّيخ! إلا أنه قد ترك لهم معها إيماناً بالله لا تزلزله الجبال ، ولا تحرِّكه العواصف الهوج ، ولا يتأثر بقلَّةٍ أو كثرةٍ في المال ، وورَّثهم يقيناً ، وثقةً به لا حدَّ لها ، وغرس فيهم همَّةً تتعلَّق بمعالي الأمور ، ولا تلتفت إلى سفاسفها[(٢٦٨)] ، فضرب بهم للبيت المسلم مثالاً عزَّ أن يتكرَّر ، وقلَّ أن يوجد نظيره.

لقد ضربت أسماء رضي الله عنها بهذه المواقف لنساء ، وبنات المسلمين مثلاً هُنَّ في أمسِّ الحاجة إلى الاقتداء به ، والنَّسج على مِنواله.

وظلَّت أسماء مع أخواتها في مكَّة ، لا تشكو ضيقاً ، ولا تظهر حاجةً ، حتَّى بعث النَّبيُّ (ص) زيد بن حارثة ، وأبا رافع مولاه ، وأعطاهما بعيرين وخمسمئة درهمٍ إلى مكَّة ، فقدما عليه بفاطمة ، وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة بنت زمعة زوجه ، وأسامة بن زيد ، وأُمُّه بركة المكنَّاة بأم أيمن ، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكرٍ بعيال أبي بكرٍ ، فيهم عائشة ، وأسماء ، فقدموا المدينة ، فأنزلهم في بيت حارثة بن النُّعمان[(٢٦٩)] .

٨ ـ أمانات المشركين عند رسول الله (ص):

في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله (ص) مع محاربتهم له ، وتصميمهم على قتله دليلٌ باهرٌ على تناقضهم العجيب ، الَّذي كانوا واقعين فيه؛ ففي الوقت الَّذي كانوا يكذِّبونه ، ويزعمون: أنَّه ساحرٌ ، أو مجنونٌ ، أو كذَّابٌ ، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم مَنْ هو خيرٌ منه أمانةً وصدقاً ، فكانوا لا يضعون حوائجهم ، ولا أموالهم الَّتي يخافون عليها إلا عنده! وهذا يدلُّ على أنَّ كفراهم ، لم يكن بسبب الشَّكِّ لديهم في صدقه؛ وإنَّما بسبب تكبُّرهم ، واستعلائهم على الحقِّ الَّذي جاء به ، وخوفاً على زعامتهم ، وطغيانهم[(٢٧٠)] ، وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *} [الأنعام: ٣٣] .

وفي أمر الرَّسول (ص) لعليٍّ رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكَّة؛ برغم هذه الظُّروف الشَّديدة؛ الَّتي كان من المفترض أن يكتنفها الاضطراب ، بحيث لا يتَّجه التَّفكير إلا إلى إنجاح خطَّة هجرته فقط؛ برغم ذلك فإنَّ الرَّسول (ص) ما كان لينسى ، أو ينشغل عن ردِّ الأمانات إلى أهلها ، حتَّى ولو كان في أصعب الظُّروف الَّتي تُنسي الإنسان نفسه ، فضلاً عن غيره[(٢٧١)].

٩ ـ الرَّاحلة بالثَّمن:

لم يقبل رسولُ الله (ص) أن يركب الرَّاحلة ، حتَّى أخذها بثمنها من أبي بكرٍ رضي الله عنه ، واستقرَّ الثَّمن دَيْناً بذمَّته ، وهذا درسٌ واضحٌ بأنَّ حملة الدَّعوة لا ينبغي أن يكونوا عالةً على أحدٍ في وقتٍ من الأوقات ، فهم مصدر العطاء في كلِّ شيءٍ.

إنَّ يدهم إن لم تكن العليا ، فلن تكون السُّفلى ، وهكذا يصرُّ (ص) أن يأخذها بالثَّمن ، وسلوكه ذلك هو التَّرجمة الحقَّة لقوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ *} [الشعراء: ١٠٩] .

إنَّ الذين يحملون العقيدة ، والإيمان ، ويبشِّرون بهما ، ما ينبغي أن تمتدَّ أيديهم إلى أحدٍ إلا الله؛ لأنَّ هذا يتناقض مع ما يدعون إليه ، وقد تعوَّد النَّاس أن يعوا لغة الحال؛ لأنَّها أبلغ من لغة المقال ، وما تأخَّر المسلمون ، وأصابهم ما أصابهم من الهوان إلا يوم أصبحت وسائل الدَّعوة ، والعاملون بها خاضعين لِلُغة المادَّة؛ إذ ينتظر الواحد منهم مرتَّبه ، ويومها تحوَّل العمل إلى عملٍ ماديٍّ؛ فقَد الرُّوح ، والحيويَّة ، والوضاءة ، وأصبح للأمر بالمعروف موظَّفون ، وأصبح الخطباء موظَّفين ، وأصبح الأئمَّة موظَّفين.

إنَّ الصَّوت الَّذي ينبعث من حنجرةٍ وراءها الخوف من الله ، والأمل في رضاه ، غير الصَّوت الَّذي ينبعث ليتلقَّى دراهم معدودة ، فإذا توقَّفت؛ توقف الصَّوت ، وقديماً قالوا: «ليست النَّائحة كالثَّكلى»؛ ولهذا قلَّ التأثير ، وبَعُدَ النَّاس عن جادَّة الصَّواب[(٢٧٢)].

١٠ ـ الدَّاعية يَعفُّ عن أموال النَّاس:

لما عفا النَّبيُّ (ص) عن سراقة؛ عرض عليه سراقة المساعدة ، فقال: «وهذه كنانتي فخذ منها سهماً؛ وإنَّك ستمرُّ بإبلي ، وغنمي في موضع كذا ، وكذا ، فخذ منها حاجتك». فقال رسول الله (ص) : «لا حاجة لي فيها» [أحمد (٣/١) ومسلم (٣٠١٤/م)][(٢٧٣)] .

فحين يزهد الدُّعاة فيما عند النَّاس ، يحبُّهم الناس ، وحين يطمعون في أموال النَّاس ، ينفر النَّاس منهم ، وهذا درسٌ بليغٌ للدُّعاة إلى الله تعالى[(٢٧٤)].

١١ ـ الجندية الرَّفيعة والبكاء من الفرح:

تظهر أثر التَّربية النَّبويَّة ، في جندية أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهما؛ فأبو بكرٍ رضي الله عنه عندما أراد أن يهاجر إلى المدينة ، وقال له رسول الله (ص) : «لا تعجل؛ لعلَّ الله يجعل لك صاحباً»؛ بدأ في الإعداد والتَّخطيط للهجرة؛ فابتاع راحلتين ، واحتبسهما في داره يعلفهما إعداداً لذلك ، وفي رواية البخاريِّ: «وعلف راحلتين كانتا عندهُ ورقَ السَّمُر ـ وهو الخَبَط ـ أربعة أشهر» [البخاري (٣٩٠٥) والبيهقي في الدلائل (٤٧٣/٢)] لقد كان يدرك بثاقب بصره رضي الله عنه ـ وهو الَّذي تربَّى؛ ليكون قائداً ـ: أنَّ لحظة الهجرة صعبةٌ ، قد تأتي فجأةً ، ولذلك هيَّأ وسيلة الهجرة ، ورتَّب تموينها ، وسخَّر أسرته لخدمة النَّبيِّ (ص) ، وعندما جاء رسول الله (ص) ، وأخبره: أنَّ الله قد أذن له في الخروج ، والهجرة؛ بكى من شدَّة الفرح ، وتقول عائشة رضي الله عنها في هذا الشأن: «فوالله! ما شعرت قطُّ قبل ذلك اليوم: أنَّ أحداً يبكي من الفرح؛ حتَّى رأيت أبا بكرٍ يبكي يومئذٍ» ، إنَّها قمَّة الفرح البشريِّ أن يتحوَّل الفرح إلى بكاءٍ ، كما قال الشَّاعر عن هذا:

وَرَدَ الكِتَابُ مِنَ الحَبِيْبِ بأنَّهُسَيَزُورُنِي فاستعبرتْ أَجْفَانِي
غَلَبَ السُّرورُ عليَّ حتَّى إنَّنيمِنْ فرْطِ ما قَدْ سرَّنِي أَبْكَانِي
يا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عِنْدَكِ عَادَةًتَبْكِيْنَ مِنْ فَرَحٍ وَمِنْ أَحْزَانِ

فالصِّدِّيق رضي الله عنه ، يعلم: أنَّ معنى هذه الصُّحبة: أنَّه سيكون وحدَه برفقة رسول ربِّ العالمين ، بضعة عشر يوماً على الأقلِّ ، وهو الَّذي سيقدِّم حياته لسيِّده ، وقائده ، وحبيبه المصطفى (ص) ، فأيُّ

فوزٍ في هذا الوجود يفوق هذا الفوز: أن يتفرَّد الصِّدِّيق وحدَه من دون أهل الأرض ، ومن دون الصَّحب جميعاً برفقة سيِّد الخلق (ص) وصحبته كلَّ هذه المدَّة[(٢٧٥)]. وتظهر معاني الحبِّ في الله في خوف أبي بكرٍ ، وهو في الغار من أن يراهما المشركون؛ ليكون الصِّدِّيق مثلاً لما ينبغي أن يكون عليه جنديُّ الدَّعوة الصَّادق مع قائده الأمين حين يحدق به الخطر من خوفٍ ، وإشفاقٍ على حياته؛ فما كان أبو بكر ساعتئذٍ بالَّذي يخشى على نفسه الموت ، ولو كان كذلك؛ لما رافق رسولَ الله (ص) في هذه الهجرة الخطيرة ، وهو يعلم: أنَّ أقلَّ جزائه القتلُ؛ إن أمسكه المشركون مع رسول الله (ص) ؛ ولكنَّه كان يخشى على حياة الرَّسول الكريم (ص) ، وعلى مستقبل الإسلام؛ إن وقع الرَّسول (ص) في قبضة المشركين[(٢٧٦)].

ويظهر الحسُّ الأمنيُّ الرَّفيع للصِّدِّيق في هجرته مع النَّبيِّ (ص) ، في مواقف كثيرةٍ؛ منها: حين أجاب السَّائل: مَنْ هذا الرَّجل الَّذي بين يديك؟ فقال: هذا هادٍ يهديني السَّبيل ، فظنَّ السائل بأنَّ الصِّدِّيق يقصد الطريق ، وإنَّما كان يقصد سبيل الخير. [البخاري (٣٩١)][(٢٧٧)] ، وهذا يدلُّ على حسن استخدام أبي بكرٍ للمعاريض فراراً من الكذب[(٢٧٨)] ، وفي إجابته للسَّائل توريةٌ ، وتنفيذٌ للتَّربية الأمنيَّة؛ الَّتي تلقَّاها من رسول الله (ص) ؛ لأنَّ الهجرة كانت سرّاً ، وقد أقرَّه الرَّسول (ص) على ذلك[(٢٧٩)].

وفي موقف عليِّ بن أبي طالبٍ مثالٌ للجنديّ الصَّادق المخلص لدعوة الإسلام؛ حيث فدى قائده بحياته ، ففي سلامة القائد سلامةٌ للدَّعوة ، وفي هلاكه خذلانها ، ووهنها ، وهذا ما فعله عليٌّ رضي الله عنه ليلة الهجرة؛ من بياته على فراش الرَّسول (ص) ؛ إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس عليٍّ رضي الله عنه ، ولكنَّ عليّاً رضي الله عنه لم يبالِ بذلك ، فحسبه أن يَسْلَم رسول الله (ص) نبيُّ الأمَّة ، وقائد الدَّعوة[(٢٨٠)].

١٢ . فنُّ قيادة الأرواح ، وفنُّ التَّعامل مع النُّفوس:

يظهر الحبُّ العميق؛ الَّذي سيطر على قلب أبي بكرٍ لرسول الله (ص) في الهجرة ، كما يظهر حبُّ سائر الصَّحابة أجمعين في سيرة الحبيب المصطفى (ص) ، وهذا الحبُّ الرَّبَّانيُّ كان نابعاً من القلب وبإخلاصٍ ، لم يكن حبَّ نفاقٍ ، أو نابعاً من مصلحة دنيويَّةٍ ، أو رغبةٍ في منفعةٍ ، أو رهبةٍ لمكروه قد يقع ، ومن أسباب هذا الحبِّ لرسول الله (ص) صفاته القياديَّة الرَّشيدة ، فهو يسهر؛ليناموا ، ويتعب؛ ليستريحوا ، ويجوع؛ ليشبعوا ، كان يفرح لفرحهم ، ويحزن لحزنهم ، فمن سلك سنن الرَّسول (ص) مع صحابته ، في

حياته الخاصَّة والعامَّة ، وشارك النَّاس في أفراحهم ، وأتراحهم ، وكان عمله لوجه الله ، أصابه شيءٌ من هذا الحبِّ؛ إنْ كان من الزُّعماء أو القادة أو المسؤولين في أمَّة الإسلام[(٢٨١)]. وصدق الشَّاعر اللِّيبيُّ عندما قال:

فَإِذَا أَحَبَّ اللهُ بَاطِنَ عبدِهِظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَوَاهِبُ الفَتَّاحِ

وإِذَا صَفَتْ للهِ نِيَّةُ مُصْلِحٍمَالَ العِبَادُ عَلَيْهِ بالأَرْوَاحِ[(٢٨٢)]

إنَّ القيادة الصَّحيحة هي الَّتي تستطيع أن تقود الأرواح قبل كلِّ شيءٍ ، وتستطيع أن تتعامل مع النُّفوس قبل غيرها ، وعلى قدر إحسان القيادة ، يكون إحسان الجنود ، وعلى قدر البذل من القيادة يكون الحبُّ من الجنود ، فقد كان (ص) رحيماً ، وشفيقاً بجنوده ، وأتباعه ، فهو لم يهاجر إلا بعد أن هاجر معظم أصحابه ، ولم يبقَ إلا المستضعفون ، والمفتونون ، ومن كانت له مهمَّاتٌ خاصَّةٌ بالهجرة[(٢٨٣)].

١٣ . وفي الطَّريق أسلم بُريدة الأسْلَمِيُّ رضي الله عنه في ركبٍ من قومه:

إنَّ المسلم الَّذي تغلغلت الدَّعوة في شغاف قلبه ، لا يفتر لحظة واحدةً عن دعوة النَّاس إلى دين الله تعالى ، مهما كانت الظُّروف قاسيةً ، والأحوال مضطربةً ، والأمن مفقوداً؛ بل ينتهز كلَّ فرصةٍ مناسبةٍ لتبليغ دعوة الله تعالى ، فهذا نبيُّ الله تعالى يوسف عليه السلام حينما زُجَّ به في السِّجن ظُلْماً ، واجتمع بالسُّجناء في السِّجن لم يندُبْ حظَّهُ ، ولم تشغله هذه الحياة المظلمة عن دعوة التَّوحيد ، وتبليغها للنَّاس ، ومحاربة الشِّرك ، وعبادة غير الله ، والخضوع لأيِّ مخلوقٍ.

قال تعالى: {قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ *وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ *يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ *مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [يوسف: ٣٧ . ٤٠] .

وسورة يوسف عليه السلام مكِّيَّة ، وقد أمر الله تعالى رسوله محمَّداً (ص) أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين في دعوته إلى الله؛ ولذلك نجده (ص) في هجرته من مكَّة إلى المدينة . وقد كان مطارداً من المشركين ، قد أهدروا دمه ، وأغروا المجرمين منهم بالأموال الوفيرة ، ليأتوا برأسه حيّاً أو ميتاً . لا ينسى مهمَّته ، ورسالته

، فقد لقي (ص) في طريقه رجلاً يقال له: بُرَيْدة بن الحُصَيب الأسلميُّ رضي الله عنه ، في رَكْبٍ من قومه ، فدعاهم إلى الإسلام ، فامنوا ، وأسلموا[(٢٨٤)].

وذكر ابن حجرٍ العسقلانيُّ ـ رحمه الله ـ: «أنَّ النبي (ص) في طريق هجرته إلى المدينة لقي بُريدة بن الحُصَيْب بن عبد الله بن الحارث الأسلميَّ ، فدعاه إلى الإسلام ، وقد غزا مع الرَّسول (ص) ست عَشْرَة غَزْوة[(٢٨٥)] ، وأصبح بُرَيْدَةُ بعد ذلك من الدُّعاة إلى الإسلام ، وفتح الله لقومه «أسْلَم» على يديه أبوابَ الهداية ، واندفعوا إلى الإسلام ، وفازوا بالوسام النَّبويِّ؛ الَّذي نتعلَّم

منه منهجاً فريداً في فقه النُّفوس[(٢٨٦)]. قال (ص) : «أسْلَمُ سالمها الله ، وغِفَارُ غَفَرَ الله لها ، أَما إِنّي لم أَقُلْهَا، ولكنْ قالها اللهُ» [البخاري (٣٥١٤) ومسلم (٢٥١٦)] .

١٤ ـ وفي طريق الهجرة أسلم لصَّان على يدي رسول الله (ص):

كان في طريقه (ص) بالقرب من المدينة لصَّان من أَسْلم ، يقال لهما: المهَانَانِ ، فقصدهما (ص) ، وعرض عليهما الإسلام ، فأسلما ، ثمَّ سألهما عن اسميهما ، فقالا: نحن المهانان ، فقال: بل أنتما المكْرمان ، وأمرهما أن يقدما عليه المدينة [أحمد (٧٤/٤)] وفي هذا الخبر يظهر اهتمامه (ص) بالدَّعوة إلى الله؛ حيث اغتنم فرصةً في طريقه ، ودعا اللِّصَّين إلى الإسلام ، فأسلما ، وفي إسلام هذين اللِّصين مع ما ألفاه من حياة البطش ، والسَّلب ، والنَّهب دليلٌ على سرعة إقبال النُّفوس على اتِّباع الحقِّ؛ إذا وجد مَنْ يمثِّله بصدقٍ وإخلاصٍ ، وتجرَّدت نفس السَّامع من الهوى المنحرف ، وفي اهتمام الرَّسول (ص) بتغيير اسمي هذين اللِّصين ، من المهَانَيْن إلى المكْرَمَيْن دليلٌ على اهتمامه (ص) بسمعة المسلمين ، ومراعاته مشاعرهم ، إكراماً لهم ، ورفعاً لمعنوياتهم.

وإنَّ في رفع معنوية الإنسان تقويةً لشخصيته ، ودفعاً له إلى الأمام؛ ليبذل كل طاقته في سبيل الخير ، والفلاح[(٢٨٧)].

١٥ ـ الزُّبير ، وطلحة رضي الله عنهما ، والتقاؤهما برسول الله (ص) في طريق الهجرة:

وممَّا وقع في الطَّريق إلى المدينة: أنَّه (ص) لقي الزُّبير بن العوَّام في ركبٍ من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشَّام ، فكسا الزُّبيرُ رسولَ الله (ص) وأبا بكر ثياباً بيضاء. [البخاري (٣٩٠٦) والبيهقي في الدلائل (٤٩٨/٢)][(٢٨٨)] ، وكذا روى أصحاب السِّيَر: أنَّ طلحة بن عبيد الله لقيهما أيضاً وهو عائد من الشَّام ، وكساهما بعض الثِّياب [البيهقي في الدلائل (٤٩٨/٢)][(٢٨٩)] .

١٦ ـ أهمِّيَّة العقيدة والدِّين في إزالة العداوة والضَّغائن:

إنَّ العقيدة الصَّحيحة السَّليمة، والدِّين الإسلاميَّ العظيم لهما أهمِّيَّةٌ كبرى في إزالة العداوات، والضَّغائن ، وفي التَّأليف بين القلوب والأرواح ، وهو دورٌ لا يمكن لغير العقيدة الصَّحيحة أن تقوم به ، وهاقد رأينا كيف جمعت العقيدة الإسلاميَّة بين الأوس ، والخزرج ، وأزالت اثار معارك استمرَّت عقوداً من الزَّمن، وأغلقت ملف ثاراتٍ كثيرةٍ في مدَّةٍ قصيرةٍ، بمجرَّد

التَّمسُّك بها ، والمبايعة عليها ، وقد رأينا ما فعلته العقيدة في نفوس الأنصار ، فقد استقبلوا المهاجرين بصدورٍ مفتوحةٍ، وتاخوا معهم في مثاليَّةٍ نادرةٍ، لا تزال مثارَ الدَّهشة، ومضرب المثل، ولا توجد في الدُّنيا فكرةٌ ، أو شعارٌ اخر فعل مثلما فعلت عقيدة الإسلام الصَّافية في النُّفوس.

ومن هنا ندرك السِّرَّ في سعي الأعداء الدَّائب إلى إضعاف هذه العقيدة ، وتقليل تأثيرها في نفوس المسلمين ، واندفاعهم المستمرِّ نحو تزكية النَّعرات العصبيَّة ، والوطنيَّة ، والقوميَّة ، وغيرها ، وتقديمها كبديلٍ للعقيدة الصَّحيحة[(٢٩٠)].

١٧ ـ فرحة المهاجرين والأنصار بوصول النَّبيِّ (ص):

كانت فرحة المؤمنين من سكان يثرب؛ من أنصارٍ ، ومهاجرين بقدوم رسول الله (ص) ووصوله إليهم سالماً فرحةً أخرجت النِّساء من بيوتهنَّ ، والولائد ، وحملت الرِّجال على ترك أعمالهم ، وكان موقف يهود المدينة ، موقف المشارك لسكَّانها في الفرحة ظاهراً ، والمتألِّم من منافسة الزَّعامة الجديدة باطناً ، أمَّا فرحة المؤمنين بلقاء رسولهم؛ فلا عجب فيها ، فهو الَّذي أخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وأما موقف اليهود ، فلا غرابة فيه؛ فهم الذين عُرِفوا بالملق ، والنِّفاق للمجتمع؛ الَّذي فقدوا السَّيطرة عليه ، وبالغيظ ، والحقد الأسود ممَّن يسلبهم زعامتهم على الشُّعوب ، ويَحُول بينهم وبين سلب أموالهم باسم القروض ، وسفك دمائها باسم النُّصح ، والمشورة ، وما زال اليهود يحقدون على كلِّ من يخلِّص الشُّعوب من سيطرتهم ، وينتهون من الحقد إلى الدَّسِّ ، والمؤامرات ، ثمَّ إلى الاغتيال إن استطاعوا ، ذلك دينهم ، وتلك جِبِلَّتُهم[(٢٩١)].

ويستفاد من استقبال المهاجرين والأنصار لرسول الله (ص) ، مشروعية استقبال الأمراء والعلماء عند مقدمهم ، بالحفاوة والإكرام ، فقد حدث ذلك لرسول الله (ص) ، وكان هذا الإكرام ، وهذه الحفاوة ، نابعين من حبٍّ للرسول (ص)؛ بخلاف ما نراه من استقبال الزعماء والحكام في عالمنا المعاصر ، ويستفاد كذلك التنافس في الخير ، وإكرام ذوي العلم والشرف ، فقد كانت كل قبيلة تحرص أن تستضيف رسولَ

الله (ص) ، وتعرض أن يكون رجالها حُراساً له ، ويؤخذ من هذا ، إكرام العلماء والصالحين ، واحترامهم وخدمتهم[(٢٩٢)].

١٨ ـ مقارنة بين الهجرة ، والإسراء والمعراج:

كانت الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة على النَّحو الَّذي كانت عليه ، وسارت على الوضع الَّذي يسلكه كلُّ مهاجرٍ؛ حتَّى توجد القدوة ، وتتحقَّق الأسوة ، ويسير المسلمون على نهجٍ مألوفٍ ، وسبيلٍ معروفٍ ، ولذلك ، فلم يرسلِ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له (ص) البراق ليهاجر عليه ـ كما حدث في ليلة الإسراء ـ مع أنَّ الرَّسول (ص) في يوم هجرته أحوج إلى البراق منه في أيِّ وقتٍ اخر؛ لأنَّ القوم يتربَّصون به هنا ، ولم يكن هناك تربُّص في ليلة الإسراء ، ولو ظفروا به في هجرته؛ لشفوا نفوسهم منه بقتله.

والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ: أنَّ الهجرة كانت مرحلةً طبيعيَّةً من مراحل تطوُّر الدَّعوة ، ووسيلةً من أهمِّ وسائل نشرها ، وتبليغها ، ولم تكن خاصةً برسول الله (ص) ؛ بل كان غيره من المؤمنين مكلَّفين بها ، حين قطع الإسلام الولاية[(٢٩٣)] بين المهاجرين وغير المهاجرين القادرين على الهجرة.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *} [الأنفال: ٧٢] .

أمَّا رحلة الإسراء ، والمعراج ، فكانت رحلةَ تشريفٍ ، وتقديرٍ ، كما كانت إكراماً من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لنبيِّه (ص) ؛ ليطلعه على عالم الغيب ، ويريه من اياته الكبرى ، فالرِّحلة من أولها إلى اخرها خوارق ، ومعجزاتٌ ، ومشاهد للغيبيَّات ، فناسب أن تكون وسيلتها مشابهةً لغايتها.

زِدْ على ذلك: أنَّ رحلة الإسراء خصوصيَّةٌ للرسول (ص) ، وليس لأحدٍ من النَّاس أن يتطلَّع لمثلها ، ولسنا مطالبين بالاقتداء به فيها ، ولذا فإنَّ حصولها على النَّحو؛ الَّذي كانت عليه ، هو أنسب الأوضاع لحدوثها[(٢٩٤)].

١٩ ـ وضوح سنَّة التَّدرُّج:

حيث نلاحظ: أنَّ رسول الله (ص) عندما تقابل مع طلائع الأنصار الأولى ، لم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام ، وتلاوة القران عليهم ، فلمَّا جاؤوا في العام التالي ، بايعهم بيعة النِّساء على العبادات ، والأخلاق ، والفضائل ، فلمَّا جاؤوا في العام التالي؛ كانت بيعة العقبة الثَّانية على الجهاد ، والنَّصر ، والإيواء[(٢٩٥)].

وجديرٌ بالملاحظة: أنَّ بيعة الحرب لم تتمَّ إلا بعد عامين كاملين ، أي بعد تأهيلٍ ، وإعدادٍ استمرَّ عامين كاملين ، وهكذا تمَّ الأمر على تدرُّجٍ ينسجم مع المنهج التَّربويِّ الَّذي نهجت عليه الدَّعوة من أوَّل يومٍ[(٢٩٦)].

إنَّه المنهج الَّذي هدى الله نبيَّه (ص) إلى التزامه ، ففي البيعة الأولى ، بايعه هؤلاء الأنصار الجدد على الإسلام؛ عقيدةً ، ومنهاجاً ، وتربية ، وفي البيعة الثانية ، بايعه الأنصار على حماية الدَّعوة ، واحتضان المجتمع الإسلاميِّ؛ الذي نضجت ثماره ، واشتدَّت قواعده قوَّةً وصلابةً.

إنَّ هاتين البيعتين أمران متكاملان ضمن المنهج التَّربويِّ للدَّعوة الإسلاميَّة ، وإنَّ الأمر الأول هو المضمون ، والأمر الثاني ـ وهو بيعة الحرب ـ هو السِّياج الَّذي يحمي ذلك المضمون ، نعم كانت بيعة الحرب بعد عامين من إعلان القوم الإسلام ، وليس فور إعلانهم.

بعد عامين؛ إذ تمَّ إعدادهم حتَّى غدوا موضع ثقةٍ، وأهلاً لهذه البيعة، ويلاحظ: أنَّ بيعة الحرب لم يسبق أن تمَّت قبل ذلك اليوم مع أيِّ مسلم؛ إنَّما حصلت عندما وجدت الدَّعوة في هؤلاء الأنصار ، وفي الأرض الَّتي يقيمون فيها المعقل الملائم؛ الَّذي ينطلق منه المحاربون؛ لأنَّ مكَّة لوضعها عندئذٍ لم تكن تصلح للحرب[(٢٩٧)].

وقد اقتضت رحمة الله بعباده «ألاَّ يُحَمِّلَهم واجبَ القتال إلى أن توجد لهم دار إسلام ، تكون لهم بمثابة معقلٍ يأوون إليه ، ويلوذون به ، وقد كانت المدينة المنوَّرة أوَّل دار إسلامٍ»[(٢٩٨)].

لقد كانت البيعة الأولى قائمةً على الإيمان بالله ، ورسوله (ص) ، والبيعة الثَّانية على الهجرة ، والجهاد ، وبهذه العناصر الثلاثة: الإيمان بالله ، والهجرة ، والجهاد ، يتحقَّق وجود الإسلام في واقع جماعيٍّ ممكنٍ ، والهجرة لم تكن لتتمَّ لولا وجود الفئة المستعدَّة للإيواء؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *} [الأنفال: ٧٢] .

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [الأنفال: ٧٥] .

وقد كانت بيعة الحرب هي التَّمهيد الأخير لهجرة النَّبيِّ (ص) وأصحابه إلى المدينة، وبذلك وَجَدَ الإسلامُ موطنَه؛ الَّذي ينطلق منه دعاةُ الحقِ بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، وتنطلق منه

جحافل الحقِّ المجاهدة أوَّل مرَّةٍ ، وقامت الدَّولة الإسلاميَّة المحكِّمة لشرع الله[(٢٩٩)].

٢٠ ـ الهجرة تضحيةٌ عظيمةٌ في سبيل الله:

كانت هجرة النَّبيِّ (ص) وأصحابه من البلد الأمين تضحيةً عظيمةً ، عبَّر عنها النَّبيُّ (ص) بقوله: «والله! إنك لخير أرض الله ، وأحبُّ أرض الله إلى الله ، ولولا أنِّي أُخرِجت منك ما خرجتُ» [أحمد (٤/٣٠٥) والترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله (ص) المدينة؛ قدمها ، وهي أوبأ أرض الله من الحمَّى ، وكان واديها يجري نجلاً ـ يعني ماءً اجناً ـ فأصاب أصحابَه منها بلاءٌ ، وسقمٌ ، وصرف الله ذلك عن نبيِّه ، قالت: فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وبلال ، في بيتٍ واحدٍ ، فأصابتهم الحمَّى ، فاستأذنتُ رسولَ الله (ص) في عيادتهم ، فأذن ، فدخلت إليهم أعودهم ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدَّة الوعك[(٣٠٠)] ، فدنوت من أبي بكرٍ ، فقلت: يا أبتِ كيف تجدُك؟ فقال:

كلُّ امْرِأىً مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِوالموْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

قالت: فقلت: والله! ما يدري أبي ما يقول ، ثم دنوت من عامر بن فهيرة ، فقلت: كيف تجدُك يا عامر؟! فقال:

لَقَدْ وَجَدْتُ الموْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِإنَّ الجَبَانَ حَتْفُهُ منْ فَوْقِهِ

كُلُّ امْرِأىٍ مُجَاهِدٌ بِطَوْقِهِ[(٣٠١)]كالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ[(٣٠٢)]

قالت: فقلت: والله! ما يدري عامر ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أقلع عنه الحمَّى ، اضطجع بفناء البيت ، ثمَّ يرفع عقيرته[(٣٠٣)] ، ويقول:

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةًبِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ[(٣٠٤)] وجَلِيْلُ

وهَلْ أَرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍوَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شامَةٌ وَطَفِيْلُ[(٣٠٥)]

قالت: فأخبرت رسولَ الله (ص) بذلك ، فقال: «اللهمَّ! حبِّبْ إلينا المدينة ، كما حببت إلينا مكَّة ، أو أشدَّ ، وانقل حُمَّاها إلى الجُحْفَةِ. اللَّهمَّ! باركْ لنا في مُدِّنا ، وصاعنا» [البخاري (١٨٨٩) ومسلم (١٣٧٦)] .

وقد استجاب الله دعاء نبيِّه (ص) ، وعُوفي المسلمون بعدها من هذه الحمَّى ، وغدت المدينة موطناً ممتازاً لكلِّ الوافدين ، والمهاجرين إليها ، من المسلمين على تنوُّع بيئاتهم ، ومواطنهم[(٣٠٦)].

٢١ ـ مكافأة النَّبيّ (ص) لأمِّ معبد:

وقد روي: أنَّها كثرت غنمها ، ونمت؛ حتَّى جلبت منها جَلَباً إلى المدينة ، فمرَّ أبو بكر ، فراه ابنها فعرفه ، فقال: يا أُمَّه! هذا هو الرَّجل الَّذي كان مع المبارك.

فقامت إليه فقالت: يا عبد الله! مَنِ الرَّجل الَّذي كان معك؟ قال: أو ما تدرين من هو؟! قالت: لا! قال: هو نبيُّ الله ، فأدخلها عليه ، فأطعمها رسولُ الله (ص) ، وأعطاها ، وفي روايةٍ: فانطلقت معي ، وأهدت لرسول الله (ص) شيئاً من أقطٍ ، ومتاع الأعراب ، فكساها ، وأعطاها ، قال: ولا أعلمه إلا قال: وأسلمت ، وذكر صاحب (الوفاء): أنَّها هاجرت هي وزوجها ، وأسلم أخوها خُنَيْس ، واستشهد يوم الفتح[(٣٠٧)].

٢٢ ـ أبو أيُّوبٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه ومواقف خالدة:

قال أبو أيوب الأنصاريُّ رضي الله عنه: «لما نزل عليَّ رسول الله (ص) في بيتي؛ نزل في السُّفْل ، وأنا وأمُّ أيوبٍ في العُلْو ، فقلت له: يا نبيَّ الله ـ بأبي أنت ، وأمي! إنِّي لأكره وأُعْظِمُ أن أكون فوقك ، وتكون تحتي ، فاظْهَرْ أنت ، فكن في العلوِ ، وننزل نحن فنكون في السُّفل ، فقال: يا أبا أيوب! إنَّ أرفق بنا ، وبمن يغشانا أن نكون في سُفْل البيت.

قال: فلقد انكسر حُبٌّ[(٣٠٨)] لنا فيه ماءٌ ، فقمت أنا ، وأمُّ أيوب بقطيفة لنا ، مالنا لحاف غيرها ، ننشِّفُ بها الماء؛ تخوفاً أن يقطر على رسول الله (ص) منه شيءٌ ، فيؤذيه» [ابن هشام (١٤٤/٢)][(٣٠٩)] .

٢٣ ـ هجرة عليٍّ رضي الله عنه وأمره بالمعروف ، ونهيه عن المنكر في المجتمع الجديد:

بعد أن أدَّى عن رسول الله (ص) الأمانات الَّتي كانت عنده للنَّاس لحق برسول الله (ص) ، وأدركه بقُباء بعد وصوله بليلتين ، أو ثلاثٍ ، فكانت إقامته بقُباء ليلتين ، ثمَّ خرج مع النَّبيِّ (ص)

إلى المدينة يوم الجمعة[(٣١٠)] ، وقد لاحظ سيِّدنا عليٌّ مدَّة إقامته بقُباء امرأةً مسلمة لا زوج لها ، ورأى إنساناً يأتيها من جوف اللَّيل ، فيضرب عليها بابها ، فتخرج إليه ، فيعطيها شيئاً معه ، فتأخذه ، قال: فاستربت بشأنه ، فقلت لها: يا أمةَ الله! مَنْ هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كلَّ ليلةٍ فتخرجين إليه ، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو! وأنت امرأةٌ مسلمةٌ لا زوج لك؟ قالت: هذا سهلُ بن حُنيف ، قد عرف أني امرأةٌ لا أحد لي ، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه ، فكسرها ، ثمَّ جاءني بها ، فقال: احتطبي بهذا ، فكان عليٌّ رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف ، حين هلك عنده بالعراق[(٣١١)].

٢٤ ـ الهجرة النَّبويَّة نقطة تحوُّلٍ في تاريخ الحياة:

«كانت الهجرة النَّبويَّة من مكَّة المشرَّفة إلى المدينة المنوَّرة أعظم حدثٍ حوَّل مجرى التَّاريخ ، وغيَّر مسيرة الحياة ، ومناهجها؛ التي كانت تحياها ، وتعيش محكومةً بها في صورة قوانين ، ونظمٍ ، وأعرافٍ ، وعاداتٍ ، وأخلاقٍ ، وسلوكٍ للأفراد والجماعات ، وعقائد ، وتعبُّداتٍ ، وعلمٍ ، ومعرفةٍ ، وجهالةٍ ، وسفه ، وضلالٍ ، وهدًى ، وعدلٍ ، وظلمٍ»[(٣١٢)].

٢٥ ـ الهجرة من سنن الرُّسل الكرام:

إنَّ الهجرة في سبيل الله سنَّةٌ قديمة ، ولم تكن هجرة نبيِّنا محمَّدٍ (ص) بدعاً في حياة الرُّسل لنصرة عقائدهم ، فلئن كان قد هاجر من وطنه ، ومسقط رأسه من أجل الدَّعوة حفاظاً عليها ، وإيجاداً لبيئةٍ خصبةٍ تتقبلها ، وتستجيب لها ، وتذود عنها؛ فقد هاجر عددٌ من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم؛ للأسباب نفسها ، التي دعت نبيَّنا للهجرة.

وذلك: أنَّ بقاء الدَّعوة في أرضٍ قاحلةٍ لا يخدمها؛ بل يعوق مسارها ، ويشلُّ حركتها ، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر ، وقد قصَّ علينا القران الكريم نماذج من هجرات الرُّسل ، وأتباعهم من الأمم الماضية؛ لتبدو لنا في وضوحٍ سنَّةٌ من سنن الله في شأن الدَّعوات ، يأخذ بها كلُّ مؤمن من بعدهم؛ إذا حيل بينه وبين إيمانه ، وعزَّته ، واستُخفَّ بكيانه ، ووجوده ، واعتُدِيَ على مروءته وكرامته[(٣١٣)].

هذه بعض الفوائد ، والعبر ، والدروس ، وأترك للقارأى الكريم أن يستخرج غيرها ، ويستنبط سواها من الدُّروس ، والعبر ، والفوائد الكثيرة النَّافعة من هذا الحدث العظيم.

* * *

المبحث الثَّاني

الثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ ، والوعد لمن هاجر منهم ، والوعيد لمن تخلَّف

تُعَدُّ الهجرةُ النَّبويَّة المباركة من مكَّة إلى المدينة أهمَّ حدثٍ في تاريخ الدَّعوة الإسلاميَّة؛ إذ كانت نقطة تحوُّل في تاريخ المسلمين؛ فقد كان المسلمون قبل الهجرة أمَّة دعوةٍ ، يبلغون دعوة الله للنَّاس ، دون أن يكون لهم كيانٌ سياسيٌّ ، يحمي الدَّعاة ، أو يدفع عنهم الأذى من أعدائهم.

وبعد الهجرة تكوَّنت دولة الدَّعوة ، هذه الدَّولة الَّتي أخذت على عاتقها نشر الإسلام ، في داخل الجزيرة العربيَّة وخارجها ، ترسل الدُّعاة إلى الأمصار ، وتتكفَّل بالدِّفاع عنهم ، وحمايتهم من أيِّ اعتداءٍ قد يقع عليهم ، ولو أدَّى ذلك إلى قيام حربٍ ، أو حروبٍ[(٣١٤)].

وبجانب هذا ، فإنَّ الهجرة النَّبويَّة لها مكانتها في فهم القران وعلومه؛ حيث فرَّق العلماء بين المكِّيِّ ، والمدنيِّ؛ فالمكِّيِّ: ما نزل قبل الهجرة ـ وإن كان بغير مكَّة ـ والمدني: ما نزل بعد الهجرة ـ وإن كان بغير المدينة ـ وترتَّب على ذلك فوائد؛ من أهمِّها:

١ ـ تذوُّق أساليب القران الكريم ، والاستفادة منها في أسلوب الدَّعوة إلى الله.

٢ ـ الوقوف على السِّيرة النَّبويَّة من خلال الايات القرانيَّة[(٣١٥)].

ولأهمية الهجرة النَّبويَّة نرى: أنَّ القران الكريم حثَّ المؤمنين على الهجرة في سبيل الله بأساليب متنوعةٍ ، مرَّةً بالثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ ، وأخرى بالوعد للمهاجرين ، وتارةً بالوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة[(٣١٦)].

أولاً: الثناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ:

أثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على المهاجرين في القران الكريم ، ووصفهم بأوصافٍ حميدةٍ متميِّزةٍ؛ وذلك لأنَّهم أُخرِجوا من ديارهم ، وأموالهم ، أكرههم على الخروج الأذى ،

والاضطهاد ، والتنكُّر لهم من قرابتهم ، وعشيرتهم في مكَّة ، وما أُخرِجوا إلا أن يقولوا ربُّنا الله ، فمن أهمِّ الصِّفات المميِّزة للمهاجرين[(٣١٧)]:

١ ـ الإخلاص:

قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨]؛ قوله تعالى: يدلُّ على أنَّهم لم يخرجوا من {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً} ، وأموالهم إلا أن يكونوا مخلصين لله ، مبتغين مرضاته ، ورضوانه[(٣١٨)].

٢ ـ الصَّبر:

ومن صفات المهاجرين ، وأخلاقهم المتميِّزة؛ الَّتي أثنى الله عليهم بها الصَّبر. قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٤١ ، ٤٢] ، وقال عزَّ وجلَّ: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النحل: ١١٠] .

٣ . الصِّدق:

ومن الصفات الحميدة الَّتي أثنى الله . سبحانه وتعالى . بها على المهاجرين الصِّدق. قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨] .

قال البغويُّ في تفسيره قوله: {وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} أي: في إيمانهم. قال قتادة: هؤلاء المهاجرون الَّذين تركوا الدِّيار ، والأموال ، والعشائر ، وخرجوا حبّاً لله ، ولرسوله (ص) ، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدَّةٍ ، حتَّى ذُكِر لنا: أنَّ الرَّجل كان يعصب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرَّجل يتَّخذ الحصيرة في الشِّتاء ، ما له من دثارٍ غيرها[(٣١٩)].

٤ . الجهاد والتَّضحية:

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [التوبة: ٢٠] .

تركَّزت دعوة الرُّسل على التَّضحية ، والفداء؛ إذ إنَّها تواجه عناداً ، وتكذيباً وعداءً مستحكماً ، وهذا لابدَّ من مواجهته بصلابة عودٍ ، وقوَّة إيمانٍ ، ورسوخ عقيدةٍ ، وعظيم بذل ، والحياة في ظلِّ العقيدة حياةُ جهادٍ وكفاحٍ ، ومنذ مطلع الدَّعوة كان نزول جبريل بالوحي إيذاناً لرسول الله (ص) بإيذاء قومه؛ حيث قال له ورقة بن نوفل: «هذا النَّاموسُ الَّذي أُنزل على موسى. يا ليتني فيها جَذَعاً[(٣٢٠)]! يا ليتني أكون حيّاً حين يخرجك قومك! فقال رسول الله (ص) : «أومخرجيَّ هم؟» فقال ورقة: «نعم ، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلا عُودي ، وإن يُدركْني يومُك؛ أنصرك نصراً مؤزَّراً» [البخاري (٣) ومسلم (١٦٠)] .

وقد اشتمل حدث الهجرة على أنواعٍ من التَّضحية ، والفداء ، وبذل النَّفس ، والمال في سبيل الله[(٣٢١)].

ولعلَّ الملاحظة الجديرة بالتأمُّل في هذا المجال: أنَّ التَّضحية ملازمةٌ للجهاد في سبيل الله؛ إذ لا جهاد دون تضحيةٍ[(٣٢٢)].

٥ ـ نصرُهم لله ورسوله (ص):

قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨] .

امتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذه الاية الكريمة المهاجرين ، بأنهم ينصرون الله ورسوله؛ ذلك لأنَّهم ما خرجوا من بين الكفار مراغمين لهم ، مهاجرين إلى المدينة إلا لنصرة الله تعالى ، ورسوله (ص) .

ونَصْرُ الله شرطٌ لتحقيق النَّصر ، والتثبيت. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *} [محمد: ٧] .

قال سيِّد قطب: وكيف يَنْصُرُ المؤمنون الله؛ حتَّى يقوموا بالشَّرط ، وينالوا ما شرط لهم من النَّصر ، والتثبيت؟

إنَّ للهِ في نفوسهم أن تتجرَّد له ، وألا تشرك به شيئاً شركاً ظاهراً ، أو خفيّاً ، وألا تستبقي فيها معه أحداً ، ولا شيئاً ، وأن يكون الله أحبَّ إليها من ذاتها ، ومن كلِّ ما تحبُّ وتهوى ، وأن تحكِّمَه في رغباتها ، ونزواتها ، وحركاتها ، وسكناتها ، وسرِّها وعلانيتها ، ونشاطها كلِّه ، وخلجاتها ، فهذا نصر الله في ذوات النُّفوس.

وإنَّ للهِ شريعةً ، ومنهاجاً للحياة ، تقوم على قواعد ، وموازين ، وقيمٍ ، وتصوُّر خاصٍّ للوجود كلِّه، وللحياة ، ونصرُ الله يتحقَّق بنصرة شريعته ، ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلِّها بدون استثناءٍ ، فهنا نصر الله في واقع الحياة[(٣٢٣)].

٦ ـ التوكُّل على الله عزَّ وجلَّ:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ *} [النحل: ٤١ ـ ٤٢] يمتدح الله ـ سبحانه وتعالى ـ المهاجرين ، بأنَّهم يتوكَّلون على الله لا على غيره ، والتوكُّل على الله خاصِّيَّةُ الإيمان ، وعلامته ، وهو منطق الإيمان ، ومقتضاه. قال تعالى: {قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *}[المائدة: ٢٣] .

وقال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى ياقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ *} [يونس: ٨٤] .

وقال الله تعالى: {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [إبراهيم: ١١] .

وقد ضرب رسول الله (ص) ، وصحابتُه الكرام مثالاً يُقتدى به على مرِّ الدُّهور في ترجمة التَّوكُّل في واقع الحياة في حادثة الهجرة ، ولحسن توكّلِهم على الله ـ سبحانه وتعالى ـ أثنى عليهم ، وجزاهم أحسن الجزاء[(٣٢٤)].

٧ ـ الرَّجاء:

ومن صفات المهاجرين الحميدة؛ الَّتي مدحهم الله بها: الرَّجاء. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [البقرة: ٢١٨] .

وإنَّما قال: وقد مدحهم؛ لأنَّه {يَرْجُونَ} يعلم أحدٌ في هذه الدُّنيا: أنَّه صائر إلى الجنَّة ، ولو بلغ في طاعة الله كلَّ مبلغٍ لأمرين: أحدهما: أنَّه لا يدري بما يُختم له ، والثَّاني: لئلا يتَّكل على عمله ، فهؤلاء قد غفر الله لهم ، ومع ذلك يرجون رحمة الله ، وذلك زيادة إيمانٍ منهم[(٣٢٥)].

٨ ـ اتِّباع الرَّسول (ص):

وممَّا يدلُّ على أنَّ الهجرة لها مكانةٌ عظيمةٌ في القران الكريم: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصف المهاجرين ، وأنصارهم بأنَّهم يتَّبعون الرَّسول (ص) . قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١١٧] فالمهاجرون، والأنصار ، هم الذين يتَّبعون الرَّسول (ص) ؛ في أقواله ، وأعماله؛ بل في ساعة العسرة ، ممَّا يدلُّ على أنَّهم يستحقُّون بذلك الدَّرجة العظمى ، والتَّوبة من الله عزَّ وجلَّ.

وقد نزلت هذه الاية في غزوة تبوك ، وذلك أنَّهم خرجوا إليها في شدَّةٍ من الأمر ، في سَنَةٍ مُجْدبةٍ ، وحرٍّ شديدٍ ، وعُسْرٍ في الزَّاد ، والماء.

قال قتادة: «خرجوا إلى الشَّام عام تبوك في لهبان الحرِّ ، على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهدٌ شديدٌ ، حتَّى لقد ذُكِرَ لنا: أنَّ الرجلين كانا يشقَّان التَّمرة بينهما ، وكان النَّفر يتداولون التَّمرة بينهم؛ يمصُّها هذا ، ثمَّ يشرب عليها ، ثم يمصُّها هذا ، ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم ، وأقفلهم[(٣٢٦)] من غزوتهم»[(٣٢٧)].

إنَّ اتِّباع الرَّسول (ص) يدلُّ على حقيقة الإيمان ، وحقيقة الدِّين ، ويفرِّق تفريقاً حاسماً بين الإيمان ، والكفر في جلاءٍ ، كما أنَّه دليلٌ على حبِّ الله ، وحبُّ الله ليس دعوى باللِّسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أنْ يُصاحبه الاتِّباع لرسول الله (ص) ، والسَّير على هداه ، وتحقيق منهجه في الحياة. إنَّ الإيمان ليس كلماتٍ تُقال ، ولا مشاعر تَجيش ، ولا شعائر تُقام ، ولكنَّه طاعةُ الله ، والرَّسول ، وعملٌ بمنهج الله؛

الَّذي يحمله الرَّسول (ص) . قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *} [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢] .

قال ابن كثيرٍ في تفسيره للاية المذكورة: «هذه الاية الكريمة ، حاكمةٌ على كلِّ مَنِ ادَّعى محبَّة الله؛ وليس هو على الطَّريقة المحمَّدية؛ فإنَّه كاذبٌ في نفس الأمر ، حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّديَّ ، والدِّين النَّبويَّ ، في جميع أقواله ، وأعماله[(٣٢٨)] ، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله (ص) : أنَّه قال: «مَنْ عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ» [البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨)] .

٩ ـ حقُّ السَّبق في الإيمان والعمل:

قال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: ١٠٠] .

قال الرَّازي: والسَّبق موجبٌ للفضيلة؛ فإقدامهم على هذه الأفعال يُوجِبُ اقتداء غيرهم بهم. قال (ص) : «من سنَّ في الإسلام سنَّةً حسنةً ، فله أجرُها ، وأجر من عمل بها ، إلى يوم القيامة» [أحمد (٤/٣٥٧ ـ ٣٥٨) ومسلم (١٠١٧) والترمذي (٢٦٧٥) والنسائي (٥/٧٥ ـ ٧٧) وابن ماجه (٢٠٣)]. فدواعي النَّاس تَقوى بما يرون من أمثالهم ، في أحوال الدِّين ، والدُّنيا ، وثبت بهذا: أنَّ المهاجرين هم رؤساء المسلمين وسادتهم[(٣٢٩)].

وهكذا اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ السَّابقين من المهاجرين ، من تلك العناصر الفريدة النَّادرة ، الَّتي تحتمل الضغوط ، والفتنة ، والأذى ، والجوع ، والغربة ، والعذاب ، والموت في أبشع الصُّور في بعض الأحيان؛ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين في مكَّة ، ثمَّ ليكونوا هم القاعدة الصُّلبة لهذا الدِّين بعد ذلك في المدينة ، مع السَّابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوا بها في أوَّل الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أنَّ بيعتهم لرسول الله (ص) (بيعة العقبة) ، قد دلَّت على أنَّ عنصرهم ذو طبيعةٍ أصيلةٍ مكافئةٍ لطبيعة هذا الدِّين.

وبالمهاجرين ، والأنصار تكوَّنت للإسلام قاعدةٌ صلبةٌ من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربيِّ ، فأما العناصر الَّتي لم تحتمل هذه الضُّغوط؛ فقد فُتنت عن دينها ، وارتدَّت إلى الجاهليَّة مرَّةً أخرى ، وكان هذا النَّوع قليلاً ، فقد كان الأمر كلُّه معروفاً مكشوفاً من قبل ، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهليَّة إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشَّائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة

التَّكوين[(٣٣٠)]. وبذلك أيضاً تتَّضح لنا منزلة المهاجرين ، وعلوُّ طبقتهم في الفضل؛ حيث أنفقوا ، وقاتلوا؛ والعقيدة مطاردةٌ ، والأنصار قلَّةٌ ، وليس في الأفق ظلُّ منفعةٍ ، ولا سلطانٍ ، ولا رخاءٍ ، مما يدلُّ على أنَّهم لا يستوون مع غيرهم من الَّذين أنفقوا وقاتلوا بعد تلك الظُّروف الصَّعبة[(٣٣١)]. قال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *} [الحديد: ١٠].

وقد تحدَّث ابن كثيرٍ عن اية سورة التَّوبة؛ الَّتي بيَّنت فضل السَّابقين من المهاجرين ، والأنصار ، فقال: فقد أخبر الله العظيم: أنَّه قد رضي عن السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين ، والأنصار ، والذين اتَّبعوهم بإحسانٍ ، فيا ويل من أبغضهم ، أو سبَّهم أو أبغض ، أو سبَّ بعضهم ، ولا سيما سيِّد الصَّحابة بعد الرَّسول (ص) ؛ وخيرهم ، وأفضلهم ، أعني: الصِّديق الأكبر ، والخليفة الأعظم ، أبا بكرٍ بن أبي قحافة؛ فإنَّ الطَّائفة المخذولة من الرَّافضة يعادون أفضل الصَّحابة ، ويبغضونهم ، ويسبُّونهم ، عياذاً بالله من ذلك! وهذا يدلُّ على أنَّ عقولهم معكوسةٌ ، وقلوبهم منكوسةٌ ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقران؛ إذ يسبُّون من رضي الله عنهم؟! وأمَّا أهل السُّنَّة فإنَّهم يترضَّون عمَّن رضي الله عنهم ، ويسبُّون من سبَّه الله ورسولُه ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متَّبعون ، لا مبتدعون ، ويقتدون ، ولا يبتدعون؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون[(٣٣٢)].

١٠ ـ الفوز:

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [التوبة: ٢٠] .

قال أبو السُّعود في تفسيره: قوله تعالى: أي: المختصُّون بالفوز {هُمُ الْفَائِزُونَ *} ، أو بالفوز المطلق ، كأنَّ فوز من عداهم ليس بفوزٍ بالنِّسبة إلى فوزهم[(٣٣٣)].

فهذا ثناءٌ من الله العليِّ العظيم ، على المهاجرين ، بأنَّهم يستحقُّون الفوز العظيم ، والفوز يكون عظيماً لأنَّه يأتي من مصدر العظمة ، وأيُّ فوزٍ أعظم من هذا الفوز! يخبرهم ربُّهم بأنَّهم من الفائزين في الاخرة ، وذلك بدخولهم الجنَّة ، وبُعْدهم عن النَّار. قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ *} [آل عمران: ١٨٥] .

١١ ـ الإيمان الحقيقيُّ:

ومن هذه الصِّفات الحميدة؛ الَّتي أثنى الله على المهاجرين بها في كتابه الكريم صفة الإيمان الحقّ. قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ٧٤] .

فهذه شهادةٌ من الله العليم الخبير للمهاجرين بأنَّهم المؤمنون حقّاً ، فالمهاجرون رضي الله عنهم هم النَّموذج الحقيقيُّ؛ الَّذي يتمثَّل فيه الإيمان ـ بعد رسول الله (ص) ـ كما أنَّهم قدوةٌ حسنةٌ

لمن جاء بعدهم ، وصورةٌ حقيقيَّةٌ في ترجمة الصِّفات الحميدة في واقع الحياة ، فلذلك استحقُّوا هذا الثناء الرَّبانيَّ بأنَّهم المؤمنون حقّاً. قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ٢ ـ ٤]. وهذه الصِّفات الحميدة تتمثَّل في حياة المهاجرين ، كما أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان[(٣٣٤)].

ثانياً: الوعد للمهاجرين:

ذكر الله تعالى بعض النِّعم الَّتي وعد بها المهاجرين في الدُّنيا ، والاخرة؛ ومن هذه النِّعم:

١ ـ سعة رزق الله لهم في الدُّنيا:

قال تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [النساء: ١٠٠] .

ومن سعة رزق الله لهم في الدُّنيا تخصيصهم بمال الفيء ، والغنائم. قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨] فالمال لهؤلاء لأنَّهم أُخرجوا من ديارهم ، فهم أحقُّ النَّاس به[(٣٣٥)].

ومن سعة الله لهم في الرِّزق أن خلَّص الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الأنصار من شحِّ النفس ، ووسَّع صدورهم للمهاجرين. قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعد المهاجرين سعة الرِّزق في الدُّنيا ، وتحقَّق ذلك الوعد الكريم؛ وذلك لأنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في منهجه الرَّبانيِّ القراني يعالج هذه النَّفس في وضوحٍ وفصاحةٍ ، فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف

، ولا يداري عنها شيئاً من الأخطار ـ بما في ذلك خطر الموت ـ ولكنَّه يسكب فيها الطُّمأنينة بحقائق أخرى ، وبضمانة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو يحدِّد الهجرة بأنَّها «في سبيل الله» ، وهذه هي الهجرة المعتبرة في الإسلام ، فليست هجرةً للثَّراء ، أو هجرةً للنَّجاة من المتاعب ، أو هجرةً للذائذ والشَّهوات ، أو هجرةً لأيِّ عرضٍ من أعراض الحياة ، ومَنْ يهاجر هذه الهجرة في سبيل الله يجد في الأرض فسحةً ، ومنطلقاً ، فلا تضيق به الأرض ،

ولا يعدم الحيلة ، والوسيلة للنَّجاة ، وللرِّزق ، والحياة[(٣٣٦)]؛ لأنَّ الله سيكون في عونه ، ويسدِّد خطاه.

٢ ـ تكفير سيئاتهم ، ومغفرة ذنوبهم:

ومن النِّعم الَّتي وعد بها الله ـ سبحانه وتعالى ـ المهاجرين تكفيرُ سيِّئاتهم ، ومغفرة ذنوبهم. قال تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ *} [آل عمران: ١٩٥] .

وقد ورد عن رسول الله (ص) ، أحاديث كثيرةٌ تبيِّن: أنَّ الهجرة من أعظم الوسائل المكفِّرة للسَّيِّئات ، وأنَّها سببٌ لمغفرة ذنوب أهلها ، ومن هذه الأحاديث: عن ابن شماسة المهريِّ قال: حضَرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة[(٣٣٧)] الموت ، فبكى طويلاً ، وحوَّل وجهه إلى الجدار ، فجعل ابنُهُ يقول: يا أبتاهُ! أما بشَّرك رسول الله (ص) بكذا؟ أمَا بشَّرك رسول الله (ص) بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه ، فقال: إنَّ أفضل ما نُعِدُّ شهادةُ أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله. إنِّي كنت على أطباقٍ[(٣٣٨)] ثلاث ، لقد رأيتني وما أحدٌ أشدَّ بغضاً لرسول الله (ص) منِّي ، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنتُ منه ، فقتلْتُهُ ، فلو مُتُّ على تلك الحال لكنت من أهل النَّار ، فلمَّا جعل اللهُ الإسلامَ في قلبي ، أتيتُ النَّبيَّ (ص) ، فقلتُ: ابسُطْ يمينك فلأبايعنَّك ، فَبَسَطَ يمينَهُ ، قال: فقبضتُ يدي ، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلتُ: أردت أن أشترط ، قال: «تشترط بماذا؟» قلتُ: أن يُغْفَرَ لي. قال: «أما علمت أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله!» وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله (ص) ، ولا أجلَّ في عيني منه ، وما كنت أُطيق أن أملأ عينيَّ منه؛ إجلالاً له ، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطَقْتُ؛ لأنِّي لم أكن أملأ عينيَّ منه ، ولو مُتُّ على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنَّة ، ثم ولينا أشياءَ ما أدري ما حالي فيها ، فإذا أنا متُّ فلا تصحبني نائحةٌ ، ولا نارٌ ، فإذا دفنتموني؛

فشُنُّوا[(٣٣٩)] عليَّ التُّرابَ شنّاً ، ثمَّ أقِيمُوا حول قبري قَدْرَ ما تُنْحَرُ جَزُورٌ ، ويُقْسَمُ لحمُها؛ حتى أستأنسَ بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رُسُلَ ربِّي. [مسلم (١٢١)] .

قال النَّوويُّ: فيه: عظم موقع الإسلام ، والهجرة ، والحجِّ ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منها يهدم ما كان قبله من المعاصي. وفيه: استحباب تنبيه المحتضر على إحسان ظنِّه بالله سبحانه وتعالى ،

وذكر ايات الرَّجاء ، وأحاديث العفو عنده ، وتبشيره بما أعدَّه الله تعالى للمسلمين ، وذكر حسن أعماله عنده ليحسن ظنَّه بالله تعالى ، ويموت عليه ، وهذا الأدب مستحبٌّ بالاتفاق[(٣٤٠)].

٣ ـ ارتفاع منزلتهم ، وعظمة درجتهم عند ربِّهم:

وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الَّذين نالوا أفضل الإيمان ، والهجرة ، والجهاد في سبيل الله بأموالهم، وأنفسهم أعظم الدَّرجات عند الله. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [التوبة: ٢٠] .

يقول الفخر الرَّازي: إنَّ الموصوفين بهذه الصِّفات الأربعة ، في غاية الجلالة والرِّفعة؛ لأنَّ الإنسان ليس له إلا مجموع أمورٍ ثلاثة: الرُّوح ، والبدن ، والمال ، أمَّا الرُّوح؛ فلمَّا زال عنها الكفر ، وحصل فيها الإيمان؛ فقد وصلت إلى مراتب العادات اللاَّئقة بها ، وأمَّا البدن ، والمال؛ فبسبب الهجرة وقعا في النُّقصان ، وبسبب الاشتغال بالجهاد صارا مُعرَّضَيْنِ للهلاك ، والبطلان ، ولا شكَّ: أنَّ كلاً من النَّفس ، والمال؛ محبوبٌ للإنسان ، والإنسان لا يعرض عن مجموعه إلا للفوز بمحبوبٍ أكمل من الأوَّل ، فلولا أنَّ طلب الرِّضوان أتمُّ عندهم من النَّفس ، والمال؛ لما رجَّحُوا جانب الاخرة على جانب النَّفس ، والمال ، ولما رَضُوا بإهدار النَّفس ، والمال لطلب مرضاة الله تعالى.

فثبت: أنَّ عند حصول الصِّفات الأربعة صار الإنسان واصلاً إلى أعلى درجات البشريَّة ، وأوَّل مراتب درجات الملائكة ، وهم بذلك يكونون أفضل من كلِّ مَنْ سواهم من البشر على الإطلاق؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى وأكمل من هذه الصِّفات[(٣٤١)].

فالذين امنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم ، وأنفسهم أعظم ، وأعلى مقاماً في مراتب الفضل ، والكمال في حكم الله ، وأكبر مثوبةً من أهل سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام؛ الَّذين رأى بعض المسلمين: أنَّ عملهم إيَّاهما من أفضل القربات بعد الإسلام.

فالَّذين نالوا فضل الهجرة ، والجهاد بنوعيه: النَّفسيِّ ، والماليِّ أعلى مرتبةً ، وأعظم كرامةً ممَّن لم يتَّصف بهما كائناً مَنْ كان ، ويدخل في ذلك أهل السِّقاية ، والعمارة[(٣٤٢)].

وأنَّه تعالى لم يقل: أعظم درجةً من المشتغلين بالسِّقاية ، والعمارة؛ لأنَّه لو عين ذكرهم لأوهم أنَّ فضيلتهم إنَّما حصلت بالنسبة إليهم ، ولما ترك ذكر المرجوح؛ دلَّ ذلك على أنَّهم أفضل من كل مَنْ سواهم على الإطلاق؛ لأنَّه لا يعقل حصول سعادةٍ، وفضيلةٍ للإنسان أعلى ،

وأكمل من هذه الصِّفات[(٣٤٣)]. والتَّفضيل هنا في قوله: ليس على {أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ} ، فهو لا يعني: أنَّ للاخرين درجةً أقلَّ؛ إنما هو التَّفضيل المطلق، فالاخرون {حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ *} [التوبة: ١٧] فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين في درجةٍ ، ولا في نعيمٍ[(٣٤٤)].

٤ ـ استحقاقهم الجنَّة ، والخلود فيها:

ومن النِّعم الَّتي أعدَّها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للمهاجرين الجنَّةُ ، والخلود فيها. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ *خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ *} [التوبة: ٢٠ ـ ٢٢] .

قال الشَّوكاني في تفسيره: والتنكير في الرَّحمة ، والرِّضوان ، والجنَّات للتَّعظيم ، والمعنى: أنَّها فوق وصف الواصفين ، وتصوُّر المتصوِّرين. والنَّعيم المقيم: الدَّائم المستمرُّ الَّذي لا يفارق صاحبه ، وَذِكْرُ الأبد بعد الخلود تأكيدٌ له[(٣٤٥)]. هذه بشرى ما بعدها بشرى ، وقد وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها المؤمنين والمؤمنات. قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: ٧٢] .

٥ ـ الفوز العظيم ورضوان الله عليهم:

ومن النِّعم الَّتي وعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها المهاجرين: أنَّهم سينالون الفوز العظيم. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [التوبة: ٢٠] .

ورضوانُ الله تعالى عليهم أكبر ، وأجلُّ ، وأعظم ممَّا هم فيه من النَّعيم ، وهو نهاية الإحسان، وهو أعلى النِّعم، وأكمل الجزاء[(٣٤٦)]، كما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: ٧٢] .

ورضا الله عنهم هو الرِّضا الَّذي تتبعه المثوبة ، وهو في ذاته أعلى ، وأكرم مثوبةً ، ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه على نعمائه ، والصَّبر على ابتلائه ، ولكن التَّعبير بالرِّضا هنا ، وهناك

يشيع جوَّ الرِّضا الشَّامل ، الغامر ، المتبادل ، الوافر ، الوارد ، الصَّادر بين الله سبحانه وتعالى وهذه الصَّفوة المختارة من عباده ، ويرفع من شأن هذه الصَّفوة من البشر؛ حتَّى إنَّهم ليبادلون ربهم الرِّضا ، وهو ربُّهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون ، وهو حالٌ ، وشأنٌ وجوٌّ لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبِّر عنه ، ولكن يتَّسم ، ويتشرَّف ، ويستجلي من خلال النَّصِّ القرانيِّ ، بالرُّوح المتطلِّع ، والقلب المتفتِّح ، والحسِّ الموصول[(٣٤٧)].

هذا بعض ما وعد الله به المهاجرين من الجزاء ، والثَّواب بسبب جهادهم المرير. إنَّ المهاجرين بإيمانهم الرَّاسخ ، ويقينهم الخالص لم يمكِّنوا الجاهليَّة في مكَّة من وأد الدَّعوة؛ وهي في مستهلِّ حياتها؛ لقد استمسكوا بما أُوحي إلى نبيِّهم ، ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصاماً بما اهتدوا إليه ، وامنوا به ، فلمَّا أسرفت الجاهليَّة في عسفها ، واضطهادها ، وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصَّابرين بالهجرة من مكَّة؛ خرجوا من ديارهم ، وأموالهم ، ويمَّموا صوب المدينة؛ ليس رهبة من الكفر ، ولا رغبة في الدنيا؛ ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله ، ويبتغون فضلاً منه ورضواناً؛ ولذلك صاروا أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فَضْلٍ في الدُّنيا ، وما أعدَّه لهم يوم القيامة من ثوابٍ عظيم[(٣٤٨)].

ثالثاً: الوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة:

إنَّ الأسلوب القرانيَّ في الوعد ، والوعيد يهدف إلى الخشية ، والرَّجاء في النُّفوس: رجاء يدفعها إلى الطَّاعة ، والاستقامة ، وخشيةٍ تمنعها من المعصية ، وتسرع بها إلى الاستغفار ، والتَّوبة ، والمؤمن بينهما في معادلةٍ جِدُّ دقيقةٍ؛ لئلا يقعَ فريسةً لليأس ، والقنوط ، ولا يندفع إلى الجرأة على محارم الله ، أو التهاون فيما أمر الله، ولقد استطاع القران الكريم بسلاحيه هذين أن يحفظ للفرد شخصيته ، وللمجتمع مقوِّماته؛ في الحياة ، والمال ، والعقل ، والعِرْض ، والدِّين[(٣٤٩)] ، وهي كلِّياتٌ تقوم عليها الحياة الرَّشيدة الفاضلة. ولقد رأت الحياة النُّور في أجيالٍ عديدةٍ ، أنارها القران بالوعد ، والرجاء ، وبالوعيد ، والخشية ، ولما خَفَتَ ذلك النورُ بِبُعد النَّاس عن القران؛ اصطدم الفردُ بفطرته ، والمجتمعُ بواقعه؛ فاضطربت القيم، وانهارت الأخلاق، وفسدت المعاملات، والمناهج والتَّصوُّرات، ولن يصلح اخر هذه الأمَّة إلا بما صلح به أوَّلها ، وأن تخشى الله لا تخشى سواه ، وأن ترجوه لا ترجو إلا إيَّاه[(٣٥٠)].

ومن العقوبات الَّتي توعَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها المتخلِّفين عن الهجرة سوءُ المصير. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *} [النساء: ٩٧] .

روى البخاريُّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أنَّ ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين ، يُكثرون سوادَ المشركين على رسول الله (ص) ، يأتي السَّهم يُرْمَى به ، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُله ، أو يُضْرَبُ ، فيُقتل ، فأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} (٤٥٩٦ و٧٠٨٥)] .

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: كان قومٌ من أهل مكَّة أسلموا ، وكانوا يَسْتخْفُون بالإسلام ، فأخرجهم المشركون يوم بدرٍ معهم ، فأُصيب بعضهم ، فقال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين ، وأُكرهوا ، فاستغفروا لهم ، فنزلت: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} ، قال: فكتب إلى من بقي بمكَّة من المسلمين بهذه الاية ، لا عذر لهم ، قال: فخرجوا ، فلحقهم المشركون ، فأعطوهم التَّقيَّة ، فنزلت فيهم: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ *} [العنكبوت: ١٠] .

فكتب المسلمون إليهم بذلك ، فخرجوا ، وأيسوا من كلِّ خير ، ثمَّ نزلت فيهم: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النحل: ١١٠][(٣٥١)]
.

لقد وصف الله ـ سبحانه ـ المتخلِّفين عن الهجرة بأنَّهم ظلموا أنفسهم ، والمراد بالظُّلم في هذه الاية: أنَّ الذين أسلموا في دار الكفر ، وبقوا هناك ، ولم يهاجروا إلى المدينة ظلموا أنفسهم بتركهم الهجرة[(٣٥٢)]. وبما أنَّهم حرموها من دار الإسلام ، تلك الحياة الرَّفيعة النَّظيفة الكريمة الحرَّة الطَّليقة ، وألزموها الحياة في دار الكفر ، تلك الحياة الذَّليلة الخاسئة الضَّعيفة المضطهدة؛ توعَّدهم ممَّا يدلُّ على أنَّها تعني الَّذين فُتِنوا عن دينهم {جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *} هناك[(٣٥٣)].

وفي هذه الاية الكريمة وعيد للمتخلِّفين عن الهجرة ، بهذا المصير السَّيِّأى ، وبالتَّالي التزم الصَّحابة بأمر الله ، وانضمُّوا إلى المجتمع الإسلامي في المدينة؛ تنفيذاً لأمر الله ، وخوفاً من عقابه ، وكان لهذا الوعيد أثرُه في نفوس الصَّحابة رضي الله عنهم ، فهذا ضَمْرَة بنُ جُنْدب لما

بلغه قوله تعالى: وهو {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ} ، قال لبنيه: احملوني؛ فإنِّي لست من المستضعفين ، وإنِّي لأهتدي الطريق ، وإنِّي لا أبيت اللَّيلة بمكَّة ، فحملوه على سريرٍ ، متوجهاً إلى

المدينة ، وكان شيخاً كبيراً ، فمات بالتَّنعيم ، ولما أدركه الموت ، أخذ يصفِّق بيمينه على شماله ، ويقول: اللَّهمَّ هذه لك ، وهذه لرسولك (ص) ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك ، ولما بلغ خبرُ موته الصَّحابة رضي الله عنهم ، قالوا: ليته مات بالمدينة! فنزل[(٣٥٤)] قوله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [النساء: ١٠٠] .

وهذا الموقف يرينا ما كان عليه جيل الصَّحابة ، من سرعةٍ في امتثال الأمر ، وتنفيذه في النَّشاط ، والشِّدَّة ، كائنةً ما كانت ظروفهم ، فلا يلتمسون لأنفسهم المعاذير ، ولا يطلبون الرُّخص[(٣٥٥)].

فهذا الصحابيُّ تفيد بعض الرِّوايات: أنَّه كان مريضاً[(٣٥٦)] ، إلا أنَّه رأى أنَّه ما دام له مالٌ يستعين به ، ويُحمل به إلى المدينة؛ فقد انتفى عذره ، وهذا فقهٌ أملاه الإيمان ، وزكَّاه الإخلاص ، واليقين[(٣٥٧)].

وبعد أن ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وعيده للمتخلِّفين عن الهجرة بسوء مصيرهم استثنى من ذلك مَنْ لا حيلة لهم في البقاء في دار الكفر ، والتَّعرُّض للفتنة في الدِّين ، والحرمان من الحياة في دار الإسلام من الشُّيوخ ، والضِّعاف ، والنِّساء ، والأطفال ، فيعلقهم بالرَّجاء في عفو الله ، ومغفرته ، ورحمته بسبب عذرهم البيِّن ، وعجزهم عن الفرار[(٣٥٨)]. قال تعالى: {إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً *فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا *} [النساء: ٩٨ ـ ٩٩] .

* * *

الفصل السَّابع

دعائم دولة الإسلام في المدينة[(٣٥٩)]

شرع رسول الله (ص) منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدَّولة الجديدة ، على قواعد متينةٍ ، وأسسٍ راسخةٍ ، فكانت أولى خطواته المباركة ، الاهتمام ببناء دعائم الأمَّة؛ كبناء المسجد الأعظم بالمدينة ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحبِّ في الله ، وإصدار الوثيقة ، أو الدُّستور الإسلاميِّ في المدينة ، الَّذي ينظِّم العلاقات بين المسلمين، واليهود، ومشركي المدينة ، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسَّعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حلِّ مشاكل المجتمع الجديد ، وتربيته على المنهج الربَّانيِّ في شؤون الحياة

كافَّةً ، فقد استمرَّ البناء التَّربويُّ والتَّعليميُّ، واستمرَّ القران الكريم يتحدَّث في المدينة عن عظمة الله، وحقيقة الكون ، والتَّرغيب في الجنَّة ، والتَّرهيب من النَّار ، ويشرّع الأحكام لتربية الأمَّة ، ودعم مقوِّمات الدَّولة ، الَّتي ستحمل نشر دعوة الله بين النَّاس قاطبةً ، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة ، والتَّربويَّة ، تتطوَّر مع تطوُّر مراحل الدَّعوة ، وبناء المجتمع ، وتأسيس الدَّولة. وعالج رسول الله (ص) الأزمة الاقتصاديَّة بالمدينة ، من خلال المنهج الربَّانِيّ ، واستمرَّ البناء التربويُّ ، ففُرِض الصِّيامُ ، وفُرضتِ الزَّكاة ، وأخذ المجتمع يزدهر ، والدَّولة تتقوَّى على أسسٍ ثابتةٍ ، وقويَّة.

* * *

المبحث الأوَّل

الدِّعامة الأولى

بناء المسجد الأعظم بالمدينة

كان أوَّلَ ما قام به الرَّسول (ص) بالمدينة بناءُ المسجد؛ وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام ، الَّتي طالما حُوربت ، ولتقام فيه الصَّلوات؛ الَّتي تربط المرء بربِّ العالمين ، وتنقِّي القلب من أدران الأرض ، وأدناس الحياة الدُّنيا[(٣٦٠)].

روى البخاريُّ بسنده: أنَّ رسول الله (ص) دخل المدينة راكباً راحلتَهُ ، فسار يمشي معه النَّاسُ؛ حتَّى بَرَكَتْ عند مسجد رسول الله (ص) بالمدينة ، وهو يصلِّي فيه يومئذٍ رجالٌ من المسلمين ، وكان مِرْبَداً[(٣٦١)] للتَّمر ، لسهلٍ ، وسُهَيْلٍ غلامين يتيمين في حِجْر أسعد بن زُرَارَة ، فقال رسول الله (ص) حين بركت به

راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل» ، ثمَّ دعا رسولُ الله (ص) الغلامين ، فساومهما بالمِرْبَد ليتَّخذَه مسجداً ، فقالا: لا ، بل نَهَبُهُ لك يا رسولَ الله! فأبى رسول الله (ص) أن يقبله منهما هِبَةً؛ حتَّى ابتاعه منهما. [البخاري (٣٩٠٦)] .

وفي رواية أنس بن مالكٍ: فكان فيه ما أقول: كان فيه نَخْلٌ ، وقُبورُ المشركين ، وخربٌ ، فأمر رسولُ الله (ص) بالنَّخل ، فقُطع ، وبقبور المشركين ، فنُبِشَتْ ، وبالخربِ ، فسُوِّيَتْ. قال: فَصَفُّوا النَّخلَ قبلةً ، وجعلوا عِضَادَتَيْهِ حجارةً. قال: فكانوا يرتجزون ، ورسولُ الله (ص) معهم؛ وهم يقولون:

اللَّهُمَّ! لا خَيْرَ إلا خَيْرُ الاخِرَهْفَانْصُرِ الأَنْصَارَ والمهَاجِرَهْ

[البخاري (٤٢٨) ومسلم (٥٢٤)] .

شرع الرَّسول (ص) في العمل مع أصحابه ، وضرب أوَّل معولٍ في حفر الأساس؛ الَّذي كان عمقه ثلاثة أذرع ، ثمَّ اندفع المسلمون في بناء هذا الأساس بالحجارة ، والجدران ـ الَّتي لم تزد عن قامة الرَّجل إلا قليلاً ـ باللَّبن؛ الَّذي يعجن بالتُّراب ، ويسوَّى على شكل أحجارٍ صالحةٍ للبناء[(٣٦٢)]. وفي النَّاحية الشَّمالية منه، أقيمت ظلَّةٌ من الجريد على قوائم من جذوع النَّخل، كانت تسمَّى «الصُّفة»، أما باقي أجزاء المسجد، فقد تُرِكت مكشوفةً بلا غطاءٍ[(٣٦٣)].

أمَّا أبواب المسجد؛ فكانت ثلاثةٌ: باب في مؤخرته من الجهة الجنوبيَّة، وباب في الجهة الشَّرقيَّة، كان يدخل منه رسول الله (ص) بإزاء باب بيت عائشة، وباب من الجهة الغربية، يقال له: باب الرَّحمة، أو باب عاتكة[(٣٦٤)].

أولاً: بيوتات النَّبيِّ (ص) التَّابعة للمسجد:

وبُني لرسول الله (ص) حُجَرٌ حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له، ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك، والأكاسرة، والقياصرة؛ بل كانت بُيوتَ مَنْ تَرَفَّعَ عن الدُّنيا، وزخارفها، وابتغى الدَّار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبينةً من اللَّبن، والطين، وبعض الحجارة، وكانت سقوفها من جذوع النَّخل، والجريد، وكانت صغيرة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصريُّ ـ وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة ـ: «قد كنت أنال أول سقفٍ في حُجَرِ النَّبيِّ (ص) بيدي»[(٣٦٥)]. وهكذا كانت بيوت النَّبيِّ (ص) في غاية البساطة، بينما كانت المدينة تشتهر بالحصون العالية، الَّتي كان يتَّخذها عِلْيَةُ القوم؛ تباهياً بها في السِّلم، واتقاءً بها في الحرب، وكانوا من تفاخرهم بها يضعون لها أسماء، كما كان حصن عبد الله بن أُبيِّ ابن سلول اسمه: (مزاحم)، وكما كان حصن حسَّان بن ثابت رضي الله عنه اسمه: (فارع).

إنَّ النبي (ص) بنى بيوته بذلك الشَّكل المتواضع، وكان باستطاعته أن يبني لنفسه قصوراً شاهقةً، ولو أنَّه أشار إلى رغبته بذلك مجرَّد إشارةٍ، لسارع الأنصار في بنائها له، كما كان بإمكانه أن يشيدها من أموال الدَّولة العامَّة؛ كالفيء، ونحوه، ولكنه (ص) لم يفعل ذلك؛ ليضرب لأمتِّه مثلاً رفيعاً، وقدرةً عاليةً في التَّواضع والزُّهد في الدُّنيا، وجمع الهمَّة، والعزيمة للعمل لما بعد الموت[(٣٦٦)].

ثانياً: الأذان في المدينة[(٣٦٧)]:

تشاور رسول الله (ص) مع أصحابه لإيجاد عملٍ ينبِّه النَّائم، ويدرك السَّاهي، ويُعلِم النَّاس بدخول الوقت لأداء الصَّلاة ، فقال بعضهم: نرفع راية إذا حان وقت الصَّلاة ليراها النَّاس ، فاعترضوا على هذا الرأي؛ لأنَّها لا تفيد النَّائم ، ولا الغافل ، وقال اخرون: نُشعل ناراً على مرتفع من الهضاب ، فلم يُقبل هذا الرَّأي أيضاً ، وأشار اخرون ببوقٍ . وهو ما كانت اليهود تستعمله لصلواتهم . فكرهه الرَّسول (ص) ؛ لأنه يحبُّ مخالفة أهل الكتاب في أعمالهم ، وأشار بعضُ الصَّحابة باستعمال النَّاقوس . وهو ما يستعمله النَّصارى . فكرهه الرَّسول (ص) أيضاً ، وأشار فريقٌ بالنِّداءِ ، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة وينادي بها ، فقُبل هذا الرَّأي ، وكان أحد المنادين عبدَ الله بن زيدٍ الأنصاريَّ ، فبينما هو بين النَّائم واليقظان؛ إذ عرض له شخصٌ وقال: ألا أعلمك كلماتٍ تقولها عند النِّداء بالصَّلاة؟ قال: بلى! فقال له: قل: الله أكبر مرَّتين ، وتشهَّد مرَّتين ، ثمَّ قل: حيَّ على الصَّلاة مرَّتين ، ثمَّ قل: حيَّ على الفلاح مرَّتين ، ثمَّ كبِّر ربَّك مرَّتين ، ثمَّ قل: لا إله إلا الله. فلما استيقظ توجَّه إلى الرَّسول (ص) ، وأخبره خبر رؤياه ، فقال: إنَّها لرؤيا حقٍّ ، ثمَّ قال له: لَقِّنْ بلالاً؛ فإنَّه أندى صوتاً منك.

وبينما بلالٌ يؤذِّن للصَّلاة بهذا الأذان؛ جاء عمر بن الخطَّاب يجرُّ رداءه ، فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله! وكان بلال بن رباح أحد مؤذِّنيه بالمدينة ، والاخر عبد الله بنُ أمِّ مكتومٍ ، وكان بلال يقول في أذان الصُّبح بعد (حيَّ على الفلاح): الصَّلاة خيرٌ من النَّوم مرَّتين ، وأقرَّه الرَّسول (ص) على ذلك ، وكان يُؤذِّن في البداءة من مكانٍ مرتفعٍ ، ثمَّ استُحدثت المنارة (الْمئذَنة) [أحمد (٤/٤٣) وأبو داود (٤٩٩) والترمذي (١٨٩) وابن ماجه (٧٠٦) وابن حبان (١٦٧٩)][(٣٦٢)] .

ثالثاً: أوَّل خطبةٍ خطبها رسول الله (ص) بالمدينة:

كانت أوَّل خطبةٍ خطبها رسولُ الله (ص) بالمدينة: أنه قام فيهم ، فحمِدَ الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: أيُّها النَّاسُ! فقدموا لأنفسكم. تعلمُنَّ والله ليُصْعَقَنَّ أحدُكم ، ثمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راعٍ ، ثمَّ ليقولنَّ له ربُّه؛ وليس له ترجمانٌ ، ولا حاجبٌ يحجبه دونه: ألم يأتك رسولي ، فبلَّغك؟! واتيتك

مالاً ، وأفضلت عليك ، فما قدَّمت لنفسك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يميناً ، وشمالاً ، فلا يرى شيئاً ، ثمَّ لينظرنَّ قُدَّامه ، فلا يرى غير جهنَّم؛ فمن استطاع أن يقي وجهه من النَّار ولو بشقٍّ من تمرةٍ فليفعل ، ومن لم يجد؛ فبكلمةٍ طيِّبةٍ؛ فإنَّ بها تُجزى الحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمئة ضعفٍ. والسَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته» [البيهقي في الدلائل (٢/٥٢٤) وابن هشام (٢/١٤٦)] .

ثمَّ خطب رسول الله (ص) مرَّةً أخرى ، فقال: «إنَّ الحمد لله ، أحمده ، وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيِّئات أعمالنا ، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له. إنَّ أحسنَ الحديث كتابُ الله تبارك وتعالى. قد أفلح من زَيَّنَهُ الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث النَّاس ، إنَّه أحسن الحديث ، وأبلغه ، أحِبُّوا من أحبَّ اللهُ ، أحِبُّوا الله من كلِّ قلوبكم ، ولا تَملُّوا كلام الله وذكرَهُ ، ولا تَقْسُ عنه قلوبكم؛ فإنَّه من كلِّ ما يخلق الله يختار ، ويصطفي ، قد سمَّاه الله خيرتَه من الأعمال ، ومُصطفاه من العباد ، والصَّالح من الحديث ، ومن كلِّ ما أوتي النَّاس الحلالُ والحرامُ ، فاعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتَّقوه حقَّ تقاته ، واصْدُقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابُّوا بروح الله بينكم ، إنَّ الله يغضب أن يُنْكَثَ عهده ، والسَّلام عليكم» [البيهقي في الدلائل (٢/٥٢٤ ـ ٥٢٥) وابن هشام (٢/١٤٦ ـ ١٤٧)] .

رابعاً: الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ:

لما تمَّ تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة بأمر الله تعالى ، وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته (ص) إلى المدينة [البخاري (٤٠) ومسلم (٥٤٥)] ، بقي حائط القبلة الأولى في مؤخرة المسجد النبوي ، فأمر النبي (ص) به ، فظلِّل ، أو سقف ، وأطلق عليه اسم (الصُّفَّة) أو (الظُّلَّة)[(٣٦٣)] ، ولم يكن له ما يسترُ جوانبه[(٣٦٤)].

قال القاضي عياض: الصُّفَّة ظُلَّةٌ في مؤخرة مسجد رسول الله (ص) ، يأوي إليها المساكين ، وإليها يُنسب أهل الصُّفَّة[(٣٦٥)].

وقال ابن تيميَّة: الصُّفَّة كانت في مؤخرة مسجد النَّبيِّ (ص) ، في شمالي المسجد بالمدينة المنوَّرة[(٣٦٦)].

وقال ابن حَجَرٍ: الصُّفَّة مكانٌ في مؤخَّر المسجد النَّبويِّ مظلَّلٌ ، أُعدَّ لنزول الغرباء فيه ، ممَّن لا مأوىً له ، ولا أهل. [فتح الباري (٦/٧٣٨)][(٣٦٧)] .

١ ـ أهل الصُّفَّة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «وأهلُ الصُّفَّة أضيافُ الإسلام ، لا يأوون إلى أهلٍ ، ولا مالٍ ، ولا على أحدٍ» [البخاري (٦٤٥٢)] .

إنَّ المهاجرين الأوائل ، الَّذين هاجروا قبل النَّبيِّ (ص) ، أو معه ، أو بعده؛ حتَّى نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدرٍ ، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم ، وأن يشاركوهم النَّفقة ، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين ، فلم يعد هناك قدرةٌ للأنصار على استيعابهم[(٣٦٨)]؛ فقد «صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيءٍ؛ فإنَّ الإسلام صار ينتشر ، والنَّاس يدخلون فيه ، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء ، والأغنياء ، والاهلين ، والعُزَّاب ، فكان مَنْ لم يتيسَّر له مكانٌ يأوي إليه ، يأوي إلى تلك الصُّفَّة في المسجد»[(٣٦٩)].
والَّذي يظهر للباحث: أنَّ المهاجر الَّذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرَّسول (ص) ، ثمَّ يوجهه بعد ذلك إلى مَنْ يكفله ، فإن لم يجد فإنَّه يستقرُّ في الصُّفَّة مؤقتاً ، ريثما يجدُ السَّبيل[(٣٧٠)]؛ فقد جاء في المسند عن عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه قال: «كان رسول الله (ص) يُشغل ، فإذا قدم رجلٌ مهاجرٌ على رسول الله (ص) ، دفعه إلى رجلٍ منَّا يعلِّمه القران ، فدفع إليَّ رسولُ الله (ص) رجلاً ، وكان معي في البيت ، أُعشِّيه عشاء أهل البيت ، فكنت أُقرئه القران» [أحمد (٥/٣٢٤)] . وقد كان أول مَنْ نزل الصُّفة المهاجرون[(٣٧١)]؛ لذلك نسبت إليهم ، فقيل: (صُفَّة المهاجرين)[(٣٧٢)] ، وكذلك كان ينزل بها الغرباء من الوفود ، الَّتي كانت تقدم على النَّبيِّ (ص) معلنةً إسلامَها ، وطاعتها[(٣٧٣)] ، وكان الرَّجل إذا قدم على النَّبيِّ (ص) وكان له عريفٌ؛ نزل عليه ، وإذا لم يكن له عريف؛ نزل مع أصحاب الصُّفَّة[(٣٧٤)] ، وكان أبو هريرة رضي الله عنه عَرِيفَ مَنْ سَكَنَ الصُّفَّة من القاطنين، ومَنْ نزلها من الطَّارقين، فكان النَّبيُّ (ص) إذا أراد دعوتهم، عهد إلى أبي هريرة ، فدعاهم؛ لمعرفته بهم ، وبمنازلهم ، ومراتبهم في العبادة ، والمجاهدة[(٣٧٥)]. ونزل بعض الأنصار في الصُّفَّة؛ حبّاً لحياة الزُّهد ، والمجاهدة ، والفقر ، برغم استغنائهم عن ذلك ، ووجود دارٍ لهم في المدينة؛ ككعب بن مالك الأنصاريِّ ، وحنظلة بن أبي عامرٍ الأنصاري (غسيل الملائكة) ، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريِّ ، وغيرهم[(٣٧٦)].

٢ ـ نفقة أهل الصُّفَّة ، ورعاية النَّبيِّ (ص) والصَّحابة لهم:

كان النَّبيُّ (ص) يتعهَّد أهل الصُّفَّة بنفسه ، فيزورهم ، ويتفقَّد أحوالَهم ، ويعود مرضاهم ، كما كان يكثر مجالستهم ، ويرشدهم ، ويواسيهم ، ويذكِّرهم ، ويعلِّمهم ، ويوجِّههم إلى قراءة القران الكريم ، ومدارسته ، وذِكْرِ الله ، والتَّطلُّع إلى الاخرة[(٣٧٧)] ، وكان (ص) يُؤَمِّن نفقتهم بوسائل متعدِّدةٍ ، ومتنوعةٍ؛ منها:

١ ـ «إذا أتته (ص) صدقةٌ؛ بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هديَّة ، أرسل إليهم ، وأصاب منها ، وأشركهم فيها» [البخاري (٦٤٥٢)] .

٢ ـ كثيراً ما كان يدعوهم إلى تناول الطَّعام في إحدى حجرات أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهن ، ولم يكن يغفل عنهم مطلقاً؛ بل كانت حالتُهم ماثلةً أمامه؛ فعن عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ رضي الله عنهما قال: إنَّ أصحاب الصُّفَّة كانوا أناساً فقراء ، وإنَّ النَّبيَّ (ص) قال مرَّةً: «من كان عنده طعام اثنين؛ فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة؛ فليذهب بخامسٍ ، أو سادسٍ ـ أو كما قال ـ وإنَّ أبا بكر جاء بثلاثةٍ ، وانطلق النَّبيُّ (ص) بعشرةٍ» [البخاري (٣٥٨١) ومسلم (٢٠٥٧)]. وعن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاريِّ ، قال: «كان أبي من أصحاب الصُّفَّة ، فأمر رسولُ الله (ص) بهم ، فجعل الرَّجل ينقلب بالرَّجل ، والرَّجل بالرَّجلين؛ حتَّى بقيت خامس خمسة ، فقال رسول الله (ص) : «انطلقوا» ، فانطلقنا معه إلى بيت عائشة». [أحمد (٤/٤٢٩ ـ ٤٣٠) والطيالسي (١٣٣٩)] .

٣ ـ وكان (ص) يطلب من النَّاس أن يوجِّهوا صدقاتهم إليهم؛ فقد جاء في المسند: أنَّ فاطمة لما ولدت الحسن؛ طلب منها (ص) أن تحلق رأسه ، وتتصدَّق بوزن شعره من فضَّة ، على أهل الصُّفَّة. [أحمد (٦/٣٩٠ ـ ٣٩١)] .

٤ ـ وقد كان (ص) يقدِّم حاجتهم على غيرها ممَّا يطلب منه؛ فقد أُتي بسَبْيٍ مرَّةً ، فأتته فاطمة رضي الله عنها تسأله خادماً ، فكان جوابه ـ كما في المسند عند الإمام أحمد ـ: «والله! لا أعطيكما ، وأدَعُ أهل الصُّفَّة تُطْوى بطونُهم من الجوع ، لا أجد ما أنفق عليهم؛ ولكن أبيعُهم ، وأنفق عليهم أثمانَهم» [البخاري (٣١١٣)] .

٥ ـ وقد أوصى النَّبيُّ (ص) الصَّحابة بالتَّصدُّق على أهل الصُّفَّة[(٣٧٨)] ، فجعلوا يَصلُونهم بما استطاعوا مِنْ خيرٍ [الحلية (١/٣٤٠)] ، فكان أغنياء الصَّحابة يبعثون بالطَّعام إليهم [الحلية (١/٣٧٨)] .

٣ ـ انقطاعهم للعلم ، والعبادة ، والجهاد:

كان أهل الصُّفَّة يعتكفون في المسجد للعبادة ، ويألفون الفقر ، والزُّهد ، فكانوا في خلواتهم يصلُّون ويقرؤون القران ، ويتدارسون اياته ، ويذكرون الله تعالى ، ويتعلَّم بعضهم الكتابة ، حتَّى أهدى أحدُهم

قوسَه لعبادة بن الصَّامت رضي الله عنه؛ لأنَّه كان يعلمهم القران ، والكتابة[(٣٧٩)]. واشتهر بعضهم بالعلم ، وحفظ الحديث عن النَّبيِّ (ص) ؛ مثل أبي هريرة رضي الله عنه ، الَّذي عُرِف بكثرة تحديثه ، وحُذَيفة بن اليمان ، الذي اهتم بأحاديث الفتن.

وكان أهل الصُّفة يشاركون في الجهاد؛ بل كان منهم الشُّهداء ببدرٍ؛ مثل صفوان ابن بيضاء ، وخريم بن فاتك الأسديِّ ، وخبيب بن يساف ، وسالم بن عُمير ، وحارثة بن النُّعمان الأنصاريِّ[(٣٨٠)] ، ومنهم من استشهد بأحدٍ؛ مثل حنظلة الغسيل [الحلية (٣٥٧/١)] ، ومنهم من شهد الحديبية؛ مثل جرهد بن خويلد [الحلية (٣٥٣/١)] ، وأبو سريحة الغفاري [الحلية (٣٥٥/١)] ، ومنهم من استشهد بخيبر؛ مثل ثقيف بن عمرو[(٣٨١)] ، ومنهم من استشهد بتبوك؛ مثل عبد الله (ذو البِجادَين)[(٣٨٢)] ، ومنهم من استشهد باليمامة؛ مثل سالم مولى أبي حذيفة ، وزيد بن الخطاب ، فكانوا رهباناً باللَّيل ، فُرْساناً في النَّهار[(٣٨٣)].

وكان بعض الصَّحابة قد اختاروا المكوث في الصُّفَّة رغبةً منهم لا اضطراراً؛ كأبي هريرة رضي الله عنه ، فقد أحبَّ أن يلازم رسول الله (ص) ، ويعوِّضَ ما فاته من العلم ، والخير . فقد جاء إلى المدينة بعد فتح خيبر في العام السَّابع . وحرص على سماع أكبر قدرٍ ممكنٍ من حديثه (ص) ، ومعرفة أحواله ، وتبرُّكاً بخدمته (ص) ، وهذا لا يتوافر له إلا إذا كان قريباً من بيت النَّبيِّ (ص) ، فكانت الصُّفة هي المكان الوحيد الَّذي يؤمِّن له ذلك ، ولنستمع إليه يوضِّح لنا ذلك ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «إنَّكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يُكْثِرُ الحديث عن رسول الله (ص) ، وتقولون: ما بالُ المهاجرين ، والأنصار لا يُحَدِّثُون عن رسول الله (ص) بمثل حديث أبي هريرة؟! وإنَّ إخوتي من المهاجرين كان يَشغَلُهُم الصَّفْقُ بالأسواق ، وكنت ألزم رسول الله (ص) على ملء بطني ، فأشهدُ إذا غابوا ، وأحفظ إذا نَسُوا ، وكان يَشْغَلُ إخوتي من الأنصار عملُ أموالهم ، وكنت امرأً مسكيناً من مساكين الصُّفَّة ، أعي حين يَنْسَون» [البخاري (٢٠٤٧) ومسلم (٢٤٩٢)] .

وهكذا يوضِّح رضي الله عنه: أنه فعل ذلك رغبةً منه في ملازمة النَّبيِّ (ص) ، ثمَّ إنَّ أبا هريرة كان له سكنٌ في المدينة ، وهو المكان الَّذي تسكنه أمُّه ، والَّتي طلب من النَّبيِّ (ص) أن يدعو لها بالهداية. [مسلم (٢٤٩١) وأحمد (٣٢٠/٢)] .

ثمَّ إنَّ أبا هريرة رضي الله عنه لم يكن فقيراً مُعْدماً ، ففي أوَّل يومٍ قدم فيه على النَّبيِّ (ص) في خيبر أسهم له (ص) من الغنيمة ، كما أنَّه لما قدم كان معه عبدٌ يخدمه . كما ورد في الصَّحيح .[(٣٨٤)]؛ وإذاً فالَّذي

أفقره هو إيثاره ملازمة النَّبيِّ (ص) ، واستماع أحاديثه ، وكان يستطيع الاستغناء عن الصُّفَّة لو أراد[(٣٨٥)].

كان أهل الصُّفَّة يكثرون ، ويقلُّون بحسب تبدُّل الأحوال الَّتي تحيط بأهل الصُّفَّة؛ من عودة الأهل ، أو زواجٍ ، أو يُسرٍ بعد عُسْر ، أو شهادةٍ في سبيل الله.

ولم يكن فقرهم لقعودهم عن العمل ، وكسب الرِّزق ، فقد ذكر الزَّمخشريُّ: أنهم كانوا يرضخون النَّوى بالنَّهار ، ويظهر: أنَّهم كانوا يرضخون النَّوى ـ يكسرونه ـ لعلف الماشية ، وهم ليسوا أهل ماشية ، فهم إذاً يعملون لكسب الرِّزق[(٣٨٦)].

٤ ـ عددهم وأسماؤهم:

كان عددهم يختلف باختلاف الأوقات ، فهم يزيدون؛ إذا قدمت الوفود إلى المدينة ، ويقلُّون إذا قلَّ الطَّارقون من الغرباء ، على أنَّ عدد المقيمين منهم في الظروف العاديَّة ، كان في حدود السَّبعين رجلاً [الحلية (٣٣٩/١ ، ٣٤١)] ، وقد يزيد عددهم كثيراً؛ حتَّى إنَّ سعد بن عبادة كان يستضيف وحده ثمانين منهم ، فضلاً عن الاخرين الَّذين يتوزَّعهم الصَّحابة [الحلية (٣٤١/١)] .

ومن أهل الصُّفَّة:

١ ـ أبو هريرة رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٢ ـ أبو ذرٍّ الغفاري رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٣ ـ واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.

٤ ـ قيس بن طهفة الغفاريُّ رضي الله عنه؛ حيث نسب نفسه إليهم.

٥ ـ كعب بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

٦ ـ سعيد بن عامر بن حذيم الجمحيُّ رضي الله عنه.

٧ ـ سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه.

٨ ـ أسماء بن حارثة بن سعيد الأسلميُّ رضي الله عنه.

٩ ـ حنظلة بن أبي عامر الأنصاريُّ «غسيل الملائكة» رضي الله عنه.

١٠ ـ حازم بن حرملة رضي الله عنه.

١١ ـ حارثة بن النُّعمان الأنصاريُّ النَّجاريُّ رضي الله عنه.

١٢ ـ حُذَيفة بن أَسِيد أبو سريحة الأنصاريُّ رضي الله عنه.

١٣ . حُذَيفة بن اليمان رضي الله عنه.

١٤ . جارية بن حُمَيل بن نُشَبَة بن قُرْطٍ رضي الله عنه.

١٥ . جُعَيْل بن سراقة الضَّمَّريُّ رضي الله عنه.

١٦ . جَرْهَدُ بن خويلد الأسديُّ رضي الله عنه.

١٧ . رفاعة أبو لبابة الأنصاريُّ رضي الله عنه.

١٨ . عبد الله ذو البِجَادَين رضي الله عنه.

١٩ . دكين بن سعيد المزنيُّ ، وقيل: الخثعميُّ رضي الله عنه.

٢٠ . حُبَيْبُ بن يساف بن عِنَبة رضي الله عنه.

٢١ . خريم بن أوس الطائيُّ رضي الله عنه.

٢٢ . خريم بن فاتك الأسديُّ رضي الله عنه.

٢٣ . خُنيس بن حذافة السَّهميُّ رضي الله عنه.

٢٤ . خبَّاب بن الأرتِّ رضي الله عنه.

٢٥ . الحكم بن عمير الثُّماليُّ رضي الله عنه.

٢٦ . حرملة بن أياس ، وقيل: حرملة بن عبد الله العنبريُّ رضي الله عنه[(٣٨٧)].

٢٧ . زيد بن الخطَّاب رضي الله عنه.

٢٨ . عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه.

٢٩ . الطَّفاويُّ الدَّوسيُّ رضي الله عنه.

٣٠ . طلحة بن عمرو النَّضريُّ رضي الله عنه.

٣١ . صفوان بن بيضاء الفهريُّ رضي الله عنه.

٣٢ . صهيب بن سنان الرُّوميُّ رضي الله عنه.

٣٣ . شدَّاد بن أسيد رضي الله عنه.

٣٤ . شقران رضي الله عنه مولى النَّبيِّ (ص) .

٣٥ . السَّائب بن خلاَّد رضي الله عنه.

٣٦ . سالم بن عمير من الأوس من بني ثعلبة بن عمرو بن عوفٍ رضي الله عنه.

٣٧ . سالم بن عبيد الأشجعيُّ رضي الله عنه.

٣٨ . سالم مولى أبي حذيفة رضي الله عنه.

٣٩ . سفينة رضي الله عنه مولى النَّبيِّ (ص) .

٤٠ . أبو رزين رضي الله عنه.

٤١ . الأغرُّ المزنيُّ رضي الله عنه.

٤٢ . بلال بن رباحٍ رضي الله عنه.

٤٣ . البراء بن مالكٍ الأنصاريُّ رضي الله عنه.

٤٤ . ثوبان رضي الله عنه مولى النَّبيِّ (ص) .

٤٥ . ثابت بن وديعة الأنصاريُّ رضي الله عنه.

٤٦ . ثَقْفُ بن عمرو بن سُميط الأسديُّ رضي الله عنه.

٤٧ . سعد بن مالكٍ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه.

٤٨ . العِرباض بن سارية رضي الله عنه.

٤٩ . غَرَفَةُ الأزديُّ رضي الله عنه.

٥٠ . عبد الرَّحمن بن قُرْطٍ رضي الله عنه.

٥١ . عبادة بن خالد الغفاريُّ[(٣٨٨)] رضي الله عنهم أجمعين ، وغيرهم من الصَّحابة الكرام.

وقد وقع بعض الباحثين في خطأ فادحٍ حين استدلَّ بعضهم على مشروعيَّة مسلك بعض المنحرفين من المتصوِّفة ، من حيث ترك العمل ، والإخلاد إلى الرَّاحة ، والكسل ، والمكوث

في الزَّوايا ، والتكايا؛ بحجَّة الاقتداء بحال أهل الصُّفَّة[(٣٨٩)]؛ فإن أبا هريرة . وهو أكثر ارتباطاً بالصُّفَّة من غيره . لم يستمرَّ فيها ، وخرج إلى الحياة؛ بل أصبح أميراً في بعض أيَّامه على البحرين ، في عهد عمر بن الخطَّاب ، ولم يكن مخشوشناً في حياته[(٣٩٠)]؛ بل إنَّ أهل الصُّفَّة كانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال ، وقد استشهد بعضهم كما ذكرتُ.

خامساً: فوائد ودروس وعبر:

١ . المسجد من أهمِّ الركائز في بناء المجتمع:

إنَّ إقامة المساجد من أهمِّ الرَّكائز في بناء المجتمع الإسلاميِّ؛ ذلك أنَّ المجتمع المسلم إنَّما يكتسب صفة الرُّسوخ ، والتَّماسك بالتزام نظام الإسلام ، وعقيدته ، وادابه ، وإنَّما ينبع ذلك من رُوح المسجد ، ووحيه[(٣٩١)].

قال تعالى: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *} [التوبة: ١٠٨] ، وقال تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ *رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ *لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *} [النور: ٣٦ ـ ٣٨] .

٢ ـ المسجد رمزٌ لشموليَّة الإسلام:

١ ـ حيث «أُنشأى ليكون متعبَّداً لصلاة المؤمنين ، وذكرهم لله تعالى ، وتسبيحهم له ، وتقديسهم إيَّاه بحمده ، وشكره على نعمه عليهم ، يدخله كلُّ مسلمٍ ، ويقيم فيه صلاته ، وعبادته ، ولا يضارُّه أحدٌ ما دام حافظاً لقداسته ، ومؤدِّياً حقَّ حرمته»[(٣٩٢)].

٢ ـ كما «أنشأى المسجد ليكون ملتقى رسول الله (ص) بأصحابه ، والوافدين عليه؛ طلباً للهداية ، ورغبةً في الإيمان بدعوته وتصديق رسالته»(١).

٣ ـ «وهو قد أنشأى ليكون جامعةً للعلوم ، والمعارف الكونيَّة ، والعقليَّة ، والتَّنزليَّة ، الَّتي حثَّ القران الكريم على النَّظر فيها ، وليكون مدرسةً يتدارس فيها المؤمنون أفكارهم ، وثمرات عقولهم ، ومعهداً يؤُمُّهُ طلاب العلم من كلِّ صوبٍ؛ ليتفقهوا في الدِّين ، ويرجعوا إلى قومهم مبشِّرين ، ومنذرين ، داعين إلى الله هادين ، يتوارثونها جيلاً بعد جيلٍ»(١).

٤ ـ وهو «قد أنشأى؛ ليجد فيه الغريب مأوىً ، وابن السَّبيل مستقراً ، لا تكدِّره منَّةُ أحدٍ عليه ، فينهل من رِفْدِهِ ، ويعبُّ من هدايته ما أطاق استعداده النَّفسيُّ ، والعقليُّ ، لا يصدُّه أحدٌ عن علمٍ ، أو معرفةٍ ، أو لونٍ من ألوان الهداية ، فكم من قائد تخرَّج فيه ، وبرزت بطولتُه بين جدرانه! وكم من عالمٍ استبحر علمُه في رحابه ، ثمَّ خرج به على النَّاس يروي ظمأهم للمعرفة! وكم من داعٍ إلى الله تلقَّى في ساحاته دروس الدَّعوة إلى الله ، فكان أسوة الدُّعاة ، وقدوة الهداة ، وريحانةً جَذَبَ القلوبَ شَذَاها ، فانجفلت إليها تأخذ عنها الهداية؛ لتستضيء بأنوارها!

وكم من أعرابيِّ جلفٍ لا يفرِّق بين الأحمر ، والأصفر وفد عليه ، فدخله ، ورأى أصحابَ رسول الله (ص) حوله هالةً تحفُّ به ، يسمعون منه؛ وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير ، فسمع معهم ، وكانت عنده نعمة العقل مخبَّأةً تحت ستار الجهالة ، فانكشف له غطاء عقله ، فعقل ، وفَقِهَ ، واهتدى ، واستضاء ، ثمَّ عاد

إلى قومه إماماً يدعوهم إلى الله ، ويربّيهم بعلمه الَّذي علم ، وسلوكه الَّذي سلك ، فامنوا بدعوته، واهتدوا بهديه ، فكانوا سطراً منيراً في كتاب التَّاريخ الإسلاميّ!»[(٣٩٣)].

٥ ـ وهو «قد أُنشأى ليكون قلعةً لاجتماع المجاهدين إذا استُنفروا ، تعقد فيه ألوية الجهاد ، والدَّعوة إلى الله ، وتخفق فيه فوق رؤوس القادة الرَّايات ، للتوجُّه إلى مواقع الأحداث ، وفي ظلِّها يقف جند الله في نشوة ترقُّب النَّصر، أو الشَّهادة»(١).

٦ ـ وهو «قد أُنشأى؛ ليجد فيه المجتمع المسلم الجديد ركناً في زواياه ، ليكون مشفىً يستشفي فيه جرحى كتائب الجهاد؛ ليتمكن نبيُّ الله (ص) من عيادتهم ، والنَّظر في أحوالهم ، والاستطباب لهم ، ومداواتهم في غير مشقَّةٍ ، ولا نَصَبٍ؛ تقديراً لفضلهم»(١).

٧ ـ «وهو قد أُنشأى ليكون مركزاً لبريد الإسلام؛ منه تصدر الأخبار ، ويُبْرَدُ البريد ، وتصدر الرَّسائل ، وفيه تُتلقَّى الأنباء السِّياسيَّة سلماً ، أو حرباً ، وفيه تُتلقى وتُقرأ رسائل البشائر بالنَّصر، ورسائل طلب المدد ، وفيه يُنعى المستشهدون في معارك الجهاد؛ ليتأسَّى بهم المتأسُّون، وليتنافس في الاقتداء بهم المتنافسون»(١).

٨ ـ «وهو قد أُنشأى ليكون مرقباً للمجتمع المسلم؛ يتعرَّف منه على حركات العدو المريبة ، ويراقبها ، ولا سيَّما الأعداء الَّذين معه يساكنونه ، ويخالطونه في بلده؛ من شراذم اليهود ، وزُمَر المنافقين ، ونفايات الوثنيَّة ، الذين انغمسوا في الشِّرك ، فلم يتركوه ، ليتجنَّب المجتمع

المسلم عاقبة كيدهم ، وسوء مكرهم ، وتدبيرهم ، ويأمن مغبَّةَ[(٣٩٤)] غدرهم ، وخياناتهم»[(٣٩٥)].

فالمسجد النَّبويُّ «بدأ بتأسيسه وبنائه رسول الله (ص) أوَّل ما بدأ من عملٍ في مستقرِّه ، ودار هجرته في مطلع مقدمه؛ ليكون نموذجاً يُحتذَى به في بساطة المظهر ، وعمق المخبر؛ ليحقِّق به أعظم الأهداف ، وأعمَّها بأقلِّ النفقات ، وأيسر المشقَّات»[(٣٩٦)].

٣ ـ التَّربية بالقدوة العمليَّة:

من الحقائق الثَّابتة: أنَّ النَّبيَّ (ص) شارك أصحابه العمل ، والبناء ، فكان يحمل الحجارة ، وينقل اللَّبن على صدره ، وكتفيه ، ويحفر الأرض بيديه كأيِّ واحدٍ منهم ، فكان مثال الحاكم العادل ، الَّذي لا يفرِّق بين رئيسٍ ومرؤوسٍ ، أو بين قائدٍ ومقودٍ، أو بين سيِّد ومسودٍ ، أو بين غنيّ ، وفقيرٍ؛ فالكلُّ سواسيةٌ أمام الله ، لا فرق بين مسلمٍ واخر إلا بالتَّقوى ، ذلك هو الإسلام: عدالةٌ ، ومساواةٌ في كلِّ شيءٍ ، والفضل فيه يكون لصاحب العطاء في العمل الجماعيِّ للمصلحة العامَّة ، وبهذا الفضل ثوابٌ من الله ، والرَّسول

(ص) كغيره من المسلمين ، لا يطلب إلا ثواب الله[(٣٩٧)]؛ فقد كانت مشاركة النَّبيِّ (ص) في عملية البناء ككلِّ العمال الَّذين شاركوا فيه ، وليس بِقَطْعِ الشَّريط الحريريِّ فقط ، وليس بالضَّربة الأولى بالفأس فقط؛ بل غاص بعملية البناء كاملةً ، وقد دُهِشَ المسلمون من النَّبيِّ (ص) ؛ وقد عَلَتْهُ غَبَرَةٌ ، فتقدَّم أُسَيد بن حُضَير رضي الله عنه؛ ليحمل عن رسول الله (ص) ، فقال: يا رسول الله! أعطنيه! فقال: «اذهب فاحتمل غيره؛ فإنَّك لست بأفقرَ إلى الله منِّي»[(٣٩٨)] ، وقد سمع المسلمون ما يقول النَّبيُّ (ص) لصاحبه ، فازدادوا نشاطاً ، واندفاعاً في العمل[(٣٩٩)].

إنَّه مشهدٌ فريدٌ من نوعه ، ولا مثيل له في دنيا النَّاس ، وإذا كان الزُّعماء ، والحكَّام قد يقدمون على المشاركة أحياناً بالعمل؛ لتكون شاشات التِّلفزيون جاهزةً لنقل أعمالهم ، وتملأ الدُّنيا في الصُّحف ، ووسائل الإعلام كلِّها ، بالحديث عن أخلاقهم ، وتواضعهم؛ فالنَّبيُّ (ص) ينازع الحجرَ أحدَ أفراد المسلمين ، ويبيِّن له: أنَّه أفقر إلى الله تعالى ، وأحرص على ثوابه منه.

وقد تفاعل الصَّحابة الكرام تفاعلاً عظيماً في البناء ، وأنشدوا هذا البيت:

لَئِنْ قَعَدْنا والنَّبِيُّ يَعْمَلُلَذاك مِنَّا العَمَلُ المِضَلَّلُ[(٤٠٠)]

إنَّ هذه التَّربية العمليَّة لا تَتِمُّ من خلال الموعظة ، ولا من خلال الكلام المنمَّق ، إنَّما تتمُّ من خلال العمل الحيِّ الدَّؤُوب ، والقدوةِ المصطفاة من ربِّ العالمين ، والَّتي ما كان يمكن أن تتمَّ في أجواء مكَّة ، والملاحقة ، والاضطهاد ، والمطاردة فيها ، إنَّما تَتِمُّ في هذا المجتمع الجديد ، والدَّولة الَّتي تُبنى ، وكأنَّما غدا هذا الجمع من الصَّحابة الكرام كلُّه صوتاً واحداً ، وقلباً واحداً ، فمضى يهتف:

اللَّهُمَّ إنَّ العَيْشَ عَيْشُ الاخِرَهْفانْصُرِ الأنْصَارَ وَالمهَاجِرَهْ

ويهتف بلحنٍ واحدٍ:

لَئِنْ قَعَدْنَا والنَّبِيُّ يَعْمَلُفَذَاكَ مِنَّا العَمَلُ المِضَلَّلُ

وكان الهُتاف الثَّالث:

هَذِي الحِمَالُ لاَ حِمَالُ خَيْبَرْهَذَا أَبَرُّ لِرَبِّنَا وأطْهَرْ

[البخاري (٣٩٠٦)][(٤٠١)] .

فحَمْلُ التَّمر ، والزَّبيب من خيبر إلى المدينة كان له مكانةٌ عظيمةٌ في المجتمع المدنيِّ؛ لكنَّه أصبح لا يُذْكَرُ أمام حمل الطُّوب لبناء المسجد النَّبويِّ العظيم ، فقد أيقنوا بقوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ} [النحل: ٩٦] .

وأمَّا الهُتَاف الرَّابع:

لاَ يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ المِسَاجِدَايَدْأَبُ فِيْهَا قَائِماً وقَاعِدا

وَمَنْ يُرَى عَنِ الغُبَارِ حَائِدَا

[فتح الباري (٣١٤/٧) وابن هشام (١٤٢/٢)][(٤٠٢)] .

٤ ـ الاهتمام بالخبرة والاختصاص:

أخرج الإمام أحمد [مجمع الزوائد (٩/٢)] عن طَلْق بن عليٍّ اليماميِّ الحنفيِّ ، قال: بنيت المسجد مع رسول الله (ص) ، فكان يقول: «قرِّبوا اليماميَّ من الطِّين؛ فإنَّه أحسنكم له مسيساً» ، وأخرج الإمام أحمد عن طلقٍ أيضاً [الطبراني في الكبير (٨٢٥٤) ومجمع الزوائد (٩/٢)] قال: جئت إلى النَّبي (ص)؛ وأصحابه يبنون المسجد ، وكأنَّه لم يعجبه عملهم ، فأخذت المسحاة ، فخلطت الطِّين ، فكأنَّه أعجبه ، فقال: «دعوا الحنفيَّ والطِّين؛ فإنَّه أضبطكم للطِّين» ، وأخرج ابن حبَّان

عن طلقٍ ، قال: فقلت: يا رسولَ الله! أأنقل كما ينقلون؟ قال: «لا ، ولكن اخلطْ لهمُ الطِّين؛ فأنت أعلم به» [ابن حبان (١١٢٢)][(٤٠٣)] .

فقد اهتمَّ النَّبيُّ (ص) بهذا الوافد الجديد على المدينة ، والَّذي لم يكن من المسلمين الأوائل ، ووظَّف خبرته في خلط الطِّين ، وفي قوَّة العمل ، وهو درسٌ للمسلمين في الثَّناء على الكفاءات ، والاستفادة منها ، وإرشادٌ نبويٌّ كريمٌ في كيفيَّة التعامل معها ، وما أحوجَنا إلى هذا الفهم العميق![(٤٠٤)].

٥ ـ شعار الدَّولة المسلمة:

إنَّ أذان الصَّلاة شعارٌ لأوَّل دولةٍ إسلاميَّة عالميَّةٍ: «الله أكبر ، الله أكبر»: إنَّها تعني: أنَّ الله أكبر من أولئك الطُّغاة ، وأكبر من صانعي العقبات ، وهو الغالب على أمره.

«أشهد أن لا إله إلا الله» أي: لا حاكمية ، ولا سيادة ، ولا سلطة ، إلا لله ربِّ العالمين ، {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ} ، فمعنى لا إله إلا الله: لا حاكم ، ولا امر ، ولا مُشرّع ، إلا الله.

«أشهد أنَّ محمداً رسول الله»: أسْلَمَهُ الله تعالى القيادة ، فليس لأحدٍ أن ينزعها منه ، فهو ماضٍ بها إلى أن يُكمل الله دينه بما ينزله على رسوله من قران ، وبما يلهمه إيَّاه من سُنَّة[(٤٠٥)] ، ويعني الاعتراف لرسول الله بالرِّسالة ، والزَّعامة الدِّينيَّة والدُّنيويَّة ، والسَّمع والطَّاعة له[(٤٠٦)].

«حَيَّ على الصَّلاة.. حيَّ على الفلاح»: أقبل يا أيها الإنسان للانضواء تحت لواء هذه الدَّولة الَّتي أخلصت لله ، وجعلت من أهدافها تمتين العلاقة بين المسلم وخالقه ، وتمتين العلاقة بين المؤمنين على

أساسٍ من القيم السَّامية. «قد قامت الصَّلاة»: وقد اختيرت الصَّلاة من بين سائر العبادات؛ لأنَّها عماد الدِّين كلِّه ، ولأنَّها بما فيها من الشَّعائر كالرُّكوع ، والسُّجود ، والقيام أعظم مظهرٍ لمظاهر «العبادة» بمعناها الواسع؛ الَّتي تعني: الخضوع ، والتذلُّل ، والاستكانة ، فهي خضوعٌ ليس بعده خضوعٌ ، فكلُّ طاعةٍ لله على وجه الخضوع ، والتذلُّل عبادةٌ ، فهي طاعة العبد لسيِّده ، فيقف بين يديه قد أسلم نفسه طاعةً وتذلُّلاً.

قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *} [غافر: ٦٦] .

وهذا الارتباط بين شعار الدَّولة الرَّسميِّ بحاكمية الله ، وسيادة الشَّرع ، وسقوط

الطَّواغيت ، وقوانينهم ، وأنظمتهم ، وشرائعهم ، بـ «حيَّ على الفلاح... قد قامت الصَّلاة» يشير إلى أنَّه: لا قيام للصَّلاة ، ولا إقامة لها كما ينبغي إلا في ظلِّ دولةٍ تقوم عليها ، وتقوم بها ، ولها ، فقد كان المسلمون يصلُّون خِفْيَةً في شِعاب مكَّة قبل قيام دولتهم ، أما وقد قامت تحت حماية سيوف الأنصار ، فليجهروا بالأذان ، والإقامة ، وليركعوا ويسجدوا لله ربِّ العالمين.

إنَّ الواقع التَّاريخيَّ خيرُ شاهدٍ على أنَّ الله لا يُعْبَدُ في الأرض حقَّ عبادته ، إلا في ظلِّ دولةٍ قويَّةٍ ، تحمي رعاياها من أعداء الدِّين.

ثمَّ تتكرَّر كلمات الأذان: «الله أكبر... الله أكبر» للتأكيد على المعاني السَّابقة[(٤٠٧)].

إنَّنا بحاجةٍ ماسَّةٍ لفهم الأذان ، وإدراك معانيه ، والعمل على ترجمته ترجمةً عمليَّةً؛ لنجاهد في الله حقَّ جهاده ، حتَّى ندمِّر شعارات الكفر ، ونرفع شعارات الإيمان ، ونقيم دولة التَّوحيد ، الَّتي تحكم بشرع الله ، ومنهجه القويم.

٦ ـ حكم تشييد المساجد ، ونقشها ، وزخرفتها:

والتَّشييد: أن تقام عمارة المسجد بالحجارة ، ممَّا يزيد في قوَّة بنائه ، ومتانة سقفه وأركانه. والنَّقش ، والزَّخرفة: ما جاوز أصل البناء من شتَّى أنواع الزِّينة.

فأمَّا التشييد: فقد أجازه ، واستحسنه العلماء عامَّةً؛ بدليل ما فعله عمر ، وعثمان رضي الله عنهما من إعادة بناء مسجده (ص) ؛ لأنَّ في ذلك عنايةً ، واهتماماً بشعائر الله تعالى ، واستدلَّ العلماء على ذلك بقوله تعالى: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *} [التوبة: ١٠٨] .

وأمَّا النَّقش ، والزَّخرفة؛ فقد أجمع العلماء على كراهتهما ، ثمَّ هم في ذلك بين محرِّمٍ ، ومكرِّهٍ كراهةَ تنزيه؛ غير أنَّ الذين قالوا بالحرمة ، والَّذين قالوا بالكراهة اتَّفقوا على أنَّه يحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شيءٍ من الزَّخرفة ، والنَّقش[(٤٠٨)]. وكان أوَّلَ مَنْ زخرف المساجد الوليدُ بن عبد الملك بن مَرْوان ، ومن يومها والنَّاس شرعوا يغالون في بناء المساجد ، وزخرفتها ، حتى أصبح بعضها من قبيل المتاحف ، وكلُّ ذلك خارج عن هَدي النُّبوَّة[(٤٠٩)] ، فعندما زُخرفتِ المساجد ، وخرجت عن نمط البساطة؛ الَّذي أرشد إليه النَّبيُّ (ص) ،

بخعَ الأسفُ نفوسَ المستضعفين ، وتنافس في شهوات التَّزخرف الفارغون من عواصم الإيمان[(٤١٠)].

إنَّ الذين يهتمُّون بتعمير المساجد ، وتشييدها ، وينصرفون بكلِّ جهودهم إلى التَّفنُّن في تزيينها ، ونقشها ، وإضفاء مختلف مظاهر الأبَّهة عليها قد وقعوا في خطأ عظيمٍ؛ حتَّى إنَّ الداخل إليها لا يكاد يستشعر أيَّ معنىً من ذلِّ العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنَّما يستشعر ما ينطق به لسان حالها من الافتخار بما ارتقى إليه فنُّ الهندسة المعماريَّة ، وفنون الزَّخرفة العربيَّة.

إنَّ الفقراء لم يعودوا يستطيعون أن يتهرَّبوا من مظاهر الإغراء الدُّنيويِّ إلى أيِّ جهةٍ ، لقد كان في المساجد ما يعزِّي الفقير بفقره ، ويخرجه من جوِّ الدُّنيا ، وزخرفها إلى الاخرة ، وفضلها ، فأصبحوا يجدون حتَّى في مظهر هذه المساجد ما يذكِّرهم بزخارف الدُّنيا الَّتي حُرموها ، ويشعرهم بنكد الفقر ، وأوضاره ، فما أسوأ ما وقع فيه المسلمون من هجران لحقائق إسلامهم ، وانشغالٍ بمظاهر كاذبةٍ ، ظاهرها الدِّين ، وباطنها الدُّنيا بكلِّ ما فيها من شهواتٍ ، وأهواءٍ![(٤١١)].

٧ ـ فضائل المسجد النَّبويِّ:

تحدَّث النَّبيُّ (ص) عن فضائل المسجد النَّبويِّ؛ ولذلك تعلَّق الصَّحابة به. ويمكننا تلخيص هذه الفضائل في الاتي:

أ ـ تأسيس المسجد النَّبويِّ على التَّقوى:

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه ، قال: دخلتُ على رسول الله (ص) في بيت بعض نسائه ، فقلت: يا رسول الله! أيُّ المسجدينِ الَّذي أُسِّسَ على التَّقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حَصْبَاء ، فضرب به الأرض ، ثمَّ قال: «هو مسجدكم هذا» [مسلم (١٣٩٨) والترمذي (٣٠٩٩) والنسائي (٢/٣٦) وأحمد (٣/٨)] لمسجد المدينة.

وقد تكلَّم بعض العلماء ، في الأحاديث الَّتي أشارت إلى أنَّ المسجد النَّبويَّ هو الَّذي أُسِّس على التَّقوى؛ بحجَّة أنَّها معارضةٌ لقوله تعالى: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *} [التوبة: ١٠٨] .

وقد اختلف العلماء في المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى في الاية السَّابقة ، فقال بعضهم: هو مسجد النَّبيِّ (ص) ، وقال اخرون: هو مسجد قُباء ، وقد ذكر أقوالهم محمَّدُ بن جريرٍ الطَّبريُّ في تفسيره ، ثمَّ قال: «وأولى القولين في ذلك عندي بالصَّواب ، قول مَنْ قال:

هو مسجد الرَّسول (ص) ؛ لصحَّة الخبر بذلك عن رسول الله (ص) »[(٤١٢)].

ولا معارضة بين الحديث والاية السَّابقة على القول بأنَّ المراد بالمسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى فيها هو مسجد قُباء؛ لأنَّ كلاً من المسجدين أُسِّس على التَّقوى[(٤١٣)]. وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أنَّ الاية السَّابقة نزلت بسبب مسجد قُباء ، ثمَّ قال: «لكن الحكم يتناوله ، ويتناول ما هو أحقُّ منه بذلك ، وهو مسجد المدينة ، وهذا يوجِّه ما ثبت في الصَّحيح عن النَّبيِّ (ص) : أنَّه سئل عن المسجد الذي أُسِّس على التَّقوى ، فقال: «هو مسجدي هذا» [سبق تخريجه][(٤١٤)].

وقال في موضع اخر: «... فتبيَّن أنَّ كلا المسجدين أُسِّس على التَّقوى ، لكن مسجد المدينة أكمل في هذا النَّعت ، فهو أحقُّ بهذا الاسم ، ومسجد قُباء كان سبب نزول الاية»[(٤١٥)].

وذكر الحافظ ابن حجرٍ: أنَّ السِّرَّ في جوابه (ص) بأنَّ المسجد الَّذي أُسِّس على التَّقوى مسجده رفعُ توهم أنَّ ذلك خاصٌّ بمسجد قُباء[(٤١٦)].

ب ـ فضل الصَّلاة في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «صلاةٌ في مسجدي هذا ، خيرٌ من ألفِ صلاةٍ فيما سواه ، إلا المسجد الحرامَ» [البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤/٥٠٦ و٥٠٧)] .

ج ـ أحد المساجد الثَّلاثة الَّتي لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلا إليها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ (ص) : أنَّه قال: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: «المسجد الحرام ، ومسجد الرَّسول (ص) ، ومسجد الأقصى» [البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧/٥١١)] .

د ـ الرَّوضة في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ (ص) قال: «ما بين بيتي ومِنْبري روضةٌ من رياض الجنَّة ، ومنبري على حوضي» [البخاري (١١٩٦) ومسلم (١٣٩١)] .

هـ فضل التَّعلُّم والتَّعليم في المسجد النَّبويِّ:

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّه سمع رسولَ الله (ص) يقول: «مَنْ دخل مسجدنا هذا؛ يتعلَّم خيراً ، أو يعَلِّمه؛ كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومَنْ دخله لغير ذلك؛ كان كالنَّاظر إلى ما ليس له» [أحمد (٢/٣٥٠) وابن ماجه (٢٢٧) والحاكم (١/٩١)] .

٨ . ايةٌ نزلت في أهل الصُّفَّة وفقراء المهاجرين:

قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *} [البقرة: ٢٧٣] .

ذكر ابن سعدٍ بسنده إلى ابن كعبٍ القرظيِّ ، قال: هُمْ أصحاب الصُّفَّة[(٤١٧)]. وذكر الطَّبريُّ بأسانيده عن مجاهدٍ والسُّدِّيِّ: أنَّها في فقراء المهاجرين[(٤١٨)].

إنَّ الأحداث الَّتي تتعلَّق بالدِّعامة الأولى في المجتمع كثيرةٌ ، وكذلك ما يتعلَّق بها من أحكام؛ كضمان حقوق الأيتام ، وجواز نبش القبور الدَّارسة ، واتِّخاذ موضعها مسجداً إذا نظفت ، وطابت أرضُها ، إلاَّ أنني أكتفي بهذه الدُّروس ، والعبر ، والفوائد فيما يتعلَّق بالمسجد؛ خوفاً من الإطالة.

* * *

المبحث الثَّاني

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان مِنْ أولى الدَّعائم الَّتي اعتمدها الرَّسول (ص) في برنامجه الإصلاحيِّ والتَّنظيميِّ للأمَّة ، وللدَّولة ، والحكم ، الاستمرار في الدَّعوة إلى التَّوحيد ، والمنهج القرانيِّ ، وبناء المسجد ، وتقرير المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وهي خطوةٌ لا تقلُّ أهمِّيَّةً عن الخطوة الأولى في بناء المسجد؛ لكي يتلاحم المجتمع المسلم ، ويتالف ، وتتَّضح معالم تكوينه الجديد[(٤١٩)].

كان مبدأ التَّاخي العام بين المسلمين قائماً ، منذ بداية الدَّعوة في عهدها المكِّيِّ، ونهى الرَّسول (ص) عن كلِّ ما يؤدِّي إلى التَّباغض بين المسلمين ، فقال (ص) : «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا ، ولا تَدَابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيَّامٍ» [البخاري (٦٠٦٥ و٦٠٧٦) ومسلم

(٢٥٥٩)] ، وقال (ص) : «المسلم أخو المسلم ، لا يظلِمُهُ ، ولا يُسْلِمُهُ[(٤٢٠)] ، ومن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلمٍ كربة[(٤٢١)]، فرَّج الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنه كربةً من كُرُبات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ، ستره الله يوم القيامة» [البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠)] .

وقد أكَّد القران الكريم الأُخوَّة العامَّة بين أبناء الأمَّة ، في قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *} [آل عمران: ١٠٣] ، وقوله تعالى: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ٦٣] .

أمَّا موضوع هذا البحث، فهو المؤاخاة الخاصَّة؛ الَّتي شُرِعت ، وترتبت عليها حقوقٌ ، وواجباتٌ أخصُّ من الحقوق ، والواجبات العامَّة بين المؤمنين كافَّةً[(٤٢٢)].

وقد تحدَّث بعض العلماء عن وجود مؤاخاةٍ كانت في مكَّة بين المهاجرين ، فقد أشار البلاذري إلى أنَّ النَّبيَّ (ص) اخى بين المسلمين في مكَّة قبل الهجرة على الحقِّ ، والمواساة ، فاخى بين حمزة ، وزيد بن حارثة ، وبين أبي بكرٍ ، وعمر ، وبين عثمان بن عفَّان وعبد الرَّحمن بن عوف، وبين الزُّبير بن العوَّام، وعبد الله بن مسعودٍ، وبين عبيدة بن الحارث ، وبلالٍ الحبشيّ ، وبين مصعب بن عميرٍ ، وسعد ابن أبي وقَّاصٍ ، وبين أبي عبيدة بن الجرَّاح ، وسالمٍ مولى أبي حذيفة ، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وطلحة بن عبيد الله ، وبينه وبين عليِّ بن أبي طالب[(٤٢٣)] وَيُعَدُّ البلاذريُّ (ت ٢٧٦ هـ) أقدم مَنْ أشار إلى المؤاخاة المكِّيَّة ، وقد تابعه في ذلك ابن عبد البرِّ (ت ٤٦٣هـ) دون أن يصرِّح بالنَّقل عنه ، كما تابعهما ابن سيِّد النَّاس دون التَّصريح بالنَّقل عن أحدهما[(٤٢٤)].

وقد أخرج الحاكم في المستدرك ، من طريق جميع بن عمير ، عن ابن عمر رضي الله عنهما: «اخى رسولُ الله (ص) بين أبي بكرٍ، وعمر ، وبين طلحة ، والزبير ، وبين عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان»[(٤٢٥)] ، وعن ابن عباسٍ: «اخى النَّبيُّ (ص) بين الزُّبير ، وابن مسعودٍ» [الحاكم (٣/٣١٤)][(٤٢٦)] .

وذهب كلٌّ مِنْ: ابن القيِّم ، وابن كثير إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكَّة ، فقال ابن القيِّم: «وقد قيل: إنَّه ـ أي النَّبيَّ (ص) ـ اخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض ، مؤاخاةً ثانيةً ، واتَّخذ فيها عليّاً أخاً لنفسه ، والثَّابت الأوَّل[(٤٢٧)]؛ فالمهاجرون كانوا مستغنين بأخوَّة الإسلام ، وأخوَّة الدَّار ، وقرابة النَّسب عن عقدٍ

مؤاخاةٍ ، بخلاف المهاجرين مع الأنصار»[(٤٢٨)] ، أمَّا ابن كثيرٍ؛ فقد ذكر: أنَّ من العلماء من ينكر هذه المؤاخاة للعلَّة نفسها ، الَّتي ذكرها ابن القيِّم[(٤٢٩)].

لم تُشِرْ كتب السِّيرة الأولى المختصَّة ، إلى وقوع المؤاخاة بمكَّة ، والبلاذريُّ ساق الخبر بلفظ «قالوا» دون إسنادٍ؛ ممَّا يضعِّف الرِّواية ، كما أنَّ البلاذريَّ نفسه ضعَّفه النُّقاد ، وعلى فرض

صحَّة هذه المؤاخاة بمكَّة ، فإنها تقتصر على المؤازرة ، والنَّصيحة بين المتاخين؛ دون أن تترتب عليها حقوق التَّوارث[(٤٣٠)].

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

أسهم نظام المؤاخاة في ربط الأمَّة بعضها ببعض ، فقد أقام الرَّسول (ص) هذه الصِّلة على أساس الإخاء الكامل بينهم ، هذا الإخاء الَّذي تذوب فيه عصبيَّات الجاهليَّة ، فلا حَمِيَّة إلا للإسلام ، وتسقط به فوارق النَّسب ، واللَّون ، والوطن ، فلا يتأخَّر أحدٌ ، أو يتقدَّم ، إلا بمروءته ، وتقواه.

وقد جعل الرَّسولُ (ص) هذه الأخوَّة عقداً نافذاً ، لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدِّماء ، والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ، ولا يقوم لها أثرٌ.

وكانت عواطف الإيثار ، والمواساة ، والمؤانسة تمتزج في هذه الأُخوَّة ، وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[(٤٣١)].

والسَّبب الَّذي أدَّى إلى تقوية هذه الأُخوَّة بين المهاجرين والأنصار هو أنَّ أهل هذا المجتمع ، ممَّن التقوا على دين الله وحده ، نشَّأهم دينهم الَّذي اعتنقوه ، على أن يقولوا ، ويفعلوا ، وعلَّمهم الإيمانَ ، والعملَ جميعاً ، فهم أبعد ما يكونون عن الشِّعارات الَّتي لا تتجاوز أطراف الألسنة ، وكانوا على النَّحو الَّذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *}[النور: ٥١] .

وبذلك الَّذي درج عليه المسلمون كفل البقاء ، والاستمرار لهذه الأخوَّة؛ الَّتي شدَّ الله بها أَزْرَ دينه ، ورسوله (ص) ، حتَّى اتت ثمارَها في كلِّ أطوار الدَّعوة ، طوال حياته (ص) ، وامتدَّ أثرها ، فجمع كلمة المهاجرين والأنصار عند استخلاف الصِّدِّيق رضي الله عنه دون أن تطوِّع لهم أنفسهم (أي: للأنصار) أن يحدثوا صدعاً في شمل الأمَّة ، مستجيبين في ذلك لشهوات السُّلطة ، وغريزة السَّيطرة ، لذلك فإنَّ سياسة المؤاخاة بين المهاجرين ، والأنصار نوع من السَّبق السِّياسيِّ: الَّذي اتَّبعه رسول الله (ص) ، في تأصيل المودة ،

وتمكينها في مشاعر المهاجرين ، والأنصار ، الَّذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودَّة ، وذلك الإخاء؛ بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده[(٤٣٢)] ،

ولا سيما الأنصار ، الَّذين لا يجد الكُتَّاب ، والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان ، خيراً من حديث الله عنهم[(٤٣٣)].

قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

ونلحظ في الاية السَّابقة: أنَّ الله تعالى شهد لهم بخمس شهادات:

١ ـ تبوَّؤوا الدَّار ، والإيمان من قبلهم.

٢ ـ يحبُّون من هاجر إليهم.

٣ ـ لا يجدون في صدورهم حاجةً ممَّا أُوتوا.

٤ ـ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

٥ ـ ومن يوق شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون[(٤٣٤)].

وفي الاية السَّابقة فوائدُ عظيمةٌ ، وحكمٌ جليلةٌ؛ منها:

(أ) التَّعبير عن المدينة بلفظ «الدَّار» إشعارٌ بأنَّها دارٌ خاصَّةٌ لكلِّ متوطِّنٍ بها ، متبوَّأًى لها ، فهي بالنِّسبة لأهلها كدارٍ خاصَّةٍ للفرد ، يهنأ بالأمن ، والاستقرار ، وهو في داخلها ، وفي هذا الإشعار نوعٌ من الأُنس السَّريِّ في النَّفس ، يزيدها رُوْحاً ، وطُمأْنينَةً ، فالأنصار في دارهم ، وإيمانهم متمكِّنون من الأمن ، والاستقرار المادِّيِّ ، تتنزَّل عليهم السَّكينة ، فتحفُّهم بنورها ، كأنَّها سياجٌ من الرَّحمة مضروبٌ عليهم ، لا يلحقهم فزعٌ ، ولا يدخل عليهم قلقٌ.

(ب) أمَّا قوله تعالى: فالضَّمير فيه {مِنْ قَبْلِهِمْ} ، ومعناه: أنَّ الأنصار هم الذين تبوَّؤوا المدينة المنوَّرة داراً لهم ، وتبوَّؤوا معها الإيمان من قبل هجرة المهاجرين إليهم؛ لأنَّ المهاجرين وإن تبوَّؤوا الإيمان قبل الأنصار؛ لأنَّهم سبقوهم إليه ، وتمكَّنوا منه أعظم تمكُّنٍ ، وتمكَّن هو منهم أبلغ تمكُّنٍ؛ لكنَّهم لم يتبوَّؤوا مع الإيمان داراً يتمكَّنون فيها من الاستقرار الحسِّيِّ المادِّيِّ ، والأمن على أنفسهم ، وإيمانهم من فزعات الأعداء ، وسطواتهم ، فكان للمهاجرين في تَبَوُّؤ الإيمان دون تَبوؤ الدَّار ، وكان للأنصار تَبَوُّؤُهما معاً في قرنٍ واحدٍ.

(ج) ومن لطائف القران الحكيم: أنَّه ساق مدْحَةَ المهاجرين قبل مِدْحَة الأنصار ، مفتتحاً لها

بقوله: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨] .

فجعل فَقْد بعض ما كان مدحةً للأنصار من تَبَوُّؤ الدَّار ، والإيمان مدحةً للمهاجرين؛ لأنَّهم فقدوه ابتغاء فضل الله ورضوانه ، ونصرهم الله بنصر دينه ، ونصر رسوله (ص) بنصر رسالته ، ودعوته ، ووصفهم بأنَّهم هم الصَّادقون ، وأنَّ الناس تَبَعٌ لهم في ذلك ، فقال يشرِّفهم بهذا الاختصاص: {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} وقال لعامَّة المؤمنين: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ *} [التوبة: ١١٩] .

فالقَبْلِيَّةُ . أي: قوله تعالى: {مِنْ قَبْلِهِمْ} . بهذا المعنى مدحةٌ للأنصار؛ جاءت لتشعرهم بواجباتهم نحو إخوانهم الَّذين هاجروا إليهم ، تاركين ديارهم ، وأموالهم ابتغاء فضل الله ، ورضوانه ، والتَّفرُّغ لنصرة دينه ، ونصرة رسوله ، فالدَّار الَّتي فقدها المهاجرون بما فيها من أموالٍ، وفلذات أكبادٍ إنَّما فقدوها تقرُّباً بفقدها إلى الله، فأووا إلى الأنصار يتبوَّؤون معهم دارهم ، دار الأمن ، والاستقرار ، مع سبق تَبَوُّئهم الإيمان قبل الأنصار ، فكمل لهم بهذه الهجرة تبوُّءُ الدَّار والإيمان ، وانفردوا بسبق تَبَوُّئِهم الإيمان. فضيلةٌ لا يشاركهم فيها غيرهم من سائر المؤمنين ، وفي طليعتهم الأنصار ، الَّذين جعلوا من الإيواء والنُّصرة دعامتين للمؤاخاة القائمة على الحبِّ الصَّادق ، فقيل في وصفهم: وهذا حبٌّ {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} ، والله جعله فضيلةً لهم ، ميَّزهم بها في مقابلة وصف المهاجرين بأنَّهم أُخرجوا من ديارهم ، وأموالهم؛ ابتغاء مرضاة الله ، وتعرُّضاً لفضله المنهمر عليهم غيثُه ديمة لا ينقطع ، ولا يفتر ، وهم يحملون بين جوانحهم قلوباً عامرةً بالحبِّ لإخوانهم الأنصار ، الَّذين وُصفوا بالإخلاص الصَّفيِّ ، الَّذي كان ثمرة الحبِّ في الله ، ولله ، فقيل عنهم: أي: أنَّهم {وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا} تستشرف نفوسهم إلى فضلٍ ناله إخوانهم المهاجرون من سبقهم بالإيمان ، وتضحيتهم بمفارقة ديارهم ، وأموالهم ، وانتهاضهم لنصرة دين الله ، ورسالاته ، ولا يتطلَّعون إلى شيءٍ منه تطلباً له ، أو مشاركةً فيه[(٤٣٥)].

(د) وفي قوله: : والحبُّ الَّذي يسجِّله ربُّ العزَّة {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} تبارك وتعالى . في محكم كتابه ايات بيِّنات تُتلى ، ويُتعبَّد بها في روعة إعجازها ، وبراعة أسلوبها ، وسموِّ منهجها في الهداية ، لا يمكن أن يبقى معه في حنايا النَّفس المؤمنة اثارُ حزازةٍ تحسد المهاجرين على ما اتاهم الله من مكارم الإيمان ، والتَّضحية في سبيله بالدِّيار ، والأموال ، بله متعةً مادِّيَّةً زائلةً تافهةً.

وصفات المدحة السَّلبيَّة لا تذكر في مقامها إلا إذا كانت ممكنة الوقوع ، فيكون نفيُها عنصراً من عناصر المدح المقتضية إحلال ما يقابلها من صفاتٍ إيجابيَّةٍ في بناء المدحة المشرِّفة[(٤٣٦)].

فإذا قيل في وصف الأنصار بعد وصفهم بحبّهم المهاجرين: {وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا} ، معنى ذلك: أنَّ هؤلاء الأنصار سَمَوا في حبّهم لإخوانهم المهاجرين إلى ذِروة الصَّفاء ، والإخلاص ، ووحدة الشُّعور ، وامتلأت صدورهم بهذا الحبِّ القدسيِّ ، فلم تعد تتَّسع لشيءٍ معه ، إلا أن يكون ذلك الشَّيء أثراً من اثار الحبِّ ، وليس ذلك إلا ذِروة الفضائل ، وهو إيثارهم على أنفسهم بكلِّ مكرمة ، ولو كانوا هم في أشدِّ الحاجة إليها[(٤٣٧)].

(هـ) ومجيء قوله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ } عقب قوله عزَّ شأنُه: { يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ } بيانٌ لثمرة هذا الحب ، وهي ثمرةٌ سما بها الأنصار إلى افاقٍ لم تصل إليها البشريَّة في تاريخها البعيد السَّحيق ، ولا في تاريخها الدَّاني القريب ، تلك هي ثمرة الإيثار على النَّفس ، الَّتي أثمرها الحبُّ الإيمانيُّ[(٤٣٨)].

(و) ثمَّ وُصِفُوا بالفلاح على جهة الاختصاص به في مقابلة اختصاص المهاجرين بالصِّدق في عزائمهم ، والإخلاص في إيمانهم ، فقيل فيهم بعد تقرير: أنَّهم بهذا الإيثار صفَتْ نفوسُهم من كُدورات التَّطلُّعات ، والحزازات ، وأخلصوا الحبَّ لإخوانهم المهاجرين ، وطُهِّروا من رشح الشُّح ، فتوقَّوه بفضيلة الكرم والسَّخاء المؤثر: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *}

كان هذا الحبُّ الأخويُّ بين المهاجرين والأنصار ، هو الأساس الَّذي قامت على دعائمه المؤاخاة الاجتماعيَّة؛ الَّتي عقدها النَّبيُّ (ص) بين أصحابه بعد مَقْدِمِه المدينة ، فقد كانت هذه المؤاخاة ، من أسبق الأعمال؛ الَّتي قام بها رسول الله (ص) أوَّل ما استقرَّ في مقامه ، وأخذ في بناء مسجده الأعظم[(٤٣٩)].

والظاهر: أنَّ ابتداءها كان في المسجد؛ وهو يُبْنى ، والنَّبيُّ (ص) مشغولٌ في بنائه مع أصحابه من المهاجرين ، والأنصار ، وكان ذلك المكان الطَّاهر ، والعمل الشَّريف الخالص لوجه الله ـ تبارك وتعالى ـ أنسب الأمكنة لبدء المؤاخاة ، لما فيهما من اقتضاء التَّرافق ، والتَّعاون ، والتَّعاضد ، والتَّواسي ، والتَّناصر ، والتوادُد ، وتقوية اصرة الأخوَّة الإيمانيَّة ، فاخى رسول الله (ص) بين العاملين معه في بناء المسجد أوَّلاً ، ثمَّ اخى بين قومٍ اخرين في دار أنسٍ ،

وتكرَّر ذلك منه (ص) ، حتَّى استوعبت المؤاخاة عدد طلائع المهاجرين ، والأنصار ، وكانوا نحو المئة ، نصفهم من المهاجرين ، ونصفهم من الأنصار[(٤٤٠)].

بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممَّن تاخوا في الله:

أبو بكرٍ الصِّدّيق رضي الله عنه ، وخارجة بن زهيرٍ. وعمر بن الخطَّاب ، وعتبان بن مالكٍ. وأبو عبيدة بن الجرَّاح ، وسعد بن معاذ. وعبد الرَّحمن بن عوفٍ ، وسعد بن الرَّبيع. والزُّبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وَقْشٍ. وطلحة ابن عُبيد الله ، وكعب بن مالكٍ. وسعيد بن زيدٍ ، وأُبيُّ بن كعبٍ. ومصعب بن عميرٍ ، وأبو أيوبٍ خالد بن زيد. وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعبَّاد بن بشر بن وَقْش. وعمَّار بن ياسر ، وحذيفة بن اليمان. وأبو ذرٍّ الغفاريُّ ، والمنذر بن عمرو. وحاطب بن أبي بلتعة[(٤٤١)] ، وعُوَيم بن ساعدة. وسلمان الفارسي ، وأبو الدَّرداء. وبلال مؤذِّن رسول الله (ص) ، وأبو رُوَيْحة عبد الله بن عبد الرَّحمن الخَثْعميُّ[(٤٤٢)].

ثانياً: الدُّروس ، والعبر ، والفوائد:

١ ـ اصرة العقيدة هي أساس الارتباط:

إنَّ المجتمع المدنيَّ الَّذي أقامه الإسلام كان مجتمعاً عقديّاً يرتبط بالإسلام ، ولا يعرف الموالاة إلا لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين ، وهو أعلى أنواع الارتباط ، وأرقاه؛ إذ يتَّصل بوحدة العقيدة ، والفكر ، والرُّوح[(٤٤٣)].

إنَّ الولاء لله ، ولرسوله (ص) ، وللمؤمنين من أهمِّ الاثار ، والنَّتائج المترتِّبة على الهجرة ، وكان القران الكريم يربِّي المسلمين على هذه المعاني الرَّفيعة ، فقد بيَّن الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ ابن نوحٍ وإن كان من أهله باعتبار القرابة؛ لكنَّه لم يَعُدْ من أهله لما فارق الحقَّ ، وكفر بالله ، ولم يتَّبع نبيَّ الله. قال تعالى: {وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ *قَال يانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ *} [هود: ٤٥ ، ٤٦] .

وقد حصر الإسلامُ الأُخوَّة والموالاة بين المؤمنين فقط. قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *} [الحجرات: ١٠] وقطع الولاية بين المؤمنين ،

والكافرين من المشركين ، واليهود ، والنَّصارى ، حتَّى لو كانوا اباءهم ، أو إخوانهم ، أو أبناءهم ، ووصف مَنْ يفعل ذلك من المؤمنين بالظُّلم ، ممَّا يدلُّ على أنَّ موالاة المؤمنين للكافرين ، من أعظم الذُّنوب.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *} [التوبة: ٢٣] .

وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ *إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ *لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *} [الممتحنة: ١ ـ ٣] .

فإذا كان الله سبحانه يحذِّر المؤمنين في الايات السَّابقة من موالاة الكفَّار عامَّةً ، فهناك اياتٌ كثيرةٌ وردت في تحذير المؤمنين ، ونهيهم عن طاعة أهل الكتاب خاصَّةً ، أو اتخاذهم أولياء ، أو الرُّكون إليهم[(٤٤٤)].

قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ *} [البقرة: ١٢٠] وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ *} [آل عمران: ١٠٠] ، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *} [المائدة: ٥١] .

قال صاحب الظِّلال: «هذا النِّداء موجَّهٌ إلى الجماعة المسلمة في المدينة ، ولكنَّه في الوقت ذاته موجَّهٌ لكلِّ جماعةٍ مسلمةٍ ، تقوم في أيِّ ركنٍ من أركان الأرض إلى يوم القيامة ، ولقد كانت المناسبة الحاضرة إذ ذاك لتوجيه هذا النداء لِلَّذين امنوا: أنَّ المفاصلة لم تكن كاملةً ، ولا حاسمةً بين بعض المسلمين في المدينة ، وبعض أهل الكتاب ، وبخاصَّةٍ اليهود ، فقد كانت هناك علاقات ولاءٍ ، وحلفٍ ، وعلاقات اقتصادٍ ، وتعاملٍ ، وعلاقات جيرةٍ ، وصحبةٍ ، وكان هذا كلُّه طبيعياً مع الوضع التَّاريخي ، والاقتصاديِّ ، والاجتماعيِّ في المدينة قبل الإسلام بين أهل المدينة من العرب ، وبين اليهود بصفةٍ خاصَّةٍ ، وكان هذا الوضع يتيح لليهود أن يقوموا بدورهم في الكيد لهذا الدِّين وأهله بكل صنوف الكيد؛ التي عدَّدَتْها ، وكشفتها النُّصوص القرانيَّة الكثيرة.

ونزل القران؛ ليبثَّ الوعي اللاَّزم للمسلم في المعركة الَّتي يخوضها بعقيدته ، لتحقيق منهجه الجديد في واقع الحياة؛ ولينشأى في ضمير المسلم تلك المفاصلة الكاملة ، بينه وبين كلِّ من لا ينتمي إلى الجماعة المسلمة ، ولا يقف تحت رايتها الخاصَّة. المفاصلة الَّتي لا تُنهي السَّماحة الخلقيَّة ، فهذه صفة المسلم دائماً ، ولكنَّها تنهي الولاء الَّذي لا يكون في قلب المسلم إلا لله ، ورسوله ، والذين امنوا. الوعي ، والمفاصلة اللَّذان لابُدَّ منهما في كلِّ أرضٍ ، وفي كلِّ جيلٍ... {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [المائدة: ٥١] ، إنَّها حقيقةٌ

لا علاقة لها بالزَّمن؛ لأنَّها حقيقةٌ نابعةٌ من طبيعة الأشياء ، إنَّهم لن يكونوا أولياء للجماعة المسلمة في أيِّ أرضٍ ، ولا في أيِّ تاريخٍ ، وقد مضت القرون تلو القرون ، ترسم مصداق هذه المقولة الصَّادقة ، ولم تختلَّ هذه القاعدة مرَّةً واحدةً ، ولم يقع في هذه الأرض إلا ما قرَّره القران الكريم في صيغة الوصف الدَّائم ، لا الحادث المفرد ، واختيار الجملة الاسميَّة على هذا النَّحو ، {بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [المائدة: ٥١] ليست مجرد تعبير! إنَّما هي اختيار مقصود للدلالة على الوصف الدَّائم الأصيل»[(٤٤٥)].

وقد نهى الله ـ سبحانه ـ المؤمنين عن اتخاذ المنافقين أولياء؛ وذلك لأنَّ من أبرز صفاتهم موالاة الكفار ، وكراهية دين الله. قال تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا *} [المنافقين: ١٣٨ ـ ١٣٩] .

وقد جاءت اياتٌ توضِّح صور هذه المفاصلة في القران المدنيِّ ، ومنها قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *} [التوبة: ٧٣] .

ونهى المولى ـ عزَّ وجل ـ عن الصَّلاة عليهم ، أو القيام على قبورهم. قال تعالى: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ *} [التوبة: ٨٤] .

وحدَّد المولى ـ عزَّ وجل ـ لِلَّذين امنوا جهة الولاء الوحيدة ، الَّتي تتَّفق مع صفة الإيمان ، وبيَّن لهم من يتولَّون. قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ *وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ *} [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦] .

فقد فهم الصحابة: أنَّ ولاءهم لا يكون إلا لقيادتهم ، وإخلاصهم لا يكون إلا لعقيدتهم ، وجهادهم لا يكون إلا لإعلاء كلمة الله ، فحقَّقوا ذلك كلَّه في أنفسهم ، وطبَّقوه على حياتهم ، فمحَّضوا ولاءهم ، وجعلوه لله ، ورسوله ، والمؤمنين ، وأصبح تاريخهم حافلاً بالمواقف الرَّائعة ، الَّتي تدلُّ على فهمهم العميق لمعنى الولاء ، الذي منحوه لخالقهم ، ولدينهم ، وعقيدتهم ، وإخوانهم.

إنَّ التَّاخي الَّذي تمَّ بين المهاجرين ، والأنصار كان مسبوقاً بعقيدةٍ تمَّ اللِّقاء عليها ،

والإيمان بها؛ فالتاخي بين شخصين يُؤْمِن كلٌّ منهما بفكرةٍ ، أو عقيدةٍ مخالفةٍ للأخرى خرافةٌ ، ووَهْمٌ ، خصوصاً إذا كانت تلك الفكرة ، أو العقيدة ، ممَّا تحْمِلُ صاحبها على سلوكٍ معيَّنٍ في الحياة العمليَّة ، ولذلك كانت العقيدة الإسلاميَّة الَّتي جاء بها رسولُ الله (ص) من عند الله تعالى هي العمود الفقريَّ للمؤاخاة التي حدثت؛ لأنَّ تلك العقيدة تضع الناس كلَّهم في مصافِّ العبودية الخالصة لله ، دون الاعتبار لأيِّ فارقٍ ، إلا فارق التَّقوى ، والعمل الصَّالح؛ إذ ليس من المتوقَّع أن يسود الإخاء ، والتَّعاون ، والإيثار

بين أناسٍ شَتَّتَتْهُمُ العقائد ، والأفكار المختلفة ، فأصبح كلٌّ منهم ملكاً لأنانيته ، وأثرته ، وأهوائه[(٤٤٦)].

٢ ـ الحبُّ في الله أساسُ بنية المجتمع المدنيّ:

إنَّ المؤاخاة على الحبِّ في الله من أقوى الدَّعائم في بناء الأمَّة المسلمة ، فإذا وَهَتْ؛ تاكل كلُّ بنيانها[(٤٤٧)]؛ ولذلك حرصَ النَّبيُّ (ص) على تعميق معاني الحبِّ في الله ، في المجتمع المسلم الجديد ، فقد قال (ص) : «إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أُظلُّهم في ظلِّي؛ يوم لا ظلَّ إلا ظِلِّي» [مسلم (٢٥٦٦) وأحمد (٢/٢٣٧ و٥٣٥) ومالك في الموطأ (٢/٩٥٢)].

وقال: «قال الله تبارك وتعالى: حقَّت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ ، وحقَّت محبَّتي للمتواصلين فيَّ ، وحقَّت محبَّتي للمتباذلين فيَّ. المتحابُّون فيَّ على منابرَ من نورٍ ، يغبطهم النَّبيُّون ، والصِّدِّيقون ، والشُّهداء» [أحمد (٥/٢٢٩ و٢٣٩) وابن حبان (٥٧٧) وروى الترمذي (٢٣٩٠) طرفه الأخير] .

كانت توجيهات النَّبيِّ (ص) ، تحثُّ الصَّحابة على معاني الحبِّ والتَّكافل ، واحترام المسلمين بعضهم بعضاً ، فلا يستعلي غنيٌّ على فقيرٍ ، ولا حاكمٌ على محكومٍ ، ولا قويٌّ على ضعيفٍ ، وكان للحبِّ في الله أثرُه في المجتمع المدنيّ الجديد ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاريٍّ بالمدينة نخلاً ، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرُحَاء ، وكانت مُستقبلةَ المسجد ، وكان رسول الله (ص) يدخلها ، ويشرب من ماءٍ فيها طيِّبٍ ، فلمَّا نزلت: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *} [آل عمران: ٩٢]؛ قام أبو طلحة ، فقال: يا رسول الله! إنَّ الله يقول: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} ، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ (بَيْرُحاء) ، وإنَّها صدقةٌ لله ، أرجو بِرَّها ، وذُخْرها عند الله ، فضعها يا رسول الله! حيث أراك الله. قال رسول الله (ص) : «ذلك مالٌ رابحٌ! ذلك مالٌ رابحٌ! وقد سمعتُ ما قلتَ ، وإنِّي أرى أن

تجعلها في الأقربين» ، فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله! فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه. [البخاري (١٤٦١)[(٤٤٨)] ومسلم (٩٩٨)] .

وهذا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يحدِّثنا عن هذه المعاني الرَّفيعة ، حيث قال: لما قدمنا المدينة؛ اخى رسولُ الله (ص) بيني ، وبين سعدِ بن الرَّبيع ، فقال سعد بن الرَّبيع: إنِّي أكثر الأنصار مالاً ، فأَقسمُ لك نصف مالي ، وانظر أيَّ زوجتيَّ هويتَ؛ نَزَلْتُ لك عنها ، فإذا حَلَّتْ[(٤٤٩)]؛ تزوَّجتَها. قال: فقال له عبد الرَّحمن: لا حاجة لي في ذلك ، هل من سوقٍ فيه تجارةٌ؟ قال: سوق قينقاع[(٤٥٠)].

قال: فغدا إليه عبد الرَّحمن فأتى بأقطٍ ، وسمنٍ ، قال: ثمَّ تابع الغُدُوَّ[(٤٥١)] ، فما لبث أن جاء عبدُ الرَّحمن عليه أثَرُ صُفرةٍ ، فقال رسول الله (ص) : «تَزَوَّجتَ؟» قال: نعم. قال: «ومَنْ؟» قال: امرأةً من الأنصار. قال: «كم سُقْتَ؟» قال: زِنَةَ نواةٍ من ذهبٍ . أو: نواةً من ذهب . فقال له النَّبيُّ (ص) : «أوْلِمْ ولو بشاةٍ» [البخاري (٢٠٤٨ و٣٧٨٠) ومسلم (١٤٢٦)].

ونلاحظ: أنَّ كرم سعد بن الرَّبيع قابله عفةُ وكرمُ نفسٍ من عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنهما ، ولم يكن مسلك عبد الرَّحمن بن عوفٍ خاصّاً به؛ بل إنَّ الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصار ، ثمَّ باشروا العمل ، والكسب ، واشتروا بيوتاً لأنفسهم ، وتكفَّلوا بنفقة أنفسهم؛ ومن هؤلاء: أبو بكرٍ ، وعمر ، وعثمان ، وغيرُهم رضي الله عنهم.

٣ ـ النَّصيحة بين المتاخين في الله:

كان للمؤاخاة أثرٌ في المناصحة بين المسلمين ، فقد اخى النَّبيُّ (ص) بين سلمان ، وأبي الدَّرداء ، فزار سلمانُ أبا الدَّرداء ، فرأى أمَّ الدرداء ، مُتَبَذِّلَةً ، فقال لها: ما شأنُكِ؟ قالت: أخوك أبو الدَّرداء ، ليس له حاجةٌ في الدُّنيا. فجاء أبو الدَّرداء فصنع له طعاماً ، فقال له: كلْ ، فإنِّي صائم ، قال: ما أنا باكلٍ حتَّى تأكل. قال: فأكل ، فلمَّا كان اللَّيل؛ ذهب أبو الدَّرداء يقوم ، قال: نَمْ ، فنام ، ثمَّ ذهب يقوم ، فقال: نَمْ. فلمَّا كان اخر اللَّيل ، قال سلمان: قم الان ، فصَلَّيا. فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه. فأتى النبيَّ (ص) فذكر ذلك له ، فقال له النَّبيُّ (ص) : «صَدَقَ سلمان» [البخاري (١٩٦٨ و٦١٣٩) والترمذي (٢٤١٣)] .

٤ ـ لا ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله لهم:

كان الأنصار قد واسوا إخوانهم المهاجرين بأنفسهم ، وزادوا على ذلك بأن اثروهم على أنفسهم بخير الدُّنيا ، وهذا شاهدٌ على صدق محبَّتهم ، وقوَّة إيمانهم ، فقد رويت نماذج عالية من مواقف الأنصار ، الَّتي كان لها أثرٌ عميق في نفوس المهاجرين ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قالت الأنصارُ للنَّبيِّ: اقْسِمْ بيننا وبين إخواننا النَّخيلَ. قال: لا. فقالوا: تكفوننا المؤونة ، ونشرككم في الثَّمرة. قالوا: سمعنا ، وأطعنا» [البخاري (٢٣٢٥)] .

فهذا الحديث يفيد: أنَّ الأنصار عرضوا على النَّبيِّ (ص) ، أن يتولَّى قسمة أموالهم بينهم ، وبين إخوانهم المهاجرين ، وقد كانت أموالهم هي النَّخيل ، فأبى عليهم النَّبيُّ (ص) ، وأراد أمراً تكون فيه المواساة من غير إجحافٍ بالأنصار بزوال ملكية أموالهم عنهم ، فقال الأنصار للمهاجرين: تكفوننا المؤونة . أي:

العمل في النَّخيل من سقيها ، وإصلاحها . ونشرككم في الثَّمرة ، فلمَّا قالوا ذلك؛ رأى رسولُ الله (ص) : أنَّ هذا الرأي ضمن سدِّ حاجة المهاجرين ، مع الإرفاق بالأنصار ، فأقرَّهم على ذلك؛ فقالوا جميعاً: سمعنا ، وأطعنا[(٤٥٢)].

وقد قام الأنصار بالمؤونة ، وأشركوا المهاجرين في الثَّمرة ، ولعلَّ المهاجرين كانوا يساعدونهم في العمل ، ولكنَّ أكثر العمل عند الأنصار. وقد شكر المهاجرون للأنصار فعلهم ، ومواقفهم الرَّفيعة في الإيثار ، والكرم ، وقالوا: يا رسول الله! ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليلٍ ، ولا أحسن بذلاً في كثيرٍ ، ولقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ[(٤٥٣)] ، حتَّى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلِّه ، قال: «لا ، ما أثنيتم عليهم ، ودعوتم الله ـ عزَّ وجل ـ لهم» [أحمد (٣/٢٠٠ ـ ٢٠١) والترمذي (٢٤٨٧) وابن أبي شيبة (٩/٦٨)] .

وفي إشارة المهاجرين إلى الأجر الأخرويِّ بيانٌ لعمق تصوُّرهم للحياة الاخرة ، وهيمنة هذا التَّصور على تفكيرهم[(٤٥٤)].

وقد أراد النَّبيُّ (ص) أن يكافأى الأنصار على تلك المكارم العظيمة ، الَّتي قدَّموها لإخوانهم المهاجرين ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «دعا النَّبيُّ (ص) الأنصارَ إلى أن يُقْطِعَ لهمُ البحرين ، فقالوا: لا ، إلا أن تُقْطِع لإخواننا من المهاجرين مثلَها. قال: إمَّا لا؛ فاصبروا حتَّى تلْقَوني؛ فإنَّه سيصيبكم بعدي أَثَرَةٌ» [البخاري (٣٧٩٤)] .

لقد حقَّقتْ هذه المؤاخاةُ أهدافها ، فمنها إذهاب وحشة الغربة للمهاجرين ، ومؤانستهم عن
مفارقة الأهل ، والعشيرة ، وشدِّ أزر بعضهم بعضاً ، ومنها نهوض الدَّولة الجديدة؛ لأنَّ أيَّ دولةٍ لا يمكن أن تنهض ، وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمَّة ، وتساندها ، ولا يمكن لكلٍّ من الوحدة والتَّساند أن يتمَّ بغير عاملِ التَّاخي والمحبَّة المتبادلة ، فكلُّ جماعةٍ لا تؤلف بينها اصرة المودة ، والتَّاخي الحقيقية لا يمكن أن تتَّحد حول مبدأ ما ، وما لم يكن الاتِّحاد حقيقةً قائمةً في الأمَّة ، أو الجماعة ، فلا يمكن أن تتألَّف منها دولةٌ[(٤٥٥)].

٥ ـ الإرث بالمؤاخاة:

لم يعرف تاريخ البشر كلُّه حادثاً جماعيّاً ، كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، بهذا الحبِّ الكريم ، وبهذا البذل السَّخيِّ ، وبهذه المشاركة الفعَّالة ، وبهذا التَّسابق إلى الإيواء ، واحتمال الأعباء ، فقد طُبِّقت الأخوَّة في الواقع العمليِّ لحياة الصَّحابة رضي الله عنهم.

إنَّ ما أقامه الرَّسول (ص) بين أصحابه من مبدأ تاريخيٍّ لم يكن مجرَّد شعارٍ في كلمةٍ أجراها على ألسنتهم؛ وإنَّما كان حقيقةً عمليَّةً ، تتَّصل بواقع الحياة ، وبكلِّ أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين ، فقد جعل النَّبيُّ (ص) من هذه الأخوة مسؤوليَّةً حقيقيَّةً ، تشيع بين هؤلاء الإخوة ، وكانت هذه المسؤوليَّة تؤدَّى فيما بينهم على خير وجهٍ ، ولذلك جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ حقَّ الميراث منوطاً بهذا التَّاخي دون حقوق القرابة والرَّحم ، فقد كان من حكمة التَّشريع أن تتجلَّى الأخوَّة الإسلاميَّة حقيقةً محسوسةً في أذهان المسلمين ، وأن يعلموا أنَّ ما بين المسلمين من التاخي والتَّحابب ، ليس شعاراً ، وكلاماً مجرَّدين؛ وإنَّما هي حقيقةٌ قائمةٌ ، ذات نتائج اجتماعيَّةٍ محسوسةٍ ، تكوِّن أهمَّ أسس نظام العدالة الاجتماعيَّة. أمَّا حكمة نسخ التَّوارث على أساس هذه الأخوَّة فيما بعد ، فهي أنَّ نظام الميراث الَّذي استقرَّ أخيراً إنَّما هو نفسه قائم على أخوَّة الإسلام بين المتوارثين؛ إذ لا توارث بين ذوي دينين مختلفين؛ إلا أنَّ الفترة الأولى من الهجرة ، وضعت كلاً من الأنصار والمهاجرين ، أمام مسؤوليَّةٍ خاصَّةٍ من التعاون ، والتَّناصر ، والمؤانسة؛ بسبب مفارقة المهاجرين لأهلهم ، وتركهم ديارهم ، وأموالهم في مكَّة ، ونزولهم ضيوفاً على إخوانهم الأنصار في المدينة ، فكان من إقامة الرَّسول (ص) من التَّاخي بين أفراد المهاجرين ، والأنصار ضمانةٌ لتحقيق هذه المسؤوليَّة ، ولقد كان من مقتضى هذه المسؤوليَّة أن يكون هذا التاخي أقوى في حقيقته ، وأثره من أُخوَّة الرَّحم المجرَّدة ، فلمَّا استقرَّ أمر المهاجرين في المدينة ، وتمكَّن الإسلام فيها؛ غدت الرُّوح الإسلاميَّة هي وحدها العصب الطَّبيعيُّ للمجتمع الجديد في المدينة[(٤٥٦)].

ولما ألِفَ المهاجرون جوَّ المدينة ، وعرفوا مسالك الرِّزق فيها ، وأصابوا من غنائم بدرٍ الكبرى ما كفاهم؛ رجع التَّوارث إلى وضعه الطَّبيعيِّ ، المنسجم مع الفطرة البشريَّة ، على أساس صلة الرَّحم ، وأبطل التَّوارث بين المتاخين ، وذلك بنصِّ القران الكريم. قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *} [الأنفال: ٧٥].

فهذه الاية نسخت التَّوارث بموجب نظام المؤاخاة[(٤٥٧)] ، وبقيت النُّصرة ، والرِّفادة ، والنَّصيحة بين المتاخين[(٤٥٨)] ، فقد بيَّن حَبْرُ الأمَّة ابن عباسٍ ذلك عند قوله تعالى: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا *} [النساء: ٣٣].

قال: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ} قال: ورثةً { وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ} كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرثُ المهاجرُ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه؛ للأُخوة الَّتي اخى النَّبيُّ (ص) بينهم ، فلمَّا نزلت {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ}؛ نسخت، ثمَّ قال: {وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ}[(٤٥٩)] من النصر، والرِّفادة والنَّصيحة ، وقد ذهب الميراثُ ، ويُوصي له [البخاري (٢٢٩٢ و٤٥٨٠ و٦٧٤٧) وأبو داود (٢٩٢٢) والنسائي في السنن الكبرى (١١٠٣٧)] .

٦ ـ قيمٌ إنسانيَّة ومبادأى مثاليَّةٌ:

من خلال الرَّوابط الوثيقة الَّتي ألَّفَتْ بين المهاجرين ، والأنصار أُرْسِيَتْ قيمٌ إنسانيَّةٌ ، واجتماعيَّةٌ ، ومبادأى مثاليَّةٌ لا عهد للمجتمع القبليِّ بها؛ وإنَّما هي من شأن المجتمعات المتحضِّرة الفاضلة ، وفي مقدمة تلك القيم قيمة العمل الشَّريف كوسيلةٍ لكسب الرِّزق ، فلقد قَبِلَ المهاجرون في أوَّل الأمر ما أظهره إخوانهم الأنصار من كرم الضيافة ، ولكنَّهم أبوا بعد ذلك إلا أن يبحثوا عن موارد رزقٍ لهم ، ولا يُعوِّلُوا على رابطة المؤاخاة الَّتي سعد بها الأنصار ، فكان منهم من اشتغل بالتِّجارة ، ومنهم من عمل بالزِّراعة ، مستعذبين متاعب العمل على أن يكونوا عالةً على إخوانهم؛ ذلك لأنَّ عزَّة الإيمان لا ترضى لصاحبها أن يكون عالةً على أحدٍ ، بل تطلب منه أن يعطي أكثر ممَّا يأخذ ، فاليد العليا خيرٌ ، وأحبُّ إلى الله من اليد السُّفلى ، وقد فهم الصَّحابة الكرام من تعاليم الإسلام: أنَّ العمل عبادةٌ ، وهي منزلةٌ لم تصل إليها النُّظم المعاصرة ، الَّتي قصرت فائدتها على سدِّ حاجات الإنسان المادِّيَّة والمعنويَّة ، وفي ضوء هذا
المفهوم الإسلاميِّ نستطيع أن نقول: إنَّ الإخاء ، والعمل كانا حَجَرَ الزَّاوية في بناء مجتمع دار المهجر ، وبالتَّالي في تأسيس الحضارة الإسلاميَّة؛ الَّتي بُنيت أصولها في المدينة بعد إقامة أوَّل دولةٍ في الإسلام ، برئاسة النَّبيِّ (ص) ، ثمَّ ترعرعت حتَّى أصبحت شجرةً يتفيَّأ ظلالَها العالمُ كلُّه[(٤٦٠)].

٧ ـ تذويب الفوارق الإقليمية والقبلية:

إنَّ القضاء على الفوارق الإقليميَّة ، والقبليَّة ، ليس بالأمر الهيِّن في المجتمعات الجاهليَّة؛ حيث العصبية هي الدِّين عندهم ، وعملية المؤاخاة تهدف إلى إذابة هذه الفوارق بصورةٍ واقعيَّةٍ ، منطلقةٍ من قلب البيئة الجاهليَّة.

إنَّ من الأمراض في الصَّفِّ الإسلاميِّ المعاصر ، سيطرةَ الرُّوح الإقليميَّة ، والعصبيَّة في نفوس بعض الدُّعاة ، وهذه الأمراض تحول بينهم وبين التَّمكين ، وتُضعف الصُّفوف؛ بل تُشتِّتها ، وينشغل الصَّفُّ بنفسه عن أهدافه الكبار. وقد أصيبت بعض الحركات الإسلاميَّة بداء العصبية الإقليميَّة ، والعصبيَّة الشَّخصيَّة

، والعصبية القُطريَّة ، والعصبية حتَّى على مستوى المدينة ، والقرية الصَّغيرة[(٤٦١)] ، وقد تولَّد هذا عن أمراضٍ في نفوس بعض الأفراد ، بسبب بُعْدِهم عن القران الكريم ، وسنَّة سيِّد المرسلين (ص) ، فلم يتربَّوا عليها؛ ولذلك كثر التَّناحر ، والتَّباغض.
إنَّ المسلمين اليوم في أشدِّ الحاجة إلى مثل هذه المؤاخاة؛ الَّتي حدثت بين المهاجرين ، والأنصار؛ لأنَّه يستحيل أن تُسْتَأْنف حياةٌ إسلاميَّةٌ عزيزةٌ قويَّةٌ؛ إذا لم تتخلَّق المجتمعات الإسلاميَّة بهذه الأخلاق الكريمة ، وترتقي إلى هذا المستوى الإيمانيِّ الرَّفيع ، وإلى هذه التَّضحيات الكبيرة ، وأمَّا المظاهر الزَّائفة من الأخوة (باللِّسان)؛ فلا تجدي فتيلاً.
إنَّ الفرد المسلم حين يشعر: أنَّ له إخوةً يحبُّهم ، ويحبُّونه ، وينصرهم ، وينصرونه ، خاصَّةً إذا تفاقمت الأزمات ، وضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ ، فإنَّ هذا ممَّا يرفع من رُوحه المعنويَّة؛ بل ويرفع قدراته الذَّاتية ، ويجعله أقوى مضاءً ، وعزيمةً ، وإنَّ فقدان مثل هذه المؤاخاة ، ممَّا يضعف الصفَّ الإسلاميَّ ، ويجعل الفرد المسلم يشعر أحياناً: أنَّه وحيدٌ أمام أعداء يكنُّون له كلَّ حقدٍ ، ويحيطون به من كلِّ جانبٍ ، فكيف يستطيع حمل كلِّ هذه الضُّغوط النَّفسيَّة والمادِّيَّة؟![(٤٦٢)].

وقد حفظ لنا التَّاريخ جهاد المجتمع المسلم مع أعدائه ، بعد تحقيق وحدته الاجتماعيَّة ، وهو لا يزال في دَوْرِ نشأته ، وتكوينه ، وكثيراً من المحاولات الإفساديَّة ، الَّتي كان الأعداء يدبِّرون مكايدها؛ ليشعلوا بها نيران الفتن بين صفوف المجتمع المسلم ، ليفرِّقوا جمعه ، ويفكِّكوا وحدته ، ولكنَّ هذه المحاولات الإفسادية كانت تبوء بالخسران؛ لأنَّها كانت تصطدم بقوَّة تماسك المجتمع المسلم ، في تركيبه الإيمانيِّ والاجتماعيِّ ، فيذيبها في تلك القوَّة ، الَّتي جعلت من تركيبه الاجتماعيِّ وحدةً مدمَّجة العناصر دمجاً لا يقبل التَّفريق ، ولا تنفصم عراه ، ولا تُحَلُّ روابطه[(٤٦٣)].
٨ ـ المؤاخاة بين المسلمين من أسباب التَّمكين المعنويَّة:
إنَّ من أسباب التَّمكين المعنويَّة العملَ على تربية الأفراد تربيةً ربانيَّةً ، وإعداد القيادة الرَّبَّانيَّة ، ومحاربة أسباب الفُرْقة ، والأخذ بأصول الوحدة ، والاتِّحاد[(٤٦٤)].
وأهمُّ أصول الوحدة ، والاتِّحاد وحدةُ العقيدة ، وصدق الانتماء إلى الإسلام ، وطلب الحقِّ ، والتَّحري في ذلك ، وتحقيق الأخوَّة بين أفراد المسلمين.
إنَّ من الأصول العظيمة؛ التي تحقِّق وحدة الصَّف ، وقوَّة التَّلاحم ، ومتانة التَّماسك بين أفراد المسلمين تحقيق الأخوَّة في أوساطهم.

إنَّ الأُخوَّة منحةٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يعطيها الله للمخلصين من عباده ، والأصفياء ، والأتقياء من أوليائه ، وجنده. قال تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ *وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣].

وهي قوَّةٌ إيمانيَّةٌ ، تورث شعوراً عميقاً بعاطفةٍ صادقةٍ ، ومحبَّةٍ وودٍّ ، واحترامٍ ، وثقةٍ متبادلةٍ مع كلِّ مَنْ تربطنا بهم عقيدة التَّوحيد ، ومنهج الإسلام الخالد ، يتبعها ، ويستلزمها تعاونٌ ، وإيثارٌ ، ورحمةٌ ، وعفوٌ ، وتسامحٌ ، وتكافلٌ ، وتازرٌ ، وهي ملازمةٌ للإيمان. قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *} [الحجرات: ١٠] .

ولا يذوق حلاوة الإيمان ، إلا من أشرب هذه الأُخوَّة. قال (ص) : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ، ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقْذَفَ في النَّار» [البخاري (١٦) ومسلم (٤٣)] .

إنَّ القران الكريم يرسم لنا صورةً جميلةً لأصحاب رسول الله (ص) . قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح: ٢٩] .

إنَّ القران الكريم حين وضع بين دفتيه هذه الصُّورة إنَّما يخبرنا بتكريم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فَهُمْ: أشدَّاء على الكفَّار؛ ولو كان فيهم {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} ، والقرابة ، والأبناء ، رحماءُ بينهم ، وهذه الأخوَّة في الحقِّ أخوَّةٌ في الدِّين. إن الأخوَّة في الله من أهم الأسباب التي تعمل على الصُّمود في وجه أعتى المحن الَّتي تنزل بالمسلمين ، كما أنَّ الفهم المتبادل ، والكامل للأخوَّة في الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين ، وقوَّتهم ، ومن أسباب شموخهم ، والتَّمكين لهم[(٤٦٥)].

٩ ـ من فضائل الأنصار:

تسميتهم بالأنصار: سمَّاهم الله ، ورسولُه (ص) بهذا الاسم حين بايعوا على الإسلام ، وقاموا بإيواء المؤمنين ، ونصرة دين الله ، ورسول الله (ص) ، ولم يكونوا معروفين بذلك مِنْ قبل[(٤٦٦)] ، فعن غَيْلان بن

جرير ـ رحمه الله! ـ قال: قلتُ لأنسٍ رضي الله عنه: أرأيتَ اسم (الأنصار) كنتم تُسَمَّوْنَ به ، أم سمَّاكم الله؟ قال: بل سمَّانا الله [البخاري (٣٧٧٦)] .

أمَّا مناقبهم ، وفضائلهم ، فكثيرةٌ ، لا تحصى ، منها مناقب عامَّةٌ لجميع الأنصار ، ومناقب خاصَّة بأفراد من الأنصار. أمَّا المناقب العامَّة الواردة في القران الكريم مايلي:

فقد وصفهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بأنَّهم من المؤمنين حقّاً ، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ٧٤] .

وبشَّرهم ربُّهم برضاه عنهم، وامتدح رضاهم عنه ، فقال تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *} [التوبة: ١٠٠] .

ووصفهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بالفلاح. قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

وأمَّا الأحاديث الَّتي تحدَّثت عن ماثر الأنصار؛ فمنها:

حبُّ النَّبيِّ (ص) للأنصار: عن أنسٍ رضي الله عنه قال: رأى النَّبيُّ (ص) النِّساءَ ، والصِّبيان مقبلين ـ قال: حَسِبْتُ: أنَّه قال: مِنْ عُرس ـ فقام النَّبيُّ (ص) مُمْتَناً[(٤٦٧)] ، فقال: «اللَّهمَّ أنتم مِنْ أحبِّ النَّاس إليَّ» قالها ثلاث مِرارٍ [البخاري (٣٧٨٥) ومسلم (٢٥٠٨)] .

حبُّ الأنصار علامة الإيمان ، وبغضهم علامة النِّفاق: عن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: «الأنصار لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ ، ولا يُبْغِضُهم إلا منافقٌ ، فَمَنْ أحبَّهم أحبَّه الله ، ومَنْ أبغضهم أبغضه الله» [البخاري (٣٧٨٣) ومسلم (٧٥)] .

مَنْ أحبَّهم فاز بحبِّ الله إيَّاه ، ومن أبغضهم شقي ببغض الله إيَّاه ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله (ص) : «من أحَبَّ الأنصارَ أحبَّه اللهُ ، ومن أبغض الأنصارَ أبغضه الله» [أحمد (٥٠١/٢ و٥٢٧) وأبو يعلى (٧٣٦٧) والبزار (٢٧٩٢ و٢٧٩٣) ومجمع الزوائد (٣٩/١٠)] .

الشَّهادة لهم بالعفاف ، والصَّبر: العفة والصَّبر شيمتان كريمتان ، تدلاَّن على أصالة معدن المتخلِّق بهما ، وتمام مروءته ، وكمال رجولته ، وفتوته ، وقد شهد النَّبيُّ (ص) للأنصار بهما ، وما أعظمها من شهادةٍ! وما أعظمه من شاهدٍ![(٤٦٨)] ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (ص) : «ما يضرُّ

امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار ، أو نزلت بين أبويها» [أحمد (٦/٢٥٧) وابن حبان (٧٢٦٧) والحاكم (٤/٨٣) والبزار (٢٨٠٦) ومجمع الزوائد (١٠/٤٠)] .

رغبة النَّبيِّ (ص) في الانتساب إليهم لولا الهجرة: عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ (ص) قال: «لو أنَّ الأنصار سلكوا وادياً ، أو شعباً ، لسلكت في وادي الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار» [البخاري (٣٧٧٩ و٧٣٤٤) وأحمد (٢/٤١٠) والنسائي في السنن الكبرى (٨٢٦١)] .

دعاء النَّبيِّ (ص) بالمغفرة لهم ، ولأبنائهم ، ولأزواجهم ، ولذراريهم: لاشكَّ أنَّ دعاء الرَّسول (ص) مستجابٌ ، وقد فاز الأنصار بهذا الفضل ، فقد روى البخاريُّ عن عبد الله بن الفضل: أنَّه سمع أنس بن مالكٍ يقول: «حَزِنْتُ على من أُصيبَ بالحَرَّةِ[(٤٦٩)]، فكتب إليَّ زيدُ بنُ أرقم . وبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزني . يذكر: أنَّه سمع رسول الله (ص) يقول: «اللّهُمَّ اغفر للأنصار! ولأبناء
الأنصار». وشكَّ ابنُ الفضل في أبناء أبناء الأنصار[(٤٧٠)] ، فسأل أنساً بعضُ مَنْ كان عنده ، فقال: هو الذي يقولُ رسولُ الله (ص) ، هذا الَّذي أوفى الله له بأذنِهِ[(٤٧١)]» [البخاري (٤٩٠٦) ومسلم (٢٥٠٦)] .

وصية النَّبيِّ (ص) بالإحسان إليهم ، وعدم إفزاعهم: كان جهاد الأنصار في سبيل الدِّين عظيماً ، وكان فضلهم في نشره ، والدِّفاع عنه بليغاً؛ إذ لم يمنعهم من الخفَّة إلى الخروج في سبيل الله عسرٌ، ولا يسرٌ، وحفظ الله لهم ذلك في قوله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١١٧] .

وَمِنْ ثَمَّ كانت وصيَّة رسول الله (ص) بالأنصار ، والإحسان إلى محسنهم ، والتَّجاوز عن مسيئهم ، وكان ترهيبه (ص) من ترويعهم ، وتفزيعهم وكانت توصيته بالأنصار خيراً[(٤٧٢)] ، فعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) قال: «الأنصار كَرِشي ، وعَيْبَتي[(٤٧٣)] ، والنَّاسُ سيكثرون ، ويَقِلُّون[(٤٧٤)] ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم» [البخاري (٣٨٠١) ومسلم (٢٥١٠)] .

وعنه أيضاً ، قال: خرج نبيُّ الله (ص) ، فتلقَّته الأنصار بينهم ، فقال: «والذي نفسُ محمَّدٍ بيده! إنِّي لأحِبُّكم ، وإنَّ الأنصار قد قضوا ما عليهم ، وبقي الَّذي لهم[(٤٧٥)] ، فأحْسِنوا إلى مُحسنهم ، وتجاوزوا عن مُسيئهم» [أحمد (٣/١٨٧) والنسائي في السنن الكبرى (٨٢٧٠) وابن حبان (٧٢٦٦ و٧٢٧١) وأبو يعلى (٣٧٧٠)] وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللهِ (ص) يقول

على المنبر للأنصار: «....فمن ولي الأنصار؛ فليحسن إلى محسنهم ، وليتجاوز عن مسيئهم ، ومَنْ أفزعهم؛ فقد أفزع هذا الَّذي بين هاتين ، وأشار إلى نَفْسِه (ص) »[(٤٧٦)].

* * *

المبحث الثَّالث

الوثيقة أو الصَّحيفة

نظَّم النَّبيُّ (ص) العلاقات بين سكان المدينة ، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التَّاريخية ، واستهدف هذا الكتاب ، أو الصَّحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة ، وتحديد الحقوق ، والواجبات ، وقد سُمِّيت في المصادر القديمة بالكتاب ، والصَّحيفة ، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظة (الدُّستور). ولقد تعرَّض الدُّكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة» لدراسة طرق ورود الوثيقة ، وقال: «ترقى بمجموعها إلى مرتبة الأحاديث الصَّحيحة»[(٤٧٧)] ، وبيَّن: أنَّ أسلوب الوثيقة ينمُّ عن أصالتها؛ «فنصوصها مكوَّنةٌ من كلماتٍ ، وتعابير كانت مألوفةً في عصر الرَّسول (ص) ، ثم قَلَّ استعمالها فيما بعد ، حتَّى أصبحت مغلقةً على غير المتعمِّقين في دراسة تلك الفترة. وليس في هذه الوثيقة نصوصٌ تمدح ، أو تقدح فرداً ، أو جماعةً ، أو تخصُّ أحداً بالإطراء ، أو الذَّمِّ؛ لذلك يمكن القول بأنَّها وثيقةٌ أصليةٌ ، وغير مزوَّرةٍ»[(٤٧٨)] ، ثمَّ إنَّ التَّشابه الكبير بين أسلوب الوثيقة ، وأساليب كُتُبِ النَّبيِّ (ص) يعطيها توثيقاً اخر.

أولاً: كتابه (ص) بين المهاجرين والأنصار واليهود:

نصُّ الوثيقة[(٤٧٩)]:

١ ـ هذا كتابٌ من محمَّد النَّبيِّ «رسول الله» بين المؤمنين ، والمسلمين من قريشٍ ، «وأهل يثرب» ، وَمَنْ تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم.

٢ ـ إنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس.

٣ ـ المهاجرون من قريشٍ على رِبْعتهم[(٤٨٠)] ، يتعاقلون بينهم ، وهم يَفْدُون عانِيَهم[(٤٨١)] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ ـ وبنو عَوْف على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم[(٤٨٢)] الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو الحارث «بنو الخزرج» على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانِيَها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو ساعدة على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو جُشَم على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨ ـ وبنو النَّجار على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفةٍ تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٠ ـ وبنو النَّبيت على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١١ ـ وبنو الأوس على رِبْعتهم ، يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكلُّ طائفة تَفْدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

١٢ ـ وإنَّ المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً[(٤٨٣)] بينهم أن يُعْطوه بالمعروف؛ من فِداءٍ ، أو عَقْل ، وألا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونَه.

١٣ ـ وإنَّ المؤمنين المتَّقين «أيديهم» على «كلِّ» مَنْ بغى منهم ، أو ابتغى دَسِيعةَ[(٤٨٤)] ظُلْمٍ ، أو إثماً ، أو عدواناً ، أو فساداً بين المؤمنين ، وإنَّ أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان وَلَدَ أحدهِم.

١٤ ـ ولا يَقْتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافرٍ ، ولا يَنْصُر كافراً على مؤمنٍ.

١٥ ـ وإنَّ ذمة الله واحدةٌ ، يُجير عليهم أدناهم ، وإنَّ المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس.

١٦ ـ وإنَّه مَنْ تبعنا من يهود ، فإنَّ له النَّصرَ ، والأُسوة غير مظلومين ، ولا متناصرٍ عليهم.

١٧ ـ وإنَّ سِلْمَ المؤمنين واحدةٌ ، لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله إلا على سواءٍ ، وعدلٍ بينهم.

١٨ . وإنَّ كلَّ غازيةٍ غزت معنا يُعْقب بعضها بعضاً.

١٩ . وإنَّ المؤمنين يُبِأى[(٤٨٥)] بعضهم على بعضٍ بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢٠ . وإنَّ المؤمنين المتَّقين على أحسن هدىً ، وأقومه ، وإنَّه لا يجير مشركٌ مالاً لقريشٍ ، ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمنٍ.

٢١ . وإنَّه من اعتبط[(٤٨٦)] مؤمناً قتلاً عن بيّنةٍ؛ فإنَّه قَوَدٌ[(٤٨٧)] به ، إلا أن يرضى وليُّ المقتول بـ (العَقْل) ، وإنَّ المؤمنين عليه كافَّةً ، ولا يحلُّ لهم إلا قيامٌ عليه.

٢٢ . وإنَّه لا يحلُّ لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصَّحيفة ، وامن بالله واليوم الاخر ، أن ينصر مُحْدِثاً[(٤٨٨)] ، أو يُؤْوِيه ، وإنَّ مَنْ نصره ، أو اواه ، فإنَّ عليه لعنةَ الله ، وغضبه يوم القيامة ، ولا يُؤْخذ منه صرفٌ ، ولا عدلٌ.

٢٣ . وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ ، فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّدٍ (ص) .

٢٤ . وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٥ . وإن يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين؛ لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم نفسه ، وأَثِمَ ، فإنَّه لا يُوتِغُ[(٤٨٩)] إلا نفسَه ، وأهلَ بيته.

٢٦ ـوإنَّ ليهود بني النَّجار مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٢٧ . وإنَّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٢٨ . وإنَّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٢٩ . وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٣٠ . وإنَّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوفٍ.

٣١ . وإنَّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوفٍ ، إلا من ظَلَمَ ، وأَثِمَ ، فإنَّه لا يُوتِغُ إلا نفسَه ، وأهلَ بيته.

٣٢ . وإنَّ جَفْنَةَ بطنٍ مِن ثعلبة كأنفسهم.

٣٣ . وإنَّ لبني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوفٍ ، وإنَّ البر دون الإثم.

٣٤ . وإنَّ موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ . وإنَّ بطانة يهود كأنفسهم. (بطانة الرَّجل: أي: خاصَّته ، وأهل بيته).

٣٦ . وإنَّه لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّد (ص) .

٣٧ . وإنَّ على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من حارب أهل هذه الصَّحيفة ، وإنَّ بينهم النُّصح ، والنَّصيحة ، والبرُّ دون الإثم.

٣٨ . وإنَّه لا يأثم امرؤٌ بحليفه ، وإنَّ النَّصر للمظلوم.

٣٩ . وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٤٠ . وإنَّ يثرب حرامٌ جَوْفُها لأهل هذه الصَّحيفة.

٤١ . وإنَّ الجار كالنَّفس غير مُضارٍ ، ولا اثم.

٤٢ . وإنَّه لا تُجار حُرمةٌ إلا بإذن أهلها.

٤٣ . وإنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ ، أو اشتجار يُخاف فسادُه ، فإنَّ مَرَدَّهُ إلى الله ـ عزَّ و جلَّ ـ وإلى محمَّدٍ رسول الله (ص) ، وإنَّ الله على أتقى ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه (أي: إنَّ الله ، وحزبه المؤمنين على الرِّضا به).

٤٤ . وإنَّه لا تُجارُ قريشٌ ، ولا مَنْ نصرها ، وإنَّ بينهم النَّصرَ على من دَهَمَ يثربَ.

٤٥ . وإذا دُعوا إلى صلحٍ يصالحونه ، ويَلْبَسونه؛ فإنَّهم يصالحونه ، ويلبسونه ، وإنَّهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك؛ فإنَّه لهم على المؤمنين ، إلا مَنْ حارب في الدِّين. وعلى كلِّ أناسٍ حِصَّتُهم من جانبهم الَّذي قِبَلَهم.

٤٦ . وإنَّ يهود الأوس ـ مواليهم ، وأنفسهم ـ على مثل ما لأهل هذه الصَّحيفة ، مع البرِّ المحض من أهل هذه الصَّحيفة ، وإنَّ البرَّ دون الإثم ، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه ، وإنَّ الله على أصدق ما في هذه الصَّحيفة وأبرِّه.

٤٧ . وإنَّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالمٍ ، أو اثمٍ ، وإنَّه مَنْ خرج امنٌ ، ومن قعد امنٌ بالمدينة ، إلا من ظَلَم ، وَأَثِمَ ، وإنَّ الله جارٌ لمن برَّ ، واتقى ، ومحمَّدٌ رسولُ الله (ص)[(٤٩٠)] .

ثانياً: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد من الوثيقة:

١ . تحديد مفهوم الأمَّة:

تضمَّنت الصَّحيفة مبادأى عامَّةً ، درجت دساتير الدُّول الحديثة على وضعها فيها ، وفي طليعة هذه المبادأى ، تحديد مفهوم الأمَّة؛ فالأمَّة في الصَّحيفة تضمُّ المسلمين جميعهم ، مهاجريهم ، وأنصارهم ، وَمَنْ تبعهم ممَّن لحق بهم ، وجاهد معهم ، أمَّةٌ واحدةٌ من دون النَّاس[(٤٩١)] ، وهذا شيءٌ جديدٌ كلَّ الجدَّة في تاريخ الحياة السِّياسيَّة في جزيرة العرب؛ إذ نقل الرَّسول (ص) قومه من شعار القبليَّة ، والتَّبعيَّة لها، إلى شعار الأمَّة ، الَّتي تضمُّ كلَّ من اعتنق الدِّين الجديد ، فلقد قالت الصَّحيفة عنهم: «إنَّهم أمَّةٌ

واحدةٌ» (الفقرة: ١ ، ٢). وقد جاء به القران الكريم. قال تعالى: {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ *} [الأنبياء: ٩٢] ، وبيَّن سبحانه وتعالى وسطية هذه الأمَّة في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣] ، ووضَّح. سبحانه وتعالى .: أنَّها أمَّةٌ إيجابيَّة؛ فهي لا تقف موقف المتفرِّج من قضايا عصرها؛ بل تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتدعو إلى الفضائل ، وتحذِّر من الرَّذائل[(٤٩٢)]. قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ *} [آل عمران: ١١٠] .

وبهذا الاسم الَّذي أُطلق على جماعةٍ من المسلمين ، والمؤمنين ، ومَنْ تبعهم من أهل يثرب اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة؛ الَّتي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام؛ فهم يتكافلون فيما بينهم ، وهم ينصرون المظلوم على الظَّالم ، وهم يرعون حقوق القرابة ، والمحبَّة ، والجوار[(٤٩٣)]. لقد انصهرت طائفتا الأوس ، والخزرج في جماعة الأنصار ، ثمَّ انصهر الأنصار والمهاجرون في جماعة المسلمين ، وأصبحوا أمَّةً واحدةً[(٤٩٤)] ، تربط أفرادها رابطةُ العقيدة ، وليس الدَّم ، فيتَّحد شعورهم ، وتتَّحد أفكارهم ، وتتَّحد قبلتهم ، ووجهتهم ،

وولاؤهم لله وليس للقبيلة ، واحتكامهم للشَّرع وليس للعُرْف ، وهم يتمايزون بذلك كلِّه على بقيَّة النَّاس «من دون النَّاس» ، فهذه الرَّوابط تقتصر على المسلمين ، ولا تشمل غيرهم من اليهود ، والحلفاء ، ولا شكَّ: أنَّ تمييز الجماعة الدِّينية كان أمراً مقصوداً ، يستهدف زيادة تماسكها ، واعتزازها بذاتها[(٤٩٥)] ، ويتَّضح ذلك في تمييزها بالقبلة ، واتجاهها إلى الكعبة ، بعد أن اتَّجهت ستة عشر ، أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس[(٤٩٦)].

وقد مضى النَّبيُّ (ص) يميِّز أتباعه عمَّن سواهم في أمورٍ كثيرةٍ ، ويوضِّح لهم: أنَّه يقصد بذلك مخالفة اليهود ، ومن ذلك: أنَّ اليهود لا يُصلُّون بالخِفاف ، فأذن النَّبيُّ (ص) لأصحابه أن يصلُّوا بالخُفِّ ، واليهود لا تصبغ الشَّيب ، فصبغ المسلمون شيب رؤوسهم بالحنَّاء ، والكَتَم[(٤٩٧)] ، واليهود تصوم عاشوراء ، والنبيُّ (ص) يصومه أيضاً ، ثمَّ اعتزم في أواخر حياته أن يصوم تاسوعاء معه؛ مخالفةً لهم[(٤٩٨)]. ثمَّ إنَّ النَّبيَّ (ص) وضع للمسلمين مبدأ مخالفة غيرهم ، والتميُّز عليهم ، فقال: «مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم» [أحمد (٢/٥٠ و٩٢) وأبو داود (٤٠٣١) وعبد بن حميد (٨٤٨)] ، وقال أيضاً: «لا تشبَّهوا باليهود» [أحمد (١/١٦٥) والنسائي (٨/١٣٧) وأبو يعلى (٦٨١)] . والأحاديث في ذلك كثيرةٌ ، وهي تفيد

معنى تميُّز المسلمين ، واستعلائهم على غيرهم ، ولا شك: أنَّ التشبُّه، والمحاكاة للاخرين يتنافى مع الاعتزاز بالذَّات، والاستعلاء على الكفار، ولكن هذا التَّميُّز ، والاستعلاء ، لا يشكِّل حاجزاً بين المسلمين ، وغيرهم ، فكيان الجماعة الإسلاميَّة مفتوح ، وقابلٌ للتوسُّع ، ويستطيع الانضمامَ إليه مَنْ يؤمن بعقيدته[(٤٩٩)].

واعتبرت الصَّحيفة اليهود جزءاً من مواطني الدَّولة الإسلاميَّة ، وعنصراً من عناصرها؛ ولذلك قيل في الصَّحيفة: «وإنَّه من تبعنا من يهود ، فإنَّ له النَّصر والأسوة ، غير مظلومين ، ولا متناصرٌ عليهم» (الفقرة ١٦) ، ثمَّ زاد هذا الحكم إيضاحاً ، في الفقرة (٢٥) وما يليها؛ حيث نصَّ فيها صراحةً بقوله: «وإنَّ يهود بني عوف أمَّةٌ مع المؤمنين...».

وبهذا ترى: أنَّ الإسلام قد اعتبر أهل الكتاب؛ الَّذين يعيشون في أرجائه مواطنين ، وأنَّهم أمَّةٌ مع المؤمنين ، ما داموا قائمين بالواجبات المترتِّبة عليهم؛ فاختلاف الدِّين ليس ـ بمقتضى
أحكام الصَّحيفة ـ سبباً للحرمان من مبدأ المواطنة[(٥٠٠)].

٢ ـ المرجعيَّة العليا لله ورسوله (ص):

جعلت الصَّحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله ، ورسوله (ص) ، فقد نصَّت على مرجع فضِّ الخلاف في الفقرة (٢٣) ، وقد جاء فيها: «وإنَّه مهما اختلفتم فيه من شيءٍ ، فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّد (ص) » والمغزى من ذلك واضحٌ ، وهو تأكيدُ سلطةٍ عليا دينيَّةٍ ، تُهيمن على المدينة ، وتفصل في الخلافات؛ منعاً لقيام اضطراباتٍ في الدَّاخل من جرَّاء تعدُّد السُّلطات، وفي الوقت نفسه تأكيدٌ ضمنيٌّ برئاسة الرَّسول (ص) على الدَّولة[(٥٠١)]، فقد حدَّدت الصَّحيفة مصدر السُّلطات الثلاثة: التَّشريعية، والقضائية، والتَّنفيذية، فكان رسول الله (ص) ، حريصاً على تنفيذ أوامر الله، من خلال دولته الجديدة؛ لأنَّ تحقيق الحاكمية لله على الأمَّة هو محض العبوديَّة لله تعالى؛ لأنَّه بذلك يتحقَّق التَّوحيد ، ويقوم الدِّين. قال تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ *} [يوسف: ٤٠] .

يعني: «ما الحكم الحقُّ في الرُّبوبية ، والعقائد ، والعبادات ، والمعاملات إلا لله وحده ، يوحيه لمن اصطفاه من رسله ، لا يمكن لبشرٍ أن يحكم فيه برأيه وهواه ، ولا بعقله واستدلاله ، ولا باجتهاده واستحسانه ، فهذه القاعدة هي أساس دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله ، لا تختلف باختلاف الأزمنة ، والأمكنة»[(٥٠٢)].

لقد نزل القران الكريم من أجل تحقيق العبوديَّة ، والحاكميَّة لله تعالى ، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ *أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ *} [الزمر: ٢ ـ ٣] .

وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *} [النساء: ١٠٥] فكما أنَّ تحقيق العبودية غايةٌ من إنزال الكتاب؛ فكذلك تطبيق الحاكميَّة غايةٌ من إنزاله ، وكما أنَّ العبادة لا تكون إلا عن وحي مُنَزَّل؛ فكذلك لا ينبغي أن يُحكم إلا بشرع منزَّلٍ ، أو بما له أصلٌ في شرعٍ مُنزَّلٍ[(٥٠٣)].

إنَّ تحقيق الحاكميَّة تمكينٌ للعبوديَّة ، وقيامٌ بالغاية الَّتي من أجلها خُلق الإنسان ، والجان ،

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *} [الذاريات: ٥٦] .

وقد اعترف اليهود في هذه الصَّحيفة بوجود سلطة قضائيَّة عليا ، يرجع إليها سكَّان المدينة ـ بما فيهم اليهود ـ بموجب بند رقم (٤٣) ، لكنَّ اليهود لم يُلزَموا بالرُّجوع إلى القضاء الإسلاميِّ دائماً؛ بل فقط عندما يكون الحدث ، أو الاشتجار بينهم وبين المسلمين ، أمَّا في قضاياهم الخاصَّة ، وأحوالهم الشَّخصيَّة ، فهم يحتكمون إلى التَّوراة ، ويقضي بينهم أحبارها ، ولكن إذا شاؤوا؛ فبوسعهم الاحتكام إلى النَّبيِّ (ص) ، وقد خيَّر القران الكريم النَّبيَّ (ص) بين قبول الحكم فيهم ، أو ردِّهم إلى أحبارهم ، قال تعالى: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *} [المائدة: ٤٢] .

ومن القضايا التي أراد اليهود تحكيم الرَّسول (ص) فيها اختلافُ بني النَّضير ، وبني قريظة في دِيَة القتلى بينهما ، فقد كانت بنو النَّضير أعزَّ من بني قريظة ، فكانت تفرض عليهم دِيَةً مضاعفةً لقتلاها ، فلمَّا ظهر الإسلام في المدينة؛ امتنعت بنو قريظة عن دفع الضِّعف ، وطالبت بالمساواة في الدِّيَة[(٥٠٤)] ، فنزلت الاية: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *} [المائدة: ٤٥] .

وبهذه الصَّحيفة ـ الَّتي أقرَّت المادة (٤٣): على «أنَّه ما كان بين أهل هذه الصَّحيفة من حدثٍ ، أو اشتجارٍ يُخاف فساده. فإنَّ مردَّه إلى الله ، وإلى محمَّدٍ رسوله (ص) » ـ أصبح للرَّسول (ص) سلطةٌ قضائيَّةٌ

مركزيَّةٌ عليا ، يرجع إليها الجميع ، وجعلها ترجع إلى الله وإلى الرَّسول (ص) ، ولها قوَّةٌ تنفيذيَّةٌ؛ لأنَّ أوامر الله واجبة الطَّاعة ، وملزمة التَّنفيذ، كما أنَّ أوامر الرَّسول (ص) هي من الله ، وطاعتها واجبةٌ[(٥٠٥)].
وبذلك أصبح رسول الله (ص) رئيسَ الدَّولة ، وفي الوقت نفسه رئيس السُّلطة القضائيَّة ، والتَّنفيذيَّة ، والتَّشريعية؛ فقد تولَّى رسول الله (ص) السُّلطات الثلاث ، بصفته رسول الله (ص) ، المكلَّف بتبليغ شرع الله ، والمفسِّر لكلام الله ، والسُّلطة التَّنفيذيَّة بصفته الرَّسول الحاكم ، ورئيس الدَّولة ، فقد تولَّى رئاسة الدَّولة وَفْقَ نصوص الصَّحيفة ، وباتفاق الطَّوائف المختلفة الموجودة في المدينة ، ممَّن شملتهم نصوص الصَّحيفة في المادة (٣٦) ، الَّتي تقرِّر: أنَّه: «لا يخرج منهم أحدٌ إلا بإذن محمَّدٍ (ص) » ولهذا تأثيرٌ كبيرٌ في عدم السَّماح لهم بمحالفة قريش ،
أو غيرها من القبائل المعادية. وهناك المادَّة (٤٤) الَّتي ذهبت إلى ما هو أبعد ، وأصرح من ذلك؛ إذ قرَّرت: أنَّه: «لا تُجارُ قريشٌ ، ولا مَنْ نَصَرَها» ، ولم يَرِدْ في الصَّحيفة اسمٌ لأيِّ شخصٍ ما عدا رسولِ الله (ص)[(٥٠٦)] .
٣ ـ إقليم الدَّولة:
وجاء في الصَّحيفة: «إنَّ يثرب حرامٌ جوفها لأهل هذه الصَّحيفة» مادة (٤٠) ، وأصل التَّحريم ألا يقطع شجرها ، ولا يقتل طيرها ، فإذا كان هذا هو الحكم في الشَّجر والطَّير ، فما بالك في الأموال ، والأنفس؟![(٥٠٧)] فهذه الصَّحيفة حدَّدت معالم الدَّولة: أمَّةٌ واحدةٌ ، وإقليمٌ هو المدينة ، وسلطةٌ حاكمةٌ يُرْجَع إليها ، وتَحْكُم بما أنزل الله.
إنَّ المدينة كانت بداية إقليم الدَّولة الإسلاميَّة ، ونقطة الانطلاق ، ومركز الدَّائرة؛ الَّتي كان الإقليم يتَّسع منها ، حتَّى يضع حدَّاً للقلاقل والاضطرابات ، ويسوده السلم ، والأمن العام.
وقد أرسل النَّبيُّ (ص) أصحابه ليثبِّتوا أعلاماً على حدود حرم المدينة من جميع الجهات ، وحدود المدينة بين لابَتَيْها شرقاً وغرباً ، وبين جبل ثَوْر في الشمال ، وجبل عَيْر في الجنوب[(٥٠٨)].
ثمَّ اتسع «الإقليم» باتِّساع الفتح ، ودخول شعوب البلاد المفتوحة في الإسلام ، حتَّى عمَّ مساحةً واسعةً في الأرض ، والبحر ، وما يعلوهما من فضاء ، فمن المحيط الأطلسي غرباً ، ومناطق واسعةٍ من غرب أوربة ، وجنوبها ، ومناطق فسيحةٍ من غرب اسية وجنوبها ، إلى أكثر أهل الصِّين وروسية شرقاً ، وكلِّ شمال إفريقية وأواسطها[(٥٠٩)]. إنَّ إقليم الدَّولة مفتوحٌ وغير محدودٍ بحدود جغرافيَّةٍ ، أو سياسيَّةٍ؛ فهو يبدأ من عاصمة الدَّولة «المدينة» ، ويتَّسع حتَّى يشمل الكرة الأرضيَّة بأسرها.

قال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *} [الأعراف: ١٢٨] كما أنَّ مفهوم الأمَّة مفتوحٌ وغير منغلقٍ على فئةٍ دون فئةٍ؛ بل هي ممتدَّةٌ لتشمل الإنسانيَّة كلَّها ، إذا ما استجابت لدين الله تعالى؛ الذي ارتضاه لخلقه ، ولبني ادم أينما كانوا ، فالدَّولة الإسلاميَّة دولةُ الرِّسالة العالمية ، لكلِّ فردٍ من أبناء
المعمورة نصيبٌ فيها ، وهي تتوسَّع بوسيلة الجهاد[(٥١٠)].

٤ ـ الحرِّيَّات وحقوق الإنسان:

إنَّ الصَّحيفة تدلُّ بوضوحٍ ، وجلاءٍ على عبقرية الرَّسول (ص) في صياغة موادِّها ، وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعضٍ؛ فقد كانت موادُّها مترابطةً ، وشاملةً ، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة انذاك ، وفيها من القواعد والمبادأى ما يحقِّق العدالة المطلقة ، والمساواة التَّامَّة بين البشر ، وأن يتمتَّع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم، ولغاتهم، وأديانهم، بالحقوق والحرِّيَّات بأنواعها[(٥١١)]. يقول الأستاذ محمد سليم العوَّا: «ولا تزال المبادأى التي تضمَّنها الدستور ـ في جملتها ـ معمولاً بها ، والأغلب أنَّها ستظل كذلك في مختلف نُظُم الحكم المعروفة إلى اليوم... وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها، في أوَّل وثيقة سياسيَّة دوَّنها الرَّسول (ص) »[(٥١٢)].

فقد أعلنت الصَّحيفة: أنَّ الحرِّيات مصونةٌ؛ كحرية العقيدة ، والعبادة ، وحقِّ الأمن... إلخ ، فحرية الدِّين مكفولةٌ: «للمسلمين دينهم ، ولليهود دينهم». قال تعالى: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ٢٥٦] وقد أنذرت الصَّحيفة بإنزال الوعيد ، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ ، أو يكسر هذه القاعدة ، وقد نصَّت الوثيقة على تحقيق العدالة بين النَّاس ، وعلى تحقيق مبدأ المساواة.

إنَّ الدَّولة الإسلاميَّة واجبٌ عليها أن تقيم العدل بين الناس ، وتفسح المجال وتيسِّر السُّبل أمام كلِّ إنسانٍ ـ يطلب حقَّه ـ أن يصل إلى حقِّه بأيسر السُّبل ، وأسرعها ، دون أن يكلِّفه ذلك جهداً ، أو مالاً[(٥١٣)] ، وعليها أن تمنع أيَّ وسيلةٍ من الوسائل ، التي من شأنها أن تعوق صاحب الحقِّ من الوصول إلى حقِّه. لقد أوجب الإسلام على الحكَّام أن يقيموا العدلَ بين النَّاس دون النَّظر إلى لغاتهم ، أو أوطانهم ، أو أحوالهم الاجتماعيَّة ، فهو يعدل بين المتخاصمين ، ويحكم بالحقِّ ، ولا يهمُّه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء ، أو أعداء ، أغنياء ، أو فقراء ، عمالاً أو أصحاب عمل. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ

لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المائدة: ٨] والمعنى:

لا يحملنَّكم بُغض قومٍ على ظلمهم ، ومقتضى هذا أنَّه لا يحملنَّكم حبُّ قوم على محاباتهم ، والميل إليهم[(٥١٤)].

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله ـ معقِّباً على قوله تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ *} [الشورى: ١٥] ما نصُّه: «يعني أنَّني مأمور بالإنصاف دون عداوةٍ ، فليس من شأني أن أتعصَّب لأحدٍ ، أو ضدَّ أحدٍ ، وعلاقتي بالنَّاس كلِّهم سواءٌ ، وهي علاقة العدل ، والإنصاف ، فأنا نصيرُ مَنْ كان الحقُّ في جانبه ، وخصيم من كان الحق ضدَّه ، وليس في ديني أيُّ امتيازات لأيِّ فردٍ كائناً مَنْ كان ، وليس لأقاربي حقوقٌ ، وللغرباء حقوقٌ أخرى ، ولا للأكابر عندي مميّزاتٌ لا يحصل عليها الأصاغر ، والشُّرفاء والوضعاء عندي سواءٌ ، فالحقُّ حقٌّ للجميع ، والذَّنب والجُرْم ذنبٌ للجميع ، والحرام حرامٌ على الكلِّ ، والحلال حلالٌ للكُلِّ ، والفرض فرض على الكلِّ، حتَّى أنا نفسي لست مستثنىً من سلطة القانون الإلهيِّ[(٥١٥)].

إنَّ تربية المجتمع المسلم وإعداده لقيادة الإنسانيَّة بخصائصه؛ التي احتواها منهجه التربويُّ حفيَّةٌ أشدَّ الحفاوة بِشِرْعَةِ العدل، وإقامته بين الأفراد ، والجماعات ، والأمم ، والشُّعوب؛ لأنَّ العدل في شمول مواطنه هو دعامةُ القيادة الموفَّقة.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *} [النساء: ١٣٥] .

وهذا نصٌّ قرانيٌّ صريحٌ في تكليف المجتمع القياديِّ المسلم بتحقيق العدل على أتمِّ صوره ، وأكمل أحواله ، فالعدل على النفس ، وعلى أقرب ذوي القربى كالعدل مع غير النفس ، وأبعد البُعَدَاء ، وفي قوله تعالى: {كُونُوا} ، أمرٌ للمجتمع المسلم ، في جميع أفراده ، وجماعاته ، أينما حلُّوا من أرض الله ، وحيثما كانوا في أوطانهم المتقاربة ، أو المتباعدة ، وهو أمر كينونة يُشْعر بمادَّته بالإلزام ، والالتزام ، والتَّهيُّؤ والانبعاث للقيام بإقامة منهج العدل في الحياة ، وفي قوله تعالى: بصيغة {قَوَّامِينَ} ، إيماءٌ إلى ما يجب أن يكون

عليه المجتمع المسلم من النهوض بإقامة معالم العدل بكلِّ ما أوتي من قوة مادِّية ، ورُوحية ، مشمِّراً علساق العزم في بذل الجهد ، والتحفُّز للعمل في سبيل توطيد دعائم العدل الاجتماعيِّ.

إنَّ القران الكريم ـ وهو دستور المجتمع المسلم ـ لا يقف في أسلوبه الَّذي يحضُّ به على الاستمساك بالعدل عند سفح الحياة ، ولكنَّه يَلِجُ[(٥١٦)] إلى مداخل الضَّمير الإنسانيِّ ، ويأبى عليه أن يخضع في إقامة العدل لعاطفة تتملَّق الغنيَّ لغناه ، وسعة ثروته من المال ، أو يتملَّق عاطفة الرَّحمة ، فيرحم الفقير لفقره ، فيلوي عنه عنق العدل حتى لا يرى ما يقع منه من ظلمٍ ، وحَيْفٍ على الحق.

والقران بذلك لا يرضى للمجتمع المسلم ، أن يحمله تعزُّز الغني بثرائه ، وغناه على ألا يقام معه العدل ، ويظلم له الفقير ، ولا يرضى لهذا المجتمع المسلم أن تحمله الرَّحمة للفقير ، فيُحابي بظلم الغنيِّ لأجله.

ولا يرضى القران الحكيم لمجتمعه المسلم ، أن يميل مع الهوى ، ويخضع للعواطف ، فيحيد عن العدل ليّاً بالحق ، وإعراضاً عنه.

وقد جاءت أخت هذه الاية ، في نسق أسلوبها ، وألفاظها؛ لتكمِّل صورة إقامة العدل على أتمِّ وجوهه ، ولتقرِّر: أنَّ موازين العدل يجب أن يتساوى فيها المحبُّ والمبْغض ، والقريب والبعيد ، والصَّديق والعدوُّ ، فقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المائدة: ٨] .

فصورة الخطاب الكينوني هنا {كُونُوا} الَّذي يجعل من العدل طبيعة خلائق المجتمع المسلم؛ الَّذي نيطَ به قيادة الإنسانيَّة ـ هي صورته هناك؛ لأنَّ العدل أمانة هذا المجتمع المسلم العظمى الَّتي حملوها؛ ليؤدُّوها إلى النَّاس في حياتهم[(٥١٧)]؛ بيد أنَّ الأمر قد اختلف في الايتين اختلافاً جَمَعَ مُتَفَرِّقَ مواطنِ العدل باعتباره أصلاً من أصول الرِّسالة الخالدة الخاتمة؛ الَّذي يعمُّ الحياة من جميع جوانبها؛ ففي الاية الأولى وجَّه الأمر للمجتمع المسلم بأشرف أوصافه ـ قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ـ إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل ، ولو كان في ذلك مراغمةُ منازع الحبِّ ، والودِّ ، والقربى ، وفي هذه الاية الثانية وجَّه الأمر للمجتمع بعنوانه المشرِّف ، إلى أن يكون قوَّاماً بالعدل ، ولو كان في ذلك مراغمةُ جميع عواطف البغض ، والعداوة[(٥١٨)].

وملتقى الايتين الكريمتين في توجيه المجتمع المسلم توجيهاً صارماً لا هوادة فيه إلى أن يكون نهَّاضاً بالعدل ، قائماً به بين النَّاس ، له قيادته للإنسانيَّة ، وليخلص له التوجُّه إلى الله

تعالى في إخلاص العبوديَّة له وحده ، لا تحمله محبَّةٌ مهما عظمت ، أو بغضٌ مهما اشتدَّ على الإعراض عن إقامة العدل؛ إحقاقاً للحقِّ ، وإنصافاً للمظلوم ، ونصراً للضَّعيف[(٥١٩)].

أمَّا مبدأ المساواة؛ فقد جاءت نصوصٌ صريحةٌ في الصَّحيفة حولها ، منها: «أن ذمَّة الله واحدة» ، وأن المسلمين «يجير عليهم أدناهم» ، وأنَّ «المؤمنين بعضهم موالي بعضٍ دون النَّاس» ، ومعنى الفقرة الأخيرة: أنَّهم يتناصرون في السَّراء والضَّرَّاء (الفقرة ١٥). وتضمَّنت الفقرة (١٩): أنَّ «المؤمنين يُبيء بعضهم على بعضٍ ، بما نال دماءهم في سبيل الله» ، قال السُّهيلي ـ شارح السيرة ـ في كتابه (الرَّوض الأنف): «ومعنى قوله يبيء: هو من البَوَاء ، أي: المساواة»[(٥٢٠)].

ويعدُّ مبدأ المساواة أحد المبادأى العامَّة الَّتي أقرَّها الإسلام ، وهو من المبادأى الَّتي تساهم في بناء المجتمع المسلم ، ولقد أقرَّ هذا المبدأ ، وسبق به تشريعات ، وقوانين العصر الحديث ، وممَّا ورد في القران الكريم تأكيداً لمبدأ المساواة قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ *} [الحجرات: ١٣] .

وقال رسول الله (ص) : «يا أيها النَّاس! ألا إنَّ ربَّكم واحدٌ ، وإنَّ أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأحمرَ على أسودَ ، ولا لأسودَ على أحمرَ ، إلا بالتَّقوى. أَبَلَّغْتُ؟» [أحمد (٥/٤١١)] .

إنَّ هذا المبدأ كان من أهم المبادأى الَّتي جذبت الكثير من الشُّعوب قديماً نحو الإسلام ، فكان هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوَّة للمسلمين الأوَّلين[(٥٢١)].

وليس المقصود بالمساواة هنا ، (المساواة العامَّة) بين النَّاس جميعاً في أمور الحياة كافَّةً ، كما ينادي بعض المخدوعين ، ويرون ذلك عدلاً[(٥٢٢)]؛ فالاختلاف في المواهب ، والقدرات ، والتَّفاوت في الدَّرجات غايةٌ من غايات الخلق[(٥٢٣)]؛ ولكنَّ المقصود المساواةُ؛ الَّتي دعت إليها الشَّريعة الإسلاميَّة ، مساواةٌ مقيَّدةٌ بأحوالٍ فيها التَّساوي ، وليست مطلقةً في جميع الأحوال[(٥٢٤)] ، فالمساواة تأتي في معاملة النَّاس أمام الشَّرع ، والقضاء ، والأحكام الإسلاميَّة

كافَّةً ، والحقوق العامَّة دون تفريق بسبب الأصل أو الجنس ، أو اللَّون ، أو الثروة ، أو الجاه ، أو غير ذلك[(٥٢٥)].

إنَّ النَّاس جميعاً في نظر الإسلام سواسيةٌ ، الحاكم ، والمحكوم ، الرِّجال والنساء ، العرب والعجم ، الأبيض والأسود ، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين النَّاس بسبب الجنس ، واللون ، أو النَّسب ، أو الطَّبقة ،

والحكَّام والمحكومون كلُّهم في نظر الشَّرع سواء؛ ولذلك كانت الدَّولة الإسلاميَّة الأولى ، تعمل على تطبيق هذا المبدأ بين النَّاس وكانت تراعي الاتي:

. إنَّ مبدأ المساواة أمرٌ تعبُّديٌّ ، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى.

. إسقاط الاعتبارات الطَّبقية ، والعُرْفية ، والقبليَّة ، والعنصريَّة ، والقوميَّة ، والوطنية ، والإقليمية ، وغير ذلك من الشِّعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانيَّة ، وإحلال المعيار الإلهيِّ بدلاً عنها للتَّفاضل ، ألا وهو التَّقوى.

. ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع ، ولا يُراعى أحدٌ لجاهه ، أو سلطانه ، أو حسبه ونسبه؛ وإنَّما الفرص للجميع ، وكلٌّ على حسب قدراته ، وكفاءاته ، ومواهبه ، وطاقته ، وإنتاجه.

. إنَّ تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدَّولة الإسلاميَّة ، يقوِّي صفَّها ، ويوحِّد كلمتها ، وينتج عنه مجتمعٌ متماسكٌ متراحمٌ يعيش لعقيدةٍ ، ومنهجٍ ، ومبدأ[(٥٢٦)].

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتمِّ ما قد تحتاجه الدَّولة ، من مقوِّماتها الدُّستوريَّة ، والإداريَّة ، وعلاقة الأفراد بالدَّولة ، وظَلَّ القران يتنزَّل في المدينة عشر سنين ، يرسم للمسلمين خلالها مناهج الحياة ، ويرسي مبادأى الحكم ، وأصول السِّياسة ، وشؤون المجتمع ، وأحكام الحرام والحلال ، وأسس التَّقاضي ، وقواعد العدل ، وقوانين الدَّولة المسلمة في الدَّاخل ، والخارج ، والسُّنَّة الشريفة تدعم هذا ، وتشيده ، وتفصِّله في تنوير وتبصرةٍ ، فالوثيقة خطَّت خطوطاً عريضة في التَّرتيبات الدُّستورية ، وتُعَدُّ في قمَّة المعاهدات الَّتي تحدِّد صلة المسلمين بالأجانب الكفَّار المقيمين معهم، في شيءٍ كثيرٍ من التَّسامح، والعدل، والمساواة ، وعلى التَّخصيص إذا لُوحِظَ أنَّها أوَّل وثيقةٍ إسلاميَّة ، تُسَجَّل ، وتنفَّذ في أقوامٍ كانوا . منذ قريب . وقبل الإسلام . أسرى العصبية القَبَلِيَّة ، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة ، والتسلُّط ، وبالتَّخوض في حقوق الاخرين ، وأشيائهم[(٥٢٧)].

كانت هذه الوثيقة ، فيها من المعاني الحضاريَّة الشيء الكثير ، وما توافق النَّاس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان ، وأنَّه لا بدَّ على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها ، فهل حدث هذا الالتزام[(٥٢٨)].

ثالثاً: موقف اليهود في المدينة:

لقد قامت الحجج القاطعة ، والبراهين السَّاطعة لليهود على صدق رسالة الرَّسول (ص) ، ولكنَّ ذلك لم يزدْهم إلا عناداً ، وعداوةً ، واستكباراً ، وحقداً ، وحسداً على الرَّسول (ص) والَّذين امنوا معه ، فعن صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب: أنَّها قالت: كنتُ أحَبَّ ولدِ أبي إليه ، وإلى عمِّي أبي ياسر ، لم ألقَهُما قطُّ

مع ولدٍ لهما إلا أخذاني دونه ، قالت: فلمَّا قدم رسولُ الله (ص) المدينة ، ونزل قُباء ، في بني عمرو بن عوف ، غدا عليه أبي حُيَيُّ بن أخطب ، وعمِّي أبو ياسر بن أخطب ، مُغَلِّسَيْن. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس ، قالت: فأتيا كالَّيْنِ ، كسلانينِ ، ساقطينِ ، يمشيان الهُوَيْنَى. قالت: فَهَشِشْتُ إليهما ، كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إليَّ واحدٌ منهما ، مع ما بهما من الغَمِّ. قالت: وسمعتُ عمِّي أبا ياسر ، وهو يقول لأبي حُيَيّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: أتعرفه ، وتُثْبته؟ قال: نعم ، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله! ما بَقِيتُ[(٥٢٩)].

وقد شنَّ اليهودُ على رسول الله (ص) والذين امنوا معه ، حملاتٍ إعلاميَّةً لتشويه صورة الرَّسول (ص) ، وتنفير النَّاس منه ، ونَزْع الثِّقة بينه ، وبين النَّاس. لقد شعر اليهود بخطورة هذا الدِّين على مصالحهم ، وعلى عقيدتهم المنحرفة المزيَّفة ، القائمة على الاستعلاء ، واحتقار النَّاس ، عدا الجنسَ اليهوديَّ؛ لقد جاء ينادي بعقيدة التَّوحيد ، وهم يقولون: «عزير ابن الله» ، وجاء ينادي بالمساواة بين أفراد الجنس البشريِّ ، وأنَّه لا يعلو شعبٌ على شعبٍ ، ولا جماعةٌ على جماعةٍ ، وهم يرون: أنَّهم شعب الله المختار ، يترفَّعون عن بقيَّة الأجناس ، وينظرون إليهم على أنَّهم دونهم ، وأقلُّ منهم[(٥٣٠)]؛ ولذلك لم يلتزموا ببنود الوثيقة ، وشرعوا في التَّشكيك في نبوَّة الرَّسول (ص) ورسالته ، وأكثروا من الأسئلة لإحراج رسول الله (ص) ، وخدعوا المؤمنين ، ودلَّسوا عليهم[(٥٣١)] ، وغير ذلك من الأعمال الخبيثة.

١ ـ محاولة اليهود تصديع الجبهة الدَّاخلية:

ومن وسائلهم الخبيثة في حرب الإسلام محاولاتُهم المستمرَّة لتمزيق الصَّفِّ المسلم ،

وتخريبه بتقطيع أواصر المحبَّة بين المسلمين ، وذلك بإثارة الفتن الدَّاخلية ، والشِّعارات الجاهليَّة ، والنَّعرات الإقليميَّة ، والدَّعوات القوميَّة ، والقَبَليَّة ، والسَّعي بالدَّسيسة والوقيعة بين الإخوة المتالفين المتوادِّين المتحابِّين ، فهم في توادِّهم ، وتعاطفهم ، وتراحمهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الأعضاء بالحُمَّى والسَّهر[(٥٣٢)].

فقد تفتَّق ذهنُ أحد شيوخهم الكبار في السنِّ ، عن حيلةٍ هدف بها إلى تفريق وحدة الأنصار ، وذلك بإثارة العصبيَّة القبليَّة بينهم؛ ليعودوا إلى جاهليتهم ، فتعود الحروب بينهم كما كانت ، ويخسر النَّبيُّ (ص) بذلك أقوى أنصاره[(٥٣٣)] ، وفي بيان هذا الخبر يقول محمَّد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى! ـ: ومَرَّ شأس بن قيس ـ وكان شيخاً قد عَسَا[(٥٣٤)] ، عظيمَ الكفر ، شديدَ الضِّغْن على المسلمين ، شديدَ الحسد لهم ـ على نفرٍ من أصحاب رسول الله (ص) من الأوس ، والخزرج ، في مجلسٍ قد جمعهم يتحدَّثون فيه ،

فغاظه ما رأى من أُلْفَتِهم ، وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الَّذي كان بينهم في الجاهليَّة ، فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلَة[(٥٣٥)] بهذه البلاد ، لا والله! ما لنا معهم . إذا اجتمع مَلَؤهم بها . من قرارٍ ، فأمر فتىً شابّاً من يهود كان معهم ، فقال: اعْمِدْ إليهم ، فاجلس معهم ، ثمَّ اذكر يوم بُعاث ، وما كان قَبْلَه ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار.

وكان يومُ بُعاث يوماً اقتتلتْ فيه الأوس والخزرج ، وكان الظَّفَر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج ، وكان على الأوس يومئذٍ حُضَيْر بن سماك الأشهليُّ أبو أُسيد بن حُضَير ، وعلى الخزرج عمرو بن النُّعمان البَيَاضي ، فَقُتِلا جميعاً.

قال ابن إسحاق: ففعل ، فتكلَّم القوم عند ذلك ، وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتَّى تواثب رجلانِ من الْحَيَّيْنِ على الرُّكب: أوس بن قَيْظيٍّ . أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس . وجبَّار بن صخر . أحد بني سلمة من الخزرج . فتقاولا ، ثمَّ قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الان جَذَعَة[(٥٣٦)] ، فغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا: قد فعلنا ، موعدكم الظَّاهرة . والظَّاهرة: الحرَّة . السِّلاحَ السِّلاحَ ، فخرجوا إليها.

فبلغ ذلك رسولَ الله (ص) ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتَّى جاءهم ، فقال: يا معشرَ المسلمين! اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الجاهلية ، وأنا بين أظهُركم بعد أن هداكم الله

للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألَّف به بين قلوبكم؟!

فعرف القوم أنَّها نزغةٌ من الشَّيطان ، وكيدٌ من عدوِّهم ، فبكوا ، وعانق الرِّجال من الأوس والخزرج بعضُهم بعضاً ، ثمَّ انصرفوا مع رسول الله (ص) سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدوِّ الله شأس بن قيس ، فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس ، وما صنع: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ *قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *} [آل عمران: ٩٨ . ٩٩] وأنزل الله في أوس بن قَيْظيٍّ ، وجبَّار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما؛ الَّذين صنعوا ما أدخل عليهم شأس من أمر الجاهلية[(٥٣٧)]: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ *وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠٥] .

ونرى من خلال القصَّة ، قدرة القيادة النَّبويَّة على إحباط مخطَّط اليهود الهادف لتفتيت وحدة الصفِّ ، واهتمام النَّبيِّ (ص) بأمور المسلمين ، وإشفاقه عليهم ، وفزعه ممَّا يصيبهم من الفتن والمصائب ، فقد أسرع إلى الأنصار ، وذكَّرهم بالله ، وبيَّن لهم: أنَّ ما أقدموا عليه من أمر الجاهليَّة ، وذكَّرهم بالإسلام ، وما أكرمهم الله به من القضاء على الحروب والفتن ، وتطهير النُّفوس من الضَّغائن ، وتأليف القلوب بالإيمان ، وكانت لكلمات النَّبيِّ (ص) أثرٌ في نفوسهم ، وسرت في كيانهم رُوحٌ جديدةٌ ، مسحت كل أثرٍ لأمر الجاهليَّة بفضل الله تعالى ، ثمَّ بكلمات نبيِّه (ص) المعبِّرة ، ورُوحه القويَّة المؤثِّرة ، وهيئته الوثَّابة المنذرة ، وأدركوا: أن ما وقعوا فيه كان من وساوس الشَّيطان ، وكيد عدوِّهم من اليهود ، فبكوا ندماً على ما وقعوا فيه من الذُّنوب ، وتعانق رجال الإسلام؛ تعبيراً عن محبَّتهم الإيمانيَّة لبعضهم[(٥٣٨)].

٢ ـ التَّهجم على الذَّات الإلهيَّة:

ذكر غيرُ واحدٍ من كُتَّاب السِّير ، والمفسِّرين: أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه ، قد دخل بيت الْمِدْرَاس[(٥٣٩)] على يهود ، فوجد منهم ناساً كثيراً ، قد اجتمعوا إلى رجلٍ منهم ، يقال له: (فِنْحاص) ، وكان من علمائهم ، وأحبارهم ، ومعه حَبْرٌ من أحبارهم ، يقال له: (أشيع) ، فقال أبو بكر لفِنْحاص: ويحك! اتَّق الله ، وأَسْلِم ، فوالله! إنَّك تعلم: إنَّ محمداً لَرسولُ اللهِ ، قد جاءكم بالحقِّ من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التَّوراة ، والإنجيل. فقال فِنْحاص لأبي بكرٍ: والله! يا أبا بكر! ما بنا إلى الله من فَقْرٍ ، وإنَّه إلينا لفقير ، وما نتضرَّع إليه كما يتضرَّع إلينا ، وإنَّا عنه لأغنياء ، وما هو عنَّا بغنيٍّ ، ولو كان عنَّا غنيّاً ما استقرضنا أموالنا ، كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الرِّبا ويُعْطِيناه ، ولو كان عنا غنيّاً ما أعطانا الرِّبا. فغضب أبو بكر ، فضرب وجه فِنْحاص ضرباً شديداً ، وقال: والذي نفسي بيده! لولا العهدُ الذي بيننا وبينكم؛ لضربتُ رأسَك أيْ عدوَّ الله! فذهب فِنْحاص إلى رسول الله (ص) ، فقال: يا محمد! انظر ما صنع بي صاحبك ! فقال رسول الله (ص) لأبي بكرٍ: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً؛ إنَّه يزعم: أنَّ الله فقيرٌ ، وأنَّهم أغنياء ، فلمَّا قال ذلك؛ غضبتُ لله ممَّا قال ، وضربتُ وجهه! فجحد ذلك فِنْحاص ، وقال: ما قلتُ ذلك؛ فأنزل الله تعالى فيما قال فنحاص؛ ردَّاً عليه ، وتصديقاً لأبي بكر: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *} [آل عمران: ١٨١] .

ونزل في أبي بكرٍ الصّديق رضي الله عنه ، وما بلغه في ذلك من الغضب[(٥٤٠)]: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ *} [آل عمران: ١٨٦][(٥٤١)] .

وذكر القران الكريم في أكثر من موضعٍ ، سوءَ أدبهم مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعدم تنزيهه عن النَّقائص ، وَوَصْفَه بما لا يليق به سبحانه ، وهذا عين الوقاحة ، وانعدام الأدب؛ ومن هذه الايات قول الله تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ *} [المائدة: ٦٤] .

ويبدو من مضمون الاية: أنَّ هذا الموقف الَّذي وقفوه ، كان منبعثاً ممَّا كان يملأ صدورهم
من الغيظ ، والسُّخط من رسوخ قدم النَّبيّ (ص) وانتشار دعوته ، ولعلَّ ممَّا يصحُّ أن يضاف إلى هذا الاحتمال كون المسلمين قد انصرفوا عنهم ، أو قاطعوهم بسبب مواقف الكيد ، والجحود؛ الَّتي ما فتئوا يقفونها ، واستجابةً لأمر القران ، ونهيه ، وتحذيره ، فأثَّر ذلك في حالتهم الاقتصاديَّة تأثيراً سيئاً ، فزاد سخطهم ، وغيظهم ، وتَبَرُّمُهم ، ودفعهم إلى ما كان منهم من سوء الأدب في حقّ الله ، ومن ردٍّ غير جميلٍ لرسول الله (ص)[(٥٤٢)] .

وقد جاء بعد هذه الاية ما يدلُّ على صحَّة ما ذهبتُ إليه ، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ *وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ *} المائدة: ٦٥ ـ ٦٦] .

٣ ـ سوء أدبهم مع رسول الله (ص) والنَّيل من الرُّسل الكرام والقران الكريم:

وكان اليهود يسيئون الأدب مع رسول الله (ص) ، في حضرته ، وأثناء خطابه؛ إذ يلمزونه، ويحيّونه بتحيَّةٍ فيها من الأذى والتهجُّم ما يدلُّ على سوء أخلاقهم ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء ناسٌ من اليهود إلى رسول الله (ص) فقالوا: السَّامُ[(٥٤٣)] عليك يا أبا القاسم! فقلتُ: السَّام عليكم! وفعل الله بكم! فقال رسول الله (ص) : «مَهْ يا عائشة! فإنَّ الله لا يحبُّ الفحش ، ولا التفحُّش» ، فقلت: يا رسول الله! ترى ما يقولون؟ فقال: «ألستِ تريني أردُّ عليهم ما يقولون؟ وأقول: وعليكم» ، قالت: فنزلت هذه الاية في ذلك [البخاري (٢٩٣٥) ومسلم (٢١٦٥/١١)][(٥٤٤)] وهي قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى

الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ويَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ *} [المجادلة: ٨] .

وهذه الاية تُظْهِر الحقد الَّذي هيمن على نفوس اليهود ، ودفعهم إلى استخدام كلِّ الوسائل، والطُّرق لهدم الإسلام، والتخلُّص من صاحب الرِّسالة (ص) ، والسَّيطرة على المسلمين ، ولكن يظهر من دعاء بعض اليهود على الرَّسول (ص) بالموت ـ مع التَّظاهر بالسَّلام عليه ـ الضَّعفُ الَّذي كانوا عليه عند التجائهم إلى هذا النَّوع من السَّلام ، فالممارس لمثل ما قام به اليهوديُّ الَّذي سلَّم على الرَّسول (ص) بقوله: «السَّام عليك» يعيش أزمةً نفسيَّةً متولِّدة عن فقدان عزٍّ كان يظنُّ أنه ينعم فيه ، لقد تغلَّبت قوىً جديدةٌ على ماضيه وحاضره ، ولم يستطع أن يتفاعل مع مَنْ تغلَّب عليه ،

ومنعهم الحسد والغيرة من الانقياد للدِّين الجديد ، وممَّا زاد في تأزُّم اليهود: أنهم جرَّبوا محاربة الإسلام بوسائلهم الَّتي كانوا يظنُّون أنَّها لا تُقهر ، فكان الفشل حليفهم ، لذلك لجؤوا إلى الطُّرق السَّلبيَّة ، والوسائل الملتوية ، فالدُّعاء على الخصم مع التَّظاهر بالسَّلام ، هو سلاح العاجزين ، ووسيلة الخائبين ، وتِرْيَاقُ الحاقدين[(٥٤٥)].

ولما سمع رسولُ الله (ص) ما صدر عن عائشة رضي الله عنها ، دعاها إلى الرِّفق ، واللِّين ، وبيَّن لها: أنَّ المسلم لا يجوز له أن يترك الغضبَ يتحكَّم فيه ، فالرِّفق في الإسلام ثمرةٌ لا يثمرها إلا حسن الخُلُق ، فالله رفيقٌ يحبُّ الرِّفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف[(٥٤٦)].

وأمَّا نَيْلُهم من المرسلين: فقد أتى رسولَ الله (ص) نفرٌ من يهود ، فيهم أبو ياسر ابن أخطب ، ونافع بن أبي نافع ، وعازر بن أبي عازر ، وغيرهم ، وسألوا رسولَ الله (ص) عمَّن يؤمن به من الرُّسل ، فقال (ص) : «نؤمن بالله ، وما أُنزل إلينا ، وما أُنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أُوتي موسى وعيسى ، وما أُوتي النبيون من ربهم ، لا نفرِّق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون» ، فلما ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام جحدوا نبوَّته ، وقالوا: لا نؤمن بعيسى ابن مريم ، ولا بمن امن به[(٥٤٧)] ، فأنزل الله فيهم: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ *} [المائدة: ٥٩] .

وأمَّا عن محاولاتهم للنَّيل من القران الكريم في أسئلتهم ، ونقاشهم ، الَّذي لا ينتهي: فعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله (ص) المدينة؛ قالت أحبار اليهود: يا محمد! أرأيتَ قولك: {وَمَا أُوتِيتُمْ

مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً *} [الإسراء: ٨٥] إيَّانا تريد أم قومك؟ قال: «كُلاًّ» ، قالوا: فإنَّك تتلو فيما جاءك: أنّا قد أوتينا التوراة فيها بيان كل شيءٍ ، فقال رسول الله (ص) : «إنَّها في عِلْم الله قليلٌ ، وعندكم في ذلك ما يكفيكم؛ لو أقمتموه»[(٥٤٨)]. قال: فأنزل الله تعالى عليه فيما سألوه عنه من ذلك: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [لقمان: ٢٧] .

٤ ـ دعم حزب المنافقين ، وتامرهم معهم:

حدَّثنا القران الكريم ، عن قيادة اليهود الفكريَّة لحزب المنافقين ، فهم شياطين المنافقين؛

يخطِّطون لهم ، ويوجِّهونهم ، ويدرسون لهم أساليب الكيد ، والمكر ، والخداع ، والدَّهاء ، وإثارة الفتن. قال تعالى: {وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ *} [البقرة: ١٤] .

قال النَّسفي في تفسيره: «وشياطينهم الَّذين ماثلوا الشَّياطين في تمرُّدهم ، هم اليهود»[(٥٤٩)].

وكان اليهود في المدينة يتامرون مع المنافقين ضدَّ المسلمين ، وفي هذا التامر يقول تعالى: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا *} [النساء: ١٣٨ ـ ١٣٩] .

قال الأستاذ محمد دَرْوَزَة: «وجمهور المفسرين على أنَّ الكافرين هنا هم اليهود ، وفي الاية قرينةٌ على صحَّة ذلك ، كما أنَّ فيما بعدها قرينةً ثانيةً أيضاً ، وواضحٌ: أن اتِّخاذ المنافقين اليهود أولياء ، وتواثقهم معهم ، إنَّما هما أثران من اثار التامر الموطَّد بين اليهود ، والمنافقين تجاه الدَّعوة والقوَّة الإسلاميَّة»[(٥٥٠)].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *} [محمد: ٢٥ ـ ٢٦] .

والجمهور على أنَّ الاية الأولى عَنَتِ المنافقين ، وأنَّ الَّذين كرهوا ما نزَّل الله هم اليهود ، وهكذا تبدو في الاية الثَّانية صورةٌ من صور التامر بين الفريقين ضدَّ الإسلام ، والمسلمين ، ونلفت النَّظر إلى ما حَكَتْهُ الاية الثَّانية ، من وَعْد المنافقين لليهود بطاعتهم ، والسَّير على الخطَّة ؛ الَّتي يضعونها ، ففي هذا كما هو ظاهرٌ صورةٌ لبعض ما كان لليهود من التَّوجيه والتَّأثير والنُّفوذ في المنافقين ، وحركتهم ، وأعمالهم[(٥٥١)].

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ *} [المجادلة: ١٤ ـ ١٦] .

قال الماورديُّ في تفسيره لهذه الاية: «يعني: المنافقين؛ تولَّوا قوماً غضب الله عليهم: هم اليهود»[(٥٥٢)] ، وفسر الماورديُّ الصدَّ عن سبيل الله بأنه: الصَّدُّ عن الجهاد ممايلةً لليهود(٢).

ودفع اليهود المنافقين لإشعال حربٍ ضدَّ رسول الله (ص) . فعن أسامة بن زيدٍ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله (ص) ركب على حمارٍ على قطيفةٍ فَدَكِيَّة[(٥٥٣)] ، وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعودُ سعدَ بن عُبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، قال: حتَّى مرَّ بمجلسٍ فيه عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلول ، وذلك قبل أن يُسْلم عبد الله بن أُبيٍّ ، فإذا في المجلس أخلاطٌ من المسلمين ، والمشركين عبدة الأوثان ، واليهود ، وفي المجلس عبد الله بن رَواحة ، فلمَّا غَشِيَتِ المجلسَ عَجَاجةُ الدَّابة ، خَمَّر عبد الله بن أُبيٍّ أنفَه بردائه ، ثمَّ قال: لا تُغبِّروا علينا ، فسلَّم رسول الله (ص) عليهم ، ثم وقف ، فنزل فدعاهم إلى الله ، وقرأ عليهم القران ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلول: أيها المرءُ! إنَّه لا أحسنَ ممَّا تقول ـ إن كان حقَّاً ـ فلا تُؤْذِنَا به في مجلسنا ، ارجع إلى رَحْلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله! فَاغْشَنَا به في مجالسنا ، فإنَّا نحبُّ ذلك ، فاستبَّ المسلمون ، والمشركون ، واليهود ، حتَّى كادوا يتثاورون[(٥٥٤)] ، فلم يزلِ النَّبيُّ (ص) يُخَفِّضُهم حتَّى سكنوا ، ثمَّ ركب النَّبيُّ (ص) دابته ، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له النَّبيُّ (ص) : «يا سعدُ! ألم تسمع ما قال أبو حُبَاب ـ يريد عبد الله بن أُبيٍّ ـ قال كذا ، وكذا». قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله! اُعْفُ عنه ، واصفحْ ، فوالَّذي أنزل عليك الكتاب! لقد جاء الله بالحقِ الذي أَنزل عليك ، ولقد اصطلح أهلُ هذه البحيرة[(٥٥٥)] على أن يُتَوِّجوه ، فيعصِّبُونه بالعصابة[(٥٥٦)] ، فلمَّا أبى الله ذلك بالحقِ الذي أعطاك الله شَرِقَ بذلك ، فذلك فعل به ما رأيتَ. فعفا عنه رسول الله (ص) . [البخاري (٤٥٦٦)] .

٥ ـ طعنُ اليهود في مَنْ امن من الأحبار (عبد الله بن سَلام) رضي الله عنه:

«بلغ عبدَ الله بن سَلام مَقْدَمُ رسول الله (ص) المدينةَ ، فأتاه ، فقال: إِنِّي سائلُك عن ثلاث لا يعلمهنَّ إلا نبيٌّ ، قال: ما أَوَّل أشراط السَّاعة؟ وما أوَّل طعامٍ يأكله أهل الجنة؟ ومن أيِّ شيءٍ يَنْزِعُ الولدُ إلى أبيه؟ ومن أيِّ شيء يَنْزِعُ إلى أخواله؟ فقال رسول الله (ص) : «خَبَّرَني بهنَّ انفاً جبريلُ» ، قال: فقال عبد الله: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة ، فقال رسول الله (ص) : «أمَّا أَوَّلُ أشراط السَّاعة ، فنارٌ تحشر

الناسَ من المشرق إلى المغرب ، وأمَّا أولُ طعامٍ يأكله أهلُ الجنة ، فزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ ، وأما الشَّبهُ في الولد ، فإنَّ الرَّجل إذا غَشيَ المرأةَ ، فسبقها ماؤه؛ كان الشَّبه

له ، وإذا سبق ماؤها؛ كان الشَّبهُ لها». قال: أشهد أنَّك رسول الله ، ثمَّ قال: يا رسول الله! إنَّ اليهود قومٌ بُهْتٌ ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ، ودخل عبدُ الله البيت ، فقال رسول الله (ص) : «أيُّ رجل فيكم عبدُ الله بن سلام!» قالوا: أعلمُنا وابن أعلمِنا ، وأخبرُنا وابن أخبرِنا ، فقال رسول الله (ص) : «أفرأيتم إن أسلم عبد الله!» قالوا: أعاذه اللهُ من ذلك. فخرج عبد الله إليهم ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمَّداً رسول الله ، فقالوا: شَرُّنا ، وابن شَرِّنا ، ووقعوا فيه» [البخاري (٣٣٢٩)] . فكانوا يؤذون من امن من أحبارهم ، ويثيرون حولهم الشُّكوك ، ويقذفونهم بتهمٍ باطلةٍ قبيحةٍ ، وقد حدَّثنا القران الكريم عن هذه الوسيلة ، ودافع عن هؤلاء المؤمنين ، الَّذين وجَّه اليهود ضدَّهم تلك الحملات الظَّالمة[(٥٥٧)].

قال الله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ *يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ *وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ *} [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥] .

قال الواحديُّ في (أسباب النُّزول): «قال ابن عباسٍ ، ومقاتلٍ: لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعيد ، وأسيد بن سعية ، وأسد بن عُبيد ، ومن أسلم من اليهود ، قالت أحبار اليهود: ما امن لمحمَّد إلا شرارُنا ، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين ابائهم ، وقالوا لهم: لقد خُنتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره ، فأنزل الله تعالى: {لَيْسُوا سَوَاءً} الاية»[(٥٥٨)].

٦ ـ بثُّ الإشاعات والشَّماتة بالنَّبيِّ (ص) والمسلمين:

كان اليهود يتحيَّنون الفرص للنَّيل من المسلمين ، والبحث عمَّا يفرِّق كلمتهم ، ومن ذلك استغلالهم ـ في الأشهر الأولى من الشَّهر ـ لوفاة أحد النُّقباء ، الَّذين بايعوا رسولَ الله (ص) بيعة العقبة ، وهو أبو أُمامة أسعد بن زُرَارةَ الأنصاريُّ الخزرجيُّ رضي الله عنه ، فعندما أخذته الشَّوْكَة[(٥٥٩)] ، فجاءه رسول الله (ص) يعوده ، فقال: بئس الميِّتُ ليهود ـ مرَّتين ـ سيقولون: لولا دفع عنه صاحبه ، ولا أملك له ضرّاً ، ولا نفعاً ، ولأتَمَحَّلَنَّ[(٥٦٠)] له» ، فأمر به ، فكُوِيَ بخطَّين فوق رأسه فمات ، [أحمد (١٣٨/٤) والحاكم (٢١٤/٤) ومجمع الزوائد (٩٨/٥)] . وفي روايةٍ: فكواه

حَوْران[(٥٦١)] ، على عنقه ، فمات ، فقال النَّبيُّ (ص) : «بئس الميتُ لليهود ، يقولون: قد داواه صاحبه ، أفلا نفعه!» [الطبراني في المعجم الكبير (٥٥٨٤) وعبد الرزاق في المصنف (١٩٥١٥) ومجمع الزوائد (٥/٩٨)] .

ولم تكن حادثة أبي أُمامة هي الحدث الوحيد الَّذي أبان الحقد اليهوديَّ على المسلمين ، فقد أشاعوا في أوَّل الهجرة: أنَّهم سحروا المسلمين ، فلا يُولد لهم ولد ، أشاعوا ذلك ليضيِّقوا على المسلمين الخناق ، ويفسدوا عليهم حياتهم الجديدة ، التي عاشوها في مدينة رسول الله (ص) ، وليعكِّروا ذلك الجوَّ الصَّافي؛ الَّذي يملؤه الحبُّ ، والتالف بين المسلمين.

وممَّا يدلُّ على مقدار ما فعلته تلك الإشاعة بين المسلمين ، شدَّة الفرحة التي اعترتهم حيث ولد بينهم أوَّل مولودٍ ذكر من المهاجرين ، وهو عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه[(٥٦٢)] ، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: «أنَّها حَمَلَتْ بعبد الله بن الزُّبير في مكَّة ، قالت: فخرجت وأنا مُتِمٌّ ، فأتيت المدينة ، فنزلت قُباءً ، فولدت بقُباء ، ثمّ أتيت به رسولَ الله (ص) ، فوضعتُه في حجره ، ثمَّ دعا بتمرةٍ ، فمضغها ، ثمَّ تفل في فيه ، فكان أوَّل شيءٍ دخل جوفه ريقُ رسول الله (ص) ، ثمَّ حَنَّكَه بالتَّمرة ، ثمَّ دعا له ، فَبَرَّك عليه ، وكان أولَ مولود وُلِدَ في الإسلام ، ففرحوا به فرحاً شديداً؛ لأنَّهم قيل لهم: إنَّ اليهود قد سحرتكم ، فلا يُولدُ لكم» [البخاري (٥٤٦٩) ومسلم (٢١٤٦/٢٦)] ، وفي روايةٍ مسلم [(٢١٤٦/٢٥)]: «وسمَّاه عبد الله ، ثمَّ جاء بعدُ وهو ابن سبعٍ، أو ابن ثماني سنين، يبايع النَّبيَّ (ص) ، أمره الزُّبير رضي الله عنه بذلك ، فتبسم النَّبيُّ (ص) حين راه مقبلاً ، وبايعه» ، وكان أوَّل من وُلِدَ في الإسلام بالمدينة بعد مَقْدَمِ رسول الله (ص) ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم ، فلا يُولدُ لهم بالمدينة وُلد ذكر ، فكبَّرَ أصحابُ رسول الله (ص) حين وُلد عبد الله [الحاكم (٣/٥٤٨)] .

٧ ـ موقفهم من تحويل القبلة:

تكاد تكون حادثة تحويل القبلة ، من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة هي الفاصل بين الحرب الكلاميَّة ، وحرب المناوشات ، والتدخُّل الفعليّ من جانب اليهود ، لزعزعة الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة[(٥٦٣)] ، فعن البَرَاء بن عازبٍ رضي الله عنه: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان أولَ ما قَدِمَ المدينة نزل على أجداده ـ أو قال: أخواله ـ من الأنصار ، وأنَّه (ص) صلَّى قِبَلَ بيت المقدس ستةَ عَشَرَ شهراً ، أو سبعةَ عَشَرَ شهراً ، وكان يُعجبه أن تكون قبلتُه قِبَلَ البيت ، وأنَّه (ص) صلَّى أوَّل صلاةٍ

صلاها ، صلاةَ العصر ، وصلَّى معه قومٌ ، فخرج رجلٌ ممَّن صلَّى معه ، فمرَّ على أهل مسجدٍ؛ وهم راكعون ، فقال: أشهد بالله! لقد صليت مع رسول الله (ص) قِبَلَ مكَّة ، فداروا كما هم قِبَلَ البيت ، وكانت اليهود قد أعجبهم أنَّه كان يُصلِّي قِبَلَ بيت المقدس ، وأهلُ[(٥٦٤)] الكتاب ، فلمَّا ولَّى وجهه قِبَلَ البيت؛ أنكروا ذلك [البخاري (٤٠) ومسلم (٥٢٥)] ، وقد نزلت في هذه الحادثة اياتٌ عظيمة ، فيها عِبَرٌ ، وحكمٌ ودروسٌ للصفِّ المسلم.

قال تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ *} [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٢] .

* {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا ولاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} [البقرة: ١٤٢] : أخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ بما سيقوله اليهود عند تحوُّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة من إثارة الشُّكوك ، والتَّساؤلات قبل وقوع الأمر ، ولهذا دلالته؛ فهو يدلُّ على نبوَّة محمَّدٍ (ص) ؛ إذ هو أمر غيبيٌّ ، فأخبر عنه قبل وقوعه ، ثمَّ وقع ، فدلَّ ذلك على أنَّ محمداً (ص) رسولٌ ، ونبيٌّ يخبره الوحي بما سيقع؛ إذ من الأدلَّة على صدق رسالة الرَّسول (ص) ، أن يخبر بأمور غيبية ثمَّ تقع بعد ذلك.

وهو يدلُّ أيضاً على علاجٍ للمشاكل قبل حدوثها ، حتَّى يستعدَّ المسلمون ، ويهيِّئوا أنفسهم لهذه المشاكل للتغلُّب عليها ، والردِّ عليها ، ودفعها؛ لأنَّ الأمر حين يكون مفاجئاً لهم ، يكون وقعه على النفس أشدَّ ، ويربك المفاجأ ، أمَّا حين يُحدَّثون عنه قبل وقوعه ، فالحديث يطمئنهم ، ويوطِّن نفوسهم ، ويعدُّها لمواجهة الشَّدائد[(٥٦٥)]. قال أبو السعود في تفسيره: «وأخبر بالأمر قبل وقوعه؛ لتوطين النُّفوس ، وإعدادها على ما يبكتهم ، فإنَّ مفاجأة المكروه على النَّفس أشقُّ ، وأشدُّ ، والجواب العتيد لشغب الخصم الألد أردُّ»[(٥٦٦)] ، وقد وصف الله تعالى اليهود بالسَّفه؛ لاعتراضهم على تحويل القبلة ، وللكيد ضدَّ رسول الله (ص) . قال أبو السعود: «والسفهاء الذين خفَّت أحلامُهم ، واستمهنوها بالتَّقليد ، والإعراض عن التدبُّر ، والنَّظر. وقولهم: ثوبٌ سفيهٌ ، إذا كان خفيف النَّسيج ، وقيل: السَّفيه: البهَّات الكذَّاب ، المتعمِّد

خلاف ما يعلم ، وقيل: الظَّلوم الجهول ، والسُّفهاء هم اليهود»[(٥٦٧)].

* {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣][(٥٦٨)] : يقول ابن كثير: «يقول تعالى: إنما حوَّلناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام ، واخترناها لكم ، لنجعلكم خيارَ الأمم؛ لتكونوا يوم القيامة شهداءَ الأمم؛ لأنَّ الجميع معترفون لكم بالفضل. والوسط هاهنا: الخيار ، والأجود ، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي: خيرها ، وكان رسول الله (ص) وسطاً في قومه ، أي أشرفهم نسباً ، ومنه الصَّلاة الوسطى الَّتي هي أفضل الصَّلوات وهي العصر»[(٥٦٩)].

فهي أمَّةٌ وسطٌ في التَّصوُّر والاعتقاد ، في التَّفكير والشُّعور ، في التَّنظيم والتَّنسيق ، في الارتباطات والعلاقات ، في المكان في سرَّة الأرض وأوسط بقاعها[(٥٧٠)].

* {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة: ١٤٣] .

فالاية تذكِّر أنَّ الصَّلاة نحو بيت المقدس كانت فتنةً؛ أي: اختباراً ، والتَّحوُّل من بيت المقدس إلى الكعبة كان أيضاً اختباراً ، وامتحاناً. قال البيضاويُّ في تفسيره: «وما جعلنا قبلتك بيت المقدس إلا لنعلم مَنْ يتَّبع الرَّسول ، ممَّن ينقلب على عقبيه ، إلا لنمتحن به النَّاس ، ونعلم من يتَّبعك في الصَّلاة إليها ، ممَّن يرتدُّ عن دينك إلفاً لقبلة ابائه ، أو لنعلم من يتَّبع الرَّسول ممَّن لا يتَّبعه ، وما كان لعارض يزول بزواله ، وعلى الأول: معناه: ما رددناك إلى الَّتي كنت عليها ، إلا لنعلم الثَّابت على الإسلام ، ممَّن ينكص على عقبيه؛ لقلقه ، وضعف إيمانه»[(٥٧١)].

فالصَّلاة إلى الكعبة في بداية الأمر ، ثمَّ الصَّلاة إلى بيت المقدس ، ثمَّ العودة إلى الكعبة ، واستمرار ذلك لا شيء فيه؛ ما دام الباري سبحانه أمر بذلك ، ومن ثَمَّ فالتَّوجه في كلِّ حالةٍ هو عبادة ، وما على الناس إلا أن ينقادوا لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ ، ويلتزموا بأمره ، فالذي يتَّبع الرسول وينقاد لأوامره في القبلة يُعَدُّ فائزاً في الاختبار ، والامتحان ، والَّذي يجد في نفسه مخالفة حكمٍ من الأحكام الشَّرعيَّة كان ساقطاً ، وهالكاً ، والإيمان الحقُّ هو الَّذي يُلزم صاحبه

بالاتِّباع ، ومخالفة الهوى[(٥٧٢)]؛ ولهذا ثبت الصَّحابة الكرام ، واستجابوا لأوامر الله تعالى ، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: بينا النَّاس يصلُّون الصُّبح في مسجد قُباء؛ إذ جاء رجلٌ فقال: قد أُنزل على النَّبيِّ (ص) قران ، وقد أُمر أن يستقبل الكعبة ، فاسْتقبِلُوها. فتوجَّهوا إلى الكعبة[(٥٧٣)].

* {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [البقرة: ١٤٣] .

تبيّن الاية الكريمة حرص المؤمنين على إخوانهم ، وحبَّ الخير لهم ، فحينما نزلت الايات؛ الَّتي تأمر المؤمنين بتحويل القبلة إلى الكعبة؛ تساءل المؤمنون مشفقين عن مصير عبادة إخوانهم ، الَّذين ماتوا؛ وقد صلوا نحو بيت المقدس ، فأخبر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ صلاتهم مقبولةٌ ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما وُجِّه النَّبيُّ (ص) إلى الكعبة؛ قالوا: يا رسول الله! كيف بإخواننا الَّذين ماتوا وهم يصلُّون إلى بيت المقدس؟ ، فأنزل الله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنْ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [البقرة: ١٤٣] [أبو داود (٤٦٨٠) والترمذي (٢٩٦٤) وأحمد (١/٢٩٥ و٣٠٤ و٣٢٢ و٣٤٧)] ، وبيَّن لهم: أنَّه رؤوف رحيمٌ ، «وبهذا يسكب في قلوب المسلمين الطُّمأنينة ، ويذهب عنها القلق ، ويفيض عليها الرِّضا ، والثِّقة ، واليقين»[(٥٧٤)].

* {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ *وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ *الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ *الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [البقرة: ١٤٤ ـ ١٤٨] .

كان رسول الله (ص) ، حريصاً على أن يتوجَّه في صلاته إلى قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام ، فهو أولى النَّاس به؛ لأنَّه من ثمرة دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام ، وحامل لواء التَّوحيد بحقٍّ كما حملها إبراهيم عليه السلام ، وهو (ص) كان يحرص على أن يكون مستقلاً ، ومتميِّزاً عن أهل الدِّيانات السَّابقة؛ الَّذين حرَّفوا ، وبدَّلوا ، وغيَّروا؛ كاليهود ، والنَّصارى؛ ولهذا كان ينهى عن تقليدهم والتَّشبُّه بهم؛ بل يأمر بمخالفتهم، ويحذِّر من الوقوع فيما وقعوا فيه من الزَّلل، والخطل[(٥٧٥)، والانحراف، ومقتضى هذا الحرص أن يتوجَّه في صلاته بشكل دائم إلى قبلة أبي الأنبياء، وهو أول بيت وضع للناس[(٥٧٦)].

إن لحادثة تحويل القبلة أبعاداً كثيرة: منها السِّياسيُّ، ومنها العسكريُّ، ومنها الدِّينيُّ البحت، ومنها التاريخيُّ؛ فبعدها السياسيُّ: أنها جعلت الجزية العربية محور الأحداث، وبعدها التَّاريخيُّ: أنها ربطت هذا العالم بالإرث العربيِّ لإبراهيم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ وبعدها العسكريُّ: أنَّها مهَّدت لفتح مكة ، وإنهاء

الوضع الشَّاذِّ في المسجد الحرام، حيث أصبح مركز التَّوحيد مركزاً لعبادة الأصنام، وبُعدها الدينيُّ: أنها ربطت القلب بالحنفيَّة، وميَّزت الأمة الإسلامية عن غيرها، والعبادة في الإسلام في بقية الأديان[(٥٧٧)].

*{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٤٩ ـ ١٥٢].

إنَّ نعمة توجيهكم إلى قبلتكم، وتمييزكم بشخصيَّتكم من نعم الله عليكم، وقد سبقتها آلاء من الله كثيرةٌ عليكم؛ منها:

ـ {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ}: فوجود شخص رسول الله (ص) ـ إمام المربِّين والدُّعاة ـ هو من خصيصة هذه النخبة القيَّاديَّة، الَّتي شرَّفها الله تعالى بأن يكون هو المسؤول عن تربيتها؛ فقيه النُّفوس، وطبيب القلوب، ونور الأفئدة، فهو النُّور، والبرهان، والحجَّة.

ـ {يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا}: فالمادة الأساسيَّة للبناء والتَّربية كلام الله تعالى، وكان يرافقهُ شحنةٌ عظيمةٌ لنزوله أوَّل الأمر غضَّاً طريَّاً، فكان جيلاً متميِّزاً في تاريخ الإنسانيَّة.

ـ {وَيُزَكِّيكُمْ}: فالمعلِّم المربِّي رسول الله (ص)، فهو المسؤول عن عمليَّة التربيَّة، وهو الَّذي بَلَغَ من الخُلُق، والتَّطبيق لأحكام القرآن الكريم ما وصفه الله تعالى به من هذا الوصف الجامع المانع، الذي تفرَّد به (ص) من دون البشريَّة كافَّةً، قال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، وهو الَّذي وصفته عائشة رضي الله عنها، بأعظم ما يملك بشرٌ أن يصف به نبيَّاً، فقالت: «كان خُلُق نبيِّ الله القران» [البخاري في الأدب المفرد (٣٠٨) وأحمد (٦/٩١) والنسائي في السنن الكبرى (١١٢٨٧)] فكان الصَّحابة يسمعون القران الَّذي يُتلى من فم رسول الله (ص) ، ويرون القران الَّذي يمشي على الأرض ، متجسِّداً في خلُقه الكريم (ص) .

ـ : فهذه هي المهمَّة {وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} ، تعليم الصَّحابة الكرام الكتاب ، والحكمة ، فالقران الكريم لكي يكون مؤثراً في الأمَّة لا بدَّ من المربِّي الرَّبَّانيِّ الَّذي يزكِّي النُّفوس ، ويطهِّر القلوب ، ويعلِّمها شرع الله تعالى من خلال القران الكريم ، وسنَّة سيِّد المرسلين (ص) ؛ فيشرح للمسلمين غامضَه ، ويبيِّن مُحْكَمَهُ ، ويفصِّل مجمله ، ويسأل عن تطبيقه ، ويصحِّح خطأ الفهم لهم؛ إن وجد. كان الرَّسول (ص) ،

يعلِّم ، ويربِّي أصحابه؛ لكي يُعلِّموا ، ويربُّوا النَّاس على المنهج الرَّبَّانيِّ ، فتعلَّم الصَّحابة من رسول الله (ص) منهج التَّعليم ، ومنهج التَّربية ، ومنهج الدَّعوة ، ومنهج القيادة للأمَّة من خلال ما تسمع ، وما تبصر ، ومن خلال ما تعاني وتجاهد ، فاستطاع (ص) أن يعدَّ الجيل إعداداً كاملاً ، ومؤهِّلاً لقيادة البشريَّة ، وانطلق أصحابه من بعده يحملون التَّربية القرانيَّة ، والتَّربية النَّبويَّة إلى كل صُقْعٍ[(٥٧٥)] ، وأصبحوا شهداء على النَّاس.

ـ {وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ *}: ماذا كانوا قبل الوحي والرِّسالة؟ وماذا أصبحوا ذلك؟ كانوا في حروبٍ ، وصراعٍ ، وجاهليَّةٍ عمياء ، وأصبحوا بفضل الله ، ومَنِّهِ ، وكرمه أمةً عظيمةً ، لها رسالةٌ ، وهدفٌ في الحياة ، لا همَّ لها إلا العمل ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى ، وحقَّقوا العبوديَّة لله وحده ، والطاعة للهِ وحده ، ولرسوله (ص) ، وانتقلوا من نزعة الفردية ، والأنانيَّة ، والهوى إلى البناء الجماعيّ ، بناء الأمَّة ، وبناء الدَّولة ، وصناعة الحضارة ، واستحقَّت بفضل الله ، ومَنِّه أعظمَ وسَامَيْنِ في الوجود[(٥٧٦)] ، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠] ، وقال ـ أيضاً ـ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣].

ـ {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ *}: فهذه المنن ، وهذه العطايا ، وهذه الخيرات تحتاج لذكر الله في الغدوِّ ، والاصال ، وشكره عليها ، وحثَّهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ على ذكره ، وبكرمه يُذكرون في الملأ الأعلى ، بعدما كانوا تائهين في الصَّحاري ، ضائعين في الفيافي ، وحُقَّ لهذه النعم جميعاً أن تُشْكَر[(٥٧٧)]!.

وهكذا الايات الكريمة تربِّي الصَّحابة من خلال الأحداث العظيمة ، وتصوغ الشَّخصيَّة المسلمة القويَّة ، الَّتي لا ترضى إلا بالإسلام ديناً ، والتَّي تعرَّفت على طبيعة اليهود من خلال القران الكريم ، وبدأت تتعمَّق في ثنايا طبيعتهم الحقيقيَّة ، وانتهت إلى الصُّورة الكلِّيَّة النِّهائيَّة ، الَّتي تربوا عليها من خلال القران الكريم ، والتَّربية النَّبويَّة. قال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [البقرة: ١٢٠].

٨ ـ من صفات اليهود في القران الكريم:

إنَّ المتتبّع لتاريخ اليهود ، ومواقفهم مع المصطفى (ص) يشاهد تلك الأفعال القبيحة ، والأخلاق الرَّذيلة ، الَّتي يتَّصف بها هؤلاء البشر ، ولا غرابة في ذلك ، فهي طبيعة كلِّ ادميٍّ ينسلخ من دينه الصَّحيح ، وعقيدته السَّليمة.

كانت معاناة رسول الله (ص) والمسلمين من اليهود شديدةً ، وأليمةً ، فالقران الكريم تحدَّث عن بعضها ، وكتب السُّنَّة ، والتَّاريخ ، والسِّير حافلةٌ بالأحداث الجسيمة مع اليهود ، وقد تحدَّث القران الكريم ، وبيَّنت السُّنَّة النَّبويَّة صفاتهم القبيحة؛ كالنِّفاق ، وسوء الأدب مع الله ، ورسوله (ص) ، والمكر ، والخداع ، والمداهنة ، وعدم الانتفاع بالعلم ، والحقد ، والكراهية ، والحسد ، والجشع ، والبُخل ، ونكران الجميل ، وعدم الحياء ، والغرور ، والتكبُّر ، وحبُّ الظهور ، والإشراك في العبادة ، ومحاربة الأنبياء ، والصَّالحين ، والتَّقليد الأعمى ، وكتمان العلم ، وتحريف المعلومات ، والتَّحايل على المحرمات ، والتَّفرُّق ، والطَّبقيَّة في تنفيذ الأحكام ، والرِّشوة ، والكذب ، والقذارة[(٥٧٨)] ، وسوف نشير إلى بعض هذه الصِّفات الذَّميمة؛ التي جاءت في القران الكريم.

١ ـ الإشراك في العبادة:

فعبادة اليهود شركيَّةٌ باطلةٌ؛ حيث يعتقدون: أنَّ لله ولداً ، ويشركون معه في عِبادته غيره ، وقد سجَّل الله ـ عزَّ وجل ـ عليهم بعض مظاهر الإشراك. قال تعالى: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ *} [التوبة: ٣٠ ـ ٣١] .

فهم لم يكتفوا في الإشراك بالقول المتقدِّم؛ بل عبدوا أنبياءهم ، وصالحيهم ، واتخذوا قبورهم مساجد ، وأوثاناً يعبدونها من دون الله[(٥٧٩)]. قال (ص) : «قاتَلَ اللهُ اليهودَ؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد» [البخاري (٤٣٧) ومسلم (٥٣٠)] .

٢ ـ محاربة الأنبياء والصَّالحين:

في الوقت الَّذي يقدِّسون فيه أحبارهم ، ورهبانهم إلى درجة العبادة نجدهم في المقابل لا يتورَّعون عن محاربة أنبيائهم ، وصالحيهم ، ويشنُّون عليهم الحملات المغرضة بشتَّى الطُّرق ، والوسائل كافَّةً ، ولا يمتنعون حتَّى عن قتلهم؛ كما فعلوا بزكريا ، ويحيى عليهما السَّلام[(٥٨٠)] ، وقد أخبرنا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنهم بذلك ، فبعد أن بيَّن ـ عزَّ وجلَّ ـ ألواناً من العذاب أوقعه عليهم؛ قال: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا

بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *} [البقرة: ٦١] .

٣ ـ كتمانهم العلم ، وتحريفهم للحقائق:

إنَّ كتمان العلم ، وتحريف الحقائق صفتان ملازمتان لليهود من قديم الزَّمن ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله (ص) : «قيل لبني إسرائيل: {وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ} ، فبدَّلوا ، ودخلوا يزحفون على أَسْتَاههم ، وقالوا: حَبَّةٌ في شَعرةٍ» [البخاري (٣٤٠٣) ومسلم (٣٠١٥)] .

ومن أعظم العلوم الَّتي كتمها أحبار اليهود ، وحاولوا إخفاء حقيقتها علمُ نبوَّة محمَّدٍ (ص) ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: جاء رسول الله (ص) رافعُ بن حارثة ، وسلام بن مِشْكم ، ومالك بن الصَّيف ، ورافع بن حُريملة ، فقالوا: يا محمد! ألستَ تزعم أنَّك على ملَّة إبراهيم ، ودينه ، وتؤمن بما عندنا من التَّوراة ، وتشهد أنَّها من الله حقٌّ؟ فقال رسول الله (ص) : «بلى؛ ولكنَّكم أحدثتم ، وجحدتم ما فيها ، ممَّا أخذ الله عليكم من الميثاق فيها ، وكتمتم منها ما أُمرتم أن تُبيِّنوه للنَّاس ، فَبَرِئْتُ من إحداثكم». قالوا: فإنَّا نأخذ بما في أيدينا ، فإنَّا على الهدى والحقِّ ، ولا نؤمن بك ، ولا نتبعك ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيهم [ابن هشام (٢/٢١٧) وابن جرير في تفسيره (٦/٣١٠)]: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْرًا فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *} [المائدة: ٦٨] .

٤ ـ التَّفرُّق:

إنَّ اليهود دائماً ، وأبداً مختلفون في الأفكار ، مفترقون في الأحكام ، تحسبهم جميعاً؛

وقلوبهم شتَّى ، تماماً كما وصفهم الباري ـ عزَّ وجل ـ في قوله تعالى: {لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنَ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ *} [الحشر: ١٤] .

٥ ـ الرِّشوة:

إنَّ من سمات اليهود في معالم مجتمعاتهم بحثَهم عن تحقيق الغاية التي ينشدونها ، بشتَّى السُّبل ، والوسائل؛ ولو كانت مخالفةً لشرعهم؛ كدفع الرِّشوة ، والمال الحرام ، فأكل السُّحت من رشوةٍ ، ومال حرامٍ من طباعهم ، وقد وصفهم الحقُّ ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك: {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ

فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *} [المائدة: ٤٢] .

٦ ـ النِّفاق:

وقد أظهر بعضُ زعماء اليهود الإسلام حين قويت شوكة المسلمين بالمدينة ، وتستَّروا بالنِّفاق ، وقد سجل الله عليهم ذلك في قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ *وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ *} [البقرة: ١٣ ـ ١٤] .

٧ ـ المداهنة:

فكانوا يسايرون الواقع والمجتمع ، ولا ينكرون المنكر؛ ولذلك لعنهم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسجَّل لعنته عليهم في كتابه العزيز. قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *} [المائدة: ٧٨ ـ ٧٩] .

٨ ـ عدم الانتفاع بالعلم:

وقد أخبرنا الله تعالى بذلك ، وصوَّر هذه الصِّفة تصويراً دقيقاً[(٥٨١)]. قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *} [الجمعة: ٥] .

٩ ـ الحقد ، والكراهية:

من صفات اليهودِ المستقرَّة في أعماق نفوسهم الحقدُ على كلِّ شيءٍ ليس منهم ، والكراهية لكلِّ ما هو غير يهوديٍّ؛ مهما كان نوعه ومصدره ، وخاصَّةً إذا كان يمتُّ إلى رسول الله (ص) بصلةٍ ، كما حصل في أمر القبلة ، وما حصل في تحريم الخمر ، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لما نزلت اية تحريم الخمر ، قالت اليهود: أليس إخوانكم الذين ماتوا كانوا يشربونها؟! [الحاكم (٤/١٤٣ ـ ١٤٤)] فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *} [المائدة: ٩٣] .

١٠ ـ الحسد:

فقد حسد اليهودُ النَّبيَّ (ص) على الرِّسالة؛ إذ كانوا يظنُّون: أنَّ الرَّسول الَّذي سيبعث ، سيكون منهم ، يتجمَّعون حوله ، ويقاتلون به أعداءهم ، فلمَّا بُعِث الرَّسول (ص) من غيرهم؛ جُنَّ جنونهم ، وطار صوابهم ، ووقفوا يعادونه عداوةً شديدةً ، ولقد حسدوا أصحابه على الإيمان ، ونعمة الهدى؛ الَّتي شرح الله صدورهم لها[(٥٨٢)] ، وقد قال تعالى في ذلك: {وَمِنْ شَرِّ النَفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ *وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ *} [الفلق: ٤ ـ ٥] ، وسورتا «الفلق» و«النَّاس» تعوَّذ بهما الرَّسول (ص) حينما سحرته اليهود.

وقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [البقرة: ١٠٩] .

١١ ـ الغرور والتَّكبُّر:

اتَّصف اليهود بالغرور ، والتَّكبُّر على الخلق من قديم الزَّمان ، فهم يرون أنَّهم أرقى من النَّاس ، وأفضل من النَّاس ، ويزعمون أنَّهم شعب الله المختار ، ويعتقدون أنَّ الجنَّة لليهود ، وأنَّ طريق اليهودية هو طريق الهداية ، وسواها ضلالٌ ، وقد أخبر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ في كتابه عن هذه الخصلة الذَّميمة فيهم[(٥٨٣)].

قال تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *} [البقرة: ١١١] وقد مارسوا ذلك الغرور والتَّعالي على رسول الله (ص) ، بشتَّى الوسائل والصُّور ، ومن ذلك هذه الصُّورة[(٥٨٤)]:

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: أتى رسولَ الله (ص) نُعمانُ بن أضاء ، وبَحْرِيُّ بن عمرو ، وشأسُ بن عديٍّ ، فكلَّموه ، وكلَّمهم رسول الله (ص) ، ودعاهم إلى الله ، وحذَّرهم نِقمته ، فقالوا: ما تُخَوِّفنا يا محمد! نحن أبناء الله ، وأحبَّاؤه ـ كقول النَّصارى ـ فأنزل الله تعالى

فيهم: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ *} [المائدة: ١٨] .

١٢ ـ البخل:

من صفات اليهود القديمة بخلُهم بالمال ، وعدم إنفاقه في سبيل الخير ، فكانوا يأتون رجالاً من الأنصار ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم؛ فإنَّا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النَّفقة؛ فإنَّكم لا تدرون علامَ يكون[(٥٨٥)] ، فأنزل الله فيهم: {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا

آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً *} [النساء: ٣٧] أي: من التَّوراة الَّتي فيها تصديق ما جاء به محمَّد (ص) : {وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا *} [النساء: ٣٩] .

١٣ ـ العناد:

برغم قيام الأدلَّة ، والبراهين على صدق نبوَّة ورسالة محمَّدٍ (ص) ، إلا أنَّ اليهود بسبب عنادهم ، امتنعوا عن الإيمان ، وانغمسوا في الكفر ، والتكذيب؛ لأنَّ العناد يقفل العقول بأقفال الهوى ، وقد بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الصِّفة في قوله تعالى: {وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ *} [البقرة: ١٤٥] نعم! لو قدَّمت لهم يا محمد! ألف دليل ودليل؛ ما اقتنعوا ، وما غيَّروا ، وما بدَّلوا ، ويصدق فيهم قول الله تعالى[(٥٨٦)]: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ *} [يونس: ١٠١] .

هذه بعض الصِّفات الَّتي تجسَّدت في الشَّخصية اليهوديَّة ، والَّتي أشار القران الكريم إليها؛ لنعرف اليهود على حقيقتهم ، حتَّى لا يغترَّ[(٥٨٧)] المسلمون بهم في أيِّ وقتٍ ، أو أيِّ زمانٍ ، أو أيِّ مكانٍ.

رابعاً: (إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين):

إنَّ هذه الوثيقة وضَّحت مدى العدالة الَّتي تميَّزت بها معاملة النَّبيِّ (ص) لليهود ، وأعطت لمواطني الدَّولة مفهوم الحرية الدِّينيَّة ، وضربت عُرْضَ[(٥٨٨)] الحائط بمبدأ التَّعصُّب ، ومصادرة الأفكار والمعتقدات ، ولم تكن المسألةُ مسألةَ تكتيكٍ مرحليٍّ ، ريثما يتسنَّى للرَّسول (ص) تصفية أعدائه في الخارج ، لكي يبدأ تصفيةً أخرى إزاء أولئك الَّذين عاهدهم.. وحاشاه؛ وإنَّما صدر هذا الموقف وَفْقَ سياسةٍ إسلاميَّةٍ منبثقةٍ من شريعةٍ ربَّانيَّة[(٥٨٩)].

لقد عقد الرَّسول (ص) مع اليهود المعاهدات الَّتي تؤمِّن لهم الحياة الكريمة في ظلِّ الدَّولة الإسلاميَّة ، بحكم أنَّهم أهل كتاب (أهل الذِّمَّة) ، ولكن طبيعة اليهود الغدر والخيانة ، وعدم الوفاء ، ولم يستطيعوا ـ ولن يستطيعوا لؤماً وخسَّةً ـ أن يتخلَّوا عن تلك الصِّفات الذَّميمة ، فنقضوا عهودهم مع رسول الله (ص) ، وكانت نهايتهم بما يتلاءم مع تلك الأفعال؛ حيث أجلى رسولُ الله (ص) بني قينقاع ، وبني النَّضير ، وقَتَل رجالَ بني قريظة[(٥٩٠)] ، وهذا ما سوف نراه ـ بإذن الله تعالى ـ في هذا الكتاب ، ولقد أشار القران

الكريم إلى طبيعة اليهود مع العهود ، فقال تعالى: {الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ *} [الأنفال: ٥٦] .

والعهد هنا ما عقده رسولُ الله (ص) مع اليهود ، من عهودٍ ، ومواثيق ، بألا يحاربوه ، ولا يعاونوا عليه ، كما بيَّن ذلك المفسِّرون(١).

لقد سلك اليهود وسائل عدَّةً ، ومتغايرةً ، ومتنوِّعةً للكيد لرسول الله (ص) ، والَّذين امنوا معه ، ومقاومتهم ، إلا أنَّ هذه الوسائل لم تفلح ، ولم تؤتِ ثمارها المرجوَّة منها ، وهي القضاء على جماعة المسلمين ، ودولتهم ، وكيانهم السِّياسيِّ ، فما أسباب ذلك؟

إنَّ ذلك يرجع إلى تلك التَّربية النَّبويَّة الرَّشيدة ، الَّتي غرست معاني الإيمان في القلوب ، وحقَّقت العبوديَّة الخالصة لله ، وحاربت الشِّرك بجميع أشكاله ، وعلَّمت الصَّحابة الأخذ بأسباب النُّهوض ، والتَّمكين المعنويَّة ، والمادِّيَّة ، فقد ربَّى النَّبيُّ (ص) أصحابه على العزَّة ، والنَّخوة ، والرُّجولة ، والشَّجاعة ، ورفض الذلِّ ، ومقاومة الظُّلم ، وعدم الاستسلام لمؤامرات اليهود ، وغيرهم؛ بل مقاومتها ، والقضاء عليها، وعلى أهلها، فثابروا، وصابروا، حتَّى انتصروا على أعدائهم[(٥٩١)].

كان مكر اليهود في غاية الدَّهاء، تكاد تزول منه الجبال؛ ولكنَّه لم يفلح مع الرَّعيل الأوَّل، بسبب القيادة النَّبوية، والمنهج الرَّبانيِّ الَّذي سار عليه رسول الله (ص)[(٥٩٢)] .

إنَّ المسلمين اليوم يتساقطون أمام المخطَّطات اليهوديَّة ، ومؤامراتها؛ لبُعْدهم عن المنهاج النَّبويِّ في تربية الأمَّة ، وكيفيَّة التَّعامل مع اليهود ، فالأمَّة في أشدِّ الحاجة للقيادة الرَّبانيَّة ، الحكيمة ، الواعية ، الموفَّقة من عند الله ، الخبيرة بأخلاق اليهود ، وصفاتهم ، فتتعامل معهم معاملةً واعيةً ، مستمدَّةً أصولها من السِّياسة النَّبويّة الرَّاشدة ، في التَّعامل مع هذا الصِّنف المنحرف من البشر.

لقد تغلغلت في عصرنا هذا الأصابع اليهوديَّة القذرة في مجالاتٍ عديدةٍ من حياة الشُّعوب ، والدُّول ، تلك الأصابع الَّتي تهدف إلى غايةٍ محدَّدةٍ ، هي (الفساد في الأرض) ، وهذا هو التَّعبير القرانيُّ: {وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا} [المائدة: ٦٤] .

إنَّ استعمال الفعل المضارع في الاية ، يدل على التَّجدُّد ، والاستمرار ، فليس سعيهم للفساد مرحلةً تاريخيَّةً انتهت؛ لكنَّه قدرهم الكونيُّ إلى يوم يبعثون ، وقد استطاع اليهود أن يهيمنوا على كثير من مقدَّرات الأمم من خلال كيدهم المدروس ، وفي غيبة الوجود الإسلاميِّ القادر على إحباط مؤامراتهم ، وفضح ألاعيبهم.

إنَّ العبقريَّة اليهوديَّة في الهدم ، والتخريب ، ليست موضعَ جدلٍ ، تلك العبقرية الَّتي تستغلُّ الأحداث ، وتستثمرها لمصلحتها. إنَّ لليهود وجوداً مؤثِّراً في الدُّول الكبرى ، اقتصاديّاً ، وسياسيّاً ، وإعلاميّاً ، ولم يكونوا غائبين في النِّظامين العالميين: الرَّأسمالية ، والشيوعية ، ولا عن الثَّورات الكبرى في العالم ، وهناك عددٌ من المنظَّمات العالمية ، تبذل جهداً ضخماً في تحقيق أهداف اليهود ، أبرزها (الماسونية) ، و(الليونز) ، و(الرُّوتاري) ، و(شهود يهوه)... إلخ.

ألا يحسُّ الباحث الواعي: أنَّ في الأمر نوعاً من المبالغة المقصودة ، أو غير المقصودة؟! هذه الصُّورة الجاثمة في عقول الكثيرين: أنَّ اليهود هم الذين يحرِّكون العالم ، وهم زعماؤه السِّياسيُّون ، ومفكروه ، ومبدعوه و... و... وأنَّ الشَّخصيات المهمَّة من غير اليهود ، ما هي إلا «أحجار على رقعة الشَّطرنج» على حدِّ تعبير «وليام غاي كار»[(٥٩٣)].

إنَّ هذا الكمَّ الهائل من الكتب الَّتي تتحدَّث عن اليهود ، ودورهم العالمي الخطير تساهم في تهيئة الجوِّ للتسليم بالأمر الواقع ، وتمنح تفسيراً جاهزاً لجميع الهزائم الَّتي مُنِيَتْ[(٥٩٤)] بها الأمَّة ، الهزائم الحضاريَّة ، والعسكرية على حدٍّ سواءٍ.

إنَّ إحساس النَّاس بأنَّ كلَّ شيءٍ مدبَّرٌ ، ومُبَيَّتٌ ، ومدروسٌ من قِبَلِ اليهود ، أو محافلهم

يقعد بهم عن المقاومة ، والمواجهة ، والجهاد. وما يقال عن اليهود يمكن أن يقال عن أيِّ عدوٍّ اخر ، ينتهج سياسة الإرهاب الفكريِّ ، والعسكريِّ.

هذه الجماعات تجد ـ أحياناً ـ من يُهَوِّل من شأنها ، ويعطيها أكبر من حجمها ، فكلُّ من يتحدَّث ـ مثلاً ـ عن هذه الفئة الغالية المنحرفة ، أو يكتب ، أو يحاضر ، فهو مهدَّدٌ في رزقه ، وحياته ، إذاً: فليسكت الجميع حفاظاً على أرزاقهم ، وأرواحهم[(٥٩٥)]. إنَّ هذا التَّضخيم الرَّهيب لأعدائنا اليهود ليس له حقيقةٌ؛ لأنَّ أولياء الشَّيطان كيدهم مهما عظُم ، وكبُر ضعيفٌ. قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا *} [النساء: ٧٦] ، فإنَّ قوَّتهم بسبب ضعف إيماننا ، وبُعْدنا عن منهج ربِّنا؛ لأنَّ الإيمان الصَّحيح تنهار أمامه جميع المؤامرات ، وتفشل بسببه جميع الخطط ، لكن لا بدَّ من نزع عنصر الخوف الَّذي قتل كثيراً من الهِمَم ، وأحبط كثيراً من الأعمال. والأحداثُ تؤكِّد أنَّ (الوهم) قد يقتل.

وحين توجد الفئة المؤمنة الصَّابرة يتحطَّم الكيد كلُّه؛ يهوديّاً كان أم غير يهوديٍّ أمام عوامل التصدِّي والنُّهوض. قال تعالى: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *} [آل عمران: ١٢٠] .

وهذا لا يعني ـ بحالٍ من الأحوال ـ تجاهل قوَّة العدوِّ ، أو التَّقليل من شأنه ، حتَّى لو كان عدوّاً حقيراً ، فضلاً عن عدو مُدَجَّجٍ ، وقديم (الْمُدَجَّجُ: من عليه سلاحه).

والمطلوب أن نسلك طريق الاعتدال في تقدير حجم العدوِّ ، فلا نبالغ في تهويل قوَّته بما يوهن قوانا ، ويفتِّت عزيمتنا ، ويُسوِّغ لنا الهزيمة ، وفي المقابل لا نستهين به ، أو نتجاهل وجوده[(٥٩٦)]. وستمضي في اليهود وغيرهم سنَّة الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ *} [يونس: ٨١] .

* * *

المبحث الرَّابع

سنَّة التَّدافع وحركة السَّرايا

أولاً: سنَّة التَّدافع:

إنَّ من السُّنن الَّتي تعامل معها النَّبيُّ (ص) ، سنَّةَ التَّدافع ، وتظهر جليّاً في الفترة المدنيَّة مع حركة السَّرايا، والبُعوث، والغزوات الَّتي خاضها النَّبيُّ (ص) ضدَّ المشركين، وهذه السنَّة متعلقةٌ تعلُّقاً وطيداً بالتَّمكين لهذا الدِّين ، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز ، وجاء التَّنصيص عليها في قوله تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *} [البقرة: ٢٥١] ، وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *} [الحج: ٤٠].

ونلاحظ في اية البقرة: أنَّها جاءت بعد ذكر نموذج من نماذج الصِّراع بين الحقِّ والباطل ، المتمثِّل هنا في طالوتَ وجنوده المؤمنين ، وجالوتَ وأتباعه ، ويذيِّل الله تعالى الاية بقوله: {وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *} [البقرة: ٢٥١] ؛ «ممَّا يفيد: أنَّ دفع الفساد بهذا الطَّريق ، إنعامٌ يعمُّ النَّاسَ كلَّهم»[(٥٩٧)].

وتأتي اية الحج بعد إعلان الله تعالى: أنَّه يدافع عن أوليائه المؤمنين ، وبعد إذنه لهم ـ سبحانه ـ بقتال عدوِّهم ، ويختتم الاية بتقريرٍ لقاعدةٍ أساسيَّةٍ: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *}
لقد أدرك الصَّحابة هذه السُّنَّة ، وعلموا: أنَّ القضاء على الباطل وتدميره ، لابدَّ له من أمَّةٍ لها قيادةٌ ومنهجٌ ، وقوَّةٌ تدمغ الباطل ، وتزهقه ، وأيقنوا أنَّ الحقَّ يحتاج إلى عزائمَ تنهض به ، وسواعدَ تمضي به ، وقلوب تحنو عليه ، وأعصاب ترتبط به. لقد علَّمهم النَّبيُّ (ص) كيف يتعاملون مع هذه السُّنَّة ، فاستجابوا لأمر الله تعالى عندما أمرهم بالجهاد في سبيله ، فقد شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الجهاد لهذه الأمَّة ، وجعله فريضةً ماضيةً إلى يوم القيامة ، لا يبطله جورُ جائرٍ ،
ولا عدلُ عادل ، وما تركه قومٌ إلا أذلَّهم الله ، وسلَّط عليهم عدوَّهم. وقد شرع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الجهاد على مراحل؛ ليكون أروضَ للنَّفس ، وأكثر ملاءمةً للطَّبع البشري ، وأحسن موافقةً لِسَيْرِ الدَّعوة ، وطريقة تخطيطها[(٥٩٨)]؛ فكان تشريع القتال على مراحل:
المرحلة الأولى: الحظر ، وذلك عندما كان المسلمون في مكَّة ، وكانوا يطالبون النَّبيَّ (ص) بالإذن لهم في القتال ، فيجيبهم (ص) : «اصبروا؛ فإنِّي لم أُؤمر بالقتال» [الكشاف (١٩٩/٤)][(٥٩٩)].
المرحلة الثانية: الإذن به من غير إيجابٍ. قال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ *} [الحج: ٣٩] .
المرحلة الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين. قال تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ *} [البقرة: ١٩٠] .
المرحلة الرابعة: فرض قتال عموم الكفَّار على المسلمين. قال تعالى: {وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *} [التوبة: ٣٦] .
إنَّ هذا التدرُّج في حكم القتال ، كان يقتضيه وضعُ الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة ، وحالة الجيش الإسلاميِّ الَّذي كان اخذاً في التَّكوين ، من حيث العَدد ، والعُدد والتَّدريب ، وما إلى ذلك ، فكان لابُدَّ من مُضيِّ فترةٍ من الوقت ، يكون التعرُّضُ فيها لأعداء الدَّعوة الإسلاميَّة من كفَّار قريش ـ الَّذين اذوا المسلمين ، واضطروهم إلى الخروج من ديارهم .. يكون فيها ذلك التعرُّض لأعداء الدَّعوة ، إنَّما هو على سبيل الاختيار ، لا على سبيل الإجبار ، وذلك إلى أن يَصْلُب عودُ الدَّولة الإسلاميَّة ، ويشتدَّ بأسُها ، بحيث تستطيع الصُّمود أمام قوى الكفر في الجزيرة العربيَّة ، حتَّى لو عملت قريش على تأليبها ضدَّ المسلمين ، كما وقع فيما بعد! وحينئذٍ يأتي وجوب القتال ، في حالةٍ تكون فيها أوضاع الدَّولة الإسلاميَّة ، والجيش

الإسلامي ، على أُهْبَةِ الاستعداد لمواجهة الاحتمالات كافَّةً ، هذا فيما يتَّصل بالقتال الَّذي يتعرَّض فيه المسلمون لكفَّار قريش ، جاء النَّصُّ بالإذن ، أي بالإباحة ، لا بالوجوب ، أمَّا في حالة ما لو تعرَّض المسلمون ـ وهم في دولتهم في المدينة ـ لهجوم الأعداء عليهم؛ فالقتال هنا فرضٌ ، لا مجال فيه للخيار ، وليس مجرَّد أمرٍ مأذون فيه ، وذلك تطبيقاً لبيعة الحرب ، بيعة العقبة الثَّانية ، الَّتي أوجبت على الأنصار حرب الأحمر ، والأسود من النَّاس ، في سبيل الذَّود عن الدَّعوة الإسلاميَّة ، وصاحبها (ص) ، وأتباعها[(٦٠٠)].

ومع نزول الإذن بالقتال شرع رسولُ الله (ص) في تدريب أصحابه على فنون القتال ، والحروب ، واشترك معهم في التَّمارين ، والمناورات ، والمعارك ، وعَدَّ السَّعي في هذه الميادين من أجلِّ القربات ، وأقدس العبادات؛ التي يُتَقَرَّب بها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد قام النَّبيُّ (ص) بتطبيق قول الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *} [الأنفال: ٦٠] ، وكان منهجه (ص) في تكوين المجاهد المسلم ، يعتمد على نهجين متوازنين: التَّوجيه المعنويِّ ، والتَّدريب العمليّ.

١ ـ التَّوجيه المعنويُّ:

كان (ص) يسعى إلى رفع معنويات المجاهدين؛ فيمنحهم أملاً يقينيّاً بالنَّصر ، أو الجنَّة ، ومنذ تلك اللَّحظات وفيما بعد ، ظلَّ هذا (الأمل) يحدو الجنديَّ المسلم في ساحات القتال ، ويدفعه إلى بذل كلِّ طاقاته النَّفسيَّة ، والجسدية ، والفنِّيَّة من أجل كسب المعارك ، أو الموت تحت ظلال السُّيوف[(٦٠١)] ، فمن أقواله (ص) في حثِّ أصحابه على الجهاد: «والَّذي نفسي بيده! لولا أنَّ رجالاً من المؤمنين لا تَطيبُ أنفسُهم أن يتخلَّفوا عنِّي ، ولا أجد ما أحملهم عليه؛ ما تخلَّفت عن سريَّةٍ تغدو في سبيل الله ، والذي نفسي بيده! لوددت أنِّي أُقتلُ في سبيل الله ، ثمَّ أُحيا ، ثم أُقتل ، ثمَّ أُحْيا ، ثمَّ أُقتل ، ثمَّ أُحيا ، ثمَّ أقتلُ» [البخاري (٢٧٩٧) والنسائي (٨/٦)] ، وقوله (ص) : «ما أحدٌ يدخلُ الجنةَ ، يُحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء ، إلا الشهيدُ؛ يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مراتٍ؛ لما يرى من الكرامة» [البخاري (٢٨١٧) ومسلم (١٨٧٧/١٠٩)] .

٢ ـ التَّدريب العمليُّ:

سعى النَّبيُّ (ص) إلى اعتماد كلِّ طاقات الأمَّة القادرة على البذل ، والعطاء ، رجالاً ، ونساءً ، وصبياناً ، وشباباً ، وشيوخاً ، وإلى التَّمرُّس على كلِّ مهارةٍ في القتال ، طعناً بالرُّمح ، وضرباً بالسَّيف ، ورمياً

بالنَّبل ، ومناورةً على ظهور الخيل ، وكان (ص) يمزج خَطَّي التَّربية العسكريَّة المتوازنين: التَّوجيه ، والتدريب ، والأمل في النَّصر ، أو الجنة ، وتقديم الجهد في ساحات القتال ، ويحضُّ المسلمين على إتقان ما تعلَّموا من فنون الرِّماية. قال رسول الله (ص) : «من عَلِمَ الرَّمي ثمَّ تركه؛ فليس منَّا ، أو: قدْ عَصَى» [مسلم (١٩١٩) وأحمد (١٤٨/٤) وابن ماجه (٢٨١٤)] ، فهي دعوةٌ إلى عموم الأمَّة ، وحتَّى مَنْ دخلوا في سنِّ الشيخوخة ، للتَّدريب على إصابة الهدف ،

ومهارة اليد ، ونشاط الحركة. إنَّ الإسلام يهتمُّ بطاقات الأمَّة جميعها ، ويوجِّهها نحو المعالي ، وعلوِّ الهمَّة. وكان (ص) يهتمُّ بالأعداء على حسب كلِّ ظرفٍ وحالٍ ، ويحثُّ على كلِّ وسيلةٍ يستطيعها المسلمون ، وقد ثبت عنه (ص) : أنَّه قال: «وأعدِّوا لهم ما استطعتم من قوة: ألا إنَّ القوَّة الرَّمي! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ! ألا إنَّ القوَّة الرَّميُ!» [مسلم (١٩١٧) وأبو داود (١٥١٤) والترمذي (٣٠٨٣) وابن ماجه (٢٨٨٣)] .

إنَّ القران الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة يعلمان المسلمين الإعداد على الأصعدة المعنويَّة ، والمادِّيَّة كافَّةً ، وأن يأخذوا حذرهم. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا *} [النساء: ٧١] وهذا يدلُّ على وجوب العناية بالأسباب ، والحذر من مكائد الأعداء ، ويدخل في ذلك جميع أنواع الإعداد؛ المتعلِّقة بالأسلحة ، والأبدان ، وتدريب المجاهدين على أنواع الأسلحة ، وكيفيَّة استعمالها ، وتوجيههم إلى ما يعينهم على جهاد عدوهم ، والسَّلامة من مكائده ، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ أطلق الأمر بالإعداد ، وأخْذِ الحذر ، ولم يذكر نوعاً دون نوعٍ ، ولا حالاً دون حالٍ ، وما ذلك إلا لأنَّ الأوقات تختلف ، والأسلحة تتنوَّع ، والعدوَّ يقلُّ ويكثر ، ويضعف ويقوى.

كان الجهاد في فهم الصَّحابة مدرسةً عظيمةً في تزكية النَّفس ، وأيقنوا: أنَّه لكي يثمر الجهاد ثمراته المرجوَّة ، فعليهم أن يخلصوا لله سبحانه في جهادهم ، وأن يعملوا بما امنوا به ، ودعوا النَّاس إليه ، فقد بيَّن لهم الرَّسول (ص) خطورة الرِّياء في الأعمال. فقد قال (ص) : «إنَّ أوَّل النَّاس يُقْضى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشهدَ ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فعَرَفَها ، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتَّى استُشْهِدتُ ، قال: كَذبت! ولكنَّك قاتلت؛ لأن يُقال: جَرِيءٌ ، فقد قيل ، ثُمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه؛ حتَّى أُلْقي في النَّار ، ورجلٌ تعَلَّمَ العلمَ ، وعلَّمه ، وقرأ القران ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فَعَرَفها ، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلمَ ، وعلَّمتُه ، وقرأتُ فيك القران ، قال: كذبتَ! ولكنَّك تعلَّمت العلمَ؛ ليقال: عالمٌ ، وقرأتَ القران؛ ليقال: هو قارىءٌ ، فقد قيل ، ثمَّ أُمر به ، فسُحب على وجهه ، حتَّى أُلقي في

النَّار ، ورجلٌ وسَّع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كلِّه ، فأُتي به ، فعرَّفه نِعَمَهُ ، فَعَرَفَها ، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنْفَقَ فيه إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبتَ! ولكنَّك فعلت؛ ليقال: هو جَوَادٌ ، فقد قيل ، ثمَّ أُمر به ، فسُحب على وجهه ، ثمَّ أُلقي في النَّار» [مسلم (١٩٠٥) وأحمد (٣٢٢/٢) والنسائي (٢٣/٦)] .

ولذلك أخلص الصَّحابة في جهادهم لله تعالى؛ طمعاً في ثوابه ، وخوفاً من عقابه ، فكان كلامهم لله ، وأنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وقدَّموا أنفسهم دفاعاً عن دين الله ، ومن أجل

إعلاء كلمة الله تعالى ، وكان لجهاد الصَّحابة في سبيل الله تعالى اثارُه العظيمة في تزكية نفوسهم ، والَّتي تتجلَّى في الجوانب التَّالية:

(أ) تحرير النَّفس من حبِّ الحياة ، والتَّعلُّق بها:

الجهاد في سبيل الله تدريبٌ عمليٌّ على الزُّهد في الدُّنيا ، والتَّطلُّع إلى الاخرة ، والتَّشوُّق لما أعدَّه الله لعباده في الجنَّة ، وهذا من أعظم ما يهدف إليه المنهج الإسلاميُّ في تزكية النَّفس؛ فالمجاهد يبيع نفسه لله تعالى ابتغاء مرضاته ، والله سبحانه واهب الأنفس ، والأموال ، ومالكُها ، يكرم عباده المجاهدين بأن يشتري منهم ما وهبهم؛ إذا بذلوها في سبيله[(٦٠٢)].

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ *} [التوبة: ١١١ ـ ١١٢] .

(ب) تمحيص النَّفس ، وتدريبها على الصَّبر ، والفداء:

أيقن الصَّحابة الكرام من تربية النَّبيِّ (ص) لهم: أنَّ الجنَّة محفوفةٌ بالمكاره ، ولا تُنال براحة البدن ، ولابدَّ من تعويد النَّفس على المشاقِّ ، والصِّعاب؛ ليقوى بنيانها ، وتصمد في وجه الشَّدائد ، والأهوال ، وتدع الخمول ، والكسل ، والتَّواني ، وتعلَّمُوا من القران الكريم: أنَّ حكمة الله سبحانه اقتضت أن تتعرَّض النُّفوس للتَّمحيص؛ ليظهر ثباتها ، ويستقيم حالها ، وأنَّ ميدان الجهاد من أكبر الميادين لهذا التمحيص[(٦٠٣)].

قال تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *أَمْ حَسِبْتُمْ

أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *} [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٣] .

(ج) الجهاد عزَّةٌ للنَّفس ، وقوَّةٌ لها:

وتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من الهدي النَّبويِّ الكريم: أنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى وسيلةٌ عظيمةٌ لتنمية العزَّة في نفس المسلم ، وتقوية كيانها ، وتطهيرها من الذِّلَّة ، والمهانة ، والخمول ، وغير ذلك من الصِّفات المهلكة للفرد ، والمجتمع ، فقد بيَّن لهم سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنَّ المؤمن عزيز الجانب؛ لأنَّه يستمدُّ العزَّة من إيمانه بربه ، وتمسُّكه بدينه؛ قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ *} [المنافقون: ٨] .

فإذا تخلَّى المسلم عن الجهاد ، وشُغل بالدُّنيا عن الاخرة؛ تعوَّدت نفسه الذِّلَّة ، والهوان ، والاستكانة ، والخُنُوع (أي: الذُّلَّ ، والخضوع) قال (ص) : «إذا تبايعتم بالعينة[(٦٠٤)] ، وأخذتم أذناب البقر[(٦٠٥)] ، ورضيتم بالزَّرع ، وتركتُم الجهاد ، سلَّط الله عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتَّى ترجعوا إلى دينكم» [أبو داود (٣٤٦٢) وأحمد (٤٢/٢ و٨٤)] .

ويُخشى على منْ جعل الدُّنيا أكبر همِّه ، ومبلغ علمه ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يفكر إلا من أجلها أن يكون ممَّن قال الله تعالى فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ *أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *} [يونس: ٧ ـ ٨] .

وقد قال (ص) : «مَنْ مات؛ ولم يَغْزُ ، ولم يُحدِّث به نَفْسَه؛ مات على شعبةٍ من نفاقٍ» [مسلم (١٩١٠) وأحمد (٣٧٤/٢) وأبو داود (٢٥٠٢) والنسائي (٨/٦)] .

إنَّ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ، سلكوا طريق الجهاد بأنواعه ، وبذلك حظوا بالبشارة العظمى ، وهي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *} [العنكبوت: ٦٩] .

ثانياً: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى:

١ ـ حماية حرية العقيدة:

قال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ *} [الأنفال: ٣٩ ـ ٤٠] .

قال صاحب الظِّلال: «هناك واجبٌ اخر على الجماعة المسلمة ، وهو أن تُحطِّم كلَّ قوَّةٍ تعترض طريق الدَّعوة ، وإبلاغها للنَّاس في حرِّيَّةٍ ، أو تهدِّد حرية اعتناق العقيدة ، وتفتن النَّاس عنها ، وأن تظلَّ تجاهد حتَّى تصبح الفتنة للمؤمنين بالله غير ممكنةٍ لقوَّةٍ في الأرض ، ويكون الدِّين لله؛ لا بمعنى إكراه الناس على الإيمان ، ولكن بمعنى استعلاء دين الله في الأرض ، بحيث لا يخشى أن يدخل فيه من يريد الدُّخول ، ولا يخاف قوَّةً في الأرض تصدُّه عن دين الله أن

يبلغه ، وأن يستجيب له ، وأن يبقى عليه ، وبحيث لا يكون في الأرض وضعٌ ، أو نظامٌ يحجب نور الله وهداه عن أهله ، ويضلَّهم عن سبيل الله بأيَّة وسيلةٍ ، وبأيَّة أداةٍ ، وفي حدود هذه المبادأى العامَّة كان الجهاد في الإسلام. إنَّه الجهاد للعقيدة ، لحمايتها من الحصار ، وحمايتها من الفتنة ، وحماية منهجها ، وشريعتها في الحياة ، وإقرار رايتها في الأرض؛ بحيث يَرْهَبُها من يهمُّ بالاعتداء عليها ، وبحيث يلجأ إليها كلُّ راغبٍ فيها ، لا يخشى قوَّةً أخرى في الأرض تتعرَّض له ، أو تمنعه ، أو تفتنه.

وهذا هو الجهاد الوحيد الَّذي يأمر به الإسلام ، ويقرُّه ، ويثبت عليه ، ويَعْتَبِر الَّذين يقاتلون فيه شهداء ، والَّذين يَحْتَمِلون أعباءه أولياء»[(٦٠٦)].

٢ ـ حماية الشَّعائر ، والعبادات:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ *الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ *} [الحج: ٣٨ ـ ٤١] .

قال النَّسفي ـ رحمه الله! ـ: «أي: لولا إظهاره ، وتسليطه المسلمين على الكافرين بالمجاهدة؛ لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمنتهم ، وعلى متعبَّداتهم ، فهدموها ، ولم يتركوا للنَّصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود صلواتٍ؛ أي: كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، أو لغلب المشركون في أمَّة محمَّدٍ (ص) على المسلمين، وعلى أهل الكتاب الَّذين في ذمَّتهم، وهدموا متعبَّدات الفريقين ، وقدَّم غير المساجد عليها؛ لتقدُّمها وجوداً ، أو لقربها من التَّهديم»[(٦٠٧)].

٣ ـ دفع الفساد عن الأرض:

قال تعالى: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ *تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ *} [البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥٢] .

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ} «أي: لولا الله يدفع عن قومٍ باخرين ، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت ، وشجاعة داود؛ لهلكوا»[(٦٠٨)].

وقال صاحب الكشَّاف في تفسير هذه الاية: «ولولا أنَّ الله يدفع بعض النَّاس ببعض ، ويكفَّ بهم فسادهم؛ لغلب المفسدون ، وفسدت الأرض ، وبطلت منافعها ، وتعطَّلت مصالحها؛ من الحرث ، والنَّسل ، وسائر ما يعمر الأرض»[(٦٠٩)].

وقال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعدي في تفسيره: «إنَّ في هذه الاية عبراً كثيرةً للأمَّة؛ منها: فضيلة الجهاد في سبيله ، وفوائده ، وثمراته ، وأنَّه السَّبب الوحيد في حفظ الدِّين ، وحفظ الأوطان ، وحفظ الأبدان ، والأموال ، وأنَّ المجاهدين ولو شقَّت عليهم الأمور؛ فإنَّ عواقبهم حميدةٌ ، كما أنَّ النَّاكلين ولو استراحوا قليلاً؛ فإنَّهم سيتعبون طويلاً»[(٦١٠)].

٤ ـ الابتلاء ، والتَّربية ، والإصلاح:

قال تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ *سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ *وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ *} [محمد: ٤ ـ ٦] .

قال ابن كثيرٍ في تفسير قوله تعالى: أي: ولكن شرع لكم {وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ} ، وقتال الأعداء ، ليختبركم ، وليبلو أخباركم ، كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي ال عمران ، وبراءة ، في قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٢][(٦١١)] .

قال صاحب الظِّلال: «إنَّما يتَّخذ الله المؤمنين ـ حين يأمرهم بضرب رقاب الكفار ، وشدِّ وثاقهم بعد إثخانهم إنَّما يتَّخذهم سبحانه ـ ستاراً لقدرته ، ولو شاء لانتصر من الكافرين جهرةً ، كما انتصر منهم من غير هذه الأسباب كلِّها؛ ولكنَّه إنَّما يريد لعباده المؤمنين الخير. قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ

لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *} [البقرة: ٢١٦] ، وهو يبتليهم ، ويربّيهم ، ويصلحهم ، وييسر لهم أسباب الحسنات الكبار:

أ . يريد ليبتليهم: وفي هذا الابتلاء يستجيش في نفوس المؤمنين أكرم ما في النَّفس البشرية من طاقاتٍ ، واتِّجاهات ، فليس أكرم في النفس من أن يعزَّ عليها الحقُّ؛ الَّذي تؤمن به ، حتَّى تجاهد في سبيله ، فتقتُل ، وتُقتل ، ولا تسلِّم في هذا الحق الذي تعيش له ، وبه ، ولا تستطيع الحياة بدونه ، ولا تحبُّ هذه الحياة في غير ظلّه.

ب . ويريد ليربيهم: فيظلُّ يُخرج من نفوسهم كلَّ هوىً ، وكلَّ رغبةٍ في أعراض هذه الأرض الفانية ممَّا يعزُّ عليهم أن يتخلَّوا عنه ، ويظلُّ يقوّي في نفوسهم كلَّ ضعفٍ ، ويكمل كلَّ نقصٍ ، وينفي كلَّ زَغلٍ[(٦١٢)] ، ودَخل ، حتَّى تصبح رغائبهم كلُّها في كفَّةٍ ، وفي الكفة الأخرى تلبية دعوة الله للجهاد ، والتَّطلُّع إلى وجه الله ، ورضاه ، وتشيل تلك[(٦١٣)] ، ويعلم الله من هذه النُّفوس: أنَّها خُيِّرت ، فاختارت ، وأنَّها تربَّت ، فعرفت ، وأنَّها لا تندفع بلا وعيٍ؛ ولكنَّها تقدِّر ، وتختار.

ج . ويريد ليصلحهم: ففي معاناة الجهاد في سبيل الله ، والتَّعرُّض للموت في كلِّ جولةٍ ما يعوِّد النَّفس الاستهانة بخطر المخوِّف ، الَّذي يكلف النَّاس الكثير من نفوسهم ، وأخلاقهم ، وموازينهم ، وقيمهم ، ليتَّقوه ، وهو هيِّنٌ ، هيِّنٌ عند من يعتاد ملاقاته ، سواءٌ سَلِمَ منه ، أو لاقاه ، والتَّوجُّه به لله في كلِّ مرَّةٍ ، يفعل في النفس في لحظات الخطر شيئاً يقرِّبه للتَّصوُّر فعل الكهرباء بالأجسام ، وكأنَّه صياغةٌ جديدةٌ للقلوب والأرواح ، على صفاءٍ ، ونقاءٍ ، وصلاح.

ثمَّ هي الأسباب الظَّاهرة لإصلاح الجماعة البشرية كلِّها عن طريق قياداتها بأيدي المجاهدين؛ الَّذين فرغت نفوسهم من كلِّ أعراض الدُّنيا ، وكلِّ زخارفها ، وهانت عليهم الحياة؛ وهم يخوضون غِمار الموت في سبيل الله ، ولم يعد في قلوبهم ما يشغلهم عن الله ، والتَّطلُّع إلى رضاه. وحين تكون القيادة في مثل هذه الأيدي تصلح الأرض كلُّها ، ويصلح العباد ، ويصبح عزيزاً على هذه الأيدي أن تسلِّم راية القيادة للكفر ، والضَّلال ، والفساد ، وهي قد اشترتها بالدِّماء ، والأرواح، وكلُّ عزيزٍ، وغالٍ أرخصته لتتسلَّم هذه الراية، لا لنفسها ، ولكن لله»[(٦١٤)].

٥ . إرهاب الكفَّار ، وإخزاؤهم ، وإذلالهم ، وتوهين كيدهم:

قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *}

[الأنفال: ٦٠] ، وقال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ١٤ ـ ١٥] ، وقال تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ *} [الأنفال: ١٧ ـ ١٨] .

٦ ـ كشف المنافقين:

قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ *} [آل عمران: ١٧٩] .

قال ابن كثير: «أي: لابدَّ أن يعقد سبباً من المحنة يظهر فيه وليُّه ، ويفتضح فيه عدوُّه ، يعرف به المؤمن الصَّابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أُحُد ، الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانُهم ، وصبرُهم ، وجلَدُهم ، وثباتُهم ، وطاعتُهم لله ، ورسولِه (ص) ، وهتك به سِتْرَ المنافقين ، فظهر مخالفتُهم ، ونكولُهم عن الجهاد ، وخيانتهم للهِ ، ولرسوله (ص) »[(٦١٥)].

٧ ـ إقامة حكم الله ، ونظام الإسلام في الأرض:

إنَّ إقامة حكم الله في الأرض هدفٌ من أهداف الجهاد ، قال الله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *} [النساء: ١٠٥] .

٨ ـ دفع عدوان الكافرين:

إنَّ من أهداف الجهاد في الإسلام دفعَ عدوان الكافرين ، وهذا العدوان أنواعٌ؛ منها:

أ ـ أن يعتدي الكفَّار على فئةٍ مؤمنةٍ مُسْتَضْعفةٍ في أرض الكفار ، لا سيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلادٍ تأمن فيها على دينها: فإنَّ الواجب على الدَّولة الإسلاميَّة ، أن تعدَّ العدة لمجاهدة الكفار؛ الَّذين اعتدوا على تلك الطَّائفة ، حتَّى يخلِّصوها من الظُّلم ، والاعتداء الواقع عليها[(٦١٦)]. قال تعالى: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا *} [النساء: ٧٤ ـ ٧٥] .

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ:

«حضٌّ على الجهاد ، وهو يتضمَّن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين؛ الذين يسومونهم سوء العذاب ، ويفتنونهم عن الدِّين؛ فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، واستنقاذ المؤمنين الضُّعفاء من عبادِه ، وإن كان في ذلك تلفُ النُّفوس. وتخليص الأُسارى واجبٌ على جماعة المسلمين؛ إمَّا بالقتال ، وإمَّا بالأموال ، وذلك أوجب لكونها دون النُّفوس؛ إذ هي أهون منها»[(٦١٧)].

ب ـ أن يعتدي الكفَّار على ديار المسلمين: قال تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٢] .

نصَّ الفقهاء على أنَّه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين؛ يتعيَّن الجهاد للدِّفاع عن الدِّيار؛ لأنَّ العدوَّ إذا احتلَّها سام المسلمين عذاباً ، ونفَّذ فيها أحكام الكفر ، وأجبر أهلها على الخضوع له ، فتصبح دار كفرٍ بعد أن كانت دار إسلام.

قال ابن قدامة ـ رحمه الله ـ: «ويتعيَّن الجهاد في ثلاثة مواضع: ...الثاني: إذا نزل الكفار ببلدٍ معيَّنٍ على أهله قتالُهم ، ودفعُهم»[(٦١٨)].

وقال بعض علماء الحنفيَّة: «وحاصله: أنَّ كلَّ موضعٍ خيفَ هجوم العدوِّ منه ، فُرِض على الإمام ، أو على أهل ذلك الموضع ، حفظُه ، وإن لم يقدروا فُرِض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدوِّ»[(٦١٩)].

ج ـ أن ينشر العدوُّ الظُّلم بين رعاياه ـ ولو كانوا كفاراً ـ: إنَّ الله سبحانه حرَّم على عباده الظلم ، والعدلُ في الأرض واجبٌ لكلِّ النَّاس ، وإذا لم يدفع المسلمون الظُّلم عن المظلومين؛ أثِموا؛ لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض؛ لإحقاق الحقِّ ، وإبطال الباطل ، ونشر العدل ، والقضاء على الظُّلم ، ولا فلاح لهم إلا بذلك ، وهو الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ، وما كانوا خير أمَّةٍ أخرجت للنَّاس إلا بذلك ، كما قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠] ، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المائدة: ٨] .

ومن العدل كفُّ الظُّلم عن المظلوم الكافر ، الَّذي يبغضه المسلم لكفره. قال السَّرخسيُّ ـ رحمه الله! ـ: «وإن كان ـ يقصد أحد ملوك أهل الحرب ـ طلب الذِّمَّة على أن يُتْرَك يحكم في أهل مملكته بما شاء؛ من قتلٍ ، أو صَلْبٍ ، أو غيره بما لا يصلح في دار الإسلام؛ لم يُجَبْ إلى ذلك؛ لأنَّ التقرير على الظُّلم مع إمكان المنع منه حرامٌ»[(٦٢٠)].

د ـ الوقوف ضدَّ الدُّعاة إلى الله ، ومنعهم من تبليغ دعوة الله: إنَّ المسلمين مفروضٌ عليهم من قِبَل المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يبلِّغوا رسالات الله للنَّاس كافَّةً. قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [آل عمران: ١٠٤] .

وأعداء الله يصدُّون أولياءه عن تبليغ عباده دعوته ، ولا يتركون لهم سبيلاً إلى النَّاس ، كما لا يأذنون للدُّعاة أن يُسْمِعوا النَّاس دعوة الله ، ويضعون العراقيل ، والعوائق ، والحواجز ، بين الدَّعوة ، ودعاتها ، والناس ، ولذلك أوجب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على عباده المؤمنين ، قتال كلِّ مَنْ يَصُدُّ عن سبيل الله تعالى[(٦٢١)].

قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ *وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ *ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ *فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لاَنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ *} [محمد: ١ ـ ٤] .

وممَّا تقدَّم يتَّضح لنا أنَّ للجهاد أهدافاً ساميةً ، ومصالح كريمةً ، وفوائدَ عظيمةً تتحقَّق للمسلمين وغيرهم ، وأنَّ الجهاد من اثار الهجرة ، ونتائجها المهمَّة ، وأنَّه من الدَّعائم؛ الَّتي أقامها الرَّسول (ص) لبناء الدَّولة الإسلاميَّة ، وتوطيد أركان الإسلام[(٦٢٢)]؛ وذلك «لأنَّ الأمَّة بغير جيشٍ قويٍّ عرضةٌ للضَّياع؛ إذ يطمع فيها أعداؤها ، ولا يهابون قوَّتها ، فإذا كان لها جيشٌ قويٌّ احترم العدوُّ إرادتها ، فلا تحدِّثه نفسه باعتداءٍ عليها؛ فيسود عند ذلك السَّلام»[(٦٢٣)].

ثالثاً: أهم السَّرايا ، والبعوث الَّتي سبقت غزوة بدرٍ الكبرى:

بمجرَّد الاستقرار الَّذي حصل للمسلمين بقيادة الرَّسول (ص) في المدينة ، وقيام الجماعة المؤمنة في المجتمع الجديد كان لابدَّ أن يتنبَّه المسلمون ، وقيادتهم إلى الوضع حولهم ،

وما ينتظرهم من جهة أعدائهم أعداء الدَّعوة ، وكان لابدَّ أن تنطلق الدَّعوة الإسلاميَّة إلى غايتها الَّتي أرسل الله محمَّداً (ص) بها ، وتحمَّل هو وأصحابه في سبيلها المشاقَّ الكثيرة.

إنَّ موقف قريشٍ في مكَّة من أهم الأمور الَّتي يجب أن تعالجها قيادة المدينة؛ لأنَّ أهل مكة لن يرضوا بأن يقوم للإسلام كيانٌ ـ ولو كان في المدينة ـ لأنَّ ذلك يهدِّد كيانهم ، ويُقَوِّض[(٦٢٤)] بنيانهم ، فهم يعلمون أنَّ قيام الإسلام معناه انتهاء الجاهليَّة ، وعادات الاباء ، والأجداد ، فلابدَّ من الوقوف في وجهه.

وقد بذلت مكةُ ، وأهلُها المحاولات الكثيرة؛ لعدم وصول النَّبيِّ (ص) إلى المدينة ، واتَّخذت مواقف عدائيَّةً لضرب الإسلام ، والقضاء على المسلمين[(٦٢٥)] ، واستمرَّ هذا العداء بعد هجرة النَّبيِّ (ص) ، ومن أهم المواقف الدَّالة على ذلك: أنَّ عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حدَّثَ عن سعد بن معاذ: أنَّه قال: كان صديقاً لأُمية بن خَلف ، وكان أُمَيةُ إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ ، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكَّة نزل على أميَّةَ ، فلمَّا قدم رسولُ الله (ص) المدينةَ ، انطلق سعد معتمراً ، فنزل على أُميةَ بمكَّةَ ، فقال لأُميةَ: انظر لي ساعةَ خَلوةٍ ، لعلِّي أن أطوف بالبيت ، فخرج به قريباً من نصف النَّهار ، فلقيهما أبو جهل ، فقال: يا أبا صفوان! من هذا معك؟ فقال: هذا سعدٌ. فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكَّة امناً ، وقد أويتم الصُّبَأة[(٦٢٦)] ، وزعمتم: أنَّكم تنصرونهم ، وتعينونهم ، أما والله! لولا أنك مع أبي صفوان؛ ما رجَعْتَ إلى أهلك سالماً. فقال له سعد ـ ورفع صوته عليه ـ: أما والله! لئن منعتني هذا ، لأمنعنَّك ما هو أشدُّ عليك منه ، طريقَك على المدينة ...» [البخاري (٣٩٥٠)] وفي روايةٍ عند البيهقيِّ [دلائل النبوة (٢٥/٣)] : «والله! لئن منعتني أن أطوف بالبيت ، لأقطعنَّ عليك متجرَك إلى الشَّام».

تدلُّ هذه الواقعة على أنَّ (أبا جهلٍ) ، يَعْتَبِرُ (سعد بن معاذ) من أهل الحرب بالنِّسبة إلى قريش ، ولولا أنَّه دخل مكة في أمان زعيمٍ من زعمائها؛ لأهدر دمه ، وهذا تصرُّف جديدٍ من رؤساء مكَّة حيال أهل المدينة ، لم يكن قبل الدَّولة الإسلاميَّة فيها؛ فلم يكن أحدٌ من أهل المدينة يحتاج إلى عقد أمانٍ؛ لكي يُسْمَحَ له بالدُّخول إلى مكَّة! بل إن قريشاً كانت تكره أن تفكِّر في حدوث حالة حرب بينها وبين أهل المدينة قبل هذا الوضع الجديد ، وقالوا في هذا الصَّدد ، يخاطبون أهل المدينة ما نصُّه: «والله! ما مِنْ حيٍّ من العرب أبغضَ إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم»[(٦٢٧)] ، كما تدلُّ هذه القصَّة ، على أنَّ قوافل تجارة قريش في طريقها إلى الشَّام كانت

في أمانٍ حتَّى حدوث هذه الواقعة ، لم تتعرَّض لها الدَّولة الإسلاميَّة بمكروهٍ؛ أي: أنَّ الدَّولة الإسلاميَّة حتَّى هذا الوقت لم تعامل أهل مكَّة معاملة أهل الحرب ، فلم تضرب عليهم الحصار الاقتصاديَّ ، ولم تصادر

لهم أيَّة قافلةٍ ، أو تقصدها بسوءٍ! ومعنى هذا أنَّ الأيدي الممسكة بزمام الأمور في مكَّة هي الَّتي بادرت ، وأعلنت الحرب على الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ، واعتبرت المسلمين أهلَ حرب ، لا يُسْمح لهم بدخول مكَّة إلا بصفة مُسْتأمَنين[(٦٢٨)].

ودليلٌ اخر على مبادرة رؤساء مكَّة إلى إعلان الحرب ، على الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة ما جاء في سنن أبي داود: عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن رجلٍ من أصحاب النَّبيِّ (ص) : أنَّ كفار قريش كتبوا إلى (ابن أُبيٍّ) ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج؛ ورسولُ الله (ص) يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم اويتم صاحبنا ، وإنَّا نقسم بالله! لتُقاتِلنَّه ، ولتُخرجُنَّه ، أو لَنَسيرنَّ إليكم بأجمعنا ، حتَّى نقتل مقاتلتكم ، ونستبيح نساءكم. فلما بلغ عبد الله بن أُبيٍّ ومن كان معه من عبدة الأوثان ، اجتمعوا لقتال النبيِّ (ص) ، فلمَّا بلغ ذلك النبيَّ (ص)؛ لَقِيَهم ، فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر ممَّا تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم ، وإخوانكم!» فلمَّا سمعوا ذلك من النَّبيِّ (ص) ؛ تفرَّقوا. [أبو داود (٣٠٠٤) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٣) والبيهقي في دلائل النبوة (١٧٩/٣ ـ ١٨٠)] .

وهنا تظهر عظمة النُّبوَّة ، وعظمة القائد المربِّي (ص) ؛ حيث قضى على هذه الفتنة في مهدها ، وضرب على وتر العزَّة القبليَّة؛ فقد كان (ص) يدرك أغوار النَّفس البشريَّة الَّتي يتعامل معها؛ ولذلك كان خطابه مؤثِّراً في نفوس مشركي يثرب ، ونحن بحاجة إلى هذا الفقه العظيم ، في تفتيت محاولات المشركين للقضاء على الصفِّ الإسلاميِّ ، وزعزعة بنيانه الدَّاخلي ، وبعد أن بدأت قريش بإعلان حالة الحرب بينها وبين دولة الإسلام بالمدينة ، ونزل الإذن من الله تعالى بالقتال؛ صار من الطبيعي أن تتعامل دولة المدينة مع قريشٍ حسب ما تقتضيه حالة الحرب هذه ، فقد اتَّجه نشاط الرَّسول (ص) من أجل توطيد مكانة هذه الدَّولة ، والردِّ على قريش في إعلانها حالة الحرب على المدينة، فاتَّجه نشاطه (ص) نحو إرسال السَّرايا، والخروج في الغزوات[(٦٢٩)] ، فكانت تلك السَّرايا ، والغزوات الَّتي سبقت بدر الكبرى؛ ومن أهمها:

١ ـ غزوة الأبْوَاء:

أولى الغزوات الَّتي غزاها النَّبيُّ (ص) غزوة الأبواء[(٦٣٠)] ، وتُعْرَف بغزوة وَدَّان[(٦٣١)] أيضاً ، وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أميال ، أو ثمانية ، ولم يقع قتال في هذه الغزوة؛ بل تمَّت موادعة بني ضمرة (من كنانة) ، وكانت هذه الغزوة في (صفر سنة اثنتين من الهجرة) ، وكان عدد المسلمين مئتين بين راكبٍ ، وراجلٍ[(٦٣٢)].

٢ ـ سرية عُبَيْدة بن الحارث:

وهي أوَّل رايةٍ عقدها رسول الله (ص)[(٦٣٣)] ، وكان عدد السَّرِيَّة ستِّين من المهاجرين ، وكانت قوَّة الأعداء من قريش أكثر من مئتي راكبٍ ، وراجلٍ ، وكان قائدَ المشركين أبو سفيان بن حرب ، وحصلت مناوشاتٌ بين الطَّرفين على ماءٍ بوادي رابغ ، رمى فيها سعد بن أبي وقاص بسهمٍ ، فكان أوَّل سهمٍ رُمِيَ به في الإسلام ، وكانت بعد رجوعه من الأبواء[(٦٣٤)].

٣ ـ سريَّة حمزة بن عبد المطلب:

قال ابن إسحاق: وبعث النَّبيُّ (ص) في مقامه ذلك ـ أي لما وصل إلى المدينة بعد غزوة الأبواء ـ حمزة بن عبد المطلب إلى سيف[(٦٣٥)] البحر[(٦٣٦)] من ناحية العيص[(٦٣٧)] ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، فلقي أبا جهل بن هشام بذلك السَّاحل ، في ثلاثمئة راكبٍ من أهل مكَّة ، فحجز بين الفريقين مجديُّ بن عمرو الجُهَنِيُّ ، وكان موادعاً للفريقين جميعاً ، فانصرف بعضُ القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال[(٦٣٨)].

٤ ـ غزوة بُوَاط[(٦٣٩)]:

وكانت غزوة رسول الله (ص) بُواط في شهر ربيع الأوَّل ، في السَّنة الثَّانية من مُهَاجره ، وخرج في مئتين من أصحابه ، وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش ، كان فيها أميَّة بن خلف ، في مئة رجلٍ ، وألفين وخمسمئة بعيرٍ ، فلم يلق النَّبيُّ (ص) كيداً؛ فرجع إلى المدينة.

٥ ـ غزوة العُشَيرة[(٦٤٠)]:

وفيها غزا (ص) قريشاً ، واستعمل على المدينة أبا سَلَمة بن عبد الأسد ، وسُمِّيت هذه الغزوة بغزوة العُشَيرة ، فأقام بها جُمَادَى الأولى ، وليالي من جُمادى الاخرة ، وادع فيها بني مُدْلِج ، وحلفاءهم من بني ضَمْرة ، ثمَّ رجع إلى المدينة ، ولم يلقَ كيداً؛ وذلك: أنَّ العير الَّتي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيامٍ ، ذاهبةً إلى الشَّام[(٦٤١)] ، فساحلت على البحر ، وبلغ قريشاً خبرُها ، فخرجوا يمنعونها ، فلقوا رسول الله (ص) ووقعت غزوة بدر الكبرى[(٦٤٢)].

٦ ـ سرية سعد بن أبي وقاصٍ:

وبعد غزوة العُشيرة ، بعث النَّبيُّ (ص) سعد بن أبي وقَّاص ، في سريةٍ قوامها ثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتَّى بلغ الخَرَّار[(٦٤٣)] من أرض الحجاز ، ثمَّ رجع ، ولم يلقَ كيداً[(٦٤٤)].

٧ ـ غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كُرْزَ بنَ جابر الفِهريَّ ، قد أغار على سَرْحِ[(٦٤٥)] المدينة ، ونهب بعض الإبل، والمواشي، فخرج رسول الله (ص) في طلبه، حتَّى بلغ وادياً يقال له: سَفْوان ، من ناحية بدرٍ ، وفاتَه كُرْزُ بن جابرٍ ، فلم يدركه ، فرجع رسول الله (ص) إلى المدينة[(٦٤٦)].

٨ . سرية عبد الله بن جحش الأسديِّ إلى نَخْلة[(٦٤٧)]:

وأرسل النبيُّ (ص) عبد الله بن جحش في ثمانية رَهطٍ من المهاجرين إلى نخلة جنوب مكة في اخر يومٍ من رجب؛ للاستطلاع ، والتَّعرف على أخبار قريش؛ لكنَّهم تعرضوا لقافلةٍ تجاريَّةٍ لقريش ، فظَفِرُوا بها ، وقتلوا قائدها عمرو بن الحَضْرمي ، وأسروا اثنين من رجالها ، هما: عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كَيْسان ، وعادوا بهما إلى المدينة ، وقد توقَّف النَّبيُّ (ص) في هذه الغنائم ، حتَّى نزل عليه قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ} [البقرة: ٢١٧].

فلمَّا نزل القران الكريم؛ قبض رسولُ الله (ص) العير ، والأسيرين ، وفي سرية عبد الله هذه غنم المسلمون أوَّل غنيمة ، وعمرو بن الحَضْرَمي أوَّل قتيلٍ قتله المسلمون ، وعثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان أوَّل من أسر المسلمون[(٦٤٨)].

رابعاً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبرٌ:

١ . متى شُرِع الجهاد؟

ذهب الشَّيخ الدُّكتور محمَّد أبو شهبة إلى أنَّ تشريع الجهاد كان في أوائل السَّنة الثَّانية للهجرة ، وعلَّل ذلك بسبب انشغال المسلمين في السَّنة الأولى بتنظيم أحوالهم الدِّينيَّة ، والدُّنيويَّة؛ كبنائهم المسجد النَّبويِّ ، وأمور معايشهم ، وطرق اكتسابهم ، وتنظيم أحوالهم السِّياسيَّة؛ كعقد التاخي بينهم ، وموادعتهم اليهود المساكنين لهم في المدينة؛ كي يأمنوا شرورهم[(٦٤٩)]. وذهب الأستاذ صالح الشَّامي إلى أنَّ الإذن بالجهاد كان في أواخر السَّنة الأولى للهجرة[(٦٥٠)].

٢ . الفَرْق بين السَّرية ، والغزوة:

يُطلق كُتَّاب السِّيَر في الغالب على كلِّ مجموعةٍ من المسلمين؛ خرج بها النَّبيُّ (ص) ليلقى عدوَّه غزوةً ، سواءٌ حدث فيها قتالٌ ، أم لم يحدث ، وسواءٌ كان عددها كبيراً ، أم صغيراً. ويطلقون على كل مجموعة من المسلمين؛ يرسلها النَّبيُّ (ص) لاعتراض عدوٍّ كلمة: (سَرِيَّة) أو: (بعث) ، وقد يحدث فيها قتالٌ ، وقد لا يحدث، وقد تكون لرصد أخبار عدوِّه ، أو غيره ، وغالباً ما يكون عدد الَّذين يخرجون في السَّرايا

قليلاً ؛ لأنَّ مهمَّتهم محدَّدةٌ في مناوشة العدوِّ ، وإخافته ، وإرباكه ، وقد قاد رسولُ الله (ص) سبعاً وعشرين غزوةً ، وأرسل ما يُقدَّر بثمانٍ

وثلاثين سريَّةً ، وبعثاً ، وقد خطَّط لها في فترةٍ وجيزةٍ في عُمْرِ الأمم ، بلغت عَشْرَ سنواتٍ من الزَّمن[(٦٥١)].

٣ . تعداد سكَّان المدينة ، وعلاقته بالسَّرايا:

أمر النَّبيُّ (ص) بإجراء تعدادٍ سكَّانيٍّ في السَّنة الأولى من الهجرة ، وبعد المؤاخاة مباشرةً ، وكان الإحصاء للمسلمين فقط ، أو حسب نصِّ أمر رسول الله (ص) حينما قال: «اكتبوا لي من تلفَّظ بالإسلام من النَّاس» فبلغ تعداد المحاربين منهم فقط (١٥٠٠) ألفاً وخمسمئة رجلٍ[(٦٥٢)] ، فأطلق المسلمون بعد إجراء هذا الإحصاء تساؤل تعجبٍ ، واستغرابٍ: «نخاف ونحن ألف وخمسمئة؟!»؛ لأنهم كانوا قبلُ لا ينامون إلا ومعهم السِّلاح؛ خوفاً على أنفسهم ، وكان رسول الله (ص) يمنع خروجهم ليلاً فرادى؛ حمايةً لهم من الغدر[(٦٥٣)] ، وبعد هذا التَّعداد مباشرةً ، بدأت السَّرايا ، والغزوات ، وهذا الإجراء الإحصائيُّ يدخل ضمن الإجراءات التَّنظيميَّة في تطوير الدَّولة النَّاشئة[(٦٥٤)].

٤ . حراسة الصَّحابة للنَّبيِّ (ص) الشَّخصيَّة:

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يحرسون النَّبيَّ (ص) حراسةً شخصيَّةً ، فعن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «أَرِقَ النَّبيُّ (ص) ذاتَ ليلةٍ ، فقال: «ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابي يَحْرُسُني اللَّيلة»؛ إذ سمعنا صوتَ السِّلاح ، قال: «مَنْ هذا؟» قال: سعدٌ يا رسولَ الله! جئتُ أحْرُسُك ، فنام النَّبيُّ (ص) حتَّى سمعنا غَطيطه» [البخاري (٢٨٨٥ و٧٢٣١) ومسلم (٢٤١٠)] ، وكان ذلك قبل غزوة بدرٍ الكبرى[(٦٥٥)]. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: مشروعية الاحتراس من العدوِّ ، والأخذ بالحزم ، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط ، وأنَّ على النَّاس أن يحرسوا سلطانهم خشية القتل ، وفيه الثَّناء على مَنْ تبرَّع بالخير ، وتسميته ، وإنَّما عنَى النَّبيُّ (ص) ذلك مع قوَّة توكُّله؛ للاستنان به في ذلك[(٦٥٦)].

٥ . نص وثيقة المعاهدة مع بني ضَمْرَة والتعليق عليها:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هذا كتابٌ من محمَّدٍ رسول الله ، لبني ضَمْرَة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، بأنَّهم امنون على أموالهم ، وأنفسهم ، وأنَّ لهم النَّصر على مَنْ رامهم؛ إلا أن

يُحارِبُوا دين الله ، ما بَلَّ بحرٌ صُوفَةً[(٦٥٧)] ، وأنَّ النَّبيَّ إذا دعاهم لنُصْرة؛ أجابوه ، عليهم بذلك ذمَّة الله ، وذمَّة رسوله ، ولهم النَّصرُ على مَنْ برَّ منهم ، واتَّقى»[(٦٥٨)].

انتهز النَّبيُّ (ص) في غزوة الأبْواء فرصةً ذهبيَّةً ، فعقد حلفاً عسكرياً مع شيخ بني ضمرة ، فقد كان موقع بلاده ذا قيمةٍ عسكريَّةٍ لا تُقدَّر بثمنٍ في الصِّراع بين الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة ، وقريش؛ ولذلك عمل رسول الله (ص) على ضمان حيدتهم ، في حالة وقوع صدامٍ مسلَّحٍ بين المدينة ، وأهل مكَّة ، وكانت خطَّته (ص) حتَّى وقعة بدر أن يزعج قوافل قريش بإرسال مجموعاتٍ صغيرةٍ من المهاجرين ، وخاصَّةً أنَّ هذه القوافل كانت غير مصحوبةٍ بجيشٍ يحميها ، وهو أمرٌ لم تفكِّر فيه قريش حتَّى تلك اللَّحظة[(٦٥٩)].

كان قُرْبُ بني ضَمْرَة ، وحلفائهم من المدينة؛ الَّتي كانت سوقَهم ، ومصدرَ رزقهم قد وضعهم في موقفٍ لا يسمح لهم بأيِّ مسلكٍ غير موادعة الدَّولة الإسلاميَّة النَّاشئة ، وهو حلف عدم اعتداءٍ وفق المصطلح الحديث[(٦٦٠)].

وقد دلَّت هذه الموادعة على أنَّ مقتضيات السِّياسة الشَّرعيَّة ، قد تدفع المسلمين إلى التَّحالف العسكريِّ ، أو الاقتصاديِّ ، أو التِّجاريِّ ، مع أيٍّ من الكتل القائمة ، وأنَّ التَّحالف السِّياسيَّ له أصلٌ في الشَّريعة ، وضرورةٌ يوجبها استهدافُ رفع الضَّرر الحاصل ، أو المرتقب[(٦٦١)] ، وأنَّ التَّحالف مبنيٌّ على قاعدة رفع الضَّرر ، والمصلحة المشتركة ، وأن تكون لأصل الحلف غايةٌ شرعيَّةٌ معلومةٌ ، وأن يكون للمسلمين في الحلف قرارٌ ، ورأيٌ ، أما إذا كانوا أتباعاً ، ومنفذين ـ كما في الأحلاف الحديثة ـ فهذا لا ينطبق عليه الأصل الشَّرعيُّ ، وعلى قيادة الأمَّة أن تستوعب هدي النَّبيِّ (ص) في حركته السياسية ، وأن تفهم القاعدة الشَّرعيَّة؛ الَّتي تقول: «لا ضرر ولا ضرار» [ابن ماجه (٢٣٤١) وأحمد (١/٣١٣) والطبراني في المعجم الأوسط (٣٧٨٩)][(٦٦٢)] .

يقول الشَّيخ مصطفى الزَّرقا في معرض الحديث عن هذه القاعدة ، ما نصُّه:

«وهذه القاعدة من أركان الشَّريعة ، وتشهد لها نصوصٌ من الكتاب والسنَّة ، ويشمل الضرر المنهيُّ عنه ما كان ضرراً عامّاً ، أو خاصّاً ، ويشمل ذلك دفعه قبل الوقوع بطرق الوقاية
الممكنة ، ودفعه بعد الوقوع بما يمكن من التَّدابير الَّتي تزيل اثاره ، وتمنع تكْرَاره ، كما يدلُّ على وجوب اختيار أهون الشَّرَّين؛ لدفع أعظمهما؛ لأنَّ في ذلك تخفيفاً للضَّرر عندما لا يمكن منعه بتاتاً»[(٦٦٣)].

إنَّ هذه الموادعة توضِّح جواز عقد الدَّولة الإسلاميَّة معاهدةً دفاعيَّةً بينها وبين دولةٍ أخرى ، إذا اقتضت ذلك مصلحة المسلمين ، ولم يترتَّب أيُّ ضررٍ على مثل هذه المعاهدة ، ويجب على الدَّولة الإسلاميَّة في

هذه الحال ، نصرة الدَّولة الحليفة إذا دعيت إلى هذه النُّصرة ضدَّ الكفار المعتدين ، كما يجوز للدَّولة الإسلاميَّة أن تطلب من الدَّولة الحليفة إمدادها بالسِّلاح ، والرِّجال؛ ليقاتلوا تحت راية الدَّولة الإسلاميَّة ، ضدَّ الأعداء من الكفَّار[(٦٦٤)].

وقد شرط النَّبيُّ (ص) على بني ضمرة ألا يحاربوا دين الله؛ حتَّى يكون لهم النَّصر على من اعتدى عليهم ، أو حاول الاعتداء.

وفي هذا إبعادٌ للعقبات؛ الَّتي يمكن أن تقف في طريق الدَّعوة ، فقد أوجبت هذه المعاهدة على بني ضَمرة ألا يحاربوا هذا الدِّين ، أو يقفوا في طريقه[(٦٦٥)] ، وتعتبر هذه المعاهدة كسباً سياسيَّاً وعسكريَّاً للمسلمين ، لا يستهان به[(٦٦٦)].

٦ ـ (وإِنِّي لأوَّل رجلٍ رمَى بسهمٍ في سبيل الله)[(٦٦٧)]:

كانت سرية عُبَيدة بن الحارث رضي الله عنه أوَّلَ سريَّةٍ في تاريخ السَّرايا ، يلتقي فيها المسلمون مع المشركين في مواجهةٍ عسكريَّةٍ ، وقد اتَّخذ القتال بين الطَّرفين طابع المناوشة بالسِّهام ، وكان سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه «أوَّل العرب رمى بسهم في سبيل الله»[(٦٦٨)] في تلك المعركة؛ الَّتي لم تستمرَّ طويلاً؛ إذ قرَّر الفريقان الانسحاب من أرضها ، وقد كان انسحاب المسلمين قوياً ، ومنظَّماً ، وكان بطل هذا الانسحاب سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ، فقد كان له الدَّور الأكبر في تثبيت ، وإحباط استعدادات العدوِّ ، لشنِّ أيِّ هجومٍ مضادٍّ ، وذلك بوابل من السِّهام المزعجة الَّتي قذفها نحوه ، والتي كونت ساتراً دفاعياً ، مهَّد لانسحابٍ سليمٍ منظَّمٍ بالنِّسبة للمسلمين ، وقد فرَّ عُتْبة بن غَزوان ، والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما يومئذ إلى المسلمين ، وكانا قد أسلما قبل ذلك ، وفي هذه السَّريَّة حقَّق سعد بن أبي وقَّاص رضي الله

عنه سبقاً عسكريّاً إسلاميّاً ، يسجَّل في سجلِّه الحافل بالأعمال العظيمة لنصرة دين الله تعالى ، كما أكَّدت هذه السَّريَّة ، استمرار سياسة رسول الله (ص) التَّعبويَّة ، الخاصَّة بحشد المهاجرين فقط في الغزوات والسَّرايا الأولى حتَّى بدر؛ تنفيذاً لاتفاقية العقبة الثَّانية[(٦٦٩)].

٧ ـ نصُّ وثيقة الموادعة مع جُهَيْنة ، والتَّعليق عليها:

«إنَّهم امنون على أنفسهم ، وأموالهم ، وإنَّ لهم النَّصر على من ظلمهم ، أو حاربهم ، إلا في الدِّين ، والأهل ، ولأهل باديتهم من برَّ منهم ، واتَّقى ما لحاضرتهم»[(٦٧٠)].

ويظهر أثر هذه الموادعة عندما تدخَّل مَجْدِيُّ بن عمرو الجُهَنِيُّ في التَّوسُّط بين سريَّة حمزة بن عبد المطلب ، والقافلة القرشيَّة الَّتي كان يقودها أبو جهل بن هشام ، ويحرسها ثلاثمئة راكبٍ من فُرْسان قريشٍ[(٦٧١)] ، فقد التقوا ناحية العيص ، في منطقة نفوذ جهينة، واصطفُّوا للقتال[(٦٧٢)]، وقبل أن يندلع القتال بين الفريقين ، تدخَّل مجْديُّ بن عمرو ـ زعيم من زعماء جهينة ـ في وساطة سلامٍ بينهم ، واستطاع أن ينجح في مساعيه السِّلمية بين الطَّرفين ، فقد كان مجديُّ ، وقومه حلفاء للفريقين جميعاً ، فلم يعصوه ، فرجع الفريقان كلاهما إلى بلادهما ، فلم يكن بينهما قتالٌ[(٦٧٣)].

ويظهر من هذه المعاهدة: أنَّ عقد المعاهدات بين الدَّولة الإسلامية والقبائل المجاورة ، كان سابقاً على الأعمال العسكريَّة؛ الَّتي قامت بها؛ بدليل أنَّ حركة السَّرايا الأولى الموجَّهة ضدَّ قريشٍ ، كان قد سبقها معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام ، وقبيلة جهينة المقيمة على ساحل البحر الأحمر ، وقد توسَّطت لمنع القتال بين المسلمين ، وكفَّار مكَّة.

ومن فقه هذه المعاهدة جوازُ عقد معاهدة سلامٍ بين دولة الإسلام ، ودولةٍ أخرى ، هي بدورها مرتبطةٌ بمعاهدة سلامٍ مع أعداء الدَّولة الإسلاميَّة؛ بشرط ألاَّ تتجاوز تلك المعاهدة الاتفاق على أن تنصر الدَّولة المعاهدة للمسلمين العدوَّ إذا ما اشتبكت مع المسلمين في قتالٍ ، ويجوز للدَّولة الإسلاميَّة ، أن تترك قتال أعدائها بعد أن تستعدَّ لذلك؛ استجابةً لوساطة دولةٍ أخرى؛ إذا لم يترتب على ذلك ضررٌ للمسلمين[(٦٧٤)].

كانت نتائج سريَّة حمزة رضي الله عنه على المعسكر الوثنيِّ سيئةً للغاية؛ حيث هزَّت كيان
قريش ، وبثَّت الرُّعب في نفوس رجالها ، وفتحت أعينهم على الخطر المحْدق بهم ، والَّذي أصبح يهدِّد طريق تجارتهم ، وقوَّتهم الاقتصاديَّة[(٦٧٥)] ، فقد قال أبو جهل حين قدم مكَّة منصرفاً عن حمزة: «يا معشر قريش! إنَّ محمداً قد نزل يثربَ ، وأرسل طلائعه ؛ وإنَّما يريد أن يصيب منكم شيئاً ، فاحذروا أن تمرُّوا في طريقه ، وأن تقاربوه ؛ فإنَّه كالأسد الضَّاري ، إنه حَنِقٌ[(٦٧٦)] عليكم؛ نفيتموه نَفْيَ القردان[(٦٧٧)] على المناسم[(٦٧٨)] ، والله! إنَّ له لسحرةً ، ما رأيته قطُّ ولا أحداً من أصحابه ، إلا رأيتُ معهم الشَّياطين ، وإنَّكم عرفتم عداوة ابني قَيْلَة[(٦٧٩)] ، فهو عدوٌّ استعان بعدوٍّ»[(٦٨٠)].

٨ ـ سريَّة عبد الله بن جحش وما فيها من دروسٍ ، وعبر:

إنَّ سرية عبد الله بن جحشٍ ، حقَّقت نتائج مهمَّةً ، وفيها دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد عظيمةٌ؛ منها:

أ ـ جاء في خبر هذه السَّريَّة: أنَّ النَّبيَّ (ص) كتب لأمير السَّريَّة كتاباً ، وأمره ألاَّ ينظرَ فيه حتَّى يسير يومين ، وهذا مثالٌ لتطبيق مبدأ مهمٍّ من مبادأى الحرب ، وهو إخفاء الخُطط الحربيَّة ، ومنها خط السَّير ، حتَّى يكون الجيش في أمانٍ من كيد الأعداء؛ فالمدينة كانت انذاك تضمُّ اليهود، والوثنيين، ومن المتوقع أن يسارع هؤلاء إلى إخبار أهل مكَّة ، بخطِّ سير تلك السَّريَّة الموجَّهة ضدَّهم ، فلمَّا سار أفراد السَّريَّة وهم بأنفسهم لا يعلمون اتِّجاههم؛ أصبح النَّبيُّ (ص) امناً من انكشاف الهدف المقصود[(٦٨١)].

وإنَّ الباحث ليرى أثر التَّربية النَّبويَّة في هذه السَّريَّة المباركة؛ حيث سمعوا ، وأطاعوا جميعاً ، وساروا إلى منطقة أعدائهم ، وتجاوزوها حتَّى أصبحوا من ورائهم ، وهذا شاهدٌ على قوَّة إيمان الصَّحابة رضي الله عنهم ، واستهانتهم بأنفسهم في سبيل الله تعالى[(٦٨٢)].

ب ـ حاولت قريش أن تستغلَّ ما وقع من قَتْلٍ في الشَّهر الحرام مِنْ قِبلَ أفراد السَّريَّة ، فشنُّوا حرباً إعلاميَّة ، وهجوميَّة مركَّزةً ، تتخلَّلها دعاياتٌ مغرضةٌ ضدَّ المسلمين ، استغلت فيها

التعاليم الإبراهيميَّة؛ الَّتي لا زالت بعض اثارها باقيةً في المجتمع الجاهليِّ حتَّى ذلك الوقت؛ من تحريم القتال في الأشهر الحرم ، وغير ذلك ، فقد «انتهزت قريش هذه الفرصة للتَّشهير بمحمَّدٍ (ص) ، وبالمسلمين ، وإظهارهم بمظهر المعتدي الَّذي لا يراعي الحرمات»[(٦٨٣)]. «قالت قريش: قد استحلَّ محمَّدٌ ، وأصحابه الشَّهر الحرام ، وسفكوا فيه الدَّم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرِّجال» [البيهقي في السنن الكبرى (٩/٥٩) وفي الدلائل (٣/١٩) وابن هشام (٢/٢٥٤)][(٦٨٤)] .

ونجحت قريش في خُطَّتها تلك بادأى الأمر؛ حيث «كان لدعايتها صدىً كبيرٌ ، وأثرٌ ملموسٌ حتَّى في المدينة نفسها ، فقد كثر الجدل ، والنقاش بين المسلمين أنفسهم ، وأنكروا على رجال السَّريَّة محاربتهم في الشَّهر الحرام ، واشتدَّ الموقف ، ودخلت اليهود تريد إشعال الفتنة»[(٦٨٥)] ، وقالوا: إنَّ الحرب واقعةٌ لا محالة بين المسلمين وقريش؛ بل بينهم وبين العرب جميعاً؛ جزاء ما انتهكوا من حرمة الشَّهر الحرام ، وأخذوا يردِّدون: «عمرو بن الحَضرمي قتله واقدُ بن عبد الله ، عمرو: عمرت الحرب ، والحضرمي: حضرت الحرب ، وواقد: وقدت الحرب»[(٦٨٦)] ، وهذا الكلام من اليهود يعبِّر عن حقدٍ دفينٍ في نفوسهم على الإسلام والمسلمين[(٦٨٧)].

وعندما ظنَّ أهل السَّريَّة: أنَّهم قد هلكوا ، وسُقط في أيديهم[(٦٨٨)]؛ جاء الردُّ الرَّبانيُّ المفحم؛ قطعاً لألسنة المشركين الَّذين يتترَّسون بالحرمات ، ويتَّخذونها ستاراً لجرائمهم ، ففضح القران هؤلاء المجرمين ، وأبطل احتجاجهم ، وأجاب على استنكارهم القتال في الشَّهر الحرام ، فالصدُّ عن سبيل الله ، والكفر به

أكبر من القتال في الشَّهر الحرام ، والمسجد الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبرُ من القتال في الشَّهر الحرام ، وفتنةُ الرَّجل في دينه أكبرُ من القتل في الشَّهر الحرام. لقد فعلت قريشٌ كلَّ هذه الجرائم ، وارتكبت هذه الكبائر؛ ولكنَّها تناستها ، أو استهانت بها ، ولم تذكر إلا حُرمة الشَّهر ، واتَّخذتها وسيلةً لإثارة حربٍ شعواء على الإسلام ، ودولته؛ لتأليب القبائل الوثنيَّة عليها ، وتنفير النَّاس من الدُّخول في هذا الدِّين؛ الَّذي يستحلُّ الحرمات ، ويستبيح المقدَّسات؛ حتَّى إنَّ رسول الله (ص) قد لحقه الغمُّ ، ولام قائد السَّريَّة ، وأصحابه على

ما فعلوا[(٦٨٩)] ، فنزلت الايات البيِّنات تردُّ وبقوَّةٍ على دعايات قريشٍ المغرضة ، موضحةً: أنَّه وإن كان الشَّهر الحرام لا يحلُّ فيه القتال ، ولكن لا حرمة عند الله لمن هتك الحرمات ، وصدَّ عن سبيله[(٦٩٠)].

ج ـ حِرْصُ القائد على سلامة الجنود: عندما تخلَّف سعد بن أبي وقَّاصٍ ، وعُتْبة بن غَزْوان؛ بسبب بحثهما عن بعيرٍ لهما قد ضلَّ ، وجاءت قريش تريد أن تفدي الأسيرين ، فأبى رسول الله (ص) وقال: «أخاف أن تكونوا قد أصبتم سعد بن مالك ، وعُتبة بن غَزوان» فلم يفادهما حتَّى قدم سعدٌ ، وعُتبة ، ففوديا ، فأسلم الحكم بن كَيسان[(٦٩١)]، وأقام عند رسول الله (ص) ، ورجع عثمان بن عبد الله بن المغيرة كافراً[(٦٩٢)].

ونفهم من المنهاج النَّبويِّ ، ضرورة أن يهتمَّ القائد بسلامة جنده؛ لأنَّهم هم الَّذين يقدِّمون أنفسهم في سبيل نصرة دين الله ، وإقامة دولة الإسلام.

إنَّ المدارس العسكريَّة الحديثة تقول: إنَّ الجنديَّ حين يُحسُّ باهتمام القيادة به ، وبسلامته ، وبأمنه لا يتردَّد في أن يبذل غاية البذل ، ويعطي أقصى العطاء[(٦٩٣)].

د ـ ظهور التَّربيَّة الأمنيَّة في الميدان: كانت سريَّة عبد الله بن جحشٍ قد حقَّقت أهدافها ، وظهرت قدرتها على التوغُّل في المناطق الخاضعة لنفوذ قريش ، ممَّا أذهلها ، وزاد دهشتها وذهولها تلك السِّرِّيَّةُ التَّامَّةُ ، والدِّقَّةُ المتناهية؛ الَّتي تمَّت بها العمليَّة؛ حتَّى إنَّ جواسيس قريش لم تستطع رصدها ، ولا معرفة الوجهة الَّتي قصدتها ، وكان ذلك ما أراده رسول الله (ص) ، وخطَّط له بابتكاره أسلوب الرَّسائل المكتوبة؛ للمحافظة على الكتمان ، وحرمان العدوِّ من الحصول على المعلومات الَّتي تفيده عن حركات المسلمين، «والكتمان أهمُّ عاملٍ من عوامل مبدأ (المباغتة) ، وهي أهمُّ مبدأ من مبادأى الحرب»[(٦٩٤)].

وقد أثبتت هذه السَّرِيَّةُ بما لا يدع مجالاً للشك: أنَّ سرايا النَّبيِّ (ص) قويَّةٌ ، تندفع للقيام بأصعب الأعباء والمهمَّات ، وتتحلَّى بمزايا القتال ، وقدرتها على إنجاز الواجبات بكلِّ كفاءة ، واقتدارٍ ، ممَّا يدلُّ على رُوحها المعنويَّة العالية.

وتظهر اثار التَّربية النَّبويَّة في الضَّبط العسكريِّ الرَّفيع ، الَّذي تميَّز به قائد السَّريَّة ، وطاعته

للأوامر النَّبويَّة العليا؛ دون تردُّدٍ ، أو تخاذلٍ ، فما إن قرأ الكتاب ، حتَّى امتثل فوراً للأمر بحذافيره ، معطياً من نفسه القدوة الحسنة ، وباثّاً في نفوس جنوده الحماس ، وهو يقول لهم: «من كان منكم يريد الشَّهادة ، ويرغب فيها؛ فلينطلق ، ومن كره ذلك؛ فليرجع ، فأمَّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله (ص) »[(٦٩٥)].

٩ ـ من أهداف السَّرايا:

عندما ندرس حركة السَّرايا، والغزوات؛ الَّتي قادها رسول الله (ص) بدقَّةٍ، وعمقٍ، وتحليلٍ ، نستطيع أن نتلمَّس كثيراً من الأهداف ، وندرك بعض ما توحي به من دروسٍ وعبرٍ ، وفوائد؛ فإذا تأمَّلنا في حركة السَّرايا الَّتي سُيِّرت قبل بدرٍ؛ نجد أنَّ أفرادها كلَّهم من المهاجرين ، ليس فيهم واحدٌ من الأنصار. يقول ابن سعدٍ ـ رحمه الله! ـ: «والمجتمع عليه: أنَّهم كانوا جميعاً من المهاجرين ، ولم يبعث رسول الله (ص) أحداً من الأنصار مَبْعثاً حتَّى غزا بهم بدراً»[(٦٩٦)]. وهذا كان أمراً مدروساً له أهدافه؛ ومنها: إحياء قضية المهاجرين في أنفسهم أوَّلاً، وإحياؤها على المستوى الخارجيِّ ، وإنهاك الاقتصاد القرشيِّ ، ومحاصرته ، واستعادة بعض الحقوق المسلوبة ، وإضعاف قريشٍ عسكريّاً ، وتدريب الصَّحابة على إتقان فنون القتال ، ورصد تحرُّكات قريش ، وإرهاب العدوِّ الدَّاخليِّ في المدينة ، وما حولها ، واختبار قوة العدوِّ[(٦٩٧)] ، وقد حقَّقت تلك السَّرايا أهدافها ، والَّتي من أهمها:

أ ـ بسط هيبة الدَّولة في الدَّاخل ، والخارج: فقد استطاعت تلك السَّرايا والغزوات ، أن تلفت أنظار أعداء الدَّعوة ، والدَّولة الإسلاميَّة إلى قوَّة المسلمين ، وقدرتهم على ضرب أيَّة حركةٍ مناوئةٍ ، سواءٌ في الدَّاخل ، أو الخارج؛ حتَّى لا يُحَدِّث أحدٌ نفسَه بمهاجمة الدَّولة الإسلاميَّة ، الَّتي لا يتوقَّف جيشها ليلَ نهارَ ، ممَّا أرهب الأفاعي اليهوديَّة ، والقبائل الوثنيَّة المحيطة بالمدينة ، وجعل الجميع يعمل ألف حسابٍ قبل أن تحدِّثه نفسُه بغزو المدينة ، أو مناصرة أحدٍ من الأعداء عليها. والَّذي نلاحظه في حركة السَّرايا الزِّيادة المستمرَّة في أعداد قوَّة تلك الغزوات ، والسَّرايا ، ومجيئها متتابعةً ليس بينها فاصلٌ زمنيٌّ على الإطلاق ، فلا تكاد السَّريَّة ، أو الغزوة تعود؛ حتَّى تكون الَّتي بعدها قد خرجت؛ لتحقيق الهدف نفسه

، وهو ضرب مصالح قريش الاقتصاديَّة ، وقطع طرق تجارتها ، وخصوصاً إلى بلاد الشَّام؛ ممَّا كلَّفها زيادة عدد حرَّاس قوافلها ، وارتفاع قيمة بضائعها ، هذا غير الرُّعب ، والخوف الَّذي شعر به رجال القوافل القرشيَّة ، وأصحاب الأموال في مكَّة على حدٍّ سواءٍ[(٦٩٨)].

ب ـ كسب بعض القبائل ، وتحجيم دَور الأعراب: لقد وادع رسولُ الله (ص) قبيلة جُهَيْنة ، وحالفها ، وكذلك بعض القبائل الضَّاربة في تلك المنطقة من أجل تحييدها في الصِّراع الدَّائر بين مكَّة ، والمدينة ، والعمل على كسبها في هذا الصِّراع؛ وذلك «لأنَّ الأصل: أنَّ هذه القبائل تميل إلى قريشٍ ، وتتعاون معها؛ إذ بينهما مُحالفاتٌ تاريخيَّةٌ ، سمَّاها القران الكريم بالإيلاف[(٦٩٩)] ، سَعَت قريش من خلالها لتأمين تجارتها مع الشَّام ، واليمن»[(٧٠٠)].

وبعد أن اتَّفقت بعض القبائل مع رسول الله (ص) ، وعقدت معه معاهداتٍ ، أصبحت تشكِّل خطراً على تجارة قريش ، وصار المسلمون هم السَّادة في المنطقة[(٧٠١)].

وقام النَّبيُّ (ص) بتحجيم دور الأعراب؛ كي لا يكون لهم وجودٌ في طرق التِّجارة، فقد كان الأعراب يُشكِّلون قوَّة تهديدٍ للقوافل التِّجارية ، وكان المارُّ في مناطق نفوذهم ، لا يمرُّ إلا بإتاوة تُدْفع إليهم ، وحينما قامت الدَّولة الإسلاميَّة؛ لم يجدوا شيئاً منها؛ فجرَّبوا مهاجمتها ، وتولَّى هذا كُرْزُ الفهريُّ؛ ولكنَّه وجد رسول الله (ص) يطارده إلى سفوان «بالقرب من بدرٍ مسافةً تبعد عن المدينة حوالي ١٥٠ كيلو متراً» ، وقد سمَّى أهلُ السِّير هذه المطاردة: غزوة بدر الصُّغرى ، وتُعدُّ هذه الغزوة درساً لكلِّ الأعراب ، فلم يحصل: أنَّ أعرابيَّاً سوَّلت له نفسه أن يهاجم المدينة بعد هذه المطاردة ، ومِنْ ثمَّ لم تدفع الأمَّة الإسلاميَّة إتاواتٍ لقُطَّاع الطُّرق؛ بل أجبرتهم على الانسحاب، والدُّخول في اتِّفاقاتٍ مع المسلمين؛ فأمنوا شرَّهم[(٧٠٢)].

ج ـ علاقة هذه السَّرايا بحركة الفتوح الإسلاميَّة: وقد استمرَّت حركة السَّرايا ، والبعوث ، وكانت بمثابة تمريناتٍ عسكريَّةٍ تعبويَّةٍ ، ومناوراتٍ حيَّةٍ لجند الإسلام ، وكان هذا النَّشاط المتدفِّق على شكل موجاتٍ متعاقبةٍ من جند الإسلام الأوائل ، دلالةً قاطعةً على أنَّ دولة الإسلام في المدينة ـ وبقيادة النَّبيِّ القائد (ص) ـ كانت مثل خلية النَّحل ، لا تهدأ ، ولا تَكِلُّ ، وإنَّ الباحث ليلحظ في حركة السَّرايا ، والبعوث ، والغزوات الكبرى في زمن النَّبيِّ (ص) ، حرص الصَّحابة على المشاركة كقادة ، وجنود ، فكان (ص) يعدُّهم لتثبيت دعائم الدَّولة ، والاستعداد للفتوحات المرتقبة ، والَّتي ما فتأى (ص) يبشِّر بها أصحابه بين الفَيْنَة والأخرى في أوقات الحرب، والسِّلم ، والخوف ، والأمن.

إنَّه بنظرةٍ فاحصةٍ في قوَّاد وجنود تلك السَّرايا ، والبعوث ، تطالعنا أسماء لمعت كثيراً في تاريخ الفتح الإسلاميّ فيما بعد؛ مثل: قائد فتوحات الشَّام ـ أمين الأمَّة ـ أبي عبيدة بن الجراح ، وسعد بن أبي وقاص صاحب القادسيَّة ، وفاتح المدائن ، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول هازم الرُّوم في اليرموك ، وعمرو بن العاص فاتح مصر ، وليبيا ، وغيرهم رضي الله عنهم. لقد التحق خالدٌ ، وعمرٌو فيما بعد بحركة السَّرايا ، وقادا بعضها بعد إسلامهم. لقد كانت السَّرايا والغزوات الَّتي أشرف عليها الحبيب المصطفى (ص) في حياته ، بمثابة تدريبٍ حيٍّ نابضٍ؛ بل يمكن اعتبارها دورات أركانٍ للقادة الَّذين فتحوا مشارق الأرض ، ومغاربها فيما بعد.

إنَّ حياة الصَّحابة رضي الله عنهم ، خلال الأربع والعشرين ساعةً اليوميَّة ، عبارةٌ عن تدريبٍ مستمرٍّ؛ فالبرنامج اليوميُّ المنتظم ، يبدأ مبكِّراً من صلاة الفجر ، الَّتي تُؤَدَّى في جماعةٍ مع قائدهم الأعلى (ص) ؛ الَّذي كان يحثُّهم على أداء هذه الصَّلاة جماعة وفي وقتها ، موضحاً لهم ، ولأمَّته أنَّها المِفْتاح العجيب ليوم مليءٍ بالنَّشاط والحيويَّة. قال (ص) : «يَعْقِدُ الشيطانُ على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاثَ عُقَدٍ ، يضربُ مكان كلِّ عقدةٍ: عليك ليلٌ طويلٌ ، فارقدْ ، فإن استيقظ ، فذكر الله؛ انحلَّت عقدةٌ ، فإن توضَّأ؛ انحلَّت عُقْدَةٌ ، فإن صلَّى؛ انحلت عُقَدُهُ كلُّها ، فأصبح نشيطاً طيِّبَ النَّفس ، وإلا أصبحَ خبيثَ النَّفس كسلان » [البخاري (١١٤٢) ومسلم (٧٧٦)] .

ثمَّ ينطلق كلٌّ منهم إلى عمله الَّذي تتخلَّله فترات الصَّلوات الباقية؛ حتَّى إذا ما صلَّوا الصَّلاة الاخرة (صلاة العشاء) ناموا ، حتى إذا ما أخذوا قسطاً وافراً من النَّوم أوَّل الليل إلى الثلث الأخير منه؛ قام معظمهم لأداء صلاة التَّهجُّد الَّتي تملأ قلوبهم روحانيَّةً ، وتكسبهم مزيداً من النَّشاط لأدائها في وقتٍ يكون الجسم فيه مرتاحاً.

هذا بالإضافة إلى الاستعداد الدَّائم ، واليقظة التامَّة لمتطلبات دولة الإسلام ، فكانوا يقومون بنشاطاتٍ تدريبيَّةٍ مركَّزةٍ ، تتمثَّل في ركوب الخيل ، والسَّبق ، والرِّماية ، وكان النَّبيُّ (ص) يحثُّهم على فعل ذلك؛ بل ويشاركهم فيه ، معطياً من نفسه القدوة ، وكان (ص) يركِّز على تعلُّم الرِّماية كثيراً ، موضِّحاً أنَّها خير ما يعدُّ من قوَّةٍ استعداداً للكفَّار.

وكان (ص) يشجِّعهم على الصِّناعة الحربيَّة ، المتمثِّلة في ذلك الوقت في صناعة الأسهم ، ويخبرهم: أنَّ الأجر الذي غايته الجنَّة ينسحب على صانعها ، والمتنبِّل بها ، والرَّامي بها ، فيروي لنا عقبة عن رسول

الله (ص) قوله: «إنَّ الله يُدخل بالسَّهم الواحد ثلاثة نفرٍ الجنَّة: صانعُه؛ الَّذي احتسب في صنعته الخير ، ومتنبِّله[(٧٠٣)] ، والرَّامي ، ارموا ، واركبوا ، وأنْ ترموا أحبُّ إليَّ

من أن تركبوا ، وليس من اللَّهو إلاَّ ثلاثة: تأديب الرَّجل فرسَه ، وملاعبته زوجتَه ، ورميه بنبله عن قوسه ، ومن عُلِّم الرَّمي ثُمَّ تركه ، فهي نعمةٌ كفرها» [أبو داود (٢٥١٣) والترمذي (١٦٣٧) والنسائي (٦/٢٢٢ - ٢٢٣) والحاكم (٢/٩٥) والبيهقي في الشعب (٤٣٠١)].

فيا لَهُ من عصرٍ تمسَّك فيه الصَّحابة رضي الله عنهم بالتعاليم القرانيَّة الرَّبَّانيَّة ، وعضُّوا عليها بالنَّواجذ ، وقاموا بتطبيقها حرفيّاً في شتَّى شؤون حياتهم ، فغزوا ، واستعلوا على أمم الأرض شرقاً ، وغرباً رغم قلَّتهم ، وبساطتهم! وحين ابتعد المسلمون عن تلك التَّعاليم ، وألقوا بها وراء ظهورهم؛ ركبهم الذُّلُّ ، والصَّغار ، وتداعت عليهم الأمم من أقطارها؛ بعد أن أصبحوا غثاءً كغثاء السَّيل.

إنَّ المهمَّات ، والأهداف الَّتي سعت لتحقيقها السَّرايا ، والبعوث كانت تتفاوت تَبعاً لاختلاف الظُّروف المحيطة والحادثة ، فكانت السَّرايا الأولى في معظمها عبارةً عن دورياتٍ استطلاعيَّة ، واستكشافيَّة ، وجسِّ نبضٍ ، ثمَّ تطوَّرت إلى سرايا اعتراضيَّةٍ، تُوقع الرُّعب، والفزع في القوافل القرشيَّة ، وذلك قبل غزوة بدرٍ الفاصلة، وعندما قويت شوكة المسلمين بعدها؛ أصبحت مهمَّة بعض السَّرايا ، والبعوث تنصبُّ في تصفية الأفراد من أعداء الدَّولة الإسلاميَّة ، الَّذين يحاولون النَّيل من مسيرتها؛ مثل كعب بن الأشرف ، والعصماء بنت مَرْوَان ، وأبي عفك ، فكان في قَتْل كعب ردعٌ لليهود ، وقتل العَصْماء ، وأبي عفك ردعٌ للمشركين ، والمنافقين في المدينة.

وعندما انقلبت الأمور لغير صالح المسلمين بعد أُحدٍ؛ طمع الأعراب في خيرات المدينة ، واستهانوا بالمسلمين لدرجة أنَّهم غدروا ببعض البعوث التَّعليميَّة - كما في الرَّجيع ، وبئر معونة - غيَّر تبعاً لذلك رسول الله (ص) (استراتيجيَّته) العسكريَّة ، فانتقل بالسَّرايا من قريشٍ إلى الأعراب؛ لتأديبهم بطريقةٍ صارمةٍ ، وسريعةٍ ، ومباغتةٍ ، وكان أهمَّ ما يميِّز تلك السرايا ، هجومُها التَّعرضيُّ للأعراب قبل تحشُّدهم ، وجمع أمرهم بالهجوم على المسلمين.

وظلَّت السَّرايا ، والبعوث النَّبويَّة تؤدِّي دورها ، وتقوم بمهامِّها الخاصَّة لخدمة أهداف الدَّعوة ، فمن دورياتٍ قتاليَّةٍ ، إلى سرايا تعقُّبيَّةٍ ، وأخرى تمويهيَّةٍ ، حتَّى إذا ما توطَّد الأمر للمسلمين بعد فتح مكَّة ، اهتمَّ النَّبيُّ (ص) بإزالة كلِّ ما يمتُّ للوثنيَّة بصلةٍ ، فبعث السَّرايا ، والبعوث من مكَّة لتحطيم بقيَّة رموز الشِّرك ، والوثنيَّة ، فانطلقت السَّرايا لتحطيم العُزَّى ،

ومناة ، واللاَّت ، وسُواع ، وذي الخَلصة[(٧٠٤)] ، وغيرها من الأصنام ، والطَّواغيت الوثنيَّة[(٧٠٥)].
وبعد ذلك انطلقت دعوة الإسلام في أرجاء الجزيرة ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً ، ثمَّ تحرَّكت الجيوش الرَّاشديَّة بعد وفاة الرَّسول (ص) ؛ لنشر دين الله في المعمورة ، وإزالة كلِّ العوائق ، والقوى الَّتي تقف في وجه الدَّعوة.
لقد أدهشت النتائج السَّريعة الإيجابيَّة لحركة الفتوح الإسلاميَّة جميع المحلِّلين على اختلاف دياناتهم ، وأفكارهم ، ومشاربهم؛ ولكن ستزول دهشة المحلِّلين المنصفين ، عندما يقرؤون تلك التَّعاليم ، والوصايا النَّبويَّة لقوَّاد ، وجنود السَّرايا ، والبعوث ، والَّتي هي نواة حركة الفتوح الإسلاميَّة ، والَّتي صارت تتكرَّر على ألسنة الخلفاء ، وقادة جيوش الفتوح ، وتظهر في أعمالهم فيما بعد[(٧٠٦)].
عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ص) إذا بعث جيشاً؛ قال: «انطلقوا باسم الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأةً ، ولا تغلُّوا ، وضمُّوا غنائمكم ، وأصلحوا ، وأحسنوا ، إنَّ الله يحبُّ المحسنين» [أبو داود (٢٦١٤) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٩٠) وعبد الرزاق في المصنف (٩٤٣٠)] .
وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: كان رسول الله (ص) إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره؛ قال: «بَشِّروا ، ولا تُنَفِّروا ، ويَسِّرُوا ، ولا تُعَسِّرُوا» [مسلم (١٧٣٢) وأبو داود (٤٨٣٥) وأحمد (٤/٣٩٩)].

* * *

المبحث الخامس

استمرارية البناء التَّربويِّ والعلميِّ

كان من أوائل ما نزل من القران الكريم في العهد المدنيّ مقدِّماتُ سورة البقرة ، الَّتي تحدَّثت عن صفات أهل الإيمان ، وأهل الكفر ، وأهل النِّفاق ، ثمَّ إشارة لأهل الكتاب ـ اليهود والنَّصارى ـ وكان التَّركيز على بيان حقيقة اليهود؛ لأنَّهم الذين تصدَّوا للدَّعوة الإسلاميَّة من أوَّل يومٍ دخلت فيه المدينة ، وتتضمَّن سورة البقرة جانباً طويلاً منها لشرح صفة يهود ، وطباعهم[(٧٠٧)].

والملاحظ: أنَّ سورة البقرة ـ وهي من أوائل ما نزل في العهد المدنيّ ـ كانت توجّه الدَّعوة للنَّاس أجمعين أن يدخلوا في دين الله ، وأن يتوجَّهوا له بالعبادة. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [البقرة: ٢١ ـ ٢٢] .

وكانت الايات القرانيَّة في العهد المدنيّ تحذِّر المسلمين من الاتِّصاف بصفات المنافقين ، وتوضِّح خطورة المنافقين على المجتمع النَّاشأى والدَّولة الجديدة ، ولم تظهر حركة النِّفاق ضدَّ المجتمع ، والدَّولة المسلمة إلا في العهد المدنيّ؛ لأنَّ المسلمين في مكَّة «لم يكونوا من القوَّة ، والنُّفوذ في حالةٍ تستدعي وجود فئةٍ من النَّاس ترهبهم ، أو ترجو خيرهم ، فتتملَّقهم ، وتَتَزَلَّف إليهم في الظَّاهر ، وتتامر عليهم ، وتكيد لهم ، وتمكر بهم في الخفاء ، كما كان شأن المنافقين بوجهٍ عام.. والايات تتضمَّن أوصاف ، وأخبار ، ومواقف المنافقين. والحملات عليهم كثيرةٌ جداً ، حتَّى لا تكاد تخلو سورةٌ مدنيَّةٌ منها ، وخاصَّةً الطَّويلة ، والمتوسطة ، وهذا يعني: أنَّ هذه الحركة ظلَّت طِيلَةَ العهد المدنيّ تقريباً ، وإن كانت أخذت تضعف من بعد نصفه الأوَّل»[(٧٠٨)].

واستمرَّ القران المدنيُّ يتحدَّث عن عظمة الله ، وحقيقة الكون ، والتَّرغيب في الجنة ، والتَّرهيب من النَّار ، ويشرّع الأحكام لتربية الأمَّة ، ودعم مقومات الدَّولة ، الَّتي ستحمل نشر
دعوة الله بين النَّاس قاطبةً[(٧٠٩)] ، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمَّة العلميَّة تتطوَّر مع تطور مراحل الدَّعوة ، وبناء المجتمع وتأسيس الدولة ، وقد أشاد القران الكريم بالعلم ، والَّذين يتعلَّمون ، ورُويت أحاديث عن تقدير الرَّسول (ص) للعلم ، وتضمَّنت كتبُ الحديث أبواباً عن العلم.

لقد أيقنت الأمَّة: أنَّ العلم من أهم مقوِّمات التَّمكين؛ لأنَّه من المستحيل أن يمكِّن الله تعالى لأمَّةٍ جاهلةٍ ، متخلِّفةٍ عن ركاب العلم. وإنَّ النَّاظر للقران الكريم؛ ليتراءى له في وضوحٍ: أنَّه زاخرٌ بالايات الَّتي ترفع من شأن العلم ، وتحثُّ على طلبه وتحصيله ، فقد جعل القرانُ الكريم العلم مقابلاً للكفر[(٧١٠)]؛ الذي

هو الجهل ، والضَّلال. قال تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ *} [الزمر: ٩].

وإنَّ الشَّيء الوحيد؛ الَّذي أمر الله تعالى رسوله (ص) أن يطلب منه الزِّيادة هو العلمُ. قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا *} [طه: ١١٤] كما أنَّ أوَّل خاصِّيَّةٍ ميَّز الله تعالى بها ادم عليه السلام هي العلم. قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *} [البقرة: ٣١] .

واستمرَّ النَّبيُّ (ص) في منهجه التَّربويِّ يعلِّم أصحابه ، ويذكِّرهم بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ويحثُّهم على مكارم الأخلاق ، ويوضِّح لهم دقائق الشَّريعة ، وأحكامها ، وكان توجيهه (ص) لأصحابه أحياناً فرديّاً ، ومرَّةً جماعيّاً، وترك لنا الحبيب المصطفى (ص) ، ثروةً هائلةً في وسائله التَّربويَّة في التَّعليم ، وإلقاء الدُّروس ، فقد راعى (ص) الوسائل التَّربويَّة؛ الَّتي تعين على الحفظ ، وحسن التلقِّي ، وتؤدِّي إلى استقرار الحديث في نفوس وأفئدة الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم؛ فمن هذه الوسائل والمبادأى العظيمة النَّافعة[(٧١١)] في العهد المكيِّ ، والمدنيِّ:

أولاً: أهم هذه الوسائل والمبادأى التَّربوية:

١ ـ تكرار الحديث ، وإعادته:

فذلك أسهل في حفظه ، وأعون على فهمه ، وأدعى لاستيعابه ، ووعي معانيه؛ ولذلك حَرَص النبي (ص) على تكرير الحديث في غالب أحيانه ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ، عن
النَّبيِّ (ص) : أنَّه كان إذا تكلَّم بكلمةٍ أعَادَها ثلاثاً؛ حتَّى تُفْهَمَ عنه ، وإذا أتى على قومٍ ، فسَلَّمَ عليهم؛ سَلَّمَ عليهم ثَلاثاً [البخاري (٩٥)] .

٢ ـ التأنِّي في الكلام والفصل بين الكلمات:

كان (ص) يتأنَّ ولا يستعجل في كلامه ، بل يفصل بين كلمةٍ ، وأخرى ، حتَّى يسهل الحفظ ، ولا يقع التَّحريف والتَّغيير عند النَّقل ، وبلغ من حرص النَّبيِّ (ص) على ذلك: أنَّه كان يَسْهُل على السَّامع أن يَعُدَّ كلماته (ص) ؛ لو شاء[(٧١٢)] ، فقد روى عروة بن الزُّبير ـ رحمه الله! ـ أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: «ألا يُعجبُك أبو فلان «أبو هريرة»؟ جاء ، فجلس إلى جانب حجرتي يُحَدِّث عن رسول الله (ص) ، يُسْمِعُني ذلك ، وكنت أُسبِّحُ[(٧١٣)] ، فقام قبل أن أقضي سُبْحتي ، ولو أدركتُهُ؛ لرددت عليه ، إنَّ رسول الله (ص) لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسَرْدِكم» [البخاري (٣٥٦٨)] .

٣ . الاعتدال ، وعدم الإملال ، واختيار الوقت المناسب:

كان (ص) يقتصد في تعليمه؛ في مقدار ما يلقيه ، وفي نوعه ، وفي زمانه؛ حتَّى لا يملَّ الصَّحابة ، وحتَّى ينشطوا لحفظه ، ويسهل عليهم عَقْلُهُ ، وفهمه ، فعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه قال: كان النَّبيُّ (ص) يَتخوَّلُنا[(٧١٤)] بالموعظة في الأيام؛ كراهةَ السَّآمةِ علينا [البخاري (٦٨)] .

٤ . ضرب الأمثال:

للمثل أثرٌ بالغٌ في إيصال المعنى إلى العقل ، والقلب؛ ذلك: أنَّه يقدِّم المعنويَّ في صورةٍ حسِّيَّةٍ ، فيربطه بالواقع ، ويقرِّبه إلى الذِّهن؛ فضلاً عن أنَّ للمثل بمختلف صوره بلاغةً تأخذ بمجامع القلوب ، وتستهوي العقول ، وبخاصَّةٍ عقول البلغاء؛ ولذلك استكثر القران من ضرب الأمثال ، وذكر حكمة ذلك في اياتٍ كثيرة ، فقال تعالى: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ *} [العنكبوت: ٤٣] ، وقال تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *} [الحشر: ٢١] .

إلى غير ذلك من الايات ، وعلى هذا المنهج الكريم سار النَّبيُّ (ص) ، فاستكثر من ضرب الأمثال ، فقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «حفظت عن رسول الله (ص) ألف مثلٍ»[(٧١٥)].

وقد أُلِّفت كتبٌ متعدِّدةٌ في الأمثال في الحديث النَّبويِّ؛ من أقدمها كتاب: (أمثال الحديث)، للقاضي أبي محمَّد الحسن بن عبد الرَّحمن بن خلاَّد الرَّامَهُرْمُزِيِّ ، (ت ٣٦٠هـ)[(٧١٦)].

٥ . طرح المسائل:

إنَّ طرح السُّؤال من الوسائل التربويَّة المهمَّة في ربط التَّواصل القويِّ بين السَّائل والمسؤول ، وفتح ذهن المسؤول ، وتركيز اهتمامه على الإجابة ، وإحداث حالة من النَّشاط الذِّهنيِّ الكامل؛ ولذلك استخدم النَّبيُّ (ص) السُّؤال في صورٍ متعدِّدةٍ لتعليم الصَّحابة؛ ممَّا كان له كبير الأثر في حسن فهمهم ، وتمام حفظهم ، فأحياناً يوجِّه النَّبيُّ (ص) السُّؤال لمجرد الإثارة ، والتَّشويق ، ولفت الانتباه ، ويكون السُّؤال عندئذٍ بصيغة التَّنبيه (ألا) غالباً ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ (ص) قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدَّرجات؟» قالوا: بلى يا رسولَ الله! قال: «إسباغُ الوضوء على المكاره ، وكَثْرَةُ الخُطَا إلى المساجد ، وانتظارُ الصَّلاة بعد الصَّلاة ، فذلكم الرِّباط» [مسلم (٢٥١) ومالك في الموطأ (١/١٦١) والترمذي (٥١) والنسائي (١/٨٩) وابن ماجه (٤٢٨)] .

وأحياناً يسألهم النَّبيُّ (ص) عمَّا يعلم: أنَّهم لا علم لهم به ، وأنَّهم سيكلُون علمه إلى الله ، ورسوله؛ وإنَّما يقصد إثارة انتباههم للموضوع ، ولفت أنظارهم إليه[(٧١٧)] ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له ، ولا متاعَ. فقال: «إنَّ المفلس من أمَّتي ، من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ ، وصيامٍ ، وزكاةٍ ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دَمَ هذا ، وضرب هذا ، فيُعطَى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يُقضى ما عليه؛ أُخِذَ من خطاياهم ، فطُرِحَتْ عليه ، ثمَّ طُرِحِ في النار» [مسلم (٢٥٨١) والترمذي (٢٤١٨)] .

وأحياناً يسأل ، فيحسن أحد الصَّحابة الإجابة ، فيثني عليه ، ويمدحه تشجيعاً له ، وتحفيزاً لغيره ، كما فعل مع أُبَيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله (ص) : «يا أبا الْمُنْذِرِ! أتدري أيُّ اية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسولُه أعلم! قال: «يا أبا الْمُنْذر! أتدري أيُّ ايةٍ من كتاب الله معك أعظمُ؟» قال: قلت: {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥] ، قال: فضرب في صدري ، وقال: «والله! ليَهْنِك العِلْمُ[(٧١٨)] أبا المنْذِرِ!» [مسلم (٨١٠) وأبو داود (١٤٦٠) وأحمد (١٤٢/٥)].

فهذا الاستحسان ، والتَّشجيع يبعث المتعلِّم على الشُّعور بالارتياح ، والثِّقة بالنَّفس ، ويدعوه إلى طلب ، وحفظ المزيد من العلم ، وتحصيله[(٧١٩)].

٦ ـ إلقاء المعاني الغريبة المثيرة للاهتمام ، والدَّاعية إلى الاستفسار ، والسُّؤال:

ومن ألطف ذلك ، وأجمله ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله (ص) مرَّ بالسُّوق ، داخلاً من بعض العَالية ، والنَّاس كُنَفَتَهُ[(٧٢٠)] ، فمرَّ بجَدْيٍ أسَكَّ[(٧٢١)] ميتٍ ، فتناوله ، فأخذ بأذنه ، ثمَّ قال: «أيكم يحبُّ: أنَّ هذا له بدرهم؟» ، فقالوا: ما نحبُّ: أنَّه لنا بشيءٍ ، وما نصنع به؟ قال: «أتحبُّون: أنَّه لكم؟» قالوا: والله لو كان حيّاً كان عيباً فيه؛ لأنه أسَكُّ ، فكيف ، وهو ميتٌ؟! فقال: «فو الله! للدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم» [مسلم (٢٩٥٧)] .

٧ ـ استخدام الوسائل التوضيحيَّة:

كان النَّبيُّ (ص) يستخدم ما يسمَّى اليوم بالوسائل التَّوضيحية؛ لتقرير ، وتأكيد المعنى في نفوس وعقول السَّامعين ، وشغل كلِّ حواسِّهم بالموضوع ، وتركيز انتباههم فيه ، ممَّا يساعد على تمام وعيه ، وحسن حفظه بكلِّ ملابساته؛ ومن هذه الوسائل:

أ ـ التعبير بحركة اليد: كتشبيكه (ص) بين أصابعه ، وهو يبيِّن طبيعة العلاقة بين المؤمن وأخيه ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، عن النَّبيِّ (ص) قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشدُّ بعضه بعضاً» ، وشبَّك بين أصابعه [البخاري (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥)] .

ب ـ التعبير بالرَّسم: فكان (ص) يخطُّ على الأرض خطوطاً توضيحيَّة، تسترعي نظر الصَّحابة، ثمَّ يأخذ في شرح مفردات ذلك التَّخطيط ، وبيان المقصود منه ، فعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: خطَّ رسول الله (ص) خطّاً بيده ، ثمَّ قال: «هذا سبيلُ الله مستقيماً»، ثمَّ خطَّ خطوطاً عن يمينه، وعن شماله، ثمَّ قال: «وهذه سُبُلٌ ـ قال يزيد: متفرّقةٌ ـ على كلِّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه»، ثمَّ قرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} [الأنعام: ١٥٣] [أحمد (١/٤٣٥) والطيالسي (٢٤٤) والدارمي (٢٠٨) وابن حبان (٦ و٧)] .

ج ـ التَّعبير برفع ، وإظهار الشَّيء موضع الحديث ، كما فعل (ص) عند الحديث عن حكم لبس الحرير ، والذَّهب ، فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: إنَّ نبيَّ الله (ص) أخذ حريراً ، فجعله في يمينه ، وأخذ ذهباً ، فجعله في شماله ، ثمَّ قال: «إنَّ هذين حرامٌ على ذكور أمَّتي»

[أبو داود (٤٠٥٧) والنسائي (٨/١٦٠)] ، وزاد في رواية: «حلٌّ لإناثهم» [المصدران السابقان] ، فجمع النَّبيُّ (ص) بين القول ، وبين رفع الذَّهب ، والحرير ، وإظهارهما ، حتَّى يجمع لهم السَّماع ، والمشاهدة ، فيكون ذلك أوضحَ ، وأعونَ على الحفظ.

د ـ التَّعليم العمليُّ بفعل الشَّيء أمام النَّاس ، كما فعل عندما صَعِدَ (ص) المنبرَ ، فصلَّى بحيث يراه النَّاس أجمعون ، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: رأيت رسولَ الله (ص) قام على المنبر ، فاستقبل القبلة ، وكبَّر ، وقام النَّاس خلفه ، فقرأ وركع ، وركع النَّاس خلفه ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرى[(٧٢٢)] ، فسجد على الأرض ، ثمَّ عاد إلى المنبر ، ثمَّ قرأ ، ثمَّ ركع ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرى ، فسجد على الأرض ، ثمَّ عاد إلى المنبر ، ثمَّ قرأ ، ثمَّ ركع ، ثمَّ رفع رأسه ، ثمَّ رجع القَهْقَرَى ، حتَّى سجد بالأرض ، فلمَّا فرغ؛ أقبل على الناس ، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّما صنعت هذا لِتَأْتَمُّوا بي ، ولِتَعلَّموا[(٧٢٣)] صلاتي» [البخاري (٣٧٧)] .

٨ ـ استعمال العبارات اللَّطيفة ، والرَّقيقة:

إنَّ استعمال لطيف الخطاب ، ورقيق العبارات يؤلِّف القلوب ، ويستميلها إلى الحقِّ ، ويدفع المستمعين إلى الوعي ، والحفظ ، فقد كان (ص) يمهِّد لكلامه وتوجيهه بعبارةٍ لطيفةٍ رقيقةٍ ، وبخاصَّةٍ إذا كان بصدد

تعليمهم ما قد يُسْتَحيا من ذكره ، كما فعل عند تعليمهم اداب الجلوس لقضاء الحاجة؛ إذ قدَّم لذلك بأنه مثل الوالد للمؤمنين ، يُعلِّمهم؛ شفقةً بهم[(٧٢٤)] ، فقد قال (ص) : «إنَّما أنا لكم بمنزلة الوالد أُعَلِّمكم ، فإذا أتى أحدكم الغائط؛ فلا يستقبل القبلة ، ولا يستدبرها ، ولا يَسْتَطِبْ بيمينه» [أبو داود (٨)] .

لقد راعى المعلِّم الأوَّل (ص) جملةً من المبادأى التَّربويَّة الكريمة؛ كانت غايةً في السُّموِّ الخُلُقيِّ ، والكمال العقليِّ ، وذلك في تعليقه على ما صدر من بعض الصَّحابة، جعلت التوجيه يستقرُّ في قلوبهم ، وبقي ماثلاً أمام بصائرهم؛ لما ارتبط به من معانٍ تربويةٍ كريمةٍ[(٧٢٥)] ، وهذه بعض المبادأى الرَّفيعة الَّتي استعملها النَّبيُّ (ص) :

أ ـ تشجيع المحسن ، والثناء عليه:

ليزداد نشاطاً وإقبالاً على العلم ، والعمل؛ مثلما فعل مع أبي موسى الأشعريِّ ـ رضي الله عنه ـ حين أثنى على قراءته ، وحسن صوته بالقران الكريم. فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ:

أن النبي (ص) قال له: «لو رَأَيْتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أُوتيتَ مِزْماراً من مَزَاميرِ ال داود» [البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣)] .

ب ـ الإشفاق على المخطأى ، وعدم تعنيفه:

كان صلوات الله وسلامه عليه يقدِّر ظروف النَّاس ، ويراعي أحوالهم ، ويعذرهم بجهلهم ، ويتلطَّف في تصحيح أخطائهم ، ويترفَّق في تعليمهم الصَّواب ، ولا شكَّ أنَّ ذلك يملأ قلب المنصوح حبّاً للرِّسالة ، وصاحبها ، وحرصاً على حفظ الواقعة ، والتَّوجيه ، وتبليغهما ، كما يجعل قلوب الحاضرين المعجبة بهذا التَّصرُّف ، والتَّوجيه الرَّقيق مهيَّأةً لحفظ الواقعة بملابساتها كافَّةً[(٧٢٦)]؛ ومن ذلك ما رواه معاوية بن الحكم السُّلميُّ رضي الله عنه قال: «بَيْنَا أنا أصلي مع رسول الله (ص) ؛ إذ عَطَس رجلٌ من القوم ، فقلت: يرحمُك الله! فرماني القومُ بأبصارهم ، فقلتُ: واثُكْلَ أُمِّيَاهْ![(٧٢٧)] ما شأنُكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلمَّا رأيتهم يُصَمِّتُونَني ، لكنِّي سكتُّ ، فلما صلَّى رسول الله (ص) ، فبأبي هو ، وأمِّي! ما رأيتُ معلِّماً قبله ، ولا بعده أحسنَ تعليماً منه ، فو الله! ما كَهَرَني[(٧٢٨)] ، ولا ضربني ، ولا شتمني ، قال: «إن هذه الصَّلاة لا يَصْلُح فيها شيءٌ من كلام النَّاس؛ إنَّما هو التَّسبيح ، والتَّكبير ، وقراءة القران» [مسلم (٥٣٧) وأبو داود (٩٣٠ و٩٣١) والنسائي (٣/١٤ ـ ١٨) وأحمد (٥/٤٤٧)] .

فانظر ـ رحمك الله! ـ إلى هذا الرِّفق البالغ في التَّعليم! وانظر أثر هذا الرِّفق في نفس معاوية بن الحكم السُّلَمي رضي الله عنه ، وتأثُّره بحسن تعليمه (ص) !.

ج ـ عدم التَّصريح ، والاكتفاء بالتَّعريض فيما يُذمُّ:

لما في ذلك من مراعاة شعور المخطأى ، والتَّأكيد على عموم التَّوجيه؛ ومن ذلك ما حَدَثَ مع عبد الله بن اللُّتْبيَّة رضي الله عنه حين استعمله النَّبيُّ (ص) على صدقات بني سُلَيْم ، فقبل الهدايا من المتصدِّقين ، فعن أبي حُمَيْد السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: استعمل رسولُ الله (ص) رجلاً على صدقات بني سُلَيْم ، يُدعى ابن اللُّتْبِيَّة ، فلمَّا جاء حاسبه (ص) ، فقال: هذا مالُكم ، وهذا هديةٌ. فقال رسول الله (ص) : «فَهَلاَّ جلستَ في بيت أبيك وأمِّك حتَّى تأتيك هديَّتُك؛ إن كنت صادقاً؟» ثمَّ خطبنا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال: «أمَّا بعدُ ، فإنِّي أستعمل الرَّجل منكم على العمل ممَّا ولأَّني الله ، فيأتي ، فيقول: هذا مالُكم ، وهذا هديةٌ أُهديت لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمِّه حتَّى تأتيه هديَّته؟ والله! لا يأخذ أحدٌ منكم شيئاً بغير حقِّه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة ، فلأعرفنَّ

أحداً منكم لقي الله يحمل بعيراً له رُغَاءٌ ، أو بقرةً لها خُوارٌ ، أو شاةً تَيْعَرُ»[(٧٢٩)] ثُمَّ رفع يديه؛ حتَّى رُئِيَ بياض إبطيه يقول: «اللَّهمَّ! هل بلَّغتُ؟ بَصُرَ عيني ، وسَمْعَ أذني» [البخاري (٦٩٧٩) ومسلم (١٨٣٢/٢٧)] .

د ـ الغضب ، والتَّعنيف؛ متى كان لذلك دواعٍ مهمَّة:

وذلك كأن يحدث خطأٌ شرعيٌّ من أشخاصٍ لهم حيثيَّةٌ خاصَّةٌ ، أو تَجَاوَزَ الخطأُ حدود الفَرديَّة ، والجزئيَّة ، وأخذ يمثِّل بداية فتنةٍ ، أو انحرافٍ عن المنهج؛ على أنَّ هذا الغضب يكون غضباً توجيهيّاً ، من غير إسفافٍ ، ولا إسرافٍ؛ بل على قدر الحاجة؛ ومن ذلك غضبه (ص) حين أتاه عمر؛ ومعه نسخةٌ من التَّوراة؛ ليقرأها عليه (ص) ، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أتى رسول الله (ص) بنسخةٍ من التَّوراة ، فقال: يا رسولَ الله! هذه نسخةٌ من التَّوراة. فسكت ، فجعل يقرأ ووجهُ رسول الله (ص) يتغيَّر ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ثكلتك الثَّواكلُ! ما ترى بوجه رسول الله (ص) ؟ فنظر عمر إلى وجه رسول الله (ص) ، فقال: أعوذ بالله من غضب الله ، وغضب رسوله ، رضينا بالله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمَّدٍ نبيّاً. فقال رسول الله (ص) : «والذي نفس محمَّدٍ بيده! لو بدا لكم موسى ، فاتبعتموه ، وتركتموني؛ لضَلَلْتُم عن سواء السَّبيل ، ولو كان حيّاً ، وأدرك نبوَّتي؛ لاتَّبعني» [أحمد (٣٣٨/٣ و٣٨٧) والبزار (١٢٤)] .

ومن ذلك غضبه (ص) من تطويل بعض أصحابه الصَّلاة ، وهم أئمَّةٌ بعد أن كان (ص) قد نهى عن ذلك؛ لما فيه من تعسيرٍ ، ومشقَّةٍ ، ولما يؤدِّي إليه من فتنةٍ لبعض الضُّعفاء ، والمعذورين ، وذوي الأشغال ، فعن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه ، قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله! لا أكاد أُدركُ الصَّلاةَ ممَّا يُطولُ بنا فلانٌ. فما رأيت النَّبيَّ (ص) في موعظةٍ أشدَّ غضباً من يومئذٍ ، فقال: «أيُّها النَّاسُ! إنَّكم مُنَفِّرون ، فمن صلَّى بالنَّاس فلْيُخفِّف؛ فإنَّ فيهمُ المريض ، والضَّعيفَ ، وذا الحاجة» [البخاري (٩٠) ومسلم (٤٦٦)] .

ومن ذلك غضبه من اختصام الصَّحابة ، وتجادلهم في القَدرِ ، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله (ص) على أصحابه؛ وهم يختصمون في القدر ، فكأنما يُفقأُ في وجهه حبُّ الرُّمَّان من الغضب ، فقال: «بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القران بعضه ببعضٍ؟ بهذا هلكت الأمم قبلكم» [ابن ماجه (٨٥)] .

ومن ذلك غضبه (ص) حين يخالف الصَّحابة أمرَه ، ويُصرُّون على المغالاة في الدِّين ، والتَّشديد على أنفسهم ، ظناً منهم: أنَّ ذلك أفضلُ ممَّا أُمروا به ، وأقرب إلى الله ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله (ص) إذا أمرهم؛ أمرهم من الأعمال بما يُطِيقون ، قالوا: إنَّا
لسنا كهيئتك يا رسولَ الله! إنَّ الله قد غفر لك ما تقدَّم من ذنبك ، وما تأخَّر ، فيغضبُ ، حتَّى يُعْرفَ في وجهه الغضبُ ، ثمَّ يقول: «إنَّ أتقاكُم وأعلمُكم بالله أنا» [البخاري (٢٠)] .

ولم يكن غضب النَّبيِّ (ص) في تلك المواقف إلا عملاً توجيهيّاً ، وتعليميّاً؛ تحريضاً للصَّحابة على التَّيقُّظ ، وتحذيراً لهم من الوقوع في هذه الأخطاء ، فالواعظ «من شأنه أن يكون في صورة الغضبان؛ لأنَّ مقامه يقتضي تكلُّف الانزعاج؛ لأنَّه في صورة المنْذِر ، وكذا المعلِّم إذا أنكر على مَنْ يتعلَّم منه سوءَ فهمٍ ونحوه؛ لأنَّه قد يكون أدعى للقبول منه ، وليس ذلك لازماً في حقِّ كلِّ أحدٍ؛ بل يختلف باختلاف أحوال المتعلِّمين»[(٧٣٠)].

هـ انتهاز بعض الوقائع لبيان وتعليم معانٍ مناسبة:

كان (ص) تحدث أمامه أحداثٌ معيَّنةٌ ، فينتهز مشابهة ما يرى لمعنًى معينٍ يريد تعليمه للصَّحابة ، ومشاكلته لتوجيهٍ مناسبٍ يريد بثَّه لأصحابه ، وعندئذٍ يكون هذا المعنى ، وذلك التَّوجيه أوضح ما يكون في نفوسهم رضي الله عنهم؛ ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: قَدِمَ على النَّبيِّ (ص) سَبْيٌ[(٧٣١)] ، فإذا امرأةٌ من السَّبي تَحْلُبُ ثَدْيَها[(٧٣٢)] تسقي[(٧٣٣)] ، إذا وجدت صبيّاً في

السَّبي؛ أخذته فألصقته ببطنها ، وأرضعته ، فقال النَّبيُّ (ص) : «أَتُرَوْن[(٧٣٤)] هذه طارحةً ولدها في النَّار؟» قلنا: لا؛ وهي تقدر على ألا تَطرَحَهُ[(٧٣٥)] ، فقال: «للهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها!» [البخاري (٥٩٩٩) ومسلم (٢٧٥٤)] .

«فانتهز (ص) المناسبة القائمة بين يديه مع أصحابه ، والمشهود فيها حنان الأمّ الفاقدة رضيعها؛ إذ وجدته ، وضرب بها المشاكلةَ والمشابهةَ برحمة الله تعالى؛ ليُعرِّف النَّاسَ رحمةَ ربِّ النَّاس بعباده»[(٧٣٦)].

ثانياً: من أخلاق الصَّحابة رضي الله عنهم عند سماعهم للنَّبيّ (ص):

حَرَصَ الصَّحابة رضي الله عنهم على الالتزام باداب ومبادأى مهمَّة ، كان لها عظيمُ الأثر في

حسن الحفظ ، وتمام الضَّبط ، وقدرتهم في تبليغ دعوة الله للنَّاس؛ ومن هذه الاداب ، والأخلاق:

١ . الإنصات التَّامُّ ، وحسن الاستماع:

فقدكان رسولُ الله (ص) أجلَّ في نفوس الصَّحابة ، وأعظم من أن يَلْغَوْا إذا تحدَّث ، أو ينشغلوا عنه إذا تكلَّم ، أو يرفعوا أصواتهم بحضرته؛ وإنَّما كانوا يلقون إليه أسماعهم ، ويشهدون عقولهم ، وقلوبهم ، ويحفزون ذاكرتهم ، فعن عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في الحديث عن سيرته (ص) في جلسائه ، قال: «... وإذا تكلَّم؛ أطْرَقَ جلساؤه ، كأنَّما على رؤوسهم الطَّير ، فإذا سكت؛ تكلَّموا....» [الشمائل للترمذي (٣٥٢)] .

قال الشَّيخ عبد الفتاح أبو غدَّة . رحمه الله .: «أصله: أنَّ الغراب يقع على رأس البعير ، فيلقط منه القُراد ، فلا يتحرَّك البعير حينئذٍ؛ لئلا ينفر عنه الغراب ويبقى القُراد في رأس البعير فيؤلمه ، فقيل منه: كأن على رؤوسهم الطير»[(٧٣٧)].

وأيّاً ماكان أصل المثل ، فهو يدلُّ على السُّكون التَّامّ ، والإنصات الكامل ، هيبةً لرسول الله (ص) ، وتعظيماً له ، وإجلالاً لحديثه[(٧٣٨)].

٢ . ترك التَّنازع وعدم مقاطعة المتحدِّث حتَّى يفرغ:

وهذا من تمام الأدب ، المفضي إلى ارتياح جميع الجالسين ، وإقبال بعضهم على بعضٍ ، والمعين على سهولة الفهم ، والتَّعلم؛ ففي حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه السَّابق في سيرته (ص) في جلسائه ، قال: «لا يتنازعون عنده الحديث ، من تكلَّم عنده أنصتوا له حتَّى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أوَّلهم...» [سبق تخريجه] ، أي: أنَّ من بدأ منهم الحديث والكلام ، سكتوا حتَّى يفرغ أوَّلاً من حديثه ،

ولم يقاطعوه ، أو ينازعوه ، وبذلك يبقى المجلس على وقاره ، وهيبته ، ولا تختلط فيه الأصوات ، ولا يحصل أدنى تشويش[(٧٣٩)].

٣ ـ مراجعته (ص) فيما أشكل عليهم حتَّى يتبيَّن لهم:

فمع كمال هيبتهم لرسول الله (ص) ، وشدَّة تعظيمهم له ، لم يكونوا يتردَّدون في مراجعته (ص) ؛ لاستيضاح ما أشكل عليهم فهمُه ، حتَّى يسهل حفظه بعد ذلك ، ولاشك أنَّ هذه المراجعة تعين على تمام الفهم ، وحضور الوعي؛ فمن ذلك حديث حفصة رضي الله عنها قالت: قال النَّبيُّ (ص) : «إِنِّي لأرجو ألا يدخلَ النَّار أحدٌ إن شاء الله ـ ممَّن شهد بدراً، والحديبية»، قالت:

قلت: يا رسول الله! أليس قد قال الله: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *} [مريم: ٧١] ، قال: «ألم تسمعيه يقول: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *} [مريم: ٧٢]» [أحمد (٦/٢٨٥) وابن ماجه (٢٨١)] .

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله ، عن عبد الله بن أُنَيْسَ رضي الله عنهم؛ الَّذي رحل جابرٌ إليه فيه ، قال ابن أنيس: سمعت رسول الله (ص) يقول: «يحشر الله العباد ـ أو قال: النَّاس ـ عُراةً غُرْلاً[(٧٤٠)] بُهْماً» قال: قلنا: ما بُهماً؟ قال: «ليس معهم شيءٌ ، ثمَّ يناديهم بصوتٍ يسمعه مَنْ بَعُد ، كما يسمعه مَنْ قَرُب: أنا الملك ، أنا الدَّيَّان ، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنَّة أن يدخل الجنَّة ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النار أن يدخل النَّار ، وعنده مظلمةٌ ، حتَّى أُقِصَّه[(٧٤١)] منه ، حتى اللَّطمة» ، قال: قلنا: كيف ذا ، وإنَّما نأتي الله غُرْلاً بُهماً؟ قال: «بالحسنات والسَّيِّئات» قال: وتلا رسولُ الله (ص) : {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ *} [غافر: ١٧] [البخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) وأحمد (٣/٤٩٥) والحاكم (٢/٤٣٧ ـ ٤٣٨) ومجمع الزوائد (١/١٣٣)] .

وهكذا استفهم الصَّحابة عمَّا خفي عليهم ، واستوضحوا ما أشكل عليهم فهمه ، وهذه المناقشة والمراجعة كان لها أثرٌ كبيرٌ في الفهم ، والوعي ، والحفظ[(٧٤٢)].

٤ ـ مذاكرة الحديث:

كان الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذا سمعوا شيئاً من النَّبيِّ (ص) ، وحملوا عنه علماً؛ جلسوا ، فتذاكروه فيما بينهم ، وتراجعوه على ألسنتهم؛ تأكيداً لحفظه ، وتقويةً لاستيعابه ، وضبطه ، والعمل به ، فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: «كنَّا نكون عند النَّبي (ص) ، فنسمع منه الحديث ، فإذا قمنا؛ تذاكرناه فيما بيننا ، حتى نحفظه»[(٧٤٣)]. وقد بقي مبدأ المذاكرة قائماً بين الصَّحابة حتَّى بعد وفاته

(ص) ؛ فعن أبي نضرة المنذر بن مالك بن قطعة ـ رحمه الله ـ! قال: «كان أصحاب رسول الله (ص) إذا اجتمعوا؛ تذاكروا العلم ، وقرؤوا سُوَرَهُ»[(٧٤٤)].

٥ ـ السُّؤال بقصد العلم ، والعمل[(٧٤٥)]:

كانت أسئلة الصَّحابة بقصد العلم ، والعمل ، لا للعبث ، واللعب ، فكانت أسئلتهم مشفوعةً بهذا القصد؛ لِمَا علموا من كراهة النَّبيِّ (ص) للمسائل العبثيَّة الَّتي لا يُحتاج إليها ، ولِمَا سمعوا من تحذيره (ص) من كثرة السُّؤال ، فعن سهل بن سعدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال: «كَرِهِ رسولُ الله (ص) المسائلَ ، وعابَهَا»[(٧٤٦)].

قال النَّوويُّ: «المراد: كراهة المسائل الَّتي لا يُحْتاج إليها ، لاسيَّما ما كان فيه هتك ستر مسلمٍ ، أو إشاعةُ فاحشةٍ ، أو شناعةٍ على مسلمٍ ، أو مسلمةٍ ، قال العلماء: أمَّا إذا كانت المسائل ممَّا يُحتاج إليه في أمور الدِّين ، وقد وقع ، فلا كراهة فيها»[(٧٤٧)].

٦ ـ ترك التنطُّع ، وعدم السُّؤال عن المتشابه:

وذلك تطبيقاً لتحذير النَّبيِّ (ص) من ذلك ، وتشديده على المتنطِّعين ، ونهيه عن مجالستهم؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: تلا رسول الله (ص) هذه الاية: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ *} [آل عمران: ٧] ، قالت: قال رسول الله (ص) : «فإذا رأيت الَّذين يَتَّبِعون ما تشابه منه؛ فأولئك الَّذين سَمَّى الله؛ فاحذروهم!» [البخاري (٤٥٤٧) ومسلم (٢٦٦٥)] .

٧ ـ ترك السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع:

فقد التزموا ـ رضوان الله عليهم ـ بهذا الأدب ، فلم يتكلَّفوا السُّؤال عمَّا سكت عنه الشَّارع؛ حتَّى لا يؤدِّي السُّؤال عن ذلك إلى إيجاب ما لم يوجبه الشَّرع ، أو تحريم ما لم يحرّمه؛ فيكون السُّؤال قد أفضى إلى التَّضييق على المسلمين ، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ *قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ *} [المائدة: ١٠١ ـ ١٠٢] .

وحذَّر الرَّسول (ص) من مثل ذلك؛ فعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «إنَّ أعظم المسلمين جُرْماً من سأل عن شيءٍ لم يُحَرَّمْ ، فحُرِّمَ من أجل مسألته» [البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨)] .

٨ ـ اغتنام خلوة رسول الله (ص) ، ومراعاة وقت سؤاله:

كان الصَّحابة رضي الله عنهم يراعون الوقت المناسب للسُّؤال؛ ومن ذلك اغتنام ساعة خلوته (ص) ؛ حتَّى لا يكون في السؤال إثقالٌ ، أو إرهاقٌ أو نحو ذلك؛ فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: «كان النَّبيُّ (ص) إذا صلَّى الفجر؛ انحرفنا إليه ، فمنَّا من يسأله عن القران ، ومنَّا من يسأله عن الفرائض ، ومنَّا من يسأله عن الرُّؤيا» [مجمع الزوائد: (١٥٩/١)] .

٩ ـ مراعاة أحواله (ص) وعدم الإلحاح عليه بالسُّؤال:

وبخاصَّةٍ ، بعد أن نُهُوا عن السُّؤال؛ ولذلك كانوا يدفعون الأعراب لسؤاله (ص) ، ويتحيَّنون ، وينتظرون مجأي العقلاء منهم؛ ليسألوا رسول الله (ص) ، وهم يسمعون؛ فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: نُهينا أن نسأل رسول الله (ص) عن شيءٍ ، فكان يُعجِبنا أن يجيء الرَّجلُ من أهل البادية العاقلُ ، فيسأله ، ونحن نسمع ، فجاء رجلٌ من أهل البادية ، فقال: يا محمد! أتانا رسولك ، فزعم لنا أنَّك تزعم: أنَّ الله أرسلك. قال: «صدق».... الحديث [مسلم (٩٢) وأبو داود (٤٨٦) والترمذي (٦١٩) والنسائي (١٢١/٤ ـ ١٢٢) وأحمد (١٤٣/٣ و١٩٣)] .

وهكذا استمرَّ البناء التَّربويُّ في المجتمع الجديد من خلال المواقف العمليَّة الواضحة ، منسجماً مع غرس فريضة التعلُّم ، والتَّعليم بين أفراد المجتمع المسلم ، فكانت تلك التَّوجيهات تساهم في إعداد الفرد المسلم ، والأمَّة المسلمة ، والدَّولة المسلمة الَّتي أسَّسها رسولُ الله (ص) ، وهذا جزءٌ من كلٍّ ، وغَيْضٌ من فَيْضٍ ، وتذكيرٌ ، وتنبيهٌ لأهميَّة استمرار البناء التَّربويِّ ، والعلميِّ في الأمَّة ، حتَّى بعد قيام الدَّولة.

* * *

المبحث السَّادس

أحداثٌ وتشريعات

أولاً: معالجة الأزمة الاقتصاديَّة:

أدَّت هجرة المسلمين إلى المدينة ، إلى زيادة الأعباء الاقتصاديَّة الملقاة على عاتق الدَّولة النَّاشئة ، وشرع القائد الأعلى (ص) يَحُلُّ هذه الأزمة بطرقٍ عديدةٍ ، وأساليب متنوعةٍ ، فكان نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وبناء الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويّ؛ لاستيعاب أكبر عددٍ ممكنٍ من فقراء المهاجرين ، واهتمَّ (ص) بدراسة الأوضاع الاقتصاديَّة في المدينة؛ فرأى: أنَّ القُوة الاقتصاديَّة بيد اليهود ، وأنَّهم يملكون السُّوق التِّجاريَّة في المدينة ، وأموالها ، ويتحكَّمون في الأسعار والسِّلع ، ويحتكرونها ، ويستغلُّون حاجة النَّاس ، فكان لابدَّ من بناء سوقٍ للمسلمين؛ لينافسوا اليهود على مصادر الثَّروة ، والاقتصاد في المدينة ، وتظهر فيها اداب الإسلام ، وأخلاقه الرَّفيعة في عالم التِّجارة ، فحدَّد (ص) مكاناً للسُّوق في غرب المسجد النَّبوي ، وخَطَّه برجله ، وقال: «هذا سوقُكم ، فلا ينتقصنَّ ، ولا يضربنَّ عليه خراجٌ» [ابن ماجه (٢٢٣٣)] .

وقد قامت السُّوق في عهده (ص) رَحْبَةً واسعةً ، وقد حظي السُّوق باهتمام النَّبيِّ (ص) ، ورعايته ، فتعهَّده بالإشراف ، والمراقبة ، ووضع له ضوابطَ ، وسنَّ له اداباً ، وطهَّره من كثيرٍ من بُيُوع الجاهليَّة؛ المشتملة على الغَبْنِ ، والغَرَرِ[(٧٤٨)] ، والغشِّ ، والخداع ، كما عُنِي (ص) بحرِّيته ، وإتاحة الفرص المتكافئة فيها للبيع والشِّراء ، بين الجميع على السَّواء[(٧٤٩)].

وقد أرسى (ص) اداباً كثيرة ، وحرماتٍ عديدةً لسوق المدينة؛ لكي تُصان ولا تنتهك ، وتحفظ فلا تخدش ، ولا يستهان بها ، ولكي يصبح قدوةً لأسواق الأمَّة على مَرِّ الدُّهور ، وكَرِّ العصور ، وتوالي الأزمان ، فمن سيرته يمكننا أن نستنبط جملةً من الاداب الَّتي كان يأمر بها ،

أو ينهى عنها أثناء دخوله إلى السُّوق ، وإشرافه عليه ، ومتابعته سير المعاملات فيه ، فقد كان (ص) لا يرى منكراً إلا غيَّره ، وأزاله ، ولا معروفاً إلا أقرَّه ، ورغب في المواظبة عليه ، والالتزام به ، مستمدّاً كلَّ ذلك من توجيهات ، وتعليمات ربِّه سبحانه وتعالى ، قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى *} [النجم: ٣ ـ ٤] .

ومن هذه الاداب:

١ ـ يُسَنُّ في حقِّ الدَّاخل إلى السُّوق أن يذكر الله ـ تعالى ـ ابتداءً ، ويحمده ، ويثني عليه؛ وذلك لما ورد عنه (ص) : أنَّه قال: «مَنْ دخل السُّوق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك، وله الحمد ، يحيي، ويميت ، وهو حيٌّ لا يموت ، بيده الخير ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ كتب الله له ألف حسنةٍ ، ومحا عنه ألف سيئةٍ ، ورفع له ألف درجةٍ ، وبنى له بيتاً في الجنة» [الترمذي (٣٤٢٨) وابن ماجه (٢٢٣٥) والحاكم (١/٥٣٨)] .

«وإنَّما خصَّ السُّوق بالذِّكر؛ لأنَّه مكان الغفلة عن ذكر الله ، والاشتغال بالتِّجارة ، فهو في موضع سلطنة الشَّيطان ، ومجمع جنوده ، فالذِّكر هنا يحارب الشَّيطان ، ويهزم جنوده ؛ فمن قال ذلك فهو خليقٌ بما ذُكر من الثَّواب»[(٧٥٠)].

٢ ـ يُكره لمن دخل السُّوق أن يرفع صوته بالخصام واللَّجاج؛ فقد ورد في صفته (ص) : أنَّه: «ليس بفظٍّ ، ولا غليظٍ ، ولا سَخَّابٍ[(٧٥١)] في الأسواق ، ولا يدفع بالسَّيئةِ السَّيئةَ ، ولكن يعفو ، ويغفرُ» [البخاري (٢١٢٥)] . فالصَّخَب مذمومٌ بذاته ، فكيف إذا كان في الأسواق؛ الَّتي هي مجمع النَّاس من كلِّ جنسٍ؟![(٧٥٢)].

٣ ـ ينبغي المحافظة على نظافة الأسواق ، والابتعاد عن تلويثها بالأقذار ، والأوساخ؛ لكي لا يُؤْذَى المسلمون في حركة سيرهم ، ولا بالرَّوائح الكريهة ، وقد حثَّ (ص) على النَّظافة ، ونهى عن عدمها؛ وخاصَّةً في طرقات النَّاس ، وأسواقهم؛ وذلك لما فيها من الضَّرر ، قال (ص) : «اتَّقوا اللَّعَّانَيْنِ»[(٧٥٣)] قالوا: وما اللَّعَّانَانِ يا رسولَ الله؟! قال: «الَّذي يَتَخَلَّى في طريق النَّاس ، أو في ظِلِّهم» [مسلم (٢٦٩) وأبو داود (٢٥)] .

٤ ـ الاحتراز في حمل السِّلاح لمن دخل السُّوق، ومعه سلاحٌ؛ فقد ثبت عنه (ص) : أنَّه قال: «إذا مرَّ أحدكم في مسجدنا ، أو في سوقنا ، ومعه نَبْلٌ[(٧٥٤)] فَلْيُمْسِكْ على نِصَالها[(٧٥٥)] ـ أو قال: فليقبضْ بكفِّه ـ أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيءٍ» [البخاري (٧٠٧٥) ومسلم (٢٦١٥)] ويقاس عليه الأسلحة ، مع ما فيها من خطرٍ محقَّقٍ عند أدنى ملامسةٍ لها[(٧٥٦)].

٥ ـ الأمر بالوفاء بالعقود ، والعهود ، وسائر الالتزامات ، والتَّحذير من نقضهما ، أو الغدر فيهما، قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ *} [النحل: ٩١] .

٦ ـ السُّهولة ، واليسر ، والمسامحة في البيع ، والشِّراء ، ونحوهما من صنوف التِّجارة ، قال (ص) : «رَحِمَ اللهُ عبداً سَمْحاً إذا با ع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى» [البخاري (٢٠٧٦) والترمذي (١٣٢٠) وابن ماجه (٢٢٠٣)] .

٧ ـ الصِّدقُ ، والبيانُ ، وعدم الكتمانِ من أهمِّ الاداب الَّتي يجب أن تسري بين النَّاس في معاملاتهم؛ فقد أثنى (ص) على التَّاجر الصَّادق في معاملته ، الأمين في أخذه ، وعطائه ، وبيَّن: أنَّه يُحْشر يوم القيامة مع النَّبيِّين ، والصِّديقين ، والشُّهداء ، وحَسُنَ أولئك رفيقاً ، قال (ص) : «التَّاجر الصَّدوق الأمين ، مع النَّبيِّين ، والصِّدِّيقين ، والشُّهداء» [الترمذي (١٢٠٩)] وفي لفظٍ: «يوم القيامة» [ابن ماجه (٢١٣٩)] .

٨ ـ وجوب الابتعاد عن الأَيْمان الكاذبة ، فقد قال (ص) : «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ[(٧٥٧)] للسِّلْعَةِ ، مَمْحَقَةٌ للرِّبْحِ» [البخاري (٢٠٨٧) ومسلم (١٦٠٦)] ، وقال (ص) : «إيَّاكم وكَثرةَ الحَلِفِ في البيع! فإنَّه يُنْفِقُ ، ثمَّ يَمْحَقُ» [مسلم (١٦٠٧) والنسائي (٧/٢٤٦) وابن ماجه (٢٢٠٩)] . «فالحالف يروِّج سلعته ، وينفقها ، لكن هذا الرَّواج ، وذلك الإنفاق موضعٌ لنقصان البركة ، ومظنَّةٌ له في المال ، بأن يسلط الله عليه وجوهاً يتلف فيها؛ إمَّا سرقاً ، أو حرقاً ، أو غرقاً ، أو غصباً ، أو نهباً ، أو عوارض يُنفَق فيها من أمراضٍ وغيرها»[(٧٥٨)].

هذه بعض الاداب والتَّوجيهات النَّبويَّة ، تتعلَّق باداب التَّعامل في السُّوق الإسلاميِّ؛ ممَّا كان لها الأثر في تعمير أسواق المسلمين ، وضعف أسواق اليهود؛ وبذلك استطاع المسلمون أن
يسيطروا على الاقتصاد في المدينة ، ويتحكَّموا فيه ، وهكذا قهروا اليهود في أدقِّ اختصاصاتهم[(٧٥٩)].
ولقد تطوَّرت تلك التعاليم ، والاداب مع توسُّع الدَّولة ، ونزول التَّشريعات ، وأصبح للتِّجارة علمٌ ، وفقهٌ ، ومبادأى ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه: «لا يبيعُ في سوقنا إلا مَنْ تفقَّه في الدِّين»[(٧٦٠)].

إنَّ للأسواق في الإسلام مكانةً عاليةً ، ومنزلةً ساميةً؛ وذلك نظراً لأهمِّيتها الماليَّة والاقتصاديَّة في حياة النَّاس؛ حيث إنَّها موضع التَّعامل ، والمبادلات فيما بينهم ، وعن طريقه يحصل كلُّ فردٍ على أموره المعيشية ، وحاجته الضَّروريَّة ، ومستلزماته الخاصَّة والعامَّة ، ولذلك حظي السُّوق الإسلاميُّ بالتَّوجيهات النَّبويَّة[(٧٦١)].

ولقد تحدَّث القران الكريم عن افةٍ اقتصاديةٍ ، واجتماعيَّةٍ خطيرةٍ ، أثَّرت على دين النَّاس ، ودنياهم ، ألا وهي نقص الميزان ، والمكيال ، فقد كان هذا العمل يخالف ، ويناقض النَّهج الَّذي أنزله الله من عنده؛

ليتعامل الناس بمقتضاه ، ذلك النَّهج هو العدل في كلِّ شيءٍ. قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ *} [الشورى: ١٧] والميزان: هو العدل[(٧٦٢)] ، والموازين ، والمكاييل الاتٌ لإقامة العدل؛ ولذا أمر الله بإيفائها ، ونهى عن نقصها.

قال تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *} [الأنعام: ١٥٢] ، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *} [الإسراء: ٣٥] .

وتوعَّد اللهُ المطفِّفين بالويل ، فقال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ *الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ *وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ *أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ *لِيَومٍ عَظِيمٍ *} [المطففين: ١ ـ ٥] .

فتعلَّم الصَّحابة رضي الله عنهم من قصَّة شعيبٍ: أنَّ نقص الميزان ، والمكيال تعطيلٌ للمنهج الإلهيِّ ، ومخالفةٌ للأوامر الرَّبَّانيَّة ، وتعرُّضٌ لسخط الجبَّار ، وعذابه في الدُّنيا ، والاخرة.

إنَّ هذا العمل له ضَرَرهُ على دنيا النَّاس؛ لأنَّه يجلب الشِّدَّة بدل الرَّخاء ، وغلاء الأسعار بدل رخصها ، ويؤدِّي إلى إضرارٍ بمعايش النَّاس؛ ولذلك حاربته الدَّولة الإسلاميَّة في المدينة[(٧٦٣)].

إنَّ نقص المكيال ، والميزان ، كان من الأسباب التي أدَّت إلى هلاك قوم شعيبٍ ، قال تعالى: {كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ *} [هود: ٩٥] .

كانت قصَّة شعيبٍ مع قومه من ضمن المنهاج النَّبويِّ في تربية النَّبيِّ (ص) لأصحابه؛ ولذلك فهموا: أنَّ الانحراف عن المنهج الرَّبانيِّ معناه الدَّمار ، والهلاك ، وأنَّ شموليَّة هذا الدِّين تدخل في شؤون حياتهم كافَّةً.

إنَّ المنهج الرَّبانيَّ ، عالج المشكلة الاقتصاديَّة عن طريق القصص القرانيِّ ، لكي يتَّعظ النَّاس، ويعتبروا بمَنْ مضى من الأقوام ، ولم يترك الجانب التَّشريعيَّ التَّعبديَّ، الَّذي له أثرٌ في البناء التَّنظيميِّ التَّربويِّ ، فقد كان المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ يرعى هذه الأمَّة ، وينقل خطاها؛ لكي تكون مؤهَّلةً لحمل الأمانة ، وتبليغ الرِّسالة ، ولا فرق في وسط هذه الدَّولة بين الأمور الصَّغيرة ، والأمور الكبيرة؛ لأنَّها كلَّها تعمل لرفع بنائها ، ووقوفها شامخةً أمام الأعاصير الَّتي تحتمل مواجهتها؛ ومن هذه الشعائر التعبُّديَّة التي فُرضت في السَّنتين الأوليين من الهجرة: الزَّكاة ، وزكاة الفطر ، والصِّيام ، ونلاحظ سنَّة التَّدرُّج في بناء المجتمع المسلم ، ومراعاته لواقع النَّاس ، والانتقال بهم نحو الأفضل؛ دون اعتسافٍ ، أو تعجيلٍ ، بل كلُّ شيءٍ في وقته[(٧٦٤)].

ثانياً: بعض التَّشريعات:

١ ـ تشريع فريضة الصِّيام:

في شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة فرض الله تعالى الصِّيامَ ، وجعله ركناً من أركان الإسلام ، كما فرضه على الأمم السَّابقة ، وفي ذلك تأكيدٌ على أهمِّيَّة هذه العبادة الجليلة ، ومكانتها. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} [البقرة: ١٨٣] .

وامتدح الله سبحانه شهر الصِّيام ، واختصَّه من بين سائر الشُّهور؛ لإنزال القران العظيم ، فقال ـ عزَّ وجل ـ: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [البقرة: ١٨٥] .

وقد وضَّحت الاية الكريمة الأولى الثَّمرة العظمى الَّتي يحظى بها الصَّائمون المخلصون؛ ألاَ وهي بلوغ درجة التَّقوى: فالصِّيام بالنِّسبة للأمَّة {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *} ، مدرسةٌ فريدةٌ ، ودورةٌ تدريبيَّةٌ على طهارة النُّفوس؛ لكي تنخلع من افاتها ، وتتحلَّى بالفضائل ، وترتقي في مدارج التَّقوى ، والصَّلاح[(٧٦٥)].

ولأهمِّية الصِّيام في تربية المجتمع المسلم ، فقد رغَّب النَّبيُّ (ص) في أيَّامٍ للصِّيام، وحثَّ على صيامها ، ورغَّب في الأجر ، والمثوبة من الله تعالى؛ وبذلك أصبحت مدرسة الصيام مفتوحةً أبوابُها طِيلَةَ السَّنة؛ لكي يبادر المسلم إليها كلَّما أحسَّ بقسوةٍ في قلبه ، وحاجةٍ لترويض نفسه ، ورغبةٍ في المزيد من الأجر ، والفضل عند الله سبحانه ، وقد جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه: أنَّه قال: قال رسول الله (ص) : «من صَامَ يوماً في سبيل الله؛ بَعَّدَ اللهُ وَجْهَهُ عن النَّارِ سبعين خريفاً» [البخاري (٢٨٤٠) ومسلم (١١٥٣)] .

٢ ـ تشريع زكاة الفطر:

وفي رمضان من العام نفسه ، شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ زكاة الفطر ، وهي على كلِّ حُرٍّ أو عبدٍ ، ذكرٍ أو أنثى ، صغيرٍ أو كبيرٍ من المسلمين ، والحكمة من فرضية هذه الزَّكاة ، وإلزام المسلمين بها ظاهرةٌ وجليَّةٌ ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «فرض رسول الله (ص) زكاة الفطر طُهْرَةً للصَّائم من اللَّغو والرَّفث ، وطُعْمةً للمساكين ، من أدَّاها قبل الصَّلاة فهي زكاةٌ مقبولةٌ ، ومن أداها بعد الصَّلاة فهي صدقةٌ من الصَّدقات» [أبو داود (١٦٠٩) وابن ماجه (١٨٢٧) والحاكم (١/٤٠٩)] ، ففي هذا الحديث النَّصُّ على أنَّ الحكمة مركَّبةٌ من أمرين[(٧٦٦)]:

أ ـ يتعلَّق بالصَّوم في شهر رمضان ، فإنَّ النُّفوس مجبولةٌ على الخطأ ، والتَّقصير ، والوقوع في لغو القول؛ الَّذي لا فائدة فيه ، أو فيه ضررٌ من الكلام الباطل ، ونحو ذلك ، ممَّا لا يسلم الإنسان منه غالباً ، فجاءت هذه الزَّكاة في ختام الشَّهر تطهيراً للصَّائم ممَّا خالط صومَه من ذلك.

ب ـ إغناء المحتاج في يوم العيد؛ الذي يعقب الفطر من رمضان ، فهذا يومٌ يسعد فيه المجتمع المسلم كلُّه ، فينبغي أن يعمَّ هذا السُّرور على الجميع ، فشُرِعت هذه الزَّكاة؛ لكفِّ هؤلاء عن ذُلِّ السُّؤال ، واستجداء النَّاس ، لذلك كانت خاصَّةً بالفقراء ، والمساكين ، لا تُعْطَى

لغيرهم ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدِّم: «طعمةً للمساكين»؛ ولذلك نرى: أنَّ رسول الله (ص) لم يجعلها شيئاً كثيراً يعجز كثيرٌ من النَّاس عنه؛ بل جعل الواجب شيئاً قليلاً ، ممَّا يسهل على النَّاس ، ولا يشقُّ عليهم من غالب قوت البلد ، حتَّى يتمكَّن من أدائها كثيرٌ من المسلمين ، فيحصل الغَنَاءُ بذلك لهؤلاء المحتاجين ، فما أعظم هذا الدِّين![(٧٦٧)] ولهذه الزَّكاة أحكامٌ وتفصيلاتٌ تُطْلَب من كتب الفقه[(٧٦٨)].

٣ ـ صلاة العيد:

وفي هذه السَّنَةِ صلَّى النَّبيُّ (ص) صلاة العيد ، فكانت أوَّل صلاةٍ صلاَّها ، وخرج بالنَّاس إلى المصَلَّى؛ يهلِّلون الله ، ويكبِّرونه ، ويعظِّمونه؛ شكراً على ما أفاء عليهم من النِّعم المتتالية.

إنَّ العيد موسمٌ من مواسم الخير ، والتَّعاطف ، والتَّحابب ، وكان من دأب رسول الله (ص) : أنَّه إذا صلَّى العيد ، ذكَّر ، وأنذر ، ورغَّب ، ورهَّب ، فيتسابق في مِضْمَار البذل ، والعطاء الرِّجالُ ، والنِّساء ، والصِّغار ، والكبار[(٧٦٩)].

٤ ـ تشريع الزَّكاة:

وفي السَّنة الثانية للهجرة شرع الله الزَّكاة؛ الَّتي هي ركنٌ من أركان الإسلام ، وكان ذلك بعد شهر رمضان؛ لأنَّ تشريع الزَّكاة العامَّة كان بعد زكاة الفطر ، وزكاة الفطر كانت بعد فرض صيام رمضان قطعاً؛ يدلُّ على هذا ما رواه الأئمَّة: أحمد ، وابن خزيمة ، والنَّسائيُّ ، وابن ماجه ، والحاكم من حديث قَيْس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال: «أمَرَنا رسول الله (ص) بصدقة الفطر قبل أن تَنْزِل الزَّكاةُ ، ثمَّ نزلت الزَّكاةُ ، فلم يأمرنا ، ولم ينهنا ونحن نفعله»[(٧٧٠)] ، قال الحافظ ابن حجر: «إسناده صحيحٌ»[(٧٧١)] ، «وجمهور العلماء سلفاً ، وخلفاً على أنَّ مشروعية الزَّكاة إنما كانت بالمدينة في السَّنة الثَّانية»[(٧٧٢)].

فالزَّكاة في العهد المكيِّ كانت مطلقةً من القيود ، والحدود ، وكانت موكولةً إلى إيمان الأفراد ، وأرْيَحِيَّتِهِم ، وشعورهم بواجب الأخوَّة نحو إخوانهم من المؤمنين ، فقد يكفي في
ذلك القليل من المال ، وقد تقتضي الحاجة بذلَ الكثيرِ ، أو الأكثر[(٧٧٣)].

فكانت الايات المكِّيَّة تهتمُّ بجانب التَّربية ، والتَّوجيه ، وتحثُّ على رعاية الفقراء والمساكين بأساليب متنوعةٍ ، منها: أنَّ إطعام المساكين من لوازم الإيمان ، ففي سورة المدَّثر ـ وهي من أوائل ما نزل من القران ـ يعرض القران الكريم مشهداً من مشاهد الاخرة ، مشهد أصحاب اليمين من المؤمنين ، في جنَّاتهم يتساءلون عن المجرمين من الكفرة ، وقد أُطبقت عليهم النِّيران ، فيسألونهم عمَّا أحلَّ بهم هذا العذاب ، فكان من أسبابه ، وموجباته: إهمال حقِّ المسكين ، وتركه لأنياب الجوع والعُري تنهشه ، وهم عنه معرضون[(٧٧٤)] ، قال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ *إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ *فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ *عَنِ الْمُجْرِمِينَ *مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ *قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ *وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ *وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ *وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ *} [المدثر: ٣٨ ـ ٤٦] .

وقصَّ الله على عباده قصَّة أصحاب الجنَّة ، الَّذين تواعدوا أن يقطفوا ثمارها بِلَيْلٍ؛ ليحرموا منها المساكين ـ الَّذين اعتادوا أن يصيبوا شيئاً من خيرها يوم الحصاد ـ فحلَّت بهم عقوبة الله العاجلة: {فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ *فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ *فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ *أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ *فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ *أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ *وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ *فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ *بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ *قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ *فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ *قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ *عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ *كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ *} [القلم: ١٩ ـ ٣٣] .

ولم تقف عناية القران المكِّيِّ عند الدَّعوة إلى الرَّحمة بالمسكين ، والتَّرغيب ، في إطعامه ، ورعايته ، والتَّرهيب من إهماله والقسوة عليه؛ بل تجاوز ذلك ، فجعل في عنق كلِّ مؤمنٍ حقاً للمسكين، أن يحضَّ غيره على إطعامه ، ورعايته ، وجعل تَرْكَ هذا الحضِّ قرينَ الكفر بالله العظيم ، وموجباً لسُخْطه ـ سبحانه ـ وعذابه في الاخرة.

قال تعالى في شأن أصحاب (الشِّمال): {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ *ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ *ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ *} [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢] .

وَلِمَ كلُّ هذا العذاب ، والهوان ، والخزي على رؤوس الأشهاد؟: {إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ *وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ *} [الحاقة: ٣٣ ـ ٣٤] .

وهذه الايات المزلزِلة للقلوب ، المنذرة بالعذاب ، هي الَّتي جعلت مثلَ أبي الدَّرداء رضي

الله عنه يقول لامرأته: «يا أمَّ الدرداء! إنَّ لله سلسلةٌ ولم تزل تغلي بها مرَاجِلُ النَّار منذ خَلقَ الله جهنَّمَ ، إلى يوم تُلقى في أعناق الناس ، وقد نجَّانا الله من نصفها بإيماننا بالله العظيم ، فحُضِّي على طعام المسكين يا أمَّ الدَّرداء»[(٧٧٥)].

أمَّا القرانُ المدني ، فقد نزل بعد أن أصبح للمسلمين جماعةٌ ، لها أرضٌ ، وكيانٌ وسلطان؛ فلهذا اتَّخذت التَّكاليف الإسلاميَّة صورةً جديدةً ملائمةً لهذا الطَّور: صورة التحديد ، والتَّخصيص ، بعد الإطلاق والتَّعميم ، صورة قوانين إلزاميَّة ، بعد أن كانت وصايا توجيهيةً فحسب ، وأصبحت تعتمد في تنفيذها على القوَّة والسُّلطان ، مع اعتمادها على الضَّمير ، والإيمان ، وظهر هذا الاتِّجاه المدنيُّ في الزَّكاة؛ فحدَّد الشَّارع الأموال التي تجب فيها ، وشروط وجوبها ، والمقادير الواجبة ، والجهات التي تُصرف لها ، وفيها ، والجهاز الذي يقوم على تنظيمها وإدارتها[(٧٧٦)] ، وأكَّد النَّبيُّ (ص) في المدينة فريضة الزَّكاة ، وبيَّن مكانتها في دين الله ، وأنَّها أحد الأركان الأساسية لهذا الدِّين ، ورغَّب في أدائها ، ورهَّب من منعها بأحاديث شتَّى ، وأساليب متنوعةٍ.

وأعلن الرَّسول (ص) في أحاديثه: أنَّ أركان الإسلام خمسةٌ ، بدأها بالشَّهادتين ، وثنَّاها بالصَّلاة ، وثلَّثها بالزَّكاة ، فالزَّكاة في السُّنَّة ـ كما هي في القران ـ ثالثةُ دعائم الإسلام: الَّتي لا يقوم بناؤه إلا بها ، ولا يرتكز إلا عليها[(٧٧٧)] ، وعندما طبَّق المسلمون هذا الرُّكن كما أمر الله تعالى ، وكما شرع رسولُه (ص) ، تحقَّقت أهدافٌ عظيمة في المجتمع ، وبرزت اثارها في حياة الفرد ، والمجتمع.

فمن اثار الزَّكاة على الفرد:

أ ـ الوقاية من الشُّحِّ:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩] .

ب ـ تنمية المال وزيادته:

قال تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *} [سبأ: ٣٩] ، وقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ *} [إبراهيم: ٧] ، وقال تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ *} [البقرة: ٢٧٦] .

وقال (ص) : «ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ من مالٍ» [مسلم (٢٥٨٨) والترمذي (٢٠٢٩) ومالك في الموطأ (٢/١٠٠٠)].

وقال (ص) : «ما من يومٍ يُصبحُ العبادُ فيه إلا مَلَكانِ يَنزلان ، فيقول أحدُهما: اللَّهمَّ أعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الاخر : اللَّهُمَّ أعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً» [البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠)].

وهكذا يتمُّ تطهير نفس المسلم من افة الشُّحِّ ، والبُخل ، ويسارع إلى الإنفاق ، موقناً بفضل الله ، ووعده الذي لا يتخلَّف بالرِّزق الواسع[(٧٧٨)].

ج ـ حصول الأمن في الدُّنيا والاخرة:

قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *} [البقرة: ٢٧٤] .

فهم في أمنٍ ، وسعادةٍ ، وراحةِ بالٍ؛ لأنَّهم أدَّوا ما أمرهم الله تعالى به ، وانتهوا عمَّا نهاهم الله عنه.

ومن اثار الزَّكاة على المجتمع: حصولُ المحبَّة بين الأغنياء والفقراء ، وشيوع الأمن والطُّمأْنينة في أوساطه ، وشعور الأفراد فيما بينهم: أنَّهم كالجسد الواحد ، قال (ص) : «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، مثَلُ الجسد الواحد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ ، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى» [مسلم (٢٥٨٦) وأحمد (٤/٢٧٠)] ، ومن الاثار أيضاً حفظ التوازن الاجتماعي[(٧٧٩)].

عندما كانت الزَّكاة تُجْمَع من كلِّ من تجب عليه ، وتُنفَق في سبلها المشروعة في صدر الإسلام؛ كان المجتمع الإسلاميُّ يعيش في رخاءٍ ، ورغدٍ ، وتمتُّعٍ بالطَّيِّبات ، وتالفٍ ، وتاخٍ ، وتحاببٍ؛ فقد روى الرُّواة: أنَّه في عهد خامس الخلفاء الرَّاشدين ، عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أخصب النَّاس ، واغتنوا ، حتَّى إنَّهم بحثوا عن مستحقٍّ للصَّدقة ، فلم يجدوا ، فما كان منهم إلا أن اشترَوا بها عبيداً ، وأعتقوهم لوجه الله ، وهكذا بلغ الإسلام في عصوره الأولى ، بمستوى حياة المسلمين ومعيشتهم حدّاً لم تبلغه إلا أممٌ قليلةٌ اليوم ، وذلك بفضل تشريع الزَّكاة[(٧٨٠)].

٥ ـ زواجه (ص) بعائشة رضي الله عنها:

عقد رسول الله (ص) على عائشة في مكَّة قبل الهجرة ، وهي ابنة ستِّ سنين ، بعد وفاة خديجة رضي الله عنها ، وبنى بها في المدينة وهي ابنة تسع سنين ، وذلك في شهر شوَّال من السَّنة الأولى للهجرة[(٧٨١)].

وكانت حركة الدَّعوة والجهاد ، والتَّربية ، وبناء الدَّولة مستمرةً ، ولم تتعطَّل حالات الزَّواج في حياة الرَّسول (ص) وأصحابه؛ بل الزَّواج ، والإكثار منه كان عاديّاً جدّاً ، في حياتهم ، كالطَّعام ، والشَّراب ، وذلك من مظاهر: أنَّ الإسلام دين الفطرة ، والواقع؛ بل إنَّ الزَّواج جزءٌ مهمٌّ في بناء المجتمع المسلم[(٧٨٢)].

كان رسول الله (ص) قد بنى بعائشة رضي الله عنها وهو في الرَّابعة والخمسين من عمره ، وحيثما يُذكر هذا الرَّقم؛ يتبادر للذِّهن الشَّيب ، والضَّعف ، ونفسيةٍ أصابتها الشَّيخوخة ، ولاشكَّ أنَّ مرور الأعوام هو مقياس أعمار النَّاس كقاعدةٍ عامَّةٍ؛ ولكنَّ المقياس الحقيقي هو حيوية الإنسان ، ونشاطه ، وقدرته على المبادرة والعمل؛ فقد نجد إنساناً في الثَّلاثين يحمل في جسمه ، ونفسيته أعباء الخمسين ، وقد نجد في بعض الأحيان إنسان الخمسين ، فلا نحكم عليه بأكثر من الثَّلاثين ، وشخصية رسول الله (ص) فذَّةٌ في هذا الميدان ، فهو ـ وهو في الخمسين ـ كان رجلاً في عنفوان شبابه؛ همَّةً ، وعزماً ، ومَضَاءً وفحولةً؛ إنَّه في هذا لا يساويه أيُّ إنسان ، والأدلة تؤيِّد ما ذهبت إليه؛ ومنها:

أ ـ لما عرض رسولُ الله (ص) نفسَه على القبائل ، مرَّ على بني عامر بن صعصعة ، وعرض عليهم أمره ، فقال بَيْحَرةُ بن فِرَاس: «والله! لو أنِّي أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب»[(٧٨٣)] ، ونلحظ في قول بَيْحَرَة:

ـ عبَّر عنه بـ (الفتى) ، والفتى هو الشَّابُّ في مُقْتَبَلِ العمر ، الممتلأى حيويةً ، ونشاطاً.

ـ وفي قوله: «لأكلت به العرب» يعبِّر عمَّا لاحظه في شخصية الرَّسول الكريم (ص) من حيويَّةٍ ، وهمَّةٍ لا تقف في وجهها جموع العرب قاطبةً ، كانت هذه نظرة بَيْحَرَة ، والرَّسول (ص) في الخمسين من العمر يومئذٍ؛ إنَّه الشباب شكلاً ، ومضموناً ، مظهراً ونفسيَّةً ، همَّةً ، وروحاً[(٧٨٤)].

ب ـ وفي خبر الهجرة ، روى البخاريُّ عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «أقبل نبيُّ الله (ص) إلى المدينة ، وهو مُرْدِفٌ أبا بكرٍ ، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعْرَف ، ونبيُّ الله (ص) شابٌّ لا يُعْرَفُ ، قال: فيلقى الرَّجلُ أبا بكرٍ ، فيقول: يا أبا بكر! من هذا الرَّجلُ الذي بين يديك؟ فيقول: هذا الرَّجل يهديني السبيل ، قال: فيحسِب الحاسِبُ: أنَّه إنَّما يعني الطَّريقَ ، وإنَّما يعني سبيلَ الخير» [البخاري (٣٩١١) وأحمد (٢١١/٢)] ، وكان (ص) لم يَشِبْ ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[(٧٨٥)].

ويلاحظ من النَّصِّ بوضوحٍ: أنَّ أبا بكرٍ كان يبدو في سنِّهِ الحقيقي شيخاً[(٧٨٦)]؛ بينما كان (ص) يبدو شابّاً؛ لعدم ظهور الشَّيب فيه ، كما أوضح ذلك القسطلاَّنيُّ بقوله: وكان (ص) لم يَشبْ ، وكان أسنَّ من أبي بكرٍ[(٧٨٧)].

وبذلك نستطيع أن نقول: إنَّ الفارق في العمر بينه (ص) وبين عائشة ، لم يكن ذلك الفارقَ الكبير من وجهة النَّظر العمليَّة ، فها هو (ص) يسابق السَّيدة عائشة ، فتسبقه مرَّةً ، ويسبقها أخرى ، فيقول: «هذه بتلك» [أحمد (٦/٢٦٤) وأبو داود (٢٥٧٨) وابن ماجه (١٩٧٩) وابن حبان (٤٦٩١)] ، والأمثلة في حياته (ص) كثيرةٌ[(٧٨٨)].

ويستطيع كلُّ ذي نظرٍ أن يدرك الحكمة الجليلة الَّتي كانت وراء زواج رسول الله (ص) من عائشة رضي الله عنها ، فقد تمَّ هذا الزَّواج الميمون في مَطْلِع الحياة في المدينة ، ومع بداية المرحلة التشريعية من حياته (ص) ، وممَّا لاشك فيه: أنَّ الإنسان يقضي جزءاً كبيراً من حياته في بيته ، ومع أسرته ، وكان لابدَّ من نقل سلوك الرَّسول الكريم (ص) ، في هذا الجانب من حياته إلى النَّاس؛ حتَّى يستطيعوا التأسِّيَ به ، وكانت تلك مهمَّةُ السَّيِّدة عائشة رضي الله عنها . على الخصوص . وبقيَّة أمَّهات المؤمنين رضي الله عنهُنَّ؛ فقد استطاعت السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، بما وهبها الله من ذكاءٍ وفهمٍ ، أن تؤدِّيَ دورها على خير ما يُرام ، وإنَّ نظرةً عابرةً لأيِّ كتابٍ من كتب السِّيرة تبيِّن ، وتؤكِّد ما ذهبت إليه؛ وقد ساعدها على ذلك: أنَّ الله تعالى كتب لها الحياة ما يقرب من خمسين عاماً بعد وفاة رسول الله (ص) ، وساعدتها تلك المدَّة على أن تُبَلِّغَ ما وَعَتْهُ عن رسول الله (ص) ، فرضي الله عنها![(٧٨٩)].

* * *

الفصل الثَّامن

غزوة بدرٍ الكبرى[(٧٩٠)]

المبحث الأوَّل

مرحلة ما قبل المعركة

بلغ المسلمين تحرُّكُ قافلةٍ تجاريَّةٍ كبيرةٍ من الشَّام ، تحمل أموالاً عظيمة[(٧٩١)] لقريش ، يقودها أبو سفيان ، ويقوم على حراستها بين ثلاثين ، وأربعين رجلاً[(٧٩٢)] ، فأرسل الرَّسول (ص) بَسْبَسَ بنَ عمرو[(٧٩٣)]؛ لجمع المعلومات عن القافلة[(٧٩٤)] ، فلَّما عاد بَسْبَسُ بالخبر اليقين ، ندب رسولُ الله (ص) أصحابه للخروج ، وقال لهم: «هذه عِيرُ قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها؛ لعلَّ الله يُنْفِلُكُموها»[(٧٩٥)] ، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر ، من شهر رمضان المبارك ، من السَّنة الثانية للهجرة ، ومن المؤكَّد: أنَّه حين خروجه (ص) من المدينة ، لم يكن في نيَّته قتالٌ؛ وإنَّما كان قصده عِيرَ قريش ، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكَّة حالة حرب ، وفي حالة الحرب تكون أموال العدوِّ ، ودماؤهم مباحةً ، فكيف إذا علمنا: أنَّ جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشيَّة ، كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكَّة ، قد استولى عليها المشركون ظلماً ، وعدواناً[(٧٩٦)].

كلَّف رسولُ الله (ص) عبدَ الله بن أمِّ مكتومٍ بالصَّلاة بالنَّاس في المدينة ، عند خروجه إلى بدرٍ ، ثمَّ أعاد أبا لُبابة من الرَّوحَاء إلى المدينة ، وعيَّنه أميراً عليها[(٧٩٧)].

أرسل النَّبيُّ (ص) اثنين من أصحابه[(٧٩٨)] إلى بدرٍ طليعةً ، للتَّعرُّف على أخبار القافلة فرجعا إليه بخبرها[(٧٩٩)]: وقد حصل خلاف بين المصادر الصَّحيحة حول عدد الصَّحابة ، الذين رافقوا النَّبيَّ (ص) في غزوته هذه إلى بدرٍ ، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمئةٍ» [البخاري (٣٩٥٧) و(٣٩٥٨)]؛ يذكر مسلمٌ: أنَّهم كانوا «ثلاثمئةٍ وتسعة عَشَرَ رجلاً» [مسلم (١٧٦٣)] ، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمئةٍ وأربعين من الصَّحابة البدريين[(٨٠٠)].

كانت قوَّات المسلمين في بدرٍ ، لا تمثِّل القدرة العسكريَّة القصوى للدَّولة الإسلاميَّة؛ ذلك: أنَّهم إنَّما خرجوا لاعتراض قافلةٍ ، واحتوائها ، ولم يكونوا يعلمون: أنَّهم سوف يواجهون قوَّات قريشٍ ، وأحلافها مجتمعةً للحرب ، والَّتي بلغ تعدادها ألفاً [مسلم (١٧٦٣)] ، معهم مئتا فرسٍ ، يقودونها إلى جانب جمالهم ، ومعهم القِيانُ[(٨٠١)] يضربن بالدُّفوف ، ويغنِّين بهجاء النَّبيِّ (ص) وأصحابه[(٨٠٢)] ، في حين لم يكن مع القوات الإسلاميَّة من الخيل إلا فَرَسَانِ ، وكان معهم سبعون بعيراً يتعاقبون ركوبها. [الطبراني في المعجم الكبير (١٢١٠٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦٩/٦)] .

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدرٍ:

وقد حدثت بعض الحوادث في أثناء مسير النَّبيِّ (ص) وأصحابه؛ فيها من العِبَرِ والمواعظ الشَّيءُ الكثير:
١ ـ إرجاع البَرَاء بن عازبٍ وابن عمر لصغرهما: وبعد خروج النَّبيِّ (ص) وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى ملاقاة عِير أبي سفيان وصلوا إلى (بيوت السُّقيا) خارج المدينة ، فعسكر فيها النَّبيُّ (ص) ، واستعرض (ص) مَنْ خرج معه ، فردَّ مَنْ ليس له قدرةٌ على المضِيِّ مع جيش المسلمين ، وملاقاة مَنْ يُحتَمَل نشوبُ قتالٍ معهم ، فردَّ على هذا الأساس البَرَاء بن عازب ، وعبد الله بن عمر؛ لصغرهما ، وكانا قد خرجا مع النبي (ص) راغبين ، وعازمَيْنِ على الاشتراك في الجهاد. [البخاري (٣٩٥٥) و(٣٩٥٦)] .

٢ ـ (فارجعْ فلن أستعينَ بمشركٍ): عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: خرج رسولُ الله (ص) قِبَلَ بدرٍ ، فلمَّا كان بِحَرَّةِ الوَبَرَةِ ، أَدْرَكهُ رَجُلٌ ، قد كان يُذْكرُ منه جُرْأَةٌ ، ونَجْدةٌ؛ ففرِحَ أصحابُ رسول الله (ص) حين رَأَوْهُ ، فلمَّا أدْرَكَهُ ، قال لرسول الله (ص) : جئتُ لأتَّبِعَكَ ، وأُصيبَ معَكَ ، قال له رسول الله (ص) : «تؤمنُ بالله ورَسُولِهِ؟» قال: لا ، قال: «فارجعْ؛ فلن أستعينَ بمشركٍ». قالت: ثمَّ مضى ، حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل ، فقال له كما قال أول مرة ، فقال له النَّبيُّ (ص) كما قال أوَّل مرَّةٍ ، ثمَّ رجع ، فأدركه بالبَيْدَاءِ ، فقال له كما قال أوَّل مرَّة: «تؤمنُ بالله ورسوله؟» قال: نعم ، فقال له رسول الله (ص) : «فانْطَلِقْ» [مسلم (١٨١٧) وأبو داود (٢٧٣٢) والترمذي (١٥٥٨) وأحمد (١٤٨/٣ و١٤٩)].
٣ ـ مشاركة النَّبيِّ (ص) أصحابه في الصِّعاب: فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنَّا يوم بدرٍ كلُّ ثلاثة على بعيرٍ ، وكان أبو لُبَابَةَ ، وعليُّ بن أبي طالبٍ زميلَيْ رسول الله (ص) . قال: وكانت عُقبَةُ رسول الله (ص) . قال: فقالا: نحن نمشي عنك ، فقال: «ما أنتما بأقوى منِّي ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» [أحمد (٤١١/١) وابن حبان (٤٧٣٣) وأبو يعلى (٥٣٥٩) والبزار (١٧٥٩) ومجمع الزوائد (٦٩/٦)].
ثانياً: العزم على ملاقاة المسلمين ببدر: بلغ أبا سفيان خبرُ مسير النَّبيِّ (ص) ، بأصحابه من المدينة ، بقصد اعتراض قافلته ، واحتوائها ، فبادر إلى تحويل مسارها إلى طريق السَّاحل ، في الوقت نفسه أرسل ضَمْضَمَ بن عمرو الغِفَاريَّ إلى قريشٍ يستنفرها؛ لإنقاذ قافلتها ، وأموالها[(٨٠٣)] ، فقد كان أبو سفيان يَقِظاً حَذراً ، يتلقَّط أخبار المسلمين ، ويسأل عن تحرُّكاتهم؛ بل يتحسَّس أخبارهم بنفسه ، فقد تقدَّم إلى بدرٍ بنفسه ، وسأل مَنْ كان هناك: هل رأيتم من أحدٍ؟ قالوا: لا ، إلا رجلين ، قال: أروني مُنَاخَ ركابهما ، فأروه ، فأخذ البعر فَفَتَّهُ ، فإذا هو فيه النَّوى ، فقال: هذه والله! علائفُ يثربَ[(٨٠٤)] ، فقد استطاع أن يعرف تحرُّكات عدوه ، حتَّى خبر السَّريَّة الاستطلاعيَّة عن طريق غذاء دوابِّها ، بفحصه البعر

الَّذي خلَّفته الإبل؛ إذ عرف أنَّ الرَّجلين من المدينة؛ أي: من المسلمين ، وبالتَّالي فقافلته في خطرٍ ، فأرسل ضَمْضَمَ بنَ عمرٍو ، إلى قريشٍ ، وغيَّر طريق القافلة ، واتَّجه نحو ساحل البحر[(٨٠٥)].

كان وقع خبر القافلة شديداً على قريشٍ؛ التي اشتاط زعماؤها غضباً؛ لما يَرَوْنه من امتهانٍ للكرامة ، وتعريضٍ للمصالح الاقتصاديَّة للأخطار؛ إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاطٍ

لمكانة قريشٍ بين القبائل العربيَّة الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية[(٨٠٦)].

لقد جاءهم ضَمْضَمُ بنُ عمرو الغِفَاريُّ بصورةٍ مثيرةٍ جدّاً ، يتأثَّر بها كلُّ من راها ، أو سمع بها؛ إذ جاءهم وقد حوَّلَ رَحْلَه ، وجَدَعَ أنفَ بعيره ، وشقَّ قميصه من قُبُلٍ ، ومن دُبُرٍ ، ودخل مكَّة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشرَ قريش! اللَّطيمةَ اللَّطيمةَ[(٨٠٧)]! أموالكم مع أبي سفيان ، قد عرض لها محمد مع أصحابه ، لا أرى أن تُدْركوها ، الغوثَ ، الغوثَ ، الغوثَ![(٨٠٨)].

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة ، أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجُحْفَة ، برسالةٍ أخبرهم فيها بنجاته ، والقافلة ، وطلب منهم العودة إلى مكَّة ، وذلك أدَّى إلى حصول انقسامٍ حادٍّ في اراء زعماء قريش ، فقد أصرَّ أغلبهم على التَّقدُّم نحو بدرٍ؛ من أجل تأديب المسلمين ، وتأمين سلامة طريق التِّجارة القرشيَّة ، وإشعار القبائل العربيَّة الأخرى بمدى قوَّة قريشٍ ، وسلطانها ، وقد انشق بنو زُهْرَة[(٨٠٩)] ، وتخلَّف في الأصل بنو عديٍّ ، فعاد بنو زُهْرَةَ إلى مكَّة ، أمَّا غالبية قوَّات قريشٍ ، وأحلافهم؛ فقد تقدَّمت؛ حتَّى وصلت بدراً[(٨١٠)].

ثالثاً: مشاورة النَّبيّ (ص) لأصحابه:

لما بلغ النَّبيَّ (ص) نجاةُ القافلة ، وإصرارُ زعماء مكَّة على قتال النَّبيِّ (ص) ، استشار رسولُ الله (ص) أصحابه في الأمر[(٨١١)] ، وأبدى بعضُ الصَّحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربيَّة مع قريشٍ؛ حيث إنَّهم لم يتوقَّعوا المواجهة ، ولم يستعدُّوا لها ، وحاولوا إقناع الرَّسول (ص) بوجهة نظرهم ، وقد صوَّر القرانُ الكريم موقفهم ، وأحوال الفئة المؤمنة عموماً ، في قوله تعالى: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ *يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ *وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ *لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ *} [الأنفال٥ ـ ٨] .

وقد أجمع قادة المهاجرين ، على تأييد فكرة التَّقُّدم لملاقاة العدوِّ[(٨١٢)] ، وكان للمقداد بن الأسود موقفٌ متميِّزٌ ، فقد قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: شهدت من الْمِقْدَاد بن الأسود مشهداً ، لأن أكونَ صاحِبَهُ أحبُّ إليَّ ممَّا عُدِلَ به[(٨١٣)]: أتى النَّبيَّ (ص) وهو يدعو على المشركين ، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ} ، ولكنَّا نقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وبين يديك ، وخَلْفك ، فرأيت النَّبيَّ (ص) أشرق وَجْهُهُ وسَرَّه؛ يعني: قوله. [البخاري (٣٩٥٢)].

وفي روايةٍ: قال المقداد: يا رسولَ الله! إنَّا لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ولكن: امضِ ونحن {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ *} ، فكأنه سُرِّي عن رسول الله (ص) . [البخاري (٤٦٠٩)] .

وبعد ذلك عاد رسول الله (ص) فقال: «أشيروا عليَّ أيها النَّاس!» وكان إنَّما يقصد الأنصار؛ لأنَّهم غالبيةُ جنده ، ولأنَّ بيعة العقبة الثَّانية ، لم تكن في ظاهرها ملزمةً لهم بحماية الرَّسول (ص) خارج المدينة ، وقد أدرك الصَّحابيُّ سعدُ بن معاذ ، . وهو حامل لواء الأنصار . مقصد النَّبيِّ (ص) من ذلك ؛ فنهض قائلاً: (والله! لكأنَّك تريدنا يا رسول الله؟ قال (ص) : «أجل» ، فقال: لقد امنَّا بك ، وصدَّقناك ، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحقُّ ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ، ومواثيقنا على السَّمع ، والطَّاعة ، فامضِ يا رسول الله! لما أردت ، فنحن معك ، فوالَّذي بعثك بالحقِّ! لو استعرضت بنا هذا البحر ، فخُضْتَه لخُضْنَاه معك ، ما تخلَّف منا رجلٌ واحدٌ ، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً ، إنَّا لصُبُرٌ في الحرب ، صُدُقٌ عند اللِّقاء ، ولعلَّ اللهَ يريك منا ما تَقَرُّ به عينك ، فَسِرْ على بركة الله. [ابن هشام (٢/٢٦٧) وبنحوه مسلم (١١٧٩)].

وسُرَّ النَّبيُّ (ص) من مقالة سعد بن معاذٍ ، ونشَّطه ذلك ، فقال (ص) : «سِيرُوا وأبشروا؛ فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطَّائفتين ، والله! لكأنِّي الان أنظر إلى مصارع القوم» [البيهقي في دلائل النبوة (٣/٣٤) وابن هشام (٢/٢٦٧)] .

كانت كلمات سعدٍ مشجِّعةً لرسول الله (ص) وملهبةً لمشاعر الصَّحابة؛ فقد رفعت معنويات الصَّحابة ، وشجَّعتهم على القتال ، إنَّ حرص النَّبيِّ (ص) على استشارة أصحابه في الغزوات ، يدلُّ على تأكيد أهمِّية الشُّورى في الحروب بالذَّات؛ ذلك لأنَّ الحروب تقرِّر مصير الأمم ، فإمَّا إلى العلياء ، وإمَّا تحت الغبراء[(٨١٤)].

رابعاً: المسير إلى لقاء العدوِّ ، وجمع المعلومات عنه:

نظَّم النَّبيُّ (ص) جنده ، بعد أن رأى طاعة الصَّحابة ، وشجاعتهم ، واجتماعهم على القتال ، وعقد اللواء الأبيض ، وسَلَّمه إلى مصعب بن عمير ، وأعطى رايتين سَوْدَاوَيْن إلى سعد بن معاذٍ ، وعليِّ بن أبي طالبٍ ، وجعل على السَّاقة قيس بن أبي صَعْصَعَة[(٨١٥)].

وقام (ص) ومعه أبو بكرٍ يستكشف أحوال جيش المشركين ، وبينما هما يتجوَّلان في تلك المنطقة ، لقيا شيخاً من العرب ، فسأله رسولُ الله (ص) عن جيش قريش ، وعن محمَّدٍ وأصحابه ، وما بلغه من أخبارهم؛ فقال الشَّيخ: لا أخبركما حتى تخبراني مِمَّن أنتما؟ فقال له رسول الله (ص) : «إذا أخبرتنا؛ أخبرناك» فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم» ، فقال الشَّيخ: فإنَّه بلغني: أنَّ محمَّداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الَّذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش المسلمين ـ وبلغني أنَّ قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي فيه جيش المشركين فعلاً ـ ثمَّ قال الشيخ: لقد أخبرتكما عمَّا أردتما ، فأخبراني ممَّن أنتما؟ فقال رسول الله (ص) : «نحن من ماءٍ» ، ثمَّ انصرف النَّبيُّ (ص) وأبو بكر عن الشَّيخ ، وبقي هذا الشَّيخ يقول: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [ابن هشام (٢/٢٦٧ ـ ٢٦٨)] .

وفي مساء ذلك اليوم الَّذي خرج فيه رسولُ الله (ص) ، وأبو بكرٍ ، أرسل (ص) عليَّ بن أبي طالبٍ ، والزُّبيرَ بن العوَّام ، وسعدَ بن أبي وقَّاصٍ ، في نفرٍ من أصحابه إلى ماء بدرٍ؛ يتسقَّطون له الأخبار عن جيش قريشٍ ، فوجدوا غلامين يستقيان لجيش المشركين ، فأتوا بهما إلى رسول الله (ص) ، فقال لهما: «أخبراني عن جيش قريشٍ» فقالا: هم ـ والله! ـ وراء هذا الكثيب الَّذي ترى بالعُدوة القصوى ، فقال لهما: «كم القوم؟» قالا: كثيرٌ ، قال: «ما عدَّتُهم؟» قالا: لا ندْرِي ، قال الرَّسول (ص) : «كم ينحرون كلَّ يومٍ؟» قالا: يوماً تسعاً ، ويوماً عشراً ، فقال رسول الله (ص) : «القوم ما بين التِّسعمئة والألف» ثمَّ قال لهما: «فمن فيهم من أشراف قريش؟» فذكرا عتبة ، وشيبة ابني ربيعة ، وأبا جهل ، وأميَّة بن خلفٍ ، في اخرين من صناديد قريش ، فأقبل رسول الله (ص) إلى أصحابه قائلاً: «هذه مكَّةُ قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» [ابن هشام (٢/٢٦٩)] .

كان من هدي النَّبيِّ (ص) ، حرصه على معرفة جيش العدوِّ ، والوقوف على أهدافه ، ومقاصده؛ لأنَّ ذلك يعينه على رسم الخطط الحربيَّة المناسبة لمجابهته ، وصدِّ عدوانه ، فقد كانت أساليبه في غزوة بدرٍ في جمع المعلومات؛ تارةً بنفسه ، وأخرى بغيره ، وكان (ص) يطبِّق مبدأ الكتمان في حروبه، فقد أرشد القرآن الكريم المسلمين إلى أهمية هذا المبدأ. قال تعالى: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} [النساء: ٨٣].

وقد تحلَّى رسول (ص) بصفة الكتمان في غزواته عامَّةً، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه، قال: «ولم يكن رسول الله (ص) يريدُ غزوةً إلا ورَّى بغيرها» [البخاري (٢٩٤٧)]، وفي غزوة بدرٍ ظهر هذا الخلق الكريم في الآتي:

١ ـ سؤاله (ص) الشَّيخ الَّذي لقيه في بدرٍ عن محمَّدٍ وجيشه، وعن قريش وجيشها.

٢ ـ تورية الرَّسول (ص) في إجابته على سؤال الشَّيخ: ممَّن أنتما؟ بقوله (ص): «نحن من ماءٍ»، وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به الرَّسولُ (ص) كتمانَ أخبار جيش المسلمين عن قريشٍ.

٣ ـ وفي انصرافه فور استجوابه كتمانٌ ـ أيضاً ـ وهو دليلٌ على ما يتمتَّع به رسول الله (ص) من الحكمة؛ فلو أنَّه أجاب هذا الشَّيخ ثمَّ وقف عنده، لكان هذا سبباً في طلب الشَّيخ بيان المقصود من قوله (ص): «من ماءٍ»[(٨١٦)].

٤ ـ أمره (ص) بقطع الأجراس من الإبل يوم بدرٍ، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله (ص) أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدرٍ. [أحمد (٦/١٥٠) وابن حبان (٤٦٩٩) و(٤٧٠٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٥/١٧٤)].

٥ ـ كتمانه (ص) خبر الجهة الَّتي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال (ص): «إنَّ لنا طَلبةً؛ فمن كان ظَهْرُهُ حاضراً؛ فيركبْ معنا» [مسلم (١٩٠١)].

قال الإمامُ النَّوويُّ: «في هذا: استحباب التَّورية في الحرب، وألاَّ يُبين الإمام جهة إغارته، وإغارة سراياه؛ لئلا يشيع ذلك؛ فيحذرهم العدوُّ»[(٨١٧)].

ونلحظ: أنَّ التَّربية الأمنيَّة في المنهاج النَّبويِّ مستمرةٌ منذ الفترة السِّرِّيَّة والجهريَّة بمكَّة، ولم تنقطع مع بناء الدَّولة، وأصبحت تنمو مع تطوِّرها، وخصوصاً في غزوات الرَّسول (ص).

خامساً: مشورة الحُباب بن المُنْذِر في بدرٍ:

بعد أن جمع (ص) معلوماتٍ دقيقةً عن قوَّات قريشٍ، سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدرٍ؛ ليسبقوا المشركين إلى ماء بدرٍ، وليحولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماءٍ من مياه بدرٍ، وهنا قام الحُبَاب بن المنذر، وقال: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه اللهُ ، ليس لنا أن نتقدَّمه ، ولا نتأخَّر عنه؟ أم هو الرَّأي ، والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرَّأي ، والحرب ، والمكيدة» قال: يا رسولَ الله! فإن هذا

ليس بمنزلٍ ، فانهضْ يا رسول الله بالنَّاس ! حتَّى تأتي أدنى ماءٍ من القوم ـ أي: جيش المشركين ـ فننزله ، ونغوِّر ـ نخرِّب ـ ما وراءه من الابار ، ثمَّ نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ، ثمَّ نقاتل القوم ، فنشرب ، ولا يشربون. فأخذ النَّبيُّ (ص) برأيه ، ونهض بالجيش حتَّى أقرب ماءٍ من العدوِّ ، فنزل عليه ، ثمَّ صنعوا الحِيَاضَ ، وغوَّروا ما عداها من الابار [ابن هشام (٢/٢٧٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٣٥)].

وهذا يصوِّر مثلاً من حياة الرَّسول (ص) مع أصحابه ، حيث كان أيُّ فرد من أفراد ذلك المجتمع يُدْلي برأيه ، حتَّى في أخطر القضايا ، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى (ص) ، ثمَّ حصول ما يترتَّب على ذلك الغضب من تدنِّي سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد ، وتأخُّره في الرتبة ، وتضرُّره في نفسه أو ماله.

إنَّ هذه الحرِّيَّة؛ الَّتي ربَّى عليها رسول الله (ص) أصحابه ، مكَّنت مجتمعهم من الاستفادة من عقول جميع أهل الرَّأي السَّديد ، والمنطق الرَّشيد ، فالقائد فيهم ينجح نجاحاً باهراً ، وإن كان حديثَ السِّنِّ؛ لأنَّه لم يكن يفكِّر برأيه المجرَّد ، أو اراء عصبةٍ مهيمنةٍ عليه ، قد تنظر لمصالحها الخاصَّة ، قبل أن تنظر لمصلحة المسلمين العامَّة؛ وإنَّما يفكِّر باراء جميع أفراد جنده ، وقد يحصل له الرَّأي السَّديد من أقلِّهم سمعةً ، وأبعدهم منزلةً من ذلك القائد؛ لأنَّه ليس هناك ما يحول بين أيِّ فردٍ منهم ، والوصول برأيه إلى قائد جيشه[(٨١٦)].

ونلحظ عظمة التَّربية النَّبويَّة؛ الَّتي سرَتْ في شخص الحُبَاب بن المنذر ، فجعلته يتأدَّب أمام رسول الله (ص) ، فتقدَّم دون أن يُطلب رأيه؛ ليعرض الخطة الَّتي لديه؛ لكن هذا تمَّ بعد السُّؤال العظيم ، الَّذي قدَّمه بين يدي الرَّسول (ص) : «يا رسولَ الله! أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدَّمه ، ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرَّأي ، والحرب ، والمكيدة؟».

إنَّ هذا السُّؤال يوضِّح عظمة هذا الجوهر القياديَّ الفذَّ؛ الَّذي يعرف أين يتكلَّم ، ومتى يتكلَّم بين يدي قائده ، فإن كان الوحي هو الَّذي اختار هذا المنزل ، فلأن يقدم ، فتقطع عنقه أحبُّ إليه من أن يلفظ بكلمةٍ واحدةٍ ، وإن كان الرأي البشريُّ؛ فلديه خطَّةٌ جديدةٌ كاملةٌ باستراتيجيَّةٍ جديدةٍ.

إنَّ هذه النَّفسيَّة الرَّفيعة ، عرفت أصول المشورة ، وأصول إبداء الرَّأي ، وأدركت مفهوم السَّمع والطَّاعة ، ومفهوم المناقشة ، ومفهوم عرض الرَّأي المعارض لرأي سيِّد ولد ادم (ص) .

وتبدو عظمة القيادة النَّبويَّة في استماعها للخطَّة الجديدة ، وتبنِّي الخطَّة الجديدة المطروحة من جنديٍّ من جنودها ، أو قائدٍ من قوَّادها[(٨١٧)].

سادساً: الوصف القرانيُّ لخروج المشركين:

قال تعالى: {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ *} [الأنفال: ٤٧] .

ينهى المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المؤمنين عن التشبُّه بالكافرين؛ الَّذين خرجوا من ديارهم بطراً ، ورئاء النَّاس ، وتفسير الاية الكريمة:

١ ـ {بَطَرًا}: قال القرطبيُّ: «والبطر في اللغة: ، أي: التَّقوية بنعم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وما ألبسه من العافية على المعاصي»[(٨١٨)].

٢ ـ {وَرِئَاءَ}: ومعناه: ، أو الفعل الَّذي لا يقصد معه الإخلاص؛ وإنَّما يُقصد به التَّظاهر ، وحبُّ الثناء.

٣ ـ { وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}: معطوفاً على { بَطَرًا } ، والسَّبيل: الطَّريق الَّذي فيه سهولةٌ ، والمراد بسبيل الله: دينه؛ لأنَّه يوصل النَّاس إلى الخير ، والصَّلاح.

فقد وصف ـ سبحانه ـ الكافرين في هذه الاية بثلاثة أشياء:

الأول: البطر ، والثَّاني: الرِّياء ، والثالث: الصَّدُّ عن سبيل الله.

ونلحظ: أنَّ الله تعالى عبَّر عن بطرهم ، بصيغة الاسم الدَّالِّ على التَّمكين ، والثُّبوت ، وعن صدِّهم بصيغة الفعل الدَّالِّ على التجدُّد والحدوث[(٨١٩)].

قال الإمام الرَّازي: «إنَّ أبا جهلٍ ورَهْطَه ، وشيعتَه ، كانوا مجبولين على البطر ، والمفاخرة ، والعُجْب[(٨٢٠)] ، وأمَّا صدُّهم عن سبيل الله ، فإنَّما حصل في الزَّمان؛ الَّذي أكرم فيه النَّبيَّ (ص) بالنُّبوَّة ، ولهذا السَّبب ذُكِر البطر ، والرئاء بصيغة الاسم ، وذُكِر الصَّدُّ عن سبيل الله بصيغة الفعل ، والله أعلم»[(٨٢١)].

وقد جاء في تفسير هذه الاية عند القرطبيِّ: أنَّ المقصود بالاية: «يعني: أبا جهلٍ وأصحابه الخارجين يوم بدرٍ لنُصرة العِير ، خرجوا بالقِيَان ، والمغنِّيات والمعازف ، فلمَّا وردوا الجُحفة ، بعث خُفافُ الكنانيُّ ـ وكان صديقاً لأبي جهلٍ ـ بهدايا إليه مع ابنٍ له ، وقال: إن شئتَ؛ أمددتك بالرِّجال ، وإن شئتَ؛ أمددتك بنفسي مع مَنْ خفَّ من قومي ، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل اللهَ كما يزعم محمَّد؛ فوالله ما لنا بالله من طاقةٍ ، وإن كنَّا نقاتل النَّاس؛ فوالله إنَّ بنا على النَّاس لقوةً ، والله! لا نرجع عن قتال محمَّد حتَّى نرد بدراً ، فنشربَ فيها الخمور ، وتعزف علينا القِيانُ ، فإن بدراً موسمٌ من مواسم العرب

، وسوقٌ من أسواقهم ، حتَّى تسمع العرب بمخرجنا ، فتهابنا اخر الأبد ، فوردوا بدراً ، ولكن جرى ما جرى من هلاكهم»[(٨٢٢)].

سابعاً: موقف المشركين لما قدموا إلى بدرٍ:

بيّن سبحانه وتعالى موقف المشركين لما قدموا إلى بدرٍ ، قال تعالى: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ *} [الأنفال: ١٩] .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة: أنَّ أبا جهل قال حين التقى القومُ ـ في بدرٍ ـ اللَّهم! أقطعُنا للرَّحم ، واتانا ممَّا لا يُعرف ، فأَحِنْهُ ـ أي: أهلكه ـ الغداةَ.

فكان المسْتَفْتِح. [أحمد (٥/٤٣١) وابن هشام (٢/٢٨٠) والبيهقي في الدلائل (٣/٧٤)] .

ومعنى الاية: إن تستنصروا اللهَ على محمَّد ، فقد جاءكم النَّصر ، وقد كانوا عند خروجهم من مكَّة سألوا الله أن ينصر أحقَّ الطَّائفتين بالنَّصر، فتهكَّم الله بهم، وسمَّى ما حلَّ بهم من الهلاك نصراً ، ومعنى بقيَّة الاية على هذا القول: {وَإِنْ تَنْتَهُوا} عمَّا كنتم عليه من الكفر ، والعداوة لرسول الله (ص) ، أي: الانتهاء إلى {فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا} كنتم عليه من الكفر والعداوة بتسليط المؤمنين {نَعُدْ} ، ونصرهم كما سلَّطناهم ، ونصرناهم في يوم بدرٍ أي: {وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا} ، أي: {وَلَوْ كَثُرَتْ} تغني عنكم في حالٍ من الأحوال ، ولو في حال كثرتها ، ثمَّ قال: ومن كان معه فهو {وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ *} ، ومن كان الله عليه فهو المخذول[(٨٢٣)].

ولما وصل جيش مكَّة إلى بدرٍ ، دبَّ فيهم الخلاف ، وتزعزعت صفوفهم الدَّاخلية ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزل المسلمون ، وأقبل المشركون؛ نظر رسولُ الله (ص) إلى عُتْبَةَ بنِ ربيعةَ وهو على جملٍ أحمر ، فقال: «إن يكن عند أحدٍ من القوم خيرٌ ، فهو عند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه؛ يَرْشُدُوا» ، وهو يقول: يا قوم! أطيعوني في هؤلاء القوم ، فإنَّكم

إن فعلتم لن يزال ذلك في قلوبكم ، ينظر كلُّ رجلٍ إلى قاتل أخيه ، وقاتل أبيه ، فاجعلوا حقَّها برأسي ، وارجعوا ، فقال أبو جهل: انتفخ والله! سَحْرُهُ[(٨٢٤)] حين رأى محمَّداً وأصحابه ، إنَّما محمدٌ وأصحابه أكلة جزورٍ لو قد التقينا.

فقال عتبة: ستعلم من الجبان المفسد لقومه ، أما والله! إِنِّي لأرى قوماً يضربونكم ضرباً ، أما ترون كأن رؤوسهم الأفاعي ، وكأن وجههم السُّيوف. [البزار (١٧٦٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٧٦)] .

وهذا حكيم بن حزام ، يحدِّثنا عن يوم بدرٍ ـ وكان في صفوف المشركين قبل إسلامه ـ قال: خرجنا؛ حتَّى نزلنا العُدْوة الَّتي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فجئتُ عُتبةَ بن ربيعة ، فقلت: يا أبا الوليد! هل لك أن تذهب بشرف هذا اليوم ما بقيت؟ قال: أفعل؛ ماذا؟ قلت: إنَّكم لا تطلبون من محمَّد إلا دم ابن الحَضْرَمِي[(٨٢٥)] وهو حليفُك ، فتحمل ديته ، وترجع بالنَّاس ، فقال: أنت وذاك ، وأنا أتحمَّل ديته ، واذْهبْ إلى ابن الحَنْظَلِيَّة[(٨٢٦)] ـ يعني: أبا جهل ـ فقل له: هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن ابن عمِّك؟ فجئته ، فإذا هو في جماعةٍ من بين يديه ، ومن ورائه ، وإذا ابن الحَضْرَميّ[(٨٢٧)] واقف على رأسه وهو يقول: قد فسخت عقدي من عبد شمس، وعقدي إلى بني مخزومٍ ، فقلت له: يقول لك عُتْبةُ بن ربيعة: هل لك أن ترجع اليوم عن ابن عمِّك بمن معك؟ قال: أما وجد رسولاً غَيْرَك؟ قلت: لا ، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره! قال حكيم: فخرجت مبادراً إلى عتبة؛ لئلا يفوتني من الخبر شيءٌ. [ابن هشام (٢/٢٧٤ ـ ٢٧٥) والبيهقي في الدلائل (٣/٦٥ ـ ٦٦)] .

فهذا عتبة بن ربيعة وهو في القيادة من قريشٍ لا يرى داعياً لقتال محمَّد (ص) ، وقد دعا قريشاً إلى ترك محمَّدٍ؛ فإن كان صادقاً فيما يدعو إليه فعِزُّهُ عِزُّ قريش ، ومُلْكُهُ مُلْكُهَا ، وستكون أسعد النَّاس به ، وإن كان كاذباً فسيذوب في العرب ، وينتهي.

ولكنَّ كبرياء الجاهليَّة دائماً في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ لا يمكن أن يترك الحقَّ يتحرَّك؛ لأنَّها تعلم أنَّ انتصارَه معناه: زوالُها من الوجود ، وبقاؤه مكانها[(٨٢٨)].

وهذا عُمَيْر بن وَهْب الجُمَحِي، ترسله قريش ، ليحزر لهم أصحاب محمَّد (ص) ، فَاسْتَجَال حول العسكر ثمَّ رجع إليهم ، فقال: ثلاثمئة رجلٍ ، يزيدون قليلاً ، أو ينقصون ، ولكن

أمهلوني أنظرْ أَلِلْقَوْمِ كمينٌ ، أو مددٌ؟ قال فضرب في الوادي حتَّى أَبْعد ، فلم يرَ شيئاً ، فرجع إليهم ، فقال: ما وجدت شيئاً ، ولكنِّي قد رأيت يا معشرَ قريش ، البلايا[(٨٢٩)] تحمل المنايا[(٨٣٠)] ، نواضح[(٨٣١)] يثرب تحمل الموت النَّاقع[(٨٣٢)] ، قومٌ ليس معهم منعةٌ ، ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله! ما أرى أن يُقتل رجلٌ منهم حتَّى يَقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيَكم![(٨٣٣)].

وهذا أميَّة بن خلف ، رفض الخروج من مكَّة ابتداءً؛ خوفاً من الموت ، «فأتاه أبو جهلٍ ، فقال: يا أبا صفوان! إنَّك متى يراك النَّاسُ قد تخلَّفتَ؛ وأنت سيد أهل الوادي؛ تخلفوا معك ، فلم يزل به أبو جهل حتَّى قال: أما إذْ غلبتني ، فوالله! لأشترينَّ أجود بعيرٍ بمكَّة ، ثمَّ قال أميَّة: يا أمَّ صفوان! جهِّزيني. فقالت

له: يا أبا صفوان! وقد نسيتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ تقصد سعد بن معاذ عندما قال له: سمعت رسول الله (ص) يقول: «إنَّهم قاتلوك» ؟ قال: لا ، ما أريدُ أن أجوزَ معهم إلا قريباً ، فلمَّا خرج أُميَّةُ أخذ لا يتركُ منزلاً إلا عَقَلَ بعيرَه ، فلم يزل بذلك حتَّى قتله اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ببدرٍ» [البخاري (٣٩٥٠) والبيهقي في الدلائل (٣/٢٥ ـ ٢٧)] .

ومن دهاء أبي جهل ـ لعنه الله ـ أن سلَّط عُقبةَ بن أبي مُعَيْط ، على أميَّةَ بن خلف ، فأتاه عقبةُ بمَجْمَرةٍ يحملها ، فيها نارٌ ومَجْمَر (العود يتبخَّر به) ، حتَّى وضعها بين يديه ، ثمَّ قال: استجمرْ؛ فإنَّما أنت من النِّساء ، قال: قبَّحك الله ، وقبَّح ما جئت به! ثمَّ تجهَّز ، وخرج من النَّاس[(٨٣٤)].

لقد كانت القوَّة المعنويَّة لجيش مكَّة ، متزعزعةً في النُّفوس ، وإن كان مظهره القوَّة ، والعزم ، والثبات ، إلا أنَّ في مخبره الخوفُ ، والجبنُ ، والتردُّد[(٨٣٥)].

وكان لرؤيا عاتكة بنت عبد المطلب أثرٌ على معنويات أهل مكَّة؛ فقد رأت في المنام: أنَّ رجلاً استنفر قريشاً ، وألقى بصخرةٍ من رأس جبل أبي قُبَيْس بمكَّة ، فتفتَّتت ، ودخلت سائر دُورِ قريش ، وقد أثارت الرُّؤيا خصومةً بين العبَّاس ، وأبي جهلٍ ، حتَّى قدم ضَمْضَمُ ،

وأعلمهم بخبر القافلة ، فسكنت مكَّة ، وتأوَّلت الرُّؤيا[(٨٣٦)] ، كما أن جُهَيم بن الصَّلْت بن المطلب بن عبد مناف رأى رؤيا عندما نزلت قريش الجُحْفة ، فقد رأى رجلاً أقبل على فرسٍ حتَّى وقف ، ومعه بعيرٌ له ، ثمَّ قال: قُتل عتبةُ بن ربيعة ، وشيبةُ بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميَّة بن خلف ، وفلان ، وفلانٌ ، فعدَّد رجالاً ممَّن قُتِلَ يوم بدر من أشراف قريش ، ثمَّ رأيته ضرب في لَبَّة بعيره ، ثمَّ أرسله في العسكر ، فما بقي خباء من أخبية العسكر إلا أصابه نَضْحٌ[(٨٣٧)] من دمه ، فلمَّا بلغت أَبا جهل هذه الرُّؤيا ، قال: وهذا أيضاً نبيٌّ اخر من بني المطلب ، سيعلم غداً من المقتول إن نحن التقينا[(٨٣٨)].

كانت تلك الرُّؤَى قد ساهمت بتوفيق الله تعالى ، في إضعاف النَّفسيَّة القرشيَّة المشركة.

ثامناً: الوصف القرانيُّ لمواقع المسلمين والمشركين في أرض المعركة:

قال تعالى: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ *} [الأنفال: ٤٢] .

هذه الاية الكريمة توضِّح الأماكن في غزوة بدرٍ ، وصوَّر لنا ـ سبحانه وتعالى ـ الحالة التي كان عليها الجيشان يوم اللقاء ، فقد كان المسلمون بجانب الوادي وحافته الأقرب إلى المدينة ، وكانت أرضه رخوةً ،

تغوص فيها الأقدام ، ولم يكن هناك ماءٌ ، وكان الكفّار بالجانب الاخر من الوادي ـ الأبعد من المدينة ـ وكانت أرضه ثابتةً ، وكان فيها ماءٌ ، وكان ركب العير الّذي يقوده أبو سفيان بالقرب من ساحل البحر فقد ذكّر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ المؤمنين بنعمته عليهم ، قال: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا} أي: اذكروا أيها المؤمنون وقت أن خرجتم من المدينة ، فسرتم حتّى كنتم أي: بجانب {بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا} ، وحافَّته الأقرب إلى المدينة المنوَّرة أي: والكفار بالجانب الأبعد الأقصى {وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى} الّذي هو بعيد بالنّسبة للمدينة ـ أي: وعِيرُ {وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ} سفيان ومن فيها كانت أسفل منكم من ناحية ساحل البحر الأحمر على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ منكم.

وفي الاية تصوير ما دبَّر ـ سبحانه ـ من أمر غزوة بدرٍ؛ ليقضي أمراً كان مفعولاً؛ من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، حين وعد المسلمين إحدى الطّائفتين؛ مبهمةً غير مبينةٍ ، حتّى خرجوا؛

ليأخذوا العير راغبين في الخروج ، وأقلق قريشاً ما بلغهم من تعرُّض المسلمين لأموالهم ، فنفروا؛ ليمنعوا عِيرَهم ، وسبَّب الأسباب حتّى أناخ هؤلاء بالعدوة الدُّنيا ، وهؤلاء بالعدوة القصوى ، وراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساقٍ ، وكان ما كان[(٨٣٩)].

وقوله تعالى: بيان لتدبير الله {وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً} ، وإرادته النافذة؛ أي: ولو تواعدتم أنتم وهم على التلاقي للقتال هناك؛ لاختلفتم في الميعاد؛ لكراهتكم للحرب على قلَّتكم ، وعدم إعدادكم شيئاً من العدَّة لها ، وانحصار همِّكم في أخذ العير ، ولأنَّ غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال أيضاً؛ لأنَّهم كانوا يهابون قتال رسول الله (ص) ، ولا يأمنون نصر الله له؛ لأنَّ كفر أكثرهم به كان عناداً ، أو استكباراً ، لا اعتقاداً أي: ولكن تلاقيتم هنالك على غير {وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً} ، ولا رغبة في القتال؛ ليقضي الله أمراً كان ثابتاً في علمه ، وحكمته: أنَّه واقعٌ لابدَّ منه ، وهو القتال المفضي إلى خزيهم ، ونصركم عليهم ، وإظهار دينه ، وصدق وعده لرسوله (ص) كما تقدَّم[(٨٤٠)].

وقوله تعالى: {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ *}

قال الالوسي: أي: ليموت من يموت عن حجَّةٍ عاينها ، ويعيش من يعيش عن حجَّةٍ شاهدها ، فلا يبقى محلٌّ لتعليلٍ بالأعداد؛ فإنَّ وقعة بدرٍ من الايات الواضحة ، والحجج الغُرِّ المحجَّلة[(٨٤١)].

وقوله: تذييلٌ قُصِدَ به التَّرغيب في {وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ *} ، والتَّرهيب من الكفر ، أي: لا يخفى عليه شيءٌ من أقوال أهل الإيمان ، عليمٌ بما تنطوي عليه قلوبهم ، وضمائرهم . وسيجازي . سبحانه . كلَّ إنسانٍ بما يستحقُّه مِنْ ثوابٍ ، أو عقابٍ على حسب ما يعلم ، وما يسمع عنه[(٨٤٢)].

* * *

المبحث الثَّاني

النَّبيُّ (ص) والمسلمون في ساحة المعركة

أولاً: بناء عريش القيادة:

بعد نزول النَّبيِّ (ص) والمسلمين معه ، على أدنى ماء بدرٍ من المشركين؛ اقترح سعد بن معاذ على رسول الله (ص) بناء عريشٍ له؛ يكون مقرّاً لقيادته ، ويأمن فيه من العدوِّ ، وكان ممَّا قاله سعدٌ في اقتراحه: «يا نبيَّ الله! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونُعِدُّ عندك ركائبك ، ثم نَلْقَى عدوَّنا ، فإن أعزَّنا الله ، وأظهرنا على عدوِّنا؛ كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى؛ جلستَ على ركائبك ، فلحِقْتَ بمن وراءنا ، فقد تخلَّف عنك أقوامٌ ، يا نبيَّ الله! ما نحن بأشدَّ لك حبّاً منهم ، ولو ظنُّوا أنَّك تلقى حرباً ، ما تخلَّفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك» فأثنى عليه النَّبيُّ (ص) خيراً ، ودعا له بخيرٍ ، ثمَّ بنى المسلمون العريش لرسول الله (ص) ، على تلٍّ مشرفٍ على ساحة القتال ، وكان معه فيه أبو بكر رضي الله عنه ، وكانت ثُلَّةٌ من شباب الأنصار ، بقيادة سعد بن معاذٍ ، يحرسون عريش رسول الله (ص) . [ابن هشام (٢/٢٧٢ . ٢٧٣) والبيهقي في الدلائل (٣/٤٤)] .

ويُستفاد من بناء العريش أمورٌ؛ منها:

١ . لابدَّ أن يكون مكان القادة مشرفاً على أرض المعركة ، يتمكَّن القائد فيه من متابعة المعركة ، وإدارتها.

٢ . ينبغي أن يكون مقرُّ القيادة امناً بتوافر الحراسة الكافية له.

٣ . ينبغي الاهتمام بحياة القائد ، وصونها من التعرُّض لأيِّ خطرٍ.

٤ . ينبغي أن يكون للقائد قوَّةٌ احتياطيَّةٌ أخرى ، تعوِّض الخسائر الَّتي قد تحدث في المعركة[(٨٤٣)].

ثانياً: من نعم الله على المسلمين قبل القتال:

من المِنَنِ[(٨٤٤)] الَّتي منَّ الله بها على عباده المؤمنين يوم بدرٍ: أنَّه أنزل عليهم النُّعَاسَ ، والمطر ، وذلك قبل أن يلتحموا مع أعدائهم ، قال تعالى: {إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ *} [الأنفال: ١١] .

قال القرطبيُّ: «وكان هذا النُّعاس في الليلة الَّتي كان القتال من غدها ، فكان النَّوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهمِّ ، ولكنَّ الله ربط جأشهم.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: ما كان فينا فارسٌ يوم بدرٍ غير المِقْدَاد على فرسٍ أَبْلَقَ ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ ، إلا رسول الله (ص) تحت شجرةٍ يُصلِّي ، ويبكي حتَّى أصبح. وفي امتنان الله عليهم بالنَّوم في هذه الليلة وجهانِ:

أحدهما: أنْ قوَّاهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثَّاني: أنْ أمَّنهم بزوال الرُّعب من قلوبهم ، كما يقال: الأمن مُنِيمٌ ، والخوفُ مُسْهِرٌ»[(٨٤٥)].

وبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّه أكرم المؤمنين بإنزال المطر عليهم ، في وقتٍ لم يكن المعتاد فيه نزول الأمطار ، وذلك فضلاً منه ، وكرماً ، وإسناد هذا الإنزال إلى الله للتَّنبيه على أنَّه أكرمهم به.

قال الإمام الرَّازي: «وقد عُلِم بالعادة: أنَّ المؤمن يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنباً ، ويغتمُّ إذا لم يتمكَّن من الاغتسال ، ويضطرب قلبه لأجل هذا السَّبب ، فلا جَرَمَ عدَّ ـ تعالى وتقدَّس ـ تمكينهم من الطَّهارة من جملة نعمه»[(٨٤٦)].

وقوله تعالى: فقد روى {وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ} جريرٍ عن ابن عباس قال: «نزل النَّبي (ص) ـ يعني حين سار إلى بدرٍ ـ والمسلمون بينهم وبين الماء رملةٌ دِعْصَةٌ ـ أي كثيرةٌ مجتمعةٌ ـ فأصاب المسلمين ضعفٌ شديدٌ ، وألقى الشَّيطان في قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم: (تزعمون: أنَّكم أولياء الله ، وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلون مُجْنِبِينَ) ، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً ، فشرب المسلمون ، وتطهَّروا ، وأذهب الله عنهم

رجز الشَّيطان ، وثبت الرَّمل حين أصابه المطر ، ومشى النَّاس عليه ، والدَّواب ، فساروا إلى القوم»[(٨٤٧)].

فقد بيَّن ـ سبحانه ـ: أنَّه أنزل على عباده المؤمنين المطر قبل المعركة ، فتطهَّروا به حسِّيّاً ، ومعنويّاً؛ إذ ربط الله به على قلوبهم ، وثبَّت به أقدامهم؛ وذلك: أنَّ النَّاظر في منطقة بدر يجد في المنطقة رمالاً متحرِّكةً لا

زالت حتَّى اليوم ، ومن العسير المشي عليها ، ولها غبارٌ كبيرٌ ، فلمَّا نزلت الأمطار تماسكت تلك الرِّمال ، وسَهُل السَّير عليها ، وانطفأ غبارها ، وكلُّ ذلك كان نعمةً من الله على عباده[(٨٤٨)].

ثالثاً: خطَّة الرَّسول (ص) في المعركة[(٨٤٩)]:

ابتكر الرَّسول (ص) في قتاله مع المشركين يوم بدرٍ أسلوباً جديداً في مقاتلة أعداء الله تعالى ، لم يكن معروفاً من قبل؛ حيث قاتل (ص) بنظام الصُّفوف[(٨٥٠)] ، وهذا الأسلوب أشار إليه القران الكريم في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ *} [الصف: ٤] .

وصفة هذا الأسلوب: أن يكون المقاتلون على هيئة صفوف الصَّلاة ، وتقلُّ هذه الصُّفوف ، أو تكثر تَبَعاً لقلة المقاتلين ، أو كثرتهم ، وتكون الصُّفوف الأولى من أصحاب الرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان ، وتكون الصُّفوف الَّتي خلفها من أصحاب النِّبال؛ لتسديدها من المهاجمين على الأعداء ، وكان من فوائد هذا الأسلوب في غزوة بدرٍ:

١ ـ إرهاب الأعداء ، ودلالةٌ على حسن وترتيب النِّظام عند المسلمين.

٢ ـ جعل في يد القائد الأعلى (ص) قوَّة احتياطيَّة ، عالج بها المواقف المفاجئة في صدِّ هجومٍ معاكس ، أو ضرب كمينٍ غير متوقَّعٍ ، واستفاد منه في حماية الأجنحة من خطر المشاة ، والفُرْسان ، ويعد تطبيق هذا الأسلوب لأوَّل مرَّةٍ في غزوة بدرٍ سبقاً عسكريّاً ، تميَّزت به المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة على غيرها منذ أربعةَ عَشَرَ قرناً من الزَّمان[(٨٥١)].

ويظهر للباحث في السِّيرة النَّبويَّة: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان يباغت خصومه ببعض الأساليب القتالية الجديدة ، وخاصَّةً تلك الَّتي لم يعهدْها العرب من قبل ، على نحو ما قام به النَّبيُّ (ص) في يوم بدرٍ ، وأُحدٍ ، وغيرهما.

فقد كانت العرب تقاتل بأسلوب الكرِّ والفَرِّ ، وقد علَّق اللواء محمود شيت خطَّاب على كلا الأسلوبين القتاليين بقوله: «إنَّ القتال بأسلوب الكرِّ ، والفرِّ ، هو أن يهجم المقاتلون بكلِّ قوَّتهم على العدوِّ؛ النَّشابة منهم ، والَّذين يقاتلون بالسُّيوف ، ويطعنون بالرِّماح ، مشاةً ، وفُرْساناً ، فإن ثبت لهم العدوُّ ، أو أحسُّوا بالضَّعف؛ نكصوا ، ثمَّ أعادوا تنظيمهم ، وكَرُّوا من جديدٍ ، وهكذا يكرُّون ، ويفرُّون حتَّى يكتب لهم النَّصر ، أو الاندحار.

والقتال بأسلوب الصَّفِّ يكون بترتيب المقاتلين صفَّين ، أو ثلاثة صفوفٍ ، أو أكثر ، على حسب عددهم ، وتكون الصُّفوف الأماميَّة من المسلمين مسلحةً بالرِّماح؛ لصدِّ هجمات الفُرْسان ، وتكون الصُّفوف المتعاقبة الأخرى مزوَّدةً بالنِّبال؛ لرمي المهاجمين من الأعداء.

وتبقى الصُّفوف بقيادة قائدها ، وسيطرته إلى أن يفتقد هجوم أصحاب الكرِّ ، والفرِّ زخمه وشدَّته ، عند ذاك تتقدَّم الصُّفوف متعاقبةً متساندةً للزَّحف على العدوِّ ، ومطاردته عند هزيمته.

ويرى اللِّواء (خطاب) أنَّ أسلوب الصَّفِّ يتميَّز عن أسلوب الكرِّ ، والفرِّ ، بأنَّه يؤمن التَّرتيب (بالعمق) ، فتبقى دائماً بيد القائد قوَّةٌ احتياطيَّة يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان؛ كأن يصدَّ هجوماً مقابلاً للعدو ، أو يضرب كميناً لم يتوقعه ، أو يحمي الأجنحة الَّتي يهددها العدوُّ بفُرْسانه ، أو مشاته ، ثمَّ يستثمر الفوز بهذا الاحتياط عند الحاجة»[(٨٥٢)].

وقد تحدَّث ابن خلدون عن الأساليب القتاليَّة الجديدة؛ الَّتي استحدثها النَّبيُّ (ص) في معاركه ، والَّتي لم يكن للعرب عهدٌ بها ، فقال مشيراً إلى ذلك: «وكان أسلوب الحرب أوَّل الإسلام كلُّه زحفاً ، وكان العرب إنَّما يعرفون الكرَّ ، والفرَّ...»[(٨٥٣)].

وبيَّن أفضلية الأساليب الَّتي استحدثها النَّبيُّ (ص) بقوله: «وقتال الزَّحف أوثق وأشدُّ من قتال الكرِّ ، والفرِّ؛ وذلك لأنَّ قتال الزَّحف ترتب فيه الصُّفوف ، وتسوَّى كما تسوى القداح ، أو صفوف الصَّلاة ، ويمشون بصفوفهم إلى العدوِّ قُدُماً؛ فلذلك تكون أثبت عند المصارع ، وأصدق في القتال ، وأرهب للعدوِّ؛ لأنَّه كالحائط الممتدِّ ، والقصر المشيد لا يطمع في إزالته»[(٨٥٤)].

ومن جهة النَّظرة العسكرية فإنَّ هذه الأساليب تدعو إلى الإعجاب بشخصيَّة النَّبيِّ (ص) ،

وبراعته العسكريَّة؛ لأنَّ التَّعليمات العسكريَّة الَّتي كان يصدرها خلال تطبيقه لها ، تطابق تماماً الأصول الحديثة في استخدام الأسلحة[(٨٥٥)].

وتفصيل ذلك: فقد اتَّبع (ص) أسلوب الدِّفاع ولم يهاجم قوَّة قريشٍ ، وكانت توجيهاته التَّكتيكيَّة الَّتي نفَّذها جنودُه بكلِّ دقَّةٍ سبباً في زعزعة مركز العدوِّ ، وإضعاف نفسيته؛ وبذلك تحقَّق النَّصر الحاسم. بتوفيق الله. على العدوِّ برغم تفوُّقه[(٨٥٦)] (بنسبة ٣ إلى ١) ، فقد كان (ص) يتصرَّف في كلِّ موقف حسب ما تدعو إليه المصلحة؛ وذلك لاختلاف مقتضيات الأحوال ، والظروف ، وقد طبَّق الرَّسول (ص) في الجانب العسكريِّ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة في مكانها الصَّحيح ، أمَّا أخذه بالأسلوب الإقناعيِّ في غزوة بدرٍ؛ فقد تجلَّى في ممارسة فقه الاستشارة في مواضعَ متعدِّدةٍ؛ لأنَّه (ص) لا يقود جنده بمقتضى

السُّلطة؛ بل بالكفاءة ، والثِّقة ، وهو (ص) أيضاً لا يستبدُّ برأيه ، بل يتَّبع مبدأ الشُّورى ، وينزل على الرَّأي الَّذي يبدو صوابه ، ومارس (ص) في غزوة بدرٍ أسلوب القيادة التَّوجيهيَّة ، فقد تجلَّى في أمورٍ؛ منها[(٨٥٧)]:

الأمر الأوَّل: أمره (ص) الصَّحابة برمي الأعداء؛ إذا اقتربوا منهم؛ لأنَّ الرَّمي يكون أقربَ إلى الإصابة في هذه الحالة: «إن دنا القوم منكم؛ فانضحُوهم[(٨٥٨)] بالنَّبْل» [ابن هشام (٢/٢٧٨) والبيهقي في الدلائل (٣/٨١)] .

الأمر الثاني: نهيه (ص) عن سلِّ السيوف إلى أن تتداخل الصُّفوف[(٨٥٩)]: «ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم» [أبو داود (٢٦٦٤)] .

الأمر الثالث: أمره (ص) الصَّحابة بالاقتصاد في الرَّمي[(٨٦٠)]: «واسْتَبْقُوا نَبْلَكم» [البخاري (٢/٣٩٨٤) و٣٩٨٥) وأبو داود (٢٦٦٣)].

وعندما تقارن هذه التَّعليمات الحربيَّة بالمبادأى الحديثة في الدِّفاع؛ تجد أنَّ رسول الله (ص) كان سباقاً إليها ، من غير عكوفٍ على الدَّرس ، ولا التحاقٍ بالكلِّيات الحربيَّة ، فالنَّبيُّ (ص) يرمي
مِنْ وراء تعليماته الَّتي استعرضناها انفاً إلى تحقيق ما يُعرف حديثاً بكبت النِّيران إلى اللحظة الَّتي يصبح فيها العدوُّ في المدى المؤثِّر لهذه الأسلحة ، وهذا ما قصده (ص) في قوله: «واسْتَبْقوا نَبْلكم» [سبق تخريجه] .

فرصة الاستفادة من الظُّروف الطَّبيعية أثناء قتال الأعداء:

ولم يهملْ (ص) فرصةَ الاستفادة من الظروف الطَّبيعية أثناء قتال العدوِّ ، فقد كان يستفيد من كلِّ الظُّروف في ميدان المعركة لمصلحة جيشه ، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله (ص) قبل بدء القتال يوم بدرٍ ، يقول المقريزي: «وأصبح (ص) ببدرٍ قبل أن تنزل قريش ، فطلعت الشَّمس وهو يصفُّهم ، فاستقبل المغرب ، وجعل الشَّمس خلفه ، فاستقبلوا الشَّمس»[(٨٦١)].

وهذا التَّصرُّف يدلُّ على حسن تدبيره (ص) ، واستفادته حتَّى من الظُّروف الطَّبيعية ، لما يحقِّق المصلحة لجيشه؛ وإنَّما فعل ذلك لأنَّ الشَّمس إذا كانت في وجه المقاتل ، تسبِّب له عَشَا[(٨٦٢)] البصر؛ فتقلُّ مقاومته ، ومجابهته لعدوِّه[(٨٦٣)]. وفيما فعله رسول الله (ص) يوم بدرٍ إشارةٌ إلى أنَّ الظروف الطَّبيعيَّة كالشَّمس ، والرِّيح ، والتَّضاريس الجغرافيَّة ، وغيرها لها تأثيرٌ عظيمٌ على موازين القوى في المعارك ، وهي من الأسباب الَّتي طلب الله منَّا الأخذ بها؛ لتحقيق النَّصر ، والصُّعود إلى المعالي[(٨٦٤)].

سَوَّاد بن غَزِيَّة في الصفوف:

كان (ص) في بدرٍ يعدِّل الصُّفوف ، ويقوم بتسويتها؛ لكي تكون مستقيمةً ، متراصةً؛ وبيده سَهْمٌ لا ريش له ، يُعَدِّل به الصَّف ، فرأى رجلاً اسمه سَوَّاد بن غَزِيَّة وقد خرج من الصَّفِّ ، فطعنه (ص) في بطنه ، وقال له: «استوِ يا سَوَّاد!» فقال: يا رسولَ الله! أَوْجَعْتَنِي! وقد بعثك الله بالحقِّ ، والعدل ، فأَقِدْني[(٨٦٥)] ، فكشف رسول الله (ص) عن بطنه ، وقال: «استَقِدْ» ، فاعتنقه ، فقبَّل بطنه ، فقال: «ما حملك على هذا يا سَوَّاد!» قال: يا رسولَ الله! حضر ما ترى؛ فأردت أن يكون اخر العهد بك أن يمسَّ جلدي جلْدَك. فدعا له رسول الله بخير. [ابن هشام (٢/٢٧٨ ـ ٢٧٩)].

ويُستفاد من قصَّة سَوَّاد رضي الله عنه أمورٌ؛ منها:

١ ـ حرص الإسلام على النِّظام.

٢ ـ العدل المطلق: فقد أعطى رسول الله (ص) القَوَد من نفسه.

٣ ـ حب الجندي لقائده.

٤ ـ تذكُّر الموت ، والشَّهادة.

٥ ـ جسد رسول الله (ص) مباركٌ ، ومسُّه فيه بركةٌ؛ ولهذا حرص عليها سَوَّاد.

٦ ـ بطن الرَّجل ليس بعورةٍ؛ بدليل: أنَّ النبي (ص) كشف عنه ، ولو كان عورةً؛ لما كشف عنه[(٨٦٦)].

تحريض النَّبيِّ (ص) أصحابه على القتال:

كان رسولُ الله (ص) يربِّي أصحابَه على أن يكونوا أصحاب إراداتٍ قويَّةٍ ، راسخةٍ، ثابتةٍ ، ثبات الشُّمِّ[(٨٦٧)] الرَّواسي ، فيملأ قلوبهم شجاعةً ، وجرأةً ، وأملاً في النَّصر على الأعداء ، وكان يسلك في سبيل تكوين هذه الإرادة القويَّة أسلوب التَّرغيب والتَّرهيب؛ التَّرغيب في أجر المجاهدين الثَّابتين ، والتَّرهيب من التولِّي يوم الزَّحف ، والفرار من ساحات الوَغَى[(٨٦٨)] ، كما كان يحدِّثهم عن عوامل النَّصر ، وأسبابه؛ ليأخذوا بها ، ويلتزموها ، ويحذِّرهم من أسباب الهزيمة؛ ليقلعوا عنها ، وينأوا بأنفسهم عن الاقتراب منها[(٨٦٩)].

وكان (ص) يحثُّ أصحابه على القتال ، ويحرِّضهم عليه؛ امتثالاً لقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ} [الأنفال: ٦٥] ، وقوله تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً *} [النساء: ٨٤] .

وفي غزوة بدرٍ الكبرى ، قال رسول الله (ص) لأصحابه: «قوموا إلى جنَّةٍ عرضها السَّموات، والأرض»، فقال عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ رضي الله عنه: يا رسولَ الله! جَنَّةٌ عرضُها السَّموات والأَرضُ؟! قال: «نعم» قال: بَخٍ ، بخٍ! (كلمة تعجب) ، فقال رسول الله (ص) : «ما يحملُك على قولك: بَخٍ بَخٍ؟!» قال: لا والله! يا رسولَ الله! إلا رجاءَ أن أكون من أهلها. قال: «فإنَّك من أهلها» فأخرج تمراتٍ من قَرَنِهِ (جعْبَة النُّشَّاب) ، فجعل يأكل منهنَّ ، ثم قال: لئن أنا حَيِيتُ حتَّى

اكل تمراتي هذه ، إنَّها لحياةٌ طويلةٌ، قال: فرمى بما كان معه من التَّمر، ثمَّ قاتلهم حتَّى قُتل. [مسلم (١٩٠١)] .

وفي روايةٍ قال: قال أنسٌ رضي الله عنه: فرمى ما كان معه من التَّمر ، وقاتل؛ وهو يقول:

رَكْضاً إلى اللهِ بِغَيْرِ زَادِإلا التُّقَى وَعَمَلَ المِعَادِ

والصَّبْرَ في الله على الجِهَادِوكُلُّ زادٍ عُرْضَةُ النَّفَادِ

غَيْرَ التُّقَى والبِرِّ والرَّشَادِ

فقاتل ـ رحمه الله! ـ حتَّى استُشْهِد[(٨٧٠)].

ومن صور التَّعبئة المعنويَّة: أنَّه (ص) كان يبشِّرهم بقتل صَنَادِيد[(٨٧١)] المشركين ، وزيادةً لهم في الطُّمأْنينة ، كان يحدِّد مكان قتل كلِّ واحدٍ منهم[(٨٧٢)] ، كما كان يبشِّر المؤمنين بالنَّصر قبل بدء القتال ، فيقول: «أبشرْ أبا بكر» ووقف رسول الله (ص) يقول للصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ: «والذي نفسُ محمد بيده! لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ ، فَيُقْتَل صابراً محتسباً ، مقبلاً غيرَ مُدْبرٍ ، إلا أدخله الله الجنَّة» [ابن هشام (٢٧٩/٢)] .

وقد أثَّرت هذه التَّعبئة المعنويَّة في نفوس أصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ والَّذين جاؤوا من بعدهم بإحسانٍ[(٨٧٣)].

وكان (ص) يطلب من المسلمين ألاَّ يتقدمَ أحدٌ إلى شيءٍ حتَّى يكون دونه ، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: .... فانطلق رسول الله (ص) ، وأصحابه حتَّى سبقوا المشركين إلى بدرٍ ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله (ص) : «لا يَقْدُمَنَّ أحدٌ منكم إلى شيءٍ حتى أكون أنا دونَه»[(٨٧٤)] ، فدنا المشركون ، فقال رسول الله (ص) : «قوموا إلى جنَّةٍ عَرْضُها السمواتُ والأرضُ» [سبق تخريجه] .

دعاؤه (ص) واستغاثته:

قال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ *} [الأنفال: ٩]
، لما نظم (ص) صفوف جيشه ، وأصدر أوامره لهم ، وحرَّضهم على القتالِ؛ رجع
إلى العريش الَّذي بُني له ، ومعه صاحبه أبو بكرٍ رضي الله عنه ، وسعد بن معاذٍ على باب العريش لحراسته؛ وهو شاهرٌ سَيْفَه ، واتَّجه رسول الله (ص) إلى ربِّه يدعوه ، ويناشده النَّصر الَّذي وعده ، ويقول في دعائه: «اللَّهمَّ أَنْجِزْ لي ما وعدتني! اللَّهُمَّ اتِ ما وعدتني! اللَّهُمَّ إن تُهْلِكْ هذه العصابةَ من أهل الإسلام لا تُعْبدْ في الأرض!» فما زال يهتفُ بربِّه ، مادّاً يديه ، مستقبلَ القبلة ، حتَّى سقط رداؤُهُ عن مَنْكَبيه ، فأتاه أبو بكرٍ ، فأخذ ردَاءَهُ ، فألقاه على مَنْكبيه ، ثمَّ التزمه من ورائه ، وقال: يا نبيَّ الله! كفاك مناشدتُك ربَّك ، فإنَّه سينجز لكَ ما وعدك! [مسلم (١٧٦٣) وأبو داود (٢٦٩٠) والترمذي (٣٠٨١) وأحمد (١/٣٠)]. فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ}
وفي رواية ابن عباسٍ قال: قال النَّبيُّ (ص) يوم بدرٍ: «اللَّهمَّ أنشُدُكَ عَهْدَكَ، ووعدك! اللَّهُمَّ إن شئتَ لم تُعْبَدْ» فأخذ أبو بكر بيده، فقال: حسبك، فخرج (ص) ؛ وهو يقول: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ *} (٢٩١٥) وأحمد (١/٣٢٩) والبيهقي في الدلائل (٣/٥٠)].
وروى ابن إسحاق: أنَّه (ص) قال: «اللَّهُمَّ هذه قريش ، قد أقبلت بخُيَلائها[(٨٧٥)] ، وفَخْرها ، تُحَادُّك[(٨٧٦)] وتكذِّبُ رسولَك ، اللَّهُمَّ فنصرَك الَّذي وعدتني! اللَّهُم أحنهم[(٨٧٧)] الغداة!» [ابن هشام (٢/٢٧٣) والبيهقي في الدلائل (٣/١١٠)] .
وهذا درسٌ ربَّانيٌّ مهمٌّ لكلِّ قائدٍ ، أو حاكمٍ ، أو زعيمٍ ، أو فردٍ في التَّجرُّد من النَّفس. وحظِّها ، والخلوص ، واللُّجوء لله وحدَه ، والسُّجود ، والجُثُوِّ بين يدي الله سبحانه؛ لكي ينزل نصره ، ويبقى مشهد نبيِّه؛ وقد سقط رداؤه عن كتفه؛ وهو مادٌّ يديه يستغيث بالله ، يبقى هذا المشهد محفوراً بقلبه ، ووجدانه ، يحاول تنفيذه في مثل هذه السَّاعات ، وفي مثل هذه المواطن ، حيث تناط به المسؤوليَّة ، وتُلقى عليه أعباء القيادة[(٨٧٨)].
{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى}
بعد أن دعا (ص) ربَّه في العريش ، واستغاث به ، خرج من العريش ، فأخذ قبضةً من التُّراب ، وحصب بها وجوهَ المشركين ، وقال (ص) : «شاهتِ الوجوه» [ابن هشام (٢/٢٨٠)] ثمَّ أمر (ص) أصحابه أن يَصْدُقوا الحملة إثرها ، ففعلوا ، فأوصل الله تعالى تلك الحصباء إلى أعين

المشركين ، فلم يبقَ أحدٌ منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله ، ولهذا قال الله تعالى: {وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى} [الأنفال: ١٧] ، ومعنى الاية: أنَّ الله سبحانه أثبت لرسوله ابتداء الرَّمي ، ونفى عنه الإيصال الَّذي لم يحصل برميته[(٨٧٩)].

ونلحظ: أنَّ الرَّسول (ص) أخذ بالأسباب المادِّيَّة ، والمعنويَّة ، وتوكَّل على الله ، فكان النَّصر والتَّأييد من الله تعالى؛ فقد اجتمع في بدرٍ الأخذ بالأسباب بالقَدْرِ الممكن ، مع التَّوفيق الرَّبَّانيّ في تهيئة جميع أسباب النَّصر متعاونةً ، متكافئةً مع التأييدات الرَّبَّانيَّة الخارقة ، والغيبيَّة؛ ففي عالم الأسباب تشكِّل دراسة الأرض ، والطَّقس ، ووجود القيادة والثِّقة بها ، والرُّوح المعنويَّة لبناتٍ أساسيةً في صحَّة القرار العسكريّ ، ولقد كانت الأرض لمصلحة المسلمين ، وكان الطَّقس مناسباً للمعركة ، والقيادة الرَّفيعة موجودةً ، والثِّقة بها كبيرة ، والرُّوح المعنويَّة مرتفعة ، وبعض هذه المعاني كان من الله بشكلٍ مباشرٍ ، وتوفيقه ، وبعضها كان من فِعْلِ رسول الله (ص) أخذاً بالأسباب المطلوبة ، فتضافر الأخذ بالأسباب مع توفيق الله ، وزيدَ على ذلك التأييدات الغيبيَّة ، والخارقة؛ فكان ما كان ، وذلك نموذجٌ على ما يُعطاه المسلمون بفضل الله ، إذا ما صلحت النِّيَّات عند الجند ، والقادة ، ووجدت الاستقامة على أمر الله ، وأخذ المسلمون بالأسباب[(٨٨٠)].

* * *

المبحث الثَّالث

نشوب القتال وهزيمة المشركين

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفرديَّة ، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبة بن ربيعة ، وابنه الوليد ، وطلبوا المبارزة ، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار؛ ولكنَّ الرَّسول (ص) أرجعهم؛ لأنَّه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله ، وذوي قرباه؛ ولذلك قال (ص) : «قم يا عُبيدة بن الحارث! وقم يا حمزة! وقم يا علي!» وبارز حمزةُ شيبةَ ، فقتله ، وبارز عليٌّ الوليدَ ، وقتله ، وبارز عبيدةُ بن الحارث عتبةَ ، فضرب كلُّ واحدٍ منهما الاخر بضربةٍ موجعةٍ ، فكرَّ حمزة ، وعليٌّ على عتبة فقتلاه ، وحملا عبيدة ، وأتيا به إلى رسول الله (ص) ، ولكن ما لبث أن اسْتُشهد متأثراً بجراحه. [أبو داود (٢٦٦٥)][(٨٨١)]
.

وفي هؤلاء السِّتَّة نزل قوله تعالى: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ *يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ *وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ *كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ *إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ *وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ *} [الحج: ١٩ ـ ٢٤].

ولما شاهد المشركون قَتْلَ الثلاثة الَّذين خرجوا للمبارزة؛ استشاطوا غضباً ، وهجموا على المسلمين هجوماً عاماً ، صمد ، وثبت له المسلمون ، وهم واقفون موقف الدِّفاع ، ويرمونهم بالنَّبل ، كما أمرهم النَّبيُّ (ص) ، وكان شعار المسلمين: أَحَدٌ ، أحَدٌ ، ثمَّ أمرهم النَّبيُّ (ص) بالهجوم المضادِّ ، محرِّضاً لهم على القتال ، وقائلاً لهم: «شُدُّوا» ، وواعداً مَنْ يُقتل صابراً محتسباً بأنَّ له الجنَّة ، وممَّا زاد في نشاط المسلمين ، واندفاعهم في القتال ، سماعُهم قولَ النَّبيِّ (ص) : {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ *} [القمر: ٤٥] ، وعِلْمُهم ، وإحساسُهم بإمداد الله لهم بالملائكة ، وبتقليل المشركين في أعين المسلمين ، ورؤيتهم رسولَ الله (ص) يَثبُ في الدِّرع وقد تقدَّمهم ، فلم يكن أحدٌ أقرب من المشركين منه ، وهو يقول: {سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ *}[(٨٨٢)]

كان (ص) قد رأى في منامه ـ ليلة اليوم الَّذي التقى فيه الجيشان ، رأى ـ المشركين قليلاً ، وقد قصَّ رؤياه على أصحابه؛ فاستبشروا خيراً ، قال تعالى: {إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *} [الأنفال: ٤٣] .

والمعنى: أنَّ النَّبيَّ (ص) راهم ـ أي: رأى المشركين ـ في منامه قليلاً ، فقصَّ ذلك على أصحابه؛ فكان ذلك سبباً لثباتهم ، قال مجاهد: ولو راهم في منامه كثيراً؛ لفشلوا ، وجبنوا على قتالهم ، ولتنازعوا في الأمر: هل يلاقونهم أم لا؟ والمضارع في الاية بمعنى الماضي؛ لأنَّ نزول الاية كان بعد الإراءة في المنام ، أي: عصمهم من الفشل، والتنازع، فقلَّلهم في عين {وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ} الله (ص)[(٨٨٢)] ، فقصَّ رؤياه على أصحابه، فكان في ذلك تثبيتٌ لهم، وتشجيعهم، وجرأتهم على عدوِّهم، وعند لقاء جيش المسلمين مع جيش المشركين رأى كلٌّ منهم عدد الاخر قليلاً.

قال تعالى: {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ *} [الأنفال: ٤٤] .

وإنما قلَّلهم في أعين المسلمين؛ تصديقاً لرؤيا النَّبي (ص) ، وليعاينوا ما أخبرهم به ، فيزدادوا يقيناً ، ويجدُّوا في قتالهم؛ ويثبتوا ، قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: قلت لرجل إلى جنبي: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة ، فأسرنا رجلاً منهم فقلنا له: كم كنتم؟ قال: ألفاً ، وقوله تعالى: حتَّى قال قائل من المشركين: إنَّما هم أكلة {وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ}

ووجه الحكمة ، واللُّطف بالمسلمين في هذا التَّقليل ، هو أنَّ إراءة المسلمين عدد الكافرين قليلاً ثبَّتهم ، ونشَّطهم ، وجرَّأهم على قتال المشركين ، ونزع الخوف من قلوب المسلمين من أعدائهم ، ووجه الحكمة في تقليل المسلمين في أعين المشركين ، هو أنَّهم إذا رأوهم قليلاً؛ أقدموا على قتالهم غيرَ خائفين ، ولا مبالين بهم ، ولا اخذين الحذر منهم ، فلا يقاتلون بجدٍّ ، واستعدادٍ ، ويقظةٍ ، وتحرُّزٍ ، ثمَّ إذا ما التحموا بالقتال فعلاً؛ تفجؤهم الكثرة ، فَيُبْهَتُوا ، ويَهَابُوا ، وتكسر شوكتُهم حين يرون ما لم يكن في حسابهم ، وتقديرهم ، فيكون ذلك من أسباب خذلانهم ، وانتصار المسلمين عليهم[(٨٨٣)].

أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة:

ثبت من نصوص القران الكريم ، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة ، ومرويات عددٍ من الصحابة البدريين: أنَّ الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرُّعب.

قال تعالى: {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ *} ١٢] ، وقال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ *بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ *وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ *} [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وأورد البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم عدداً من الأحاديث الصَّحيحة الَّتي تشير إلى مشاركة الملائكة في معركة بدرٍ ، وقيامهم بضرب المشركين ، وقتلهم[(٨٨٤)].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: بينما رجلٌ من المسلمين يومئذٍ ، يَشْتَدُّ في أَثَرِ رجلٍ من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربةً بالسَّوْط فوقه ، وصوتَ الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ[(٨٨٥)]! فنظر إلى المشرك أمامه فخرَّ مستلقياً ، فنظر إليه فإذا هو خُطِمَ أنفه[(٨٨٦)]، وشُقَّ وَجْهُهُ كضربة السَّوط ، فاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ، فجاء الأنصاريُّ ، فحدَّثَ بذلك رسولَ الله، فقال: «صدقتَ ، ذلك من مَدَدِ السَّماء الثالثة» ، [سبق

تخريجه] ومن حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما ـ أيضاً ـ قال: إنَّ النبي (ص) قال يوم بدرٍ: «هذا جبريلُ اخِذٌ برأس فرسه ، عليه أداةُ الحرب» [البخاري (٣٩٩٥)] ، ومن حديث عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه قال: فجاء رجلٌ من الأنصار قصيرٌ بالعباس بن عبد المطَّلب أسيراً، فقال العباس: يا رسولَ الله! إنَّ هذا والله! ما أسرني، لقد أسرني رجل أَجْلَحُ[(٨٨٧)]، من أحسن النَّاس وجهاً ، على فرسٍ أَبْلَقَ[(٨٨٨)] ، وما أراه في القوم ، فقال الأنصاريُّ: أنا أسرته يا رسولَ الله! فقال: «اسكت، فقد أيَّدك الله بملكٍ كريمٍ» ، [أحمد (١/١١٧)] ، ومن حديث أبي داود المازنيّ قال: «إنِّي لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه؛ إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنَّه قتله غيري» [أحمد (٥/٤٥٠) وابن هشام (٢/٢٨٦)] .

«إنَّ إمداد الله تعالى للمؤمنين بالملائكة أمر قطعيٌّ ثابتٌ ، لاشكَّ فيه ، وإنَّ الحكمة من هذا الإمداد تحصيل ما يكون سبباً لانتصار المسلمين ، وهذا ما حصل بنزول الملائكة ، فقد قاموا بكلِّ ما يمكن أن يكون سبباً لنصر المسلمين ، من تبشيرهم بالنَّصر ، ومن تثبيتهم بما ألقوه في

قلوبهم؛ من بواعث الأمل في نصرهم ، والنَّشاط في قتالهم ، وبما أظهروه لهم من أنَّهم مُعانون من الله تعالى ، وأيضاً بما قام به بعضهم من الاشتراك الفعليِّ في القتال ، ولاشكَّ: أنَّ هذا الاشتراك الفعليَّ في القتال قوَّى قلوبَهم ، وثبَّتهم في القتال ، وهذا ما دلَّت عليه الايات ، وصرَّحت به الأحاديث النَّبوية»[(٨٨٩)].

وقد يسأل سائل: ما الحكمة في إمداد المسلمين بالملائكة ، مع أنَّ واحداً من الملائكة كجبريل عليه السَّلام ، قادرٌ ـ بتوفيق الله ـ على إبادة الكفَّار؟

وقد أجاب الأستاذ عبد الكريم زيدان على ذلك ، فقال: لقد مضت سنَّة الله بتدافع الحقِّ ، وأهله مع الباطل ، وأهله ، وأنَّ الغلبة تكون وَفْقاً لسنن الله في الغلبة ، والانتصار ، وأنَّ هذا التَّدافع يقع في الأصل بين أهل الجانبين: الحقِّ والباطل ، ومن ثمرات التمسُّك بالحقِّ ، والقيام بمتطلَّباته أن يحصلوا على عونٍ ، وتأييد من الله تعالى بأشكالٍ ، وأنواعٍ متعدِّدة من التأييد ، والعون ، ولكن تبقى المدافعة ، والتدافع يجريان وَفْقاً لسنن الله فيهما ، وفي نتيجة هذا التَّدافع ، فالجهة الأقوى بكلِّ معاني القوَّة اللازمة للغلبة هي الَّتي تغلب ، فالإمداد بالملائكة هو بعض ثمرات إيمان تلك العصبة المجاهدة ، ذلك الإمداد الَّذي تحقَّق به ما يستلزم الغلبة على العدوِّ ، ولكن بقيت الغلبة موقوفةً على ما قدَّمه أولئك المؤمنون في قتالٍ ، ومباشرة لأعمال القتال ، وتعرُّضهم للقتل ، وصمودهم ، وثباتهم في الحرب ، واستدامة توكُّلهم على الله ، واعتمادهم عليه ، وثقتهم به ، وهذه معانٍ جعلها الله حسب سننه في الحياة أسباباً للغلبة ، والنَّصر مع الأسباب الأخرى المادِّية؛ مثل العُدَّة ، والعَدد ، والاستعداد للحرب ، وتعلُّم فنونها ... إلخ ، ولهذا فإنَّ الإسلام

يدعو المسلمين إلى أن يباشروا بأنفسهم إزهاق الباطل ، وقتال المبطلين ، وأن يهيئوا الأسباب المادِّيَّة ، والإيمانيّة للغلبة والانتصار ، وبأيديهم ـ إن شاء الله تعالى ـ ينال المبطلون ما يستحقُّونه من العقاب[(٨٩٠)] ، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ *وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ١٤ ـ ١٥] .

إنَّ نزول الملائكة ـ عليهم السَّلام ـ من السَّموات العلا إلى الأرض؛ لنصر المؤمنين حدثٌ عظيمٌ؛ إنَّه قوَّةٌ عظمى ، وثباتٌ راسخٌ للمؤمنين؛ حينما يوقنون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان ، وأنَّهم إذا حققوا أسباب النَّصر ، واجتنبوا موانعه ، فإنَّهم أهلٌ لمدد السَّماء ، وهذا الشُّعور يعطيهم جرأةً في مقابلة الأعداء ، وإن كان ذلك على سبيل المغامرة ، لبُعد التكافؤ

المادِّيّ بين جيش الكفار الكبيرِ عدداً ، القويِّ إعداداً ، وجيش المؤمنين القليلِ عدداً ، الضعيفِ إعداداً. وهو في الوقت نفسه عاملٌ قويٌّ في تحطيم معنوية الكفَّارِ ، وزعزعة يقينهم ، وذلك حينما يشيع في صفوفهم احتمال تَكْرَار نزول الملائكة؛ الَّذين شاهدهم بعض الكفَّار عَيَاناً ، إنَّهم مهما قدَّروا قوَّة المسلمين ، وعددهم؛ فإنَّه سيبقى في وجدانهم رعبٌ مزلزِلٌ من احتمال مشاركة قوىً غير منظورةٍ ، لا يعلمون عددها ، ولا يقدِّرون مدى قوَّتها ، وقد رافق هذا الشُّعورُ المؤمنين في كلِّ حروبهم؛ الَّتي خاضها الصَّحابة رضي الله عنهم في العهد النَّبويِّ ، وفي عهد الخلفاء الرَّاشدين ، كما رافق بعض المؤمنين بعد ذلك ، فكان عاملاً قويّاً في انتصاراتهم المتكرِّرة الحاسمة مع أعدائهم[(٨٩١)].

ثانياً: انتصار المسلمين على المشركين ، وحديث رسول الله (ص) لأهل القَليب[(٨٩٢)]:

انتهت معركة بدرٍ بانتصار المسلمين على المشركين ، وكان قتلى المشركينَ سبعين رجلاً ، وأُسِر منهم سبعون ، وكان أكثرهم من قادة قريش ، وزعمائهم ، واسْتُشْهد من المسلمين أربعةَ عَشَرَ رجلاً ، منهم ستَّةٌ من المهاجرين ، وثمانيةٌ من الأنصار، ولما تمَّ الفتحُ ، وانهزم المشركون؛ أرسل (ص) عبدَ الله بن رَوَاحة ، وزيدَ بن حارثة، ليبشِّرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين، وهزيمة المشركين[(٨٩٣)].

ومكث (ص) ثلاثة أيَّام في بدرٍ ، فقد ذكر أنس بن مالكٍ عن أبي طلحة: «أنَّ نبيَّ الله (ص) ... وكان إذا ظَهَرَ على قومٍ: أقام بالعَرْصَة ثلاثَ ليالٍ» [البخاري (٣٩٧٦)] ولعلَّ الحكمة في ذلك:

١ ـ تصفية الموقف بالقضاء على أيَّة حركةٍ من المقاومة اليائسة؛ الَّتي يحتمل أن يقوم بها فلول المنهزمين الفارِّين.

٢ ـ دفن من استشهد من جند الله ، مما لا تكاد تخلو منه معركةٌ ، فقد دفن شهداء المسلمين في أرض المعركة ، ولم يَرِدْ ما يشير إلى الصَّلاة عليهم ، ولم يُدفن أحدٌ منهم خارج بدرٍ[(٨٩٤)].

٣ ـ جمع الغنائم ، وحفظها ، وإسناد أمرها إلى من يقوم بهذا الحفظ؛ حتى تُؤَدَّى كاملةً إلى مستحقِّيها ، وقد أُسندت أنفال ، وغنائم بدر ، إلى عبد الله بن كعبٍ الأنصاريِّ أحد بني مازنٍ[(٨٩٥)].

٤ ـ إعطاء الجيش الظَّافر فرصةً يستريح فيها ، بعد الجهد النَّفسيِّ ، والبدنيّ الْمُضْنِي الَّذي بذله أفراده في ميدان المعركة ، ويضمِّد فيها جراح مجروحيه ، ويذكر نعم الله عليه فيما أفاء الله عليه من النَّصر المؤزَّر ، الَّذي لم يكن دانيَ القطوف ، سهلَ المنال ، ويتذاكر أفراده ، وجماعاته ما كان من أحداثٍ ومفاجات في الموقعة ، ممَّا كان له أثرٌ فعَّال في استجلاب النَّصر ، وما كان من فلانٍ في شجاعته وفدائيته ، وجرأته على اقتحام المضائق ، وتفريج الأزمات ، وما تكشَّفت عنه المعركة من دروسٍ عمليَّة في الكرِّ ، والفرِّ ، والتَّدبير المحكم الَّذي أخذ به العدو ، وما في ذلك من عبَر ، واستذكار أوامر القيادة العليا ، وموقفها في رسم الخطط ، ومشاركتها الفعليَّة في تنفيذها؛ ليكون من كل ذلك ضياءٌ يمشون في نوره في وقائعهم المستقبلية ، ويجعلون منه دعائم لحياتهم في الجهاد الصَّبور ، المظفَّر بالنَّصر المبين.

٥ ـ مواراة جِيَفِ[(٨٩٦)] قتلى الأعداء ، الَّذين انفرجت المعركة عن قتلهم ، والتعرُّف عليهم ، وعلى مكانتهم في حشودهم ، وعلى من بقي منهم مصروعاً بجراحه لم يدركه الموت؛ للإجهاز على من ترى قيادة جيش الإسلام المصلحة في القضاء عليه؛ اتقاءَ شرِّه في المستقبل؛ كالذي كان من أمر الفاسق أبي جهل فرعون هذه الأمَّة ، والذي كان من شأن رأس الكفر أميَّة بن خلف ، وأضرابهما ، وقد أمر رسول الله (ص) بإلقاء هؤلاء الأخباث في رَكِيٍّ[(٨٩٧)] من قُلُبِ بدرٍ ، خبيثٍ مُخْبِثٍ [البخاري (٣٩٧٦)] ، ثمَّ وقف على شفة الرَّكي[(٨٩٨)] ، وقد ورد: أنَّه (ص) وقف على القتلى ، فقال: « بئس عشيرةُ النَّبيِّ كنتم لنبيِّكم ؛ كذَّبتموني ، وصدَّقني النَّاس، وخذلتموني، ونصرني النَّاس، وأخرجتموني، واواني النَّاس» [ابن هشام (٢/٢٩٢ ـ ٢٩٣)] .

ثم أمر بهم، فسُحِبوا إلى قَلِيبٍ من قُلُبِ بدر، فطُرِحوا فيه، ثم وقف عليهم فقال: «يا عتبةُ بنُ ربيعةَ! ويا شيبةُ بنُ ربيعةَ! ويا أُميَّةُ بنُ خلف! ويا أبا جهل بن هشام! ويا فلان! ويا فلان! هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً ، فإنِّي وجدت ما وعدني ربي حقّاً» ، فقال عمر بن الخطَّاب: يا رسولَ الله! ما تخاطب من أقوامٍ قد جيَّفوا؟ فقال: «والَّذي نفسُ محمدٍ بيده! ما أنتم بأسمعَ لما أقولُ منهم ، غيرَ أنَّهم لا يستطيعون أن يردُّوا عليَّ شيئاً» [البخاري (٣٩٧٦) ومسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤)] .

قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قولَه ، توبيخاً ، وتصغيراً ، ونقمةً ، وحسرةً ، وندماً. [البخاري في نهاية حديث (٣٩٧٦)] .

إنَّ مناداة الرسول (ص) لقتلى قريش بيَّنت أمراً عظيماً ، وهو أنَّهم بدؤوا حياةً جديدةً ، هي حياة البرزخ الخاصَّة ، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء ، غير أنَّهم لا يجيبون ، ولا يتكلمون ، والإيمان بهذه الحياة من عقائد المسلمين ، ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحاح الأحاديث ، حتَّى إنَّه (ص) مرَّ بقبرين ، وقال: «إنهما لَيُعَذَّبَان ، وما يُعَذَّبَان في كبيرٍ» [البخاري (٢١٨) ومسلم (٢٩٢)] . وذكر: أنَّ سبب تعذيبهما النَّمُّ بين النَّاس ، وعدمُ الاستنزاه من البَوْلِ[(٨٩٩)]. ولابدَّ من التَّسليم بهذه الحقائق الغيبيَّة ، بعد أن تحدَّث عنها الصادق المصدوق (ص) ، وقطع بها القران الكريم في تعذيب ال فرعون ، قال تعالى: {النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ *} [غافر: ٤٦] .

وأمَّا الشُّهداء فقد قال الله تعالى فيهم: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *} [آل عمران: ١٦٩].

* * *

المبحث الرَّابع

مشاهد وأحداث من المعركة

أولاً: مصارع الطُّغاة:

أ ـ مصرع أبي جهل بن هشامٍ المخزوميّ:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: بَيْنَا أنا واقفٌ في الصَّفِّ يوم بدرٍ ، فنظرتُ عن يميني ، وشِمالي ، فإذا أنا بغُلاَمَيْنِ من الأنصار حديثة أَسْنَانُهما ، تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بين أضلَعَ[(٩٠٠)] منهما ، فغمزني[(٩٠١)] أحدُهما ، فقال: يا عمُّ ! هل تعرفُ أبا جهلٍ؟ قلتُ: نعم ، وما حاجتُك إليه يابن أخي؟! قال: أُخْبِرْتُ أنَّه يَسُبُّ رسولَ الله (ص) ، والَّذي نفسي بيده! لئن رأيتُهُ لا يُفارقُ سوادي سوادَهُ؛ حتَّى يموتَ الأعجلُ منا[(٩٠٢)] ، فتعجبتُ لذلك ، فغمزني الاخر ، فقال لي مِثْلَهَا ، فلم

أَنْشَبْ[(٩٠٣)] أَنْ نظرتُ إلى أبي جهلٍ يَجُول في النَّاس ، فقلت: ألا إنَّ هذا صَاحِبُكما الَّذي سألتُمَاني ، فابتدراه بسيفيهما ، فضرباه حتَّى قتلاه ، ثمَّ انصرفا إلى رسول الله (ص) فأخبراه ، فقال: «أيُّكما قَتَلَهُ؟» قال كلُّ واحدٍ منهما: أنا قتلتُه! فقال: «هل مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُما؟» ، قالا: لا. فنظر في السَّيفين ، فقال: «كِلاكُما قتله ، سَلَبُه لمعاذ بن عمرو بن الجَمُوح» وكانا: مُعاذَ بن عَفْرَاء ، ومُعَاذَ بن عمرِو بن الجموح» [البخاري (٣١٤١) ومسلم (١٧٥٢)][(٩٠٤)] .

وفي حديث أنسٍ قال: قال رسول الله (ص) يوم بدرٍ: «مَنْ ينظر ما فعل أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود ، فوجده قد ضرَبَه ابنا عفراء حتَّى بَرَدَ[(٩٠٥)] ، فأخذ بلحيته ، فقال: أنت أبا جهل؟! قال:

وهل فوقَ رجلٍ قتله قومُه؟ أو قال: قَتَلتموه. [البخاري (٣٩٦٢) ومسلم (١١٨/١٨٠٠)] .

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أدركتُ أبا جهل يوم بدرٍ صريعاً ، فقلت: أيْ عدوَّ الله ، قد أخزاك الله! قال: وبم أخزاني؟ هل أَعْمُدُ من رجلٍ قتله قومه[(٩٠٦)] ، ومعي سيفٌ لي ، فجعلت أضربه ، ولا يحتك فيه شيءٌ ، ومعه سيفٌ له جيِّدٌ ، فضربتُ يده ، فوقع السَّيف من يده ، فأخذته ، ثمَّ كشفتُ المِغْفَرَ عن رأسه ، فضربتُ عنقَه ، ثمَّ أتيتُ النبيَّ (ص) ، فأخبرته ، فقال: «الله الَّذي لا إله إلا هو؟!» قلت: الله الَّذي لا إله إلا هو!

قال: فانطلق فاستثبت ، فانطلقتُ؛ وأنا أسعى مثلَ الطَّائر ، ثم جئتُ ، وأنا أسعى مثل الطائر أضحك ، فأخبرته.

فقال رسول الله (ص) : «انطلق» فانطلقتُ معه فأريتُه ، فلمَّا وقف عليه (ص) قال: «هذا فرعونُ هذه الأمَّة» [أحمد (٤٠٣/١ و٤٤٤) وأبو داود (٢٧٠٩) مختصراً] .

كان الدَّافع من حرص الأنصاريَّيْنِ الشَّابَّيْنِ على قتل أبي جهلٍ ما سمعاه من أنَّه كان يسبُّ رسولَ الله (ص) ، وهكذا تبلغ محبَّة شباب الأنصار لرسول الله (ص) ، إلى بذل النَّفس في سبيل الانتقام ممَّن تعرَّض له بالأذى.

وما جرى بين عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه وأبي جهلٍ ـ وهو في الرَّمق الأخير من حياته ـ فيه عبرةٌ بليغةٌ ، فهذا الطَّاغية الذي كان شديد الأذى للمسلمين في مكَّة ، قد وقع صريعاً بين أيدي من كان يؤذيهم.

ويشاء الله تعالى أن يكون الذي يقضي على اخر رمقٍ من حياته ، هو أحد المستضعفين ، ولقد كان أبو جهل مستكبراً جباراً؛ حتى؛ وهو صريعٌ وفي اخر لحظات حياته [(٩٠٧)]، فقد جاء في روايةٍ لابن

إسحاق: أنَّه قال لعبد الله بن مسعود لما أراد أن يحتزَّ رأسه: «لقد ارتقيتَ مُرتقىً صعباً يا رُوَيْعِي الغنم!» [ابن هشام (٢/٢٨٩)] .

«فالله تعالى لم يُعجِّلْ لهذا الخبيث أبي جهلٍ بضربات الأبطال من أشبال الأنصار فحسب ، ولكنَّه أبقاه مصروعاً في حالةٍ من الإدراك ، والوعي ، بعد أن أصابته ضرباتٌ أشفَتْ به على الهلاك الأبديِّ ، ليريه بعين بصره ما بلغه من المهانة ، والذُّلِّ ، والخذلان على يد من كان يستضعفه ، ويؤذيه ، ويضطهده بمكَّة من رجال الرَّعيل الأوَّل ـ السَّابقين إلى مظلَّة الإيمان ، وطُهْر العقيدة ، والتعبُّد لله بشرائعه الَّتي أنزلها رحمةً للعالمين ـ عبد الله بن مسعود رضي الله

عنه ، فيعلو على صدره ، ويدوسه بقدميه ، ويقبض على لحيته تحقيراً له ، ويقرّعه تقريعاً يبلغ من نفسه مجمع غروره ، واستكباره في الأرض ، ويستلُّ منه سيفه إمعاناً في البطش به ، فيقتله به ، ويمعن في إغاظته بإخباره: أنَّ النَّصر عقد بناصية جند الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنَّ شَنَارَ[(٩٠٨)] الهزيمة النَّكراء ، وعارها ، وخزيها ، وخذلانها قد رُزِئَتْ[(٩٠٩)] به كتائب الغرور الأجوف ، في حشود النَّفير الَّذي قاده هذا الكفور الخبيث...»[(٩١٠)].

ب ـ مصرع أميَّةَ بن خلف:

قال عبد الرَّحمن بن عوفٍ رضي الله عنه: «كَاتبتُ أُمية بنَ خلف كتاباً ، بأن يحفظني في صَاغِيَتي[(٩١١)] بمكَّة ، وأحفظه في صَاغِيَتِهِ بالمدينة ، فلمَّا ذكرتُ (الرَّحمن) قال: لا أعرفُ الرَّحمنَ ، كَاتِبْني باسمك الَّذي كان في الجاهليَّة ، فكاتبته (عبدُ عمرٍو).

فلمَّا كان في يوم بدرٍ؛ خرجْتُ إلى جَبَلٍ لأُحْرِزَهُ[(٩١٢)] حين نام النَّاسُ ، فأبصره بلالٌ ، فخرج حتى وقف على مجلسٍ من الأنصار ، فقال: أُميةُ بن خلف! لا نجوتُ إن نجا أميَّةُ ، فخرج معه فريق من الأنصار في اثارنا ، فلمَّا خَشِيتُ أن يلحقونا خلَّفتُ لهم ابنَهُ لأشْغِلَهم ، فقتلوه ، ثُمَّ أَبَوا حتَّى يَتْبَعُونا ـ وكان رجلاً ثقيلاً[(٩١٣)] ـ فلما أدركونا؛ قلتُ له: ابْرُكْ ، فَبَرَكَ ، فألقيتُ عليه نفسي لأمنعه ، فتَجَلَّلُوهُ[(٩١٤)] بالسُّيوف من تحتي حتى قتلوه ، وأصاب أحدُهم رجلي بسيفه ، وكان عبد الرَّحمن بن عوف يُرِينا ذلك الأَثَرَ في ظَهْرِ قَدَمِهِ» [البخاري (٢٣٠١ و٣٩٧١)] .

وفي روايةٍ أخرى لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: كان أُمَيَّةُ بن خلفٍ لي صديقاً بمكَّة ، وكان اسمي عبدَ عمرٍو ، فتسمَّيتُ حين أسلمتُ عبدَ الرَّحمن ، ونحن بمكَّة ، فكان يلقاني؛ إذ نحن بمكَّة ، فيقول:

يا عبدَ عمرو! أرغبتَ عن اسمٍ سمَّاكه أبواك؟ فأقول: نعم ، فيقول: فإنِّي لا أعرف الرَّحمن؛ فاجعل بيني وبينك شيئاً أدعوك به ، أمَّا أنت فلا تجيبني باسمك الأوَّل ، وأما أنا فلا أدعوك بما لا أعرف!

قال: فكان إذا دعاني: يا عبدَ عمرو! لم أجبْه ، قال: فقلت له: يا أبا عليٍّ! اجعلْ ما شئتَ! ، قال: فأنت عبدُ الإله ، قال: فقلت: نعم ، قال: فكنت إذا مررت به قال:

يا عبدَ الإله! فأجيبه ، فأتحدث معه ، حتَّى إذا كان يومَ بدرٍ؛ مررتُ به؛ وهو واقفٌ مع ابنه عليٍّ ، عليِّ بن أميَّة ، اخذٌ بيده ، ومعي أدراعٌ قد استلبتُها ، فأنا أحملُها ، فلمَّا راني؛ قال لي: يا عبدَ عمرو ، فلم أجبْه ، فقال: يا عبدَ الإله! فقلتُ: نعم ، قال: هل لك فيَّ؛ فأنا خيرٌ لك من هذه الأدراع الَّتي معك؟ قال: قلت: نعم ها الله ذا[(٩١٥)]! قال: فطرحتُ الأدراع من يدي ، وأخذت بيده ، ويد ابنه ، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قطُّ ، أما لكم حاجةٌ في اللَّبن؟ (قال): ثمَّ خرجت أمشي بهما ، قال ابن هشام: يريد باللَّبن: أنَّ من أسرني؛ افتديت منه بإبلٍ كثيرة اللَّبن. [ابن هشام (٢/٢٨٣ ـ ٢٨٤)] .

ونلحظ من الرِّوايات السَّابقة:

١ ـ ما جرى من بلالٍ رضي الله عنه ، حينما رأى عدوَّه اللَّدود أميَّةَ بن خلفٍ؛ الَّذي كان يسومه أقسى ، وأعنف أنواع العذاب في مكَّة في يد عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه أسيراً؛ صرخ بأعلى صوته: (لا نجوت؛ إن نجا!).

إنَّه موقف من مواقف التَّشفِّي من أعداء الله ، والتَّشفِّي من كبار الكفرة الفجَّار في الحياة الدُّنيا ، نعمةٌ يفرّج الله بها عن المكروبين من المؤمنين ، الَّذين ذاقوا الذُّلَّ ، والهوان على أيدي أولئك الفجرة الطُّغاة ، قال تعالى: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ *وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ١٤ ـ ١٥] .

٢ ـ إنَّ فيما جرى لأُميَّةَ بن خلفٍ من قتلٍ مفزعٍ درساً بليغاً للطُّغاة المتجبِّرين ، وعبرةً للمعتبرين؛ الَّذين يغترُّون بقوَّتهم ، وينخدعون بجاههم ، ومكانتهم ، فيعتدون على الضُّعفاء ، ويسلبونهم حقوقهم ، فمالهم إلى عاقبةٍ سيِّئةٍ ، ووخيمةٍ في الاخرة ، وقد يمكِّن الله للضُّعفاء منهم في الدُّنيا قبل الاخرة؛ كما حدث لأُمَيةَ بن خلف ، وأضرابه من طغاة الكفر[(٩١٦)] ، قال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ *} [القصص: ٥] .

٣ ـ وفي قول عبد الرَّحمن بن عوف: «يرحم الله بلالاً! ذهبتْ أدْراعي ، وفجعني

بأسيريَّ»[(٩١٧)] ، مع ما جرى من بلالٍ من معارضةٍ وانتزاع الأسيرين من يده بقوَّة الأنصار الَّذين استنجد بهم ، دليلٌ على قوَّة الرِّباط الأخوي بين الصَّحابة الكرام[(٩١٨)].

٤ ـ موقف لأمِّ صفوان بن أميَّة (زوجة أُميَّةَ بن خَلف): قيل لأمِّ صفوان بن أميَّة بعد إسلامها ، وقد نظرت إلى الحُبَاب بن المنذر بمكَّة: هذا الذي قَطَعَ رِجْلَ عليِّ بن أميَّة يوم بدرٍ ، قالت: دَعُونا من ذِكْرِ مَنْ قُتِل على الشِّرك! قد أهان الله علياً بضربة الحُبَاب بن المنذر ، وأكرم اللهُ الحُبَابَ بضربه علياً ، قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقُتِلَ على غير ذلك[(٩١٩)] ، وهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمانها ، ورسوخ يقينها؛ حيث اتَّضحت لها عقيدة الولاء والبراء ، فأصبحت تحبُّ المسلمين وإن كانوا من غير قبيلتها ، وتكره الكافرين وإن كانوا من أبنائها(١).

وقولها عن ابنها عليٍّ: «قد كان على الإسلام حين خرج من هاهنا ، فقُتل على غير ذلك» تعني: أنَّه كان ممَّن عُرف عنهم الإسلام بمكَّة ، وخرجوا مع قومهم يوم بدرٍ مُكْرَهين فلمَّا التقى الصَّفَّان؛ فُتِنوا حينما رأوا قلَّة المسلمين ، فقالوا: قد غرَّ هؤلاء دينُهم[(٩٢٠)] ، فنزل فيهم قول الله تعالى: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ٤٩] .

ج ـ مصرع عُبَيْدَة بن سعيد بن العاص على يد الزُّبير رضي الله عنه:

«قال الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه: لقيتُ يوم بدرٍ عُبَيْدَةَ بن سعيد بن العاص ، وهو مُدَجَّجٌ[(٩٢١)] لا يُرى منه إلا عيناه ، وهو يُكْنَى أبا ذات الكَرِش ، فقال: أنا أبو ذات الكَرِش ، فحملت عليه بالْعَنَزَةِ[(٩٢٢)] ، فطعنته في عينه ، فمات ، قال هشامٌ: فأُخْبِرْتُ: أنَّ الزُّبيرَ قال: لقد وضعتُ رجلي عليه ، ثمَّ تمطَّأْتُ ، فكان الجهد أن نزعتُها وقد انثنى طرفاها[(٩٢٣)].

قال عُرْوَة: فسأله إيَّاها رسولُ الله (ص) ، فأعطاه، فلمَّا قُبض رسولُ الله (ص) أخذها، ثمَّ طلبها أبو بكر ، فأعطاه ، فلمَّا قُبض أبو بكر ، سأله إيَّاها عمر ، فأعطاه إيَّاها ، فلمَّا قُبض عمر أخذها، ثمَّ طلبها عثمان منه ، فأعطاه إيَّاها ، فلمَّا قُتل عثمان وقعت عند ال عليٍّ، فطلبها عبد الله بن الزبير، فكانت عنده حتَّى قُتل» [البخاري (٣٩٩٨)] .

«هذا الخبر يصوِّر لنا دقَّة الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه في إصابة الهدف؛ حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرَّجل ، مع ضيق ذلك المكان ، وكونه قد وزَّع طاقته بين الهجوم والدِّفاع ، فلقد كانت إصابة ذلك الرَّجل بعيدةً جداً؛ لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقي؛ لكنَّ الزُّبير استطاع إصابة إحدى

عينيه ، فكانت بها نهايته ، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق؛ ممَّا يدلُّ على قوَّة الزُّبير الجسديَّة ، إضافةً إلى دقَّته ، ومهارته في إصابة الهدف»[(٩٢٤)].

د ـ مصرع الأسْود المخْزُوميِّ:

قال ابن إسحاق: وقد خرج الأَسْود المخْزُوميُّ ، وكان رجلاً شرساً سَيِّءَ الخُلق ، فقال: أعاهدُ الله لأشربنَّ من حوضهم ، أو لأهدمنَّه ، أو لأموتنَّ دونه! فلمَّا خرج ، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب ، فلمَّا التقيا ضربه حمزةُ فأَطنَّ[(٩٢٥)] قَدَمَهُ بِنصْف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تَشْخُب[(٩٢٦)] رجله دماً نحو أصحابه ، ثمَّ حبا إلى الحوض حتَّى اقتحم فيه ، يريد أن يُبِرَّ يمينه ، وأتبعه حمزة فضربه؛ حتَّى قتله في الحوض[(٩٢٧)].

وقد سأل أميَّةُ بن خلف عبد الرحمن بن عوف ، عن الرَّجل المعلم بريشة نعامةٍ في صدره؟ فأجابه عبد الرَّحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب ، قال أميَّةُ: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل[(٩٢٨)] ، وهذه شهادةٌ من أحد زعماء الكفر ، وهذا يعني: أنَّه رضي الله عنه قد أثخن في جيش الأعداء قتلاً ، وتشريداً[(٩٢٩)].

وكان هذا أوَّل من قُتل من المشركين بيد أسد الله تعالى حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقد جاء هذا اللَّئيم الشَّرِس يتحدَّى المسلمين، فتصدَّى له بطل الإسلام حمزة ، فقضى عليه ، ولقَّن أمثاله من الحاقدين المتكبِّرين درساً في الصَّميم[(٩٣٠)].

ثانياً: من مشاهد العظمة:

أ ـ استشهاد حارثة بن سُراقة رضي الله عنه:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: أُصيب حارثةُ يومٍ بدرٍ ، وهو غلامٌ ، فجاءت أمُّه إلى النَّبيِّ (ص) ،

فقالت: يا رسول الله! قد عرفت منزلةَ حارثةَ منِّي ، فإن يكن في الجنَّة؛ أصبرْ ، وأحتسبْ ، وإن تكن الأخرى ، ترَ ما أصنعُ؟ فقال: «ويحكِ! أَوَهَبِلْتِ! أَوجَنَّةٌ واحدةٌ هي؟ إنَّها جنانٌ كثيرةٌ ، وإنَّه في جنة الفردوس» [البخاري (٣٩٨٢)] وفي روايةٍ: «يا أمَّ حارثةَ! إنَّها جنان في الجنَّة ، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى»[(٩٣١)].

ب ـ استشهاد عوف بن الحارث رضي الله عنه:

قال ابن إسحاق: حدَّثني عاصم بن عمرو بن قتادة: أنَّ عوف بن الحارث ، وهو ابن عفراء[(٩٣٢)]، قال: يا رسول الله! ما يُضحِكُ الرَّبَّ من عبده؟ قال: «غمسْهُ يده في العدوِ حاسراً[(٩٣٣)]» فنزع درعاً كانت عليه ، فقذفها ، ثمَّ أخذ سيفه ، فقاتل القوم حتَّى قُتل[(٩٣٤)].

وهذا الخبر يدلُّ على قوَّة ارتباط الصَّحابة الكرام بالاخرة ، وحرصهم على رضوان الله تعالى ، ولذلك انطلق عوف بن الحارث رضي الله عنه كالسَّهم ، وهو حاسرٌ غير متدرّعٍ يثخن في الأعداء ، حتَّى أكرمه الله بالشهادة ، لقد تغيَّرت مفاهيم المجتمع الجديد ، وتعلَّق أفراده بالاخرة ، وأصبحوا حريصين على مرضاته ، بعد أن كان جُلَّ همِّهم أن تتحدث النساءُ عن بطولاتهم ، ويرضى سيد القبيلة عنهم ، وتُنشد الأشعار في شجاعتهم[(٩٣٥)].

ج ـ استشهاد سعد بن خيثمة ، ثمَّ أبيه رضي الله عنهما:

قال الحافظ ابن حجر: قال موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب: استهم يوم بدر سعد بن خيثمة ، وأبوه ، فخرج سهم سعدٍ ، فقال له أبوه: يا بُنيَّ! اثرني اليوم ، فقال سعد: يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة؛ فعلت ، فخرج سعدٌ إلى بدرٍ ، فقُتل بها ، وقتل أبوه خيثمة يوم أُحُدٍ[(٩٣٦)].

وهذا الخبر يُعطي صورةً مشرقةً عن بيوتات الصَّحابة في تنافسهم ، وتسابقهم على الجهاد في سبيل الله تعالى؛ فهذا سعد بن خيثمة ، ووالده لا يستطيعان الخروج معاً؛ لاحتياج أسرتهما لبقاء أحدهما ، فلم يتنازل أحدهما عن الخروج رغبةً في نيل الشَّهادة ، حتَّى اضطروا إلى الاقتراع بينهما ، فكان الخروج من نصيب سعدٍ رضي الله عنهما ، وكان الابن في غاية الأدب مع

والده؛ ولكنَّه كان مشتاقاً إلى الجنَّة ، فأجاب بهذا الجواب البليغ: «يا أبتِ! لو كان غير الجنَّة فعلتُ»[(٩٣٧)].

د ـ دعاء النَّبيِّ (ص) لأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة:

عن عائشة رضي الله عنها في حديثها عن طرح قتلى قريش في القَلِيب بعد معركة بدرٍ ، قالت: فلمَّا أمر بهم ، فسُحبوا؛ عُرِفَ في وجه أبي حذيفة بن عتبة الكراهية ، وأبوه يُسحب إلى القَليب ، فقال له رسول الله (ص) : «يا أبا حذيفة! والله لكأنَّه ساءك ما كان في أبيك؟» فقال: والله يا رسول الله! ما شككت في الله ، وفي رسول الله ، ولكن إن كان حليماً سديداً ذا رأيٍ ، فكنت أرجو ألا يموتَ حتَّى يهديه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى الإسلام ، فلمَّا رأيت: أنَّه قد فات ذلك ، ووقع حيث وقع؛ أحزنني ذلك! قال: فدعا له رسول الله (ص) بخير. [الحاكم (٣/٢٢٤)] .

إنَّ هذا الموقف يبيِّن قوة التَّجاذب بين الإيمان في ذِرْوَةَ اليقين ، والعاطفة البشريَّة في قمَّة الوفاء النَّبويّ؛ فالإيمان لا يُميت المشاعر البشريَّة؛ ولكنَّه يهذِّبها ، فيحوِّلها من عصبيةٍ جاهليَّةٍ ، إلى وفاءٍ لا ينكره المنهج الرَّبَّانيُّ في تطبيقه العمليِّ؛ فإيمان أبي حذيفة رضي الله عنه إيمانٌ لا تهزُّه زلازل الأحداث ، فهو إذ يرى

أباه يُقتل في أشراف قريشٍ كافراً ، ويُلقى معهم في قَلِيب بدرٍ؛ يأخذه أسف العاطفة البشريَّة وفاءً لهذا الأب ، ويظلُّ أبو حذيفة مُزَمَّلاً بإيمانه الرَّاسخ رسوخ الأَطْوَاد[(٩٣٨)] الشَّامخات ، فلا يزيد على أن يعتريه الاكتئاب على ما فات أباه من خيرٍ يرجوه له بالهداية إلى الإسلام[(٩٣٩)]؛ ولهذا المقصد النَّبيل الَّذي أثار حزن أبي حذيفة ، دعا له رسول الله (ص) بخيرٍ[(٩٤٠)].

هـ عُمَيْر بن أبي وقَّاص: لما سار رسول الله (ص) إلى بدرٍ ، وعُرض عليه جيش بدرٍ؛ ردَّ عُمَيْر ابن أبي وقَّاص ، فبكى عميرٌ ، فأجازه ، فعقد عليه حمائل سيفه ، ولقد كان عُمَيْر يتوارى حتَّى لا يراه رسولُ الله (ص) ، فقال سعد: رأيت أخي عُمَيْر بن أبي وقَّاص قبل أن يعرضنا رسولُ الله (ص) يوم بدر يتوارى ، فقلت: ما لك يا أخي؟ ! قال: إِنِّي أخاف أن يراني رسول الله (ص) ، فيستصغرَني، ويردَّني ، وأنا أحبُّ الخروج لعلَّ الله أن يرزقني الشَّهادة[(٩٤١)]. وقد استُشهد بالفعل.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الإهداء ٤

المقدِّمة ٥

الفصل الأوَّل

أهمُّ الأحداث التَّاريخية قبل البعثة حتَّى نزول الوحي

المبحث الأول: الحضارات السَّائدة قبل البعثة ، ودياناتها ١٣

أولاً: الإمبراطورية الرُّومانية ١٣

ثانياً: الإمبراطورية الفارسيَّة ١٤

ثالثاً: الهند ١٤
رابعاً: أحوال العالم الدِّينيَّة قبل البعثة المحمَّديَّة ١٦
المبحث الثَّاني: أصول العرب وحضارتهم ٢٠
أولاً: أصول العرب ٢٠
ثانياً: حضارات الجزيرة العربيَّة ٢٢
المبحث الثَّالث: الأحوال الدِّينيَّة ، والسِّياسيَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة، والأخلاقيَّة عند العرب ٢٤
أوَّلاً: الحالة الدِّينيَّة ٢٤
ثانياً: الحالة السِّياسيَّة ٢٦
ثالثاً: الحالة الاقتصاديَّة ٢٧
رابعاً: الحالة الاجتماعيَّة ٢٩
خامساً: الحالة الأخلاقيَّة ٣٥
المبحث الرَّابع: أهم الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى (ص) ٤١
أولاً: قصَّة حفر عبد المطلب جدِّ النَّبيِّ (ص) لزمزم ٤١
ثانياً: قصَّة أصحاب الفيل ٤٣
المبحث الخامس: من المولد النَّبويِّ الكريم إلى حلف الفُضول ٥٠
أوَّلاً: نسب النَّبيِّ (ص)٥٠
ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطَّلب مِنْ امنة بنت وهبٍ، ورؤيا امنة أمِّ النَّبي (ص) ٥١
ثالثاً: ميلاد الحبيب المصطفى (ص) ٥٣
رابعاً: مرضعاتُه (ص) ٥٤
خامساً: وفاة أمِّه ، وكفالة جدِّه ، ثمَّ عمِّه ٥٩
سادساً: عمله (ص) في الرَّعي ٦٠
سابعاً: حفظ الله تعالى لنبيِّه قبل البعثة ٦٣
ثامناً: لقاء الرَّاهب بَحِيرا بالرَّسول (ص) وهو غلامٌ ٦٥
تاسعاً: حرب الفِجار ٦٦

عاشراً: حلف الفُضول ٦٧
المبحث السَّادس: تجارته لخديجة ، وزواجه منها ، وأهمُّ الأحداث إلى البعثة ٧٠
أوَّلاً: تجارته لخديجة ، وزواجه منها ٧٠
ثانياً: اشتراكه في بناء الكعبة الشَّريفة ٧٣
ثالثاً: تهيئة النَّاس لاستقبال نبوَّة محمَّدٍ (ص) ٧٥
الفصل الثَّاني
نزول الوحي ، والدَّعوة السِّرِّيَّة
المبحث الأوَّل: نزول الوحي على سيِّد الخلق أجمعين (ص) ٨١
أوَّلاً: الرُّؤيا الصَّالحة ٨٢
ثانياً: ثُمَّ حبِّب إليه الخلاء ٨٣
ثالثاً: حتَّى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء ٨٤
رابعاً: الشِّدَّة الَّتي تعرَّض لها النَّبيُّ (ص) ، ووصف ظاهرة الوحي ٨٥
خامساً: أنواع الوحي ٨٧
سادساً: أثر المرأة الصَّالحة في خدمة الدَّعوة ٨٩
سابعاً: وفاء النَّبيِّ (ص) للسَّيِّدة خديجة رضي الله عنها ٩٢
ثامناً: سُنَّة تكذيب المرسلين ٩٣
تاسعاً: وفَتَرَ الوحيُ ٩٣

المبحث الثَّاني: الدَّعوة السِّرِّيَّة ٩٥
أوَّلاً: الأمر الرَّبانيُّ بتبليغ الرِّسالة ٩٥
ثانياً: بدء الدَّعوة السِّرِّيَّة ٩٦
ثالثاً: استمرار النَّبي (ص) في الدَّعوة ١٠٤
رابعاً: أهم خصائص الجماعة الأولى الَّتي تربَّت على يدي رسول الله (ص) ١٠٨
خامساً: شخصيَّة النَّبيِّ (ص) ، وأثرها في صناعة القادة ١١١
سادساً: المادَّة الدِّراسية في دار الأرقم ١١٢
سابعاً: الأسباب في اختيار دار الأرقم ١١٣

ثامناً: من صفات الرَّعيل الأوَّل ١١٤
تاسعاً: انتشار الدَّعوة في بطون قريش ، وعالميَّتُها ١١٦
المبحث الثَّالث: البناء العقديُّ في العهد المكيِّ ١١٩
أوَّلاً: فقه النَّبي (ص) في التَّعامل مع السُّنن ١١٩
ثانياً: سُنَّةُ التَّغيير ، وعلاقتها بالبناء العقديِّ ١٢٣
ثالثاً: تصحيح الجانب العقديِّ لدى الصَّحابة ١٢٤
رابعاً: وصف الجنَّة في القران الكريم ، وأثره على الصَّحابة ١٢٨
خامساً: وصف النَّار في القران الكريم ، وأثره في نفوس الصَّحابة ١٣٦
سادساً: مفهوم القضاء والقَدر ، وأثره في تربية الصَّحابة ١٤٢
سابعاً: معرفة الصَّحابة لحقيقة الإنسان ١٤٣
ثامناً: تصوُّر الصَّحابة لقصَّة الشَّيطان مع ادم عليه السَّلام ١٤٦
تاسعاً: نظرة الصَّحابة إلى الكون ، والحياة ، وبعض المخلوقات ١٥٤
المبحث الرَّابع: البناء التعبُّديُّ ، والأخلاقيُّ في العهد المكِّيِّ ١٥٩
أوَّلاً: تزكية أرواح الرَّعيل الأوَّل بأنواع العبادات ١٥٩
ثانياً: التَّربية العقليَّة ١٦٥
ثالثاً: التَّربية الجسديَّة ١٦٧
رابعاً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق ، وتنقيتُهم من الرَّذائل ١٦٩
خامساً: تربية الصَّحابة على مكارم الأخلاق من خلال القَصص القرانيِّ ١٧٨
الفصل الثَّالث
الجهر بالدَّعوة ، وأساليب المشركين في محاربتها
المبحث الأوَّل: الجهر بالدَّعوة ١٨٣

أهمُّ اعتراضات المشركين ١٨٥
أوَّلاً: الإشراك بالله ١٨٥
ثانياً: كفرهم بالاخرة ١٨٦
ثالثاً: اعتراضهم على الرَّسول (ص) ١٨٨

رابعاً: موقفهم من القران الكريم ١٨٩
خامساً: دوافع إنكار دعوة الإسلام في العهد المكِّيِّ ١٩١
المبحث الثَّاني: سنَّة الابتلاء ١٩٥
حكمة الابتلاء ، وفوائده ١٩٥
المبحث الثَّالث: أساليب المشركين في محاربة الدَّعوة ١٩٩
أوَّلاً: محاولة قريش لإبعاد أبي طالبٍ عن مناصرة ، وحماية رسول الله (ص) ١٩٩
ثانياً: محاولة تشويهٍ لدعوة الرَّسول (ص) ٢٠٢
ثالثاً: ما تعرَّض له رسول الله (ص) من الأذى ، والتَّعذيب ٢١٢
رابعاً: ما تعرَّض له أصحاب رسول الله (ص) من الأذى ، والتعذيب ٢١٦
خامساً: حكمة الكفِّ عن القتال في مكَّة واهتمام النَّبيِّ (ص) بالبناء الدَّاخليِّ ٢٣٢
سادساً: أثر القران الكريم في رفع معنويات الصَّحابة ٢٣٧
سابعاً: أسلوب المفاوضات ٢٤١
ثامناً: أسلوب المجادلة ، ومحاولة التَّعجيز ٢٤٦
تاسعاً: دور اليهود في العهد المكِّيِّ ، واستعانة مشركي مكَّة بهم ٢٥١
عاشراً: الحصار الاقتصاديُّ ، والاجتماعيُّ في اخر العام السَّابع من البعثة ٢٥٧
الفصل الرَّابع
هجرة الحبشة ، ومحنة الطَّائف ، ومنحة الإسراء
المبحث الأوَّل: تعامل النَّبيِّ (ص) مع سنَّة الأخذ بالأسباب ٢٦٦
المبحث الثَّاني: الهجرة إلى الحبشة ٢٧١
أوَّلاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة ٢٧٢
ثانياً: أسباب عودة المسلمين إلى مكَّة بعد هجرتهم الأولى ٢٧٨
ثالثاً: هجرة المسلمين الثَّانية إلى الحبشة ٢٨٣
المبحث الثَّالث: عام الحزن ، ومحنة الطَّائف ٢٩٧
أوَّلاً: عام الحزن ٢٩٧
ثانياً: رحلة الرَّسول (ص) إلى الطَّائف ٢٩٨

المبحث الرَّابع: الإسراء والمعراج ذروة التَّكريم ٣١٢
أوَّلاً: قصَّة الإسراء والمعراج ، كما جاءت في بعض الأحاديث ٣١٣
ثانياً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبر ٣١٧
الفصل الخامس
الطَّواف على القبائل ، وهجرة الصَّحابة إلى المدينة
المبحث الأوَّل: الطَّواف على القبائل طلباً للنُّصرة ٣٢٥
أوَّلاً: من أساليب النَّبيِّ (ص) في الردِّ على مكائد أبي جهلٍ والمشركين في أثناء الطَّواف على القبائل ٣٢٦
ثانياً: المفاوضات مع بني عامر ٣٢٧
ثالثاً: المفاوضات مع بني شيبان ٣٢٨
رابعاً: فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبر ٣٢٩
المبحث الثَّاني: مواكب الخير ، وطلائع النُّور ٣٣٢
أوَّلاً: الاتصالات الأولى بالأنصار في مواسم الحجِّ ، والعمرة ٣٣٢
ثانياً: بدء إسلام الأنصار ٣٣٣
ثالثاً: بيعة العقبة الأولى ٣٣٥
رابعاً: قصَّة إسلام أُسَيْد بن حُضَيْرٍ ، وسعد بن معاذ رضي الله عنهما ٣٣٦
خامساً: فوائد ، ودروسٌ ، وعبر ٣٣٨
المبحث الثَّالث: بيعة العقبة الثَّانية ٣٤١
المبحث الرَّابع: الهجرة إلى المدينة ٣٤٩
أوَّلاً: التَّمهيد والإعداد لها ٣٤٩
ثانياً: تأمُّلات في بعض ايات سورة العنكبوت ٣٥٠
ثالثاً: طلائع المهاجرين ٣٥٢
رابعاً: من أساليب قريش في محاربة المهاجرين ، ومن مشاهد العظمة في الهجرة ٣٥٣
خامساً: البيوتات الحاضنة ، وأثرها في النُّفوس ٣٦٠

سادساً: لماذا اختيرت المدينة كعاصمةٍ للدَّولة الإسلاميَّة؟ ٣٦٤
سابعاً: من فضائل المدينة ٣٦٥

الفصل السَّادس
هجرة النَّبيِّ (ص) وصاحبه الصِّدِّيق رضي الله عنه
المبحث الأوَّل: فشلُ خطَّة المشركين ، والتَّرتيبُ النَّبويُّ الرَّفيعُ للهجرة ٣٧٠
أوَّلاً: فشل خطَّة المشركين لاغتيال النَّبيِّ (ص) ٣٧٠
ثانياً: التَّرتيب النَّبويُّ للهجرة ٣٧١
ثالثاً: خروج الرَّسول (ص) ، ووصوله إلى الغار ٣٧٣
رابعاً: دعاء النَّبيِّ (ص) عند خروجه من مكَّة ٣٧٣
خامساً: عناية الله ـ سبحانه وتعالى ـ ورعايته لرسوله (ص) ٣٧٤
سادساً: خيمة أمِّ مَعْبَدٍ في طريق الهجرة ٣٧٦
سابعاً: سُراقة بن مالك يلاحق رسول الله (ص) ٣٧٩
ثامناً: سبحان مقلِّب القلوب ٣٨١
تاسعاً: استقبال الأنصار لرسول الله (ص) ٣٨١
عاشراً: فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبر ٣٨٣
المبحث الثَّاني: الثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدةٍ ، والوعد لمن هاجر منهم ، والوعيد لمن تخلَّف ٤٠٠
أوَّلاً: الثَّناء على المهاجرين بأوصافٍ حميدة ٤٠٠
ثانياً: الوعد للمهاجرين ٤٠٧
ثالثاً: الوعيد للمتخلِّفين عن الهجرة ٤١١
الفصل السَّابع
دعائم دولة الإسلام في المدينة
المبحث الأول: بناء المسجد الأعظم بالمدينة ٤١٥
أولاً: بيوتات النَّبي (ص) التَّابعة للمسجد ٤١٦
ثانياً: الأذان في المدينة ٤١٦

ثالثاً: أوَّل خطبةٍ خطبها رسول الله (ص) بالمدينة ٤١٧
رابعاً: الصُّفَّة التَّابعة للمسجد النَّبويِّ ٤١٨
خامساً: فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبر ٤٢٥
المبحث الثَّاني: المؤاخاة بين المهاجرين ، والأنصار ٤٣٤
أوَّلاً: المؤاخاة في المدينة ٤٣٦

ثانياً: الدُّروس ، والعبر ، والفوائد ٤٤٠
المبحث الثَّالث: الوثيقة ، أو الصَّحيفة ٤٥٤
أوَّلاً: كتابه (ص) بين المهاجرين ، والأنصار ، واليهود ٤٥٤
ثانياً: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائدُ من الوثيقة ٤٥٨
ثالثاً: موقف اليهود في المدينة ٤٦٨
رابعاً: إنَّ الله لا يصلح عمل المفسدين ٤٨٧
المبحث الرَّابع: سُنَّة التَّدافع ، وحركة السَّرايا ٤٩١
أوَّلاً: سنَّة التَّدافع ٤٩١
ثانياً: من أهداف الجهاد في سبيل الله تعالى ٤٩٦
ثالثاً: أهمُّ السرايا ، والبعوث الَّتي سبقت غزوة بدرٍ الكبرى ٥٠٢
رابعاً: فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبر ٥٠٧
المبحث الخامس: استمرارية البناء التَّربويِّ ، والعلميّ ٥٢٠
أوَّلاً: أهمُّ هذه الوسائل ، والمبادأى التَّربويَّة ٥٢١
ثانياً: من أخلاق الصَّحابة عند سماعهم للنَّبيِّ (ص) ٥٢٨
المبحث السَّادس: أحداثٌ ، وتشريعاتٌ ٥٣٣
أولاً: معالجة الأزمة الاقتصادية ٥٣٣
ثانياً: بعض التَّشريعات ٥٣٧
الفصل الثَّامن
غزوة بدرٍ الكبرى
المبحث الأوَّل: مرحلة ما قبل المعركة ٥٤٥

أولاً: بعض الحوادث في أثناء المسير إلى بدرٍ ٥٤٦
ثانياً: العزم على ملاقاة المسلمين ببدرٍ ٥٤٧
ثالثاً: مشاورة النَّبيِّ (ص) لأصحابه ٥٤٨
رابعاً: المسير إلى لقاء العدوِّ وجمع المعلومات عنه ٥٥٠
خامساً: مشورة الحُباب بن المنذر في بدرٍ ٥٥١
سادساً: الوصف القرانيُّ لخروج المشركين ٥٥٣
سابعاً: موقف المشركين لما قدموا إلى بدرٍ ٥٥٤
ثامناً: الوصف القرانيُّ لمواقع المسلمين ، والمشركين في أرض المعركة ٥٥٧

المبحث الثَّاني: النَّبيُّ (ص) والمسلمون في ساحة المعركة ٥٥٩
أوَّلاً: بناء عريش القيادة ٥٥٩
ثانياً: مِنْ نعم الله على المسلمين قبل القتال ٥٦٠
ثالثاً: خطَّة الرَّسول (ص) في المعركة ٥٦١
المبحث الثَّالث: نشوب القتال ، وهزيمة المشركين ٥٦٩
أولاً: إمداد الله للمسلمين بالملائكة ٥٧٠
ثانياً: انتصار المسلمين على المشركين ، وحديث رسول الله (ص) لأهل القَليب ٥٧٣
المبحث الرَّابع: مشاهدُ ، وأحداثٌ من المعركة ٥٧٦
أوَّلاً: مصارع الطُّغاة ٥٧٦
ثانياً: مِنْ مشاهد العظمة ٥٨١
فهرس الموضوعات ٥٨٥
* * *

.[١]انظر: الأنساب ، للسَّمعاني (٣٦/١).
.[٢]إمتاع الأسماع ، للمقريزي (٣٠/١ ، ٣١).

.[٣]انظر: الدُّرر ، لابن عبد البرِّ ، ص ٣٥ ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/١٨٥).
.[٤]انظر: المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص ٥٣.
.[٥]المصدر السابق نفسه.
.[٦]انظر: المحنة في العهد المكِّيِّ ، ص ٥٣.

.[٧]تاريخ الإسلام ، للنَّجيب ابادي (١/١٢٩) ، نقلاً عن الرَّحيق المختوم.
.[٨]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢/٤٤، ٥٢)، وفي السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص ١١٦.
.[٩]البداية والنَّهاية ، لابن كثير (٣/١٤٠).
.[١٠]في السِّيرة النَّبويَّة ، قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١١٦.
.[١١]المصدر السابق نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٧.

.[١٢]لم يمسَّها سِبَاءٌ: لم تُسْبَ نساؤها في الحرب.
.[١٣]انظر: أصول الفكر السِّياسيِّ ، ص ١٨٢.
.[١٤]المصدر السابق نفسه.

.[١٥]انظر: البداية والنِّهاية (٣/١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥) ، وفيها زياداتٌ ليست عند الصَّالحي في سُبُل الرَّشاد (٢/٥٩٦ ، ٥٩٧).

.[١٦]انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة ، لمحمَّد خير هيكل (١/٤١١).
.[١٧]انظر: وقفات تربويَّة من السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد الحميد البلالي ، ص ٧٢.
.[١٨]انظر: صفة الصَّفوة (٤/٩٤).

.[١٩]انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعيَّة (١/٤١٢).
.[٢٠]انظر: التحالف السِّياسي في الإسلام ، لمنير الغضبان ، ص ٥٣.
.[٢١]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٤.

.[٢٢]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٢٠).

.[٢٣]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٣/٦٩).

.[٢٤]المجلة: الصحيفة ، وتطلق على الحكمة ، أي: حكمة لقمان.

.[٢٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/١٩٥).

.[٢٦]البداية والنِّهاية (٣/١٤٨ ، ١٤٩).

.[٢٧]انظر: شرح المواهب ، للزُّرقاني (١/٣٦١).

.[٢٨]انظر: البداية والنِّهاية (٣/١٤٧).

.[٢٩]انظر: أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد سبع ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤.

.[٣٠]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وصحابته ، للجمل ، ص ١٤٣.

.[٣١]انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة (١/١٩٧).

.[٣٢]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٨٥.

.[٣٣]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٦ ، ١٨٧.

.[٣٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة (١/٤٤١).

.[٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٤٤٢).

.[٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٤٤٤) ، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٩١.

.[٣٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدويِّ ، ص ١٥٤.

.[٣٨]السَّرَوات: الأشراف.

.[٣٩]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٨٣.

.[٤٠]الدُّر المنثور ، للسُّيوطي (١/٢١٦).

.[٤١]انظر: ابن هشام (٤٤/١).
.[٤٢]المصدر السابق نفسه ، (٣٩/١ ، ٤٤).
.[٤٣]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٧١.
.[٤٤]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٣٥٦.

.[٤٥]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٧١.
.[٤٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٧٢.
.[٤٧]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٣٧.

.[٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١٩٩/١).
.[٤٩]مسند الإمام أحمد (٣١٦/٥) بإسنادٍ صحيحٍ لغيره.

.[٥٠]الأزُر: الثِّياب ، والمقصود النِّساء أو الأنفس ، والمعنى: لنمنعنَّك ممَّا نمنع منه نساءنا ، وأنفسنا.
.[٥١]انظر: ابن هشام (٦١/١) ، بإسنادٍ حسن ، وانظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمريِّ (٢٠١/١).

.[٥٢]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٤٠٠/٢).
.[٥٣]انظر: التَّربية القياديَّة (١٠٣/٢).
.[٥٤]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص ٦١.

.[٥٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٦١.
.[٥٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٢.
.[٥٧]انظر: التَّربية القياديَّة (١٠٩/٢).
.[٥٨]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٦٢.
.[٥٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥.
.[٦٠]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٧.
.[٦١]انظر: التَّحالف السِّياسي ، ص ٨٢.

.[٦٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٤٤٤).

.[٦٣]المصدر السابق نفسه (١/٤٤٥).

.[٦٤]انظر: معين السِّيرة النَّبويَّة ، للشَّامي ، ص ١٣٥.

.[٦٥]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/٩٧).

.[٦٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٦٧).

.[٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٠٩.

.[٦٨]انظر: دراسات في السِّيرة النَّبوية ، د. عماد الدين خليل ، ص ١٣٢.

.[٦٩]أذاخر: مكان قريب من مكَّة.

.[٧٠]النِّسْع: الشِّراك الَّذي يشدُّ به الرَّحل.

.[٧١]الجمَّة: مجتمع شعر الرأس.

.[٧٢]انظر: التاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٣/١٠٧).

.[٧٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/١١٦).

.[٧٤]أي: أهدرت.

.[٧٥]ضُمَّرا: جمع ضامر ، والضامر من الخيل والإبل: هو الخفيف اللَّحم من التَّدريب.

.[٧٦]سيرة ابن هشام (٢/٦٥).

.[٧٧]انظر: التاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/١٠٤).

.[٧٨]انظر: التَّحالف السَّياسيُّ في الإسلام ، ص ٩٦.

.[٧٩]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، دكتورة عصمة الدِّين ، ص ١٠٨.

.[٨٠]انظر: التَّحالف السِّياسيُّ ، ص ٨٧.

.[٨١]ابن هشام (٢/٨٠) ، وأسد الغابة (٥/٣٩٥) ، والبداية والنِّهاية (٣/١٥٨ ـ ١٦٦) ، والإصابة (٨/٨) رقم ٤٨ ، ٤٩ ، نقلاً عن المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٠٨.

.[٨٢]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٠٨.

.[٨٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/١٤٠).

.[٨٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ وبناء دولةٍ ، لصَالح الشامي ، ص ١١٨.

.[٨٥]المصدر السابق نفسه، ص ١٢٠ ، ١٢١.

.[٨٦]انظر في ذلك: صنيع محمَّد فؤاد عبد الباقي في المعجم المفهرس حيث رمز للاية بـ (م) وهو رمز الايات المدنية ، وما ذكره القرطبيُّ من خلاف العلماء في الاية (٣٢٣/١٣).

.[٨٧]انظر: معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، د. مصطفى مسلم ، ص ٦٢ ، ٦٣.

.[٨٨]انظر: تفسير القرطبي (٥٠٧٣/٦).

.[٨٩]انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٠/٣).

.[٩٠]انظر: الكشاف للزَّمخشري (٣١٠/٣) ، وتفسير أبي السعود (٤٥/٧) ، وتفسير فتح القدير (٢١٠/٤).

.[٩١]انظر: الأساس في التفسير ، لسعيد حوَّى (٤٢٢٣/٨).

.[٩٢]انظر: تفسير ابن كثير (٣٥٩/٢).

.[٩٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٢٥.

.[٩٤]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٣٣ ، ٣٤.

.[٩٥]عَبثَ عبثاً: لعب ، فهو عابثٌ لاعبٌ لما لا يعنيه ، انظر: لسان العرب (١٦٦/٢).

.[٩٦]كلبت قريش عليهم: أي: غضبت عليهم.

.[٩٧]انظر: السِّيرة النَّبوية الصحيحة (٢٠٢/١ ، ٢٠٣).

.[٩٨]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، د. إبراهيم علي محمَّد ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، تقسيم الأساليب أخذ من هذا الكتاب ، وأخذت مشاهد العظمة من كتاب (الهجرة النَّبويَّة المباركة).

.[٩٩]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٤.

.[١٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسنة ، د. محمَّد أبو شهبة (٤٦١/١).

.[١٠١]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (١٢٨/٣).

.[١٠٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٠٤/١).

.[١٠٣]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٢.

.[١٠٤]التناضب: جمع تنضيب ، وهو شجر ، وهو اسم موضع قريب من مكَّة.

.[١٠٥]الأضاة: على عشرة أميال من مكَّة.

.[١٠٦]سرف: وادٍ متوسط الطُّول من أودية مكَّة.

.[١٠٧]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٩.

.[١٠٨]الذلول: أذلَّها العمل ، فصارت سهلة الرُّكوب والانقياد.

.[١٠٩]تُعقبني: تجعلني أعقبك عليها لركوبها.

.[١١٠]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢٠٥/١).

.[١١١]ذو طوى: وادٍ من أودية مكَّة.

.[١١٢]الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٣١.

.[١١٣]انظر: التَّربية القياديَّة (١٥٩/٢).

.[١١٤]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٤.

.[١١٥]انظر: التَّربية القياديَّة (١٦٠/٢).

.[١١٦]انظر: التَّربية القياديَّة (١٦٠/٢).

.[١١٧]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٢.

.[١١٨]المصدر السابق نفسه.

.[١١٩]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة ، ص ١٣٥.

.[١٢٠]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١١٩.

.[١٢١]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٠.

.[١٢٢]الصعلوك: الفقير.

.[١٢٣]نثل: استخرج ما فيها من النَّبل والسِّهام.

.[١٢٤]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، ص ١٢١.

.[١٢٥]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢١.

.[١٢٦]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١١٩.

.[١٢٧]المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١١٦.

.[١٢٨]المصدر السابق نفسه ، ص ١١٧.

.[١٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة ، لأبي شهبة (١/٤٦٨ ، ٤٦٩).

.[١٣٠]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١١٨.

.[١٣١]المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٣٢.

.[١٣٢]الثَّرّ: الغزير الكثير.

.[١٣٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/١٧١ ، ١٧٢).

.[١٣٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/١٧٤ ، ١٧٥).

.[١٣٥]انظر: التَّربية القياديَّة (١/١٤٦ ، ١٤٧).

.[١٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ١٥٧.

.[١٣٧]انظر: الأساس في السُّنَّة (١/٣٣٣).

.[١٣٨]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٥ ، وهذا الكتاب هو المرجع الأساسي في فضائل المدينة.

.[١٣٩]ذكر السَّخاوي له في الضَّوء اللامع (١/٧٩: ٨٦) مؤلفات منها: المغانم.

.[١٤٠]أخرجه أحمد (٤/٢٨٥) ، وضعَّفه الشَّوكانيُّ في فتح القدير (٤/٢٦٨).

.[١٤١]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٦.

.[١٤٢]المصدر السابق نفسه: ص ١٥٧.

.[١٤٣]جُدُرات: جمع جدار ، وهو الحائط.

.[١٤٤]أوْضَعَ راحلته: حثَّها على السرعة.

.[١٤٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٨.

.[١٤٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٦٠.

.[١٤٧]اللأواء: الشِّدَّة ، وضيق العيش.

.[١٤٨]انظر: الهجرة النبويَّة المباركة ، ص ١٦١.

.[١٤٩]يأرز: ينضمُّ ، ويجتمع.

.[١٥٠]في رواية: (تنفي الخبث) وفي رواية: (تنفي الدَّجال).

.[١٥١]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٦٢.

.[١٥٢]انماع: ذاب ، وسال.

.[١٥٣]الحدث: الإثم ، أو الأمر المنكر الذي ليس بمعروفٍ في السنة.

.[١٥٤]المحدث: هو مَنْ أتى الحَدث.

.[١٥٥]لا يُخْتَلى خَلاَها: لا يُجزُّ ، ولا يقطع الحشيش الرَّطب فيها.

.[١٥٦]لا ينفَّر صيدُها: لا يُزجر ، ويمنع من الرَّعي.

.[١٥٧]أشادها: أشاعها ، والإشادة: رفع الصَّوت ، والمراد: تعريف اللقطة.

.[١٥٨]ينظر الشكل (١١) في الصفحة (٧٤٧).

.[١٥٩]الوُثُق: الحبال ، والمفرد: وثاق.

.[١٦٠]انظر: في السِّيرة النَّبويَّة قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٣٥.

.[١٦١]انظر: البداية والنِّهاية (٣/١٨١) ، وابن حجر في الفتح ، وحسَّن إسناده ، شرح حديث رقم (٣٩٠٥).

.[١٦٢]انظر: في ظلال القران (٣/١٥٠١).

.[١٦٣]الهاجرة: هي نصف النَّهار عند اشتداد الحرِّ.

.[١٦٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير (٢/٢٣٣ ـ ٢٣٤).

.[١٦٥]متقنعاً: مغطِّياً رأسه.

.[١٦٦]كمنا فيه: أي استترا ، واستخفيا ، ومنه الكمين في الحرب ، النِّهاية (٤/٢٠١).

.[١٦٧]ثقف: ذو فطنةٍ ، وذكاء ، والمراد: ثابت المعرفة بما يحتاج إليه ، النِّهاية (١/٢١٦).

.[١٦٨]لقن: فَهِم ، حسن التَّلقِّي لما يسمعه ، النِّهاية (٤/٢٦٦).

.[١٦٩]يدلج: أدلج إذا سار أوَّل الليل ، وادَّلج ـ بالتشديد ـ: إذا سار اخره.

.[١٧٠]يُكتادان: أي: يُطلب لهما فيه المكروه ، وهو من الكيد.

.[١٧١]الرَّضيف: اللَّبن المرضوف ، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحمَّاة بالشَّمس ، أو النَّار ، لينعقد وتزول رخاوته.

.[١٧٢]ينعق: نعق بغنمه ، أي: صاح بها ، وزجرها ، القاموس المحيط (٣/٢٩٥).

.[١٧٣]الغلس: ظلمة اخر الليل إذا اختلطت بضوء الصَّباح ، النِّهاية (٣/٣٧٧).

.[١٧٤]غمس حلقاً: أي: أخذ بنصيب من عقدهم ، وحلفهم يأمن به.

.[١٧٥]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٢٣٤).

.[١٧٦]الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٣٤.

.[١٧٧]خاتم النَّبيِّين ، لأبي زهرة (١/٦٥٩) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٢٣٤).

.[١٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٢٣٠ ـ ٢٣٤).

.[١٧٩]لَجِبَ القَوْمُ لَجَباً: صاحوا وأجلبوا ، والبحرُ: اضطرب موجه ، فهو لَجِبٌ.

.[١٨٠]انظر: تفسير الرَّازي (٣٠/٢٠٨).

.[١٨١]انظر: تفسير أبي السُّعود (٩/٦٠).

.[١٨٢]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٧٢.

.[١٨٣]في ظلال القران (٤/٢٢٤٧).

.[١٨٤]الغار: الثقب العظيم يكون في الجبل ، وقيل: شبه البيت في الجبل.

.[١٨٥]المستفاد من قصص القران (٢/١٠٠).

.[١٨٦]انظر: في ظلال القران (٣/١٦٥٦).

.[١٨٧]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/١٠١).

.[١٨٨]هي عاتكة بنت كعب الخزاعيَّة.

.[١٨٩]وادي قُدَيْد: موضع قرب مكَّة ، يبعد عن الطَّريق المعبَّدة حوالي ثمانية كيلو مترات.

.[١٩٠]البداية والنهاية (٣/١٨٨).

.[١٩١]برزة: كهلةٌ ، كبيرة السن ، لا تحتجب احتجاب الشَّوَابِّ.

.[١٩٢]جَلْدَة: قوَّيةً صلبة ، وقيل: عاقلة.

.[١٩٣]تحتبي: أي تجلس وتضم يديها إحداهما إلى الأخرى ، على ركبتيها ، وتلك جلسة الأعراب.

.[١٩٤]مرملين: نفد زادهم.

.[١٩٥]مسنتين: أي: داخلين في سَنَةٍ ، وهي الجدب ، والمجاعة ، والقحط.

.[١٩٦]كسر الخيمة . بفتح الكاف وكسرها ، وسكون المهملة . أي: جانبها.

.[١٩٧]تفاجَّت: فتحت ما بين رجليها للحلب.

.[١٩٨]دَرَّت: أرسلت اللَّبن.

.[١٩٩]واجترَّت: من الجرَّة ، وهي ما تخرجها البهيمة من كرشها تمضغها.

.[٢٠٠]يربض: يرويهم حتَّى يثقلوا ، فيربضوا ، أي: يقعوا على الأرض للنَّوم والرَّاحة.

.[٢٠١]ثجَّاً: السَّيلان ، ومعنى ثجَّاً: لبناً كثيراً سائلاً.

.[٢٠٢]علاه البهاء: أي: علا الإناء بهاء اللَّبن.

.[٢٠٣]أراضوا: أي: رَوَوا ، فنقعوا بالرَّي ، يريد شربوا مرَّة بعد مرَّةٍ حتى رَوَوْا.

.[٢٠٤]عجافاً: ضد السَّمن ، وهو جمع عجفاء وهي المهزولة.

.[٢٠٥]يتساوكن هُزلاً: يتمايلن من الضَّعف.

.[٢٠٦]عازب: بعيدة المرعى لا تأوي إلى البيت إلا في اللَّيل ، حيال: لم تحمل.

.[٢٠٧]ظاهر الوضاءة: ظاهر الجمال والحسن.

.[٢٠٨]أبلج الوجه: مشرق الوجه مضيئه.

.[٢٠٩]نُحلة: من النُّحول ، والدقَّة ، والضُّمور ، أي: أنَّه ليس نحيلاً.

.[٢١٠]صَعْلة: صغر الرأس ، وهي تعني الدقَّة والنُّحول في البدن.

.[٢١١]وسيم: الوسيم المشهور بالحسن ، كأنَّ الحسن صار له سمةً.

.[٢١٢]دَعَج: شدَّة سواد العين في شدَّة بياضها.

.[٢١٣]في أشفاره وَطَفٌ: في شعر أجفانه طول.

.[٢١٤]صَهَل: كالبُحَّة وهو ألا يكون حادَّ الصوت.

.[٢١٥]سطع: طول العنق.

.[٢١٦]أزج: دقيق شعر الحاجبين مع طولهما.

.[٢١٧]أقرن: متصل ما بين الحاجبين من الشَّعر ، أو مقرون الحاجبين.

.[٢١٨]سما: علا برأسه ، أو بيده وارتفع.

.[٢١٩]لا هذر ، ولا نزر: الهذر من الكلام ما لا فائدة فيه ، والنَّزر: القليل ، والمعنى: وسط ، لا قليل ، ولا كثير.

.[٢٢٠]رَبْع: ليس بالقصير ، ولا بالطويل.

.[٢٢١]لابأس من طول: لا يجاوز الناس طولاً.

.[٢٢٢]لا تقتحمه العين من قصر: لا تزدريه ، ولا تحتقره.

.[٢٢٣]محفود: مخدوم.

.[٢٢٤]محشود: يجتمع الناس حواليه.

.[٢٢٥]لا عابس ولا مفنَّد: ليس عابس الوجه ، ولا مفنَّد: ليس منسوباً إلى الجهل ، وقلَّة العقل.

.[٢٢٦]قالا: نزلا في وقت القيلولة على الخيمتين.

.[٢٢٧]وسؤدد: من السِّيادة.

.[٢٢٨]حائل: غير حامل.

.[٢٢٩]مزبد: الصريح ومعناها الخالص ، والضرة: لحم الضرع.

.[٢٣٠]انظر: الهجرة النبوية المباركة ، ص ١٠٧.

.[٢٣١]أسودة: جمع قلَّةٍ لسواد ، وهو الشَّخص يُرى من بعيد أسود ، الهجرة في القران ، ص ٣٤٤.

.[٢٣٢]الأكمة: وهي الرَّابية.

.[٢٣٣]الزج: الحديدة في أسفل الرُّمح.

.[٢٣٤]الأزلام: الأقداح التي كانت في الجاهليَّة ، مكتوب عليها الأمر ، أو النهي: افعل ، أو لا تفعل.

.[٢٣٥]ساخت يدا فرسي: أي: غاصت في الأرض.

.[٢٣٦]عُثان: أي: دخان ، وجمعه عواثن على غير قياسٍ ، النِّهاية (١٨٣/٣).

.[٢٣٧]فلم يرزآني: أي: لم يأخذا مني شيئاً.

.[٢٣٨]أدم: قطعة من جلد.

.[٢٣٩]التَّزبب في الإنسان: كثرة الشَّعر ، وطوله.

.[٢٤٠]انظر: الرَّوض الأنف (٢١٨/٤) والهجرة في القران ، ص ٣٤٦.

.[٢٤١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٩٥/١).

.[٢٤٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٩٤/١) ، وانظر أيضاً: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٩٠٦).

.[٢٤٣]أطم ـ بضم أوله وثانيه ـ: الحصن.

.[٢٤٤]مُبيَّضين: عليهم ثياب بيض.

.[٢٤٥]السَّراب: أي: يزول السَّراب عن النَّظر بسبب عروضهم له.

.[٢٤٦]جدَّكم: حظُّكم وصاحب دولتكم الَّذي تتوقَّعونه.

.[٢٤٧]قال الحافظ ابن حجر: هذا هو المعتمد ، وشذَّ من قال: يوم الجمعة ، (الفتح شرح حديث رقم ٣٩٠٦).

.[٢٤٨]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٥١.

.[٢٤٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٥٢.

.[٢٥٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٥٣.

.[٢٥١]الضَّمير هنا للنَّبيِّ (ص) فتح الباري (٢٥١/٧).

.[٢٥٢]يخترف: أي: يجتني من ثمارها ، انظر: النِّهاية (٢٤/٢).

.[٢٥٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٥٤.

.[٢٥٤]مقيلاً: أي: مكاناً تقع فيه القيلولة.
.[٢٥٥]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٥٥.

.[٢٥٦]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٩٩.
.[٢٥٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٠.
.[٢٥٨]الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (٣٥٧/١).

.[٢٥٩]في السِّيرة النَّبويَّة ـ قراءة لجوانب الحذر والحماية ، ص ١٤١.
.[٢٦٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٤٧.
.[٢٦١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٦١.

.[٢٦٢]انظر: أضواء على الهجرة ، لتوفيق محمَّد ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٧.
.[٢٦٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٤٨.

.[٢٦٤]انظر: المستفاد من قصص القران (١٠٨/٢).
.[٢٦٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٦.
.[٢٦٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٦.

.[٢٦٧]انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (١٠٢/٢) ، وإسناده صحيح.
.[٢٦٨]السَّفْسَافُ: الرَّديءُ الحقير من كل شيء ، والجمع: سَفَاسِف.
.[٢٦٩]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٨.
.[٢٧٠]انظر: فقه السِّيرة ، للدُّكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، ص ١٩٣.

.[٢٧١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٦٤.
.[٢٧٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٤٨ ، ١٤٩.
.[٢٧٣]في البخاريِّ: «وعرضت عليهم الزاد والمتاع ، فلم يَرْزاني» رقم (٣٩٠٦).

.[٢٧٤]انظر: في ظلال الهجرة النَّبويَّة ، ص ٥٨.
.[٢٧٥]انظر: التربية القياديَّة (٢/١٩١ ، ١٩٢).
.[٢٧٦]السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ ، للسِّباعي ، ص ٧١.

.[٢٧٧]البخاريُّ ، رقم (٣٩١١).
.[٢٧٨]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٤.
.[٢٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٢٥٤.
.[٢٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص ٦٨.
.[٢٨١]انظر: الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٥٤.
.[٢٨٢]انظر: الحركة السَّنوسيَّة في ليبيا، للصَّلابي (٢/٧) ، والشَّاعر هو: أحمد رفيق المهدوي.

.[٢٨٣]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٥.
.[٢٨٤]انظر: الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٥٩ ، وشرح المواهب (١/٤٠٥).
.[٢٨٥]انظر: الإصابة (١/١٤٦).

.[٢٨٦]انظر: المستدرك على الصَّحيحين (٤/٩٢) رقم ٦٩٨١ صحيح الإسناد.
.[٢٨٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٣/١٧٨).
.[٢٨٨]انظر: السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (١/٤٩٥).
.[٢٨٩]المصدر السَّابق نفسه (١/٤٩٥) ، وصحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ١٨١.

.[٢٩٠]انظر: الهجرة النَّبوية المباركة ، ص ٤٠٥.
.[٢٩١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للسِّباعي ، ص ٤٣ ، والهجرة في القران الكريم ، ص ٣٦٧.
.[٢٩٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٥٨ ، ٣٥٩.

.[٢٩٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٣٦٥.
.[٢٩٤]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد سيِّد الوكيل ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ ، بتصرُّف.
.[٢٩٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ٢٠٢.

.[٢٩٦]انظر: بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة ، لمحمد توفيق ، ص ١١٩.
.[٢٩٧]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٢ ، ١٢٣.
.[٢٩٨]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ١٧٢.

.[٢٩٩]انظر: الغرباء الأوَّلون ، ص ١٩٨ ، ١٩٩.
.[٣٠٠]الوعك: الحمَّى.
.[٣٠١]بطوقه: بطاقته.
.[٣٠٢]بروقه: بقرنه.
.[٣٠٣]عقيرته: صوته ، قال الأصمعيُّ: إنَّ رجلاً عُقرت رجله ، فرفعها على الأخرى وجعل يصيح ، فصار كل من رفع صوته يقال له: رفع عقيرته وإن لم يرفع رجله. .[٣٠٤]الإذخر: نباتٌ طِيِّب الرَّائحة.
.[٣٠٥]شامة وطفيل: جبلان مشرفان على مِجَنَّة على بريد مكة.

.[٣٠٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٣١٠/٢).
.[٣٠٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٨٩/١ ، ٤٩٠).
.[٣٠٨]الحُبُّ: الجرَّة الضَّخمة.
.[٣٠٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (٢٢٠/١).

.[٣١٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٩٧/١).
.[٣١١]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمد الصَّادق عرجون (٤٢١/٢) ، ويأثر ذلك: أي: يرويه ويحكيه.
.[٣١٢]المصدر السابق نفسه (٤٢٣/٢).
.[٣١٣]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٧٥.

.[٣١٤]انظر: الهجرة النَّبوية ، لمحمد أبو فارس ، ص ١٣.
.[٣١٥]انظر: مباحث في علوم القران ، للقطَّان ، ص ٥٩.
.[٣١٦]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٨٤.

.[٣١٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥ ، وهذا المبحث أخذته من هذا الكتاب مع التصرُّف اليسير.

.[٣١٨]المصدر السَّابق نفسه ، ص ٨٦.

.[٣١٩]انظر: تفسير البغوي (٣١٨/٤).

.[٣٢٠]جَذعاً: شاباً قوياً. انظر: شرح صحيح مسلم ، للنَّوويِّ.

.[٣٢١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٠٤.

.[٣٢٢]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٠٦.

.[٣٢٣]في ظلال القران (٣٢٨٨/٦).

.[٣٢٤]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١١٤ إلى ١١٧.

.[٣٢٥]الجامع لأحكام القران (٥٠/٣) ، وتفسير أبي السُّعود (٢١٨/1).

.[٣٢٦]أقفلهم: بمعنى أرجعهم سالمين.

.[٣٢٧]تفسير ابن كثير (٣٩٧/٢).

.[٣٢٨]تفسير ابن كثير ، (٤٦٦/٣).

.[٣٢٩]انظر: تفسير الرَّازي (٢٠٨/١٥).

.[٣٣٠]في ظلال القران (١٧٠٣/٣).

.[٣٣١]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٢٤.

.[٣٣٢]تفسير ابن كثير (٣٣٢/٢).

.[٣٣٣]تفسير أبي السُّعود (٥٣/٤).

.[٣٣٤]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٢٩.

.[٣٣٥]انظر: تفسير ابن كثير (٢٩٥/٤) ، وتفسير أبي السعود (٢٢٨/٨) ، وتفسير فتح القدير (٢٠٠/٥) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٣٢.

.[٣٣٦]في ظلال القران (٧٤٥/٢).
.[٣٣٧]سياقة الموت: أي النَّزع ، كأنَّ روحه تساق لتخرج من بدنه.
.[٣٣٨]أطباق ثلاث: أحوال ثلاث ، واحدها طبق.
.[٣٣٩]فشنُّوا عليَّ التُّراب: أي صبُّوه متفرقاً ، انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٣٦.

.[٣٤٠]انظر: شرح النَّووي لصحيح مسلمٍ للحديث المذكور ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٣٨.
.[٣٤١]انظر: تفسير الرازي (١٣/١٦) وما بعدها بتصرف.
.[٣٤٢]تفسير المراغي (٧٨/١٠).

.[٣٤٣]تفسير الرَّازي (١٤/١٦).
.[٣٤٤]في ظلال القران (١٦١٤/٣) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٤١.
.[٣٤٥]تفسير فتح القدير (٣٤٥/٢) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٤٢.
.[٣٤٦]تفسير ابن كثير (٣٢٠/٢) ، وتفسير المراغي (٧٩/١٠) ، والهجرة في القران الكريم ، ص ١٤٤.

.[٣٤٧]في ظلال القران (١٧٠٥/٣).
.[٣٤٨]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وصحابته في القران والسُّنَّة ، للجمل ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣.
.[٣٤٩]ولا شك أنَّ سلطان الدَّولة المسلمة يحافظ على مقاصد الشَّريعة.
.[٣٥٠]تفسير سورة فصلت ، د. محمد صالح علي ، دار النفائس ، ص ٩٨ ، نقلاً عن الهجرة في القران الكريم ، ص ١٥١.
.[٣٥١]زاد المسير ، لابن الجوزي (٩٧/٢) ، وتفسير القاسمي (٣٩٩/٣).
.[٣٥٢]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٦١.
.[٣٥٣]في ظلال القران (٤٧٣/٢).

.[٣٥٤]روح المعاني ، للالوسي (١٢٨/٥ ، ١٢٩) ، وأسباب النزول ، للواحدي ، ص ١٨١.
.[٣٥٥]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٢٤.
.[٣٥٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٥.

.[٣٥٧]المصدر السَّابق نفسه ، ص ١٢٦.

.[٣٥٨]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ١٦٧.

.[٣٥٩]ينظر الشكلان (١٢ و١٣) في الصفحتين (٧٤٨ و٧٤٩).

.[٣٦٠]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ١٩١ ، وفقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٥١.

.[٣٦١]مربد: الموضع الذي يُجفَّف فيه التَّمر. القاموس المحيط (٣٠٤/١).

. انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٣/٣)، وانظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري لدولة المدينة، لعلي معطي، ص ١٥٦.

. انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٣/٣)، ومحمَّد رسول الله، لمحمَّد رضا، ص ١٤٣.

. انظر: التَّاريخ السياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة، لعلي معطي، ص ١٥٧.

. انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٣٦/٢).

. انظر التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (١٣/٤).

. انظر: تفصيل ذلك في صحيح البخاريِّ، كتاب الأذان، باب بدء الأذان، رقم (٦٠٣ ، ٦٠٤).

.[٣٦٢]انظر: نور اليقين ، للخضري ، ص (٨٧ ، ٨٨) ، وتاريخ خليفة بن خياط ، ص ٥٦ ، نقلاً عن تاريخ دولة الإسلام الأولى ، د. فايد حمَّاد عاشور ، وسليمان أبو عزب ، ص ١٠٨.

.[٣٦٣]انظر: وفاء الوفا ، للسَّمهودي (٣٢١/١).

.[٣٦٤]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢٥٨/١).

.[٣٦٥]انظر: نظام الحكومة النَّبوية المسمَّى التراتيب الإداريَّة ، لعبد الحيِّ الكتاني (٤٧٤/١).

.[٣٦٦]الفتاوى (٣٨/١١).

.[٣٦٧]انظر: فتح الباري ، في شرح حديث رقم (٣٥٨١).

.[٣٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة ، للشَّامي ، ص ١٧٥.

.[٣٦٩]الفتاوى (٤٠/١١ ، ٤١).

[٣٧٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربيةُ أمَّة وبناء دولة ، ص ١٧٥.

[٣٧١]انظر: وفاء الوفا ، للسَّمهودي (٣٢٣/١).

[٣٧٢]سنن أبي داود (٣٦١/٢).

[٣٧٣]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢٥٨/١).

[٣٧٤]المصدر السابق نفسه (٢٥٩/١).

[٣٧٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٥٩/١).

[٣٧٦]المصدر السابق نفسه (٢٥٩/١).

[٣٧٧]السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٦٦/١).

[٣٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٦٧/١).

[٣٧٩]سنن أبي داود (٢٣٧/٢) ، وابن ماجه (٧٣٠/٢).

[٣٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٦٤/١).

[٣٨١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٦٤/١).

[٣٨٢]المصدر السابق نفسه.

[٣٨٣]المصدر السَّابق نفسه.

[٣٨٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّة وبناء دولة ، ص ١٨٤.

[٣٨٥]المصدر السابق نفسه.

[٣٨٦]انظر: المدينة النَّبوية فجر الإسلام والعصر الرَّاشديّ ، لشُرَّاب (٢٢٢/١).

[٣٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٦٢/١).

[٣٨٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٦٣/١).

[٣٨٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ وبناء دولةٍ ، ص ١٨٦.

[٣٩٠]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨٨.

.[٣٩١]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٠٣.
.[٣٩٢]محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (٣٣/٣).

.[٣٩٣]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣٤/٣ ، ٣٥).

.[٣٩٤]المغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ: عاقبتُه ، واخرُه.
.[٣٩٥]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣٦/٣).
.[٣٩٦]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣٣/٣).
.[٣٩٧]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، د. علي معطي ، ص ١٥٨.
.[٣٩٨]انظر: صورٌ من حياة الرَّسول (ص) ، لأمين دويدار ، ص ٢٦١.
.[٣٩٩]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، د. علي معطي ، ص ١٥٨.

.[٤٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤٩٦/١) ، وفتح الباري ، وشرح حديث رقم (٣٩٠٦).
.[٤٠١]انظر: التَّربية القياديَّة (٢٤٩/٢) ، والبخاريُّ ، حديث رقم (٣٩٠٦) وشرحه في فتح الباري.
.[٤٠٢]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١٥/٣).

.[٤٠٣]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (١٥/٣).
.[٤٠٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٢٥٢/٢).
.[٤٠٥]انظر: قراءةٌ سياسيَّةٌ للسيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١١٤.
.[٤٠٦]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، لكامل سلامة الدَّقس ، ص ٤٣٨.

.[٤٠٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٣٩.
.[٤٠٨]انظر: فقه السِّيرة النبوية ، للبوطي ، ص ١٤٥.
.[٤٠٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٣٣/٢).

.[٤١٠]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣٩/٣).
.[٤١١]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ١٤٦.

.[٤١٢]انظر: تفسير الطَّبري (٤٧٦/١٤ ـ ٤٧٩).
.[٤١٣]انظر: الأحاديث الواردة في فضائل المدينة ، د. صالح الرِّفاعي ، ص ٣٧٢.
.[٤١٤]انظر: منهاج السُّنَّة النَّبويَّة (٧٤/٧).
.[٤١٥]انظر: مجموع الفتاوى (٤٠٦/٢٧).
.[٤١٦]فتح الباري (٢٤٥/٧).

.[٤١٧]انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (٢٥٥/١).
.[٤١٨]انظر: تفسير الطَّبري (٥٩١/٥) ، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة ، للعمري (٢٦٩/١).

.[٤١٩]انظر: الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب ، د. مجدلاوي ، ص ٥٢ ، ٥٣.
.[٤٢٠]أي: لا يتركه مع مَنْ يؤذيه ، ولا فيما يؤذيه؛ بل ينصره ، ويدفع عنه.
.[٤٢١]كربة: أي: غمة.

.[٤٢٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة ، للعمري (٢٤٠/١).
.[٤٢٣]أنساب الأشراف ، للبلاذري (٢٧٠/١) ، وابن هشام في السيرة النبوية (١٥٠/٢ ـ ١٥٢).
.[٤٢٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٤٠/١).
.[٤٢٥]المصدر السابق نفسه (٢٤٠/١).
.[٤٢٦]فتح الباري (٤٧١/٧).
.[٤٢٧]يعني: المؤاخاة في المدينة.
.[٤٢٨]زاد المعاد (٧٩/٢).
.[٤٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير.

.[٤٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢٤١/١).
.[٤٣١]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليّ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤.
.[٤٣٢]انظر: فصولٌ في السِّيرة النَّبوية ، د. عبد المنعم السَّيِّد ، ص ٢٠٠.

.[٤٣٣]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وصحابته في القران والسُّنَّة ، للجمل ، ص ٢٤٥ .
.[٤٣٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٢٨٤).

.[٤٣٥]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/٩٤).

.[٤٣٦]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/٩٥).
.[٤٣٧]المصدر السابق نفسه.
.[٤٣٨]المصدر السَّابق نفسه ، (٣/٩٦).
.[٤٣٩]انظر: محمَّدٌ رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/٩٨).

.[٤٤٠]المصدر السابق نفسه ، (٣/١٠٠).
.[٤٤١]بلتعة: تبلتع الرَّجل: إذا تظرَّف.
.[٤٤٢]انظر: ابن هشام (٢/١٠٩ ـ ١١١) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٢/٣٢٤).
.[٤٤٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٥٢).

.[٤٤٤]انظر: الهجرة في القران الكريم ، لأحزمي جزولي ، ص ٤١٧ .

.[٤٤٥]في ظلال القران (٢/٩١١).

.[٤٤٦]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٥٦ .
.[٤٤٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/١٢٩).

.[٤٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (١/٢٥٤).
.[٤٤٩]نزلتُ لك عنها: أي: طلَّقتها لأجلك ، فإذا حلَّت: أي: انقضت عدَّتها.
.[٤٥٠]قينقاع: قبيلة من اليهود نسب السُّوق إليهم.
.[٤٥١]تابع الغُدُوَّ: أي: داوم الذَّهاب إلى السُّوق للتجارة.

.[٤٥٢]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/٣٠).

.[٤٥٣]يعني: كفونا العمل ، وأشركونا في الثَّمرة.

.[٤٥٤]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (٤/٤٠٦).

.[٤٥٥]في ظلال القران (٦/٣٥٢٦).

.[٤٥٦]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص (٢١١ ، ٢١٢).

.[٤٥٧]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/٢٤٦).

.[٤٥٨]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٤/٢٥).

.[٤٥٩]هذه الجملة من رواية الطَّبري بنفس إسناد البخاريِّ (فتح الباري ٨/٢٤٩).

.[٤٦٠]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٤١١.

.[٤٦١]انظر: التربية القياديَّة (٢/٢٨٦).

.[٤٦٢]انظر: الطَّريق إلى المدينة ، لمحمد العبده ، ص ١٠ ، ١٠١.

.[٤٦٣]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصَّادق عرجون (٣/١٥٢).

.[٤٦٤]انظر: فقه التَّمكين في القران الكريم للصَّلابي ، ص ٢٥٣.

.[٤٦٥]انظر: شرح رسالة التَّعاليم ، د. محمَّد عبد الله الخطيب ، ص (٢٩٦).

.[٤٦٦]انظر: الهجرة النَّبوية المباركة ، لعبد الرحمن البر ، (ص ١٣١ ـ ١٣٥).

.[٤٦٧]مُمْتَناً: يعني متفضِّلاً عليهم بذلك.

.[٤٦٨]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٤٢.

.[٤٦٩]كانت وقعة الحرَّة في سنة ثلاث وستين ، وسببها: أنَّ أهل المدينة خلعوا بيعة يزيد بن معاوية؛ لما بلغهم ما يتعمَّده من الفساد ، فأرسل إليهم يزيدُ بنُ معاوية مسلمَ بن عقبة المرّي في جيشٍ كثير ، فهزمهم ، واستباحوا المدينة ، وقُتِلَ من الأنصار شيءٌ كثير ، وكان أنسٌ يومئذ بالبصرة ، فبلغه ذلك ، فحزن على

من أصيب من الأنصار ، فكتب إليه زيد بن أرقم ـ وكان يومئذٍ بالكوفة ـ يسلِّيه ، ومحصَّل ذلك: أنَّ الذي يصير إلى مغفرة الله ، لا يشتدُّ الحزن عليه ، فكان ذلك تعزيةً لأنس فيهم.

.[٤٧٠]هذه الزيادة ثابتةٌ عند مسلمٍ ، في كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم ، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم ، رقم (٢٥٠٦ ، ٢٥٠٧).

.[٤٧١]أوفى الله له بأذنه: أي: بسمعه ، وهو بضمِّ الهمزة والذَّال ، ويجوز فتحهما ، أي: أظهر صدقه فيما أعلم به.

.[٤٧٢]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥٠.

.[٤٧٣]كرشي ، وعيبتي: أي: بطانتي ، وخاصَّتي ، يريد أنَّهم موضع سرِّه ، وأمانته.

.[٤٧٤]قال ابن حجر: «أي: أنَّ الأنصار يقلُّون ، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام، وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار ، فمهما فُرض في الأنصار من الكثرة كالتناسل؛ فُرض في كلِّ طائفة من أولئك ، فهم أبداً بالنِّسبة إلى غيرهم قليل. ويحتمل أن يكون (ص) اطَّلع على أنَّهم يقلُّون مطلقاً ، فأخبر بذلك ، فكان كما أخبر؛ لأنَّ الموجودين الان من ذرِّية عليِّ بن أبي طالبٍ ممَّن يتحقَّق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممَّن يتحقق نسبه ، وقس على ذلك ، ولا التفات إلى كثرة مَنْ يدَّعي: أنَّه منهم بغير برهانٍ» فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٨٠١). .[٤٧٥]قضوا الَّذي عليهم: يشير إلى ما وقع لهم ليلة العقبة من المبايعة ، فإنهم بايعوا على أن يؤووا النَّبيَّ (ص) ، وينصروه على أنَّ لهم الجنَّة ، فوفوا بذلك. فتح الباري ، شرح حديث رقم (٣٧٩٩) ، وهذا الحديث موجودٌ بنحوه في البخاريِّ ، رقم (٣٧٩٩).

.[٤٧٦]انظر: الهجرة النَّبويَّة المباركة ، ص ١٥١ ومن أراد المزيد؛ فليرجع إلى صحيح البخاريِّ ، كتاب مناقب الأنصار حديث رقم (٣٧٧٦ ، ٣٩٤٨) ومسلم ، كتاب فضائل الصَّحابة رضي الله عنهم ، حديث رقم (٢٥٠٥ ، ٢٥١٣).

.[٤٧٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري ، (١/٢٧٥).

.[٤٧٨]تنظيمات الرَّسول (ص) الإدارية في المدينة ، لصالح العلي ، ص ٤ ـ ٥.

.[٤٧٩]مجموعة الوثائق السِّياسية، لمحمَّد حميد الله ، ص ٤١ ـ ٤٧ ، وابن هشام (١٤٧/٢ ـ ١٥٠).

.[٤٨٠]الربعة: الحال الَّتي جاء الإسلام، وهم عليها.

.[٤٨١]العاني: الأسير.

.[٤٨٢]معاقلهم: المعاقل أي: الدِّيات ، الواحدة: معقلة.
.[٤٨٣]مُفْرَحاً: أي: المثقل بالدَّين ، والكثير العيال.
.[٤٨٤]دسيعة: عظيمة.

.[٤٨٥]يُبأى: من «البَوَاء» وهو المساواة.
.[٤٨٦]أي: قتله دون جنايةٍ ، أو سببٍ يوجب قتله.
.[٤٨٧]القود: القصاص.
.[٤٨٨]المحدث: يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول ، فمعنى الكسر: من نصر جانياً ، واواه ، وأجاره من خصمه ، وحال بينه وبين أن يقتصَّ منه ، وبالفتح: هو الأمر المبتدع نفسه ، ويكون معنى الإيواء فيه الرِّضا به ، والصَّبر عليه ، فإنَّه إذا رضي بالبدعة ، وأقرَّ فاعلها ، ولم ينكرها عليه؛ فقد اواه.
.[٤٨٩]يوتغ: يهلك ، والوتغ ـ بالتَّحريك ـ: الهلاك. والمعنى: فسد ، وهلك ، وأثم.

.[٤٩٠]انظر: مجموعة الوثائق السِّياسيَّة ، ص ٤١ ـ ٤٧.
.[٤٩١]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ١٦٩.
.[٤٩٢]انظر: دستورٌ للأمَّة ، د. عبد النَّاصر العطَّار ، ص ٩.
.[٤٩٣]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، د. السَّيِّد عبد العزيز سالم ، ص ١٠٠.
.[٤٩٤]انظر: قيادة الرَّسول (ص) السِّياسيَّة والعسكريَّة ، لأحمد راتب ، ص ٩٣.

.[٤٩٥]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/٢٩٣).
.[٤٩٦]تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ، وسيرة ابن هشام (١/٥٥٠).
.[٤٩٧]الكَتَم: جَنْبَةٌ من الفصيلة المرسينية ، قريبة من الاس ، تنبت في المناطق الجبلية ، وكانت تُستعمل قديماً في الخِضابِ ، وَصُنْعِ المِداد.
.[٤٩٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٩٣).

.[٤٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، (١/٢٩٣).

.[٥٠٠]انظر: نظام الحكم ، لظافر القاسمي (١/٣٧).

.[٥٠١]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، للسيد عبد العزيز ، ص ١٠٢.

.[٥٠٢]انظر: تفسير المنار (١٢/٣٠٩).

.[٥٠٣]انظر: الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي (١/٤٣٣).

.[٥٠٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٩١).

.[٥٠٥]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٤١٨.

.[٥٠٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٢٠.

.[٥٠٧]انظر: نظام الحكم ، لظافر القاسمي (١/٣٨).

.[٥٠٨]قال (ص) : «المدينة حَرَمٌ ما بين عَيْرٍ إلى ثَوْر ، فمن أحدث فيها حدثاً ، أو اوى مُحْدِثاً ، فعليه لعنة الله...» البخاري (٦٧٥٥) ، ومسلمٌ ، كتاب الحجِّ ، باب فضل المدينة... وبيان حدود حرمها ، رقم (١٣٧٠).

.[٥٠٩]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٤١١.

.[٥١٠]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٤٢١.

.[٥١١]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٢٠.

.[٥١٢]انظر: النظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لأبي فارس ، ص ٦٥.

.[٥١٣]انظر: النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لأبي فارس ، ص ٥٨.

.[٥١٤]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٢.

.[٥١٥]انظر: الحكومة الإسلاميَّة ، ص ٢٠٢.

.[٥١٦]يلج: يدخل.

.[٥١٧]انظر: محمد رسول الله (ص) (٣/١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤).

.[٥١٨]المصدر نفسه (٣/١٤٤ ، ١٤٥).

.[٥١٩]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، (٣/١٤٥).
.[٥٢٠]انظر: الرَّوض الأُنف (٢/١٧) ، نقلاً عن نظام الحكم ، للقاسمي (١/٣٨).
.[٥٢١]انظر: مبادأى نظام الحكم في الإسلام ، لعبد الحميد متولِّي ، ص ٣٨٥.
.[٥٢٢]انظر: الأخلاق الإسلاميَّة وأسسها ، للميداني (١/٦٢٤).
.[٥٢٣]انظر: فلسفة التَّربية الإسلاميَّة ، لماجد الكيلاني ، ص ١٧٩.
.[٥٢٤]انظر: مبادأى علم الإدارة ، لمحمَّد نور الدِّين ، ص ١١٦.

.[٥٢٥]انظر: فقه التمكين ، د. علي الصَّلابي ، ص ٤٦٣.
.[٥٢٦]انظر: فقه التَّمكين ، ص ٤٦٦.
.[٥٢٧]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، د. محمد فوزي فيض الله، ص (٢٩، ٣٠).

.[٥٢٨]انظر: هجرة الرَّسول (ص) وصحابته ، للجمل ، ص ٢٦١.
.[٥٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/٥١٨ ، ٥١٩).
.[٥٣٠]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لمحمد أبو فارس (١/٣١).
.[٥٣١]المصدر السابق نفسه (١/٣١ ـ ٤٦).

.[٥٣٢]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/٤٤).
.[٥٣٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٤/٣٧).
.[٥٣٤]عَسَا: كَبِرَتْ سِنُّه.
.[٥٣٥]قيلة: أمُّ الأوس والخزرج.
.[٥٣٦]جَذَعَة: أي: رددنا الحرب فتيةً قويَّةً ، أو: رددنا الاخر إلى أوله.

.[٥٣٧]انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢١١ ـ ٢١٤).
.[٥٣٨]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/٤١ ـ ٤٢).

.[٥٣٩]المِدْراس: مكان يُتلى فيه التَّوراة.
.[٥٤٠]انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/٢٩٥).
.[٥٤١]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/٥٥٨ ـ ٥٥٩) ، وسبل الهدى والرَّشاد (٣/٥٨٣ ـ ٥٨٥) ، وتفسير مجاهد ، ص ١٤٠.
.[٥٤٢]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/٥١).
.[٥٤٣]السَّام: الموت. انظر: زاد المسير (٨/١٨٩).
.[٥٤٤]زاد المسير في علم التفسير (٨/١٨٩) ، رواه ابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن مسروقٍ ، عن عائشة ، وإسناده صحيحٌ.

.[٥٤٥]انظر: حوار الرَّسول (ص) مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص ١٠١.
.[٥٤٦]انظر: حوار الرَّسول (ص) مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، ص ٨٧.
.[٥٤٧]انظر: ابن هشام في السِّيرة (١/٥٦٧) ، وتفسير ابن جرير (١/٤٤٢) ، وانظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، لعبد الله الشَّقاري (١/٢٤٢ ـ ٢٤٣).
.[٥٤٨]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (١/٢٤١) ، وتفسير ابن كثير: سورة الإسراء الاية (٨٥).

.[٥٤٩]انظر: تفسير النَّسفي (١/٢١).
.[٥٥٠]انظر: سيرة الرَّسول (ص) ، لدروزة (٢/١٧٩ ، ١٨٠).
.[٥٥١]المصدر السابق نفسه (٢/١٨٠).
.[٥٥٢]انظر: النكت والعيون ، للماوردي (٤/٢٠٣).

.[٥٥٣]قطيفة فدكية: كساءٌ غليظٌ منسوبٌ إلى فَدَك ، وهي بلدٌ مشهور على مرحلتين من المدينة.
.[٥٥٤]يتثاورون: أي: يتواثبون ، والمعنى: كادوا أن يَثِبَ بعضهم على بعضٍ فيقتتلوا ، ويقال: ثار ، إذا قام بسرعةٍ وانزعاجٍ.
.[٥٥٥]البحيرة: لفظ يطلق على القرية والبلد ، والمراد به هنا المدينة النَّبويَّة.
.[٥٥٦]يعني: يرئِّسونه عليهم ، ويسودونه.

.[٥٥٧]انظر: الصِّراع مع اليهود (٥٩/١).
.[٥٥٨]انظر: أسباب النزول ، للواحديِّ ، ص ١١٤.
.[٥٥٩]الشوكة: حُمرةٌ تعلو الوجه والجسد.
.[٥٦٠]أتَمَحَّلنَّ: أي: لأحاولنَّ له في حيلةٍ يشفى بواسطتها ، انظر: النهاية (٣٠٣/٤).

.[٥٦١]حوْران: هي كيةٌ مُدَوَّرةٌ ، من: حار يحور إذا رجع ، وحوّره: إذا كواه هذه الكية ، وتسمى حوراء أيضاً ، انظر: النِّهاية (٤٥٩/١).
.[٥٦٢]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢٦٥/١).
.[٥٦٣]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢٥٨/١).

.[٥٦٤]هو بالرفع؛ عطفاً على اليهود.
.[٥٦٥]انظر الصِّراع مع اليهود (١٠٢/١).
.[٥٦٦]انظر: تفسير أبي السُّعود (١٧١/١).

.[٥٦٧]المصدر السابق نفسه (١٧٠/١).
.[٥٦٨]كانت رسالة الماجستير للمؤلف حول هذه الاية (الوسطية في القران الكريم) وتحدَّث عنها في حوالي ٧٠٠ صفحة.
.[٥٦٩]انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الاية.
.[٥٧٠]انظر تفسير ابن كثير في تفسيره لتلك الاية ، (٤٣٠/٢).
.[٥٧١]انظر: تفسير البيضاوي ، نقلاً عن الصِّراع مع اليهود (١٠١/١).

.[٥٧٢]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٠١/١).
.[٥٧٣]انظر: تفسير ابن كثير (٣٣٧/١).
.[٥٧٤]في ظلال القران ج ١٣١/٢ ـ ١٣٣.

ـ الخَطَلُ: الكلامُ الفاسدُ الكثيرُ المضطرب.

. انظر: الصِّاع مع اليهود (١/١٠٠).

. انظر: الأساس في السُّنَّة (١/٤٤٠).

.[٥٧٥]الصُّقْع: الناحية ، والجمع: أَصْقَاع.

.[٥٧٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٤٣٨ ـ ٤٤٢).

.[٥٧٧]المصدر السابق نفسه ، (٢/٤٤٢).

.[٥٧٨]راجع الرِّسالة القيمة: «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» ، د. عبد الله الشقاري.

.[٥٧٩]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٥٠٧).

.[٥٨٠]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٥٠٩).

.[٥٨١]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٤٦٣ ـ ٤٨٢).

.[٥٨٢]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/٧٠).

.[٥٨٣]انظر: اليهود في السنَّة المطهَّرة (٢/٤٩٥ ـ ٤٩٦).

.[٥٨٤]انظر: تفسير الطَّبريِّ (٦/١٠٥).

.[٥٨٥]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٢/٤٨٧ ـ ٤٨٨).

.[٥٨٦]انظر: دراساتٌ في السِّيرة ، ص ١٥١.

.[٥٨٧]اغْتَرَّ فلانٌ بكذا: خُدِعَ به.

.[٥٨٨]عُرْض الشَّيء: جانبه ، وناحيته. ويقال: ضربَ بالأمر عُرْض الحائط: أهمله ، ولم يُبالِ به.

.[٥٨٩]انظر: العهد والميثاق في القران الكريم ، د. ناصر العمر ، ص ١٢١.

.[٥٩٠]انظر: تفسير الطَّبري (٨/٣٠) ، والتَّحرير والتَّنوير(١٠/٤٨).

.[٥٩١]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/٨٠).

.[٥٩٢]المصدر السابق نفسه ، (١/٧٩).

.[٥٩٣]انظر: قضايا في المنهج ، لسلمان العودة ، ص ٨٤ ـ ٨٥.
.[٥٩٤]مُنِيَ بكذا: ابْتُلِيَ به.

.[٥٩٥]انظر: قضايا في المنهج ، ص ٨٦.
.[٥٩٦]انظر: قضايا في المنهج ، ص ٨٦ ـ ٨٧.

.[٥٩٧]انظر: مفاتيح الغيب ، للفخر الرَّازي (٣/٥١٤).

.[٥٩٨]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٤٣٨ .
.[٥٩٩]انظر: تفسير الالوسي (٦/١٠٨).
.[٦٠٠]انظر: القتال والجهاد ، لمحمد خير هيكل (١/٤٦٣ ، ٤٦٤).

.[٦٠١]انظر: دراساتٌ في السِّيرة ص ١٦١.

.[٦٠٢]منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون (١/٢٩٣).
.[٦٠٣]المصدر السابق نفسه (١/٢٩٤).

.[٦٠٤]أي: أن يبيع الرَّجل لغيره سلعةً ، ثم يشتريها منه بثمنٍ أقلَّ.
.[٦٠٥]معناه: اتخذتم الماشية للحرث والرَّي ، وعكفتم على ذلك ، فلم تنشغلوا إلا به.

.[٦٠٦]في ظلال القران (١/١٨٧).
.[٦٠٧]تفسير النَّسفي (٣/١٠٦) ، والكشَّاف (٣/١٦) ، وتفسير المراغي (٦/١١٩).

.[٦٠٨]تفسير ابن كثير (١/٢٦٢).
.[٦٠٩]تفسير الكشَّاف (١/٣٨٢) ، وتفسير أبي السُّعود (١/٢٤٥).
.[٦١٠]تفسير السَّعدي (١/٣٠٩).
.[٦١١]تفسير ابن كثير (٤/١٥٤).

.[٦١٢]الزَّغلُ: الغِشُّ.
.[٦١٣]شال الميزان: ارتفعت إحدى كفَّتيه ، انظر: لسان العرب (٣٧٥/١١).
.[٦١٤]في ظلال القران (٣٢٨٦/٦).

.[٦١٥]انظر: تفسير ابن كثير (٣٧١/١).
.[٦١٦]انظر: الجهاد في سبيل الله ، د. عبد الله القادري (١٦٢/٢).

.[٦١٧]انظر: تفسير القرطبي (٢٧٩/٥).
.[٦١٨]انظر: المغني (٢٧٩/٩).
.[٦١٩]انظر: حاشية ابن عابدين (١٢٤/٤).

.[٦٢٠]انظر: المبسوط ، للسَّرخسي (٨٥/١٠).
.[٦٢١]انظر: فقه التمكين في القران الكريم ، للصَّلابي ، ص ٤٨٨ .
.[٦٢٢]انظر: الهجرة في القران الكريم ، ص ٤٥٣ .
.[٦٢٣]الحركات العسكريَّة للرَّسول الأعظم (ص) في كفتي الميزان ، لسيف الدِّين ، ص ٦٢ .

.[٦٢٤]قَوَّض البناء: هَدَمَه ، وتَقَوَّضت الصُّفوف والمجالسُ: تفرَّقت.
.[٦٢٥]انظر: مرويات غزوة بدر ، لأحمد باوزير ، ص ٧٩.
.[٦٢٦]جمع صابأى: أي الخارج عن دينه. وكان المشركون يسمُّون من أسلم صابئاً.
.[٦٢٧]انظر: سيرة ابن هشام (الروض الأنف ١٩٢/٢).

.[٦٢٨]انظر: الجهاد والقتال (٤٧٦/١).
.[٦٢٩]انظر: الجهاد والقتال (٤٧٧/١).
.[٦٣٠]قيل: سمِّيت بذلك لما فيها من الوباء.
.[٦٣١]ودَّان: قرية قريبة من الأبواء.

.[٦٣٢]انظر: جيش النَّبي (ص) ، لمحمود شيت خطاب، ص ٥٤ ، والرَّاجل: خِلاف الفارس، والجمع: رَجَّالةٌ.

.[٦٣٣]انظر: طبقات ابن سعد (٢/٧).

.[٦٣٤]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) ، د. محمد بكر ال عباد (١/٤٠).

.[٦٣٥]سيف: السِّيف ـ بالكسر ـ: الشاطأى والسَّاحل ، والجمع: أسياف.

.[٦٣٦]سيف البحر: ساحله من ناحية العيص.

.[٦٣٧]العيص ـ بالكسر ـ: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

.[٦٣٨]انظر: سيرة ابن هشام (١/٥٩٥).

.[٦٣٩]بُواط ـ بفتح الموحدة وضمِّها ـ: جبلٌ من جبال جهينة ، بناحية رضوى بقرب ينبع.

.[٦٤٠]العشيرة: موضع بين مكَّة والمدينة من ناحية ينبع على ساحل البحر الأحمر. (مراصد الاطلاع: ٢/٩٤٣). .[٦٤١]انظر: طبقات ابن سعد (٢/١٠).

.[٦٤٢]المصدر السابق نفسه (٢/١١).

.[٦٤٣]علم لموضع بالحجاز قرب الجحفة ، انظر: (مراصد الاطلاع: ١/٤٥٥).

.[٦٤٤]انظر: سيرة ابن هشام (٢/٦٠٠).

.[٦٤٥]السَّرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

.[٦٤٦]انظر: سيرة ابن هشام (٢/٦٠١).

.[٦٤٧]نخلة اليمانية: وادٍ عسكرت به هوازن يوم حنين.

.[٦٤٨]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٤٣) ، وقد كانت هذه السَّريَّة في شهر رجب ، وهو أحد الأشهر الحُرم ، فلمَّا كانوا في اخر يومٍ من رجب وتعرضوا لهذه القافلة ، تشاوروا ، وقالوا: نحن في اخر يومٍ من رجب ، فإن قاتلناهم؛ انتهكنا الشَّهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة؛ دخلوا الحرم ، ثمَّ اجتمعوا على اللقاء ، فقتلوا ، وأسروا ، وأنكر رسول الله (ص) ما فعلوه ، وقال: «ما أمرتكم بقتالٍ في الشَّهر الحرام» فنزلت الاية.

.[٦٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١/٧٥ ، ٧٦).

.[٦٥٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٧٥ .

.[٦٥١]في ظلال السيرة ـ غزوة بدر ، لأبي فارس ، ص ١٢ .

.[٦٥٢]انظر: الوثائق السِّياسيَّة ، لحميد الله ، ص ٦٥ .

.[٦٥٣]انظر: الرَّوض الأُنف (٥/٤٣).

.[٦٥٤]انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ١٦٣ .

.[٦٥٥]انظر: تفسير القرطبيِّ (٦/٢٣٠).

.[٦٥٦]انظر: ولاية الشرطة في الإسلام ، د. عمر محمد الحميداني ، ص ٦٣ .

.[٦٥٧]كناية عن التأبيد والاستمرار.

.[٦٥٨]الوثائق السِّياسيَّة ، لمحمد حميد الله ، ص ٢٢٠ رقم (١٥٩).

.[٦٥٩]انظر: نشأة الدَّولة الإسلاميَّة ، د. عون الشريف ، ص ٤٣ .

.[٦٦٠]انظر: الفقه السِّياسي ، لخالد سليمان الفهداوي ، ص ١١٩ .

.[٦٦١]المصدر السابق نفسه ، ص ١٢٤ .

.[٦٦٢]هذه القاعدة أصلها حديثٌ نبويٌّ.

.[٦٦٣]انظر: المدخل الفقهي ، للشَّيخ الزرقا ، ص ٩٧٢ .

.[٦٦٤]انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية ، د. محمد خير هيكل (١/٤٧٩).

.[٦٦٥]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٠ .

.[٦٦٦]انظر: الدَّعوة الإسلامية ، د. عبد الغفار عزيز ، ص ٢٩٦ .

.[٦٦٧]انظر: صحيح سنن التِّرمذيِّ (٢/٢٧٧).

.[٦٦٨]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، د. بريكك العُمري ، ص ٩١ .

.[٦٦٩]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٩٢ .

.[٦٧٠]انظر: مجموعة الوثائق السِّياسيَّة ، لمحمد حميد الله ، ص ٦٢ .

.[٦٧١]انظر: المواهب اللَّدنيَّة (١/٧٥).

.[٦٧٢]انظر: طبقات ابن سعد (٢/٦) ، وانظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٨٥ .

[٦٧٣]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٨٦.

[٦٧٤]انظر: الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية (١/٤٧٨ ، ٤٧٩).

[٦٧٥]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٨٦.

[٦٧٦]حَنق عليه حنقاً: اشتد غيظه ، فهو حنقٌ ، وحنيقٌ.

[٦٧٧]القردان: جمع قراد وهي دويبة تعض الإبل.

[٦٧٨]المناسم: جمع منسم ، وهو طرف خُفِّ البعير ، وقيل: هو للنَّاقة كالظُّفر للإنسان.

[٦٧٩]كناية عن الأوس والخزرج ، فقيلة أمُّهم وكانوا يُنسبون إليها.

[٦٨٠]انظر: سيرة ابن هشام (١/٢١٨ ، ٢١٩).

[٦٨١]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ مواقف وعبر (٤/٧١).

[٦٨٢]المصدر السابق نفسه.

[٦٨٣]انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول (ص) ، للأستاذ أحمد الشريف ، ص ٤٤٥.

[٦٨٤]انظر: السرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٠٠.

[٦٨٥]انظر: مكَّة والمدينة في الجاهلية وعهد الرَّسول (ص) ، للأستاذ أحمد الشريف ، ص٤٤٥.

[٦٨٦]انظر: سيرة ابن هشام (١/٦٠٣ ، ٦٠٤).

[٦٨٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ (٤/٧٢).

[٦٨٨]سقط في أيديهم: أي: ندموا على ما فعلوا ، وهو تعبير قرانيٌّ في سورة الأعراف ، الاية (١٤٩).

[٦٨٩]انظر: دولة الرسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٣.

[٦٩٠]انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص ١٠٠.

[٦٩١]المصدر السابق نفسه.

[٦٩٢]المصدر السابق نفسه.

[٦٩٣]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لمحمد أبو فارس ، ص ٢٣.

[٦٩٤]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، لخطاب ، ص ٩٤.

.[٦٩٥]انظر: سيرة ابن هشام (٦٠٢/٢) من رواية ابن إسحاق عن عروة.
.[٦٩٦]انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (٦/٢).
.[٦٩٧]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، (ص ١٤ ـ ٢٤).

.[٦٩٨]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التكوين إلى التمكين ، ص ٥٣٢.
.[٦٩٩]انظر: سورة قريش (١ ـ ٤).
.[٧٠٠]انظر: المجتمع المدني ، د. أكرم ضياء العمري ، ص ٢٧.
.[٧٠١]انظر: دراسات في السِّيرة ، لمؤنس ، ص ١٩.
.[٧٠٢]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، د. عبد الرحمن الشُّجاع ، ص ١٣١.

.[٧٠٣]المتَنَبِّل: هو الذي يناول السَّهم للرَّامي.

.[٧٠٤]الخلصة: بفتح الخاء المعجمة واللاَّم ، بعدها مهملةٌ ، وحكى ابن دريد فتح أوله ، وإسكان ثانيه ، وحكى ابن هشام ضمَّهما ، وقيل: بفتح أوله وضمِّ ثانيه ، والأوَّل أشهر ، وانظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤٣٥٥).
.[٧٠٥]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص ٦١ ـ ٦٥).
.[٧٠٦]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، (ص ٦٥ ـ ٦٦).

.[٧٠٧]انظر: الظلال (٢٧/١) وما بعدها.
.[٧٠٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لدروزة (٧٣/٢ ـ ٧٦) نقلاً عن: دراسات في عهد النُّبوة، د. عبد الرحمن الشُّجاع ، ص ١٧٢.

.[٧٠٩]يقال: جاء القومُ قاطبةً: أي: جميعاً.
.[٧١٠]التمكين للأمَّة الإسلاميَّة ، ص ٦٢.
.[٧١١]انظر: مناهج واداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم ، د. عبد الرحمن البر ، ص ٥٩ ، ٦٠.

.[٧١٢]عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ (ص) كان يُحَدِّث حديثاً لو عدَّه العادُّ؛ لأحصاه ، انظر: البخاريِّ رقم (٣٥٦٧).
.[٧١٣]أسبِّح: أصلي النَّافلة ، وهي السُّبحة ، وقيل: صلاة الضُّحى.
.[٧١٤]يتخوَّلنا: يتعهدنا.
.[٧١٥]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٦٥.

.[٧١٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥ ، وكلُّ وسائل التَّعليم النبويَّة اختصرتها من هذا الكتاب القيِّم.
.[٧١٧]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٦٧.
.[٧١٨]أي: ليكن العلم هنيئاً لك.

.[٧١٩]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٦٩.
.[٧٢٠]كنفته: يعني: عن جانبه ، والكنف ـ بالتَّحريك ـ: النَّاحية ، والجانب.
.[٧٢١]جدي أسكَّ: أي: صغير الأذنين.

.[٧٢٢]القهقَرى: المشي إلى خلف ، من غير أن يعيد وجهه إلى جهة مشيه.
.[٧٢٣]ولتعلَّموا: أي: لتتعلموا ، فحذف إحدى التاءين.
.[٧٢٤]انظر: مناهج واداب الصَّحابة في التعلُّم والتَّعليم ، ص ٧٤.
.[٧٢٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٨٥.

.[٧٢٦]المصدر السابق نفسه . ص ٨٦.
.[٧٢٧]وا: حرف للنُّدبة والحسرة ، والثكل: فقدان المرأة ولدها ، وأمِيِّاه ـ هو بكسر الميم ـ: أي: يا أمَّاه.
.[٧٢٨]ما كَهرني: أي: ما انتهرني.

.[٧٢٩]الرُّغاء: صوت الإبل عند رفع الأحمال عليها ، والخوار: صوت البقر ، وتيعر: يعني: تصيح.

.[٧٣٠]فتح الباري (١/١٨٧).
.[٧٣١]السَّبْيُ: الأسرى.

.[٧٣٢]تَحْلُبُ ثديَها ، وفي لفظٍ اخر: تَحَلَّبَ ثديُها ، أو ثدياها: أي: تهيأ لأن يُحْلَب.
.[٧٣٣]تسقي: تبتغي ولداً ترضعه؛ لأنَّ ثديها قد امتلأ ، وتضرَّرت باجتماع اللبن فيه ، وفي روايةٍ (تسعى): وهو من السَّعي ، وهو المشي بسرعة ، أي: تسعى للبحث عن ولدها الَّذي فُقِدَ منها.
.[٧٣٤]أتُرَوْنَ . بضم المثناة .: أي: أتظنُّون.
.[٧٣٥]أي: لا تطرحه ما دامت تقدر على حفظه معها ووقايته وعدم طرحه في النَّار.
.[٧٣٦]الرَّسول المعلِّم (ص) ، لعبد الفتاح أبو غدة ، ص ١٦٠ ، وهذا المبحث اختصرته من مناهج واداب الصَّحابة في التعلم والتعليم ، للدُّكتور عبد الرحمن البر.

.[٧٣٧]انظر: الرَّسول المعلم (ص) وأساليبه في التَّعليم ، ص ٣٠.
.[٧٣٨]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٧٧.
.[٧٣٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٨٧.

.[٧٤٠]غُرْلاً: جمع أغرَل ، وهو الأقلف ، والغُرْلَة: القُلفة، والقُلفة: هي القطعة التي تُقطع من الذَّكر عند الختان.
.[٧٤١]أقِصَّه: أمكِّنَهُ من أخذ القصاص ممَّن ظلمه.
.[٧٤٢]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٨٠.
.[٧٤٣]أخرجه الخطيب في الجامع (٣٦٣/١ . ٣٦٤) وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف.
.[٧٤٤]أخرجه الخطيب في الجامع (٨٦/٢) رقم (١٢٢٩) ، والسَّمعاني في أدب الإملاء والاستملاء، ص ٤٨.

.[٧٤٥]انظر: مناهج واداب الصَّحابة ، ص ٩٦.
.[٧٤٦]أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب بإسنادٍ صحيحٍ في كتاب العلم ، ص ٢٠ ، رقم (٧٧).
.[٧٤٧]شرح النَّوويِّ على مسلم (٧٤١/٣) طبعة الشَّعب.

.[٧٤٨]أي: بيع ما يجهله المتبايعان ، أو ما لا يُوثَقُ بتسلُّمه ، كبيع السَّمك في الماء.
.[٧٤٩]انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، لأحمد الدرويش ، ص ٣٥ ، ٣٦.

.[٧٥٠]تحفة الأحوذي ، بشرح جامع التِّرمذيِّ (٩/٣٨٦).
.[٧٥١]السَّخَب ، ويقال: الصَّخَب: رفع الصَّوت بالخصام.
.[٧٥٢]انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٤١.
.[٧٥٣]اللَّعَّانيْن: المراد بها الأمرين الجالبين لِلَّعن ، الحاملين النَّاس عليه ، وقد يكون اللاَّعن بمعنى الملعون ، والتَّقدير: اتقوا الأمرين الملعون فاعلُهما.

.[٧٥٤]النَّبل: السِّهام العربيَّة ، ولا واحد لها من لفظها.
.[٧٥٥]النَّصْل: حديدة السَّهم ، والرُّمح ، والسَّيف ما لم يكن له مقبض.
.[٧٥٦]انظر: أحكام السُّوق ، ص ٤٤.
.[٧٥٧]مَنْفَقَة ، ومَمْحَقة: فيه النَّهي عن الحَلِف في البيع؛ فإنَّ الحلف من غير حاجةٍ مكروهٌ ، وينضمَّ إليه ترويج السِّلعة ، وربما اغترَّ المشتري باليمين.
.[٧٥٨]شرح السُّيوطي على سنن النَّسائي (٧/٢٤٦).

.[٧٥٩]في ظلال السِّيرة النَّبويَّة ـ الهجرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٧٠.
.[٧٦٠]انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٥٣.
.[٧٦١]انظر: أحكام السُّوق في الإسلام ، ص ٥٨٥ ، ٥٨٦.
.[٧٦٢]انظر: زاد المسير ، لابن الجوزي (٧/٧٧).

.[٧٦٣]انظر: أسباب هلاك الأمم السَّالفة ، لسعيد محمَّد ، ص ٤٤٦.
.[٧٦٤]انظر: دراساتٌ في عصر النُّبوَّة ، للشُّجاع ، (ص ١٦٦ ـ ١٦٨).

.[٧٦٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/١٠٦) ، ومنهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/٢٥١ ، ٢٥٢).
.[٧٦٦]انظر: منهج الإسلام في تزكية النَّفس (١/٢٦٨ ، ٢٦٩).

.[٧٦٧]انظر: المال في القران الكريم ، لسليمان الحصين ، ص ٣٣٤.
.[٧٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٠٩).

.[٧٦٩]المصدر السابق نفسه (١١٠/٢).
.[٧٧٠]صحيح سنن النَّسَائي ، للألباني ،كتاب الزَّكاة ، باب فرض صدقة الفطر قبل نزول الزَّكاة ، ورقمه (٢٥٠٦) وصححه.
.[٧٧١]فتح الباري (٢٠٧/٣).
.[٧٧٢]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (١١١/٢).

.[٧٧٣]انظر: فقه الزَّكاة ، للقرضاوي (٧٧/١).
.[٧٧٤]المصدر السابق نفسه ، (٧٠/١).

.[٧٧٥]الأموال ، ص ٣٥ نقلاً عن فقه الزَّكاة (٧٠/١).
.[٧٧٦]انظر: فقه الزَّكاة (٧٨/١).
.[٧٧٧]المصدر السابق نفسه (٨٩/١).

.[٧٧٨]انظر: منهج الإسلام في تزكية النفس (٢٤٩/١).
.[٧٧٩]انظر: المال في القران الكريم ، ص٢٤٠.
.[٧٨٠]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (١١٥/٢).

.[٧٨١]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٦٨.
.[٧٨٢]انظر: الأساس في السُّنَّة (٤٢٠/١).
.[٧٨٣]انظر: سيرة ابن هشام (٤٢٤/١).
.[٧٨٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٧١.

.[٧٨٥]انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (٣٥٥/١) نقلاً عن (من معين السيرة).
.[٧٨٦]انظر: من معين السيرة ، ص ١٧١.
.[٧٨٧]المصدر السابق نفسه.
.[٧٨٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ١٧٢.
.[٧٨٩]المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٣.

.[٧٩٠]ينظر الشكلان (١٤ و١٥) في الصفحتين (٧٥٠ و٧٥١).
.[٧٩١]قُدِّرتْ قيمة البضائع التي تحملها القافلة بحوالي ٥٠ ألف دينار ، انظر: موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (ص) (١/٢٨٦).
.[٧٩٢]جوامع السِّيرة ، لابن حزم ص ١٠٧.
.[٧٩٣]ورد هذا الاسم في مسلمٍ هكذا: «بُسَيْسَة» في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشَّهيد ، رقم (١٩٠١) ، قال النَّووي في شرحه على الحديث: «هكذا في جميع النسخ ، والمعروف في كتب السيرة (بَسْبَس)... قلت: يجوز أن يكون أحد اللفظين اسماً له ، والاخر لقباً».
.[٧٩٤]مسلمٌ ، رقم (١٩٠١).
.[٧٩٥]سيرة ابن هشام (٢/٦١) بسندٍ صحيح إلى ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.
.[٧٩٦]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) ، د. محمَّد ال عابد (١/٤٣).

.[٧٩٧]البداية والنِّهاية (٣/٢٦٠) ، والمستدرك للحاكم (٣/٦٣٢).
.[٧٩٨]هما عديُّ بن أبي الزَّغْباء ، وبسبس بن عمرو ، انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٢/٢٤).
.[٧٩٩]الطَّبقات ، لابن سعد (٢/٤٢) بإسناد صحيح.
.[٨٠٠]البداية والنِّهاية (٣/٣١٤) وكذلك الطَّبقات ، وخليفة بن خيَّاط.
.[٨٠١]القَيْنَة: المغنِّية ، والجمع: قِيَان.
.[٨٠٢]البداية والنَّهاية (٣/٢٦٠).

.[٨٠٣]انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/٢٨٧).
.[٨٠٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٢/٢٣٠).
.[٨٠٥]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٣٣ ، ٣٤.

.[٨٠٦]انظر: موسوعة نضرة النعيم (١/٢٨٧).
.[٨٠٧]اللَّطِيمة: القافلة المحمَّلة بشتَّى أنواع البضاعة غير الطعام.
.[٨٠٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢/٢٢١).

.[٨٠٩]نصحهم الأَخْنَسُ بن شريق بذلك ، انظر: ابن هشام (٢٣١/٢).
.[٨١٠]انظر: موسوعة نضرة النعيم (٢٨٧/١).
.[٨١١]البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ} ، رقم (٣٩٥٢) ، وانظر: شرح هذا الحديث في فتح الباري.

.[٨١٢]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (٢٨٨/١).
.[٨١٣]المقصود: المبالغة في عظمة ذلك المشهد ، وأنَّه كان لو خُيِّر بين أن يكون صاحبه وبين أن يحصل له ما يقابل ذلك ، لكان حصوله أحبَّ إليه.
.[٨١٤]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٣٧.

.[٨١٥]انظر: زاد المعاد (١٧٢/٣).

. انظر سيرة ابن هشام (٢٢٨/٢).
. مسلمٌ، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد، شرح حديث رقم (١٩٠١).

.[٨١٦]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (١١٠/٤).

.[٨١٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٢١/٣).
.[٨١٨]انظر: تفسير القرطبي (٢٥/٨).
.[٨١٩]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) (٦٥/١ ، ٦٦).
.[٨٢٠]العُجْب: الكِبْرُ ، والزَّهْوُ.
.[٨٢١]انظر: تفسير الرَّازي (١٧٣/١٥) بتصرف يسير.

.[٨٢٢]انظر: تفسير القرطبي (٢٥/٨).
.[٨٢٣]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٦٨/١).

.[٨٢٤]السَّحْرُ: الرِّئة ، وانتفاخ السَّحْر: كناية عن الجبن.

.[٨٢٥]هو عمرو بن الحَضْرمي الَّذي قتله وافد بن عبد الله في سريَّة عبد الله بن جحش في الشَّهر الحرام.
.[٨٢٦]ابن الحَنْظَلِيَّة هو أبو جهل ، وهي أسماء بنت مُخَرَّبة من بني تميم.
.[٨٢٧]المقصود هنا عامر أخو عمرو المتقدِّم.
.[٨٢٨]انظر: مرويات غزوة بدر ، ص ١٥٥.

.[٨٢٩]البلايا: جمع بلية ، وهي النَّاقة أو الدَّابة تُربط على قبر الميت فلا تعلف ، ولا تسقى حتَّى تموت.
.[٨٣٠]مَنَايَا: جمع مَنِيَّة ، وهي الموت.
.[٨٣١]نواضح: الإبل الَّتي يُستقى عليها الماء.
.[٨٣٢]النَّاقع: الثَّابت البالغ في الإفناء ، يقال: موتٌ ناقعٌ ، أي: دائم.
.[٨٣٣]انظر: البداية والنِّهاية (٣/٢٦٩).
.[٨٣٤]سيرة ابن هشام (عقبة يتهكم بأمية لقعوده فيخرج).
.[٨٣٥]انظر: مرويات غزوة بدر ، (ص ١٣٨).

.[٨٣٦]انظر: المجتمع المدني في عصر النبوة ، للعمري ، (ص ١٣٨) وهذه القصة مروية في سيرة ابن هشام في باب (ذكر رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب).
.[٨٣٧]نَضْح: أصابه رشاشٌ من دمه.
.[٨٣٨]سيرة ابن هشام (رؤيا جُهَيْم بن الصَّلْت في مصارع قريش).
.[٨٣٩]حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) .

.[٨٤٠]انظر: تفسير الكشَّاف للزَّمخشريِّ (٢/١٦٠).
.[٨٤١]انظر: تفسير الطَّبري (١٠/١١).
.[٨٤٢]انظر: تفسير الالوسي (١٠/٧) بتصرف.
.[٨٤٣]انظر: تفسير الالوسي (١٠/٧) بتصرف.

.[٨٤٤]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، ص ٦٦.

.[٨٤٥]الْمِنَّةُ: الإحسان والإنعام ، والجمع: مِنَنٌ.

.[٨٤٦]انظر: تفسير القرطبيّ (٣٢٧/٧).
.[٨٤٧]انظر: تفسير الفخر الرَّازي (١٣٣/١٥).

.[٨٤٨]انظر: تفسير الطَّبري (١٩٥/٩).
.[٨٤٩]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) (٩١/١).
.[٨٥٠]ينظر الشكل (١٦) في الصفحة (٧٥٢).
.[٨٥١]انظر: القيادة العسكريَّة ، د. محمَّد الرَّشيد ، ص ٤٠١ .
.[٨٥٢]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، لخطَّاب ، ص ١١١ ، ١١٦ ، ١١٧ .

.[٨٥٣]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى الحاسمة ، لمحمود خطَّاب ، ص ٢٣ ، ٢٤.
.[٨٥٤]انظر: المقدِّمة ، لابن خلدون ، ص ٢٧٣.
.[٨٥٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧١.

.[٨٥٦]المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيَّة العسكريَّة ، لمحمَّد محفوظ ، ص ١٢١ .
.[٨٥٧]انظر: مقومات النَّصر ، د. أحمد أبو الشباب (١٥٤/٢).
.[٨٥٨]هذه الأمور الثلاثة موجودة في حديث رواه أبو داود ، قال رسول الله (ص) : «إذا أكثبوكم . يعني: اقتربوا منكم . فارموهم ، واسْتَبْقُوا نبلكم ، ولا تسلُّوا السُّيوف حتَّى يغشوكم». (أبو داود ، باب في سل السيوف عند اللقاء) وهذه المعاني المذكورة في الحديث ، وهي في صحيح البخاري ، في الحديثين رقم (٣٩٨٤ ، ٣٩٨٥).
.[٨٥٩]نَضَحَهُ بالنَّبل: إذا رماه به.
.[٨٦٠]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٦٣ ، ٦٤.
.[٨٦١]المصدر السابق نفسه.

.[٨٦٢]انظر: القيادة العسكرية ، ص ٤٥٣.
.[٨٦٣]عَشِيَ عَشاً ، وعَشَاوةً: ضعُفَ بصرُه ليلاً ، فهو أعشى.
.[٨٦٤]انظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذيِّ (١٧٥/٧).

.[٨٦٥]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص) ، ص ٤٥٤.
.[٨٦٦]أَقِدْني: اقتصَّ لي من نفسك.

.[٨٦٧]انظر: غزوة بدرٍ الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٥٢.
.[٨٦٨]الأشَمُّ: المرتفع ، وهي شَمَّاءُ ، ويقال: جبلٌ أَشَمُّ ، والجمع: شُمٌّ.
.[٨٦٩]الوَغَى: الحَرْبُ؛ لما فيها من الصَّوت ، والجَلَبة.
.[٨٧٠]انظر: المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة ، لأبي فارس ، ص ١٤٠.

.[٨٧١]انظر: صفة الصَّفوة (٤٨٨/١) وزاد المعاد (١٨٢/٣).
.[٨٧٢]الصِّنْدِيدُ: الشَّريفُ الشُّجاعُ ، والجمع: صَنَادِيدُ.
.[٨٧٣]قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «إنَّ رسول الله (ص) كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس ، يقول: هذا مَصْرَعُ فلان غداً إن شاء الله ، قال عمر رضي الله عنه: فوالذي بعثه بالحق! ما أخطؤوا الحدودَ الَّتي حدَّ رسولُ الله (ص) ». رواه مسلمٌ ، كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها ، رقم (٢٨٧٣).
.[٨٧٤]المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة ، لأبي فارس ، ص ١٤٣.
.[٨٧٥](لا يتقدمنَّ أحدٌ منكم إلى شيء حتَّى أكون أنا دونه): أي: قدَّامه متقدِّماً في ذلك الشَّيء؛ لئلا يفوت شيءٌ من المصالح التي لا تعلمونها.

.[٨٧٦]الخُيلاء: التكبُّر ، والعجب.
.[٨٧٧]تُحَادُّك: تعاديك.
.[٨٧٨]أحنهم: أهلكهم.
.[٨٧٩]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٦/٣).

.[٨٨٠]انظر: المستفاد من قصص القران (١٢٥/٢).
.[٨٨١]انظر: الأساس في السنة وفقهها ، السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوى (٤٧٤/١).

.[٨٨٢]انظر: المستفاد من قصص القران (١٢٦/٢).
.[٨٨٣]انظر: الرَّحيق المختوم ، ص ١١٦ ـ ١١٨ ، والحديث رواه البخاريُّ ، رقم (٤٨٧٥).

.[٨٨٤]انظر: المستفاد من قصص القران (١٢٥/٢).

.[٨٨٥]انظر: تفسير الزَّمخشري (٢٢٥/٢) ، وتفسير ابن كثير (٣١٥/٢).

.[٨٨٦]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (ص) (٢٩١/١).

.[٨٨٧]حَيْزُوم: اسم الفرس الَّذي يركبه المِلَكُ.

.[٨٨٨]خُطِم: الخطم الأثر على الأنف.

.[٨٨٩]الأَجْلَح: الَّذي انحسر شعره من جانبي رأسه ، فهو أجْلحُ ، وهي جَلْحَاءُ ، والجمع: جُلْحٌ.

.[٨٩٠]الأبلق: الَّذي ارتفع التحجيل إلى فخذيه.

.[٨٩١]انظر: المستفاد من قصص القران (١٣١/٢ ، ١٣٢).

.[٨٩٢]انظر: المستفاد من قصص القران (١٣١/٢ ، ١٣٢).

.[٨٩٣]انظر: التاريخ الإسلاميُّ ، للحميدي (١٤٥/٤).

.[٨٩٤]القَلِيب: البئر ، والجمع: قُلُبٌ.

.[٨٩٥]انظر: المستفاد من قصص القران (١٣٣/٢).

.[٨٩٦]انظر: موسوعة نضرة النعيم (٢٩١/١).

.[٨٩٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لصادق عرجون (٤٥٣/٣).

.[٨٩٨]الجِيفَةُ: جُثَّةُ الميت إذا أنْتَنَت ، والجمع: جِيَفٌ.

.[٨٩٩]الرَّكِيَّةُ: البئر لم تُطْوَ ، والجمع رَكَايَا ، ورُكِيٌّ.

.[٩٠٠]شفة الرَّكِيِّ: طرف البئر.

.[٩٠١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، د. محمد فوزي فيض الله ، ص ٦٤.

.[٩٠٢]أضلع: أقوى ، وأعظم ، وأشدُّ.

.[٩٠٣]غمزني: قرصني.

.[٩٠٤]حتَّى يموتَ الأعجلُ منا: أي: الأقرب أجلاً.
.[٩٠٥]أنشب: ألبث.
.[٩٠٦]وإنَّما قضى (ص) بالسَّلَب لعمرو بن الجَمُوح وحده؛ لأن السَّلَب يستحقُّه من أثخن في القتل ، ولو شاركه غيره في الضَّرب ، أو الطعن ، وإنَّما قال النَّبيُّ (ص) : «كلاكما قتله» تطييباً لقلب الاخر؛ من حيث إنَّ له مشاركةً في قتله ، ومن ذلك عُلِمَ أنَّ ابن الجموح هو الَّذي أثخنه ، وأيضاً فإن مُعاذَ بن عفراء قُتِلَ في المعركة نفسها ، وأما الاخر فقد عاش إلى زمان عثمان رضي الله عنه.
.[٩٠٧]بَرَدَ: قارب على الموت ، وكان في النَّزع الأخير ، أو فَتَرَ وسَكَنَ ، والمعنيان متقاربان.

.[٩٠٨](أَعْمَدُ من رجل قتله قومه) أو (هل فوق رجل قتله قومه): أي: ليس عليَّ عارٌ؛ فلن أبعد أن أكون رجلاً قتله قومه.
.[٩٠٩]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١٥٨/٤ ـ ١٦٠).

.[٩١٠]الشَّنَارُ: الأمر المشهور بالشُّنعَةِ والقُبْح ، ويقال: عارٌ وشَنَارٌ.
.[٩١١]رَزَأَهُ رُزْءاً: أصابه بمصيبة.
.[٩١٢]انظر: محمَّد رسول الله (ص) لصادق عرجون (٤٣١/٣ ، ٤٣٢).
.[٩١٣]الصَّاغية: صاغية الرَّجل: ما يميل إليه ، ويطلق على الأهل والمال.
.[٩١٤]أُحْرِزَهُ: أحميه.
.[٩١٥]وكان رجلاً ثقيلاً: أي: ضخم الجثَّة.
.[٩١٦]تجلَّلوه: طعنوه ، وأصابوه ، وفي رواية (فتخلَّلُوه) أي: أدخلوا أسيافَهم خلاله.

.[٩١٧]كذا في شرح السِّيرة والرَّوض ، قال السُّهيلي: «ها: تنبيه ، وذا: إشارة إلى نفسه ، وقال بعضهم: إلى القسم ، أي: هذا قسمي ، وأراها إشارة إلى المقسم ، وخفض اسم الله بحرف القسم أضمره ، وقام التَّنبيه مقامه ، كما يقوم الاستفهام مقامه ، فكأنَّه قال: ها أنذا مقسِمٌ ، وفصل بالاسم المقسم به بين (ها) و(ذا) ، فعلم أنَّه هو المقسم ، فاستغنى عن أنا ، ومثله قول أبي بكرٍ: لا ها اللهِ! في صحيح مسلمٍ (١٧٥١)».
.[٩١٨]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ للحميدي (١٥٢/٤ ، ١٥٣).

.[٩١٩]انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٤٤).
.[٩٢٠]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميدي (٤/١٥٣).
.[٩٢١]المصدر السابق نفسه (٤/١٥٤).
.[٩٢٢]انظر: تفسير الطَّبري (١٠/٢١).
.[٩٢٣]مُدَجَّجٌ: بجيمين الأولى ثقيلةٌ ومفتوحةٌ . وقد تكسر . أي: مغطًّى بالسِّلاح؛ ولا يظهر منه شيء.
.[٩٢٤]العَنَزة: شبيه العُكازة لها زُجٌّ من أسفلها يُطْعَنُ به.
.[٩٢٥]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٤/١٥٤).

.[٩٢٦]المصدر السابق نفسه ، (٤/١٦٣).
.[٩٢٧]أطَنَّ: أطار.
.[٩٢٨]تَشْخُب: تسيل بصوتٍ.
.[٩٢٩]انظر: سيرة ابن هشام (٢/٢٣٧).
.[٩٣٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٤/١٥١) ، وسيرة ابن هشام (مقتل أميَّة بن خلف).
.[٩٣١]المصدر السابق نفسه ، (٤/١٥٢).
.[٩٣٢]المصدر السَّابق نفسه ، (٤/١٢١).

.[٩٣٣]الأساس في السُّنَّة وفقهها ، السِّيرة النَّبويَّة ، لسعيد حوَّى (١/٤٧٥).
.[٩٣٤]عفراء: بنت عبيد بن ثعلبة النَّجَّاريَّة ، شارك أولادها السَّبعة في غزوة بدرٍ.
.[٩٣٥]حاسراً: غير لابس الدِّرع.
.[٩٣٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٤٥ ، وانظر: الإصابة لابن حجر ، ترجمة عوف بن الحارث ، برقم (٦١٠٧).
.[٩٣٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٢/٣١).
.[٩٣٨]الإصابة (٢/٢٣ ، ٢٤) رقم (٣١١٨).

.[٩٣٩]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٤/٨٧).

.[٩٤٠]الأطْوَادُ: جمع طَوْد ، وهو الجبل العظيم.

.[٩٤١]انظر: محمَّد رسول الله (ص) (٣/٤٤٦).

.[٩٤٢]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٤/١٧٤).

.[٩٤٣]السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣١٧ ، نقلاً عن صفة الصفوة (١/٢٩٤) ، والمستدرك (٣/١٨٨) والإصابة (٣/٣٥).

السيرة النبوية
عرض وقائع وتحليل أحداث
(دروس وعبر)

تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصلابي

الجزء الثالث

السيرة النبوية

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م

المبحث الخامس

الخلاف في الأنفال والأسرى

أولاً: الخلاف في الأنفال:

عن عبادةَ بن الصَّامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النَّبيِّ (ص) ، فشهدت معه بدراً ، فالتقى النَّاس ، فهزم الله ـ تبارك وتعالى ـ العدوَّ ، فانطَلَقَتْ طائفةٌ في اثارهم يَهْزِمون ويقتلون ، وأكبَّت طائفةٌ على العسكر يَحْوُونه ، ويجمعونه ، وأحدقت طائفةٌ برسول الله (ص) ؛ لا يصيب العدوُّ منه غِرَّةً؛ حتَّى إذا كان اللَّيل ، وفَاءَ[(١)] النَّاسُ بعضُهم إلى بعضٍ.

قال الَّذين جمعوا الغنائم: نحن حَوَيْناها ، وجمعناها؛ فليس لأحدٍ فيها نصيبٌ ، وقال الَّذين خرجوا في طلب العدوِّ: لستم بأحقَّ بها منَّا؛ نحن نَفَيْنا عنها العدوَّ ، وهزمناهم ، وقال الَّذين أحدقوا برسول الله (ص) : لستم بأحقَّ بها مِنَّا؛ نحن أحدقنا برسول الله (ص) ، وخِفنا أن يصيب العدوُّ منه غرَّةً ، واشتغلنا به؛ فنزلت: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [الأنفال: ١]؛ فقسمها رسول الله (ص) على فُوَاقٍ بين المسلمين [أحمد (٣٢٤/٥)].

وفي روايةٍ: قال عبادة بن الصَّامت عن الأنفال حين سُئِلَ عن سورة الأنفال: فينا معشر أصحاب بدرٍ نزلت حين اختلفنا في النَّفل[(٢)] ، وساءت فيه أخلاقُنا ، فانتزعه الله ـ تبارك وتعالى ـ من أيدينا ، فجعله إلى رسول الله (ص) ، فقسمه رسول الله (ص) فينا عن بواءٍ. يقول: على السَّواء. [أحمد (٣٢٢/٥)].

لقد خلَّد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكرى غزوة بدرٍ في سورة الأنفال ، وجاءت مفصلةً عن أحداثها وأسبابها ، ونتائجها ، وتعرَّضت الايات الكريمة لعلاج النَّفس البشريَّة ، وتربيتها على معاني الإيمان العميق ، والتَّكوين الدَّقيق ، فبدأت السُّورة بتبيان حكم أثرٍ من اثار القتال ، وهو

الغنائم ، فبيَّنت: أنَّ هذه الغنائم لله ، والرَّسول فالله هو مالك كلِّ شيءٍ ، ورسوله (ص) هو خليفتهُ ، ثمَّ أمر الله المؤمنين ثلاثة أوامر:

بالتَّقوى ، وإصلاح ذات البين ، والطَّاعة لله والرَّسول (ص) ، وهي أوامر مهمَّة جدّاً في موضوع الجهاد؛ فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهاداً ، والجهاد يحتاج إلى وحدة صفٍّ ، ومن ثَمَّ فلابدَّ من إصلاح

ذات البين ، والانضباط هو الأساس في الجهاد؛ إذ لا جهاد بلا انضباط ، ثمَّ بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ الطَّاعة لله ولرسوله (ص) علامةُ الإيمان.

وحدَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفات المؤمنين الحقيقيين ، وهذا الوصف ، والتَّحديد مهمَّان في موضوع الجهاد الإسلاميّ؛ لأنَّ الإيمان الحقيقي هو الَّذي يقوم به الجهاد الإسلاميُّ. لقد حدَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفات المؤمنين؛ بأنَّهم إذا ذكر الله؛ فزعت قلوبهم ، وخافت ، وفرقت ، وإذا قرأى عليهم القران ازداد إيمانهم ، ونما.

والصِّفة الثَّالثة هي: التوكُّل على الله ، فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إيَّاه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون: أنَّ (ما شاء الله؛ كان ، وما لم يشأ؛ لم يكن) ، وأنَّه المتصرِّف في الخلق وحده لا شريك له ، ولا معقِّب لحكمه ، وهو سريع الحساب.

والصِّفة الرَّابعة: إقامة الصَّلاة ، والمحافظة على مواقيتها ، ووضوئها ، وركوعها ، وسجودها ، ومن ذلك إسباغ الطَّهور فيها ، وتمام ركوعها ، وسجودها ، وتلاوة القران فيها ، والتشهُّد ، والصَّلاة على النَّبيِّ (ص) .

والصفة الخامسة: الإنفاق ممَّا رزقهم الله ، وذلك يشمل إخراج الزَّكاة ، وسائر الحقوق للعباد من واجبٍ ، ومستحبٍّ ، والخلق كلُّهم عباد الله؛ فأحبُّهم إليه أنفعهم لخلقه ، ثمَّ بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان ، وأنَّ لهم عند الله منازلَ ، ومقامات ، ودرجات في الجنَّات ، وأنَّ الله يغفر لهم السَّيِّئات ، ويشكر الحسنات ، وبهذا تنتهي مقدِّمة السُّورة بعد أن رفعت الهمم لكلِّ لوازم الجهاد ، ونَفَتْ كلَّ عوامل الخذلان؛ من اختلافٍ على غنائم ، أو خلافٍ بسبب شيءٍ ، داعيةً إلى الطَّاعة ، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل[(٣)].

قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ١ ـ ٤].

يقول الأستاذ محمَّد أمين المصري: لم تذكر الايات شيئاً من أعمال المؤمنين في بدرٍ ، ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً ، يَحْمِلُ المؤمنين على الرُّجوع إلى أنفسهم ، والاستحياء من ربِّهم ، وهناك نقاطٌ أرسلت

الايات النُّقاط عليها ، وبيَّنت نواحي الضَّعف فيه بياناً جليّاً قويّاً بتصوير ما في النفوس وصفاً دقيقاً رائعاً ، تشاهد العين فيه الحركات والخلجات.

وكلُّ ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن؛ ليلمس المسافة بينه وبين درجات الإيمان؛ الَّتي يهفو قلبُه للوصول إليها ، ولقد كانت الايات من تربية الحكيم العليم ، ويشعر الذَّوق السَّليم هاهنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب؛ ولكنَّه تصوير مافي النُّفوس تصويراً يوقن معه العادي من النَّاس: أنَّه ما كان لمؤمنٍ صحيح الإيمان أن يتَّصف بها ، ولذلك اقترنت الايات بتقديم خصائص الإيمان العالية ، وميِّزاته الرَّفيعة ، الَّتي تصوِّر الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أيِّ إسفاف: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *} [الأنفال: ٢ ـ ٤].

ما ذكرت الايات عتاباً ، ولكنَّها ذكرت واقعاً ، وكان ذكر الواقع أبلغ من كلِّ عتاب ، قال تعالى: وفحوى الخطاب: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ} كان لهم أن يسألوا هذا السُّؤال ، وقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ حقيقة خروجهم من المدينة ، قال تعالى: وهذا وصفٌ بالغ الغاية في تصوير {كَمَا أَخْرَجَكَ} ، والرُّعب ، صورة أناسٍ يساقون إلى الموت سوقاً لا مفرَّ منه ، وهم يَرَوْن الموت بأمِّ أعينهم؛ وقال تعالى: وهذا تصويرٌ لضعفٍ في النُّفوس.... إلى أن يقول: دفعت الايات الكريمة عن المؤمنين أيَّ شعور {وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} ، وصرفت عن أنفسهم كلَّ معنىً من معاني الغرور ، وبسطت أمامهم نفوسهم ، أو نفوس فريقٍ منهم ، وما بينها وبين الإيمان الصَّحيح من درجاتٍ ، وإذا جاء ذكر الثَّناء مصوَّراً بصورة المنِّ والفضل بما أنعم الله ليس ثناءً مستقلاً ، الثناء عليهم: أنَّ الله منَّ عليهم ، فاستجاب دعاءهم ، ونزَّل عليهم الماء ، ليطهِّرهم ، وأنزل الملائكة؛ لتثبيتهم، وجمع بينهم وبين عدوِّهم لأمرٍ كبير دبَّره الله ، وقدَّره[(٤)].

بدأت السُّورة بموضوع الأنفال ، واختلافهم في قسمتها ، وسؤالهم عنها ، فساقت في ذلك أربع اياتٍ عالجت بها نفوس المؤمنين ، وطهَّرتها من الاختلاف الَّذي ينشأ عن حبِّ المال ، والتَّطلُّع إلى المادة[(٥)].

ولأهمِّيَّة هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السُّورة ـ وإنْ كان اختلافهم في قسمة الأنفال متأخِّراً في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدرٍ ، وقتال الأعداء ـ ومن سنَّة الله في كتابه: أنَّه في ذكر القصص والواقع لا يعرض لها مُرَتَّبةً حسب وقوعها[(٦)].

: وأوَّل الطَّاعة هنا طاعته في حكمه الَّذي قضاه في {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} ، فقد خرجت من أن تكون لأحدٍ من الغزاة على الإطلاق ، وارتدَّت ملكيتها ابتداءً لله ، والرَّسول (ص) ، فانتهى حقُّ التَّصرُّف فيها إلى الله ورسوله (ص) ، فما على الذين امنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله ، وقَسْم رسول الله (ص) طيبةً قلوبُهم ، راضيةً نفوسُهم ، وإلا أن يصلحوا علائقهم ، ومشاعرهم ، ويصفُّوا قلوبهم بعضهم لبعضٍ[(٧)].

وهذا العرض الرَّبَّانيُّ يؤكِّد حقيقةً أكبر من النَّصر على المشركين ، يؤكِّد: أنَّ صلاح ذات البين ، والانتصار الحقيقيَّ على مسارب النُّفوس ، ومشارب القلوب هو الأكبر في ميزان الله ، وهو الأعظم في ميزان الله ، ولا جدوى من نصرٍ يعقبه صراعٌ في الصَّفِّ واختلافٌ في القلوب.

وتبيِّن الايات: أنَّ قضيَّة التَّقوى ، والإيمان ، تدخل في شؤون حياة المسلم كافَّةً ، وبها ينبع تحرُّكه في الحياة ، وجهاده لإعلاء كلمة الله تعالى[(٨)].

لقد استجاب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم لهذا التَّوجيه الرَّبانيّ ، ونزلت الايات تبيّن لرسول الله (ص) كيف يتصرَّف في الأنفال.

بعد أن أصبحت الغنائم لله ولرسوله (ص) بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ كيف توزَّع هذه الغنائم.

قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الأنفال: ٤١].

وهذا بعدما طَهُرَتْ قلوبهم من الأخلاط ، وأخلصت إلى علاَّم الغيوب في الطَّاعة ، وتمثَّلت الايات ، فتحقَّقت بمعنى العبودية الخالصة لله ، وهذا الحكم صريحٌ في أنَّ أربعة أخماس ما غنموه مقسومٌ بينهم ، والخمس لله ، ولرسوله (ص) ، وهذا الخمس نفسه مردودٌ فيهم أيضاً ، وموزَّع على الجهات المذكورة ـ كما ثبت بالسُّنَّة ..

إنَّ التَّوجيه التَّربويَّ في إرجاء إنزال جواب السُّؤال عن الغنائم ، يشير إلى أنَّ الأحكام الشَّرعيَّة ينبغي أن يهيَّأ لها الجوُّ النَّفسيُّ الرُّوحيُّ المناسب؛ لتحتلَّ مكانها اللائق في العقل ،

والضَّمير ، فتثبت ، وتتمكَّن ، وتؤتي أطيب النتائج؛ إذ يتجلَّى فيها أكمل الحلول ، وهكذا صرف المولى ـ جلَّ شأنه ـ عباده المسلمين عن التعلُّق بالغير أوَّلاً ، وبالغنائم ثانياً؛ ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره ، وإتمام نعمته ، فلمَّا تفرَّغوا للخالق ، وأخلصوا في الجهاد؛ أكرمهم بالنَّصر من لدنه ، وأسبغ عليهم

من فضله بأكثر ممَّا كانوا يودُّون[(٩)] ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله (ص) يوم بدر في ثلاثمئة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال: «اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكْسُهُم» ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا ، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين ، واكتَسَوْا وشبعوا. [أبو داود (٢٧٤٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٥٧/٩) ، والحاكم (١٣٢/٢ ـ ١٣٣ ، ١٤٥)].

ومن عدل النَّبيِّ (ص) في تقسيم الغنائم ، إعطاؤه من هذه الغنيمة مَنْ تخلَّف بأمر رسول الله (ص) لمهامٍ أَوْكَلَها إليهم ، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة ، وبأجرهم ، فكانوا كمن حضرها[(١٠)] ، فكان (ص) يراعي ظروف الجنود؛ الَّتي تمنعهم من المشاركة في القتال؛ لأنَّ الله تعالى لم يكلِّف عباده شيئاً فوق طاقتهم ، قال تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦].

ولذلك كان رسول الله (ص) لا يكلِّف المسلمين فوق طاقتهم ، سواءٌ أكان ذلك في السِّلم ، أم الحرب ، وفي غزوة بدرٍ أعفى النَّبيُّ (ص) بعض الصَّحابة؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلَّب منهم القيام عليها ، ورعايتها ، فقد أعفى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه من الخروج يوم بدرٍ؛ لأنَّ زوجته رقيَّة كانت مريضةً ، وبحاجةٍ إلى من يرعى شؤونها ، روى البخاريُّ في صحيحه: أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبر عن سبب تغيُّب عثمان رضي الله عنه في غزوة بدر ، فقال رضي الله عنه: وأمَّا تَغَيُّبُهُ عن بدرٍ ، فإنَّه كانت تحته بنتُ رسولِ الله (ص) ، وكانت مريضةً ، فقال له رسول الله (ص) : «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شهد بدراً ، وسَهْمَهُ» [البخاري (٣٦٩٩)].

وأمر (ص) أبا أمامة بالبقاء عند أمِّه؛ حيث كانت مريضةً ، وهي بحاجة إليه ، فعن أبي أمامة بن ثعلبة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) أخبرهم بالخروج إلى بدرٍ ، وأجمع الخروج معه ، فقال له خاله أبو بردة بن نيَّار: أَقِمْ على أمِّك يابن أختي! فقال له أبو أمامة: بل أنت فأقم على أختك. فذكر ذلك للنَّبيِّ (ص) ، فأمر أبا أمامة بالمقام على أمِّه ، وخرج بأبي بردة ، فقدم النَّبيُّ (ص) وقد توفِّيت فصلَّى عليها. [الطبراني في الكبير (٧٩٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١/٣ ـ ٣٢)].

إنَّ هذه الأخلاق الرَّفيعة ، ومراعاة شعور الجنود ، وأحوالهم العائليَّة تولِّد قوَّة ترابطٍ بين القيادة والجنود ، وتدخل تحت مفهوم فقه التَّمكين ، وقد مارسه الرَّسول (ص) في أعلى صوره.

ومن الصَّحابة الَّذين كانت لهم مهمَّاتٌ خاصَّةٌ ، أو أُصيبوا أثناء الطَّريق ، فردَّهم الرَّسول (ص) :

١ ـ أبو لبابة: استخلفه (ص) على المدينة.

٢ ـ عاصم بن عديٍّ: أرسله (ص) في مهمَّة لأهل العالية في المدينة.

٣ ـ الحارث بن حاطب: أرسله (ص) في مهمَّةٍ إلى بني عمرو بن عوف.

٤ ـ الحارث بن الصِّمَّة: وقع أثناء الطَّريق فكسر ، فرُدَّ.

٥ ـ خوَّات بن جُبير: أصابه في الطَّريق حجرٌ في ساقه ، فردَّه من الصفراء[(١١)].

وكذلك أعطى لورثة الشُّهداء، وذويهم نصيبهم من الغنائم، وبذلك كان للإسلام السَّبق في تكريم الشُّهداء ، ورعاية أبنائهم ، وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرناً[(١٢)].

ثانياً: الأسرى:

قال ابن عباس رضي الله عنه: فلمَّا أسروا الأُسارى ، قال رسول الله (ص) لأبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما: «ما ترون في هؤلاء الأُسارى؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا نبيَّ الله! هم بنو العمِّ ، والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فديةً ، فتكون لنا قوَّةً على الكفَّار ، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله (ص) : «ما ترى يابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله! ما أرى الَّذي يراه أبو بكر ، ولكنِّي أرى أن تُمَكِنَّا منهم ، فنضرب أعناقهم ، فتمكِّن عليّاً من عَقِيلٍ ، فيضرب عنقه ، وتمكنِّي من فلانٍ (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه؛ فإنَّ هؤلاء أئمَّة الكفر ، وصناديدها ، فهوي رسولُ الله (ص) ما قال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ما قلتُ ، فلمَّا كان من الغد جئت؛ فإذا رسولُ الله (ص) ، وأبو بكر قاعدان يبكيان ، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبُك ، فإن وجدت بكاءً؛ بكيت ، وإن لم أجد بكاء؛ تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله (ص) : «أبكي لِلَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك من أخذهم الفداء ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشَّجرةِ» ـ شجرةٍ قريبةٍ من نبيِّ الله (ص) ..

وأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ} إلى قوله: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا} فأحلَّ الله الغنيمة لهم. (١/٣٠ ـ ٣١) ، ومسلم (١٧٦٣) ، وأبو داود (٢٦٩٠) ، والترمذي (٣٠٨١)].

وفي رواية عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدرٍ؛ قال رسول الله (ص) :

«ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! قومُك ، وأهلُك ، اسْتَبْقِهِم ، واسْتَأْنِ بهم ، لعلَّ الله أن يتوب عليهم ، وقال عمر: يا رسول الله! أخرجوك ، وكذَّبوك؛ فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثمَّ أضرم عليهم ناراً ، فقال العبَّاس: قطعت رحمك! فدخل رسول الله (ص) ولم يردَّ عليهم شيئاً ، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكرٍ ، وقال

ناسٌ: يأخذ بقول عمر ، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة ، فخرج عليهم رسول الله (ص) فقال: «إنَّ الله ليُليِّن قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون ألين من اللَّبن ، وإنَّ الله لَيَشُدُّ قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون أشدَّ من الحجارة ، وإنَّ مثلك يا أبا بكر! كمثل إبراهيم عليه السلام ، إذ قال: {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [إبراهيم: ٣٦] ، ومثلك يا أبا بكر! كمثل عيسى عليه السلام؛ إذ قال: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الأنفال: ١١٨] ، وإنَّ مثلك يا عمر كمثل نوحٍ؛ إذ قال: {رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا *} [نوح: ٢٦].

وإنَّ مثلك يا عمر! كمثل موسى عليه السلام؛ إذ قال: {رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ *} [يونس: ٨٨].

ثمَّ قال (ص) : «أنتم عالة ، فلا يَنْفَلِتَنَّ منهم أحد إلا بفداءٍ ، أو ضربة عنقٍ».

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: فقلت: يا رسول الله! إلا سُهيل بن بيضاء؛ فإنِّي قد سمعته يذكر الإسلام ، قال: فسكت ، قال: فما رأيتني في يومٍ أخوف أن تقع عليَّ حجارةٌ من السَّماء في ذلك اليوم؛ حتَّى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ...} إلى اخر الاية. (١/٣٨٣ ـ ٣٨٤) ، وأبو يعلى (٥١٨٧) ، والترمذي (١٧١٤ و٣٠٨٥) ، والحاكم (٣/٢١ ـ ٢٢)].

وهذه الاية تضع قاعدةً هامَّةً في بناء الدَّولة حينما تكون في مرحلة التَّكوين ، والإعداد ، وكيف ينبغي ألا تظهرَ بمظهر اللِّين؛ حتَّى تُرْهَب من قِبَلِ أعدائها ، وفي سبيل هذه الكلِّيَّة يُطرح الاهتمام بالجزئيَّات ـ حتَّى ولو كانت الحاجة ملحةً إليها ـ[(١٣)].

وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه لما شرع الصَّحابة في أسر المشركين كره ذلك ، ورأى رسولُ الله (ص) الكراهية في وجه سعدٍ لما يصنع النَّاس؛ فقال له رسول الله (ص) : «والله! لكأنَّك يا سعدُ! تكره ما يصنعُ القوم!» قال: أجل والله! يا رسول الله! كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشِّرك ، فكان الإثخان بالقتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرِّجل. [ابن هشام (٢/٢٨٠ ـ ٢٨١)][(١٤)].

*كانت معاملة النَّبيِّ (ص) للأسرى تحفُّها الرَّحمة ، والعدل ، والحزم ، والأهداف الدَّعوية؛ ولذلك تعدَّدت أساليبه ، وتنوَّعت طرق تعامله (ص) ، فهناك من قتله ، وبعضهم قبل فيهم الفداء ، والبعض الاخر منَّ عليهم ، واخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنِّ عليهم.

أ ـ حفظ رسول الله (ص) لجِوار المطْعِم بن عديٍّ:

قال رسول الله (ص) في أُسارى بدر: «لو كان مُطْعِمُ بن عديٍّ حيّاً ، ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى؛ لأطلقتُهم له» [البخاري (٤٠٢٤) ، وأبو داود (٢٦٨٩)].

وهذا الحديث تعبيرٌ عن الوفاء ، والاعتراف بالجميل ، فقد كان للمُطعم مواقفُ تُذكَر بخيرٍ ، فهو الَّذي دخل الرَّسول (ص) في جواره حينما عاد من الطَّائف ، كما كان من أشدِّ القائمين على نقض الصَّحيفة يوم حُصِر المسلمون ، وبنو هاشم[(١٥)].

وهذا يدلُّ على قمَّة الوفاء لمواقف الرِّجال . ولو كانوا مشركين .[(١٦)].

ب . مقتل عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ والنَّضر بن الحارث:

وإذا كان هذا الوفاء لرجلٍ مثل المطعم بن عديٍّ ، فلابدَّ من الحزم مع مجرمي الحرب ، ورؤوس الفتنة؛ من أمثال: عُقبة بن أبي مُعَيْط ، والنَّضر بن الحارث ، فقد كانا من أكبر دُعاة الحرب ضدَّ الإسلام ، والمتربِّصين بالمسلمين الدَّوائر ، فبقاؤهما يُعَدُّ مصدرَ خطرٍ كبيرٍ على الإسلام ، ولاسيَّما في تلك الظُّروف الحاسمة ، الَّتي تمرُّ بها الدَّعوة الإسلاميَّة ، فلو أُطلِق سراحُهُمَا؛ لما تورَّعا عن سلوك أيِّ طريقٍ فيه كيدٌ للإسلام ، وأهله ، فَقَتْلُهُمَا في هذا الظَّرف ضرورةٌ تقتضيها المصلحة العامَّة لدعوة الإسلام الفتيَّة[(١٧)]؛ ولذلك أمر رسول الله (ص) بِقَتْلِهما عندما وصل إلى الصَّفراء[(١٨)] أثناء رجوعه للمدينة ، فلمَّا سمع عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ بأمر قَتْلِهِ ، قال: يا ويلي! علام أُقْتل يا معشر قريش من بين ما هاهنا؟! فقال رسول الله (ص) : «لعداوتك للهِ ولرسوله» قال: يا محمد! مَنُّك أفضل ، فاجعلني كرجلٍ من قومي ، إنْ قتلتَهُم؛ قَتَلْتَني ، وإن مَنَنْتَ عليهم؛ مَنَنْتَ عَلَيَّ ، وإن أخذتَ منهم الفداء كنتُ كأحدِهم ، يا محمد! من للصبيَة؟ قال رسول الله (ص) : «النَّارُ ، قدِّمْه يا عاصم! فاضربْ عُنُقَه» [الحاكم (٢/١٢٤)، ومجمع الزوائد (٦/٨٩)]؛ فقدَّمه عاصمٌ ، فضرَبَ عُنُقَهُ[(١٩)].

وأمَّا النَّضر بن الحارث ، فقد كان من شياطين قريشٍ ، وممَّن يؤذي رسول الله (ص) ، وينصِبُ له العداوة ، وكان قد قدِم الحيرة ، وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله (ص) مجلساً ، فذكَّر فيه بالله ، وحذَّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم مِنْ نِقْمَةِ الله؛ خلفه في مجلسه إذا قام ، ثمَّ قال: أنا والله يا معشر قريش! أحسنُ حديثاً منه ، فهلُمُّوا إليَّ ، فأنا أحدِّثكم أحسن مِنْ حديثه ، ثمَّ يحدِّثُهم عن ملوك فارس ، ورستم واسفنديار ، ثمَّ يقول: بماذا محمَّد أحسنُ حديثاً منِّي؟![(٢٠)].

إنَّ هذا الرَّجل المتعالي على الله ، والمتألِّي عليه ، والَّذي يزعم: أنَّه سينزل أحسن ممَّا أنزل الله ، والَّذي يزعم: أنَّه أحسنُ حديثاً من محمَّد ، لابدَّ لمثل مَنْ يمثِّل هذا التَّيار . وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين . لابدَّ أن يُثأرَ لله ، ولرسوله (ص) منه ، ومن أجل هذا لم يُدْخِلْهُ رسول الله (ص) ضمن نطاق الاستشارة[(٢١)] ، وأمر رسول الله (ص) بقتله ، فقتله عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه[(٢٢)].

وبمقتل هَذَيْنِ المجرِمَيْنِ تعلَّم المسلمون: أنَّ بعض الطُّغاة العُتاة المعادين لا مجال للتَّساهل معهم ، فهم زعماءُ الشَّرِ ، وقادة الضَّلال ، فلا هوادة[(٢٣)] معهم؛ لأنَّهم تجاوزوا حدَّ العفو، والصَّفح[(٢٤)] بأعمالهم الشَّنيعة، فقد كان هذان الرَّجلان مِنْ شرِّ عباد الله، وأكثرهم كفراً، وعناداً، وبغياً، وحسداً، وهجاءً للإسلام وأهله[(٢٥)].

ج . الوصيَّةُ بإكرام الأسرى جانبٌ من المنهج النَّبويِّ الكريم:

ولما رجع (ص) إلى المدينة فرَّق الأسرى بين أصحابه ، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً»[(٢٦)]؛ وبهذه التَّوصيَة النَّبويَّة الكريمة ، ظهر تحقيق قوله الله تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا *} [الإنسان: ٨].

فهذا أبو عزيز بن عُمَيْر أخو مُصعب بن عمير ، يحدِّثنا عمَّا رأى ، قال: كنتُ في الأسرى يوم بدرٍ ، فقال رسول الله (ص) : «استوصوا بالأُسارى خيراً» ، وكنتُ في نفرٍ من الأنصار ، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم ، وعشاءهم ، أكلوا التَّمر ، وأطعموني البُرَّ[(٢٧)]؛ لوصيَّة رسول الله (ص) . [الطبراني في الصغير (٤٠١) ، وفي الكبير (٢٢/٣٩٣) ، والطبري في تاريخه (٢/٤٦٠) ، ومجمع الزوائد (٦/٨٦)].

وهذا أبو العاص بن الرَّبيع يحدِّثنا ، قال: كنت في رَهْطٍ من الأنصار جزاهم الله خيراً ، كنَّا إذا تعشَّينا ، أو تغدَّينا ، اثروني بالخُبْزِ ، وأكلوا التَّمْرَ ، والخبزُ معهم قليلٌ ، والتَّمْرُ زادُهم ، حتَّى إنَّ الرَّجل لتقع في يده كِسْرَةٌ فيدفعها إليَّ ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثلَ ذلك ، ويزيد: «وكانوا يحملوننا ، ويمشون»[(٢٨)].

كان هذا الخُلُق الرَّحيم الَّذي وضع أساسه القران الكريم في ثنائه على المؤمنين ، وذكَّر به النَّبيُّ (ص) أصحابَه؛ فاتَّخذوه خُلقاً ، وكان لهم طبيعةً ، قد أثر في إسراع مجموعة مِنْ أشراف الأسرى ، وأفاضلهم إلى الإسلام ، فأسلم أبو عزيز عُقَيْبَ بدرٍ ، بُعيْد وصول الأسرى إلى المدينة ، وتنفيذ وصيَّة رسول الله (ص) ، وأسلم معه السَّائب بن عبيدٍ[(٢٩)] بعد أن فدى نفسه ، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم ،

وطهَّرت نفوسَهم ، وعاد الأسرى إلى بلادِهم وأهليهم ، يتحدَّثون عن محمَّدٍ (ص) ، ومكارم أخلاقه ، وعن محبَّته، وسماحته، وعن دعوته ، وما فيها من البِرِّ والتَّقوى ، والإصلاح والخير[(٣٠)].

إنَّ هذه المعاملة الكريمة للأسرى ، شاهدٌ على سموِّ الإسلام في المجال الأخلاقيِّ ، حيث نال أعداءُ الإسلام من معاملة الصَّحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق؛ الَّتي تتمثَّل في خُلُق الإيثار[(٣١)].

د ـ فداء العباس عمِّ النَّبيِّ (ص):

بعثت قريش إلى رسول الله (ص) في فداء أسراهم ، ففدى كلُّ قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العبَّاس: يا رسول الله! قد كنتُ مسلماً ، فقال رسول الله (ص) : «الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول؛ فإن الله يجزيك ، وأمَّا ظاهرك ، فقد كان علينا ، فافتدِ نفسَك ، وابني أخويك:

نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعَقِيل بن أبي طالب بن عبد المطَّلب ، وحليفَك عتبةَ بن عمرٍو أخي ابن الحارث بن فهرٍ» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الَّذي دفنته أنت وأمُّ الفَضْل ، فقلتَ لها: إن أُصِبْتُ في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنتُه لبني الفَضْل ، وعبد الله ، وقُثَم؟!» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله ، إنَّ هذا الشَّيءَ ما علمه أحدٌ غيري ، وغير أمِّ الفضل ، فاحسب لي يا رسول الله! ما أصبتم منِّي عشرين أوقيَّة من مالٍ كان معي. فقال رسول الله (ص) : «ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه ، وابني أخويه ، وحليفه؛ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ٧٠ ـ ٧١].

قال العبَّاس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقيَّةً في الإسلام عشرين عبداً ، كلُّهم في يده مالٌ يَضْرِبُ به ، مع ما أرجو من مغفرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ [البيهقي في الدلائل (١٤٢/٣ ـ ١٤٣) ، وبنحوه أحمد (٣٥٣/١)][(٣٢)].

هذا ، والعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب ، فهذه الاية الكريمة؛ وإن كانت نزلت في العباس إلا أنَّها عامَّةٌ في جميع الأسرى.

استأذن بعضُ الأنصار رسولَ الله (ص) ، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العبَّاس فداءه. فقال: «والله! لا تذرون منه درهماً» [البخاري (٢٥٣٧/١ و٣٠٤٨ و٤٠١٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (١٤٢/٣)][(٣٣)] ، أي: لا تتركوا للعبَّاس من الفداء شيئاً.

ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله (ص) في قولهم لرسول الله: ابن أختنا[(٣٤)] ، لتكون المنَّة عليهم في إطلاقه ، بخلاف لو قالوا: عمَّك؛ لكانت المنَّة عليه (ص) ، وهذا من قوَّة الذَّكاء وحسن الأدب في الخطاب ، وإنَّما امتنع النَّبيُّ (ص) عن إجابتهم؛ لئلا يكون في الدِّين نوعُ محاباة[(٣٥)].

وهنا يتعلَّم الأسرى ، والمسلمون أيضاً درساً بليغاً في عدم محاباة ذوي القُربى ، بل كان الأمر على خلاف ذلك؛ فقد أغلى رسولُ الله الفداء على عمِّه العباس[(٣٦)].

ورجع العبَّاس لمكَّة ، وقد دفع فداءه ، وفداء ابنيْ أخويه ، وأخفى إسلامه ، وأصبح يقود

جهاز استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة بمكَّة بمهارةٍ فائقةٍ ، وقدرةٍ نادرةٍ ، حتَّى انتهى دوره عند فتح مكَّة ، فأعلن إسلامه قبلها بساعاتٍ[(٣٧)].

هـ أبو العاص بنُ الرَّبيع زوجُ زينب رضي الله عنها بنتِ رسول الله (ص):

قالت عائشة رضي الله عنها: لما بعث أهل مكَّة في فداء أسراهم؛ بعثت زينب بنتُ رسول الله (ص) في فداء أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ ، وبعثت فيه بِقِلادةٍ[(٣٨)] لها ، كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها[(٣٩)] ، قالت: فلمَّا راها رسول الله (ص) ؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً ، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردُّوا عليها الَّذي لها ، فافعلوا» فقالوا: نعم ، فأطلقوه ، وردُّوا عليها الَّذي لها. [أبو داود (٢٦٩٢) ، وأحمد (٢٧٦/٦) ، والبيهقي في الدلائل (١٥٤/٣) ، والطبراني في الكبير (٤٢٨/٢٢) ، ومجمع الزوائد (٢١٤/٩)][(٤٠)].

وكان رسول الله (ص) أخذ عليه ، أو وعده أن يُخَلِّيَ سبيل زينب إليه ، وبعث رسولُ الله (ص) زيد بن حارثة ، ورجلاً من الأنصار ، فقال: «كونا ببطن يأْجَج[(٤١)] ، حتَّى تمرَّ بكما زينبُ ، فتصحباها ، حتَّى تأتيا بها» [انظر تخريج الحديث السابق].

إنَّ أبا العاص بن الرَّبيع زوجَ زينب رضي الله عنها بنتِ الرَّسول (ص) لم يُعرف عنه قطُّ موقفٌ في مقاومة الدَّعوة بأيِّ لونٍ من ألوانها ، وقد كفَّ يده ، ولسانه عن أصحاب رسول الله (ص) ، وشغَله مالهُ وتجارتهُ ، وحياؤه من رسول الله (ص) عن مواقفِ الشَّراسة القرشيَّة في مقاومة الدَّعوة إلى الله ، وفي بدرٍ كان أبو العاص صِهْرُ رسول الله (ص) من بين الأسرى؛ الَّذين لم يُسمع لهم في المعركة صوتٌ ، ولم يُعرف لهم رأيٌ ، ولا شُوهدتْ لهم في قتالٍ جولةٌ ، وبعد أن بدأت قريش تفدي أسراها؛ أرسلت السَّيدة زينب بنت رسول الله (ص) ، وزوجة أبي العاص بمالٍ تفديه به ، ومع المال قلادةٌ كانت أمُّها السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، أهدتها إليها ، فأدخلتها بها على زوجها لتتحَلَّى بها ، فلمَّا رأى رسول الله (ص) قِلادَةَ ابنته؛

رقَّ لها رقَّةً شديدةً ، إذ كانت هذه القلادةُ الكريمة مبعثَ ذكرياتٍ أبويَّةٍ عنده (ص) ، وذكرياتٍ زوجيَّةٍ ، وذكرياتٍ أُسريَّةٍ ، وذكريات عاطفيَّةٍ؛ فالنَّبيُّ (ص) أبٌ ، له من عواطف الأبوَّة أرفع منازلها في سجلِّ المكارم الإنسانيَّة ، وأشرفُها في فضائل الحياة ، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرَّمة أسمى مشاعر الرَّحمة ، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطفُ الحنان ، والحنين ، فتوجَّه إلى أصحابه رضي الله عنهم

متلطِّفاً ، يطلب إليهم في رجاء الأعزِّ الأكرم ، رجاءً يدفعهم إلى العطاء ، ولا يسلبهم حقَّهم في الفداء؛ لو أنَّهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحقِّ؛ وهو في أيديهم ، يملكون التَّصرُّف فيه ، فقال لهم: «إنْ رأيتُم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردُّوا عليها الَّذي هو لها».

وهذا أسلوبٌ من أبلغ ، وألطف ما يسري في حنايا النُّفوس الكريمة ، فيطوِّعها إلى الاستجابة الرَّاغبة الرَّاضية ، رضاءً يَنمُّ عن الغِبْطَة ، والبَهْجَة[(٤٢)].

إنَّ هذا الموقف ، وما يظهر منه من مظاهر الرَّحمة ، والعطف منه (ص) على ابنته، يحمل في طيَّاته مقصداً اخر ، وهو أنَّه كان يتألَّف صِهْرَه للإسلام بذلك؛ لِمَا عَرَفَ عنه من العقل السَّديد ، والرَّأي الرَّشيد ، فقد كان (ص) يُثني عليه ، وهو على شِرْكِهِ بحسن المعاملة[(٤٣)].

و ـ أبو عزَّة عمرُو بن عبد الله الجُمَحِيُّ بين الرَّحمة ، والحزم النَّبويِّ:

كان محتاجاً ذا بناتٍ ، قال: يا رسول الله! لقد عرفت ما لي مِنْ مالٍ ، وإنِّي لذو حاجةٍ ، وذو عيالٍ ، فامنُنْ عليَّ! فمنَّ عليه رسولُ الله (ص) ، وأخذ عليه ألا يُظاهرَ عليه أحداً ، فقال أبو عزَّةَ يمدح رسول الله (ص) على ذلك:

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي الرَّسُوْلَ مُحَمَّداً بأنَّكَ حَقٌّ والمَلِيْكُ حَمِيْدُ
وأَنْتَ امْرُؤٌ بُوِّئْتَ فِيْنَا مباءَةً[(٤٤)] لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصُعودُ
فإنَّكَ مَنْ حَارَبْتَهُ لَمُحَارَبٌ شَقِيٌّ ومَنْ سالمْتَهُ لَسَعِيدُ
ولَكِنْ إِذَا ذُكِّرْتُ بَدْراً وأَهْلَهُ تأوَّبَ مَا بِي حَسْرَةٌ وَقُعُوْدُ

قال ابن كثير: ثمَّ إنَّ أبا عزَّةَ هذا نقض ما كان عاهد الرَّسول (ص) عليه ، ولعب المشركون بعقله ، فرجع إليهم ، فلمَّا كان يومَ أحدٍ؛ أُسر أيضاً ، فسأل النَّبيَّ (ص) أن يَمُنَّ عليه أيضاً ، فقال النَّبيُّ (ص) : «لا أدعك تمسح عارِضَيْكَ بمكَّةَ ، وتقولُ: خدعتُ محمَّداً مرَّتين» ثُمَّ أَمَرَ به ، فَضُرِبَتْ عنقهُ. [البيهقي في الدلائل (٣/٢٨٠ ـ ٢٨١) ، وابن هشام (٣/١١٠)][(٤٥)].

فكان النَّبي (ص) به رحيماً ، وعفا عنه ، وأطلق سراحه بدون فداءٍ لَمَّا ذكر أبو عزَّة فقره ، وما لديه مِنْ بناتٍ يعولهنَّ؛ ولكنَّه لم يفِ لرسول الله (ص) بما عاهده عليه مِنْ لزوم السِّلم ، وعدم إثارة الحرب ضدَّه ، فوقع أسيراً في معركة أُحدٍ ، فكان موقفُ النَّبيِّ (ص) منه الحزم ، فأمر بضرْب عنُقِه.

ز ـ سهيلُ بن عمرٍو ، ووقوعُه في الأسر ، وماذا قالت سودةُ رضي الله عنها:

قال عبد الرَّحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنه: قُدِم بالأُسارى حين قُدِم بهم المدينة؛ وسودةُ بنت زمعة زوج النَّبيِّ (ص) عند ال عفراء في مناحتهم على عَوْفٍ، ومعوِّذ ابني عفراء ـ وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب ـ ، قالت سودة: فوالله إنِّي لَعِنْدهم؛ إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأُسارى قد أُتِيَ بهم ، فرجعتُ إلى بيتي؛ ورسول الله (ص) فيه؛ فإذا أبو يزيد سهيلُ بنُ عمرٍو في ناحية الحُجْرَة ، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيدٍ كذلك أن قُلتُ: أبا يزيد! أعطيتُم بأيديكم؟ ألا مُتُّم كراماً؟! فما انتبهت إلا بقول رسول الله (ص) من البيت: «يا سودةُ! أعَلَى الله ورسوله تُحرِّضين؟!» فقلت: يا رسول الله! والَّذي بعثك بالحقِّ ، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعةً يداه إلى عنقه بالحبل أن قلتُ ما قلتُ. [البيهقي في الكبرى (٩/٨٩) ، والحاكم (٣/٢٢) ، وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/٣٦٩ ـ ٣٧٠) ، والطبري في تاريخه (٢/٤٦٠)][(٤٦)].

وقدم مِكْرَزُ بن حفص بن الأخْيَف في فداء سهيل بن عمرو ، فلمَّا فاوض المسلمين ، وانتهى إلى رضائهم ، قالوا: هاتِ الَّذي لنا ، قال لهم مِكْرَز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله ، وخلُّوا سبيله حتَّى يَبعث إليكم بفدائه ، فخلُّوا سبيل سُهيل، وحبسوا مِكْرزاً عندهم ، وجاء في حديثٍ مُرْسَلٍ: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرسول الله (ص) : دعني أنزع ثَنِيَّة سهيل بن عمرٍو ، يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطنٍ اخر ! فقال رسول الله (ص) : «لا أمثِّل به ، فيمثِّل الله بي؛ وإن كنتُ نبيَّاً» [ابن أبي شيبة في المصنف (١٤/٣٨٧)][(٤٧)]. ثمَّ قال رسول الله (ص) لعمر: «إنَّه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه»[(٤٨)].

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الَّذي قامه سهيل بمكَّة حين مات رسول الله (ص) وارتدَّ العرب ، ونجم النِّفاق بالمدينة وغيرها ، فقام بمكَّة ، فخطب في النَّاس ، وثبَّتهم على الدِّين الحنيف[(٤٩)] ، فقد قال في ذلك: «يا معشر قريش! لا تكونوا اخر النَّاس إسلاماً ، وأوَّلهم ردَّةً ، مَنْ رَابنَا ضربنا عنُقَه»[(٥٠)].

فقد أبى رسول الله (ص) أن ينزع ثنيَّة سُهيلٍ ، ورأى: أنَّ ذلك من باب التَّمثيل وتشويه خلقة الإنسان ، وقال لعمر: «لا أمثِّل به ، فيمثِّل الله بي! وإن كنت نبيّاً» وهذا نموذجٌ من منهج رسالته

(ص) ، وضعه؛ ليكون نبراساً لأمَّته في انتصاراتها على أعدائها[(٥١)].

ح ـ التَّعليم مقابل الفداء:

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه: كان ناسٌ من الأُسارى يوم بدرٍ ليس لهم فداءٌ ، فجعل رسولُ الله (ص) فداءهم أن يُعَلِّموا أولاد الأنصار الكتابة[(٥٢)] ، وبذلك شرع الأسرى يعلِّمون غلمان المدينة القراءة ، والكتابة ، وكلُّ مَنْ يُعَلِّم عشرَةً من الغلمان يفدي نفسه[(٥٣)] ، وقَبول النَّبيّ (ص) تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الَّذي كانوا فيه في أشدِّ الحاجة إلى المال ، يُرينا سموَّ الإسلام في نظرته إلى العلم ، والمعرفة ، وإزالة الأميَّة ، وليس هذا بعجيبٍ مِنْ دينٍ كان أوَّل ما نزل من كتابه الكريم: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ *اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *} [العلق: ١ ـ ٤]. واستفاضت فيه نصوصُ القران ، والسُّنَّة في التَّرغيب في العلم ، وبيان منزلة العلماء ، وبهذا العمل الجليل يُعتبر النَّبيُّ (ص) أوَّل من وضع حجر الأساس في إزالة الأمِيَّة ، وإشاعة القراءة ، والكتابة ، وأنَّ السَّبق في هذا للإسلام[(٥٤)].

ط ـ حكم الأسرى:

إنَّ حكم الأسرى في الإسلام مفوَّضٌ إلى رأي الإمام؛ ليختار حُكْماً من أربعةٍ ، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامَّة؛ والأحكام الأربعة هي:

١ ـ القتلُ: وقد قتل رسول الله (ص) عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ ، والنَّضْر بن الحارث.

٢ ـ المنُّ: وهو إطلاق الأسير بدون مقابلٍ ، وهذا ما فعله رسول الله (ص) مع أبي عَزَّةَ الجُمَحِيِّ.

٣ ـ الفداءُ: إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغٍ من المال ، وهذا ما حدث مع العبَّاس عمِّ النَّبيِّ (ص) ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبي طالبٍ ، وغيرهم.

٤ ـ الاسترقاق: وقد حكم سعدُ بن معاذ رضي الله عنه في يهود بني قريظة أن يُقتل المحارَبون ، وتقسم الأموالُ ، وتُسْبَى الذَّراري والنِّساء[(٥٥)].

* * *

المبحث السَّادس

نتائج غزوة بدرٍ ومحاولة اغتيال النَّبيِّ (ص)

أولاً: نتائج غزوة بدرٍ:

١ ـ كان من نتائج غزوة بدرٍ أن قويت شوكة المسلمين ، وأصبحوا مرهوبين في المدينة ، وما جاورها ، وأصبح مَنْ يريد أن يغزو المدينة ، أو ينال من المسلمين عليه أن يفكِّر ، ويفكِّر قبل أن يُقدِم على فَعْلته ، وتعزَّزت مكانة الرَّسول (ص) في المدينة ، وارتفع نجم الإسلام فيها ، ولم يعد المتشكِّكون في الدَّعوة الجديدة ، والمشركون في المدينة يتجرَّؤون على إظهار كفرهم ، وعداوتهم للإسلام؛ لذا ظهر النِّفاق ، والمكر ، والخداع ، فأعلنوا إسلامهم ظاهراً أمام النَّبيِّ (ص) ، وأصحابه ، فدخلوا في عداد المسلمين ، وأبقَوا على الكفر باطناً ، فظلُّوا في عداد الكفار ، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم ، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم ، وعداوتهم للمسلمين ، قال تعالى: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً *} [النساء: ١٤٣].

ومن أجل هذا الموقف المتذبذب شنَّع الله عليهم ، وسمَّع بهم في كثيرٍ من اياته ، وتوعَّدهم بأشدِّ أنواع العذاب ، قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا *} [النساء: ١٤٥].

ومن نتائج موقعة بدر ازدياد ثقة المسلمين بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وبرسوله الكريم (ص) ، واشتداد ساعدهم ، وقوَّتهم ، ودخول عددٍ كبيرٍ من مشركي قريشٍ في الإسلام ، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الَّذين كانوا لا يزالون في مكَّة ، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله ، واطمأنَّت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب ، فازدادوا إيماناً على إيمانهم ، وثباتاً على عقيدتهم.

وإلى جانب ذلك ، فقد كسب المسلمون مهارةً عسكريَّةً ، وأساليبَ جديدةً في الحرب ، وشهرةً واسعةً داخل الجزيرة العربيَّة ، وخارجها؛ إذ أصبحوا قوَّةً يحسب لها حسابُها في بلاد العرب ، فلا تهدِّد زعامة قريش وحدَها ، بل زعامةَ جميع القبائل العربية المنتشرة في مختلف

الأَصْقَاع[(٥٦)] والأماكن ، كما أصبح للدَّولة الجديدة مصدرٌ للدَّخل من غنائم الجهاد ، وبذلك انتعش حال المسلمين المادِّيِّ والاقتصاديّ بما أفاء الله عليهم من غنائم ، بعد بؤسٍ ، وفقرٍ شديدين ، داما تسعةَ عَشَرَ شهراً[(٥٧)].

٢ ـ أمَّا قريش ، فكانت خسارتها فادحةً ، فإضافةً إلى أنَّ مقتل أبي جهل بن هشام ، وأميَّة بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وغيرِهم من زعماء الكفر؛ الَّذين كانوا من أشد القرشيِّين شجاعةً ، وقوةً ، وبأساً لم يكن خسارةً حربيَّةً لقريشٍ فحسب ، بل كان خسارةً معنويَّةً أيضاً؛ ذلك: أنَّ المدينة لم تعد تُهَدِّدُ تجارتَها فقط ، بل أصبحت تهدِّد أيضاً سيادتها ونفوذها في الحجاز كلِّه[(٥٨)].

كان خبر الهزيمة على أهل مكَّة كالصَّاعقة ، ولم يصدِّقوا ذلك في بداية الأمر ، قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ: «وكان أوَّل من قدِم مكَّةَ بمصابِ قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي ، فقالوا له: ما وراءك؟

قال: قُتِل عُتبةُ بن ربيعة ، وشيبةُ بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميَّة بن خلف، وزَمعةُ بن الأسود، ونُبيه، ومنبَّه ابنا الحجَّاج، وأبو البَخْتريّ بن هشام ، فلمَّا جعل يُعَدِّد أشراف قريش ، قال صفوان بن أميَّة: والله إن يعقل هذا! فسلوه عنِّي!

فقالوا: ما فعل صفوان بن أميَّة؟

قال: هو ذاك جالسٌ في الحِجْر ، قد والله! رأيت أباه ، وأخاه حين قُتِلا»[(٥٩)].

وهذا أبو رافعٍ مولى رسول الله (ص) ، يقصُّ علينا أثر خبر هزيمة قريشٍ على أبي لهبٍ ـ لعنه الله ـ ، حيث قال: كنت غلاماً للعبَّاس بن عبد المطَّلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، وأسلمتْ أمُّ الفضل ، وأسلمتُ ، وكان العبَّاس يهاب قومَه ، ويكره أن يخالفَهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثيرٍ متفرِّق في قومه ، وكان أبو لهب ـ عدوُّ الله ـ قد تخلَّف عن بدرٍ ، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، فلمَّا جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدرٍ من قريش: كَبَتَهُ[(٦٠)] الله ، وأخزاه ، ووجدْنا في أنفسنا قوَّة وعزّاً. قال: كنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل الأقداح ، وأنْحَتُها في حُجْرة زمزم ، فوالله! إنِّي لجالس فيها أنحَت القداح ، وعندي أمُّ الفضل (زوجة العبَّاس بن عبد المطلب) جالسةً ، وقد

سرَّنا ما جاءنا من الخبر؛ إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرُّ رجليه بشَرٍّ ، حتَّى جلس على طُنُبِ[(٦١)] الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس؛ إذ قال النَّاس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب قد قدم ، فقال أبو لهب: هلمَّ إليَّ ، فعندك لعمري الخبرُ! قال: فجلس إليه ، والناسُ قيامٌ عليه ، فقال: يابن أخي! أخبرني كيف كان أمر النَّاس؟ قال: والله! ما هو إلا أن لقينا القوم فَمَنَحْناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا ، وايمُ الله! مع ذلك ما لُمتُ النَّاس؛ لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْق[(٦٢)] بين السَّماء والأرض ، والله! ما تُلِيق[(٦٣)] شيئاً ، ولا يقوم لها شيء ، قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي ، ثمَّ قلت: تلك والله الملائكة!

قال: فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً ، قال: وثاوَرْتُه[(٦٤)] ، فاحتملني ، وضرب بي الأرض ، ثمَّ برك عليَّ يضربني . وكنت رجلاً ضعيفاً . ، فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُدِ الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة فَلَعَتْ[(٦٥)] في رأسه شَجَّةً منكرةً ، وقالت: أستَضعفْتَه أن غاب عنه سيِّدُه؟ فقام مُولِّيَاً ذليلاً ، ثمَّ مات بعد سبع ليالٍ بالعَدَسَة[(٦٦)] ، فقتلته[(٦٧)].

لقد تركت غزوة بدر في نفوس أهل مكَّة المشركين ، كمداً ، وأحزاناً ، والاماً بسبب هزيمتهم ، ومن فُقدوا ، وأُسروا ، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بِعِلَّة ، ومات ، وهذا أبو سفيان فقد ابناً له ، وأُسِر له ابنٌ اخر ، وما من بيتٍ من بيوت مكَّةَ إلا وفيه مناحةٌ؛ على قتل عزيز ، أو قريب ، أو أَسْر أسيرٍ ، فلا عجب أن كانوا صمَّموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر، حتَّى إن بعضهم حرَّم على نفسه الاغتسال[(٦٨)] ، حتى يأخذ بالثَّأر ممَّن أذلُّوهم ، وقتلوا أشرافهم ، وصناديدهم ، وانتظروا يترقَّبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم ، فكان ذلك في أُحدٍ[(٦٩)].

٣ . أمَّا اليهود؛ فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدرٍ ، وأن تقوى شوكتُهم فيها ، وأن يَعِزَّ الإسلام ، ويظهر على دينهم ، ويكون لرسوله (ص) دونهم الحُظوةُ ، والمكانة ، فصمَّموا على نقض العهد الَّذي عاهدوا عليه النَّبيَّ (ص) عندما قدِم المدينة ، وأظهروا عداوتهم الَّتي كانت كامنةً في نفوسهم ، وأخذوا يجاهرون بها القول ، ويُعلنون ، ثمَّ راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله (ص) ، ويعملون للقضاء عليه بكلِّ الوسائل المتاحة لديهم[(٧٠)] ، وبدؤوا يتحرَّشون بالنَّبيِّ (ص) ، والمسلمين ، وما كان النَّبيُّ (ص) ليخفى عليه شيءٌ من ذلك ، فقد كان يراقبهم عن حذرٍ ، ويقظةٍ؛ حتَّى استخفُّوا بالمقرَّرات الخُلُقيَّة ، والحرمات الَّتي يعتزُّ بها المسلمون ، واستعلنوا بالعداوة ، فلم يكن بدٌّ من حربهم ، وإجلائهم عن المدينة . كما سنفصِّل ذلك فيما بعد إن شاء الله .[(٧١)].

ثانياً: محاولة اغتيال النَّبيِّ (ص) وإسلام عُمير بن وهب (شيطان قريش):

قال عروة بن الزُّبير: جلس عُمير بن وهب الجُمَحيُّ مع صفوان بن أميَّة في الحِجْر ، بعد مصاب أهل بدرٍ بيسير ، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، وممَّن كان يؤذي رسولَ الله (ص) ، وأصحابه ، ويلقون منه عناءً[(٧٢)] ، وهو بمكَّة ، وكان ابنه وهب بن عُمير في أُسارى بدر ، فذكر أصحاب القَلِيب ، ومُصابهم ، فقال صفوان: واللهِ! إنْ في العيش بعدهم خيرٌ.

قال له عُمَيْرٌ: صدقتَ! أما والله ! لولا دينٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه ، وعيالٌ أخشى عليهم الضَّيعة[(٧٣)] بعدي؛ لركبتُ إلى محمَّدٍ حتَّى أقتلَه ، فإنَّ لي فيهم عِلَّة[(٧٤)]؛ ابني أسيرٌ في أيديهم.

قال: فاغتنمها صفوان بن أميَّة ، فقال: عليَّ دينُك ، أنا أقضِهِ عنك ، وعيالُك مع عيالي أُواسيهم[(٧٥)] ما بَقُوا ، لا يسعني شيءٌ ، ويعجِز عنهم ، فقال له عُمَيْرٌ: فاكتم شأني ، وشأنك. قال: أَفعَلُ.

قال: ثمَّ أمر عُمَيْرٌ بسيفه، فشُحِذ له ، وسُمَّ ، ثمَّ انطلق حتَّى قدم المدينة ، فبينما عمرُ بن الخطاب في نفرٍ من المسلمين يتحدَّثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم في عدوِّهم؛ إذ نظر عمرُ إلى عُمَيْرِ بن وهبٍ ، وقد أناخ راحلتَه على باب المسجد متوشِّحاً سيفه ،

فقال: هذا الكلب عدوُّ الله عُمَيْرُ بنُ وهبٍ ، والله! ما جاء إلا لشرٍّ ، وهو الَّذي حرَّش[(٧٦)] بيننا ، وحزَرنا[(٧٧)] للقوم يوم بدرٍ.

ثم دخل عمر على رسول الله (ص) فقال: يا نبيَّ الله! هذا عدوُّ الله عُمَيْرُ بن وهبٍ قد جاء متوشِّحاً سيفه.

قال: «فأَدْخله عليَّ»، قال: فأقبل عمر حتَّى أخذ بحِمَالَةِ[(٧٨)] سيفه في عنقه فَلَبَّبَهُ[(٧٩)] بها ، وقال لرجالٍ ممَّن كانوا معه من الأنصار: ادْخُلُوا على رسول الله (ص) فاجلسوا عنده ، واحذوروا عليه من هذا الخبيث ، فإنَّه غير مأمونٍ.

ثمَّ دخل به على رسول الله (ص) ، فلمَّا راه رسول الله (ص) وعمر اخذٌ بحِمَالَة سيفه في عنقه ، قال: «أرسله يا عمر! ادْنُ يا عُمَيْرُ!».

فدنا ، ثمَّ قال: انعموا صباحاً ـ وكانت تحيَّة أهل الجاهلية بينهم ـ فقال رسول الله (ص) : «أكرمنا الله بتحيَّةٍ خيرٍ من تحيَّتك يا عمير! بالسَّلام تحية أهل الجنَّة»[(٨٠)].

فقال: أما والله يا محمد! إن كنتُ بها لحديث عهدٍ.

فقال: «فما جاء بك يا عُمَيْرُ؟!» قال: جئت لهذا الأسير الَّذي في أيديكم ، فأحسنوا فيه.

قال: «فما بالُ السَّيف في عنقك؟» قال: قَبَّحَها اللهُ من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟!

قال: «اصْدُقْني ، ما الَّذي جئتَ له؟» قال: ما جئتُ إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوانُ بنُ أميَّة في الحِجْر ، فذكرتما أصحاب القَلِيب من قريشٍ ، ثمُ قُلْتَ: لولا دَيْنٌ عليَّ ، وعيالٌ عندي ، لخرجت حتَّى أقتل محمَّداً ، فتحمَّل لك صفوان بن أميَّة بدَيْنك ، وعيالك على أن تقتلني له ، واللهُ حائلٌ بينك وبين ذلك».

قال عُمَيْرُ: أشهد: أنَّك رسولُ الله ، قد كنَّا يا رسول الله! نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السَّماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمرٌ لم يحضرْه إلا أنا وصفوان ، فوالله! إنِّي لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الَّذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثمَّ شهد شهادة الحقِّ.

فقال رسول الله (ص) : «فقِّهوا أخاكم في دينه ، وأقرِئوه القُرانَ ، وأَطْلِقُوا له أسيره» ، ففعلوا.
ثمَّ قال: يا رسولَ الله! إنِّي كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأنا أحبُّ أن تأذن لي ، فأقدم مكَّة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله (ص) ، وإلى الإسلام ، لعلَّ الله يهديهم ، وإلا اذيتهم في دينهم ما كنت أوذي أصحابك في دينهم ، قال: فأذن له رسول الله (ص) ، فلحق بمكَّة ، وكان صفوان بن أميَّة حين خرج عمير بن وهب ، يقول: أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الان في أيَّامٍ ، تُنْسيكم وقعة بدرٍ ، وكان صفوان يسأل عنه الرُّكبان ، حتَّى قدم راكبٌ فأخبره بإسلامه ، فحلف ألاَّ يكلِّمه أبداً ، ولا ينفعه بنفعٍ أبداً. [الطبراني في الكبير (١٧/٥٨) ، ومجمع الزوائد (٨/٢٨٦) ، والإصابة (٣/٣٧)][(٨١)].
وفي هذه القصَّة دروسٌ وعبر؛ منها:
١ ـ حِرْص المشركين على التَّصفية الجسديَّة للدُّعاة؛ فهذا صفوان بن أميَّة ، وعُمَيْر بن وهب ، يتَّفقان على قتل النَّبيِّ (ص) ، وهذا يرشدنا إلى أنَّ أعداء الدَّعوة قد لا يكتفون برفض الدَّعوة ، والتَّشويش عليها ، وصدِّ النَّاس عنها؛ بل يحاولون اغتيال الدُّعاة ، وتدبير المؤامرات لقتلهم ، وقد يستأجرون المجرمين؛ لتنفيذ هذا الغرض الخسيس[(٨٢)] ، وقد يستغلُّ الأغنياء المترفون من أعداء الدَّعوة حاجة الفقراء ، وفقرهم ، فيوجِّهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة ماربهم ، وإنْ أدَّى ذلك إلى هلاكهم ، فهاهو صفوان قد استغل فقر عُمَيْرٍ ، وقلَّة ذات يده ، ودَيْنَهُ؛ ليرسله إلى هلاكه[(٨٣)].
٢ ـ ظهور الحسِّ الأمنيِّ الرَّفيع الَّذي تميَّز به الصَّحابة رضي الله عنهم ، فقد انتبه عمر بن الخطَّاب لمجيء عمير بن وهبٍ ، وحذَّر منه ، وأعلن أنَّه شيطانٌ ما جاء إلا لشرٍّ ، فقد كان تاريخه معروفاً لدى عمر ، فقد كان يؤذي المسلمين في مكَّة ، وهو الذي حرَّض على قتال المسلمين في بدرٍ ، وعمل على جمع معلوماتٍ عن عددهم؛ ولذلك شرع عمر في أخذ الأسباب لحماية الرَّسول (ص) ، فمن جهته فقد أمسك بحِمَالة سيف عمير الَّذي في عنقه بشدَّةٍ ، فعطَّله عن إمكانية استخدامه سيفه للاعتداء على الرَّسول (ص) ، وأمر نفراً من الصَّحابة بحراسة النَّبيِّ (ص) .
٣ ـ الاعتزاز بتعاليم هذا الدِّين ، فقد رفض (ص) أن يتعامل بتحيَّة الجاهليَّة ، ولم يردَّ على

تحيَّة عُمَيْرٍ حين قال له: انعموا صباحاً ، وأخبره بأنَّه لا يُحيِّي بتحيَّة أهل الجاهلية؛ لأنَّ الله تعالى أكرم المسلمين بتحيَّة أهل الجنَّة.

٤ ـ سموُّ أخلاق النَّبيِّ (ص) ، فقد أحسن إلى عُمَيْرٍ ، وتجاوز عنه ، وعفا عنه؛ مع أنَّه جاء؛ ليقتله[(٨٤)]؛ بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عُمَيْرٌ ، وقال لأصحابه: «فقِّهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القران ، وأَطْلِقُوا له أسيره»[(٨٥)].

٥ ـ قوَّة إيمان عُمَيْرٍ ، فقد قرَّر أن يواجه مكَّة كلَّها بالإسلام ، وقد أذن له رسول الله (ص) ، وفعل ، وواجه ، وتحدَّى ، وعاد أدراجه إلى المدينة ، وأسلم على يديه ناسٌ كثير ، وكان حين تُعَدُّ الرِّجال يطرحه عمر رضي الله عنه ممَّن يزن عنده ألف رجلٍ ، وكان أحد الأربعة الَّذين أمدَّ بهم أميرُ المؤمنين عُمَرُ عمرَو بن العاص رضي الله عنهم ، الَّذين كان كلُّ واحدٍ منهم بألفٍ[(٨٦)].

* * *

المبحث السَّابع

بعض الدُّروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النَّصر من الله تعالى:

إنَّ حقيقة النَّصر في بدرٍ كان من الله تعالى ، فقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ *} [آل عمران: ١٢٦].

وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ١٠].

في هاتين الايتين تأكيدٌ على أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والمعنى: ليس النَّصر إلا من عند الله دون غيره ، و(العزيز) أي: ذو العزَّة؛ التي لا تُرام[(٨٧)] ، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفَّار مع القدرة على تدميرهم ، وإهلاكهم بحَوْلِهِ ، وقوَّته ـ سبحانه وتعالى ـ[(٨٨)].

ويستفاد من هاتين الايتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده ، وتفويض أمورهم إليه ، مع التَّأكيد على أنَّ النَّصر إنَّما هو من عند الله وحده ، وليس من الملائكة ، أو غيرهم ، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون؛ لكن يجب ألاَّ يغترُّوا بها ، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب ، حتى يمدَّهم اللهُ بنصره ، وتوفيقه ، ثم بيَّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين ، وأنَّ النَّصر الَّذي كان في بدر ، وقتلهم المشركين ، ورمي النَّبيِّ (ص) المشركين بالتُّراب يوم بدرٍ؛ إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أوَّلاً ، وبفضله ومعونته.

وبهذه الاية الكريمة ، يربِّي القرانُ المسلمين ، ويعلِّمهم الاعتماد عليه ، قال تعالى: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاَءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *} [الأنفال: ١٧].

ولما بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ النَّصر كان من عنده؛ وضَّح بعض الحِكَم من ذلك النَّصر. قال تعالى: {لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ *لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ *} [آل عمران: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وأمر ـ سبحانه وتعالى ـ المؤمنين ، بأن يتذكَّروا دائماً تلك النِّعمة العظيمة ، نعمةَ النَّصر في بدرٍ ، ولا ينسوا كيف كانت حالتُهم قبل النَّصر ، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [الأنفال: ٢٦].

ثانياً: يوم الفرقان:

سُمِّيَ يومُ بدرٍ يومَ الفرقان ، ولهذه التَّسمية أهمِّيَّةٌ عظيمةٌ في حياة المسلمين ، وقد تحدَّث الأستاذ سيِّد قطب ، عن وصف الله تعالى ليوم بدرٍ بأنه يوم الفرقان ، في قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الأنفال: ٤١].

فقال: لقد كانت غزوة بدر ـ الَّتي بدأت ، وانتهت بتدبير الله ، وتوجيهه ، وقيادته ، ومدده ـ فرقاناً ... فرقاناً بين الحقِ والباطل ـ كما يقول المفسرون إجمالاً ـ وفرقاناً بمعنى أشمل ، وأدق ، وأوسع ، وأعمق كثيراً. كانت فرقاناً بين الحقِ والباطل فعلاً ، ولكنَّه الحقُّ الأصيل ، الَّذي قامت عليه السَّمواتُ ، والأرض ، وقامت عليه فطرة الأحياء ، والأشياء ، الحقُّ الَّذي يتمثَّل في تفرُّد اللهِ سبحانه بالألوهيَّة ، والسُّلطان ، والتَّدبير ، والتَّقدير ، وفي عبودية الكون كلِّه؛ سمائه ، وأرضه ، أشيائه ، وأحيائه ، لهذه الألوهية المتفرّدة ، ولهذا السُّلطان المتوحِّد ، ولهذا التدبير ، وهذا التَّقدير بلا معقِّبٍ ، ولا شريك ، والباطل الزَّائف الطَّارأى ، الَّذي كان يعمُّ وجه الأرض إذ ذاك ، ويُغْشِي على ذلك الحق الأصيل ، ويقيم في الأرض طواغيتَ تتصرَّف في حياة عباد الله بما تشاء ، وأهواءَ تُصَرِّفُ أمر الحياة ، والأحياء.

فهذا الفرقان الكبير الَّذي تمَّ يوم بدرٍ ، حيث فرَّق بين ذلك الحقِ الكبير ، وهذا الباطل الطَّاغي ، وزَيَّل[(٨٩)] بينهما ، فلم يعودا يلتبسانِ.

لقد كانت فرقاناً بين الحقِ والباطل بهذا المدلول الشَّامل الواسع ، الدَّقيق ، العميق على أبعادٍ وامادٍ ، كانت فرقاناً بين هذا الحقِ ، وهذا الباطل في أعماق الضَّمير ، فرقاناً بين الوحدانيَّة

المجرَّدة المطْلَقَةِ بكلِّ شُعَبِها؛ في الضَّمير والشُّعور ، وفي الخُلُق والسُّلوك ، وفي العبادة والعبودية ، وبين الشِّرك في كلِّ صوره؛ الَّتي تشمل عبودية الضَّمير لغير الله من الأشخاص ، والأهواء ، والقِيَم ، والأوضاع والتَّقاليد والعادات ، وكانت فرقاناً بين هذا الحقِ ، وهذا الباطل في الواقع الظَّاهر كذلك ، فرقاناً بين العبودية الواقعيَّة للأشخاص ، والأهواء ، وللقِيَم والأوضاع ، وللشَّرائع والقوانين ، وللتَّقاليد والعادات ، وبين الرُّجوع في هذا كله لله الواحد الَّذي لا إله غيره ، ولا حاكم دونه ، ولا مشرِّع إلا إيَّاه ، فارتفعت الهامات ، لا تنحني لغير الله ، وتساوت الرؤوس ، فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه ، وتحرَّرت القطعان البشريَّة؛ الَّتي كانت مستعبدةً للطُّغاة.

وكانت فرقاناً بين عهدٍ في تاريخ الحركة الإسلاميَّة ، عهد المصابرة والصَّبر ، والتَّجمُّع والانتظار ، وعهد القوَّة ، والحركة والمبادأة والاندفاع ، والإسلام بوصفه تصويراً جديداً للحياة ، ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانيّ ، ونظاماً جديداً للمجتمع ، وشكلاً جديداً للدَّولة ، بوصفه إعلاناً عامّاً لتحرير الإنسان في الأرض؛ بتقرير ألوهيَّة الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطَّواغيب ، الَّتي تغتصب ألوهيته[(٩٠)].

إلى أن قال: وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحقِ والباطل بمدلولٍ اخر ، ذلك المدلول الَّذي يوحي به قول الله تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ

وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ *} [الأنفال: ٧ ـ ٨].

لقد كان الَّذين خرجوا للمعركة من المسلمين؛ إنَّما خرجوا يريدون عِيرَ أبي سفيان ، واغتنام القافلة ، فأراد الله لهم غير ما أرادوا؛ أراد لهم أن تُفلِتَ منهم قافلةُ أبي سفيان (غير ذات الشَّوكة) ، وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشَّوكة) ، وأن تكون معركةً ، وقتالاً ، وقتلاً ، وأسراً ، ولا تكون قافلةً ، وغنيمةً ، ورِحْلةً مريحةً ، وقد قال الله ـ سبحانه ـ: إنَّه صنع هذا؛ {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ} ، وكانت هذه إشارةٌ لتقرير حقيقةٍ كبيرةٍ...

إنَّ الحقَّ لا يحقُّ ، وإنَّ الباطل لا يبطلُ ـ في المجتمع الإنسانيّ ـ بمجرَّد البيان النَّظريِّ للحقِ والباطل ، ولا بمجرَّد الاعتقاد النظريِّ بأنَّ هذا حقٌّ ، وهذا باطلٌ ، إنَّ الحقَّ لا يحقُّ ، وإنَّ الباطل لا يبطل ، ولا يذهب من دنيا النَّاس ، إلا بأن يتحطَّم سلطان الباطل ، ويعلو سلطان الحق ، وذلك لا يتمُّ إلا بأن يغلب جند الحقِّ ، ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ، ويندحروا.. فهذا الدِّين منهجٌ حركيٌّ واقعيٌّ ، لا مجرَّد نظريةٍ للمعرفة ، والجدل ، أو لمجرد الاعتقاد السَّلبيِّ!

ولقد حقَّ الحقُّ وبطل الباطل بالموقعة ، وكان هذا النَّصر العمليُّ فرقاناً واقعيّاً بين الحقِ والباطل بهذا الاعتبار ، الَّذي أشار إليه قولُ الله تعالى في معرض بيان إرادته ـ سبحانه ـ من وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرَّسول (ص) من بيته بالحقِّ ، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشَّوكة) ، ولقاء الفئة (ذات الشَّوكة).

ولقد كان هذا كلُّه فرقاناً بين منهج هذا الدِّين ذاته ، تتَّضح به طبيعة هذا المنهج ، وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم ، وإنَّه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدِّين من تميُّعٍ في نفوس من يسمُّون أنفسهم مسلمين! ، حتى ليصل هذا التميُّع إلى مفهومات بعض مَنْ يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين! وهكذا كان يوم بدر: {يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ} [الأنفال: ٤١] بهذه المدلولات المنوَّعة ، الشَّاملة ، العميقة.

: وفي هذا اليوم مَثَلٌ من قدرته على كلِّ {وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ *} ، مثلٌ لا يجادِل فيه مجادلٌ ، ولا يُماري فيه ممارٍ[(٩١)] ، مثلٌ من الواقع المشهود؛ الَّذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله ، وأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير[(٩٢)].

ثالثاً: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمَّة صوراً مشرقةً في الولاء ، والبراء ، وجعلت خطّاً فاصلاً بين الحقِّ، والباطل ، فكانت الفرقان النَّفسيَّ ، والماديَّ ، والمفاصلة التامَّة بين الإسلام ، والكفر ، وفيها تجسَّدت هذه المعاني ، فعاشها الصَّحابة واقعاً مادِّياً ، وحقيقةً نفسيَّةً ، وفيها تهاوت القيم الجاهليَّة ، فالتقى الابن بأبيه ، والأخ بأخيه:

١ ـ كان أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة في صفِّ المسلمين، وكان أبوه عُتبة، وأخوه الوليد ، وعمُّه شيبة في صفِّ المشركين ، وقد قُتلوا جميعاً في المبارزة الأولى.

٢ ـ كان أبو بكر الصِّدِّيق في صفِّ المسلمين ، وكان ابنه عبد الرَّحمن في صفِّ المشركين.

٣ ـ كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين ، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صفِّ المشركين ، ثمَّ وقع أسيراً في يد أحد الأنصار ، فقال مصعب للأنصاريِّ: شُدَّ يدك به؛ فإنَّ أمَّه ذاتُ متاع ، فقال أبو عزيز: يا أخي! هذه وصيَّتك بي؟! فقال مصعب: إنَّه أخي دونك ، تلك كانت حقائق ، وليس مجرَّد كلمات: إنَّه أخي دونك[(٩٣)]!. إنَّها القيم المطروحة لتقوم الإنسانيَّة

على أساسها ، فإذا العقيدة هي اصرةُ النَّسب والقرابة ، وهي الرِّباط الاجتماعيُّ[(٩٤)].

٤ ـ كان شعار المسلمين في بدرٍ: (أحَد... أحَد) وهذا يعني: أنَّ القتال في سبيل عقيدةٍ تتمثَّل بالعبوديَّة للإله الواحد، فلا العصبيَّة ، ولا القبلية ، ولا الأحقاد ، ولا الضَّغائن ، ولا الثأر ، هو الباعث والمحرِّك؛ ولكنَّه الإيمان بالله وحدَه.

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر، واحدةً في مضمونها[(٩٥)].

وللإيمان فقهٌ عظيمٌ ، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله (ص) إلى المدينة ، هاجر إليها كلُّ من استطاع ذلك من المسلمين في مكَّة ، وحُبِس من كان مضطهداً ، ولم يستطع ذلك ، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صفِّ المشركين؛ منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وأبو قيس بن الفاكِه ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعليُّ بن أميَّة بن خلف ، والعاصُ بن مُنبِّه.

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو؛ فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله (ص) ، فشهد المعركةَ ، وكان أحدَ الصَّحابة الذين نالوا هذا الشَّرف العظيم[(٩٦)].

وأمَّا الاخرون؛ فلم يفعلوا ذلك ، وشهدوا المعركة في صفِّ المشركين ، وقد أُصيبوا جميعاً[(٩٧)] ، فقتلوا تحت راية الكفر ، فنزل في حقِّهم قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ

قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *} [النساء: ٩٧] ، البخاري (٤٥٩٦)].

قال ابن عباس: كان قومٌ من المسلمين أقاموا بمكَّة . وكانوا يَسْتَخْفُون بالإسلام .كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأُكرهوا على الخروج ، فنزلت: . إنَّهم لم يُعْذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صفِّ المؤمنين {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ} ، ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصَّفين ، ولن يُعدموا . لو أرادوا . الفرصة في الانتقال إلى رسول الله (ص) كما فعل عبد الله بن سهيل[(٩٨)].

إنَّ للإيمان مستلزمات تعبِّر عن صدقه ، وقوَّته ، ومن مستلزماته استعلاؤه على كلِّ القيم ممَّا سواه ، فإذا كان كذلك ، كان لصاحبه الأثرُ الفعَّال ، والقوَّة الفاعلة في بناء الحقِّ والخير؛ الَّذي أراده الله ، إنَّ الإيمان يصبُغ السُّلوك ، فإذا به يشعُّ من خلال الحركة والجهد ، ومن خلال

الكلمة ، والابتسامة ، ومن خلال السَّمْتِ[(٩٩)] ، والانفعال ، ولذا لم يُعذَرِ الَّذين كانوا في صفِّ المشركين؛ لأنَّ الإيمان الَّذي ادَّعوه لم توجد له مستلزماتٌ ، فلم يُؤتِ ثماره[(١٠٠)].

وبهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم في بدرٍ مُثُلاً عليا لصدق الإيمان ، الَّتي تدل على أنَّهم اثروا رضاء الله ورسوله (ص) على حبِّ الوالد ، والولد ، والأهل ، والعشيرة ، فلا يعجبُ المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصَّادقة في قوله تعالى: {لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [المجادلة: ٢٢].

رابعاً: المعجزات الَّتي ظهرت في بدرٍ وما حولها:

من المعجزات الَّتي ظهرت على يَدَيْ رسول الله (ص) في بدرٍ إخبارُه عن بعض المغيَّبات ، ومن المعلوم: أنَّ علم الغيب مختصٌّ بالله تعالى وحده ، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير ايةٍ من كتابه العزيز ، قال تعالى: {قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ *} [النمل: ٦٥].

وقال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *} [الأنعام: ٥٩].

ومن المعلوم: أنَّ الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ لا يعلمون الغيب ، ولا اطِّلاع لهم على شيءٍ منه ، فقد قال تعالى: {قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ *} [الأنعام: ٥٠].

وكما جاءت الأدلَّة تدلُّ على أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قد اختصَّ نفسه بمعرفة علم الغيب ، وأنَّه استأثر به دون خلقه ، جاءت أدلَّةٌ تفيد: أنَّ الله تعالى استثنى من خلقه مَنِ ارتضاه من الرُّسل ، فأودعهم ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزةً لهم ، ودلالةً صادقةً على نبوَّتهم.

قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ *} [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا *إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا *} [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] فنخلص من ذلك إلى أنَّ ما وقع على لسان رسول الله (ص) من الإخبار بالمغيَّبات؛ فبوحيٍ من الله تعالى ، وهو إعلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لرسوله (ص) للدَّلالة على ثبوت نبوَّته ، وصحَّة رسالته ، وقد اشتهر وانتشر أمره (ص) بإطلاع الله له على المغيَّبات[(١٠١)] ، وكان لأحداث غزوة بدرٍ نصيبٌ من تلك المعجزات الغيبيَّة؛ منها:

أ ـ قتل أميَّة بن خلف:

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: انطلق سعدُ بن مُعاذ معتمراً ، قال: فنزل على أميَّةَ بن خلف أبي صفوان ، وكان أميَّة إذا انطلق إلى الشَّام ، فمرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ ، فقال أميَّة لسعدٍ: ألا تنتظر حتى إذا انتصف النَّهارُ ، وغفل النَّاسُ انطلقت فطفتَ! فبينا سعدٌ يطوف إذا أبو جهل ، فقال: مَنْ هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعدٌ: أنا سعدٌ ، فقال أبو جهل: تطوفُ بالكعبة امناً ، وقد اويتم محمَّداً ، وأصحابه؟ فقال: نعم ، فَتَلاَحَيَا[(١٠٢)] بينهما ، فقال أميَّة لسعدٍ: لا ترفعْ صوتك على أبي الحكم ، فإنه سيِّد أهل الوادي ، ثمَّ قال سعدٌ: والله! لئن منعتني أن أطوفَ بالبيت لأقطعنَّ متجركَ بالشَّام ، قال: فجعل أميَّةُ يقول لسعدٍ: لا ترفعْ صوتك ، وجعل يمسكه ، فغضب سعد ، فقال: دعنا عنك؛ فإنِّي سمعت محمداً (ص) يزعم: أنَّه قاتلُك ، قال: إيَّايَ؟ قال: نعم! قال: والله! ما يكذب محمَّدٌ إذا حدَّث ، فرجع إلى امرأته ، فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربيُّ؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم: أنَّه سمع محمَّداً يزعم: أنَّه قاتلي. قالت: فوالله! ما يكذب محمَّدٌ.

قال: فلمَّا خرجوا إلى بدرٍ وجاء الصَّريخ؛ قالت له امرأته: أما ذكرتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ قال: فأراد ألاَّ يخرجَ ، فقال له أبو جهل: إنَّك مِنْ أشراف الوادي ، فسِرْ يوماً ، أو يومين ، فسار معهم ، يومين ، فقتله الله. [البخاري (٣٦٣٢)].

ب ـ مصارع الطُّغاة:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كنَّا مع عمرَ بين مكَّة ، والمدينة ، فتراءينا الهلالَ، وكنتُ رجلاً حديدَ البصر[(١٠٣)]، فرأيتُه وليس أحدٌ يزعم: أنَّه راه غيري ، قال: فجعلتُ أقول لعمر: أمَا تراه؟ فجعل يقول: لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه ، وأنا مُسْتَلْقٍ على فراشي، ثمَّ أنشأ يحدِّثنا عن أهل بدرٍ ، فقال: إنَّ رسول الله (ص) كان يرينا مصارع أهل بدرٍ بالأمس ، يقول: «هذا مصرعُ فلانٍ غداً؛ إن شاء الله» قال: فقال عمر: فوالَّذي بعثه بالحقِّ ، ما أخطؤوا الحدودَ التي حَدَّ رسولُ الله (ص) . [مسلم (٢٨٧٣)].

جـ إخبار العباس بن عبد المطَّلب بالمال الَّذي دفنه ، وإعلام عُمير بن وهب بالحديث الَّذي حَدَثَ بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لما طلب رسول الله (ص) من عمِّه دفع الفداء ، وأجابه العبَّاس: ما ذاك عندي يا رسولَ الله! فقال له: «أين المالُ الذي دفنته أنت ، وأمُّ الفضل ، فقلتَ لها: إن أُصبت في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنته لبني الفضل ، وعبد الله ، وقُثم؟» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله؛ إنَّ هذا الأمر ما علمه أحدٌ غيري ، وغير أمِّ الفضل.

وما حدَّث به عمير بن وهب لما جاء متظاهراً بفداء ابنه ، وهو يريد قتل النَّبيِّ (ص) باتِّفاقٍ مع صفوان بن أميَّة ، فقد أنبأه نبأ المؤامرة ، فكانت سبباً في إسلامه ، وصدق إيمانه. [سبق تخريجه][(١٠٤)].

ومن المعجزات أيضاً:

ما ذكره ابن القيِّم في زاد المعاد: أنَّ سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذٍ ، فأعطاه النَّبيُّ (ص) جِذْلاً من حطبٍ ، فقال: (دونك هذا) ، فلمَّا أخذه عُكَّاشة ، وهزَّه؛ عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيضَ ، فلم يزل عنده يقاتل به حتَّى قُتِل في حروب الردَّة أيام أبي بكرٍ[(١٠٥)]. وقال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسهمٍ يوم بدرٍ ، ففُقِئت عيني ، فبصق فيها رسول الله (ص) ودعا لي ، فما اذاني منها شيءٌ[(١٠٦)].

قال الدُّكتور أبو شهبةَ: وما ينبغي لأحدٍ أن يزعم: أنَّ المعجزات الحسِّيَّة لا ضرورة إليها بعد القران ، فها هي قد بدت اثارُها واضحةً جليَّةً في إسلام البعض ، وتقوية يقين البعض الاخر ، وإثبات: أنَّه نبيٌّ يُوحَى

إليه ، فقد أخبر بمغيَّبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنَّه خبر السَّماء ، وغير خفيٍّ ما يحدثه من انقلاب عودٍ ، أو عُرْجُونٍ[(١٠٧)] في يد صاحبه سيفاً بتَّاراً في إيمانه ، وتقوية يقينه ، وجهاده به جهاداً لا يعرف التَّردُّد ، أو الخور ، وحرصه البالغ على أن يخوض المعارك بسيفٍ خرقت به العادة ، وصار مثلاً ، وذكرى في الأوَّلين ، والاخرين[(١٠٨)].

خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدرٍ ، وفي الأحداث الَّتي سبقتها ، أراد مشركٌ أن يلحق بجيش المسلمين ، وطلب من النَّبيِّ (ص) الموافقة على قبوله معهم ، والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه ، فقال (ص) : «ارجع ، فلن أستعين بمشرك». [أحمد (٦/١٤٩) ، ومسلم (١٨١٧) ، وأبو داود (٢٧٣٢) ، والترمذي (١٥٥٨) ، وابن ماجه (٢٨٣٢)].

فالحديث يبيِّن: أنَّ القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامَّة، ولهذه القاعدة استثناءٌ ، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروطٍ معيَّنةٍ ، وهي: تحقُّق المصلحة ، أو رجحانها بهذه الاستعانة ، وألاَّ يكون ذلك على حساب الدَّعوة ومعانيها ، وأن يتحقَّق الوثوق الكافي بمن يُستعان به ، وأن يكون تابعاً للقيادة الإسلاميَّة ، لا متبوعاً ، ومقوداً فيها لا قائداً لها ، وألاَّ تكون هذه الاستعانة مثارَ شبهةٍ لأفراد المسلمين ، وأن تكون هناك حاجة حقيقيَّةٌ لهذه الاستعانة وبمن يُستعان به ، فإذا تحقَّقت هذه الشُّروط؛ جازت الاستعانة على وجه الاستثناء ، وإذا لم تتحقَّق؛ لم تَجُزِ الاستعانة ، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسولُ الله (ص) اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عِيرِ قريش؛ إذ لا حاجة به أصلاً.

وفي ضوء الاستثناء ، وتحقُّق شروطه استعان النَّبيُّ (ص) بالمشرك عبد الله بن أريقط؛ الَّذي استأجره النَّبيُّ (ص) ، وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة ، ليدلَّهما على الطريق إليها.. وهكذا على هذا الاستثناء ، وتحقُّق شروطه قَبِل (ص) حماية عمِّه أبي طالب له ، كما قَبِل جوار ، أو إجارة المطْعِم بن عديٍّ له عند رجوعه (ص) من الطَّائف ، وكذلك قبول الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم جوار من أجارهم مِنَ المشركين؛ ليدفع هؤلاء الأذى عمَّن أجاروهم[(١٠٩)] ، وضبْطُ هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقهٍ دقيقٍ ، وإيمانٍ عميقٍ.

سادساً: حذيفة بن اليمان ، وأسيد بن الحضير رضي الله عنهما:

أ ـ حذيفة بن اليمان ووالده:

قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدراً إلا أنِّي وأبي أقبلنا نريد رسول الله (ص) ، فأخذنا كفَّار قريش، فقالوا: إنَّكم تريدون محمَّداً، فقلنا: ما نريده؛ إنَّما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرُن إلى المدينة ، ولا تقاتلوا مع محمَّدٍ (ص) ، فلمَّا جاوزناهم أتينا رسول الله (ص) ، فذكرنا له ما قالوا ، وما قلنا لهم؛ فما ترى؟ قال: «نستعين الله عليهم ، ونفي بعهدهم» ، فانطلقنا إلى المدينة ، فذاك الَّذي منعنا أن نشهد بدراً. [الحاكم (٣/٢٠١ ـ ٢٠٢)].

هذه صورةٌ مشرقةٌ في حرص النَّبيِّ (ص) لحفظ العهود ، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم الأخلاق الرَّفيعة ، وإن كان في ذلك إجحافٌ بالمسلمين ، ومفوِّتٌ لهم جُهْدَ بعض أفراد المجاهدين.

ب ـ أُسيد بن الحضير:

عندما رجع رسولُ الله (ص) إلى المدينة قادماً من بدرٍ؛ لقي بالرَّوْحاء رؤوس النَّاس يهنِّئونه بما فتح الله عليه ، فقال أُسَيْدُ بن الحضير: يا رسول الله! الحمد لله الَّذي أظفرك ، وأقرَّ عينك ، والله يا رسول الله! ما كان تخلُّفي عن بدرٍ ، وأنا أظنُّ أنَّك تلقى عدوّاً ، ولكن ظننت أنَّها عيرٌ ، ولو ظننت: أنَّه عدوٌّ؛ ما تخلفت ، فقال رسول الله (ص) : «صَدَقْتَ» [البيهقي في الدلائل (٣/١٣٣)][(١١٠)].

سابعاً: الحرب الإعلاميَّة في بدرٍ:

قال حسَّان رضي الله عنه:

فَمَا نَخْشَى بِحَوْلِ اللهِ قَوْماً وَإِنْ كَثُرُوا وأَجْمَعَتِ الزُّحُوفُ

إِذَا ما ألبسُوا جَمْعاً عَلَيْنَا كَفَانَا حدَّهُمْ رَبٌّ رَؤُوفُ

سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بالعَوَالي سِرَاعاً ما تُضَعْضِعُنا الحُتُوفُ[(١١١)]

فَلَمْ تُرَ عُصْبَةٌ في النَّاسِ أَنْكَى لِمَنْ عادَوْا إِذَا لَقِحَتْ كُشُوفُ

ولكِنَّا تَوكَّلْنا وَقُلْنَا مآثِرُنَا وَمَعْقِلُنَا السُّيُوفُ

لَقِيْنَاهُمْ بِهَا لما سَمَوْنَا ونَحْنُ عِصَابَةٌ[(١١٢)] وَهُمُ أُلُوفُ[(١١٣)]

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه:

وما حَامَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ولا صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ

وَرَدْنَاهُ بِنُوْرِ الله يَجْلُو دُجى الظَّلْمَاءِ عَنَّا والغِطاءِ

رَسُولُ الله يَقْدُمُنَا بِأَمْرٍ مِن اَمْرِ الله أُحْكِمَ بالقَضاءِ

فَمَا ظَفِرَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ وما رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بالسَّوَاءِ

فلا تَعْجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وارْقُبْ جِيَادَ الخَيْلِ تَطْلُعُ من كَدَاءِ

بِنَصْرِ اللهِ رُوْحُ القُدْسِ فِيْهَا وَمِيْكَالٌ ، فَيَا طِيْبَ المِلاءِ[(١١٤)][(١١٥)]

كان النَّبِيُّ (ص) يحثُّ شعراء المسلمين على القيام بواجبهم في الدِّفاع عن المسلمين، وإخافة الأعداء بِشِعْرِهِمْ ، فقد كان الشِّعر يمثِّل الحملات الإعلاميَّة المؤثِّرة في دنيا العرب ، فيرفع أقواماً ، ويخفض اخرين ، ويُشْعِل الحروب ، ويُطْفِئها[(١١٦)].

كانت بوادر الحرب الإعلاميَّة قد اندلعت منذ الهجرة ، غير أنَّ ظهورها أكثرُ بدءاً مع حركة السَّرايا قُبيل بدر ، لكنَّها انفجرت انفجاراً ضخماً بعد بدرٍ؛ لأنَّ الجانب الإعلاميَّ للقبائل المجاورة كان هدفاً مُهِمّاً من أهداف الفريقين ، ويظهر: أنَّ القصائد سَرعان[(١١٧)] ما تطير بها الرُّكبان بين يثربَ ، ومكَّةَ ، فيأتي الردُّ من الطَّرف الاخر ، فعند النَّصر تكثر أشعار الفريق المنتصر ، بينما تكثر المراثي عند الفريق الثَّاني ، وكان الصَّفُّ الإسلاميُّ يضمُّ شعراء متخصِّصين؛ أمثال: كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكان أشدَّهم على الكفَّار حسانُ[(١١٨)].

* * *

المبحث الثَّامن

أهمُّ الأحداث الَّتي وقعت بين غزوتي بدرٍ ، وأحد[(١١٩)]

في أعقاب غزوة بدرٍ أخذت الهيبة العسكريَّة للمسلمين مداها الكبير ، في دائرةٍ واسعةٍ في الجزيرة العربيَّة ، وأحسَّ ضعفاء المشركين بالخطر ، وشعر أقوياؤهم بغلبة الإسلام ، وبدأت النُّفوس تتطلَّع إلى الإيمان؛ فتوسَّعت دائرة الدُّخول في الإسلام ، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقاً ، أو خديعةً؛ وبهذا كلِّه أصبحت الدَّولة الجديدة أمام أوضاعٍ جديدةٍ من المكر ، والتَّألُّب ، والتَّحالفات؛ ولكنَّ تأييد الله تعالى، ثمَّ جهاز أمن الدَّولة المتيقِّظ أفشل مخطَّطاتِ أعداء الإسلام[(١٢٠)].

أولاً: الغزوات الَّتي قادها رسول الله (ص) بعد بدرٍ ، وقبل أُحدٍ:

١ ـ ماء الكُدْر[(١٢١)] في بني سُليم:

غزا النَّبيُّ (ص) بعد سبع ليالٍ من عودته إلى المدينة من غزوة بدرٍ ، وبلغ ماء الكُدْر في ديار بني سُلَيم ، الَّذين قصدهم بغزوته هذه ، غير أنَّه لَمْ يلقَ حرباً؛ فأقام ثلاث ليالٍ على الماء ، ثُمَّ رجع إلى المدينة[(١٢٢)] ، وكان سبب تلك الغزوة ، تجمُّع أفراد بني سُلَيم لمقاتلة المسلمين ، والاعتداء عليهم بعد معركة بدرٍ مباشرة ، ولكنَّ رسول الله (ص) فاجأهم بهجومٍ سريعٍ غير متوقَّعٍ ، فهرب بنو سليم ، وتفرَّقوا على رؤوس الجبال ، وبقيت إبلهم مع راعٍ لها يُدعى يساراً ، فاستاق رسولُ الله (ص) الإبلَ مع راعيها ، وعند موضع صرار على ثلاثة أميال من المدينة قسَّم النَّبيُّ (ص) الإبل ـ الَّتي كان عددها خمسمئة بعير ـ على أصحابه ، فأصاب الواحد منهم بعيرين ، ونال النَّبيُّ (ص) خُمْسَها ، وكان يسار من نصيبه ، ولكنَّه أعتقه بعد ذلك[(١٢٣)].

٢ ـ غزوة السَّويق:

قدم أبو سفيان بمئتي فارسٍ من مكَّة ، وسلك طريق النَّجديَّة؛ حتَّى نزلوا حيَّ بني النضير

ليلاً ، واستقبلهم سلاَّم بن مِشْكَم سيِّدُ بني النَّضير ، فأطعمهم ، وسقاهم ، وكشف لهم عن أسرار المسلمين ، وتدارس معهم إحدى الطُّرق لإيقاع الأذى بالمسلمين ، ثُمَّ قام أبو سفيان بمهاجمة ناحية العُرَيْض ـ وادٍ بالمدينة في طرف حَرَّةِ وَاقِم ـ فقتل رجلين ، وأحرق نخلاً ، وفرَّ عائداً إلى مكَّة ، فتعقَّبه رسول الله (ص) في مئتي رجلٍ من المهاجرين ، والأنصار ، ولكنَّه لم يتمكن من إدراكهم؛ لأنَّ أبا سفيان ورجاله قد جدُّوا في الهرب ، وجعلوا يتخفَّفون من أثقالهم ، ويُلْقون السَّوِيق[(١٢٤)] التي كانوا يحملونها لغدائهم ، وكان المسلمون يمرُّون بهذه الجُرب ، فيأخذونها؛ حتَّى رجعوا بسَوِيقٍ كثيرٍ ، لذا سمِّيت هذه الغزوة بغزوة السَّوِيق ، وعاد رسول الله (ص) إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حرباً[(١٢٥)].

٣ ـ غزوة ذي أمر:

جاءت الأخبار من قِبَلِ رجال الاستخبارات الإسلاميَّة ، تفيد بأنَّ رجال قبيلتي ثعلبة ، ومحارب تجمَّعوا بذي أمر ، بقيادة دُعْثُور بن الحارث المحاربِيّ ، يريدون حرب رسول الله (ص) ، والإغارة على المدينة ، فاستعمل النَّبيُّ (ص) على المدينة عثمان بن عفَّان ، وخرج في أربعمئة وخمسين من المسلمين بين راكبٍ ، وراجلٍ ، فأصابوا رجلاً بذي القَصَّة يقال له: جُبَار من بني ثعلبة ، كان يحمل أخباراً عن قومه ، أسرَّ بها إلى رسول الله (ص) ، وقد دخل في الإسلام ، وانضمَّ إلى بلال ليتفقَّه في الدين[(١٢٦)].

أمَّا المشركون من بني ثعلبة ، ومحارب ما لبثوا أن فرُّوا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين ، وبقي رسولُ الله (ص) في نجد مدةً تقارب الشَّهر دون أن يلقى كيداً من أَحَدٍ ، وعاد بعدها إلى المدينة[(١٢٧)].

وفي هذه الغزوة أسلم دُعثور بن الحارث الَّذي كان سيِّداً مطاعاً ، بعد أن حدثت له معجزة على يديْ رسول الله (ص) ؛ فقد أصاب المسلمين في هذه الغزوة مطرٌ كثيرٌ ، فابتلَّت ثياب رسول الله (ص) ، فنزل تحت شجرة ، ونشر ثيابه لتجفَّ ، واستطاع دُعثور أن ينفرد برسول الله (ص) بسيفه ، فقال: يا محمد ! من يمنعك منِّي اليوم ؟ قال: الله. ودفع جبريل صدره ، فوقع السَّيف من يده ، فأخذه رسول الله (ص) ، فقال: من يمنعك منِّي؟ قال: لا أحد! وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، واللهِ لا أكثرُ عليك جمعاً أبداً! فأعطاه رسول الله (ص) سيفه ،

فلمَّا رجع إلى أصحابه؛ قالوا: ويلك! ما لك؟ فقال: نظرت إلى رجلٍ طويلٍ ، فدفع صدري ، فوقعت لظهري ، فعرفت: أنَّه مَلَكٌ ، وشهدت أنَّ محمَّداً رسول الله ، واللهِ لا أكثر عليه جمعاً: وجعل يدعو قومه إلى الإسلام. [البيهقي في الدلائل (٣/١٦٨ ـ ١٦٩)][(١٢٨)].

ونزل في ذلك قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [المائدة: ١١].

٤ ـ غزوة بَحْران[(١٢٩)]:

كانت هذه الغزوة في شهر جُمادى الأولى من السَّنة الثالثة للهجرة ، وقد خرج النَّبيُّ (ص) في ثلاثمئةٍ من المسلمين؛ حتَّى بلغ بَحْرَانَ بين مكَّة ، والمدينة ، يريد قتال بني سُلَيم ، فوجدهم قد تفرَّقوا ، فانصرف عنهم ، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عَشْرَ ليالٍ[(١٣٠)].

ونلحظ في هذه الغزوات قدرة القيادة الإسلاميَّة على رصد تحرُّكات العدوِّ ، ومعرفة قوَّته ، وخططه ، ومدده؛ لكي تحطِّم هذه التَّجمُّعات المناوئة للدَّولة الإسلاميَّة الفتيَّة قبل أن يستفحل أمر هذه القبائل ، وتصبح خطراً على المدينة.

وهذه الغزوات في هذه الصَّحراء المترامية الأطراف كانت دوراتٍ تدريبيةً تربويَّةً للصَّحابة الكرام ، وسعدت سرايا الصَّحابة بقيادة النَّبيِّ (ص) لها ، فقد كانت تلك الدَّورات العمليَّة التَّدريبيَّة القتاليَّة التَّربويَّة مستمرةً ، وتمتدُّ من خمسة أيام إلى شهر ، تتمُّ فيها الحياة الجماعيَّة، ويتربَّى جنود الإسلام، على السَّمع ، والطَّاعة ، والتَّدريب المتقن ، ويكتسبون خبراتٍ جديدةً تساعدهم على تحطيم الباطل ، وتقوية الحقِّ.

لقد كان المنهاج النَّبويُّ الكريم يهتمُّ بتربية الصَّحابة في ميادين النِّزال ، ولا يَغْفُلُ عن المسجد النَّبويِّ ودوره في صقل النُّفوس، وتنوير العقول ، وتهذيب الأخلاق من خلال وجود المربِّي العظيم (ص) ، الَّذي أصبحت تعاليمُه تشعُّ في أوساط المجتمع من خلال القُدوة ، والعبادة الخاشعة للهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ؛ فالمنهاج النبويُّ الكريم جمع بين الدَّورات المسجديَّة التَّربويَّة، والدَّورات العسكريَّة التَّربويَّة المكثَّفة؛ لكي يَقْوَى المجتمع الجديد، وتُرَصُّ صفوفُه، ويكسب الخبرات؛ لكي يقوم بنشر الإسلام في الافاق[(١٣١)].

٥ ـ سرية زيد بن حارثة إلى القَرْدَة:

أصبح مشركو مكَّة بعد هزيمتهم في بدرٍ يبحثون عن طريقٍ أخرى لتجارتهم للشَّام ، فأشار بعضهم إلى طريق نجدٍ العراق ، وقد سلكوها بالفعل ، وخرج منهم تُجَّار ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أميَّة ، وحويطب بن عبد العُزَّى ، ومعهم فضَّةٌ ، وبضائع كثيرةٌ ، بما قيمته مئة ألف درهمٍ ، فبلغ ذلك رسول الله (ص) بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلاميِّ ، يُدعى سليط بن النُّعمان رضي الله عنه[(١٣٢)]، فبعث زيدَ بن حارثة في مئة راكبٍ لاعتراض القافلة، فلقيها زيد عند ماءٍ يقال له: القَرْدَة ، وهو ماء من مياه نجدٍ ، ففرَّ رجالها مذعورين ، وأصاب المسلمون العِيرَ وما عليها ، وأسروا دليلَها فُرات بن حَيَّان؛ الَّذي أسلم بين يدي النَّبيِّ (ص) ، وعادوا إلى المدينة ، فخَمَّسَهَا رسولُ الله (ص) ، ووزَّع الباقي بين أفراد السَّرِيَّة[(١٣٣)].

ثانياً: غزوة بني قَيْنُقَاع[(١٣٤)]:

ذكر الزُّهريُّ: أنَّها وقعت في السَّنة الثَّانية للهجرة ، وذكر الواقديُّ ، وابن سعدٍ: أنها وقعت يوم السَّبت للنِّصف من شوال من السَّنة الثَّانية[(١٣٥)] ، واتَّفق معظم من كَتَبَ في مغازي رسول الله (ص) ، وسيرته على أنَّها وقعت بعد معركة بدرٍ؛ إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة الَّتي أبرمها الرَّسول (ص) معهم ، ولم يوفوا بالتزاماتهم الَّتي حدَّدتها ، ووقفوا من الرَّسول (ص) والمسلمين مواقفَ عدائيَّةً ، فأظهروا الغضب ، والحسد عندما انتصر المسلمون في بدرٍ ، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين[(١٣٦)].

وقد جمعهم النَّبيُّ (ص) في سوقهم بالمدينة ، ونصحهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وحذَّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشاً في بدرٍ[(١٣٧)]؛ غير أنَّهم واجهوا النَّبيَّ (ص) بالتَّحدِّي ، والتَّهديد ، رغم ما يُفترض أن يلتزموا به من الطَّاعة ، والمتابعة لبنود المعاهدة الَّتي جعلتهم تحت رئاسته ، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد! لا يغرنَّك من نفسك أنَّك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً ، لا يعرفون القتال ، إنَّك لو قاتلتنا لعرفت: أنَّا نحن النَّاس ، وأنَّك لم تلقَ مثلنا»[(١٣٨)].

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل؛ إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام ، والاحترام؛ بل على العكس؛ فإنَّهم قد أظهروا رُوحاً عدائيَّةً ، وتحدِّياً ، واستعلاءً ، واستعداداً للقتال ، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيهم قوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُِوْلِي الأَبْصَارِ *} [آل عمران: ١٢ ـ ١٣].

١ ـ الأسباب المباشرة للغزوة:

لما انتصر المسلمون في بدرٍ ، وقال رسول الله (ص) لليهود ما قال؛ أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الَّذي بينهم وبين المسلمين ، وأخذوا يتحيَّنون الفرصة السَّانحة لمناوشة المسلمين ، حتَّى جاءتهم فرصتُهم الحقيرة الدَّنيئة؛ عندما جاءت امرأةٌ من العرب بِجَلَبٍ[(١٣٩)] لها ، فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغٍ يهوديٍّ ، فجعلوا يُريدونها على كَشْف وجهها ، فأبت ، فعمد الصَّائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلمَّا قامت انكشفت سَوْءَتُها ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصَّائغ فقتله ـ وكان يهوديّاً ـ وشدَّت اليهود على المسلم ، فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشَّرُّ بينهم ، وبين بني قينقاع[(١٤٠)].

فحين علم رسول الله (ص) بذلك ، سار إليهم على رأس جيشٍ من المهاجرين ، والأنصار ، وذلك يوم السَّبت للنِّصف من شوَّال من السَّنة الثَّانية للهجرة[(١٤١)] ، وكان الَّذي حمل لواء المسلمين يومئذٍ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، واستخلف (ص) على المدينة أبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر العمريَّ[(١٤٢)] ، واسمه: بشير[(١٤٣)]. وحين سار إليهم رسول الله (ص) ؛ نبذ إليهم العهد ، كما أمره الله تعالى في قوله: {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ *} [الأنفال: ٥٨].

٢ ـ ضرب الحصار عليهم:

وحين علم اليهود بمقدَمه (ص) ؛ تحصَّنوا في حصونهم ، فحاصرهم النَّبيُّ (ص) خمسَ عَشْرَةَ ليلةً ـ كما ذكر ابن هشام ـ[(١٤٤)] ، واستمرَّ الحصار حتَّى قذف الله في قلوبهم الرُّعب ، واضطروا

للنُّزول على حكمه (ص) ، فقد فاجأهم (ص) بأسلوب الحصار ، فأربكهم ، وأوقعهم في حيرةٍ من أمرهم؛ بعد أن قطع عنهم كلَّ مددٍ ، وجمَّد حركتهم ، فعاشوا في سجنٍ؛ ممَّا جعلهم في النِّهاية ييأسون من المقاومة ، والصَّبر ، فبعد أن كانوا يهدِّدون رسول الله (ص) ، وبأنَّهم قوم يختلفون بأساً ، وشدَّةً عن مشركي قريش ، إذا بهم يضطرون للنُّزول على حكم رسول الله (ص)[(١٤٥)] ، فأمر بهم ، فرُبطوا ،

فكانوا يكتَّفون أكتافاً ، واستعمل رسول الله (ص) على كتافهم المنذر بن قدامة السَّلميَّ الأوسيَّ[(١٤٦)] .

٣ . مصير يهود بني قينقاع:

حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلَّ حلفاءه مِنْ وثَاقِهِم ، فعندما مرَّ عليهم قال: حُلُّوهم ، فقال المنذر: أتحلُّون قوماً ربطهم رسول الله (ص) ؟! والله لا يحلُّهم رجلٌ إلا ضَرَبْتُ عنقَه[(١٤٧)] ، فاضطر عبد الله بن أُبيِّ بن سلول أن يتراجع عن أمره ، ويلجأ إلى استصدار الأمر من النَّبيِّ (ص) بفكِّ أسرهم[(١٤٨)] ، فأتى رسولَ الله (ص) ، فقال: يا محمد! أَحْسِنْ في مواليَّ . وكانوا حلفاء الخزرج . ، قال: فأبطأ عليه رسول الله (ص) ، فقال: يا محمد! أحسن في مواليَّ ، قال: فأعرض عنه ، فأدخل ابن أُبيِّ يده في جيبِ درعِ رسولِ الله (ص) ، فقال له رسول الله (ص) : «أرسلني» وغضب رسول الله (ص) ، حتَّى رأوا لوجهه ظُللاً[(١٤٩)] ، ثمَّ قال: «ويحك! أرسلني» ، قال: لا والله ، لا أرسلك حتَّى تُحسِن في مواليَّ؛ أربعمئة حاسرٍ[(١٥٠)] ، وثلاثمئة دارعٍ ، قد منعوني من الأحمر ، والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة؟ إنِّي والله امرؤ أخشى الدَّوائر! فقال رسول الله (ص) : «هم لك» [الطبراني في تاريخه (٤٨٠/٢) ، والواقدي في مغازيه (١٧٧/١ . ١٧٨) ، والبيهقي في الدلائل (١٧٤/٣) ، وابن هشام (٥١/٣ . ٥٢)][(١٥١)] .

فخلَّى رسولُ الله (ص) سبيلَهم، ثمَّ أمر بإجلائهم، وغنم رسول الله (ص) والمسلمون ما كان لديهم من مالٍ، وقد تولَّى جمع أموالهم ، وإحصاءها محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه[(١٥٢)] ، وحاول ابن أُبي بن سلول أن يحدِّث رسولَ الله (ص) في يهود بني قينقاع؛ لكي يُقرَّهم في ديارهم ، فوجد على باب رسول الله (ص) عُويم بن ساعدة الأنصاريَّ الأوسيَّ، فردَّه عويم، وقال: لا تدخل
حتَّى يأذن رسول الله (ص) لك، فدفعه ابن أُبيٍّ، فغلَّظ عليه عويم، حتَّى جَحَش[(١٥٣)] وجهَ ابن أُبيٍّ الجدارُ، فسال الدَّم[(١٥٤)] .

ويظهر في هذا الخبر ، فقه النَّبيِّ (ص) السِّياسيُّ في تعامله مع ابن سلول ، حيث لبَّى طلبه ، فلعلَّ هذا الموقف يغسل قلبه ، ويزيل الغشاوة عنه ، فتتمُّ هدايته ، فقال له: «هم لك» ، ولعلَّ الَّذين يسيرون وراء زعامة ابن أُبيٍّ يَصْلُحون بصلاحه ، فيتماسك الصَّفُّ ، ويلتحم؛ فلا يتأثر مِنْ كيد أعداء الإسلام[(١٥٥)] .

وهناك بُعدٌ اخر؛ حيث حرص (ص) أن يتفادى حدوث فتنةٍ في مجتمع المؤمنين؛ حيث إنَّ بعض الأنصار حديثو عهدٍ بالإسلام ، ويُخشى أن يؤثِّر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبيٍّ لسمعته الكبيرة فيهم[(١٥٦)]؛ ولذلك سلك (ص) معه أسلوب المداراة ، والصَّبر عليه ، وعلى إساءاته؛ تجنُّباً للفتنة ، وإظهاراً لحقيقة الرَّجل من خلال تصرُّفاته ، ومواقفه عند مَنْ يجهلها ، ومِنْ ثَمَّ يفرُّ النَّاس مِنْ حوله ، ولا يتعاطفون معه ، وقد حقَّق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً ، فقد ظهرت حقيقة ابن سلولٍ لجميع النَّاس؛ حتَّى أقرب النَّاس إليه ، ومنهم ولده عبد الله ، فكانوا بعدها إذا تكلَّم؛ أسكتوه ، وتضايقوا من كلامه[(١٥٧)] ، بل أرادوا قتله ـ كما سيأتي بإذن الله تعالى ـ.

٤ ـ تبرُّؤ عبادة بن الصَّامت منهم:

لما نقضت العهدَ بنو قينقاع ، سار عُبادة بن الصَّامت أحد بني عوف ـ لهم من حلف بني قينقاع مثل الَّذي لهم من عبد الله بن أُبيٍّ ـ لرسول الله (ص) ، وخلعهم إليه ، وتبرَّأ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإلى رسوله (ص) من حلفهم ، وقال: يا رسول الله! أتولَّى الله ورسولَه (ص) ، والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفّار ، وولايتهم[(١٥٨)].

ولما تقرَّر جلاء بني قينقاع ، أمر رسولُ الله (ص) عُبادة بن الصَّامت أن يُجليَهم ، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد! من بين الأوس والخزرج ـ ونحن مواليك ـ فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لما حاربتم جئتُ رسولَ الله (ص) ، فقلتُ: يا رسولَ الله! إنِّي أبرأ إليك منهم، ومن حلفهم، وكان ابن أُبيٍّ ، وعبادة بن الصَّامت منهم بمنزلةٍ واحدةٍ في الحلف ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ: تبرَّأتَ من حلف مواليك؟! ما هذا بيدهم عندك ، فذكَّره مواطن قد أبْلَوْا فيها ، فقال عبادة:

يا أبا الحُبَاب! تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ، أما والله! إنك لمعْصِمٌ بأمرٍ سنرى غيَّه غداً ، فقالت قينقاع: يا محمد! إنَّ لنا دَيْناً في النَّاس ، قال النَّبيُّ (ص) : «تعَجَّلوا ، وضعوا» وأخذهم عبادة بالرَّحيل ، والإجلاء ، وطلبوا التنفُّس ، فقال لهم: ولا ساعةً من نهارٍ ، لكم ثلاث لا أزيد عليها ، هذا أمر رسول الله (ص) ، ولو كنت أنا ما نفَّستكم ، فلمَّا مضت ثلاث ، خرج في اثارهم حتَّى سلكوا إلى الشَّام ، وهو يقول: الشَّرف الأبعد ، الأقصى ، فالأقصى ، وبلغ خلف الذُّباب ثمَّ رجع ، ولحقوا بأذرعاتٍ[(١٥٩)].

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين ، قد ألقَوا سلاحَهم ، وتركوا أموالهم غنيمةً للمسلمين ، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة ، وأشدِّهم بأساً ، وأكثرهم عدداً وعُدَّةً ؛ ولذلك لاذت القبائل اليهوديَّة

بالصَّمت ، والهدوء ، فترةً من الزَّمن بعد هذا العقاب الرَّادع ، وسيطر الرُّعب على قلوبها ، وخُضِدَتْ شوكتُها[(١٦٠)].

٥ ـ الايات الَّتي نزلت في موالاة ابن سلول لليهود ، وبراءة عُبادة بن الصَّامت منهم:

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ *فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ *وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ *وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ *} [المائدة: ٥١ ـ ٥٦].

قال ابن عطيَّة في هذه الايات: لما انقضت بدرٌ ، وشجر أمر بني قينقاع؛ أراد رسول الله (ص) قتلهم ، فقام دونهم عبدُ الله بن أبيّ بن سلول ـ وكان حليفاً لهم ـ وكان لعبادة بن الصَّامت من حلفهم مثل ما لعبد الله ، فلمَّا رأى عُبادة منزع رسول الله (ص) ، وما سلكتْه اليهود من المشاقَّة لله ، ولرسوله (ص) ؛ جاء إلى النَّبيِّ (ص) ، فقال: يا رسول الله! إنِّي أبرأُ إلى الله من حلف يهود ، وولائهم ، ولا أُوالي إلا الله ، ورسولَه ، وقال عبدُ الله بن أُبيّ: أما أنا فلا أبرأ من ولاء يهود ، فإنِّي لابدَّ لي منهم ، إنِّي رجلٌ أخاف الدَّوائر[(١٦١)].

إنَّ الفرق واضحٌ بين ابن سلول الَّذي انغمس في النِّفاق ، وبين عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه الَّذي تربَّى على المنهاج النَّبويّ ، فَصَفَتْ نفسه ، وتطهَّر قلبُه ، وقوي إيمانه ، وتنوَّر عقله ، فتخلَّص من اثار العصبية الجاهليَّة ، والأهواء ، والمصالح الذَّاتية ، وقدم مصلحة الإسلام على كلِّ مصلحةٍ ، فكان مثلاً حيّاً للمسلم الصَّادق المخلص لعقيدته[(١٦٢)].

ثالثاً: تصفية المحرِّضين على الدَّولة الإسلاميَّة ، ومقتل كعب بن الأشرف:

إنَّ خطر المحرِّضين على الفتنة لا يقلُّ عن خطر الَّذين يشهَرون السُّيوف لقتال المسلمين؛ إذ لولا هؤلاء المحرِّضون لما قامت الفتنة؛ لذلك أخذ رسولُ الله (ص) يتتبَّع هؤلاء المحرِّضين ، ويقتُلهم؛ إطفاءً لنار الفتنة ، وتمكيناً للحقِّ ، وقد قَتل منهم خلقاً بعد موقعة بدرٍ[(١٦٣)] ، ومنهم:

أ . عصماء بنت مَرْوان: الَّتي كانت تحرِّض على النَّبيّ (ص) ، وتعيب الإسلام ، فقد أقدم عُمَيْرُ بنُ عديٍّ الخُطميُّ رضي الله عنه على قتلها ، وحين سأل النَّبيَّ(ص) بعد ذلك عمَّا إذا كان عليه شيء ؟ قال له النَّبيُّ (ص) : «نصرت الله ورسوله يا عمير!» ، ثمَّ قال: «لا ينتطح فيها عنزان» [الخطيب البغدادي في تاريخه (٩٩/١٣)، وكشف الخفاء (٣١٣٧)]، وقد أسلم نتيجة ذلك عددٌ من بني خَطَمَةَ ، وجهر بالإسلام منهم مَنْ كان يستخفي[(١٦٤)].

ب . مقتل أبي عفكٍ اليهوديّ:

كان أبو عفك شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف ، وكان يهوديّاً ، يُحرِّض على رسول الله (ص) ويقول الشِّعر ، فقال رسول الله (ص) : «من لي بهذا الخبيث؟» فخرج له الصَّحابيُّ سالم بن عُمَيْرٍ ، فقتله[(١٦٥)].

وأهمُّ حدثٍ في تصفية المحرِّضين على الدَّولة ما بين بدرٍ ، وأُحدٍ هو مقتل كعب بن الأشرف.

جـ مقتل كعب بن الأشرف:

ينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نَبْهان من قبيلة طيِّء ، وكان أبوه قد أصاب دماً في الجاهليَّة ، فقدم المدينة ، وحالف يهود بني النَّضير ، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق ، فولدت له كعباً[(١٦٦)]، وكان شاعراً، ناصب الإسلام العداء، وقد غاظه انتصار المسلمين على قريشٍ في معركة بدرٍ، فسافر إلى مكَّةَ يهجو النَّبيَّ (ص) ، ويحرِّض قريشاً على الثأر لقتلاهم ، الَّذين كان ينوح

عليهم ، ويبكيهم في شعره ، ويدعو إلى القضاء على الرَّسول (ص) ، والمسلمين[(١٦٧)] ، وممَّا قاله من الشِّعر في قتلى بدرٍ من المشركين:

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمُهْلَكِ أَهْلِهِ   وَلِمثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وتدْمَعُ

قُتِلَتْ سُرَاةُ الناس حَوْلَ حِيَاضِهِمْ   لا تَبْعَدُوا إِنَّ الملُوكَ تُصَرَّعُ

كَمْ قَدْ أُصِيب بِهَا من ابْيَضَ مَاجِدٍ   ذِي بَهجَةٍ تأْوِي إِلَيْهِ الضُّيَّعُ

ويَقُولُ أَقْوَامٌ أُذَلُّ[(١٦٨)] بِسُخْطِهِمْ   إنَّ ابنَ الأشْرَف ظَلَّ كَعْباً يَجْزَعُ

صَدَقُوا فَلَيْتَ الأَرْضَ سَاعَةَ قُتِّلُوا   ظَلَّتْ تَسُوْخُ بأَهْلِهَا وتَصَدَّعُ

نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي كِنَانَةَ كُلَّهُمْ   خَشَعُوا لِقَوْلِ أَبِي الولِيْدِ وَجُدِّعُوا[(١٦٩)]

واستمرَّ كعب بن الأشرف في أذيَّة رسول الله (ص) بالهجاء ، وتشجيع قريشٍ لمحاربة المسلمين ، واستغواهم على رسول الله (ص) ، فقال له أبو سفيان: أناشدك الله، أدينُنا أحبُّ إلى الله أم دين محمَّدٍ ، وأصحابه؟

قال: أنتم أهدى منهم سبيلاً[(١٧٠)] ، ثمَّ خرج مقبلاً قد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله (ص) ، معلناً بعداوته وهجائه[(١٧١)].

ولما قدم المدينة؛ أعلن معاداة النَّبيِّ (ص) ، وشرع في هجائه ، وبلغت به الوقاحة والصَّلَفُ[(١٧٢)] أن يمتدَّ لسانه إلى نساء المسلمين ، وشَبَّب بأمِّ الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوجة العبَّاس عمِّ النَّبي (ص) ، فقال فيها:

أَذَاهِبٌ أَنْتَ لَمْ تَحْلُلْ بِمَنْقَبَةٍ وتَارِكٌ أَنْتَ أَمَّ الفَضْلِ بالحَرَمِ

صَفْرَاءُ رَادِعَةٌ لَوْ تُعْصَرُ انْعَصَرتْ مِنْ ذِي القَوارِيْرِ والحِنَّاء والكَتَمِ[(١٧٣)]

إِحْدَى بَنِي عَامِرٍ هَامَ الفؤادُ بها وَلَوْ تَشَاءُ شَفَتْ كَعْباً مِنَ السَّقَمِ

لَمْ أَرَ شَمْسَاً بِلَيْلٍ قَبْلَهَا طَلَعَتْ حَتَّى تَبَدَّتْ لَنَا فِي لَيْلَةِ الظُّلَمِ[(١٧٤)]

١ ـ حسَّان بن ثابت لابن الأشرف بالمرصاد:

كان رسولُ الله (ص) يحثُّ حسَّاناً للتصدِّي لكعب بن الأشرف ، فكان (ص) يُعْلِم حسَّاناً أين نزل ابن الأشرف في مكَّة؟ فعندما نزل على المطَّلب بن أبي وَدَاعة بن ضبيرة السَّهمي وزوجته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص ، فأبلغ (ص) حسَّان بن ثابت بذلك ، فهجاهم لإيوائهم ابن الأشرف ، فلمَّا بلغ عاتكة بنت أسيد هِجَاءُ حسان ، نبذت رحل اليهوديِّ كعب بن الأشرف ، وقالت لزوجها: مالنا ولهذا اليهوديّ؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسَّان؟![(١٧٥)].

وتحوَّل كعب إلى أناسٍ اخرين ، وكان كلَّما تحوَّل إلى قومٍ ، دعا رسولُ الله (ص) حساناً ، وأخبره أين نزل ابن الأشرف ، فيهجو مَنْ نزل عندهم ، فيطردونه ، وظلَّ يلاحقه حتَّى لفظه كلُّ بيتٍ هناك ، فعاد إلى المدينة راغماً بعد أن ضاقت في وجهه السُّبل ينتظر مصيره المحتوم ، وجزاءه الَّذي يستحقُّه[(١٧٦)].

كانت الحرب الإعلاميَّة التي شَنَّها حسَّان ضدَّ كعب بن الأشرف ، قد حققت أهدافها؛ وهذه بعض الأبيات الَّتي قالها حسَّان بن ثابت رضي الله عنه في الردِّ على كعب بن الأشرف:

أبكَى لِكَعْبٍ ثُمَّ عُلَّ[(١٧٧)] بِعَبْرَةٍ مِنْهُ وَعَاشَ مُجَدَّعَاً لاَ يَسْمَعُ؟

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِبَطْنِ بَدْرٍ مِنْهُمُ قَتْلَى تَسُحُّ لَهَا العُيُونُ وتَدْمَعُ

فَابْكِ فَقَدْ أَبْكَيْتَ عَبْدَاً رَاضِعاً شِبْهَ الكُلَيْبِ إِلَى الكُلَيْبةِ يَتْبَعُ

وَلَقد شَفَى الرَّحْمنَ مِنَّا سَيِّداً وأَهَانَ قَوْماً قَاتَلُوهُ وَصُرِّعُوا

وَنَجا وأَفْلَتَ مِنْهُمُ مَنْ قَلْبُه شَغِفٌ يَظَلُّ لِخَوْفِهِ يَتَصَدَّعُ[(١٧٨)]

٢ ـ جزاء ابن الأشرف:

لقد قام اليهوديُّ ابن الأشرف بجرائمَ كثيرةٍ ، وخياناتٍ عديدةٍ ، وإساءاتٍ متعدِّدةٍ لرسول الله (ص) ، وللمسلمين ، والمسلمات القانتات العابدات ، وكلُّ جريمة من هذه الجرائم تُعَدُّ نقضاً للعهد ، تستوجب عقوبة القتل ، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم كلُّها في هذا اليهوديِّ الشِّرِّير؟![(١٧٩)].

إنَّ ابن الأشرف بهجائه للنَّبيِّ (ص) ، وإظهاره التَّعاطُفَ مع أعداء المسلمين ، ورثاءِ قتلاهم ، وتحريضِهم على المسلمين ، يكون قد نقض العهد ، وصار محارباً مهدورَ الدَّم؛ ولذلك[(١٨٠)] أمر النَّبيُّ (ص) بقتله ، وقد فَصَّلَ البخاريُّ خبر مقتله ، فقد روى في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال رسول الله (ص) : «مَنْ لكعب بن الأشرف؛ فإنَّه قد اذى الله ورسوله؟» ، فقام محمَّد بن مسلمة ، فقال: يا رسول الله! أتحبُّ أن أقتله؟

قال: «نعم».

قال: فائذن لي أن أقول شيئاً.

قال: «قل».

فأتاه محمَّد بن مسلمة[(١٨١)] فقال: إنَّ هذا الرَّجل قد سألنا صدقةً، وإنَّه قد عَنَّانا[(١٨٢)]، وإنِّي قد أتيتك أستسلفُك ، قال: وأيضاً والله لَتَمَلُّنَّهُ! قال: إنَّا قد اتَّبعناه ، فلا نحبُّ أن ندعه حتَّى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقاً ، أو وَسْقَين.

فقال: نعم ، أرهنوني.

قالوا: أيُّ شيءٍ تريد؟

قال: أرهنوني نساءكم.

قالوا: كيف نرهنُك نساءنا ، وأنت أجمل العرب؟

قال: فأرهنوني أبناءكم.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا ، فيُسَبُّ أحدُهم ، فيقال: رُهن بِوَسْقٍ ، أو وَسْقَيْنِ! هذا عارٌ علينا ، ولكن نرهنك الَّلأْمَةَ ، قال سفيان: يعني: السِّلاح.

فواعده أن يأتيه ، فجاء ليلاً ، ومعه أبو نائلة ، وهو أخو كعب من الرَّضاعة ، فدعاهم إلى الحصن ، فنزل إليهم ، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه السَّاعة؟

فقال: إنما هو محمَّد بن مسلمة ، وأخي أبو نائلة.

قالت: أسمع صوتاً كأنَّه يقطر منه الدَّم.

قال: إنَّما هو أخي محمَّد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة ، إنَّ الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ ، لأجاب.

وجاء محمَّد بن مسلمة برجلين[(١٨٣)] ، وقال: إذا ما جاء فإنِّي قائلٌ (أي اخذٌ) بِشَعْرِهِ فأشمُّه ، فإذا رأيتموني استمكنتُ من رأسه ، فدونكُم ، فاضربوه ، فنزل منهم متوشحاً ، وهو يَنْفُحُ منه ريح الطِّيب.

قال: ما رأيت كاليوم ريحاً! . أي: أطيب .؛ أتأذن لي أن أشمَّ رأسك؟

قال: نعم! فشمَّه ، ثمَّ أشمَّ أصحابه ، ثمَّ قال: أتأذن لي؟

قال: نعم ، فلمَّا استمكن منه ، قال: دونكم؛ فقتلوه ، ثم أتَوا النَّبيَّ (ص) ، فأخبروه. [البخاري (٤٠٣٧) ، ومسلم (١٨٠١)].

وجاء في السِّيرة النَّبوية لابن هشام: أنَّ محمَّد بن مسلمة مكث ثلاثة أيام بعد أن استعد لقتل كعب بن الأشرف ، لا يأكل ، ولا يشرب إلاَّ ما يُعْلِقُ به نفسَه ، فذُكِرَ ذلك لرسول الله (ص) ، فدعاه ، فقال له: «لِمَ تركت الطَّعام والشَّراب؟».

فقال: يا رسول الله! قلت لك قولاً لا أدري: هل أَفِيَنَّ لك به ، أم لا؟!

فقال رسول الله (ص) : «إنَّما عليك الجَهْد».

فقال: لابدَّ لنا من أن نقول. قال: «قولوا ما بدا لكم» [ابن هشام ٥٨/٣)].

وجاء في السِّيرة النَّبويَّة عن ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ النبي (ص) مشى معهم إلى بقيع الغرقد ، ثمَّ وجَّههم ، فقال: «انطلقوا على اسم الله ، اللَّهم أَعِنْهم!» [ابن هشام (٥٩/٣)].

دروسٌ وعبرٌ:

* إنَّ في مقتل كعب بن الأشرف ، دروساً ، وعبراً ، وفوائد في فقه النَّبيِّ (ص) في تعامله مع خصوم الإسلام ، والدَّولة الإسلاميَّة ، فقد اتَّضح أنَّ عقوبة النَّاقض للعهد القتل ، وهذا ما حكم به النَّبيُّ (ص) ، وعقوبة المعَاهَدِ الَّذي يَشْتُمُ الرَّسولَ (ص) ، ويؤذيه بهجاءٍ ، أو غيره هي القتل ، وهذا ما كان لابن الأشرف ، ويؤخذ من هذا: أنَّ شاتم الرَّسول (ص) سواءٌ أكان معاهداً ، أو غيره ، تُضْرب عنقه عقوبةً له ، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيميَّة في تفصيل هذه الأحكام ، في كتابه القيِّم: «الصارم المسلول على شاتم الرَّسول (ص)».

* يؤخذ من طريقة تنفيذ حكم الرَّسول (ص) باليهوديِّ ابن الأشرف: أنَّ الحُكْمَ قد تقتضي المصلحة العامَّة للمسلمين أن يُنَفَّذ سرّاً ، ويتأكَّد هذا؛ إن كان يترتَّب على تنفيذه بغير هذه الصُّورة السِّرِّيَّة ، فتنةٌ ، أو خطرٌ قد يكلِّف المسلمين باهظاً[(١٨٤)]. وقد بيَّنت هذه الصُّورة: أنَّ مواجهة الكفَّار أعداء الإسلام ، ومحاربي الدَّولة الإسلاميَّة ، لا يقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك ، وإنَّما يتعدَّى ذلك إلى كلِّ عملٍ تحصل به النِّكاية بالأعداء؛ ما لم يكن إثماً ، وقد يوفِّر القضاء على رجلٍ له دوره البارز في حرب المسلمين جهوداً كبيرة ، وخسائر فادحةً يتكبَّدها المسلمون.

وهذا مشروطٌ بالأمن من الفتنة ، وذلك بأن يكون للمسلمين شوكةٌ ، وقوَّةٌ ، ودولةٌ ، بحيث لا يترتَّب على نوعيَّة هذا العمل فتكٌ بالمسلمين ، واجتثاث الدُّعاة من بلدانهم ، وإفسادٌ في مجتمعاتهم[(١٨٥)] ، وقد أخطأ بعض المسلمين في العالم الإسلاميِّ ، وتعجَّل الصِّدام المسلَّح ، واستدلُّوا على ما ذهبوا إليه بمثل هذه الحادثة ، ولا حجَّة لهم فيها؛ لأنَّ ذلك كان بالمدينة ، وللمسلمين شوكةٌ ، ودولةٌ ، أمَّا هم فليس لهم دولةٌ ، ولا شوكةٌ ، ثمَّ إنَّ ذلك كان إعزازاً للدِّين ، وإرهاباً للكافرين ، وكانت كلُّها مصالح لا مفسدة معها ، أمَّا ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث ، فإنَّها يعقبها من الشَّرِّ ، والفساد ، واستباحة دماء المسلمين ، وأعراضهم ، وأموالهم ما لا يخفى على بصيرٍ[(١٨٦)].

إنَّ النَّبيَّ (ص) لم يقم بمحاولة تصفيةٍ لأيِّ أحدٍ من المشركين في مكَّة؛ مع القدرة على قتل زعماء الشِّرك كأبي جهلٍ، وأميَّة بن خلف ، وعتبة ، ولو أشار إلى حمزةَ ، أو عمرَ بذلك ، أو غيرهم من الصَّحابة ، لقاموا بتنفيذ ذلك ، ولكنَّ الهدي النَّبويَّ الكريم ، يعلِّمنا: أنَّ فقه قتل زعماء الكفر يحتاج إلى شوكةٍ ، وقوَّةٍ ، كما أنَّ هذا الفقه يحتاج إلى فتوى صحيحةٍ من أهلها، واستيعاب فقه المصالح، والمفاسد ، وهذا يحتاج إلى علماءَ راسخين؛ حيث تتشابك المصالح في عصرنا ، وحيث للرَّأي العام دوره الكبير في قرارات الدُّول ، وحيث احتمالات توسُّع الأضرار[(١٨٧)].

* ونلحظ قيمة الكلمة عند الصَّحابة رضي الله عنهم ، في موقف محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه ، بعد أن أعطى كلمة لرسول الله (ص) ، يتعهَّد فيها بقتل اليهودي ابن الأشرف ، ثمَّ إبطاؤه في ذلك؛ أعيته الحيلة بقيام صعوباتٍ في سبيل تحقيق ما وعد ، حيث امتنع عن الطَّعام ،

والشَّراب ، وأصابه الغمُّ ، والحزن ، لأنَّه قال قولاً يخشى ألاَّ يستطيع الوفاء به. ونلاحظ في مجتمعاتنا المعاصرة: أنَّ كثيراً من النَّاس يعطون عهوداً ، ومواثيق ، ولا يقدِّرون قيمتها ، ويخفِرون ذمَّتهم ، ويتراجعون

عن عهودهم ، ومواثيقهم ، وتبقى حِبْراً على ورقٍ ، فهؤلاء ليسوا أصحاب مبادأى ، ومواقف يُبْتَغَى بها وجه الله؛ بل هم أصحاب مصالح ، ومنافع ، يُخشى عليهم أن يعبدوها من دون الله.

إنَّ أصحاب الدَّعوات ، يؤثِرون أن تندقَّ أعناقهم ، وأن تَضْوَى[(١٨٨)] أجسامُهم ، وتَزْهَق أرواحهم؛ على أن يتراجعوا عن كلماتهم وعهودهم ومواثيقهم؛ يستعذبون الموت والعذاب في سبيل عقائدهم وإسلامهم[(١٨٩)].

* في قول رسول الله (ص) : «إنَّما عليك الجَهْدُ» [سبق تخريجه][(١٩٠)] توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ ، وهو أنَّ النصر لا يأتي إلا بعد بذل الجَهْدِ ، والصَّبر عند الابتلاء ، قال تعالى: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ *} [هود: ٤٩].

وعلى المسلم أن يُفَرّغ كلَّ ما في وُسْعِهِ؛ من جهدٍ فكريٍّ ، وطاقةٍ جسميَّةٍ في سبيل تحقيق ما وعد ، ثمَّ يتوكَّل على الله بعد ذلك في النتائج[(١٩١)].

* وفي قوله (ص) : «قولوا ما بدا لكم» [سبق تخريجه][(١٩٢)] فقهٌ نبويٌّ كريمٌ ، فقد قالوا كلاماً هو في الأحوال العاديَّة كفرٌ ، ومِنْ هنا تعرفُ: أنَّه مِنْ أجل تحقيق المهامِّ العسكريَّة ، فلا حدود للكلام الَّذي يقال؛ ولكن تأتي هنا مسألةٌ أخرى ، وهي ما إذا كان النَّجاح في المهامِّ العسكرية يقتضي أفعالاً لا تجوز ، أو يقتضي ترك فرائض؛ فما العمل؟ المعروف: أنَّه ليس هناك من الذُّنوب أعظم من الكفر ، والشرك ، فإذا جاز التَّظاهر بالكفر لذلك ، فمن باب أولى جواز غيره ، على أن يتأكَّد طريقاً للوصول إلى الهدف ، أو يغلب الظَّنُّ على ذلك ، على أن يقتصر فيه على الحدِّ الَّذي لابدَّ منه ، سواءٌ أكانت الوسيلة تأخير فريضةٍ ، أم ارتكاب محظورٍ؛ على أنَّ هذا ، وهذا مقيَّدانِ بالفتوى، فهناك محظوراتٌ لا يصحُّ فعلُها بحالٍ، كالزِّنى، واللِّواط[(١٩٣)].

هناك بعض القضايا تحتاج لأهل الفتوى المؤهَّلين لأن يفتوا فيها ، خصوصاً في الظُّروف الاستثنائيَّة ، والحالات الاضطراريَّة ، وفي المحكات السِّياسيَّة ، والعسكريَّة؛ لأنَّها تحتاج إلى الموازنات ، والفتاوى الاستثنائيَّة؛ الَّتي لا يستطيعها كلُّ إنسانٍ ، فالأحكام الأصليَّة ليست مجهولةً ، وإنَّما الأحكام الاستثنائيَّة الَّتي تقتضيها الظُّروف الاستثنائيَّة تحتاج إلى علماءَ ربانيِّين ، وفقهاءَ راسخين ، لهم القدرة على فهم مقاصد الشَّريعة ، وواقعهم الَّذي يعيشون فيه[(١٩٤)].

* وفي قوله (ص) : «قولوا ما بدا لكم» فقهٌ عظيمٌ يوضِّحه قوله (ص) : «الحرب خَدْعَةٌ» [البخاري (٣٠٢٩) ، ومسلم (١٧٤٠)][(١٩٥)].

* قوله (ص) : «انطلقوا على اسم الله ، اللهم أَعِنْهم!» [سبق تخريجه] كان لهذا التَّذكير بالإخلاص في الجهاد: «انطلقوا على اسم الله» والدُّعاء لهم بالتَّوفيق ، والعون: «اللَّهم أعنهم!» كلُّ ذلك كان حافزاً على الثَّبات ورافعاً للمعنويَّات ، فلم يعبؤوا بقوَّة ابن الأشرف ، ومَنْ حوله من النَّاس؛ لأنَّهم استشعروا معيَّة الله لهم ، ودعاء الرَّسول (ص) ربَّه بإعانتهم ، وتحقيق مسعاهم.

ونلحظ في الهدي النَّبويِّ الأخذ بجميع الأسباب المادِّيَّة ، والتَّخطيط السَّديد ، ولا يُنسى جانب الدُّعاء النَّبويِّ الكريم ، فإنهم لم يغفلوا الأسباب الموصلة بهم إلى نجاح مقصودهم؛ لأنَّ المسلم مأمورٌ بالجمع بين التوكُّل على الله تعالى ، والأخذ بالأسباب الَّتي شرعها الله سبحانه[(١٩٦)]؛ ولذلك كانت خطَّة محمَّد بن مسلمة مع إخوانه محكمةً ، وأتقنوا فقه سنَّة الأخذ بالأسباب ، فقد كانت الأسباب الَّتي ساعدت على نجاح الخطَّة ، كالتالي:

. إنَّ أبا نائلةَ كان أخاه من الرَّضاعة ، وهو يطمئنُّ إليه ، ولا يتوجَّس منه خيفةً.

. وفي بعض الرِّوايات: طمأن أبو نائلة كعبَ بن الأشرف ، وأدخل الأنس إلى قلبه بمناشدته في الشِّعر قبل أن يحدِّثه عن حاجته.

. ولم يحدِّثه عن حاجته حتى أخرج كعباً من حصنه ، وظلُّوا يتحدَّثون ساعةً ، حتَّى اطمأنَّ إليهم ، وكان ذلك من سبل التَّوفيق ، ولو بقي أولئك هناك لربما كشف الأمر؛ فحديثُهم معه على انفرادٍ كان في غاية التوفيق.

. تظاهرهم بالنَّيل ، والتَّبرُّم ، والتَّظلُّم من الرَّسول (ص) طمأن كعب بن الأشرف.

. فكرة رهن السِّلاح كانت في غاية التَّوفيق ، حتَّى يكون اصطحابهم للسِّلاح غيرَ مريبٍ ،

ولا يبعث على الرِّيبة؛ ذلك لأنَّهم أحضروا ما سيرهنونه إلى كعب ، وفي الوقت نفسه يستطيعون أن يستخدموا هذا السِّلاح في أي وقت التقوا به فيه.

. أخذ الموعد من كعب بن الأشرف كان إحكاماً في الخطَّة؛ بحيث يتسنَّى لهم في أيِّ وقتٍ من اللَّيل أن يأتوه ، ويطرقوا عليه الباب؛ دون أن يشكَّ فيهم ، وفي نيَّتهم.

. اطمئنانُ ابن الأشرف إلى أبي نائلة ، ومحمَّد بن مسلمة جعله يخرج في وقتٍ لا يخرج فيه الإنسان من بيته عادةً؛ تحسُّباً لقتال عدوٍّ على حين غِرَّة ، وغفلةٍ[(١٩٧)].

. إن خطَّة إبعاد ابن الأشرف عن بيته ، إلى مكانٍ يخلو به فيه دون رقيبٍ ، أو نصيرٍ كانت موفَّقةً.

. استدراج أبي نائلة لابن الأشرف ، وشمُّه طيب رأسه ، وإمساكُه بشَعْرِهِ ليشمَّه ، كان موفقاً ، وتَقْدِمَةً ليمسك بهذا الرَّأس الخبيث ، ويتمكَّن منه ، لتكون الفرصةُ سانحةً لتنفيذ حكم الله في هذا اليهوديِّ اللَّعين[(١٩٨)].

. وتظهر قدرة الصَّحابة الفائقة في الحفاظ على السِّرِّيَّة ، وذلك في كتمان هذه الخطَّة مع كثرة مَنْ في المدينة من اليهود ، والمنافقين ، ومع تأخُّر تنفيذها ، وكون النَّبيِّ (ص) عرض هذا الأمر في مشهدٍ من الصحابة ، وجرت فيه مشورةٌ ، وهذا دليلٌ على قوة إيمان هؤلاء الصَّحابة ، وإخلاصهم لدينهم[(١٩٩)].

وقام هؤلاء المغاوير[(٢٠٠)] بتنفيذ أدوار الخطَّة المحكمة ، الَّتي اتَّفقوا عليها ، وأدركوا مقصودهم الأسمى ، ورسول الله (ص) معهم بإحساسه الكبير ، ومشاعره الفيَّاضة ، فقد كانوا يقومون بتنفيذ العمليَّة بعقولهم ، وأجسامهم ، ورسولُ الله (ص) يتولَّى قيادتها العليا بالاتِّصال بالله تعالى ، ودعائه لهم بالنَّصر والإعانة[(٢٠١)].

٣ . أثر مقتل اليهودي ابن الأشرف على اليهود:

انتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة ، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله (ص) يشتكون ويحتجُّون على ما فعله أصحابه ، فلم يَحْفَلِ النَّبيُّ (ص) بهم ؛ بل أكَّد مقتله ، الَّذي كان نتيجةً حتميَّةً لموقفه المعادي ، وقد أوقعت هذه الحادثة الرُّعب في نفوس اليهود جميعهم ، فلم يعد

أحدٌ من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه ، كما لم يعد أحدٌ من يهود المدينة إلا ويخاف على نفسه من المسلمين[(٢٠٢)] ، واضطرَّ اليهود لتجديد المعاهدة ، وكان لمقتل كعب بن الأشرف أثرٌ عميقٌ في نفوسهم ، فمضوا يكيدون للإسلام . كما سيتبيَّن من الأحداث . وَمِنَ الجدير بالذِّكر أنَّ الرسول (ص) لم يؤاخذ بني النَّضير بجَرِيرَةِ[(٢٠٣)] كعب بن الأشرف ، واكتفى بقتله جزاءَ غدره ، وجدَّد المعاهدة معهم[(٢٠٤)]. ومن الفقه النَّبويِّ في معاملة اليهود نستفيد أنَّ العلاج الأمثل لليهود هو زجرهم ، وإرهابهم ، وقتل أهل الفتن فيهم ، ومطاردتهم؛ لأنَّهم أهل شرورٍ ، لا يتخلَّصون منها ، ولا يتوقَّفون عنها[(٢٠٥)].

رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعيَّة:

أ . زواج النَّبيِّ (ص) بحفصةَ بنت عمر:

قال عمر رضي الله عنه حين تأيَّمت[(٢٠٦)] حفصةُ بنتُ عُمرَ من خُنَيس بن حُذافة السَّهميِّ ـ وكان من أصحاب رسول الله (ص) ، فتوفي بالمدينة ـ: «أتيتُ عثمانَ بن عفَّان ، فعرضت عليه حفصةَ بنتَ عمر ، فقال: سأنظر في أمري ، فلبثتُ لياليَ ، ثمَّ لقيني فقال: قد بدا لي ألاَّ أتزوجَ يومي هذا.

قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصِّدِّيقَ ، فقلتُ: إن شئتَ زوجتُك حفصةَ بنت عمرَ ، فصمت أبو بكرٍ الصِّدِّيق ، فلم يرجع إليَّ شيئاً ، وكنت أوجدَ عليه منِّي على عثمان.

فلبثتُ لياليَ ، ثمَّ خطبها رسولُ الله (ص) ، فأنكحتُها إيَّاه ، فلقيني أبو بكرٍ ، فقال: لعلَّك وجدت عليَّ حين عرضتَ عليَّ حفصة ، فلم أرجع إليك شيئاً؟

قال عمرُ: قلتُ: نعم ، قال أبو بكر: فإنَّه لم يمنعْني أن أَرْجِعَ إليك فيما عرضتَ عليَّ ، إلا أنِّي كنتُ علمتُ: أنَّ رسولَ الله (ص) قد ذكرها ، فلم أكن لأفشيَ سرَّ رسولِ الله (ص) ، ولو تركها رسولُ الله (ص) ؛ قبلتُها» [البخاري (٥١٢٢) ، والبيهقي في الدلائل (٣/١٥٨)].

ب ـ زواج عليٍّ رضي الله عنه بفاطمةَ رضي الله عنها:

قال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: خُطِبَتْ فَاطِمَةُ إلى رسول الله (ص) ، فقالت مولاةٌ لي: هل علمت: أنَّ فاطمة قد خُطِبَتْ إلى رسول الله (ص) ؟ قلت: لا! قالت: فقد خُطِبَتْ فما يمنعك أن تأتيَ رسولَ الله (ص) ، فيزوجَك ، فقلت: وعندي شيءٌ أتزوَّج به! فقالت: إنَّك إن جئت رسول الله (ص) ؛ زَوَّجَكَ.

قال: فوالله ما زالت ترجيني حتَّى دخلتُ على رسول الله (ص) ، فلمَّا أن قعدتُ بين يديه؛ أفحمت ، فوالله ما استطعت أن أتكلَّم جلالةً وهيبةً.

فقال رسول الله (ص) : «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فسكتُّ ، فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟» فقلت: نعم! فقال: «وهل عندك من شيءٍ تستحلُّها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله! فقال: «ما فعلت دِرْعٌ سَلَّحْتُكَها؟ فوالذي نفس عليٍّ بيده! إنَّها لَحُطَمِيَّةٌ[(٢٠٧)] ما قيمتُها أربعة دراهم» ، فقلت: عندي ، فقال: «قد زوجتُكها ، فابعث إليها بها ، فاستحلَّها بها» فإنَّها كانت لَصَداقُ فاطمةَ بنتِ رسول الله (ص) [البيهقي في الدلائل (٣/١٦٠)][(٢٠٨)] وقد جهَّز رسول الله (ص) فاطمة في خَمِيلٍ[(٢٠٩)] ، وقِرْبَة ، ووسادة أَدَمٍ[(٢١٠)] ، حشوها إذخرٌ[(٢١١)] رضي الله عنها[(٢١٢)].

وهكذا كانت حياتهم في غاية البساطة بعيدةً عن التعقيد ، وهي إلى شظف العيش أقرب منها إلى رغده[(٢١٣)] ، والقصَّة التالية تصور لنا حال السَّيدة فاطمة ، وتعبها ، وموقف رسول الله (ص) منها

عندما طلبت إليه أن يعطيها خادماً من السَّبْي ، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: «قال عليٌّ لفاطمةَ ذات يومٍ: والله! لقد سَنَوْتُ[(٢١٤)] حتى لقد اشتكيتُ صدري ، قال: وجاء الله أباك بسبيٍ ، فاذهبي ، فاستخدميه[(٢١٥)] ، فقالت: أنا والله قد طحَنْتُ حتَّى مجلت يدي[(٢١٦)]. فأتيت النَّبيَّ (ص) فقال: «ما جاء بك أيْ بُنَيَّة؟!» قالت: جئت لأسلِّم عليك ، واسْتَحْيَتْ أن تسأله ، ورجعت ، فقال: ما فعلتِ؟ قالت: اسْتَحْيَيْتُ أن أسأله ، فأتينا جميعاً ، فقال عليٌّ: يا رسول الله! والله! لقد سنوتُ حتَّى اشتكيتُ صدري ، وقالت فاطمة: قد طحنتُ حتَّى مجلت يداي ، وقد جاءك الله بسبيٍ ، وسعةٍ ، فأخدمنا ، فقال رسول الله (ص) : «والله! لا أُعْطيكما ، وأدعُ أهلَ الصُّفة
تطوى[(٢١٧)] بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكنِّي أبيعهم ، وأنفق عليهم أثمانهم»، فرجعا ، فأتاهما النَّبيُّ (ص) ؛ وقد دخلا في قطيفتهما، إذا غطت رؤوسهما ، تكشفت أقدامُهما، وإذا غطَّيا أقدامهما؛ تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: «مكانكما»، ثمَّ قال: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قالا: بلى! فقال: «كلماتٌ علَّمنيهنَّ جبريلُ عليه السلام ، فقال: «تُسَبِّحَانِ في دبر كلِّ صلاةٍ عشراً ، وتحمدان عشراً ، وتكبران عشراً ، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّرا أربعاً وثلاثين» [أحمد (١/١٠٦ ـ ١٠٧)][(٢١٨)].

وهكذا كان الهدي النَّبويُّ في تربية أهل بيته ، وأقربائه ، فلقد أخفقت مساعي السَّيدة فاطمة ، وعليٍّ رضي الله عنهما للحصول على خادم؛ لأنَّ السَّبْيَ يريد ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ أن يبيعه ، وينفق ثمنه على أهل الصُّفَّة؛ الَّذين يتلوَّون من الجوع ، فهم أيضاً من خاصَّة رسول الله (ص) مثل عليٍّ، وفاطمة، والطَّعام مقدَّم على الخدمة[(٢١٩)] ، ولقد تأثر عليٌّ رضي الله عنه بهذه التَّربية النَّبويَّة ، ويمرُّ الزَّمن بالفتى عليّ، فيصبح خليفةَ المسلمين، فإذا به من اثار هذه التربية يترفَّع عن الدُّنيا وزخارفها، وبيده كنوز الأرض ، وخيراتها؛ لأن ذكر الله يملأ قلبه ، ويغمر وجوده ، ولقد حافظ على وصيَّة رسول الله (ص) له ، وقد حدَّثنا عن ذلك ، فقال: فوالله ما تركتهُنَّ منذ علَّمنيهنَّ ، فسأله أحد أصحابه: ولا ليلة صفين؟! فقال: ولا ليلة صفِّين[(٢٢٠)]!

وكان كما وصفه ضرار بن ضمرة في مجلس معاوية: «... يستوحش من الدُّنيا، وزهرتها ، ويستأنس باللَّيل ، وظلمته ، كان والله! غزيرَ العَبْرَة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، يُعجبُه من اللباس ما قصر ، ومن الطَّعام ما جَشِبَ[(٢٢١)]....»[(٢٢٢)].

* * *

الفصل التَّاسع
غزوة أُحدٍ[(٢٢٣)]

المبحث الأوَّل
أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أحدٍ متعددةً؛ منها: الدِّينيُّ ، والاجتماعيُّ ، والاقتصاديُّ ، والسِّياسيُّ.

١ ـ السَّبب الدِّينيُّ:

قد أخبر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ المشركين ينفقون أموالهم في الصدِّ عن سبيل الله ، وإقامة العقبات أمام الدَّعوة الإسلاميَّة ، ومَنْعِ النَّاس من الدُّخول في الإسلام ، والسَّعي للقضاء على الإسلام ، والمسلمين ، ودولتهم الناشئة. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ *} [الأنفال: ٣٦].

قال الطَّبريُّ: «يصرفون أموالهم ، وينفقونها؛ ليمنعوا النَّاس عن الدُّخول في الإسلام»[(٢٢٤)].

وقال ابن كثيرٍ: «أخبر تعالى: أنَّ الكفار ينفقون أموالهم؛ ليصدُّوا عن اتِّباع طريق الحقِّ»[(٢٢٥)].

وقال الشَّوكانيُّ: «والمعنى: أنَّ غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم ، هو الصَّدُّ عن سبيل الحقِّ ، بمحاربة رسول الله (ص) ، وجمع الجيوش لذلك»[(٢٢٦)].

من هذا يظهر: أنَّ أهم أسباب غزوة أحدٍ ، هو السَّبب الدِّينيُّ؛ الَّذي كان من أهداف قريشٍ للصَّدِّ عن سبيل الله واتِّباع طريق الحقِّ ، ومنع النَّاس من الدُّخول في الإسلام ، ومحاربة
الرَّسول (ص) ، والقضاء على الدَّعوة الإسلاميَّة[(٢٢٧)].

٢ ـ السَّبب الاجتماعيُّ:

كان للهزيمة الكبيرة في بدرٍ ، وقتل السَّادة ، والأشراف من قريشٍ ، وَقْعٌ كبيرٌ من الخزي ، والعار الَّذي لحق بهم ، وجعلهم يشعرون بالمذلَّة ، والهزيمة؛ ولذلك بذلوا قُصَارَى جهدهم في غسل هذه الذِّلَّة ، والمهانة ، الَّتي لصقت بهم؛ ولذلك شرعوا في جمع المال لحرب رسول الله (ص) فور عودتهم من بدرٍ.

قال ابن إسحاق: «لما أُصيب يوم بدرٍ من كفار قريش أصحابُ القَليب ، ورجع فَلُّهُم إلى مكَّةَ ، ورجع أبو سفيان بِعِيرِهِ ، فأوقفها بدار النَّدوة . وكذلك كانوا يصنعون . ، فلم يحرِّكها ، ولا فرَّقها ، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهِّزوا منها جيشاً لقتال رسول الله (ص) ، مشى عبدُ الله بن أبي ربيعة ، وعكرمةُ بن أبي جهل ، والحارث بن هشام ، وحويطب بن عبد العزَّى ، وصفوان بن أميَّة في رجالٍ من قريش ممَّن أصيب اباؤهم ، وأبناؤهم ، وإخوانهم يوم بدرٍ ، فكلَّموا أبا سفيان بن حربٍ ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارةٌ ، فقالوا: يا معشرَ قريش! إنَّ محمَّداً قد وتَرَكُمْ[(٢٢٨)] ، وقتل خياركم؛ فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك»[(٢٢٩)].

ودعا جُبَيْرُ بن مُطْعم غلاماً له حبشيّاً ، يقال له: وَحْشيٌّ ، يقذف بحربة له قَذْفَ الحبشة ، قلَّما يخطأى بها ، فقال له: اخرج مع النَّاس ، فإن أنت قتلت حمزة عمَّ محمَّد بعمِّي طُعَيْمةَ بن عديٍّ ، فأنت عتيقٌ[(٢٣٠)].

٣ ـ السَّبب الاقتصاديُّ:

كانت حركة السَّرايا الَّتي تقوم بها الدَّولة الإسلاميَّة ، قد أثَّرت على اقتصاد قريشٍ ، وفرضت عليهم حصاراً اقتصاديّاً قويّاً ، وكان الاقتصاد المكِّيُّ قائماً على رحلتي الشِّتاء ، والصَّيف؛ رحلة الشِّتاء إلى اليمن ، وتُحمل إليها بضائعُ الشَّام ، ومحاصيلُها ، ورحلة الصَّيف إلى الشَّام ، تحمل إليها محاصيل اليمن ، وبضائعها ، وقَطْعُ أحدِ جناحي هاتين الرِّحلتين ضرٌّ للجناح الاخر؛ لأنَّ تجارتَهم إلى الشَّام قائمةٌ على سلع اليمن ، وتجارتهم إلى اليمن قائمةٌ على سلع الشَّام[(٢٣١)].

قال تعالى: {لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ *إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ *فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ *الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوفٍ *} [قريش: ١ ـ ٤] .

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أميَّة: «إنَّ محمداً ، وأصحابه قد عوزوا علينا متاجرنا ، فما ندري كيف نصنع بأصحابه ، وهم لا يبرحون السَّاحل ، قد وادعهم[(٢٣٢)] ، ودخل عامَّتُهم معه ، فما ندري أين نسلك ، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ، ونحن في ديارنا هذه ، ما لنا بها بقاء ، وإنَّما نزلناها على التِّجارة إلى الشَّام في الصيف ، وفي الشِّتاء إلى الحبشة»[(٢٣٣)].

٤ ـ السَّبب السِّياسيُّ:

أخذت سيادة قريش في الانهيار بعد غزوة بدرٍ ، وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمةً لها ، فلا بدَّ من ردِّ الاعتبار ، والحفاظ على زعامتها؛ مهما كلَّفها الأمر من جهودٍ ، ومالٍ وضحايا.

هذه أهمُّ الأسباب الَّتي جعلت قريشاً تبادر إلى المواجهة العسكريَّة ضدَّ الدَّولة الإسلاميَّة بالمدينة[(٢٣٤)].

ثانياً: خروج قريش من مكَّة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السَّبت ، لسبع خلون من شوال ، من السَّنة الثَّالثة من الهجرة[(٢٣٥)] ، وعَبَّأَتْ جيشها المكوَّن من ثلاثة الاف مقاتل ، مستصحبين معهم النِّساء ، والعبيد ، ومَنْ تبعها من القبائل العربيَّة المجاورة ، فخرجت قريشٌ بحدِّها ، وحديدها وأحابيشها[(٢٣٦)] ، ومن تبعها من كنانةَ وأهل تهامة ، وخرجوا بالظُّعُن[(٢٣٧)] ، التماسَ الحفيظة؛ لئلا يفرُّوا.

فخرج أبو سفيان ـ وهو قائد النَّاس ـ بهندٍ بنت عُتبة بن ربيعةَ[(٢٣٨)] ، وخرج صفوان بن أميَّة بن خلف بِبَرْزَةَ بنت مسعودٍ الثَّقفية ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأمِّ حكيمٍ بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمةَ بنت الوليد بن المغيرة[(٢٣٩)] ،

فأقبلوا حتَّى نزلوا ببطن السَّبخة من قناة ، على شفير الوادي ممَّا يلي المدينة[(٢٤٠)].

كانت التَّعبئة القرشيَّة قد سبقتها حملةٌ إعلاميَّة ضخمةٌ ، تولَّى كِبْرَهَا أبو عزَّة عمرو بن عبد الله الجُمَحِيُّ، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزوميُّ، وابن الزِّبعرى، وقد حقَّقت نتائج كبيرةً[(٢٤١)] ، وبلغت النَّفقات الحربيَّة لجيش قريش خمسين ألف دينارٍ ذهباً[(٢٤٢)].

ثالثاً: الاستخبارات النَّبويَّة تتابع حركة العدوِّ:

كان العبَّاس بن عبد المطلب ، يرقب حركات قريش، واستعداداتها العسكريَّة ، فلمَّا تحرك هذا الجيش؛ بعث العباسُ رسالةً عاجلةً إلى النَّبيِّ (ص) ، ضمَّنها جميع تفصيلات الجيش ، وأسرع رسولُ العبَّاس بإبلاغ الرِّسالة ، وجَدَّ في السَّير؛ حتَّى إنَّه قطع الطريق بين مكَّة والمدينة . الَّتي تبلغ مسافتها خمسمئة كيلو متراً . في ثلاثة أيام ، وسَلَّمَ الرِّسالة إلى النَّبيِّ (ص) ، وهو في مسجد قُباء[(٢٤٣)].

كان النَّبيُّ (ص) يتابع أخبار قريش بدقَّةٍ بواسطة عمِّه العبَّاس. قال ابن عبد البرِّ: «وكان رضي الله عنه يكتب أخبار المشركين إلى رسول الله (ص) ، وكان المسلمون يتقوَّون به بمكَّة ، وكان يحبُّ أن يقدم على رسول الله (ص) ، فكتب إليه رسول الله (ص) : أنَّ مقامك في مكَّة خيرٌ»[(٢٤٤)].

كانت المعلومات الَّتي قدَّمها العبَّاس لرسول الله (ص) دقيقةً؛ فقد جاء في رسالته: «إنَّ قريشاً قد أجمعت المسيرَ إليك ، فما كنت صانعاً إذا حلُّوا بك فاصنعه ، وقد توجَّهوا إليك ، وهم ثلاثة الاف ، وقادوا مئتي فرس ، وفيهم سبعمئة دارع ، وثلاثة الاف بعيرٍ ، وأوعبوا[(٢٤٥)] من السِّلاح»[(٢٤٦)].

وقد احتوت هذه الرِّسالة على أمورٍ مهمَّة؛ منها:

١ . معلومات مؤكَّدة عن تحرُّك قوَّات المشركين نحو المدينة.

٢ . حجم الجيش ، وقدراته القتاليَّة ، وهذا يعين على وضع خطَّةٍ تواجه هذه القوَّات الزَّاحفة.

لم يكتفِ النَّبيُّ (ص) بمعلومات المخابرات المكيَّة؛ بل حَرَصَ على أن تكون معلوماتُه عن هذا العدوِّ متجددةً مع تلاحق الزَّمن ، وفي هذا إرشادٌ لقادة المسلمين ، بأهمِّيَّة متابعة الأخبار الَّتي يتولَّد عنها وضع خططٍ ، واستراتيجيَّات نافعةٍ؛ ولذلك أرسل (ص) الحُبَابَ بن المنذر بن الجموح إلى قريشٍ يستطلع الخبر ، فدخل بين جيش مكَّة ، وحزرَ[(٢٤٧)] عَدَدَهُ ، وعُدَدَهُ ، ورجع ، فسأله رسول الله (ص) : «ما رأيتَ؟» قال: رأيتُ يا رسول الله! عدداً ، حزرتهم ثلاثة الاف يزيدون قليلاً ، أو ينقصون قليلاً ، والخيل مئتا فرسٍ ، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمئة درعٍ ، قال: «هل رأيتَ ظُعُناً؟» قال: رأيتُ النِّساء معهنَّ الدِّفاف ، والأكبار[(٢٤٨)] ، فقال رسول الله (ص) : «أَرَدْنَ أن يحرِّضْنَ القوم ، ويُذَكِّرْنَهُمْ قتلى بدرٍ ، هكذا جاءني خبرهم ، لا تذكر من شأنهم حرفاً ، حسبنا اللهُ ونعم الوكيلُ ، اللَّهم! بك أجولُ ، وبك أصولُ»[(٢٤٩)].

كما أرسل (ص) أنساً ، ومؤنساً ابني فَضالة يَتَنَصَّتان[(٢٥٠)] أخبار قريشٍ ، فَأَلْفَيَاهَا[(٢٥١)] قد قاربت المدينة ، وأرسلت خَيْلَها ، وإبلَها ترعى زروع يثرب المحيطة بها ، وعادا ، فأخبراه بخبر القوم[(٢٥٢)].

وبعد أن تأكَّد من المعلومات حَرَصَ (ص) على حصر تلك المعلومات على المستوى القياديّ؛ خوفاً من أن يؤثِّر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العُدَّة؛ ولذلك حين قرأ أُبيُّ بن كعب رسالة العبَّاس؛ أمره (ص) بكتمان الأمر ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، وتبادل الرَّأي مع قادة المهاجرين ، والأنصار في كيفية مواجهة الموقف ، وكان (ص) قد أطلع سيِّد الأنصار سعدَ بن الرَّبيع على خبر رسالة العبَّاس فقال: والله! إنِّي لأرجو أن يكون خيراً ، فاستكتمه إيَّاه؛ فلمَّا خرج رسول الله (ص) من عند سعدٍ؛ قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أمَّ لكِ! أنت وذاك. فقالت: قد سمعتُ ما قال لك! فأخْبَرَتْهُ بما أسَرَّ به الرَّسول (ص) ، فاسترجع سعدٌ ، وقال: يا رسول الله! إنِّي خفت أن يفشو الخبر ، فترى أنِّي أنا المفشي له؛ وقد اسْتَكْتَمْتَني إيَّاه ، فقال رسول الله (ص) : «خلِّ عنها»[(٢٥٣)].

وفي هذه الحادثة ، درسٌ بالغٌ للعسكريِّين ، وتحذيرٌ لهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكريَّة ، وخططهم ، وأوامرهم ، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار؛ لأنَّ إفشاءها يهدِّد الأمَّة ، ومستقبلها بكارثةٍ كبرى.

إنَّ تاريخ الأمم والشُّعوب في القديم ، والحديث يحدِّثنا: أنَّ كثيراً من الهزائم ، والماسي ، والالام ، قد حَلَّت بكثيرٍ من الأمم نتيجة لتسرُّب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجةٍ خائنةٍ ، أو خائنٍ في ثوب صديقٍ ، أو قريبٍ في الظَّاهر عدوّ في الحقيقة ، والواقع[(٢٥٤)].

رابعاً: مشاورته (ص) لأصحابه رضي الله عنهم:

بعد أن جمع (ص) المعلومات الكاملة عن جيش كفَّار قريشٍ ، جمع أصحابه رضي الله عنهم ، وشاورهم في البقاء في المدينة والتَّحصُّن فيها ، أو الخروج لملاقاة المشركين ، وكان رأي النَّبيِّ (ص) البقاء في المدينة ، وقال: «إنَّا في جُنَّة حصينةٍ ، فإن رأيتم أن تقيموا ، وتَدَعُوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا؛ أقاموا بشرِّ مُقامٍ ، وإن دخلوا علينا؛ قاتلناهم فيها»[(٢٥٥)] وكان رأيُ عبد الله بن أُبيِّ بن سلول مع رأي رسول الله (ص)[(٢٥٦)] ، إلا أنَّ رجالاً من المسلمين ممَّن فاتتهم بدرٌ قالوا: يا رسول الله! اخرج بنا إلى أعدائنا.

قال ابن كثير: «وأبى كثيرٌ من النَّاس إلا الخروج إلى العدوِّ ، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله (ص) ، ورأيه ، ولو رضُوا بالَّذي أمرهم كان ذلك ، ولكن غلب القضاء والقدر ، وعامَّة مَنْ أشار عليه بالخروج رجالٌ لم يشهدوا بدراً ، قد علموا الَّذي سبق لأهل بدرٍ من الفضيلة»[(٢٥٧)].

وقال ابن إسحاق: فلم يزِل النَّاسُ برسول الله (ص) الَّذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم ، حتَّى دخل رسولُ الله (ص) بيته ، فلبس لأمَتَهُ[(٢٥٨)] ، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبيُّ الله (ص) بأمرٍ ، وعرضتم

بغيره ، فاذهب يا حمزة! فقل لنبيِّ الله (ص) : «أمرنا لأمرك تَبَعٌ» ، فأتى حمزةُ ، فقال له: يا نبيَّ الله! إنَّ القوم تلاوموا ، فقالوا: أمرُنا لأمرك تبع ، فقال رسول الله (ص) : «إنَّه ليس لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها؛ حتَّى يقاتل» [أحمد (٣/٣٥١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٣٦٤ ـ ٣٦٥) ، وابن سعد (٢/٣٨) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٠٨) ، ومجمع الزوائد (٦/١٠٧)][(٢٥٩)].

كان رأيُ مَنْ يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنيَّاً على أمورٍ؛ منها:

١ ـ أنَّ الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثَّانية ، على نصرة الرَّسول (ص) ، فكان أغلبُهم يرى: أنَّ المكوث داخل المدينة ، تقاعسٌ عن الوفاء بهذا العهد.

٢ ـ أنَّ الأقليَّة من المهاجرين ، كانت ترى: أنَّها أحقُّ من الأنصار بالدِّفاع عن المدينة ، ومهاجمة قريش ، وصدِّها عن زروع الأنصار.

٣ ـ أنَّ الَّذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرَّقون شوقاً من أجل ملاقاة الأعداء؛ طمعاً في الحصول على الشَّهادة في سبيل الله.

٤ ـ أنَّ الأكثرين كانوا يَرَوْنَ: أنَّ في محاصرة قريشٍ للمدينة ، ظفراً يجب ألا تَحْلُم به ، كما توقَّعوا: أنَّ وقت الحصار سيطول أمده ، فيصبح المسلمون مهدَّدين بقطع المؤن عنهم[(٢٦٠)].

أمَّا رأي مَنْ يرى البقاء في المدينة فهو مبنيٌّ على التَّخطيط الحربيِّ الاتي:

١ ـ إنَّ جيش مكَّةَ لم يكن موحَّدَ العناصر؛ وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمناً طويلاً؛ إذ لابدَّ من ظهور الخلاف بينهم. إن عاجلاً ، أو اجلاً.

٢ ـ إنَّ مهاجمة المدن المصمِّمة على الدِّفاع عن حياضها ، وقلاعها ، وبيضتها أمرٌ بعيد المنال؛ وخصوصاً إذا تشابه السِّلاح عند كِلا الجيشين ، وقد كان يوم أحدٍ متشابهاً.

٣ ـ إنَّ المدافعين إذا كانوا بين أهليهم؛ فإنَّهم يستبسلون في الدِّفاع عن أبنائهم ، وحماية نسائهم ، وبناتهم ، وأعراضهم.

٤ ـ مشاركة النِّساء ، والأبناء في القتال ، وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

٥ ـ استخدام المدافعين أسلحةً لها أثر في صفوف الأعداء؛ مثل الأحجار وغيرها ، وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم[(٢٦١)].

من الواضح: أنَّ الرَّسول (ص) ، عوَّد أصحابه على التَّصريح بارائهم عند مشاورته لهم؛ حتَّى ولو خالفت رأيه ، فهو إنَّما يشاورهم فيما لا نصَّ فيه؛ تعويداً لهم على التَّفكير في الأمور العامَّة ، ومعالجة مشكلات

الأمَّة ، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرَّأي ، ولم يحدث أن لام الرَّسولُ (ص) أحداً؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ، ولم يوفَّق في رأيه ، وكذلك فإنَّ الأخذ بالشُّورى مُلْزِمٌ للإمام ، فلابدَّ أن يُطبِّق الرَّسول (ص) التَّوجيه القراني: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ *} [آل عمران: ١٥٩] لتعتاد الأمَّة على ممارسة الشُّورى ، وهنا يظهر الوعي السِّياسيُّ عند الصَّحابة رضي الله عنهم ، فرغم أنَّ لهم إبداءَ الرَّأي ، إلا أنَّه ليس لهم فرضه

على القائد ، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ، ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجَّح لديه من الاراء ، فلمَّا رأوا أنَّهم ألحوا في الخروج ، وأنَّ الرسول (ص) عزم على الخروج بسبب إلحاحهم ، عادوا فاعتذروا إليه ، لكن الرَّسول الكريم (ص) علَّمهم درساً اخر هو من صفات القيادة النَّاجحة ، وهو عدم التردُّد بعد العزيمة والشُّروع في التنفيذ ، فإنَّ ذلك يزعزع الثِّقة بها ، ويغرس الفوضى بين الأتباع[(٢٦٢)].

كان النَّبيُّ (ص) قد عزم على الخروج ، وقد أعلن حالة الطَّوارأى العامَّة ، وتجهَّز الجميع للقتال ، وأَمْضَوْا ليلتهم في حذرٍ؛ كلٌّ يصحب سلاحه ، ولا يفارقه حتَّى عند نومه ، وأمر (ص) بحراسة المدينة ، واختار خمسين من أشدَّاء المسلمين ، ومحاربيهم بقيادة محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه ، واهتمَّ الصحابة بحراسة رسول الله (ص) ، فبات سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، في عدَّةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم ليلة الجمعة ، مُدَجَّجِينَ بالسِّلاح على باب المسجد ، يحرسون رسول الله (ص)[(٢٦٣)]
.

خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أحدٍ:

أ ـ من الأسباب المهمَّة الَّتي اتَّخذها (ص) لملاقاة أعدائه اختيارُه لوقت التحرُّك ، والطَّريق التي تناسب خطَّته ، فقد تحرَّك بعد منتصف اللَّيل ، حيث يكون الجوُّ هادئاً ، والحركة قليلةٌ ، وفي هذا الوقت بالذَّات يكون الأعداء ـ غالباً ـ في نومٍ عميق؛ لأنَّ الإعياء ، ومشقَّة السَّفر قد أخذا منهم مجهوداً كبيراً.

ومن المعروف: أنَّ مَنْ نام بعد تعبٍ يكون ثقيلَ النَّوم ، فلا يشعر بالأصوات العالية ، والحركة الثَّقيلة. قال الواقديُّ ـ رحمه الله ـ: ونام رسول الله (ص) حتى أدلج ، فلمَّا كان في السَّحَر؛ قال: «أين الأدلاَّءُ؟[(٢٦٤)]»[(٢٦٥)].

ثمَّ إنَّه (ص) اختار الطَّريق المناسب الَّذي يسلكه حتَّى يصل إلى أرض المعركة ، وذكر صفةً ينبغي أن تتوافر في هذا الطَّريق ، وهي السِّرِّيَّة ، حتَّى لا يرى الأعداء جيش المسلمين ، فقال (ص) لأصحابه: «مَنْ

رجلٌ يخرج بنا على القوم مِنْ كَثَبٍ[(٢٦٦)] من طريق لا يمرُّ بنا عليهم؟» ، فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداده قائلاً: أنا يا رسولَ الله! فنفذ به في حَرَّةِ بني حارثة وبين أموالهم ، حتَّى سلك به في مالٍ لربعي بن قَيْظيٍّ . وفي رواية ابن هشام: لمربع بن قَيظيٍّ . ،

وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر ، فلمَّا أحس برسول الله (ص) ومن معه من المسلمين ، قام يحثي في وجوههم التُّراب ، وهو يقول: إن كنتَ رسولَ الله فلا أُحلُّ لك أن تدخل حائطي.

وقد ذُكر: أنَّه أخذ حفنةً من ترابٍ بيده ، ثمَّ قال: والله! لو أعلم: أنِّي لا أصيب بها غيرك يا محمد! لضربتُ بها وجهك ، فابتدره القوم: ليقتلوه ، فقال (ص) : لا تقتلوه؛ فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر ، وقد بَدَرَ إليه سعدُ بن زيدٍ أخو بني عبد الأشهل[(٢٦٧)] قبل نهي رسول الله (ص) عنه ، فضربه بالقوس في رأسه ، فشجَّه. [الواقدي في المغازي (٢١٨/١) ، والطبري في تاريخه (٥٠٦/٢) ، وابن هشام (٦٩/٣)].

ولا شك في أنَّ مروره (ص) بين الأشجار ، والبساتين ، يدلُّنا على حرصه (ص) على الأخذ بالاحتياطات الأمنيَّة المناسبة في أثناء السَّير؛ لأنَّ الطُّرق العامَّة تكشف للأعداء عن مقدار قوَّات المسلمين ، وهذا أمرٌ محذورٌ ، فالرَّسول (ص) علَّم الأمَّة الأخذ بالسِّرِّيَّة من حيث المكان ، ومن حيث الزَّمان؛ لئلا يستطيع الأعداء معرفة قوَّاتهم ، فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها ، وبذلك يذهب تنظيم القادة ، وإعدادهم لجيوشهم في مهبِّ الرِّياح.

وفي هذا الخبر تطبيقٌ عمليٌّ لتقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة ، إذا تعارضت المصلحتان؛ فالرَّسول (ص) حينما مرَّ بالجيش في أرض المنافق مربع بن قَيْظيٍّ ، وترتَّب على ذلك إفساد المزرعة؛ مرَّ ولم يعبأ بذلك؛ لأنَّ في ذلك مصلحة الجيش باختصار الطَّريق إلى أُحدٍ ، فبيَّن (ص) أنَّ ما يكون به مصلحةٌ للدِّين مقدَّمٌ على ما سواه من المصالح الأخرى ، فهنا تعارضت مصلحتان: مصلحةٌ عامَّةٌ ، ومصلحةٌ خاصَّة ، ومصلحة الدِّين في هذا الموقف مصلحةٌ عامَّةٌ ، وهي مقدَّمة على المصلحة الخاصَّة ، وهي مصلحة المال[(٢٦٨)].

وقد رتَّب الشَّارع الحكيم مقاصد الشَّرع في تحقيق المنافع لعباده؛ مِنْ حفظ دينهم ، ونفوسهم ، وعقولهم ، ونسلهم ، وأموالهم ، طبقَ ترتيبٍ معيَّنٍ فيما بينها[(٢٦٩)] ، فإذا نظرنا إلى كلِّيات الدِّين الخمس ، وأهمِّيتها ، وجدنا: أنَّ هذه الكلِّيات متدرِّجةٌ حسب الأهمِّيَّة: الدِّين ، والنَّفس ، والعقل ، والنَّسل ، والمال ، فما يكون به حفظ الدِّين مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ النَّفس عند تعارضهما ، وما يكون به حفظ

النَّفس مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ العقل ، وما يكون به حفظ النَّسل مقدَّم على ما يكون به حفظ المال ، والتَّرتيب بهذا الشَّكل من هذه الكلِّيات يحظى باتفاق العلماء[(٢٧٠)].

إنَّ العلماء المتعمِّقين في دراسة السِّيرة النَّبويَّة ، والهدي النَّبويِّ الكريم قد استنبطوا قواعدَ مهمَّة في تقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة؛ ومنهم: الشَّاطبيُّ ، والعزُّ بن عبد السَّلام ، فقد قال الشَّاطبيُّ: «الضَّابط في ذلك: التَّوازن بين المصلحة والمفسدة ، فما رُجِّح منها؛ غُلِّب ، وإن استويا؛ كان محلَّ إشكال. وخلافٌ بين العلماء قائم من مسألة انخرام المناسبة تلزم راجحةً أو مساويةً»[(٢٧١)].
وقال العزُّ بن عبد السَّلام: «وتقديم المصالح الرَّاجحة على المرجوحة محمودٌ حسنٌ ، ودرءِ المفاسد الرَّاجحة على المفاسد المرجوحة محمودٌ حسنٌ ، اتَّفق الحكماء على ذلك ، وكذلك الشَّرائع ، فإن تساوت الرُّتب؛ تخيِّر ، وإن تفاوتت الرُّتب؛ استعمل التَّرجيح عند عرفانه»[(٢٧٢)].
وقال في موضع اخر: «والضَّابط: أنه مهما ظهرت المصلحة الخالية عن المفاسد؛ يسعى في تحصيلها ، ومهما ظهرت المفاسد الخالية عن المصالح؛ يسعى في درئها»[(٢٧٣)].
ب ـ انسحاب المنافق ابن سلول بثلث الجيش:
عندما وصل جيش المسلمين الشَّوْط[(٢٧٤)] ، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمئة من المنافقين ، بحجَّة: أنَّه لن يقع قتالٌ مع المشركين ، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة ، قائلاً: أطاع الولدان ، ومن لا رأي له ، أطاعهم ، وعصاني ، علام نقتلُ أنفسنا؟![(٢٧٥)] وكان هدفه الرَّئيس من هذا التَّمرُّد ، أن يحدث بلبلةً ، واضطراباً في الجيش الإسلاميِّ ، لتنهار معنوياتُه ، ويتشجَّع العدوُّ ، وتعلو همَّته ، وعمله هذا ينطوي على خيانةٍ عظمى ، وبُغْضٍ للإسلام والمسلمين ، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحِّص الله الجيش؛ ليظهر الخبيث من الطَّيِّب؛ حتَّى لا يختلطَ المخلص بالمغْرِض ، والمؤمن بالمنافق[(٢٧٦)].
قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ} [آل عمران: ١٧٩].

فالجبن ، والنُّكوص هما اللَّذان كشفا عن طوية المنافقين ، فافتضحُوا أمام أنفسهم وأمام النَّاس قبل أن يفضَحهم القران[(٢٧٧)].
ج ـ موقف عبد الله بن عمرو بن حَرَام من انخذال المنافقين:

حاول عبد الله بن حرام رضي الله عنه إقناع المنافقين بالعودة ، فأبوا ، فقال: يا قوم! أذكِّركم الله ألا تخذلوا قومكم ، ونبيَّكم عندما حضر من عدوِّهم؛ فقالوا: لو نعلم أنَّكم تقاتلون؛ لما أسلمناكم ، ولكنَّا لا نرى أنه يكون قتالٌ ، فلمَّا استعصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف عنهم؛ قال: أبعدكم اللهُ أعداءَ الله ، فسيغني الله عنكم نبيَّه[(٢٧٨)].

وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ *وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ *} [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

د ـ بنو سلمة ، وبنو حارثة:

ولما رجع ابن أُبي بن سلول ، وأصحابُه؛ همَّت بنو سلمةَ ، وبنو حارثة أن ترجعا ، ولكنَّ الله ثبَّتهما ، وعصمهما ، وفي ذلك نزل قوله سبحانه: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [آل عمران: ١٢٢] قال جابر بن عبد الله: نزلت هذه الاية فينا ـ بني سلمة ، وبني حارثة ، وما أحبُّ أنَّها لم تنزل ، والله يقول: {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} [آل عمران: ١٢٢]. [البخاري (٤٠٥١)].

لقد أثَّر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين ، ففكروا في العودة إلى المدينة ، ولكنَّهم غالبوا الضَّعف الذي ألمَّ بهم ، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاَّهم الله تعالى ، فدفع عنهم الوهن ، فثبتوا مع المؤمنين.

وقد ظهر رأيان في أوساط الصَّحابة تجاه موقف ابن سلول:

الأوَّل: يرى قتل المنافقين الَّذين خذلوا المسلمين بعودتهم ، وانشقاقهم عن الجيش.

الثَّاني: لا يرى قتلهم.

وقد بين القران الكريم موقف الفريقين[(٢٧٩)] في هذه الاية: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً *} [النساء: ٨٨].

هـ الاستعانة بغير المسلمين:

عندما وصل رسول الله (ص) إلى مكان يُدعى الشَّيخين ، رأى كتيبةً لها صوتٌ وجَلَبَةٌ ، فقال: ما هذه؟ فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبي بن سلول من يهود ، فقال (ص) : «لا نستنصر بأهل الشِّرك على

أهل الشِّرك»[(٢٨٠)] وهذا أصلٌ وضعه النَّبيُّ (ص) في عدم الرُّكون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم[(٢٨١)].

و ـ رَدُّ النَّبيِّ (ص) بعض الصَّحابة لصغر سنِّهم:

ردَّ النبيُّ (ص) في معسكره بالشَّيخين جماعةً من الفتيان لصغر أعمارهم؛ إذ كانوا في سن الرَّابعة عشرة ، أو دون ذلك؛ منهم: عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وأبو سعيد الخدري؛ بلغ عددهم أربعة عشر صبيّاً ، وقد ثبت أنَّ ابن عمر كان منهم[(٢٨٢)] ، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنَّه رامٍ ، فبلغ ذلك سَمُرَةَ بن جُنْدب ، فذهب إلى زوج أمِّه مرِّي بن سنان بن ثعلبة ـ عمِّ أبي سعيد الخدريِّ ، وهو الذي ربَّى سَمُرَة في حِجْرِه ـ يبكي ويقول له: يا أبتِ! أجاز رسولُ الله (ص) رافعاً ، وردَّني ، وأنا أصرع رافعاً ، فذهب زوج أمِّه إلى النَّبيِّ (ص) ، وأخبره بذلك، فالتفت النَّبيُّ (ص) إلى رافع، وسَمُرَةَ، فقال لهما: تصارعا ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه كما أجاز رافعاً ، وجعلهما من جنده ، وعسكر كتائبه ، ولكلٍّ منهما مجالُه ، واختصاصُه[(٢٨٣)].

ونلحظ: أنَّ رسول الله (ص) أجاز رافعاً ، وسَمرة لامتيازٍ عسكريٍّ امتازوا به على أقرانهما ، وردَّ صغار السِّنِّ خشية ألاَّ يكون لهم صبرٌ على ضرب السُّيوف ، ورمي السِّهام ، وطعن الرِّماح ، فيفرُّوا من المعركة إذا حمي الوطيس[(٢٨٤)] ، فيُحْدِث فرارُهم خلخلةً في صفوف المسلمين[(٢٨٥)].

ونلحظ: أنَّ المجتمع الإسلاميَّ يضجُّ بالحركة ، ويسعى للشَّهادة ، شيوخاً ، وشباباً؛ حتَّى الصبيانُ يُقبلون على الموت ببسالةٍ ، ورغبةٍ في الشَّهادة ، تبعث على الدَّهشة ، دون أن يجبرهم قانون التَّجنيد ، أو تدفع بهم قيادةٌ إلى ميدان القتال ، وهذا يدلُّ على أثر المنهج النَّبويِّ الكريم ،

في تربية شرائح الأمَّة المتعدِّدة ، على حبِّ الاخرة ، والترفُّع عن أمور الدُّنيا.

سادساً: خطَّة الرَّسول (ص) لمواجهة كفار مكَّة:

أ ـ وَضَعَ الرَّسول (ص) خطَّةً محكمةً لمواجهة المشركين من قريشٍ؛ حيث اختار الموقع المناسب ، وانتخب مَنْ يصلح للقتال ، وردَّ من لم يكن صالحاً ، واختار خمسين منهم للرِّماية ، وشدَّد الوصيَّة عليهم ، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب ، وأعطى اللِّواء لأحد أفراد الكتيبة ، وهذه الكتائب هي:

١ ـ كتيبة المهاجرين: وأعطى لواءها مصعب بن عميرٍ رضي الله عنه.

٢ ـ كتيبة الأوس من الأنصار: وأعطى لواءها أُسيد بن حضيرٍ رضي الله عنه.

٣ ـ كتيبة الخزرج من الأنصار: وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر رضي الله عنه[(٢٨٦)].

ب ـ وكان من هديه (ص) أن يُحرِّض أصحابه على قتال الأعداء ، ويحثَّهم على التَّحلِّي بالصَّبر في ميادين القتال ، لكي تتقوى رُوحهم المعنويَّة ، ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم ، ومن ذلك ما فعله يوم أُحدٍ ، وفي ذلك يقول الواقديُّ: «ثمَّ قام رسولُ الله (ص) ، فخطب النَّاس:

«يا أيها الناس! أُوصيكم بما أوصاني الله في كتابه؛ من العمل بطاعته ، والتَّناهي عن محارمه ، ثمَّ إنَّكم اليوم بمنزل أجرٍ ، وذُخْرٍ؛ لمن ذكر الَّذي عليه ، ثمَّ وطَّن نفسه له على الصَّبر ، واليقين ، والجدِّ ، والنَّشاط ، فإنَّ جهاد العدو شديدٌ كربُه ، قليلٌ من يصبر عليه إلا من عزم الله رشدَه ، فإنَّ الله مع مَنْ أطاعه ، وإنَّ الشَّيطان مع مَنْ عصاه ، فافتتحُوا أعمالكم بالصَّبر على الجهاد ، والتمِسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالَّذي امركم؛ فإنِّي حريصٌ على رشدكم ، فإنَّ الاختلاف ، والتَّنازع ، والتَّثبيط ، من أمر العجز ، والضَّعف ، ممَّا لا يحبُّ الله ، ولا يعطي عليه النَّصر ، ولا الظَّفر»[(٢٨٧)].

ويتَّضح من هذه الخُطبة عدَّةُ أهدافٍ؛ منها:

١ ـ الحثُّ على الجدِّ ، والنَّشاط في ميدان الجهاد.

٢ ـ الحثُّ على الصَّبر عند قتال الأعداء.

٣ ـ بيان مساوأى الاختلاف ، والتَّنازع[(٢٨٨)].

إنَّ هذا الهدي المبارك الَّذي سَنَّهُ (ص) يعلِّمنا حقائق ثابتةً ، وهي: أنَّ الجيوش مهما عظم تسليحها ، وتنظيمها ، فإنَّ ذلك لا يغني شيئاً إلا إذا حملته نفوسٌ قويَّةٌ ، تحرص على الموت أشدَّ مِنْ حرصها على الحياة ، وهذا يكون بتعبئة الجنود بالموعظة والتَّوجيه ، وغرس حبِّ الجهاد ، والشَّهادة في نفوسهم.

ج ـ أدرك الرَّسول (ص) أهمِّية جبل أحد لحماية جيش المسلمين ، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد؛ جعل الرَّسولُ (ص) ظهورَهم إلى الجبل ، ووجوههم إلى المدينة ، وانتقى خمسين من الرُّماة تحت إمرة عبد الله بن جُبَيْرٍ[(٢٨٩)] ، ووضعهم فوق جبل عَينين المقابل لجبل أحد ، وذلك حتَّى يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين ، وأصدر أوامره إليهم قائلاً: «إن رأيْتُمونا تَخطَفُنا الطَّيرُ؛ فلا تَبرحُوا مكانَكم هذا حتَّى أُرسلَ إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ ، وأوطَأْنَاهُم فلا تَبْرحُوا حتَّى أُرْسلَ إليكم» [البخاري (٣٠٣٩) ، وأحمد (٤/٢٩٣) ، وأبو داود (٢٦٦٢)].

وقال رسول الله (ص) للجيش: «لا تبرحوا حتَّى أوذنكم» ، وقال: «لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى امره بالقتال».

وقال لأمير الرُّماة: «انضحِ الخيلَ عنا بالنَّبْل؛ لا يأتونا مِنْ خَلفنا ، واثبت مكانك إن كانت لنا ، أو علينا» [الطبري في تاريخه (٢/٥٠٧) ، والواقدي في المغازي (١/٢٢٥) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٢٧)

، وابن هشام (٣/٧٠)]. وقال للرُّماة: «الزموا مكانكم ، لا تبرحوا منه ، فإذا رأيتمونا نَهْزِمُهُمْ حتَّى ندخل عسكرهم؛ فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نُقتل؛ فلا تغيثونا ، ولا تدفعوا عنَّا ، وارشقوهم بالنَّبْل؛ فإنَّ الخيل لا تقدم على النَّبل ، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم ، اللّهمَّ إِنِّي أُشهدك عليهم»[(٢٩٠)].
سيطر المسلمون على المرتفعات ، وتركوا الوادي لجيش مكَّة ليواجه أُحداً ، وظهره إلى المدينة ، وأصبحت مهمَّة الرُّماة في النقاط التالية: احتلال الموقع ، حماية المسلمين من الخلف ، صدُّ الخيل عن المسلمين[(٢٩١)].

د ـ تسوية الصُّفوف ، وتنظيم الجيش؛ تقدَّم رسولُ الله (ص) أصحابه ، وصفَّهم على هيئة صفوف الصَّلاة ، وجعل رسولُ الله (ص) يمشي على رجليه ، يُسوِّي تلك الصُّفوف ، ويبوِّأى
أصحابه للقتال ، يقول: تقدَّم يا فلان! وتأخر يا فلان! فهو يقوِّمهم... حتَّى استوت الصُّفوف[(٢٩٢)] ، فوضع (ص) في مقدِّمة الصُّفوف الأشداء؛ لكي يفتحوا الطَّريق لمن خلفهم ، وقد أخذ الرَّسول (ص) بهذا الأسلوب؛ لأنَّه أبلغ في قتال الأعداء[(٢٩٣)].

هـ عدم القتال إلا بأمرٍ من القائد: قال الطَّبريُّ: «فجعل ظهره ، وعسكره إلى أحدٍ ، وقال: لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى نأمره بالقتال»[(٢٩٤)].

وفي هذا التَّوجيه فائدةٌ مهمَّةٌ ، وهي توحيد القيادة والمسؤوليَّة؛ لأنَّه (ص) أدرى بالمصلحة.

* * *

المبحث الثَّاني
في قلب المعركة[(٢٩٥)]

أولاً: بدء القتال واشتداده ، وبوادر الانتصار للمسلمين:

في بداية القتال ، حاول أبو سفيان أن يُوجِدَ شرخاً ، وتصدُّعاً في جبهة المسلمين المتماسكة ، فأرسل إلى الأنصار يقول: «خَلُّوا بيننا وبين ابن عمِّنا ، فننصرف عنكم ، فلا حاجة بنا إلى قتالكم» فردُّوا عليه بما يكره[(٢٩٦)].

ولما فشلت المحاولة الأولى؛ لجأت قريش إلى محاولةٍ أخرى ، عن طريق عميلٍ خائن من أهل المدينة ، وهو أبو عامر الرَّاهب ، حيث حاول أبو عامر الرَّاهب أن يستزل بعض الأنصار ، فقال: يا معشرَ الأوس! أنا أبو عامر! قالوا: فلا أنعم اللهُ بك عيناً يا فاسق! فلمَّا سمع ردَّهم عليه؛ قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ ، ثمَّ قاتلهم قتالاً شديداً ، ورماهم بالحجارة[(٢٩٧)].

وبدأ القتال بمبارزةٍ بين عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، وطلحةَ بن عثمان حامل لواء المشركين يوم أُحدٍ ، يقول صاحب السِّيرة الحلبية: خرج طلحةُ بن عثمان ، وكان بيده لواء المشركين ، وطلب المبارزة مراراً ، فلم يخرج إليه أحدٌ ، فقال: يا أصحابَ محمد! إنَّكم تزعمون أنَّ الله ـ تعالى ـ يُعجلنا بسيوفكم إلى النَّار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنَّة ، فهل أحدٌ منكم يعجلني بسيفه إلى النَّار ، أو أعجله بسيفي إلى الجنَّة؟ فخرج إليه عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، فقال له عليٌّ رضي الله عنه: والَّذي نفسي بيده! لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النَّار ، أو يعجلني بسيفك إلى الجنَّة ، فضربه عليٌّ فقطع رِجْلَهُ ، فوقع على الأرض ، فانكشفت عورتُه ، فقال: يا بن عمِّي! أنشدك الله ، والرَّحم! فرجع عنه ، ولم يجهز عليه ، فكبَّر رسولُ الله (ص) . وقال بعض الصَّحابة لعليٍّ: أفلا أجهزت عليه؟! قال: إنَّ ابن عمِّي ناشدني الرَّحم حين انكشفت عورتُه ، فاستحييتُ منه[(٢٩٨)].

والتحم الجيشان ، واشتدَّ القتال ، وشرع رسولُ الله (ص) يشحذ همم أصحابه ، ويعمل على رفع معنوياتهم ، وأخذ سيفاً ، وقال: «مَنْ يأخذُ منِّي هذا؟» فبسطوا أيديهم ، كلُّ إنسان منهم يقول: أنا ، أنا. قال: «فمن يأخذه بحقِّه؟» قال: فأحْجَمَ القومُ ، فقال سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ أبو دُجَانة: وما حقُّه يا رسولَ الله؟! قال: «أن تضرب به العدوَّ حتَّى ينحني» ، قال: أنا اخذه بحقِّه. فدفعه إليه وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ـ أي يمشي مشية المتكبِّر ـ ، وحين راه رسول الله (ص) يتبختر بين الصَّفَّينِ قال: «إنَّها لمشيَةٌ يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن» ، وأخذه ، وفلق به هامَ المشركين [أحمد (٣/١٢٣) ، ومسلم (٢٤٧٠) ، والحاكم (٣/٥٥٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٣٢)].

وهذا الزُّبير بن العوَّام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أُحدٍ ، قال: وجدت في نفسي حين سألتُ رسول الله (ص) السَّيْفَ ، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت: أنا ابن صفيَّة عمَّتِه ، ومِنْ قريشٍ ، وقد قمتُ

إليه ، وسألته إيَّاه قَبْلَه ، فأعطاه أبا دُجانة ، وتركني ، والله! لأنظرنَّ ما يصنع ، فاتبعته ، فأخرج عصابةً له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار: أخرج أبو دُجانة عِصَابة الموت . وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّب بها . ، فخرج؛ وهو يقول:

أنَّا الَّذي عاهَدَني خَلِيْلي   وَنَحْنُ بالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيْلِ

ألا أقومَ الدَّهرَ في الكَيُّولِ[(٢٩٩)]   أضْرِبْ بِسَيْفِ اللهِ والرَّسُولِ[(٣٠٠)]

فجعل لا يَلْقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجلٌ لا يَدعُ لنا جريحاً إلا ذفَّف[(٣٠١)] عليه ، فجعل كلُّ واحدٍ منهما يدنو من صاحبه ، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشركُ أبا دجانة ، فاتَّقاه بدَرَقَتِه ، فعضَّت بسيفه ، وضربه أبو دُجانة فقتله ، ثمَّ رأيتُه قد حمل السَّيف على مَفْرِق رأس هند بنت عُتبة ، ثمَّ عدل السَّيف عنها ، فقلت: الله ورسولُه أعلم. قال ابن إسحاق: قال أبو دُجانة: رأيت إنساناً يَخْمش[(٣٠٢)] النَّاس خَمْشاً شديداً ، فصمدتُ له[(٣٠٣)] ، فلمَّا حملتُ عليه السَّيفَ؛ وَلْوَلَ ، فإذا امرأةٌ ، فأكرمتُ سيفَ رسول الله أن أضرب به امرأةً [ابن هشام (٧٣/٣) ، والبيهقي في الدلائل (٢٣٣/٣)][(٣٠٤)].

ثانياً: مخالفة الرُّماة لأمر الرَّسول (ص):

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين ، وكان شعارُهم: أمِتْ.... أمِتْ ، واستماتوا في قتالٍ بطوليٍّ ملحميٍّ ، سجَّل فيه أبطال الإسلام صوراً رائعةً من البطولة ، والشَّجاعة[(٣٠٥)] ، وسجَّل التَّاريخ روائعَ بطولاتِ حمزةَ بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وأبي دُجانةَ ، وأبي طلحة الأنصاريِّ ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وأمثالهم كثيرٌ[(٣٠٦)] ، وحقَّق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة[(٣٠٧)].

وفي ذلك يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٥٢].

ولما رأى الرُّماةُ الهزيمةَ الَّتي حلَّت بقريشٍ ، وأحلافها ، ورأوا الغنائم في أرض المعركة؛ جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم؛ ظنَّاً منهم: أنَّ المعركة انتهت ، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جُبيرٍ: «الغنيمة أي قَوْم! الغنيمة! ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جُبَيْرٍ: أنَسِيتُم ما قال لكم رسولُ الله (ص) ؟ قالوا: واللهِ لنأتينَّ النَّاسَ فلنُصيبَنَّ من الغنيمة» [البخاري (٣٠٣٩)].

ثمَّ انطلقوا يجمعون الغنائم ، ولم يعبؤوا بقول أميرهم ، ووصف ابن عباس رضي الله عنهما حالة الرُّماة في ذلك الموقف ، فقال: «فلمَّا غنم النَّبيُّ (ص) ، وأباحوا عسكر المشركين ، أكبَّ الرُّماة جميعاً ، فدخلوا في المعسكر ينهبون ، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله (ص) ، فهم هكذا ـ وشبك بين أصابع يديه ـ ، والتبسوا ، فلمَّا أخلَّ الرُّماة تلك الخَلَّة الَّتي كانوا فيها ، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النَّبيِّ (ص) ، فضرب بعضهم بعضاً ، والتبسوا ، وقُتل من المسلمين ناسٌ كثير» [أحمد (١/٢٨٧ ـ ٢٨٨)].

ورأى خالد بن الوليد ـ وكان على خيَّالة المشركين ـ ، الفرصة سانحةً ليقوم بالالتفاف حول المسلمين ، ولما رأى المشركون ذلك ، عادوا إلى القتال من جديدٍ، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين ، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى ، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيطٍ ، فأصبحوا يقاتلون متفرِّقين ، فلا نظام يجمعهم ، ولا وحْدَة تشملهم ، بل لم يعودوا يميِّزون بعضهم ، فقد قَتَلُوا اليَمانَ ـ والد حُذيفة بن اليَمان ـ خطأً [البخاري (٤٠٦٥) ، وابن هشام (٣/١٢٩)] . وأخذ المسلمون

يتساقطون شهداء في الميدان ، وفقدوا اتِّصالهم بالرَّسول (ص) ، وشاع: أنَّه قُتِل[(٣٠٨)] ، واختلط الحابِلُ بالنَّابل[(٣٠٩)] واشتدَّت حرارة القتال ، وصار المشركون يقتلون كلَّ من يلقونه من المسلمين ، واستطاعوا الخلوص قريباً من النَّبيِّ (ص) ، فرموه بحجر كسر أنفه الشَّريف ، ورباعيَتَهُ[(٣١٠)] ، وشجَّه[(٣١١)] في وجهه الكريم ، فأثقله وتفجَّر الدَّم[(٣١٢)] منه (ص) .

عن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) كُسِرَتْ رَبَاعيَّتُه يوم أُحدٍ ، وشُجَّ في رأسه ، فجعل يَسْلُتُ الدَّمَ عنه ، ويقول: كيف يُفْلح قومٌ شجُّوا نبيَّهم ، وكسروا ربَاعيَّته ، وهو يدعوهم إلى الله؟ [البخاري تعليقاً (٨/١١٢) ، ومسلم (١٧٩١)] فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ *} [آل عمران: ١٢٨].

وحمل ابن قَمِئَةَ على مُصعب بن عمير رضي الله عنه حيث كان شديدَ الشَّبه برسول الله (ص) ، فقتله ، فقال لقريش: قد قتلت محمَّداً[(٣١٣)].

وشاع: أنَّ محمَّداً قد قُتِل ، فتفرَّق المسلمون ، ودخل بعضهم المدينة ، وانطلقت طائفةٌ منهم فوق الجبل ، واختلطت على الصَّحابة أحوالهم ، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة[(٣١٤)] ، ففرَّ جَمْعٌ من المسلمين من ميدان المعركة ، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتالٍ ، واثر اخرون الشَّهادة بعد أن ظنُّوا: أنَّ رسول الله (ص) قد مات؛ ومن هؤلاء أنسُ بن النَّضر ، الَّذي كان يأسف

لعدم شهوده بدراً ، والَّذي قال في ذلك: «والله! لئن أراني اللهُ مشهداً مع رسول الله (ص) ليرينَّ اللهُ كيف أصنع» وقد صدق في وعده ، فقد مرَّ يوم أُحدٍ على قومٍ ممَّن أذهلتهم الشَّائعةُ ، وألقوا بسلاحهم ، فقال: ما يجلسكم ؟ قالوا: قُتل رسولُ الله (ص) ! فقال: يا قوم ! إن كان محمَّدٌ قد قُتل ، فإن ربَّ محمَّد لم يُقتل ، وموتوا على ما مات عليه. وقال: اللَّهمَّ إنِّي أعتذر إليك ممَّا قال هؤلاء ـ يعني: المسلمين ـ ، وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء ـ يعني: المشركين ـ ، ثم لقي سعد بن معاذ ، فقال: يا سعد! إنِّي لأجد ريح الجنَّة دون أحدٍ ، ثمَّ ألقى بنفسه في أَتُونِ المعركة ، وما زال يقاتل؛ حتَّى اسْتُشْهِد ، فوُجد فيه بضعٌ وثمانون ما بين ضربةٍ بسيفٍ ، أو طعنةٍ برمح ، أو رميةٍ بسهم ، فلم تعرفه إلا أختُه ببنانه [البخاري (٤٠٤٨) ، وابن هشام (٣/٨٨)][(٣١٥)].

وفي هذا ، وأمثاله نزل قولُ الله تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *} [الأحزاب: ٢٣].

أمَّا أولئك النَّفر الَّذين فرُّوا لا يلوون على شيءٍ رغم دعوة النَّبيِّ (ص) لهم بالصُّمود، والثَّبات ، فقد نزل فيهم قوله تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [آل عمران: ١٥٣].

ولقد حكى القران الكريم خبرَ فرار هذه المجموعة من الصَّحابة ، الَّذين ترخَّصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النَّبيِّ (ص) ، الَّذي شاع في ساحة المعركة ، وكان أوَّل مَنْ علم بنجاة الرَّسول (ص) ، وأنَّه حيٌّ هو الصَّحابيُّ كعب بن مالك ، الَّذي رفع صوتَه بالبُشرى ، فأمره النَّبيُّ (ص) بالسُّكوت حتَّى لا يفطنَ المشركون إلى ذلك [الطبراني في الأوسط (١١٠٨) ، وفي الكبير (١٩/١٠٠) ، ومجمع الزوائد (٦/١١٢)][(٣١٦)].

وقد نصَّ القران الكريم على أنَّ الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة الَّتي فرَّت.

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ *} [آل عمران: ١٥٥].

ثالثاً: خطَّة الرَّسول (ص) في إعادة شتات الجيش:

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين ، والهدف الرَّئيس فيه شخص النَّبيِّ (ص) ، لم يتزحزح (ص) من موقفه؛ والصَّحابة يسقطون واحداً تلو الواحد بين يديه ، وحُوصرَ رسولُ الله (ص) في قلب المشركين ، وليس معه إلا تسعةٌ من أصحابه؛ سبعةٌ منهم من الأنصار. [مسلم (١٧٨٩)].

وكان الهدف أن يفكَّ هذا الحصار ، وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه ، واستبسل الأنصار في الدِّفاع عن رسول الله (ص) ، واستشهدوا واحداً بعد الاخر[(٣١٧)] ، ثمَّ قاتل عنه طلحةُ بن عبيد الله حتَّى أُثْخِنَ ، وأصيب بسهم شَلَّت يمينَه ، وأراد النَّبيُّ (ص) أن يصعد صخرةً فلم يستطع ،

فقعد طلحةُ تحته حتَّى استوى على الصَّخرة، قال الزُّبير: فسمعت النَّبيَّ (ص) يقول: «أوجب طلحة» [أحمد (١/١٦٥) ، والترمذي (١٦٩٢)][(٣١٨)].

وقاتل سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه بين يدي رسول الله (ص) ، وكان يناوله النِّبال ويقول له: «ارمِ يا سعد! فداك أبي ، وأمِّي!» [أحمد (١/١٣٧) ، والبخاري (٤٠٥٥) ، ومسلم (٢٤١٢)].

كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري؛ الَّذي كان من أمهر الرُّماة ، وهو الَّذي قال عنه النَّبيُّ (ص) : «لصوت أبي طلحة في الجيش ، أشدُّ على المشركين من فئةٍ» [أحمد (٣/٢٠٣) ، وعبد بن حميد (١٣٨٤)]. وقد كان متترِّساً على رسول الله بحَجَفةٍ له ، وكان رامياً شديدَ النَّزع ، كَسَرَ يومئذٍ قوسين ، أو ثلاثاً ، وكان الرَّجل يمرُّ معه الجَعْبَةُ[(٣١٩)] من النَّبْل ، فيقول رسولُ الله (ص) : «انثرها لأبي طلحة» ، ثمَّ يشرف إلى القوم ، فيقول أبو طلحة: «يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمي! لا تُشْرِف[(٣٢٠)] يصيبك سهمٌ من سِهام القوم ، نَحْرِي دون نحرك[(٣٢١)]!» [البخاري (٤٠٦٤)].

ووقفت نُسَيْبة بنت كعب تذبُّ عن رسول الله (ص) بالسَّيف ، وترمي بالقوس ، وأُصيبت بجراحٍ كبيرةٍ ، وترَّس أبو دجانة دون رسول الله (ص) بنفسه؛ يقع النَّبل في ظهره وهو مُنْحَنٍ عليه حتَّى كثر فيه النَّبْلُ[(٣٢٢)].

والتفَّ حول الرَّسول (ص) في تلك اللَّحظات العصيبة أبو بكرٍ ، وأبو عبيدة ، وقام أبو عبيدة بنزع السَّهمين من وجه النَّبيِّ (ص) بأسنانه ، ثمَّ توارد مجموعةٌ من الأبطال المسلمين؛ حيث بلغوا قرابة الثَّلاثين ، يذودون عن رسول الله (ص) ؛ منهم: قتادة ، وثابت بن الدَّحداح ، وسهل بن حنيف ، وعمر بن الخطَّاب ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، والزُّبير بن العوَّام.

واستطاع عمر بن الخطَّاب أن يردَّ هجوماً مضادّاً ، قاده خالد ضدَّ المسلمين من عالية الجبل ، واستبسل الصَّحابة الَّذين كانوا مع عمر في ردِّ الهجوم العنيف ، وعاد المسلمون ، فسيطروا على الموقف من جديد[(٣٢٣)] ، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصرٍ حاسمٍ ، وتعبوا

من طولها ، ومن جَلادة المسلمين ، وانسحب النَّبيُّ (ص) بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحَد شعاب جبل أُحدٍ ، وكان المسلمون في حالةٍ من الألم ، والخوف ، والغمِّ لما أصاب رسولَ الله (ص) ، وما

أصابهم رغم نجاحهم في ردِّ المشركين[(٣٢٤)] ، فأنزل الله عليهم النُّعاس ، فناموا يسيراً ، ثمَّ أفاقوا امنين مطمئنين.

قال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *} [آل عمران: ١٥٤].

وقد أجمع المفسرون على أنَّ الطَّائفة الَّتي قد أهمَّتهم أنفسُهم هم المنافقون[(٣٢٥)].

أمَّا قريشٌ فإنَّها يئست من تحقيق نصرٍ حاسمٍ، وأُجْهد رجالُها من طول المعركة ، ومن صمود المسلمين وجَلَدهم ، وخاصَّةً بعد أن اطمأنُّوا ، وأنزل الله عليهم الأمنة ، والصُّمود ، فالتفُّوا حول النَّبيِّ (ص) ؛ ولذلك كفُّوا عن مطاردة المسلمين ، وعن محاولة اختراق قوَّاتهم[(٣٢٦)].

رابعاً: من شهداء أُحد:

أ ـ حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه سيِّد الشُّهداء عند الله تعالى يوم القيامة:

قاتل أسدُ الله حمزةُ قتالاً ضارياً ، وأثخن في المشركين قتلاً ، وأطاح برؤوس نفرٍ من حملة لواء المشركين من بني عبد الدَّار ، وبينما هو على هذه الحال من الشَّجاعة ، والإقدام ، كَمَنَ له وحشيٌّ؛ حتَّى تمكَّن منه ، ثمَّ رماه بحربته ، فأصاب منه مقتلاً ، ولندع وحشيّاً يخبرُنا عن هذا المشهد المؤلم. قال وحشيٌّ: إنَّ حمزة قتل طُعَيْمةَ بن عديِّ بن الخيار ببدرٍ ، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مُطْعِم: إنْ قتلتَ حمزةَ بعمِّي؛ فأنت حرٌّ ، فلمَّا أنْ خرج النَّاسُ عام عَيْنَين ـ وعينين جبلٌ بحيال أحدٍ ، بينه وبينه وادٍ ـ ، خرجتُ مع النَّاس إلى القتال ، فلمَّا اصطفُّوا للقتال؛ خرج سِبَاعٌ ، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزةُ بن عبد المطلب ، فقال: يا سِباعُ! يا بنَ أمِّ أنمارٍ مُقطِّعة البُظور[(٣٢٧)] ، أتحادُّ الله ورسولَه (ص) ؟ ثمَّ شدَّ عليه ، فكان كأمس الذَّاهب ، قال:

وكَمَنتُ لحمزة تحت صخرةٍ ، فلمَّا دنا منِّي رميتُه بحربتي ، فأضَعُها في ثُنَّتِهِ[(٣٢٨)] حتَّى خَرَجَتْ من بين وَرِكيه ، قال: فكان ذاك العهدَ به[(٣٢٩)] ، فلمَّا رجع النَّاس؛ رجعت معهم ، فأقمت بمكَّة حتى فشا فيها الإسلامُ.

ثمَّ خرجتُ إلى الطَّائف ، فأرسلوا إلى رسول الله (ص) رُسلاً ، فقيل لي: إنَّه لا يَهيج الرُّسُلَ[(٣٣٠)] ، قال: فخرجتُ معهم حتَّى قدمتُ على رسول الله (ص) ، فلمَّا راني؛ قال: « أنت وحشيٌّ؟ » قلت: نعم ، قال: « أنت قتلتَ حمزة؟ » قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك ، قال: « فهل تستطيعُ أن تُغَيِّبَ وجهك عنِّي؟ » قال: فخرجتُ ، فلمَّا قُبض رسولُ الله (ص) ، فخرج مسيلمةُ الكذَّاب ، قلت: لأخرجنَّ إلى مسيلمة لَعَلِّي أقتلُه فأكافأى به حمزة ، قال: فخرجت مع النَّاس فكان من أمره ما كان ، قال: فإذا رجل قائمٌ في ثَلَمةِ جدار[(٣٣١)] كأنَّه جمل أَوْرَقُ[(٣٣٢)] ثائر الرأس، قال: فرميتُه بحربتي ، فأضعها بين ثدييه حتَّى خرجت من بين كتفيه ، قال: ووثب إليه رجلٌ من الأنصار ، فضربه بالسَّيف على هامته. قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار: أنَّه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «فقالت جاريةٌ على ظهر بيتٍ: وا أميرَ المؤمنين! قتله العبدُ الأسود» [البخاري (٤٠٧٢) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤١ ـ ٢٤٣) ، والطبري في تاريخه (٢/٥١٦ ـ ٥١٧)].

١ ـ سؤال النَّبيِّ (ص) عن مقتل حمزة رضي الله عنه:

بعد انتهاء المعركة ، سأل رسولُ الله (ص) أصحابه: «مَنْ رأى مقتل حمزة؟» فقال رجل: أنا رأيت مقتله ، قال: «فانطلق أرناه» فخرج رسول الله (ص) حتَّى وقف على حمزة ، فراه وقد شُقَّ بطنُه ، وقد مُثِّل به ، فقال: يا رسول الله! مُثِّل به والله![الطبراني في الكبير (١٩/٨٢) ، ومجمع الزوائد (٦/١١٩)][(٣٣٣)]. وفي روايةٍ: لما بلغ النَّبيَّ (ص) قتلُ حمزة؛ بكى، فلمَّا نظر إليه شهِق، ووقف بين ظهراني القتلى، فقال: «أنا شهيد على هؤلاء، كفِّنوهم في دمائهم ، فإنَّه ليس جرحٌ يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يَدمى؛ لونُه لون الدَّم ، وريحُه ريحُ المسك ، قدِّموا أكثرهم قراناً ، فاجعلوه في اللَّحد» [البخاري (٢٠٧٩) ، وأبو داود (٣١٣٨)، والترمذي (١٠٣٦) ، والنسائي (١٩٥٤) ، وابن ماجه (١٥١٤)].

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله (ص) في أُحدٍ تحقَّقت رؤيا رسولِ الله (ص) ، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أُحدٍ، فقال: «رأيت في سيفي ذي الفقار فَلاًّ[(٣٣٤)]، فأوَّلْتُه فَلاًّ يكون فيكم (أي: انهزاماً) ، ورأيت أنِّي مردفٌ كَبْشاً ، فأوَّلْتُه كبش الكتيبة، ورأيت أنِّي في درع حصينةٍ، فأوَّلتها المدينة ، ورأيت بقراً تُذبح ، فبقرٌ والله خيرٌ! فبقرٌ والله خيرٌ!» فكان الَّذي قال رسول الله (ص) . [أحمد (١/٢٧١) ، والترمذي (١٥٦١)][(٣٣٥)] .

٢ ـ صبر صفيةَ بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة:

قال الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه: إنَّه لما كان يوم أُحد؛ أقبلت امرأة تسعى ، حتَّى كادت أن تشرف على القتلى ، قال: فَكَرِهَ النَّبيُّ (ص) أن تراهم ، فقال: المرأة ... المرأة! قال الزُّبير: فتوسَّمتُ: أنَّها صفيَّة ، قال: فخرجت أسعى إليها ، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى ، قال: فَلَدَمَتْ[(٣٣٦)] صدري ، وكانت امرأة جَلْدةً ، قالت: إليك عنِّي ، لا أرضَ لك! فقلت: إنَّ رسول الله (ص) عزم عليك.

قال: فوقفت ، وأخرجت ثوبين معها ، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة ، فقد بلغني مقتله ، فكفِّنوه فيهما. قال: فجئنا بالثَّوبين لنكفِّن فيهما حمزة ، فإذا إلى جنبه رجلٌ من الأنصار قتيل فُعِلَ به كما فُعل بحمزة ، قال: فوجدنا غضاضةً وحياءً أن يكفَّن حمزة في ثوبين والأنصاريُّ لا كفن له ، فقلنا: لحمزة ثوبٌ وللأنصاريِّ ثوبٌ ، فقدَّرناهما ، فكان أحدُهما أكبر من الاخر ، فأقرعنا بينهما ، فكفَّنا كلَّ واحدٍ منهما في الثَّوب الَّذي صار له. [أحمد (١/١٦٥) ، والبزار (١٧٩٧) ، وأبو يعلى (٦٨٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٩٠) ، ومجمع الزوائد (٦/١١٨)][(٣٣٧)].

٣ ـ من شعر صفيَّة في بكاء حمزة:

أَسَائِلةٌ أصْحَابَ أُحْدٍ مَخَافَةً بَنَاتُ أَبِي مِنْ أَعْجَمٍ[(٣٣٨)] وخَبيرِ

فَقَالَ الخَبِيْرُ إنَّ حَمْزَةَ قَدْ ثَوَى وَزِيْرُ رَسُولِ اللهِ خَيْرُ وَزِيْرِ

دَعَاهُ إلهُ الحقِ ذُو العَرْشِ دَعْوَةً إلَى جنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وَسُرُوْرِ

فَذَلِكَ مَا كُنَّا نُرَجِّي وَنَرْتَجِي لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْرَ مَصِيْرِ

فَوَاللهِ لاَ أَنْسَاكَ ما هبَّتِ الصَّبا بُكَاءً وَحُزْناً مَحْضَري وَمَسِيْرِي

عَلَى أَسَدِ الله الَّذِيْ كَانَ مِدْرَهاً[(٣٣٩)] يَذُوْدُ عَنِ الإسْلاَمِ كلَّ كَفُوْرِ

فَيَا لَيْتَ شِلْوي عِنْدَ ذَاكَ وَأَعْظُمِي لَدَى أضْبُعٍ تَعْتَادُنِي وَنُسُورِ[(٣٤٠)]

أَقُولُ وَقَدْ أعْلَى النَّعِيُّ عَشِيْرَتِي جَزَى اللهُ خَيْراً مِنْ أخٍ وَنَصِيْرِ[(٣٤١)]

٤ ـ حمزة لا بواكي له:

لما رجع رسولُ الله (ص) من أُحدٍ؛ سمع نساء الأنصار يبكين ، فقال: «لكنَّ حمزة لا بواكيَ له» ، فبلغ ذلك نساءَ الأنصار ، فبكين حمزة[(٣٤٢)] ، فنام رسول الله (ص) ، ثمَّ استيقظ ، وهنَّ يبكين ، فقال: «يا ويحهنَّ! ما زلن يبكين منذ اليوم ، فليبكين ، ولا يبكين على هالكٍ بعد اليوم» [أحمد (٢/٤٠ ، ٨٤ ، ٩٢) ، وابن ماجه (١٥٩١) ، والطبراني في الكبير (٢٩٤٣) ، وأبو يعلى (٣٥٧٦) ، ومجمع الزوائد (٦/١٢٠)]. وبذلك حرِّمت النِّياحة على الميت ، وبعد فترة من الزَّمن نزل الوحي يشدِّد على تحريم

النِّياحة على الميت ، ويجعلها من كبائر الذُّنوب ، وهو بذلك يتغلغل داخل أعماق المؤمنين ، والمؤمنات ، يتتبَّع اثار الجاهلية؛ لكي يمحوها ، ويغرس مكانها تعاليم الإسلام[(٣٤٣)]».

قال (ص) : «النِّياحة على الميت من أمر الجاهليَّة ، وإن النَّائحة إذا لم تتب قبل أن تموت ، فإنَّها تُبْعَثُ يوم القيامة عليها سرابيلُ من قطران ، ثمَّ يُعلى عليها بدروعٍ من لهب النَّار» [ابن ماجه (١٥٨٢)].

وقال (ص) : «اثنتان في النَّاس هما بهم كفرٌ: الطَّعنُ في النَّسب ، والنِّياحةُ على الميِّت» [أحمد (٤٩٦/٢) ، ومسلم (٦٧)]. فتوقف النُّواح ، ولم تتوقف الدُّموع.

٥ . رسول الله (ص) يسمِّي غلاماً للأنصار بحمزة:

قال جابر بن عبد الله: ولد لرجل منَّا غلام ، فقالوا: ما نسمِّيه؟ فقال النَّبيُّ (ص) : «سمُّوه بأحبِّ الأسماء إليَّ ، حمزة بن عبد المطلب» [الحاكم (١٩٦/٣)]؛ فحمزة مُتَجَذِّرٌ في القلب النَّبويِّ ، عالقٌ بالذَّاكرة الكريمة ، ولكن الله سبحانه ينزل على نبيِّه (ص) فيما بعد أحبَّ الأسماء إليه ، فيقولها (ص) لمن حوله: «إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله: عبدُ الله ، وعبدُ الرَّحمن» [مسلم (٢١٣٢) ، وأبو داود (٤٩٤٩) ، والترمذي (٢٨٣٣)، وابن ماجه (٣٧٢٨)].

٦ . «فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهَك عنِّي» [البخاري (٤٠٧٢) ، وأحمد (٥٠٧٣)]:

في هذا التَّوجيه الكريم لا يوجد فيه شيءٌ من المؤاخذة والتَّأثيم لوحشيٍّ؛ وإنَّما هو تذكيرٌ له بأنَّ رؤيته إيَّاه تجلب له شيئاً من المتاعب النَّفسيَّة ، وتُحرِّك في نفسه ذكريات حادث القتل ، وما تبعه من تمثيلٍ شنيعٍ بَشعٍ بعمِّه ، فتثير عنده حزازاتٍ بشريَّة ربما لا يكون من المستطاع منعها ، ومقاومتها إلا بشيءٍ من العسر ، والعنت الشَّديد؛ ممَّا قد يُشْغِلُ النَّبيَّ (ص) ويُقْلِقُه[(٣٤٤)] ، فأشار عليه (ص) بأن يغيِّب وجهه حتَّى يفقد مصدر التَّذكير بتلك المصيبة[(٣٤٥)]. في روايةٍ صحيحةٍ: قال وحشيٌّ: أتيتُ النَّبيَّ (ص) ، فقال لي: «وحشيٌّ» قلت: نعم ، قال: «قتلت حمزة؟» ، قلت: نعم ، الحمد لله الَّذي أكرمه بيدي ، ولم يهنِّي بيده ، فقالت له قريش: أتحبُّه؛ وهو قاتل حمزة. فقلت: يا رسول الله! فاستغفر لي ، فتفل رسول الله (ص) في الأرض ثلاثةً ، ودفع صدري ثلاثةً ، وقال: «وحشيٌّ ، اخرج فقاتلْ في سبيل الله ، كما قاتلت لِتَصُدَّ عن سبيل الله» [الطبراني في الكبير (١٣٩/٢٢) ، ومجمع الزوائد (١٢٧/٦)].

فهذا من التَّوجيه الإرشاديِّ النَّبويِّ إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر ، ومحادَّة الله تعالى ورسوله (ص) ، وذكرُ القتال في سبيل الله بيانٌ للأمر الأنسب في التَّكفير ، وفيه حضٌّ من النَّبيِّ (ص) لإعلاء راية الجهاد

، ولعلَّ مخرجَ وحشيٍّ إلى اليمامة ، وقتله مسيلمةَ الكذَّاب كان أثراً من اثار توجيه النَّبيِّ (ص) إلى أفضل ما يمحو الخطايا ، ويحتُّ[(٣٤٦)] الذُّنوب ، ويطهِّر الاثام.

وقد أدرك وحشيٌّ ذلك، فقال حين قتل مسيلمةَ الكذَّاب: قتلتُ خير النَّاس ـ يعني: سيِّد الشُّهداء حمزةَ بنَ عبد المطَّلب ـ، وقتلتُ شرَّ النَّاس مسيلمةَ الكذَّاب[(٣٤٧)].

ب ـ مصعب بن عمير رضي الله عنه:

قال خبَّاب رضي الله عنه: هاجرنا مع رسول الله (ص) ونحن نبتغي وجه الله ، فوقع أجرُنا على الله؛ فَمِنَّا مَنْ مضى في سبيله ، ولم يأكل مِنْ أجره شيئاً ، منهم مصعبُ بن عمير قُتل يوم أُحدٍ ، ولم يترك إلا نَمِرَةً ، فكنَّا إذا غطَّينا رأسه؛ بدت رجلاه ، وإذا غطَّينا رجليه بدا رأسُه ، فقال رسولُ الله (ص) : «غطُّوا رأسَه ، واجعلوا على رجليه الإذخر»[(٣٤٨)] ، ومنا من أينعت له ثمرتُه ، فهو يَهْدِبُها[(٣٤٩)]. [البخاري (١٢٧٦) و(٣٨٩٧)].

ومن حديث عبد الرَّحمن بن عوف أنَّه أُتي بطعامٍ ، وكان صائماً ، فقال: قُتل مصعب بن عمير ، وكان خيراً منِّي ، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ ، وقتل حمزة ـ أو رجلٌ اخر ـ خيرٌ منِّي ، فلم يُوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ ، لقد خَشِيتُ أن يكون قد عُجِّلت لنا طيِّباتُنا في حياتنا الدُّنيا ، ثمَّ جعل يبكي حتَّى ترك الطَّعام [البخاري (١٢٧٤) ، و(١٢٧٥) ، و(٤٠٤٥)].

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله (ص) حين انصرف من أُحدٍ، مرَّ على مصعب بن عمير ؛ وهو مقتولٌ على طريقه ، فوقف عليه ، ودعا له ، ثمَّ قرأ هذه الاية: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *} [الأحزاب: ٢٣] ، ثمَّ قال رسول الله (ص) : «أشهد: أنَّ هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة ، فائتوهم ، وزوروهم ، والَّذي نفسي بيده ، لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة، إلا ردُّوا عليه» [الحاكم (٣/٢٠٠) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٨٤)].

ج ـ سعد بن الرَّبيع رضي الله عنه:

هذا هو الَّذي اسْتَكْتَمَهُ رسولُ الله (ص) خبرَ مسير قريشٍ ، وكان رسول الله (ص) يحبُّه ، فلمَّا انتهت معركة أُحدٍ؛ قال رسول الله (ص) : «مَنْ رجلٌ ينظرُ ما فعل سعدُ بن الرَّبيع ، أفي الأحياء هو ، أم في الأموات؟» لأنَّ النَّبيَّ (ص) قد رأى الأسِنَّة أشرعَتْ إليه ، فقال أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه: أنا أنظره

لك يا رسول الله! فقال له: «إن رأيتَ سعد بن الرَّبيع ، فأقرئه منِّي السَّلام ، وقل له: يقول لك رسول الله (ص) : كيف تجدُك؟» فنظر أُبَيٌّ ، فوجده جريحاً به رَمَقٌ.

فقال له: إنَّ رسول الله (ص) أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت ، أم في الأموات ، فقال: قد طُعِنْتُ اثنتي عَشرةَ طعنةً ، وقد أنفذت إلى مقاتلي[(٣٥٠)]. وفي روايةٍ صحيحةٍ قال: على رسول الله ، وعليك السَّلام ، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنَّة ، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إنْ خُلِصَ إلى رسول الله (ص) ؛ وفيكم عينٌ تطرُف[(٣٥١)] ، قال: وفاضت نفسُه رحمه الله. [الحاكم (٣/٢٠١) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٨٥)][(٣٥٢)]! وهذا نُصْحٌ لله ، ورسولِه (ص) في سكرات الموت يدلُّ على قوَّة الإيمان ، والحرص على الوفاء بالبيعة ، لم يتأثر بالموت ولا الام القروح.

د ـ عبد الله بن جحشٍ رضي الله عنه:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: إنَّ عبد الله بن جحشٍ قال له يوم أُحدٍ: ألا تدعو الله ، فَخَلَوْا في ناحيةٍ ، فدعا سعدٌ ، فقال: يا ربِّ! إذا لقيتُ العدوَّ ، فَلَقِّني رجلاً شديداً بأسُه ، شديداً حردُه ، أقاتلُه ، ويقاتلني ، ثمَّ ارزقني الظَّفَرَ عليه حتَّى أقتلَه ، واخذَ سَلَبَهُ ، فأمَّن عبد الله بن جحشٍ ، ثمَّ قال: اللَّهمَّ ارزقني رجلاً شديداً حردُه ، شديداً بأسُه ، أقاتله فيك ويقاتلُني ، ثمَّ يأخذُني ، فَيَجْدَعُ أنفي ، وأذني ، فإذا لقيتُك غداً ، قلتَ: من جَدَعَ أنفَك ، وأذنَك؟ فأقول: فيك ، وفي رسولك ، فتقول: صدقتَ. قال سعد: يا بنيَّ ، كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي ، لقد رأيتُه اخر النَّهار وإنَّ أنفه ، وأذنه لمعلَّقان في خيطٍ[(٣٥٣)]. وفي هذا الخبر جواز دعاء الرَّجل أن يُقتل في سبيل الله ، وتمنِّيه ذلك ، وليس هذا من تمنِّي الموت المنهيِّ عنه[(٣٥٤)].

هـ حنظلةُ بن أبي عامرٍ رضي الله عنه (غَسِيل الملائكة):

لما انكشف المشركون؛ ضرب حنظلةُ فرسَ أبي سفيان بن حربٍ ، فوقع على الأرض ، فصاح وحنظلةُ يريد ذبحه ، فأدركه شدَّاد بن الأسود ، ويقال له: ابن شَعوب ، فحمل على حنظلةَ بالرُّمح ، فأنفذه ، ومشى إليه حنظلة بالرُّمح وقد أثبته ، ثمَّ ضرب الثَّانية فقتله ، فذُكِر ذلك لرسول الله (ص) فقال: «إنِّي رأيت الملائكة تغسِّله بين السَّماء والأرض بماء المزْن ، في صِحَافِ الفضَّة» فقال رسول الله (ص) : «فاسألوا أهلَه ما شأنُه؟» فسألوا صاحبته عنه ، فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة[(٣٥٥)] ، فقال رسول الله (ص) : «فلذلك غَسَّلَتْهُ الملائكة» [الحاكم (٣/٢٠٤ ـ ٢٠٥) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/١٥) ، والطبراني الكبير (١٢٠٩٤) ، ومجمع الزوائد (٣/٢٣)][(٣٥٦)].

وفي رواية الواقديِّ: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوَّج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، فأُدخلت عليه في اللَّيلة الَّتي في صبحها قتال أُحدٍ ، وكان قد استأذن رسولَ الله (ص) أن يبيتَ عندها ، فأذن له ، فلمَّا صلَّى بالصَّبح غدا يريد رسولَ الله (ص) ، ولزمته جميلةُ فعاد ، فكان معها ، فأجنب منها ، ثمَّ أراد الخروج ، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعةٍ من قومها فأشهدتهم أنَّه قد دخل بها ، فقيل لها بَعْدُ: لم أشهدتِ عليه؟ قالت: رأيت كأنَّ السَّماء فُرِجَتْ فدخل فيها حنظلة ، ثمَّ أُطبقت ، فقلت: هذه الشَّهادة ، فأشهدْتُ عليه: أنَّه قد دخل بي. وتَعْلَقُ بعبد الله بن حنظلة ، ثمَّ تزوَّجها ثابت بن قيس بعدُ ، فولدت له محمَّد بن ثابت بن قيس[(٣٥٧)].

وفي هذا الخبر مواقفُ ، وعبرٌ؛ منها:

١ . في تعلُّق جميلة بنت عبد الله بن أُبي ، بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرُّؤيا الَّتي فسَّرتها بالشَّهادة ، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتَّى لا تحمل منه ، فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخُطَّاب ، لكنَّها تعلَّقت به رجاءَ أن تحمل منه ، فتلد ولداً ينسب لذلك الشَّهيد ، الَّذي بلغ درجاتٍ عليا في الصَّلاح أولاً ، ثمَّ بما ترجوه من نيله الشَّهادة. ولقد حصل لها ما أمَّلت به ، فحملت منه ، وولدت ولداً ذكراً سمِّي عبد الله ، وكان له ذِكْرٌ بعد ذلك ، وكان مِنْ أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابنُ غَسِيْلِ الملائكة.

٢ . حَرَصَ حنظلةُ القويُّ على مقارعة أعداء الله ، الَّذي يتمثَّل في سرعة خروجه إلى الميدان ، الأمر الذي لم يتمكَّن معه من غسل الجنابة.

٣ . شجاعتُه الفائقة الَّتي تظهر في تصدِّيه لقائد المشركين ، أبي سفيان بن حرب ، والقائد غالباً يكون حوله مَنْ يحميه ، وهو فارسٌ ، وحنظلة راجلٌ.

٤ . تشريفٌ ربانيٌّ كريمٌ ، في نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه الْمُزْن في صحاف الفضَّة.

٥ . معجزةٌ نبويَّةٌ في إخبار الصَّحابة عمَّا قامت به الملائكة مِنْ تغسيلٍ؛ حيث رأى (ص) الملائكة وهي تغسل ، ولم يرَ الصَّحابةُ ذلك[(٣٥٨)].

٦ . إذا كان الشَّهيد جنباً غُسِّل ، كما غسلت الملائكةُ حنظلةَ بن أبي عامر[(٣٥٩)].

و . عبد الله بن عمرو بن حَرَامٍ رضي الله عنه:

أصرَّ عبدُ الله بن عمرو بن حرامٍ على الخروج في غزوة أُحدٍ ، فخاطب ابنه جابراً بقوله: يا جابرُ! لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتَّى تعلم إلى ما يصيرُ أمرُنا ، فإنِّي والله لولا أنِّي أترك بنات لي بعدي؛ لأحببتُ أن تُقْتلَ بين يديَّ. [أحمد (٣/٣٩٧ . ٣٩٨) ، ومجمع الزوائد (٤/١٣٥)].

وقال لابنه أيضاً: ما أراني إلا مقتولاً في أوَّل من يُقْتَلُ من أصحاب النَّبيِّ (ص) ، وإنِّي لا أتركُ بعدي أعَزَّ عليَّ منك؛ غيرَ نفسِ رسول الله (ص) ، وإنَّ عليَّ ديناً فاقضِ ، واستوصِ بإخوتك خيراً [البخاري (١٣٥١)].

وخرج مع المسلمين ونال وسام الشَّهادة في سبيل الله ، فقد قُتل في معركة أُحدٍ ، وهذا جابرُ يحدِّثنا عن ذلك ، حيث يقول: لما قُتل أبي يوم أحدٍ ، جعلتُ أكشفُ عن وجهه ، وأبكي،

وجعل أصحابُ رسول الله (ص) ينهونني وهو لا ينهاني ، وجَعَلَتْ عمَّتي تبكيه ، فقال النَّبيُّ (ص) : «تبكين ، أو لا تبكين ، ما زالت الملائكة تُظِلُّهُ بأجنحتها حتَّى رَفَعْتُموه» [البخاري (١٢٤٤) ، ومسلم (٢٤٧١/١٣٠)].

وقال رسول الله (ص) : «يا جابر! مالي أراك منكسراً؟» قال: يا رسول الله ، استشهد أبي ، وترك عيالاً ، ودَيناً. قال (ص) : «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلى يا رسول الله! قال (ص) : «ما كَلَّمَ اللهُ أحداً قطُّ إلاَّ من وراء حجاب ، وكلَّم أباك كفاحاً[(٣٦٠)]. يا جابر! أما علمت أنَّ الله أحيا أباك ، فقال: يا عبدي! تمنَّ عليَّ أُعطِك. قال: يا رب! تحييني فأُقتل فيك ثانيةً. فقال الرَّبُّ سبحانه: إنَّه سبق منِّي أنَّهم إليها لا يُرجعون. قال: يا رب! فأبلغ مَنْ ورائي» [الترمذي (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) و(٢٨٠٠)][(٣٦١)] ، فأنزل الله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *} [آل عمران: ١٦٩].

وقد رأى عبد الله بن عمرو رؤيا في منامه قبل أُحد؛ قال: رأيت في النَّوم قبل أُحدٍ، مبشِّر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيامٍ ، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنَّة نَسْرَحُ فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تُقْتَل يوم بدرٍ ؟ قال: بلى! ثمَّ أُحييتُ. فذكر ذلك لرسول الله (ص) ، فقال: «هذه الشَّهادة يا أبا جابر» ! [الحاكم (٣/٢٠٤)، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤٩)][(٣٦٢)] وقد تحقَّقت تلك الرُّؤيا بفضل الله ومَنِّهِ.

ز. خيثمة أبو سعد رضي الله عنه:

قال خيثمة أبو سعد ـ وكان ابنه استشهد مع رسول الله (ص) يوم بدرٍ ـ: لقد أخطأتني وقعة بدرٍ ، وكنت والله عليها حريصاً ، حتَّى ساهمتُ ابني في الخروج ، فخرج سَهْمُهُ ، فرُزِقَ الشَّهادة ، وقد رأيت البارحة ابني في النَّوم في أحسن صورةٍ ، يسرح في ثمار الجنَّة ، وأنهارها ، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنَّة ، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنَّة ، وقد كبِرَتْ سِنّي ، ورَقَّ عظمي ، وأحببتُ لقاء ربِّي ، فادعُ الله يا رسول الله! أن يرزقني الشَّهادة ، ومرافقة سعدٍ في الجنَّة ، فدعا له رسول الله (ص) بذلك ، فقُتِل بأُحدٍ شهيداً. [البيهقي في الدلائل (٣/٢٤٩)][(٣٦٣)].

ح ـ وهب المزنيُّ ، وابن أخيه رضي الله عنهما:

أقبل وهب بن قابوس المزنيُّ ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عُقبة بن قابوس بغنمٍ لهما من جبل مُزَينة ، فوجدا المدينة خلواً ، فسألا: أين النَّاس؟ فقالوا: بأُحدٍ؛ خرج رسول الله (ص) يقاتل المشركين من قريشٍ. فقالا: لا نبتغي أثراً بعد عين ، فخرجا حتَّى أتيا النَّبي (ص) بأُحدٍ ، فيجدان القوم يقتتلون ، والدَّولة لرسول الله (ص) وأصحابه ، فأغارا مع المسلمين في النَّهْب ، وجاءت الخيل مِنْ وراءهم ، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، فاختلطوا ، فقاتلا أشدَّ القتال ، فانفرقت فرقةٌ من المشركين ، فقال رسول الله (ص) : «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله! فقام فرماهم بالنَّبْل حتَّى انصرفوا ، ثمَّ رجع.

فانفرقت فرقةٌ ثانيةٌ ، فقال رسول الله (ص) : «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزنيُّ: أنا يا رسول الله! فقام فذبَّها بالسَّيف حتى ولَّوْا ، ثمَّ رجع المزَنيُّ ، ثمَّ طلعت كتيبةٌ ثالثة ، فقال: «مَنْ يقوم لهؤلاء؟» فقال المزنيُّ: أنا يا رسول الله! فقال: «قم ، وأبشر بالجنَّة» ، فقام المزنيُّ مسروراً ، يقول: والله لا أقيل ، ولا أستقيل ، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسَّيف ، ورسول الله (ص) ينظر إلى المسلمين حتَّى خرج من أقصاهم ، ورسول الله (ص) يقول: «اللَّهم ارحمه!» ثمَّ يرجع فيهم فما زال كذلك ، وهم مُحدقون به ، حتَّى اشتملت عليه أسيافهم ، ورماحهم ، فقتلوه ، فوُجد به يومئذ عشرون طعنةً برمح ، كلُّها قد خلصت إلى مقتلٍ ، ومُثِّلَ به أقبح مُثلةٍ يومئذٍ ، ثمَّ قام ابن أخيه ، فقاتل قتاله حتَّى قتل ، فكان عمر بن الخطَّاب يقول: إنّ أحبَّ ميتةٍ أموت لمِا مات عليها المزنيُّ. [المغازي للواقدي (١/٢٧٥)].

وكان بلال بن الحارث المزنيُّ يُحدِّث ، يقول: شهدنا القادسيَّة مع سعد بن أبي وقَّاص ، فلمَّا فتح اللهُ علينا ، وقُسمت بيننا غنائمنا ، فأُسْقِطَ فتىً من ال قابوس من مُزينة[(٣٦٤)] ، فجئت سعداً حين فرغ من نومه ، فقال: بلال؟ قلت: بلال! قال: مرحباً بك ، مَنْ هذا معك؟ قلت: رجلٌ من قومي مِنْ ال قابوس.

قال سعد: ما أنت يا فتى من المزني الَّذي قُتل يوم أُحد؟ قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحباً ، وأهلاً ، وأنْعَمَ الله بك عَيْناً ، ذلك الرَّجل شهدتُ منه يوم أُحد مشهداً ما شهدتُه من أحدٍ ، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كلِّ ناحيةٍ ، ورسولُ الله (ص) وسطنا ، والكتائب تطلع من كلِّ ناحيةٍ ، وإنَّ رسول الله (ص) ليرمي ببصره في النَّاس يتوسَّمُهم[(٣٦٥)] يقول: «من لهذه الكتيبة؟» كلُّ ذلك يقول المزنيُّ: أنا يا رسول الله! كلُّ ذلك يردُّه ، فما أنسى اخر مرَّةٍ قامها ، فقال رسول الله (ص) : «قم وأبشر بالجنَّة!» قال سعد: وقمت على أثره ، يعلم الله أنِّي أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشَّهادة ، فخضنا حَوْمتهم حتَّى رجعنا فيهم الثَّانية ، وأصابوه

. رحمه الله! . ووَدِدْتُ والله أنِّي كنت أُصبتُ يومئذٍ معه ، ولكنَّ أجَلِي استأخر ، ثمَّ دعا سعد من ساعته بسهمه ، فأعطاه ، وفضَّله ، وقال: اختر في المقام عندنا ، أو الرُّجوع إلى أهلك ، فقال بلال: إنَّه يستحبُّ الرُّجوع ، فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيتُ رسول الله (ص) واقفاً عليه؛ وهو مقتولٌ ، وهو يقول: «رضي الله عنك فإنِّي عنك راضٍ» ، ثمَّ رأيتُ رسولَ الله (ص) قام على قدميه وقد نال النَّبيَّ (ص) من الجراح ما ناله ، وإنِّي لأعلم أنَّ القيام ليشقُّ عليه على قبره حتى وُضع في لحده ، وعليه بُرْدَةٌ لها أعلام خضر، فمدَّ رسول الله (ص) البُردة على رأسه ، فخمَّره ، وأدرجه فيها طولاً ، وبلغت نصف ساقيه ، وأمرنا فجمعنا الحَرْمَل ، فجعلناه على رجليه؛ وهو في لحده ، ثمَّ انصرف. فما حالٌ أموتُ عليها أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المزَنيّ[(٣٦٦)].

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه ، فهذا وَهْبٌ المزنيُّ ، وابن أخيه ، تركوا الأغنام بالمدينة ، والتحقوا بصفوف المسلمين ، وحرصوا على نيل الشَّهادة ، فأكرمهم الله بها ، وقد كانت تلك الملحمة الَّتي سطَّرها المزنيُّ محفورةً في ذاكرة الصَّحابة ، فهذا سعد بن أبي وقَّاص يتذكَّرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريباً على غزوة أُحدٍ ، لمجرَّد سماع اسم رجل من عشيرة المزنيِّ ، ويتمنَّى أن يموت ، ويلقى الله على مثل حالة المزنيِّ.

ط ـ عمرو بن الجَمُوح رضي الله عنه:

كان عمرو بن الجموح رضي الله عنه أعرجَ شديدَ العرج ، وكان له بنونَ أربعةٌ مثل الأُسد[(٣٦٧)] ، يشهدون مع رسول الله (ص) المشاهد ، وهم: خلاَّد ، ومُعوَّذ ، ومُعاذ ، وأبو أيمن ، فلمَّا كان يوم أُحد أرادوا حَبْسَهُ ، وقالوا: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد عذرك ، فأتى رسولَ الله (ص) ، فقال: إنَّ بَنِيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فو الله! إنِّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنَّة. فقال له

رسول الله (ص) : «أمَّا أنت فقد عذرك الله تعالى ، فلا جهاد عليك» ، وقال لبنيه: «ما عليكم ألاَّ تمنعوه ، لعلَّ الله أن يرزقه الشَّهادة» فخرج؛ وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم! لا تردَّني إلى أهلي خائباً. فقُتل شهيداً رضي الله عنه.

وفي رواية: أتى عمرو بن الجموح رضي الله عنه إلى رسول الله (ص) ، فقال: يا رسولَ الله! أرأيتَ إنْ قاتلت في سبيل الله حتَّى أُقتل ، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنَّة . وكانت رجله عرجاء .؟ فقال رسول الله (ص) : «نعم» ، فقتلوه يوم أُحد هو ، وابن أخيه ، ومولى لهما ، فمرَّ بهم رسولُ الله (ص) ، فجُعلُوا في قبرٍ واحد [أحمد (٥/٢٩٩) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤٦) ، والواقدي

في المغازي (١/٢٦٤) ، وابن هشام (٣/٩٦) ، ومجمع الزوائد (٩/٣١٥)].

وفي هذا الخبر ، دليلٌ على أنَّ مَنْ عذره الله في التَّخلُّف عن الجهاد لمرضٍ ، أو عَرَج يجوز له الخروج إليه ، وإن لم يجب عليه ،كما خرج عمرو بن الجَمُوح؛ وهو أعرج[(٣٦٨)].

وفيه دليلٌ على شجاعة عمرو بن الجَمُوح ، ورغبته في نيل الشَّهادة ، وصدقه في طلبها ، وقد أكرمه الله بذلك.

ي ـ أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش رضي الله عنهم:

لما خرج رسول الله (ص) إلى أُحدٍ ، رُفع حُسَيل بن جابر ، وهو اليمان أبو حذيفة ابن اليمان ، وثابت بن وَقش في الاطام[(٣٦٩)] ، مع النِّساء ، والصِّبيان ، فقال أحدُهما لصاحبه . وهما شيخان كبيران .: لا أبا لك! ما تنتظر؟ فو الله ما بقي لواحدٍ منَّا من عمره إلا ظِمءِ[(٣٧٠)] حمارٍ ، إنَّما نحن هامةُ اليوم ، أو غد[(٣٧١)] ، أفلا نأخذ أسيافنا ، ثمَّ نلحق برسول الله (ص) ، لعلَّ الله يرزقنا شهادةً مع رسول الله (ص) ؟!

فأخذا أسيافهما ، ثمَّ خرجا حتَّى دخلا في النَّاس ولم يُعلم بهما ، فأمَّا ثابت بن وقش؛ فقتله المشركون ، وأمَّا حُسَيل بن جابرٍ فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين ، فقتلوه ، ولا يعرفونه ، فقال حذيفة: أبي! فقالوا: والله إن عرفناه ، وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم ، وهو أرحم الرَّاحمين ، فأراد رسول الله (ص) أن يَدِيَهُ ، فتصدَّق حذيفةُ بديته على المسلمين ، فزاده ذلك عند رسول الله (ص) خيراً. [سبق تخريجه][(٣٧٢)].

وفي هذا الخبر يظهر أثر الإيمان في نفوس الشُّيوخ الكبار؛ الَّذين عذرهم الله في الجهاد ، وكيف تركُوا الحصون ، وخرجوا إلى ساحات الوَغى طلباً للشَّهادة ، وحباً ، وشوقاً للقاء الله تعالى ، وفيه موقفٌ عظيم

لحذيفة؛ حيث تصدَّق بدية والده على المسلمين ، ودعا لهم بالمغفرة؛ لكونهم قتلوا والده خطأً ، وفيه أيضاً: أنَّ المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنُّونه كافراً؛ فعلى الإمام دِيَتُه من بيت المال؛ لأنَّ رسول الله (ص) أراد أن يَدِيَ اليمان أبا حذيفة ، فامتنع من أخذ الدِّية ، وتصدَّق بها على المسلمين[(٣٧٣)].

ك ـ الأمور بخواتيمها:

إنَّ الأمور بخواتيمها ، وقد وقع في غزوة أُحدٍ ما يحقِّق هذه القاعدة المهمَّة في هذا الدِّين ، فقد وقع حادثان يؤكِّدان هذا الأمر ، وفيهما عظةٌ ، وعبرةٌ لكلِّ مسلمٍ متَّعظٍ ، ومعتبرٍ[(٣٧٤)] ، وهما:

١ ـ شأن الأُصَيْرِم رضي الله عنه:

واسمه عمرو بن ثابت بن وَقش ، عُرض عليه الإسلام ، فلم يُسلِم ، وروى قصَّته أبو هريرة رضي الله عنه ، قال: إنَّ الأُصَيْرِم كان يأبى الإسلام على قومه ، فجاء ذات يومٍ ورسولُ الله (ص) ، وأصحابه بأُحدٍ ، فقال: أين سعدُ بن معاذ؟ فقيل: بأُحدٍ ، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأُحدٍ. فسأل عن قومه ، فقيل: بأُحدٍ ، فبدا له الإسلام ، فأسلم ، وأخذ سيفه ، ورمحه ، وأخذ لأمتَهُ ، وركب فرسه ، فعدا حتَّى دخل في عُرْض النَّاس ، فلمَّا راه المسلمون؛ قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إنِّي قد امنت. فقاتل حتَّى أثخنته الجراح ، فبينما رجالٌ من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة؛ إذا هم به ، فقالوا: والله إنَّ هذا للأُصيرم ، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنَّه مُنكرٌ لهذا الحديث ، فسألوه: ما جاء بك ؟ أحدَبٌ على قومك ، أم رغبةٌ في الإسلام؟ فقال: بل رغبةً في الإسلام ، امنت بالله تعالى ورسوله (ص) ، وأسلمت، ثمَّ أخذت سيفي فغدوتُ مع رسول الله (ص) ، ثمَّ قاتلتُ حتَّى أصابني ما أصابني ، وإن متُّ فأموالي إلى محمَّد يضعها حيث شاء ، فذكروه لرسول الله (ص) فقال: إنَّه من أهل الجنَّة. [ابن هشام (٣/٩٥) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤٧)].

وقيل: مات ، فدخل الجنة ، وما صلَّى من صلاةٍ ، فقال النَّبيُّ (ص) : «عَمِلَ يسيراً وأُجرَ كثيراً» [البخاري (٢٨٠٨) ، ومسلم (١٩٠٠)].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة ، ولم يُصلِّ قطُّ! فإذا لم يعرفه النَّاس؛ سألوه مَنْ هو؟ قال: هو أُصَيرِم بن عبد الأشهل[(٣٧٥)].

٢ ـ شأن مُخَيْرِيق:

لما كانت غزوة أُحدٍ ، وخرج رسول الله (ص) يقاتل المشركين ، جمع مُخَيْرِيقٌ قومه اليهود وقال لهم: يا معشرَ يهود! والله! لقد علمتم أنَّ نصر محمدٍ عليكم لحقٌّ. قالوا: إنَّ اليوم يوم السَّبت ، قال: لا سبت لكم!

فأخذ سيفه ، وعُدَّتَهُ ، وقال: إن أُصِبْتُ فمالي لمحمَّدٍ يَصْنَعُ فيه ما شاء. ثمَّ غدا إلى رسول الله (ص) ، فقاتل معه حتى قُتِل ، فقال رسول الله (ص) : «مُخَيْرِيق خيرُ يهود» [ابن سعد (١/٥٠١) ، وأبو نعيم في الدلائل (ص ١٨) ، والطبري في تاريخه (٢/٥٣١) ، والواقدي في المغازي (١/٢٦٣)].
وقد اختلف في إسلامه ، فنقل الذَّهبيُّ في التَّجريد ، وابن حجر في الإصابة عن الواقديِّ[(٣٧٦)]: أنَّ مخيريق مات مسلماً. وذكر السُّهيليُّ في الرَّوض الأُنف: أنَّه مسلمٌ ، وذلك حين قال معقِّباً على رواية ابن إسحاق عن رسول الله (ص) : أنَّه قال: «مُخَيْرِيق خير يهود» قال: ومُخَيْرِيق مسلمٌ ، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النَّصارى ، ولا خير اليهود؛ لأنَّ أفعل من كذا إذا أضيف ، فهو بعض ما أضيف إليه ، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنَّه قال: خير يهود ، ولم يقل خير اليهود ، ويهود اسم علم كثمود ، يقال: إنَّهم نُسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ، ثمَّ عربت الذَّال دالاً[(٣٧٧)] ، وقد حقَّق هذه المسألة الدُّكتور عبد الله الشقاري في كتابه: «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» وذهب إلى أنَّ مُخَيْرِيق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدُّق بماله مع كثرته ، ومع ما عرف عن اليهود من حبِّ المال ، والتَّكالب عليه[(٣٧٨)].
ل ـ إنما الأعمال بالنِّيَّات:
كان ممَّن قاتل مع المسلمين يوم أُحدٍ رجلٌ يدعى قُزْمَان، كان يُعرف بالشَّجاعة ، وكان رسول الله (ص) يقول إذا ذُكر له: «إنَّه لمن أهل النار» ، فتأخَّر يوم أُحدٍ ، فعيَّرته نساء بني ظَفَر ، فأتى رسولَ الله (ص) وهو يسوِّي الصفوف ، حتَّى انتهى إلى الصفِّ الأوَّل ، فكان أوَّل من رمى من المسلمين بسهمٍ ، فجعل يرسل نبلاً كأنَّها الرِّماح ، ويكتُّ كتيت الجمل ، ثمَّ فعل بالسَّيف الأفاعيل ، حتَّى قتل سبعةً ، أو تسعةً ، وأصابته جِرَاحَةٌ ، فوقع ، فناداه قتادة بن النُّعمان: يا أبا الغَيْداق! هنيئاً لك الشَّهادة! وجعل رجالٌ من المسلمين يقولون له: والله! لقد أبليتَ اليوم يا قُزْمَان ، فأبشر! قال: بماذا؟ فوالله ما قَاتلتُ إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلتُ. فذُكِرَ ذلك لرسول الله (ص) فقال: «إنَّه من أهل النَّار ، إنَّ الله تعالى يؤيِّد هذا الدِّين بالرَّجل الفاجر» [البخاري (٤٢٠٣) ، ومسلم (١١١ ، ١١٢)][(٣٧٩)].
وفي هذا الخبر ، بيانٌ لمكان النِّيَّة في الجهاد ، وأنَّه مَنْ قاتل حميَّةً عن قومه ، أو ليقال: شجاعٌ ، ولم تكن أعماله لله تعالى؛ لا يقبل الله منه.

خامساً: من دلائل النُّبوَّة:

١ ـ عين قتادة بن النُّعمان رضي الله عنه:

أُصيبت عينُ قتادة رضي الله عنه حتَّى سقطت على وَجْنَتِهِ ، فردَّها رسولُ الله (ص) بيده، فكانت أحسن عينيه ، وأحَدَّهُمَا. [الحاكم (٣/٢٩٥) ، والطبراني في الكبير (١٩/٨) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٥١ ـ ٢٥٢)، ومجمع الزوائد (٦/١١٣)]. وأصبحت لا ترْمَد إذا رمدت الأخرى[(٣٨٠)]، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ، فسأله: من أنت؟ فقال له مرتجلاً:

أنا ابْنُ الَّذي سَالَتْ عَلَى الخَدِّ عَيْنُهُ فَرُدَّتْ بكَفِّ المِصْطَفى أَحْسَنَ الرَّدِّ

فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لأَوَّلِ أَمْرِهَا فَيَا حُسْنَهَا عَيْناً وَيَا حُسْنَ ما ردِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تِلْكَ المكَارِمُ لا قَعْبَانِ[(٣٨١)] مِنْ لَبَنٍ شيْبا بمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالا

ثمَّ وصله ، فأحسن جائزته[(٣٨٢)].

٢ ـ مقتل أُبيّ بن خلف:

كان أُبَيُّ بن خلف يَلْقَى رسولَ الله (ص) بمكَّة ، فيقول: يا محمد! إنَّ عندي العَوْذ؛ فرساً أعْلِفُه كلَّ يوم فَرَقاً[(٣٨٣)] من ذُرَةٍ ، أقتلك عليه ، فيقول رسول الله (ص) : «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلمَّا كان يوم أُحد ، وأُسند رسولُ الله (ص) في الشِّعْب؛ أدركه أُبَيُّ بن خلف ، وهو يقول: أي محمد! لا نجوتُ إن نجوتَ! فقال القوم: يا رسول الله! أيعطفُ عليه رجلٌ منا؟ فقال رسول الله (ص) : «دَعُوه» ، فلمَّا دنا ، تناول رسولُ الله (ص) الحَرْبَةَ من الحارث بن الصِّمَّة ، فلمَّا أخذها رسولُ الله (ص) منه انتفض بها انتفاضة تطايَرنا عنه تطايرَ الشَّعراء[(٣٨٤)] عن ظهر البعير إذا انتفض بها ، ثمَّ استقبله ، فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ[(٣٨٥)] منها عن فرسه مراراً ، فلمَّا رجع إلى قريش وقد خَدَشَهُ في عنقه خَدشاً غير كبيرٍ ، فاحتقَنَ الدَّم ، قال: قتلني والله محمدٌ! قالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إنْ بك من بأسٍ ، قال: إنَّه قد كان قال لي بمكَّة: أنا أقتلُك ، فو الله! لو بَصَق عليَّ؛ لقتلني ، فمات عدوُّ الله بسَرفٍ[(٣٨٦)] وهم قافلون به إلى مكَّة. [الطبري في تاريخه (٢/٥١٨ ـ ٥١٩) ، والواقدي في

المغازي (١/٢٥١) ، وابن سعد (٢/٤٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢١١ و٢٥٨)][(٣٨٧)].

وفي هذا الخبر مَثَلٌ رفيعٌ على شجاعة رسول الله (ص) ، فقد كان أُبي بن خلف مُدَجَّجاً بالسِّلاح ، ومتدرِّعاً بالحديد الواقي ، ومع ذلك استطاع رسولُ الله (ص) أن يطعنه بالرُّمح من فُرْجَةٍ صغيرة في عنقه

بين الدِّرْع ، والبيضة ، وهذا يدلُّ على قدرة رسول الله (ص) القتاليَّة ، ودقَّته في إصابة الهدف. وفي هذا الخبر معجزةٌ للنَّبيِّ (ص) ، فقد أخبر أُبيّاً بأنه سوف يقتله بمشيئة الله ، وتمَّ ذلك ، وفي الخبر عبرةٌ في إيمان المشركين بصدق النَّبيِّ (ص) ، وأنه إذا قال شيئاً؛ وقع ، فقد كان أُبيُّ بن خلف على يقينٍ بأنَّه سيموت من تلك الطَّعنة ، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام لعنادهم ، وعبادة أهوائهم[(٣٨٨)].

وقد خلَّد حسَّانُ بن ثابت هذه الحادثة في شعره فقال:

لَقَدْ وَرِثَ الضَّلاَلَةَ عَنْ أَبِيْهِ أُبَيٌّ يَوْمَ بَارَزَهُ الرَّسُوْلُ

أَتيْتَ إِلَيْهِ تَحْمِلُ رِمَّ عَظْمٍ وَتُوْعِدُهُ وَأَنْتَ بِهِ جَهُوْلُ[(٣٨٩)]

* * *

المبحث الثالث

أحداث ما بعد المعركة

أولاً: حوار أبي سفيان مع الرَّسول (ص) وأصحابه:

قال البَراءُ رضي الله عنه: وأشرفَ أبو سفيان ، فقال: أفي القوم محمَّدٌ؟ فقال رسولُ الله (ص) : «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابنُ أبي قُحَافَةَ؟ قال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابنُ الخطَّاب؟ فقال: إنَّ هؤلاء القوم قُتلوا ، فلو كانوا أحياءً لأجابوا فلم يملك عمرُ رضي الله عنه نفسَه ، فقال: كذبتَ يا عدوَّ الله! أبقى اللهُ عليك ما يُخزيك. قال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ[(٣٩٠)]! فقال النَّبيُّ (ص) : «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجلُّ». قال أبو سفيان: لنا العُزَّى. ولا عُزَّى لكم. فقال النَّبيُّ (ص) : «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «اللهُ مولانا ، ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يومُ بيوم بدر ، والحرب سِجَالٌ ، وتجدون مُثلةً لم آمُرْ بها ، ولم تَسُؤْني. [البخاري (٤٠٤٣) ، والبيهقي في الدلائل

وفي روايةٍ: قال عمر: لا سواء! قتلانا في الجنَّة ، وقتلاكم في النَّار». [أحمد (٢٦٨/٣)][(٣٩١)] (٤٦٣/١)][(٣٩٢)] ، ومجمع الزوائد (١١٠/٦)].

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله (ص) ، وأبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما دلالةٌ واضحةٌ على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنَّه في علمهم أنَّهم أهل الإسلام ، وبهم قام صَرْحُهُ ، وأركان دولته ، وأعمدة نظامه ، ففي موتهم يعتقد المشركون: أنَّه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السُّكوت عن إجابة أبي سفيان أوَّلاً؛ تصغيراً له ، حتَّى إذا انتشى ، وملأه الكِبْر؛ أخبروه بحقيقة الأمر ، وردُّوا عليه بشجاعةٍ[(٣٩٣)].

وفي هذا يقول ابن القيِّم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بالهته ، وبشركه؛ تعظيماً للتَّوحيد ، وإعلاماً بعزَّة من عَبَدَهُ المسلمون ، وقوَّة جانبه ، وأنَّه لا يُغْلَبُ ،

ونحن حزبُه ، وجندُه ، ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمَّد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي: أنَّه نهاهم عن إجابته ، وقال: «لا تجيبوه»؛ لأنَّ كَلْمَهم لم يكن برد في طلب القوم ، ونارُ غيظهم بعدُ متوقِّدةٌ ، فلمَّا قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كُفيتُموهم؛ حمي عمر بن الخطَّاب ، واشتد غضبه ، وقال: كذبت يا عدوَّ الله! فكان في هذا الإعلام من الإذلال ، والشَّجاعة ، وعدم الجبن ، والتَّعرُّف إلى العدوِّ في تلك الحال ما يؤذنهم بقوَّة القوم ، وبسالتهم ، وأنَّهم لم يهنوا ، ولم يَضْعُفُوا ، وأنَّه ، وقومَه جديرون بعدم الخوف منهم ، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم ، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثَّلاثة وهلةٌ بعد ظنِّه ، وظنِّ قومه: أنَّهم قد أُصيبوا من المصلحة ، وغيظ العدوِّ ، وحزبه ، والفتِّ في عَضُده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً ، واحداً ، فكان سؤاله عنهم ، ونعيُهم لقومه اخر سهام العدوِّ ، وكيده ، فصبر له النَّبيُّ (ص) حتَّى استوفي كيده ، ثمَّ انتدب له عمر ، فردَّ بسهام كيده عليه ، وكان ترك الجواب عليه أحسن ، وذكره ثانياً أحسن ، وأيضاً: فإنَّ في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانةً له ، وتصغيراً لشأنه ، فلمَّا مَنَّتْهُ نفسهُ موتهم ، وظنَّ: أنهم قد قُتلوا ، وحصل له بذلك من الكبر ، والأشر[(٣٩٤)] ما حصل ، كان في جوابه إهانةٌ له ، وتحقيرٌ ، وإذلالٌ ، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النَّبيِّ (ص) : «لا تجيبوه» فإنَّه إنَّما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمَّد؟ أفيكم فلان؟ ولم يَنْهَ عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، وبكلِّ حالٍ ، فلا أحسنَ مِنْ ترك إجابته أولاً ، ولا أحسنَ مِنْ إجابته ثانياً[(٣٩٥)].

ثانياً: تفقد الرَّسول (ص) الشُّهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة ، ذهب الرَّسول (ص) ليتفقَّد أصحابه رضي الله عنهم ، فمرَّ على بعضهم ، ومنهم حمزةُ بن عبد المطَّلب ، ومُصْعَب بن عُمَيرٍ ، وحنظلةُ بن أبي عامرٍ ، وسعد بن الرَّبيع ، والأُصَيْرِمُ ، وبقيَّة الصحابة رضي الله عنهم ، فلمَّا أشرف عليهم رسول الله (ص) قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء ، إنَّه ما من جَرِيح يُجْرَح في الله ، إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمَى جُرْحُهُ؛ اللَّونُ لونُ دمٍ ، والرِّيح ريح المسك ، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقران ، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» [سبق تخريجه].

وقال جابر بن عبد الله في رواية البخاريّ: إنَّ النَّبيَّ (ص) كان يجمع بين الرَّجلين من قَتْلَى أُحدٍ في ثوبٍ واحد ، ثمَّ يقول: «أيُّهم أكثرُ أخذاً للقران؟» فإذا أُشِيرَ له إلى أَحدٍ؛ قدَّمه في اللَّحْدِ ، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة» ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يُصَلِّ عليهم ، ولم
يُغَسَّلُوا. [البخاري (٤٠٧٩) ، وأبو داود (٣١٣٨) ، والترمذي (١٠٣٦) ، والنسائي (٤/٦٢) ، وابن ماجه (١٥١٤)].

وأمر رسولُ الله (ص) أن يدفنوا حيثُ صُرِعوا ، وأُعيد مَنْ أُخذ؛ ليدفن داخل المدينة. [النسائي (٤/٧٩)].

ولما رأى رسولُ الله (ص) حمزةَ بن عبد المطلب وقد مُثِّل به؛ حزن حزناً شديداً ، وبكى حتَّى نشغ[(٣٩٦)] من البُكاء[(٣٩٧)] وقال (ص) : «لولا أن تحزن صفيَّة ، ويكون سنةً من بعدي؛ لتركتُه حتَّى يكون في بطون السِّباع ، وحواصل الطَّير ، ولئن أظهرني الله على قريشٍ في موطن من المواطن؛ لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم» فلمَّا رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله (ص) وغيظه على مَنْ فعل بعمِّه ما فعل ، قالوا: والله! لئن أظفرنا الله عليهم يوماً من الدَّهر ، لنمثلنَّ بهم مُثلَةً لم يُمَثِّلْهَا أحدٌ من العرب. [أحمد (٣/١٢٨) ، وأبو داود (٣١٣٦) ، والترمذي (١٠١٦) ، والحاكم (٣/١٩٦) ، وابن أبي شيبة (١٤/٣٩١ ـ ٣٩٢)][(٣٩٨)] ، فنزل قول الله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ *} [النحل: ١٢٦].

لقد ارتكب المشركون صوراً من الوحشيَّة ، حيث قاموا بالتَّمثيل بقتلى المسلمين ، فبقروا بطون كثيرٍ من القتلى ، وجَدَعُوا أنوفَهم ، وقطعوا الاذان ، ومذاكير بعضهم[(٣٩٩)]؛ ومع ذلك صَبَرَ رسولُ الله (ص) وأصحابه ، واستجابوا لتوجيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ فعفا ، وصبر ، وكَفَّر عن يمينه ، ونهى عن المثْلَةِ. روى ابن إسحاق بسنده عن سَمُرة بن جُنْدب ، قال: ما قام رسولُ الله (ص) في مقامٍ قطُّ ففارقه ، حتَّى يأمرنا بالصَّدقة ، وينهانا عن المثْلَة. [ابن هشام (٣/١٠٢)].

ثالثاً: دعاء الرَّسول (ص) يوم أُحدٍ:

صلّى رسولُ الله (ص) بأصحابه الظُّهر قاعداً لكثرة ما نزف من دمه ، وصلَّى وراءه المسلمون قعوداً ، وتوجَّه النَّبيُّ (ص) بعد الصَّلاة إلى الله بالدُّعاء ، والثَّناء على ما نالهم من الجَهْد ، والبلاء ، فقال لأصحابه: «استووا حتَّى أُثني على ربِّي ـ عزَّ وجلَّ» ، فصاروا خلفه صفوفاً ، ثمَّ دعا بهذه الكلمات الدَّالة على عمق الإيمان[(٤٠٠)] ، فقال (ص) : «اللَّهمَّ! لك الحمدُ كلُّه ، اللَّهُمَّ لا قابضَ لِمَا بَسطتَ ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لما أضلَلْتَ ، ولا مُضِلَّ لمنْ هديت ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، ولا مانع لما أعطيتَ ، ولا مُقَرِّب لما باعدْتَ ، ولا مُبْعِد لما قرَّبْتَ.

اللَّهُمَّ! ابسطْ علينا من بركاتك ، ورحمتك ، وفضلك ، ورزقك. اللَّهُمَّ! إنِّي أسألك النَّعيم المقيم؛ الَّذي لا يَحُول ، ولا يزول. اللَّهُمَّ! إنِّي أسألك النَّعيم يوم الغلبة ، والأمنَ يوم الخوف. اللَّهُمَّ! عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا ، وشرِّ ما منعتنا. اللَّهُمَّ! حَبِّبْ إلينا الإيمان ، وزيِّنه في قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق ، والعصيان ، واجعلنا من الرَّاشدين. اللَّهُمَّ توفَّنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصَّالحين غيرَ خزايا ، ولا نادمين ، ولا مفتونين. اللَّهُمَّ! قاتل الكفرة الَّذين يكذِّبون رُسُلَكَ ، ويصدُّون عن سبيلك ، واجعلْ عليهم رجزكَ ، وعذابك. اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الَّذين أوتوا الكتاب ، إله الخَلْق» [أحمد (٣/٤٢٤) ، والبزار (١٨٠٠) ، والطبراني في المعجم (٤٥٤٩) ، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩) ، ومجمع الزوائد (٦/١٢١ ـ ١٢٢)] ثمَّ ركب فرسه ، ورجع إلى المدينة[(٤٠١)].

وهذا أمرٌ عظيم ، شرعه رسول الله (ص) لأمَّته ، لكي يطلبوا النَّصر ، والتَّوفيق من ربِّ العالمين ، وبيَّن لأمَّته: أنَّ الدُّعاء مطلوبٌ في ساعة النَّصر ، والفتح ، وفي ساعة الهزيمة؛ لأنَّ الدُّعاء مُخُّ العبادة ، كما أنَّه من أقوى الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المطلوب ، ويجعل القلوب متعلِّقة بخالقها ، فينزل عليها السَّكينة ، والثَّبات ، والاطمئنان ، ويمدُّها بقوَّةٍ رُوحيَّةٍ عظيمةٍ ، فترتفع المعنويات نحو المعالي ، وتتطلَّع إلى ما عند الله تعالى.

في أعقاب المعركة ، يتَّخذ النَّبيُّ (ص) أُهْبَتَهُ ، وينظِّم المسلمين صفوفاً ، لكي يُثْنِيَ على ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ إنَّه لموقفٌ عظيمٌ ، يُجَلِّي إيماناً عميقاً ، ويكشف عن العبودية المطلقة لربِّ العالمين الفعَّال لما يريد ، فهو القابض ، والباسط ، والمعطي ، والمانع ، لا رادَّ ، ولا مُعَقِّب لحُكْمِه.

إنَّ هذا الموقف من أعظم مواقف العبوديَّة الَّتي تسمو بالعابدين ، وتجلُّ المعبود كأعظم ما يكون الإجلال ، والإكبار ، وأبرز ما يكون الحَمْدُ والثَّناء[(٤٠٢)].

رابعاً: معرفة وِجْهَةِ العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسولُ الله (ص) عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة ، وذلك لمعرفة اتِّجاه العدوِّ ، فقال له: «اخرج في اثار القوم ، وانظر ماذا يصنعون ، وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيلَ[(٤٠٣)] ، وامتطوا الإبل[(٤٠٤)] [الواقدي في المغازي (٢٩٨/١) ، والطبري في تاريخه (٥٢٧/٢) ، والبيهقي في الدلائل (٢٨٢/٣)]؛ فإنَّهم يريدون مكَّة ، وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة ، والَّذي نفسي بيده! إن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثمَّ لأناجزنَّهم». قال عليٌّ: فخرجت في أثرهم أنظرُ ماذا يصنعون ، فجَنَّبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجَّهوا إلى مكَّة[(٤٠٥)] ، فرجع عليٌّ رضي الله عنه ، وأخبر رسول الله (ص) بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدَّة دروسٍ ، وعبرٍ؛ منها: يقظة الرَّسول (ص) ، ومراقبتُه الدَّقيقة لتحرُّكات العدوِّ ، وقدرته (ص) على تقدير الأمور ، وظهور قوَّته المعنويَّة العالية؛ ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة ، وفيه ثقة النَّبيِّ (ص) بعليٍّ رضي الله عنه ، ومعرفته بمعادن الرِّجال ، وفيه شجاعة عليٍّ رضي الله عنه؛ لأنَّ هذا الجيش لو أبصره ما تورَّع عن محاولة قتله[(٤٠٦)].

ونلحظ: أنَّ النَّبيَّ (ص) أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت؛ تفقَّد خلالها الجرحى، والشُّهداء ، وأمر بدفنهم ، ودعا ربَّه ، وأثنى عليه سبحانه ، وأرسل عليّاً ليتتبَّع خبر القوم؛ كلُّ ذلك من أجل أن يحافظ على النَّصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أُحُدٍ ، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك ، فقد جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنَّصر أسباباً ، وللهزيمة أسباباً ، فمن أخذ بأسباب النَّصر ، وصدق التَّوكُّل على الله . سبحانه وتعالى . حقيقة التوكُّل؛ نال النَّصر بإذن الله . عزَّ وجل . ، كما قال تعالى: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً *} [الفتح: ٢٣].

ويتجلَّى فقه النَّبيِّ (ص) في ممارسة سنَّة الأخذ بالأسباب ، في غزوة حمراء الأسد.

خامساً: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الرِّوايات: أنَّ النَّبيَّ (ص) تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه، حتَّى بعد رجوعهم إلى مكَّة ، وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمَّد ، وجنده ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون من أُحدٍ ، وبلغوا الرَّوْحاء[(٤٠٧)] ، قال أبو سفيان: لا محمَّداً قتلتُم ، ولا الكواعب أردفتُم ، شرٌّ ما صنعتم! فبلغ ذلك رسول الله (ص) [الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٣٢) ، ومجمع الزوائد (١٢١/٦)]. وتفيد هذه الرِّواية خبر استطلاع الرَّسول (ص) أعداءه حتَّى بعد انتهاء المعركة؛ وذلك لكي يطمئنَّ على عدم مباغتتهم له.

وعندما سمع ما كانت تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة ، خرج بمن حضره يوم أُحُدٍ من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: كان يوم أُحُد يوم السَّبت للنِّصف مِنْ شوَّال ، فلمَّا كان الغدُ من يوم الأحد لستَّ عشرة ليلةً مضت من شوَّال؛ أذَّن مؤذنُ رسولِ الله (ص) في النَّاس بطلب العدوِّ ، وأذَّن مؤذِّنه ألاَّ يخرجنَّ معنا أحَدٌ إلا مَنْ حضر يومنا بالأمس ، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه ، فأذن له ، وإنَّما خرج مُرْهِباً للعدوِّ ، وليظنُّوا أنَّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوِّهم. [ابن هشام (٣/١٠٧) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٣١٤)][(٤٠٨)]. وقد استجاب أصحاب النَّبيِّ (ص) لنداء الجهاد ، حتَّى الَّذين أُصيبوا بالجروح؛ فهذا رجلٌ من بني عبد الأشهل يقول: شهدت أُحُداً أنا ، وأخٌ لي ، فرجعنا جريحَين ، فلما أذَّن مؤذِّن رسول الله (ص) بالخروج في طلب العدوِّ؛ قلت لأخي . أو قال لي .: أتفوتُنا غزوةٌ مع رسول الله (ص) ؟ والله ما لنا من دابةٍ نَرْكَبُها ، وما منا إلا جريحٌ ثقيلٌ ، فخرجنا مع رسول الله (ص) ، وكنت أيسرَ جُرْحاً منه ، فكان إذا غُلب؛ حملته عُقبةً ومشى عُقبةً (فترةً) ، حتَّى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[(٤٠٩)].

وسار رسول الله (ص) إلى حمراء الأسد ، واقترب بجنوده من جيش المشركين ، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدَّى المشركين ، فلم يتشجَّعوا على لقائه ، ونزاله ، وكان رسول الله (ص) قد أمرَ بإشعال النِّيران، فكانوا يشعلون في وقتٍ واحد خمسمئة نار[(٤١٠)].

وأقبل مَعبدُ بن أبي معبد الخزاعيُّ إلى رسول الله (ص) فأسلم ، فأمره أن يلحق بأبي سفيان ، فيخذِّله ، فلحقه بالرَّوحاء . ولم يعلم بإسلامه . فقال: ما وراءك يا معبد؟! فقال: محمَّدٌ وأصحابه ، فقد تحرَّقوا[(٤١١)] عليكم ، وخرجوا في جمعٍ لم يخرجوا في مثله ، وقد ندم من كان تخلَّف عنهم من أصحابهم. فقال: ما تقول؟! فقال: ما أرى أن ترتحل حتَّى يطلع أوَّل الجيش من وراء هذه الأكمة[(٤١٢)] ، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصلهم. قال معبد: فإنِّي أنهاك عن ذلك ، ووالله! لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيه أبياتاً من شعرٍ:

قال: وما قلتَ؟ قال: قلتُ:

كَادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتِ الأَرْضُ بالجُرْدِ[(٤١٣)] الأَبابِيْلِ

تَرْدِي[(٤١٤)] بأُسْدٍ كِرَامٍ لاَ تَنَابِلَةٍ[(٤١٥)] عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلاَ مِيْلٍ[(٤١٦)] مَعَازِيلِ[(٤١٧)]

فَظَلْتُ أَعْدُو أَظُنُّ الأَرْضَ مَائِلَةً لما سَمَوْا بِرَئِيْسٍ غَيْرِ مَخْذُوْلِ

فَقُلْتُ: وَيْلَ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمُ إِذَا تَغَطْمَطَتِ[(٤١٨)] البَطْحَاءُ بِالجِيْلِ
إِنِّي نَذِيْرٌ لأَهْلِ البَسْلِ ضَاحِيَةً لِكُلِّ ذِيْ إِرْبَةٍ مِنْهُمْ وَمَعْقُوْلِ
مِنْ جَيْشِ أَحْمَدَ لاَ وَخْشٍ[(٤١٩)] تَنَابِلَةٌ وَلَيْسَ يُوصَفُ مَا أَنْذَرْتُ بِالقِيْلِ[(٤٢٠)]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ، وحاول أبو سفيان أن يغطِّي انسحابه هذا بشنِّ حربٍ نفسيَّة على المسلمين ، لعلَّه يُرهبهم ، فأرسل مع رَكْبِ عبد القيس . وكانوا يريدون المدينة للْمِيْرَةِ[(٤٢١)] . [البيهقي في الدلائل (٣/٣١٥ . ٣١٧) ، وابن هشام (٣/١٠٨ . ١١٠)] رسالةً إلى رسول الله (ص) ، مفادها: أنَّ أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السَّير إليه ، وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود ، وواعد أبو سفيان الرَّكبَ أن يعطيهم زبيباً عندما يأتونه في سوق عُكَاظ ، ومرَّ الرَّكبُ برسول الله (ص) وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالَّذي قاله أبو سفيان ، فقال هو والمسلمون: حسبنا اللهُ ، ونِعْمَ الوكيلُ[(٤٢٢)].

واستمرَّ المسلمون في معسكرهم ، واثرت قريش السَّلامة ، والأوبةَ[(٤٢٣)] ، فرجعوا إلى مكَّة ، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروحٍ قويَّةٍ متوثِّبةٍ ، غسلت عَارَ الهزيمة ، ومسحت مغبَّةَ[(٤٢٤)] الفشل ، فدخلوها أعزةً رفيعي الجانب ، عبثوا بانتصار المشركين ، وهزُّوا أعصابهم ، وأحبطوا شماتة المنافقين ، واليهود في المدينة ، وأشار القران الكريم إلى هذه الحرب الباردة ، وسجَّل ظواهرها[(٤٢٥)] بقوله تعالى[(٤٢٦)]: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ *إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٧٢ . ١٧٥] ووقع في أسر النَّبيِّ (ص) قبل رجوعه إلى المدينة ، أبو عزَّة الجُمَحِيُّ الشَّاعر ، فقُتِل صبراً؛ لأنَّه أخلف وعده للرَّسول (ص) بألاَّ يقاتل ضدَّه عندما منَّ عليه ببدرٍ ، وأطلقه ، فعاد فقاتل في أُحدٍ ، وقد حاول أبو عزَّة أن يتخلَّص من القتل ، وقال: يا رسول الله! أقِلْني[(٤٢٧)] ، فقال رسول الله (ص) : «لا والله! لا تمسح عارضيك[(٤٢٨)] بمكَّة بعدها ، وتقول: خدعتُ محمَّداً مرَّتين ، اضرب عنقه يا زُبيرُ!» [ابن سعد (٢/٤٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى[(٤٢٩)] (٩/٦٥) ، وفي دلائل النبوة (٣/٢٨٠ . ٢٨١)]. فضرب عُنقَه ، فقال النَّبيُّ (ص) حينئذٍ: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرَّتين» [البخاري (٦١٣٣) ، ومسلم (٢٩٩٨)][(٤٣٠)] ، فصار هذا الحديث مثلاً ، ولم يسمع قبل ذلك.

ويعد هذا العمل من قبيل السِّياسة الشَّرعية؛ لأنَّ هذا الشَّاعر من المفسدين في الأرض ، الدَّاعين إلى الفتنة ، ولأنَّ في المنِّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين.

ولم يُؤْسَرْ من المشركين سوى أبي عزَّةَ الجُمَحيِّ[(٤٣١)].

وأمَّا عدد القتلى من المسلمين في أُحدٍ؛ فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين ، ويؤيِّد هذا تفسير قوله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [آل عمران: ١٦٥] أنَّها نزلت تسليةً للمؤمنين عمَّن أُصيب منهم يوم أُحدٍ.

قال ابن عطيَّة ـ رحمه الله ـ: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً ، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدرٍ سبعين ، وأسروا سبعين[(٤٣٢)].

أمَّا عدد الَّذين قُتلوا يوم أُحدٍ من المشركين ، فكان اثنين وعشرين قتيلاً[(٤٣٣)].

كان خروج رسول الله (ص) لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد ، يهدف إلى تحقيق مجموعة من المقاصد المهمَّة؛ منها:

١ ـ ألاَّ يكون اخر ما تنطوي عليه نفوس الَّذين خرجوا يوم أُحدٍ هو الشُّعور بالهزيمة.

٢ ـ إعلامهم: أنَّ لهم الكرَّة على أعدائهم متى نفضوا عنهم الضَّعف ، والفشل ، واستجابوا لدعوة الله ، ورسوله (ص) .

٣ ـ تجرئة الصَّحابة على قتال أعدائهم.

٤ ـ إعلامُهم: أنَّ ما أصابهم في ذلك اليوم ، إنَّما هو منحةٌ ، وابتلاءٌ اقتضتها إرادة الله ، وحكمتُه ، وأنَّهم أقوياء ، وأنَّ خصومهم الغالبين في الظَّاهر ضعفاء[(٤٣٤)].

كما أنَّ في خروج النَّبيِّ (ص) إلى حمراء الأسد إشارةً نبويَّةً إلى أهمِّيَّة استعمال الحرب النَّفسيَّة للتأثير على معنويات الخصوم؛ حيث خرج (ص) بجنوده إلى حمراء الأسد ، ومكث فيها ثلاثة أيَّامٍ ، وأمر بإيقاد النِّيران ، فكانت تُشاهدُ من مكانٍ بعيدٍ ، وملأت الأرجاء بأنوارها ، حتَّى خُيِّل لقريش: أنَّ جيش المسلمين ذو عددٍ كبير لا طاقة لهم به ، فانصرفوا؛ وقد ملأ الرُّعب أفئدتهم[(٤٣٥)].

قال ابن سعد: «ومضى رسولُ الله (ص) بأصحابه حتَّى عسكروا بحمراء الأسد ، وكان المسلمون يوقِدون تلك اللَّيالي خمسمئة نارٍ حتَّى تُرى من المكان البعيد ، وذهب صوت معسكرهم ، نيرانهم في كلِّ وجهٍ؛ فكبَتَ اللهُ تعالى بذلك عدوَّهم»[(٤٣٦)].

سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أُحدٍ:

كانت غزوة أحدٍ أوَّل معركة في الإسلام تشارك فيها نساءُ المسلمين ، وقد ظهرت بطولاتُ النِّساء ، وصدق إيمانهنَّ في هذه المعركة ، فقد خرجن لكي يسقين العطشى ، ويداوين الجرحى ، ومنهنَّ مَنْ قامت بردِّ ضربات المشركين الموَجَّهة للرَّسول (ص) ، وممَّن شاركن في غزوة أحدٍ: أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق، وأمُّ عمارة ، وحَمْنَة بنت جَحْشٍ الأسديَّة ، وأمُّ سَلِيط ، وأمُّ سُلَيْم ، ونسوةٌ من الأنصار. [مسلم (١٨٠٩ و١٨١٠ و١٨١١)].

قال ثعلبة بن أبي مالكٍ رضي الله عنه: إنَّ عمر بن الخطاب قَسَمَ مُرُوطاً بين نساءٍ من نساء أهل المدينة، فبقي منها مِرطٌ جيِّدٌ، فقال له بعض مَنْ عنده: يا أمير المؤمنين! أعطِ هذا بنت رسول الله الَّتي عندك . يريدون أمَّ كلثوم بنتَ عليٍّ . فقال عمر رضي الله عنه: أم سَليط أحقُّ به. وأمُّ سليط من
نساء الأنصار مِمَّن بايع رسولَ الله (ص) . قال عمر: فإنها كانت تُزْفِرُ[(٤٣٧)] لنا القِرَبَ يوم أُحدٍ. [البخاري (٢٨٨١ ، ٤٠٧١)].

أ . سقي العطشى من المجاهدين:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لما كان يوم أُحدٍ ، انهزمَ النَّاسُ عن النَّبيِّ (ص) ، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكرٍ ، وأمَّ سُلَيم ، وإنَّهما لمشمِّرتان ، أرى خَدَمَ سُوقِهِنَّ تَنْقُزَانِ[(٤٣٨)] القِرَبَ . وقال غيره: تنقلان القربَ . على متونهما ، ثمَّ تُفْرِغَانِهِ في أفواه القوم ، ثمَّ ترجعان ، فتملانها ، ثمَّ تجيئان ، فتُفرغَانه في أفواه القوم» [البخاري (٢٨٨٠)].

وقال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه: «رأيتُ أمَّ سُلَيم بنت ملحان ، وعائشة ، على ظهورهما القِرَبُ ، يحملانها يوم أُحدٍ ، وكانت حَمْنَةُ بنت جحشٍ تسقي العطشى ، وتداوي الجرحى ، وكانت أمُّ أيمن تسقي الجرحى».

ب . مداواة الجرحى ، ومواساة المصابين:

عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله (ص) يغزو بأمِّ سُلَيم ، ونسوةٍ من الأنصار معه؛ إذا غزا ، فيسقين الماءَ ، ويداوين الجرحى. [مسلم (١٨١٠)].

وأخرج عبد الرَّزاق عن الزُّهريِّ: كان النِّساء يشهدن مع النَّبيِّ (ص) المشاهد ، ويسقين المقاتلة ، ويداوين الجرحى[(٤٣٩)]. وعن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذٍ ، قالت: كنَّا مع النَّبيِّ (ص) نسقي القوم، ونداوي الجرحى، ونردُّ القتلى إلى المدينة. [البخاري (٢٨٨٢)]. وفي روايةٍ: كنَّا نغزو مع النَّبيِّ (ص) ، فنسقي القوم ، ونخدمُهم ، ونردُّ الجرحى ، والقتلى إلى المدينة. [البخاري (٢٨٨٣)].

وعن أبي حازمٍ: أنَّه سمع سهل بن سعدٍ رضي الله عنه وهو يسأل عن جرح رسول الله (ص) ، فقال: أما والله! إنِّي لأعرفُ مَنْ كان يغسلُ جُرحَ رسول الله (ص) ، ومن كان يسكب الماء ، وبما دُووِيَ. قال: كانت فاطمةُ رضي الله عنها بنتُ رسول الله (ص) تغسلُه ، وعليٌّ يسكب الماء بالمِجنّ ، فلمَّا رأت فاطمة: أنَّ الماء لا يزيدُ الدَّم إلا كثرةً؛ أخذت قطعةً من حصيرٍ ، فأحرقتها ، وألصقتها ، فاستمسك الدَّم. [البخاري (٤٠٧٥) ، ومسلم (١٧٩٠)].

ج ـ الدِّفاع عن الإسلام ورسوله (ص) بالسَّيف:

لم تقاتل المشركين يوم أُحدٍ إلا أمُّ عُمارة نُسَيبة المازنيَّة رضي الله عنها ، وهذا ضَمْرَةُ بن

سعيدٍ يحدث عن جدَّته ، وكانت قد شهدت أُحداً تسقي الماء ، قالت: سمعت النَّبيَّ (ص) يقول: لَمُقَامُ نُسَيْبة بنتِ كعبٍ اليوم خيرٌ من مُقام فلانٍ ، وفلان ، وكان يراها تُقاتل يومئذٍ أشدَّ القتال ، وإنَّها لحاجزةٌ ثوبها على وسطها ، حتَّى جُرِحَتْ ثلاثة عشرَ جرحاً ، فلمَّا حضرتها الوفاة كنت فيمن غسَّلها ، فعددت جراحها جُرْحاً جُرْحاً ، فوجدتها ثلاثة عشر جرحاً. وكانت تقول: إنِّي لأنظرُ إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ـ وكان أعظم جراحها ، لقد داوته سنةً ـ ثم نَادَى منادي النَّبيِّ (ص) : إلى حمراء الأسد! فشدَّت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدَّم ، ولقد مكثنا ليلنا نكمِّد الجراح حتَّى أصبحنا ، فلمَّا رجع رسول الله (ص) من الحمراء ، ما وصل إلى بيته حتَّى أرسل إليها عبدَ الله بن كعبٍ المازني[(٤٤٠)] ـ أخا أمِّ عُمارة ـ يسأل عنها ، فرجع إليه يخبره بسلامتها ، فسرَّ النَّبيُّ (ص) بذلك[(٤٤١)].

وقد علَّق الأستاذ حسين الباكريُّ على مشاركة نُسَيبة بنت كعب في القتال ، فقال: «وخروج المرأة للقتال مع الرِّجال لم يثبت في ذلك منه شيءٌ غيرُ قصَّة نُسَيبة؛ وقتال نسيبة إنَّما كان اضطراريّاً؛ حين رأت: أنَّ رسول الله (ص) أصبح في خطرٍ حين انكشف عنه النَّاس ، فأمُّ عُمارة إذاً كانت في موقفٍ أصبح حَمْلُ السِّلاح فيه واجباً على مَنْ يقدر على حمله؛ رجلاً كان ، أو امرأةً»[(٤٤٢)].

وعلَّق الدُّكتور أكرم ضياء العمري على الاثار الدَّالة على مشاركة النِّساء في أحدٍ بقوله: «وهذه الاثار تدلُّ على جواز الانتفاع بالنِّساء عند الضَّرورة ، لمداوة الجرحى ، وخدمتهم؛ إذا أُمِنَتْ فتنتهُنَّ مع لزومهنَّ السِّتر ، والصِّيانة ، ولهنَّ أن يُدافعْنَ عن أنفسهن بالقتال؛ إذا تعرَّض لهنَّ الأعداء ، مع أنَّ الجهاد فرضٌ على الرِّجال وحدهم ، إلا إذا داهم العدوُّ ديار المسلمين ، فيجب قتاله من الجميع رجالاً ، ونساء»[(٤٤٣)].

وأمَّا الأستاذ محمَّد أحمد باشميل؛ فقد قال: «وقد كانت معركة أُحدٍ أوَّل معركةٍ في الإسلام قاتلت فيها المرأة المسلمة المشركين ، ومن الثَّابت: أنَّ امرأةً واحدةً فقط اشتركت في هذه المعركة ، وهي تدافع عن رسول الله (ص) ، كما أنَّه من الثَّابت أيضاً: أنَّ المرأة الَّتي اشتركت في معركة أحدٍ لم تخرج بقصد القتال ، فهي لم تكن مجنَّدةً فيها كالرِّجال؛ وإنَّما خرجت لتنظر ما يصنع النَّاس لتقوم بأيَّة مساعدةٍ يمكنها القيام بها للمسلمين؛ كإغاثة الجرحى بالماء ، وما شابه ذلك ، يضاف إلى هذا أنَّ هذه المرأة الَّتي خاضت معركة أُحدٍ ، هي امرأةٌ قد تخطَّت سِنَّ الشَّباب ، كما أنَّها لم تخرج إلى المعركة إلاَّ مع زوجها ، وابنيها ، الَّذين كانوا من الجند

الَّذين قاتلوا في المعركة ، يضاف إلى هذا الرَّصيد الهائل؛ الَّذي لديها من المناعة الخُلقيَّة والتَّربية الدِّينيَّة ، فلا يقاس على هذه الصَّحابية الجليلة ، مجنَّدات هذا الزَّمان ، الَّلائي يرتدين لباس الميدان ، وعنصر الإغراء ، والفتنة هو أهمُّ عنصرٍ يتميَّزن به ، ويحرصن على إظهاره للرِّجال؛ فأين الثَّرَى مِنَ الثُّرَيَّا؟!

كذلك رجال ذلك العصر لا يقاس عليهم أحدٌ من رجال هذا الزَّمان ، من ناحية الشَّهامة ، والاستقامة ، والعفَّة والرُّجولة ، فكلُّ المحاربين الَّذين اشتركت معهم المرأة في معركة أُحدٍ ، كانوا صفوة الأمَّة الإسلاميَّة ، ورمز نبلها ، وشهامتها ، وعنوان رجولتها ، واستقامتها ، فلا يصحُّ مطلقاً جعل اشتراك تلك المرأة في معركة أُحدٍ قاعدةً تقاس عليها (من النَّاحية الشَّرعيَّة) إباحة تجنيد المرأة في هذا العصر ، لتقاتل بجانب الرَّجل (كعنصر أساسٍ من عناصر الجيش) فالقياس في هذه الحالة قياسٌ مع الفارق ، وهو قياسٌ باطلٌ قطعاً»[(٤٤٤)].

سابعاً: دروس في الصَّبر تقدِّمها صحابيَّاتٌ للأمَّة:

أ ـ صفية بنت عبد المطَّلب رضي الله عنها:

لما استُشهد أخوها حمزةُ بن عبد المطَّلب رضي الله عنه في أُحدٍ ، وجاءت لتنظر إليه؛ وقد مَثَّلَ به المشركون ، فجدعوا أنفه ، وبقروا بطنه ، وقطعوا أذنيه ، ومذاكيره ، فقال رسول الله (ص) لابنها الزُّبير بن العوَّام: «الْقَها ، فأَرْجعها؛ لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أُمَّه! إنَّ رسول الله (ص) يأمرك أن ترجعي ، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني: أنَّه قد مُثِّلَ بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبنَّ ، ولأصبرنَّ إن شاء الله.

فلمَّا جاء الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه إلى رسول الله (ص) فأخبره بذلك ، قال: «خَلِّ سبيلها» فأتته ، فنظرت إليه ، فصلَّت عليه ، واسترجعت[(٤٤٥)] ، واستغفرت له. [سبق تخريجه][(٤٤٦)].

ب ـ حَمْنَةُ بنت جحش رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله (ص) من دفن أصحابه رضي الله عنهم ، ركب فرسه ، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة ، فلقيته حَمْنَةُ بنت جحشٍ ، فقال لها رسول الله (ص) : يا حمنةُ! احتسبي! قالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: أخاك عبدَ الله بن جحشٍ ، فاسترجعت ، واستغفرت له ، ثمَّ قال لها رسولُ الله (ص) : احتسبي! فقالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: خالك حمزة بن عبد المطَّلب ، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئاً له الشهادة. ثمَّ قال لها: احتسبي ! قالت: مَنْ يا رسول الله؟ قال: زوجُك مصعب بن عُمَيْرٍ ، قالت: واحزناه !

وصاحت ، وولْوَلَتْ. فقال رسول الله (ص) : «إنَّ زوج المرأة منها لبمكانٍ»؛ لما رأى من تَثَبُّتِها عند أخيها ، وخالها ، وصياحها على زوجها. [ابن ماجه (١٥٩٠)، والطبري في تاريخه (٥٣٢/٢)، والبيهقي في الدلائل (٣٠١/٣)، وابن هشام (١٠٤/٣)]. ثمَّ قال لها: ولِمَ قلتِ هذا؟ قالت: يا رسول الله! ذكرت يُتْمَ بنيه ، فراعني ، فدعا لها رسول الله (ص) ، ولوَلدِها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخَلَفِ[(٤٤٧)] ، فتزوَّجت طلحةَ بن عبيد الله ، فولدت منه محمَّداً ، وعمران[(٤٤٨)] ، وكان محمَّد بن طلحة أوصل النَّاس لولدها[(٤٤٩)].

ج ـ المرأة الدِّينارية رضي الله عنها:

قال سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه: مرَّ رسول الله (ص) بامرأةٍ من بني دينار ، وقد أُصيب زوجُها ، وأخوها ، وأبوها مع رسول الله (ص) بأُحدٍ ، فلمَّا نُعُوا لها؛ قالت: فما فعل رسولُ الله (ص) ؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلان! هو بحمد الله كما تحبِّين ، قالت: أَرُونيه حتَّى أنظرَ إليه ، فأُشير لها إليه ، حتَّى إذا رأته؛ قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدَك جَلَلٌ[(٤٥٠)]. [الواقدي في المغازي (٢٩٢/١) ، والطبري في تاريخه (٥٣٣/٢) ، والبيهقي في الدلائل (٣٠٢/٢) ، وابن هشام (١٠٥/٣)]. تريد: صغيرةٌ .. وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين!

د ـ أمُّ سعد بن مُعاذٍ ، وهي كبشةُ بنت عبيد الخزرجيَّة رضي الله عنها:

خرجت أمُّ سعد بن معاذ تعدو نحو رسولِ الله (ص) ، ورسولُ الله (ص) واقفٌ على فرسه ، وسعد بن معاذ اخذٌ بعنَانِ[(٤٥١)] فرسه ، فقال سعد: يا رسول الله! أمِّي! فقال رسول الله (ص) : مرحباً بها ، فدنت حتَّى تأمَّلت رسولَ الله ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً؛ فقد أشوت[(٤٥٢)] المصيبة ، فعزَّاها رسول الله (ص) بعمرو بن معاذٍ ابنها ، ثمَّ قال: يا أمَّ سعد! أبشري ، وبشِّري أهليهم: أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في

الجنَّة جميعاً ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ وقد شُفِّعوا في أهليهم. قالت: رضينا يا رسول الله! ومن يبكي عليهم بعد هذا؟! ثمَّ قالت: ادعُ يا رسولَ الله! لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله (ص) : « اللّهُمَّ أذهب حُزن قلوبهم ، واجْبُرْ مصيبتهم ، وأحسن الخَلَفَ على من خُلِّفُوا». [مغازي الواقدي (١/٣١٥ ـ ٣١٦)].

* * *

المبحث الرَّابع

بعض الدُّروس ، والعبر ، والفوائد

لقد وصف القران الكريم غزوة أُحدٍ وصفاً دقيقاً ، وكان التَّصويرُ القرانيُّ للغزوة أقوى حيويَّة ، ووضوحاً من الرِّوايات الَّتي جاءت في الغزوة ، كما أنَّ أسلوب الايات المطمئنة ، المبشِّرة ، واللاَّئمة ، والمسكِّنة ، والواعظة كان رائعاً ، وقويّاً ، فبيَّن القران الكريم نفوس جيش النَّبيِّ (ص) ، وهذا تَميُّزٌ لحديث القران عن الغزوة ، ينفرد به عمَّا جاء في كتب السِّيرة ، فسلَّط القران الكريم الأضواء على خفايا القلوب؛ الَّتي ما كان المسلمون أنفسُهم يعرفون وجودها في قلوبهم ، والنَّاظر عموماً في منهج القران في التَّعقيب على غزوة أُحدٍ يجد الدِّقَّة ، والعمق ، والشُّمول. يقول سيِّد قطب: «الدِّقَّة في تناول كلِّ موقفٍ ، وكلِّ حركةٍ ، وكلِّ خالجةٍ ، والعمق في التَّدسُّس إلى أغوار النَّفس ، ومشاعرها الدَّفينة ، والشُّمول لجوانب النَّفس ، وجوانب الحادث.

كما نجد الحيويَّة في التَّصوير ، والإيقاع ، والإيحاء ، بحيث تتماوجُ المشاعر مع التَّعبير ، والتَّصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً ، ولا تملك أن تقف جامدةً أمام الوصف والتَّعقيب؛ فهو وصفٌ حيٌّ ، يستحضر المشاهِدَ كما لو كانت تتحرَّك ، ويشيع حولها النَّشاط المؤثِّر ، والإشعاع النَّافذ ، والإيحاء المثِيْر»[(٤٥٣)].

إنَّ حركة النَّبيِّ (ص) في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة ، والتَّمكين لدين الله ، يعتبر انعكاساً في دنيا الحياة لمفاهيم القران الكريم، الَّتي سيطرت على مشاعره، وأفكاره، وأحاسيسه (ص) ، ولذلك نجد أنَّ النَّبيَّ (ص) في علاجه لأثر الهزيمة في أُحدٍ تابعٌ للمنهج القرانيِّ الكريم ، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النُّقاط المهمَّة في هذا المنهج:

أولاً: تذكير المؤمنين بالسُّنن ودعوتهم للعلوِّ الإيماني:

قال تعالى: {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ *وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٩].

إنَّ المتأمِّل في هذه الايات الكريمة يجد: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يترك المسلمين لوساوس الشَّيطان في محنة غزوة أحدٍ ، بل خاطبهم بهذه الايات؛ الَّتي بعث بها الأمل في قلوبهم ، وأرشدهم إلى ما يقوِّيهم ، ويثبِّتهم ، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ، ويخفِّف عنهم الامهم[(٤٥٤)].

قال القرطبيُّ: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين[(٤٥٥)].

ففي الايات السَّابقة دعوةٌ للتأمُّل في مصير الأمم السَّابقة؛ الَّتي كذَّبت دعوة الله تعالى ، وكيف جرت فيهم سنَّته على حسب عادته ، وهي الإهلاك ، والدَّمار؛ بسبب كفرهم ، وظلمهم ، وفسوقهم عن أمره. وجاء التَّعبير بلفظ: «كيف» الدَّال على الاستفهام ، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذِّبين؛ الَّتي تدعو إلى التعجُّب ، وتثير الاستغراب ، وتغرس الاعتبار والاتِّعاظ في قلوب المؤمنين؛ لأنَّ هؤلاء المكذِّبين مكَّن الله لهم في الأرض ، ومنحهم الكثير من نعمه ، ولكنَّهم لم يشكروه عليها ، فأهلكهم بسبب طُغيانهم[(٤٥٦)].

وفي قوله تعالى: دعاهم إلى ترك {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} ، ومحاربة الجبن ، والتَّخلُّص من الوهن ، وعدم الحزن ، لأنَّهم هم الأعْلَوْن بسبب إيمانهم.

ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أُحدٍ:

قال تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *} [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٣].

بيَّن لهم: أنَّ الجروح ، والقتلى يجب ألاَّ تؤثِّر في جدِّهم ، واجتهادهم في جهاد العدوِّ؛ وذلك لأنَّه كما أصابهم ذلك؛ فقد أصاب عدوَّهم مِثْلُه من قبل ذلك ، فإذا كانوا مع باطلهم ،

وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب ، فبِأنْ لا يلحقُكم الفتورُ مع حسن العاقبة ، والتمسُّك بالحقِّ أولى[(٤٥٧)].

وقال صاحب الكشَّاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أُحدٍ؛ فقد نِلتُم منهم قبله يوم بدرٍ ، ثمَّ لم يُضْعِفْ ذلك قلوبَهم ، ولم يثبِّطْهم عن معاودتكم بالقتال ، فأنتم أولى ألاَّ تضعفوا[(٤٥٨)].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: إنَّه كان يوم أُحد بيوم بدرٍ ، قُتل المؤمنون يوم أُحدٍ ، واتَّخذ اللهُ منهم شهداءَ ، وغلب رسولُ الله (ص) يوم بدرٍ المشركين ، فجعل الدَّولة عليهم[(٤٥٩)].

وجواب الشَّرط في قوله تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ...} إلخ محذوفٌ ، والتَّقدير: إن يمسكم قرح؛ فاصبروا عليه ، واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم ، فقد مسَّهم قرحٌ مثلُه قبل ذلك.

وعبَّر عمَّا أصاب المسلمين في أُحدٍ بصيغة المضارع «يمسسكم» لقربه من زمن الحال، وعمَّا أصاب المشركين بصيغة الماضي لبُعْدِهِ؛ لأنَّ ما أصابهم كان في غزوة بدرٍ.

وقوله: {وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} بيانٌ لسنَّة الله الجارية في كونه ، وتسليةٌ للمؤمنين عمَّا أصابهم في أُحدٍ[(٤٦٠)].

وقوله: {وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}: قال القرطبيُّ: معناه: وإنَّما كانت هذه المداولة؛ ليَرى المؤمن مِنَ المنافق ، فيميزَ بعضَهم من بعضٍ[(٤٦١)].

وقوله: {وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ}: قال ابن كثير: يعني: يُقْتَلُون في سبيله ، ويَبْذلون مُهَجَهُمْ في مرضاته[(٤٦٢)].

ثمَّ ختم سبحانه الاية الكريمة بقوله: {وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *}

ثمَّ ذكر ـ سبحانه ـ حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين في غزوة أحدٍ ، فقال: {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *} ، وقوله: من {وَلِيُمَحِّصَ} ، بمعنى التَّنقية والتَّخليص ، أو من التَّمحيص ، بمعنى الابتلاء ، والاختبار.

وقوله: من {وَيَمْحَقَ} ، وهو محو الشَّيء ، والذَّهاب به. قال الطَّبريُّ: والمعنى:

وليختبر الله الَّذين صدقوا الله ، ورسوله ، فيبتليهم بإزالة المشركين منهم ، حتَّى يتبيَّن المؤمن منهم المخلص الصَّحيح الإيمان من المنافق[(٤٦٣)].

وقال ابن كثير: قوله: أي: يكفِّر عنهم من ذنوبهم {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} إن كانت لهم ذنوب ـ ، وإلاَّ رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أُصيبوا به.

وقوله: أي: فإنَّهم إذا ظفروا؛ {وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *} ، وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم ، وهلاكهم ، ومحقهم ، وفنائهم[(٤٦٤)] ، والمعنى: ولقد فعل ـ سبحانه ـ ما فعل في غزوة أحدٍ ، لكي يطهِّر المؤمنين

، ويصفِّيهم من الذُّنوب ، ويخلِّصهم من المنافقين المندسِّين بينهم ، ولكي يُهلك الكافرين ، ويمحقهم؛ بسبب بغيهم ، وبطرهم.

وقد ذكر الله تعالى أربع حكمٍ لما حدث للمؤمنين في غزوة أُحدٍ ، وهي: تحقُّق علم الله تعالى ، وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم بالشَّهادة الَّتي توصل صاحبها إلى أعلى الدَّرجات ، وتطهير المؤمنين ، وتخليصهم من ذنوبهم ، ومن المنافقين ، ومحق الكافرين ، واستئصالهم رويداً ، رويداً[(٤٦٥)].

ثمَّ قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٢] والمعنى: أحسبتم يا من انهزم يوم أحد! أن تدخلوا الجنَّة كما دخل الَّذين قُتلوا ، وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم، وتصبروا صبرهم؟! لا؛ حتَّى { يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ} أي: علم شهادةٍ؛ حتَّى يقع عليه الجزاء { وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ *} [(٤٦٦)]

وقال ابن كثيرٍ: أي: لا يحصل لكم دخول الجنَّة؛ حتَّى تُبْتَلوا ، ويرى اللهُ منكم المجاهدين في سبيله ، والصَّابرين على مقاومة الأعداء[(٤٦٦)].

ثمَّ قال تعالى: {وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *} [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن كثيرٍ: قد كنتم ـ أيَّها المؤمنون! ـ قبل هذا اليوم ، تتمنَّون لقاء العدوِّ ، وتحترقون عليه ، وتودُّون مناجزتهم ، ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الَّذي تمنَّيتموه ، وطلبتُموه ، فدونكم ، فقاتلوا ، وصابروا[(٤٦٧)].

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء:

تَرَفَّقَ القران الكريم وهو يعقِّب على ما أصاب المسلمين في (أُحدٍ) ، على عكس ما نزل في بدرٍ من ايات ، فكان أسلوب القران الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه ، أشدَّ من حساب المنكسر ، فقال في غزوة بدر: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *لَوْلاَ كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨].

وقال في أُحدٍ: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٥٢] وفي هذا حكمةٌ عمليَّةٌ ، وتربية قرانيَّةٌ ، يحسن أن يلتزمها أهل التَّربية ، والقائمون على التَّوجيه[(٤٦٨)].

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السَّابقين:

قال تعالى: {وَكَأَيِّن مِن نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ *وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *} [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

قال ابن كثير: عاتب اللهُ بهذه الايات والَّتي قبلها مَنِ انهزم يوم أُحدٍ ، وتركوا القتال لما سمعوا الصَّائح يصيح بأن محمَّداً قد قُتل ، فَعَذَلَهم[(٤٦٩)] الله على فرارهم ، وتركهم القتال[(٤٧٠)].

وضرب الله لهم مثلاً بإخوانهم المجاهدين السَّابقين ، وهم جماعاتٌ كثيرةٌ ، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضَعُفُوا عن الجهاد بعد الَّذي أصابهم منه ، وما استكانوا للعدوِّ؛ بل ظلُّوا صابرين ثابتين في جهادهم ، وفي هذا تعريضٌ بالمسلمين الَّذين أصابهم الوهن ، والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله (ص) ،

وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين ، واستكانتهم لهم ، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الرَّبَّانيِّين ، وبما قالوه: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٧].

وهذا القول ـ وهو إضافة الذُّنوب ، والإسراف إلى نفوسهم مع كونهم ربَّانيِّين ـ هضمٌ لها ، واعترافٌ منهم بالتَّقصير ، ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدَّمٌ على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدوِّ ، ليكون طلبُهم إلى ربِّهم النَّصر عن زكاةٍ ، وطهارةٍ ، وخضوعٍ ، وفي هذا تعليمٌ للمسلمين إلى أهمِّيَّة التَّضرُّع ، والاستغفار ، وتحقيق التَّوبة ، وتظهر أهمِّيَّة ذلك في إنزال النَّصر على الأعداء: أي: وبذلك نالوا ثواب الدَّارين: {فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *} ، والغنيمة في الدُّنيا ، والثَّواب الحسن في الاخرة ، جزاءَ إحسانهم في أدب الدُّعاء والتَّوجُّه إلى الله ، وإحسانهم في موقف الجهاد ، وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين ، وخصَّ اللهُ تعالى ثواب الاخرة بالحُسْنِ دلالةً على فضله ، وتقدُّمه على ثواب الدُّنيا ، وأنَّه هو المعتمدُ عنده[(٤٧١)].

خامساً: مخالفة وليِّ الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرُّماة لأمر النَّبيِّ (ص) ، ووقوعهم في الخطأ الفظيع الَّذي قَلَبَ الموازين ، وأدَّى إلى الخسائر الفادحة الَّتي لحقت بالمسلمين ، ولكي نعرف أهمِّيَّة الطَّاعة لوليِّ الأمر؛ نلحظ أنَّ انخذال عبد

الله بن أُبيّ، ومن معه من المنافقين ، لم يؤثّر على المسلمين ، بينما الخطأ الّذي ارتكبه الرُّماة؛ الّذين أحسن الرَّسولُ (ص) ترتيبَهُمْ ، وأسند لكلّ واحدٍ منهم عملاً ، ثمَّ خالفوا أمره (ص) كان ضرره على المسلمين عامَّةً ، حيث سلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وذلك بسبب عصيان الأوامر ، ثمَّ اختلطت أمورهم ، وتفرَّقت كلمتُهم ، وكاد يُقْضى على الدَّعوة الإسلاميَّة وهي في مهدها.

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثل الرُّماة لأوامر الرَّسول (ص) ، وانقادوا لتعليمات قائدهم ، وأميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ، بينما انهزموا حينما خالفوا أمره (ص) ، ونزل الرُّماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقيَّة الصَّحابة رضي الله عنهم[(٤٧٢)]. قال تعالى: {إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [آل عمران: ١٥٣].

يقول الشَّيخ محمد بن عثيمين: «ومن اثار عدم الطَّاعة ما حصل من معصية بعض الصَّحابة رضي الله عنهم للنبيّ (ص) ؛ وهم يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، والَّذي حصل: أنَّه لما كانت الغلبة للمؤمنين ، ورأى بعض الرُّماة: أنَّ المشركين انهزموا؛ تركوا الموضع الَّذي أمرهم النَّبيُّ (ص) ألاَّ يبرحوه، وذهبوا مع النَّاس ، وبهذا كرَّ العدوُّ عليهم من الخلف ، وحصل ما حصل من الابتلاء، والتَّمحيص للمؤمنين ، وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلَّة بقوله تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٥٢].

هذه المعصية؛ الَّتي فات بها نصرٌ انعقدت أسبابُه ، وبدأت أوائله ، وهي معصيةٌ واحدةٌ ، والرَّسول (ص) بين أظهرهم ، فكيف بالمعاصي الكثيرة؟! ولهذا نقول: إنَّ المعاصي من اثارها: أنَّ الله يسلِّط بعض الظالمين على بعضٍ بما كانوا يكسبون ، ويفوتهم من أسباب النَّصر ، والعزَّة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم»[(٤٧٣)].

إنَّ طاعة وليّ الأمر أمرٌ ضروريٌّ ، تأتي بعد طاعة الله ورسوله. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *} [النساء: ٥٩].

قال العلماء: «نزلت الاية في الرَّعية من الجيوش وغيرهم ، عليهم أن يطيعوا وُلاةَ الأمر ، الفاعلين لذلك ، في قَسْمهم وحكمهم ، ومغازيهم ، وغير ذلك»[(٤٧٤)].

إنَّ طاعة وليِّ الأمر «أصلٌ عظيم من أصول الواجبات الدِّينية ، حتَّى أدرجها الأئمَّة في جملة العقائد الإيمانيَّة»[(٤٧٥)].

ولها أهمِّيَّة في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة ، ويمكن أن نلخِّص أهمِّيَّة الطَّاعة في النقاط الاتية:

١ ـ الامتثال لأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وطاعته فيما أمر. قال الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *} [النساء: ٥٩].

٢ ـ إنَّ طاعة وليِّ الأمر وسيلةٌ وليست غايةً؛ وسيلةٌ لإقامة شرع الله في الأرض ، وإحقاق الحقِّ ، وإقامة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ لتحقيق خيرية هذه الأمَّة ، وإعلاء كلمة التَّوحيد ، وإفراد العبوديَّة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٣ ـ اجتماع كلمة المسلمين؛ لأنَّ في الخلاف فساد أحوالهم ، في دينهم ، ودنياهم[(٤٧٦)].

٤ ـ أن يستعينوا بها على إظهار دينهم ، وطاعة ربِّهم.

٥ ـ إنَّ فيها سعادةَ الدُّنيا.

ولهذا كان من أصول مذهب أهل السُّنَّة والجماعة: أننا: «لا نرى الخروج على أئمَّتنا وولاة أمورنا؛ وإن جاروا ، ولا ندعو عليهم ، ولا ننزع يداً مِنْ طاعتهم ، ونرى طاعتهم مِنْ طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي فريضةٌ ، ما لم يأمروا بمعصيةٍ ، وندعوا لهم بالصَّلاح ، والمعافاة»[(٤٧٧)].

سادساً: خطورة إيثار الدُّنيا على الاخرة:

وردت نصوصٌ عديدةٌ من اياتٍ ، وأحاديث ، تبيِّن منزلة الدُّنيا عند الله ، وتصف زخارفها ، وأثرها على فتنة الإنسان ، وتحذِّر من الحرص عليها. قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ *} [آل عمران: ١٤] ، وقال تعالى: {فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ *} [لقمان: ٣٣].

وقد حذَّر الرَّسول الكريم (ص) أمَّته من الاغترار بالدُّنيا ، والحرص الشَّديد عليها في أكثر من موضعٍ ، وذلك لما لهذا الحرص من أثر سيِّءٍ على الأمَّة عامَّةً ، وعلى مَنْ يحملون لواء الدَّعوة خاصَّةً؛ ومن ذلك: عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ (ص) قال: «إنَّ الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإنَّ الله مستخلفُكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدُّنيا ، واتَّقوا النِّساء؛ فإنَّ أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء»

[مسلم (٢٧٤٢) ، وأحمد (٢٢/٣) ، وابن حبان (٣٢٢١)] ويظهر للباحث أثر الحرص على الدُّنيا في غزوة أحدٍ.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لما هزم الله المشركين يوم أُحدٍ ، قال الرُّماة: «أدركوا النَّاس؛ ونبيَّ الله؛ لا يسبقوكم إلى الغنائم؛ فتكون لهم دونكم». وقال بعضهم: «لا نريم[(٤٧٨)]

حتَّى يأذن لنا النَّبيُّ (ص) »[(٤٧٩)] فنزلت: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢].

قال الطَّبريُّ: قوله سبحانه: يعني الغنيمة. قال ابن {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا} ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله (ص) يريد الدُّنيا حتى نزل فينا يوم أحدٍ[(٤٨٠)]: {مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ}

إنَّ الَّذي حدث في أُحدٍ ، عبرةٌ عظيمةٌ للدُّعاة ، وتعليمٌ لهم بأنَّ حبَّ الدُّنيا قد يتسلَّل إلى قلوب أهل الإيمان ، ويخفى عليهم ، فيؤثرون الدُّنيا ، ومتاعها على الاخرة ، ومتطلَّبات الفوز بنعيمها ، ويعصون أوامر الشَّرع الصَّريحة؛ كما عصى الرُّماة أوامر الرَّسول (ص) الصَّريحة بتأويلٍ ساقطٍ ، يرفعه هوى النَّفس ، وحبُّ الدُّنيا، فيخالفون الشَّرع ، وينسون المحكم من أوامره ، كلُّ هذا يحدث ، ويقع من المؤمن؛ وهو غافلٌ عن دوافعه الخفيَّة ، وعلى رأسها حبُّ الدُّنيا ، وإيثارُها على الاخرة ، ومتطلَّبات الإيمان ، وهذا يستدعي من الدُّعاة التَّفتيش الدَّائم الدَّقيق في خبايا نفوسهم ، واقتلاع حبِّ الدُّنيا منها ، حتَّى لا تحولَ بينهم وبين أوامر الشَّرع ، ولا تُوقعهم في مخالفته بتأويلاتٍ ملفوفةٍ بهوى النَّفس، وتَلَفُّتها إلى الدُّنيا، ومتاعها[(٤٨١)].

سابعاً: التَّعلُّق والارتباط بالدِّين:

قال ابن كثير: لما انهزم مَنِ انهزم من المسلمين يوم أُحدٍ ، وقُتل مَنْ قُتِل منهم ، نادى الشَّيطانُ: ألا إن محمَّداً قد قُتل ، ورجع ابنُ قميئةَ إلى المشركين ، فقال لهم: قتلتُ محمَّداً ، وإنَّما كان قد ضرب رسولَ الله (ص) فشجَّه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثيرٍ من الناس ، واعتقدوا: أنَّ رسول الله (ص) قد قُتِل ، وجَوَّزوا عليه ذلك ، كما قد قصَّ الله عن كثيرٍ من الأنبياء - عليهم السَّلام - فحصل ضعفٌ ، ووهنٌ ، وتأخُّرٌ عن القتال ، ففي ذلك أنزل الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤] أي: له أُسوةٌ بهم في الرِّسالة ، وفي جواز القتل عليه[(٤٨٢)].

وقد جاء في تفسير الاية السَّابقة: «إنَّ الرُّسل ليست باقيةً في أقوامها أبداً ، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ، ومهمَّة الرَّسول تبليغ ما أُرسل به؛ وقد فعل ، وليس من لوازم رسالته البقاء دائماً مع قومه ، فلا خلودَ لأحدٍ في هذه الدُّنيا ، ثمَّ قال تعالى منكراً على مَنْ حصل له ضعفٌ لموت
النَّبيِّ (ص) ، أو قتله: {أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى} أي: رجعتم {أَعْقَابِكُمْ} ، وقعدتم عن الجهاد ، والانقلاب على الأعقاب يعني: الإدبار عمَّا كان رسول الله (ص) يقوم به من أمر الجهاد ومتطلَّباته ، الَّذين لم {وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} ، أو ظلُّوا ثابتين على دينهم ، متَّبعين رسوله حيّاً ، أو ميتاً»[(٤٨٣)].

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب الَّتي حدثت للمسلمين يوم أُحدٍ: أنَّهم ربطوا إيمانهم ، وعقيدتهم ، ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته ، بشخص رسول الله (ص) ، فهذا الرَّبط بين عقيدة الإيمان بالله ربّاً معبوداً وحدَه ، وبين بقاء شخص النَّبيِّ (ص) خالداً فيهم خالطه الحبُّ المغلوب بالعاطفة ، الرَّبط بين الرِّسالة الخالدة وبين الرَّسول (ص) البشر؛ الَّذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصَّحابةَ رضي الله عنهم من الفوضى ، والدَّهشة ، والاستغراب ، ومتابعة الرَّسول (ص) أساس وجوب التأسِّي به في الصَّبر على المكارِه ، والعمل الدَّائب على نشر الرِّسالة ، وتبليغ الدَّعوة ، ونصرة الحقِّ.

وهذا التَّأسِّي هو الجانب الأغرُّ من جوانب منهج رسالة الإسلام ، لأنَّه الدِّعَامَةُ الأولى في بناء مسيرة الدَّعوة لإعلاء كلمة الله ، ونشرها في افاق الأرض ، وعدم ربط بقاء الدِّين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النَّبيِّ (ص) في هذه الدُّنيا ، لا يلحقه فناءٌ بموتٍ ، أو قتلٍ ، وإيجاب متابعة الرَّسول (ص) والتأسِّي به علماً ، وعملاً هما الوَشيجةُ العظمى لتماسك المجتمع المسلم ، ولا سيَّما الدُّعاة إلى الله من أتباعه[(٤٨٤)].

قال ابن القيِّم: «إنَّ غزوة أحدٍ كانت مقدِّمةً ، وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله (ص) ، فثبَّتهم ، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم؛ إن مات رسول الله (ص) ، أو قُتل ، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه ، وتوحيده ، ويموتوا عليه ، أو يُقتلوا ، فإنهم إنَّما يعبدون ربَّ محمَّدٍ ، وهو لا يموت ، فلو مات محمَّد ، أو قُتل ، لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ، وما بُعِثَ محمَّد (ص) ليخلَّد ، لا هو ، ولا هم ، بل ليموتوا على الإسلام والتَّوحيد ، فإنَّ الموت لابدَّ منه ، سواءٌ أمات رسول الله (ص) ، أم بقي ، ولهذا وبَّخهم على رجوع مَنْ رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيطان: إنَّ محمَّداً قد قُتل ، فقال: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ

انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤].

والشَّاكرون هم الَّذين عرفوا قدر النِّعمة ، فثبتوا عليها؛ حتَّى ماتوا ، أو قُتِلُوا ، فظهر أثرُ هذا العتاب ، وحكمُ هذا الخطاب يوم مات رسول الله (ص) ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه ، وثبت

الشَّاكرون على دينهم ، فنصرهم الله ، وأعزَّهم ، وظفَّرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم»[(٤٨٥)].

قال القرطبيُّ: « فهذه الاية من تَتِمَّةِ العتاب مع المنهزمين ، أي: لم يكن لهم الانهزام وإن قُتل محمَّد، والنُّبوَّة لا تَدْرأ الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء»[(٤٨٦)]. وكلامه ـ رحمه الله ـ نفيسٌ جدّاً ، فالَّذين ظنُّوا مِنْ قبل: أنَّ الإسلام قد انتهى بموت النَّبيِّ (ص) ، والَّذين يظنُّون: أنَّ ظهور الإسلام ، ودعوته متوقفٌ على شخصٍ بعينه ، فهؤلاء ، وأولئك قد أخطؤوا ، ولم يقدِّروا هذا الدِّين قدره ، ولم يوفوه حقَّه؛ لأنَّ ظهور هذا الدِّين ، وهيمنته على كلِّ الأديان ، هو قدر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسنته ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ *} [التوبة: ٣٣].

فسبب ظهور هذا الدِّين: أنَّه حقٌّ ، وأنَّه هدىً[(٤٨٧)].

في غزوة أُحدٍ نزل التَّشريع الإلهيُّ بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أُحد ، وعند موت الرَّسول (ص) جاء التَّطبيق؛ حيث «لما تُوفِّيَ رسولُ الله (ص) أقبل أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على فرسٍ من مَسكنَه بالسُّنْحِ ، حتَّى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلِّم الناسَ ، حتَّى دخل على عائشة رضي الله عنها ، فتيمَّمَ[(٤٨٨)] رسولَ الله (ص) وهو مُغَشَّىً بثوب حِبَرَةٍ[(٤٨٩)] ، فكشف عن وجهه (ص) ، ثمَّ أكبَّ عليه ، فقبَّله ، وبكى ، ثُمَّ قال: بأبي أنت وأمِّي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين ، أمَّا الموتةُ التي كُتِبَتْ عليك ، فقدْ مُتَّها».

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: «إنَّ أبا بكر خرج ، وعمرُ يكلِّم النَّاسَ ، فقال: اجلس يا عمرُ! فأبى عمرُ أن يجلسَ ، فأقبل النَّاسُ إليه ، وتركوا عمرَ رضي الله عنه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمَّا بعدُ: مَنْ كان منكم يعبد محمَّداً (ص) فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت. قال الله تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤].

وقال: والله لكأنَّ الناسَ لم يعلموا: أنَّ الله أنزل هذه الاية حتَّى تلاها أبو بكر ، فتلقَّاها منه النَّاسُ كلُّهم ، فما أسمعُ بشراً من النَّاس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيِّب: أنَّ عمر رضي
الله عنه قال: والله! ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ رضي الله عنه تلاها ، فَعَقِرْتُ[(٤٩٠)]؛ حتَّى ما تُقلَّني رجلاي ، وحتَّى أهويتُ إلى الأرض ، حين سمعتُه تلاها؛ علمت: أنَّ النَّبيَّ (ص) قد مات» [البخاري (٤٤٥٤)].

ثامناً: معاملة النَّبيّ (ص) للرُّماة الَّذين أخطؤوا ، والمنافقين الَّذين انخذلوا:

أ ـ الرُّماة:

إنَّ الرُّماة الَّذين أخطؤوا الاجتهاد في غزوة أُحدٍ لم يُخْرِجْهم الرَّسول (ص) خارج الصَّفِّ ، ولم يقل لهم: إنَّكم لا تصلحون لشيءٍ من هذا الأمر بعدما بدا منكم في التَّجربة من النَّقص ، والضَّعف ، بل قبل ضعفهم هذا في رحمةٍ ، وعفوٍ ، وفي سماحةٍ ، ثمَّ شمل ـ سبحانه وتعالى ـ برعايته وعفوه جميع الَّذين اشتركوا في هذه الغزوة ، رغم ما وقع مِنْ بعضهم مِنْ أخطاءٍ جسيمةٍ ، وما ترتَّب عليه مِنْ خسائرَ فادحةٍ، فعفا ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم عفواً غسل به خطاياهم ، ومحا به اثار تلك الخطايا.

قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٥٢].

وهناك أمرٌ مهمٌّ يتَّصل بهذا العفو، قد يترك أثراً في نفوسهم يعوِّقها بعض الشَّيء، ذلك هو موقف رسول الله (ص) ممَّا حدث منهم؛ إنَّهم يشعرون: أنَّ الرَّسول (ص) هو وحده الَّذي تحمَّل نتيجة تلك الأخطاء ، فلابدَّ أن ينالوا منه عفواً؛ تطيب به نفوسهم ، وتتمُّ به نعمة الله عليهم؛ لهذا أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيَّه (ص) بأن يعفو عنهم ، وحثَّهُ على الاستغفار لهم ، كما أمره أن يأخذ رأيهم ، والاستماع إلى مشورتهم، ولا يجعل ما حدث صارفاً له عن الاستفادة من خبراتهم، ومشورتهم[(٤٩١)].

قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ *} [آل عمران: ١٥٩].

ب ـ انخذال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله بن سلول بانسحابه بثلاثمئةٍ من المنافقين ، أن يُحدث بلبلةً ، واضطراباً في الجيش الإسلاميِّ؛ لتنهار معنويَّاته ، ويتشجَّع العدو ، وتعلو همَّته. وعملُه هذا ينطوي على

استهانةٍ بمستقبل الإسلام ، وغدرٍ به في أحلك الظُّروف ، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخذال ، إلا أنَّهم رفضوا دعوتَه[(٤٩٢)] ، وفيهم نزل قول الله تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ *وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * لاَتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ *} [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

فبالرَّغم من خطورة الموقف ، وحاجة المسلمين لهذا العدد لقلَّة جيش المسلمين ، وكثرة جيش قريش ، إلا أنَّ الرَّسول (ص) ترك هؤلاء المنافقين ، وشأنهم ، ولم يُعِرْهم أيَّ اهتمامٍ ، واكتفى بفضح أمرهم أمام النَّاس[(٤٩٣)] ، وكان لهذا الأسلوب أثرُه في توبيخ وإهانة ابن سلولٍ ، فعندما رجع رسول الله (ص) من غزوته من حمراء الأسد، أراد ابن سلول أن يقوم كعادته لحثِّ الناس على طاعة رسول الله (ص) .

قال الإمام الزُّهريُّ: كان عبد الله بن أُبيٍّ له مقامٌ يقومه كلَّ جمعة؛ لا ينكسر له شرفٌ في نفسه ، وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلس رسولُ الله (ص) يوم الجمعة وهو يخطب النَّاسُ؛ قام ، فقال: أيُّها النَّاسُ ، هذا رسولُ الله بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزَّكم به ، فانصروه ، وعزِّروه ، واسمعوا له ، وأطيعوا ، ثمَّ يجلس ، حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع ، ورجع النَّاس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه مِنْ نواحيه ، وقالوا: اجلس أي عدوَّ الله! واللهِ لستَ لذلك بأهلٍ؛ وقد صنعتَ ما صنعتَ! فخرج يتخطَّى رقابَ النَّاس؛ وهو يقول: والله لكأنَّما قلتُ بُجْراً[(٤٩٤)]؛ أن قمت أشدِّد أمره ، فلقيه رجالٌ من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا: ويلك! ما لك؟ قال: قمت أشدِّد أمره ، فوثب إليَّ رجال من أصحابه يجبذونني ، ويعنفونني ، لكأنَّما قلت بُجراً أن قمت أشدِّد أمره ، قالوا: ويلك! ارجعْ يستغفرْ لك رسول الله. قال: والله! ما أبغي أن يستغفر لي[(٤٩٥)].

تاسعاً: «أُحد جبل يُحبُّنا ونحبُّه»:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: إنَّ النَّبيَّ (ص) طَلَعَ لَه أُحُدٌ ، فقال: «هذا جبلٌ يُحِبُّنا ، ونُحبُّه» [البخاري (٤٠٨٤) ومسلم (١٣٦٥)].

وهذا يدلُّ على دقَّة شعور النَّبيِّ (ص) ؛ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصُّن ، والاحتماء بذلك الجبل ، وما أودعه الله تعالى فيه من قابليَّةٍ لذلك ، فعبَّر عن ذلك بأرقى وشائج
الصِّلة ، وهي المحبَّة ، أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحيُّ ، والإحساس المرهف مثلاً أعلى على التخلُّق بخلق الوفاء؟!

ألا وإنَّ الَّذي يعترف بفضل الحجارة الصمَّاء ، ويُضفي عليها من الأخلاق السَّامية ما لا يتَّصف به إلا أفاضل العقلاء لجديرٌ به أن يعترف بأدنى فضلٍ يكون من بني الإنسان ، وإذا كان وفاؤه (ص) للجماد قد سَمَا حتَّى حاز أرقى العبارات وأرقَّها؛ فأخْلِقْ ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم مِنْ ذلك ، فضلاً عمّن تجمعه بهم الأخوَّة في الله تعالى![(٤٩٦)].

والحديث النَّبويُّ الشَّريف فيه كثيرٌ من المعاني ؛ منها ما ذكره الحميديُّ ، ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشَّامي؛ حيث قال: والإنسان كثيراً ما يربط بين المصيبة وبين مكانها ، أو زمانها ، وحتَّى لا تنسحبَ هذه العادة ، وتستمر بعد أن جاء الإسلام ، كان هذا القول الكريم بياناً للحقِ ، وابتعاداً عن الطِّيَرَة ، والتَّشاؤم ، وذلك المعنى الذي يبقي الاثار السَّيئة في نفس الإنسان ، ولا شكَّ: أن المسلمين سيقفون على أُحدٍ ، يتذكرون تلك المعركة ، فحتَّى لا يرتبطَ بفكرهم ذلك المعنى السَّيىء ، بيَّن لهم: أن المكان ، والزَّمان مخلوقاتٌ لله ، لا علاقة لهما ، ولا أثر بما يحدث فيهما ، وإنَّما الأمورُ بيد الله تعالى ، والاستشهادُ في سبيل الله كرامةٌ لصاحبه ، لا مصيبةٌ، وهكذا تتساوى المفاهيم في إطارها الإيمانيّ ، وإذا «أُحُدٌ» يُكرَمُ ، ويُحَبُّ انطلاقاً من هذا القول الكريم ، وكيف لا يُكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزةُ ، وأصحابه ، ممَّن اختارهم الله في ذلك اليوم ، فجادوا بأنفسهم ابتغاءَ مرضاته؟![(٤٩٧)].

عاشراً: الملائكة في أُحدٍ:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: رأيتُ عن يمين رسول الله (ص) وعن شماله يوم أُحدٍ رجلين عليهما ثيابُ بياضٍ ، يقاتلان عنه كأشدِّ القتال ، ما رأيتُهما قبلُ ، ولابعدُ . يعني: جبريلَ ، وميكائيلَ عليهما السَّلام . [البخاري (٤٠٥٤) ، ومسلم (٢٣٠٦)].

وهذا خاصٌّ بالدِّفاع عن النَّبيِّ (ص) ؛ لأنَّ الله تكفَّل بعصمته من النَّاس ، ولم يصحَّ: أنَّ الملائكة قاتلت في أُحدٍ سوى هذا القتال . وإنْ وعدهم الله تعالى أنْ يمدَّهم .؛ لأنه جعل وعده معلقاً على ثلاثة أمورٍ: الصَّبر ، والتَّقوى ، وإتيان الأعداء من فورهم ، ولم تتحقَّق هذه الأمور ، فلم يحصل الإمداد[(٤٩٨)].

قال تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ *} [آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥].

حادي عشر: قوانين النَّصر والهزيمة من سورة الأنفال ، وال عمران:

تحدَّثت سورة الأنفال عن غزوة بدرٍ بشيءٍ من التَّفصيل ، وتحدَّثت سورة ال عمران عن غزوة أُحدٍ ، لكي تتعلَّم الأمَّة كثيراً من المفاهيم ، تتعلَّق بمفهوم القضاء والقدر ، ومفهوم الحياة والموت ، ومفهوم النَّصر والهزيمة ، ومفهوم الرِّبح والخسارة ، ومفهوم الإيمان والنِّفاق ، ومفهوم المحنة والمحق... إلخ ، ومن المفاهيم الَّتي تعلَّمها الصَّحابة رضي الله عنهم من خلال أحداث بدرٍ ، وأحدٍ ، وسورتي الأنفال ، وال عمران قوانينُ النَّصر والهزيمة ، وهذه القوانين قد بيَّنتها الايات الكريمة ، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١ ـ النَّصر ابتداءً وانتهاءً بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وليس مُلْكاً لأحدٍ من الخلق ، يهبه الله لمن يشاء ، ويصرفه عمَّن يشاء ، مثله مثل الرِّزق ، والأجل ، والعمل: {وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: ١٠].

٢ ـ وحين يقدِّر الله تعالى النَّصر؛ فلن تستطيع قوى الأرض كلُّها الحيلولة دونه ، وحين يقدِّر الهزيمة؛ فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمَّة. قال تعالى: {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [آل عمران: ١٦٠].

٣ ـ ولكنَّ هذا النَّصر له نواميسُ ثابتةٌ عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نحن بحاجةٍ إلى فقهها ، فلابدَّ أن تكون الرَّاية خالصةً لله سبحانه عند الَّذين يمثِّلون جنده. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *} [محمد: ٧] ، ونصرُ الله في الاستجابة له ، والاستقامة على منهجه ، والجهاد في سبيله.

٤ ـ ووحدة الصَّفِّ ووحدة الكلمة أساسٌ في النَّصر. وتفريقُ الكلمة ، والاختلاف في الرأي دمارٌ وهزيمةٌ. قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ *} [الأنفال: ٤٦].

٥ ـ وطاعة أمرِ الله تعالى ، ورسوله (ص) وعدم الخروج عليها أساسٌ في النَّصر ، أمَّا المعصية؛ فتقود إلى الهزيمة. قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ *} [الأنفال: ٤٦].

٦ ـ وحب الدُّنيا ، والتَّهافت عليها يُفْقدُ الأمَّة عون الله ، ونصره. قال تعالى: {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ} [آل عمران: ١٥٢].

٧ ـ ونقص العدد والعُدَّة ليس هو سبب الهزيمة. قال تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *} [آل عمران: ١٢٣].

٨ ـ ولكن لابدَّ من الإعداد المادِّيِّ ، والمعنويِّ لمواجهة العدوِّ[(٤٩٩)]. قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *} [الأنفال: ٦٠].

٩ ـ والثَّبات عند المواجهة ، والصَّبر عند اللِّقاء ، من العوامل الرَّئيسية في النَّصر. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [الأنفال: ٤٥] ، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ *} [الأنفال: ١٥].

١٠ ـ ولا شيء يعين على الثبات والصَّبر عند اللِّقاء ، مثل ذكر الله الكثير ، باتجاه القلب إلى الله وحده منزِّل النَّصر ، وطلب العون منه ، والتوكُّل عليه ، وعدم الاعتماد على العدد ، أو العدَّة ، أو الذَّات ، والتَّبرُّؤ من الحول ، والقوَّة ، هو عاملٌ أساسيٌّ من عوامل النَّصر[(٥٠٠)]. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [الأنفال: ٤٥].

ثاني عشر: فضل الشُّهداء وما أعدَّه الله لهم من نعيمٍ مقيمٍ:

قال رسول الله (ص) : لما أُصيب إخوانُكم بأُحدٍ ، جعل اللهُ أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ ، تَرِدُ أنهارَ الجنَّة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ في ظلِّ العرش ، فلمَّا وجدوا طيبَ مشربهم ، ومأكلهم ، وحُسْنَ مقيلهم ، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا يَنْكُلُوا[(٥٠١)] عن الحرب! فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنا أبلِّغهم عنكم ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله (ص) هذه الايات. [أحمد (١/٢٦٦) ، وأبو داود (٢٥٢٠) ، وأبو يعلى (٢٣٣١)][(٥٠٢)].

قال الله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ *} [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

وقد جاء في تفسير الايات السَّابقة ما رواه الواحديُّ عن سعيد بن جبير: أنَّه قال: لما أُصيب حمزةُ بن عبد المطَّلب ، ومصعب بن عمير يوم أُحدٍ ، ورأوا ما رزقوا من الخير؛ قالوا: ليت إخوانَنا يعلمون ما أصابنا من الخير؛ كي يزدادوا في الجهاد رغبةً ، فقال الله تعالى: أنا أبلِّغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي} إلى قوله: { وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ *}[(٥٠٣)]

وروى مسلمٌ بسنده عن مسروقٍ ، قال: سألنا عبدَ الله بن مسعودٍ عن هذه الاية: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *} [آل عمران: ١٦٩].

قال: أمَا إنَّا قد سألْنا عن ذلك ، فقال: «أرواحُهم في جوف طيرٍ خُضْرٍ ، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرش ، تسرح من الجنَّة حيث شاءت ، ثمَّ تأوي إلى تلك القناديل ، فاطَّلَعَ إليهم ربُّهم اطِّلاعةً ، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نشتهي؛ ونحن نَسْرَحُ من الجنَّة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ ، فلمَّا رأوا: أنهم لن يُتْرَكُوا من أن يُسْألوا ، قالوا: يا ربِّ! نريد أن تَرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا؛ حتَّى نُقْتَلَ في سبيلك مرَّةً أخرى ، فلمَّا رأى أن ليس لهم حاجةٌ؛ تُرِكُوا» [مسلم (١٨٨٧)].

ثالث عشر: الهجوم الإعلاميُّ على المشركين:

كان الإعلام في العهد النَّبويِّ يقوم على الشِّعر ، وكان شعراء المشركين في بدرٍ في موقف الدِّفاع والرِّثاء ، وفي أُحدٍ حاول شعراء قريش أن يضخموا هذا النَّصر ، فجعلوا من الحبة قبَّةً ، وأمام هذا الكبرياء المزيَّف انبرى حسَّان بن ثابتٍ ، وكعب بن مالكٍ ، وعبد الله بن رواحة للردِّ على حملات المشركين الإعلاميَّة؛ الَّتي قادها شعراؤهم؛ كهبيرة ابن أبي وهبٍ ، وعبد الله بن الزِّبعرى ، وضرار بن الخطَّاب ، وعمرو بن العاص[(٥٠٣)].

وكانت قصائد حسَّان كالقنابل على المشركين ، وقد أشاد بشجاعة المسلمين ، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملةَ لواءِ المشركين ، ويُوبِّخ المشركين ، ويصفهم بالجبن حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم ، حتَّى كان في النِّهاية بيد امرأةٍ منهم ، وولَّى أشرافُهم، وتركوه ، وفي هذا الهجاء تذكيرٌ للمشركين بمواقف الذُّلِّ ، والجبن؛ الَّتي تعرَّضوا لها في بداية المعركة ، حتَّى لا يغترُّوا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسَّان من المشركين مقتلاً ، حينما عَيَّرَهم بالتخلِّي عن اللِّواء ، وإقدام امرأةٍ منهم على حمله ، وهذا يتضمَّن وصفهم بالجُبْنِ الشَّديد ، حيث أقدمتِ امرأةٌ على ما نَكَلُوا عنه[(٥٠٤)].

وممَّا قاله في شأن عَمرة بنت علقمة الحارثيَّة ، ورفعها اللِّواء:

إِذَا عَضَلٌ سِيْقَتْ إِلَيْنَا كَأَنَّهَا جِدَايةُ شِرْكٍ مُعْلِماتِ الحَواجِبِ[(٥٠٥)]

أقَمْنَا لَهُمْ طَعْناً مُبِيراً مُنَكِّلاً   وحُزْنَاهمُ بالضَّرْبِ مِنْ كلِّ جَانِبِ[(٥٠٦)]

فَلوْلاَ لِوَاءُ الحَارِثِيَّةِ أصْبَحُوا   يُباعون في الأسْوَاقِ بَيْعَ الجَلائِبِ[(٥٠٧)]

وعندما أخذ اللِّواءَ من الحارثيَّة غلامٌ حبشيٌّ لبني أبي طَلْحَةَ . وكان لواء المشركين قد أخذه صؤاب من الحارثيَّة . وقاتل به قتالاً عنيفاً قتل على أثره ، فرمى حسان بن ثابتٍ أبياته في هذا الموضوع ، فقال:

فَخَرْتُمْ بِاللِّواءِ وَشَرُّ فَخْرٍ   لِوَاءٌ حِيْنَ رُدَّ إلى صُؤابِ

جَعَلْتُمْ فَخْرَكَمْ فِيْهِ بِعَبْدٍ   وَألأمِ مَنْ يَطَا عَفَر التُّرَابِ

ظَنَنْتُمْ والسَّفِيْهُ لَهُ ظُنُونٌ   وَمَا إنْ ذَاكَ مِنْ أمْرِ الصَّوَابِ[(٥٠٨)]

وممَّا قاله كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في الردِّ على بعض شعراء قريش:

أبْلِغْ قُرَيْشاً وَخَيْرُ القَوْلِ أَصْدَقُهُ   والصِّدْقُ عِنْدَ ذَوِي الألبابِ مَقْبُولُ[(٥٠٩)]

أَنْ قَدْ قَتَلْنَا بِقَتْلاَنَا سَرَاتَكُمُ   أَهْلَ اللِّوَاءِ فَفِيْمَا يَكْثُرُ القِيْلُ

وَيَوْمَ بَدْرٍ لَقِيْنَاكُمْ لَنَا مَدَدٌ   فِيْهِ مَعَ النَّصْرِ مِيْكَالٌ وَجِبْرِيْلُ

إنْ تَقْتُلُونَا فَدِيْنُ الْحَقِّ فِطْرَتُنَا   وَالقَتْلُ فِي الحَقِّ عِنْدَ الله تَفْضِيْلُ

وَإنْ تَرَوا أَمْرَنا فِي رَأْيِكُمْ سَفَهاً   فَرَأْيُ مَنْ خَالَفَ الإسْلاَمَ تَضْلِيْلُ[(٥١٠)]

وَمِنْ أعجب ما قرأت في المعركة الإعلاميَّة بين المسلمين ، والمشركين محاولةُ ضرار بن الخطَّاب قبل إسلامه أن يفتخر ببدرٍ على اعتبار النَّصر كان لرسول الله (ص) والمهاجرين ، وفي ذلك قوله:

فَإنْ تَظْفَرُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ فَإنَّمَا   بِأَحْمَدَ أَمْسَى جَدُّكمْ وَهُوَ ظَاهِرُ

وَبِالنَّفَرِ الأخْيَارِ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ   يُحَامُوْنَ فِي اللأَّوَاءِ وَالْمَوْتُ حَاضِرُ

يُعَدُّ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ فِيْهِمُ   وَيُدْ عَنْ عَلِيٍّ وَسْطَ مَنْ أَنْتَ ذاكِرُ

وَيُدْعَى أَبُو حَفْصٍ وَعُثْمَانُ مِنْهُمُ   وَسَعْدٌ إذَا مَا كَانَ فِي الْحَرْبِ حاضرُ

أُولئَكَ لاَ مَنْ نَتَّجَت مِنْ دِيَارِها   بَنُو الأَوْسِ والنَّجَّارِ حِيْنَ تُفَاخِرُ[(٥١١)]

وهكذا حوَّلها إلى لغة قبليةٍ ، تقوم على مفاهيم جاهليَّةٍ ، ولقد أجابه كعبٌ رضي الله عنه:

وفينا رسولُ الله والأوْسُ حَوْلَهُ   لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيْزٌ وَنَاصِرُ

وجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لِوَائِهِ   يُمْسُونَ فِي المأذَى والنَّقْعُ ثَائِرُ

إلى أن قال:

وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا   فولَّوا وقالُوا: إنَّمَا أَنْتَ سَاحِرُ

لأمْرٍ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ		ولَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّه النَّارُ زَاجِرُ

كما أجابه بقوله:

وَبِيَوْمِ بَدْرٍ إِذْ نَرُدُّ وُجُوْهَهُمْ		جِبْرِيْلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وهو أفخرُ بيتٍ قالته العرب .كما قال صاحب العِقد الفريد .[(٥١٢)].

* * *

الفصل العاشر

أهمُّ الأحداث ما بين أحدٍ والخندق

المبحث الأوَّل

محاولات المشركين لزعزعة الدَّولة الإسلاميَّة

كانت غزوة أُحدٍ مشجِّعةً لأعداء الدَّولة الإسلاميَّة على مواجهتها ، وساد الشُّعورُ لدى الأعراب المشركين بإمكان مناوشة المسلمين ، والتَّغلُّب عليهم ، واتَّجهت أنظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة؛ لاستئصال شَأْفَتِهم[(٥١٣)] ، وكسر شوكتهم ، فطمعت بنو أسد في الدَّولة الإسلاميَّة ، وشرع خالد بن سفيان الهُذليُّ لجمع الحشود؛ لكي يهاجم بها المدينة ، وتجرَّأت عَضَل وقارَة[(٥١٤)] على خداع المسلمين ، وقام عامر بن الطُّفَيل بقتل القُرَّاء الدُّعاة الامنين ، وحاولت يهود بني النَّضير أن تغتال رسولَ الله (ص) ، فتصدَّى لهذه المحاولات الماكرة الحبيبُ المصطفى (ص) بشجاعةٍ فائقةٍ ، وسياسةٍ ماهرةٍ ، وتخطيطٍ سليمٍ ، وتنفيذٍ دقيقٍ.

أولاً: طمع بني أسدٍ في الدَّولة الإسلاميَّة:

بلغت النَّبيَّ (ص) بواسطة عيونه المنبثة في الجزيرة العربيَّة أخبارُ الاستعدادات الَّتي قام بها بنو أسدِ بن خزيمة بقيادة طُلَيْحة الأسديِّ من أجل غزو المدينة؛ طمعاً في خيراتها ، وانتصاراً لشركهم ، ومظاهرةً لقريش في

عدوانها على المسلمين ، فسارع النَّبيُّ (ص) إلى تشكيل سريةٍ من مئةٍ وخمسين رجلاً من المهاجرين ، والأنصار ، وأمَّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد[(٥١٥)] المخزوميَّ ، وعقد له لواءً ، وقال له: سِرْ حتَّى تنزلَ أرض بني أسد ، فأغرْ عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعُهم[(٥١٦)] ، فسار إليهم أبو سلمةَ في المحرَّم[(٥١٧)] ، فأغار على أنعامهم ، ففرُّوا مِنْ

وجهه؛ فأخذها ، ولم يلقَ عناءً في تشتيت أعداء الإسلام ، وعاد إلى المدينة مظفَّراً. وأبو سلمةَ يعدُّ من السَّابقين إلى الإيمان ، ومن خيرة الرَّعيل الأوَّل ، وقد عاد من هذه الغزوة متعباً؛ إذ نَفَر جرحُه الَّذي أصابه في (أُحدٍ) فلم يلبث حتَّى مات[(٥١٨)].

ونلحظ في هذه السَّريَّة عدَّة أمورٍ؛ منها: الدِّقَّة في التَّخطيط الحربيِّ عند النَّبيِّ (ص) ؛ حيث فرَّق أعداءه قبل أن يجتمعوا ، فذهلوا لمجيء سريَّة أبي سلمة؛ وهم يظنُّون: أنَّ المسلمين قد أضعفتهم وقعة أُحدٍ ، وأذهلتْهم عن أنفسهم ، فأُصيب المشركون بالرُّعب من المسلمين ، ووَهَنتْ عزيمتُهم ، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة. وتظهر دقَّة المسلمين في الرَّصد الحربيِّ ، واختيارهم التَّوقيت الصَّحيح ، والطَّريق المناسبة؛ حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أيَّ شيءٍ رغم بُعْدِ المسافة ، وكان هذا هو أهمُّ عوامل نجاح المسلمين في هذه السَّريَّة ، وتركت هذه السَّريَّة في نفوس الأعداء شعوراً مؤثِّراً على معنويَّاتهم ، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء ، والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة ، الَّتي تجعلهم يمتلئون رعباً منهم ، ويتوقَّعون الإغارة في أيِّ وقتٍ ، وهذا الشُّعور حملهم على الاعتراف بقوَّة المسلمين ، ومسالمتهم[(٥١٩)].

ثانياً: خالد بن سفيان الهُذليُّ وتصدِّي عبد الله بن أنيسٍ رضي الله عنه له:

قام خالد بن سفيان الهذليُّ يجمِّع المقاتلة من هُذَيْلٍ وغيرها في عرفات ، وكان يتهيَّأ لغزو المسلمين في المدينة ؛ مظاهرةً لقريشٍ ، وتقرُّباً إليها ، ودفاعاً عن عقائدهم الفاسدة ، وطمعاً في خيرات المدينة؛ فأرسل رسولُ الله (ص) الصَّحابيَّ عبدَ الله بن أُنَيْس الجُهَنيَّ إليه بعد أن كلَّفه مهمَّة قتله[(٥٢٠)] ، وهذا عبد الله بن أنيس يحدِّثنا بنفسه ، قال رضي الله عنه: دعاني رسول الله (ص) ، فقال: «إنَّه قد بلغني: أنَّ خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي النَّاس؛ ليغزوني ، وهو بعرنة ، فائته ، فاقتله» ، قال: قلت: يا رسولَ الله ، انعته حتَّى أعرفه ، قال: «إذا رأيته وجدت له قُشَعريرةً»[(٥٢١)].

قال: فخرجتُ متوشحاً سيفي ، حتَّى وقعتُ عليه بعرنة مع ظَعْنٍ يرتاد لهنَّ منزلاً ، حين كان وقت العصر ، فلمَّا رأيتُه وجدت ما وصف لي رسول الله من القُشَعريرة ، فأقبلتُ نحوه ، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه

محاولةٌ تشغلني عن الصَّلاة ، فصلَّيتُ وأنا أمشي نحوه أومأى برأسي الرُّكوع ، والسُّجود ، فلمَّا انتهيت إليه قال: مَنِ الرَّجلُ؟ قلت: رجلٌ من العرب سمع بك ،

وبجمعك لهذا الرَّجل ، فجاءك لهذا ، قال: أجل أنا في ذلك ، قال: فمشيت معه شيئاً ، حتَّى إذا أمكنني حملت عليه بالسَّيف حتَّى قتلتُه ، ثمَّ خرجت ، وتركت ظعائنه مكبَّاتٍ عليه ، فلمَّا قدمت على رسول الله (ص) فراني ، فقال: «أفلح الوجه» ، قال: قلت: قتلتُه يا رسول الله! قال: «صدقت» ، قال: ثمَّ قام معي رسول الله فدخل في بيته ، فأعطاني عصاً ، فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أُنَيْس!».

قال: فخرجت بها على النَّاس ، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله (ص) ، وأمرني أن أمسكَها ، قالوا: أوَ لا ترجع إلى رسول الله (ص) فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله (ص) ، فقلت: يا رسول الله! لِمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: «ايةٌ بيني وبينك يوم القيامة ، إن أقلَّ النَّاس المختصرون[(٥٢٢)] يومئذ يوم القيامة» فقرنها عبد الله بسيفه ، فلم تزل معه ، حتَّى إذا مات أمر بها ، فضمَّت معه في كفنه ، ثمَّ دُفنا جميعاً. [أحمد (٣/٤٩٦) ، وأبو يعلى (٩٠٥) ، ومجمع الزوائد (٦/٢٠٣) ، وأبو داود مختصراً (١٢٤٩)].

وفي هذا الخبر فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ دقَّة الرَّصد الحربيِّ:

كان رسول الله (ص) يعطي للجانب الأمنيِّ أهمِّيَّته ، ولذلك كان يتابع تحرُّكات الأعداء ، ويعدُّ بعد ذلك الحلول المناسبة للمشكلات ، والأزمات في وقتها الملائم ، ولذلك لم يمهل خالد بن سفيان حتَّى يكثر جمعُه ، ويشتدَّ ساعدُه؛ بل عمل على القضاء على الفتنة وهي في أيَّامها الأولى بحزمٍ ، وبذلك حقَّق للأمَّة مكاسب كبيرةً ، وقلَّل الخسائر المتوقَّعة من مجيء خالد بن سفيان بجيشٍ لغزو المدينة ، وهذا العمل يحتاج لقدرةٍ في الرَّصد الحربيِّ ، وسرعةٍ في اتِّخاذ القرار.

٢ ـ فِراسَةُ[(٥٢٣)] النَّبيِّ (ص) في اختيار الرِّجال:

كان (ص) يتمتَّع بِفراسَةٍ عظيمةٍ في اختيار الرِّجال ، ومعرفةٍ كبيرةٍ لذوي الكفاءات من أصحابه ، فكان يختار لكلِّ مهمَّةٍ مَنْ يناسبها ، فيختار للقيادة مَنْ يجمع بين سداد الرَّأي ، وحسن التَّصرُّف والشَّجاعة ، ويختار للدَّعوة والتَّعليم مَنْ يجمع بين غزارة العلم ، ودَمَاثَةِ[(٥٢٤)] الخُلُق والمهارة في اجتذاب النَّاس ، ويختار للوِفَادة على الملوك والأمراء مَنْ يجمع بين حُسْنِ المظهر ، وفصاحة اللِّسان ، وسرعة البديهة ، وفي الأعمال الفدائيَّة يختار مَن يجمع بين

الشَّجاعة الفائقة ، وقوَّة القلب ، والمقدرة على التحكُّم في المشاعر[(٥٢٥)]. وقد كان عبد الله بن أُنَيْس الجُهَنِيُّ قويَّ القلب ، ثبت الجنان ، راسخ اليقين ، عظيم الإيمان[(٥٢٦)] ، وبجانب هذه الصِّفات العظيمة التي أهَّلته لهذه المهمَّة ، فهناك سببٌ اخر ، فقد كان يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه «جُهَينة»[(٥٢٧)].

٣ ـ المكافأة على هذا العمل أخروية:

لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء ، مادِّيةً دنيويَّةً ـ كما يتمنَّاه الكثير ممَّن يقوم بالمهمات الشَّاقَّة في جيوش العالم قديماً ، وحديثاً ـ بل كانت أسمى من ذلك ، وأعظم؛ فهي وسام شرفٍ أخرويٍّ قليلٌ مَنْ يناله[(٥٢٨)] ، فقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم وسائرُ المتَّقين لا ينتظرون جزاءً في الدُّنيا ـ ولو حصلوا على شيءٍ من متاع الدُّنيا فإنَّه لا يعتبر عندهم شيئاً كبيراً؛ وإنَّما ينتظرون جزاءهم في الاخرة ، ولهذا كانت مكافأة عبد الله بن أنيسٍ تلك العصا؛ الَّتي ستكون علامةً بينه وبين رسول الله (ص) يوم القيامة ، وهذا يدلُّ على علوِّ مكانته في الاخرة[(٥٢٩)].

٤ ـ بعض الأحكام الفقهيَّة:

تضمَّن هذا الخبر بعض الأحكام ، والفوائد؛ منها: (صلاة الطَّالب). قال الخطَّابيُّ: واختلفوا في صلاة الطَّالب ، فقال عوام أهل العلم: إذا كان مطلوباً كان له أن يُصَلِّيَ إيماءً ، وإذا كان طالباً نزل إن كان راكباً ، وصلَّى بالأرض راكعاً ، وساجداً[(٥٣٠)] ، وكذلك قال ابن المنذر(٤) ، أمَّا الشَّافعيُّ فشرط شرطاً لم يشترطه غيره ، قال: إذا قلَّ الطَّالبون عن المطلوبين وانقطع الطَّالبون عن أصحابهم ، فيخافون عودة المطلوبين عليهم ، فإذا كان هكذا؛ كان لهم أن يصلُّوا يومئون إيماءً.

قال الخطَّابيُّ: وبعض هذه المعاني موجودةٌ في قصَّة عبد الله بن أُنيس[(٥٣١)].

وقد ذكر بدر العيني في عمدة القاري مذاهب الفقهاء في هذا الباب ، فعند أبي حنيفة إذا كان الرَّجل مطلوباً؛ فلا بأس بصلاته سائراً ، وإن كان طالباً؛ فلا ، وقال مالكٌ ، وجماعةٌ من أصحابه: هما سواءٌ ، كلُّ واحدٍ منهما يصلِّي على دابَّته.

وقال الأوزاعيُّ ، والشَّافعيُّ في اخرين كقول أبي حنيفة ، وهو قول عطاء ، والحسن والثَّوريُّ ، وأحمد ، وأبي ثور.

وعن الشَّافعيِّ: إن خاف الطَّالب فوت المطلوب؛ أومأ ، وإلاَّ؛ فلا[(٥٣٢)].

٥ ـ جواز الاجتهاد في زمن النَّبيِّ (ص):

يجوز الاجتهاد في زمن النَّبيّ (ص) ؛ فعبد الله بن أنيس رضي الله عنه أدَّاه اجتهاده أن يصلِّي هذه الصَّلاة ، ولم ينكر عليه (ص) ممَّا يدلُّ على جواز الصَّلاة عند شدَّة الخوف بالإيماء[(٥٣٣)].

وهذا الاستدلال صحيحٌ ، لاشكَّ فيه؛ لأنَّ عبد الله بن أُنيس فعل ذلك في حياة النَّبيِّ (ص) ، وذلك زمن الوحي ، ومحالٌ: أنَّ النَّبيَّ (ص) لم يطَّلع عليه[(٥٣٤)].

٦ ـ مِنْ دلائل النُّبوَّة:

وَصَفَ (ص) خالدَ بن سفيان الهذليَّ لعبد الله بن أُنَيس وصفاً دقيقاً دون أن يراه ، حتَّى إنَّ ابن أُنيس عندما ردَّ على رسول الله (ص) متعجباً ـ كما وقع في رواية الواقديّ ـ: يا رسول الله! ما فَرِقْتُ[(٥٣٥)] من شيءٍ قطُّ ، قال له رسول الله (ص) : «بلى ، اية ما بيني وبينه أن تجد له قُشَعريرةً إذا رأيته[(٥٣٦)]» ، وقد وجد عبد الله بن أُنيس خالدَ الهُذليَّ على الصِّفة؛ الَّتي ذكر رسول الله (ص) ، يقول عبد الله: فلما رأيته؛ هبته ، وفَرِقْتُ منه ، فقلت: صدق الله ، ورسولُه[(٥٣٧)].

٧ ـ ما قاله عبد الله بن أُنيس من الشِّعر في قتله لخالد الهُذليّ:

تَرَكْتُ ابْنَ ثَوْرٍ كالحُوَارِ وَحَوْلَهُ　　نَوَائِحُ تَفْرِيْ كُلَّ جَيْبٍ مُقَدَّدِ

تَنَاوَلْتُهُ والظُّعْنُ خَلْفِي وَخَلْفَهُ　　بِأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ الحَدِيْدِ المهَنَّدِ

أَقُولُ لَهُ وَالسَّيْفُ يَعْجُمُ رَأْسَهُ　　أَنَا ابْنُ أُنَيْسٍ فَارِسَاً غَيْرَ قُعْدُدِ

وَقُلْتُ لَهُ خُذْهَا بِضَرْبَةِ مَاجِدٍ　　حَنِيْفٍ عَلَى دِيْنِ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

وَكُنْتُ إِذَا هَمَّ النَّبِيُّ بِكَافِرٍ　　سَبَقْتُ إِليهِ بِاللِّسَانِ وَباليَدِ[(٥٣٨)]

ثالثاً: غدر قبيلتي عَضلُ والقَارَّة ، وفاجعة الرَّجيع[(٥٣٩)]:

اختلفت مروياتُ سريَّة الرَّجيع فيما بينها كثيراً حول السَّبب الَّذي من أجله بعث النَّبيُّ (ص) هذه السَّريَّة ، وفي الوقت الَّذي يورد البخاريُّ بأنَّه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدوِّ [البخاري (٤٠٨٦)] ، فإنَّ مروياتٍ أخرى بأسانيد صحيحةٍ ورد فيها: أنَّه قدِم على رسول الله (ص) رهطٌ من قبيلتي عضل ، والقَارَّة المضَرِيَّتَيْنِ إلى المدينة وقالوا: «إنَّ فينا إسلاماً ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقِّهوننا ، ويقرئوننا القران ويعلِّمونا شرائع الإسلام»[(٥٤٠)] ويظهر: أنَّ قبيلة هُذيل قد سعت للثَّأر من المسلمين لخالدٍ ابن سفيان الهذليِّ ، فلجأت إلى الخديعة والغدر. وقد جزم الواقديُّ[(٥٤١)] بأنَّ السبب هو أن بني لحيان ـ وهم حيٌّ من هُذَيل ـ مَشَتْ إلى عَضَل ، والقَارَّة ، وجعلت لهم جُعْلاً ليخرجوا إلى رسول الله (ص)

ويطلبوا منه أن يخرج معهم مَنْ يدعوهم إلى الإسلام، ويفقِّههم في الدِّين، فيكمُنوا لهم، ويأسروهم، ويُصيبوا بهم ثمناً في مكَّة[(٥٤٢)].

وهكذا بعث الرَّسول (ص) هذه السَّريَّة الَّتي تتألَّف من عشرةٍ من الصَّحابة [البخاري (٣٩٨٩)] ، وجعل عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح أميراً ، حتَّى إذا كانوا بين عُسْفان ومكَّة أغار بنو لحيان . وهم قريبٌ من مئتي مقاتل . ، فألجؤوهم إلى تلٍّ مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب ، ثم أعطوهم الأمان من القتل ، ولكن قائد السرية أعلن رفضه أن ينزل في ذمَّة كافرٍ[(٥٤٣)] ، وقال عاصم بن ثابت: إِنِّي نذرت ألا أقبل جوار مشركٍ أبداً ، فجعل عاصم يقاتلهم ، وهو يقول:

مَا عِلَّتِي وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلُ   النَّبْلُ وَالْقَوْسُ لَهَا بَلابِلُ[(٥٤٤)]

تَزِلُّ عَنْ صَفْحَتِهَا المِعَابِلُ[(٥٤٥)]   الموْتُ حَقٌّ والحَيَاةُ بَاطِلُ

وَكُلُّ مَا حَمَّ[(٥٤٦)] الإلهُ نَازِلُ   بِالمرْءِ والمرْءُ إِلَيْهِ ائلُ

إِنْ لَمْ أُقَاتِلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ[(٥٤٧)]

فرماهم بالنَّبْل؛ حتَّى فنيت نبلُه ، ثمَّ طاعنهم بالرُّمح حتَّى كُسِر رمحُه ، وبقي السَّيف فقال: اللّهمّ حَمَيْتُ دينَك أوَّل نهاري ، فاحْمِ لي لحمي اخره! وكانوا يجرِّدون كُلَّ مَنْ قُتِل مِنْ أصحابه ، فكسر غِمْدَ سيفه ، ثُمَّ قاتلَ حتَّى قُتِل ، وقد جَرَحَ رجلين وقَتل واحداً ، وكان يقول؛ وهو يقاتل:

أَبُو سُلَيْمانَ وَمِثْلِي رَامي   وَكَانَ قَوْمِي مَعْشَراً كِرَاما

ثمَّ شرعوا فيه الأسنَّة حتَّى قتلوه ، وكانت سُلافةُ بنت سعد بن الشُّهَيْد قد قُتِل زوجُها وبنوها أربعةٌ ، قد كان عاصم قتل منهم اثنين: الحارث ، ومُسافعاً ، فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشرب في قحفِ[(٥٤٨)] رأسه الخمرَ ، وجعلَتْ لمن جاء برأس عاصم مئة ناقةٍ ، قد علمت بذلك العرب ، وعلمته بنو لحيان ، فأرادوا أن يحتزُّوا رأس عاصم؛ ليذهبوا به إلى سُلافةَ بنت سعد ليأخذوا منها مئة ناقةٍ ، فبعث الله تعالى عليهم الدَّبْر[(٥٤٩)] فحمتْهُ ، فلم يَدْنُ إليه أحدٌ إلا لدغت وجهه ، وجاء منها شيءٌ كثير لا طاقة لأحدٍ به ، فقالوا: دعوه إلى اللَّيل ، فإنَّه إذا جاء اللَّيل؛ ذهب عنه الدَّبْر ، فلما جاء اللَّيل بعث الله عليه سيلاً . ولم يكن في السَّماء سحابٌ في وجه من الوجوه . ، فاحتمله ، فذهب به؛ فلم يَصِلُوا إليه. [البيهقي في الدلائل (٣/٣٢٨) ، وابن هشام (٣/١٨٠)][(٥٥٠)].

لقد قُتِلَ عاصمٌ في سبعةٍ من أفراد السَّريَّة بالنَّبْلِ ، ثُمَّ أعطى الأعرابُ الأمانَ من جديدٍ للثَّلاثة الباقين ، فقبلوا ؛ غير أنَّهم سرعان ما غدروا بهم بعد ما تمكَّنوا منهم ، وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه ، واقتادوا الاثنين إلى مكَّة ، وهما خبيب ، وزيد بن الدَّثِنَّة؛ فباعوهما لقريشٍ[(٥٥١)] وكان ذلك في صفر سنة ٤ هـ[(٥٥٢)].

فأما خُبَيْب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيبٌ قد قتله يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً ، حتى إذا أجمعوا قتله استعار مُوسَى من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بها ، فأعارته ، وغفلت عن صبيٍّ لها ، فدرج فجلس على فَخذه ، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منه ، فقال خبيبٌ: أتخشينَ أن أقتله؟! ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى ، فكانت تقول: ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خبيب؛ لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة ، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقٌ رَزَقَهُ الله ، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه ، فقال: دعوني أصلِّ ركعتين ، ثمَّ انصرف إليهم ، فقال: لولا أن تقولوا إنَّ ما بي جَزَعٌ من الموت؛

لزدت ، فكان أوَّل مَنْ سنَّ الرَّكعتين عند القتل هو[(٥٥٣)] ، ثُمَّ قال: «اللّهُمَّ أحصهم عدداً ، واقتلهم بَدداً[(٥٥٤)] ، ولا تُبْقِ منهم أحداً» [البخاري (٣٩٨٩) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٣٢٤ ـ ٣٢٥) ، وابن هشام (٣/١٨١ ـ ١٨٢)] ثُمَّ قال:

لَقَدْ أَجْمَعَ الأَحْزَابُ حَوْلِي وَأَلَّبُوا ... قَبَائِلَهُمْ وَاسْتَجْمَعُوا كُلَّ مَجْمَعِ
وَكُلُّهم مُبْدِي العَدَاوة جَاهِدٌ ... عَلَيَّ لأَنِّي فِي وَثَاقٍ بِمَضْيَعِ
وَقَدْ قَرَّبُوا أَبْنَاءَهُم وَنِسَاءَهُمْ ... وَقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طَوِيْلٍ مُمَنَّعِ
إلى اللهِ أَشْكُو غُرْبَتِي بَعْدَ كُرْبَتِيْ ... وَمَا أَرْصَدَ الأَحْزَابُ لي عِنْدَ مَصْرَعِيْ
فذَا العَرْشِ صَبِّرْنِي عَلَى مَا يُرَادُ بِيْ ... فَقَدْ بَضَّعُوا لَحْمِي وَقَدْ يَاسَ[(٥٥٥)] مَطْمَعي
وَقَدْ خَيَّرُونِي الكفر والمَوْتُ دُوْنَه ... فَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَايَ مِنْ غَيْرِ مَجْزَعِ
وَمَا بِيْ حَذَارِ المَوْتِ إِنِّي لَمَيِّتٌ ... وَإِنَّ إلى رَبِّي إِيَابِي وَمَرْجِعي
وَلَسْتُ أُبَالِي حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِماً ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ فِي الله مَصْرَعِي
وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإلهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ لِلْعَدُوِّ تَخَشُّعاً ... وَلاَ جَزَعاً إِنِّي إلى الله مَرْجِعي[(٥٥٦)]

فقال له أبو سفيان: أيسرُّك: أنَّ محمَّداً عندنا يُضربُ عنقُه؛ وأنَّك في أهلك؟ فقال: لا والله! ما يسرُّني أنِّي في أهلي ، وأنَّ محمَّداً في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه[(٥٥٧)]. ثُمَّ قُتِل ، وصلبوه ، ووكَّلوا به مَنْ يحرُس جُثَّتَه ، فجاء عَمْرُو بنُ أميَّة الضَّمْرِيُّ ، فاحتمله بجذعه ليلاً ، فذهب به ، ودفنه[(٥٥٨)] وأمَّا زيد بن الدَّثِنَّة ، فاشتراه صفوان بن أميَّة وقتله بأبيه أميَّة بن خلف الَّذي قُتل ببدر، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد! أتحبُّ أنَّ محمداً الان عندنا مكانك تضربُ عنقُه؛ وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الان في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وإنِّي جالسٌ في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من النَّاس أحداً يحبُّ أحداً؛ كحبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً[(٥٥٩)].

وقد عُرِفت هذه الحادثة المفجعة بالرَّجيع ، نسبةً إلى ماء الرَّجِيع الَّذي حصلت عنده.

وفي هذه الحادثة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ فوائد ذَكَرها ابن حجر:

«وفي الحديث: أنَّ للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ، ولا يمكِّنَ من نفسه؛ ولو قُتل؛ أَنَفَةً من أن يجري عليه حكم كافرٍ ، وهذا إذا أراد الأخذ بالشِّدَّة ، فإن أراد الأخذ بالرُّخصة؛ فله أن يستأمن. قال الحسن البصريُّ: لا بأس بذلك ، وقال سفيان الثَّوريُّ: أكره ذلك. وفيه الوفاء للمشركين بالعهد ، والتورُّع عن قتل أولادهم ، والتلطُّف بمن أريد قتلُه ، وإثبات كرامة الأولياء ، والدُّعاء على المشركين بالتَّعميم ، والصَّلاة عند القتل ، وفيه إنشاء الشِّعر ، وإنشاده عند القتل ، ودلالة على قوَّة يقين خبيب ، وشدَّته في دينه.

وفيه: أنَّ الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه ، ليثيبه ، ولو شاء ربُّك ما فعلوه ، وفيه استجابة دعاء المسلم ، وإكرامه حيّاً وميتاً ، وغير ذلك من الفوائد ممَّا يظهر بالتأمُّل. وإنَّما استجاب الله له مِنْ حماية لحمه من المشركين ، ولم يمنعهم من قتله؛ لما أراد من إكرامه بالشَّهادة ، ومن كرامته حمايته مِنْ هتك حرمته بقطع لحمه»[(٥٦٠)].

٢ ـ بين التَّسليم ، والقتال حتَّى الموت:

يستدلُّ ممَّا سبق أنَّ للأسير في يد العدوِّ أن يمتنع مِنْ قبول الأمان ، ولا يمكِّن من نفسه؛ ولو قُتل؛ ترفعاً عن أن يجري عليه حكم كافرٍ ، كما فعل عاصمٌ ، فإن أراد التَّرخُّص؛ فله أن يستأمن ، مترقباً الفرصة مؤمِّلاً الخلاص ، كما فعل خبيبٌ ، وزيدٌ؛ ولكن لو قدر الأسير على الهرب؛ لزمه ذلك في الأصح ، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم؛ لأنَّ الأسير في يد الكفار مقهورٌ مهانٌ ، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه مِنْ هوان الأسر ، ورقِّه[(٥٦١)].

وهذا الحدث يفتح أمام المسلمين باباً واسعاً في التَّعامل مع الأحداث؛ في اختيارهم الأسر إذا طُلبوا مظلومين ، أو اختيارهم القتال حتَّى الموت؛ ما دام الطَّالب لا يطلبهم بعدلٍ ، وما دامت السُّلطة غير إسلاميَّة[(٥٦٢)].

٣ ـ تعظيم سنَّة النَّبيِّ (ص):

وفي الحديث يظهر تعظيم الصَّحابة لسنَّة النَّبيِّ (ص) ، وكيف أن خُبَيْباً مع أنَّه في أسر المشركين ، ويعلم: أنَّه سيُقتل بين عشيَّةٍ ، أو ضحاها ، ومع ذلك كان حريصاً على سنَّة الاستحداد ، واستعار السِّكِّين لذلك ، وفي هذا تذكيرٌ لِمَنْ يستهين بكثيرٍ من السُّنن ، بل والواجبات؛ بحجَّة: أنَّه لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظُّروف الَّتي تمرُّ بها الأمَّة ، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السُّنَّة والدُّخول في شرائع الإسلام كافَّةً[(٥٦٣)].

٤ ـ الإسلام ينتزع الغدر ، والأحقاد:

عندما استعار خبيب مُوسى مِنْ بعض بنات الحارث؛ ليستحدَّ بها ، فأعارته؛ قالت المرأة: فغفلتُ عن صبيٍّ لي ، دَرَجَ إليه حتَّى أتاه ، فوضعه على فخذه فلما رأيتُه؛ فَزِعْتُ منه فَزعةً عرف ذلك منِّي ، وفي يده الموسى ، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك؛ إن شاء الله. [البخاري (٤٠٨٦)][(٥٦٤)].

إنَّه موقفٌ رائعٌ يدلُّ على سموِّ الرُّوح ، وصفاء النَّفس ، والالتزام بالمنهج الإسلاميِّ ، فقد قال تعالى: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [الإسراء: ١٥].

إنَّه الوفاء يتعلَّمُه النَّاس ممَّن غدر بهم؛ فإنَّ الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرَّخاء ، والشِّدَّة[(٥٦٥)].

وفي قول خبيبٍ رضي الله عنه: (ما كنت لأفعل؛ إن شاء الله) يشير هذا الأسلوب في البيان العربيِّ إلى أنَّ هذا الفعل غير واردٍ ، ولا متصوَّرٍ ، ولا هو في الحسبان ، في هذا الظَّرف الحاسم ، الَّذي قد يتعلَّق فيه الاستثناء لموقع الضَّرورة ، وإنقاذ المهَجِ ، لكنَّ المبدأ الأصليَّ الوفاءُ ، والكفُّ عن البُراء لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة[(٥٦٦)] ، وهذا مثلٌ من عظمة الصَّحابة رضي الله عنهم حين يطبِّقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم ـ وإن كانوا قد ظلموهم ـ ، وهذا دليلٌ على وعيهم ، وكمال إيمانهم[(٥٦٧)].

٥ ـ حبُّ النَّبيِّ (ص) عند الصَّحابة:

إنَّ حظَّ الصَّحابة من حبِّه (ص) كان أتمَّ ، وأوفرَ ، ذلك: أنَّ المحبَّة ثمرةُ المعرفة ، وهم بقدره (ص) ، ومنزلته أعلمُ ، وأعرفُ مِنْ غيرهم ، فبالتَّالي كان حبُّهم له (ص) أشدَّ ، وأكبر[(٥٦٨)].

في حادثة الرَّجيع يظهر هذا الحبُّ في الحوار الهادأى بين أبي سفيان ، وبين زيدٍ ابن الدثنَّة؛ إذ قال له أبو سفيان: أتحبُّ أنَّ محمَّداً الان عندنا مكانك تضرب عنقُه، وأنَّك في أهلك؟ فقال زيد: والله! ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الان في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ؛ وإنِّي جالسٌ في أهلي[(٥٦٩)].

وهذا الحبُّ من الإيمان ، فقد قال (ص) : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: مَنْ كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، ومَنْ أحبَّ عبداً لا يحبُّه إلا لله ، ومَنْ يكرهُ أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يُلقى في النَّار» [البخاري (٢١) ، ومسلم (٤٣)].

٦ ـ ممَّا قاله حسَّان في ذمِّ بني لِحْيَان:

تأثَّر المسلمون بمقتل أصحاب الرَّجيع تأثُّراً بالغاً ، وكان حسَّان رضي الله عنه بشعره يعبِّر عن حال المسلمين ، فمن يستحقُّ الهجاء ، هجاه ، ومَنْ يستحقُّ المدح؛ مدحه ، فقال في هجاء بني لِحْيان:

إنْ سرَّكَ الغَدْرُ صِرْفاً لا مِزاجَ لَهُ   فائْتِ الرَّجيْعَ فَسَلْ عَنْ دَارِ لِحْيَانِ

قَوْمٌ تَوَاصَوا بِأَكْلِ الجَارِ بَيْنَهُمُ   فَالكَلْبُ والقِرْدُ والإنْسَانُ مِثْلانِ

لَوْ يَنْطِقُ التَّيْسُ يَوْماً قَامَ يَخْطُبُهُمْ   وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِيْهِمْ وَذَا شَانِ[(٥٧٠)]

رابعاً: طمع عامر بن الطُّفَيْل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤هـ):

عامر بن الطُّفيل زعيمٌ من زعماء بني عامرٍ ، كان متكبِّراً متغطرساً ، طامعاً في الملك ، وكان يرى: أنَّ النَّبيَّ (ص) سوف تكون له الغلبة على الجزيرة العربيَّة؛ ولذلك جاء هذا المشرك إلى النَّبيِّ (ص) ، وقال له: أُخيِّرك بين ثلاث خصالٍ: أن يكون لك أهلُ السَّهل ، ولي أهلُ المدَرِ ، أو أكونَ خليفتَك ، أو أغزوك بأهل غَطَفان بألف أشقر وألف شقراء [البخاري (٤٠٩١)] ، فرفض (ص) تلك المطالب الجاهليَّة ، وجاء إلى المدينة مُلاعِبُ الأسنَّة سيِّد بني عامر عمُّ عامر بن الطُّفَيْل ، وقدَّم إلى النَّبيِّ (ص) هَدِيَّةً، فعرض عليه النَّبيُّ (ص) الإسلام ، فلم يُسْلِم ، ولم يَبْعُدْ من الإسلام ، وقال: يا محمد! لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجدٍ ، رجوتُ أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله (ص) : إنِّي أخشى عليهم أهل نجدٍ ، قال مُلاعِبُ الأسنَّة (أبو براء): أنا لهم جارٌ ، فابعث إلى أهل نجدٍ مَنْ شئت. فبعث إليهم بقومٍ فيهم المنذرُ بن عمرو ، وهو الَّذي يقال له: الْمُعْنِق لِيَمُوت[(٥٧١)] ، أو أعنق الموت ، فاستجاش[(٥٧٢)] عليهم عامر بن الطُّفيل بني عامر ، فأبوا أن

يطيعوه ، وأبوا أن يخفروا مُلاعِبَ الأسنَّة ، فاستجاش عليهم بني سُلَيم ، فأطاعوه ، فأتبعهم بقريب من مئة رجل رامٍ ، فأدركهم ببئر مَعُونة ، فقتلوهم إلا عمرو بن أميَّة[(٥٧٣)].

ومن حديث أنسٍ رضي الله عنه قال: جاء ناسٌ إلى النَّبيِّ (ص) ، فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلِّمونا القران ، والسُّنَّة. فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار ، يقال لهم القُرَّاء ، فيهم خالي حَرَام ، يقرؤون القران ، ويتدارسون باللَّيل يتعلَّمون ، وكانوا بالنَّهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ، ويحتطبون ، فيبيعونه ، ويشترون به الطَّعام لأهل الصُّفَّة ، وللفقراء ، فبعثهم النَّبيُّ (ص) إليهم ، فعَرَضُوا لهم ، فَقَتَلُوهم ، قبل أن يَبْلُغُوا المكانَ ، فقالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا: أنَّا قد لَقِيناك ، فرضينا عنك ، ورضيت عنَّا.

قال: وأتى رجلٌ حراماً خال أنسٍ مِنْ خلفه ، فطعنه بِرُمْحٍ حتَّى أَنْفَذَهُ ، فقال حرام: فُزْتُ وربِّ الكعبة ، فقال رسول الله (ص) لأصحابه: «إنَّ إخوانكم قد قُتلوا ، وإنَّهم قالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا أنا قد لقيناك ، فرضينا عنك ، ورضيت عنَّا» [أحمد (١/٤١٦) ، ومسلم (٦٧٧) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٣٤٤)].

وفي هذه الحادثة المؤلمة ، والفاجعة المفجعة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ لابدَّ للدَّعوة من تضحيات:

رأينا كيف غَدَرَ حلفاء هُذَيْل بأصحاب الرَّجيع من القُرَّاء ، الَّذين أرسلهم النَّبيُّ (ص) معلِّمين ، ومفقِّهين في غزوة الرَّجيع ، وها هنا عامر بن الطُّفيل يغدر بالسَّبعين القرَّاء ، الَّذين استنفروا للدَّعوة إلى الله ، والتَّفقيه في دين الله ، في مجزرة رهيبةٍ دنيئةٍ ، وذلك في يوم بئر معونة.

وقد تركتْ هذه المصائب في نفس رسول الله (ص) اثاراً غائرةً ، بعيدة الأعماق ، حتَّى إنَّه لبث شهراً يَقْنُت في صلاة الفجر داعياً على قبائل سُلَيْم؛ الَّتي عَصَتِ اللهَ ، ورسولَه (ص)[(٥٧٤)] ؛ فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قنت رسول الله (ص) شهراً متتابعاً في الظُّهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، وصلاة الصُّبح ، في دبر كلِّ صلاة ، إذا قال: «سمع اللهُ لمن حمده» من الرَّكعة الأخيرة ، يدعو على أحياءٍ من بني سُلَيم؛ على رِعْلٍ وذَكْوَانَ وعُصَيَّةَ ويؤمِّنُ مَنْ خلفه. [أحمد (١/٣٠١ ـ ٣٠٢) ، وأبو داود (٤٤٣) ، وابن خزيمة (٦١٨)].

قال أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: وذلك بدء القنوت ، وما كنَّا نَقنُتُ ، وسأل رجلٌ أنساً عن القنوت: أبعد الرُّكوع ، أو عند فراغٍ من القراءة ، قال: لا ، بل عند فراغٍ من القراءة. [البخاري (٤٠٨٨)][(٥٧٥)].

لكن ذلك لم يفتَّ في عَضُدِ المسلمين ، ولا فتَّر من حميَّتهم في الدَّعوة إلى الله ، ولا كسر من عزمهم في مواصلة الدَّعوة ، وخدمة دين الله ، لأنَّ مصلحة الدَّعوة فوق الأنفس والدِّماء؛ بل إنَّ الدعوة لا يكتب لها النَّصر؛ إذا لم تُبْذَلْ في سبيلها الأرواحُ ، ولا شيء يمكِّن للدَّعوة في الأرض مثل الصَّلابة في مواجهة الأحداث ، والأزمات ، واسترخاص التَّضحيات من أجلها.

إنَّ الدَّعوات بدون قوى ، أو تضحيات ، يوشك أن تكون بمثابة فلسفات ، وأخيلةٍ ، تلفُّها الكتب ، وترويها الأساطير ، ثمَّ تُطْوَى مع الزَّمن.

إن حادثتي الرَّجيع وبئر مَعُونة ، تُبَصِّراننا بالمسؤولية الضَّخمة عن دين الله ، والدَّعوة إليه ، وضعت نُصْبَ أعيننا[(٥٧٦)] نماذج من التَّضحيات العظيمة الَّتي قدَّمها الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم ، من أجل عقيدتهم ، ودينهم ، ومرضاة ربِّهم.

إنَّ للسَّعادة ثمناً ، وإنَّ للرَّاحة ثمناً ، وإنَّ للمجد والسُّلطان ثمناً ، وثمن هذه الدَّعوة دمٌ زكيٌّ يُراق في سبيل الله ، من أجل تحقيق شرع الله ونظامه ، وتثبيت معالم دينه على وجه البسيطة[(٥٧٧)].

٢ ـ فزت وربِّ الكعبة:

صاحب الكلمة حرام بن مِلْحانَ رضي الله عنه ، فعندما اخترق الرُّمْحُ ظهرَه حتَّى خرج من صدره ، وأصبح يتلقَّى الدَّم بيديه ، ويمسح به وجهه ، ورأسه ، وقال: فزت وربِّ الكعبة. [البخاري (٤٠٩٢)].

إنَّ هذا المشهد يجعل أقسى القلوب ، وأعظمها تحجُّراً يتأثَّر ، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الَّذين لا تَصْفَرُّ وجوههم فزعاً من الموت ، وإنما يعلوها البِشْرُ والسُّرور ، وتغشاها السَّكينة والطُّمأْنينة[(٥٧٨)].

وهذا المنظر البديع الرَّائع الَّذي لا يتصوَّره العقل البشريُّ المجرَّد عن الإيمان جعل جَبَّار بن سلمى ، وهو الَّذي طعن حرام بن ملحان يتساءل عن قول حرام: «فزت وربِّ الكعبة» وهذا جبَّار

يحدِّثنا بنفسه ، فيقول: إنَّ ممَّا دعاني إلى الإسلام: أنِّي طعنت رجلاً منهم يومئذٍ برمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سِنَان الرُّمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول: «فزت وربِّ الكعبة!» فقلت في نفسي: ما فاز ، ألست قد قتلت الرَّجل؟! حتَّى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا: للشَّهادة. فقلت: فاز لَعَمْرُ الله! فكان سبباً لإسلامه. [البيهقي في الدلائل (٣/٣٥٣)][(٥٧٩)].

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونا للتَّساؤل: هل يتعرض الشَّهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشَّافية من رسول الله (ص) الَّذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «ما يجد الشَّهيد من مسِّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مَسِّ القَرْصةَ» [الترمذي (١٦٦٨) ، والنسائي (٦/٣٦) ، وابن ماجه (٢٨٠٢)].

فللشهيد منزلةٌ خاصَّة عند الله ، فجزاء الثَّمن الباهظ الَّذي يدفعه ، وهو روحه رخيصةً في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لم يبخسه الحكم العدل حقَّه ، فكافأه مكافأةً بستِّ جوائز ، كلُّ واحدةٍ منها تعدل الدُّنيا وما فيها ، فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «للشَّهيد عند الله سِتُّ خصالٍ: يُغفَر له في أوَّل دفعةٍ من دمه ، ويَرى مقعده من الجنَّة ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويُحَلَّى حُلَّة الإيمان ، ويزوَّج من الحور العين ، ويُشفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه» [الترمذي (١٦٦٣) ، وابن ماجه (٢٧٩٩)][(٥٨٠)].

هذا بالإضافة إلى الوسام المميَّز المشرَّف؛ الَّذي يأتي به يوم القيامة: وجُرْحُهُ كهيئته يوم جُرِحَ: «اللَّون لون الدَّم ، والرِّيح ريح المسك» [الترمذي (١٦٥٦)].

كما أنَّ حياة الشُّهداء لا تنتهي بمجرَّد موتهم ، بل هم أحياء يرزقون ، ويتنعمون عند ربِّهم[(٥٨١)]. قال تعالى: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ *} [آل عمران: ١٦٩].

٣ ـ عدم معرفة النَّبيِّ (ص) للغيب:

إنَّ حادثتي بئر مَعُونة والرَّجيع ، وغيرهما تدلاَّن على أنَّ الرَّسول (ص) لا يعلم الغيب ، كما دلَّت على ذلك أدلَّةٌ أخرى منها قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *} [الأعراف: ١٨٨].

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده عالم الغيب ، والرُّسل والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علَّمهم ربُّهم ـ عزَّ وجلَّ ـ[(٥٨٢)]: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا *إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا *} [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

٤ ـ الوفاء بالعهد:

وقع عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ رضي الله عنه أسيراً في بئر مَعُونة ، ولما علم عامرُ بن الطُّفَيل: أنَّه من مُضر أطلقه ، وجزَّ ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنَّها كانت على أمِّه ، فلمَّا خرج عمرو قاصداً المدينة ، نزل في طريقه في ظلٍّ ، والتقى برجلين من بني عامر ـ وكان معهما عقدٌ من رسول الله ، وجوار ، لم يعلم به

عمرو بن أميَّة. وقد سألهما حين نزلا: ممَّن أنتما؟ فقالا: من بني عامر ، فأمهلهما ، حتَّى إذا ناما ، عدا عليهما ، فقتلهما ، وهو يرى أنَّه قد أصاب بهما ثُؤْرةً[(٥٨٣)] من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله (ص) ، فلمَّا قدم عمرو بن أميَّة على رسول الله ، فأخبره الخبر ، قال رسول الله (ص) : لقد قتلت قتيلين؛ لأدِينَّهما[(٥٨٤)].

وهذا موقفٌ رفيعٌ ، فقد وَدَى (ص) ذينك الرَّجلين العامريين اللَّذينِ قتلهما عمرو بن أميَّة الضَّمريُّ؛ لكونهما يحملان عقداً منه (ص) ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما ، وهذا يمثِّل منتهى القمَّة في الوفاء بالعهود.

قد كان بإمكان النَّبيِّ (ص) أن يعتبر عمل عمرو بن أميَّة جزءاً من الانتقام الَّذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون ، ولكنْ ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين مِنْ قومهم؟!

إنَّ التَّوجيهات الإسلاميَّة الرَّفيعة دفعت بالمسلمين ، ونبيِّهم (ص) إلى الرُّقيِّ الأخلاقي ، الَّذي لا نظير له في دنيا النَّاس[(٥٨٥)].

٥ ـ الصَّحابيُّ الجليل عامر بن فُهَيرة رضي الله عنه:

«لما قُتل الَّذين ببئر مَعُونة وأُسِرَ عمرُو بن أُميَّة الضَّمري ، قال له عامر بن الطُّفَيْل: من هذا ـ وأشار إلى قتيل ـ؟ فقال له عمرُو بن أميَّة: هذا عامرُ بن فُهَيرة. فقال: لقد رأيتُه بعدما قُتل رُفع إلى السَّماء ، حتَّى إنِّي لأنظرُ إلى السَّماء بينه وبين الأرض ، ثمَّ وُضِع» [البخاري (٤٠٩٦)][(٥٨٦)].

٦ ـ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه يحرِّض على قتل عامر بن الطُّفَيْل:

كان حسَّان رضي الله عنه من رجالات المؤسَّسة الإعلاميَّة ، فكان يشنُّ الحرب النَّفسيَّة على الأعداء ، وكان بجانبه كعبُ بن مالكٍ ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم ، فلم يتركوا حدثاً من أحداث السِّيرة إلا قالوا فيه شعراً ، وكلُّ قصيدةٍ للكافرين يردُّون عليها بقصائدَ ، وقد عَلِمنا ما أحدثه شعر حسَّان في طرد كعب بن الأشرف اليهوديِّ ، وكان (ص) يتعهَّد شعراء الدَّولة الإسلاميَّة ويشجِّعهم على خوض هذا الباب من الجهاد ، فعلى المسلمين المعاصرين قادةً ، وزعماء ، وعلماء ، وفقهاء ، وجماعات. أن يرعوا شعراءهم ، ويشجِّعوهم لخوض هذا الجهاد العظيم[(٥٨٧)].

ولما بلغ حسَّاناً خبرُ أصحاب بئر مَعُونة ، نَظَمَ أبياتاً تناقلتها الرُّكبان ، يحثُّ فيها ربيعةَ بن عامر بن مالك مُلاعبِ الأسِنَّة ، ويحرِّضه بعامر بن الطُّفيل بإخفاره ذمَّة أبيه أبي براء:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي رَبِيْعاً بِمَا أَحْدَثَتْ فِي الحِدْثَانِ بَعْدِي

أَبُوْكَ أبُو الفِعَال أَبُو بَرَاءٍ وَخَالُكَ مَاجِدٌ حَكَمُ بنُ سَعْدِ
بَنِي أُمِّ البَنِيْنَ أَلَمْ يَرُعْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْ ذَوَائِبِ أَهْلِ نَجْدِ
تَحَكُّمُ عَامِرٍ بأَبِي بَرَاءٍ لِيَخْفِرَهُ وَمَا خَطَأٌ كَعَمْدِ[(٥٨٨)]

فلمَّا بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشِّعْرُ ، وكان الشِّعر عندهم أوجع مِنْ رشق النَّبْل ، وقطْع السُّيوف للرِّقاب ، وطعن النُّحور بالرِّماح: قام ربيعةُ بأخذ ثأر أبيه ، فضرب عامرَ بنَ الطُّفيل ضَرْبَةً أشواه بها ـ أي: لَمْ تصب منه مقتلاً ـ فوثب عليه قومُه ، وقالوا لعامرٍ: اقتصَّ! فقال: قد عفوت ، وإن عِشْتُ فسأرى رأيي فيما أتى إليَّ[(٥٨٩)].

وممَّا قاله حسَّان وهو يبكي قتلى بئر مَعُونة ، ويخصُّ المنذرَ بن عمرو رضي الله عنه:

عَلَى قَتْلَى مَعُوْنَةَ فَاسْتَهِلّي بِدَمْعِ العَيْنِ سَحّاً غَيْرَ نَزْرِ[(٥٩٠)]
عَلَى خَيْلِ الرَّسُولِ غَدَاةَ لاَقَوا مَنَايَاهُمْ وَلاَ قَتْهُم بقَدْرِ
أَصَابَهُمُ الفَنَاءُ بِعَقْدِ قَوْمٍ تُخُوِّن عَقْدُ حَبْلِهِمُ بغَدْرِ[(٥٩١)]
فيا لهفي لِمُنْذرٍ إذْ تَوَلَّى وَأَعْنَقِ فِي مَنِيَّتِه بِصَبْرِ[(٥٩٢)]

٧ ـ مصير عامر بن الطُّفيل العامريُّ:

استجاب الله لدعاء نبيِّه (ص) ، فقد دعا (ص) على عامر بن الطُّفَيْل ، فقال: «اللَّهُمَّ اكفني عامراً!» [الطبراني في الكبير (٥٧٢٤) ، ومجمع الزوائد (٦/١٢٥ ـ ١٢٦)] [(٥٩٣)]، فأُصيب الطَّاغيةُ بمرضٍ عُضَال[(٥٩٤)] ، وصفه (ص) بقوله: «غدةٌ كغدَّة البعير»[(٥٩٥)] ، وسمَّاه (ص) بـ (الطَّاعون) ، وهو وصفٌ دقيقٌ للطَّاعون الدُّبلي ، الَّذي يتميَّز (بارتفاع درجة الحرارة ، وتضخم العقد الليمفاوية في منطقة الإرب ، وتحت الإبط ، وكذا تضخُّم الطِّحال)[(٥٩٦)] ، وهو ما أُصيب به عامر بن الطُّفَيل حتَّى أصبح حبيساً في بيت امرأةٍ من قومه.

لقد أُصيب عامرُ بن الطُّفَيْل ، وتلاشت أحلامُه بالتَّملُّك على أهل المدن في الجزيرة العربيَّة ، أو خلافة النَّبيِّ (ص) ، وأمَّا تلك الجيوشُ الَّتي هدَّد النَّبيَّ (ص) بها ، فقد تحوَّلت إلى الام تحبسه في بيت امرأةٍ ، قد ولَّى عنه النَّاس ، ونفروا منه خشيةَ العدوى ، ففقدَ صوابَه ، وصرخ بمن بقي حوله ، فقال: «غُدَّةٌ كغُدَّة البكر في بيت امرأةٍ من بني ال فلان ، ائتوني بفرسي ، فمات على ظَهر فَرَسِه» [البخاري (٤٠٩١)][(٥٩٧)]؛ هلك ذلك الجبَّار العنيد كالمجنون ، بعد أن تطاير النَّاسُ من حوله خوفاً على أنفسهم من العدوى[(٥٩٨)].

* * *

المبحث الثَّاني

زواج النَّبي (ص) بأمِّ المساكين ، وأمِّ سلمة ، وأحداثٌ متفرِّقةٌ

أولاً: زينب بنت خُزَيمة أمُّ المساكين رضي الله عنها:

هي زينب بنت خُزَيْمة بن الحارث الهلاليَّة ، فهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمَّى في الجاهليَّة أمَّ المساكين؛ لإطعامها إياهم. تزوَّجها رسول الله (ص) في رمضان على رأس واحدٍ وثلاثين شهراً من الهجرة ، فمكثت عنده ثمانية أشهر ، وتُوُفِّيَتْ في حياته (ص) في اخر ربيعٍ الأوَّل على رأس تسعة وثلاثين شهراً ، ودفنت في مدينة رسول الله (ص)[(٥٩٩)] .

كانت زينب بنت خزيمة تحت عبد الله بن جحش بن رئاب ، الَّذي قُتل في معركة أُحدٍ شهيداً في سبيل الله تعالى ، فتزوَّجها (ص) إكراماً لها بعد أن فُجِعَتْ بقتل زوجها في معركة أُحدٍ ، ولم يتركها أرملةً وحيدةً ، فكأنَّه (ص) كافأها على فضائلها بعد مصاب زوجها[(٦٠٠)].

ثانياً: زواج النَّبيِّ (ص) بأمِّ سلمةَ رضي الله عنها:

هي هند بنت أبي أميَّة حُذافة بن المغيرة القرشيَّة المخزومية ، كانت زوجة ابن عمِّها أبي عبد الله بن عبد الأسد ، وزوجها هذا هو ابن عمَّة الرَّسول (ص) برَّة بنت عبد المطلب ، وهو أيضاً أخو رسول الله (ص)

من الرَّضاعة ، وقد هاجرت أمُّ سلمة رضي الله عنها وزوجُها أبو سلمةَ إلى الحبشة فراراً بدينهما من المشركين ، ثمَّ رجعا إلى مكَّة وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله (ص) والمسلمون[(٦٠١)].

١ ـ حديث أمِّ سلمةَ لأبي سلمةَ رضي الله عنهما:

قالت أُمُّ سلمة لأبي سلمة: بلغني: أنه ليس امرأةٌ يموت زوجها؛ وهو من أهل الجنَّة ، ثمَّ لم

تتزوَّج بعده ، إلا جمع الله بينهما في الجنَّة؛ فتعال أعاهدك ألا تزوَّج بعدي ، ولا أتزوَّج بعدك! قال: أتطيعينني؟ قالت: نعم. قال: إذا متُّ تزوَّجي ، اللّهم! ارزق أمَّ سلمة بعدي رجلاً خيراً منِّي ، لا يحزنها ، ولا يُؤذيها. فلمَّا مات؛ قلتُ: مَنْ خيرٌ من أبي سلمة؟ فما لبث وجاء رسولُ الله (ص) ، فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها ، أو ابنها ، فقالت: أردُّ على رسول الله (ص) ، أو أتقدَّم عليه بعيالي ، ثمَّ جاء الغد ، فخطب[(٦٠٢)].

٢ ـ دعاءُ أمِّ سلمة لما توفِّي زوجُها:

لما تُوفي زوجُها أبو سلمة من أثر جراحاتٍ أصابته في قتاله للمشركين ، وكانت تحبُّه ، وتجلُّه ، جاءت للنَّبيِّ (ص) ، فقالت: يا رسول الله! إنَّ أبا سلمةَ قد مات! قال (ص) «قولي: اللَّهم! اغفر لي ، وله ، وأعقبني[(٦٠٣)] منه عُقْبَى حَسَنَةً». قالت: فقلت ، فأعْقَبَني اللهُ مَنْ هو خَيْرٌ لي منه محمَّداً (ص) . [أحمد (٦/٢٩١ و٣٠٦) ، ومسلم (٩١٩) ، وأبو داود (٣١١٥) ، والنسائي (٤/٤) ، وابن ماجه (١٤٤٧)].

٣ ـ حوار رسول الله (ص) لأمِّ سلمة عندما خطبها:

قال عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما: إنَّ أمَّ سلمة لما انقضت عدَّتها ، خطبها أبو بكر ، فردَّته، ثمَّ خطبها عمر ، فردَّته ، فبعث إليها رسول الله (ص) ، فقالت مرحباً: أخبِرْ رسولَ الله: أنِّي غَيْرَى[(٦٠٤)] ، وأنِّي مُصْبِيةٌ[(٦٠٥)] وليس أحدٌ من أوليائي شاهداً.

فبعث إليها: «أمَّا قولك: إنِّي مصبيةٌ فإنَّ الله سيكفيك صبيانك. وأمَّا قولُك: إنِّي غيرى ، فسأدعو الله أن يُذْهِبَ غيرتك. وأمَّا الأولياء ، فليس أحدٌ منهم إلا سيرضى بي» [أحمد (٦/٣١٣ ـ ٣١٤) ، والنسائي (٦/٨١ ـ ٨٢)][(٦٠٦)] وفي روايةٍ: إنِّي امرأة قد أدبر من سنِّي. فكانت إجابة رسول الله (ص) لها: «وأمَّا السِّنُّ؛ فأنا أكبر منك» [طبقات ابن سعد (٨/٩٠)] وهكذا أحسن إليها (ص) الجواب ، وما كان إلا محسناً[(٦٠٧)].

قالت أمُّ سلمة: يا عمر «أي ابنها»! قم فزوِّجْ رسولَ الله (ص) . [انظر الحديث قبل السابق]. قال ابن كثير في تعليقه على قول أمِّ سلمة: قم يا عمر فزوِّج النَّبيِّ (ص) : تعني: قد رضيت ، وأذنت ، فتوهَّم بعضُ العلماء: أنَّها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان ذاك صغيراً لا يلي مثلُه العقد ،

وقد جمعتُ في ذلك جزءاً مفرداً بيَّنت فيه الصَّواب في ذلك ، ولله الحمد والمنَّة ، وإنَّ الذي ولي عقدها عليه ابنُها سلمة بن أبي سلمة ، وهو أكبر ولدها[(٦٠٨)].

٤ ـ تأثيث رسول الله (ص) لبيت أمِّ سَلمةَ ، ومعاملته لها:

فلمَّا وافقت على الزَّواج؛ قال لها رسولُ الله (ص) : «أما إنِّي لا أُنقصكِ ممَّا أَعْطَيْت فلانة ؛ رحيين ، وجرَّتين ، ووسادةً من أدَمٍ حشوها ليفٌ» [انظر الحديث قبل السابق].

وكانت أمُّ سلمة قد ولدت طفلةً من زوجها أبي سلمة بعد موته، فعندما تزوَّجها (ص) ؛ جعل يأْتيها ، فإذا جاء؛ أخذت زينبَ ، فوضعتها في حجرها لترضعها ، وكان (ص) حييّاً كريماً يستحيي؛ فيرجع ، ففعل ذلك مراراً[(٦٠٩)] ، ففطن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه وهو أخٌ لأم سلمة من أمِّها «سميَّة» الشَّهيدة التي قتلها أبو جهل ، فأطلق قدميه نحو بيت أخته أمِّ سلمة ، فأخذ ابنةَ أختِه ليسترضعها في بيته ، أو عند أحد النِّساء ، فجاء رسول الله (ص) فقال: «أين زناب؟» ، فقالت قريبة ابن أبي أميَّة ـ ووافقها عندها[(٦١٠)] ـ: أخذها عمَّار بن ياسر. فقال (ص) : «إني اتيكم اللَّيلة».

قالت أمُّ سلمة: فقمتُ، فوضعتُ ثِفَالي[(٦١١)]، وأخرجتُ حبَّاتٍ من شعيرٍ كانت في جَرَّتي ، وأخرجتُ شحماً ، فعصدته ، ثمَّ بات ، ثمَّ أصبح ، وقال حين أصبح: «إنَّ بك على أهلك[(٦١٢)] كرامةً ، فإن شئت؛ سبَّعت[(٦١٣)] لك ، وإن أسبعْ لكِ أسبعْ لنسائي [مسلم (١٤٦٠/٤١ و٤٣) ، وأبو داود (٢١٢٢)] ، وإن شئت ثَلَّثْتُ، ثمَّ دُرْتُ!» قالت: ثَلِّثْ[(٦١٤)]؛ فأقام النَّبيُّ (ص) ثلاثة أيام عند أمِّ سلمة ، ثمَّ قال (ص) : «للبكر سبعٌ ، وللثَّيب ثلاثٌ» [مسلم (١٤٦٠/٤٢)] ، وهذه المدَّة هي مدة إقامة المتزوِّج عند زوجته إذا كان عنده غيرها.

أقام (ص) عند أمِّ سلمة رضي الله عنها ثلاثة أيام سعيدةً ، ثمَّ رتَّب لها يوماً كبقيَّة زوجاته.

٥ ـ تغيير اسم بَرَّة بنت أبي سلمة:

تقول تلك الطِّفلةُ اليتيمة رضي الله عنها: إن النبي (ص) دخل على أم سلمة حين تزوجها واسمي بَرَّة ، فسمعها تدعوني بَرَّة ، فقال: «لا تزكُّوا أنفسكم؛ فإنَّ الله هو أعلم بالبَرَّة منكنَّ ،

والفاجرة ، سمِّيها زينب» ، فقالت أمُّ سلمة: فهي زينب. [مسلم (١٩/٢١٤٢) ، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢١)].

وهذا من هدي النَّبيِّ (ص) ، فقد كان يحبُّ الأسماء الجميلة ، ولم يكن (ص) يغيِّر أسماء الأطفال فقط ، بل كان للرِّجال ، والنِّساء ، والعجائز نصيبٌ من ذلك الذَّوق النَّبويِّ الرَّفيع ، فقد ذُكِرَ عند رسول الله (ص) رجلٌ يقال له: شِهَاب ، فقال رسول الله (ص) : «بل أنت هشام» [البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥) ، وأحمد (٦/٧٥) ، ومجمع الزوائد (٨/٥١)].

و(كان (ص) إذا أتاه الرَّجل ، وله اسم لا يحبُّه؛ حوَّله) [الطبراني في المعجم الكبير (١٧/١١٩) ، ومجمع الزوائد (٨/٥١)] ، إلى اسم أجمل ، وألطف ، وكان (ص) يفعل ذلك مع العجائز؛ فهذه عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا؛ حيث تقول: جاءت عجوزٌ إلى النَّبيِّ (ص) وهو عندي ، فقال لها رسول الله (ص) : «من أنت؟» قالت: جَثَّامة الْمُزَنِيَّة.

فقال: «بل أنت حَسَّانة المزنيَّة! كيف أنتم؟ كيف حالُكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت: بخير ، بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله!

فقُرِّب إليه لحمٌ ، فجعل يناولها ، فقلتُ: يا رسولَ الله! لا تغمر يدك. فلمَّا خَرَجَتْ قلتْ: يا رسول الله! تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال: «إنَّها كانت تأتينا زَمَن خديجة ، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان» [البيهقي في شعب الإيمان (٩١٢٢) ، والحاكم (١/١٦) ، والألباني في الصحيحة (٢١٦)].

٦ ـ الحكمة في زواج أمِّ سلمة:

والحكمة في هذا الزَّواج ـ كما يقول صاحب تفسير المنار ـ: ليس لأجل التَّمتُّع المباح له؛ وإنَّما كان لفضلها؛ الذي يعرفه المتأمِّل بجودة رأيها يوم الحديبية ، ولتعزيتها ـ أي: بوفاة زوجها[(٦١٥)] ـ ولا ننسى كذلك: أنَّ أم سلمة من بني مخزوم أعزِّ بطون قريشٍ ، وهي الَّتي كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة ضدَّ رسول الله (ص) ، ووراء هذا الزَّواج تفتيت حقد هذه القبيلة ، وتقريب قلوب أبنائها ، وتوطئةٌ ، وتحبُّبٌ إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصهارَ رسول الله (ص)[(٦١٦)] .

وفي هذا الزَّواج فقه النَّبيِّ (ص) في البناء الدَّاخليِّ للأمَّة ، وتأدية حقِّ الشُّهداء في زوجاتهنَّ ، وحقُّ هؤلاء الزَّوجات من أن يَنْهَلْنَ من نور النُّبوَّة ما يشاء الله أن ينهلْنَ لكي يُبَلِّغْنَ عن رسول الله[(٦١٧)].

وكانت أمُّ سلمة اخرَ مَنْ مات من أمَّهات المؤمنين ، وكانت وفاتُها سنةَ إحدى وستين ، وقد رَوَتْ عن رسول الله أحاديث ، يبلغ مسندها ثلاثمئة وثمانية وثمانين حديثاً؛ واتَّفق البخاريُّ ، ومسلمٌ على ثلاثة عشرة ، وانفرد البخاريُّ بثلاثةٍ ، ومسلمٌ بثلاثة عشر[(٦١٨)]. لقد ساهمت في نشر العلم والحكمة عن رسول الله (ص) ، وبموتها انطفأ اخر مصباحٍ من مصابيح أمَّهات المؤمنين طالما شَعَّ النُّورَ ، والهُدى ، والعلم؛ فرضي الله عنها ، وأرضاها![(٦١٩)].

ثالثاً: مولد الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما:

قال الإمام القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: وُلد الحسنُ في شعبان من السَّنة الرَّابعة ، وعلى هذا ولد الحسين قبل تمام السَّنة من ولادة الحسن ، ويؤيِّده ما ذكره الواقديُّ: أنَّ فاطمة علقَتْ بالحسين بعد مولد الحسن بخمسين ليلةً ، وجزم النَّواويُّ في التَّهذيب أنَّ الحسن وُلِد لخمسٍ خلونَ من شعبان سنة أربعٍ من الهجرة[(٦٢٠)].

يقول عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: لما ولد الحسن سمَّيْتُه حرباً ، فجاء رسولُ الله (ص) فقال: أروني ابني! ما سمَّيتموه؟ قلت: حرباً! قال (ص) : بل هو حسنٌ. [أحمد (١/٩٨ و١١٨) ، وابن حبان (٦٩٥٨) ، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣) ، والطبراني في الكبير (٢٧٧٣) ، والحاكم (٣/١٨٠) ، والبزار (١٩٩٧) ، ومجمع الزوائد (٨/٥٢)].

وهكذا غيَّر (ص) ذلك الاسمَ الحادَّ باسمٍ جميلٍ ، يُدخل السُّرور ، والفرحة على القلوب.

فحمل المولودُ الجديدُ اسمه الجميلَ ، وحمله (ص) بين يديه ، وقَبَّلَه ، وهذا أبو رافع يخبرنا عن فعل رسول الله (ص) ؛ يقول: رأيتُ النَّبيَّ (ص) أذَّن في أُذُنِيَ الحسن ـ حين ولدته فاطمةُ ـ بالصَّلاة. [أحمد (٦/٩ و٣٩٢) ، وأبو داود (٥١٠٥) ، والترمذي (١٥١٤)].

وحدَّثنا أبو رافع عن عقيقة الحسن ، فقال: لما وَلَدَتْ فاطمةُ حسناً؛ قالت: ألا أعقُّ[(٦٢١)] عن ابني بدمٍ (بكبشين)؟ قال (ص) : «لا ، ولكن احلقي رأسه ، وتصدَّقي بوزن شعره من فضَّةٍ على المساكين ، والأوفاض» وكان الأوفاض ناساً من أصحاب رسول الله (ص) محتاجين في

المسجد ، أو الصُّفة. ففعلتُ ذلك. [أحمد (٣٩٠ و٣٩١)].

وأحبَّ (ص) أن يقدِّم عقيقة الحسن ، فعقَّ عنه كبشين. [النسائي (٧/١٦٦)][(٦٢٢)].

وقد قال (ص) في العقيقة: «كلُّ غلامٍ مرتَهَنٌ بعقيقته؛ يُذبح عنه يوم سابعه ، ويُحْلَقُ رأسُه ، ويُسَمَّى». [أحمد (٥/٧ و٨ و١٢ و١٧ و٢٢) ، وأبو داود (٢٨٣٧ و٢٨٣٨) ، والترمذي (١٥٢٢) ، والنسائي (٧/١٦٦) ، وابن ماجه (٣١٦٥)].

رابعاً: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة (٤هـ):

وفي هذه السَّنة تعلَّم زيدُ بن ثابت كتابة اليهود ، فعن خارجةَ بن زيد بن ثابتٍ عن زيد بن ثابتٍ: أنَّ رسول الله (ص) أمره أن يتعلَّم كتابَ اليهود؛ ليقرأه للنَّبيِّ (ص) إذا كتبوا إليه [البخاري (٧١٩٥)] ، فتعلَّمه في خمسة عشرَ يوماً ، وفي روايةٍ أخرى: أنَّ رسول الله (ص) لما قدم المدينة ، ذُهب بزيد إلى رسول الله (ص) ، وقالوا: يا رسولَ الله ، هذا غلامٌ من بني النَّجار ، معه ممَّا أنزل اللهُ عليك بضعَ عشرةَ سورةً ، فأعْجبَ ذلك رسولَ الله (ص) ، وقال: «يا زيد! تعلَّمْ لي كتاب يهود ، فإنِّي والله ما امن يهود على كتاب» قال زيد: فتعلَّمت له كتابَهم ، ما مرَّت خمس عشرة ليلةً حتى حذقْتُه ، وكنت أقرأ له كتبهم؛ إذا كتبوا إليه ، وأجيب عنه إذا كتب. [أحمد (٥/١٨٦) ، وأبو داود (٣٦٤٥) ، والترمذي (٢٧١٥)][(٦٢٣)].

وبهذا الخبر يتَّضح: أنَّ للترّجمان مكانةٌ رفيعةٌ في الدَّولة؛ إذ هو الَّذي يَطَّلع على أسرار الدَّولة وما يأتيها من مراسلاتٍ ، أو ما ترسله من مُخاطباتٍ؛ إذ لا يصحُّ أن يطَّلع كلُّ إنسان على تلك الكتب الصَّادرة ، والواردة؛ لئلا تختلَّ الدَّولة ، وتُكشَفَ أسرارُها؛ ولذلك أمر النَّبيُّ (ص) زيدَ بن ثابت أن يتعلَّم لغة اليهود[(٦٢٤)].

وتَعَلُّمُ زيد بن ثابت لغة يهود في خمسة عشر يوماً يدلُّ على ذكاءٍ مُفْرِطٍ ، وقوَّةِ حافظةٍ ، وقد كان رضي الله عنه ممَّن حفظ القران كلَّه على عهد رسول الله (ص) ، ومن أشهر كُتَّاب الوحي بين يديه ، وهو الَّذي تولَّى كتابة القران وحده في الصُّحف في عهد الصِّدِّيق ، وكان أحدَ كاتبي المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه ، وأمْرُ رسولِ الله (ص) زيداً بتعلُّم لغة اليهود ، وكتابتهم يدلُّ على أنَّ الإسلام يحبِّب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم ، ويتعرَّف على علومهم ، ومعارفهم؛ ولا سيَّما إذا دعت لذلك ضرورةٌ[(٦٢٥)].

* * *

المبحث الثَّالث

إجلاء يهود بني النَّضير[(٦٢٦)]

أصابَ يهودَ المدينة الخوفُ ، والرُّعبُ طيلةَ الفترة الَّتي تفصلُ بين مقتل كعب بن الأشرف ، وبين معركة أُحدٍ؛ الَّتي جرت في شوال عام (٣ هـ)؛ ولكن الهزيمة الَّتي حَلَّتْ بالمسلمين في تلك المعركة أحيت في نفوس المشركين والمنافقين الأمل مِنْ جديدٍ بتحقيق مطامعهم ، وأغراضهم ، وأزالت من قلوب اليهود الهَلَعَ[(٦٢٧)] على المصير ، وممَّا ساهم في تبديد هذا الهلع عندهم مقتلُ أصحاب الرَّجيع ، وبئر مَعُونة ، وبذلك لم يَدُمْ خوفُ اليهود طويلاً ، وعادوا إلى أساليب الدَّسِّ ، والمكر ، والخداع ، وشرعوا في حشد حصونهم بالسِّلاح ، والعتاد للانقضاض على المسلمين ، ودولتهم ، ثمَّ صمَّموا على قتل النَّبيِّ (ص) ، والغدر به[(٦٢٨)].

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

أ ـ تاريخ الغزوة:

يرى المحقِّقون من المؤرِّخين: أنَّ غزوة بني النَّضير ، كانت بعد أُحدٍ في ربيع الأوَّل من السَّنة الرَّابعة من الهجرة ، وقد ردَّ ابنُ القيِّم على من زعم: أنَّ غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ [البخاري تعليقاً (٤١٨/٧)] بقوله: «وزعم محمَّد بن شهاب الزُّهريُّ: أن غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ ، وهذا وَهْمٌ منه ، أو غلطٌ عليه ، بل الَّذي لا شكَّ فيه: أنَّها بعد أُحدٍ ، والَّذي كانت بعد بدر بستة أشهرٍ هي غزوة بني قينقاع ، وقريظة بعد الخندق ، وخيبر بعد الحديبية»[(٦٢٩)].

وقال ابن العربيِّ: والصَّحيح أنَّها بعد أُحد[(٦٣٠)]، وإلى هذا الرَّأي ذهب ابن كثيرٍ[(٦٣١)].

ب ـ أسباب الغزوة:

هناك مجموعةٌ من الأسباب حملت النَّبيَّ (ص) على غزو بني النَّضير ، وإجلائهم؛ من أهمها:

١ ـ نَقضُ بني النَّضير عهودَهم؛ الَّتي تحتِّم عليهم ألا يؤووا عدوّاً للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النَّقض؛ بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضَّعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السَّويق[(٦٣٢)]؛ حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكَّة ـ بعد غزوة بدرٍ ـ نذراً؛ ألا يمسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتَّى يغزوَ المدينة ، فلمَّا خرج في مئتي راكبٍ قاصداً المدينة؛ قام سيد بني النَّضير سلاَّم بن مِشْكَم بالوقوف معه ، وضيافته ، وأبطن له خبر النَّاسِ ، ولم تكن مخابرات المدينة غافلةً عن ذلك[(٦٣٣)].

قال موسى بن عقبة ـ صاحب المغازي ـ: «كانت بنو النَّضير قد دسُّوا إلى قريشٍ ، وحضُّوهم على قتال رسول الله (ص) ، ودلُّوهم على العورة»[(٦٣٤)].

٢ ـ محاولة اغتيال النَّبيِّ (ص):

خرج النَّبيُّ (ص) في نفر من أصحابه عن طريق قُباء إلى ديار بني النَّضير ، يستعينهم في دية القتيلين العامريَّين اللَّذين ذهبا ضحيةَ جهل عمرو بن أميَّة الضَّمري بجوار رسول الله (ص) لهما ، وذلك تنفيذاً للعهد الذي كان بين النَّبيِّ (ص) وبين بني النَّضير حول أداء الدِّيات ، وإقراراً لما كان يقوم بين بني النَّضير وبين بني عامر من عقودٍ ، وأحلاف.

استقبل بنو النَّضير النَّبيَّ (ص) بكثيرٍ من البشاشة ، والكياسة ، ثمَّ خلا بعضهم إلى بعضٍ يتشاورون في قتله ، والغدر به ، ويبدو أنَّهم اتَّفقوا على إلقاء صخرةٍ عليه (ص) من فوق جدارٍ كان يجلس بالقرب منه ، ولكنَّ الرسول (ص) ـ الَّذي كان برعاية الله وحفظه ـ أدرك مقاصد بني النَّضير؛ إذ جاءه الخبر من السَّماء بما عزموا عليه مِنْ شَرٍّ ، فنهض ، وانطلق بسرعةٍ إلى المدينة ، ثمَّ تبعه أصحابه بعد قليلٍ[(٦٣٥)].

لم تكن مؤامرةُ بني النَّضير؛ الَّتي أفشلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ تستهدف شخص النَّبيِّ (ص) فحسب؛ بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة ، والدَّعوة الإسلاميَّة برُمَّتها ، لذا صمَّم

محمَّد (ص) على محاربة بني النَّضير؛ الَّذين نقضوا العهد ، والمواثيق معه ، وأمر أصحابه بالتَّهيُّؤ لقتالهم ، والسَّير إليهم[(٦٣٦)].

هذه الأسباب وغيرها أدَّت إلى غزوة بني النَّضير ، وقد ذكَّر القران الكريم المؤمنين بهذه النِّعمة الجليلة ، وكيف نجى اللهُ نبيَّه (ص) من مكر يهود بني النَّضير قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} [المائدة: ١١].

وقد أورد المفسِّرون في سبب نزول هذه الاية الكريمة رواياتٍ؛ منها:

أخرج الطَّبريُّ عن أبي زيادٍ قال: جاء رسولُ الله (ص) بني النَّضير ليستعينهم في عقل[(٦٣٧)] أصحابه ، ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، فقال: أعينوني في عقل أصابني ، فقالوا: نعم يا أبا القاسم! قد ان لك أن تأتينا ، وتسألنا حاجةً ، اجلس حتَّى نطعمك ، ونعطيك الَّذي تسألنا ، فجلس رسول الله (ص) ، وأصحابه ينتظرون ، وجاء رأسُ القوم ، وهو الَّذي قال لرسول الله (ص) ما قال ، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الان ، اطرحوا عليه حجارةً ، فاقتلوه ، ولا ترون شراً أبداً.

فجاؤوا إلى رحى لهم عظيمةٍ؛ ليطرحوها عليه ، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه مِنْ ثَمَّ ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: فأخبر الله نبيَّه {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *} ما أرادوا به. [ابن جرير في تفسيره (٦/١٤٤ ـ ١٤٥)].

وذكر محمَّد بن إسحاق ومجاهد، وعكرمة، وغير واحدٍ[(٦٣٨)]: أنَّها نزلت في شأن بني النَّضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله (ص) الرَّحَى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريَّين ، ووكَّلوا عمرو بن جِحاش بذلك: إن جلس النَّبيُّ (ص) تحت الجدار، واجتمعوا عنده؛ أن يلقي الرَّحى مِنْ فوقه، فأطلع الله النَّبيَّ (ص) على ما تماروا عليه، فرجع إلى المدينة، وتبعه أصحابه ، فأنزل الله في ذلك هذه الاية[(٦٣٩)].

وقد رجَّح ابن جرير أن تكون الاية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النَّضير من كيدٍ ، وسوءٍ للنَّبيِّ (ص) ، وأصحابه ، فقال: «وأولى الأقوال بالصِّحَّة في تأويل ذلك قول مَنْ قال: عنى اللهُ

بالنِّعمة الَّتي ذكر في هذه الاية نعمته على المؤمنين به ورسوله الَّتي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيَّهم (ص) ممَّا كانت يهود بني النَّضير همَّت به مِنْ قتله ، وقتل مَنْ معه يوم سار إليهم في الدِّيَة الَّتي تحمَّلها عن قتيلي عمرو بن أميَّة. وإنَّما قلنا: أولى بالصِّحَّة في تأويل ذلك؛ لأنَّ الله عقَّب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها ، وقبيح فِعَالها ، وخيانتها ربَّها ، وأنبياءها»[(٦٤٠)].

وقد وافق الدُّكتور محمد ال عابد ترجيح الطَّبريِّ ، وقال: لا مانع أن تكون الاية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعةً ، فقد تعدَّدت الحوادث ، والمنزل واحدٌ كما قال العلماء[(٦٤١)].

ومعنى الاية الكريمة: أي: اذكروا نعمة الله عليكم ، الَّتي من أكبر مظاهرها كفُّه عنكم أيدي اليهود ؛ الَّذين همُّوا أن يمدُّوا أيديهم بالسُّوء إلى نبيِّكم ، وشارَفُوا أن ينفِّذوا مؤامرتهم الخبيثة ، ولكنَّ الله أحبط مكرَهم ، ونجَّى نبيَّكم (ص) من شرورهم.

ثمَّ أمر ـ سبحانه ـ بتقواه والتوكُّل عليه ، فقال تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *}

أي: اتقوا الله ـ أيُّها المؤمنون ـ في رعاية حقوق نعمته ، ولا تُخلُّوا بشكرها ، فقد أراكم قدرته ، وتوكَّلوا عليه وحدَه ، فقد أراكم عنايته بكم ، وعلى الله وحدَه فليتوكَّل المؤمنون[(٦٤٢)].

ثانياً: إنذار بني النَّضير بالجلاء وحصارهم:

أ ـ إنذار بني النَّضير:

سجَّلت معظمُ كتب السِّيرة النَّبويَّة ، خبرَ إنذار النَّبيِّ (ص) لبني النَّضير بالجلاء خلال عشرة أيام ، وقد أرسل (ص) محمَّدَ بن مسلمة رضي الله عنه إليهم ، وقال له: اذهبْ إلى يهود بني النَّضير ، وقل لهم: إنَّ رسولَ الله (ص) أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي؛ لقد نقضتُم العهد الَّذي جعلت لكم ممَّا هممتم به من الغدْر ، وقد أجَّلتُكم عشراً ، فمن رُئي بعدُ منكم ضربتُ عنقَه[(٦٤٣)]. ولم يجدوا جواباً يردُّون به سوى أن قالوا لمحمَّد بن مسلمة: يا محمد! ما كنَّا نظن أن يجيئنا بهذا رجلٌ من الأوس! فقال محمَّد: تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلامُ العهود. فقالوا: نتحمَّل؛ فمكثوا أياماً يُعِدُّون العدَّة للرَّحيل[(٦٤٤)].

وفي تلك المدَّة أرسل إليهم عبد الله بن أُبيِّ بن سلول مَنْ يقول لهم: اثبتُوا ، وتَمَنَّعُوا؛ فإنَّا لن نُسْلِمَكم ، وإن قُوتلتم؛ قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم[(٦٤٥)] ، ولا تخرجوا فإنَّ معي من العرب ، وممَّن انضوى إلى قومي ألفين ، فأقيموا ، فهم يدخلون معكم حصونكم ، ويموتون عن اخرهم قبل أن يَصِلُوا إليكم[(٦٤٦)].

فعادت لليهود بعضُ ثقتهم ، وتشجَّعَ كبيرُهم (حُيي بن أخطب) وأرسل إلى النَّبيِّ (ص) جُدَي بن أخطب يقول له: إنَّا لن نريمَ ـ أي: لن نبرح ـ دارنا ، فاصنعْ ما بدا لك! فكبر رسولُ الله (ص) ، وكبَّر المسلمون معه ، وقال: حاربت يهود[(٦٤٧)].

ب ـ ضرب الحصار وإجلاؤهم:

وانقضت الأيام العشرة ، ولم يخرجوا من ديارهم ، فتحرَّكت جيوشُ المسلمين صوبهم ، وضربت عليهم الحصارَ لمدَّة خمس عشْرَة ليلةً.

وأمر (ص) بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلُّقهم بأموالهم، وزروعهم، وضعفت حماستُهم للقتال ، وجَزِعوا ، وتصايحوا: يا محمد! قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على مَنْ يفعله؛ فما بالُ قطع النَّخيل ، وتخريبها؟!

وألقى اللهُ في قلوبهم الرُّعْبَ ، وأدرك بنو النَّضير ألاَّ مفرَّ من جلائهم ، ودبَّ اليأس في قلوبهم ، وخاصَّةً بعد أن أخلف ابن أُبَيٍّ وعده بنصرهم ، وعجِز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيراً ، أو يدفعوا عنهم شراً؛ فأرسلوا إلى النَّبيِّ (ص) يلتمسون منه أن يؤمِّنهم حتَّى يخرجوا من ديارهم ، فوافقهم النَّبيِّ (ص) على ذلك ، وقال لهم: «اخرجوا منها ، ولكم دماؤكم ، وما حملت الإبل إلا الحَلَقة ـ وهي الدُّروع ، والسِّلاح ـ»؛ فرضوا بذلك[(٦٤٨)].

ونقض اليهود سُقُفَ بيوتهم ، وعَمُدَها ، وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون.

وحملوا معهم كمياتٍ كبيرةً من الذَّهب ، والفضَّة ، حتَّى إن سلاَّم بن أبي الحُقَيْق وحده حمل جلدَ ثورٍ مملوءً ذهباً ، وفضَّةً ، وكان يقول: هذا الَّذي أعددناه لرفع الأرض ، وخفضها ، وإن كنَّا تركنا نخلاً ففي خيبر النَّخل[(٦٤٩)].

وحملوا أمتعتهم على ستمئة بعيرٍ ، وخرجوا ومعهم الدُّفوف ، والمزامير ، والقيان يعزفن من خلفهم حتَّى لا يشمت بهم المسلمون ، فقصد بعضهم خيبر ، وسار اخرون إلى أذرعات الشَّام[(٦٥٠)].

وقد تولَّى عمليَّة إخراجهم من المدينة محمَّد بن مسلمة بأمرٍ من رسول الله (ص)[(٦٥١)] .

وكان من أشرافهم الَّذين ساروا إلى خيبر: سَلاَّم بن أبي الحُقَيْق ، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحُقَيْق ، فلمَّا نزلوها دان لهم أهلُها[(٦٥٢)].

ثالثاً: الدُّروس ، والعِبَرُ في هذه الغزوة:

تحدَّث القران الكريم عن غزوة بني النَّضير في سورةٍ كاملة ، هي سورة الحشر ، وقد سَمَّى حَبْرُ الأمَّة عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما سورة الحشر بسورة بني النَّضير ، ففي البخاريِّ عن سعيد بن جُبَيْر ، قال: قلتُ لابن عباسٍ رضي الله عنهما: سورة الحشر ، قال: قلْ سورة بني النَّضِير. [البخاري (٤٠٢٩)].

وقد بينت هذه السُّورة ملابسات هذه الغزوة ، وفصَّلت القول فيها ، وبيَّنت أحكام الفيء ، ومن هم المستحقون له ، وأوضحت موقف المنافقين من اليهود ، كما كشفت عن حقائق نفسيَّات اليهود ، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود ، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وَجَّه سبحانه خطابه إلى المؤمنين ، وأمرهم بتقواه ، وحذَّرهم من معصيته ، ثمَّ تحدث سبحانه عن القران الكريم ، وعلوِّ منزلته ، وبعض صفات الله الجليلة الَّتي تليق به سبحانه ، وهكذا كان المجتمع المسلم يتربَّى بالأحداث على التَّوحيد وتعظيم منهج الله ، والاستعداد ليوم القيامة ، وبالتأمُّل في السُّورة يمكننا استخراج بعض الدُّروس ، والعبر؛ من أهمها:

١ ـ الثناء على الله وتمجيده:

ابتدأت السُّورة بالثَّناء على الله ، وأن الكون كلَّه بجميع ما فيه من مخلوقاتٍ؛ من إنسانٍ ، وحيوانٍ ، ونباتٍ ، وجمادٍ ، ينزِّه الله ، ويمجِّده ، ويشهد بوحدانيته ، وقدرته ، وجلاله ، وناطقٌ بعظمته ، وسلطانه[(٦٥٣)].

قال تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الحشر: ١].

كان استفتاح هذه السُّورة بالإخبار أنَّ جميع ما في السَّموات ، والأرض ، يسبِّح بحمد ربه ،

وينزِّهه عمَّا لا يليق بجلاله ، ويعبده ، ويخضع لعظمته؛ لأنَّه العزيز ، الَّذي قهر كلَّ شيءٍ ، فلا يمتنع عليه شيءٌ ، ولا يستعصي عليه عسيرٌ.

الحكيم في خلقه ، وأمره ، فلا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يُشرّع ما لا مصلحة فيه ، ولا يفعل إلا ما هو مُقتضى حكمته؛ ومن ذلك نصره لرسوله (ص) على الَّذين كفروا من أهل الكتاب ، من بني النَّضير ، حين غدروا برسوله (ص) ، فأخرجهم مِنْ ديارهم ، وأوطانهم الَّتي ألفوها ، وأحبُّوها[(٦٥٤)].

٢ ـ الرُّعب جنديٌّ من جنود الله:

قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأِوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ *وَلَوْلاَ أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [الحشر: ٢ ـ ٤].

إنَّ المتأمِّل في هذه الايات الكريمة يتبيَّن له: أنَّ الله هو الَّذي أخرج يهود بني النَّضير من ديارهم إلى الشَّام حيث أول الحشر ، في حين أنَّ كلَّ الأسباب المادِّيَّة معهم؛ حتى إنَّهم اعتقدوا: أنَّه لا أحدَ يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها ، وقوَّتها.

لكنَّ الله خالق الأسباب ، والمسبَّبات ، جاءهم من حيث لم يحتسبوا ، جاءهم من قلوبهم الَّتي لم يتوقَّعوا: أنَّهم يهزمون بها ، فقذف فيها الرُّعب ، فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم ، وأيدي المؤمنين ، وهذا الأسلوب القرانيُّ الفريد يربِّي الأمَّة بالأحداث ، والوقائع ، وهو يختلف تماماً عن طريقة أهل السِّير ، ويمتاز بأنَّه يكشف الحقائق ، ويوضِّح الخفايا ، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقيّ ، وهو ربُّ العالمين ، ومن ذلك أنَّها بيَّنت: أنَّ الذي أخرج بني النَّضير هو الله جلَّ جلاله: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}

واستمرت الاية الكريمة تبيِّن: أنَّ يهود بني النَّضير حسبوا كلَّ شيءٍ ، وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضيَّة؛ لكن جاءتهم الهزيمة من مكانٍ اطمأنوا إليه ، وهو أنفسهم ، فإذا الرُّعب يأتي من داخلهم ، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظةٍ ، لذلك يجب على كل إنسانٍ عاقلٍ أن يعتبر بهذه الغزوة ، وأن يعرف: أنَّ الله هو المتصرِّف في الأمور ، وأنَّه لا تقف أمام قدرته العظيمة الأسباب ، ولا المسبَّبات ، فهو القادر على كلِّ شيءٍ؛ فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى ،

ويصلحوا أمرهم ، فإذا اتَّبعوا أمر الله ، أصلح الله لهم كلَّ شيءٍ ، وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا.

إنَّ هذه الغزوة درسٌ للأمَّة في جميع عصورها ، تذكِّرهم أنَّ طريق النَّصر قريبٌ ، وهو الرُّجوع إلى الله والاعتماد عليه ، والتَّسليم لشريعته ، وتقديره حقَّ قدره ، فإذا عرف ذلك المؤمنون ، نصرهم الله ، ولو كان عدوُّهم قويّاً ، وكثيراً؛ فإن الله لا يعجزه شيء ، وأقرب شاهدٍ واقعيٍّ لذلك هو إجلاء بني النَّضير ، وهي عبرةٌ ، فليُعتبر بها ، والسَّعيدُ مَنِ اعتبر بغيره!

ثمَّ أوضح سبحانه: أنَّه لو لم يعاقبهم بالجلاء؛ لعذَّبهم في الدُّنيا بالقتل ، أما في الاخرة ، فلهم عذابُ النَّار[(٦٥٥)].

٣ . تخريب ممتلكات الأعداء:

لما نزل رسول الله (ص) بجيشه ، وحاصر بني النَّضير تحصَّنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله (ص) بقطع النَّخل ، والتَّحريق فيها ، فنادوه يا محمد! قد كنتَ تنهى عن الفساد ، وتعيبه على مَنْ صنعه، فما بال قطع النَّخل ، وتحريقها؟[(٦٥٦)] ، فأنزل الله . عزَّ وجلَّ .: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ *} [الحشر: ٥][(٦٥٧)][(٦٥٨)].

وقد توسَّع الشَّيخ محمَّد أبو زهرة في شرح هذه الاية ، فقال ما ملخَّصه بعد أن ساق اراءَ الفقهاء في ذلك:

والذي ننتهي إليه بالنِّسبة لما يكون في الحرب مِنْ هدمٍ ، وتحريقٍ ، وتخريبٍ: أنه يُستفاد من مصادر الشَّريعة ، وأعمال النَّبيِّ (ص) في حروبه:

١ . أنَّ الأصل هو عدم قطع الشَّجر ، وعدم تخريب البناء؛ لأنَّ الهدف من الحرب ليس إيذاءَ الرَّعية ، ولكن دفع أذى الرَّاعي الظالم ، وبذلك وردت الاثار.

٢ . أنَّه إذا تبيَّن: أنَّ قطع الشَّجر ، وهدم البناء توجبه ضرورةٌ حربيَّة لا مناص منها؛ كأن يستتر العدوُّ به ، ويتَّخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين؛ فإنَّه لا مناصَ من قطع الأشجار ، وهدم البناء؛ على أنَّه ضرورةٌ من ضرورات القتال ، كما فعل النَّبيُّ (ص) هنا ، وفي حصن ثَقِيف.

٣ . أنَّ كلام الفقهاء الَّذين أجازوا الهدم ، والقلع يجب أن يُخرَّج على أساس هذه

الضَّرورات ، لا على أساس إيذاء العدوِّ ، والإفساد المجرَّد ، فالعدوُّ ليس الشَّعب ، إنَّما العدوُّ هم الَّذين يحملون السِّلاح؛ ليقاتلوا[(٦٥٩)].

٤ . تطوير السِّياسة الماليَّة للدَّولة الإسلاميَّة:

بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ حكم الأموال الَّتي أخذها المسلمون من بني النَّضير بعد أن تمَّ إجلاؤهم ، فقال تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الحشر: ٦].

وبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أن الأموال الَّتي عادت إلى المسلمين من بني النَّضير ، قد تفضَّل بها عليهم بدون قتالٍ شديدٍ ، وذلك لأنَّ المسلمين مَشَوْا إلى أعدائهم ، ولم يركبوا خيلاً ، ولا إبلاً ، وافتتحها (ص) صلحاً ، وأجلاهم ، وأخذ أموالهم ، ووضعها حيث أمره الله؛ فقد «كانت أموال بني النَّضير ممَّا أفاء الله على رسوله ممَّا لم يُوجف عليه المسلمون بخيلٍ ، ولا ركابٍ ، فكانت للنَّبيِّ (ص) خاصَّةً ، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنةٍ ، وما بقي يجعله في الكُرَاعِ والسِّلاح عُدَّةً في سبيلِ الله» [البخاري (٤٠٣٣) ، ومسلم (١٧٥٧)][(٦٦٠)].

ثمَّ بيَّن المولى ـ عزَّ وجل ـ أحكام الفيء في قرى الكفار عامَّة ، فقال الله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} [الحشر: ٧].

وكان فيء بني النَّضير خالصاً لرسول الله (ص) ، ولهذا تصرَّف فيه ـ أي: الفيء ـ كما يشاء، فردَّه على المسلمين في وجوه البرِّ، والمصالح الَّتي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الايات.

ولما غنم (ص) أموال بني النَّضير؛ دعا ثابت بن قيس ، فقال: «ادعُ لي قومك» ، قال ثابت: الخزرج؟ فقال (ص) : «الأنصارُ كلُّها» فدعا له الأوس ، والخزرج ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهلُه ، ثمَّ ذكر الأنصار ، وما صنعوا بالمهاجرين ، وإنزالهم إيَّاهم في منازلهم ، وأموالهم ، وأثرتهم على أنفسهم ، ثمَّ قال: «إن أحببتُم قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضير ـ وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في منازلكم ، وأموالكم ـ وإن أحببتم أعطيتُهم ، وخرجوا من دوركم». [الحاكم في الإكليل كما في فتح الباري (٧/٤٢٢ ـ ٤٢٣)].

فقال سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ: يا رسولَ الله! بل تقسم بين المهاجرين ، ويكونون في دورنا ، كما كانوا ، وقالت الأنصار: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله!

وقسم ما أفاء الله ، وأعطى المهاجرين ولم يعطِ أحداً من الأنصار شيئاً ، غير أبي دُجَانة ، وسَهْل بن حُنَيفُ لحاجتهما [ابن هشام (٣/٢٠١/٢٠٢)][(٦٦١)] ، ومع أنَّه (ص) يعلم: أنَّ الفيء كان خاصَّاً له ، إلا أنَّه جمع الأنصار ، وسألهم عن قسمة الأموال لتطييب نفوسهم ، وهذا من الهدي النَّبويِّ الكريم في سياسة الأمور.

وكانت الغايةُ من هذا التَّوزيع ، تخفيفَ العبء عن الأنصار ، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دُورِ بني النَّضير ، وأُعيدت دُورُ الأنصار إلى أصحابها ، واستغنى بعض المهاجرين ممَّا يمكن أن يقال فيه: إنَّ الأزمة قد بدأت بالانفراج[(٦٦٢)].

إنَّ قسمة أموال بني النَّضير ، أوجد تطوُّراً كبيراً في السِّياسة الماليَّة للدَّولة الإسلاميَّة؛ فقد كانت الغنائم الحربيَّة قبل هذه الغزوة ، تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدَّولةُ الإسلاميَّةُ خُمْسَها؛ لتصرف في مصارف معينةٍ حدَّدها القران الكريم[(٦٦٣)] ، وبعد غزوة بني النَّضير ، أصبحت هناك سياسةٌ ماليَّةٌ جديدةٌ فيما يتعلَّق بالغنائم ، وخلاصتها: أنَّ الغنائم الحربيَّة أصبحت ـ حسب السِّياسة الجديدة ـ على نوعين:

١ ـ غنائم استولى عليها المجاهدون بحدِّ سيوفهم ، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدَّولة خُمْسَها؛ لتصرفه في مصارفه الخاصَّة.

٢ ـ غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتالٍ؛ وهذا النَّوع يختصُّ رئيس الدَّولة الإسلاميَّة ، بالتَّصرُّف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك ، يعالج به الأوضاع الاقتصاديَّة في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم ، أو يشتري به سلاحاً ، أو يبني به مدينةً ، أو يصلح به طرقاً... إلخ ، وهذا يعني: أنَّه قد أصبح لرئيس الدَّولة الإسلاميَّة ميزانيَّة خاصَّةً يتصرَّف فيها تصرُّفاً سريعاً حسب مقتضيات المصلحة[(٦٦٤)].

وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ في الايتين اللَّتين أوضحتا سياسته ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ في تقسيم فيء بني النَّضير إذا اختصَّ به أناساً دون اخرين؛ العلَّةَ في ذلك في قوله تعالى: {كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر: ٧] أي: لكي لا يكونَ تداولُ المالِ محصوراً فيما بين طبقة الأغنياء

منكم فقط ، والتَّعليلُ لهذه الغاية يؤذِن بأنَّ سياسة الشَّريعة الإسلاميَّة في شؤون المال قائمةٌ في جملتها على تحقيق هذا المبدأ ، وأنَّ كلَّ ما تفيض به كتب الشَّريعة الإسلاميَّة من الأحكام المتعلِّقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبغى من ورائه إقامة مجتمعٍ عادلٍ تتقارب فيه طبقاتُ النَّاس ، وفئاتهم ، ويُقضى فيه على أسباب الثَّغرات الَّتي قد تظهر فيما بينها ، والَّتي قد تؤثِّر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طبقت أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة وأنظمتها الخاصَّة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزَّكاة ، ومنع للرِّبا ، وقضاءٍ على مختلف مظاهر الاحتكارات؛ لعاش النَّاسُ كلُّهم في بُحْبُوحَةٍ[(٦٦٥)] من العيش ، قد يتفاوتون في الرِّزق ، ولكنَّهم جميعاً مكتفون ، وليس فيهم كَلٌّ[(٦٦٦)] على اخر ـ وإن كانوا جميعاً يتعاونون ـ[(٦٦٧)] وبعد بيان العلَّة في توزيع أموال الفيء، عَقَّبَ سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرَّسول (ص) ، وأن ينتهوا عمَّا نهاهم عنه ، وأنَّ هذا من لوازم الإيمان ، وأمرهم بالتَّقوى ، فإنَّ

عقابه شديدٌ ، وأليمٌ للعُصاة ، قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [الحشر: ٧].

أي: ما أمركم به الرَّسول (ص) فافعلوه ، وما نهاكم عنه فاجتنبوه؛ فإنَّه إنَّما يأمركم بكلِّ خيرٍ ، وصلاحٍ ، وينهى عن كلِّ شرٍّ وفسادٍ.

وقوله: أي: خافوا ربَّكم بامتثال {وَاتَّقُوا اللَّهَ} ، واجتناب نواهيه.

وقوله: {إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *}: أي: فإنَّ عقابه أليم ، وعذابه شديدٌ لمن عصاه ، وخالف ما أمره به ، قال المفسّرون: والاية وإن نزلت في أموال الفيء ، إلا أنَّها عامَّةٌ في كلِّ ما أمر به النَّبيُّ (ص) ، أو نهى عنه من واجبٍ أو مندوبٍ ، أو مستحبٍّ ، أو محرَّمٍ ، فيدخل فيها الفيءُ ، وغيره[(٦٦٨)] ، وقد جاءت اياتٌ كثيرةٌ تربِّي الأمَّةَ على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى، ولحكم رسوله (ص) وذلك من كلِّ الأمور، قال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *} [النساء: ٦٥].

وقال (ص) : «ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتُكم به فافعلوا منهم ما استطعتُم؛ فإنَّما أهْلَكَ الَّذين من قبلكم كثرةُ مسائلِهم ، واختلافُهم على أنبيائهم» [أحمد (٢/٢٤٧) ، ومسلم (١٣٣٧/١٣٠ و١٣١) ، والترمذي (٢٦٧٩) ، والنسائي (٥/١١٠ ـ ١١١) ، وابن ماجه (١ و٢)].

٥ ـ فَضْلُ المهاجرين والأنصار ، والتَّابعين لهم بإحسان:

فَضْلُ المهاجرين:

بيَّنت الاياتُ الكريمةُ في سورة الحشر ، فضلَ المهاجرين على غيرهم ، فهم لهم الدَّرجة الأولى ، فقد اشتملت الايات على أوصافهم الجميلة ، وشهد الله لهم بالصِّدق ، قال تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ *} [الحشر: ٨].

فَضْلُ الأنصار:

وَضَّحَت الاياتُ فضلَ الأنصار ، وقد وصفهم الله بهذه الصفات ، قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [الحشر: ٩].

فَضْلُ التَّابعين لهم بإحسان:

وهم المتتبِّعون لاثارهم الحسنة ، وأوصافهم الجميلة ، الدَّاعون في السِّرِّ ، والعلانية لإخوانهم الَّذين سبقوهم بالإيمان[(٦٦٩)].

قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [الحشر: ١٠].

وهكذا تحدَّثت السُّورة الكريمة عن صورٍ مشرقةٍ للمهاجرين ، والأنصار ، والتَّابعين لهم بإحسان.

٦ ـ موقف المنافقين في المدينة:

بيَّنتِ الاياتُ الكريمة حالَ المنافقين، ووضَّحتْ موقفَهم، وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود ، وكشفت أيضاً موقفهم من المسلمين ، وموقف اليهود ونفسيَّاتهم[(٦٧٠)].

قال تعالى: {أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ *كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ *فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ *} [الحشر: ١١ ـ ١٧].

يخبرنا المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ عن المنافقين ؛ كعبد الله بن أُبيٍّ وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بني النَّضير يَعِدُونَهم بمناصرتهم ، وقوله: {لإِخْوَانِهِمُ} أي: الَّذين بينهم وبينهم أُخوَّة الكفر ، وهم يهود بني النَّضير ، وجعلَهم إخواناً لهم؛ لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم ، فهم إخوانٌ في الكفر. {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ} أي: والله! لئن أخرجتم من دياركم {لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} من ديارنا في صحبتكم { وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ} أي: في شأنكم ، ومن أجلكم ، {أَحَدًا} ممَّن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم ، وإن طال الزَّمان ، ثمَّ لما وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنُّصرة لهم ، فقالوا: {وَإِنْ قُوتِلْتُمْ } أي: وإن قاتلكم المسلمون { لَنَنْصُرَنَّكُمْ} أي: على المسلمين؛ الَّذين ، يقاتلونكم ثمَّ كذَّبهم الله تعالى ، فقال: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *} فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنَّصر لهم

ولما أجمل ـ سبحانه وتعالى ـ كَذِبَ المنافقين فيما وعدوا به بني النضير؛ فصَّل ما كذبوا فيه[(٦٧١)] ، وزاد في تأكيد الرَّدِّ عليهم ، فقال تعالى: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ} أي: لئن أَخْرَجَ المسلمون اليهودَ؛ فإنَّ المنافقين لن يخرجوا معهم.

وقوله تعالى: {وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ} أي: ولئن قاتل المسلمون اليهود؛ فإن المنافقين لن ينصروهم.

وقوله تعالى: {وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ *}. أي: ولئن نصر المنافقون اليهود ـ على سبيل الفرض ـ ، فإنَّ نصرهم لن يضرَّ المسلمين شيئاً؛ بل إنَّ الفريقين سيولُّون الأدبار أمام المسلمين ، ثمَّ لا ينصر الله بني النَّضير.

ثمَّ قرر القرانُ الكريم حقيقةً قائمةً في نفوس اليهود ، والمنافقين ، قال تعالى: {لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ *} أي: لأنتم يا معشر المسلمين! أشدُّ خوفاً ، وخشيةً في صدور اليهود ، والمنافقين من الله تعالى ، فهم يخافونكم أكثر من خوفهم من الله تعالى ، وهذه الحال منهم {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ *} أي: لا يعلمون الله ، وعظمته؛ حتَّى يخشوه حقَّ خشيته[(٦٧٢)].

ثمَّ أكَّد ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الحقيقة بصفاتٍ أخرى فيهم ، فقال تعالى: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ}فقد كشف ـ سبحانه وتعالى ـ عن حقائق نفسيَّة اليهود ، فهم جبناء ، لا يستطيعون أن يواجهوا المسلمين في مواطنَ مكشوفةٍ؛ بل لا يقاتلون إلا من وراء قراهم المحصَّنة بالخنادق ، وجدرانهم ، وحوائطهم الَّتي يتستَّرون مِنْ خلفها.

ثمَّ كشف القران عن بعض أسباب ضعفهم ، وخورهم ، فقال تعالى: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ *}

فهؤلاء اليهود في الظَّاهر تراهم مجتمعين صفّاً واحداً ضدَّ المسلمين ، لكنَّ الاية تبين: أنَّهم عكس ذلك في الحقيقة ، فهم {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} أي: عداوتهم بعضهم لبعضٍ شديدةٌ {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا} أي: تظنُّهم مجتمعين على أمر ، ورأيٍ ولكنَّهم في الحقيقة {وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} أي:متفرقة

وقوله سبحانه {بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ *} أي: بسبب أنَّهم قومٌ لا يعقلون الحقَّ ، ولا يدورون معه ، وإنَّما يدورون في ركاب الباطل[(٦٧٣)].

وفي الاية تحسيرٌ للمؤمنين ، وتشجيعٌ لقلوبهم على قتال اليهود؛ لأنَّهم عرفوا من ربِّ العالمين ، بأنَّ اليهود جبناء ، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ ما نزل ببني النَّضير من بلاءٍ بسبب غدرهم ، قد نزل ما يشبهه بإخوانهم من

بني قينقاع ، فذاقوا جزاءَ خيانتهم ، وغرورهم. قال تعالى: {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *}

ثمَّ ضرب الله مثلاً اخر للمنافقين ، الَّذين أَغْرَوْا بني النَّضير بالمقاومة ثمَّ خذلوهم عند المحنة ، فقال تعالى: يعني: مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالَّذين وعدوهم النَّصر من {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ *فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ *} ، وقول المنافقين لهم: {وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ}

ثمَّ لما حقَّت الحقائق ، ووقع عليهم الحصار ، والقتال ، تخلَّوا عنهم ، وأسلموهم للتَّهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سَوَّل للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر ، فإذا دخل فيما سوَّله له تبرَّأ منه ، وتنصَّل ، وقال: {إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ *}

وقوله: أي: فكان عاقبة الامر {فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ *} ، وهو الشَّيطان ، والفاعل له ، وهو المستجيب للشَّيطان: أنَّهما في النار خالدين

فيها أبد الابدين { وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ *} أي: جزاء كلِّ ظالم[(٦٧٤)].

٧ ـ وعظُ المؤمنين ، وتذكيرهم باليوم الاخر ، وبيانُ الفرق الشَّاسع بين أصحاب الجنَّة ، وأصحاب النار: قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ *} [الحشر: ١٨ ـ ٢٠].

وهذه الاياتُ الكريمةُ أصلٌ في محاسبة العبد نفسه ، وأنَّه ينبغي له أن يتفقَّدها.

ومع الانتصارات العظيمة الَّتي حقَّقها المسلمون بالقضاء على يهود بني النَّضير ، والتَّوسُّع الاقتصاديُّ الَّذي حدث للصَّحابة ، مع توسُّع موارد الدَّولة بدخول مصدر الفيء يأتي القران الكريم في هذه الحادثة؛ ليؤكِّد على معاني العقيدة ، وأصولها ، والتَّذكير باليوم الاخر ، والاستعداد له ، فيأمر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أفراد المجتمع المسلم بما يوجبه الإيمان ، ويقتضيه من لزوم التَّقوى سرّاً وعلانيةً ، ومراعاة ما أمرهم الله به من أوامره ، وحدوده ، وينظروا ما لهم ، وما عليهم ، وماذا قدموا من الأعمال ، وهل تنفعهم ، أو تضرُّهم يوم القيامة؟

وطلب منهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجعلوا الآخرة نُصْبَ أعينهم ، وقبلةَ قلوبهم ، وأن يهتمُّوا بشأنها ، ويجتهدوا في كثرة الأعمال الَّتي توصلهم إلى رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن يتغلَّبوا على القواطع ، ويزيلوا العوائق الَّتي توقفهم عن السَّير نحو مرضاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ[(٦٧٤)].

وجاء التعبير القرانيُّ بقوله يريد يوم {لِغَدٍ} ، فقرَّب الله تعالى القيامة حتَّى جعلها غداً ، وذلك لأنَّها اتيةٌ لا محالة ، وكلُّ اتٍ قريبٌ[(٦٧٥)].

وأعلمهم ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّه خبير بما يعملون ، ولا تخفى عليه أعمالُهم ، ولا تضيع لديه ، ولا يهملها؛ لكي يَجِدُّوا ، ويجتهدوا[(٦٧٦)].

وحذَّرهم من أن يكونوا كالَّذين غفلوا عن ذكر الله ، فأنساهم الله العمل لمصالح نفوسهم ، فصاروا من الفاسقين عن أمره الخارجين عن حدود دينه.

ثمَّ نفى ـ سبحانه وتعالى ـ المساواة بين أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار ، وبيَّن: أنَّ أصحاب

الجنَّة هم الفائزون بالنَّعيم الخالد ، النَّاجون من عذاب الله ، أمَّا أصحاب النَّار؛ فهم الخاسرون[(٦٧٧)].

وهذا التَّفصيل ، والتَّذكير ، والوعظ ، وتقريب الاخرة من الأذهان ، والقلوب موجبٌ لأهل الإيمان إلى المبادرة والمشاركة في الخيرات.

٨ ـ عظمة القران الكريم ، وعلوُّ منزلته ، وبعض صفات الله الجليلة الَّتي تليق به ـ سبحانه وتعالى ـ:

١ ـ قال تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *} [الحشر: ٢١].

ومعنى الاية: لو جعلنا في الجبل عقلاً ، كما جعلنا فيكم أيُّها الناس! ثمَّ أنزلنا عليه القران ، لخشع هذا الجبل ، وخضع ، وتشقَّق من خشية الله ، وهذا تمثيل لعلوِّ شأن القران ، وقوَّة تأثير ما فيه من المواعظ ، والزَّواجر ، وفيه توبيخٌ للإنسان على قسوة قلبه ، وقلَّة تخشُّعه حين قراءة القران ، وتدبُّر ما فيه من القوارع الَّتي تذلُّ لها الجبال الرَّاسيات[(٦٧٨)] ، ثمَّ بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّه يضرب للنَّاس الأمثال ، ويوضِّح لعباده الحلال ، والحرام؛ لأجل أن يتفكَّروا في اياته ، ويتدبَّروها؛ لأن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم ، ويبيِّن له طريق الخير ، والشَّرِّ ، ويحثُّه على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشِّيم ، ويزجره عن مساوأى الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكُّر في القران ، والتدبُّر لمعانيه[(٦٧٩)].

٢ ـ وفي نهاية سورة الحشر تحدَّثت الايات الكريمة عن بعض أسماء الله الحسنى ، وأوصافه العلا. قال تعالى:

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وهكذا خُتِمتِ السُّورة الكريمة بما يليق بجلاله من صفاتٍ جليلةٍ ، لكي يتربَّى المجتمع المسلم على تحقيق العبودية لله ، ويتعرَّف إليه من خلال أسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، وذلك لكماله العظيم ، وإحسانه الشَّامل ، وتدبيره العامّ ، وكلُّ إله غيره فإنَّه باطلٌ ، لا يستحق

من العبادة مثقال ذرَّةٍ ، لأنَّه فقيرٌ ، عاجزٌ ، ناقصٌ ، لا يملك لنفسه ، ولا لغيره شيئاً.

ثمَّ وصف نفسه بعموم العلم الشَّامل ، لما غاب عن الخلق ، وما يشاهدونه ، وبعموم رحمته؛ الَّتي وسعت كلَّ شيءٍ ، ووصلت إلى كلِّ حيٍّ ، ثمَّ كرَّر ذكر عموم ألوهيته ، وانفراده بها ، وأنَّه المالك لجميع الممالك ، فالعالم العلويُّ ، والسُّفليُّ ، وأهله؛ الجميع مماليك للهِ ، فقراء مُدَبَّرُون.

{الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ} أي: المقدَّس السَّالم من كلِّ ، ونقص ، المعظَّم ، الممَجَّد؛ لأنَّ القدُّوس يدلُّ على التَّنزيه من كلِّ نقصٍ ، والتَّعظيم لله في أوصافه ، وجلاله.

{الْمُؤْمِنُ} أي: المصدِّق ، وأنبيائه بما جاؤوا به بالآيات البينات ، والبراهين القاطعات ، والحجج الواضحات.

{الْعَزِيزُ} الَّذي يغالَب ، ولا يمانَع ، بل قد قهر كلَّ شيءٍ ، وخضع له كلُّ شيءٍ.

{الْجَبَّارُ} الَّذي قهر جميع ، وأذعن له سائر الخلق؛ الَّذي يجبر الكسير ، ويغني الفقير.

{الْمُتَكَبِّرُ} الَّذي له الكبرياء ، المتنزِّه عن جميع العيوب ، والظُّلم ، والجور.

{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *}وهذا تنزيهٌ عامٌّ عن كل وصفه به مَنْ أشرك به ، وعانده.

{هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ} لجميع المخلوقات.

{الْبَارِىءُ} للمبروءات.

{الْمُصَوِّرُ} للمصوّرات.

وهذه الأسماء متعلقةٌ بالخلق ، والتَّدبير ، والتَّقدير ، وأنَّ ذلك كلَّه قد انفرد الله به ، لم يشاركه فيه مشاركٌ.

{لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} أي: له الأسماء الكثيرة جدّاً، الَّتي يحصيها، ولا يعلمها أحدٌ إلا هو ، ومع ذلك فكلُّها حُسنى؛ أي: صفات كمالٍ ، بل تدلُّ على أكمل الصِّفات ، وأعظمها ، لا نقص في شيءٍ منها بوجهٍ من الوجوه.

ومن حسنها: أنَّ الله يحبُّها ، ويحب مَنْ يحبُّها ، ويحبُّ من عباده أن يدعوه ، ويسألوه بها.

ومن كماله ، وأنَّ له الأسماء الحسنى ، والصِّفات العليا: أنَّ جميع من في السَّموات؛ والأرض مفتقرون إليه على الدَّوام ، يسبِّحون بحمده ، ويسألونه حوائجهم ، فيعطيهم من فضله ، وكرمه ، ما تقتضيه رحمتُه ، وحكمته.

{وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} الَّذي يريد شيئاً إلا ويكون ، ولا يكوِّن شيئاً إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ[(٦٨٠)].

إنَّ معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا ، تتضمَّن أنواع التَّوحيد الثلاثة: توحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الإلهيَّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات ، ولذلك تربَّى الصَّحابة على معرفتها ، والعمل بها ، فأنواع التَّوحيد هي رُوح الإيمان ، ورَوْحُه ، وأصله ، وغايته ، فكلَّما ازداد العبد معرفةً بأسماء الله ، وصفاته؛ ازداد إيمانه ، وقوي يقينه ، فهذا العلم رسخ في قلوب الصَّحابة ، فأوجب لهم خشية الله ، ومعرفته حقَّ المعرفة ، فعملوا بموجبها[(٦٨١)].

٩ ـ تحريم الخمر:

حرِّمت الخمر لليالي حصار بني النَّضير[(٦٨٢)] في ربيع الأوَّل ، من السَّنة الرَّابعة من الهجرة[(٦٨٣)] ، وقد خضع تحريم الخمر لِسُنَّة التَّدرُّج ، وكان ذلك التَّحريم على مراحل معروفةٍ في تاريخ التَّشريع الإسلاميِّ ، حتَّى نزلت الايات الحاسمة في النَّهي عنها من سورة المائدة ، وفي ختامها: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ *} [المائدة: ٩١] قال المؤمنون في قوَّةٍ ، وتصميمٍ: قد انتهينا يا رب![(٦٨٤)].

وفي قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ *} [البقرة: ٢١٩].

يقول سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ: «وهذا النَّصُّ الَّذي بين أيدينا كان أوَّلَ خُطوةٍ من خطوات التَّحريم ، فالأشياء ، والأعمال قد لا تكون شرّاً خالصاً ، فالخير يلتبس بالشَّرِّ ، والشَّرُّ يلتبس بالخير في هذه الأرض ، ولكنَّ مدار الحلِّ والحرْمة هو غلبة الخير أو غلبة الشَّرِّ ، فإذا كان الإثم في الخمر والميسر أكبر من النَّفع ، فتلك علَّة تحريمٍ ، ومنعٍ وإن لم يصرَّح هنا بالتَّحريم ، والمنع.

هنا يبدو لنا طرفٌ من منهج التَّربية الإسلاميَّة القرانيَّة الرَّبانيَّة الحكيمة ، وهو المنهج الَّذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه ، وفرائضه ، وتوجيهاته؛ ونحن نشير إلى قاعدةٍ من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر ، والميسر ، عندما يتعلَّق الأمر ، أو النَّهي بقاعدةٍ من

قواعد التَّصوُّر الإيمانيِّ ـ أي: بمسألةٍ اعتقاديَّةٍ ـ فإنَّ الإسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللَّحظة الأولى. ولكن عندما يتعلَّق الأمر ، أو النَّهي بعبادةٍ ، وتقليدٍ ، أو بوضعٍ اجتماعيٍّ مُعَقَّد ، فإنَّ الإسلام يتريَّث به ، ويأخذ المسألة باليسر ، والتدرُّج ، ويهيِّأى الظُّروف الواقعة الَّتي تُيَسِّرُ التَّنفيذ والطَّاعة ، فعندما كانت المسألة مسألة التَّوحيد ، أو الشِّرك؛ أمضى أمره منذ اللَّحظة الأولى في ضربةٍ حازمةٍ جازمةٍ ، لا تردُّد فيها ، ولا تَلَفُّت ، ولا مجاملة فيها ، ولا مساومة ، ولا لقاء في منتصف الطَّريق؛ لأنَّ المسألة هنا مسألةٌ أساسيَّةٌ للتَّصوُّر ، لا يصلح بدونها إيمانٌ ، ولا يقام إسلامٌ.

فأمَّا الخمر ، والميسر؛ فقد كان الأمر أمر عادةٍ ، وألفة ، والعادة تحتاج إلى علاجٍ ، فبدأ بتحريك الوجدان الدِّيني المنطقيِّ التَّشريعيِّ في نفوس المسلمين بأنَّ الإثم في الخمر ، والميسر أكبرُ من النَّفع ، وفي هذا إيحاءٌ بأنَّ تركهما هو الأولى ، ثمَّ جاءت الخطوة الثَّانية باية سورة النِّساء: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ} [النساء: ٤٣].

والصَّلاة في خمسة أوقات ، معظمها متقاربٌ ، لا يكفي ما بينها للسُّكر ، والإفاقة! وفي هذا تضييقٌ لفرص المزاولة العمليَّة لعادة الشُّرب ، وكسرٌ لعادة الإدمان الَّتي تتعلَّق بمواعيد التَّعاطي؛ إذ المعروف: أنَّ المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه[(٦٨٥)] من مسكرٍ ، أو مُخَدِّرٍ في الموعد؛ الَّذي اعتاد تناوله ، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرَّر هذا التَّجاوز فترةَ حدِّ العادة؛ أمكن التغلُّب عليها ، حتَّى إذا تمَّت هاتان الخطوتان؛ جاء النَّهي الجازم الأخير لتحريم الخمر ، والميسر {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسَرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ *وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ *} [المائدة: ٩١ ـ ٩٢][(٦٨٦)].

١٠ ـ لا يحيق المكر السَّيأى إلا بأهله:

كان مكر اليهود ، وتامرهم على حياة الرَّسول (ص) والدَّولة الإسلاميَّة ، في غاية الخسَّة ، والوَضاعة ، وكانوا يريدون من مكرهم ، وغدرهم عِزَّةً ، ورفعةً ، ومجداً ، وغلبةً ، لكنَّ الله سَخِرَ منهم ، ونجَّى رسولَه (ص) والمسلمين مِنْ مكرهم ، وأذلَّهم ، وأخزاهم ، فزال مجدُهم ، وكسر غلبتهم ، وخرَّب بيوتهم ، ورحَّلهم

عن ديارهم ، ولم يكلِّف ذلك المسلمين اصطداماً مسلَّحاً ، ولا قتالاً ضارياً ، ولكنَّ الله قذف في قلوبهم الرُّعب، والفزع ، فطلبوا النَّجاة

بأرواحهم في ذلَّةٍ ، وخزيٍ ، مُخَلِّفين وراءهم ثروةً، وملكاً حازه المسلمون غنيمةً باردةً، وقد قال تعالى في شأنهم: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ *} [الحشر: ٢].

هذه عاقبة المكر السَّيأى ، والغدر المشِين ، وانظر بعد ذلك كيف أشار القران الكريم إلى مواطنِ العبرة في هذه الموقعة ، وإلى هذا التَّهديد الَّذي أعلنه لكلِّ مَنْ يسلك سبل المكر المزري ، والحقد المستبدِّ[(٦٨٧)] ، وقال: {فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ *} [الحشر: ٢].

ويظهر لي من الاية الكريمة الاعتبار من وجوهٍ:

١ ـ أنَّ الَّذي يقفُ في وجه الحقِّ ، ويصدُّ النَّاسَ عنه ، ويطارد دعاة الحقِّ منهزمٌ لا محالة ، قال تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ *} [آل عمران: ١٢].

٢ ـ الصِّراع بين الحقِّ ، والباطل لا يتوقَّف ، وباق حتَّى يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها ، وستكون للباطل جولاتٌ ، وللحقِّ جولاتٌ؛ ولكنَّ العاقبة لأهل الحقِّ في نهاية المطاف.

٣ ـ الاعتبار يكون بتجنُّب ما ارتكبه اليهود من خيانةٍ وغدرٍ ، حتَّى لا يحدُثَ نفسُ المصير الَّذي حدث لهم من الهزيمة ، والذُّلِّ والهوان[(٦٨٨)].

١١ ـ لا إكراه في الدِّين:

كان في بني النَّضير أناسٌ من أبناء الأنصار قد تهوَّدُوا بسبب تربيتهم بين ظهراني اليهود ، فأراد أهلوهم المسلمون منعهم من الرَّحيل معهم فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ٢٥٦].

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما ، قال: كانت المرأة تكون مِقْلات[(٦٨٩)] ، فتجعل على نفسها: إن عاش لها ولدٌ أن تُهَوِّدَهُ ، فلمَّا أُجليت بنو النَّضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا: لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ} [البقرة: ٢٥٦]. [أبو داود (٢٦٨٢) ، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٩٨٢ و١٠٩٨٣)].

* * *

المبحث الرَّابع

غزوة ذات الرِّقاع

أولاً: تاريخها ، وأسبابها ، ولماذا سُمِّيت بذات الرِّقاع[(٦٩٠)]:

اختلفَ أهلُ المغازي والسِّيَر في تاريخ هذه الغزوة ، وقد ذهب البُخاريُّ [البخاري تعليقاً (٥٣٠/٧)] إلى أنَّها كانت بعد خيبر ، وذهب ابن إسحاق[(٦٩١)] إلى أنَّها بعد غزوة بني النَّضير ، وقيل: بعد الخندق سنة أربع ، وعند الواقديِّ[(٦٩٢)] ، وابن سعدٍ[(٦٩٣)] أنَّها كانت في المحرم سنة خمسٍ ، ورجَّح ابن عمر ما ذهب إليه البخاريُّ[(٦٩٤)]؛ لأنَّ أبا موسى الأشعريَّ شهدها وقد قدم من الحبشة بعد فتح خيبر مباشرةً ، وشهدها أبو هريرة ، وقد أسلم حين فتح خيبر ، وصلَّى فيها رسولُ اللهِ (ص) صلاةَ الخوف ، ولم تكن شُرِعت في الخندق؛ بل شرعت في عسفان أيَّام الحديبية ، والحديبية سنةَ ستٍّ.

أمَّا الدُّكتور البوطي[(٦٩٥)]؛ فقد جزم؛ أنَّها قبل الخندق ، واحتجَّ في ذلك بما ثبت في الصَّحيح من أنَّ جابراً رضي الله عنه استأذن الرَّسولَ (ص) في غزوة الخندق ، وأخبر امرأتَهُ بما رأى من جوعِ رسول الله (ص) ، وفيه قصَّة الطَّعام الَّذي دعا إليه النَّبيِّ (ص) ، ومجيء كلِّ الجيش ، ومعجزة الرَّسول (ص) في تكثير طعام جابرٍ ، وفيه قول الرَّسول (ص) لزوجة جابر: «كلي هذا ، وأهدي؛ فإنَّ النَّاس أصابتهم مجاعةٌ» [البخاري (٤١٠١)].

وما ثبت في الصَّحيحين [البخاري (٢٠٩٧) ، ومسلم (٧٣/٧١٥) ، وأحمد (٣٧٥/٣ ـ ٣٧٦)] أيضاً من أنَّ الرَّسول (ص) سأل جابراً في غزوة ذات الرِّقاع إن كان قد تزوَّج بعدُ ، فأجاب بنعم ، ممَّا يدلُّ على أنَّ الرَّسول (ص) لم يكن علم شيئاً عن زواجه ، وأخذ البوطي في ردِّ أدلَّة ابن حجر في كونها بعد خيبر ، فقال: أمَّا ما استدل به الحافظُ ابن حجر من أنَّه (ص) لم يصلِّ صلاةَ الخوف في الأحزاب ، وصلاَّها قضاءً ، فيجاب عنه بأنَّه ربَّما كان سبب تأخير الرَّسول (ص) لها إذ ذاك استمرارَ الرَّمي بين المشركين والمسلمين بحيث لم يدع مجالاً للانصراف إلى الصَّلاة ، وربَّما كان العدوُّ في جهة القبلة ، أو ربَّما أخرها لبيان مشروعيَّة قضاء الفائتة كيفما كانت.

كما يجاب عن استدلاله بحديث أبي موسى الأشعريِّ بما ذكره كثيرٌ من علماء السِّيَر ، والمغازي من أنَّ أبا موسى إنَّما قصد بها غزوةً أخرى سُمِّيت هي أيضاً بذات الرِّقَاع ، بدليل أنَّه قال عنها: خرجنا مع رسول الله (ص) في غزاةٍ ونحن في ستة نفرٍ بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ [البخاري (٤١٢٨) ، ومسلم (١٨١٦)][(٦٩٦)] ... إلخ ، وغزوة ذات الرِّقاع الَّتي نتحدَّث عنها كان العدد أكثر من ذلك[(٦٩٧)].

ومال الدُّكتور الحكمي[(٦٩٨)] ، والدُّكتور العمري[(٦٩٩)] ، إلى ما ذهب إليه البخاريُّ وابن حجر ، ومال الدُّكتور مهدي رزق الله أحمد إلى ما ذهب إليه البوطيُّ[(٧٠٠)] ، وقال بأنَّ حجةَ الدُّكتور البوطي بزواج جابر قبل الخندق لا تُدْفَع ، وهي في الصَّحيحين؛ إضافةً إلى أنَّ البخاريَّ قد ذكر رأيه مُعَلَّقاً ، وحجَّته فقط مجيء أبي موسى بعد خيبر ، وهي حجَّةٌ دفعها البوطيُّ بترجيح تعدُّد الغزوة[(٧٠١)] ، وقد ذكر البوطيُّ: أنَّ تاريخ الغزوة كان في السَّنة الرَّابعة للهجرة بعد مرور شهرٍ ونصفٍ تقريباً على إجلاء بني النَّضير ، وقال بأن هذا الرَّأي ذهب إليه أكثر علماء السِّيَر ، والمغازي[(٧٠٢)] وإليه ذهبتُ.

وأمَّا سبب الغزوة: ما ظهر من الغدر لدى كثيرٍ من قبائل نجدٍ بالمسلمين ، ذلك الغدر الَّذي تجلَّى في مقتل أولئك الدُّعاة السبعين الَّذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى، فخرج (ص) قاصداً قبائل مُحَارِب ، وبني ثَعْلبة[(٧٠٣)] ، وقد ذكر الدُّكتور محمَّد أبو فارس: أنَّ قادماً قدم المدينةَ ، فأخبر المسلمين: أن بني مُحَارِب ، وبني ثَعْلبة من غَطَفَان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله (ص) ، فما كان منه (ص) إلا أن سار إليهم في عُقْر دارهم ، على رأس أربعمئة مقاتلٍ ، وقيل: سبعمئة

مقاتلٍ ، ولما وصل رسول الله (ص) إلى ديارهم؛ خافوا ، وهربوا إلى رؤوس الجبال ، تاركين نساءهم ، وأطفالَهم ، وأموالَهم ، وحضرت الصَّلاةُ ، فخاف المسلمون أن يُغيروا عليهم ، فصلَّى رسولُ الله (ص) صلاة الخوف ، وعاد رسول الله (ص) إلى المدينة[(٧٠٤)].

وقد حقَّقت هذه الحملةُ العسكريَّةُ أغراضَها ، وتمكَّنت من تشتيت الحشد الَّذي قامت به غَطَفَان لغزو المدينة ، فأرهب (ص) تلك القبائل ، وألقى عليها درساً بأنَّ المسلمين ليسوا قادرين فقط على سَحْق مَنْ تحدِّثه نفسُه بالاقتراب من المدينة؛ بل قادرون على نقل المعركة إلى أرض العدوِّ نفسه ، وضربه في عُقْر داره[(٧٠٥)].

وسُمِّيت بذات الرِّقاع؛ لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخِرَقَ ، والرِّقاع اتِّقاءَ الحرِّ ، وقيل: لأنَّهم رقَّعوا راياتهم ، وقيل: لشجرة كانت اسمها ذات الرِّقاع[(٧٠٦)] ، وقيل: لأنَّ المسلمين نزلوا في أرضٍ كان فيها بقعٌ بيض ، وسودٌ مختلفةٌ ، فسمِّيت لذلك[(٧٠٧)] ، والصَّحيح: لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم مِنَ

الخرق؛ فقد روى الشَّيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعريِّ ، قال: خرجنا مع النَّبيِّ (ص) في غزاةٍ ونحن في ستَّة نفرٍ ، بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ ، فَنَقِبَت[(٧٠٨)] أقدامُنا ، ونَقِبَت قدماي ، وسَقَطَتْ أظفاري ، وكنَّا نلُفُّ على أرجلنا الخِرَق ، فسُمِّيت غزوةَ ذات الرِّقاع لما كنا نُعَصِّبُ بالخِرَق على أرجلنا. [البخاري (٤١٢٨) ، ومسلم (١٨١٦)].

ثانياً: صلاة الخوف ، وحراسة الثُّغور:

١ ـ صلاة الخوف:

أنزل اللهُ تعالى على نبيِّه (ص) صلاةَ الخوف في هذه الغزوة ، وبيَّن القرانُ الكريمُ صفةَ الصَّلاة ساعةَ مواجهة العدو ، قال تعالى: {وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذىً مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِيناً *} [النساء: ١٠٢].

فقد صلَّى المسلمون صلاة الخوف ، وصفةُ هذه الصَّلاة: أنَّ طائفةً صَفَّتْ معه ، وطائفة وِجَاهَ العدوِّ ، فصلَّى بالَّذين معه ركعةً ، ثمَّ ثَبَتَ قائماً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثمَّ انصرفوا فَصَفُّوا

وِجَاهَ العدوِّ ، وجاءت الطائفةُ الأخرى فصلَّى بهم الرَّكعة؛ الَّتي بَقِيَتْ في صلاته ، ثمَّ ثَبتَ جالساً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثمَّ سَلَّمَ بهم. [البخاري (٤١٢٩) ، ومسلم (٨٤٢)][(٧٠٩)].

وفي روايةٍ: «فصلَّى بطائفةٍ ركعتين ، ثمَّ تأخَّروا ، وصلَّى بالطائفة الأخرى ركعتين ، فكانت لرسول الله (ص) أربع ركعاتٍ ، وللقوم ركعتانِ» [البخاري (٤١٣٦) تعليقاً، ومسلم (٨٤٣/٣١١) ، وأحمد (٣/٣٦٤)] قال الدُّكتور البوطيُّ: ووجه التَّوفيق بين الحديثين: أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام صلَّى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرَّة ، فصلاَّها مرَّةً على النَّحو الأوَّل ، وصلاَّها مرَّةً أخرى على النَّحو التالي.

وكانت هذه الصَّلاة بمنطقة نخلٍ الَّتي تبعد عن المدينة بيومين[(٧١٠)] ، ودلَّ تشريع صلاة الخوف على أهمِّية الصَّلاة ، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التَّساهل فيها ، ولا يمكن التَّنازل عنها ، مهما كانت الظروف ، وبذلك تندمج الصَّلاة والعبادة بالجهاد وَفْقَ المنهاج النَّبويِّ في تربية الأمَّة؛ الَّذي استُمِدَّ من كتاب الله تعالى ، فلا يوجد أيُّ انفصالٍ ، أو انفصامٍ بين العبادة ، والجهاد[(٧١١)].

٢ ـ حراسة الثُّغُور:

عندما رجع الجيشُ الإسلاميُّ من غزوة ذات الرِّقاع؛ سَبَوْا امرأةً من المشركين ، فنذر زوجُها ألاَّ يرجع حتَّى يُهْرِيق دماً في أصحاب محمَّد (ص) ، فجاء ليلاً وقد جعل الرَّسولُ (ص) رجلين على الحراسة أثناء نومهم ، وهما عبَّاد بن بِشْر ، وعَمَّار بن ياسر ، فضرب عَبَّاداً بسهم وهو قائمٌ يُصلِّي ، فنزعه ، ولم يقطعْ صلاتَه ، حتَّى رشقه بثلاث سهام ، فلم ينصرفْ منها حتَّى سلَّم ، فأيقظ صاحبَه ، فقال: سبحان الله! هلاَّ نبَّهتني ، فقال: كنتُ في سورة أقرؤها ، فلم أُحِبَّ أن أقطعها حتَّى أُنْفِذَها ، فلمَّا تابع عليَّ الرَّميَ ركعتُ ، فاذنتك ، وايم الله! لولا أن أضيّع ثغراً أمرني رسول الله (ص) بحفظه ، لَقَطَعُ نفسي قبل أن أقطعها ، أو أنفذَها. [أحمد (٣/٣٤٣ ـ ٣٤٤ و٣٥٩) ، وأبو داود (١٩٨) ، وابن خزيمة (٣٦)][(٧١٢)] ، ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً ، وعبراً؛ منها:

أ ـ اهتمام النَّبيِّ (ص) بأمن الجنود: ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خِيَار الصَّحابة لحراسة الجيش ليلاً.

ب ـ تقسيم الحراسة: ونلاحظ أنَّ الرَّجلين الَّذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليلَ نصفين ، نصفاً للرَّاحة ونصفاً للحراسة؛ إذ لابدَّ من راحة جسم الجنديِّ بعض الوقت.

ج ـ التَّعلُّق بالقران الكريم ، وحبُّ تلاوته: فقد كان حبُّه للتِّلاوة قد أنساه الامَ السِّهام؛ الَّتي كانت تنغرس في جسمه ، وتثجُّ[(٧١٣)] الدَّم منه بغزارةٍ[(٧١٤)].

د ـ الشعور بمسؤوليَّة الحراسة: فلم يقطع عبَّاد صلاته لألمٍ يشعر به ، وإنَّما قطعها استشعاراً بمسؤوليَّة الحراسة الَّتي كُلِّفَ بها ، وهذا درسٌ بليغ في مفهوم العبادة ، والجهاد[(٧١٥)].

هـ مكان الحراسة استراتيجيٌّ: اختار النَّبيُّ (ص) فَمَ الشِّعْبِ مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار في غاية التَّوفيق؛ لأنَّه المكان الذي يُتَوَقَّع العدوُّ منه لمهاجمة المعسكر.

و ـ قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم ، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكَّن من إيقاظ أخيه ، وبالتَّالي يحدث ما لا تُحْمَدُ عقباه[(٧١٦)].

ثالثاً: شجاعة الرَّسول (ص) ، ومعاملته لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

١ ـ شجاعة الرَّسول (ص):

عندما قَفَل[(٧١٧)] رسولُ الله (ص) من غزوة ذات الرِّقاع أدركته القائلةُ في وادٍ كثير العِضَاهِ[(٧١٨)] ، فنزل رسولُ الله (ص) ، وتفرَّق النَّاسُ يستظلُّون الشَّجرَ ، ونزل رسول الله (ص) تحت شجرةٍ علَّق بها سيفه ، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «فنمنا نومةً ، فإذا رسول الله (ص) يدعونا ، فجئناه ، فإذا عنده أعرابيٌّ جالسٌ ، فقال رسولُ الله (ص) : إنَّ هذا اخترط سيفي ، وأنا نائم ، فاستيقظت ، وهو في

يده صَلْتاً[(٧١٩)] ، فقال لي: من يمنعك منِّي؟ فقلت له: الله! فها هو ذا جالسٌ ، لم يعاقبْه رسولُ الله ، واسم الأعرابي: غَوْرَثُ بن الحارث» [رواه البخاري (٢٩١٠ و٢٩١٣ و٤١٣٥ و٤١٣٦) ، ومسلم (٨٤٣) ، وأحمد (٣/٣١١)].

وقد عاهد غَوْرثُ رسول الله (ص) ألاَّ يقاتلَه ، ولا يكون مع قومٍ يقاتلونه ، فخلَّى (ص) سبيله ، فجاء إلى أصحابه ، فقال: «جئتكم من عند خير النَّاس»[(٧٢٠)].

وفي هذه القصَّة دليل على نبوَّة محمَّد (ص) ، وفَرْط شجاعته ، وقوَّة يقينه ، وصبره على الأذى ، وحِلْمه على الجُهَّال ، وفيها جواز تفرُّق العسكر في النُّزول ، ونومهم؛ إذا لم يكن هناك ما يخافون منه[(٧٢١)].

إنَّ هذه القصَّة ثابتةٌ ، وصحيحةٌ ، وهي تكشف عن مدى رعاية الباري . جلَّ جلاله . وحفظه لنبيِّه (ص) ، ثمَّ هي تزيدك يقيناً بالخوارق الَّتي أخضعها الله . جلَّ جلاله . له (ص) ، ممَّا يزيدك تبصراً ، ويقيناً بشخصيته النَّبويَّة ، فقد كان من السَّهل الطَّبيعيِّ بالنِّسبة لذلك المشرك ، وقد أخذ السَّيف ورفعه فوق النَّبيِّ (ص) ، وهو أعزلُ غارقٌ في النَّوم أن يهويَ به عليه ، فيقتله ، وإنَّك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتزاز بنفسه ، والزُّهو بالفرصة الذَّهبيَّة الَّتي أمكنته من رسول الله (ص) في قوله: مَنْ يمنعك منِّي؟ فما الَّذي طرأ بعد ذلك حتَّى عاقه عن القتل[(٧٢٢)]؟!

ليس لهذا تفسيرٌ إلا العناية الإلهية ، والإعجاز الإلهي الَّذي يتخطَّى العادات والسُّنن ، ويتجاوز قوى النَّاس لنصرة نبيِّه ، والذَّود عن دعوته[(٧٢٣)] ، فقد كانت العناية الإلهيَّة كافيةً لأن تملأ قلب هذا المشرك بالرُّعب ، وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرَّجفة ، فيسقط من يده السَّيف ، ثم يجلس متأدِّباً مُطْرِقاً بين يدي رسول الله (ص) ، وما حدث مصداقٌ لقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ *} [المائدة: ٦٧] ، فليست العصمة المقصودة في الاية؛ ألا يتعرَّض الرَّسولُ (ص) لأذىً، أو محنةٍ من قومه؛ إذ تلك هي سنَّة الله في عباده كما قد علمت، وإنَّما المراد من العصمة ألاَّ تصل إليه أيُّ يدٍ تحاول اغتياله ، وقتله، لتُغتال فيه الدَّعوة الإسلاميَّة التي بُعِثَ لتبليغها[(٧٢٤)].

٢ . معاملته (ص) لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: خرجتُ مع رسول الله (ص) إلى غزوة ذات الرِّقاع من نخلٍ ، على جملٍ لي ضعيفٍ فلمَّا قَفَلَ رسول الله (ص) ؛ قال: جعلت الرِّفاق تمضي ، وجعلتُ أتخلَّف ، حتَّى أدركني رسولُ الله (ص) ، فقال: «ما لك يا جابر؟!» قال: قلت: يا رسولَ الله! أبطأ بي جملي هذا ، قال:

«أَنِخْهُ» فأنختُه ، وأناخ رسولُ الله (ص) ، ثمَّ قال: «أعطني هذه العصا مِنْ يدك ، أو: اقطع لي عصاً من شجرةٍ» قال: ففعلت ، قال: فأخذها رسولُ الله فنَخَسَه بها
نخساتٍ ، ثمَّ قال: «اركبْ» ، فركبتُ ، فخرج ـ والَّذي بعثه بالحقِّ ـ يُوَاهق ناقتَه مُوَاهقةً؛ (أي: يسابقها ، ويعارضها في المشي لسرعته).

قال: وتحدَّثت مع رسول الله (ص) ، فقال لي: «أتبيعني جملك هذا يا جابر؟!».

قال: قلت: يا رسولَ الله! بل أهبه لك ، قال: «لا ، ولكن بِعْنِيه» ، قال: قلت: فَسُمْنِيه يا رسول الله! قال: «قد أخذته بدرهم» ، قال: قلت: لا ، إذاً تغبنني يا رسولُ الله! قال: «فبدرهمين» ، قال: قلت: لا ، قال: فلم يزلْ يرفعُ لي رسولُ الله (ص) في ثمنه ، حتَّى بلغَ الأُوقِيَّة ، قال: فقلت: أفقد رضيتَ يا رسولَ الله! قال: «نعم» ، قلت: فهو لك ، قال: «قد أخذته».

قال: ثمَّ قال: «يا جابر! هل تزوَّجت بعد؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله! قال: «أثيِّباً، أم بكراً؟» قال: قلت: لا، بل ثَيِّباً ، قال: «أفلا جارية تُلاعبُها وتلاعبُك؟!».

قال: قلت: يا رسولَ الله ! إنَّ أبي أُصِيب يومٍ أُحدٍ ، وترك بناتٍ له سَبْعاً ، فنكحت امرأةً جامعةً، تجمع رؤوسهنَّ، وتقوم عليهنَّ، قال: «أصبت ـ إن شاء الله ـ ، أما إنَّا لو قد جئنا صِرَاراً[(٧٢٥)] أَمَرْنا بجَزُور فنُحِرَت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسمعت بنا ، فَنَفَضَتْ نمارقها[(٧٢٦)]» قال: قلت: والله يا رسولَ الله! ما لنا من نَمَارق ، قال: «إنَّها ستكون ، فإذا قدمت؛ فاعملْ عملاً كيِّساً»[(٧٢٧)].

قال: فلما جئنا صِرَاراً ، أمر رسولُ الله (ص) بجَزُور ، فنُحِرت ، وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلمَّا أمسى رسولُ الله (ص) ، دخل ، ودخلنا ، قال: فحدَّثتُ المرأةَ الحديثَ ، وما قال لي رسول الله (ص) ، قالت: فدونك ، فسمعاً ، وطاعةً ، قال: فلمَّا أصبحتُ؛ أخذتُ برأس الجمل ، فأقبلتُ به ، حتَّى أنختُه على باب رسول الله (ص) ، قال: ثمَّ جلستُ في المسجد قريباً منه ، قال: وخرج رسولُ الله (ص) ، فرأى الجملَ ، فقال: «ما هذا؟» قالوا: يا رسولَ الله! هذا جملٌ جاء به جابرٌ ، قال: «فأين جابر؟».

قال: فدُعيتُ له ، قال: فقال: «يا بن أخي ، خذ برأس جملك؛ فهو لك» ودعا بلالاً ، فقال له: «اذهب بجابرٍ ، فأعطه أُوقيَّةً» قال: فذهبتُ معه ، فأعطاني أوقيَّةً ، وزادني شيئاً يسيراً ، قال: فوالله ما زال يَنْمِي عندي ، ويُرى مكانُه مِنْ بيتنا. [البخاري (٢٠٩٧) ، ومسلم (١٥٩٩ م/١١٠) ، وأحمد (٣٧٥/٣ ـ ٣٧٦)].

في هذه القصَّة صورةٌ جميلةٌ ، ورفيعةٌ لخلق رسول الله (ص) مع أصحابه؛ من حيث لطف الحديث ، والتَّواضع الرَّفيع ، ورقَّة الحديث ، وفكاهة المحاورة ، ومحبَّةٍ شديدةٍ لأصحابه ، والوقوف على أحوالهم ، والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعيَّة مادِّيَّاً ، ومعنويّاً ، فقد شعر الرَّسول (ص) : أنَّ سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله؛ الَّذي لا يملك غيره لبؤس حاله ، حيث إنَّ والده مات شهيداً في أُحدٍ ، وترك له مجموعةً من البنات ، والأولاد ليرعاهم ، وهو مُقِلٌّ في الرِّزق ، فأراد الرَّسول (ص) أن ينتهز هذه الفرصة ليواسِيَه ، ويقدِّم له ما يستطيع من مالٍ مباركٍ[(٧٢٨)].

أيُّ لطف هذا! وأيَّة مواساةٍ هذه! وأيَّة طمأنةٍ ، وإحسان صحبةٍ! في أوبة من غزوة ، بلا تكلُّف ، ولاتهيُّؤ ، ولا استعدادٍ سابقٍ: أبرأ جمله ، وقوَّاه له ، بلمسةٍ خارقةٍ ، ومعجزةٍ ظاهرةٍ ، ثمَّ وهبه إيَّاه بعد أن نقده ثمنه ، ثمَّ احتفى به ، فأمر فنحر القوم الجزور لتستعدَّ عروسه لاستقباله ، ثمَّ طمأنه عن نعيمٍ منظور ، وغنىً مذخورٍ في جيب الأيام.

تلك من نماذج الأخلاق النَّبويَّة؛ الَّتي تحلَّى بها رسولُ الله (ص) ، والَّتي حلاَّه بها ربُّه؛ الَّذي بعثه ، ليتمَّ به مكارم الأخلاق ، وبهذا الأسلوب الهادأى الرَّائع ، الرَّفيق الرَّقيق ، يتعلَّم الرَّبَّانيُّون حسن الصُّحبة ، وصدق الأخوة ، وبرَّ الخلَّة ، والمصاحبة[(٧٢٩)].

* * *

المبحث الخامس

غزوة بدر الموعد ودومة الجندل

أولاً: غزوة بدر الموعد:

تنفيذاً للموعد الَّذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أحدٍ ، والتزام الرَّسول (ص) بذلك ، فقد خرج النَّبيُّ (ص) من المدينة على رأس جيشٍ من أصحابه قوامه ألف وخمسمئة مقاتلٍ ، بينهم عشرةٌ من الخيَّالة ، وذلك في ذي القعدة سنة (٤ هـ) وحمل لواء الجيش عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فوصلوا بدراً ، فأقاموا فيها ثمانية أيَّامٍ في انتظار وصول قوَّات المشركين من قريشٍ بقيادة أبي سفيان حسب الموعد بين الطَّرفين ، غير أنَّ أحداً من المشركين لم يصل إلى بدرٍ ، وكان أبو سفيان قد جمَّع قوات قريش ، وحلفاءها؛ الَّتي تألَّفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرساً ، فلمَّا وصلوا إلى مرِّ الظَّهران؛ نزلوا على مياه مَجَنَّة على بُعْد أربعين ميلاً من مكَّة ، ثمَّ عاد بهم أبو سفيان إلى مكَّة[(٧٣٠)] بعد أن خطب فيهم ، وقال: يا معشر قريش! إنَّه لا يصلحكم إلا عامٌ خصيبٌ ترعون فيه الشَّجر ، وتشربون فيه اللَّبن ، وإنَّ عامكم هذا عامٌ جدبٌ ، وإنِّي راجعٌ ، فارجعوا[(٧٣١)].

وأقبل مَخْشِيُّ بن عمرو الضَّمريُّ ، وهو الذي وادع رسول الله (ص) على بني ضمرة في غزوة ودَّان ، فالتقى برسول الله (ص) في بدرٍ ، وقال: يا محمد! أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم ، يا أخا بني ضمرة! وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك ، ثمَّ جالدناك حتَّى يحكم الله بيننا وبينك».

قال: لا والله يا محمد! ما لنا بذلك منك مِنْ حاجةٍ. [ابن هشام (٣/٢٢٠)].

ففي هذا اللِّقاء أكَّد رسول الله (ص) على معنىً كبيرٍ في إظهار قوَّة المسلمين ، وأنَّ العقد الَّذي كان بين الفريقين يستمرُّ بعامل قوَّة المسلمين ، لا بعامل ضعفهم؛ وبناءً على طلب الطَّرف الثَّاني ، وفي هذا ما فيه من القوَّة للمسلمين ، وإلقاء الرُّعب في قلوب أعدائهم[(٧٣٢)] ، لقد كانت

تحرُّكاتُ الجيش الإسلاميِّ من المدينة حتَّى بدرٍ مناورةً رائعةً ناجحةً ، أثبت بها وجوده ، وأعطى الدَّليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة ، وخارجها: أنَّه أصبح أقوى قوَّةٍ مرهوبةٍ في الجزيرة العربيَّة كلِّها ، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ جيش مكَّة ـ وهو من أعظم الجيوش في الجزيرة من حيث كثرة العدد ، وقوَّة التَّنظيم وجودة التَّسلُّح ـ قد هاب الجيش الإسلاميَّ ، ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعادٍ سابقٍ حدَّده في (أُحُد) قائد عام جيش مكَّة[(٧٣٣)].

إنَّ الحملة الإعلاميَّة الَّتي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أحدٍ ، وتفوُّقهم الحربيِّ قد انتكست على رؤوسهم ، وأصبحوا مثار السُّخرية عند العرب ، وثبت للنَّاس: أنَّ ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحدٍ وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ، ولا ضعفهم العسكريَّ[(٧٣٤)] ، فقد ساهمت هذه الغزوة في

المحافظة على السُّمعة العسكريَّة للمسلمين[(٧٣٥)] ، وكسبوا انتصاراً معنوياً عظيماً على أعدائهم بدون قتال ، وشاركوا في الموسم التِّجاري ببدرٍ ، وربحوا في تجارتهم ربحاً طيباً[(٧٣٦)].

لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثرٌ في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم[(٧٣٧)].

ثانياً: دومة الجندل:

كانت غزوة دومة الجندل من ضمن حركة تثبيت أركان الدَّولة الإسلاميَّة ، فبعد غزوة بدر الموعد ، تحرَّكت القوات الإسلاميَّة بقيادة رسول الله (ص) نحو قضاعة؛ الَّتي كانت تنزل شمال قبائل أسد ، وغطفان ، وفي حدود الغساسنة الموالين للدَّولة الرُّوميَّة (بيزنطة) ، ولها إشراف على سوق (دومة الجندل) الشَّهير (على بعد (٤٥٠) كيلو متراً شمال المدينة) كانت هذه القبيلة أوَّل مَنْ احتكَّ بها المسلمون ، فغزاها رسول الله (ص) تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥ هـ/ أغسطس ٦٢٦ م)[(٧٣٨)] ، فقد وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمُّع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل الَّتي تمرُّ بهم ، والتَّعرُّض لمن في القافلة بالأذى ، والظُّلم ، كما وردت الأنباء بأنَّهم يفكِّرون في القرب من المدينة ، لعَجْمِ عودها[(٧٣٩)].

إنَّ دومة الجندل تُعَدُّ بلداً نائياً بالنِّسبة للمدينة المنوَّرة ، لأنَّها تقع على الحدود بين الحجاز ، والشَّام ، وفي منتصف الطَّريق بين البحر الأحمر ، والخليج العربيّ ، وهي على مسيرة ست عشرة ليلةً من المدينة ، ولو أنَّ المسلمين أغفلوا أمرها ، وسكتوا عن وجود هذا التَّجمُّع فيها ما لامهم أحدٌ ، ولا ضرَّهم هذا التجمُّع في شيءٍ على المدى القريب ، ولكنَّ النَّظرة السِّياسيَّة البعيدة ، والعقليَّة العسكريَّة الفذَّة أوجبت على المسلمين أن يتحرَّكوا لفضِّ هذا التَّجمُّع[(٧٤٠)] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنُه للأسباب الاتية وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف:

١ ـ لأنَّ السُّكوت عن هذا التجمُّع ، وما شاكله يؤدِّي بلا شكٍّ إلى تطوُّره واستفحاله ، ثمَّ يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوَّة المسلمين ، وإسقاط هيبتهم ، وهو الأمر الَّذي يجاهدون من أجل استرداده.

٢ ـ وجود مثل هذا التَّجمُّع في الطَّريق إلى الشَّام قد يؤثِّر على الوضع الاقتصاديّ للمسلمين ، فلو أنَّ المسلمين سكتوا عن هذا التَّجمُّع؛ لتعرَّضت قوافلُهم ، أو قوافل القبائل الَّتي تحتمي بهم للسَّلب ، والنَّهب ، ممَّا يُضعف الاقتصاد ، ويؤدِّي إلى حالةٍ من التذمُّر ، والاضطراب.

٣ . وهناك أمرٌ أهمُّ من الأمرين السَّابقين ، وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلِّها، وإشعارُ سكَّانها بأنَّهم في حمايتهم ، وتحت مسؤوليَّتهم ، لذلك فهم يؤمِّنون لهم الطُّرق ، ويحمون لهم تجارتهم ، ويحاربون كلَّ إرهابٍ من شأنه أن يزعجهم ، أو يُعرِّضهم للخطر[(٧٤١)].

٤ . حرمان قريش من أيِّ حليفٍ تجاريٍّ قد يمدُّها بما تحتاج إليه من التِّجارة ، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التِّجارية المهمَّة ؛ لأنَّ ظهور الدَّولة الإسلاميَّة بهذه القوة يؤثِّر على نفسية قريشٍ (العدوِّ الأوَّل للدَّولة الإسلاميَّة) ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها[(٧٤٢)].

٥ . الحرص على إزالة الرَّهبة النَّفسيَّة الموجودة عند العرب؛ الَّذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الرُّوم ، والتَّأكيد عمليّاً للمسلمين بأنَّ رسالتهم عالميَّةٌ[(٧٤٣)] وليست مقصورةً على العرب. ورأى بعض المؤرِّخين كالذَّهبيِّ ، والواقديِّ ، ومحمَّد أحمد باشميل ، وغيرهم: أنَّ من أهداف تلك الغزوة إرهابُ الرُّوم؛ الَّذين تقع المنطقة الَّتي وصل إليها بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليالٍ من عاصمة مُلكهم الثَّانية دمشق[(٧٤٤)].

لهذا ندب رسول الله (ص) المسلمين للخروج، وخرج في ألفٍ من أصحابه، وكان يسير الليل ،

ويكمن النهار حتَّى يُخفي مسيره[(٧٤٥)]، ولا تشيع أخبارُه، وتُنقل أسراره، وتتعقَّبه عيون الأعداء[(٧٤٦)].

واتَّخذ له دليلاً من بني عذرة يسمَّى مذكوراً ، وسار حتَّى دنا من القوم ، عندئذٍ تفرَّقوا ، ولم يلقَ رسولُ الله (ص) منهم أحداً ، فقد ولَّوا مدبرين ، وتركوا أنعامهم ، وماشيتهم ، غنيمةً باردةً للمسلمين ، وأسر المسلمون رجلاً منهم ، وأحضروه إلى الرَّسول (ص) ، فسأله عنهم ، فقال: هربوا لما سمعوا بأنَّك أخذت أنعامهم ، فعرض عليه رسول الله (ص) الإسلام ، فأسلم ، وأقام بساحتهم أياماً ، وبعث البعوث ، وبثَّ السرايا ، وفرَّق الجيوش ، فلم يصب منهم أحداً ، وعاد المسلمون إلى المدينة، وفي أثناء عودتهم وادع الرَّسول عيينة بن حصنٍ الفَزاريَّ، واستأذن عيينةُ رسول الله (ص) في أن ترعى إبلُه ، وغنمُه في أرضٍ قريبة من المدينة على ستةٍ وثلاثين ميلاً منها.

إنَّ وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل ، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة ، وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين ، واستئذانه في أن يرعى بإبله ، وغنمه في أرضٍ بينها وبين المدينة ستَّةٌ وثلاثون ميلاً . أي: ما يقرب من خمسة وستين كيلو متراً . لدليل قاطعٌ على ما وصلت إليه قوَّة المسلمين ، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للنَّاس في هذه المنطقة ، وأنَّ هذه المناطق النَّائية كانت ضمن

الدَّولة الإسلاميَّة ، وأنَّ الدَّولة أصبحت منيعةً ، ليس في مقدور أحدٍ أن يعتدي عليها ، ولو كان ذلك في استطاعة أحدٍ؛ لكان هو عيينة بن حصن الَّذي كان يغضب لغضبه عشرة الاف فتىً[(٧٤٧)].

كانت غزوة دومة الجندل بعيدةً عن المدينة من جهة الشَّام؛ إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليالٍ ، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكَّان البوادي الشَّمالية ، وأطراف الشَّام الجنوبيَّة ، وأحسُّوا بقوَّة الإسلام ، وسطوته ، كما كانت لقيصر ، وجنده كما أنَّ سير الجيش الإسلاميِّ هذه المسافات الطَّويلة قد كان فيه تدريبٌ له على السَّير إلى الجهات النائية ، وفي أرضٍ لم يعهدوها من قبلُ ، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلاميَّة للفتوحات العظيمة في بلاد اسية ، وإفريقية فيما بعد[(٧٤٨)].

كانت خطَّة الرَّسول (ص) في هذه الغزوة ترمي إلى أهدافٍ عديدةٍ ، فهي غزوةٌ ، وحربٌ استطلاعيَّةٌ تمسح الجزيرة العربيَّة ، وتتعرَّف مراكز القوى فيها ، وهي حربٌ إعلاميَّةٌ تأتي على أعقاب بدرٍ الموعد ، وتستثمر انتصاراتها ، وهي حربٌ عسكريَّةٌ تريد أن تصدَّ هجوماً محتملاً على المسلمين؛ حيث انضوى إليها قومٌ من العرب كثيرٌ يريدون أن يدنوا من المدينة ، وهي

حربٌ سياسيَّة تريد أن تُجْهِض من تحرُّكات القبائل المحتمل أن تتحرَّك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة ، وتستبيحها[(٧٤٩)].

كانت هذه الغزوة دورةً تربويَّةً رائعةً ، وقاسيةً ، وشاملةً يقودها رسول الله (ص) وبين يديه ألفٌ من أصحابه، فيتلقَّون فيها كلَّ لحظةٍ دروساً في الطَّاعة، والانضباط ، ودروساً في التَّدريب الجسميِّ، والعسكريِّ، والتَّحمُّل لمشاقِّ الحياة، وصعوباتها ، وأحكاماً ، وفقهاً في الحلال ، والحرام ، وعمليات صهرٍ وتذويبٍ لقواعد الجيش الإسلاميِّ في بوتقةٍ واحدةٍ خارج إطار العشيرة ، وخارج كيان القبيلة ، حيث أخذت تَفِدُ إلى المدينة عناصر كثيرةٌ من أبناء القبائل المجاورة ، والتَّخلِّي عن الأطر القبليَّة ، وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمَّة الواحدة الَّتي تجعل الولاء لله ورسوله.

وفوق هذا كلِّه تتيح الفرصة لجيل بدرٍ الرَّائد أن يقوم بمهمة التَّربية للوافدين الجدُد ، وتعليمهم وتثقيفهم ، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النُّفوس ، ومن له صلةٌ بمعسكر النِّفاق من خلال مراقبة تصرُّفاته ، وسلوكه. إنَّها ليست ساعاتٍ محدودةً أو أياماً معدودةً؛ بل هي دورةٌ قرابة شهرٍ ، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كلُّ الطَّبائع ، وكلُّ النَّوازع ، فيتلقَّاها عليه الصَّلاة والسَّلام ليصوغها على ضوء الإسلام ، ويعلِّم الجيل الرَّائد فنَّ القيادة ، وعظمة السِّياسة.

كانت معركةً صامتةً ، وتربيةً هادئةً ، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصَّحراء يتربَّى ، ويتثقَّف ، ويتدرَّب ، ويُمتحن ، ويقوَّم ليكون هذا استعداداً لمعارك قادمةٍ[(٧٥٠)] ، وفي غيابه في غزوة دومة الجندل عيَّن (ص) سباع بن عرفطةَ الغفاريَّ والياً على المدينة في تجربةٍ جديدةٍ، فهو ليس أوسيّاً، ولا خزرجيّاً ، ولا قرشيّاً ، بل من غفار الَّتي كانت تعتبر من سرَّاق الحجيج عند العرب ، فلابدَّ لهذا الجيل أن يتربَّى على الطَّاعة ، والانضباط للأمير أيّاً كان شأن هذا الأمير.

وهذا يدلُّ على عظمة المنهج النَّبويِّ في تربية الأمَّة ، والارتقاء بها ، وعلى عظمة قيادة النَّبيِّ (ص) ، وفراسته في أتباعه ، وثقته فيهم ، ومعرفته لمواهبهم ، فهو (ص) على معرفةٍ بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاريِّ ، وعبقريته ، وقدرته على الإدارة الحازمة ، فكان (ص) يربِّي أصحابه وهو غائب عن المدينة لكي يهيمن منهج ربِّ العالمين على المسلمين ، ويصنع منها أمةً واحدةً ، تسمع ، وتطيع لكتاب ربِّها وسنَّة نبيِّها (ص)[(٧٥١)] .

* * *

المبحث السَّادسِ

غزوة بني المصْطَلِق[(٧٥٢)]

أوَّلاً: مَنْ هم بنو المصطلق؟ ومتى وقعت الغزوة؟ وما أسبابها؟

١ ـ بنو المصطلق:

هم بطنٌ[(٧٥٣)] من خزاعة ، والمصطلق[(٧٥٤)] جدُّهم ، وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السَّماء[(٧٥٥)].

واختلفوا في خُزاعة[(٧٥٦)] ، فمنهم من قال: إنَّها قبيلةٌ عدنانيَّةٌ ، ومنهم من ذهب إلى أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّة يمنيَّةٌ ، والرَّاجح ما ذهب إليه أكثر العلماء من أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّةٌ يمنيَّةٌ[(٧٥٧)].

٢ ـ تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في ذلك ، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوالٍ ، فَمِنْ قائلٍ: إنَّها سنة ستٍّ ، قال بذلك ابن إسحاق إمام المغازي ، وتبعه على ذلك خليفةُ بن خيَّاط، وابن جرير الطَّبريُّ ، وابن حزمٍ ، وابن عبد البَرِّ ، وابن العربيِّ ، وابن الأثير ، وابن خلدون ، فقد صرَّح كلٌّ منهم بأنَّ غزوة بني المصطلق كانت فيشعبان من السَّنة السَّادسة للهجرة[(٧٥٨)].

وهناكَ مَنْ قال بأنَّها في شعبان من العام الرَّابع للهجرة ، وذهب إلى هذا القول المسعوديُّ ، وابن العربيِّ المالكيُّ ، وغيرهم.

وذهبت طائفةٌ إلى أنَّها كانت في شعبان من السنة الخامسة، ومن هؤلاء العلماء كلٌّ من:

موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذَّهبيُّ، وابن القيِّم ، وابن حجر العسقلانيُّ ، وابن كثيرٍ رحمهم الله! ومن المحْدَثِينَ: الخضري بك ، والغزاليُّ ، والبوطيُّ ، وأبو شهبة ، والشَّيخ السَّاعاتيُّ ، ومحمَّد أبو زهرة ، وسيِّد قطب ، وحسن مشَّاط ، ومحمَّد علي الصَّابوني ، ومحمَّد بكر ال عابد ، ومهدي رزق الله أحمد[(٧٥٩)] ، ويبدو لي أنَّ هذا الرأي أقربُ للصَّواب ، لأسبابٍ؛ منها:

أ ـ أنَّ هذا القول هو ما ذهب إليه جمهور أصحاب السِّير والمغازي ، كما أنَّ عدداً كبيراً ممَّن كتب في السِّيرة من المعاصرين سار عليه.

ب ـ أنَّ في شعبان سنة أربعٍ من الهجرة كانت غزوة بدرٍ الموعد فيتعيَّن أن غزوة بني المصطلق كانت في غيرها.

ج ـ أنَّ هذا القول يؤيِّده وجود سعد بن معاذ رضي الله عنه في الغزوة ، فقد جاء ذكره في حديث الإفك الَّذي كان في أعقاب غزوة بني المصطلق ، والَّذي أخرجه الإمام البخاريُّ: «فقام سعد بن معاذ الأنصاريُّ ، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه؛ إن كان من الأوس؛ ضربْتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ، ففعلنا أمرك.... الحديث» [البخاري (٤٧٥٠) ، ومسلم (٢٧٧٠)].

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة ، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السَّنة الخامسة على القول الرَّاجح ، فيتعيَّن أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها[(٧٦٠)].

٣ ـ أسباب هذه الغزوة:

من أهمِّ الأسباب لهذه الغزوة:

أ ـ تأييد هذه القبيلة لقريشٍ ، واشتراكها معها في معركة أُحُدٍ ضدَّ المسلمين ، ضمن كتلة الأحابيش الَّتي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش.

ب ـ سيطرة هذه القبيلة على الخطِّ الرَّئيسيِّ المؤدِّي إلى مكَّة ، فكانت حاجزاً منيعاً من نفوذ المسلمين إلى مكَّة[(٧٦١)].

ج ـ أنَّ الرَّسول (ص) بلغه أنَّ بني المصطلق يجمعون له ، وكان قائدُهم الحارث بن أبي ضرار ينظِّم جموعهم ، فلمَّا سمع بهم خرج إليهم ، حتَّى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع
من ناحية قُدَيْد إلى السَّاحل فهزمهم شرَّ هزيمة[(٧٦٢)].

٤ ـ أحداث غزوة بني المصطلق:

عندما شعر رسول الله (ص) بحركة بني المصطلق المريبة؛ أرسل بريدة بن الحصيب الأسلميَّ ، للتأكُّد من نيَّتهم ، وأظهر لهم بريدة: أنَّه جاء لعونهم ، فتأكَّد من قصدهم ، فأخبر الرَّسول (ص) بذلك.

وفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السَّنة الخامسة للهجرة خرج الرَّسول (ص) من المدينة في سبعمئة مقاتلٍ[(٧٦٣)] ، وثلاثين فارساً[(٧٦٤)] متوجِّهاً إلى بني المصطلق ، ولما كان بنو المصطلق ممَّن بلغتهم دعوة الإسلام ، واشتركوا مع الكفَّار في غزوة أُحُدٍ ، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين ، فقد روى البخاريُّ [(٢٥٤١)] ، ومسلمٌ [(١٧٣٠)]: أنَّ رسول الله (ص) أغار عليهم ، وهم غارُّون ـ أي: غافلون ـ وأنعامهم تُسْقَى على الماء ، فقتل مقاتلهم ، وسبى ذراريهم ، وأصاب يومئذٍ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار[(٧٦٥)].

ثانياً: زواج رسول الله (ص) من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

قسَّم رسول الله (ص) سبايا بني المصطلق ، وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث ، وكانت بركةً على قومها ، ولنعرف قصَّتها من السَّيدة عائشة رضي الله عنها ، حيث قالت: لما قسم رسول الله (ص) سبايا بني المصطلق؛ وقعت جويرية بنت الحارث في سهمٍ لثابت بن قيس بن شمَّاس ، أو لابن عمٍّ له ، فكاتبته على نفسها ، وكانت امرأة حُلوةً مُلاَّحة[(٧٦٦)] ، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله (ص) لتستعينه في كتابتها ، قالت: فوالله! ما هو أن رأيتها على باب حجرتي ، فكرهتها ، وعرفت أنَّه سيرى منها ما رأيت ، فدخَلَتْ عليه ، فقالت: يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيِّد قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فوقعت في السَّهم لثابت بن قيس بن شمَّاس ، أو لابن عمٍّ له ، فكاتبته على نفسي ، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «فهل لك في خيرٍ من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟!

قال: «أقضي عنك كتابك ، وأتزوَّجُك». قالت: نعم يا رسول الله! قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى النَّاس: أنَّ رسول الله (ص) قد تزوَّج جويرية بنت الحارث.
فقال النَّاس: أصهار رسول الله (ص) فأرسلوا ما بأيديهم.
قالت: فلقد أُعْتِقَ بزواجه إيَّاها مئةُ أهل بيت من بني المصطلق ، فما أعلم امرأةً أعظم بركةً على قومها منها. [أحمد (٦/٢٧٧) ، وأبو داود (٣٩٣١) ، وابن حبان (٤٠٥٤ و٤٠٥٥) ، وابن هشام (٣/٣٠٧ ـ ٣٠٨)][(٧٦٧)].
وجاء الحارث بن أبي ضرار ـ بعد الوقعة ـ بفداء ابنته إلى المدينة ، فدعاه النَّبيُّ (ص) إلى الإسلام فأسلم[(٧٦٨)].
تُعَدُّ غزوة بني المصطلق من الغزوات الفريدة المباركة؛ الَّتي أسلمت عقبها قبيلةٌ بأسرها ، وكان الحدث الَّذي أسلمت القبيلة من أجله هو أنَّ الصحابة حرَّروا ، وردُّوا الأسرى الَّذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملَّكوهم باليمين في قسم الغنائم ، واستكثروا على أنفسهم أن يتملَّكوا أصهار نبيِّهم (ص) ، وحيال هذا العتق الجماعيِّ ، وإزاء هذه الأريحيَّة الفذَّة؛ دخلت القبيلة كلُّها في دين الله.
إنَّ مردَّ هذا الحدث التَّاريخيِّ ، وسببه البعيد هو حبُّ الصَّحابة للنَّبيِّ (ص) ، وتكريمُهم إيَّاه ، وإكبارُهم شخصه العظيم ، وكذلك يؤتي الحبُّ النَّبويُّ هذه الثِّمار الطَّيبة ، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التَّاريخ.
لقد كان زواج رسول الله (ص) من جويرية بنت الحارث له أبعاده ، وتحقَّقت تلك الأبعاد بإسلام قومها ، فقد كان الزَّواج منها من أهدافه الطَّمع في إسلام قومها ، وبذلك يكثر سواد المسلمين ، ويعزُّ الإسلام ، وهذه مصلحةٌ إسلاميَّةٌ بعيدة ، يسَّر الله هذا الزَّواج ، وباركه ، وحقَّق الأمل البعيد المنشود من ورائه ، فأسلمت القبيلة كلُّها بإسلام جويرية ، وإسلام أبيها الحارث ، فقد عاد هذا الزَّواج على المسلمين بالبركة والقوَّة ، والدَّعم المادِّيِّ والأدبيِّ معاً للإسلام ، والمسلمين[(٧٦٩)].
أصبحت جويرية بنت الحارث زوجةً لسيِّد المرسلين ، وأمّاً للمؤمنين ، فكانت رضي الله عنها عالمةً بما تسمع ، وعاملةً بما تعلم ، فقيهةً ، عابدةً ، تقيَّةً ، ورعةً ، نقيَّة الفؤاد ، مضيئة العقل ، مشرقة الرُّوح ، تحبُّ الله ورسولَه ، وتحبُّ الخير للمسلمين.
وكانت رضي الله عنها تروي من حديث رسول الله (ص) ، ناقلة لحقائق الدِّين من خزائنها عند من تنزَّلت عليه (ص) ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصَّحابة رضي الله عنهم؛ لينشروه في المجتمع المسلم علماً ، وعملاً ، وفي المجتمع الإسلاميِّ عامَّةً دعوةً وهدايةً[(٧٧٠)] ، فقد حدَّث عنها: ابنُ عبَّاس ، وعبيدُ بن السبَّاق ، وكريبُ مولى ابن عباسٍ ، ومجاهدٌ ، وأبو أيوب يحيى بن مالكٍ الأزديُّ ، وبلغ

مسندها في كتاب بقي بن مخلد سبعة أحاديث[(٧٧١)] ، منها أربعةٌ في الكتب السِّتَّة ، عند البخاريِّ حديثٌ ، وعند مسلمٍ حديثان ، وقد تضمَّنت مرويَّاتها أحاديث في الصَّوم؛ في عدم تخصيص يوم الجمعة بالصَّوم ، وحديث في الدَّعوات في ثواب التَّسبيح ، وفي الزَّكاة في إباحة الهديَّة للنَّبيِّ (ص) وإن كان المهدي ملكها بطريق الصَّدقة ، كما روت في العتق ، وبسبعة أحاديث شريفةٍ خلَّدت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها اسمها في عالم الرِّواية؛ لتضيف إلى شرف صحبتها للنَّبيِّ (ص) ، وأمومتها للمسلمين؛ تبليغَها الأمَّة سننَ المصطفى (ص) ما تيسَّر لها ذلك[(٧٧٢)].

وكانت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها من الذَّاكرين الله كثيراً ، والذَّاكرات ، القانتات ، الصَّابرات في مجال مناجاة الله تعالى ، وتحميده ، وتقديسه ، وتسبيحه[(٧٧٣)] ، فهذه أمُّ المؤمنين جويرية تحدِّثنا عن ذلك ، فتقول: إنَّ النَّبيَّ (ص) خرج من عندها بُكْرَةً حين صلَّى الصُّبح ، وهي في مسجدها[(٧٧٤)] ثمَّ رجع بعد أن أضحى؛ وهي جالسةٌ. فقال: ما زلت على الحال الَّتي فارقتُك عليها؟ قالت: نعم. قال النَّبيُّ (ص) : «لقد قلت بعدك أربع كلماتٍ ، ثلاث مراتٍ لو وُزنت بما قلت منذ اليوم؛ لوزنتهنَّ ، سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وَزِنَةَ عرشه ، ومداد كلماته» [أحمد (١/٢٥٨) ، ومسلم (٢٧٢٦) ، وأبو داود (١٥٠٣) ، والنسائي في السنن الكبرى (٩٩١٢ و١٢٧٧)].

وقد تُوفِّيت رضي الله عنها سنة خمسين ، وقيل: ستٍّ وخمسين[(٧٧٥)].

ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عددٌ كبير من المنافقين مع المسلمين ، وكان يغلب عليهم التَّخلُّف في الغزوات السَّابقة ، لكنَّهم لما رأوا اطراد النَّصر للمسلمين؛ خرجوا طمعاً في الغنيمة[(٧٧٦)].

وعند ماء الْمُرَيْسِيع كشف المنافقون عن الحِقْدِ الَّذي يضمرونه للإسلام والمسلمين ، فكلَّما كسب الإسلام نصراً جديداً؛ ازدادوا غيظاً على غيظهم ، وقلوبُهم تتطلَّع إلى اليوم الَّذي يُهزم فيه المسلمون ، لتشفى من الغلِّ ، فلمَّا انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبيَّة بين المهاجرين ، والأنصار ، فلمَّا أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرَّسول (ص) في نفسه ، وأهل بيته ، فشنوا حرباً نفسيَّة مريرةً من خلال حادثة الإفك الَّتي اختلقوها ، ولنترك الصَّحابيَّ زيد بنَ أرقم ، وهو شاهد عيان ، ومشاركٌ في الحادث الأوَّل يحكي خبر ذلك[(٧٧٧)] ، قال: كنت في غزاةٍ[(٧٧٨)] فسمعتُ عبد الله بن أُبَيٍّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله ، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فذكرت ذلك لعمِّي[(٧٧٩)] ، فذكره للنَّبيِّ (ص) فدعاني فحدثته ، فأرسل رسولُ الله (ص) إلى

عبد الله بن أبيّ ، وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فكذَّبني رسول الله (ص) ، وصدَّقه ، فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثلُه قطُّ ، فجلست في البيت ، فقال لي عمّي: ما أردت إلى أن كذَّبك رسولُ الله (ص) ومقَتَك؟ فأنزل الله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ *} [المنافقين: ١].

فبعث إليَّ رسول الله (ص) فقرأ، فقال: «إنَّ الله قد صدَّقك يا زيد!» [البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢)][(٧٨٠)].

ويحكي شاهد عيان اخر هو جابر بن عبد الله الأنصاريُّ ما حدث عند ماء المريسيع ، وأدَّى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية ، وتمزيق وحدة المسلمين ، قال: «كنَّا في غزاةٍ فكسع[(٧٨١)] رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين؟ فسمع ذلك رسول الله (ص) ، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله! كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال: «دعوها فإنها منتنة» ، فسمع بذلك عبد الله بن أبيٍّ ، فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فبلغ النَّبيَّ (ص) ، فقام عمر فقال: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق ، فقال النَّبيُّ : «دعه ، لا يتحدَّث الناسُ: أنَّ محمداً يقتل أصحابه». [البخاري (٣٥١٨) ، ومسلم (٢٥٨٤/٦٣)][(٧٨٢)].

وفي روايةٍ قال عمر بن الخطَّاب: مُرْ به عبَّاد بن بشر؛ فليقتله ، فقال له رسول الله (ص) : «فكيف يا عمر! إذا تحدَّث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟! لا. ولكن أذِّن بالرَّحيل» ، وذلك في ساعةٍ لم يكن رسول الله (ص) يرتحل فيها ، فارتحل النَّاس. [الطبري في تفسيره (٢٨/١١٥ ـ ١١٦) ، وابن هشام (٣/٣٠٣)].

وقد مشى عبد الله بن أبيّ ابن سلول إلى رسول الله (ص) حين بلغه: أنَّ زيد بن أرقم قد بَلَّغه ما سمعه منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال: ولا تكلَّمت به! فقال من حضر رسول الله (ص) من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه.

فلمَّا سار رسول الله (ص) ، لقيه أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ ، فحيَّاه بتحيَّة النُّبوَّة ، وسلَّم عليه ، ثم قال: يا نبي الله! لقد رحتَ في ساعةٍ منكرةٍ ، ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله (ص) : «أوبلغك ما قال صاحبُكم؟».

قال: وأيُّ صاحبٍ يا رسول الله؟

قال: «عبد الله بن أبيٍّ».

قال: وما قال؟

قال: «زعم إن رجع إلى المدينة؛ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ».

قال: فأنت يا رسول الله! تخرجه منها ؛ إن شئت ، هو الذَّليل ، وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله ! ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز؛ ليتوِّجوه ، فإنَّه يرى: أنك استلبت مُلْكَهُ.

ثمَّ مشى رسولُ الله (ص) بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى ، وليلتهم حتَّى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتَّى اذتهم الشَّمس ، ثمَّ نزل بالنَّاس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض ، فوقعوا نياماً.

وإنَّما فعل ذلك رسول الله (ص) ليشغل النَّاس عن الحديث الَّذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبيٍّ ، ونزلت السُّورة الَّتي ذُكِرَ فيها المنافقون في ابن أبيٍّ ، ومن كان على مثل أمره ، فلمَّا نزلت؛ أخذ رسول الله (ص) بأذن زيد بن أرقم ، ثمَّ قال: «هذا الَّذي أوفى لله بأذُنه». [الطبري في تفسيره (١١٦/٢٨) ، وابن هشام (٣٠٥/٣)][(٧٨٣)].

إنَّ هذه الحادثة من السِّيرة النَّبويَّة العطرة مليئةٌ بالدُّروس ، والعبر.

فَمِنْ أهمِّ تلك الدُّروس:

١ ـ الحفاظ على السُّمعة السِّياسيَّة ووحدة الصَّفِّ الدَّاخلية:

وهذا الدَّرس يظهر في قوله (ص) : «فكيف يا عمر! إذا تحدث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟!» [سبق تخريجه][(٧٨٤)].

إنَّها المحافظة التَّامَّة على السُّمعة السِّياسيَّة ، والفرق كبير جدّاً بين أن يتحدَّث النَّاس عن حبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً ، ويؤكِّدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمَّد محمَّداً[(٧٨٥)] ، وبين أن يتحدَّث النَّاس أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه ، ولاشكَّ: أنَّ وراء ذلك محاولاتٍ ضخمةً ستتمُّ في محاولة الدُّخول إلى الصَّفِّ الدَّاخليِّ في المدينة من العدوِّ ، بينما هم يائسون الان مِنْ قدرتهم على شيءٍ أمام ذلك الحبِّ ، وتلك التَّضحيات[(٧٨٦)].

ولم يقف النَّبيُّ (ص) موقفاً سلبيّاً حيال تلك المؤامرة ، الَّتي تزعَّمها ابنُ سلولٍ لتصديع الصَّفِّ المسلم ، وإحياء نعرات الجاهليَّة في وسطه؛ بل اتَّخذ إزاءها الخطواتِ الإيجابيَّة التَّالية:

أ ـ سار رسول الله (ص) بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى ، وليلتهم حتَّى أصبح ، وصدْرَ يومهم الثَّاني حتَّى اذتهم الشَّمس ، ثمَّ نزل بالنَّاس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض ، فوقعوا نياماً[(٧٨٧)].

وبهذا التَّصرُّف البالغ الغاية في السِّياسة الرَّشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرماً ، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابنُ أُبيٍّ.

ب ـ لم يواجه النَّبيُّ (ص) ابن سلولٍ ، ومؤامراته المدبَّرة بالقوَّة ، واستعمال السِّلاح ، حرصاً على وحدة الصَّفِّ المسلم؛ وذلك لأنَّ لابن أُبَيّ أتباعاً ، وشيعةً مسلمين مغرورين ، ولو فتك به؛ لأرعدت له أنوفٌ ، وغضب له رجالٌ متحمِّسون له ، وقد يدفعهم تحمُّسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة ، وليس في ذلك أيُّ مصلحةٍ للمسلمين ، ولا للإسلام ، وإنَّها لسياسةٌ شرعيَّةٌ حكيمةٌ رشيدةٌ في معالجة المواقف العصيبة في حزمٍ ، وقوَّة أعصابٍ ، وبُعْد نظرٍ[(٧٨٨)] ، وهذه البراعة في الحكمة ، والسِّياسة ، وتدبير الأمور متفرعةٌ عن كونه (ص) نبيّاً ورسولاً إلى
النَّاس[(٧٨٩)]؛ لكي تقتدي به الأمَّة في تصرُّفاته العظيمة.

وقد كان لتسامح الرَّسول (ص) مع رأس المنافقين أبعدُ الاثار فيما بعد ، فقد كان ابن أُبيِّ بن سلول كلَّما أحدث حدثاً كان قومه هم الَّذين يُعاتبونه ، ويأخذونه ، ويعنِّفونه ، ويعرضون قتله على النَّبيِّ (ص) ، والرَّسول (ص) يأبى ، ويصفح ، فأراد رسول الله (ص) أن يكشف لسيف الحقِّ عن اثار سياسته الحكيمة ، فقال: «كيف ترى يا عمر؟! أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي؛ لأرعدت له أنوفٌ ، لو أمرتها اليوم؛ لقتلته!!» فقال عمر: قد ـ والله ـ علمتُ لأَمْرُ رَسُولِ الله (ص) أعظمُ بركةً مِنْ أمري. [الطبري في تفسيره (١١٦/٢٨ ـ ١١٧)][(٧٩٠)] ، وابن هشام (٣٠٥/٣)].

٢ ـ (بل نترفَّق به ، ونُحسن صحبته ما بقي معنا):

كان لابن أُبيٍّ بن سلول ولدٌ مؤمنٌ مخلصٌ ، يسمَّى عبد الله بن عبد الله بن أُبيِّ بن سلول ، فلمَّا علم بالأحداث ، ونزول السُّورة ، أتى رسول الله فقال له: يا رسول الله ! بلغني: أنَّك تريد قتل أبي بن سلول فيما بلغك عنه ، فإن كنتَ فاعلاً؛ فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمتِ الخزرج ، ما كان بها من رجلٍ أبرُّ بوالده منِّي ، وإنِّي لأخشى أن تأمر به غيري ، فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين النَّاس ، فأقتلُه ، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافرٍ ، فأدخلُ النَّار ، فقال رسولُ الله (ص) : «بل نترفَّق به ، ونحسن صحبتَه ما بقي معنا». [الطبري في تفسيره (١١٦/٢٨) ، وابن هشام (٣٠٥/٣) ، والبزار (٢٧٠٨) ، والطبراني في الأوسط (٢٣١) ، ومجمع الزوائد (٣١٨/٩)].

ولما وصل المسلمون مشارف المدينة ، تصدَّى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبيٍّ ، وقال له: قف ، فوالله لا تدخلها حتَّى يأذن رسول الله (ص) في ذلك ، فلمَّا جاء رسولُ الله (ص) ؛ استأذنه في ذلك ، فأذن له[(٧٩١)].

٣ ـ مثلٌ أعلى في الإيمان:

جسَّده عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ابن سلول في موقفه من والده ، وتقديمه وإخلاصه لله ، ولرسوله ، وتقديم محبَّتهما ، ومراضيهما على محبَّة ، ومراضي الأبوَّة[(٧٩٢)] ، لقد ضرب الابن أروع مثلٍ في الإيمان ، والتَّضحية بعاطفة الأبوَّة ، فقابله (ص) صاحب القلب الكبير ، والخلق العظيم بمثلٍ رفيعٍ في العفو والرَّحمة ، وحسن الصُّحبة «بل نترفَّق به ، ونحسن صحبته ما بقي

معنا» يا لروعة العفو! ويا لجلال العظمة النَّبويَّة[(٧٩٣)]! فقد تلطَّف النَّبيُّ (ص) بهذا الصَّحابيِّ الجليل وهدَّأ من رَوْعِه ، وأذهب هواجِسَه[(٧٩٤)].

٤ ـ محاربة العصبيَّة الجاهليَّة:

إنَّ العصبيَّة الممقوتة والَّتي نَصِفُها بالجاهليَّة غير مقصورةٍ على العصبيَّة القبليَّة؛ أي: الاشتراك في النَّسب الواحد ، نسب القبيلة الَّتي ينتمون إليها ، وإنَّما الاشتراك في معنىً ، أو وصفٍ معيَّنٍ يجعل المشركين فيه يتعاونون ، ويتناصرون فيما بينهم بالحقِ ، وبالباطل ، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى ، أو الوصف المشترك ، فعندما كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، قال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين! فسمع ذلك النَّبيُّ (ص) فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجلٌ من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال النَّبيُّ (ص) : «دعوها؛ فإنَّها منتنة» [سبق تخريجه][(٧٩٥)].

ووجه الدَّلالة بهذا الخبر: أنَّ النَّبيَّ (ص) أنكر هذه المناداة؛ لما تشعره من معنى العصبية ، مع أنَّ المنادي استعمل اسماً استعمله القران ، وهو (المهاجرين) و(الأنصار)؛ فالمهاجريُّ استنصر بالمهاجرين مع أنَّه هو الَّذي كسع ، فكأنَّه بندائه هذا يريد عونهم ، لاشتراكه وإيَّاهم في معنىً واحدٍ ، وهو (المهاجرة) ، وكذلك الأنصاريُّ استنصر بالأنصار؛ لأنَّه منهم ، ويشترك وإيَّاهم في وصفٍ واحدٍ ومعنىً واحدٍ وهو مدلول كلمة (الأنصار)؛ وكان حقَّ الاثنين ـ إذا كان لابدَّ من الاستنصار بالغير ـ أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً ، وعلى هذا فالمطلوب من الدُّعاة التَّأكيد على نبذ العصبيَّة بجميع أنواعها ، سواءٌ كانت عصبيةً تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة ، أو على أيِّ أساسٍ اخر ، من بلدٍ ، أو مذهبٍ ، أو حزبٍ ، أو عِرْقٍ ، أو لونٍ ، أو دمٍ ، أو جنسٍ ، وأن يكون الولاء ، والتَّناصر على أساس الاشتراك بالأخوَّة الإسلاميَّة

الَّتي أقامها ، وأثبتها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} ، وأن يكون التَّناصر فيما بينهم تناصراً على الحقِّ لا على الباطل ، بمعنى أن ينصروا المحقَّ ، وأن يكونوا معه لا مع المعتدي[(٧٩٦)].

لقد أوضح الرَّسول (ص) : أنَّ العصبيات هي من دعاوى الجاهليَّة وقال: «انصر أخاك ظالماً ، أو مظلوماً» فقال رجلٌ لرسول الله (ص) : أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إن كان ظالماً؟ كيف أنصره؟ قال: «تحجزه ـ أو تمنعه ـ من الظُّلم ، فإنَّ ذلك نصره» ، [البخاري (٦٩٥٢) ، والترمذي (٢٢٥٥) ، وأحمد (٣/٢٠١)] ، فجعل التناصر في طلب الحقِ، والإنصاف ، وأبطل المفهوم الجاهليَّ: «انصر أخاك ظالماً ، أو مظلوماً»[(٧٩٧)].

إنَّ مهمَّة الدُّعاة ، وطلابِ العلم ، والعلماء ، والفقهاء هي التَّخلُّص من العصبيَّة ، ودعوة المسلمين إلى نبذها ، كما أمر بذلك رسول الله (ص) ، وهي مهمَّةٌ صعبةٌ ، ولكنَّها ليست مستحيلةً ، ولأهمِّيّتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا؛ لقلعها من النُّفوس[(٧٩٨)].

رابعاً: توجيه القران الكريم للمجتمع الإسلاميِّ في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة (المنافقون) في أعقاب غزوة بني المصطلق ، حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة ، وذلك بدليل رواية الإمام التِّرمذيِّ: «فلمَّا أصبحنا؛ قرأ رسول الله (ص) سورة المنافقون» [الترمذي (٣٣١٣)].

فقد تحدَّثت السُّورة بإسهابٍ عن المنافقين ، وأشارت إلى بعض الحوادث ، والأقوال ، الَّتي وقعت منهم ، ورُويت عنهم ، وفضحت أكاذيبهم ، إلا أنَّها في الختام حذَّرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا ، ومتاعها ، وحثَّت على الإنفاق ، ويمكن لدارس هذه السُّورة أن يلاحظ عدَّة محاور مهمَّةٍ ، منها:

١ ـ تحدثت السُّورة الكريمة في البدء عن أخلاق المنافقين ، وفضحت كذبهم في أقوالهم ، ووصفت حالهم[(٧٩٩)] ، فابتدأت هذه السُّورة بإيراد صفات المنافقين الَّتي من أهمِّها الكذبُ في ادِّعاء الإيمان ، وحلفُ الأيمان الكاذبة ، وجبنُهم ، وضعفُهم ، وتامرُهم ، على النَّبيِّ (ص) وعلى المؤمنين ، وصدُّهم النَّاس عن دين الله[(٨٠٠)].

قال الله ـ عز وجل ـ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ *اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ *وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ *} [المنافقون: ١ ـ ٤].

٢ ـ ثمَّ بينت الايات عنادهم ، وتصميمهم على الباطل ، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحقِّ ، وبيَّنت مقالاتِهم الشَّنيعة بالتَّفصيل ، خاصَّةً ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنَّهم
سيطردون الرَّسول (ص) والمؤمنين من المدينة، وأنَّ العزَّة لهم إلى غير ذلك من الأقوال الفظيعة[(٨٠١)].
قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ *سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ *يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ *} [المنافقون: ٥ ـ ٨].
٣ ـ ثمَّ خُتمت السُّورة بتحذير الَّذين امنوا من الانشغال بزينة الدُّنيا ، وعدم التَّشبُّه بالمنافقين ، وحثَّتهم على الصَّدقة ـ الَّتي هي برهانٌ على الإيمان باليوم الاخر ـ قبل فوات الأوان[(٨٠٢)] ، فقد كانت الايات تحثُّ المجتمع المسلم على الاشتغال بطاعة الله تعالى ، وقراءة القران ، وإدامة الذِّكر ، وأداء الصَّلوات ، والقيام بجميع الفرائض ، وحذَّرتهم من أن ينشغلوا بالأموال ، والاهتمام بشؤون الأولاد عن أداء حقوق الله ، كما فعل المنافقون ؛ إذ قالوا بسبب الشُّحِّ بأموالهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله (ص) ، ومن يشتغل بالمال ، والولد عن طاعة ربِّه فأولئك هم الخاسرون[(٨٠٣)].
قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ *وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ *وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المنافقون: ٩ ـ ١١].
كانت خاتمة السُّورة الكريمة تحذيراً للمؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا التي هي من أخلاق المنافقين[(٨٠٤)].
وهكذا كان المجتمع المدنيُّ يتربَّى بالأحداث ، والقران الكريم يقوم بتوجيهه ، وتعليمه ، ورسول الله (ص) يقوم بالإشراف على ذلك.
خامساً: محاولة المنافقين الطَّعن في عِرْض النَّبيِّ (ص) بالافتراء على عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك:
حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك ، بعد أن فشل كيدُهم في المحاولة الأولى لإثارة

النَّعرة الجاهليَّة ، فقد ألمتْ بالبيت النَّبويِّ هذه النازلة الشَّديدة ، والمحنة العظيمة الَّتي كان القصد منها النَّيل من النَّبيِّ (ص) ومن أهل بيته الأطهار.

هذا وقد أجمع أهل المغازي والسِّير[(٨٠٥)] على أنَّ حادثة الإفك كانت في أعقاب غزوة بني المصطلق ، وتابعهم في ذلك المفسِّرون[(٨٠٦)] ، والمحدِّثون[(٨٠٧)].

وقد أخرج البخاريُّ ، ومسلمٌ حديث الإفك في صحيحيهما. [البخاري (٤١٤١) ، ومسلم (٢٧٧٠)] ، وهذا سياق القصَّة من صحيح البخاريِّ:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله (ص) إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه؛ فأيتهنَّ خرج سهمها ، خرج بها رسول الله (ص) معه ، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها[(٨٠٨)] فخرج سهمي ، فخرجت مع رسول الله (ص) بعدما نزل الحجاب فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجِي[(٨٠٩)] وأنزل فيه.

فسرنا حتَّى إذا فرغ رسول الله (ص) من غزوته تلك ، وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين ، اذن ليلةً بالرَّحيل ، فقمت حين اذنوا بالرَّحيل ، فمشيت حتَّى جاوزتُ الجيشَ ، فلمَّا قضيت شأني ، أقبلت إلى رحلي ، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارٍ[(٨١٠)] قد انقطع ، فالتمست عِقْدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرَّهط[(٨١١)] الَّذين كانوا يُرحِّلوني ، فاحتملوا هَوْدَجي ، فَرَحَّلُوه على بعيري الَّذي كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنِّي فيه ، وكان النِّساء ، إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنَّ اللَّحم إنَّما نأكل العُلقة[(٨١٢)] من الطَّعام ، فلم يستنكر القوم خفَّة الهودج حين رفعوه، وكنت جاريةً حديثة السِّنِّ ، فبعثوا الجمل فساروا ، ووجدت عِقْدي بعدما استمرَّ الجيش ، فجئت منازلهم ، وليس بها داعٍ، ولا مجيب فتيمَّمت منزلي الَّذي كنت فيه، وظننت: أنَّهم سيفقدوني ، فيرجعون إليَّ ، فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي[(٨١٣)] ثم الذَّكوانيّ من وراء الجيش ، فادَّلج[(٨١٤)] ، فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائمٍ، فأتاني، فعرفني

حين راني، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه[(٨١٥)] حين عرفني فخمَّرتُ[(٨١٦)] وجهي بجلبابي ، وواللهِ ما كلَّمني كلمةً ، ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه ، وهوى حتَّى أناخ راحلته ، فوطأى على يديها ، فركبتها ، فانطلق يقود بي الرَّاحلة حتَّى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[(٨١٧)] ، في نحر الظَّهيرة[(٨١٨)] وهم نزول قالت: فهلك مَنْ هلك ، وكان الَّذي تولى كِبْرَ الإفك عبد الله بن أبيِّ بن سلول.

١ ـ انتشار الدِّعاية بالمدينة:

وقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهراً والنَّاس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيءٍ من ذلك ، وهو يريبني[(٨١٩)] في وجعي أني لا أعرف من رسول الله (ص) اللُّطف الَّذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنَّما يدخل عليَّ رسول الله (ص) فيسلِّم ، ثمَّ يقول: «كيف تِيكُمْ»[(٨٢٠)] ثمَّ ينصرف ، فذلك الَّذي يريبني ، ولا أشعر بالشَّرِّ ، حتَّى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ ، فَخَرَجَتْ معي أمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المناصِعِ[(٨٢١)] وهو متبرَّزنا ، وكنَّا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليلٍ ، وذلك قبل أن نتَّخذ الكُنُف[(٨٢٢)] قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأوَل في التَّبَرُّز قِبَل الغائط ، فكنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أن نتَّخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا ، وأمُّ مِسْطَح ، وهي ابنة أبي رُهم بن عبد منافٍ ، وأمُّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصِّدِّيق ، وابنُها مسْطَحُ بنأُثاثة[(٨٢٣)] ، فأقبلت أنا ، وأم مِسْطَحٍ قِبَل بيتي حين فرغنا مِنْ شأننا ، فعثرت أم مِسْطَح في مِرْطها[(٨٢٤)] فقالت: تَعِسَ مِسْطَح ، فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبِّين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هَنَتَاه[(٨٢٥)]! أولم تسمعي ما قال؟! قلت: وما قال؟ فأخبرتني بخبر أهل الإفك ، فازدَدْت مرضاً على مرضي ، قالت: فلمَّا رجعت إلى بيتي ، ودخل عليَّ رسولُ الله (ص) ـ تعني: فسلَّم ـ ثمَّ قال: «كيف تِيكُم؟» فقلت له: أتأذن لي أن اتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر مِنْ قِبَلِهما ، قالت: فأذن لي رسول الله (ص) ،

فجئت أبويَّ ، فقلت لأمِّي: يا أمتاه! ما يتحدَّث النَّاس؟ قالت: يا بنيَّة! هوِّني عليك ، فوالله! لقلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئةٌ[(٨٢٦)] عند رجلٍ يحبُّها ، ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها[(٨٢٧)].

قالت: فقلت: سبحان الله! لقد تحدث النَّاس بهذا؟!

فبكيت تلك اللَّيلة حتَّى أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ[(٨٢٨)] ، ولا أكتحل بنومٍ حتَّى أصبحت أبكي.

٢ ـ استشارة رسول الله (ص) بعض أصحابه عند تأخُّر نزول الوحي:

ودعا رسول الله (ص) عليَّ بن أبي طالبٍ ، وأسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما حين استلبث[(٨٢٩)] الوحي ، يستأمرهما في فراق أهله ، قالت: فأمَّا أسامة؛ فأشار على رسول الله بالَّذي يعلم من براءة أهله ، وبالَّذي يعلم لهم من الودِّ ، فقال: يا رسول الله! أهلُك ، وما نعلم إلا خيراً ، وأمَّا عليُّ بن أبي طالب ، فقال: يا رسول الله! لم يضيِّق الله عليك ، والنِّساء سواها كثيرٌ ، وإن تسأل الجارية؛ تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله (ص) بريرة ، فقال: «أي بريرة! هل رأيت من شيءٍ يريبك؟» قالت بريرة: لا والَّذي بعثك بالحقِّ إنْ رأيت عليها أمراً أغمصُه[(٨٣٠)] عليها أكثر من أنَّها جاريةٌ حديثة السِّنِّ ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الدَّاجن[(٨٣١)] فتأكله ، فقام رسول الله (ص) فاستعذر[(٨٣٢)] يومئذٍ من

عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، قالت: فقال رسول الله (ص) وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين! من يَعْذِرني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله! ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً[(٨٣٣)] ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذٍ الأنصاريُّ ، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه إن كان من الأوس؛ ضربتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج؛ أمرتنا ففعلنا أمرك.

٣ ـ اثار فتنة الإفك:

قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيِّد الخزرج . وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحميَّة[(٨٣٤)] . فقال لسعد: كذبت لَعَمْرُ الله! لا تقتُله ، ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل ، فقام أسيد بن حضير ، وهو ابن عمِّ سعدٍ ، فقال لسعد بن عبادة: لنقتلنَّه فإنَّك منافقٌ تجادل عن المنافقين ، فثار الحيَّان[(٨٣٥)]: الأوسُ ، والخزرج؛ حتَّى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله (ص) قائمٌ على المنبر ، فلم يزل رسول الله (ص) يُخَفِّضُهم حتَّى سكتوا ، وسكت.

قالت: فمكثت يومي لا يرقأ لي دمعٌ ، ولا أكتحل بنومٍ ، قالت: وأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ، ويوماً ، لا أكتحل بنومٍ ، ولا يرقأ لي دمعٌ يظنَّان أنَّ البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي ، فاستأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكي معي ، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله (ص) فسلَّم ، ثمَّ جلس ، قالت: ولم يجلس عندي منذ ما قيل قبلها.

٤ ـ مفاتحة الرَّسول (ص) لعائشة ، وجوابها له:

وقد لبث الوحي شهراً[(٨٣٦)] لا يوحى إليه في شأني بشيءٍ ، قالت: فتشهَّد رسول الله (ص) حين جلس ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: يا عائشة! فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا[(٨٣٧)] ، فإن كنت بريئةً فسيبرِّئك الله ، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ؛ فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ، ثمَّ تاب إلى الله ، تاب الله عليه» فلمَّا قضى رسول الله (ص) مقالته؛ قلص دمعي[(٨٣٨)]؛ حتَّى ما أحسُّ منه قطرةً ، فقلت لأبي: أجب رسول الله (ص) عنِّي فيما قال ، قال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله (ص) ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله (ص) ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله (ص) .

قالت: فقلت وأنا جاريةٌ حديثة السِّنِّ لا أقرأ كثيراً من القران: إنِّي والله! لقد علمتُ ، لقد سمعتم هذا الحديث حتَّى استقرَّ في أنفسكم ، وصدَّقتم به ، فلئن قلت لكم: إني بريئة ، والله يعلم أنِّي بريئةٌ؛ لا تصدِّقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ ، والله يعلم أنِّي منه بريئةٌ لتصدقُنِّي ، والله! ما أجد لي ، ولكم

مثلاً إلا قول أبي يوسف[(٨٣٩)] ، قال: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ *} [يوسف: ١٨] قالت: ثمَّ تحولت ، فاضطجعت على فراشي ، قالت: وأنا حينئذ أعلم أنِّي بريئةٌ ، وأنَّ الله مبرِّئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شأني

وحياً يُتلى ، ولَشَأْنِي في نفسي كان أحقر من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله (ص) في النَّوم رؤيا يبرِّئني الله بها.

٥ ـ نزول الوحي ببراءة عائشة:

قالت: فوالله! ما رام[(٨٤٠)] رسول الله (ص) ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتَّى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ[(٨٤١)] حتَّى إنَّه ليتحدَّر منه العرق مثل الجمان[(٨٤٢)] ، وهو يومٌ شاتٍ من ثقل القول الَّذي ينزل عليه.

قالت: فلمَّا سُرِّي[(٨٤٣)] عن رسول الله (ص) ، وهو يضحك ، فكانت أوَّل كلمةٍ تكلَّم بها: يا عائشة! أمَّا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد برَّأك ، فقالت أمِّي: قومي إليه ، قالت: والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

وأنزل الله: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ *لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ *لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ *وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ *إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ *وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ *يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [النور: ١١ ـ ٢٠].

٦ ـ موقف أبي بكر الصِّديق ممَّن تكلَّم في عائشة رضي الله عنها:

فلمَّا أنزل الله هذا في براءتي ، قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته منه ، وفقره ـ: والله! لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا

وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [النور: ٢٢ ـ ٢٣].

قال أبو بكر: بلى والله! إِنِّي أحبُّ أن يغفر الله لي ، فأَرْجَعَ إلى مسطح النَّفقة الَّتي كان ينفق عليه ، وقال: والله! لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله (ص) يسأل زينب بنت جحش[(٨٤٤)] عن أمري ، فقال: «يا زينب! ماذا علمت ، أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله! أحمي[(٨٤٥)] سمعي ، وبصري ، وما علمت إلا خيراً ، قالت: وهي الَّتي كانت تساميني[(٨٤٦)] من أزواج رسول الله (ص) ، فعصمها الله[(٨٤٧)] بالورع[(٨٤٨)] ، وطفقت[(٨٤٩)] أختها حمنة[(٨٥٠)] تحارب لها ، فهلكت ممَّن هلك من أصحاب الإفك. [سبق تخريجه].

كانت قصَّة الإفك حلقةً من سلسلة فنون الإيذاء ، والمحن الَّتي لقيها رسول الله (ص) من أعداء الدِّين ، وكان من لطف الله تعالى بنبيِّه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها ، وبطلانها ، وقد سجَّل التَّاريخ برواياتٍ صحيحةٍ مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لاسيما موقف أبي أيوبٍ، وأم أيوبٍ، وهي مواقف يتأسَّى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفِرْية ، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدُّروس، لتكون عبرةً، وعظةً للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها[(٨٥١)].

سادساً: أهمُّ الاداب والأحكام الَّتي تؤخذ من ايات الإفك:

أخذ العلماء من الايات الَّتي نزلت في حادثة الإفك أحكاماً ، واداباً ، من أهمِّها ما يأتي:

١ ـ تبرئة السَّيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرانٍ يُتْلَى إلى اخر الزَّمان ، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ *}

٢ ـ أنَّ حكمة الله ـ تعالى ـ اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشَّرِّ ، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه بحديث الإفك خيراً لهم ، حيث كُتِب لهم الأجر العظيم على صبرهم ، وقوَّة إيمانهم ، قال تعالى: {لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}

٣ ـ الحرص على سمعة المؤمنين ، وعلى حسن الظَّنِّ فيما بينهم ، قال تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ *}

٤ ـ تكذيب القائلين بالإفك ، قال تعالى: {لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ *}

٥ ـ بيان فضل الله على المؤمنين ، ورأفته بهم: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}

٦ ـ وجوب التَّثبُّت من الأقوال قبل نشرها ، والتَّأكُّد من صحَّتها ، قال تعالى: {وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ *}

٧ ـ النَّهي عن اقتراف مثل هذا الذَّنب العظيم ، أو العودة إليه ، قال تعالى: {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *}

٨ ـ النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ *}

٩ ـ بيان فضل الله ـ سبحانه ـ على عباده المؤمنين ، ورأفته بهم ، وكرَّر ذلك تأكيداً له ، قال تعالى: {وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *}

١٠ ـ النَّهي عن تتبُّع خطوات الشَّيطان الَّتي تؤدِّي للهلاك قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ *}

١١ ـ الحثُّ على النَّفقة على الأقارب وإن أساؤوا[(٨٥٢)] قال تعالى: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *}

١٢ ـ غيرة الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين الصَّادقين ، ودفاعه عنهم ، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللَّعن في الدُّنيا، والاخرة، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}

قال صاحب الكشَّاف عند تفسيره لهذه الايات:

ولو فلَّيت القران كلَّه ، وفتَّشت عمَّا أوعد به العُصاة؛ لم ترَ الله تعالى قد غلَّظ في شيءٍ تغليظَه في إفك عائشة رضوانُ الله عليها ، ولا أنزل من الايات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشَّديد ،

والعتاب البليغ ، والزَّجر العنيف ، واستعظام ما ارتُكِبَ من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرقٍ مختلفةٍ ، وأساليب مفتنةٍ ، كلٌّ واحد منها كافٍ في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الايات الثَّلاث لكفى بها؛ حيث جعل القَذَفَة ملعونين في الدَّارين جميعاً ، وتوعَّدهم بالعذاب العظيم في الاخرة ، وبأنَّ ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا ، وبهتوا ، وأنَّه يوفِّيهم جزاءهم الحقَّ الواجب الَّذي هم أهلُه[(٨٥٣)].

١٣ ـ بيان سنَّةٍ من سنن الله الجارية في الكون ، وهي أنَّ الطَّيبين يجعلهم الله من نصيب الطَّيبات ، والطَّيبات يجعلهنَّ من نصيب الطَّيبين. قال تعالى: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ *}

١٤ ـ والنَّاس عندما رُمِيَت الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا على أربعة أقسام[(٨٥٤)]:

قال فضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد ـ عند تعليقه على حديثٍ يتعلَّق بقصَّة الإفك ـ: إنَّ النَّاس عندما رُمِيَتِ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسمٌ ـ وهو أكثر النَّاس ـ حموا أسماعهم ، وألسنتهم ، فسكتوا ، ولم ينطقوا إلا بخيرٍ ولم يصدِّقوا ، ولم يكذِّبوا.

وقسمٌ سارع إلى التَّكذيب ، وهم: أبو أيوبٍ الأنصاريُّ ، وأم أيوبٍ رضي الله عنهما ، فقد وصفوه عند سماعه بأنَّه إفك ، وبرَّؤوا عائشة ممَّا نسب إليها في الحال.

أمَّا القسم الثالث؛ فكانوا جملةً من المسلمين ، لم يصدِّقوا ، ولم يكذِّبوا ، ولم ينفوا ، ولكنَّهم يتحدَّثون بما يقول أهل الإفك ، وهم يحسبون: أنَّ الكلام بذلك أمرٌ هيِّنٌ لا يُعرِّضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافرٍ ، وحاكي الإفك ليس بقاذفٍ ، ومن هؤلاء: حمنة بنت جحش ، وحسَّان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة.

أمَّا القسم الرَّابع فهم الذين جاؤوا بالإفك ، وعلى رأس هؤلاء عدوُّ الله عبد الله ابن أُبَيِّ بن سلول ، رأسُ المنافقين ، لعنه الله ، وهو الَّذي تولَّى كبره.

وقد أشار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام ، وأنَّه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف ، فقال: {لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ *}

أمَّا القسم الثَّالث؛ فقد أشار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى أنَّه ما كان ينبغي لهم أن يتحدَّثوا بمثل هذا الحديث ، حيث يقول: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ *وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ *}

وقد أثبت الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأهل هذا القسم فضائلهم الَّتي عملوها ، حيث أثبت لمسطح هجرته ، وإيمانه عندما حلف أبو بكر: أنه لن ينفق على مسطح ولن يتصدَّق عليه ، وهو من ذوي قرابته ، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: {وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *}
أمَّا القسم الرَّابع وهو جماعة عبد الله بن أُبَيٍّ الَّذين جاؤوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب؛ فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر ، وأنَّه لن يقبل منهم توبةً ، وأنَّه أنزل عليهم لعنته في الدُّنيا ، والاخرة[(٨٥٥)]؛ حيث قال: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ *}
سابعاً: فوائد ، وأحكامٌ ، ودروسٌ من حادثة الإفك ، وغزوة بني المصطلق:
١ ـ بشريَّة الرَّسول (ص):
جاءت محنة الإفك منطويةً على حكمةٍ إلهيَّةٍ استهدفت إبراز شخصيَّة النَّبيِّ (ص) ، وإظهارها صافيةً مميَّزةً عن كلِّ ما قد يلتبس بها ، فلو كان الوحي أمراً ذاتيّاً غير منفصلٍ عن شخصيَّة الرَّسول (ص) ؛ لما عاش الرَّسول (ص) تلك المحنة بكلِّ أبعادها شهراً كاملاً، ولكن الحقيقة الَّتي تجلَّت للنَّاس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرَّسول (ص) ونبوَّته ، فعندما حسم الوحي اللَّغط الَّذي دار حول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرَّسول (ص) ، وفرح الجميع بهذه النَّتيجة بعد تلك المعاناة القاسية ، فدلَّ ذلك على حقيقة الوحي ، وأنَّ الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى؛ لبقيت رواسب المحنة في نفس رسول الله (ص) بصفةٍ خاصَّةٍ ، ولانعكس ذلك على تصرُّفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها ، وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيراً على نبوَّة محمَّدٍ (ص)[(٨٥٦)] .
٢ ـ حدُّ القذف ، وأهمِّيته في المحافظة على أعراض المسلمين:
كان المجتمع الإسلاميُّ يتربَّى من خلال الأحداث ، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يشرّع بعض الأحكام الَّتي تسهم في المحافظة على أعراض المؤمنين ، ولذلك نزلت سورة النُّور ، الَّتي

تحدَّثت عن حكم الزَّاني والزَّانية ، وعن قبح فاحشة الزِّنى ، وعمَّا يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزَّوجين صاحبه ، وعن العقوبة الَّتي أوجبها الله على الَّذين يرمون المحصنات ، ثمَّ لم يأتوا بأربعة شهداء ، إلى غير ذلك من الأحكام[(٨٥٧)].

إنَّ الإسلام حرم الزِّنى ، وأوجب العقوبة على فاعله ، وقد حرَّم أيضاً كل الأسباب المسبِّبة له ، وكلَّ الطُّرق الموصلة إليه؛ ومنها إشاعة الفاحشة ، والقذف بها؛ لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة ، والحديث عنها؛ لأنَّ كثرة الحديث عن فاحشة الزِّنى وسهولة قولها في كلِّ وقتٍ يهون أمرها لدى سامعيها ، ويجرِّأى ضعفاء النُّفوس على ارتكابها ، لهذا حرَّمت الشَّريعة الإسلاميَّة القذف بالزِّنى ، وأوجبت على من قذف عفيفاً ، أو عفيفةً ، طاهراً ، أو طاهرةً ، بريئاً ، أو بريئةً من الزِّنى ، حدَّ القذف ، وهو الجلد ثمانون جلدةً ، وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبةً صادقةً نصوحاً[(٨٥٨)].
هذا وقد أقام رسول الله (ص) حدَّ القذف على مِسْطحٍ ، وحسَّانَ ، وحمنةَ ، وروى محمَّد بن إسحاق ، وغيره: أنَّ النَّبيَّ (ص) جلد في الإفك رجلين ، وامرأة: مسطحاً ، وحسَّاناً ، وحمنة. وذكره التِّرمذيُّ. [الترمذي (٣١٨١) ، ولم يُصرِّح بذكر الأسماء ، وقد صرَّح بها أبو داود (٤٤٧٥)].
قال القرطبيُّ[(٨٥٩)]: والمشهور من الأخبار ، والمعروف عند العلماء: أن الَّذي حُدَّ حسانُ ، ومسطحٌ ، وحمنةُ ، ولم يُسْمَع بحدٍّ لعبد الله بن أُبَيّ[(٨٦٠)] ، وقد وردت اثارٌ ضعيفةٌ تدل على أنَّ عبد الله بن أُبَيّ أقيم عليه الحدُّ ، ولكنَّها كلَّها ضعيفةٌ لا تقوم بها حجَّة[(٨٦١)].
وقد ذكر ابن القيِّم وجه الحكمة في عدم حدِّ عبد الله بن أبيٍّ ، فقال:
أ ـ قيل: لأنَّ الحدود تخفيفٌ عن أهلها ، وكفارةٌ ، والخبيث ليس أهلاً لذلك ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الاخرة ، ويكفيه عن الحدِّ.
ب ـ وقيل: كان يستوشي الحديث ، ويجمعه ، ويحكيه ، ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه.
جـ وقيل: الحدُّ لا يثبت إلا ببيِّنةٍ ، أو إقرارٍ ، وهو لم يقرَّ بالقذف ، ولا شهد به عليه أحدٌ ، فإنَّه كان يذكره بين أصحابه ، ولم يشهدوا عليه ، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.
د ـ وقيل: بل ترك حدَّه لمصلحةٍ هي أعظم من إقامته عليه ، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه ، وتكلُّمه بما يوجب قتله مراراً ، وهي تأليف قومه ، وعدم تنفيرهم من الإسلام.
ثمَّ قال ـ في ختام كلامه ـ: ولعلَّه ترك لهذه الوجوه كلِّها[(٨٦٢)].

٣ ـ اعتذار حسان رضي الله عنه للسيدة عائشة رضي الله عنها:

قد بيَّنت الرِّوايات: أنَّ من خاض في الإفك قد تاب ـ ما عدا ابن أبيٍّ ـ وقد اعتذر حسَّان رضي الله عنه عمَّا كان منه ، وقال يمدح عائشة رضي الله عنها بما هي أهلٌ له[(٨٦٣)]:

رَأيتُكِ وَلْيَغْفِرْ لَكِ اللهُ حُرَّةً ... مِنَ المحْصَنَاتِ غَيْرَ ذَاتِ غَوَائِلِ

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ ... وَتُصْبِحَ غَرْثَى مِنْ لُحُوْمِ الغَوَافِلِ

وَإِنّ الَّذي قَدْ قِيْلَ لَيْسَ بِلاَئِقٍ ... بِكِ الدَّهْرَ بَلْ قَوْلُ امْرِأى مُتَناحِلِ

فَإِنْ كُنْتُ أَهْجُوكُمْ كَمَا بلَّغُوكُمُ ... فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إِليَّ أَنَامِلِي

فَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيِيْتُ وَنُصْرَتِي ... لآلِ رَسُوْلِ اللهِ زَيْنُ المحَافِلِ

وَإِنَّ لَهُمْ عِزّاً يَرَى النَّاسُ دُوْنَهُ ... قِصَاراً ، وَطَالَ العِزُّ كلَّ التَّطاوُلِ[(٨٦٤)]

٤ ـ من الأحكام المستنبطة في غزوة بني المصطلق:

جواز الإغارة على مَنْ بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذارٍ. ومنها: صحَّة جعل العتق صداقاً، كما فعل (ص) مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة. ومنها: مشروعية القرعة بين النِّساء عند إرادة السَّفر ببعضهن. ومنها: جواز استرقاق العرب، كما حدث في الغزوة، وهو قول جمهور العلماء[(٨٦٥)].

وقد أجمع العلماء قاطبةً على أنَّ من سبَّ عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءةً قطعيَّة بنصِّ القران ، ورماها بما اتُّهمت به؛ فإنه كافرٌ ؛ لأنه معاندٌ للقران[(٨٦٦)] ، ومن الأحكام الَّتي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النِّساء ، حيث سأل الصَّحابة الرَّسول (ص) عنه ، فأذن به ، وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا ، ما من نسمةٍ كائنةٍ إلى يوم القيامة إلا وهي كائنةٌ» [البخاري (٥٢١٠) ، ومسلم (١٤٣٨/١٢٥) ، وأحمد (٣/٦٨ و٧٢)][(٨٦٧)]. فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزَّوجة الحرَّة بإذنها[(٨٦٨)] ، ونزلت اية التَّيمُّم في هذه الغزوة؛ تنويهاً بشأن الصَّلاة ، وتنبيهاً على عظيم شأنها ، وأنَّه لا يحول دون أدائها فقدُ الماء ، وهو وسيلةُ الطَّهارة الَّتي هي أعظم شروطها ، كما لا يحول الخوف ، وفقدُ الأمن من إقامتها[(٨٦٩)].

* * *

الفصل الحادي عشر

غزوة الأحزاب (٥ هـ)

المبحث الأوَّل

تاريخ الغزوة ، وأسبابها ، وأحداثها

أولاً: تاريخ الغزوة ، وأسبابها:

١ ـ تاريخ الغزوة:

ذهب جمهور أهل السِّير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوَّال من السَّنة الخامسة[(٨٧٠)] ، وقال الواقديُّ[(٨٧١)]: إنَّها وقعت في يوم الثلاثاء الثَّامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجريِّ ، وقال ابن سعدٍ[(٨٧٢)]: إنَّ الله استجاب لدعاء الرَّسول (ص) ، فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمسٍ من مهاجره (ص) . ونقل عن الزُّهريِّ ، ومالك بن أنس ، وموسى بن عقبة: أنَّها وقعت سنة أربعٍ هجريَّة[(٨٧٣)].

ويرى العلماء: أنَّ القائلين بأنَّها وقعت سنة أربع كانوا يعدُّون التاريخ من المحرم الَّذي وقع بعد الهجرة ، ويلغون الأشهر الَّتي قبل ذلك إلى ربيع الأوَّل وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التَّاريخ من المحرَّم سنة الهجرة[(٨٧٤)] ، وجزم ابن حزمٍ[(٨٧٥)]: أنَّها وقعت سنة أربعٍ لقول ابن عمر: أنَّ الرسول (ص) ردَّه يوم أحدٍ ـ وهي في السَّنة الثَّالثة باتِّفاق ـ وهو ابن أربع عشرة سنة

[البخاري (٤٠٩٧) ، ومسلم (١٨٦٨)][(٨٧٦)] ولكنَّ البيهقيَّ [دلائل النبوة (٢/٢٩٦)] وابن حجر[(٨٧٧)] ، وغيرهما فسَّروا ذلك بأنَّ ابن عمر كان يوم أحدٍ في بداية الرَّابعة عشرة ، ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور[(٨٧٨)].

وإلى ما ذهب إليه الجمهور ـ وهو الرَّاجح لديَّ ـ مال ابن القيِّم ، حيث قال: وكانت سنة خمسٍ من الهجرة في شوال على أصحِّ القولين؛ إذ لا خلاف: أنَّ أُحداً كانت في شوَّال سنة ثلاثٍ ، وواعد المشركون رسول الله (ص) في العام المقبل ، وهو سنة أربعٍ ، ثمَّ أخلفوه من أجل جدب تلك السَّنة ، فرجعوا ، فلمَّا كانت سنة خمس جاؤوا لحربه[(٨٧٩)].

٢ ـ أسبابها:

إنَّ يهود بني النَّضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين ، فما إن استقرُّوا بخيبر؛ حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين ، فاتَّفقت كلمتُهم على التَّوجُّه إلى القبائل العربيَّة المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين ، وكوَّنوا لهذا الغرض الخبيث وفداً يتكوَّن من سلام ابن أبي الحقيق ، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحقيق ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبي عمَّار[(٨٨٠)].

وقد نجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمَّته ، حيث وافقت قريش الَّتي شعرت بمرارة الحصار الاقتصاديِّ المضروب عليها من قِبَل المسلمين ، ووافقت غطفان طمعاً في خيرات المدينة ، وفي السَّلب ، والنَّهب ، وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكَّة: إنَّ دينكم خيرٌ من دين محمَّدٍ ، وأنتم أولى بالحقِّ منه[(٨٨١)]. وعن ذلك يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً *أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا *} [النساء: ٥١ ـ ٥٢].

وحول هذه المقالة أشار الأستاذ ولفنسون إلى الخطأ الكبير الَّذي وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضيلهم دين قريشٍ الوثنيَّ على دين الإسلام الَّذي يدعو إلى عبادة الإله الواحد ، فقال: «والَّذي يؤلم كلَّ مؤمن بإلهٍ واحدٍ من اليهود ، والمسلمين على السَّواء ، إنَّما هو تلك المحادثة الَّتي

جرت بين نفرٍ من اليهود ، وبين قريشٍ الوثنيِّين ، حيث فضَّل هؤلاء النَّفر من اليهود أديان قريشٍ على دين صاحب الرِّسالة الإسلاميَّة»[(٨٨٢)].

ولا ريب أن قريشاً قد سُرَّت بما سمعت من مدحٍ لدينها ، فازدادت حماساً ، وأصبحت أكثر تصميماً على حرب المسلمين ، ثمَّ أعلنت موافقتها على هذه الدَّعوة ، والاشتراك في الحملة الَّتي ستهاجم المدينة ، وضربت لها موعداً[(٨٨٣)].

وقد أبرم الوفد اليهوديُّ مع زعماء أعراب غطفان اتفاقيَّة الاتحاد العربيِّ الوثنيِّ اليهوديِّ العسكريِّ ضدَّ المسلمين ، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

أ ـ أن تكون قوَّة غطفان في جيش الاتِّحاد هذا ستَّةَ الاف مقاتلٍ.

ب ـ أن يدفع اليهود لقبائل غطفان «مقابل ذلك» كلَّ تمر خيبر لسنةٍ واحدةٍ[(٨٨٤)].

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعه عشرةُ الاف مقاتلٍ؛ أربعة الاف من قريشٍ ، وأحلافها ، وستَّةُ الافٍ من غطفان ، وأحلافها ، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة.

ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب:

كان جهاز أمن الدَّولة الإسلاميَّة على حذرٍ تام من أعدائه؛ لذا فقد كان يتتبَّع أخبار الأحزاب ، ويرصد تحرُّكاتهم ، ويتابع حركة الوفد اليهوديِّ منذ خرج من خيبر في اتِّجاه مكَّة ، وكان على علمٍ تامٍّ بكلِّ ما يجري بين الوفد اليهوديِّ ، وبين قريش أوَّلاً ، ثمَّ غطفان ثانياً ، وبمجرَّد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدوِّ شرع الرَّسول (ص) في اتخاذ الإجراءات الدِّفاعية اللاَّزمة ، ودعا إلى اجتماعٍ عاجلٍ ، حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين ، والأنصار ، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير النَّاجم عن مساعي اليهود الخبيثة[(٨٨٥)] ، فأدلى سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه برأيه الَّذي يتضمَّن حفر خندقٍ كبيرٍ لصدِّ عدوان الأحزاب ، فأُعْجِبَ النَّبيُّ (ص) بذلك ، قال الواقديُّ رحمه الله: فقال سلمان: يا رسول الله! إنَّا إذا كنا بأرض فارس ، وتخوَّفنا الخيل ، خندقنا علينا ، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين[(٨٨٦)].

وعندما استقرَّ الرَّأي ـ بعد المشاورة ـ على حفر الخندق ، ذهب النَّبيُّ (ص) هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه ، واختار للمسلمين مكاناً تتوافر فيه الحماية للجيش ، فقد ذكر الواقديُّ: أنَّ رسول الله (ص) ركب فرساً له ، ومعه نفرٌ من أصحابه من المهاجرين ، والأنصار ، فارتاد موضعاً ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعاً خلف ظهره ، ويخندق من المذاد إلى ذباب[(٨٨٧)] إلى راتج[(٨٨٨)] ، وقد استفاد (ص) من مناعة جبل سَلْع[(٨٨٩)] في حماية ظهور الصَّحابة.

كان اختيار تلك المواقع موفَّقاً؛ لأنَّ شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدوِّ ، والَّذي يستطيع منه دخول المدينة ، وتهديدها ، أمَّا الجوانب الأخرى فهي حصينةٌ منيعةٌ ، تقف عقبةً أمام أيِّ هجوم يقوم به الأعداء ، فكانت الدُّور من ناحية الجنوب متلاصقةً عاليةً كالسُّور المنيع ، وكانت حرَّة واقم[(٨٩٠)] من جهة الشَّرق ، وحرة الوبرة من جهة الغرب ، تقومان كحصنٍ طبيعيٍّ ، وكانت اطام بني قريظة في الجنوب الشَّرقي كفيلةً بتأمين ظهر المسلمين ، وكان بين الرَّسول (ص) وبني قريظة عهدٌ ألاَّ يمالئوا عليه أحداً ، ولا يناصروا عدوّاً ضدَّه[(٨٩١)].

ويستفاد من بحث الرَّسول (ص) عن مكانٍ ملائمٍ لنزول الجند أهمِّيةُ الموقع الذي ينزل فيه الجند ، وأنَّه ينبغي أن يتوافر فيه شرطٌ أساسيٌّ ، وهو الحماية التامَّة للجند؛ لأنَّ ذلك له أثرٌ واضحٌ على سير المعركة ، ونتائجها[(٨٩٢)].

لقد كانت خطَّة الرَّسول (ص) في الخندق متطورةً ، ومتقدِّمةً ، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال ، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم؛ بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريباً عنهم ، وبهذا يكون الرَّسول (ص) هو أوَّل من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين ، فقد كان هذا الخندق مفاجأةً مُذهلةً لأعداء الإسلام ، وأبطل خطَّتهم الَّتي رسموها ، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقانٍ رفيعٍ لسرّية الخطَّة ، وسرعة إنجازها ، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثرٌ في إضعاف معنويات الأحزاب ، وتشتيت قواتهم.

ثالثاً: اهتمام النبي (ص) بالجبهة الدَّاخلية:

١ ـ لما علم النَّبيُّ (ص) بقدوم جيش الأحزاب ، وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري المسلمين ، ونسائهم ، وصبيانهم في حصن بني حارثة؛ حتَّى يكونوا في مأمنٍ من خطر الأعداء ، وقد فعل ذلك (ص) ؛ لأنَّ حماية الذَّراري ، والنِّساء ، والصِّبيان لها أثرٌ فعَّالٌ على معنويات المقاتلين؛ لأنَّ الجندي إذا اطمأنَّ على زوجه ، وأبنائه يكون مرتاح الضَّمير ، هادأى الأعصاب ، فلا يشغل تفكيره أمرٌ من أمور الحياة ، يُسخِّر كل إمكاناته ، وقدراته العقليَّة ، والجسديَّة للإبداع في القتال ، أمَّا إذا كان الأمر بعكس ذلك؛ فإنَّ أمر الجندي يضطرب، ومعنوياتُه تضعُف ويستولي عليه القلق ، ممَّا يكون له أثر في تراجعه عن القتال وبذلك تنزل الكارثة بالجميع[(٨٩٣)].

٢ ـ ومن الأمور الَّتي أسهمت في قوية، وتماسك الجبهة الدَّاخلية مشاركةُ النبي (ص) جنده أعباء العمل، فقد شارك الرَّسول (ص) الصَّحابة في العمل المضني ، فأخذ يعمل بيده الشَّريفة في حفر الخندق ، فعن ابن إسحاق ، قال: سمعت البراء يحدِّث قال: لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله (ص) ؛ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتَّى وارى عني التُّرابُ جِلدَة بطنِه ، وكان كثير الشَّعر. [البخاري (٤١٠٦) ، ومسلم (١٨٠٣)].

فعمل رسول الله (ص) مع الصَّحابة بهمَّةٍ عاليةٍ لا تعرف الكلل ، فأعطى القدرة الحسنة لأصحابه حتَّى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق.

٣ ـ وكان (ص) يشارك الصَّحابة رضي الله عنهم في الامهم ، واماِلهم ، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمَّة دونهم ، ففي غزوة الأحزاب نجد: أنَّه (ص) كان يعاني ألم الجوع كغيره ، بل أشدَّ ، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشَّريف من شدَّة الجوع[(٨٩٤)] ، ثمَّ إنَّه (ص) شاركهم في اماِلهم ، فحين وجد ما يسدُّ رمقه بعد هذا الجوع الَّذي استمر ثلاثاً ، لم يستأثر بذلك دونهم ، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

٤ ـ رفع معنويات الجنود وإدخال السُّرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوباتٍ جمَّة ، فقد كان الجو بارداً ، والرِّيح شديدةً ، والحالة المعيشية صعبةً ، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الَّذي يتوقَّعونه في كلِّ لحظةٍ ، ويضاف إلى ذلك العمل المضني حيث كان الصَّحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم ، ولاشكَّ في أن هذا الظرف ـ بطبيعة الحال ـ يحتاج إلى قدرٍ كبير من الحزم ، والجدِّ ، ولكنَّ النَّبيَّ (ص) لم ينسَ في هذا الظَّرف: أنَّ هؤلاء الجند إنَّما هم بشرٌ كغيرهم ، لهم نفوسٌ بحاجةٍ إلى الرَّاحة من عناء العمل ، كما أنَّها بحاجةٍ إلى مَنْ يدخل السُّرور عليها؛ حتَّى تنسى تلك الالام الَّتي تعانيها فوق معاناة العمل الرَّئيسي ، ولهذا نجد: أنَّ النَّبيِّ (ص) كان يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل التُّراب:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ ما اهْتَدَيْنا   ولا تَصدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا

فأَنْزِلَنْ سَكِيْنَةً عَلَيْنَا   وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

إنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا   وإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ثُمَّ يَمدُّ صوته باخرِها. [البخاري (٤١٠٦)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ أصحاب محمَّدٍ (ص) كانوا يقولون يوم الخندق:

نَحْنُ الَّذِيْنَ بَايَعُوا مُحَمَّداً   عَلَى الإِسْلاَمِ مَا بَقِيْنَا أَبَداً

أو قال على الجهاد ، والنَّبيُّ (ص) يقول:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْخَيْرَ خَيْرُ الاخِرَه   فاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ والمهَاجِره

[البخاري (٢٨٣٤) ، ومسلم (١٣٠/١٨٠٥)].

لقد كان لهذا التَّبسُّط ، والمرح في ذلك الوقت أثرُه في التَّخفيف عن الصَّحابة ممَّا يعانونه نتيجةً للظُّروف الصَّعبة ، الَّتي يعيشونها ، وكما كان له أثرهُ في بعث الهِمَّة ، والنَّشاط ، بإنجاز العمل الَّذي كُلِّفوا بإتمامه ، قبل وصول عدوِّهم[(٨٩٥)].

٥ ـ تقدير ظروف الجند ، والإذن بالانصراف عند الحاجة: كان الصَّحابة رضي الله عنهم على قدرٍ كبير من الأدب مع النَّبيِّ (ص) ، فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورةٌ ، فيذهبون لقضاء حوائجهم ، ثمَّ يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل ، رغبةً في الخير ، واحتساباً له ، فأنزل الله فيهم: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [النور: ٦٢].

ومعنى الاية الكريمة: إذا استأذنك يا محمَّد! الَّذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم؛ الَّتي تعرض لهم فائذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها ، واستغفر لهم[(٨٩٦)] ، فكان النَّبيُّ (ص) بالخيار ، إن شاء؛ أذن له؛ إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن ، ولم ير فيه مضرَّة على الجماعة ، فكان يأذن ، أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة ، ويقتضيه مقام الحال[(٨٩٧)].

٦ ـ تقسيم الصَّحابة إلى دورياتٍ للحراسة: قسم النَّبيُّ (ص) أصحابه إلى مجموعاتٍ للحراسة ، ومقاومة كلِّ مَنْ يريد أن يخترق الخندق ، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة

الخندق ، وحراسة نبيِّهم (ص) ، واستطاعوا أن يصدُّوا كلَّ هجومٍ حاول المشركون شنَّه ، وكانوا على أهبة الاستعداد جنوداً ، وقيادةً ، حتَّى إنَّهم استمرُّوا ذات يوم من السَّحَر إلى جوف اللَّيل في اليوم الثَّاني ، ويفوت المسلمين الصَّلواتُ الأربع ، ويقضونها لعجزهم عن التوقُّف لحظةً واحدةً في أثناء الاشتباك المباشر للقتال ، واستطاع عليُّ بن أبي طالب مع مجموعة من الصَّحابة أن يصدُّوا محاولة عكرمة بن أبي جهلٍ ، بل تصدَّى عليٌّ لبطل قريش عمرو بن عبد ودٍّ ، وقتله[(٨٩٨)] ، وكانت هناك مجموعةٌ من الأنصار تقوم بحراسة النَّبيِّ (ص) في كلِّ ليلةٍ على رأسهم عبَّاد بن بشرٍ رضي الله عنه ، فالنَّبيُّ (ص) هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة، فهو الَّذي يرسم الخطط ، ويراقب تنفيذها ، فهو الَّذي:

أ ـ أمر بحفر الخندق ، بعد أن تمَّت المشاورة في ذلك ، فاختار مكاناً مناسباً لذلك ، وهي السُّهول الواقعة شمال المدينة؛ إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء.

ب ـ قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصَّحابة ، كلَّ أربعين ذراعاً لعشرة من الصَّحابة ، ووكَّل بكلِّ جانبٍ جماعةً يحفرون فيه.

ج ـ سيطر على العمل ، فلا يستطيع أحدٌ ترك عمله إلا بإذنٍ منه (ص) .

د ـ قسم (ص) واجبات احتلال المواضع بنفسه بحيث تستمرُّ الحراسة على كلِّ شبرٍ من الخندق ليلاً ، ونهاراً ، ثمَّ إنَّه (ص) كان يقوم بمهمَّة الإشراف العامِّ على الجند بتشجيعهم ، ورفع معنوياتهم.

هـ استطاع (ص) ـ لما يتمتَّع به من حنكةٍ ، وبراعةٍ سياسيَّةٍ مستمدَّةٍ من شخصيته النَّبويَّة ـ أن يمسك بزمام الأمور وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الَّذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة ، وأصبح الخطر يهدِّد المدينة ، وما حولها[(٨٩٩)] ، فقد توحَّدت قيادة المسلمين تحت زعامته (ص) ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة ، والفوز بها.

* * *

المبحث الثاني

اشتداد المحنة بالمسلمين

مع أنَّ المسلمين أخذوا بالاحتياطات كافَّةً في تأمين جبهتهم الدَّاخليَّة ، ومحاولة الدِّفاع عن الإسلام ، والمدينة من جيش الأحزاب الزَّاحف ، إلا أنَّ سنَّة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدَّة ، ولا منحة إلا بعد محنة ، وكلَّما اقترب النَّصر زاد البلاء ، والامتحان ، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق عندما:

أولاً: نَقْضُ اليهود من بني قريظة العهدَ ، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف:

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الَّذين يسكنون في جنوب المدينة ، فيقع المسلمون حينئذٍ بين نارين ، اليهود خلف خطوطهم ، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم ، ونجح اليهوديُّ زعيم بني النَّضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضمَّ مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشَّائعات بين المسلمين بأنَّ قريظة قد نقضت عهدها معهم ، وكان الرَّسول (ص) يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه؛ لأنَّ اليهود قوم لا عهد لهم ، ولا ذمَّة ، ولذلك انتدب النَّبيُّ

(ص) الزبير بن العوَّام «رجل المهمَّات الصَّعبة» ليأتيه من أخبارهم ، فذهب الزُّبير ، فنظر ثمَّ رجع ، فقال: يا رسول الله! رأيتهم يصلحون حصونهم ، ويُدرِّبون[(٩٠٠)] طرقهم ، وقد جمعوا ماشيتهم[(٩٠١)].

وبعد أن كثرت القرائن الدَّالة على نقض بني قريظة للعهد؛ أرسل رسول الله (ص) سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وخَوَّات بن جبير رضي الله عنهم ، وقال لهم: انطلقوا حتَّى تنظروا: أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، أم لا؟ فإن كان حقّاً؛ فالحنوا لي لحناً[(٩٠٢)] أعرفه ، ولا تَفُتُّوا في أَعْضَاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم؛ فاجهروا به

للنَّاس. [ابن هشام (٣/٢٣٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٢٩)][(٩٠٣)].

فخرجوا حتَّى أتوهم ، فوجدوهم قد نقضوا العهد ، فرجعوا ، فسلَّموا على النَّبيِّ (ص) ، وقالوا: عضَلٌ والقارَّة[(٩٠٤)] ، فعرف النَّبيُّ (ص) مرادهم[(٩٠٥)].

واستقبل النَّبيُّ (ص) غدر بني قريظة بالثَّبات ، والحزم ، واستخدم كلَّ الوسائل الَّتي مِنْ شأنها أن تقوِّي روح المؤمنين، وتصدع جبهات المعتدين ، فأرسل النَّبيُّ (ص) في الوقت نفسه «سلمة بن أسلم» في مئتي رجلٍ ، وزيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل ، يحرسون المدينة ، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة ، وفي هذه الأثناء استعدَّت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب ، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيراً كانت محمَّلةً تمراً ، وشعيراً ، وتيناً؛ لتمدَّهم بها ، وتقوِّيهم على البقاء ، إلا أنَّها أصبحت غنيمةً للمسلمين الَّذين استطاعوا مصادرتها، وأتوا بها إلى النَّبيِّ (ص)[(٩٠٦)] .

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين ، وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها ، واشتدَّ الكرب على المسلمين ، وتأزَّم الموقف ، وقد تحدَّث القران الكريم عن حالة الحرج ، والتَّدهور ، الَّتي أصابت المسلمين ، ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزعٍ ، وخوفٍ ، وفزعٍ في تلك المحنة الرَّهيبة أصدقَ وصفٍ ، حيث قال تعالى: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا *هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا *} [الأحزاب: ١٠ ، ١١].

وكان ظنُّ المسلمين بالله قويّاً ، وقد سجَّله القران الكريم بقوله تعالى: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيمًا *} [الأحزاب: ٢٢].

وأمَّا المنافقون؛ فقد انسحبوا من الجيش ، وزاد خوفهم حتَّى قال مُعَتِّب بن قُشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمَّد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى ، وقيصر ، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ،

وطلب البعض الاخر الإذن لهم بالرُّجوع إلى بيوتهم بحجَّة أنَّها عورة ، فقد كان موقفهم يتَّسم بالجبن ، والإرجاف وتخذيل المؤمنين ، وقد وردت رواياتٌ ضعيفةٌ تحكي
أقوالهم في السُّخرية ، والإرجاف ، والتَّخذيل[(٩٠٧)].

ولكن القران الكريم يتكفَّل بتصوير ذلك أدقَّ تصوير[(٩٠٨)] ، والايات هي: {وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا *وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا *وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولاً *قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً *قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا *قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً *أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا *يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً *} [الأحزاب: ١٣ ـ ٢٠].

إنَّ الايات السَّابقة أشارت إلى النِّفاق ، وما تولَّد عنه من القلق في النُّفوس ، والجبن في القلوب ، وانعدام الثِّقة بالله عند تعاظم الخطوب ، والجرأة على الله تعالى بدل اللُّجوء إليه عند الامتحان ، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد؛ بل يتبعه العمل المخَذِّل المرْجِف ، فهم يستأذنون الرَّسول (ص) للانصراف عن ميدان العمل ، والقتال بحججٍ واهيةٍ زاعمين: أن بيوتهم مكشوفةٌ للأعداء ، وإنَّما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم ، وللخوف المسيطر عليهم ، بل ويحثُّون الاخرين على ترك موقعهم ، والرُّجوع إلى بيوتهم ، ولم يراعوا عقد الإيمان ، وعهود الإسلام[(٩٠٩)].

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق ، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعدادٍ كبيرةٍ كلَّ ليلةٍ حول الخندق حتَّى الصَّباح ، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعةٍ من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحيةٍ ضيِّقةٍ منه ، ويأخذهم على حين غِرَّةٍ ، لكنَّ أُسَيْدَ بن حضير في مئتين من الصَّحابة يراقبون تحرُّكاتهم ، وقد حصلت مناوشاتٌ استشهد فيها الطُّفَيْل بن النُّعمان ، والَّذي قتله وحشيٌّ ـ قاتل حمزة يوم أحدٍ ـ رماه بحربةٍ عبر الخندق ، فأصابت منه مقتلاً[(٩١٠)] ، واستطاع حبَّان بن العَرِقَة ، من المشركين أن يرمي سهماً أصاب سعد بن

معاذ رضي الله عنه في أكحله[(٩١١)] ، وقال: خذها وأنا ابن العرقة.

وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللَّهُمَّ! إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئاً؛ فأبقني لها ، فإنَّه لا قومَ أحبُّ إليَّ من أن أجاهد من قومٍ اذوا رسولك ، وكذَّبوه ، وأخرجوه.

اللَّهُمَّ! وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم؛ فاجعلها شهادةً ، ولا تميتني حتَّى تقرَّ عيني من بني قريظة. [أحمد (٦/١٤١ ـ ١٤٢) ، وابن حبان (٧٠٢٨)].

وقد استجاب الله دعوة هذا العبد الصَّالح وهو الَّذي سيحكم فيهم ، ثمَّ وجَّه المشركون كتيبة غليظةً نحو مقرِّ رسول الله (ص) فقاتلهم المسلمون يوماً إلى اللَّيل ، فلمَّا حانت صلاة العصر؛ دنت الكتيبة ، فلم يقدر النَّبيُّ (ص) ، ولا أحدٌ من أصحابه الَّذين كانوا معه أن يصلُّوا ، وشُغِلَ بهمُ النَّبيُّ (ص) ، فلم يصلِّ العصر ، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع اللَّيل ، فقال رسول الله (ص) : «ملأ الله عليهم بيوتهم ، وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى؛ حتَّى غابت الشمس» [البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)].

ثالثاً: محاولة النَّبيِّ (ص) تخفيف حدَّة الحصار بعقد صلحٍ مع غطفان ، وبثِّ الإشاعات في صفوف الأعداء:

١ ـ سياسة النَّبيِّ (ص) في المفاوضات مع غطفان: ظهرت حنكته (ص) وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذَّات لمصالحتها على مالٍ يدفعه إليها على أن تترك محاربته ، وترجع إلى بلادها ، فهو يعلم (ص) : أنَّ غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أيَّ هدفٍ سياسيٍّ يريدون تحقيقه أو باعثٍ عقائديٍّ يقاتلون تحت رايته ، وإنَّما كان هدفهم الأوَّل والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها ، ولهذا لم يحاول الرَّسول (ص) الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب؛ لأنَّ هدف أولئك الرَّئيسي لم يكن المال ، وإنَّما كان هدفهم هدفاً سياسيّاً ، وعقائديّاً يتوقَّف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلاميِّ من الأساس ، لذا فقد كان اتصاله «فقط» بقادة غطفان ، الَّذين «فعلاً» لم يتردَّدوا في قبول العرض الَّذي عرضه عليهم النَّبيُّ (ص)[(٩١٢)] ، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف) لطلب النَّبيِّ (ص) ، وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقرِّ قيادة النَّبيِّ (ص) ، واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحدٌ ، وشرع رسول الله (ص) في مفاوضتهم ، وكانت تدور حول عرضٍ تقدَّم به رسول الله (ص) يدعو فيه إلى عقد صلحٍ

منفردٍ بينه ، وبين غطفان ، وأهمُّ البنود الَّتي جاءت في هذه الاتفاقيَّة المقترحة:

أ ـ عقد صلحٍ منفردٍ بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب.

ب ـ توادع غطفان المسلمين ، وتتوقف عن القيام بأيِّ عملٍ حربيٍّ ضدَّهم (وخاصَّة في هذه الفترة).

ج ـ تفكُّ غطفان الحصار عن المدينة ، وتنسحب بجيوشها عائدةً إلى بلادها.

د ـ يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلِّها من مختلف الأنواع ، ويظهر: أنَّ ذلك لسنةٍ واحدةٍ[(٩١٣)] ، فقد ذكر الواقديُّ: أنَّ رسول الله (ص) قال لقائدي غطفان: أرأيت إن جعلت لكم ثلث ثمر المدينة ترجعان بمن معكم، وتخذِّلان بين الأعراب؟ قالا: تعطينا نصف ثمر المدينة ، فأبى رسول الله (ص) أن يزيدهما على الثُّلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[(٩١٤)].

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله (ص) من الوجهة العسكريَّة وضوح الهدف الَّذي خرجت غطفان من أجله ، وهو الوقود الذي يشعل نفوس هؤلاء ، ويحرِّكها في جبهة القتال ، ولاشكَّ في أنَّ اختفاء هذا الدَّافع يعني: أنَّ المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال ، وبذلك تضعف عنده الرُّوح المعنوية الَّتي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه ، وبذلك استطاع (ص) أن يُفتِّت ، ويضعف من قوَّة جبهة الأحزاب[(٩١٥)].

وقد أبرز (ص) في هذه المفاوضات جانباً من جوانب منهج النُّبوة في التَّحرك لفكِّ الأزمات عند استحكامها ، وتأزُّمها؛ لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربوياً من دروس التَّربية المنهجيَّة عند اشتداد البلاء[(٩١٦)] ، وقبل عقد الصُّلح مع غطفان شاور رسولُ الله (ص) الصحابة في هذا الأمر ، فكان رأيُهم عدم إعطاء غطفان شيئاً من ثمار المدينة ، وقال السَّعدان: سعدُ بن معاذ ، وسعدُ بن عبادة: يا رسول الله! أمراً تحبُّه ، فنصنعُه ، أم شيئاً أمرك الله به لابدَّ لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعُه لنا؟ فقال: «بل شيءٌ أصنعه لكم ، والله! ما أصنع ذلك إلا لأنِّي رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ ، وكالبوكم ـ أي: اشتدوا عليكم ـ من كلِّ جانبٍ ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» ، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنَّا وهؤلاء على الشِّرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدةً إلا قِرىً ـ

أي: الطَّعام الَّذي يُصنع للضَّيف ـ أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزَّنا بك ، وبه ، نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجةٍ، والله لا نعطيهم إلا السَّيف، حتَّى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال

النَّبيُّ (ص) : «أنت وذاك». فتناول سعد بن معاذ الصَّحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ، ثمَّ قال: ليَجْهدوا علينا. [ابن هشام (٣/٢٣٤)][(٩١٧)].

كان رد زعيمي الأنصار: سعدُ بن معاذ ، وسعدُ بن عبادة في غاية الاستسلام لله تعالى ، والأدب مع النَّبي (ص) وطاعته ، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى ، فلا مجال لإبداء الرَّأي بل لابدَّ من التَّسليم ، والرِّضا.

والثَّاني: أن يكون شيئاً يحبُّه رسول الله (ص) ، باعتباره رأيه الخاصّ، فرأيه مقدَّمٌ، وله الطَّاعة في ذلك.

الثَّالث: أن يكون شيئاً عمله الرَّسول (ص) لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم ، فهذا هو الَّذي يكون مجالاً للرَّأي.

ولما تبيَّن للسَّعدين من جواب الرَّسول (ص) : أنَّه أراد القسم الثَّالث: أجاب سعدُ بن معاذ بجوابٍ قويٍّ ،كبت به زعيمي غطفان ، حيث بيَّن أنَّ الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهليَّة؛ فكيف وقد أعزَّهم الله تعالى بالإسلام؟! وقد أُعجب النَّبيُّ (ص) بجواب سعدٍ ، وتبيَّن له منه ارتفاع معنويَّة الأنصار ، واحتفاظهم بالرُّوح المعنويَّة العالية ، فألغى بذلك ما بدأ من الصُّلح مع غطفان[(٩١٨)].

وفي قوله (ص) : «إنِّي قد علمت: أنَّ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ» [الطبراني في الكبير (٥٤٠٩) ، وابن هشام (٣/٢٣٤) ، ومجمع الزوائد (٦/١٣١)][(٩١٩)].

دليلٌ على أنَّ رسول الله (ص) كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفّاً واحداً ، وهذا يرشد المسلمين إلى عدَّة أمورٍ ، منها:

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

* أن يكون الهدف الاستراتيجيُّ للقيادة المسلمة تحييد مَنْ تستطيع تحييده ، ولا تنسى القيادة الفتوى ، والشُّورى ، والمصلحة الانيَّة ، والمستقبليَّة للإسلام[(٩٢٠)].

وفي استشارة رسول الله (ص) للصَّحابة يتبيَّن لنا أسلوبه في القيادة ، وحرصه على فرض الشُّورى في كلِّ أمرٍ عسكريٍّ يتَّصل بالجماعة ، فالأمر شورى ، ولا ينفرد به فردٌ حتَّى ولو كان هذا الفرد رسول الله (ص) ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد ، ولم ينزل به وحيٌ[(٩٢١)].

إن قبول الرسول (ص) رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة؛ حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه ، ومصالحة

النبي (ص) مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة[(٩٢٢)].

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معانٍ:

أ ـ أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي ، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

ب ـ أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله (ص) وبالإسلام.

ج ـ أنه يبين ما تمتلأى به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والرغبة القوية في قهر العدو ، مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه[(٩٢٣)].

٢ ـ اهتمام الرسول (ص) ببث الإشاعات في صفوف الأعداء:

استخدم النَّبي (ص) سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن ، فلقد كان يعلم (ص) أن هناك تصدعاً خفيفاً بين صفوف الأحزاب ، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه ، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها ، والان ساق المولى ـ عز وجل ـ نُعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله (ص) ليعلن إسلامه ويقول له: يا رسول الله ، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت. فقال له رسول الله (ص) : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة. [ابن هشام (٣/٢٤٠) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٤٥ ـ ٤٤٦)][(٩٢٤)].

فقام نُعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله (ص) ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار ، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم ، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها

لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية؛ فالحرب خدعة[(٩٢٥)].

وقد نجحت دعاية نُعيم بن مسعود أيما نجاح ، فغرست روح التشكيك ، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب ، مما أدى إلى كسر شوكتهم ، وتثبيط عزمهم ، وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ ـ أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف ، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نُصح.

ب ـ أنه ذكّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير ، وبصَّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول (ص) ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج ـ أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له ، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته ، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته.

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب[(٩٢٦)].

* * *

المبحث الثَّالث

مجيء نصر الله والوصف القراني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدَّة تضرُّع الرَّسول (ص) ونزول النَّصر:

كان رسول الله (ص) كثير التَّضرُّع والدُّعاء ، والاستعانة بالله ، وخصوصاً في مغازيه ، وعندما اشتدَّ الكرب على المسلمين أكثر ممَّا سبق حتَّى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً ، فما كان من المسلمين إلا أن توجَّهوا إلى الرَّسول (ص) وقالوا: يا رسول الله! هل من شيءٍ نقوله؟ فقد بلغت القلوب

الحناجر ، فقال: «نعم ، اللَّهمَّ!! استر عوراتنا وامن روعاتنا» [أحمد (٣/٣) ، والبزار (٣١١٩) ، ومجمع الزوائد (١٣٦/١٠)].

وجاء في الصَّحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى ، قال: دعا رسول الله (ص) على الأحزاب ، فقال: «اللَّهمَّ! منزلَ الكتاب ، سريعَ الحساب ، هازم الأحزاب ، اللَّهمَّ! اهزمهم ، وزلزلهم». [البخاري (٢٩٣٣) ، ومسلم (١٧٤٢ / ٢٠ و٢١)].

فاستجاب الله . سبحانه . دعاء نبيِّه (ص) فأقبلت بشائر الفرج ، فقد صرفهم الله بحوله وقوَّته ، وزلزل أبدانهم ، وقلوبهم ، وشتّت جمعهم بالخلاف ، ثمَّ أرسل عليهم الرِّيح الباردة الشَّديدة ، وألقى الرُّعب في قلوبهم ، وأنزل جنوداً من عنده سبحانه.

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الأحزاب: ٩].

قال القرطبيُّ . رحمه الله .: وكانت هذه الرِّيح معجزةً للنَّبيِّ (ص) ؛ لأنَّ النَّبيَّ (ص) ، والمسلمين كانوا قريباً منها ، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق ، وكانوا في عافيةٍ منها ، ولا خبر عندهم بها... ، بعث الله عليهم الملائكة ، فقلعت الأوتاد ، وقطعت أطناب الفساطيط[(٩٢٧)] ، وأطفأت النِّيران ، وأكفأت القدور ، وجالت الخيول بعضُها في بعضٍ ، وأرسل الله عليهم الرُّعب ، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر؛ حتَّى كان سيِّد كلِّ خباءٍ يقول:

يا بني فلان! هلمَّ إليَّ ، فإذا اجتمعوا؛ قال لهم: النَّجاءَ ، النَّجاءَ! لما بعث الله عليهم الرُّعب[(٩٢٨)].

وحرَص الرَّسول (ص) أن يؤكِّد لصحبه ، ثمَّ للمسلمين في الأرض: أنَّ هذه الأحزاب الَّتي تجاوزت عشرة الاف مقاتلٍ لم تُهزم بالقتال من المسلمين . رغم تضحياتهم . ولم تهزم بعبقرية المواجهة ، إنَّما هُزمت بالله وحده {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الأحزاب: ٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله (ص) كان يقول: «لا إله إلا الله وحدَه ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيءَ بعدَه». [البخاري (٤١١٤) ، ومسلم (٢٧٢٤)].

ودعاء رسول الله (ص) ربَّه ، واعتماده عليه وحدَه ، لا يتناقض أبداً مع التماس الأسباب البشريَّة للنَّصر ، فقد تعامل (ص) في هذه الغزوة مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، فبذل جهده لتفريق الأحزاب، وفك الحصَار، وغير ذلك من الأمور الَّتي ذكرناها[(٩٢٩)].

إنَّ رسول الله (ص) يعلِّمنا سنَّة الأخذ بالأسباب ، وضرورة الالتجاء إلى الله ، وإخلاص العبوديَّة له؛ لأنَّه لا تجدي وسائل القوَّة كلُّها إذا لم تتوفر وسيلةُ التَّضرع إلى الله ، والإكثار من الإقبال عليه بالدُّعاء ، والاستغاثة ، فقد كان الدُّعاء والتَّضرُّع إلى الله من الأعمال المتكرِّرة الدَّائمة الَّتي فزع إليها رسولُ الله (ص) في حياته كلِّها[(٩٣٠)].

ثانياً: تحرِّي انصراف الأحزاب:

كان رسول الله (ص) يتابع أمر الأحزاب ، ويحبُّ أن يتحرَّى عمَّا حدث عن قربٍ فقال: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة؟» [مسلم (١٧٨٨] ، فاستعمل (ص) أسلوب التَّرغيب ، وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ ، وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم ، والحزم في الأمر ، فعيَّن واحداً بنفسه ، فقال: «قم يا حذيفة! فائتنا بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهُم عليَّ» [مسلم (١٧٨٨)].

وفي هذا معنىً تربويٌّ وهو أنَّ القيادة النَّاجحة هي الَّتي توجِّه جنودها إلى أهدافها عن طريق التَّرغيب ، والتَّشجيع ، ولا تلجأ إلى الأمر ، والحزم إلا عند الضَّرورة.

قال حذيفة رضي الله عنه: فمضيت كأنَّما أمشي في حَمَّامٍ ، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهرَه بالنَّار . أي: يدفئه ، ويدنيه منها . فوضعت سهماً في كبد القوس ، وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول

رسول الله (ص) : «لا تَذْعَرْهُمْ عليَّ» ، ولو رميتُه لأصبته ، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمَّام ، فأتيت رسول الله (ص) ، وأصابني البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله (ص) ، وألبسني فضل عَبَاءَةٍ كانت عليه يُصَلِّي فيها ، فلم أَزَلْ نائماً حتَّى أصبحت ، فلمَّا أصبحت ، قال رسول الله (ص) : «قم يا نومان!». [مسلم (١٧٨٨)].

ويؤخذ من قصَّة حذيفة دروسٌ ، وعبرٌ منها:

١ ـ معرفة رسول الله (ص) بمعادن الرِّجال؛ حيث اختار حذيفة؛ ليقوم بمهمَّة التَّجسس على الأحزاب ، وأنَّ معدن حذيفة معدنٌ ثمينٌ ، فهو شجاعٌ ، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعةٍ نادرة ، وهو بالإضافة إلى ذلك لبقٌ ذكيٌّ خفيف الحركة ، سريع التخلُّص من المازق الحرجة.

٢ ـ الانضباط العسكريُّ الَّذي كان يتحلَّى به حذيفة؛ فلقد مرَّت به فُرصةٌ سانحةٌ يستطيع أن يقتل فيها قائد الأحزاب ، وهَمَّ بذلك ، ولكنَّه ذكر أمر الرَّسول (ص) ألا يَذْعَرَهُمْ ، وأنَّ مهمَّته الإتيان بخبرهم ، فنزع سهمه من قوسه[(٩٣١)].

٣ ـ كرامات الأولياء: إنَّ ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جوٍّ باردٍ ماطرٍ شديد الرِّيح وإذا به لا يشعر بهذا الجوِّ البارد ، ويمشي وكأنما يمشي في حمَّامٍ ، وتلازمه هذه الحالة مُدة بقائه بين الأحزاب وحتَّى عودته إلى معسكر المسلمين ، لاشك هذه كرامةٌ يمنُّ الله بها على عباده المؤمنين[(٩٣٢)].

٤ ـ لطف النَّبيِّ (ص) مع حذيفة عند رجوعه ، فقد كان (ص) يترفَّق بأصحابه ، ولم تمنعه صلاة اللَّيل ، وحلاوة المناجاة من التلطُّف بحذيفة الَّذي جاء بأحسن الأنباء ، وأصدق الأخبار ، وأهمِّها ، فشمله بكسائه الَّذي يصلِّي فيه؛ ليدفئه ، وتركه ملفوفاً به حتَّى أتمَّ صلاته ، بل حتَّى بعد أن أفضى إليه بالمهمَّة ، فلمَّا وجبت المكتوبة؛ أيقظه بلطفٍ ، وخفَّةٍ ، ودُعابةٍ ، قائلاً: «قم يا نومان!» دُعابة تقطر حلاوةً ، وتفيض بالحنان ، وتسيل رقَّةً ، إنَّها صورةٌ نموذجيَّةٌ للرَّأفة ، والرَّحمة ، اللَّتين تحلَّى بهما فؤاد الرَّسول (ص) ، وتطبيقٌ فريدٌ رفيعٌ لهما في أصحابه الكرام[(٩٣٣)] وصدق الله العظيم في قوله: {بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١٢٨].

٥ ـ وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصَّحابيِّ الكريم ، وقد دخل في القوم ، كما في رواية الزُّرقاني ، وقال أبو سفيان: ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد جليسه ، قال حذيفة: فضربت بيدي على
يد الَّذي على يميني ، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان ، ثمَّ ضربت بيدي على يد الَّذي عن شمالي ، فقلت: مَنْ أنت؟ قال: عمرو بن العاص....[(٩٣٤)].

وهكذا بَدَرَهُم بالمسألة حتَّى لا يتيح لهم فرصةً ليسألوه ، وبهذا تخلَّص من هذا المأزِق الحرج الَّذي ربما أودى بحياته[(٩٣٥)].

ثالثاً: الوصف القراني لغزوة الأحزاب ، ونتائجها:

تحدَّث القران الكريم عن غزوة الأحزاب ، وردَّ الأمر كلَّه لله سبحانه ، وقد سجَّل القران الكريم غزوتي الأحزاب ، وبني قريظة ، والقران كعهدنا به يُسَجِّل الخالدات الَّتي تسع الزَّمان ، والمكان ، فالمسلمون معرَّضون دائماً لأن يُغزوا في عقر دارهم ، في عواصم بلدانهم ، ومعرَّضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعاً ، فإذا كان القران قد سجل حادثتي الأحزاب ، وبني قريظة ، فذلك من سمة التَّكرار على مدى العصور[(٩٣٦)]؛ لكي يستفيد المسلمون من الدُّروس والعبر من الحوادث السَّابقة الَّتي ذكرت في القران الكريم على وجه الخصوص ، والَّذي يتدبَّر حديث القران عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمورٍ ، من أهمِّها ما يلي:

١ ـ تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم ، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الأحزاب: ٩].

٢ ـ التَّصوير البديع لما أصاب المسلمين من همٍّ بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا *} [الأحزاب: ١٠].

٣ ـ الكشف عن نوايا المنافقين السَّيئة ، وأخلاقهم الذَّميمة ، وجبنهم الخالع ، ومعاذيرهم الباطلة ، ونقضهم للعهود ، قال تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا *} [الأحزاب: ١٢].

٤ ـ حضُّ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ على التأسِّي برسول الله (ص) ، في أقواله ، وأفعاله ، وجهاده ، وكلِّ أحواله ، استجابةً لقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا *} [الأحزاب: ٢١].

٥ ـ مدح المؤمنين على مواقفهم النَّبيلة ، وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمانٍ صادقٍ ، ووفاء بعهد الله تعالى ، قال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً *} [الأحزاب: ٢٣].

٦ ـ بيان سنَّةٍ من سنن الله الَّتي لا تتخلَّف ، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم ، قال تعالى: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا *} [الأحزاب: ٢٥].

٧ ـ امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين؛ حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتالٍ يُذْكَر ، حيث ألقى ـ سبحانه ـ الرُّعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ، ورسوله (ص)[(٩٣٧)] ، قال تعالى: {وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا *وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا *} [الأحزاب: ٢٦ ـ ٢٧].

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات المهمَّة الَّتي خاضها المسلمون ضدَّ أعدائهم وحقَّقوا فيها نتائج مهمَّةً منها:

* انتصار المسلمين ، وانهزام أعدائهم ، وتفرُّقهم ، ورجوعهم مدحورين بغيظهم ، قد خابت أمانيهم ، واما لهم.

* تغيُّر الموقف لصالح المسلمين؛ فانقلبوا من موقف الدِّفاع إلى الهجوم ، وقد أشار إلى ذلك النَّبيُّ (ص) حيث قال: «الان نغزوهم ، ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم». [البخاري (٤١١٠) ، وأحمد (٢٦٢/٤ ، و٣٩٤/٦)].

*كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة ، وحقدهم على المسلمين ، وتربُّص الدَّوائر بهم ، فقد نقضوا عهدهم مع النَّبيِّ (ص) في أحلك الظُّروف ، وأصعبها.

*كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين ، وحقيقة المنافقين ، وحقيقة يهود بني قريظة ، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين ، وإظهاراً لحقيقة المنافقين ، واليهود.

*كانت غزوة بني قريظة نتيجةً من نتائج غزوة الأحزاب؛ حيث تمَّ فيها محاسبة يهود بني قريظة الَّذين نقضوا العهد مع النَّبيِّ (ص) في أحلك الظُّروف ، وأقساها[(٩٣٨)].

رابعاً: التَّخلُّص من بني قريظة:

بعد عودة النَّبيِّ (ص) من الخندق ، ووضعِه السِّلاح أمر الله تعالى نبيَّه (ص) بقتال بني قريظة ، فأمر الحبيب (ص) أصحابه بالتوجُّه إليهم ، وقد أعلمهم بأنَّ الله تعالى قد أرسل جبريل؛ ليزلزل
حصونهم ، ويقذف في قلوبهم الرُّعب ، وأوصاهم بأن «لا يصلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» [البخاري (٤١١٩) ، ومسلم (١٧٧٠)].

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلةً[(٩٣٩)] ، ولما اشتدَّ الحصار ، وعظم البلاء على بني قريظة ، أرادوا الاستسلام ، والنُّزول على أن يحكِّم الرَّسول (ص) فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، ونزلوا على حكمه ، ورأوا: أنَّه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس ، فجيء بسعدٍ محمولاً؛ لأنَّه كان قد أصابه سهمٌ في ذراعه يوم الخندق ، فقضى أن تُقتل المقاتِلة ، وأن تُسبى النِّساء والذُّرِّيَّة ، وأن تُقسم أموالهم ، فأقرَّه رسول الله (ص) وقال: «قضيت بحكم الله» [البخاري (٣٠٤٣ و٤١٢٢) ، ومسلم (٦٤/١٧٦٨)].

ونفَّذ حكم الإعدام في أربعمئةٍ في سوق المدينة ، حيث حفرت أخاديد ، وقتلوا فيها بشكل مجموعاتٍ ، وقد نجت مجموعةٌ قليلةٌ جدّاً بسبب وفائها للعهد ، ودخولها في الإسلام ، وقسمت أموالُهم ، وذراريهم على المسلمين.

وهذا جزاءٌ عادلٌ نزل بمن أراد الغدر ، وتبرَّأ من حلفه للمسلمين ، وكان جزاؤهم من جنس عملهم حين عرَّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل ، وأموالهم للنَّهب ، ونساءهم ، وذراريهم للسَّبي ، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً[(٩٤٠)].

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدةٌ ، ونترك السَّيدة عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا عنها قالت السَّيدة عائشة: لم يُقتل مِنْ نسائهم إلا امرأةٌ واحدةٌ قالت: والله! إنَّها لعندي ، تتحدث معي ، تضحك ظهراً ، وبطناً[(٩٤١)]؛ ورسولُ الله (ص) يقتل رجالها بالسُّوق؛ إذ هتف هاتفٌ باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله! قالت: قلت لها: ويلك! ما لك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدثٍ أحدثتُه[(٩٤٢)]. قالت: فانطلق بها ، فضُربت عنقها ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: والله! ما أنسى عجبي من طيب نفسها ، وكثرة ضحكها ، وقد عَرَفَتْ: أنَّها تُقتل. [أحمد (٦/٢٧٧) ، وأبو داود (٢٦٧١)][(٩٤٣)].

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تماماً من الوجود اليهوديِّ ، وصارت خالصةً للمسلمين ، وخلت الجبهة الدَّاخلية من عنصرٍ خطرٍ ، لديه القدرة على المؤامرة ، والكيد ،

والمكر ، واضمحل حلم قريش؛ لأنَّها كانت تعوِّل ، وتؤمِّل في يهود بأن يكون لهم موقف ضدَّ المسلمين ، وابتعد خطر اليهود الَّذي كان يمدُّ المنافقين بأسباب التَّحريض والقوَّة[(٩٤٤)].

إنَّ حماية الجبهة الدَّاخليَّة للدَّولة الإسلاميَّة من العابثين منهجٌ نبويٌّ كريمٌ ، رسمه الحبيب المصطفى (ص) للأمَّة المسلمة.

* * *

المبحث الرَّابع

أولاً: المعجزات الحسِّيَّة لرسول الله (ص):

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزاتٌ حسِّيَّة للنَّبيِّ (ص) ، منها تكثير الطَّعام؛ الَّذي أعدَّه جابر بن عبد الله، فعن جابرٍ رضي الله عنه قال: إنَّا يوم الخندق مُحفر[(٩٤٥)] ، فعرضَتْ كُدْيَةٌ شديدةٌ ، فجاؤوا النَّبيَّ (ص) ، فقالوا: هذه كديةٌ عرضت في الخندق ، فقال: «أنا نازلٌ» ثمَّ قام ، وبطنه معصوبٌ بحجرٍ ، ولبثنا ثلاثة أيَّامٍ لا نذوق ذواقاً ، فأخذ النَّبيُّ (ص) المِعْوَل ، فضرب في الكُدْيَةِ ، فعادت كثيباً أهيل[(٩٤٦)] أو أهيم[(٩٤٧)].

قال جابر: فقلت: يا رسول الله! ائذن لي إلى البيت ، فقلت لامرأتي: رأيت بالنَّبيِّ (ص) شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ؛ فعندك شيءٌ؟ فقالت: عندي شعير ، وعَناقٌ[(٩٤٨)] فذبحتُ العَناق ، وطحنتُ الشَّعير ، حتى جعلنا اللَّحم بالبُرمة[(٩٤٩)] ، ثمَّ جئت النَّبيَّ (ص) والعجين قد انكسر ، والبرمة بين الأثافِيِّ[(٩٥٠)] ، قد كادت أن تنضجَ ، فقلت: طُعَيِّمٌ لي ، فقم أنت يا رسول الله! ورجل ، أو رجلان ، قال: «كم هو؟» فذكرت له ، فقال: «كثيرٌ طيِّب» قال: «قل لها: لا تنزع البُرمة ، ولا الخبز من التنُّور حتَّى اتي».

فقال: قوموا ، فقام المهاجرون ، والأنصار ، فلمَّا دخل على امرأته ، قال: ويحك! جاء النَّبيُّ (ص) بالمهاجرين ، والأنصار ، ومن معهم ، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم ، قال: «ادخلوا ، ولا تضاغطوا»[(٩٥١)] ، فجعل يَكْسِر الخبز ، ويجعل عليه اللَّحم ، ويخمِّر البُرمة

والتَّنُّور إذا أخذ منه ، ويقرِّب إلى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يَكْسِر الخبز ، ويغرف حتَّى شبعوا ، وبقي بقيَّةٌ ، قال: «كلي هذا ، وأهدي؛ فإنَّ الناس أصابتهم مجاعةٌ». [البخاري (٤١٠١) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٢٣)].

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمِّي عمرة بنت رواحة ، فأعطتني حفنةً من تمرٍ في ثوبي ، ثمَّ قالت: أيْ بُنَيَّة! اذهبي إلى أبيك ، وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما ، قالت: فأخذتُها ، فانطلقت بها فمررت برسول الله (ص) وأنا ألتمس أبي ، وخالي ، فقال: «تعالَيْ يا بنية! ما هذا معك؟» فقلت: يا رسول الله! هذا تمرٌ بعثتني به أمِّي إلى أبي بشير بن سعدٍ ، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذَّيانه. قال: «هاتيه!» قالت: فصببته في كفَّيْ رسول الله (ص) فما ملأتهما ، ثمَّ أمر بثوبٍ ، فبُسط له ، ثمَّ دعا بالتَّمر عليه ، فتبدَّد فوق الثوب ، ثمَّ قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق: أن هلمَّ إلى الغذاء ، فاجتمع أهل الخندق

عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنَّه ليسقط من أطراف الثَّوب. [ابن هشام (٣/٢٢٨ ـ ٢٢٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٢٧)].

ففي هذين الخبرين معجزاتٌ حسِّيَّة ظاهرة للرسول (ص) ، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم ، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم ، وبعدت عنهم أرزاقهم ، وقلَّ عنهم القوت ، وأصاب النَّاس جوعٌ ، وحرمانٌ ، حتَّى كان رسول الله (ص) والمسلمون معه يشدُّون على بطونهم الحجارة من شدَّة الجوع ، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطَّعام[(٩٥٢)].

ومن دلائل النُّبوة في أثناء حفر الخندق ، إخباره (ص) عمَّار بن ياسر ، وهو يحفر معهم الخندق ، بأنَّه ستقتله الفئة الباغية [البخاري (٤٤٧) ، ومسلم (٢٩١٥)]؛ فقتل في صفِّين وكان في جيش عليٍّ[(٩٥٣)].

وعندما اعترضت صخرةٌ الصَّحابة وهم يحفرون ، ضربها الرَّسول (ص) ثلاث ضربات ، فتفتَّتت ، قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر! أُعطيت مفاتيح الشَّام ، والله! إنِّي لأبصر قصورها الحمراء السَّاعة». ثمَّ ضربها الثانية ، فقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس ، والله! إنِّي لأبصر قصر المدائن أبيض» ثمَّ ضرب الثَّالثة ، وقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن ، والله! إنِّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه السَّاعة». [أحمد (٤/٣٠٣) ، وأبو يعلى (١٦٨٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٢١) ، ومجمع الزوائد (٦/١٣٠)][(٩٥٤)].

وقد تحقَّقت هذه البشارة الَّتي أخبرت عن اتِّساع الفتوحات الإسلاميَّة ، والإخبار عنها في وقتٍ كان المسلمون فيه محصورين في المدينة ، يواجهون المشاقَّ ، والخوف ، والجوع ، والبرد القارس[(٩٥٥)].

ثانياً: بين التَّصوُّر ، والواقع:

قال رجلٌ من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله! أرأيتم رسول الله ، وصحبتموه؟ قال: نعم يا بن أخي! قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنَّا نجهد، قال: فقال: والله! لو أدركناه، ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا. فقال حذيفة: يابن أخي! والله لقد رأيتُنا مع رسول الله (ص) ، بالخندق[(٩٥٦)]... ثمَّ ذكر حديث تكليفه بمهمَّة الذَّهاب إلى معسكر المشركين. [سبق تخريجه].

هذا تابعيٌ يلتقي بالصَّحابيِّ حذيفة ، ويتخيَّل: أنَّه لو وجد مع رسول الله (ص) ؛ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصَّحابة الكرام ، والخيال شيءٌ ، والواقع شيءٌ اخر ، والصَّحابة رضي الله عنهم بشرٌ ، لهم

طاقات البشر ، وقدراتهم ، وقد قدَّموا كلَّ ما يستطيعون ، فلم يبخلوا بالأنفس ، فضلاً عن المال والجهد ، وقد وضع (ص) الأمور في نصابها بقوله: «خير القرون قرني» [البخاري (٦٤٢٩) ، ومسلم (٢٥٣٣)] فبيَّن: أن عملهم لا يعدله عملٌ.

إنَّ الذين جاؤوا من بعدُ ، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدّاً ، وعاشوا في ظلِّ الأمن ، والرَّخاء ، والعدل ، بعيدين عن الفتنة والابتلاء ، هم بحاجةٍ إلى نقلةٍ بعيدةٍ يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكلِّ ما فيه من جهالاتٍ ، وضلالاتٍ ، وكفرٍ... وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصَّحابة حتَّى قام الإسلام في الأرض[(٩٥٧)].

ثالثاً: سلمان منا أهل البيت[(٩٥٨)]:

قال المهاجرون يوم الخندق: سلمان منَّا ، وقالت الأنصار: سلمان منَّا ، فقال رسول الله (ص) : «سلمان منَّا أهل البيت» [الحاكم (٥٩٨/٣) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢٦١/٦) ، وابن هشام (٢٣٥/٣) ومجمع الزوائد (١٣٠/٦)] ، وهذا الوسام النَّبويُّ الخالد لسلمان يشعر بأنَّ سلمان من المهاجرين؛ لأنَّ أهل البيت من المهاجرين[(٩٥٩)].

رابعاً: الصَّلاة الوسطى:

قال (ص) : «ملأ الله عليهم بيوتهم ، وقبورهم ناراً ، كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى حتَّى غابت الشَّمس» [سبق تخريجه].

وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الحديث على كون الصَّلاة الوسطى هي صلاة العصر ، كما هو منصوصٌ عليه ، وألزم القاضي الماورديُّ مذهب الشَّافعي بهذا لصحَّة الحديث ، وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الصَّنيع على جواز تأخير الصَّلاة لعذر القتال ، كما هو مذهب مكحولٍ ، والأوزاعيِّ[(٩٦٠)].

قال الدُّكتور البوطي: لقد فاتت النَّبيَّ (ص) صلاةُ العصر ، كما رأيت في هذه الموقعة؛ لشدَّة انشغاله ، حتَّى صلاَّها قضاءً بعدما غربت الشَّمس ، وفي رواياتٍ أخرى غير الصَّحيحين: أنَّ الذي فاته أكثرُ من صلاةٍ واحدةٍ ، صلاَّها تباعاً بعدما خرج وقتُها ، وفرغ لأدائها ، وهذا يدلُّ على مشروعية قضاء الفائتة ، ولا ينقض هذه الدَّلالة ما ذهب إليه البعض من أنَّ تأخير الصَّلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزاً إذ ذاك ، ثمَّ نُسخ حينما شُرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً ، وركباناً عند التحام القتال بينهم وبين المشركين؛ إذ النَّسخ على فرض صحَّته ليس وارداً على مشروعية القضاء ، وإنَّما هو وارد على صحَّة تأخير

الصَّلاة بسبب الانشغال ، أي: أنَّ نسخ صحَّة التأخير ليس نسخاً لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضاً ، بل هي مسكوتٌ عنها ، فتبقى على مشروعيَّتها السَّابقة[(٩٦١)].

خامساً: الحلال والحرام:

عَرَضَتْ قريشٌ فداءً مقابل جثَّة عمرو بن عبد ودٍّ ، فقال (ص) : «ادفعوا إليهم جيفته فإنَّه خبيث الجيفة ، خبيث الدِّية ، فلم يقبل منهم شيئاً». [أحمد (١/٢٤٨) ، وابن هشام (٣/٢٦٥)].

حدث هذا والمسلمون في ضنكٍ من العيش ، ومع ذلك فالحلال حلالٌ والحرام حرامٌ ، إنَّما مقاييس الإسلام في الحلال والحرام ، فأين هذا من النَّاس المحسوبين على المسلمين الَّذين يحاولون إيجاد المبرِّرات لأكل الرِّبا ، وما شابهه؟![(٩٦٢)].

سادساً: شجاعة صفيَّة عمَّة الرَّسول (ص):

كان (ص) قد وضع النِّساء ، والأطفال في حصن فارعٍ ، وهو حصنٌ قويٌّ؛ حمايةً لهم ، لأنَّ المسلمين في شغلٍ عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب ، فعندما نقض يهود بني قريظة

عهدهم مع رسول الله (ص) أرسلت يهوديّاً ليستطلع وضع الحصن الَّذي فيه نساء المسلمين ، وأطفالهم ، فأبصرته صفيَّة بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله (ص) ، فأخذت عموداً ، ونزلت من الحصن ، فضربته بالعمود ، فقتلته ، فكان هذا الفعل من صفيَّة رادعاً لليهود من التَّحرُّش بهذا الحصن الَّذي ليس فيه إلا النِّساء ، والأطفال ، حيث ظنَّت يهود بني قريظة: أنَّه محميٌّ من قبل الجيش الإسلاميِّ ، أو أنَّ فيه على الأقلِّ مَنْ يدافع عنه من الرِّجال[(٩٦٣)] ، ففي هذا الخبر دليلٌ للمرأة في الدِّفاع عن نفسها؛ إن لم تجد مَنْ يدافع عنها[(٩٦٤)].

سابعاً: عدم صحَّة ما يروى عن جبن حسَّان رضي الله عنه:

وفي قصَّة صفيَّة عمَّة رسول الله (ص) وقتْلِها لليهوديّ جاءت روايةٌ سندها ضعيفٌ[(٩٦٥)]؛ أنَّ صفية رضي الله عنها قالت لحسان بن ثابتٍ: إنَّ هذا اليهودي يُطِيف بالحصن ، كما ترى ، ولا امنه أن يدلَّ على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شُغِل عنَّا رسولُ الله (ص) وأصحابه ، فانزِلْ إليه ، فاقتُلْه. فقال: يغفر الله لكِ يا بنت عبد المطلب! والله! لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا؟ قالت صفيَّة رضي الله عنها: فلمَّا قال ذلك ، احتجزت عموداً ثمَّ نزلت من الحصن إليه ، فضربتُه بالعمود حتَّى قتلتُه ، ثم رجعت الحصن ، فقالت: يا حسان! انزل فاستلِبْه ، فإنَّه لم يمنعني أن أستلبه إلا أنَّه رجلٌ ، فقال: ما لي بسلبه

من حاجةٍ يا بنت عبد المطلب! [ابن هشام (٣/٢٣٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/٤٤٢ ـ ٤٤٣)][(٩٦٦)].

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها:

١ ـ من حيث الإسناد ، فالخبر ليس مسنداً ، وهو ساقطٌ لا يصحُّ ، ولا يجوز أن يروى ، فيساء إلى صحابيٍّ من صحابة رسول الله (ص) ، كان ينافح عن الدَّعوة ، وعن رسول الله (ص) عُمُرَهُ كلَّه.

٢ ـ لو كان حسّان بن ثابت رضي الله عنه معروفاً بالجبن؛ الَّذي ذكر عنه؛ لهجاه أعداؤه ، ومبغضوه بهذه الخصلة الذَّميمة ، لاسيَّما الَّذين كان يهاجيهم ، فلم يسلم من هجائه أحدٌ من زعماء الجاهليَّة ، والرَّسول (ص) كان يؤيِّده ، ويدعو له ، ويشجِّعه على هجاء زعماء المشركين[(٩٦٧)].

ثامناً: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أوَّل مستشفى إسلاميٍّ حربيٍّ في غزوة الأحزاب ، فقد ضرب الرَّسول صلوات الله وسلامُه عليه خيمةً في مسجده الشَّريف في المدينة ، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب ، فأمر (ص) أن تكون رُفَيْدة الأسلميَّة الأنصاريَّة رئيسة ذلك المستشفى النَّبويّ الحربيِّ ، وبذلك أصبحت أوَّل ممرِّضةٍ عسكريَّةٍ في الإسلام[(٩٦٨)] ، وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام: وكان (ص) قد جعل سعد بن معاذ في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلم ، يقال لها: رُفيدة ، في مسجده ، كانت تداوي الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ به ضيعةٌ من المسلمين ، وكان (ص) قد قال لقومه حين أصابه السَّهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتَّى أعوده من قريب...» [ابن هشام (٣/٢٥٠) ، والطبري في تفسيره (٢١/١٥٢)].

ويفهم من النَّص السَّابق أنَّ مَنْ أصيب من المسلمين ، إن كان له أهلٌ؛ اعتنى به أهلُه ، وإن لم يكن له أهلٌ؛ جيء به إلى المسجد؛ حيث ضُربت خيمةٌ فيه لمن كانت به ضيعةٌ من المسلمين ، وسعدُ بن معاذ الأوسيُّ ليس به ضيعةٌ ، ولكن لما أراد الرَّسول (ص) الاطمئنان عليه باستمرارٍ ، جعله في تلك الخيمة الَّتي أعدَّت لمن به ضيعةٌ ، وليس له أهل؛ ذلك: أنَّ هؤلاء هم في رعاية رسول الله (ص) ، وإلا فلِمَ ضُربت الخيمة في المسجد ، وكان بالإمكان ضربها في أيِّ مكانٍ اخر!

إنَّ سعد بن معاذُ يكرَّم لماثره ، وما بذله في سبيل الله تعالى ، فيكون هذا التَّكريم أن يجعل في خيمةٍ أعدَّت لمن به ضيعةٌ ، وهكذا حينما يرتفع السَّادة يجعلون مع المغمورين الَّذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى ، فاستحقُّوا أن يكونوا في رعاية رسول الله (ص)[(٩٦٩)] ، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أصبح دستوراً للمسلمين على مدى الزَّمن.

تاسعاً: المسلم يقع في الإثم ، ولكنَّه يسارع إلى التَّوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر ـ وكانوا حلفاءه ـ فاستشاروه في النُّزول على حكم رسول الله (ص) ، فأشار إلى حلقه ـ يعني الذَّبح ـ ثمَّ ندم فتوجَّه إلى مسجد النَّبيِّ (ص) ، فارتبط به حتَّى تاب الله عليه ، وقد ظلَّ مرتبطاً بالجذع في المسجد ستَّ ليالٍ تأتيه امرأتُه في وقت كلِّ صلاةٍ فتحلُّه للصَّلاة ، ثمَّ يعود ، فيرتبط في الجِذْع[(٩٧٠)].

وقد قال أبو لبابة: لا أبرح مكاني هذا حتَّى يتوب الله عليَّ ممَّا صنعتُ. قالت أمُّ سلمة:

فسمعت رسول الله (ص) من السَّحر وهو يضحك ، فقلت: ممَّ تضحك يا رسول الله؟! أَضْحَكَ اللهُ سِنَّك ، قال: «تِيبَ على أبي لبابة» قالت: قلت: أفلا أبشِّره يا رسول الله؟! قال: بلى؛ إن شئتِ ، فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب عليهنَّ الحجاب ـ فقالت: يا أبا لبابة؟ أبشر فقد تاب الله عليك!

قالت: فثار النَّاس؛ ليطلقوه ، فقال: لا والله! حتى يكون رسول الله (ص) هو الَّذي يُطلقني بيده. فلمَّا مرَّ عليه رسول الله (ص) خارجاً إلى صلاة الصُّبح؛ أطلقه[(٩٧١)] عنه [ابن هشام (٣/٢٤٧ ـ ٢٤٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/١٦ ـ ١٧)] ، وذلك في الاعتراف بالذَّنب ، والتَّوبة النَّصوح ، وإنَّ موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرُّف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزَّلَّة الَّتي أفشى بها سرّاً حربيّاً خطيراً ، فأبو لبابة لم يحاول التَّكتُّم على ما بدر منه ، والظُّهور أمام رسول الله (ص) والمسلمين بمظهر الرَّجل الذي أدى مهمَّته بنجاحٍ ، وأنَّه لم يحصل منه شيءٌ من المخالفات ، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر ، حيث لم يطَّلع عليه أحد من المسلمين ، وأن يستكتم اليهود أمره ، ولكنَّه تذكَّر رقابة الله عليه ، وعلمه بما يُسِرُّ ، ويُعلن ، وتذكَّر حقَّ رسول الله (ص) العظيم عليه ، وهو الَّذي ائتمنه على ذلك السِّرِّ ، ففزع لهذه الزَّلَّة فزعاً عظيماً(١) ، وأقرَّ بذنبه ، واعترف به ، وبادر إلى العقوبة الذَّاتيَّة التلقائيَّة ، دون انتظار التَّحقيق ، وتوقيع العقوبة الواجبة: إنَّها صورةٌ تطبيقيَّةٌ لقوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *} [النساء: ١٧].

إنَّها صورةٌ فريدةٌ لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسِه على نفسِه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان ، وما ذلك إلا مِنْ اثار الإيمان العميق الرَّاسخ ، الَّذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثمٌ ، أو فسوقٌ.

وقد فرح الصَّحابة ، وفرح النَّبيُّ (ص) نفسه بتوبة الله على أبي لبابة ، وتسابقوا إلى تهنئته ، حتَّى كانت أمُّ سلمة زوج النَّبيِّ (ص) هي الَّتي بادرت بالتهنئة بعد الإذن ، فبشَّرته بقبول الله توبته[(٩٧٢)].

وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [الأنفال: ٢٧].

ونزل في توبته قوله تعالى: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١٠٢][(٩٧٣)].

عاشراً: من فضائل سعد بن معاذٍ رضي الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ رضي الله عنه في هذه الغزوة فضائل كثيرةٌ ، تدلُّ على فضله ، ومنزلته عند الله ورسوله (ص) ؛ منها:

ـ استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: (اللَّهمَّ إنَّك تعلم: أنَّه ليس أحدٌ أحبَّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قومٍ كذَّبوا رسولك (ص) ، وأخرجوه ، اللَّهم! فإن بقي من حرب قريش شيءٌ؛ فأبقني له حتَّى أجاهدهم فيك) وقد استُجيب دعاؤه فتحجَّر جرحُه ، وتماثل للشِّفاء[(٩٧٤)] حتَّى كانت غزوة بني قريظة ، وجعل رسولُ الله (ص) الحكم فيهم إليه ، فحكم فيهم بالحقِّ ، ولم تأخذه في الله لومةُ لائم ، وهذا دليلٌ على تجرُّد قلبه للهِ تعالى[(٩٧٥)].

ومن إكرام رسول الله (ص) له قوله للأنصار عندما جاء سعدٌ للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم». [البخاري (٣٠٤٣ و٤١٢٢) ، ومسلم (١٧٦٨/٦٤)][(٩٧٦)].

وهذا تكريمٌ لسعدٍ ، وتقديرٌ لشجاعته ، حيث سمَّاه سيِّداً ، وأمر بالقيام له[(٩٧٧)].

وعندما نفَّذ حكم الله في يهود بني قريظة؛ رفع سعدٌ يده يدعو الله ثانيةً ، يقول: اللَّهمَّ! فإنِّي أظنُّ أنَّك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم . يعني قريشاً والمشركين . فإنْ كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجر جرحي ، واجعل موتتي فيها [سبق تخريجه][(٩٧٨)] ، وقد استُجيب دعاؤه ، فانفجر جرحُه تلك اللَّيلة ، ومات رحمه الله[(٩٧٩)]!

ومن خلال دعائه الأوَّل ، والثَّاني نلحظ هذا الدُّعاء العجيب ، دعاء العظماء ، الَّذين يعرفون: أنَّ رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط؛ بل متابعة الجهاد إلى اللَّحظة الأخيرة ، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه ، وأمَّته[(٩٨٠)].

ونرى من سيرته: أنَّه لو أقسم على الله؛ لأبرَّه ، فهو وجيهٌ في السَّموات ، والأرض ، فقد شاءت إرادة المولى ـ تعالى ـ أن يعيد الأمر في بني قريظة كلَّه إليه ، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحُكْمُ فيهم لسعدِ بن معاذٍ رضي الله عنه.

إنَّه لا يحرص كثيراً على الحياة ، بعد انتهاء الجهاد ، وانتهاء المسؤوليَّة ، وتأدية الأمانة المنوطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من النَّاس ، فإذا انتهت الحرب ، ووُضِعت بين المسلمين ، وقريش ، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة ، وبدأ قطف الثِّمار للإسلام ، فلا ثمرة أشهى عنده من الشَّهادة (فافجر جرحي ، واجعل موتتي فيه)[(٩٨١)].

وقد تحقَّقت اماله ، فقد أصدر حكمه في بني قريظة ، وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم ، وهاهو جرحُه ينفجر[(٩٨٢)].

وعندما انفجر جرحه نقله قومُه ، فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم ، وجاء رسول الله (ص) فقال: «انطلقوا» ، فخرج وخرج معه الصَّحابة ، وأسرع حتى تقطَّعت شسوع نعالهم ، وسقطت أرديتهم ، فشكا إليه أصحابه ذلك ، فقال النَّبيُّ (ص) : «إنِّي أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة» ، فانتهى إلى البيت ، وهو يُغسل ، وأمُّه تبكيه ، وتقول:

وَيْلُ أمِّ سَعْدٍ سَعْدا   حَزَامَةً وَجَدّا

فقال: كلُّ نائحةٍ تكذب إلا أمَّ سعدٍ» ، ثمَّ خرج به قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله! ميتاً أخف علينا منه! قال: «وما يمنعه أن يخفَّ ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا ، ولم يهبطوا قطُّ قبل يومهم قد حملوه معكم». [ابن هشام (٣/٢٦٤)، والألباني في الصحيحة (١١٥٨)][(٩٨٣)].

وقد جاء في النَّسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عددُ الملائكة الَّذين شاركوا في تشييع جنازة سعد ، فقد قال (ص) : «هذا العبد الصَّالح الَّذي تحرَّك له العرش ، وفُتحت له أبواب السَّماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك ، لقد ضُمَّ ضمَّة ، ثمَّ أفرج عنه» [النسائي (٤/١٠١)][(٩٨٤)] يعني: سعداً.

وها هو رسول الله (ص) يودِّع سعداً كما رَوَى عبد الله بن شدَّاد: دخل رسول الله (ص) وهو يكيد نفسه ، فقال: «جزاك الله خيراً من سيِّد قومٍ ، فقد أنجزت ما وعدته ، ولينجزك الله ما وعدك. [ابن أبي شيبة (٥/٣٢٢) و(١٢/١٤٥)][(٩٨٥)].

لقد أثنى النَّبيُّ (ص) على هذا العبد الصَّالح بعد موته كثيراً أمام الصَّحابة؛ ليتعرَّف النَّاس على

أعماله الصَّالحة ، فيتأسَّوا به[(٩٨٦)] ، فقد قال (ص) : «اهتزَّ عرشُ الرَّحمن لموت سعد بن معاذ» [البخاري (٣٨٠٣) ، ومسلم (٢٤٦٦/١٢٣ و١٢٤)].

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أُهْدِيَتْ لرسول الله (ص) حلَّةُ حريرٍ ، فجعل أصحابه يلمسونه ، ويعجبون من لينها ، فقال: «أتعجبون من لين هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة خيرٌ منها ، وألين». [البخاري (٣٨٠٢) ، ومسلم (٢٤٦٨/١٢٦)].

ومع كلِّ هذه المآثر، والمحاسن، والأعمال الجليلة الَّتي قدَّمها لخدمة دين الله ، فقد تعرَّض لضمَّة القبر: لما انتهوا إلى قبر سعدٍ رضي الله عنه نزل فيه أربعةٌ: الحارث بن أوس ، وأُسَيْد بن الحضير ، وأبو نائلة سلكان ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، ورسول الله (ص) واقفٌ ، فلمَّا وضع في قبره تغيَّر وجه رسول الله (ص) ، وسبَّح ثلاثاً ، فسبَّح المسلمون؛ حتَّى ارتجَّ البقيع ، ثمَّ كبَّر ثلاثاً ، وكبَّر المسلمون ، فسئل عن ذلك فقال: «تضايق على صاحبكم القبر ، وضمَّ ضمَّةً لو نجا منها أحدٌ؛ لنجا هو ، ثمَّ فرَّج الله عنه». [سبق تخريجه][(٩٨٧)].

إنَّ هذا الصَّحابيَّ الجليل قد استُشْهِدَ وهو في ريعان شبابه ، فقد كان في السَّابعة والثلاثين من عمره يوم وافته منيته ، وهذا يعني أنَّه قاد قومه إلى الإسلام ، وهو في الثلاثين من عمره... فقد كانت هذه السِّيادة في العشرينات من عمره ، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين ، وإنَّما تتفجَّر الطَّاقات الكامنة ، والمواهب بعد سنِّ الأربعين ، الَّتي هي غاية الأَشُدِّ.

قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ *} [الأحقاف: ١٥].

فأيُّ طرازٍ هذا الَّذي حفل تاريخه بهذه المآثر ، واستبشر أهل السَّمواتِ بقدومه ، واهتزَّ عرش الرَّحمن فرحاً لوفاته من دون خلق الله أجمعين![(٩٨٨)] كان سعد بن معاذ رجلاً أبيض ، طوالاً ، جميلاً ، حسن الوجه ، أعين ، حسن اللِّحية[(٩٨٩)] رحمة الله عليه ، ورضي عنه ، وأعلى ذكره في المصلحين.

حادي عشر: مقتل حيي بن أخطب ، وكعب بن أسد:

١ ـ مقتل حيي بن أخطب النَّضْرِيِّ:

روى عبد الرزَّاق في مصنَّفه بالسَّند إلى سعيد بن المسيِّب.... فذكر بعض خبر الأحزاب ،

وقريظة... إلى أن قال: فلمَّا فضَّ الله جموع الأحزاب؛ انطلق ـ يعني: حيي ـ حتَّى إذا كان بالرَّوحاء ذكر العهد ، والميثاق الَّذي أعطاهم ، فرجع حتى دخل معهم ، فلمَّا أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفاً بعدُ ، فقال حُيَيٌّ للنَّبيِّ (ص) : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنَّه من يَخْذِلِ اللهُ يُخْذَل ، فأمر به النَّبيُّ (ص) ، فَضُرِبَتْ عنقُه. [عبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٧) ، وابن هشام (٢٥٢/٣) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٣/٤)][(٩٩٠)].

ثمَّ إنَّه أقبل على النَّاس قبل تنفيذ حكم الإعدام ، وقال لهم: أيُّها النَّاس! إنَّه لابأس بأمر الله ، كتابٌ وقَدَرٌ ، وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل ، ثمَّ جلس ، فضربت عنقُه[(٩٩١)].

وفي مقتل حييّ بن أخطب دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

أ ـ لا يحيق المكر السَّيّأى إلا بأهله:

فقد ألَّب القبائل العربيَّة ، واليهوديَّة على محاربة الإسلام ، ونبيِّه (ص) ، وأقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد مع الرَّسول (ص) وطعنه من الخلف ، فجعل اللهُ كيدَه في نحره ، وكبته ، وفي النِّهاية قادته محاولاتُه إلى حتفه.

إنَّ الله لا يُهمِل الظَّالمين ، ولكن يُمهِلُهم ويَستدرِجُهم ، حتَّى إذا أخذهم؛ أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر ، فكان أخذه أليماً شديداً ، قال (ص) : «إنَّ الله ليملي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» [البخاري (٤٦٨٦)][(٩٩٢)] ثمَّ تلا قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ *} [هود: ١٠٢].

ب ـ التَّجلُّد في مواطن الشِّدَّة:

لقد تجلَّد حييٌّ وتقدَّم لتضرب عنقه؛ حتَّى لا يشمت فيه شامتٌ ، وهو يعرف: أنَّه على باطلٍ ، ظالمٌ لنفسه ، قد أوردها موارد الهلاك ، ومع هذا يموت على ذلك ، والعزَّة بالإثم تأخذه إلى جهنَّم وبئس المصير؛ لأنَّه يعبد هواه ، ولم يعبد ربَّه ، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ *} [الجاثية: ٢٣].

ج ـ مَنْ يَخْذُلِ اللهَ يُخذَل:

إنَّ الله تعالى إذا خذل أحداً؛ فليس له نصيرٌ يمنعه ، أو يدفع عنه ، قال سبحانه: {إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [آل عمران: ١٦٠].

كما أنَّ عداوة حُيَيٍّ للرَّسول (ص) باعثها الحسد والحقد ، ولذلك عبر حُيَّيٌّ صراحةً: أنَّ الله لم يكن معه يوماً من الأيام ، بل كان حُيَيٌّ في شقِّ الشَّيطان عدوّاً لأولياء الرَّحمن ، يشاقق الله ، فالله خاذلُه ، ومُسْلِمُه لكلِّ ما يؤذيه ، ويُتعبه ، ولا توجد قوَّةٌ في الأرض ، ولا في السَّماء تنصره ، وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأنَّ إرادة الله هي النَّافذة ، وقدَره هو الكائن ، لا رادَّ لقضائه ، لا يعجزه شيءٌ في الأرض ، ولا في السَّماء[(٩٩٣)]؛ قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [الأنعام: ١٧].

٢ ـ مقتل كعب بن أسد القرظيِّ:

وجيء برئيس بني قريظة ، كعب بن أسد ، وقبل أن يَضْرِب رسول الله (ص) عنقه جرى بينه وبين كعبٍ الحوار التَّالي:

قال رسول الله (ص) : «كعبُ بن أسدٍ؟».

قال كعبُ بن أسدٍ: نعم يا أبا القاسم!

قال رسول الله (ص) : «ما انتفعتم بنصح ابن خراشٍ لكم ، وكان مصدِّقاً بي ، أما أمركم باتِّباعي ، وإنْ رأيتمُوني تقرئوني منه السَّلام؟».

قال كعب: بلى ، والتَّوراةِ يا أبا القاسم! ولولا أن تعيِّرني يهود بالجزع من السَّيف لاتَّبعتُك ، ولكنِّي على دين يهود.

فأمر رسول الله (ص) بضرب عنقه ، فضربت[(٩٩٤)].

وممَّا ترويه كتب السِّيرة النَّبويَّة عن يهود بني قريظة: أنَّهم كانوا يرسلون طائفةً تلو طائفةٍ؛ لتضرب أعناقهم ، وقد سألوا زعيمهم كعب بن أسد ، فقالوا: يا كعب! ما تراه يُصنع بنا؟ قال: أفي كلِّ موطنٍ لا تعقلون؟ ألا ترون الدَّاعي لا يَنْزِع ، وأنَّه مَنْ ذهب به منكم لا يَرْجِع؟ هو والله! القتل. [ابن هشام (٣/٢٥٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢٣)][(٩٩٥)].

ونلحظ في خبر مقتل كعب بن أسدٍ: أنَّه كان متعصِّباً ليهوديته ، وهو يعلم بُطلانها ، وأنَّه على علمٍ بصدق رسالة رسولنا (ص) ، ولكنَّه لم يؤمن ، ولم يدخل الإسلام خوفاً من أن تعيِّره يهود
بأنَّه جزع من السَّيف ، فعدم إيمانه ، وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه ، وحبِّه للثناء ، وخوفه من ذمِّه ، وتعييره ، وهذا دليلٌ على السَّفه ، والحُمْقِ ، وخذلان الله لهذا اليهوديِّ المخادِع[(٩٩٦)].

ثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزَّبِير بن باطا ، وسلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءل:

١ ـ شفاعة ثابت بن قيس في الزَّبير بن باطا:

أقبل ثابت بن قيس بن شمَّاس إلى رسول الله (ص) ، فقال: هب لي الزَّبير اليهوديَّ أَجْزِهِ فقد كانت له عندي يدٌ يوم بعاثٍ ، فأعطاه إيَّاه ، فأقبل ثابتٌ حتَّى أتاه فقال: يا أبا عبد الرحمن! هل تعرفني؟ فقال: نعم ، وهل يُنْكِرُ الرَّجل أخاه؟! قال ثابت: أردت أن أجْزِيكَ اليوم بيدٍ لك عندي يوم بُعاث ، قال: فافعل؛ فإنَّ الكريم يجزي الكريم ، قال: قد فعلت ، قد سألت رسول الله (ص) ، فوهبك لي ، فأطلق عنك إساره ، فقال الزَّبير: ليس لي قائدٌ ، وقد أخذتم امرأتي ، وابني ، فرجع ثابتٌ إلى رسول الله (ص) فاستوهبه امرأتَه ، وبنيه ، فوهبهم له ، فرجع ثابتٌ إلى الزَّبير ، فقال: ردَّ إليك رسول الله (ص) امرأتك وبنيك ، فقال الزَّبير: حائط لي فيه أعذق ، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به ، فرجع ثابت إلى رسول الله (ص) ، فوهبه له ، فرجع ثابت إلى الزَّبير ، فقال: قد ردَّ إليك رسول الله (ص) أهلك ، ومالك ، فأسلِم؛ تسلَمْ ، قال: ما فعل الجليسان[(٩٩٧)]؟ وذكر رجال قومه ، قال ثابتٌ: قد قُتِلوا ، وفُرِغَ منهم ، ولعلَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يكون أبقاك لخير ، قال الزَّبير: أسألك بالله يا ثابت! وبيدي التي عندك يوم بُعاثٍ إلا ألحقتني بهم ، فليس في العيش خيرٌ بعدهم ، فذكر ثابت ذلك لرسول الله (ص) فأمر بالزَّبير ، فقُتِل. [ابن هشام (٣/٢٥٣ ـ ٢٥٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢٣ ـ ٢٤)][(٩٩٨)].

٢ ـ شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءَلٍ القرظيّ:

كانت سلمى بنت قيس ، وكنيتها أمُّ المنذر أخت سليط بن قيس ، وكانت إحدى خالات رسول الله (ص) ، قد صلَّت معه القبلتين ، وبايعتْه بيعة النِّساء ، سألته رفاعة بن سَمَوْءَل القرظيَّ ، وكان رجلاً قد بلغ ، فلاذ بها ، وكان يعرفهم قبل ذلك ، فقالت: يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمِّي! هب لي رفاعة ، فإنَّه قد زعم أنَّه سيصلِّي ، ويأكل لحم الجمل ، فوهبه لها ، فاسْتَحْيَتْهُ. [ابن هشام (٣/٢٥٥)][(٩٩٩)].

وفي هذا الخبر دليلٌ على أنَّ الإسلام يكرم المرأة ، ويعتبر شفاعتها! هذه هي معاملة المرأة في هذا الدِّين ، إنَّه يكرمها ، ويساعدُها ، ويشجِّعها على فعل الخير[(١٠٠٠)].

ثالث عشر: من أدب الخلاف:

في اختلاف الصَّحابة في فهم كلام رسول الله (ص) : «أَلاَ لاَ يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» [سبق تخريجه][(١) فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال ، فصَّلى العصر لما دخل وقتُه ، وبعضهم أخذ بالظَّاهر ، فلم يصلِّ إلا في بني قريظة؛ ولم يعنِّف النَّبيُّ (ص) أحداً منهم ، أو عاتبه ، ففي ذلك دلالةٌ مهمَّةٌ على أصلٍ من الأصول الشَّرعية الكبرى ، وهو تقدير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع ، واعتبار كلِّ

من المتخالفين ، معذوراً ، ومثاباً ، كما أنَّ فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشَّرعيَّة ، وفيه ما يدلُّ على أنَّ استئصال الخلاف في مسائل الفروع الَّتي تنبع من دلالاتٍ ظَنِّيَّةٍ أمرٌ لا يمكن أن يُتصوَّر أو يتم[(١٠٠١)].

إنَّ السَّعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع معاندةٌ للحكمة الرَّبَّانيَّة ، والتدبير الإلهي في تشريعه ، عدا أنَّه ضربٌ من العبث الباطل؛ إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنِّيّاً محتملاً؟ ولو أمكن ذلك أن يتمَّ في عصرنا ، لكان أولى العصور به عصر رسول الله (ص) ، ولكان أولى النَّاس بألا يختلفوا هم أصحابُه ، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت[(١٠٠٢)] في الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو اية من كتاب الله ، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصصه ، وفيه أيضاً أن المختلفين في الفروع من المجتهدين ، لا إثم على المخطأى؛ فقد قال (ص) : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ» [البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦)].

وحاصل ما وقع: أنَّ بعض الصَّحابة حملوا النَّهي على حقيقته ، ولم يبالوا بخروج الوقت . وقت الصَّلاة . توجيهاً لهذا النَّهي الخاصِّ على النَّهي العامِّ عن تأخير الصَّلاة عن وقتها[(١٠٠٣)].

وقد علَّق الحافظ ابن حجر على هذه القصَّة ، فقال: ثمَّ الاستدلال بهذه القصَّة على أنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ على الإطلاق ليس بواضحٍ ، وإنَّما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه ، واجتهد ، فيستفاد منه عدم تأثيمه ، وحاصل ما وقع في القصَّة: أنَّ بعض الصَّحابة حملوا النَّصَّ على حقيقته ، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنَّهي الثَّاني على النَّهي الأوَّل ، وهو ترك تأخير

الصَّلاة عن وقتها ، واستدلُّوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق ، والبعض الاخر حملوا النَّهي على غير الحقيقة ، وأنَّه كنايةٌ على الحثِّ ، والاستعجال ، والإسراع إلى بني قريظة ، وقد استدلَّ به الجمهور على عدم تأثيمِ من اجتهد ، لأنَّه (ص) لم يعنِّف أحداً من الطَّائفتين ، فلو كان هناك إثمٌ؛ لعنَّف مَنْ أَثِمَ[(١٠٠٤)].

رابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة ، وإسلام ريحانة بنت عمرو:

١ . توزيع غنائم بني قريظة: جمع صحابة رسول الله (ص) الغنائم الَّتي خلَّفها بنو قريظة ، فكانت كما يلي: من السُّيوف ألفاً وخمسمئة سيفٍ ، ومن الرِّماح ألفي رمحٍ ، ومن الدُّروع ثلاثمئة درعٍ ، ومن التُّروس ألفاً وخمسمئة ترساً ، وجحفةً ، كما تركوا عدداً كبيراً من الشِّياه ، والإبل ، وأثاثاً كثيراً ، وانيةً كثيرةً ،

ووجد المسلمون دناناً من الخمر ، فوزعت الغنائم ، وهي الأموال المنقولة ، كالسِّلاح ، والأثاث ، وغيرها بين المحاربين من أنصارٍ ، ومهاجرين ممَّن شهدوا الغزوة ، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم؛ إذ جعل للفَرَسِ سهمين ، وللرَّاجل سهماً ، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه ، وغير الفارس يأخذ سهماً واحداً له ، والخمس المتبقِّي هو سهم الله ورسولِه (ص) المقرَّر في كتابه تعالى[(١٠٠٥)].

وأما ما وجده رسول الله (ص) والمسلمون من الخمر عند بني قريظة؛ فقد أراقوه ، ولم يأخذوا منه شيئاً ، ولم ينتفعوا به كذلك ، وقد أسهم رسول الله (ص) لسويد بن خلاَّد الَّذي قتلته المرأة اليهودية بالرَّحى ، وأعطى سهمه لورثته[(١٠٠٦)] ، ولصحابيٍّ اخر مات في أثناء حصار بني قريظة[(١٠٠٧)] ، كما استجاب رسول الله (ص) للنِّساء اللَّواتي حضرن، ولم يسهم لهنَّ، منهنَّ: صفية بنت عبد المطلب، وأمُّ عمارة ، وأمُّ سليط، وأمُّ العلاء ، والسُّميراء بنت قيس ، وأمُّ سعد بن معاذ(٣). وأمَّا الأموال غير المنقولة كالأراضي ، والدِّيار؛ فقد أعطاها رسول الله (ص) للمهاجرين دون الأنصار ، وأمر المهاجرين أن يردُّوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيلٍ وأرض ، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها[(١٠٠٨)]، قال تعالى عن تلك الأراضي والدِّيار: {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا *} [الأحزاب: ٢٧].

قال الأستاذ محمَّد دَرْوَزَة: أمَّا عبارة فقد قال المفسرون: إنَّها أرض {وَأَرْضًا لَمْ تَطَأُوهَا} ، وإنَّ الجملة بشرى سابقة لفتحها ، غير أنَّ الذي تلهم روح الاية ومضمونها على ما يتبادر

لنا: أنَّها أرض لبني قريظة بعيدةٌ عن مساكنهم ، الت إلى المسلمين دون حربٍ ، أو حصارٍ ، ونتيجةً للمصير الذي صار إليه أصحابُها[(١٠٠٩)].

هذا وقد أرسل رسول الله (ص) سعد بن عبادة رضي الله عنه بالخمس من الذُّرِّيَّة ، والنِّساء إلى الشَّام فباعها ، واشترى بالثَّمن سلاحاً ، وخيلاً ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين ، وكذلك بعث إلى نجدٍ سعد بن زيد ، فباع سبياً ، واشترى سلاحاً[(١٠١٠)].

٢ ـ إسلام ريحانة رضي الله عنها:

وكان من بين السَّبي ريحانةُ بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة ، قد أراد الرَّسول (ص) أن يتزوَّجها بعد أن تسلم ، فتردَّدت ، وبقيت وقتاً على دينها ، ثمَّ شرح الله صدرها للإسلام ، فأسلمت ، فبعثها إلى بيت أمِّ منذر بنت قيس حتَّى حاضت ثمَّ طهرت ، فجاءها ، وخيَّرها: أيعتقها ، ويتزوجها ، أو تكون في ملكه (ص) ؟ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها[(١٠١١)].

خامس عشر: الإعلام الإسلاميُّ في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصَّحابة بدورهم الجهاديّ، فقالوا قصائد رائعةً، وضَّحُوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب، نقتطف أبياتاً منها كنماذج لهذه القصائد، فَمِنْ ذلك قول كعب بن مالكٍ أخي بني سلمة:

وَسَائِلَةٍ تُسَائِلُ مَا لَقِيْنَا وَلَوْ شَهِدَتْ رأَتْنَا صَابِرِيْنَا

صَبَرْنَا لاَ نَرى للهِ عِدْلاً عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَا

وكان لَنَا النَّبِيُّ وَزِيْرَ صِدْقٍ بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِيْنَا

نُقَاتِلُ مَعْشَراً ظَلَمُوا وَعَقُّوا وَكَانُوا بالعَدَاوَةِ مُرْصِدِيْنَا[(١٠١٢)]

نُعَاجِهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المتَسَرِّعِيْنَا

تَرَانَا فِي فَضَافِضَ سَابِغَاتٍ كغُدْرَانِ المِلا مُتَسَرْبِلِيْنَا[(١٠١٣)]

إلى أن قال:

لِنَنْصُرَ أَحْمَداً واللهَ حتَّى نَكُوْنَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِيْنَا

ويَعْلَم أَهْلُ مَكَّةَ حِيْنَ سارُوا وأَحْزَابٌ أَتَوا مُتَحَزِّبِيْنَا

بأنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكٌ وأَنَّ اللهَ مَوْلَى المؤْمِنِيْنَا

فإِمَّا تَقْتُلوا سَعْداً سَفَاهاً فإنَّ اللهَ خَيْرُ القَادِرِيْنَا

سَيُدْخِلُه جِناناً طَيِّباتٍ تكُوْنُ مُقَامَةً للصَّالِحِيْنا

كَمَا قَدْ رَدَّكم فلاًّ شَرِيْداً بِغَيْظِكُمُ خَزَايَا خَائِبِيْنَا

خَزَايا لَمْ تنالُوا ثَمَّ خَيْراً وَكِدْتُمْ أَنْ تَكُونُوا دَامِرِيْنَا

بِرِيْحٍ عَاصِفٍ هَبَّت عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ تَحْتَهَا مُتكمِّهِيْنَا[(١٠١٤)]

وقال كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في قصيدةٍ طويلةٍ يردُّ فيها على عبد الله بن الزِّبَعْرَى:

ومَوَاعِظَ مِنْ رَبِّنا نُهْدَىَ بها بِلِسَانِ أَزْهَرَ طَيِّبِ الأَثْوابِ

عُرِضَتْ عَلَيْنَا فاشْتَهَيْنَا ذِكْرَها مِنْ بَعْدِ ما عُرِضَتْ عَلَى الأَحْزَابِ

حِكَماً يَرَاهَا المجْرِمُون بِزَعْمِهِمْ حَرَجاً[(١٠١٥)] وَيَفْهَمُهَا ذَوُو الألبابِ

جاءَتْ سَخِيْنَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ

قال ابن هشام: حدَّثني مَنْ أثق به، قال: حدثني عبد الملك بن يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، قال: لما قال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه:

جَاءَتْ سَخِيْنَةُ كَيْ تُغَالِبَ رَبَّهَا فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّبِ

قال له رسول الله (ص) : «لقد شكرك الله يا كعب! على قولك هذا». [ابن هشام (٣/٢٧٣)].

* * *

الفصل الثَّاني عشر

ما بين غزوة الأحزاب ، والحديبية

مِنْ أحداثٍ مهمَّة

المبحث الأوَّل

زواج النَّبي (ص) بزينب بنت جحش رضي الله عنها

ومع استمرار حركة السَّرايا ، وبناء الدَّولة ، وبسط هيبتها في الجزيرة العربيَّة ، كانت حركة البناء التَّشريعيِّ ، والاجتماعيِّ للأمَّة الإسلاميَّة تتكامل ، فنظام التَّبنِّي يُهدَم، والحجاب يُفرض ، وأدب الولائم يقرَّر ، وضرورة الالتزام بطاعة الله ورسوله يُؤكَّد على وجوبها ، وتُحارَب الأعراف الَّتي تعارض شرع الله تعالى ، ففي زواج رسول الله (ص) بالسَّيدة زينب بنت جحش حكمٌ ، ودروسٌ ، وعبرٌ بقيت خالدةً على مرِّ العصور ، وكرِّ الدُّهور ، وتوالي الأزمان ، وهذه قصَّة أمِّ المؤمنين زينب بنت جحشٍ رضي الله عنها:

أولاً: اسمها ، ونسبها:

هي زينت بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسديَّة ، أخت عبد الله بن جحش ، وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم.

أمُّها: أميمةُ بنت عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيٍّ عمَّة رسول الله (ص) ، وأخت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه[(١٠١٦)].

يقال: كان اسمها: برَّة ، فسمَّاها النَّبيُّ (ص) زينب ، وكانت تكنى أمَّ الحكم[(١٠١٧)].

وكانت زينب رضي الله عنها من المهاجرات الأول ، ورعةً صوَّامة قوَّامة ، كثيرة الخير والصَّدقة، فعن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله (ص) : «أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً». قالت: فكنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يداً ، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب لأنَّها
كانت تعمل بيدها ، وتصدَّق». [البخاري (١٤٢٠) ومسلم (٢٤٥٢)].

وقد مدحتها السَّيدة عائشة رضي الله عنها كثيراً ، وقالت في حقِّها: لم أر امرأةً قطُّ خيراً في الدِّين من زينب ، وأتقى للهِ ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرَّحم ، وأعظم صدقةً ، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الَّذي تَصَدَّقُ به ، وتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى ، ما عدا سَوْرَةً من حِدَّةٍ كانت فيها تُسْرِعُ منها الفيئة[(١٠١٨)]. [مسلم (٢٤٤٢) ، والنسائي (٧/٦٤ ـ ٦٦)].

ثانياً: زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه:

أراد الرَّسول (ص) أن يحطِّم تلك الفوارق الطَّبقيَّة الموروثة في الأمَّة المسلمة من عادات الجاهليَّة؛ ليكون النَّاس سواسيةً كأسنان المشط ، لا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتَّقوى ، وكان الموالي ـ وهم الذين جرى عليهم الرِّقُّ ، ثمَّ تحرَّروا ـ طبقةً أدنى من طبقة السَّادة ، ومن الموالي كان زيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) الَّذي أعتقه ، ثمَّ تبناه ، فرأى رسول الله (ص) أن يزوِّج زيداً من شريفةٍ من بني أسد ، وهي ابنة عمَّته زينب بنت جحش رضي الله عنها؛ ليبطل تلك الفوارق الطبقيَّة بنفسه في أسرته ، وكانت هذه الفوارق من العمق ، والعنف بحيث لا يحطِّمها إلا فعلٌ واقعيٌّ من رسول الله (ص) ؛ لتتَّخذ منه الأمَّةُ المسلمة أسوةً ، وقدوةً ، وتسير البشرية على هداه في هذا الطَّريق ، وأيضاً لعلَّ من الحكمة في هذا الزَّواج: أنَّه كان مقدمةً لتشريعٍ اخر ، لا يقلُّ أهمِّيَّةً في حفظ توازن المجتمع ، وحماية الأسرة عن الأوَّل ، وإن لم تظهر هذه الحكمة في بداية الأمر(١).

انطلق رسول الله (ص) ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الأسديَّة رضي الله عنها ، فخطبها ، فقالت: لست بناكحته ، فقال رسول الله (ص) : «بلى! فانكحيه» ، قالت: يا رسول الله ! أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الاية: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً *} [الأحزاب: ٣٦].

فقالت: يا رسول الله! قد رضيتَه لي زوجاً؟ قال: «نعم» قالت: لا أعصي رسول الله (ص) ، وقد زوَّجتُه نفسي. [الطبري في تفسيره (٢٢/١١) ، والدر المنثور (٥/٦٠٩)].

وكان زيد بن حارثة إذ ذاك لا يزال يُدعى زيد بن محمَّد ، فتزوَّجها زيد ، وأصدقها في هذا الزَّواج عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخماراً ، وملحفةً ، ودرعاً ، وخمسين مدَّاً من طعامٍ ، وعشرة أمدادٍ من تمرٍ[(١٠١٩)].

ثالثاً: طلاق زيد لزينب رضي الله عنها:

شاءت حكمة الله تعالى ألا يتوافق زيدٌ ، وزينب في زواجهما ، وأصبحت حياة الزَّوجين لا تطاق ، وصمَّم زيدٌ على فراق زوجه زينب ، وكان قبل ذلك يشتكي لرسول الله (ص) من عدم استطاعته البقاء مع زينب ، ورسول الله (ص) يأمره بإمساك زوجه مع تقوى الله في شأنها ، حتَّى أذن الله بالطَّلاق ، فطلَّقها زيدٌ ، وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره ، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنةٍ ، قال ابن كثير: فمكثت عنده قريباً من سنةٍ ، أو فوقها ، ثمَّ وقع بينهما (يعني: الخلاف) فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله (ص) ، فجعل رسول الله (ص) يقول له: «أمسك عليك زوجك ، واتَّق الله». [أحمد (٣/١٥٠) ، والترمذي (٣٢١٢)].

لم يبقَ لزيد رغبةٌ في إبقاء العلاقة الزَّوجيَّة معها؛ لأنَّه كان كريم النَّفس ، لا يريد أن يبني سعادته ، وراحته على شقاء الاخرين ، وتعاستهم ، والإضرار بهم ، ولهذا صمَّم على الفراق ، وعدم الإضرار بها؛ لأنَّها كانت تعيش في قلقٍ ، واضطرابٍ ، وانتهى زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه بزينب بنت جحش على هذا الوضع دون أيِّ تدخُّلٍ خارجيّ بينهما ، ووقع ذلك الطَّلاق بمحض اختياره ، وإرادته ، وقد كان رسول الله (ص) ينهاه عن ذلك ، ويأمره بتقوى الله ، وإمساك زوجته[(١٠٢٠)] ، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا السبب: «ذكر ابن أبي حاتم ، وابن جريرٍ اثاراً عن بعض السَّلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحَّتها ، فلا نوردها»[(١٠٢١)].

رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله (ص) من زينب رضي الله عنها:

كانت عادة التَّبنِّي متغلغلةً في نفوس النَّاس ، ومشاعرهم ، وليس من السَّهل التغلُّب عليها ، وإلغاء الاثار المترتِّبة عليها ، كانت هذه العادة في صدر الإسلام في مكَّة ، وفي أوَّل الهجرة إلى المدينة ، ثمَّ شاء الله تعالى ، فنزلت الايات في نفي أن يكون الأدعياء أبناء لمن ادَّعاهم في الحقيقة ، وإنَّما ذلك حسب دعوى المدَّعي فقط ، وذلك لا يغيِّر من الواقع شيئاً ، فقال تعالى: {مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ *} [الأحزاب: ٤].

ثمَّ أمر ـ تبارك وتعالى ـ بردِّ نسبهم إلى ابائهم في الحقيقة ، فهذا من العدل ، والقسط ، والبرِّ ، فقال تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [الأحزاب: ٥].

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إنَّ زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله (ص) ما كنَّا ندعوه إلا زيد بن محمَّد ، حتَّى نزل القران: . {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} (٤٧٨٢)].

ولم يجعل الله تعالى عدم معرفتهم لابائهم الحقيقيين مبرراً لإبقاء تبنِّيهم لهم ، بل حرم التَّبني في هذه الحالة ، وأخبر أنَّهم حينئذٍ إخوانهم ، ومواليهم ، فقال تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [الأحزاب: ٥].

أي: فإن لم تعرفوا اباءهم، فليس بينكم وبينهم إلا الأخوَّة في الدِّين، والموالاة، وذلك عوضاً عمَّا فاتهم من النَّسب، فيقال: فلانٌ مولى فلان ، أو مولى بني فلان[(١٠٢٢)].

وهذه الأخوَّة في الدِّين ، والموالاة لها أهمِّيَّة كبرى ، فهي ثابتةٌ حتَّى للذين عُرِف اباؤهم ، ولهذا قال رسول الله (ص) لزيد بن حارثة رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» [أحمد (٩٨/١ و١١٥) عن علي ، والبخاري (٢٦٩٩) عن البراء] ، أي: أخونا في الإسلام ، والولاية ، كما قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ *} [الحجرات: ١٠].

وجاءت نصوصٌ أخرى تعالج هذا الأمر من جهةٍ أخرى ، وهي جهة الابن ، فجاء تحريم الانتساب إلى غير الأب الحقيقيِّ ـ والمنتسب يعلم ذلك ـ تحريماً قاطعاً ، لا شبهة فيه[(١٠٢٣)] قال (ص) : «مَنِ ادَّعى إلى غير أبيه ، أو انتمى إلى غير مواليه؛ فعليه لعنة الله ، والملائكة ، والنَّاس أجمعين ، لا يقبل الله تعالى منه صَرْفاً ولا عَدْلاً[(١٠٢٤)]». [البخاري (١٨٧٠) ، ومسلم (١٣٧٠)].

وقد جعل الشَّارع لنشوء النَّسب سبباً واضحاً هو الاتِّصال بالمرأة عن طريق الزَّواج، أو ملك اليمين ، وأبطل ما كان يجري عليه أهل الجاهليَّة من إلحاق الأولاد عن طريق العُهْرِ والزِّنى ، قال (ص) : «الولد للفراش ، وللعاهر الحجر» [البخاري (٦٨١٨) ، ومسلم (١٤٥٨)] ، ومعناه: أنَّ من يجيء من الأولاد ثمرة لفراشٍ صحيحٍ قائمٍ على عقد الزَّواج ، أو ملك اليمين يلتحق نسبه بأبيه ، وأنَّ العُهْرَ والزِّنى لا يصلح أن يكون سبباً للنَّسب، وإنَّما يكون سبباً لشيءٍ اخر هو الرَّجم، والحجارة[(١٠٢٥)].

ثمَّ إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أن منع ، وحرَّم دعوة الابن بنسبته إلى من تبنَّاه ، وأمر

بدعوته منسوباً إلى أبيه الحقيقيّ إن عرف ، أو إلى الأخوة في الدِّين والموالاة ، بعد ذلك بيَّن حكم من أخطأ ، أو تعمَّد مخالفة هذا التَّشريع الإلهي ، قال الله تعالى: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [الأحزاب: ٥].

فقد نفى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الجُناح (الإثم) عمَّن أخطأ في نسبة الابن إلى غير أبيه في الحقيقة ، وذلك بعد الاجتهاد ، واستفراغ الوسع ، أو نسي ، فنسب الابن إلى غير أبيه يجريان لسانه بذلك ، وأثبت الحرج ، والإثم لمن تعمَّد الباطل ، وهو دعوة الرَّجل لغير أبيه بعد علمه بتحريم ذلك[(١٠٢٦)].

كانت عادة التَّبنِّي مستحكمةً في نفوس النَّاس ، وقد أخذت أبعادها مع مرور الزَّمن ، فكان زواج النَّبيِّ (ص) بالسَّيدة زينب إلغاءً عمليّاً ، وليس إلغاء ذهنيّاً فحسب[(١٠٢٧)].

إنَّ الحكمة في زواج رسول الله (ص) من السَّيدة زينب حكمةٌ واضحةٌ وظاهرةٌ ، وقد بيَّنها الله تعالى بقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا} [الأحزاب: ٣٧].

وقد ذكر المبطلون من الكفار ، وفروخهم ، ومقلِّدوهم بما يَنعِقون به ، ويردِّده الجهَّال متعلِّقين برواياتٍ مكذوبةٍ ، خلاصتُها كما يفترون: أنَّ النبي (ص) قد هوي زينب بنت جحش ، بعد أن تزوَّجت بزيد بن حارثة ، فلمَّا علم زيدٌ بذلك؛ أراد طلاقها ليتزوَّجها النَّبيُّ (ص)[(١٠٢٨)] ، فهذا قولٌ باطلٌ.

وقد نسف الإمام ابن العربيِّ هذا القول من جذوره ، فقال: فأمَّا قولكم: إنَّ النَّبيَّ (ص) راها ـ أي: رأى زينب بنت جحشٍ ـ فوقعت في قلبه ؛ فباطلٌ ، فإنَّه (ص) كان معها في كلِّ وقتٍ ، وموضعٍ ، ولم يكن حينئذٍ حجابٌ ، فكيف تنشأ معه ، وينشأ معها ، ويلحظها في كلِّ ساعةٍ ، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوجٌ؟! حاشا لذلك القلب المطهَّر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال تعالى: {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى *} [طه: ١٣١] والنِّساء أفتن الزَّهرات ، فيخالف هذا في المطلَّقات ، فكيف في المنكوحات؟

ثمَّ إنَّ قوله تعالى: يعني: من نكاحك {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ} ، وهو الذي أبداه لا سواه ، أقول: فلو كان الَّذي أخفاه رسول اللهِ (ص) هو حبُّه لها؛ لأبداه الله تعالى ،

وأظهره ، فتيقَّنَّا: أنَّ الَّذي أخفاه رسول الله (ص) من أمر زينب هو نكاحُه إيَّاها ، وليس ما تخيَّله المبطلون من حبِّه لها[(١٠٢٩)].

إن الشرع أراد تأكيد إبطال نظام التَّبنِّي ، وإبطال كلِّ نتائجه ، وتعميق هذا الإبطال في النُّفوس ، وتأكيده بالتَّطبيق العمليِّ ، والقدوة ، والتأسِّي بمن يُقتدى به في تطبيق هذه الأحكام الجديدة النَّاسخة ، وهذا ما فعله رسولُ الله (ص) بزواجه بزينب بأمرٍ من الله تعالى العزيز الحكيم[(١٠٣٠)].

خامساً: قصَّة زواج رسول الله (ص) من زينب ، وما فيها من دروسٍ ، وعبر:

لما انقضت عدَّة زينب؛ قال رسول الله (ص) لزيد: اذهب فاذكرها عليَّ ، فانطلق زيد؛ حتَّى أتاها ، وهي تخمِّر عجينها ، قال: فلما رأيتُها عَظُمَتْ في صَدري ، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها: أنَّ رسول الله (ص) ذكرها ، فولَّيْتُها ظهري ، ونكصْتُ على عَقِبي ، فقلت: يا زينب أبشري!! أرسل رسول الله (ص) يذكرك ، قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوَامَر ربِّي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القران ، وجاء رسولُ الله (ص) ، فدخل عليها بغير إذنٍ. [أحمد (٣/١٩٥) ، ومسلم (١٤٢٨/ ٨٧م) ، والنسائي (٧٩/٦)] ، وأصدقها أربعمئة درهم ، وكان زواجه (ص) بزينب في السَّنة الخامسة على المشهور ، وقال الحافظ البيهقيُّ: تزوَّجها بعد بني قريظة[(١٠٣١)].

وأولم الرَّسول (ص) في عرس زينب وليمةً كبيرةً ، فأولم بشاةٍ ، وقد دُعِي إلى الوليمة كلُّ من لقيه أنس رضي الله عنه بناءً على أمر الرَّسول (ص) ، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: ما رأيت رسول الله (ص) أولم على امرأةٍ من نسائه ما أولم على زينب ، أَوْلَمَ بشاةٍ. [البخاري (٥١٦٨) ، ومسلم (١٤٢٨/ ٩٠)].

وهكذا تزوَّج رسولُ الله (ص) ـ بأمر رَبِّه ـ زينب بنت جحش رضي الله عنها ، بعد طلاق زيدٍ لها ، وانقضاء عدَّتها ، وفي زواجه (ص) بزينب ، وما نزل فيه من القران وما واكبه من أحداث ـ عظاتٌ ، وعبرٌ[(١٠٣٢)] ، وقفنا عند بعضها ، ويجدر بنا أن نتأمل في بعض الدُّروس ، والعبر الَّتي لم نقف عليها ، منها:

١ ـ كان خاطب زينب للنَّبيِّ (ص) هو زوجها الأوَّل زيد بن حارثة رضي الله عنه ، ولعلَّ اختيار رسول الله (ص) لزيدٍ مقصودٌ لذاته؛ ليقطع بذلك ألسنة المتقوِّلين ، وما قد يزعمونه من أنَّ طلاقها

وقع بغير اختيارٍ منه ، وأنَّه قد بقي في نفسه من الرَّغبة فيها شيءٌ ، وفي هذا يقول ابن حجر: «هذا من أبلغ ما وقع في ذلك ، وهو أن يكون الَّذي كان زوجَها هو الخاطبُ؛ لئلا يظنَّ أحدٌ: أنَّ ذلك وقع قهراً بغير رضاه ، وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها: هل بقي منه شيءٌ ، أم لا؟»[(١٠٣٣)].

وفي هذا من الحكمة أيضاً: أن ما يقع بين الزَّوجين من نفرةٍ ، وخلافٍ ، ثمَّ طلاقٍ لا يجوز أن يكون مانعاً من نصح أحد الزَّوجين للاخر ، وأن يراعي فيه حقوق الأخوَّة الإيمانيَّة ، فهذا زيد برغم ما وقع بينه وبين

زينب ، ورغم: أنَّ هذا كان بسببها ، فإنَّه ذهب يخطبُها لرسول الله (ص) ، بل ويقول لها: يا زينب! أبشري!.

٢ . في الاية الَّتي نزلت بشأن هذا الزَّواج عتابٌ للنَّبيِّ (ص) من ربِّه؛ إذ كان حين يأتيه زيدٌ يشكو زينب ، ومعاملتها له ، ورغبته في طلاقها يقول (ص) : «أمسك عليك زوجك واتَّق الله» [سبق تخريجه] ، أي: اتَّق الله ، وَدَعْ طلاقها ، أو: اتق الله فيما تذكره من سوء عشرتها؛ ورسول الله (ص) يخفي في نفسه ما أبلغه الله به: أن زيداً سيطلِّقها ، وأنَّها ستكون زوجةً له ، ويخشى متى وقع هذا من كلام النَّاس في قولهم: تزوَّج مطلقة مَنْ تبنَّاه ، وهو زيد بن حارثة!

روى أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو ، فجعل رسول الله (ص) يقول: «اتَّق الله ، وأمسك عليك زوجك»: قال أنس: لو كان رسول الله (ص) كاتماً شيئاً من الوحي؛ لكتم هذه الاية. [البخاري (٧٤٢٠)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لو كان محمَّدٌ (ص) كاتماً شيئاً ممَّا أُنزل عليه؛ لكتم هذه الاية: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ} [الأحزاب: ٣٧]. [أحمد (٢٤١/٦) ، ومسلم (٢٨٨/١٧٧) ، والترمذي (٣٢٠٨)].

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعديُّ في تفسيره للاية: : «أي: أنعم الله عليه {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ} ، وأنعمت عليه بالعتق ، والإرشاد، والتَّعليم ، حين جاءك مشاوراً في فراقها ، فقلت له ـ ناصحاً له ، ومخبراً بمصلحته ، مقدماً لها على رغبتك ـ: أمسك عليك زوجك ، ولا تفارقها ، واصبر على ما جاءك منها ، واتَّق الله في أمورك عامَّة ، وفي أمر زوجك خاصَّة؛ فإن التَّقوى تحثُّ على الصَّبر ، وتأمر به. الَّذي أخفاه: أنه لو طلقها زيد؛ {وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ} (ص) »[(١٠٣٤)].

قال سيِّد قطب: الَّذي أخفاه النَّبيُّ (ص) في نفسه وهو يعلم أنَّ الله مبديه ، وهو ما أعلمه الله: أنَّه سيفعله ، ولم يكن أمراً صريحاً من الله ، وإلا ما تردَّد فيه ، ولا أخَّره ، ولا حاول تأجيله ، ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب؛ الَّتي يتوقَّعها من إعلانه ، ولكنَّه (ص) كان أمام ما أعلمه الله ، يتوجَّس في الوقت ذاته من مواجهته ، ومواجهة النَّاس به ، حتَّى أذن الله بكونه ، فطلَّق زيدٌ زوجه في النِّهاية ، وهو لا يفكر ، لا هو ، ولا زينب فيما سيكون بعد؛ لأنَّ العرف السَّائد كان يعدُّ زينب مطلقة ابنٍ لمحمَّد ، لا تحلُّ له[(١٠٣٥)].

٣ . في قوله تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً *} [الأحزاب: ٣٧] ، منقبةٌ عظيمةٌ لزيد بن حارثة رضي الله عنه ، فقد انفرد بهذا؛ إذ لم يُسَمِّ القران أحداً من الصَّحابة غيره ، قال السُّهيلي: «كان يقال: زيد بن محمَّد حتَّى نزل: {ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ} ، فقال: أنا زيد بن حارثة ، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمَّد ، فلما نُزع عنه هذا الشَّرف ، وهذا الفخر ، وعلم الله وحشته من ذلك شرَّفه بخصيصةٍ لم يكن يَخُصُّ بها أحداً من أصحاب النَّبيِّ (ص) ، وهي: أنَّه سمَّاه في القران ، فقال تعالى: يعني: من {فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا} ، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذِّكر الحكيم؛ حتَّى صار اسمه قرانا يُتلى في المحاريب ، نوَّه به غاية التَّنويه ، فكان في هذا تأنيسٌ له ، وعوضٌ من الفخر بأبوَّة محمَّد (ص) له ، ألا ترى إلى قول أبيِّ بن كعب حين قال له النَّبيُّ (ص) : «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا» [البخاري (٣٨٠٩) ، ومسلم (٧٩٩)] فبكى ، وقال: أوذكرتُ هنالك؟.

وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر: أنَّ الله تعالى ذكره ، فكيف بمن صار اسمه قراناً يُتلى مخلَّداً لا يبيد ، يتلوه أهل الدُّنيا؛ إذا قرؤوا القران ، وأهل الجنَّة أبداً ، لا يزال على ألسنة المؤمنين ، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند ربِّ العالمين؛ إذ القران كلام الله القويم ، وهو باقٍ لا يبيد ، فاسم زيد هذا في الصُّحف المكرَّمة ، المرفوعة المطهَّرة ، تذكره في التِّلاوة السَّفرةُ الكرامُ البررة ، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيٍّ من الأنبياء ، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له بسبب ما نُزِع منه[(١٠٣٦)].

٤ . زواج النَّبيِّ (ص) بزينب بنت جحش رضي الله عنها كان بأمر ربِّه ، وهو الَّذي زوَّجه إيَّاها ، قال تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَي لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً *} [الأحزاب: ٣٧].

وفي هذا شرفٌ عظيمٌ ، ومنقبةٌ جليلةٌ لزينب رضي الله عنها ، كانت تفاخر بها . وحقَّ لها ذلك . فعن أنسٍ رضي الله عنه ، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النَّبيِّ (ص) تقول: زوَّجَكُنَّ أهاليكنَّ ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات ، وفي روايةٍ أخرى: كانت تفخر على نساء النَّبيِّ (ص) ، وكانت تقول: إن الله أنكحني في السَّماء. [البخاري (٧٤٢٠ و٧٤٢١)].

ولعلَّ هذه المنقبة ، وهذا الشَّرف لزينب رضي الله عنها كان جزاءً لها حين أذعنت ، وخضعت لأمر رسول الله (ص) حين أمرها بالزَّواج من مولاه زيد بن حارثة ، وكانت لذلك كارهةً ، ثمَّ لما علمت: أنَّ رسول الله (ص) يأمرها بذلك قبلت الزَّواج منه[(١٠٣٧)].

٥ ـ في وليمته (ص) على زينب علامةٌ من علامات نبوَّته ، ودلالةٌ من دلائلها ، وهي تكثير الطَّعام بدعوته ، وفي هذه الوليمة أيضاً كان نزول اية حجاب نساء النَّبيِّ (ص) ، وما شرع من اداب الضِّيافة[(١٠٣٨)].

فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: تزوَّج رسول الله (ص) ، فدخل بأهله ، قال: فصنعت أمِّي أمُّ سليم حيساً ، فجعلته في تَوْرٍ[(١٠٣٩)] ، فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسول الله (ص) ، فقل: بعثت بهذا إليك أمِّي ، وهي تقرئك السَّلام ، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسول الله! قال: فذهبتُ بها إلى رسول الله (ص) ، فقلت: إنَّ أمِّي تقرئك السَّلام ، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسول الله! فقال: ضعه ، ثمَّ قال: اذهب ، فادْعُ لي فلاناً ، وفلاناً ، ومن لقيت ، وسمَّى رجالاً ، قال: فدعوت من سمَّى ، ومن لقيت ، قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمئة.

وقال لي رسول الله (ص) : «يا أنس! هات التَّوْر ، قال: فدخلوا حتَّى امتلأت الصُّفَّة ، والحُجرة ، فقال رسول الله (ص) : ليتحلَّق عشرةٌ عشرةٌ ، وليأكل كلُّ إنسان ممَّا يليه ، قال: فأكلوا حتَّى شبعوا ، قال: فخرجتْ طائفةٌ ، ودخلت طائفةٌ ، حتَّى أكلوا كلُّهم ، فقال لي: يا أنس! ارفع ، قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ، قال: وجلس طوائف منهم يتحدَّثون في بيت رسول الله (ص) ، ورسول الله (ص) جالسٌ ، وزوجته مولِّيةٌ وجهها إلى الحائط ، فَثَقُلُوا على رسول الله (ص) ، فخرج رسول الله (ص) على نسائه ، ثمَّ رجع ، فلمَّا رأوا رسول الله (ص) قد رجع؛ ظنَّوا أنَّهم قد ثَقُلُوا عليه. [البخاري (٥١٦٣) ، ومسلم (١٤٢٨/٩٤ و٩٥) ، والنسائي (١٣٦/٦)] قال: فابتدروا الباب ، فخرجوا كلُّهم ، وجاء رسول الله (ص) حتَّى أرخى السِّتر ، ودخل ، وأنا جالس في الحُجرة ، فلم يلبث إلا يسيراً حتَّى خرج عليَّ ، وأنزلت هذه

الاية ، فخرج رسول الله (ص) وقرأها على النَّاس: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ

وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا *} [الأحزاب: ٥٣].

قال الجعد[(١٠٤٠)]: قال أنس بن مالكٍ رضي الله عنه: أنا أَحْدَثُ النَّاسِ عهداً بهذه الايات ، وحُجِبْنَ نساءُ النَّبِيِّ (ص) . [مسلم (١٤٢٨/٩٤) ، والترمذي (٣٢١٨)].

وقد حَجَبَ رسول الله (ص) نساءه لنزول اية الحجاب التي قال المولى . عز وجل . فيها: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا *إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا *} [الأحزاب: ٥٣ . ٥٤].

وقد كان نزول اية الحجاب من موافقات عمر رضي الله عنه ، روى البخاريُّ في صحيحه عن أنسٍ ، قال: قال عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله! يدخل عليك البرُّ ، والفاجر ، فلو أمرت أمهاتِ المؤمنين بالحجاب! فأنزل الله اية الحجاب. [البخاري (٤٧٩٠)].

وبنزول هذه الاية كان تشريع الحجاب في الإسلام بالنِّسبة لأزواج النَّبِيِّ (ص) ، والمراد عدم إبداء شيءٍ من أجسامهنَّ للأجانب عنهنَّ ، وعدم محادثتهنَّ ، أو طلب شيءٍ منهن إلا من وراء حجاب ، أي: سِتْرٍ يكون بينهنَّ ، وبين غيرهنَّ ، ولما نزلت قال الاباء ، والأبناء ، والأقارب لرسول الله (ص) : ونحن أيضاً نكلمهنَّ من وراء حجاب؟

فأنزل الله تعالى قوله: {لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلاَ نِسَائِهِنَّ وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا *} [الأحزاب: ٥٥].

ونزل أيضاً في شأن نساء النَّبِيِّ في أدب الخطاب والإقامة في البيوت قوله تعالى: {يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا *وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا *} [الأحزاب: ٣٢ . ٣٣].

وجمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الاية وإن كانت خطاباً لأزواج النَّبيِّ (ص) فحكمها لجميع نساء الأمَّة ، وإنَّما خصَّ نساء النَّبيِّ لمنزلتهنَّ ، وعظم فضلهنَّ ، ومكانتهنَّ من النَّبي (ص)[(١٠٤١)] ، وقد قال الإمام القرطبيُّ في تفسيره: «معنى هذه الاية: الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب لنساء النَّبيِّ (ص) فقد دخل غيرهنَّ فيه بالمعنى ، هذا لو لم يرد دليلٌ يخصُّ جميع النِّساء ، كيف والشَّريعة طافحةٌ بلزوم النِّساء بيوتهنَّ ، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورةٍ على ما تقدَّم من غير موضعٍ؟!»[(١٠٤٢)].

وقد فصَّل ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه الكريم ما يتعلَّق بالنِّساء المسلمات: من غضِّ البصر ، وحفظ الفروج ، وعدم إبداء مواضع الزِّينة من عنقٍ ، وساقٍ ، وعضُدٍ ، وساعدٍ ، وشعرٍ ، ونحوها من العورة الظَّاهرة إلا للمحارم[(١٠٤٣)] ، وقد جاء ذلك في سورة النُّور ، وقد بينت السُّنَّة النَّبويَّة كل ما يتعلَّق بالنِّساء من احتجاب ، وتصوُّنٍ ، وتعفُّفٍ ، وعدم السُّفور ، والخلاعة ، والابتذال بما لا مزيد عليه(٢).

هذه بعض الدُّروس ، والعبر استُخرجت من قصَّة زواج رسول الله (ص) من زينب بنت جحش ، وما واكب ذلك الزَّواج من نزول اياتٍ بيِّناتٍ في أحكام الحجاب ، وما شرع من اداب الضِّيافة.

هذا وقد توفِّيت زينت بنت جحش رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة ، وعمرها ثلاث وخمسون سنة ، وكانت كما أخبر النَّبيُّ (ص) أوَّل نسائه لحاقاً به. [البخاري (١٤٢٠) ، ومسلم (٢٤٥٢)][(١٠٤٤)] ، وقد بلغت مرويَّاتها عن النَّبيِّ (ص) ـ وفق كتاب بقي بن مخلد ـ أحد عشر حديثاً[(١٠٤٥)] ، ولها في الكتب السِّتَّة خمسةُ أحاديث[(١٠٤٦)] ، اتُّفق لها في البخاريِّ ، ومسلمٍ على حديثين[(١٠٤٧)] ، فقد تركت ذكراً طيباً في تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة[(١٠٤٨)].

* * *

المبحث الثاني

«الان نغزوهم ، ولا يغزوننا»

[البخاري (٤١١٠) ، وأحمد (٤/٢٦٢)].

كان (ص) يعمل حساب كلِّ القوى المجاورة ، ولا يغفل عن أيِّ قوَّة منها ، وقد صرَّح بعد غزوة الخندق بأنَّ الخطَّة القادمة هي غزو قريش؛ فقد تغيرت موازين القوى ، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر مِنْ قبل ، فسعى (ص) لبسط سيادة الدَّولة على ما تبقَّى من قوى حول المدينة؛ لأنَّ ذلك له صِلةٌ بالإعداد لغزو قريش في مرحلةٍ لا حقةٍ ، فقد قام (ص) خلال عامٍ واحدٍ ـ العام السَّادس ـ بغزوتين ، وأرسل أربع عشرة سريَّةً ، غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري ، وهذه الأعمال والتَّحرُّكات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش بإحكام الحصار ، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كلِّ ما يمدُّها بالقوَّة من حلفائها[(١٠٤٩)] فقد استثمر رسول الله (ص) ، وأصحابه ما حقَّقوه من نجاح في صدِّ الأحزاب ، وإفشال خططهم ، وردِّهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم ، فباشروا نشاطاً واسع النِّطاق ضدَّ خصومهم على الجبهات كافة ، فقد ضيّقوا الخناق الاقتصاديَّ على قريشٍ من جديدٍ ، كما نفَّذوا العديد من السَّرايا لمعاقبة المشركين في الأحزاب من جهةٍ ، أو للثأر من القبائل الَّتي كانت قد غدرت بالدُّعاة ، أو ناصبت الإسلام العداء ، وقد تمثَّل النشاط العسكريُّ الإسلاميُّ خلال هذه الفترة فيما يلي:

أولاً: سريَّة محمَّد بن مسلمة إلى بني القرطاء:

كانت العشائر النَّجديَّة من أجرأ العناصر البدويَّة الوثنيَّة على المسلمين؛ لأن النَّجديين أهل قوَّةٍ ، وبأسٍ ، وعددٍ غامرٍ ، وقد رأينا كيف أنَّ العمود الفقريَّ لقوَّات الأحزاب الضَّاربة كان من هذه القبائل النَّجديَّة؛ حيث كان رجال هذه القبائل الشَّرسة يشكِّلون الأغلبيَّة السَّاحقة من تلك القوَّة الضَّاربة ، ستة الاف مقاتل من غطفان ، وأشجع ، وأسلم ، وفزارة ، وأسد ، كانت ضمن الجيوش الَّتي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين ، فحاصرهم أهل المدينة.

ولهذا فإنَّ أوَّل حملةٍ عسكريَّةٍ وجَّهها النَّبيُّ (ص) لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب هي تلك الحملة الَّتي جرَّدها على القبائل النَّجديَّة من بني بكر بن كلاب؛ الَّذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضرية[(١٠٥٠)] على مسافة سبع ليالٍ من المدينة ، ففي أوائل شهر المحرَّم عام خمس للهجرة ، وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجَّه (ص)[(١٠٥١)] سريَّةً من ثلاثين من أصحابه عليهم محمَّد بن مسلمة لشنِّ الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب ، وذلك في العاشر من محرَّم سنة (٦ هـ)[(١٠٥٢)] ، وقد داهموهم على حين غِرَّةٍ ، فقتلوا منهم عشرةً ، وفرَّ الباقون ، وغنم المسلمون إبلَهم ، وماشيتهم ، وفي طريق عودتهم أسروا ثُمامةَ بن أَثال الحنفيَّ سيِّد بني حنيفة ، وهم لا يعرفونه ، فقدموا به المدينة ، وربطوه بساريةٍ من سواري المسجد ، فخرَج إليه النَّبيُّ (ص) ، فقال: «ماذا عندك يا

ثُمامة؟!» فقال: عندي خيرٌ يا محمد! إن تقتلني ، تقتل ذا دمٍ ، وإن تُنعم؛ تُنعم على شاكرٍ ، وإن كنت تريد المال؛ فسل منه ما شئت . فتركه حتَّى كان الغد ، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك: إنْ تُنعم؛ تنعم على شاكرٍ.

فتركه حتَّى كان بعد الغد ، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «أطلقوا ثُمامة» فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد ، فاغتسل ، ثمَّ دخل المسجد ، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمَّداً رسولُ الله ، يا محمد! والله! ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليَّ ، والله! ما كان دينٌ أبغضَ إليَّ من دينك ، فأصبح دينك أحبَّ الدِّين إليَّ ، والله! ما كان بلدٌ أبغضَ إليَّ من بلدك ، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ ، وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العُمرة ، فماذا ترى ؟ فبشَّره رسولُ الله (ص) ، وأمره أن يعتمر.

فلمَّا قدم مكَّة؛ قال له قائل: صَبَوْتَ؟ قال: لا والله! ولكنِّي أسلمت مع محمَّدٍ رسول الله (ص) ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّةُ حنطةٍ حتَّى يأذن فيها النَّبيُّ (ص) [البخاري (٤٦٢) ، ومسلم (١٧٦٤/٥٩)][(١٠٥٣)].

وقد برَّ بقسمه ممَّا دفع وجوه مكَّة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله (ص) يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثُمامة ليخلِّيَ لهم حمل الطَّعام[(١٠٥٤)] ، فاستجاب النَّبيُّ (ص) لرجاء قومه بالرَّغم من أنه في حالة حربٍ معهم ، وكتب إلى سيِّد بني حنيفة ثُمامة: «أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم». فامتثل ثُمامة أمر نبيِّه ، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكَّة ، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة[(١٠٥٥)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ جواز ربط الكافر في المسجد.

٢ ـ جواز المنِّ على الأسير الكافر ، وتعظيم أمر العفو عن المسيء ، لأنَّ ثُمامة أقسم: أنَّ بغضه انقلب حبّاً في ساعةٍ واحدةٍ ، لما أسداه النَّبيُّ (ص) إليه من العفو والمنِّ بغير مقابل.

٣ ـ الاغتسال عند الإسلام كما فعل ثُمامة حين أسلم.

٤ ـ الإحسان يُزيل البُغض ، ويُنبت الحُبَّ.

٥ ـ يشرع للكافر إذا أراد عمل خيرٍ ثمَّ أسلم أن يستمرَّ في عمل ذلك الخير.

٦ ـ الملاطفة لمن يُرجى إسلامه من الأسارى ، إذا كان في ذلك مصلحةٌ للإسلام ، ولاسيَّما مَنْ يتبعُه على إسلامه العددُ الكثيرُ مِنْ قومه[(١٠٥٦)].

٧ ـ الإسلام يُغيِّر سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت الإسلام والمسلمين ، كما فعل ثُمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكَّة إلا بإذنٍ من الرَّسول (ص) .

٨ ـ ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان وعند تركه للكفر كلَّ علاقاته السَّابقة ، ثمَّ يلتزم بأوامر ربِّ العالمين بعد إيمانه[(١٠٥٧)].

ثانياً: سَرِيَّة أبي عبيدة بن الجرَّاح إلى سيف البحر:

تعتبر سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر استمراراً لسياسة النَّبيِّ (ص) العسكريَّة لإضعاف قريش، ومحاصرتها اقتصاديّاً على المدى الطَّويل، فقد بعث (ص) أبا عبيدة ابن الجراح في ثلاثمئة راكبٍ قِبَل السَّاحل؛ ليرصدوا عيراً لقريش ، وعندما كانوا ببعض الطَّريق فني الزَّاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش ، فجُمع ، فكان قَدْرَ مِزْوَدِ تمرٍ ، يقوتهم منه كلَّ يوم قليلاً قليلاً ، حتَّى كان أخيراً نصيب الواحد منهم تمرةً واحدةً ، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف ، فتقبَّلوا هذا الإجراء بصدورٍ رَحْبَةٍ دون تذمُّرٍ ، أو ضجرٍ ، بل إنَّهم ساهموا في خطَّة قائدهم التَّقشُّفيَّة ، فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقتٍ ممكنٍ[(١٠٥٨)] ، يقول جابر رضي الله عنه أحد أفراد هذه

السَّرِيَّة: (كنَّا نمصُّها كما يمصُّ الصَّبيُّ ، ثمَّ نشرب عليها من الماء ، فتكفينا يومنا إلى اللَّيل)[(١٠٥٩)] ، وقد سأل وهب بن كيسان جابراً رضي الله عنه: ما تغني عنكم تمرةٌ؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَتْ. [البخاري (٤٣٦٠) ، ومسلم (١٩٣٥/١٨)].

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشَّجر ، قال جابر رضي الله عنه: وكنَّا نضرب بعصيِّنا الخَبَط[(١٠٦٠)] ، ثمَّ نبلُّه بالماء ، فنأكله[(١٠٦١)] ، «فسمِّي ذلك الجيش جيش الخَبَط»[(١٠٦٢)] ، وقد أثَّر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما أحد جنود هذه السَّريَّة الشُّجاعة ، وهو رجلٌ من أهل بيت اشتُهر بالكرم ، فنحر للجيش ثلاث جزائر[(١٠٦٣)] ، ثمَّ نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثمَّ إنَّ أبا عبيدة نهاه. [البخاري (٤٣٦١) ، ومسلم (١٩٣٥/١٩)].

فبينما هم كذلك من الجوع ، والجهد الشَّديدين ، إذ زفر البحر زفرةً أخرج الله فيها حوتاً ضخماً ، فألقاه على الشَّاطأى ، ويصف لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب ، فيقول: وانطلقنا على ساحل البحر ، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضَّخم[(١٠٦٤)] ،

فأتيناه فإذا هي دابةٌ تدعى العنبر[(١٠٦٥)] ، قال: قال أبو عبيدة: ميتةٌ ، ثمَّ قال: لا ، بل نحن رسل رسول الله (ص) وفي سبيل الله ، وقد اضطررتم ، فكلُوا ، قال: فأقمنا عليه شهراً ، ونحن ثلاثمئة حتَّى سَمِنّا ، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وَقْب[(١٠٦٦)] عينيه بالقِلال[(١٠٦٧)] الدُّهنَ ، ونقتطع منه الفِدرَ[(١٠٦٨)] كالثَّور ، أو قدر الثَّور ، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ، ثمَّ رحَّل أعظمَ بعيرٍ منا ، فمرَّ من تحتها[(١٠٦٩)] وتزوَّدنا من لحمه وشائق ، فلمَّا قدمنا المدينة أتينا رسول الله (ص)[(١٠٧٠)] ، فقال:

«ما حبسكم؟» قلنا: كنا نتبع عيرات قريش ، وذكرنا له من أمر الدَّابة[(١٠٧١)] ، فقال: «هو رزقٌ أخرجه الله لكم ، فهل معكم من لحمه شيءٌ ، فتطعمونا» قال: فأرسلنا إلى رسول الله (ص) منه ، فأكله. [البخاري (٤٣٦٢) ، ومسلم (١٧/١٤٣٥)][(١٠٧٢)].

كانت هذه السَّريَّة على الأرجح قبل صلح الحديبية ، وليس في رجب سنة ثمانٍ كما ذكر ابنُ سعدٍ[(١٠٧٣)] ، وذلك لسببين: السَّبب الأول: أنَّ الرَّسول (ص) لم يغزُ ، ولم يبعث سَرِيَّةً في الشَّهر الحرام ، والثَّاني: أنَّ رجب سنة ثمانٍ هو ضمن فترة سريان صلح الحديبية[(١٠٧٤)].

وذكر ابن سعدٍ ، والواقديُّ[(١٠٧٥)]: أنَّ النبي (ص) بعثهم إلى حيٍّ من جهينة ، وقال ابن حجر[(١٠٧٦)]: إنَّ هذا لا يغاير ظاهره مافي الصَّحيح؛ لأنَّه يمكن الجمع بين كونهم يتلقَّون عيراً لقريشٍ ، ويقصدون حيّاً من جُهينة ، ويحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم ، بل لحفظهم من جهينة ، ويقوِّي هذا الجمع ما عند مسلمٍ ، أنَّ البعث كان إلى أرض جُهينة [مسلم (٢١/١٩٣٥)][(١٠٧٧)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ حكمة أبي عبيدة رضي الله عنه حيث جمع الأزواد ، وسوَّى بين المجاهدين في التوزيع؛ ليستطيع تجاوز الأزمة بهم ، وذلك درسٌ تعلَّمه من رسول الله (ص) عمليّاً أكثر من مرَّةٍ.

٢ ـ كرمُ قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما في وقت عصيب ، ليس بيده يومها ما يخفِّف عن الناس ، ففي رواية الواقديِّ: أنَّ قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه النُّوق من رجلٍ جُهَنِيٍّ ، وأنَّ أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلاً: تريد أن تخفر ذمَّتك ، ولا مال لك[(١٠٧٨)] ، فأراد أبو عبيدة الرِّفق به[(١٠٧٩)].

وقد بدأ قيس بن سعد ينحر ، وينحر حتَّى نهاه أبو عبيدة ، فقال له قيس بن سعد: يا أبا عبيدة! أترى أنَّ أبا ثابتٍ يقضي ديون النَّاس ، ويحمل الكلَّ ، ويطعم في المجاعة ،

لا يقضي عنِّي تمر القوم مجاهدين في سبيل الله[(١٠٨٠)] ، وقال ذلك قيس لأبي عبيدة لأنَّه قد اتَّفق مع رجلٍ من جهينة على أن يشتري منه نوقاً ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمراً بالمدينة ، وقد وافق الجهنيُّ على تلك الصَّفقة.

عندما علم سعد بن عبادة بنهي أبي عبيدة لقيس بحجَّة: أنَّه لا مال له ، وإنَّما المال لأبيه؛ وهب ابنه أربع حوائط أدناها يُجَذُّ منه خمسون وَسْقاً[(١٠٨١)].

٣ ـ الحلال والحرام:

إنَّ المسلمين في هذه السَّرِيَّة بلغ بهم الجوع غايته ، فكانت التَّمرة الواحدةُ طعامَ الرَّجل طوال يومٍ كامل في سفرٍ، ومشقَّةٍ، ويمرُّون وهم على تلك الحال من فقد التَّمر ، وأكل الخبط على الجهنيِّ ـ الَّذي اشترى منه قيس ـ أو على قومه، فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم ، كما كانت الحال في الجاهليَّة؛ لأنَّهم اليوم ينطلقون بدين الله الَّذي جاء ليحفظ على النَّاس أموالهم ـ في جملة ما حفظ ـ وهم اليوم يفرِّقون بين الحلال ، والحرام الَّذي تعلَّموه من منهج ربِّ العالمين[(١٠٨٢)].

٤ ـ جواز أكل ميتة البحر:

وتدل القصَّة على جواز أكل ميتة البحر ، وأنَّها لم تدخل في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ أَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [المائدة: ٣].

وقد قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *} [المائدة: ٩٦].

وقد صحَّ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، وعبد الله بن عباسٍ ، وجماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم: (أنَّ صيد البحر ما صيد منه ، وطعامهُ ما مات فيه).

وفي السُّنن عن ابن عمر مرفوعاً ، وموقوفاً: (أُحلَّت لنا ميتتان ، ودمان: فأمَّا الميتتان؛ فالسَّمك ، والجراد ، وأمَّا الدَّمان؛ فالكبِد ، والطِّحال) [أحمد (٢/٩٧) ، وابن ماجه (٣٢١٨) ، والدارقطني (٤/٢٧١ و٢٧٢)] حديثٌ حسنٌ ، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأنَّ قول

الصَّحابي: (أُحِلَّ لنا كذا ، وحُرِّم علينا) ينصرف إلى إحلال النَّبيِّ (ص) وتحريمه[(١٠٨٣)] ، كما أنَّ في أكل الرَّسول (ص) من لحم الحوت الَّذي تغذَّى منه المسلمون مدَّةً دليلاً على مشروعية أكل ميتة البحر[(١٠٨٤)] ، كما يستحبُّ للمفتي أن يتعاطى بعض المباحات الَّتي يشكُّ فيها المستفتي؛ إذا لم يكن فيه مشقَّةٌ على المفتي ، وكان فيه طمأنينةٌ للمستفتي ، قاله النَّوويُّ[(١٠٨٥)].

٥ . بعض الأحكام الَّتي ذكرها الإمام النَّوويُّ:

قال النَّوويُّ: في هذا الحديث جواز صدِّ أهل الحرب ، واغتيالهم ، والخروج لأخذ مالهم ، واغتنامه ، وأنَّ الجيوش لابدَّ لها من أميرٍ يضبطها ، وينقادون لأمره ، ونهيه ، وأنَّه ينبغي أن يكون الأمير أفضلَهم ، أو مِنْ أفضلِهم ، قالوا: ويستحبُّ للرُّفقة من النَّاس ، وإن قلُّوا أن يؤمِّروا أحدهم عليهم ، وينقادوا له ، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرُّفقة من المسافرين خلط أزوادهم ، ليكون أبركَ ، وأحسنَ في العشرة وألاَّ يختص بعضهم بأكلٍ دون بعضٍ ، والله أعلم[(١٠٨٦)].

ثالثاً: سرية عبد الرَّحمن بن عوفٍ إلى دومة الجندل:

كانت هذه السَّريَّة قد وجهت إلى أبعد مدىً وصلت إليه الجيوش النَّبويَّة في الجزيرة العربيَّة ، ودومة الجندل قريبة من تخوم الشَّام ، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق ، وهي تقوم في قلب الصَّحراء العربيَّة واسطة الصِّلة بين الرُّوم في أرض الشَّام ، والعرب في الجزيرة ، وسكَّانها من قبيلة كلبٍ الكبرى ، وقد دخلوا في النَّصرانية نتيجة جوارهم ، وتأثُّرهم بجوار الرُّوم النَّصارى ، وهذه السَّرِيَّة تدخل ضمن مخطَّط النَّبيِّ (ص) في احتكاكه مع الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة.

وأمَّا أمير السَّرِيَّة فهو عبد الرَّحمن بن عوف أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة ، ومن رجال الرَّعيل الأوَّل ، فقد كان أحد الدَّعائم الكبرى للدَّعوة الإسلاميَّة منذ دخوله فيها على يد الصِّدِّيق رضي الله عنه.

ومهمَّة هذه السَّرية ذات جانبين: مهمَّةٌ دعويَّةٌ ، ومهمَّةٌ حربيَّةٌ؛ لذلك انتدب لها عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي تربَّى على محض الإسلام منذ أيَّامه الأولى[(١٠٨٧)].

وعن هذه السَّريَّة حدَّثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: دعا رسول الله (ص) عبد الرحمن بن عوف ، فقال: «تجهَّز فإنِّي باعثك في سرِيَّةٍ في يومك هذا ، أو من غدٍ إن شاء الله» ، قال ابن عمر: فسمعت ذلك ، فقلت: لأدخلنَّ ، فلأُصلِّينَّ مع النَّبيِّ الغداة ، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرَّحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ ، فصلَّيت ، فإذا أبو بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما ، وناسٌ من المهاجرين فيهم عبد الرَّحمن بن عوف ، وإذا رسول الله (ص) قد كان أمَره أن يسير من اللَّيل إلى دومة الجندل ، فيدعوهم إلى الإسلام

، فقال رسول الله (ص) لعبد الرَّحمن: «ما خلَّفك عن أصحابك؟» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السَّحر ، فهم معسكرون بالجُرْف ، وكانوا سبعمئة رجلٍ ، فقال: أحببت يا رسول الله! أن يكون اخر عهدي بك ، وعليَّ ثياب سفري.

قال: وعلى عبد الرَّحمن بن عوفٍ عمامةٌ قد لفَّها على رأسه ، قال ابن عمر: فدعاه النَّبيُّ (ص) فأقعده بين يديه ، فنقض عمامته بيده ، ثمَّ عمَّمه بعمامةٍ سوداء ، فأرخى بين كتفيه منها ، ثمَّ قال: «هكذا فاعتم يا بن عوف!» قال: وعلى ابن عوف السَّيف مُتوشِّحه ، ثمَّ قال رسول الله (ص) : «اغزُ باسم الله ، وفي سبيل الله ، فقاتل من كفر بالله ، لا تَغُلَّ ، ولا تغدر ، ولا تقتُل وليداً». قال ابن عمر رضي الله عنهما: ثمَّ بسط يده ، فقال: «يا أيها النَّاس! اتقوا خمساً قبل أن يُحلّ بكم: ما نقص مكيالُ قومٍ إلا أخذهم الله بالسِّنين ، ونقصٍ من الثَّمرات لعلَّهم يرجعون ، وما نكث قومٌ عهدهم إلا سلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وما منع قوم الزَّكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السَّماء ، ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا، وما ظهرت الفاحشة في قومٍ إلا سلط الله عليهم الطَّاعون ، وما حكم قوم بغير اي القران إلا ألبسهم الله شيعاً ، وأذاق بعضهم بأس بعض»[(١٠٨٨)].

قال: فخرج عبد الرَّحمن حتى لحق أصحابه ، فسار حتى قدم دُومة الجندل ، فلمَّا حلَّ بها ، دعاهم إلى الإسلام ، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانوا أوَّل ما قدم لا يعطونه إلا السَّيف ، فلمَّا كان اليوم الثَّالث أسلم الأصبغ بن عمروٍ الكلبيُّ ، وكان نصرانيّاً ، وكان رأسهم ، فكتب عبد الرحمن إلى النَّبيِّ (ص) يخبره بذلك ، وبعث رجلاً من جُهينة يقال له: رافع بن مكيث ، وكتب يخبر النَّبي (ص) : أنَّه أراد أن يتزوَّج فيهم ، فكتب إليه النَّبيِّ (ص) أن يتزوَّج بنت الأصبغ تماضر ، فتزوَّجها عبد الرحمن ، وبنى بها ، ثمَّ أقبل بها ، وهي أمُّ أبي سلمة بن عبد الرَّحمن بن عوف ، وذكر الواقديُّ: أنَّ هذه السَّريَّة في شعبان سنة ستٍّ. [البيهقي في دلائل النبوة (٨٥/٤)][(١٠٨٩)].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، منها:

١ . تواضع النَّبيِّ (ص) لأصحابه ، وشفقته عليهم ، حيث ألبس عبد الرَّحمن بن عوف عمامته بيده ، وهذا التَّواضع منه (ص) يرفع من معنويات الصَّحابة رضي الله عنهم ، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطَّاقة في سبيل خدمة هذا الدِّين؛ لأنَّ التَّلاحم والمودَّة بين القائد وجنوده من أهمِّ عوامل نجاح العمل ، وتحقيق الأهداف[(١٠٩٠)].

٢ ـ كان جيش عبد الرَّحمن جيش مبادأى ، وعقيدةٍ ، فتحرَّك ضارباً في هذه الصَّحراء المترامية يحمل شرع الله إلى خلقه ، وهدي رسوله إلى أمَّته ، مستوعباً لمقاصد الجهاد ، وأحكامه ، فالجهاد ليس باسم محمَّد (ص) ، فهو عبد الله ، ورسوله ، ولا مكان لزعيمٍ ، أو أمَّه ، أو قبيلةٍ ، أو رايةٍ ، أو وطنٍ ، أو جيشٍ ، أو قوميَّةٍ بجوار هذه الرَّاية الخفَّاقة في هذا الوجود؛ راية الله تعالى. «اغزُ باسم الله» فحزب الله تعالى هو الَّذي يحيي هذه الصَّحراء الظَّمأى بغيث العقيدة الخالصة؛ عقيدة التَّوحيد[(١٠٩١)] ، وهدفهم من هذا التحرُّك في سبيل الله وحدَه ، قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

قتالهم لمن كفر بالله وليس القتال على المبدأ الجاهليّ:

وأحياناً عَلَى بَكْرٍ أَخِيْنَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إلاَّ أَخَانَا

أمَّا هذا الجيش القويُّ الفتي، فهو يمضي في الأرض قُدُماً؛ ليقاتل من كفر بالله[(١٠٩٢)].

٣ ـ ثمَّ نهى رسول الله (ص) عبد الرَّحمن بن عوفٍ عن الغُلول ، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ، ونهاه عن الغَدْر في العهود ، وعن قتل الوِلْدان ، وتلك نماذج من الأدب الإسلاميِّ في الجهاد ، فالقتال نوعٌ من العنف ، والقسوة ، ولكنَّه بالنسبة للمسلمين؛ الَّذين طهَّر الله تعالى قلوبهم من الغلِّ ، والحسد أمرٌ عارضٌ لإحقاق الحقِّ ، وإزهاق الباطل ، وحماية المحقِّين من المبطلين ، وليس متأصِّلاً في نفوسهم ، ولذلك كان محفوفاً بالاداب السَّامية الَّتي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوَّة ، والبطش ، ومنتهى الرَّحمة ، والعطف[(١٠٩٣)].

٤ ـ كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه سيِّداً من سادات هذه الأمَّة ، وواحداً من أكبر دُعاتها ، فهو يملك من الحلم ، والحكمة ، والثَّقافة ، والتَّجربة ، والعبقريَّة ، والقِدَم في

الإسلام ، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره ، ولهذا بذل كلَّ طاقاته لتحقيق الهدف الرَّئيسيِّ الأوَّل ، وهو الدُّخول في الإسلام ، وكان متريثاً هادياً خبيراً بالنُّفوس والقلوب ، فشحن كلَّ الإمكانات الفكريَّة ، والحركيَّة لإنجاح هذه المهمَّة العظمى ، وتكلَّل عمله بفضل الله تعالى بالنَّجاح الكبير ، وخاصَّة: أنَّ الجهد انصبَّ على إقناع الرَّئيس ، حسب توجيهات المصطفى (ص) .

٥ ـ إنَّ إسلام سيد بني كلب في دومة الجندل الأصبغ بن عمرو على يد عبد الرَّحمن بن عوف ، يذكرنا بجعفر بن أبي طالب الَّذي أسلم على يديه النَّجاشي ملك الحبشة ، ومصعب بن عمير بالمدينة حيث

استجاب له سادات الأوس ، والخزرج وزعامتُهم للإسلام ، وهذه الشَّخصيَّات العُظمى الثلاثة هم من الرُّوَّاد الأوائل ، ومن المؤسِّسين في المدرسة الإسلاميَّة الأولى بمكَّة المكرَّمة.

هذا عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي أصيب بواحدٍ وعشرين جرحاً (أي: في غزوة أحدٍ) أدَّت بعضها إلى أن يكون عنده عرجٌ من شدَّتها؛ يصنع ركائز العقيدة الإسلاميَّة بجيشه المظفَّر شمال الجزيرة العربيَّة وينضمُّ الكثيرون إلى الإسلام؛ لتغدو دومة الجندل موقعاً جديداً من المواقع الإسلاميَّة ، في هذه الأطراف النائية ، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة ، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب في المواجهة مع العرب ، والرُّوم المناوئين للإسلام[(١٠٩٤)].

وهذه أوَّل مرَّةٍ يحكم الإسلام خارج حدوده ، ويتعايش المسلمون ، والنَّصارى في دولةٍ واحدةٍ ، فالَّذين أسلموا تُطبَّق عليهم أحكام الإسلام ، والَّذين بقوا على نصرانيتهم تؤخذ منهم الجزية ، وكان هذا الانفتاح تدريباً جديداً للصَّحابة على المجتمعات الجديدة الَّتي سينتقلون إليها فيما بعد ، وينساحون في العراق ، والشَّام ، وفي قلب فارس ، والرُّوم؛ ليعلِّموا النَّاس: أنَّ العقيدة تنبني من خلال الحوار ، لا من خلال السَّيف ، وأنَّ مبادأى الإسلام لها قوَّتها الذَّاتية الَّتي تشعُّ أنوارها على المجتمعات التي قد انغمست في الظَّلام البهيم[(١٠٩٥)].

٦ ـ إنَّ زواج عبد الرَّحمن بن عوف من ابنة سيد بني كلب زعيم دومة الجندل يقوِّي الرّوابط بين الزَّعيم المسلم الجديد بدومة الجندل ، وبين دولة الإسلام في المدينة ، ويربط مصيره بمصير دولة الإسلام ، ومصير الإسلام نفسه حين يشعر: أنَّ فلذة كبده مقيمةٌ في العرين الإسلاميِّ الَّذي أصبح يحنُّ له حنينه لأرضه ، وبلده(١).

وقد كان (ص) يحرص على أن يتزوَّج هو وقادتُه ببنات سادة القبائل؛ لأنَّ ذلك كسبٌ كبيرٌ لدعوة الإسلام ، حيث تكون المصاهرة سبباً في القرب ، وامتصاص أسباب العداء ، ثمَّ الدُّخول في الإسلام[(١٠٩٦)].

رابعاً: تأديب الغادرين: غزوة بني لحيان ، وغزوة الغابة ، وغيرهما:

١ ـ بعد رحيل الأحزاب انتقل المسلمون من دور الدِّفاع إلى دور الهجوم ، وأصبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة ، وحان الوقت لتأديب بني لحيان ـ الَّذين غدروا بِخُبيب ، وأصحابه يوم الرَّجيع ـ وأَخْذِ ثأر الشُّهداء ، فخرج إليهم في مئتي صحابيٍّ ، في ربيعٍ الأوَّل ، أو جمادى الأولى سنة ستٍّ من الهجرة[(١٠٩٧)].

أ ـ تضليل العدوِّ:

كانت أرض بني لحيان من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مئتين من الأميال ، وهي مسافةٌ بعيدة ، يلاقي مشاقاً كبيرة كلُّ مَنْ يريد قطعها ، ولكنَّ النَّبيَّ (ص) كان حريصاً على الاقتصاص لأصحابه من الَّذين استُشْهدوا (غَدْراً) على يد هذه القبائل الهمجيَّة الَّتي لا قيمة للعهود عندها.

وكما هي عادة النَّبيِّ (ص) في تضليل العدوِّ الَّذي يريد مهاجمته ، اتَّجه بجيشه نحو الشَّمال ، بينما تقع منازل بني لحيان في أقصى الجنوب.

وقد أعلن النَّبيُّ (ص) قبل تحرُّكه نحو الشَّمال: أنَّه يريد الإغارة على الشَّام ، وحتَّى أصحابه لم يعلموا: أنَّه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب ، بعد أن اتَّجه بهم متوغِّلاً نحو الشَّمال حوالي عشرين ميلاً... في حركةٍ تمويهيَّةٍ ـ على العدوِّ ـ بارعةٍ.

وكان تغيير خطِّ سيره من الشَّمال إلى الجنوب عند مكانٍ يقال له: (البتراء) ، ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتَّى استقام على الجادة مُنصبّاً نحو الجنوب[(١٠٩٨)].

ب ـ فرار اللِّحيانيّين قبل وصول النَّبيِّ (ص):

كانت بنو لحيان على غاية التَّيقُّظ ، والانتباه ، فقد بثَّت الأرصاد ، والجواسيس في الطُّرق ليتحسَّسُوا لها ، ويتجسَّسُوا لذلك ، فما كاد النَّبيُّ (ص) يقترب بجيشه من منازلهم حتَّى انسحبوا منها فارِّين ، وهربوا إلى رؤوس الجبال ، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونُهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم.

ولما وصل النَّبيُّ (ص) بجيشه عسكر في ديارهم ، ثمَّ بثَّ السَّرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء الغادرين ، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه ، واستمرَّت السَّرايا النَّبويَّة في البحث والمطاردة يومين كاملين ، إلا أنَّها لم تجد أيَّ أثرٍ لهذه القبائل الَّتي تمنَّعت في رؤوس تلك الجبال الشَّاهقة ، وأقام (ص) في ديارهم يومين لإرهابهم ، وتحدِّيهم ، وليظهر للأعداء مدى قوَّة المسلمين ، وثقتهم بأنفسهم ، وقدرتهم على الحركة ، حتَّى إلى قلب ديار العدوِّ متى شاؤوا[(١٠٩٩)].

ج ـ إرهاب المشركين بمكَّة:

رأى النَّبيُّ (ص) أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكَّة ، فقرَّر أن يقوم بمناورةٍ عسكريَّةٍ يرهبُ بها المشركين في مكَّة ، فتحرَّك بجيشه حتَّى نزل به وادي عُسفَان[(١١٠٠)] ، وهناك استدعى أبا بكر الصِّدِّيق ، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه ، وأمره بأن يتحرَّك بهم نحو مكَّة ليبثَّ الذُّعر ، والفزع في نفوسهم ، فاتَّجه الصِّدِّيق بالفرسان العشرة نحو مكَّة حتَّى وصل بهم كُراع الغميم[(١١٠١)] ، وهو مكانٌ قريب جداً من مكَّة ، فسمعت قريش بذلك، فظنَّت: أنَّ النَّبيَّ (ص) ينوي غزوها ، فانتابها الخوف،

والفزع، والرُّعب ، وساد صفوفها الذُّعر ، هذا هو الَّذي هدف إليه النَّبيُّ (ص) بهذه الحركة الَّتي كلَّف الصِّديق أن يقوم بها.

أمَّا الصِّدِّيق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم ، وعلموا أنَّهم قد أحدثوا الذُّعر ، والفزع في نفوس أهل مكَّة عادوا سالمين إلى النَّبيِّ (ص) ، فتحرَّك بجيشه عائداً إلى المدينة. [الواقدي (٢/٥٣٥ ـ ٥٣٦) ، وابن سعد (٢/٧٨ ـ ٨٠) ، والطبري في تاريخه (٢/٥٩٥)][(١١٠٢)].

د ـ التَّرحُّم على الشُّهداء:

عندما وصل النَّبيُّ (ص) إلى بطن (غُرَان)[(١١٠٣)] ، حيث لقي الشُّهداءُ من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة مِنْ هُذَيل؛ تَرَحَّم على هؤلاء الشُّهداء ، ودعا لهم[(١١٠٤)].

٢ ـ غزوة الغابة[(١١٠٥)]:

لم تكد تمضي ليالٍ قلائلُ على عودة رسول الله (ص) من غزوته لبني لحيان ، حتَّى أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيلٍ لغطفان ، كان عددها أربعين على لقاح (الإبل الحوامل ذوات الألبان) لرسول الله (ص) بالغابة ، وقتلوا ذرَّ بن أبي ذرٍّ الغفاري ، وأسروا زوجته ليلى ، واستاقوا

الإبل الَّتي كان عددها عشرين ، ولما علم الرَّسول (ص) بخبر عُيَيْنَة؛ خرج في خمسمئةٍ من أصحابه في إثره ، بعد أن استخلف سعد بن عبادة في ثلاثمئة من قومه ، يحرسون المدينة[(١١٠٦)].

وعند جبلٍ من ذي قَرَد[(١١٠٧)] ، أدرك رسولُ الله (ص) العدوَّ ، فقتل بعضَ أفراده ، واستنقذ الإبل[(١١٠٨)].

وقد أبدى سلمةُ بن الأكوع في هذه المعركة بطولةً نادرةً ، وخاصَّة قبل وصول كتيبة الفرسان النَّبويَّة؛ حيث كان من ضمن الرُّعاة في منطقة الغابة ، وظلَّ بمفرده يشاغل المغيرين ، ويراميهم بالنَّبل ، وكان من أعظم الرُّماة في عصره ، وقد استخلص مجموعةً من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان[(١١٠٩)].

أمَّا المرأة التي أسرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذرٍّ الَّذي قتله المشركون أثناء الغارة في الغابة ، فقد عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكَّنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقةٍ تابعةٍ لرسول الله (ص) ، وقد نذرت إن نجَّاها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لتنحرنَّ تلك النَّاقة ، فلمَّا أخبرت النَّبيَّ (ص) عن نذرها؛ تبسَّم ، وقال: «بئسما جزيتيها» أي: أنَّها حملتك ، ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النَّحر؟! ثمَّ قال لها (ص) : لا نذر في معصية الله ، ولا فيما لا تملكين. [أحمد (٤/٤٣٠) ، ومسلم (١٦٤١) ، وأبو داود (٣٣١٦)][(١١١٠)].

وقد عاد رسول الله (ص) إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليالٍ خارجها[(١١١١)].

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبيَّة الَّتي قادها رسول الله (ص) بنفسه ضدَّ أعراب نجد بعد غزوة الأحزاب ، وبني قريظة ، وقبل غزوة خيبر[(١١١٢)]. وتتابعت سرايا رسول الله (ص) بعد غزوة قَرَد لتأديب المشركين ، فنجحت بعض هذه السَّرايا ، وتعثر بعضُها الاخر ، وكان أبرزها سرية عكَّاشة بن محصن الأسديّ؛ التي عُرفت بسريَّة الغَمْر[(١١١٣)] ، وقد بعثها رسولُ الله (ص) في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ من الهجرة ، إلى بني أسد ، فوصلت إلى موضعٍ يقال له: الغَمْر ، فوجدت القوم قد هربوا ، وتفرَّقوا في الجبال القريبة ، فأغار عكَّاشة ، وأصحابه على نعمٍ

لهم ، فغنموا مئتي بعير ، وعادوا إلى المدينة[(١١١٤)].

ومن أبرزها أيضاً سريَّة محمَّد بن مسلمة الأنصاريّ إلى ذي القَصَّة[(١١١٥)] لإرهاب بني ثعلبة ، وعُوال ، ومنعهم من الإغارة على سرح المدينة ، وفي شهر ربيع الثَّاني سنة ستٍّ من الهجرة خرج محمَّد بن مسلمة في عشرةٍ من المسلمين حتَّى وردوا عليهم ليلاً ، فأحدق بهم القوم وهم مئة رجل ، فتراموا ساعةً من الليل ، ثمَّ حملت عليهم الأعراب بالرِّماح فقتلوهم ، ووقع محمَّد بن مسلمة جريحاً ، ولم يتمكَّن من العودة إلا بعد أن مرَّ به رجلٌ من المسلمين ، فحمله حتَّى ورد به المدينة[(١١١٦)].

وعلى الأثر بعث رسول الله (ص) أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلاً إلى منازلهم ، فلم يجدوا أحداً ، ولكنَّهم غنموا بعض نعمهم ، فساقوها ، وعادوا بها إلى المدينة[(١١١٧)].

وفي شهر جُمادى الأولى من السَّنة نفسها كانت سريَّة زيد بن حارثة الثَّانية إلى العيص[(١١١٨)] في سبعين ومئة راكب؛ لاعتراض قافلةٍ لقريش كانت مقبلةً من الشَّام ، فأدركها ، وأخذها ، وما فيها ، وأسر بعض أفرادها ، كان منهم أبو العاص بن الرَّبيع زوج زينب بنت رسول الله (ص) ، وأمُّه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة رسول الله (ص) ، والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص[(١١١٩)]. وفي شعبان سنة ستٍّ من الهجرة خرجت سريَّةٌ بقيادة عليِّ بن أبي طالبٍ لتأديب بني سعد بن بكر الَّذين جمعوا النَّاس لإمداد يهود خيبر ، وقد بعثه رسول الله (ص) في مئةٍ من المسلمين ، فأغار عليهم ، وغنم بعض نَعَمِهم ، وعاد بها إلى المدينة[(١١٢٠)].

كانت هذه السَّريَّة تأديباً لكلِّ مَنْ تُسَوِّل له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع ، حيث علمت تلك القبائل: أنَّ عين المدينة يقظة لكلِّ ما يدور حولها ، وأنَّ جميع التَّحرُّكات كانت تحت المراقبة[(١١٢١)]

، فقد تميزت الدَّولة الإسلاميَّة بدقَّة رصدها لأعدائها ، وهكذا يكون التَّخطيط الحربيُّ السَّليم ، وذلك بقطع الطَّريق على تجمُّع الأعداد الكبيرة حتَّى بالإمدادات الصَّغيرة[(١١٢٢)].

إنَّ حركة السَّرايا ، والبعوث الَّتي كان يقودها رسول الله (ص) ترشد المسلمين إلى أهمِّية متابعة أخبار الأعداء ، وجمع المعلومات عنهم ، فقد كانت المعلومات تتجمَّع عند رسول الله (ص) من مصادر متعدِّدة: سراياه الاستطلاعيَّة ، المسلمين المتخفِّين المتعاطفين مع المسلمين ، المعاهدين ، الفراسة واستكشاف ما وراء السُّطور ، المهم: أنَّ رسول الله (ص) ما كان يفاجأ بتامرٍ داخليٍّ ، أو تهديدٍ خارجيٍّ ، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضيَّةٍ يجب أن يعطوها كامل الاعتبار ، مع ملاحظة الضَّوابط الشَّرعية[(١١٢٣)].

خامساً: سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرنيِّين:

قدِم على رسول الله (ص) جماعةٌ من عُكَل[(١١٢٤)] وعُرينة[(١١٢٥)] ، في شوال من العام السَّادس الهجري[(١١٢٦)] ، وتكلَّموا بالإسلام ، فقالوا: يا نبي الله! إنَّا كنَّا أهل ضرعٍ ، ولم نكن أهل ريف ، واستوخموا المدينة ، فأمر لهم رسول الله (ص) بذودٍ[(١١٢٧)] ، وراعٍ ، وأمرهم أن يخرجوا فيه ، فيشربوا من ألبانها ، ويتمسَّحوا بأبوالها ، فانطلقوا حتَّى إذا كانوا ناحية الحَرَّة؛ كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا راعيَ النَّبيِّ (ص) ، واستاقوا الذَّود ، فبلغ النَّبيَّ (ص) خبرُهم ، فبعث الطَّلب في اثارهم[(١١٢٨)] ، فقبضوا عليهم ، فأمر بهم ، فسملوا أعينهم ، وقطعوا أيديهم ، وأرجلهم ، وتُركوا في ناحية الحرَّة حتَّى ماتوا على حالهم. قال قتادة راوي الحديث: بلغنا: أنَّ النبي (ص) بعد ذلك كان يحثُّ على الصَّدقة ، وينهى عن المُثْلَة. [البخاري (٤١٩٢)][(١١٢٩)].

وقال أبو قلابة في حديثه: «هؤلاء قومٌ سرقوا ، وقتلوا ، وكفروا بعد إيمانهم ، وحاربوا الله ورسولَه (ص) »[(١١٣٠)].

قال الجمهور: إنَّ الاية {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ *} [المائدة: ٣٣] ، قد نزلت في هؤلاء العُرنيِّين[(١١٣١)] ،

وقيلت أسباب أخرى في نزولها[(١١٣٢)].

وعلى كلِّ حالٍ فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب ، فهذا الحكم باقٍ حتَّى يومنا هذا ، وأدلُّ دليلٍ على ذلك ما أجمع عليه المسلمون من وجود حكم الحرابة في الإسلام ، سواء كانت الاية نزلت في

الكفَّار ، أم في المسلمين ، وهذه الاية نازلةٌ في المشركين ، كما في البخاريِّ ، فدلَّ ذلك على أنَّ العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وكون المثْلَة منسوخةً ، أو منهياً عنها ، وأنَّ النَّبيَّ (ص) سمل أعين العُرنيِّين لا يستدلُّ به في هذه القضيَّة ؛ لكون العُرنيِّين سملوا أعين الرُّعاة ، فصار سمل النَّبيِّ (ص) لهم قصاصاً لا مُثْلَةً[(١١٣٣)].

إنَّ حادثة العُرَنيِّين ترتَّب عليها تنفيذ حكم الحرابة ، ونزول اياتٍ بيناتٍ في هذا الحكم ، فقد حصر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ جزاء المحاربين في أربعة أمورٍ ، وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر ، ثمَّ إنَّه وصف هؤلاء المحاربين بأوصافٍ يشمئزُّ منها كلُّ عاقل ، ذلك أنَّه وصفهم بأنهم حاربوا الله تعالى ، ورسوله (ص) ، وأنَّهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكَّانها ، وتقتيلهم ، وسلبهم ، ونهب ممتلكاتهم ظلماً ، وجوراً لا مستند لهم ، ولا باعث إلا الإفساد ، والطُّغيان ، فكانت رحمةُ الله تعالى الرَّحيم بهم وبغيرهم مِنْ خلقه مقتضيةً الحكم عليهم بواحدٍ من أمورٍ أربعةٍ ، وهي: القتل ، أو الصَّلب ، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، أو الإبعاد عن مخالطة العامَّة وعزلهم عنها بالنَّفي والتَّغريب؛ حتَّى لا تتكرَّر منهم تلك الجرائم الشَّنيعة ، وحتى يرتدع غيرُهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشَّنيع ، ولكي يطهِّرَهم ما يوقع بهم من عقابٍ من الذُّنوب ، والاثام؛ إن هم تابوا ، ورجعوا إلى رشدهم ، وصوابهم.

ثمَّ إنَّ هؤلاء لهم ذِلَّةٌ ، ومهانةٌ في الحياة الدُّنيا لأذيَّتهم المسلمين ، وقد علَّل تعالى لحوق تلك الرَّذيلة بهم مدَّة الحياة الدُّنيا بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة ، وباقيةٌ معهم إلى يوم القيامة؛ لكون الرَّب جلَّ وعلا أعدَّ لهؤلاء في الاخرة عذاباً عظيماً.

ثمَّ استثنى جلَّ وعلا من هؤلاء مَنْ أناب إليه ، ورجع في أسلوبٍ حكيم مؤثِّرٍ داعٍ إلى رجوعهم ، وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة ، فلقد عفا عنهم تعالى إذا ما رجعوا وجاؤوا تائبين قبل القدرة عليهم؛ لكون تلك التَّوبة مظنَّةً لصدقهم في توبتهم ، ورجوعهم عن غيِّهم؛ لأنَّهم رجعوا قبل القدرة عليهم.

وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم: أنَّهم إن قدر عليهم قبل التَّوبة؛ لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم ، وهذا نوعٌ من العلاج في غاية الدقَّة ،

والإنصاف ، وفيه من الحفز على التَّقليل من هذه الجريمة ، وتركها ما لا يخفى على ذي عقلٍ لبيب.

وكذلك الشَّأن في جميع أساليب القران الكريم العلاجيَّة ، كلُّها توافق الذَّوق السَّليم ، والعقل الرَّاجح المتَّزن المتمتِّع بصفاء الفطرة السَّليمة.

ثمَّ ختم تعالى الايتين الكريمتين بأنَّه غفورٌ رحيمٌ لمن تاب منهم ، وأصلح ، فلا يقنط أحدٌ من رحمته الواسعة ، ولا يحول بين العبد ورحمة ربِّه ، ومغفرته عظيمُ ذنبه ، وجسيم خطئه ، ما لم يقارف شِرْكاً. وفي الجملة فقد عالجت الايات القرانيَّة الحرابة في المجتمع الإسلاميِّ علاجاً لا مزيد عليه ، وذلك واضحٌ ممَّا يلي:

١ . وصف المحارِب بأنَّه محاربٌ لله تعالى ، ولرسوله (ص) .

٢ . عظم الجزاء المترتِّب على الحَرابة أيّاً كان هو.

٣ . مكانتُه الدَّنيئة في الدُّنيا ، والاخرة؛ إن لم يتب.

٤ . يظهر علاج القران الكريم لهذه الجريمة الشَّنعاء بفتحه باب التَّوبة لمتعاطيها على مصراعيه؛ حتَّى لا يكون سدُّه في وجهه حافزاً له على التَّمادي في جرمه ، والاستمرار في عتُوِّه[(١١٣٤)].

قال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ *إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [المائدة: ٣٣ . ٣٤].

وهكذا كانت حركة بناء المجتمع ، وإقامة الدَّولة متشابكةً في قضاياها العسكريَّة ، والسِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، والأخلاقيَّة ، والاقتصاديَّة.

* * *

المبحث الثَّالث

تصفية المحرِّضين على الدَّولة

أولاً: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلاَّم بن أبي الحُقَيْق:

كان أبو رافع سلاَّم بن أبي الحُقَيْق من يهود بني النَّضير كثير التَّحريض على الدَّولة الإسلاميَّة ، حتَّى إنَّه جعل لغطفان ومن حوله من قبائل مشركي العرب الجعل العظيم إن هي قامت لحرب رسول الله (ص) ، وشاع أمر أبي رافعٍ ، وانتشر ، وكان ممَّن ألَّب الأحزاب على رسول الله (ص) ، وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار الَّتي يجب أن يوضع لها الحدُّ[(١١٣٥)].

١ . توجُّه السَّرية إلى خيبر ، ودخولها:

فبعث رسول الله (ص) إلى أبي رافعٍ اليهوديِّ رجالاً من الأنصار ، فأمَّرَ عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع في حصنٍ له ، فلمَّا دنوا منه ، وقد غربت الشَّمس وراح النَّاس بسرحهم ، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإنِّي منطلقٌ ، ومتلطِّفٌ للبوَّاب لعلِّي أن أدخل ، فأقبل حتَّى دنا من الباب ، ثمَّ تقنَّع بثوبه كأنه يقضي حاجةً ، وقد دخل النَّاس ، فهتف به البواب: يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل؛ فادخل فإنِّي أريد أن أغلق الباب ، فدخلتُ ، فكمنتُ ، فلمَّا دخل الناس أغلق الباب ، ثمَّ عَلَّقَ الأغاليق (أي: المفاتيح) على ودٍّ (أي: وتد) ، قال ابن عتيك: فقمت إلى الأقاليد (المفاتيح) فأخذتُها ، ففتحت الباب[(١١٣٦)].

٢ ـ تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع:

ولما دخل أبو عتيك رضي الله عنه ومن معه من أفراد سريَّته إلى داخل الحصن؛ أخذوا ينتظرون الفرصة المناسبة لقتل هذا اليهوديِّ الخبيث أبي رافعٍ.

وقد جاء في البخاريِّ: أنَّ عبد الله بن عتيك أدرك نفراً من أصحاب أبي رافعٍ يسمرون عنده ،

وكان في علالي له (أي: غرفة) ، فكمنت (أي: اختبأت) حتَّى ذهب عنه أهلُ سَمَرِه ، ولما ذهبوا صعِد إليه. وكلَّما دخلَ باباً أغلقَه عليه من الدَّاخل حتى لا يحول أحدٌ بينه وبين تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع ، فانتهى إلى أبي رافع فإذا هو في بيتٍ مظلمٍ وسط عياله لا يدري أين هو من البيت ، قال ابن عتيك: فقلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟

قال ابن عتيك: فأهويتُ نحو الصَّوت فأضربه ضربةً بالسَّيف؛ وأنا دَهِشٌ فما أغنيتُ شيئاً (أي: لم أقتله). وصاح ، فخرجت من البيت ، فأمكثُ غير بعيدٍ ثمَّ دخلتُ إليه.

فقلت: ما هذا الصَّوت يا أبا رافع؟!

قال: لأمِّك الويلُ! إنَّ رجلاً في البيت ضربني قَبْلُ بالسَّيف.

قلت: فأضربه ضربةً أثخنته ، ولم أقتله ، ثمَّ وضعت ضبيب السَّيف في بطنه حتى أخذ في ظهره ، فعرفت أنِّي قتلته.

فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً ، حتَّى انتهيت إلى درجةٍ له ، فوضعت رجلي وأنا أرى أنِّي قد انتهيتُ إلى الأرض ، فوقعتُ في ليلةٍ مقمرةٍ ، فانكسرتْ ساقي ، فعصبتُها بعمامةٍ ، ثمَّ انطلقت حتَّى جلست على الباب ، فقلت: لا أخرج اللَّيلة حتَّى أعلم أقتلته؟ فلمَّا صاح الدِّيك قام النَّاعي على السُّور ، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، فانطلقتُ إلى أصحابي ، فقلت: النَّجاءَ ، فقد قتل الله أبا رافعٍ ، فانتهيت

إلى النَّبيِّ (ص) ، فحدَّثته ، فقال لي: «ابسط رجلك». فبسطت رجلي ، فمسحها ، فكأنَّها لم أشتكها قطُّ. [البخاري (٤٠٣٩)].

وفي روايةٍ أخرى للبخاريِّ قال عبد الله بن عتيك: قلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟ قال: فعمدت نحو الصَّوت ، فأضربه ، وصاح فلم تُغْنِ شيئاً ، ثمَّ جئت كأنِّي أغيثه.

فقلت: مالك يا أبا رافع؟! وغيَّرت صوتي ، فقال: ألا أعجبك ، لأمِّك الويلُ! دخل عليَّ رجلٌ فضربني بالسَّيف. قال: فعمدت له أيضاً فأضربه أخرى ، فلم تُغْنِ شيئاً ، فصاح ، وقام أهله ، ثمَّ جئتُ وغيَّرتُ صوتي كهيئة المغيث ، فإذا هو مستلقٍ على ظهره ، فأضع السَّيف في بطنه ثمَّ أنكفأُ عليه ، حتَّى سمعتُ صوت العَظْمِ.. [البخاري (٤٠٤٠)].

وقد ذكرت كتب السِّيرة: أنَّ امرأة أبي رافع حينما ضُرِب بالسَّيف صاحت؛ فأراد قتلها، ثمَّ كف عن ذلك؛ لأنَّ رسول الله (ص) قد نهاهم عن قتل النِّساء، والصِّبيان[(١١٣٧)] ، وأنَّ ابن عتيك كان يرطن بلغة اليهود ، وأنَّه استخدمها مع زوجة أبي رافعٍ اليهوديِّ ، وأهل بيته.

ويذكر كُتَّاب السِّيرة: أنَّ سرية ابن عتيك كلَّها شاركت في ضرب أبي رافع ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم ادَّعى: أنَّ ضربته كانت هي القاضية على أبي رافعٍ ، فقال رسول الله (ص) : «عجِّلوا بأسيافكم» ، فأتوا بأسيافهم ، فنظر إليها ، ثمَّ قال: «هذا قتله» ، وهو سيف عبد الله بن أُنيس ، هذا أثر الطَّعام في سيف عبد الله بن أُنيس. [البخاري (٤٠٣٩ و٤٠٤٠) ، وابن سعد (٢/٩١ ـ ٩٢) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١٠ ـ ٨١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٤٠٧ ـ ٤١٠) ، وابن هشام (٣/٢٨٦ ـ ٢٨٨)].

وقد يتوهَّم القارأى الكريم أنَّ هناك تناقضاً بين رواية البخاريِّ ، ورواية كتب السِّيرة الأخرى؛ الَّتي تقول: إنَّ الضربة القاضية كانت من عبد الله بن أُنيس ، والحقُّ: أنَّه ليس كذلك؛ ذلك لأنَّ عبد الله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنَّه غلب على ظنِّه: أنَّه هو القاتل ، وأنَّه قد حكى عن دوره في ضرب اليهوديِّ أبي رافعٍ ، ولا يعني هذا أنَّ غيره لم يشارك في قتله؛ إذ لم ينفِ هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع ، والرِّوايات يفسِّر بعضها بعضاً ، ويشرح بعضُها بعضاً ، والرِّوايات تذكر: أنَّ كلَّ واحد من أفراد السَّريَّة كان يدَّعي أنَّ ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافعٍ.

وقد نظر رسول الله (ص) في دعواهم ، وفحص سيوفهم ، وحكم بعد ذلك بأنَّ الضَّربة القاضية كانت بسيف عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه؛ لظهور أثر الطَّعام عليه ، أي: أنَّ هذا السَّيف قد دخل جوف أبي رافع ومزَّق أحشاءه ، وقطَّع أمعاءه ، وخلط غذاءه في جوفه[(١١٣٨)].

وقد ذكرت كتب السيرة أسماء سريَّة عبد الله بن عتيك ، وهم: مسعودُ بن سنان ، وعبدُ الله بن أُنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربعي ، وخُزاعي بن أسود[(١١٣٩)].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ أنَّ كلَّ أعضاء هذه السَّريَّة كانوا من الخزرج ، فقد حرصوا على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الَّذين قتلوا كعب بن الأشرف ، فقد كانوا كفرسي رهانٍ في المسابقة في الخيرات ، فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدُّنيا من المال ، والمناصب ، وإنَّما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النَّبيِّ (ص) الَّتي مالها رضوانُ الله تعالى ، والسَّعادة الأخرويَّة[(١١٤٠)].

قال كعب بن مالك: وكان ممَّا صنع الله تعالى به لرسوله (ص) : أنَّ هذين الحيين من الأنصار: الأوس ، والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله (ص) تصاول الفحلين. يعني: يتسابقان في خدمته. لا يصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله (ص) غناءً إلا قالت الخزرج: والله! لا تذهبون

بهذه فضلاً علينا عند رسول الله (ص) ، وفي الإسلام ، قال: فلا ينتهون حتَّى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئاً؛ قالت الأوس مثل ذلك. [ابن هشام (٣/٢٨٦)].

٢ ـ فائدةُ تعلُّم لغةِ العدوِّ: فقد استطاع عبد الله بن عتيك أن يصعد إلى حصن أبي رافع ، وأن يخاطب امرأته ، وأن يدخل بيته مطمئناً؛ لأنَّه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت ، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلُّم لغة غير المسلمين لا سيَّما الأعداء منهم ، وخاصَّة لأولئك العسكريين الَّذين يذهبون لمهمَّات استطلاعيَّة تجمع أخبار العدو ، وتزوِّد القيادة بها ، والقيادة ترسم[(١١٤١)].

٣ ـ عناصر نجاح خطَّة ابن عتيك في قتل أبي رافعٍ اليهوديِّ: ذهابُه وحدَه ، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن ، ويحاول أن يدخله ، ومن ثَمَّ يفتِّش عن طريقة يُدخل بها أفراد سريَّته ، وتصرُّفه العادي الَّذي لم يلفت انتباه أحدٍ من الحرَّاس ، وقدرته على التَّمويه على الحارس ، وإيهامه: أنَّه يقضي حاجته ، وهذا منع الحارس من النَّظر إليه ، وتفحُّصه ، وتفرُّسه في وجهه ، ومراقبة حركة الحارس الدَّقيقة بعد دخول الحصن ، وإغلاقه ، فقد كمن في مكانٍ لم يشعر به الحارس ، وراقب الحارس حتَّى وضع مفتاح الحصن في مكانٍ معيَّن ، وتابعه حتَّى انصرف ، وأخذ المفتاح ، وأصبح يستخدمه كيفما يشاء ، وفي أيِّ وقتٍ شاء[(١١٤٢)].

٤ ـ عناية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأوليائه المؤمنين ، فهذا الصَّحابيُّ الجليل استمرَّ بعونٍ من الله تعالى يمشي ، ويبذل طاقته حتَّى بعد أن أصيبت رجله ، وكأنَّه لا يشكو من علَّةٍ ، حتَّى إذا انتهت مهمَّته تماماً ، وأصبح

غير محتاجٍ لبذل الجهد؛ عاد إليه الألم ، وحمله أصحابه ، فلمَّا حدَّث النَّبيَّ (ص) خبره؛ قال له: «ابسُطْ رجلك» قال: فبسطت رجلي ، فمسحها ، فكأنَّها لم أشتَكِهَا قطُّ. [البخاري (٤٠٣٩)].

٥ . فوائد من القصَّة استخرجها ابن حجر ، حيث قال: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز اغتيال المشرك الَّذي بلغته الدَّعوة ، وأصرَّ ، وقتل من أعان على رسول الله (ص) بيده ، أو ماله ، أو لسانه. وجواز التَّجسُّس على أهل الحرب ، وتطلُّب غرَّتهم ، والأخذ بالشدَّة في محاربة المشركين ، وجواز إبهام القول للمصلحة ، وتعرُّض القليل من المسلمين للكثير من المشركين ، والحكم بالدَّليل ، والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته ، واعتماده على صوت النَّاعي بموته ، والله أعلم[(١١٤٣)].

٦ . وجود عبد الله بن أُنيس جندياً في هذه السَّريَّة ، وليس أميراً فيها له دلالتُه الكبرى في

عملية التَّربية والتَّعليم ، فهو العقبيُّ ، البدريُّ ، المصلِّي للقبلتين؛ فهو من السَّابقين الأوَّلين من الأنصار ، وليس عبد الله بن أُنيس نكرةً في مجال الجهاد والبطولات ، فلا بدَّ أن نذكر: أنَّه السَّريَّة وحده الَّذي ابتعثه رسول الله (ص) لاغتيال سفيان بن خالد الهُذلي في أطراف مكَّة ، وهو الَّذي كان يعدُّ العدَّة لغزو المدينة ، وهو الَّذي نجح نجاحاً باهراً في مهمَّته تلك ، وقتله في فراشه ، وداخل خيمته ، وأعجز قومه هرباً ، وعاد منتصراً مظفَّراً ، فهو مليءٌ بالمجد ، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة ، إنَّما كان أحد أفرادها ، وهو يحمل هذا التَّاريخ المشرق في سجلاته عند ربِّه . عزَّ وجلَّ . قبل أن يكون عند النَّاس.

وهو درسٌ تربويٌّ خالدٌ قد استوعبه أصحاب النَّبيِّ (ص) ، وهذا النَّوع من التربية لا مثيل له في عالم الأرض، فالَّذي يحكم في الجيوش تسلسل الرُّتب، حتى إنَّ الرتبة الواحدة يحكم بها المتقدِّمُ المستجدَّ، وعلى المستجدِّ السَّمع ، والطَّاعة للمتقدِّم؛ ولو بأشهرٍ ، وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدَّم على عبد الله بن أُنيسٍ أحدٌ ، ولكنَّها التَّربية النَّبويَّة العظيمة الَّتي خطَّها النَّبيُّ (ص) في أكثر من موقعٍ؛ لتجعل هذا الجيل يتعلَّم من سابقه ، ويتدرَّب على يديه ، فطالما أرسل (ص) سرايا فيها أبو بكرٍ ، وعمر جنديين عاديين في غمار الجنود[(١١٤٤)].

ثانياً: سريَّة عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رِزَام اليهوديِّ:

بلغ رسول الله (ص) أنَّ اليسير بن رِزام أمير اليهود بخيبر بعد سلام بن أبي الحُقَيق أخذ في جمع يهود الشَّمال ، وتحريضهم على رسول الله (ص) ، ولم يكتفِ بذلك ، بل بدأ بتأليب قبائل غطفان ، وجمعها لقتال رسول الله (ص) ، وحين علم رسول الله (ص) ما يبيِّته اليهود له من الخديعة ، والمكر ، رأى (ص)

أن يتأكَّد من ذلك قبل أن يقدم على أمرٍ ما ، فأرسل عبد الله بن رواحة في نفرٍ من المسلمين ، رواداً يكتشفون ما تخبئه يهود ، ومن لَفَّ لفَّها من مشركي العرب[(١١٤٥)].

وقد تأكَّدت المخابرات النَّبويَّة من أمر اليُسَيْر بن رِزَام ، وكان هذا كافياً لقيام النَّبيِّ (ص) ببعث سريَّةٍ في ثلاثين راكباً ، عليهم عبد الله بن رواحة ، وفيهم عبد الله بن أُنيس ، فأتوه ، فقالوا: أرسلنا إليك رسول الله (ص) ليستعملك على خيبر ، فلم يزالوا به حتَّى تبعهم في ثلاثين رجلاً ، مع كلِّ رجلٍ منهم رديفٌ من المسلمين ، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيره ، حتَّى إذا كانوا بَقرقَرة ثيار على ستَّة أميالٍ من خيبر ، ندم اليُسَيْر على مسيره إلى رسول الله (ص) ، فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أُنيس ، ففطن له ، فاقتحم به ، ثمَّ ضربه بالسَّيف ، فقطع رجله ،

وضربه اليُسَير بِمِخْرَشٍ[(١١٤٦)] في يده مِنْ شواحط[(١١٤٧)] ، فضرب به وجه عبد الله فأمَّه[(١١٤٨)] ، ومال كلُّ رجلٍ من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله ، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه ، فلمَّا قدِم ابن أُنيس على رسول الله (ص) ؛ تفل على شجَّته ، فلم تَقِحْ ، ولم تؤذه. [ابن هشام (٢٦٦/٣ ـ ٢٦٧)][(١١٤٩)].

وكانت هذه السَّريَّة في شوال سنة ستٍّ من الهجرة[(١١٥٠)].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ كانت الخطَّة النَّبويَّة هي محاولة إيقاف نهر الدَّم بين اليهود والمسلمين ابتداءً ، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه ، غير أنَّ الحقد اليهوديَّ الَّذي أشرب قلوبهم ، والسُّمَّ الَّذي ينفثونه على المسلمين ، هو الَّذي غلب اخر الأمر ، وأفسد الخطَّة كلَّها ، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين ، فوقعت الدَّائرة عليهم.

٢ ـ إنَّ البأس في الحرب ما لم يكن غليظاً ، وشديداً؛ فلن يحسم المواجهة مع العدوِ ، وسيجعل الحرب تفني كلَّ شيء ، وتأكل كلَّ شيءٍ ، فلا بدَّ من بثِّ الرَّهبة ، والرُّعب في قلب العدوِ ، ولا بدَّ من الشِّدَّة معه حين لا يجدي الحوار ، أو المناقشة ، ولا بدَّ من الغلظة الَّتي تشعر العدوَّ: أنَّ مَنْ يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم.

٣ ـ شهد العامُ السَّادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليَّات المواجهة مع العدو ، ولا يكاد يمرُّ شهرٌ دون سريَّةٍ ، أو سريَّتين تضرب في الصَّحراء ، وتفضُّ جمعاً ، أو تحطِّم عدوّاً ، أو تغتال طاغوتاً ، فقد كان شعار المرحلة: «الان نغزوهم ولا يغزوننا» [سبق تخريجه] ، فقد كان حزب الله ينطلق في الافاق باسم الله ، يحمل المبادأى الخالدة ، والقيم العليا يقدِّمها للخلق كافَّةً ، ويزيح كلَّ طاغوتٍ يحول دون وصول

هذه المبادأى ، ونشهد حزب الله في أفراده جميعاً ، والَّذين تلقوا أعلى مستويات التَّربية الخلقية ، والفكريَّة ، والعسكريَّة ، والسياسيَّة كيف ينفِّذون هذا المنهج ، وكيف يكون واقعُهم ترجمةً عمليَّةً وحيَّةً لمبادئهم ، وكيف يتقدَّمون ليتصدَّروا مرحلةً جديدةً تبدأ معالمها ، وملامحها مع صلح الحديبية[(١١٥١)].

* * *

الفصل الثَّالث عشر

الفتح المبين (صلح الحديبية)

[البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢) ، وأحمد (٣٢٤/٤ ـ ٣٢٦) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٦/٢٠) برقم (١٤) ، وابن هشام (٣٢١/٣ ـ ٣٣٣) ، والبيهقي في الدلائل (٩٩/٤ ـ ١٠٨)].

المبحث الأوَّل

تاريخه ، وأسبابه ، ومخرج رسول الله (ص) إلى مكَّة

أولاً: تاريخه ، وأسبابه:

في يوم الإثنين الأوَّل من ذي القعدة سنة (٦ هـ)[(١١٥٢)] ، خرج الرَّسول (ص) من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكَّة ؛ لأداء العمرة[(١١٥٣)]. وسبب هذه الغزوة أنَّ رسول الله (ص) رأى رؤيا في منامه ـ وهو في المدينة ـ ، وتتلخَّص هذه الرُّؤيا في أنَّ النَّبيَّ (ص) رأى: أنَّه قد دخل مكَّة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدِّياً للعمرة ، وقد ساق الهدي معظِّماً للبيت مقدِّساً له ، فبشر النَّبي (ص) أصحابه ، ففرحوا بها[(١١٥٤)] فرحاً عظيماً ، فقد طال عهدُهم بمكَّة ، والكعبة؛ الَّتي رضعوا حبَّها ، ودانوا بتعظيمها ، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها ، وشوقاً إليها ، وقد تاقت نفوسهم إلى الطَّواف حولها ، وتطلَّعت إليه تطلُّعاً شديداً ، وكان المهاجرون أشدَّهم حنيناً إلى مكَّة ، فقد ولدوا ، ونشؤوا فيها ، وأحبُّوها حبّاً شديداً ، وقد حيل بينهم وبينها ، فلمَّا أخبرهم رسول الله (ص) بذلك تهيَّؤوا لتلك الزيارة العظيمة[(١١٥٥)] ،

واستنفر (ص) أهل البوادي والأعراب؛ ليخرجوا معه؛ لأنَّه كان يخشى أن تصدَّه قريش عن البيت الحرام ، وكانت استخبارات المدينة قد

علمت بأمر التَّحالف العسكريِّ الَّذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنوَّرة وخيبر في شمالها ، وكان هدف هذا التَّحالف جعل الدولة الإسلاميَّة بين طرفي الكماشة ، ثمَّ إطباق فكَّيها عليها ، وإنهاء الوجود الإسلامي فيها ، فقد حان الوقت لكسر ذلك التَّحالف سياسيّاً ، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبةً ليست ملكاً لقريش ، بل هي تراث أبيهم إسماعيل ، ولهذا فليس من حقِّ قريش أن تمنع من زيارتها مَنْ تشاء ، وتجيز مَنْ تشاء ، فإذاً من حقِّ محمَّد (ص) وأصحابه زيارةُ الكعبة[(١١٥٦)].

وانتشر خبر خروج رسول الله (ص) بين قبائل العرب ، وكان انتشار الخبر له أثرٌ في الرأي العامِّ ، وخصوصاً بعدما أكَّد رسول الله (ص) : أنَّه لا يريد حرباً ، وإنَّما يريد أن يعتمر ، ويعظِّم شعائر الله ، وحقَّق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلاميَّةً رفيعة المستوى ، وقد كان هدف النَّبيِّ (ص) معلناً: ألا وهو زيارة بيت الله الحرام؛ لأداء العمرة ، فتجرَّد هو وأصحابه من المخيط ، ولبسوا ثياب الإحرام ، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلَّد الهدي ، وأشعره[(١١٥٧)].

وقد كان (ص) على جانبٍ كبير من الحيطة ، والحذر ، فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعيَّ عيناً له[(١١٥٨)] ، وقدَّم بين يديه طليعة استكشافيَّةً مكوَّنةً من عشرين رجلاً ، وفي ذلك يقول الواقديُّ: «دعا رسول الله (ص) عبَّاد بن بِشر فقدَّمه أمامه طليعةً في خيل المسلمين عشرين فارساً ، وكان فيها رجالٌ من المهاجرين ، والأنصار»[(١١٥٩)] ، وكان هدفه (ص) من ذلك الاستعداد للطوارأى الَّتي يمكن أن يفاجأ بها ، . وأيضاً . فقد كانت مهمَّة هذه الطليعة استكشاف خبر العدوِّ[(١١٦٠)].

وأخذ (ص) بمشورة عمر في ذي الحليفة عندما قال له: يا رسول الله! تدخل على قومٍ هم لك أهل حربٍ بغير سلاحٍ ، ولا كراعٍ؟ فبعث النَّبيُّ (ص) إلى المدينة من يحمل له الكراع ، والسِّلاح[(١١٦١)] وكان قصده (ص) من ذلك الاستعداد لهؤلاء الأعداء؛ الَّذين يملكون من السِّلاح ، والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين ، والنَّيل منهم[(١١٦٢)] ، وهذا التَّعامل مع سنَّة الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الَّذي جعله لأمَّته لتقتدي به من بعده (ص) ؛ لما في ذلك من المصالح الكثيرة ، ولما فيه من درء مكايد الأعداء؛ الَّذين يتربَّصون بالمسلمين الدَّوائر(٣).

ثانياً: وصول النَّبي (ص) إلى عُسْفَان:

لما وصل رسول الله (ص) إلى عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبيُّ الخزاعيُّ ، فقال: يا رسول الله! هذه قريش قد سمعت بمسيرك؛ ومعها العُوذُ المطَافِيلُ[(١١٦٣)] ، قد لبسوا جلود النُّمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبداً ، فقال رسول الله (ص) : «يا ويح[(١١٦٤)] قريش! لقد أكلتهُم الحرب ، ماذا عليهم لو خلُّوا بيني وبين سائر النَّاس؟ فإن أصابوني؛ كان الَّذي أرادوا ، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام؛ وهم وافرون[(١١٦٥)] ، وإن لم يفعلوا؛ قاتلوا وبهم قوَّة ، فماذا تظن قريش؟ والله! إني لا أزال أجاهدهم على الَّذي بعثني الله له ، أو تنفرد هذه السَّالفة[(١١٦٦)]».

وقد استشار (ص) أصحابه لما بلغه خبر استعداد قريش لصدِّه عن دخول البيت الحرام ، وعرض (ص) على الصَّحابة رضي الله عنهم المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم ، والتَّصميم:

١ ـ الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الَّذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدِّهم عن البيت.

٢ ـ قصد البيت الحرام فمن صدَّه عنه قاتله حتَّى يتمكن من تحقيق هدفه[(١١٦٧)]. ولما عرض (ص) المشورة في هذا الأمر على الصَّحابة؛ تقدَّم أبو بكر الصِّدِّيق برأيه الَّذي تدعمه الحجَّة الواضحة ، حيث أشار على رسول الله (ص) بترك قتالهم ، والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة؛ حتَّى يكون بدء القتال منهم ، فاستحسن النَّبيُّ (ص) هذا الرَّأي ، وأخذ به ، وأمر النَّاس أن يمضوا في هذا السَّبيل[(١١٦٨)] ، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلَّى النَّبيُّ (ص) بأصحابه صلاة الخوف بِعُسْفَان.

ثالثاً: الرَّسول (ص) يغيِّر الطَّريق ، وينزل بالحديبية:

ولما بلغ رسول الله (ص) : أنَّ قريشاً قد خرجت تعترض طريقه ، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد ، وهو لم يقرِّر المصادمة ، رأى أن يغيِّر طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصِّدام مع المشركين ، فقال: مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم؛ الَّتي هم بها؟ فقال رجلٌ مِنْ أسلم: أنا يا رسول الله! فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شَقَّ على المسلمين السَّير

فيه ، حتَّى خرجوا إلى أرضٍ سهلة عند منقطع الوادي ، وعند ذلك قال رسول الله (ص) للناس: «قولوا: نستغفر الله ، ونتوب إليه». فقالوا ذلك.

فقال: «والله إنَّها الحطَّة الَّتي عُرِضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها[(١١٦٩)]».

فأمر رسول الله (ص) النَّاس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحَمْشِ في طريق تخرجه إلى ثنية المرار ، فهبط الحديبية من أسفل مكَّة ، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفَّة ودون أن يشعر به أحد ، فما نظر

خالدٌ إلا وقَتَرَةُ (غبرة) جيش المسلمين قد ثارت ، فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكَّة يُحذِّر أهلها ، ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجأى[(١١٧٠)] وقد أصاب الذُّعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية ، حيث تعرَّضت مكَّة للخطر ، وأصبحت مهدَّدة من المسلمين تهديداً مباشراً[(١١٧١)].

يقول اللواء محمود شيت خطَّاب في هذا الدَّرس الرائع: لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوَّات الجيش ، فالَّذي يخاف من عدوِّه لا يقترب من قاعدته(٢) الأصليَّة ، وهي مركز قوَّاته ، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصليَّة؛ حتَّى يُطيل خط مواصلات العدوِّ ، وبذلك يزيد من صعوباته ، ومشاكله ، ويجعل فرصة النَّصر أمامه أقلَّ من حالة الاقتراب من قاعدته الأصليَّة[(١١٧٢)].

وقد جاء في كتاب (اقتباس النِّظام العسكريِّ في عهد الرَّسول (ص)) ما يُبيِّن الحكمة من تغيير الطُّرق ما نصُّه: ويؤخذ من اتِّخاذ الأدلَّة والتَّحوُّل إلى الطُّرق الامنة: أنَّ القيادة الواعية البصيرة تسلك في سيرها بالجيش طرقاً بعيدةً عن المخاطر، والمهالك ، وتتجنَّب الدُّروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرُّفات العدوِّ ، وهجماته[(١١٧٣)].

رابعاً: «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُقٍ ، ولكنْ حبسها حابسُ الفيل»:

وعندما اقترب الرَّسول (ص) من الحديبية بركت ناقتُه القصواء ، فقال الصَّحابة رضي الله عنهم: خلأتِ القصواء[(١١٧٤)] ، فقال النَّبيُّ (ص) : «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُقٍ ، ولكن حبسها حابس الفيل». ثمَّ قال: «والَّذي نفسي بيده! لا يسألونني خطَّةً يعظِّمون فيها حرمات الله
إلا أعطيتهم إيَّاها[(١١٧٥)]». ثمَّ زجرها ، فوثبت ، ثمَّ عدل عن دخول مكَّة ، وسار حتَّى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ ـ بئر ـ قليل الماء ، وما لبثوا أن نزحوه ، ثمَّ اشتكوا إلى رسول الله (ص) العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثمَّ أمرهم أن يجعلوه فيه ، فجاش لهم بالرِّيِّ ، فارتووا جميعاً [(١١٧٦)]، وفي روايةٍ: أنه جلس على شفة البئر ، فدعا بماءٍ ، فمضمض ، ومجَّ في البئر[(١١٧٧)]. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معاً وقعا ، كما ذكر ابن حجر[(١١٧٨)] ويؤيِّده ما ذكره الواقديُّ[(١١٧٩)] ، وعروة[(١١٨٠)] من أنَّ الرَّسول (ص) تمضمض في دلوٍ ، وصبَّه في البئر ، ونزع سهماً من كنانته ، فألقاه فيها ، ودعا ، ففارت[(١١٨١)].

وفي بروك ناقة رسول الله (ص) ، وقَسَمِه بعد ذلك دروسٌ ، وعبرٌ ، منها:

١ ـ كلُّ شيءٍ في هذا الكون يسير بأمر الله ، ومشيئته ، ولا يخرج في سيره عن مشيئته ، وإرادته ، فتأمَّل في ناقة رسول الله (ص) أين بركت ، وكيف كره الصَّحابة بروكها ، وحاولوا إنهاضها لتستمرَّ في سيرها ، فيستمرُّوا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النَّتائج ، ولكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد غير ذلك[(١١٨٢)].

٢ ـ وقد استنبط ابن حجرٍ العسقلانيُّ ـ رحمه الله ـ فائدةً جليلةً من قوله (ص) : «حبسها حابس الفيل»[(١١٨٣)]؛ فقال: وفي هذه القصَّة جواز التشبيه من الجهة العامَّة ، وإن اختلفت الجهة الخاصَّة؛ لأنَّ أصحاب الفيل كانوا على باطلٍ محضٍ ، وأصحاب هذه النَّاقة كانوا على حقٍّ محضٍ ، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقاً ، أمَّا مِنْ أهل الباطل ؛ فواضحٌ ، وأمَّا مِنْ أهل الحقِّ فللمعنى الَّذي تقدَّم ذكره[(١١٨٤)].

٣ ـ ومن الفوائد: أن المشركين ، وأهل البدع والفجور ، والبُغاة ، والظَّلمة إذا طلبوا أمراً يعظِّمون فيه حرمةً من حرمات الله تعالى؛ أُجيبوا إليه ، وأُعْطُوه ، وأُعِينوا عليه؛ وإن مُنعوا غيره ، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى ، لا على كفرهم وبغيهم ، ويُمنعون ممَّا

سوى ذلك ، فكلُّ من التمس المعاونة على محبوبٍ مُرْضٍ له أجيب إلى ذلك كائناً مَنْ كان ، ما لم يترتَّب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوضٌ للهِ أعظم منه، وهذا من أدقِّ المواضيع، وأصعبها، وأشقِّها على النُّفوس[(١١٨٥)].

٤ ـ إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، جلَّت قدرتُه ، وعزَّت عظمتُه قضى ألا يكون قتالٌ بين المسلمين ، والمشركين من أهل مكَّة في هذه الغزوة بالذَّات لِحِكَمٍ ظهرت فيما بعدُ؛ منها:

أ ـ إنَّ دخول المسلمين بالقوَّة يعني: أن تحدث مذابح ، وتَزْهَقَ أرواحٌ كثيرةٌ ، وتُسفَك دماءٌ غزيرةٌ من الطَّرفين ، وهذا أمرٌ لم يُرِدْه البارأى سبحانه ، وكان لمصلحة الفريقين: المؤمنين ، والمشركين.

ب ـ إنَّ من المحتمل أن ينال الأذى ، والقتل ، والتَّشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكَّة؛ الَّذين يُخفون إسلامهم خوفاً من قومهم ، وهذا فيه ما فيه من المعرَّة الَّتي لا يليق بمسلمٍ أن يقع فيها.

قال سبحانه: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *} [الفتح: ٢٥].

ج ـ لقد سبق في علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ هؤلاء الَّذين يقفون اليوم صادِّين رسول الله (ص) ، وأصحابه رضي الله عنهم عن المسجد الحرام هم الَّذين سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام ، وسيفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرةً ، حين يحملون هذه الرِّسالة للنَّاس ، وينيرون ظلمة الطَّريق للمُدْلجين[(١١٨٦)].

خامساً: السَّفارة بين الرَّسول (ص) ، وقريش:

بذل رسول الله (ص) ما في وُسْعِهِ؛ لإفهام قريش: أنَّه لا يريد حرباً معهم ، وإنَّما يريد زيارة البيت الحرام ، وتعظيمه ، وهو حقٌّ للمسلمين ، كما هو حقٌّ لغيرهم ، وعندما تأكَّدت قريش من ذلك أرسلت إليه مَنْ يفاوضه ، ويتعرَّف على قوَّة المسلمين ، ومدى عزمهم على القتال؛ إذا أُلجئوا إليه ، وطمعاً في صدِّ المسلمين عن البيت بالطُّرق السِّلميَّة من جهةٍ ثالثةٍ[(١١٨٧)].

١ ـ رَكْبٌ من خزاعة بقيادة بُدَيْل بن ورقاء:

جاء بُدَيْل بن وَرْقَاء في رجالٍ من خُزاعة ، وكانت خزاعة عَيْبَةَ[(١١٨٨)] نُصْح رسول الله (ص) من أهل تهامة ، وبيَّنوا: أنَّ قريشاً تعتزم صدَّ المسلمين عن دخول مكة، فأوضح لهم الرَّسول (ص) سبب مجيئه ، وذكر لهم الضَّرر الَّذي وقع على قريش من استمرار الحرب ، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنةٌ إلى وقتٍ معلومٍ حتَّى يتَّضح لهم الأمر ، وإن أبوا؛ فلا مناص من الحرب ، ولو كان في ذلك هلاكه ، فنقلوا ذلك إلى قريشٍ ، وقالوا لهم: يا معشر قريش! إنَّكم تعجَلون على محمَّدٍ ، إنَّ محمداً لم يأتِ لقتال ، وإنَّما جاء زائراً هذا البيت. فاتَّهموهم ، وخاطبوهم بما يكرهون ، وقالوا: وإن كان إنَّما جاء لذلك؛ فلا والله! لا يدخلها علينا عَنْوَةً أبداً ، ولا تتحدَّث بذلك العرب[(١١٨٩)]. وقد ظهرت براعة النَّبيِّ (ص) السِّياسيَّة في عرضه على مشركي مكَّة الهدنة ، والصُّلح؛ لأنَّ في ذلك فوائدَ كثيرةً ، منها:

أ ـ بالهدنة يضمن حياد قريش ، ويعزلها عن أيِّ صراعٍ يحدث في الجزيرة العربيَّة ، سواءٌ كان هذا الصِّراع مع القبائل العربية الأخرى ، أم مع اليهود؛ ذلك العدوُّ اللَّئيم الغادر؛ الَّذي يتربَّص بالمسلمين الدَّوائر.

ب ـ حرص الرَّسول (ص) على أن يبقى باب الاتِّصال مفتوحاً بينه ، وبين قريشٍ ، ليسمع منهم ، ويسمعوا منه بواسطة الرُّسل ، والسُّفراء ، وفي هذا تقريبٌ للنُّفوس وتبريدٌ لجوِّ الحرب ، وإضعافٌ لحماسهم نحو القتال.

ج ـ حرصُه (ص) على أن تُدْرِك خزاعةُ بقيادة بُديلٍ ، والرَّكبُ الَّذي معه: أن حليفهم قويٌّ ، فتزداد ثقتُهم به ، وحلفهم له ، ولبني هاشم من قبل الإسلام ، فقد بقي ، ولم يُلْغَ ، وتأكَّد في صلح الحديبية.

د ـ إنَّ العقلاء الَّذين يفكِّرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرَّسول (ص) ، وأنَّه جاء معظماً للبيت؛ والمشركون يردُّونه ، وهو يصرُّ على تعظيمه سيقف هؤلاء بجانبه ، ويتعاطفون معه ، فيقوى مركزُه ، ويضعُف مركز قريشٍ الإعلاميُّ ، والدِّينيُّ في نفوس النَّاس.

هـ إنَّ مشركي مكَّة لم يطمئنُّوا إلى كلام بُديلٍ الَّذي نقله إليهم؛ ذلك لأنَّهم يعلمون: أنَّ خُزاعة كانت عَيْبَةَ نُصْحٍ لرسول الله (ص) ، ويشعرون بودِّ خُزاعة للرَّسول (ص) ، والمسلمين[(١١٩٠)].

و ـ ويؤخذ من جواب رسول الله (ص) لبُديل بن ورقاء حسنُ التلطُّف للوصول إلى الطَّاعات ، وإن كانت غير واجبةٍ ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً؛ لأنَّ النَّبيَّ (ص) أجاب المشركين لما طلبوا منه ، ولم يُظهر لهم ما في النُّفوس من البغض ، والكراهية لهم لطفاً منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ فيما يؤمِّل مِنَ البلوغ إلى الطَّاعة؛ الَّتي خرج من أجلها[(١١٩١)].

٢ ـ سفارة عروة بن مسعودٍ الثَّقفيِّ:

لم تقبل قريش ما نقله بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ الخُزاعيُّ عن رسول الله (ص) ؛ من أنَّه جاء زائراً للبيت ، ولم يأتِ مقاتلاً ، واتَّهمتهم ، بل وأسمعتهم ما يكرهون ، فاقترح عليهم عروةُ بن مسعودٍ الثَّقفي أن يقابل الرَّسول (ص) ، ويسمع منه ، ثمَّ يأتيهم بالخبر اليقين [(١١٩٢)]، وقد ذكر ذلك البخاريُّ في صحيحه ، فقال:

... فقام عروةُ بن مسعودٍ فقال: أيْ قومِ ، ألستم بالوالدِ؟ قالوا: بلى! قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى! قال: فهل تتَّهموني؟ قالوا: لا! قال: ألستم تعلمون أنِّي استنفرت أهل عكاظ[(١١٩٣)] ، فلما بَلَّحُوا[(١١٩٤)] عليَّ جئتكم بأهلي ، وولدي ، ومن أطاعني؟ قالوا: بلى! قال: فإنَّ هذا قد عرض عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبلوها ، ودعوني آتِه ، قالوا: ائته. فأتاه ، فجعل يكلِّم النَّبي (ص) ، فقال النَّبيُّ (ص) نحْواً من قوله لبُدَيْلٍ ، فقال عُرْوَةُ عند ذلك: أيْ محمَّدُ! أرأيت إن استأصلت أمر قومك ، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنِّي والله لا أرى وجوهاً ، وإنِّي لأرى أشواباً[(١١٩٥)] من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ، ويَدَعُوك. فقال أبو بكر: امْصُصْ بَظْرَ[(١١٩٦)] اللَّاتِ ، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟! فقال: مَنْ ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والَّذي نفسي بيده! لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها؛ لأجبتُك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشنَّ على المسلمين حرباً نفسيَّة حتَّى يهزمهم معنويَّاً ، فاستخدم عنصر الإشاعة ، ويظهر ذلك عندما لوَّح بقوَّة قريشٍ العسكريَّة ، معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريشٍ لا محالة ، وذلك جدير بحدوث الفتنة ، والإرباك في صفوف المسلمين ، وذلك

حينما حاول إضعاف الثِّقة بين القائد ، وجنوده ، عندما قال للنَّبي (ص) : فإِنِّي والله! لا أرى وجوهاً ، وإنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ، ويدعوك.

حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيَّات المسلمين ، ولخدمة أهداف قريشٍ العسكريَّة ، والإعلاميَّة ، وحاول ـ أيضاً ـ أن يفتعل أزمةً عسكريَّة كبيرةً بين النَّبيِّ (ص) وجنوده من أجل التَّأثير على معنوياتهم ، وتحطيم عزائمهم ، وهذا من أقوى أساليب الحرب النَّفسية الَّتي استخدمت ضدَّ المسلمين أثناء تلك المفاوضات، وحاول عروة أن يثير الرُّعب، وذلك بتخويف المسلمين من قوَّة قريش الَّتي لا تقهر ، وتصوير المعركة بأنَّها في غير صالحهم. لقد مارس عروةُ بن مسعودٍ في مفاوضاته عناصر الحرب النفسيَّة من إشاعةٍ، وافتعال الأزمات، وإثارة الرُّعب[(١١٩٧)]، إلا أنَّ تلك العناصر تحطَّمت أمام الإيمان العميق ، والتَّكوين الدَّقيق ، والصَّفِّ الإسلاميِّ المرصوص.

ومن المفارقات الرَّائعة الَّتي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود، وهي من عجائب الأحداث الَّتي يستشفُّ منها الدَّليل القاطع على قوة الإيمان الَّتي كان يتمتَّع بها أصحاب النَّبيِّ (ص) ، وعلى قدرة هذا الدِّين من تحويل الإنسان من شيطانٍ مريدٍ إلى إنسان فاضلٍ نبيلٍ ، حيث كان أحد الذين يتولَّون حراسة النَّبيِّ (ص) أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثَّقفي في الحديبية هو المغيرة بن شُعبة[(١١٩٨)] ، ابن أخي عروة بن مسعود نفسه، وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شابّاً فاتكاً سكِّيراً ، قاطعاً للطَّريق، غير أنَّ دخوله للإسلام حوَّله إلى إنسانٍ اخر ، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصَّفوة المؤمنة ، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهام حراسة النَّبيِّ (ص) في ذلك الجو الملبَّد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهليَّة في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الَّذي يراه ندّاً له أثناء الحديث ، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله (ص) أثناء المناقشة ، الأمر الَّذي أغضب المغيرة بن شعبة؛ الَّذي كان قائماً على رأس رسول الله (ص) بالسَّيف يحرسه ، وعلى وجهه المغفر ، فانتهر عمَّه ، وقرع يده بقائم السَّيف قائلاً له: اكفف يدك عن مسِّ لحية رسول الله (ص) قبل ألا تصلَ إليك ، وكان النَّبيُّ (ص) يبتسم لِلَّذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن.

ولما كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربيِّ متوشحاً سيفه ، ودرعه ، وعلى وجهه المغفر؛ فإنَّ عمَّه عروة لم يكن باستطاعته معرفته ، فقال للنَّبيِّ (ص) وهو في أشدِّ الغضب: ليت شعري من أنت يا محمَّد مِنْ هذا الَّذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله (ص) : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ، فقال له عمُّه: وأنت بذلك يا غُدَر؟! لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدَّهر ، والله ما غسلت غدرتك إلا

بالأمس ، كان المغيرة صحب قوماً في الجاهليَّة ، فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثمَّ جاء ، فأسلم ، فقال النَّبيُّ (ص) : أمَّا الإسلام فأقبل ، وأمَّا المال فلست منه في شيءٍ.

لقد فشل عروة في مفاوضاته ، ورجع محذِّراً قريشاً من أن تدخل في صراعٍ مسلَّحٍ مع النَّبيِّ (ص) ، وأصحابه ، وقال لهم: ... يا قوم! إِنِّي قد وفدت على الملوك: على كسرى ، وهرقل ، والنَّجاشي ، وإِنِّي والله ما رأيت ملكاً قطُّ أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمَّد ، وأصحابه ، والله! ما يشدُّون إليه النَّظر ، وما يرفعون عنده الصَّوت ، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمرٍ ، فيفعل ، وما يتنخَّمُ ، وما يبصق إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم يمسح بها جلده ، وما يتوضَّأ إلا ازدحموا عليه أيُّهُم يظفر منه بشيءٍ.
وقد حزرت القوم ، واعلموا أنَّكم إن أردتم السَّيف؛ بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يُصنعُ بهم؛ إذا منعوا صاحبهم. والله! لقد رأيت نسيات معه ، إن كنَّ ليسلمنه أبداً على حالٍ ، فَرَوا رأيكم ، وإيَّاكم وإضجاع[(١١٩٩)] الرَّأي ، فمادُّوه يا قوم ، اقبلوا ما عرض ، فإنِّي لكم ناصحٌ مع أنِّي أخاف ألا تُنْصَروا عليه؛ رجلٌ أتى هذا البيت معظِّماً له ، معه الهدي ، ينحره ، وينصرف! فقالت قريش: لا تكلَّم بهذا يا أبا يعفور[(١٢٠٠)]! لو غيرك تكلَّم بهذا؛ لَلُمْنَاهُ ، ولكن نردُّهُ عن البيت في عامنا هذا ، ويرجع قابل[(١٢٠١)].
لقد انتقلت الحرب النَّفسيَّة وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريشٍ ، وفي نفوسهم ، فقد كان تصوير عروة لما راه صادقاً ، حيث بيَّن لقريشٍ وضع المسلمين في الحديبية ، من طاعتهم لنبيِّهم الكريم ، وحبِّهم له ، وتفانيهم بالدِّفاع عنه ، وبما يتمتَّعون به من معنوياتٍ عاليةٍ جدّاً ، واستعدادٍ عسكريٍّ ، ونفسيٍّ يفوق الوصف ، فكان ذلك بمثابة التَّحذير الفعليِّ لقريش بعدم التَّعجُّل ، والدُّخول في حربٍ مع النَّبيِّ (ص) ، وأصحابه ، ممَّا قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين ، الأمر الَّذي أُسقِطَ في أيدي زعمائها ، ولم تكن قريش تتوقَّعه أبداً في تقويمها للأمور.
لقد كان وَقْعُ كلِّ كلمةٍ قالها سيِّد ثقيف كالصَّاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش ، لقد كان (ص) موفقاً من قبل الله تعالى ، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسعود ممَّا جعل الانشقاق يدبُّ في معسكر قريش ، وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوَّة الحقِّ الصَّامدة ، وكذلك فقد انهارت حُجَّة قريش في جمعها للعرب ضدَّ النَّبيِّ (ص) .

لقد نجح النَّبيُّ (ص) بحكمته ، وذكائه نجاحاً عظيماً باستخدام الأساليب الإعلاميَّة ، والدبلوماسيَّة المتعدِّدة للحصول على الغاية المنشودة ، وهي تفتيت جبهة قريش الدَّاخلية ، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم ، وإبعاد حلفائهم عنهم ، وإنَّ هذه النتيجة لتعدُّ بحقٍّ نصراً ساحقاً
حقَّقه رسول الله (ص) على الجبهات السِّياسيَّة ، والإعلاميَّة ، والعسكريَّة[(١٢٠٢)].

٣ ـ سفارة الحُلَيْسِ بن علقمة:

ثمَّ بعثوا الحُلَيْسَ بن علقمة الكِنانيَّ سيِّد الأحابيش ، فلمَّا راه رسول الله (ص) قال: «إنَّ هذا من قومٍ يتألَّهون ، فابعثوا الهدي في وجهه حتَّى يراه» ، وأمر برفع الصَّوت في التَّلبية ، فلمَّا رأى الحُلَيْسُ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده؛ رجع إلى قريشٍ قبل أن يصل إلى رسول الله (ص) ، وذلك إعظاماً لما رأى[(١٢٠٣)] ، فقد كان الوادي مجدباً لا ماء فيه ، ولا مرعى ، وقد أكل الهدي أوباره من طول الحبس عن مَحِلِّه ، ورأى المسلمين؛ وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتَّلبية ، وهم في زيِّ الإحرام ، وقد شعِثوا من طول المكوث على إحرامهم... ولذلك استنكر تصرُّف قريشٍ بشدَّةٍ ، وانصرف سيِّد بني كنانة عائداً من حيث أتى دون أن يفاتح النَّبيَّ (ص) بشيءٍ ، أو أن يفاوضه ، كما كان مقرَّراً من قبل ، واعتبر عمل قريش عدوانيّاً ضدَّ زوَّار بيت الله الحرام ، ولا يجوز لأحدٍ أن يؤيِّدها ، أو أن يناصرها على ذلك[(١٢٠٤)] ، فرجع محتجّاً على قريشٍ الَّتي أعلنت غضبها لصراحة الحُلَيْس ، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الَّذي يهدِّد بانقسامٍ خطير في جبهة قريشٍ العسكريَّة ، ونسف الحلف المعقود بين قريش ، والأحابيش ، وقالوا لزعيم الأحابيش: إنَّما كلُّ ما رأيت هو مكيدةٌ من محمَّدٍ ، وأصحابه ، فاكفف عنَّا حتَّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[(١٢٠٥)].

لقد كان النَّبيُّ (ص) عالماً ، ومستوعباً لشخصية الحُلَيْسِ ، ونفسيَّته ، ويظهر ذلك في قوله (ص) : «هذا من قومٍ يتألَّهون» ، فالواضح من هذه المعلومة: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان على معرفةٍ تامَّةٍ بهذا الرَّجل ، وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسةً موضوعيَّةً ، وذلك بما كان عنده من حبٍّ شديدٍ من التعظيم للحرمات ، والمقدَّسات والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعرفة، وعلى هذا الأساس فقد قام (ص) بوضع خطَّةٍ مُحْكَمةٍ مناسبةٍ تقضي بوضع الحقائق كاملةً أمام هذا الرَّجل، وإظهار موقف المسلمين، أو على الأقلِّ وقوفه على الحياد في هذا الصِّراع.

والجدير بالذِّكر: أنَّ الحُلَيْسَ كان يتمتَّع بسمعةٍ طيِّبةٍ بين العرب جميعاً؛ وذلك لما يتميَّز به من رجاحة العقل ، ولما يتمتَّع به من مركزٍ ممتازٍ بوصفه زعيماً ، وقائداً لقوات الأحابيش ، كما كان يتمتَّع باحترامٍ وتقديرٍ من جانب النَّبيِّ (ص) وقريشٍ على حدٍّ سواء ، لهذا فإنَّه إذا ما تبيَّن له أنَّ

الحقَّ ، والعدل في جانب المسلمين؛ فإنَّه يستطيع أن يقوم بدورٍ مهمٍّ في إحلال السَّلام بين الطَّرفين المتنازعين ، والعمل على كبح جماح قريش ، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائيِّ ضدَّ المسلمين ، وصدِّهم عن المسجد الحرام. ومن هنا فقد كانت الدِّراسة النَّفسيَّة التي قام بها رسول الله (ص) لشخصيَّة الحُلَيْس تتناسب كلِّيّاً مع المبادأى الَّتي يُؤمن بها ، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العمليَّة إيجابيةً تماماً[(١٢٠٦)] ، ومرضيةً.

وهكذا استطاع (ص) أن يؤثِّر على عروة بن مسعود ، والحُلَيْس بن علقمة ممَّا جعل الانشقاق يدبُّ في صفوف مشركي مكَّة. يقول الأستاذ العقَّاد عن قدرة الرَّسول (ص) في توظيف الطَّاقات ، وإدارة الصِّراع: كان رسول الله (ص) الخبير بتجنيد بعوث الحرب ، وبعوث الاستطلاع ، خبيراً كذلك بتجنيد كلِّ قوَّةٍ في يده متى وجب القتال ، إن كانت قوَّة رأيٍ ، أو قوَّة لسانٍ ، أو قوَّة نفوذٍ ، فما نعرف أنَّ أحداً وجَّه قوَّة الدَّعوة توجيهاً أشدَّ ، ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه (ص) . ثمَّ يضيف الكاتب قائلاً: والدَّعوة في الحرب ـ كما لا يخفى ـ لها غرضان أصيلان من بين أغراضها العديدة:

أحدهما: إقناع خصمك والنَّاس بحقِّك.

وثانيهما: إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه ، وإيقاع الشَّتات بين صفوفه. ثمَّ يقول: وربما بلغ النَّبيُّ (ص) برجلٍ واحدٍ في هذا الغرض ما لم تبلغه الدُّول بالفِرَق المنظَّمة[(١٢٠٧)].

٤ ـ سفارة مِكْرَز بن حَفْصٍ:

وكان من سفراء قريش يوم الحديبية مِكْرَزُ بن حفصٍ ، وقد روى البخاريُّ ذلك فقال:... فقام رجلٌ منهم ، يقال له: مِكْرَز بن حفصٍ ، فقال النَّبيُّ (ص) : هذا مكرَز ، وهو رجلٌ فاجر ، فجعل يُكَلِّمُ النَّبيَّ (ص) ، فبينما هو يكلِّمه إذ جاء سُهَيْلُ بن عمرو ، قال مَعْمَر: فأخبرني أيُّوب عن عكرمة: أنَّه لما جاء سهيل بن عمرو ، قال النَّبيُّ (ص) : «قد سَهُلَ لكم من أمركم» ولنا حديثٌ مع سهيلٍ بإذن الله تعالى.

سادساً: الوفود النَّبويَّة إلى قريشٍ ، ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين:

رأى النَّبيُّ (ص) أنَّ من الضَّرورة إرسال مبعوثٍ خاصٍّ من جانبه إلى قريشٍ يبلِّغهم فيها نواياه السِّلميَّة بعدم الرَّغبة في القتال ، واحترام المقدَّسات ، ومن ثَمَّ أداء مناسك العمرة ، والعودة إلى المدينة، فوقع

الاختيار على أن يكون مبعوث الرَّسول (ص) إلى قريش (خِراشَ بن أُميَّة الخُزاعيَّ) ، وحمله على جملٍ يقال له: (الثَّعلب) ، فلمَّا دخل مكَّة عقرت به قريش ، وأرادوا

قتل خِرَاش ، فمنعهم الأحابيش ، فعاد خِراش بن أميَّة إلى رسول الله (ص) ، وأخبره بما صنعت قريش ، فأراد رسول الله (ص) أن يرسل سفيراً اخر لتبليغ قريشٍ رسالة رسول الله (ص) ، ووقع اختيار الرَّسول (ص) في بداية الأمر على عمر بن الخطَّاب[(١٢٠٨)] ، فاعتذر لرسول الله (ص) عن الذَّهاب إليهم ، وأشار على رسول الله (ص) أن يبعث عثمان مكانه[(١٢٠٩)] ، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معزَّزاً بالحجَّة الواضحة ، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء؛ وحيث إنَّ هذا الأمر لم يكن متحقِّقاً بالنِّسبة لعمر رضي الله عنه؛ فقد أشار على النَّبيِّ (ص) بعثمان رضي الله عنه؛ لأنَّ له قبيلةً تحميه من أذى المشركين حتَّى يبلِّغ رسالة رسول الله (ص)(٢) ، وقال لرسول الله (ص) : إِنِّي أخاف قريشاً على نفسي ، قد عرفَتْ عداوتي لها ، وليس بها من بني عديٍّ مَنْ يمنعني ، وإن أحببت يا رسول الله! دخلت عليهم(٢)، فلم يقل رسول الله (ص) شيئاً. قال عمر: ولكن أدلُّك يا رسول الله! على رجلٍ أعزَّ بمكَّة منِّي ، وأكثر عشيرةً ، وأمنع: عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله (ص) عثمان رضي الله عنه ، فقال: اذهب إلى قريشٍ فخبرهم ، أنَّا لم نأتِ لقتال أحدٍ ، وإنما جئنا زوَّاراً لهذا البيت ، معظِّمين لحرمته ، معنا الهديُ ، ننحرُه ، وننصرف ، فخرج عثمان بن عفَّان رضي الله عنه حتَّى أتى بلدح[(١٢١٠)] ، فوجد قريشاً هنالك ، فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله (ص) إليكم ، يدعوكم إلى الله ، وإلى الإسلام ، تدخلون في الدِّين كافَّةً ، فإنَّ الله مظهرٌ دينه ، ومعزٌّ نبيه ، وأخرى: تكفُّون ، ويلي هذا منه غيرُكم ، فإن ظفروا بمحمَّدٍ؛ فذلك ما أردتم ، وإن ظفر محمَّدٌ؛ كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه النَّاس ، أو تقاتلوا؛ وأنتم وافرون جامُّون ، إنَّ الحرب قد نهكتكم ، وأذهبت بالأماثل منكم ..... فجعل عثمان يكلِّمهم ، فيأتيهم بما لا يريدون، ويقولون: قد سمعنا ما تقول ، ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عَنْوَةً ، فارجع إلى صاحبك ، فأخبره أنَّه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعيد بن العاص ، فرحَّب به ، وأجاره ، وقال: لا تقصر عن حاجتك ، ثمَّ نزل عن فرسٍ كان عليه ، فحمل عثمان على السَّرج ، وردفه وراءه ، فدخل عثمان مكَّة ، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً: أبا سفيان بن حرب ، وصفوان بن أميَّة ، وغيرهما ، منهم من لقي ببلدح ، ومنهم من لقي بمكَّة ، فجعلوا يردُّون عليه: إن محمَّداً لا يدخلها علينا أبداً[(١٢١١)].

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت ، فأبى[(١٢١٢)] ، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله (ص) إلى المستضعفين بمكَّة وبشَّرهم بقرب الفرج ، والمخرج[(١٢١٣)] ، وأخذ منهم رسالةً شفهيَّة إلى رسول الله (ص) جاء فيها: اقرأ على رسول الله (ص) منا السَّلام ، إنَّ الَّذي أنزله بالحديبية لقادرٌ على أن يدخله بطن مكَّة[(١٢١٤)].

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصُّلح ، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الاخر ، وكانت معركةٌ ، وتراموا بالنَّبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كلُّ واحدٍ من الفريقين بمن فيهم[(١٢١٥)] ، وقد تحدَّث القران الكريم عن ذلك ، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الفتح: ٢٤].

وقد روى مسلم سبب نزول الاية السابقة: أنَّ ثمانين رجلاً من أهل مكَّة هبطوا على رسول الله (ص) من جبل التَّنعيم متسلِّحين ، يريدون غِرَّة[(١٢١٦)] النَّبيِّ (ص) وأصحابه ، فأخذهم سِلْماً[(١٢١٧)] ، فاستحياهم[(١٢١٨)] ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الاية المذكورة. [مسلم (١٨٠٨) ، وأحمد (٣/١٢٢) ، وأبو داود (٢٦٨٨) ، والترمذي (٣٢٦٤)].

وهذا سلمة بن الأكوع يحدِّثنا عمَّا حدث قال: ثمَّ إنَّ المشركين راسلونا الصُّلح ، حتَّى مشى بعضنا في بعضٍ ، واصطلحنا ، قال: وكنت تبيعاً[(١٢١٩)] لطلحة بن عبيد الله ، أسقي فرسه ، وأحسُّه[(١٢٢٠)] ، وأخدمه ، واكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله قال: فلمَّا اصطلحنا نحن وأهل مكَّة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرةً فكسحت شوكها[(١٢٢١)] ، فاضطجعت في أصلها ، قال: فأتاني أربعةٌ من المشركين من أهل مكَّة ، فجعلوا يقعون في رسول الله (ص) ، فأبغضتُهم ، فتحوَّلت إلى شجرةٍ أخرى ، وعلَّقوا سلاحهم ، واضطجعوا ، فبينما هم كذلك؛ إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زُنَيْمٍ! قال: فاخترطت

سيفي[(١٢٢٢)] ثمَّ شددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم ، فجعلته ضِغْثاً[(١٢٢٣)] في يدي. قال: ثمَّ قلت: والَّذي كرَّم وجه محمَّد! ما يرفع أحدٌ منكم رأسه إلا ضربت الَّذي فيه عيناه[(١٢٢٤)] ، قال: ثمَّ جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله (ص) . قال: وجاء عمِّي عامرٌ برجلٍ من العَبْلاتِ[(١٢٢٥)] يقال له: مِكْرَزٌ ، يقوده إلى رسول الله (ص) على فرسٍ مُجَفَّفٍ[(١٢٢٦)] في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله (ص) فقال: «دعوهم ، يكن لهم بدء الفُجُور وثِنَاه»[(١٢٢٧)] فعفا عنهم رسول الله (ص) ، وأنزل الله: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ

عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الفتح: ٢٤] [مسلم (١٨٠٧)].

قال ابن كثير: هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كفَّ أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوءٌ ، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين ، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرٌ للمؤمنين ، وعافيةٌ في الدُّنيا ، والاخرة[(١٢٢٨)].

والكفُّ: منع الفاعل من فعلٍ أراده ، أو شرع فيه ، وهو مشتقٌّ من اسم الكفِّ الَّتي هي اليد؛ لأنَّ أصل المنع أن يكون دفعاً باليد ، ويقال: كفَّ يده عن كذا: إذا منعه من تناوله بيده[(١٢٢٩)].

وقوله: قال الرَّاغب: البطن خلاف الظَّهر في كلِّ {بِبَطْنِ مَكَّةَ} ، ويقال للجهة السُّفلى: بطنٌ ، وللجهة العُليا: ظهرٌ[(١٢٣٠)].

وجمهور المفسِّرين حملوا بطن مكَّة في الاية على الحديبية من إطلاق البطن على أسفل المكان ، والحديبية قريبةٌ من مكَّة وهي إلى مكَّة أقرب ، وهي من الحلِّ ، وبعض أرضها من الحرم ، وهي على الطَّريق بين مكَّة وجُدَّة ، وهي إلى مكَّة أقرب[(١٢٣١)].

وختم الاية سبحانه بقوله: {مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا *} [الفتح: ٢٤] هذه إشارةٌ إلى أنَّ كف بعضهم عن بعض كان للمسلمين؛ إذ منُّوا على العدوِّ بعد التمكُّن منه[(١٢٣٢)].

سابعاً: بيعة الرِّضوان:

لما بلغ النَّبيَّ (ص) : أنَّ عثمانَ رضي الله عنه قُتِل دعا رسولُ الله (ص) أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ، ومناجزتهم ، فاستجاب الصَّحابة ، وبايعوه على الموت [البخاري (٤١٦٩) ، ومسلم (١٨٦٠)] ، سوى الجَدِّ بن قَيس ، وذلك لنفاقه[(١٢٣٣)]. وفي روايةٍ: أنَّ البيعة كانت على الصَّبر[(١٢٣٤)]. وفي روايةٍ على عدم الفرار [مسلم (١٨٥٦) ، وأحمد (٣/٣٩٦) ، والترمذي (١٥٩٤) ، والنسائي (٧/١٤٠ و١٤١)] ولا تعارض في ذلك؛ لأنَّ المبايعة على الموت تعني: الصَّبر ، وعدم الفرار[(١٢٣٥)].

وكان أوَّل مَنْ بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسديُّ[(١٢٣٦)] ، فخرج النَّاس بعده يبايعون على بيعته[(١٢٣٧)] ، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرَّاتٍ ، في أوَّل النَّاس ، وأوسطهم ، واخرهم[(١٢٣٨)] ، وقال النَّبيُّ (ص) بيده اليمنى: «هذه عن عثمان» فضرب بها على يده. [البخاري (٣٦٩٨) ، والترمذي (٣٧٠٦) ، وأحمد (١/١٠١ و١٢٠)].

وكان عددُ الصَّحابة الَّذين أخذ منهم الرَّسول (ص) المبايعة تحت الشجرة ألفاً وأربعمئة صحابيٍّ[(١٢٣٩)]
، وقد تحدَّث القران الكريم عن أهل بيعة الرِّضوان ، وورد فضلُهم في نصوصٍ كثيرةٍ من الايات القرانيَّة ، والأحاديث النَّبويَّة؛ منها:

١ ـ قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح: ١٠].

وهذه الاية فيها ثناءٌ ، ومدحٌ عظيمٌ لأهل بيعة الرِّضوان ؛ فقد جعل الله مبايعتهم لرسوله (ص) مبايعةً له ، وفي هذا غاية التَّشريف ، والتَّكريم لهم رضي الله عنهم[(١٢٤٠)].

قال ابن القيِّم: وتأمَّل قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ }

فلمَّا كانوا يبايعون رسول الله (ص) بأيديهم ، ويضرب بيده على أيديهم ، وكان رسول الله (ص) هو السَّفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى ، ولما كان سبحانه فوق سمواته على عرشه ، وفوق الخلائق كلِّهم كانت يده فوق أيديهم ، كما أنَّه سبحانه فوقهم[(١٢٤١)].

ومعنى قوله في الاية: أي: ثواباً جزيلاً وهو {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *} ، وما يكون فيها ممَّا لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشرٍ[(١٢٤٢)].

٢ ـ وقال تعالى مخبراً برضاه عنهم: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا *وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *} [الفتح: ١٨ ـ ١٩].

فقد أخبر الله تعالى أنَّه رضي عن أولئك الصَّفوة الأخيار من أهل بيعة الرِّضوان ، ومَنْ رضي الله عنه لا يسخط عليه أبداً ، فَلِلَّهِ ما أعظم هذا التكريم الذي ناله أهل بيعة الرضوان ، وما أعلاه من مَنْقَبَةٍ! ومعنى الاية: لقد رضي الله {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ} محمد! عن المؤمنين يعني: بيعة أصحاب {إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} الله (ص) بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريشٍ الحرب ، وعلى ألاَّ يفرُّوا ، ولا يولُّوهم الأدبار تحت الشَّجرة ، وكانت بيعتهم إيَّاه هنالك تحت شجرة السَّمُرة أي: فعلم ربك {فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ} محمد! ما في قلوب المؤمنين من أصحابك؛ إذ يبايعونك تحت الشَّجرة من صدق النِّيَّة ، والوفاء بما يبايعونك عليه ، والصبر أي: فأنزل الطمأنينة والثَّبات على {فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} هم عليه من دينهم ، وحسن بصيرتهم بالحقِّ الَّذي هداهم الله له وهو فتح {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا *} ، وأمَّا قوله تعالى: أي: وأثاب الله هؤلاء الَّذين بايعوا {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا} الله (ص) تحت الشَّجرة مع ما أكرمهم به

من رضاه عنهم ، وإنزاله السَّكينة عليهم ، وإثابته إيَّاهم فتحاً قريباً ، وهو ما أجرى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على أيديهم من الصُّلح بينهم ، وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العامِّ المستمرِّ المتَّصل بفتح خيبر ، وفتح مكَّة ، ثمَّ فتح سائر البلاد ، والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العزِّ ، والنَّصر ، والرِّفعة في الدُّنيا ، والاخرة[(١٢٤٣)] ، ولهذا قال الله تعالى: {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *}

٣ ـ أخبر الله تعالى عن أهل بيعة الرِّضوان: أنَّه ألزمهم كلمة التَّقوى ، الَّتي هي كلمة التَّوحيد ، وأنَّهم كانوا أحقَّ بها وأهلها. قال تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا *} [الفتح: ٢٦].

فلقد بيَّن الله تعالى في هذه الاية: أنَّه ألزم الصَّحابة رضي الله عنهم كلمة التَّقوى ، وأكثر المفسرين على أنَّ المراد بكلمة التَّقوى هي: (لا إله إلا الله) ، وبيَّن أنَّهم أحقُّ بها من كفَّار قريش ، وأنَّهم كانوا أهلها في علم الله؛ لأنَّ الله تعالى اختار لدينه ، وصحبة نبيِّه (ص) أهل الخير[(١٢٤٤)]. ذلك هو الثَّناء في القران على الصَّحابة الَّذين بايعوا النَّبيَّ (ص) بيعة الرِّضوان بالحديبية ، وقد ورد الثَّناء عليهم في السُّنَّة المطَّهرة في أحاديث كثيرةٍ ، ومن ذلك ما يلي:

أ ـ مِنْ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسولُ الله (ص) يوم الحديبية: «أنتم خيرُ أهل الأرض» ، وكنا ألفاً وأربعمئة ، ولو كنت أبصر؛ لأريتكم موضع الشَّجرة. [البخاري (٤١٥٤) ، ومسلم (١٨٥٦/٧١)].

هذا الحديث صريحٌ في فضل أصحاب الشَّجرة ، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعةٌ بمكَّة ، وبالمدينة ، وبغيرهما ، وتمسَّك به بعض الشِّيعة في تفضيل عليٍّ على عثمان؛ لأنَّ عليّاً كان من جملة من خوطب بذلك ، وممَّن بايع تحت الشَّجرة ، وكان عثمان حينئذٍ غائباً ، وهذا التمسُّك باطلٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ (ص) بايع عنه ، فاستوى معهم عثمان في الخيريَّة المذكورة ، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعضٍ[(١٢٤٥)].

ب ـ وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أخبرتني أمُّ مبشِّر: أنَّها سمعت النَّبيَّ (ص) يقول عند حفصة: «لا يدخل النَّار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها ، فقالت حفصة: فقال النَّبيُّ {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} : «قد قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {وَإِنْ مِنْكُمْ

إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقُوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *} [مريم: ٧١ ـ ٧٢]». [أحمد (٦/٢٨٥) ، ومسلم (٢٤٩٦) ، وابن ماجه (٤٢٨١)].

قال النَّوويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: قوله (ص) : «لا يدخل النَّار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها». قال العلماء: معناه: لا يدخلها أحدٌ منهم قطعاً.... وإنَّما قال: إن شاء الله للتبرُّك ، لا للشكِّ. وأمَّا قول حفصة: بلى! وانتهار النَّبيِّ (ص) لها ، فقالت: فقال النَّبيُّ {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} : «وقد قال: » فيه دليلٌ {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا} ، والجواب على وجه الاسترشاد ، وهو مقصودُ حفصة لا أنَّها أرادت ردَّ مقالته (ص) . والصَّحيح:

أنَّ المراد بالورود في الاية: المرور على الصِّراط ، وهو جسرٌ منصوبٌ على جهنَّم ، فيقع فيها أهلها وينجو الاخرون[(١٢٤٦)].

ج ـ وروى الإمامُ مسلم بإسناده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (ص) : «من يصعد الثَّنيَّة ثنيةَ المرار[(١٢٤٧)] ، فإنَّه يُحطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل». قال: فكان أوَّل مَنْ صعدها خيلنا؛ خيلُ بني الخزرج ، ثمَّ تتامَّ النَّاس ، فقال رسول الله (ص) : «كلُّكم مغفورٌ له إلا صاحب الجمل الأحمر». فأتيناه ، فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله (ص) ، فقال: والله! لأن أجد ضالَّتي أحبُّ إليَّ من أن يستغفر لي صاحبُكم ، قال: وكان رجلاً ينشد ضالةً له. [مسلم (١٢/٢٧٨٠)].

وهذا الحديث تضمَّن فضيلةً عظيمةً لأصحاب الحديبية رضي الله عنهم ، وتلك الفضيلة مغفرةُ الله لهم ، وأكرمْ بها مِنْ فضيلة منحهم إيَّاها الرَّبُّ ـ جل وعلا ـ لإخلاصهم في طاعتهم واستجابتهم لله ، والرَّسول (ص) بالسَّمع ، والطَّاعة![(١٢٤٨)].

إنَّ جيل الحديبية له سماتٌ كما في النُّصوص الصَّحيحة ، فهم خير أهل الأرض ، وغفر الله لهم ، ولا يدخل منهم أحدٌ النَّار ، وهذا الجيل مكوَّنٌ من السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين ، والأنصار من أهل بدرٍ ، ومن صلَّى القبلتين ، ومن التحق بهم من الَّذين اتَّبعوهم بإحسانٍ.

وحين نُمعن النَّظر في هذا الجيل الفريد مقارنةً مع أهل بدرٍ؛ نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النِّصف من الجيش ، وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاث وثمانين في بدرٍ إلى ثمانمئة ، كان معظمه من القبائل العربيَّة المجاورة ، وهي قبائل صغيرةٌ؛ إذا قيست بالقبائل الكبرى ، لكنَّ شبابها كانوا يغدون إلى المدينة ، ينضوون تحت لواء رسول الله (ص) ، ويتلقَّون التَّربية اليوميَّة في المسجد ، والتَّربيَّة العملية في المعارك ، والغزوات ، فيتدرَّبون على الجنديَّة الخالصة ، ويفقهون دينهم مباشرةً من رسول ربِّ العالمين

(ص) ، وينشؤون في ظلال القدوة العُليا لهم من السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين ، والأنصار ، ويتنافسون في الطَّاعة ، والامتثال لأمر الله ، ورسوله ، فنالت قبائلهم بذلك شرفاً ربا على القبائل الكُبرى؛ الَّتي تخاذلت في الانضمام للإسلام ، فقبيلة أسلم ، وغفار كانت على رأس هذه القبائل ، ويعود الفضل ـ بعد الله ـ في ذلك إلى الرَّعيل الأوَّل منهم ، واللبنات الأولى الَّتي انضمَّت إلى الدَّعوة ، إلى أبي ذرٍّ الغفاريِّ ، الَّذي كان من السَّابقين في إسلامه بمكَّة ، ومضى داعياً في قومه حتَّى جاءه سبعون بيتاً من غفار يؤمُّ بهم المدينة بعد أحدٍ ، وإلى بريدة بن الحصيب الأسلميِّ ، الَّذي تلقَّى

رسولَ الله (ص) قبل دخوله المدينة ، فأسلم ، ومعه سبعون من قومه كذلك[(١٢٤٩)].

أمَّا القبائل الأخرى من مُزينة ، وجُهينةَ ، وأَشْجَع ، وخُزاعةَ؛ فقد بدأ شبابُها يفدون إلى المدينة ، لكن بأعدادٍ ضئيلةٍ ، وبقي كيان القبيلة على الشِّرك ، وبقي أعرابيّاً بعيداً عن محضن التَّربية العظيم داخل المدينة ، فلم يُتَح له هذا الفضل ، والاغتراف من رحيق النُّبوَّة ، ولهذا كانت الايات الَّتي نزلت في المخلَّفين من الأعراب كالصَّواعق على رؤوسهم؛ لتخلُّفهم عن الانضمام إلى الجيش الإسلاميِّ الماضي إلى الحديبية[(١٢٥٠)].

* * *

.[١]فَاءَ فَيْئاً: رَجَعَ.

.[٢]النَّفَل: الغنيمة ، والجمع: أنفال.

.[٣]انظر: الأساس في التَّفسير (٤/٢١١٣ ـ ٢١١٤).

.[٤]من هدي سورة الأنفال ، د. محمد المصري ، ص ٩٥ ـ ٩٦.

.[٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٧.

.[٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٧ ـ ٦٨.

.[٧]في ظلال القران الكريم (٣/١٤٧٣ ـ ١٤٧٤).

.[٨]المنهج التَّربويُّ للسِّيرة النَّبوية ـ التَّربية الجهادية ، للغضبان (٥٢/١).

.[٩]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٦١ ـ ٦٢.

.[١٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢١٠.

.[١١]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢١٥.

.[١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١٧٦/٢).

.[١٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٠٩.

.[١٤]انظر: التَّربية الجهاديَّة ، للغضبان (١٤١/١).

.[١٥]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٠٨.

.[١٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٥٤/٣).

.[١٧]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٦٢.

.[١٨]الصَّفراء: وادٍ كثير النَّخل ، والزَّرع ، والخير.

.[١٩]انظر: التَّربية القياديَّة (٦٠/٣).

.[٢٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤٣٩/١ ، ٤٤٠).

.[٢١]انظر: التَّربية القياديَّة (٥٧/٣).

.[٢٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٥٥/٢).

.[٢٣]الهوَادة: اللِّينُ والرِّفق.

.[٢٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٦٠/٣).

.[٢٥]انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٦/٣).

.[٢٦]المصدر السابق (٣٠٧/٣).

.[٢٧]البُرُّ: حَبُّ القمح.

.[٢٨]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١١٩/١).

.[٢٩]انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (٣/٤٧٤).

.[٣٠]انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (٣/٤٧٤).

.[٣١]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ (٤/١٧٥ ـ ١٧٦).

.[٣٢]انظر شرح الحديث (٤٠١٨) في فتح الباري.

.[٣٣]شرح العسقلاني لصحيح البخاري (٧/٣٢١) نقلاً عن المستفاد من قصص القران (٢/١٣٥).

.[٣٤]لأنَّ جدَّة العباس أمَّ عبد المطلب من بني النَّجار من يثرب.

.[٣٥]انظر: سُبُلَ الهدى والرَّشاد ، للصالحي (٤/١٣٥).

.[٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٧٦).

.[٣٧]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٦٨).

.[٣٨]القلادَةُ: ما يُجْعَل في العُنُق من حليٍّ ونحوه.

.[٣٩]بَنَى بزوجته وعليها: دخل بها.

.[٤٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦١.

.[٤١]اسم مكان على ثمانية أميال من مكَّة.

.[٤٢]انظر: محمَّد رسول الله ، لعرجون (٣/٤٨٠ ـ ٤٨٧).

.[٤٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٤/١٨٣).

.[٤٤]مباءةٌ: مكانةٌ رفيعةٌ.

.[٤٥]انظر: البداية والنِّهاية (٣/٣١٣).

.[٤٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد الصوياني (٢/٢٠٠).

.[٤٧]انظر: البداية والنِّهاية (٣/٣١١). وقال ابن كثيرٍ: مرسلٌ؛ بل معضل.

.[٤٨]انظر: البداية والنِّهاية (٣/٣١١).

.[٤٩]المصدر السابق نفسه.

.[٥٠]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٤/١٨١).

.[٥١]انظر: محمَّد رسول الله ، لعرجون (٣/٤٧٤).
.[٥٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦١.
.[٥٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٧٤).
.[٥٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٦٤ ـ ١٦٥).
.[٥٥]انظر: غزوة بدر الكبرى ، ص ١٠١.

.[٥٦]الصُّقْعُ: النَّاحية ، والجمع: أصْقَاع.
.[٥٧]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
.[٥٨]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.
.[٥٩]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٥٧، وانظر: سيرة ابن هشام (بلوغ مصاب قريشٍ إلى مكَّة).
.[٦٠]كبته: أذله.

.[٦١]طُنُب الحجرة: طرفُها.
.[٦٢]بَلِقَ: بَلقاً وبُلْقَة: كان فيه سوادٌ ، وبياض ، فهو أَبْلَق ، وهي بَلْقَاءُ ، والجمع: بُلْق.
.[٦٣]تُلِيق: تُبْقي.
.[٦٤]ثاوَرْتُه: وثبتُ إليه.
.[٦٥]فَلَعَتْ: شقت.
.[٦٦]العَدَسَةُ: قرحةٌ قاتلةٌ كالطَّاعون ، وقد عدس الرَّجل: إذا أصابه ذلك ، وهي تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطَّاعون ، وتقتل صاحبها غالباً.
.[٦٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٢/٢٥٨).
.[٦٨]هو أبو سفيان بن حرب؛ نذر ألا يمس رأسه ماء جنابة حتى يغزو المسلمين.
.[٦٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٧١).

.[٧٠]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٤.
.[٧١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٧١).
.[٧٢]عناء: تعباً.

.[٧٣]الضَّيعة: الضَّياع والتشتت.

.[٧٤]العلَّة: السبب.

.[٧٥]أواسيهم: أقوم على أمرهم ومؤونتهم.

.[٧٦]حرَّش: أفسد ، وأغرى بعضهم ببعضٍ.

.[٧٧]حَزَرَ الشيء حَزْراً: قَدَّره بالتَّخمين.

.[٧٨]حمَّالة السَّيف: ما يربط به السَّيف على الجسم.

.[٧٩]لَبَّبَهُ: أخذ بتلابيبه ، أي: جمع ثيابه عند نحره ، وصدره ثمَّ جرَّه.

.[٨٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٥٩.

.[٨١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦٠ ، وسيرة ابن هشام (إسلام عُمَيْر بن وهب).

.[٨٢]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/١٥٩) ، والخَسِيسُ: القليلُ التَّافِهُ.

.[٨٣]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٨٢.

.[٨٤]انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٨٣.

.[٨٥]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦٠.

.[٨٦]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٧٣).

.[٨٧]انظر: تفسير ابن كثير (١/٤١١).

.[٨٨]انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٠٣) نقلاً عن حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٩٧ ـ ١٠٥).

.[٨٩]زَيَّل: فرَّق. زَايَلهُ: فارَقَهُ.

.[٩٠]انظر: في ظلال القران (٣/١٥٢١ ـ ١٥٢٢).

.[٩١]امْتَرى في الشَّيء: شكَّ فيه ، ومَارَاهُ مِرَاءً ومُمَارَاةً: ناظره ، وجَادَلَهُ.

.[٩٢]انظر: في ظلال القران (١٥٢٣/٣ ـ ١٥٢٤).
.[٩٣]انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٧/٣).

.[٩٤]انظر: من مَعِين السِّيرة ، ص ٢١٣.
.[٩٥]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢١٣.
.[٩٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٧.
.[٩٧]انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٢٥٣/٢).
.[٩٨]انظر: من معين السيرة ، ص ٢١٧.

.[٩٩]السَّمْت: الهيئة.
.[١٠٠]انظر: من معين السيرة ، ص ٢١٨.

.[١٠١]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (٤٥٣/١).
.[١٠٢]تلاحيا: تلاوما ، وتنازعا.
.[١٠٣]حديد البصر: أي: نافذ.

.[١٠٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (١٧٨/٢).
.[١٠٥]انظر: زاد المعاد (١٨٦/٣). وذكر المحقِّق أنَّ ابن إسحاق ذكرها من غير سندٍ.
.[١٠٦]انظر: زاد المعاد (١٨٦/٣). والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.
.[١٠٧]العُرْجُون: العِذْقُ ، وهو من النَّخل كالعنقود من العنب ، والجمع: عرَاجينُ.
.[١٠٨]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (١٧٨/٢).

.[١٠٩]انظر: المستفاد من قصص القران (١٤٤/٢ ـ ١٤٥).

.[١١٠]انظر: البداية والنِّهاية (٣٠٥/٣).
.[١١١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٦/٣) ، الحتوف: جمع حتف ، وهو الموت.
.[١١٢]العِصَابَةُ: الجماعة من الناس.

.[١١٣]هذا محمولٌ على المبالغة؛ لأنَّ جيش قريش ما كان يزيد على الألف.

.[١١٤]أي: ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ.
.[١١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣/٣٠).
.[١١٦]انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ للحميديِّ (٤/١٩٩).
.[١١٧]سرعان ـ بضم السِّين أو فتحها أو كسرها ـ: تقولها للتَّعجُّب من السُّرعة.
.[١١٨]انظر: المنهج الحركي للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

.[١١٩]ينظر الشكل (١) في الصفحة (٧٤٥).
.[١٢٠]انظر: الأساس في السُّنَّة ، وفقهها ، السِّيرة النَّبوية (١/٥١٢).
.[١٢١]الكُدْر: ماء من مياه بني سُليم يقع في نجد.
.[١٢٢]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/٢٩٦).
.[١٢٣]انظر: التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، ص ٢٧٧.

.[١٢٤]السَّويقُ: هو أن تحمَّص الحنطة ، أو الشَّعير ، أو نحو ذلك ، ثمَّ تطحن ، ثمَّ يسافر بها ، وقد تمزج باللَّبن ، والعسل ، والسَّمن ، وتلتُّ ، فإن لم يكن شيء من ذلك؛ مزجت بالماء ، والجمع: أَسْوِقَةٌ.
.[١٢٥]انظر: السِّيرة النبوية لابن هشام (٣/٥١)، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩.
.[١٢٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣) ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٩.
.[١٢٧]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٩.

.[١٢٨]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣) ، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الاية وسبب ورودها.
.[١٢٩]بحران: كتبها بعضهم بفتح الباء (بَحْران) ، وبعضهم بضمها (بُحْران).
.[١٣٠]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ٦١ ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٨٠.
.[١٣١]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/١١٨ ـ ١١٩).

.[١٣٢]المصدر السابق نفسه (٣/١٣٢).
.[١٣٣]انظر: سيرة ابن هشام (٣/٥٦).

.[١٣٤]ينظر الشكل (٢) في الصفحة (٧٤٦).

.[١٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٢٩٩).

.[١٣٦]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/٢٦٩).

.[١٣٧]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/٢٧٦).

.[١٣٨]المصدر السَّابق نفسه.

.[١٣٩]الجَلَبُ: كلُّ ما يجلب للأسواق؛ ليُباع فيها.

.[١٤٠]انظر: سيرة ابن هشام (٣/٥٤).

.[١٤١]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/١٧٦) ، والطَّبقات ، لابن سعد (٢/٢٨ ـ ٢٩).

.[١٤٢]انظر: تاريخ الطَّبريِّ (٢/٤٨١).

.[١٤٣]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/٢٧٩).

.[١٤٤]انظر: سيرة ابن هشام (٣/٥٥).

.[١٤٥]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/١٤٤).

.[١٤٦]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (١/٢٨٠).

.[١٤٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٥/٣٢ ـ ٣٣).

.[١٤٨]المصدر السَّابق نفسه.

.[١٤٩]ظللاً: جمع ظلَّة ، وهي السَّحابة ، وهي كناية عن تغيُّر وجه النَّبي (ص) .

.[١٥٠]حاسر: لا درع له.

.[١٥١]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/٢٨١).

.[١٥٢]المصدر السابق نفسه.

.[١٥٣]جَحَشَ: خَدَشَ.

.[١٥٤]انظر: التاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٥/٣٠).

.[١٥٥]انظر: المنهج الحركي للسِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٢٤٧.

.[١٥٦]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٥/٣٢).

.[١٥٧]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/١٤٨).
.[١٥٨]انظر: اليهود في السُنَّة المطهَّرة (١/٢٨٢ . ٢٨٣).

.[١٥٩]المصدر السابق نفسه ، (١/٢٨٤ . ٢٨٥).
.[١٦٠]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/١٤٩).
.[١٦١]انظر: المحرر الوجيز ، لابن عطيَّة (١/٤٧٧ . ٤٧٨).

.[١٦٢]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/٣٠٢).
.[١٦٣]انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١٣٨.
.[١٦٤]انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/٢٩٥).
.[١٦٥]المصدر السابق نفسه (١/٢٩٦).
.[١٦٦]انظر: السِّيرة ، لابن هشام (٣/٥٨).

.[١٦٧]انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/٢٩٨).
.[١٦٨]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٨.
.[١٦٩]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٨ ، والسيرة النبويَّة لابن هشام (٣/٥٧).
.[١٧٠]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٧١]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٧٢]الصَّلَفُ: التكبُّر والتَّفاخر.
.[١٧٣]رادعة: أي: يفوح منها أثر الطِّيب والزَّعفران ، والكتم: نبتٌ يخلط بالحنَّاء ، فيخضَّب به الشَّعر ، فيبقى لونه.
.[١٧٤]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٩ . ١٦٠ ، قسم المغازي.

.[١٧٥]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/١١١).
.[١٧٦]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٧٧]عُلَّ: من العَلَل ، وهو الشُّرب بعد الشُّرب ، يريد البكاء بعد البكاء.

.[١٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٥٩/٣).
.[١٧٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (١١١/١).

.[١٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٣٠٤/١).
.[١٨١]الَّذي كُتِب في السِّيرة النَّبوية لابن هشام: أنَّ الَّذي جاء كعبَ بن الأشرف أبو نائلة ، واسمه سِلْكان بن سلامة.
.[١٨٢]عَنَّانا: من العناء ، وهو التعب.

.[١٨٣]وفي كتب السِّيرة: أنَّ الَّذين قاموا بقتله خمسةُ نفرٍ ، هم: محمَّد بن مسلمة ، وسِلْكَان بن سلامة بن وقش ، وهو أبو نائلة ، أحد بني عبد الأشهل ، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرَّضاعة ، وعبَّاد بن بشر بن وقش ، أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عَبْس بن جبر ، أحد بني حارثة ، هؤلاء قدَّموا أبا نائلة؛ ليحدِّث كعب بن الأشرف.
.[١٨٤]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١١٥/١).
.[١٨٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥٤/٥).
.[١٨٦]انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٠٥.
.[١٨٧]انظر: الأساس في السُّنة وفقهها السِّيرة النَّبوية (٥٣٧/٢).

.[١٨٨]ضَوِيَ ضَوى: ضَعُفَ ، وهُزِلَ ، أو دَقَّ.
.[١٨٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (١١٩/١).
.[١٩٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٦١/٣).
.[١٩١]انظر: الصراع مع اليهود (١٢٠/١).
.[١٩٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٦١/٣).
.[١٩٣]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها السِّيرة النَّبوية (٥٣٧/٢ ـ ٥٣٨).

.[١٩٤]المصدر السابق نفسه.

.[١٩٥]خَدعَةٌ: فيها ثلاث لغات مشهورات ، أفصحهن: فتح الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّانية: ضم الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّالثة: ضمُّ الخاء ، وفتح الدَّال.

.[١٩٦]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميديِّ (٥/٥٦).

.[١٩٧]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١٢٢).

.[١٩٨]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١٢٢).

.[١٩٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميديِّ (٥/٥٦).

.[٢٠٠]المِغْوار من الرِّجال: المقاتلُ الكثيرُ الغارات على أعدائه.

.[٢٠١]المصدر السابق نفسه (٥/٥٧).

.[٢٠٢]انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ١٨٨.

.[٢٠٣]الجَريرةُ: الجناية ، والذَّنبُ.

.[٢٠٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣٠٤).

.[٢٠٥]انظر: الصِّراع مع اليهود (١/١٢٦).

.[٢٠٦]تأيَّمت: مات عنها زوجُها.

.[٢٠٧]الحُطَمِيَّةُ من الدُّروع: الثقيلة العريضة ، الَّتي تكسر السُّيوف.

.[٢٠٨]إسناده حسن.

.[٢٠٩]خميل: قطيفة.

.[٢١٠]الأدم: الجلد.

.[٢١١]إذخر: نبات له رائحةٌ عطرية.

.[٢١٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦٧.

.[٢١٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٥٥.

.[٢١٤]سنوت: استقيت.

.[٢١٥]أي: اسأليه خادماً.

.[٢١٦]مجلت يدي: ثخن جلدُها ، وتعجر.

.[٢١٧]تطوى: طوى من الجوع فهو طاوٍ ، أي: خالي البطن ، جائع ، لم يأكل.

.[٢١٨]الفتح الرَّباني ، رقم (٩٠) ، وأصل هذا الحديث في البخاريِّ ،كتاب فرض الخمس ، رقم (٣١١٣).

.[٢١٩]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/١٠٠).

.[٢٢٠]انظر: الإصابة في تمييز الصَّحابة (٨/١٥٩).

.[٢٢١]الجَشَبُ: ما غَلُظَ مأكله ، وخَشُنَ.

.[٢٢٢]انظر: صفة الصفوة ، لابن الجوزي (١/٨٤).

.[٢٢٣]ينظر الشكل (٣) في الصفحة (٧٤٧).

.[٢٢٤]انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص ٧١.

.[٢٢٥]انظر: تفسير ابن كثير لهذه الاية.

.[٢٢٦]انظر: تفسير فتح القدير لهذه الاية.

.[٢٢٧]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٧١.

.[٢٢٨]وَتَرَ فلاناً: قَتلَ حَمِيمَهُ ، وأدركه بمكروهٍ.

.[٢٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٦٨).

.[٢٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٧٩).

.[٢٣١]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٧٤.

.[٢٣٢]وادعهم: أي: صالحهم ، وسالمهم.

.[٢٣٣]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/١٩٥ ـ ١٩٦).

.[٢٣٤]انظر: غزوة أحد؛ دراسة دعويَّة ، ص ٧٥.

.[٢٣٥]البداية والنهاية (٤/١١) ، والمغازي ، للواقديِّ (١/١٩٩).

.[٢٣٦]الأحابيش: مَنِ اجتمع إلى العرب ، وانضمَّ إليهم.

.[٢٣٧]الظُّعُن: النِّساء ، واحدتها ظعينة ، والظَّعينة: المرأة في الهودج.

.[٢٣٨]انظر: الإصابة (٨/٣٤٦) ، رقم (١١٨٦٠).

.[٢٣٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٧٠).

.[٢٤٠]انظر: غزوة أحد ، دراسة دعويَّة ، ص ٧٨.

.[٢٤١]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١٧.

.[٢٤٢]المصدر السابق نفسه ، ص ١٦.

.[٢٤٣]انظر: الرَّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص ٢٥٠.

.[٢٤٤]انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/٨١٢).

.[٢٤٥]أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السِّلاح.

.[٢٤٦]انظر: مغازي الواقديِّ (١/٢٠٤).

.[٢٤٧]حَزَرَ الشَّيء: قدَّره بالتَّخمين.

.[٢٤٨]الأكبار: جمع: كَبر ، والكَبر: هو الطَّبل؛ الَّذي له وجهٌ واحد.

.[٢٤٩]انظر: مغازي الواقدي (١/٢٠٧ ـ ٢٠٨).

.[٢٥٠]تَنَصَّتَ: تَسَمَّعَ.

.[٢٥١]ألفاهُ: وجَدَهُ ، وصادفه.

.[٢٥٢]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/١٨٧).

.[٢٥٣]انظر: السِّيرة الحلبية (٢/٤٨٩).

.[٢٥٤]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ٢٢.

.[٢٥٥]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٦٠).

.[٢٥٦]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٢.

.[٢٥٧]انظر: البداية والنِّهاية (٤/١٤).

.[٢٥٨]لأمة الحرب: عدَّتها.

.[٢٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣/٧١).

.[٢٦٠]انظر: غزوة أحد ، لأحمد عز الدِّين ، ص ٥١ ـ ٥٢.

.[٢٦١]انظر: القيادة العسكريَّة ، للرَّشيد ، ص ٣٧٤.

.[٢٦٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٣٨٠/٢).

.[٢٦٣]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ٣٤ ـ ٣٥.

.[٢٦٤]الدَّليل: المرشد. والجمع: أدلاَّء.

.[٢٦٥]انظر: المغازي ، للواقدي (٢١٧/١).

.[٢٦٦]الكثب: يقال: رماه من كثبٍ: قُربٍ ، وتمكُّنٍ.

.[٢٦٧]بنو عبد الأشهل: حيٌّ من الأنصار.

.[٢٦٨]انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ص ١٦٨.

.[٢٦٩]انظر: ضوابط المصلحة ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، ص ٢٣.

.[٢٧٠]انظر: المقاصد العامة للشَّريعة ، ليوسف حامد العالم ، ص ١٦٦.

.[٢٧١]انظر: الموافقات ، للشَّاطبي (٦٥١/٢).

.[٢٧٢]انظر: قواعد الأحكام (٦/١ ـ ٧).

.[٢٧٣]المصدر السابق نفسه (٤٧/١).

.[٢٧٤]الشَّوط: اسم حائط ـ أي: بستان ـ بين المدينة ، وأحدٍ.

.[٢٧٥]انظر: البداية والنِّهاية (١٤/٤).

.[٢٧٦]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٤.

.[٢٧٧]انظر: مرويات غزوة أحد ، لحسين أحمد ، ص ٧١.

.[٢٧٨]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٧٧.

.[٢٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٣٨٢/٣).

.[٢٨٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٧٨.

.[٢٨١]انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمَّد عرجون (٥٦١/٣).

.[٢٨٢]انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٣٨٣).
.[٢٨٣]انظر: محمد رسول الله (٣/٥٧١ . ٥٧٢).
.[٢٨٤]حمي الوطيس: اشتدت الحرب.
.[٢٨٥]انظر: محمَّد رسول الله (٣/٥٧١ . ٥٧٢).

.[٢٨٦]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٩.
.[٢٨٧]انظر: مغازي الواقديِّ (١/٢٢١ . ٢٢٢).
.[٢٨٨]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٦٩.

.[٢٨٩]انظر: الإصابة (٢/٢٧٨).
.[٢٩٠]انظر: السيرة الحلبية (٢/٤٩٦) ، وانظر: سيرة ابن هشام (نزول الرسول (ص) بالشعب ، وتعبيته للقتال) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (٤٠٤٣) ، والرَّحيق المختوم (خطة الدفاع) ، وتاريخ الطَّبريِّ (٢/٥٠٧).
.[٢٩١]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٩٠.

.[٢٩٢]انظر: المغازي ، للواقدي (١/٢١٩).
.[٢٩٣]انظر: العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول (ص) ، لمحمد فرج ، ص ٣٥٥ . ٣٥٦.
.[٢٩٤]انظر: تاريخ الطَّبريِّ (٢/٥٠٧).

.[٢٩٥]ينظر الشكل (٤) في الصفحة (٧٤٨).
.[٢٩٦]انظر: إمتاع الأسماع ، للمقريزي (١/١٢٠).
.[٢٩٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٩٢) ، وسيرة ابن هشام (أمر أبي عامر الفاسق).
.[٢٩٨]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٤٩٧ . ٤٩٨) ، وتفسير الطَّبريِّ (٧/٢١٨) ، والقصَّة بنحوها في ابن هشام.

.[٢٩٩]الكَيُّول: اخر الصُّفوف في الحرب.
.[٣٠٠]البداية والنِّهاية (٤/١٧) ، وسيرة ابن هشام (تمام قصَّة أبي دجانة).

.[٣٠١]ذفَّف: أجهز عليه.
.[٣٠٢]يخمش: يشجع على القتال.
.[٣٠٣]فصمدت له: قصدت نحوه.
.[٣٠٤]البداية والنهاية (١٧/٤).

.[٣٠٥]انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (٣٠٣/١).
.[٣٠٦]المصدر السَّابق نفسه.
.[٣٠٧]المصدر السَّابق نفسه.

.[٣٠٨]انظر: غزوة أحد دراسةٌ دعويَّة ، ص ٩٨.
.[٣٠٩]اختلط الحابلُ بالنَّابل: اضطربت الأمورُ.
.[٣١٠]الرَّباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تكون بين الثنيَّة ، والنَّاب.
.[٣١١]شَجَّهُ شَجاً: شقَّ جلد رأسه أو وجهه.
.[٣١٢]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٢٩٤.
.[٣١٣]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٨١/٣).
.[٣١٤]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ١٠٠.

.[٣١٥]المصدر السابق ، ص ١٠١.
.[٣١٦]سيرة ابن هشام ، (أوَّل من عرف الرَّسول (ص) بعد الهزيمة).
.[٣١٧]انظر: نضرة النَّعيم (٣٠٤/١).

.[٣١٨]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٩٦ ، وهذه القصَّة رواها ابن هشام (ضعف الرَّسول (ص) عن النُّهوض ومعاونة طلحة له) ، والترمذي ، وأحمد ، والحاكم ، وصححها ووافقه الذَّهبي. انظر: الرَّحيق المختوم (طلحة ينهض بالنَّبيِّ (ص)) وتخريجه لهذا الحديث.
.[٣١٩]الجعبة: الكنانة الَّتي تجعل فيها السِّهام.
.[٣٢٠]لا تشرف: لا تتطلع.

.[٣٢١]نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السِّهام من نحرك لأصاب بها دونك.

.[٣٢٢]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٥ ـ ٣٦) ، وسيرة ابن هشام (حديث أم سعد عن نصيبها في الجهاد يوم أحدٍ ، أبو دجانة وابن أبي وقَّاص يدافعان عن الرَّسول (ص)) .

.[٣٢٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠ .

.[٣٢٤]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٠٥).

.[٣٢٥]المصدر السابق نفسه.

.[٣٢٦]انظر نضرة النَّعيم (١/٣٠٦).

.[٣٢٧]مقطِّعة البظور: كانت أمه ختَّانة بمكَّة تختن النِّساء.

.[٣٢٨]فأضعها في ثُنَّته: أي في عانته ، وقيل: ما بين السُّرَّة والرُّكبة.

.[٣٢٩]ذلك العهد به: كناية عن موته.

.[٣٣٠]لا يهيج الرسل: أي: لا ينالهم منه مكروهٌ.

.[٣٣١]في ثلمة جدار: أي خلل جدار.

.[٣٣٢]أورق: لونه كالرماد.

.[٣٣٣]سيرة ابن هشام (دفن الشهداء) ، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٣.

.[٣٣٤]الفلُّ: الثَّلم في السَّيف.

.[٣٣٥]انظر شرحه في فتح الباري ، وكذا كتاب المغازي ، باب غزوة أحد (في مقدَّمة الباب) ، وسيرة ابن هشام (رؤيا راها رسول الله (ص)) .

.[٣٣٦]لدمت: ضربت ، ودفعت.

.[٣٣٧]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٨٥ ، وانظر: سيرة ابن هشام (صفيَّة وحزنُها على حمزة).

.[٣٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/١٨٥).

.[٣٣٩]مِدْرهاً: الَّذي يدفع عن القوم.

.[٣٤٠]الشِّلو: العضو. تعتادني: تتعاهدني.

.[٣٤١]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لابن هشام (١٨٥/٣).
.[٣٤٢]سيرة ابن هشام (بكاء نساء الأنصار على حمزة).
.[٣٤٣]انظر: السيرة النبوية ، للصوياني (٩٠/٣).

.[٣٤٤]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون ، (٦٠٣/٣).
.[٣٤٥]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٤١/٥).
.[٣٤٦]يحتُّ: يسقط.
.[٣٤٧]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٦٠٢/٣) ، والبخاري ، رقم (٤٠٧٢) جملة: «لعلِّي أقتله فأكافأى به حمزة» وشرحها في الفتح.
.[٣٤٨]الإذخر: نوع من العشب.
.[٣٤٩]أينعت: أي نضجت. يهدبها: أي: يجتنيها.

.[٣٥٠]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٥٣٢/٢).
.[٣٥١]سيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في اثار المشركين).
.[٣٥٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٩٤.

.[٣٥٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٩٣.
.[٣٥٤]انظر: زاد المعاد (٢١٢/٣).
.[٣٥٥]أي: سمع منادي رسول الله (ص) يدعو للخروج لملاقاة العدو.
.[٣٥٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٩ ، وسيرة ابن هشام (حنظلة غسيل الملائكة) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (١٣٤٦).
.[٣٥٧]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٢٧٣/١).

.[٣٥٨]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٢٩/٥ ـ ١٣٠).
.[٣٥٩]انظر: زاد المعاد (٢١٤/٣).

.[٣٦٠]كفاحاً: أي: مواجهةً.

.[٣٦١]انظر: شرحه في الفتح ، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الاية.

.[٣٦٢]انظر: زاد المعاد (٣/٢٠٨).

.[٣٦٣]انظر: زاد المعاد (٣/٢٠٨).

.[٣٦٤]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/٢٧٧).

.[٣٦٥]المصدر السابق نفسه.

.[٣٦٦]انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/٢٧٧).

.[٣٦٧]الأُسد: جمع أسد.

.[٣٦٨]انظر: زاد المعاد (٣/٢١٨).

.[٣٦٩]الاطام: الحصون.

.[٣٧٠]ظمء حمار: أي: مقدار ما بين شربتي حمارٍ.

.[٣٧١]أي: نموت اليوم أو غداً.

.[٣٧٢]سيرة ابن هشام (مقتل اليمان وابن وقش).

.[٣٧٣]انظر: زاد المعاد (٣/٢١٨).

.[٣٧٤]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١١٧.

.[٣٧٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/١٠٠ ـ ١٠١) ، وانظر: فتح الباري في شرح حديث رقم (٢٨٠٨).

.[٣٧٦]انظر: تجريد أسماء الصَّحابة (٢/٧٠) ، والإصابة (٣/٣٩٣).

.[٣٧٧]انظر: الرَّوض الأُنف ، للسُّهيليِّ (٤/٤٠٨ ـ ٤٠٩).

.[٣٧٨]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/٣٠٦).

.[٣٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٩٩) ، وغزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ١١٣.

.[٣٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٣٨٨) ، وسيرة ابن هشام (بلاء قتادة وحديث عينه).

.[٣٨١]القعب: قدحٌ ضخمٌ غليظٌ.

.[٣٨٢]انظر: البداية والنِّهاية (٣٥/٤) ، وأسد الغابة (٣٨٩/٤).

.[٣٨٣]الفرق: مكيالٌ يسع ستة عشر رطلاً ، وهي اثنا عشر مُدّاً.

.[٣٨٤]الشَّعراء: ذباب له لدغ ، واللَّدغ: عَضُّ الحيَّة ، والعقرب ، والذُّباب.

.[٣٨٥]تدأدأ: تقلَّب عن فرسه ، فجعل يتدحرج.

.[٣٨٦]سرف: موضع على ستة أميال من مكَّة.

.[٣٨٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٩٣/٣ ـ ٩٤).

.[٣٨٨]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٦٩/٥). قال تعالى: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ *} ٣٣].

.[٣٨٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٩٤/٣).

.[٣٩٠]أُعلُ هُبَلُ: ظهر دينُك.

.[٣٩١]السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٣٩٢/٢).

.[٣٩٢]انظر: السيرة النَّبويَّة الصحيحة (٣٩٢/٢) ، وسيرة ابن هشام (شماتة أبي سفيان بالمسلمين يوم أحد).

.[٣٩٣]المصدران السابقان.

.[٣٩٤]أشرَ أشَراً: بطرَ واستكبر ، فهو أشِرٌ.

.[٣٩٥]انظر: زاد المعاد (٢٠٢/٣ ـ ٢٠٣).

.[٣٩٦]النَّشغ: الشَّهيق حتَّى يكاد يبلغ به الغشي.

.[٣٩٧]انظر: مختصر سيرة الرسول (ص) ، لمحمَّد بن عبد الوهاب ، ص ٣٣١.

.[٣٩٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٠٦/٣).

.[٣٩٩]انظر: غزوة أحدٍ ، لأبي فارس ، ص ١٠٤.

.[٤٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢١٠/٢).

.[٤٠١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٣٩٤).
.[٤٠٢]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، د. محمد فيض الله ، ص ١٣٢ - ١٣٣.
.[٤٠٣]جنَّبوا الخيل: قادوها إلى جنوبهم.
.[٤٠٤]امتطى الدَّابة: ركبها.

.[٤٠٥]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٤١) ، وسيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في اثار القوم).
.[٤٠٦]انظر: غزوة أحدٍ ، لأبي فارس ، ص ٩٥ - ٩٦.
.[٤٠٧]الرَّوحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كيلو متراً ، في طريق مكَّة.

.[٤٠٨]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٥٠).
.[٤٠٩]المصدر السابق نفسه.
.[٤١٠]انظر: غزوة أحد، لأبي فارس ، ص ١٤٤ ، نقلاً عن الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/٤٣).
.[٤١١]يتحرَّقون: يلتهبون من الغيظ.
.[٤١٢]انظر: زاد المعاد (٣/٢٤٥).
.[٤١٣]الجُرد: جمع أجرد ، وهو الضرسيُّ ، قصير الشَّعر ، والأبابيل: الفِرَق الكثيرة.

.[٤١٤]تردي: تُسرع.
.[٤١٥]تنابلة: جمع تنبال ، وهو القصير.
.[٤١٦]الميل: جمع أميل ، وهو الجبان.
.[٤١٧]معازيل: جمع معزال ، وهو من لا رُمح معه.
.[٤١٨]تغطمطت: اضطربت ، وثارت.
.[٤١٩]وخش: رديء.
.[٤٢٠]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٥١) ، وسيرة ابن هشام (٣/٤٦).
.[٤٢١]الميرةُ: الطَّعام يجمع للسَّفر ، ونحوه.
.[٤٢٢]تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، ص ٢٢٦.
.[٤٢٣]اب أوبَةً: رجع.

.[٤٢٤]المِغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ: عاقبتُه واخره.

.[٤٢٥]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٤٢.

.[٤٢٦]انظر تفسير هذه الايات في ابن كثيرٍ.

.[٤٢٧]أقال اللهُ عَثْرَتَه: صفَح عنه وتجاوز.

.[٤٢٨]عارضيك: هما جانبا الوجه. لسان العرب (٧٤٢/٢).

.[٤٢٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (١١٦/٣).

.[٤٣٠]انظر شرحه وسببه في الفتح.

.[٤٣١]انظر: البداية والنِّهاية (٥٣/٤).

.[٤٣٢]المحرر الوجيز ، لابن عطية (٤١١/٣).

.[٤٣٣]مرويات غزوة أحد ، للباكري ، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩.

.[٤٣٤]انظر: في ظلال القران (٥١٩/١).

.[٤٣٥]انظر: غزوة أُحدٍ ، لأبي فارس ، ص ٥١.

.[٤٣٦]انظر: الطَّبقات ، لابن سعدٍ (٤٩/٢).

.[٤٣٧]تزفِرُ: تحمل القرب مملوءةً بالماء.

.[٤٣٨]تَنْقُزَان: أي: تحملان ، وتقفزان بها وثباً.

.[٤٣٩]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٢٨٨٠).

.[٤٤٠]انظر: سير أعلام النُّبلاء ، للذَّهبي (٢٧٨/٢).

.[٤٤١]المغازي ، للواقديِّ (٢٦٩/١ ـ ٢٧٠).

.[٤٤٢]انظر: مرويات غزوة أحدٍ ، ص ٢٥٤.

.[٤٤٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٣٩١/٢).

.[٤٤٤]انظر: غزوة أحدٍ ، لمحمَّد باشميل ، ص ١٧١ ـ ١٧٣.

.[٤٤٥]استرْجَعَتْ: أي قالت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

[٤٤٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٠٨/٣).

[٤٤٧]انظر: البداية والنِّهاية (٤٧/٤) ، وغزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٢٣٦.

[٤٤٨]انظر: الإصابة (٨٨/٨) ، رقم (١١٠٦٠).

[٤٤٩]انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١٠٩.

[٤٥٠]انظر: البداية والنِّهاية (٤٨/٤) ، وسيرة ابن هشام (شأن المرأة الدِّينارية).

[٤٥١]العِنَانُ: سَيرُ اللجام الذي تُمْسَكُ به الدابةُ.

[٤٥٢]أشوَت: صارت صغيرةً خفيفة.

[٤٥٣]في ظلال القران (٥٣٢/١).

[٤٥٤]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١٩٠/١).

[٤٥٥]انظر: تفسير القرطبيِّ (٢١٦/٤).

[٤٥٦]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١٩١/١).

[٤٥٧]انظر: تفسير الرَّازي (١٤/٩).

[٤٥٨]انظر: تفسير الكشَّاف (٤٦٥/١).

[٤٥٩]انظر: تفسير الرَّازي (١٠٥/٤).

[٤٦٠]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١٩٥/١).

[٤٦١]انظر: تفسير القرطبيِّ (٢١٨/٤).

[٤٦٢]انظر: تفسير ابن كثيرٍ (٤٠٨/١).

[٤٦٣]انظر: تفسير الطَّبريِّ (١٠٧/٤).

[٤٦٤]انظر: تفسير ابن كثيرٍ (٤٠٨/١).

[٤٦٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١٩٩/١).

[٤٦٦]انظر: تفسير القرطبي (٢٢٠/٤).

[٤٦٧]انظر: تفسير ابن كثير (٤٠٩/١).

.[٤٦٨]المصدر السابق نفسه.
.[٤٦٩]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٣٧.
.[٤٧٠]عَذَلَهُ عَذْلاً: لاَمَهُ.
.[٤٧١]انظر: تفسير ابن كثير (١/٤١٠).

.[٤٧٢]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٢٠٤).
.[٤٧٣]انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩.

.[٤٧٤]انظر: الطَّاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع ، لمحمَّد بن العثيمين ، نقلاً عن غزوة أحدٍ ، ص ٢١١.
.[٤٧٥]انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/٢٤٦).
.[٤٧٦]بدائع السَّالك في طبائع الممالك ، لابن الأزرق (١/٧٧).

.[٤٧٧]انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٢٠٠.
.[٤٧٨]انظر: شرح العقيدة الطَّحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق د. عبد الله التُّركي (٢/٥٤٠).
.[٤٧٩]لا نريم: لا نبرح المكان. رام مكانه ريْماً: بَرِحَهُ.

.[٤٨٠]انظر: تفسير الطبري (٣/٤٧٤).
.[٤٨١]المصدر السَّابق نفسه.
.[٤٨٢]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/١٩٧).
.[٤٨٣]انظر: تفسير القران العظيم (١/٤٤١).

.[٤٨٤]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٢٠٠).
.[٤٨٥]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون ، (٣/٦١٦).

.[٤٨٦]انظر: زاد المعاد (٣/٢٢٤).
.[٤٨٧]انظر: تفسير القرطبي (٤/٢٢٢).

.[٤٨٨]انظر: مرض النبي (ص) ووفاته ، وأثر ذلك على الأمَّة لخالد أبو صالح ، ص ٢٠ نقلاً عن غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص١٩١.

.[٤٨٩]فتيمَّم: قصد.

.[٤٩٠]الحِبَرَةُ: نوعٌ من برود اليمن مخطَّطة غالية الثمن.

.[٤٩١]عُقرت: أي هلكت ، وفي رواية: فَعقِرت: أي دهشت ، وتحيَّرت ، أو سقطت.

.[٤٩٢]انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة ، ص٢١٨.

.[٤٩٣]المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٩.

.[٤٩٤]انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة ، ص٢٢٠.

.[٤٩٥]بُجَراً: شراً. ويُقال: ذكرَ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ؛ أي: عيوبه ، وأمرَه كلَّه.

.[٤٩٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٥٣) ، وسيرة ابن هشام (شأن عبد الله بن أُبي بعد ذلك).

.[٤٩٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥/١٩٨).

.[٤٩٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٢٧.

.[٤٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ٢/٣٩١.

.[٥٠٠]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.

.[٥٠١]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للغضبان ، ص ٤٦٣.

.[٥٠٢]نكل عن الأمر نكولاً: نكص.

.[٥٠٣]انظر: تفسير الطَّبري (٤/١٧٠) ، وسيرة ابن هشام (مصير قتلى أُحد).

.[٥٠٤]انظر: أسباب النزول ، للواحديّ ، ص ١٢٥ ، وتفسير الطَّبريِّ (٤/٢٦٩).

.[٥٠٥]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

.[٥٠٦]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥/٢١).

.[٥٠٧]عضل: اسم قبيلة ابن خزيمة. الجداية: الصَّغير من أولاد الظِّباء.

.[٥٠٨]مُبيراً: مهلكاً ومنكلاً: قامعاً لهم ولغيرهم.
.[٥٠٩]الجلائب: ما يجلب إلى الأسواق؛ ليباع فيها.
.[٥١٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٨٧/٣).
.[٥١١]الألباب: العقول.
.[٥١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٦٤/٣).

.[٥١٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص٢٥٢.
.[٥١٤]المصدر السابق نفسه.

.[٥١٥]استأصل الله شَأْفَتَهُ: أزاله من أصله.
.[٥١٦]عضل والقارة: بطنان من الهون ، (الهون) بن خزيمة بن مدركة.
.[٥١٧]انظر: نضرة النعيم (٣١٣/١).
.[٥١٨]انظر: قراءة سياسية للسيرة النبوية ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.
.[٥١٩]انظر: زاد المعاد (٢٤٣/٣).

.[٥٢٠]فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٢٧٤.
.[٥٢١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٢٣/٦).
.[٥٢٢]انظر: نضرة النَّعيم (٣١٣/١).
.[٥٢٣]القُشعريرةُ: الرِّعدةُ.

.[٥٢٤]المختصرون ، أو المتخصرون: والمراد هنا يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحةٌ يتَّكئون عليها.
.[٥٢٥]فرسَ الأمرَ فِرَاسَةً: أدرك باطنَه بالظنِّ الصائب.
.[٥٢٦]دَمُثَ دَمَاثَةً وَدُموثَةً: سَهُلَ خُلُقُهُ.

.[٥٢٧]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٢٧/٦).
.[٥٢٨]انظر: محمد رسول الله ، لصادق عرجون (٥٠/٤ ـ ٥١).
.[٥٢٩]انظر: غزوة أحد ، لمحمد باشميل ، ص ٣١.

.[٥٣٠]انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠.
.[٥٣١]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٢٩/٦).
.[٥٣٢]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٦٠.
.[٥٣٣]انظر: معالم السُّنن ، للخطَّابي (٤٢/٢) على سنن أبي داود ، حاشية رقم (١).

.[٥٣٤]انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٦٣/٦).
.[٥٣٥]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ١٦١.
.[٥٣٦]انظر: عون المعبود ، للعظيم ابادي (١٢٩/٤).
.[٥٣٧]فَرِقَ فرقاً: جزع واشتدَّ خوفُه ، فهو فَرِقٌ.
.[٥٣٨]انظر: مغازي الواقدي (٥٣٢/٢).
.[٥٣٩]انظر: دلائل النُّبوَّة ، للبيهقيِّ (٤١/٤) من رواية موسى بن عقبة.
.[٥٤٠]انظر: البداية والنِّهاية (١٤٣/٤).

.[٥٤١]الرَّجيع: اسم موضع من بلاد هُذيل. وينظر الشكل (٥) في الصفحة (٧٤٩).
.[٥٤٢]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٣٥٤/١ ـ ٣٥٥).
.[٥٤٣]المصدر السابق نفسه.
.[٥٤٤]انظر: نضرة النَّعيم (٣١٤/١).
.[٥٤٥]المصدر السابق نفسه.
.[٥٤٦]بلابل: جمع بلبلة وبلبال ، وهو شدَّة الهم.
.[٥٤٧]المعابل: جمع معبلة ، وهو نصل طويل عريض.
.[٥٤٨]حَمَّ: قدَّر.
.[٥٤٩]انظر: مغازي ، الواقدي (٣٥٥/١).

.[٥٥٠]القحفُ: الجزء الأعلى من الجمجمة.
.[٥٥١]الدَّبر: الزَّنابير (جمع الزِّنبار ، وهي حشرةٌ أليمة اللَّسع) ، والنَّحل.
.[٥٥٢]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٣٥٦/١).

[٥٥٣]انظر تفصيل ذلك كلِّه في صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الرَّجيع ورعلٍ وذكوانَ وبئر معونة، وحديث عضل والقَارَّة وعاصم بن ثابت، وخُبيب وأصحابه، رقم (٤٠٨٦) وما بعده.

[٥٥٤]جوامع السِّيرة ، لابن حزم ، ص ١٧٦ .

[٥٥٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٣٩٩/١).

[٥٥٦]بدَّدَ الشَّيء: فرَّقه ، بدداً: متفرِّقين في القتل واحداً بعد واحدٍ.

[٥٥٧]ياس: لغة في يئس.

[٥٥٨]انظر: زاد المعاد (٢٤٥/٣) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٨٦) ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع).

[٥٥٩]المصدر السابق نفسه (٢٤٥/٣ ـ ٢٤٦).

[٥٦٠]المصدر السَّابق نفسه.

[٥٦١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٠٠/٢) ، وسيرة ابن هشام (مقتل ابن الدَّثنَّة ومثلٌ من وفائه للرَّسول (ص)).

[٥٦٢]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤٠٨٦) ، فقرة: «فلم يقدروا منه على شيءٍ».

[٥٦٣]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.

[٥٦٤]انظر: الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (٦٢٢/٢).

[٥٦٥]انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة ، لأحمد فريد ، ص ٢٣٤.

[٥٦٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٢٠.

[٥٦٧]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٥٩.

[٥٦٨]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٥٣.

[٥٦٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٣٨/٦).

[٥٧٠]انظر: حقوق النَّبي (ص) على أمَّته ، د. محمَّد التَّميمي (٣١٤/١).

[٥٧١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥٤.

.[٥٧٢]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٧٠).

.[٥٧٣]المعنق ليموت: أي: المسرع ، وإنما لُقِّبَ بذلك؛ لأنَّه أسرعَ إلى الشَّهادة.

.[٥٧٤]استجاش: طلب لهم الجيش وجمعه.

.[٥٧٥]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٢٢ ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع) ، والبخاري (الأحاديث من ٤٠٨٦ إلى ٤٠٩٦) ، وانظر شرحها في الفتح ، ففيها تفصيلاتٌ وفوائد كثيرةٌ ، وكذا مسلم (كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد ، رقم ٦٧٧).

.[٥٧٦]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥١.

.[٥٧٧]وحاصل المسألة: أنَّ القنوت للحاجة بعد الرُّكوع ، وأمَّا لغير الحاجة فالصَّحيح أنه قبل الركوع ، وقد اختلف عمل الصَّحابة في ذلك ، والظَّاهر: أنَّه من الاختلاف المباح.

.[٥٧٨]نُصْبَ أعْيُننا: أي أمامنا.

.[٥٧٩]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥٢.

.[٥٨٠]انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ ، للحميديِّ (٦/٥٠).

.[٥٨١]انظر: سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٩١ ، ٤٠٩٢) ففيه فوائد كثيرة.

.[٥٨٢]الجامع لأحكام القران (تفسير الاية ١٧١ من سورة ال عمران).

.[٥٨٣]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص٢٤٥.

.[٥٨٤]انظر وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٣٧.

.[٥٨٥]الثؤرة: الثأر ، وهو الطَّلب بالدم.

.[٥٨٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٢٠٦).

.[٥٨٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي للحميديِّ (٦/٥٠).

.[٥٨٨]سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة).

.[٥٨٩]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها (٢/٦٥٦).

.[٥٩٠]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٦٤/٤).

.[٥٩١]انظر القصة في فتح الباري شرح حديث (٤٠٩٦).

.[٥٩٢]استهلّي: أسبلي دمعك. السّح: الصَّبُّ الكثير المتتابع. والنَّزر: القليل.

.[٥٩٣]تُخُوِّن: انتُقص. (بالبناء للمجهول).

.[٥٩٤]أعنق: أسرع. والعنقُ: ضَرْبٌ من السَّير فسيحٌ سريعٌ للإبل والخيل. ابن هشام (٢٠٩/٣).

.[٥٩٥]البداية والنِّهاية (وفد بني عامر وقصَّة عامر بن الطفيل) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم (٤٠٩) فقرة: في بيت امرأة من بني فلان).

.[٥٩٦]العُضَال: الشَّديد المعجز. ويقال: داء عضال: أي: لا طبَّ له.

.[٥٩٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد الصوياني ، ص ١٣٠.

.[٥٩٨]انظر: تعليق الدُّكتور قلعجي على الدَّلائل (٣٤٦/٣).

.[٥٩٩]انظر السِّيرة النَّبويَّة، للصَّوياني ، ص ١٣١.

.[٦٠٠]المصدر السابق نفسه.

.[٦٠١]انظر: تفسير القرطبيّ (١٦٦/١٤).

.[٦٠٢]انظر: المفصَّل في أحكام المرأة ، لعبد الكريم زيدان (٤٦٩/١١).

.[٦٠٣]انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢٠٢/٢).

.[٦٠٤]انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠٣/٢). وقال المحقِّق: أخرجه ابن سعد ، ورجاله ثقاتٌ.

.[٦٠٥]وأعقبني: أي: بدِّلني وعوِّضني منه ، أي: في مقابلته. عقبى حسنة: أي: بدلاً صالحاً.

.[٦٠٦]غيرى: كثيرة الغيرة.

.[٦٠٧]مُصبية: أي: ذات صبيان ، وأولاد صغار.

.[٦٠٨]انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠٣/٢ ـ ٢٠٤) وإسناده صحيحٌ.

.[٦٠٩]انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (٤٧٠/١١).

.[٦١٠]انظر: البداية والنِّهاية (٩٢/٤).

.[٦١١]المصدر السابق نفسه (٢/٢٠٤).
.[٦١٢]أي: توافق مجيءُ النَّبي (ص) مع زيارة تلك المرأة لأمِّ سلمة.
.[٦١٣]الثِّفَالُ: هو ما يُبْسَطُ تحت الرَّحَى عند الطَّحن من جِلْدٍ ، وغيره؛ ليسقط عليه الدَّقيقُ.
.[٦١٤]على أهلك: يقصد نفسه (ص) .
.[٦١٥]أي: أقمتُ عندك سبعة أيام.
.[٦١٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة كما جاءت من الأحاديث الصَّحيحة ، للصوياني (٣/١٣٦).

.[٦١٧]انظر: تفسير المنار (٤/٣٧٢).
.[٦١٨]انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٣٥٦).

.[٦١٩]المصدر السابق نفسه (٣/٣٥٧).
.[٦٢٠]انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢١٠).
.[٦٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٤٨ ـ ٢٤٩).
.[٦٢٢]انظر: شذرات الذَّهب ، لابن العماد الحنبلي (١/١٠).
.[٦٢٣]عقَّ عن ولده عقاً: ذبح ذبيحةً يوم سُبُوعه. العقيقة: الذَّبيحة التي تُذبح عن المولود يوم سبوعه عند حَلْقِ شعره ، والجمع عَقَائِقُ.
.[٦٢٤]انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصّوياني (٣/١٠٦).
.[٦٢٥]انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٤٢٩).
.[٦٢٦]انظر: زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القران ، لصفوان داودي ، ص ٨٠ ـ ٨١.
.[٦٢٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٤٩).

.[٦٢٨]ينظر الشكلان (٦ و٧) في الصفحتين (٧٥٠ و٧٥١).
.[٦٢٩]هَلَع هلعاً: جزع جزعاً شديداً.
.[٦٣٠]انظر: التاريخ السياسي والعسكري ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩.
.[٦٣١]انظر: زاد المعاد (٣/٢٤٩).
.[٦٣٢]انظر: أحكام القران ، لابن العربي (٤/١٧٦٥).

.[٦٣٣]انظر: حديث القران عن غزوات الرسول (ص) (١/٢٥٤).

.[٦٣٤]غزوة السَّويق كانت بعد بدر وقد تحدَّثت عنها في المبحث الثامن من الفصل الثامن من هذا الكتاب.

.[٦٣٥]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٢٨٤).

.[٦٣٦]انظر: فتح الباري ، كتاب المغازي ، باب حديث بني النَّضير (٧/٣٣٢).

.[٦٣٧]انظر: الواقدي (١/٣٦٥) ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ١٩٠.

.[٦٣٨]انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة ، ص ١٩٠.

.[٦٣٩]عقل عن فلان: حمل عنه العاقلة ، وهي الدِّيةُ.

.[٦٤٠]هذه الاثار وإن كان فيها ضعفٌ يمكن أن تعضد؛ لتصبح بمجموعها صالحةً للاحتجاج بها. انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة ، ص ١٤٥.

.[٦٤١]تفسير ابن كثير (٢/٣١).

.[٦٤٢]انظر: تفسير الطَّبري (٦/١٤٤ ـ ١٤٥).

.[٦٤٣]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٢٥١).

.[٦٤٤]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٢٥٢).

.[٦٤٥]انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (٢/٥٧) ، والمغازي ، للواقديّ (١/٣٦٣ ـ ٣٧٠).

.[٦٤٦]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٥٥٢).

.[٦٤٧]انظر: سيرة ابن هشام (٣/٢١٢).

.[٦٤٨]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٥٥٣).

.[٦٤٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٣/١٤٦).

.[٦٥٠]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٢٥٧).

.[٦٥١]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٥٦٦).

.[٦٥٢]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٥٦٥) ، حديث القران الكريم (١/٢٥٧).

.[٦٥٣]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٣٧٤/١) ، واليهود في السُّنة المطهَّرة (٣٢١/١).
.[٦٥٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢١٢/٣).
.[٦٥٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٣٢٧/١).

.[٦٥٦]انظر: تفسير السَّعدي ، تفسير الايات من (١ ـ ٧) من سورة الحشر.

.[٦٥٧]انظر: حديث القران الكريم (٢٧٠/١ ـ ٢٧١).
.[٦٥٨]انظر: حديث القران الكريم (٢٧٤/١).
.[٦٥٩]انظر: تفسير الطَّبريِّ (٣٤/٢٨).
.[٦٦٠]اللِّين: كلُّ أنواع النَّخْل ، والواحدة: لِينة.

.[٦٦١]انظر: خاتم النبيِّين ، للشَّيخ محمد أبو زهرة (٢٦٥/٢ ـ ٢٦٩).
.[٦٦٢]الكُراع: الخيل ، ينفق على أهله نفقة سنة: يعزل لهم نفقة سنة ، ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السَّنة في وجوه الخير ، فلا تتمُّ عليه السنة؛ ولهذا تُوفي (ص) ودرعُهُ مرهونةٌ على شعير استدانه لأهله ، ولم يشبع ثلاثة أيام تِبَاعاً ، وقد تظاهرت الأحاديث النبوية بكثرة جوعه ، وجوع عياله.

.[٦٦٣]انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٨٦/٢).
.[٦٦٤]تفسير القرطبيِّ للاية (٩) من سورة الحشر ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٣٠) ، وسيرة ابن هشام (أمر إجلاء بني النَّضير) ، والرَّحيق المختوم (غزوة بني النَّضير).
.[٦٦٥]الاية (٤١) من سورة الأنفال ، والاية (٧) من سورة الحشر ، وانظر تفسيرهما في: ابن كثيرٍ ، والقرطبيِّ ، والسَّعديِّ.
.[٦٦٦]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١٦٩.

.[٦٦٧]بَحْبَحَ في الشَّيءِ: توسَّع. البُحْبُوحَة من كلِّ شيء: وسطه ، وخياره.
.[٦٦٨]الكَلُّ: مَنْ يكونُ عبْئاً على غيره.
.[٦٦٩]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٩٤.
.[٦٧٠]انظر: تفسير الرَّازي (٢٨/٢٩) ، وصفوة التَّفاسير (٣٥١/٣).

[٦٧١]انظر: حديث القران الكريم (١/٢٩١).

[٦٧٢]المصدر السابق نفسه (١/٢٦٤).

[٦٧٣]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٢٨٢).

[٦٧٤]المصدر السابق نفسه ، (٢/٢٨٣).

[٦٧٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٢٩٣ ـ ٢٩٤).

[٦٧٦]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٢٨٤).

[٦٧٧]انظر: تفسير السَّعدي (٧/٣٤٠).

[٦٧٨]انظر: المحرر الوجيز (١٤/٣٩٠).

[٦٧٩]تفسير السَّعدي (٤/٣٤٢).

[٦٨٠]تفسير السَّعدي (٣/٣٤٢) ، وانظر: حديث القران الكريم.

[٦٨١]انظر: تفسير المراغي (٢٨/٥٧) بتصرفٍ يسيرٍ.

[٦٨٢]انظر: تفسير السَّعدي (٧/٣٤٤).

[٦٨٣]انظر: تفسير السَّعدي (٧/٣٤٦ ـ ٣٤٧).

[٦٨٤]انظر: الوسطيَّة في القران الكريم ، للصَّلابي ، ص ٢٢٨.

[٦٨٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٢٥٣).

[٦٨٦]انظر: تفسير القرطبي (١٨/١٠).

[٦٨٧]انظر: الخصائص العامَّة للإسلام ، للقرضاويِّ ، ص ١٨١.

[٦٨٨]أَدْمَنَ الشراب: أدامه ، ولم يقلع عنه ، ويقال: أدمن الأمرَ ، وعليه: واظب.

[٦٨٩]انظر: في ظلال القران (١/٢٢٩).

.[٦٩٠]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

.[٦٩١]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس ، ص ١٧٩ .

.[٦٩٢]المِقْلاتُ: المرأة التي لا يعيش لها ولدٌ.

.[٦٩٣]انظر: شرح ذلك كلِّه في فتح الباري. وينظر الشكل (٨) في الصفحة (٧٥٢).

.[٦٩٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٢٢٥).

.[٦٩٥]انظر: المغازي ، للواقدي (١/٣٩٥).

.[٦٩٦]انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٢/٦١).

.[٦٩٧]فتح الباري: شرح الأحاديث المتقدِّمة.

.[٦٩٨]انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٢١٠ .

.[٦٩٩]بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُه: أي: نركبه عقبةً ، وهو أن يركبَ هذا قليلاً ، ثم ينزل ، فيركب الاخر بالنَّوبة؛ حتَّى يأتي على سائرهم.

.[٧٠٠]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .

.[٧٠١]انظر: مرويات الحديبية ، ص ٧٣ ـ ٨٦.

.[٧٠٢]انظر: المجتمع المدني ، ص ١٣٠.

.[٧٠٣]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .

.[٧٠٤]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .

.[٧٠٥]انظر: فقه السيرة النبوية ، ص ١٩٤ .

.[٧٠٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

.[٧٠٧]انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ١٤ .

.[٧٠٨]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمد أحمد باشميل ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

.[٧٠٩]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرسول (ص) (١/٣٠٩).

.[٧١٠]انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص ١٧٠ .

.[٧١١]نَقِبتْ أقدامُنا: قرحت من الحفاء.

.[٧١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .

.[٧١٣]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٠٧ .

.[٧١٤]انظر: التربية القياديَّة (٣/٣٠٣ ـ ٣٠٤).

.[٧١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٢٧ .

.[٧١٦]ثَجَّ الماء ثُجوجاً: سالَ وانصبَّ. الثَّجَّاجُ: الشديدُ الانصباب.

.[٧١٧]انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ٣٠ ، ٣١.

.[٧١٨]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٨ .

.[٧١٩]انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ٣٢.

.[٧٢٠]قَفَل فُلانٌ من السَّفَر قَفْلاً وقُفولاً: رجع.

.[٧٢١]العِضَاهُ: كلُّ شجرٍ له شوكٌ ، صغُر أو كَبُر ، الواحدة: عِضَاهَةٌ.

.[٧٢٢]صَلْتاً: مجرداً عن غمده.

.[٧٢٣]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤١٣٦).

.[٧٢٤]المصدر السَّابق نفسه.

.[٧٢٥]انظر: فقه السيرة للبوطي ، ص ٢٠٠ .

.[٧٢٦]انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٧٨ .

.[٧٢٧]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٢٠٠ .

.[٧٢٨]موضع على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ من المدينة.

.[٧٢٩]نمارقها: وسائدها.

.[٧٣٠]فاعملْ عملاً كَيْساً أو الكَيْسَ.. الكَيْسَ: في تفسيرها قولان:

ـ الكَيْس: أي: العقل ، كأنَّه طلب الولد عقلاً.

. الكَيْسَ: الجماع ، أي فعليك بالجماع ، ويؤيده رواية محمد بن إسحاق ، «قال جابر: فدخلنا حين أمسينا ، فقلت للمرأة: إن رسول الله (ص) أمرني أن أعمل عملاً كَيْساً! قالت: سمعاً وطاعة ، فدونك ، قال: فبتُّ معها حتى أصبحتُ» وهذا الكلام موجودٌ بمعناه في هذه الرِّواية التي بين أيدينا.
انظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٥٢٤٦) ، وشرح النَّووي حديث رقم (١٤٦٦).

.[٧٣١]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ، وانظر: السِّيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٩.
.[٧٣٢]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٨١.

.[٧٣٣]انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (٣١٨/١ ، ٣١٩).
.[٧٣٤]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ٨٨.
.[٧٣٥]انظر: من معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥.

.[٧٣٦]انظر: غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص ٨٨ ، ٨٩.
.[٧٣٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦٦/٦).
.[٧٣٨]انظر: التربية القياديَّة (٤٦٣/٣).
.[٧٣٩]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦٧/٦).
.[٧٤٠]انظر: المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوة ، للعمري ، ص ٩١.
.[٧٤١]انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، للشجاع ، ص ١٤٤.
.[٧٤٢]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد الوكيل ، ص ١٦٩.

.[٧٤٣]المصدر السابق نفسه.
.[٧٤٤]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد الوكيل ، ص ١٦٩.
.[٧٤٥]انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ١٤٤ ، ١٤٥.
.[٧٤٦]المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٤.
.[٧٤٧]انظر: غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص ٩٣ ، وتاريخ المغازي ، للذَّهبيِّ ، ص ٢٥٨.

.[٧٤٨]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، ص ١٧٠.
.[٧٤٩]انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارسٍ ، ص ٤٠.
.[٧٥٠]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، ص ١٧٠.
.[٧٥١]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة ، (٢٥١/٢ ، ٢٥٢).

.[٧٥٢]انظر: التَّربية القيادية (٣٧٢/٣).
.[٧٥٣]المصدر السابق نفسه (٣٧٣/٣).
.[٧٥٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٣٧٤/٣).

.[٧٥٥]ينظر الشكل (٩) في الصفحة (٧٥٣).
.[٧٥٦]فرع.
.[٧٥٧]المصْطلِق: بضمِّ الميم ، وسكون الصَّاد ، وفتح الطَّاء ، وكسر الَّلام.
.[٧٥٨]انظر: حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) (٣١١/١).
.[٧٥٩]خزاعة من التَّخزُّع ، وهو التَّأخر ، والمفارقة ، وذلك أنَّ خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشَّام ، فنزلت بمرِّ الظهران ، وأقامت بها؟!
.[٧٦٠]انظر: مرويات غزوة بني المصطلق ، من ص ٤٥ إلى ٥١.
.[٧٦١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٢٩ ، وحديث القران الكريم (٣١٢/١ ، ٣١٣).

.[٧٦٢]انظر: حديث القران الكريم (٣١٢/١).
.[٧٦٣]من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق ، ص ٩٧.
.[٧٦٤]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، للعلي ، ص ٣٣٢.

.[٧٦٥]حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٣١٥/١).
.[٧٦٦]انظر: تاريخ الإسلام ، والمغازي ، للذَّهبي ، ص ٢٥٩.
.[٧٦٧]انظر: الواقدي (٤٠٥/١).
.[٧٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٣٣.

.[٧٦٩]الملاَّحة: الشَّديدة الملاحة ، أي: الفائقة الجمال.

.[٧٧٠]انظر: البداية والنهاية (١٦٠/٤ ، ١٦١) ، الإصابة ، لابن حجر (كتاب النساء).
.[٧٧١]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٣١٧/١).
.[٧٧٢]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠.

.[٧٧٣]انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمد صادق عرجون (٢٥٠/٤).
.[٧٧٤]انظر: دور المرأة في خدمة الحديث ، لامال قرداش ، ص ٨٨.
.[٧٧٥]المصدر السابق نفسه، ص ٨٨ ، ٨٩.
.[٧٧٦]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٢٥٠/٤).
.[٧٧٧]مسجدها: المكان الَّذي تصلِّي فيه في بيتها.
.[٧٧٨]انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (١٢١/٨) ، وخليفة بن خياط ، تاريخه ، ص ٢٣٤.
.[٧٧٩]انظر: حديث القران الكريم (٣١٨/١).

.[٧٨٠]انظر: السِّيرة الصَّحيحة ، للعمري (٤٠٨/٢).
.[٧٨١]غزاة: صرحت الرِّوايات الأخرى بأنَّها غزوة بني المصطلق.
.[٧٨٢]يريد بعمِّه سعد بن عبادة ، وهو رأس الخزرج ، وليس عمّه حقيقة.
.[٧٨٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٠٨/٢).
.[٧٨٤]كسع: ضربه برجله.
.[٧٨٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٤٠٩/٢).

.[٧٨٦]انظر: البداية والنِّهاية ، لابن كثير ، (٤) غزوة بني المصطلق.

.[٧٨٧]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٤٠٩/٢).
.[٧٨٨]انظر: التَّربية القياديَّة (٤٦٣/٣).
.[٧٨٩]انظر: التَّربية القياديَّة (٤٦٣/٣).
.[٧٩٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢٥٥/٢).

.[٧٩١]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٠٢.

.[٧٩٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٠٩.
.[٧٩٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٥٧).
.[٧٩٤]انظر: الولاء والبراء في الإسلام ، للقحطانيِّ ، ص ٢٠٩ ، والبداية والنِّهاية (غزوة بني المصطلق من خزاعة ، تفسير ابن كثير ، المنافقون).
.[٧٩٥]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/١٦٣).

.[٧٩٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٥٧).
.[٧٩٧]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/١٦٢).
.[٧٩٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٢٠٩).
.[٧٩٩]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢/٣٠١ ، ٣٠٢).

.[٨٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٢٠٩).
.[٨٠١]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢/٣٠٢).
.[٨٠٢]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٣٢٧).
.[٨٠٣]انظر: التَّفسير المنير ، د. وهبة الزُّحيلي (٢٨/٢١٣).

.[٨٠٤]انظر: حديث القران الكريم (١/٣٢٧).
.[٨٠٥]انظر: حديث القران الكريم (١/٣٢٧).
.[٨٠٦]انظر: التَّفسير المنير (٢٨/٢٣٠ ، ٢٣١).
.[٨٠٧]انظر: حديث القران الكريم (١/٢٤٣).

.[٨٠٨]كالواقديِّ ، والذَّهبيِّ ، والطَّبري ، وابن سعدٍ ، وابن حزم.
.[٨٠٩]كابن كثيرٍ ، والرَّازي ، والطَّبري ، وغيرهم.
.[٨١٠]كابن حجر ، والنَّووي.
.[٨١١]هي غزوة بني المصطلق.

.[٨١٢]الهودج: محمل له قبَّة تُستر بالثياب يوضع على ظهر البعير ، تركب فيه النساء.
.[٨١٣]جزع ظفار: هو خرزٌ معروفٌ ، في سواده بياضٌ كالعروق ، وهي مدينة باليمن.
.[٨١٤]الرَّهط: الجماعة.
.[٨١٥]العلقة: البُلغة من الطَّعام.
.[٨١٦]صحابيٌّ جليلٌ كان صاحب ساقة رسول الله (ص) في غزواته.
.[٨١٧]فادَّلج (بالتَّشديد): سار اخر الليل.

.[٨١٨]أي: بقوله: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.
.[٨١٩]فخمَّرت: أي: غطيت.
.[٨٢٠]موغرين: الوغرة: شدة الحرِّ.
.[٨٢١]نحر الظهيرة: أولها وهو وقت شدَّة الحر.
.[٨٢٢]يريبني: يشككني.
.[٨٢٣]كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل: ذاكم للمذكر.
.[٨٢٤]المناصع: المواضع الَّتي يُتخلَّى فيها لقضاء الحاجة.
.[٨٢٥]الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر.
.[٨٢٦]مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب ، توفي في خلافة عثمان.
.[٨٢٧]فعثرت في مرطها: أي: وطئته برجلها ، فسقطت.
.[٨٢٨]هنتاه: يا بلهاء ، كأنها نسبت إلى قلَّة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

.[٨٢٩]وضيئة: الوضاءة: الحسن والجمال.
.[٨٣٠]إلا أكثرن عليها: أي: أكثرن القول في عيبها.
.[٨٣١]لا يرقأ لي دمع: لا ينقطع ، ولا ينكف.
.[٨٣٢]استلبث: وهو الإبطاء ، والتأخُّر.
.[٨٣٣]أغمصه عليها: أي: أعيبها به ، وأطعن عليها به.
.[٨٣٤]الدَّاجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.
.[٨٣٥]فاستعذر: أي: قال: من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه؟

.[٨٣٦]هو صفوان بن المعطَّل السلمي.

.[٨٣٧]احتملته الحمية: أي: حملته الأنفة ، والغضب على الجهل.
.[٨٣٨]فثارالحيَّان: أي: تناهضوا للنزاع والعصبية.
.[٨٣٩]التقيُّد بالشَّهر ، فهو المدَّة الَّتي أوَّلها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.
.[٨٤٠]كناية عمَّا رميت به من الإفك.
.[٨٤١]قلص دمعي: أي: ارتفع وذهب.
.[٨٤٢]هو يعقوب عليه السَّلام.

.[٨٤٣]ما رام: ما برح ، وما فارق مجلسه.
.[٨٤٤]البرحاء: شدَّة الكرب من ثقل الوحي.
.[٨٤٥]الجمان: حبات اللؤلؤ الصَّغيرة ، وقيل: حبٌّ يتَّخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ.
.[٨٤٦]سُرِّي: انكشف عنه ما يجده من الهم ، والثقل.

.[٨٤٧]هي زينب بنت جحش أمُّ المؤمنين رضي الله عنها ، وهي بنتُ عمَّته (ص) .
.[٨٤٨]أحمي سمعي ، وبصري: أي: أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.
.[٨٤٩]تساميني: أي: تعاليني ، وتفاخرني: أي: تطاولني عنده (ص) .
.[٨٥٠]عصمها: حفظها ، ومنعها.
.[٨٥١]الورع: الكفُّ عن المحارم والتَّحرُّج منها.
.[٨٥٢]طفقت: شرعت.
.[٨٥٣]حمنة بنت جحش بنت عمَّته (ص) ، وهي أخت زينب رضي الله عنها.
.[٨٥٤]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٤٠ .

.[٨٥٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (١/٣٨٥ ، ٣٨٦).

.[٨٥٦]المصدر السابق نفسه ، (١/٣٨٦) نقلاً عن تفسير الكشاف (٣/٢٢٣).
.[٨٥٧]انظر: حديث القران الكريم (١/٣٨٧).

.[٨٥٨]انظر: فقه الإسلام شرح بلوغ المرام ، لفضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد (٥/٩).

.[٨٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤١ .

.[٨٦٠]انظر: حديث القران الكريم (٣٥٧/١).

.[٨٦١]انظر: اثار تطبيق الشَّريعة ، د. محمد الزَّاحم ، ص ١١٧ .

.[٨٦٢]انظر: تفسير القرطبي (١٩٧/١٢).

.[٨٦٣]انظر: تفسير القرطبي (٢٠١/١٢).

.[٨٦٤]انظر: مرويات غزوة بني المصطلق ، ص ٢٤٢ .

.[٨٦٥]انظر: زاد المعاد (٢٦٣/٣ ، ٢٦٤).

.[٨٦٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢٦٣/٢).

.[٨٦٧]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، المغازي ، ص ٢٨١ .

.[٨٦٨]انظر: كتاب الأم ، للشَّافعي (١٨٦/٤).

.[٨٦٩]شرح صحيح مسلم ، للنووي (٦٤٣/٥).

.[٨٧٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، للعمري (٤١٥/٢).

.[٨٧١]انظر: نيل الأوطار ، للشَّوكاني (٢٢٢/٦ ـ ٢٢٤).

.[٨٧٢]صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

.[٨٧٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٤٣. وينظر الشكل (٩) في الصفحة (٧٥٤).

.[٨٧٤]انظر: المغازي (٤٤٠/٢) بدون إسناد.

.[٨٧٥]انظر: الطَّبقات (٦٥/٢ ، ٧٣) بإسنادٍ متصل.

.[٨٧٦]انظر: البداية والنِّهاية (١٠٥/٤).

.[٨٧٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤٣ .

.[٨٧٨]انظر: جوامع السِّير ، ص ١٨٥ .

.[٨٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤٤.

.[٨٨٠]انظر: الفتح (٣/٣٩٦).

.[٨٨١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٤٤.

.[٨٨٢]انظر: زاد المعاد (٢/٢٨٨).

.[٨٨٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٢٣٧).

.[٨٨٤]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ٣١٠.

.[٨٨٥]انظر: تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ولفنسون ، ص ١٤٢.

.[٨٨٦]المصدر السابق نفسه ، ص ٣١٠.

.[٨٨٧]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٤١.

.[٨٨٨]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٤٤ ، ١٤٥.

.[٨٨٩]انظر: مغازي الواقدي (٢/٤٤٤) ، والطَّبقات الكبرى (٢/٦) ، ومحمَّد (ص) : لمحمَّد رضا (حفر الخندق).

.[٨٩٠]ذباب: أكمةٌ صغيرة في المدينة ، يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع.

.[٨٩١]راتج: حصنٌ من حصون المدينة لأناسٍ من اليهود.

.[٨٩٢]جبل سلع: هو أشهر جبال المدينة. انظر: معجم البلدان (٣/٢٣٦).

.[٨٩٣]هي حرَّة المدينة الشَّرقية. انظر: معجم معالم الحجاز (٢/٢٨٣ ، ٢٨٥).

.[٨٩٤]انظر: العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول (ص) ، ص ٤٤٢.

.[٨٩٥]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٢٦.

.[٨٩٦]انظر: غزوة الأحزاب ، للدُّكتور محمد عبد القادر أبو فارس ، ص ٩٨.

.[٨٩٧]المصدر السابق نفسه، ص ١١٦ ، ١١٧.

.[٨٩٨]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٨٢.

.[٨٩٩]انظر: صفوة التفاسير ، للصَّابوني (٢/٣٥١).

.[٩٠٠]أحكام القران ، لابن العربيّ (١٤١٠/٣).

.[٩٠١]انظر: فقه السِّيرة ، لمنير الغضبان ، ص ٥٠٤.
وانظر: البداية والنِّهاية (فصل: نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق) ، وانظر: السِّيرة النبوية لابن هشام (غزوة الخندق) من حاول عبور الخندق من المشركين ، وراجع: الإصابة في معرفة الصَّحابة لابن حجر.
.[٩٠٢]انظر: القيادة العسكريَّة في عصر الرَّسول (ص) ، ص ١١.

.[٩٠٣]يُدربون طرقهم: يسهلون طرقهم من أجل السَّير إلى المسلمين.
.[٩٠٤]انظر: مغازي الواقدي (٤٥٧/٢).
.[٩٠٥]لحناً: أي: كلاماً لا يفهمه أحدٌ سواي.

.[٩٠٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (١٩٩/٣) ، والقرطبي ، تفسير اية (٩) من سورة الأحزاب ، والطَّبري، والبداية والنِّهاية، لابن كثير (فصل: في نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق).
.[٩٠٧]قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النَّبيِّ (ص) في ذات الرَّجيع.
.[٩٠٨]انظر: البداية والنِّهاية (٩٥/٤) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (غزوة الخندق).
.[٩٠٩]انظر: السِّيرة الحلبيِّة (٣٢٣/٢).

.[٩١٠]انظر: المعجم الكبير للطبراني (٣٧٦/١١) ، ومجمع الزوائد (١٣١/٦).
.[٩١١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٢٤/٢).
.[٩١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٢٥/٢).
.[٩١٣]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٤٢٤/٢).

.[٩١٤]الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة ، إذا قطع لم يرقأ الدم.
.[٩١٥]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ٢٠١.

.[٩١٦]انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد باشميل ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢.

.[٩١٧]انظر: المغازي ، للواقدي (٢/٤٧٧) ، والجامع لأحكام القران ، للقرطبيّ (اية: ٦١).
.[٩١٨]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤١٣ .
.[٩١٩]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/١٧٦).

.[٩٢٠]انظر: البداية والنِّهاية (٤/١٠٦).
.[٩٢١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/١٢٥).
.[٩٢٢]انظر: البداية والنِّهاية (٤/١٠٦).
.[٩٢٣]انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/٦٨٧).

.[٩٢٤]انظر: العبقريَّة العسكرية في غزوات الرَّسول (ص) ، ص ٤١٤ .
.[٩٢٥]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص) ، ص ٤١٤ .
.[٩٢٦]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص) ص ٤١٥ ، ٤١٦ .
.[٩٢٧]انظر: البداية والنهاية (٤/١١٣).

.[٩٢٨]انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/٤٣٠).
.[٩٢٩]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص) ، ص ٤٧٧ .

.[٩٣٠]الفساطيط: جمع فسطاط نوعٌ من الأبنية في السَّفر ، وهو دون السرادق.

.[٩٣١]انظر: تفسير القرطبيّ (١٤/١٤٤) ، وجامع البيان للطَّبريِّ (تفسير سورة الأحزاب).
.[٩٣٢]انظر: فقه السِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٥٠٣.
.[٩٣٣]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٢.

.[٩٣٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٥٠٥ ، السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٦٧.
.[٩٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٦٧.
.[٩٣٦]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٤٦.

.[٩٣٧]انظر: شرح الزُّرقاني (٢/١٢٠).
.[٩٣٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٩٣.
.[٩٣٩]انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/٦٦٢).

.[٩٤٠]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٢/٤٩٠ ، ٤٩١).
.[٩٤١]المصدر السابق نفسه (٢/٤٤٢).

.[٩٤٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٧٣.
.[٩٤٣]انظر: السَّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧).
.[٩٤٤]ظهراً وبطناً: لا يبدو على ملامحها أثر الحزن.
.[٩٤٥]طرحت الرَّحا على خلاَّد بن سويد رضي الله عنه ، فقتلها رسول الله (ص) به.
.[٩٤٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٧٧ ، ومختصر سيرة ابن هشام (٢/٣٠) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير (فصل: في غزوة بني قريظة).

.[٩٤٧]انظر: سيرة الرَّسول (ص) ، دروزة (٢/٧٦) نقلاً عن دراسات في عهد النَّبوة ، للشجاع ، ص ١٥٣.

.[٩٤٨]محفر: اسم فاعل من حفّر.
.[٩٤٩]أهيل: رملاً سائلاً ، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (٥/٢٨٩).
.[٩٥٠]أهيم: الرَّمل الَّذي لا يتمالك ، وانظر: لسان العرب (٣/٨٥٨).
.[٩٥١]العناق: الأنثى من أولاد الماعز ، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (٣/٣١٠).
.[٩٥٢]البرمة: هي القدر مطلقاً ، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (١/١٢١).
.[٩٥٣]الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها ، وانظر: القاموس المحيط (٣/١٢٠).
.[٩٥٤]ولا تضاغطوا: أي: لا تزاحموا ، وانظر: لسان العرب (٢/٥٣٧).

.[٩٥٥]انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٧٥.
.[٩٥٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤٨.

.[٩٥٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٤٩.

.[٩٥٨]انظر: نضرة النَّعيم (٣٢٥/١).
.[٩٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٥٥/٣).
.[٩٦٠]انظر: من معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص ٢٩١.
.[٩٦١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٤٧/٣).
.[٩٦٢]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (١٠٨/٦).

.[٩٦٣]انظر: الأساس في السُّنَّة (٦٨٢/٢).
.[٩٦٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٢٣.
.[٩٦٥]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٩٤.

.[٩٦٦]انظر: الرَّحيق المختوم ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤.
.[٩٦٧]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢٤٦/٢).
.[٩٦٨]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٣٦٥.
.[٩٦٩]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٦٥.
.[٩٧٠]انظر: غزوة الأحزاب ، للدُّكتور أبو فارس.

.[٩٧١]انظر: المستشفيات الإسلاميَّة ، للدُّكتور عبد الله السَّعيد ، ص ٤٣.
.[٩٧٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٩٤.
.[٩٧٣]انظر: المستفاد من قصص القران (٢٨٦/٢).

.[٩٧٤]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٦٥/٦).
.[٩٧٥]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٦١.
.[٩٧٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٦٢/٣).

.[٩٧٧]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٨.

[٩٧٨]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٧٠/٦).
[٩٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٦٣/٣).
[٩٨٠]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٦٥.
[٩٨١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٧٥/٣).
[٩٨٢]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٨.
[٩٨٣]انظر: التَّربية القياديَّة (٧٠/٣).

[٩٨٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٧١/٤).
[٩٨٥]المصدر السابق نفسه.
[٩٨٦]انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢٨٧/١).
[٩٨٧]انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢٩٥/١) وإسناده صحيحٌ.
[٩٨٨]انظر: سير أعلام النبلاء (٢٨٨/١) ورجاله ثقات.

[٩٨٩]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (١٧١/٦).
[٩٩٠]انظر: التَّربية القياديَّة (٧٧/٤) نقلاً عن مسند الإمام أحمد (١٤١/٦).
[٩٩١]انظر: القيادة الرَّبانيَّة (٨٧/٤).
[٩٩٢]انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢٩٠/١).

[٩٩٣]القرطبي اية (٩) من سورة الأحزاب ، والطَّبري ، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة.
[٩٩٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٦٥/٣) ، والقرطبي اية (٩) من سورة الأحزاب ، والطَّبري، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا.
[٩٩٥]انظر: الصِّراع مع اليهود لأبي فارس (١١٢/٢).

[٩٩٦]انظر: الصِّراع مع اليهود (١١٣/٢ ، ١١٤).
[٩٩٧]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (٣٦٨/١).
[٩٩٨]المصدر السابق نفسه.

.[٩٩٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (١١٥/٢).

.[١٠٠٠]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٣٧٢/١).

.[١٠٠١]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٣٧٣/١) ، والسِّيرة لابن هشام ، غزوة بني قريظة في سنة خمس قصَّة الزَّبِير بن باطا.

.[١٠٠٢]انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (٣٧٣/١).

.[١٠٠٣]انظر: الصِّراع مع اليهود (١١٦/٢).

.[١٠٠٤]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٢٦.

.[١٠٠٥]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٦.

.[١٠٠٦]انظر: المستفاد من قصص القران (٢٨٦/٢).

.[١٠٠٧]اختصاراً من فتح الباري (٤٧٣/٧) في شرح الحديث رقم (٤١١٩).

.[١٠٠٨]انظر: الصِّراع مع اليهود (٩٦/٢ ، ٩٧).

.[١٠٠٩]المصدر السابق نفسه (٩٧/٢).

.[١٠١٠]انظر: اليهود في السُّنّة المطهَّرة (٣٧٥/١).

.[١٠١١]انظر: الصِّراع مع اليهود (٩٨/٢).

.[١٠١٢]انظر: سيرة الرَّسول (ص) ، لعزَّة دروزة (٢٠٢/٢).

.[١٠١٣]انظر: الصِّراع مع اليهود (٩٨/٢).

.[١٠١٤]المصدر السابق نفسه (٩٩/٢) ، والبداية والنِّهاية (فصل: في غزوة بني قريظة) ، والسِّيرة النَّبوية لابن هشام غزوة بني قريظة (إسلام ريحانة).

.[١٠١٥]المرصد: المعدُّ للأمر عدَّته.

.[١٠١٦]متسربلينا: لابسين الدُّروع.

.[١٠١٧]متكمِّهينا: عُمياً لا تبصرون.

.[١٠١٨]حرجاً: حراماً.

.[١٠١٩]انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (٣٧٢/١).
.[١٠٢٠]انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (١٨٤٩/٤).

.[١٠٢١]انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات ، لحفصة بنت عثمان الخليفي ، ص ٢٠٥.
.[١٠٢٢]انظر: تفسير ابن كثير (٤٨٩/٣).

.[١٠٢٣]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ٢٠٩.
.[١٠٢٤]انظر: تفسير القران العظيم (٤٩١/٣).

.[١٠٢٥]انظر: تفسير السَّعدي (١٣٦/٤).
.[١٠٢٦]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ١٨٩.
.[١٠٢٧]صرفاً: توبةً ، وقيل: نافلة ، عدلاً: أي: فدية ، وقيل: فريضة.
.[١٠٢٨]انظر: علاقة الاباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلاميَّة ، د. سعاد الصَّانع ، ص ٥٢ ، ٥٣.

.[١٠٢٩]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ١٩١ ، ١٩٢.
.[١٠٣٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣١١.
.[١٠٣١]انظر: المفصَّل في أحكام المرأة ، لعبد الكريم زيدان (٤٧٤/١١ ، ٤٧٥).

.[١٠٣٢]انظر: أحكام القران لابن العربيِّ (١٥٣١/٣ ، ١٥٣٢).
.[١٠٣٣]انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (٤٧٦/١١).
.[١٠٣٤]انظر: البداية والنهاية (١٤٧/٤).
.[١٠٣٥]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ٣١٢.

.[١٠٣٦]فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لابن حجر (٥٢٤/٨).
.[١٠٣٧]تفسير السَّعدي (١٥٤/٣).

.[١٠٣٨]انظر: في ظلال القران (٢٨٦٩/٥).

.[١٠٣٩]انظر: تفسير القرطبي (١٤/١٩٤).

.[١٠٤٠]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ٢١٨.

.[١٠٤١]المصدر السابق نفسه.

.[١٠٤٢]تور: الإناء.

.[١٠٤٣]الجعد بن دينار ، أبو عثمان اليشكريُّ ، البصريُّ ، من أصحاب أنس.

.[١٠٤٤]انظر: السنّة النبوية ، لأبي شهبة (٢/٣١٢).

.[١٠٤٥]انظر: تفسير القرطبيِّ (١٤/١٧٩).

.[١٠٤٦]انظر: السُّنَّة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٣١٢).

.[١٠٤٧]انظر: الطبقات الكبرى (٨/١١٥).

.[١٠٤٨]انظر: تلقيح الفهوم ، لابن الجوزي ، ص ٣٧٠.

.[١٠٤٩]انظر: تحفة الأشراف ، للمزِّي (١١/٣٢١ ـ ٣٢٣).

.[١٠٥٠]انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢/١٢١).

.[١٠٥١]انظر: دور المرأة في خدمة الحديث ، ص ٨٥.

.[١٠٥٢]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ١٣٩.

.[١٠٥٣]قريةٌ عامرةٌ قديمةٌ على وجه الدَّهر في طريق مكَّة من البصرة من نجدٍ.

.[١٠٥٤]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٤.

.[١٠٥٥]انظر: تاريخ الإسلام ، للَّذهبي ، المغازي ، ص ٣٥١.

.[١٠٥٦]انظر: نضرة النعيم (١/٣٣٠).

.[١٠٥٧]المصدر السابق نفسه.

.[١٠٥٨]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٢٩٨) ، والاستيعاب ، لابن عبد البرِّ: ترجمة ثُمَامَة بن أَثَال الحنفيِّ.

.[١٠٥٩]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٣٨٦ ، ٣٨٧.

.[١٠٦٠]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨٧.

.[١٠٦١]انظر: السرايا والبعوث النبوية ، ص ١١٨.

.[١٠٦٢]مسلم شرح النووي (٨٤/١٣) ، باب: إباحة ميتات البحر ، وأبو داود (كتاب الأطعمة) ، باب: (في دواب البحر).

.[١٠٦٣]الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليناثر ورقها ، واسم الورق الساقط: خَبَط.

.[١٠٦٤]شرح النووي (٨٤/٣١).

.[١٠٦٥]البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة سيف البحر ، رقم (٤٣٦١).

.[١٠٦٦]جمع جزور ، والجزور: البعير ، أو خاص بالناقة.

.[١٠٦٧]الكثيب: التل من الرمل.

.[١٠٦٨]العنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس.

.[١٠٦٩]الوقب: النُّقرة التي تكون فيها العين.

.[١٠٧٠]القلال: جمع قُلَّة ، وهي الجرَّة العظيمة.

.[١٠٧١]الفدر: جمع فدرة وهي القطعة من اللَّحم.

.[١٠٧٢]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٢١.

.[١٠٧٣]انظر: شرح النَّووي (٨٥/١٣ ـ ٨٧).

.[١٠٧٤]صحيح سنن النسائي ، للألباني رحمه الله (٩١٠/٣).

.[١٠٧٥]شرح النَّووي (٨٧/١٣).

.[١٠٧٦]انظر: الطبقات ، لابن سعدٍ (١٣٢/٢) ، والمغازي ، للذَّهبي ، ص ٥١٩.

.[١٠٧٧]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٢٥.

.[١٠٧٨]انظر: المغازي (٧٧٤/٢) ، والسِّيرة النَّبويَّة على ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٨٠.

.[١٠٧٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٨٠.

.[١٠٨٠]المصدر السابق نفسه.

.[١٠٨١]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٢٣ ، والسرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١١٩.

.[١٠٨٢]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١١٩.

.[١٠٨٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٢٣ نقلاً عن الزُّرقاني في شرحه (٢/٢٨٢).
.[١٠٨٤]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٠٨٥]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٢٤.

.[١٠٨٦]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٢٣.
.[١٠٨٧]انظر: السِّيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٨٠.
.[١٠٨٨]شرح النَّوويِّ على مسلمٍ (١٣/٨٦).
.[١٠٨٩]المصدر السابق نفسه (١٣/٨٦).
.[١٠٩٠]التَّربية القياديَّة (٤/١٦٧ ، ١٦٨).

.[١٠٩١]نصب الرَّاية للزيلعي (كتاب الصُّلح) ، وكنز العمال للمتَّقي الهندي (بعث عبد الرحمن).
.[١٠٩٢]انظر: مغازي الواقدي (٢/٥٦٠ ـ ٥٦١).

.[١٠٩٣]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/١٨٤).
.[١٠٩٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٤/١٧١).
.[١٠٩٥]المصدر السابق نفسه (٤/١٧٢).
.[١٠٩٦]انظر: التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/١٨٤).

.[١٠٩٧]انظر: التربية القيادية (٤/١٧٤).
.[١٠٩٨]انظر: التَّربية القياديَّة (٤/١٧٤).

.[١٠٩٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٦/١٨٦).
.[١١٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٦٨.
.[١١٠١]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٣٤ ، ٣٥.

.[١١٠٢]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٦.

.[١١٠٣]عسفان: قرية بين مكَّة والمدينة على نحو يومين من مكَّة.

.[١١٠٤]كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكَّة والمدينة ، وهو وادٍ.

.[١١٠٥]انظر: صلح الحديبية ، ص ٣٧.

.[١١٠٦]غُران: بضمِّ أوله: واد بين ساية ، ومكَّة.

.[١١٠٧]انظر: صلح الحديبية ، ص ٣٨.

.[١١٠٨]الغابة: موضع قرب المدينة من ناحية الشَّام فيه أموالٍ لأهل المدينة.

.[١١٠٩]انظر: عيون الأثر ، لابن سيِّد الناس (٢/٧٢ ، ٧٣).

.[١١١٠]ذو قرد: ماء على نحو بريدٍ من المدينة ممَّا يلي غطفان.

.[١١١١]انظر: التاريخ السِّياسي العسكريّ ، ص ٣٢٧.

.[١١١٢]انظر: صلح الحديبية ، ص٤٣.

.[١١١٣]انظر: المصدر السابق نفسه ، ص٤٥.

.[١١١٤]انظر: التَّاريخ السِّياسي ، والعسكري ، ص ٣٢٧.

.[١١١٥]انظر: صلح الحديبية ، ص ٤٥.

.[١١١٦]الغمر: ماء لبني أسدٍ على ليلتين من فيد الَّذي هو قلعةٌ بطريق مكَّة.

.[١١١٧]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٦٤٠).

.[١١١٨]ذو القصَّة ، موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الرَّبذة.

.[١١١٩]انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ٣٢٨.

.[١١٢٠]انظر: الواقديُّ (١/٥٥١).

.[١١٢١]العيص: بينها وبين المدينة أربع ليالٍ.

.[١١٢٢]انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمَّد رضا ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦.

.[١١٢٣]انظر: التاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٣٠.

.[١١٢٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٢٥.

.[١١٢٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/١٨٩).

.[١١٢٦]انظر: الأساس في السنّة (٧١٢/٢).

.[١١٢٧]عكل: قبيلة من تيم الرباب.

.[١١٢٨]عرينة: حيٌّ من بُجيلة.

.[١١٢٩]من رواية الواقدي (٥٦٨/٢) معلقة ، وابن سعد (٩٣/٢) معلقة.

.[١١٣٠]الذَّود: الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة ، وقيل: ما بين الثنتين إلى التِّسعة.

.[١١٣١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٧٨.

.[١١٣٢]المصدر السابق نفسه.

.[١١٣٣]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٧٨.

.[١١٣٤]انظر: سبل الهدى والرَّشاد ، للشَّامي (١٨١/٦ ـ ١٩٠) فيها تفصيل.

.[١١٣٥]انظر: تفسير الطَّبري (٢٤٢/١٠ ـ ٢٤٤).

.[١١٣٦]انظر: علاج القران الكريم للجريمة ، د. عبد الله الشنقيطي ، ص ٢٩٧ ، ٢٩٨.

.[١١٣٧]انظر: علاج القران الكريم للجريمة ، ص ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥.

.[١١٣٨]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد قلعجي ، ص ٢١٢.

.[١١٣٩]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٦٥ ، والبخاري كتاب المغازي ، باب: قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق.

.[١١٤٠]انظر: شرح المواهب اللدنية (١٦٨/٢).

.[١١٤١]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٨٩/١).

.[١١٤٢]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٩١.

.[١١٤٣]انظر: التَّاريخ الإسلامي (١٧٧/٦).

.[١١٤٤]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٩١/١).

.[١١٤٥]انظر: الصراع مع اليهود (١٩٢/١ ، ١٩٣).

.[١١٤٦]فتح الباري (٧/٤٠٠) في شرح حديث (٤٠٣٩ ، ٤٠٤٠).

.[١١٤٧]انظر: التربية القياديَّة (٤/١٤٨).
.[١١٤٨]انظر: اليهود في السنّة المطهَّرة (١/٣٨٨ ، ٣٨٩).

.[١١٤٩]المخرش: شبه المقرعة يضرب به ، وهي معوجَّة الرأس.
.[١١٥٠]الشَّواحط: شجر ابن النبع ، من أشجار الجبال الَّتي يُتَّخذ منها القسي.
.[١١٥١]فأمَّه: أي: جرحه في رأسه ، والشَّجة المأمومة هي التي تبلغ أمَّ الرأس.
.[١١٥٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص٤٧٧ ، والبداية والنِّهاية (سنة ١١ هـ).
.[١١٥٣]المصدر السابق نفسه ، ص ٤٧٧.
.[١١٥٤]انظر: التَّربية القياديَّة (٤/١٨٩ إلى ١٩٢).

.[١١٥٥]أجمع أهل العلم على تاريخها دون خلاف ، وانظر: المجموع ، للنووي (٧/٧٨).
.[١١٥٦]انظر: نضرة النعيم (١/٣٣٤).
.[١١٥٧]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرسول (ص) (٢/٤٩٥).
.[١١٥٨]انظر: السيرة النبوية ، للندوي ، ص ٢٧٣.

.[١١٥٩]قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية ، ص ٢١٣ ، ٢١٤.
.[١١٦٠]أشعره: إشعار البدن أن يشقَّ أحد جنبي سنام البدنة حتَّى يسيل دمها ، انظر: مرويات الحديبية ، ص ٥٥.
.[١١٦١]انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٥٨ ، ٥٩.
.[١١٦٢]انظر: مغازي الواقدي (٢/٩٧٤).
.[١١٦٣]انظر: صلح الحديبية ، لمحمد باشميل ، ص ٣٠٩.
.[١١٦٤]تاريخ الطبري (٢/٦٢٢).
.[١١٦٥]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص٤٨٩.

.[١١٦٦]المراد: خرجوا ومعهم النِّساء ، والأولاد لئلا يفرُّوا عنهم وهو على الاستعارة.

.[١١٦٧]يا ويح: كلمة ترحُّم ، وتوجُّع ، انظر: لسان العرب (٩٩٦/٣).

.[١١٦٨]وافرون: جمع وافر وهو الذي لم ينقص منه شيء ، انظر: لسان العرب (٩٥٨/٣).

.[١١٦٩]السيرة النبوية ، لابن هشام ، ومحمَّد (ص) ، لمحمد رضا.

.[١١٧٠]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٨٩.

.[١١٧١]انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، للشَّيخ عدنان النَّحوي ، ص ١٦٠.

.[١١٧٢]انظر: السِّيرة النبوية ، لابن هشام (٣٣٨/٣) ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا.

.[١١٧٣]غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٣٩.

.[١١٧٤]انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٧٤.

.[١١٧٥]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، لمحمود شيت خطاب ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

.[١١٧٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٧٤ نقلاً عن اقتباس النُّظم العسكريَّة ، ص ٢٥٨.

.[١١٧٧]بركت من غير علةٍ ظاهرة ، فلم تبرح مكانها.

.[١١٧٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٤.

.[١١٧٩]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٤.

.[١١٨٠]الفتح (٧٥٨/٤) رقم (٣٥٧٧).

.[١١٨١]الفتح (١٦٤/١١) رقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢).

.[١١٨٢]المغازي (٥٨٨/٢).

.[١١٨٣]من رواية أبي الأسود عنه ، كمَّا ذكر ابن حجر في الفتح (١٦٤/١١).

.[١١٨٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٤.

.[١١٨٥]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٣.

.[١١٨٦]انظر: فتح الباري ، لابن حجر (٢٦٠/٦).

.[١١٨٧]انظر: فتح الباري ، لابن حجر (٦١/٦).

.[١١٨٨]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٧.

.[١١٨٩]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٥.

.[١١٩٠]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٥ .

.[١١٩١]أي: خاصَّته ، وأصحاب سرِّه.

.[١١٩٢]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٣/٣٤٠) ، والبداية والنِّهاية (غزوة الحديبية).

.[١١٩٣]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٦٧ .

.[١١٩٤]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٨.

.[١١٩٥]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس، ص ٦٨ .

.[١١٩٦]اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية في شمال الطَّائف يعقد كلَّ عام.

.[١١٩٧]بلَّحوا عليَّ: أبَوا ، كأنَّهم أعيوا عن الخروج معه ، وإعانته (أي: امتنعوا).

.[١١٩٨]أشواباً: أي: أخلاطاً من قبائل شتَّى.

.[١١٩٩]البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.

.[١٢٠٠]انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، لسليم حجازي ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

.[١٢٠١]أسلم قبل عمرة الحديبية ، وشهدها ، وشهد بيعة الرضوان ، أصيبت عينه في اليرموك وكان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم ، انظر: الإصابة (٣/٤٥٢).

.[١٢٠٢]إضجاع الرأي: أي: الوهن في الرأي.

.[١٢٠٣]أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثَّقفي.

.[١٢٠٤]انظر: مغازي الواقدي (٢/٥٩٨).

.[١٢٠٥]انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، ص ١٤٥ .

.[١٢٠٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٨ .

.[١٢٠٧]انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ١٠٨ .

.[١٢٠٨]الواقدي ، المغازي (٢/٦٠٠).

.[١٢٠٩]انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، ص ١١١ .

.[١٢١٠]انظر: عبقرية محمَّد (ص) ، ص ٤٩.

.[١٢١١]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٨٣.

.[١٢١٢]انظر: المغازي ، للواقديِّ (٢/٦٠٠).

.[١٢١٣]مكانٌ قريبٌ من مكَّة.

.[١٢١٤]زاد المعاد (٣/٢٩٠) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٣٤٤).

.[١٢١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٣٤٤).

.[١٢١٦]انظر: زاد المعاد (٣/٢٩٠).

.[١٢١٧]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٨٥.

.[١٢١٨]انظر: زاد المعاد (٣/٢٩١).

.[١٢١٩](غِرَّة) الغرَّة: هي الغفلة: أي: يريدون غفلته. (شرح النَّووي ١٢/١٨٧).

.[١٢٢٠]سلماً: المراد به الاستسلام والإذعان. (شرح النَّووي ١٢/١٨٧).

.[١٢٢١]فاستحياهم: فاستبقاهم. (المفردات للراغب ، ص ١٤٠).

.[١٢٢٢]تبيعاً: خادماً أتبعه. (شرح النووي ١٢/١٧٦).

.[١٢٢٣]وأحسه: أي احك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار، وانظر: (شرح مسلم، النووي ١٢/١٧٦).

.[١٢٢٤]فكسحت شوكها: أي كنست ما تحتها من الشوك، وانظر: (شرح مسلم ، النووي ١٢/١٧٦).

.[١٢٢٥]فاخترطت سيفي: أي سللته. (شرح مسلم ، النووي ١٢/١٧٦).

.[١٢٢٦]ضغثاً: الضغث: الحزمة. (شرح مسلم ، النووي ١٢/١٧٦).

.[١٢٢٧]الذي فيه عيناه: يريد رأسه.

.[١٢٢٨]العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد. (شرح مسلم النووي ، ١٢/١٧٧).

.[١٢٢٩]مجفَّف: أي: عليه تجفاف ، وهو ثوب كالجلِّ يلبسه الفرس ليقيه من السِّلاح.

.[١٢٣٠](وثناه): أي: عودة ثانيةً (شرح مسلم ، للنَّوويِّ ١٢/١٧٦).

.[١٢٣١]تفسير ابن كثير (٤/١٩٢).

.[١٢٣٢]انظر: التَّحرير والتنوير (٢٦/١٧٨).

.[١٢٣٣]انظر: المفردات ، للرَّاغب ، ص ٥١.
.[١٢٣٤]انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٨٤/٢٦).

.[١٢٣٥]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٢٣٠/٢).
.[١٢٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٦.
.[١٢٣٧]المصدر السابق نفسه.
.[١٢٣٨]المصدر السابق نفسه.
.[١٢٣٩]المصدر السابق نفسه.
.[١٢٤٠]انظر: زاد المعاد (٢٩١/٣).
.[١٢٤١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٠٤.
.[١٢٤٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٢.
.[١٢٤٣]انظر: عقيدة أهل السنّة في الصَّحابة ، د. ناصر حسن الشَّيخ (٢٠٥/١).

.[١٢٤٤]انظر: مختصر الصواعق المرسلة (١٧٢/٢).
.[١٢٤٥]انظر: روح المعاني ، للآلُوسي (٩٧/٢٦).
.[١٢٤٦]انظر: تفسير الطبري (٨٥/٢٦ ـ ٨٦) ، وتفسير القرطبي (١٧٨/١٦).

.[١٢٤٧]انظر: تفسير الطبري (١٠٣/٢٦ ـ ١٠٦).
.[١٢٤٨]فتح الباري (٤٤٣/٧).

.[١٢٤٩]شرح النَّووي على صحيح مسلم (٨٥/١٦).
.[١٢٥٠]ثنية المِرَار: مهبط الحديبية والمِرار.
.[١٢٥١]انظر: عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة (٢١٢/١).

.[١٢٥٢]انظر: التربية القياديَّة (٢١٤/٤).
.[١٢٥٣]التربية القيادية (٢١٦/٤).

السيرة النبوية
عرض وقائع وتحليل أحداث
(دروس وعبر)

تأليف
د. علي محمَّد محمَّد الصلابي

الجزء الرابع

السيرة النبوية
حقوق الطبع والتصوير محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م

المبحث الثَّاني

صلح الحديبية[(١)] وما ترتَّب عليه مِنْ أحداث

أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرٍو لرسول الله (ص):

لما بلغ قريشاً أمر بيعة الرِّضوان ، وأدرك زعماؤها تصميم الرَّسول (ص) على القتال؛ أوفدوا سهيل بن عمرو في نفرٍ من رجالهم لمفاوضة النَّبيِّ (ص)[(٢)] ، ولما رأى رسول الله (ص) سهيلاً؛ قال: لقد أراد القوم الصُّلح حين بعثوا هذا الرَّجل[(٣)].

كان سهيل بن عمرٍو أحدَ زعماء قريشٍ البارزين الَّذين كانوا يُعْرَفون بالحنكة السِّياسيَّة، والدَّهاء، فهو خطيبٌ ماهرٌ، ذو عقلٍ راجحٍ، ورزانةٍ ، وأصالةٍ في الرَّأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصُّلح ، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، وقد استعرض الفريقان النُّقاط الَّتي يجب أن تتضمَّنها معاهدة الصُّلح ، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا الَّتي كانت تشكِّل مثار الخلاف بينهما ، هذا وقد اتَّفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النُّقاط ، واختلفا على البعض الاخر ، وقد طال البحث ، والجدل ، والأخذ والرَّدُّ حول هذه البنود ، وبعد المراجعات ، والمفاوضات تقاربت وجهات النَّظر بين الفريقين.

وعند الشُّروع في وضع الصِّيغة النِّهائية للمعاهدة ، وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسميّاً حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط ، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقيَّة ، فعندما شرع النَّبيُّ (ص) في إملاء صيغة المعاهدة المتَّفق عليها؛ أمر الكاتب ، وهو الإمام عليُّ بن أبي طالبٍ بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» ، وهنا اعترض رئيس الوفدِ القرشيِّ سهيلُ بن عمروٍ قائلاً: لا أعرف الرَّحمن! اكتب: «باسمك اللَّهُمَّ» ، فضجَّ الصَّحابة على هذا الاعتراض ، قائلين: هو الرَّحمن ، ولا نكتب إلا الرَّحمن ، ولكنَّ النَّبيَّ (ص) تمشياً مع سياسة

الحكمة ، والمرونة ، والحلم ، قال للكاتب: «اكتب: باسمك اللَّهُمَّ»[(٤)] ، واستمرَّ في إملاء صيغة المعاهدة هذه ، فأمر الكاتب أن يكتب: «هذا ما اصطلح عليه رسول الله» ، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشيِّ على كلمة (رسول الله) قائلاً: لو أعلم أنَّك رسولُ الله ما خالفتُك ، واتَّبعتُك ، أفترغب عن اسمك ، واسم أبيك محمَّد بن عبد الله؟! اكتب اسمك ، واسم أبيك(١).

واعترض المسلمون على ذلك ، ولكن رسول الله (ص) بحكمته ، وتسامحه ، وبُعْدِ نظره حسم الخلاف ، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة (رسول الله) من الوثيقة ، فالتزم الصَّحابة الصَّمت ، والهدوء.

إنَّ النَّبيَّ (ص) وافق المشركين على ترك كتابة «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» وكتابة « باسمك اللَّهم» بدلاً عنها ، وكذا وافقهم على كتابة «محمَّد بن عبد الله» وترك كتابة «رسول الله (ص) » ، وكذا وافقهم على ردِّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم ، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمَّة الحاصلة بالصُّلح ، مع أنَّه لا مفسدة في هذه الأمور ، أمَّا البسملة ، وباسمك اللَّهمَّ فمعناهما واحدٌ ، وكذا قوله «محمَّد بن عبد الله» هو أيضاً رسولُ الله (ص) ، وليس في ترك وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذا الموضع بالرَّحمن الرَّحيم ما ينفي ذلك ، ولا في ترك وصف النَّبي (ص) بالرِّسالة ما ينفيها ، فلا ضرر ، ولا مفسدة فيما طلبوه ، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحلُّ من تعظيم آلهتهم ، ونحو ذلك.

وأمَّا شرط ردِّ مَنْ جاء منهم ، وعدم ردِّ من ذهب إليهم ، فقد بيَّن النَّبيُّ (ص) تعليل ذلك ، والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله: «مَنْ ذهب منَّا إليهم فأبعده الله! ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ، ومخرجاً» ، ثمَّ كان كما قال (ص) . [سبق تخريجه][(٥)].

وتمَّ عقد هذه المعاهدة، وكانت صياغتُها من عشرة بنود جاءت على الشَّكل التَّالي:

١ ـ باسمك اللّهم.

٢ ـ هذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

٣ ـ واصطلحا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ النَّاس ، ويكفُّ بعضُهم عن بعضٍ.

٤ ـ على أنَّه مَنْ قدم مكَّة من أصحاب محمَّد حاجاً ، أو معتمراً ، أو يبتغي من فضل الله؛ فهو امنٌ على دمه ، وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر ، أو إلى الشَّام ، يبتغي من فضل الله؛ فهو امنٌ على دمه ، وماله.

٥ ـ على أنَّه مَنْ أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه؛ ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممَّن مع محمَّد ، لم يردُّوه عليه.

٦ ـ وأنَّ بيننا عَيبةً مكفوفةً ، وأنَّه لا إسلال ، ولا إغلال[(٦)].

٧ ـ وأنَّه من أحبَّ أن يدخل في عَقْدِ محمَّدٍ ، وعهده دخله ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريشٍ ، وعهدهم دخل فيه. (فتواثبت خزاعة ، فقالوا: نحن في عقد محمَّد وعهده ، وتواثبت بنو بكر ، فقالوا: نحن في عقد قريشٍ ، وعهدهم).

٨ ـ وأنت ترجع عنَّا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكَّة ، وأنَّه إذا كان عام قابلٍ خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاحُ الرَّاكب ، السُّيوف في القُرُب ، ولا تدخلها بغيرها.
٩ ـ وعلى أنَّ هذا الهَدْيَ وما جئتنا به؛ فلا تقدمه علينا.
١٠ ـ وشهد على الصُّلح رجالٌ من المسلمين ، ورجالٌ من المشركين:
فمن المسلمين: أبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقَّاص ، ومحمَّد بن مسلمة ، وعليُّ بن أبي طالبٍ كاتب المعاهدة رضي الله عنهم أجمعين.
ومن المشركين: مِكْرزَ بن حفص ، وسهيل بن عمرو[(٧)].
تُعَدُّ هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلاميَّة ، وأنموذجاً فريداً للمعاهدات الدَّوليَّة بما سبقها من مفاوضاتٍ ، وما حوته مِنْ شروطٍ ، وما تمثَّل بها من خلق النَّبيِّ (ص) في النُّزول عند رضا الطَّرف الاخر ، وفي كيفية الصِّياغة والالتزام. هذه المعاهدة سبقها مفاوضاتٌ من قبل المشركين ، والمسلمين ، وفشل بعض الممثِّلين في الوصول إلى اتفاق ، ودارت مشاوراتٌ شتَّى من الجانبين قبل الوصول إليه ، حتَّى توصل الفريقان إلى اتفاقٍ عن طريق ممثِّل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله (ص) على ملأ المسلمين.

عُقدت هذه المعاهدة في الوقت الَّذي كان فيه المسلمون بمركز القوَّة ، لا الضَّعف ، وكان باستطاعتهم ألاَّ يقبلوا شروطها الَّتي اغتاظ منها كثيرٌ من الصَّحابة ، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله (ص) الَّذي لا ينطق عن الهوى ، وقد تمادى رسول قريشٍ على رسول الله (ص) في مفاوضته ، وكان فرداً بين جيش المسلمين ، فلم ينله أذىً ، ولم يتمادَ عليه المسلمون بالقتل؛ «لأنَّ السُّفراء لا تُقتل» ، ولكنَّ رسول الله (ص) يرضيه ، ويسعه بالحلم ، واللِّين ، حتَّى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام ، وهي حقن الدِّماء ، وإحلال السَّلام ، ورجاء أن يعقل القوم الحقَّ ، وأن يراجعوا المواقف ، ويسمعوا كلام الله[(٨)] ، وتدخل الدَّعوة الإسلاميَّة طوراً جديداً بصورٍ أخرى في الانتشار والاتِّصال بالنَّاس ، وعندما نتأمَّل نصوص المعاهدة التي تمَّت في الحديبية فإننا نأخذ منها الاتي:
١ ـ أنَّ ديباجة المعاهدات الإسلاميَّة كانت تبدأ باسم الله ، أو باسمك اللّهمَّ ، والقانون الدَّولي في صياغة المعاهدات يقول: «تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتَّفق عليها طرفا التَّعاقد».
والَّذي يجب أن نلاحظه: أنَّ المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله تعالى؛ الَّذي تبدأ باسمه سبحانه ، حيث هو الرَّقيب ، والحسيب على ما في النَّوايا والقلوب ، واسم الله مقدَّسٌ في كلِّ قلبٍ يؤمن به ، حتَّى

أولئك الذين فسدت عقائدُهم ، فإنَّهم لا ينكرون الله ، ولكنَّهم أفسدوا تصوُّرهم لذات الله ، وقد جرت أعراف بعض الَّذين يستهوون قلوب العامَّة بالشِّعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله: باسم الشَّعب ، أو باسم الأمَّة ، باعتبار قدسيَّة ما يبدؤون به كما يزعمون ، ولكنَّ الَّذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده ، ولذلك كانت البداية «باسمك اللّهُمَّ».

٢ . ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد (الدِّيباجة) كما يسمِّيها القانون الدَّوليُّ ، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام من أنَّه يذكر بعد الدِّيباجة أسماء الممثِّلين ، أو الدُّول الَّتي هي أطراف في عقد المعاهدة.

٣ . بواعث المعاهدة: فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصُّلح لأجل وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ النَّاس ، ويكفُّ بعضهم عن بعضٍ ، وهذا ما عليه القانون الدَّولي العام كذلك.

٤ . الدُّخول في صلب المعاهدة ، وشروطها ، حيث ذكر رسول الله (ص) في هذه المعاهدة الشُّروط المتَّفق عليها بين الطَّرفين ، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام.

٥ . في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام (رئيس الدَّولة الإسلاميَّة) بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ، ولا يتوقَّف ذلك على أن يكون ابتداء الطَّلب منهم[(٩)].

٦ . أنَّ مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزٌ للمصلحة الرَّاجحة ، ودفع ما هو شرٌّ منه ، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها[(١٠)].

٧ . أنَّ صلح الحديبية سمَّاه الله فتحاً؛ لأنَّ الفتح في اللُّغة هو فتح المغلق ، والصُّلح الَّذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله ، والصُّلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطَّرف الاخر.

لقد كانت الصُّورة الظَّاهرة في شروط الحديبية فيها ضيمٌ للمسلمين ، وهي في باطنها عزٌّ ، وفتحٌ ، ونصرٌ ، حيث كان رسول الله (ص) ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء سترٍ رقيقٍ ، وكان يعطي المشركين كلَّ ما سألوه من الشُّروط الَّتي لم يحتملها أكثر أصحابه ، ورؤوسهم ، وهو (ص) يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوبٍ[(١١)].

٨ . إنَّ المعاهدة قد تكون مفتوحةً لمن يحبُّ أن يدخل فيها من الأطراف ، أو الدُّول الأخرى، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ؛ حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحةً لمن يحبُّ الدُّخول فيها من الأطراف الأخرى، فقد دخلت خزاعة ، وكنانة في الصُّلح الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين والَّتي امتدَّت سنواتٍ عديدةً[(١٢)].

٩ . إنَّ المعاهدة لابدَّ لها من توقيع الأطراف ، والإشهاد عليها ، وتوقيع رسول الله (ص) وإشهاد أصحابه إنَّما هو بمثابة التَّوقيع على المعاهدة ، والتَّصديق عليها ، كما هو في القانون الدَّوليّ العامّ.

١٠ . إنَّ المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفاً محايداً ، أو طرفاً يقرِّب بين وجهات النَّظر ، كوساطة سيد الأحابيش (الحُلَيْس بن عَلْقَمَة) حليف قريش الأكبر ، حيث طلبت منه قريش أن يكون وسيطاً بينهم وبين المسلمين ، وكان الحُلَيْسُ ذا عقلٍ راجحٍ ، وبصيرةٍ نافذةٍ ، وكان سيِّداً مطاعاً ، وكان رسول الله (ص) يعرفه ، ويعرف فيه التألُّه الشَّديد ، والتَّعظيم للحرم.

وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب ، ولما يتمتَّع به من تقديرٍ لدى النَّبيِّ (ص) تأثيرٌ على الرَّسول (ص) وأصحابه[(١٣)].

وهذا ما يقرُّه القانون الدَّوليُّ؛ حيث إنَّ المعاهدة قد تعقد بوساطة دولةٍ أخرى ليست طرفاً في النِّزاع ، أو أحد المبعوثين الَّذين لا علاقة لهم ، أو لدولتهم بالنِّزاع القائم بين طرفي التعاقد.

١١ . إن المعاهدة تُعَدُّ نافذة المفعول بمجرَّد الاتفاق على المعاهدة ، وشروطها ، حتَّى لو لم تكتب ، ولو لم يوقِّع عليها الطَّرفان ، وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الَّذي ردَّه الرَّسول (ص) بموجب قبوله عليه السَّلام بالبند الخامس من المعاهدة ، والَّذي يقول: «على أنَّه من أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم...» ، فمنذ أعلن رسول الله (ص) التزامه بهذا الشَّرط أجراه ، ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد ، ولم يوقِّع عليها الطرفان.

١٢ . إنَّ المعاهدة تُكتب من نسختين ، ويأخذ كلُّ طرفٍ نسخةً طِبْقَ الأصل من المعاهدة؛ حيث إنَّه بعد أن تمَّت إجراءات الصُّلح النِّهائية في الحديبية؛ أخذ كلٌّ من الفريقين نسخةً من وثيقة الصُّلح التَّاريخيَّة ، وانصرف الوفد القرشيُّ راجعاً إلى مكَّة[(١٤)].

ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

إنَّ من أبلغ دروس صلح الحديبية درسَ الوفاء بالعهد ، والتَّقيُّد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات؛ الَّتي يقطعها المسلم على نفسه ، وقد ضرب رسول الله (ص) بنفسه أعلى مثلٍ في التَّاريخ القديم ، والحديث لاحترام كلمةٍ لم تكتب ، واحترام كلمةٍ تكتب كذلك ، وفي الجدِّ في عهوده ، وحبِّه للصَّراحة ، والواقعيَّة ، وبغضه التَّحايل ، والالتواء ، والكيد ، وذلك حينما كان يفاوض (سهيل بن عمرو) في الحديبية ، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال ، وقد فرَّ من مشركي مكَّة ، وكان أبوه يتفاوض

مع الرَّسول (ص) ، وكان هذا الابن ممَّن امنوا بالإسلام وجاء مستصرخاً بالمسلمين ، وقد انفلت من أيدي المشركين.

فلمَّا رأى سهيلٌ ابنه؛ قام إليه وأخذه بتلابيبه ، وقال: يا محمد! لقد لجَّت القضيَّةُ بيني وبينك ـ أي: فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا ـ فقال رسول الله (ص) : صدقت ، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أُردُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فلم يغنِ عنه ذلك شيئاً ، وردَّه رسول الله (ص) ، وقال لأبي جندل: إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهداً ، وإنَّا لا نغدر بهم. غير أنَّ النَّبيَّ (ص) إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصُّلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم ، طمأن أبا جندل وبشَّره بقرب الفرج له ، ولمن على شاكلته من المسلمين ، وقال له ـ وهو يواسيه ـ: «يا أبا جندل! اصبر ،

واحتسب ، فإنَّ الله جاعلٌ لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ، ومخرجاً» [سبق تخريجه][(١٥)].

وفي هذه الكلمات النَّبويَّة المشرقة العظيمة دلالةٌ ليس فوقها دلالةٌ على مقدار حرص رسول الله (ص) ، وتمسُّكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه ، وعواقبه فيما يبدو للنَّاس[(١٦)].

لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً ، ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد ، أثبت فيه الرَّسول (ص) والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم ، وحبس مشاعرهم ، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل ، وتأثَّروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه ، والدِّماء تنزف منه؛ ممَّا زاد في إيلامهم ، حتَّى إنَّ الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة ، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبُه بفظاظة الوثنيِّ الجلف ، ليعود به مرَّة أخرى إلى سجنه الرَّهيب في مكَّة.

وقد صبر أبو جندل ، واحتسب لمصابه في سبيل دينه ، وعقيدته ، وتحقَّق فيه قول الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا *} [الطلاق: ٢ ـ ٣].

فلم تمرَّ أقلُّ من سنة حتَّى تمكَّن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكَّة من الإفلات من سجون مكَّة ، وأصبحوا قوَّةً صار كفار مكَّة يخشونها بعد أن انضمُّوا إلى أبي بصير ، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الاتية من الشَّام[(١٧)]. وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى.

ثالثاً: احترام المعارضة النَّزيهة:

بعد الاتفاق على معاهدة الصُّلح ، وقبل تسجيل بنودها ظهرت بين المسلمين معارضةٌ شديدةٌ ، وقويَّةٌ لهذه الاتفاقيَّة ، وخاصَّةً في البندين اللَّذين يلتزم النَّبيُّ (ص) بموجبهما بردِّ من جاءه من المسلمين لاجئاً ، ولا تلتزم قريشٌ بردِّ مَنْ جاءها من المسلمين مرتدَّاً ، والبند الَّذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكَّة ذلك العام، وقد كان أشدَّ النَّاس معارضة لهذه الاتفاقيَّة، وانتقاداً لها عمر بن الخطَّاب، وأُسيد بن حضير سيِّد الأوس، وسعد بن عُبادة سيِّد الخزرج.

وقد ذكر المؤرِّخون: أنَّ عمر بن الخطَّاب أتى رسول الله (ص) مُعلناً معارضته لهذه الاتفاقيَّة ، وقال لرسول الله (ص) : ألست برسول الله؟ قال: «بلى!» قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى!»

قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى!» قال: فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟! قال: «إِنِّي رسولُ الله ، ولستُ أعصيه[(١٨)]».

وفي روايةٍ: «أنا عبد الله ، ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يُضيِّعني[(١٩)]» قلت: أوليس كنت تحدِّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: «بلى! فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا. قال: «فإِنَّك اتيه ، ومطوِّفٌ به». قال عمر: فأتيت أبا بكرٍ ، فقلت له: يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى! قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى! قلت: فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر ـ ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة ـ: الزم غرزه ـ أي: أمره ـ ، فإِنِّي أشهد أنَّه رسول الله ، وأنَّ الحقَّ ما أمر به ، ولن يخالف أمر الله ، ولن يضيِّعه الله. [سبق تخريجه][(٢٠)].

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثِّرة عاد الصَّحابة إلى تجديد المعارضة للصُّلح ، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله (ص) بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته ، وإعلان معارضتهم ، إلا أنَّ النَّبيَّ (ص) بما أعطاه الله من صبرٍ ، وحكمةٍ ، وحلمٍ ، وقوَّة حجَّةٍ استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصُّلح ، وأنَّه في صالح المسلمين ، وأنَّه نصرٌ لهم[(٢١)] ، وأنَّ الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ، ومخرجاً ، وقد تحقَّق ما أخبر به (ص) .

وبهذا يتبيَّن: أنَّ الرَّسول (ص) وضع قاعدة احترام المعارضة النَّزيهة ، حيث قرَّر ذلك بقوله ، وفعله ، وهو ـ والله أعلم ـ إنَّما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النَّزيهة؛ الَّتي تصدر من أتباعهم ، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الاراء السَّليمة؛ الَّتي تخدم المصلحة العامَّة[(٢٢)].

وهذا الهدي النَّبويُّ الكريم بيَّن: أنَّ حرِّيَّة الرأي مكفولةٌ في المجتمع الإسلاميِّ ، وأنَّ للفرد في المجتمع المسلم الحرِّيَّة في التَّعبير عن رأيه ، ولو كان هذا الرَّأي نقداً لموقف حاكم من الحكَّام ، أو خليفةٍ من الخلفاء ،

فمن حقِّ الفرد المسلم أن يبيِّن وجهة نظره في جوٍّ من الأمن ، والأمان دون إرهابٍ ، أو تسلُّط يخنق حرِّية الكلمة ، والفكر.

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله (ص) : أنَّ المعارضة لرئيس الدَّولة في رأيٍ من الاراء ، وموقف من المواقف ليست جريمةً تستوجب العقاب ، ويُغَيَّب صاحبها في غياهب السُّجون[(٢٣)].

رابعاً: التَّحلُّل من العمرة ومشورة أمِّ سلمة رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله (ص) من قضية كتابة الصُّلح قال لأصحابه: «قوموا ، فانحروا ، ثمَّ احلقوا...» حتَّى قال ذلك ثلاث مرَّاتٍ ، فلمَّا لم يقم منهم أحدٌ؛ دخل على أمِّ سلمة ، فذكر لها ما لقي مِنَ النَّاس ، فقالت أمُّ سلمة: يا نبي الله! أتحبُّ ذلك؟ اخرج ، ثمَّ لا تُكلِّم أحداً منهم كلمةً؛ حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج ، فلم يكلِّم أحداً منهم حتَّى فعل ذلك: نحر بُدْنه ، ودعا حالقه ، فلمَّا رأوا ذلك؛ قاموا ، فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتَّى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. [سبق تخريجه].

وقد حلق رجالٌ يوم الحديبية ، وقصَّر اخرون ، فقال رسول الله (ص) : «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: «والمقصرين». [البخاري (١٧٢٧) ، ومسلم (١٢٠١) ، عن ابن عمر ، وأحمد (١/٢١٦) عن ابن عباس][(٢٤)].

وكان في هدي النَّبيِّ (ص) في الحديبية جملٌ لأبي جهلٍ في رأسه بُرَةٌ[(٢٥)] من فضَّةٍ ، يغيظ بذلك المشركين. [أحمد (١/٢٣٤) ، وأبو داود (١٧٤٩) ، وابن ماجه (٣٠٧٦) ، والطبراني في المعجم الكبير (١١١٤٧ و١١١٤٨)][(٢٦)].

وفي هذه الحادثة تستوقفنا أمورٌ فيها دروسٌ ، وعبرٌ منها:

١ ـ كان رأي أمِّ سلمة سديداً ، ومباركاً؛ حيث فهمت رضي الله عنها عن الصَّحابة: أنَّه وقع في أنفسهم أن يكون النَّبيُّ (ص) أمرهم بالتَّحلُّل أخذاً بالرُّخصة في حقِّهم، وأنَّه يستمرُّ على الإحرام أخذاً بالعزيمة في حقِّ نفسه، فأشارت على النَّبيِّ (ص) أن يتحلَّل لينتفي عنهم هذا الاحتمال ، وعرف النَّبيُّ (ص) صواب ما أشارت به ، ففعله ، فلمَّا رأى الصَّحابة ذلك؛ بادروا إلى فعل ما أمرهم به ، فلم يبق بعد ذلك غايةٌ تُنتظر ، فكان ذلك رأياً سديداً ، ومشورةً مباركةً ، وفي ذلك دليلٌ على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرةٍ صائبةٍ ، ورأيٍ سديدٍ[(٢٧)] ، كما أنَّه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من

رجلٍ ، أو امرأةٍ ما دامت مشورةً صائبةً ، وهذا عين التَّكريم للمرأة الَّتي يزعم أعداء الإسلام: أنَّه غمطها حقَّها ، وتجاهل وجودها ، وهل

هناك اعترافٌ واحترامٌ لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبيٍّ مرسلٍ ، ويعمل النَّبيُّ (ص) بمشورتها لحلِّ مشكلة اصطدم بها ، وأغضبته؟![(٢٨)].

٢ ـ أهمِّيَّة القدوة العملية: فقد دعا رسول الله (ص) إلى أمر وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ ، وفيهم كبار الصَّحابة ، وشيوخهم ، ومع ذلك لم يستجب أحدٌ لدعوته ، فلمَّا قدم رسول الله (ص) على الخطوة العمليَّة؛ الَّتي أشارت بها أمُّ سلمة تحقَّق المراد ، فالقدوة العمليَّة في مثل هذه المواقف أجدى ، وأنفع[(٢٩)].

٣ ـ حكم الإحصار في العمرة والحجِّ: دلَّ عمل الرَّسول (ص) بعد الفراغ من أمر الصُّلح من التحلُّل ، والنَّحر ، والحلق على أنَّ المحصر يجوز له أن يتحلَّل ، وذلك بأن يذبح شاةً حيث أحصر ، أو ما يقوم مقامها ، ويحلق ، ثمَّ ينوي التَّحلُّل ممَّا كان قد أهلَّ به ، سواءٌ كان حجّاً ، أو عمرةً ، كما دلَّ على أنَّ المتحلِّل لا يُلزم بقضاء الحجِّ ، أو العمرة إذا كان متطوِّعاً ، وخالف الحنفيَّة ، فرأوا: أنَّ القضاء بعد المباشرة واجبٌ؛ بدليل أنَّ جميع الَّذين خرجوا معه (ص) في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء ، إلا مَنْ توفي ، أو استشهد منهم في غزوة خيبر[(٣٠)].

خامساً: العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح:

ثمَّ انصرف رسول الله (ص) من الحديبية قاصداً المدينة ، حتَّى إذا كان بين مكَّة والمدينة نزلت سورة الفتح ، قال تعالى: {سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *} [الفتح: ١١] .

وقد عبَّر رسول الله (ص) عن عظيم فرحته بنزولها ، وقال: أُنزلت عليَّ الليلة سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس [البخاري (٤١٧٧) ، عن أسلم ، ومسلم (١٧٨٦) عن أنس] ، ثمَّ قرأ: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبيناً *} ، فقال أصحاب رسول الله (ص) : هنيئاً مريئاً فما لنا؟ فأنزل الله:

{لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا *} [الفتح: ٥] [البخاري (٤١٧٢) عن أنس].

وقد أسرع النَّاس إلى رسول الله (ص) وهو واقفٌ على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم: فقال رجل: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِيناً *} رسول الله! أفتحٌ هو؟ قال: «نعم ، والذي نفسي بيده! إنَّه لفتح» [أبو داود (٢٧٣٦) ، والحاكم (٢/١٣١)] فانقلبت كابة المسلمين ، وحزنُهم إلى فرحٍ غامرٍ ،

وأدركوا: أنَّهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنَّتائج ، وأنَّ التَّسليم لأمر الله ، ورسوله فيه كلُّ الخير لهم ، ولدعوة الإسلام[(٣١)].

كان حديث القران الكريم عن هذا الحدث العظيم في سورة الفتح ، وكان القران الكريم له منهجُه الخاصُّ في عرضه لغزوة الحديبية ، فنجد في حديثه عن هذه الغزوة: أنَّه سمى الصُّلح الذي وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال فتحاً مبيناً.

إنَّنا بالتَّأمُّل في أسباب النُّزول نجد: أنَّ سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النَّبيِّ (ص) من الصُّلح ، وهو عائدٌ إلى المدينة النَّبويَّة ، وبعد أن خاض النَّبيُّ (ص) ، والمؤمنون تلك التَّجارب العظيمة من الأمل في العمرة إلى مواجهة المشركين ، إلى بيعة الرِّضوان ، إلى الصُّلح الَّذي لم يكن بعض الصَّحابة راضين عنه ، ودارت في أنفسهم أشياء كثيرةٌ حول هذه الأحداث الجسام.

ينزل القران الكريم ويبيِّن للمسلمين: أنَّ هذا الصُّلح هو فتحٌ مبين ، ويؤكِّد: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان على صوابٍ في قبول الصُّلح؛ لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله (ص) حين يبشِّره الله على الملأ من الدُّنيا بأنَّ الله تعالى فتح بالصُّلح ليغفر له ما تقدَّم من ذنبه ، وما تأخَّر كرامةً منه سبحانه لرسوله ، ليزداد المسلمون ثقةً ، واطمئناناً بأنَّهم على الصَّواب ، وأن ما فعلوه هو الحقُّ ، وماله السَّعادة ، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ توفيق الله كان مع المؤمنين؛ فهو الَّذي وفَّقهم للصَّبر مع رسوله ، وموافقتهم أخيراً على ما جنح له من أمر الصُّلح ، وأنَّ ذلك كان بسبب إنزال السَّكينة في قلوبهم ، حتَّى على قلوب من أنكر بعض شروط الصُّلح ، واستسلم للأمر على مضضٍ ، فلم يحصل رفضٌ لهذا الصُّلح ، بل كلُّهم نزلوا على أمر رسوله (ص) بفضل السَّكينة؛ الَّتي أنزلها عليهم ، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *} [الفتح: ٤].

فالقران الكريم يبيِّن: أنَّ الله هو الَّذي أنزل السَّكينة عليهم ليتذكَّروا فضله ، ويداوموا على شكره ، وهذا الإعلام بإنزال السَّكينة ممَّا يتميَّز به حديث القران الكريم عن هذه الغزوة؛ إذ السَّكينة أمرٌ معنويٌّ لا يعلم نزوله إلا الله ، وأشار القران الكريم إلى بيعة الرِّضوان ، وهي مبايعة الصَّحابة للنَّبيِّ على الموت ، فأثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه البيعة ، وكتب لها الخلود في القران ، وقرَّر أنَّها مبايعةٌ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فقال

تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح: ١٠].

وبهذا نرى ما يتميَّز به القران الكريم في حديثه عن الغزوات ، فهو يبيِّن الحقائق ويصحِّح العقائد ، ويربِّي النُّفوس ، ويفضح المنافقين ، ويبشر المسلمين بغنائم قريبةٍ تحقَّقت في خيبر ، وبين أصحاب الأعذار ، فليس كلُّ مَنْ تخلَّف عن الجهاد يُعاتب ، وإنَّما هناك استثناء ، وهذا من كمال رحمته الإلهيَّة ، ثمَّ لما تمَّ صلح الحديبية ، وعاد المسلمون إلى المدينة ، ولم يتحقَّق ما قصدوه من دخول مكَّة؛ أشار . سبحانه وتعالى . إلى الرُّؤيا الَّتي سبق أن راها النَّبيُّ (ص) وبشَّر بها أصحابه ، وبيَّن أنَّها رؤيا صِدْقٍ ، وأنَّها ستتحقَّق. قال تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا *} [الفتح: ٢٧].

ثمَّ خُتمتِ السُّورة الجليلةُ بصفات مدحٍ للنَّبيِّ (ص) ولأصحابه الكرام[(٣٢)].

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا *مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *} [الفتح: ٢٨ ، ٢٩].

هذه الايات الكريمة وصفت أصحاب محمَّدٍ في أحلى ، وأجمل صورةٍ ، إنَّها صورةٌ عجيبةٌ يرسمها القران الكريم بأسلوبه البديع ، صورةٌ مؤلَّفةٌ من عدَّة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظَّاهرة ، والمضمرة.

فلقطةٌ: تُصوِّر حالتهم مع الكفَّار ، ومع أنفسهم: {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} ، أشدَّاء على الكفار ، وفيهم اباؤهم ، وإخوتهم ، وذوو قرابتهم ، وصحابتهم ، ولكنَّهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً وهم فقط إخوة {رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} ، فهي الشدَّة لله ، والرَّحمة لله.

اللَّقطة الثَّانية: والتَّعبير يوحي كأنَّما هذه هي هيئتهم الدَّائمة؛ الَّتي يراها الرَّائي حين {رُكَّعًا سُجَّدًا} ، ذلك: أنَّ هيئة الرُّكوع والسُّجود تمثِّل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصليَّة في حقيقة نفوسهم ، فعبَّر عنها تعبيراً يثبِّتها كذلك في زمانهم ، حتَّى لكأنهم يقضون زمانهم كلَّه ركَّعاً سجداً.

واللَّقطة الثَّالثة: مثلها ، ولكنَّها لقطةٌ لبواطن نفوسهم ، وأعماق سرائرهم فهذه هي صورة مشاعرهم الدَّائمة {يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً} ، كلُّ ما يشغَل بَالَهُم ، كلُّ ما تتطلَّع إليه أشواقهم ، هو فضلُ الله ، ورضوانُه ، ولا شيء وراء الفضل والرِّضوان يتطلَّعون إليه ، ويشتغلون به.

واللَّقطة الرَّابعة: تثبت أثر العبادة الظَّاهرة ، والتَّطلُّع المضمر في ملامحهم ، ونضجها على سماتهم سيماهم في {سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} من الإشراق ، والوضاءة ، والصَّفاء ، والشَّفافية ، وليست هذه السِّيما هي النُّكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذِّهن عند سماع قوله: فالمقصود بأثر السُّجود هو أثر {مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ} ، واختار لفظ السُّجود؛ لأنَّه يمثِّل حالة الخشوع ، والخضوع والعبوديَّة لله في أكمل صورها ، فهو أثر هذا الخشوع ، أثره في ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء ، والكبرياء ، والفراهة ، ويحلُّ مكانها التَّواضع النَّبيل ، والشَّفافية الصَّافية ، والوضاءة الهادئة ، والذُّبول الخفيف؛ الَّذي يزيد وجه المؤمن وضاءةً ، وصباحةً ، ونُبلاً.
وهذه الصُّورة الوضيئة الَّتي تمثِّلها هذه اللَّقطات ليست مستحدثةً ، إنَّما هي ثابتةٌ لهم في لوحة القدر ، ومِنْ ثمَّ فهي قديمةٌ جاء ذكرها في التَّوراة: وصفتهم الَّتي عرفهم الله بها في كتاب {ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ} ، وبشَّر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها وصفهم في بشارته بمحمَّد ومن معه أنَّهم فهو زرعٌ تامٌّ قويٌّ يخرج فرخه من {وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ} ، وخصوبته ، ولكنَّ هذا الفرخ لا يُضعف العود بل يشدُّه: وأنَّ العود ازر {فَآزَرَهُ} ، فشدَّه {فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} ، وضخمت ساقه ، وامتلأت {فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ} معوجّاً ، ولا منحنياً ، ولكن مستقيماً قويّاً سويّاً.
هذه صورته في ذاته ، فأمَّا وقعه في نفوس أهل الخبرة ، والزَّرع ، والعارفين ، منه النَّامي المثمر ، ومنه البائر ، فهو وقع البهجة والإعجاب: وهم {يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ} الله وأصحابه ، وأمَّا وقعه في نفوس الكفَّار؛ فعلى العكس ، فهو وقع الغيظ والكَمَد {لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ} ، وتعمُّد إغاظة الكفار يوحي بأنَّ هذه الزِّراعة زرعةُ الله أو زرعة رسولِه ، وأنَّهم ستارٌ لِقَدره ، وأداةٌ لإغاظة أعداء الله.
وهذا المثل ثابتٌ في الإنجيل في بشارته بمحمَّدٍ (ص) ومَنْ معه حين يجيئون.
وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة. صحابة رسول الله. فتثبُت في صلب الوجود كلِّه ، وتتجاوب بها أرجاؤه ، وهو يستمع إليها من بارأى الوجود ، وتبقى أنموذجاً للأجيال تحاول أن تحقِّقها ليتحقَّق معنى الإيمان في أعلى الدَّرجات.

وفوق هذا التكريم كلِّه وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: وهو وعدٌ يجيء في هذه الصِّيغة العامَّة بعدما تقدَّم من صفتهم الَّتي تجعلهم أوَّل الدَّاخلين في هذه الصِّيغة العامَّة {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا} ، وذلك التكريم وحده

حسبُهم ، وذلك الرِّضا وحدَه أجرٌ عظيمٌ ، ولكنَّه الفيض الإلهيُّ بلا حدودٍ ولا قيود ، والعطاء الإلهيُّ عطاءٌ غير مجذوذ[(٣٣)].

يقول سيِّد قطب رحمه الله: «... ومرةً أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجود هؤلاء الرِّجال السُّعداء ، وقلوبهم؛ وهم يتلقَّون هذا الفيض الإلهيَّ من الرِّضا ، والتَّكريم ، والوعد العظيم ، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله ، وفي ميزان الله ، وانظر إليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السُّورة ، وقد قرئت عليهم ، وهم يعيشون فيها بأرواحهم ، وقلوبهم ، ومشاعرهم ، وسماتهم ، وينظر بعضهم في وجوه بعضٍ ، فيرى أثر النِّعمة الَّتي يُحِسُّها وهو في كيانه»[(٣٤)]. لقد أيقن الصَّحابة الكرام أنّ الدَّعوة قد دخلت في طورٍ جديد ، وفتح أكيد ، وافاق أوسع ، وامتدادٍ أرحب ، وأنَّ من طبيعة هذا الدِّين أن ينمو ، وينتعش في أجواء السِّلم ، والأمن أكثر منه وقت الحرب ، ولمسوا مع الأيام نتائج صلح الحديبية الَّتي كان من أهمِّها:

١ ـ اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدَّولة المسلمة ، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندَّين ، وكان لهذا الاعتراف أثرُه في نفوس القبائل المتأثِّرة بموقف قريشٍ الجحوديّ؛ حيث كانوا يرون: أنَّها الإمام والقدوة.

٢ ـ دخلت المهابة في قلوب المشركين ، والمنافقين ، وتيقَّن الكثير منهم بغلبة الإسلام ، وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثيرٍ من صناديد قريش إلى الإسلام؛ مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، كما تجلَّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلُّفهم.

٣ ـ أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام ، وتعريف النَّاس به ، ممَّا أدى إلى دخول كثيرٍ من القبائل فيه ، يقول الإمام الزُّهري: «فما فتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه ، إنَّما كان القتال حيث التقى النَّاس ، فلمَّا كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن النَّاس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث ، والمنازعة ، فلم يكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السَّنتين مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك»[(٣٥)].

وعقَّب عليه ابن هشامٍ بقوله: والدَّليل على قول الزُّهريِّ: أنَّ رسول الله (ص) خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمئةٍ في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[(٣٦)].

٤ ـ أمن المسلمون جانب قريش، فحوَّلوا ثقلهم على اليهود، ومَنْ كان يناوئهم من القبائل الأخرى، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

٥ ـ مفاوضات الصُّلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين، ويميلون إليه، فهذا الحُلَيْسُ بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبُّون؛ رجع إلى أصحابه، قال: لقد رأيت البُدْن قد قُلِّدَتْ، وأُشْعِرت، فما رأى أن يُصَدُّوا عن البيت.

٦ ـ مكَّن صلح الحديبية النَّبيَّ (ص) من تجهيز غزوة مؤتة، فكانت خطوةً جديدةً لنقل الدَّعوة الإسلاميَّة بأسلوبٍ آخر خارج الجزيرة العربيَّة.

٧ ـ ساعد صلح الحديبيَّة النَّبيَّ (ص) على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس، والرُّوم، والقط يدعوهم إلى الإسلام.

٨ ـ كان صلح الحديبيَّة سبباً ومقدِّمةً لفتحِ مكَّة، ويقول ابن القيِّم: «كانت الهدنةُ مقدِّمةً بين يدي الفتح الأعظم، الَّذي أعزَّ الله به رسوله، وجنده، ودخل النَّاسُ به في دين الله أفواجاً، فكانت هذه الهدنة باباً له، ومفتاحاً، ومؤذناً بين يديه، وهذه سُنَّةُ الله ـ سبحانه ـ في الأمور العظام الَّتي يقضيها قدراً، وشرعاً أن يوطِّئَ لها بين يديها مقدِّماتٍ، وتوطئاتٍ تُؤذنُ بها، وتدُلُّ عليها»[(٣٧)].

سادساً: أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات:

في أعقاب صلح الحديبية مباشرةً استطاع أبو بصير عُتْبَةُ بن أُسَيْدٍ أن يفرَّ بدينه من سجون الشِّرك في مكَّة المكرَّمة، وأن يلتحق برسول الله (ص) في المدينة، فبعثت قريش في إثره اثنين من رجالها إلى رسول الله (ص) ليرجعا به، تنفيذاً لشروط المعاهدة، فقال رسول الله (ص) لابي بصير: «يا أبا بصير! إنَّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإنَّ الله جاعلٌ لك، ولمن معك من المستضعفين فرجاً، ومخرجاً، فانطلق إلى قومك» فقال أبو بصير: يا رسول الله! أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: «يا أبا بصير، انطلق؛ فإن الله سيجعل لك، ولمن معك من المستضعفين فرجاً، ومخرجاً» [أحمد (٤/٣٢٥)، وابن هشام (٣/٣٣١)].

فانطلق معهما، وقد شقَّ ذلك على المسلمين وهم ينظرون بحزنٍ إلى أخيهم في العقيدة، وهو يعود إلى سجنه بمكَّة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريشٍ ، ولكنَّ رسول الله (ص) كان يهتمُّ بالوفاء بالعهود ، والمواثيق ، ولم يكن عنده مجرَّد نظريةٍ مكتوبةٍ على الورق ، ولكنَّه كان سلوكاً عملياً في حياته ، وفي علاقته الدَّولية ، فقد أوصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوفاء بالعهود، وحذَّر من نقض الأيمان بعد توكيدها

في كثير من الايات القرانيَّة ، قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ *} [النحل: ٩١].

وقال جلَّ وعلا: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً *} [الإسراء: ٣٤].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدةً أصوليَّة من قواعد الدِّين الإسلاميِّ ، الَّتي يجب على كلِّ مسلمٍ أن يلتزم بها[(٣٦)].

لقد التزم رسول الله (ص) بعهده مع قريش ، وسلَّم أبا بصير إليهما ، وانطلق معهما ، فلمَّا كان بذي الحُليفة؛ قال لأحد صاحبيه: أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم. قال: أنظر إليه؟ قال: انظر؛ إن شئت ، فاستلَّه أبو بصير ، ثم علاه به حتَّى قتله ، ففرَّ الاخر إلى رسول الله (ص) فقال: قتل صاحبُكم صاحبي ، فما لبث أبو بصير أن حضر ، متوشحاً السَّيف ، وقال: يا رسول الله! وفت ذمَّتك ، وأدَّى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أُفتن فيه ، أو يُعْبَث بي[(٣٧)]. فقال النَّبيُّ (ص) : «ويل أمِّه! مسْعَرُ[(٣٨)] حربٍ. لو كان له أحدٌ!». [أحمد (٤/٣٣١)، والبخاري (٢٧٣٢) ، وأبو داود (٢٧٦٥)].

فلمَّا سمع ذلك عرف: أنَّه سيردُّه إليهم ، فخرج حتَّى أتى سيف البحر ، وقد فهم المستضعفون بمكَّة من عبارة الرَّسول (ص) أنَّ أبا بصير بحاجةٍ إلى الرِّجال ، فأخذوا يفرُّون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر ، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرٍو ، وغيره ، حتَّى اجتمع عند أبي بصير عصبةٌ قويَّةٌ ، فما يسمعون بعيرٍ لقريشٍ خرجت إلى الشَّام إلا اعترضوا طريقها ، وقتلوا مَنْ فيها ، وأخذوا الأموال التي كانوا يتَّجرون بها ، فأرسل المشركون إلى النَّبيِّ (ص) يناشدونه الله ، والرَّحم لما أرسل إلى أبي بصيرٍ ، ومن معه ، ومن أتاه منهم ، فهو امنٌ ، وتخلَّوا في ذلك عن أقسى شروطهم الَّتي صبُّوا فيها كؤوس كبريائهم ، فذلَّت قريشٌ من حيث طلبت العزَّ[(٣٩)].

فأرسل إليهم النَّبيُّ (ص) وهم بناحية العيص ، فقدموا عليه ، وكانوا قريباً من السِّتِّين ، أو السَّبعين[(٤٠)] فاوى النَّبيُّ (ص) تلك العصبة المؤمنة الَّتي أقضَّت مضاجع قريشٍ ، وأرغمتها على إسقاط شرطها التَّعسُّفيَّ ، فزادت بهم قوَّة المسلمين ، وقويت بهم شوكتُهم ، واشتدَّ بأسهم ، غير أنَّ أبا بصيرٍ ، رأس تلك العصابة ، ومؤسِّسها لم يقدَّر له أن يكون معها ، فقد وافاه كتاب النَّبيِّ (ص) بالعودة إلى المدينة وهو على فراش الموت ، فلفظ أنفاسه حيث كان في الثَّغر ، وهواه في قلب المجتمع النَّبويِّ في المدينة[(٤١)].

إنَّ قصَّة أبي جندلٍ ، وأبي بصيرٍ ، وما احتملاه في سبيل العقيدة ، وما أبدياه من الثَّبات ، والإخلاص ، والعزيمة ، والجهاد؛ حتَّى مرَّغوا رؤوس المشركين بالتُّراب ، وجعلوهم يتوسَّلون للمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم في الحديبية ، هذه القصَّة نموذجٌ يُقتدى به في الثَّبات على العقيدة ، وبذل الجهد في نصرتها ، وفيها ما يشير إلى مبدأ: «قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة» ، فقد ألحق أبو بصير ، وجماعتُه الضَّرر بالمشركين في وقتٍ كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاءً بالصُّلح ، لكنَّ أبا بصير ، وأصحابَه خارجُ سلطة الدَّولة . ولو في ظاهر الحال . ولم يكن ما قام به أبو بصير ، والمستضعفون بمكَّة مجرَّد اجتهادٍ فرديٍّ لم يحظَ بإقرار الرَّسول (ص) حيث لم يأمر أبا بصير بالكفِّ عن قوافل المشركين ابتداءً ، أو بالعودة إلى مكَّة ، إنَّ ذلك لم يحدث ، فكان إقراراً له؛ إذ كان موقف أبي بصير ، وأصحابه في غاية الحكمة ، حيث لم يستكينوا لطغاة مكَّة يفتنونهم عن دينهم ، ويمنعونهم من اللَّحاق بالمدينة ، فاختاروا موقفاً فيه خلاصُهم ، وإسناد دولتهم بأعمالٍ تُضعِف اقتصاد مكَّة ، وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصُّلح ، بل يمكن القول بأن اتِّخاذ هذا الموقف كان بإشارةٍ ، وتشجيعٍ من النَّبيِّ (ص) حين وصف أبا بصير[(٤٢)] بأنَّه: «مِسْعَرُ حربٍ. لو كان معه أحدٌ!» [سبق تخريجه].

إنَّ المتأمِّل في هذه الأحداث يرى رعاية الله الَّتي أولاها لهؤلاء الصَّحابة الكرام ، ولا شكَّ: أنَّ هناك أسباباً بذلوها ، فأهَّلتهم لتلك الرِّعاية من الله سبحانه ، فقد بيَّن سبحانه في كتابه المؤهِّلات لرعايته وعنايته.

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ *} [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ *} [الأعراف: ٥٦].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا *} [الطلاق: ٢] ، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *} [العنكبوت: ٦٩].

فهذه الصِّفات قد توافرت في الصَّحابة رضي الله عنهم ، فنالوا تلك الرِّعاية والعناية من الله ، ومتى توافرت في شخصٍ ، أو أمَّةٍ في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ فإنَّ رعاية الله سوف تنزل عليهم؛ لأنَّ الله قد وعد بذلك ، ووعده الحقُّ[(٤٣)].

سابعاً: امتناع النَّبيِّ (ص) عن ردِّ المهاجرات:

صمَّمت مجموعةٌ من النِّساء المستضعفات في مكَّة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدِّمة هؤلاء النِّساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط ، فقد هاجرت إلى رسول الله (ص) بعد صلح الحديبية ،

فأراد كفار مكَّة أن يردُّوهن؛ فأنزل الله تعالى في حقِّهنَّ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [الممتحنة: ١٠]. [خبر رفض رسول الله (ص) إرجاع أم كلثوم؛ رواه ابن سعد (٨/٢٣٠ ـ ٢٣١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/٢٢٩) ، ومجمع الزوائد (٧/١٢٣)].

ومعنى الايات الكريمة: قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} ، قال ابن عباس: كان امتحانهنَّ أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبد الله ورسولُه ، وقوله تعالى: هذه الاية هي الَّتي حرَّمت المسلمات على {فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} ، قال القرطبيُّ: هذا أوَّل دليلٍ على أنَّ الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامُها لا هجرتُها[(٤٤)].

ثمَّ قال تعالى: {وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}

أي: أعطوا أزواج المهاجرات من المشركين الَّذي غرموه عليهنَّ من الأصدقة.

وقوله: قال ابن كثيرٍ: يعني: إذا {وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} أصدقتهنَّ؛ فانكحوهنَّ؛ أي: تزوَّجوهنَّ بشرط: انقضاء العدَّة ، والوليِّ ، وغير ذلك[(٤٥)].

وفي قوله: العصم: جمع العصمة؛ وأصل العصمة: {وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} ، وكلُّ ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، والمراد بالعصمة هنا: النِّكاح ، الكوافر: جمع كافرة ، والمعنى: أنَّ الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر ، وأمرهم بفراقهنَّ ، وقد

طلَّق عمر بن الخطَّاب امرأتين كانتا له في الشِّرك لما نزلت هذه الاية. [البخاري (٣٧٣٢)].

وقوله: {وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *}

قال المفسِّرون: كان مَنْ ذهب من المسلمات مرتدَّاتٍ إلى الكفَّار من أهل العهد يقال للكفَّار: هاتوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحدٌ من الكافرات مسلمةً مهاجرةً: ردُّوا إلى الكفار مهرها. وكان ذلك نصفاً ، وعدلاً في الحالتين ، وكان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزَّمان في تلك النَّازلة خاصَّةً بإجماع الأمَّة قاله ابن العربيِّ[(٤٦)].

قوله تعالى: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *}

يعني: إن لحقت امرأةٌ مؤمنةٌ بكفَّار أهل مكَّة ، وليس بينكم ، وبينهم عهدٌ ، ولها زوجٌ مسلمٌ قِبَلكُم ، فغنمتم ، فأعطوا هذا الزَّوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمَّس[(٤٧)]. وقال الزُّهريُّ: يُعطى من مال الفيء ، وعنه: يعطى من صداق مَنْ لحق بنا[(٤٨)].

وقال مجاهد: أصبتم غنيمةً {فَعَاقَبْتُمْ} قريشٍ ، أو غيرهم[(٤٩)].

قال أبو السُّعود: أي: فجاءت عقبتكم؛ أي: نوبتكم من أداء {فَعَاقَبْتُمْ} ، شبَّه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارةً ، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمرٍ يتعاقبون فيه ، كما يتعاقب في الرُّكوب ، وغيره[(٥٠)].

وقوله: {فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *}

قال ابن كثير: فلو أنَّها ذهبت بعد هذه الاية امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشركين؛ ردَّ المؤمنون إلى زوجها النَّفقة ، الَّتي أنفق عليها من العَقِب الَّذي بأيديهم؛ الذي أمروا أن يردُّوه على المشركين من نفقاتهم الَّتي أنفقوا على أزواجهم الَّلاتي امَنَّ ، وهاجرن ، ثمَّ رَدُّوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم[(٥١)].

وختم الاية الكريمة بقوله: أي احذروا أن تعتدوا {وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ *} أمرتم به.

قال الزُّهريُّ: وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدَّت بعد إيمانها [البخاري (٢٧٣٣)] ، وقال ابن حجر: أراد الزُّهريُّ بذلك الإشارة إلى أنَّ المعاقبة المذكورة بالنِّسبة إلى الجانبين إنَّما وقعت في الجانب الواحد؛ لأنَّه لم يُعرف أحدٌ من المؤمنات فرَّت من المسلمين إلى المشركين بخلاف عكسه[(٥٢)].

لقد حدث خلافٌ في فهم البند القائل: من أتى محمَّداً (ص) من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم، فالمشركون يرون: أنَّ النَّص يشمل الرِّجال، والنِّساء، والرَّسول (ص) يرى: أنَّ النَّص للرِّجال دون النِّساء؛ إذ النَّصُّ جاء بصيغة المذكَّر ، ولقد أيَّد الله رسوله (ص) فيما ذهب إليه ، فلم يُرجع مسلمةً هاجرت إلى المدينة فراراً بدينها ، بل امتحنها ، وقبلها بناءً على أمر ربِّه ـ سبحانه وتعالى .[(٥٣)].

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة تعقيباً على اية الامتحان: والاية تفهم مع الاستئناس بالرِّوايات المنسقة إجمالاً معها: أنَّ بعض المؤمنات الَّلاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصُّلح اغتنمن فرصةً فهاجرن خِلْسةً ، وأنَّ ذويهنَّ جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصُّلح ، فنزلت الاية تنهى عن إعادتهنَّ ، وتأمر بالتَّعويض على أزواجهنَّ ، وقد تعدَّدت الأقوال في حقيقة نصِّ وثيقة الصُّلح ، ومنها أنَّه كان

مطلقاً ، وبصيغة التَّذكير ، فرأى المكِّيُّون: أنَّه شاملٌ للرِّجال ، والنساء معاً ، فجاؤوا يطالبون بالإعادة ، ورأى النَّبيُّ (ص) : أنَّه لا يشمل النِّساء ، فنزلت الاية حاسمةً للأمر ، وهذا هو المعقول[(٥٤)].

وقال الأستاذ الغزاليُّ: «وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردُّوا النِّسوة المهاجرات بدينهنَّ إلى أوليائهنَّ ، إمَّا لأنَّهم فهموا: أنَّ المعاهدة خاصَّةٌ بالرِّجال فحسب ، أو لأنَّهم خشوا على النِّساء الَّلاتي أسلمن أن يضعفن أمام التَّعذيب والإهانة ، وهنَّ لا يستطعن ضرباً في الأرض ، وردّاً للكيد ، كما فعل أبو جندل ، وأبو بصير ، وأضرابهما ، وأيّاً كان الأمر؛ فإنَّ احتجاز مَنْ أسلم من النِّساء تمَّ بتعليم القران»[(٥٥)].

* * *

المبحث الثَّالث

دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد

كانت غزوة الحديبية غنيَّة بالدُّروس العقائديَّة، والفقهيَّة، والأصوليَّة، والتَّربويَّة... إلخ، وسوف أذكر منها بعض الدُّروس على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: أحكام تتعلَّق بالعقيدة:

١ ـ حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس:

في قيام المغيرة بن شعبة على رأس النَّبيِّ (ص) بالسَّيف . ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد ـ سنةٌ يقتدى بها عند قدوم رسل العدوِّ من إظهار العزِّ، والفخر، وتعظيم الإمام، وطاعته، ووقايته بالنُّفوس، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين، وليس هذا النَّوع الَّذي ذمَّه النَّبيُّ (ص) بقوله: «مَنْ أحبَّ أن يتمثَّل له الرِّجال قياماً؛ فليتبوأ مقعده من النَّار». [أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٧٥٥)].

كما أنَّ الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النَّوع المذموم في غيره[(٣٨)]، ويشبه هذا ما فعله أبو دجانة في غزوة أحدٍ، فكلُّ ما يدلُّ على التكبُّر، أو التجبُّر في المشي ممنوع شرعاً، ولكنَّه جائزٌ في حالة الحرب بخصوصها، بدليل قوله (ص) عن مشية أبي دُجانة: «إنَّها مشيةٌ يكرهها الله إلا في هذا الموضع». [الطبراني في المعجم الكبير (٦٥٠٨٥)، ومجمع الزوائد (٦/١٠٩)] [(٣٩)].

٢ ـ استحباب الفأل، وأنَّه مغاير للطِّيرة:

لما جاء سُهيل بن عمروٍ لمفاوضة رسول الله (ص)؛ قال رسول الله «سهَّل أمركم». [سبق تخريجه] [(٤٠)].
ففي الحديث استحباب التفاؤل، وأنَّه ليس من الطِّيرة المكروهة[(٤١)].

وقد جاءت أحاديث عن النَّبيِّ (ص) تبيّن معنى الفأل ، قال رسول الله (ص) : «لا طيرة، وخيرُها[(٥٦)] الفأل». قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟! قال: «الكلمة الصَّالحة يسمعُها أحدُكم» [البخاري (٥٧٥٤ و٥٧٥٥) ، ومسلم (٢٢٢٣/١١٠)].
والفرق بين الفأل ، والطِّيرة: أنَّ الفأل من طريق حسن الظَّنِّ بالله ، والطِّيرة لا تكون إلا في السُّوء ، فلذلك كُرِهَتْ[(٥٧)].
وقد ذُكِرَتِ الطِّيرة عند النَّبيِّ (ص) فقال: «أحسنها الفأل ، ولا تردُّ مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره؛ فليقل: اللّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السَّيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوَّة إلا بك». [أبو داود (٣٩١٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٣٩/٨)].
٣ ـ بيان كفر من اعتقد: أنَّ للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر:
قال خالدٌ الجهنيُّ رضي الله عنه: صلَّى لنا ـ أي: من أجلنا ، أو بنا ـ رسولُ الله (ص) صلاة الصُّبح بالحديبية ـ على أثر سماءٍ[(٥٨)] كانت من اللَّيلة ـ فلمَّا انصرف؛ أقبل على النَّاس ، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ، ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمنٌ بي ، وكافر ، فأمَّا مَنْ قال: مُطِرنا بفضل الله ، ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب ، وأمَّا مَنْ قال: بِنَوْءِ[(٥٩)] كذا ، وكذا؛ فذلك كافرٌ بي ، ومؤمنٌ بالكوكب». [البخاري (٨٤٦) ، ومسلم (٧١)].
وقد حمل العلماء الكفر المذكور في الحديث على أحد نوعيه الاعتقاديِّ ، أو كفر النِّعمة بحسب حال القائل.
فمن قال: مُطرنا بنوء كذا معتقداً: أنَّ للكوكب فاعلية ، وتأثيراً في إيجاد المطر فهو كافرٌ كفراً مخرجاً من الملَّة ، قال الشَّافعيُّ: مَنْ قال: مطرنا بنوء كذا ، وكذا على ما كان أهل الجاهليَّة يعنون من إضافة المطر إلى أنَّه بنوء كذا ، فذلك كفرٌ ، كما قال رسول الله (ص) ؛ لأنَّ النَّوء وقتٌ ، والوقت مخلوقٌ لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً ، ومن قال: مُطرنا بنوء كذا على معنى مُطرنا في وقت كذا؛ فلا يكون كفراً ، وغيره من الكلام أحبُّ إليَّ منه[(٦٠)].
فالشافعي يقصد هنا الكفر الاعتقاديَّ[(٦١)].

٤ . هل يجوز التبرُّك بفضلات الصَّالحين ، واثارهم؟

ففي حديث عروة بن مسعودٍ وهو يصف أصحاب رسول الله (ص) حوله؛ قال: فو الله ما تنخَّم رسول الله (ص) نخامةً إلا وقعت في كف رجلٍ منهم ، فدلك بها وجهه وجلدَه... وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه. [سبق تخريجه].

وقد علق الشَّاطبيُّ على هذا الحديث ، وأحاديث أخرى تماثله ، فقال: فالظَّاهر في مثل هذا النَّوع أن يكون مشروعاً في حقِّ مَنْ ثبتت ولايتُه ، واتِّباعه لسنَّة رسول الله (ص) وأن يُتبرَّك بفضل وضوئه ، ويُتدلَّك بنخامته ، ويُستشفى باثاره كلِّها ، إلا أنَّه عارضنا في ذلك أصلٌ مقطوعٌ به في متنه مشكلٌ في تنزيله، وهو أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع من أحدٍ منهم في شيءٍ من ذلك بالنِّسبة إلى مَنْ خَلَفَه؛ إذ لم يترك النَّبيُّ (ص) بعد موته ، أفضل من أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه ، فهو كان خليفتُه ، ولم يُفعل به شيءٌ من ذلك ، ولا عمر رضي الله عنه وهو كان أفضل الأمَّة بعده ، ثمَّ كذلك عثمان ، ثمَّ عليٌّ ، ثمَّ سائر الصحابة الَّذين لا أحد أفضل منهم في الأمَّة ، ثمَّ لم يثبت لواحدٍ منهم من طريقٍ صحيحٍ معروفٍ أنَّ متبرِّكاً تبرك به على أحد تلك الوجوه ، أو نحوها؛ بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال ، والأقوال ، والسِّير الَّتي اتَّبعوا فيها النَّبيَّ (ص) ، فهو إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء[(٦٢)].

وقد أخرج ابن وهب في جامعه من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهابٍ؛ قال: حدَّثني رجلٌ[(٦٣)] من الأنصار: أنَّ رسول الله (ص) كان إذا توضَّأ ، أو تنخَّم ابتدر من حوله من المسلمين وضوءه ، ونخامته ، فشربوه ، ومسحوا به جلودهم ، فلمَّا راهم يصنعون ذلك؛ سألهم: «لم تفعلون هذا؟» قالوا: نلتمس الطَّهور ، والبركة بذلك. فقال رسول الله (ص) : «من كان منكم يحبُّ أن يحبَّه الله ، ورسولُه؛ فَلْيَصْدُقِ الحديث ، ولْيُؤَدِّ الأمانة ، ولا يؤذِ جاره». [عبد الرزاق في المصنف (١٩٧٤٨) ، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٩٩٨)].

وهذا الحديث أفاد أنَّ الأَوْلى ترك التبرُّك مع رسول الله (ص) ، ولعلَّ سكوت النَّبيِّ (ص) عن ذلك يوم الحديبية ليرى عروةُ بن مسعود رسولُ قريشٍ مدى تعلُّق الصَّحابة رضي الله عنهم بالنَّبي (ص) وحبِّهم له ، لا سيَّما وقد قال للنَّبيِّ (ص) : إنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ، ويدعوك [سبق تخريجه].

هذه بعض المسائل العقائديَّة.

ثانياً: أحكام فقهيَّة وأصوليَّة:

١ ـ قصَّة كعب بن عجرة ، ونزول اية الفدية:
قال كعب بن عُجرة رضي الله عنه: وقف عليَّ رسول الله (ص) بالحديبية ، ورأسي يتهافت[(٦٤)] قملاً ، فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟»[(٦٥)] قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك». أو قال: «احلق» قال: فنزلت هذه الاية: {فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ} [البقرة: ١٩٦] فقال النَّبيُّ (ص) : «صم ثلاثة أيامٍ ، أو تصدَّق بفَرَقٍ بين ستَّةٍ ، أو انسُكْ[(٦٦)] بما تيسَّر» [البخاري (١٨١٥) ، ومسلم (١٢٠١/٨٢)].
وفي رواية مسلمٍ: «أنَّ النَّبيَّ (ص) مرَّ به؛ وهو بالحديبية ، قبل أن يدخل مكَّة ، وهو مُحْرِمٌ ، وهو يُوقِدُ تحت قِدْرٍ ، والقملُ يتهافتُ على وجهه ، فقال: «أيؤذيك هوامُّك هذه؟» قال: نعم. قال: «فاحْلِقْ رأسَك ، وأطْعِمْ فَرَقاً بين سِتَّةِ مساكينَ . والفَرق: ثلاثةُ اصُعٍ ـ أو صُمْ ثلاثة أيامٍ ، أو انسُكْ نسيكة» [مسلم (١٢٠١/٨٣) ، والترمذي (٢٩٧٤)]. واية البقرة المذكورة تبيِّن حكم مَنْ كان محرماً وبه أذى من رأسه ، وهي نزلت في كعب بن عُجرة خاصَّة ، وأصبح لكلِّ مسلمٍ يمرُّ بالحالة نفسِها.
٢ ـ مشروعية الصَّلاة في الرِّحال:
روى ابن ماجه عن أبي المليح بن أسامة؛ قال: خرجت إلى المسجد في ليلةٍ مطيرةٍ تماماً ، فلمَّا رجعت استفتحتُ ، فقال أبي[(٦٧)]: مَنْ هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتُنا مع رسول الله (ص) يوم الحديبية وأصابتنا سماءٌ لم تبلَّ أسافل نعالنا ، فنادى منادي رسول الله (ص) : «صلُّوا في رحالكم» [أبو داود (١٠٥٩) ، والنسائي (١١١/٢) ، وابن ماجه (٩٣٦)]. وهذا الحديث صحيحٌ ، فسنده متَّصلٌ برواية الثِّقات ، وقد صحَّحه ابن حجر[(٦٨)].
٣ ـ انصراف المسلمين من الحديبية ، ونومهم عن صلاة الصُّبح:
كانت مدَّة إقامة المسلمين بالحديبية بضعة عشر يوماً ، ويقال: عشرين ليلةً على قول الواقديِّ[(٦٩)] ، وابن سعدٍ[(٧٠)].

وعن ابن عائذٍ: أنَّ رسول الله (ص) أقام في غزوته هذه شهراً ونصفاً[(٧١)].
والَّذي يبدو: أنَّ الواقديَّ ، وابن سعدٍ أرادا تحديد مدَّة إقامته (ص) في الحديبية ، أما ابن عائذٍ فقصد الزَّمن الَّذي استغرقته غيبة النَّبيِّ (ص) منذ خروجه من المدينة إلى عودته إليها.
وبعد أن تحلَّل المسلمون من عمرتهم تلك؛ قفلوا راجعين إلى المدينة ، فلمَّا كان من اللَّيل عدلوا عن الطَّريق للنَّوم ، ووكَّلوا بلالاً بحراستهم ، فنام بلالٌ ، ولم يوقظهم إلا حرُّ الشَّمس[(٧٢)] ، كما جاء في حديث

عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه؛ حيث قال: أقبلنا مع رسول الله (ص) زمن الحديبية ، فقال رسول الله (ص) : «من يكلؤنا؟»[(٧٣)]. فقال بلالٌ: أنا. فناموا حتَّى طلعت الشَّمس ، واستيقظ النَّبيُّ (ص) ، فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون». قال: ففعلنا. قال: «فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي» [أبو داود (٤٤٧) ، والنسائي في السنن الكبرى (٨٨٠٢) ، وأحمد (١/٣٨٦ و٣٩١)].

وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أنَّ قصَّة نومهم عن صلاة الصُّبح وقعت في غير الحديبية ، وحاول بعض العلماء التَّوفيق بين هذه النُّصوص ، وذهب الدُّكتور حافظ الحكمي إلى أنَّ ما ورد من اختلاف بين حديث عبد الله بن مسعود في قصَّة الحديبية وغيره محمولٌ على تعدُّد القصَّة ، كما رجَّح ذلك النَّوويُّ[(٧٤)] ، وجنح إليه ابنُ كثيرٍ[(٧٥)] ، وابن حجرٍ[(٧٦)] ، والزُّرقانيُّ ، بل قال السُّيوطيُّ: لا يجمع إلا بتعدُّد القصَّة[(٧٧)].

٤ ـ مشروعية الهدنة بين المسلمين ، وأعدائهم ، ومقدار المدَّة التي تجوز المهادنة عليها:

استدلَّ العلماء ، والأئمَّة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنةٍ بين المسلمين ، وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدَّةٍ معلومةٍ ، سواءٌ أكان ذلك بعوضٍ يأخذونه منهم ، أم بغير عوضٍ ، أمَّا بدون عوض فلأنَّ هدنة المدينة كانت كذلك ، وأما بعوضٍ فبقياس الأولى؛ لأنَّها إذا جازت بدون عوضٍ ، فلأن تجوز بعوض أقرب ، وأوجه.

وأمَّا إذا كانت المصالحة على مالٍ يبذله المسلمون ، فهو غير جائزٍ عند جمهور المسلمين ، لما فيه من الصَّغَار لهم؛ ولأنَّه لم يثبت دليلٌ من الكتاب ، أو السُّنَّة على جواز ذلك ، قالوا: إلا

إنْ دعت إليه ضرورةٌ لا محيص عنها ، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك ، أو الأسر؛ فيجوز ، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال.

وقد ذهب الشَّافعيُّ وأحمد رحمهم الله وكثير من الأئمَّة إلى أنَّ الصُّلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدَّةٍ معلومةٍ ، وأنَّه لا يجوز أن تزيد المدَّة على عشر سنواتٍ مهما طالت؛ لأنَّها هي المدَّة الَّتي صالح النَّبيُّ (ص) قريشاً عليها عام الحديبية[(٧٨)].

وذهب اخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة ، وهو قول أبي حنيفة[(٧٩)].

والتَّحقيق: أنَّ القول الأول هو الرَّاجح لظاهر الحديث ، وإنْ وُجِدت مصلحةٌ في الزيادة على العشر جدَّد العقد ، كما قال الشَّافعي[(٨٠)].

وقال بعض المتأخِّرين[(٨١)]: يجوز عقد صلحٍ مؤبَّد غير مؤقَّتٍ بمدَّةٍ معيَّنةٍ ، واستدل بقوله تعالى: {إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً *} [النساء: ٩٠].

وهذا قولٌ مبنيٌّ على أنَّ الأصل في علاقة المسلمين بالكفَّار هي السَّلم ، لا الحرب[(٨٢)] ، وأنَّ الجهاد إنَّما شرع لمجرد الدِّفاع عن المسلمين ، فحسب(٥).

وهذا القول مردودٌ لما يلي:

أ ـ أنَّ صاحب هذا القول قد خرق الاتِّفاق بعد أن حكاه بنفسه؛ حيث قال: اتَّفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدوِّ لابدَّ من أن يكون مقدوراً بمدَّة معيَّنةٍ ، فلا تصح المهادنة مطلقةً إلى الأبد من غير تقديرٍ بمدَّة[(٨٣)].

ب ـ الاية الَّتي استدل بها منسوخةٌ بقوله تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ٥].

فقد نقل ذلك ابن جرير[(٨٤)] عن عكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وحكاه القرطبيُّ[(٨٥)] عن مجاهدٍ. ثمَّ قال: وهو أصحُّ شيءٍ في معنى الاية.

ج ـ الأصل الَّذي انبنى عليه هذا القول مردودٌ باية براءة السَّابقة ، وبواقع سيرة الرَّسول (ص) ، وخلفائه مع أعدائهم.

د ـ أمَّا فكرة: أنَّ الجهاد إنَّما شرع للدِّفاع عن المسلمين ، فهي فكرةٌ دخيلةٌ ، وقد تصدَّى لها سيِّد قطب[(٨٦)] رحمه الله ، ففنَّدها ، وبيَّن: أنَّ سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين ، وعدم الفهم لمرحليَّة الدَّعوة[(٨٧)].

٥ ـ المطْلَق يجري على إطلاقه:

هذه قاعدةٌ أصوليَّةٌ يؤيِّدها ما رواه ابن هشام عن أبي عبيد: أنَّه قال: إنَّ بعض من كان مع رسول الله (ص) قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله! إنَّك تدخل مكَّة امناً؟ قال: «بلى! أفقلتُ لكم من عامي هذا؟» قالوا: لا ، قال: «فهو كما قال لي جبريلُ عليه السلام». [ابن هشام (٣/٣٤١)][(٨٨)].

وفي هذا الأثر تبشير المؤمنين بفتح مكَّة في المستقبل ، وإيماءٌ بالوحي الصَّادق إلى ذلك النَّصر ، ولفتٌ لهم إلى وجوب التَّسليم لأمره بإطلاقٍ كلَّما ورد مطلقاً دون تحميله زياداتٍ وقيوداً تصرفه عن إطلاقه[(٨٩)].

٦ ـ وجوب طاعته (ص) ، والانقياد لأمره؛ وإن خالف ظاهر ذلك القياس ، أو كرهته النُّفوس:

جاء في قصَّة الحديبية: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وبعضَ الصَّحابة رضي الله عنهم كرهوا الصُّلح مع قريش(١)؛ لما رأوا في شروطها من الظُّلم ، والإجحاف في حقِّهم ، لكنَّهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ، ورأوا: أنَّهم وقعوا في حرجٍ؛ إذ كيف يكرهون شيئاً رضيه رسول الله (ص) ! وظلَّت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم ، وكانوا يحذِّرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرَّأي[(٩٠)] ، فكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يقول: (أيها النَّاس! اتهموا الرَّأي على الدِّين ، فلقد رأيتُني أردُّ أمر رسول الله (ص) برأيي

اجتهاداً ، فو الله! ما الو عن الحقِّ ، وذلك يوم أبي جندل) [البزار (١٨١٣) ، ومجمع الزوائد (٦/١٤٥ ـ ١٤٦)].

وكان سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول: اتَّهموا رأيكم؛ رأيتُني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله (ص) ؛ لرَدَدْتُه[(٩١)].

ولقد بقي عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه برهةً من الزَّمن متخوفاً أن يُنزل الله به عقاباً لِلَّذي صنع يوم الحديبية ، فكان رضي الله عنه يتحدَّث عن قصَّته تلك ، ويقول: فما زلت أصوم ، وأتصدَّق ، وأعتق مِنَ الَّذي صنعت مخافة كلامي الَّذي تكلَّمت به يومئذٍ؛ حتَّى رجوت أن يكون خيراً. [ابن هشام (٣/٣٣١)][(٩٢)].

قال ابن الديبع الشَّيباني تعليقاً على هذه الحادثة: قال العلماء: لا يخفى ما في هذه القصَّة من وجوب طاعته (ص) والانقياد لأمره؛ وإن خالف ظاهرُ ذلك مقتضى القياس ، أو كَرِهَتْهُ النُّفوس ، فيجب على كلِّ مكلَّفٍ أن يعتقد: أنَّ الخير فيما أمر به ، وأنَّه عين الصَّلاح المتضمِّن لسعادة الدُّنيا والاخرة ، وأنَّه جاء على أتمِّ الوجوه وأكملها ، غير أنَّ أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته ، وعاقبة أمره[(٩٣)].

ثالثاً: أنموذج من التَّربية النَّبويَّة:

في قول رسول الله (ص) : «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنيَّة ثَنيَّة المرَارِ؛ فإنَّه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل؟» [سبق تخريجه].

يظهر في هذا الحديث جانبٌ عظيمٌ من جوانب التَّربية النَّبويَّة يستحقُّ التأمُّل والتَّدبُّر، فرسول الله (ص) يشجِّع أصحابه على صعود الثَّنيَّة ، ثمَّ يخبرهم: أنَّ الذي يجتازها سينال مغفرةً من الله تعالى ، وحين نتأمَّل هذا الحديث تبرز لنا معانٍ عظيمةٌ منها:

١ ـ أنَّ رسول الله (ص) يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الاخر في كلِّ لحظةٍ من لحظات حياتهم.

٢ ـ أنَّه يريد لفت أنظارهم إلى أنَّ كلَّ حركةٍ يتحرَّكونها ، وكلَّ عملٍ يقومون به ـ حتَّى ما يرون: أنه من العادات أو من دواعي الغريزة ـ يجب استغلاله للتَّزوُّد لذلك اليوم ، وكان (ص) يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في نفوس الصَّحابة ، فنراه يقول في موطنٍ اخر: «وفي بُضْعِ أحدكم صدقةٌ» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدُنا شهوته؛ ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «أرأيتم لو

وضعها في حرامٍ؛ أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال؛ كان له أجرٌ». [أحمد (١٦٧/٥ و١٦٨) ، ومسلم (١٠٠٦) ، وأبو داود (٥٢٤٣) و(٥٢٤٤)].

ويقول في موطنٍ ثالث: «وإنَّك مهما أنفقت من نفقةٍ فإنَّها صدقةٌ ، حتَّى اللُّقمة الَّتي ترفعُها إلى في امْرَأتك». [البخاري (٢٧٤٢) ، ومسلم (١٦٢٨)].

إنَّ تلك المعاني ـ إذا تمكَّنت في قلب المسلم ـ لكَفِيْلةٌ بأن تصبُغَ حياته كلَّها بصبغة العبودية لله وحده ، وإذا شملت العبادة كلَّ نواحي حياة المسلم؛ فإنَّ لهذا الشُّمول اثاراً مباركةً سوف يشعر بها الفرد في نفسه ، ثم يلمسها فيمن حوله[(٩٤)].

ومن أبرز تلك الاثار أمران:

أ ـ أن يصبُغ حياة المسلم وأعماله بالصِّبغة الرَّبَّانيَّة ، ويجعله مشدوداً إلى الله في كلِّ ما يؤدِّيه ، فهو يقوم به بنيَّة العابد الخاشع ، وروح القانت المخبت ، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كلِّ عملٍ نافعٍ ، وكلِّ إنتاجٍ صالحٍ ، وكلِّ ما ييسِّر له ، ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة ، على أمثل وجوهها ، فإنَّ ذلك يزيد رصيده من الحسنات ، والقربات عند الله تعالى ، كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدُّنيويِّ ، وتجويده ، وإتقانه ، ما دام يقدِّمه إلى ربِّه سبحانه ابتغاء رضوانه ، وحسنِ مثوبته.

ب ـ أنَّه يمنح المسلم وحدة الوُجهة ، ووحدة الغاية في حياته كلِّها ، فهو يرضى رباً واحداً في كلِّ ما يأتي ، ويدع ، ويتَّجه إلى هذا الرَّبِّ بسعيه كلِّه الدِّينيِّ والدُّنيويِّ ، لا انقسام ، ولا صراع ، ولا ازدواج في شخصيته ، ولا في حياته[(٩٥)].

ولقد عاش الصَّحابة الكرام تلك المعاني ، وحوَّلوها إلى حقائق ملموسةٍ في حياتهم كلِّها ، وما حفظ الله سيرتهم إلا لكي نقتديَ بهم في حياتنا ، وتكونَ حجَّةً على كلِّ مَنْ جاء بعدهم[(٩٦)].

* * *

الفصل الرَّابع عشر
أهم الأحداث ما بين الحديبية ، وفتح مكة

المبحث الأوَّل
غزوة خيبر

أولاً: تاريخها ، وأسبابها:
ذكر ابن إسحاق[(٩٧)]: أنَّها كانت في المحرَّم من السَّنة السَّابعة للهجرة ، وذكر الواقديُّ[(٩٨)] أنَّها كانت في صفر ، أو ربيع الأول من السَّنة السَّابعة للهجرة بعد العودة من غزوة الحديبية ، وذهب ابن سعدٍ[(٩٩)] إلى أنَّها في جمادى الأولى سنة سبعٍ ، وقال الإمامان: الزُّهريُّ ، ومالكٌ: إنَّها في محرَّم من السَّنة السَّادسة[(١٠٠)] ، وظاهر الخلاف بين ابن إسحاق ، والواقديِّ يسيرٌ ، وهو نحو الشَّهرين ، وكذلك فإنَّ الخلاف بينهما ، وبين الإمامين الزُّهري ، ومالكٍ مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السَّنة الهجريَّة الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك ، وقد رجَّح ابن حجر[(١٠١)] قول ابن إسحاق على قول الواقديِّ[(١٠٢)].
لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتَّى نزل فيهم زعماء بني النَّضير؛ الَّذين حزَّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم ، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم ، فقد غادروا المدينة ومعهم

النِّساء ، والأبناء ، والأموال ، وخلفهم القيان يضربن الدُّفوف ، والمزامير بزهاءٍ ، وفخرٍ ما رئي مثله في حيٍّ من النَّاس في زمانهم[(١٠٣)].

وكان من أبرز زعماء بني النَّضير الذين نزلوا في خيبر سلاَّم بن أبي الحُقَيق ، وكِنانة بن أبي الحُقيق ، وحُيَيُّ بن أخطب ، فلمَّا نزلوا دان لهم أهلُها[(١٠٤)].

وكان تَزَعُّمُ هؤلاء ليهود خيبر كافياً في جرِّها إلى الصِّراع ، والتَّصدِّي ، والانتقام من المسلمين ، فقد كان يدفعهم حقدٌ دفينٌ ، ورغبةٌ قويَّةٌ في العودة إلى ديارهم داخل المدينة ، وكان أوَّل تحرُّكٍ قويٍّ ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النَّضير دورٌ كبيرٌ في حشد قريش ، والأعراب ضدَّ المسلمين ، وتسخير أموالهم في ذلك ، ثمَّ سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر ، والتَّعاون مع الأحزاب(٢) ، بل إنَّهم أنفقوا أموالهم ، واستغلُّوا علاقاتهم مع يهود بني قُريظة من أجل نُصرة الأحزاب وطَعْنِ المسلمين في ظهورهم[(١٠٥)] ، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطرٍ كبيرٍ على المسلمين ، ودولتهم النَّامية.

تفرَّغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الَّذي أصبح يهدِّد أمن المسلمين ، ولقد تضمَّنت سورة الفتح الَّتي نزلت بعد الحديبية وعداً إلهياً بفتح خيبر ، وحيازة أموالها غنيمةً(٣).

قال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا *وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا *وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا *} [الفتح: ١٨ ـ ٢١].

ثانياً: مسير الجيش الإسلاميِّ إلى خيبر:

سار الجيش إلى خيبر بروحٍ إيمانيَّةٍ عاليةٍ ، على الرَّغم من علمهم بمنعة حصون خيبر ، وشدَّة بأس رجالها ، وعتادها الحربيِّ ، وكانوا يكبِّرون ، ويهلِّلون بأصواتٍ مرتفعةٍ ، فطلب منهم النَّبيُّ (ص) أن يرفُقوا بأنفسهم قائلاً: «أيُّها النَّاس! ارْبَعُوا على أنفسكم ، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ، ولا غائباً ، ولكن تدعون سميعاً بصيراً» [البخاري (٦٣٨٤) ، ومسلم (٢٧٠٤)].

وكان سيره (ص) بالجنود ليلاً ، فقد قال سلمةُ بن الأكوع رضي الله عنه: خرجنا مع النَّبي (ص) إلى خيبر ، فسرنا ليلاً ، وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ، ويقول:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ولاَ تَصدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَاغْفِرْ فِدَاءً لَكَ مَا اتَّقَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

وَأَلْقِيَنْ سَكِيْنَةً عَلَيْنَا إِنَّا إِذَا صِيْحَ بِنَا أتينا

وَبِالصِّيَاحِ عَوَّلُوا عَلَيْنَا

فقال رسول الله (ص) : «مَنْ هذا السَّائق؟» قالوا: عامر بن الأكوع.

قال: «يرحمه الله!».

قال رجلٌ ـ هو عمر بن الخطَّاب .[(١٠٦)] مِنَ القومِ: وَجَبَت يا نبيَّ الله! لولا أمتعتنا به. [البخاري (٤١٩٦) ، ومسلم (١٨٠٢)]].

وعندما وصل الجيش الإسلاميُّ بالصَّهباء ـ وهي من أدنى خيبر ـ صلَّى العصر ، ثمَّ دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا السَّويق ، فأمر به فثري ، فأكل ، وأكل معه الصَّحابة ، ثمَّ قام إلى المغرب ، فمضمض ثمَّ صلَّى بالصَّحابة ، ولم يتوضَّأ. [البخاري (٤١٩٥) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٢٠٠)][(١٠٧)].

وكان (ص) قد بعث عبَّاد بن بِشْرٍ رضي الله عنه في سريَّةٍ استطلاعيَّة يتلقَّط أخبار العدوِّ ، ويستطلع إن كان هناك كمائن ، فلقي في الطَّريق عيناً لليهود من أشجع ، فقال: من أنت؟ قال: باغٍ أبتغي أبعرة ضلَّت لي ، أنا على إثرها. قال عبَّاد: ألك علمٌ بخيبر؟ قال: عهدي بها حديثٌ ، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم ، كان كنانة بن أبي الحُقيق ، وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غَطَفان ، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنةً ، فجاؤوا مُعَدِّين ، مؤيَّدين بالكُراع والسِّلاح ، يقودهم عتبة بن بدرٍ ، ودخلوا معهم في حصونهم ، وفيهم عشرة الاف مقاتلٍ ، وهم أهل الحصون الَّتي لا ترام ، وسلاحٌ ، وطعامٌ كثيرٌ ، لو حُصِرُوا لسنين؛ لكفاهم ، وماءٌ يشربون في حصونهم ، ما أرى لأحدٍ بهم طاقة ، فرفع عبَّاد بن بشرٍ السَّوط ، فضربه ضرباتٍ ، وقال: ما أنت إلا عينٌ لهم ، اصدقني ، وإلا ضربتُ عنقك! فقال الأعرابيُّ: القوم مرعوبون منكم ، خائفون ، وَجِلون؛ لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وقال لي كنانة: اذهب معترضاً للطَّريق ، فإنهم لا يستنكرون مكانك ، واحزرهم لنا ، وادنُ منهم كالسَّائل لهم ما تقوى به ، ثمَّ ألقِ إليهم كثرة عددنا ، ومددنا ، فإنَّهم لن يدعوا سؤلك ، وعجِّل الرَّجعة إلينا بخبرهم[(١٠٨)].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر ، قال رسول الله (ص) لأصحابه: «قفوا». ثمَّ قال: «اللّهُمَّ ربَّ السَّموات ، وما أظْلَلْنَ ، وربَّ الأرضين ، وما أَقْلَلْنَ ، وربَّ الشَّياطين ، وما أَضْلَلْنَ ، وربَّ الرِّياح ، وما ذَرَيْن ، فإنَّا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرّها ، وشرِّ أهلها ، وشرِّ ما فيها ، اقدموا باسم الله» [ابن حبان (٢٧٠٩) ، والحاكم (٢/١٠٠ ـ ١٠١) ،

والنسائي في اليوم والليلة (٥٤٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/٢٥٢) ، وابن خزيمة (٥٦٥) ، والطبراني في الكبير (٧٢٩٩)]. وكان يقولها لكلِّ قرية دخلها.

ولما أدرك رسول الله (ص) اللَّيل أمر الجيش بالنَّوم على مشارف خيبر ، ثم استيقظوا مبكرين ، وضربوا خيامهم ، ومعسكرهم بوادي الرَّجيع ، وهو وادٍ يقع بين خيبر وغطفان؛ حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان[(١٠٩)].

ولما أصبح الصُّبح خرجت اليهود بمساحيهم[(١١٠)] ، ومكاتلهم[(١١١)] ، فلمَّا رأوا جيش المسلمين قالوا: محمدٌ والله! محمدٌ والخَميس ، فقال النَّبيُّ (ص) : «الله أكبر! الله أكبر! خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ ، فساء صباحُ المنذرين» [البخاري (٦١٠) ، ومسلم (١٣٦٥/١٢٠)].

ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر:

هرب اليهود إلى حصونهم ، وحاصرهم المسلمون ، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الاخر ، وكان أوَّل ما سقط من حصونهم ناعمٌ ، والصَّعب بمنطقة النَّطاة ، وأبو النِّزار بمنطقة الشِّقِّ ، وكانت هاتان المنطقتان في الشَّمال الشَّرقي من خيبر ، ثمَّ حصن القَمُوص المنيع في منطقة الكتيبة ، وهو حصن ابن أبي الحُقَيْق ، ثم أسقطوا حصني منطقة الوَطيح ، والسَّلالم[(١١٢)].

وقد واجه المسلمون مقاومةً شديدةً وصعوبةً كبيرةً عند فتح بعض هذه الحصون ، منها حصن ناعمٍ؛ الَّذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاريُّ ، حيث ألقى عليه مرحبُ رحىً مِنْ أعلى الحصن[(١١٣)] ، والَّذي استغرق فتحه عشرة أيام[(١١٤)] ، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصِّدِّيق ، ولم يفتح الله عليه ، وعندما جهَد النَّاس ، قال رسول الله (ص) : إنَّه سيدفع اللِّواء غداً إلى رجلٍ يحبُّه الله ورسولُه ، ويحبُّ الله ورسولَه ، لا يرجع حتَّى يُفْتَح له ، فطابت نفوس المسلمين ، فلمَّا صلَّى فجر اليوم الثَّالث دعا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ودفع إليه اللِّواء ، فحمله ، فتمَّ فتح الحصن على يديه. [الحاكم (٣/٣٧)].

وكان عليٌّ يشتكي من رَمَدٍ في عينيه عندما دعاه الرَّسول (ص) ، فبصق رسول الله (ص) في عينيه ، ودعا له ، فبَرَأَ. [البخاري (٤٢١٠) ، ومسلم (٢٤٠٦)].

ولقد أوصى الرَّسول (ص) علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم ، وقال له: «فو الله! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حُمُرُ النَّعَمِ». [البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦)].

وعندما سأله عليٌّ رضي الله عنه: يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتَّى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك؛ منعوا منك دماءهم ، وأموالَهم إلا بحقِّها ، وحسابهم على الله». [مسلم (٢٤٠٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢٦٠)].

وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيِّده ، وبطلُهم مِرْحَبٌ ، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع ، ثمَّ بارزه عليٌّ فقتله[(١١٥)] ، وقيل: قتله محمَّد بن مسلمة ، ممَّا أثر سلبياً في معنويات اليهود ، ومِنْ ثَمَّ هزيمتهم[(١١٦)].

ووردت مجموعةٌ من روايات تخبر بأن علياً رضي الله عنه تترَّس بباب عظيمٍ ، كان عند حصنِ ناعمٍ، بعد أن أسقط يهوديٌّ ترسه مِنْ يده. وكلُّها رواياتٌ ضعيفةٌ [أحمد (٦/٨)، والطبري في تاريخه (٣/٩٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢١٢) ، ومجمع الزوائد (٦/١٥٢)][(١١٧)] ، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوَّة عليٍّ ، وشجاعته ، فيكفيه ما ثبت في ذلك ، وهو كثيرٌ[(١١٨)].

توجَّه المسلمون إلى حصن الصَّعب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعمٍ ، وأبلى حامل رايتهم الحُباب بن المنذر بلاءً حسناً ، حتَّى افتتحوه بعد ثلاثة أيام ، ووجدوا فيه الكثير من الطَّعام والمتاع يوم كانوا في ضائقةٍ من قلَّة الطَّعام ، ثمَّ توجَّهوا بعده إلى حصن قلعة الزُّبير ـ الَّذي اجتمع فيه الفارُّون من حصن ناعمٍ ، والصَّعبِ ، وبقيَّةِ ما فتح من حصون يهود ـ فحاصروه ، وقطعوا عنه مجرى الماء الَّذي يغذِّيه ، فاضطروهم إلى النزول للقتال ، فهزموهم بعد ثلاثة أيَّامٍ ، وبذلك تمَّت السَّيطرة على اخر حصون منطقة النَّطاة؛ الَّتي كان فيها أشدُّ اليهود ، ثمَّ توجهوا إلى حصون منطقة الشِّق وبدؤوا بحصن أُبَيٍّ ، فاقتحموه ، وأفلت بعضُ مقاتلته إلى حصن نزار ، وتوجَّه إليهم المسلمون فحاصروهم ، ثمَّ افتتحوا الحصن ، وفرَّ بقيَّة أهل الشِّقِّ من حصونهم ، وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع ، وحصن الوَطِيح ، وحصن السَّلالم ، فحاصرهم المسلمون لمدَّة أربعة عشر يوماً حتَّى طلبوا الصُّلح[(١١٩)].

وهكذا فُتحت خيبر عَنْوةً[(١٢٠)]؛ استناداً إلى النَّظر في مجريات الأحداث التي سقناها ، وما روى البخاريُّ[(١٢١)] ، ومسلمٌ [(١٣٦٥/١٢٠)] ، وأبو داود [(٣٠٠٩)][(١٢٢)] من أنَّ رسول الله (ص) غزا خيبر ، وافتتحها عَنْوةً[(١٢٣)].

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين ، وسارع أهل فَدَك في شمال خيبر إلى طلب الصُّلح ، وطلبوا منه أن يحقن دماءهم ، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم [مسلم (١٥٥١) ، وأحمد (٢/٤٥١) ، وأبو داود (٣٠٠٦) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/١٣٧ ـ ١٣٨)][(١٢٤)] فكانت فدك خالصةً لرسول

الله (ص) ؛ لأنَّه لم يوجف عليها بخيلٍ ، ولا ركاب ، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعةُ قرى بين خيبر، وتيماء ليالي[(١٢٥)]، ثمَّ استسلمت ، فغنم المسلمون أموالاً كثيرةً ، وتركوا الأرض والنَّخل بيد اليهود ، وعاملهم عليها مثل خيبر ، وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ، ووادي القرى[(١٢٦)].

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهوديَّة أمام قوَّات المسلمين ، وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثةً وتسعين رجلاً[(١٢٧)] ، وسبيت النِّساء والذَّراري ، منهنَّ صفيَّةُ بنت حُيَيّ بن أخطب ، فأعتقها رسولُ الله (ص) ، وتزوَّجها. [البخاري (٣٧١) ، ومسلم (١٣٦٥)].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق[(١٢٨)] ، وخمسة عشرَ فيما ذكر الواقديُّ[(١٢٩)].

رابعاً: الأعرابيُّ الشَّهيد ، والرَّاعي الأسود ، وبطلٌ إلى النَّار:

١ ـ الأعرابيُّ الشَّهيد:

جاء رجلٌ من الأعراب إلى النَّبيِّ (ص) ، فامن به ، واتَّبعه ، فقال: أهاجر معك. فأوصى به

بعض أصحابه ، فلمَّا كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله (ص) شيئاً ، فقسمه ، وقسم للأعرابيِّ ، فأعطى أصحابه ما قسَم له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلمَّا جاء؛ دفعوه إليه ، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسمه لك رسولُ الله (ص) ، فأخذه فجاء به للنَّبيِّ (ص) ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟! قال: «قَسْمٌ قسمتُه لك». قال: ما على هذا اتبعتُك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهمٍ فأموتَ ، فأدخلَ الجنَّة ، فقال: «إن تَصْدُقِ الله؛ يَصْدُقْكَ» ثم نهض إلى قتال العدوِّ ، فأُتي به إلى النَّبيِّ (ص) ؛ وهو مقتولٌ ، فقال: «أهو هو؟» قالوا: نعم.

قال: «صَدَقَ اللهَ ، فَصَدَقَهُ».

فكفَّنه النَّبيُّ (ص) في جُبَّته، ثمَّ قدَّمه، فصلَّى عليه ، وكان من دعائه له: «اللَّهُمَّ هذا عبدُك خرج مهاجراً في سبيلك، قُتِل شهيداً، وأنا عليه شهيدٌ». [النسائي (٤/٦٠ ـ ٦١) ، والحاكم (٣/٥٩٥ ـ ٥٩٦) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٢٢٢) ، وفي السنن الكبرى (٤/١٥ ـ ١٦)].

٢ ـ الرَّاعي الأسود:

وجاء عبدٌ أسودُ حبشيٌّ من أهل خيبر ، كان في غنمٍ لسيده ، فلمَّا رأى أهل خيبر قد أخذوا السِّلاح ، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الَّذي يزعم: أنَّه نبيٌّ. فوقع في نفسه ذكر النَّبيِّ ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله (ص) فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا

الله ، وأنِّي رسول الله ، وألا تعبد إلا الله». قال العبد: فما لي إن شهدت ، وامنت بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، قال: «لك الجنَّة إنْ مِتَّ على ذلك. فأسلم ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هذه الغنم عندي أمانةٌ ، فقال رسول الله (ص) : «أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء)؛ فإنَّ الله سيؤدِّي عنك أمانتك». ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيِّدها ، فعلم اليهوديُّ: أنَّ غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله (ص) في النَّاس، فوعظهم، وحضَّهم على الجهاد، فلمَّا التقى المسلمون واليهود؛ قُتِلَ ـ فيمن قُتِلَ ـ العبدُ الأسود ، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم ، فأُدخل في الفسطاط ، فزعموا: أنَّ رسول الله (ص) اطَّلع في الفُسطاط ، ثمَّ أقبل على أصحابه ، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خيبر ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يُصَلِّ لله سجدةً قطُّ». [الحاكم (١٣٦/٢) ، والبيهقي في الكبرى (١٤٣/٩) ، وفي الدلائل (٢١٩/٤ ـ ٢٢٠)][(١٣٠)].

٣ ـ بطل لكنَّه إلى النَّار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجلٌ لا يدع للمشركين شاذَّةً ، ولا فاذَّةً[(١٣١)] إلا اتَّبعها يضربها بسيفه ، فقال رسول الله (ص) : «أما إنَّه من أهل النَّار». فقالوا: أيُّنا من أهل الجنَّة إن كان من أهل النَّار؟! فقال رجلٌ: والله لا يموت على هذه الحال أبداً ، فاتَّبعه حتَّى جرح ، فاشتدَّت جراحتُه ، واستعجل الموت ، فوضع سيفه بالأرض ، وذبابه بين ثدييه ، ثمَّ تحامل عليه ، فقتل نفسه ، فجاء رجلٌ إلى رسول الله (ص) فقال: أشهد إنَّك رسول الله! قال: «وما ذاك؟» فأخبره ، فقال النَّبيُّ (ص) : «إنَّ الرَّجل ليعمل بعمل أهل الجنَّة فيما يبدو للناس ، وإنَّه من أهل النَّار ، وإنَّه ليعمل بعمل أهل النَّار فيما يبدو للنَّاس ، وإنَّه لمن أهل الجنَّة». [البخاري (٤٢٠٢ و٤٢٠٧) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٥٢/٤)].

خامساً: قدوم جعفر بن أبي طالبٍ ، ومَنْ معه من الحبشة:

قدم جعفر بن أبي طالبٍ ، وصحبُه من مهاجري الحبشة على رسول الله (ص) يوم فتح خيبر ، فقبَّلهُ رسول الله (ص) بين عينيه ، والتزمه ، وقال: «ما أدري بأيِّهما أنا أَسَرُّ بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر؟!» [الطبراني في الصغير (٣٠) ، وفي الأوسط (٢٠٢٤) ، وفي الكبير (١٤٧٠) ، وابن سعد (٣٥/٤) ، والحاكم (٤٠٨/٣ ـ ٤٠٩) ، والبيهقي في الكبرى (١٠١/٨) ، ومجمع الزوائد (٢٧١/٩ ـ ٢٧٢)]. وكان (ص) قد أرسل في طلبهم من النَّجاشيِّ عمرو بن أميَّة الضَّمريَّ ، فحملهم في سفينتين ، ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر ، وقد رافق جعفراً في قدومه أبو موسى الأشعريُّ ، ومن كان بصحبته من الأشعريِّين[(١٣٢)].

فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: بلغنا مَخْرَجُ النَّبيِّ (ص) ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ، أنا ، وأخوان لي ، أنا أصغرهم ، أحدُهم أبو بُرْدَةَ ، والاخر أبو رُهْمٍ ، إمَّا قال: في بضعٍ ، وإمَّا قال: في ثلاثةٍ وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينةً فألقتنا سفينتنا إلى النَّجاشيِّ بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالبٍ فأقمنا جميعاً ، فوافقنا النَّبيَّ (ص) حين افتتح خيبر. [البخاري (٤٢٣٠) ، ومسلم (٢٥٠٢)].

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً ، نزل خلالها قرانٌ كثيرٌ ، ودارت معارك شتَّى مع الكفَّار ، وتقلَّب المسلمون قبل الهجرة العامَّة وبعدها في أطوارٍ متباينةٍ، حتَّى ظنَّ البعض أنَّ مهاجري الحبشة ـ وقد فاتهم هذا كلُّه ـ أقلُّ قدراً من غيرهم[(١٣٣)].

فعن أبي موسى: «.. كان أناس يقولون لنا: سبقناكم بالهجرة ، ودخلت أسماء بنت عُمَيْسٍ على حفصة زوج النَّبيِّ زائرةً ـ وكانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر ـ فدخل عمر على حفصة؛ وأسماء عندها ، فقال حين رأى أسماء: من هذه ؟ قالت: أسماء بنت عُميس. قال

عمر: الحبشيَّة هذه؟ البحريَّة هذه؟ قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحقُّ برسول الله منكم! فغضبت ، وقالت: كلاَّ والله! كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعظُ جاهلكم ، وكنَّا في أرض البُعَدَاء البُغضَاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله ، وايْمُ الله! لا أطعَم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله (ص) ، وأسأله ، والله! لا أكذب ، ولا أزيغ ، ولا أزيد عليه. فلمَّا جاءت النَّبيَّ (ص) ؛ قالت: كذا وكذا ، قال: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ، ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ ، ولكم أنتم ـ أهل السَّفينة ـ هجرتان». [سبق تخريجه].

فأخذت أسماء هذا الوسام ، ووزَّعته على جميع أعضاء الوفد؛ حيث كانوا[(١٣٤)] كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث ، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ ، ولا أعظم في نفوسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ (ص) . [سبق تخريجه].

وقد أشركهم النَّبيُّ (ص) في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصَّحابة رضي الله عنهم الَّذين شاركوا في فتحها[(١٣٥)].

سادساً: تقسيم الغنائم:

١ ـ كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرَّسول (ص) غنيمةً من حيث الأراضي ، والنَّخيل ، والثِّياب ، والأطعمة ، وغير ذلك ، ومن خلال وصف كتب السِّيرة نلاحظ: أنَّ الغنائم كانت تتكوَّن من:

أ ـ الطَّعام: فقد غنم المسلمون كثيراً من الأطعمة من حصون خيبر ، فقد وجدوا فيها الشَّحم ، والزَّيت ، والعسل ، والسَّمن وغير ذلك ، فأباح رسول الله (ص) الأكل من تلك الأطعمة ، ولم يخمِّسها[(١٣٦)].

ب ـ الثِّياب ، والأثاث ، والإبلُ ، والبقر ، والغنم: لقد أخذ رسول الله (ص) خمسها ووضعه فيما وضعه الله فيه ، ووزَّع أربعة أخماسها على المجاهدين.

ج ـ السَّبي: لقد سبى رسولُ الله (ص) كثيراً من نساء اليهود ، ووزَّع السَّبي على المسلمين ، فهو غنيمةٌ ، ويأخذ حكم الغنيمة.

د ـ أمَّا الأراضي ، والنَّخيل: فقد قسمها النَّبيُّ (ص) إلى ستَّةٍ وثلاثين سهماً ، جمع كلُّ سهم مئة سهم ، فكانت ثلاثة الاف وستمئة سهم ، فكان لرسول الله (ص) لنوائبه ، وما ينزل به من أمور

المسلمين وللمسلمين النِّصف من ذلك ، وهو ألفٌ وثمانمئة سهم ، ووزَّع النِّصف الاخر ، وهو ألف وثمانمئة سهم[(١٣٧)].

هـ وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدَّة صحفٍ من التَّوراة، فطلب اليهود ردَّها ، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع (ص) ما صنع الرُّومان حينما فتحوا أورشليم ، وأحرقوا الكتب المقدَّسة ، وداسوها بأرجلهم ، ولا ما صنع النَّصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التَّوراة[(١٣٨)].

وقد أبقى رسولُ الله (ص) يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها ، وينفقوا عليها من أموالهم ، ولهم نصف ثمارها ، على أنَّ للمسلمين حقَّ إخراجهم منها متى أرادوا ، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النَّبيِّ (ص) ، وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم ، فوافق على ذلك بعد أن همَّ بإخراجهم منها. [أبو داود (٣٤١٠) ، وابن ماجه (١٨٢٠)][(١٣٩)].

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شاء ، وهنا تظهر براعةٌ سياسيَّةٌ جديدةٌ في عقد الشُّروط؛ فإنَّ بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفِّر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله ، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ اليهود هم أصحاب الأرض ، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهم ، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرةً أكثر ، وأجود ، وبخاصَّةٍ: أنَّهم لن يأخذوا أجراً ، ولكنَّهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض، قلَّ ، أو كثر.

وقد ضمن الرَّسول (ص) ـ بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون ـ إخضاعهم وكسر شوكتهم؛ لأنَّهم يعلمون: أنَّهم إذا فعلوا شيئاً يضرُّ بالمسلمين سيطردونهم منها ، ولا يعودون إليها أبداً.

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر ، ففدعوا[(١٤٠)] يديه من المرفقين ، وكانوا قبل ذلك في عهد الرَّسول (ص) اعتدوا على عبد الله بن سهل ، فقتلوه ، فلمَّا تحقَّق عمر من غدرهم، وخيانتهم؛ أمر بإجلائهم[(١٤١)]. وحاول يهود خيبر أن يُخفوا الفضَّة، والذَّهب، وغيبوا مَسْكاً[(١٤٢)] لحُيَيِّ بن أخطب ، وكان قد قتل مع بني قريظة ، وكان احتمله معه يوم بني النَّضير حين أجليت بنو النَّضير ، فسأل رسول الله (ص)

سَعْيَةَ عمَّ حُيَيِّ بن أخطب: «أين مَسْكُ حُيَيِّ بن أخطب؟» قال: أذهبته الحروب، والنَّفقات[(١٤٣)]. فقال رسولُ الله (ص) : العهد قريبٌ ، والمال أكثر من ذلك ، فدفعه رسولُ الله (ص) إلى الزُّبير بن العوَّام ، فمسَّه بعذابٍ ، وقد كان حُيي قبل ذلك دخل خربة ، فقال عمُّه: قد رأيت حُيياً يطوف في خربةٍ ها هنا، فذهبوا ، فطافوا ، فوجدوا المسك في الخربة[(١٤٤)].

وبعد الاتِّفاق الَّذي تمَّ بين رسول الله (ص) ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسولُ الله (ص) عبد الله بن رواحة يأتيهم كلَّ عامٍ ، فيخرصُها عليهم ، ثم يضمِّنهم الشَّطر. فشكوا إلى رسول الله (ص) شدَّة خَرْصِه[(١٤٥)] ، وأرادوا أن يَرْشُوه فقال: يا أعداء الله! تطعموني السُّحت؟ والله! لقد جئتكم من عند أحبِّ النَّاس إليَّ ، ولأنتم أبغضُ النَّاس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير ، ولا يحملني بغضي إيَّاكم وحبِّي إيَّاه على ألاَّ أعدل عليكم! فقالوا: بهذا قامت السَّموات ، والأرض[(١٤٦)].

لقد أصبحت خيبر ملكاً للمسلمين ، وصارت مورداً مهمّاً لهم ، قال ابن عمر رضي الله عنه: «ما شبعنا حتَّى فُتِحَتْ خيبر» [البخاري (٤٢٤٣)] ، وقد تحسَّن الوضع الاقتصاديُّ بعد خيبر ، وردَّ المهاجرون المنائح الَّتي أعطاهم إيَّاها الأنصار من النَّخل[(١٤٧)].

سابعاً: زواج رسول الله (ص) من صفيَّة بنت حُيَيِّ بن أخطب:

لما فتح المسلمون القَمُوص ـ حصن بني أبي الحُقيق ـ كانت صفيَّة في السَّبي ، فأعطاها لدحية الكلبي ، فجاء رجلٌ إلى النَّبيِّ (ص) فقال: يا رسول الله! أعطيت دحية صفيَّة بنت حُيَيٍّ سيدة قومها ، وهي ما تصلح إلا لك ، فاستحسن النَّبيُّ (ص) ما أشار به الرَّجل ، وقال لدحية: خذ جاريةً من السَّبي غيرها ، ثمَّ أخذها رسولُ الله (ص) وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها. [سبق تخريجه] ، ثمَّ تزوجها بعد أن طَهُرت من حَيْضَتها[(١٤٨)] وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النَّبيُّ (ص) من خيبر حتَّى طهرت صفيَّة من حيضها ، فحملها وراءه ، فلمَّا صار إلى منزلٍ على ستة أميالٍ من خيبر؛ مال يريد أن يعرِّس بها ، فأبت عليه ، فوجد في نفسه ، فلمَّا كان

بالصَّهباء نزل بها هناك ، فمشطتها أمُّ سليم ، وعطَّرتها ، وزفَّتها إلى النَّبيِّ (ص) ، وبنى بها ، فسألها: «ما حملك على الامتناع من النُّزول أوَّلاً؟» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود ، فعظمت في نفسه ، ومكث رسولُ الله (ص) بالصَّهباء ثلاثة أيام ، وأوْلَمَ عليها ، ودعا المسلمين ، وما كان فيها من لحمٍ ، وإنَّما التَّمر ، والأقِطُ ، والسَّمن ، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين ، أو ما ملكت يمينُه لها ، فلمَّا ارتحل وطَّأ لها خلفه ومدَّ عليها الحجاب ، فأيقنوا أنَّها إحدى أمَّهات المؤمنين. [سبق تخريجه][(١٤٩)].

وقد كانت أم المؤمنين صفيَّة بنت حُيَيٍّ قد رأت رؤيا ، فقد روى البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديثٍ طويلٍ قال: ورأى رسول الله (ص) بعين صفيَّة خضرةً ، فقال: يا صفيَّة! ما هذه الخضرة؟ فقالت: كان رأسي في حجر ابن حُقَيْقٍ ، وأنا نائمةٌ ، فرأيت كأنَّ قمراً وقع في حجري ، فأخبرتُه بذلك فلطمني ، وقال: تَمَنَّيْنَ ملك يثرب. [البيهقي في الكبرى (١٣٨/٩)].

وهكذا صدَّق الله رؤيا صفيَّة رضي الله عنها ، وأكرمها بالزَّواج من رسوله (ص) ، وأعتقها من النَّار ، وجعلها أماً للمؤمنين ، وزوجاً في الجنَّة لخاتم الأنبياء والمرسلين[(١٥٠)] ، وقد أكرمها رسول الله (ص) غاية الإكرام ، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفيةُ رجلها على ركبته حتَّى تركب ، وقد بلغ من أدبها: أنَّها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته ، فكانت تضع ركبتها على ركبته ، وتركب. [البخاري (٢٢٣٥)].

وهذه صفيَّة رضي الله عنها تحدِّثنا عن خلق رسول الله (ص) ، فتقول: ما رأيت أحداً قطُّ أحسن خلقاً من رسول الله (ص) ؛ لقد رأيته ركب بي في خيبر ، وأنا على عجز ناقته ليلاً ، فجعلت أنعس ، فتضرب رأسي مؤخرة الرَّحل ، فيَمسُّني بيده ، ويقول: «يا هذه! مهلاً» [أبو يعلى (٧١٢٠) ، ومجمع الزوائد (٢٥٢/٩)][(١٥١)]. وعن صفيَّة رضي الله عنها: أنَّها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله (ص) من صفيَّة ، نحن أزواجه وبنات عمِّه ، فدخل عليها (ص) فأخبرته ، فقال: «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً منِّي؛ وزوجي محمَّد ، وأبي هارون ، وعمِّي موسى؟!». [الترمذي (٣٨٩٢) ، والحاكم (٢٩/٤)].

لقد تأثَّرت صفيَّة بأخلاق رسول الله (ص) ، وأصبح (ص) أحبَّ إليها من أبيها ، وزوجها السَّابق ، والنَّاس أجمعين ، بل أصبح أحبَّ إليها من نفسها ، تفديه بكلِّ ما تملك حتَّى نفسها ، وإذا ألَمَّ به مرضٌ؛ تمنَّت أن يكون فيها ، وأن يكون رسول الله (ص) سليماً معافىً ، فقد أخرج ابن

سعد رحمه الله بإسنادٍ حسنٍ عن زيد بن أسلم رضي الله عنه ، قال: اجتمع نساؤه (ص) في مرضه الَّذي تُوفِّي فيه ، فقالت صفيَّة رضي الله عنها: إنِّي والله يا نبيَّ الله لوددت أنَّ الَّذي بك بي! فغمز بها أزواجُه ، فأبصرهنَّ رسول الله (ص) فقال: «مَضْمِضْنَ» فقلن: من أيِّ شيء؟ فقال: «من تغامزكنَّ بها ، والله إنَّها لصادقة[(١٥٢)]!».

وممَّا له صلةٌ بزواج رسول الله (ص) بصفيَّة بنت حُيَيٍّ حراسة أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه لرسول الله (ص) يوم أن دخل بصفيَّة ، فعن ابن إسحاق: أنَّه قال: ولما أعرس رسول الله (ص) بصفيَّة بخيبر ، أو ببعض الطَّريق ، فبات بها رسول الله (ص) في قبَّةٍ له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد ، أخو بني النَّجار متوشِّحاً سيفه ، يحرس رسول الله (ص) ، ويَطيف بالقُبَّة؛ حتَّى أصبح رسولُ الله (ص) ، فلمَّا رأى مكانه؛ قال: «ما لك يا أبا أيوب؟!» قال: يا رسول الله! خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأةً قد قتَلْتَ أباها ، وزوجها ، وقومها ، وكانت حديثة عهدٍ بكفرٍ ، فخفتُها عليك[(١٥٣)] ، فسُرَّ رسول الله (ص) بعمله الَّذي ينبأى عن غاية الحبِّ ، والإيمان ، وقال: «اللَّهمَّ احفظ أبا أيوب كما بات يحرُسني!». [ابن هشام (٣/٣٥٤ . ٣٥٥)][(١٥٤)].

وكان زواجُ رسول الله (ص) بصفية فيه حكمةٌ عظيمةٌ ، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوةٍ ، أو إشباعاً للغريزة كما يزعم الأفَّاكون ، وإنما أراد إعزازها ، وتكريمها ، وصيانتها من أن تفترش لرجلٍ لا يعرف لها شرفها ، ونسبها في قومها ، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها؛ فقد قُتل أبوها من قبلُ ، وزوجُها ، وكثيرٌ من قومها ، ولم يكن هناك أجمل ممَّا صنعه الرَّسول (ص) معها ، كما أنَّ فيه رباط المصاهرة بين النَّبيِّ (ص) واليهود؛ عسى أن يكون في هذا ما يخفِّف من عدائهم للإسلام، والانضواء تحت لوائه ، والحدِّ من مكرهم ، وسعيهم بالفساد[(١٥٥)].

وكانت أمُّ المؤمنين صفيَّة رضي الله عنها عاقلةً ، وحليمةً ، وصادقةً ، يروى: أنَّ جاريةً لها أتت عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه فقالت: إنَّ صفية تحبُّ السَّبت ، وتصل اليهود ، فبعث إليها فسألها عن ذلك ، فقالت: أمَّا السَّبت فإنِّي لم أحبَّه منذ أبدلني الله به الجمعة ، وأما اليهود فإنَّ لي فيهم رحماً فأنا أصلُها ، فقبل منها ، ثمَّ قالت للجارية: ما حملك على هذا ؟ قالت: الشَّيطان ، فقالت لها: اذهبي فأنت حرَّة.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية ، وقيل: سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنها ، وأرضاها[(١٥٦)].

ثامناً: محاولةٌ أثيمةٌ لليهود: الشَّاة المسمومة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «لما فُتحت خيبر؛ أهديت لرسول الله (ص) شاةٌ فيها سُمٌّ ، فقال رسول الله (ص) : «اجمعوا لي مَنْ كان ها هنا من اليهود». فَجُمِعُوا له ، فقال لهم رسول الله (ص) : «إِنِّي سائلُكُم عن شيءٍ؛ فهل أنتم صَادِقِيَّ عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم!

فقال لهم رسول الله (ص) : «مَنْ أبوكم؟».

قالوا: فلان.

فقال رسول الله (ص) : «كذبتم ، بل أبوكم فلان».

فقالوا: صدقت.

فقال: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم! وإن كذبنا؛ عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

قال لهم رسول الله (ص) : «مَنْ أهل النَّار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيراً ، ثمَّ تخلفونا فيها.

فقال لهم رسول الله (ص) : «اخسؤوا فيها ، والله! لا نَخْلُفُكُم فيها أبداً».

ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.

فقال: «هل جعلتم في هذه الشَّاة سُماً؟».

فقالوا: نعم.

فقال: «ما حملكم على ذلك؟».

فقالوا: إن كنت كاذباً؛ نَسْتَرِحْ منك ، وإن كنت نبيّاً لم يضرَّك. [البخاري (٣١٦٩) ، وأحمد (٤٥١/٢)].

قال: صاحب بلوغ الأماني عن الشَّاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهوديَّة

امرأة سلاَّم بن مشكم ، وكانت سألت: أيُّ عضوٍ من الشَّاة أحبُّ إليه؟ فقيل: الذِّراع ، فأكثرت فيها من السُّمِّ ، فلمَّا تناول الذِّراع؛ لاك منها مضغةً ، ولم يَسُغْها ، وأكل منها معه بِشْرُ بن البراء ، فأساغ لقمةً ، ومات منها[(١٥٧)].

وفي مغازي عروة: فتناول الذِّراع، فانتهش منها، وتناول بِشرُ عظماً اخر، فانتهش منه ، فلمَّا أرغم رسولُ الله (ص) ، أرغم بشرٌ ما في فيه ، فقال رسول الله (ص) : «ارفعوا أيديكم ، فإنَّ كتف الشَّاة تخبرني أنِّي

قد بغيت فيها » فقال بِشْرُ بن البراء : والَّذي أكرمك! لقد وجدت ذلك في أكلتي؛ الَّتي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظَها إلا أنِّي كرهت أن أنغِّص طعامك، فلمَّا أكَلْتَ ما في فيك؛ لم أرغبْ بنفسي عن نفسك، ورجوتُ ألاَّ تكون رغمتها، وفيها بغي. [الطبراني في الكبير (١٢٠٤)، ومجمع الزوائد (١٥٣/٦)][(١٥٨)].

وقال ابن القيِّم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله (ص) ، فقالت: أردت قتلك ، فقال: «ما كان الله لِيُسَلِّطَكِ عليَّ». قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا» [مسلم (٢١٩٠)] . ولم يتعرَّض لها ، ولم يعاقبها ، واحتجم على الكاهل ، وأمر مَنْ أكل منها فاحتجم ، فمات بعضُهم[(١٥٩)].

وقد اختُلف في قتل المرأة ، والصَّحيح: أنَّه لما مات بشر؛ قتلها[(١٦٠)]. ولقد كان السُّمُّ الذي وضعته اليهودية قويّاً جدّاً؛ إذ مات بشر بن البراء فوراً ، وبقي رسول الله (ص) يعاوده ألم السُّمِّ حتَّى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة ، وتركها على المحجَّة البيضاء ، ليلُها كنهارها[(١٦١)]. وقد روى الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النَّبيُّ (ص) يقول في مرض موته الَّذي مات فيه: «يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الَّذي أكلت بخيبر ، فهذا أوانُ وجَدْتُ انقطاعَ أَبْهَرِي[(١٦٢)] من ذلك السُّمِّ». [البخاري (٤٤٢٨)][(١٦٣)].

تاسعاً: الحجَّاج بن عِلاط السُّلَمِيُّ ، وإرجاعُ أمواله من مكَّة:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لما افتتح رسول الله (ص) خيبر قال الحجَّاج بن عِلاَط: يا رسول الله! إنَّ لي بمكَّة مالاً ، وإنَّ لي بها أهلاً ، وإنِّي أريد أن أكتبهم ، فأنا في حلٍّ إن أنا نلت منك ، وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله (ص) أن يقول ما يشاء ، فأتى امرأته حين قدم ، فقال: اجمعي لي ما كان عندك ، فإنِّي أريد أن أشتري من غنائم محمَّد وأصحابه ، فإنَّهم قد استبيحوا ، أو أصبت أموالهم ، قال: ففشا ذلك في مكَّة فانقمع المسلمون ، وأظهر المشركون فرحاً ، وسروراً ، قال: وبلغ الخبر العبَّاس رضي الله عنه فعَقِر ، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزريُّ عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله (ص) يقال له: قُثَم ، فاستلقى ، فوضعه على صدره ، وهو يقول:

حُبِّي قُثَم حُبِّي قُثَم   شَبِيْهُ ذِي الأَنْفِ الأَشَم
نَبِيُّ رَبِّ ذِي النِّعَمْ   بِرَغْمِ أَنْفِ مَن رَغم

قال ثابت بن أنسٍ: ثمَّ أرسل غلاماً له إلى الحجَّاج ، فقال له: ويلك! ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خيرٌ ممَّا جئت به ، قال: فقال الحجَّاج بن عِلاَط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السَّلام ، وقل له: فليخلُ لي في بعض بيوته لاتيه ، فإنَّ الخبر على ما يسرُّه ، فجاءه غلامُه ، فلمَّا بلغ باب الدَّار قال: أبشر يا أبا الفضل! قال: فوثب العبَّاس فَرِحاً ، حتَّى قبَّل بين عينيه ، فأخبره بما قال الحجَّاج ، فأعتقه ، قال: ثمَّ جاء الحجَّاج فأخبره: أنَّ رسول الله (ص) قد افتتح خيبر ، وغنم أموالهم ، وجرت سهام الله في أموالهم ، واصطفى رسول الله (ص) صفيَّة بنت حُيَيٍّ ، فأخذها لنفسه، وخيَّرها أن يعتقها ، وتكون زوجته[(١٦٤)] ، ولكنِّي جئت لمالي ، وإنِّي استأذنت النَّبيَّ (ص) ، فأذن لي ، فأخفِ عليَّ يا أبا الفضل ثلاثاً ، ثمَّ اذكُر ما شئت[(١٦٥)] ، فجمعت امرأته ما كان عندها من حليٍّ ، ومتاع ، فجمعه ، فَدَفَعَتْهُ إليه ، ثمَّ انشمر به ، فلما كان بعد ثلاثٍ أتى العباس امرأة الحجَّاج ، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته: أنَّه ذهب يوم كذا وكذا ، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل! لقد شقَّ علينا الَّذي بلغك ، قال: أجل ، لا يخزيني الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا ، فتح الله خيبر على رسول الله (ص) ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله (ص) صفيَّة بنت حُيَيٍّ لنفسه ، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به ، قالت: أظنُّك والله صادقاً ، قال: فإنِّي صادقٌ ، الأمر على ما أخبرتك ، فقال: ثمَّ ذهب حتَّى أتى مجالس قريش ، وهم يقولون إذا مرَّ بهم: لا يصيبك إلا خيرٌ يا أبا الفضل! قال لهم: لم يصبني إلا خيرٌ بحمد الله ، قد أخبرني الحجَّاج بن عِلاَط أنَّ خيبر قد فتحها الله على رسوله (ص) ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى صفيَّة لنفسه ، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً ، وإنَّما جاء ليأخذ ماله ، وما كان له من شيءٍ ها هنا ، ثمَّ يذهب. قال: فرد الله الكابة الَّتي كانت بالمسلمين

على المشركين ، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتَّى أتوا العباس ، فأخبرهم الخبر فسُرَّ المسلمون ، وردَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ما كان من كابةٍ ، أو غيظٍ ، أو حزنٍ على المشركين. [أحمد (١٣٨/٣ ـ ١٣٩) ، والبزار (١٨١٦) ، وأبو يعلى (٣٤٧٩) ، والطبراني في الكبير (٣١٩٦) ، والبيهقي في الكبرى (١٥١/٩) ، وعبد الرزاق في المصنف (٤٦٦/٥ ـ ٤٦٩)].

وفي هذا الخبر فقهٌ غزيرٌ؛ منه: جواز كذب الإنسان على نفسه ، وعلى غيره؛ إذا لم يتضمَّن ضرر ذلك الغير إذا كان يُتوصل بالكذب إلى حقِّه ، كما كذب الحجَّاج بن عِلاَط على المسلمين ، حتى أخذ ماله من مكَّة من غير مضرَّة لحقت المسلمين من ذلك الكذب ، وأمَّا ما نال مَنْ بمكَّة من المسلمين من الأذى ، والحزن بمفسدة؛ فيسيرٌ في جنب المصلحة الَّتي حصلت بالكذب ، ولا سيما تكميل الفرح والسُّرور ،

وزيادة الإيمان الَّذي حصل بالخبر الصَّادق بعد هذا الكذب ، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الرَّاجحة.

عاشراً: بعض الأحكام الفقهيَّة المتعلِّقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكامٌ شرعيَّةٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ تحريم أكل لحوم الحُمُرِ الأهليَّة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله (ص) نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهليَّة. [البخاري (٤٢١٨) ، ومسلم (٥٦١)][(١٦٦)].

٢ ـ حرمة وطء السَّبايا الحوامل:

قال رسول الله (ص) : «من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فلا يَسْقِ ماءه زَرْعَ غيره». [أبو داود (٢١٥٨) ، والترمذي (١١٣١)][(١٦٧)].

٣ ـ حرمة وطء السَّبايا غير الحوامل قبل استبراء الرَّحم:

قال رسول الله (ص) : «لا يحل لامرأًى يؤمن بالله واليوم الاخر أن يقع على امرأةٍ من السَّبي حتَّى يستبرئها». [أحمد (١٠٨/٤) ، وأبو داود (٢١٥٨) و(٢١٥٩) ، والبيهقي في الكبرى (١٢٤/٩)][(١٦٨)].

والاستبراء إنَّما يكون بأن تطهر من حيضةٍ واحدةٍ فقط ، ولا تجب عليها العدَّة؛ وإن كانت متزوِّجة من كافرٍ ، سواءٌ مات ، أو بقي حيّاً؛ لأنَّ العدَّة وفاءٌ للزَّوج الميِّت ، وحداد عليه ، ولا يُحَدُّ على الكافر كما علمت[(١٦٩)].

٤ ـ حرمة ربا الفضل:

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، وأبي هريرة رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله (ص) استعمل رجلاً على خيبر ، فجاءه بتمرٍ جنيبٍ ، فقال رسول الله (ص) : «كلُّ تمرِ خيبر هكذا؟» فقال: لا والله يا رسول الله! إنَّا لنأخذ الصَّاع من هذا بالصَّاعين، والثلاثة. فقال: «لا تفعل! بعِ الجمع بالدَّراهم، ثمَّ ابتع بالدَّراهم جنيباً». [البخاري (٤٢٤٤)، ومسلم (١٥٩٣)].

فالتَّفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل؛ إذا اشترى صاعاً بأكثر من صاعٍ ، فالزِّيادة هنا هي الرِّبا ، وهذا محرَّمٌ كما رأيت؛ إذ نهى النَّبيُّ (ص) عن ذلك ، وأرشد إلى الحلِّ السَّليم بأن يبيع ما لديه من تمرٍ ثمَّ يشتري بما لديه من نقودٍ ما يشتهي من تمرٍ؛ لأنَّ الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الرِّبا[(١٧٠)].

٥ ـ حرمة بيع الذَّهب بالذَّهب العَيْن ، وتبر الفضَّة بالوَرِق العَيْن:

روي عن عبادة بن الصَّامت: أنَّه قال: نهانا رسول الله (ص) يوم خيبر أن نبيع ، أو نبتاع تِبْرَ الذَّهب بالذَّهب العَيْن ، وتِبْرَ الفِضَّة بالوَرِق العَيْن ، وقال: «ابتاعوا تبر الذَّهب بالوَرِق العَيْن ، وتبر الفضَّة بالذَّهب العَيْن». [ابن هشام (٣/٣٤٦)].

والمراد من الحديث: أن يباع الذَّهب بالذَّهب مثلاً بمثلٍ ، والفضَّة بالفضَّة مثلاً بمثلٍ ، بلا زيادةٍ ، ولا نقصٍ؛ وعندما يُقابل الذَّهب بالفضة لا تشترك المماثلة ، كما هو معلومٌ ، وثابتٌ في الصِّحاح[(١٧١)].

٦ ـ مشروعية المساقاة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال: أعطى النَّبيُّ (ص) خيبر لليهود أن يعملوها ، ويزرعوها ، ولهم شطرُ ما يخرج منها. [سبق تخريجه].

وقد تساءل بعض الباحثين: لم جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر؟ وما الحكمة من ذلك؟

وأجاب الشَّيخ محمَّد أبو زهرة على هذا ، فقال: إنَّ فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنِّسبة للعلاقات الماليَّة الَّتي يجري في ظلِّها التَّبادل الماليُّ ، فكانت فيها شرعيَّة المزارعة ، والمساقاة ، ولم تكن تجري كثيراً في يثرب[(١٧٢)].

٧ ـ حلُّ أكل لحوم الخيل:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله (ص) يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر ، ورخَّص في الخيل. [البخاري (٥٥٢٠) ، ومسلم (١٩٤١/٣٦ و٣٧)].

٨ ـ تحريم المتعة:

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله (ص) نهى عن متعة النِّساء يوم خيبر ، وعن أكل لحوم الحمر الإنسيَّة. [البخاري (٥٥٢٣) ، ومسلم (١٤٠٧)].

٩ ـ مشاركة المرأة في غزوة خيبر:

روت أميَّة بنت أبي الصَّلت عن امرأةٍ من بني غفار؛ قالت: أتيت رسول الله (ص) في نسوةٍ من بني غفار ، فقلن: يا رسول الله! قد أردنا أن نخرجَ معك إلى وجهك هذا ـ وهو السَّير إلى خيبر ـ فنداويَ الجرحى ، ونعينَ المسلمين بما استطعنا. فقال: «على بركة الله». قالت: فخرجنا معه ، قالت: فو الله لنَزَلَ رسولُ الله (ص) إلى الصُّبح ، ونزلتُ عن حقيبة رَحْلِهِ ، قالت: وإذا بها دم منِّي ـ وكانت أوَّل حيضةٍ حضتها ـ قالت: فتقبَّضْتُ إلى النَّاقة ، واستحييت. فلمَّا رأى رسول الله (ص) ما بي ، ورأى الدَّم قال: «ما لك؟ لعلَّك

نُفِسْتِ؟» قالت: قلت: نعم؟ قال: «فأصلحي من نَفْسِك ، ثمَّ خذي إناءً من ماءٍ ، فاطْرَحي فيه ملحاً ، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدَّم ، ثم عودي لِمَرْكَبِكِ» قالت: فلمَّا فتح الله خيبر؛ رضخ لنا من الفيء ، وأخذ هذه القلادة الَّتي تَرَيْنَ في عنقي ، فأعطانيها ، وعلَّقها بيده في عنقي ، فو الله لا تفارقني أبداً[(١٧٣)] ، وكانت في عنقها حتَّى ماتت ، ثمَّ أوصت أن تدفن معها. قالت: وكانت لا تطهر من حيضها ، إلا جعلت في طهرها ملحاً ، وأوصت به أن يجعل في غُسْلها حين ماتت. [أحمد (٣٨٠/٦) ، والبيهقي في الكبرى (٤٠٧/٢) ، وابن سعد (٢١٤/٨) ، وابن كثير في البداية والنهاية (٢٠٤/٤) ، وابن هشام (٣٥٧/٣)].

وهي صورةٌ حيَّةٌ أمام كلِّ فتاةٍ مسلمةٍ ، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين[(١٧٤)].

وهكذا كانت حياة الرَّسول (ص) تعليماً ، وتربيةً للأمَّة في السِّلم ، والحرب على معاني العقيدة ، وحقيقة العبادة ، وهذا غيضٌ من فيضٍ ، وجزءٌ من كلٍّ.

هذا وقد أحدث فتحُ خيبر ، وَفَدَك ، ووادي القرى ، وتيماء دويّاً هائلاً في الجزيرة العربيَّة بين مختلف القبائل ، وقد أصيبت قريش بالغيظ ، والكابة؛ إذ لم تكن تتوقَّع ذلك ، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر ، وكثرة مقاتليهم ، ووفرة سلاحهم ، ومؤونتهم ، ومتاعهم[(١٧٥)].

أمَّا القبائل العربيَّة الأخرى المناصرة لقريش؛ فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر ، وخذلها انتصار المسلمين السَّاحق ، ولذلك فإنَّها جنحت إلى مسالمة المسلمين ، وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم ، ممَّا فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربيَّة ، بعد أن تعزَّزت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقَّق لهم مِنْ خيرٍ ، وتعزيزٍ لوضعهم الاقتصاديِّ[(١٧٦)].

واستمرَّت حركة السَّرايا بعد خيبر، وكانت كثيرةً، وأمَّرَ عليها (ص) كبار الصَّحابة، وكان في بعضها قتالٌ ، ولم يكن في بعضها قتال[(١٧٧)].

* * *

المبحث الثَّاني

دعوة الملوك والأمراء[(١٧٨)]

أولاً: كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المدِّ الإسلاميّ:

فقد انساح هذا المدُّ إلى أطراف الجزيرة العربيَّة ، بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربيَّة ، فمنذ أن عقد الرَّسول (ص) صلح الحديبية مع قريشٍ ، وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر ، ووادي القرى ، وتيماء ، وفَدَك إلى سيادة الإسلام؛ فإنَّ الرَّسول (ص) لم يألُ جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز ، وكذلك خارج حدود الجزيرة العربيَّة ، وقد عبَّر (ص) عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرُّسل ، والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربيَّة ، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربيَّة.

وتُعَدُّ هذه الخُطوة نقطة تحوُّلٍ مهمَّةٍ في تاريخ العرب ، والإسلام ، ليس لأنَّ الرَّسول (ص) سوف يوحِّد عرب الجزيرة العربيَّة تحت راية الإسلام ، فحسب ، ولكن لأنَّ هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام ، وتمثَّلوا رسالة السَّماء أنيط بهم حمل الدَّعوة الإسلاميَّة إلى البشريَّة كافَّةً[(١٧٩)].

ويشير المنهج النَّبويُّ في دعوة الزُّعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدَّعوة ، فإلى جانب دعوة الأمراء ، والشُّعوب اختار الرَّسول (ص) أسلوباً جديداً من أساليب الدَّعوة ، وهو مراسلة الملوك ، ورؤساء القبائل ، وكان لأسلوب إرسال الرَّسائل إلى الملوك ، والأمراء أثرٌ بارزٌ في دخول بعضهم الإسلام ، وإظهار الودِّ من البعض الاخر ، كما كشفت هذه الرَّسائل مواقف بعض الملوك ، والأمراء من الدَّعوة الإسلامية ، ودولتها في المدينة ، وبذلك حقَّقت هذه الرَّسائل نتائج كثيرةً ، واستطاعت الدَّولة الإسلاميَّة من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرَّسائل أن تنتهج نهجاً سياسيّاً ، وعسكريّاً واضحاً ، ومتميِّزاً[(١٨٠)] ، وإليك أهم هذه الرَّسائل:

١ . فقد وردت روايةٌ صحيحةٌ ، تضمَّنت نصَّ كتاب النَّبيِّ (ص) الَّذي بعثه مع دحية الكلبيِّ إلى هرقل عظيم الرُّوم[(١٨١)] وذلك في مدة هدنة الحديبية ، وهو كما يلي:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى: أمَّا بعد: فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلمْ؛ تسلم ، يؤتك الله أجرك مرَّتين ، فإنْ تولَّيت؛ فعليك إثم الأَرِيْسيِّينَ {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ

بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *} [آل عمران: ٦٤]. [البخاري (٤٥٥٣) ، ومسلم (١٧٧٣)].

ولقد تسلَّم هرقل رسالة النَّبيِّ (ص) ودقَّق في الأمر كما في الحديث الطَّويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المرويِّ في الصَّحيحين حين سأله عن أحوال النَّبي (ص) ، وقال بعد ذلك لأبي سفيان: (إن كان ما تقول حقاً؛ فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنت أعلم: أنَّه خارج ، ولم أكن أظنُّه منكم ، فلو أنِّي أعلم أنِّي أخلص إليه؛ لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده؛ لغسلت عن قدميه). [انظر تخريج الحديث السابق].

٢ ـ أرسل النَّبيُّ (ص) بكتابٍ إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسيَّة ، مع عبد الله بن حُذافة السَّهميِّ ، «أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[(١٨٢)] ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلمَّا قرأه؛ مزَّقه ، فدعا عليهم رسول الله (ص) أن يمزَّقوا كلَّ ممزَّق» [أحمد (١/٢٤٣) ، والبخاري (٤٤٢٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٨٧)][(١٨٣)] ، ونصُّ الرِّسالة كما أوردها الطَّبريُّ كالتَّالي: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على مَنِ اتَّبع الهُدى ، وامن بالله ، ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً؛ لينذر من كان حيّاً ، أسلم؛ تسلم ، فإن أبيت؛ فعليك إثمُ المجوس». [تاريخ الطبري (٢/٦٥٤ ـ ٦٥٥)].

٣ ـ أمَّا كتاب النَّبيِّ (ص) إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، فقد أرسله مع عمرو بن أميَّة الضَّمْريِّ ، وقد جاء في الكتاب:

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّدٍ رسول الله ، إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو الملكُ ، القدُّوس ، السَّلامُ ، المؤمنُ ، المهيمنُ ، وأشهد أنَّ عيسى ابنَ مريم روحُ الله ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم البتول الطَّيِّبة الحصينة ، فحملت به ، فخلقه من روحه ، ونفخه كما خلق ادم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك

له ، والموالاة في طاعته ، وأن تتَّبعني ، وتؤمن بالَّذي جاءني ، فإنِّي رسول الله ، وإنِّي أدعوك ، وجنودَك إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقد بلَّغتُ ، ونصحتُ ، فاقبلوا نصيحتي ، والسَّلام على من اتَّبع الهُدى». [نصب الراية للزيلعي (٤/٤٢١)].

٤ ـ أمَّا كتاب النَّبيِّ (ص) إلى المقوقس حاكمِ مصر[(١٨٤)] ، وكذلك ردُّ المقوقس إليه[(١٨٥)]؛ فلم يثبت من طرقٍ صحيحةٍ ، ولا يعني ذلك نفي إرسال الكتاب إليه ، كما أنَّ ذلك لا يعني الطَّعن بصحة النُّصوص من النَّاحية التاريخيَّة ، فربما تكون صحيحةً من حيث الشَّكل ، والمضمون ، غير أنَّها لا يمكن

أن يحتجَّ بها في السِّياسة الشَّرعيَّة[(١٨٦)] ، فلقد أورد محمَّد بن سعد في طبقاته[(١٨٧)]: أنَّ النَّبيَّ (ص) بعث إلى المقوقس ، جُريج بن مينا ملك الإسكندريّة وعظيم القبط ، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللَّخميِّ ، وأنَّه قال خيراً ، وقارب الأمر ، غير أنَّه لم يسلم ، وأهدى إلى النَّبيِّ (ص) عدَّة هدايا كان بينها مارية القبطيَّة، وأنَّه لما ورد جواب المقوقس إلى النَّبيِّ (ص) قال: «ضَنَّ الخبيث بمُلْكِه ، ولا بقاء لِمُلْكِه». [الزيلعي في نصب الراية (٤/٤٢٢)][(١٨٨)].

٥ ـ وبعث رسول الله (ص) شجاع بن وهب ، أخا بني أسد بن خُزيمة برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني صاحب دمشق[(١٨٩)] ، حين عودته والمسلمين من الحديبية ، وقد تضمَّن نصُّ الرِّسالة قوله: «سلامٌ على من اتَّبع الهُدى ، وامن به ، إنِّي أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحدَه لا شريك له ، يُبْقي لك ملكك». [الزيلعي في نصب الراية (٤/٤٢٤) ، والطبري في تاريخه (٢/٦٥٢)].

٦ ـ وأرسل رسول الله (ص) سُلَيطَ بن عمرٍو العامريَّ بكتابٍ إلى هَوْذَةَ بن عليٍّ الحنفي[(١٩٠)] عند مقدمه من الحديبية ، وقد اشترط هَوْذَةُ الحنفيُّ على الرسول (ص) بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه ، فرفض النَّبيُّ (ص) أن يقبل ذلك. [الزيلعي في نصب الراية (٤/٤٢٥) ، وابن طولون في إعلام السائلين (١٠٥ ، ١٠٧)].

٧ ـ وأرسل (ص) أبا العلاء الحضرميَّ[(١٩١)] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبديِّ ، أمير البحرين بعد انصرافه من الحديبية ، ونقلت المصادر التَّاريخيَّة: أنَّ المنذر قد استجاب لكتاب النَّبيِّ (ص) ، فأسلم ، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين ، فأمَّا أهل البلاد من اليهود ، والمجوس فإنَّهم صالحوا العلاء ، والمنذر على الجزية من كلِّ حالمٍ دينار [الزيلعي في نصب الراية (٤/٤٢٠)] (أي: على كلِّ بالغٍ دينار) ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي (ص) إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزُّبير ، وجاء فيه: «سلام أنت ، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو ، أمَّا بعد فإنَّ مَنْ صلَّى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الَّذي له ذمَّة الله ، وذمَّة الرَّسول ، فمن أحبَّ ذلك من المجوس؛ فإنَّه امنٌ ، ومن أبى؛ فإن الجزية عليه». [أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٠ برقم ٥٠)].

وفي ذي القعدة سنة (٨ هـ) بعث النَّبيُّ (ص) عمرو بن العاص بكتابه إلى جَيفر وعبدٍ ابني الجُلُنْدَى الأزديَّين بِعُمَان[(١٩٢)] ، وقد جاء فيه: «من محمَّدٍ النَّبيِّ رسول الله لعباد الله الأزديِّين ملوك عُمان ، وأسد عمان ، ومن كان منهم بالبحرين؛ إنَّهم إن امنوا ، وأقاموا الصَّلاة ، واتوا الزَّكاة ، وأطاعوا الله ، ورسوله ، وأعطَوا حقَّ النَّبيِّ (ص) ، ونسكوا نسك المؤمنين ، فإنَّهم امنون وأنَّ لهم ما أسلموا عليه ، غير

أنَّ مال بيت النَّار ثُنْياً لله ورسولِه ، وأنَّ عشور التَّمْرِ صدقةٌ ، ونصفُ عشور الحبِّ ، وأنَّ للمسلمين نصرهم ، ونصحَهم ، وأنَّ لهم على المسلمين مثل ذلك ، وأنَّ لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاؤوا».

[أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٠ ـ ٣١ برقم ٥٢)].

وأوردت المصادر بعد ذلك عدداً كبيراً من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من النَّاحية الحديثيَّة[(١٩٣)].

ثانياً: مواصفاتُ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة:

قام اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطَّاب بجمع الرَّسائل ، وتحدَّث عن الرُّسل في كتابه الفريد «سفراء النَّبيِّ (ص) » استنبط من خلالها شروطَ ومواصفاتِ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة ، ومن أهم تلك الشُّروط ، والمواصفات:

١ ـ الإسلام ، والدَّعوة إليه:

قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [يوسف: ١٠٨].

وإذا كان المسلمون كلُّهم دعاةً إلى الله تعالى؛ فرسل النَّبيِّ (ص) إلى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدُّعاة[(١٩٤)].

٢ ـ الفصاحة والوضوح:

الفصاحة ، وجزالة اللَّفظ ، والدقَّة في توصيل المعاني إلى السَّامعين شرطٌ أساسيٌّ في الرَّجل الَّذي يتصدَّى للمهمَّة الدِّبلوماسيَّة ، وقد طلب موسى تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي *هَارُونَ أَخِي *اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي *} [طه: ٢٩ ـ ٣١] وقد اختار الرَّسول (ص) كلَّ سفرائه ، ومبعوثيه من العرب الَّذين تربَّوا في الجزيرة العربيَّة ومع البدو أحياناً ، فقد كانوا أصحاب نقاوةٍ ، لم تتكدَّر باختلاط الأعاجم بعد ، فقد كانوا على قدرٍ كبيرٍ من الفصاحة ، والوضوح.

٣ ـ حسن الخلق:

أخلاق السَّفير النَّبويِّ هي أخلاق الإسلام الَّتي بيَّنها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القران الكريم ، وفصَّلها رسول الله (ص) في سنَّته ، وأهمُّها في السَّفير: الصِّدقُ ، والتَّواضع[(١٩٥)].

٤ ـ العلم:

لا نريد هنا أن نبيِّن منزلة العلم؛ لأنَّ الكلام على هذه المسألة طويلٌ ، ولكنَّنا نؤكِّد هنا: أنَّ العلم بالشَّيء هو وسيلة نقل الفكرة ، والمبدأ ، لذا عندما تنظر إلى جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو يحاور النَّجاشيَّ ، ثم يقرأ عليه سورة: تتيقَّن من دقَّة الاختيار {كهيعص *} ، ونصاعة خطاب العالِم ، ودقَّة اختياره للألفاظ ، والعبارات[(١٩٦)].

٥ . الصَّبر:

قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاَغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ *} [الأحقاف: ٣٥] والحقيقة: أن الصبر هو عدَّة الدَّاعية، وزاده المستمر، ولو تصفَّحت سيرة الرَّسول (ص) وسيرة صحابته الأجلاَّء؛ لوجدتها حافلةً بالصَّبر على الدَّعوة ، وموقفُ الطَّائف شاهدٌ على ذلك.

٦ . الشَّجاعة:

وقد تحدَّث التَّاريخ الإسلاميُّ عن شجاعة السُّفراء ، والَّذين أرسلهم الرَّسول (ص) إلى الملوك ، وأنَّهم كانوا لا يخافون لومة لائم.

٧ . الحكمة:

وقد كان سفراء الرَّسول (ص) يتَّصفون بالحكمة ، فهذا عمرو بن العاص كان مُسدَّداً في أقواله ، وأفعاله ، قيل لعمرو: ما العاقل؟ قال: (الإصابة بالظَّنِّ ، ومعرفة ما يكون بما قد كان) ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشَّرِّ ، إنَّما العاقل الذي يعرف خير الشَّرَّيْنِ[(١٩٧)].

٨ . سعة الحيلة:

يجب أن يكون السَّفير مدركاً لأبعاد المناورة السِّياسيَّة ، متأنِّياً كتوماً. وسعةُ الحيلة الَّتي ترتكز أوَّلاً ، وقبل كلِّ شيءٍ على الذَّكاء من أهم سمات السَّفير ، وقد كان سفراء الرَّسول (ص) يتَّصفون بالذَّكاء ، والدَّهاء ، وتوقُّع الأحداث ، والحساب لكلِّ ما يمكن أن يحدث ، وهذه مقوِّمات سعة الحيلة.

٩ . المظهر:

تميَّز سفراء النَّبيِّ (ص) بالمظهر الحسن مع نقاء المخبر ، وقد حرص النَّبيُّ (ص) على اختيار سفرائه من بين أصحابه الَّذين تتوافر فيهم صفاتٌ شكليَّة جميلةٌ إلى جانب سماتهم العقليَّة ، والنفسيَّة سالفة الذِّكر[(١٩٨)].

هذه أهم الصِّفات الَّتي استخلصها اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطاب من خلال دراسته القيِّمة لسفراء النَّبيِّ (ص) والَّتي ينبغي للسَّفير المسلم أن يتحلَّى بها ، وتكون للدَّولة الإسلاميَّة مقياساً في اختيار مَنْ ترشِّحه لهذا المنصب الخطير.

ثالثاً: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد:

١ ـ الأَرِيْسِيُّون:

وردت كلمة (الأَرِيْسيِّين) أو (اليَرِيْسِيِّين) ـ على اختلاف الرِّوايات ـ في الكتاب الَّذي وُجِّه إلى (هرقل) وحدَه ، ولم ترد في كتابٍ من الكتب الَّتي أرسلت إلى غيره ، واختلف علماء

الحديث واللُّغة في مدلول هذه الكلمة ، فالقول المشهور: أن (الأريسيِّين) جمع (أريسي) وهم الخول ، والخدم ، والأكَّارون[(١٩٩)].

وذهب العلامة أبو الحسن النَّدويُّ إلى أنَّ المراد بالأريسيِّين هم أتباع (أريوس) المصري ، وهو مؤسِّس فرقةٍ مسيحيَّةٍ كان لها دورٌ كبير في تاريخ العقائد المسيحيَّة والإصلاح الدِّيني ، وقد شغلت الدَّولة البيزنطيَّة، والكنيسة المسيحيَّة زمناً طويلاً ، و(أريوس) هو الَّذي نادى بالتَّوحيد ، والتَّمييز بين الخالق، والمخلوق، والأب، والابن ـ على حدِّ تعبير المسيحيين ـ لعدَّة قرون[(٢٠٠)].

ودامت عقيدة (أريوس) ودعوته تصارعان الدَّعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح ، وتسويته بالإله الواحد الصَّمد ، وكانت الحرب سجالاً ، وقد دان بهذه العقيدة عددٌ كبيرٌ من النَّصارى في الولايات الشَّرقية من المملكة البيزنطيَّة إلى أن عقد تيوسورس الكبير مَجْمعاً مسيحيّاً في القسطنطينية ، قضى بألوهيَّة المسيح ، وإبنيَّته ، وقضى هذا الإعلان على العقيدة الَّتي دعا إليها (أريوس) واختفت ، ولكنَّها عاشت بعد ذلك ، ودانت بها طائفةٌ من النَّصارى ، اشتهرت بالفرقة الأريسيَّة ، أو الأريسيِّين ، فَمِنَ المرجَّح المعقول: أنَّ النَّبيَّ (ص) إنَّما عنى هذه الفرقة بقوله: «فإن تولَّيت ، فإنَّما عليك إثم الأَرِيْسيِّين» فإنَّها هي القائمة بالتَّوحيد النِّسبي في العالم المسيحي الَّذي تتزعمُه الدولة البيزنطيَّة العظمى ، الَّتي كان على رأسها (هرقل)[(٢٠١)].

وقد تحدَّث الإمام أبو جعفر الطَّحاويُّ عن هذه الفرقة ، فقال: وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني: أنَّ في رهط هرقل فرقةً تعرف بالأروسية ، توحِّد الله ، وتعترف بعبودية المسيح لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولا تقول شيئاً ممَّا يقول النَّصارى في ربوبيته ، وتؤمن بنبوَّته ، فإنَّها تُمسِك بدين المسيح مؤمنةً ، بما في إنجيله ، جاحدةً لما يقوله النَّصارى سوى ذلك ، وإذا كان ذلك كذلك؛ جاز أن يقال لهذه الفرقة (الأريسيُّون) في الرَّفع و(الأريسيين) في النَّصب والجر ، كما ذهب إليه أصحاب الحديث[(٢٠٢)].

٢ ـ اعتبارات حكيمة خاصَّة بالملوك:

في رسائل رسول الله (ص) للملوك فوارقُ دقيقةٌ مؤسَّسةٌ على حكمة الدَّعوة ، روعي فيها ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد الَّتي يدينون بها ، و(الخلفيَّات) الَّتي يمتازون بها ، فلمّا كان هرقل ، والمقوقس يدينان بألوهيَّة المسيح كلِّيّاً ، أو جزئيّاً ، وكونه ابنُ الله ، جاءت في الكتابَيْن اللَّذين وُجِّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النَّبيِّ (ص) صاحب هاتين الرِّسالتين ، فيبتدأى الكتابان بعد التَّسمية بقوله: «من محمَّدٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم» وبقوله: «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القِبْط» بخلاف ما جاء في كتابه (ص) إلى كسرى أبرويز ، فاكتفى بقوله: «من محمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس» وجاءت كذلك اية: {قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ *} [آل عمران: ٦٤] في هذين الكتابين ، وما جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز؛ لأنَّ الاية تخاطب أهل الكتاب؛ الَّذين دانوا بألوهيَّة المسيح ، واتَّخذوا أحبارهم ، ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وقد كان هرقل إمبراطور الدَّولة البيزنطيَّة ، والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيَّين ، وزعيمين دينيَّين كبيرين للعالم المسيحي ، مع اختلافٍ يسيرٍ في الاعتقاد في المسيح: «هل له طبيعةٌ أم طبيعتان؟»[(٢٠٣)].

ولما كان كسرى أبرويز وقومُه يعبدون الشَّمس والنَّار ، ويدينون بوجود إلهين: أحدهما يمثِّل الخير ، وهو: يزدان ، والثَّاني يمثِّل الشَّرَّ وهو: إهرمن ، وكانوا بعيدين عن مفهوم النُّبوَّة ، والتَّصوُّر الصَّحيح للرِّسالة السَّماوية ، جاءت في الكتاب الَّذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة: «وإنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً لينذر من كان حيّاً»[(٢٠٤)].

وقد كان تلقِّي الملوك لهذه الرَّسائل يختلف: فأمَّا هرقل ، والنَّجاشيُّ ، والمقوقس؛ فتأدَّبوا ، وتلطَّفوا في جوابهم ، وأكرم النّجاشيُّ ، والمقوقس رُسُلَ رسولِ الله (ص) ، وأرسل المقوقس هدايا؛ منها جاريتان كانت أحدَهما ماريةُ أمُّ إبراهيم (ابن رسول الله) ، وأمَّا كسرى أبرويز؛ فلما قُرِأى عليه الكتاب مزَّقه ، وقال: «يكتب إليَّ هذا؛ وهو عبدي؟!» فبلغ ذلك رسول الله (ص) فقال: «مزَّق الله ملكه!» [سبق تخريجه].

وأمر كسرى باذان ـ وهو حاكمه على اليمن ـ بإحضاره ، فأرسل بابويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فأخبره رسول الله (ص) بأنَّ الله سلَّط على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله[(٢٠٥)].

وقد تحقَّق ما أنبا به رسول الله (ص) بكلِّ دقَّة ، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ (شرويه) وقُتِل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعازٍ منه سنة (٦٢٨ م) ، وقد تمزَّق ملكُه بعد وفاته ، وأصبح لعبةً في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة ، فلم يعش (شرويه) إلا ستَّة أشهرٍ ، وتوالى على عرشه في مدَّة أربع سنوات عشرة ملوكٍ ، واضطرب حبل الدَّولة إلى أن اجتمع النَّاس على (يزدجرد) وهو اخر ملوك بني ساسان ، وهو الَّذي واجه الزَّحف الإسلاميَّ؛ الَّذي أدَّى إلى انقراض الدَّولة السَّاسانيَّة؛ الَّتي دامت ، وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلِّيَّاً ، وكان ذلك في سنة (٦٣٧ م) ، وهكذا تحقَّقت هذه النُّبوءة في ظرف ثماني سنين[(٢٠٦)].

٣ ـ الوصف العام لرسائل الرَّسول (ص):

ويلاحظ الباحث: أنَّ الوصف العام لكتب الرَّسول (ص) إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً ، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التَّالية:

أ ـ نلاحظ أنَّ جميع كتب الرَّسول (ص) الَّتي أرسلها إلى الملوك ، والرُّؤساء يفتتحها (ص) بالبسملة ، والبسملة اية من كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي تصدير الكتاب بها أمورٌ مهمَّةٌ؛ كاستحباب بدء الكتب بـ «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» اقتداءً برسولنا محمَّد (ص) ، فقد واظب عليها في كتبه (ص) ، كما أنَّ فيها جواز كتابة ايةٍ من القران الكريم في كتاب ، وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين ، وفيها جواز قراءة الكافر لايةٍ ، أو أكثر من القران الكريم؛ لأنَّ كتب رسول الله (ص) تضمَّنت البسملة ، وغيرها ، وفيها جواز قراءة الجنب لايةٍ ، أو أكثر من القران الكريم؛ لأنَّ هذا الكافر الَّذي أرسلت إليه الرِّسالة ، وتضمَّنت البسملة وغيرها لا يحترز من الجنابة ، والنَّجاسة ، فيقرأ الرِّسالة؛ التي اشتملت على اياتٍ من القران الكريم؛ وهو جنبٌ.

ب ـ ونستنبط من رسائل رسول الله (ص) إلى الملوك والأمراء الاتي:

* مشروعيَّة إرسال السُّفراء المسلمين إلى زعماء الكفر؛ لأنَّ كلَّ كتابٍ كان يكتبه الرَّسول (ص) يكلِّف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل إليه.

* مشروعية الكتابة إلى الكفَّار في أمر الدِّين ، والدُّنيا.

* ينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المرْسِل ، والمرْسَل إليه ، وموضوع الكتاب ، وهو واحدٌ في جميع الكتب ، ويتلخَّص في دعوتهم إلى الإسلام.

* عدم بدء الكافر بتحيَّة الإسلام ، وهي السَّلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته؛ ذلك لأنَّ النَّبيَّ (ص) لم يطرح السَّلام في كتبه على ملكٍ من ملوك الكفر ، بل كان يصدِّر كتبه بقوله: السَّلام على من اتَّبع الهدى ، أي: امن بالإسلام. ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحيَّة الإسلام.

* اتخاذ الخاتم: فقد كان رسول الله (ص) يختم رسائله بعد كتابتها بخاتمه ، وقد كُتب عليه ثلاث كلمات: محمَّد رسولُ الله

[البخاري (٦٥) ، ومسلم (٢٠٩٢)][(٢٠٧)].

فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: لما أراد النَّبيُّ (ص) أن يكتب إلى الرُّوم؛ قيل له: إنَّهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتَّخذَ خاتماً مِنْ فضَّة ، فكأنِّي أنظر إلى بَيَاضِه في يده ، ونقش فيه محمَّدٌ رسول الله. [البخاري (٢٩٣٨)].

٤ ـ تقدير الرِّجال:

لما أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله رسول الله (ص) ، بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه ، حين رأى فيه الإداريَّ النَّاجح ، والحاكم المناسب ، ممَّا يُدلِّل على أنَّ الرَّسول (ص) يقدِّر الكفاءات في الرِّجال ، ويضع الرَّجل المناسب في المكان المناسب ، ومن الجدير بالذِّكر: أنَّ الرَّسول (ص) قد ولَّى ولده ـ أي: ولد باذان ـ شهراً أميراً على اليمن بعد موت أبيه[(٢٠٨)].

٥ ـ جواز أخذ الجزية من المجوس:

وهذا الحكم استخرج من كتاب النَّبي (ص) الَّذي أرسله إلى المنذر بن ساوى يحدِّد فيه الموقف من اليهود ، والمجوس؛ إذ ورد فيه: «ومن أقام على يهوديَّته ، أو مجوسيَّته؛ فعليه الجزية»[(٢٠٩)].

وقد ذهب ابن القيِّم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كلِّ إنسان يبذلُها ، سواءٌ أكان كتابيّاً أم غير كتابيٍّ؛ كعبدة الأوثان من العرب ، وغيرهم ، فقد جاء في زاد المعاد: «وقد قالت طائفةٌ في الأمم كلِّها إذا بذلوا الجزية؛ قبلت منهم؛ أهل الكتابين بالقران ، والمجوس بالسُّنَّة ، ومن عداهم ملحقٌ بهم؛ لأنَّ المجوس أهل شركٍ لا كتاب لهم ، فأخذُها منهم دليلٌ على أخذها من جميع المشركين ، وإنَّما لم يأخذها (ص) من عبدة الأوثان من العرب؛ لأنَّهم أسلموا قبل نزول اية الجزية ، فإنَّها نزلت بعد تبوك»[(٢١٠)].

٦ ـ جواز أخذ هدية الكافر:

لقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر ـ وهو كافرٌ ـ مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة هديةً تشتمل على جاريتين ، وكسوةٍ للرَّسول (ص) ، وبغلةٍ يركبها ، فقبلها رسولُ الله

(ص) ، وإحدى هاتين الجاريتين ماريةُ القبطيَّة[(٢١١)].

٧ ـ من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء:

أظهر الرَّسول (ص) في سياسته الخارجيَّة درايةً سياسيَّةً فاقت التَّصوُّر ، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء ، كما أظهر (ص) قوَّةً ، وشجاعةً فائقتين ، فلو كان غير رسول الله (ص) ؛ لخشي عاقبة ذلك الأمر ، لا سيَّما وأنَّ بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوكٍ أقوياء على تخوم بلاده؛ كهرقل ، وكسرى ، والمقوقس ، ولكنَّ حرص رسول الله (ص) ، وعزيمته على إبلاغ دعوة الله ، وإيمانه المطلق بتأييد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، كلُّ ذلك دفعه لأن يُقْدِم على ما أقدم عليه ، وقد حقَّقت هذه السِّياسة النتائج الاتية:

أ ـ وطَّد الرَّسول (ص) بهذه السِّياسة أسلوباً جديداً في التَّعامل الدَّوليِّ لم تكن تعرفه البشريَّة من قبلُ.

ب ـ أصبحت الدَّولة الإسلاميَّة لها مكانَتُها ، وقوَّتُها ، وفرضت وجودها على الخريطة الدَّوليَّة لذلك الزَّمان.

ج ـ كشفت للرَّسول (ص) نوايا الملوك ، والأمراء ، وسياستهم نحوه ، وحكمهم على دعوته.

د ـ كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عمليّاً على عالمية الدَّعوة الإسلاميَّة ، تلك العالميَّة الَّتي أوضحتْها اياتٌ نزلت في العهد المكِّي ، مثل قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء: ١٠٧].

وهكذا ، فإنَّ رسائل النَّبيِّ (ص) إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تُعَدُّ نقطة تحوُّلٍ في سياسة دولة الرَّسول الخارجيَّة ، فعظم شأنُها ، وأصبحت لها مكانةٌ دينيَّةٌ ، وسياسيَّةٌ بين الدُّول ، وذلك قبل فتح مكة ، كما أنَّ هذه السياسة مهَّدت لتوحيد الرَّسول (ص) لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود[(٢١٢)].

* * *

المبحث الثَّالث

عمرة القضاء[(٢١٣)]

وفي ذي القعدة في السَّنة السَّابعة من الهجرة خرج الرَّسول (ص) إلى مكَّة قاصداً العمرة ، كما اتَّفق مع قريشٍ في صلح الحديبية ، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النِّساء ، والصِّبيان ، ولم يتخلَّف من أهل الحديبية إلا مَنِ استُشْهِدَ في خيبر ، أو مات قبل عمرة القضاء[(٢١٤)].

وقد اتَّجه رسولُ الله (ص) وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكَّة المكرَّمة في موكبٍ مهيبٍ يشقُّ طريقه عبر القرى ، والبوادي ، وكان كلَّما مرَّ الموكب النَّبويُّ بمنازل قومٍ من الذين يسكنون على جانبي الطَّريق بين مكَّة والمدينة؛ خرجوا ، وشاهدوا منظراً لم يألفوه مِنْ قبلُ ، حيث كان المسلمون بزيٍّ واحدٍ من الإحرام ، وهم يرفعون أصواتهم بالتَّلبية ، ويسوقون هديهم في علاماته ، وقلائده ، في مظهرٍ بهيٍّ لم تشهد المنطقة له مثيلاً[(٢١٥)].

أولاً: الحيطة والحذر من غدر قريش:

اصطحب النَّبيُّ (ص) معه السِّلاح الكامل ، ولم يقتصر على السُّيوف ، تحسُّباً لكلِّ طارأى قد يقع ، خاصَّةً وأنَّ المشركين في الغالب لا يحافظون على عهدٍ قطعوه ، ولا عَقْدٍ عقدوه[(٢١٦)].

وما إن وصل خبر مسير النَّبيِّ (ص) ، ومعه هذا العدد الضَّخم ، وهذه الأسلحة المتنوِّعة ، وفي مقدِّمة القافلة مئتا فارسٍ بقيادة محمَّد بن مسلمة ، حتَّى أرسلت قريش إلى رسول الله (ص) مكرز بن حفص في نفرٍ من قريش؛ ليستوضحوا حقيقة الأمر ، فقابلوه في بطن يأجُج[(٢١٧)] بمرِّ الظَّهران فقالوا له: يا محمد! والله ما عرفناك صغيراً ، ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسِّلاح الحرم

على قومك ، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد ، وأنَّه لن يدخل الحرم غير السُّيوف في أغمادها ، فقال رسول الله (ص) : «لا ندخلها إلا كذلك» ثمَّ رجع مكْرَزُ مسرعاً بأصحابه إلى مكَّة ، فقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح ، وهو على الشَّرط؛ الَّذي شرط لكم. [البيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٢١) ، والواقدي في المغازي (٣/٧٣٤) ، وابن سعد في الطبقات (٢/١٢١)].

ووضع رسول الله (ص) السِّلاح خارج الحرم قريباً منه تحسُّباً لكلِّ طارأى ، وأبقى عنده مئتي فارسٍ بقيادة محمَّد بن مسلمة يحرسونه ، وينتظرون أمر الرَّسول (ص) ليتحرَّكوا في أيِّ جهةٍ ، وينفِّذوا أيَّ أمرٍ ، ويقاتلوا متى دعتِ الضَّرورة لذلك[(٢١٨)].

إنَّ النَّبيَّ (ص) لم يأمن غدر مشركي قريش ، وخيانتهم ، فقد تُسوِّل لهم أنفسُهم أن ينصبوا كميناً ، أو أكثر للمسلمين ، ويشنُّوا عليهم هجوماً مباغتاً ، ولذلك احتاط ، وأخذ الحذر ، ووفَّى بعهده ، ووعده

لقريش ، وعلَّم الأمَّة لكي تحذر من أعدائها[(٢١٩)] ، وفي بقاء كوكبةٍ من الصَّحابة في حراسة الأسلحة ، والعتاد؛ لكي يراقبوا الموقف بدقَّةٍ ، وتحفُّزٍ معنىً من معاني العبادة في هذا الدِّين[(٢٢٠)].

ثانياً: دخول مكَّة ، والطَّواف ، والسَّعي:

ومن بطن يأجج تابع رسولُ الله (ص) سيره نحو مكَّة على راحلته القصواء ، فدخلها من الثَّنيَّة الَّتي تطلعه على الحجون ، والمسلمون حوله متوشِّحون سيوفهم ، محدقون به من كلِّ جانب، يسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيءٍ ، وأصواتهم تعجُّ بالتَّلبية لله العليِّ الكبير[(٢٢١)].

هذه التَّلبية الجماعيَّة الَّتي تعجُّ أصوات المسلمين بها ، والَّتي لم تنقطع منذ أن أحرموا ، واستمرَّت حتَّى دخلوا مكَّة ، فقد كان للتَّلبية مغزىً ومعنىً ، فهي تعلن التَّوحيد ، وترفع شعاره ، وتعني إبطال الشِّرك ، وإسقاط رايته ، وتعلن الحمد ، والثَّناء على الله الَّذي مكَّنهم من أداء هذا النُّسك[(٢٢٢)]. فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله: لبيك اللَّهُمَّ لبَّيك ، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك ، إنَّ الحمد ، والنِّعمة لكَ والملك ، لا شريك لك.

وكان عبد الله بن رواحة اخذاً بزمام راحلته ، وهو يرتجز بشعره:

خَلُّوا بَنِي الكُفّارِ عَنْ سَبِيْلِهِ   خَلُّوا فكلُّ الخَيْرِ في رَسُوْلِهِ

يَا رَبِّ إِنِّي مؤمنٌ بِقِيْلِهِ   أَعْرِفُ حقَّ اللهِ في قَبُوْلِهِ

ضَرْباً يُزِيْلُ الهَامَ عَنْ مَقِيْلِهِ   وَيُذْهِلُ الخَلِيْلَ عَنْ خَلِيْلِهِ

[البيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٢٣) ، والترمذي (٢٨٤٧) ، والنسائي (٥/٢٠٢)][(٢٢٣)].

وكان مظهراً دعويّاً مؤثِّراً عندما بدأ الموكب النَّبويُّ الكريم يقترب من بيوت مكَّة المكرَّمة ، وأبنيتها ، شاقّاً طريقه باتِّجاه الكعبة المشرَّفة ، وهم في مظهرهم المهِيْب ، وأصواتُهم تشقُّ عَنان السَّماء بالتَّلبية ، فقد ذكرت معظم كتب السِّير ، والمغازي: أنَّ قسماً من أهالي مكَّة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية ، والقسم الأكبر وقف عند دار النَّدوة المجاورة للكعبة الشَّريفة انداك؛ ليشاهدوا رسول الله (ص) ، وأصحابه الكرام أثناء دخولهم مكَّة المكرَّمة ، وبيت الله الحرام[(٢٢٤)].

وكان المشركون قد أطلقوا شائعةً ضدَّ المسلمين مفادها: أنَّهم وهنتهم[(٢٢٥)] حُمَّى يثرب ، فأمر النَّبيُّ (ص) أصحابه أن يرمُلوا في الأشواط الثَّلاثة ، وأن يمشوا ما بين الرُّكنين [البخاري (٤٢٥٦) ، ومسلم (١٢٦٦)] ؛ لكي يرى المشركون قوَّتهم ، ودخل رسول الله (ص) البيت الحرام ، واضطبع[(٢٢٦)] بردائه فأخرج عضده اليُمنى وشرع في الطَّواف ، وأصحابه يتابعونه ، ويقتدون به ، ولما رأى المشركون ذلك؛

قالوا: هؤلاء الَّذين زعمتم أنَّ الحمَّى قد وهنتهم؟! هؤلاء أجلد مِنْ كذا ، وكذا! [مسلم (١٢٦٦)][(٢٢٧)].

وقد قصد رسول الله (ص) بهذه الطَّريقة الَّتي فعلها عند دخوله المسجد الحرام ، وهي الاضطباع ، والهرولة ، ورفع الأصوات بالتَّلبية أن يُرهِب قريشاً ، وأن يُظهر لها قوَّة المسلمين ، وعزيمتهم ، وتمسُّكهم بدينهم ، ومناعة جبهتهم.

وقد أثَّر هذا الأسلوب في نفوس المشركين[(٢٢٨)] وبهذا الأسلوب النَّبويِّ الكريم أغاظ الرَّسول (ص) المشركين ، وكايدهم ، فقد كان (ص) يتقرَّب إلى الله بمكايدتهم ، وإغاظتهم ، ففي غزوة أحد أذن (ص) لأبي دُجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لإظهار عزَّة المؤمن؛ ولأنَّ ذلك يَغِيْظُ المشركين ، وزيادةً في إغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرَّسول (ص) ذلك. وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله (ص) في الهدي جمل أبي جهل الَّذي غنمه في بدرٍ؛ ليراه المشركون ، فيزدادوا غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم ، وذلَّ أسراهم ، وها هو ذا (ص) يأمر

المسلمين في عمرة القضاء بإظهار التَّجلُّد ، والهرولة؛ لإغاظتهم ، ومكايدتهم ، وردِّ كيدهم في نحورهم[(٢٢٩)] ، وقد ذكر ابن القيِّم: «أنَّ رسول الله (ص) كان يكيد المشركين بكلِّ ما يستطيع»[(٢٣٠)].

فهذه حربٌ نفسيَّةٌ شنَّها رسول الله (ص) على المشركين ، وقد اتت أُكُلَها ، ولقد أقام الرَّسول (ص) في مكَّة ثلاثة أيام ، ومعه المسلمون يرفعون راية التَّوحيد ، ويطوفون بالبيت العتيق ، ويرفعون الأذان ، ويقيمون الصَّلاة ، ويصلِّي بهم رسول الله (ص) الصَّلوات الخمس في جماعة، وكان بلالُ بن رباح رضي الله عنه بصوته النَّديِّ يرفع الأذان من فوق ظهر الكعبة ، فكان وقعه على المشركين كالصَّاعقة[(٢٣١)].

ولم ينسَ (ص) مجموعة الحراسة الَّتي كانت تحرس الأسلحة ، والعتاد بأن يرسل من يقوم بمهمَّتهم ممَّن طاف ، وسعى مكانهم ويأتي هؤلاء ليؤدُّوا النُّسك ، فقد كان (ص) يتعامل مع نفوسٍ يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام ، وما جاءت للمرَّة الثانية ، وقطعت هذه المسافة الشَّاسعة إلا لتنال هذا الشَّرف ، وتَبُلَّ هذا الظَّمأ ، فتطوف مع الطَّائفين، وتسعى مع السَّاعين، فعمل (ص) على مراعاة النُّفوس، وساعدها ولبَّى مطالبها من أجل إصلاحها والرُّقيِّ بها؛ إنَّه من منهج النُّبوَّة في التَّربية[(٢٣٢)].

ثالثاً: زواجه من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

كانت ميمونة أختُ أمِّ الفضل زوجةِ العبَّاس بن عبد المطلب فتاةً في السَّادسة والعشرين ، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبي رُهْم بن عبد العزَّى إلى أختِها أمِّ الفضل ، فجعلته أمُّ الفضل إلى زوجها العبَّاس ، فزوَّجها العباس من ابن أخيه النَّبيِّ (ص) ، وأصدقها عنه أربعمئة درهم[(٢٣٣)] ، وهي خالة عبد الله بن عبَّاس ، وخالد بن الوليد ، ولما انقضت الثَّلاثة أيَّام؛ الَّتي نصَّ عليها عهد الحديبية؛ أراد النَّبيُّ (ص) أن يتَّخذ من زواجه من ميمونة وسيلةً لزيادة التَّفاهم بينه وبين قريش ، فجاءه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزَّى مُوْفَدَين من نفرٍ من قريشٍ ، فقالوا: إنَّه قد انقضى أجلُك ، فاخرج عنَّا ، فقال النَّبيُّ (ص) كما ذكر ابن إسحاق: «وما عليكم لو تركتموني ، فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً ، فحضرتموه؟!». قالوا: لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا. فخرج ، وخلَّف أبا رافعٍ مولاه على ميمونة حتَّى أتاه بها بِسَرِفٍ

(موضع قرب التَّنعيم) فبنى بها هناك [ابن هشام (٤/١٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٣٠)] ، وهي اخر مَنْ تزوَّج الرَّسول (ص) من نسائه ، واخر من مات من نسائه بعده ، وأنَّها ماتت ، ودفنت بِسَرِفٍ ، فمكان عرسها هو مكان دفنها رضي الله عنها ، وأرضاها[(٢٣٤)].

وفي زواج رسول الله (ص) بميمونة مسألةٌ فقهيَّةٌ اختلف الفقهاء فيها ، وهي: هل تزوَّج (ص) بميمونة وهو محرمٌ «عقد نكاحه عليها فقط» أو عقد عليها بعد التَّحلُّل؟[(٢٣٥)] وقد أجاد الفقهاء في تفصيلها.

رابعاً: التحاق بنتِ حمزة بن عبد المطَّلب بركب المسلمين:

لقد تغيَّرت النُّفوس ، والعقول بتأثير الإسلام تغيُّراً عظيماً ، فعادت البنت . التي كان يتعيَّر بها أشراف العرب ، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل فراراً من العار ، وزهداً في البنات . حبيبةً يتنافس في تربيتها المسلمون ، وكانوا سواسيةً ، لا يرجع بعضُهم على بعضٍ إلا بفضلٍ ، أو حقٍّ[(٢٣٦)] ، فلمَّا أراد النَّبيُّ (ص) الخروج من مكَّة ، تبعته ابنة حمزة تنادي يا عمّ ! يا عمّ ! فتناولها عليٌّ رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السَّلام: دونك ابنةَ عمِّك ، فاختصم فيها عليٌّ ، وزيدٌ ، وجعفرٌ.

قال علي: أنا أخذتُها ، وهي بنت عمِّي. وقال جعفر: هي ابنة عمِّي ، وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النَّبيّ (ص) لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». وقال لعليّ: «أنت منِّي، وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهت خَلْقي، وخُلُقي». وقال لزيد: «أنت أخونا، ومولانا» [البخاري (٢٧٠٠) و(٤٢٥١) ، والترمذي (١٩٠٤)].

وقال عليٌّ رضي الله عنه للنَّبيِّ (ص) : ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال (ص) : «إنَّها ابنة أخي من الرَّضاعة». [البخاري (٤٢٥١) من حديث البراء ، ومسلم (١٤٤٦) عن علي].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، وأحكامٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ الخالة بمنزلة الأمِّ.

٢ ـ الخالة تُقدَّم على غيرها في الحضانة؛ إذا لم يوجد الأبوان.

٣ ـ تزكية رسول الله (ص) لجعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، ووصفه له بقوله: «أشبهت خلقي ، وخُلقي».

٤ ـ منقبة عليٍّ رضي الله عنه: تأمَّل قوله (ص) : «أنت منِّي وأنا منك» والمعنى: أنت منِّي وأنا منك في النَّسب والصِّهر ، والسَّابقة ، والمحبَّة.

٥ ـ منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرَّسول (ص) : «أنت أخونا ، ومولانا» لأنَّه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب ، فقد اخى الرَّسول (ص) بينهما ، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ الشَّقيق من واجباتٍ ، والواجب هنا أن يكون وليّاً على بنت حمزة رضي الله عنه.

٦ ـ الخالة تُقدَّم على العمَّة في الحضانة: لقد حكم النَّبيُّ (ص) لزوجة جعفر بالحضانة؛ وعمَّتها صفيَّة بنت عبد المطلب حيَّةٌ موجودةٌ.

٧ ـ زواج المرأة لا يُسقط حقَّها في الحضانة: فقد حكم الرَّسول (ص) بالحضانة لخالة بنت حمزة؛ وهي متزوِّجة من جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

٨ ـ لابدَّ من موافقة الزَّوج على حضانة زوجته لابنة أختها؛ لأنَّ الزَّوجة محتبَسةٌ لمصلحته ، ومنفعته ، والحضانة قد تفوِّت هذه المصلحة جزئيّاً ، فلابدَّ من استئذانه ، ونلاحظ هنا أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ قد طالب بحضانة بنت عمِّه حمزة لخالتها وهي زوجةٌ له ، فدلَّ على رضاه بذلك.

٩ ـ إنَّ الطِّفل إذا رضع مع عمِّه يصبح أخاً له في الرَّضاعة ، وتصبح بناتُه كلُّهن بنات أخيه من الرَّضاعة ، فيحرم عليه نكاحهنَّ[(٢٣٧)].

خامساً: أثر عمرة القضاء على الجزيرة ، وإسلام خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة: لقد كان تأثير هذه العمرة على قريشٍ ، وعلى عرب الجزيرة تأثيراً بالغاً ، فقد حملت في مضمونها ، مهمَّةً دعويَّةً عظيمةً ، ولقد تأثر أهل مكَّة من هذه العمرة السِّلميَّة.

يقول اللِّواء محمود شيت خطَّاب: أثَّرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريشٍ تأثيراً كبيراً ، فقد وقف الكثير من قريش عند دار النَّدوة بمكَّة ، كما عسكر اخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرَّسول (ص) وأصحابه ، فلمَّا دخل رسول الله (ص) المسجد؛ اضطبع بردائه ، وأخرج عضده اليُمنى ، ثمَّ قال: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوَّةً» [سبق تخريجه]. ثمَّ استلم الرُّكن ، وأخذ يهرول ، وأصحابه معه ، فلم يكد يترك الرَّسول (ص) مكَّة حتَّى وقف خالد بن الوليد يقول في جمع من قريش:
لقد استبان لكلِّ ذي عقلٍ: أنَّ محمَّداً ليس بساحرٍ،
ولا شاعرٍ ، وأنَّ كلامه من كلام ربِّ العالمين ، فحقَّ لكلِّ ذي لُبٍّ أن يتَّبعه. وسمع أبو سفيان بما كان من قول خالد بن الوليد ، فبعث في طلبه ، وسأله عن صحَّة ما سمع ، فأكَّد له خالدٌ صحَّته ، فاندفع أبو سفيان إلى خالدٍ في غضبه ، فحجزه عنه عكرمة ، وكان حاضراً ، وقال: مهلاً يا أبا سفيان! فو الله! خِفْتُ لِلَّذي خِفْتُ أن أقول مثل ما قال خالد ، وأكون على دينه ، أنتم تقتلون خالداً على رأيٍ راه ، وهذه قريش كلُّها تبايعت عليه ، والله! لقد خفت ألا يحول الحول حتَّى يتَّبعه أهل مكَّة كلُّهم. وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص ، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل وظهر الإسلام في كلِّ بيت من قريش سراً وعلانيةً ، وبهذه النتيجة الطَّيِّبة يمكننا القول بأنَّ عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكَّة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكَّة نفسها[(٢٣٨)].
ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «وحسبُك: أنَّ عمرة القضاء هذه قد جمعت في اثارها من أسباب الإقناع بالدَّعوة المحمَّدية ما أقنع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وهما في رجاحة العقل ، والخُلُق مثلان متكافئان ، يُحتذى بهما»[(٢٣٩)].
١ ـ إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه:
ونترك عمرو بن العاص يحدِّثنا عن إسلامه؛ حيث قال: لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق؛ جمعت رجالاً من قريش؛ كانوا يرون رأيي ، ويسمعون منِّي ، فقلت لهم: تعلمون والله! أنِّي أرى أمر محمَّدٍ يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنِّي قد رأيت أمراً ، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنَّجاشي ، فنكون عنده ، فإن ظهر محمَّدٌ على قومنا؛ كنَّا عند النَّجاشيِّ ، فإنَّا أن نكون تحت يديه أحبَّ إلينا من أن نكون تحت يَدَيْ محمَّدٍ ، وإن ظهر قومنا ، فنحن مَنْ قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالوا: إنَّ هذا الرَّأي! قلت: فأجمعوا لنا ما نهديه له ، وكان أحبَّ ما يهدى إليه من أرضنا الأدم[(٢٤٠)] ، فجمعنا له أدماً كثيراً ، ثمَّ خرجنا حتَّى قدمنا عليه ، فو الله إنَّا لعنده إذ جاءه عمرو بن أميَّة الضَّمْرِيُّ ،

وكان رسول الله (ص) قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه ، قال: فدخل عليه ، ثمَّ خرج من عنده ، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ ، لو دخلت على النَّجاشيِّ ، وسألته إيَّاه ، فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنِّي أجزأت عنها[(٢٤١)]؛ حيث قتلت رسول محمَّدٍ.

قال: فدخلت عليه ، فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال: مرحباً صديقي ، أهديت إلي من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم ، أيها الملك! قد أهديت إليك أدماً كثيراً ، قال: ثمَّ قربته إليه فأعجبه ، واشتهاه ، ثمَّ قلت له: أيُّها الملك! إنِّي قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجلٍ عدوٍّ لنا ، فأعطنيه لأقتله؛ فإنَّه قد أصاب من أشرافنا ، وخيارنا ، قال: فغضب ، ثمَّ مدَّ يده ، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنَّه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض؛ لدخلت فيها فَرَقاً منه ، ثمَّ قلت له: أيها الملك! والله! لو ظننت أنك تكره هذا ما سألْتُكَهُ ، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه النَّاموس الأكبر الَّذي كان يأتي موسى لِقَتْلِهِ؟! قال: قلت: أيُّها الملك! أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني واتَّبعه ، فإنَّه والله لعلى الحقِّ ، وليَظْهَرَنَّ على مَنْ خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم ، فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثمَّ خرجت إلى أصحابي ، وقد حال رأيي عمَّا كان عليه ، وكتمت على أصحابي إسلامي ، ثمَّ خرجت عامداً إلى رسول الله؛ لأسلم ، فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبلٌ من مكَّة ، فقلت: أين يا أبا سليمان؟! قال: والله لقد استقام المَنْسِمُ[(٢٤٢)] ، وإن الرَّجل لنبيٌّ ، أذهب والله! فأسلم ، فحتَّى متى؟! قال: قلت: والله! ما جئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله (ص) ، فتقدَّم خالد بن الوليد ، فأسلم ، وبايع ، ثمَّ دنوت ، فقلت: يا رسول الله ! إنِّي أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدَّم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخَّر. قال: فقال رسول الله (ص) : «يا عمرو! بايع؛ فإنَّ الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإنَّ الهجرة تجبُّ ما كان قبلها» قال: فبايعته ، ثمَّ انصرفت. [أحمد (١٩٨/٤ ـ ١٩٩) ، والبيهقي في الدلائل (٣٤٣/٤ ـ ٣٤٨) ، وابن هشام (٢٨٩/٣ ـ ٢٩١)][(٢٤٣)].

وفي روايةٍ قال: (... فلمَّا جعل الله الإسلام في قلبي؛ أتيت النَّبيَّ (ص) فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه ، قال: فقبضت يدي ، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفرَ لي. قال: «أما علمت: أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحجَّ يهدم ما كان قبله؟»). [مسلم (١٢١) ، وأحمد (٢٠٥/٤) ، وابن خزيمة (٢٥١٥)].

٢ ـ إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وهذا خالد بن الوليد يحدِّثنا عن قصَّة إسلامه ، فيقول: ... لما أراد الله بي من الخير ما أراد؛ قذف في قلبي حُبَّ الإسلام وحضرني رشدي ، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّدٍ ، فليس موطنٌ أشهده إلاَّ أنصرف ، وأنا أرى في نفسي أنِّي مُوضعٌ في غير شيءٍ ،

وأنَّ محمَّداً سيظهر ، فلمَّا خرج رسول الله (ص) إلى الحديبية؛ خرجت في خيل المشركين ، فلقيت رسول الله (ص) في أصحابه بعُسْفان ، فقمت بإزائه ، وتعرَّضت له ، فصلَّى بأصحابه الظُّهر امناً منا ، فهمَمْنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزَم لنا . وكانت فيه خيرة . فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهموم ، فصلَّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منِّي موقعاً ، وقلت: الرَّجل ممنوعٌ! وافترقنا ، وعدل عن سَنن خيلنا وأخذ ذات اليمين ، فلمَّا صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعته قريش بالرَّواح؛ قلت في نفسي: أيُّ شيءٍ بقي؟ أين المذهب؟ إلى النَّجاشيِّ! فقد اتَّبع محمداً ، وأصحابُه امنون عنده ، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانيَّةٍ ، أو يهوديَّةٍ ، فأقيم مع عجم تابعاً ، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك؛ إذ دخل رسول الله (ص) عُمرة القضيَّة ، فتغيَّبتُ ، فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النَّبيِّ (ص) في عُمرة القضية ، فطلبني ، فلم يجدني ، فكتب إليَّ كتاباً ، فإذا فيه: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، أمَّا بعد: فإنِّي لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعَقْلُك عَقْلُك! ومثلُ الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألني رسول الله (ص) عنك ، فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به! فقال: «ما مِثْلَهُ جَهِلَ الإسلامَ! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين؛ لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره» فاستدرك يا أخي! ما فاتك ، فقد فاتتك مواطنُ صالحةٌ.

قال: فلمَّا جاءني كتابه؛ نَشِطْتُ للخروج ، وزادني رغبةً في الإسلام ، وسرَّتني مقالةُ رسول الله (ص) .

قال خالد: وأرى في النَّوم كأني في بلادٍ ضيِّقةٍ جديبةٍ ، فخرجت إلى بلدٍ أخضرَ واسعٍ ، فقلت: إنَّ هذه لرؤيا ، فلمَّا قدمت المدينة؛ قلت: لأذكرنَّها لأبي بكرٍ ، قال: فذكرتها ، فقال: هو مخرجُك الَّذي هداك الله للإسلام ، والضِّيق الَّذي كنت فيه من الشِّرك ، فلمَّا أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أميَّة ، فقلت: يا أبا وهب! أما ترى ما نحن فيه؟ إنَّما نحن أكَلَةُ رأس[(٢٤٤)] ، وقد ظهر محمَّدٌ على العرب ، والعجم ، فلو قدمنا على محمَّدٍ فاتَّبعناه؛ فإنَّ شرف محمَّدٍ على العرب.

فأبى أشدَّ الإباء ، وقال: لو لم يبقَ غيري من قريشٍ ما اتَّبعته أبداً! فافترقنا ، وقلت: هذا رجلٌ موتور يطلب وِتْراً ، قد قُتل أبوه ، وأخوه ببدرٍ. فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل الَّذي قلت لصفوان

، فقال لي مثل ما قال صفوان ، قلت: فاطوِ ما ذكرت مَنْ قُتل من ابائه ، فكرهتُ أذكِّره ، ثمَّ قلت: وما عليَّ وأنِي راحلٌ من ساعتي ، فلقيت عثمان بن طلحة فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت: إنَّما نحن بمنزلة ثعلب في جُحرٍ ، لو صُبَّ عليه ذَنوبٌ[(٢٤٥)] من ماءٍ؛ لخرج.

قال: وقلت له نحواً ممَّا قلت لصاحبيه ، فأسرع في الإجابة ، وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتي بضحٍّ مُنَاخةٌ. قال: فاتَّعدت أنا وهو بيأجج ، إن سبقني؛ أقام ، وإن سبقته؛ أقمت عليه. قال: فادَّلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتَّى التقينا بيأجج ، فغدونا حتَّى انتهينا إلى الهَدَّة ، فنجد عمرو بن العاص بها ، فقال: مرحباً بالقوم! فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدُّخول في الإسلام ، واتِّباع محمَّد (ص) . قال: وذلك الَّذي أقدمني.
قال: فاصطحبنا جميعاً حتَّى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرَّة ركابنا ، فأُخبر بنا رسول الله (ص) فَسُرَّ بنا ، فَلَبِسْتُ من صالح ثيابي ، ثمَّ عمدت إلى رسول الله (ص) ، فلقيني أخي ، فقال: أسرع فإنَّ رسول الله (ص) قد أُخبر بك فَسُرَّ بقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعت المشي ، فطلعت عليه ، فما زال يتبسَّم إليَّ حتَّى وقفتُ عليه ، فسلمت عليه بالنُّبوَّة ، فرد عليَّ السَّلام بوجهٍ طَلْقٍ ، فقلت: إنِي أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله. فقال: «الحمد لله الَّذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير». قلت: يا رسول الله! قد رأيتَ ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحقِ ، فادع الله أن يغفرها لي! فقال رسول الله (ص) : «الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله». قلت: يا رسول الله! على ذلك؟ فقال: «اللَّهم! اغفر لخالدٍ كلَّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك». قال خالد: وتقدَّم عمرو ، وعثمانُ ، فبايعا رسول الله (ص) ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ ، فو الله! ما كان رسول الله (ص) من يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه. [البيهقي في دلائل النبوة (٤/٣٤٩ ـ ٣٥٢)][(٢٤٦)].
وفي إسلام عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما دروسٌ ، ولطائف ، وعبرٌ ، منها:
أ ـ غضبة النَّجاشيِ تدلُّ على صدق إيمانه ، وحبِّه لرسول الله (ص) ، وحبُّه للمسلمين ، وصِدْق النَّجاشيِّ كان له أثرٌ في إيمان عمرو بن العاص ، ودخوله في الإسلام ، وبذلك نال النَّجاشيُّ أجراً عظيماً حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش[(٢٤٧)].
ب ـ كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام ، والمسلمين ، فلقد سخَّر عقله الكبير ، ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام ، وخسر الكفار بإسلامه خسارةً كبيرةً؛ لأنَّهم كانوا

يُعِدُّونه لعظائم الأمور؛ الَّتي تحتاج إلى دهاءٍ ، ومقدرةٍ على التأثير ، وخاصَّةً فيما يتعلَّق بعدائهم مع المسلمين[(٢٤٨)].

ج ـ أدرك خالد بن الوليد: أنَّ العاقبة لرسول الله (ص) ، وتأمَّل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّد ، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف؛ وأنا أرى في نفسي أنِّي مُوضعٌ في غير شيءٍ ، وأن محمَّداً سيظهر[(٢٤٩)]. وفي هذا عبرةٌ لكلِّ الَّذين يحاربون الإسلام[(٢٥٠)].

د ـ الاهتمام بالبشر طريقٌ من طرق التأثير عليهم ، وكسبهم إلى الصَّفِّ المؤمن ، ولذلك قال رسول الله (ص) للوليد بن الوليد: «ما مِثْل خالدٍ يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين؛ لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره»[(٢٥١)]. فكان لهذه الكلمات البليغة أعظمُ الأثر في تحوُّل قلب خالدٍ ، وتوجُّهه نحو الإسلام ، وقد كان رسول الله (ص) عليماً في مخاطبة النُّفوس ، والتَّأثير عليها ، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة ، والزَّعامة ، فوعد بتمكينه من ذلك ، وتقديمه على غيره في هذا المضمار ، ومدح (ص) سداد رأيه ، ورجاحة عقله ، ونُضْجَ فكره ، فانتزع (ص) بهذه الكلمات كلَّ الجوانب الَّتي تجعل خالداً يظلُّ على الشِّرك الَّذي لم يكن مقتنعاً به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادةٍ وتصدُّرٍ ، فلمَّا كان ما هيَّأه له المشركون سيحصل له؛ إذا دخل في الإسلام ، واطمأنَّ بأنَّه لو أسلم؛ لن يكون في اخر القائمة ، ولن يكون مهملاً ، شجَّعه ذلك على التغلُّب على وساوس إبليس ، ورجَّح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام ، فعزم على الدُّخول فيه.

لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوَّةً للإسلام ، وضعفاً للشِّرك ، وكتب الله على أيديهما صفحاتٍ مشرقةً من تاريخ المسلمين الجهاديِّ أصبحت باقيةً في ذاكرة الأمَّة ، وتاريخها المجيد على مرِّ الدُّهور ، وكرِّ العصور ، وتوالي الأزمان[(٢٥٢)].

* * *

المبحث الرابع

سريَّة مؤتة (٨ هـ)[(٢٥٣)]

أولاً: أسبابها ، وتاريخها:

أشعل عرب الشَّام فتيل الصِّراع بين المسلمين والبيزنطيِّين ، فقد دأبت قبيلة كلب من قُضاعة؛ الَّتي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين ، وحاولت أن تفرض عليهم نوعاً من الحصار الاقتصاديِّ عن طريق إيذائها للتُّجار الَّذين كانوا يحملون السِّلع الضَّرورية من الشَّام إلى المدينة ، ولذلك غزا رسول الله (ص) قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥ هـ) ، لكنَّه وجدهم قد تفرَّقوا ، كما أنَّ رجالاً من جُذام ، ولَخْم قطعوا الطَّريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بِحِسْمَى بعد إنجازه لمهمَّةٍ أناطها به رسول الله (ص) واستلبوا كلَّ ما معه ، فكانت سَرِيَّة زيد بن حارثة إلى حِسْمَى في سنة (٦ هـ)، ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قامت به قبيلتا مذحج ، وقُضاعة من اعتداءٍ على زيد بن حارثة ، وصحبه في العام المذكور (٦ هـ) ، وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثةٍ بغرض الدَّعوة إلى الله.

وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدوانيُّ يأخذ منحنىً أكثر خطورةً[(٢٥٤)] ، بعد مقتل الحارث بن عُميرٍ الأزدي رسول رسول الله (ص) إلى حاكم (بُصرى) التَّابع لحاكم الرُّوم ، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغسَّاني بضرب عنق رسولِ رسولِ الله ، ولم تجر العادة بقتل الرُّسل والسُّفراء ، كما أنَّ الحارث بن أبي شمر الغسَّاني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله ، وهدَّد بإعلان الحرب على المدينة.

ثمَّ حدث بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفاري؛ ليدعو إلى الإسلام في مكان يقال له: (ذات أطلاح) ، فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام ، وأحاطوا بالدُّعاة من كلِّ مكانٍ ، وقاتلوهم حتَّى قتلوهم جميعاً ، إلا أميرهم كان جريحاً فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة ، فأخبر رسول الله (ص)[(٢٥٥)] .

وقد قام نصارى الشَّام بزعامة الإمبراطورية الرومانيَّة بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام ، أو يفكِّر في ذلك ، فقد قتلوا والي مَعَانَ حين أسلم ، وقتل والي الشَّام من أسلم من عرب الشَّام[(٢٥٦)].

كانت هذه الأحداث المؤلمة ـ وبخاصَّةٍ مقتل سفير رسول الله (ص) الحارث بن عُمير الأزدي ـ محركةً لنفوس المسلمين ، وباعثاً لهم ليضعوا حدّاً لهذه التصرُّفات النَّصرانيَّة العدوانيَّة ، ويثأروا لإخوانهم في العقيدة ، الذين سُفِكَت دماؤهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله ونبيُّنا محمَّد رسول الله[(٢٥٧)] ، كما أنَّ تأديب عرب الشام التابعين للدَّولة الرُّومانيَّة ، والَّذين دأبوا على استفزاز المسلمين ، وتحدِّيهم ، وارتكاب الجرائم ضدَّ دعاتهم أصبح هدفاً مهمّاً؛ لأنَّ تحقيق هذا الهدف معناه: فرض هيبة الدَّولة الإسلاميَّة في تلك المناطق

، بحيث لا تتكرَّر مثل هذه الجرائم في المستقبل ، وبحيث يأمن الدُّعاة المسلمون على أنفسهم ، ويأمن التُّجار المتردِّدون بين الشَّام والمدينة من كلِّ أذىً يحول دون وصول السِّلع الضَّرورية إلى المدينة[(٢٥٨)].

وفي سنة (٨ هـ) أمر رسول الله (ص) المسلمين بالتَّجهُّز للقتال ، فاستجابوا للأمر النَّبويِّ ، وحشدوا حشوداً لم يحشدوها من قبل؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السَّريَّة ثلاثة الاف مقاتل، واختار النَّبيُّ (ص) للقيادة ثلاثة أمراء على التَّوالي: زيد بن حارثة ، ثمَّ جعفر بن أبي طالب ، ثمَّ عبد الله بن رواحة[(٢٥٩)] ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: أمَّر رسول الله (ص) في غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال رسول الله (ص) : إن قُتل زيدٌ؛ فجعفرٌ ، وإن قُتل جعفرٌ فعبد الله بن رواحة. [البخاري (٤٢٦١)].

وقد أمر رسول الله (ص) الجيش الإسلاميَّ أن يأتوا المكان الَّذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزديُّ رضي الله عنه ، وأن يَدْعوا من كان هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا؛ فبها ، ونعمت ، وإن أبوا؛ استعينوا بالله عليهم ، وقاتلوهم[(٢٦٠)]. وقد زوَّد الرَّسول (ص) الجيش في هذه السَّريَّة ، وغيرها من السَّرايا بوصايا تتضمَّن اداب القتال في الإسلام[(٢٦١)] ، فقد أوصى رسول الله (ص) أصحابه بقوله: «أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزو باسم الله في سبيل

الله مَنْ كفر بالله ، لا تغدِروا ، ولا تقتُلوا وليداً ، ولا امرأةً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعةٍ ، ولا تقربوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناءً ، وإذا لقيتم عدوَّكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث: فإمَّا الإسلام ، وإمَّا الجزية ، وإمَّا الحرب»[(٢٦٢)].

ثانياً: وداع الجيش الإسلامي:

لما تجهز الجيش الإسلاميُّ ، وأتمَّ استعداده؛ توجَّه رسول الله (ص) والمسلمون يودِّعون الجيش ، ويرفعون أكفَّ الضَّراعة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن ينصر إخوانهم المجاهدين ، لقد سلَّموا عليهم ، وودَّعوهم بهذا الدُّعاء: دفع الله عنكم ، وردَّكم صالحين غانمين[(٢٦٣)]!

ولما ودَّع النَّاس عبد الله بن رواحة ، وسلَّموا عليه ، بكى ، وانهمرت الدُّموع من عينيه ساخنةً غزيرةً ، فتعجَّب النَّاس من ذلك ، وقالوا: ما يبكيك يا بن رواحة؟! فقال: والله ما بي حبُّ الدُّنيا ، ولا صَبَابَةٌ بكم ، ولكنِّي سمعت رسول الله (ص) يقرأ اية من كتاب الله يذكر فيها النَّار: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا *} [مريم: ٧١] ، فلست أدري كيف بي بالصَّدرِ بعد الوُرود؟! فقال لهم المسلمون: صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردَّكم إلينا صالحين! فقال عبد الله بن رواحة:

لَكنَّني أَسْأَلُ الرَّحْمنَ مَغْفِرَةً   وَضْرَبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً   بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الأَحْشَاءَ والْكَبِدَا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي   أَرْشَدَهُ الله مِنْ غازٍ وَقَدْ رَشَدَا

[ابن هشام (٤/١٥ ـ ١٦) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٣٥٩)].

وودَّع رسولُ الله (ص) عبد الله بن رواحة، فقال ابن رواحة يخاطب رسول الله (ص) :

يُثْبِتُ الله ما اتاكَ مِنْ حَسَنٍ   تَثْبِيْتَ مُوْسَى وَنَصْراً كالَّذِي نُصِرُوا
إِنِّي تَفَرَّسْتُ فِيْكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً   فِرَاسَةً خَالَفْتُهُم فِي الَّذي نَظَرُوا
أَنْتَ الرَّسُولُ فَمَنْ يُحْرَمْ نَوَافِلَهُ   والوَجْهُ مِنْهُ فَقَدْ أَزْرَى بِهِ القَدَرُ

[البيهقي في الدلائل (٤/٣٥٩ ـ ٣٦٠) ، وابن هشام (٤/١٦)][(٢٦٤)].

ثالثاً: الجيش يصل إلى مَعَان واستشهاد الأمراء الثلاثة:

لما وصل الجيش الإسلاميُّ إلى مَعَان من أرض الشَّام ـ وهي الان محافظةٌ من محافظات الأردن ـ بلغه: أنَّ النَّصارى الصَّليبيِّين مِنْ عربٍ ، وعجمٍ قد حشدوا حشوداً ضخمةً لقتالهم؛ إذ

حشدت القبائل العربيَّة مئة ألف صليبي من لَخْمٍ ، وجُذَام وبَهرَاء وبَلِيٍّ ، وعيَّنت لهم قائداً ، هو مالك بن رافلة ، وحشد هرقل مئة ألف نصرانيٍّ صليبيٍّ من الرُّوم ، فبلغ جيشهم مئتي ألف مقاتلٍ ، مزوَّدين بالسِّلاح الكافي ، يرفلون في الدِّيباج لينبهر المسلمون بهم ، وبقوَّتهم[(٢٦٥)] ، ولقد قام المسلمون في مَعَان يومين يتشاورون في التَّصدِّي لهذا الحشد الضَّخم ، فقال بعضهم: نرسل إلى رسول الله (ص) في المدينة نخبره بحشود العدوِّ ، فإن شاء أمدَّنا بالمدد ، وإن شاء أمرنا بالقتال[(٢٦٦)] ، وقال بعضُهم لزيد بن حارثة قائد الجيش: وقد وطئت البلاد ، وأخفت أهلها ، فانصرف ، فإنَّه لا يعدل العافية شيءٌ[(٢٦٧)] ، ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله: يا قوم! والله إنَّ الذي تكرهون للَّذي خرجتم تطلبون الشَّهادة! وما نقاتل النَّاس بعددٍ ، ولا قوَّةٍ ، ولا كثرةٍ ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الَّذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا؛ فإنَّما هي إحدى الحسنيين: إمَّا ظهورٌ ، وإمَّا شهادةٌ! فألهبت كلماتُه مشاعر المجاهدين ، واندفع زيد بن حارثة بالنَّاس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسير حيث اثر الاصطدام بالرُّوم هناك ، فكانت ملحمةٌ سجَّل فيها القادة الثلاثة بطولةً عظيمةً انتهت باستشهادهم[(٢٦٨)] ، فقد استبسل زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وتوغَّل في صفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله (ص) حتَّى

شاط (أي: سال دمه) في رماح القوم. [الطبراني في الكبير (٤٦٥٥) ، وابن هشام (١٩/٤) ، ومجمع الزوائد (١٥٩/٦)].

ثمَّ أخذ الرَّاية جعفر ، وانبرى يتصدَّى لجموع المشركين الصَّليبيّين ، فكثَّفوا حملاتهم عليه ، وأحاطوا به إحاطة السِّوار بالمعصم ، فلم تلن له قناةٌ ، ولم تهن له عزيمةٌ؛ بل استمرَّ في القتال وزيادةً في الإقدام نزل عن فرسه، وعقرها، وأخذ ينشد:

يا حَبَّذا الجَنَّةُ واقْتِرابُهَا طَيِّبَةً وَبَارِداً شَرَابُهَا
والرُّومُ رُوْمٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا كَافِرَةٌ بِعَيْدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إذ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

[انظر تخريج الحديث السابق].

لقد أخذ رضي الله عنه اللِّواء بيده اليمنى ، فقطعت ، فأخذه بشماله ، فقطعت ، فاحتضنه بعضديه ، وانحنى عليه حتَّى استُشْهِد وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، ولقد أُثْخِنَ رضي الله عنه بالجراح؛ إذ بلغ عدد جراحه تسعين ، بين طعنةٍ برمحٍ ، أو ضربةٍ بسيفٍ ، أو رميةٍ بسهمٍ ، وليس
من بينهما جرح في ظهره ، بل كلُّها في صدره[(٢٦٩)].

روى الإمام البُخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما قال: كنت في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب ، فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنةٍ ، أو رميةٍ. [البخاري (٤٢٦١) ، والبيهقي في الدلائل (٣٦١/٤)].

ولقد عوَّض الله ـ تبارك وتعالى ـ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأكرمه على شجاعته ، وتضحيته بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنَّة حيث يشاء ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عامرٍ؛ قال: كان ابن عمر إذا حَيّا ابن جعفر؛ قال: السَّلام عليك يا بن ذي الجناحين. [البخاري (٤٢٦٤) ، والبيهقي في الدلائل (٣٧٢/٤)].

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه تسلَّم الرَّاية عبد الله بن رواحة الأنصاريُّ رضي الله عنه وامتطى جواده ، وهو يقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ لَتَنْزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
إِنْ أَجْلَبَ[(٢٧٠)] النَّاسُ وشَدُّوا الرَّنَّهْ[(٢٧١)] مَالِيَ أَرَاكِ تَكْرَهِيْنَ الجَنَّهْ
قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ هَلْ أَنْتِ إلا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ

يَا نَفْسُ إِلا تُقْتَلِيْ تَمُوْتِي   هَذا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيْتِ

ومَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيْتِ   إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيْتِ

[البيهقي في الدلائل (٤/٣٦٣ ـ ٣٦٤) ، وابن هشام (٤/٢١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٥٩)].

ويُذكر: أنَّ ابن عمٍّ لعبد الله بن رواحة قد قدَّم له قطعةً من لحمٍ ، وقال له: شدَّ بهذا صُلبك ، فإنَّك لقيت في أيَّامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ، ثمَّ انتهش منه نهشةً ، ثمَّ سمع جلبةً ، وزخاماً في جبهة القتال ، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدُّنيا! ثمَّ ألقى قطعة اللَّحم من يده ، وتقدَّم يقاتل العدو حتَّى استُشْهِد رضي الله عنه وكان ذلك في اخر النَّهار[(٢٧٢)].

رابعاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً:

ولما استُشْهِد عبدُ الله بن رواحة رضي الله عنه ، وسقطت الرَّاية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عديّ بن العجلان البلويُّ الأنصاريُّ وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على

رجلٍ منكم ، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل! فاصطلح النَّاس على خالد بن الوليد[(٢٧٣)] ، وجاء في (إمتاع الأسماع): أنَّ ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد ، فقال: خذ اللِّواء يا أبا سليمان! فقال: لا اخذه ، أنت أحقُّ به ، أنت رجلٌ لك سنٌّ ، فقد شهدت بدراً ، فقال ثابت: خذه أيُّها الرَّجل ، فو الله ما أخذته إلا لك!

فأخذه خالد بن الوليد رضي الله عنه[(٢٧٤)] ، وأصبحت الخطَّة الأساسيَّة المنوطة بخالدٍ في تلك السَّاعة العصيبة من القتال أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعيِّ ، فبعد أن قدَّر الموقف واحتمالاته المختلفة تقديراً دقيقاً ، ودرس ظروف المعركة دراسةً وافيةً ، وتوقَّع نتائجها اقتنع بأنَّ الانسحاب بأقلِّ خسارةٍ ممكنةٍ هو الحلُّ الأفضل ، فقوَّة العدوِّ تبلغ (٦٦) ضعفاً لقوة المسلمين ، فلم يبقَ أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظَّم ، وعلى هذا الأساس وضع خالدٌ الخطَّة التالية:

أ ـ الحؤول بين جيش الرُّوم وجيش المسلمين؛ ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب ـ لبلوغ هذا الهدف لابدَّ من تضليل العدوِّ بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش المسلمين ، فيخفِّف من ضغطه ، وهجماته ، ويتمكَّن المسلمون من الانسحاب ، وصمد خالدٌ حتَّى المساء عملاً بهذه الخطَّة ، وغيَّر في ظلام الليل مراكز المقاتلين في جيشه ، فاستبدل الميمنة بالميسرة ، ومقدِّمة القلب بالمؤخِّرة ، وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجَّة صاخبةً ، وجلبةً قويَّةً ، ثمَّ حمل على العدوِّ ، عند الفجر ، بهجماتٍ سريعةٍ متتالية ، وقويَّة؛ ليُدخل في رُوعِه: أنَّ إمدادات كثيرةً وصلت إلى المسلمين[(٢٧٥)].

ونجحت الخطَّة؛ إذ بدا للعدوِّ صباحاً: أنَّ الوجوه والرَّايات الَّتي تواجهه جديدةٌ لم يرها من قبل، وأنَّ المسلمين يقومون بهجماتٍ عنيفةٍ، فأيقن: أنَّهم تلقَّوا إمدادات، وأنَّ جيشاً جديداً نزل إلى الميدان ، وكان البلاء الحسن الَّذي أبلاه المسلمون قد فتَّ في عضد الرُّوم ، وحلفائهم ، فأدركوا أنَّ إحراز نصرٍ حاسمٍ ونهائيٍّ على المسلمين أمرٌ مستحيلٌ ، فتخاذلوا ، وتقاعسوا عن متابعة الهجوم ، وضعف نشاطهم واندفاعهم ، فخفَّ الضَّغط عن جيش المسلمين ، وانتهز خالدٌ الفرصة ، فباشر الانسحاب ، وكانت عملية التَّراجع الَّتي قام بها خالدٌ في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليَّات في التاريخ العسكريِّ مهارةً ونجاحاً ، بل إنَّها تتَّفق وتتلاءم مع التَّكتيك الحديث للانسحاب ، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب ، ولما أصبح الجناحان بمنأىً عن العدوِّ وفي مأمنٍ عنه؛ عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين ، إلى أن

تمكَّن ، وضمن سلامة الانسحاب كُلِّيّاً[(٢٧٦)] ، ويقول المؤرِّخون: إنَّ خسارة المسلمين لم تتعدَّ الاثني عشر قتيلاً في هذه المعركة ، وإنَّ خالداً قال: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيَّة». [البخاري (٤٢٦٥) ، والبيهقي في الدلائل (٣٧٣/٤)].

ويمكن القول بأنَّ خالداً بخطَّته تلك ، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمةٍ ماحقةٍ، وقتلٍ محقَّقٍ ، وأنَّ انسحابه كان قمَّة النَّصر بالنِّسبة لظروف المعركة؛ حيث يكون الانسحاب في ظروفٍ مماثلةٍ أصعب حركات القتال ، بل أجداها ، وأنفعها[(٢٧٧)].

خامساً: معجزةُ الرَّسول (ص) ، وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزةٌ للرَّسول (ص) في أمر هذه السَّريَّة ، فقد نعى إلى المسلمين في المدينة زيداً ، وجعفراً ، وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم ، وحزن رسول الله (ص) لما وقع للسَّريَّة ، وذرفت عيناه الدُّموع ، ثمَّ أخبرهم بتسلُّم خالدٍ للرَّاية ، وبشَّرهم بالفتح على يديه ، وأسماه: سيفَ الله[(٢٧٨)] ، وبعد ذلك قدِم من أخبرهم بأخبار السَّريَّة ، ولم يزد عمَّا أخبرهم به النَّبيُّ (ص)[(٢٧٩)] .

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقَّاهم رسول الله (ص) ، والمسلمون ، ولقيهم الصِّبيان يشتدُّون ، ورسولُ الله (ص) مقبلٌ مع القوم على دابةٍ ، فقال: خذوا الصِّبيان ، واحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر ، فأُتي بعبد الله ، فأخذه ، فحمله على يديه ، وجعل النَّاس يحثون على الجيش التُّراب ، ويقولون: يا فُرَّار! أفررتم من سبيل الله! ويقول رسول الله (ص) : «ليسوا بالفُرَّار ، ولكنَّهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى». [البيهقي في الدلائل (٣٧٤/٤) ، وابن هشام (٢٤/٤)][(٢٨٠)].

وإنَّ الإنسان ليعجب من هذه التَّربية النَّبويَّة الَّتي صنعت من الأطفال الصِّغار ، رجالاً وأبطالاً يرون العودة من المعركة دون شهادةٍ في سبيل الله فراراً من سبيل الله ، لا يكافَؤُون عليه إلا بحثوِ التُّراب في وجوههم ، فأين شبابنا المتسكِّعون في الشَّوارع ، من هذه النماذج الرَّفيعة من الرجولة الفذَّة المبكِّرة؟! ولن تستطيع الأمَّة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النَّبيلة ، والقِمم الشَّوامخ إلا بالتَّربية الإسلاميَّة الجادَّة القائمة على المنهاج النَّبويِّ الكريم[(٢٨١)].

سادساً: دروس ، وعبر ، وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروسٌ ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ أهمِّيَّة هذه المعركة:

تُعَدُّ هذه المعركة من أهمِّ المعارك الَّتي وقعت بين المسلمين والنَّصارى الصَّليبيِّين من عربٍ ، وعجمٍ؛ لأنَّها أوَّل صدامٍ مسلَّحٍ ذي بالٍ بين الفريقين ، وأثَّرت تلك المعركة على مستقبل الدَّولة الرُّومانيَّة ، فقد كانت مقدمةً لفتح بلاد الشَّام ، وتحريرها من الرُّومان ، ونستطيع أن نقول: إنَّ تلك الغزوة هي خطوةٌ عمليَّةٌ قام بها النَّبيُّ (ص) للقضاء على دولة الرُّوم المتجبِّرة في بلاد الشَّام ، فقد هزَّ هيبتها في قلوب العرب ، وأعطت فكرة عن الرُّوح المعنويَّة العالية عند المسلمين ، كما أظهرت ضعف الرُّوح المعنوية في القتال عند الجنديِّ الصَّليبيِّ النَّصرانيِّ[(٢٨٢)] ، وأعطت فرصةً للمسلمين للتَّعرُّف على حقيقة قوات الرُّوم ، ومعرفة أساليبهم في القتال.

٢ ـ حبُّ الشَّهادة باعثٌ للتَّضحية:

إنَّ الصَّبر ، والثَّبات ، والتَّضحية الَّتي تجلَّت من كلِّ واحدٍ من الأمراء الثَّلاثة ، وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين ، والرَّغبة في نيل الشَّهادة؛ لكي يكرمهم الله برفقة النَّبيِّين ، والصِّدِّيقين ، والشُّهداء ، والصَّالحين ، ويدخلوا جنَّات الله الواسعة ، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

٣ ـ تميُّز هذه المعركة عن سائر المعارك:

فهي الوحيدة الَّتي جاء خبرها من السَّماء؛ إذ نعى النَّبيُّ (ص) استشهاد الأبطال الثَّلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة ، بل وأخبر النَّبيُّ (ص) عن أحداثها ، وتمتاز أيضاً عن غيرها بأنَّها الوقعة الوحيدة الَّتي اختار النَّبيُّ (ص) لها ثلاثة أمراء على التَّرتيب هم: زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالبٍ ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم[(٢٨٣)].

٤ ـ إكرام النَّبيّ (ص) لال جعفر:

لما أصيب جعفر دخل رسول الله (ص) على أسماء بنت عُمَيْسٍ فقال: «ائتني ببني جعفرٍ» ، فأتت بهم ، فشمَّهم ، وقبَّلهم ، وذرفت عيناه ، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر ، وأصحابه شيءٌ؟ قال: «نعم ، أصيبوا هذا اليوم!» فجعلت تصيح ، وتولول ، فقال النَّبيُّ (ص) : «لا تغفُلوا عن ال جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنَّهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم». [أحمد (٦/٣٨٠) ، وابن ماجه (١٦١١) ، ومجمع الزوائد (٦/١٦١) ، والبيهقي في الدلائل (٤/٣٧٠) ، وابن هشام (٤/٢٢)] ، ونلحظ في هذا الخبر عدَّة أمورٍ؛ منها:

أ ـ جواز بكاء المرأة على زوجها المتَوَفَّى:

أُخِذ هذا مِنْ فعل أسماء بنت عُمَيْسٍ رضي الله عنها حينما نعى النَّبيُّ (ص) زوجها ، ومن معه ، فبكت ، وصاحت ، فلم ينكر عليها النَّبيُّ (ص) ، ولم ينهها عن ذلك ، ولو كان ممنوعاً؛ لنهاها عن ذلك ، والبكاء الَّذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائداً عند أهل الجاهليَّة من النُّواح ، واللَّطم ، وشقِّ الجيوب ، والتَّبرُّم بقضاء الله ، وقدَرِه ، وما إلى ذلك ممَّا يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه.

ب ـ استحباب صنع الطَّعام لأهل الميت:

وقد ندب الرَّسول (ص) النَّاس أن يصنعوا طعاماً لال جعفر ، وهذا فيه مواساةٌ لأهل المتَوَفَّى ، وتخفيفُ مُصابهم ، وفي الوقت نفسه تكافلٌ بينهم ، وهذه السُّنَّة خالفتها بعض الشُّعوب الإسلاميَّة ، وأصبح أهل الميت يصنعون الطَّعام للقادمين ، وهذا أمر قبيحٌ ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون[(٢٨٤)].

هذا وقد نهى رسولُ الله (ص) عن البكاء بعد ثلاثٍ ، فقد دخل على أسماء ، وقال لها: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم ، ادعو لي بني أخي» ، فجيء بهم كأنَّهم أَفْرُخ فدعا بالحلاق فحلق لهم رؤوسهم [أحمد (١/٢٠٤) ، وأبو داود (٤١٩٢) ، والنسائي (٨/١٨٢)] ، ثمَّ قال: أمَّا محمَّد فشبيه عمِّنا أبي طالب ، وأما عبد الله فشبيه خَلْقِي ، وخُلُقِي ، ثمَّ أخذ بيمين عبد الله ، وقال: «اللَّهُمَّ! اخلُف جعفراً في أهله ، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاثاً[(٢٨٥)]. ولما ذَكَرَتْ له أمُّهم يُتْمَهم ، وضعفهم؛ قال لها: «العَيْلَةَ تخافين عليهم؛ وأنا وليُّهم في الدُّنيا والاخرة؟!» [أحمد (١/٢٠٤)][(٢٨٦)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ خطَّه رسولُ الله (ص) لرعاية ، وتكريم أبناء الشُّهداء؛ لكي تسير الأمَّة على نهجه الميمون[(٢٨٧)].

ج ـ زواج أبي بكرٍ الصِّدِّيق من أسماء بنت عميس:

وبعد أن انقضت عدَّة أسماء بنتِ عُمَيْسٍ ، خطبها أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فتزوَّجها ، وولدت له محمَّد بن أبي بكرٍ ، وبعدما توفي الصِّدِّيق تزوَّجها بعده عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، وولدت له أولاداً رضي الله عنه ، وعنهم أجمعين[(٢٨٨)].

وقد ذكر ابن كثيرٍ: أنَّ أسماء بنتَ عُمَيْسٍ رَثَتْ زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدةٍ تقول فيها:

فَالَيْتُ لاَ تَنْفَكُّ نَفْسِي حَزِيْنَةً عَلَيْكَ وَلاَ يَنْفَكُّ جِلْدِي أَغْبَرا

فَلِلَّهِ عَيْنا مَنْ رأَى مِثْلَهُ فَتىً أَكَرَّ وأَحْمَرَ في الهِيَاجِ وأَصْبَرَا[(٢٨٩)]

٥ . مِنْ فقه القيادة:

إنَّه درسٌ عظيمٌ يقدِّمه لنا الصَّحابيُّ الجليل ثابت بنُ أقرم العجلانيُّ عندما أخذ اللِّواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه اخرِ الأمراء ، وذلك أداءً منه للواجب؛ لأنَّ وقوع الرَّاية معناه: هزيمةُ الجيش ، ثمَّ نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً ، وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعلٍ ، فاصطلح النَّاس على خالدٍ.

وفي روايةٍ: أنَّ ثابتاً مشى باللِّواء إلى خالدٍ ، فقال خالدٌ: لا اخذه منك ، أنت أحقُّ به ، فقال: والله! ما أخذته إلا لك.

إنَّ مضمون كلتا الرِّوايتين واحدٌ ، وهو أنَّ ثابتاً جمع المسلمين أوَّلاً ، وأعطى القوس باريها ، فأعطى الرَّاية أبا سليمان خالد بن الوليد[(٢٩٠)] ، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا؛ ذلك: أنَّه يرى فيهم مَنْ هو أكفأ منه لهذا العمل ، وحينما يتولَّى العمل مَنْ ليس له بأهلٍ ، فإنَّ الفساد متوقَّعٌ ، والعمل حينما يكون للهِ تعالى ، لا يكون فيه أثرٌ لحبِّ الشُّهرة ، أو حظِّ النَّفس.

إنَّ ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين . وهو ممَّن حضر بدراً . ولكنَّه رأى من الظُّلم أن يتولَّى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه ، حتَّى ولو لم يمضِ على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهرٍ؛ لأنَّ الغاية هي السَّعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن ، والطريقة المثْلَى[(٢٩١)].

إنَّ كثيراً ممَّن يتزعَّمون قيادة الدَّعوة الإسلاميَّة اليوم يضعون العراقيل أمام الطَّاقات الجديدة ، والقُدرات الفذَّة ، خوفاً على مكانتهم القياديَّة ، وامتيازاتهم الشَّخصية ، وأطماعهم الدُّنيوية ، فعلى أولئك القادة أن يتَّعظوا من هذا الدَّرس البليغ لمن كان له قلب ، أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

٦ . درس نبوي في احترام القيادة:

قال عوف بن مالكٍ الأشجعيُّ رضي الله عنه: خرجت مع مَنْ خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، ورافقني مَدَدِيٌّ من اليمن[(٢٩٢)].... ومضينا ، فلقينا جموع الرُّوم ، فيهم رجلٌ على فرسٍ له أشقر ، عليه سرجٌ مذهَّب ، وله سلاحٌ مذهَّب ، فجعل الرُّومي يضرب المسلمين ، فقعد له المِدَدِيُّ خلف صخرةٍ ، فمرَّ به الرُّومي فعرقب فرسه بسيفه ، وفر الرُّومي ، فعلاه بسيفه ، فقتله ، وحاز فرسه ، وسلاحه ، فلمَّا فتح الله للمسلمين؛ بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السَّلب ، قال عوف: فأتيت خالداً ، وقلت له: أما علمت: أنَّ رسول الله (ص) قضى بالسَّلب للقاتل؟ قال: بلى! ولكني استكثرتُه ، قلت: لتردَّنها إليه ، أو لأعرفنكها عند رسول الله (ص) ، فأبى أن يردَّ عليه.

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ، فقصصت عليه قصَّة المدديِّ وما فعل خالدٌ ، فقال رسول الله (ص) : «يا خالد! ما حملك على ما صنعت؟» قال: استكثرته ، فقال: «ردَّ عليه الَّذي أخذتَ منه».

قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد! ألم أوف لك؟ فقال رسول الله (ص) : «وما ذلك؟» فأخبرتُه ، قال: فغضب رسول الله (ص) ، وقال: «يا خالد لا تردَّ عليه ، هل أنتم تاركون لي أُمَرَائِي؟ لكم صَفْوَةُ أمرهم ، وعليهم كَدَرُه». [أحمد (٦/٢٧) ، ومسلم (١٧٥٣) ، وأبو داود (٢٧١٩ و ٢٧٢٠)].

هذا موقفٌ عظيمٌ من النَّبيِّ (ص) في حماية القادة ، والأمراء من أن يتعرَّضوا للإهانة بسبب الأخطاء الَّتي قد تقع منهم ، فهم بشر معرَّضون للخطأ ، فينبغي السَّعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّصٍ ، ولا إهانةٍ ، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه ، وإنَّما اجتهد ، فغلَّب جانب المصلحة العامَّة؛ حيث استكثر ذلك السَّلَب على فردٍ واحد ، ورأى: أنَّه إذا دخل في الغنيمة العامَّة؛ نفع عدداً أكبر من المجاهدين ، وعوف بن مالكٍ أدَّى مهمَّته في الإنكار على خالدٍ ، ثمَّ رفع الأمر إلى رسول الله (ص) حينما لم يقبل خالد قوله ، وكان المفترض أن تكون مهمَّته قد انتهت بذلك؛ لأنَّه - والحال هذه - قد دخل في أمرٍ من أوامر الإصلاح ، وقد تمَّ الإصلاح على يده ، ولكنَّه تجاوز هذه المهمَّة حيث حوَّل القضيَّة من قضيةٍ إصلاحيَّةٍ إلى قضيَّةٍ شخصيَّةٍ ، فأظهر شيئاً من التَّشفِّي من خالدٍ ، ولم يقرَّه النَّبيُّ (ص) على ذلك ، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً ، وبيَّن حقَّ الولاة على جنودهم ، وكون النَّبيِّ (ص) أمر خالداً بعدم ردِّ السَّلب على صاحبه لا يعني أنَّ حقَّ ذلك المجاهد قد ضاع؛ لأنَّه لا يمكن أن يأخذ رسول الله (ص) إنساناً بجريرة

غيره ، فلابدَّ: أنَّ ذلك المجاهد قد حصل منه الرِّضا ، إمَّا بتعويضٍ عن ذلك السَّلَب ، أو بتنازلٍ منه ، أو غير ذلك فيما لم يُذكر تفصيلُه في الخبر[(٢٩٣)].

إنَّ الأمَّة الَّتي لا تقدِّر رجالها ، ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظامٌ ، إنَّ التَّربية النَّبويَّة استطاعت بناء هذه الأمَّة بناءً سليماً ، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسانٍ في مكانه ، وأن يُحترم ، ويُقدَّر بمقدار ما يقدِّم لهذا الدِّين! ويبقى الجميع بعد ذلك في الإطار العامِّ الَّذي وصف الله به المؤمنين: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ *} [المائدة: ٥٤].

وفي قوله (ص) : «هل أنتم تاركون لي أُمَرَائِي؟!» وسامٌ اخرُ يُضاف إلى خالدٍ رضي الله عنه ، حيث عُدَّ من أمراء الرَّسول (ص) ، وهذا من المنهاج النَّبويِّ الكريم في تقدير الرِّجال[(٢٩٤)].

٧ ـ مقاييس الإيمان ، وأثرها في المعارك:

توقَّف الجيشُ الإسلاميُّ في مَعَان يناقش كثرة جيش العدوِّ ، وكانت المقاييس المادِّيَّة لا تشجعهم على خوض المعركة ، ومع ذلك تابعوا طريقهم ، ودخلوا بمقاييس إيمانيَّة ، فهم قد خرجوا يطلبون الشَّهادة ، فلماذا إذاً يفرُّون ممَّا خرجوا لطلبه؟!

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره ، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حقيبة رَحْلِهِ ، فوالله: إنَّه ليسير ليلةً؛ إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وَجَاءَ المسْلِمُونَ وَغَادَرُونِيْ   بأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهَى الثَّوَاءِ

فلمَّا سمعتُها منه بَكَيْتُ ، قال: فخفقني بالدِّرَّةِ ، وقال: وما عليك يا لُكَعُ أن يرزقني الله الشَّهادة ، وترجعَ بين شُعْبَتَي الرَّحل![(٢٩٥)].

إنَّ التأمُّل بعمقٍ في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النَّفسيَّة والرُّوحيَّة؛ الَّتي تمرُّ بها الأمَّة ، وإقامة الحجَّة على القائلين بأنَّ سبب هزيمتنا التفوُّق التِّكنولوجي لدى الأعداء ، لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة ، وقال: «.... هذا عظيمٌ جدّاً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدِّين؛ أحدُهما ، وهو الفئة الَّتي تقاتل في سبيل الله، عدَّتها ثلاثةُ الافٍ ، وأخرى كافرةٌ وعدَّتها مئتا ألف مقاتلٍ ، من الرُّوم مئة ألف ، ومن نصارى العرب مئة ألفٍ ، يتبارزون ، ويتصاولون ، ثمَّ مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلاَّ اثنا عشر رجلاً ، وقد قتل من المشركين

خلقٌ كثيرٌ ، هذا خالدٌ وحده يقول: لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسيافٍ ، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيةٌ ، فيا ترى كم قتل بهذه الأسياف كلِّها؟! دع غيره من الأبطال والشُّجعان من حملة القران، وقد تحكَّموا في عبدة الصُّلبان عليهم لعائن الله في ذلك الزّمان، وفي كلِّ أوان»[(٢٩٦)].

٨ ـ من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة:

حيث قال:

فِيْ لَيْلَةٍ ورَدَتْ عَلَيَّ هُمُومُهَا طَوْراً أحِنُّ[(٢٩٧)] وتَارَةً أَتَمَلْمَلُ[(٢٩٨)]
واعْتَادَنِي حُزنٌ فَبِتُّ كأَنَّنِي بِبَنَاتِ نَعْشٍ والسِّمَاكِ مُوَكَّلُ[(٢٩٩)]
وكأنَّمَا بَيْنَ الجَوَانِحِ والحَشَى مِمَّا تأَوَّبَنِي شِهَابٌ مُدْخَلُ[(٣٠٠)]
وَجْداً عَلى النَّفَرِ الَّذِين تَتَابَعُوا يَوْمَاً بِمُؤْتَةَ أُسْنِدُوا لَمْ يُنْقَلُوا
صَلَّى الإله عَلَيْهِمُ مِنْ فِتْيَةٍ وَسَقَى عِظَامَهُمُ الغَمَامُ المسْبِلُ[(٣٠١)]
صَبَرُوا بِمُؤْتَةَ للإلهِ نُفُوسَهُمْ حَذَرَ الرَّدى ومَخَافَةً أن يَنْكُلُوا[(٣٠٢)]
فَمَضَوْا أمَامَ المسْلِمِيْنَ كأَنَّهُمْ فُنُقٌ[(٣٠٣)] عَلَيْهِنَّ الحَدِيْدُ المرْفَلُ[(٣٠٤)]
إِذْ يَهْتَدُوْنَ بِجَعْفَرٍ وَلِوَائِهِ قُدَّامَ أَوَّلِهِمْ فَنِعْمَ الأَوَّلُ
حَتَّى تَفَرَّجَتِ الصُّفُوفُ وَجَعْفَرٌ حَيْث الْتَقَى وَعْثُ الصُّفُوفِ مُجَدَّلُ
فَتغَيَّرَ القَمَرُ المنِيْرُ لِفَقْدِهِ والشَّمْسُ قَدْ كَسَفَتْ وَكَادَتْ تأْفِلُ[(٣٠٥)]

هذه بعض الأبيات التي بكى بها مالك بن كعب شهداء مؤتة ، ولم يتغيَّب حسَّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن نظم القصائد في بكاء قتلى مؤتة ، وبكاء جعفر بن أبي طالبٍ ، وزيدِ بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة ، فقد كانت المؤسَّسة الإعلاميَّة تقوم بدورها بتفوُّقٍ وجدارةٍ ، وتتعبَّد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بما خصَّها به من مَلَكَاتٍ ومواهبَ شعريَّةٍ فذَّةٍ.

* * *

المبحث الخامس

سريَّة ذات السَّلاسل

لَمْ تَمضِ سوى أيَّامٍ على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة حتَّى جهَّز النَّبيُّ (ص) جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السَّلاسل؛ وذلك لتأديب قُضاعة التي غرَّها ما حدث في مؤتة ، والَّتي اشتركت فيها إلى جانب الرُّوم ، فتجمَّعت تريد الدُّنوَّ من المدينة ، فتقدَّم عمرو بن العاص في ديارها ، ومعه ثلاثمئةٍ من المهاجرين والأنصار ، ولما وصل إلى مكان تجمُّع الأعداء بلغه: أنَّ لهم جموعاً كثيرة ، فأرسل إلى رسول الله (ص) يطلب المدد ، فجاءه مددٌ بقيادة أبي عبيدة بن الجرَّاح[(٣٠٦)] ، وقاتل المسلمون الكفَّار ، وتوغَّل عمرو في ديار قُضاعة الَّتي هربت ، وتفرقت ، وانهزمت ، ونجح عمرو في إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشَّام ، وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى ، ودخول قبائل أخرى في حلف المسلمين وإسلام الكثيرين من بني عبس ، وبني مُرَّة ، وبني ذبيان ، وكذلك فزارة وسيِّدها عيينة بن حصن في حلفٍ مع المسلمين ، وتبعها بنو سُلَيم ، وعلى رأسهم العبَّاس بن مرداس ، وبنو أشجع ، وأصبح المسلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب؛ وإن لم يكن في بلاد العرب جميعِها[(٣٠٧)].

دروسٌ ، وعبرٌ ، وحكَمٌ:

وفي هذه السرية دروس وعبر وحكم منها:

١ ـ إخلاص عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص: بعث إليَّ رسول الله (ص) فقال: «خُذْ عليك ثيابك ، وسلاحَك ، ثمَّ ائتني» فأتيتُه ، وهو يتوضَّأ ، فصعَّد فيَّ النَّظر ، ثمَّ طأطأ ، فقال: «إنِّي أريد أن أبعثك على جيشٍ[(٣٠٨)] ، فيسلِّمك اللهُ ، ويغنمك ، وأرغب لك في المال رغبةً صالحة» ، قال: قلت: يا رسول الله! ما أسلمتُ من أجل المال ، ولكنِّي أسلمتُ رغبةً في الإسلام ، وأن أكون مع

رسول الله (ص) ، فقال رسول الله (ص) : «يا عمرو! نعم المال الصَّالح للمرء الصَّالح». [أحمد (٤/١٩٧) ، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) ، وابن حبان (٣٢١١) ، والحاكم (٢/٢) و(٢/٢٣٦)].

فهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمان ، وصدق ، وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله (ص) ، وقد بيَّن له رسولُ الله (ص) : أنَّ المال الحلال نعمةٌ إذا وقع بيد الرَّجل الصَّالح؛ لأنه يبتغي به وجه الله ، ويصرفه في وجوه الخير ، ويَعِفُّ به نفسه ، وأسرته[(٣٠٩)].

٢ ـ الاتِّحاد قوَّةٌ ، والتَّنازع ضعفٌ:

عندما وصل المدد الَّذي بعثه رسول الله (ص) بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السَّلاسل ، أراد أبو عبيدة أن يؤمَّ الناس ، ويتقدَّم عَمْراً ، فقال له عمرو: إنَّما قَدِمْتَ عليَّ مدداً لي ، وليس لك أن

تؤمِّني ، وأنا الأمير ، وإنَّما أرسلك النَّبيُّ (ص) إليَّ مدداً ، فقال المهاجرون: كلاَّ ، بل أنت أمير أصحابك ، وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو: لا ، بل أنتم مددٌ لنا ، فلمَّا رأى أبو عبيدة الاختلاف ـ وكان حَسَنَ الخلق ، ليِّن الطَّبع ـ قال: لتطمئنَّ يا عمرو! ولتعلمنَّ: أنَّ اخر ما عهد إليَّ رسول الله (ص) أن قال: «إذا قدمت على صاحبك ، فتطاوعا ، ولا تختلفا» ، وإنَّك والله إن عصيتني؛ لأطيعنَّك ، فأطاع أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلِّي بالنَّاس[(٣١٠)].

لقد أدرك أبو عبيدة رضي الله عنه أنَّ أيَّ اختلافٍ بين المسلمين في سريَّة ذات السَّلاسل يؤدِّي إلى الفشل ، ومِنْ ثَمَّ تغلُّب العدو عليهم ، ولهذا سارع إلى قطع النِّزاع، وانضمَّ جنديّاً تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرَّسول (ص) : «لا تختلفا»[(٣١١)].

٣ ـ حرص عمرو بن العاص على سلامة قوَّاته:

ظهرت عبقرية عمرو العسكريَّة في ذات السَّلاسل في حرصه على وحدة الصَّفِّ ، وفي حرصه على سلامة قوَّته ، ويتجلَّى ذلك في عدَّة صورٍ؛ منها:

أ ـ أنَّه كان يسير ليلاً ، ويختفي نهاراً:

كان عمرو يدرك بثاقب بصره ، وبُعْد نظره: أنَّ العدوَّ يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما ، فيستعدَّ للقاء جيش المسلمين ، ولهذا رأى عمرو رضي الله عنه أن السَّير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على قوَّاته ، وحقَّق بذلك أمرين مُهَمَّين:

* إخفاء تحرُّكاته عن عدوِّه ، وبذلك يضمن سلامة قوَّاته.

* حماية الجند من شدَّة الحرِّ ، وحتَّى يبقى لهم نشاطُهم ، فيَصِلُون إلى مكان المواجهة؛ وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم.

ب ـ عدم السَّماح للجند بإيقاد النَّار:

عندما طلب الجنود من عمرو أن يسمح لهم بإيقاد النَّار لحاجتهم الماسَّة إلى التَّدفئة؛ منعهم من ذلك؛ معتمداً في ذلك على خبرته الحربيَّة ، وعمق فكره العسكريِّ ، وخوفاً من وقوع مفسدةٍ أعظم من تلك المصلحة ، وهي أن يمتدَّ الضَّوء ، فيكشف المسلمين ـ وهم قلَّة ـ لأعدائهم ، فيهجموا عليهم ، ويتجلَّى هذا الفقه في حزمه الشديد مع أصحابه عندما كلَّمه أبو بكر في ذلك ، فقال: لا يوقد أحدٌ منهم ناراً إلا قذفته فيها ، فلمَّا رجعوا إلى المدينة ، ذكروا ذلك لرسول الله (ص) ، فسأله رسول الله (ص) ، فقال: كرهت أن اذن لهم أن يوقدوا ناراً ، فيرى عدوُّهم قلَّتهم[(٣١٢)].

فأقرَّه النَّبيُّ (ص) على فعله.

ج ـ منع الجند من مطاردة أعدائهم:

عندما هزم المسلمون أعداءهم؛ طمعوا فيهم ، فأرادوا مطاردتهم ، وتتبُّع فلولهم، ولكنَّ قائد السَّريَّة منع جنده من ذلك؛ لئلا يترتَّب على هذه المطاردة مفسدةٌ أعظم منها ، وهي أن يقع المسلمون في كمين ، ويتجلَّى هذا الفقه في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه للرَّسول (ص) : وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد[(٣١٣)] ، فأقرَّه النَّبيُّ (ص) على هذا التَّصرُّف الحكيم؛ الَّذي حقَّق للجيش الأمن والحماية[(٣١٤)].

٤ ـ من فقه عمرو بن العاص رضي الله عنه:

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: احتلمت في ليلةٍ باردةٍ في غزوة ذات السَّلاسل ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيمَّمت ، ثمَّ صلَّيت بأصحابي الصُّبح ، فذكروا ذلك للنَّبيِّ (ص) فقال: يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب؟! فأخبرته بالَّذي منعني من الاغتسال ، وقلت: إنِّي سمعت الله يقول: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا *} [النساء: ٢٩] ، فضحك رسول الله (ص) ولم يقل شيئاً. [أحمد (٤/٢٠٣ ـ ٢٠٤) وأبو داود (٣٣٤)][(٣١٥)].

وقد استنبط بعض الأحكام من هذه القصَّة:

أ ـ التَّيمُّم يقوم مقام الغُسل بالنِّسبة للجُنُبِ مع وجود الماء؛ إذا خشي أن يؤدِّي استخدامُ الماء إلى الضَّرر ، فلقد تيمَّم عمرو بن العاص لما أصبح جنباً مع وجود الماء عنده ، وصلَّى وأقرَّه الرَّسول (ص) ، ولم ينكر عليه.

ب ـ يجوز الاجتهاد في عهده (ص) : فقد اجتهد عمرو بن العاص ، فتوضَّأ ، واغتسل ، وصلَّى ، وقد احتلم في تلك اللَّيلة الباردة اعتماداً على قوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا *} [النساء: ٢٩] فلم ينكر عليه الرَّسول (ص) اجتهاده؛ بل أقرَّه على أمرين: الأوَّل: جواز الاجتهاد. والثَّاني: تصحيح اجتهاده.

ج ـ من الأسباب المبيحة للتَّيمُّم تعذُّر استخدام الماء ـ وإنْ وجد ـ للبرد الشَّديد.

د ـ تجوز إمامة المتيمِّم بالمتوضِّأى: فقد صلى عمرو بن العاص؛ وهو مُتيَمِّمٌ إماماً بخمسمئة صحابي قد توضَّؤوا ، وأقرَّه الرَّسول (ص) على ذلك ولم ينكر عليه.

هـ اجتهاد عمرو بن العاص يدلُّ على فقهه ، ووفور عقله ، ودقَّة استنباطه الحكم من دليله[(٣١٦)]؛ ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرِّعون عليها الأحكام ، فإنَّ الَّذي يستوقفنا[(٣١٧)] في السِّيرة منها تلك السُّرعة في أخذ عمرو للقران ، وصلته به؛ حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الايات ، وهو لم يمضِ على إسلامه أربعة أشهر ، إنَّه الحرص على الفقه في دين الله ، وقد يكون عمرو . وهذا احتمال واردٌ . على صلةٍ بالقران قبل إسلامه يتتبَّع ما يستطيع الوصول إليه ، وحينئذٍ نكون أمام مثالٍ اخر من عظمة هذا القران الَّذي لوى أعناق الكافرين ، وجعلهم وهم في أشدِّ حالات العداوة لهذا الدِّين يحاولون استماع هذا القران ، كما رأينا ذلك في العهد المكِّيِّ ، ويؤيد هذا ما رأيناه من معرفته بالقران حينما طلب من النَّجاشيّ أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى عليه السلام[(٣١٨)].

٥ . من نتائج سرايا رسول الله (ص) في الشَّمال:

اتَّجهت حملات المسلمين العسكريَّة بعد صلح الحديبية نحو الشَّمال ، وأصبح غرب الجزيرة وجنوبُها الغربيُّ حيث تقبع مكَّة امنةً في ظلال الصُّلح[(٣١٩)] ، وحقَّقت سرايا رسول الله (ص) ، أهدافها ، ومقاصدها في شمال الجزيرة ، فوصلت إلى حدود الرُّوم ، فأمَّنت حدود الدَّولة الإسلاميَّة ، وبسطت هيبتها ، وأفشلت محاولات الإغارة على المدينة ، وبذلك حقَّقت سياسة النَّبيِّ (ص) في حركة السَّرايا هدفين عظيمين هما:

١ . تأمين حماية الدِّين الإسلاميِّ في الدَّاخل.

٢ . حمايته في الخارج[(٣٢٠)].

وما مِنْ شكٍّ في أنَّ المتتبِّع لأحداث السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفة ، والمطَّلع على تفاصيلها ، ودقائقها بإمعانٍ يجد بحقٍّ أنَّ صلح الحديبية هو من أهم المكاسب السِّياسيَّة ، والعسكرية ، والإعلاميَّة ، بل هو حصيلة كسبٍ لأعظم معركةٍ دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي ، من حيث النتائج الإيجابيَّة التي رسَّخت دعائم الإسلام من جهةٍ؛ وصدَّعت بفعلها قواعد الشِّرك ، والوثنيَّة من جهةٍ أخرى ، وما حدث في خيبر من فتوحٍ ، وفي مؤتة من نصرٍ ، وفي ذات السَّلاسل من توسيع هيبة الدولة الإسلاميَّة إلا نتائج تابعةٌ لصلح الحديبية[(٣٢١)] ، وبسبب القدرة الفائقة في تعامل النَّبيِّ (ص) مع سنن الله في المجتمعات ، والشُّعوب ، وبناء الدُّول.

* * *

الفصل الخامس عشر
غزوة فتح مكَّة (٨ هـ)[(٣٢٢)]

المبحث الأوَّل
أسبابها ، والاستعداد للخروج والشُّروع فيه

أوَّلاً: أسبابها:

١ . ارتكبت قريش خطأً فادحاً عندما أعانت حلفاءها بني بكرٍ على خُزاعة حليفة المسلمين بالخيل ، والسِّلاح ، والرِّجال ، وهجم بنو بكرٍ ، وحلفاؤهم على قبيلة خُزاعة عند ماءٍ يقال له: الوَتير ، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها[(٣٢٣)] ، ولما لجأت خُزاعة إلى الحرم الامن ، ولم تكن متجهِّزةً للقتال ، لتمنع بني بكرٍ منه؛ قالت لقائدهم: يا نوفل! إنَّا قد دخلنا الحرم ، إلهك ، إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم ، يا بني بكر! أصيبوا ثأركم[(٣٢٤)] ، عندئذٍ خرج عمرو بن سالم الخُزاعيُّ في أربعين من خُزاعة ، حتَّى قدموا على رسول الله (ص) في المدينة ، وأخبروه بما كان من بني بكرٍ ، وبمن أصيب منهم ، وبمناصرة قريشٍ بني بكرٍ عليهم ، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله (ص) وهو جالسٌ في المسجد بين ظهراني النَّاس ، فقال:

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدا حِلْفَ أَبِيْنَا وأَبِيْهِ الأَتْلَدَا
قَدْ كُنْتُم وُلْداً ، وَكُنَّا وَالِدا ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يدا[(٣٢٥)]

فانْصُرْ هَدَاكَ اللهُ نَصْراً أَعْتَدَا وادْعُ عِبَادَ اللهِ يأْتُوا مَدَدَا
فِيْهِمْ رَسُولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدا إِنْ سِيْم خَسْفاً وَجْهُهُ تَرَبَّدَا
فِيْ فَيْلَقٍ كالبَحْرِ يَجْرِي مُزبِدَا إِنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ المَوْعِدَا
ونقَضُوا مِيْثَاقَك المؤَكَّدا وجَعَلُوا لي فِي (كَدَاءٍ) رُصَّدا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أحدَا وَهُمْ أَذَلُّ وأَقَلُّ عَدَدَا

هُمْ بَيَّتُونَا بالوَتِيْرِ هُجَّدَا وقَتَلُونَا رُكَّعاً وسُجَّدَا

فقال النبي (ص) : «نُصرتَ يا عمرو بن سالم! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب!» ولما عرَض السَّحاب مِنَ السَّماء؛ قال: «إنَّ هذه السَّحابة لتستهلُّ بنصر بني كعبٍ». [البيهقي في الكبرى (٩/٢٣٣ ـ ٢٣٤) ، وفي الدلائل (٥/٦ ـ ٧) ، وابن هشام (٤/٣٦ ـ ٣٧) ، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/٢٧٨)]].

وجاء في روايةٍ: أنَّ رسول الله (ص) بعد أن سمع ، وتأكَّد من الخبر؛ أرسل إلى قريش ، فقال لهم: «أما بعد: فإنَّكم إنْ تبرؤوا من حلف بني بكرٍ ، أتُدوا خُزاعة[(٣٢٦)] ، وإلا أوذنكم بحربٍ ، فقال قرظة بن عبد عمروٍ بن نوفل بن عبد منافٍ صهر معاوية: إنَّ بني بكرٍ قومٌ مشائيم ، فلا ندري ما قتلوا لنا سبَدَ ، ولا لَبَد[(٣٢٧)] ، ولا نبرأ من حلفهم ، فلم يبقَ على ديننا أحدٌ غيرهم ، ولكن نؤذنه بحربٍ[(٣٢٨)].

وفي هذا دليل على أن رسول الله (ص) لم يفاجأى قريشاً بالحرب ، وإنَّما خيَّرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[(٣٢٩)].

٢ ـ أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصُّلح ، وإطالة أمده ، وعندما وصل إلى المدينة ، ودخل على رسول الله (ص) يعرض حاجته؛ أعرض عنه النَّبيُّ (ص) ، ولم يجبه ، فاستعان بكبار الصَّحابة أمثال أبي بكرٍ ، وعمر ، وعثمان ، وعليٍّ؛ حتَّى يتوسطوا بينه وبين رسول الله (ص) ، فأبوا جميعاً ، فعاد أبو سفيان إلى مكَّة من غير أن يحظى بأيِّ اتفاقٍ ، أو عهدٍ[(٣٣٠)] ، وممَّا يذكر عند نزوله في المدينة أنَّه لما دخل على ابنته أمِّ حبيبة ـ أمِّ المؤمنين ـ وأراد أن يجلس على فراش رسول الله (ص) ؛ طوته عنه ، فقال: يا بنية! ما أدري ، أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنِّي؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله (ص) ، وأنت مشركٌ نجس! قال: والله! لقد أصابك بعدي شرٌّ[(٣٣١)].

وهذا الموقف لا يستغرب من أمِّ حبيبة ، فهي ممَّن هاجر الهجرتين ، وقد قطعت صِلاتِها

بالجاهليَّة منذ أمدٍ بعيد ، إنَّها لم ترَ أباها منذ ستَّ عشرة سنة ، فلمَّا رأته لم تر فيه الوالد الَّذي ينبغي أن يُقدَّر ، ويُحترم ، وإنَّما رأت فيه رأس الكفر الَّذي وقف في وجه الإسلام ، وحارب رسوله (ص) تلك السَّنوات الطَّويلة[(٣٣٢)] ، وهذا ما كان يتَّصف به الصَّحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء ، والبراء ، وإعزاز الإسلام ، والمسلمين.

وفي مخاطبة أمّ حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب ـ مع كونه أباها ، ومع مكانته العالية في قومه ، وعند العرب ـ دليلٌ على قوَّة إيمانها ، ورسوخ يقينها ، لقد كان في سلوك أمِّ حبيبة مظهرٌ من اجتهاد الصَّحابة البالغ في إظهار أمرٍ له أهمِّيَّته البالغة في المحافظة على شخصيَّة المسلم ، ودفع معنويَّته إلى النَّماء ، والحيويَّة[(٣٣٣)].

وأمام نقض قريشٍ للعهود والمواثيق مع المسلمين ، فقد عزم رسولُ الله (ص) على فتح مكَّة ، وتأديب كفَّارها ، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله عدَّة أسبابٍ؛ منها:

أ ـ قوَّة جبهة المسلمين الدَّاخليَّة في المدينة ، وتماسكها ، فقد تخلَّصت الدَّولة الإسلامية من غدر اليهود ، وتمَّ القضاء على يهود بني قينقاع ، وبني النَّضير ، وبني قريظة ، ويهود خيبر.

ب ـ ضعف جبهة الأعداء في الدَّاخل؛ وفي مقدَّمة هؤلاء: المنافقون؛ الَّذين فقدوا الركن الرَّكين لهم ، وهو يهود المدينة ، فهم أساتذتهم الَّذين يوجِّهونهم ، ويشيرون عليهم.

ج ـ اهتمَّ رسول الله (ص) بتطوير القوَّة العسكريَّة، وإرسال السَّرايا في فترة الصُّلح، وبذلك أصبحت متفوِّقةً على قوَّة مشركي قريش ، حيث العدد والعُدَّة ، والرُّوح المعنويَّة.

د ـ كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصاديّاً ، وبعد أن قويت الدَّولة الإسلاميَّة اقتصاديّاً ، فقد فتح المسلمون خيبر ، وغنموا منها أموالاً كثيرةً.

هـ انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة ، وهذا يطمئن القيادة حين تتَّخذ قرارها العسكري بنقل قوَّاتها ، ومهاجمة أعدائها.

و ـ قيام السبب الجوهريّ ، والقانونيّ لغزو مكَّة ، وهو نقض قريش للعهد ، والعقد[(٣٣٤)] ، ونلحظ: أنَّ النَّبيَّ (ص) لم يضيّع قانون الفرصة ، وتعامَلَ معه بحكمةٍ بالغةٍ ، فكان فتح خيبر ، وذلك بعد صلح الحديبية ، والان تُتاح فرصةٌ أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها ، وتغيَّرت موازين القوى في المنطقة ، فكان لابدَّ من الاستفادة من المعْطيات الجديدة ، فأعدَّ (ص) جيشاً لم

تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل ، فقد وصلتْ عدَّته إلى عشرة الاف رجلٍ[(٣٣٥)].

ثانياً: الاستعداد للخروج:

إنَّ حركة النَّبيّ (ص) في بناء الدَّولة، وتربية المجتمع، وإرسال السَّرايا ، وخروجه في الغزوات تعلِّمنا كيفيَّة التَّعامل مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، سواءً كانت تلك الأسباب مادِّيَّة أو معنويَّةً ، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السُّنَّة واضحةً في هديه (ص) ، فعندما قرَّر (ص) السَّير لفتح مكة؛ حرص على كتمان هذا الأمر حتَّى لا يصل الخبر إلى قريش ، فتعد العدَّة لمجابهته ، وتصدُّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه ، وشرع في الأخذ بالأسباب الاتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

١ ـ أنَّه كتم أمره حتَّى على أقرب النَّاس إليه:

فقد أخذ النَّبيُّ (ص) بمبدأ السِّرِّيَّة المطلقة ، والكتمان الشَّديد حتَّى عن أقرب النَّاس إليه ، وهو أبو بكر رضي الله عنه أقربُ أصحابه إلى نفسه ، وزوجتُه عائشة رضي الله عنها أحبُّ نسائه إليه ، فلم يعرف أحدٌ شيئاً عن أهدافه الحقيقية ، ولا اتِّجاه حركته ، ولا العدوِّ الَّذي ينوي قتاله ، بدليل أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مَقْصَدِ الرسول (ص) قالت له: ما سمَّى لنا شيئاً ، وكانت أحياناً تصمت ، وكلا الأمرين يدلاَّن على أنَّها لم تعلم شيئاً عن مقاصده (ص)[(٣٣٦)]
.

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنَّه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهنَّ ربما يُذِعْنَ شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نيَّةٍ ، فتتناقلها الألسن حتَّى تصير سبباً في حدوث كارثةٍ عظيمةٍ[(٣٣٧)].

٢ ـ أنه بعث سريَّةً بقيادة أبي قتادة إلى بطن إِضَم:

بعث النَّبيُّ (ص) قبل مسيره إلى مكَّة سَرِيَّةً مكوَّنةً من ثمانية رجال ، وذلك لإسدال السِّتار على نياته الحقيقيَّة ، وفي ذلك يقول ابن سعد: «لما همَّ رسول الله (ص) بغزو أهل مكَّة بعث أبا قتادة بن ربْعِي في ثمانية نفرٍ سَرِيَّةً إلى بطن إِضَم[(٣٣٨)] ، لِيَظُنَّ الظَّانُّ: أنَّ رسول الله (ص) توجَّه إلى تلك النَّاحية ، فمضوا ، ولم يلقوا جمعاً ، فانصرفوا حتَّى انتهوا إلى ذي خُشُب[(٣٣٩)] ، فبلغهم: أنَّ
رسول الله (ص) قد توجَّه إلى مكَّة ، فأخذوا على (بيبن) حتَّى لقُوا النَّبيَّ (ص) بالسُّقيا[(٣٤٠)]»[(٣٤١)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر ، وسلوك ما يمكن من أساليب التَّضليل على الأعداء والإيهام ، الَّتي من شأنها صرف أنظار النَّاس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلاميَّة الَّتي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله ، حتى تُحقِّق أهدافها ، وتَسْلَم من كيد أعدائها[(٣٤٢)].

٣ ـ أنَّه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بثَّ (ص) رجال استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة داخل المدينة ، وخارجها؛ حتَّى لا تنتقلَ أخبارُه إلى قريشٍ، وأخذ رسول الله (ص) بالأنقاب[(٣٤٣)]، فكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيماً بهم ، فيقول: لا تَدَعُوا أحداً يمرُّ بكم تنكرونه إلا رددتموه ، إلا مَنْ سلك إلى مكَّة فإنَّه يُتَحفَّظ به ، ويُسأل عنه ، أو ناحية مكَّة[(٣٤٤)].

إنَّ جَمْعَ المعلومات سلاحٌ ذو حدَّين ، وقد استفاد الرَّسول (ص) من حدِّه النافع لصالح المسلمين ، وأبطل مفعول الحدِّ الاخر باتباعه السِّرِّيَّة ، واتخاذها أساساً لتحرُّكاته ، واستعداداته؛ ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات الَّتي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوَّة المناسبة[(٣٤٥)].

٤ ـ دعاؤه (ص) بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

وبعد أن أخذ رسول الله (ص) بالأسباب البشريَّة الَّتي في استطاعته؛ توجَّه إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالدُّعاء والتَّضرُّع قائلاً: «اللَّهُمَّ! خذ على أسماعهم ، وأبصارهم فلا يَرَوننا إلا بغتةً ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة». [البيهقي في الدلائل (٥/١١)][(٣٤٦)].

وهذا شأن النَّبيِّ (ص) في أموره يأخذ بجميع الأسباب البشريَّة ، ولا ينسى التَّضرُّع، والدُّعاء لربِّ البريَّة؛ ليستمدَّ منه التَّوفيق والسَّداد.

٥ ـ إحباط محاولة تجسُّس حاطبٍ لصالح قريش:

عندما أكمل النَّبيُّ (ص) استعداده للسير إلى فتح مكة ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكَّة يخبرهم فيه نبأ تحرك النَّبيِّ (ص) إليهم ، ولكنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أطلع نبيَّه (ص) عن طريق الوحي على هذه الرِّسالة ، فقضى (ص) على هذه المحاولة وهي في مهدها ، فأرسل النَّبيُّ (ص) عليّاً ، والزُّبير ، والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخٍ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة ، وهدَّدوها أن يفتِّشوها إن لم تُخرِجِ الكتاب؛ فسلَّمته لهم ، ثمَّ استدعى حاطباً رضي الله عنه للتَّحقيق ، فقال: يا رسول الله! لا تعجل عليَّ ، إنِّي كنت امرأً مُلصَقاً في قريشٍ ـ يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفُسِها ، وكان مَنْ معك من المهاجرين مَنْ لهم قراباتٌ يحمون بها أهليهم ، وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن أتَّخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال رسول الله (ص) : «أما إنَّه قد صدقكم».

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق! فقال (ص) : «إنَّه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على مَنْ شهد بدراً ، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم[(٣٤٧)]».
[أحمد (١/٧٩ ـ ٨٠) ، والبخاري (٣٩٨٣) ، ومسلم (٢٤٩٤)].

فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ *} [الممتحنة: ١].

إنَّ الاية السَّابقة رسمت منهجاً للمسلمين في تعاملهم مع الكافرين ، فمعنى قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ}

قال القرطبيُّ: السُّورة أصلٌ في النَّهي عن موالاة الكفار(١) ، والمراد بهم: المشركون ، والكفَّار الذين هم محاربون لله ، ولرسوله ، وللمؤمنين الَّذين شرع الله عداوتهم ، ومصارمتهم ، ونهى أن يُتَّخذوا أولياء ، وأصدقاء[(٣٤٨)].

وقوله تعالى: أي: تخبرونهم بسرائر {تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} ، وتنصحون لهم ، وهم كافرون بنبيِّكم ، وبقرانكم الَّذي أنزله الله عليكم بالحقِّ الواضح.

وقوله تعالى: قال {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ} كثير: هذا مع ما قبله من التَّهييج على عداوتهم ، وعدم موالاتهم؛ لأنَّهم أخرجوا الرَّسول (ص) وأصحابه من بين أظهركم
كراهةً لما هم عليه من التَّوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحدَه ، ولهذا قال تعالى: {أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ} أي: لم يكن لكم عندهم ذنبٌ إلا إيمانكم بالله ربِّ العالمين

وقوله تعالى: أي: إن كنتم كذلك فلا تتَّخذوهم {إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي} ، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم؛ فلا توالوا أعدائي ، وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من دياركم ، وأموالكم حَنقاً عليكم ، وسُخطاً لدينكم[(٣٤٩)].

وقوله تعالى: أي: تُسِرُّون إليهم {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ}

قال ابن كثير: أي: تفعلون ذلك ؛ وأنا العالم بالسَّرائر، والضَّمائر، والظواهر[(٣٥٠)].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله: أي: مَنْ يُسِرُّ لهم ويكاتبُهم منكم فقد أخطأ قَصْدَ الطريق

يقول أستاذي ، وشيخي الدكتور محمَّد بن بكر ال عابد: هذه الاية الكريمة نجدها تمهيداً بين يدي فتح مكَّة حيث حثَّ الله المسلمين على عدم موالاة الكفار ، حتى لا يتأثَّر المهاجرون بروابط الرَّحم ، والقربى ، والمصلحة المادِّيَّة التي كانت تربط كثيراً منهم بأهل مكَّة[(٣٥١)].

ويقول الأستاذ سيِّد قطب: على الرَّغم من كلِّ ما ذاق المهاجرون من العنت ، والأذى من قريش؛ فقد ظلَّت بعض النُّفوس تودُّ لو وقعت بينهم وبين أهل مكَّة المحاسنة ، والمودَّة ، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية الَّتي تكلِّفهم قتال أهليهم ، وذوي قرابتهم ، وتقطع ما بينهم ، وبينهم من صلاتٍ ، وكأنَّ الله يريد استقصاء هذه النُّفوس ، واستخلاصها من كلِّ هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه ، وعقيدته ، ومنهجه... فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه النَّاجع البالغ؛ بالأحداث ، وبالتَّعقيب على الأحداث؛ ليكون العلاج على مسرح الأحداث ، وليكون الطَّرْقُ؛ والحديدُ ساخنٌ[(٣٥٢)].

إنَّ ما قام به حاطبٌ أمرٌ عظيمٌ ، ولذلك نزل القران الكريم يوجِّه المجتمع المسلم نحو ما يجب عليهم فعلُه نحو أعداء دينهم ، كما أنَّ النَّبيَّ (ص) عامل حاطباً معاملةً رحيمةً تدلُّ على

حرصه الشَّديد على الوفاء لأصحابه ، وإقالة عثرات ذوي السَّوابق الحسنة منهم ، لقد جعل (ص) من ماضي حاطب المجيد سبباً في العفو عنه.

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ ، فلم ينظر النَّبيُّ (ص) إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب ، وإن كانت كبيرةً ، وإنَّما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وإعزاز دينه ، فوجد: أنَّه قد شهد بدراً ، وفي هذا توجيهٌ للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرةً متكاملةً ، وذلك بأن ينظروا فيما قدَّموه لأمَّتهم من أعمالٍ صالحةٍ في مجال الدَّعوة ، والجهاد ، والعلم ، والتَّربية ، فإنَّ الَّذي يساهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمَّة يستحقُّ التَّقدير ، والاحترام ، وإن بدرت منه بعض الأخطاء ، هذا فيما إذا كان ما صدر من هؤلاء خطأً محضاً ، وزلَّة قدمٍ ، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأياً علميّاً ناتجاً عن الاجتهاد؛ وهم أهلٌ لذلك؟!

إنَّ بعض طلاَّب العلم في عصرنا هذا يتسرَّعون في نقد العلماء ، والدُّعاة بسبب اراء اجتهاديَّةٍ يرى بعض العلماء أنَّهم أخطؤوا فيها، وقد يصل النَّقد إلى حدِّ السُّخريَّة، والاستهزاء بهم ، وترى هؤلاء الطُّلاب يُجسِّمون أخطاء هؤلاء الكبار ، ويبرزونها بشكلٍ يوحي للسَّامعين ، والقرَّاء: أنَّ أولئك الَّذين تعرَّض إنتاجهم للنَّقد ليس لهم أيُّ رصيدٍ في خدمة الإسلام والمسلمين ، والمفترض في هذا المجال أن تُذكر حسنات هؤلاء أوَّلاً ، ويعرَّف المسلمون بجهادهم ، وبلائهم في الإسلام ، وجهودهم في مجال العلم،

والدَّعوة ، ثمَّ تُذكر الأمور ، الَّتي يراها المنتقدون أخطاء، وما يرونه من الصَّواب في ذلك من لزوم الأدب في النَّقد العلميِّ، والبعد عن أسلوب السُّخرية ، والتَّنقيص ، هذا شيءٌ مما يرشدنا له أسلوب النَّبيِّ (ص) في مواجهة هذا الخطأ الكبير الَّذي ارتكبه حاطبُ بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، إنَّ تاريخ حاطب الكبير في الجهاد في سبيل الله شفع له عند رسول الله (ص) ، ولذلك لم يتعرَّض للإدانة، أو للعقوبة ، بل كان مانعاً له ممَّا هو أقلُّ من ذلك ، حيث لم يُسمَع من مسلمٍ كلمةٌ واحدةٌ في نقده ، والإساءة إليه بعد قول النَّبيِّ (ص) : «ولا تقولوا له إلا خيراً». [سبق تخريجه][(٣٥٣)].

ومن الحوار الَّذي تمَّ بين الرَّسول (ص) ، وعُمر بن الخطَّاب في شأن حاطبٍ يمكن أن نستخرج بعض الدُّروس ، والعبر:

١ ـ حكم الجاسوس القتل: فقد أخبر عمر بذلك ، ولم ينكر عليه الرَّسول (ص) ولكن منع مِنْ إيقاع العقوبة كونُه بدريّاً.

٢ ـ شدَّة عمر في الحقِّ: لقد ظهرت هذه الشدة في الحقِّ ، وغيرتُه على الدِّين حينما طالب بضرب عنق حاطبٍ.

٣ ـ الكبيرة لا تسلُبُ الإيمان: إنَّ ما ارتكبه حاطبٌ كبيرةٌ ، وهي التجسُّس؛ ومع هذا ظلَّ مؤمناً.

٤ ـ لقد أطلق عمر على حاطبٍ صفة النِّفاق بالمعنى اللُّغويِّ لا بالمعنى الاصطلاحي في عهده رضي الله عنه؛ إذ النِّفاق: إبطانُ الكفر ، والتَّظاهر بالإسلام ، وإنَّما الَّذي أراده عمر: أنَّه أبطن خلاف ما أظهر؛ إذ أرسل كتابه الَّذي يتنافى مع الإيمان الذي خرج يُجاهد من أجله ، ويبذل دمه في سبيله[(٣٥٤)].

٥ ـ تأثُّر عمر من ردِّ الرَّسول (ص) ، فتحوَّل في لحظاتٍ من رجلٍ غاضبٍ ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطبٍ إلى رجلٍ يبكي من الخشية، والتأثير، ويقول: الله، ورسولُه أعلم؛ ذلك لأنَّ غضبه كان لله ، ولرسوله ، فلمَّا تبيَّن له أنَّ الَّذي يُرْضي الله تعالى ، ورسوله (ص) هو غضُّ النَّظر عن ذلك الخطأ ، ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد؛ استجاب لذلك[(٣٥٥)].

٦ ـ لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطبٍ؛ ذهب لهذا الرأي الدُّكتور عبد الكريم زيدان؛ حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطبٍ في العفو عمَّن يعمل عمله؛ لأن العفو عنه كان لِعِلَّةٍ لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصَّحابة وهو كونه شهد بدراً ، فعلى الجَمَاعة أن تفقه ذلك ، وهذا ما فقهه الإمام مالك؛ إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطبٌ ، أو بمستواه من الخطورة عوقب بما

يستحقُّه[(٣٥٦)]. وناقش هذه المسألة العلامة ابن القيِّم ، وذكر أقوال الأئمَّة الأربعة ، ثم قال: والصَّحيح: أنَّ قتله راجعٌ إلى رأي الإمام ، فإن رأى في قتله مصلحةً للمسلمين؛ قتله ، وإن كان استبقاؤه أصلحَ؛ استبقاه[(٣٥٧)].

ثالثاً: الشُّروع في الخروج ، وأحداثٌ في الطَّريق:

١ ـ خرج رسول الله (ص) قاصداً مكَّة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة[(٣٥٨)] ، واستخلف على المدينة أبا رُهْمٍ ، كلثوم بن حُصَيْن بن عُتبة بن خلف الغفاريَّ[(٣٥٩)] ، وكان عدد الجيش عشرة الاف ، فيهم المهاجرون ، والأنصار الَّذين لم يتخلَّف منهم أحدٌ ، فلمَّا وصل الجيش الكُدَيْدَ ـ الماء الذي بين قديد وعُسفان ـ أفطر رسول الله (ص) وأفطر النَّاس معه. [البخاري (٤٢٧٥) ، ومسلم (١١١٣)].

وفي الجحفة لقيه العبَّاس بن عبد المطلب عمُّه وقد خرج مهاجراً بعياله ، فسُرَّ (ص)[(٣٦٠)] ، وفي خروج العبَّاس بأهله ، وأولاده من مكَّة وكان بها بمثابة المراسل العسكريِّ ، أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أنَّ مهمَّته فيها قد انتهت ، وخاصَّةً إذا لاحظنا أنَّ بقاءه في مكَّة كان بأمر الرَّسول (ص)[(٣٦١)] .

٢ ـ إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية:

خرج أبو سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أميَّة بن المغيرة من مكَّة ، فلقيا رسول الله (ص) بثنية العقاب فيما بين مكَّة والمدينة ، فالتمسا الدُّخول عليه ، فكلَّمته أمُّ سلمة ، فقالت: يا رسول الله! ابن عمِّك ، وابن عمَّتك ، وصهرُك ، فقال: «لا حاجة لي فيهما، أمَّا ابن عمِّي؛ فهتك عرضي ، وأما ابن عمَّتي ، وصهري ، فهو الذي قال لي بمكة ما قال». فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بن الحارث ابنٌ له ، فقال: واللهِ! ليأذننَّ رسولُ الله (ص) ، أو لاخذنَّ بيد ابني هذا ، ثمَّ لنذهبنَّ في الأرض حتَّى نموت عطشاً ، أو جوعاً ، فلمَّا بلغ ذلك رسول الله (ص) رقَّ لهما ، فدخلا عليه ، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه ، واعتذاره ممَّا كان مضى فيه ، فقال:

لَعَمْرُكَ إِنِّيْ يَوْمَ أَحْمِلُ رَايَةً ... لِتَغلِبَ خَيْلُ الَّلاتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لكالمدْلِجِ الحَيْرَانِ أَظْلَمَ لَيْلُهُ ... فَهَذا أَوَانُ الحَقِّ أُهْدَى وأَهْتَدِي
فَقُلْ لِثَقِيْفٍ لاَ أُرِيْدُ قِتَالَكُمْ ... وَقُلْ لِثَقِيْفٍ تِلْكَ عِنْدِي فأَوْعِدِي
هَدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَدَلَّنِي ... عَلَى اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ

أَفِرُّ سَرِيْعاً جَاهِداً عَنْ مُحَمَّدٍ		وأُدْعَى وَإِنْ لَمْ أَنْتَسِبْ لِمُحَمَّدِ
هُمُ عُصْبَةٌ مَنْ لَمْ يَقُلْ بِهَوَاهُمُ		وإن كان ذا رأْيٍ يُلَمْ ويُفَنَّدِ
أُرِيْدُ لأَرْضِيَهُمْ وَلَسْتُ بِلائِطٍ		مَعَ القَوْمِ مَا لَمْ أُهْدَ في كُلِّ مَقْعَدِ
فَمَا كُنْتُ فِي الجَيْشِ الَّذي نَالَ عَامِراً		ومَا كانَ عَنْ غَيْرِ لِسَانِي ولاَ يَدِي

قَبَائِلُ جَاءَتْ مِنْ بِلاَدٍ بَعِيْدَةٍ		تَوَابِعُ جَاءَتْ مِنْ سِهَامٍ وَسَرْدَدِ
وإِنَّ الَّذي أَخْرَجْتُمُ وَشَتَمْتُمُ		سَيْسَعَى لَكُمْ سَعْيَ امْرِأى غَيْرَ مُقْدَدِ[(٣٦٢)]

قال: فلمَّا أنشد رسولَ اللهِ (ص) : على الله مَنْ طَرَّدْتَ كُلَّ مُطَرَّدٍ ، ضرب رسول الله (ص) في صدره ، فقال: «أنت طَرَّدْتَنِي كلَّ مُطرَّد». [ابن سعد (٤/٤٩ ـ ٥٠) ، والطبراني في الكبير (٧٢٦٤) ، والطبري في تاريخه (٣/١١٤ ـ ١١٥) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٧ ـ ٢٨) ، وابن هشام (٤/٤٣ ـ ٤٤) ، ومجمع الزوائد (٦/١٦٥)].

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله (ص) كثيراً ، وأمَّا عبد الله بن أميَّة ؛ فقد قال لرسول الله (ص) : فوالله ! لا أؤمِنُ بك حتَّى تتَّخذَ إلى السَّماء سُلَّماً ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر إليك حتَّى تأتيها ، ثمَّ تأتي بصكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك، كما تقول ، ثمَّ وايم الله! لو فعلتَ ذلك ما ظننت أنِّي أصدِّقك[(٣٦٣)].

ومع فداحة جرمهما فإنَّ النَّبيَّ (ص) عفا عنهما ، وقبل عذرهما ، وهذا مثالٌ عالٍ في الرَّحمة ، والعفو ، والتَّسامح ، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السَّابقة بهذه القصيدة البليغة الَّتي قالها في مدح النَّبيِّ (ص) وبيان اهتدائه به ، ولقد حسُن إسلامه ، وكان له موقفٌ مشرِّفٌ في الجهاد مع رسول الله (ص) في معركة حُنَين[(٣٦٤)].

٣ ـ النُّزول بمرِّ الظَّهران وإسلام أبي سفيان بن حربٍ سيِّد قريش:

وتابع رسول الله (ص) سيره حتى أتى مَرَّ الظَّهْران[(٣٦٥)]، فنزل فيه عشاءً، فأمر الجيش، فأوقدوا النِّيران ، فأُوُقِدَت عشرةُ الاف نارٍ ، وجعل رسولُ الله (ص) على الحرس عمرَ بن الخطَّاب[(٣٦٦)].

قال العبَّاس: فقلت: واصباح قريش! والله! لئن دخل رسول الله (ص) مكَّة عَنْوَةً قبل أن يأتوه ، فيستأمنوه: إنَّه لهلاك قريش إلى اخر الدَّهر! وركب بغلة رسول الله (ص) ، وخرج يلتمس مَنْ يوصل الخبر إلى مكَّة؛ ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عَنْوَةً ، وكان أبو سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبُدَيْل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار ، فلمَّا رأوا النِّيران؛ قال أبو سفيان: ما رأيت كاللَّيلة نيراناً قطُّ ، ولا عسكراً

، فقال بُدَيْل: هذه والله خُزاعة حَمَشَتْها[(٣٦٧)] الحربُ ، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلُّ ، وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها ،

وعسكرها! وسمع العباس أصواتهم ، فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم ، قال: مَالَكَ؟ فداك أبي وأمي! قال العبَّاس: قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسولُ الله (ص) في النَّاس واصباح قريشٍ واللهِ! قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي! قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتَّى اتي بك رسول الله ، فأستأمنه لك ، قال: فركب خلفي ، ورجع صاحباه ، فجئت به ، كلَّما مررت بنارٍ من نيران المسلمين قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله (ص) وأنا عليها؛ قالوا: عمُّ رسولِ الله على بغلته ، حتَّى مررت بنار عمر بن الخطَّاب فقال: مَنْ هذا؟ وقام إليَّ فلمَّا رأى أبا سفيان على عجز الدَّابة قال: أبو سفيان عدوُّ الله! الحمد لله الَّذي أمكن منك بغير عَقْدٍ، ولا عهدٍ ، ثمَّ خرج يشتدُّ نحو رسول الله (ص) ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله! هذا أبو سفيان ، قد أمكن الله منه بغير عَقْدٍ، ولا عهدٍ ، فدعني فلأضرب عنقه ، قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي قد أجرته.

فلما أكثر عمر في شأنه؛ قلت: مهلاً يا عمر! فوالله! أن لو كان من بني عديٍّ ما قلت هذا ، ولكنَّك قد عرفت أنَّه من رجال بني عبد مناف ، فقال: مهلاً يا عباس ! فوالله لإسلامُك يوم أسلمت كان أحبَّ إلي من إسلام الخطَّاب لو أسلم ، وما بي إلا أنِّي قد عرفت أنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله (ص) من إسلام الخطَّاب لو أسلم ، فقال (ص) : «اذهب به يا عباس! إلى رحلك ، فإذا أصبحت؛ فائتني به».

فلمَّا أصبح؛ غدوت به ، فلمَّا راه رسولُ الله (ص) ، قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أنَّه لا إله إلا الله؟!» قال: بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمَك ، وأوصلَك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عنِّي بعد. قال: «ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنِّي رسولُ الله ؟!». قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك ، وأكرمَك ، وأوصلَك ! أمَّا هذه والله! فإنَّ في النَّفس منها حتَّى الان شيئاً. فقال له العبَّاس: ويحك! أسلم قبل أن تُضْرَب عنقُك ، قال: فشهد شهادة الحقِّ ، فأسلم.

قال العبَّاس: قلت: يا رسول الله! إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال: «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو امن ، ومن أغلق عليه بابه فهو امنٌ ، ومن دخل المسجد فهو امنٌ» فلمَّا ذهب لينصرف قال رسول الله (ص) : «يا عباس! احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل ، حتَّى تمرَّ به جنود الله ، فيراها».

قال: فخرجت حتَّى حبستُه حيث أمرني رسول الله (ص) ومرَّت القبائل على راياتها ، كلَّما مرَّت قبيلةٌ ؛ قال: يا عباس! مَنْ هذه؟ فأقول: سُليم. فيقول: مالي ، ولسُليم! ثمَّ تمرُّ به القبيلة ، فيقول: يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ فأقول: مُزينة ، فيقول: مالي ولمزينة!... حتَّى مرَّ به

رسول الله (ص) في كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون، والأنصار ، لا يُرى منهم إلا الْحَدَقُ من الحديد ، قال: سبحان الله يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله (ص) في المهاجرين ، والأنصار.

قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ، ولا طاقةٌ ! ثمَّ قال: والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، قال: قلت: يا أبا سفيان! إنَّها النُّبوَّة. قال: فنعم إذاً، قال: قلت: النَّجاءَ إلى قومك. [البخاري (٤٢٨٠) وعبد الرزاق في المصنف (٥/٣٧٤ ـ ٣٧٨)، وابن سعد (٢/١٣٤ ـ ١٣٧)، والبيهقي في الدلائل (٥/٣٢ ـ ٣٥)، والمطالب العالية (٤/٢٤٤ ـ ٢٤٦) ، ومجمع الزوائد (٦/١٦٤ ـ ١٦٧) ، وابن هشام (٤/٤٤ ـ ٤٧)][(٣٦٨)].

إنَّ في هذه القصَّة دروساً ، وعبراً ، وحِكَماً في كيفيَّة معاملة رسول الله (ص) للنُّفوس البشريَّة ، ومن أهم هذه الدُّروس:

١ ـ عندما أصبح أبو سفيان رهينةً بيد المسلمين ، وأصبح رهن إشارة النَّبيِّ (ص) ، وَهَمَّ به عمر ، وأجاره العبَّاس ، ثمَّ جاء في صبيحة اليوم الثاني لِيَمْثُلَ بين يدي رسول الله (ص) ، وكانت المفاجأة الصَّاعقة له بدل التَّوبيخ ، والتَّهديد ، والإذلال أن يُدْعى إلى الإسلام ، فتأثَّر بهذا الموقف ، واهتزَّ كيانُه ، فلم يملك إلا أن يقول: بأبي أنت وأمِّي يا محمد! ما أحلمَك ، وأكرمَك ، وأوصلَك! إنَّه يفدي رسول الله (ص) بأبيه وأمِّه ، ويُثني عليه الخير كلَّه: ما أحلمَك ، وأكرمَك ، وأوصلَك[(٣٦٩)]! وعندما قال العبَّاس للنَّبيِّ (ص) : إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر ، فاجعل له شيئاً ، فقال النَّبيُّ (ص) : «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو امنٌ..» ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيءُ يُشْبع ما تتطلَّع إليه نفس أبي سفيان ، وفي هذا تثبيتٌ له على الإسلام ، وتقويةٌ لإيمانه[(٣٧٠)] ، وكان هذا الأسلوب النَّبويُّ الكريم عاملاً على امتصاص الحِقْدِ من قلب أبي سفيان ، وبرهن له بأنَّ المكانة الَّتي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئاً في الإسلام؛ إنْ هو أخلص له ، وبذل في سبيله[(٣٧١)] ، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ على العلماء ، والدُّعاة إلى الله أن يستوعبوه ، ويعملوا به في تعاملهم مع النَّاس.

٢ ـ وفي قول رسول الله (ص) لعمِّه العبَّاس عن أبي سفيان: «احبِسْه بمضيق الوادي ، حتَّى تمرَّ به جنود الله ، فيراها[(٣٧٢)]» ففعل العبَّاس ، وكان (ص) يريد أن يشنَّ حرباً نفسيَّةً للتَّأثير على

معنويَّات قريش ، حتى يتسنَّى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكَّة ، وحتَّى يرى أبو سفيان بِعَيْنَيْ رأسه مدى قوَّة ما وصل إليه الجيش الإسلاميُّ من تسليحٍ ، وتنظيمٍ ، وحسن طاعةٍ ، وانضباطٍ ، وبذلك تتحطَّم أيُّ فكرةٍ في نفوس المكِّيِّين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكَّة لتحريرها من براثن الشِّرك ، والوثنيَّة[(٣٧٣)] ، وبالفعل تمَّ ما رسمه رسولُ الله (ص) ، وأدرك أبو سفيان قوَّة المسلمين ، وأنَّه لا قِبَل لقريشٍ بهم ، حتَّى إذا مرَّت به كتيبة المهاجرين ، والأنصار؛ قال أبو سفيان: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله (ص) في المهاجرين ، والأنصار. قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ، ولا طاقةٌ! والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال: قلت: يا أبا سفيان! إنَّها النُّبوَّة. قال: فنعم إذاً...»[(٣٧٤)].

إنَّها النُّبوَّة ، تلك هي الكلمة الَّتي أدارتها الحكمة الإلهيَّة على لسان العبَّاس ، حتَّى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كلِّ مَنْ يتوهَّم، أو يوهم أنَّ دعوة النَّبيِّ (ص) إنَّما كانت ابتغاء ملكٍ ، أو زعامةٍ ، أو إحياء قوميَّةٍ ، أو عصبيَّةٍ ، وهي كلمةٌ جاءت عنواناً لحياة رسول الله (ص) من أوَّلها إلى اخرها ، فقد كانت ساعاتُ عمره ، ومراحلُها كلُّها دليلاً ناطقاً على أنَّه بُعِث لتبليغ رسالة الله إلى النَّاس ، لا لإشادة ملكٍ لنفسه في الأرض[(٣٧٥)].

لقد تعمَّد النَّبيُّ (ص) شنَّ الحرب النَّفسيَّة على أعدائه أثناء سيره لفتح مكَّة ، حيث أمر رسولُ الله (ص) بإيقاد النِّيران ، فأوقدوا عشرة الاف نارٍ في ليلةٍ واحدةٍ حتَّى ملأت الأفق ، فكان لمعسكرهم منظرٌ مهيبٌ ، كادت تنخلع قلوب القرشيِّين من شدَّة هوله[(٣٧٦)] ، وقد قصد النَّبيُّ (ص) من ذلك تحطيم نفسيَّات أعدائه ، والقضاء على معنويَّاتهم حتَّى لا يفكروا في أيَّة مقاومة ، وإجبارهم على الاستسلام؛ لكي يتمَّ له تحقيق هدفه دون إراقة دماءٍ ، وبتطبيق هذا الأسلوب تمَّ له (ص) ما أراد ، ولقد كان اهتمامُ النَّبيِّ (ص) بمعنويات المقاتل ونفسيَّته سبقاً عسكريّاً ، بدليل أنَّ المدارس العسكريَّة الَّتي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية ، والاهتمام من النَّاحية العسكريَّة[(٣٧٧)].

* * *

المبحث الثَّاني

خُطَّة النَّبِيِّ (ص) لدخول مكَّة وفتحها

أولاً: توزيع المهام بين قادة الصَّحابة:

عندما وصل النَّبيُّ (ص) إلى ذي طُوى[(٣٧٨)]؛ وزَّع المهام ، فجعل خالد بن الوليد على المجَنَّبة اليُمنى ، وجعل الزُّبير على المجَنَّبة اليُسرى ، وجعل أبا عبيدة على البَيَاذِقَةِ[(٣٧٩)] ، وبطن الوادي ، فقال: «يا أبا هريرة! ادعُ لي الأنصار» فدعاهم ، فجاؤوا يهرولون ، فقال: يا معشر الأنصار! هل ترون أوباش قريش؟! قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً ، وأخفى بيده ، ووضع يمينه على شماله ، وقال: «موعدكم الصَّفا». [مسلم (١٧٨٠)].

وبعث رسول الله (ص) الزُّبير بن العوَّام على المهاجرين ، وخيلهم ، وأمره أن يدخل من كَداء مِنْ أعلى مكَّة ، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ، ولا يبرح حتَّى يأتيه ، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة ، وسليم ، وغيرهم ، وأمره أن يدخل من أسفل مكَّة ، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت ، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدِّمة رسول الله (ص) ، وأمرهم أن يكفُّوا أيديهم ، ولا يقاتلوا إلا مَنْ قاتلهم[(٣٨٠)] ، وبهذا كانت المسؤوليَّات واضحةً ، وكلٌّ قد عرف ما أُسندِ إليه من مهام ، والطَّريق الذي ينبغي أن يسير فيه[(٣٨١)].

ودخلت قوَّات المسلمين مكَّة من جهاتها الأربع في انٍ واحدٍ ، ولم تلقَ تلك القوات مقاومةً ، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربةٌ قاضيةٌ لفلول المشركين؛ حيث عجزت عن التَّجمُّع وضاعت منها فرصة المقاومة ، وهذا من التدابير الحربيَّة الحكيمة الَّتي لجأ إليها رسول الله (ص) عندما أصبح في مركز القوَّة في العدد والعتاد ، ونجحت خطَّة الرَّسول (ص) فلم يستطع المشركون المقاومة ، ولا الصُّمود أمام الجيش الزَّاحف ، إلى أمِّ

القُرى ، فاحتلَّ كلُّ فيلقٍ منطقته الَّتي وُجِّه إليها ، في سلمٍ ، واستسلامٍ؛ إلا ما كان من المنطقة الَّتي توجَّه إليها خالد[(٣٨٢)] ، فقد تجمَّع متطرفو قريشٍ؛ ومنهم: صفوان بن أميَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وغيرهم ، مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخَنْدَمَة) ، وتصدَّوا للقوَّات المتقدِّمة بالسِّهام ، وصمَّموا على القتال؛ فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم ، وما هي إلا لحظات حتَّى قضى على تلك القوَّة الضَّعيفة ، وشتَّت شمل أفرادها ، وبذلك أكمل الجيش السَّيطرة على مكَّة

المكرَّمة[(٣٨٣)] ، وقد حدَّثتنا كتب السِّيرة ، والتَّاريخ عن قصَّة حِمَاس بن قيس بن خالدٍ من قبيلة بني بكرٍ ، فقد أعدَّ سلاحاً لمقاتلة المسلمين ، وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ، ويتعهَّدُه ، تسأله: لماذا تُعِدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمَّد ، وأصحابه ، وقالت امرأته له يوماً: والله! ما أرى أنَّه يقوم لمحمَّدٍ وصحبه شيءٌ!
فقال: إِنِّي والله لأرجو أن أُخْدِمَكِ بعضهم ، ثمَّ قال:

إن يُقْبِلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِيْ عِلَّةٌ   هَذَا سِلاَحٌ كَامِلٌ وأَلَّةٌ[(٣٨٤)]
وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيْعُ السَّلَّة

فلمَّا جاء يوم الفتح ناوش حِمَاسٌ هذا شيئاً من قتالٍ مع رجال عكرمة ، ثمَّ أحس بالمشركين يتطايرون مِنْ حوله أمام جيش خالدٍ ، فخرج منهزماً حتَّى بلغ بيته ، فقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب.
فقالت المرأة لفارسها: فأين ما كنت تقول؟!
فقال يعتذر لها:

إِنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ   إِذْ فرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ
أَبُو يَزِيْدَ قَائِمٌ كالمؤتمَةْ[(٣٨٥)]   واسْتَقْبَلَتْهُمْ بالسُّيُوفِ المسْلِمَهْ
يقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ   ضَرْباً فَلاَ يُسْمَعُ إِلاَّ غَمْغَمَهْ
لَهُمْ نَهِيتٌ[(٣٨٦)] خَلفَنَا وَهَمْهَمَهْ   لا تَنْطِقِي في اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ[(٣٨٧)]

لقد أُعْلِنَ في مكَّة قُبيل دخول جيش المسلمين أسلوبَ منع التجوُّل؛ لكي يتمكَّنوا من دخول مكَّة بأقلِّ قدرٍ من الاشتباكات ، والاستفزازات ، وإراقة الدِّماء ، وكان الشعار المرفوع: «من
دخل دار أبي سفيان فهو امن ، ومن أغلق عليه بابه فهو امن ، ومن دخل المسجد فهو امن» ، وجعل (ص) لدار أبي سفيان مكانةً خاصَّةً كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيِّين بالسِّلم ، والهدوء ، ويستخدمه كمفتاح أمانٍ يفتتح أمامه الطَّريق إلى مكَّة دون إراقة دماء ، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر؛ الَّتي يحبُّها أبو سفيان ، حتَّى يتمكَّن الإيمان في قلبه[(٣٨٨)].
لقد دخل أبو سفيان إلى مكَّة مسرعاً ، ونادى بأعلى صوته:
يا معشر قريش! هذا محمَّدٌ جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو امن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت: اقتلوا الحَمِيْتَ الدَّسِمَ الأحْمَس . تشبِّهه بالزِّقِّ لسمنه . قُبِّحَ مِنْ طليعة قومٍ! قال: ويلكم! لا تَغُرَّنَّكُمْ هذه مِنْ أنفسكم ، فإنَّه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به ،

فَمَنْ دخل دار أبي سفيان فهو امن قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو امن ، ومن دخل المسجد فهو امن. وتفرّق النّاس إلى دورهم ، وإلى المسجد[(٣٨٩)].

وحرص النَّبيُّ (ص) أن يدخل الكَدَاء الّتي بأعلى مكّة[(٣٩٠)] تحقيقاً لقول صاحبه الشّاعر المبدع حسّان بن ثابت حين هجا قريشاً ، وأخبرهم بأنَّ خيل الله تعالى ستدخل من كَدَاء ، وتُعتبر هذه القصيدة من أروع ما قال حسّان؛ حيث قال:

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُثِيْرُ النَّقْعَ[(٣٩١)] مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ يُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ
فإمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنا وكانَ الفَتْحُ وانْكَشفَ الغِطَاءُ
وإلا فاصْبِرُوا لجِلاَدِ يَومٍ يُعِزُّ[(٣٩٢)] اللهُ فِيْهِ مَنْ يَشَاءُ
وَجِبْرِيْلُ رسُولُ الله فِيْنَا وَرُوْحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ الله قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدَاً يَقُوْلُ الحقَّ فِي ذَاكَ البَلاَءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ فَقُلْتُم لا نَقُوْمُ وَلاَ نَشَاءُ
وقال اللهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْداً هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقاءُ
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

فَنُحْكِمُ بالقَوَافِي مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِيْنَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
أَلاَ بَلِّغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغَلْغَلَةً[(٣٩٣)] فقد بَرِحَ الخَفَاءُ
بأنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْداً وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحَمَّداً فأجبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللهِ فِي ذاكَ الجَزَاءُ
أَتَهْجُوْهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ
هَجَوتَ مُبَارَكاً بَرّاً حَنِيْفاً أَمِيْنَ اللهِ شِيمَتُهُ الوَفاءُ
أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُه سَوَاءُ
فإنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
لسَانِيْ صَارِمٌ لا عَيْبَ فِيْهِ وبَحْرِي لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ[(٣٩٤)]

وممَّا يؤيِّد حرص النَّبيِّ (ص) على دخوله من كَدَاء ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما دخل رسول الله (ص) عام الفتح رأى النِّساء يَلْطِمْنَ وجوه الخَيْلِ بالخُمُر[(٣٩٥)] ، فتبسَّم إلى أبي بكرٍ ، فقال: يا أبا بكر! كيف قال حسَّان ؟ فأنشده قوله:

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمطِّرَاتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ[(٣٩٦)]

ثانياً: دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ:

دخل رسول الله (ص) يوم فتح مكة وعليه عمامةٌ سوداءُ بغير إحرامٍ ، [أحمد (٣٦٣/١) ومسلم (١٣٥٨) ، وأبو داود (٤٠٧٦) ، والترمذي (١٧٣٥) ، والنسائي (٢٠١/٥) ، وابن ماجه (٢٨٢٢)] ، وهو واضعٌ رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتَّى إنَّ ذقنه ليكاد يَمَسُّ واسطة الرَّحل. [البيهقي في الدلائل (٦٨/٥) ، والحاكم (٤٧/٣) ، وأبو يعلى (٣٣٩٣) ، ومجمع الزوائد (١٦٩/٦)].

ودخل وهو يقرأ سورة الفتح. [البخاري (٤٢٨١) ، ومسلم (٢٣٨/٧٩٤)] مستشعراً نعمة الفتح ، وغفران الذُّنوب ، وإفاضة النَّصر العزيز[(٣٩٧)] ، وعندما دخل مكَّة فاتحاً. وهي قلبُ جزيرة العرب ، ومركزُها الرُّوحيُّ ، والسِّياسيُّ. رفعَ كلَّ شعارٍ من شعائر العدل والمساواة ، والتَّواضع ، والخضوع ، فأردف أسامة بن زيدٍ ، [البخاري (٤٢٨٩)]؛ وهو ابن مولى رسول الله (ص) ، ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم ، وأبناء أشراف قريشٍ ، وهم كثير ، وكان ذلك صبح

يوم الجمعة لعشرين ليلةٍ خلت من رمضان ، سنة ثمانٍ من الهجرة[(٣٩٨)].

يقول محمَّد الغزالي في وصف دخول النَّبيِّ (ص) لمكَّة:

على حين كان الجيش الزَّاحف يتقدَّم ، ورسول الله (ص) على ناقته تُتَوِّج هامته عمامةٌ سوداء ، ورأسُه خفيض من شدَّة التَّخشُّع لله ، لقد انحنى على رحله ، وبدا عليه التَّواضع الجمُّ ، إنَّ الموكب الفخم المهيب الَّذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم ، والفيلق الدَّارع الَّذي يحفُّ به ينتظر إشارةً منه فلا يبقى بمكَّة شيءٌ امنٌ ، إنَّ هذا الفتح المبين ليذكِّره بماضٍ طويل الفصول كيف خرج مطارَداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيَّداً ، وأيّ كرامةٍ عظمى حفَّه الله بها هذا الصَّباح الميمون ، وكلَّما استشعر هذه النَّعماء ، ازداد للهِ على راحلته خشوعاً وانحناءً[(٣٩٩)].

هذا وقد حرص النَّبيُّ (ص) على تأمين الجبهة الدَّاخلية في مكَّة عند دخوله يوم الفتح ، ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحلُّ الكعبة ، قال (ص) : «هذا يوم يُعظِّم الله فيه الكعبة ، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة» [البخاري (٤٢٨٠) ، والبيهقي في الدلائل (٣٨/٥)

، والطبري في تاريخه (١١٨/٣)]. وأخذ الراية من سعد بن عبادة ، وسلَّمها لابنه قيس بن سعدٍ ، وبهذا التَّصرُّف الحكيم حال دون أيِّ احتمالٍ لمعركةٍ جانبيَّةٍ هُمْ في غنىً عنها ، وفي الوقت نفسه لم يُثِرْه ، ولا اثَار الأنصارَ ، فهو لم يأخذ الرَّاية من أنصاري ويسلِّمها لمهاجرٍ؛ بل أخذها من أنصاريٍّ وسلمها لابنه ، ومن طبيعة البشر ألاَّ يرضى الإنسان بأن يكون أحدٌ أفضَل منه إلا ابنه[(٤٠٠)].

ولما نزل رسولُ الله (ص) بمكَّة ، واطمأن النَّاس ، خرج حتَّى جاء البيت ، فطاف به ، وفي يده قوسٌ ، وحول البيت وعليه ثلاثمئةٍ وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا *} [الإسراء: ٨١] ، {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ *} [سبأ: ٤٩] ، والأصنام تتساقط على وجوهها[(٤٠١)] ، وإنَّه لمظهر رائعٌ لنصر الله ، وعظيم تأييده لرسوله (ص) ؛ إذ كان يطعن تلك الالهة الزَّائفة المنثورة حول الكعبة بعصاً معه ، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه ، حتَّى ينكفأى على وجهه ، أو ينقلب على ظهره جُذاذاً[(٤٠٢)] ، ورأى في الكعبة الصُّور ، والتَّماثيل؛ فأمر بالصُّور ، وبالتَّماثيل فكسرت[(٤٠٣)] ، وأبَى أن يدخل جوف

الكعبة حتَّى أخرجت الصُّور ، وكان فيها صورةٌ يزعمون: أنَّها صورة إبراهيم ، وإسماعيل ، وفي أيديهما من الأزلام ، فقال النَّبيُّ (ص) : «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قطُّ». [أحمد (٣٦٥/١) ، والبخاري (٤٢٨٨)].

ثم دخل البيت ، وكبَّر في نواحيه ، ثمَّ صلَّى ، فقد روى ابن عمر: أنَّ رسول الله (ص) دخل الكعبة هو ، وأسامة ، وبلال ، وعثمان بن طلحة ، فأغلقها عليه ، ثم مكث فيها ، قال ابن عمر: فسألت بلالاً حين خرج: ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه . وكان البيت يومئذٍ على ستَّة أعمدة . ثمَّ صلَّى. [مسلم (١٣٢٩) ، وأبو داود (٢٠٢٣) ، والنسائي (٦٣/٢) ، وبنحوه البخاري (٥٠٥)][(٤٠٤)].

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة ، قبل أن يسلم ، فأراد عليٌّ رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السِّقاية ، لكن النَّبي (ص) دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ، وردَّه إليه قائلاً: «اليوم يوم برٍّ ووفاء» [الطبراني في الكبير (٨٣٩٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٨٣/٥ ـ ٨٤) ، ومجمع الزوائد (١٧٧/٦)][(٤٠٥)] ، وكان (ص) قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فأغلظ له القول ، ونال منه ، فحلم عنه ، وقال: «يا عثمان! لعلَّك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي ، أضعه حيث شئت». فقال: لقد هلكت قريش يومئذٍ ، وذلَّت ، فقال: «بل عَمَرَتْ ، وعزَّتْ يومئذٍ» ووقعت

كلمتُه من عثمان بن طلحة موقعاً ، وظنَّ: أنَّ الأمر سيصير إلى ما قال[(٤٠٦)] ، ولقد أعطى له رسول الله (ص) مفاتيح الكعبة قائلاً له: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاء» [سبق تخريجه][(٤٠٧)] ، «خذوها خالدةً ، تالدةً ، لا ينزعها منكم إلا ظالمٌ[(٤٠٨)]». وهكذا لم يشأ النَّبيُّ (ص) أن يستبدَّ بمفتاح الكعبة ، بل لم يشأ أن يضعه في أحدٍ من بني هاشم ، وقد تطاول لأخذه رجالٌ منهم ، لما في ذلك من الإثارة أوَّلاً ، ولما به من مظاهر السَّيطرة ، وبسط النُّفوذ ، وليست هذه من مهام النُّبوَّة بإطلاق ،... هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله (ص) ؛ البرُّ ، والوفاء حتَّى للذين غدروا ، ومكروا ، وتطاولوا[(٤٠٩)].

هذا وقد أمر النَّبي (ص) بلالاً رضي الله عنه أن يصعد فوق ظهر الكعبة ، فيؤذِّن بالصَّلاة ، فصعد بلال ، وأذَّن بالصَّلاة ، وأنصت أهل مكَّة للنِّداء الجديد على اذانهم كأنَّهم في حُلْمٍ ، إنَّ

هذه الكلمات تقصف في الجوِّ ، فتقذف بالرُّعب في أفئدة الشَّياطين ، فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولُّوا هاربين ، أو يعودوا مؤمنين: الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر[(٤١٠)].

ذلك الصَّوت الَّذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب: أَحَد! أحَد! أحَد! هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إله إلا الله ، محمَّدٌ رسولُ الله!؛ والكلُّ خاشعٌ مُنْصِتٌ خاضع[(٤١١)].

ثالثاً: إعلان العفو العام:

١ ـ نال أهل مكَّة عفواً عامّاً برغم أنواع الأذى الَّتي ألحقوها بالرَّسول (ص) ودعوته ، ورغم قدرة الجيش الإسلاميِّ على إبادتهم ، وقد جاء إعلان العفو عنهم؛ وهم مجتمعون قرب الكعبة ، ينتظرون حكم الرَّسول (ص) فيهم ، فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟!» فقالوا: خيراً ، أخٌ كريم ، وابن أخٍ كريم ، فقال: «لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم!». [البيهقي في الكبرى (٩/١١٨) ، وفي الدلائل (٥/٥٨) ، وابن سعد (٢/١٤١ ـ ١٤٢)][(٤١٢)].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل ، أو السَّبي ، وإبقاء الأموال المنقولة ، والأراضي بيد أصحابها ، وعدم فرض الخراج عليها ، فلم تُعامل مكَّة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عَنْوَةً لقدسيَّتها ، وحرمتها؛ فإنَّها دار النُّسك ، ومتعبَّد الخلق ، وحرم الرَّبِّ تعالى ، لذلك ذهب جمهور الأئمَّة من السَّلف ، والخلف إلى أنَّه لا يجوز بيع أراضي مكَّة ، ولا إجارة بيوتها ، فهي مناخٌ لمن سبق ، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها ، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجَّاج ، والمعتمرين ،

والعبَّاد القاصدين. وذهب اخرون إلى جواز بيع أراضي مكَّة ، وإجارة بيوتها ، وأدلَّتهم قويَّةٌ في حين أنَّ أدلة المانعين مرسلةٌ ، وموقوفةٌ[(٤١٣)].

٢ . إهدار النَّبيِّ (ص) لبعض الدِّماء:

إلى جانب ذلك الصَّفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الَّذي لابدَّ أن تتَّصف به القيادة الحكيمة الرَّشيدة ، ولذلك استثنى قرار العفو الشَّامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم . وإن وجدوا متعلِّقين بأستار الكعبة .؛ لأنَّه عظمت جرائمُهم في حقِّ الله ورسوله ، وحقِّ الإسلام ، ولما كان
يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين النَّاس بعد الفتح[(٤١٤)].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جَمَعْت أسماءهم مِنْ متفرِّقات الأخبار ، وهم: عبد العُزَّى بن خَطَل ، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وعِكْرِمَة بن أبي جهل ، والحويرث بن نُقَيْدٍ . مصغراً . ، ومِقْيَس بن صُبَابة ، وهَبَّار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل «فَرْتَنَى ، وقُرَيْبَة» كانتا تغنيان بهجو النَّبي (ص) ، وسارة مولاة بني عبد المطلب ، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارثَ بن طُلاَطِل الخزاعيَّ ، وذكر الحاكم: أنَّ فيمن أُهْدِرَ دمه كعبَ بن زُهَيْرٍ ، ووحشيَّ بْنَ حَرْبٍ ، وَهِنْدَ بنتَ عُتْبَة[(٤١٥)].

وَمِنْ هؤلاء مَنْ قُتِل ، ومنهم مَنْ جاء مسلماً تائباً ، فعفا عنه الرَّسول (ص) ، وحسن إسلامُه[(٤١٦)].

٣ . خطبةُ النَّبيِّ (ص) غداة الفتح ، وإسلامُ أهل مكَّة:

وفي غداة الفتح بلغ النَّبيَّ (ص) : أنَّ خزاعة حلفاءه عدت على رجلٍ من هذيلٍ ، فقتلوه ، وهو مشركٌ برجلٍ قتل في الجاهليَّة ، فغضب ، وقام بين النَّاس خطيباً ، فقال: «يا أيُّها النَّاس! إنَّ الله قد حرم مكَّة يوم خلق السَّموات ، والأرض ، فهي حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحلُّ لامرأى يؤمن بالله واليوم الاخر أن يسفك فيها دماً ، ولا يَعْضِدَ . يقطع . فيها شجراً ، لم تَحلَّ لأحدٍ كان قبلي ، ولا تَحِلُّ لأحدٍ يكون بعدي ، ولم تَحِلَّ لي إلا هذه السَّاعة غضباً على أهلها ، ثمَّ قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلِّغ الشَّاهدُ منكم الغائب ، فمن قال لكم: إن رسول الله (ص) قد قاتل فيها ، فقولوا: إنَّ الله قد أحلَّها لرسوله ، ولم يُحِلَّها لكم».

«يا معشر خزاعة! ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القَتْلُ إنْ نفع ، لقد قتلتُم قتيلاً لأدِينَّه ، فمن قتل بعد مقامي هذا ، فأهله بخير النَّظرين ، إن شاؤوا فَدَمُ قاتله ، وإن شاؤوا فَعَقْلُه». [أبو داود (٤٥٠٤) ، والترمذي (١٤٠٦) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٨٣ . ٨٤)][(٤١٧)].

كان من أثر عفو النَّبيّ (ص) الشَّامل عن أهل مكَّة ، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهلُ مكَّة رجالاً ، ونساءً ، وأحراراً ، وموالي في دين الله طواعيةً ، واختياراً ، وبدخول مكَّة تحت راية الإسلام دخل النَّاس في دين الله أفواجاً ، وتمَّت النِّعمة ووجب الشُّكر[(٤١٨)] ، وبايع رسول الله (ص) النَّاس جميعاً ، الرِّجالَ ، والنِّسَاءَ ، والكبارَ ، والصِّغار ، وبدأ بمبايعة الرِّجال ،

فقد جلس لهم على الصَّفا ، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام ، والسَّمع ، والطَّاعة لله ، ولرسوله فيما استطاعوا ، وجاء مُجَاشِعٌ بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح ، فقال لرسول الله (ص) : جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة ، فقال (ص) : «ذهب أهل الهجرة بما فيها» فقال: على أيِّ شيءٍ تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام ، والإيمان ، والجهاد». [أحمد (٤٦٩/٣) ، والبخاري (٤٣٠٥ و٤٣٠٦) ، ومسلم (١٨٦٣)].

وقد روى البخاريُّ: أنَّ رسول الله (ص) قال يوم الفتح: «لا هجرةَ بعد الفتح ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ ، وإذا استُنْفِرْتم ، فانفروا» [البخاري (١٨٣٤) ، ومسلم (١٣٥٣)] ، والمراد: أنَّ الهجرة الَّتي كانت واجبةً من مكَّة قد انتهت بفتح مكة ، فقد عزَّ الإسلامُ ، وثبتت أركانُه ودعائمهُ ، ودخل النَّاس فيه أفواجاً ، أمَّا الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أو من بلدٍ لا يَقْدِرُ أن يقيم فيه دينَه ، ويظهر شعائرَه إلى بلدٍ يتمكَّن فيه من ذلك ، فهي باقيةٌ إلى يوم القيامة ، ولكن هذه دون تلك ، فقد تكون واجبةً ، وقد تكون غير واجبةٍ ، كما أنَّ الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروعٌ وباقٍ إلى يوم القيامة ، ولكنَّه ليس كالإنفاق ، ولا الجهاد قبل فتح مكَّة.

قال عزَّ شأنه[(٤١٩)]: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *} [الحديد: ١٠].

ولما فرغ رسول الله (ص) من بيعة الرِّجال؛ بايع النِّساء ـ وفيهنَّ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ متنكِّرةً ، خوفاً من رسول الله (ص) أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة ـ على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يَسْرِقْنَ ، ولا يَزْنِيْنَ ، ولا يقتلن أولادهنَّ ، ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ ، وأرجلهنَّ ، ولا يعصين في معروفٍ ، ولما قال النَّبيُّ (ص) : «ولا يَسْرِقْنَ» قالت هند: يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني ، ويكفي بنيَّ ، فهل عليَّ مِنْ حرجٍ إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها (ص) : «خذي من ماله ما يكفيك

وبنيك بالمعروف» ، ولما قال: «ولا يزنين» قالت هند: وهل تزني الحرَّة؟! ولما عرفها رسولُ الله (ص) قال لها: «وإنك لهند بنت عُتْبَة؟» قالت: نعم ، فاعف عمَّا سلف عفا الله عنك.

وقد بايعن رسول الله (ص) من غير مصافحةٍ ، فقد كان لا يصافح النِّساء ، ولا يَمَسُّ يد امرأةٍ إلا امرأةً أحلَّها الله له ، أو ذات محرمٍ منه ، وفي الصَّحيحين عن عائشة رضي الله عنها: أنَّها قالت: لا والله! ما مسَّت يد رسول الله يد امرأةٍ قطُّ. [البخاري (٥٢٨٨) ، ومسلم (١٨٦٦)] وفي

روايةٍ: ما كان يبايعهنَّ إلا كلاماً ، ويقول: «إنَّما قولي لامرأةٍ واحدةٍ كقولي لمئة امرأةٍ»[(٤٢٠)].

رابعاً: بَعْثُ خالدِ بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ:

بعث رسول الله (ص) خالد بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ داعياً إلى الإسلام ، وكان ذلك في شهر شوَّال من السَّنة الثَّامنة للهجرة[(٤٢١)] قَبْلَ حنين، ومعه جنودٌ من بني سُلَيْم ، ومُدْلَج ، والأنصار ، والمهاجرين ، كان تعدادُهم حوالي ثلاثمئةٍ وخمسين رجلاً ، فلمَّا رأى بنو جَذِيْمَةَ الجيش بقيادة خالدٍ ، أخذوا السِّلاح ، فقال لهم خالدٌ: ضعوا السِّلاح فإنَّ النَّاس قد أسلموا ، فقام رجلٌ منهم يسمَّى جحدراً ، فقال: ويلكم يا بني جَذِيْمَةَ! إنَّه خالد؛ والله! ما بعد وضع السِّلاح إلا الإسار ، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق ، والله! لا أضع سلاحي أبداً ، فلم يزالوا به حتَّى وضع سلاحه ، فلمَّا وضع السِّلاح أمر بهم خالد فكُتِّفُوا ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا ، فجعلوا يقولون: صبأنا ، صبأنا ، وخالد يأخذ فيهم أسراً ، وقتلاً ، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك ، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه ، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالدٌ أن يقتل كلُّ واحد أسيره ، فامتثل البعض ، وامتنع عبد الله بن عمر ، وامتنع معه اخرون من قَتْلِ أسراهم ، فلمَّا قَدِموا على رسول الله (ص) ، أخبروه، فغضب ، ورفع يديه إلى السَّماء قائلاً: اللَّهُمْ إِنِّي أَبْرَأُ إليك ممَّا صنع خالدٌ. [أحمد (٢/١٥٠ ـ ١٥١)، والبخاري (٤٣٣٩)، والنسائي (٨/٢٣٧)، وابن سعد (٢/١٤٧ ـ ١٤٨)][(٤٢٢)].

ودار كلام بين خالدٍ ، وعبد الرحمن بن عوف حول هذا الموضوع حتَّى كان بينهم شرٌّ ، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالدٍ ثأراً لعمِّه الفاكه بن المغيرة الَّذي قتله جَذِيْمَةُ في الجاهليَّة ، ولعلَّ هذا الذي وقع بينهم هو ما أشار إليه الحديث المرويُّ عند مسلمٍ، وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيءٌ ، فسبَّه خالدٌ ، فقال رسول الله (ص) : «لا تسبوا أحداً من أصحابي ، فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهباً؛ ما أدرك مُدَّ أحدهم ، ولا نصيفه» [البخاري (٣٦٧٣) ، ومسلم (٢٥٤١)][(٤٢٣)].

وبعث رسولُ الله (ص) عليّاً ، فودى لهم قتلاهم ، وزادهم فيها تطييباً لنفوسهم ، وبراءةً من دمائهم[(٤٢٤)] ، وبهذا التَّصرُّف النَّبويِّ الحكيم واسى النَّبيُّ (ص) بني جَذِيْمَة ، وأزال ما في نفوسهم مِنْ أسى ، وحزن[(٤٢٥)] ، وكان قتل خالد لبني جَذِيْمَة تأوُّلاً منه ، واجتهاداً خاطئاً ، وذلك بدليل أنَّ الرَّسول (ص) لم يعاقبه على فعله[(٤٢٦)].

خامساً: هدم بيوت الأوثان:

بعد أن طُهِّرَ البيتُ الحرامُ من الأوثان الَّتي كانت فيه ، كان لابدَّ من هدم البيوت الَّتي أقيمت للأوثان ، فكانت معالم للجاهليَّة ردحاً طويلاً من الزَّمن[(٤٢٧)] ، فكانت سرايا رسول الله تترى؛ لتطهير الجزيرة؛ منها:

١ ـ سرية خالد بن الوليد إلى العزّى:

توجَّهت سريةٌ قوَّتها ثلاثون فارساً ، بقيادة خالد بن الوليد إلى الطَّاغوت الأعظم منزلةً ، ومكانةً عند قريش وسائر العرب (العُزّى) لإزالته من الوجود نهائيّاً ، وعندما وصلت السَّريَّة إلى العزَّى بمنطقة نخلة قام إليها خالدٌ: فقطع السَّمُرَاتِ ، وهدم البيت الَّذي كان عليه[(٤٢٨)] ، وهو يردِّد:

كفرانك لا سبحانك إنِّي رأيتُ الله قد أهانك

[الطبراني في الكبير (٣٨١١) ، ومجمع الزوائد (٦/١٧٦)][(٤٢٩)].

ثمَّ رجع خالدٌ وأصحابه إلى رسول الله (ص) وقدَّم تقريره بإنجاز المهمَّة ، ولكنَّ النبي (ص) استدرك على قائد السَّريَّة ، وقال له: «هل رأيت شيئاً؟» قال: لا[(٤٣٠)] ، فقال: «ارجع فإنَّك لم تصنع شيئاً»[(٤٣١)] ، فرجع خالد متغيظاً حَنِقاً على عدم إنهاء مهمَّته على الوجه المطلوب ، فلمَّا وصل إليها ، ونظرت السَّدنة إليه ، عرفوا: أنَّه جاء هذه المرَّة ليكمل ما فاته في المرَّة السَّابقة ، فهربوا إلى الجبل ، وهم يصيحون: يا عزَّى خَبِّليه ، يا عزَّى عوِّريه ، فأتاه خالد ، فإذا امرأةٌ عُرْيانةٌ ناشرةٌ شعرها تحثو التُّراب على رأسها ، فتقدَّم إليها خالدٌ رضي الله عنه بشجاعته المعروفة ، وضربها بالسَّيف حتَّى قتلها ، ثمَّ رجع إلى رسول الله (ص) فأخبره بذلك ، فقال: «تلك هي العزَّى». [أبو يعلى (٩٠٢) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٧٧) ، ومجمع الزوائد (٦/١٧٦)][(٤٣٢)].

٢ ـ سرية سعد بن زيدٍ الأشهليُّ إلى مَناة:

مناة اسم صَنَمٍ كانت على ساحل البحر الأحمر ممَّا يلي قديداً[(٤٣٣)] ، في منطقة تُعْرَف بالمُشَلَّل[(٤٣٤)] ، وكانت للأوس ، والخزرج ، وغسَّان ومن دان بدينهم ، يعبدونها ويعظِّمونها في الجاهليَّة

، ويهلُّون منها للحجِّ ، وقد بلغ من تعظيمهم إيَّاها: أنَّهم كانوا لا يطوفون بين الصَّفا والمروة تحرُّجاً ، وتعظيماً لها ، حيث كان ذلك سُنَّةً في ابائهم ، مَنْ أحرم لمناة لَمْ يطُفْ بين الصَّفا والمروة[(٤٣٥)] ، ولم تزل هذه عادتُهم حتَّى أسلموا ، فلمَّا قدموا مع النَّبيِّ (ص) للحجِّ ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الاية[(٤٣٦)] ، قال تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ١٥٨].

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشِّرك في الجزيرة العربيَّة ، ومبتدع الأوثان ، محرِّف الحنيفيَّة دين إبراهيم عليه السلام عمرُو بن لحي الخُزاعيُّ[(٤٣٧)] ، فلمَّا فتح الله على المسلمين مكَّة بعث رسول الله (ص) إلى مناة رجلاً من أهلها سابقاً الَّذين كانوا يعظِّمونها في الجاهليَّة ، وهو سعد بن زيد الأشهليُّ رضي الله عنه على رأس سِريَّةٍ قوّتها عشرون فارساً ، وكان واجب السَّريَّة هو إزالة مناة من الوجود نهائيّاً(٣).

انطلق زيدٌ ومن معه في مسيرٍ اقترابيٍّ سريعٍ لإنجاز المهمَّة المحدَّدة ، حتَّى وصل إليها ، فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد؟ قال: هدم مَناة ، قال: أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشي إليها ، وتخرج إليه امرأةٌ عُرْيَانةٌ سوداء ثائرة الرَّأس تدعو بالوَيْل ، وتضرب صَدْرها[(٤٣٨)]، فصاح بها السَّادن صيحة الواثق: مَناةُ دُونَك بعضَ عُصَاتك(٤)، ولكن صيحته ذهبت أدراج الرِّياح ، فلم يأبه سعدٌ رضي الله عنه بكلِّ ذلك ، وضربها ضربةً قاتلةً قضت عليها ، ثمَّ أقبل مع أصحابه على الصَّنم (فهدموه ، ولم يجدوا في خزانتها شيئاً ، وانصرف راجعاً إلى رسول الله (ص))[(٤٣٩)].

٣ . سرية عمرو بن العاص إلى سواع:

قال تعالى مخبراً عن قوم نوح: {وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا *} [نوح: ٢٣].

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام: هو اسم صنمٍ كان لقوم نوحٍ عليه السَّلام ، ثمَّ صار بعد ذلك لقبيلة هُذَيْلٍ المضريَّة[(٤٤٠)] ، وظلَّ هذا الوثن منصوباً تعبده هُذيل وتعظِّمه حتَّى إنَّهم كانوا يحجُّون إليه[(٤٤١)] ، حتَّى فتحت مكَّة ، ودخل هذيلٌ فيمن دخل في دين الله أفواجاً ، فبعث رسول الله (ص) سريةً بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه لتحطيم سواع ، ويحدِّثنا قائد السَّريَّة عن مهمَّته ، فيقول: «فانتهيت إليه ، وعنده السَّادن ، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله (ص) أن أهدمَه ، قال: لا تقدر على ذلك ، قلتُ: لِمَ؟ قالت: تُمْنَعُ ، قلت: حتَّى الان أنت في الباطل ، ويحك! هل يسمع ، أو يبصر؟!

قال: فدنوت منه فكسرتُه ، وأمرت أصحابي ، فهدموا بيت خزانته ، فلم يجدوا شيئاً ، ثمَّ قلت للسَّادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمتُ لله[(٤٤٢)].

ونستفيد من حركة السَّرايا الَّتي أرسلها رسولُ الله (ص) للقضاء على الأصنام ، والأوثان: أنَّه لا يجوز إبقاء مواضع الشِّرك ، والطَّواغيت بعد القدرة على هدمها ، وإبطالها يوماً واحداً ، فإنَّها شعائر الكفر ، والشِّرك ، وهي أعظمُ المنكرات ، فلا يجوز الإقرارُ عليها مع القدرة ألبتَّة.

وهذا حكمُ المشَاهدِ الَّتي بُنيت على القبُور الَّتي اتخذت أوثاناً ، وطواغيت تُعْبَد من دون الله ، والأحجار الَّتي تُقصد للتَّعظيم ، والتَّبرُّك ، والنَّذر ، والتَّقبيل ، لا يجوز إبقاء شيءٍ منها على وجه الأرض عند القدرة على إزالتها ، وكثيرٌ منها بمنزلة اللاَّت ، والعزَّى ، ومناة الثَّالثة الأخرى ، أو أعظم شركاً عندها ، وبها[(٤٤٣)].

* * *

المبحث الثَّالث

دروس وعبر وفوائد

أولاً: تفسير سورة النَّصر ، وكونُها علامةً على أجَل رسولِ الله (ص):

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله (ص) يكثر من قوله: «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه» قالت: فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر مِنْ قول: «سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ، وأتوب إليه!» فقال: خبَّرني ربِّي أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي فإذا رأيتُها أكثرت من قول: «سبحان الله

وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» فقد رأيتُها: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا *فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا *} [النصر: ١ ـ ٣]». [مسلم (٤٨٤/٢٢٠)].

قال القرطبيُّ: وذلك لما فُتِحتْ مكَّةُ؛ قالت العرب: أما إذا ظَفِر محمَّد بأهل الحرم ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان (أي: طاقة) فكانوا يُسْلمون أفواجاً: أمَّةً أمَّةً[(٤٤٤)] ، وكان عمرو بن سلمة يقول: كنَّا بماءٍ ممرِّ النَّاس وكان يمرُّ بنا الرُّكبان ، فنسألهم: ما للنَّاس؟ ما للنَّاس؟ ما هذا الرَّجل؟ فيقولون: يزعم أنَّ الله أرسله ، أُوحي إليه ، أو: أوحى الله بكذا ، فكنت أحفظ ذاك الكلام ، وكأنَّما يَقِرُّ في صدري ، وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح ، فيقولون: اتركوه وقومه ، فإنَّه إن ظهر عليهم؛ فهو نبيٌّ صادق؛ فلمَّا كانت وقعة أهل مكَّة؛ بادر كلُّ قوم بإسلامهم.

وهذه السُّورة تسمَّى سورة التَّوديع: حيث جاءت مخبرةً بقرب أجل المصطفى (ص)[(٤٤٥)] ، فعن ابن عباسٍ ، قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدرٍ ، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه ، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟! ، فقال عمر: إنَّه ممَّن قد علمتم. فدعاني ذات يومٍ ، فأدخلني معهم ، فما رأيت أنَّه دعاني يومئذ إلا ليريهم منِّي! قال: ما تقولون في قوله تعالى: حتَّى ختم السُّورة؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمَد {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *} ، ونستغفره إذا

نصرنا ، وفتح علينا ، وسكت بعضُهم ، فلم يقل شيئاً ، فقال لي: أكذاك تقول يا بْنَ عباسٍ؟! فقلت: لا ، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله (ص) ، أعلمه له ، قال: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *} وذلك علامة أجلك. فقال عمر: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا *} أعلم منها إلا ما تقول. [البخاري (٤٣٩٤)].

ويقول سيِّد قطب في بيان بعض ما يستفاد من هذه السُّورة: في مطلع السُّورة إيحاءٌ معيَّنٌ لإنشاء تصوُّرٍ خاصٍّ عن حقيقة ما يجرى في هذه الكون من أحداثٍ ، وما يقع في هذه الحياة من حوادثَ ، وعن دور الرَّسول (ص) ، ودور المؤمنين في هذه الدَّعوة ، وحدِّهم الَّذي ينتهون إليه في هذا الأمر.... هذا الإيحاء يتمثَّل في قوله: فهو نصرٌ يجيء به الله في الوقت المناسب الَّذي يقدِّره في الصُّورة الَّتي {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *} ، للغاية الَّتي يرسُمُها ، وليس للنَّبيِّ ، ولا لأصحابه من أمره شيءٌ ، وليس لهم في هذا النَّصر يدٌ ، وليس لأصحابه فيه كسبٌ ، وليس لذواتهم منه نصيبٌ ، وليس لنفوسهم منه حظٌّ ، إنَّما هو أمر الله يحقِّقه بهم ، أو بدونهم ، وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وأن يقيمهم عليه حُرَّاساً ، ويجعلهم عليه أمناء ، هذا هو كلُّ حظِّهم من النَّصر ، والفتح ، ومن دخول النَّاس في دين الله أفواجاً[(٤٤٦)].

وهذا معنىً إيمانيٌّ عميقٌ ، حرص القران على تثبيته في نفوس المؤمنين ، ألا وهو: أنَّ التَّمكين بيد الله تعالى ، فهو الَّذي يختار الزَّمان ، والمكان ، والأشخاص الَّذين يريد أن يُجْرِيَ على أيديهم نصره ، وفتحه . سبحانه وتعالى . ، وهو كرمٌ وفضلٌ من الله محضٌ خصَّ به الصَّادقين مِنْ عباده.

ثانياً: مواقفُ دعويَّةٌ وقدرةٌ رفيعةٌ في التَّعامل مع النُّفوس:

١ . إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله (ص) مكَّة ، وظهر ، انقحمت[(٤٤٧)] بيتي وأغلقتُ عليَّ بابي ، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل: أن اطْلُبْ لي جواراً من محمَّدٍ ، وإنِّي لا امن مِنْ أن أُقتل ، وجعلت أتذكَّر أثري عند محمَّدٍ ، وأصحابه ، فليس أحدٌ أسوأ أثراً منِّي ، وأنِّي لقيتُ رسولَ الله (ص) يوم الحديبية بما لم يلحقه أحدٌ ، وكنت الذي كاتبتُه ، مع حضوري بدراً ، وأحداً ، وكلَّما تحرَّكتْ قريشٌ؛ كنت فيها ، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ، فقال: يا رسول الله! تؤمِّنه؟ فقال: «نعم ، هو امنٌ بأمان الله ، فليظهر!» ثمَّ قال رسول الله (ص) لمن حوله: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشدَّ النَّظر إليه ، فليخرج فلعمري! إنَّ سهيلاً له عقلٌ ،

وشرفٌ ، وما مثل سهيل جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه: أنَّه لم يكن له بنافع!» فخرج عبد الله إلى أبيه ، فقال سُهيل: كان والله بَرّاً ، صغيراً ، وكبيراً! فكان سهيل يقبل ، ويدبر ، وخرج إلى حنين مع النَّبيِّ (ص) وهو على شركه حتَّى أسلم بالجِعِرَّانة. [الحاكم (٣/٢٨١)][(٤٤٨)].

لقد كانت لهذه الكلمات التَّربويَّة الأثر الكبير على سهيل بن عمروٍ؛ حيث أثنى على رسول الله (ص) بالبرِّ طوال عمره ، ثمَّ دخل في الإسلام بعد ذلك ، وقد حسُن إسلامه ، وكان مكثراً من الأعمال الصَّالحة[(٤٤٩)] ، يقول الزُّبير بن بكَّار: كان سهيل بعدُ كثير الصَّلاة والصَّوم والصَّدقة ، خرج بجماعته إلى الشَّام مجاهداً ، ويقال: إنَّه صام ، وتهجَّد حتى شحب لونُه ، وتغيَّر ، وكان كثير البُكاء إذا سمع القران ، وكان أميراً على كُرْدُوسَةٍ[(٤٥٠)] يوم اليرموك[(٤٥١)].

٢ . إسلام صفوان بن أميَّة:

قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه: ... وأمَّا صفوان بن أميَّة فهرب حتَّى أتى الشُّعَيبة[(٤٥٢)] ، وجعل يقول لغلامه يسار . وليس معه غيره .: ويحك! انظر مَنْ ترى ، قال: هذا عُمَيرُ بن وهبٍ ، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي! قد ظاهر محمداً عليَّ. فلحقه فقال: يا عُمَيْرَ! ما كفاك ما صنعت بي؟ حمَّلتني دَيْنَك وعيالك ، ثمَّ جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند

أبرِّ النَّاس ، وأوصل النَّاس ، وقد كان عُمير قال لرسول الله (ص) : يا رسول الله! سيِّد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر ، وخاف ألا تُؤمِّنه فداك أبي ، وأمي! قال رسول الله (ص) : «قد أمنته» فخرج في أثره ، فقال: إنَّ رسول الله (ص) قد أمَّنك. فقال صفوان: لا والله! لا أرجع معك حتَّى تأتيني بعلامةٍ أعرفها ، فرجع إلى رسول الله (ص) ، فقال: يا رسول الله! جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه ، فأخبرته بما أمَّنْتَه فقال: لا أرجع حتَّى تأتي بعلامةٍ أعرفها ، فقال رسول الله (ص) : «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها ، وهو البُرْدُ الَّذي دخل فيه رسول الله (ص) يومئذٍ مُعتجراً[(٤٥٣)] به ، بُرد حَبِرة[(٤٥٤)] ، فخرج عمير في طلبه ثانيةً حتَّى جاء بالبُرْد ، فقال: أبا وهب! جئتك من عند خير النَّاس ، وأوصل النَّاس ، وأبرِّ الناس ، وأحلم النَّاس ، مَجْده مَجْدُك ، وعزُّه عزُّك ، ومُلكُه مُلكُك ، ابن أمِّك وأبيك ، اذكرِ الله في نفسك.

قال له: أخاف أن أُقتل ، قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام ، فإن رضيت وإلا سيَّرك شهرين ، فهو أوفى النَّاس ، وأبرُّهم ، وقد بعث إليك ببرده الَّذي دخل فيه معتجراً ، تعرفه؟ قال: نعم ، فأخرجه ، فقال: نعم ، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله (ص) يُصلِّي بالمسلمين العصر بالمسجد ، فوقفا. فقال صفوان: كم تُصَلُّون في اليوم واللَّيلة؟ قال: خمس صلوات ، قال: يُصلِّي بهم محمَّد؟ قال: نعم. فلمَّا سلَّم؛ صاح صفوان: يا محمد! إنَّ عمير بن وهب جاءني ببردك ، وزعم: أنَّك دعوتني إلى القدوم عليك ، فإن رضيت أمراً ، وإلاَّ سيرتني شهرين. قال: انزل أبا وهب. قال: لا والله! حتى تبيِّن لي ، قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر ، فنزل صفوان. [البيهقي في الدلائل (٥/٤٦) ، وابن هشام (٤/٦٠)].

وخرج رسول الله (ص) قِبَلَ هوازن ، وخرج معه صفوان ، وهو كافرٌ ، وأرسل إليه يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه مئة درعٍ بأداتها ، فقال: طوعاً ، أو كرهاً؟ قال رسول الله (ص) : «عاريةٌ مُؤَدَّاةٌ» [أحمد (٣/٤٠١ و٦/٤٦٥) ، وأبو داود (٣٥٦٢) ، والحاكم (٣/٤٩) ، والبيهقي في الكبرى (٦/٨٩)] ، فأعاره ، فأمره رسول الله (ص) فحملها إلى حنين ، فشهد حنُيناً ، والطَّائف ، ثمَّ رجع رسول الله (ص) إلى الجِعِرَّانة ، فبينما رسول الله (ص) يسير في الغنائم ينظر إليها ، ومعه صفوان بن أميَّة؛ جعل صفوان ينظر إلى شعْبٍ مُلأى نَعَماً ، وشاءً ، ورِعَاءً ، فأدام إليه النَّظر ورسول الله (ص) يرمقُه فقال: «أبا وهب ، يعجِبُك هذا الشِّعب؟» قال: نعم ، قال: «هو لك وما فيه». فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا

إلا نفسُ نبيٍّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ، وأسلم مكانه. [الواقدي في المغازي (٢/٨٥٣ ـ ٨٥٥) ، وكنز العمال (٣٠١٧٠)].

ونلاحظ في هذا الخبر أنَّ النَّبيَّ (ص) حاول أن يتألَّف صفوان بن أميَّة إلى الإسلام حتَّى أسلم ، وذلك بإعطائه الأمان ، ثمَّ بتخييره في الأمر أربعة أشهر ، ثمَّ بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسانٍ عاديٍّ ، فأعطاه أولاً مئةً من الإبل مع عددٍ من زعماء مكَّة ، ثمَّ أعطاه ما في أحد الشِّعاب من الإبل ، والغنم ، فقال: ما طابت نفس أحدٍ بهذا إلا نفس نبيٍّ ، ثمَّ أسلم مكانه[(٤٥٥)] ، وقد وصف لنا صفوان بن أميَّة عطاء النَّبيِّ (ص) فقال: والله! لقد أعطاني رسول الله (ص)

ما أعطاني ، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ. [مسلم (٢٣١٣)].

٣ ـ إسلام عكرمةَ بنِ أبي جهلٍ:

قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه: قالت أمُّ حكيمٍ امرأة عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنها: يا رسول الله! قد هرب عكرمة منك إلى اليمن ، وخاف أن تقتله؛ فأَمِّنْهُ! فقال رسول الله (ص) : «هو امن» فخرجت أمُّ حكيمٍ في طلبه ، ومعها غلامٌ لها روميٌّ ، فراودها عن نفسها ، فجعلت تُمَنِّيه حتَّى قدمت على حَيٍّ مِنْ عَكٍّ[(٤٥٦)] ، فاستغاثتهم عليه ، فأوثقوه رباطاً ، وأدركت عكرمةَ وقد انتهى إلى ساحلٍ من سواحلِ تهامة ، فركب البحر ، فجعل نُوتيُّ السَّفينة يقول له: أخلص! فقال: أيُّ شيءٍ أقول: قال: قل: لا إله إلا الله ، قال عكرمة: ما هربت إلا مِنْ هذا ، فجاءت أمُّ حكيم على هذا الكلام ، فجعلت تلحُّ عليه ، وتقول: يا بن عم! جئتك من عند أوصل النَّاس ، وأبرِّ النَّاس، وخير النَّاس، لا تُهْلِكْ نَفْسَكَ! فوقف لها حتَّى أدركته ، فقالت: إنِّي قد استأمنت لك محمَّداً رسول الله (ص) ، قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم ، أنا كلَّمتُه ، فأمَّنك ، فرجع معها وقال: ما لقيت من غلامك الرُّوميِّ؟ فخبَّرته خبره ، فقتله عكرمةُ ، وهو يومئذٍ لم يُسلم ، فلمَّا دنا من مكَّة؛ قال رسول الله (ص) لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تَسُبُّوا أباه ، فإنَّ سبَّ الميِّت يؤذي الحيَّ ، ولا يبلغ الميِّت».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها ، فتأبى عليه ، وتقول: إنَّك كافرٌ ، وأنا مسلمةٌ ، فيقول: إنَّ أمراً منعك منِّي لأمرٌ كبير ، فلمَّا رأى النَّبيُّ (ص) عكرمة؛ وثب إليه ـ وما على النَّبيِّ (ص) رداءٌ ـ فرحاً بعكرمة ، ثمَّ جلس رسولُ الله (ص) فوقف بين يديه ، وزوجتُه مُتنقبةٌ ، فقال: يا محمد! إن هذه أخبرتني أنَّك أمَّنتني.

فقال رسول الله (ص) : «صَدَقَتْ، فأنت امن!» فقال عكرمة: فإلامَ تدعو يا محمد؟! قال: «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله ، وأن تقيم الصَّلاة وتؤتي الزَّكاة ، وتفعل ، وتفعل»، حتَّى عدَّ خصال الإسلام. فقال عكرمة: والله! ما دعوتَ إلا إلى الحقِ ، وأمرٍ حسنٍ جميلٍ ، قدكنت والله! فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه ، وأنت أصدقُنا حديثاً، وأبرُّنا برّاً! ثمَّ قال عكرمة: فإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ، فسُرَّ بذلك رسولُ الله (ص) ، ثمَّ قال: يا رسول الله! علِّمني خيرَ شيءٍ أقوله. قال: «تقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمَّداً عبده ورسوله» قال عكرمة: ثُّم ماذا؟ قال رسول الله (ص) : «تقول: أُشْهِدُ الله وأُشْهد مَنْ حضر أنِّي مسلمٌ مهاجرٌ ، ومجاهدٌ». فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله (ص) : «لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتُكَه» فقال عكرمة: فإنِّي أسألك أن تستغفر لي كلَّ عداوةٍ عاديتُكها ، أو مسيرٍ وُضعتُ فيه ، أو مقام لقيتُك فيه ، أو كلام قلتُه في وجهك ، أو وأنت غائبٌ عنه ، فقال رسول الله (ص) : «اللَّهمَّ! اغفر له كلَّ عداوةٍ عادانيها ، وكلَّ مسير سار فيه إلى موضعٍ يريد بذلك المسير إطفاء نورك ، فاغفر له ما نال منِّي مِنْ عرضٍ في وجهي ، أو أنا غائبٌ عنه!» فقال عكرمة: رضيتُ يا رسول الله! لا أدع نفقةً كنت أنفقُها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله ، ولا قتالاً كنتُ أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليتُ ضعفه في سبيل الله ، ثمَّ اجتهد في القتال حتَّى قتل شهيداً[(٤٥٧)].

وبعد أن أسلم رد رسول الله (ص) امرأته له بذلك النكاح الأول. [ابن هشام (٤/٦١)][(٤٥٨)].

كان سلوك النَّبيِّ (ص) في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً ، يكفي وحدَه لاجتذابه إلى الإسلام ، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه ، وابتسم له ، ورحَّب به ، وفي روايةٍ: قال له: «مرحباً بالر اكب المهاجر!» [الترمذي (٢٧٣٥) ، والطبراني في الكبير (٧/٣٧٣ ـ ٣٧٤) ، ومجمع الزوائد (٩/٣٨٥)].

فتأثَّر عكرمة من ذلك الموقف ، فاهتزَّت مشاعره ، وتحرَّكت أحاسيسه ، فأسلم ، كما كان لموقف أمِّ حكيم بنت الحارث بن هشام أثرٌ في إسلام زوجها ، فقد أخذت له الأمان من رسول الله (ص) ، وغامرت بنفسها تبحث عنه لعلَّ الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه ، وعندما أرادها زوجها ، امتنعت عنه ، وعلَّلت ذلك بأنَّه كافرٌ وهي مسلمةٌ ، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنَّه أمام دين عظيمٍ ، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التَّفكير في الإسلام ، ثمَّ تُوِّج بإسلامه بين يدي رسول الله (ص) ، وكان صادقاً في إسلامه ، فلم يطلب من رسول الله (ص) دنيا؛ وإنَّما سأله أن يغفر الله تعالى له كلَّ ما

وقع فيه من ذنوبٍ ماضية ، ثمَّ أقسم أمام النَّبيِّ (ص) بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية ، وأن يُبليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية ، ولقد بَرَّ بوعده ، فكان من أشجع المجاهدين ، والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردَّة ، ثمَّ في فتوح الشام، حتَّى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه ، وماله في سبيل الله[(٤٥٩)].

٤ ـ مثلٌ من تواضع النَّبيِّ (ص): إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصِّديق رضي الله عنها: لما دخل رسول الله (ص) مكَّة ، ودخل المسجد؛ أتى أبو بكر بأبيه يقودُه ، فلمَّا راه رسول الله (ص) قال: «هلاَّ تركت الشيخ في بيته حتَّى

أكون أنا اتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله! هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت ، قالت: فأجلسه بين يديه ، ثمَّ مسح صدره ، ثمَّ قال له: «أسلم» ، فأسلم ، قالت: فدخل به أبو بكر ، وكأنَّ رأسه ثغامةٌ ، فقال رسول الله (ص) : «غيِّروا هذا من شعره» [أحمد (٦/٣٤٩ ـ ٣٥٠)، والطبراني في الكبير (٢٤/٨٨ ـ ٨٩) برقم (٢٣٦) ، وابن حبان (٧٢٠٨) ، والحاكم (٣/٤٦ ـ ٤٧) ، ومجمع الزوائد (٦/١٧٣ ـ ١٧٤)][(٤٦٠)] ، ويروى: أنَّ رسول الله (ص) هنَّأ أبا بكرٍ بإسلام أبيه[(٤٦١)].

وفي هذا الخبر منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، سنَّه النَّبيُّ (ص) في توقير كبار السِّنِّ واحترامهم، ويؤكِّد ذلك قوله (ص) : «ليس منَّا من لم يوقِّر كبيرنا ، ويرحم صغيرنا» [أحمد (١/٢٥٧) ، والترمذي (١٩٢١) ، وابن حبان (٤٥٩)].

وقوله (ص) : «إنَّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشَّيبة المسلم» [أبو داود (٤٨٤٣)] ، كما أنَّه (ص) سَنَّ إكرام أقارب ذوي البلاء ، والبذل ، والعطاء ، والسَّبق في الإسلام؛ تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمةٍ للإسلام والمسلمين ، ونصر دعوة الله تعالى[(٤٦٢)].

٥ ـ مثلٌ من عفو النَّبيِّ (ص) وحلمه: إسلام فضالة بن عُمَيْرٍ:

أراد فُضالة بن عُمَيْر بن الملوح اللَّيثي قتل النَّبيِّ (ص) وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلمَّا دنا منه ، قال رسولُ الله (ص) : «أفضالة؟» قال: نعم فضالة يا رسول الله! قال: «ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟» قال: لا شيء ، كنت أذكر الله ، قال: فَضَحِكَ النبي (ص) ، ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبُه ، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتَّى ما مِنْ خلق اللهِ شيءٌ أحبَّ إلي منه ، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأةٍ كنت أتحدَّث إليها ، فقالت: هَلمَّ إلى الحديث ، فقلت: لا! وانبعث فضالة يقول:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الْحدِيْثِ فَقُلْتُ لاَ   يَأْبَى عَلَيْكِ اللهُ والإِسْلاَمُ
لَوْ مَا رأيت محمَّداً وَقَبِيْلَهُ   بالفَتْحِ يَوْمَ تُكَسَّرُ الأَصْنَامُ
لَرَأَيْتِ دِيْنَ اللهِ أَضْحَى بَيِّنَاً   والشِّرْكُ يَغْشَى وَجْهَهُ الإِظْلاَمُ

[ابن هشام (٤/٥٩ ـ ٦٠)][(٤٦٣)].

ثالثاً: أتكلِّمني في حدٍّ من حدود الله؟!

قال عروة بن الزُّبير: إنَّ امرأةً سرقت في عهد رسول الله (ص) في غزوة الفتح ، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيدٍ يستشفعونه ، قال عروة: فلمَّا كلَّمه أسامةُ فيها؛ تلوَّن وجه رسول الله (ص) ، فلمَّا

كان العشيُّ؛ قام رسول الله (ص) خطيباً فأثنى على الله بما هو أهلُه ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد ، فإنَّما أهلك النَّاس قبلكم: أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريف؛ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضَّعيف ، أقاموا عليه الحدَّ ، والَّذي نفس محمد بيده! لو أنَّ فاطمة بنت محمَّدٍ سرقت؛ لقطعت يدها» ، ثمَّ أمر رسول الله (ص) بتلك المرأة فقُطِعَتْ يدُها ، فحسنت توبتُها بعد ذلك وتزوَّجت. قالت عائشة رضي الله عنها: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتها إلى رسول الله (ص) . [البخاري (٤٣٠٤) ، ومسلم (١٦٨٨/٩)].

وهكذا يستمرُّ البناء التربويُّ للأمَّة ، ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حدٍّ سواء ، ووجدت قريش نفسها أمام تشريعٍ ربَّانيّ لا يفرق بين النَّاس ، فهم كلُّهم أمام ربِّ العالمين سواءٌ ، وأصبحت معايير الشَّرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى ، وفي هذا الموقف الَّذي أثار غضب رسول الله الشديد ، واهتمامه الكبير لعبرةٌ للمسلمين ، حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى ، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلاميَّة[(٤٦٤)].

رابعاً: «أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانأى !»:

قالت أمُّ هانأى بنت أبي طالب: لما نزل رسول الله (ص) بأعلى مكَّة؛ فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي ، من بني مخزوم . وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزوميِّ . قالت: فدخل عليَّ عليُّ بن أبي طالب أخي ، فقال: والله! لأقتلنَّهما ، فأغلقتُ عليهما باب بيتي ، ثمَّ جئت رسول الله (ص) وهو بأعلى مكَّة ، فوجدته يغتسل من جَفنةٍ إنَّ فيها لأثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلمَّا اغتسل ، أخذ ثوبه ، فتوشَّح به ، ثمَّ صلى ثماني ركعاتٍ من الضُّحى ، ثمَّ انصرف إليَّ ، فقال: «مرحباً ، وأهلاً يا أم هانأى ! ما جاء بك ؟» فأخبرته خبر الرَّجلين ، وخبر عليٍّ؛ فقال: «قد أجرنا مَنْ أجرتِ ، وأمَّنَّا مَنْ أمَّنْتِ ، فلا يقتلهما». [البخاري (٣١٧١) ، ومسلم (٣٣٦/٨٢)][(٤٦٥)].

خامساً: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنة أعين»:

كان عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح قد أسلم وكتب الوحيَ ثمَّ ارتد ، فلمَّا دخل رسول الله (ص) مكَّة ، وقد أهدر دمه؛ فرَّ إلى عثمان ، وكان أخاه من الرَّضاعة ، فلمَّا جاء به ليستأمنَ له؛ صمت عنه رسولُ الله (ص) طويلاً ، ثم قال: «نعم» فلمَّا انصرف مع عثمان؛ قال رسول الله (ص) لمن حوله: «أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حين راني قد صَمَتُّ ، فيقتله؟!» فقالوا:

يا رسول الله! هلاَّ أومأت إلينا؟ فقال: «إنَّ النَّبيَّ لا يقتُل بإشارة» [الطبراني في الأوسط (٦٥٧٣) ، ومجمع الزوائد (٦/١٦٧)][(٤٦٦)].

وفي روايةٍ: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنةُ أعين» [أبو داود (٢٦٨٣) و(٤٣٥٩) ، والنسائي (٧/١٠٥ ـ ١٠٦)][(٤٦٧)].

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامُه بعد ذلك ، وولاَّه عمر بعض أعماله ، ثمَّ ولاه عثمان[(٤٦٨)].

وقال ابن كثير: ومات وهو ساجدٌ في صلاة الصُّبح ، أو بعد انقضاء صلاتها في بيته[(٤٦٩)].

سادساً: «المحيا محياكم ، والمماتُ مماتُكم»:

قال أبو هريرة:.... أتى رسولُ الله (ص) الصَّفا ، فعلاه حيث ينظر إلى البيت ، فرفع يديه ، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ، ويدعوه ، قال: والأنصار تحته ، قال: يقول بعضهم لبعضٍ: أمَّا الرَّجل؛ فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفةٌ بعشيرته ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: وجاء الوحي ، وكان إذا جاء لم يَخْفَ علينا ، فليس أحدٌ من النَّاس يرفع طرفه إلى رسول الله (ص) حتَّى يقضي ، قال: فلمَّا قُضِيَ الوحي ؛ رفع رأسه ، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصار! قلتم: أمَّا الرَّجل ، فأدركته رغبةٌ في قريته ، ورأفةٌ بعشيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله! قال: «فما اسمي إذاً؟! كلا ، إنِّي عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله ، وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم».

قال: فأقبلُوا إليه يبكون ، ويقولون: والله! ما قلنا الَّذي قلنا إلا الظنَّ بالله ورسوله ، قال: فقال رسول الله (ص) : «فإنَّ الله ورسولَه ليصدِّقانكم ، ويعذرانكم». [أحمد (٢/٥٣٨ ـ ٥٣٩) ، ومسلم (١٧٨٠)][(٤٧٠)].

سابعاً: إسلام عبد الله بن الزِّبَعْرى شاعر قريش:

لما فُتِحَتْ مكَّةُ فرَّ عبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهميُّ إلى نجران ، فلحقته قوافي حسَّان ، فقد كان خصماً عنيداً للإسلام ، فراح يعيِّره بالجُبْن ، والفِرار ، فقال له:

لاَ تَعْدِمَنْ رَجُلاً أَحَلَّك بُغضُهُ		نَجْرَانَ فِي عَيْشٍ أَحذَّ لَئِيْمِ[(٤٧١)]

أي: فَلْيُبْقِ الله لنا محمَّداً (ص) هذا الرَّجل العظيم الَّذي أحلَّك بغضُه ديارَ نجران ، وليُدمِ الله عليك ابن الزِّبعرى عيشاً مهيناً أشأم.

ثمَّ راح حسَّان يستنزل غضب اللهِ ومَقْتَه على ابن الزِّبعرى وعلى نجله ، ويسأل الله تعالى أن يخلِّده في سوء العذاب ، وأليمه[(٤٧٢)]:

غَضِبَ الإِلَهُ عَلَى الزِّبَعْرَى ، وَابْنَهُ		وعَذَابُ سُوءٍ فِي الحَيَاةِ مُقِيْمُ

فتطايرت تلك الأبيات ، ووصلت إلى ابن الزِّبَعْرَى ، فقام ، وقعد ، وقلب أموره ، ثمَّ أراد الله به الخير ، فعزم على الدُّخول في الإسلام ، ثمَّ توَّجه إلى مكَّة ، وقصد رسول الله (ص) وأعلن إسلامه ، وطلب مِنْ رسول الله (ص) أن يستغفر له كلَّ عداوةٍ له ، وللإسلام ، فقال له رسول الله (ص) : «إن الإسلام يجبُّ ما قبله[(٤٧٣)]» ، ثمَّ أدناه رسول الله (ص) منه ، وانسه ، ثمَّ خلع عليه حلَّةً[(٤٧٤)] ، وقد أجمع الرُّواة أنَّ ابن الزِّبَعْرَى رضي الله عنه قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله (ص)[(٤٧٥)] ، قال ابن عبد البرّ ـ رحمه الله ـ: وله ـ أي: لابن الزِّبَعْرى ـ في مدح النَّبي (ص) أشعارٌ كثيرةٌ ، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كُفْرِه[(٤٧٦)].

وكذا نصَّ ابنُ حجرٍ في الإصابة: ثمَّ أسلم ، ومدح النَّبيَّ (ص) ، فأمر له بِحُلَّةٍ[(٤٧٧)].

وقال القرطبي: «وكان شاعراً مُجيداً ، وله في مدح النَّبيِّ (ص) أشعارٌ كثيرةٌ ، ينسخ بها ما قد مضى في كفره»[(٤٧٨)] ، وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام ، وَمِنَ الشُّعراء الَّذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين ، ثمَّ منَّ اللهُ عليه بالتَّوبة والإنابة ، والرُّجوع إلى الإسلام ، والقيام بنصره والذَّبِّ عنه[(٤٧٩)].

ومن القصائد الرَّائعة الَّتي قالها في مدح النَّبيِّ (ص) ، وندمه على محاربة الإسلام، وتأخُّره في الدُّخول فيه:

مَنَعَ الرُّقَادَ بَلابِلٌ وهُمُومُ		واللَّيْلُ مُعْتَلِجُ[(٤٨٠)] الرِّوَاقِ[(٤٨١)] بَهِيْمُ[(٤٨٢)]

مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لامَنِيْ		فِيْهِ فَبِتُّ كَأَنَّنِي مَحْمُوْمُ

يا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَى أَوْصَالِهَا		عَيْرَانَةٌ[(٤٨٣)] سُرُحُ الْيَدَيْنِ غَشُوْمُ[(٤٨٤)]

إِنِّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذيْ		أَسْدَيْتُ إِذ أَنَا فِي الضَّلالِ أَهِيْمُ

أَيَّامَ تَأْمُرُنِي بِأَغْوَى خُطَّةٍ		سَهْمٌ وتَأْمُرُنِي بِهَا مَخْزُوْمُ

وأمدُّ أَسْبَابَ الرَّدَى ويَقُودُنِي أَمْرُ الغُوَاةِ وأَمْرُهُمْ مَشْؤومُ
فالْيَوْمَ امَنَ بالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَلْبِي وَمُخْطِأىُ هَذِهِ مَحْرُوْمُ
مَضَتِ الَعَداوَةُ وانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا ودَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلوْمُ
فاغْفِرْ فِدىً لكَ والِدَيَّ كِلاَهُمَا زَلَلِيْ فإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُوْمُ
وعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ المِلِيْكِ عَلاَمَةٌ نُوْرٌ أَغَرُّ وخاتَمٌ مَخْتُومُ
أعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ شَرَفاً وبُرْهَانُ الإِلهِ عَظِيْمُ
وَلَقَدْ شَهِدْتُ بأنَّ دِيْنَكَ صَادِقٌ حَقٌّ وأَنَّكَ في الْعِبَادِ جَسِيْمُ
واللهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفى مُسْتَقْبَلٌ في الصَّالِحِيْنَ كَرِيْمُ
قَرْمٌ عَلاَ بُنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ فَرْعٌ تَمَكَّنَ في الذُّرا وأُرُوْمُ[(٤٨٥)]

ثامناً: من الأحكام الشَّرعيَّة الَّتي تؤخذ من الغزوة ، ومكانُ نزول الرَّسول (ص) بمكَّة:

١ ـ اتَّضحت كثير من الأحكام الشَّرعيَّة خلال فتح مكَّة؛ منها:

أ ـ جواز الصَّوم ، والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصيةٍ؛ حيث صام الرَّسول (ص) في مسيرة الجيش من المدينة حتَّى بلغ كُدَيْداً ، فأفطر[(٤٨٦)].

ب ـ صلَّى النَّبيُّ (ص) صلاة الضُّحى ثمانيَ ركعاتٍ خفيفةً ، واستدلَّ قوم بهذا على أنَّها سنَّةٌ مؤكَّدةٌ(١).

ج ـ قصر الصَّلاة الرُّباعية للمسافر ، فقد أقام النَّبيُّ (ص) بمكَّة تسعةَ عَشَرَ يوماً يقصر الصَّلاة[(٤٨٧)].

د ـ تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدَّة ثلاثة أيام[(٤٨٨)] ، ويرى الإمام النَّوويُّ[(٤٨٩)]: أنَّه وقع تحريمه ، وإباحته مرَّتين؛ إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر ، فحُرِّم يومها ، ثمَّ أبيح يوم الفتح ، ثمَّ حُرِّم للمرة الثَّانية إلى الأبد. ويرى ابن القيِّم[(٤٩٠)]: أن المتعة لم تُحرَّم يوم خيبر ، وإنَّما كان تحريمها فقط يوم الفتح ، وله في هذا مناقشةٌ طويلةٌ عند كلامه عن الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث غزوة خيبر ، وغزوة الفتح. والمتَّفق عليه: أنَّها حرِّمت إلى الأبد بعد الفتح[(٤٩١)].

هـ قرَّر الرَّسول (ص) : أنَّ الولد للفراش ، وللعاهر الحجر. [سبق تخريجه]. كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة زمعة ، فقد تنازع فيه سعدُ بن أبي وقَّاص وعبد بن زمعة ، فقضى فيه رسول الله (ص) لعبد بن زمعة؛ لأنَّه ولد على فراش أبيه. [سبق تخريجه].

و ـ عدم جواز الوصيَّة بأكثر من ثلث المال ، كما في قصَّة سعد بن أبي وقَّاص حين مرض بمكَّة ، واستشار الرَّسول (ص) في أن يوصيَ بأكثر من الثُّلث[(٤٩٢)].

هذه بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث الغزوة ، والفتح العظيم.

٢ ـ مكان نزول الرَّسول (ص) بمكَّة:

نزل رسولُ الله (ص) بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين ، وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته: «وهل ترك لنا عقيلٌ من رباع ، أو دور؟!» [البخاري (١٥٨٨) ، ومسلم (١٣٥١)] مبيناً: أنَّه لا يرث المسلم الكافر [البخاري (٦٧٦٤) ، ومسلم (١٦١٤)][(٤٩٣)] ، وكان عقيل قد ورث أبا طالب ، هو وطالب أخوه ، وباع الدُّورَ كلَّها ، وأمَّا عليٌّ ، وجعفرٌ فلم يرثاه لأنَّهما مسلمان ، وأبو طالب مات كافراً[(٤٩٤)].

تاسعاً: من نتائج فتح مكَّة:

كان لفتح مكَّة نتائجُ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ دخلت مكَّة تحت نفوذ المسلمين ، وزالت دولة الكفر منها ، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشِّرك في حنين ، والطائف ، ومن ثَمَّ في العالم أجمع.

٢ ـ أصبح المسلمون قوةً عظمى في جزيرة العرب ، وبعد فتح مكَّة تحقَّقت أمنية الرَّسول (ص) بدخول قريش في الإسلام ، وبرزت قوَّةٌ كبرى في الجزيرة العربيَّة لا يستطيع أيُّ تجمُّعٍ قبليٍّ الوقوف في وجهها ، وهي مؤهَّلةٌ لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ، ثمَّ الانطلاق إلى الأقطار المجاورة؛ لإزالة حكومات الظلم ، والطُّغيان ، وتأمين الحرِّيَّة لخلق الله؛ لكي يدخلوا في دين الله ، ويعبدوه وحده دون سواه[(٤٩٥)].

٣ ـ كان لهذا الفتح اثارٌ عظيمةٌ دينيَّةٌ ، وسياسيَّةٌ ، واجتماعيَّة ، وقد بدأت هذه الاثار بصورة يلمَسُها كلُّ مَنْ يُمعن النَّظر في هذا الفتح المبارك.

فأمَّا الاثار الاجتماعيَّة؛ فتمثَّلت في رفقه (ص) بالنَّاس ، وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم ، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم، وتعيين من يُعلِّمهم ، ويفقِّههم في دينهم فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكَّة بعد انصرافه عنها ليصلِّيَ بالنَّاس ، ويفقِّههم في دينهم.

وأمَّا الاثار السِّياسيَّة ، فقد عيَّن عتَّابَ بْنَ أَسِيْدٍ أميراً على مكَّة ، يحكم بين النَّاس بكتاب الله ، فيأخذ لضعيفهم ، وينتصر للمظلوم من الظَّالم[(٤٩٦)].

وأمَّا الاثار الدِّينيَّة؛ فإنَّ فتح مكة ، وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعاً بأن الإسلام هو الِّدين الَّذي ارتضاه الله لعباده ، فدخلوا فيه أفواجاً[(٤٩٧)].

٤ ـ تحقَّق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصَّادقين، بعدما ضحَّوا بالغالي، والنَّفيس، وحقَّقوا شروط التَّمكين، وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحله، وتعاملوا مع سننه، كسنَّة الابتلاء، والتَّدافع، والتَّدرُّج ، وتغيير النُّفوس ، والأخذ بالأسباب ، ولا ننسى تلك الصُّورة الرَّائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذِّناً بالصَّلاة بعد أن عُذِّبَ في بطحاء مكَّة ، وهو يردد: أحد! أَحد! في أغلاله وحديده ، هاهو اليوم قد صعد فوق الكعبة ليرفع صوته الجميل بالأذان؛ وهو في نشوة الإيمان.

* * *

الفصل السَّادس عشر

غزوة حنين ، والطَّائف (٨ هـ)[(٤٩٨)]

المبحث الأوَّل

أسبابها ، وأحداث المعركة

لما فتح الله مكَّة على رسوله، والمؤمنين ، وخضعت له قريشٌ ، خافت هوازن ، وثقيفٌ ، وقالوا: قد فرغ محمَّد لقتالنا ، فلنغزُه قبل أن يغزونا ، وأجمعوا أمرهم على هذا ، وولَّوْا عليهم مالكَ بن عوف النَّصْريَّ ، فاجتمع إليه هوازن ، وثقيف وبنو هلال ، ولم يحضرها من هوازن كعبٌ ، وكلابٌ ، وكان معهم دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة ، وكان معروفاً بشدَّة البأس في الحرب ، وأصالة الرَّأي ، إلا أنَّه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأي ، والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يُخرجوا وراءهم النِّساء والذَّراري ، والأموال حتى لا يفرُّوا ، فلمَّا علم بذلك دُرَيْدُ؛ سأله: لِمَ ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كلِّ رجلٍ أهلَه ، ومالَه؛ ليقاتل عنهم ، فقال دُرَيْدُ: راعي ضأنٍ والله ، وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ؟! إنَّها إن كانت لك؛ لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ، ورمحه ، وإن كانت عليك؛ فُضِحْتَ في أهلك ومالك!! ولكنَّه لم يستمع لمشورته[(٤٩٩)].

أوَّلاً: أهمُّ أحداث غزوة حنين:

تحرَّك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال ، ووصلوا حنين في مساء العاشر من شوَّال[(٥٠٠)] ، وقد استخلف الرَّسول (ص) عَتَّابَ بْنَ أَسِيْدٍ على مكَّة عند خروجه ، وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفاً من المسلمين ، أمَّا عدد هوازن ، وثقيف: فكانوا ضعف عدد المسلمين ، أو أكثر ، ولما رأى بعض الطُّلقاء جيش المسلمين؛ قالوا: لن نُغْلَبَ اليوم من قلَّة ، ودخل الإعجابُ في النُّفوس[(٥٠١)].

أ ـ التعبئة الَّتي اتَّخذها مالكُ بن عوف زعيمُ هوازن ، وثقيف:

اتَّخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئةً عاليةً ، مرَّت بمراحل:

١ ـ رفع الرُّوح المعنويَّة لدى جنوده:

وقف مالك خطيباً في جيشه ، وحثَّهم على الثَّبات ، والاستبسال ، وممَّا قال في هذا الجمع الحاشد: إنَّ محمداً لم يقاتل قطُّ قبل هذه المرَّة ، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً[(٥٠٢)] ، لا علم لهم بالحرب فيُنصَرُ عليهم[(٥٠٣)].

٢ ـ حشر ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش:

أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين ، وأطفالهم ، وأموالهم خلفهم ، وقد قصد من وراء هذا التَّصرُّف دفع المقاتلين إلى الاستبسال ، والثبات أمام أعدائهم؛ لأنَّ المقاتل ـ من وجهة نظره ـ إذا شعر أنَّ أعزَّ ما يملك وراءهُ في المعركة؛ صعُب عليه أن يلوذ بالفرار مخلِّفاً ما وراءه في ميدان المعركة؛ عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه ، قال: افتتحنا مكَّة ، ثمَّ غزونا حنيناً ، فجاء المشركون بأحسن صفوفٍ رأيتُ ، قال: فصُفَّتِ الخَيْلُ ، ثُمَّ صُفَّت المقاتلة ، ثمَّ صُفَّتِ النِّساءُ من وراء ذلك ، ثُمَّ صُفَّتِ الغنم ، ثم صُفَّتِ النَّعَمُ. [مسلم (١٣٦/١٠٥٩)].

٣ ـ تجريد السُّيوف ، وكسر أجفانها:

جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال ، وهذا التَّصرُّف يؤذن بإصرار المقاتل على الثَّبات أمام الخصم حتَّى النَّصر أو الموت ، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقاً لهذا ، بدليل قوله: إذا أنتم رأيتم القوم؛ فاكسروا جفون سيوفكم ، وشدُّوا شدَّة رجلٍ واحدٍ عليهم. [الحاكم (٤٨/٣ ـ ٤٩) ، ومجمع الزوائد (١٧٩/٦ ـ ١٨٠)].

٤ ـ وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كان عند مالك بن عوف النَّصْرِيِّ معلوماتٌ وافيةٌ عن الأرض الَّتي ستدور عليها المعركة ، ولهذا رأى أن يستغلَّ هذه الظُّروف الطَّبيعيَّة لصالح جيشه ، فعمل بمشورة الفارس المحنَّك دُرَيْدُ بن الصِّمَّة في نصب الكمائن لجيوش المسلمين ، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على
قوات المسلمين لولا لطفُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعنايتُه.

٥ ـ الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين:

كان ضمنَ الخطَّة الَّتي رسمها القائد الهوازنيُّ الأخذُ بزمام المبادرة ، ومهاجمة المسلمين؛ لأنَّ النَّصر في الغالب يكون للمهاجم ، أمَّا المدافع فغالباً ما يكون في مركز الضَّعف ، ولهذا اتت هذه الخطَّة ثمارها بعض الوقت ، ثمَّ انقلبت موازين القوى ـ بفضل الله تعالى ـ ثمَّ بثبات رسول الله (ص) حيث كسب المسلمون الجولة ، وانتصروا على أعدائهم[(٥٠٤)].

٦ ـ شن الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين:

كان من ضمن بنود الخطَّة الحربيَّة الَّتي رسمها القائد مالك بن عوف الهوازنيُّ ، استعمال سلاحٍ معنويٍّ ، له تأثيرٌ كبيرٌ في النُّفوس ، فقد شنَّ الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم ، وذلك بأن عمد إلى عشرات الالاف من الجمال الَّتي صحبها معه في الميدان ، فجعلها وراء جيشه ثمَّ أركب عليها النساء ، فكان لذلك المشهد منظرٌ مهيب يحسب من يراه: أنَّ هذا الجيش مئة ألف مقاتلٍ ، وهو ليس كذلك[(٥٠٥)].

ب ـ خطوات الرَّسول (ص) لصدِّ هذه الحشود:

لما بلغ النبي (ص) عزم هوازن على حربه بعد أن تمَّ له فتح مكَّة ـ شرَّفها الله ـ قام بالاتي:

١ ـ أرسل عبدَ الله بن أبي حَدْرَد الأَسْلميَّ حتَّى يوافيه بخبر هوازن:

فذهب رضي الله عنه ، ومكث بينهم يوماً أو يومين ، ثم عاد ، وأخبر النَّبي (ص) بما رأى[(٥٠٦)].

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرَّسول (ص) وعاد على وجه السُّرعة بخبر هؤلاء الأعداء ، إلا أنَّه قصَّر رضي الله عنه في أداء هذا الواجب؛ حيث لم يختلط بهوازن اختلاطاً كاملاً بحيث يسمع ، ويرى ما يُدبَّر ضدَّ المسلمين هناك ، وكان من أهمِّ ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين الَّتي احتلُّوها ، وقد فوجأى المسلمون باختفاء تلك الكمائن الَّتي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي ، حتَّى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى ، فكان الجهل بهذه الكمائن أحدَ الأسباب الرَّئيسة وراء هزيمة المسلمين في أوَّل المعركة ، وما حدث نتيجةً لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثَّابتة

لرسول الله (ص) ؛ لأنَّ هذا الأمر ليس وحياً من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإنَّما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكريَّة ، وقد

بذل النَّبيُّ (ص) جهده في سبيل الحصول على أدقِّ المعلومات ، وأوفاها؛ لكي يضع على ضوئها الخطَّة العسكريَّة المناسبة لمجابهة العدوِّ[(٥٠٧)].

٢ ـ عُدَّة الجيش ، واستعارة الدُّروع ، والرِّماح:

أعدَّ رسول الله (ص) جيشاً قوامه عشرة الاف ، وهم مَنْ خرجوا معه من المدينة ، وألفان من مسلمة الفتح ، فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفاً ، عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لما كان يوم حنين؛ أقبلت هوازن ، وغطفان بذراريهم ، ونَعَمِهم؛ ومع النَّبِيِّ (ص) يومئذٍ عشرة الاف ، ومعه الطُّلقاء[(٥٠٨)] ، وهم ألفان [مسلم (١٠٥٩/١٣٥)] ، وسعى (ص) لتأمين عُدَّة الجيش فطلب من ابن عمِّه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة الاف رمح إعارةً ، وطلب من صفوان بن أميَّة دروعاً ، وتكفَّل (ص) بالضَّمان ، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهم. عن صفوان بن يعلى بن أميَّة عن أبيه عن النَّبِيِّ (ص) قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم ـ أو قال: فادفع إليهم ـ ثلاثين درعاً ، وثلاثين بعيراً ، أو أقلَّ من ذلك» فقال له: العارية مؤدَّاة يا رسول الله؟! قال: فقال النَّبيُّ (ص) : «نعم» [أحمد (٢٢٢/٤) ، وأبو داود (٣٥٦٦) ، والنسائي في السنن الكبرى (٥٧٤٤)].

وفي روايةٍ: أنَّ رسول الله (ص) استعار منه يوم حنين دروعاً ، فقال: أغصباً يا محمد؟! قال: «لا ، بل عاريةٌ مضمونةٌ». قال: فضاع بعضها ، فعرض عليه رسول الله (ص) أن يضعها له ، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب. قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ، ثمَّ أسلم. [أحمد (٤٦٥/٦) ، وأبو داود (٣٥٦٢) ، والحاكم (٤٩/٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٨٩/٦)].

٣ ـ ثباته (ص) وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين ، واختاروا مواقعهم ، وبثُّوا كتائبهم في شعابه ، ومنعطفاته ، وأشجاره ، وكانت خطَّتهم تتمثَّل في مباغتة المسلمين بالسِّهام في أثناء تقدُّمهم في وادي حنين المنحدر. لقد باغت المشركون المسلمين ، وأمطروهم من جميع الجهات ، فاضطربت صفوفهم ، وماج بعضهم في بعضٍ ، ونتيجةً لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ، ولاذوا بالفرار ، كلٌّ يطلب النَّجاة لنفسه ، وبقي الرَّسول (ص) ، ونفرٌ قليل في الميدان يتصدَّوْن لهجمات المشركين ، ونترك العباس عمَّ الرسول (ص) يصف

لنا ذلك المشهد المهيب ، حيث يقول: شهدت مع رسول الله (ص) يوم حنين ، فلزمتُ أنا ، وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله (ص) ، فلم نفارقه ،

ورسول الله (ص) على بغلةٍ له بيضاء ، فلمَّا التقى المسلمون والكفار ؛ وَلَّى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله (ص) يَرْكُضُ بغلته قِبَلَ الكفار ، قال العباس: وأنا اخذ بلجام بغلة رسول الله (ص) أَكُفُّها إرادة ألاَّ تسرع ، فقال رسول الله (ص) : «أي عباس ! نادِ أصحاب السَّمُرَة».

فقال العباس ـ وكان رجلاً صَيِّتاً ـ فقلت: بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله! لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطْفَةُ البقر على أولادها ، فقالوا: يا لبيك! يا لبيك! قال: فاقتتلوا والكفَّارَ ، والدَّعوةُ في الأنصار ، يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثمَّ قُصِرتِ الدَّعوة على بني الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله (ص) وهو على بغلته ، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله (ص) : «هذا حينَ حميَ الوطيسُ». [مسلم (١٧٧٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/٣٧٩ ـ ٣٨٠) ، وابن هشام (٤/٨٧)].

لقد أيّد الله نبيَّه (ص) يوم حنينٍ بأمورٍ ، منها:

* نزول الملائكة من السَّماء.

* سلاح الرُّعب[(٥٠٩)].

* تأثير قبضتي الحصى والتُّراب في أعين الأعداء.

من الأسلحة المادِّية الَّتي أيَّد الله بها رسولَه (ص) يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتُّراب اللَّتين رمى بهما وجوه المشركين ، حيث دخل في أعينهم كلِّهم من ذلك الحصى والتُّراب ، فصار كلُّ واحد يجد لها في عينيه أثراً ، فكان من أسباب هزيمتهم[(٥١٠)] ، قال العبَّاس رضي الله عنه: ثمَّ أخذ رسول الله (ص) حصياتٍ ، فرمى بهنَّ وجوه الكفَّار. ثمَّ قال: «انهزموا وربِّ محمَّد!» قال: فذهبت أنظر فإذا القتالُ على هيئته فيما أرى ، قال: فوالله! ما هو إلا أن رماهم بحصياته ، فما زلت أرى حدَّهم كليلاً ، وأمرهم مُدْبراً. [سبق تخريجه].

ثانياً: مطاردة فلول الفارِّين إلى أوطاس ، والطَّائف:

أ ـ قال أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه:

لما فرغ النَّبيُّ (ص) من حنين؛ بعث أبا عامر على جيشٍ إلى أوطاس ، فلقي دُريد بن الصِّمَّة ، فَقُتِل دُرَيْدُ ، وهزم الله أصحابه ، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر ، فرُمي أبو عامر في رُكبته ، رماه جُشميٌّ

بسهمٍ فأثبته في رُكبته ، فانتهيت إليه ، فقلت: يا عمُّ! مَنْ رماك؟ فأشار إلى أبي موسى ، فقال: ذاك قاتلي الَّذي رماني ، فقصدت له ، فلحقته ، فلما راني وَلَّى ، فاتَّبَعْتُهُ ،

وجعلت أقول له: ألا تستحي ، ألا تثبت ، فكفَّ. فاختلفنا ضربتين بالسَّيف فقتلتُه ، ثمَّ قلت لأبي عامرٍ ، قتل الله صاحبك. قال: فانْزِع هذا السَّهم ، فنزعتُه ، فنزل منه الماء.

قال: يابن أخي! أقرأى النَّبيَّ (ص) السَّلام ، وقل له: استغفر لي ، واسْتَخْلَفَني أبو عامرٍ على النَّاس ، فمكث يسيراً ثمَّ مات. فرجعتُ ، فدخلت على النَّبيِّ (ص) في بيته على سريرٍ مُرْمَلٍ[(٥١١)] ، وعليه فراش قد أثَّر رمالُ السَّرير بظهره ، وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا ، وخبر أبي عامر ، وقوله: قل له: استغفر لي ، فدعا بماء ، فتوضَّأ ، ثمَّ رفع يديه فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعُبيد أبي عامر». ورأيت بياضَ إبطيه. ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ! اجعله يوم القيامة فوق كثيرٍ من خلقك من النَّاس» فقلت: ولي فاستغفر ، فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعبد الله بن قيس ذنبَه ، وأدخله يوم القيامة مُدْخلاً كريماً».

قال أبو بردة[(٥١٢)]: إحداهما لأبي عامر ، والأخرى لأبي موسى. [البخاري (٢٨٨٤) ، ومسلم (٢٤٩٨)].

ب ـ محاصرة الفارّين إلى الطائف:

حاصر رسول الله (ص) أهل الطَّائف واستخدم أساليب متنوعةً في القتال ، والحصار ، ومارس الشُّورى ، واختار المكان المناسب عند الحصار ، واستخدم الحرب النَّفسيَّة ، والدِّعاية في صفوف الأعداء ، ومن هذه الأساليب:

١ ـ استخدم (ص) أسلوباً جديداً في القتال:

استعمل النَّبيُّ (ص) في حصاره للطَّائف أسلحةً جديدةً لم يسبق له أن استعملها من قبلُ ، وهذه الأسلحة هي:

ـ المنجنيق:

فقد ثبت: أنَّ الرَّسول (ص) استعمل هذا السِّلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطَّائف ، فعن مكحولٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ (ص) نصب المنجنيق على أهل الطَّائف. [أبو داود في المراسيل (٣٣٥) ، والترمذي في نهاية الحديث (٢٧٦٢)].

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثَّقيلة ذات التأثير الفعَّال على من وُجِّهَت إليه ، فبحجارته تُهدَّم الحصون والأبراج ، وبقنابله تُحرَّق الدُّور والمعسكرات ، وهذا النَّوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته ، واستخدامه عند القتال[(٥١٣)].

. الدَّبابة:

ومن أسلحة الحصار الثَّقيلة الَّتي استعملها الرَّسول (ص) لأوَّل مرَّةٍ في حصار الطائف: الدَّبابة ، والدَّبابة على شكل بيت صغير تُعمل من الخشب ، وتُتَّخذ للوقاية من سهام الأعداء ، عندما يُراد نقض جدار الحصن ، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرَّمي[(٥١٤)].

. الحسَك الشَّائِك:

من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرَّسول (ص) في حصاره لأهل الطائف الحسَّك الشَّائك ، وهو من وسائل الدِّفاع الثابتة ، ويُعمل من خشبتين تُسمَّران على هيئة الصليب ، حتَّى تتألَّف منها أربعةُ شعبٍ مدبَّبة ، وإذا رُمي في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل ، والمشاة ، فتتعطَّل حركة السَّير السَّريعة المطلوبة في ميدان القتال[(٥١٥)].

وقد ذكر أصحاب المغازي ، والسِّير: أنَّ الرَّسول (ص) استعمل هذا السِّلاح في حصاره لأهل الطَّائف ، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشَّائك حول حصن ثقيف[(٥١٦)] وفي هذا إشارة لقادة الأمَّة خصوصاً ، والمسلمين عموماً ألاَّ يعطِّلوا عقولهم ، وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النَّافع ، والجديد الَّذي يُحَقِّق للأمَّة مصلحة الدَّارين ، ويدفع عنها شرور أعدائها.

٢ . اختيار رسول الله (ص) مكاناً مناسباً عند القتال:

نزل الجيش في مكانٍ مكشوف قريبٍ من الحصن ، وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السِّهام؛ فأصيب من جرَّاء ذلك ناسٌ كثيرون، وحينئذٍ عرض الحُبَابُ بنُ المنذر على الرَّسول (ص) فكرة التَّحوُّل من هذا الموقع إلى مكانٍ امنٍ من سهام أهل الطَّائف ، فقبل (ص) هذه المشورة ، وكلَّف الحُبَاب؛ لكونه من ذوي الخبرات الحربيَّة الواسعة في هذا المجال بالبحث عن موقعٍ ملائم لنزول الجند ، فذهب رضي الله عنه ثمَّ حدد المكان المناسب ، وعاد فأخبر النَّبيَّ (ص) بذلك ، فأمر النَّبيُّ (ص) جيشه بالتَّحوُّل إلى المكان الجديد.

وهذا شاهد عيان يحدِّثنا عَمَّا رأى ، قال عمرو بن أميَّة الضَّمريُّ رضي الله عنه: لقد اطلع علينا مِنْ نبلهم ساعة نَزَلْنا شيءٌ الله به عليم ، كأنَّه رَجْلُ جرادٍ ، وترَّسنا لهم حتَّى أصيب ناسٌ من المسلمين بجراحةٍ ، ودعا رسول الله (ص) الحُبَاب ، فقال: «انظر مكاناً مرتفعاً مستأخراً عن
القوم» فخرج الحُبَاب حتَّى انتهى إلى موضع مسجد الطَّائف[(٥١٧)] خارج القرية، فجاء إلى النَّبيِّ (ص) فأخبره ، فأمر النَّبيُّ (ص) أن يتحوَّلوا[(٥١٨)].

٣ ـ استخدام الحرب النَّفسيَّة والدِّعاية:

لما اشتدَّت مقاومة أهل الطائف ، وقتلوا مجموعةً من المسلمين؛ أمر النَّبيُّ (ص) بتحريق بساتين العنب ، والنَّخل في ضواحي الطَّائف للضغط على ثقيفٍ ، ثمَّ أوقف هذا العمل بعد أَثَرِهِ في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة ، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله وبالرَّحم أن يترك هذا العمل ، ووجَّه النَّبيُّ (ص) نداءً لِعَبِيدِ الطَّائف أنَّ من ينزل من الحصن ، ويخرج إلى المسلمين فهو حرٌّ ، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثَّقفي، فأسلموا ، فأعتقهم ، ولم يعدهم إلى ثقيفٍ بعد إسلامهم[(٥١٩)].

٤ ـ الحكمة من رفع الحصار:

كانت حكمة رسول الله (ص) في رفع الحصار واضحةً ، فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعةً لها ، بل صارت ضمن سيادة الدَّولة الإسلاميَّة ، ولم تعد تستمدُّ قوَّتها إلا من امتناع حصونها ، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنَّك ، وقد استشار رسول الله (ص) مَنْ حوله في عمليَّة الحصار[(٥٢٠)] ، فقال نوفل بن معاوية الدِّيليُّ: ثعلب في حجرٍ؛ إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرَّك! فأمر رسول الله (ص) ابن الخطَّاب فأذَّن في النَّاس بالرَّحيل ، فضج النَّاس من ذلك ، وقالوا: نرحل ، ولم يُفتح علينا الطَّائف؟! فقال رسول الله (ص) : «فاغدوا على القتال» ، فغدوا فأُصيب المسلمون بجراحاتٍ ، فقال رسول الله (ص) : «إنا قافلون غداً إن شاء الله» ، فسُرُّوا بذلك ، وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسولُ الله (ص) يضحك. [البخاري (٤٣٢٥) ، ومسلم (١٧٧٨)]. فلمَّا ارتحلوا، واستقلُّوا، قال: «قولوا: ايبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون» [أحمد (٢/٢١) ، والبخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤)][(٥٢١)] ، وقيل: يا رسول الله! ادعُ الله على ثقيفٍ ، فقال: «اللَّهمَّ اهدِ ثقيفاً ، وائتِ بهم». [أحمد (٣/٣٤٣) ، والترمذي (٣٩٤٢) ، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢/٢٠١) ، وانظره في مشكاة المصابيح (٥٩٨٦)][(٥٢٢)].

* * *

البمحث الثاني

فقه الرَّسول (ص) في التَّعامل مع النُّفوس

ويظهر هذا الفقه في عدَّة مواقف من هذه الغزوة ، منها:

أ ـ لا رجعة لِلوَثَنِيَّة:

خرج مع رسول الله (ص) إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهليَّة ، وكانت لبعض القبائل شجرةٌ عظيمةٌ خضراء يقال لها: ذاتُ أنواطٍ ، يأتونها كلَّ سنةٍ ، فيعلِّقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، وبينما هم يسيرون مع رسول الله (ص) إذ وقع بصرهم على الشَّجرة ، فتحلَّبَتْ أفواههم على أعياد الجاهليَّة الَّتي هجروها ، ومشاهدها الَّتي طال عهدهم بها ، فقالوا: يا رسول الله! اجعل لنا «ذاتَ أنواطٍ» كما لهم «ذاتُ أنواطٍ» ، فقال رسول الله (ص) : «الله أكبر! قلتُم والذي نفس محمد بيده! كما قال قوم موسى لموسى: لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم. {اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ *} (٥/٢١٨) ، والترمذي (٢١٨٠) ، والبيهقي في الدلائل (٥/١٢٥)][(٥٢٣)].

وهذا يعبِّر عن عدم وضوح تصوُّرهم للتَّوحيد الخالص رغم إسلامهم ، ولكن النَّبيَّ (ص) أوضح لهم ما في طلبهم من معاني الشِّرك ، وحذَّرهم من ذلك ، ولم يعاقبهم ، أو يعنِّفهم؛ لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[(٥٢٤)] ، وقد سمح لهم الرَّسول (ص) بالمشاركة في الجهاد ، لأنَّه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحَّح اعتقاده تماماً من غبش الجاهليَّة ، وإنَّما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله ، وإن قصر في بعض أمور الدِّين الأخرى ، بل الجهاد مدرسةٌ تربويَّةٌ تعليميَّةٌ يتعلَّم فيه المجاهدون كثيراً من العقائد ، والأحكام ، والأخلاق ، وذلك لما يتضمَّنه من السَّفر ، وكثرة اللِّقاءات الَّتي يحصل فيها تجاذب الأحاديث ، وتلاقح الأفكار[(٥٢٥)].

ب ـ الإعجابُ بالكثرة يحجبُ نصر الله:

الإعجابُ بالكثرة حجب عن المسلمين النَّصر في بداية المعركة ، وقد عبَّر القران الكريم عن ذلك بقوله:

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ *} [التوبة: ٢٥].

وقد نبَّه إلى هذا رسول الله (ص) حينما أوضح: أنَّه «لا حول ، ولا قوَّة إلا بالله» فيقول: «اللَّهُمَّ بك أجُول ، وبك أَصُولُ ، وبك أُقَاتِل» [أحمد (٣٣٢/٣ و٣٣٣) ، وابن حبان (١٩٧٥) ، والنسائي في اليوم والليلة (٦١٤) ، والدارمي (٢٤٨٥)].

وهكذا أخذ الرَّسول (ص) يراقب المسلمين ، ويقوِّم ما يظهر من انحرافاتٍ في التَّصوُّر والسُّلوك حتَّى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العُتاة[(٥٢٦)].

وعلى الرَّغم من الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين ، وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة؛ لأنَّهم فوجئوا بما لم يتوقَّعوه ، فإنَّ رسول الله (ص) لم يعنِّف أحداً ممَّن فرَّ عنه؛ حتَّى حينما طالبه بعض المسلمين أن يقتل الطُّلَقَاء لأنَّهم فرُّوا ، ولم يوافق على هذا[(٥٢٧)].

ج ـ الغنائم وسيلةٌ لتأليف القلوب:

رأى (ص) أن يتألَّف الطُّلقاء ، والأعراب بالغنائم تأليفاً لقلوبهم؛ لحداثة عهدهم بالإسلام ، فأعطى لزعماء قريش ، وغطفان ، وتميم عطاءً عظيماً ، إذ كانت عطيَّة الواحد منهم مئةً من الإبل ، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام ، وصفوان بن أميَّة ، وعيينة بن حصن الفزاري ، والأقرع بن حابس ، ومعاوية ، ويزيد ابنا أبي سفيان ، وقيس بن عديٍّ[(٥٢٨)] ، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدُّنيا إلى حبِّ الإسلام ، أو كما قال أنس بن مالك: إنْ كان الرجل ليسلمُ ما يريد إلا الدُّنيا ، فما يسلمُ حتَّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدُّنيا وما عليها [سبق تخريجه].

وعبَّر عن هذا صفوان بن أميَّة فقال: لقد أعطاني رسولُ الله (ص) ما أعطاني ، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ. [سبق تخريجه].

وقد تأثَّر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشريَّة ، وتردَّدت بينهم قالةٌ ، فراعى (ص) هذا الاعتراض ، وعمل على إزالة التوتُّر ، وبيَّن لهم الحكمة في تقسيم الغنائم ، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانيّاً ، عقليّاً ، عاطفيّاً ، وجدانيّاً ، ما يملك القارأى المسلم على مر الدُّهور ، وكر العصور ، وتوالي الزَّمان إلا البكاء عندما يمرُّ بهذا الحدث العظيم ، فعندما دخل سعد بن عبادة على رسول الله (ص) ، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء؛ الذي أصبت

، قسمت في قومك؛ وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا مِنْ قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ، قال: فجاء رجالٌ من المهاجرين ، فتركهم ، فدخلوا ، وجاء اخرون فردَّهم.

فلمَّا اجتمعوا؛ أتى سعدٌ ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار ، فأتاهم رسول الله (ص) ، فحمِد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصار ، ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وَجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم ، ألم اتكم ضلالاً ، فهداكم الله بي ، وعالةً ، فأغناكم الله بي ، وأعداءً ، فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسولُه أمنُّ ، وأفضل ، ثمَّ قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟!» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المنُّ ، والفضل؟ قال: «أما والله لو شئتم؛ لقلتم ، فلصدقتم ، ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً ، فصدَّقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فاويناك ، وعائلاً فاسيناك ، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار! في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدُّنيا تألَّفت بها قوماً؛ ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب النَّاس بالشَّاء[(٥٢٩)] ، والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمدٍ بيده! لما تنقلبون به خيرٌ ممَّا ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ، ولو سلك النَّاس شِعباً ، وادياً ، وسلكت الأنصار شِعْباً ، ووادياً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار ، وواديها ، الأنصارُ شِعَارٌ ، والنَّاس دثار[(٥٣٠)] ، اللَّهُمَّ! ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتَّى أخضلوا لحاهم ، وقالوا: رضينا برسول الله (ص) قَسْماً وحظّاً، ثمَّ انصرف رسول الله (ص) وتفرَّقوا. [أحمد (٣/٧٦ ـ ٧٧)، ومجمع الزوائد (١٠/٣٢)][(٥٣١)]، وفي رواية: «إنَّكم ستلقون بعدي أثرةً ، فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض» [البخاري (٤٣٣٠) ، ومسلم (١٠٦١)].

وممَّا يجدر الإشارة إليه في هذا المقام: أنَّ هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلِّهم ، وإنَّما

قالها حديثو السِّنِّ منهم ، بدليل ما ورد في الصَّحيحين عن أنسِ بن مالك رضي الله عنه: أنَّ ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء ، فطفق رسول الله (ص) يعطي رجالاً من قريش المئة من الإبل ، فقالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً ، ويتركُنا ، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟! قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله (ص) مِنْ قولهم ، فأرسل إلى الأنصار ، فجمعهم في قبَّةٍ من أَدَمٍ ، فلمَّا اجتمعوا؛ جاءهم رسول الله (ص) فقال: «ما حديثٌ بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أمَّا ذوو رأينا يا رسول الله! فلم يقولوا شيئاً ، وأمَّا أُناسٌ منَّا حديثةٌ أسنانُهم؛ قالوا: يغفر الله

لرسول الله! يعطي قريشاً ، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ، فقال رسول الله (ص) : «فإني أعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفرٍ أتألَّفهم». [البخاري (٤٣٣١) ، ومسلم (١٠٥٩)].

ويرى الإمام ابن القيّم ـ استدلالاً بهذه الحادثة ـ: أنَّه قد يتعيَّن على الإمام أن يتألَّف أعداءه لاستجلابهم إليه ، ودفع شرّهم عن المسلمين ، فيقول: الإمام نائبٌ عن المسلمين ، يتصرَّف لمصالحهم وقيام الدِّين ، فإن تعيَّن ذلك ـ أي: التَّأليف ـ للدَّفع عن الإسلام ، والذَّبِّ عن حوزته ، واستجلاب رؤوس أعدائه إليه ، ليأمن المسلمون شرَّهم ، ساغ له ذلك ، بل تعيَّن عليه ، فإنَّه وإن كان في الحرمان مفسدةٌ ، فالمفسدة المتوقَّعة من فوات تأليف هذا العدوِّ أعظم ، ومبنى الشَّريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما ، بل بناء مصالح الدُّنيا ، والدِّين على هذين الأصلين[(٥٣٢)].

والتَّأليف لهذه الطَّائفة إنَّما هو من قبيل الإغراء ، والتَّشجيع في أوَّل الأمر ، حتَّى يخالط الإيمان بشاشة القلب ، ويتذوَّق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله ـ حقيقة هذا الأمر في مثالٍ محسوسٍ ، فيقول: «إنَّ في الدُّنيا أقواماً كثيرين يُقادون إلى الحق من بطونهم ، لا من عقولهم ، فكما تُهدى الدَّواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظلُّ تَمُدُّ إليها فمها ، حتَّى تدخل حظيرتها امنةً ، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتَّى تستأنس بالإيمان ، وتهشَّ له»[(٥٣٣)].

إنَّ النَّبيَّ (ص) ضرب للأنصار صورةً مؤثِّرةً: قومٌ يبشِّرون بالإيمان يقابلهم قومٌ يبشَّرون بالجِمال ، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشَّاء ، والبعير ، لقد أيقظتهم تلك الصُّور ، وأدركوا أنَّهم وقعوا في خطأٍ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه ، فانطلقت حناجرهم بالبكاء ، وماقيهم بالدُّموع ، وألسنتهم بالرِّضا ، وبذلك طابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم

بفضل سياسية النَّبيِّ (ص) الحكيمة في مخاطبة الأنصار[(٥٣٤)].

د ـ الصَّبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله (ص) الكثير من الصَّبر على جفاء الأعراب ، وطمعهم في الأموال ، وحرصهم على المكاسب ، فكان مثالاً للمربِّي الَّذي يدرك أحوالهم ، وما جبلتهم عليه بيئتُهم ، وطبيعةُ حياتهم من القساوة ، والفظاظة ، والرُّوح الفرديَّة ، فكان يبيِّن لهم خُلُقَه ، ويطمئنهم على مصالحهم ، ويعاملهم على قدر عقولهم ، فكان بهم رحيماً ، ولهم مربّياً ، ومصلحاً ، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع

رعاياهم؛ الَّذين كانوا ينحنون أمامهم ، أو يسجدون ، وكانوا دونهم محجوبين ، وإذا خاطبوهم؛ التزموا بعبارات التَّعظيم ، والإجلال كما يفعل العبد مع ربِّه، أمَّا الرَّسول (ص) فكان كأحدِهم يخاطبونه ، ويعاتبونه ، ولا يحتجب عنهم قطُّ، وكان الصَّحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدُّب بحضرته، ويخاطبونه بصوتٍ خفيضٍ، ويَكِنُّون له في أنفسهم المحبَّة العظيمة ، وأمَّا جفاة الأعراب؛ فقد عنفهم القران على سوء أدبهم ، وجفائهم ، وارتفاع أصواتهم ، وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول (ص)[(٥٣٥)] ، وهذه مواقف تدلُّ على حسن معاملة رسول الله (ص) للأعراب:

١ . الأعرابيُّ الذي رفض البُشْرَى:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النَّبيِّ (ص) . وهو نازلٌ بالجِعْرَانَةِ بين مكَّة والمدينة . ومعه بلالٌ ، فأتى النَّبيَّ (ص) أعرابيٌّ فقال: ألا تنجزُ لي ما وعدتني؟ فقال له: «أَبْشِر!» فقال: قد أكثرتَ عليَّ مِنْ (أبشر). فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان ، فقال: «رَدَّ البُشْرَى ، فاقبلا أنتما» قالا: قَبِلْنا. ثمَّ دعا بقدح فيه ماءٌ ، فغسل يديه ، ووجهه فيه ، ومجَّ فيه ، ثم قال: «اشْربَا منه ، وأفرغا على وجوهكما ، ونحوركما ، وأبشرا» فأخذا القدح ، ففعلا ، فنادت أمُّ سلمة من وراء السِّتر: أن أفضلا لأمِّكما. فأفضلا لها منه طائفةً. [البخاري (٤٣٢٨) ، ومسلم (٢٤٩٧)].

٢ . مقولة الأعرابِيّ: (ما أريد بهذه القسمة وجه الله!):

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: «لَّما كان يومُ حنينٍ اثر رسولُ الله (ص) ناساً في القِسْمَة ، فأعطى الأقرعَ بن حابسٍ مِئَةً من الإبل ، وأعطى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذلك ، وأعطى أناساً من أشراف العرب ، واثرهم يومئذ في القِسْمَة ، فقال رجلٌ: والله! إنَّ هذه القِسْمَة ما عُدِلَ فيها ، وما أُرِيدَ فيها وجهُ الله! قال: فقلتُ: والله لأخبرنَّ رسولَ الله (ص) ، قال: فأتيتُه ، فأخبرتُه بما قال ، قال: فتغيَّر وجْهُهُ حتَّى كان كالصِّرْفِ. ثمَّ قال: «فمْن يعدلُ إن لم يعدلِ اللهُ ورسولُه؟!» قال: ثمَّ قال:

«يرحم الله موسى! قد أُوذي بأكثرَ من هذا ، فَصَبَرَ». قال: قلت: لا جرمَ لا أرفعُ إليه بعدها حديثاً. [البخاري (٤٣٣٦) ، ومسلم (١٠٦٢)].

٣ . تعامله مع هوازن لما أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله (ص) بالجِعْرَانَةِ وقد أسلموا ، فقالوا: يا رسول الله! إنَّا أصلٌ وعشيرةٌ ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك ، فامنن علينا مَنَّ الله عليك ، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صُرد ، فقال: يا رسول الله! إنَّما في الحظائر من السَّبايا خالاتُك ، وحواضنُك اللاَّتي كن يكفلنك، ولو أنَّا

مَلَحْنَا لابن أبي شمر أو النُّعمان بن المنذر[(٥٣٦)] ثُمَّ أصابنا منها مثل الَّذي أصابنا منك رجونا عائدتهما ، وعطفهما ، وأنت رسول الله خير المكفولين ، ثمَّ أنشأ يقول:

أُمنُنْ عَلَيْنَا رسُولَ اللهِ في كرمٍ فإِنَّكَ المرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ[(٥٣٧)]

إلى أن قال:

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا إِذْ فوْكَ يَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا دَرَرُ

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا وإِذْ يَزِيْنُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم ، فعادت فواضله عليه السَّلام عليهم قديماً وحديثاً ، وخصوصاً ، وعموماً[(٥٣٨)].

فلما سمع رسول الله (ص) من الوفد قال لهم: «نساؤكم ، وأبناؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله! خيَّرتنا بين أحسابنا ، وأموالنا؟ بل أبناؤنا ، ونساؤنا أحبُّ إلينا ، فقال رسول الله (ص) : «أمَّا ما كان لي ، ولبني عبد المطلب، فهو لكم ، وإذا أنا صليت بالنَّاس فقوموا ، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله (ص) إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله (ص) في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم » فلمَّا صلَّى رسول الله (ص) بالنَّاس الظُّهر ؛ قاموا ؛ فقالوا ما أمرهم به رسول الله (ص) ، فقال: «أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله (ص) . وقال الأقرع بن حابس: أمَّا أنا وبنو تميم ؛ فلا ، وقال عُيَيْنةُ: أمَّا أنا وبنو فزارة؛ فلا ، وقال العبَّاس بن مرداس السُّلَمِيُّ: أما أنا، وبنو سليم ، فلا ، فقالت بنو سُليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله (ص) ، قال عبَّاس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله (ص) : «من أمسك منكم بحقِّه فله بكلِّ إنسان سِتُّ فرائض من أوَّل فيءٍ نصيبه» فردّوا إلى النَّاس نساءهم ،

وأبناءهم. [أحمد (٢/١٨٤) ، والطبراني في الكبير (٥٣٠٤) ، والطبري في تاريخه (٣/١٣٥) ، والبيهقي في الدلائل (٥/١٩٤ ـ ١٩٥) ، ومجمع الزوائد (٦/١٨٧ ـ ١٨٨)][(٥٣٩)].

وفي روايةٍ: ... فخطب رسول الله (ص) في المؤمنين ، فقال: «إنَّ إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين ، وإنِّي أردت أن أردَّ إليهم سبيهم ، فَمن أحبَّ منكم أن يطيِّبَ ذلك؛ فليفعلْ ، ومن أحبَّ أن يكون على حظِّه حتَّى نعطيه إيَّاه من أوَّل ما يفيء الله علينا ، فليفعلْ» فقال الناس: طيَّبْنا يا رسول الله! لهم ، فقال لهم: «إنَّا لا ندري من أَذِنَ منكم فيه ممَّن لم يأذن ، فارجعوا حتَّى يرفع إلينا عرفاؤكم أمرَكم». فرجع النَّاس

فكلمهم عرفاؤهم ، ثمَّ رجعوا إلى النَّبيِّ (ص) فأخبروه: أنَّهم طيَّبوا ، وأذنوا. [البخاري (٤٣١٨ و٤٣١٩) ، والبيهقي في الدلائل (٥/١٩٢)][(٥٤٠)].

وقد سُرَّ الرَّسول (ص) بإسلام هوازن ، وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النَّصريِّ ، فأخبروه: أنَّه في الطَّائف مع ثقيفٍ ، فوعدهم بردِّ أهله ، وأمواله عليه ، وإكرامه بمئةٍ من الإبل إن قدم عليه مسلماً ، فجاء مالكٌ مسلماً ، فأكرمه وأمَّره على قومه ، وبعض القبائل المجاورة ، ولقد تأثَّر مالك بن عوف ، وجادت قريحته لمدح النَّبيِّ (ص) فقال:

مَا إنْ رأَيْتُ ولاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ فِي النَّاسِ كُلِّهِمِ بِمِثْلِ مُحَمَّدِ

أَوْفَى وأَعْطَى لِلْجَزِيْلِ إِذَا اجْتُدِي وَمَتَى تَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ

وإذا الكَتِيْبَةُ عَرَّدَتْ[(٥٤١)] أَنْيَابُهَا بالسَّمْهرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ

فكأَنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ وَسْطَ الهَبَاءَةِ[(٥٤٢)] خَادِرٌ[(٥٤٣)] فِي مرْصَدِ[(٥٤٤)]

لقد كانت سياسته (ص) مع خصومه مرنةً إلى أبعد الحدود ، وبهذه السِّياسة الحكيمة استطاع (ص) أن يكسب هوازن ، وحلفاءها إلى صفِّ الإسلام ، واتَّخذ من هذه القبيلة القويَّة رأس حربةٍ يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الَّذي قاتل ثقيفاً في الطَّائف حتَّى ضيَّق عليهم ، وقد فكَّر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطَّائف من كلِّ مكان ، فلا تستطيع تحرُّكاً ، ولا تجارةً ، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام؛ مثل عروة بن مسعودٍ الثَّقفيِّ ، الَّذي سارع إلى اللَّحاق برسول الله (ص) وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين ، واعتمر من الجِعْرَانَةِ ، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة ، وأعلن

إسلامه ، وعاد إلى الطَّائف ، وكان من زعماء ثقيف محبوباً عندهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، وأذَّن في أعلى منزله ، فرماه بعضُهم بسهامٍ ، فأصابوه ، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطَّائف[(٥٤٥)].

إنَّ الإنسان ليعجب من فقه النَّبيِّ (ص) في معاملة النُّفوس ، وفي سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى ، لقد استطاع (ص) أن يزيل معالم الوثنيَّة ، وبيوتات العبادة الكفريَّة من مكَّة ، وما حولها ، ورتَّب (ص) الأمور التنظيمية للأراضي الَّتي أضيفت للدَّولة الإسلاميَّة ، فعيَّن عتَّاب بن أَسِيد أميراً على مكَّة ، وجعل معاذ بن جبل مرشداً ، وموجِّهاً ومعلِّماً ، ومربِّياً[(٥٤٦)] ، وعيَّن على هوازن مالك بن عوف قائداً ، ومجاهداً ، ثمَّ اعتمر ، ورجع إلى المدينة (ص) .

* * *

المبحث الثَّالث

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد

أولاً: تفسير الايات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ *ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

في الايات السَّابقة تصويرٌ بيانيٌّ بديعٌ لحال المسلمين ، فيه تنقُّلٌ بالسَّامع من صورةٍ إلى صورة: من صورة المسلمين؛ وهم معجبون بكثرتهم ، مسرورون بها ، إلى صورة فشلهم ، وهزيمتهم مع هذه الكثرة ، فلم تنفعهم ، إلى صورة الخوف الَّذي أصابهم حتَّى لم تعد الأرض تسعهم ، وأقفلت منافذها في وجوههم إلى الصُّورة الحسِّيَّة لهذا الفشل في الفرار ، والنُّكوص ، وتولية الأدبار حتَّى لم يبقَ حول النَّبي (ص) إلا القليل ، وبعد الخوف الشَّديد الَّذي أصاب المؤمنين في مبدأ لقائهم بأعدائهم في غزوة حنين يجيء نصر الله؛ الَّذي عبَّر عنه ـ سبحانه ـ بقوله: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *}

السَّكينة: الطُّمأنينة ، والرَّحمة ، والأمنة ، وهي من السُّكون ، وهو ثبوت الشَّيء بعد التَّحرُّك ، أو من السَّكن ، وهو كل ما سكنَت إليه ، واطمأنت به من أهلٍ ، وغيرِهم[(٥٤٧)].

وقوله تعالى: قال القاسميُّ: أي: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ} تسكنون ، وتثبتون به من رحمته ، ونصره ، وانهزام الكفار ، واطمئنان قلوبهم للكرِّ بعد الفرِّ أي: الَّذين {عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ} ، وإعادة الجارِّ للتنبيه على اختلاف حاليهما ، أو الَّذين ثبتوا

مع رسول الله (ص) ولم يفرّوا ، أو على الكلّ؛ وهو الأنسب[(٥٤٨)].

وقوله تعالى: : قال الطَّبريُّ: هي الملائكة

وقوله: {وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *}

أي: وعذَّب الذين كفروا بالقتل ، والسَّبي ، والأسر ، وذلك هو جزاء الكافرين في الدُّنيا ما داموا يستحبُّون الكفر على الإيمان ، ويعادون أهله ، ويقاتلونهم عليه[(٥٤٩)].

ثمَّ قال تعالى: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *}

أي: ويتوب الله من بعد هذا التَّعذيب على من يشاء من المشركين بأن يوفقهم للدُّخول في الإسلام ، والله غفورٌ رحيمٌ لمن تاب ، وامن ، فرحمتُه وسعت كلَّ شيءٍ[(٥٥٠)].

قال سيِّد قطب: «فبابُ المغفرة دائماً مفتوحٌ لمن يخطأى ، ثمَّ يتوب ، إنَّ معركة حُنين الَّتي يذكرها السِّياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد على قوَّةٍ غير قوَّته لَتَكْشِفُ لنا حقيقةً أخرى ضمنيَّةً ، حقيقة القوى الَّتي تعتمد عليها كلُّ عقيدة. إنَّ الكثرة العدديَّة ليست بشيءٍ ، إنَّما هي القلَّة العارفة ، المتَّصلة ، الثَّابتة ، المتجرِّدة للعقيدة ، ..... لقد قامت كلُّ عقيدةٍ بالصَّفوة المختارة ، لا بالزَّبد الَّذي يذهب جُفاءً ، ولا بالهشيم الَّذي تذروه الرِّياح»[(٥٥١)].

إنَّ غزوة حنين سُجِّلت في القران الكريم؛ لكي تبقى درساً للأمَّة في كلِّ زمانٍ ، ومكان ، ولقد عُرِضَتْ في القران الكريم على منهجيَّة ربانيَّة كان من أهم معالمها الاتي[(٥٥٢)]:

أ ـ بيَّن القران الكريم ، أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم. قال تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ} ، ثم بيَّن القران أنَّ هذه الكثرة لا تفيد {فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا}

ب ـ بيَّن القران الكريم: أنَّ المسلمين انهزموا ، وهربوا ما عدا النَّبيِّ (ص) ، ونفرٌ يسيرٌ من أصحابه. قال تعالى: {وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ *}

ج ـ بيَّن القران الكريم: أنَّ الله نصر رسوله (ص) في هذه المعركة ، وأكرمه بإنزال السَّكينة عليه ، وعلى المؤمنين. فقال تعالى: {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ}

د ـ بيَّن القران الكريم: أنَّ الله أمدَّ نبيَّه محمَّداً (ص) بالملائكة في حنين. قال تعالى: {وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *}

وأكَّد ـ سبحانه ـ على أنَّه يقبل التَّوبة من عباده ، ويوفِّق مَنْ شاء إليها. قال تعالى: {ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *}

ثانياً: أسباب الهزيمة ، وعوامل النَّصر في حُنين:

أ ـ أسباب الهزيمة:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى عدَّة أسباب ، منها:

١ ـ أنَّ شيئاً من العُجْبِ تسرب إلى قلوب المسلمين ، لما رأوا عددهم ، فقد قال رجلٌ منهم: لن نُغلب اليوم من قلَّة ، فشقَّ ذلك على النَّبيِّ (ص) ، فكانت الهزيمة.

٢ ـ خروج شبَّانٍ ليس لديهم سلاحٌ ، أو سلاحٌ كافٍ ، وإنَّما عندهم حماسٌ وتسرُّعٌ.

٣ ـ أنَّ عدد المشركين كان كثيراً ، بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤ ـ أنَّ مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حُنَيْن ، فتهيَّأ هنالك ، ووضع الكمائن والرُّماة في مضايق الوادي ، وعلى جوانبه ، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنِّبال ، وبالهجوم المباغت.

٥ ـ كان العدو مهيَّأ، ومنظَّماً ، ومستعدّاً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين ، فقد جاء المشركون بأحسن صفوفٍ رُئيت: صفّ الخيل ، ثمَّ المقاتلة ، ثمَّ النِّساء من وراء ذلك ، ثمَّ الغنم ، ثمَّ النَّعَم.

٦ ـ وجود ضعاف الإيمان الَّذين أسلموا حديثاً في مكَّة ، ففرُّوا ، فانقلبت أولاهم على أخراهم ، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل ، وهزيمة غيرهم[(٥٥٣)].

ب ـ عوامل النَّصر:

كانت عوامل النَّصر في حنين عدَّة أسباب منها:

١ ـ ثبات الرَّسول (ص) في القتال ، وعدم تراجعه ، ممَّا جعل الجنود يثبتون ، ويستجيبون لنداء القائد الثَّابت.

٢ ـ شجاعة القائد: فالرَّسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب؛ بل تقدَّم نحو عدوه راكباً بغلته ، فطفق يَرْكُضُ ببغلته قِبَل الكفار ، والعبَّاس اخذٌ بلجام البغلة يكفُّها ألاَّ تسرع.

٣ ـ ثبات قلَّةٍ من المسلمين معه ، وحوله حتَّى جاء الَّذين تولَّوا ، وأكملوا المسيرة ، مسيرة الثَّبات ، والبرِّ ، والقتال حتَّى النَّصر.

٤ ـ سرعة استجابة الفارِّين ، والتحاقهم بالقتال.

٥ ـ وقوع الجيش المعادي في خطأٍ عسكريٍّ قاتل ، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلاميِّ بعد فراره ، ممَّا أعطى فرصةً ثمينةً للجيش الإسلاميِّ ليلتقط أنفاسه ، ويعود إلى ساحة القتال ، ويستأنف القتال من جديدٍ بقيادة القائد الثابت الشُّجاع رسول الله (ص) .

٦ ـ رَمْيَةُ الحصى: فقد أخذ النَّبي (ص) حصياتٍ فرمى بهنَّ وجوه الكفار ثمَّ قال: «انهزموا وربِّ محمد!» [سبق تخريجه] .

٧ ـ الاستعانة ، والاستغاثة بالله ـ عز وجلَّ ـ: فقد كان الرسول (ص) يلحُّ على الله في الدُّعاء بالنَّصر على الأعداء.

٨ ـ إنزال الملائكة في الغزوة ، ومشاركتها فيها ، وقد سجَّل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التَّوبة[(٥٥٤)]: {وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ *}

ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين ، والطَّائف:

١ ـ نزول الاية الكريمة: {وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء: ٢٤] في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوِّجات ، وقد فرَّق السَّبي بَيْنَهُنَّ وبين أزواجهنَّ ، فأوضحت الاية جواز وطئهنَّ؛ إذا انقضت عدَّتهنَّ؛ لأنَّ الفرقة تقع بينهنَّ وبين أزواجهن الكفار بالسَّبي ، وتنقضي العدَّة بالوضع للحامل ، وبالحيض لغير الحامل[(٥٥٥)].

٢ ـ منع المخنثين خلقة من الدُّخول على النِّساء الأجنبيات: وكان ذلك مباحاً إذ لا حاجة للمخنَّث بالنِّساء ، وكان سبب المنع ما رواه البخاريُّ عن زينب بنت أبي سلمة عن أمِّها أمِّ سلمة: دخل عليَّ النبيُّ (ص) وعندي مخنَّثٌ ، فسمعتُه يقول لعبد الله بن أبي أميَّة: يا عبد الله! أرأيت إن فتح الله عليكم الطَّائف غداً ، فعليك بابنة غيلان ، فإنَّها تُقبل بأربعٍ وتُدْبِرُ بثمانٍ ، فقال النَّبيُّ (ص) : «لا يدخلَنَّ هؤلاء عليكم». [البخاري (٤٣٢٤)].

وفي هذا المنع حرص النَّبيِّ (ص) على سلامة أخلاق المجتمع الإسلاميِّ.

٣ ـ النَّهي عن قصد قتل النِّساء ، والأطفال ، والشُّيوخ ، وكذلك الأجراء ممَّن لا يشتركون

في القتال ضدَّ المسلمين: وقد ذكر ابن كثيرٍ: أنَّ رسول الله (ص) مرَّ يوم حنين بامرأةٍ قتلها خالدُ بن الوليد؛ والنَّاس متقصِّفون[(٥٥٦)] عليها ، فقال رسول الله (ص) : «ما كانت هذه لتقاتل» وقال لأحدهم: «الحق خالداً ، فقل له: لا يقتلن ذريةً ، ولا عسيفاً» وفي روايةٍ: فقال له: إنَّ رسول الله (ص) ينهاك أن تقتل وليداً ، او امرأة ، أو عسيفاً. [أحمد (٣/٤٨٨) ، وأبو داود (٢٦٦٩) ، وابن ماجه (٢٨٤٢) ، والنسائي في الكبرى (٨٥٧١ و٨٥٧٢ و٨٥٧٣) ، وابن حبان (٤٧٩١)].

٤ ـ تشريع العمرة من الجِعْرَانَةِ:

أحرم النَّبيُّ (ص) بعمرة من الجِعْرَانَةِ وكان داخلاً إلى مكَّة ، وهذه هي السُّنة لمن دخلها من طريق الطَّائف ، وما يليه ، وأمَّا ما يفعله كثيرٌ مما لا علم عندهم من الخروج من مكَّة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرةٍ ثمَّ يرجع إليها؛ فهذا لم يفعله رسول الله (ص) ، ولا استحبَّه أحدٌ من أهل العلم ، وإنَّما يفعله عوامُّ النَّاس ، زعموا أنَّه اقتداء بالنَّبيِّ (ص) ، وغلطوا ، فإنَّه إنَّما أحرم منها داخلاً إلى مكَّة ، ولم يخرج منها إلى الجِعْرَانةِ؛ ليحرم منها[(٥٥٧)].

٥ ـ إرشاده (ص) للأعرابيِّ بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحجِّ:

قال يعلى بن منيِّه: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ (ص) ، وهو بالجِعْرَانَةِ وعليه جبَّةٌ ، وعليها خلوقٌ[(٥٥٨)] ، أو قال: أثر صفرةٍ ، فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأُنزِل على النَّبيِّ (ص) الوحيُ ، فَسُتِرَ بثوبٍ ، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النَّبيَّ (ص) ، وقد أُنْزل الوحي عليه ، قال: فرفع عمر طرف الثَّوب عنه ، فنظرت إليه ، فإذا له غطيطٌ. قال: فلمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصُّفرة ـ أو قال ـ: أثر الخلوق ، واخلَعْ عنك جبَّتك ، واصنعْ في عمرتك ما أنت صانع في حجَّتك». [البخاري (١٥٣٦) ، ومسلم (١١٨٠)].

٦ ـ مَنْ قتل قتيلاً فله سَلَبُه:

قال أبو قتادة: لما كان يوم حنين نظرتُ إلى رجلٍ من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين ، واخر من المشركين يَخْتِلُه من ورائه ليقتله ، فأسرعت إلى الَّذي يَخْتِله ، فرفع ليضربني ، فضربت يده فقطعتُها ، ثمَّ أخذني ، فضمَّني ضمّاً شديداً حتَّى تخوَّفْتُ ، ثمَّ برك فتحلَّل، ودفعته، ثمَّ قتلته، وانهزم المسلمون ، وانهزمت معهم ، فإذا بعمر بن الخطَّاب في النَّاس، فقلت له: ما شأنُ النَّاس؟ قال: أمرُ الله ، ثمَّ تراجع الناس إلى رسول الله ، فقال رسول الله (ص) : «من أقام بينة على قتيلٍ قتله؛ فله سلبه» فقمت لألتمس بينةً على قتيلي، فلم أرَ أحداً يشهد لي ، فجلست ،

ثمَّ بدا لي فذكرتُ أمره لرسول الله (ص) فقال رجلٌ من جلسائه: سلاح هذا القتيل الَّذي يذكر عندي ، فأرضِهِ منه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كلا لا يعطه أصيبغ[(٥٥٩)] من قريشٍ ، ويدع[(٥٦٠)] أسداً من أُسْدِ الله يقاتل عن الله ، ورسوله (ص) ، قال: فقام رسول الله (ص) فأدَّاه إلي فاشتريت منه خرافاً[(٥٦١)] ، فكان أوَّل مالٍ تأثَّلتُهُ في الإسلام. [البخاري (٤٣٢١) ، ومسلم (١٧٥١)].

ونلحظ في هذا الخبر: أنَّ أبا قتادة الأنصاريَّ رضي الله عنه حرص على سلامة أخيه المسلم ، وقتل ذلك الكافر بعد جهدٍ عظيم ، كما أنَّ موقف الصِّدِّيق رضي الله عنه فيه دلالةٌ على حرصه على إحقاق الحقِّ،

والدِّفاع عنه، ودليلٌ على رسوخ إيمانه، وعمق يقينه ، وتقديره لرابطة الأخوَّة الإسلاميَّة ، وأنَّها بمنزلةٍ رفيعةٍ بالنسبة له[(٥٦٢)].

٧ . النهي عن الغلول:

أخذ النَّبيُّ (ص) يوم حنين وَبَرَةً من سنام بعيرٍ من الغنائم ، فجعلها بين أصبعيه ، ثمَّ قال: «أيُّها النَّاس! إنَّه لا يحلُّ لي ممَّا أفاء الله عليكم قدر هذه ، إلا الخمس ، والخمس مردودٌ عليكم ، فأدُّوا الخياط ، والمخيط ، وإيَّاكم ، والغلول ، فإنَّ الغلول عارٌ ، ونارٌ ، وشنارٌ على أهله في الدُّنيا ، والاخرة»[(٥٦٣)].

ولما سمع النَّاس هذا الزَّجر بما فيه من وعيد من رسول الله (ص) ، أشفقوا على أنفسهم ، وخافوا خوفاً شديداً ، فجاء أنصاريٌّ بكبَّة خيطٍ من خيوط شعر ، فقال: يا رسول الله! أخذت هذه الوبرة لأخيط بها بَرذَعَةَ بعيرٍ لي دَبِر ، فقال له (ص) : «أمَّا حقِّي منها ، وما كان لبني عبد المطَّلب فهو لك». فقال الأنصاريُّ: أما إذ بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها ، فرمى بها مِنْ يده. [أحمد (٢/١٨٤) ، وأبو داود (٢٦٩٤) ، والنسائي (٦/٢٦٣ . ٢٦٤)].

وأمَّا عقيل بن أبي طالب؛ فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين ، وسيفه ملطَّخٌ دماً ، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليردَّه ، حتَّى الخياط ، والمخيط ، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته ، فألقاها في الغنائم[(٥٦٤)].

وهذا التَّشديد في النَّهي عن الغلول ، وتبشيعه بهذه الصُّورة الشَّائهة المرعبة ، ولو كان في
شيءٍ تافهٍ لا يُلتفت إليه ، يمثِّل مَعْلماً من أهم معالم المنهج النبويِّ في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العمليَّة؛ إيماناً ، وأمانة ، وفي التزام الأفراد بهذا التَّوجيه يتطهَّر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة؛ لأنَّ التَّساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها ، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانيَّة التي لا تليق بالمجتمع المسلم[(٥٦٥)].

٨ . وفاء نذر كان في الجاهلية:

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لما قفلنا من حنين سأل عمرُ النَّبيَّ (ص) عن نَذْرٍ كان نذره في الجاهليَّة اعتكافاً ، فأمره النَّبيُّ (ص) بوفائه. [البخاري (٤٣٢٠) ، ومسلم (١٦٥٦)].

رابعاً: مواقف لبعض الصَّحابة والصَّحابيات:

١ . أنس بن أبي مرثدٍ الغنويُّ ، وحراسة المسلمين:

قال رسول الله (ص) قبل اندلاع معركة حنين: «من يحرسنا اللَّيلة؟» فقال أنسُ بن أبي مرثدٍ: أنا يا رسول الله! قال (ص) : «فاركب» ، فركب ابن أبي مرثد فرساً له ، وجاء إلى رسول الله (ص) فقال له (ص) : «استقبل هذا الشِّعْب حتَّى تكون في أعلاه ، ولا نُغرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيلة».

قال سهيل بن الحنظليَّة: فلمَّا أصبحنا؛ خرج رسول الله (ص) إلى مُصَلاَّه ، فركع ركعتين ، ثمَّ قال: «هل أحسنتم فارسكم؟» قالوا: ما أحسنَّاه ، فثوَّب بالصَّلاة ، فجعل (ص) يصلِّي ، وهو يلتفت إلى الشِّعب ، حتَّى إذا قضى صلاته ، قال: «أبشروا! فقد جاءكم فارسكُم» ، فجعل ينظر إلى خلال الشَّجر في الشِّعب ، فإذا هو قد جاء حتَّى وقف عليه، فقال: إنِّي انطلقت حتَّى إذا كنت في أعلى الشِّعب حيث أمرني (ص) ، فلمَّا أصبحت طلعتُ الشِّعبين كليهما فنظرت ، فلم أرَ أحداً ، فقال (ص) : «هل نزلت اللَّيلة؟» ، فقال: لا ، إلا مصلِّياً ، أو قاضي حاجةٍ ، فقال له (ص) : «قد أوجبت ، فلا عليك أن تعمل بعدها» [أبو داود (٢٥٠١) ، والنسائي في الكبرى (٨٨١٩)][(٥٦٦)].

وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النَّبويُّ الكريم في الاهتمام بالأفراد ، فقد ظهر اهتمام النَّبيِّ (ص) بطليعة القوم حتَّى جعل يلتفت في صلاته ، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمرٍ مهمٍّ ، ثمَّ إنَّه (ص) قال: «أبشروا ! فقد جاء فارسكم» إنَّها الكلمة الَّتي يستعملها (ص) في إخبارهم بما يسرُّهم من الأمور العظيمة ، تلك هي أهمِّية الفرد في المجتمع الإسلاميِّ ، إنَّه ليس كمَّاً مهملاً ، ولا رقماً في سجلٍ ، ولا بزالاً في الةٍ ، يستغنى عنه عند الضَّرورة ليؤتى بغيره ، إنَّها بعض التَّفسير للمنهج الإلهيِّ[(٥٦٧)] في قوله: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *} [الإسراء: ٧٠].

كما أنَّ في هذه القصَّة مَعْلَماً من معالم المنهج النَّبويِّ الكريم في وجوب اليقظة ، وتعرُّف أحوال العدو ، ومراقبة حركاته ، ومعرفة ما عنده من القوَّة عدداً وعدَّةً ، وما رسمه من خططٍ حربيَّةٍ ، وهي سياسةٌ مهمَّةٌ بالنسبة للقادة الَّذين يسعون لإعلاء كملة الله في الأرض[(٥٦٨)].

وأمَّا قول الرَّسول (ص) : «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها» ، فهذا محمول على النَّوافل الَّتي يكفِّر الله بها السيئات ، ويرفع بها الدَّرجات ، والمقصود: أنَّه عمل عملاً صالحاً كبيراً يكفي لتكفير ما قد يقع منه مِنْ سيئاتٍ في المستقبل ، ويرفع الله به درجاته في الجنَّة ، وليس المقصود: أنَّ هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات[(٥٦٩)].

٢ ـ شجاعة أمِّ سُلَيْمٍ يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إنَّ أمَّ سُلَيْمٍ اتخذت يوم حنين خِنْجَراً[(٥٧٠)] ، فكان معها ، فراها أبو طلحة ، فقال: يا رسول الله! هذه أمُّ سليم معها خنجرٌ ، فقال لها رسول الله (ص) : «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتَّخذته إن دنا مني أحد من المشركين؛ بقرت به بطنه ، فجعل رسول الله (ص) يضحك ، قالت: يا رسول الله! اقتلْ مَنْ بعدنا[(٥٧١)] من الطُّلقاء[(٥٧٢)] ، انهزموا بك[(٥٧٣)] ، فقال رسول الله: «يا أمَّ سُلَيْمٍ! إنَّ الله قد كفى ، وأحسن». [مسلم (١٨٠٩)].

٣ ـ الشَّيماء بنت الحارث أخت النَّبيِّ (ص) من الرَّضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله (ص) الشَّيماء بنت الحارث ، وبنت حليمة السَّعدية ، أخت رسول الله (ص) من الرَّضاعة ، وعنَّفوا عليها في السَّوق ، وهم لا يدرون ، فقالت للمسلمين: تعلمون والله! أنِّي لأختُ صاحبكم من الرَّضاعة ، فلم يصدِّقوها حتَّى أتوا بها رسولَ الله (ص) ، ولما انتهت الشَّيماء إلى رسول الله (ص) قالت: يا رسول الله! إنِّي أختك من الرَّضاعة ، قال: «ما علامة ذلك؟» قالت: عَضَّةٌ عَضَضْتَنِيهَا في ظهري ، وأنَا مُتَوَرِّكَتُك[(٥٧٤)] ،

وعرف رسولُ الله (ص) العلامة ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، وخيَّرها ، وقال: «إن أحببت؛ فعندي مُحَبَّةً مُكْرَمَةً ، وإن أحببت أن أُمَتِّعَكِ ، وترجعي إلى قومك؛ فعلتُ» فقالت: بل تمتِّعني ، وتردُّني إلى قومي[(٥٧٥)] ، ومتَّعها رسول الله (ص) فأسلمت ، وأعطاها رسول الله (ص) ثلاثة أَعْبُدٍ ، وجاريةً ، ونعماً ، وشاء. [الطبري في تاريخه (٣/١٣١ ـ١٣٢)، وابن هشام (٤/١٠٠ ـ ١٠١)، والبيهقي في الدلائل (٥/١٩٩ ـ ٢٠٠) ، وعبد الرزاق في المصنف (٧/٤٧٩) برقم (١٣٩٥٨)][(٥٧٦)].

خامساً: إسلام كعب بن زهير ـ الشَّاعر ـ والهيمنة الإعلاميَّة على الجزيرة:

لما قدم رسول الله (ص) من الطَّائف؛ جاءه كعب بن زهير ـ الشَّاعر ابن الشَّاعر ـ وكان قد هجا رسول الله (ص) ، ثمَّ ضاقت به الأرض ، وضاقت عليه نفسه ، وحثَّه أخوه (بُجَيْر) على أن يأتي رسول الله (ص) تائباً مسلماً ، وحذَّره من سوء العاقبة؛ إن لم يفعل ذلك ، فقال قصيدته الَّتي يمدح فيها رسول الله (ص) ، والتي اشتهرت بقصيدة (بانت سعاد) فقدم المدينة ، وغدا إلى رسول الله (ص) حين صلَّى الصُّبح ، ثمَّ جلس إليه ، ووضع يده في يده ، وكان رسول الله (ص) لا يعرفه ، فقال لرسول الله (ص) : «إنَّ كعب بن زهير جاء يستأمنُك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابلٌ منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصار ، فقال: يا رسول الله! دعني وعدوَّ الله أضرب عنقه ، فقال رسول الله (ص) : «دعه عنك ، فقد جاء تائباً نازعاً» وأنشد كعب قصيدته اللاَّمية الَّتي قال فيها:

بَأنَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ[(٥٧٧)]
ومَا سُعَادُ غَدَاةَ الطَّرْفِ إِذْ رَحَلُوا إِلاَّ أغنُّ قَرِيْرُ العَيْنِ مَكْحُولُ[(٥٧٨)]

ومنها:

إنَّ الرَّسُوْلَ لَنُوْرٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ
فِيْ عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قالَ قائِلُهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُوْلُوا
شُمُّ العَرَانِيْنِ أبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ في الْهَيْجَا سَرَابِيْلُ

[الحاكم (٣/٥٧٩ ـ ٥٨٣) ، والطبراني في الكبير (١٩/١٧٦ ـ ١٧٩) ، برقم (٤٠٣) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٠٧ ـ ٢١١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٣٩٣ ـ ٣٩٤)][(٥٧٩)].

ويقال: إنَّه لما أنشد رسول الله قصيدته؛ أعطاه بردته ، وهي الَّتي صارت إلى الخلفاء[(٥٨٠)] ،

قال ابن كثيرٍ: هذا من الأمور المشهورة جدّاً ، ولكن لم أرَ ذلك في شيءٍ من هذه الكتب المشهورة بإسنادٍ أرتضيه ، فالله أعلم[(٥٨١)].

ويقال: إنَّ الرَّسول (ص) قال له بعد ذلك: لولا ذكرت الأنصار بخيرٍ ، فإن الأنصار لذلك أهلٌ[(٥٨٢)] ، فقال:

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحَيَاةِ فَلاْ يَزَلْ فِيْ مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الأَنْصَارِ[(٥٨٣)]
وَرِثُوا المكَارِمَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ إنَّ الخِيَارَ هُمُ بَنُو الأَخْيَارِ
المكْرِهِيْنَ السَّمْهَرِيَّ بأذْرُعٍ كسَوَالِفِ الهِنْدِيّ غَيْرِ قِصَارِ[(٥٨٤)]
والنَّاظِرِيْنَ بِأَعْيُنٍ مُحْمَرَةٍ كالجَمْرِ غَيْرَ كَلِيْلَةِ الأَبْصَارِ
والبَائِعِيْنَ نُفُوْسَهُمْ لِنَبِيِّهِمْ لِلْمَوْتِ يَوْمَ تَعَانُقٍ وكِرَارِ
والقَائِدِيْنَ[(٥٨٥)] النَّاسَ عَنْ أَدْيَانِهِمْ بالمشْرِفِيِّ وبالقَنَا الخَطَّارِ[(٥٨٦)]
يَتَطهَّرُوْنَ يَرَوْنَه نُسُكاً لَهُمْ بدِمَاءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الكُفَّارِ

إلى أن قال:

لَوْ يَعْلَمُ الأَقْوَامُ عِلْمِيَ كُلَّهُ فِيْهِمْ لَصَدَّقَنِي الَّذِيْنَ أُمَارِي[(٥٨٧)]
قَوْمٌ إِذَا خَوتِ النُّجُومُ فإِنَّهُمْ لِلطَّارِقِيْنَ[(٥٨٨)] النَّازِلِيْنَ مَقَارِي[(٥٨٩)]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأنَّ الشُّعراء المعارضين للدَّعوة الإسلاميَّة قد انتهى دورهم ، فقد أسلم ضرار بن الخطَّاب ، وعبد الله بن الزِّبَعْرَى ، وأبو سفيان بن الحارث ، والحارث بن هشام ، والعبَّاس

بن مرداس ، وتحوَّلوا إلى الصَّفِّ الإسلاميِّ ، واستظلوا بلوائه عن قناعةٍ ، وإيمانٍ ، ولم يكتفِ بعضهم بأن تكون كلمتُه في الدِّفاع عن الإسلام؛ بل كان سيفُه إلى جانب كلمته ، وهذا من بركات فتح مكَّة[(٥٩٠)].

سادساً: من نتائج غزوة حنينٍ ، والطائف:

١ ـ انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن ، وثقيف في هذه الغزوة.

٢ ـ كانت غزوة حنين والطَّائف اخر غزوات النَّبيِّ (ص) لمشركي العرب.

٣ ـ رجوع كثيرٍ من أهل مكَّة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام ، وحصول الأنصار على وسامٍ عظيم ، وهو شهادةُ رسولِ الله (ص) لهم بالإيمان ، والدُّعاء لهم ولأبنائهم ، وأحفادهم، ورجوعهم برسول الله (ص) إلى المدينة.

٤ ـ انضمام كوكبةٍ مباركةٍ من قيادة أهل مكَّة وهوازن إلى الإسلام ، وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان ، والأصنام ، والمعابد الجاهليَّة في الجزيرة العربيَّة ، كما كان لقبيلة هوازن دورٌ كبيرٌ في مجاهدة أهل الطَّائف ، والتَّضييق عليهم حتَّى أسلموا.

٥ ـ توسَّعت الدَّولة الإسلاميَّة وامتدَّ نفوذها ، وأصبح لرسول الله (ص) أمراء بمكَّة ، وعلى قبيلة هوازن ، وصارت تلك الأماكن جزءاً من الدولة الإسلامية؛ التي عاصمتها المدينة النَّبويَّة ، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسولُ الله (ص) بعوثاً دعويَّةً بدون خوفٍ ، أو وجلٍ مِنْ أحدٍ ، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين ، وأخذت حركة السَّرايا تستهدف الأوثان ، والأصنام لتهديمها ، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً ، ونظَّم رسولُ الله (ص) فريضة الزَّكاة ، فكلَّف مَنْ يقوم على جمعها من القبائل التَّابعة للدَّولة[(٥٩١)].

* * *

المبحث الرَّابع
أهمُّ الأحداث ما بين حُنَيْنٍ وتبوك

أولاً: ترتيب استيفاء الصَّدقات:

شرع رسول الله (ص) بعد عودته إلى المدينة ـ في أواخر ذي القعدة ـ في تنظيم الإدارة ، والجباية ، وكان (ص) قد استخلف عَتَّابَ بن أَسِيْدٍ على مكَّة حين انتهى من أداء العمرة ، وخلَّف معه معاذ بن جبل يفقِّه النَّاس ، ويعلِّمهم القران ، وكان هدي النَّبيِّ (ص) عندما تدخل القبائل في الإسلام الحرصَ على تعليمها ، وتربيتها ، ويُعَيِّن مَنْ يُشرف على ذلك؛ لأنَّ النُّفوس تحتاج إلى العناية ، والاهتمام ، وغرس العقائد الصَّحيحة ، والتَّصوُّرات السَّليمة فيها.

وفي مطلع المحرم من العام التَّاسع وجَّه الرَّسول (ص) عُمَّالَه إلى المناطق المختلفة ، فبعث بُريدة بن الحصيب إلى أسلم ، وغِفار ، وعبَّاد بن بشر الأشهلي إلى سُليم ، ومزينة ، ورافع بن مكيث إلى جهينة ، وعمرو بن العاص إلى فزارة ، والضَّحاكَ بن شعبان الكلابيَّ إلى بني كلاب، وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعبٍ، وابن اللُّتبيَّة الأزديَّ إلى بني ذبيان ، ورجلاً من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم[(٥٩٢)] ، والمهاجر بن أبي أميَّة إلى صنعاء ، وزياد بن لبيد إلى حضرموت ، والزبرقان بن بدرٍ ، وقيس بن عاصم إلى بني سعدٍ ، والعلاءَ بن الحضرميِّ إلى البحرين، وعليَّ بن أبي طالبٍ إلى نجران؛ ليجمع صدقاتهم، ويَقْدَم عليه بجزيتهم(١).

وكان (ص) يستوفي الحساب على العُمَّال، يحاسبهم على المستخرج، والمصروف ، كما فعل مع عامله ابن اللُّتْبِيَّة من الأزد، حيث حاسبه عندما قال الرَّجل[(٥٩٣)]: هذا لكم ، وهذا أُهدي لي، فقام رسول الله (ص) على المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال: «ما بالُ عاملٍ أبعثُه ، فيقول: هذا لكم ، وهذا أهدي لي ، أفلا قعد في بيت أبيه، أو بيت أمِّه حتَّى ينظر أيُهدى إليه أم لا؟!، والَّذي نفس محمد بيده ! لا ينال أحدٌ منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراً له

رُغاء، أو بقرةً لها خوار ، أو شاةً تَيْعَرُ» ثمَّ رفع يديه حتَّى رأينا عُفْرَتَيْ إبطيه ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ هل بلغتُ؟ مرَّتين» [البخاري (٦٩٧٩) ، ومسلم (١٨٣٢)]. وكان يقول أيضاً: «أيما عاملٍ استعملناه وفرضنا له رزقاً فما أصاب بعد رزقه؛ فهو غلول». [أبو داود (٢٩٤٣)][(٥٩٤)].

ثانياً: أهمُّ السَّرايا في هذه المرحلة:

أ . سريَّة الطُّفيل بن عمرو إلى ذي الكفلين:

كان النَّبيُّ (ص) قد بعث الطُّفيل بن عمروٍ من مقرِّه في حُنَيْنٍ ، وقبل أن يسير إلى الطَّائف ، أمره بأن يهدم (ذا الكفلين) صنم عمرو بن حُمَمَة الدَّوسيِّ ، ثمَّ يستمدُّ قومه ، ويوافيه مع المدد إلى الطَّائف ، وقد نَّفذ الطُّفيل بن عمروٍ أوامر النَّبيِّ (ص) ، فهدم (ذا الكفلين) وحرَّقه ، وقاد أربعمئةٍ من قومه ، ومعهم دبابةٌ ، ومنجنيق مدداً لرسول الله (ص) ، فوصلوا إليه بعد مقدمه الطَّائف بأربعة أيام[(٥٩٥)].

ب . سريَّة عبد الله بن حُذافة السَّهميِّ ، ويُقال: إنَّها سريَّة الأنصار:

قال عليُّ بن أبي طالبٍ: بعث النَّبيُّ (ص) سريَّةً فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه ، فغضب ، فقال: أليس أمركم النَّبيُّ (ص) أن تطيعوني؟ قالوا: بلى! قال: فاجمعوا لي حطباً ، فجمعوا ، فقال: أوقدوا ناراً ، فأوقدوها ، فقال: ادخلوها ، فهمُّوا ، وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النَّبيِّ (ص) من النَّار ، فما زالوا حتَّى خمدت النَّار ، فسكن غضبُه ، فبلغ النَّبيَّ (ص) فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة؛ الطَّاعة في المعروف». [البخاري (٤٣٤٠) ، ومسلم (١٨٤٠)].

ج . سريَّة عليِّ بن أبي طالب لهدم صنم الفُلْس في بلاد طَيِّأى:

وفي ربيع الاخر خرجت سريَّة عليِّ بن أبي طالب إلى الفُلْس . صنم لِطيِّأى . ليهدمه ، وكان تعدادها خمسين ومئة رجلٍ من الأنصار ، على مئة بعير ، وخمسين فرساً ، ومعه رايةٌ سوداء ، ولواءٌ أبيض ، فشنُّوا الغارة على محلَّة ال حاتم . حاتم الطَّائيِّ الَّذي ضُرب المثل بجوده . مع الفجر ، فهدموا الفُلْس ، وخرَّبوه ، وملؤوا أيديهم من السَّبي ، والنَّعَم ، والشَّاء ، وفي السَّبي أخت عديِّ بن حاتم ، وهرب عديٌّ إلى الشَّام[(٥٩٦)].

د . سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخَلَصَة:

قال جرير بن عبد الله: قال لي رسول الله (ص) : «ألا تُرِيحُني من ذي الخَلَصَة؟» ، فقلت: بلى! فانطلقت في خمسين ومئة فارس من أحمَس، وكانوا أصحاب خيل ، وكنت لا أثبتُ على الخيل ، فذكرت ذلك للنَّبيِّ (ص) ، فضرب يده على صدري ، حتَّى رأيت أثر يده في صدري ، وقال: «اللَّهم! ثَبِّتْهُ واجعله

هادياً مهديّاً» قال: فما وقعت عن فرسٍ بعدُ ، قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخَثْعَمَ ، وبجيلة ، فيه نُصُبٌ يقال له: الكعبة ، قال: فأتاها فحرَّقها بالنَّار ، وكسرها ، قال: ولما قدم جرير اليمن كان بها رجلٌ يستقسم بالأزلام ، فقيل له: إنَّ رَسُولَ رَسُولِ الله (ص) هاهنا ، فإن قدر عليك ضرب عنقك! قال: فبينما هو يضرب بها؛ إذ وقف عليه جرير ، فقال: لَتَكْسِرَنَّها ولتَشْهَدنَّ أن لا إله إلا الله ، أو لأضربن عنقك! قال: فكسرها ، وشهد ، ثم بعث جرير رجُلاً من أحمَس يُكنى أبا أرطأة إلى النَّبيّ (ص) يبشِّره بذلك ، فلمَّا أتى النَّبيَّ (ص) قال: يا رسول الله! والذي بعثك بالحقِّ ما جئت حتَّى تركتُها كأنَّها جملٌ أجرب ، قال: فبرَّك النَّبيُّ (ص) على خيل أحمَس ، ورجالها خمس مرَّاتٍ. [البخاري (٤٣٥٧) ، ومسلم (٢٤٧٦) ، وأحمد (٣٦٢/٤) ، وأبو داود (٢٧٧٢) ، والنسائي في الكبرى (٨٢٤٥)].

ثالثاً: إسلام عديِّ بن حاتم:

عندما وقعت أخت عديّ بن حاتم في أسر المسلمين؛ عاملها رسول الله (ص) معاملةً كريمة ، وبقيت معزَّزة مكرَّمةً ، ثمَّ كساها النَّبيُّ (ص) ، وأعطاها ما تتبلَّغ به في سفرها ، وعندما وصلت إلى أخيها في الشَّام شجَّعته على الذَّهاب لرسول الله (ص) ، فتأثَّر بنصيحتها ، وقدم على المدينة[(٥٩٧)] ، ونترك أبا عبيدة بن حذيفة يحدِّثنا عن قصَّة إسلام عديٍّ ، قال أبو عبيدة بن حذيفة: كنت أُحَدَّثُ عن عديِّ بن حاتمٍ ، فقلت: هذا عديٌّ في ناحية الكوفة ، فلو أتيتُه ، فكنت أنا الذي أسمع منه ، فأتيتُه فقلت: إنِّي كنت أُحدَّث عنك حديثاً ، فأردت أن أكون أنا الَّذي أسمعه منك. قال: لما بعث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ النَّبيَّ (ص) فررت منه حتَّى كنت في أقصى أرض المسلمين ممَّا يلي الرُّوم.

قال: فكرهت مكاني الَّذي أنا فيه حتَّى كنت له أشدَّ كراهيةً له منِّي من حيث جئت ، قال: قلت: لآتينَّ هذا الرَّجل ، فوالله! إن كان صادقاً ، فلأسمعنَّ منه ، وإن كان كاذباً ما هو بضائري.

قال: فأتيتُه ، واستشرفني النَّاس ، وقالوا: عديُّ بن حاتمٍ ، عديُّ بن حاتمٍ ، قال: أظنُّه قال ثلاث مرارٍ ، قال: فقال لي: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسلم؛ تسلم». قال: قلت: إنِّي من أهل دينٍ ، قال: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسلم؛ تسلم» قال: قلت: إنِّي من أهل دينٍ ، قالها ثلاثاً ، قال:

«أنا أعلم بدينك منك» قال: قلت: أنت أعلم بديني منِّي؟! قال: «نعم» قال: «أليس ترأس قومك؟» قال: قلت: بلى! قال: فذكر محمَّدٌ الرَّكوسِيَّة[(٥٩٨)] قال: كلمة التمسها يقيمها ، فتركها ، قال: «فإنَّه لا يحلُّ في دينك المرباع[(٥٩٩)]».

قال: فلمَّا قالها؛ تواضعتُ لها ، قال: «وإنِّي قد أرى أنَّ ممَّا يمنعك خصاصةً تراها ممَّن حولي ، وأن النَّاس علينا إلباً واحداً ، هل تعرف مكان الحِيرة؟» قال: قلت: قد سمعت بها ، ولم اتها. قال: «لتوشكنَّ الظَّعينة أن تخرج منها بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة ، ولتوشكنَّ كنوز كسرى بن هرمز تُفتح» قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز . ثلاث مرات . ، وليوشكنَّ أن يبتغي مَنْ يقبل ماله منه صدقةً فلا يجد» قال: فلقد رأيت اثنتين: قد رأيت الظَّعينة تخرج من الحيرة بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة ، وكنت في الخيل الَّتي أغارت على المدائن ، وايم الله! لتكونن الثَّالثة إنَّه لحديث رسول الله (ص) حدَّثنيه. [البخاري (٣٥٩٥) ، وأحمد (٢٥٧/٤)][(٦٠٠)].

وفي روايةٍ جاء فيه: «... فخرجت حتى أقدم على رسول الله (ص) المدينة ، فدخلت عليه ، وهو في مسجده ، فسلَّمت عليه ، فقال: «من الرَّجل؟» فقلت: عديُّ بن حاتمٍ ، فقام رسول الله (ص) ، فانطلق بي إلى بيته ، فوالله! إنَّه لعامدٌ بي إليه؛ إذ لقيته امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلِّمه في حاجتها ، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بِمَلِكٍ ، قال: ثمَّ مضى بي رسول الله (ص) حتَّى إذا دخل بي بيته تناول وسادةً من أَدَمٍ[(٦٠١)] ، محشوةً ليفاً ، فقذفها إليَّ ، فقال: «اجلس على هذه» قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها ، فقال: «بل أنت» فجلست عليها ، وجلس رسول الله (ص) بالأرض ، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بأمر مَلِكٍ»[(٦٠٢)].

وفي هذه القصَّة دروس ، وعبرٌ كثيرةٌ منها:

١ . كان عديُّ وهو مقبلٌ على رسول الله (ص) يحمل في تصوُّره أنَّه أحد رجلين: إمَّا نبيُّ أو مَلِكٌ، فلمَّا رأى وقوف رسول الله (ص) مع المرأة الضَّعيفة الكبيرة مدَّةً طويلةً شعر بِخُلُق التَّواضع ، وانسلخ مِنْ ذهنه عامل المِلكِ ، واستقرَّ في تصوُّره عامل النُّبوَّة.

٢ . كان النَّبيُّ (ص) موفقاً حينما انتقد عَدِيّاً في مخالفته للدِّين الَّذي يعتنقُه ، حين حصل لعدي اليقين بنبوَّة رسول الله (ص) ، الَّذي يعلم من دينه ما لا يعلمه النَّاس مِنْ حوله.

٣ . لما ظهر للنَّبيِّ (ص) أنَّ عديّاً قد أيقن بنبوَّته؛ تحدَّث عن العوائق الَّتي تحول بين بعض الناس واتِّباع الحقِّ حتَّى مع معرفتهم بأنَّه حقٌّ ، ومنها: ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم ، وما هم فيه من الفقر ، فأبان له النَّبيُّ (ص) بأنَّ الأمن سيشمل البلاد حتَّى تخرج المرأة من العراق إلى مكَّة من غير أن تحتاج إلى حماية أحدٍ ، وأنَّ دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين ، وأنَّ المال سيفيض حتَّى لا يقبله أحدٌ ، فلمَّا زالت عن عديٍّ هذه المعوِّقات؛ أسلم.

٤ ـ كان النَّبيُّ (ص) موفقاً في دعوته ، حيث كان خبيراً بأدواء النُّفوس ، ودوائها ، ومواطن الضَّعف فيها وأزمَّة قيادها ، فكان يلائم كلَّ إنسانٍ بما يلائم علمه وفكره ، وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه ، ولذلك أثَّر في زعماء القبائل ، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً[(٦٠٣)].

٥ ـ وجد عديُّ سماتِ النُّبوَّة الصَّادقة في مظهر معيشته (ص) وحياته ، ووجد هذه السِّمات أيضاً في لون حديثه ، وكلامه ، ووجد مصداق ذلك فيما بعد ، في وقائع الزَّمن ، والتَّاريخ ، فكان ذلك سبباً في إسلامه وزيادة يقينه ، وانخلاعه عن زخارف الحياة الدُّنيا ومظاهر الأبَّهة ، والتَّرف الَّتي كان قد أسبغها عليه قومُه[(٦٠٤)].

رابعاً: أحداث متفرّقة في سنة ثمانٍ:

قال ابن كثير نقلاً عن الواقدي: «... وفي هذه السَّنة بعث رسولُ الله (ص) عمرو بن العاص إلى جيفر ، وعمرو ابني الجلندى من الأزد ، وأُخِذَتِ الجزية من مجوس بلدها ، ومَنْ حولها من الأعراب ، وفيها تزوَّج رسول الله (ص) فاطمة بنت الضَّحاك بن سفيان الكلابي في ذي القعدة ، فاستعاذت منه عليه السَّلام ، ففارقها ، وفي ذي الحجَّة منها ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية القبطيَّة ، فاشتدَّت غيرة أمَّهات المؤمنين منها حين رُزِقت ولداً ذكراً[(٦٠٥)].

وفي عام (٨ هـ) توفِّيت السَّيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبي العاص بن الرَّبيع ، وقد ولدت قبل المبعث بعشر سنين ، وكانت أكبر بناته (ص) ، تليها رقيَّة ، ثمَّ أمُّ كلثوم ، ثمَّ فاطمة رضي الله عنهنَّ ، كان رسول الله محبّاً لها ، أسلمت قديماً ، ثمَّ هاجرت قبل إسلام زوجها بستِّ سنين ، وكانت قد أجهضت في هجرتها ثمَّ نزفت ، وصار المرض يعاودها حتَّى توفيت ، ولما

ماتت؛ قال رسول الله (ص) : «اغْسِلْنها وِتْراً؛ ثلاثاً ، أو خمساً ، واجعلْن في الاخرة كافوراً». [البخاري (١٣٥٢) ، ومسلم (٩٣٩)][(٦٠٦)].

* * *

الفصل السَّابع عشر
غزوة تبوك (٩ هـ) وهي غزوة العُسْرَة[(٦٠٧)]

المبحث الأوَّل
تاريخ الغزوة ، وأسماؤها ، وأسبابها

أوَّلاً: تاريخها ، وأسماؤها:

خرج رسول الله (ص) لهذه الغزوة في رجب من العام التَّاسع الهجريِّ[(٦٠٨)] ، بعد العودة من حصار الطَّائف بنحو ستَّة أشهرٍ[(٦٠٩)].

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك ، نسبة إلى مكانٍ ، هو عين تبوك؛ الَّتي انتهى إليها الجيش الإسلاميُّ ، وأصل هذه التَّسمية جاء في صحيح مسلم ، فقد روى بسنده إلى معاذ: أنَّ رسول الله (ص) قال: «ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتَّى يضحى النَّهار ، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتَّى اتي». [أحمد (٥/٢٣٧ ـ ٢٣٨) ، ومسلم (٧٠٦/١٠) ، وأبو داود (١٢٠٦) ، والترمذي (٥٥٣) ، والنسائي (٢٨٥/١) ، وابن ماجه (١٠٧٠)].

وللغزوة اسمٌ اخر ، وهو غزوة العُسْرَة ، وقد ورد هذا الاسم في القران الكريم حينما تحدَّث عن هذه الغزوة في سورة التَّوبة ، قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١١٧].

وقد روى البخاريُّ بسنده إلى أبي موسى الأشعريِّ: قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله (ص) أسأله الحُملانَ لهم؛ إذ هم معه في جيش العُسْرَة ، وهي غزوة تبوك... ، وعَنْوَنَ البخاريُّ لهذه الغزوة بقوله: «باب غزوة تبوك ، وهي غزوة العُسْرة». [البخاري تعليقاً (١٣٨/٨)].

لقد سمِّيت بهذا الاسم لشدَّة ما لاقى المسلمون فيها من الضَّنْكِ ، فقد كان الجوُّ شديدَ الحرارة ، والمسافة بعيدةً ، والسَّفر شاقّاً لقلَّة المؤونة وقلَّة الدَّوابِّ الَّتي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة ، وقلَّة الماء في هذا السَّفر الطَّويل ، والحرِّ الشَّديد ، وكذلك قلَّة المال الذي يُجَهَّز به الجيش ، وينفق عليه[(٦١٠)] ، ففي تفسير عبد الرَّزَّاق عن معمر ، عن ابن عقيل؛ قال: (خرجوا في قلَّةٍ من الظَّهْر ، وفي حرٍّ شديدٍ حتَّى كانوا ينحرون البعير ، فيشربون ما في كِرْشِهِ من الماء ، فكان ذلك عُسْرَةً من الماء)[(٦١١)] ، وهذا الفاروق عمر بن الخطَّاب يحدِّثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين ، فيقول: خرجنا مع رسول الله (ص) إلى تبوك في قيظٍ شديدٍ ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديدٌ ، حتَّى ظننَّا أنَّ رقابنا ستنقطع حتَّى إن كان أحدُنا يذهب يلتمس الخلاء ، فلا يرجع حتَّى يظنَّ أنَّ رقبته تنقطع ، وحتى إنَّ الرَّجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه؛ فيشربه ، ويضع ما بقي على بَطْنِه. [البزار (١٨٤١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٤/٦)].
وللغزوة اسم ثالث هو الفاضحة؛ ذكره الزُّرقانيُّ ـ رحمه الله ـ في كتابه (شرح المواهب اللَّدنية)[(٦١٢)] ، وسمِّيت بهذا الاسم؛ لأنَّ هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين ، وهتكت أستارهم ، وفضحت أساليبهم العدائيَّة الماكرة ، وأحقادهم الدَّفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحقِّ رسول الله (ص) ، والمسلمين[(٦١٣)].
وأمَّا موقع تبوك فيقع شمال الحجاز يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطَّريق المعبدة في الوقت الحاضر ، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الرُّوم انذاك[(٦١٤)].
ثانياً: أسبابها:
ذكر المؤرِّخون أسباب هذه الغزوة ، فقالوا: وصلت الأنباء للنَّبيِّ (ص) من الأنباط الَّذين يأتون بالزَّيت مِنَ الشَّام إلى المدينة: أنَّ الروم جمعت جموعاً ، وأجلبت معهم لخمُ ، وجُذَامُ ، وغيرُهم من متنصِّرة العرب ، وجاءت في مقدِّمتهم إلى البلقاء[(٦١٥)] ، فأراد النَّبيُّ (ص) أن يغزوهم قبل أن يغزوه[(٦١٦)].
ويرى ابن كثير: أنَّ سبب الغزوة هو استجابةٌ طبيعيَّةٌ لفريضة الجهاد ، ولذلك عزم رسول الله

(ص) على قتال الرُّوم؛ لأنَّهم أقرب النَّاس إليه ، وأولى النَّاس بالدَّعوة إلى الحقِّ لقربهم إلى الإسلام ، وأهله ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *} [التوبة: ١٢٣].

والَّذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصَّواب؛ إضافةً إلى أنَّ الأمر الَّذي استقرَّ عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافَّةً بِمَنْ فيهم أهل الكتاب الَّذين وقفوا في طريق الدَّعوة ، وظهر تحرُّشهم بالمسلمين ، كما روى أهل السِّير[(٦١٧)].

ولا يمنع ما ذكره المؤرِّخون بأنَّ سبب الخروج هو عزم الرُّوم على غزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزاً للخروج إليهم؛ لأنَّ أصل الخروج كان وارداً.

لقد كان المسلمون على حذرٍ من مجيء غسَّان إليهم من الشَّام ، ويظهر ذلك جليّاً ممَّا وقع لعمر بن الخطَّاب ، فقد كان النَّبيُّ (ص) الى من نسائه شهراً ، فهجرهنَّ ، ففي صحيح البخاريِّ: وكنَّا قد تحدَّثنا: أنَّ ال غسَّان تُنْعِلُ النِّعال لغزونا ، فنزل صاحبي الأنصاريُّ يوم نوبته ، فرجع إلينا عِشاءً فضرب بابي ضرباً شديداً ، وقال: أنائمٌ هو؟ ففزعت ، فخرجت إليه ، وقال: حدث أمرٌ عظيم ، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسَّان؟ قال: لا! بل أعظم منه ، وأهول ، طلَّق رسول الله (ص) نساءه.... [البخاري (٥١٩١) ، ومسلم (١٧٤٩)].

ثالثاً: الإنفاقُ في هذه الغزوة وحِرْصُ المؤمنين على الجهاد:

حثَّ رسول الله (ص) الصَّحابة على الإنفاق في هذه الغزوة؛ لبعدها ، وكثرة المشركين فيها ، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله ، فأنفق كلٌّ حسب مقدرته ، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب القِدْح المعلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة[(٦١٨)] ، فهذا عبد الرَّحمن بن خُباب يحدِّثنا عن نفقة عثمان ، حيث قال: شهدت النَّبيَّ (ص) وهو يحثُّ على جيش العُسْرَة ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئة بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، ثمَّ حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئتا بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، ثمَّ حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال: يا رسول الله! عليَّ ثلاثمئة بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر ، وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه! ما على عثمان ما عمل بعد هذه». [أحمد (٤/٧٥) ، والترمذي (٣٧٠٠)].

وعن عبد الرَّحمن بن سَمُرَة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفَّان إلى النَّبيِّ (ص) بألف دينارٍ في ثوبه حين جهَّز النَّبيُّ (ص) جيش العُسْرَة ، قال: فجعل النَّبيُّ (ص) يقلِّبها بيده ، ويقول:
«ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم! يردِّدها مراراً». [أحمد (٥/٦٣) ، والترمذي (٣٧٠١)].
وأمَّا عمر؛ فقد تصدَّق بنصف ماله ، وظنَّ أنَّه سيسبق أبا بكرٍ بذلك ، وهذا الفاروق يحدِّثنا بنفسه عن ذلك ، حيث قال: أمرنا رسول الله (ص) يوماً أن نتصدَّق ، فوافق ذلك مالاً عندي ، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر؛ إن سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله (ص) : «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثلَه. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكلِّ ما عنده ، فقال له رسول الله (ص) : «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسولَه ، قلت: لا أسابقك إلى شيءٍ أبداً. [أبو داود (١٦٧٨) ، والترمذي (٣٦٧٥)].
وروي: أنَّ عبد الرَّحمن بن عوفٍ أنفق ألفي درهم ، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العُسْرَة[(٦١٩)].
وكانت لبعض الصَّحابة نفقاتٌ عظيمةٌ ، كالعبَّاس بن عبد المطَّلب ، وطلحة بن عبيد الله ، ومحمَّد بن مَسْلَمة ، وعاصم بن عديٍّ رضي الله عنهم[(٦٢٠)].
وهكذا يفهم المسلمون: أنَّ المال وسيلةٌ ، واستطاع أغنياء الصَّحابة أن يبرهنوا: أنَّ مالهم في خدمة هذا الدِّين ، يدفعونه عن طواعيةٍ ، ورغبةٍ ، وأنَّ تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخٌ مشرِّفٌ؛ لأنَّه تاريخ المال في يد الرِّجال ، لا تاريخ الرِّجال تحت سيطرة المال ، وكما كان الجهاد بالنَّفس فكذلك هو بالمال ، وإنَّ الَّذين رُبُّوا على أن يقدِّموا أنفسهم ، تهون عليهم أموالهُم في سبيل الله تعالى[(٦٢١)].
إنَّ في مسارعة الموسرين من الصَّحابة إلى البذل ، والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين؛ من مسارعةٍ إلى فعل الخير ، ومقاومةٍ لأهواء النَّفس وغرائزها ، ممَّا تحتاج إليه كلُّ أمَّة لضمان النَّصر على أعدائها ، وخير ما يفعله المصلحون ، وزعماء النَّهضات هو غرس الدِّين في نفوس النَّاس غرساً كريماً[(٦٢٢)].
وقدَّم فقراء المسلمين جهدهم من النَّفقة على استحياءٍ ، ولذلك تعرَّضوا لسُخْرِيَةٍ وغمز ، ولمز المنافقين ، فقد جاء أبو عُقَيْلٍ بنصف صاع تمرٍ ، وجاء اخر بأكثر منه ، فلمزوهما قائلين: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الاخر إلا رياءً ، فنزلت الاية: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ*} [التوبة: ٧٩][(٦٢٣)].

وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء ، فكانوا يتَّهمون الأغنياء بالرِّياء ، ويسخرون من صدقة الفقراء[(٦٢٤)].

لقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنَّهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد؛ فهذا عُلبَةُ بن زيدٍ أحد البكَّائين صلَّى من اللَّيل ، وبكى ، وقال: اللَّهمَّ! إنَّك قد أمرت بالجهاد ، ورغبت فيه ، ولم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك ، وإنِّي أتصدَّق على كلِّ مسلمٍ بكلِّ مظلمةٍ أصابتني في جسدٍ ، أو عرْضٍ ، فأخبره النَّبيُّ (ص) : أنَّه قد غُفِر له[(٦٢٥)].

وفي هذه القصَّة وما جرى فيها اياتٌ من الإخلاص ، وحبِّ الجهاد لنصرة دين الله ، وبثِّ دعوته في الافاق ، وفيها مِنْ لُطف الله بضعفاء المؤمنين الَّذين يعيشون في حياتهم عيشةً عمليَّة[(٦٢٦)].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدِّثنا عن قصَّته: (.... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك ، خرجت إلى أهلي ، فأقبلت . وقد خرج أوَّل صحابة رسول الله . فطفقت في المدينة أنادي: ألا مَنْ يحمل رجلاً له سهمه! فإذا شيخٌ من الأنصار ، فقال: لنا سهمه على أن نحملَه عقبة[(٦٢٧)] ، وطعامه معنا. فقلت: نعم ، قال: فسر على بركة الله ، فخرجت مع خير صاحبٍ حتَّى أفاء الله علينا[(٦٢٨)] ، فأصابني قلائصَ[(٦٢٩)] ، فَسُقْتُهُنَّ حتَّى أتيتُه ، فخرج ، فقعد على حقيبة من حقائب إبله ، ثمَّ قال: سقهن مدبراتٍ ، ثمَّ قال: سقهن مقبلاتٍ ، فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً إنَّما هي غنيمتُك الَّتي شرطتُ لك ، قال: خذ قلائصك يابن أخي! فغير سهمِك أردنا. [أبو داود (٢٦٧٦)][(٦٣٠)].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخرويَّة ، أجراً ، وثواباً

يجده عند الله يوم لقائه ، وتنازل الأنصاريُّ عن قسم كبيرٍ من راحته ، ليتعاقب وواثلة على راحلته ، ويقدِّم له الطَّعام مقابل سهمٍ اخر ، وهو الأجر ، والثَّواب.

إنَّها مفاهيم تنبع من المجتمع الَّذي تربَّى على كتاب الله ، وسنَّة رسوله (ص) ، لها نفس الخاصِّيَّة في الإضاءة ، وتحمل نَفْسَ البريق ، متمِّمٌ بعضها لبعضها الاخر[(٦٣١)].

وجاء الأشعريُّون يتقدَّمهم أبو موسى الأشعريُّ يطلبون من النَّبيِّ (ص) أن يحملهم على إبلٍ ليتمكَّنوا من الخروج للجهاد ، فلم يجد ما يحملهم عليه حتَّى مضى بعضُ الوقت ، فحصل لهم على ثلاثةٍ من الإبل[(٦٣٢)].

وبلغ الأمر بالضُّعفاء ، والعجزة ممَّن أقعدهم المرض ، أو النَّفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد ، وتحرُّجاً من القعود حتَّى نزل فيهم قران: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ

مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ *} [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

إنَّها صورةٌ مؤثِّرة للرَّغبة الصَّحيحة في الجهاد على عهد رسول الله (ص) ، وما كان يحسُّه صادقو الإيمان من ألمٍ إذا ما حالت ظروفهم المادِّية بينهم وبين القيام بواجباته ، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممَّن عذر الله لمرضٍ ، أو كبر سنٍّ ، أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[(٦٣٣)] ، وهم الَّذين عناهم رسول الله (ص) عندما قال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة! قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر». [البخاري (٤٤٢٣) ، وأحمد (٣/١٠٣) ، وأبو داود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) ، وابن حبان (٤٧٣١)].

رابعاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرَّسول (ص) النَّفير ، ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة؛ أخذ المنافقون في تثبيط همم النَّاس ، قائلين لهم: لا تنفروا في الحرِّ ، فأنزل الله تعالى فيهم: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ *فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *} [التوبة: ٨١ ـ ٨٢].

وقال رسول الله (ص) ـ وهو في جهازه لتبوك ـ للجدِّ بن قيس: يا جدُّ! هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله! أو تأذن لي ، ولا تفتني؟ فوالله! لقد عرف قومي: أنَّه ما من رجل أشدُّ عجباً بالنِّساء منِّي ، وإنِّي أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألاَّ أصبر ، فأعرض عنه رسول الله (ص) ، وقال: «قد أذنت لك» [الطبري في تفسيره (١٠/١٤٨ ـ ١٤٩) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢١٣ ـ ٢١٤) ، والطبراني في الكبير (٢١٥٤ و١٢٦٥٤) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٣٠)] ، ففيه نزلت الاية: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ *} [التوبة: ٤٩] ، وذهب بعضهم إلى النَّبيِّ (ص) مبدين أعذاراً كاذبةً ، ليأذن لهم بالتخلُّف ، فأذن لهم ، فعاتبه الله تعالى بقوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ *} [التوبة: ٤٣].

وبلغ رسول الله (ص) : أنَّ ناساً منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهوديِّ يثبِّطون النَّاس عن رسول الله (ص) ، فأرسل إليهم مَنْ أحرق عليهم بيت سُوَيْلِم. [ابن هشام (٤/١٦٠)][(٦٣٤)].

وهذا يدلُّ على مراقبة المسلمين الدَّقيقة ، ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود ، فقد كانت عيون المسلمين يقظةً تراقب تحرُّكات اليهود، والمنافقين، واجتماعاتهم، وأوكارهم، بل كانوا يطَّلعون فيها على أدقِّ أسرارهم، واجتماعاتهم، وما يدور فيها مِنْ حبك المؤامرات ، وابتكار أساليب التَّثبيط ، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع الناس بعدم الخروج للقتال ، وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة ، وأوكارها حازماً حاسماً؛ إذ أمر بحرق البيت على مَنْ فيه من المنافقين ، وأرسل مِنْ أصحابه مَنْ يُنَفِّذُه ، وَنُفِّذَ بحزمٍ ، وهذا منهج نبويٌّ كريمٌ يتعلَّم منه كل مسؤول في كلِّ زمانٍ ومكانٍ كيف يقف من دعاة الفتنة ، ومراكز الإشاعات المضلِّلة الَّتي تُلحق الضَّرر بالأفراد ، والمجتمعات ، والدُّول؛ لأنَّ التَّردُّد في مثل هذه الأمور يُعرِّض الأمن ، والأمان إلى الخطر ، وينذر بزوالها[(٦٣٥)].

لقد تحدَّث القران الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة ، وفي أثناءها وبعدها ، وممَّا جاء من حديث القران الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمَّن استئذانهم ، وتخلُّفهم عن الخروج ، وكان ممَّن تخلف عبد الله بن أبيّ بن سلول وقد تحدَّث القران عنهم ، فقال الله تعالى: {لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *} [التوبة: ٤٢].

فقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ موقف المنافقين ، وأنَّهم تخلَّفوا بسبب بُعْد المسافة ، وشدَّتها ،

وأنَّه لو كان الَّذي دعوتَهم إليه ـ يا محمد! ـ عرضاً من أعراض الدُّنيا ، ونعيمها ، وكان السَّفر سهلاً ، لاتَّبعوك في الخروج ، ولكنَّهم تخلَّفوا ، ولم يخرجوا ، فالاية تشرح ، وتوضِّح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة ، وأسباب هذا الموقف ، ثمَّ حكى ـ سبحانه ـ ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: {وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *} ، وكان نزول هذه الاية قبل رجوعه (ص) من تبوك.

والمعنى: وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله ـ كذباً، وزوراً ـ قائلين: لو استطعنا أيُّها المؤمنون! أن نخرج معكم للجهاد في تبوك؛ لخرجنا، فإنَّنا لم نتخلَّف عن الخروج معكم إلا مضطرِّين، فقد كانت لنا أعذارُنا القاهرة الَّتي حملتنا على التخلُّف[(٦٣٦)].

وقوله ـ سبحانه ـ: {يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *}

قال ابن عاشور: أي: يحلفون مهلكين أنفسهم؛ أي: موقعينها في الهُلْكِ ـ والهُلْكُ: الفناء ، والموت ، ويطلق على الأضرار الجسميَّة ، وهو المناسب هنا ـ أي: يتسبَّبون في ضرِّ أنفسهم بالأيمان الكاذبة ، وهو

ضرُّ الدُّنيا ، وعذاب الاخرة ، وفي هذه الاية دلالةٌ على أنَّ تعمُّد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك[(٦٣٧)].

ثمَّ عاتب الله تعالى نبيَّنا محمَّداً (ص) بقوله: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ *}

قال مجاهد[(٦٣٨)]: نزلت هذه الاية في أُناسٍ قالوا: استأذِنوا رسولَ اللهِ (ص) ، فإن أذن لكم؛ فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم ، فاقعدوا. وهؤلاء هم فريقٌ من المنافقين ، منهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ، والجدُّ بن قيسٍ ، ورفاعةُ بن التَّابوت ، وكانوا تسعةً وثلاثين ، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ[(٦٣٩)].

والاية الكريمة عتابٌ لطيفٌ من اللَّطيف الخبير سبحانه لحبيبه (ص) على ترك الأَوْلى ، وهو التوقُّف عن الإذن إلى انجلاء الأمر ، وانكشاف الحال[(٦٤٠)] ، ثمَّ قال تعالى: {لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ *} [التوبة: ٤٤ ـ ٤٥].

هذه الايات أوَّل ما نزل في التَّفرقة بين المنافقين والمؤمنين في القتال[(٦٤١)] ، فبيَّن سبحانه: أنَّه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الاخر الاستئذان ، وترك الجهاد في سبيل الله ، وإنَّما هذا من صفات المنافقين الَّذين يستأذنون من غير عذرٍ ، وصفهم ـ سبحانه ـ بقوله: أي: شكَّت في صحَّة {وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ} جئتَهم به ، وقوله: أي: {فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ *} ، يقدمون رِجْلاً ، ويؤخِّرون أخرى ، وليست لهم قدمٌ ثابتةٌ في شيءٍ[(٦٤٢)].

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبةً للتَّمييز بين المؤمنين ، والمنافقين ، وَضَحَتْ فيها الحواجز بين الطَّرفين ، ولم يَعُدْ هناك أيُّ مجالٍ للتَّستُّر على المنافقين ، أو مجاملتهم؛ بل أصبحت مجابهتُهم أمراً ملحّاً بعد أن عملوا كلَّ مافي وسعهم لمجابهة الرَّسول (ص) ، والدَّعوة ، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنَّفير ، الَّذي أعلنه الله تعالى ، ورسوله (ص) ، والَّذي نزل به القران الكريم؛ بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين ، وإيقافُهم عند حدِّهم واجباً شرعيّاً[(٦٤٣)].

خامساً: إعلان النَّفير ، وتعبئة الجيش:

أُعلِن النَّفير العام للخروج لغزوة تبوك؛ حتَّى بلغ عدد من خرج مع النَّبيِّ (ص) إلى تبوك ثلاثين ألفاً ، وقد عاتب القران الكريم الَّذين تباطؤوا بقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ

اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ *} [التوبة: ٣٨].

وقد طالبهم القران الكريم بأن ينفروا شباناً ، وشيوخاً ، وأغنياء ، وفقراء ، بقوله تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [التوبة: ٤١].

لقد استطاع رسول الله (ص) أن يحشد ثلاثين ألف مقاتلٍ[(٦٤٤)] من المهاجرين ، والأنصار ، وأهل مكَّة ، والقبائل العربيَّة الأخرى ، ولقد أعلن رسول الله (ص) ـ على غير عادته في غزواته ـ هدفه ، ووجهتَه في القتال؛ إذ أعلن صراحةً: أنَّه يريد قتال بني الأصفر (الرُّوم) ، علماً بأنَّ هديه

في معظم غزواته أن يورِّي فيها(١) ، ولا يصرِّح بهدفِه ، ووجهتِه ، وقصدِه حفاظاً على سرية الحركة ، ومباغتة العدوِّ(١).

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التَّصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره ، وقد صرَّح (ص) في هذه الغزوة ـ على غير العادة ـ بالجهة التي يريد غزوها ، وجلَّى هذا الأمر للمسلمين ، لأسبابٍ منها:

١ ـ بُعْد المسافة ، فقد كان رسول الله (ص) يدرك أنَّ السير إلى بلاد الرُّوم يُعدُّ أمراً صعباً؛ لأنَّ التَّحرُّك سيتمُّ في منطقةٍ صحراويَّةٍ ممتَّدة ، قليلة الماء ، والنَّبات ، ولابدَّ حينئذٍ من إكمال المؤونة ، ووسائل النَّقل للمجاهدين قبل بدء الحركة حتَّى لا يؤدِّي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود.

٢ ـ كثرة عدد الرُّوم ، بالإضافة إلى أنَّ مواجهتهم تتطلَّب إعداداً خاصّاً ، فهم عدوٌّ يختلف في طبيعته عن الأعداء الَّذين واجههم النَّبيُّ (ص) مِنْ قبلُ ، فأسلحتهم كثيرةٌ ، ودرايتهم بالحرب كبيرةٌ ، وقدرتهُم القتاليَّة فائقةٌ[(٦٤٥)].

٣ ـ شدَّة الزَّمان ، وذلك لكي يقفَ كلُّ امرأٍ على ظروفه ، ويُعِدَّ النَّفقة اللازمة له في هذا السَّفر الطَّويل لمن يعول وراءه[(٦٤٦)].

٤ ـ أنَّه لم يعد مجالٌ للكتمان في هذا الوقت؛ حيث لم يبقَ في جزيرة العرب قوَّةٌ معاديةٌ لها خطرها ، تستدعي هذا الحشد الضَّخم ، سوى الرُّومان ، ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ، ودومة الجندل والعقبة[(٦٤٧)].

لقد شرع رسول الله (ص) لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربيَّة ، ومراعاة المصلحة العامَّة في حالتي الكتمان ، والتصريح ، ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال[(٦٤٨)].

ولما علم المسلمون بجهة الغزوة؛ سارعوا إلى الخروج إليها ، وحثَّ الرسول (ص) على النَّفقة قائلاً: «من جهَّز جيش العسرة فله الجنَّة». [البخاري تعليقاً (٦٥/٧) ، والدارقطني (٤٤٠١) ، والبيهقي في الكبرى (١٦٧/٦)].

واستخلف رسولُ الله (ص) على المدينة محمَّد بن مسلمة الأنصاري ، وخلَّف عليَّ بن أبي طالبٍ على أهله، فأرجف به المنافقون ، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً ، وتخفُّفاً منه ، فأخذ

عليٌّ رضي الله عنه سلاحه ، ثمَّ خرج حتَّى أتى رسول الله (ص) وهو نازلٌ بالجُرْفِ[(٦٤٩)] ، فقال: يا نبي الله! زعم المنافقون: أنَّك إنَّما خلَّفتني؛ لأنَّك استثقلتني، وتخفَّفت منِّي، فقال: «كذبوا، ولكنِّي خلَّفتك لِمَا تركتُ ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي ، وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبيَّ بعدي» [البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤/٣١ ـ ٣٢)][(٦٥٠)]. فرجع عليٌّ إلى المدينة[(٦٥١)].

وكان استخلاف عليٍّ رضي الله عنه في أهله باعتبار قرابته ، ومصاهرته ، فكان استخلافه في أمرٍ خاصٍّ ، وهو القيام بشأن أهله ، وكان استخلاف محمَّد بن مسلمة الأنصاريِّ في الغزوة نفسها استخلافاً عامّاً ، فتعلَّق بعض الناس بأن استخلاف عليٍّ يشير إلى خلافته من بعده ، ولا صحَّة لهذا القول؛ لأنَّ خلافته كانت في أهله خاصَّةً[(٦٥٢)].

وعندما تجمَّع المسلمون عند ثِنيَّة الوداع بقيادة رسول الله (ص) ، اختار الأمراء ، والقادة ، وعقد الألوية ، والرَّايات لهم ، فأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، ورايته العظمى إلى الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه ، ودفع راية الأوس إلى أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ ، وراية الخزرج إلى أبي دجانة ، وأمر كلَّ بطنٍ من الأنصار أن يتَّخذ لواءً[(٦٥٣)] ، واستعمل رسول الله (ص) على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عَبَّادَ بن بِشْرٍ ، فكان رضي الله عنه يطوف في أصحابه على العسكر[(٦٥٤)] ، وكان دليلَ رسول الله (ص) في هذه الغزوة علقمةُ بن الفَغْوَاء الخزاعيُّ ، فقد كان من أصحاب الخبرة ، والكفاءة في معرفة طريق تبوك[(٦٥٥)].

وقد انفرد الواقديُّ بالمعلومات عن طريق الجيش ، وتوزيع الرَّايات ، وهو متروكٌ ، ولكنَّه غزير المعلومات في السِّيرة ، وأخذ مثل هذه المعلومات منه لا يضرُّ[(٦٥٦)].

ويلاحظ الباحث التَّطوُّر السَّريع لعدد المقاتلين بشكلٍ عامٍّ ، ولسلاح الفرسان بشكل خاصٍّ.

إنَّ الَّذي يدرس تاريخَ الدَّعوة الإسلاميَّة ، ونشوءَ الدَّولة الإسلاميَّة ومؤسَّساتها العامَّة . وفي

مقدَّمة هذه المؤسسات الجيشُ الإسلاميُّ القوَّة الضَّاربة للدَّولة ـ يلاحظ أنَّ هناك تطوُّراً سريعاً جدّاً في مجال القوَّة العسكريَّة؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في غزوة بدرٍ الكبرى ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلاً ، وفي غزوة أحد بلغ سبعمئة مقاتل ، تقريباً ، وفي غزوة الأحزاب ثلاثة الاف مقاتلٍ ، وفي غزوة فتح مكة عشرة الافٍ ، وفي غزوة حنين بلغ العدد اثني عشر ألف مقاتلٍ ، وأخيراً بلغ عدد المقاتلين في تبوك ثلاثين ألف مقاتلٍ أو يزيد.

وإنَّ الدَّارس يلاحظ هذا التطوُّر السَّريع اللاَّفت للنَّظر في مجال سلاح الفرسان ، ففي غزوة بدرٍ كان عدد الفرسان فارسين ـ في بعض الرِّوايات ـ وفي غزوة أحدٍ لم يتجاوز عدد الفرسان ما كان في بدرٍ ، ويقفز العدد بعد ستِّ سنوات فقط إلى عشرة الاف فارس ، وهذا يعود إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربيَّة وبخاصَّةٍ في البادية؛ ذلك لأن أهلها يهتمُّون باقتناء الخيول ، وتربيتها أكثر من أبناء المدن[(٦٥٧)].

* * *

المبحث الثَّاني

أحداث في الطَّريق ، والوصول إلى تبوك

وبعد تعبئة الجيش ، وتوزيع المهامِّ ، والألوية ، والرَّايات ، توجَّه الجيش الإسلاميُّ بقيادة رسول الله (ص) إلى تبوك ، ولم ينتظر أحداً قد تأخَّر ، وقد تأخَّر نفرٌ من المسلمين يظنُّ فيهم خيراً ، وكلَّما ذُكِرَ لرسول الله (ص) اسم رجل تأخَّر قال (ص) : «دعوه ، إن يك فيه خير؛ فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» [الحاكم ٣/٥٠)][(٦٥٨)].

أولاً: قصَّة أبي ذرٍّ الغفاريِّ:

قال ابن إسحاق: ثمَّ مضى رسول الله (ص) سائراً ، فجعل يتخلَّف عنه الرَّجل ، فيقولون: يا رسول الله! تخلَّف فلانٌ ، فيقول: «دعوه ، فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يك غير ذلك ، فقد

أراحكم الله منه» ، حتى قيل: يا رسول الله! قد تخلَّف أبو ذرٍ ، وأبطأ به بعيره ، فقال: «دعوه فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقُه الله بكم ، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» وتلوَّم[(٦٥٩)] أبو ذرٍّ على بعيره ، فلمَّا أبطأ عليه ، أخذ متاعه ، فحمله على ظهره ، ثمَّ خرج يتبع أثر رسول الله (ص) ماشياً ، ونزل رسول الله (ص) في بعض منازله ، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسول الله! إنَّ هذا الرَّجل يمشي على الطَّريق وحدَه ، فقال رسول الله (ص) : «كن أبا ذرٍّ»[(٦٦٠)] ، فلمَّا تأمَّله القوم؛ قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو ذرٍ ، فقال رسول الله (ص) : «رحم الله أبا ذرٍ ، يمشي وحدَه، ويموت وحدَه ، ويُبعث وحدَه»[(٦٦١)].

ومضى الزَّمان ، وجاء عصر عثمان ، ثمَّ حدثت بعض الأمور وسُيِّرَ أبو ذرٍّ إلى الرَّبذَة فلمَّا

حضره الموت ، أوصى امرأته ، وغلامه: إذا متُّ فاغسلاني ، وكفِّناني ، ثمَّ احملاني ، فضعاني على قارعة الطَّريق ، فأوَّل ركبٍ يمرُّون بكم؛ فقولوا: هذا أبو ذرٍّ! فلمَّا مات؛ فعلوا به كذلك ، فطلع ركبٌ ، فما علموا به؛ حتَّى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعودٍ في رهطٍ من أهل الكوفة ، فقال: ما هذا؟ فقيل: جِنازة أبي ذرٍّ ، فاستهل ابن مسعودٍ يبكي ، فقال: صدق رسول الله (ص) : «يرحم الله أبا ذرٍّ! يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبعث وحدَه» فنزل ، فوليه بنفسه حتَّى دفنه. [الحاكم (٣/٥٠ ـ ٥١) ، والطبري في تاريخه (٣/١٤٥) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٢١ ـ ٢٢٢)][(٦٦٢)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ ما تعرَّض له أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضي الله عنه من الصُّعوبات ، والمخاطر ، الَّتي نجَّاه الله منها ، وقوَّاه بالصَّبر عليها ، لقد بذل أبو ذرٍّ جهداً كبيراً في المشي على قدميه ، وهو يحمل متاعه على ظهره ، حتَّى لحق بالنَّبيِّ (ص) والمسلمين؛ لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله[(٦٦٣)].

٢ ـ وفي قوله (ص) : «رحم الله أبا ذر! يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويبعث وحدَه» دلالةٌ واضحةٌ وضوح الشَّمس في رائعة النَّهار على صدق نبوَّة الرَّسول (ص) ؛ إذ الإخبار بأمورٍ لم تقع ، ثمَّ تقع بعد الإخبار يدلُّ على معجزةٍ ، وتكريمٍ من الله لهذا الرَّسول (ص) وهذه الوسيلة من إثبات النُّبوَّة كثيرةٌ في السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفةِ[(٦٦٤)].

٣ ـ كما أنَّ في القصَّة دلالةٌ على علم ابن مسعودٍ رضي الله عنه ، وقوَّة ذاكرته ، وسرعة استحضاره لما حفِظ؛ حيث تذكَّر بعد سنواتٍ عديدةٍ حديث رسول الله (ص) عمَّا سيؤول إليه أمر أبي ذرٍّ في اخر حياته رضي الله عنه[(٦٦٥)].

ثانياً: قصة أبي خيثمة:

قال ابن إسحاق: ... ثمَّ إنَّ أبا خَيْثَمَة رجع بعد أن سار رسولُ الله (ص) أياماً إلى أهله في يوم حارٍّ ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه[(٦٦٦)] ، قد رشَّت كلُّ واحدةٍ منها عريشها ، وبرَّدت له فيه ماءً ، وهيَّأت له فيه طعاماً ، فلمَّا دخل؛ قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، فقال: رسول الله (ص) في الضِّحِّ[(٦٦٧)] ، والرِّيح ، والحرِّ ، وأبو خيثمة في ظلٍّ

باردٍ ، وطعامٍ مُهيَّأ ، وامرأةٍ حسناء ، في ماله مقيمٌ ، ما هذا بالنَّصَف! ثمَّ قال: والله ! لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتَّى ألحق برسول الله (ص) ، فهيِّئا لي زاداً ، ففعلتا ، ثمَّ قدَّم ناضحه[(٦٦٨)] ، فارتحله ، ثمَّ خرج في طلب رسول الله (ص) حتَّى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة عميرُ بن وهبٍ الجُمحيُّ في الطَّريق ، يطلب رسول الله (ص) ، فترافقا ، حتَّى إذا دنوا من تبوك ، قال أبو خيثمة لعمير بن وهبٍ: إنَّ لي ذنباً ، فلا عليك أن تخَلَّف عنِّي ، حتَّى اتيَ رسول الله (ص) ! ففعل حتَّى إذا دنا من رسول الله (ص) وهو نازلٌ بتبوك ، قال النَّاس: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ ، فقال رسول الله (ص) : «كن أبا خيثمة» ، فقالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! فلمَّا أناخ ، أقبل فسلَّم على رسول الله (ص) ، فقال له رسول الله (ص) : «أولى لك يا أبا خيثمة[(٦٦٩)] !» ثمَّ أخبر رسولَ الله (ص) الخبر ، فقال له رسول الله (ص) خيراً ، ودعا له بخيرٍ. [الطبراني في الكبير (٥٤١٩) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، والمجمع (٦/١٩٢ ـ ١٩٣)][(٦٧٠)] .

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً ، واسمه: مالكُ بن قيسٍ:

لما رأيتُ الناسَ في الدِّيْنِ نافقُوا أَتَيْتُ الَّتِي كانَتْ أَعَفَّ وأَكْرمَا

وبَايَعْتُ باليُمْنَى يَدِي لِمُحمَّدِ فَلَمْ أَكْتَسِبْ إِثْمَاً وَلَمْ أَغْشَ مَحْرَمَا

تَرَكْتُ خَضِيْباً[(٦٧١)] في العَرِيْشِ وَصِرْمَةً[(٦٧٢)] صَفَايَا[(٦٧٣)] كِراماً يُسْرُهَا قَدْ تَحَمَّمَا[(٦٧٤)]

وَكُنْتُ إِذَا شَكَّ المنَافِقُ أَسْمَحَتْ[(٦٧٥)] إِلَى الدِّيْنِ نَفْسِي شَطْرَهُ حَيْثَ يَمَّمَا[(٦٧٦)]

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، منها:

١ ـ المسلم صاحب ضميرٍ حيٍّ:

فقد رأى أبو خيثمة رضي الله عنه ما أعدَّت له زوجتاه من الماء البارد ، والطَّعام مع الظِّلِّ المبرَّد ، والإقامة ، فتذكر رسولَ الله (ص) وما هو فيه من التَّعرُّض للشَّمس ، والرِّيح ، والحرِّ؛

فأبصر ، وتذكَّر ، وتيقَّظ ضميره ، وحاسب نفسه ، ثمَّ عزم على الخروج ، وخرج وحدَه يقطع الفيافي ، والقفار حتَّى التقى بعمير بن وهب الجمحيِّ ، ولعلَّه كان قادماً من مكة ، فهذه الصُّورة تبيّن لنا مثلاً من سلوك المتَّقين الَّذين تمرُّ عليهم لحظات ضعفٍ ، يعودون بعدها أقوى إيماناً ممَّا كانوا عليه ، إذا تذكَّروا وراجعوا أنفسهم ، وفي بيان ذلك يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *} [الأعراف: ٢٠١].

وقد تذكَّر سريعاً ، وخرج لعلَّه يدرك ما فاته ، وظلَّ يشعر بالذَّنب ، حتَّى وصل إلى النَّبيِّ (ص) في تبوك ، وحصل على رضاه ، وسرورِه[(٦٧٧)].

٢ ـ معرفة الرَّسول (ص) بأصحابه ، وبمعادنهم:

إنَّ قول الرَّسول (ص) حينما قال له أصحابه: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ: «كن أبا خيثمة» فلمَّا اقترب ، وعرفوه ، قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! يدلُّ على معرفة رسول الله (ص) بأصحابه ، وأنَّه أعرفُهم بمعادن رجاله ، يعرف المستجيب من غيره ، ويعرف التَّائب النَّائب إلى ربِّه إذا زل قدمُه بسرعة رجوعه ، ومعرفةُ خصال الرِّجال ومعادِنهم تدلُّ على معرفةٍ واسعةٍ ، وخبرةٍ مستوعبةٍ فاحصةٍ ، نتيجة التَّعامل ، والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة ، فقد كان يخالط الجميع يسمع منهم ، ويُسمعهم ، ويسيرون معه ، ويُجاهدون تحت رايته[(٦٧٨)].

٣ ـ حزم أبي خيثمة ، وصبره ، ونفاذ عزيمته:

تأمَّل هذا القرار الَّذي اتخذه أبو خيثمة رضي الله عنه أن يلحق برسول الله (ص) وحدَه ، في هذه الرِّحلة المضْنِيَة ، في هذه الصَّحراء قليلة الماء ذات الحرِّ اللافح ، لقد اتَّخذ هذا القرار الحازم ، ونفَّذه بدقَّةٍ ، فدلَّ على قوَّة عزيمته ، وعنفوان إرادته ، وعلى جلده ، وصبره[(٦٧٩)].

٤ ـ عِتَابُ القائد للجنديِّ له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفاً بذنبه ، يطرح السَّلام على رسول الله (ص) ، فعاتبه (ص) معاتبةً تحمل في طيَّاتها اللَّوم ، والتَّأنيب ، والتَّهديد؛ إذ قال له رسول الله (ص) : «أولى لك يا أبا خيثمة!» فهي كلمةٌ فيها معنى التَّهديد ، ومعناها: دنوتَ من الهلكة.

إنَّه ممَّا لاشكَّ فيه: أنَّ هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجنديِّ؛ إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذَّنب.

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في تعليم القادة عدم السُّكوت على أخطاء الجنود؛ لأنَّ ذلك

يضرُّهم ، ويُلحِق الضَّرر بغيرهم ، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ، ومحاسبة مرتكبه ، وتقويمه ، وبذلك يكونون معلِّمين ، ومرشدين ، ومربِّين[(٦٨٠)].

ثالثاً: الوصول إلى تبوك:

عندما وصل النَّبيُّ (ص) لم يجد أثراً للحشود الرُّومانية ، ولا القبائل العربيَّة ، وبالرَّغم من أنَّ الجيش مكث عشرين ليلةً في تبوك ، لم تفكِّر القيادة الرُّومانيَّة مطلقاً في الدُّخول مع المسلمين في قتالٍ ، حتَّى القبائل العربيَّة المتنصِّرة اثرت السُّكون ، أمَّا حكام المدن في أطراف الشَّام ، فقد اثروا الصُّلح، ودفع الجزية ، فقد أرسل ملك أيلة للنَّبيِّ (ص) هديةً ، وهي بغلةٌ بيضاء ، وبُرد ، فصالحه على الجزية ، وأرسل خالدَ بن الوليد رضي الله عنه على رأس سريَّةٍ من الفرسان ، بلغ عددها أربعمئةٍ وعشرين فارساً إلى دومة الجندل ، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أُكَيْدِرَ بن عبد الملك الكنديَّ ـ ملكَها ـ وهو في الصَّيْدِ خارجها[(٦٨١)] ، فصالحه النَّبيُّ (ص) على الجزية[(٦٨٢)] ، وقد تعجَّب المسلمون من قَباء كان أُكَيْدِرُ يلبَسُه ، فقال الرَّسول (ص) : «أتعجبون من هذا؟ فوالَّذي نفسي بيده! لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة أحسن مِنْ هذا». [البخاري (٣٨٠٢) ، ومسلم (١٢٦/٢٤٦٨)][(٦٨٣)].

وقد ورد أنَّ غنائم خالد من أُكَيْدِرَ كانت ثمانمئةٍ من السَّبي ، وألفَ بعيرٍ ، وأربعمئة درعٍ، وأربعمئة رمحٍ[(٦٨٤)] ، وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبيِّ (ص) ، وهي بغلةٌ بيضاء ، وبرد ، فصالحه على الجزية[(٦٨٥)].

وكتب رسول الله (ص) معاهداتٍ لكلٍّ من أهل جرباء، وأذرح[(٦٨٦)]، ولأهل مقنا[(٦٨٧)] ، يؤدِّي بموجبها هؤلاء النَّاس من نصارى العرب الجزية كلَّ عامٍ ، وتخضع لسلطان المسلمين ، لقد انفرد رسول الله (ص) بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة ، وعقد معها معاهداتٍ ، وبذلك أمن حدود الدَّولة الإسلاميَّة الشَّمالية[(٦٨٨)].

وبهذه المعاهدات قصَّ (ص) أجنحة الرُّوم ، فقد كانت هذه القبائل تابعةً للرُّوم ، ودخلوا في النَّصرانية ، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله ، والتزامها بالجزية يعتبر قصَّاً لهذه الأجنحة ، وبتراً لحبال تبعيَّتهم للرُّوم ، وتحريراً لها من هذه التَّبعيَّة؛ الَّتي كانت تذلُّهم ، وتخضعهم لسلطان الرُّوم لينالوا مِنْ تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به ، وخوفاً من ظلمهم لقوَّتهم الباطشة ، وقد وَفَوا بعهد الصُّلح ، والتزموا أداء الجزية ، فأعطوها عن يد وهم صاغرون[(٦٨٩)].

وهذه سياسةٌ نبويَّةٌ حكيمةٌ اختطَّها رسولُ الله (ص) في بناء الدَّولة ، ودعوة النَّاس لدين الله ، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الرُّوم بإماراتٍ تدين للرَّسول (ص) بالطَّاعة ، وتخضع لحكم المسلمين ، وأصبحت في زمن الخلفاء الرَّاشدين نقاط ارتكازٍ ، سهَّلت مهمة الفتح الإسلاميِّ في عهدهم ، فمنها انطلقت قوَّات المسلمين إلى الشَّمال ، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم[(٦٩٠)].

رابعاً: وصايا رسول الله (ص) للجيش عند مروره بحِجْر ثمود:

قال أبو كبشة الأنصاريُّ رضي الله عنه: لما كان في غزوة تبوك تسارع النَّاس إلى أهل الحِجْرِ يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله (ص) ، فنادى في النَّاس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله (ص) وهو ممسكٌ بعيره ، وهو يقول: «ما تدخلون على قومٍ غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله! قال: «أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسدِّدوا ، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً» [أحمد (٤/٢٣١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٩٤)][(٦٩١)].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إنَّ النَّاس نزلوا مع رسول الله (ص) أرض ثمودٍ الحجر ، واستقوا من بئرها ، واعتجنوا به ، فأمرهم رسول الله (ص) أن يهريقوا ما استقوا من بئرها ، وأن يعلفوا الإبلَ العجينَ ، وأمرهم أن يستقوا من البئر الَّتي كانت تردها النَّاقة ، وقال رسول الله (ص) : «لا تدخلوا مساكن الَّذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين؛ حذراً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم» ثمَّ زجر[(٦٩٢)] ، فأسرع حتَّى خلَّفها. [البخاري (٣٣٨٠) ، ومسلم (٢٩٨٠/٣٩)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في توجيه رسول الله (ص) صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود ، وأن يتذكَّروا بها غضبَ الله على الَّذين كذَّبوا رسوله ، وألا يغفُلوا عن مواطن العظة برسومها الدَّارسة ، وأطلالها القديمة ، ونهاهم عن الانتفاع بشيءٍ ممَّا في ربوعها ، حتَّى الماء؛ لكيلا تفوت بذلك العبرة ، وتخف الموعظة ، بل أمرهم بالبكاء ، والتَّباكي ، تحقيقاً للتأثُّر بعذاب الله ، ولو أنَّهم مرُّو بها كما نمرُّ نحن باثار السَّابقين؛ لتعرَّضوا لسخط الله ، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ، ودلائل النُّبوَّات ، وعاينوا العجائب ، لكن قست قلوبُهم ، فاستهانوا بها ، وحقَّ عليهم العذاب ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه.

إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما قصَّ علينا من أنباء الأمم الخالية إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار ، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم ، الَّتي نزل فيها سخط المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ وعذابه الأليم؛ وجب أن تكون الموعظة أشدَّ ، والاعتبار أعمقَ ، والخوف من سخط المولى ـ سبحانه ـ أبلغَ ؛ ولهذا تسجَّى النَّبيُّ ـ صلوات الله وسلامُه

عليه ـ بثوبه لما مر بالدِّيار الملعونة المسخوطة ، واستحث خطا راحلته[(٦٩٣)] ، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت الَّذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون ؛ خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم». [سبق تخريجه].

خامساً: وفاة الصحابي عبد الله (ذو البجادين)[(٦٩٤)] رضي الله عنه:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قمت من جوف اللَّيل ، وأنا مع رسول الله (ص) في غزوة تبوك ، قال: فرأيت شعلةً من نارٍ في ناحية العسكر ، قال: فاتَّبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله (ص) وأبو بكر ، وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنيُّ قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله (ص) في حضرته ، وأبو بكر ، وعمر يُدَلِّيانه إليه ، وهو يقول: «أدْنِيَا إليَّ أخاكما» ، فدلَّياه إليه ، فلمَّا هيَّأه لِشِقِّه ، قال: «اللَّهمَّ ! إنِّي أمسيت راضياً عنه ، فارض عنه» قال: (الرَّاوي عن ابن مسعود) قال عبدُ الله بن مسعودٍ: يا ليتني كنت صاحب الحفرة. [البزار (٢٧٣٦) ، وأبو نعيم في الدلائل (٢/٥٢٤ ـ ٥٢٦) ، ومجمع الزوائد (٩/٣٦٩)][(٦٩٥)].

قال ابن هشام: وإنما سُمِّي ذا البجَادين؛ لأنَّه كان ينازع إلى الإسلام ، فيمنعه قومه من ذلك ، ويضيِّقون عليه ، حتَّى تركوه في بِجَادٍ ، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله (ص) ، فلمَّا كان قريباً منه ، شقَّ بجاده باثنين ، فاتَّزر بواحدٍ ، واشتمل بالاخر ، ثمَّ أتى رسول الله (ص) فقيل له: ذو البِجادَين لذلك[(٦٩٦)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وحكمٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ تكريم النَّبيِّ (ص) لجنوده أحياء وأمواتاً:

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النَّبي (ص) على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة؛ لأنَّهم قدَّموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ، تاركين وراءهم أعزَّ ما يملكون ، فكانت تلك الرِّعاية مظهراً من مظاهر تكريمهم في الدُّنيا ، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذِّئاب وغيرها من دوابِّ الأرض ، لكي يكون هذا التَّكريم من الأسباب الَّتي تدفع غيرهم إلى الاستبسال ، والإقدام في ميادين الجهاد.

ومن الجدير بالذِّكر: أنَّ هذا المبدأ لم يجد مَنْ يدعو إلى تطبيقه إلاَّ في العصر الحديث ، وبهذا يمكن أن يقال: إنَّ رعاية القائد المسلم لشؤون جنده تعدُّ سبقاً عسكرياً لم تعرفه النُّظم والدَّساتير الوضعيَّة إلا بعد قرونٍ طويلةٍ مِنْ بزوغ الإسلام[(٦٩٧)].

فهذه صورة من البرِّ ، والتَّكريم فريدةٌ يتيمةٌ ، لن تجد في تاريخ الملوك والحكَّام من يبرُّ ، ويتواضع إلى هذا المستوى ، إلى حيث يوسِّد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير ، ثمَّ يلتمس له المرضاة من ربِّ العالمين ، أمَّا هو فقد أعلن: أنَّه أمسى راضياً عنه[(٦٩٨)].

٢ ـ جواز الدفن في اللَّيل ، والغبطة مشروعةٌ في الخير:

فقد دفن رسول الله (ص) ذا البجادين ليلاً ، والسُّنَّةُ أن يُعَجَّل في دفن الميت ، كما أنَّ الغبطة مشروعةٌ في الخير ، وهي أن تتمنَّى حصول الخير لك ، كما حصل لغيرك من إخوانك ، وهذا عكس الحسد؛ إذ الحسد؛ تمنِّي زوال النِّعمة عن غيرك ، والحسد كلُّه شرٌّ كما ترى ، أمَّا الغبطة؛ فلا تكون إلا في الخير[(٦٩٩)] ، تأمَّل قول عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حينما سمع رسول الله (ص) يقول في حق ذي البجادين: «اللَّهُمَّ إِنِّي أمسيت عنه راضياً ، فارضَ عنه» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: يا ليتني كنت صاحب اللَّحد. [سبق تخريجه][(٧٠٠)]! إنَّها كلمةُ كلِّ مؤمنٍ امن بالله ، واليوم الاخر ، ووقف موقفه ذاك؛ فقد عرفوا أين تكون ميادين التَّنافس[(٧٠١)].

سادساً: بعض المعجزات الَّتي حدثت في الغزوة:

ظهرت في غزوة تبوك معجزاتٌ؛ منها:

١ ـ اللهُ تعالى يرسل السَّحاب لدعاء نبيِّه بالسُّقيا:

لما جاز النَّبيُّ (ص) حِجْرَ ثمود ، أصبح النَّاس ولا ماء لهم ، فشكوا ذلك إلى رسول الله (ص) ، فدعا رسول الله (ص) ربه ، واستسقى لمن معه من المسلمين ، فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ سحابةً ، فأمطرت حتَّى ارتوى النَّاس ، واحتملوا حاجتهم من الماء ، فتحدَّث ابن إسحاق عمَّن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النِّفاق فيهم؟ قال: نعم والله! إن كان الرَّجل ليعرفه من أخيه ، ومن أبيه ، ومن عمِّه ، وفي عشيرته ، ثم يَلْبَسُ بعضُهم بعضاً على ذلك. ثم قال محمود: لقد أخبرني رجالٌ من قومي ، عن رجلٍ من المنافقين معروف نفاقُه ، كان يسير مع رسول الله (ص) حيث سار ، فلمَّا كان من أمر النَّاس بالحِجْرِ ما كان ، ودعا رسول الله (ص) حين دعا ، فأرسل الله السَّحابة ، فأمطرت حتى ارتوى النَّاس ، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك! هل بعد هذا شيء! قال: سحابةٌ مارَّةٌ[(٧٠٢)].

٢ ـ خبر ناقة رسول الله (ص):

لما كان رسول الله (ص) سائراً في طريقه إلى تبوك ضلَّت ناقتُه ، فخرج أصحابه في طلبها ، وعند رسول الله (ص) رجلٌ من أصحابه ، يقال له: عُمارة بن حزم ، وكان عقبيّاً بدريّاً ، وهم عمُّ بني عمرو بن حزمٍ ، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي ، وكان منافقاً.

قال زيد بن اللُّصَيْت؛ وهو في رحل عمارة ، وعُمارة عند رسول الله (ص) : أليس محمد يزعم: أنَّه نبيٌّ ، ويخبركم عن السَّماء ، وهو لا يدري أين ناقتُه؟

فقال رسول الله (ص) وعُمارة عنده: «إنَّ رجلاً قال: هذا محمَّد يخبركم أنَّه نبيٌّ ، ويزعم أنَّه يخبركم بأمر السَّماء ، وهو لا يدري أين ناقته؟ وإنِّي والله! ما أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلَّني الله عليها ، وهي في هذا الوادي ، في شعب كذا ، وكذا ، قد حبستها شجرةٌ بزمامها ، فانطلقوا حتَّى تأتوني بها» ، فذهبوا ، فجاؤوا بها ، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله ، فقال: والله! لعجبٌ من شيء حَدَّثناه رسولُ الله (ص) انفاً ، عن مقالة قائلٍ أخبره الله عنه بكذا ، وكذا ، للَّذي قال زيد بن اللُّصَيْت. فقال رجلٌ ممَّن كان في رحل عمارة ، ولم يحضر رسول الله (ص) : زيدٌ والله! قال هذه المقالة قبل أن تأتي ، فأقبل عمارة على زيدٍ ، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليَّ عبادَ الله ، إنَّ في رحلي لداهيةً؛ وما أشعر ، اخرج ، أيْ عدوَّ الله مِنْ رحلي ، فلا تصحبني. [الطبري في تاريخه (١٤٥/٣) ، والبلاذري في أنساب الأشراف (٢٨٥/١) ، والبيهقي في الدلائل (٢٣٢/٥)][(٧٠٣)].

قال ابن إسحاق: فزعم بعض النَّاس أنَّ زيداً تاب بعد ذلك ، وقال بعض النَّاس: لم يزل مُتَّهماً بشرٍّ حتَّى هلك[(٧٠٤)].

٣ ـ الإخبار بهبوب ريحٍ شديدةٍ ، والتَّحذير منها:

أخبر رسولُ الله (ص) أصحابه في تبوك بأنَّ ريحاً شديدةً ستهبُّ ، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ، ودوابِّهم ، فلا يخرجوا حتَّى لا تؤذيهم ، وليربطوا دوابَّهم حتَّى لا تؤذى. وتحقَّق ما أخبر به رسول الله (ص) فهبتِ الرِّيح الشَّديدة ، وحملت من قام فيها إلى مكانٍ بعيدٍ[(٧٠٥)] ، فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حُمَيْدٍ ، قال: وانطلقنا حتَّى قدمنا تبوك ، فقال رسول الله (ص) : «ستهبُّ عليكم اللَّيلة ريحٌ شديدةٌ ، فلا يقم أحدٌ منكم ، فمن كان له بعيرٌ فليشدَّ عِقَالَه» ، فهبَّت ريحٌ شديدةٌ ، فقام رجلٌ ، فحملته الرِّيح حتَّى ألقته بجبل طيِّأى. [البخاري (١٤٨١) ، ومسلم (١٣٩٢/١١ و١٢)].

قال النَّوويُّ في شرحه على صحيح مسلمٍ معقِباً على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظَّاهرة من إخباره (ص) بالمغيب ، وخوف الضَّرر من القيام وقت الرِّيح[(٧٠٦)].

٤ ـ تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه مِنْ خصبٍ:

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: قال رسول الله (ص) : «إنَّكم ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك ، وإنَّكم لن تأتوها حتَّى يَضْحَى النَّهار ، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتَّى اتي» ، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان ، والعين مثل الشِّراك[(٧٠٧)] ، تَبِضُّ[(٧٠٨)] بشيءٍ من ماءٍ ، فسألهما رسول الله (ص) : «هل مَسَسْتُما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم ، فسبَّهما النَّبيُّ (ص) وقال لهما ما شاء الله أن يقول ، ثمَّ غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتَّى اجتمع في شيءٍ ، وغسل رسول الله (ص) فيه يديه ووجهه ، ثمَّ أعاده فيها ، فجرت العين بماءٍ منهمرٍ أو غزيرٍ حتَّى استقى النَّاس.

وقد قال رسول الله (ص) لمعاذ بن جبل: «يوشك يا معاذ! إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما هاهنا قد مُلأى جناناً». [أحمد (٥/٢٣٧ ـ ٢٣٨) ، ومسلم (٧٠٦/١٠) ، وأبو داود (١٢٦٠) ، والترمذي (٥٥٣) ، والنسائي (١/٢٨٥) ، وابن ماجه (١٠٧٠)].

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الَّذي كانت فيه العين منطقةً جرداء لقلَّة الماء ، ولكن الله ـ عزَّ وجل ـ أجرى على يد رسوله (ص) بركة تكثير هذا الماء ، حتَّى أصبح يسيل بغزارةٍ ، ولم يكن هذا اتياً لسدِّ حاجة الجيش ، بل أخبر رسول الله (ص) بأنه سيستمرُّ ، وستكون هناك جنانٌ ، وبساتين مملوءةٌ بالأشجار المثمرة ، ولقد تحقَّق ما أخبر به الرَّسول (ص) بعد فترة قليلةٍ من الزَّمن ، ولا زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها ، وبساتينها ، ونخيلها ، وتمورها ، تنطق بصدق نبوَّة الرَّسول (ص) ، وتشهد بأنَّ الرَّسول (ص) لا يتكلَّم إلا صدقاً، ولا يخبر إلا حقّاً، ولا ينبأى بشيءٍ إلا ويتحقَّق[(٧٠٩)].

٥ ـ تكثير الطَّعام:

قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه: لما كانت غزوة تبوك أصاب الناسَ مجاعةٌ، فقالوا: يا رسول الله! لو أذنت لنا ، فنحرنا نواضِحنا[(٧١٠)] ، فأكلنا ، وادَّهَنَّا ، فقال لهم رسول الله (ص) : «افعلوا» فجاء عمر ، فقال: يا رسول الله! إنَّهم إن فعلوا؛ قلَّ الظَّهر[(٧١١)] ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثمَّ ادع لهم بالبركة، لعلَّ الله أن يجعل في ذلك! فدعا رسول الله (ص) : بنطْعٍ[(٧١٢)] ، فبسطه ، ثمَّ دعاهم بفضل أزوادهم ، فجعل الرَّجل يجيء بكفِّ الذُّرة ، والاخر بكف التَّمْر ، والاخر بالكِسْرَة ، حتَّى اجتمع على النِّطع في ذلك شيءٌ يسيرٌ ، ثمَّ دعا عليه بالبركة ، ثمَّ قال لهم: «خذوا في أوعيتكم» ، فأخذوا في أوعيتهم حتَّى ما تركوا من المعسكر وعاءً إلا ملؤوه ، وأكلوا حتَّى شبعوا ، وفضَلَتْ منه فَضْلَةٌ ، فقال رسول الله (ص) : «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسولُ الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ، فتحجب

عنه الجنَّة». [أحمد (٣/١١)، ومسلم (٢٧/٤٥) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٢٩ ـ ٢٣٠) ، وابن حبان (٦٥٣٠) ، وأبو يعلى (١١٩٩)].

هذه بعض المعجزات ، والكرامات الَّتي أظهرها الله على يد رسول الله (ص) في غزوة تبوك ، تدلُّ على صدق نبوَّته ، ورسالته ، وتدلُّ على رفعة منزلته ، وتكريمه عند ربِّه[(٧١٣)].

سابعاً: حديث القران الكريم عن مواقف المنافقين في أثناء الغزوة:

أ ـ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلسٍ يوماً: ما أرى قرَّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا ألسنةً ، وأجبننا عند اللِّقاء.. فقال رجلٌ في المجلس: كذبت ، ولكنَّك منافقٌ ، لأخبرنَّ رسول الله (ص) ! فبلغ ذلك رسولَ الله (ص) ، ونزل القران. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلِّقاً بحَقَبِ[(٧١٤)] ناقة رسول الله، والحجارة تنكبُه[(٧١٥)]، وهو يقول: يا رسول الله! إنَّما كنَّا نخوض ، ونلعب ، والرَّسول (ص) يقول: «أبالله ، واياته ، ورسوله كنتم تستهزئون؟». [ابن جرير في تفسيره (١٠/١٧٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/٢٣٠)].

وفي رواية قتادة ، قال: بينما رسول الله (ص) في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناسٌ من المنافقين ، فقالوا: يرجو هذا الرَّجل أن تفتح له قصور الشَّام وحصونُها؟ هيهات! هيهات!! فأطلع الله نبيَّه على ذلك ، فقال نبيُّ الله (ص) : «احبسوا عليَّ هؤلاء الرَّكب». فأتاهم ، فقال: قلتُم كذا ، وكذا ، فحلفوا ما كنَّا إلا نخوض ، ونلعب [ابن جرير في تفسيره (١٠/١٧٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/٢٣٠)]. فأنزل الله تعالى: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ *وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ *} [التوبة: ٦٤ ـ ٦٥].

والاستفهام في قوله: استفهامٌ {قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ *} ، والمعنى: قل يا محمد! لهؤلاء موبِّخاً ، ومنكراً: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم ـ كما تزعمون ـ سوى فرائضِ الله ، وأحكامه ، واياته ، ورسوله الَّذي جاء لهدايتكم ، وإخراجكم من الظُّلمات إلى النُّور؟! ثمَّ بيَّن سبحانه: أنَّ استهزاءهم هذا أدَّى بهم إلى الكفر ، فقال: {لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *} [التوبة: ٦٦].

ومعنى الاية: أي: لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم؛ لأنَّ الإقدام على الكفر لأجل اللَّعب لا ينبغي أن يكون ، فاعتذاركم إقرارٌ بذنبكم ، فهو كما يقال: عذرٌ أقبحُ من ذنبٍ[(٧١٦)].
وقوله: أي: إن نعف عن بعضكم؛ {إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ *} ، وإنابتهم إلى ربِّهم ـ كمُخَشِّن بن حُمَيِّر؛ نعذب بعضاً اخر؛ لإجرامهم ، وإصرارهم عليه[(٧١٧)].

ب ـ إيذاء الرَّسول (ص) ، والمؤمنين ، ومحاولة اغتيال رسول الله (ص):
وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ *} [التوبة: ٧٤].
وقد قال ابن كثيرٍ: إنَّ الضَّحاك قال: إنَّ نفراً من المنافقين همُّوا بالفتك بالنَّبيِّ (ص) وهو في غزوة تبوك في بعض اللَّيالي في حال السَّير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الاية[(٧١٨)] وفي رواية الواحديِّ عن الضَّحَّاك: خرج المنافقون مع رسول الله (ص) إلى تبوك ، فكانوا إذا خلا بعضُهم إلى بعضٍ؛ سبُّوا رسول الله (ص) ، وأصحابَه ، وطعنوا في الدين ، فنقل ما قالوا حذيفةُ إلى رسول الله (ص) ، فقال لهم رسول الله: «يا أهل النِّفاق! ما هذا الذي بلغني عنكم؟!» ، فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك ، فأنزل الله هذه الاية إكذاباً لهم[(٧١٩)].
والمعنى الإجماليُّ للاية: «يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة الَّتي نسبت إليهم ، والله يكذِّبهم ، ويُثبت: أنَّهم قد قالوا كلمة الكفر الَّتي رويت عنهم ، ولم يذكر القران هذه الكلمة؛ لأنَّه لا ينبغي ذكرها»[(٧٢٠)].
أمَّا همُّهم بما لم ينالوا؛ فهو اغتيال رسول الله (ص) حين كان بالعقبة وهو منصرفٌ مِنْ تبوك. قال ابن كثير: عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت اخذاً بخطام ناقة رسول الله (ص) أقود به ، وعمَّار يقود النَّاقة ، وأنا أسوقُه ، وعمَّار يقوده ، حتَّى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها ، قال: فأنبهت رسول الله (ص) بهم ، فصرخ بهم فولَّوا مدبرين ، فقال لنا رسولُ الله (ص) : « هل عرفتم القوم؟ » قلنا: لا يا رسول الله؟! قد كانوا ملثَّمين ، ولكنَّا قد عرفنا الرِّكابَ. قال: «هؤلاء المنافقون إلي يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا؟» ، قلنا: لا. قال: «أرادوا أن يزاحموا رسول الله (ص) في العقبة ، فيلقوه منها». [البيهقي في الدلائل (٥/٢٦٠ ـ ٢٦١) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/٢٤٤)].

وقوله: . أي: وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر {وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ} ، وبعثة الرَّسول (ص) فيهم شيئاً يقتضي الكراهة ، والهمَّ بالانتقام ، إلا أن أغناهم الله تعالى ، ورسولُه من فضله بالغنائم الَّتي هي عندهم أحبُّ الأشياء لديهم في هذه الحياة.

وقوله تعالى: {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ}

أي: فإنْ يتوبوا من النِّفاق ، وما يصدر عنه من مساوأى الأقوال ، والأفعال؛ يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدُّنيا ، والاخرة.

وقوله: {وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ *}

أي: وإن يُعرضوا عمَّا دُعوا إليه من التَّوبة ، وأصروا على النِّفاق وما ينشأ منه من المساوأى الخلقيَّة ، والنَّفسيَّة ، يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدُّنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهَلَع[(٧٢١)].

* * *

المبحث الثَّالث

العودة من تبوك إلى المدينة ،

وحديث القران الكريم في المخلَّفين عن الغزوة ،

وعن مسجد الضِّرار

عاد النَّبيُّ (ص) إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلةً[(٧٢٢)] ، وقد أمر النَّبيُّ (ص) بهدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون وهو راجعٌ إلى المدينة ، ولما اقترب من المدينة؛ خرج الصِّبيان إلى ثَنِيَّة الوداع يتلقَّونه ، ودخل المدينة ، فصلَّى في مسجده ركعتين ، ثمَّ جلس للنَّاس ، وجاء المخلَّفون لرسول الله (ص) يقدِّمون له الاعتذار ، وكانوا أربعة أصنافٍ: فمنهم من له أعذارٌ شرعيَّةٌ ، وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ومنهم مَنْ ليس له أعذارٌ شرعيَّة ، وتاب الله عليهم ، ومنهم من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة ، ومنهم من منافقي المدينة.

أولاً: المخلَّفون الَّذين لهم أعذار شرعيَّةٌ ، وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ:

قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ *} [التوبة: ٩١ ـ ٩٢].

بيَّنت هذه الايات الكريمة الَّذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك وكان لهم عذرٌ شرعيٌّ ، بأنَّه ليس عليهم حرجٌ ، وليس عليهم إثمٌ في هذا التَّخلُّف؛ ذلك لأن لهم عذراً شرعياً منعهم من الخروج ، وفي المراد بالضُّعفاء: أنَّهم الزَّمنى ، والمشايخ الكبار ، وقيل: الصِّغار ، وقيل: المجانين ، سمُّوا ضعافاً لضعف عقولهم ، ذكر القولين الماورديُّ ، والصَّحيح: أنَّهم الَّذين يضعفون

لزمانةٍ ، أو عمىً ، أو سنٍّ ، أو ضعفٍ في الجسم. والمرضى: الَّذين بهم أعلالٌ مانعةٌ من الخروج للقتال[(٧٢٣)].

وقوله: أي: ليس على الذين {وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ} يجدون نفقةً تبلغهم إلى الغزو حرجٌ؛ أي: إثم ، أي: إذا عرفوا {إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ} ، وأحبُّوا أولياءه ، وأبغضوا أعداءه[(٧٢٤)].

وقوله: قال الطَّبري: يقول تعالى: ليس على مَنْ {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ} ، فنصح لله ، ورسوله في تخلُّفه عن رسول الله وعن الجهاد معه ، لعذرٍ يُعذر به طريقٌ يتطرَّق عليه ، فيعاقب مِنْ قبله يقول تعالى: والله ساترٌ على ذنوب {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} ، يتغمَّدها بعفوه لهم عنها ، رحيمٌ بهم أن يعاقبَهم عليها[(٧٢٥)].

وقال القرطبيُّ: الاية أصلٌ في سقوط التَّكليف عن العاجز ، ولا فرق بين العجز من جهة القوَّة ، أو العجز من جهة المال[(٧٢٦)].

وقوله: معطوف على {وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} قبله ، من عطف الخاصِّ على العامِّ ، اعتناءً بشأنهم ، وجعلهم كأنَّهم لتميزهم جنسٌ اخر ، مع أنَّهم مندرجون مع الَّذين وصفهم الله قبل ذلك أي: {أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ *} حرج ، ولا إثم على الضُّعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون إذا ما تخلَّفوا عن الجهاد ، وكذلك لا حرج ، ولا إثم ـ أيضاً ـ على فقراء المؤمنين على الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السَّفر الطَّويل لهم {الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ} محمد[(٧٢٧)]: {لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ} ، وقوله: أي: {تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ} وأعينهم تسيل بالدُّموع من شدَّة الحزن؛ لأنَّهم لا يجدون المال؛ الَّذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك[(٧٢٨)].

ثانياً: المخلَّفون الذين ليس لهم أعذارٌ شرعيَّةٌ ، وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث ايات تتحدَّث عن هؤلاء المخلَّفين ، وهي:

١ ـ قوله تعالى: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ١٠٢].

ومعنى الاية الكريمة: أنَّ هؤلاء الجماعة تخلَّفوا عن الغزو لغير عذرٍ مسوّغٍ للتخلُّف ، ثم ندموا على ذلك ، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة ، كما اعتذر المنافقون ، بل تابوا ، واعترفوا بالذَّنب ، ورجوا أن يتوب الله عليهم ، والمراد بالعمل الصَّالح: ما تقدَّم من إسلامهم ، وقيامهم بشرائع الإسلام ، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن ، والمراد بالعمل السَّيِّأى: هو تخلُّفهم عن هذه الغزوة ، وقد أتبعوا هذا العمل السَّيِّأى عملاً صالحاً ، وهو الاعتراف به والتَّوبة عنه.

وأصل الاعتراف: الإقرار بالشَّيء ، ومجرَّد الإقرار لا يكون توبةً إلا إذا اقترن به النَّدم على الماضي ، والعزم على تركه في الحال ، والاستقبال ، وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط: أنَّهم خلطوا كلَّ واحد منهما بالاخر؛ كقولك: خلطت الماء باللَّبن ، واللبنَ بالماء.

وفي قوله: دليلٌ على أنَّه قد وقع منهم مع الاعتراف {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ} يفيد التَّوبة ، أو مقدِّمة التَّوبة وهي الاعتراف ، ويقوم مقام التَّوبة ، وحرف التَّرجِّي وهو (عسى) هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقُّق الوقوع ؛ لأنَّ الإطماع من الله سبحانه إيجابٌ؛ لكونه أكرم الأكرمين ، أي: يغفر {إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} ، ويتفضَّل على عباده[(٧٢٩)].

٢ ـ قوله تعالى: {وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *} [التوبة: ١٠٦].

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصَّحيحين: هلال بن أميَّة ، وكعب بن مالك ، ومُرارة بن الرَّبيع ، وكانوا قد تخلَّفوا عن رسول الله (ص) لأمرٍ ما ، مع الهمِّ باللَّحاق به (ص) فلم يتيسَّر لهم ، ولم يكن تخلُّفهم عن نفاقٍ ، وحاشاهم ، فقد كانوا من المخلصين ، فلمَّا قدم النَّبيُّ (ص) وكان ما كان من المتخلِّفين؛ قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة ، ولم يعتذروا له (ص) ، ولم يفعلوا كما فعل أهل السَّواري[(٧٣٠)] ، وأمر رسول الله باجتنابهم ، وشدَّد الأمر عليهم ، كما ستَعْلَمُه إن شاء الله تعالى ، وقد وقف أمرهم خمسين ليلةً لا يدرون ما الله تعالى فاعلٌ بهم[(٧٣١)].

٣ ـ قال تعالى: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *} [التوبة: ١١٨].

والمراد بهؤلاء الثَّلاثة هم: هلالُ بنُ أميَّة ، وكعب بن مالك ، ومُرَارة بن الرَّبيع ، وفيهم نزلت هذه الاية[(٧٣٢)] ، وسوف نتحدَّث عن هذه القصَّة بإذن الله بنوعٍ من التَّفصيل ، لما فيها من الدُّروس ، والعبر ، والحكم.

ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلَّفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: {وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *} [التوبة: ٩٠].

ومعنى الاية: أنَّه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحقٍّ أو باطلٍ على كلا التَّفسيرين ؛ لأجل أن يأذن لهم رسول الله (ص) بالتَّخلُّف عن الغزوة ، وطائفةٌ أخرى لم يعتذروا ، بل قعدوا عن الغزوة ولغير عذرٍ ، وهم منافقو الأعراب الذين كذَبوا الله ورسوله ، ولم يؤمنوا ، ولا صدَّقوا ، ثمَّ توعَّدهم الله ـ سبحانه ـ فقال: أي: من {سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ} ، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا ، بل كذَّبوا بالله ، ورسوله ، أي: كثيرُ {عَذَابٌ أَلِيمٌ *} ، فيصدُق على عذاب الدُّنيا ، والاخرة[(٧٣٣)].

ونزل فيهم قوله تعالى: والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون! أنَّه يسكن مِنْ حول مدينتكم قومٌ من الأعراب {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ} ، فاحترسوا منهم[(٧٣٤)].

رابعاً: المخلَّفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ *فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِي عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ *} [التوبة: ٨١ ـ ٨٣].

وتفسير الايات السَّابقة كالاتي: المخلَّفون: اسم مفعول مأخوذ من قولهم: خلَّف فلانٌ فلاناً وراءه: إذا تركه خلفه ، والمخلَّف: المتروك خلف مَنْ مضى[(٧٣٥)] ، : بقعودهم قال ابن الجوزيّ: فيها {بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ}

أحدهما: أنَّ معناه: بعد رسول الله (ص) .

والثاني: أنَّ معناه: مخالفة رسولِ الله (ص) ، فالمعنى بأنَّهم قعدوا لمخالفة رسول الله (ص)(٣).

والمعنى: قال ابن كثير: يقول تعالى ذامَّاً للمنافقين المتخلِّفين عن صحابة رسول الله (ص) في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه معه أي: بعضهم لبعض قال الله تعالى {وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} (ص) : لهم: التي تصيرون إليها بمخالفتكم ممَّا فررتم منه مِنَ الحرِّ وقوله: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *}

والمعنى: أنَّهم فرحوا ، وضحكوا طوال أعمارهم في الدُّنيا ، فهو قليلٌ بالنسبة إلى بكائهم في الاخرة؛ لأنَّ الدُّنيا فانيةٌ ، والاخرة باقيةٌ ، والمنقطعُ الفاني قليلٌ بالنسبة إلى الدَّائم الباقي. وقوله تعالى: والمراد بقوله: إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الَّذين تخلَّفوا عن الخروج معك إلى {فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ} ، والمراد بقوله: حين لم يخرجوا إلى تبوك والمراد بقوله: . قال الإمام الرَّازي {أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ *} ملخَّصُه: ذُكِرَ في تفسير «الخالف» وجوهٌ:

الأول: الخالفون جمعٌ ، واحدهم: خالف ، وهو مَنْ يخلُف الرَّجل في قومٍ. ومعناه: فاقعدوا مع الخالفين من الرِّجال الَّذين يخلُفون في البيت ، فلا يبرحونه.

الثاني: أنَّ الخالفين فسِّر بالمخالفين ، يقال: فلانٌ خالفه أهلُ بيته: إذا كان مخالفاً لهم ، وقومٌ خالفون ، أي: كثيرو الخلاف لغيرهم.

الثالث: أنَّ الخالف هو الفاسد. قال الأصمعيُّ: يقال: خلف عن كلِّ خيرٍ ، يخلف ، خلوفاً: إذا فسد ، وخلف اللَّبنُ: إذا فسد.

إذا عرفت هذه الوجوه الثَّلاثة؛ فلا شك: أنَّ اللَّفظ يصلح حمله على كلِّ واحدٍ منها؛ لأنَّ أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصِّفات السَّيئة[(٧٣٧)].

هذا وقد لاحظت اختلاف سياسة الرَّسول (ص) في معاملته للمنافقين ـ عندما اعتذروا له ـ عن المسلمين الصَّادقين؛ حيث إنَّه (ص) عامل المنافقين باللِّين، والصَّفح، واختار للمسلمين الصَّادقين الشِّدَّة ، والعقوبة! ولا شكَّ: أنَّ الشدَّة ، والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهرٌ للإكرام ، والتَّشريف ، وهو ما لا يستحقُّه المنافقون ، وكيف يستحقُّ المنافقون أن تنزل اياتٌ في توبتهم ـ على أيِّ حال ـ إنَّهم كفرةٌ ، ولن يَنْشُلَهم شيءٌ ممَّا يتظاهرون به في الدُّنيا من الدَّرك الأسفل في النَّار يوم القيامة ، وقد أمر الشَّارع جلَّ جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به ، ونُجري الأحكام الدُّنيوية حسب ظواهرهم ، ففيم التَّحقيق عن بواطن أعذارهم ، وحقيقة أقوالهم؟ وفيم معاقبتُهم في الدُّنيا على ما قد يصدر عنهم مِنْ كذبٍ؟! ونحن إنَّما نعطيهم الظَّاهر فقط من المعاملة والأحكام ، كما يُبدون لنا هم أيضاً الظَّاهر فقط من أحوالهم ، وعقائدهم.

قال ابن القيِّم: وهكذا يفعل الربُّ سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم ، فيؤدِّب عبده المؤمن الَّذي يحبُّه ـ وهو كريمٌ عنده ـ بأدنى زلَّة وهفوةٍ ، فلا يزال مستيقظاً حذراً ، وأمَّا مَنْ سقط من عين الله ، وهان عليه؛ فإنَّه يُخَلِّي بينه وبين معاصيه ، وكلَّما أحدث ذنباً؛ أحدث له نعمةً[(٧٣٨)].

خامساً: مسجد ضرار:

في أثناء عودة النَّبي (ص) إلى المدينة راجعاً من تبوك نزلت عليه الايات الاتية: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *} [التوبة: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وسبب نزول هذه الايات الكريمات: أنَّه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله (ص) إليها رجلٌ من الخزرج ، يقال له: أبو عامر الرَّاهب ، وكان قد تنصَّر في الجاهليَّة ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادةٌ في الجاهلية ، وله شرفٌ في الخزرج كبيرٌ ، فلمَّا قدِم رسولُ الله (ص) مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمةٌ عاليةٌ ، وأظهرهم الله يوم بدر؛ شرق اللَّعين أبو عامرٍ بريقِه ، وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فارّاً إلى كفَّار مكَّة من مشركي قريشٍ ، يمالئهم على حرب رسول الله (ص) فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحدٍ ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله ـ عزَّ

وجل ـ ، وكانت العاقبة للمتَّقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفَّين فوقع في إحداهنَّ رسول الله (ص) ، وأصيب ذلك اليوم ، فجرح ، وكسرت رباعيَّته اليُمنى ، والسُّفلى ، وشُجَّ رأسه (ص) .

وتقدَّم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار ، فخاطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلمَّا عرفوا كلامه؛ قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق! يا عدوَّ الله! ونالوا منه ،
وسبُّوه ، فرجع وهو يقول: والله! لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ ، وكان رسول الله (ص) قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه القران ، فأبى أن يسلم ، وتمرَّد ، فدعا عليه رسول الله (ص) أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدَّعوة ، وذلك: أنَّه لما فرغ النَّاس من أحدٍ ، ورأى أمر الرَّسول (ص) في ارتفاع ، وظهورٍ؛ ذهب إلى هرقل ملك الرُّوم يستنصره على النَّبيِّ (ص) ، فوعده ، ومنَّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من أهل النِّفاق ، والرَّيب يعدهم ، ويمنِّيهم بجيشٍ يقاتل به رسول الله (ص) ، ويغلبه ، ويردُّه عمَّا هو فيه ، وأمرهم أن يتَّخذوا له معقلاً يَقْدَمُ عليهم فيه مَنْ يَقْدَم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قُباء ، فبنوه ، وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله (ص) إلى تبوك وجاؤوا ، فسألوا رسول الله (ص) أن يأتي إليهم ، فيصلِّي في مسجدهم ليحتجُّوا بصلاته فيه على تقريره ، وإثباته ، وذكروا: أنَّهم بنوه للضُّعفاء منهم ، وأهل العلَّة في الليلة الشَّاتية ، فعصمه الله من الصَّلاة فيه ، فقال: «إنَّا على سفرٍ ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» ، فلمَّا قفل عليه السَّلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبقَ بينه وبينها إلا يومٌ أو بعض يومٍ نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضِّرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر ، والتَّفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ، ومسجد قُباء؛ الَّذي أسس من أوَّل يومٍ على التَّقوى ، فبعث رسول الله (ص) إلى ذلك المسجد مَنْ هدمه قبل مَقْدَمِهِ المدينة [ابن جرير في تفسيره (١١/٢٣) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٦٢ ، ٢٦٣) ، وابن هشام (٤/١٧٣ ، ١٧٤) ، وابن كثير في تفسيره (٢/٣٨٨)] ، هذا ما ذكره ابن كثيرٍ في سبب النُّزول.
أمَّا معنى الايات الكريمات:
أخبر الله سبحانه أنَّ الباعث لهم على بناء هذا المسجد أربعةُ أمور:
١ ـ الضِّرار لغيرهم ، وهو المضارَّة.
٢ ـ الكفر بالله ، والمباهاة لأهل الإسلام؛ لأنَّهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النِّفاق.

٣ ـ التَّفريق بين المؤمنين؛ لأنَّهم أرادوا ألاَّ يحضروا مسجد قُباء ، فتقلَّ جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة ، وبطلان الأُلفة ما لا يخفى.

٤ ـ الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أي: الإعداد لأجل مَنْ حارب الله ورسوله[(٧٣٩)].

وقد خيَّب الله تعالى مسعاهم ، وأبطل كيدهم ، بأنْ أمر نبيَّه (ص) بهدمه ، وإزالته.

وقوله: ذمٌّ لهم على أيمانهم {وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى} ، وأقوالهم الكاذبة ، لذلك قال تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ *}

ثمَّ نهى الله ـ تعالى ـ رسوله والمؤمنين عن الصَّلاة في هذا المسجد نهياً مؤكَّداً ، فقال سبحانه: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ *}

قال ابن عاشور: وقوله (سبحانه): المراد بالقيام الصَّلاة؛ {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا} أوَّلها قيامٌ ، ووجه النَّهي عن الصَّلاة فيه: أنَّ صلاة النَّبي (ص) فيه تُكْسِبه يُمناً ، وبركةً فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزيَّةً عليه ، ولذلك أمر رسول الله (ص) عمَّار بن ياسر ، ومالك بن الدُّخشم مع بعض أصحابه ، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظَّالم أهلُه؛ فاهدموه ، وحرِّقوه» ففعلوا[(٧٤٠)].

وقوله: احتراسٌ ممَّا يستلزمه النَّهي عن الصَّلاة فيه؛ من إضاعة عبادة في الوقت الَّذي رغبوه للصَّلاة {لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} ، فأمر الله بأن يصلِّي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصَّلاة في مسجد الضِّرار أن يصلِّي في مسجده ، أو في مسجد قُباء ، لئلا يكون لامتناعه من الصَّلاة من حظوظ الشَّيطان أن يكون صرفُه عن صلاةٍ في وقت دعي للصَّلاة فيه ، وهذا أدبٌ نفسانيٌّ عظيمٌ[(٧٤١)].

وفيه أيضاً: دفعُ مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرَّسول (ص) ، بأنَّه دعي إلى الصَّلاة في مسجدهم ، فامتنع ، فقوله: وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة؛ لأنَّ النَّهي عن صلاته في مسجد الضِّرار أزال كونه حقيقاً بصلاته فيه {أَحَقُّ}

ولعلَّ نكتة الإتيان باسم التَّفضيل: أنَّه تهكُّمٌ على المنافقين؛ لمجاراتهم ظاهراً في دعوتهم النَّبيَّ (ص) للصَّلاة فيه ، بأنَّه وإن كان حقيقاً بصلاته بمسجدٍ أُسِّس على التَّقوى أحقّ منه ، فيعرف من وصفه بأنَّه : أنَّ هذا أُسِّس على ضِدِّها

وقد رأى ابن عاشور: أنَّ المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى: أنَّه مسجد هذا صفته ، لا مسجداً واحداً معيَّناً ، فيكون هذا الوصف كلّيّاً انحصر في فردين: المسجد النَّبويُّ ، ومسجد قُباء[(٧٤٢)].

قوله تعالى: روى {فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا} ماجه: أنَّه لما نزلت هذه الاية قال رسول الله (ص) : «يا معشر الأنصار! إنَّ الله تعالى قد أثنى عليكم في الطُّهور، فما طُهوركم؟»

قالوا: نتوضأ للصَّلاة ، ونغتسل من الجنابة ، ونستنجي بالماء. قال: «فهو ذاك ، فعليكُمُوه». [ابن ماجه (٣٥٥)].

وفي قصة مسجد الضِّرار دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ الكفر ملةٌ واحدةٌ:

وقد تبيَّن هذا في موقف أبي عامرٍ الرَّاهب من الإسلام ، ومن المسلمين؛ إذ غضب غضباً شديداً ، وتألَّم لهزيمة المشركين في بدرٍ ، فأعلن عداءه للرَّسول (ص) ، وتوجَّه إلى عاصمة الشِّرك انذاك مكَّة يحثُّ أهلها على قتال المسلمين ، وخرج مقاتلاً معهم في أحدٍ ، وحاول تفتيت الصَّفِّ الإسلاميِّ[(٧٤٣)] ، وصدق الله تعالى عندما قال: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ *} [الأنفال: ٧٣].

ـ محاولة التَّدليس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضفوا الشَّرعية على هذا البناء ، وأنَّه مسجدٌ بنوه لأسبابٍ مقنِعةٍ في الظَّاهر ، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها ، فقد جاؤوا يطلبون من الرَّسول (ص) الصلاة في هذا البناء ليكون مسجداً قد باركه رسول الله (ص) بالصَّلاة فيه ، فإذا حدث هذا فقد استقرَّ قرارهم في تحقيق أهدافهم ، وهذا أسلوبٌ ماكرٌ خبيثٌ قد ينطلي على كثيرٍ من النَّاس[(٧٤٤)].

٣ ـ فالله خيرٌ حافظاً ، وهو أرحم الراحمين:

إنَّ الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلهيَّة بالنَّبيِّ (ص) ، فقد أطلعه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على أسرار هؤلاء المنافقين ، وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد ، فلولا إعلام الله لرسوله (ص) ؛ لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم ، ولصلَّى في البناء ، فأضفى عليه الشَّرعيَّة ، وأقبل النَّاس يصلُّون فيه؛ لأنَّ رسول الله (ص) صلَّى فيه ، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين ، وضعاف المسلمين ، فينفردون بهم ، وقد يؤثِّرون عليهم بالإشاعات[(٧٤٥)].

٤ ـ العلاج النَّبويُّ الحاسم:

إنَّ ما قام به الرَّسول (ص) من الأمر بهدم مسجد الضِّرار هو التَّصرُّف الأمثل ، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ ، سنَّه لقادة الأمَّة في القضاء على أيِّ عملٍ يراد منه الإضرار بالمسلمين ، وتفريق كلمتهم ، فالدَّاء العُضَالُ لا يُعالَجُ بتسكينه ، والتخفيف منه ، وإنَّما يعالج بحسمه ، وإزالة اثاره؛ حتَّى لا يتجدَّد ظهوره بصورةٍ أخرى ، وإنَّ الثِّمار العمليَّة الَّتي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر

النَّبويِّ الحازم لتدلُّنا على أنَّ هذه المنهجيَّة؛ التي نهجها رسول الله (ص) مع هذا المكر الخبيث هي الطَّريقة المثلى لقمع حركة النِّفاق في المجتمع المسلم ، فقد أصبح أمرُهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً، فشيئاً ، حتَّى لم يبقَ منهم بعد لحاق الرَّسول (ص) بالرَّفيق الأعلى إلا عددٌ قليل ، ولم يُعرف عنهم بعد تدمير مسجد الضِّرار أن قاموا بأعمالٍ تخدم الهدف نفسه؛ لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[(٧٤٦)].

٥ ـ ما يلحق بحكم مسجد الضِّرار:

ذكر المفسِّرون ما يُلحق بمسجد الضِّرار في الحكم ، فهذه بعض أقوالهم:

أ ـ قال الزَّمخشري: «... وقيل: كلُّ مسجد بُني مباهاةً ، أو رياءً ، وسمعةً ، أو لغرضٍ سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمالٍ غير طيِّبٍ؛ فهو لاحقٌ بمسجد الضِّرار»[(٧٤٧)].

علق الدُّكتور عبد الكريم زيدان على قول الزَّمخشري ، فقال: ولكن: هل يلحق بمسجد الضِّرار ، فيهدم ، كما هدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون في المدينة ، وأمر النَّبيُّ (ص) بهدمه؟ لا أرى ذلك ، وإنَّما يمكن أن يقال: إنَّ المسجد الذي بني لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التَّقوى ، والإخلاص الكامل لله تعالى[(٧٤٨)].

ب ـ قال القرطبيُّ في تفسيره: قال علماؤنا: وكلُّ مسجدٍ بُني على ضرارٍ ، أو رياءٍ وسُمعةٍ ، فهو في حكم مسجد الضِّرار لا تجوز الصَّلاة فيه[(٧٤٩)].

ج ـ وقال سيِّد قطب في تفسيره: هذا المسجد ـ مسجد الضِّرار ـ الَّذي اتُّخذ على عهد رسول الله (ص) مكيدةً للإسلام ، والمسلمين ، هذا المسجد ما يزال يُتَّخذ في صورٍ شتَّى ، يُتَّخذ في صورة نشاطٍ ظاهره الإسلام ، وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه ، وتُتَّخذ في صورة أوضاعٍ ترفع لافتة الدِّين عليها لِتَتَترَّس وراءها ، وهي ترمي هذا الدِّين ، وتُتَّخذ في صورة تشكيلاتٍ ، وتنظيماتٍ ، وكتبٍ ، وبحوثٍ تتحدَّث عن الإسلام؛ لتُخَدِّر القلقين الَّذين يرون الإسلام يُذبح ، ويُمحق ، فتخدِّرهم هذه التَّشكيلات ، وتلك الكتب بما توحيه لهم من أنَّ الإسلام بخيرٍ ، وأنَّه لا داعي للخوف ، أو القلق عليه[(٧٥٠)].

٦ ـ قاعدة لمعرفة ما يلحق بمسجد الضِّرار:

قال الدَّكتور عبد الكريم زيدان: كلُّ ما يُتَّخِذ ممَّا هو في ظاهره مشروعٌ ، ويريد متَّخذوه تحقيق غرضٍ غير مشروعٍ ، فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار؛ لأنَّه يحمل روحَه ، وعناصِرَه[(٧٥١)] ، وإذا أردنا الإيجاز؛ قلنا في هذه القاعدة: كلُّ ما كان ظاهره مشروعاً ويريد مُتَّخذوه الإضرار بالمؤمنين؛ فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار[(٧٥٢)].

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضِّرار ، وما يلحق به ما ذكره الإمام ابن القيِّم من مشاهد الشِّرك ، ومن أماكن المعاصي ، والفسوق ، كالحانات ، وبيوت الخمر ، والمنكرات ، ونحو ذلك؛ لأنَّ هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به؛ وإن استحقت الإزالة كمسجد الضِّرار ، باعتبارها منكراتٍ ظاهراً ، وباطناً[(٧٥٣)].

٧ ـ مساجد الضِّرار في بلاد المسلمين:

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين ، والملحدين ، والمبشرين ، والمستعمرين ، يقيمون أماكن باسم العبادة ، وما هي لها ، وإنَّما المراد بها الطَّعن في الإسلام ، وتشكيك المسلمين في معتقداتهم ، وادابهم ، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدَّرس ، والتَّعليم؛ ليتوصَّلوا بها إلى بثِّ سمومهم بين أبناء المسلمين ، وصرفهم عن دينهم ، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثَّقافة ، والغرض منها خلخلة العقيدة السَّليمة في القلوب ، والقيم الخلقيَّة في النُّفوس ، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحَّة ، والخدمة الإنسانيَّة ، والغرض منها التأثير على المرضى ، والضعفاء ، وصرفهم عن دينهم ، وقد اتَّخذوا من البيئات الجاهلة ، والفقيرة ، لاسيَّما في بلاد إفريقية ذريعةً للتَّوصُّل إلى أغراضهم الدَّنيئة ، الَّتي لا يقرُّها عقلٌ ، ولا شرعٌ ، ولا قانونٌ[(٧٥٤)].

إنَّ مسجد الضِّرار ليس حادثةً في المجتمع الإسلاميِّ الأوَّل ، وانقضت؛ بل هي فكرةٌ باقيةٌ ، يُخَطَّط لها باختيار الأهداف العميقة ، وتُختار الوسائل الدَّقيقة لتنفيذها ، وخططها تصبُّ في التامر على الإسلام وأهله بالتَّشويه وقلب الحقائق ، والتَّشكيك ، وزرع بذور الفتن لإبعاد النَّاس عن دينهم ، وإشغالهم بما يضرُّهم ويدمِّر مصيرهم الأخروي[(٧٥٥)].

* * *

المبحث الرَّابع

وردت قصَّة الثَّلاثة الَّذين خلِّفوا على لسان كعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، في كتب السِّيرة ، والحديث ، والتفسير ، برواياتٍ متقاربةٍ في ألفاظها ، ولقيت عنايةً فائقةً في الشَّرح ، والتَّدريس وكان صحيح البُخاريّ من أكثر الكتب دقَّةً ، وتفصيلاً لهذه القصَّة[(٧٥٦)].

ونترك كعب بن مالك رضي الله عنه يحدِّثنا بنفسه ، حيث قال: «لم أتخلَّف عن رسول الله (ص) في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تَبُوك ، غير أنِّي كنت تخلَّفت في غزوة بدرٍ ، ولم يعاتبْ أحداً تخلَّفَ عنها ، إنَّما خرج رسول الله (ص) يريد عير قريش؛ حتَّى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ ، ولقد شهدتُ مع رسول الله (ص) ليلة العقبة[(٧٥٧)] حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ ، وإن كانت بدرُ أذكرَ في النَّاس منها ، كان من خَبَري أنِّي لم أكن قطُّ أقوى ، ولا أيسر حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغزاة ، والله! ما اجتمعت عندي قَبلَه راحلتان قطُّ حتَّى جمعتُهما في تلك الغزوة.

ولم يكن رسول الله (ص) يريد غزوةً إلا ورَّى بغيرها ، حتَّى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله (ص) في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً ، وعدوّاً كثيراً ، فجلَّى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهَّبوا أُهبةَ غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الَّذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله (ص) كثيرٌ ، ولا يجمعهم كتاب حافظٍ ـ يريد الدِّيوان ـ قال كعب: فما رجلٌ يريد أن يتغيَّب إلا ظنَّ أن سيخفى له ، ما لم ينزل فيه وحيُ الله.

وغزا رسول الله (ص) تلك الغزوة حين طابت الثِّمارُ ، والظِّلالُ ، وتجهَّز رسول الله (ص) والمسلمون معه ، فطفقت أغدو؛ لكي أتجهَّزَ معهم ، فأرجعُ ، ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزل يتمادى بي؛ حتَّى اشتد بالنَّاس الجِدُّ ، فأصبح رسول الله (ص) والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جَهازي شيئاً ، فقلتُ: أتجهَّز بعده بيومٍ ، أو يومين ، ثمَّ

ألحقُهم ، فغدوت بعد أن فَصَلوا؛ لأتجهَّزَ ، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً ، ثمَّ غدوت ، ثُمَّ رجعتُ ولم أقض شيئاً. فلم يزل بي حتَّى أسرعوا وتفارط الغزو[(٧٥٨)] ، وهممت أن أرتحل فأُدرِكَهُم ـ وليتني فعلتُ ! ـ فلم يقدَّر لي ذلك ، فكنتُ إذا خرجتُ في النَّاس ـ بعد خروج رسول الله (ص) ـ فطفتُ فيهم أحزنني أنِّي لأرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النِّفاق أو رجلاً ممَّن عذر الله من الضُّعفاء ، ولم يَذكرْني رسولُ الله (ص) حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «ما فعل كعبٌ؟» فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه بُرداه ، والنَّظر في عطفيه[(٧٥٩)] ، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله (ص) ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيِّضاً[(٧٦٠)]

يزول به السَّراب[(٧٦١)] ، فقال رسول الله (ص) : كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريُّ ، وهو الَّذي تصدَّق بصاع التَّمر حين لمزه[(٧٦٢)] المنافقون.

قال كعب بن مالكٍ: فلمَّا بلغني: أنَّ رسول الله (ص) قد توجَّه قافلاً[(٧٦٣)] من تبوك؛ حضرني بثِّي[(٧٦٤)] ، فطفقتُ أتذكَّرُ الكذبَ ، وأقول: بم أخرج مِنْ سخطه غداً؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأيٍ مِنْ أهلي. فلمَّا قيل لي: إنَّ رسولُ الله (ص) قد أظلَّ قادماً[(٧٦٥)] ، زاح[(٧٦٦)] عنِّي الباطل ، حتَّى عرفت أنِّي لن أنجو منه بشيءٍ أبداً ، فأجمعت صِدْقَه[(٧٦٧)].

وأصبح رسول الله (ص) قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثمَّ جلس للنَّاس ، فلمَّا فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسولُ الله (ص) علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجئته ، فلمَّا سلمت؛ تبسَّم تبسُّم المغْضَب ، ثمَّ قال: «تعالَ» ، فجئت أمشي حتَّى جلست بين يديه ، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرَك؟» قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي والله! لو جلست عند غيرك من أهل الدُّنيا؛ لرأيت أن سأخرج من سَخَطِه

بعذرٍ ، ولقد أُعطيت جدلاً[(٧٦٨)] ، ولكنِّي ، والله! لقد علمت ، لئن حدَّثتُك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عنِّي؛ ليوشكنَّ[(٧٦٩)] اللهُ أن يُسخِطَك عليَّ ، ولئن حدَّثتك حديث صدقٍ تجد عليَّ فيه[(٧٧٠)] إنِّي لأرجو فيه عُقبى الله[(٧٧١)]. والله! ما كان لي عذر ، والله! ما كنت قطُّ أقوى ، ولا أَيْسَرَ منِّي حين تخلَّفت عنك ، قال رسول الله (ص) : «أمَّا هذا؛ فقد صدق ، فقم حتَّى يقضي الله فيك».

فقمت ، وثار رجالٌ من بني سلمة ، فاتَّبعوني ، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت ألاَّ تكون اعتذرت إلى رسول الله (ص) بما اعتذر به إليه المخلَّفون ، فقد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله (ص) لك ، قال: فوالله! ما زالوا يُؤنِّبونني[(٧٧٢)] حتَّى أردت أن أرجع إلى رسول الله (ص) ، فأُكذِّبَ نفسي.

قال: ثمَّ قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم. لقيه معك رجلان ، قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: مَنْ هما؟ قالوا: مُرَارةُ بن الرَّبيع العَمْريُّ ، وهلالُ بن أميَّة الواقفيُّ ، قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شَهِدا بدراً ، فيهما أسوةٌ ، قال: فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله (ص) المسلمين عن كلامنا نحن الثَّلاثة من بين مَنْ تخلَّف عنه.

قال: فاجتَنَبَنا النَّاس ، وقال: تغيَّروا لنا حتَّى تنكَّرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض الَّتي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً ، فأمَّا صاحباي؛ فاستكانا[(٧٧٣)]، وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا ، فكنت أشبَّ القوم ، وأجلَدَهم[(٧٧٤)] ، فكنت أخرج ، فأشهد الصَّلاة ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ.

واتي رسول الله (ص) ، فأسلِّم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصَّلاة ، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام ، أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه ، وأسارقه النَّظر ، فإذا أقبلت على صلاتي؛ نظر إليَّ ، وإذا التفتُّ نحوه؛ أعرض عنِّي ، حتَّى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتَّى تسوَّرت جدار حائطِ أبي قتادة ، وهو ابن عمِّي ، وأحبُّ النَّاس إليَّ ، فسلَّمت عليه ،

فوالله! ما ردَّ عليَّ السَّلام ، فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدُك بالله[(٧٧٥)]! هل تعلم أنِّي أحبُّ الله ، ورسوله؟ قال: فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فقال: اللهُ ورسوله أعلم! ففاضت عيناي ، وتولَّيت حتَّى تسوَّرت الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة؛ إذا نبطي من نبط أهل الشَّام[(٧٧٦)] ، ممَّن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة ، يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق النَّاس يشيرون له إليَّ ، حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان ، وكنت كاتباً ، فقرأته فإذا فيه: أمَّا بعد؛ فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك اللهُ بدار هوانٍ ، ولا مَضْيَعة[(٧٧٧)] ، فالحقْ بنا؛ نواسِك ، قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء ، فتايممت[(٧٧٨)] بها التَّنُّور ، فسجرتُها[(٧٧٩)] بها؛ حتَّى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين واستلبث الوحي[(٧٨٠)]؛ إذا رسولُ رسولِ الله (ص) يأتيني ، فقال: إنَّ رسول الله (ص) يأمرك أن تعتزل امرأتك! قال: فقلتُ: أطلِّقها ، أم ماذا أفعل؟ قال: لا ، بل اعْتَزِلْها ، فلا تقربنَّها ، قال: فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل هذا.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك ، فكوني عندهم؛ حتَّى يقضي الله في هذا الأمر ، قال: فجاءت امرأةُ هلال بن أميَّة رسولَ الله (ص) فقالت له: يا رسول الله! إنَّ هلال بن أميَّة شيخٌ ضائعٌ ، ليس له خادمٌ ، فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: «لا ، ولكن لا يقربنَّك» فقالت: إنَّه والله! ما به حركةٌ إلى شيءٍ ، والله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله (ص) في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه. قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسولَ الله

(ص) ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله (ص) إذا استأذنته فيها ، وأنا رجلٌ شابٌّ ، قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ ، فكمُل لنا خمسون ليلةً على ظهر بيت من بيوتنا.

فبينما أنا جالس على الحال الَّتي ذكر الله ـ عزَّ وجل ـ منَّا ، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت؛ سمعتُ صوت صارخٍ أوفى على سَلَعٍ[(٧٨١)] ، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر! قال: فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرجٌ. قال: فاذن[(٧٨٢)]

رسول الله (ص) توبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر ، فذهب النَّاس يبشِّروننا ، فذهب قِبَل صاحبيَّ مبشِّرون ، وركَض رجلٌ إليَّ فرساً ، وسعى ساعٍ مِنْ أسلم قِبَلِي ، وأوفى الجبل ، فكان الصَّوت أسرع من الفرس ، فلمَّا جاءني الَّذي سمعت صوته يبشِّرني ، نزعت له ثوبيَّ ، فكسوتُهما إيَّاه ببشارته ، والله! ما أملك غيرهَما يومئذٍ.

واستعرتُ ثوبين ، فلبستهما ، فانطلقت أتأمَّم[(٧٨٣)] رسول الله (ص) فيتلقَّاني النَّاس فوجاً ، فوجاً[(٧٨٤)] ، يهنِّئوني بالتَّوبة ، ويقولون: لتهنك توبة الله عليك! حتَّى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله (ص) جالسٌ في المسجد ، وحوله النَّاس ، فقام طلحة بن عُبَيْد الله يُهَرْوِلُ حتَّى صافحني ، وهنَّأني ، والله! ما قام رجلٌ من المهاجرين غيرهُ.

قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلمَّا سلَّمت على رسول الله (ص) قال: وهو يَبْرُق وجهُه من السُّرور ، ويقول: «أبشرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك!» قال: قلتُ: أمن عندك يا رسول الله! أم من عند الله؟ فقال: «لا ، بل من عند الله» وكان رسول الله (ص) إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنَّه قطعةُ قمرٍ قال: وكنا نعرف ذلك. قال: فلمَّا جلست بين يديه؛ قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع[(٧٨٥)] من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسول الله (ص) ! فقال رسول الله (ص) : «أمسك بعضَ مالك ، فهو خير لك». قال: فقلت: فإنِّي أمسك سهمي الذي بخيبر ، قال: وقلت: يا رسول الله! إنَّ الله إنَّما أنجاني بالصِّدق ، وإنَّ من توبتي ألاَّ أُحدِّثَ إلا صدقاً ما بقيت. قال: فوالله! ما علمت أنَّ أحداً من المسلمين أبلاه[(٧٨٦)] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (ص) إلى يومي هذا أحسن ممَّا أبلاني الله به ، وَوَالله! ما تعمَّدت كَذْبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله (ص) إلى يومي هذا ، وإنِّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله ـ عز وجل ـ: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا

حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ *} [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩].

قال كعب رضي الله عنه: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ ، بعد أنْ هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله (ص) ألاَّ أكونَ كذبْتُه ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إنَّ الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحدٍ ، وقال الله: {سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ *} [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

قال كعبٌ رضي الله عنه: كنَّا تخلفنا نحن الثَّلاثة عن أمر أولئك الَّذين قبل منهم رسول الله (ص) حين حلفوا له ، فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسولُ الله (ص) أمرَنا حتَّى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله ـ عز وجل ـ: {وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *} [التوبة: ١١٨] ، وليس الَّذي ذكر اللهُ ممَّا خُلِّفْنَا ، تخلُّفنا عن الغَزْوَةِ ، وإنَّما هو تَخْلِيفه إيَّانا ، وإرجاؤُه أمرَنا[(٧٨٧)] عمَّن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه. [البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائدُ كثيرةٌ ، نذكر منها:

١ ـ الأسلوب الجميل ، والبيان الرَّائع ، والأدب الرَّفيع:

لقد تمَّت صياغة هذا الحديث بأسلوبٍ جميلٍ ، وبيانٍ رائعٍ ، وأدبٍ رفيعٍ ، وإنَّه ليُعتبر مع أمثاله كحديث صلح الحديبية ، وحديث الإفك نماذجَ عاليةً للأدب العربيِّ الرَّفيع ، وليت القائمين على وضع المناهج الدِّراسيَّة يختارون هذه الأحاديث ، وأمثالها لتنمية مدارك الطُّلاَّب ، وتكوين الملكة الأدبيَّة ، والثروة اللُّغوية العالية ، انظر مثلاً إلى قول كعب في هذا الحديث: فلمَّا قيل: إنَّ رسول الله (ص) قد أظلَّ قادماً؛ زاح عنِّي الباطل ، وعرفت أنِّي لن أخرج منه أبداً بشيءٍ فيه كذبٌ ، فأجمعت صِدْقَه[(٧٨٨)].

٢ ـ الصِّدق سفينة النَّجاة:

لقد أدرك كعبٌ ، وهلالُ ، ومُرَارةُ رضي الله عنهم خطورة الكذب ، فعزموا على سلوك طريق الصَّراحة ، والصِّدق ، وإنْ عرَّضهم ذلك للتَّعب ، والمضايقات ، ولكنْ كان أملُهم بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبتَهُم ، ثمَّ يعودون إلى الصَّفِّ الإسلاميِّ أقوى ممَّا كانوا عليه[(٧٨٩)] ، وما أجملَ ختمَ ربِّ العالمين توبته على

كعبٍ وَمَنْ معه رضي الله عنهم بقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ *} [التوبة: ١١٩].

٣ . الهَجْر التَّربويُّ ، وأثره في المجتمع:

إنَّ الهجر التَّربويَّ له منافعُه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة ، ومنع أفراده من التَّورُّط في المخالفات الَّتي تكون إمَّا بترك شيءٍ من الواجبات ، أو فعل شيءٍ من المحرَّمات؛ لأنَّ مَنْ توقَّع أنَّه إذا وقع في شيءٍ من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع ، فإنَّه لا يفكِّر في الإقدام على ذلك.

ولا يغيب عن البال أنَّ تطبيق هذا الحكم يجب أن يتمَّ في الظُّروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النَّبويِّ المدنيّ ، حيث توجد الدَّولة المهيمنة ، والمجتمع القويُّ ، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طُبِّق عليه هذا الحكم.

وهذا الهجر التَّربويُّ يختلف عن الهجر الَّذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا ، فهذا دنيويٌّ ، وذاك دينيٌّ، فالهجر الدِّينيُّ مطلبٌ شرعيٌّ يثاب عليه فاعله ، أمَّا الهجر الدُّنيويُّ؛ فإنَّه مكروهٌ ، إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام؛ فإنَّه يكون محرماً[(٧٩٠)] ، لقول رسول الله (ص) : «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان ، فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسَّلام» [البخاري (٦٢٣٧) ، ومسلم (٢٥٦٠)] ، ولقوله (ص) : «مَنْ هجر أخاه سنةً فهو كسَفْكِ دَمِهِ». [أحمد (٤/٢٢٠) ، وأبو داود (٤٩١٥) ، والبيهقي في الاداب (٢٨٠) ، والحاكم (٤/١٦٣) ، والبخاري في الأدب المفرد (٤٠٤)].

٤ . تنفيذ المجتمع المسلم كلِّه لأوامر القيادة:

استجاب المجتمع المسلم كلُّه لتنفيذ أمر المقاطعة ، والهجر الَّذي صدر من القائد الأعلى (ص) ، وامتنعوا جميعاً عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة ، ووصف كعبٌ لنا ذلك ، فقال: «... فاجتَنَبَنا النَّاس ، وتغيَّروا لنا ، حتَّى تنكَّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف ، فأمَّا صاحباي ، فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا؛ فكنت أشَبَّ القوم ، وأجلدَهم ، فكنت أخرج ، فأشهدُ الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ...»[(٧٩١)].

وقد أطلق كعب السَّلام على ابن عمِّه أبي قتادة ، فلم يردَّ عليه السَّلام ، وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أحبُّ الله ، ورسولَه؟ فسكت ، مع أنَّه من أحبِّ النَّاس إليه ، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزَّعَ الفكر بين إجابة رجلٍ حبيب إليه ، عزيزٍ عليه ، وبين تنفيذ أمر النَّبيِّ (ص) بتطبيق

الهجر التَّربويِّ ، ولكن ليس هناك تردُّد بين الأمرين ، فالَّذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبيِّ (ص) فظهر ذلك على سلوكه[(٧٩٢)].

وقد بلغ الالتزام بالأمر النَّبويِّ في الهجر التَّربويِّ ذروته حين أمر رسولُ الله (ص) الثلاثة الَّذين خُلِّفوا باعتزال زوجاتهم حتَّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فالتزم الجميع بذلك ، واستأذنت زوج هلال بن أميَّة . وكان شيخاً طاعناً في السِّنِّ لا يجد من يخدمه . فطلبت من الرَّسول (ص) أن يأذن لها أن تخدمَه ، فأذن لها النَّبيُّ (ص) بذلك شريطة ألا يقربها ، فالتزمتْ رضي الله عنها[(٧٩٣)].

٥ . الولاء التَّامُّ لله ورسوله (ص):

كان العدوُّ الصَّليبيُّ يراقب ، ويرصد ، ويستغلُّ الفرصة السَّانحة لكي يمزِّق الجبهة الدَّاخلية، ويشعل نار الفتنة بين المسلمين، ليوهن البنيان ، ويقوِّض الأركان، ولذلك استغلَّ ملكُ غسَّان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، وعقوبة رسول الله (ص) له بأن يرسل سفيره لكعب برسالةٍ خاصَّةٍ منه إليه يُغريه فيها. تأمَّل قوله: قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ، ولا مَضْيَعَة ، فالْحَقْ بنا ، نواسِك. [سبق تخريجه] ، فكان تعليق كعب على هذه الرِّسالة: وهذا من البلاء أيضاً! قد بلغ منِّي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجالٌ من أهل الشِّرك! ثمَّ أحرق الرِّسالة[(٧٩٤)].

وهذا الموقف يدلُّ على شدَّة ولاء كعبٍ لله ، ورسوله (ص) وقوَّة إيمانه ، وعظمة نفسه ، فقد أدرك أنَّها محنةٌ جديدةٌ أقسى من الأولى ، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسَّلب ، أو يرمي بالكتاب ، ويمزِّقه ، ولكنَّه رمى به في التَّنور ، ليصير رماداً ، ويصير كلُّ ما به دخاناً يتبدَّد في الهواء ، وخرج الرَّجل من محنته ، وهو أقوى ما يكون إيماناً ، وأصفى ما يكون روحاً ، وأكرم ما يكون أخلاقاً ، فيا لعظمة هذه النُّفوس المؤمنة الكبيرة![(٧٩٥)] لقد مرَّ كعبٌ من فوق هذا الاختبار ، والابتلاء عزيزاً ، قويّاً بإسلامه ، لم يتأثَّر به ، ولا انزلق فيه[(٧٩٦)].

٦ . توبة الله على العبد قِيمَةٌ دينيَّةٌ يتطلَّع إليها الصَّادقون:

عندما نزلت الايات الكريمة الَّتي بيَّنت توبة الله على هؤلاء الثَّلاثة؛ كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين ، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله (ص) ؛ حتَّى استنار كأنَّه قطعة قمرٍ ، وظهرت الفرحة على وجوه الصَّحابة رضي الله عنهم؛ حتَّى صاروا يتلقَّون كعباً ،

وصاحبيه أفواجاً ، يهنِّئونهم بما تفضل الله به عليهم من التَّوبة ، وجاء كعبٌ إلى النَّبيِّ (ص) ووجهه يَبْرُق من السُّرور ، فقال (ص) له: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك!». وهذا يعني مقام التَّوبة ، وأنَّها أعظم من الدُّخول في الإسلام.

إنَّ التَّوبة تعني عودة العبد إلى الدُّخول تحت رضوان الله تعالى الّذي هو أعلى هدفٍ ينشده المسلم ، وبالتَّالي فإنَّه يحظى بحفظه جلَّ وعلا في الدُّنيا ، وتكريمه في الاخرة ، لقد كانت توبة كعبٍ عظيمةً ، عبَّر عنها بنزع ثوبيه . اللَّذين لا يملك يومئذٍ غيرهما . وإهدائهما لِمَنْ بشَّره[(٧٩٧)] ، وعدم نسيان كعبٍ لطلحة بن عبيد الله مصافحته ، وتهنئته له[(٧٩٨)] ، وكذلك كانت فرحةُ صاحبيه عظيمةً؛ غير أنَّ كعباً رضي الله عنه لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له[(٧٩٩)] ، وقد جاء في رواية الواقديِّ: وكان الَّذي بشَّر هلال بن أميَّة بتوبته سعيدُ بن زيدٍ ، قال: وخرجت إلى بني واقفٍ ، فبشرته ، فسجد ، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتَّى تخرج نَفْسُه[(٨٠٠)].

٧ ـ تشرع أنواعٌ من العبادات شكراً لله عند النِّعمة:

كانت فرحة كعب بن مالكٍ بتوبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه لا تحدُّها حدودٌ ، ولا تصوِّرها مثل ، وقد تفنَّن هو رضي الله عنه في التَّعبير عنها بجملةٍ من العبادات ، منها:

أ ـ سجود الشُّكر:

حينما سمع كعبٌ البشارة بتوبة الله عليه؛ خرَّ ساجداً من فوره شكراً لله ـ تبارك وتعالى ـ فقد كان من عادة الصَّحابة رضي الله عنهم أن يسجدوا شكراً لله تعالى كلَّما تجدَّدت لهم نعمةٌ، أو انصرفت عنهم نِقْمَةٌ، وقد تعلَّموا ذلك من رسول الله (ص)[(٨٠١)] .

ب ـ مكافأة الَّذي يحمل البُشرى:

فقد نزع كعب ثوبيه اللَّذين كان يلبَسُهما ، فكساهما الَّذي سمع صوته بالبشرى ، وما كان يملك وقتئذٍ غيرهما ، ثمَّ استعار ثوبين ، فلبسهما ، ولاشكَّ أنَّ هذا ضربٌ من الهبة المشروعة ، فإن كان المبشِّر غنيّاً ، كان له هديةً ، وإن كان فقيراً؛ كان له صدقةً ، وكلاهما إخراج المال شكراً لله تعالى على إنزاله الفرج[(٨٠٢)].

ج ـ التَّصدُّق بالمال:

فقد جعل كعبٌ رضي الله عنه من توبته أن ينخلع من ماله صدقةً لله تعالى ، لكنَّه (ص) وجَّهه إلى عدم التَّصدُّق بجميع ماله ، وقال له: «أمسك عليك بعض مالك ، فهو خيرٌ لك» ، وكأنَّه يستشيره بذلك ،

فكانت المشورة بإمساك بعض ماله[(٨٠٣)] ، وقد ثار الخلاف الفقهيُّ فيمن نذر التَّصدُّق بجميع ماله ، والصَّدقة مستحبَّة ، والنَّذر واجبُ الوفاء ، ولم يذهب كعب إلى النَّذر ، وإنَّما استشار في الصَّدقة بكلِّ المال ، فأشار رسول الله (ص) عليه بإمساك بعض ماله.

* * *

المبحث الخامس

دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد

أولاً: معالمُ من المنهج القرانيّ في الحديث عن غزوة تبوك:

إنَّ الايات الَّتي أنزلها الله في كتابه المتعلِّقة بغزوة العُسْرَة هي أطول ما نزل في قتالٍ بين المسلمين ، وخصومهم ، وقد بدأت باستنهاض الهمم لردِّ هجوم المسيحيَّة ، وإشعارهم بأنَّ الله لا يقبل ذرَّة تفريطٍ في حماية دينه ، ونصرة نبيِّه (ص) ، وإنَّ التراجع أمام الصُّعوبات الحائلة دون قتال الرُّوم . يعتبر مزلقةً إلى الردَّة والنِّفاق[(٨٠٤)] ، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ *إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *} [التوبة: ٣٨ . ٣٩].

وعند التَّأمُّل في سورة التَّوبة يلاحظ القارأى: أنَّ لها معالمَ في عرضها لغزوة تبوك ، منها:

١ ـ عاتب القران الكريم مَنْ تخلَّف عتاباً شديداً ، وتميَّزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأنَّ الله حثَّ على الخروج فيها ، وعاتب مَنْ تخلَّف عنها ، والايات الكريمة جاءت بذلك كقوله تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *} [التوبة: ٤١].

وقد خُتِمَتِ الغزوات النَّبويَّةُ بهذه الغزوة ، وقد كان تطبيقاً عمليّاً لوضع النَّصِّ القراني في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ...} موضع التَّنفيذ

٢ ـ ميَّز القران الكريم هذه الغزوة عن غيرها ، فسمَّاها الله تعالى ساعة العسرة ، قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ} ، فقد كانت غزوة عسرةٍ بكلِّ معنى الكلمة.

٣ ـ من معالم منهج القران في عرضه لهذه الغزوة العظيمة: أنَّ الله ردَّ على المنافقين لَمْزَهُمْ فقراء الصَّحابة عندما جاء أحدُهم بنصف صاعٍ ، وتصدَّق به ، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا ، وما فعل هذا إلا رياءً ، فنزلت الاية: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *} [التوبة: ٧٩].

٤ ـ بيَّن القران الكريم: أنَّ المؤمنين الَّذين خرجوا مع رسول الله (ص) ـ وعددُهم يزيد عن الثَّلاثين ألفاً ـ قد كتب الله لهم الأجر العظيم[(٨٠٥)]. قال تعالى: {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *} [التوبة: ٨٨]. {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *} [التوبة: ١٢٠].

ثانياً: ممارسة الشُّورى في هذه الغزوة:

مارس رسول الله (ص) في هذه الغزوة الشُّورى ، وَقَبِلَ مشورة الصِّدِّيق ، والفاروق في بعض النَّوازل الَّتي حدثت في الغزوة ، ومن هذه النَّوازل:

أ ـ قبول مشورة أبي بكر الصِّدِّيق في الدُّعاء حين تعرَّض الجيش لعطشٍ شديدٍ:

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: خرجنا إلى تبوك في قَيْظٍ شديد ، فنزلنا منزلاً ، وأصابنا فيه عطشٌ ، حتَّى ظننَّا: أنَّ رقابنا ستنقطع؛ حتَّى إنَّ الرَّجل لينحر بعيره ، فيعتصر فَرْثَه ، فيشربه ، ثمَّ يجعل ما بقى على كبده ، فقال أبو بكر الصِّديق: يا رسول الله! إنَّ الله عوَّدك في الدعاء خيراً ، فادعُ الله ، قال: «أتحبُّ ذلك؟» قال: نعم! فرفع يديه ، فلم يردَّهما حتَّى حالت السَّماء ، فأظلَّت ثم سكبت ، فملؤوا ما

معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. [البزار (١٨٤١) ، وابن حبان (١٣٨٣) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٣١) ، والحاكم (١/١٥٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٩٤ ـ ١٩٥)].

ب ـ قبول مشورة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعةٌ:

أصابت جيشَ العُسرة مجاعةٌ أثناء سيرهم إلى تبوك ، فاستأذنوا النَّبيَّ (ص) في نحر إبلهم حتَّى يسدُّوا جَوْعَتَهُم ، فلمَّا أذن لهم النَّبيُّ (ص) في ذلك؛ جاءه عمر رضي الله عنه فأبدى مشورته في

هذه المسألة، وهي: أنَّ الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلُهم، وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطَّريق الطَّويل ، ثمَّ ذكر رضي الله عنه حلاً لهذه المعضلة ، وهو: جمع أزواد القوم ، ثمَّ الدعاء لهم بالبركة فيها ، فعمل (ص) بهذه المشورة حتَّى صدر القوم عن بقيَّةٍ من هذا الطعام ، بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه ، وأكلوا حتَّى شبعوا. [سبق تخريجه][(٨٠٦)].

٣ ـ قبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك اجتياز حدود الشَّام ، والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النَّبيُّ (ص) إلى منطقة تبوك ، وجد أنَّ الرُّوم فرُّوا خوفاً من جيش المسلمين ، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشَّام ، فأشار عليه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة ، وعلَّل رأيه بقوله: إنَّ للروم جموعاً كثيرةً ، وليس بها أحدٌ من أهل الإسلام. ولقد كانت مشورة مباركةً ، فإنَّ القتال داخل بلاد الرُّومان يعدُّ أمراً صعباً؛ إذ إنَّه يتطلَّب تكتيكاً خاصّاً؛ لأنَّ الحرب في الصَّحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن ، بالإضافة إلى أنَّ عدد الرُّومان في الشَّام يقرب من مئتين وخمسين ألفاً ، ولاشكَّ في أنَّ تجمُّع هذا العدد الكبير في تحصُّنه داخل المدن يعرِّض جيش المسلمين للخطر(١).

إنَّ ممارسة الشُّورى في حياة الأمَّة في جميع شؤونها؛ السِّياسيَّة والعسكريَّة والاجتماعيَّة ، منهجٌ تربويٌّ كريمٌ ، سار عليه الحبيب المصطفى (ص) في حياته.

ثالثاً: التَّدريب العمليُّ العنيف:

كان خروج الرَّسول (ص) إلى تبوك بأصحابه فيه فوائدُ كثيرةٌ ، منها: تدريبهم تدريباً عنيفاً ، فقطع بهم (ص) مسافةً طويلةً في ظروفٍ جويَّةٍ صعبةٍ ، حيث كانت حرارة الصَّيف اللاهب ، بالإضافة إلى الظُّروف المعيشيَّة الَّتي كانوا يعانون منها ، فقد كان هناك قلَّةٌ في الماء ، حتَّى كادوا يهلكون من شدَّة العطش ، وأيضاً كان هناك قلَّةٌ في الزَّاد ، والظَّهْر ، ولاشكَّ في أنَّ هذه الأمور تعدُّ تدريباً عنيفاً؛ لا يتحمَّله إلا الأقوياء من الرِّجال.

وفي هذا الدَّرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريباً عنيفاً كاجتياز مواقع ، وعراقيل صعبةٍ جدّاً ، وقطع مسافاتٍ طويلةٍ في ظروفٍ جوِّيَّةٍ مختلفةٍ ، وحرمانٍ من الطَّعام ، والماء بعض الوقت ، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمُّل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب ، ولقد تحمَّل جيش العُسرَة مشقاتٍ لا تقلُّ صعوبةً عن مشقات هذا التَّدريب العنيف ، إن لم تكن أصعب منها بكثيرٍ ، لقد تركوا المدينة في موسم نضج ثمارها ، وقطعوا مسافاتٍ طويلةً شاقَّةً في صحراء الجزيرة العربيَّة صيفاً ، وتحمَّلوا الجوع ، والعطش مدَّةً طويلةً.

إن غزوة تبوك تدريبٌ عنيفٌ للمسلمين ، كان غرض الرَّسول (ص) منه إعدادهم لتحمُّل رسالة حماية حرّية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربيَّة ، فقد كانت هذه الغزوة اخر غزوات الرَّسول (ص) ، فلابدَّ من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرَّفيق الأعلى»[(٨٠٧)].
وقد ساعد هذا التَّدريب العمليُّ الصَّحابةَ في عصر الخلفاء ، فقاموا بفتح بلاد الشَّام ، وبلاد الفرس بقوَّة إيمانهم ، وثقتهم بخالقهم ، وساعدهم على ذلك لياقتُهم البدنيَّة العالية ، ومعرفتُهم العمليَّة لاستخدام السُّيوف والرِّماح ، وأنواع الأسلحة في زمانهم.
رابعاً: أهم نتائج الغزوة:
يمكن للباحث أن يلاحظ أهمَّ نتائج هذه الغزوة ، وهي:
١ ـ إسقاط هيبة الرُّوم من نفوس العرب جميعاً: مسلمِهم ، وكافرِهم على السَّواء؛ لأن قوَّة الرُّوم كانت في حسِّ العرب لا تُقاوَم ، ولا تُغْلَب ، ومن ثمَّ فقد فزعوا من ذكر الرُّوم ، وغزوهم ، ولعلَّ الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكِّدةً على ما ترسَّخ في ذهن العربيِّ في جاهليته من أنَّ الرُّوم قوَّةٌ لا تُقهر ، فكان لابدَّ من هذا النَّفير العامّ لإزاحة هذه الهزيمة النَّفسيَّة من نفوس العرب.
٢ ـ إظهار قوَّة الدَّولة الإسلامية كقوَّةٍ وحيدةٍ في المنطقة ، قادرةٍ على تحدِّي القوى العظمى عالميّاً. حينذاك ـ ليس بدافعٍ عصبيٍّ ، أو عرقيٍّ ، أو تحقيق أطماع زعاماتٍ معاصرةٍ ، وإنَّما بدافعٍ تحريريٍّ ، حيث تدعو الإنسانيَّة إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبوديَّة ربِّ العباد ، ولقد حقَّقت هذه الغزوة الغرض المرجوَّ منها بالرَّغم من عدم الاشتباك الحربيِّ مع الرُّوم ، الَّذين اثروا الفرار شمالاً ، فحقَّقوا انتصاراً للمسلمين دون قتالٍ ، حيث أخلوا مواقعهم للدَّولة الإسلاميَّة ، وترتَّب على ذلك خضوعُ النَّصرانيَّة الَّتي كانت تمتُّ بصلة الولاء لدولة الرُّوم مثل إمارة دومة الجندل ، وإمارة أيْلة «مدينة العقبة حالياً على خليج العقبة» وكتب رسول الله (ص) بينه وبينهم كتاباً يحدِّد ما لهم ، وما عليهم[(٨٠٨)] ، وأصبحت القبائل العربيَّة

الشَّاميَّة الأخرى الَّتي لم تخضع للسَّيطرة الإسلاميَّة في تبوك تتعرَّض بشدَّة للتأثير الإسلاميِّ ، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ، ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدَّولة البيزنطيَّة ، أو تحويل هذا الولاء إلى الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة ، ويعدُّ ما حدث في تبوك نقطةَ البداية العمليَّة للفتح الإسلاميِّ لبلاد الشَّام[(٨٠٩)] ، وإن كانت هناك محاولاتٌ قبلها ، ولكنَّها لم تكن في قوَّة التأثير

كغزوة تبوك ، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عملياتٍ متواصلةٍ لفتح البلدان ، والَّتي واصلها خلفاء رسول الله (ص) من بعده ، وممَّا يؤكِّد هذا: أنَّ الرَّسول (ص) قبل موته جهَّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربةٍ موجَّهةٍ صوب الرُّوم ، وطليعةً لجيش الفتح ، وضمَّ هذا الجيش جُلَّ صحابة رسول الله (ص) ، ولكنَّه لم يقم بمهمَّته إلا بعد وفاته (ص) ، ومع هذا فقد حقَّق الهدف المطلوب منه ، كما سيأتي[(٨١٠)] بإذن الله عند الحديث عن سيرة الصِّدِّيق رضي الله عنه.

لقد وضع رسول الله (ص) الأسس الأولى ، والخطوات المثلى لفتح بلاد الشَّام ، والفتوحات الإسلاميَّة.

٣ ـ توحيد الجزيرة العربيَّة تحت حكم الرَّسول (ص) : تأثَّر موقف القبائل العربيَّة من الرَّسول (ص) والدَّعوة الإسلاميَّة بمؤثِّراتٍ متداخلةٍ ، كفتح مكةَ ، وخيبر ، وغزوة تبوك ، فبادر كلُّ قومٍ بإسلامهم بعدما امتدَّ سلطان المسلمين إلى خطوط التَّماسِّ مع الرُّوم ، ثُمَّ مصالحة نجران في الأطراف الجنوبيَّة على أن يدفعوا الجزية ، فلم يَعُدْ أمام القبائل العربيَّة إلا المبادرة الشَّاملة إلى اعتناق الإسلام ، والالتحاق بركب النُّبوَّة بالسَّمع ، والطَّاعة ، ونظراً لكثرة وفود القبائل العربيَّة الَّتي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربيَّة بعد عودة النَّبيِّ (ص) من غزوة تبوك؛ لتعلن إسلامها هي ، ومن وراءها ، فقد سُمِّيَ العامُ التَّاسع للهجرة في المصادر الإسلاميَّة بـ (عام الوفود)[(٨١١)].

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النَّبيِّ (ص) الَّتي قادها بنفسه ، فقد كانت حياته المباركة (ص) غنيَّةً بالدُّروس ، والعبر ، الَّتي تتربَّى عليها أمَّتُه في أجيالها المقبلة، ومليئةً بالدُّروس، والعبر في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة الَّتي تحكم بشرع الله.

* * *

المبحث السَّادس

أهمُّ الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجَّة الوداع[(٨١٢)]

أولاً: وفد ثقيفٍ وإسلامُهم:

لما انصرف الرَّسول (ص) عن الطَّائف اتَّبع أثره عروة بن مسعود الثَّقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم ، ورجع إلى قومه ، فدعاهم إلى الإسلام ، فرموه بالنَّبل ، فأصابه سهم فقتله ، ثمَّ إنَّهم رأوا: أنَّه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب الَّذين أسلموا ، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله (ص) ، فقدم عليه ستَّةٌ منهم ، في رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تِسْعٍ[(٨١٣)].

وكان الوفد يتكوَّن من ستَّةٍ من كبار بني مالك ، والأحلاف ، ثلاثةٌ لكلٍّ منهما ، وعلى رأسهم جميعاً عبدُ يَالَيْلَ بن عمرو[(٨١٤)] ، وتكوين هذا الوفد على هذا النَّحو يدلُّ على فكرٍ سياسيٍّ عميق؛ ذلك لأنَّ ثقيف تأمل في أن يتدخل المهاجرون من بني أميَّة للتوسُّط في إقرار الصُّلح مع الرَّسول (ص) بسبب علاقة بني أميَّة التَّاريخيَّة بالأحلاف[(٨١٥)].

كان الصَّحابة يعرفون اهتمام الرَّسول (ص) بإسلام ثقيفٍ ، ولذلك ما إن ظهر وفد ثقيف قرب المدينة؛ حتَّى تنافس كلٌّ من أبي بكرٍ ، والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد للرَّسول (ص) ، وتنازل المغيرةُ لأبي بكرٍ[(٨١٦)].

واستقبل الرَّسول (ص) الوفد راضياً ، وبنى لهم خياماً لكي يسمعوا القران ، ويروا النَّاس إذا صلَّوا ، وكانت ضيافتهم على رسول الله (ص) ، وكانوا يفدون على رسول الله (ص) كلَّ يومٍ ، ويخلِّفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم ، فكان عثمان كلما رجعوا ، وقالُوا بالهاجرة ، عمد إلى رسول الله (ص) فسأله عن الدِّين ، واستقرأه القران، حتى فقه في الدِّين، وعلم ، وكان

إذا وجد رسول الله (ص) نائماً عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله (ص) ، وعجب منه، وأحبَّه[(٨١٧)].

ومكث الوفد أياماً يختلفون إلى النَّبيِّ (ص) ، والنَّبيُّ (ص) يدعوهم إلى الإسلام ، فقال له عبد يَالَيْلَ: هل أنت مقاضينا حتَّى نرجع إلى أهلنا ، وقومنا؟ فقال رسول الله (ص) : «نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام؛ قاضيتكم ، وإلا فلا قضيَّة ، ولا صلح بيني وبينكم».

قال عبدُ يَالَيْلَ: أرأيت الزِّنى؟ فإنَّا قوم عُزَّاب بغَرْبٍ[(٨١٨)] لابدَّ لنا منه ، ولا يصبر أحدنا على العُزْبة ، قال: «هو ممَّا حرَّم الله على المسلمين ، يقول الله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً *} [الإسراء: ٣٢]».

قال: أرأيت الرِّبا؟ قال: «الرِّبا حرام!» قال: فإنَّ أموالنا كلَّها رباً ، قال: «لكم رؤوس أموالكم ، يقول تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [البقرة: ٢٧٨]».

قال: أفرأيت الخمر؟ فإنَّها عصيرُ أعنابنا ، لابدَّ لنا منها.

قال: «فإنَّ الله قد حرَّمها!» ثمَّ تلا رسول الله (ص) هذه الاية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *} [المائدة: ٩٠].

فارتفع القوم ، وخلا بعضهم ببعض ، فقال عبدُ يَالَيْلَ: ويحكم! نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثَّلاث! والله لا تصبر ثقيفٌ عن الخمر أبداً، ولا عن الزنى أبداً.

قال سفيان بن عبد الله: أيُّها الرَّجل! إنْ يرد الله بها خيراً تصبر عنها! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا ، فصبروا ، وتركوا ما كانوا عليه ، مع أنَّا نخاف هذا الرجل ، قد أوطأ الأرض غلبةً ، ونحن في حصنٍ في ناحية من الأرض ، والإسلام حولنا فاشٍ ، والله! لو قام على حصننا شهراً لمتنا جوعاً ، وما أرى إلا الإسلام ، وأنا أخاف يوماً مثل يوم مكَّة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله (ص) حتَّى كتبوا الكتاب ، وكان خالد هو الَّذي كتبه ، وكان رسول الله (ص) يرسل إليهم الطَّعام ، فلا يأكلون منه شيئاً حتَّى يأكل منه رسول الله (ص) ؛ حتَّى أسلموا.

قالوا: أرأيت الرَّبَّة ، ما ترى فيها؟ قال: «هَدْمَها».

قالوا: هيهات! لو تعلم الرَّبَّة أنَّا أوضعنا هدمها[(٨١٩)] قتلت أهلنا. قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل! إنَّ الرَّبَّة حجرٌ لا يدري مَنْ عَبَدَهُ ممَّن لا يعبدُه.

قال عبد ياليل: إنَّا لم نأتك يا عمر! فأسلموا ، وكمل الصُّلح ، وكتب ذلك الكتاب خالد بن سعيد ، فلمَّا كمُل الصُّلح ، وكتبوه؛ كلَّموا النَّبيَّ (ص) يدع الرَّبَّة ثلاث سنين ، لا يهدُمها ، فأبى ، قالوا: سنتين!

فأبى ، قالوا: سنة! فأبى ، قالوا: شهراً واحداً! فأبى أن يوقِّت لهم وقتاً ، وإنَّما يريدون بترك الرَّبة لما يخافون من سفهائهم ، والنِّساء ، والصِّبيان ، وكرهوا أن يُروِّعوا قومهم بهدمها ، فسألوا النَّبيَّ (ص) أن يعفيهم من هدمها[(٨٢٠)] ، فوافق رسول الله (ص) على طلبهم ذلك ، وسألوا النَّبيِّ (ص) أن يعفيهم من الصَّلاة ، فقال رسول الله (ص) : «لا خير في دين لا صلاة فيه» [أحمد (٤/٢١٨) ، وأبو داود (٣٠٢٦) ، والطيالسي (٩٣٩) ، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٩٩ ـ ٣٠١)]][(٨٢١)].

لقد طلب وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله (ص) من بعض الفرائض ، وأن يحلِّل لهم بعض المحرَّمات ، إلا أنَّهم فشلوا في طلباتهم ، وخضعوا للأمر الواقع[(٨٢٢)].

وقد أكرم رسول الله (ص) وِفَادَتَهُم، وأحسن ضيافتهم في قدومهم ، وإقامتهم وعند سفرهم ، وأمَّرَ (ص) عثمان بن أبي العاص على الطَّائف ، فقد كان أحرصَهم على تعلُّم القران ، والتَّفقُّه في الدِّين ، وكان أصغرهم سنّاً[(٨٢٣)]. ولقد تأثَّر الوفد من معاملة النَّبيِّ (ص) ، ومن اختلاطهم بالمسلمين ، حتَّى إنَّهم صاموا ما بقي عليهم من شهر ، ومكثوا في المدينة خمسة عشر يوماً ، ثمَّ رجعوا إلى الطَّائف[(٨٢٤)] ، وبعد رجوعهم جهَّز رسول الله (ص) سريَّةً بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ومشاركة المغيرة بن شعبة[(٨٢٥)] رضي الله عنه، وأبي سفيان بن حرب رضي الله عنه(٤) وبعثهم في أثر الوفد[(٨٢٦)].

وبينما نجحت مساعي الوفد في إقناع ثقيف بالدُّخول في الإسلام ، وأخبروهم بمصير الَّلات ، وإذا بالسَّريَّة قد وصلت إلى الطَّائف ، ودخل المغيرة بن شعبة في بضعة عشر رجلاً

يهدمون الرَّبَّة[(٨٢٧)] ، وكان ذلك تحت حراسةٍ مشدَّدةٍ من قومه بني مَعَتِّب الَّذين قاموا دونه؛ خشية أن يُرمى، أو يُصاب كما أصيب عروة بن مسعود[(٨٢٨)] ، وخرجت ثقيف عن بكرة أبيها؛ رجالها ، ونساؤها ، وصبيانها حتَّى الأبكار من خدورهنَّ ، وكانوا لقرب عهدهم بالشِّرك لا ترى عامَّة ثقيف أنَّها مهدومة ، ويظنُّون أنَّها ممتنعة[(٨٢٩)].

وكان المغيرة رجلاً فيه دعابةٌ ، وظرفٌ ، فقال لأصحابه: والله لأضحكنَّكُم من ثقيف ، فضرب بالفأس ، ثمَّ سقط يركض ، فارتج أهل الطَّائف بصيحةٍ واحدةٍ ، وقالوا: أبعد الله المغيرة ، فقد قتلته الرَّبَّة ، وفرحوا حين رأوه ساقطاً [(٨٣٠)]، وقالوا مخاطبين أفراد السَّريَّة: مَنْ شاء منكم فليقترب ، وليجتهد على هدمها ، فوالله! لا تستطاع أبداً ، فوثب المغيرة بن شعبة ، وقال: قبَّحكم الله يا معشر ثقيف! إنَّما هي لُكاع[(٨٣١)]؛ حجارةٌ ومَدَرٌ ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه[(٨٣٢)].

أكمل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ومن معه هدم الطَّاغية حتَّى سوَّوها بالأرض ، وكان سادنها واقفاً على أحرٍّ من الجمر؛ ينتظر نقمة الرَّبَّة ، وغضبها على هؤلاء العُصاة[(٨٣٣)] ، فما إن وصلوا إلى أساسها حتَّى صاح قائلاً: سترون إذا انتهى أساسها ، يغضب الأساس غضباً يخسف بهم[(٨٣٤)] ، فلمَّا سمع المغيرة رضي الله عنه بذلك السُّخف قال لقائد السَّريَّة: دعني أحفر أساسها ، فحفره حتَّى أخرجوا ترابها ، وانتزعوا حُلِيَّها ، وأخذوا ثيابها ، فَبهِتَتْ ثقيفٌ[(٨٣٥)] ، وأدركت الواقع الذي كانت تحجبه غشاوةٌ على أعينهم[(٨٣٦)].

وأقبل الوفد حتَّى دخلوا على رسول الله (ص) بحليِّها ، وكسوتها ، فقسمه رسول الله (ص) من يومه ، وحمدوا الله على نصرة نبيِّه ، وإعزاز دينه[(٨٣٧)].

وتمَّ القضاء على ثاني أكبر طواغيت الشِّرك في الجزيرة العربيَّة ، وحلَّ محلَّها بيتٌ من بيوت الله ـ عزَّ وجل ـ يوحَّد فيه الرَّبُّ الَّذي لا إله إلا هو ، وذلك بتوجيهٍ كريمٍ من رسول الله (ص) إلى عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه[(٨٣٨)] عامله على الطَّائف حيث أمره «بأن يجعل مسجد الطَّائف حيث كان طاغيتهم» [أبو داود (٤٥٠) ، وابن ماجه (٧٤٣)].

ثانياً: وفاة زعيم المنافقين (عبد الله بن أُبيِّ بن سلول):

مرض عبد الله بن أبيِّ بن سلول ، رأسُ المنافقين ، في ليالٍ بَقِين من شوَّال ، ومات في ذي القعدة من السَّنة التاسعة[(٨٣٩)].

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله (ص) على عبد الله بن أبيٍّ في مرضه نعوده، فقال له النَّبيُّ (ص) : قد كنت أنهاك عن حبِّ يهود ، فقال عبد الله: فقد أبغضهُم سعد بن زرارة ، فمات.

ولما توفي عبد الله بن أبيٍّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله (ص) ، فسأله أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه ، فأعطاه ، ثمَّ سأله أن يصلِّيَ عليه ، فقام رسول الله (ص) ليصلِّي عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله (ص) ، فقال: يا رسول الله! تصلِّي عليه ، وقد نهاك ربُّك أن تُصلي عليه ، فقال رسول الله (ص) : إنَّما خيَّرني الله فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *} [التوبة: ٨٠] ، وسأزيده على السَّبعين ، قال: إنَّه منافق ، قال: فصلَّى عليه رسولُ الله (ص) ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ اية: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} [التوبة: ٨٤]. [البخاري (٤٦٧٠) ، ومسلم (٢٤٠٠)].

وإنَّما صلَّى عليه رسولُ الله (ص) إجراءً له على حكم الظَّاهر ، وهو الإسلام ، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله . وكان من خيار الصَّحابة ، وفضلائهم . وهو الذي عرض على النَّبيّ (ص) أن يقتل أباه لما قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق ، كما بيَّنَّا ، ولما فيه من مصلحةٍ شرعيَّة ، وهو تأليف قلوب قومه ، وتابعيه ، فقد كان يدين له بالولاء فئةٌ كبيرةٌ من المنافقين ، فعسى أن يتأثَّروا ، ويرجعوا عن نفاقهم ، ويعتبروا ، ويخلصوا لله ، ولرسوله ، ولو لم يُجِبْ ابنه ، وترك الصَّلاة عليه قبل ورود النَّهي الصَّريح ، لكان سُبَّةً ، وعاراً على ابنه ، وقومه ، فالرَّسول

الكريم (ص) اتَّبع أحسن الأمرين في السِّياسة ، إلى أن نُهيَ فانتهى[(٨٤٠)].

وأمَّا إعطاؤه (ص) القميص؛ فلأنَّ الضَّنَّ به يُخِلُّ بالكرم ، وقد كان مِنْ خُلُق رسول الله (ص) ألاَّ يرد طالبَ حاجةٍ قطُّ ، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم الرسول (ص) قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر ، وكان من خلق رسول الله (ص) وال بيته ردُّ الجميل بخير منه[(٨٤١)].

وبموت عبد الله بن سلول تراجعت حركة النِّفاق في المدينة ، حتَّى إنَّنا لم نجد لهم حضوراً بارزاً في العام العاشر للهجرة ، ولم يبقَ إلا العدد غير المعروف إلا لصاحب سر رسول الله (ص) حُذيفة بن اليمان[(٨٤٢)] ، وكان عمر فيما بعد لا يصلِّي على جنازة مَنْ جَهِل حالَه حتَّى يصلِّي عليه حذيفة بن اليمان؛ لأنَّه كان يعلم أعيان المنافقين ، وقد أخبره رسول الله (ص) بهم[(٨٤٣)].

كان العام التَّاسع حاسماً لحركة النفاق في المجتمع الإسلاميّ ، فقد وصل النِّظام الإسلاميُّ إلى قوَّته ، ومن ثمَّ لابدَّ من تحديد إطار التَّعامل مع كلِّ القِوى بوضوح[(٨٤٤)] ، ولهذا عبَّر الإمام ابن القيِّم عن خطَّة الإسلام أمام المنافقين: «فإنَّه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم ، والحجَّة ، وأُمِر أن يُعرض عنهم ، ويُغلِظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونُهيَ أن يصلِّي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأُخبر: أنَّه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم»[(٨٤٥)].

وجاءت هذه الخطَّة وفق النُّصوص القرانيَّة الَّتي احتوتها سورة التَّوبة «براءة» «الفاضحة» حيث يستغرق الحديث عن المنافقين أكثر من نصف السُّورة ، فيفضح نواياهم ، وأعمالهم ، ووصف أحوالهم النَّفسيَّة والقلبيَّة ، وموقفهم في غزوة تبوك ، وقبلها ، وفي أثنائها ، وما تلاها ، وكشْف حقيقة حيلهم ، ومعاذيرهم في التَّخلُّف عن الجهاد ، وبثِّ الضعف ، والفتنة ، والفرقة في الصُّفوف ، وإيذاء رسول الله (ص) بالقول ، والعمل[(٨٤٦)].

ومن أهم الأحكام الَّتي برزت في هذه المرحلة ضدَّ المنافقين:

١ ـ عدم الصَّلاة على مَنْ مات منهم ، ودمغُهم بالكفر:

{وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ * وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ *} [التوبة: ٨٤ ـ ٨٥].

٢ ـ تهديم مسجدهم الَّذي بنوه للإضرار بين المسلمين:

وهو مسجد الضِّرار ، وقد تحدَّثت عنه فيما مضى بنوعٍ من التفصيل.

٣ ـ إصدار الأمر بمجاهدة المنافقين كمجاهدة الكافرين:

{يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ *} [التحريم: ٩]، وسواءٌ أكان الجهاد بالقتال، أم في المعاملة ، والمواجهة ، والكشف ، والفضح ، فإنَّ طريقة التَّعامل مع المنافقين بعد سورة براءة غير المعاملة قبلها.

٤ ـ الكشف عن صفاتهم وأعمالهم بوضوح:

كما جاء في سورة التَّوبة أيضاً ، فهم الَّذين قالوا تثبيطاً للمسلمين: {لاَ تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ} [التوبة: ٨١] ، وهم الَّذين يلمزون المطَّوِّعين في الصَّدقات ، ويؤذون رسول الله (ص) في القول ، والفعل.....إلخ[(٨٤٧)].

هذه معالم المنهج النَّبويِّ في التعامل مع حركة النِّفاق في المجتمع الإسلاميِّ في العام التَّاسع الهجريِّ.

ثالثاً: تخيير النَّبيِّ (ص) لزوجاته (دروسٌ من بيوتات الرَّسول (ص)):

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَِزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً *وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

وقد دلَّت الأحاديث الصَّحيحة على أن نزول هاتين الايتين كان بعد اعتزال النَّبيِّ (ص) لنسائه ، بعد أن أقسم ألاَّ يدخل عليهنَّ شهراً ، فاعتزلهن في مَشْرُبَةٍ له ، وهي القصَّة المعروفة بقصَّة إيلائه[(٨٤٨)] من نسائه ، وكان تاريخ نزول هذه الايات في العام التاسع للهجرة[(٨٤٩)].

وأمَّا سبب نزولها ، فهو طلب زوجاته (ص) التَّوسعة عليهنَّ في النَّفقة ، فقد أخرج مسلمٌ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله (ص) فوجد الناس جلوساً ببابه ، لم يؤذن لأحدٍ منهم ، قال: فأُذِن لأبي بكرٍ فدخل ، ثمَّ أقبل عمر ، فاستأذن ، فأُذِن له ، فوجد

النَّبيَّ (ص) جالساً حوله نساؤه واجماً[(٨٥٠)] ساكتاً ، قال: فقال: لأقولنَّ شيئاً أُضحك النَّبيَّ (ص) ، فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنتَ خارجةَ[(٨٥١)] سألتني النَّفقة فقمتُ إليها ، فوجأت عنقَها[(٨٥٢)] ، فضحك رسول الله (ص) وقال: «هنَّ حولي كما ترى يسألنني النَّفقة». فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها ، فقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها ، كلاهما يقول: أتسألن رسول الله (ص) ما ليس عنده ، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله (ص) شيئاً أبداً ليس عنده ، ثمَّ اعتزلهن شهراً ، أو تسعاً وعشرين ، ثمَّ نزلت عليه هذه الاية» [مسلم (١٤٧٨) ، وأحمد (٣/٣٢٨)].

كانت الحياة المعيشية في بيوت رسول الله (ص) تجري على وتيرةٍ واحدةٍ ، بالرَّغم من إمكانية التَّوسُّع في بعض الأحيان، ونساء الرَّسول (ص) من البشر، يرغبن ما يرغب فيه النَّاس ، ويشتهين ما يشتهيه النَّاس[(٨٥٣)] ، فقد كانت مساكنهنَّ متواضعةً بسيطةً غاية البساطة، فقد وصفها الدُّكتور أبو شهبة فقال: إنَّ الرَّسول (ص) بنى حُجَراً حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له ، ولأهله ، ولم تكن الحُجَرُ كبيوت الملوك ، والأكاسرة، والقياصرة، بل كانت بيوت مَنْ ترفَّع عن الدُّنيا، وزخرفها، وابتغى الدَّار الاخرة، فقد كانت كمسجده مبنيةً من اللَّبِن ، والطِّين ، وبعض الحجارة ، وسقوفها من جذوع النَّخل والجريد ، قريبة الفناء ، قصيرة البناء ، ينالها الغلام الفارع بيده.

قال الحسن البصريُّ ـ وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة ـ: قد كنت أنالُ أطولَ سقف في حُجَرِ النَّبيِّ (ص) بيدي ، وكان لكلِّ حُجْرَةٍ بابان: خارجيٌّ ، وداخليٌّ من المسجد؛ ليسهلَ دخولُ النَّبيِّ (ص) إليه[(٨٥٤)].

وأمَّا الإضاءة: فلم يكن هناك مصباحٌ يستضاء به ، يدل على ذلك ما رواه البخاريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها ، قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله (ص) ورجلاي في قبلته ، فإذا سجد؛ غمزني ، فقبضت رجليَّ ، فإذا قام؛ بسطتُهما ، قالت: والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح. [البخاري (٣٨٢) ، ومسلم (٥١٢/٢٧٢)].

أمَّا الفراش ـ الَّذي يأوي إليه هذا النَّبيُّ عليه أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم ـ فهو عبارة عن رُمالِ حصيرٍ ، ليس بينه وبينه فراشٌ ، قد أثر الرُّمال بجنبه ، متكأى على وسادةٍ مِنْ أَدَمٍ ، حشوها
ليفٌ. [البخاري (٦٤٥٦) ، ومسلم (٢٠٨٢)]. فقد كانت معيشته (ص) تدلُّ على الشدَّة ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما أعلم النَّبيَّ (ص) رأى رغيفاً مرقَّقاً[(٨٥٥)] حتَّى لحق بالله ، ولا رأى شاةً سميطاً[(٨٥٦)] بعينه قطُّ. [البخاري (٦٤٥٧)].

وعن عائشة؛ قالت: إنْ كنا لننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلَّةٍ في شهرين ، وما أوقدت في أبيات رسول الله (ص) نارٌ ، فقال لها عروة بن الزُّبير: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التَّمر ، والماء. [البخاري (٦٤٥٩)].

هذا؛ وقد فتح الله على المسلمين بعد خيبر ، وفتح مكَّة ، وغزوة تبوك ، وقد قرأت زوجات النَّبي (ص) ايات في كتاب الله تبيح التَّمتُّع بنعم الله دون إسراف ، فرغبن أن ينالهنّ حظٌّ من ذلك ، كما في قوله تعالى: {يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ *} [الأعراف: ٣١].

وحضَّ على أكل الطَّيبات من الرِّزق ، قال سبحانه: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *} [الأعراف: ٣٢].

ودعا إلى التوسُّط في الإنفاق ، والاعتدال فيه ، فقال تعالى: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا *} [الإسراء: ٢٩] ، إلا أنَّ هناك جانباً اخر يتعلَّق به (ص) ، ونمطاً من المعيشة اختاره بتوجيهٍ من ربِّه عزَّ وجلَّ ، فلم يلتفت لشيءٍ من هذا ، كما أدَّبه ربه . سبحانه وتعالى . بقوله: {لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ *} [الحجر: ٨٨].

وقوله سبحانه: {وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى *} [طه: ١٣١].

ولذلك جاءت ايات التَّخيير ، فوقفت زوجاتُه (ص) من قضيَّة التَّخيير موقفاً حاسماً لا تردَّد فيه ، فإنَّهنَّ اخترن الله ورسولَه ، والدَّار الاخرة ، فقد كنَّ يطلبن منه (ص) التَّوسعة في النَّفقة ، وكن يدافعن عن ذلك ما استطعن ، فلمَّا وصل الأمر إلى وضعهنَّ أمام خيارين: الحياة الدُّنيا ، وزينتها ، أو الله ، ورسوله ، والدَّار الاخرة؛ لم يتردَّدن لحظةً واحدةً في سلوك الخيار الثَّاني بل قلن جميعهنَّ بصوتٍ واحد: نريد الله ، ورسولَه والدَّار الاخرة[(٨٥٧)].

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله (ص) بتخيير أزواجه؛ بدأ بي ، فقال: «إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً ، فلا عليك ألاَّ تعجلي حتَّى تستأمري أبويك» ، قالت: وقد علم أنَّ أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت: ثمَّ قال: «إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لأَِزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً *وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *} [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩] قالت: فقلت: ففي أيِّ هذا أستأمر أبويَّ؟ فإنِّي أريد الله ورسولَه والدَّار الاخرة ، قالت: ثمَّ فعل أزواجُ رسول الله (ص) مثلَ ما فعلتُ. [البخاري (٤٧٨٦) ، ومسلم (١٤٥٧)].

وهكذا تتجلَّى في موقفهنَّ رضي الله عنهنَّ صورةٌ ناصعةٌ لقوَّة الإيمان ، واختبارٌ حقيقيٌّ للإخلاص ، والصِّدق مع الله تعالى ، فإنَّ قوله تعالى في الاية الأولى من ايتي التَّخيير: {إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ} ، كالوعد بحصولهن على مبتغاهنَّ في الحياة الدُّنيا وزينتها ـ إن اخترن ذلك ـ ولكنَّهنَّ رفضن هذا ، واخترن الله ، ورسولَه ، والدَّار الاخرة. وفي قوله تعالى في الاية الثانية: إشارةٌ إلى أنَّ {وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا *} يَنَلْنَه من الأجر سببه كونهنَّ محسناتٍ ، ومن ذلك اختيارهنَّ الله ، ورسوله ، والدَّار الاخرة؛ إذ لا يكفي لحصولهنَّ على هذا الأجر كونهنَّ زوجاتٍ للرَّسول (ص)[(٨٥٨)] .

وتنكير الأجر ، ثمَّ وَصْفُه بأنه عظيم فيه ترغيبٌ لهنَّ بالكفِّ عن التطلُّع إلى الحياة الدُّنيا وزينتها ، فهذا الأجر لا يقدِّر قدره إلا الله ، وهو شاملٌ لخيري الدُّنيا والاخرة[(٨٥٩)].

ولقد اعتبر الخلفاء الرَّاشدون قصَّة التَّخيير تلك مَعْلَماً من معالم الإسلام ، ومنهجاً نبويّاً كريماً ينبغي أن يسلكه بيت القيادة في الأمَّة.

وإنَّ النَّظرة الفاحصة في التاريخ لَتُبَيِّنُ: أنَّ هذا الجانب يعدُّ معياراً دقيقاً به يُعرف القرب من الاستقامة ، أو البعدُ عنها ، وقد فهم قادة الأمَّة المؤمنون ـ حينما وُجدوا ـ على امتداد تاريخ الإسلام ، أهمِّية هذا الجانب ، فرعَوْه حقَّ رعايته ، وإنَّ الأمثلة العمليَّة من تاريخ الخلافة الرَّاشدة هي من الوفرة ، والكثرة بمكانٍ ، بحيث لا تُتْعِبُ الباحث في التَّفتيش عنها[(٨٦٠)].

إنَّ قيادة الأمَّة تكليفٌ ، ومَغْرمٌ ، وليست مغنماً ، ولابدَّ لِلَّذين يتولَّونها أن يحسبوا أهمية
التَّعالي على حطام الدُّنيا ، والشَّوق إلى الله ، والدَّار الاخرة[(٨٦١)].

رابعاً: حجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنَّاس:

كانت تربية المجتمع، وبناء الدَّولة في عصر النَّبيِّ (ص) مستمرَّةً في جميع الأصعدة، والمجالات العقائديَّة ، والاقتصاديَّة ، والاجتماعيَّة ، والسِّياسيَّة ، والعسكريَّة ، والتَّعبديَّة ، وكانت فريضة الحجِّ لم تُمارس في السَّنوات الماضية ، فحجَّةٌ عام (٨ هـ) بعد الفتح كُلِّف بها عَتَّابُ بن أَسِيْدٍ ، ولم تكن قد تميَّزت حجَّة

المسلمين عن حجَّة المشركين[(٨٦٢)] ، فلمَّا حل موسم الحج أراد (ص) الحجَّ ، ولكنَّه قال: «إنَّه يحضر البيت عُراةٌ مشركون يطوفون بالبيت ، فلا أحبُّ أن أحجَّ حتَّى لا يكون ذلك» ، فأرسل (ص) الصِّدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسعٍ ، فخرج أبو بكر ، ومعه عددٌ كبيرٌ من الصَّحابة[(٨٦٣)] ، وساقوا معهم الهدي[(٨٦٤)].

فلمَّا خرج الصِّدِّيق بركب الحجيج؛ نزلت سورة براءة ، فدعا النَّبيُّ (ص) عليّاً رضي الله عنه ، وأمره أن يلحق بأبي بكرٍ الصِّدِّيق ، فخرج على ناقة رسول الله (ص) العضباء؛ حتَّى أدرك الصِّدِّيق أبا بكرٍ بذي الحليفة ، فلمَّا راه الصِّدِّيق ، قال له: أميرٌ أم مأمور؟ فقال: بل مأمور ، ثمَّ سارا ، فأقام أبو بكرٍ للنَّاس الحجَّ على منازلهم؛ الَّتي كانوا عليها في الجاهليَّة ، وكان الحجُّ في هذا العام في ذي الحجَّة .كما دلَّت على ذلك الرِّوايات الصَّحيحة . لا في شهر ذي القعدة كما قيل.

وقد خطب الصِّدِّيق قبل التَّروية ، ويوم عرفة ، ويوم النَّحر ، ويوم النفر الأوَّل ، فكان يعرِّف النَّاس مناسكهم: في وقوفهم ، وإفاضتهم ونحرهم ، ونفرهم ، ورميهم للجمرات.... إلخ ، وعليٌّ يخلفه في كل موقف من هذه المواقف ، فيقرأ على النَّاس صدر سورة براءة ، ثم ينادي في النَّاس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنَّة إلا مؤمن ، ولا يطوف بالبيت عُرْيان ، ومن كان بينه وبين رسول الله عهدٌ فعهده إلى مدَّته ، ولا يحجُّ بعد العام مشرك. [أحمد (٧٩/١) ، والترمذي (٨٧١ و٣٠٩٢) ، وأبو يعلى (٤٥٢)][(٨٦٥)].

وقد أمر الصِّدِّيق أبا هريرة في رهطٍ اخر من الصَّحابة لمساعدة عليِّ بن أبي طالب في إنجاز مهمَّته[(٨٦٦)].

إنَّ نزول صدر سورة براءة يمثِّل مفاصلةً نهائيَّة مع الوثنيَّة ، وأتباعها ، حيث منعت حجَّهم ، وأعلنت الحرب عليهم[(٨٦٧)].

قال الله تعالى: {بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ *وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ *} [التوبة: ١ ـ ٣].

وقد أُمْهِلَ المعاهدون لأجلٍ معلومٍ منهم إلى انتهاء مدَّتهم فقال تعالى: {الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ *} [التوبة: ٤].

كما أمهل مَنْ لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم ، حيث يصبحون بعدها في حالة حربٍ مع المسلمين ، قال تعالى: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [التوبة: ٥].

وقد كلَّف النَّبيُّ (ص) عليّاً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحجِّ، مراعاةً لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ، ونقضها ألاَّ يتولَّى ذلك سيِّد القبيلة، أو رجل مِنْ رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاةٌ للإسلام، فلذلك تدارك النَّبيُّ (ص) الأمر ، وأرسل عليّاً بذلك ، فهذا هو السَّبب في تكليف عليٍّ بتبليغ صدر سورة براءة ، لا ما زعمه بعضُهم من أن ذلك للإشارة إلى أنَّ عليّاً أحقُّ بالخلافة من أبي بكرٍ، وقد علَّق على ذلك الدُّكتور محمد أبو شهبة، فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصِّدِّيق له: أميرٌ أم مأمور؟[(٨٦٨)] وكيف يكون المأمورُ أحقَّ بالخلافة من الأمير[(٨٦٩)]؟!

وقد كانت هذه الحجَّة بمثابة التَّوطئة للحجَّة الكبرى ، وهي حجَّة الوداع[(٨٧٠)]؛ لقد أُعْلِن في حجَّة أبي بكر: أنَّ عهد الأصنام قد انقضى ، وأنَّ مرحلةً جديدةً قد بدأت ، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى ، فبعد هذا الإعلان الَّذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة ، أيقنت

تلك القبائل أنَّ الأمر جدٌّ ، وأنَّ عهد الوثنيَّة قد انقضى فعلاً ، فأخذت ترسل وفودها معلنةً إسلامها ، ودخولها في التَّوحيد[(٨٧١)].

خامساً: عام الوفود (٩ هـ)[(٨٧٢)]:

لما افتتح رسول الله (ص) مكَّة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، وضرب رسول الله (ص) أمد أربعة أشهرٍ لقبائل العرب المشركين ، لكي يقرِّروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتَّخذ الدَّولة الإسلاميَّة منهم موقفاً معيَّناً ، ضربت إليه وفود العرب اباط الإبل من كلِّ وجهٍ معلنةً إيمانها، وولاءها[(٨٧٣)]، وقد اختلف العلماء في تاريخ مَقْدَمِ الوفود على رسول الله (ص) وفي عددها، حيث أشارت المصادر الحديثيَّة ، والتَّاريخيَّة إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخٍ مبكرٍ عن السَّنة التَّاسعة ، ولعلَّ ذلك ممَّا أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد على ستين وفداً عند البعض ، ويرتفع فيبلغ أكثر من مئة

وفدٍ عند اخرين ، ولعلَّ البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم[(٨٧٤)] ، فقد أورد محمَّد بن إسحاق: أنَّه: لما فتح رسول الله (ص) مكَّة المكرَّمة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كلِّ وجه[(٨٧٥)].

وقد استقصى ابن سعدٍ في جمع المعلومات عن الوفود ، كما فصَّل كثيراً ، وقدَّم ترجماتٍ وافيةً عن رجال الوفود ، ومن كانت له صحبةٌ منهم ، وما ورد عن طريقهم من اثار ، ولا تخلو أسانيد ابن سعدٍ ـ أحياناً ـ من المطاعن ، كما أنَّ فيها أسانيد من الثِّقات أيضاً[(٨٧٦)] ، ولاشكَّ في أنَّ الأخبار الَّتي أوردها المؤرِّخون ليست ثابتةً بالنَّقل الصَّحيح المعتمد وفق أساليب المحدِّثين ، برغم أنَّ عدداً كبيراً من المرويَّات عن تلك الوفود ثابتةٌ ، وصحيحةٌ[(٨٧٧)]؛ فقد أورد البخاريُّ معلوماتٍ عن وفد قبيلة تميم ، وقدومه إلى النَّبي (ص) ، ووفود أخرى مثل: عبد القيس ، وبني حنيفة ، ووفد نجران ، ووفد الأشعريين ، وأهل اليمن ، ووفد دَوْسٍ [البخاري (٤٣٦٥ و٤٣٦٨ ، و٤٣٧٢ و٤٣٩٢)] ، وتعزَّزت أخبار هذه الوفود بمعلوماتٍ إضافيَّةٍ ، وردت في مصادر تاريخيَّةٍ إلى جانب ما ورد عنها في كتب السِّيَر والمغازي[(٨٧٨)] ، وقد أورد مسلم أخباراً عن أغلب الوفود
المذكورة انفاً[(٨٧٩)] ، كما أوردت بقيَّة الكتب السِّتَّة معلوماتٍ أوسع ، شملت عدداً كبيراً من الوفود[(٨٨٠)].

إنَّ قصص الوفود ، وأخبارها ، وكيفيَّة تعامل رسول الله (ص) معها من الأهميَّة بالمكان الكبير[(٨٨١)] ، وتبقى مسألة الحاجة الماسَّة إلى نقدٍ تاريخيٍّ لمتون الأخبار المفصَّلة الَّتي وصلتنا عن الوفود[(٨٨٢)] ، فلقد تركت لنا تلك الأخبار ، والقصص منهجاً نبويّاً كريماً في تعامله (ص) مع الوفود ، يمكننا الاستفادة من هديه (ص) في تعامله مع النَّفسيَّة البشريَّة ، وتربيته ، ودقَّته ، وتنظيمه ، ففيها ثروةٌ هائلةٌ من الفقه الَّذي يدخل في دوائر التَّعليم والتَّربية ، والتَّثقيف وبُعْد النَّظر وجمع القلوب على الغاية ، وربط أفرادٍ بأعيانهم بالمركز بحيث تبقى في كلِّ الظُّروف ، والأحوال مرتكزاتٌ قويَّةٌ إلى الإسلام ، إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كلِّ الحقول نفسيّاً ، واجتماعيّاً ، واقتصاديّاً ، وإداريّاً وسياسيّاً ، وعسكريّاً ، تعطي لكلِّ عاملٍ في جانب من هذه الجوانب دروساً تكفيه ، وتغنيه[(٨٨٣)].

هذا وقد تميَّز العام التاسع بتوافد العرب إلى المدينة ، وقد استعدَّت الدَّولة الإسلاميَّة لاستقبالهم، وتهيئة المناخ التَّربويِّ لهم، وقد تمثَّل هذا الاستقبال بتهيئة مكان إقامة لهم، وكانت هناك دارٌ للضِّيافة[(٨٨٤)]

، ينزل فيها الوافدون ، وهناك مسجدُ رسول الله (ص) الَّذي كان ساحةً للاستقبال ، ثمَّ كان هناك تطوُّعٌ ، أو تكليف رسول الله (ص) لأحد الصَّحابة باستضافة بعض القادمين[(٨٨٥)].

واهتمَّ (ص) بتلك الوفود ، وحرَص على تعليمها ، وتربيتها ، وقد كانت تلك الوفود حريصةً على فهم الإسلام ، وتعلُّم شرائعه ، وأحكامه ، وادابه ، ونظمه في الحياة ، وتطبيق ما عُلِّموه تطبيقاً عمليّاً ، جعلهم نماذج حيّة لفضائله ، وقد كان لكثيرٍ منهم سؤالاتٌ عن أشياء كانت شائعةً بينهم؛ ابتغاء معرفة حلالها ، وحرامها ، وكان النَّبيُّ (ص) حريصاً أشدَّ الحرص على تفقيههم في الدِّين ، وبيان ما سألوه عنه ، وكان (ص) يُدني منهم مَنْ يعلم منه زيادة حِرْصٍ على القران العظيم ، وحفظ اياته تفقُّهاً فيه ، ويقول لأصحابه: «فقِّهوا إخوانكم»[(٨٨٦)].

وكان (ص) يسأل عمَّن يُعْرَف مِنْ شرفائهم ، فإذا رغبوا في الرَّحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحقِّ ، وحثَّهم على الاعتصام بالصَّبر ، ثمَّ يجزيهم بالجوائز الحسان ، ويسوِّي بينهم ، فإذا رجعوا إلى أقوامهم؛ رجعوا هُداةً دعاةً ، مشرقةً قلوبهم بنور الإيمان ، يعلِّمونهم ممَّا عُلِّموا ، ويحدِّثونهم بما سمعوا ، ويذكرون لهم مكارم النَّبيِّ ، وبرَّه ، وبِشْرَه ، واستنارة وجهه سروراً بمقدمهم عليه ، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تاخيهم ، وتحاببهم ، ومواساة بعضهم بعضاً؛ ليثيروا في أنفسهم الشَّوق إلى لقاء رسول الله (ص) ، ولقاء أصحابه ، ويحبِّبوا إليهم التأسِّي بهم في سلوكهم ، ومكارم أخلاقهم[(٨٨٧)] ، واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيَّتها؛ كوفد نصارى نجران ، ووافقت على دفع الجزية ، ونحاول أن نتحدَّث عن بعض الوفود؛ لما في ذلك من الفقه ، والدُّروس ، والعبر؛ كوفد عبد قيس ، وبني سعد بن بكر ، ووفد نصارى نجران:

أ ـ وفد عبد القيس:

وقد تحدَّث ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن قدومهم ، فقال: إنَّ وفد عبد القيس أتوا رسول الله (ص) ، فقال رسول الله (ص) : «مَن الوفد؟ ـ أو: مَنِ القوم؟» قالوا: ربيعة قال: «مرحباً بالقوم[(٨٨٨)] ـ أو: بالوفد ـ غير خزايا ، ولا نَدَامَى[(٨٨٩)]». قال: فقالوا: يا رسول الله! إنا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدةٍ[(٨٩٠)] ، وإنَّ بيننا وبينك هذا الحيُّ من كفَّار مضر ، وإنَّا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهرٍ حرام ، فمرنا بأمرٍ فصلٍ[(٨٩١)] نخبر به مَنْ وراءنا ، ندخل به الجنَّة ، وسألوه عن الأشربة. قال: فأمرهم بأربعٍ ، ونهاهم عن أربعٍ ، قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدُّوا خمساً من المغنم» ، ونهاهم عن الدُّباء[(٨٩٢)] ، والحنتم[(٨٩٣)] ، والمزَفَّتِ[(٨٩٤)] ، وربما قال: النَّقير[(٨٩٥)] ، أو المقَيَّر وقال: «احفظوهنَّ ، وأخبروا بهنَّ مَنْ
وراءكم» [البخاري (٥٣) ، ومسلم (١٧)].

وفي رواية: أنَّ الأشجَّ بن عبد قيسٍ تخلَّف في الرِّكاب حتَّى أناخها ، وجمع متاع القوم ، ثمَّ جاء يمشي حتَّى أخذ بيد رسول الله (ص) فقبَّلها ، فقال له النَّبيُّ (ص) : «إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله ورسولُه» فقال: جَبْلٌ جُبِلْتُ عليه ، أم تَخَلُّقاً منِّي؟ قال: «بل جَبْلٌ» [ابن ماجه (٤١٨٧)] قال: الحمد لله الَّذي جَبَلَنِي على ما يحبُّ اللهُ ورسولُه. [أحمد (٤/٢٠٦) ، والبخاري في الأدب المفرد (٥٨٤)][(٨٩٦)].

وقد انشغل رسول الله (ص) بمقدَمِهم وأخَّر صلاة السُّنَّة البَعْدِيَّة بعد الظهر وصلاَّها بعد العصر[(٨٩٧)].

ب ـ وفد ضِمَام بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكرٍ:

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: بينما نحن جلوسٌ مع النَّبيِّ (ص) في المسجد دخل رجلٌ على جملٍ ، فأناخه في المسجد ثمَّ عقله ، ثمَّ قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنَّبيُّ (ص) متكىءٌ بين ظهرانيهم ، فقلنا: هذا الرَّجل الأبيض المتَّكىء ، فقال له الرَّجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النَّبي (ص) : «قد أجبتك» ، فقال الرَّجل للنَّبيِّ (ص) : إِنِّي سَائِلُكَ فمشدِّدٌ عليك في المسألة؛ فلا تجِدْ[(٨٩٨)] عليَّ في نفسك ، فقال: سل عمَّا بدا لك ، فقال: أسألك بربِّك وربِّ مَنْ قبلك! الله أرسلك إلى النَّاس كلِّهم؟ فقال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أَنْشدُكَ بالله! الله أمرك أن تصلِّيَ الصَّلوات الخمس في اليوم واللَّيلة؟ قال: «اللَّهمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! الله أمرك أن نصوم هذا الشَّهر من السَّنة؟ قال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! الله أمرك أن تأخذ هذه الصَّدقة من أغنيائنا ، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النَّبي (ص) : «اللَّهم نعم!».

فقال الرَّجل: امنت بما جئت به ، وأنا رسول مَنْ ورائي مِنْ قومي ، وأنا ضِمَامُ بن ثَعْلَبَةَ أخو بني سعد بن بكر. [البخاري (٦٣) ، وأبو داود (٤٨٦) ، وابن ماجه (١٤٠٢) ، وأحمد (٣/١٦٨) ، والنسائي (٤/١٢٢)].

وفي رواية ابن عبَّاسٍ: ... حتَّى إذا فرغ؛ قال: فإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ
محمَّداً رسول الله (ص) ، وسأؤدِّي هذه الفرائض ، وأجتنبُ ما نهيتني عنه ، ثمَّ لا أزيد ، ولا أنقص.

قال: ثمَّ انصرف راجعاً إلى بعيره ، فقال رسول الله (ص) حين ولَّى: «إنْ يصدق ذو الْعَقِيصَتَيْنِ[(٨٩٩)]؛ يدخل الجنَّة». قال: فأتى إلى بعيره ، فأطلق عِقَاله ثمَّ خرج حتَّى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أوَّل ما تكلَّم به أن قال: بئست اللاَّتُ ، والعزَّى! قالوا: صه يا ضِمَام! اتَّق البَرَص ، والجُذام! اتَّق الجنون! قال: ويلكم! إنَّهما والله! لا يضرَّان ، ولا ينفعان ، إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به ممَّا كنتم فيه ، وإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، وإنِّي قد جئتكم من عنده بما أمركم به ، ونهاكم عنه. قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجلٌ ، ولا امرأةٌ إلا مسلماً ، قال: يقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما: فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضل مِنْ ضِمَامِ بن ثعلبة. [أحمد (١/٢٦٤ ـ ٢٦٥) ، وأبو داود (٤٨٧) ، والدارمي (٦٥٦)][(٩٠٠)].

وتدل قصَّة إسلامه على مدى انتشار تعاليم الإسلام في وسط القبائل العربيَّة ، حتَّى جاء ضِمَام لا ليسأل عنها ، ولكن جاء ليستوثق منها ، معدِّداً لها الواحدة تلو الأخرى ، ممَّا يدلُّ على استيعابه لها قبل مجيئه إلى الرَّسول (ص)[(٩٠١)] .

ج ـ وفد نصارى نجران:

كتب رسول الله (ص) إلى نجران[(٩٠٢)] كتاباً قال فيه: «أمَّا بعد ، فإنِّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم؛ فالجزية ، فإن أبيتم؛ اذنتكم بحربٍ ، والسَّلام[(٩٠٣)]».

فلمَّا أتى الأسقفَ الكتابُ؛ جمع النَّاس ، وقرأه عليهم ، وسألهم عن الرَّأي فيه ، فقرَّروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكوَّن من أربعة عشرَ من أشرافهم ، وقيل: ستِّين راكباً منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب ـ وهو أميرهم، وصاحب مشورتهم، والَّذي يصدُرون عن رأيه ـ والسَّيد ـ وهو صاحب رحلتهم ـ وأبو الحارث ـ أسقفُهم ، وحبرُهم وصاحب مدراسهم ـ فقدموا على النَّبيِّ (ص) ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحَبِرة ، وأرديةٌ مكفوفةٌ بالحرير ، وفي أيديهم خواتيم الذَّهب ، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق ، فقال رسول الله (ص) : دعوهم ، ثمَّ أتوا

النَّبيَّ (ص) ، فأعرض عنهم ، ولم يكلِّمهم ، فقال لهم عثمان: من أجل زِيِّكُمْ هذا ، فانصرفوا يومهم هذا ، ثمَّ غدَوا عليه بزِيِّ الرُّهبان فسلَّموا عليه ، فردَّ عليهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، وقالوا: كنَّا مسلمين قبلكم ، فقال النَّبيُّ (ص) : «يمنعكم من الإسلام ثلاثٌ: عبادتكم الصَّليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أنَّ للهِ ولداً»[(٩٠٤)] ، وكثر الجدال والحجاج بينه ، وبينهم ، والنَّبيُّ (ص) يتلو عليهم القران ،

ويقرع باطلهم بالحجَّة ، وكان ممَّا قالوه لرسول الله (ص) : ما لك تشتم صاحبنا ، وتقول: إنَّه عبد الله ؟! فقال: «أجل ، إنَّه عبد الله ورسولُه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فغضبوا ، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أبٍ ، فإن كنت صادقاً ، فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الردِّ عليهم قوله سبحانه: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ *الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ *} [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠].

فكانت حجَّةً دامغةً ، شُبِّه فيها الغريب بما هو أغرب منه[(٩٠٥)]. فلمَّا لم تُجْدِ معهم المجادلة بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، دعاهم إلى المباهلة[(٩٠٦)] ، امتثالاً لقوله تعالى: {فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ *} [آل عمران: ٦١].

وخرج النَّبيُّ (ص) ومعه عليٌّ ، والحسن ، والحسين ، وفاطمة ، وقال: «وإذا أنا دعوت فأمِّنوا»[(٩٠٧)]. فائتمرُوا فيما بينهم ، فخافوا الهلاك؛ لعلمهم: أنَّه نبيٌّ حقاً ، وأنَّه ما بَاهَلَ قومٌ نبيّاً إلا هلكوا ، فأبوا أن يلاعنوه ، وقالوا: احكم علينا بما أحببت ، فصالحهم على ألفي حُلَّةٍ ، ألف في رجب ، وألف في صفر[(٩٠٨)] ، ولما عزموا على الرُّجوع إلى بلادهم، قالوا للنَّبيِّ (ص) : ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منا مال الصُّلح ، فقال لهم: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين» ، فاستشرف له أصحاب رسول الله (ص) فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرَّاح!» فلمَّا قام؛ قال: «هذا أمين هذه الأمة». [البخاري (٤٣٨٢) ، وأحمد (٣/١٨٤) ، والترمذي (٣٧٩١) ، وابن ماجه (١٥٤ و١٥٥)].

سادساً: بعوث رسول الله (ص) لتعليم مبادأى الإسلام ، وترتيب أمور الإدارة والمال:

كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها ، وتنضوي تحت سيادة الدَّولة الإسلاميَّة ،

ويتعلَّموا ما شاء الله أن يتعلَّموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم ، وكان (ص) يرسل معهم مَنْ يعلِّمهم دينهم ، وشرع (ص) يبعث دعاته في شتَّى الجهات ، واهتمَّ بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن؛ لتعليمها مبادأى الإسلام ، وأحكامه ، فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ، ومختلف أطرافها ، وأصبحت الحاجة داعيةً إلى معلِّمين ، ودعاة ، ومرشدين ، يشرحون للنَّاس حقائق الإسلام[(٩٠٩)]؛ لكي تتطهَّر قلوبهم ، وتشفى صدورهم من أمراض الجاهليَّة ، وأدرانها الخبيثة ، وامتنعت قبيلة بني الحارث بن كعب عن الدُّخول في الإسلام ، فأرسل إليهم رسولُ الله (ص) خالداً في سريَّةٍ دعويَّةٍ جهاديَّةٍ.

أ ـ بَعْثُ خالد إلى بني الحارث بن كعب (١٠ هـ):

كان بنو الحارث بن كعب يسكنون بنجران ، ولم يقبَل منهم أحدٌ الإسلام ، فبعث رسول الله (ص) إليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الاخر ، أو جُمادَى سنَة عشْرٍ ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا؛ قَبِلَ منهم ، وإن لم يفعلوا؛ قاتلهم ، فخرج خالد حتَّى قدم عليهم ، فبعث الرُّكبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام ، فأسلم النَّاس ، ودخلوا فيما دُعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلِّمهم الإسلام ، وكتاب الله ، وسنَّة نبيِّه (ص) كما أمره رسول الله (ص) ، ثمَّ كتب خالدٌ إلى رسول الله (ص) يُعْلِمه بإسلامهم ، وأنَّه مقيمٌ فيهم ، حتَّى يكتب إليه رسول الله (ص) ، فجاءه كتاب رسول الله (ص) يأمره بأن يُقْبِل إلى المدينة؛ ومعه وفدٌ منهم ، ففعل ، فلما قدموا أمَّر عليهم قيس بن الحُصَيْن ، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم ، ليفقههم في الدِّين ، ويعلِّمهم السُّنَّة ، ومعالم الإسلام[(٩١٠)].

وفي روايةٍ: أنَّه (ص) أرسل عليّاً بدلاً من خالدٍ ، وعندما وصل إلى قبائل همدان؛ قرأ عليهم كتاب رسول الله (ص) ، فأسلمت همدان جميعاً ، فكتب عليٌّ إلى رسول الله (ص) بإسلامهم ، فلمَّا قرأ رسول الله (ص) الكتاب؛ خرَّ ساجداً ، ثمَّ رفع رأسه فقال: «السَّلام على همدان ، السَّلام على همدان» [البيهقي في الدلائل: (٥/٣٩٦)].

كان رسول الله (ص) حريصاً على الجبهة الجنوبيَّة للدَّولة ، وأن تدخل قبائل اليمن في الإسلام ، وظهر هذا الاهتمام في النتائج الباهرة الَّتي حقَّقتها الدَّعوة ، في كثرة عدد الوفود التي كانت تنساب من كلِّ أطراف اليمن متَّجهةً إلى المدينة ، ممَّا يدل على أنَّ نشاط المبعوثين إلى اليمن كان متَّصلاً ، وبعيد المدى ، وكانت سرايا رسول الله (ص) تساند هذا النَّشاط الدَّعويَّ

السِّلميَّ ، حيث بعث خالد بن الوليد ، ثمَّ علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنهما في هذا السِّياق[(٩١١)].

إنَّ الوثائق الَّتي عقدها النَّبيُّ (ص) مع قبائل اليمن ، وحضرموت قد بلغت عدداً كبيراً ، ضمَّنها محمَّد حميد الله ـ رحمه الله ـ في كتابه: «مجموعة الوثائق السِّياسيَّة»[(٩١٢)].

إنَّ التَّركيز على مفاصل القوى ، ومراكز التَّأثير في المجتمعات ، وبناء الدُّول ، منهج نبويٌّ كريمٌ ، حرص النَّبيُّ (ص) على ممارسته في حياته.

ب ـ بَعْثُ معاذ بن جبل ، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن:

١ ـ بعث رسول الله (ص) معاذ بن جبل الأنصاريَّ ـ أعلمَ الصَّحابة في علم الحلال والحرام ـ إلى اليمن؛ قاضياً ، ومفقِّهاً ، وأميراً ، ومصدِّقاً[(٩١٣)] ، وجعله على أحد مِخْلافَيْها[(٩١٤)] ، وهو الأعلى. ولما خرج معاذٌ قاصداً اليمن؛ خرج معه رسول الله (ص) يودِّعه ، ويوصيه ، ومعاذ راكبٌ ، ورسول الله (ص)

يمشي تحت راحلته ، فأوصاه بوصايا كثيرةٍ ، ورسم له منهجاً دعويّاً عظيماً ، حيث قال له: «إنك ستأتي قوماً من أهل كتاب ، فإذا جئتهم؛ فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم: أنَّ الله فرض عليهم خمس صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم: أنَّ الله فرض عليهم صدقةً ، تؤخذ من أغنيائهم ، فتردُّ على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإيَّاك وكرائمَ أموالهم ، واتَّقِ دعوة المظلوم ، فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب». [البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩)].

وفي هذا الحديث إرشادٌ من النَّبيّ (ص) للدُّعاة إلى الله بالتَّدرُّج ، والبدء بالأهمِّ ، فالأهمِّ ، فالدَّعوة تكون بترسيخ الإيمان بالله تعالى ، ورسوله إيماناً يثبت في القلوب ، ويهيمن على الأفكار ، والسُّلوك ، ثمَّ تكون الدَّعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العمليَّة الَّتي ترسِّخ هذا الإيمان ، وتنمِّيه ، ثمَّ يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات ، والنَّهي عن المحرَّمات ، فيتقبَّل النَّاسُ تكاليف الإسلام الَّتي قد تكون مخالفةً لهوى النفس؛ لأنَّ قلوبهم قد عمرت بالإيمان ، واليقين قبل ذلك[(٩١٥)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ رسمه (ص) لمعاذ ولمن يريد أن يسير على هدي الصَّحابة الكرام ،

وما أحوج الذين نذروا أنفسهم للدَّعوة إلى الله إلى الوقوف أمام هذا الهدي النَّبويِّ يترسَّمون خطاه ، ويستوعبونه فهماً ، ووعياً ، وتطبيقاً! وحينئذٍ تكون خطاهم في الطَّريق الصَّحيح[(٩١٦)]. ولما فرغ رسول الله (ص) من وصاياه لمعاذ قال له: «يا معاذُ! إنَّك عسى ألاَّ تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلَّك أن تمرَّ بمسجدي هذا ، وقبري[(٩١٧)]» ، فبكى معاذ خَشَعاً لفراق الرَّسول (ص) ، وكذلك وقع الأمر كما أشار الرَّسول (ص) ، فقد أقام معاذ باليمن ، ولم يقدم إلا بعد وفاة الرَّسول (ص)[(٩١٨)] .

٢ ـ وبعث رسول الله (ص) أبا موسى الأشعريَّ اليمنيَّ إلى مخلاف اليمن الاخر ، وهو الأسفل ، قاضياً ، ومفقِّهاً ، وأميراً ، ومصدِّقاً ، وأوصاه ، ومعاذاً ، فقال:ءَ «يسِّرا ، ولا تعسِّرا ، وبشِّرا ، ولا تنفِّرا ، وتطاوعا ، ولا تختلفا». [البخاري (٤٣٤٢) ، ومسلم (١٧٣٣)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أرشد إليه رسولُ الله (ص) معاذاً ، وأبا موسى بأن يأخذوا بالتَّيسير على النَّاس ، ونهاهما عن التَّعسير عليهم ، وأمرهما بالتَّبشير ، ونهاهما عن التَّنفير[(٩١٩)].

ج ـ ترتيب أمور الإدارة والمال:

إن النِّظام جزءٌ من هذا الدِّين ، وداخلٌ في كل أموره؛ لأنَّ النِّظام يجمع الأشتات ، وتُحقَّق به الأهداف ، والغايات ، فالنِّظام سمةٌ يتميَّز بها الإسلام منذ اللَّحظة الأولى؛ حيث يدخل في جميع جوانب الإسلام

التَّصوريَّة ، والشَّعائريَّة ، والتُعبُّديَّة ، وفي الشَّرائع الحياتيَّة كلِّها ، فكان (ص) يضع من يدير المدينة في حالة غيبته عنها ، وكلَّما فتح منطقةً ، وضع عليها أميراً ، وكانت الوفود تأتي إلى رسول الله (ص) فيُعيِّن عليها أميراً مِنْ قِبَلِه ، ثمَّ يترك لهم مَنْ يعلِّمهم دينهم ، ويرسل إليهم مَنْ يجمع صدقاتهم[(٩٢٠)].
وكان يختار عمَّاله من الصَّالحين ، وأولي العلم ، والدِّين ، ومن المنظور إليهم من العرب ، وذوي الشَّخصيَّات المؤثِّرة في قبائلهم ، فقد كان عامله على مكَّة عتَّاب بن أَسِيْدٍ ، وعلى الطَّائف عثمان بن العاص ، وبعث عليّاً ، وأبا موسى إلى اليمن ، وأقرَّ الرَّسول (ص) في بعض الحالات الأمراء ، والملوك الَّذين أسلموا ، أو قُبِلت الجزية منهم ، ومنهم: باذان بن ساسان ولد بهرام الَّذي أقرَّه الرَّسول (ص) على اليمن بعد إسلامه ، ولما بلغه موته قسم عمله على جماعةٍ من الصَّحابة ، فولَّى على صنعاء شمر بن باذان ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعريَّ ، وعلى الجند يعلى بن أميَّة ، وعلى همذان عامر بن شمر الهمداني ، وعلى ما بين نجران ،

وزمع ، وزبيد خالد بن سعيد بن العاص ، وعلى نجران عمرو بن حزام ، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي ، وعلى السَّكاسك والسُّكون عكَّاشة بن ثور[(٩٢١)].
وكان (ص) يستوفي الحساب على العمَّال، يحاسبهم على المستخرج، والمصروف، وحدَّد (ص) لبعض عمَّاله رواتب ، منهم عَتَّاب بن أَسِيْدٍ والي مكَّة ، درهماً كلَّ يوم[(٩٢٢)] ، ولما استعمل (ص) قيس بن مالكٍ على قومه همدان خصَّص له قطعةً من الأرض يأخذ خراجها ، وكانت رواتب عمَّاله تتغيَّر بتغير أحوال المعيشة ، فهي ليست ثابتةً[(٩٢٣)] ، قال رسول الله (ص) : «مَنْ ولي لنا ولايةً ، ولم يكن له بيتٌ؛ فليتَّخذ بيتاً ، أو لم تكن له زوجةٌ؛ فليتَّخذ زوجةً ، أو لم تكن له دابَّةٌ ، فليتَّخذ دابةً» [أحمد (٤/٢٢٩) ، وأبو داود (٢٩٤٥) ، وابن خزيمة (٢٣٧٠)][(٩٢٤)].
وهذه هي الحاجات الرَّئيسية لوليِّ الأمر في ذلك الوقت؛ منعاً لأخذ الرَّشوة ، وهذه قاعدةٌ قانونيَّة جاء بها الإسلام قبل أن تثبتها القوانين الوضعية الحديثة في بنودها ، وهي أنَّ الهدية للحاكم رشوةٌ صريحةٌ[(٩٢٥)].

* * *

المبحث السَّابع

حجَّة الوداع (١٠ هـ)[(٩٢٦)]

الحجُّ أحد الأركان الخمسة ، وقد فُرض في العام العاشر ، وهذا ما ذهب إليه ابن القيِّم[(٩٢٧)]، واستدلَّ بأدلةٍ قويَّةٍ ، وهو اللَّائق بهديه (ص) في عدم تأخير ما هو فرض، لأنَّ الله تعالى يقول: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً} [آل عمران: ٩٧] ، وقد نزلت عام الوفود ، أواخر سنة تِسْعٍ[(٩٢٨)].

لم يحجَّ النَّبيُّ (ص) من المدينة غير حجَّته الَّتي كانت في العام العاشر ، وعرفت هذه الحجَّة بحجَّة البلاغ ، وحجَّة الإسلام ، وحجَّة الوداع؛ لأنَّه (ص) ودَّع النَّاس فيها ولم يحجَّ بعدها ، وحجَّة البلاغ؛ لأنَّه (ص) بلَّغ النَّاس شرع الله في الحجِّ قولاً ، وعملاً ، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام ، وقواعده شيءٌ إلا وقد بيَّنه ، فلمَّا بيَّن لهم شريعة الحجِّ ، ووضَّحه ، وشرحه ، أنزل الله عليه ، وهو واقفٌ بعرفة: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: ٣]. [البخاري (٤٤٠٧) ، ومسلم (٣٠١٧)].

ولما نزلت هذه الاية؛ بكى بعض الصَّحابة ـ ومنهم عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه ـ وكأنَّهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرَّسول (ص) ، ولما قيل لسيِّدنا عمر: ما يبكيك؟ قال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان[(٩٢٩)] ، وكان عدد الَّذين مع رسول الله (ص) أكثر من مئة ألفٍ[(٩٣٠)].

أولاً: كيف حجَّ النَّبيُّ (ص)؟:

[البخاري (١٥٥٧) ، ومسلم (١٢١٨)]:

عزم رسول الله (ص) على الحجِّ ، وأعلم النَّاس: أنَّه حاجٌّ ، فتجهَّزوا ـ وذلك في شهر ذي القعدة سنة عشر ـ للخروج معه ، وسمع بذلك مَنْ حول المدينة ، فقدموا يريدون الحجَّ مع الرَّسول (ص) ، ووافاه في الطَّريق خلائق لا يحصون ، فكانوا مِنْ بين يديه ومن خلفه ، وعن

يمينه ، وعن شماله مدَّ البصر ، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظُّهر لخمسٍ بَقِينَ من ذي القعدة يوم السَّبت ، بعد أن صلَّى الظُّهر بها أربعاً[(٩٣١)].

وخطبهم قبل ذلك خطبةً علَّمهم فيها الإحرامَ ، وواجباتِه ، وسننه ، ثمَّ سار وهو يلبِّي ، ويقول: «لبيك اللَّهُمَّ لبيك ، لبَّيك لا شريك لك لبيك ، إنَّ الحمد ، والنِّعمة لك ، والملك ، لا شريك لك» والنَّاس معه يزيدون ، وينقصون ، وهو يقرُّهم ، ولا ينكر عليهم ، ولزم تلبيته ، ثمَّ مضى حتَّى نزل بـ (العرج) ثمَّ سار حتَّى أتى (الأبواء) فوادي (عسفان) في (سَرِف) ثمَّ نهض إلى أن نزل بـ (ذي طوى) ، فبات بها ليلة الأحد ، لأربع خلون من ذي الحجَّة ، وصلَّى بها الصُّبح ، ثمَّ اغتسل من يومه ، ونهض إلى مكَّة فدخلها نهاراً من أعلاها ، ثمَّ سار ، حتَّى دخل المسجد ، وذلك ضحىً[(٩٣٢)] ، فاستلم الرُّكن (ص) ، فرمل ثلاثاً[(٩٣٣)] ، ومشى أربعاً ، ثمَّ نفذ إلى مقام إبراهيم[(٩٣٤)] عليه السَّلام. فقرأ: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ *} [البقرة: ١٢٥].

فجعل المقام بينه وبين البيت ، وكان يقرأ في الرَّكعتين: ثمَّ رجع إلى الرُّكن {قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ} * {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ *} ، ثمَّ خرج من الباب إلى الصَّفا ، فلمَّا دنا من الصَّفا؛ قرأ: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ *} [البقرة: ١٥٨].

وبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فرقي عليه ، حتَّى إذا رأى البيت؛ استقبل القبلة ، فوحَّد الله ، وكبَّره ، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» ، ثمَّ دعا بين ذلك ، قال مثل هذه ثلاث مرَّاتٍ ، ثمَّ نزل إلى المروة ، حتَّى إذا انصبَّتْ[(٩٣٥)] قدماه في بطن الوادي؛ سعى ، حتَّى إذا صَعِدَتَا[(٩٣٦)]؛ مشى ، أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصَّفا ، حتَّى إذا كان اخر طوافه على المروة؛ قال: «لو أنِّي استقبلتُ من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ، وجعلتها عُمْرَةً ، فمن كان منكم ليس معه هَدْيٌ؛ فليحلَّ ، وليجعلها عُمْرةً».

فقام سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ ، فقال: يا رسول الله! أَلِعَامِنَا هذا أم للأبد؟ فشبَّك

رسول الله (ص) أصابعه واحدةً في الأخرى ، وقال: «دخلتِ العمرةُ في الحجِّ» مرَّتين ، «لا بل لأبدٍ أبَدٍ»[(٩٣٧)].

وأقام بمكَّة أربعة أيام: يوم الأحد ، والإثنين ، والثَّلاثاء ، والأربعاء ، فلمَّا كان يوم الخميس ضُحىً؛ توجَّه بمن معه من المسلمين إلى منىً ، ونزل بها ، وصلَّى بها الظُّهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر ،

ومكث قليلاً حتَّى طلعت الشَّمس ، وأمر بِقُبَّةٍ من شَعَرٍ تُضْرَبُ له بِنَمِرَةَ[(٩٣٨)] ، فسار رسول الله (ص) ولا تَشُكُّ قريشٌ إلا أنَّه واقفٌ عند المشعر الحرام[(٩٣٩)] ، كما كانت قريش تصنع في الجاهليَّة ، فأجاز[(٩٤٠)] رسول الله (ص) حتَّى أتى عرفةَ ، فوجد القُبَّةَ قد ضُرِبت له بنَمِرَة فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشَّمسُ؛ أمَرَ بالقصواء ، فرُحِلَتْ له ، فأتى بطن الوادي[(٩٤١)] ، فخطب النَّاس ، وقال:

«إنَّ دماءكم ، وأموالكم حرامٌ عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدميَّ موضوعٌ ، ودماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ ، وإنَّ أوَّل دَمٍ أضع من دمائنا دمُ ابنِ ربيعة بن الحارثِ ، كان مُسْتَرْضَعاً في بني سعدٍ ، فقتلتْه هذيلٌ ، وربا الجاهليَّة موضوعٌ ، وأوَّل رباً أضع ربانا ، ربا العباس بن عبد المطَّلب ، فإنَّه موضوع كلُّه.

فاتَّقوا الله في النِّساء ، فإنَّكم أخذتموهنَّ بأمان الله ، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله ، ولكن عليهنَّ ألاَّ يوطئن فرشَكم أحداً تكرهونه[(٩٤٢)] ، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّحٍ[(٩٤٣)] ، ولهنَّ عليكم رزقُهن ، وكسوتُهنَّ بالمعروف؛ وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله ، وأنتم تُسْأَلُونَ عنِّي ، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنَّك بلغت ، وأدَّيت ، ونصحت ، فقال بإصبعه السَّبَّابة ، يرفعها إلى السَّماء ، وينكتها[(٩٤٤)] إلى النَّاس: «اللَّهمَّ اشهد! اللَّهُمَّ اشهد!» ثلاث مرَّات[(٩٤٥)].

ثمَّ أذَّن ، ثم أقام ، فصلَّى الظُّهر ، ثمَّ أقام ، فصلَّى العصر ، ولم يصلِّ بينهما شيئاً ، ثمَّ ركب رسولُ الله (ص) ، حتَّى أتى الموقف ، فجعل بطنَ ناقتهِ القصواءِ إلى الصَّخَرَاتِ[(٩٤٦)] وجعل حبل المشاة بين يديه[(٩٤٧)] ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتَّى غربت الشمس ، وذهبت الصُّفْرَةُ قليلاً حتى غاب القُرْصُ[(٩٤٨)].

وذكر أبو الحسن النَّدويُّ: لما فرغ رسول الله (ص) من صلاته ، والتَّضرُّع ، والابتهال إلى غروب الشَّمس ، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيه: «اللَّهُمَّ! إنَّك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرِّي ، وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، والوَجِل المشفِق ، المقر المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذَّليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضَّرير ، مَنْ خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ جسده ، وَرَغِم أنفهُ لك ، اللَّهُمَّ! لا تجعلني بدعائك ربِّ شقيّاً ، وكن بي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين»[(٩٤٩)]!

وهناك أنزلت عليه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: ٣] ، فلمَّا غربت الشَّمس؛ أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه ، ودفع رسول الله (ص) وقد شَنَقَ للقصواءِ الزِّمَامَ ، حتَّى إنَّ رأسها ليُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ ، وهو يقول: «أيُّها النَّاس! عليكم السَّكينة[(٩٥٠)]».

وكان يلبِّي في مسيره ذلك ، لا يقطع التَّلبية حتَّى أتى المزدلفة ، وأمر المؤذِّن بالأذان فأذَّن ، ثمَّ أقام ، فصلَّى المغرب قبل حطِّ الرِّحال ، وتبريك الجمال ، فلمَّا حطُّوا رحالهم؛ أمر ، فأقيمت الصَّلاة ، ثمَّ صلَّى العشاء ، ثمَّ نام ، حتَّى أصبح ، فلمَّا طلع الفجر صلاَّها في أول الوقت ، ثمَّ ركب حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدُّعاء والتَّضرُّع ، والتَّكبير ، والتَّهليل ، والذكر ، حتى أَسْفَرَ جِدّاً[(٩٥١)] ، وذلك قبل طلوع الشَّمس.

ثمَّ سار من مزدلفة ، مردِفاً للفضل بن عباس ، وهو يلبِّي في مسيره ، وأمر ابن عبَّاسٍ أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصياتٍ ، فلمَّا أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ[(٩٥٢)]؛ حرَّك ناقته ، وأسرع السَّير[(٩٥٣)] ، فإنَّ هنالك أصاب أصحابَ الفيل العذابُ ، حتَّى أتى منىً ، فأتى جمرة العقبة ، فرماها راكباً بعد طلوع الشَّمس ، وقطع التلبية[(٩٥٤)].

ثمَّ رجع إلى مِنىً ، فخطب الناس خطبةً بليغةً ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النَّحر ، وتحريمه ، وفضله عند الله ، وحرمة مكَّة على جميع البلاد ، وأمر بالسَّمع ، والطَّاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وأمر النَّاس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتَّبليغ عنه[(٩٥٥)].

وقد جاء في هذه الخطبة: «أتدرون أيُّ يومٍ هذا؟» قلنا: اللهُ ورسولُه أعلم ، فَسكَتَ؛ حتَّى ظننَّا أن سيسمِّيه بغير اسمه ، فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى! قال: «أي بلدٍ هذا؟» قلنا: الله ورسولُه أعلم ، فَسَكَتَ؛ حتَّى ظننَّا: أنَّه سيسمِّيه بغير اسمه ، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى! قال: «فإنَّ دماءكم ، وأموالكم ـ وفي رواية: وأعراضكم ـ عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم ، قال: «اللَّهُمَّ اشهد! فليبلغ الشَّاهد الغائب ، فَرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ»[(٩٥٦)].

ثمَّ انصرف إلى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنةً بيده ، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره ، ثمَّ أمسك وأمر عليّاً أن ينحر ما بقي من المئة، فلمَّا أكمل (ص) نحره استدعى الحلاق ، فحلق رأسه ،

وقسم شعره بين مَنْ يليه ، ثمَّ أفاض إلى مكَّة راكباً ، وطاف طواف الإفاضة[(٩٥٧)] ، فصلَّى بمكَّة الظهر ، فأتى بني عبدِ المطلب يَسْقُون على زمزم ، فقال: «انزعوا بني عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم النَّاس على سِقَايتكم؛ لنزِعتُ معكم» ، فناولوه دلواً ، فشرب منه[(٩٥٨)].

ثمَّ رجع إلى منىً من يومه ذلك ، فبات بها ، فلمَّا أصبح؛ انتظر زوال الشَّمس ، فلمَّا زالت مشى من رحله إلى الجمار ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثمَّ الوسطى ، ثمَّ الجمرة الثَّالثة ـ وهي جمرة العقبة ـ وخطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النَّحر ، وخطبة ثانية في ثاني يوم النَّحر[(٩٥٩)] ،

وهو يوم النفر الأول ، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة ، ويوم النَّحر بمنى.

والواقع أن تكرار الخطب في حَجَّة الوداع كان أمراً لابدَّ منه لحاجة المسلمين ، فهي الحجَّة الوحيدة الَّتي حجَّها الرَّسول (ص) ، وقد عزَّ فيها الإسلام والمسلمون ، وأصبحت كلمتهم هي النَّافذة في الجزيرة كلِّها ، كما كانت الوداع الأخير ، فما أشدَّ حاجةَ المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التَّذكير ، والنُّصح ، والتَّوصية ، وإلى تكرار القول ، والتَّأكيد عليه حتَّى يعوه ، ويحفظوه ، ولا ينسوه ، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرِّسالة ، وأداء الأمانة![(٩٦٠)].

هذا ، وقد تأخَّر رسول الله (ص) حتَّى أكمل رمي أيام التَّشريق الثَّلاثة ، ثمَّ نهض إلى مكَّة ، فطاف للوداع ليلاً سحراً ، وأمر النَّاس بالرَّحيل ، وتوجَّه إلى المدينة[(٩٦١)]. وفي طريق العودة من حجَّة الوداع خطب الرَّسول (ص) النَّاس في غدير خُمٍّ قريباً من الجحفة في اليوم الثَّامن عشر من ذي الحجَّة ، وقد جاء في هذه الخطبة: «أمَّا بعد: ألا أيُّها النَّاس! فإنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربِّي فأجيب ، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْنِ ، أوَّلهما كتابُ الله فيه الهدى والنُّور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به» ، فحثَّ على كتاب الله ، ورغَّب فيه ، ثمَّ قال: «وأهلُ بيتي ، أذكِّركم اللهَ في أهل بيتي ، أذكِّركُم الله في أهل بيتي ، أذكِّركم الله في أهل بيتي» [أحمد (٣/١٤ و١٧) ، ومسلم (٢٤٠٨/٣٦ و٣٧)].

وفي روايةٍ: ... أخذ بيد عليٍّ رضي الله عنه وقال: «من كنتُ وليُّه ، فهذا وليُّه ، اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه». [أحمد (١/١١٨)][(٩٦٢)] ، وفي روايةٍ: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» [أحمد (٤/٣٦٨) ، والترمذي (٣٧١٣)][(٩٦٣)].

وكان عليٌّ قد أقبل من اليمن ، وشهد حجَّة الوداع[(٩٦٤)] ، وقد اشتكى بعض الجند عليّاً ، وأنَّه اشتدَّ في معاملتهم ، وكان قد استرجع منهم حللاً وزَّعها عليهم نائبه ، فأوضح لهم النَّبيُّ (ص) في غدير خُمٍّ

مكانةَ عليٍّ ، ونبَّه على فضله لينتهوا عن الشَّكوى[(٩٦٥)] ، فقد كان الحقُّ مع عليٍّ في إرجاع ما أعطاهم نائبه في غيبته؛ لأنَّها أموال صدقاتٍ ، وخمس[(٩٦٦)].

ولما أتى رسولُ الله (ص) ذا الحليفة ، بات بها ، فلمَّا رأى المدينة؛ كبَّر ثلاث مرَّاتٍ ، وقال:

«لا إله إلا الله وحدَه ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ ، ايبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربِّنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحدَه» ، ثمَّ دخلها نهاراً. [البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤)][(٩٦٧)].

ثانياً: الدُّروس ، والعبر ، والفوائد:

١ ـ مرحلة النُّضج الَّتي وصلت إليها الأمَّة:

وصلت الأمَّة الإسلاميَّة في السَّنة العاشرة مرحلةً من النُّضج متقدِّمةً ، وكان ذلك يقتضي لمساتٍ أخيرةً ، فوسَّع (ص) في العام التَّاسع ، والعاشر من الهجرة دائرة التَّلقِّي المباشر ، من خلال استقباله الوفود ، ومن خلال رحلة الحجِّ ، فأوجد قاعدةً عريضةً تحمل دعوته ، وقد تلقَّت عنه مباشرة ، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رَحَى الإسلام دائرةً ، وإلى الأبد[(٩٦٨)] ، ففي حجَّة الوداع كانت اللَّمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنَّة رسوله (ص) .

٢ ـ تربية الأفراد على قطع الصِّلة بالجاهليَّة ، والابتعاد عن الذُّنوب:

أ ـ فقد أشار (ص) إلى أهمِّيَّة قطع المسلم علاقته بالجاهليَّة: أوثانها ، وثاراتها ، وربِاها ، وغير ذلك ، ولم يكن حديثُه (ص) مجرَّد توصيةٍ ، بل كان قراراً؛ أعلن عنه للملأ كلِّه؛ لأولئك الَّذين كانوا مِنْ حوله ، والأمم الَّتي ستأتي مِنْ بعده ، وهذه هي صيغة القرار: «ألا إنَّ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدمي موضوعٌ ، دماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ... وربا الجاهليَّة موضوعٌ[(٩٦٩)]» لأنَّ الحياة الجديدة الَّتي يحياها المسلم بعد إسلامه حياةٌ لا صلة لها برِجْسِ الماضي ، وأدرانه[(٩٧٠)].

ب ـ وقد حذَّر (ص) من الذُّنوب ، والخطايا ، والاثام ، ما ظهر منها ، وما بطن؛ لأنَّ الذُّنوب ، والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدوُّ بعدوِّه ، فهي سبب مصائبه في الدُّنيا: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ *} [الشورى: ٣٠] فترُدِيه في نار جهنَّم في الاخرة ، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السَّيف.

وأعلن رسولُ الله (ص) : أنَّه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام؛ لأن العقول الَّتي تفتَّحت على التَّوحيد ترفض أن تعود إلى الشِّرك الظاهر ، ولكنَّ الشَّيطان لا ييئس من أن يجد

طريقه إليها من ثغرات الخطايا ، والذُّنوب ، حتَّى تُرْدِي صاحبها في المهاوي[(٩٧١)].

٣ ـ تربية المجتمع على مبادأى أساسيَّة:

أ ـ الأخوَّة في الله هي العُروة الوُثقى الَّتي تربط بين جميع المسلمين: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: ١٠] ، فقد قال (ص) : «أيُّها النَّاس! اسمعوا قولي ، واعقلوه ، تَعَلَّمُنَّ: أنَّ كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسلم ، وأنَّ المسلمين إخوةٌ؛ فلا يحلُّ لامرأى من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه ، فلا تَظْلِمُنَّ أنفسكم». وقال: «إنَّ دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرامٌ ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، حتَّى تلقَوا ربَّكم فيسألَكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلاَّلاً يضرب بعضُكم رقاب بعض». [سبق تخريجه].

ب ـ الوقوف بجانب الضَّعيف ، حتَّى لا يكون هذا الضَّعف ثغرةً في البناء الاجتماعيّ ، فأوصى (ص) في خطبته بالمرأة والرَّقيق على أنَّهما نموذجان من الضُّعفاء[(٩٧٢)] ، فقد شدَّد (ص) في وصيته بالإحسان إلى الضُّعفاء[(٩٧٣)] ، وأوصى خيراً بالنِّساء ، وأكَّد في كلمةٍ مختصرةٍ جامعةٍ القضاءَ على الظُّلم البائد للمرأة في الجاهليَّة ، وتثبيت ضمانات حقوقها ، وكرامتها الإنسانيَّة ، الَّتي تضمَّنتها أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة[(٩٧٤)].

ج ـ التَّعاون مع الدَّولة الإسلاميَّة على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله ، ولو كان الحاكم عبداً حبشيّاً؛ فإنَّ في ذلك الصَّلاحَ ، والفلاحَ ، والنَّجاةَ في الدُّنيا ، والاخرة[(٩٧٥)] ، فقد بيَّن (ص) العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنَّها تعتمد على السَّمع ، والطَّاعة ما دام الرَّئيس يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله (ص) ، فإذا مال عنهما؛ فلا سمع، ولا طاعة، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى[(٩٧٦)].

د ـ المساواة بين البشر: فقد قال (ص) : «لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتَّقوى. النَّاس من ادم ، وادم من تراب» [رواه أحمد (٥/٤١١) عن رجل من أصحاب النبيّ (ص) ، والبزار (٢٠٤٤) عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير (١٨/١٢ ـ ١٣) ، وانظره في مجمع الزوائد (٣/٢٧٢)]؛ حيث حدَّد: أن أساس التَّفاضل لا عبرة فيه لجنسٍ ، ولا لون ، ولا وطن ، ولا قوميَّة ، ... إلخ ، وإنَّما أساس التَّفاضل قيمةٌ خلقيَّةٌ
راقيةٌ ترفع مكانة الإنسان إلى مقاماتٍ رفيعةٍ جدّاً[(٩٧٧)].

هـ تحديد مصدر التَّلقِّي: وقد حدَّد (ص) مصدر التَّلقِّي والطَّريقة المثلى لحلِّ مشاكل المسلمين ، الَّتي قد تعترض طريقهم ، في الرُّجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما ، ضمن لهم بعدَ الاعتصام بهما الأمان من كلِّ شقاءٍ ، وضلالٍ ، وهما: كتاب الله ، وسنَّة رسوله (ص) ، وإنَّك لتجده يتقدَّم بهذا التعهُّد ، والضَّمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده؛ ليبيِّن للنَّاس أنَّ صلاحية التَّمسُّك بهذين الدَّليلين ليس وقفاً على عصرٍ دون اخر ، وأنَّه لا ينبغي أن يكون لأيِّ تطوُّرٍ حضاريٍّ ، أو عُرْف زمنيٍّ أيُّ سلطانٍ ، أو تغلُّبٍ عليهما[(٩٧٨)].

لقد وصف (ص) الدَّاء ، والدَّواء ، ووضع العلاج لكلِّ المشكلات بالالتزام التَّامِّ بما جاء من أحكامٍ في كتاب الله وسنَّة رسوله (ص) : «تركت فيكم ما إن تمسَّكتُم به؛ لن تضلُّوا بعدي أبداً كتابَ الله ، وسنَّتي». [مالك في الموطأ (٢/٨٩٩) ، ومشكاة المصابيح (١٨٦) ، والسلسلة الصحيحة (١٧٦١)].

هذا هو العلاج الدَّائم ، وقد كرَّر (ص) نداءه للبشريَّة عامَّةً عبر الأزمنة ، والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب ، والسُّنَّة في حلِّ جميع المشكلات الَّتي تواجه البشريَّة؛ فإنَّ الاعتصام بهما يجنِّب النَّاس الضَّلال ، ويهديهم إلى الَّتي هي أقوم في الحاضر ، والمستقبل ، لقد اجتازت تعاليم رسول الله (ص) ، وهديه حدود الجزيرة ، واخترقت حواجز الزَّمن ، وأسوار القرون ، وظلَّ يتردَّد صداها حتَّى يوم النَّاس هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فلم يكن يخاطب سامعيه ، فيقول لهم: (أيُّها المؤمنون! أيُّها المسلمون! أيُّها الحجَّاج)؛ بل كان يقول لهم: (أيُّها النَّاس!) ، وقد كرَّر نداءه إلى النَّاس كافَّةً مرَّاتٍ متعدِّدةً دون أن يخصِّصه بجنسٍ ، أو بزمانٍ ، أو مكانٍ ، أو لونٍ ، فقد بعثه الله للنَّاس كافَّةً ، وأرسله رحمةً للعالمين[(٩٧٩)].

٤ ـ الأساليب التعليمية من خطب حجَّة الوداع:

أ ـ التَّعليم بمباشرة ما يراد تعليمه:

علَّم رسولُ الله (ص) صحابته الكرام مناسك الحجِّ بصورةٍ عمليَّةٍ ، بأن قام بها ، وباشرها فعلاً ، ولم يكتفِ بأن يعلِّمها لهم قولاً ، ولذلك قال لهم: «خذوا عنِّي مناسككم» [رواه مسلم (١٢٩٧) ، وأبو داود (١٩٧٠) ، والنسائي (٥/٢٧٠)][(٩٨٠)] ، وعلى هذا فيُستحسن من الدُّعاة؛ وهم يعلِّمون الناس معاني الإسلام أن يعلِّموهم هذه المعاني ، والمطلوبات الشَّرعية ، أو بعضَها في الأقلِّ بصورةٍ عمليَّةٍ كالوضوء ، والصَّلاة ، وتعليم قراءة القران بصورةٍ سليمةٍ[(٩٨١)].

ب ـ تكرار الخُطَب:

لاحظنا: أنَّ النَّبي (ص) كرر خطبه ، فقد خطب في عرفة ، وفي منىً مرَّتين ، كما كرَّر معاني بعض هذه الخطب ، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا برسول الله (ص) ، فيكرِّروا خطبهم ، ويكرِّروا بعض معانيها الَّتي يرون حاجةً لتكرارها؛ حتَّى يستوعبها السَّامعون ، ويحفظوها؛ لأنَّ القصد من خُطب الخطيب إفادة السَّامعين بما يقول ، فإذا كانت الفائدة لا تحصل ، أو لا تتمُّ إلا بتكرار الخُطب من حيث عددها ، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها ، فليكرِّرها الدَّاعية ، ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديدٍ في خطبه ، ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معانٍ معيَّنةٍ في أذهان السَّامعين.

إنَّ الدَّاعية همُّه أن يفيد السَّامعين ، وليس همُّه أن يُظهر براعته في الخُطَب ، وفي تنوُّع معانيها دون نظرٍ ، ولا اعتبارٍ إلى ما يحتاج إليه السَّامعون ، ودون اعتبارٍ لفهمهم هذه المعاني ، واستيعابهم لها[(٩٨٢)].

ج ـ فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهدُ الغائبَ:

وفي هذا توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ لكي تعمَّ الفائدة أكبر عددٍ ممكنٍ من النَّاس ، فهذا من باب التعاون على الخير؛ ولأنَّ الغائب قد يكون أوعى للعلم ، وأكثر فهماً له من الحاضر الَّذي سمع ، وعلى الدُّعاة ، والعلماء عندما يُلْقُون درساً أو محاضرةً لإخوانهم أو لعامَّة النَّاس أن يقولوا للحاضرين: «فليبلِّغ الحاضرُ منكم الغائبَ بما سمعه». [البخاري (٦٧)].

د ـ جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب:

ويستفاد من سؤال النَّبيِّ (ص) الحاضرين عن اسم اليوم الَّذي هم فيه ، وكذا عن الشَّهر ، والبلد ـ وهم يعرفونها ـ ما يجلب انتباههم إلى ما قد عسى أن يريده بطرح هذه الأسئلة ، فيصغون إليه إصغاءً تامَّاً ، قال القرطبيُّ: سؤال النَّبيِّ (ص) عن الثلاثة: أي: عن اليوم ، والشَّهر ، والبلد ، وسكوته بعد كلِّ سؤالٍ منها؛ كان لاستحضار فهومهم ، وليُقبلوا عليه بكلِّيَّتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه... فعلى العلماء ، والدُّعاة أن يقدِّموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السَّامعين ، ويشدُّهم إلى كلامهم[(٩٨٣)].

٥ ـ بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من حجَّة الوداع:

جاءت حجَّة الوداع حافلةً بالأحكام الشَّرعية ، وخاصَّةً ما يتعلَّق بالحجِّ ، وبالوصايا ، والأحكام الَّتي وردت في خطبة عرفات ، لذلك اهتمَّ العلماء بحجَّة الوداع اهتماماً كبيراً ، واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك ، وغيرها ممَّا تحفِل به كتبُ الفقه ، وكتبُ شروح الحديث ، وخصَّص بعضُهم مؤلفاتٍ مستقلَّةً في حجَّة الوداع[(٩٨٤)].

ونشير إلى بعض هذه الأحكام باختصارٍ شديدٍ ، فمن هذه الأحكام:

أ . إفطار الحاجِّ يوم عرفة:

قالت ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها زوج النَّبيِّ (ص) : إنَّ النَّاس شكُّوا في صيام رسول الله (ص) يوم عرفة ، فأرسلْتُ إليه بحلابٍ[(٩٨٥)] ، وهو واقفٌ في الموقف ، فشرب منه ، والنَّاس ينظرون إليه. [البخاري (١٩٨٩) ، ومسلم (١١٢٣/١١٠)].

ب .كيف يفعل بمن تُوفي مُحْرِماً؟

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: بينما رجلٌ واقفٌ مع رسول الله (ص) بعرفة؛ إذْ وقع عن راحلته ، فَوَقَصَتْهُ ، أو فأَوْقَصَتْهُ[(٩٨٦)] ، فذُكر ذلك للنَّبيِّ (ص) فقال: «اغسلوه بماءٍ وسدْرٍ ، وكفِّنوه في ثوبين ، ولا تحنِّطوه[(٩٨٧)] ، ولا تخمِّروا[(٩٨٨)] رأسه؛ فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة ملبِّياً»[(٩٨٩)]. [أحمد (٢١٥/١) ، ومسلم (١٢٠٦) ، والنسائي (١٩٥/٥) ، وابن ماجه (٣٠٨٤)].

ج . هل يجوز الحجُّ عن الغير؟

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كان الفضل بنُ العبَّاس رديفَ رسول الله (ص) ، فجاءت امرأةٌ من خثعم ، فجعل الفضلُ ينظر إليها ، وتنظر إليه ، وجعل النَّبيُّ (ص) يصرف وجه الفضل إلى الشِّقِّ الاخر ، فقالت: يا رسول الله! إنَّ فريضة الله على عباده في الحجِّ أدركت أبي شيخاً كبيراً ، لا يَثْبُتُ على الرَّاحلة ، أفأحجُّ عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حَجَّة الوداع. [البخاري (١٥١٣) ، ومسلم (١٣٣٤)].

د . منهج التَّيسير (لا حرج! لا حرج!):

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: وقف رسول الله (ص) على راحلته ، فطفق ناس يسألونه ، فيقول القائل: يا رسول الله! إنِّي لم أكن أشعر: أنَّ الرمي قبل النَّحر ، فنحرت قبل الرَّمي؟ فقال رسول الله (ص) : «ارم ، ولا حرج!» قال: وطفق اخر يقول: إنِّي لم أشعر أنَّ النَّحر قبل الحلق ، فحلقت قبل أن أنحر ، فيقول: «انحر ، ولا حرج!» قال: فما سمعته يُسأل يومئذٍ عن أمرٍ ممَّا ينسى المرء ويجهل ، من تقديم بعض الأمور قبل بعض ، وأشباهها ، إلا قال رسول الله (ص) : «افعل ، ولا حرج!». [البخاري (٨٣) ، ومسلم (١٣٠٦)].

هذه بعض الأحكام المختصرة ، ومن أراد المزيد فليراجع ما كتبه الألبانيُّ عن حجَّة الوداع فقد لخص الحَجَّةَ في اثنتين وسبعين مسألة[(٩٩٠)] ، وكتاب «الوصيَّة النَّبويَّة للأمَّة الإسلاميَّة» للدكتور فاروق حمادة ، فقد جمع من المصادر الأدبيَّة ، والحديثيَّة ، وكتب أهل السِّير ثمانية وثلاثين بنداً ، ثمَّ قام بتحليلها

، وتخريجها ، وتوثيق نصوصها بميزان الجرح والتَّعديل؛ الَّذي اعتمده أئمَّة المسلمين منذ الصَّدر الأول؛ لأنَّ الأمر دينٌ وشرعٌ كما قال ، وقد أجاد ، وأفاد[(٩٩١)].

٦ . فوائد في تسمية أيام الحجِّ:

كان يقال لليوم السَّابع من ذي الحجة يومُ الزِّينة؛ لأنَّه تُزيَّن فيه البُدن الَّتي تُهدى بالجلال ، وغيرها ، واليوم الثَّامن يقال له: يوم التَّروية؛ لأنَّهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء ، ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف ، وما بعده؛ لأنَّ هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذٍ ابارٌ ، ولا عيونٌ ، أمَّا الان ففيها الماء الكثير والحمد لله! واليوم التَّاسع: يوم عرفة؛ للوقوف فيه بها ، واليوم العاشر: يوم النَّحر ، ويوم الأضحى ، ويوم الحجِّ الأكبر. واليوم الحادي عشر: يوم القرِّ؛ لأنَّهم يقرُّون فيه ، ويقال له: يوم الرؤوس؛ لأنَّهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحي ، وهو أوَّل أيام التَّشريق ، وثاني أيَّام التَّشريق يقال له: يوم النَّفر الأوَّل؛ لجواز الخروج فيه إلى مكَّة لمن يريد التَّعجيل ، وثالث أيام التَّشريق يقال له: يوم النَّفر الثَّاني[(٩٩٢)].

قال عزَّ شأنه: {وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *} [البقرة: ٢٠٣].

* * *

المبحث الثَّامن

مرض رسول الله (ص) ووفاتُه

إنَّ الأرواح الشَّفافة الصَّافية القويَّة لتدرك بعض ما يكون مخبوءاً وراء حُجُب الغيب بقدرة الله تعالى ، والقلوب الطَّاهرة المطمئنة لتحدِّث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزَّمان ، والعقول الذَّكيَّة المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات ، وتلميحات ، ولنبيِّنا محمَّد (ص) من هذه الصِّفات الحظ الأوفر ، وهو منها بالمحلِّ الأرفع؛ الذي لا يُسامَى ، ولا يُطاوَل[(٩٩٣)].

ولقد جاءت بعض الايات القرانيَّة مؤكِّدةً على حقيقة بشرية النَّبيِّ (ص) ، وأنَّه كغيره من البشر سوف يذوق الموت ، ويعاني سكراته ، كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء ، ولقد فهم (ص) من بعض الايات اقترابَ أجله ، وقد أشار (ص) في طائفة من الأحاديث الصَّحيحة إلى اقتراب وفاته ، منها ما هو صريح

الدَّلالة على الوفاة ، ومنها ما ليس كذلك ، حيث لم يشعر ذلك منها إلا الاحاد من كبار الصَّحابة الأجلاَّء؛ كأبي بكرٍ ، والعباس ، ومعاذٍ رضي الله عنهم[(٩٩٤)].

أولاً: الايات والأحاديث الَّتي أشارت إلى وفاته (ص):

١ ـ الايات:

أ ـ قال تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤].

قال القرطبيُّ: فأَعْلَمَ اللهُ تعالى في هذه الاية: أنَّ الرسل ليست بباقيةٍ في قومها أبداً ، وأنه يجب التَّمسُّك بما أتت به الرُّسل؛ وإن فُقِدَ الرَّسولُ بموتٍ ، أو قتْلٍ[(٩٩٥)].

ب ـ قال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ *} [الزمر: ٣٠].

قال ابن كثير: هذه الاية من الايات الَّتي استشهد بها الصِّدِّيق رضي الله عنه عند موت الرَّسول (ص) حتَّى تحقَّق النَّاس موته[(٩٩٦)].

ج ـ قال الله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ *} [الأنبياء: ٣٤] ، ثمَّ أعقب ذلك ببيان: أنَّ الموت حتمٌ لازمٌ ، وقدرٌ سابق ، فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ *} [الأنبياء: ٣٥] ، فهذه الايات صريحةٌ ، ونصَّت على وفاته (ص) .

وهناك بعض الايات أشارت إلى ذلك وإن لم تصرّح؛ منها:

ـ قال تعالى: {وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى *وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى *} [الضحى: ٤ ـ ٥].

ـ قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ *وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ *} [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

ـ قال تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ *} [القصص: ٨٨].

فهذه الايات تبيّن: أنَّ جميع أهل الأرض ستمضي فيهم سنَّة الله في موت خلقه ، لن يتخلَّف منهم أحدٌ أبداً.

ـ قال تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً} [المائدة: ٣]. وقد بكى عمر بن الخطَّاب حين نزلت الاية ، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان!! وكأنه استشعر وفاة النَّبيِّ (ص)[(٩٩٧)] .

ـ قال تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا *فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا *} [النصر: ١ ـ ٣].
فقد سأل عمر رضي الله عنه ابن عباسٍ رضي الله عنهما عن هذه الاية: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *} ، فقال: أَجَلُ رسول الله (ص) أعَلَمَهُ إيَّاه ، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم [البخاري (٤٤٣٠)].
في رواية الطَّبراني: قال ابن عبَّاس: نُعِيَتْ إلى رسول الله (ص) نفسُه حين نزلت ، فأخذ بأشدِّ ما كان قطُّ اجتهاداً في أمر الاخرة. [الطبراني في الكبير (٢٦٧٦) ، ومجمع الزوائد (٩/٢٦ ـ ٢٧) ، وابن الجوزي في الموضوعات (١/٢٩٥ ـ ٣٠١)].

٣ ـ أمَّا الأحاديث الَّتي أشارت إلى ذلك:
أ ـ قالت عائشة رضي الله عنها: إنَّا كنَّا أزواجَ النَّبيِّ (ص) عنده جميعاً لم تُغادِر منَّا واحدةٌ ، فأقبلت فاطمة عليها السَّلام ، ولا والله ما تخفَى مشيتُها من مشية رسول الله (ص) ، فلمَّا راها؛ رحَّبَ؛ قال: «مرحباً بابنتي». فأقعدها يمينه ـ أو شماله ـ ثمَّ سارَّها فبكت ، ثمَّ سارَّها ، فضحكت ، فقلت لها: خصَّك رسول الله بالسِّرار ، وأنت تبكين؟! فلمَّا أن قامت قلت لها: أخبريني ما سارَّك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله (ص) ، فلمَّا توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحقِّ لما أخبرتيني ، قالت: أمَّا الان؛ فنعم ، قالت: سارَّني في الأوَّل ، قال لي: «إنَّ جبريل كان يعارضني في القران كلَّ سنةٍ مرَّةً ، وقد عارضني في هذا العام مرَّتين ، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي ، فاتقي الله ، واصبري ، فنعم السَّلف أنا لك!» فبكيت ، ثمَّ سارَّني ، فقال: «أما ترضين أن تكوني سيِّدة نساء المؤمنين ، أو سيِّدة نساء هذه الأمَّة؟» فضحكتُ. [البخاري (٦٢٨٥ و٦٢٨٦) ، ومسلم (٢٤٥٠/ ٩٨ ـ ٩٩)].
وفي هذا الحديث دليلٌ قاطعٌ ، وإشارةٌ واضحةٌ إلى اقتراب أجل رسول الله (ص) ، وأنَّ ساعة الفراق قد باتت قريبةً إلا أنَّ النَّبيَّ (ص) قد اختصَّ ابنته فاطمة رضي الله عنها بعلم ذلك ، ولم يعلم به المسلمون إلا بعد وفاة رسول الله (ص)[(٩٩٨)] .
ب ـ قال جابر رضي الله عنه: رأيت النَّبيَّ (ص) يرمي على راحلته يوم النَّحر ، ويقول: «لتأخذوا مناسككم؛ فإنِّي لا أدري لعلِّي لا أحُجُّ بعد حجَّتي هذه!». [سبق تخريجه].
قال النَّوويُّ: فيه إشارةٌ إلى توديعهم ، وإعلامهم بقرب وفاته (ص) ، وحثِّهم على الاعتناء بالأخذ عنه ، وانتهاز الفرصة من ملازمته ، وتعلُّم أمور الدِّين ، وبهذا سمِّيت حجَّة الوداع[(٩٩٩)].

وقال ابن رجب: وما زال (ص) يُعرِّض باقتراب أجله في اخر عمره ، فإنَّه لما خطب في حجَّة الوداع قال للنَّاس: «خذوا عنِّي مناسككم ، فلعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا! فطفق يودِّع النَّاس ، فقالوا: هذه حجَّة الوداع[(١٠٠٠)].

ج ـ قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه: خطب رسول الله (ص) للنَّاس ، وقال: «إنَّ الله خيَّر عبداً بين الدُّنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله». قال: فبكى أبو بكرٍ رضي الله عنه ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله (ص) عن عبدٍ خُيِّر ! فكان رسول الله (ص) هو المخيَّر ، وكان أبو بكرٍ أعلمَنا. [البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢)].

قال الحافظ ابن حجر: وكأنَّ أبا بكر رضي الله عنه فهم الرَّمز الَّذي أشار به النَّبيُّ (ص) من قرينة ذكره ذلك في مرض موته ، فاستشعر منه: أنَّه أراد نفسه ، فلذلك بكى[(١٠٠١)].

د ـ قال العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه: رأيت في المنام كأنَّ الأرض تنزع إلى السَّماء[(١٠٠٢)] بأشطانٍ[(١٠٠٣)] شدادٍ ، فقصصت ذلك على النَّبيِّ (ص) فقال: «ذاك وفاة ابن أخيك» [البزار (٨٤٤) ، ومجمع الزوائد (٩/٢٣ ـ ٢٤)].

وفي هذا الحديث إخبار النَّبي (ص) بقرب وفاته ، وفيه صدق رؤيا المؤمن ، واستشعار بعض الصَّحابة وفاته (ص)[(١٠٠٤)] .

هـ وعن معاذٍ: أنَّ النَّبي (ص) لما بعثه إلى اليمن؛ خرج راكباً؛ والنَّبيُّ (ص) يمشي تحت راحلته ، فقال: «يا معاذ! إنَّك عَسَى ألا تلقاني بعد عامي هذا ، فتمرَّ بقبري ، ومسجدي» فبكى معاذٌ لفراقه (ص) ، فقال: «لا تبك يا معاذ! فإنَّ البكاء من الشَّيطان» [أحمد (٥/٢٣٥) ، والطبراني في الكبير (٢٠/١٢١) ، وابن حبان (٦٤٧) ، ومجمع الزوائد (٩/٢٢)]. وفي الحديث إخبار النَّبيِّ (ص) معاذ بن جبل باقتراب أجله ، وأنَّه يمكن ألا يلقاه بعد عامه هذا ، وفيه شدَّة محبَّة الصَّحابة للنَّبيِّ (ص) وبكائهم؛ إذا ذكروا فراقه[(١٠٠٥)].

ثانياً: مرض الرَّسول (ص)

بدء الشَّكوى:

رجع رسول الله (ص) من حجَّة الوداع في ذي الحجَّة ، فأقام بالمدينة بقيَّته ، والمحرَّم ، وصفراً ، من العام العاشر ، فبدأ بتجهيز جيش أسامة ، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة ، وأمره أن يتوجَّه نحو البلقاء ، وفلسطين ، فتجهَّز النَّاس ، وفيهم المهاجرون ، والأنصار ، وكان منهم أبو بكر ، وعمر ، وكان أسامة

بن زيد ابن ثماني عشرة سنة ، وتكلَّم البعض في تأميره [(١٠٠٦)]، وهو مولىً ، وصغيرُ السِّنِّ على كبار المهاجرين ، والأنصار ، فلم يقبل الرَّسول (ص) طعنهم في إمارة أسامة[(١٠٠٧)] ، فقال (ص) : «إن يطعنوا في إمارته؛ فقد طعنوا في إمارة أبيه ، وايمُ
الله! إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحبِّ النَّاس إليَّ ، وإنَّ ابنه هذا لمن أحبِّ النَّاس إليَّ بعده». [البخاري (٣٧٣٠) ، ومسلم (٢٤٢٦)].

وبينما النَّاس يستعدُّون للجهاد في جيش أسامة؛ ابتدأى رسول الله (ص) بوجعه الَّذي قبضه الله فيه ، وقد حدثت حوادثُ ما بين مرضه ، ووفاته؛ منها:

أ ـ النَّبيُّ (ص) في البقيع وزيارته قتلى أحدٍ ، وصلاتُه عليهم:

عن أبي مُوَيْهِبَةَ مولى رسول الله (ص) ؛ قال: بعثني رسول الله (ص) في جَوف اللَّيل ، فقال: «يا أبا مُوَيْهبَة! إِنِّي قد أُمِرْت أن أستغفر لأهل البقيع ، فانطلق معي». فانطلقت معه ، فلمَّا وقف بين أظهرهم؛ قال: «السَّلام عليكم يا أهل المقابر! ليَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه ممَّا أصبح النَّاس فيه ، أقبلت الفتن كقطع اللَّيل المظلم ، يتبع اخرُها أوَّلها ، والاخرة شرٌّ من الأولى»[(١٠٠٨)]. ثمَّ أقبل عليَّ ، فقال: «يا أبا مُوَيْهِبَة! إِنِّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدُّنيا ، والخلد فيها ، ثمَّ الجنَّة ، فخيِّرت بين ذلك ، وبين لقاء ربِّي ، والجنَّة». قال: فقلت: بأبي أنت وأمِّي! خذ مفاتيح خزائن الدُّنيا ، والخُلد فيها ، ثمَّ الجنَّة ، قال: «لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنَّة». ثمَّ استغفر لأهل البقيع، ثمَّ انصرف، فبدأ برسول الله (ص) وجعه؛ الَّذي قبضه الله فيه. [أحمد (٣/٤٨٩) ، والطبراني في الكبير (٢٢/٣٤٦ ـ ٣٤٧) ، والدارمي (٧٩) ، والحاكم (٣/٥٦) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٢٤)].

ومن حديث عقبة بن عامر الجهنيِّ رضي الله عنه ، قال: إنَّ رسول الله (ص) صلَّى على قتلى أحدٍ بعد ثماني سنين كالمودِّع للأحياء ، والأموات ، ثمَّ طلع المنبر ، فقال: «إني بين أيديكم فَرَطٌ ، وأنا عليكم شهيدٌ ، وإنَّ موعدكم الحوض ، وإِنِّي لأنظر إليه؛ وأنا في مقامي هذا ، وإِنِّي لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدُّنيا أن تنافسوها». فقال عقبة: فكانت اخر نظرةٍ نظرتها إلى رسول الله (ص) . [البخاري (١٣٤٤) ، ومسلم (٢٢٩٦)].

ب ـ استئذانه (ص) أن يمرَّض في بيت عائشة ، وشدَّة المرض الَّذي نزل به:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما ثَقُلَ رسول الله (ص) واشتدَّ به وجعُه؛ استأذن أزواجه في أن يمرَّض في بيتي ، فأذنَّ له ، فخرج وهو بين رجلين ، تخطُّ رجلاه في الأرض ، بين عبَّاسٍ ورجلٍ اخر[(١٠٠٩)] ، ولما دخل بيتي؛ اشتدَّ وجعه. قال: «أهريقوا عليَّ من سبع قربٍ لم تُحْلَلْ

أوكيتُهنَّ[(١٠١٠)] ، لعلِّي أعهد إلى النَّاس» فأجلسناه في مِخْضَبٍ[(١٠١١)] لحفصة ، ثمَّ طفقنا نصبُّ عليه من تلك القرب ، حتَّى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتُنَّ ، ثمَّ خرج إلى النَّاس فصلَّى بهم ، وخطبهم [البخاري (١١٩٨)] ، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً أشدَّ عليه الوَجَعُ من رسول الله (ص) . [البخاري (٥٦٤٦) ، ومسلم (٢٥٧١)].

وقال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: دخلت على رسول الله (ص) وهو يُوعَكُ فمسسته بيدي ، فقلت: يا رسول الله! إنك لَتُوعَكُ وعْكاً شديداً ، فقال رسول الله (ص) : «أَجَلْ؛ إنِّي أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم». قال: فقلت: ذلك أنَّ لك أجرين ، فقال رسول الله (ص): «أجلْ!» ، ثمَّ قال رسول الله (ص) : «ما من مسلم يصيبه أذىً من مرضٍ فما سواه إلا حَطَّ الله به سيئاتِه ، كما تَحُطُّ الشَّجرةُ ورقَها». [البخاري (٥٦٤٧) ، ومسلم (٢٥٧٠)].

ثالثاً: من وصايا رسول الله (ص) في أيَّامه الأخيرة:

١ ـ وصيته (ص) بالأنصار:

مرَّ العبَّاس رضي الله عنه بقومٍ من الأنصار يبكون حين اشتدَّ برسول الله (ص) وجعُه ، فقال لهم: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلسنا من رسول الله (ص) ، فدخل العبَّاس عليه (ص) ، فأخبره ، فعُصِّب بعصابةٍ دسماء[(١٠١٢)] ، أو قال: بحاشية بُرد ، وخرج ، وصعِد المنبر ـ ولم يصعد بعد ذلك اليوم ـ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال: «أوصيكم بالأنصار فإنَّهم كَرِشي[(١٠١٣)] ، وعَيْبَتي[(١٠١٤)] ، وقد قَضوا الَّذي عليهم ، وبقي الَّذي لهم ، فاقبلوا من مُحسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم». [البخاري (٣٧٩٩) ، ومسلم (٢٥١٠)].

وفي الحديث شدَّة محبَّة الأنصار لرسول الله (ص) ، وبكاؤهم لمرضه ، وحرمانهم من مجلسه[(١٠١٥)].

٢ ـ إخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد:

لقد ازدادت شدَّة المرض على رسول الله (ص) ، بحيث كان يُغْمَى عليه في اليوم الواحد مرَّاتٍ عديدةً ، ومع ذلك كلِّه أحَبَّ (ص) أن يفارق الدُّنيا وهو مطمئنٌّ على أمَّته أن تضلَّ من بعده ، فأراد

أن يكتب لهم كتاباً مفصَّلاً؛ ليجتمعوا عليه، ولا يتنازعوا ، فلمَّا اختلفوا عنده (ص) عدل عن كتابة ذلك الكتاب ، وأوصاهم بأمورٍ ثلاثةٍ ، ذكر الرَّاوي منها اثنين:

ـ أخرجوا المشركين من جزيرة العرب.

ـ وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم به. [البخاري (٣٠٥٣) ، ومسلم (١٦٣٧)].

٣ ـ النَّهي عن اتِّخاذ قبره مسجداً:

كان من اخر ما تكلَّم به رسول الله (ص) قوله: «قاتل الله اليهود والنَّصارى! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». [البخاري (٤٣٧) ، ومسلم (٥٣٠)][(١٠١٦)].

٤ ـ إحسان الظَّنِّ بالله:

قال جابر رضي الله عنه: سمعت رسول الله (ص) يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظَّنَّ بالله ، عزَّ وجلَّ». [أحمد (٣/٢٩٣) ، ومسلم (٢٨٧٧/٨١) ، وأبو داود (٣١١٣) ، وابن ماجه (٤١٦٧)].

٥ ـ الوصية بالصَّلاة ، وما ملكت أيمانكم:

قال أنس رضي الله عنه: كانت وصيَّة رسول الله (ص) حين حضره الموت: «الصَّلاة وما ملكت أيمانُكم!» حتَّى جعل يغرغر بها في صدره ، ولا يفيض بها لسانُه. [أحمد (٣/١١٧) ، وابن ماجه (٢٦٩٧) ، وابن حبان (٥/٦٦)].

٦ ـ لم يبقَ مِنْ مبشِّرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا:

قال عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما: كَشَفَ رسول الله (ص) السِّتْرَ ، وهو مَعْصُوبٌ في مرضه؛ الَّذي مات فيه ، فقال: «اللَّهُمَّ! هل بَلَّغْتُ؟ ـ ثلاث مرَّات ـ إنَّه لم يبقَ من مُبَشِّرات النُّبوة إلا الرُّؤيا ، يراها العبد الصَّالح ، أو ترى له. ألا وإنِّي قد نهيت عن القراءة في الرُّكوع ، والسُّجود ، فإذا ركعتم؛ فعظِّموا الله ، وإذا سجدتم؛ فاجتهدوا في الدُّعاء ، فإنَّه قَمِنٌ[(١٠١٧)] أن يستجاب لكم». [أحمد (١/٢١٩) ، ومسلم (٤٧٩) ، وأبو داود (٨٧٦) ، والنسائي (٢/١٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٩٩)].

رابعاً: أبو بكر يصلِّي بالمسلمين:

ولما اشتدَّ المرض بالنَّبيِّ (ص) ، وحضرت الصَّلاة ، فأذَّن بلالٌ ، قال النَّبيُّ (ص) : «مُروا أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ» فقيل: إنَّ أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ[(١٠١٨)] ، إذا قام مقامك؛ لم يستطع أن يُصلِّي بالنَّاس. وأعاد ، فأعادوا له ، فأعاد الثَّالثة ، فقال: «إنكنَّ صواحبُ يوسف[(١٠١٩)] ، مُروا أبا بكر

فليصلِّ بالنَّاس!» فخرج أبو بكرٍ ، فوجد النَّبيَّ (ص) في نفسه خفَّةً ، فخرج يهادى بين رجلين ، كأنِّي أنظر إلى رجليه تَخُطَّانِ من الوجع ، فأراد أبو بكر أن يتأخَّر فأومأ إليه النَّبيُّ (ص) : أنْ مكانك ، ثمَّ أُتي به حتَّى جلس إلى جنبه. قيل للأعمش: فكان النَّبيُّ (ص) يُصلِّي ، وأبو بكر يصلِّي بصلاته ، والنَّاس يصلُّون بصلاة أبي بكرٍ ؟ فقال برأسه: نعم. [البخاري (٦٦٤) ، ومسلم (٩٥/٤١٨)].

خامساً: السَّاعات الأخيرة من حياة المصطفى (ص):

١ ـ كان أبو بكرٍ يصلِّي بالمسلمين؛ حتَّى إذا كان يوم الإثنين ، وهم صفوفٌ في صلاة الفجر ، كشف النَّبيُّ (ص) سِتْرَ الحجرة ، ينظر إلى المسلمين ، وهم وقوفٌ أمام ربِّهم ، ورأى كيف أثمر غرس دعوته ، وجهاده ، وكيف نشأت أمَّةٌ تحافظ على الصَّلاة ، وتواظب عليها بحضرة نبيِّها وغيبته ، وقد قرَّت عينه بهذا المنظر البهيج ، وبهذا النَّجاح الَّذي لم يُقَدَّر لنبيٍّ ، أو داعٍ قبله ، واطمأنَّ أنَّ صلة هذه الأمَّة بهذا الدِّين ، وعبادة الله تعالى صلةٌ دائمةٌ ، لا تقطعها وفاة نبيِّها ، فملأى من السُّرور ما الله به عليم ، واستنار وجهه؛ وهو منيرٌ[(١٠٢٠)].

يقول الصَّحابة رضي الله عنهم: كشف النَّبيُّ (ص) سِتْرَ حجرة عائشة ينظر إلينا؛ وهو قائمٌ ، كأنَّ وجهه ورقةُ مصحفٍ ، ثمَّ تبسَّم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح ، وظنَّنا أنَّ النَّبيَّ (ص) خارجٌ إلى الصَّلاة ، فأشار إلينا أن أتمُّوا صلاتكم ، ودخل الحجرة ، وأرخى السِّتْر. [البخاري (٤٤٤٨)]. وانصرف بعض الصَّحابة إلى أعمالهم ، ودخل أبو بكرٍ على ابنته عائشة ، وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع ، وهذا يوم بنت خارجة ـ إحدى زوجتيه ، وكانت تسكن بالسُّنح[(١٠٢١)] ـ فركب على فرسه ، وذهب إلى منزله[(١٠٢٢)].

٢ ـ في الرَّفيق الأعلى:

واشتدَّت سكرات الموت بالنَّبيِّ (ص) ، ودخل عليه أسامة بن زيد؛ وقد صمت فلا يقدر على الكلام ، فجعل يرفع يديه إلى السَّماء ، ثم يضعها على أسامة ، فعرف أنَّه يدعو له ، وأخذت السَّيدة عائشة رسول الله ، وأوسدته إلى صدرها بين سَحْرها ، ونحرها[(١٠٢٣)] ، فدخل

عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، وبيده سواكٌ ، فجعل رسولُ الله (ص) ينظر إليه ، فقالت عائشة: اخذه لك؟ فأشار برأسه: أنْ نعم ، فأخذته من أخيها ، ثمَّ مضغته ، وليَّنته ، وناولته إيَّاه ، فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك ، وكلُّ ذلك وهو لا ينفكُّ عن قوله: «في الرَّفيق الأعلى» [البخاري (٤٤٣٧) ، ومسلم (٨٧/٢٤٤٤)].

وكان (ص) يُدخل يده في رَكوة ماءٍ ، أو علبةٍ فيها ماءٌ ، فيمسح بها وجهه ، ويقول: «لا إله إلا الله ، إنَّ للموت سكراتٍ!» ثمَّ نصب يده ، فجعل يقول: «في الرَّفيق الأعلى» حتَّى قُبِضَ ، ومالت يده. [البخاري (٤٤٤٩)].

وفي لفظ: أنَّ النَّبيَّ (ص) كان يقول: «اللّهُمَّ! أعنِّي على سكرات الموت». [أحمد (٦/٦٤) ، والترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٩٣)].

وفي روايةٍ: أنَّ عائشة رضي الله عنها سمعت النَّبيَّ (ص) ، وأصغت إليه قبل أن يموت؛ وهو مُسْنِدٌ إلى ظَهْره يقول: «اللّهُمَّ! اغفر لي ، وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى!». [البخاري (٤٤٤٠) ، ومسلم (٢٤٤٤/٨٥)].

وقد ورد: أنَّ فاطمة رضي الله عنها قالت: واكرب أباه! فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» فلمَّا مات؛ قالت: يا أبتاه! أجاب ربّاً دعاه. يا أبتاه! من جنَّة الفردوس مأواه. يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه. فلمَّا دُفِن (ص) قالت لأنسٍ: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله (ص) التُّراب؟! [البخاري (٤٤٦٢)].

٣ ـ كيف فارق رسول الله (ص) الدُّنيا؟

فارق رسول الله (ص) الدُّنيا وهو يحكم جزيرة العرب ، ويرهبُه ملوك الدُّنيا ، ويَفْديه أصحابُه بنفوسهم ، وأولادهم ، وأموالهم ، وما ترك عند موته ديناراً ، ولا درهماً ، ولا عبداً ، ولا أمةً ، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقةً. [البخاري (٤٤٦١)]. وتُوفِّي (ص) ؛ ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ بثلاثين صاعاً من شعير[(١٠٢٤)].

وكان ذلك يوم الإثنين ١٢ ربيع الأوَّل سنة ١١ للهجرة بعد الزَّوال[(١٠٢٥)] ، وله (ص) ثلاثٌ وستون سنَّة [البخاري (٣٩٠٢ و٣٩٠٣) ، ومسلم (٢٣٥١)] ، وكان أشدَّ الأيام سواداً ، ووحشةً ، ومصاباً على المسلمين ، ومحنةً كبرى للبشريَّة ، كما كان يومُ ولادَته أسعدَ يومٍ طلعت فيه الشَّمْس[(١٠٢٦)].

يقول أنسٌ رضي الله عنه: كان اليوم الَّذي قدم فيه رسول الله (ص) المدينة أضاء منها كلُّ شيءٍ ، فلمَّا كان اليوم الَّذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيءٍ. [أحمد (٣/٢٢١) ، والترمذي (٣٦١٨) ، وابن ماجه (١٦٣١)] ، وبكت أمُّ أيمن فقيل لها: ما يبكيك على النَّبيِّ (ص) ؟ قالت: إنِّي قد علمت: أنَّ رسول الله (ص) سيموت ، ولكنْ إنَّما أبكي على الوحي الَّذي رُفِع عنَّا. [مسلم (٢٤٥٤) ، وابن ماجه (١٦٣٥)].

٤ . هول الفاجعة ، وموقف أبي بكرٍ منها:

قال ابن رجب: ولما تُوفي رسولُ الله (ص) اضطرب المسلمون ، فمنهم من دُهِشَ ، فخولط ، ومنهم مَنْ أُقْعِد فلم يُطق القيام ، ومنهم من اعتُقل لسانُه ، فلم يطق الكلام ، ومنهم من أنكر موته بالكلِّيَّة[(١٠٢٧)].

قال القرطبيُّ مبيّناً عظم هذه المصيبة ، وما ترتَّب عليها من أمور:

من أعظم المصائب: المصيبةُ في الدِّين. قال رسول الله (ص) : «إذا أصاب أحدَكم مصيبةٌ؛ فليذكر مصابه بي ، فإنَّها أعظم المصائب» [الطبراني في الكبير (٦٧١٨) ، والبيهقي في شُعَب الإيمان (١٠١٥٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/٢)].

وصدق رسولُ الله (ص) ؛ لأنَّ المصيبة به أعظمُ من كلِّ مصيبةٍ يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوحي ، وماتت النُّبوَّة ، وكان أوَّل ظهور الشَّرِّ بارتداد العرب ، وغير ذلك ، وكان أوَّل انقطاع الخير ، وأول نقصانه[(١٠٢٨)].

لقد أذهل نبأُ الوفاة عمرَ رضي الله عنه ، فصار يتوعَّد ، وينذر مَنْ يزعُم: أنَّ النَّبيَّ (ص) مات ، ويقول: ما مات ، ولكنَّه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلةً ، ثمَّ رجع إليهم. والله! ليرجعنَّ رسولُ الله كما رجع موسى ، فليقطِّعنَّ أيدي رجالٍ ، وأرجلهم زعموا: أنه مات[(١٠٢٩)].

ولما سمع أبو بكرٍ الخبر؛ أقبل على فرسٍ من مسكنه بالسُّنْح؛ حتَّى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلِّم النَّاس ، حتَّى دخل على عائشة فتيمَّم رسولَ الله (ص) وهو مُغشَّى بثوبٍ حَبِرَةٍ ، فكشف عن وجهه ، ثمَّ أكبَّ عليه ، فقبَّله ، وبكى ، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين ، أمَّا الموتة الَّتي عليك فقد متَّها. [البخاري (٤٤٥٢ ، ٤٤٥٣)]. وخرج أبو بكرٍ؛ وعمر يتكلَّم ، فقال: اجلسْ يا عمر! وهو ماضٍ في كلامه ، وفي ثورة غضبه ، فقام أبو بكر في النَّاس خطيباً بعد أن حمِد الله ، وأثنى عليه ، قال:

أمَّا بعد: فإنَّ مَنْ كان يعبد محمَّداً؛ فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت ، ثمَّ تلا هذه الاية: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ *} [آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: فو الله! ما إن سمعت أبا بكر تلاها ، فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي ، وعلمتُ: أنَّ رسول الله (ص) قد مات. [البخاري (٤٤٥٤)].

قال القرطبيُّ: هذه الاية أدلُّ دليلٍ على شجاعة الصِّدِّيق ، وجراءته؛ فإنَّ الشَّجاعة ، والجرأة حدُّهما: ثبوت القلب عند حلول المصائب ، ولا مصيبة أعظم من موت النَّبيِّ (ص) ، فظهرت عنده شجاعتُه ، وعلمه ، قال النَّاس: لم يمت رسول الله (ص) ، منهم عمر ، وخرِسَ عثمان ، واستخفى عليٌّ ، واضطرب الأمر ، فكشفه الصِّدِّيق بهذه الاية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح[(١٠٣٠)].

فرحم الله الصِّدِّيق الأكبر! كم من مصيبةٍ درأها عن الأمَّة! وكم من فتنةٍ كان المخرج على يديه! وكم من مشكلةٍ ، ومعضلةٍ كشفها بشهب الأدلَّة من القران ، والسُّنَّة ، التي خفيت على مثل عمر رضي الله عنه! فاعرِفوا للصِّدِّيق حقه ، واقدروا له قدره ، وأحبُّوا حبيب رسول الله (ص) ، فحبُّه إيمانٌ ، وبغضه نفاقٌ[(١٠٣١)].

٥ ـ بيعة أبي بكر بالخلافة:

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة ، في سقيفة بني ساعدة ، حتَّى لا يجد الشَّيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم ، وتمزيق شملهم ، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم ، وليفارق رسولُ الله (ص) هذه الدُّنيا؛ وكلمة المسلمين واحدةٌ ، وشملُهم منتظمٌ ، وعليهم أميرٌ يتولَّى أمورهم ، ومنها تجهيز رسول الله (ص) ، ودفنه[(١٠٣٢)].

والحديث عن بيعة أبي بكر سنتكلم عنه بالتفصيل عند الدُّخول في عصر الخلفاء الرَّاشدين إن شاء الله تعالى.

٦ ـ غَسْلُ رسول الله (ص) ، وكَفنُه ، والصَّلاة عليه:

قالت عائشة رضي الله عنها: لما أرادوا غَسْلَ النَّبيِّ (ص) قالوا: ما ندري: أنجرِّده من ثيابه كما نجرِّد موتانا ، أو نغسله؛ وعليه ثيابه؟! فلمَّا اختلفوا؛ ألقى الله عليهم النَّوم حتَّى ما منهم رجلٌ إلا

وذقنه في صدره فكلَّمهم مكلِّمٌ من ناحية البيت ، لا يدرون من هو: أن اغسِلوا رسول الله (ص) وعليه ثيابُه ، فغسَّلوه؛ وعليه قميصُه ، يصبُّون الماء فوق القميص ، ويدلكون بالقميص دون أيديهم. قالت عائشة: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسَّله إلا نساؤُه. [أبو داود (٣١٤١) ، وابن ماجه (١٤٦٤) ، والحاكم (٣/٥٩ ـ ٦٠)].

وكُفِنَ (ص) في ثلاثة أثواب سَحُوليَّةٍ ، من ثياب سَحُول ـ بلدة باليمن ـ ليس فيها قميصٌ ، ولا عمامةٌ. [البخاري (١٢٧١) ومسلم (٩٤١)][(١٠٣٣)]. وقد صلَّى عليه المسلمون. قال ابن عباس: لما مات رسولُ الله (ص) أُدخل الرِّجال ، فصلُّوا عليه بغير إمامٍ أرسالاً ، حتَّى فرَغوا ، ثمَّ أُدخل النِّساء فصلَّين عليه

، ثمَّ أُدخل الصِّبيان فصلُّوا عليه ، ثمَّ أدخل العبيد ، فصلُّوا عليه أرسالاً ، لم يؤمَّهم على رسول الله (ص) أحدٌ. [ابن ماجه (١٦٢٨)].

قال ابن كثير: وهذا الصَّنيع ، وهو صلاتُهم عليه فرادى لم يؤمَّهم أحدٌ عليه أمرٌ مجمعٌ عليه ، لا خلاف فيه[(١٠٣٤)].

٧ ـ موقع دفنِه ، وصفة قبرِه ، ومَنْ باشر دفنَه؟ ومتى دُفن؟

اختلف المسلمون في موقع دفنه ، فقال بعضهم: يدفن عند المنبر ، وقال اخرون: بالبقيع ، وقال قائل: في مصلاَّه. [الموطأ (٥٤٥) ، وابن سعد (٢/٢٩٣)]. فجاء أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فحسم مادَّة هذا الخلاف أيضاً بما سمعه من رسول الله (ص) ، قالت عائشة ، وابن عباسٍ: لما قُبض رسول الله (ص) ، وغُسِّل؛ اختلفوا في دفنه ، فقال أبو بكر: ما نسيتُ ما سمعت من رسول الله (ص) يقول: «ما قبض الله نبيّاً إلا في الموضع الَّذي يحب أن يدفن فيه» ، ادفنوه في موضع فراشه[(١٠٣٥)].

وهذا الحديث وإن كان هناك خلافٌ في صحَّته إلا أنَّ دفن النَّبيِّ (ص) في موضعه الَّذي توفِّي فيه أمرٌ مجمعٌ عليه[(١٠٣٦)].

وقال ابن كثيرٍ: قد عُلِمَ بالتَّواتر: أنَّه (ص) دفن في حجرة عائشة الَّتي كانت تختصُّ بها ، شرقيَّ مسجده في الزَّاوية الغربيَّة القبلية من الحجرة ، ثمَّ دُفن فيها أبو بكرٍ ، ثمَّ عمر رضي الله عنهما[(١٠٣٧)].

وقد لُحِدَ[(١٠٣٨)] قبر رسول الله (ص) ، وقد أجمع العلماء على أن اللَّحد ، والشَّق[(١٠٣٩)] جائزان ، لكن إذا كانت الأرض صلبةً لا ينهار ترابُها؛ فاللَّحد أفضل ، وإن كانت رِخْوَةً تنهار؛ فالشَّقُّ أفضل[(١٠٤٠)].

وقد قال الألبانيُّ ـ رحمه الله! ـ: ويجوز في القبر اللَّحد ، والشَّقُّ لجريان العمل عليهما في عهد النَّبيِّ (ص) ، ولكنَّ الأوَّل أفضل[(١٠٤١)]؛ لأنَّ الله تعالى لا يختار لنبيه إلا الأفضل[(١٠٤٢)]. وأمَّا صفة قبره ، فقد كان مُسَنَّماً. [البخاري (١٣٩٠)] ، أي: مرتفعاً.

وذهب جمهور العلماء إلى أنَّ المستحب في بناء القبور هو التَّسنيم ، وأنَّه أفضل من التَّسطيح[(١٠٤٣)] وفي المسألة خلافٌ طويلٌ ليس هذا محلُّه ، وقد قرَّب ابن القيِّم رحمه الله بين المذهبين ، فقال: وكانت قبور أصحابه لا مشرفةً ، ولا لاطئةً ، وهكذا كان قبرُه الكريم ، وقبر صاحبيه ، فقبرُه (ص) مُسَنَّم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء ، لا مبنيٌّ ولا مطيَّنٌ ، وهكذا قبر صاحبيه[(١٠٤٤)] ، وقد كان قبره (ص) مرتفعاً قليلاً عن سطح الأرض[(١٠٤٥)].

وأمَّا الذين باشروا دفنه (ص) ؛ فقد قال ابن إسحاق: وكان الَّذين نزلوا في قبر رسول الله (ص) : عليُّ بن أبي طالبٍ ، والفضل بن عباس ، وقُثَم بن عبَّاس ، وشُقْران مولى رسول الله (ص)[(١٠٤٦)] ، وزاد النَّوويُّ[(١٠٤٧)] ، والمقدسيُّ[(١٠٤٨)]: العباس. قال النَّوويُّ: ويقال: كان أسامة بن زيد ، وأوس بن خَوْلِيّ[(١٠٤٩)] معهم. ودفن في اللَّحد ، وبُني عليه (ص) في لحده اللَّبِن ، يقال: إنَّها تسع لَبِنَاتٍ ، ثمَّ أهالوا التُّراب[(١٠٥٠)]. وأمَّا وقت دفنه؛ فقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنَّه دفن ليلة

الأربعاء. قال ابن كثير: والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنَّه (ص) توفي يوم الإثنين ، ودفن ليلة الأربعاء[(١٠٥١)].

لقد كان لوفاة رسول الله (ص) أثرٌ على الصَّحابة الكرام ، فقد قال أنسٌ رضي الله عنه: «وما نفضنا عن النَّبيِّ (ص) الأيدي . وإنَّا لفي دفنه . حتَّى أنْكَرْنَا قلوبنا». [الترمذي (٣٦١٨) ، وابن ماجه (١٦٣١)][(١٠٥٢)].

سادساً: بعض ما قيل من المراثي في وفاة الرَّسول (ص):

١ ـ ما قاله حسَّانُ رضي الله عنه في موت رسول الله (ص):

لقد نافح حسَّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن رسول الله (ص) في حياته ، ودافع عن الإسلام والمسلمين بقصائده الرَّائعة؛ الَّتي هزَّت عرب الجزيرة ، وفعلت فيهم الأفاعيل ، ولقد تأثَّر بموت حبيبنا (ص) ، فرثاه بقصائدَ مبكيةٍ حزينةٍ ، حفظها لنا التَّاريخ ، ولم تهمِلْها اللَّيالي ، ولم تفصِلْها عنَّا حواجزُ الزَّمن ، ولا أسوارُ القرون ، فَمِمَّا قاله يبكي رسولَ الله (ص) :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لاَ تَنَامُ كَأنَّهَا ... كُحِلَتْ ماقيها[(١٠٥٣)] بكُحْلِ الأَرْمَدِ[(١٠٥٤)]
جَزَعاً عَلَى المهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِياً ... يَا خَيْرَ مَنْ وَطِأَ الحَصَى لا تَبْعُدِ
وَجْهِيْ يَقِيْكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِيْ ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيْعِ الغَرْقَد[(١٠٥٥)]
بِأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ ... فِي يَوْم الاثْنَيْنِ النَّبِيُّ المهْتَدِى
فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّداً ... مُتَلَدِّداً[(١٠٥٦)] يا لَيْتَنِي لَمْ أُوْلَدِ
أَأُقِيمُ بَعْدَك بالْمَدِيْنَةِ بَيْنَهُمْ ... يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ[(١٠٥٧)] سُمَّ الأَسْوَدِ[(١٠٥٨)]
أَوْ حلَّ أَمْرُ اللهِ فِيْنَا عَاجِلاً ... فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ
فَتَقُوْمُ سَاعَتُنَا فَنَلْقَى طيّباً ... مَحْضاً ضَرَائِبُهُ[(١٠٥٩)] كَرِيْمُ المحْتِدِ[(١٠٦٠)]
يَا بِكْرَ امِنَةَ المبَارَكُ بِكْرُها ... ولَدَتْهُ مُحْصَنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعَدِ

نُوْراً أضَاءَ عَلَى البَرِيَّةِ كُلِّهَا مَنْ يُهْدَ للنُّورِ المبَارَكِ يَهْتَدِي
يا رَبُّ فَاجْمَعْنَا مَعاً ونَبِيَّنَا فِي جَنَّةٍ تَثْني[(١٠٦١)] عُيُونَ الحُسَّدِ
فِي جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ فَاكْتُبْهَا لَنَا يَا ذَا الجَلاَلِ وَذَا العُلاَ والسُّؤْدَدِ
وَاللهِ أسْمَعُ مَا بَقِيْتُ بِهَالِكٍ إلاَّ بَكَيْتُ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدِ
يَا وَيْحَ أنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِه بَعْدَ المغَيَّبِ فِي سَوَاءِ الملْحَدِ[(١٠٦٢)]
ضَاقَتْ بِالانْصَارِ البِلاَدُ فَأَصْبَحُوا سُوداً وجوهُهُمُ كَلَوْنِ الإِثْمِدِ[(١٠٦٣)]
وَلَقَدْ وَلَدْنَاهُ[(١٠٦٤)] وَفِينَا قَبْرُهُ وَفَضُولُ نِعْمَتِه بنا لَمْ تُجْحَدِ
واللهُ أكْرمَنَا بِهِ وهَدَى بِهِ أنصَارَهُ فِي كُلِّ سَاعَةِ مَشْهَدِ
صلَّى الإِلهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ والطَّيِّبُوْنَ عَلَى المبَارَكِ أَحْمَدِ[(١٠٦٥)]

وقال أيضاً:

تَاللهِ مَا حَمَلَتْ أُنْثَى وَلاَ وَضَعَتْ مِثْلَ الرَّسُوْلِ نَبِيِّ الأُمَّةِ الهَادِي
وَلاَ بَرَى اللهُ خَلْقاً مِنْ بَرِيَّتِه أوْفى بذِمَّةِ جَارٍ أَوْ بِمِيْعَادِ
مِنَ الَّذِي كَانَ فِيْنَا يُسْتَضَاءُ بِهِ مُبَارَكُ الأمْرِ ذَا عَدْلٍ وَإِرْشَادِ

إلى أنْ قَال:

يَا أَفْضَلَ النَّاسِ إِنِّي كُنْتُ فِي نَهَرٍ أَصْبَحْتُ مِنْه كمثْلِ المفْرَدِ الصَّادِي[(١٠٦٦)]

٢ ـ ومِمَّا قاله أبو بكرٍ الصِّدِّيق يبكي النَّبِيَّ (ص):

لَمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتَجَنْدِلاً ضَاقَتْ عَلَيَّ بِعَرْضِهِنَّ الدُّورُ
فَارْتَاعَ قَلْبِي عِنْدَ ذَاكَ لِمَوْتِهِ والعَظْمُ مِنِّي مَا حَيِيْتُ كَسِيْرُ
أَعتِيْقُ! وَيْحَكَ! إِنَّ خِلَّكَ قَدْ ثَوَى وَالصَّبْرُ عِنْدَكَ مَا بَقِيْتَ يَسِيْرُ
يَا لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ مَهْلِكَ صَاحِبِيْ غُيِّبْتُ فِي لَحْدٍ عَلَيْهِ صُخُورُ
فلَتَحْدُثَنَّ بَدَائِعٌ مِنْ بَعْدِهِ تَعْيَا لَهُنَّ جَوَانِحٌ وَصُدُوْرُ[(١٠٦٧)]

٣ ـ وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب بن هاشم ـ رضي الله عنه ـ يبكي رسولَ الله (ص):

أَرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لاَ يَزُوْلُ وَلَيْلُ أَخِي المصِيْبَةِ فِيْهِ طُوْلُ
وَأَسْعَدَنِي البُكَاءُ وَذَاكَ فِيْمَا أُصِيْبَ المسْلِمُوْنَ بِهِ قَلِيْلُ
لَقَدْ عَظُمَتْ مُصِيْبَتُنَا وَجَلَّتْ عَشِيَّةَ قِيْلَ: قَدْ قُبِضَ الرَّسُوْلُ

وَأَضْحتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيْلُ
فَقَدْنَا الْوَحْيَ والتَّنْزِيْلَ فِيْنَا يَرُوْحُ بِهِ وَيَغْدُو جِبْرَئِيلُ
وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَالَتْ عَلَيهِ نُفُوْسُ النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيلُ
نبيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَمَا يَقُوْلُ
ويَهْدِيْنَا فَلاَ نَخْشَى مَلاَماً عَلَيْنَا والرَّسُولُ لَنَا دَلِيْلُ
أَفَاطِمُ! إنْ جَزِعْتِ فَذَاكَ عُذْرٌ وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي فَهُوَ السَّبِيْلُ
فَقَبْرُ أَبِيْكِ سَيِّدُ كلِّ قَبْرٍ وَفِيْهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسُولُ[(١٠٦٨)]

٤ ـ وقالت صفيَّة بنتُ عبد المطَّلب تبكي رسولَ الله (ص):

أَلاَ يَا رَسُولَ اللهِ كُنْتَ رَجَاءَنا وَكُنْتَ بِنَا بَرّاً وَلَمْ تَكُ جَافِيَا
وَكُنْتَ رَحِيْماً هَادِياً وَمُعَلِّماً لِيَبْكِ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا
لَعَمْرُكَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْدِهِ وَلَكِنْ لِمَا أَخْشَى مِنَ الْهَرْجِ[(١٠٦٩)] اتِيَا
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي لِذِكْرِ مُحَمَّدٍ وَمَا خَفتْ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ المكَاوِيَا
أَفَاطِمُ! صَلّى اللهُ ربُّ مُحَمَّدٍ عَلَى جَدَثٍ أَمْسَى بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا
فِدَىً لِرَسُولِ اللهِ أُمِّي وَخَالَتِي وَعَمِّي وَابَائِي وَنَفْسِي وَمَالِيَا
صَدَقْتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسَالَةَ صَادِقاً وَمُتَّ صَلِيْبَ العُوْدِ أَبْلَجَ صَافِيَا
فَلَوْ أَنَّ رَبَّ النَّاسِ أَبْقَى نَبِيَّنَا سَعِدْنَا وَلكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيَا
عَلَيْكَ مِنَ اللهِ السَّلاَمُ تَحِيَّةً وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدْنِ رَاضِيَا[(١٠٧٠)]

* * *

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسَّره الله لي مِنْ جمعٍ ، وترتيبٍ ، وتحليلٍ تضمَّنتها فصول هذا الكتاب ، فيما يتعلَّق (بالسِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ في تربية الأمَّة وبناء الدَّولة) فما كان فيه من صوابٍ فهو محض فضل الله عليَّ ، فله الحمد ، والمنَّة ، وما كان فيه من خطأ؛ فأستغفر الله تعالى ، وأتوب إليه ، واللهُ ورسولُه بريءٌ منه ، وحسبي أنِّي كنت حريصاً ألاَّ أقع في الخطأ ، وعسى ألا أُحرَم مِنَ الأجر.

وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين ، وأن يذكرَني مَنْ يقرؤه في دعائه؛ فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى ، وأختمُ هذا الكتاب بقول الله تعالى: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [الحشر: ١٠].

وبقول الشَّاعر:

إلهي أَنْتَ للإحسَانِ أَهْلٌ … وَمِنْكَ الجُوْدُ وَالفَضْلُ الجَزِيْلُ
إلهي بَاتَ قَلْبِي فِيْ هُمُومٍ … وَحَالِي لا يُسَرُّ بِهِ خَلِيْلُ
إلهي تُبْ وجُدْ وَارْحَمْ عُبَيْداً … مِنَ الأوزار مَدْمَعُهُ يَسِيْلُ
إلهي ثَوْبُ جِسْمِي دنَّسَتْهُ … ذُنُوبٌ حَمْلُها أبداً ثَقِيْلُ
إلهي جُدْ بِعَفْوِكَ لِي فَإِنِّي … عَلَى الأَبْوَابِ مَنْكَسِرٌ ذَلِيْلُ
إلهي خَانَني جَلَدي وَصَبْري … وجاءَ الشَّيْبُ وَاقْتَرَبَ الرَّحِيْلُ
إلهي دَاوني بِدَوَاءِ عَفوٍ … بِهِ يُشْفَى فُؤَادِي والغَلِيْلُ
إلهي ذَابَ قَلْبِي مِنْ ذُنُوبِي … وَمِنْ فِعْلِ القَبِيْحِ أَنَا القَتِيْلُ
إلهي قُلْتَ اُدْعُونِي أجبْكُمْ … فَهَاكَ العَبْدُ يَدْعُو يَا وَكِيْلُ
إلهي هَذِهِ الأَوْقَاتُ تَمْضِي … بِأَعْمَارٍ لَنَا وَبِهَا تَزُوْلُ

وبقول الشَّاعر:

اطْلُب العِلْمَ وَلاَ تَكْسَلْ فَمَا … أَبْعَدَ الْخَيْرَ عَلَى أَهْلِ الكَسَلْ
احْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلاَ … تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ وَخَوَلْ
واهْجُرِ النَّوْمَ وحَصِّلْهُ فَمَنْ … يَعْرِف المطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ
لاَ تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُهُ … كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك.

* * *

المصادر والمراجع

(أ)

١ ـ اثار الحرب في الفقه الإسلاميِ ، د. وهبة الزُّحيلي ، دراسةٌ مقارنةٌ ، دار الفكر ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

٢ ـ اثار تطبيق الشَّريعة ، د. محمد عبد الله الزَّاحم ، دار المنار ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.

٣ ـ افاتٌ على الطَّريق لمحمد سيد نوح ، دار الوفاء ، المنصورة ـ مصر ، ط: الخامسة ، ١٤٠٠ هـ ١٩٩٠ م.

٤ ـ أُسْدُ الغابة في معرفة الصَّحابة لعلي بن أبي الكرم (ابن الأثير).

٥ ـ الأمُّ لمحمَّد بن إدريس الشَّافعي سنة ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م ، طبعة دار الفكر ، بيروت ـ لبنان.

٦ ـ الإتقان في علوم القران لعبد الرَّحمن السُّيوطيِّ ، المكتبة الثَّقافية ، بيروت ـ لبنان ، بدون تاريخ.

٧ ـ الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب ، د. فاروق مجدلاوي ، دار مجدلاوي ـ عمَّان ، الطَّبعة الثَّانية ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

٨ ـ الإصابة في تمييز الصَّحابة لأحمد بن عليِّ بن حجر العسقلانيِّ ، تحقيق عليٍّ محمَّد البجاويِّ ، دار النَّهضة ـ مصر.

٩ ـ الاعتصام للإمام الشَّاطبي ، دار الفكر ، الناشر مكتبة الرِّياض الحديثة بالرِّياض.

١٠ ـ الإعلام في صدر الإسلام ، د. عبد اللَّطيف حمزة ، دار الفكر.

١١ ـ إمتاع الأسماع بما للرَّسول من الأبناء ، والأموال ، والحفدة ، والمتاع للشَّيخ أحمد بن عليٍّ المقريزي ، صحَّحه وشرحه محمود محمَّد شاكر ، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة بالقاهرة ، ١٩٤١ م.

١٢ . الأحاديث الواردة في فضائل المدينة لصالح الرِّفاعي ، دار الخضيري . المدينة ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤١٨ هـ.

١٣ . أحكام الجنائز وبدعها للألباني ، المكتب الإسلاميُّ . بيروت.

١٤ . أحكام السُّوق في الإسلام لأحمد الدَّرويش ، دار عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

١٥ . أحكام القران لأبي بكرٍ محمَّد بن عبد الله المعروف بابن العربي المعافريِّ الأندلسيِّ ، تحقيق: محمَّد عبد القادر عطا ، ط١/١٤٠٨ هـ. دار الكتب العلميَّة . بيروت.

١٦ . الأخلاق الإسلاميَّة وأسُسها لعبد الرَّحمن حبنكة الميداني ، دار القلم . دمشق.

١٧ . الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرانيَّة ، لمحمود محمَّد الجوهريِّ.

١٨ . إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، محمد ناصر الدين الألباني ، إشراف زهير الشاويش.

١٩ . الأساس في السُّنَّة ، وفقهها . السِّيرة النَّبويَّة لسعيد حوَّى ، دار السَّلام بمصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

٢٠ . الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى ، دار السلام . مصر.

٢١ . أساليب التَّشويق والتَّعزيز في القران الكريم ، د. الحسين جرنو محمود جلو ، مؤسَّسة الرِّسالة ، دار العلوم الإنسانيَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م. ٢٢ . أسباب النُّزول ، لأبي الحسن عليِّ بن أحمد الواحديِّ النيسابوريِّ ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت . لبنان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م.

٢٣ . أسباب هلاك الأمم السَّالفة لسعيد محمَّد بابا سيلا ، سلسلة الحكمة البريطانيَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م.

٢٤ . الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام لعبد الله عليِّ السَّلامة مناصرة ، مؤسسة الرِّسالة ، بيروت . لبنان ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٢ هـ ١٩٩١ م.

٢٥ . الإسلام في خندق ، لمصطفى محمود ، دار أخبار اليوم ، القاهرة . مصر ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.

٢٦ . أصول الفكر السِّياسيِّ في القران المكِّي للتجاني عبد القادر حامد ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م ، عمَّان . الأردن ، دار البشير.

٢٧ ـ أضواء على الهجرة لتوفيق محمَّد سبع ، مطبعة الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م.
٢٨ ـ أعلام النُّبوة ، للماورديِّ ، الكلِّيات الأزهريَّة.
٢٩ ـ إغاثة اللَّهفان عن مصائد الشَّيطان لابن قيِّم الجوزيَّة ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٨ هـ ١٩٩٨ م.
٣٠ ـ الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي الرَّسول والثَّلاثة الخلفاء ، تأليف أبي الرَّبيع سليمان بن موسى الكلاعيِّ الأندلسيِّ ، عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.

٣١ ـ الأموال ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، مؤسَّسة ناصر الثَّقافية ـ بيروت.
٣٢ ـ الانحرافات العقديَّة والعلميَّة ، عليُّ بن نجيب الزَّهرانيُّ ، دار طيبة ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.
٣٣ ـ أنساب الأشراف ، للبلاذُريِّ ، تحقيق: محمَّد حميد الله ، دار المعارف.
٣٤ ـ الأنساب للسَّمعاني ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة ، حيدر اباد ، الهند ، ١٣٨٢ هـ ١٩٦٢ م.
٣٥ ـ الأنساب لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد السَّمعاني ، تحقيق عبد الرَّحمن المعلمي اليمانيِّ ، نشر مجلس دائرة المعارف ـ الهند.
٣٦ ـ أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، د. عليٌّ العليانيُّ ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

(ب)
٣٧ ـ البحر الرَّائق في الزُّهد والرَّقائق ، لأحمد فريد ، دار البخاريِّ ـ القصيم بالسُّعودية ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.
٣٨ ـ بدائع السَّالك في طبائع الممالك ، لأبي عبد الله بن الأزرق ، تحقيق ، وتعليق علي سامي النَّشار ، منشورات وزارة الإعلام ـ الجمهوريَّة العراقيَّة.
٣٩ ـ البداية والنِّهاية لأبي الفداء ابن كثيرٍ الدِّمشقيِّ ، الطَّبعة الأولى ـ ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ، دار الرَّيان للتُّراث.

٤٠ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، لمحمود شكري الالوسي ، تحقيق محمَّد بهجة الأثري ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، الطَّبعة الثَّانية.
٤١ ـ بناء المجتمع الإسلاميّ في عصر النَّبوَّة ، لمحمَّد توفيق رمضان ، دار ابن كثيرٍ ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.
٤٢ ـ بهجة المحافل ، وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات ، والسِّير ، والشَّمائل ، شرح جمال الدِّين محمَّد الأشخر اليمنيّ ، دار صادر ـ بيروت.

(ت)
٤٣ ـ تأمُّلات في سورة الكهف للشَّيخ أبي الحسن النَّدويّ ، دار القلم.
٤٤ ـ تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، د. محمد السَّيد الوكيل ، دار المجتمع ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م.
٤٥ ـ تاريخ الإسلام للذَّهبي ، المغازي ، تحقيق عمر عبد السَّلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

٤٦ ـ التَّاريخ الإسلاميُّ ـ مواقف وعبرٌ ، د. عبد العزيز الحميديُّ ، دار الدَّعوة ـ الإسكندريَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
٤٧ ـ التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، د. السَّيد عبد العزيز سالم.
٤٨ ـ التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة في عهد الرَّسول (ص) ، استراتيجيَّة الرسول السِّياسيَّة والعسكريَّة ، د. علي معطي ، مؤسَّسة المعارف ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.
٤٩ ـ تاريخ الطَّبري ، لأبي جعفر محمَّد بن جرير ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ـ بيروت.
٥٠ ـ تاريخ اليهود في بلاد العرب لولفنسون ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٧ م.
٥١ ـ تاريخ خليفة بن خيَّاط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، مطبعة الاداب ، النَّجف ـ ١٩٦٧ م.
٥٢ ـ تاريخ دولة الإسلام الأولى ، فايد حمَّاد عاشور ، سليمان أبو عزب ، دار قطريّ بن الفجاءة ـ الدَّوحة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.
٥٣ ـ تاريخ صدر الإسلام ، لعبد الرَّحمن عبد الولي شجاع ، دار الفكر المعاصر ، صنعاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.

٥٤ . التَّحالف السِّياسيُّ في الإسلام لمنير محمَّد الغضبان ، دار السَّلام ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.
٥٥ . التَّحرير والتَّنوير للشَّيخ محمَّد الطَّاهر ابن عاشور، دار الكتب الشَّرقيَّة ، تونس.
٥٦ . تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذي لمحمَّد بن عبد الرَّحمن المباركفوري ، مطبعة الاعتماد ، نشر محمَّد عبد المحسن الكتبي ، تصحيح عبد الرَّحمن محمَّد عثمان.
٥٧ . تحفة الأشراف لجمال الدِّين أبو الحجَّاج يوسف بن الزكي عبد الرَّحمن المزِّي ، الدَّار القيِّمة ، سنة الطَّبع: ١٣٨٤ هـ.
٥٨ . التَّربية القياديَّة لمنير الغضبان ، دار الوفاء ـ المنصورة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.
٥٩ . تفسير أبي السُّعود ، المسمَّى إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لقاضي القضاة أبي السُّعود محمَّد العماديِّ الحنفيِّ ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، النَّاشر: مكتبة الرِّياض الحديثة ـ الرِّياض ، مطبعة السَّعادة ، القاهرة.
٦٠ . تفسير القران العظيم ، لابن كثيرٍ القرشيِّ ، دار الفكر ، ودار القلم ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثانية.
٦١ . تفسير الالوسي ، المسمَّى روح المعاني في تفسير القران العظيم والسَّبع المثاني ، للالوسي (محمود الالوسي البغدادي) ، إدارة الطِّباعة المصطفائية بالهند ، بدون ذكر سنة الطَّبع.

٦٢ . تفسير البغويِّ المسمَّى معالم التَّنزيل ، للإمام أبي محمَّد الحسين الفرَّاء البغويِّ الشَّافعي ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان.
٦٣ . تفسير البيضاويِّ المسمَّى أنوار التنزيل وأسرار التَّأويل ، تأليف الإمام ناصر الدِّين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي ، سنة الطَّبع: ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ـ دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع.
٦٤ . تفسير الرَّازي ، دار إحياء التُّراث العربي ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة.
٦٥ . تفسير الزمخشري المسمَّى بالكشَّاف ، سنة الطبع: ١٩٦٧ م ، دار المعرفة.
٦٦ . تفسير السَّعدي المسمَّى تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان لعبد الرَّحمن ناصر السَّعدي ، المؤسَّسة السَّعدية بالرِّياض ، ١٩٧٧ م.
٦٧ . تفسير القرطبيِّ لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاريِّ القرطبيِّ ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٥ م.
٦٨ . تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي ، طبع دار الفكر ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة ، ١٣٩٤ هـ.

٦٩ ـ تفسير المنار لمحمَّد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان.
٧٠ ـ التَّفسير المنير ، د. وهبة الزُّحيلي ، دار الفكر المعاصر ـ بيروت ، دار الفكر ـ دمشق ، ١٤١١هـ ١٩٩١م ، الطَّبعة الأولى.
٧١ ـ تفسير النَّسفي المسمَّى بمدارك التنزيل وحقائق التَّأويل ، تأليف الإمام عبد الله أحمد بن محمَّد النَّسفي ، المتوفى سنة ٧١٠هـ ، النَّاشر: دار الكتاب العربيِّ ـ بيروت.
٧٢ ـ تفسير ابن عطيَّة المسمَّى المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمَّد عبد الحقِّ بن عطيَّة الأندلسيِّ ، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشَّرعية والشؤون الدِّينيَّة بدولة قطر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ١٩٩١م.
٧٣ ـ تفسير سورة فصِّلت ، د. محمد صالح علي مصطفى ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
٧٤ ـ تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي ، مكتبة الاداب ـ القاهرة ، دون ذكر الطَّبعة.
٧٥ ـ التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة في ضوء القران الكريم ، لمحمَّد السيد حمد يوسف ، دار السَّلام ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
٧٦ ـ تنظيمات الرَّسول الإدارية في المدينة ، لصالح أحمد العلي ، مجلَّة المجمَّع العلمي العراقي ، المجلَّد السَّابع عشر ، بغداد ، ١٩٦٩م.
٧٧ ـ تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ، لجلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ السُّيوطي ، دار إحياء الكتب.

٧٨ ـ تهذيب مدارج السَّالكين ، لابن القيِّم ، هذَّبه عبد المنعم صالح العلي العزِّي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

(ج)

٧٩ ـ جامع الأصول لابن الأثير (أبو السَّعادات المبارك بن محمَّد الجزري) المتوفى سنة ٦٠٦هـ ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ، طبع مكتبة الحلواني/سورية ، عام ١٣٩٢هـ.
٨٠ ـ جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب الحنبليِّ ، دار الفكر ، بيروت.

٨١ ـ الجامع لأخلاق الرَّاوي واداب السَّامع للخطيب البغدادي ، مكتبة المعارف بالرِّياض ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٨٢ ـ الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية لمحمد خير هيكل ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م ، دار البيارق ـ عمَّان ـ بيروت.
٨٣ ـ الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح لأبي العبَّاس أحمد بن عبد الحليم ، مطابع المجد.
٨٤ ـ جوامع السِّير لابن حزمٍ عليِّ بن أحمد بن سعيد ، المتوفَّى ٤٥٦هـ ، تحقيق الدُّكتور إحسان عبَّاس ، والدُّكتور ناصر الدِّين الأسد ، طبع دار إحياء السُّنَّة ـ باكستان ، ١٣٦٨هـ.
٨٥ ـ جيل النَّصر المنشود ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة. القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة السَّادسة ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

(ح)

٨٦ ـ حاشية ابن عابدين ، مطابع مصطفى البابي ، وأولاده.
٨٧ ـ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لعبد الرَّحمن بن عليِّ بن محمَّد الشَّيبانِيّ بن الرَّبيع ، تحقيق: عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ.
٨٨ ـ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الدَّيبع الشَّيبانِيّ ، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ.
٨٩ ـ حديث القران عن غزوات الرَّسول (ص) ، د. محمَّد بكر ال عابد ، دار الغرب الإسلاميِّ ، الطَّبعة الأولى.
٩٠ ـ الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام في عهد الرَّسول (ص) في مكَّة ، د. عبد الوهاب كحيل ، عالم الكتب ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
٩١ ـ الحركة السَّنوسيَّة في ليبية ، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي ، دار البيارق ـ عمَّان ، طبعة أولى ، ١٩٩٩م.
٩٢ ـ حقوق النَّبيِّ (ص) على أمَّته ، د. محمَّد بن خليفة التَّميميُّ ، دار أضواء السَّلف ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

٩٣ ـ الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي ، لعبد العزيز مصطفى كامل ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

٩٤ ـ الحكومة الإسلاميَّة لأبي الأعلى المودودي ، ترجمة أحمد إدريس ، المختار الإسلامي للطِّباعة والنَّشر ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
٩٥ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم: أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، مطبعة السَّعادة ـ مصر ، ١٣٥١ ـ ١٣٧٥م.
٩٦ ـ حوار الرَّسول (ص) مع اليهود ، د. محسن النَّاظر ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، دار الوفاء.

(خ)
٩٧ ـ خاتم النَّبيِّين (ص) للشَّيخ محمَّد أبي زهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٧٢م ، دار الفكر ـ بيروت.
٩٨ ـ الخصائص العامَّة للإسلام ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، مصر ، ط: الرَّابعة ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
٩٩ ـ الخصائص الكُبرى ، لعبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت.

(د)
١٠٠ ـ دائرة المعارف الكاثوليكيَّة ، مقال التثليث.
١٠١ ـ الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور للإمام السُّيوطي ، النَّاشر محمَّد أمين دمج ، بيروت ـ لبنان.
١٠٢ ـ دراساتٌ في السِّيرة النَّبويَّة ، د. عماد الدِّين خليل ، الطَّبعة الحادية عشرة ، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م ، دار النفائس ـ بيروت.
١٠٣ ـ دراساتٌ في عهد النُّبوَّة ، د. عبد الرَّحمن الشُّجاع ، دار الفكر المعاصر ـ صنعاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
١٠٤ ـ دراساتٌ قرانيَّة لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
١٠٥ ـ دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصية الرَّسول (ص) ، د. محمد قلعجي ، الطَّبعة الأولى ، سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، دار النَّفائس.
١٠٦ ـ الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير ليوسف بن عبد البرِّ ، وزارة الأوقاف بمصر ، لجنة إحياء التراث ، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م ، القاهرة.
١٠٧ ـ دروسٌ في الكتمان لمحمود شيت خطَّاب ، مكتبة النَّهضة ـ بغداد ، الطَّبعة العاشرة ، ١٩٨٨م.

١٠٨ ـ دستورٌ للأمَّة من القران والسُّنَّة ، د. عبد النَّاصر العطَّار ، مؤسَّسة علوم القران ، الشَّارقة ـ عجمان ، دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

١٠٩ ـ الدَّعوة الإسلاميَّة ، لعبد الغفار عزيز.

١١٠ ـ دعوة الله بين التكوين والتَّمكين ، د. علي جريشة ، مكتبة وهبة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

١١١ ـ دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشَّريعة للحافظ أبي بكر أحمد البيهقيِّ ، تحقيق: عبد المعطي قلعجي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت.

١١٢ ـ دور المرأة في خدمة الحديث لامال قرداش ، كتاب الأمَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ، الدَّوحة ـ قطر.

١١٣ ـ دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، لكامل سلامة الدقس ، دار عمَّار ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

١١٤ ـ الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة لمنصور الحرابي ، الطَّبعة الثانية ، ١٩٨٣م ، منشورات جمعية الدَّعوة الإسلاميَّة بليبيا.

١١٥ ـ ديوان أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، حقَّقه وشرحه راجي الأسمر ، دار صادر ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٧م.

١١٦ ـ ديوان شوقي ، الأعمال الشِّعرية الكاملة ، دار العودة ـ بيروت ، طبعة ١٩٨٦م.

١١٧ ـ ديوان عنترة لفاروق الطَّباع ، دار القلم ، بيروت ـ لبنان.

(ر)

١١٨ ـ الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعيَّة ، لأسامة عبد القادر.

١١٩ ـ الرُّؤيا ضوابطها وتفسيرها ، لهشام الحمصي ، دار الكلم الطَّيب ، دمشق ـ بيروت ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

١٢٠ ـ رجال الإدارة في الدَّولة الإسلاميَّة ، د. حسين محمَّد سليمان ، دار الإصلاح ـ الدَّمام بالسعودية.

١٢١ ـ الرَّحيق المختوم ، لصفيِّ الرَّحمن المباركفوري ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٦م ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ لبنان.

١٢٢ ـ رسالة الأنبياء لعمر أحمد عمر ، دار الحكمة ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

١٢٣ ـ الرَّسول القائد (ص) ، محمود شيت خطَّاب ، الطَّبعة الثَّانية ، سنة الطَّبع ١٩٦٠م ، دار مكتبة الحياة ، ومكتبة النَّهضة ـ بغداد.

١٢٤ ـ الرَّسول (ص) المبلِّغ ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.

١٢٥ ـ الرَّسول المعلِّم (ص) وأساليبه في التعليم للشيخ عبد الفتاح أبي غدَّة ، دار مكتب المطبوعات الإسلاميَّة ـ حلب ، الأولى ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

١٢٦ ـ روح المعاني (تفسير الالوسي) ، لمحمود الالوسي البغدادي ، دار الفكر ، طبعة ١٤٠٢هـ.

١٢٧ ـ الرَّوض الأنف في شرح السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام لأبي القاسم السُّهيلي ، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة ، طبعة ١٣٨٧هـ.

(ز)

١٢٨ ـ زاد المسير في علم التَّفسير ، لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرحمن بن عليٍّ الجوزيِّ القرشيِّ البغداديِّ، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م.

١٢٩ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الجوزية ، حقَّقه: شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ ، دار الرِّسالة.

١٣٠ ـ زاد اليقين للاشين أبو شنب ، دار البشير ، طنطا ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

١٣١ ـ الزُّهد ، لأحمد بن حنبل ، دار الرَّيان للتُّراث ، القاهرة ـ مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

١٣٢ ـ زيد بن ثابت ، كاتب الوحي ، وجامع القران لصفوان داودي ، دار القلم ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

(س)

١٣٣ ـ سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد لمحمد بن يوسف الصَّالحي ، تحقيق: مصطفى عبد الواحد ، لجنة إحياء التُّراث الإسلاميِّ ، ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

١٣٤ ـ السَّرايا والبعوث النَّبويَّة حول المدينة ومكَّة ، د. بريكك محمَّد بريكك ، دار ابن الجوزي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
١٣٥ ـ السَّفارات النَّبويَّة ، د. محمد العقيلي ، دار إحياء العلوم ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
١٣٦ ـ سفراء الرَّسول (ص) ، لمحمود شيت خطاب ، مؤسسة الرَّيان ، دار الأندلس الخضراء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

١٣٧ ـ سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان السِّجستانيِّ ، تحقيق وتعليق عزَّت الدَّعاس ، ١٣٩١هـ ، سورية.
١٣٨ ـ سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمَّد بن زيد القزوينيِّ ، دار الفكر.
١٣٩ ـ سنن التِّرمذي للإمام أبي عيسى محمَّد بن عيسى التِّرمذيِّ ، دار الفكر ، ١٣٩٨هـ.
١٤٠ ـ سنن الدارقطني ، علي بن عمر الدار قطني ، وبذيله التعليق المغني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم ابادي ، عالم الكتب ، لبنان.
١٤١ ـ سنن النَّسائي ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النَّسائيِّ ، مطبعة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ، ١٩٦٤م.
١٤٢ ـ سير أعلام النُّبلاء ، لشمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ.
١٤٣ ـ السِّير والمغازي لابن إسحاق ، تحقيق سهيل زكَّار ، دار الفكر ، طبعة أولى ١٩٧٨م.
١٤٤ ـ السِّيرة الحلبيَّة في سيرة الأمين المأمون ، علي بن برهان الدِّين الحلبي ، دار المعرفة.
١٤٥ ـ سيرة الرَّسول (ص) ، صورٌ مقتبسةٌ من القران الكريم ، تأليف الأستاذ محمد عزَّة دروزة ، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري ، طبعه على نفقته خليفة ابن حمد ال ثاني ـ حاكم قطر ، المؤتمر العالمي للسِّيرة النَّبويَّة، ١٤٠٠هـ الدَّوحة.
١٤٦ ـ السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدويِّ ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة ـ القاهرة.
١٤٧ ـ السِّيرة النَّبويَّة دراسةٌ وتحليل لمحمَّد أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٧م ، عمَّان.
١٤٨ ـ السِّيرة النَّبويَّة، للذَّهبي، تحقيق حسام الدِّين القدسي ، مكتبة هلال ـ بيروت.

١٤٩ ـ السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، د. أكرم العمري ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م مكتبة المعارف والحِكَم بالمدينة المنوَّرة.
١٥٠ ـ السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ ، وبناء دولةٍ ، لصالح أحمد الشَّامي ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م
١٥١ ـ السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ ، د. مصطفى السِّباعي ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ، لبنان ، الطبعة التَّاسعة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.
١٥٢ ـ السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القران والسُّنَّة لمحمد أبو شهبة ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.
١٥٣ ـ السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، د. مهدي رزق الله أحمد ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميَّة ـ الرِّياض.

١٥٤ ـ السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستي ، مؤسَّسة الكتب الثَّقافية ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
١٥٥ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام ، دار الفكر ، بدون تاريخ.
١٥٦ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير ، للإمام أبي الفداء إسماعيل ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، الطَّبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ ، دار الفكر بيروت ـ لبنان.
١٥٧ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد الصَّوياني ، مؤسَّسة الرَّيان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

(ش)
١٥٨ ـ شذرات الذَّهب لعبد الحيِّ بن العماد الحنبليِّ ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ـ بيروت.
١٥٩ ـ شرح السُّنَّة لأبي محمَّد الحسين بن مسعود البغويِّ ، تحقيق: علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلميَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٦٥م ـ القاهرة.
١٦٠ ـ شرح العقيدة الطَّحاويَّة لابن أبي العزِّ الحنفي ، تحقيق ، وتعليق ، وتخريج أحاديث ، وتقديم د. عبد الله بن عبد المحسن التُّركي ، وشعيب الأرناؤوط ، ط٤ ، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت.

١٦١ ـ شرح المعلَّقات للحسين الزُّوزني ، تحقيق يوسف علي بديوي ، دار ابن كثير ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.
١٦٢ ـ شرح المواهب اللَّدنية ، للقسطلانيّ ، لمحمَّد بن عبد الباقي الزُّرقاني ، دار المعرفة ، بيروت.
١٦٣ ـ شرح النَّووي على صحيح مسلمٍ للإمام النَّوويّ ـ أبو زكريا محيي الدِّين يحيى ابن شرف ، المتوفى ٦٧٦هـ طبع المطبعة المصريَّة ومكتبتها ـ القاهرة ، عام ١٣٤٩هـ.
١٦٤ ـ شرح رسالة التَّعاليم لمحمَّد عبد الله الخطيب ، دار الوفاء.
١٦٥ ـ الشِّفا في التَّعريف بحقوق المصطفى ، للإمام القاضي عياض ، إستانبول ، عثمانيَّة.

(ص)
١٦٦ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشنديّ ، تحقيق محمَّد حسين شمس الدِّين ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
١٦٧ ـ الصَّحابيُّ الشَّاعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، تأليف محمَّد علي كاتبي ، دار القلم ـ دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.
١٦٨ ـ صحيح البخاريِّ لمحمَّد بن إسماعيل البُخاريِّ ، دار الفكر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

١٦٩ ـ صحيح الجامع الصَّغير وزياداته ، لمحمَّد ناصر الدِّين الألباني ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م ، المكتب الإسلامي ، بيروت ـ لبنان.
١٧٠ ـ صحيح السِّيرة النَّبويَّة للطَّرهوي ، لمحمَّد رزق ، مكتبة ابن تيميَّة ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ.
١٧١ ـ صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، دار النفائس ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٨هـ ١٩٩٨م.
١٧٢ ـ صحيح سنن ابن ماجه لناصر الدِّين الألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ـ الرِّياض ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
١٧٣ ـ صحيح مسلمٍ بشرح النَّوويّ ، المطبعة المصريَّة بالأزهر ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٤٧هـ ١٩٢٩م.
١٧٤ ـ صحيح مسلمٍ ، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٧٢م.
١٧٥ ـ الصِّراع مع الصَّليبيّين لمحمد عبد القادر أبو فارس ، دار البشير ـ طنطا ، طبعة عام ١٤١٩هـ ١٩٩٩م.

١٧٦ ـ الصِّراع مع اليهود لمحمد أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.
١٧٧ ـ صفة الصفَّوة لابن الجوزيِّ ، تحقيق: محمود خوري ، ومحمَّد روَّاس قلعجي ، دار المعرفة ـ بيروت ، الطَّبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ.
١٧٨ ـ صفة الغرباء ، سلمان العودة ، دار ابن الجوزيِّ ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٢هـ ١٩٩١م.
١٧٩ ـ صفوة التَّفاسير للصَّابوني ، دار القران الكريم ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ـ عام ١٤٠١هـ.
١٨٠ ـ صلاح الدِّين الأيوبي لعبد الله علوان.
١٨١ ـ صلح الحديبية لمحمد أحمد باشميل ، دار الفكر ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٧٣م ـ ١٣٩٣هـ.
١٨٢ ـ صورٌ من حياة الرَّسول (ص) لأمين دويدار ، الطَّبعة الرَّابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ.
١٨٣ ـ صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، تأليف: د. محمَّد فوزي فيض الله، دار القلم ـ دمشق ، الدَّار الشَّاميَّة ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى، ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

(ض)
١٨٤ ـ ضوابط المصلحة ، لمحمَّد سعيد رمضان البوطي ، ط٤ ، سنة ١٤٠٢هـ ، مؤسسة الرِّسالة.

(ط)
١٨٥ ـ الطَّاعة ، والمعصية ، وأثرهما في المجتمع ، غزوة أحد ، لمحمَّد بن صالح العثيمين.
١٨٦ ـ طبقات الشُّعراء الجاهليِّين ، والإسلاميِّين ، بدون معلومات نشر ، لأبي عبد الله محمَّد بن سلام بن عبد الله الجمحي.
١٨٧ ـ طبقات ابن سعدٍ الكبرى ، لمحمَّد بن سعد الزُّهري ، دار صادر ، ودار بيروت للطِّباعة والنشر ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.
١٨٨ ـ طريق النُّبوَّة والرِّسالة ، د. حسين مؤنس ، دار الرَّشاد ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٨هـ ١٩٩٧م.
١٨٩ ـ الطَّريق إلى المدائن ، لعادل كمال ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، بيروت ـ لبنان.
١٩٠ ـ الطَّريق إلى المدينة لمحمد العبده ، دار الجوهرة ـ عمَّان ، الطَّبعة الثانية ، طبعة ١٩٩٩م.

١٩١ ـ الطَّريق إلى جماعة المسلمين لحسين بن محسن بن علي جابر ، الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ، دار الوفاء بالمنصورة ـ مصر.

(ظ)

١٩٢ ـ ظاهرة الإرجاء لسفر الحوالي ، مكتبة الطَّيب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، القاهرة ـ مصر.

(ع)

١٩٣ ـ العبادة في الإسلام ليوسف القرضاوي ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ، الطَّبعة الثانية عشرة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

١٩٤ ـ عبد الله بن مسعودٍ ، لعبد الستَّار الشَّيخ ، دار القلم ـ دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

١٩٥ ـ العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول (ص) ، لمحمَّد فرج ، الطَّبعة الثَّالثة ، سنة ١٩٧٧م ، دار الفكر العربيِّ ـ القاهرة.

١٩٦ ـ عقيدة أهل السُّنة في الصَّحابة ، د. ناصر حسن الشِّيخ ، مكتبة الرُّشد ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

١٩٧ ـ علاج القران الكريم للجريمة ، د. عبد الله الشَّنقيطي ، مكتبة ابن تيميَّة ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣هـ.

١٩٨ ـ العلاقات الخارجية للدَّولة الإسلاميَّة ، د. سعيد عبد الله حارب المهيري ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

١٩٩ ـ علاقة الاباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلامية ، د. سعاد الصَّالح ، الناشر تهامة ـ جدَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠١هـ.

٢٠٠ ـ عمدة القاري ، شرح صحيح البخاريِّ لبدر الدين العيني.

٢٠١ ـ العهد ، والميثاق في القران الكريم ، د. ناصر العمري ، دار العاصمة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٢٠٢ ـ عون المعبود ، شرح سنن أبي داود ، تحقيق عبد الرَّحمن محمد عثمان ، دار الفكر ـ بيروت.

٢٠٣ ـ عيون الأثر في فنون المغازي ، والشَّمائل ، والسير ، لابن سيِّد النَّاس ، دار المعرفة ـ بيروت.

(غ)
٢٠٤ . الغرباء الأوَّلون ، سلمان العودة ، الطَّبعة الثَّالثة ، عام ١٤١٢هـ ١٩٩١م ، دار ابن الجوزي ، الدَّمام السُّعودية.
٢٠٥ . غزوة أحدٍ لأحمد عزِّ الدين.
٢٠٦ . غزوة أحد دراسةٌ دعويَّةٌ لمحمَّد عيظة بن سعيد من مذحج ، دار إشبيليا ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
٢٠٧ . غزوة أحدٍ ، لمحمد عبد القادر أبو فارس ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م ، دار الفرقان ، عمَّان . الأردن.
٢٠٨ . غزوة الأحزاب لمحمَّد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان . عمَّان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٢٠٩ . غزوة الأحزاب لمحمَّد أحمد باشميل ، دار الفكر ، الطَّبعة الخامسة ، ١٣٩٧هـ ١٩٧٧م.
٢١٠ . غزوة بدر الكبرى الحاسمة لمحمود شيت خطَّاب.
٢١١ . غزوة بدر الكبرى ، لمحمد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
٢١٢ . غزوة بدر الكبرى لمحمد أحمد باشميل ، طبع دار الفكر ، الطَّبعة السادسة ، سنة ١٣٩٤هـ.
٢١٣ . غزوة تبوك لمحمَّد أحمد باشميل ، دار الفكر . بيروت.

(ف)
٢١٤ . فتح الباري لابن حجر العسقلاَّني ، دار المعرفة ، بيروت . لبنان.
٢١٥ . الفتح الرَّبَّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار الشِّهاب ، القاهرة ، بدون تاريخ.
٢١٦ . الفتح الرَّبَّاني لأحمد عبد الرحمن السَّاعاتي ، في ترتيب مسند الإمام أحمد: أحمد عبد الرحمن الساعاتي ، مطبعة الفتح الرَّبَّاني بالقاهرة ، الطَّبعة الأولى.
٢١٧ . فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير: محمد بن علي الشَّوكاني ، دار الفكر.
٢١٨ . الفصل في الملل ، والنِّحل ، والأهواء ، لابن حزم ، مكتبة السَّلام العالميَّة.
٢١٩ . فصول في السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد المنعم السَّيِّد.

٢٢٠ ـ فقه الإسلام ، شرح بلوغ المرام لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ، مطابع الرَّشيد ـ المدينة المنوَّرة ، الطَّبعة الأولى ، عام ١٤٠٣ هـ.

٢٢١ ـ فقه الابتلاء لمحمَّد أبو صعيليك ، دار البيارق ، عمَّان ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

٢٢٢ ـ فقه التَّمكين في القران الكريم لعليٍّ محمَّد الصَّلاَّبي ، دار البيارق ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ١٩٩٩م.

٢٢٣ ـ فقه الدَّعوة إلى الله لعبد الحليم محمود ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

٢٢٤ ـ فقه الدَّعوة الفرديَّة ، د. سيد محمَّد نوح ، دار اقرأ ، صنعاء.

٢٢٥ ـ فقه الزَّكاة للقرضاوي ، مكتبة وهبة ، الطَّبعة الحادية والعشرون ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.

٢٢٦ ـ الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، خالد الفهداوي ، دار عمَّار ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٨ م.

٢٢٧ ـ فقه السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، معهد البحوث العلميَّة ، وإحياء التراث ـ مكَّة المكرَّمة.

٢٢٨ ـ فقه السيرة ، لمحمَّد سعيد رمضان البوطي ، الطَّبعة الحادية عشرة ، ١٩٩١ م ، دار الفكر ، دمشق ـ سورية.

٢٢٩ ـ فقه السِّيرة للغزالي ، الطَّبعة الرابعة ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م ، دار القلم ، دمشق ـ سورية.

٢٣٠ ـ فلسفة التَّربية الإسلاميَّة لماجد عرسان الكيلاني ، مكتبة هادي ، مكَّة المكرَّمة ، طبعة عام ١٤٠٩ هـ.

٢٣١ ـ الفوائد لابن القيِّم لمحمَّد بن أبي بكر بن قيِّم الجوزية ، ودار الرَّيان للتُّراث ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

٢٣٢ ـ في السِّيرة النَّبويَّة جوانب الحذر والحماية ، الدُّكتور إبراهيم علي محمَّد أحمد ، الطَّبعة الأولى رجب ١٤١٧ هـ ، وزارة الأوقاف ـ بدولة قطر.

٢٣٣ ـ في ظلال السِّيرة النَّبويَّة ، الهجرة النَّبويَّة ، الدُّكتور محمَّد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمَّان ـ الأردن، الطَّبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

٢٣٤ ـ في ظلال القران لسيِّد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة التَّاسعة ، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.

(ق)

٢٣٥ . القاموس المحيط لمجد الدِّين محمد الفيروز ابادي ، مطبعة مصطفى البابي وأولاده . بمصر ، الطَّبعة الثانية ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.

٢٣٦ . قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية ، لمحمد قلعجي ، دار النفائس ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م ، بيروت . لبنان.

٢٣٧ . قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير، وأثرها في التُّراث العربيِّ، تأليف د. السيد إبراهيم محمَّد، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.

٢٣٨ . قضايا في المنهج ، سلمان العودة ، دار مكتبة القدس ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.

٢٣٩ . قضايا نساء النَّبي (ص) والمؤمنات ، حفصة بنت عثمان الخليفي ، دار المسلم الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

٢٤٠ . قواعد الأحكام في مصالح الأنام: لأبي محمَّد عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام السلمي (ت٦٦٠ هـ) ، المكتبة الحسينية المصريَّة ، بجوار الأزهر ، الطبّعة الأولى ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م.

٢٤١ . القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين ، د. محمَّد الطيب النَّجار ، دار اللِّواء ، الرِّياض ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

٢٤٢ . قيادة الرسول السِّياسيَّة ، والعسكريَّة لأحمد راتب عرموش ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٨٩ م.

٢٤٣ . القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، دار القلم ، الطَّبعة الأولى، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م.

(ك)

٢٤٤ . الكامل في التَّاريخ لابن الأثير ، لأبي الحسن علي بن محمَّد ، دار صادر . بيروت.

(ل)

٢٤٥ . لسان العرب ، محمَّد بن مكرم بن منظور ، دار صادر . بيروت.

٢٤٦ . لقاء المؤمنين ، عدنان النَّحوي ، مطابع الفرزدق التِّجارية ، الرِّياض . السُّعودية ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

(م)

٢٤٧ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن علي الحسني النَّدويِّ ، الطَّبعة السابعة ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م ، دار المعارف.

٢٤٨ ـ المال في القران الكريم ، سليمان الحصين ، دار المعراج الدَّوليَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.

٢٤٩ ـ مباحث في إعجاز القران ، مصطفى مسلم ، دار المسلم ، الرِّياض ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م.

٢٥٠ ـ مباحث في التَّفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق ـ سورية.

٢٥١ ـ مباحث في علوم القران ، منَّاع القطان ، مكتبة المعارف ـ الرِّياض ، الطَّبعة الثامنة ، ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

٢٥٢ ـ مبادأى علم الإدارة لمحمَّد نور الدِّين عبد الرزَّاق ، مكتبة الخدمات الحديثة ، جدَّة ـ السُّعودية ، الطَّبعة الأولى بدون تاريخ.

٢٥٣ ـ مبادأى نظام الحكم في الإسلام لعبد الحميد متولِّي ، الطَّبعة الأولى ، دار المعارف.

٢٥٤ ـ المبسوط للسَّرخسيِّ ، شمس الدِّين السَّرخسي ، مطبعة السَّعادة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى.

٢٥٥ ـ المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوَّة ، د. أكرم العمري ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

٢٥٦ ـ مجلَّة المجتمع الكويتيَّة ، عدد رقم ٢٤٨ ، ١٧ صفر ١٣٩٩ هـ.

٢٥٧ ـ مجمع الزَّوائد ، ومنبع الفوائد ، نور الدِّين عليُّ بن أبي بكرٍ الهيثميُّ ، الطَّبعة الثَّالثة ، سنة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م ، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢٥٨ ـ مجموع فتاوى: شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، جمع عبد الرحمن بن محمَّد قاسم العاصمي النَّجدي ، المكتب التعليميُّ السُّعوديُّ بالمغرب.

٢٥٩ ـ مجموعة الوثائق السِّياسية لمحمد حميد الله ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م.

٢٦٠ ـ محاسن التَّأويل للقاسمي لمحمَّد جمال الدِّين القاسمي، دار الفكر ، بيروت.

٢٦١ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيَّة ، أبي محمَّد عبد الحق بن غالب الأندلسي ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ، طبعة ١٣٩٥ هـ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة بالمغرب.

٢٦٢ . محمَّد رسول الله ، لمحمَّد الصَّادق عرجون ، دار القلم ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.
٢٦٣ . محمد رسول الله ، لمحمَّد رشيد رضا، دار الكتب العلميَّة . بيروت، ١٩٧٥ م.
٢٦٤ . محنة المسلمين في العهد المكِّيِ ، د. سليمان السّويكت ، مكتبة التَّوبة . الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.
٢٦٥ . المختار من كنوز السُّنَّة ، لمحمَّد عبد الله دراز ، دار الأنصار . القاهرة ، الطَّبعة الثَّانية ١٩٧٨ م.
٢٦٦ . مختصر الصَّواعق المرسلة على الجهمية المعطِّلة لابن قيِّم الجوزيَّة ، اختصره محمد الموصلي ، مكتبة الرِّياض الحديثة.
٢٦٧ . مختصر سيرة الرَّسول (ص) لمحمَّد بن عبد الوهاب ، جامعة الإمام محمَّد بن سعود.
٢٦٨ . مختصر صحيح مسلم ، للحافظ زكي عبد العظيم عبد القويِّ بن سلامة المنذري، تحقيق محمد ناصر الألباني . الطَّبعة الثالثة سنة ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م. المكتب الإسلامي . دمشق.
٢٦٩ . المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيَّة العسكريَّة ، لمحمَّد جمال الدِّين علي محفوظ ، مطابع الهيئة المصريَّة للكتاب بالقاهرة.
٢٧٠ . مدخل لفهم السِّيرة ، د. يحيى اليحيى ، أخذها المؤلف من صاحبها قبل أن يطبعها.
٢٧١ . المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة ، لأبي فارس ، دار الفرقان ، عمَّان.
٢٧٢ . المدينة النَّبوية ، فجر الإسلام ، والعصر الرَّاشدي ، لمحمد حسن شراب ، دار القلم . دمشق، الدّار الشَّامية . بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م.
٢٧٣ . المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدِّين كركر ، دار الغرب الإسلاميِّ ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٣ م بيروت.
٢٧٤ . مرض النَّبيِّ (ص) ووفاتُه وأثره على الأمَّة لخالد أبو صالح ، دار الوطن ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ.
٢٧٥ . مرويات غزوة أحدٍ ، حسين أحمد الباكري ، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلاميَّة ، إشراف د. أكرم العمري، عام ١٤٠٠ هـ ١٣٩٩ م.
٢٧٦ . مرويات غزوة الحديبية ، د. حافظ الحكمي ، دار ابن القيِّم ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.
٢٧٧ . مرويات غزوة بدرٍ لأحمد باوزير ، مكتبة طيبة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.

٢٧٨ ـ مرويات غزوة بني المصطلق ، لإبراهيم القريبي ، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلاميَّة ـ المدينة المنورة ، الطَّبعة الأولى ، عام ١٤٠٢ هـ.
٢٧٩ ـ مساجد القاهرة ومدارسها ، لأحمد فكري ، طبعة الإسكندريَّة ، ١٩٦١ م.
٢٨٠ ـ المستدرك على الصَّحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم النَّيسابوري ، وبذيله التَّلخيص للذَّهبي ، ط ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م ، دار النَّشر مكتب المطبوعات الإسلاميَّة.
٢٨١ ـ المستشفيات الإسلاميَّة ، د. عبد الله عبد الرزَّاق مسعود العيد ، دار الضِّياء للنَّشر والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م ، عمَّان ـ الأردن.
٢٨٢ ـ المسْتَطْرَف في كلِّ فنٍّ مُسْتَظْرَف لشهاب الدِّين الأبشيهي ، مكتبة الحياة ـ بيروت.
٢٨٣ ـ المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة لعبد الكريم زيدان ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
٢٨٤ ـ المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة لعبد الرَّحمن أحمد سالم ، دار الفكر العربي ، طبعة ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
٢٨٥ ـ المسند لأحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي ، بيروت.
٢٨٦ ـ المشروع الإسلامي لنهضة الأمَّة قراءةٌ في فكر حسن البنَّا ، لمجموعة من الباحثين ، لم تطبع حتَّى كتابة هذا البحث.
٢٨٧ ـ مشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزي ، تحقيق: محمَّد ناصر الدِّين الألباني ، المكتب الإسلامي ـ دمشق ، ط١ ، ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م.
٢٨٨ ـ مصعب بن عمير ، الدَّاعية المجاهد ، لمحمَّد حسن بريغش ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م
٢٨٩ ـ مصنَّف عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرزَّاق بن همَّام الصنعاني ، تحقيق: حبيب الرَّحمن الأعظمي ، الطَّبعة الأولى.
٢٩٠ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثَّمانية لأحمد بن علي بن حجر العسقلاَّني ، تحقيق: حبيب الرَّحمن الأعظمي.
٢٩١ ـ معارك خالد بن الوليد ، د. ياسين سويد ، الطَّبعة الرابعة ١٩٨٩ م ، المؤسَّسة العربيَّة للدراسة والنَّشر.

٢٩٢ ـ معالم قرانيَّة في الصِّراع مع اليهود ، د. مصطفى مسلم محمَّد ، دار المسلم ـ الرِّياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ١٩٩٤ م.

٢٩٣ ـ المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي ، د. محمد الدِّيك ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م ، دار الفرقان للنَّشر والتَّوزيع.

٢٩٤ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر ، ودار بيروت ، ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

٢٩٥ ـ معجم الطَّبراني ، لسليمان بن أحمد الطَّبراني ، دار العربيَّة ـ بغداد ، ١٣٩٨ هـ.

٢٩٦ ـ المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطَّبراني، ٢٦٠ هـ ٣٦٠ هـ، دار مكتبة العلوم والحكم ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٥ م.

٢٩٧ ـ معركة الوجود بين القران والتُّلمود ، لعبد السَّتَّار فتح الله السَّعيد ، مكتبة المنار.

٢٩٨ ـ المعوِّقون للدَّعوة الإسلاميَّة في عهد النُّبوَّة ، وموقف الإسلام منهم ، للدَّكتور سميرة محمَّد جمجوم، دار المجتمع ـ جدَّة، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م.

٢٩٩ ـ المغازي النبويَّة ، للزُّهري ، تحقيق سهيل زكَّار ، دار الفكر ـ دمشق ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

٣٠٠ ـ مغازي رسول الله (ص) لعروة بن الزُّبير ، تحقيق: د. محمد الأعظمي ، نشر مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م.

٣٠١ ـ المغازي للواقديِّ ، المتوفى ٢٠٧ هـ ، تحقيق د. مارسدن جونس ، عالم الكتب ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

٣٠٢ ـ مفاهيم ينبغي أن تصحَّح ، لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ـ القاهرة ، الطَّبعة الثَّامنة ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

٣٠٣ ـ المفصَّل في أحكام النِّساء ، لعبد الكريم زيدان ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م.

٣٠٤ ـ مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة ، د. محمَّد سعد اليوبي ، دار الهجرة ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م.

٣٠٥ ـ المقاصد العامَّة للشَّريعة الإسلاميَّة ، يوسف حامد العالم ، الدَّار العلميَّة للكتاب الإسلاميِّ ، ط٢ ، سنة ١٤١٥ هـ ١٩٩٣ م ـ الرِّياض.

٣٠٦ ـ مقدِّمة ابن الصَّلاح وشرحها للحافظ العراقي أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصَّلاح ، طبع دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان.
٣٠٧ ـ مقدِّمة ابن خلدون ، للعلاَّمة عبد الرَّحمن بن محمَّد بن محمَّد بن خلدون ، ط المكتبة التِّجارية الكبرى ـ القاهرة ، بدون تاريخ.
٣٠٨ ـ مقومات الدَّاعية النَّاجح ، د. علي بادحدح ، دار الأندلس الخضراء ـ جدَّة الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
٣٠٩ ـ مقوِّمات السُّفراء في الإسلام ، لحسن فتح الباب ، المجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميَّة ـ القاهرة ، ١٩٧٠ م.

٣١٠ ـ مقوِّمات النَّصر ، د. أحمد أبو الشَّباب ، المكتبة العصريَّة ـ لبنان ، ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
٣١١ ـ مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول (ص) ، للأستاذ أحمد الشَّريف.
٣١٢ ـ ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، لعدنان النَّحوي ، الطَّبعة الثانية.
٣١٣ ـ مِنْ معين السِّيرة لصالح أحمد الشَّامي ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م.
٣١٤ ـ من هدي سورة الأنفال ، لمحمَّد أمين المصري ، طبع مكتبة دار الأرقم ـ الكويت.
٣١٥ ـ المنافقون ، لمحمَّد جميل غازي ، مكتبة المدني ومطبعتها ، ١٩٧٢ م ، جدَّة ـ السُّعودية.
٣١٦ ـ منامات الرَّسول (ص) ، لعبد القادر الشَّيخ إبراهيم ، دار القلم العربي بحلب ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.
٣١٧ ـ مناهج واداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم ، د. عبد الرحمن البر ، دار اليقين ـ المنصورة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م.
٣١٨ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد ابن الجوزي ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان.
٣١٩ ـ منهاج السُّنَّة النَّبويَّة ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة ، مؤسَّسة قرطبة للطِّباعة ، والنَّشر ، والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ١٩٨٦ م.
٣٢٠ ـ المنهاج القرانيُّ في التَّشريع لعبد السَّتار فتح الله سعيد ، مطابع دار الطِّباعة الإسلاميَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢ م.

٣٢١ ـ منهج الإعلام الإسلاميّ في صلح الحديبية ، لسليم حجازي ، دار المنارة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.
٣٢٢ ـ منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون ، دار نور المكتبات ، دار ابن حزم ، الطَّبعة الثانية ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.
٣٢٣ ـ المنهج التربويُّ للسِّيرة النَّبويَّة ـ التَّربية الجهاديَّة لمنير محمَّد الغضبان ، مكتبة المنار ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م.
٣٢٤ ـ منهج التَّربية الإسلاميَّة لمحمد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م.
٣٢٥ ـ المنهج الحركيُّ للسِّيرة النَّبويَّة لمنير محمَّد الغضبان ، مكتبة المنار ـ الأردن ، الطَّبعة الثالثة ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.

٣٢٦ ـ منهج الرَّسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة في نفوس أصحابه ، للسَّيِّد محمَّد نوح ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م ، نشرته جامعة الإمارات العربيَّة المتَّحدة.
٣٢٧ ـ الموازنة بين ذوق السَّماع ، وذوق الصَّلاة ، والقران للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة ، تحقيق مجدي فتحي السَّيِّد.
٣٢٨ ـ الموافقات في أصول الأحكام لأبي إسحاق إبراهيم موسى اللخمي الشهير بالشَّاطبي ، دار الفكر ، ١٣٤١ هـ.
٣٢٩ ـ الموسوعة في سماحة الإسلام لمحمَّد صادق عرجون ، ط الثَّانية ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م ، الدَّار السُّعودية للنَّشر ، والتَّوزيع ـ جدَّة.

(ن)

٣٣٠ ـ نشأة الدَّولة الإسلاميَّة ، د. عون الشَّريف قاسم ، دار الكتاب اللُّبناني ـ بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.
٣٣١ ـ نصب الرَّاية في أحاديث الهداية ـ بحاشية بغية الألمعي في تخريج الزَّيلعي ، لعبد الله بن يوسف بن محمد الزَّيلعي ، المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٣٩٣ هـ.
٣٣٢ ـ نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي ، لظافر القاسمي ، دار النفائس ، الطَّبعة السادسة ١٤١١ هـ ١٩٩٠ م.

٣٣٣ ـ نظام الحكومة النَّبويَّة المسمَّى: التَّراتيب الإداريَّة ، لمحمَّد عبد الحيِّ الكتَّاني ، دار الأرقم ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية.

٣٣٤ ـ النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لمحمَّد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م.

٣٣٥ ـ نظراتٌ في السِّيرة ، للإمام حسن البنَّا ، مكتبة الاعتصام ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ، سجَّلها ، وأعدَّها للنشر أحمد عيسى عاشور.

٣٣٦ ـ نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم ، إعداد مجموعة من المختصِّين بإشراف صالح بن حميد ، دار الوسيلة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ

٣٣٧ ـ نفوسٌ ودروسٌ في إطار التَّصوير القرانيِّ لتوفيق محمَّد سبع ، مجمع البحوث الإسلاميَّة ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، بدون تاريخ.

٣٣٨ ـ النُّكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن حبيب الماورديِّ ، تحقيق خضر محمَّد خضر ـ نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة ، والتُّراث الإسلاميِّ ـ بالكويت.

٣٣٩ ـ النِّهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزَّاوي ، ومحمود محمَّد الطناحي.

٣٤٠ ـ نور اليقين ، لمحمَّد الخضري ، دار القلم ، دمشق ـ سورية.

٣٤١ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيِّد الأخيار ، لمحمَّد بن علي الشَّوكاني ، دار الحديث ـ القاهرة.

(هـ)

٣٤٢ ـ الهجرة الأولى في الإسلام ، د. سليمان العودة ، دار طيبة للنَّشر ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ.

٣٤٣ ـ هجرة الرَّسول (ص) وصحابتُه في القران والسُّنَّة لأحمد عبد الغني النجولي الجمل ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م.

٣٤٤ ـ الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، دار الكلمة ، المنصورة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ١٩٩٧ م.

٣٤٥ . الهجرة في القران الكريم لأحزمي سامعون جزولي ، مكتبة الرُّشد . الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
٣٤٦ . هذا الحبيب محمَّد (ص) يا محبُّ لأبي بكر الجزائري ، مكتبة لينة.
٣٤٧ . هذا الدِّين ، لسيِّد قطب ، دار الشُّروق ، القاهرة . مصر ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م.

(و)

٣٤٨ . واقعنا المعاصر لمحمَّد قطب ، مؤسَّسة المدينة للصَّحافة ، والطِّباعة ، والنَّشر . جدَّة ، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م.
٣٤٩ . الوحي والرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، أخذت من المؤلف صورة قبل الطبع.
٣٥٠ . الوسطية في القران الكريم ، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي ، دار النَّفائس ، دار البيارق ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م.
٣٥١ . وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبد الله السَّمهودي ، دار المصطفى ، طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ.
٣٥٢ . الوفود في العهد المكِّيِ ، وأثره الإعلاميِ ، لعلي رضوان أحمد الأسطل ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م ، دار المنار . الأردن ، عمَّان.
٣٥٣ . وقفاتٌ تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة لأحمد فريد ، دار طيبة ، الرِّياض ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م.
٣٥٤ . وقفاتٌ تربويَّةٌ من السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد الحميد البلالي ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١١ هـ ١٩٩١ م ، المنار ، الكويت.
٣٥٥ . الولاء ، والبراء في الإسلام ، لمحمَّد سعيد القحطان ، دار طيبة . الرِّياض ، الطَّبعة السَّادسة ١٤١٣ هـ.

٣٥٦ . ولاية الشُّرطة في الإسلام ، لنمر محمَّد الحميداني ، دار عالم الكتب ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م.

(ى)

٣٥٧ ـ يقظةُ أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار ، لصدِّيق حسن.
٣٥٨ ـ اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، د. عبد الله الشقاري ، دار طيبة ـ الرِّياض ، طبعة أولى ، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
٣٥٩ ـ اليوم الاخر في الجنَّة والنَّار ، د. عمر الأشقر ، مكتبة الفلاح ـ الكويت ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م.

* * *

فهرس الموضوعات

المبحث الخامس: الخلاف في الأنفال ، والأسرى ٥
أوَّلاً: الخلاف في الأنفال ٥
ثانياً: الأسرى ١٠
المبحث السَّادس: نتائج غزوة بدرٍ ، ومحاولة اغتيال النَّبيِّ (ص) ٢٠
أوَّلاً: نتائج غزوة بدرٍ ٢٠
ثانياً: محاولة اغتيال النَّبيِّ (ص) ، وإسلام عمير بن وهب (شيطان قريش) ٢٣
المبحث السَّابع: بعض الدُّروس ، والعبر ، والفوائد من غزوة بدرٍ ٢٧
أوَّلاً: حقيقة النَّصر من الله تعالى ٢٧
ثانياً: يوم الفرقان ٢٨
ثالثاً: الولاء ، والبراء من فقه الإيمان ٣٠
رابعاً: المعجزات الَّتي ظهرت في بدرٍ وما حولها ٣٢
خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك ٣٥
سادساً: حُذيفة بن اليمان ، وأُسَيْدُ بن الحُضَيْرِ رضي الله عنهما ٣٥

سابعاً: الحرب الإعلاميَّة في بدرٍ ٣٦
المبحث الثَّامن: أهمُّ الأحداث الَّتي وقعت بين غزوتي بدرٍ ، وأحد ٣٨
أوَّلاً: الغزوات التي قادها رسول الله (ص) بعد بدرٍ ، وقبل أحد ٣٨
ثانياً: غزوة بني قينقاع ٤١
ثالثاً: تصفية المحرِّضين على الدَّولة الإسلاميَّة: مقتل كعب بن الأشرف ٤٦
رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعيَّة ٥٥
الفصل التَّاسع
غزوة أحد
المبحث الأوَّل: أحداث ما قبل المعركة ٥٨

أوَّلاً: أسباب الغزوة ٥٨
ثانياً: خروج قريش من مكَّة إلى المدينة ٦٠
ثالثاً: الاستخبارات النَّبويَّة تتابع حركة العدوِّ ٦١
رابعاً: مشاورته (ص) لأصحابه ٦٣
خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أحدٍ ٦٥
سادساً: خطَّة الرَّسول (ص) لمواجهة كفار مكَّة ٧٠
المبحث الثَّاني: في قلب المعركة ٧٣
أوَّلاً: بدء القتال ، واشتداده ، وبوادر الانتصار للمسلمين ٧٣
ثانياً: مخالفة الرُّماة لأمر الرَّسول (ص) ٧٥
ثالثاً: خطَّة الرَّسول (ص) في إعادة شتات الجيش ٧٧
رابعاً: مِنْ شهداء أحد ٧٩
خامساً: مِنْ دلائل النُّبوَّة ٩٣
المبحث الثَّالث: أحداث ما بعد المعركة ٩٥
أوَّلاً: حوار أبي سفيان مع الرَّسول (ص) وأصحابه ٩٥
ثانياً: تفقُّد الرَّسول (ص) الشُّهداء ٩٦
ثالثاً: دعاء الرَّسول (ص) يوم أحد ٩٧

رابعاً: معرفة وُجهة العدوِّ ٩٨
خامساً: غزوة حمراء الأسد ٩٩
سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أحد ١٠٣
سابعاً: دروس في الصبر تقدمها صحابيات للأمة ١٠٦
المبحث الرابع: بعض الدروس والعبر والفوائد ١٠٨
أولاً: تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلوِّ الإيماني ١٠٨
ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أحد ١٠٩
ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء ١١٢
رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السابقين ١١٢
خامساً: مخالفة وليِّ الأمر تسبب الفشل لجنوده ١١٣
سادساً: خطورة إيثار الدنيا على الاخرة ١١٥
سابعاً: التعلق والارتباط بالدين ١١٦
ثامناً: معاملة النبي (ص) للرماة الذين أخطؤوا والمنافقين الذين انخذلوا ١١٩

تاسعاً: أحد جبل يحبنا ونحبه ١٢٠
عاشراً: الملائكة في أحد ١٢١
الحادي عشر: قوانين النصر والهزيمة من سورة الأنفال وال عمران ١٢٢
الثاني عشر: فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم ١٢٣
الثالث عشر: الهجوم الإعلامي على المشركين ١٢٤
الفصل العاشر
أهم الأحداث ما بين أحد والخندق
المبحث الأول: محاولات المشركين لزعزعة الدولة الإسلامية ١٢٧
أولاً: طمع بني أسد في الدولة الإسلامية ١٢٧
ثانياً: خالد بن سفيان الهذلي وتصدي عبد الله بن أنيس له ١٢٨
ثالثاً: غدر قبيلتي عضل والقارة ، وفاجعة الرجيع ١٣٢
رابعاً: طمع عامر بن الطفيل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤هـ) ١٣٧

المبحث الثاني: زواج النبي (ص) بأم المساكين ، وأم سلمة وأحداث متفرقة ١٤٤
أولاً: زينب بنت خزيمة أم المساكين رضي الله عنها ١٤٤
ثانياً: زواج النبي (ص) بأم سلمة رضي الله عنها ١٤٤
ثالثاً: مولد الحسن بن علي رضي الله عنه ١٤٨
رابعاً: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة ٤ هـ ١٤٩
المبحث الثالث: إجلاء يهود بني النضير ١٥٠
أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها ١٥٠
ثانياً: إنذار بني النضير بالجلاء وحصارهم ١٥٣
ثالثاً: الدروس والعبر في هذه الغزوة ١٥٥
المبحث الرابع: غزوة ذات الرقاع ١٧٠
أولاً: تاريخها وأسبابها ولماذا سميت بذات الرقاع؟ ١٧٠
ثانياً: صلاة الخوف ، وحراسة الثغور ١٧٢
ثالثاً: شجاعة الرسول (ص) ، ومعاملته لجابر بن عبد الله ١٧٤
المبحث الخامس: غزوة بدر الموعد ودومة الجندل ١٧٨
أولاً: غزوة بدر الموعد ١٧٨
ثانياً: دومة الجندل ١٧٩

المبحث السادس: غزوة بني المصطلق ١٨٣
أولاً: من هم بنو المصطلق؟ ومتى وقعت الغزوة؟ وما أسبابها؟ ١٨٣
ثانياً: زواج رسول الله (ص) من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها ١٨٥
ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار ١٨٧
رابعاً: توجيه القران الكريم للمجتمع الإسلامي في أعقاب غزوة بني المصطلق ١٩٣
خامساً: محاولة المنافقين الطعن في عرض النبي (ص) بالافتراء على عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك ١٩٤
سادساً: أهم الاداب والأحكام التي تؤخذ من ايات الإفك ٢٠٠

سابعاً: فوائد وأحكام ودروس من حادثة الإفك وغزوة بني المصطلق ٢٠٣
الفصل الحادي عشر
غزوة الأحزاب (٥هـ)
المبحث الأول: تاريخ الغزوة ، وأسبابها ، وأحداثها ٢٠٦
أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها ٢٠٦
ثانياً: متابعة المسلمين للأحزاب ٢٠٨
ثالثاً: اهتمام النبي (ص) بالجبهة الداخلية ٢٠٩
المبحث الثَّاني: اشتداد المحنة بالمسلمين ٢١٣
أوّلاً: نقض اليهود من بني قريظة العهد ، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف ٢١٣
ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين ، وانسحاب المنافقين ، ونشرهم الأراجيف ٢١٤
ثالثاً: محاولة النَّبيّ (ص) تخفيف حدَّة الحصار بعقد صلحٍ مع غطفان ، وبثُّ الإشاعات في صفوف الأعداء ٢١٦
المبحث الثَّالث: مجيء نصر الله ، والوصف القرانيُّ لغزوة الأحزاب ٢٢١
أوّلاً: شدَّة تضرُّع الرَّسول (ص) ، ونزول النَّصر ٢٢١
ثانياً: تحرِّي انصراف الأحزاب ٢٢٢
ثالثاً: الوصف القرانيُّ لغزوة الأحزاب ، ونتائجها ٢٢٤
رابعاً: التَّخلُّص من بني قريظة ٢٢٥
المبحث الرَّابع: فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبر ٢٢٨
أوَّلاً: المعجزات الحسِّيَّة لرسول الله (ص) ٢٢٨
ثانياً: بين التَّصوُّر ، والواقع ٢٣٠
ثالثاً: سلمان منَّا أهل البيت ٢٣٠
رابعاً: الصَّلاة الوسطى ٢٣١
خامساً: الحلال ، والحرام ٢٣١

سادساً: شجاعة صفيَّة عمَّةِ الرَّسول (ص) ٢٣١
سابعاً: عدم صحة ما يروى عن جبن حسان رضي الله عنه ٢٣٢
ثامناً: أوَّل مستشفى إسلاميٍّ حربيٍّ ٢٣٣
تاسعاً: المسلم يقع في الإثم ، ولكنَّه يسارع إلى التَّوبة ٢٣٣
عاشراً: مِنْ فضائل سعد بن معاذٍ رضي الله عنه ٢٣٥
الحادي عشر: مقتل حُيَيٍّ بن أخطب ، وكعب بن أسد ٢٣٧
الثَّاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزُّبير بن باطا اليهوديِّ ٢٤٠
الثَّالث عشر: من أدب الخلاف ٢٤١
الرَّابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة ، وإسلام ريحانة بنت عمرو ٢٤٢
الخامس عشر: الإعلام الإسلاميُّ في غزوة الأحزاب ٢٤٣
الفصل الثَّاني عشر
ما بين غزوة الأحزاب ، والحديبية مِنْ أحداثٍ مهمَّة
المبحث الأوَّل: زواج النَّبيِّ (ص) بزينب بنت جحش رضي الله عنها ٢٤٥
أوَّلاً: اسمها ، ونسبها ٢٤٥
ثانياً: زواجها رضي الله عنها من زيد بن حارثة رضي الله عنه ٢٤٦
ثالثاً: طلاق زيدٍ لزينب رضي الله عنها ٢٤٧
رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله (ص) مِنْ زينب ٢٤٧
خامساً: قصَّة زواج رسول الله (ص) من زينب، وما فيها من دروسٍ، وعبر ٢٥٠
المبحث الثَّاني: «الان نغزوهم ، ولا يغزوننا» ٢٥٦
أوَّلاً: سريَّة محمَّد بن مسلمة إلى بني القرطاء ٢٥٦
ثانياً: سريَّة أبي عبيدة بن الجرَّاح إلى سِيْف البحر ٢٥٨
ثالثاً: سريَّة عبد الرَّحمن بن عوف إلى دومة الجندل ٢٦٢
رابعاً: تأديب الغادرين: غزوة بني لحيان ، وغزوة الغابة ، وغيرها ٢٦٦
خامساً: سرية كرز بن جابر الفهريِّ إلى العُرَنيِّين ٢٧٠

المبحث الثَّالث: تصفية المحرِّضين على الدَّولة ٢٧٣

أوّلاً: سريَّة عبد الله بن عتيك لقتل سلاَّم بن أبي الحُقَيْق ٢٧٣
ثانياً: سرية عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رزام اليهوديِّ ٢٧٧
الفصل الثَّالث عشر
الفتح المبين (صلح الحُديبية)
المبحث الأوَّل: تاريخه ، وأسبابه ، ومخرج رسول الله (ص) إلى مكَّة ٢٧٩
أوّلاً: تاريخه ، وأسبابه ٢٧٩
ثانياً: وصول النَّبيِّ (ص) إلى عُسْفان ٢٨١
ثالثاً: الرَّسول (ص) يغيِّر الطَّريق ، وينزل الحديبية ٢٨١
رابعاً: ما خلأت القَصْوَاء ، وما ذاك لها بِخُلُقٍ ، ولكنْ حبسها حابس الفيل ٢٨٢
خامساً: السَّفارة بين الرَّسول (ص) ، وقريش ٢٨٤
سادساً: الوفود النَّبويَّة إلى قريشٍ، ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين ٢٩٠
سابعاً: بيعة الرِّضوان ٢٩٤
المبحث الثَّاني: صلح الحديبية ، وما ترتَّب عليه من أحداث ٢٩٩
أوّلاً: مفاوضة سهيل بن عمرٍو لرسول الله (ص) ٢٩٩
ثانياً: موقف أبي جندل ، والوفاء بالعهد ٣٠٤
ثالثاً: احترام المعارضة النَّزيهة ٣٠٥
رابعاً: التَّحلُّل من العمرة ، ومشورة أمِّ سلمة رضي الله عنها ٣٠٧
خامساً: العودة إلى المدينة ، ونزول سورة الفتح ٣٠٨
سادساً: أبو بصير في المدينة ، وقيادته لحرب العصابات ٣١٣
سابعاً: امتناع النَّبيِّ (ص) عن ردِّ المهاجرات ٣١٦
المبحث الثَّالث: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد ٣١٩
أوّلاً: أحكام تتعلَّق بالعقيدة ٣١٩
ثانياً: أحكام فقهيَّة ، وأصوليَّة ٣٢٢
ثالثاً: أنموذج من التَّربية النَّبويَّة ٣٢٦
الفصل الرَّابع عشر

أهمُّ الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكَّة
المبحث الأوَّل: غزوة خيبر ٣٢٨

أوَّلاً: تاريخها ، وأسبابها ٣٢٨
ثانياً: مسيرة الجيش الإسلاميِّ إلى خيبر ٣٢٩
ثالثاً: وصف تساقط حصون خيبر ٣٣١
رابعاً: الأعرابيُّ الشَّهيد ، والرَّاعي الأسود ، وبطلٌ إلى النَّار ٣٣٣
خامساً: قدوم جعفر بن أبي طالبٍ ومَنْ معه من الحبشة ٣٣٥
سادساً: تقسيم الغنائم ٣٣٦
سابعاً: زواج رسول الله (ص) من صفيَّة بنت حُيَيِّ بن أخطب ٣٣٨
ثامناً: محاولةٌ أثيمةٌ لليهود: الشَّاة المسمومة ٣٤١
تاسعاً: الحجَّاج بن عِلاَطٍ السُّلميُّ ، وإرجاع أمواله من مكَّة ٣٤٢
عاشراً: بعض الأحكام الفقهيَّة المتعلِّقة بالغزوة ٣٤٤
المبحث الثاني: دعوة الملوك ، والأمراء ٣٤٨
أوَّلاً: كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المدِّ الإسلاميِّ ٣٤٨
ثانياً: مواصفات رجل الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة ٣٥١
ثالثاً: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد ٣٥٣
المبحث الثَّالث: عمرة القضاء ٣٥٩
أوَّلاً: الحيطة ، والحذر من غدر قريشٍ ٣٥٩
ثانياً: دخول مكَّة ، والطَّواف ، والسَّعي ٣٦٠
ثالثاً: زواجه (ص) من أمِّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث ٣٦٢
رابعاً: التحاق بنت حمزة بن عبد المطَّلب بركب المسلمين ٣٦٣
خامساً: أثر عمرة القضاء على الجزيرة ، وإسلام خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة ٣٦٤
المبحث الرَّابع: سرية مؤتة (٨هـ) ٣٧٠
أوَّلاً: أسبابها ، وتاريخها ٣٧٠

ثانياً: وداع الجيش الإسلاميِّ ٣٧٢
ثالثاً: الجيش يصل إلى مَعان ، واستشهاد الأمراء الثَّلاثة ٣٧٢
رابعاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً ٣٧٤
خامساً: معجزة الرَّسول (ص) ، وموقف أهل المدينة من الجيش ٣٧٦
سادساً: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد ٣٧٧
المبحث الخامس: سريَّة ذات السَّلاسل ٣٨٣

الفصل الخامس عشر
غزوة فتح مكة (٨هـ)
المبحث الأوَّل: أسبابها ، والاستعداد للخروج ، والشُّروع فيه ٣٨٨
أوَّلاً: أسبابها ٣٨٨
ثانياً: الاستعداد للخروج ٣٩١
ثالثاً: الشُّروع في الخروج ، وأحداثٌ في الطريق ٣٩٦
المبحث الثَّاني: خطَّة النَّبيِّ (ص) لدخول مكَّة ، وفتحها ٤٠٢
أوَّلاً: توزيع المهامِّ بين قادة الصَّحابة ٤٠٢
ثانياً: دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ ٤٠٥
ثالثاً: إعلان العفو العامِّ ٤٠٨
رابعاً: بعث خالد بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ ٤١١
خامساً: هدم بيوت الأوثان ٤١٢
المبحث الثَّالث: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد ٤١٥
أوَّلاً: تفسير سورة النَّصر ، وكونها علامةً على أجل رسول الله (ص) ٤١٥
ثانياً: مواقف دعويَّة ، وقدرةٌ رفيعةٌ في التَّعامل مع النُّفوس ٤١٦
ثالثاً: «أتكلمني في حدٍّ من حدود الله؟!» ٤٢١
رابعاً: «أجرنا من أجرت يا أمَّ هانأى!» ٤٢٢
خامساً: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنة أعين» ٤٢٢
سادساً: «المحيا محياكم ، والممات مماتكم» ٤٢٣

سابعاً: إسلام عبد الله بن الزِّبعرى شاعر قريش ٤٢٣
ثامناً: من الأحكام الشَّرعية الَّتي تؤخذ من الغزوة، ومكان نزول الرَّسول (ص) بمكَّة ٤٢٥
تاسعاً: من نتائج فتح مكَّة ٤٢٧
الفصل السَّادس عشر
غزوة حنين ، والطَّائف (٨هـ)
المبحث الأوَّل: أسبابها ، وأحداث المعركة ٤٢٨
أوَّلاً: أهمُّ أحداث غزوة حنين ٤٢٨
ثانياً: مطاردة فلول الفارِّين إلى أوطاس ، والطَّائف ٤٣٢
المبحث الثاني: فقه الرَّسول (ص) في التَّعامل مع النُّفوس ٤٣٦

المبحث الثَّالث: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد ٤٤٤
أوَّلاً: تفسير الايات الَّتي نزلت في غزوة حنين ٤٤٤
ثانياً: أسباب الهزيمة ، وعوامل النَّصر في حنين ٤٤٦
ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين ، والطَّائف ٤٤٧
رابعاً: مواقف لبعض الصَّحابة والصَّحابيَّات ٤٥٠
خامساً: إسلام كعب بن زهير ـ الشَّاعر ـ والهيمنة الإعلاميَّة على الجزيرة ٤٥٢
سادساً: من نتائج غزوة حُنين ، والطَّائف ٤٥٤
المبحث الرَّابع: أهمُّ الأحداث ما بين حُنين ، وتبوك ٤٥٥
أوَّلاً: ترتيب استيفاء الصَّدقات ٤٥٥
ثانياً: أهمُّ السَّرايا في هذه المرحلة ٤٥٦
ثالثاً: إسلام عديِّ بن حاتم ٤٥٧
رابعاً: أحداثٌ متفرقةٌ في سنة ثمانٍ ٤٥٩
الفصل السَّابع عشر
غزوة تبوك (٩هـ) وهي غزوة العُسْرة
المبحث الأوَّل: تاريخ الغزوة ، وأسماؤها ، وأسبابها ٤٦١
أوَّلاً: تاريخها ، وأسماؤها ٤٦١

ثانياً: أسبابها ٤٦٢
ثالثاً: الإنفاق في هذه الغزوة ، وحرص المؤمنين على الجهاد ٤٦٣
رابعاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك ٤٦٦
خامساً: إعلان النَّفير ، وتعبئة الجيش ٤٦٩
المبحث الثَّاني: أحداثٌ في الطَّريق ، والوصول إلى تبوك ٤٧٣
أوَّلاً: قصَّة أبي ذرٍّ الغفاريِّ ٤٧٣
ثانياً: قصَّة أبي خيثمة ٤٧٤
ثالثاً: الوصول إلى تبوك ٤٧٧
رابعاً: وصايا رسول الله (ص) للجيش عند مروره بِحِجر ثمود ٤٧٨
خامساً: وفاة الصَّحابيِّ عبد الله (ذو البجادين) رضي الله عنه ٤٧٩
سادساً: بعض المعجزات الَّتي حدثت في الغزوة ٤٨٠
سابعاً: حديث القران الكريم عن مواقف المنافقين أثناء الغزوة ٤٨٣

المبحث الثَّالث: العودة من تبوك إلى المدينة ، وحديث القران الكريم في المخلَّفين عن الغزوة ، وعن مسجد الضِّرار ٤٨٧
أوَّلاً: المخلَّفون الَّذين لهم أعذارٌ شرعيَّةٌ ، وعَذرهُمُ الله سبحانه وتعالى ٤٨٧
ثانياً: المخلَّفون الَّذين ليس لهم أعذارٌ شرعيَّة ، وتاب الله عليهم ٤٨٨
ثالثاً: المخلَّفون من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة ٤٩٠
رابعاً: المخلَّفون من منافقي المدينة ٤٩٠
خامساً: مسجد الضِّرار ٤٩٢
المبحث الرَّابع: قصَّة الثلاثة الَّذين خُلِّفُوا ٤٩٨
المبحث الخامس: دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد ٥٠٨
أوَّلاً: معالم من المنهج القراني في الحديث عن غزوة تبوك ٥٠٨
ثانياً: ممارسة الشُّورى في هذه الغزوة ٥٠٩
ثالثاً: التَّدريب العمليُّ العنيف ٥١٠
رابعاً: أهمُّ نتائج الغزوة ٥١١

المبحث السَّادس: أهمُّ الأحداث ما بين غزوة تبوك وحَجَّة الوداع ٥١٣
أوَّلاً: وفد ثقيف وإسلامُهم ٥١٣
ثانياً: وفاة زعيم المنافقين (عبد الله بن أُبي بن سلول) ٥١٧
ثالثاً: تخيير النَّبيِّ (ص) لزوجاته ٥١٩
رابعاً: حجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنَّاس ٥٢٣
خامساً: عام الوفود (٩هـ) ٥٢٥
سادساً: بعوث رسول الله (ص) لتعليم مبادأى الإسلام، وترتيب أمور الإدارة ، والمال ٥٣٠
المبحث السَّابع: حجَّة الوداع (١٠هـ) ٥٣٥
أوَّلاً: كيف حجَّ النَّبيُّ (ص) ؟ ٥٣٥
ثانياً: الدُّروس ، والعِبَر ، والفوائد ٥٤١
المبحث الثامن: مرض رسول الله (ص) ووفاتُه ٥٤٧
أوَّلاً: الايات ، والأحاديث الَّتي أشارت إلى وفاته (ص) ٥٤٧
ثانياً: مرض الرَّسول (ص) ، بدء الشكوى ٥٥٠
ثالثاً: مِنْ وصايا رسول الله (ص) في أيَّامه الأخيرة ٥٥٢
رابعاً: أبو بكرٍ يصلِّي بالمسلمين ٥٥٣
خامساً: السَّاعات الأخيرة من حياة المصطفى (ص) ٥٥٤

سادساً: بعض ما قيل من المراثي في وفاة الرَّسول (ص) ٥٦٠
الخاتمة ٥٦٣
المصادر والمراجع ٥٦٥
فهرس الموضوعات ٥٨٩
* * *

.[١]ينظر الشكل (١١) في الصفحة (٧٥٥).
.[٢]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠.

.[٣]انظر: مغازي الواقديِّ (٢/٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥).

.[٤]انظر: مغازي الواقدي (٢/٦١٠).

.[٥]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدُّعاة (٢/٣٤٢).

.[٦]العيبة هنا مثلٌ: والمعنى: أنَّ بيننا صدوراً سليمةً في المحافظة على العهد؛ الَّذي عقدناه بيننا، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره بالعيبة التي هي وعاءٌ من جلدٍ تُصان فيه الثياب. وقوله: لا إسلال ، ولا إغلال: تعني: الإسلال من السَّلَّة ، وهي السَّرقة ، والإغلال أي: الخيانة والمعنى العام: أن بعضنا يأمن بعضاً على نفسه ، وماله ، فلا يتعرَّض لدمه ، ولا لماله.

.[٧]انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي، د. محمد الدِّيك ، ص ٢٧٠، ٢٧١.

.[٨]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩.

.[٩]انظر: زاد المعاد ، لابن القيِّم (٣/٣٠٦).

.[١٠]المصدر السابق نفسه (٣/٣٠٦).

.[١١]انظر المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٢.

.[١٢]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٨٠.

.[١٣]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

.[١٤]انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٣.

.[١٥]انظر: السَّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/٣٤٧).

.[١٦]انظر: محمَّد رسول الله (ص) ، لمحمَّد الصادق عرجون (٤/٢٧٥).

.[١٧]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٣٢٢ إلى ٣٢٥.

.[١٨]انظر: من معين السِّيرة ص ٣٣٣.

.[١٩]انظر: تاريخ الطَّبري (٢/٦٣٤).

.[٢٠]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٤٦/٣).

.[٢١]انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٧٠.

.[٢٢]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد رسول الله (ص) ، ص ٤٩٥.

.[٢٣]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ١٣٤ ، ١٣٥.

.[٢٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٤٨/٣) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة.

.[٢٥]البَرَّة: حلقةٌ تُجعل في أنف البعير ليذلَّ ، ويرتاض.

.[٢٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٤٩/٣) ، وتحفة الأحوذي، للمباركفوري (كتاب الحج).

.[٢٧]انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، ص ١٦١.

.[٢٨]انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٣.

.[٢٩]انظر: تأمُّلات في السِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد السَّيِّد الوكيل ، ص ٢١١.

.[٣٠]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص٢٤٣.

.[٣١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٤٩/٢).

.[٣٢]انظر: حديث القران الكريم (٥٤٨/٢ إلى ٥٥٥).

.[٣٣]انظر: التربية القيادية (٢٩٠/٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٢).

.[٣٤]انظر: في ظلال القران (٣٣٣٣/٢٦/٦).

.[٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٥١/٣).

. المصدر السابق نفسه (٣٥١/٣ ، ٣٥٢).

. انظر: زاد المعاد (٣٠٩/٣).

.[٣٦]انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣٢٩.

.[٣٧]انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٣٥٣/٣).

.[٣٨]مِسْعَر: موقد حربٍ ومهيجها.
.[٣٩]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٢٨١/٤).

.[٤٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٥١/٢).
.[٤١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٢٩٦.
.[٤٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٥٢/٢).

.[٤٣]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٢٠.
.[٤٤]انظر: تفسير القرطبي (٦٣/١٨).
.[٤٥]انظر: تفسير ابن كثير (٣٥١/٤).

.[٤٦]انظر: تفسير القرطبي (٦٨/١٨) ، وحديث القران الكريم (٥٤٥/٢).
.[٤٧]انظر: حديث القران الكريم (٥٤٥/٢).
.[٤٨]انظر: تفسير ابن كثير (٣٥٢/٤).
.[٤٩]انظر: تفسير ابن كثير (٢٥٢/٤).
.[٥٠]انظر: تفسير أبي السعود (٢٤٠/٨).
.[٥١]انظر: تفسير ابن كثير (٣٥٢/٤).

.[٥٢]المصدر السابق نفسه ، شرح الحديث السابق (٤١٥/٥).
.[٥٣]انظر: غزوة الحديبية ، ص ١٧٨.
.[٥٤]انظر: سيرة الرَّسول (ص) ، لدروزة (٣٥٤/٢).
.[٥٥]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ٣٦٧.

. انظر: زاد المعاد (٣٠٤/٣)، باب ما جاء في القيام.
. انظر: فقه السيرة، للبوطي، ص ٢٤١.
. انظر: زاد المعاد (٣٠٥/٣).

. المصدر السابق نفسه (٣/٣٠٥).

.[٥٦]انظر: غزوة الحديبية للحكمي ، ص ٣٠٣.

.[٥٧]فتح الباري (١٠/٢٢٥).

.[٥٨]أثر سماء: المقصود: المطر.

.[٥٩]الأنواء: ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة.

.[٦٠]الأم (١/٢٥٢).

.[٦١]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٠٤.

.[٦٢]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٠٥.

.[٦٣]هو عبد الرحمن بن أبي قرد رضي الله عنه ، الترغيب والتَّرهيب (٣/٥٨٩).

.[٦٤]يتهافت: يتساقط. النهاية (٥/٢٦٦).

.[٦٥]الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش ، والمراد القمل.

.[٦٦]انسك: اذبح. النهاية (٥/٤٨).

.[٦٧]أسامة بن عمير الهذلي البصري صحابيٌّ تفرَّد ولده عنه.

.[٦٨]فتح الباري (٢/١٨٤) ، غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٢٢١.

.[٦٩]انظر: مغازي الواقدي (٢/٦١٦).

.[٧٠]انظر: الطَّبقات الكبرى (٢/٩٨).

.[٧١]انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (٢/٢١٠).

.[٧٢]انظر: غزوة الحديبية ، ص ٢٥١.

.[٧٣]يكلؤنا: يحرسنا.

.[٧٤]انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/١٨١ ـ ١٨٢) وغزوة الحديبية ، ص ٢٥٨.

.[٧٥]انظر: البداية والنهاية (٤/٢١٣).

.[٧٦]فتح الباري (١/٤٤٩) ، وشرح الزرقاني على الموطأ (١/٤٧).

.[٧٧]انظر: تنوير الحوالك (٣٣/١).

.[٧٨]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٤٢.

.[٧٩]انظر: فتح القدير (٥٤٦/٥) ، وغزوة الحديبية ، ص ٢٩٤.

.[٨٠]انظر: غزوة الحديبية ، ص ٢٩٥.

.[٨١]اثار الحرب في الفقه الإسلاميّ ، للدكتور وهبة الزُّحيلي ، ص ٦٨٠.

.[٨٢]انظر: اثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ ، للزُّحيلي ، ص ٦٧٥.

.[٨٣]انظر اثار الحرب في الفقه الإسلامي ، للزحيلي ، ص ٦٧٥.

.[٨٤]انظر: تفسير الطَّبري (٢٤/٩ ـ ٢٦).

.[٨٥]انظر: تفسير القرطبي (٣٠٨/٥).

.[٨٦]انظر: في ظلال القران (١٤٣٣/٣) وما بعدها.

.[٨٧]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٢٩٦.

.[٨٨]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٩٧.

.[٨٩]انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٣.

.[٩٠]المصدر السابق نفسه.

.[٩١]المصدر السابق نفسه.

.[٩٢]انظر: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار (٦٢٢/٢).

.[٩٣]انظر: مرويات غزوة الحديبية ، ص ٣١٥.

.[٩٤]انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٥.

.[٩٥]انظر: العبادة في الإسلام ، للقرضاويِّ ، ص ٦٦.

.[٩٦]انظر: مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٦ ، لقد استفدت في فصل غزوة الحديبية استفادة كبيرة من كتاب مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، وصلح الحديبية ، لباشميل ، وغزوة الحديبية

، لأبي فارس ، وكانت هذه الكتب هي العمدة في هذا الفصل ، كما استفدت من غيرها كمراجع ومصادر.

.[٩٧]انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٣/٤٥٥) . معلقاً. وينظر الشكل (١٢) في الصفحة (٧٥٦).

.[٩٨]انظر: المغازي (٢/٦٣٤).

.[٩٩]انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٢/١٠٦).

.[١٠٠]انظر: تاريخ دمشق ، لابن عساكر (١/٣٣).

.[١٠١]انظر: الفتح (١٦/٤١) ، والسِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٠.

.[١٠٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٠.

.[١٠٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣١٩).

.[١٠٤]المصدر السابق نفسه.

.[١٠٥]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٤٩).

.[١٠٦]انظر: فتح الباري (٧/٥٣٠).

.[١٠٧]انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/٣٠).

.[١٠٨]انظر: المغازي ، للواقدي (٢/٦١٠ ـ ٦٤١).

.[١٠٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/٤٥).

.[١١٠]المساحي: جمع ، ومفردها: مسحاة ، والمسحاة: المجرفة من الحديد.

.[١١١]المكاتل: جمع مكتل ، وهو المقطف الكبير.

.[١١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٠١.

.[١١٣]المصدر السابق نفسه.

.[١١٤]انظر: الواقدي (٢/٦٥٧).

.[١١٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ٥٠٢.

.[١١٦]المصدر السابق نفسه.

.[١١٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٣٢٤/١).
.[١١٨]المصدر السابق نفسه.

.[١١٩]انظر: الواقدي (٦٥٨/٢ ـ ٦٧١).
.[١٢٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٤.
.[١٢١]المصدر السابق نفسه.
.[١٢٢]المصدر السابق نفسه.
.[١٢٣]المصدر السابق نفسه.
.[١٢٤]انظر: مغازي الواقديِّ (٦٩٩/٢).
.[١٢٥]انظر: تاريخ خليفة ، ص ٨٥ نقلاً عن ابن إسحاق.
.[١٢٦]زاد المعاد (٣٥٤/٣ ـ ٣٥٥).
.[١٢٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٠٤.
.[١٢٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٣٢٧/١).
.[١٢٩]انظر: المغازي (٧٠٠/٢).

.[١٣٠]انظر: زاد المعاد (٣٢٣/٣، ٣٢٤) والسِّيرة الحلبيَّة (٣٩/٣)، وابن كثير في البداية والنِّهاية.
.[١٣١]الشَّاذ: الَّذي يفارق الجماعة ، الفاذُّ: الَّذي لم يختلط بالجماعة.

.[١٣٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٥٣.
.[١٣٣]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ٣٥٠.

.[١٣٤]انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ٥٣٥.
.[١٣٥]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (٩٦/٣).
.[١٣٦]المصدر السابق نفسه (١٤٠/٣).

.[١٣٧]انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١٤١/٣ ـ ١٤٢).
.[١٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤١٩/٢).

.[١٣٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/٣٢٨).
.[١٤٠]الفَدَعُ: عوجٌ في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها.
.[١٤١]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، لمحمَّد سيِّد الوكيل ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩.
.[١٤٢]المِسْك: الجلد عامَّة ، أو جلد السَّخلة خاصَّة (السَّخلة: ولد الشاة).

.[١٤٣]انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة (١/٣٢٦) ، ونصب الرَّاية للزَّيلعي (كتاب السِّيَر) فصل: باب الغنائم وقسمتها.
.[١٤٤]السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ، وتاريخ الإسلام ، للذهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص٤٢٤.
.[١٤٥]الخرص: الحَزْرُ ، والحدْس ، والتَّخمين. وخرَّص العدد: أي قدَّره تقديراً بظنٍّ لا إحاطةٍ.
.[١٤٦]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص ٤٢٤.
.[١٤٧]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٥٢.
.[١٤٨]انظر: الصِّراع مع اليهود (٣/١٠١).

.[١٤٩]انظر: السَّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٣٨٤).
.[١٥٠]انظر: الصِّراع مع اليهود (٣/١٢٢).
.[١٥١]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٣/٤٥).

.[١٥٢]انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٢/٢٣٣) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة (كتاب النساء).
.[١٥٣]انظر: زاد المعاد (٣/٣٢٨) ، والبداية والنهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة لابن هشام (بناء النَّبيّ (ص) بصفيَّة ، وحراسة أبي أيوب للقُبَّة) ، وكنز العمال (للمتَّقي الهندي).
.[١٥٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٣٨٥).
.[١٥٥]المصدر السابق نفسه.

.[١٥٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٣٨٥).

.[١٥٧]البخاري ، كتاب الجزية والموادعة ، حديث رقم (٣١٦٩).

.[١٥٨]انظر: بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (١٢٣/٢١).
.[١٥٩]انظر: مغازي رسول الله (ص) ، لعروة بن الزبير، ص١٩٨ ، والبداية والنهاية ، وكتاب المغازي والسير (باب غزوة خيبر).
.[١٦٠]زاد المعاد (٣٣٦/٣).
.[١٦١]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٢١/٣).
.[١٦٢]أبهري: عرق مستبطن بالظَّهر متَّصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه.
.[١٦٣]فتح الباري ، شرح حديث رقم (٥٧٧٧) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام ، وزيادة الجامع الصَّغير للسُّيوطي.

.[١٦٤]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويّة ، ص ٤٥٩ .
.[١٦٥]انظر: تاريخ الذَّهبي ، والمغازي ، ص ٤٣٩ .

.[١٦٦]انظر: زاد المعاد (١٢٢/٤ ـ ١٢٣).
.[١٦٧]انظر: الطبقات (١١٣/٢).
.[١٦٨]انظر: الرَّوض الأنف (٤١/٤).

.[١٦٩]انظر: الصِّراع مع اليهود (١٣٤/٣).
.[١٧٠]المصدر السابق نفسه.
.[١٧١]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٣٢١ .

.[١٧٢]انظر: خاتم النبيين (١١٠٤/٢) ، والصراع مع اليهود (١٣٦/٣).
.[١٧٣]انظر: البداية والنِّهاية (٢٠٥/٤).
.[١٧٤]انظر: فقه السِّيرة ، لمنير الغضبان ، ص ٥٣٤ .

.[١٧٥]انظر: نضرة النَّعيم (٣٥٣/١).
.[١٧٦]المصدر السابق نفسه.
.[١٧٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٢٢١ .

.[١٧٨]ينظر الشكلان (١٣ و١٤) في الصفحتين (٧٥٧ و٧٥٨).
.[١٧٩]انظر: السَّفارات النَّبويَّة ، د. محمَّد العقيلي ، ص ١٥.
.[١٨٠]انظر: العلاقات الخارجيَّة للدَّولة الإسلاميَّة ، د. سعيد المهجر ، ص ١١٢.

.[١٨١]انظر: نضرة النَّعيم (٣٤٤/١) ، وقد اعتمدت عليه في توثيق مصادر الرَّسائل.
.[١٨٢]شرح المواهب اللَّدنية (٣٤١/٣).
.[١٨٣]كانت الرسالة في محرم سنة ٧ هـ كما في زاد المعاد.

.[١٨٤]انظر: نضرة النَّعيم (٣٤٦/١).
.[١٨٥]المصدر السَّابق نفسه.
.[١٨٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٥٩/٢).
.[١٨٧]انظر: الطَّبقات الكبرى (٢٦٠/١ ـ ٢٦١).
.[١٨٨]البداية والنِّهاية (٣٤٠/٥).
.[١٨٩]انظر: تاريخ الطَّبري (٦٥٢/٢).
.[١٩٠]كان صاحب اليمامة ، ومات بعد فتح مكة بقليل.
.[١٩١]انظر: صبح الأعشى ، للقلقشندي (٣٦٨/٦).

.[١٩٢]انظر: صبح الأعشى (٣٧٦/٦).
.[١٩٣]انظر: نضرة النَّعيم (٣٤٨/١).

.[١٩٤]انظر: سفراء الرَّسول (ص) لمحمود شيت خطاب (٢٥٨/٢).
.[١٩٥]المصدر السابق نفسه (٢٧٨/٢).
.[١٩٦]الفقه السِّياسيُّ للوثائق النَّبويَّة ، لخالد الفهداوي ، ص ١١٤.

.[١٩٧]انظر: الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، وقد نقل عن سفراء الرَّسول (ص) (٣٠١/٢).
.[١٩٨]انظر: مقوِّمات السُّفراء في الإسلام ، لحسن فتح الباب ، ص ٦٠.

.[١٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٤.
.[٢٠٠]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٠٥.
.[٢٠١]وقد ذهب إلى ما ذهب إليه العلامة النَّدويُّ الدُّكتور معروف الدَّواليبي في الأريسيين يؤيِّد ما قاله النَّدوي: أنَّ النَّبيَّ (ص) إنَّما عنى بقوله: «فإن توليت فإنَّ عليك إثم اليريسيين» أتباع أريوس الفرقة المسيحيَّة الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النَّافية لألوهيته ، وقد جاء هذا البحث القيِّم في رسالة: نظرات إسلاميَّة ، ص ٦٨ ـ ٨٣ ، وانظر: السِّيرة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٧.
.[٢٠٢]انظر: مشكل الاثار (٣/٣٩٩).

.[٢٠٣]انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للنَّدوي ، ص ٣٨ ـ ٣٩.
.[٢٠٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٢٩٠.
.[٢٠٥]انظر: تاريخ الطبَّري (٣/٩٠ ـ ٩١) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة.

.[٢٠٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٠.

.[٢٠٧]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠.
.[٢٠٨]غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٤٢ ، ونصب الراية ، للزيلعي.
.[٢٠٩]المصدر السَّابق نفسه.
.[٢١٠]انظر: زاد المعاد (٥/٩١).

.[٢١١]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٤٣.
.[٢١٢]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري لدولة المدينة ، ص ٣٥١.

.[٢١٣]ينظر الشكل (١٥) في الصفحة (٧٥٩).
.[٢١٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، ص ٤٦٤.
.[٢١٥]انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣١٠.
.[٢١٦]صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٧.

.[٢١٧]موضع قرب مكَّة على ثمانية أميالٍ منها.

.[٢١٨]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٨.
.[٢١٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧٥.
.[٢٢٠]المصدر السَّابق نفسه ، ص ٢٧٧.
.[٢٢١]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٥٣.
.[٢٢٢]انظر: صلح الحديبية ، ص ٢٧٧.

.[٢٢٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٨١.
.[٢٢٤]انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣١٤.
.[٢٢٥]أضعفتهم.
.[٢٢٦]الاضطباع: هو أن يدخل بعض ردائه تحت عضده اليمين ، ويجعل طرفه على منكبه.
.[٢٢٧]صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٤٨١.
.[٢٢٨]انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ ، ص ٣١٥.

.[٢٢٩]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارسٍ ، ص ٢٨٢.
.[٢٣٠]انظر: زاد المعاد (٣/٣٧١).
.[٢٣١]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارسٍ ، ص ٢٧٠.
.[٢٣٢]المصدر السابق نفسه ، ص٢٧٧.
.[٢٣٣]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٣٢٦.

.[٢٣٤]انظر: هذا الحبيب محمَّد (ص) يا محبُّ ، للجزائريِّ ، ص ٣٧٥.
.[٢٣٥]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٥٨.
.[٢٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٢١.

.[٢٣٧]انظر: زاد المعاد ، وفيه تفصيل كثير (٣/٣٧٤ ، ٣٧٥) ، وصلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٨٦ ، ٢٨٧.

.[٢٣٨]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠.
.[٢٣٩]انظر: عبقرية محمَّد (ص) ، ص ٦٩.
.[٢٤٠]الأدم: الجلد.
.[٢٤١]أجزأت عنها: كفيتها.

.[٢٤٢]استقام المنسم: تبين الطَّريق ، ووضح.
.[٢٤٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٩٤.

.[٢٤٤]أي: هم قليل ، يشبعهم رأسٌ واحدٌ ، وهو جمع اكل.
.[٢٤٥]الذَّنوب: الدلو العظيمة.

.[٢٤٦]انظر: البداية والنِّهاية (٢٣٩/٤ ، ٢٤٠) ، والتَّاريخ الإسلامي (٩٥/٧).
.[٢٤٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٩٠/٧).

.[٢٤٨]المصدر السابق نفسه.
.[٢٤٩]انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٣.
.[٢٥٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٩٥/٧).
.[٢٥١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٩٥/٧).
.[٢٥٢]المصدر السابق نفسه ، (٩٦/٧).

.[٢٥٣]ينظر الشكل (١٦) في الصفحة (٧٦٠).
.[٢٥٤]انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، لعبد الرحمن أحمد سالم ، ص ٨٧.
.[٢٥٥]انظر: تاريخ الطَّبري (١٠٣/٣) ، والإصابة ، لابن حجر ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام ، ومحمَّد (ص) ، لمحمد رضا (ما قبل سرية مؤتة من الحوادث).
.[٢٥٦]انظر: خاتم النَّبيِّين (ص) (١١٣٩/٢) نقلاً عن الصِّراع مع الصَّليبيين ، لأبي فارس ، ص ٢٠.
.[٢٥٧]انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، لأبي فارس ، ص ٢٠.

.[٢٥٨]انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، ص ٨٩.
.[٢٥٩]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٠.
.[٢٦٠]انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/٧٨٧).
.[٢٦١]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢١.

.[٢٦٢]انظر: المغازي (٢/٧٥٧ ـ ٧٥٨).
.[٢٦٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٢١).
.[٢٦٤]انظر: مغازي رسول الله (ص) لعروة بن الزُّبير ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

.[٢٦٥]انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٢/٢٧١).
.[٢٦٦]انظر: زاد المعاد (٣/٣٨٢).
.[٢٦٧]انظر: تاريخ دمشق ، لابن عساكر (١/٣٩٦).
.[٢٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٤٦٨).

.[٢٦٩]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٥٨.
.[٢٧٠]إن أجْلبَ القوم: صاحوا ، واجتمعوا.
.[٢٧١]الرَّنة: صوت ترجيع شبه البكاء.
.[٢٧٢]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٦١.

.[٢٧٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٢٧).
.[٢٧٤]انظر: إمتاع الأسماع (١/٣٤٨ ـ ٣٤٩).
.[٢٧٥]البداية والنِّهاية (٤/٢٤٧) ، والواقدي (٢/٧٦٤).

.[٢٧٦]انظر: معارك خالد بن الوليد ، د. ياسين سويد ، ص ١٧٣.
.[٢٧٧]المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٥.
.[٢٧٨]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٦٠).
.[٢٧٩]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٥٥).

.[٢٨٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٢٨ ، وتاريخ الذهبي ، ص ٤٩١ ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، وقال: هذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة.
.[٢٨١]انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٣٥٨.

.[٢٨٢]انظر: الصِّراع مع الصليبيِّين ، ص ٦٤.
.[٢٨٣]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٦.

.[٢٨٤]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٦٨.
.[٢٨٥]انظر: البداية والنِّهاية (٢٥٢/٤).
.[٢٨٦]المصدر السابق نفسه.
.[٢٨٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٤٣٠/٢).

.[٢٨٨]انظر: البداية والنِّهاية (٣٥٣/٤).
.[٢٨٩]المصدر السابق نفسه.
.[٢٩٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٢٤/٧).
.[٢٩١]انظر: من معين السيرة ، للشَّامي ، ص ٣٧٦.

.[٢٩٢]مدَديٌّ أي: جاء مدداً ، وفي رواية: رجل من حمير.

.[٢٩٣]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٣٠/٧).
.[٢٩٤]انظر: من معين السيرة ، ص ٣٧٨.
.[٢٩٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٤/٤ ، ٢٥).

.[٢٩٦]انظر: البداية والنِّهاية (٢٥٩/٤).
.[٢٩٧]أحنُّ: من الحنين ، وفي رواية: أخنُّ: صوت يخرج من الأنف عند البكاء.
.[٢٩٨]أتململ: أتقلب متبرماً بمضجعي.
.[٢٩٩]يريد: أنَّه بات يرعى النُّجوم طول ليله من طول السُّهاد.

.[٣٠٠]المدخل: النافذ إلى الدَّاخل.

.[٣٠١]المسبل: الممطر.

.[٣٠٢]صبروا نفوسهم: حبسوها على ما يريدون ، ينكلوا: يرجعوا خائبين.

.[٣٠٣]فُنُق: الفحول من الإبل.

.[٣٠٤]المرْفَل: الَّذي تنجرُّ أطرافه على الأرض ، يريد أن دروعهم سابغة.

.[٣٠٥]تأفِلُ: تغيب ، انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٣/٤ ، ٣٤).

.[٣٠٦]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٤٧١/٢).

.[٣٠٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٤٣٣/٢).

.[٣٠٨]جيش سريَّة ذات السَّلاسل.

.[٣٠٩]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (١٣٣/٧).

.[٣١٠]انظر: مغازي رسول الله (ص) لعروة ، ص ٢٠٧ ، وأسانيدها ضعيفةٌ ، والبداية والنِّهاية لابن كثير غزوة ذات السَّلاسل.

.[٣١١]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٠٩.

.[٣١٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٠٩.

.[٣١٣]المصدر السابق نفسه.

.[٣١٤]انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٥٤٠.

.[٣١٥]انظر: صحيح السيرة النَّبوية ، ص ٥٠٩ ، وقال إبراهيم العلي: الحديث إسناده صحيح.

.[٣١٦]انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢١٠.

.[٣١٧]القائل هو: صالح أحمد الشَّامي ، صاحب (من معين السِّيرة) ، ص ٣٨١.

.[٣١٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٨١.

.[٣١٩]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٧٠.

.[٣٢٠]الإعلام في صدر الإسلام ، د. عبد اللَّطيف حمزة ، ص ١٧٣.

.[٣٢١]انظر: منهج الإعلام الإسلامي ، ص ٣٣٧.

.[٣٢٢]ينظر الشكل (١٧) في الصفحة (٧٦١).

.[٣٢٣]انظر: الواقدي (٢/٧٨١ ـ ٧٨٤).

.[٣٢٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/٣٩) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير.

.[٣٢٥]يريد: أنَّ أم عبد مناف ، وأمَّ قصير خزاعيتان.

.[٣٢٦]أي: تدفعوا دية قتلاهم.

.[٣٢٧]السَّبد: الشَّعر ، واللَّبد: الصُّوف ، يعني: إن فعلنا ذلك؛ لم يبق لنا شيء.

.[٣٢٨]انظر: المطالب العالية (٤/٢٤٣) رقم ٤٣٦١ ، قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد.

.[٣٢٩]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/١٦٤).

.[٣٣٠]انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ٣٦٥.

.[٣٣١]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٤٧٩) ، والإصابة ، لابن حجر ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا (غزوة فتح مكة).

.[٣٣٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٩٥.

.[٣٣٣]انظر: التَّاريخ الإسلاميَّ (٧/١٧٠ ، ١٧١).

.[٣٣٤]انظر: السِّيرة ، لأبي فارس ، ص ٤٠١.

.[٣٣٥]انظر: الكامل في التاريخ (٢/٢٤٤) ، والتَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ٣٦٦.

.[٣٣٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٨٢) ، والرَّسول القائد (ص) ، لمحمود شيت خطاب ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤.

.[٣٣٧]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦.

.[٣٣٨]بطن إضَم: وادي المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان ، وقناة ، والعقيق.

.[٣٣٩]ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشَّام يبعد عن المدينة ٣٥ ميلاً.

.[٣٤٠]السُّقيا: موضع يقع في وادي القرى ، معجم البلدان (٣/٢٨٨).

.[٣٤١]انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (١٣٢/٢).
.[٣٤٢]انظر: القيادة العسكرية ، ص ٤٩٨.
.[٣٤٣]الأنقاب: جمع نقب ، وهو كالعريف على القوم.
.[٣٤٤]التحفظ: هو الاحتراز والتَّيقُّظ ، مغازي الواقدي (٧٩٦/٢) ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا.
.[٣٤٥]انظر: القيادة العسكرية ، ص ٣٦٥.
.[٣٤٦]انظر: البداية والنِّهاية (٢٨٢/٤) ، ومحمَّد (ص) (غزوة فتح مكة) ، لمحمَّد رضا.

.[٣٤٧]انظر: تفسير القرطبي (٥٢/١٨).
.[٣٤٨]انظر: تفسير ابن كثير (٣٤٦/٤).

.[٣٤٩]المصدر السابق (٣٤٧/٤).
.[٣٥٠]المصدر السابق نفسه.
.[٣٥١]المصدر السابق نفسه.
.[٣٥٢]انظر: تفسير القرطبي (٥٤/١٨).
.[٣٥٣]انظر: حديث القران الكريم (٥٦٨/٢ ، ٥٦٩).
.[٣٥٤]انظر: في ظلال القران (٣٥٨/٦).

.[٣٥٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (١٧٦/٧).

.[٣٥٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٤٠٤.
.[٣٥٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي للحميديِّ (١٧٦/٧ ، ١٧٧).
.[٣٥٨]المستفاد من قصص القران (٤٠٢/٢).
.[٣٥٩]انظر: زاد المعاد (٤٤٣/٣).
.[٣٦٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٦٠ ، ٥٦١.

.[٣٦١]المصدر السابق نفسه ، ص ٥٦١.
.[٣٦٢]انظر: البداية والنِّهاية (٢٨٦/٤) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٤٠٦.

.[٣٦٣]انظر: تأملات في السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد السيد الوكيل ، ص ٢٥٤.

.[٣٦٤]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٥١٧.

.[٣٦٥]انظر: ابن هشام (١/٢٩٥ ـ ٣٠٠).

.[٣٦٦]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/١٨٢).

.[٣٦٧]مرَّ الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢ ك.م.

.[٣٦٨]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٨٧ ، والطَّبقات ، لابن سعد (٢/١٣٥).

.[٣٦٩]حمشتها الحرب: أحرقتها.

.[٣٧٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠.

.[٣٧١]انظر: السَّابق ، وانظر: فقه السيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٥٦٤.

.[٣٧٢]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٤٠٣).

.[٣٧٣]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد رواس ، ص ٢٤٥.

.[٣٧٤]انظر: سيرة ابن هشام (٤/٥٢).

.[٣٧٥]انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٤٧.

.[٣٧٦]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/٥٢) ، وسبق تخريجه.

.[٣٧٧]انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٧٥.

.[٣٧٨]انظر: الطبقات ، لابن سعد (٢/١٣٥).

.[٣٧٩]انظر: العبقرية العسكريَّة ، وغزوات الرَّسول (ص) ، تأليف اللِّواء محمَّد فرج ، ص ٥٦٥.

.[٣٨٠]انظر: من معين السيرة ، ص ٣٨٩.

.[٣٨١]البياذقة: الرَّجالة.

.[٣٨٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٩٠.

.[٣٨٣]االمصدر السابق نفسه.

.[٣٨٤]انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص ٣٩٧.

.[٣٨٥]انظر: قيادة الرسول (ص) السياسية والعسكرية ، ص ١٢٢ ، ١٢٣.

.[٣٨٦]الألَّة: الحربة لها سنان طويل ، وذو غرارين: سيف ذو حدين.

.[٣٨٧]المؤتمة: المرأة التي مات زوجها ، وترك لها أيتاماً ، وأبو زيد: سهيل بن عمرو.

.[٣٨٨]النَّهيت: صوت الصَّدر.

.[٣٨٩]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٩٥).

.[٣٩٠]انظر: دراسة في السِّيرة ، د. عماد الدين خليل ، ص ٢٤٥.

.[٣٩١]انظر: البداية والنهاية (٤/٢٩٠).

.[٣٩٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٢٤.

.[٣٩٣]النَّقع: موضع قرب مكَّة ، أو الغبار.

.[٣٩٤]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٠٩).

.[٣٩٥]مغلغلة: رسالة محمولة من بلدٍ إلى بلد.

.[٣٩٦]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٠٩).

.[٣٩٧]الخُمُر: جمع خمار ، مأخوذ من الخمر ، وهو السِّتر؛ وهو ما تستر به النِّساء رؤوسهنَّ.

.[٣٩٨]انظر: مغازي الواقدي (٢/٨٣١).

.[٣٩٩]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٣٩٦.

.[٤٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدوي ، ص ٣٣٧.

.[٤٠١]انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠.

.[٤٠٢]انظر: قيادة الرسول (ص) السِّياسيَّة والعسكريَّة ، ص ١٩٦.

.[٤٠٣]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٣٩.

.[٤٠٤]انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٨٢.

.[٤٠٥]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٣٩.

.[٤٠٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٦١ ، ٦٢).

.[٤٠٧]المصدر السابق نفسه (٤/٦١) والبداية والنِّهاية ، لابن كثير.
.[٤٠٨]انظر: المغازي (٢/٨٣٨).
.[٤٠٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٦٢).
.[٤١٠]انظر: المغازي (٢/٨٣٨).
.[٤١١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٠١.

.[٤١٢]انظر: فقه السِّيرة للغزاليِّ ، ص ٣٨٣.
.[٤١٣]انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٢٦٩.
.[٤١٤]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٧٩.
.[٤١٥]انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٨٠.

.[٤١٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٤٥١) ، وتأمُّلات في السيرة ، ص ٢٦٢.
.[٤١٧]فتح الباري: في شرح حديث رقم (٤٢٨٠).
.[٤١٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٤٥١).
.[٤١٩]المصدر السابق نفسه ، وعقله: أي ديته. والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، صفة دخوله (ص) مكَّة.
.[٤٢٠]المصدر السابق نفسه (٢/٤٥٦).

.[٤٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٢٥٧).

.[٤٢٢]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣١٩) ، ومحمَّد (ص) ، لمحمَّد رضا (البيعة).
.[٤٢٣]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٤٨.
.[٤٢٤]انظر: السِّيرة النبوية ، لأبي شهبة (٢/٤٦٤).
.[٤٢٥]انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٩.
.[٤٢٦]المصدر السابق نفسه.

.[٤٢٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/٤٦٥).
.[٤٢٨]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٩.

.[٤٢٩]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٩٤.
.[٤٣٠]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، ص ٢٨٢.
.[٤٣١]المصدر السابق نفسه.
.[٤٣٢]انظر: المغازي (٢/٨٧٤).
.[٤٣٣]انظر: السرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٢.
.[٤٣٤]المصدر السابق نفسه.

.[٤٣٥]ما بين مكَّة والمدينة.
.[٤٣٦]المشَلَّل مِنْ قديد ، وبالمشلَّل كانت مناةُ.
.[٤٣٧]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٦.
.[٤٣٨]شرح النووي على مسلمٍ (٩/٢٢).
.[٤٣٩]انظر: السرايا والبعوث النَّبوية ، ص ٢٨٧.
.[٤٤٠]انظر: الطَّبقات (٢/١٤٦).
.[٤٤١]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٨ ، قال مؤلف الكتاب الدُّكتور بريكك العمري: الخبر ضعيف من الناحية الحديثية ، ويمكن الاستئناس به تاريخيّاً ، حيث ذكر أهل المغازي أنَّ رسول الله (ص) أرسل بعض السَّرايا لتحطيم الأصنام في الجزيرة العربيَّة ، ولا يمكن استثناء مناة من ذلك؛ لكونها أحد أكبر الطَّواغيت في الجزيرة ، ولقد اعتمدت في دراسة السرايا والبعوث على هذه الرِّسالة العلميَّة الَّتي أشرف عليها الدُّكتور أكرم العمري.
.[٤٤٢]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٩٢.
.[٤٤٣]انظر: سبل الرَّشاد ، للشَّامي (٦/٣٠٣).
.[٤٤٤]انظر: المغازي، للواقدي (٢/٨٧٠)، ومحمَّد (ص)، لمحمَّد رضا (سرية عمرو بن العاص إلى سُواع).
.[٤٤٥]انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٣٠٢.

.[٤٤٦]انظر: تفسير القرطبي (٢٠/٢٣٠).
.[٤٤٧]انظر: حديث القران الكريم عن غزوات الرَّسول (ص) (٢/٥٧٢).

.[٤٤٨]انظر: في ظلال القران (٦/٣٩٩٦).
.[٤٤٩]أي: رميت بنفسي.

.[٤٥٠]انظر: مغازي الواقدي (٢/٨٤٦ ـ ٨٤٧).
.[٤٥١]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧/٢١٦ ، ٢١٧).
.[٤٥٢]الكُرْدُوسَةُ: طائفة عظيمةٌ من الخيل أو الجيش ، (ج) كراديس.
.[٤٥٣]انظر: سير أعلام النبلاء (٢/١٩٥).
.[٤٥٤]الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكَّة ، ومرسى سفنها قبل جدَّة ، انظر: معجم البلدان (٥/٢٧٦).
.[٤٥٥]الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفَّها على رأسه ، ويردَّ طرفها على وجهه ، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. (النهاية ٣/٦٩).

.[٤٥٦]الحَبِرَةُ: ضربٌ من ثياب اليمن.
.[٤٥٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/٢٢٠).

.[٤٥٨]عك: مخلاف من مخاليف مكَّة التهاميَّة ، معجم ما استعجم ، ص ٢٢٣.

.[٤٥٩]يعني: يوم اليرموك.
.[٤٦٠]انظر: مغازي الواقدي (٢/٨٥١ ـ ٨٥٣).
.[٤٦١]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥).

.[٤٦٢]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/٥٤ ، ٥٥).
.[٤٦٣]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٧٧.
.[٤٦٤]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/١٩٥).
.[٤٦٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/٢١٣).

.[٤٦٦]انظر: من معين السيرة ، ص ٤٠٢ ، والتَّاريخ الإسلامي (٧/٢٣٣).

.[٤٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٥٩ ، ٦٠) ، وصحيح السِّيرة ، ص ٥٢٧.

.[٤٦٨]انظر: البداية والنهاية (٤/٢٩٦).

.[٤٦٩]انظر: صحيح السيرة النبوية ، ص ٥٢٨.

.[٤٧٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/٥٨).

.[٤٧١]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٩٦).

.[٤٧٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، والبداية والنهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام ، وكنز العمال ، للمتقي الهندي (الأنصار رضي الله عنهم). .[٤٧٣]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٠٧).

.[٤٧٤]الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى ، محمَّد كاتبي ، ص ٩٢.

.[٤٧٥]المغازي (٢/٨٤٨).

.[٤٧٦]الأعلام ، للزركلي (٤/٨٧) ، والإصابة ، لابن حجر (٢/٣٠٨) نقلاً عن المرجع الذي بعده.

.[٤٧٧]انظر: الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى ، ص ٩٧.

.[٤٧٨]انظر: الاستيعاب ، لابن عبد البرِّ (٢/٣١٠).

.[٤٧٩]انظر: الإصابة (٢/٣٠٨).

.[٤٨٠]انظر: تفسير القرطبيّ (٦/٤٠٧).

.[٤٨١]البداية والنِّهاية (٤/٣٠٨).

.[٤٨٢]معتلج: ملتطم.

.[٤٨٣]الرِّواق: مقدم اللَّيل.

.[٤٨٤]بهيم: لا ضوء فيه إلى الصَّباح.

.[٤٨٥]عيرانة: راحلة.

.[٤٨٦]غشومُ: شجاعٌ ، لا يثنيه أمرٌ عن عزمه.

.[٤٨٧]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٠٧ ، ٣٠٨) ، أروم: أصل.

.[٤٨٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٤.

.[٤٨٩]انظر: المجتمع المدني ، ص ١٨٥.

.[٤٩٠]انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٥.

.[٤٩١]النَّوويُّ على شرح مسلم (١٨١/٩) ، وقد اعتمدت في فقه الأحكام على ما استخرجه الدُّكتور العمري في المجتمع المدني ، والدُّكتور مهدي رزق الله في السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة.

.[٤٩٢]انظر: زاد المعاد (٣٤٣/٣ ـ ٣٤٥ ـ ٤٥٩ ـ ٤٦٤).

.[٤٩٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٧٥.

.[٤٩٤]المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٨٦.

.[٤٩٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة ، للعمري (٤٨٢/٢).

.[٤٩٦]المصدر السابق نفسه.

.[٤٩٧]انظر: قيادة الرسول (ص) السِّياسية والعسكريَّة ، لأحمد عرموش ، ص ١٢٩.

.[٤٩٨]انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول (ص) ، ص ٢٦٦.

.[٤٩٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٦٧.

.[٥٠٠]ينظر الشكلان (١٨ و١٩) في الصفحتين (٧٦٢ و٧٦٣).

.[٥٠١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٤٦٧/٢) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٨٨/٤).

.[٥٠٢]انظر: طبقات ابن سعد (١٥٠/٢).

.[٥٠٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٤٩٧/٢).

.[٥٠٤]أغمار: جمع غُمر ، بضم الغين ، وإسكان الميم ، وهو الذي لم يجرِّب الأمور.

.[٥٠٥]انظر: مغازي (٨٩٣/٣).

.[٥٠٦]انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله (ص) ، ص ٢٥٢.

.[٥٠٧]انظر: غزوة حنين ، للشَّيخ محمَّد أحمد باشميل ، ص ١٢٨ ـ ١٣١.

.[٥٠٨]انظر: تاريخ الطَّبري (٧٣/٣).

.[٥٠٩]انظر: القيادة العسكريَّة على عهد رسول الله (ص) ، ص ٣٦٩.

.[٥١٠]الطُّلقاء: هم الذين أطلقهم النَّبيُّ (ص) بعد فتح مكة ، وخلَّى سبيلهم.

.[٥١١]انظر: صحيح السيرة النبوية ، ص ٥٥٩.

.[٥١٢]انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله (ص) ، ص ٢٥٩.

.[٥١٣]أي: معمول بالرِّمال ، وهي حبال الحصر الَّتي تضفر بها الأسرَّة.

.[٥١٤]أبو بردة هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.

.[٥١٥]انظر: المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة ، للواء محمد فرج ، ص ٤٠٧.

.[٥١٦]انظر: القيادة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٤٠٥.

.[٥١٧]انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام ، للواء عبد الرؤوف عون ، ص ١٩٥.

.[٥١٨]انظر: الطَّبقات الكبرى (٢/٢١٤).

.[٥١٩]مسجد الطَّائف: هو المسجد المعروف الان بمسجد ابن عبَّاسٍ.

.[٥٢٠]انظر: مغازي الواقدي (١/٤١٦).

.[٥٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٥١٠).

.[٥٢٢]انظر: دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، للشجاع ، ص ٢٠٦.

.[٥٢٣]انظر: زاد المعاد (٣/٤٩٧).

.[٥٢٤]المصدر السابق نفسه ، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٦٦.

.[٥٢٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٤٩.

.[٥٢٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٤٩٧).

.[٥٢٧]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٨/٦٢).

.[٥٢٨]انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة ، للعمري ، ص ١٩٩.

.[٥٢٩]المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥.

.[٥٣٠]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٢١.

.[٥٣١]بالشَّاء: أي: الشِّياه ، وهي الأغنام.

.[٥٣٢]دثار: هو الثَّوب الذي يكون فوق الشِّعار.

.[٥٣٣]انظر: زاد المعاد (٣/٤٧٤).

.[٥٣٤]انظر: زاد المعاد (٣/٤٨٦).

.[٥٣٥]انظر: فقه السِّيرة ، ص ٤٢٧.

.[٥٣٦]انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة ، ص ٢١٩.

.[٥٣٧]المصدر السابق نفسه.

.[٥٣٨]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٥٢).

.[٥٣٩]المصدر السابق نفسه (٤/٣٥٢).

.[٥٤٠]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٦٣ ، ٣٦٤).

.[٥٤١]انظر: البداية والنهاية (٤/٣٥٢ ، ٣٥٣).

.[٥٤٢]البخاري ، كتاب المغازي ، رقم ٤٣١٩.

.[٥٤٣]عرَّدت: اشتدت وضربت ، القاموس المحيط (١/٣١٣).

.[٥٤٤]الهباءة: غبار الحرب ، مختار الصحاح ، ص ٦٨٩.

.[٥٤٥]الخادر: المقيم في عرينه ، والخدر سترٌ يُمَدُّ للجارية من ناحية البيت.

.[٥٤٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/١٤٤).

.[٥٤٧]المصدر السابق نفسه ، (٤/١٩٢).

.[٥٤٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/١٥٣).

.[٥٤٩]انظر: حديث القران الكريم (٢/٥٩٨).

.[٥٥٠]انظر: تفسير القاسمي (١٥١/٨).
.[٥٥١]انظر: تفسير الطَّبري (١٠٣/١٠ ، ١٠٤).
.[٥٥٢]انظر: تفسير المراغي (٨٧/٤).
.[٥٥٣]انظر: حديث القران الكريم (٥٩٩/٢).
.[٥٥٤]انظر: في ظلال القران (١٦١٨/٣).
.[٥٥٥]انظر: حديث القران الكريم (٦٠٢/٢ ، ٦٠٣).

.[٥٥٦]انظر: المستفاد من قصص القران (٤٠٩/٢).

.[٥٥٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٤٢٣ .
.[٥٥٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٥٢٠/٢).

.[٥٥٩]متقصِّفون: متجمعون.
.[٥٦٠]انظر: زاد المعاد (٥٠٤/٣).
.[٥٦١]خلوقٌ: طِيْبٌ.

.[٥٦٢]لا يعطه: أي لا يعطي رسول الله (ص) . وقوله أصيبغ: نوع من الطُّيور شبه به؛ لعجزه، وضعفه.
.[٥٦٣]يدع: يترك.
.[٥٦٤]خرافاً: أي: بستاناً أقام الثمر مقام الأصل.
.[٥٦٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٢٦/٨).
.[٥٦٦]انظر: البداية والنِّهاية (٣٥٣/٤) ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (تقسيم الفيء).
.[٥٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٤٥/٤).

.[٥٦٨]انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣٨٧/٤ ، ٣٨٨).
.[٥٦٩]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٥٠، وابن حجر ، وابن كثير ، في البداية والنِّهاية ، وابن هشام ، في السِّيرة النبويَّة.

.[٥٧٠]انظر: معين السِّيرة ، ص ٤٢٩.

.[٥٧١]انظر: محمد رسول الله ، لصادق عرجون (٣٦٦/٤).

.[٥٧٢]انظر: التاريخ الإسلامي (١٤/٨).

.[٥٧٣]خنجراً: سكيناً كبيرة ذات حدين.

.[٥٧٤]من بعدنا: من سوانا.

.[٥٧٥]الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.

.[٥٧٦]انهزموا بك: انهزموا عنك.

.[٥٧٧]متوركتُك: يعني: حاملتك على وركي.

.[٥٧٨]انظر: البداية والنِّهاية (٣٦٣/٤) ، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٥٠٦/٢).

.[٥٧٩]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٥٨.

.[٥٨٠]متبول: مغرم ، مكبول: مقيد.

.[٥٨١]أغنُّ: صفة للغزال الَّذي في صوته غنّة.

.[٥٨٢]انظر: البداية والنِّهاية (٣٦٩/٤ ، ٣٧٠ ، ٣٧١).

.[٥٨٣]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٤٨٧/٢).

.[٥٨٤]انظر: البداية والنِّهاية (٣٧٣/٤).

.[٥٨٥]المصدر السابق نفسه.

.[٥٨٦]مِقْنَب: جماعة.

.[٥٨٧]السَّمْهَرِيُّ: الرمح ، سوالف الهندي: حواشي السَّيف.

.[٥٨٨]القائدين: المانعين النَّاس.

.[٥٨٩]المشرفيُّ: السَّيف ، والقنا: الرِّماح جمع: قناة ، والخطَّار: المهتز.

.[٥٩٠]أماري: أجادل.

.[٥٩١]خوت النُّجوم: أي: سقطت ، الطَّارقون: الذين يأتون بالليل.

.[٥٩٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٦٧/٤ ، ١٦٨).

.[٥٩٣]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

.[٥٩٤]انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها في السِّيرة النَّبويَّة (٩٦١/٢).

.[٥٩٥]انظر: نضرة النعيم (٣٨٤/١).

.[٥٩٦]انظر: الدولة العربية الإسلامية ، لمنصور الحرابي ، ص ٤٣ .

.[٥٩٧]انظر: التراتيب الإدارية ، للكتاني (٢٦٥/١).

.[٥٩٨]انظر: نضرة النَّعيم (٣٨٥/١).

.[٥٩٩]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، المغازي ، ص ٦٢٤ .

.[٦٠٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨١/٨).

.[٦٠١]قومٌ لهم دين بين النَّصارى والصَّابئة ، النهاية (٢٥٩/٢).

.[٦٠٢]المرباع: هو ربع الغنيمة يأخذه سيِّد القوم قبل القسمة.

.[٦٠٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٨٠ .

.[٦٠٤]أدم: هو بفتحتين: الجلد.

.[٦٠٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢٣٦/٤) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير (قصة عدي بن حاتم الطائي).

.[٦٠٦]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥٨/٨ ، ٨٦).

.[٦٠٧]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٢١ .

.[٦٠٨]انظر: البداية والنِّهاية (٣٧٤/٤).

.[٦٠٩]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٤٩٠/٢) والكافور: نبت طيب الرَّائحة وهو فضلاً عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه ، ويجعله صلباً متماسكاً ، ويمنع إسراع الفساد إليه.

.[٦١٠]ينظر الشكل (٢٠) في الصفحة (٧٦٤).

.[٦١١]انظر: تفسير الطَّبري (١٤/٥٤٠ ـ ٥٤٢)، والسِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦١٤.
.[٦١٢]انظر: فتح الباري (١٦/٢٣٧).

.[٦١٣]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، لأبي فارس ، ص ٨٣.
.[٦١٤]فتح الباري في شرح حديث رقم (٤٤١٥)، ومحمَّد (ص) (غزوة تبوك أو العسرة)، لمحمَّد رضا.
.[٦١٥]انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٣/٦٢).
.[٦١٦]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٨٤.
.[٦١٧]انظر: المجتمع الإسلامي ، للعمري ، ص ٢٢٩.
.[٦١٨]البلقاء: هي كورةٌ من أعمال دمشق بين الشَّام ، ووادي القرى ، عاصمتها عمَّان.
.[٦١٩]انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (٢/١٦٥).

.[٦٢٠]انظر: البداية والنهاية (٥/٣).
.[٦٢١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٥.

.[٦٢٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٦.
.[٦٢٣]انظر: مغازي الواقدي (٣/٣٩١).
.[٦٢٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٤٩.
.[٦٢٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، للسِّباعي ، ص ١٦١.

.[٦٢٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٦.
.[٦٢٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٦١٧.
.[٦٢٨]وردت من طرقٍ ضعيفةٍ ، ولها شاهدٌ صحيحٌ ، وهي بالجملة تصلح للشَّاهد التَّاريخيِّ ، انظر: المجتمع المدنيّ للعمري ، ص ٢٣٥ ، والإصابة لابن حجر.
.[٦٢٩]انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/٤٤٣).
.[٦٣٠]عقبة: أي: بالتعاقب.
.[٦٣١]كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سريَّة خالد بن الوليد في دومة الجندل.

.[٦٣٢]قلائص: إبل.

.[٦٣٣]انظر: جامع الأصول رقم (٦١٨٨) ، ومن معين السيرة ، ص ٤٥٣ ، يكري دابته على النِّصف ، أو السهم.

.[٦٣٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٥٣.

.[٦٣٥]انظر: المجتمع المدني ، ص ٢٣٦.

.[٦٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٨.

.[٦٣٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٦١٨.

.[٦٣٨]انظر: الصِّراع مع الصليبيين ، ص ١٢١.

.[٦٣٩]انظر: حديث القران الكريم (٦٤٧/٢).

.[٦٤٠]انظر: تفسير التَّنوير والتَّحرير (٢٠٩/١٠).

.[٦٤١]انظر: تفسير ابن كثير (٣٦٠/٢).

.[٦٤٢]انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢١٠/١٠).

.[٦٤٣]انظر: حديث القران الكريم.

.[٦٤٤]انظر: تفسير المراغي (١٢٧/٤).

.[٦٤٥]انظر: تفسير ابن كثير (٣٦١/٢).

.[٦٤٦]انظر: نضرة النَّعيم (٣٨٩/١).

.[٦٤٧]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٩٧.

.[٦٤٨]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، ص ٣٩٨.

.[٦٤٩]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٥).

.[٦٥٠]انظر: غزوة تبوك ، ص ٥٧ ، لمحمد أحمد باشميل.

.[٦٥١]انظر: القيادة في عهد الرَّسول (ص) ، ص ٥١٠.

.[٦٥٢]انظر: زاد المعاد (٣/٥٢٩).

.[٦٥٣]انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٥٨٩.

.[٦٥٤]انظر: زاد المعاد (٣/٥٣٠).

.[٦٥٥]انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧.

.[٦٥٦]انظر: المغازي (٣/٩٩٦) ، والطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/١٦٦).

.[٦٥٧]انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٥/٦٥٢) ، والصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٩٩.

.[٦٥٨]انظر: إمتاع الأسماع (١/٤٥١) ، وشرح المواهب اللَّدنيَّة (٣/٧٢).

.[٦٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٥٣٢).

.[٦٦٠]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيين ، ص ١٠٠.

.[٦٦١]انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله (ص) والثلاثة الخلفاء ، للكلاعي (٢/٢٧٦) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل: تخلف عبد الله بن أُبَيٍّ وأهل الريب عام تبوك.

.[٦٦٢]تلوَّم على بعيره: تمهل.

.[٦٦٣]كن أبا ذرٍّ: لفظه لفظ الأمر ومعناه الدُّعاء ، أي: أرجو الله أن تكون أبا ذر.

.[٦٦٤]انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/١٧٨)، وكنز العمال ، للمتقي الهندي ، والبداية والنِّهاية لابن كثيرٍ.

.[٦٦٥]السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/١٧٨).

.[٦٦٦]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٢٩ ، والتَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٨/١١٤).

.[٦٦٧]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٢٩.

.[٦٦٨]انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١١٤).

.[٦٦٩]حائطه: أي: بستانه.

.[٦٧٠]الضِّحُّ: أي: في الشمس.

.[٦٧١]ناضحُه: أي: جمله.

.[٦٧٢]أولى لك: أجدرُ بك.
.[٦٧٣]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٨).
.[٦٧٤]خضيباً: مخضوبةً وهي المرأة.
.[٦٧٥]صرمة: جماعة النَّخل.
.[٦٧٦]صفايا: كثيرة الثَّمر.
.[٦٧٧]تحمماً: أخذ في الإرطاب ، فاسودَّ.
.[٦٧٨]أسمحت: انقادت.
.[٦٧٩]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٨).

.[٦٨٠]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/١١١ ، ١١٢).
.[٦٨١]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٣٣.
.[٦٨٢]المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٣ ، ١٣٤.

.[٦٨٣]المصدر السابق نفسه ص ١٣٤.
.[٦٨٤]انظر: الإصابة (١/٤١٢ ـ ٤١٥) من طريق ابن إسحاق بإسنادٍ حسن.
.[٦٨٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/١٨٠).
.[٦٨٦]المصدر السابق نفسه (٤/١٨٠) بإسنادٍ حسنٍ.
.[٦٨٧]انظر: البداية والنِّهاية (٥/١٧) وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود ، وابن لهيعة ضعيف فضلاً عن إرسال عروة.
.[٦٨٨]انظر: المجتمع المدنيّ للعمريِّ ، ص ٢٤١.
.[٦٨٩]المغازي (٣/١٠٣٢).
.[٦٩٠]انظر: الوثائق السياسية في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، ص ١١٩ ـ ١٢٤.
.[٦٩١]انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢١٧.

.[٦٩٢]محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (٤/٤٧٩).
.[٦٩٣]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٢١.

[٦٩٤]انظر: الفتح الرَّباني (١٩٥/٢١).

[٦٩٥]زجر: أي: زجر ناقته ، ومعناه: ساقها سوقاً شديداً ، حتَّى خلَّفها ، أي: جاوز المساكن.

[٦٩٦]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٨٠ .

[٦٩٧]البجاد: الكساء الغليظ الجافي.

[٦٩٨]انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٥٩٨ ، والإصابة لابن حجر ، وقال: رواه البغويُّ بطوله من هذا الوجه ، ورجاله ثقات إلا أنَّ فيه انقطاعاً.

[٦٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٨٢/٤).

[٧٠٠]انظر: المدخل إلى العقيدة ، والاستراتيجية العسكرية الإسلاميَّة ، ص ٢٩٩.

[٧٠١]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٧٢ .

[٧٠٢]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيين ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

[٧٠٣]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٩٨.

[٧٠٤]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٥٢ .

[٧٠٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٧٦/٤) ، وصور وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٧٣ ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل: تخلُّف عبد الله بن أبي ، وأهل الريب عام تبوك.

[٧٠٦]انظر: إعلام النُّبوة ، للماوردي ، ص ١٠٠ ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (١٧٧/٤).

[٧٠٧]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (١٧٧/٤).

[٧٠٨]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤١.

[٧٠٩]شرح النَّووي على صحيح مسلمٍ (٤٢/١٥).

[٧١٠]الشراك: هو سير النَّعل ، ومعناه: ماءٌ قليلٌ جداً.

[٧١١]تَبضُّ: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد ، ومعناه: تسيل.

[٧١٢]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤٢.

[٧١٣]نواضحنا: جمع: ناضح ، وهي الإبل الَّتي يُسقى عليها.

.[٧١٤]الظَّهر: ما يحمل عليه من الإبل.
.[٧١٥]النِّطع: بساطٌ من الجلد.
.[٧١٦]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤١.

.[٧١٧]الحَقْبُ: حبلٌ يشدُّ به الرَّحل في بطن البعير.
.[٧١٨]الحجارة تنكبُه: تصيبه ، وتؤذيه.
.[٧١٩]انظر: تفسير المراغي (٤/١٥٣).
.[٧٢٠]المصدر السابق نفسه ، (٤/١٥٣).

.[٧٢١]تفسير ابن كثيرٍ (٢/٣٧٢).
.[٧٢٢]انظر: أسباب النُّزول للواحديِّ ، ص ٢٥١.
.[٧٢٣]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٦٥).

.[٧٢٤]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٦٦).

.[٧٢٥]انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٦٠٣.

.[٧٢٦]انظر: زاد المسير (٤/٤٨٥).
.[٧٢٧]انظر: تفسير القرطبيِّ (٨/٢٢٦).
.[٧٢٨]انظر: تفسير الطَّبري (١٠/٢١١).
.[٧٢٩]انظر: تفسير القرطبيِّ (٨/٢٢٦).
.[٧٣٠]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٧٢).
.[٧٣١]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٧٣).

.[٧٣٢]انظر: تفسير الشوكاني (٢/٣٩٩).
.[٧٣٣]أي: الَّذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة ، وأصحابه.
.[٧٣٤]انظر: تفسير الالوسي (١١/١٧).

.[٧٣٥]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٧٧).
.[٧٣٦]انظر: تفسير الشَّوكاني (٢/٣٩١).
.[٧٣٧]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٨١).
.[٧٣٨]انظر: زاد المسير (٣/٤٧٨).

.[٧٣٩]انظر: تفسير ابن كثيرٍ (٢/٣٧٦).
.[٧٤٠]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٨٦).
.[٧٤١]انظر: تفسير الرازي (١٥/١٥١) بتصرف يسير.

.[٧٤٢]انظر: زاد المعاد (٣/٥٧٨).

.[٧٤٣]انظر: تفسير الشَّوكاني (٢/٤٠٣).

.[٧٤٤]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/١٨٤).
.[٧٤٥]انظر: حديث القران الكريم (٢/٦٦١).
.[٧٤٦]انظر: التَّحرير والتَّنوير (١١/٣١).
.[٧٤٧]المصدر السابق نفسه.

.[٧٤٨]انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٧٩.
.[٧٤٩]المصدر السابق نفسه ، ص ١٨١.
.[٧٥٠]انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٧٩.

.[٧٥١]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/١٣٠).
.[٧٥٢]انظر: تفسير الزَّمخشري (٢/٣١٠).
.[٧٥٣]انظر: المستفاد من قصص القران (١/٥٠٤).
.[٧٥٤]انظر: تفسير القرطبي (٨/٢٥٤).

.[٧٥٥]انظر: في ظلال القران (٣/١٧١٠ ـ ١٧١١).

.[٧٥٦]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٥٠٦).
.[٧٥٧]المصدر السابق نفسه (٢/٥٠٧).
.[٧٥٨]انظر: المستفاد من قصص القران (٢/٥٠٦).
.[٧٥٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٠٨).
.[٧٦٠]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٨٢.

.[٧٦١]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٨٧.
.[٧٦٢]ليلة العقبة: الليلة الَّتي بايع رسول الله (ص) فيها الأنصار على الإسلام.

.[٧٦٣]تفارط الغزو: تقدَّم الغزاةُ ، وسبقوا ، وفاتوا.
.[٧٦٤]والنَّظر في عطفيه: أي: جانبيه ، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ، ولباسه.
.[٧٦٥]مبيِّضاً: لابس البياض.
.[٧٦٦]يزول به السَّراب: يتحرَّك ، وينهض ، والسَّراب ما يظهر للإنسان.
.[٧٦٧]لمزه المنافقون: عابوه ، واحتقروه.
.[٧٦٨]قافلاً: راجعاً.
.[٧٦٩]بثِّي: حزني.
.[٧٧٠]أظلَّ قادماً: أقبل ودنا قدومه ، كأنَّه أبقى على ظلِّه.
.[٧٧١]زاح: أزال.
.[٧٧٢]أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

.[٧٧٣]أعطيت جدلاً: فصاحةً ، وقوَّةً في الكلام ، وبراعةً.
.[٧٧٤]ليوشكن: ليسرعنَّ.
.[٧٧٥]تجد عليَّ فيه: تغضب.
.[٧٧٦]إني لأرجو عقبى الله: يعقبني خيراً ، ويثيبني عليه.

.[٧٧٧]يؤنبونني: يلومونني أشدَّ اللَّوم.
.[٧٧٨]استكانا: خضعا.
.[٧٧٩]أشبَّ القوم ، وأجلدهم: أي: أصغرهم سنّاً ، وأقواهم.

.[٧٨٠]أنشدك بالله: أسألك بالله.
.[٧٨١]نبط أهل الشام: فلاحو العجم.
.[٧٨٢]مضيعة: يعني أنَّك لست بأرضٍ يضيع فيها حقُّك.
.[٧٨٣]فتايممت: تيمَّمت: قصدت.
.[٧٨٤]فسجرتُها: أحرقتُها.
.[٧٨٥]استلبث الوحي: أبطأ.
.[٧٨٦]أوفى على سَلَع: صعده ، وارتفع عليه ، وسَلَع: جبلٌ بالمدينة معروفٌ.
.[٧٨٧]فاذن النَّاس: أي: أعلمهم.

.[٧٨٨]أتأمَّم: أي: أقصد.
.[٧٨٩]فوجاً ، فوجاً: الفوج: الجماعة.
.[٧٩٠]أنخلع من مالي: أتصدَّق به.
.[٧٩١]أبلاه الله: أنعم عليه.

.[٧٩٢]إرجاؤه أمرنا: تأخيره أمرنا.
.[٧٩٣]انظر: التاريخ الإسلامي (٨/١٣٧).
.[٧٩٤]المصدر السَّابق نفسه.

.[٧٩٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/١٣٩).
.[٧٩٦]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٩٥ ، وسبق تخريجه.

.[٧٩٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميّ (٨/١٤٠).
.[٧٩٨]انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٩٦.

.[٧٩٩]المغازي (٣/١٠٥١ ـ ١٠٥٢).

.[٨٠٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥١٧).

.[٨٠١]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٠٧.

.[٨٠٢]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/١٤١).

.[٨٠٣]انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٢/٥١٨).

.[٨٠٤]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/١٤٢).

.[٨٠٥]المغازي للواقدي (٣/١٠٥٤).

.[٨٠٦]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي ، ص ٤٩٣.

.[٨٠٧]صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٩٣ ، والصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٠٢.

.[٨٠٨]انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٩٣.

.[٨٠٩]انظر: فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ٤٠٤.

.[٨١٠]انظر: حديث القران الكريم (٢/٧٠٢).

.[٨١١]المصدر السابق نفسه (٢/٧٠٣).

.[٨١٢]انظر: غزوة تبوك ، لباشميل ، ص ١٧٦ ، ١٧٧.

.[٨١٣]انظر: الرَّسول القائد (ص) ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢.

.[٨١٤]انظر: دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، للشُّجاع ، ص ٢٠٩.

.[٨١٥]انظر: المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، لعبد الرَّحمن أحمد ، ص ١٢٠.

.[٨١٦]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشجاع ، ص ٢٠٩.

.[٨١٧]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٩٥ ، ٣٩٦).

.[٨١٨]ينظر الشكل (٢١) في الصفحة (٧٦٥).
.[٨١٩]انظر: رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر ، ص ١٩٩.
.[٨٢٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٩٣/٤).
.[٨٢١]انظر: رجال الإدارة في الدَّولة الإسلاميَّة ، د. حسين محمد ، ص ٧٦.
.[٨٢٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٩٣/٤).

.[٨٢٣]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقديِّ ، ص ٦٧٠.
.[٨٢٤]أي: نذهب إلى بلادٍ بعيدةٍ.

.[٨٢٥]أي: أسرعنا السَّير في السَّفر.
.[٨٢٦]انظر: المغازي ، للواقدي (٩٦٨/٣) ، والبداية والنهاية ، لابن كثير.
.[٨٢٧]انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ ، للحميديِّ (٥٠/٨) ، والمغازي ، للواقديِّ (٩٦٨/٣) ، والسِّيرة ، لابن هشام ، والمبسوط ، للسَّرخسي.
.[٨٢٨]انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة ، ص ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣.
.[٨٢٩]انظر: السِّيرة النبوية الصحيحة (٥١٩/٢).
.[٨٣٠]المصدر السابق نفسه (٥١٩/٢ ، ٥٢٠).
.[٨٣١]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (١٩٥/٤).
.[٨٣٢]انظر: دلائل النُّبوَّة ، للبيهقيِّ (٣٠٣/٥ ـ ٣٠٤).

.[٨٣٣]المغازي (٦٧١/٣).
.[٨٣٤]انظر: دلائل النُّبوَّة (٣٠٤/٥).
.[٨٣٥]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠٠ ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله (ص) في رمضان من سنة تسع من الهجرة).
.[٨٣٦]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠٠ ، والبداية والنهاية لابن كثير ، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله (ص) في رمضان من سنة تسع من الهجرة).
.[٨٣٧]لكاع عند العرب: العبد ، ثم استعمل في الحمق ، والذَّم.

.[٨٣٨]البداية والنِّهاية لابن كثير (قدوم وفد ثقيف على رسول الله (ص) في رمضان من سنة تسع من الهجرة) ، ودلائل النُّبوة (٥/٣٠٣).

.[٨٣٩]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠٠.

.[٨٤٠]انظر: المغازي (٣/٩٧٢) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير.

.[٨٤١]انظر: دلائل النُّبوة (٥/٣٠٣) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير.

.[٨٤٢]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١ ، والبداية والنهاية لابن كثير.

.[٨٤٣]انظر: تاريخ ابن شيبة (٢/٥٠٧) نقلاً عن السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١.

.[٨٤٤]انظر: السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١.

.[٨٤٥]انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص ٦٥٩.

.[٨٤٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٣٣ ، ٥٣٤).

.[٨٤٧]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٢١ ، ٦٢٢ ، والسِّيرة لأبي شهبة (٢/٥٣٤).

.[٨٤٨]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ٢٢١.

.[٨٤٩]انظر: من معين السِّيرة النبوية ، ص ٤٦٤.

.[٨٥٠]انظر: دراسات في عهد النَّبوَّة ، ص ٢١٩.

.[٨٥١]زاد المعاد (٢/٩١).

.[٨٥٢]انظر: المنافقون ، لمحمد جميل غازي ، ص ٩٢ ، ٩٣.

.[٨٥٣]انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ٢٢٠.

.[٨٥٤]الإيلاء: الحلف ، قضايا نساء النَّبي (ص) والمؤمنات ، ص ٥١.

.[٨٥٥]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ (ص) والمؤمنات ، ص ٦٨.

.[٨٥٦]واجماً: هو الَّذي اشتدَّ حزنُّه حتى أمسك عن الكلام.

.[٨٥٧]بنت زيد ، امرأة عمر ، جميلة بنت ثابت ، نسبها عمر إلى أحد أجدادها.

.[٨٥٨]فوجأت عنقها: بمعنى طعنت عنقها.

.[٨٥٩]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٦٥ .
.[٨٦٠]البداية والنِّهاية ، لابن كثير ، فصل: (بناء الحجرات لرسول الله (ص) حول مسجده الشريف) ، وانظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء القران والسُّنَّة (٢/٣٥ . ٣٦).

.[٨٦١]مرققاً: رقيقاً ، ضدَّ الغليظ.
.[٨٦٢]سميط: الذي أزيل شعره بالماء المسخَّن ، وشوي.
.[٨٦٣]انظر: قضايا نساء النَّبيِّ (ص) والمؤمنات في سورة الأحزاب ، ص ٧٧.

.[٨٦٤]المصدر السابق ، ص ٧٩.
.[٨٦٥]انظر: تفسير السَّعدي (٤/١٤٨).
.[٨٦٦]انظر: البداية والنِّهاية (٧/١٣٦).

.[٨٦٧]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٧٥ .
.[٨٦٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٣٦) ، ودراساتٌ في عهد النُّبوة ، ص ٢٢٢.
.[٨٦٩]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٩٨) ، والطبقات الكبرى (٢/١٦٨).
.[٨٧٠]انظر: فتح الباري (٨/٨٢).
.[٨٧١]البداية والنِّهاية، لابن كثير ، ذكر بعث رسول الله (ص) أبا بكرٍ الصِّدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسع، ونزول سورة براءة ، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٢٥.
.[٨٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٣٧).

.[٨٧٣]انظر: نضرة النَّعيم (١/٣٩٩).
.[٨٧٤]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٢٤.
.[٨٧٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٤٠).
.[٨٧٦]المصدر السابق نفسه (٢/٥٤٠).

.[٨٧٧]انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٣ .
.[٨٧٨]ينظر الشكل (٢٢) في الصفحة (٧٦٦).

.[٨٧٩]انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٤.
.[٨٨٠]انظر: نضرة النَّعيم (٣٩٦/١).
.[٨٨١]انظر: البداية والنِّهاية (٤٦/٥ ـ ٤٧).
.[٨٨٢]انظر: نضرة النَّعيم (٣٩٧/١).
.[٨٨٣]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٥٤٢/٢).
.[٨٨٤]انظر: البداية والنِّهاية (٤٠/٥ ـ ٩٨).

.[٨٨٥]انظر: نضرة النَّعيم (٣٩٨/١).
.[٨٨٦]المصدر السابق نفسه.
.[٨٨٧]انظر: الأساس في السُّنَّة ، السِّيرة النَّبويَّة (١٠١٤/٢).
.[٨٨٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٥٤٤/٢).
.[٨٨٩]انظر: الأساس في السُّنَّة (١٠١٤/٢).
.[٨٩٠]انظر: المدينة النَّبويَّة ، فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي ، لمحمد شُرّاب (٤٠٠/٢).
.[٨٩١]انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ٢٢١.
.[٨٩٢]انظر: محمَّد رسول الله ، صادق عرجون (٥٢٠/٤).

.[٨٩٣]المصدر السابق نفسه (٥٢١/٤).
.[٨٩٤]مرحباً بالقوم: صادفت رحباً وسعةً.
.[٨٩٥]غير خزايا ، ولا ندامى: معناه لم يكن منكم تأخُّرٌ عن الإسلام ، ولا عنادٌ.
.[٨٩٦]شقة بعيدة: السَّفر البعيد ، أو المسافة البعيدة.
.[٨٩٧]الأمر الفصل: البيِّن الواضح الَّذي ينفصل به المراد.
.[٨٩٨]الدَّباء: القرع اليابس.
.[٨٩٩]الحنتم: أصحُّ الأقوال فيها: الجرار الخضر؛ وهي جرار كان يحمل فيها الخمر.
.[٩٠٠]المزفَّت: الأوعية الَّتي فيها الزِّفت.
.[٩٠١]النَّقير: جذع ينقر وسطها ثمَّ ينبذ فيها الرُّطب ، والبُسْرُ.

.[٩٠٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٣١.

.[٩٠٣]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٣٥.

.[٩٠٤]تجد: تحقد ، وتحمل البغضاء.

.[٩٠٥]الضَّفيرتين من الشَّعر.

.[٩٠٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٣٠.

.[٩٠٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٥٠.

.[٩٠٨]نجران: بلد كبيرٌ على سبع مراحل من مكَّة إلى جهة اليمن.

.[٩٠٩]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٤٨) ، وهداية الحيارى في الردِّ على اليهود ، والنَّصارى.

.[٩١٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٤٧) ، والدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور، للسُّيوطي ، وأبا نعيم في الدَّلائل.

.[٩١١]انظر: زاد المعاد (٣/٦٣٣) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٤٧).

.[٩١٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٤٧) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل (المباهلة).

.[٩١٣]المصدر السابق نفسه (٢/٥٤٧) ، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ، قوله: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح.

.[٩١٤]المصدر السابق نفسه.

.[٩١٥]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٢٢.

.[٩١٦]انظر: السِّيرة لابن هشام (٤/٢٥٠).

.[٩١٧]انظر: الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، ص ٢٣١.

.[٩١٨]انظر: الوثائق السِّياسيَّة ، لحميد الله ، رقم ١١١ ، ص ٢٣٠.

.[٩١٩]المصدِّق: اخذ الزَّكاة.

.[٩٢٠]المخلاف: الإقليم ، والكورة ، والرستاق.

.[٩٢١]انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/١٨٧).

.[٩٢٢]انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٨٦.

.[٩٢٣]انظر: صحيح السِّيرة ، ص ٦٥٤.

.[٩٢٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٥٩).

.[٩٢٥]انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٨/١٨٦).

.[٩٢٦]انظر: دراسات في عهد النُّبوة للشُّجاع ، ص ٢٢١.

.[٩٢٧]العبر وديوان المبتدأ والخبر ، لابن خلدون (٢/٥٩).

.[٩٢٨]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/١٥٣).

.[٩٢٩]انظر: الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة لمنصور الحرابي ، ص ٤٤.

.[٩٣٠]انظر: الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص ٤٤ ، والتراتيب الإدارية ، للكتّاني (١/٢٢٧).

.[٩٣١]انظر: الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص ٤٤.

.[٩٣٢]ينظر الشكل (٢٣) في الصفحتين (٧٦٧).

.[٩٣٣]انظر: زاد المعاد (٣/٥٩٥).

.[٩٣٤]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٨٠ ، وزاد المعاد (٣/٥٩٥).

.[٩٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٧٥).

.[٩٣٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٦.

.[٩٣٧]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦٤ ، والسِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٦.

.[٩٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٧.

.[٩٣٩]الرمل: إسراع المشي مع تقارب الخطا.

.[٩٤٠]نفذ إلى مقام إبراهيم: أي: بلغه ماضياً في زحام.

.[٩٤١]انصبت قدماه: انحدرت.

.[٩٤٢]صعدتا: ارتفعت قدماه عن بطن الوادي.

.[٩٤٣]صحيح السيرة النبوية ، ص ٦٥٩.

.[٩٤٤]نمرة: موضع بجنب عرفات ، وليست من عرفات.

.[٩٤٥]المشعر الحرام: جبل بمزدلفة كانت قريش تقف عليه ، ولا تقف مع العرب في عرفات ، ولكن رسول الله (ص) وقف في عرفات.

.[٩٤٦]فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها ، وإنَّما توجه إلى عرفات.

.[٩٤٧]بطن الوادي: وادي عُرَنَةَ ، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء ، إلا مالكاً قال: من عرفات.

.[٩٤٨]أي: لا يجوز للمرأة أن تُدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريبٍ ، أو بعيدٍ ، أو امرأة إلا مَنْ يرضى عنه زوجها.

.[٩٤٩]الضَّرب المبرح: الشَّديد الشاق.

.[٩٥٠]ينكتها: يقلبها ، ويرددها إلى النَّاس مشيراً إليهم.

.[٩٥١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦١.

.[٩٥٢]الصَّخرات: صخرات في أسفل جبل الرَّحمة ، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات.

.[٩٥٣]حبل المشاة: مجتمعهم ، وقيل: جبل المشاة: ومعناه طريقهم حيث تسلك الرَّجالة.

.[٩٥٤]حتَّى غاب قرص الشَّمس: حتَّى غابت الشَّمس ، وذهبت الصفرة.

.[٩٥٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩.

.[٩٥٦]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٦٢.

.[٩٥٧]الضمير في (أسفر) يعود على الفجر المذكور ، وقوله: (جدّاً) بكسر الجيم؛ أي: إسفاراً بليغاً.

.[٩٥٨]سُمِّيَ بذلك لأن قيل: أصحاب الفيل حُسِرَ فيه.

.[٩٥٩]انظر صحيح السِّيرة النَّبويّة ، ص ٦٦٢ ، والسِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩.

.[٩٦٠]انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩.

.[٩٦١]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩٠.

.[٩٦٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/٥٥٠) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٧٨).

.[٩٦٣]انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٩٠.

.[٩٦٤]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦٣.

.[٩٦٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٩٠.

.[٩٦٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٧٩) ، والمستفاد من قصص القران (٢/٥١٥).

.[٩٦٧]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٩٠.

.[٩٦٨]صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٨٨.

.[٩٦٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٥٥٠).

.[٩٧٠]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٢٠٩).

.[٩٧١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/٥٥١).

.[٩٧٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٨١).

.[٩٧٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٩١ نقلاً عن زاد المعاد (١/٢٤٩).

.[٩٧٤]انظر: الأساس في السُّنة (٢/١٠٥٤).

.[٩٧٥]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص٣٣١.

.[٩٧٦]قراءةٌ سياسيَّةٌ للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ٣٠٣.

.[٩٧٧]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٠٣.

.[٩٧٨]انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٠٤.

.[٩٧٩]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٥٧٥.

.[٩٨٠]انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٣٣٢.

.[٩٨١]انظر: دولة الرَّسول (ص) من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٥٧٦.

.[٩٨٢]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٣٣.

.[٩٨٣]انظر: الموسوعة في سماحة الإسلام ، لعرجون (٢/٨٧٦).

.[٩٨٤]انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٣٣.

.[٩٨٥]انظر: الجانب السِّياسي في حياة الرَّسول (ص) لأحمد محمد باشميل ، ص ١٣١.

.[٩٨٦]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/٥٤٩).

.[٩٨٧]انظر: المستفاد من قَصص القران (٥١٨/٢).
.[٩٨٨]انظر: المستفاد من قَصص القران (٥١٧/٢ ، ٥١٨).
.[٩٨٩]انظر: المستفاد من قصص القران للدَّعوة والدعاة (٥١٨/٢).

.[٩٩٠]انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٥٤٩/٢) ، وما ألفه الألباني «حجَّة النَّبي (ص) ».
.[٩٩١]الإناء الذي يحلب فيه.
.[٩٩٢]فوقصته: قتلته في الحال.
.[٩٩٣]لا تحنِّطوه: لا تضعوا عليه من الطِّيب شيئاً.
.[٩٩٤]لا تخمِّروا رأسه: لا تغطوا رأسه.
.[٩٩٥]ملبِّياً: يحشر يوم القيامة على الهيئة التي مات عليها.

.[٩٩٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٨٣.
.[٩٩٧]المصدر السابق نفسه ، ص ٦٨١.
.[٩٩٨]انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٥٧٩/٢).

.[٩٩٩]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٥٨٧/٢).
.[١٠٠٠]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، لخالد أبو صالح ، ص ٣٣.
.[١٠٠١]انظر: تفسير القرطبيِّ (٢٢٢/٤).

.[١٠٠٢]انظر: تفسير ابن كثير (٥٣/٤).
.[١٠٠٣]انظر: البداية والنِّهاية (١٨٩/٥).

.[١٠٠٤]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ، ووفاته ، ص ٣٥.
.[١٠٠٥]انظر: شرح النَّووي على صحيح مسلم (٤٥/٩).
.[١٠٠٦]انظر: لطائف المعارف ، ص ١٠٥.

.[١٠٠٧]فتح الباري (١٦/٧).

.[١٠٠٨]تنزع إلى السَّماء: أي: تجذب ، وأصل النزع: الجذب ، والقلع.

.[١٠٠٩]بأشطان شداد: الأشطان جمع شطن ، وهو الحبل.

.[١٠١٠]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، ص ٣٧.

.[١٠١١]المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨.

.[١٠١٢]ينظر الشكل (٢٤) في الصفحة (٧٦٨).

.[١٠١٣]انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/٥٥٢).

.[١٠١٤]أي: الفتن الاخرة.

.[١٠١٥]قال ابن عبَّاس: الرجل الاخر هو عليُّ بن أبي طالب.

.[١٠١٦]جمع الوكاء ، وهو ما يشدُّ به رأس القربة.

.[١٠١٧]مخضب: بكسر الميم ، وهي الإجَّانة الَّتي تغسل فيها الثياب.

.[١٠١٨]بعصابة دسماء: أي: سوداء.

.[١٠١٩]كرشي ، وعيبتي: أراد أنَّهم بطانته ، وموضع سرِّه ، وأمانته ، والَّذين يعتمد عليهم في أموره ، واستعار الكرش ، والعيبة لذلك.

.[١٠٢٠]العيبة: ما يحرز فيه الرَّجل نفيس ما عنده.

.[١٠٢١]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، ص ٦٥.

.[١٠٢٢]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٧١٢.

.[١٠٢٣]قمنٌ: أي: جديرٌ ، وحقيقٌ.

.[١٠٢٤]أسيف: من الأسف ، وهو شدَّة الحزن ، والمراد: أنَّه رقيق القلب.

.[١٠٢٥]والمراد أنَّهنَّ مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن.

.[١٠٢٦]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠١.

.[١٠٢٧]السُّنح: موضع خارج المدينة كان للصدِّيق مال فيه ، وبيت.

.[١٠٢٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٩٣).

.[١٠٢٩]السَّحْر: الرِّئة ، والنَّحْر: الثغرة التي في أسفل العنق.

.[١٠٣٠]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠٣ .

.[١٠٣١]انظر: البداية والنِّهاية (٤/٢٢٣).

.[١٠٣٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠٤ .

.[١٠٣٣]انظر: لطائف المعارف ، ص ١١٤.

.[١٠٣٤]انظر: تفسير القرطبيِّ (٢/١٧٦).

.[١٠٣٥]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/٥٩٤).

.[١٠٣٦]انظر تفسير القرطبيِّ (٤/٢٢٢).

.[١٠٣٧]انظر: مرض النَّبي (ص) ووفاته ، ص ٢٤.

.[١٠٣٨]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٤٠٦ .

.[١٠٣٩]انظر: مختصر سيرة الرَّسول (ص) ، ص ٣٧ ، وتهذيب الأسماء للنَّوويِّ ، ص ٢٣.

.[١٠٤٠]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٢٣٢).

.[١٠٤١]انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٧٢٧.

.[١٠٤٢]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ، ووفاته ، ص ١٦٠.

.[١٠٤٣]انظر: البداية والنِّهاية (٥/٢٣٨).

.[١٠٤٤]اللَّحد: الشَّقُّ الَّذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت.

.[١٠٤٥]والشق: أي: يحفر في وسط الأرض.

.[١٠٤٦]انظر: المجموع ، للنَّوويِّ (٥/٢٨٧).

.[١٠٤٧]انظر: أحكام الجنائز ، ص ١٤٤.

.[١٠٤٨]انظر: مرض النَّبيِّ (ص) ووفاته ، (ص ١٦٠) وقد استفدتُ من هذا الكتاب فائدةً كبرى في مبحث مرض ووفاة الرَّسول (ص) .

.[١٠٤٩]انظر: مرض النبي (ص) ووفاته ، ص ١٦٤.

.[١٠٥٠]انظر: زاد المعاد (٥٢٤/١).

.[١٠٥١]انظر: تهذيب السُّنن ، لابن القيِّم (٣٣٨/٤).

.[١٠٥٢]انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٢١/٤).

.[١٠٥٣]انظر: تهذيب الأسماء ، ص ٢٣.

.[١٠٥٤]انظر: مختصر السِّيرة ، ص ٣٥.

.[١٠٥٥]انظر: مرض النَّبي (ص) ووفاته ، ص ١٧٣.

.[١٠٥٦]انظر: تهذيب الأسماء للنَّووي ، ص ٢٣.

.[١٠٥٧]انظر: البداية والنِّهاية (٢٣٧/٥) ، وصحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٧٢٨.

.[١٠٥٨]انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٧٢٩.

.[١٠٥٩]الماقي: جمع مأق ، ومؤق ، وهي مجاري الدَّمع من العين.

.[١٠٦٠]الأرمد: الَّذي يشتكي وجع العين.

.[١٠٦١]بقيع الغرقد: المكان الذي يَدْفِن فيه أهل المدينة موتاهم.

.[١٠٦٢]متلدِّد: متحيِّر.

.[١٠٦٣]صُبِّحْتُ: سُقيت صبحاً.

.[١٠٦٤]الأسود: ضرب من الحيَّات.

.[١٠٦٥]الضَّرائب: الطَّبائع.

.[١٠٦٦]المحتد: الأصل.

.[١٠٦٧]تثني عيونَ الحسَّد: تصرفها ، وتدفعها.

.[١٠٦٨]سواءُ الملحَدِ: وسطُه.

.[١٠٦٩]الإثمد: كحلٌ أسود.

.[١٠٧٠]أي: بني النَّجار أخوال النَّبيِّ (ص) من قبل ابائه.

.[١٠٧١]انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣٢٨/٤).

.[١٠٧٢]الصَّادي: العَطش ، السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣٢٩/٤).

.[١٠٧٣]انظر: المستطرف للأبشيهي ، ص ٣٦٦ ، وديوان أبي بكرٍ الصِّديق ، طبع حديثاً حقَّقه ، وشرحه راجي الأسمر ، ص ٣٢ ، ٣٣.

.[١٠٧٤]انظر: الاكتفاء ، للكلاعي (٢/٤٥٦).

.[١٠٧٥]الهرج: الفتنة والاختلاط.

.[١٠٧٦]انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/٢١٩ ، ٢٢٠).